تفسير السمرقندي

المسمّى

بحر العلوم

لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن ابراهيم السمرقندي
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ علي محمد معوّض
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي
كليّة اللغة العربيّة - جامعة الأزهر

الجزء الاوّل

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

«تقديم»

نحمدك ربنا كما علمتنا أن نحمد، حمداً يوافي نعمك ويكافىء مزيدك، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين..

أما بعد،

فعلم التفسير من أهم العلوم التي تحتاج إليها أمة الإسلام، وذلك لأن الله عز وجل أنزل القرآن ليكون منهج حياة للمسلمين، ففيه شفاء لما في الصدور، ومنه صلاحهم وفلاحهم، وبه تنجو الأمة من الأزمات.

﴿يا أيها الناس قد جآءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾.

وحتى يتحقق الهدف الذي من أجله أنزل الله القرآن لا بد من فهمه وتدبر آياته ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾...

وقد فهمه الرسول حق فهمه، وفهمه الصحابة وعلموا معانيه، وأدركوا أسراره، إذ كانوا عرب الألسن، لم تعكر العجمة عربيّتهم، إلا أنهم كانوا مع ذلك يلجأون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما قد يشكل عليهم منه...

والحاجة تكون ماسة إلى التفسير بقدر بعد الأمة عن لغة القرآن، إذ يكون البون بينهم وبين القرآن شاسعاً ومن هنا تأتي أهمية تحقيق كتب التفسير المتقدمة ولا سيما التفسير بالمأثور.

وها نحن نقدم لك أحد هذه الكتب ألا وهو كتاب (بحر العلوم) للفقيه العلامة أبي الليث السمرقندي وقد جاء الكتاب في قسمين:

القسم الأول: الدراسة.

وجاء في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: (حياة أبي الليث السمرقندي وآثاره).

ويشمل: اسمه، لقبه، كنيته، مولده، وفاته، أسرته، بيئته (سمرقندي)

المبحث الثاني: (التفسير قبل أبي الليث).

- وفيه - قمنا بتعريف التفسير والتأويل، والفرق بينهما.

ـ ثم بينا حاجة الناس إلى التفسير وأسبابها.

ـ وكيف فهم الصحابة القرآن الكريم.

ـ ثم ذكرنا أشهر مفسري القرآن من الصحابة وهم:

علي بن أبي طالب، عبد الله بن مسعود، أبي بن كعب، عبد الله بن عباس. وبينا قيمة التفسير المأثور عنهم وأقوال العلماء في ذلك.

ـ ثم عرضنا لأهم مدارس التفسير وهي:

١ ـ مدرسة ابن عباس في المدينة وأشهر تلاميذ ابن عباس من التابعين وهم:

* سعيد بن جبير.
* مجاهد بن جبر.
* عكرمة.
* طاوس.
* عطاء بن أبي رباح.

٢ ـ مدرسة أبي بن كعب وأشهر تلاميذه:

* أبو العالية.
* محمد بن كعب القرظي.
* زيد بن أسلم.

٣ ـ مدرسة عبد الله بن مسعود وأشهر تلاميذه:

* علقمة.
* مسروق.
* عامر الشعبي.
* الحسن البصري.
* قتادة.

وبينا قيمة التفسير المأثور عن التابعين، وكلام العلماء في ذلك.

وقد أسهبنا شيئاً ما ـ في الحديث عن هذه المدارس لأن السمرقندي قد أفاد منها جميعاً في كتابه هذا.

ـ ثم تحدثنا عن التفسير في عصر التدوين ـ وكيف سارت مسيرته إلى أن وصل إلى تابعي التابعين.

وبينا اتجاهات التفسير وهي:

ـ الاتجاه الأثري، وذكرنا من أعلام هذا الاتجاه «يحيى بن سلام»، ثم «ابن جرير الطبري».

ـ الاتجاه اللغوي، ومن أهم أعلامه: أبو عبيدة.

ـ الاتجاه البياني، وبينا جذور هذا الاتجاه وأهم أعلامه.

المبحث الثالث: تفسير أبي الليث.

وفيه أوضحنا منهجه في التفسير، وبينا أن تفسيره مزيج من التفسير الأثري والتفسير بالرأي.

فبينا كيف أنه لجأ إلى القرآن ثم إلى السنة، ثم إلى تفسير الصحابة ـ ثم إلى تفسير التابعين.

وتحدثنا عن الإسرائيليات في تفسيره، وكيف دخلت تفسيره بالمأثور.

ثم تحدثنا عن المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث، وكذا المنهج البياني ثم علوم القرآن في تفسير بحر العلوم وهي:

* القراءات القرآنية.
* المكي والمدني.
* الناسخ والمنسوخ.
* أسباب النزول.
* الأحكام الفقهية.

ـ **أما القسم الثاني:** فهو قسم التحقيق.

وقد كان عملنا في الكتاب مرتباً على النحو التالي:

أولاً: إخراج النص سليماً خالياً من الأخطاء النحوية والإملائية، وقد اقتضى ذلك من الموازنة بين النسخ التي تحت أيدينا فآثرنا النص الأصوب والأرق دون اعتماد على نسخة بعينها.

ثانياً: إثبات فروق النسخ وتركنا الكثير منها حيث لا جدوى من ذكرها.

ثالثاً: تخريج الأحاديث الواردة في النص.

رابعاً: عزو الآثار إلى مصادرها.

خامساً: توضيح الغريب من الألفاظ الواردة في النص معتمدين في ذلك على المعاجم اللغوية.

سادساً: ترجمة الأعلام الواردة أسماؤهم في النص.

سابعاً: عزو القراءات إلى مصادرها، والتعليق على بعضها حسبما احتاج النص مع بيان حجة كل قراءة.

ثامناً: توضيح بعض المصطلحات الفقهية والأصولية الواردة في النص.

تاسعاً: التعليق على بعض الموضوعات التي أشار إليها المصنف.

عاشراً: وضع آيات القرآن الكريم بين قوسين تيسيراً على القارىء.

ولا يفوتنا أن نوجه الشكر إلى الشيخ عبد الحكيم وكيل لجنة المصاحف على ما أبدى من توجيه فيما يتعلق بالقراءات في الكتاب.

هذا ولقد حرصنا كل الحرص أن يخرج الكتاب على الوجه اللائق به كتفسير لكتاب الله عز وجل ونرجو أن نكون بذلك قد وفقنا فيما تصبو إليه أنفسنا فإن كان كذلك فلله الحمد والمنة وإلا فمن ذا الذي ما أساء قط.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

المحققون

المبحث الأول

حياة أبي الليث السمرقندي وآثاره

أولاً:

١ ـ اسمه:

هو: نصر بن محمد بن إبراهيم الخطاب السمرقندي التوزي البلخي وقيل: نصر بن محمد بن أحمد (أو محمد) بن إبراهيم السمرقندي(١).

٢ ـ لقبه:

أ ـ الفقيه. وهو لقب اشتهر به، وهو يدل على أنه وصل من علم الفقه مرتبة عظيمة لا يدانيه فيها أحد من معاصريه، ويدل على ذلك «أل» المعرفة، فكأنه الفقيه وليس غيره.

وقد أحب أبو الليث هذا اللقب، وتبرك به، لأن النبي ﷺ لقبه به في المنام، وذلك أنه لما صنف كتابه «تنبيه الغافلين» عرضه إلى روضة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبات الليل، فرأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فناوله كتابه فقال: خذ كتابك يا فقيه، فانتبه فوجد فيه مواضع محوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان يتبرك بهذا اللقب لذلك(٢).

ب ـ إمام الهدى. وقد شاركه في هذا اللقب أبو منصور الماتريدي(٣).

٣ ـ كنيته:

كنى بأبي الليث، وقد طغت هذه الكنية على الاسم، حتى يكاد لا يعرف إلا بها، وقد تذكر الكنية مصحوبة باللقب هكذا: (حدث الفقيه أبو الليث).

مولده:

لم يعرف على وجه التحديد العام الذي ولد فيه أبو الليث، لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يكون عالماً ذا شأن، وإلّا ـ وهذا غيب بحت ـ لسجلوا مولده.

---

(١) راجع/ الجواهر المضية ٣/٥٤٤ رقم ١٧٤٣، دائرة المعارف الإسلامية ١/٥٩٢، كشف الظنون ٢/١١٨٧ طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٤٥، تاريخ التراث العربي/سزكين ٢/٩٧، معجم المؤلفين ١٣/٩١، الأعلام ٨/٣٤٨.

(٢) كتائب أعلام الأخبار (مخطوط) ورقة ١٢٦.

(٣) الجواهر المضيئة ٣/٣٦٠ رقم ١٥٣٢.

ولكنهم ذكروا ـ على وجه التقريب ـ أن مولده كان بين ٣٠١ هـ، ٣١٠.

وفاته:

وكذا اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته.

ـذكر الداودي في «طبقات المفسرين» أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ[١].

ـ وقال صاحب الطبقات السنية في تراجم الحنفية أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة ٣٨٣ هـ.

ـ ومن تاج التراجم أن وفاته كانت سنة ٣٧٥ هـ[٢].

ـ وفي الجواهر المضية أن وفاته كانت ليلة الثلاثاء سنة ٣٧٣ هـ[٣].

ـ ومن كشف الظنون ذكر حاجي خليفة أن أبا الليث توفي سنة ٣٧٦ أو سنة ٣٨٣ أو سنة ٣٧٥.

ـ ومن تاريخ التراث العربي أن وفاته كانت من سنة ٣٧٣ وقيل سنة ٣٧٥، وقيل سنة ٣٩٣[٤].

ومن معجم المؤلفين أنه توفي سنة ٣٩٣[٥].

وقال السيوطي: مات في أيام الطالع[٦].

أما كتاب «النوازل» (ورقة ٢٢٣) ففيه أن وفاته كانت من جمادى الآخرة ليلة الحادي عشر فيه سنة ٣٩٦ ـ عن خمسة وخمسين عاماً ـ وهذا التحديد يدلنا أيضاً على العام الذي ولد فيه.

أسرته:

لم تذكر كتب التراجم شيئاً عن أسرته، ولعله كان من أسرة عادية، لم يبرز منها سوى أبي الليث وأبيه، الذي يعد أول شيوخه كما سنذكر فيما بعد.

فقد نقل عنه كثيراً سواء في التفسير وفي غيره.

بيئته:

سمرقند[٧]: هي إحدى مدن خراسان، ـ تتبع الاتحاد السوفيتي الآن ـ، يقال لها بالعربية سران، مبنية على جنوب وادي الصفد، ومرتفعة عليه وهي مدينة عظيمة بمناخها، قال فيها الشاعر:

للناس من أخراهم جنة وجنة الدنيا سمرقند[٨]

وكانت هذه المدينة قبلة طلاب العلم إذ رحل إليها العلماء والفقهاء والوعاظ والمتصوفة.

---

(١) ٢/٣٤٦.
(٢) ٤/٢٢٤.
(٣) الجواهر المضيئة ٣/١٩٦ ط الهند.
(٤) كشف الظنون ٢/١١٨٧، ١٢٢٠، ١٥٨٠.
(٥) ١٣/٩١.
(٦) تاريخ الخلفاء ٤١١.
(٧) بفتح السين والميم ـ هكذا ضبطها ياقوت، أما البكري فقد فتح السين وسكّن الميم.
(٨) راجع/ معجم البلدان ٥/١٢١.

وبذلك احتلت مكانة علمية مرموقة بين سائر البلدان الإسلامية وإلى سمرقند نسب صاحبنا أبو الليث، وشاركه في هذه النسبة كثير من العلماء منهم:

- الحكيم السمرقندي.
- محمد بن أحمد السمرقندي.
- إسحاق السمرقندي.
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل السمرقندي.
- أبو نصر العياض السمرقندي.
- محمد بن عثمان السمرقندي.
- محمد بن عبد الجليل السمرقندي.

يقول ابن الأثير في اللباب ٢/٩٤: (بل إن الملوك أنفسهم كانوا يحبون العلم والتعلم، وكانوا أحسن الملوك سيرة، يرجعون إلى عدل ودين وعلم، فمنهم أحمد بن ساسان روى الحديث عن ابن عيينة، ويزيد بن هارون وغيرهما، وروى عنه ابنه الأمير إسماعيل).

وكانت بلاد ما وراء النهر وخراسان - في عهد الدولة السامانية - مركز إشعاع للثقافة الإسلامية، فقد اهتمت الأسرة المالكة بالعلم والعلماء، لهذا صارت تلك البلاد «من أجلّ الأقاليم، وأكثرها أجلة وعلماء، معدن الخير، ومستقر العلم، وركن الإسلام المحكم، وحصنه الأعظم.. فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك»[١].

وكان التأليف ثمرة لهذا النشاط العلمي الواسع من بلاد ما وراء النهر وخراسان ولذا فلا غرو أن نجد هذا القرن زاخراً بعلماء من شتى المجالات العلمية أثروا المكتبة العربية بغزير المؤلفات، وكان من أبرز هؤلاء العلماء: -

*** في مجال الحديث:**

١ - الإمام الحافظ النسائي (ت ٣٠٣ هـ) صاحب «السنن الكبرى» و «السنن الصغرى»[٢].

٢ - الإمام أبو داود (ت ٢٧٥ هـ) صاحب «السنن» أحد الكتب الستة[٣].

٣ - الإمام الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) صاحب «الجامع الصحيح» أحد الكتب الستة[٤].

٤ - الإمام ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) صاحب «السنن» أحد الكتب الستة[٥].

٥ - الإمام الدارمي، صاحب «المسند» و «التفسير»[٦].

---

(١) أحسن التقاسيم/ للمقدسي ٢٦٠.
(٢) الأعلام ١/١٦٤.
(٣) وفيات الأعيان ١/٢١٤، تهذيب التهذيب ٤/١٦٩، الأعلام ٣/١٨٢.
(٤) تهذيب التهذيب ٩/٣٨٧، وفيات الأعيان ١/٤٨٤، الأعلام ٧/٢١٣.
(٥) تهذيب التهذيب ٩/٥٣٠، الأعلام ٨/١٥.
(٦) طبقات المفسرين ١/٢٣٥.

في علم التفسير:

١ ـ أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ) له مؤلفات عديدة في علوم شتى منها غريب القرآن، ونظم القرآن.. وغيرهما[1].

٢ ـ ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٦٧ هـ) صاحب معاني القرآن، إعراب القرآن وغيرهما «وفيات الأعيان ٢٥١/١».

٣ ـ أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣) ومن مؤلفاته تأويلات القرآن «الفوائد البهية ١٩٥، الجواهر المضية ٣٦٠/٣ الأعلام ٢٤٢/٧ وغيره».

*** وفي علم الفقه:**

برز علماء كثيرون في بلاد ما وراء النهر وخراسان كان منهم:

١ ـ أبو الفضل البلخي (ت ٣٤٤ هـ) «النوازل للسمرقندي».

٢ ـ أبو عبد الله الفقيه البلخي (ت ٣٠٥ هـ) ـ «النوازل».

٣ ـ نصير بن يحيى البلخي (ت ٢٦٨ هـ).

*** في علوم اللغة:**

وفي القرن الرابع تطالعنا أسماء الأعلام الأفذاذ مثل: ابن فارس (ت ٣٩٠ هـ)، الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) الكالي (ت ٣٥٦)، العسكري (ت ٣٨٢)، الزجاج (ت ٣١١)، ابن جني (ت ٣٩٢)، وغيرهم كثير.

تلك هي البنية ـ الزمانية والمكانية ـ التي عاش فيها مفسرنا أبو الليث السمرقندي وهي نبذ زاخرة بالعلماء الأخيار، فكان أن هيء لأبي الليث مناخ ثقافي علمي نشأ فيه فترعرع حتى نضج وأثمر ثماره العلمية في شتى الميادين.

شيوخه

١ ـ والده

محمد بن إبراهيم التوذي كان فقيهاً فاضلاً ورعاً. وكان شيخه في مرحلة الصغر.

فقد نقل كثيراً من أقوال والده في التفسير فكان يقول = حدثني أبي.

٢ ـ أبو جعفر الهندواني. (أبو جعفر البلخي)[2].

٣ ـ الخليل بن أحمد القاضي السجزي ـ شيخ الحنفية في زمانه كان مقدماً في الفقه والحديث[3].

٤ ـ محمد بن الفضل البلخي المفسر[4].

(١) طبقات المفسرين ٤٢/١، الأعلام ١٣١/١.

(٢) الجواهر ١٩٢/٣ (١٣٤٥) اللباب لابن الأثير ٢٩٥/٣ تاج التراجم ٦٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٣٢٧/١١.

(٤) انظر حلية الأولياء ٢٣٣/١٠ الأعلام ٢٢١/٧.

وغير ذلك مما هو مسطر في التفسير وغيره من مصنفاته .

تلاميذه

فمن أشهر تلاميذه رحمه الله :

١ ـ لقمان بن حكيم الفرغاني راوي عنه الكتب .
٢ ـ نعيم الخطيب أبو مالك من الرواة عنه .
٣ ـ ومحمد بن عبد الرحمن الزبيري من الرواة عنه .
٤ ـ وأحمد بن محمد أبو سهل من الرواة عنه .
٥ ـ طاهر بن محمد بن أحمد بن نصر أبو عبد الله الحدادي وغير ذلك مما موته كتب السير والأعلام .

ثقافة أبي الليث

علم الفقه :

ذكرنا أن من أشهر كناه (الفقيه) وهذا ان دل فإنما يدل على تفوقه على أقرانه ومعاصريه في هذا المضمار .

علم أصول الدين :

اشتهر أبـو الليث رحمه الله بين معاصريه بعلم التوحيد والمناظرة قال السمعاني رحمه الله : «كان من أصحاب أبي حنيفة ، وكان مشهوراً بالمناظرة معروفاً بالجدل» .

وقد جاء في التفسير «بحر العلوم» ما يدل على تبحره في هذا العلم .

معرفة لغات العجم

اتقن الإمام العلامة المفسر الفقيه المحدث أبو الليث الفارسية فيقول رحمه الله =

(قال الحكيم بالفارسية : بكو دكي بازي ، بجواني مسني ، بييري سبق ، حداراكي برستي) .

يعني : إذا كنت شيخاً صرت ضعيفاً ، فمتى تعمل لله تعالى؟ يعني لا تقدر أن تعبد ربك بعد موتك[1] .

والناظر في التفسير يجد أنه يذكر بعض المعاني للكلمات التي ليست عربية الأصل مثل الفردوس . في قوله تعالى ﴿ الذيـن يرثون الفردوس﴾ المؤمنون آية (١١) .

قال : هي البساتين بلغة الروم .

وقال في قوله تعالى ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وإن كان هذا الذي ذهبنا إليه لا يدل على معرفة بتلك اللغات إذ أن سابقيه من المفسرين واللغويين والمعجميين قد ذكروا ذلك في كتبهم ولعله أفاد منها .

ويبدو من أقواله أنه تعلم اللغة العبرية ولا عجب من ذلك فقد قرأ التوراة والتقى باليهود[2] وسمع منهم . يقول

---

(١) انظر تنبيه الغافلين للمصنف رحمه الله ص ٩ .
ويقال : إن بني إسرائيل سألوا موسى عن اسم الله الأعظم فقال لهم قولوا : باهيا شر اهيا . يعني يا حي يا قيوم .
(٢) وكان عدد اليهود كثيراً في سمرقند ناف عن ثلاثين ألفاً « آدم متز/ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ /٨٣ » .

رحمه الله «سمعت أهل التوراة يقولون: إن أسماء أولاد يعقوب مبينة في التوراة، روبيل، وشمعون، ويهودا، ولاوي، فهؤلاء من امرأته لايا، ويوسف وابن يامين من امرأته الأخرى راحيل. والستة الأخرى الباقين من الأمتين.

الطب وأبو الليث

الناظر في التفسير يجد الثقة العدل الفقيه ينقل في تفسيره أقوالاً عن أطباء المسلمين المشاهير..

يقول رحمه الله عند قول الله عز وجل ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾[1].

قال الطبيب الرازي: كل شهوة تقسي القلب إلا الجماع فإنه يصفي.

وانظر أيضاً قول الله تعالى من سورة الأعراف[2] ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

الفلسفة

وكان العارفون بالطب في ذلك الحين فلاسفة والمطلع على نتاجهم العلمي فيلسوف. فكان أبو الليث مطلعاً على أقوال الفلاسفة قد جاء بعض ذلك في تفسيره ففي قوله تعالى ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً...﴾ يقول أبو الليث «وقد طعنت الزنادقة في هذا وقالوا إن الجلد....».

وهذا وهناك علوم أخرى تتضح من خلال كتاب التفسير.

مؤلفاته:

لقد نهل «السمرقندي - رحمه الله من ثقافة عصره، وأحاط علماً بكل جوانبها وأبعادها، وألمَّ بجميع أطرافها وآفاقها. فكان بذلك ذا ثقافة عالية، وأفق واسع وعلم عظيم، ولقد نضجت ثقافته أيما نضج، واكتملت شخصيته العلمية أعظم اكتمال، وكان لهذه الثقافة الناضجة ثمار، ولتلك الشخصية المكتملة نتاج.

وقد ظهرت هذه الثمار والنتاج في المجالات المختلفة في التفسير وعلومه وأصول الدين والفقه والزهد والرقائق.

التفسير

١ - تفسير القرآن المسمى بـ «بحر العلوم» وهو الذي نحن بصدد تحقيقه. ولم نجد له غير ذلك في مجال التفسير.

الفقه

١ - خزانة الفقه وهو مطبوع بتحقيق الدكتور صلاح الدين الناهي.

٢ - عيون المسائل وهو كتاب في فروع المذهب الحنفي وهو مطبوع بالهند.

٣ - مقدمة أبي الليث في الصلاة وهي من مقتنيات دار الكتب المصرية.

٤ - النوازل في الفتاوى وهي من مقتنيات دار الكتب المصرية.

٥ - تأسيس النظائر الفقهية وهو في فروع المذهب الحنفي.

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٤).

(٢) الآية ٣١.

٦ ـ المبسوط في فروع الفقه الحنفي.
٧ ـ النوادر المقيدة جمع فيها رحمه الله نوادر فقهية.
٨ ـ شرح الجامع الكبير والجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني.
٩ ـ شرح الجامع الصغير والجامع الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني.
١٠ ـ مقدمة في بيان الكبائر والصغائر.
١١ ـ فتاوى أبي الليث جمع فيها الفتاوى الفقهية.

الزهد والرقائق

١ ـ تنبيه الغافلين وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم.
٢ ـ بستان العارفين وهو مطبوع ومتداول وهو بهامش الكتاب السابق.
٣ ـ قرة العيون ومفرح القلب المحزون وهو مطبوع على هامش كتاب مختصر التذكرة للشعراني.

أصول الدين

١ ـ أصول الدين.
٢ ـ بيان عقيدة الأصول.
٣ ـ أسرار الوحي.
٤ ـ رسالة في المعرفة والإيمان.
٥ ـ رسالة في الحكم.
٦ ـ قوت النفس في معرفة الأركان الخمس.

وغير ذلك مما حوته كتب التراجم.

المبحث الثاني

التفسير قبل أبي الليث

مقدمة

التفسير والتأويل

التفسير : لغة

التفسير في اللغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾(١) أي بياناً وتفصيلاً. وهو مأخوذ من الفسر، وهو: الإبانة والكشف.

قال الفيروزابادي(٢):

«الفَسْرُ: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر».

وقال ابن منظور(٣):

«الفَسْرُ: البيان، فَسَرَ الشيء يَفْسِرُه ـ بالكسر ـ ويَفْسُرُه ـ بالضم ـ فَسْراً، وفَسَّرَه: أبانه. والتفسير: مثله..... والفَسْرُ: كشف المُغَطَّى. والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل».

وقال «أبو حيان»(٤):

«... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري».

وعلى ذلك: فالمادة تدور حول معنيين(٥):

الكشف المادي المحسوس، والكشف المعنوي المعقول..

وقيل: إن أصل الكلمة من التَّفْسِرَة، وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كما يكشف المفسّر عن شأن الآية وقصتها(٦).

التفسير : اصطلاحاً.

عرفه السيوطي قائلاً(٧):

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

(٢) القاموس المحيط «فسر».

(٣) اللسان: مادة «فسر».

(٤) البحر المحيط ١/ ١٣.

(٥) التفسير: معالم حياته ـ منهجه اليوم ـ أمين الخولي ص٥، والتفسير والمفسرون / للذهبي ج١ / ١٥.

(٦) الاتقان في علوم القرآن / للسيوطي ٢/ ٢٩٤، وتفسير البغوي ١/ ١٨ ط المنار، واللسان: فسر.

(٧) الاتقان ٢/ ١٧٤.

«هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك».

وعرَّفه «أبو حيان» فقال[١]:

هو «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك. . .» وفيه قصور وغموض[٢]. .

وتعريف «الزركشي» أوضح من التعريفين السابقين إذ يقول[٣]:

«التفسير: علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ».

وهناك تعريفات أخرى ـ غير ما ذكرنا[٤] ـ وكلها تتفق «على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد»[٥].

التأويل: لغة.

أصله: «من الأَوْل، وهو الرجوع.

قال الفيروزابادي[٦]:

«آل إليه أَوْلاً وَمَآلاً ـ: رجع، وعنه ارتد. . . . وأَوّل الكلام تأويلاً، وتأوله: دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا».

وقال ابن «منظور»[٧]:

«الأَوْلُ: الرجوع، آلَ الشَّيءُ يؤولُ أَوْلاً ومَآلاً: رجع، وَأَوَّلَ الشيءَ: رَجَعَهَ، وأُلْتُ عن الشيء: ارتددت، وفي الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أي لا رجع إلى خير. . . وأَوّل الكلام وتأوله: دبره وقدره، وأوله وتأوله: فسره».

وعليه:

فالتأويل: إرجاع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

(١) البحر المحيط ج١ أو ما بعدها.
(٢) راجع: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير أبـو شهبة ص ٤١.
(٣) البرهان ج١ /٣٣.
(٤) راجع مثلاً: مناهل العرفان في علوم القرآن ١/٤٠٦ ط أولى، ومنهج الفرقان في علوم القرآن ج٢ /٦، التفسير في قواعد التفسير / الكافياجي ص ٣، ١١ وغيرها.
(٥) التفسير والمفسرون ١/١٧.
(٦) القاموس المحيط ٣/٣٣١.
(٧) اللسان / مادة «أول» !/١٧١ وما بعدها.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة، وهي السياسة، فكأن المؤول ساس الكلام ووضعه في موضعه.. قال الزمخشري[١]:

«آلَ الرعيَّة يؤولُها إيَالَةً حَسَنَةً، وهو حسن الإيالة، وائْتالها، وهو مُؤْتَالٌ لقومه مِقْتَالٌ عليهم: أي سائس محتكم، قال زياد في خطبته: قد أُلْنا وإيل علينا، أي سُسْنا وسِيْسنا...».

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم على معان مختلفة.

من ذلك قوله تعالى ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله...**﴾[٢]. بمعنى التفسير والتعيين.

وقوله تعالى: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾[٣] بمعنى العاقبة والمصير.

وقوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله..**﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله..**﴾[٥] بمعنى وقوع المخبر به.

ومن آيات سورة يوسف[٦] أريد بها: نفس مدلول الرؤيا.

ومن آيتي سورة الكهف[٧] بمعنى بيان حقيقة الأعمال التي عملها العبد الصالح، وليس تأويل الأقوال[٨].

التأويل اصطلاحاً:

التأويل عند السلف له معنيان:

- **أحدهما**: تفسير الكلام وبيان معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مترادفين، وهذا ما يعنيه «ابن جرير الطبري» في تفسيره حين يقول: «القول في تأويل قوله تعالى....» وكذا قوله «اختلف أهل التأويل في هذه الآية.. فالتفسير والتأويل كلاهما بمعنى.

- **ثانيهما**: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به...

وعليه:

فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج سواء كانت ماضية أم مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا في نظر «ابن تيمية» هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني[٩].

---

(١) أساس البلاغة ص ٢٥ ط الشعب.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.
(٣) سورة النساء: الآية ٥٩.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٥٣.
(٥) سورة يونس: الآية ٣٩.
(٦) الآيات: ٦، ٣٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠.
(٧) الآيتان: ٧٨، ٨٢.
(٨) راجع: التفسير والمفسرون ١/١٨، ١٩.
(٩) التفسير والمفسرون ١/١٩ (بتصرف وإيجاز).

أما التأويل عند المتأخرين من الأصوليين والكلاميين وغيرهم:

فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف[١].

قال في جمع الجوامع[٢]:

«التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل عليه دليل فصحيح، أو لما يظن دليلاً من الواقع ففاسد، أو لا لشيء فلعب لا تأويل».

«الفرق بين التفسير والتأويل»

اختلف علماء «التفسير» في بيان الفرق بين التفسير والتأويل. ولعل منشأ هذا الخلاف «هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»[٣].

- ومن العلماء من ذهب إلى أنهما بمعنى واحد. . ومن هؤلاء: «أبو عبيد القاسم بن سلام» وطائفة معه[٤].

- ومنهم من فرق بينهما.

يقول الراغب الأصفهاني[٥]:

«التفسير أعم من التأويل. وأكثر ما يستعمل التفسير من الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل. فالتفسير إمَّا أن يستعمل في غريب الألفاظ «كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة»، أو في تبيين المراد وشرحه، كقوله تعالى ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، وإما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ وقوله تعالى ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة، و «الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة، وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ «وجد» المستعمل في الجد والوجد والوجود».

وقال «أبو طالب الثعلبي»[٦]:

«التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيّب بالمطر. والتأويل: تفسير

---

(١) راجع: التفسير والمفسرون ١/١٩. (٢) ج٢ /٥٦، والتفسير والمفسرون ١/٢٠. (٣) التفسير. معالم حياة - ص ٦.

(٤) الاتقان ٢/١٧٣، التفسير والمفسرون ١/٢١ والإسرائيليات والموضوعات ٤٣.

(٥) التفسير والمفسرون ١/٢١، نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن / السيد خليل ص ٢٩، نقلاً عن: مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ - ٤٠٣ آخر كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.

(٦) الاتقان ٢/١٧٣.

باطن اللفظ، مأخوذ من الأَوْل، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل: إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير: إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصدته إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والإستعداد للعرض عليه».

وقال «البغوي»: [١]

«التأويل: هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الإستنباط.

«والتفسير: هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها».

وقيل: «التفسير: ما يتعلق بالرواية، والتأويل: ما يتعلق بالدراية»[٢] يقول الكافياجي:[٣]

«... إن علم التفسير علم يبحث فيه عن أحوال كلام الله المجيد من حيث أنه يدل على المراد بحسب الطاقة البشرية، وينقسم إلى قسمين:

تفسير: وهو ما لا يدرك إلا بالنقل أو السماع، أو بمشاهدة النزول وأسبابه، فهو ما يتعلق بالرواية، ولهذا قيل: إن التفسير للصحابة.

وتأويل: وهو ما يمكن إدراكه بقواعد العربية، فهو ما يتعلق بالدراية، ولهذا قيل: إن التأويل للفقهاء، فالقول من الأول بلا نقل أو سماع خطأ، وكذا القول من الثاني بمجرد التشهي، وأما استنباط المعاني على قانون اللغة فمما يعد فضلاً وكمالاً».

وقد رجح المرحوم الدكتور الذهبي هذا الرأي، وعلل ذلك بقوله:[٤]

«وذلك لأن التفسير معناه: الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أو عن بعض أصحابه، الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

«وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الإجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني من كل ذلك».

وهذا هو ما نميل إليه...

«حاجة الناس إلى التفسير»

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين:

أولهما: ليكون معجزة، فلا يقدر البشر على أن يأتوا بمثله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا

---

(١) تفسير البغوي ١/١٨

(٢) الاتقان ٢/١٧٣.

(٣) التيسير في قواعد التفسير ص ٣، ١١.

(٤) التفسير والمفسرون ١/٢٣.

بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[١]. ولا بسورة من مثله ﴿قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[٢].

ثانيهما: ليكون منهج حياة، ودستوراً للمسلمين، فيه صلاحهم وفلاحهم، إذ تكفل بكل حاجاتهم من أمور الدين والدنيا، عقائد، وأخلاق، وعبادات، ومعاملات.. إلخ.

﴿يا أيها الناس قد جآءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[٣].

﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[٤]. ففي اتباعه الهداية، وفي الإعراض عنه الشقاء والضنك ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى..﴾[٥].

وبه مخرج الأمة من أزماتها، ونجاتها من الفتن.. يقول علي ـ كرم الله وجهه ـ: قلت يا رسول الله ستكون فتن، فما المخرج منها؟.

قال ـ ﷺ ـ: «كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح، ومن دعى إليه هُدي إلى صراط مستقيم».

ـ ولكي يكون معجزاً ويتأتى تحديه للبشر..

ـ ولكي يتأتى اتخاذه دستوراً ومنهج حياة..

ولكي يتدبر المؤمنون آياته..[٦].

ولكي يستطيع المسلمون العرب الانطلاق بالدعوة[٧].. لكل هذا جاء القرآن عربياً.

وكان القوم ـ «عند نزوله ـ سواء من هو حجة له: من المؤمنين الصادقين، ومن هو حجة عليه، من الكافرين الجاحدين، يفهمونه ويحيطون بمعانيه إفراداً وتركيباً فيتلقون دعوته، ويدركون مواعظه، ويعون تحديه بالإعجاز بين مذعنين، يقولون: آمنا به، ومعاندين يلحدون في آياته، ويمعنون في معارضته كيداً ولياً بألسنتهم وطعناً في الدين.

«فما كان منهم من تعذر عليه فهمه، ولا من خفيت عليه مقاصده ومعانيه، بل كان وضوح معانيه، ويسر فهمه، هو الأصل فيما قام حوله من صراع بين مؤمن يجد فيه شفاء نفسه، وانشراح صدره، وكافر ينقبض لقوارع

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٣) سورة يونس: الآية ٥٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

(٥) سورة طه: ١٢٣ ـ ١٢٦.

(٦) قال تعالى ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته..﴾.

(٧) قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع...﴾.

آياته فلا يزال يدفعها بالإعراض والمعارضة، والدفاع والمقارعة، وكان ذلك هو الأصل أيضاً في تكون الأمة المحمدية، وتولد التاريخ الإسلامي»[١].

يقول «ابن خلدون»:[٢]

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه».

وقد سبقه أبو عبيدة معمر بن المثنى حين قال:[٣]

«إنما نزل القرآن بلسان عربي مبين.. فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه، إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص».

إلا أن هذا الإطلاق يعارضه قول عمر بن الخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:[٤]

يا رسول الله، إنك تأتينا بكلام من كلام العرب وما نعرفه ولنحن العرب حقاً؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن ربي علمني فتعلمت، وأدبني فتأدبت».

كما يعارضه صريح القرآن إذ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[٥].

نعم. إن هناك ألفاظاً لم تستطع بعض القبائل العربية معرفتها، ربما لعدم استعمالهم لها، أو لاحتمال اللفظ عدة معانٍ، وكذا بعض آيات أشكل عليهم فهم معناها وذلك كسؤالهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما نزل قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ فقالوا: وأينا لم يظلم؟ وفزعوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبيّن لهم أن المراد بالظلم الشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾[٦].

ولو صح ما ذهب إليه ابن خلدون وأبو عبيدة لما كانت حاجة الصحابة إلى تفسير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.. لكن تفسير الرسول للقرآن وقد ورد في الأحاديث الصحيحة، بياناً لمعنى لفظ، أو توضيحاً لمشكل، أو تأكيداً لحكم، أو تفصيلاً لمجمل، أو تخصيصاً لعام، أو تقييداً لمطلق... إلخ.

وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حراصاً على حفظ القرآن، وفهم معانيه، وفقه أحكامه..

قال أبو عبد الرحمن السُّلمي:

حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من

---

(١) التفسير ورجاله / محمد الفاضل بن عاشور ص ٧ ـ ٨.

(٢) المقدمة ص ٣٦٧ ط الأزهرية سنة ١٩٣٠.

(٣) مجاز القرآن ـ ط ثانية ـ دار الفكر.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٢٨٤ ط الحلبي تحقيق أبو العضل وقال الصيرفي: ولست أعرف إسناد هذا الحديث، وإن صح فقد دل على أن النبي ﷺ قد عرف ألسنة العرب.

(٥) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٦) الإتقان للسيوطي ٢/٣٣٠ والبرهان للزركشي ١/١٤.

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعاً».

وإذا كان العرب الخلّص الذين لم تعكر عربيتهم عجمة ـ يحتاجون إلى التفسير، فنحن أولى وأحوج بل وأشد حاجة إلى تفسير القرآن الكريم، إذ صار البون بعيداً بين العرب والفصحى . .

يقول السيوطي :(١)

«ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه، وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد احتياجاً إلى التفسير».

والحاجة إلى التفسير «إنما هي حاجة عارضة نشأت من سببين:

السبب الأول: هو أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، وإنما كان نزوله وتبليغه في ظرف زمني متسع جداً: قدره أكثر من عشرين عاماً، فكان ينزل منجماً على أجزاء مع فواصل زمنية متراخية بين تلك الأجزاء، وكان نزوله في تقدم بعض أجزائه وتأخر البعض الآخر، على ترتيب يختلف عن ترتيبه التعبدي، لأن ترتيب تاريخ النزول كان منظوراً فيه إلى مناسبة الظروف والوقائع، مناسبة ترجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وترتيب التلاوة أو الترتيب التعبدي، كان منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب أجزاء الكلام بعضها مع بعض، . . . والترتيب الأول مؤقت زائل بزوال ملابساته من الوقائع والأزمنة والأمكنة.

أما ترتيب التلاوة التعبدي فباق لأنه في ذات الكلام، يدركه كل واقف عليه وتالٍ له من الأجيال المتعاقبة، بينما الترتيب التاريخي لا يدركه إلا شاهد العيان لتلك الملابسات من الجيل الذي كان معاصراً لنزول القرآن. . . وكان انقراض تلك الملابسات الوقتية محوجاً إلى معرفتها معرفة نقلية تصورية، ليتمكن الآتون من استعمال القرائن والأحوال، التي اهتدى بها إلى معاني التراكيب القرآنية سابقوهم.

وأما السبب الثاني: فهو أن دلالات القرآن الأصلية، التي هي واضحة بوضوح ما يقتضيه من الألفاظ والتراكيب ـ تتبعها معانٍ تكون دلالة التراكيب عليها محل إجمال أو محل إبهام، إذ يكون الترتيب صالحاً على الترديد لمعان متباينة، يتصور فيها معناه الأصلي ولا يتبين المراد منها، كأن يقع التعبير عن ذات بإحدى صفاتها، أو يكنى عن حقيقة بإحدى خواصها، أو أحد لوازمها. . فينشأ عن ذلك إجمال يتطلب بياناً، أو إبهام يتطلب تعييناً. . ولما كان الذين اتصلوا أولاً بتلك المجملات أو المبهمات أو المطلقات قد رجعوا إلى المبلغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طلب بيانها أو تعيينها أو تقييدها فتلقوا عندما أفادهم، فاطلعوا بأن الذين أتوا بعدهم احتاجوا إلى معرفة تلك الأمور المأثورة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتتضح لهم تلك المعاني كما اتضحت لمن قبلهم. . . »(٢).

وبذا تبين أن التفسير نشأ منذ بدء الوحي، إذ احتاج إليه الصحابة، ثم زادت حاجة التابعين إلى التفسير ولا سيما ما رآه الصحابة وسمعوه من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتمكنوا هم من رؤيته ولا سماعه. . ثم اشتدت حاجة تابعي التابعين.

وهكذا كلما بعد الناس عن عصر نزوله زادت الحاجة إلى التفسير بمقدار ما زاد من غموض(٣). .

---

(١) الإتقان ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧. (٢) التفسير ورجاله من ١٠ ـ ١٣. (٣) راجع التفسير والمفسرون / للذهبي ١/١٠١ ـ ١٠٢.

فهم الصحابة للقرآن الكريم

نزل القرآن عربياً على رسول عربي، وقوم عرب، «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته..» فكانوا أخبر بلغتهم، وفهموا القرآن حق فهمه، وقد يشكل عليهم فهم آية منه فيرجعون إلى القرآن نفسه، فقد يجدون فيه توضيحاً أو تفصيلاً. وإلا رجعوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليفسر لهم ما أشكل عليهم...

وكان الصحابة يجتهدون في فهم القرآن الكريم مستعينين على ذلك بـ:(١)

١ ـ معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

٢ ـ معرفة عادات العرب.

٣ ـ معرفة أحوال اليهود والنصارى في الجزيرة وقت نزول القرآن.

٤ ـ قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبدهي أن يتفاوت الصحابة في توافر هذه الأدوات عندهم، وبالتالي في فهم القرآن الكريم، فلم يكونوا جميعاً في مرتبة واحدة، ومن هنا كان الاختلاف اليسير بينهم في تفسير القرآن الكريم.

ومن ذلك:

ـ ما روي من أن الصحابة فرحوا حين نزل قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ لظنهم أنها مجرد إخبار وبُشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد كان مصيباً في ذلك، إذ لم يعش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعدها إلا أحد وثمانين يوماً كما روي»(٢).

ـ وفيه ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:(٣)

«كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟

فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره. إذ نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا. فقال: ما تقول؟

قلت: هو أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أعلمه الله له، قال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾ فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول».

---

(١) راجع التفسير والمفسرون ١/٥٩ وما بعدها.

(٢) الموافقات للشاطبي ج٣/٣٨٤، التفسير والمفسرون ١/٦١، ٦٢.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/٥١٩،/ باب التفسير، وكذا أسد الغابة.

ـ وقال ابن عباس:[١]

«كنت لا أدري «ما فاطر السموات والأرض»، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها».

أشهر مفسري القرآن من الصحابة

عد السيوطي عدداً من مفسري القرآن من الصحابة ذكر منهم:

الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبا موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم.

أما الخلفاء الثلاثة الأول فالرواية عنهم في التفسير قليلة جداً، وذلك بسبب تقدم وفاتهم، ولانشغالهم بمهام الخلافة[٢].

١ ـ علي بن أبي طالب:

وأما علي ـ كرم الله وجهه ـ فهو أكثرهم تفسيراً للقرآن، وذلك لأنه لم يشغل بالخلافة، وإنما كان متفرغاً للعلم حتى نهاية عصر عثمان. . .

وكثرة مرافقته للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وسكناه معه، وزواجه من ابنته فاطمة إلى جانب ما حباه الله من الفطرة السليمة. . . . كل ذلك أورثه العلم الغزير. حتى قالت عائشة رضي الله عنها:[٣]

«أما إنه لأعلم الناس بالسنة» في زمن كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ متوافرين.

وروى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال:

«شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم: أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل».

وقيل لعطاء: أكان في أصحاب محمد أعلم من علي؟

قال: لا، والله لا أعلمه.

وقال ابن مسعود: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن»[٤].

نموذج من تفسير علي ـ رضي الله عنه ـ للقرآن:

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾: إن الإيمان يبدو

---

(١) الاتقان ٢/١١٣.

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ٨٤، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/٦٤، ٦٥.

(٣) الاستيعاب ٣/١١٠٤، أسد الغابة ٤/٢٩.

(٤) راجع الاتقان ٢/٣١٩.

لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض، حتى يبيض القلب كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد بذلك السواد، حتى يسود القلب كله، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود»[١].

٢ ـ عبد الله بن مسعود:

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن سمح، وقيل «شمخ»... ينتهي نسبه إلى مضر. يكنى بأبي عبد الرحمن، وأمه: أم عبد بنت عبد ود من هذيل، وكان يقال له: ابن أم عبد.

أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب، وكان سبب إسلامه: حين مر به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو يرعى غنماً، فسألاه لبنا فقال: إني مؤتمن، قال فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عناقاً لم ينز عليها الفحل، فاعتقلها، ثم حلب وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: أقلص، فقلص، فقلت: علمني من هذا الدعاء، فقال: إنك غلام معلم... الحديث[٢].

كان عبد الله من أحفظ الصحابة لكتاب الله وأقرئهم له، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطلب منه أن يقرأه عليه، فقال له يوماً. اقرأ عليَّ سورة النساء. قال ابن مسعود: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، يقول: فقرأت عليه حتى بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فاضت عيناه ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٣].

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول:

«من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[٤] وكان ابن مسعود حريصاً على فهم القرآن الكريم، يروي الطبري وغيره عن ابن مسعود أنه قال:

«كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» وعن مسروق قال:[٥] قال عبد الله بن مسعود:

«والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه».

وطرق الرواية عن ابن مسعود متعددة، وأصح هذه الطرق ما جاء من:[٦]

١ ـ طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

٢ ـ طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

٣ ـ طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.. وهذه الطرق الثلاثة أخرج منها البخاري في صحيحه.

(١) تفسير البغوي ـ ط المنار ٤/٢٧٣.
(٢) البداية والنهاية ٧/١٦٩، أسد الغابة ٣/٢٥٦ ـ ٢٦٠
(٣) البداية والنهاية ٧/١٦٩.
(٤) مسند الإمام أحمد ١/٧.
(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الفضائل / باب مناقب عبد الله بن مسعود.
(٦) التفسير والمفسرون للذهبي ١/٨٧، ٨٨.

وهناك طرق أخرى كـ:

ـ طريق السدي الكبير عن مرة الهمذاني عن ابن مسعود. أخرج منها الحاكم في مستدركه وابن جرير في تفسيره ـ كثيراً.

ـ طريـق أبي روق عن الضحاك عن ابن مسعود. وهي طريق غير مرضية، أخرج منها ابن جرير في تفسيره أيضاً، وهي منقطعة، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود.

وكان لابن مسعود تلاميذ كثير في الكوفة، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ لما ولي عمار بن ياسر على الكوفة سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس الكوفيون إليه وتعلموا منه.

ويقول العلماء:

إن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لطريقة الإستدلال، وقد أثرت هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فكثر التفسير بالرأي والاجتهاد[١]. وسوف يأتي ذكر تلاميذه عند حديثنا عن تفسير التابعين.

٣ ـ أبي بن كعب:

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، سيد القراء[٢]. كنيته: أبو المنذر أو أبو الطفيل.

شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وهو أحد المشهورين. بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقرائه. قال فيه عمر بن الخطاب: «أُبيّ أقرؤنا»[٣].

وهو أحد الذين تتلمذ عليهم «ابن عباس». يقول ابن عباس: [٤]

«ما حدثني أحد قط حديثاً فاستفهمته، فلقد كنت آتي باب أبي بن كعب وهو نائم فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني لأحب أن يوقظ لمكاني من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكني أكره أن أمله».

كان أبي يكتب في مصحفه أشياء ليست من القرآن الكريم مما يعد شرحاً، أو تفسيراً، أو سبباً لنزول، أو مما نسخ، وكان يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٥] فمن ذلك مثلاً: دعاء القنوت[٦].

وكان من أعلم الصحابة بكتاب الله وذلك لعدة عوامل:

* أنه كان من كتاب الوحي للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

* أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها.

وقد تعددت طرق الرواية عنه وأشهر هذه الطرق:

---

(١) المصدر السابق ١/١٢٠.
(٢) تهذيب التهذيب ١/١٨٧، غاية النهاية في طبقات القراء ١/٣١. أسد الغابة ١/٤٩ ـ ٥١.
(٣) رواه البخاري، وانظر طبقات القراء للذهبي ٦/٦٢٩ وكذا شهد له النبي ﷺ.
(٤) طبقات ابن سعد ٢/٣٧١.
(٥) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٢٨.
(٦) راجع الاتقان ١/٦٦.

١ ـ طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي وهي طريق صحيحة، أخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الحاكم منها في مستدركه، والإمام أحمد في مسنده.

٢ ـ طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في مسنده، وهي على شرط الحسن[١].

وتلاميذ أبيّ كثير منهم: أبو العالية، زيد بن أسلم، محمد بن كعب القرظي وغيرهم. ويعد أبي بن كعب أستاذ مدرسة التفسير في المدينة.

٤ ـ عبد الله بن عباس[٢]:

هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم. . . يلتقي مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الجد الأول (عبد المطلب)، فهو ابن عم رسول الله.

ولد إبان المقاطعة الإقتصادية التي فرضتها قريش على بني المطلب، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات.

لازم ابن عباس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، لكن الرسول توفي ولابن عباس من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل خمس عشرة سنة. .

وقد حظي ابن عباس بدعوة رسول الله له حين قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «اللهم علمه الكتاب والحكمة».

وفي رواية: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

واستجيبت دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فكان عبد الله بن عباس «ترجمان القرآن» يقول ابن مسعود:

«نعم ترجمان القرآن ابن عباس» وذلك لبراعته في التفسير، كما لقب بالحبر، لغزارة علمه. وبالبحر كذلك.

وإذا كان ابن عباس قد فاته طول الصحبة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يسألهم، ويتعرف أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك.

يقول ابن عباس: [٣]

«لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللتين قال الله فيهما: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ ولم أزل أتلطف له حتى عرفت أنهما حفصة وعائشة».

ويقول:

«وجدت عامة حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الأنصار، فإني كنت لآتي الرجل فأجده نائماً، لو

---

(١) راجع التفسير والمفسرون ١/٩٢، ٩٣.

(٢) بعض الكتب التي تترجم للمفسرين من الصحابة تقدم ابن عباس على سائر الصحابة لتفوقه في هذا العلم، وبعضها ترجته بعد الثلاثين السابقين لتقدمهم في السن عليه وحداثته بينهم.

(٣) الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي ١/٢٢.

شئت أن يوقظ لي لأوقظ، فأجلس على بابه تسفي على وجهي الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف».

لقد تتلمذ ابن عباس على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أولاً، فكان الرسول يعلمه ويربيه قال له يوماً:

«يا غلام. إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف».

وفي خلافة عمر كان لابن عباس تقدير خاص عنده، فكان يدنيه من مجلسه رغم حداثة سنه ـ كما ذكرنا.

وقد أفاد ابن عباس من هؤلاء الذين يعدون بمثابة شيوخه:

عمر بن الخطاب، أبي بن كعب، علي بن أبي طالب، زيد بن ثابت، روى عبد الرزاق عن معمر قال:(١)

«عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر وعلي وأبي بن كعب».

وذكر ابن الأثير الجزري في ترجمة ابن عباس أنه(٢) «حفظ المحكم في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم عرض القرآن على أبي بن كعب وزيد بن ثابت. وقيل إنَّه قرأ على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه».

لقد أوتي ابن عباس علماً غزيراً جعله أبرز المفسرين وأتمهم اضطلاعاً بالتفسير حتى إنه «لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مذعن لابن عباس، مسلم له مقدرته الموفقة، وموهبته العجيبة، وعلمه الواسع في تفسير القرآن»(٣).

لقد امتلك ابن عباس أدوات المفسر فكان عالماً بأسرار العربية يحفظ الكثير من الشعر القديم ويحث الناس على النظر فيه قائلاً: (٤)

«إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي».

وهو القائل: (٥)

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه».

وقد ذكر السيوطي بسنده حواراً داربين نافع بن الأزرق وابن عباس فقال:(٦)

بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر:

قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/٤١.
(٢) طبقات القراء ٤٢٥.
(٣) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٦.
(٤) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ١٧.
(٥) الإتقان ١/١١٩، غاية النهاية في طبقات القراء ٤٢٦.
(٦) الإتقان ١/١٢٠.

أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾.

قال: العزون: حَلَق الرفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

قال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحّلي وتخضّبي

إلى آخر المسائل وأجوبتها[١].

وهي إن دلت فإنما تدل على سعة علمه بلغة العرب، وقوة ذاكرته، مما جعله إمام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية لعصره، وهو إمام مدرسة التفسير في مكة، وأول من ابتدع الطريقة اللغوية في تفسير القرآن.

طرق الرواية عن ابن عباس.

تعددت طرق الرواية عن ابن عباس، واختلفت تلك الطرق. . وأشهر هذه الطرق وأصحها:[٢]

١ ـ طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، وتعد هذه الطريق من السلاسل الذهبية، وقد أخرج منها ابن جرير الطبري، وعبد الرزاق في تفسيرهما.

٢ ـ طريق سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء بن أبي رباح ـ وعن عكرمة أحياناً ـ عن ابن عباس، وقد أخرج منها عبد الرزاق في تفسيره.

٣ ـ طريق معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. . وقالوا:

إن هذه أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ «إن بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال الحافظ ابن حجر:

«وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن

(١) راجعها في الإتقان ١/١٢٠ وما بعدها.

(٢) راجع: الإتقان ٢/١٨٨، التفسير والمفسرون ١/٧٧، ٨٨، حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٨٢.

ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس».

٤ ـ طريق عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وهناك طرق أخرى تلي هذه الطرق. . .(١).

وكان لابن عباس مدرسة في التفسير بمكة، فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى.

يقول الإمام ابن تيمية:

«أما التفسير، فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاوس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم. . »(٢). .

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

بعض المحدّثين يعطي التفسير المأثور عن الصحابي حكم المرفوع، ومن هؤلاء الإمام الحاكم في مستدركه إذ يقول: (٣)

«ليعلم طالب الحديث: أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل ـ عند الشيخين ـ حديث مسند».

ولكن قيد «ابـن الصلاح والنووي» وغيرهما هذا الإطلاق بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه.

يقول ابن الصلاح: (٤)

«ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند، فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا مدخل للرأي فيه، كقول جابر ـ رضي الله عنه ـ : كانت اليهود تقول:

من أتى امرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل:

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ . . الآية. فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمعدودة في الموقوفات».

وذكروا أن تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا لم يكن للرأي فيه مجال. وأما ما يكون للرأي فيه مجال فله حكم الموقوف.

وما حكم عليه بالوقف:

قال بعض العلماء: لا يجب الأخذ به لأنه مجتهد فيه وقد يصيب وقد يخطىء.

وقال بعضهم:

يجب الأخذ به لأنه إما سمعه من الرسول، وإما فسره برأيه، وهم أدرى الناس بكتاب الله، وهم أهل اللسان،

---

(١) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ١٤٦ وما بعدها.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ص ١٥.

(٣) راجع: تدريب الراوي ص ٦٤، التفسير والمفسرون للذهبي ١/٩٤.

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤.

ولما شاهدوه من القرائن والأحوال ولاسيما ما ورد عن الأئمة الأربعة وابن مسعود وابن عباس وغيرهم[١].

يقول الزركشي:[٢]

«اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر فيه تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه...».

ويقول الحافظ ابن كثير:[٣]

«.. وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم».

مدرسة مكة
تلاميذ ابن عباس

١ ـ سعيد بن جبير

هو:[٤] سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني والبة، يكنى بأبي محمد[٥] أو بأبي عبد الله[٦]. كان حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال[٧].

هو أحد كبار التابعين، وإمام من أئمة الإسلام في التفسير، وكثرة العمل الصالح.

كان في أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علماً[٨].

أخذ العلم عن ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن مغفل المزني وغيرهم. وتخرج من مدرسة ابن عباس[٩].

وكان ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير[١٠].

---

(١) التفسير والمفسرون ص ٩٥ (بتصرف).

(٢) البرهان ٢//١٨٣.

(٣) مقدمة تفسير ابن كثير / الجزء الأول.

(٤) ترجمته في: طبقات ابن سعد ٦/٢٥٦، تقريب التهذيب ١/٢٩٢، وفيات الأعيان ١/٢٠٤، تهذيب التهذيب ٤/١١، البداية والنهاية ٩/١٠٣، الأعلام ٣/١٤٥.

(٥)، (٦) طبقات ابن سعد، والبداية والنهاية وغيرهما.

(٧) التفسير والمفسرون ١/١٠٤.

(٨) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

(٩) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.

(١٠) التفسير والمفسرون ١/١٠٥.

وكان يحب أن يسمع منه، قال له مرة: حدِّث، فقال: أحدّث وأنت هنا؟ فقال: أليس من نعمة الله عليك أن تحدث وأنا شاهد فإن أصبت فذاك، وإن أخطأت علمتك(١).

مكانته في التفسير: كان ـ رضي الله عنه ـ من أعلم التابعين بالقراءات. يقول إسماعيل بن عبد الملك:(٢) «كان سعيد بن جبير يؤمنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبداً».

وساعدته معرفته بالقراءات على معرفة معاني القرآن وأسراره، ومع ذلك كان يتورع من القول في التفسير برأيه.

يروي ابن خلكان: (٣) «أن رجلاً سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال: لأن يسقط شقي أحب إليَّ من ذلك».

وقد شهد له التابعون بتفوقه في العلم ولا سيما التفسير. قال قتادة: (٤) «وكان أعلم الناس [illegible]، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام».

وقال سفيان الثوري:(٥) «خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة، والضحاك».
وقال خصيف: (٦)

«كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير».

نموذج من تفسيره: قال سعيد بن جبير: السبع المثاني هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. قال: وسميت بذلك لأنها بينت فيها الفرائض والحدود(٧).

قتله:

قتل ـ رضي الله عنه ـ سنة أربع وتسعين من الهجرة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صبراً، وذلك: أن سعيد بن جبير خرج على الخليفة مع ابن الأشعث، فلما قتل ابن الأشعث وانهزم أصحابه من دير الجماجم هرب سعيد فلحق بمكة، وكان واليها خالد بن عبد الله القسري، فأخذه وبعث به إلى الحجاج. فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير.

قال: بل أنت شقي بن كسير. قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك.
قال: شقيت أنت وشقيت أمك. قال: الغيب يعلمه غيرك.

قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/٢٥٧، ووفيات الأعيان ١/٢٠٤.
(٢) وفيات الأعيان ١/٢٠٤.
(٣) وفيات الأعيان ١/٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٤) الإسرائيليات والموضوعات ٩٥.
(٥) الإسرائيليات والموضوعات ص ٩٥.
(٦) وفيات الأعيان ١/٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٧) تفسير الطبري ١/٣٣، ٣٤.

قال: فما قولك في محمد؟. قال: نبي الرحمة وإمام الهدي.

قال: فما قولك في علي؟ أهو في الجنة أو هو في النار؟ قال لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها.

قال: فما قولك في الخلفاء؟. قال: لست عليهم بوكيل.

قال: فأيهم أعجب إليك؟. قال: أرضاهم لخالقهم.

قال: وأيهم أرضى للخالق؟. قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما بالك لم تضحك؟. قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين تأكله النار!!

قال: فما بالنا نضحك؟. قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يديه، فقال سعيد:

إن كنت جمعت هذا لتتقي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود، ونفخ بالناي بكى سعيد، فقال: ما يبكيك هو اللعب؟.

قال سعيد: هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوماً عظيماً، يوم النفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فمن الشاء تبعث معها يوم القيامة.

قال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: لا ويل لمن زحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك.

قال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة.

قال: أفتريد أن أعفو عنك؟. قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج ضحك، فأخبر الحجاج بذلك فرده وقال: ما أضحكك؟. قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط وقال: اقتلوه. فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.

قال: وجهوا به لغير القبلة. قال سعيد: فأينما تولوا فثم وجه الله.

قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، ثم دُعِيَ سعيد فقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

وكان الحجاج إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتني؟

فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير؟ مالي ولسعيد بن جبير؟[1]

---

(١) انظر / وفيات الأعيان ١/٢٠٥ ـ ٢٠٦، تذكرة الحفاظ ٧١ ـ ٧٣، البداية والنهاية ٩/١٠١ ـ ١٠٣.

ذكر عن الإمام أحمد أنه قال:[١]

قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج ـ أو قال مفتقر ـ إلى علمه..

٢ ـ مجاهد بن جَبْر:

هو: مجاهد بن جبر، أبو الحجاج القرشي المخزومي، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. ولد سنة ٢١ هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ١٠٣ هـ[٢].

أحد أئمة التابعين والمفسرين، وأحد أعلام القراء، ومن خاصة أصحاب ابن عباس اشتهر بقوة حافظته، حتى قال ابن عمر وهو آخذ بركابه:

«وددت أن ابني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفظك»[٣].

كان مجاهد شغوفاً بالعلم وخاصة التفسير. روى الفضل بن ميمون عن مجاهد قال:[٤] عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة.

ويقول أيضاً[٥]: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟

ولا تعارض بين الروايتين، فالأولى لتمام الضبط والتجويد، والثانية للعلم والتفسير.

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم، عن ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمرو، وأبي سعيد، ورافع بن خديج... وروى عنه خلق من التابعين[٦].

مكانته في التفسير: كان مجاهد أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في التفسير، وكان أوثقهم.

قال سفيان الثوري:[٧] «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به».

وقال ابن تيمية:[٨] «ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم» غير أن بعض العلماء كان لا يأخذ بتفسيره.. يقول أبو بكر بن عياش: قلت للأعمش، ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟

قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب[٩].

لكن هذا لا يقدح في صدقه وعدالته، فقد «أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة»[١٠].

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/٢٦٦، وفيات الأعيان ١/٢٠٦، الأعلام ٣/١٤٥.
(٢) طبقات ابن سعد ٥/٤٤٦، تهذيب التهذيب ١٠/٤٢، البداية والنهاية ٩/٢٣٢.
(٣)، (٤) ميزان الاعتدال ٣/٩.
(٥) تهذيب التهذيب ١٠/٤٢.
(٦) البداية والنهاية ٩/٢٣٢.
(٧) تفسير الطبري ١/٣٠.
(٨) مقدمة في أصول التفسير ص ٧ لابن تيمية.
(٩) طبقات ابن سعد ٥/٤٦٦، ميزان الإعتدال ٣/٣٣٩.
(١٠) ميزان الاعتدال.

ثم إن سؤال أهل الكتاب أمر مباح ـ فيما لا يتعلق بحكم تشريعي ـ أباحه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ[١].

كان مجاهد ـ رضي الله عنه ـ يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القرآن التي يبدو ظاهرها بعيداً، فإذا ما مر بنص قرآني من هذا القبيل وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءاً معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة في تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص»[٢].

نموذج من تفسير مجاهد: روى ابن كثير أن مجاهداً قال في قوله تعالى: **﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾** قال: أما الظاهرة فالإسلام والقرآن والرسول والرزق، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب[٣].

وقال في قوله تعالى: **﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾** قال: من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين[٤].

٣ ـ عكرمة

هو: عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، يكنى بأبي عبد الله. أصله من البربر بالمغرب[٥].

سمع من مولاه «ابن عباس»، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعمرو بن العاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم[٦].

تتلمذ على يدي عبد الله بن عباس، وكان ابن عباس لا يـألو جهداً في تثقيفه وتعليمه، بل إنه كان يقسو عليه حتى يعلمه. روى ابن أبي شيبة عن عكرمة قال:[٧]

«كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبْل يعلمني القرآن والسنة».

وروى البخاري في صحيحه عن عكرمة أن ابن عباس قال له:[٨]

«حدّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مرات، ولا تملّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه لا يفعلون ذلك».

لقد اهتم ابن عباس بتلميذه هذا اهتماماً كبيراً، وكأنه كان يعدّه ليكون خليفته في تفسير القرآن، وكان يكافئه إذا ما أحسن فهم آية أشكلت على ابن عباس.

---

(١) يقول ـ ﷺ ـ: بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

(٢) التفسير والمفسرون ١/١٠٨.

(٣)، (٤) البداية والنهاية ٩/٢٣٤.

(٥) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٧، وفيات الأعيان ١/٣١٩، البداية والنهاية ٩/٢٥٤، الأعلام ٥/٤٣.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/٢٨٧.

(٧) البداية والنهاية ٩/٢٥٥، والكبْل: القيد.

(٨) ميزان الاعتدال ٣/٩٣.

روى داود بن أبي هند عن عكرمة قال:

قرأ ابن عباس هذه الآية ﴿لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟. قال: فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجوا، فكساني حلة[١].

قال شهر بن حوشب: «عكرمة حبر هذه الأمة»[٢].

وقد شهد له الأئمة الأعلام بالثقة والعدالة:

قال المروزي: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم يحتج به[٣].

وقال ابن معين: إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة وفي حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام[٤].

وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة[٥].

وقد أخرج له: البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

علمه ومكانته في التفسير: كان عكرمة على درجة كبيرة من العلم، فهو من أعلم الناس بالسير والمغازي.

قال سفيان عن عمرو قال:[٦]

كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازي كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصفون ويقتتلون وهو من علماء زمانه بالفقه والقرآن.

أما التفسير فقد شهد له الأئمة بذلك. يقول الشعبي: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة[٧].

وقال حبيب بن أبي ثابت:

إجتمع عندي خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما جعل يقول:

أنزلت آية كذا في كذا، وأنزلت آية كذا في كذا[٨].

نموذج من تفسير عكرمة: قال عكرمة من قوله تعالى ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ أي بالشهوات (وتربصتم) بالتوبة ﴿وغرتكم الأماني﴾ أي التسويف ﴿حتى جاء أمر الله﴾ الموت ﴿وغركم بالله الغرور﴾ الشيطان[٩].

وتوفي عكرمة رضي الله عنه بالمدينة سنة سبع ومائة للهجرة وقيل سنة أربع ومائة[١٠].

٤ ـ طاوس:

هو: طاوس بن كيسان الخولاني، أبو عبد الرحمن.

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٨٨/٥.
(٢) ميزان الاعتدال ٩٣/٣، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٣) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٤) معجم الأدباء ١٨٩/١٢.
(٥) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٦) البداية والنهاية ٢٥٥/٩، مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٧) البداية والنهاية ٢٥٥/٩.
(٨) مقدمة فتح الباري ص ٤٥٠.
(٩) البداية والنهاية ٢٥٩/٩.
(١٠) تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ ـ ٢٧٣، تذكرة الحفاظ ٩٠/١، البداية والنهاية ٢٥٣/٩.

أول طبقة أهل اليمن من التابعين، وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن[١].

أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم، وروايته عن ابن عباس أكثر، وأخذه عنه في التفسير أكثر من غيره، ولهذا عُدّ من تلاميذ ابن عباس، وجاء ذكره في مدرسته بمكة[٢].

روى عنه خلق من التابعين، منهم: مجاهد، وعطاء، وعمر بن دينار وغيرهم[٣]. شهد له ابن عباس بالورع والتقوى فقال: «إني لأظن طاوساً من أهل الجنة»[٤]. وطاوس ثقة، أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كان طاوس ـ رضي الله عنه ـ جريئاً في الحق، لا يخشى فيه لومة لائم.

روى الزهري:[٥]

إن سليمان رأى رجلاً يطوف بالبيت، له جمال وكمال، فقال: من هذا يا زهري؟

فقلت: هذا طاوس، وقد أدرك عدة من الصحابة، فأرسل إليه سليمان، فأتاه، فقال: لو ما حدثتنا؟! فقال:

حدثني أبو موسى قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

«إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولي أمور المسلمين شيئاً فلم يعدل فيهم». فتغير وجه سليمان، فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه فقال: لو ما حدثتنا!!

فقال: حدثني رجل من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن شهاب: ظننت أنه أراد علياً ـ قال:

دعاني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى طعام في مجلس من مجالس قريش، ثم قال:

إن لكم على قريش حقاً، ولهم على الناس حق، ما إذا استرحموا رحموا، وإذا حكموا عدلوا، وإذا ائتمنوا أدوا، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً».

قال: فتغير وجه سليمان، وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليه وقال: لو ما حدثتنا!! فقال: حدثني ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[٦].

علمه: بلغ طاوس من العلم مبلغاً عظيماً، وكان واثقاً من علمه هذا...

أنكر عليه سعيد بن جبير قوله عن ابن عباس: إن الخلع طلاق، فلقيه مرة فقال له: «لقد قرأت القرآن قبل أن تولد، ولقد سمعته وأنت إذ ذاك همك لقم الثريد».

وقال قيس بن سعد:

«كان طاوس فينا مثل ابن سيرين فيكم».

والتفسير المأثور عنه قليل جداً، ومعظمه يرويه عن ابن عباس، ولقلة التفسير المأثور عنه وطول باعه في الفقه قالوا عنه: إنه فقيه لا مفسر، وعده علماء الفقه فقيهاً.

نموذج من تفسيره: قال في قوله تعالى: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ الآية

(١) البداية والنهاية ٩/٢٤٤.
(٢) التفسير والمفسرون ١/١١٤.
(٣) البداية والنهاية ٩/٢٤٥.
(٤) تهذيب التهذيب ٥/٩.
(٥) البداية والنهاية ٩/٢٤٧
(٦) سورة البقرة: الآية ٢٨١.

«هو الرجل يعطي العطية ويهدي الهدية ليثاب أفضل من ذلك، ليس فيه أجر ولا وزر».

وقد توفي طاوس - رضي الله عنه - يوم السابع من ذي الحجة سنة ١٠٦ هـ، ووافته منيته وهو يحج بيت الله الحرام، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وهو خليفة.

٥ - عطاء بن أبي رباح:

هو: عطاء بن أبي رباح، وأبو رباح هو: أسلم بن صفوان، مولى آل أبي ميسرة بن أبي خُثيم الفهري[١].

سيد التابعين علماً وعملاً وإتقاناً في زمانه بمكة[٢].

قال ابن سعد:[٣]
سمعت بعض أهل العلم يقول: كان عطاء أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك.

وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث.

قال أبو جعفر الباقر وغير واحد:[٤]

ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وزاد بعضهم: وكان قد حج سبعين حجة، وعُمِّر مائة سنة، وكان في آخر عمره يفطر في رمضان من الكبر والضعف، ويفدي عن إفطاره.

روى عن عدد كثير من الصحابة، منهم ابن عمر، وابن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وأبو هريرة وغيرهم.

وسمع من ابن عباس التفسير وغيره. وروى عنه من التابعين عدة منهم: الزهري، وعمرو بن دينار، وقتادة، والأعمش وغيرهم[٥].

مكانته في التفسير: كان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟[٦].

وقال قتادة:[٧]
كان أعلمُ التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

لم يكن عطاء مكثراً من رواية التفسير عن ابن عباس فضلاً عن تفسيره هو، ولعل إقلاله في التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأي[٨].

قال عبد العزيز بن رفيع:[٩] سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي.

لكنه كان يدلي برأيه - أحياناً - في التفسير.

---

(١) طبقات ابن سعد ٤٦٧/٥، وفيات الأعيان ٣١٨/١، البداية والنهاية ٣١٧/٩، ٣١٨.
(٢) ميزان الإعتدال ٧٠/٣
(٣) طبقات ابن سعد ٤٩٦/٥، البداية والنهاية ٣١٨/٩.
(٤) البداية والنهاية ٣١٨/٩.
(٥) البداية والنهاية ٣١٨/٩.
(٦) تذكرة الحفاظ ٩١/١.
(٧) طبقات ابن سعد ٤٦٩/٥.
(٨) التفسير والمفسرون ١١٥/١.
(٩) التفسير والمفسرون ١١٥/١.

روى الطبراني - بسنده - عن يحيى بن ربيعة الصنعاني قال: سمعت عطاء بن أبي رباح يقول في قوله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ قال: كانوا يقرضون الدراهم، قيل: كانوا يقصون منها ويقطعونها[١].

وقيل لعطاء: إن ها هنا قوماً يقولون: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقال ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ فما هذا الهدى الذي زادهم؟. قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله، فقال: قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ فجعل ذلك دينا[٢].

وتوفي رضي الله عنه سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة[٣].

وبعد..

فهذه هي مدرسة التفسير بمكة، تلك التي أسسها حبر الأمة عبد الله بن عباس، وهؤلاء أشهر شيوخها الذين تخرجوا فيها على يدي ابن عباس، وفي نهاية مطافنا معها نرصد ما يلي:

* كان لهذه المدرسة دور ضخم في نشر التفسير، وقد هيأ لها هذا الدور: نبوغ شيوخها، بالإضافة إلى موطن المدرسة «مكة» حيث البيت الحرام الذي يأتيه الناس من كل فج عميق.

* لم يكتف شيوخ هذه المدرسة بنشر التفسير في مكة، وإنما كان لهم دور بالغ الأهمية خارج مكة.. فقد كان لسعيد بن جبير رحلة إلى الري نشر فيها الكثير من العلم[٤]، وكذلك كان لمجاهد رحلات خارج مكة، واستقر طاوس باليمن ينشر هناك علم ابن عباس وتفسيره، وأما عكرمة فقد طاف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، إذ رحل إلى خراسان، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والحرمين[٥].

جزى الله هؤلاء الأعلام عن القرآن والمسلمين خير الجزاء.

مدرسة المدينة

تلاميذ أبي بن كعب

قامت مدرسة المدينة في التفسير على الصحابي الجليل أبي بن كعب - رضي الله عنه - فهو أستاذها وأشهر مفسريها.

وكان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها، فجلسوا إلى «أبي» يعلمهم كتاب الله وسنته.. ومن أشهر هؤلاء:

١ - أبو العالية:

هو: زياد، وقيل: رفيع بن مهران الرياحي، مولاهم[٦].

(١)، (٢) البداية والنهاية ٩/٣١٨، ٣١٩.
(٣) المصدر نفسه ٩/٣١٧.
(٤) راجع: حبر الأمة عبد الله بن عباس ص ١٤٥.
(٥) راجع: وفيات الأعيان ١/٣١٩، معجم الأدباء ١٢/١٨١، البداية والنهاية ٩/٢٥٤.
(٦) راجع: تهذيب التهذيب ٣/٢٨٤ - ٢٨٥، ومقدمة فتح الباري ص ٤٢٢، وانظر: التفسير والمفسرون ١/١١٦، ١١٧.

مخضرم، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بسنتين.

روى عن: علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي بن كعب، وغيرهم.

كان من ثقات التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة.

كان يحفظ القرآن ويتقنه، قال:

«قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين».

وقال: «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات».

وقال فيه ابن أبي داود:

«ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».

رويت عنه نسخة كبيرة في التفسير، رواها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي، وهو إسناد صحيح.

توفي سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال.

٢ - محمد بن كعب القرظي:

هو: محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي، المدني، أبو حمزة، أو أبو عبد الله. له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة منهم:

علي، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروي عن أبي بن كعب بالواسطة(١).

قال فيه ابن سعد:(٢) كان ثقة، عالماً، كثير الحديث، ورعاً. وهو من رجال الكتب الستة.

قال فيه ابن عون:(٣)

ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

نموذج من تفسيره:(٤) قال في قوله تعالى: ﴿.. اصبروا وصابروا ورابطوا..﴾ اصبروا على دينكم، وصابروا لوعدكم الذي وعدتم، ورابطوا عدوكم الظاهر والباطن، واتقوا الله فيما بيني وبينكم، لعلكم تفلحون إذا لقيتموني.

توفي سنة مائة وثمان من الهجرة(٥) وقيل بعد ذلك.

٣ - زيد بن أسلم:

هو:(٦) زيد بن أسلم العدوي، المدني، الفقيه، المفسر. أبو أسامة أو أبو عبد الله.

---

(١) البداية والنهاية ٩/٢٦٨ وما بعدها.

(٢)، (٣) راجع: التفسير والمفسرون ١/١١٧، والإسرائيليات والموضوعات ٩٨.

(٤) البداية والنهاية ٩/٢٦٨.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) تهذيب التهذيب ٣/٣٩٥ - ٣٩٧، وراجع: التفسير والمفسرون ١/١١٨، ١١٩.

كان أبوه مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. . .

وكان زيد من كبار التابعين الذين عرفوا القول بالتفسير.

قال فيه الإمام أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي: ثقة، وهو عند أصحاب الكتب الستة.

عرف بغزارة العلم. كان يقرأ القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، إذ يرى جواز التفسير بالرأي.

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وتوفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة، وقيل غير ذلك.

مدرسة العراق

تلاميذ عبد الله بن مسعود

قامت هذه المدرسة على عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وغيره، إلا أن ابن مسعود هو أشهر أساتذتها، أو هو أستاذها الأول لطول باعه في هذا الميدان، بالإضافة إلى أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين ولى عمار بن ياسر على الكوفة سيّر معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، فجلس إليه أهل الكوفة وأخذوا عنه أكثر من غيره.

ومن أهم سمات هذه المدرسة: شيوع طريقة الاستدلال فيها، نظراً لأن أهل العراق عرفوا بأنهم أهل الرأي، وقد وضع حجر الأساس لهذه الطريقة عبد الله بن مسعود(١).

ومن أشهر رجال هذه المدرسة:

١ ـ علقمة بن قيس:

هو: علقمة بن قيس بن عبد الله بن مالك، أبو شبل، النخعي، الكوفي.

كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم. وكان يشبه بابن مسعود، وكان أعلم أصحابه بعلم ابن مسعود(٢).

قال عثمان بن سعيد: «قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخير، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله».

وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه.

قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير. وهو عند أصحاب الكتب الستة.

مات سنة إحدى وستين، وقيل سنة اثنتين وستين عن تسعين سنة(٣).

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٠ (بتصرف وإيجاز).

(٢) تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨، البداية والنهاية ٨/ ٢١٩.

(٣) راجع المصدرين السابقين.

٢ ـ مسروق:

هو: مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني، الكوفي، العابد، أبو عائشة.

سأله عمر يوماً عن اسمه فقال له: اسمي مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن(١).

روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وغيرهم.

وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذا منه، قال علي بن المديني: ما أُقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، يعني ابن مسعود.

وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين:

ثقة، لا يسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة. وله أحاديث صالحة، وقد أخرج له الستة.

توفي ـ رضي الله عنه ـ سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر(٢).

٣ ـ عامر الشعبي:

هو: عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل أبو عمرو.

قاضي الكوفة(٣).

كان علّامة أهل الكوفة، إماماً حافظاً، ذا فنون.

وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروى عنهم، ومنهم: عمر، وعلي، وابن مسعود وإن لم يسمع منهم، وروى عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة من الصحابة..

والشعبي ثقة، فهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن حبان في الثقات: كان فقيهاً شاعراً.

وعن سليمان بن أبي مجلز قال: ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاوس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين.

وقال ابن سيرين:

قدمت الكوفة وللشعبي حلقة، وأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ كثير(٤).

---

(١) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/١٠٩ ـ ١١١، التفسير والمفسرون ١/١٢١، ١٢٢، الإسرائيليات والموضوعات ٩٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٥/٦٥ ـ ٦٩، البداية والنهاية ٩/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٤) راجع لهذه الأقوال: تهذيب التهذيب، البداية والنهاية، والتفسير والمفسرون.

ومع أنه قد أوتي هذا الحظ الوافر من العلم لم يكن جريئاً على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه. قال ابن عطية:(١)

كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم.

توفي سنة أربع ومائة من الهجرة(٢)، وقيل سنة تسع ومائة.

٤ ـ الحسن البصري:

هو: الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى الأنصار. وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ربي في حجرها وأرضعته بلبانها، فعادت عليه بركة النبوة(٣).

ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب..

وهو أحد كبار التابعين الأجلاء علماً وعملاً وإخلاصاً، شهد له بالعلم خلق كثير.

قال أنس بن مالك:

«سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا» وقال سليمان التيمي: «الحسن شيخ أهل البصرة». وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال:

«ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه».

وكان أبو جعفر الباقر يقول عنه: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء»(٤).

وقد التزم الحسن البصري بمنهجه السلفي في تفسير الآيات المتعلقة بالله وصفاته، ولم يمنعه هذا الالتزام من حرية العقل حين تعرض لغيرها، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له، وهذه هي عقيدة السلف التي بنوها على ما تعلق بالآية من سبب لنزولها، فعن أبي هزيرة قال:

جاءت مشركو قريش إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاصمونه في القدر، فنزلت هذه الآية ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾(٥).

وكان الحسن يعمل عقله وفكره في فهم القرآن وتفسيره. يقول في قوله تعالى: ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾:

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي ١/٣٤.

(٢) البداية والنهاية ٩/٢٣٩.

(٣) تهذيب التهذيب ٢/٢٦٣ ـ ٢٧٠، البداية والنهاية ٩/٢٨٠، الحسن البصري للإمام أبي الفرج بن الجوزي ـ هدية مجلة الأزهر / محرم ١٤٠٨ هـ.

(٤) تهذيب التهذيب ٢/٢٦٣.

(٥) البغوي الفراء ٢٢١.

«إن الله لم يجعل لأهل النار مدة، بل قال لابثين فيها أحقاباً، فوالله ما هو إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر إلى الأبد فليس للأحقاب عدة إلا الخلود»(١).

وتوفي رحمه الله سنة عشر ومائة من الهجرة عن ثمان وثمانين سنة.

٥ ـ قتادة:

هو: قتادة بن دعامة السدوسي، الأكمه، أبو الخطاب، عربي الأصل، كان يسكن البصرة.

أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب، وأبو العالية، وزرارة بن أوفى، وعطاء، ومجاهد، وابن سيرين، ومسروق، وأبو مجلز وغيرهم(٢).

وحدث عنه جماعات من الكبار كالأعمش، وشعبة، والأوزاعي، غيرهم.

وكان قوي الحافظة، واسع الاطلاع في الشعر العربي، بصيراً بأيام العرب.

كان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فضلاً عما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى: وقد شهد له بذلك كبار التابعين والعلماء.

قال فيه سعيد بن المسيب: «ما أتاني عراقي أحسن من قتادة».

وقد استخدم قتادة معرفته باللغة العربية في التفسير، وأعمل فكره في تفهم الآيات، بجانب روايته عن السلف.

وقد توفي رضي الله عنه سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة عن ست وخمسين سنة على المشهور. وقيل سنة خمس عشرة ومائة(٣).

وبعد...

فهذه هي مدارس التفسير المشهورة في عصر التابعين، الذين تلقوا غالب أقوالهم في التفسير عن الصحابة، وبعضهم إستعان بأهل الكتاب، ثم اجتهدوا مستعينين على ذلك بما بلغوا من العلم ودقة الفهم، وقرب عهدهم من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعرب الخلص، فلم تفسد سليقتهم...

وهناك مدارس أخرى غير هذه المدارس الثلاث، ولكنها لم ترق لشهرة هذه الثلاث. ومن هذه: مدرسة مصر التي اشتهر من شيوخها:

يزيد بن حبيب الأزدي، وأبو الخير مرثد بن عبد الله وغيرهما.

ومدرسة اليمن التي أرسى دعائمها طاوس بن كيسان، وكان من أشهر شيوخها: وهب بن منبه الصنعاني.

وهكذا بذل هؤلاء التابعون جهداً ضخماً في حمل الأمانة عن الصحابة، ثم جاء تابعو التابعين ليكملوا

(١) البغوي الفراء ٢٢٢.

(٢) وفيات الأعيان ٢/١٧٩، البداية والنهاية ٩/٣٢٦، تهذيب التهذيب ٨/٣٥١.

(٣) راجع: تهذيب التهذيب ٨/٣٥١ ـ ٣٥٦، البداية والنهاية ٩/٣٢٥، ٣٢٦.

المسيرة وظلت تتوارث حتى وصلت إلينا، فجزى الله كل من أسهم في هذا العلم خير الجزاء، ونفعنا الله بالقرآن وعلومه . .

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

تفسير التابعي إما أن يكون مأثوراً عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو عن صحابته، أو لا . فإن كان مأثوراً عن النبي يأخذ حكم تفسيره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكذلك إن كان مأثوراً عن الصحابة .

وإن لم يكن مأثوراً عن النبي ولا عن الصحابة فقد اختلف العلماء في الرجوع إليه والأخذ بأقوال التابعين فيه .

* فقد نقل عن أبي حنيفة أنه قال : (١)

ما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيّرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال .

* ونقلوا عن الإمام أحمد روايتين، إحداهما بالقبول، والأخرى بعدم القبول(٢) .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعين، لأنهم لم يسمعوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخلاف تفسير الصحابة الذين سمعوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشاهدوا القرائن والأحوال .

وأكثر المفسرين على الأخذ بأقوال التابعين، لأنهم تلقوا على أيدي الصحابة كما سبق أن ذكرنا .

والرأي الذي نرجحه ونميل إليه هو ما ذكره ابن تيمية، قال : (٣)

«قال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير! ! يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك» .

سمات التفسير في تلك المرحلة

اتسم التفسير في تلك المرحلة بعدة سمات، من أبرزها : (٤)

* أنه اعتمد على التلقي والرواية، وغلب على التلقي والرواية طابع الاختصاص، فكان لكل بلد مدرسته وأستاذه، فمكة أستاذها ابن عباس، والمدينة أستاذها أبي بن كعب، والعراق أستاذه ابن مسعود . . . . وهكذا .

* دخول أهل الكتاب في الإسلام كان سبباً في تسلل الدخيل إلى علم التفسير، وقد تساهل التابعون في النقل عنهم ـ فيما لا يتعلق بالأحكام الشرعية ـ بدون تحرٍّ ونقد، وأكثر من رُوي عنه في ذلك من مسلمي أهل الكتاب :

---

(١) راجع : التفسير والمفسرون للذهبي ١ / ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مقدمة في أصول التفسير / ابن تيمية ٢٨ ـ ٢٩ ، الاتقان في علوم القرآن ٢ / ١٧٩ .

(٤) راجع : التفسير والمفسرون ١ / ١٣١ ، ١٣٢ .

عبد الله بن سلام، كعب الأحبار، وهب بن منبه، وغيرهم.

* كان بدهياً أن يختلف التابعون في التفسير، نظراً لتعددهم وكثرتهم واختلاف مدارسهم التي تخرجوا فيها، ولكنه خلاف ليس بالكثير إذا ما قيس بالعصور اللاحقة.

* كما ظهرت نواة الخلاف المذهبي، إذ ظهرت بعض التفسيرات تحمل في طياتها بذوراً لتلك المذاهب...

التفسير في عصر التدوين

تبدأ هذه المرحلة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي. إذ انتشر التدوين بصورة واسعة، وعني العرب «بتدوين كل ما يتصل بدينهم الحنيف، فقد تأسست في كل بلدة إسلامية مدرسة دينية عنيت بتفسير الذكر الحكيم، ورواية الحديث النبوي، وتلقين الناس الفقه وشؤون التشريع. وكان كثير من المتعلمين في هذه المدارس يحرصون على تدوين ما يسمعونه.....»[١].

تدوين التفسير: اختُلف في أول من ألف تفسيراً «مكتوباً»، فبعضهم يذكر أن «عبد الملك بن جريج»[٢] [ت ١٤٩ هـ] هو أول من ألف تفسيراً مكتوباً..

وذكر ابن النديم: أن أبا العباس ثعلب قال: كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن..... فقال الفراء لرجل: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل وفسر الفراء، قال أبو العباس: «لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه».

وبذلك يكون ابن النديم قد عد «الفراء» أول من ألف تفسيراً للقرآن مدوّناً.

ولكن ابن حجر يذكر أن التفسير المدون كان قبل الفراء وقبل ابن جريج إذ يقول:[٤]

«وكان عبد الملك بن مروان [ت ٨٦ هـ] سأل سعيد بن جبير [ت ٩٥ هـ] أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير.

ويبدو أنه من الصعب تحديد أول من فسر القرآن تفسيراً مدوناً على تتابع آياته وسوره كما في المصحف.

أقسام التفسير

وظل الخلف يحمل رسالة السلف جيلاً بعد جيل حتى وصلت مسيرة التفسير إلى تابعي التابعين، وهنا تعددت إتجاهات التفسير إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية هي:

---

(١) تاريخ الأدب العربي / العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ٤٥٢.

(٢) هو عبد الملك عبد العزيز بن جريج، أبو خالد، أو أبو الوليد، مولاهم، من علماء مكة ومحدثيها، ولد سنة ٨٠ هـ، توفي سنة ١٤٩ هـ، أول من صنف بالحجاز الكتب، نقل عنه ابن جرير في تفسيره. راجع طبقات ابن سعد.

(٣) الفهرست ص ٩٩.

(٤) تهذيب التهذيب ١٩٨/٧.

أولا ـ الإتجاه الأثري (التفسير بالمأثور).

والمأثور: اسم مفعول من أَثَرْتُ الحديثَ أَثراً: نقلته، والأَثَر اسم منه، وحديث مأثور: أي منقول.[١]

وعلى ذلك فهو يشمل المنقول عن الله تبارك وتعالى ـ في القرآن الكريم ـ، والمنقول عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين.

وجُلّ الذين يكتبون عن تاريخ التفسير ويتحدثون عن الإتجاه الأثري يبدأونه بالطبري «فيقطعون بذلك اتصال سلسلة التطور في الأوضاع التفسيرية بين القرن الأول والقرن الثالث بإضاعة الحلقة من تلك السلسلة التي تمثل منهج التفسير في القرن الثاني، لأن تفسير ابن جرير الطبري ألف في أواخر القرن الثالث، وصاحبه توفي في أوائل القرن الرابع. . . . وبالوقوف على هذه الحلقة ـ وهي إفريقية تونسية ـ يتضح كيف تطور فهم التفسير عما كان عليه في عهد ابن جريج، إلى ما أصبح عليه في تفسير الطبري، ويتضح لمن كان الطبري مديناً له بذلك المنهج الأثري النظري الذي درج عليه في تفسيره العظيم. . .

«ذلك التفسير هو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، ويعد صاحبه مؤسس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري الذي صار بعده «ابن جرير الطبري» واشتهر بها.

ذلك هو تفسير «يحيى بن سلام» التميمي البصري المتوفى سنة ٢٠٠ هـ، ويقع في ثلاث مجلدات ضخمة، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقبها بالنقد والاختيار، وكان يبني اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي. . وتوجد من هذا التفسير نسخة بتونس[٢].

ويعد ابن جرير الطبري ربيب تلك الطريقة، طريقة يحيى بن سلام، وثمرة غرسه. وقد ذكر السيوطي عدداً من مفسري هذا الإتجاه الأثري منهم:

* يزيد بن هارون ت ١١٧ هـ.
* شعبة بن الحجاج ت ١٦٠ هـ.
* وكيع بن الجراح ت ١٩٧ هـ.
* سفيان بن عيينة ت ١٩٨ هـ، وغيرهم.

«ابن جرير الطبري»[٣]

لكن التفسير حين انتهى إلى الطبري في أوائل القرن الثالث الهجري «كان نهراً مزبداً، ذا ركام ورواسب، قد انصب إلى بحر خضَمٍّ عُبَاب، فامتزج بمائه، وتشرب من عناصره، وصفا إليه من زبده، وتطهر لديه من ركامه ورواسبه»[٤].

---

(١) المصباح المنير (أثر)، الإسرائيليات والموضوعات (أبو شهبة ص ٦٤.

(٢) التفسير ورجاله / ابن عاشور ص ٢٧.

(٣) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الإمام أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٤ هـ، وتوفي سنة ٣١٠ هـ وقد جاوز الثمانين بخمس أو ست سنين.

(٤) التفسير ورجاله ص ٣٠.

«وابن جرير» فقيه، عالم، تبحر في فنون شتى من العلم، فهو أحد المشاهير من رجال التاريخ، ويعد كتابه «تاريخ الأمم والملوك . .» فيه مرجع المراجع، وبه صار إمام المؤرخين غير منازع.

وقد شهد له بذلك كثير من الأعلام. يقول الخطيب البغدادي:[(١)]

«جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات كلها، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في الأحكام، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله . . .».

لقد امتلك الطبري أدوات التفسير فاستخدمها بمهارة وحذق، ومن هنا عُدّ تفسيره «ذا أولية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية من ناحية الفنية والصياغة . . أما أوليته الزمنية فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شيء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها في ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذي نحن بصدده.[(٢)]

«وأما أوليته من ناحية الفن والصياغة، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته»[(٣)].

طريقة الطبري في التفسير:

حين يفسر الطبري آية يضع لها عنواناً هكذا «القول في تأويل قوله جل ثناؤه. . .» ثم يقول: يعني تعالى بذلك. . . .، ويستشهد على التفسير بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين، عارضاً المعاني الحقيقية والمجازية في استعمالات العرب، مستشهداً بالشعر العربي على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه.

وقد يعرض أقوال الصحابة والتابعين إذا تعددت في الآية الواحدة، ثم لا يكتفي بمجرد العرض، وإنما يرجح رأياً على رأي بقوله:[(٤)]

«وأولى الأقوال عندي بالصواب. . .» أو «وقال أبو جعفر: والصواب من القول في هذه الآية. . .»، أو «وأولى التأويلات بالآية. . . .». ثم يؤيد رأيه بقوله: «وبمثل الذي قلنا قال أهل التأويل. . .» أو بعرض حجج وأدلة قائلاً: «وإنما رأينا أن ذلك أولى التأويلات بالآية لأن. . . . .» وقد عني ابن جرير بالقراءات عناية كبيرة، ولا غرو فهو من علماء القراءات المشهورين وله فيها مؤلّف، إلا أنه ضاع ضمن ما ضاع من التراث العربي القديم.

كما اهتم الطبري بالشعر القديم، يستشهد به على الغريب وهو في ذلك تابع لابن عباس. كما كانت له عناية بالمذاهب النحوية البصرية والكوفية، يورد الرأي ويوجهه.

ويورد بعض الأحكام الفقهية في تفسيره مختاراً لأحد الآراء، مؤيِّداً اختياره بالأدلة العلمية القيمة. .[(٥)].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٥٦.

(٢) هذا على اعتبار فقد تفسير «يحيى بن سلام» الذي أشرت إليه آنفاً، أما وقد ذكر الإمام الفاضل بن عاشور أن نسخة من الكتاب موجودة في تونس فإن تفسير الطبري لا يعد ذا أولية زمنية.

(٣) التفسير والمفسرون ١/٢٠٥.

(٤) راجع: تفسير الطبري.

(٥) راجع: التفسير والمفسرون ١/٢٠٢ ـ ٢١٨.

رحم الله الطبري وجزاه عن القرآن وتفسيره خير الجزاء . .

ثانياً: الإتجاه اللغوي:

وقد بدا هذا الإتجاه واضحاً في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث، إذ نشأ علم النحو، ونضجت علوم اللغة على أيدي الرواد أمثال أبي عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب، والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهم.

وكان الغرض الأسمى من تأصيل هذه العلوم وتقعيدها خدمة القرآن الكريم، صيانة له من اللحن، ولا سيما بعد اتصال العرب بالعجم.

وقد أثرت هذه الدراسات في تفسير القرآن تأثيراً كبيراً، إذ اشتغل اللغويون أنفسهم بالقرآن ولغته، وكان من أشهر هؤلاء العلماء «أبو عبيدة معمر بن المثنى» المتوفى سنة ٢٠٨ هـ أو ٢١٥ هـ، وقد ألف كتابه «مجاز القرآن» سنة ١٨٨ هـ[١] ويعد هذا الكتاب أقدم مؤلف في معاني القرآن وصل إلينا.

وأبو عبيدة موسوعة علمية له مؤلفات في مجالات شتى، وقد «أوتي لساناً صارماً جلب على نفسه عداوات كثيرة، ثم تنفس به العمر قرابة قرن كامل زامل فيه أعلاماً كباراً، وجادل خصوماً كثاراً، وشهد تلاميذه ومن في طبقتهم يجادلون عنه، ويجادلون فيه، فقرب وباعد، وواصل وقاطع، ولكن مخالفيه كانوا من الكثرة بحيث أرهقوه وضايقوه، حتى جاءه الأجل فلم ينهض لتشييع جنازته أحد، وعلل ذلك بما ترك من حزازات أدبية»[٢].

ويحكي أبو عبيدة سبب تأليفه كتاب «مجاز القرآن» فيقول:

«أرسل إليَّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسي، وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة فرد وضحك إليَّ واستدناني حتى جلست إليه على فرشة ثم سألني وألطفني وباسطني، وقال: أنشدني فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطه، ثم دخل رجل في زي الكتاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له: أتعرف هذا؟ قال لا. قال هذا أبو عبيدة علّامة أهل البصرة. أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا، وقال لي: إني كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟.

فقلت: هات، قال: قال الله عز وجل: «طلعها كأنه رؤوس الشياطين» وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف. فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرىء القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسن السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز، وسألت عن الرجل السائل فقيل لي: هو من كتاب الوزير وجلسائه وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب»[٣].

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٥٨.

(٢) خطوات التفسير البياني د. رجب البيومي ص ٣٧، ٣٨، وراجع: معجم الأدباء ١٩/١٦٠.

(٣) معجم الأدباء ١٩/١٥٨.

وبعض العلماء ينكر هذه القصة لأن أبا عبيدة لم يشر إليها في مقدمة كتابه . . .[١]

ومن الذين كتبوا عن اتجاهات التفسير من يسلك أبا عبيدة ـ من خلال كتابه هذا ـ في سلك الاتجاه البياني في التفسير، وأكثرهم يعده رائداً في الاتجاه اللغوي .

على أن أبا عبيدة لم «يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية»[٢].

فقد يستعمل أبو عبيدة لفظ المجاز قاصداً به معنى اللفظ. فمثلاً في قوله تعالى «رب أوزعني أن أشكر نعمتك» يقول: مجازه: «شددني إليك، ومنه قولهم: وزعني الحلم عن السفاه أي منعني، ومنه الوزعة الذين يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء» ثم يستشهد بالبيت:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألما تصح والشيب وازع[٣]

وأما أبو زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ فكان يستعين بتفسيرات السلف مضيفاً له ما أدى إليه اجتهاده اللغوي، وكذا الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ»[٤].

لقد استلهم الفراء الحس اللغوي محكماً ذوقه وعقله، كما راعى السباق العام في الآية ولذا نجده يفضل قراءة تحقق التجانس بين الكلمات المتجاورات على غيرها[٥].

ثالثاً: الاتجاه البياني[٦].

وبذور هذا الاتجاه نجدها في تفسير ابن عباس المبثوث في ثنايا التفسير الأثري ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾. أن عمر رضي الله عنه سأل الناس عن هذه الآية فما وجد أحداً يشفيه حتى قال ابن عباس وهو خلفه يا أمير المؤمنين: إني أجد في نفسي منها شيئاً فتلفت إليه فقال تحول ها هنا لم تحقر نفسك؟ قال:

هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فَنِي عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله فحرقه أحوج ما كان إليه[٧].

«وهو من باب الاستعارة التمثيلية، وقد ألمع إليه ابن عباس بقوله المقارب هذا مثل ضربه الله عز وجل. . . الخ، وهل قال البلاغيون فيما بعد غير ذلك!»[٨].

---

(١) راجع خطوات التفسير البياني ص ٤٤، ٤٥ وقد ذكر الدكتور رجب البيومي أسباباً أخرى ومبررات لرفض هذه القصة.

(٢) فتاوى ابن تيمية كتاب الإيمان ص ٨٨.

(٣) مجاز القرآن ٢/٩٢، ٩٣.

(٤) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٨.

(٥) راجع البغوي الفراء ص ٢٣٩، ٢٤٠ (بتصرف وإيجاز).

(٦) بعض المؤلفين في تاريخ التفسير يضعون اتجاهاً ثالثاً بدلاً من هذا الاتجاه يطلقون عليه «الاتجاه النقدي»، وبعضهم يسلك هذا الاتجاه ضمن الاتجاه الأثري. انظر: التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٦.

(٧) تفسير ابن جرير ٣/٤٧.

(٨) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٢١ وفيه شواهد أخرى.

ونهج تلاميذ ابن عباس نهجه وكان أكثرهم نتاجاً في هذا الاتجاه «مجاهد»[١] وأما تأصيل هذا الاتجاه فقد كان على يد «أبي عبيدة» صاحب «مجاز القرآن»، ويعد صاحب الخطوة الأولى في هذا الاتجاه.

«وفضل هذا الكتاب في الدراسات البلاغية أنه حين تعرض للنصوص القرآنية أشار إلى ما تدل عليه من حقيقة أو مثل أو تشبيه أو كناية وما يتضمن من ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير، فوضع بذلك اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن. . . وإذا كان عبد القاهر أظهر من نادى من البلغاء بأن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وهو ما سمي بقضية النظم، فإن بذور قضيته هذه كانت تكمن في مجاز «أبي عبيدة» حيث رأى في زمنه السابق ما رآه صاحب الدلائل في زمنه اللاحق، فكان بذلك الرائد الأول لعلم المعاني عند من يلتمسون الجذور الضاربة في الأعماق[٢].

وقد رتب «أبو عبيدة» كتابه وفق ترتيب السور القرآنية في المصحف ومن هنا صار من اليسير أن يرجع الدارس إلى ما ذكر أبو عبيدة في توجيه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾[٣] حيث قال: إنها كناية وتشبيه[٤].

ومن مثل قوله تعالى: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم﴾[٥] حيث أتبع الآية بتحليل بياني وعدها من مجاز التمثيل حين قال:

«ومجاز الآية مجاز التمثيل لأن ما بنوه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جُرُفٍ وهو ما يجرف من الأودية فلا يثبت البناء عليه[٦].

تلك هي الخطوة الأولى خطاها أبو عبيدة في التفسير البياني للقرآن الكريم وإن وجهت إليه كثير من النقود والمطاعن من علماء كبار أمثال الفراء والأصمعي والطبري[٧]. .

ثم قلت هذه الخطوة خطوات الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما. . . .

هذا هو التفسير قبل أبي الليث السمرقندي صاحب كتاب «بحر العلوم» فماذا عن السمرقندي وكتابه؟

الإجابة في الفصل التالي إن شاء الله.

---

(١) راجع الأمثلة التي ذكرها الدكتور رجب البيومي في خطوات التفسير البياني ص ٣٤ وما بعدها.

(٢) خطوات التفسير البياني ص ٤٦، ٤٧.

(٣) الآية ٢٢٣ من سورة البقرة.

(٤) راجع: مجاز القرآن ١/٧٣.

(٥) الآية ١٠٩ من سورة التوبة.

(٦) مجاز القرآن ١/٢٦٩، وانظر: خطوات التفسير البياني ص ٥١، ٥٢.

(٧) راجع: خطوات التفسير البياني ص ٥٨ وما بعدها.

المبحث الثالث

منهج أبي الليث في تفسيره

جمـع أبـو الليث في تفسيره بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، فجاء كتابه «بحر العلوم» مزيجاً من النوعين.

وقد عد بعض الباحثين[1] تفسير أبي الليث هذا من التفسير الأثري معتمدين على فهم خاطىء لقول أورده في مقدمة تفسيره.

وذلك أن أبا الليث قدم لتفسيره بمقدمة جعل عنوانها «باب الحث على طلب التفسير» وقال فيها[2]:

[. . . ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه. . .].

فهم «آدم ميتز» من ذلك أن السمرقندي يمنع كل تفسير بالرأي[3]. . ولعل مما أكد هذا الفهم عنده أن أبا الليث ساق عدة آثار تحظر التفسير بالرأي.

* فقد روى قول أبي بكر الصديق ـ حين سئل عن قول الله تعالى ﴿وفاكهة وأبا﴾ قال ـ أيُّ سماءٍ تظلّني، وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم.

* وكذلك روي أن رجلاً قال لأبي: هذا الذي تفسر برأيك، فبكى أبي وقال: إني إذا لجريء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلاً من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

لكن ذلك لا يعفي «ميتز» ـ من الخطأ من الفهم، أو التقول على أبي الليث.

فنص أبي الليث ـ كاملاً ـ يناقض ما ذهب إليه «آدم ميتز» إذ يقول: «. . . ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه برأيه ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل. . ».

إذاً هو يضع الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يقدم على هذا العمل، فإذا ما افتقدت هذه الشروط أو الأدوات فينبغي الابتعاد وإيثار السلامة. . وهذا ما يفهم من الأثر الذي ساقه عن أبي بكر ـ رضي الله عنه. .

فالحظر إنما هو مقصور على من لم يمتلك أدوات التفسير لأنه ـ حينئذٍ ـ سيقول دونما أساس من لغة، وفقه، وأسباب نزول ـ إلخ.

ويكون تفسيره حينئذ تابعاً لهواه. .

(١) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/٣٦٤.

(٢) راجع: مقدمة تفسير بحر العلوم.

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/٣٦٤.

التفسير واجب عند أبي الليث

بل إن أبا الليث يعد تفسير القرآن الكريم من قبيل الواجب على من تملك أدواته، وقد استدل لذلك بما ساقه بسنده عن ابن مسعود قال: «من أراد العلم فليثر القرآن» وفي رواية: «فليثور القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».

ويورد آثاراً أخرى عن الصحابة في ذلك، ثم يعقب عليها قائلاً: «... ولأن الله تعالى أنزل القرآن هدى للناس، وجعله حجة على جميع الخلق بقوله تعالى ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ..﴾[(١)] فلما كان القرآن حجة على العرب والعجم، ثم لا يكون حجة عليهم إلا بعد ما يُعلم تفسيره فدل ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب».

وفي «بستان العارفين» تفصيل لذلك إذ يقول: «لأن القرآن حجة على الخلق، فلو لم يجز التفسير لا يكون حجة بالغة، فإذا كان كذلك جاز لمن عرف لغات العرب وعرف شأن النزول أن يفسره. وأما من كان من المتكلفين ولم يعرف وجوه اللغة، فلا يجوز له أن يفسره إلا بمقدار ما سمع فيكون ذلك على وجه الحكاية، لا على سبيل التفسير فلا بأس به، ولو أنه تعلم تفسيره وأراد أن يستخرج من الآية حكماً أو استدلالاً بشيء من الأحكام فلا بأس به، ولو أنه قال: المراد من الآية كذا وكذا من غير أن يسمع فيه شيئاً فلا يحل له هذا، وهذا الذي نهى عنه، ولو أنه سمع شيئاً من بعض الأئمة فلا بأس بأن يحكي عنه»[(٢)].

ثم لماذا نستدل بالنصوص ونترك تفسير أبي الليث وهو نفسه فيه تفسير برأي مؤلفه؟؟ أليس في ذلك ما يقطع كل سبيل أمام هؤلاء الذين يكذبون على الرجل!!.

التفسير بالمأثور عند أبي الليث

قلنا ـ فيما مضى ـ إن التفسير بالمأثور: أي بالمنقول، سواء أكان متواتراً أم غير متواتر.

وعلى ذلك يشمل:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن.

٢ ـ تفسير الرسول للقرآن.

٣ ـ تفسير الصحابة للقرآن.

٤ ـ تفسير التابعين للقرآن.

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

يقول السيوطي[(٣)]: «قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن، فما أجمل منه في مكان فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر».

وقد سار أبو الليث وفق هذا المنهج، فكان يبحث في القرآن عن تفصيل المجمل، وتوضيح المبهم، وتقييد المطلق... إلخ.

فمثلاً: يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات..﴾[(٤)]. وهي

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٢) بستان العارفين ٤٧.

(٣) الإتقان ٢/١٧٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٥٧.

البساتين التي تجري من تحتها الأنهار، وهي أربعة: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن لم يتغير طعمه، ونهر من خمر، ونهر من عسل مصفى.. وهو بذلك قد لجأ إلى القرآن الكريم من قوله سبحانه: **﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى..﴾**(١). وفي تفسيره كثير من ذلك.

٢ ـ تفسير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للقرآن:

وهو المصدر الثاني لتفسير القرآن الكريم، وذلك: «**أن أحسن طريق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر... فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له**»(٢).

قال سبحانه: **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾**(٣).

وعن المقدام بن معديكرب: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقْروه، فإن لم يقْروه فعليه أن يعقبهم بمثل قراه**»(٤).

وقد التزم «أبو الليث» هذا المنهج القويم، فإذا لم يجد بغيته في القرآن لجأ إلى السنة يبحث فيها عن طلبته.

وقد أورد «أبو الليث» كثيراً من أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبين بها معنى لفظ، أو يفسر بها حكماً من الأحكام القرآنية، أو يبين ما أشكل من القرآن. فالسنة زاخرة بالكثير من ذلك.

ففي قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم... الآية﴾**(٥) ساق أبو الليث ما روي عن الصديق أبي بكر أنه سئل عن هذه الآية فقال: «**إذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخويصة أنفسكم**».

وروى عمرو بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال: سألت ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: **لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا ثعلبة، ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت دنيا مؤثرة، وشحاً مطاعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، فإن من بعدكم أيام الصبر، والمتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملاً، فقالوا: يا رسول الله، كأجر خمسين عاملاً منهم؟ قال: بل كأجر خمسين عاملاً منكم**»(٦).

وفي تفسير قوله تعالى: **﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾** قال أبو الليث: **﴿غير المغضوب عليهم﴾** غير طريق اليهود.. **﴿ولا الضالين﴾** قال: يعني ولا النصارى لم تحفظ قلوبهم. قال: وقد أجمع المفسرون أن **﴿غير المغضوب عليهم﴾** أراد به اليهود **﴿ولا الضالين﴾** ثم يقول:

---

(١) سورة محمد ـ ﷺ ـ: الآية ١٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢/١٧٥.
(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٤) رواه أبو داود في السنن.
(٥) سورة المائدة: الآية ١٠٥.
(٦) راجع: تفسير سورة المائدة ـ الآية المذكورة ـ في تفسير بحر العلوم.

فإن قيل: أليس النصارى من المغضوب عليهم، واليهود أيضاً من الضالين؟ فكيف صرف المغضوب عليهم إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى؟

قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر، واستدلالاً بالآية، فأما الخبر: فما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلاً سأله وهو بوادي القرى من المغضوب عليهم؟

قال: اليهود. قال: ومن الضالين؟ فقال: النصارى(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة...﴾(٢) يقول: وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن الكلالة فقال: ألم تر إلى الآية التي أنزلت في سورة النساء ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد...﴾ يعني تفسير الكلالة(٣).

وبذلك أفاد أبو الليث من السنة النبوية في تفسير القرآن الكريم إفادة عظيمة.

٣ ـ تفسير الصحابة للقرآن:

وهو المصدر الثالث من مصادر التفسير، وذلك «أننا إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى الناس بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ»(٤).

وقد نقل «أبو الليث» في تفسيره كثيراً من أقوال الصحابة، وممن نقل عنهم: ـ علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود. وغيرهم.

ويعد «عبد الله بن عباس» صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر فيمن نقل عنهم أبو الليث.

وقد روي عنه من عدة طرق: ـ

* طريق عكرمة عن ابن عباس.. أو سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد أثنى علماء الجرح والتعديل على هذه الطريق، وأخرج منها ابن جرير وابن أبي حاتم كثيراً، وأخرج الطبراني منها في معجمه الكبير(٥).

* طريق الضحاك عن ابن عباس... وهي غير مرضية، لأنها منقطعة، فالضحاك لم يلق ابن عباس(٦).

* طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.. وهي أوهى الطرق، فالكلبي متهم بالوضع(٧)..

---

(١) راجع: تفسير سورة الفاتحة من تفسير بحر العلوم.

(٢) الآية الأخيرة من سورة النساء:

(٣) راجع تفسير سورة النساء من تفسير بحر العلوم.

(٤) ابن كثير في مقدمة تفسيره / الجزء الأول.

(٥) راجع: الإتقان ٢/١٨٨، التفسير والمفسرون ١/٧٩.

(٦) المصدران السابقان.

(٧) الدر المنثور ٦/٤٢٣، الإتقان ٢/١٨٩، فتح الباري ٨/٣٥٤، التفسير والمفسرون ١/٨١.

وأحياناً يذكر «أبو الليث» الرواية عن ابن عباس مجردة من السند فيقول: «وروي عن ابن عباس» أو «قال ابن عباس. . .»[١].

ابن مسعود

ويأتي «ابن مسعود» في المرتبة الثانية ـ بعد ابن عباس ـ فيمن نقل عنهم أبو الليث. وطرق روايته عنه متعددة، منها:

* طريق مجاهد، وهي طريق صحيحة، اعتمد عليها البخاري في صحيحه.
* وأحياناً يذكر الرواية عن ابن مسعود مجردة عن السند فيقول: «وروي عن ابن مسعود. . .».

وقد قصد أبو الليث إلى ترك السند قصداً، وكان يهدف من وراء ذلك التخفيف على الناس، حتى لا ينشغلوا بالسند عن التفسير نفسه[٢].

٤ ـ تفسير التابعين للقرآن:

وهؤلاء التابعون تلاميذ كبار الصحابة، وتخرجوا من مدارسهم ـ كما ذكرنا من قبل ـ. . .

وكان أبو الليث إذا لم يجد تفسيراً للصحابة رجع إلى أقوال التابعين، فنقل عنهم، ومن هؤلاء التابعين: ـ

الحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، وعكرمة، ووهب بن منبه، والسدي، ومقاتل، والكلبي، إلا أنه أكثر من الرواية عن مجاهد. .

الإسرائيليات في تفسير أبي الليث

تمهيد: ـ

تنبه العلماء إلى ظاهرة: غلبة الضعف على الرواية بالمأثور. . ولم يكن أبو الليث بدعا من المفسرين، وإنما جاءت الإسرائيليات ـ في تفسير بحر العلوم ـ كثيرة. . فمن أين جاء بهذه الإسرائيليات؟. .

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نسوق تمهيداً موجزاً في هذه القضية فنقول:

نشأ الوضع في التفسير مع نشأته في الحديث. . وكان مبدأ ظهور الوضع في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسياً، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً. . ووجد من أهل البدع والأهواء من روّجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل في الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم الخبيثة. .

وكان أهل الكتاب مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا في الإسلام. .

لكن الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء، فلم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن. .

---

(١) راجع: بحر العلوم ـ تفسير الفاتحة ـ مثلاً.

(٢) راجع كلامه في ذلك في / بستان العارفين ٣.

ولم يسألوهم عن الأشياء التي يشبه أن يكون السؤال عنها نوعاً من اللهو والعبث كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف وما شابه ذلك . . «وكانت الصحابة يعدون ذلك قبيحاً من قبيل تضييع الأوقات».

وكان الصحابة لا يصدقون اليهود فيما خالف الشريعة أو تنافى مع العقيدة(١).

أقسام الإسرائيليات:

وقد قسم العلماء الأخبار التي جاءت عن طريق أهل الكتاب إلى ثلاثة أقسام(٢): -

القسم الأول: ما علمنا صحته مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. . وهذا القسم صحيح، وفيما عندنا غنية عنه، ولكن يجوز ذكره وروايته للاستشهاد به، ولإقامة الحجة عليهم من كتبهم، وذلك مثل: تعيين اسم صاحب موسى - عليه السلام - وأنه الخضر، فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري(٣). .

القسم الثاني: ما علمنا كذبه مما يناقض شرعنا، أو لا يتفق مع العقل، وذلك مثل ما ذكروه في قصص الأنبياء مما يطعن في عصمتهم، ومثل ما ذكر في توراتهم أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل. وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني. . وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه لاحتمال أن يكون حقاً فنكذبه، أو باطلاً فنصدقه. .

وذلك لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»(٤).

أبو الليث والإسرائيليات:

وهذه الأقسام الثلاثة دخلت التفسير الأثري بعامة، ولم يكن أبو الليث نسيج وحده في ذلك، فساق في تفسيره من هذه الأقسام.

ولو أنه بعدما ساق هذه الإسرائيليات عقب عليها لما كان عليه ضير، إلا أنه أوردها دونما تعقيب.

* فهو ينقل عن ابن عباس حكاية عن أهل الكتاب - ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾. . . فذكر ما موجزه: أن إبليس حسد آدم على ما فيه من نعمة، فاحتال لإخراجه منها، حتى دخل في صورة الحية، ثم أتى باب الجنة ونادى آدم وحواء ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ يعني هذه شجرة الخلد، فأكلا منها. .

ويقال: إن حواء قالت لآدم تعال حتى نأكل من هذه الشجرة، وظلت به حتى أكل بعد أن سبقته بالأكل(٥).

* وأحياناً يقول: قال بعضهم، ويذكر الرواية الإسرائيلية في ذلك - وخطورة هذا تكون بالغة إذا ما كانت من القسم الثاني، ففيه طعن في عصمة الأنبياء - وفي «بحر العلوم» طائفة من هذا القسم(٦). .

---

(١) راجع: التفسير والمفسرون للذهبي ١/١٦٩ وما بعدها.

(٢) السابق، والإسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة ص ١٥٠ وما بعدها.

(٣) فتح الباري ٨/٢٩٧.

(٤) راجع: صحيح البخاري - كتاب التفسير/ سورة البقرة.

(٥) راجع تفسير أبي الليث/ سورة البقرة، وسورة الأعراف.

(٦) راجع مثلاً تفسير سورة البقرة: الآية ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين﴾.

* ومن مصادر الإسرائيليات في تفسير أبي الليث ـ إضافة إلى ما سبق ـ قراءته التوراة، وقد صرح بذلك في التفسير في عدة مواضع.

يقول في قوله تعالى ﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ أي حاضت، يقال: ضحكت الأرانب إذا حاضت، وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه، وكذلك هو في التوراة، قرأت فيها: أنها حين بشرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت: من بعد أن بليت أعود شابة!!

* ومن مصادرها أيضاً: سماعه أهل التوراة، ويصرح بذلك أيضاً حين يسوق هذه العبارة «سمعت أهل التوراة يقولون...».

* ثم روايته عن المتهمين بالوضع والضعف كعكرمة، والضحاك، ومقاتل، ووهب بن منبه وغيرهم..

وكان شأن أبي الليث في ذلك شأن سائر المفسرين، غير أن هذا لا يعفيهم من المسؤولية عن ذلك، وكان ينبغي عليهم ـ وأبو الليث أحدهم ـ أن يدققوا ويمحصوا..

وقد شاء الله عز وجل أن يدرك المسلمون أخيراً هذا الخطر، فتداعى علماؤهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات، وتطهيرها من كل دخيل[1].

المنهج اللغوي في تفسير أبي الليث

تتضح أهمية اللغة ومكانتها في تفسير القرآن الكريم في نظر أبي الليث من قوله: «ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه ما لم يتعلم ويعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل....».

إنها أداة أصيلة وركن ركين ينبغي توافره فيمن يتصدى للتفسير. وبالتأمل في تفسير أبي الليث يلاحظ ما يلي: ـ

أولاً: يبحث أبو الليث عن معنى اللفظ في القرآن الكريم من خلال نظائره وسياقاته المختلفة.

ففي تفسيره لقوله سبحانه ﴿رب العالمين﴾ يقول: قال ابن عباس: سيد العالمين... والرب في اللغة: هو السيد، قال الله تعالى: ﴿ارجع إلى ربك..﴾ يعني سيدك....

ثانياً: إذا لم يجد في القرآن معنى للفظ يرجع إلى استعمال العرب القدماء ويستشهد بالشعر على المعنى الذي يورده

ففي تفسير اسم الجلالة «الله» في البسملة يقول:

وقيل: إنما سمي «الله» لأنه لا تدركه الأبصار، ولاه: معناه: احتجب كما قال القائل:

لَاهِ ربي عن الخلائقِ طُرًّا خالق الخلق لا يُرى وَيَرانَا

ثالثاً: أفاد أبو الليث كثيراً من علماء اللغة كابن قتيبة، والأصمعي، وقطرب، والزجاج، والفراء، والخليل بن أحمد وغيرهم فكان يذكر القول منسوباً إلى واحد منهم أو أكثر..

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٩٩ (بتصرف وإيجاز).

رابعاً: قد يذكر القول دون ذكر قائله هكذا: «قال أهل اللغة. . .»، أو «قال بعض اللغويين. . .»، ولم يكتف «أبو الليث» بالنقل، وإنما كان ـ في بعض الأحيان ـ يرجح رأياً على رأي.

خامساً: أفاد أبو الليث من علم الأبنية المسمى بعلم «الصرف» فكان يذكر ـ وقت الحاجة ـ وزن الكلمة، أو اشتقاقها. . . . إلخ.

سادساً: أدرك أبو الليث ما للنحو من أهمية في فهم معاني القرآن إذ «أن الإعراب يُمَيِّزُ المعاني». . . فكان يورد بعض المسائل النحوية الخفيفة، ولا يتعمق فيها، ولا يورد اختلافات النحاة حتى لا يشغل القارىء في خضم النحو ويخرجه من حيز التفسير. مثال ذلك:

ما جاء في تفسيره قول الحق سبحانه: ﴿حذر الموت. .﴾ إذ قال: يعني لحذر الموت، والكلام ينصب لنزع الخافض مثل قوله: ﴿واختار موسى قومه. . .﴾ أي من قومه فكذلك ها هنا.

المنهج البياني في تفسير أبي الليث

ذكرنا فيما مضى أن المنهج البياني هو أحد المناهج الثلاثة في تفسير القرآن الكريم. وأن جذور هذا المنهج قد وجدت منذ زمن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم تأصل عند ابن عباس وتلاميذه إلى أن جاء علماء كبار فقعّدوا هذا المنهج:

وقد أفاد أبو الليث في تفسيره من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا بسهم وافر في هذا المنهج، ويأتي على رأس هؤلاء «أبو عبيدة» صاحب «مجاز القرآن» فقد نقل أبو الليث كثيراً من أقواله[1]، وتأثر بمنهجه أيضاً.

ففي تفسير قوله تعالى ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء. . .﴾[2] وقف أبو الليث عند الآية وحللها تحليلاً بيانياً يدل على ذوقه وحسه المتميز.

كما نقل عن الزجاج صاحب «معاني القرآن» كثيراً، وأفاد من ابن قتيبة إفادة عظيمة من خلال كتابه «تأويل مشكل القرآن» فيقول: قال القتبي[3]. . . . .

وأحياناً يذكر الوجه البلاغي ولا ينسبه إلى قائله، وإنما يقول: «قال بعضهم» أو يذكر الوجه البياني الذي يراه هو بداية دون الرجوع إلى السابقين:

ففي قوله تعالى: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض. .﴾[4] يقول[5]: قال بعضهم: هذا على سبيل المثل.

ثم يعقب بما يدل على ذوقه الخاص قائلاً: والعرب إذا أرادت تعظيم ملك عظيم العطية تقول: كسف القمر لفقده، وبكت الريح والسماء والأرض، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، فأخبر تعالى أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع، ولم يوجد له فقد.

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق. .﴾[6]. والمطر: هو القرآن،

(١) راجع: بحر العلوم ـ مواضع كثيرة.
(٢) سورة النساء: الآية ٢٢.
(٣) راجع: بحر العلوم ـ مواضع كثيرة.
(٤) سورة الدخان: الآية ٢٩.
(٥) راجع: تفسير بحر العلوم، سورة الدخان.
(٦) سورة البقرة: الآية ١٩.

لأن المطر حياة الخلق وإصلاح الأرض،[١] وكذلك القرآن فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح للأرض، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات: هي المكائد والمحن التي تصيب المسلمين، والشبهات التي في القرآن. والرعد هو الوعيد الذي ذكر للكفار والمنافقين في القرآن. والبرق: ما ظهر من علامات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودلائله.

علوم القرآن في تفسير أبي الليث

أولاً: القراءات القرآنية:

العلاقة بين القراءات القرآنية والتفسير قوية واضحة، «ورجحان قراءة من القراءتين يرجح أحد المعنيين المفروضين في تفسير الآية، ورجحان أحد المعنيين قد يرجح إحدى القراءتين على الأخرى»[٢]. هذا على الرغم من التمايز الواضح بين علمي التفسير والقراءات، وذلك برجوع علم التفسير إلى الدراية، وعلم القراءات إلى الرواية، غير أنهما متصلان من وجه بما للرواية من أثر في تحقيق الدراية والعكس[٣].

وقد اهتم أبو الليث بالقراءات القرآنية من تفسيره اهتماماً كبيراً، فهو يذكر القراءة أو القراءات، ويوجهها، ويذكر آراء العلماء فيها، ويرجح واحدة منها مورداً حجته الصرفية أو النحوية أو البلاغية. فمن ذلك في قوله تعالى ﴿**وعَبَدَ الطاغوت**..﴾[٤] يقول: قرأ حمزة (وعَبُدَ الطاغوت) بنصب العين والدال وضم الباء، وكسر التاء من الطاغوت، يعني جماعة العبيد، أي جعلهم عبيد الشيطان. وقال أبو عبيدة: لم يصح في اللغة أن يقال لجماعة الأعبد، وإنما يقال: أعبد، ولا يقال: عبد.

وقرأ الباقون: (وعبد الطاغوت) يعني جعل منهم من عبد الطاغوت، ومعناه: خذلهم حتى عبدوا الشيطان.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: (وعُبَّد الطاغوت) بضم العين ونصب الباء بالتشديد، يعني جماعة عابد، يقال: عابد وعبّد، مثل: راكع وركّع، وساجد وسجّد، وقرأ ابن مسعود: (وعبدوا الطاغوت) يعني: يعبدون الطاغوت.

وقرأ بعضهم: (وعُبُدَ الطاغوت) بضم العين والباء ونصب الدال، وهو جماعة العبيد، يقال عبيد وعبُد، على ميزان رغيف ورغُف وسرير وسرر[٥].

فواضح في هذه التوجيهات استخدام علم الصرف ولا سيما الميزان الصرفي.

ويستخدم أبو الليث علم النحو من ترجيح قراءة على أخرى، مثال ذلك ما جاء في تفسير قوله عز شأنه ﴿... **وقولوا حطة**﴾[٦]. يقول: قرأ بعضهم بالرفع، وبعضهم بالنصب وهي قراءة شاذة، وإنما جعله نصباً لأنه مفعول، ومن قرأ بالرفع معناه: قولوا قولاً فيه حطة[٧].

ومن ذلك: قوله في تفسير قول الحق سبحانه ﴿... **أن تضل إحداهما**﴾[٨] قرأ حمزة «إن تَضل ـ» بكسر

---

(١) راجع: تفسير بحر العلوم، الآية المذكورة.
(٢) التفسير ورجاله: ابن عاشور ص ٢٥.
(٣) نفسه (بتصرف قليل).
(٤) سورة المائدة: الآية ٦٠.
(٥) راجع: بحر العلوم تفسير الآية المذكورة.
(٦) سورة البقرة: الآية ٥٩.
(٧) راجع: تفسير بحر العلوم: الآية المذكورة.
(٨) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

الألف ونصب التاء وجزم اللام، وإنما كسر الألف على معنى الابتداء والشرط، وجزم اللام على جواب الشرط «فتذكر» بضم الراء، وقرأ الباقون بالنصب، ومعناه: لأن تضل[١].

وقد يرجع القراءات ويوجهها توجيهاً بلاغياً كما جاء في تفسير قوله سبحانه ﴿مالك يوم الدين﴾[٢] حيث قال:

قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: «مَلِك» بغير ألف.

وقرأ عاصم والكسائي بالألف (مالك).

فأما من قرأ: «مالك» قال: لأن المالك أبلغ في الوصف لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال: ملك إلا لملك من الملوك، وأما الذي قرأ: «ملك» لأن الملك أبلغ في الوصف، لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك، وإذا قلت فلان مالك هذه البلدة كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة...

ومن خلال عرضه لهذه القراءات، وبيان وجه كل منها، وتذوقه لها يتضح أنه كان عالماً بالقراءات صحيحها وشاذها، وقد وظفها توظيفاً جيداً في خدمة التفسير.

ثانياً: المكي والمدني:

في بداية تفسير كل سورة يذكر أبو الليث عدد آياتها، ويذكر إن كانت السورة مكية أو مدنية.

وهذا أمر مهم ينبغي معرفته إذ يتوقف عليه بيان الناسخ والمنسوخ من الآيات..

فيقول ـ مثلاً ـ في بدء تفسيره سورة المائدة: «كلها مدنية وهي مائة وعشرون آية».

ثالثاً: الناسخ والمنسوخ:

وتلك قضية اختلف فيها العلماء اختلافاً كثيراً، وقد بين المهتمون بعلوم القرآن أهمية هذا العلم لمن يقدم على تفسير القرآن الكريم، ورووا في ذلك قول علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لأحد القضاة: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت[٣]. وقالوا:

«لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ».

وأبو الليث كان ممتلكاً لتلك الأداة، وبدهي أن نجد حديثاً له في ذلك إبان تفسيره لآية النسخ في سورة البقرة.

يقول أبو الليث:[٤]

قال الزجاج: النسخ في اللغة: هو إبطال شيء وإقامة شيء آخر مقامه، والعرب تقول: نسخت الشمس الظل، إذا أزالته «أو ننسها» أي نتركها، بمعنى فأمركم بتركها.... ثم يورد أقسام النسخ ناقلاً عن أبي عبيد

---

(١) راجع: تفسير بحر العلوم: الآية المذكورة.
(٢) فاتحة الكتاب.
(٣) انظر: البرهان ٢/٢٩، الإتقان ٢/٣٣.
(٤) المصدران السابقان.

القاسم بن سلام. . . ثم أجاز النسخ في الأمر والوعد والوعيد ولم يجوزه في القصص والأخبار لأنه لو جاز ذلك يكون كذباً والكذب في القرآن لا يجوز.

وقد رد أبو الليث على اليهود المنكرين للنسخ من الشرائع، وحجتهم في ذلك أنه حال البداء والندامة، ولا يجوز ذلك على الله تعالى(١).

ويرد أبو الليث على المنكرين للنسخ في قوله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾**. قال:

قال كثير من المفسرين: إن هذه الآية منسوخة، وقال بعضهم: لا يجوز أن يقال منسوخة لأنه لا يجوز أن يأمرهم بشيء لا يطيقونه. فرد عليهم بأن هذا بيان لهم، أنهم يطيقونه، ولكن تلحقهم مشقة شديدة، ولأن ذلك مجهود الطاقة ولا يستطيعون الدوام عليه، والله تعالى لا يكلف عباده إلا دون ما يطيقون فخفف عنهم بقوله: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**(٢).

هذا عن نسخ القرآن للقرآن، أما نسخ السنة للقرآن فيجيزه أبو الليث وقد جاء ذلك ـ مثلاً ـ في تفسير قوله تعالى: **﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم. . . . الآية﴾**(٣).

إذ ذكر أبو الليث أن هذا الحد قد نسخ وصار حد مثل تلك المرأة الرجم إذ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

«خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم بالحجارة»(٤).

رابعاً: أسباب النزول:

وهو من الأدوات المهمة للمفسر في «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصَّل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا»(٥).

كما أن «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»(٦) وكانت بعض آيات القرآن الكريم يشكل فهمها على المسلمين، ولم يعرفوا معناها حتى يعرفوا سبب نزولها.

من ذلك مثلاً: ما حكاه الزركشي من أن عثمان بن مظعون وعمرو بن معديكرب كانا يقولان: الخمر مباحة ويحتجان بقول الله تعالى **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا. .﴾** وخفي عليهما سبب نزولها وهو ما قاله الحسن وغيره لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم، وقد أخبر الله أنها رجس فأنزل الله تعالى هذه الآية(٧).

وقد كان أبو الليث ملماً بهذا العلم إلماماً واسعاً، فيذكر سبب نزول الآية، أو أسبابها إذا تعددت الأقوال فيها، ويبين ما إذا كان حكمها عاماً أم خاصاً.

---

(١) راجع: بحر العلوم، تفسير سورة البقرة أول الجزء الثاني.
(٢) سورة التغابن: الآية ١٦، وراجع تفسير سورة آل عمران: الآية ١٠٢.
(٣) سورة النساء: الآية ١٥.
(٤) راجع تفسير سورة النساء الآية المذكورة.
(٥) البرهان ١/٢٢.
(٦) الإتقان ١/١٠٨.
(٧) البرهان ١/٢٨.

من ذلك ما ذكره في سبب نزول قوله سبحانه: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**. . .﴾[١] قال أبو الليث: يعني كلامه وحديثه، وهو أخنس بن شريق، كان حلو الكلام، حلو المنظر، فاجر السريرة.

وروى أسباط عن السدي قال:

أقبل أخنس بن شريق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، وقال: الله يعلم إني صادق، فأعجب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله، ثم خرج من عنده، فمر بزرع للمسلمين فأحرقه، ومر بحمار للمسلمين فعقره فنزلت الآية[٢].

ويذكر سبب نزول الآية ثم يعقب بقوله «**ثم صارت هذه الآية عامة لجميع المسلمين**».

خامساً: الأحكام الفقهية:

ذكرنا فيما مضى أن أشهر ألقاب أبي الليث «**الفقيه**» وذلك لأنه كان مبرزاً في هذا العلم، وكان حنفيّ المذهب.

وعلى الرغم من تخصصه فيه ـ إن صح التعبير ـ إلا أنه لم يغرق قارىء التفسير في الفقه ومذاهبه. وكان ذلك منهجاً واضحاً لأبي الليث في تفسيره، إذ كان يؤثر الإيجاز في النحو والبلاغة والفقه حتى لا يبعد بذهن القارىء عن مواصلة قراءة تفسير الآيات ـ ومن هنا كان يورد **الأحكام الفقهية** بقدر ما يحتاج التفسير. من ذلك ـ مثلاً ـ ما جاء في تفسيره لقول الحق سبحانه:

﴿**للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم**﴾[٣] يقول أبو الليث في تفسيرها والآية التي تليها:

﴿**للذين يؤلون من نسائهم**﴾ يعني الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم ﴿**تربص أربعة أشهر**﴾ يعني لهم أجل أربعة أشهر بعد اليمين ﴿**فإن فاءوا**﴾ يعني رجعوا عن اليمين، وجامعوا قبل أن تمضي أربعة أشهر بعد اليمين وكفروا عن أيمانهم ﴿**فإن الله غفور رحيم**﴾ ولا تبين المرأة عن الزوج.

﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾ يعني: أوجبوا الطلاق بترك الجماع حتى مضت أربعة أشهر، وقعت عليها تطليقة بمضي أربعة أشهر.

وقال بعضهم: لا يقع الطلاق، ولكن يؤمر الزوج بعد مضي أربعة أشهر أن يجامعها، أو يطلقها.

وقال بعضهم: وقع الطلاق بعد مضي أربعة أشهر، وهو قول علمائنا.

وقال ابن عباس وابن مسعود: عزيمة الطلاق انقضاء الأربعة الأشهر، وذلك قوله تعالى: ﴿**وإن عزموا الطلاق**﴾ يعني: أوجبوا الطلاق بترك الجماع. . .

وفي تفسير قوله تعالى ﴿**يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم**. . **الآية**﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٤.

(٢) راجع: بحر العلوم تفسير الآية المذكورة.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٤.

يقول:

وفي هذه الآية دليل: أن الكلب إذا كان أكل لا يؤكل، لأنه أمسك لنفسه، وفيها دليل: أنه لا يجوز إلا بالتسمية، لأنه قد أباح على شرط التسمية، وعلى شرط أن يمسك لصاحبه، وفيها دليل أيضاً أن الكلب إذا كان غير معلم لا يجوز أكل صيده، وفيها دليل أيضاً أن العالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأن الكلب إذا عُلّم تكون له فضيلة على سائر الكلاب، فإن الإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، وهذا كما روي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما يحسن. .

وصف المخطوط

اعتمدنا في ضبط نص الكتاب على ثلاث نسخ. الأولى: وهي المحفوظة في جامعة أدينبرج رقم ٣٦٨٨ (EDINBURGH) مكتبة تشيستربتي وهي ناقصة أربع سور وهي الحجر والنحل والإسراء والكهف.

وهذه النسخة مقسمة إلى أربع مجلدات في جزئين الجزء الأول من فاتحة الكتاب إلى نهاية سورة إبراهيم.

والجزء الثاني من سورة مريم إلى آخر الكتاب مكتوب على غلافها الأول وهي مكتوبة بخط واضح جميل عدد أوراقها (٣٥٢) ورقة مسطرتها (٢٤) سطراً وعليها تملك ونصه: تملكه الحقير الفقير بالشراء الشرعي ـ يونس بن إبراهيم عفا عنهما.

ووقع في آخرها قوله (تم المجلد الرابع عند الضحى يوم الجمعة. . .) وقد رمزنا لها بالرمز (ظ).

الثانية: هي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٦ تفسير وهي كاملة لا نقص فيها.

مكتوبة بخط واضح جداً وفيها آيات كتاب الله تعالى مكتوبة بالأحمر عدد أوراقها (٥٤٣) ورقة مسطرتها (٢٩) سطراً ووقع في نهايتها قوله والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين ورسول رب العالمين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وأهل طاعتك أجمعين ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

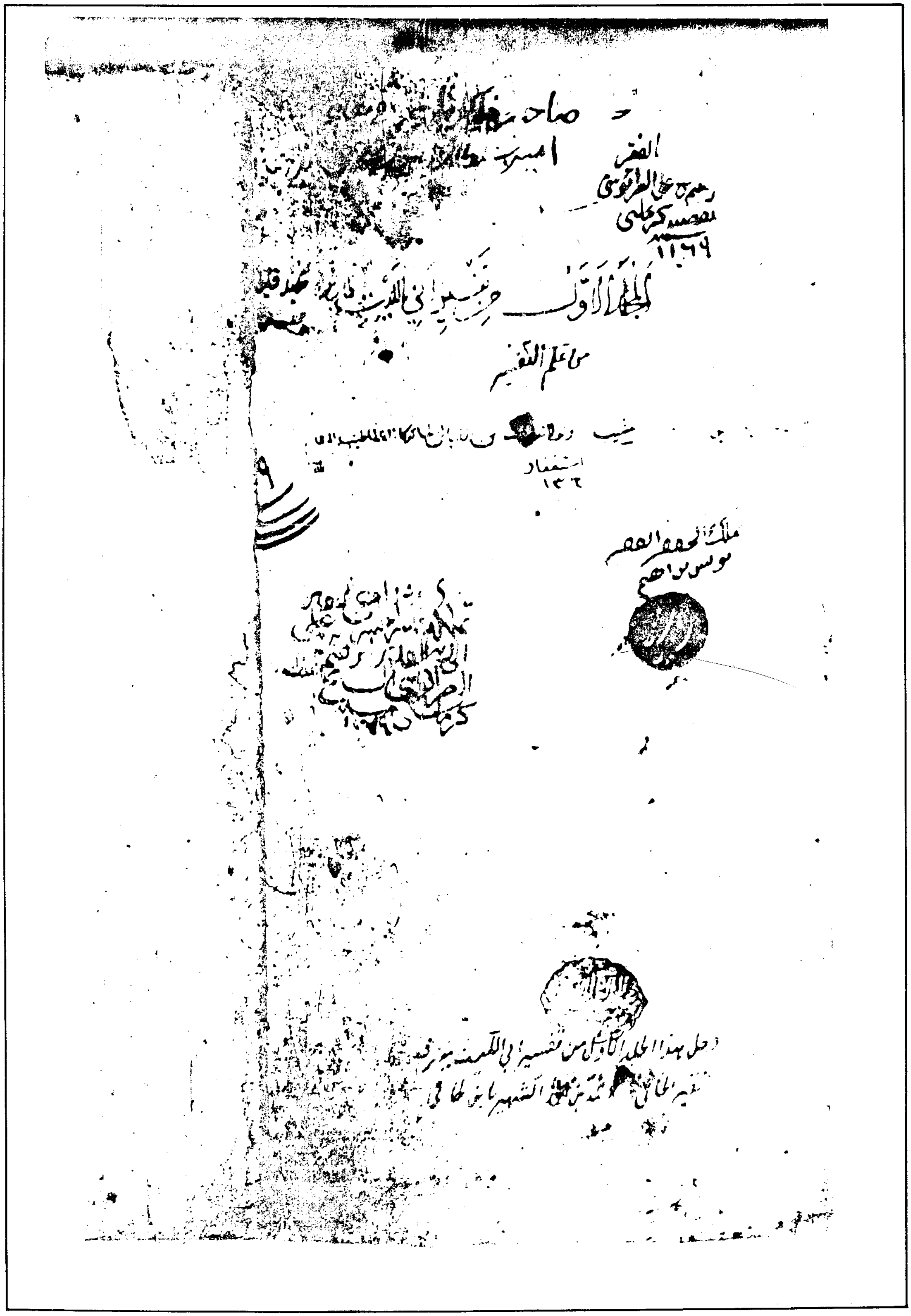
ووافق الفراغ من كتابة هذا التفسير المبارك لمولانا الإمام العلامة أبي الليث نصر بن إبراهيم السمرقندي ـ رضي الله عنه آمين وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا بعلومه ومدده وأسراره في الدارين. آمين في يوم الأحد المبارك مستهل محرم الحرام افتتاح سنة إثنين وتسعين وتسعمائة المباركة.

أحسن الله عاقبتها بمحمد وآله.

وقد رمزنا لها بالرمز (أ)

الثالثة: وهي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦ تفسير عدد أوراقها (٥٤٢) مسطرتها (٢٩) سطراً مكتوبة بخط واضح جيد كتب في نهايتها ما كتب في النسخة (أ) وقد استعنا بها كثيراً في ضبط النص وقلما نشير فيها لفرق ورمزنا لها بالرمز (ب).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.


من علم التفسير

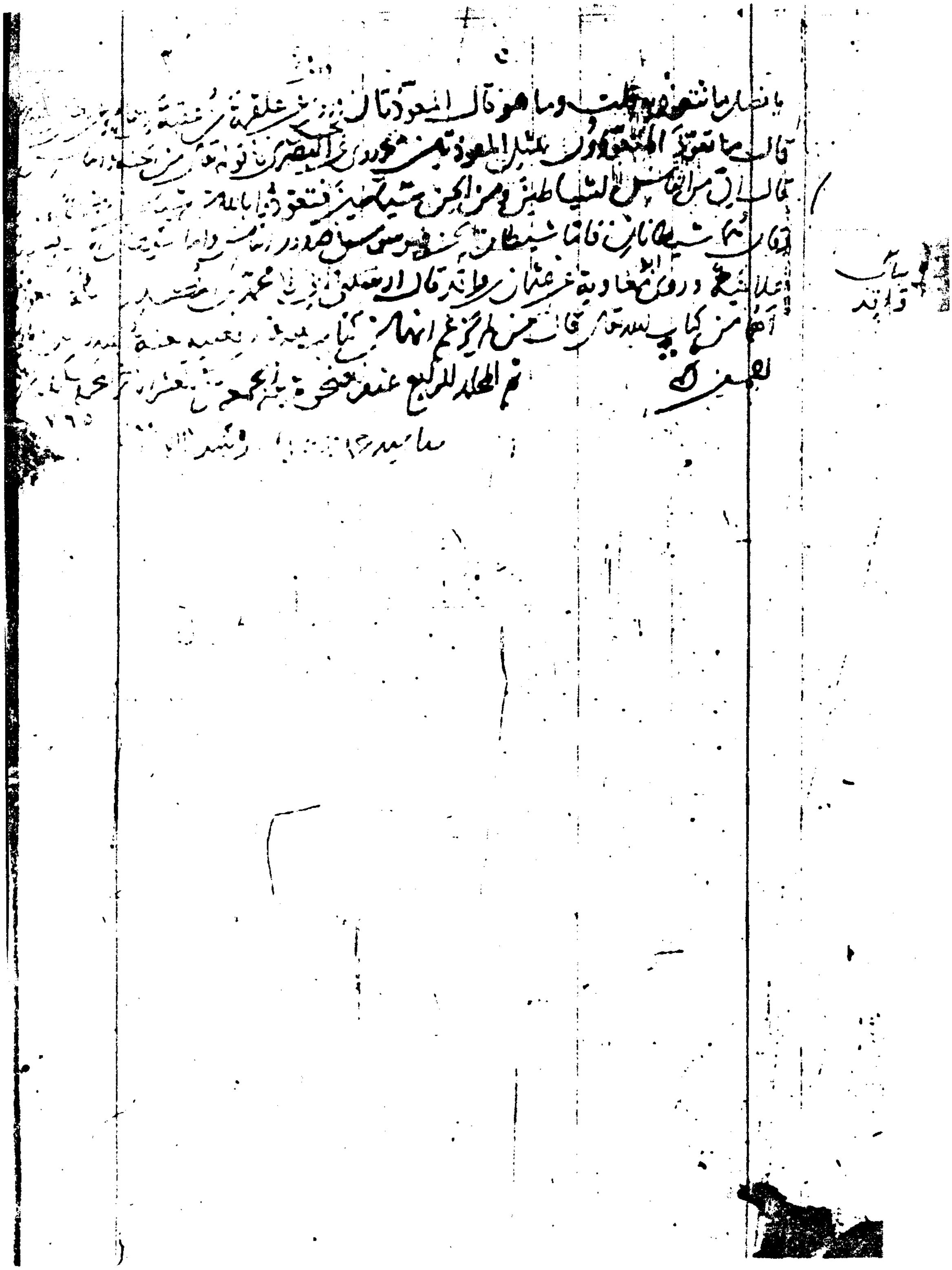

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين وآله الطاهرين

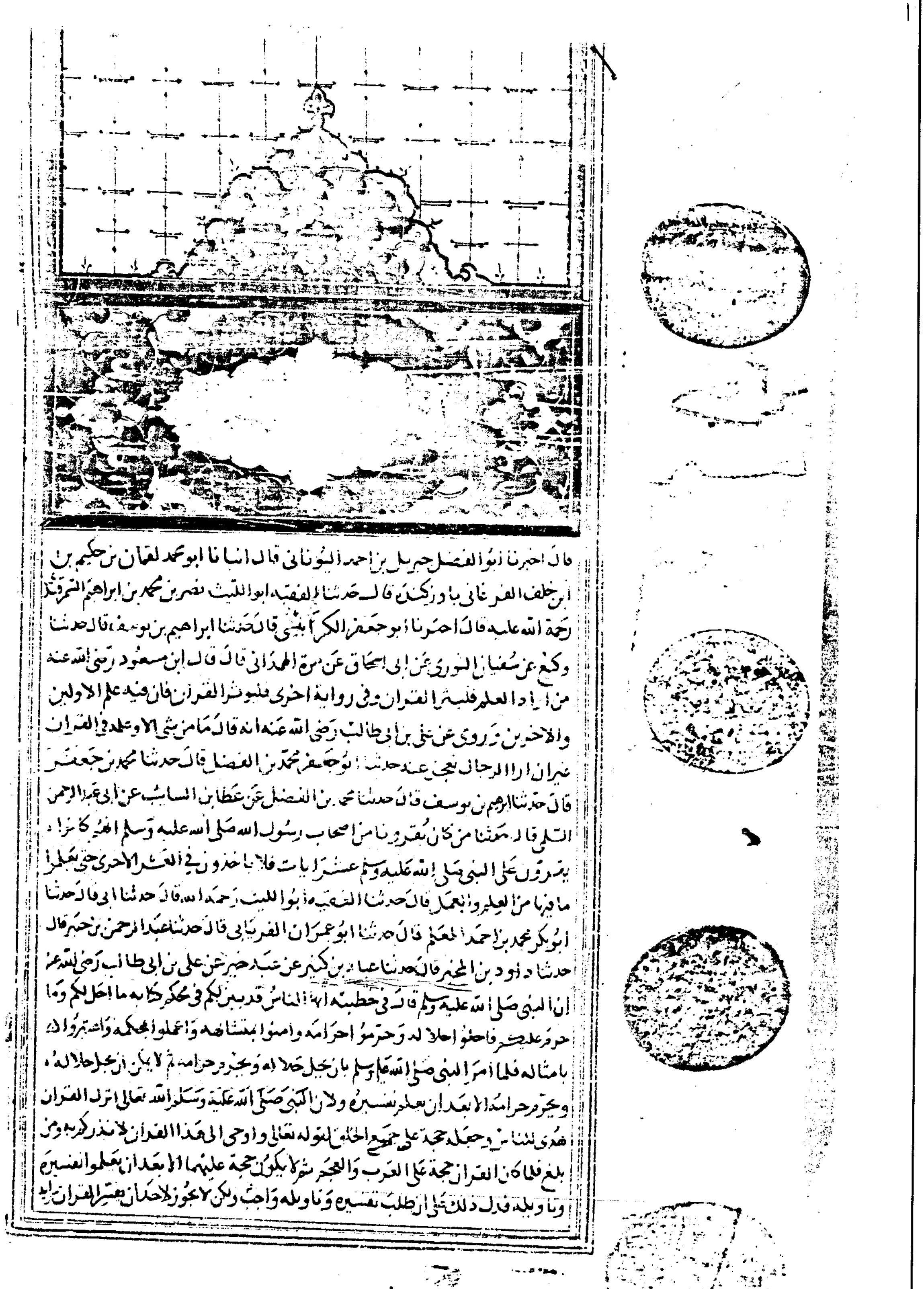
باب في الحث على طلب تفسير القرآن

قال الفقيه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي رحمه الله أخبرنا أبو جعفر محمد بن الفضل قال أخبرنا محمد بن جعفر ...

النسخة الأولى (ظ) الصفحة الأولى

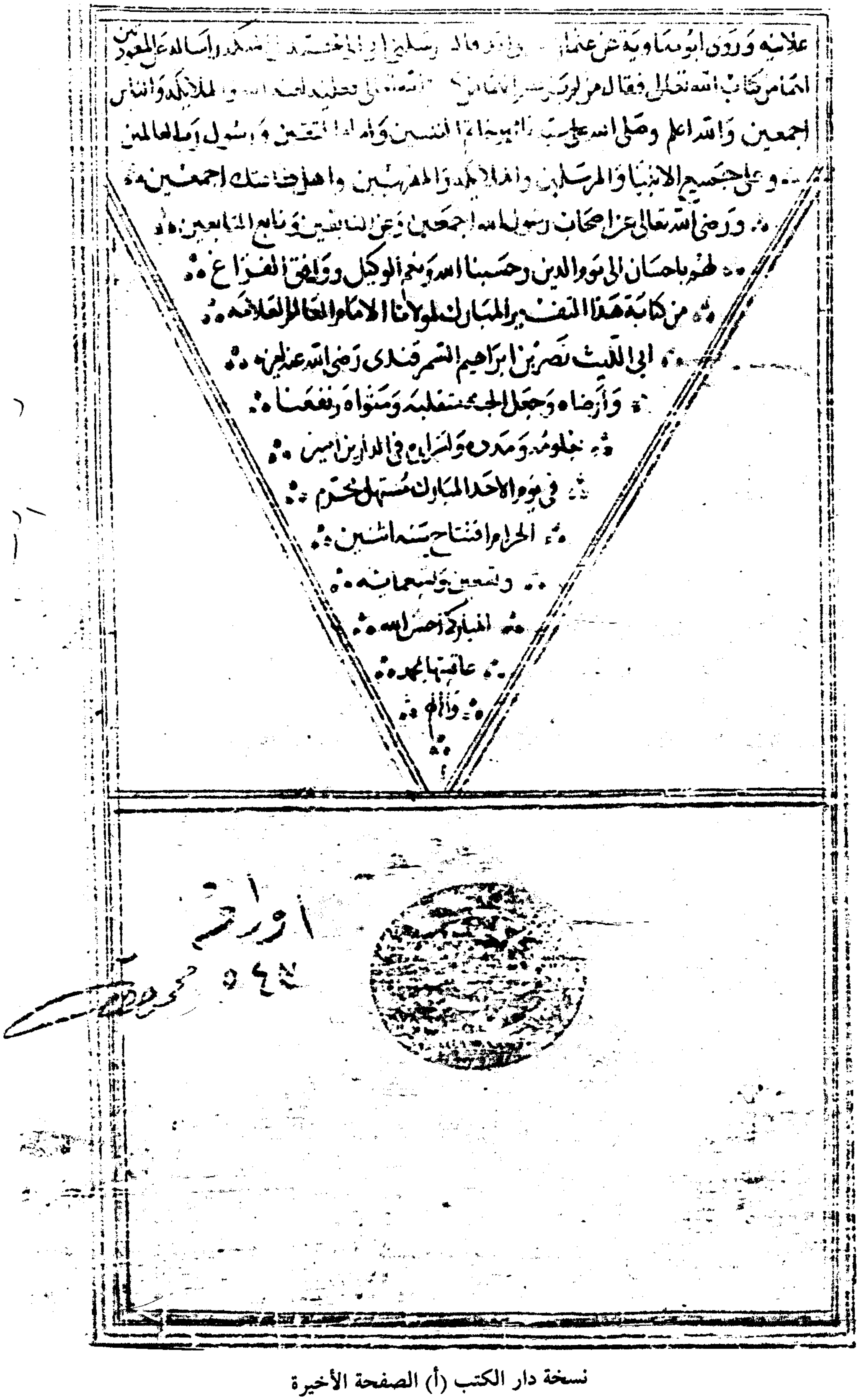


النسخة الأولى (ظ) الورقة الأخيرة



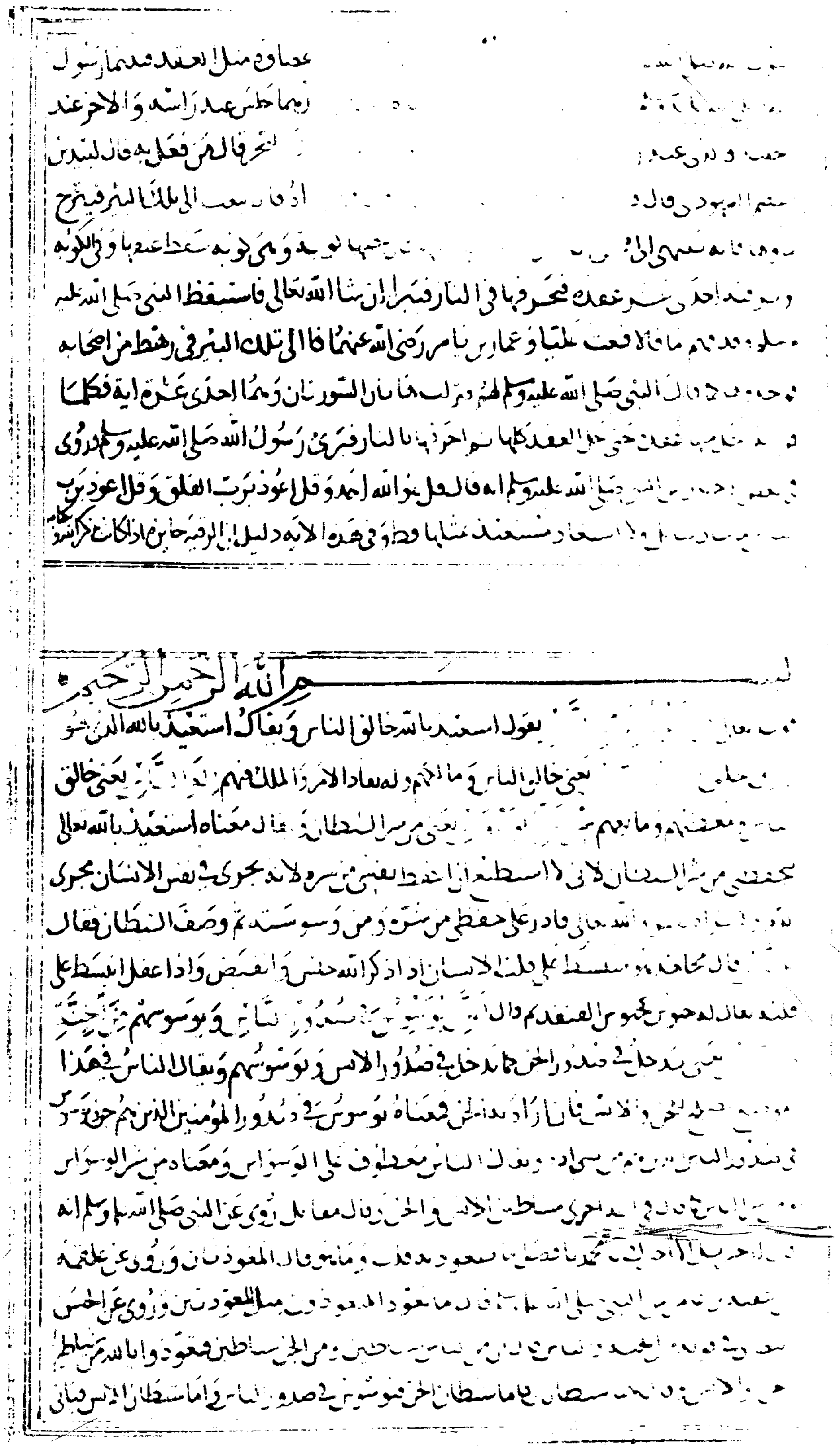
قال اخبرنا ابو الفضل جبريل بن احمد اليونانى قال انبانا ابو محمد لقمان بن حكيم بن
ابن خلف الفرغانى باوزكند قال حدثنا الفقيه ابو الليث نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي
رحمة الله عليه قال اخبرنا ابو جعفر الكرابيسي قال حدثنا ابراهيم بن يوسف قال حدثنا
وكيع عن سفيان الثوري عن ابي اسحاق عن مرة الهمداني قال قال ابن مسعود رضي الله عنه
من اراد العلم فليثور القران وفي رواية اخرى فليثور القران فان فيه علم الاولين
والاخرين وروي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال ما من شيء الا وعلمه في القران
ولكن رجال تعجز عنه قال حدثنا ابو جعفر محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر
قال حدثنا ابراهيم بن يوسف قال حدثنا محمد بن الفضيل عن عطاء بن السائب عن ابي عبد الرحمن
السلمي قال حدثنا من كان يقرئنا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم كانوا
يقترئون على النبي صلى الله عليه وسلم عشر ايات فلا ياخذون في العشر الاخرى حتى يعلموا
ما فيها من العلم والعمل قال حدثنا الفقيه ابو الليث رحمه الله قال حدثنا ابي قال حدثنا
ابو بكر محمد بن احمد المعلم قال حدثنا ابو عمران الفرياني قال حدثنا عبد الرحمن بن حبير قال
حدثنا داود بن المحبر قال حدثنا عباد بن كثير عن عبد خير عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته ايها الناس قد بين لكم في محكم كتابه ما احل لكم وما
حرم عليكم فاحلوا حلاله وحرموا حرامه وامنوا بمتشابهه واعملوا بمحكمه واعتبروا
بامثاله فلما امر النبي صلى الله عليه وسلم بان يحل حلاله ويحرم حرامه ثم لا يمكن ان يحل حلاله
ويحرم حرامه الا بعد ان يعلم تفسيره ولان النبي صلى الله عليه وسلم انزل الله تعالى القران
هدى للناس وجعله حجة على جميع الخلق لقوله تعالى واوحي الي هذا القران لانذركم به ومن
بلغ فلما كان القران حجة على العرب والعجم ثم لا يكون حجة عليهما الا بعد ان يعلموا تفسيره
وتاويله فدل ذلك على ان طلب تفسيره وتاويله واجب ولكن لا يجوز لاحد ان يفسر القران برايه

نسخة دار الكتب (أ) الصفحة الأولى



علانيه وروى ابو معاوية عن [illegible] ... المعوذتين
[illegible] ... والملائكة والناس
اجمعين والله اعلم وصلى الله على [illegible] ... رسول رب العالمين
.. وعلى جميع الانبيا والمرسلين والملائكة المقربين واهل طاعتك اجمعين ..
.. ورضي الله تعالى عن اصحاب رسول الله اجمعين وعن التابعين وتابع التابعين ..
.. لهم باحسان الى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل ووافق الفراغ ..
.. من كتابة هذا التفسير المبارك لمولانا الامام العالم العلامة ..
.. ابي الليث نصر بن ابراهيم السمرقندي رضي الله عنه ..
.. وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا ..
.. بعلومه ومدده ولسائر [illegible] في الدارين امين ..
.. في يوم الاحد المبارك مستهل محرم ..
.. الحرام افتتاح سنة اثنين ..
.. وتسعين وتسعمائة ..
.. المباركة احسن الله ..
.. عاقبتها بمحمد ..
.. وآله ..

نسخة دار الكتب (أ) الصفحة الأخيرة

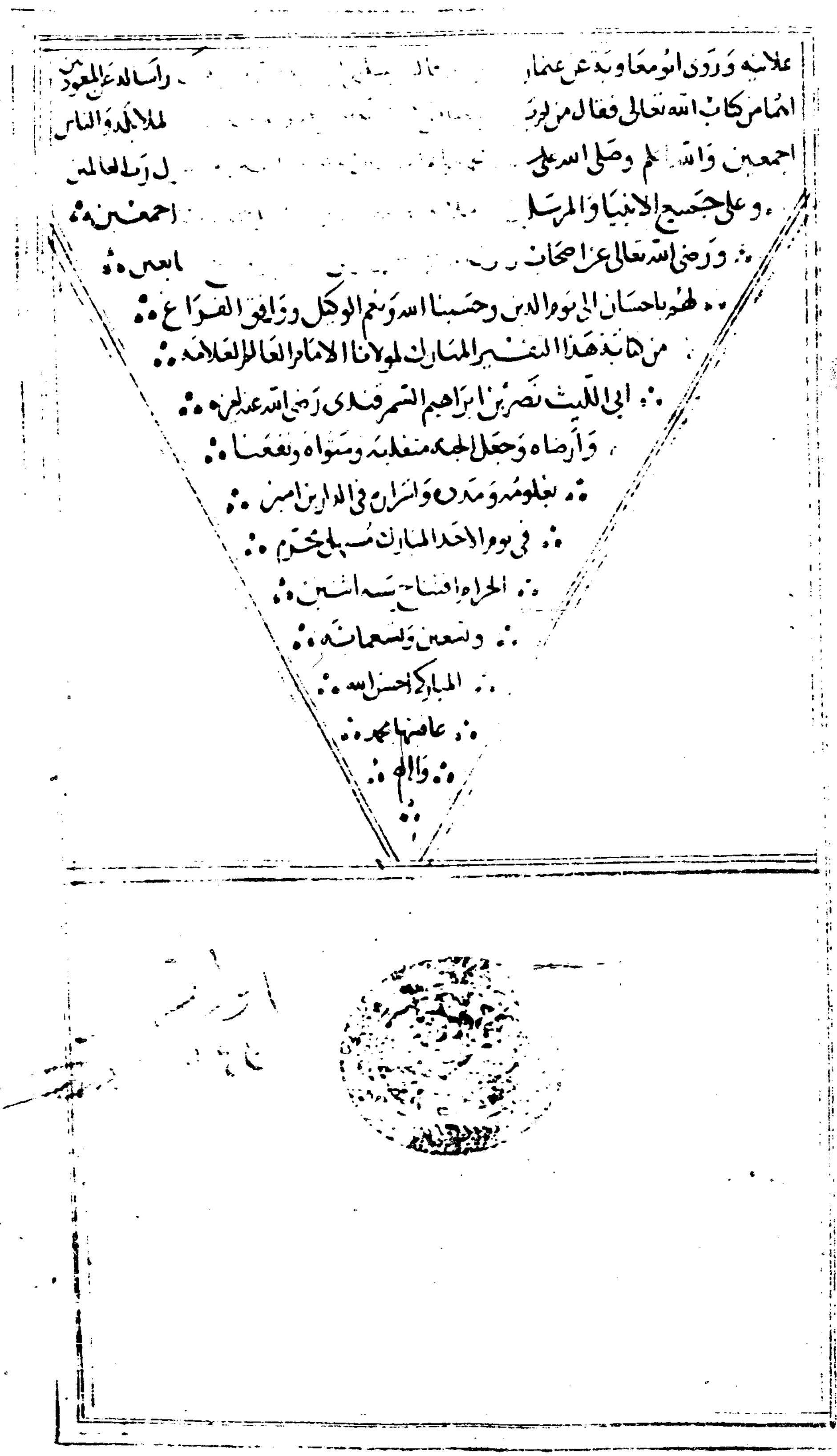


[illegible] عصاو مثل العقد شد بها رسول
[illegible] ربما جلس عند راسه والاخر عند
[illegible] البحر فالذى فعل به قال لبيد بن
[illegible] اذ قال سعت الى الملكان البئر فيتزح
[illegible] وهى كوبه [illegible] وفى الكوبه
[illegible] احدى عشر عقده فحرقوها فى النار فبرا ان شا الله تعالى فاستيقظ النبى صلى الله عليه
وسلم [illegible] فبعث عليا وعمار بن ياسر رضى الله عنهما الى تلك البئر فى رهط من اصحابه
[illegible] النبى صلى الله عليه وسلم [illegible] فانزل السورتان وهما احدى عشر اية فكلما
[illegible] حتى حل العقد كلها ثم احرقها بالنار فبرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى
[illegible] النبى صلى الله عليه وسلم انه قال [illegible] قل هو الله احد وقل اعوذ برب الفلق وقل اعوذ برب
[illegible] وفى هذه الايه دليل ان الرقيه جائز اذا كان بذكر الله

بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] يقول استعيذ بالله خالق الناس ويقال استعيذ بالله الذى هو
[illegible] يعنى خالق الناس [illegible] يعنى خالق
[illegible] معناه استعيذ بالله تعالى
[illegible] الانسان مجرى
[illegible] قادر على حفظى من شره ومن وسوسته ثم وصف الشيطان فقال
[illegible] على قلب الانسان اذا ذكر الله خنس وانقبض واذا غفل انبسط على
[illegible] ويوسوسهم من الجنة
[illegible] فى صدور الانس ويوسوسهم ويقال الناس فى هذا
[illegible] يوسوس فى صدور المؤمنين الذين هم
[illegible] معطوف على الوسواس ومعناه من شر الوسواس
[illegible] روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه
[illegible] المعوذتان وروى عن علقمه
[illegible] مثل المعوذتين وروى عن الحسن
[illegible] من الجن شياطين فتعوذوا بالله من شياطين
[illegible] فاما شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس واما شيطان الانس فياتى

نسخة دار الكتب (ب) الصفحة قبل الأخيرة



لهم باحسان الى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل ووافق الفراغ
من كتابة هذا التفسير المبارك لمولانا الامام العالم العلامة
ابي الليث نصر بن ابراهيم السمرقندي رضي الله عنه
وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا
بعلومه ومدده واسراره في الدارين امين
في يوم الاحد المبارك مستهل محرم
الحرام افتتاح سنة اثنين
وتسعين وتسعمائة
المبارك احسن الله
عاقبتها بمحمد
واله

نسخة دار الكتب (ب) الصفحة الأخيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المصنف

باب الحث على طلب التفسير(١)

[الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وعترته الطاهرين](٢)قال: أخبرنا أبو الفضل جبريل بن أحمد اليوناني قال: أنبأنا أبو محمد لقمان بن حكيم بن خلف الفرغاني باوزكندة قال: حدثنا الفقيه أبو الليث(٣) نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي رحمة الله عليه قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن الفضل، قال أخبرنا محمد بن جعفر الكرابيسي(٤)، قال: حدثنا ابراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن سفيان الثوري، عن [أبي](٥)اسحاق عن مرة الهمذاني قال: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من أراد العلم فليثر القرآن. وفي رواية أخرى فليؤثر(٦)القرآن، فإن فيه علم الأولين والأخرين. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ما من شيء إلا وعلمه في القرآن غير أن آراء الرجال تعجز عنه. [قال الفقيه](٧): حدثنا أبو جعفر محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا ابراهيم بن يوسف قال: حدثنا محمد بن الفضل الضبي عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: حدثنا من كان يقرئنا من ٢ أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم كانوا يقرأون على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قال الفقيه: [حدثنا](٨)أبي، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد المعلم قال: حدثنا أبو عمران الفريابي، قال: حدثنا[عبد الرحمن](٩)بن جبير بن حبيب قال: حدثنا داود بن المخبر قال: حدثنا عباد بن كثير عن عبد خير عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في خطبته: (أيها الناس قد بين الله لكم في محكم كتابه ما أحل لكم وما حرم عليكم، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وآمنوا بمتشابهه، واعملوا بمحكمه واعتبروا بأمثاله) قال: [فلما أمر](١٠)النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يحل حلاله ويحرم حرامه، ثم لا يمكن أن يحل حلاله، ويحرم حرامه الا بعد ما يعلم تفسيره. ولأن الله تعالى أنزل القرآن هدى للناس، وجعله حجة على جميع الخلق لقوله(١١) (وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم

---

(١) في ظ (تفسير القرآن).

(٢) سقط في أ.

(٣) في ظ قال أبو الليث.

(٤) في أ أبو جعفر الكرابيسي.

(٥) في ظ ابن.

(٦) ثَوَّرَ القرآن: بحث عن معانيه وعن علمه وقيل: تَثْوير القرآن: قراءته ومناقشة العلماء به في تفسيره ومعانيه. اللسان، الصحاح: ثور.

(٧) سقط في أ.

(٨) في ظ حدثني.

(٩) في ظ أبو عبد الرحمن.

(١٠) في ظ فأمر.

(١١) في ظ بقوله

بـه ومن بلغ) فلمـا كـان القـرآن حجـة على العـرب والعجم، ثم لا يكـون حجـة عليهم الا بعـد [أن يعلموا][(١)] [وتأويله][(٢)] تفسيره برأيه، فدل ذلك على أن طلب تفسيره وتأويله واجب. ولكن: لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن من ذات نفسه[(٣)] برأيه، ما لم يتعلم ويعرف[(٤)] وجوه اللغة وأحوال التنزيل[(٥)] لانه روي في الخبر ما حدثنا به محمد بن (الفضيل)[(٦)] قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثناابراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الاعلى عن سعيد بن جبير[(٧)] عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: من

---

(١) في ظ ما يعلم.
(٢) من أ
(٣) من أ.
(٤) في أ أو يعرف.

اختلف الناس في تفسير القرآن: هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟ فقال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان عالماً، أديباً، متسعاً في معرفة الأدلة، والفقه، والنحو، والأخبار والآثار وليس له إلاّ أن ينتهي إلى ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج المفسر إليها، وهي خمسة عشر علماً.

أحدها: اللغة: لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.

الثاني: النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره.

الثالث: علم التصريف: لأن به تعرف الأبنية والصيغ.

الرابع: علم الاشتقاق: لأن الإسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف المعنى باختلافهما، كالمسيح: أهو من السياحة أو من المسح.

الخامس والسادس والسابع: علوم المعاني والبيان والبديع: لأنه يُعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعاني وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالةوخفائها. وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له أن يعلم ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات: لأنه به يعرف كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: علم أصول الدين: ليعرف وهو يفسر القرآن ما يجب لله وما يستحيل عليه وما يجوز له، ويعرف الفرق بين العقائد والشرائع، وما هو من أصول الدين، وما هو من فروعه.

العاشر: علم أصول اللغة: لأن به يعرف وجه الإستدلال على الأحكام، وطريقة استنباطها من النصوص.

الحادي عشر: أسباب النزول والقصص: إذ بسبب النزول يعرف معنى الآية المنزَّلة فيه بحسب ما أنزلت فيه.

الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ ليعلم المحكم من غيره.

الثالث عشر: علم الفقه إذ به يعرف مذاهب الفقهاء.

الرابع عشر: علم الأحاديث والسنن والآثار المبينة لتفصيل المجمل، وتوضيح المبهم وتخصيص العام، وتقييد المطلق، إلى غير ذلك من وجه بيان السنة للقرآن.

الخامس عشر: علم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى من عمل بما علم. وإليه الإشارة بحديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من عَمِلَ بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم».

فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مفسر إلا بتحصيلها فمن فسر القرآن بدونها كان مفسراً بالرأي المنهي عنه وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسراً بالرأي المنهي عنه. والله أعلم. انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/١٨٤ ـ ١٨٨. والإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ص (٤٨ ـ ٥٣) بتصرف.

(٦) في ظ الفضل.

(٧) سعيد بن جبير الأسدي مولاهم الكوفي ثقة ثبت فقيه من الثالثة وروايته عن عائشة.

قال [١] في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار. وروى أبو صالح [٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا ابراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو حفص [٣] عن ابن مجاهد [٤] قال: قال رجل لابي: أنت [٥] الذي تفسر القرآن [٦] برأيك؟ فبكى أبي ثم قال: اني اذا لجرىء. لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنهم. وروي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾ فقال: لا أدري ما الأب. فقيل له: قل من ذات نفسك يا خليفة رسول الله. قال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في القرآن بما لا أعلم. فإذا لم يعلم الرجل وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فتعلم التفسير وتكلف حفظه فلا بأس بذلك، ويكون ذلك على سبيل الحكاية. والله أعلم.

---

(١) وأبي موسى ونحوهما مرسلة ١/٢٩٢. في أ قال قولاً.

(٢) باذام ويقال آخره نون أبو صالح مولى أم هانىء ضعيف مدلس تقريب التهذيب ١/٩٣.

(٣) عبد الله بن حفص بن عمر الزهري المدني كان من أهل العلم والثقة أجمعوا على توثيقه تهذيب التهذيب ٥/١٨٩ الجرح والتعديل ٥/٣٩.

(٤) عبد الوهاب بن مجاهد بن جبير المكي كان يروي عن أبيه ضعيف الحديث تهذيب التهذيب ٦٠/٤٥٣.

(٥) في ظ هذا. (٦) من أ.

تفسير (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا القاضي(٢) الخليل بن أحمد(٣)، قال: حدثنا السراج(٤)، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد(٥)، قال: حدثنا خالد(٦)، [عن](٧)داود(٨)عن عامر(٩)، قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكتب: باسمك اللهم، فلما[نزل ـ في](١٠)سورة هود﴿بسم الله مجريها و [مرسيها]﴾(١١)كتب: بسم الله. فلما[نزل ـ في](١٢)سورة بني اسرائيل﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾كتب بسم الله الرحمن،فلما [نزل ـ في](١٣)سورة النمل ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾كتب: بسم الله الرحمن الرحيم(١٤)، ففي هذا الخبر دليل على أنه ليس من أول كل سورة، ولكنه [بعض](١٥) آية من كتاب الله تعالى من (١٦) سورة النمل. فأما تفسير قوله (بسم الله) يعني بدأت باسم الله ولكن لم يذكر بدأت، لان الحال ينبىء: أنك مبتدىء فيستغني عن ذكره وأصله: باسم (الله) (١٧) بالالف ولكن حذفت من الاسم لكثرة الاستعمال، لانها ألف وصل، وليست بأصلية، بدليل أنها تسقط عند التصغير، فتقول سمي، وقال

(١) في أ قوله. (٢) من أ.

(٣) الخليل بن أحمد بن عبد الرحمن أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي، نحوي لغوي واضع علم العروض صدوق. ت ١٧٠ هـ. انظر / أنباه الرواة ١/٣٤١، النجوم الزاهرة ١/٣١١، تهذيب التهذيب ٣/١٦٣.

(٤) محمد بن إسحاق السراج محدث خراسان وشيخها في عصره صدوق ثقة له المسند أربعة عشر جزءاً. توفي سنة ٣١٣هـ. الأعلام ٦/٢٩ تذكرة الحفاظ ٢/١٦٨.

(٥) قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف الثقفي أبو رجاء البغلاني ثقة ثبت من العاشرة مات سنة أربعين. تقريب التهذيب ٢/١٢٣.

(٦) خالد بن سليمان البلخي أبو معاذ كان إماماً معروفاً ببلخ من أصحاب أبي حنيفة الجواهر المضيئة ٢/١٦٢.

(٧) في ظ بن.

(٨) هو داود بن نصير الطائي من أصحاب أبي حنيفة كان زاهداً وورعاً ت ١٦٠هـ. انظر تهذيب التهذيب ٣/٣٠٣.

(٩) عامر بن شراحيل الحميري الشعبي أبو عمرو ثقة فقيه فاضل. تهذيب التهذيب ١/٣٨٧.

(١٠) في ظ نزلتا. (١١) في ظ مرساها.

(١٢) في ظ نزلت. (١٣) في ظ نزلت.

(١٤) ذكره القرطبي ١/٦٦ قال: روى الشعبي والأعمش أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يكتب باسمك اللهم «حتى أمر أن يكتب بسم الله» فكتبها فلما نزلت «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» كتب بسم الله الرحمن» فلما نزلت [إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم] كتبها.

وفي مصنف أبي داود: قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة النمل.

معالم التنزيل للبغوي (١/٣٩) القرطبي (١/٦٦).

العلوم المستودعة في السبع المثاني للنجيبي (١/١٥).

(١٥) من (أ). (١٦) في ظ (في). (١٧) من أ.

بعضهم: معنى قوله «بسم الله» يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته وهذا تعليم من الله تعالى لعباده، ليذكروا اسم الله تعالى عند افتتاح القراءة وغيرها حتى يكون الافتتاح ببركة اسم الله تعالى [١]. وقوله (الله) هو اسم موضوع ليس له اشتقاق، وهو أجَلّ من أن يذكر له الاشتقاق. وهو قول الكسائي [٢]. قال أبو الليث رحمه الله: هكذا سمعت أبا جعفر يقول: روي عن محمد بن الحسن [٣] أنه قال: هو اسم موضوع ليس له اشتقاق. وروي عن الضحاك أنه قال: انما سمى الله إلهاً [٤]، لأن الخلق يولهون إليه في قضاء حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم وذكر عن الخليل بن أحمد البصري أنه قال: لأن الخلق يألهون إليه [٥]، بنصب اللام ويألهون بكسر اللام أيضاً، وهما لغتان، وقيل أيضاً: أنه اشتق من الارتفاع، وكانت العرب تقول للشيء المرتفع «لاه» وكانوا يقولون اذا طلعت الشمس: طلعت لاهة وغربت لاهة وقيل أيضاً: إنما سمي ﴿الله﴾ لأنه لا تدركه الأبصار «ولاه» معناه احتجب كما قال القائل:

لاه ربي عن الخلائق طرا خالق[٦]الخلق [لا يرى ويرانا] [٧]

وقيل أيضا: سمي (الله) لأنه يوله قلوب العباد بحبه.

وأما (الرحمن) فالعاطف على جميع خلقه بالرزق لهم، ولا يزيد في رزق التقي لأجل تقاه ولا ينقص من رزق

---

(١) ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل، كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال، قال تعالى: «فكلوا مما ذكر اسم الله عليه» (الأنعام: ١١٨) «وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها». (هود: ٤١)
وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفىء مصباحك واذكر اسم الله وخمر إناءك واذكر اسم الله وأوك سقاءك واذكر اسم الله».
وقال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: «بسم الله اللهم جَنِّبْنَا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا» فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً».
وقال لعمر بن أبي سلمة: «يا غلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك» وقال «إن الشيطان ليستحل الطعام إلا بذكر اسم الله».
وقال: «من لم يذبح فليذبح باسم الله» وشكا إليه عثمان بن أبي العاصي وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل «بسم الله ثلاثاً» وقل سبع مرات «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».
هذا كله ثابت في الصحيح. وروى ابن ماجه والترمذي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول بسم الله».
وروى الدارقطني عن عائشة قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إذا مس طهوره سمى الله تعالى ثم يفرغ الماء على يديه».
انظر في كل ما تقدم تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٤ والجامع لأحكام القرآن ١/ ٦٩.

(٢) علي بن حمزة الإمام أبو الحسن الكسائي ولد بالكوفة واستوطن بغداد وهو من القراء السبعة المشهورين ومن النحاة الكوفيين من مصنفاته معاني القرآن وغير ذلك. بغية الوعاء ٢/ ١٦٢ وفيات الأعيان ٣/ ٢٩٥.

(٣) محمد بن الحسن الرؤاسي النحوي أبو جعفر استاذ الكسائي والفراء وكان رجلاً صالحاً بغية الوعاة ٢/ ٨٢.

(٤) قال ابن منظور: قال أبو الهيثم: وأصل إله وِلَاه فقلبت الواو همزة كما قالوا للوِشَاح إشاح، وللوِجاح ـ وهو الستر ـ اجاح، ومعنى وِلَاه: أن الخلق يَوْلَهُون إليه في حوائجهم، ويضرعون لله فيما يصيبهم، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم، كما يَوْله كل طفل إلى أمه. اللسان: أله.

(٥) والتأله: التنسك والتعبد (اللسان: أله).

(٦) في (أ) لا يرى خالق.

(٧) في (أ) ويرى وفي (ظ) لا يرى والصواب ما أثبتناه فقد ورد البيت في تفسير الطبري هامش ١/ ٢١٢ نقلاً عن الأغاني وهو للوليد بن عقبة والشطرة الأولى في اللسان لا وله.

الفاجر لأجل فجوره، وما كان في لغة العرب على ميزان «فعلان» يراد به المبالغة في وصفه كما يقال: شبعان [وشقيان](١)، وغضبان، اذا امتلأ غضباً. فلهذا سمى نفسه رحماناً لأن رحمته وسعت كل شيء فلا يجوز أن يقال لغير الله تعالى «الرحمن» لأن هذا الوصف لا يوجد [في غيره](٢). وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة، يستر عليهم ذنوبهم في الدنيا ويرحمهم في الآخرة، ويدخلهم الجنة.

وقيل أيضاً: إنما سمى نفسه (رحيما) لأنه لا يكلف عباده جميع ما يطيقون(٣)وكل ملك يكلف عباده(٤)، جميع ما يطيقون(٥)فليس برحيم. وروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: في قوله تعالى (بسم الله) قال: اسمه شفاء من كل داء، وعون على كل دواء [لأنه اسمه](٦). وأما الرحمن فهو عون لمن(٧)آمن به، وهو اسم لم يسم به غيره، وأما (الرحيم) فلمن تاب وآمن وعمل صالحاً. وقد فسره بعضهم على الحروف، وروى عبد الرحمن [المديني](٨) عن عبد الله بن عمر أن عثمان بن عفان رضي الله عنهم سأل صلى الله عليه وسلم عن تفسير (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال: أما الباء: فبلاء الله وروحه، ونصره وبهاؤه، وأما السين: فسناء الله، وأما الميم: فملك الله، وأما الله فلا إله غيره، وأما الرحمن: فالعاطف على البر والفاجر من خلقه، وأما الرحيم، فالرفيق بالمؤمنين خاصة(٩). وروي عن كعب الأحبار(١٠)أنه قال: الباء بهاؤه والسين سناؤه ولا شيء أعلى منه، والميم: ملكه، وهو على كل شيء قدير، فلا شيء يعازه(١١). وقد قيل: إن كل حرف هو افتتاح اسم من أسمائه. فالباء: مفتاح اسمه بصير، والسين: مفتاح اسمه سميع، والميم: مفتاح اسمه ملك [وقيل مجيد](١٢)، والألف: مفتاح اسمه الله، واللام: مفتاح اسمه لطيف، والهاء: مفتاح اسمه هادي، والراء: مفتاح اسمه رزاق، والحاء: مفتاح اسمه حليم، والنون: مفتاح اسمه نور. ومعنى هذا كله: دعاء [الله عند الافتتاح](١٣).

---

(١) في ظ وشعبان. (٢) في ظ [لغيره]. (٣) في أ [لا يطيقون].
(٤) من أ. (٥) في أ [لا يطيقون]. (٦) من أ.
(٧) في ظ [لكل].
(٨) عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث القرشي المدني نزيل البصرة صدوق وفي بالقدر التهذيب ١/٤٧٢.
(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور ١/٩.
(١٠) كعب بن ماني بن ذي هجن الحمدي تابعي أسلم في زمن أبي‌بكر أخذ عنه الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وأخذ هو من الكتاب والسنّة عن الصحابة توفي سنة ٣٢ هـ. الإصابة ٥/٣٢٢ الأعلام ٥/٢٢٨.
(١١) أخرجه الطبري في التفسير مجزءاً ١/١٢١ (١٤٠) (١٤٥) (١٤٧) وقال العلامة أحمد شاكر هذا حديث موضوع وعزاه لابن حبان في كتاب المجروحين في ترجمة إسماعيل بن يحيى بن عبد الله التيمي (٤٤) ص (٨٥) وقال في إسماعيل هذا «كان ممن يروي الموضوعات من الثقات وما لا أهل له عن الإثبات لا تحل الرواية عنه ولا الاحتجاج به بحال ثم ضرب مثلاً من أكاذيبه فروى الحديث بطوله عن محمد بن يحيى بن زين العطار عن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك وذكره ابن كثير في التفسير ١/٣٣ نقلاً عن ابن مردويه من حديث أبي سعيد وحده وأشار إلى رواية الطبري ثم قال: «وهذا غريب جداً وقد يكون صحيحاً إلى من دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات ولم يذكر الحافظ ابن كثير أن في إسناده كذاباً وعزاه السيوطي في الدر ١/٨ لابن جرير وابن عدي في كامله وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ دمشق والثعلبي وقال سند ضعيف جداً.
(١٢) ساقطة في ظ. (١٣) في ظ الله تعالى عند افتتاح كل‌شيء والله أعلم.

سورة الفاتحة

سبع آيات مدنية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

روي عن مجاهد(٢) أنه قال: سورة فاتحة الكتاب مدنية، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: هي مكية. ويقال: [نصفها نزل بمكة ونصفها نزل بالمدينة](٣). [حدثنا](٤) الحاكم أبو الفضل، محمد بن [الحسين](٥) الحدادي قال: حدثنا أبو حامد المروزي(٦) قال: حدثنا إبراهيم بن مرزوق(٧) قال: حدثنا عمر بن يونس(٨) قال:

---

(١) ساقطة في ظ. قال الشوكاني في فتح القدير (١/١٤) أخرج الواحدي في أسباب النزول والثعلبي في تفسيره عن علي رضي الله عنه قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش. وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في دلائل النبوة والثعلبي والواحدي من حديث عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شكا إلى خديجة ما يجده عند أوائل الوحي فذهبت به إلى ورقة فأخبره فقال له إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض فقال لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم حتى بلغ ولا الضالين الحديث وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال لما أسلمت فتيان بني سلمة وأسلم ولد عمرو بن الجموح قالت امرأة عمرو له هل لك أن تسمع من أبيك ما روي عنه فسأل فقرأ عليه: الحمد لله رب العالمين وكان ذلك قبل الهجرة وأخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة فهذا جملة ما استدل به من قال إنها نزلت بمكة واستدل من قال إنها نزلت بالمدينة بما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو سعيد بن الأعرابي في معجمه والطبراني في الأوسط من طريق مجاهد عن أبي هريرة «رن إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب» وأنزلت بالمدينة وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية وغيرهم من طرق عن مجاهد قال: نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة وقيل إنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة جمعا بين هذه الروايات.

(٢) مجاهد بن جبير أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم مات سنة واحد ومائة وقيل غير ذلك. التقريب ٢/٢٢٩.

(٣) في ظ بعضها نزلت بالمدينة وبعضها بمكة. (٤) في ظ قال الفقيه رحمه الله حدثنا. (٥) في ظ الحسن.

(٦) أحمد بن الحسين بن علي المرزوي قاضي خراسان المعروف بابن الطبري الجواهر المضيئة ١/١٦١.

(٧) إبراهيم بن مرزوق الثقفي البصري مقبول. التقريب ١/٤٣.

(٨) عمر بن يونس اليماني الجرشي من الثقات. الجرح والتعديل ٦/١٤٢. التقريب ٢/٦٤.

حدثنا جهضم[١] بن عبد الله عن العلاء بن عبد الرحمن[٢] عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في كتاب الله لسورة ما أنزل الله على نبي مثلها فسأله أبي بن كعب عنها فقال: إني لأرجو أن لا تخرج من الباب حتى تعلمها، فجعلت أتبطأ، ثم سأله أبي عنها فقال: كيف تقرأ في صلاتك؟ قال: بأم الكتاب. فقال: والذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها، وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته [٣]» وقال بعضهم: السبع المثاني، هي السبع الطوال سورة: البقرة، وآل عمران والخمس التي بعدها [وسماها مثاني لذكر القصص فيها مرتين] [٤]. وقال أكثر أهل العلم: هي سورة [الفاتحة] [٥]، وإنما سميت السبع لأنها سبع آيات، وإنما سميت المثاني لأنها تثنى بقراءتها في كل صلاة [٦]. وقال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن حامد الخزعوني، قال: حدثنا علي بن إسحاق [٧]، قال: حدثنا محمد بن مروان [٨] عن محمد بن السائب الكلبي [٩] عن أبي صالح ـ مولى أم هانىء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الشكر لله [١٠]. ومعني قول ابن عباس: الشكر لله، يعني الشكر لله على نعمائه كلها، وقد قيل: (الحمد لله) يعني الوحدانية لله. وقد قيل: الألوهية لله، وروي عن قتادة [١١] أنه قال: معناه الحمد لله الذي لم يجعلنا من المغضوب عليهم ولا الضالين. ثم معنى قوله (الحمد لله) قال بعضهم: (قل) فيه مضمر يعني: قل الحمد لله. وقال بعضهم: حمد الرب نفسه، ليعلم عباده فيحمدوه. وقال أهل اللغة: الحمد هو الثناء الجميل، وحمد الله تعالى هو: الثناء عليه بصفاته الحسنى، وبما أنعم على عباده، ويكون في الحمد معنى الشكر وفيه معنى المدح وهو أعم من الشكر، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد. وقال بعضهم: الشكر أعم لأنه باللسان وبالجوارح وبالقلب، والحمد يكون باللسان خاصة. [كما قال اعملوا آل داود شكراً] [١٢] وروي عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة كل شاكر [١٣]، وذلك أن آدم عليه السلام قال حين عطس: الحمد لله: فقال الله تعالى (يرحمك الله) فسبقت رحمته غضبه [١٤]. وقال الله تعالى لنوح (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين)

---

(١) و(٢) جهضم بن عبد الله بن الفضل وأصله من خراسان روي عنه الثوري وعمر بن يونس صدوق. التقريب ١/١٣٥ الجرح والتعديل ٢/٥٣٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/١٤٣ في كتاب فضائل القرآن (٢٨٧٥) وأخرجه البخاري بنحوه ٨/١٥٦ في التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤٤٧٤) وفي ٨/٣٨١ (٤٧٠٣) وفي ٩/٥٤ (٥٠٠٦).

(٤) في ظ فاتحة الكتاب. (٥) سقط في ظ.

(٦) في ظ وقيل إنما سماها مثاني لذكر القصص فيها مرتين. قال ابن منظور المثاني من القرآن ماثُنِّي مرة بعد مرة وقيل: فاتحة الكتاب قيل لها مثاني لأنها يثنى بها من كل ركعة من ركعات الصلاة وتعاد في كل ركعة.

(٧) علي بن إسحاق بن إبراهيم السمرقندي ثقة صدوق الجرح والتعديل ٦/١٧٥.

(٨) محمد بن مروان السدي الصغير مولى الخطابيين ليس بثقة.

الجرح والتعديل ٨/٨٦. تهذيب التهذيب ٩/٤٣٦.

(٩) محمد بن السائب بن بشر بن عمر بن الحارث الكلبي كان عالماً بالتفسير والأخبار وأيام العرب من أهل الكوفة ورضوه في التفسير. التقريب ١٢/١٦٣.

(١٠) السيوطي في الدر المنثور ١/١١ لابن جرير ـ وهو فيه (١/١٣٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(١١) قتادة بن دعامة السدوسي البصري كان تابعياً عالماً كبيراً توفي ١١٧ هـ وفيات الأعيان ٤/٨٥ أنباه الرواة ٣/٥٣.

(١٢) ساقطة في ظ.

(١٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/١٣٥).

(١٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٩٧ وأخرجه الترمذي أيضاً ٩/٣٠٤ كما في التحفة والحاكم في المستدرك ٢/٢٦١ والحميدي =

وقال إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق) وقال في قصة داود وسليمان (وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) وقال لمحمد عليه السلام (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) وقال أهل الجنة: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) فهي كلمة كل شاكر. وقوله تعالى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيد العالمين. وهو رب كل ذي روح [تدب][1] على وجه الارض. ويقال: معنى قوله (رب العالمين) خالق الخلق ورازقهم ومربيهم ومحولهم من حال الى حال، من نطفة الى علقة، [ومن علقة][2] الى مضغة. والرب في اللغة: هو السيد قال الله تعالى (ارجع الى ربك) يعني إلى سيدك. والرب: هو المالك، يقال: رب الدار، ورب الدابة والرب هو المربي من قولك: ربى يربي [3]. وقوله (العالمين) كل ذي روح، ويقال: كل من كان له عقل يخاطب مثل بني آدم والملائكة والجن ولا يقع على البهائم ولا على غيرها. وروي [4]عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، وإن دنياكم منها عالم واحد[5]» ويقال: كل صنف [من الحيوان][6] عالم على حده. قوله عز وجل ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال في رواية الكلبي هما إسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر. وقال بعض أهل اللغة: هذا اللفظ شنيع فلو قال: هما إسمان لطيفان لكان أحسن ولكن معناه عندنا ـ والله أعلم ـ أنه أراد بالرقة الرحمة يقال: رق فلان [لفلان][7] إذا رحمه. يقال: رق يرق[8]إذا رحم وقوله: أحدهما أرق من الآخر. قال بعضهم: الرحمن أرق لأنه أبلغ في الرحمة لأنـه يقع على المؤمنين والكافرين. وقال بعضهم: الرحيم أرق لأنه في الدنيا وفي الآخرة. وقال بعضهم: كل واحد منهما أرق من الآخر من وجه، فلهذا المعنى لم يبين، وقال أحدهما أرق من الآخر، يعني كل واحد منهما أرق من الآخر[9]. قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: ملك بغيـر الألف وقرأ عـاصم والكسائي بالألف[10] فأما من قرأ[11] بالألف [12] قال: لأن [المالك][13] أبلغ في الوصف، لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال ملك، إلا لملك من ملوك، وأما الذي قرأ: ملك [بغير ألف قال][14] «لأن [الملك][15] أبلغ في الوصف لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك، وإذا قلت فلان مالك هذه البلدة كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة، وروى مالك بن دينار[16] [عن][17] [أنس بن مالك][18] قال:

= (١١٢٦) كما في مسنده وابن أبي عاصم في السنة ١/٢٧٠ وابن أبي الدنيا في حسن الظن (١٣) والسيوطي في الدر المنثور (٩٦).

(١) في ظ [د ب].
(٢) ساقطة في ظ.
(٣) في ظ (تربية).
(٤) في ظ (أبي كعب عن).
(٥) أخرجه الطبري في التفسير بنحوه ١/١٤٦ وابن كثير ١/٤٥ والسيوطي في الدر المنثور ١/١٣ ونسباه لابن أبي حاتم وقال ابن كثير وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح.
(٦) في ظ [منها].
(٧) في ظ [فلاناً].
(٨) في ظ [رقة].
(٩) في ظ [ويقال كل واحد منها أرق من الآخر].
(١٠) في ظ [مالك].
(١١) في ظ [ملك].
(١٢) ساقطة في ظ. من قرأ «مالك» بالمد فعلى وزن «سامع» اسم فاعل، ومن قرأ «ملك» بدون ألف فعلى وزن «فَعِلَ» صفة مشبهة، بمعنى قاضي يوم الدين والقراءتان حسنتان متواترتان عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصح الطرق.
(١٣) في ظ «الملك».
(١٤) ساقطة في ظ.
(١٥) في ظ مالك.
(١٦) مالك بن دينار السلمي الناجي مولاهم أبو يحيى البصري الزاهد يكتب المصاحف بالأجرة كان ورعاً توفي في البصرة سنة (١٣١) هـ. الأعلام ٥/٢٦٠ ـ ٢٦١ وفيات الأعيان ١/٤٤٠.
(١٧) في ظ عن.
(١٨) من مصادر الحديث وهو مروي من غير وجه.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي يفتتحون الصلاة بـ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وكلهم يقرأون (مالك يوم الدين) بالألف[١]. قال الفقيه ـ رحمه الله ـ: سمعت أبي يحكي [بإسناده][٢] عن أبي عبد الله محمد بن شجاع البلخي يقول: كنت أقرأ [بقراءة][٣] الكسائي مالك يوم الدين بالألف فقال لي بعض أهل اللغة: الملك أبلغ في الوصف فأخذت بقراءة حمزة (وكنت أقرأ)[٤]﴿ملك يوم الدين﴾فرأيت في المنام كأنه أتاني آت فقال لي: لم حذفت الألف من مالك؟ أما بلغك الخبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «اقرأوا القرآن فخما مفخماً»[٥] [فلم أترك القراءة بـ: «ملك» حتى أتاني بعد ذلك آت في المنام فقال لي:][٦] لم حذفت الألف من مالك؟ أما بلغك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات. فلم نقصت من حسناتك عشراً في كل قراءة؟ فلما أصبحت أتيت قطرباً وكان إماماً في اللغة ـ فقلت له: ما الفرق بين ملك ومالك؟ فقال: بينهما فرق كثير. فأما ملك فهو ملك من الملوك، وأما مالك فهو مالك الملوك. فرجعت إلى قراءة الكسائي[٧]. ثم معنى قوله «مالك» يعني قاضي وحاكم (يوم الدين) يعني يوم الحساب كما قال تعالى (ذلك الدين القيم) [يعني الحساب القيم. وقيل أيضاً: معنى يوم الدين يعني يوم القضاء. كما قال الله تعالى (وما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني في قضائه][٨] وقيل أيضاً: يوم الدين أي يوم الجزاء[٩]، كما يقال: كما تدين تدان[١٠]. يعني كما تجازي تجازى به. فإن قيل: ما معنى تخصيص يوم الدين؟ وهو مالك يوم الدين وغيره. قيل له: لأن في الدنيا، كانوا منازعين له في الملك. مثل فرعون ونمرود وغيرهما. وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له. كما قال تعالى: (لمن الملك

---

(١) البخاري ٢/٢٢٦ ـ ٢٢٧ في كتاب الأذان باب ما يقول بعد التكبير (٧٤٣) ومسلم ١/٢٩٩، ٣٠٠ في الصلاة، باب حجة من قال لا يجهر بالبسملة (٥٢/٣٩٩) وأخرجه الترمذي من حديث ابن عبد الله بن مغفل ٢/١٣ في أبواب الصلاة باب ما جاء في ترك بسم الله الرحمن الرحيم (٢٤٤) وقال حديث حسن وقال الزيلعي وأخرجه النسائي وابن ماجه وقال النووي في الخلاصة وقد ضعف الحفاظ هذا الحديث وأنكروا على الترمذي تحسينه كابن خزيمة وابن عبد البر والخطيب البغدادي وقالوا أن مداره على ابن عبد الله بن مغفل وهو مجهول ثم نقله من معجم الطبراني من طريق أبي سفيان طريف بن شهاب عن يزيد بن عبد الله بن مغفل عن أبيه وهو أيضاً في مسند أحمد ٤/٨٥ بإسناد صحيح.

(٢) ساقطة في ظ. (٣) في ظ [بحرف]. (٤) في أ [حمزة وكنت أقرأ].

(٥) ولذلك كره قوم الإمالة لحديث نزل القرآن بالتفخيم والحديث في الحاكم ١/٢٣١ وأجيب عنه بأوجه: ذكرها السيوطي في الإتقان ١/٢٦١ ـ ٢٦٢ أحدها.

(٦) في ظ [فلم أترك القراءة بملك حتى أتاني بعد ذلك آت فقال لي].

(٧) لا ينبغي تفضيل قراءة على أخرى استناداً إلى رؤية منامية، فالقراءة تثبت بالسند الصحيح المتواتر ـ قال ابن الجزري:

فكل ما وافق وَجْه نحو ... وكان للرسم احتمالاً لا يحوي
وصَحّ إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يخْتَل ركن أثبتِ ... شذوذه، لو أنّه في السَبْعَةِ

انظر / طيبة النشر «المقدمة». والنشر في القراءات العشر لابن الجزري ج ١.

(٨) في ظ [وقيل أيضاً معنى الدين يعني يوم القضاء كما قال الله تعالى ﴿ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ يعني: في قضائه].

(٩) اللسان: دين.

(١٠) جزء بيت نسبه ابن منظور إلى خويلد بن نوفل الكلابي ونصه:

يا حَارِ أيقن أن ملكك زائل ... واعلمْ بأنَّ كما تدينُ تُدَان
(اللسان: دين)

اليوم) فأجاب جميع الخلق (لله الواحد القهار) فكذلك ههنا. قال: (مالك يوم الدين) يعني في ذلك اليوم لا يكون مالك، ولا قاض ولا مجاز غيره. قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو تعليم، علم المؤمنين كيف يقولون إذا قاموا بين يديه في الصلاة فأمرهم بأن يذكروا عبوديتهم وضعفهم حتى يوفقهم ويعينهم فقال (إياك نعبد) أي نوحد ونطيع. وقال بعضهم (إياك نعبد) يعني إياك نطيع طاعة، نخضع فيها لك. وقوله تعالى (وإياك نستعين) يقول: [بك نستوثق][١] على عبادتك وقضاء الحقوق. وفي هذا دليل على أن الكلام قد يكون بعضه على وجه المغايبة وبعضه على وجه المخاطبة، لأنه افتتح السورة بلفظ المغايبة وهو قوله (الحمد لله) ثم ذكر بلفظ المخاطبة، فقال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا كما قال في آية أخرى (وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك) فذكر بلفظ المخاطبة، ثم قال (وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) [هذا ذكر][٢]على المغايبة. ومثل هذا في القرآن كثير. قوله تعالى﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ رويت القراءتان عن ابن كثير أنه قرأ «السراط» بالسين وروي عن حمزة أنه قرأ بالزاي وقرأ الباقون بالصاد[٣] وكل ذلك جائز، لأن مخرج السين والصاد واحد وكذلك الزاي مخرجه منهما قريب، والقراءة المعروفة بالصاد [اهدنا الصراط المستقيم]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: [اهدنا][٤] يعني أرشدنا «الصراط المستقيم» وهو الإسلام [فإن قيل: أليس هو الطريق المستقيم؟ وهو الإسلام فما][٥]معنى السؤال؟ قيل له: الصراط المستقيم، هو الذي ينتهي بصاحبه إلى المقصود. فانما يسأل العبد ربه أن يرشده إلى الثبات على الطريق الذي ينتهي به إلى المقصود، ويعصمه من السبل المتفرقة. وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: خط لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطاً مستقيماً، وخط بجنبه خطوطاً، ثم قال: إن هذا الصراط المستقيم وهذه السبل، وعلى رأس كل طريق شيطان يدعو إليه ويقول: هلم إلى الطريق[٦] وفي هذا نزلت هذه الآية (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فلهذا قال: اهدنا الصراط المستقيم واعصمنا من السبل المتفرقة قال الكلبي: أمتنا على دين الإسلام. وروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: (اهدنا [الصراط المستقيم])[٧] يعني ثبتنا عليه. ومعنى قول علي: ثبتنا عليه. يعنى احفظ قلوبنا على ذلك، ولا تقلبها بمعصيتنا[٨]. وهذا موافق لقول الله تعالى (ويهديك صراطا مستقيما)[٩] فكذلك ههنا. قوله تعالى ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني طريق الذين مننت عليهم، فحفظت قلوبهم على الإسلام حتى ماتوا عليه. وهم أنبياؤه وأصفياؤه وأولياؤه. فامنن علينا كما مننت عليهم. اخبرنا الفقيه: أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر

---

(١) في ظ بل نستوفق.

(٢) في ظ [جاءتها].

(٣) قرأ قنبل ـ وهو الراوي الثاني ـ عن ابن كثير (السراط)، (سراط) بالسين. وقرأ خلف عن حمزة باشمام الزاي، ووافقه خلاد في (اهدنا الصراط).

انظر إتحاف فضلاء البشر، ونهاية القول المفيد.

(٤) سقط في ظ. (٥) ما بين المعقوفين ساقط في أ.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤٣٥، ٤٦٥ في مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأخرجه الدارمي في السنن ١/ ٦٧ في المقدمة باب في كراهية أخذ الرأي والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف ٧/ ٢٥ (٩٢١٥) و٧/ ٤٩ (٩٢٨١) وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٥٥ لأحمد وعبد بن حميد والنسائي والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه.

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) في أ [بمعصيتك].

(٩) في ظ [يعني ثبتك عليه وقال في آية أخرى «ويهديكم صراطاً مستقيماً»].

أحمد بن محمد بن سهل[١] القاضي قال: حدثنا أحمد بن جرير[٢]، قال: حدثنا عمر بن اسماعيل بن مجالد[٣] قال: حدثنا هشام بن القاسم قال: حدثنا حمزة بن المغيرة[٤] عن عاصم[٥] عن أبي العالية[٦] في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم) قال: هو النبي ـ عليه السلام ـ وصاحباه من بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. قال عاصم: فذكرت ذلك للحسن البصري فقال: صدق والله أبو العالية ونصح[٧]. وقوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيهِمْ﴾ أي غير طريق اليهود. يقول: لا تخذلنا بمعصيتنا، كما خذلت اليهود فلم تحفظ قلوبهم، حتى تركوا الإسلام ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني ولا النصارى، لم تحفظ قلوبهم وخذلتهم بمعصيتهم حتى تنصروا. وقد أجمع المفسرون أن المغضوب عليهم أراد به اليهود، والضالين أراد به النصارى. فإن قيل: أليس النصارى من المغضوب عليهم؟ واليهود أيضاً من الضالين؟ فكيف صرف المغضوب[٨] إلى اليهود، وصرف الضالين إلى النصارى؟ قيل له: إنما عرف ذلك بالخبر واستدلالا بالآية: فأما الخبر فما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلا سأله وهو بوادي القرى من المغضوب عليهم؟ قال: اليهود، قال: ومن الضالين؟ فقال: النصارى وأما الآية فلأن الله تعالى قال في قصة اليهود: (فباؤا بغضب على غضب) وقال تعالى في قصة النصارى (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)[٩] (آمين) ليس من السورة. ولكن روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يقوله، ويأمر به[١٠]، ومعناه ما قال ابن عباس: يعني كذلك يكون، وروي عن مجاهد أنه قال: هو

---

(١) أحمد بن محمد بن سهل المزكي كان شيخ أصحاب أبي حنيفة توفي سنة ٣٥٢ هـ. الجواهر المضيئة ١/٢٧٠.

(٢) أحمد بن جرير البلخي أبو حامد وهو ابن جرير بن المسيب صدوق. الجرح والتعديل ٢/٤٥.

(٣) في أ [ابن مجاهد. وهو عمر بن إسماعيل بن مجالد بن سعيد الكوفي الهمداني نزيل بغداد قال يحيى بن معين أنه ليس بشيء كذاب رجل سوء وذلك لأنه حدّث بأحاديث لا أصل لها. تهذيب التهذيب ٧/٤٢٧. الجرح والتعديل ٦/ ٩٩.

(٤) حمزة بن المغيرة بن نشيط الكوفي من الثقات. تهذيب التهذيب ٦/٢٧٠.

(٥) عاصم بن سليمان الأصولي أبو عبد الرحمن من حفاظ البصرة التابعي ثقة اشتهر بالزهد والعبادة /تهذيب التهذيب ٥/٤٢. الجرح والتعديل ٦/٣٤٣.

(٦) رفيع بن مهران الرياحي مولاهم البصري أسلم بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنتين من كبار التابعين مجمع على توثيقه. تهذيب التهذيب ٣/٨٤.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٥٩ في كتاب التفسير / باب شرح الصراط المستقيم وانظر الدر المنثور ١/١٥.

(٨) في ظ [عليهم].

(٩) في ظ [وقوله آمين].

(١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري ٢/٢٦٢ كتاب الأذان باب جهر الإمام بالتأمين ٧٨٠، أخرجه مسلم ١/٣٠٧ كتاب الصلاة باب التسميع والتحميد والتأمين ٧٢/٤١٠.

وفي رواية إذا أمن القارىء فأمنوا فإن الملائكة تؤمّن فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

أخرجه البخاري ١١/٢٠٠ كتاب الدعوات باب التأمين ٦٤٠٢.

وفي رواية إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين وإن الإمام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

أخرجه البخاري ٢/٢٦٦ كتاب الأذان باب جهر المأموم بالتأمين ٧٨٢ دون قوله فإن الملائكة تقول آمين وإن الإمام يقول آمين، أخرجه بلفظه أحمد ٢/٢٣٣، ٢٧٠ في مسند أبي هريرة، النسائي في المجتبى ٢/١٤٤ كتاب الافتتاح باب جهر الإمام باالتأمين ٣٣.

اسم من أسماء الله تعالى ويكون معناه: يا الله استجب دعاءنا. وقال بعضهم: هي لغة بالسريانية. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما حسدتكم اليهود في شيء، كحسدهم في (آمين)يعني: أنهم يعرفون ما فيه من الفضيلة[١]. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: (آمين) خاتم رب العالمين، يختم به دعاء عباده المؤمنين. وقال مقاتل: هو قوة للدعاء واستنزال للرحمة. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين؟ قال: رب افعل[٢]. ويقال: فيه لغتان (أمين) بغير مد، و(آمين) بالمد[٣]، ومعناهما واحد وقد جاء في أشعارهم/ كلا الوجهين. قال القائل[٤]:

تباعد عني فُطْحُل[٥] اذ دَعَوْته ... آمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وقال الآخر[٦]:

يا ربِّ لا تَسْلُبَنِّي حُبَّها أبدا ... ويرحم الله عبدا قال: آمينا

وصلى الله على سيدنا محمد

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١/٢٧٨ في كتاب إقامة الصلاة / باب الجهر بآمين (٨٥٦) وقال البوصيري في الزوائد ١/٢٩٧ هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته ورواه أحمد في مسنده وابن خزيمة في صحيحه والطبراني في معجمه الكبير ورواه البيهقي في السنن ومن طريق محمد بن الأشعث عن عائشة رضي الله عنها والبخاري أيضاً في الأدب المفرد (٩٨٨) وذكره المنذري في الترغيب ١/٣٣٠ والسيوطي في الدر المنثور ١/٢١٧، ٢/١٨٩ وابن حجر في الفتح ١١/٢٠٠٢٤ وعبد الرزاق في المصنف (٢٦٤٩) وابن عبد البر في التمهيد (١٥/٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/١٧.

(٣) قال ابن منظور وآمين وأمين: كلمة تقال في إثر الدعاء، قال الفارسي: هي جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لي. (اللسان: أمن)

(٤) البيت في اللسان غير منسوب (أمن) وفيه (سألته) بدل (دعوته).

(٥) في أ [مخطب].

(٦) البيت نسبه ابن منظور لعمرو بن ربيعة انظر لسان العرب مادة (أمن).

سُورَةُ البَقَرَةِ (١)

مدنية وهي مائتان وسبع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

قال الفقيه: حدثني أبي رحمه الله، قال: حدثني محمد بن حامد، قال: حدثنا علي بن اسحاق قال: حدثنا محمد بن مروان عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ يعني: أنا الله أعلم.

---

(١) وهذه السورة مترامية أطرافها وأساليبها ذات أفنان قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيبها فسطاط القرآن. فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسان وعلى الناظر أن يترقب تفاصيل منها فيما يأتي لنا من تفسيرها ولكن هذا لا يحجم بنا عن التعرض إلى لائحات منها وقد حيكت بنسج المناسبات والاعتبارات البلاغية من لُحمة محكمة في نظم الكلام وسدى متين من فصاحة الكلمات.

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.

وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية وأساليب الكتب التشريعية وأساليب التذكير والموعظة. يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنن الافانين ويحضر لنا من أغراضها أنها ابتدئت بالرمز إلى تحدي العرب المعاندين تحدياً إجمالياً بحروف التهجي المفتتح بها رمزاً يقتضي إستشرافهم لما يرد بعده وانتظارهم لبيان مقصده فأعقب بالتنويه بشأن القرآن فتحول الرمز إيماء إلى بعض المقصود من ذلك الرمز له أشد وقعاً على نفوسهم فتبقى في انتظار ما يتعقبه من صريح التعجيز الذي سيأتي بعد قوله ﴿**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله**﴾ الآيات.

فعدل بهم إلى ذات جهة التنويه بفائق صدق هذا الكتاب وهديه وتخلص إلى تصنيف الناس تجاه تلقيهم هذا الكتاب وانتفاعهم بهديه أصنافاً أربعة ﴿**وكانوا قبل الهجرة صنفين**﴾ بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك التلقي وإذ قد كان أخص الأصناف انتفاعاً بهديه هم المؤمنين بالغيب المقيمين الصلاة يعني المسلمين ـ ابتدىء بذكرهم ولما كان أشد الأصناف عناداً وحقداً صنفي المشركين الصرحاء والمنافقين لف الفريقان لفاً واحداً فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة ثم خص بالإطناب صنف أهل النفاق تشويهاً لنفاقهم وإعلاناً لدخائلهم ورد مطاعنهم، ثم كان خاتمة ما قرعت من أنوفهم صريح التحدي الذي رمز إليه بدءاً تحدياً يلجئهم إلى الاستكانة ويخرس ألسنتهم عن التطاول والإبانة ويلقي في قرارات أنفسهم مذلة الهزيمة وصدق الرسول الذي تحداهم فكان ذلك من رد العجز على الصدر فاتسع المجال لدعوة المنصفين إلى عبادة الرب الحق الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض وأنعم عليهم بما في الأرض جميعاً، وتخلص إلى صفة بدء خلق الإنسان فإن في ذلك تذكيراً لهم بالخلق الأول قبل أن توجد أصنامهم التي يزعمونها من صالحي قوم نوح ومن بعدهم، ومنّه على النوع بتفضيل أصلهم على مخلوقات هذا العالم وبمزيته بعلم ما لم يعلمه أهل الملأ الأعلى وكيف نشأت عداوة الشيطان له ولنسله لتهيئة نفوس السامعين لاتهام شهواتها ولمحاسبتها على دعواتها فهذه المنة التي شملت كل الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها كانت مناسبة للتخلص إلى منة عظمى تخص الفريق الرابع وهم أهل الكتاب الذين هم أشد الناس مقاومة لهدي القرآن وأنفذ الفرق قولاً في عامة العرب لأن أهل الكتاب يومئذ هم أهل العلم ومظنة=

[ومعنى قول ابن عباس (أنا الله أعلم)[1] يعني][2] الألف: أنا، واللام: الله، والميم: أعلم، لأن القرآن نزل بلغة

= اقتداء العامة لهم من قوله ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي**﴾ الآيات فأطنب في تذكيرهم بنعم الله وأيامه لهم ووصف ما لاقوا به نعمه الجمة من الانحراف عن الصراط السوي انحرافاً بلغ بهم حد الكفر وذلك جامع لخلاصة تكوين أمة إسرائيل وجامعتهم في عهد موسى ثم ما كان من أهم أحداثهم مع الأنبياء الذين قفوا موسى إلى أن تلقوا دعوة الإسلام بالحسد والعداوة حتى على الملك جبريل وبيان أخطائهم لأن ذلك يلقي في النفوس شكا في تأهلهم للاقتداء بهم. وذكر من ذلك نموذجاً من اخلاقهم في تعلق الحياة ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**﴾ ومحاولة العمل بالسحر ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين**﴾ الخ وأذى النبي بموجة الكلام ﴿**لا تقولوا راعنا**﴾.

ثم قرن اليهود والنصارى والمشركين في قرن حسدهم المسلمين والسخط على الشريعة الجديدة ﴿**ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين** - إلى قوله - **ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ ثم ما أثير من الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق أنه هو المحق ﴿**وقالت اليهود ليست النصارى على شيء** - إلى - **يختلفون**﴾ ثم خص المشركين بأنهم أظلم هؤلاء الأصناف الثلاثة لأنهم منعوا المسلمين من ذكر الله في المسجد الحرام وسمحوا بذلك في خرابه وأنهم تشابهوا في ذلك هم واليهود والنصارى واتحدوا في كراهية الإسلام.

والاحتراز عن إجابتها في الذين كفروا منهم وأن الإسلام على أساس ملة إبراهيم وهو التوحيد وأن اليهودية والنصرانية ليستا ملة إبراهيم وأن من ذلك الرجوع إلى استقبال الكعبة ادخره الله للمسلمين أية على أن الإسلام هو القائم على أساس الحنيفية وذكر شعائر الله بمكة وإبكات أهل الكتاب في طعنهم على تحويل القبلة وإن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾ وذكروا بنسخ الشرائع لصلاح الأمم وأنه لا بدع في نسخ شريعة التوراة أو الإنجيل بما هو خير منهما. ثم عاد إلى محاجة المشركين بآثار صنعة الله ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الخ**﴾ ومحاجة المشركين في يوم يتبرأون فيه من قادتهم وإبطال مزاعم دين الفريقين في محرمات من الأكل ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ وقد كمل ذلك بذكر صنف من الناس قليل وهم المشركون الذين لم يظهروا الإسلام ولكنهم أظهروا مودة المسلمين ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا**﴾.

ولما قضى حق ذلك كله بأبدع بيان وأوضح برهان انتقل إلى قسم تشريعات الإسلام إجمالاً بقوله ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب**﴾ ثم تفصيلاً: القصاص الوصية الصيام الاعتكاف، الحج الجهاد ونظام المعاشرة والعائلة والمعاملات المالية والإنفاق في سبيل الله والصدقات والمسكرات واليتامى والمواريث والبيوع والربا والديون والإشهاد والرهن والنكاح وأحكام النساء والعدة والطلاق والرضاع والنفقات والأيمان.

وختمت السورة بالدعاء المتضمن لخصائص الشريعة الإسلامية وذلك من جوامع الكلم فكان هذا الختام تذليلاً وفذلكة ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه**﴾ الآيات.

وكانت في خلال ذلك كله أغراض شتى سيقت في معرض الاستطراد في متفرق المناسبات تجديداً لنشاط القارىء والسامع كما يسفر وجه الشمس إثر نزول الغيوث الهوامع وتخرج بوادر الزهر عقب الرعود القوارع من تمجيد الله وصفاته ﴿**الله لا إله إلاّ هو**﴾ ورحمته وسماحة الإسلام وضرب أمثال ﴿**أوكَصَيِّب**﴾ واستحضار نظائر ﴿**وإنَّ من الحجارة**﴾ ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم**﴾ وعلم وحكمة ومعاني الإيمان والإسلام وتثبيت المسلمين ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر**﴾ والكمالات الأصلية والمزايا التحسينية وأخذ الأعمال والمعاني من حقائقها وفوائدها لا من هيئاتها وعدم الاعتداد بالمصطلحات إذا لم ترم إلى غايات ﴿**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**﴾ ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم**﴾ ﴿**وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾ والنظر والاستدلال ونظام المحاجة وأخبار الأمم الماضية والرسل وتفاضلهم واختلاف الشرائع.

انظر التحرير ١/٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦.

(١) أخرجه الطبري عن شيخه عن وكيع: عن أبي كريب القاضي وعن سفيان بن وكيع كلاهما عن وكيع عن شريك وهو ابن عبد الله النخعي القاضي ١/٢٠٧ (٢٣٨).

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من أ.

العرب، والعرب قد كانت تذكر حرفاً وتريد به تمام الكلمة. ألا ترى إلى قول القائل[١]:

قلت لها قفي لنا قالت قاف لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف[٢]

يعني بالقاف: قد وقفت. وقال الكلبي: هذا قسم، أقسم الله تعالى بالقرآن، أن[٣] هذا الكتاب الذي أنزل على (قلب)[٤] محمد صلى الله عليه وسلم هو الكتاب الذي نزل من عند الله تعالى لا ريب فيه. وقال بعض أهل اللغة إن هذا الذي قال الكلبي لا يصح، لأن جواب القسم معقود على حروف مثل (ان، وقد، ولقد، وما، واللام) وهنا لم نجد حرفاً من هذه الحروف فلا يجوز أن يكون يمينا. ولكن الجواب أن يقال: موضع القسم قوله (لا ريب فيه) فلو أن انساناً[٥]حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه لكان الكلام سديداً[٦] وتكون لا جوابا للقسم، فثبت أن قول الكلبي صحيح سديد. فإن قيل: ايش الحكمة في القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين، مصدق ومكذب، فالمصدق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم. قيل له القرآن نزل بلغة العرب، والعرب اذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه فالله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده[٧]. وقد قيل الٓمٓ: الألف الله تعالى، واللام: جبريل، والميم: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكون معناه: الله الذي أنزل جبريل على محمد بهذا القرآن لا ريب فيه. وقال بعضهم: كل حرف هو افتتاح اسم من أسماء الله تعالى. فالألف مفتاح اسمه: الله، واللام مفتاح اسمه اللطيف، والميم مفتاح اسمه: مجيد، ويكون معناه: الله اللطيف المجيد أنزل الكتاب[٨].وروي عن محمد بن كعب[٩] بن علي الترمذي[١٠] أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك الا نبي أو ولي، ثم بين ذلك في جميع السور ليفقه الناس. وروي عن الشعبي أنه قال: إن لله تعالى سراً جعله في كتبه،وإن سره في القرآن هو الحروف المقطعة[١١] وروي عن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر وعن علي رضي الله عنه: هو اسم من أسماء الله تعالى، فرقت حروفه في السور. يعني أن ههنا قد ذكر (الم) وذكر: (آلر) في موضع آخر، وذكرٍ (حم) في موضع آخر (نون) في موضع .فاذا جمعت يكون (الرحمن) وكذلك سائر الحروف اذا جمع يصير اسما من أسماء الله[١٢] وذكر قطرب أن المشركين كانوا لا يستمعون القرآن كما قال الله تعالى (والغوا فيه لعلكم تغلبون) فأراد أن يسمعهم شيئاً لم يكونوا سمعوه ليحملهم ذلك إلى الاستماع حتى تلزمهم الحجة وقال بعضهم: إن المشركين كانوا يقولون: لا

---

(١) البيت للوليد بن عقبة انظر تفسير الطبري ـ تحقيق محمود شاكر ٢١٢/١ والشطرة الأولى في اللسان / وقف.

(٢) في أ

[لا تحسبن أنت أنا نسينا الإيجاف قلت لها قفي فقالت قاف]

(٣) في أ [لأن].

(٤) ساقطة في ظ.

(٥) في ظ [حالفاً].

(٦) ذكر ذلك القرطبي نقلاً عن مصنِّفنا رحمه الله تعالى (١٥٦/١).

(٧) انظر القرطبي نقلاً عن المصنِّف المصدر السابق.

(٨) في ظ [على محمد].

(٩) ساقطة في ظ.

(١٠) محمد بن علي بن الحسن بن بشير أبو عبد الله الحكيم الترمذي باحث صوفي عالم بالحديث وأصول الدين من أهل (ترمذ) من تصانيفه الرياضة، وأدب النفس، الصلاة ومقاصدها. توفي سنة ٣٢٠ هـ. الأعلام ٢٧٢/٦.

(١١) الدر المنثور ٣٢/١.

(١٢) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ٢٢/١.

نفقه هذا القرآن، لأنهم قالوا: (قلوبنا في أكنة) فأراد الله أن يبين لهم أن القرآن مركب على الحروف التي ركبت [عليها][١] السنتكم [يعني هو على لغتكم][٢]، ما لكم لا تفقهون؟ وانما أراد بذكر الحروف تمام الحروف، كما أن الرجل يقول: علمت ولدي: أ، ب، ت، ث، وانما يريد جميع الحروف ولم يرد به الحروف الأربعة خاصة. وقال بعضهم: هو من شعار السور وكان اليهود أعداء الله فسروه على حروف الجمل، لأنه ذكر أن جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب، وشعبة بن عمرو ومالك بن الصيف دخلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا: بلغنا أنك قرأت: (الٓمٓ ذلك الكتاب) فإن كنت صادقا، فيكون بقاء أمتك احدى وسبعين سنة، لأن الألف: واحد، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قالوا له: وهل غير هذا؟ قال: نعم. (المصٓ) فقالوا: هذا اكثر لأن (ص)[٣] تسعون. فقالوا: هل غير هذا؟ قال: نعم. (آلر) فقالوا: هذا أكثر، لأن (الراء): مائتان. ثم ذكر (آلٓمٓر) فقالوا: خلطت علينا [يا محمد][٤] لا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير؟ وانما أدركوا من القرآن مقدار عقولهم وكل انسان يدرك العلم بمقدار عقله. وكل ما ذكر في القرآن من الحروف المقطعة، فتفسيره نحو ما ذكرنا ها هنا[٥] [والله أعلم

(١) ساقطة في ظ.
(٢) ساقطة في ظ.
(٣) في أ [الصلاة].
(٤) ساقط في ظ.
(٥) يلاحظ على الحروف المقطعة في أوائل السور ما يلي: ـ

أولاً: أن عدد السور التي ابتدئت بها تسع وعشرون سورة، ومعظمها من السور المكية عدا البقرة وآل عمران، ومجموع ما وقع من حروف الهجاء في أوائل السور أربعة عشر حرفاً وهي نصف حروف الهجاء بعضها تكرر في سور وبعضها لم يتكرر، وهي من القرآن لا محالة، ومن المتشابه في تأويلها.

ثانياً: لا خلاف أن هذه الفواتح أسماء لحروف التهجي التي ينطق في الكلام بمسمياتها وأن مسمياتها الأصوات المكيفة بكيفيات خاصة تحصل في مخارج الحروف.

ثالثاً: اختلف العلماء في المعنى المقصود من حروف التهجي التي افتتحت بها بعض السور القرآنية وقد سردها المؤلف رحمه الله ونحن نوجزها كلها في رأيين.

الرأي الأول: أن المعنى المقصود منها غير معروف، خص من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه. وإلى هذا الرأي ذهب ابن عباس في إحدى الروايات عنه ـ كما ذهب إليه الشعبي، وسفيان الثوري، وغيرهما من العلماء فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال «إن لكل كتاب سراً، وإن سر هذا القرآن فواتح السور» وروي عن ابن عباس أنه قال: عجزت العلماء عن إدراكها العلماء عن إدراكها . وعن علي رضي الله عنه أنه قال: « إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي» وفي رواية أخرى للشعبي أنه قال: سر الله فلا تطلبوه.

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها.

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يفهم المراد منها، وكذلك بعض أصحابه المقربين، ولكن الذي ننفيه أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور. وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأي لا مجال لذكرها هنا.

أما الرأي الثاني: فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي: ـ

١ ـ أن هذه الحروف أسماء للسور، بدليل قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح».وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها، كسورة (ص) وسورة (يس) الخ.

=

بالصواب][1]. قوله عز وجل ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي هذا الكتاب[2]﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك فيه أنه مني، لم يختلقه محمد من تلقاء نفسه. وقد يوضع ذلك بمعنى هذا كما قال القائل:

أقول له والرمح يأْطِرُ مَتْنَهُ تأمل خفافاً انني أنا ذلكا[3]

يعني هذا. وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي [كنت وعدتك يوم الميثاق أن أوحيه اليك، وقال بعضهم: معناه ذلك الكتاب الذي][4] وعدت في التوراة والإنجيل أن أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروي عن زيد بن أسلم[5] أنه قال: أراد بالكتاب اللوح المحفوظ، يعني الكتاب ثبت في اللوح المحفوظ. وقوله

= ولا يخلو هذا القول عن الضعف، لأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة، لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه وأيضاً فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها في ذاتها.

٢ـ وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى.

٣ـ وقيل إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله تعالى، وبعضها من صفاته، فمثلاً «الم» أصلها أنا الله أعلم.

٤ـ وقيل إنها اسم الله الأعظم، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال والتي أوصلها الفخر الرازي في تفسيره والسيوطي في الإتقان وغيرهما إلى أكثر من عشرين قولاً.

٥ـ ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن فكأنَّ الله تعالى يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظوماً من حروف هو من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم فإن كنتم في شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك.

ومما يشهد بصحة هذا الرأي أن الآيات التي تلي هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب وكونه معجزة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكثيراً ما تبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة، مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ أو ضمناً مثل قوله تعالى في أول سورة الأعراف ﴿ألمص، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به...﴾ وأيضاً فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى نهايتها إثبات الرسالة عن طريق هذا الكتاب المنزل.

هذه خلاصة موجزة لآراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع إلى تفسير الفخر الرازي ٢/٣ ـ ١٣، والجامع لأحكام القرآن ١٠٨/١ ـ ١١٠ والكشاف ١٣/١، ١٤ والبرهان في علوم القرآن ٢١٤/١ ـ ٢٢٦ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢١/٣ ـ ٣٠ وروح المعاني ٩٨/١ ـ ١٠٤ وتفسير سورة الأعراف للدكتور أحمد السيد الكومي ط دار الجيل للطباعة بمصر.

(١) من ظ.

(٢) في أ الذي.

(٣) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد، من بني سليم بن منصور و «نُدْبَة» أمه وهو ابن عم صخر والخنساء، شاعر فارس، أحد أغربة العرب، مخضرم، عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم، ولم يرتد حين ارتدت بنو سليم بل لاَمَهُم على ردتهم في شعر له.. ترجمته في الاستيعاب ٤٥٠/٢ تحقيق البجاوي ط نهضة مصر، والإصابة ٣٢٦٩، وأسد الغابة ١٣٨/٢، ١٣٩ ط الشعب، المعارف لابن قتيبة ٣٢٥ تحقيق د/ ثروت عكاشة، الخزانة ١٥/٤، الأغاني ٧٤/١٨ وما بعدها ط دار الكتب، الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٤١.

والبيت في ديوانه ـ برقم ٩ ص (٦٤). وفي الخزانة وغيرهما يَأْطِرُ: يثني ويلوي ـ والمخاطب هنا: مالك بن حمار، سيد بني شمخ الذي طعنه خفاف فقتله ثائراً لابن عمه معاوية بن الشريد السلمي.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من أ.

(٥) زيد بن أسلم العدوي أبو عبد الله مولاهم أبو أسامة من أهل المدينة ثقة كثير الحديث وله كتاب في التفسير تهذيب التهذيب ٣٩٥/٣. الجرح والتعديل ٥٥٥/٣.

﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه من الله تعالى ولم يختلقه محمد من تلقاء نفسه. فإن قيل: كيف يجوز أن يقال: لا شك فيه؟ وقد شك فيه كثير من الناس وهم الكفار والمنافقون؟ قيل له: معناه لا شك فيه عند المؤمنين وعند العقلاء. وقيل: معناه لا شك فيه أي لا ينبغي أن يشك فيه، لأن القرآن معجز فلا ينبغي أن يشك فيه أنه من الله تعالى. قوله عز وجل ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي بيانا لهم من الضلالة (للمتقين) الذين يتقون الشرك والكبائر والفواحش. فهذا القرآن بيان لهم من الضلالة وبيان لهم من الشبهات، وبيان الحلال من الحرام. فإن قيل: فيه بيان لجميع الناس. فكيف أضاف إلى المتقين خاصة؟ قيل له: لأن المتقين هم الذين ينتفعون بالبيان، ويعملون[1] به، فإذا كانوا هم الذين ينتفعون [بالبيان][2]، صار في [الحقيقة حاصل][3] البيان لهم. روي عن أبي روق[4] أنه قال: ﴿هدى للمتقين﴾ أي كرامة لهم. يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً وكرامة لهم، وبياناً لفضلهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يصدقون بالغيب. والغيب: هو ما غاب عن العين، وهو محضر في القلب، وإنما أراد به أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تابعهم إلى يوم القيامة أنهم يصدقون بغيب القرآن أنه من الله تعالى فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه. ويقال: يؤمنون بالغيب يعني بالله تعالى حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديبلي[5] قال: حدثنا أبو [عبيد][6] الله، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا أصحابنا عن الحارث بن قيس أنه قال لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحتسب [بكم يا][7] أصحاب محمد ما سبقتمونا به من رؤية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحبته، فقال عبد الله بن مسعود: ونحن نحتسب (لكم)[8] إيمانكم به ولم تروه، وأن أفضل الإيمان الإيمان بالغيب، ثم قرأ عبد الله ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وقد قيل: (يؤمنون بالغيب) يعني يصدقون بالبعث بعد الموت. وقوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [أي يديمون الصلاة وقد قيل أيضاً إن العبد يديم الصلاة وقد قيل][9] يحافظون على الصلوات الخمس بمواقيتها وركوعها وسجودها والتضرع بعدها. وقد قيل إن العبد إذا صلى صلاة تقبل منه خلق الله تعالى منها ملكاً يقوم ويصلي لله إلى يوم القيامة، وثوابه لصاحب الصلاة. فهذا معنى قوله ﴿ويقيمون الصلاة﴾ وقوله عز وجل ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي يتصدقون، قال الكلبي: وهو زكاة المال. وروى أسباط[10] عن السدي[11] عن أصحابه قال: هي نفقة الرجل على أهله وهذا قبل نزول آية الزكاة. ويقال [ينفقون أي][12] يتصدقون صدقة التطوع. ويقال: هي عليهم جميعاً التطوع والفريضة.

---

(١) في أ و [يعلمون].

(٢) في ظ [به].

(٣) في ظ [الحاصل].

(٤) من ظ.

(٥) بفتح الدال المهملة وسكون اليـاء المعجمة وضم الباء نسبة إلى دَيْبُل وهي بلدة من بلاد ساحل البحر من بلاد الهند قريبة من السند وهو أبو جعفر محمد بن إبراهيم بن عبد الله الديبلي سكن مكة يروي كتاب التفسير لابن عيينة. الأنساب ٢/٥٢٣، ٥٢٤.

(٦) سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ثقة. تهذيب التهذيب ٤/٥٥.

(٧) ساقطة في ظ.

(٨) ساقطة في ظ.

(٩) ساقطة في ظ.

(١٠) أسباط بن نصر الهمداني أبو يوسف ثقة روى التفسير عن السدي. تهذيب التهذيب ٢/٢١١ الجرح والتعديل ٢/٣٣٢.

(١١) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي أبو محمد قرشي بالولاء وهو السدي الكبير عالم بالتفسير راوية له تهذيب التهذيب ١/٣١٣. الجرح والتعديل ٢/١٨٤.

(١٢) في ظ [يعني].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني بالقرآن قوله ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني التوراة والإنجيل وسائر الكتب، ويقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ قالت اليهود والنصارى: نحن آمنا بالغيب. فلما قال ﴿ويقيمون الصلاة﴾ قالوا: نحن نقيم الصلاة. فلما قال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ قالوا: نحن ننفق ونتصدق. فلما قال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ نفروا من ذلك. وقوله ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُونَ﴾ أي يقرون [يوم][1] القيامة والجنة والنار، والبعث، والحساب، والميزان. واليقين على ثلاثة أوجه: يقين عيان، ويقين خبر، ويقين دلالة. فأما يقين العيان: إذا رأى شيئاً زال عنه الشك في ذلك الشيء وأما يقين الدلالة: هو أن يرى دخاناً يرتفع من موضع يعلم باليقين أن هناك ناراً وإن لم يرها. وأما يقين الخبر: فإن الرجل يعلم باليقين أن في الدنيا مدينة يقال لها بغداد، وإن لم يكن يعاينها[2]. فههنا يقين خبر، ويقين دلالة، أن الآخرة حق ولكن تصير معاينة عند الرؤية. ثم قال عز وجل ﴿أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني أهل هذه الصفة الذين سبق ذكرهم على بيان من الله تعالى أي أكرمهم الله تعالى في الدنيا حيث هداهم، وبين لهم طريقهم. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في الآخرة، أي الناجون. يعني أن الله تعالى أكرمهم في الدنيا بالبيان، وفي الآخرة بالنجاة وقد قيل: الفلاح هو البقاء في النعمة. وقد قيل: الفلاح إذا بلغ الإنسان نهاية ما يأمل. ويقال: معناه قد وجدوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. وكل ما في القرآن المفلحون فتفسيره هكذا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إن ههنا للتأكيد وهو حرف من حروف القسم. والكفر في اللغة: هو الستر، يقال: ليلة كافرة إذا كانت شديدة الظلمة، وإنما سمي الكافر كافراً، لأنه يستر نعم الله تعالى[3]. وقوله عز وجل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أأَنْذَرْتَهُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائي أأنذرتهم بهمزتين وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو[4] في رواية هشام بهمزة واحدة مع المد (آنذرتهم) وتفسير القراءتين لا يختلف[5]. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في مشركي قريش، منهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل وغيرهم. وقال الكلبي: نزلت في رؤساء

(١) في ظ [بيوم].

(٢) في أ [ينته إليها].

(٣) قال في اللسان: وكل من ستر شيئاً فقد كفره وكفَّره، وسُمِّي الزارع كافراً لستره البذور بالتراب قال تعالى «كمثل غيث أعجب الكفار نباته» قال: ويطلق على الليل «كافر» لأنه يستر بظلمته كل شي . . . (اللسان، والصحاح: كفر).

(٤) قرأ أهل الكوفة وابن عامر (أأنذرتهم) بهمزتين حجتهم في ذلك أن الهمزة حرف من حروف المعجم تغيره من سائر الحروف فيصح الجمع بينهما. وقرأ نافع وأبو عمرو (آنذرتهم) (آنت) يهمز أن ثم يمدان بعد الهمزة والأصل (أأنذرتهم) ثم تلين الهمزة في أنذرتهم.

وقرأ ورش عن نافع وابن كثير «أنذرتهم» بهمزة واحدة غير مطولة، ومذهبه: أن يحقق الأول ويخفف الثانية.

راجع / حجة القراءات ـ ابن زنجلة ص (٨٦) تحقيق سعيد الأفغاني وإتحاف فضلاء البشر، إرشاد المريد (باب الهمزتين).

(٥) في ظ وابن عامر في رواية هشام وأنذرتهم.

اليهود: منهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب. قال الكلبي: وليس هو بأخي حيي. وقال بعضهم هو أخو حيي، دخلوا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث سألوه عن (الم) و «المص» ثم خرجوا من عنده فنزل قوله ﴿إن الذين كفروا﴾ أي جحدوا بالقرآن سواء عليهم أأنذرتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ يعني خوفتهم أو لم تخوفهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون. فإن قيل: إذا علم أنهم لا يؤمنون، فما معنى دعوتهم إلى الإسلام؟ قيل له: لأن في الدعوة زيادة الحجة عليهم، كما أن الله تعالى بعث موسى إلى فرعون ليدعوه إلى الإسلام وعلم أنه لا يؤمن. وجواب آخر: إن الآية خاصة، وليست بعامة، وإنما أراد به بعض الكفار الذين ثبتوا على كفرهم، كما روي عن صفية بنت حيي بن أخطب قالت: رجع أبي وعمي من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أحدهما لصاحبه: ما ترى في هذا الرجل؟ فقال: إنه نبي، فقال: ما رأيك في اتباعه؟ فقال: رأيي أن لا أتبعه، وأن أظهر له العداوة إلى الموت. فلما نزلت الآية في شأن مثل هؤلاء الذين قد ظهر لهم الحق وكانوا لا يؤمنون. فقال: (أأنذرتهم). وأصل الإنذار هو الإعلام. يعني خوفتهم بالنار، وأعلمتهم بالعذاب أو لم تعلمهم[١] فهو سواء ولا يصدقونه.

خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي طبع الله، ومعنى الختم على قلوبهم أي[٢]، ليس أنه يذهب بعقولهم ولكنهم لا يتفكرون فيعتبرون بعلامات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيؤمنون[٣]

---

(١) في أ [تعلمهم لا يتفكرون].

(٢) في ظ [القلوب].

(٣) في أ [فلا يؤمنون]. ظاهر قوله تعالى: ﴿ختم الله﴾ أنه أخبار من الله تعالى بختمه وحمله بعضهم على أنه دعاء عليهم وكنى بالختم على القلوب عن كونها لا تقبل شيئاً من الحق ولا تعيه لإعراضها عنه فاستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول أو مثل القلب بالوعاء الذي ختم عليه صوناً لما فيه ومنعاً لغيره من الدخول إليه. والأول مجاز الاستعارة، والثاني مجاز التمثيل ونقل عمن مضى أن الختم حقيقة وهو انضمام القلب وانكماشه.

قال مجاهد: إذا أذنبت ضم من القلب هكذا وضم مجاهد الخنصر ثم إذا أذنبت ضم هكذا وضم البنصر ثم هكذا إلى الإبهام وهذا هو الختم والطبع والرَّيْن.

وقيل الختم سمة تكون فيهم تعرفهم الملائكة بها من المؤمنين وقيل حفظ ما في قلوبهم من الكفر ليجازيهم. وقيل الشهادة على قلوبهم بما فيها من الكفر ونسبة الختم إلى الله تعالى بأي معنى فسر إسناد صحيح إذ هو إسناد إلى الفاعل الحقيقي إذ الله تعالى خالق كل شيء وقد تأول الزمخشري وغيره من المعتزلة هذا الإسناد إذ مذهبهم أن الله تعالى لا يخلق الكفر ولا يمنع من قبول الحق والوصول إليه إذ ذاك قبيح والله تعالى يتعالى عن فعل القبيح وذكر أنواعاً من التأويل عشرة (ملخصها).

الأول: أن الختم كنى به عن الوصف الذي صار كالخلقي وكأنهم جبلوا عليه وصار كأن الله هو الذي فعل بهم ذلك.

الثاني: أنه من باب التمثيل كقولهم: طارت به العنقاء إذا أطال الغيبة وكأنهم مثلت حال قلوبهم بحال قلوب ختم الله عليها.

الثالث: أنه نسبه إلى السبب لما كان الله هو الذي أقدر الشيطان ومكنه أسند إليه الختم.

الرابع: أنهم لما كانوا مقطوعاً بهم أنهم لا يؤمنون طوعاً ولم يبق طريق إيمانهم إلا بالإلجاء وفسر وترك القسر عبر عن تركه بالختم.

الخامس: أن يكون حكاية لما يقوله الكفار تهكماً كقولهم قلوبنا في أكنة.

السادس: أن الختم منه على قلوبهم هو الشهادة منه بأنهم لا يؤمنون.

السابع: أنها في قوم مخصوصين فعل ذلك بهم في الدنيا عقاباً عاجلاً كما عجل لكثير من الكفار عقوبات في الدنيا. =

﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ فهم [1] لا يسمعون الحق ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ أي غطاء فلا يبصرون الهدى. واتفقت الأئمة السبعة رحمهم الله على القراءة برفع الهاء (غشاوة) وقرأ بعضهم بنصبها وهي قراءة شاذة[2]. فأما من قرأ برفع الهاء، فهو على معنى الإبتداء أي: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، ثم ابتدأ فقال (وعلى أبصارهم غشاوة) وأما من قرأ بالنصب فيكون الجعل فيه مضمراً، يعني: جعل على أبصارهم غشاوة. فقد ذكر في شأن المؤمنين ثوابهم في الدنيا الهدى، وفي الآخرة الفلاح، وذكر في شأن الكفار عقوبتهم في الدنيا الختم، وفي الآخرة ﴿وَلَهُمْ[3] عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني عذاباً وجيعاً[4]، يخلص الوجع إلى قلوبهم. قال [الفقيه رحمه الله][5] وفي الآية إشكال في موضعين: أحدهما في اللفظ والآخر في المعنى: فأما الذي في اللفظ ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ ذكر جماعة القلوب ثم قال: ﴿وعلى سمعهم﴾ ذكر بلفظ الوحدان، ثم قال: ﴿وعلى أبصارهم﴾ ذكر بلفظ الجمع، فجوابه: [عن هذا: أن يقال][6] أن السمع مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع فلهذا المعنى والله أعلم ذكر بلفظ الوحدان[7]. وقد قيل: معنى ﴿وعلى سمعهم﴾ أي: موضع سمعهم لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع. وقد قيل: إن الإضافة إلى الجماعة تغني عن لفظ الجماعة، لأنه قال ﴿وعلى سمعهم﴾ فقد أضاف إلى الجماعة، والشيء إذا أضيف إلى الجماعة مرة يذكر بلفظ الجماعة، ومرة يذكر بلفظ الوحدان. فلو ذكر القلوب والأبصار بلفظ الوحدان لكان سديداً في اللغة. فذكر البعض بلفظ الوحدان، والبعض بلفظ الجماعة، وهذه علامة الفصاحة لأن كتاب الله تعالى أفصح الكلام. وأما الإشكال الذي في المعنى أن يقال: إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فمنعهم عن الهدى فكيف يستحقون العقوبة؟ والجواب عن هذا: أن يقال: أنـه ختم مجازاة لكفرهم. كما قال في آية أخرى: (بل طبع الله عليها بكفرهم) لأن الله تعالى قد يسر عليهم سبيل الهدى، فلو جاهدوا لوفقهم، كما قال [تعالى][8] (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فلما لم يجاهدوا واختاروا الكفر عاقبهم الله تعالى في الدنيا بالختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم وفي الآخرة بالعذاب العظيم. وروي عن مجاهد أنه قال: من أول سورة البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة آية في

= **الثامن**: أن يكون ذلك فعله بهم من غير أن يحول بينهم وبين الإيمان لضيق صدورهم عقوبة غير مانعة من الإيمان.

التاسع: أن يفعل بهم ذلك في الآخرة لقوله تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾.

العاشر: ما حُكي عن الحسن البصري وهو اختيار أبي علي الجبائي والقاضي أن ذلك سمة وعلامة يجعلها الله تعالى في قلب الكافر وسمعه تستدل بذلك الملائكة على أنهم كفار وأنهم لا يؤمنون انتهى ما قاله المعتزلة.

والمسألة يبحث عنها في أصول الدين. انظر تفسير الفخر الرازي ٢/٥٤، ٥٧ والبحر المحيط ١/٤٨.

(١) في ظ [معنى].

(٢) الأصح أن يقول «بنصب التاء» وليس الهاء، والقراءة شاذة لم تصح عن أحد من القراء السبعة بل قرأوا برفع التاء هكذا «غشاوةٌ» على أنها مبتدأ مؤخر والخبر «على أبصارهم».. ولم ينسب ابن خالويه القراءة لأحد وإنما قال: يقرأ بالرفع والنصب انظر الحجة في القراءات السبع / سورة البقرة ص (٦٧).

(٣) في أ [كما قال تعالى لهم].

(٤) في ظ [موجعاً].

(٥) في ظ [الخليل].

(٦) ساقطة في ظ.

(٧) قال ابن منظور: قوله «على سمعهم» المراد منه على أسماعهم، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها أن السمع بمعنى المصدر يوحد ويراد به الجمع لأن المصادر لا تجمع والثاني: أن يكون المعنى على مواضع سمعهم فحذفت المواضع، كما تقول هم عدل أي ذوو عدل والثالث: أن يكون إضافته السمع إليهم دالاً على أسماعهم... ومثل هذا كثير في كلام في العرب. (اللسان: سمع).

(٨) سقط في ظ.

نعت المنافقين. وروي عن مقاتل أنه قال: آيتان من أول السورة في نعت المؤمنين المهاجرين [وآيتان في نعت المؤمنين غير المهاجرين](١)، وآيتان في نعت مؤمني أهل الكتاب، وآيتان في نعت الكفار، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين من قوله: ﴿ومن الناس﴾ إلى قوله ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: (من) للتبعيض فإنه أراد به بعض الناس ولم يرد به جميع الناس، فكأنه قال: بعض الناس يقولون: آمنا بالله. وقد قيل: معناه، ومن الناس ناس يقولون: آمنا بالله، يعني صدقنا بالله ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وبالبعث [بعد الموت](٢) ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني ليسوا بمصدقين، بل هم منافقون، منهم: عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي، ومعتب بن قشير، وجد بن قيس، ومن تابعهم من المنافقين وفي هذه الآية دليل على أن القول بغير تصديق القلب لا يكون إيماناً لأن المنافقين كانوا يقولون بألسنتهم، ولم يكن لهم تصديق القلب، فنفى الله الإيمان عنهم فقال: ﴿وما هم بمؤمنين﴾.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ﴾ وأصل الخداع في اللغة هو الستر(٣). يقال للبيت الذي يخزن فيه المال: مخدع، والعرب تقول: [انخدعت](٤) الضب في جحرها. فكان المنافقون يظهرون الإيمان ويسترون نفاقهم وكفرهم. فقال: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يكذبون ويخالفون الله والذين آمنوا [ويقال يظنون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا](٥) لأنه قد بين في سياق الآية حيث قال تعالى ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ روي عن الأخفش(٦) أنه قال: اجترأوا على الله حتى ظنوا أنهم يخادعون الله. [وقال بكر بن جريج يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وأنفسهم](٧) ويقال: يظهرون غير ما في أنفسهم. وهذا موافق لما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: علامة المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف وإذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب(٨). وقوله ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة الكسائي (وما يخدعون) بغير ألف، وقرأ الباقون بالألف «وما يخادعون». وتفسير القراءتين واحد يعني: وبال الخداع يرجع إليهم ويضر بأنفسهم(٩). قوله

(١) ساقطة في ظ. (٢) ساقطة في ظ.

(٣) انظر اللسان / خدع. . . وقال ابن منظور: والخداع: الحيلة، والمراوغة.

يقال: خدع الثعلب: إذا أخذ في الروغان، وفلان خادع الرأي إذا كان متلوناً لا يثبت على رأي واحد. . . (بتصرف قليل وإيجاز).

(٤) في ظ انخدع.

(٥) سقط في د. انظر تفسير الطبري ٢٥١/١ والسيوطي في الدر المنثور ٢٩/١.

(٦) سعيد بن سعدة أبو الحسن المعروف بالأخفش، قرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه من تصانيفه معاني القرآن والمقياس في النحو توفي سنة ٢١٥ هـ انباه الرواة ٣٦/٢ شذرات الذهب ٣٦/٢.

(٧) سقط في ظ.

(٨) أخرجه البخاري ٨٩/١ في الإيمان باب علامة المنافق (٣٢) وأخرجه البخاري ٢٨٩/٥ في كتاب الشهادات ومسلم ٧٨/١ في كتاب الإيمان / باب بيان خصال النفاق (١٠٧ / ٥٩) (١٠٨/٥٩).

(٩) فاما من قرأ بالألف فلمناسبة اللفظ الأول وليشاكل بين اللفظين. وأما من قرأ بدون ألف فقد جعل خادع بمعنى خدع فهما متحدان =

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾. قال الكلبي: يعني وما يعلمون أن الله يطلع نبيه على كذبهم. وقال بعضهم: معناه وما يشعرون أن وبال الخداع يرجع إليهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

قوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني شكاً ونفاقاً وظلمة وضعفاً، لأن المريض فيه فترة ووهن، والشاك أيضاً في أمره فترة وضعف. فعبر بالمرض عن الشك لأن المنافقين فيهم ضعف ووهن، ألا ترى إلى قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو) ويقال: إن المريض تعرض للهلاك، فسمى النفاق مرضاً، لأن النفاق قد يهلك صاحبه [لأن الخلق على مراتب ثلاث، ميت في الأحوال كلها كالكافر وحي في الأحوال كلها كالمؤمن لقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) ومريض كالمنافق] (١) ثم قال تعالى ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً﴾ وهذا اللفظ يحتمل معنين: يحتمل الخبر عن الماضي، ويحتمل الدعاء، فإن كان المراد به الخبر فمعناه: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم كما قال في آية أخرى (فزادتهم رجساً إلى رجسهم) لأن كل سورة نزلت يشكون فيها، فكان ذلك (٢) المرض [لهم](٣)، وللمؤمنين زيادة اليقين. وإن كان المراد به الدعاء، فمعناه: فزادهم الله مرضاً على مرضهم(٤)، على وجه الذم والطرد لهم كما قال في آية أخرى (قاتلهم الله) أو لعنهم الله فإن قيل: كيف يجوز أن يحمل على وجه الدعاء، وإنما يحتاج إلى الدعاء عند العجز قيل له: هذا تعليم من الله تعالى أنه يجوز الدعاء على المنافقين والطرد لهم لأنهم شر خلق الله تعالى، لأنه وعد لهم يوم القيامة الدرك الأسفل من النار. ثم قال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني مؤلم، أي عذاب وجيع الذي يخلص وجعه إلى قلوبهم. قوله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ أي مجازاة لهم بتكذيبهم. قرأ حمزة وابن عامر ﴿فزادهم الله﴾ بكسر الزاي(٥)، وهي لغة بعض العرب [وقرأ عاصم وأبو عمرو](٦) (بالفتح) وهي اللغة الظاهرة، وقرأ أهل الكوفة، عاصم وحمزة والكسائي (يكذبون) بتحفيف الذال، وقرأ الباقون بالتشديد. فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: بما كانوا يكذبون بقولهم أنهم مؤمنون، وجحدوا في السر لأنهم كفروا بالله، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السر. ومن قرأ بالتشديد فمعناه بما كانوا يكذبون، يعني ينسبون محمداً إلى الكذب، ويجحدون نبوته(٧).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قرأ الكسائي برفع القاف وكذلك كل ما ذكر في القرآن مثل قيل، وحيل،

= لفظاً ومعنى، وأما بإبقاء المفاعلة على بابها بمعنى يخادعون أنفسهم أي يمنّونها الأباطيل وأنفسهم تمنيهم ذلك قال ابن خالويه: ألا ترى قوله تعالى: ﴿قاتلهم الله﴾ أي قتلهم.

انظر / الحجة لابن خالويه، وإتحاف فضلاء البشر (سورة البقرة).

(١) سقط في ظ.
(٢) في ظ [زيادة].
(٣) في د [بهم].
(٤) من ظ.
(٥) أي بإمالة الألف بعد الزاي، وذلك لأن الألف أصلها ياء، والياء من أسباب الإمالة انظر / إتحاف فضلاء البشر.
(٦) في ظ [قرأ حمزة وابن عامر فزاد هم بكسر الزاي وهي لغة لبعض العرب وقرأ أبو عمرو وعاصم].
(٧) انظر إبراز المعاني، إتحاف فضلاء البشر. (سورة البقرة).

وسيق. وقرأ حمزة وعاصم وغيرهما بكسر القاف[١]، وأصله في اللغة قول مع الواو، فحذفت الواو للتخفيف. فجعل الكسائي الرفع مكان الواو وغيره، وقرأ بالكسر للتخفيف. والآية نزلت في شأن المنافقين ﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني المنافقين ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي [وهو الفساد][٢] لأن الأرض كانت قبل أن يبعث النبي ـ عليه السلام ـ فيها الفساد، وكان يعمل فيها بالمعاصي فلما بعث الله النبي ـ عليه السلام ـ ارتفع الفساد وصلحت الأرض، فإذا عملوا بالمعاصي فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، كما قال في آية أخرى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أي نعمل بالطاعة، ولا نعمل بالمعاصي وقد قيل: معنى لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها أي لا تداهنوا بين الناس ولا تعملوا بالمداهنة ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ يعني لا نعادي الكفار ولا المؤمنين حتى لو كانت الغلبة للمؤمنين أو للكفار، لا يصيبنا من دائرتهم شيء.

أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾

قال الله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ في الأرض وليسوا بمصلحين لأن عداوتهم مع الفريقين لأن كل فريق منهم يعلم أنهم ليسوا معهم. وقد قيل: معناه لا تفسدوا في الأرض [بتفريق][٣] الناس عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي لا تصرفوا الناس عن دينه، قالوا: إنما نحن مصلحون [بتفريقنا][٤] عن دينه. ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ ألا: كلمة تنبيه فنبه المؤمنين وأعلمهم نفاقهم، فكأنه قال: ألا أيها المؤمنون: اعلموا أنهم هم المفسدون العاصون ويكون تكرار كلمة هم على وجه التأكيد، والعرب إذا كررت الكلام تريد به التأكيد قال تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ قال في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في شأن اليهود ﴿وإذا قيل لهم﴾ يعني اليهود ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعني الجهال الخرقى[٥] قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعني الجهال الخرقى بتركهم الإيمان بمحمد ـ عليه السلام ـ ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم سفهاء. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في شأن المنافقين، وهكذا قال مجاهد ومعناه ﴿وإذا قيل لهم آمنوا﴾ يعني صدقوا بقلوبكم كما صدق أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي عنهم ﴿قالوا: أنؤمن﴾ يعني المنافقين أنصدق كما صدق الجهال. قال الله تعالى ﴿ألا أنهم هم السفهاء﴾ يعني الجهال بتركهم التصديق في السر، ولكن لا يعلمون أنهم جهال.

---

(١) أي بالإشمام وهو لغة قيس وعقيل ومن جاورهم.
انظر / إبراز المعاني، وإتحاف فضلاء البشر (سورة البقرة).

(٢) سقط في ظ. (٣) في ظ [بتعويق]. (٤) في ظ [بتعويقنا].

(٥) الخرق: الحمق وعدم إحسان العمل، والرجل أخرق والأنثى خرقاء.
(اللسان: خرق).

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَآمَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نزلت هذه الآية في ذكر المنافقين منهم عبد الله بن أبي بن سلول وجد بن قيس، ومعتب بن قشير وغيرهم وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب][1] ـ رضي الله عنهم ـ مروا بقوم من المنافقين. فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء الجهال عنكم فتعلموا مني كيف أكلمهم، فأخذ بيد أبي بكر، وقال: مرحباً بسيد بني تميم، وثاني اثنين وصاحبه في الغار، وصفيه من أمته، الباذل نفسه وماله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أخذ بيد عمر قال: مرحباً بسيد بني عدي القوي في أمر الله تعالى، الباذل نفسه وماله لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بسيد بني هاشم ـ ما خلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الباذل نفسه ودمه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والسابق إلى الهجرة. فقال له علي: اتق الله يا عبد الله ولا تنافق، فإن المنافقين شر خليقة الله. قال: فلم تقول هكذا وإيماني كإيمانكم وتصديقي كتصديقكم، ثـم افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتم ردي هؤلاء عنكم؟ فقالوا: لا نزال بخير ما عشت لنا، فنزلت الآية ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾[2] يعني إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم قوله تعالى ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال الكلبي: يعني إلى كهنتهم وهم خمسة رهط من اليهود، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان، منهم كعب بن الأشرف بـالمدينـة وأبو بـردة الأسلمي في بني [سليم][3]، [وأبو السـوداء][4] بالشـام، وعبد الدار من جهينة، وعوف بن مالك من بني أسد. ويقال: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ يعني إلى رؤسائهم في الضلالة. وقال أبو عبيدة[5]: كل عات متمرد فهو شيطان ثم قال تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

قال الله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بهِمْ﴾ أي يجازيهم جزاء الاستهزاء. وذكر في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما الاستهزاء أن يفتح لهم وهم في جهنم، باب من الجنة فيهللون[6] ويصيحون في النار (فيهلكون)[7]، والمؤمنون على الأرائك ينظرون إليهم، فإذا انتهوا إلى الباب سد عليهم، وفتح لهم باب آخر في مكان آخر والمؤمنون ينظرون إليهم ويضحكون كما قال في آية أخرى (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) الآية وقال مقاتل: الاستهزاء ما ذكره الله تعالى في سورة الحديد «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» فهذا استهزاء بهم، ثم قال تعالى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعنـي يتركهم في ضلالتهم يتحيرون ويترددون عقوبة لهم لاستهزائهم.

(١) في ظ وعلياً رضي الله عنه.

(٢) أخرجها الواحدي في أسباب النزول (١٣) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس والسيوطي في لباب النقول (٧) من طريق محمد بن مروان السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وقال هذا إسناد واهٍ جداً.

(٣) في ظ [أسلم]. (٤) في ظ [وابن السواد].

(٥) معمر بن المثنى التيمي كان عالماً بجميع العلوم قال الجاحظ لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه كان من حفاظ الحديث له نحو مائتي مصنف منها مجاز القرآن ومآثر العرب. الأعلام ٧/٢٧٢. تاريخ بغداد ١٣/٢٥٤.

(٦) في ظ [فينقلبون]. (٧) ساقط في ظ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾

قوله عز وجل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني اختاروا الكفر على الإيمان. وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة لأن الله تعالى سمى استبدالهم الضلالة بالهدى شراء، ولم يكن هنالك لفظ شراء. قوله تعالى ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ فقد أضاف الربح إلى التجارة على وجه المجاز. والعرب تقول: ربحت تجارة فلان، وخسرت تجارة فلان، وإنما يريدون به أنه ربح في تجارته، والله تعالى أنزل القرآن بلغة العرب على ما يتعارفون فيما بينهم فلذلك قال ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ أي فما ربحوا في تجارتهم. قوله تعالى ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ قال بعضهم: معناه وما هم بمهتدين في الحال. كقوله تعالى «كيف نكلم من كان في المهد صبيا» أي من هو في المهد [صبي][1] في الحال. وقال بعضهم: معناه (وما كانوا مهتدين) من قبل لأنهم لو كانوا مهتدين من قبل لوفقهم الله تعالى في الحال ولكن لما لم يكونوا مهتدين من قبل خذلهم الله تعالى مجازاة لأفعالهم الخبيثة.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾

قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾ روى معاوية بن طلح [2] عن علي بن أبي طلحة[3] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية في شأن اليهود الذين هم حوالي المدينة فقال: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت﴾ يعني كمثل من كان في المفازة في الليلة المظلمة، وهو يخاف السباع فأوقد ناراً فآمن بها من السباع ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ طفئت ناره وبقي في الظلمة كذلك اليهود الذين كانوا حوالي المدينة كانوا يقرون بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يخرج وكانوا إذا حاربوا أعداءهم من المشركين يستنصرون باسمه فيقولون بحق نبيك أن تنصرنا فلما أخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدم المدينة حسدوه وكذبوه وكفروا به فطفئت نارهم وبقوا في ظلمات الكفر، وقال مقاتل: نزلت في المنافقين يقول مثل المنافق مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كمثل رجل في مفازة فأوقد ناراً (فأمن)[4] بها على نفسه وعياله وماله فكذلك المنافق يتكلم بلا إله إلا الله مرآة الناس ليأمن بها على نفسه (وأهله)[5] وعياله وماله ويناكح مع المسلمين وكان له نور بمنزلة المستوقد النار يمشي في شوءها ما دامت ناره تتقد، فلما أضاءت النار أبصر ما حوله بنورها وذهب نورها فبقي في ظلمة. قوله تعالى ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ أي يذهب الله بنور الإيمان الذي يتكلم به ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ الهدى[6] فكذلك المنافق إذا بلغ آخر عمره بقي في ظلمة كفره. وهكذا فسره قتادة والقتبي[7] وغيرهما.

---

(١) ساقطة في ظ.

(٢) معاوية بن طلح بن حدير الحضرمي أبو عمرو أحد الأعلام وقاضي الأندلس كان ثقة كثير الحديث روى التفسير عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
تهذيب التهذيب ١٠/٢٠٩.

(٣) علي بن أبي طلحة سالم مولى ابن عباس سكن حمص، أرسل عن ابن عباس ولم يره صدوق قد يخطىء مات سنة ثلاث وأربعين.
التقريب ٢/٣٩.

(٤) في ظ [ليأمن]. (٥) ساقطة في ظ. (٦) ساقطة في ظ.

(٧) عبد الله بن مسلم الدينوري القتبي النحوي الدنيوري أبو محمد من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين من كتب تأويل مختلف الحديث. وأدب الكاتب توفي سنة ٢٧٦ هـ. الأعلام ٤/١٣٧ تبصير المنتبه ٣/١١٦٠.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (صماً بكماً عميا) [وإنما جعلها نصباً لوقوع الفعل عليها يعني وتركهم صماً بكماً عمياً][٢]. وقرأ غيره: صم بكم عمي [ومعناه هم صم بكم عمي][٣]. وتفسير الآية أنهم يتصاممون حيث لم يسمعوا الحق ولم يتكلموا به ولم يبصروا العبرة والهدى فكأنهم صم بكم عمي ولأن الله تعالى خلق السمع والبصر واللسان لينتفعوا بهذه الأشياء فإذا لم ينتفعوا بالسمع والبصر صار كأن السمع والبصر لم يكن لهم. كما أن الله تعالى سمى الكفرة موتى حيث قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) يعني كافراً فهديناه. وإنما سماهم موتى ـ والله أعلم ـ لأنه لا منفعة لهم في حياتهم، فكأن تلك الحياة لم تكن لهم، فكذلك السمع والبصر واللسان، إذا لم ينتفعوا بها فكأنها لم تكن لهم، فكأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون، يعني لا يرجعون إلى الهدى. وقال القتبي: معنى قوله تعالى: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ قال: الظلمة الأولى كانت ظلمة الكفر واستيقادهم النار قول: لا إله إلا الله، وإذا خلوا إلى شياطينهم فنافقوا. وقالوا ﴿إنا معكم إنما نحن مستهزؤون﴾ فسلبهم نور الإيمان ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾[٥].

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُماتٌ﴾ يعني كمطر نزل من السماء فضرب لهم الله تعالى مثلاً آخر لأن العرب كانوا يوضحون الكلام بذكر الأمثال فالله ضرب لهم الأمثال ليوضح عليهم الحجة، فضرب لهم مثلاً بالمستوقد النار، ثم ضرب لهم مثلاً آخر بالمطر. فإن قيل كلمة (أو) إنما تستعمل للشك فما معنى (أو) ها هنا فقيل له: (أو) قد تكون للتخيير [فكأنه قال إن شئتم فاضربوا لهم مثلاً بالمستوقد النار وإن شئتم فاضربوا لهم المثل بالمطر فأنتم مصيبون في ضرب المثل في الوجهين جميعاً. وهذا كما قال في آية أخرى: (أو كظلمات في بحر لجي) فكذلك ها هنا أو للتخيير][٦] لا للشك. وقد قيل: أو بمعنى الواو يعني، وكصيب من السماء، معناه: مثلهم كرجل في مفازة في ليلة مظلمة فنزل مطر من السماء، وفي المطر ظلمات ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ والمطر هو القرآن لأن في المطر

---

(١) انظر البحر المحيط ١/٨٢ قال أبو حيان: وقرأ عبد الله بن مسعود وحفصة أم المؤمنين «صماً بكماً عمياً» بالنصب، وذكروا في نصبه وجوهاً: أحدها أن يكون مفعولاً ثانياً لترك.

الثاني: على الحالية من المفعول في تركهم.

الثالث: منصوب بفعل محذوف من الضمير في يبصرون.

الخامس: أن يكون منصوباً على الذم... (البحر. بتصرف وإيجاز) وانظر /الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي وفيه الوجه الخامس فقط ١/١٤٩ دار الكتب العلمية.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ. (٣) سقط في ظ. (٤) من ظ.

(٥) وجمع الظلمات في الآية إشارة إلى أحوال من أحوال المنافقين كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة وتلك هي: حالة الكفر، وحالة الكذب، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق.

انظر تفسير التحرير والتنوير ١/٣١٢.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ.

حياة الخلق وإصلاح الأرض وكذلك القرآن [حياة القلوب](١)، فيه هدى للناس، وبيان من الضلالة وإصلاح، فلهذا المعنى شبه القرآن بالمطر. والظلمات هي الشدائد والمحن التي تصيب المسلمين، والشبهات التي في القرآن، والرعد: هو الوعيد الذي ذكر للمنافقين والكفار في القرآن، والبرق: ما ظهر من علامات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودلائله. قوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ أي يتصاممون عن سماع الحق ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي لحذر الموت، [إنما] نصب(٢) لنزع الخافض. مثل قوله (واختار موسى قومه) أي من قومه. فكذلك ههنا ﴿حذر الموت﴾، أي لحذر الموت، ومعناه: مخافة أن ينزل في القرآن شيء يظهر حالهم كما قال في آية أخرى (نظر بعضهم إلى بعض،هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) قال بعضهم: في الآية مضمر، ومعناها يجعلون أصابعهم في آذانهم من الرعد، ويغمضون أعينهم من الصواعق. وقال أهل اللغة: الصاعقة صوت ينزل من السماء فيه نار(٣). فمن قال بهذا القول لا يحتاج إلى الإضمار في الآية: يجعلون أصابعهم في آذانهم من خوف الصاعقة: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي عالم بأعمالهم والإحاطة: هي إدراك الشيء بكماله.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾

قوله تعالى ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي ضوء البرق يذهب ويختلس بأبصارهم من شدة ضوء البرق فكذلك نور إيمان المنافق يكاد يغطي على الناس كفره في سره حتى لا يعلموا كفره. وقد قيل: معناه يكاد أن يظهر عليهم نور الإسلام(٤)، فيثبتون على ذلك. ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ أي كلما لمع البرق في الليلة المظلمة مضوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا ذهب ضوء البرق ﴿قَامُوا﴾ متحيرين فكذلك المنافق، إذا تكلم بلا إله إلا الله، يمضي مع المؤمنين، [ويمنع بها](٥) من السيف، فإذا مات بقي متحيراً نادماً. ويقال: معناه كلما أضاء لهم مشوا فيه، أي كلما ظهر لهم دليل نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وظهر لهم علاماته مالوا إليه، وإذا أظلم عليهم، أي إذا أصاب المسلمين محنة، كما أصابتهم يوم أحد، وكما أصابتهم يوم بئر(٦) معونة قاموا، أي: ثبتوا على كفرهم. وروى أسباط عن السدى أنه قال: كان رجلان من المنافقين هربا من المدينة إلى المشركين،

---

(١) ساقط في ظ. (٢) من ظ.

(٣) انظر (اللسان / صعق) قال: والصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد وهي صيحة العذاب. وقيل: هي قطعة من نار تسقط بأثر الرعد لا تأتي على شيء إلا أحرقته.

(٤) في أ [الإيمان].

(٥) من ظ.

(٦) والبئر مؤنثة مهموزة يجوز تخفيفها وجمعها في القلة آبار وأبار بالمد على القلب وفي الكثرة بئار وبأرت بئراً أي حفرتها وأبارت الرجل جعلت له بئراً.

وبئر معونة بالنون وهي قبل نجد بين أرض بني عامر وحرة بني سليم وكانت غزوتها في أول سنة أربع من الهجرة بعد أحد بأشهر وقتل بها خلق من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم وكان الجيش الذي حفرها أربعين من خيار المسلمين منهم المنذر بن عمرو بن خنيس المعينق للموت ويقال المعتنق ليموت والحارث بن الصحة وحرام بن ملحان وعروة بن شماس بن أبي الصلت السلمي ورافع بن زيد بن ورقاء وعامر فهيرة فقتلوا كلهم إلا كعب بن زيد وعمرو بن أمية الضمري ذكره ابن الأثير في ترجمة المنذر بن عمرو وانظر تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ١ (٣٦).

فأصابهما من المطر الذي ذكر الله فيه ظلمات ورعد وبرق، كلما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما فإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا شيئاً، فقاما مكانهما فجعلا يقولان يا ليتنا لو أصبحنا فنأتي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنضع أيدينا في يده، فأصبحا فأتياه فأسلما وحسن إسلامهما فضرب الله في شأن هذين المنافقين الخارجين مثلاً للمنافقين الذين كانوا بالمدينة[١]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قال بعضهم بسمعهم الظاهر الذي في الرأس وأبصارهم][٢]التي في الأعين كما ذهب بسمع قلوبهم، وأبصار قلوبهم عقوبة لهم. قيل: معناه ولو شاء لجعلهم صماً وعمياً في الحقيقة كما جعلهم صماً وعمياً في الحكم. قد قيل: معناه، ولو شاء الله لجعلهم صماً وعمياً في الآخرة كما جعلهم في الدنيا. وروي في إحدى الروايتين عن ابن عباس أنه قال: هذا من المكتوم الذي لا يفسر. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من العقوبة وغيرها.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي أطيعوا ربكم. ويقال: وحدوا ربكم. وهذه الآية عامة، وقد تكون كلمة يا أيها الناس خاصة لأهل مكة وقد تكون عامة لجميع الخلق فههنا ﴿يا أيها الناس﴾ لجميع الخلق. يقول للكفار: وحدوا ربكم، ويقول للعصاة: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم، ويقول للمطيعين: اثبتوا على طاعة ربكم. واللفظ يحتمل هذه الوجوه كلها، وهو من جوامع الكلم. واعلم أن النداء في القرآن على ست مراتب: نداء مدح، ونداء ذم، ونداء تنبيه، ونداء إضافة، ونداء نسبة، ونداء تسمية. فأما نداء المدح فمثل قوله تعالى (يا أيها النبي) (يا أيها الرسل) (يا أيها الذين آمنوا) ونداء الذم مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين كفروا) (يا أيها الذين هادوا) ونداء التنبيه مثل قوله تعالى (يا أيها الإنسان) (يا أيها الناس) ونداء الإضافة مثل قوله تعالى (يا عبادي) ونداء النسبة مثل قوله (يا بني آدم) (يا بني إسرائيل) ونـداء التسمية مثل قوله تعالى (يا داود) (يا إبراهيم) فههنا ذكر نداء التنبيه فقال (يا أيها الناس) أخبر بالنداء أنه يريد أن يأمر أمراً أو ينهى عن شيء. ثم بين الأمر فقال: ﴿اعبدوا ربكم﴾ يعني وحدوا وأطيعوا ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ معناه: أطيعوا ربكم الذي هو خالقكم، فخلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني وخلق الذين من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ المعصية وتنجون من العقوبة.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً﴾ معناه: اعبدوا ربكم الذي خلقكم وجعل لكم الأرض فراشاً، يعني مهاداً وقراراً. وقال أهل اللغة: الأرض بساط العالم[٣]. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إنما سميت

(١) أخرجه ابن جرير بأتم منه ٣٤٧/١ (٤٥٢) وقال الطبري ٣٥٤/١ ولست أعلمه صحيحاً إذا كتب بإسناده مرتاباً وقال العلامة أحمد شاكر وحق لأبي جعفر أن يرتاب في إسناده فإن هذا الإسناد فيه تساهل كبير من جهة جمع مفرق التفاسير عن الصحابة في سياق واحد.

(٢) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) قال ابن منظور: والإراض: البساط لأنه يلي الأرض (اللسان: أرض).

الأرض أرضاً لأنها تأرض ما في بطنها أي تأكل ما فيها. وقال بعضهم: لأنها تتأرض بالحوافر والأقدام ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ في اللغة: ما علاك وأظلك[١]. يعني اذكروا رب هذه النعم واعبدوه واعرفوا شكر هذه النعم حيث جعل لكم الأرض فراشاً، والسماء ﴿بِنَآءً﴾ أي سقفا. قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي: كل سماء مطبقة على الأخرى مثل القبة وسماء الدنيا ملتزقة على الأرض أطرافها ويقال: ﴿والسماء بناء﴾ أي مرتفعا. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ يعني أنبت بالمطر ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يعني من ألوان الثمرات)[٢] طعاماً لكم قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي لا تقولوا له شركاء ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خالق هذه الأشياء وغيره لا يستطيع أن يخلق شيئاً من هذه الأشياء. ويقال: كل شيء في هذه الدنيا فيه دلالة على كونه الخالق من أربعة أوجه: فوجود هذه الأشياء وكونها يدل على وجود الصانع واستقامتها تدل على توحيده، وهو استقامة الليل والنهار، والشتاء والصيف وخروج الثمرات وحدوث كل شيء في وقته، لأن المدبر لو كان اثنين لم يكن على الاستقامة كما قال في آية أخرى (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وتجانسها يدل على أن الخالق واحد عالم حيث خلق الأشياء أجناساً مختلفة وتمام الأشياء يدل على أن خالقها واحد قائم قادر.

وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ قال بعضهم: هذا الخطاب لليهود وان كنتم في ريب: أي في شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن أنه ليس من الله تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي من مثل هذا القرآن من التوراة، [يعني فاتوا بسورة من التوراة][٣]وقابلوها بالقرآن، [فتجدوها موافقة لما في التوراة][٤] فتعلموا به أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يختلقه من تلقاء نفسه وأنه من الله تعالى. ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي استعينوا بأحباركم ورهبانكم يعني عبّادكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تشكون فيه. وقال بعضهم: نزلت في شأن المشركين ﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي في شك ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن وتقولون: إنه اختلقه من تلقاء نفسه ﴿فأتوا بسورة﴾ أي، فاختلقوا سورة من مثل هذا القرآن لأنكم شعراء وفصحاء ﴿وادعوا شهداءكم﴾ أي إستعينوا بآلهتكم. ويقال: استعينوا بخطبائكم وشعرائكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن محمداً يقوله من تلقاء نفسه. وقال قتادة: معناه فأتوا بسورة فيها حق وصدق لا باطل فيها وكان الفقيه أبو جعفر ـ رحمه الله ـ يقول: (الهاء) اشارة الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكأنه قال: فأتوا بسورة من مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لانه لم يكن قرأ الكتب ولا درس فأتوا بسورة من رجل لم يقرأ الكتب، كما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. [ويقال: هذه الايات أصل لجميع ما تكلم به المتكلمون لان في أول الآيه اثبات الصانع ثم في الآية الاخرى: اثبات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ][٥] فالله تعالى أمرهم بأن يأتوا بعشر سور فعجزوا عنها، ثم أمرهم بسورة من مثله، فعجزوا عنها، فنزلت هذه الآية (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) الآية.

---

(١) زاد ابن منظور: ومنه قيل لسقف البيت سماء (اللسان: سما).

(٢) في ظ [الثمار رزقاً لكم أي].

(٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) في المخطوط: فتجدوها موافقاً لما التوراة والصواب ما أثبتناه.

(٥) ما بين المعقوفين من ظ.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ (لم) تستعمل للماضي (ولن) تستعمل للمستقبل، فكأنه قال: فإن لم تفعلوا أي لم تأتوا في الماضي ولن تفعلوا أي لن تأتوا في المستقبل، وتجحدون بغير حجة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ قال قتادة: معناه، فإن لم تفعلوا، ولن تقدروا أن تفعلوا ولن تطيقوا ﴿فاتقوا النار﴾ أي: احذروا النار ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ يعني حطبها الناس اذا صاروا اليها، والحجارة قبل ان يصيروا اليها. ويقال معناه: ان مع كل انسان من أهل النار حجراً معلقاً في عنقه حتى اذا طفئت النار، [رسبه به][(١)]الحجر الى أسفل. ويقال: وقودها الناس والحجارة، أي حجارة الكبريت، وانما جعل حطبها من حجارة الكبريت لان لها خمسة أشياء ليست لغيرها: أحدها: أنها [(٢)]أسرع وقوداً، والثاني: انها أبطأ خموداً، والثالث: أنها أنتن رائحة، والرابع: أنها أشد حراً، والخامس أنها ألصق بالبدن. قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي خلقت وهيئت للكافرين وقدرت لهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ﴾ فقد ذكر في أول الآية إثبات الصانع وذكر حجته، ثم ذكر إثبات الكتاب والنبوة، ثم ذكر الوعيد للكفار، [لمن لم][(٣)]يؤمن بالله، ثم ذكر الثواب للمؤمنين، وهكذا في جميع القرآن في كل موضع ذكر عقوبة الكفار، ثم ذكر على أثره ثواب المؤمنين لتسكن قلوبهم الى ذلك، وتزول عنهم [الوحشة][(٤)] لكي يثبتوا على إيمانهم ولكي يرغبوا في ثوابه فقال ﴿وبشر الذين آمنوا﴾ أي فرح قلوب الذين آمنوا. يعني صدقوا بوحدانية الله تعالى، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبما جاء به جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأن لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأنهَارُ﴾ أي من تحت شجرها ومساكنها وغرفها الأنهار [يعني أنهار الخمر واللبن والماء والعسل][(٥)] ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا﴾ أي أطعموا من الجنة ﴿مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً﴾ أي طعاما ﴿قَالُواْ هَذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي اطعمنا من الجنة من قبل. قال بعضهم: معناه اذا أتي بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها، ثم اذا أتي بها في آخر النهار ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ [يعني[(٦)] الذي أطعمنا في أول النهار لأن لونه يشبه لون ذلك، فإذا أكلوا منه وجدوا لها طعماً غير طعم الأول. قال بعضهم: معناه ﴿كلما رزقوا من ثمرة رزقا][(٧)] قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي في الدنيا، لأن لونها يشبه لون ثمار الدنيا، فاذا أكلوا وجدوا طعمها غير ذلك. ثم قال تعالى ﴿وأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ قال بعضهم: معناه، متشابهاً في المنظر مختلفاً في الطعم. وقال بعضهم: متشابهاً، يعني يشبه بعضها بعضاً في الجودة، ولا يكون فيها رديء، حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا ابراهيم بن

---

(١) في أ [رسبه]. (٢) في أ [إن حجارة الكبريت]

(٣) في ظ [لمن لا]. (٤) في ظ [الخشية]. (٥) ما بين المعقوفين من ظ.

(٦) في ظ [يعني منها]. (٧) ما بين المعقوفين من أ.

يوسف قال: حدثنا أبو معاوية[١] عن الأعمش[٢] عن أبي ظبيان[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا الا الاسماء[٤] يعني أسماء الثمار. ثم قال تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي مهذبة في الخلق ويقال: مطهرة في الخلق والخلق، فأما الخلق فانهن لا يحضن ولا يبلن ولا يتمخطن ولا يأتين الخلاء. وأما الخلق، فهن لا يحسدن ولا يغرن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن. قوله تعالى ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون منها أبدا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي[٥] أن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ وذلك أنه لما نزل قول الله تعالى (ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا) وقال في آية أخرى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) قالت اليهود والمشركون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت فنزلت هذه الآية. ﴿إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوقَهَا﴾ أي لا يمتنع من ضرب المثل وبيان الحق بذكر البعوضة وبما فوقها. ويقال: لا يمنعه الحياء أن يضرب المثل ويبين ويصف للحق شبهاً ﴿ما بعوضة فما فوقها﴾، يعني بالذباب والعنكبوت. وقال بعضهم: فما فوقها أي بما دونها في الصغر، وهذا من أسماء الأضداد يذكر الفوق، ويراد به دونه، كما يذكر الوراء ويراد به الأمام مثل قوله (ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) أي أمامهم فكذلك الفوق يذكر ويراد به ما دونه أي يضرب المثل بالبعوضة وبما دونها، بعد أن يكون فيه إظهار الحق، وإرشاد الى الهدى فكيف يمتنع من ضرب المثل بالبعوضة، ولو اجتمعت الانس والجن على أن يخلقوا بعوضة لا يقدرون عليه. ويقال: إنما ذكر المثل بالبعوضة، لأن خلقة البعوضة أعجب لأن خلقتها خلقة الفيل. ويقال: لأن البعوضة ما دامت جائعة عاشت فاذا شبعت ماتت فكذلك الآدمي إذا استغنى، فانه يطغى. فضرب الله المثل للآدمي. ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي صدقوا وأقروا بتوحيد الله تعالى ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني المثل بالذباب والعنكبوت، فيؤمنون به ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني اليهود والمشركين ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي بذكر البعوضة والذباب. قال الله تعالى

(١) محمد بن خازم التميمي السعدي أبو معاوية الضرير الكوفي الحافظ ثقة، تهذيب التهذيب ٩/١٣٧.

(٢) سليمان بن مهران الأسدي أبو محمد الكاهلي تابعي مشهور، تهذيب التهذيب ٤/٢٢٢.

(٣) حصين بن جندب بن الحارث الجني الكوفي ثقة، تهذيب التهذيب ١/٣٧٩.

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ١/٣٦٧ (٤٧٨) من حديث ابن مسعود والسيوطي في الدر المنثور (١/٣٤).

(٥) أصل الإستحياء: انقباض عن الشيء وامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح.

المفردات في غريب القرآن مادة حيي ص (١٩٩) والجامع لأحكام القرآن ١/١٦٨ وهذا محال على الله تعالى. إذاً فما المراد بالاستحياء المنسوب إليه عز وجل في هذه الآية الكريمة؟

للناس في ذلك مذهبان فبعض يقول بالتأويل إذا الانقباض النفساني مما لا يحوم حول حظائر قدسه سبحانه، فالمراد بالحياء عنده الترك اللازم للانقباض، وجوز جعل ما هنا بخصوصه من باب المقابلة لما وقع في كلام الكفرة بناء على ما روي أنهم قالوا: ما يستحي رب محمد أن يضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت. وبعض لا يقول بالتأويل بل يكل علمها هي وأمثالها مما جاء عنه سبحانه في الآيات والأحاديث إلى علمه سبحانه وتعالى. انظر روح المعاني للألوسي ١/٢٠٦ بتصرف.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾ أي إنما ضرب المثل ليضل به كثيرا من الناس، يعني يخذلهم ولا يوفقهم ﴿(وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً)﴾ [يعني يوفق][1] به على معرفة ذلك المثل كثيراً من الناس وهم المؤمنون. وقال بعضهم: معنى قوله ﴿يضل به كثيراً﴾، أي يسميه ضالا، كما يقال: فسّقت فلانا، أي سميته فاسقاً، لأن الله تعالى لا يضل به أحدا، وهذا طريق المعتزلة، وهو خلاف جميع أقاويل المفسرين، وهو غير مستعمل[2] في اللغة أيضاً، لأنه يقال: ضلله إذا سماه ضالا [ولا يقال: أضله إذا سماه ضالاً][3]، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أنه يخذل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم[4]. ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ﴾ أي وما يهلك به وأصل الضلالة[5] الهلاك يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مستهلكاً، وما يهلك، وما يخذل به، يعني بالمثل إلا الفاسقين، وأصل الفسق في اللغة[6] هو: الخروج عن الطاعة، والعرب تقول: فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها ويقال للفأرة فويسقة لأنها تخرج من الحُجْر، وقال الله تعالى (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعة ربه.

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

ثم نعت الفاسقين فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي يتركون أمر الله ووصيته من بعد ميثاقه، أي من بعد تغليظه وتأكيده، وذلك أن الله تعالى أمر موسى في التوراة: بأن يأمر قومه ليقروا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويصدقون إذا خرج. وكان موسى عليه السلام عاهدهم على ذلك فلما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذبوه ولم يصدقوه ونقضوا العهد. ويقال: انه أراد به العهد الذي أخذه من بني آدم من ظهورهم حيث قال تعالى (ألست بربكم؟ قالوا: بلى) فنقضوا ذلك العهد والميثاق[7]. فإن قيل: كيف يجوز هذا؟ واليهود كانوا مقربين بالله تعالى فكيف يكون نقض العهد وهم مقرون؟ قيل له: إنهم إذا لم يصدقوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أشركوا بالله، لأنهم لم يصدقوا بأن القرآن من عند الله، ومن زعم أن القرآن قول البشر فقد أشرك بالله تعالى، وصار ناقضاً للعهد. ويقال: الميثاق الذي يعرف كل واحد[ربه][8] إذا تفكر في نفسه، فكان ذلك بمنزلة أخذ الميثاق عليه، وجميع ما في القرآن من ذكر الميثاق فهو على هذه الأوجه الثلاثة. وقوله تعالى ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ روى الضحاك وعطاء عن ابن عباس أنه قال: (إنهم أمروا أن يؤمنوا بجميع الأنبياء فآمنوا ببعضهم ولم يؤمنوا ببعضهم. فهذا معنى قوله ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ ويقال: أمروا بصلة القرابات فقطعوا الأرحام فيما بينهم ويقال: كانت بين اليهود والعرب قرابة من وجه، لأن العرب كانت من أولاد إسماعيل واليهود من أولاد إسحاق، فإذا لم يؤمنوا بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد قطعوا ذلك الرحم الذي كان بينهم. وقوله تعالى

---

(١) في أ [أي يهدي كثيراً]. (٢) في النسختين (محتمل) والأدق (مستعمل). (٣) من ظ.

(٤) إسناد الإضلال إلى الله تعالى مراعى فيه أنه الذي مكن الضالين من الكسب والإختيار بما خلق لهم من العقول وما فصّل لهم من أسباب الخير وضده. وفي اختيار إسناده إلى الله تعالى مع صحة إسناده لفعل الضال إشارة إلى أنه ضلال متمكن من نفوسهم حتى صار كالجبلة فيهم فهم ميئوس من هدايتهم كما قال تعالى ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ فإسناد الإضلال إلى الله تعالى منظور فيه إلى خلق أسبابه القريبة والبعيدة وإلا فإن أمر الله للناس كلهم بالهدى وهي مسألة مفروغ منها في علم الكلام.

انظر تفسير التحرير والتنوير ١/٣٠٨.

(٥) اللسان: ضلل. (٧) في أ [ويقال أنه أراد به العهد فنقضوا].

(٦) اللسان: فسق. (٨) من ظ.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض﴾ لأنهم يكفرون ويأمرون غيرهم بالكفر فذلك فسادهم في الأرض ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي المغبونون في العقوبة. وقال الكلبي: ليس من مؤمن ولا كافر الا وله منزل وأهل وخدم في الجنة فإن أطاع الله أتى ومنزله وأهله وخدمه في الجنة، وإن عصى الله ورثه الله تعالى المؤمنين، فقد غبن أي بعد عن أهله وخدمه. كما قال في آية أخرى (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح لأنه لا يجوز أن يقال: للكافر[1] منزل في الجنة وخدم، إلا أن الكلبي لم يقل ذلك من ذات نفسه، وإنما رواه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وكنتم﴾ قال ابن عباس: هو على وجه التعجب[2]. وقال الفراء[3]: هو على وجه التوبيخ والتعجب لا على وجه الاستفهام فكأنه قال: ويحكم كيف تكفرون وتجحدون بوحدانية الله تعالى. فإن قيل: كيف يجوز التعجب من الله تعالى؟ وإنما يجوز التعجب ممن رأى شيئا لم يكن رآه أو سمع شيئاً لم يكن سمعه فيتعجب لذلك والله تعالى قد علم الأشياء قبل كونها. قيل له: التعجب من الله تعالى يكون على وجه التعجيب، والتعجيب هو أن يدعو إلى التعجب فكأنه يقول: ألا تتعجبون أنهم يكفرون بالله. وهذا كما قال في آية أخرى (وإن تعجب فعجب قولهم) ثم قال ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي كنتم نطفة في أصلاب آبائكم فأحياكم في أرحام أمهاتكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقطاع آجالكم ﴿ثُمَّ يُحييكم﴾ للبعث يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فتثابون بأعمالكم. قال الكلبي: فلما ذكر البعث عرف[4] اليهود فسكتوا وأنكر ذلك المشركون فقالوا: ومن يستطيع أن يحيينا بعد الموت فنزل قوله تعالى ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطاب لليهود وهم لم يكفروا بالله تعالى. فالجواب: ما سبق ذكره، أنهم لما أنكروا نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أنكروا وحدانية الله تعالى لأنهم أخبروا أن القرآن قول البشر.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي قدر خلقها لأن الأشياء كلها لم تخلق في ذلك الوقت، لأن الدواب وغيرها من الثمار التي في الأرض تخلق وقتاً بعد وقت. ولكن معناه قدر خلق الأشياء التي في الأرض. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ هذه الآية من المشكلات والناس في هذه الآية وما شاكلها على ثلاثة أوجه: قال بعضهم: نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها، وهذا كما روي عن مالك بن أنس رحمه الله أن رجلاً سأل

(١) ساقطة من أ. (٢) انظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣.

(٣) يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي إمام العربية أبو زكريا ولد بالكوفة كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي كان أكثر مقامه في بغداد من مصنفاته. معاني القرآن توفي سنة ٢٠٧ هـ. شذرات الذهب ٢/ ١٩ وفيات الأعيان ٦/ ١٧٦.

(٤) في أ [عرفت].

عن قوله (الرحمن على العرش استوى) فقال مالك: الإستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا ضالاً[١] فأخرجوه فطردوه، فإذا هو جهم بن صفوان. وقال بعضهم: نقرؤها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة وهذا قول المشبهة. وللتأويل في هذه الآية وجهان: أحدهما: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي صعد أمره إلى السماء، وهو قوله: (كن فكان). وتأويل آخر وهو قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي أقبل إلى خلق السماء. فإن قيل: قد قال في آيةٍ أخرى (أم السماء بناها رفع سمكها فسواها.. إلى قوله والأرض بعد ذلك دحاها) فذكر في تلك الآية أن الأرض خلقت بعد السماء، وذكر في هذه الآية أن [الأرض خلقت قبل السماء][٢]. الجواب عن عن هذا أن يقال: خلق الأرض قبل السماء وهي ربوة حمراء في موضع الكعبة، فلما خلق السماء بسط الأرض بعد خلق السماء فذلك قوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها) أي بسطها. ثم قال تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي خلقهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ وهن أعظم من خلقكم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي بخلق كل شيء عليم ومعناه: أن الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً وخلق السماوات قادر على أن يحييكم بعد الممات. قرأ نافع والكسائي[٣] وأبو عمرو (وهو) بجزم الهاء[٤]. وقرأ الباقون بضم الهاء (وهو) في جميع القرآن وهما لغتان ومعناهما واحد.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ روي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه وقال ربك للملائكة وإذ زيادة. وروي عن الفراء أنه قال[٥]: واذكر معناه إذ قال ربك وقال مقاتل: معناه، وقد قال ربك للملائكة. والملائكة: جماعة الملك. وهذا اللفظ على غير القياس لأنه يقال: ملائكة بالهمز ويقال للواحد: ملك بغير همز. وإنما قيل ذلك لأنه في الأصل كان مألك بالهمز فأسقط الهمز للتخفيف. وأصله من: ألك يألك (ألوكا)[٦] وهو الرسالة[٧]. كما قال القائل[٨]:

وغلام أرسلته أمه[٩] بألوك، فبذلنا ما سأل

وإنما سميت الملائكة ملائكة لأنهم رسل الله تعالى وإنما أراد ههنا بعض الملائكة. وهم الملائكة الذين كانوا في الأرض. وذلك أن الله تعالى لما خلق الأرض، خلق الجان من مارج من نار، أي من لهب من نار لا دخان لها، فكثر نسله، وهم الجان بنو الجان، فعملوا في الأرض بالمعاصي وسفكوا الدماء، فبعث الله تعالى ملائكة سماء الدنيا، وأمر عليهم إبليس وكان اسمه عزازيل، حتى هزموا الجن، وأخرجوهم من الأرض إلى جزائر البحار، وسكنوا الأرض فصار الأمر عليهم في العبادة أخف لأن كل صنف من الملائكة يكون أرفع في السماوات فيكون خوفهم أشد وملائكة سماء الدنيا يكون أمرهم أيسر من الذين فوقهم، فلما سكنوا الأرض صار الأمر عليهم أخف

---

(١) وهذا هو الذي نؤمن به ونلقى الله تعالى عليه يوم التناد يوم لا ينفع مال ولا بنون.

وانظر في هذا مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية تفسير ابن كثير ٤٤٢/٣ ج ٢، ٣، وانظر معالم التنزيل للبغوي ١٦٥/٢.

(٢) في ظ[السماء خلقت بعد الأرض]. (٣) في أ [والكسائي وابن عامر].

(٤) انظر حرز الأماني، وإتحاف فضلاء البشر من سورة البقرة.

(٥) انظر معاني القرآن للفراء ٣٥/١. (٦) من أ. (٧) اللسان: ألك.

(٨) هو لبيد بن ربيعة العامري انظر ديوانه القصيدة رقم ٤٦ ط دار صادر بيروت. (٩) في أ [ألوكه].

مما كانوا، وسكنوا الأرض واطمأنوا إليها، وكل من اطمأن إلى الدنيا أمر بالتحول عنها. فأخبرهم الله تعالى أنه يريد أن يخلق في الأرض خليفة [فذلك قوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ يعني الذي هم في الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعني أريد أن أخلق في الأرض خليفة][١] سواكم. فشق ذلك عليهم وكرهوا ذلك ﴿فَقَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ يعني أتخلق فيها ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما أفسدت الجن ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ كما سفكت الجن ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي نصلي لك بأمرك. ويقال معناه: نحن نسبح بحمدك ونحمدك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال بعضهم: نقدس أنفسنا لك، يعني نطهر أنفسنا بالعبادة عن المعصية. وقال بعضهم: نقدس لك، أي ننسك إلى الطهارة ونقدس أنفسنا لك: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وعلم من آدم الخدمة والطاعة ولم تعلم الملائكة بذلك[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد علم أنه سيكون من بني آدم من يسبح بحمده ويقدس له ويطيعه. ويقال: قد علم الله تعالى أنه سيكون في ولد آدم من الأنبياء والصالحين والأبرار. وذكر في الخبر[٣] أنه لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم بعث جبريل ليجمع التراب من وجه الأرض، فلما نزل جبريل وأراد أن يجمع التراب قالت له الأرض: بحق الله عليك لا تفعل فإني أخشى أن يخلق من ذلك خلقاً يعصي الله تعالى فأستحي من ربي. فصعد جبريل وقال: لو أمرني ربي بالرجوع إليها لفعلت. فلما صعد جبريل بعث الله تعالى ميكائيل فتضرعت إليه الأرض بمثل ذلك، فرجع ميكائيل، فبعث الله تعالى عزرائيل، فتضرعت إليه الأرض. فقال عزرائيل أمر الله أولى من قولك. فجمع التراب من وجه الأرض الطيب والسبخة، والأحمر والأصفر، وغير ذلك. ثم صعد إلى السماء. فقال له تعالى: أما رحمت الأرض حين تضرعت إليك؟ فقال: رأيت أمرك أوجب من قولها فقال: أنت تصلح لقبض أرواح أولاده. فصار ذلك التراب طيناً، وكان طيناً أربعين سنة، ثم صار صلصالاً كما قال في آية أخرى (خلق الإنسان من صلصال كالفخار) فكان إبليس إذا مر عليه مع الملائكة قال: أرأيتم هذا الذي لم تروا شيئاً من الخلائق يشبهه إن فضل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون؟ فقالوا: نطيع أمر ربنا. فأسر إبليس في نفسه، وقال لئن فضل عليّ لا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكنه. فلما سواه ونفخ فيه من روحه وعلمه أسماء الأشياء التي في الأرض. يعني ألهمه.

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ يعني ألهمه أسماء الدواب وغيرها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ هكذا مكتوب في مصحف الإمام عثمان ـ رضي الله عنه ـ وأما في مصحف ابن مسعود، وأبي بن كعب. ففي أحدهما (ثم عرضها) وفي الآخر (ثم عرضهن) فأما من قرأ (ثم عرضهن) يعني به جماعة الدواب، ومن قرأ (ثم عرضها) يعني به جميع الأسماء. وأما من قرأ ﴿ثم عرضهم﴾ يعني به جماعة الأشخاص. والأشخاص يصلح أن

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) انظر ابن جرير الطبري ١/٤٧٩.

(٣) من خبر طويل بسنده ساقه الطبري في تفسيره ١/٤٥٨ وما بعدها وابن كثير في تفسيره كذلك ١/١٠٩ وما بعدها ثم قال (فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم، والحاكم روى في المستدرك بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخاري) والصواب والله أعلم في كيفية ابتداء خلق آدم ما جاء في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي.. أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم فلذلك تأتي بنوه أخيافاً ـ أي مختلفين.

يكون عبارة عن المذكر والمؤنث. وإن[١] اجتمع المذكر والمؤنث غلب [المذكر على المؤنث][٢]. قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنْبِؤُنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ أي أخبروني عن أسماء هذه الأشياء التي في الأرض ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ قال مقاتل: معناه كيف تقولون فيما لم أخلق بعد أنهم يفسدون وأنتم لا تعرفون ما ترونه وتنظرون إليه. ويقال: في هذه الآية دليل على أن أولى الأشياء بعد علم التوحيد ينبغي أن يتعلم علم اللغة لأنه ـ عز وجل ـ أراهم فضل آدم بعلم اللغة، وقال بعضهم: إنما علمه الأسماء وما فيها من الحكمة فظهر فضله بعلم الأسماء وما فيها من الحكمة.

قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ نزهوه وتابوا إليه من مقالتهم، ومعناه سبحانك تبنا إليك من مقالتنا فاغفر لنا ﴿لا علم لنا إلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي ألهمتنا. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: سبحان الله، تنزيه الله عن كل ما لا يليق به[٣]. وقال بعض أهل اللغة: اشتقاقه من السباحة لأن الذي يسبح يباعد ما بين طرفيه، فيكون فيه معنى التبعيد[٤]. وقال بعضهم: هذه لفظة جمعت بين كلمتي تعجب لأن العرب إذا تعجبت من شيء قالت: حان، والعجم إذا تعجبت من شيء قالت: سب. فجمع بينهما فصار: سبحان[٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنت العليم بما يكون في السموات والأرض، الحكيم في أمرك إذا حكمت أن تجعل في الأرض خليفة غيرنا. ويقال: معناه (العليم الحكيم) على وجه الحكمة التي تدرك الأشياء بحقائقها وكان حكمه موافقاً للعلم.

قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ﴾[٦] يعني أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يعني أسماء الدواب[٧] وما فيها من الحكمة وما يحل أكله وما لا يحل أكله ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ يعني أخبرهم ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ قال الله تعالى لهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السماوات وسر أهل الأرض، وما يكون فيهما. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي ما أظهرتم من الطاعة يعني الملائكة ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه حين قال: لئن فضل علي لا أطيعه ولئن فضلت عليه لأهلكنه. وقال بعضهم: إنهم كانوا يقولون حين أراد الله أن يخلق آدم أنه لا يخلق أحداً أفضل منهم، فهذا الذي كانوا يكتمون. وهذا التفسير ذكر عن قتادة. وقد قيل: أنه لما خلق آدم أشكل عليهم

---

(١) من أ [وإذا]. (٢) في أ [الذكور والإناث].

(٣) أخرجه ابن جرير ١/ ٤٩٥ (٦٧٤) وذكره مطولاً ١/ ٤٥٤ (٦٠٦).

(٤) قال ابن شميل: رأيت في المنام كأن إنساناً فسر لي سبحان الله فقال: أما ترى الفرس يسبح في سرعته؟ وقال: سبحان الله: السرعية إليه والخفة في طاعته وجماع معناه بعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ند أو ضد . . (اللسان / سبح).

(٥) جاء في اللسان (والعرب تقول: سبحان من كذا إذا تعجبت منه . .) وكذا في تاج العروس ج ٢ /١٥٧ مادة (سبح) ومجمل اللغة لابن فارس ج ٣ /١١٢ (سبح)، نشر معهد المخطوطات الكويت.

(٦) في أ [أنبئهم بأسمائهم). (٧) في أ [بأسماء الذوات].

أن آدم أعلم أم هم؟ فسألهم عن الأسماء، فلم يعرفوها وسأل آدم عن الأسماء فأخبرهم بها فظهر لهم أن آدم أعلم منهم. ثم أشكل عليهم أنه أفضل أم هم؟ فأمرهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالسجود له، فظهر لهم فضله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ﴾ فأصل السجود في اللغة: هو الميلان والخضوع، والعرب تقول: سجدت النخلة إذا مالت، وسجدت الناقة إذا طأطأت رأسها ومالت(١). وإنما كانت تلك سجدة التحيه لا سجدة العبادة، وكانت السجدة تحية لآدم عليه السلام وطاعة لله عز وجل ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلهم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ يقال: إبليس: اسم أعجمي ولذلك لا ينصرف وهو قول أبي عبيدة(٢). وقال غيره: هو من أبلس يبلس إذا يئس من رحمة الله. وكذا قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أنه أيئسه من رجسته(٣). وكان اسمه (عزازيل) ويقال (عزاييل) وإنما لم ينصرف لأنه لا سمي له فلا يستثقل فاشتُقّ. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما سمي آدم لأنه خلقه من أديم الأرض(٤). وروي عن قطرب أنه قال: هذا الخبر لا يصح لأن العربية لا توافقه(٥). وقال بعض أهل اللغة: مأخوذ من الأدمة، وهو الذي يكون من لونه سمرة(٦) إلا إبليس ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي امتنع عن السجود تكبراً: معناه أن كبره منعه من السجود. وقوله ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ أي وصار من الكافرين (كما قال في آية أخرى (فكان من المغرقين) أي صار من المغرقين. وقال بعضهم: كان من الكافرين أي كان في علم الله من الكافرين. يعني أنه يكفر. وبعضهم قال: بظاهر الآية: كان كافراً في الأصل. وهذا قول أهل الجبر. وقالوا: كل كافر أسلم ظهر أنه كان مسلماً في الأصل، وكل مسلم كفر ظهر أنه كان كافراً في الأصل ـ لأنه كان كافراً يوم الميثاق. ألا ترى أن الله تعالى قال في قصة بلقيس (إنها كانت من قوم كافرين) ولم يقل إنها كانت كافرة، وقال في قصة إبليس ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ وقال أهل السنة والجماعة: الكافر إذا أسلم كان كافراً إلى وقت إسلامه وإنما صار مسلماً بإسلامه إلا أنه غفر له ما قد سلف. والمسلم إذا كفر كان مسلماً إلى ذلك الوقت إلا أنه حبط عمله.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أمر الله تعالى ملائكته أن يحملوا آدم على سرير من ذهب إلى السماء فأدخلوه الجنة ثم خلق منه زوجه حواء، يعني من ضلعه الأيسر، وكان آدم بين النائم واليقظان. وقال ابن عباس [سميت حواء لأنها خلقت من الحي(٧).

---

(١) راجع مجمل اللغة ٣/١٢٠ (سجد) وتاج العروس ٢/٣٧١ (سجد)، واللسان (سجد).

(٢) إعجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٨ / تحقيق د / محمد فؤاد سزكين ط / مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر تفسير ابن جرير ١/٥١٠.

(٤) أخرجه الطبري ١/٤٨١ (٦٤٢) (٦٤٣) في التفسير ورواهما في التاريخ ١/٤٦ وذكره بنحوه السيوطي في الدر ١/٤٩ والشوكاني في التفسير ١/٥٢.

(٥) بل العربية توافقه لأنه خلق من تراب فكأنه اشتق من أديم الأرض.

(٦) راجع اللسان / آدم وتاج العروس ج ٨ /١٨٢ (أدم) أضاف / وقال الزجاج: يقول أهل اللغة لأنه خلق من تراب.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ١/٩٣ (٧١٠) وفي التاريخ ١/٥٢ وذكره ابن كثير ١/١٤٢ والشوكاني في الفتح ١٠/٥٦.

ويقال](١) إنما سميت حواء لأنه كان في شفتها حوة(٢)، يعني حمرة فقال عز وجل ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك﴾ أي حواء. يقال للمرأة زوجة وزوج، والزوج أفصح(٣). وقوله عز وجل ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿رَغَداً﴾ أي موسعاً عليكما بلا موت ولا هنداز(٤) ـ بالزاي المعجمة ـ هكذا قال في رواية الكلبي يعني بغير تقتير. وقال أهل اللغة(٥): الرغد هو السعة في الرزق من غير(٦) تقتير. قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي ولا تأكلا من هذه الشجرة. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها كانت شجرة القمح(٧). وروى السدي عمن حدثه عن ابن عباس أنه قال: هي شجرة الكرم(٨). وروى الشعبي عن جعدة بن هبيرة مثله(٩). وروي عن علي ـ رضي الله عنه ـ مثله. وروي عن قتادة أنه قال: وذكر لنا أنها شجرة التين(١٠) ويقال: إنما كان النهي عن الأكل من الشجرة للمحنة، لأن الدنيا دار محنة، وقد خلقه من الأرض ليسكن فيها، فامتحن بذلك، كما امتحن أولاده في الدنيا بالحلال والحرام. فذلك قوله عز وجل ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فتصيرا من الضالين بأنفسكما.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ قرأ حمزة (فأزالهما) بالألف. وقرأ غيره بغير ألف، وأصله في اللغة: من أزل يزل. ومعناه فأغراهما الشيطان واستزلهما. وأما من قرأ (فأزالهما) بالألف فأصله من أزال يزيل إذا أزال الشيء عن موضعه(١١). قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي مما كانا فيه من النعم. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: مكث آدم في الجنة كما بين الظهر والعصر، من أيام الآخرة، لأن كل يوم من أيام الآخرة كألف سنة من أيام الدنيا. وروي عن ابن عباس أنه قال: لما رأى إبليس آدم في النعمة حسده، واحتال لإخراجه منها. فعرض نفسه على كل دابة من دواب الجنة أن يدخل في صورتها فأبت عليه حتى أتى الحية. وكانت أعظم وأحسن دابة في الجنة خلقاً وكانت لها أربعة قوائم، فلم يزل يستدرجها حتى أطاعته فدخل ما بين لحييها وأقام في رأسها، ثم أتى باب الجنة وناداهما وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، يعني أن هذه الشجرة

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) الحوة: الحمرة تضرب إلى السواد ثم سموا كل أسود أحوى (اللسان: حوى).

(٣) راجع تاج العروس ٢/٥٤ (زوج) قال: وأباها الأصمعي بالهاء أي (زوجه)، واللسان: زوج.

(٤) الهنداز: معرب، لأنه ليس في كلام «العرب زاي قبلها دال».
يقال: أعطاه بلا حساب ولا هنداز... اللسان: هنذ. انظر اللسان /رغد والرَّغْد والرَّغَد: الكثير الغزير.

(٥) وقال ابن فارس: عيش رَغْد وَرَغَد: أي طيب واسع / مجمل اللغة ٢/٤٠٠.

(٦) في ظ [أن يتغنى] ويقال من غير أن يقتر لا عناء فيه.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/٥٣.

(٨) أخرجه ابن جرير في التفسير ١/٥١٩ (٧٣٢).

(٩) المصدر السابق (٧٣٣). (١٠) السيوطي الدر المنثور (١/٥٣).

(١١) وأزال بمعنى صرف أو نحى، أما (أزلَّهما) فمعناها: أوقعهما في الزلل ويحتمل أن يكون زل عن المكان إذا تنحى فيتحدان في المعنى.

انظر / الحجة لابن خالويه، والإتحاف، وأبي شامة (سورة البقرة).

شجرة الخلد، فمن أكل منها يبقى في الجنة أبداً. ويقال: إن حواء قالت لآدم: تعال حتى نأكل من هذه الشجرة فقال آدم: قد نهانا ربنا عن أكل هذه الشجرة فأخذت حواء بيده حتى جاءت به إلى الشجرة، وكان يحب حواء فكره أن يخالفها لحبه إياها وكان آدم يقول لها: لا تفعلي فأني أخاف العقوبة. وكانت حواء تقول: إن رحمة الله واسعة فأخذت من ثمرها وأكلت. ثم قالت لآدم: هل أصابني شيء بأكلها؟ وإنما لم يصبها شيء بأكلها لأنها كانت تابعة، وآدم متبوعاً فما دام المتبوع على الصلاح يتجاوز عن التابع، فاذا فسد المتبوع فسد التابع. ثم أخذت ثمرة أخرى ودفعتها إلى آدم. فلما أكل آدم لم تصل إلى جوفه حتى أخذتهما الرعدة، وسقط عنهما ما كان عليهما من [الحلي والحلل][١] وغيرهما وعريا عن الثياب حتى بدت عوراتهما فاستحيا وهربا. قال الله تعالى: يا آدم أمني تهرب؟ قال: لا ولكن حياء من ذنبي فأخذا من أوراق التين، وألصقا على عوراتهما. ثم أمرهما الله تعالى بأن يهبطا منها إلى الأرض، فوقع آدم بأرض الهند، وحواء بجدة. وروي عن ابن عباس أنه قال: إنما سمي الإنسان إنساناً، لأن الله عهد إليه فنسي أي ترك. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي آدم وحواء وابليس والحية فبقي بين إبليس وبين أولاد آدم العداوة إلى يوم القيامة. وكذلك بين الحية وبين أولاد آدم عداوة إلى يوم القيامة. ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي موضع القرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: الحياة والعيش إلى الموت.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِهِ كَلِمَاتٍ﴾ قرأ ابن كثير (فتلقى آدم) بنصب آدم ورفع كلمات. وقرأ غيره برفع آدم وكسر كلمات. فأما من قرأ ﴿فتلقى آدم﴾ بالرفع فمعناه أخذ، وقيل من ربه ومن قرأ ينصب آدم يعني استقبلته كلمات من ربه[٢]. يقال: تلقيت فلاناً بمعنى استقبلته. ومعنى ذلك كله: أن الله تعالى ألهمه كلمات، فاعتذر بتلك الكلمات وتضرع إليه، فتاب الله عليه. وروي عن مجاهد أنه قال: تلك الكلمات هي قوله عز وجل (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا) الآية. وقال بعضهم: قال: بحق محمد أن تقبل توبتي، قال الله له: ومن أين عرفت محمداً؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله. فعلمت أنه أكرم خلقك عليك. فتاب الله عليه[٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: الكلمات هي قوله سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليّ وارحمني، إنك أنت التواب الرحيم[٤]. [سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا إنت رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني وأنت خير الغافرين سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت رب عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الراحمين][٥] قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ يعني قبل الله توبته. يقال: تاب العبد إلى ربه وتاب الله على عبده، فهذا اللفظ مشترك إلا أنه إذا ذكر من العبد يقال:

---

(١) في أ (الحلل والحلي).

(٢) وما بين المعقوفين سقط من ظ.

انظر / حرز الأماني في سورة البقرة إذ يقول:

وآدم فارفع ناصباً كلماته ... بكسرة وللمكي عكس تحولا

وكذا أبو شامة، والاتحاف.

(٣) انظر الدر المنثور ١/ ٦٠.

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ١/ ٥٤٥ (٧٨٨) وذكره ابن كثير ١/ ١٤٧ وانظر الدر المنثور ١/ ٦٠.

(٥) في ظ «الثاني فاغفر لي إنك خير الغافرين. الثالث: فارحمني إنك خير الراحمين.

تاب إلى الله، وإذا ذكر من الله تعالى يقال: تاب الله على عبده. إذا رجع العبد عن ذنبه، وتاب الله على عبده، إذا قبل توبته قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يعني المتجاوز عن الذنوب الرحيم بعباده.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً﴾ يعني آدم وحواء وإبليس والحية وفي الآية دليل على أن المعصية تزيل النعمة عن صاحبها لأن آدم قد أخرج من الجنة بمعصيته. وهذا كما قال القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الأله شديد النقم

وقال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الآية. وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ وأصله (فان ما) ألا أن النون أدغمت في الميم، وإن لتأكيد الكلام، وما للصلة، ومعناه فإما يأتينكم مني هدى يعني البيان، وهو الكتاب والرسل. خاطب به آدم وعنى به ذريته ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ يعني اتبع كتابي وأطاع رسلي ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من أمر الدنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا رسلي وكذبوا كتابي ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يا أولاد يعقوب. وإنما سمي إسرائيل لأن (الإسرا) بلغتهم عبد، و(الايل) هو الله فكأنه قال: يا بني عبد الله. وقال بعضهم: إنما سمي إسرائيل لأنه أسره ملك يقال له (ايل) وذلك أنه كان في سفر مع أولاده، وكان يسير خلف القافلة، وكان له قوة فدخل في نفسه شيء من العجب، فابتلاه الله تعالى: أن جاءه ملك على هيئة اللص وأراد أن يضرب على القافلة، فأراد يعقوب أن يضربه على الأرض فلم يقدر على ذلك فكانا في تلك المنازعة إلى طلوع الفجر(١)، ثم إن الملك أخذ بعرق يعقوب أي عرق من عروقه فمده فسقط في ذلك الموضع ثلاثة أيام. وقال بعضهم: لأنه أسره جني يقال له (ايل) وروي عن السدي: أنه وقعت بينه وبين أخيه (عيصوا) عداوة فحلف (عيصوا) أن يقتله، فكان يعقوب يختفي بالنهار، ويخرج بالليل فسمي إسرائيل لسيره

(١) بياض في أ.

بالليل. وأصله من إسراء الليل بدليل قوله عز وجل ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١] والله أعلم بالصواب. ويقال: إنما سمي بيعقوب لأنه ولد مع عيصو في بطن واحد فخرج على عقب عيصو فسمي لذلك بيعقوب. فقال الله تعالى ﴿يا بني إسرائيل﴾ وإنما أراد بهم اليهود الذين كانوا حوالي المدينة من بني قريظة والنضير وغيرهم، وكانوا من أولاد يعقوب وقال تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني احفظوا منتي التي مننت عليكم في التيه من المن والسلوى، يعني اذكروا تلك النعم [التي أنعمت عليكم](١) واشكروا لي ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: قد كان الله تعالى عهد إلى بني إسرائيل في التوراة أني باعث من بني إسماعيل نبياً أمياً فمن تبعه وصدق به غفرت له ذنوبه، وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين أجراً باتباعه ما جاء به موسى، وأجراً باتباعه ما جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [فلما جاءهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام](٢) وعرفوه كذبوه فذكرهم الله تعالى في هذه الآية فقال ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ قال الحسن البصري ﴿أوفوا بعهدي﴾ أدوا ما افترضت عليكم أوف بعهدكم مما وعدت لكم(٣). وقال الضحاك: أوفوا بطاعتي أوف لكم بالجنة(٤). وقال الصادق(٥): أوفوا بعهدي في دار محنتي على بساط خدمتي في حفظ حرمتي أوف بعهدكم في دار نعمتي على بساط قربتي بسني رؤيتي. وقال قتادة: العهد ما ذكر في سورة المائدة في قوله: (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) إلى قوله تعالى: (وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً) [أوف بعهدكم] وهو قوله: ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم﴾ [المائدة: ١٢] الآية. ويقال: ﴿أوفوا بعهدي﴾ الذي قبلتم يوم الميثاق ﴿أوف بعهدكم﴾ الذي قلت لكم، يعني به الجنة. قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ﴾ يعني: فاخشون. وأصله فارهبوني بالياء لكن حذفت الياء وأقيم الكسر مقامها. ثم قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي صدقوا بهذا القرآن الذي أنزلت على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصدقاً [أي موافقاً](٦) لما معكم، [من التوحيد](٧) وفي بعض الشرائع [أنزلت](٨) يعني التوراة والإنجيل ﴿وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ يعني أول من يكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: (به) يعني بالقرآن. وإنما يريد بني قريظة والنضير. فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وقد كفر به قبلهم مشركو العرب. قيل له: معناه (ولا تكونوا أول كافر به) في وقت هذا الخطاب. ويقال: إن أحبار اليهود كان لهم أتباع، فلو أسلموا أسلم أتباعهم [ولو كفروا كفر أتباعهم كلهم](٩)، فهذا معنى قوله ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ من قومكم. ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي بكتمان صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عرضاً يسيراً لأنهم كانوا عرفوا صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت لهم مأكلة ووظائف من سفلة اليهود، وكانت لهم رئاسة، فكانوا يخافون أن تذهب وظائفهم ورئاستهم. فقال: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي عرض الدنيا وإنما سماه قليلاً، لأن الدنيا كلها قليل. ثم خوفهم فقال: ﴿وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ﴾ في صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن جحد به أدخلته النار. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ﴾ يقال في اللغة: لبس يلبس لبساً إذا لبس الثياب(١٠). ومعناه لا تخلطوا الحق بالباطل، فتكتمون صفته، وذلك أنهم كانوا يخبرون عن بعض صفته، ويكتمون

---

(١) ما بين المعقوفين من أ.
(٢) ما بين المعقوفين من أ.
(٣) نسبه السيوطي لعبد بن حميد كما في الدر ١/٦٤.
(٤) وقال السيوطي في المصدر السابق: أخرجه عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن الضحاك.
(٥) ـ صلى الله عليه وسلم ـ.
(٦) من أ.
(٧) في ظ [يعني به موافقاً لما معكم في التوحيد].
(٨) من أ.
(٩) من ظ.
(١٠) اللسان: لبس، مجمل اللغة ٤/٢٦٢ لبس. ترتيب القاموس ٤/١١٧ لبس.

البعض ليصدقوا بذلك فيلبسون عليهم بذلك. وقال قتادة (ولا تلبسوا) اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله، الذي لا يقبل غيره هو الإسلام. ويقال: معناه ولا تؤمنوا ببعض أمره وتكفروا ببعض أمره. ثم قال تعالى: ﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ يقول: ولا تكتموا الحق ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تكتمون الحق. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَاةَ﴾ أي أقيموا الصلوات الخمس بركوعها وسجودها في مواقيتها، ﴿وَآتُواْ ٱلزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ﴾ أي صلوا مع المصلين، مع أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الجماعات. ويقال: صلوا مع المصلين إلى الكعبة. وقال قتادة: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وهما فريضتان واجبتان ليس لأحد فيهما رخصة، فأدوهما إلى الله عز وجل.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ نزلت هذه الآية في شأن اليهود الذين كانوا حوالي المدينة، وهم بنو قريظة والنضير، وكانوا ينتظرون خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا يدعون الأوس والخزرج إلى الإيمان به، فلما خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آمن به الأوس والخزرج وكفر اليهود وجحدوا فنزلت هذه الآية[١] ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: كانت اليهود إذا جاءهم حليف منهم ـ الذي قد أسلم ـ وسأل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السر فتقول له: إنه نبي صادق فاتبعه، وتكتم ذلك عن السفلة مخافة أن تذهب منافعه فنزلت هذه الآية ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾][٢] وقال قتادة: في هذه الآية دليل على أن من أمر بخير فليكن أشد الناس تسارعاً إليه، ومن نهى عن شر فليكن أشد الناس انتهاء عنه. ويقال: تنزلت في شأن القصاص. قال الفقيه: أخبرنا القاضي الخليل بن أحمد، قال: حدثنا ابن أبي حاتم الرازي[٣] قال: أخبرنا الحجاج بن يوسف عن سهل بن حماد[٤] عن ابن غياث[٥] عن هشام الدستوائي[٦] عن المغيرة وهو ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة[٧] عن أنس قال: لما عرج بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقال يا جبريل من هؤلاء فقال: هؤلاء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم[٨]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني أفلا تعقلون أن صفته في التوراة. ويقال ﴿وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ أن ذلك حجة عليكم.

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ أي استعينوا بالصبر على أداء الفرائض وبكثرة الصلاة على تمحيص الذنوب. ويقال: استعينوا بالصبر على نصرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال مجاهد: استعينوا بالصبر والصلاة يعني

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (١٥) ولباب النقول للسيوطي (١٠). (٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) عبد الرحمن بن محمد الرازي، كان بحراً في العلوم ومعرفة الرجال، توفي سنة ٣٢٧ هـ. لسان الميزان ١/٢٦٥.

(٤) هو أبو عناب الدلاله، صالح الحديث، الجرح والتعديل ٤/١٩٦.

(٥) حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي، أبو عمر الكوفي القاضي، ثقة فقيه تغير حفظه قليلاً في الآخر، مات سنة أربع أو خمس وتسعين، التقريب ١/١٨٩.

(٦) هشام بن أبي عبد الله الدستوائي، كان عالماً بالحديث ثبتاً، وقد رُمي بالقدر، التقريب ٢/٣١٩.

(٧) ثمامة بن عبد الله بن أنس، قاضي البصرة، ثقة قليل الحديث، الجرح والتعديل ٢/٤٦٦.

(٨) أخرجه أحمد في المسند بنحوه ٣/٢٣١ والسيوطي في الدر المنثور ١/٦٤.

بالصوم والصلاة، وإنما سمي الصوم صبراً لأن في الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب والرفث[١]. وقد قيل الصبر على ثلاثة أوجه: صبر على الشدة والمصيبة، وصبر على الطاعة وهو أشد من الأول وأكثر أجراً، وصبر عن المعصية وهو أشد من الأول والثاني، وأجره أكثر من الأول. وفي هذا الموضع أراد الصبر على الطاعة. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي الاستعانة ويقال: الصلاة (لكبيرة) أي ثقيلة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾ أي المتواضعين. ويقال: الذليلة قلوبهم.

ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي يستيقنون أنهم يبعثون يوم القيامة بعد الموت. [وإنما سمي اليقين ظناً، لأن في الظن طرفا من اليقين، فيعبر بالظن عن اليقين. وقوله ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني في الآخرة بعد البعث][٢] للحساب.

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم. وقال بعضهم: من آمن من أهل الكتاب بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت له فضيلة على غيره وكان له أجران أجر إيمانه بنبيه عليه السلام وأجر إيمانه بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ثلاثة يعطيهم الله الأجر مرتين، من اشترى جارية فأحسن تأديبها فاعتقها وتزوجها، وعبد أطاع سيده وأطاع الله تعالى، ورجل من أهل الكتاب أدرك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فآمن به[٣]. وقال بعضهم: معنى قوله ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ بإنزال المن والسلوى وغيره، ولم يكن ذلك لأحد من العالمين غيرهم.

وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْماً﴾ أي واخشوا عذاب يوم ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ يعني لا تغني في ذلك اليوم لا تجزي نفس مؤمنة عن نفس كافرة وذلك أنهم كانوا يقولون نحن من أولاد إبراهيم خليل الله، ومن أولاد إسحاق والله تعالى يقبل شفاعتها فينا، فنزلت هذه الآية ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ أي لا تغني نفس مؤمنة عن نفس مؤمنة[ولا نفس كافرة عن نفس كافرة][٤] ﴿ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي من نفس كافرة [يعني لا ينفع فيها شافع ولا ملك ولا رسول لغير أهل القبلة][٥] قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالتاء لأن الشفاعة مؤنثة وقرأ الباقون

(١) انظر في معنى الصوم لغة وشرعاً، المغرب ١/٤٨٧، والتعريفات شرح الحدود (٨٠) والمطلع (١٤٥) ودر الحكام ١/١٩٦.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري أخرجه البخاري ١/١٩٠ في العلم باب تعليم الرجل أمته وأهله (٩٧) ومسلم ١/١٣٤ الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جميع الناس (٢٤١ / ١٥٤).

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) ما بين المعقوفين من أ.

بالياء لأن تأنيثه ليس بحقيقي وما لم يكن تأنيثه حقيقياً جاز تذكيره[1]. وكقوله عز وجل: (فمن جاءه موعظة من ربه) ثم قال تعالى ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل الفداء من نفس كافرة كما قال في موضع آخر (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا) ويقال: لو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها لا يقبل منها ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: ولا هم يمنعون من العذاب.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ إنما خاطبهم وأراد به آباءهم لأنهم يتبعون آباءهم فأضاف إليهم. ومعناه واذكروا إذ نجيناكم من قوم فرعون ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يعذبونكم بأشد العذاب وأقبح العذاب، ويقال في اللغة[2]: سامه الخسف إذا أولاه الهوان يعني يولونكم بأشد العذاب. ثم بين العذاب فقال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ﴾ الصغار ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ﴾ أي ويستخدمون نساءكم. وأصله في اللغة: من الحياة، يقال: إستحيا، يستحيي إذا تركه حياً. وكانوا يذبحون الأولاد، ويتركون النساء أحياء للخدمة وذلك لأن فرعون قالت له كهنته: يولد في بني إسرائيل مولود ينازعك في ملكك. فأمر بأن يذبح كل مولود يولد في بني إسرائيل وتترك البنات. قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي نعمة من ربكم عظيمة والبلاء: يكون عبارة عن النعمة، ويكون أيضاً عبارة عن البلية والشدة وأصله من الابتلاء والاختيار يكون بهما جميعاً. فإن أراد به النعمة فمعناه][3]﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم﴾ أي أنجاه الله من ذبح الأولاد واستخدام النساء نعمة لكم من ربكم (عظيم) وإن أراد به العذاب، فمعنى (وفي ذلكم بلاء) أن في ذبح الأبناء واستخدام النساء بلاء لكم من ربكم عظيم.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي فرق الماء يميناً وشمالاً حين خرج موسى مع بني إسرائيل من مصر، فخرج فرعون وقومه[4] في طلبهم، فلما انتهوا إلى البحر ضرب موسى عصاه على البحر فانفلق فصار اثني عشر طريقاً يبساً، لكل سبط منهم طريق فلما جاوز موسى البحر ودخل فيه فرعون مع قومه غشيهم من اليم ما غشيهم. أي غشيهم الماء فغرقوا في اليم فذلك قوله تعالى: (وإذْ فرقنا بكم البحر) يقول: واذكروا نعمة الله عليكم إذ فلقنا بكم البحر ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني فرعون وآله قال بعض أهل اللغة[5] الآل أتباع الرجل

---

(١) انظر شرح الضباع على الشاطبية، والحجة لابن خالويه وأبو شامة.

(٢) قال ابن منظور: سامه الأمر سوماً: كلفه إياه وقال الزجاج: أولاه إياه، وأكثر ما يستعمل في العذاب والشر والظلم. اللسان: سوم.

(٣) ما بين المعقوفين من أ. (٤) في ظ [من مصر وقومه].

(٥) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ١/٥٥. كذا في الفيض وعزاه للطبراني في الأوسط من حديث أنس ورمز له بالضعف بلفظ «آل محمد كل تقي وعزاه المناوي للطبراني في الأوسط والصغير ولابن لال وتمام والعقيلي والحاكم في تاريخه والبيهقي من أنس قال: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من آل محمد؟ فذكره».

قال الهيثمي: وفيه نوح بن أبي مريم وهو ضعيف جداً، وقال البيهقي: هو حديث لا يحل الاحتجاج به. وقال ابن حجر: رواه الطبراني عن أنس وسنده واه جداً. وأخرجه البيهقي عن جابر من قوله وإسناده واه ضعيف. وقال السخاوي: أسانيده كلها ضعيفة. =

قريبه كان أو غيره وأهله قريبه أتبعه أو لم يتبعه. ويقال: الآل والأهل بمعنى واحد، إلا أن الآل يستعمل لاتباع رئيس من الرؤساء. يقال: آل فرعون وآل موسى، وآل هارون ولا يقال: آل زيد، وآل عمرو. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قيل له: من آلك؟ قال: آلي كل تقي إلى يوم القيامة[1] قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي تنظرون إليهم حين لفظهم البحر بعدما غرقوا يعني آباءهم. وقال بعضهم: معناه أنكم تعلمون ذلك كأنكم تنظرون إليهم. قال الفقيه: وكان في قصة فرعون وغيره علامة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي، فلما أخبرهم بذلك من غير أن يقرأ كتاباً، كان ذلك دليلاً أنه قاله بالوحي وفيه أيضاً تهديد للكفار ليؤمنوا حتى لا يصيبهم مثل ما يصاب أولئك. وفيه أيضاً تنبيه للمؤمنين وعظة لهم ليزجرهم ذلك عن المعاصي.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو ﴿وإذ وعدنا موسى﴾ بغير ألف وقرأ غيره ﴿واعدنا﴾ بالألف، فمن قرأ بغير ألف فمعناه ظاهر، يعني أن الله تعالى وعد موسى عليه السلام ومن قرأ بالألف بالمواعدة تجري بين اثنين، وإنما كان الوعد من الله تعالى ومن موسى الوفاء. ومن الله الأمر، ومن موسى الائتمار. فكأنما جرت المواعدة بين الله تعالى وبين موسى. وقد يجوز أن تكون المفاعلة من واحد كما يقال سافر ونافق. ويقال: أربعين ليلة كانت ثلاثين ليلة منها من ذي القعدة وعشراً من ذي الحجة. وقال بعضهم: ثلاثين كانت من ذي الحجة وعشراً من المحرم وكانت مناجاته يوم عاشوراء. وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: لما وعدهم موسى أربعين ليلة عدت بنو إسرائيل عشرين يوماً وعشرين ليلة، وقالوا: قد تمت أربعون ولم يرجع موسى، فقد خالفنا[2]. وذكر أن السامري قال لهم: إنكم استعرتم من نساء آل فرعون حليهم ولم تردوه عليهم، فلعل الله تعالى لم يرد علينا موسى لهذا المعنى فهاتوا ما عندكم من الحلي حتى نحرقه، فلعل الله يرد إلينا موسى فجمعوا ذلك

= قال الحليمي في تفسير الآل: هم قرابته لقيام الأدلة على أن آله من حرمت عليهم الصدقة أو المراد آله بالنسبة لمقام نحو الدعاء، ورجحه النووي رحمه الله في شرح مسلم فالإضافة للإختصاص أي هم مختصون به اختصاص أهل الرجل به، وعليه فيدخل أهل البيت دخولاً أولياً كذا حرره بعض المتأخرين أخذاً من قول الراغب: آل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقاربه وقيل المختصون به من حيث العلم، وذلك أنَّ أهل الدين ضربان: ضرب مختص بالعلم المتقن والعمل النافع المحكم فيقال لهم: آل النبي وأمته، وضرب يختصون بالعلم على سبيل التقليد ويقال لهم أمة محمد ولا يقال: آله وكل آل النبي وأمته ولا عكس.

وقيل لجعفر الصادق: الناس يقولون: المسلمون كلهم آل النبي ـ قال: صدقوا وكذبوا. قيل: كيف؟ قال: كذبوا في أن الأمة كافتهم آله وصدقوا أنهم إذا قاموا بشرائط شريعته آله، والمتقي من يقي نفسه عما يضره في العقبى أو من سلك سبيل المصطفى ونبذ الدنيا وراء القفا وكلف نفسه الإخلاص والوفاء واجتنب الحرام والجفاء ولو لم يكن له فضل إلا قوله تقدس: هدى للمتقين لكفى لأنه تعالى بين في غير موضع أن القرآن هدى للناس. وقال: هدى للمتقين فكأنه قال: المتقون هم الناس وغير المتقي ليس من الناس وقال الحراني: المتقي المتوقف عن الاقدام على كل أمر لشعوره بتقصيره عن الاستبداد.، وعلمه بأنه غير بنفسه فهو متق لوصفه وحسن فطرته، والتقوى تجنب القبيح خوفاً من الله وهي أصل كل عبادة ووصية الله لأهل الكتاب بأسرها.

(١) قال أبو العباس أحمد بن يحيى: اختلف الناس في إلا فقالت طائفة: آل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اتبعه قرابة كانت أو غير قرابة، وآله ذو قرابته متبعاً أو غير متتبع وقالت طائفة: الال والأهل واحد. اللسان: أول.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١/ ٦٥ مطولاً بنحوه (٩١٩).

الحلي، وكان السامري صائغاً فاتخذ من ذلك عجلاً، وقد كان قبل ذلك رأى جبريل ـ عليه السلام ـ على فرس الحياة، فكلما وضع حافره أخضر ذلك الموضع فرفع من تحت سنبكه[١] قبضة من التراب، ونفخ ذلك التراب في العجل فصار ذلك عجلاً جسداً له خوار. وروي عن ابن عباس أنه قال: صار عجلاً له لحم ودم وفيه حياة له خوار. وروي عن علي أنه قال: اتخذ عجلاً جسداً مشبكاً من ذهب له خوار، فدخل الريح في جوفه وخرج من فيه كهيئة الخوار فقال للقوم (هذا إلهكم وإله موسى فنسي) يعني أن موسى أخطأ الطريق. وقال بعضهم: كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة، فتم ميقات ربه أربعين ليلة لأنه قد أفطر من الصيام في تلك العشرة لأنه ظهر لهم الخلاف في تلك العشرة وهذا الطريق أوضح. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي عبدتم العجل من بعد إنطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي كافرون بعبادتكم العجل. ويقال: وأنتم ضارون أنفسكم بعبادتكم العجل: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تركناكم من بعد عبادتكم العجل، فلم نستأصلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله تعالى على العفو والنعمة. قوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ أي الفارق بين الحلال والحرام ويقال: الفرقان هو النصرة بدليل قوله تعالى: (يوم الفرقان) أي يوم النصرة. ويقال: الفرقان هو المخرج من الشبهات ويقال: هو انفلاق البحر بدليل قوله (وإذ فرقنا بكم البحر) وقال الفراء: في الآية مضمر، ومعناه: وآتينا موسى الكتاب يعني التوراة وأعطينا محمداً الفرقان، فكأنه خاطبهم فقال: قد أعطيناكم علم موسى وعلم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلم سائر الأنبياء قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ وأصله يا قومي بالياء. ولكن حذف الياء وترك الكسر بدلاً عن الياء وتكون في الإضافة إلى نفسه معنى الشفقة. يا قوم ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ يعني أضررتم بأنفسكم ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[٢] [يعني إلى خالقكم][٣] يقول: فارجعوا عن عبادة العجل إلى عبادة خالقكم، وتوبوا إليه فقالوا له: وكيف التوبة؟ قال لهم موسى: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني يقتل بعضكم بعضاً، يقتل من لم يعبد العجل الذين عبدوا العجل، وإنما ذكر قتل الأنفس وأراد به الإخوان. وهذا كما قال في آية أخرى (ولا تلمزوا أنفسكم) أي لا تعيبوا اخوانكم من المسلمين يعني لا تغتابوا إخوانكم. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ يعني التوبة خير لكم عند خالقكم ومعناه قتل إخوانكم مع رضا الله خير لكم عند الله تعالى من ترككم إلى عذاب الله قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي المتجاوز عن الذنوب الرحيم حيث جعل القتل كفارة لذنوبكم. وروي في الخبر أن الذين عبدوا العجل جلسوا على أبواب دورهم وأتاهم هارون والذين لم يعبدوا العجل شاهرين سيوفهم، فكان موسى عليه السلام يتقدم ويقول: إن هؤلاء إخوانكم قد أتوا شاهرين سيوفهم،

---

(١) السنبك: طرف الحافر وجانباه من قدم وجمعه سنابك. اللسان: سنب.

(٢) لم يذكر المؤلف قراءة أبي عمرو في «بارئكم» وقد قرأها أبو عمرو بإسكان الهمزة وهي لغة بني أسد وتميم وبعض نجد للتخفيف من توالي ثلاث حركات فقال: من نوع واحد. انظر الحرز، وأبو شامة، والبحر المحيط.

(٣) ما بين المعقوفتين من أ.

فاتقوا الله واصبروا له فلعن الله رجلاً قام من مجلسه أو حل حبوته[١]، أو مد بطرفه إليهم أو اتقاهم بيد أو برجل. فيقولون: آمين وذكر في رواية أبي صالح: أن هارون كان يتقدم ويقول ذلك. فجعلوا يقتلونهم إلى المساء فكانت القتلى سبعين ألفا فكان موسى عليه السلام يدعو ربه لما شق عليه من كثرة الدماء حتى نزلت التوبة. فقيل لموسى: ارفع السيف عنهم، فإني قبلت توبتهم جميعاً من قتل ومن لم يقتل[٢].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لن نصدقك ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عيانا، وذلك أن موسى عليه السلام حين انطلق إلى طور سيناء للمناجاة اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، فلما انتهوا إلى الجبل أمرهم موسى بأن يمكثوا في أسفل الجبل وصعد موسى عليه السلام فناجى ربه فأعطاه الله الألواح، فلما رجع إليهم قالوا له: إنك قد رأيت الله فأرناه حتى ننظر إليه، فقال لهم: إني لم أره، وقد سألته أن أنظر إليه، فتجلى للجبل، فدك الجبل، فلم يصدقوه. وقالوا: لن نصدقك حتى نرى الله جهرة. فأخذتهم الصاعقة فماتوا كلهم فدعا موسى ربه فأحياهم الله تعالى، فذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلى الصاعقة. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ يقول أحييناكم من بعد هلاككم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للحياة بعد الموت.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ إنما خاطبهم وأراد به آباءهم وهم قوم موسى عليه السلام، حيث أمروا بأن يدخلوا مدينة الجبارين فأبوا ذلك وقالوا لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) فعاقبهم الله عز وجل فبقوا في التيه أربعين سنة، وكانت المفازة اثني عشر فرسخاً، وكان يؤذيهم حر الشمس فظلل عليهم الغمام فذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ وهو السحاب الأبيض، يقيكم حر الشمس في التيه، وكان لهم في التيه عمود من نور مد لهم من السماء فيسير معهم من الليل مكان القمر فأصابهم الجوع فسألوا موسى فدعا الله فأنزل عليهم المن[٣] وهو (الترنجبين) كان يتساقط عليهم كل غداة فيأخذ كل إنسان منهم ما يكفيه يومه وليلته، فإن أخذ أكثر من ذلك دود ذلك الزايد وفسد وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل إنسان منهم مقدار ما يكفيه يومين لأنه لا يأتيهم يوم

(١) ـ الحبوة بكسر الحاء وضمها ـ: الثوب الذي يحتبى به، وفي الحديث: أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن الاحتباء في ثوب واحد.

قال ابن الأثير: هو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعها به في ظهره ويشده عليها. وقال الجوهري: احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقيه بعمامته وقد يحتبي بيديه. اللسان: حبا، الصحاح: حبا.

(٢) ذكره السيوطي في الدر عن الزهري ١/٦٩.

(٣) المن. قال ابن سيده: هو طل ينزل من السماء، وقيل: هو شبه العسل كان ينزل على بني إسرائيل من السماء إذ هم في التيه، وقيل: كان ينزل عليهم إذ هم بأفنيتهم اللسان: منن.

السبت، وكان ذلك مثل الشهد المعجون بالسمن فأجموا[١] من المن، أي ملوا من أكله. فقالوا لموسى عليه السلام: قتلنا هذا المن بحلاوته وأحرق بطوننا فادع لنا ربك أن يطعمنا لحماً. فدعا لهم موسى ـ عليه السلام ـ فبعث الله لهم طيراً كثيراً فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وهو السماني وهو طير يضرب إلى الحمرة. وقال بعضهم: كان طيراً يأتيهم مشوياً. قال عامة المفسرين إنهم كانوا يأخذونها ويذبحونها. ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ﴾ أي قيل لهم كلوا من طيبات، وهذا من المضمرات، وفي كلام العرب يضمر الشيء إذا كان يستغنى عن إظهاره، كما قال في آية أخرى (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) يعني يقال لهم أكفرتم. وكما قال في آية أخرى: (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله) يعني قالوا: ما نعبدهم ومثل هذا في القرآن كثير. وكذلك قوله ههنا ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي من حلالات ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم من المن والسلوى ولا ترفعوا منها شيئاً كما قال في آية أخرى (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) أي ولا تعصوا فيه فلا ترفعوا إلى الغد فرفعوا وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفد فرجع ذلك عنهم ولو لم يرفعوا لدام ذلك عليهم. قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يقول وما أضرونا ﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي أضروا بأنفسهم حيث رفعوا [إلى الغد حتى][٢] منع ذلك عنهم. وروى خلاس[٣] عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام، ولم (ينتن)[٤] اللحم، ولولا حواء لم تخن امرأة زوجها[٥].

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ قال الكلبي: يعني أريحا. وقال مقاتل: إيليا. ويقال هذا: كان بعد موت موسى عليه السلام، وبعد مضي أربعين سنة حيث أمر الله تعالى يوشع بن نون وكان خليفة موسى ـ عليهما السلام ـ بأن يدخل مع قومه المدينة فقال لهم يوشع بن نون: ادخلوا الباب سجداً يعني إذا دخلتم من باب المدينة فادخلوا ركعاً منحنين ناكسي رؤوسكم متواضعين فيقوم ذلك منكم مقام السجود وذلك قوله تعالى: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) يعني أريحا أو إيليا ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ موسعاً عليكم ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّداً﴾ أي ركعاً منحنين ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع وبعضهم بالنصب وهي قراءة شاذة، وإنما جعله نصباً لأنه مفعول. ومن قرأ بالرفع معناه وقولوا حطة[٦]. وروي عن قتادة أنه قال: تفسير (حطة) يعني حط عنا خطايانا. وقال بعضهم[٧]: معناه لا إله إلا الله. وقال بعضهم بسم الله. وقال بعضهم أمروا بأن يقولوا بهذا اللفظ ولا ندري ما

---

(١) أجمت الطعام ـ بالكسر عند الجوهري، وبالكسر والفتح عند ابن منظور أي كرهته من المداومة عليه اللسان الصحاح: أجم.

(٢) ما بين المعقوفتين من أ.

(٣) خلاس بن عمرو الهجري البصري، تابعي ثقة، توفي قبل المائة. تهذيب التهذيب ٣/١٧٦.

(٤) في ظ «يخنز» ومعناها ينتن ويفسد. اللسان: خنز.

(٥) متفق عليه من رواية أبي هريرة: أخرجه البخاري ٦/٤٣٠ في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة» (٣٣٩٩). ومسلم ٢/١٠٩٢ في كتاب الرضاع باب لولا حواء (٦٣/١٤٧٠)

(٦) وقراءة الرفع هي المتواترة عن السبعة.

(٧) ذكره ابن جرير عن عكرمة ٢/١٠٦ (١٠١٥).

معناه. ثم قال: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام (تغفر) بالتاء والضمة لأن لفظ الخطايا مؤنث. وقرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة (يغفر) بالياء والضمة بلفظ التذكير لأن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم. وقرأ الباقون بالنون وكسر الفاء على معنى الإضافة[١] إلى نفسه وذلك كله يرجع إلى معنى واحد، ومعناه نغفر لكم خطايا الذين عبدوا العجل ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيد في إحسان من لم يعبد العجل. ويقال: نغفر خطايا من رفع المن والسلوى للغد، وسنزيد في إحسان من لم يرفع إلى الغد. ويقال: نرفع خطايا من هو عاصي، وسنزيد في إحسان من هو محسن. فلما دخلوا الباب خالفوا أمره. وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أنهم دخلوا الباب يزحفون»[٢] وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: دخلوا على أستاههم[٣]. ويقال: دخلوا منحرفين على شق وجوههم. وقالوا: (احنطا سمفانا) يعني حنطة حمراء. بلغة القبط استهزاء وتبديلاً. وإنما قال ذلك سفهاؤهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غيروا ذلك القول وقالوا: بخلاف ما قيل لهم قال الله تعالى ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي غيروا ﴿رِجْزاً﴾ أي عذاباً[٤] ﴿مِّنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ وهو موت الفجاءة. [وقال أبو روق (الرجز) الطاعون ويقال مات منهم بالطاعون سبعون ألفاً ويقال: نزلت بهم نار فاحترقوا. ويقال: وقع بينهم قتال فاقتتلوا فقتل بعضهم بعضاً][٥]. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي جزاء لفسقهم وعصيانهم. ثم رجع إلى قصة موسى حين كانوا في التيه وأصابهم العطش فاستغاثوا بموسى، فدعا موسى ربه، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه الحجر فأخذ موسى حجراً مربعاً مثل رأس الإنسان، ووضعه في المخلاة بين يدي قومه (ضرب عصاه عليه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ماءً عذباً وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً لكل سبط منهم عين على حدة. قال الفقيه: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوسة قال: حدثنا أبو القاسم أحمد ابن حمزة الصفار قال: حدثنا عيسى بن أحمد[٦] قال: حدثنا يزيد بن هارون[٧] عن فضيل بن مرزوق[٨] عن عطية العوفي[٩] قال: تاه بنو إسرائيل في اثني عشر فرسخاً أربعين عاماً على غير ماء، وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور، فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى بعصاه.

وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾

---

(١) انظر/ الحرز، والحجة في هذه الآية.

(٢) أخرجه البخاري ٢٢٨/٨ في كتاب التفسير ومسلم ٣١٢/٤ في كتاب التفسير باب (٥٤) (١/٣٠١٥).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٦٢/٢ في التفسير باب كانت الرسل ثلاث مائة وخمس عشرة وقال: وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي واستاهم جمع است وهي الدبر.

(٤) راجع: اللسان: رجز.
قال ابن منظور: قال ابن إسحاق: ومعنى الرجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدته وله قلقلة شديدة متتابعة.

(٥) ما بين المعقوفين سقط من ظ.

(٦) عيسى بن أحمد العسقلاني البلخي، صدوق، ثقة. تهذيب التهذيب ٢٠٥/٨.

(٧) يزيد بن هارون بن وادي أبو خالد السلمي، مولى لهم ثقة، إمام صدوق في الحديث. تهذيب التهذيب ٣٦٦/١١.

(٨) فضيل بن مرزوق الأغـر الرؤاس الكوفي، وَثَّقَهُ سفيان، صدوق. الجرح والتعديل ٥٧/٧.

(٩) عطية بن سعد العوفي الجدلي الكوفي. الجرح والتعديل ٣٨٢/٦.

فإذا ساروا حملوه فاستمسك. وقال بعضهم: كان يخرج عينا واحدة ثم تتفرق على اثنتي عشرة فرقة، وتصير اثني عشر نهراً. وقال بعضهم: كان للحجر اثنا عشر ثقبا (يخرج منها اثنتا عشرة عينا لا يختلط بعضها ببعض. قال مقاتل: كان الحجر مربعاً وكان جبريل عليه السلام أمر موسى بحمله معه يوم جاوز البحر ببني إسرائيل، وإنما انفجرت اثنتا عشرة عينا لأنه أخذ من مكان فيه اثنا عشر طريقا. ثم قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي قد عرف كل سبط مشربهم][1]. أي موردهم وموضع شربهم من العيون لا يخالطهم فيها غيرهم. والحكمة في ذلك أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر، وأراد كل سبط تكثير نفسه، فجعل لكل سبط منهم نهراً على حدة ليستقوا منها، ويسقوا دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة. وقال بعضهم: كان الحجر من الجنة. وقال بعضهم: رفعه موسى من أسفل البحر حيث مر فيه مع قومه. وقال بعضهم: كان حجراً من أحجار الأرض. قواه عز وجل: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي قيل لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا من ماء العيون ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تعملوا فيها بالمعاصي يقال: عثا يعثو عثواً إذا أظهر الفساد[2] [وعَثِي - وعاث - لغتان - الذئب في الغنم أي أسرع بالفساد][3] ثم أنهم أجمعوا من المن والسلوى.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي من جنس واحد ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي مما تخرج الأرض ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا﴾ وقوله (بقلها) أراد به البقول كلها وقوله (وقثائها) أراد به جميع ما يخرج من الفاكهة مثل القثاء والبطيخ ونحو ذلك. وقوله ﴿وَفُومِهَا﴾[4] أي طعامها وهي الحبوب كلها. ويقال: هي الحنطة خاصة. وقال مجاهد: الفوم الخبز. وقال الفراء: فومي لنا يا جارية يعني اخبزي لنا. ويقال: الفوم هو الثوم والعرب تبدل الفاء بالثاء لقرب مخرجهما. وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿وَثُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ فغضب عليهم موسى - عليه السلام - ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يعني أتستبدلون الرديء من الطعام بالذي هو خير أي بالشريف الأعلى. ويقال: معناه تسألون الدنيء من الطعام وقد أعطاكم الله الشريف منه وهو المن والسلوى، ويقال: أتختارون الدنيء الخسيس وهو الثوم والبصل على الذي هو أعلى وأشرف وهو المن والسلوى فقال الله تعالى لهم ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْراً﴾ قرأ بعضهم بلا تنوين[5] أي المصر الذي

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) ما بين المعقوفتين من أ.

(٣) قال ابن سيدة: عثا عثواً وعثى عثواً: أفسد أشد الأفساد.

ولا تعثوا: من عيثى يعثى عثوا وهو الفساد، وفيه لغتان اخريان لم يقرأ بواحدة منهما، أحدهما: عثا يعثو مثل سما يسمو، ولو قرىء بها لقرىء «ولا تعثوا». واللغة الثانية: عاث يعيث. اللسان: عثا.

(٤) الفوم: الزرع أو الحنطة، وقيل: هو الحمص، وقيل: هو الخبز.

(٥) وهذه القراءة شاذة لم ترد عن أي إمام من الأئمة السبعة، وإن كانت قراءة لأبي بن كعب وابن مسعود - رضي الله عنهما - إلا أنها لم =

خرجتم منه، وهو مصر فرعون، ومن قرأ مصراً بالتنوين يعني: ادخلوا مصراً من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ تزرعون وتحصدون ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ قال الحسن وقتادة: جعلت عليهم الجزية يعني على ذريتهم[1]. ويقال: جعل عليهم كد العمل، يعني أولئك القوم حتى كانوا ينقلون السرقين[2]. ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ يعني زي الفقراء. وقال الكلبي: يعني الرجل من اليهود وإن كان غنياً يكون عليه زي الفقراء. وقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ يعني استوجبوا الغضب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: أصله من الرجوع، يعني رجعوا باللعنة في أثر اللعنة. ويقال: باءوا أي احتملوا كما يقال: بوئت بهذا الذنب أي احتملته. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي ما أصابهم من الذلة والمسكنة ـ وهم اليهود ـ بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، يعني كذبوا عيسى وزكريا ويحيى ومحمداً ـ عليهم وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام ـ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بغير جرم منهم، وهم زكريا ويحيى. قرأ نافع (النبيين) بالهمزة وكذلك جميع ما في القرآن إلا في سورة الأحزاب: (يا أيها النبي) وقرأ الباقون: بغير همز[3]. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلاً قال له: يا نبيء الله فقال: لست بنبيء الله ولكن نبي الله[4]. (والنبيين) جماعة النبي. وأما من قرأ بالهمز قال أصله من النبأ وهو الخبر لأنه أنبأ عن الله تعالى، وأما من قرأ بغير همز فأصله مهموز، ولكن قريشاً لا تهمز. وقال بعضهم: هو مأخوذ من النبأة وهو الارتفاع لأنه شرف على جميع خلقه. وقال بعضهم: النبيء هو الطريق الواضح، سمي بذلك لأنه طريق الخلق إلى الله تعالى. قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾ أي ذلك الغضب على اليهود بما عصوا أي بسبب عصيانهم أمر الله تعالى فخذلهم الله تعالى حين كفروا فلو أنهم لم يعصوا الله تعالى كانوا معصومين من ذلك. ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ يعني بقتلهم الأنبياء وركوبهم المعاصي.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن الذين آمنوا وهم قوم كانوا مؤمنين بموسى والتوراة ولم يتهودوا ولم يتنصروا. والنصارى: الذين تركوا دين عيسى وتسموا بالنصرانية. واليهود الذين تركوا دين موسى وتسموا باليهودية. والصابئين: هم قوم من النصارى ألين قولاً منهم ﴿مَنْ

= تصل إلينا عن طريق التواتر ولذلك لم يذكرها الشاطبي ولا ابن الجزري.

(١) انظر الدر المنثور ١/٧٣.

(٢) قال ابن منظور: السِّرجين والسَّرجين: ما تدمل به الأرض.
وقال الجوهري: هو بالكسر معرب لأنه ليس في الكلام فعليل بالفتح. ويقال: سرقين. انظر اللسان: سرح، الصحاح: سرحن ٥/٢١٣٥.

(٣) انظر الحرز، والاتحاف، والبحر المحيط (سورة البقرة).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٣١ في كتاب التفسير باب قراءات النهي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
قال: وله شاهد مفسر بإسناد ليس من شرط هذا الكتاب وتعقبه الذهبي فقال: بل منكر لم يصح. قال النسائي: حمران ليس بثقة.
وقال أبو داود: رافضي روى عن موسى بن عبيدة وهو واه ولم يثبت أيضاً عنه عن نافع عن ابن عمر قال: ما همز رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم.

ءامَنَ﴾ من هؤلاء ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم. قال مقاتل: (إن الذين آمنوا) أي صدقوا بتوحيد الله ومن آمن من الذين هادوا، ومن النصارى والصابئين فلهم أجرهم عند ربهم. وقال القتبي: قوله (إن الذين آمنوا) هم قوم آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم(١). فكأنه قال: إن المنافقين والذين هادوا والنصارى والصابئين ويقال: اليهود سموا يهوداً يقول موسى ـ عليه السلام ـ (إنا هدنا إليك) ويقال: اشتقاقه من الميل من هاد، يهود إذا مال عن الطريق(٢). وأما النصارى قال بعضهم: سموا أنفسهم نصارى بقول عيسى عليه السلام: (من أنصاري إلى الله) ويقال: لأنهم نزلوا إلى قرية يقال لها ناصرة، فتواثقوا(٣) على دينهم فسموا نصارى. وأما الصابي فهو من صبا يصبو إذا مال(٤). ويقال: من صبأ يصبأ إذا رفع رأسه إلى السماء لأنهم يعبدون الملائكة. قرأ نافع و (الصابيين) بغير همز من صبا يصبو إذا(٥) خرج من دين إلى دين. وقرأ الباقون بالهمز من صبأ يصبأ إذا رفع رأسه إلى السماء، واختلف العلماء في حكم الصابئين. فقال بعضهم: حكمهم كحكم أهل الكتاب في أكل ذبائحهم ومناكحة نسائهم وهو قول أبي حنيفة لأنهم قوم بين النصرانية واليهودية يقرأون الزبور. وقال بعضهم: هم بمنزلة المجوس لا يجوز أكل ذبائحهم ولا مناكحة نسائهم وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله لأنهم يعبدون الملائكة فصار حكمهم حكم عبدة النيران. ولم يذكر في الآية الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لما ذكر الإيمان بالله تعالى فقد دخل فيه الإيمان بالنبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لا يكون مؤمناً بالله تعالى ما لم يؤمن بجميع ما أنزل الله تعالى على محمد وعلى جميع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فكأنه قال: من آمن بالله وبما أنزل على جميع أنبيائه وصدق باليوم الآخر [(وعمل صالحاً) أي أدى الفرائض](٦) فلهم أجرهم عند ربهم: يعني لهم ثواب أعمالهم في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من الدنيا. ويقال: ليس عليهم خوف النار ولا حزن الفزع الأكبر. فإن قيل: فيه ذكر من آمن بالله بلفظ الوحدان، ثم قال فلهم أجرهم ولم يقل: فله أجره. قيل له: لأنه انصرف إلى ما سبق ذكره وهو الجماعة فمرة يذكر بلفظ الوحدان لاعتبار اللفظ ومرة بلفظ الجمع لاعتبار المعنى.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ قال ابن عباس: هما ميثاقان: الميثاق الأول: حين أخرجهم من صلب آدم ـ عليه السلام ـ والميثاق والثاني: الذي أخذ في التوراة وسائر الكتب ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وذلك أن موسى «عليه السلام» لما أتاهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التغليظ والأمر والنهي شق ذلك عليهم فأبوا أن يقبلوها وإن الله

---

(١) في أ «بالقلب».

(٢) قال ابن منظور: الهود التوبة: ، هاد يهود هودا وتهود: تاب ورجع إلى الحق. وقال ابن الأعرابي: هاد إذا رجع من خير إلى شر أو من شر إلى خير. وسميت اليهود: اشتقاقاً من هادوا أي تابوا. اللسان: هود.

(٣) في أ «فتوافقوا».

(٤) قال ابن منظور: الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام بكذبهم وقال الليث: الصابئون قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح، وهم كاذبون. اللسان: صبا وقال في مادة: صبا أي مال.

(٥) في أ «إذا مال قرأ الباقون بالهمز من صبا يصبو إذا خرج».

(٦) ما بين المعقوفين من أ.

تعالى قد من على هذه الأمة حيث فرض عليهم الفرائض واحداً بعد واحد، ولم يفرض عليهم جملة، فإذا استقر الواحد في قلوبهم فرض الآخر. وأما بنو إسرائيل فقد فرض عليهم دفعة واحدة فشق ذلك عليهم ولم يقبلوا، فأمر الله تعالى الملائكة فرفعوا جبلاً من جبال فلسطين فوق رؤوسهم، وكان عسكر موسى فرسخاً في فرسخ، والجبل مثل ذلك فلما رأوا أنه لا مهرب لهم منه، قبلوا التوراة وسجدوا من المهابة والفزع، وهم يلاحظون في سجودهم الجبل، فمن ذلك يسجد بعض اليهود على أنصاف وجوههم فذلك قوله تعالى: (ورفعنا فوقكم الطور) والطور: اسم جبل بالسريانية. ويقال: هو جبل ذو أشجار. ثم قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَا آتَيْنَاكم بِقُوَّةٍ﴾ أي قيل لهم اعملوا بما آتيناكم بجد ومواظبة واعملوا في طاعة الله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قال بعضهم: اعملوا بما فيه وقال بعضهم: اذكروا[1] ما فيه من الثواب والعقاب لكي يسهل عليكم القبول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتقوا عقوبته في المعصية فتمتنعوا عنها ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي أعرضتم من بعد ذلك الإقرار. (يعني: من بعد ما رفع عنكم الجبل عنكم. ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الله عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأخير العذاب[2] ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة. ويقال: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال الرسل إليكم لكيلا تقيموا على الكفر لكنتم من الخاسرين بالعقوبة.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

ثم قال تعالى] ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي اصطادوا. ويقال: استحلوا أخذ الحيتان يوم السبت. والسبت في اللغة[3] هو الراحة. كما قال في آية أخرى (وجعلنا نومكم سباتا) أي راحة. فيوم السبت كان راحة لليهود عن أشغال الدنيا وهذه الآية على معنى التحذير والتهديد، فكأنه يقول: إنكم تعلمون ما أصاب الذين استحلوا أخذ السمك في يوم السبت من العقوبة، فاحذروا كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم وذلك أن مدينة يقال لها (آيلة) على ساحل البحر كان يجتمع فيها السمك يوم السبت حتى يأخذ وجه الماء وفي سائر الأيام لا يأتيهم إلا قليل. وقال بعض أهل القصص: إنما كانت الحيتان تجتمع هناك لزيارة السمكة التي كان في بطنها يونس - عليه السلام - ففي كل سبت يجتمعون لزيارتها[4]. وقال بعضهم: لم يكن لهذا المعنى، ولكن كانت محنة أولئك القوم فاحتالوا وحبسوا ذلك السمك في يوم السبت وأخذوه يوم الأحد فلما لم تصبهم العقوبة لفعلهم ذلك أمنوا، واستحلوا أخذها فمسخهم الله قردة. وقد بين قصتهم في سورة الأعراف في قوله تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) ثم قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يعني مبعدين من رحمة الله. وأصله في اللغة من البعد. يقال: خسأ الكلب إذا بعد[5]. ويقال: (خاسئين) أي صاغرين ذليلين. قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً﴾

---

(١) في أ «اعملوا». (٢) في أ «وقيل من بعد البيان في كتابهم بتأخير العذاب».

(٣) قال ابن منظور: سبت يسبت سبتاً: استراح ويسكن. اللسان: سبت.

(٤) هذا الكلام من اختلاق القصاص والصواب أن يقال: إن هذا الاتيان من الحيتان قد يكون بإرسال من الله كارسال السحاب أو بوحي إلهام كما أوحى إلى النحل أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما جاء، وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة، ويحتمل أن يكون ذلك من الحيتان شعوراً بالسلامة. انظر البحر المحيط ٤/ ٤١١.

(٥) الخاسىء من الكلب والخنازير والشياطين: البعيد الذي لا يترك أن يدنو من الإنسان. والخاسىء المطرود. اللسان: خسأ.

[لما بين يديها وما خلفها][1] [يعني جعلنا تلك العقوبة [نكالا) يعني عقوبة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ يعني لما سبق منهم من الذنب][2] ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي عبرة لمن بعدهم. ويقال: فجعلناها يعني القرية، نكالا لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى ليعتبروا بها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني نهيا لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعبرة لهم [لكي لا يستحلوا ما حرم الله عليهم][3] قال الفقيه حدثنا أبو القاسم عمر بن محمد[4] قال: حدثنا أبو بكر الواسطي[5] قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا كثير بن هشام[6] عن المسعودي[7] عن علقمة بن مرثد[8] عن المستورد بن الأحنف قال: قيل لعبد الله بن مسعود أرأيت القردة والخنازير أمن نسل القرود والخنازير التي قد مسخت؟ قال عبد الله بن مسعود: إن الله تعالى لم يمسخ أمة فجعل[9] لها[10] نسلاً ولكنها من نسل قرود وخنازير كانت قبل ذلك[11].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قال ابن عباس: وذلك أن بني إسرائيل قيل لهم في التوراة: أيما قتيل وجد بين قريتين لا يدرى قاتله فليقس إلى أيتهما أقرب، فعمد رجلان أخوان من بني إسرائيل إلى ابن عم لهما واسمه عاميل فقتلاه لكي يرثاه وكانت ابنة عم لهما شابة جميلة حسناء فخشيا أن ينكحها ابن عمها عاميل، ثم حملاه إلى جانب قرية، فأصبح أهل القرية والقتيل بين أظهرهم، فأخذ أهل القرية بالقتيل وجاءوا به إلى موسى. وروى ابن سيرين عن عبيدة السلماني أن رجلاً كان له قرابة فقتله ليرثه ثم ألقاه على باب رجل، ثم جاء يطلب بدمه، فهموا أن يقتتلوا ولبس الفريقان السلاح، فقال رجل: أتقتتلون وفيكم نبي الله؟ فجاءوا إلى موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأخبروه بذلك، فدعا الله تعالى في ذلك أن يبين لهم المخرج من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، فأخبرهم بذلك وقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فتضربوه ببعضها، يعني ببعض أعضاء تلك

---

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) ما بين المعقوفين ساقط من أ. (٣) ما بين المعقوفين من أ.
(٤) عمر بن محمد بن بجير الهمداني الجدلي الكوفي. الجرح والتعديل ٦/٣٨٢.
(٥) محمد بن موسى أبو بكر الواسطي كان عالماً بأصول الدين، ومن المتصوفة. الطبقات للشعراني ١/٨٥.
(٦) كثير بن هشام الكلابي، أبو سهل الرقي، نزيل بغداد، ثقة. التقريب ٢/١٣٤.
(٧) عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود الكوفي، كان ثقة كثير الحديث. طبقات ابن سعد ٦/٣٦٦.
(٨) علقمة بن مرثد الحضرمي، أبو الحارث الكوفي ثقة. التقريب ٢/٣١.
(٩) في أ «أن يجعل». (١٠) سقط من ظ.
(١١) أخرجه مسلم بنحوه مرفوعاً ٤/٢٠٥١ في كتاب القدر باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص (٢٣/٢٦٦٣).

البقرة فيحيا، فيخبركم من قتله[١] ﴿قَالُوٓاْ﴾ يا موسى ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُواًۖ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص[٢] برفع الزاي بغير همز، وقرأ حمزة بسكون الزاي مع الهمزة، وقرأ الباقون بالهمز[٣] ورفع الزاي. ومعناه. اتتخذنا سخرية يعني أتسخر بنا يا موسى؟ فإن قيل: ألم يكن هذا القول منهم كفراً؟ حيث نسبوه إلى السخرية. قلنا الجواب أن يقال قد ظهر عندهم علامات نبوته وعلموا أن قوله حق ولكنهم أرادوا بهذا الكشف والبيان ولم يريدوا به الحقيقة. فـ ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ يعني أمتنع بالله. ويقال: معاذ الله أن أكون من المستهزئين. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: فلو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم بالمسألة فشدد الله عليهم بالمنع لما ﴿قَالُواْ﴾. يا موسى ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك أن ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي يبين لنا كيفية البقرة، إنها صغيرة أو كبيرة ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ يعني لا كبيرة هرمة، ولا صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وسطا ونصفا بين ذلك يعني بين الصغيرة والكبيرة. وقد قيل في المثل (العوان لا تعلم الخَمْرة) يعني أن المرأة البالغة ليست بمنزلة الصغيرة التي لا تحسن أن تختمر[٤]. وقوله تعالى: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ ولا تسألوا فسألوا وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. ﴿قَالُواْ﴾ يا موسى ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ قال لهم موسى ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ يعني شديد الصفرة كما يقال: أصفر فاقع إذا كان شديد الصفرة كما يقال: أسود حالك، وأبيض يقق، وأحمر قاني، وأخضر ناصع إذا وصف بالشدة. وقال بعضهم: أراد به بقرة صفراء الظلف والقرن أي شعرها وظلفها وقرنها وكل شيء منها أصفر ويقال: أراد به البقرة السوداء، لأن السواد الشديد يضرب إلى الصفرة كما قال تعالى (.. كالقصر كأنه جِمَالَةٌ صفر) وكما قال القائل: [٥]

تلك خيلي منه[٦]، وتلك[٧] ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

أراد[٨] بالصفر السود. ولكن هذا خلاف أقاويل المفسرين، وكلهم اتفقوا أن المراد به صفراء اللون إلا قولا روي عن الحسن البصري[٩]. قوله عز وجل: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ﴾ يعني تعجب من نظر إليها لحسن لونها فشددوا على أنفسهم و ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ يعني إنها من العوامل أو من غيرها ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أي تشاكل علينا في أسنانها وألوانها ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ يعني نهتدي للقاتل. ويقال: نهتدي إلى البقرة أي ندركها بمشيئة الله تعالى. وروي عن ابن عباس أنه قال: لولا أنهم استثنوا لم يدركوها. وروي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لو أن بني إسرائيل أخذوا

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره بنحوه ٢/ ١٨٤.

(٢) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي، راوي عاصم، توفي سنة ثمانين ومائة، وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته. النشر في القرءات العشر ١/ ١٥٦. ميزان الاعتدال ١/ ٢٦١، الأعلام ٢/ ٢٦٤.

(٣) انظر /الحرز بشرح ابن الفاصح، والاتحاف (سورة البقرة).

(٤) في المثل: لا تعلم العوان الخمرة. قال ابن بري: أي المجرب عارف بأمره كما أن المرأة التي تزوجت تحسن القناع بالخمار. اللسان: عون.

(٥) هو الأعشى، والبيت في اللسان: صفر.

(٦) من ظ.

(٧) في ظ «وتلك منه».

(٨) في أ «وكما قال الله تعالى جمالات صفر أراد».

(٩) روى ابن جرير الطبري في تفسيره ١/ ١٥٠ عن الحسن البصري في قوله تعالى «صفراء فاقع لونها» قال: سوداء شديدة السواد. ثم قال الطبري: ولعله مستعار من صفة الإبل لأن سوادها تعلوه صفرة.

أدنى بقرة لأجزأت عنهم، ولولا أنهم قالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون ما وجدوها[١]. ﴿قَالَ إِنَّهُ﴾ لهم موسى أن ربكم ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ذَلُولٌ﴾ يقول لم يذللها العمل. وقال أهل اللغة: الذلول في الدواب مثل الذليل في الناس، يقال: رجل ذليل، ودابة ذليلة بينة الذل. ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ أي تقلبها للزارعة. ويقال: للبقرة المثيرة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ يعني لا يسقى عليها الحرث، أي لا يستسقى عليها الماء لتسقي الزرع ومعناه أن هذه البقرة لم تكن تعمل شيئاً من هذه الأعمال ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقال: مهذبة سليمة من العيوب. ويقال: مسلمة من الألوان ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ قال بعضهم لا عيب فيها ـ وقال بعضهم: لا وضح فيها ولا بياض ولا سواد ولا لون سوى لون الصفرة وقال أهل اللغة[٢]: أصله من وشى الثوب، وأصله في اللغة لا وشية فيها ولكن حذفت منها الواو للخفة مثل عدة وزنة. فلما وصف لهم موسى ذلك ﴿قَالُواْ: الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الآن أتممت الصفة. ويقال: الآن جئت بالصفة التي كنا نطلب ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ يعني البقرة ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي كادوا أن لا يذبحوها. وقد قيل: إنما أرادوا أن لا يذبحوها، لأن كل واحد منهم خشي أن يظهر القاتل من قبيلته. وقال بعضهم: وما كادوا يفعلون لغلاء ثمن البقرة لأنهم كانوا لا يدركون بقرة بتلك الصفة. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: لم توجد تلك البقرة إلا عند فتى من بني اسرائيل، كان باراً بوالديه وكان يصلي ثلث الليل، وينام ثلث الليل، ويجلس ثلث الليل عند رأس أمه ويقول لها: إن لم تقدري على القيام فسبحي الله وهللي، وكان ورث عن أبيه بقرة فلم يجد أهل تلك القرية على تلك الصفة إلا هذه البقرة، فاشتروها بملىء مسكها دنانير. وقال بعضهم: كان رجل يبيع الجوهر، فجاءه إبليس يوماً بجراب من لؤلؤ فعرض عليه. وأراد أن يبيع منه بمائة ألف، وكان ذلك يساوي مائتي ألف، فلما أراد أن يشتري فإذا مفتاح الصندوق كان تحت رأس أبيه وهو نائم فذهب ليوقظه ويرفع المفتاح ويدفع الثمن. ثم قال في نفسه: كيف أوقظ أبي لأجل ربح مائة ألف ولم يحتمل قلبه فرجع، فقال: إن أبي نائم فقال له إبليس: إذهب فأيقظه فإني أبيع منك بخمسين ألفاً، فذهب ليوقظه فلم يحتمل قلبه فرجع فلا زال إبليس يحط من الثمن حتى بلغ عشرة دراهم فلم يوقظ أباه وترك الشراء ذلك. فجعل الله في ماله البركة حتى اشتروا بقرته بملىء مسكها ذهباً.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي تدافعتم. يعني ألقى بعضكم على بعض، يقال: أدارأ القوم أي تدافعوا[٣] وقال القتبي: أصله تدارأتم، فأدغمت التاء في الدال وأدخل الألف ليسلم السكون للدال، ويقال: هذا ابتداء القصة، ومعناه وإذ قتلتم نفساً فأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى فقال موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة إلى آخره ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُم تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما كنتم تكتمون من قتل عاميل. ﴿فَقُلْنَا اَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا الميت ببعض أعضاء البقرة. قال بعضهم: بفخذها الأيمن. وقال بعضهم: بلسانها. وقال بعضهم [بعجب ذنبها][٤] وهو عظم في أصل ذنبها، ويقال عليه [تركيب][٥] الخلق، فأول شيء يخلق ذلك

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧٧/١ ونسبه للبزار وابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وابن جرير في التفسير ٢٠٤/١ (١٢٣٦) والظاهر أنه من كلام سيدنا وأبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) اللسان: وشى. قال والهاء عوض من الواو والذاهبة من أوله كالزلة الوزن ١.

(٣) قال ابن منظور: تدارأتم: أي اختلفتم وتدافعتم. اللسان: درأ.

(٤) في ظ «بعجزها». (٥) في ظ «يتركب».

الموضع، ثم يركب عليه سائر البدن، وهو آخر الأعضاء فساداً بعد الموت وقال بعضهم، فلما ضربوا الميت جلس وأوداجه تشخب دماً. وقال: قتلني ابنا عمي، فأخذا وقتلا، ولم يعط لهما من ميراثه شيئاً. وقال عبيدة السلماني: لم يورث قاتل بعد صاحب البقرة. ثم قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كان في ذلك دليل لأولئك القوم أن البعث كائن لا محالة لأنهم رأوا الإحياء بعد الموت معاينة، وكان في ذلك دليل لهذه الأمة ولمشركي العرب وغيرهم. لأن الله لما أخبر محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك. فأخبرهم فصدقوه في ذلك أهل الكتاب ولم يكونوا على دينه، فكان ذلك من أدل الدليل عليهم بالبعث. قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي عجائبه مثل إحياء الموتى وغيره. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمون أن الذي يخبركم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حق.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٧٤ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾

قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ قال الزجاج: تأويل قست في اللغة أي غلظت ويبست، فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع. وقوله (من بعد ذلك) قد قيل: من بعد إحياء الميت، ويحتمل بعد الآيات التي ذكرت، نحو مسخ القردة والخنازير ورفع الجبل وتفجير الأنهار من الحجر وغير ذلك. وقال بعض الحكماء: معنى قوله (ثم قست قلوبكم) أي يبست ويبس القلب أن ييبس عن ماءين: أحدهما: ماء خشية الله. والثاني: ماء شفقة الخلق. [ثم قال تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾][(١)] وكل قلب لا يكون فيه خشية الله تعالى فهو كالحجارة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ قال بعضهم: بل أشد قسوة. مثل قوله تعالى: (إلى مائة ألف أو يزيدون) [بمعنى بل يزيدون وكقوله][(٢)] (كلمح البصر أو هو أقرب) أي [بل هو أدنى][(٣)] وقال بعضهم: معناه وأشد قسوة الألف زائدة. وقال الزجاج: أو للتخيير يعني إن شئتم شبهتم قسوتها بالحجارة أو بما هو أشد قسوة فأنتم مصيبون[(٤)] كقوله تعالى (كصيب من السماء) ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ﴾ فأعذر الحجارة وعاب قلوبهم حين لم تلن بذكر الله ولا بالموعظة فقال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) يعني الحجر الذي منه العيون في الجبل. ويقال أراد به حجر موسى ـ عليه السلام ـ الذي كان يخرج منه العيون ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ أي من الحجارة ما يتصدع ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ويقال: كل حجر يتردى من رأس الجبل إلى الأرض فهو من خشية الله ويقال: أراد به الجبل الذي صار دكاً حين كلم الله موسى ـ عليه السلام ـ ويقال: هو جميع الجبال وما يزول الحجر من مكانه إلا من خشية الله تعالى. وقال بعضهم: هو على وجه المثال يعني لو كان له عقل لهبط من خشية الله تعالى وهو قول المعتزلة وهو خلاف أقاويل أهل التفسير. قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ

(١) ما بين المعقوفين ساقط من ظ.
(٢) ما بين المعقوفين من ظ.
(٣) ما بين المعقوفين ساقط من ظ.
(٤) وقال أبو حيان: أو هنا بمعنى الواو. . . أو للتنويع وكأن قلوبهم على قسمين قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشد قسوة من الحجارة فأجمل ذلك في قوله «ثم قست قلوبكم، ثم فصل ونوع إلى شبه بالحجارة وإلى أشد منها». انظر البحر المحيط ٢٦٢/١.

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر (يعملون) بالياء والباقون بالتاء[١]. واختلفوا في مواضع أخرى[٢] قرأ حمزة والكسائي في كل موضع (وما الله بغافل عما تعملون) بالياء. وفي كل موضع (وما ربك بغافل عما تعملون) بالتاء. واختلفت الروايات عن غيرهما. وهذا كلام التهديد، يعني أن الله تعالى يجازيكم بما تعملون فيحذركم بذلك. ثم ذكر التعزية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكيلا يحزن على تكذيبهم إياه، وأخبره أنهم من أهل السوء الذين مضوا فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة. وقال بعضهم: أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه أفتطمعون أن يصدقوكم[٣] ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾ فأن أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، فمعناه أفتطمع أن يصدقوك، وقد يذكر لفظ الجماعة ويراد به الواحد، كما قال في آية أخرى (من فرعون وملأهم) وقال تعالى: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) وقال تعالى: (فإن لم يستجيبوا لكم) أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة كذلك ههنا. ثم قال: (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) قال في رواية الكلبي: يعني السبعين الذين ساروا مع موسى ـ عليه السلام ـ إلى طور سيناء فسمعوا هناك كلام الله تعالى فلما رجعوا قال سفهاؤهم. إن الله أمر بكذا بخلاف ما أمرهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي غيروه من بعد ما حفظوه وفهموه. وقال بعضهم: إنما أراد به الذين يغيرون التوراة. وقال بعضهم: يغيرون تأويله وهم يعلمون.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ يعني المنافقين منهم ﴿قَالُواْ﴾ للمؤمنين ﴿آمَنَّا﴾ أي أقررنا بالذي أقررتم به. وهم منافقوا أهل الكتاب ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني إذا رجعوا إلى رؤسائهم ﴿قَالُواْ﴾ لبعضهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي أتخبرونهم بأن ذكر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتابكم فيكون ذلك حجة عليكم (أفلا تعقلون) أن ذلك حجة لهم عليكم ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾ أي ليخاصموكم ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ باعترافكم أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي لا تتبعوه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفليس لكم ذهن الإنسانية لا ينبغي لكم هذا فيما بينكم. ﴿أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال بعضهم: ما يسرون فيما بينهم وما يعلنون مع أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ﴾ أي من أهل الكتاب وهم السفلة أميون لا يقرأون الكتاب: لا يحسنون قراءة الكتاب ولا كتابته، وقال الزجاج: الأمي المنسوب إلى ما عليه جبلة الأمة يعني هو على الخلقة التي خلق عليها لأن الإنسان في الأصل لا يعلم شيئاً ما لم يتعلم ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ قال بعضهم: إلا التلاوة، وهذا كما قال في آية أخرى (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) أي في تلاوته، يقول إن السفلة منهم كانوا لا يعرفون من التوراة شيئاً سوى تلاوته. وقال بعضهم: إلا أماني: إلا أباطيل. وروي

(١) قرأ ابن كثير فقط «يعملون» بالياء والباقون بالتاء. انظر: الحرز بشرح الفاصح.

(٢) هي مواضع في سورة مخصوصة، منصوص عليها في كتب القراءات وستأتي في مواضعهما إن شاء الله.

(٣) في آ «يؤمنوا لكم».

عن عثمان بن عفان أنه قال: منذ أسلمت ما تغنيت ولا تمنيت أي ما تكلمت بالباطل. وروي في الخبر أن الإنسان إذا ركب دابته ولم يذكر الله تعالى صكه الشيطان في قفاه ويقول له: تغن فإن لم يحسن الغناء يقول له: تمن أي تكلم بالباطل. ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي وما هم. ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لأنه قد ظهر لهم الكذب من رؤسائهم فكانوا يشكون في أحاديثهم وكانوا يظنون من غير يقين. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إياكم والظن فإنه من أكذب الحديث»[1].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الويل: الشدة من العذاب. ويقال: الويل كلمة تستعمل عند الشدة ويقال: يا ويلاه. ويقال: الويل واد في جهنم[2]. قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر أنه قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع بن سفيان عن زياد[3] عن أبي عياض[4] قال: الويل واد في أصل جهنم يسيل فيه صديدهم[5]. وإنما صار رفعاً بالابتداء. وقال الزجاج: ولو كان هذا في غير القرآن لجاز (فويلاً) على معنى جعل الله ويلاً للذين يكتبون الكتاب إلا أنه لم يقرأ. وذلك أن رؤساء اليهود محوا نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم كتبوا غير نعته، ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ للسفلة ﴿هَذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي عرضا يسيراً من مال الدنيا. وروي عن إبراهيم النخعي أنه كره أن يكتب المصحف بالأجر وتأول هذه الآية (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم. إلى قوله: ليشتروا به ثمنا قليلا) وغيره من العلماء أباحه ثم قال ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مما يصيبهم من العذاب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي مما يصيبون فجعل الويل لهم ثلاث مرات.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ روي عن الضحاك أنه قال: لم يكن أحد من الكفار أجرأ على الله تعالى من اليهود حين قالوا: (عزير ابن الله) وقالوا: إن الله فقير وقالوا أيضاً (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) أي مقدار الأيام التي عبد فيها العجل آباؤنا. وهي أربعون يوماً. وقال مجاهد: (إلا أياماً معدودة) أي عدد أيام الدنيا وهي سبعة أيام. وهكذا روي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: وقال بعضهم كان مذهبهم مذهب جهم[6] في أنهم

(١) جزء من حديث متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه البخاري ١٠/٤٨٤ كتاب الأدب باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن (٦٠٦٦) ومسلم ٤/١٩٨٥ في كتاب البر باب تحريم الظن (٢٨/٢٥٦٣) ومالك في الموطأ (٩٠٨) والترمذي في السنن رقم (١٩٨٨) وأبو داود في الأدب باب (٥٥) وأحمد في المسند ٢/٣١٢، ٤٣٢، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٨٠، ٤٩٢، ٥٠٤، والبيهقي في السنن ٦/٨٥، ٨/٣٣٣، ١٠/٢٣١.

(٢) اللسان: ويل.

(٣) زياد بن فياض الخزاعي، ثقة، توفي سنة ١٢٩ هـ. تهذيب التهذيب ٣/٣٨١.

(٤) هو عمرو بن الأسود العنسي، كان من عباد أهل الشام، تابعي، ثقة. تهذيب التهذيب ٨/٤.

(٥) أخرجه ابن جرير ٢/٢٦٧ (١٣٨٢) (١٣٨٣).

(٦) جهم بن صفوان. ذكره السيوطي في الدر عن ابن عباس رضي الله عنهما ١/٨٤.

لا يرون الخلود في النار. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْداً﴾ قال الزجاج: معناه أعهد إليكم ألا يعذبكم إلا هذا المقدار إن كان لكم عهد ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ﴾ أي وعده. ويقال: أعقدتم عند الله عقداً وهو عقد التوحيد فلن يخلف الله عهده أي وعده. وقد قيل: هل أنزل عليكم بذلك آية ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون. وروي في الخبر أنهم إذا مضت عليهم في النار تلك المدة قالت لهم الخزنة: يا أعداء الله ذهب الأجل وبقي الأبد، فأيقنوا بالخلود.

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

قال الله تعالى ﴿بَلَىٰ﴾ أي يخلد فيها ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يعني الشرك ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي مات على الشرك. وقال بعضهم: السيئة الشرك والخطيئة الكبائر. وهو قول المعتزلة إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار. وقال الربيع بن خثيم: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ الذين يموتون على الشرك. قرأ نافع (خطاياه)[1] وهو جمع خطيئة. والباقون (خطيئته)[2] وهي خطيئة واحدة والمراد به الشرك. ﴿فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يخرجون منها أبداً. ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ معناه والذين صدقوا بالله وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعملوا الصالحات أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم، يعني أدوا الفرائض وانتهوا عن المعاصي ﴿أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ أي وقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل في التوراة، يعني بمجيء محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال: الميثاق الأول حين أخرجهم من صلب آدم - عليه السلام - قوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن كثير (لا تعبدون) بالياء، وقرأ الباقـون بالتاء بلفظ المخاطبة[3]، فمن قرأ بالياء معناه وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا يعبدوا إلا الله ومن قرأ بالتاء فمعناه: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقلنا لهم: لا تعبدوا إلا الله، يعني أخذنا عليهم الميثاق بأن لا يعبدوا إلا الله يعني لا توحدوا إلا الله. ﴿وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ نصب إحساناً على معنى أحسنوا إحساناً فيكون إحساناً بدلاً من اللفظ، أي أحسنوا إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما وفي هذه الآية بيان حرمة الوالدين لأنه قرن حق الوالدين بعبادة نفسه. ويقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لا يقبل إحداها بغير قرينتها. إحداهما: قوله عز وجل (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) والثانية: (أن أشكر لي ولوالديك) والثالثة:

---

(١) هذا خطأ، فقراءة نافع «خطيئاته» وليس «خطاياه».
راجع: الحرز بشرح أبي شامة، والبحر المحيط ١ / ٢٧٩.
(٢) راجع الحرز والبحر المحيط ١ / ٢٧٩.
(٣) البحر المحيط ١ /٢٨٢، وزاد أبو حيان: وقرأ أبي وابن مسعود «لا تعبدوا». على النهي.

(وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله تعالى: ﴿وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني أحسنوا إلى ذي القربى ﴿وَٱلْيَتَامَىٰ﴾ [يعني أحسنوا إلى اليتامى][1] ﴿وَ﴾ إلى ﴿ٱلْمَسَاكِينِ﴾. والاحسان إلى اليتامى والمساكين أن يحسن إليهم بالصدقة وحسن القول. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ قرأ حمزة والكسائي بنصب الحاء والسين، وقرأ الباقون برفع الحاء وسكون السين[2]. فمن قرأ بالنصب فمعناه: قولوا للناس حسناً يعني قولوا لهم قولاً صدقاً في نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفته كما بين في كتابكم. ونظيرها في سورة طه ﴿ألم يعدكم وعداً حسناً﴾ أي وعداً صدقاً. ومن قرأ بالرفع فمعناه قولوا لجميع الناس حسناً يعني: خالقوا الناس بالخلق الحسن فكأنه يأمر بحسن المعاشرة وحسن الخلق مع الناس ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ يعني أقروا بها وأدوها في مواقيتها. ﴿وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني أعرضتم عن الإيمان والميثاق ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ﴾ وهو عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي تاركون لما أخذ عليكم من المواثيق.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي إقراركم ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ أي بأن لا تسفكوا دماءكم يعني لا يهرق بعضكم دماء بعض. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً ﴿مِّن دِيَارِكُمْ﴾ فجملة ما أخذ عليهم من الميثاق ألا يعبدوا إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ويقولوا للناس حسناً ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة [ولا يسفكوا دماءهم][3] ولا [يخرج بعضهم بعضاً][4] من ديارهم وأن يفادوا أسراهم[5]. فذكر المفاداة بعد هذا حيث قال تعالى: (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) على وجه التقديم والتأخير ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يعني بني قريظة والنضير يعني أقررتم بهذا كله، وأنتم تشهدون: أن هذا في التوراة فنقضوا العهد فعيرهم الله تعالى بذلك حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني يا هؤلاء ويقال معناه ثم أنتم هؤلاء يا معشر اليهود تقتلون أنفسكم أي يقتل بعضكم بعضاً ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾ أي بعضكم بعضاً، لأنه كان بين الأوس والخزرج عداوة وكان بنو النضير وقريظة: إحدى القبيلتين كانت معينة للأوس، والأخرى كانت معينة للخزرج، فإذا غلبت إحداهما على الأخرى كانت تقتلهم وتخرجهم من ديارهم. وفي الآية دليل أن الإخراج من الدار ينزل منزلة القتل لأن الله تعالى قرن الإخراج من الديار بالقتل حيث قال تعالى ﴿تقتلون

(١) ما بين المعقوفين من أ.
(٢) انظر الحرز بشرح أبي شامة، والبحر المحيط ٢٨٤، ٢٨٥.
(٣) ما بين المعقوفين سقط من أ.
(٤) في أ «تخرجون بعضكم».
(٥) في أ «أساراكم».

أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ قرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي بالتخفيف، وقرأ الباقون: بالتشديد لأن أصله تتظاهرون، فأدغم إحدى التاءين في الظاء وأقيم التشديد مقامه[١] معناه: تتعاونون عليهم ﴿بِٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾ يعني بالمعصية والظلم. قال الزجاج: العدوان هو الإفراط في الظلم. ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ قرأ عاصم والكسائي ونافع (أسارى تفادوهم) كلاهما بالألف، [وقرأ حمزة (أسرى تفدوهم) بغير ألف فيهما وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (أسارى تفدوهم) الأول بالألف][٢] والثاني بغير ألف. وهذا من الميثاق الذي أخذ عليهم بأن يفادوا الأسارى ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ هذا انصرف إلى ما سبق ذكره من الإخراج. فكأنه يقول: وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم وهو محرم عليكم إخراجهم. [يعني ذلك الإخراج كان محرماً، ثم بين الإخراج مرة أخرى لتراخي الكلام فقال وهو محرم عليكم إخراجهم. ثم قال][٤] ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ لأنهم كانوا إذا أسروا من غيرهم قتلوا الأسرى ولا يفادوهم، وإن أسر منهم أحد يأخذوهم بالفداء فهذا معنى قوله ـ تعالى ـ ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عقوبة من يفعل ذلك منكم خزي في الحياة الدنيا وهو إخراج بني النضير إلى الشام وقتل بني قريظة، وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم. ثم أخبر بأن الذي أصابهم في الدنيا من الخزي والعقوبة لم يكن كفارة لذنوبهم (و) لكنهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾ أي في الآخرة﴿إِلَى أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ ويقال: الخزي في الدنيا الجزية. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء فيجازون بأعمالهم ﴿أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلآخِرَةِ﴾ [يعني اختاروا الدنيا على الآخرة][٤] ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي ليس لهم مانع يمنعهم من [عذاب الله تعالى في الآخرة][٥].

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ أي أعطينا موسى التوراة جملة واحدة ويقال: الألواح ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا وأردفنا معناه: أرسلنا رسولاً على أثر رسول. يقال: قفوت الرجل إذا ذهبت في أثره[٦]. ﴿وآتَيْنَا﴾ أي أعطينا ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات والعلامات مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قرأ ابن كثير (القدس) بسكون الدال وقرأ الباقون (القدس) برفع الدال[٧] ومعناهما واحد. أي إغاثة بجبريل حين أرادوا قتله فرفعه إلى السماء. وقال بعضهم: أيدناه أي قويناه وأعناه باسم

---

(١) فيه خمس قراءات، هاتان المذكورتان والثالثة قراءة أبي حيوة «تظاهرون» بضم التاء وكسر الهاء، والرابعة: قراءة مجاهد وقتادة باختلاف عنهما «تظهرون» بفتح التاء والظاء والهاء مشددين دون ألف ورويت عن أبي عمرو، الخامسة: قرأ بعضهم تتظاهرون على الأصل.
قال أبو حيان: فهذه قراءات ومعناها كلها التعاون والتناصر. البحر المحيط ١/ ٢٩١.
(٢) ما بين المعقوفتين سقط من أ.
(٣) ما بين المعقوفتين من ظ.
(٤) ما بين المعقوفتين من ظ.
(٥) في ظ العذاب.
(٦) اللسان: قفا.
(٧) راجع البحر المحيط ١/ ٢٩٩ وأضاف «وقرأ أبو حيوة القدوس بواو».

الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾(١) يقول: بما لا يوافق هواكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾(٢) تعظمتم عن الإيمان. قال الزجاج: معناه أنفتم أن تكونوا له أتباعاً لأنهم كانت لهم رياسة وكانوا متبوعين فلم يؤمنوا مخافة أن تذهب عنهم الرياسة. فقال تعالى ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾ مثل عيسى ابن مريم ومحمد ـ صلى الله عليهم وعلى جميع الأنبياء وسلم ـ ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ مثل يحيى وزكريا عليهما السلام.

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قرأ ابن عباس (غلفٌ) بضم اللام وهي قراءة شاذة. والباقون(٣) بسكون اللام أي ذو (غلْف) يعني ذو غلاف، والواحد أغلف مثل: أحمر وحمر. ومعناه: أنهم يقولون قلوبنا في غطاء. من قولك ولا نفقه حديثك وهذا كما قال في آية أخرى (وقالوا قلوبنا في أكنة) وأما من قرأ (غلُف)(٤) فهو جماعة الغلاف على ميزان حمار وحمر. يعنون أن قلوبنا أوعية لكل علم ولا نفقه حديثك، فلو كنت نبياً لفهمنا قولك. قال الله تعالى رداً لقولهم ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي خذلهم الله وطردهم مجازاة لكفرهم ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ صار نصباً لأنه قدم المفعول. وقال بعضهم: معناه لا يؤمنون إلا القليل منهم: مثل عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال بعضهم: إيمانهم بالله قليلاً لأنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وقال بعضهم: معناه أنهم لا يؤمنون كما قال: فلان قليل الخير يعني لا خير فيه. ثم قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي حين جاءهم القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي موافقاً للتوراة في التوحيد، وفي بعض الشرائع. ويقال: مصدق لما معهم، يعني يدعوهم إلى تصديق ما معهم، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بالتوراة ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي من قبل مجيء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يستنصرون على المشركين لأن بني قريظة والنضير، قد وجدوا نعته في كتبهم فخرجوا من الشام إلى المدينة، ونزلوا بقربها ينتظرون خروجه. وكانوا إذا قاتلوا من يلونهم من المشركين مشركي العرب يستفتحون عليهم، أي يستنصرون ويقولون: اللهم ربنا انصرنا عليهم باسم نبيك وبكتابك الذي تنزل عليه الذي وعدتنا ـ وكانوا يرجون أن يكون منهم ـ فينصروا على عدوهم فذلك قوله تعالى ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي باسم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُواْ﴾ أي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفوه ﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾ وغيروا نعته مخافة أن تزول عنهم منفعة الدنيا. كما قال تعالى ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ أي سخط الله وعذابه على الجاحدين محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ قال الكلبي: بئسما باعوا به أنفسهم من الهدايا بكتمان صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال: بئسما صنعوا بأنفسهم حيث كفروا بما أنزل الله عليهم بعد ما كانوا خرجوا من الشام على أن ينصروا محمداً ـ صلى الله عليه

(١) في أ «أنفسكم العذاب».
(٢) ساقطة من أ.
(٣) أنظر البحر المحيط ١/٣٠١.
(٤) بالضم.

وسلم - ويقال بئس ما صنعوا بأنفسهم حيث حسدا منهم فذلك قوله تعالى ﴿أَنْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ بَغْياً﴾ أي حسداً منهم. ومعنى قوله ﴿أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ أي كفروا مما ينزل الله. ﴿مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ﴾ أي لم يؤمنوا لأجل أن الله تعالى ينزل من فضله النبوة والكتاب على من يشاء ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ من كان أهلاً لذلك وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - [قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أن ينزل الله) بالتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر بالتشديد أن ينزل، ونزل ينزل بمعنى واحد](١) ﴿فَبَآؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي استوجبوا اللعنة على أثر اللعنة. قال مقاتل: الغضب الأول حين كفروا بعيسى - صلى الله عليه وسلم - ثم استوجبوا الغضب الآخر حين كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم -. ويقال: الغضب الأول حين عبدوا العجل والغضب الثاني حين استحلوا السمك في يوم السبت(٢).

قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يهانون فيه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ أيّ صدقوا بالقرآن الذي أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم يهود أهل المدينة ومن حولها. ﴿قَالُوْا: نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ في التوراة وبموسى عليه السلام ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ﴾ يعني بما سواه وهو القرآن ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ﴾، أي القرآن هو الصدق، وهو منزل من الله تعالى موافق لما معهم، يعني أنهم إذا جحدوا بالقرآن صار جحوداً لما معهم لأنهم جحدوا بما هو مصدق لما معهم فقالوا له: إنك لم تأتنا بمثل الذي أتانا به أنبياؤنا، ولم يكن لنا نبي إلا كان يأتينا بقربان تأكله النار. قال الله تعالى ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ وقد جاؤوا بالقربان والبينات أي بالعلامات ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدقين بالأنبياء. فهذا اللفظ للمستأنف وهو قوله (فلم تقتلون) ولكن المراد منه الماضي وإنما خاطبهم وأراد به آباءهم. وفي الآية دليل: أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها، لأنهم كانوا راضين بقتل آباءهم الأنبياء(٣) فسماهم الله تعالى قاتلين. وفي الآية دليل: أن من ادعى أنه مؤمن ينبغي أن تكون أفعاله مصدقة لقوله، لأنهم كانوا يدعون أنهم مؤمنون بما معهم. قال الله تعالى ﴿فلم تقتلون أنبياء الله﴾ يعني أي كتاب (يجوز)(٤) قتل نبي من الأنبياء عليهم السلام وأي دين وإيمان جوز فيه ذلك يعني قتل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مُوسَى بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالآيات والعلامات. ويقال: بالحلال والحرام والحدود والفرائض. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُم ٱلعِجْلَ من بَعْدِهِ﴾ أي عبدتم العجل ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني بعد انطلاق موسى إلى الجبل ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي كافرون بعبادتكم العجل.

---

(١) ما بين المعقوفتين من أ.

(٢) في ظ السبت.

(٣) من ظ.

(٤) في ظ «جوز فيه».

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ
إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد ومواظبة [في طاعة الله تعالى](١) ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي قيل لهم اسمعوا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ قال في رواية الكلبي: قالوا: سمعنا قولك وعصينا أمرك ولولا مخافة الجبل ما قبلنا. ويقال: إنهم يقولون في الظاهر سمعنا، ويضمرون في أنفسهم وعصينا أمرك. ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي جعل حلاوة عبادة العجل في قلوبهم مجازاة لكفرهم. ويقال: حب عبادة العجل فحذف الحب، وأقيم العجل مقامه، ومثل هذا يجري في كلام العرب. كما قال في آية أخرى (واسأل القرية): أي أهل القرية ثم قال تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ أي بئس الإيمان الذي يأمركم بالكفر. وقال مقاتل: معناه إن كان حب عبادة العجل في قلوبكم يعدل حب عبادة خالقكم فبئس ما يأمركم به إيمانكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تزعمون.

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ
مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي الجنة. وذلك أن اليهود كانوا يقولون: إن الجنة لنا خاصة من دون سائر الناس. قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لهم إن كان الأمر كما يقولون أن الجنة لكم خالصة خاصة. ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ أي سلوا الله الموت(٢) ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الجنة لكم فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم: قولوا إن كنتم صادقين: اللهم أمتنا، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه(٣)، يعني يموت مكانه، فأبوا أن يقولوا ذلك، فنزل قوله تعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [يعني بما عملوا من المعاصي. قال الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قال لهم: فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً فلم يتمنه واحد منهم](٤). [وفي هذه الآية دليل أن «لن» لا تدل على التأبيد لأنهم يتمنون الموت في الآخرة خلافاً لقوله المعتزلة في قولهم لن تراني](٥) ويقال: إن قوله (لن) إنما يقع على الحياة الدنيا خاصة، ولم يقع على الآخرة لأنهم يتمنون الموت في النار إذا كانوا(٦) في

(١) ساقطة من ظ.

(٢) في أ «يعني الموت بما عملوا من المعاصي وقال الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأشهر دلالة على صحة رسالة النبي لأنه قال لهم فتمنوا الموت وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً فلم يتمنه واحد منهم.

(٣) عزاه السيوطي للبيهقي في الدلائل كما في الدر المنثور.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) مؤخر في ظ إلى ما بعد قوله «إذا كانوا في جهنم».

(٦) في أ «صاروا».

جهنم ولو أنهم سألوا الموت في الدنيا ولم يموتوا، وكان (في)[1] ذلك تكذيباً لقول النبي صلى الله عليه وسلم وكان في ذلك أيضاً ذهاب معجزته. فلما لم يتمنوا الموت ثبت بذلك عندهم أنه رسول الله وظهر عندهم معجزته، وظهر أن الأمر كما قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾ فهو عليم بهم وبغيرهم من الظالمين وإنما الفائدة ههنا أنه عليم بمجازاتهم.

ثم قال عز وجل ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ يعني أن اليهود أحرص الناس على البقاء ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني أحرص من الذين أشركوا. قال الكلبي: الذين أشركوا يعني المجوس. وقال مقاتل: أحرص الناس على حياة، وأحرص من الذين أشركوا يعني مشركي العرب. فإن قيل: كيف يصح تفسير الكلبي والمجوس لا يسمون مشركين؟ قيل له: المجوس مشركون في الحقيقة، لأنهم قالوا بإلهين اثنين: النور والظلمة: قوله تعالى ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ (يعني المجوس) يقولون لملوكهم في تحيتهم: عش عشرة آلاف سنة وكل ألف نيروز. وقال مقاتل: يود أحدهم يعني اليهود ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ثم قال ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ يعني طول حياته لا يبعده ولا يمنعه من العذاب وإن عاش ألف سنة كما تمنى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بمجازاتهم بأعمالهم.

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّه نَزَّلَهُ﴾ وذلك أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال لليهود: ما لكم لا تؤمنون بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا: لأن جبريل هو الذي ينزل عليه بالوحي، فلو نزل عليه ميكائيل بالوحي لآمنا به، لأن ميكائيل ملك الرحمة وجبريل ملك العذاب. وهو عدونا فأطلع محمداً على سرنا، فنزلت هذه الآية. ويقال: إنهم يقولون: إن النبوة كانت فينا فجبريل صرف النبوة عنا إلى غيرنا لعداوته معنا فنزلت هذه الآية (قل من كان عدواً لجبريل) قال بعضهم: في الآية مضمر، ومعناه: قل من كان عدواً لجبريل ويبغضه[2] جبريل هو الذي ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ينزل بالقرآن فيقرأه عليك فتحفظه [في قلبك][3] ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة. ويقال: هذا على وجه الترغيم، فكأنه يقول: قل من كان عدواً لجبريل فإن جبريل هو الذي ينزل عليك رغماً لهم بهذا القرآن عليك ليثبت به فؤادك ﴿وَهُدًى﴾ وهذا القرآن هدى من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لمن آمن به من المؤمنين ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ﴾ معناه من كان عدواً لجبريل فإنه عدو الله ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني اليهود. ويقال: إن عبد الله بن صوريا هو الذي قال لعمر: إن جبريل عدونا لأنه ينزل بالشدة والخوف، وميكائيل ينزل بالرخاء فنزلت هذه الآية (من كان عدواً لله إلى آخره) قرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية أبي بكر (جبرئيل) بفتح الجيم والراء والهمزة (وميكائيل) بالياء مع الهمزة. وقرأ نافع (جبريل) بكسر الجيم والراء بغير همزة (وميكال) بالهمزة بغير ياء[4]. وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص بغير همزة بكسر

(١) من أ.
(٢) في ظ «فلا يبغضه».
(٣) في أ «على قلبك».
(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٠٧.

الجيم والراء ميكال بغير همز وياء وقرأ ابن كثير جبريل بنصب الجيم بغير همزة وميكايل بهمز مع الياء وقرأ ابن عامر جبريل بكسر الجيم مثل قراءة نافع (وميكائيل) بالياء مع المد والهمز مثل حمزة[١] وإنما لا ينصرف لأنه اسم أعجمي، فوقع ذلك في لسان العرب واختلفوا فيه لاختلاف ألفاظهم ولغاتهم. ويقال إن (جبريل) و (ميكائيل) معناه عبد الله وعبد الرحمن أي بلغتهم سوى[٢] العربية.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات. ويقال: مبينات للحلال والحرام. ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إلا الفاسقون﴾ يعني وما يجحد بالآيات إلَّا الكَافِرُونَ وٱلْفَاسِقُونَ واليهود ومشركو العرب.

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً﴾ وهو العهد الذي بين لهم في التوراة ويوم الميثاق ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي تركه ولم يعمل به فريق منهم، أي طائفة منهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقد ذكرناه. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ ٱللَّهِ﴾ أي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي يدعوهم إلى تصديق ما معهم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾، أي طرح فريق ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يؤمنوا به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في كتابهم بأن محمداً رسول الله.

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُو ٱلشَّيَاطِينُ﴾ أي ما كتبت الشياطين. ويقال: ما ألقت الشياطين. ويقال ما افتعلته الشياطين ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي على عهد ملك سليمان. ويقال: على بمعنى في، أي في ملك سليمان. ويقال: في وقت ذهاب ملك سليمان. ويقال: هذا منسوق على الأول. فكأنّه قال: نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين. أي تركوا سنة أنبياء الله واتبعوا السحر. ويقال: تركوا شيئين واتبعوا شيئين: تركوا اتباع الكتب واتباع

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ (٢) في أ «غير لغة».

الرسل والعمل بذلك، واتبعوا ما تتلو الشياطين أي ترويه الشياطين (وما أنزل على الملكين) ببابل هاروت وماروت واختلفوا في سبب ذلك. فقال بعضهم إن سليمان عليه السلام أمر بأن لا يتزوج المرأة من غير بني إسرائيل فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل يقال لها: ضبنة بنت صابورا، فعاقبه الله تعالى بأن أجلس مكانه شيطاناً وكان الناس يظنون أنه سليمان وأشكل عليهم أمره فجاؤوا إلى آصف بن برخيا وكان معلم سليمان بن داود في حال صغره وكان وزيره في حال كبره وملكه فقالوا له: إن قضاياه لا تشبه قضايا سليمان فقال آصف ودخل على نساء سليمان فسألهن عن ذلك فقلن: إن كان هذا سليمان فقد هلكتم والله ما يعتزل منا حائضاً، وما يغتسل من جنابة. هكذا ذكر في رواية الكلبي [(١)]. وقال بعضهم: هذا خطأ لأن نساء الأنبياء معافات معصومات عن الفواحش، فلا يجوز أن يظن بهن أن الشيطان يقربهن. وقال بعضهم: كان هذا على وجه الخيال لا على وجه الحقيقة لأن الشيطان روحاني وليس له جسم، فلا يجوز أن تقع بينه وبين آدمي شهوة ولكن كان يريهن ذلك على وجه الخيال فلما عرف الشيطان أن الناس علموا بحاله كتب سحراً كثيراً وجعله تحت كرسيه وألقى خاتم سليمان في البحر وهرب، وكان سليمان عليه السلام خرج إلى ساحل البحر وأجر نفسه للملاحين كل يوم بسمكتين فلما أعطوه أجره باع إحداهما واشترى به الخبز وشق بطن الأخرى فوجد الخاتم في بطنها فرجع إلى ملكه ـ فلما توفي سليمان جاء الشيطان على صورة آدمي وقال: إن أردتم أن تعلموا علم سليمان بن داود عليهما السلام فانظروا تحت كرسيه [فنظروا وحفروا][(٢)] ذلك الموضع

---

(١) هذه الرواية وغيرها من الروايات التي ذكرت في فتنة سيدنا سليمان النبي لم ترد في القرآن الكريم أو في السنّة الصحيحة بل كل ذلك مروي عمن اشتهر بمثل تلك التفاصيل الدخيلة وهو «وهب بن منبه» والسدي فضلاً عما فيها من تناقضات ومخالفات تدل على عدم صحتها، ومن هنا فإننا لا نسلم بها بل نكررها ونبطلها.

يقول الإمام الفخر الرازي: واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه:

الأول: أن الشيطان لو قدر على أن يشتبه بالصورة والخلقة بالأنبياء فحينئذٍ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع، فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم في الصورة لأجل الإغراء والإضلال، ومعلوم أن ذلك يبطل الدين بالكلية.

الثاني: أن الشيطان لو قدر على أن يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدره على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذٍ وجب أن يقتلهم وأن يخرب ديارهم، ولما بطل ذلك في حق آحاد الناس فلأن يبطل مثله في حق أكابر الأنبياء أولى.

الثالث: كيف يليق بحكمة الله وسلطانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان؟ ولا شك أنه قبيح. تفسير الفخر الرازي ٢٦/٢٠٨.

ويقول الشيخ أبو شهبة: ونحن لا نشك في أن الخرافات من أكاذيب بني إسرائيل وأباطيلهم وأن ابن عباس وغيره تلقوها عن مسلمة أهل الكتاب لكن بعض الكذبة من بني إسرائيل كان أحرص وأبعد غوراً من البعض الآخر فلم يتورط فيما تورط فيه البعض من ذكر تسلط الشيطان على نساء سليمان عليه السلام، وذلك حتى يكون لما لفقه وافتراه بعض القبول عند الناس، أما عند البعض الآخر فكان ساذجاً في كذبه مغفلاً في تلفيقه فترك آثار الجريمة بينة واضحة، وبذلك اشتمل ما لفقه على دليل كذبه، والحق أن نسج القصة مهلهل عليه أثر الصنعة والاختلاف ويصادم العقل السليم والنقل الصحيح في هذا وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان عليه السلام فأي ثقة بالشرائع بعد هذا؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه وهو أكرم على الله من ذلك؟ وأي ملك أو نبوة يتوقف أمرها على خاتم يدومان بدوامه ويزولان بزواله؟ وما عهدنا في التاريخ البشري شيئاً من ذلك. وإذا كان خاتم سليمان عليه السلام بهذه المثابة فكيف يفعل الله شأنه؟ في كتابه الشاهد على الكتب السماوية ولم يذكره بكلمة؟ وهل غير الله خلقة سليمان في لحظة حتى أنكرته أعرف الناس به وهي زوجاته؟؟

الحق أن نسج هذه القصة وما شابهها من القصص اللواحق لها مهلهل لا يصمد أمام النقد وإن آثار الكذب والاختلاق بادية عليها.

انظر الإسرائيليات والموضوعات للشيخ أبو شهبة ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣ بتصرف.

(٢) في ظ «فحفروا».

[وأخرجوا][(١)] كتباً كثيرة فوجدوا فيها السحر والكفر فقال العلماء منهم: لا يجوز أن يكون هذا من علم سليمان. وقال السفهاء منهم: بل هذا من علم سليمان واتبعوه فنزلت هذه الآية على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى جميع الأنبياء عذراً لسليمان عليه السلام ثم قال تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان﴾ أي ما كان ساحراً وفي الآية دليل أن الساحر كافر لأنه سمى السحر كفراً[(٢)]. وروي عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى جزء بن معاوية وهو عم الأحنف بن قيس أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. ثم قال تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أي هم الذين كتبوا السحر. قرأ حمزة والكسائي[(٣)] (ولكن الشياطين) بكسر النون من غير تشديد ورفع (الشياطين) وقرأ الباقون[(٤)] بتشديد النون مع النصب وبفتح النون في (الشياطين) وهذا هو الأصل في اللغة أن كلمتي إن ولكن إذا كانا مشددين ينصب ما بعدهما وإن لم يكونا مشددين يرفع ما بعدهما. وقال بعضهم لنزول هذه الآية سبب آخر وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويعلمون الناس السحر والنيرنجات[(٥)]، فكان سليمان يأخذ ذلك منهم ويدفنه تحت الأرض، فلما مات سليمان قالت الشياطين للناس إن علم سليمان مدفون في موضع كذا وكذا، فحفروا ذلك الموضع وأخرجوا منه كتباً كثيرة. وقال بعضهم: معناه أن سليمان كان إذا أصبح كل يوم رأى نباتاً بين يديه فيقول له: لأي دواء أنت؟ فيقول: إني دواء لكذا وكذا وإن اسمي كذا كذا فكان سليمان يكتب

---

(١) في ظ «فخرج منه».

(٢) اعلم أن السحر أنواع منها:

الأول: سحر الكلوانيين الذين كانوا في قديم الدهر قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها المدبرة لهذا العالم. ومنها: تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإبطال مقالتهم وهم ثلاث فرق: ففرقة منهم يزعمون أن الأفلاك والنجوم واجبة الوجود لذاتها وهم الصابئة وفرقة يقولون بآلهية الأفلاك ويتخذون لكل واحد منها هيكلاً ويشتغلون بخدمتها وهم عبدة الأوثان وفرقة اثبتوا للأفلاك وللكواكب فاعلاً مختاراً لكنهم قالوا إنه أعطاها قوة عالية نافذة في العالم وفوض تدبيره إليها.

ثانياً: ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية فإنهم يزعمون أن الإنسان تبلغ روحه بالتصفية في القوة والتأثير إلى حيث يقدر على الايجاد والاعدام والإحياء والإماتة وتغيير البنية والشكل.

ثالثاً: ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن. ومنها: التخييلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة، ولا خلاف بين الأمة في أن من اعتقد الأول فقد كفر وكذا من اعتقد الثاني وهو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية. وأما من اعتقد أن الإنسان يبلغ بالتصفية وقراءة العزائم والرقى إلى حيث يخلق الله سبحانه وتعالى عقيب ذلك على سبيل جريان العادة بعض الخوارق فالمعتزلة اتفقوا على أنه كافر لأنه لا يمكنه بهذا الاعتقاد معرفة صدق الأنبياء والرسل بخلاف غيرهم ولعل التحقيق أن ذلك الإنسان إن كان خيراً متشرعاً في كل ما يأتي ويذر وكان من يستعين به من الأرواح الخيرة وكانت عزائمه ورقاه غير مخالفة لأحكام الشريعة الشريفة ولم يكن فيما يظهر في يده من الخوارق ضرر شرعي لأحد فليس ذلك من قبيل السحر وإن كان شريراً غير متمسك بالشريعة الشريفة لا محالة ضرورة امتناع تحقق التضامن والتعاون بينهما من غير اشتراك في الخبث والشرارة فيكون كافراً قطعاً.

وأما الشعوذة وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة بواسطة ترتيب الآلات الهندسية وخفة اليد والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار فاطلاق السحر بطريق التجوز أو لما فيها من الدقة لأنه في الأصل عبارة عن كل ما لطف مأخذه وخفي سببه أو من الصرف عن الجهة المعتادة لما أنه في أصل اللغة الصرف على ما حكاه الأزهري عن الفراء ويونس.

انظر تفسير أبو السعود ١/١٣٧ ـ ١٣٨، ومن أراد الاستزادة في ذلك فليرجع إلى تفاسير الفخر الرازي ٣/٣١٤ وما بعدها والقرطبي ٢/٤٥ والألوسي ١/٣٣٩ وما بعدها وغير ذلك.

(٣) وكذلك ابن عامر.

(٤) انظر ابراز المعاني، والإتحاف.

(٥) قال الفيروزآبادي: النيرنج ـ بالكسر ـ أخذ كالسحر وليس به. ترتيب القاموس ٤/٤٦٨.

ذلك ويدفنه فنبت يوماً من الأيام نبات بين يديه فقال له سليمان: ما اسمك؟ فقال: خرنوب. فقال له: لأي دواء أنت؟ فقال: إني لخراب المسجد، فعلم سليمان أنه قد جاء أجله لأنه علم أن المسجد لا يخرب في حياته، وكان له صحيفة فيها يكتب أسماء الأدوية ويضعها في الخزانة فكتبت الشياطين سحراً ووضعوه في ذلك الموضع، فلما مات سليمان وجدوا ذلك في كتبه فاتبعه بعض الناس فذلك قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ثم قال ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أي واتبعوا الذي أنزل على الملكين ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ وقال القاضي الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرجي(١)، فقال: حدثنا إسحاق(٢) قال: حدثنا حكام بن سلم الرازي(٣) قال: حدثنا أبو جعفر الرازي(٤) عن الربيع بن أنس(٥) عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضي الله عنهما: في قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) قال: إن الناس بعد آدم وقعوا في الشرك واتخذوا هذه الأصنام وعبدوا غير الله تعالى فجعلت الملائكة يدعون عليهم، ويقولون: ربنا خلقت عبادك فأحسنت خلقهم ورزقتهم فأحسنت رزقهم فعصوك وعبدوا غيرك فقال لهم الرب عز وجل: إنهم في عذر. وقيل: في عيب، فجعلوا لا يعذرونهم ولا يقبلون ويدعون عليهم. فقال لهم الرب: اختاروا منكم اثنين فأهبطهما إلى الأرض فآمرهما وأنهاهما فاختاروا هاروت وماروت فأهبطهما الله تعالى إلى الأرض فأمرهما ونهاهما عن الزنا وقتل النفس وشرب الخمر، فمكثا زماناً في الأرض يحكمان بالحق، وكان في ذلك الزمان امرأة فضلت بالحسن على سائر النساء فأتيا عليها فخضعا لها بالقول وراوداها عن نفسها فقالت: لا حتى تصليا لهذا الصنم أو تقتلا هذه النفس أو تشربا هذه الخمر فقالا: أهون الثلاثة شرب الخمر [فلما شربا](٦) الخمر سجدا للصنم وفعلا بالمرأة وقتلا النفس فكشف الغطاء فيما بينهما وبين الملائكة، فنظروا إليهما وما يفعلان، فجعلت الملائكة يعذرون بني آدم أهل الأرض ويستغفرون لمن فيها)(٧) فقيل لهاروت وماروت: اختارا إما عذاب الدنيا وإما عذاب الآخرة. فقالا: عذاب الدنيا يذهب وينقطع وعذاب الآخرة لا انقطاع له [ثم اختاروا](٨) عذاب الدنيا. فهما يعذبان إلى يوم القيامة. وروي في الخبر أن المرأة تعلمت منهما اسم الله الأعظم فصعدت به إلى السماء فمسخها الله تعالى كوكباً. ويقال: هو الكوكب الذي يقال له الزهرة. وروي عن ابن عمر ـ أنه كان إذا نظر إلى الزهرة لعنها ويقول: هي التي فتنت هاروت وماروت. وروي عن علي رضي الله عنه هذا(٩). وقال بعضهم: هذا لا يصح لأن هذا الكوكب قد كان خلقه في الأصل حين خلق النجوم وجعل مقادير الأشياء على سبع من الكواكب وجعل لكل كوكب سلطاناً وجعل سلطان الزهرة الرطوبة. وقال بعضهم: إن كوكب الزهرة قد كان، ولكن الله تعالى مسخ هذه المرأة على شبه الكوكب فهي تعذب هناك. وقال بعضهم: قد صارت إلى النار كما أن سائر الأشياء التي مسخت لم يبق منها أثر(١٠) فذلك قوله تعالى ﴿وما أنزل على

---

(١) الحسن بن عيسى بن ماسرجس، أبو علي النيسابوري، مولى ابن المبارك توفي سنة ٢٤٠ هـ تهذيب التهذيب ٢/٣١٣.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المعروف بابن راهويه المروزي، روى عنه الجماعة سوى ابن ماجه. تهذيب التهذيب ١/٢١٦.

(٣) حكام بن سلم، أبو عبد الرحمن الرازي الكناني، ثقة له غرائب. التقريب ١/١٨٩ ـ ١٩٠.

(٤) عيسى بن أبي عيسى، كان عالماً بتفسير القرآن، ثقة. تهذيب التهذيب ١٢/٥٦.

(٥) الربيع بن انس الخراساني البكري سكن خراسان، صدوق ثقة. تهذيب التهذيب ٣/٢٣٨.

(٦) في ظ [فشربا]. (٧) في ظ [في الأرض]. (٨) في أ [ثم اختارا].

(٩) أخرجه الحاكم من حديث علي ٢/٢٢٦ ونسبه السيوطي لابن مردويه من حديث علي ١/٩٧.

(١٠) هذه الآثار وغيرها التي بلغت طرقها نيفاً وعشرين أنكرها جماعة من العلماء منهم القاضي عياض، الذي ذكر أن ما ذكره أهل الأخبار ونقله المفسرون في قصة هاروت وماروت ولم يرد منه شيء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس، وذكر في البحر أن جميع ذلك لا يصح منه شيء ولم يصح أن ابن عمر كان يلعن الزهرة خلافاً لمن رواه. =

الملكين﴾، [يعني اليهود اتبعوا ما أنزل على الملكين][(١)] ببابل هاروت وماروت. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى﴾ قال بعضهم: هذا الحرف أعني (ما) للنفي فكأنه يقول: ولم ينزل على الملكين السحر. وقال بعضهم: إن إبليس[(٢)] لعنه الله قد جاء بالسحر ووضعه عند أقدامهما، وهما معلقان بالسلة فتذهب اليهود تتعلم السحر من تلك الكتب والملكين ﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي فلا تتعلم السحر لأنه لا يجوز للملكين أن يعلما[(٣)] الكفر. وقال بعضهم: ويبينان أن عمل السحر كفر وينهيان عن التعلم ويبينان كيفية السحر وهو بمنزلة رجل قال لآخر: علمني ما الزنا أو علمني ما السرقة فيقول: إن الزنا كذا وكذا، وهو حرام فلا تفعل وإن السرقة كذا وكذا هي حرام فلا تفعل. كذلك ههنا. الملكان يقولان: السحر كذا وكذا، وهو كفر فلا تكفر. وقرأ بعضهم[(٤)] (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام وهي قراءة شاذة، يعني كانا ملكين في بني إسرائيل فمسخهما الله تعالى. وقوله (إنما نحن فتنة) أي اختبار وابتلاء. وأصل الفتنة الاختبار قوله ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي من الملكين (مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي فيتعلمون منهما من السحر ما يفرقون به بين الرجل وزوجته، يؤخذ الرجل عن المرأة حتى لا يقدر على الجماع. ثم قال تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادة الله تعالى ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [أي ما يضر في الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة، يعني السحر][(٥)] ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ يعني اليهود علموا في التوراة أن من اختار السحر ما له في الآخرة من خلاق يعني نصيب. والخلاق في اللغة[(٦)]: هو النصيب الوافر. ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي باعوا به يعني بئسما باعوا به أنفسهم ويقال: بئس ما اختاروا لأنفسهم السحر على كتاب الله تعالى وسنن أنبيائه لو كانوا يعلمون، ولكنهم لا يعلمون. فإن قيل: ذكر في الآية الأولى (ولقد علموا لمن اشتراه) وفي هذه الآية يقول: (لو كانوا يعلمون) فمرة يقول: يعلمون، ومرة يقول: لا يعلمون. فالجواب: أن يقال: إنهم يعلمون ولكن لا منفعة لهم في علمهم، وكل عالم لا يعمل بعلمه فليس بعالم لأنه يتعلم العلم لكي ينتفع به فإذا لم ينتفع به فكأنه لم يتعلم، فكذلك ها هنا (لو كانوا يعلمون) [لو كانوا يعرفون][(٧)] للعلم حقه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني اليهود لو صدقوا بثواب الله واتقوا السحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني كان

= وقال الإمام الرازي بعد أن ذكر الراوية في ذلك ـ: إن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة، ونص الشهاب العراقي على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله تعالى العظيم فإن الملائكة معصومون «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون «يسبحون الليل والنهار لا يفترون» والزهرة كانت يوم خلق الله تعالى السماوات والأرض، والقول بأنها تمثلت لهما فكان له ما كان وردت إلى مكانها غير معقول ولا مقبول. هذا والله أعلم انظر تفسير الألوسي ١/ ٢٤١. والفخر الرازي ٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(١) ما بين المعقوفين سقط من أ.

(٢) هذا القول كذلك مردود وغير مقبول ولا أساس له من الصحة لأنه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا فيما تناقلته الأخبار الصحيحة ما يدل على صدقه والله أعلم.

(٣) في أ [يتعلما].

(٤) ابن عباس والحسن وأبو الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبزى. انظر البحر المحيط ١/ ٣٢٩.

(٥) ما بين المعقوفين من ظ.

(٦) قال ابن منظور: الخلاق: الحظ والنصيب من الخير والصلاح والخلاق: الدين.

(٧) في ظ [لكانوا يوفون].

ثواب الله تعالى خيراً لهم من السحر والمثوبة والثواب بمعنى واحد[١] وهو الجزاء على العمل وكذلك الأجر ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهذا نداء المدح، يقول (يا أيها الذين آمنوا) صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يأتون رسول الله ـ عليه السلام ـ ويقولون: يارسول الله راعنا، وهو بلغة العرب: أرعني سمعك. وأصله في اللغة: راعيت الرجل إذا تأملته وتعرفت أحواله. وكان هذا اللفظ بلغة اليهود سباً لرعونة[٢]. فلما سمعت اليهود ذلك من المسلمين أعجبهم ذلك وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمد سراً فالآن نسبه علانية، فكانوا يأتونه ويقولون له: راعنا يا محمد، ويريدون به السب[٣]. وقال بعضهم: كان في لغتهم معناه إسمع لا سمعت، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) نهى المسلمين أن لا يقولوا: بهذا اللفظ، وأمرهم أن يقولوا بلفظ أحسن منه. قال الله تعالى ﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به. ثم ذكر الوعيد للكفار فقال تعالى ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني اليهود. وقرأ الحسن[٤] (راعناً) بالتنوين[٥]. وقال القتبي: من قرأ (راعناً) بالتنوين جعله اسماً منه. مثاله: أن تقول: لا تقولوا حمقاً.

مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني مشركي العرب ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني أن ينزل على رسولكم من الوحي وشرائع الإسلام لأنهم كانوا كفاراً، فيحبون أن يكون الناس كلهم كفاراً مثلهم. وهذا كما قال في آية أخرى (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) فأخبر الله تعالى أن الأمر ليس على مرادهم حيث قال ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يختار للنبوة من يشاء من كان أهلاً لذلك ويكرم بدينه الإسلام من يشاء ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي ذو المن العظيم لمن اختصه بالنبوة والإسلام. وقال مقاتل: كان قوم من الأنصار يدعون حلفاءهم ومواليهم من اليهود إلى الإسلام. فقالوا للمسلمين: [إن الذين تدعوننا][٦] إليه[٧] هو خير مما نحن فيه[٨] وعليه[٩]) وددنا لو أنكم على هذا فنزل قوله (والله يختص برحمته من يشاء) أي بدينه ـ الإسلام ـ من يشاء. ونظيرهما في سورة هل أتى (يدخل من يشاء في رحمته). أي في دين الإسلام.

مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

ثم قال تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ قرأ ابن عامر (ما نُنْسِخْ) برفع النون وكسر السين وقرأ الباقون (ما نَنْسَخ) بالنصب ومعناهما واحد[١٠]. وقرأ أبو عمرو وابن كثير (أو ننسأها) بنصب النون والسين والهمزة، وقرأ الباقون

---

(١) في اللسان: وأعطاه ثوابه ومَثُوبته ومَثْوبته أي جزاء ما عمله. مادة: ثوب.

(٢) في أ [يرعونه]. (٣) اللسان: رعن.

(٤) وابن أبي ليلى وأبو حيوة وابن محيصن.

(٥) في مصحف عبد الله وقراءته أبي «راعونا» على اسناد الفعل لضمير الجمع، وذكر أيضاً أن في مصحف عبد الله «ارعونا» خاطبوه بذلك اكباراً وتعظيماً إذا قاموا مقام الجمع. البحر المحيط ١/٣٣٨.

(٦) في أ [ما تدعون]. (٧) من ظ. (٨) من ظ. (٩) من أ.

(١٠) انظر/ الإتحاف، وحجة القراءات لابن زنجلة ١٠٩ والبحر المحيط ١/٣٤٢.

(أو نُنْسِهَا) برفع النون وكسر السين بغير همز[1]. فمن قرأ (ننسأها) أي نؤخرها، ومنه النسيئة في البيع وهو التأخير. ومن قرأ (ننسها) أي نتركها مثل قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) أي تركهم في النار وقال ابن عباس ـ في رواية أبي صالح في قوله تعالى [(ما ننسخ من آية أو ننسها) يقول][2] ما ننسخ من آية فلا نعمل بها (أو ننسها)[3] ندعها غير منسوخة [والنسخ رفع الشيء وإقامة غيره مقامه وفي الشرع رفع كل حكم قبل فعله أو بعده إذا كان مؤقتاً ثم قال تعالى][4] ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يعني أهون وألين منها على الناس ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في المنفعة. وقال الزجاج: النسخ في اللغة[5]،

---

(١) حجة القراءات ١٠٩، البحر المحيط ٣٤٣/١. وأضاف أبو حيان: وقرأ سعد بن أبي وقاص تنساها «بتاء ونون من غير همز».

(٢) ما بين المعقوفين من أ. (٣) في أ (ننسيها). (٤) ما بين المعقوفين من أ.

(٥) يطلق النسخ في اللغة على معنين: الأول: الإزالة أي الإعدام وهذا المعنى قسمان:

أ ـ إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه فيقال: نسخت الشمس الظل إذا أزالته وحلت مكانه وهذا على حد قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾.

ب ـ إبطال الشيء وزواله دون أن يقوم آخر مقامه فيقال: نسخت الريح آثار القوم أي أزالتها وأعدمتها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾. أي يزيله فلا يبقي له أثراً.

الثاني: نقل الشيء وتحويله:

أ ـ من حال إلى حال مع بقائه كناسخ المواريث أي انتقالها من واحد إلى آخر مع بقاء المواريث في نفسها.

ب ـ أو من مكان إلى مكان آخر مع بقائه في نفيه تقول: نسخت النحل أي نقلته من خلية إلى أخرى.

ومن النسخ بمعنى النقل قوله تعالى ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ أي ننقله في صحف الملائكة.

وقد اختلف في أي المعنيين يكون لفظ النسخ حقيقة وفي أيهما يكون مجازاً على ثلاثة آراء:

الأول: أنه حقيقة في الإزالة مجاز في النقل وإليه ذهب أكثر الشافعية والإمام الرازي والغزالي في أحد النقول عنه، ودليلهم أن الإزالة عبارة عن مطلق الإعدام أي سواء حديث بعده أمراً ضر أم لا أما النقل فهو اعدام صفة وإحداث أخرى، فيكون أخص من الإزالة.

الثاني: أنه حقيقة في النقل مجاز في الإزالة وإلى ذلك ذهب القفال الشاشي ـ من الشافعية ـ وأكثر الحنفية ودليلهم أن لفظ النسخ كثر استعماله في النقل وقل في الإزالة فيكون حقيقة في النقل فقط مجازاً في الإزالة، ولا يكون حقيقة فيهما أيضاً لما يترتب على ذلك من لزوم الاشتراك اللفظي والأصل خلافه.

الثالث: أنه مشترك بينهما وإليه ذهب القاضي والغزالي في أحد النقول عنه، وهذا الاشتراك يحتمل أمرين:

الأول: أنه مشترك اشتراكاً لفظياً بحيث يكون موضوعاً لكل منهما بوضع خاص.

الثاني: أنه مشترك بينهما اشتراكاً معنوياً بحيث يكون موضوعاً للقدر المشترك بينهما وهو مطلق الرفع. وهذا أولى من الأول لأن الاصل عدم تعدد الوضع، ودليلهم أن النسخ في اللغة أطلق على كل من الإزالة والنقل والأصل في الإطلاق الحقيقة فيكون حقيقة فيهما ومهما كانت حقيقة النسخ في اللغة فإنه نزاع لفظي لا تتعلق به غرض أصولي.

تعريف النسخ اصطلاحاً: عرف العلماء النسخ بقولهم النسخ عبارة عن بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه، وقالوا أيضاً: هو رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ عنه، وإذا نظرنا إلى التعريفين ووجدنا الفارق بينهما يتحقق في كلمة رفع في أحدهما وكلمة بيان في الآخر مع اتفاقهما في باقي القيود ولعل الملاحظ في هذا الفارق أن النسخ فيه جهتان:

إحداهما: بالنسبة إلى الله فمن راعى هذه الجهة عبر بالبيان لأن النسخ في حقه تعالى بيان محض لانتهاء مدة الحكم الأول وليس فيه معنى الرفع لأنه كان معلوماً عند الله تعالى أنه ينتهي في وقت كذا بالناسخ فكان الناسخ بالنسبة لعلم الله مبيناً للمدة لا رافعاً لأن الرفع يقتضي الثبوت والبقاء لولاه والبقاء هنا بالنسبة إلى علم الله محال لأنه خلاف معلومه.

ثانيتهما: بالنسبة إلى البشر فمن راعى هذه الجهة عبر بالرفع لأنه زال ما كان ظاهر الثبوت وخلفه شيء آخر نوضح ما تقدم بالمثال =

هو إبطال شيء وإقامة شيء آخر مقامه، والعرب تقول: نسخت الشمس الظل إذا أزالته [١]. (أو ننسها)[٢] أي نتركها، بمعناه أي نأمركم بتركها. وقال أبو عبيد[٣] القاسم بن سلام[٤]: النسخ له ثلاثة مواضع ولكل منها شواهد ودلائل، فأحدها: ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: (ما ننسخ من آية) أي نبدلها ونوضحها، وما روي عن مجاهد أنه قال: نثبت خطها، ونبدل حكمها. فهذا هو المعروف عند الناس. الثاني: أن ترفع الآية المنسوخة بعد نزولها ولهذا دلائل جاءت فيه، من ذلك ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [أنه صلى][٥] ذات يوم صلاة الغداة، فترك آية، فلما فرغ من صلاته قال: هل فيكم أبي قالوا: نعم (قال: [٦] هل تركت من آية؟ قالوا: نعم] [٧] تركت آية كذا، أنسخت أم نسيت، قال: لا، ولكن نسيت[٨]. وجاءت الآثار في نحو هذا لأن الآية قد تنسخ بعد نزولها وترفع. والنسخ الثالث: تحويله من كتاب إلى كتاب، وهو ما نسخ من أم الكتاب فأنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أو ننساها)[٩] أي نتركها في اللوح المحفوظ[١٠]. وقال بعضهم: لا يجوز النسخ فيما يرفع كله بعد نزوله لأن الله تعالى قال (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال (إن علينا جمعه وقرآنه) ولكن أكثر أهل العلم قالوا: يجوز ذلك والنسخ يجوز في الأمر والنهي والوعد والوعيد ولا يجوز في القصص والأخبار[١١] لأنه لو جاز ذلك يكون كذباً، والكذب في القرآن لا يجوز. ثم قال تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الناسخ والمنسوخ.

= فنقول: لم تكن الخمر في أول الإسلام محرمة وكان الله سبحانه وتعالى يعلم أنه سيحرمها علينا بعد مدة ولم يخبرنا سبحانه وتعالى بذلك بل أطلق حكم الإباحة فظننا نحن معاشر المسلمين بقاء هذا الإطلاق إلى يوم الدين، فلما جاء التحريم بعد ذلك كان رفعاً في حقنا للإباحة التي ظننا بقاءها وكان ذلك التحريم بالنسبة إلى الله تعالى بياناً لميعاد انتهاء الإباحة الذي كان في علمه، واتفق المسلمون وأهل الشرائع على جواز النسخ عقلاً ولم يخالف في ذلك من أرباب الشرائع إلا الشمعونية وهم فرقة من اليهود ويقولون: بامتناعه عقلاً وسمعاً، واتفق المسلمون على وقوعه أيضاً ولم يخالف في ذلك إلا أبو مسلم الأصفهاني على ما نقل وأهل الشرائع سوى الشمعونية والعنانية ـ فرقتان من اليهود ـ تقولان بامتناعه. أما العيسوية منهم فيعترفون بالنسخ جوازاً ووقوعاً وبرسالة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكن يقولون رسالة إلى العرب خاصة فلا تنسخ شريعته شريعة موسى وأدلة هؤلاء تبحث في المطولات.

(١) انظر اللسان: نسخ. (٢) في أ [ننسيها]. (٣) في أ [أبو عبيدة].

(٤) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ومن مصنفاته «غريب القرآن». تهذيب التهذيب ٧/٣١٥، تذكرة الحفاظ ٢/٥.

(٥) ما بين المعقوفين من أ. (٦) في ظ [نعم فقال]. (٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٢ لابن الأنباري في المصاحف عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف.

(٩) في ظ [نسيها]. (١٠) سقط من ظ.

(١١) ومحل النسخ هو الحكم الشرعي الذي لم يلحقه تأبيد ولا تأنيث وذلك كسائر الأحكام التكليفية من الوجوب وأخواته ويؤخذ مما تقدم ما يأتي:

أولاً: الأحكام العقلية والاعتقادية كوحدانية الله ووجوب الايمان به ليست محلاً للنسخ.

ثانياً: الأحكام الحسية كاحراق الناس ليست محلاً للنسخ.

ثالثاً: الأحكام المؤبدة بالنص أو بدلالته ليست محلاً للنسخ لأن رفعها بعد تأبيدها من الشارع الحكيم يؤدي إلى البداء أي الظهور بعد الخفاء وهو محال على الله تعالى فمثال المؤبد بالنص قوله تعالى ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ وقوله في بيان حكم قاذف المحصنات ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ فإن لفظ أبداً يدل على أن هذا حكم دائم لا يزول، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الجهاد ماض إلى يوم القيامة» ومثال المؤبد بالدلالة الشريعة التي توفي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها فإنها مؤبدة إلى يوم القيامة بدلالة أنه خاتم الأنبياء والمرسلين.

=

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يحكم فيهما ما يشاء بأمره[1] ثم يأمر بغيره. قال الزجاج: الملك في اللغة: هو تمام القدرة وأصل هذا من قولهم ملكت العجين إذا بالغت في عجنه، ومعنى الآية: إن الله يملك السموات والأرض وما فيهما، فهو أعلم[2] لما يصلحهم فيما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ ومتروك وغير متروك. وكان اليهود أعداء الله ينكرون النسخ، وكانوا يقولون حين تحولت القبلة إلى الكعبة: لو كنتم على الحق فلم رجعتم؟ ولو كان هذا الثاني حقاً فقد كنتم على الباطل وكانوا لا يرون النسخ في الشرائع، لأن ذلك حال البداء[3] والندامة. ولا يجوز ذلك على الله. ولكن الجواب أن يقال: إن الله تعالى يدبر في أمره ما يشاء كما أنه خلق الخلق ولم يكونوا، ثم يميتهم بعد ذلك، ثم يحييهم كذلك يجوز أن يأمر بأمر ثم يأمر بغير ذلك الأمر، كما أن شريعة موسى عليه السلام لم تكن من قبل، فأمره بذلك، والمعنى في ذلك: أنه حين أمرهم بالأمر الأول كان الصلاح في ذلك [الوقت في هذا الأمر][4] ثم إذا أمر بأمر آخر كان الصلاح في ذلك الوقت في الأمر الثاني، وهذا المعنى قوله ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ يعني هو أعلم بأمر الخلق، وبما يصلحهم في كل وقت. ثم بين الوعيد لمن لم يؤمن بالناسخ والمنسوخ فقال ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي من قريب ينفعكم ولا نصير: أي ولا مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ قال مقاتل: معناه أتريدون أن تسألوا رسولكم (كما سئل موسى من قبل) أي كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام حيث قالوا: (أرنا الله جهرة) ويقال: إن اليهود سألوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يطلبوا القربان كما كان لموسى عليه السلام. وروي[5] عن الضحاك أنه قال: دخل جماعة من كفار قريش فيهم أبو جهل وغيره، فقالوا لرسول الله: إن كنت نبياً فاكشف عنا الغطاء حتى نرى الله جهرة فنزلت الآية [﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حيث قالوا: (أرنا الله جهرة) ثم قال][6] ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي يختار الكفر على الإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (أي أخطأ قصد السبيل وهو الطريق)[7] الهدى.

= رابعاً: الأحكام المؤقتة بوقت لا تكون محلاً للنسخ قبل تمام وقتها لأن النسخ قبل تمام الوقت بداء وجهل وهما محالان على الله تعالى وذلك كقوله تعالى ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾.

خامساً: الإخبار عن الأمور الماضية أو المستقبلة أو الحاضرة لا يكون محلاً للنسخ لأن نسخه يؤدي إلى الجهل أو الكذب مثال ذلك: قول الله تعالى ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ و«قوله» ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ وأما الأخبار التي تتضمن حكماً شرعياً فهي محل النسخ باعتبار ما تضمنته من حكم شرعي وذلك كقوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ فهذا خبر تضمن حكماً شرعياً هو وجوب العدة على المطلقة ذات الحيض وتكون بالاقراء ثلاثاً.

(١) في ظ [بالأمر]. (٢) في ظ [أعرف].

(٣) البداء: استصواب شيءعلم بعد أن لم يعلم.. قال الفراء: بدا لي أي ظهر لي رأي آخر.. ويقال بدا لي بداء: أي تغير رأيي على ما كان عليه. اللسان: بدا.

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) سقط من أ. (٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) في ظ [يعني قصد الطريق].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٩)

[قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ وذلك أن المسلمين لما أصابتهم المحنة يوم أحد قالت اليهود لعمار بن ياسر(١) وحذيفة بن اليمان: قد أصابكم ما أصابكم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم، فنزلت هذه الآية](٢) (ود كثير من أهل الكتاب) أي يريد ويتمنى كثير من أهل الكتاب ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ أي [يصدونكم ويردونكم](٣) عن التوحيد ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً﴾ إلى الكفر. ثم أخبر أن هذا القول لم يكن منهم على وجه النصيحة، ولكن ذلك القول كان﴿حَسَداً [مَنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ](٤) مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾(٥)ما في التوراة أنه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ يعني أن دين محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ أي: اتركوهم وأعرضوا عنهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني الأمر بالقتال، وكان ذلك قبل أن يؤمر بقتال أهل الكتاب، ثم أمرهم بعد ذلك بالقتال، وهو قوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله. . . إلى قوله من الذين أوتوا الكتاب) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من النصرة للمسلمين على الكفار. ويقال: هو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٠)

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ أي أقروا بالصلاة وأدوها في مواقيتها بركوعها وسجودها وخشوعها ﴿وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ﴾ أي وأعطوا الزكاة المفروضة ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ما تصدقتم من [صدقة وعملتم](٦) من العمل الصالح تجدوه عند الله محفوظاً يجزيكم به. ونظير هذا ما قال في آية أخرى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) وقال في آية أخرى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وروي أنه مكتوب في بعض الكتب: يا بني آدم ضع كنزك عندي لا سرق ولا حرق ولا فساد، تجده حين تكون أحوج إليه، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني عالم بأعمالكم يجازيكم خيراً وبالشر شراً.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (١١١) ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١١٢)

﴿وَقَالُوا﴾ يعني اليهود والنصارى وهم يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ

---

(١) عمار بن ياسر ين عامر بن مالك العنسي أبو اليقظان، صحابي جليل مشهور قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين. التقريب ٢/٤٨.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ. (٣) في ظ [يصرفونك]. (٤) في ظ [منهم].

(٥) من ظ. (٦) في ظ [الصدقة وتعملون].

﴿هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ واليهود جماعة الهائد، وإنما أراد به اليهود[1]. وهذا من جوامع الكلم وهذا كلام على وجه الاختصار، فكأنه يقول: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً. قال الله تعالى رداً لقولهم **﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾** أي ظنهم وأباطيلهم. وهذا كما يقال للذي يدعى مالاً يبرهن عليه، إنما أنت متمن وإنما يراد به: إنك مبطل في قولك، ثم قال تعالى **﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ﴾** أي حجتكم من التوراة أو من الإنجيل **﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** أي بأن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً **﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾** معناه بل يدخل الجنة غيركم، من أسلم وجهه لله، أي من أخلص دينه لله وآمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾** في عمله **﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾** أي ثوابه في الجنة[2] **﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾** من العذاب حين يخاف أهل النار [**﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** حين يحزن أهل النار. ويقال][3]: ولا هم يحزنون على ما (فاتهم)[4] من أمر الدنيا. ويقال: الخوف إنما يستعمل في المستأنف، والحزن في الماضي، كما قال الله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) ويقال: الخوف ثلاثة: خوف الأبد، [وخوف العذاب على الانقطاع][5] وخوف الحشر والحساب. فأما خوف الأبد فيكون أمناً للمسلمين، وخوف العذاب على الانقطاع يكون أمناً للتائبين، وخوف الحشر والحساب يكون أمناً للمحسنين (والمحسنون)[6] يكونون آمنين من ذلك.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

قوله تعالى **﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ، وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾** من أمر الدين وروي عن ابن عباس أنه قال: صدقوا ولو حلفوا على ذلك ما حنثوا لأن كل فريق منهم ليس[8] على شيء. **﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾** أي عندهم ما يخرجهم من ذلك الاختلاف أن لو نظروا فيه وقال الزجاج: معناه، كلا الفريقين يتلون الكتاب وبينهم هذا الاختلاف. فدل ذلك على ضلالتهم **﴿كَـذَلِكَ قَالَ ٱلَّـذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْـلَ قَوْلِهِمْ﴾** أي الذين ليسوا من أهل الكتاب قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان[9] على ديننا **﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾** يعني أنه يريهم من يدخل الجنة عياناً ومن يدخل النار عياناً ويبين لهم الصواب **﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** أي في الدنيا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ﴾ قال في رواية الكلبي معناه ومن أكفر. وقال بعضهم: هذا التفسير غير

---

(١) قال الفراء: يريد يهودا فحذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية قال: وقد يجوز أن يجعل جمعاً واحده هائد. اللسان: هود.

(٢) في ظ [الجنة]. (٣) ما بين المعقوفين من ظ. (٤) في ظ [خلفوا].

(٥) ما بين المعقوفين من أ. (٦) سقط من ظ. (٧) من ظ.

(٨) في أ [ليسوا]. (٩) في أ و ظ [كان هودا].

سديد، لأن الكفر كله سواء. ولكن معنى قول الكلبي ومن أكفر يعني من أشد في كفره، لأن الكفار وإن كانوا كلهم في الكفر سواء فربما يكون بعضهم في كفره(١) أشد شراً من غيره. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في شأن ططوس بن أسفيانوس(٢) الرومي حيث خرب بيت المقدس وألقى فيه الجيفة، فكان خراباً إلى زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ فلم يدخلها(٣) بعد عمارتها رومي إلا خائفاً ومستخفياً لو علم أنه رومي قتل. [قال قتادة هم النصارى. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى](٤) ويقال: من أراد أن يكون ملكاً عليهم لا يمكنه ذلك ما لم يكن دخل مسجد(٥) بيت المقدس، فيجيء ويدخله مستخفياً. ثم قال عز وجل ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي بفتح مدائنهم الثلاثة قسطنطينة وعمورية وأرمينية(٦). وقال بعضهم: لنزول هذه الآية سبب آخر، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما خرج عام الحديبية إلى مكة، ومنعه أهل مكة فرجع، ولم يدخلها في تلك السنة، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها﴾ أي سعى ومنع المسلمين عن الصلاة، وذكر الله فيها لأن عمارة المسجد بالصلاة، وذكر الله فيها وخرابها في ترك ذلك. (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) بعد فتح مكة فلا يقربوا(٧) المسجد الحرام بعد عامهم هذا إلا [خائفين](٨)، (لهم في الدنيا خزي) وهو فتح مكة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لمن مات على كفره وقتل. وروى الزجاج عن بعض أهل العلم قال: نزلت في شأن جميع الكفار لأن الكفار كانوا يقاتلون المسلمين ويمنعونهم من الصلاة فقد منعوا المسلمين [من الصلاة في](٩) جميع المساجد لأن الأرض كلها جعلت مسجداً وطهوراً(١٠). ومعناه ومن أظلم ممن خالف ملة الإسلام. قال: ومعنى قوله (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) يعني دار الإسلام [ولهم في الدنيا خزي) وظهور](١١) الإسلام على سائر الأديان لقوله تعالى (ليظهره على الدين كله).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قد اختلفوا في سبب نزول هذه الآية. روي عن ابن عباس أنه قال: خرج رهط في سفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأصابهم الضباب، فمنهم من صلى إلى المشرق، ومنهم من صلى إلى المغرب، فلما طلعت الشمس وذهب الضباب، استبان لهم ذلك، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألوه عن ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ يعني أينما تولوا وجوهكم في الصلاة فثم وجه الله يعني [قال بعضهم:

---

(١) في أ [الكفرة]. (٢) في ظ [استيانوس]. (٣) في أ [يدخل].
(٤) ما بين المعقوفين من ظ. (٥) في أ. (٦) في أ [وروميه].
(٧) في أ [يقربون]. (٨) في ظ [خائفاً]. (٩) سقط من ظ.
(١٠) وهذا من خصائص أمة النبي - صلى الله عليه وسلم - كما رواه البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي وذكر منها «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً» فالبخاري ١/٤٣٥ - ٤٣٦ في كتاب التيمم باب (١) (٣٣٥) ومسلم ١/٣٧٠ في كتاب المساجد حديث (٣/٥٢١) وأحمد في المسند ٤/٤١٦، ٥/١٦١ وابن حبان رقم (٢٠٠) (٢١٢٥) والسيوطي في الدر المنثور ٢/٨٣ والحميدي (٩٤٥) وابن الجارود في المنتقى (١٢٣) والترمذي (٣١٧) وأبو داود في الصلاة باب (٢٤) والنسائي في السنن ٢/٥٦ وابن ماجه في إقامة الصلاة (٥٦٧).
(١١) في ظ [يعني يظهر].

فثم قبلة الله]. [١] ويقال يعني: فثم رضا الله. ويقال: فثم ملك الله. وروي عبد الله [بن عامر] [٢] بن ربيعة [٣] عن أبيه أن قوماً خرجوا إلى السفر وذكر القصة نحو هذا. وقال بعضهم: المراد به الصلاة على الدابة. [قال الفقيه] [٤]: حدثنا محمد بن سعيد المروزي قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا علي بن شيبة قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي على راحلته التطوع [٥] حيث ما توجهت به وهو جاءٍ من مكة، ثم قرأ ابن عمر ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولو فثم وجه الله﴾ قال ابن عمر: في هذا نزلت هذه الآية [٦]. وقال بعضهم: لنزول هذه الآية سبب آخر، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يصلي إلى بيت المقدس فلما أمر بالتحول إلى الكعبة، قالت اليهود: مرة تصلون هكذا، ومرة تصلون هكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ ثم قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي الواسع الجواد المحسن الذي يقبل اليسير، ويعطي الجزيل عليم بصلواتكم. [ويقال: الواسع الغني عن صلاة الخلق، وإنما يطلب منهم النية الخالصة] [٧] عليم بنياتكم. ويقال: واسع يعني يوسع عليكم أمر الشرائع، ولم يضيق عليكم الأمر. ويقال: واسع، يعني واسع الفضل. وقال الزجاج [٨]: معنى قوله (فثم وجه الله) أي اقصدوا وجه الله بنيتكم القبلة كقوله (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره).

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام (قالوا) بغير واو. وقرأ [٩] الباقون بالواو، ومعناهما واحد [إلا أن] [١٠] الواو للعطف وذلك أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله. وقال بعض المشركين: الملائكة بنات الله. [قال الله تعالى] [١١] ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كلهم عبيده ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [يعني به المؤمنين خاصة أي مطيعين مقرين بالعبودية له موحدين مجيبين للطاعة] [١٢]. وقد قيل: إن لفظ الآية عام والمراد به الخاص. قوله تعالى (كل له قانتون) يعني به

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ. (٢) سقط من ظ.

(٣) عامر بن ربيعة، من كبار التابعين، ثقة، ولد في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان قليل الحديث. تهذيب التهذيب ٥/ ٢٧٠.

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) في ظ [تطوعاً].

(٦) أخرجه البخاري ١/ ٦٩١ في كتاب الصلاة باب الصلاة إلى الراحلة والبعير (٥٠٧) ومسلم ١/ ٣٥٩ كتاب الصلاة باب سترة المصلي (٥٠٢/٢٤٧)، (٥٠٢/٢٤٨) وأحمد في المسند ٢/ ٢٠ والنسائي في السنن ٢/ ٤٨.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من ظ ومؤخر في أ إلى ما بعد القول الذي يليه.

(٨) ١/ ١٧٥.

(٩) القراءة بدون واو على الاستئناف وبالواو عطف جملة على مثلها، وفي المصحف الذي أرسله سيدنا عثمان إلى أهل الشام بدون واو، وهي من القراءات المتواترة التي لا طعن فيها.

انظر: حرز الأماني وعقيلة أتراب القصائد في علم الرسم للإمام الشاطبي، ومتن الذيل لابن عاشر وهو ذيل على كتاب مورد الظمآن في رسم القرآن.

(١٠) في ظ [لان]. (١١) في ظ [فالله]. (١٢) في أ [يعني به المؤمنين خاصة، أي مطيعين مقرين بالعبودية له موحدين مجيبين.

المؤمنين خاصة. ويقال معناه: أثر صنعه وشواهد توحيده ودلائـل ربوبيتـه في جميع مـا في السموات والأرض موجود[١]. ويقـال (كل لـه قانتـون) أي لا يستطيـع كل خلق أن يغيـر نفسه عن خلقتـه، فأخبـر الله تعالى أن جميع ما في السموات والأرض له وهو خالق الأشياء وهو المستغني عن الولد سبحانه وتعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما. والإبداع في اللغة[٢]: إنشاء شيء لم يسبق إليه على غير مثال ولا مشورة. وإنما قيل لمن خالف السنة: مبتدع، لأنه أتى بشيء لم يسبقه إليه الصحابة ولا التابعون[٣]. ومعناه هو خالق السموات والأرض ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ويقال: هذه الآية نزلت في شأن وفد نجران السيد والعاقب وغيرهما. وكانوا يقولون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: هل رأيت خلقاً من غير أب؟ فنزلت هذه الآية: (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) كما كان آدم من غير أب وأم، كذا عيسى ابن مريم خلقه بغير أب.

فإن قيل: قوله (كن) هذا الخطاب للموجود أو للمعدوم؟ فإن قال: للمعدوم. قيل له: كيف يصح الخطاب لشيء معدوم؟ وكيف يصح الإشارة إليه بقوله (كن)؟ فإن قال: الخطاب للموجود. قيل له: كيف يأمر الشيء الكائن بالكون: فالجواب عن هذا من وجهين: أحدهما: إن الأشياء كلها كانت موجودة في علم الله تعالى قبل كونها فكان الخطاب للموجود في علمه[٤] ـ. وجواب آخر: إن معناه إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن فيكون يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً يخلقه، والقول فيه على وجه المجاز. قرأ ابن عامر (فيكون) بالنصب لأنه[٥] جواب الأمر بالفاء[٦]، وقرأ الباقون بالرفع على معنى الاستئناف بمعنى فهو يكون.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون توحيد الله تعالى، ومعناه: وقال الجهال من الناس ـ وهم الكفار ـ ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي هلا يكلمنا الله فيخبرنا بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ أي علامة لنبوتك. قال الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي قال اليهود لموسى عليه السلام: (أرنا الله جهرة) ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي في القسوة والكفر. ويقال: تشابهت كلمتهم كما تشابهت قلوبهم [في القسوة والكفر][٧] ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَاتِ﴾ يعني أمرك في التوراة[أي العلامات لنبوتك][٨] إنك نبي مرسل الصفة والنعت ويقال: قد بينا العلامات لنبوتك. ويقال: لم يكن لنبي من الأنبياء معجزة وعلامة إلّا وقد كان للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلها ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني مؤمني أهل التوراة. ويقال: من كان له عقل وتمييز.

---

(١) ساقطة من ظ. (٢) لسان العرب: بدع ١/ ٢٣٠.

(٣) قال ابن منظور: والبدعة: الحدث وما ابتدع من الدين بعد الاكمال. وقال ابن السكيت: البدعة كل محدثة، وقال ابن الأثير: البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلال، فما كان من خلاف ما أمر الله به ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو في حيز الإنكار والذم، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحض عليه ورسولـه فهو في حيز المدح. . . » اللسان: بدع.

(٤) في أ [علم الله تعالى]. (٥) في أ [فيكون لأن].

(٦) في أ [يكون نصبا].

قال أبو حيان: لا يصح نصبه على جواب الأمر الحقيقي لأن ذلك إنما يكون على فعلين ينتظم منهما شرط وجزاء نحو ائتني فأكرمك، وهنا لا ينتظم ذلك إذ يصير المعنى إن يكن يكن. . البحر المحيط ١/ ٣٦٦. وانظر: الاتحاف وأبو شامة على الحرز.

(٧) ما بين المعقوفين من أ. (٨) ما بين المعقوفين من ظ.

إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا
ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ
ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ أي بالقرآن [ويقال بالحق يعني بالدعوة إلى الحق][(١)] ويقال: بالحق أي لأجل الحق[(٢)]. ويقال: أي بالدعوة إلى الحق. ويقال: ببيان الحق ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ قرأ نافع (ولا تسأل) بنصب التاء وجزم اللام، والباقون بضم التاء واللام[(٣)]. فمن قرأ بالرفع فمعناه أنك إذا بلغت الرسالة فإنك قد فعلت ما عليك ولا تسأل عن أصحاب الجحيم فيما[(٤)] فعلوا وهذا كما قال في آية أخرى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وأما ومن قرأ بالنصب فهو على معنى النهي أي لا تسأل عن أصحاب الجحيم أي عما فعلوا. قال القاضي الخليل بن أحمد: أخبرنا الديلمي قال أخبرنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان عن موسى بن عبيدة الربذي[(٥)] عن محمد بن كعب القرظي[(٦)] أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: ليت شعري ما فعل بأبوي. فنزلت هذه الآية ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ الآية[(٧)]. قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ﴾ يعني أهل المدينة ونصارى أهل نجران ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي تصلي إلى قبلتهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ يعني إن قبلة الله هي الكعبة ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي صليت إلى قبلتهم ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [أي من بعد ما ظهر لك: أن القبلة هي الكعبة][(٨)] ﴿مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ينفعك ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي مانعاً يمنعك. ويقال: معناه (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم). أي حتى تدخل في دينهم، وذلك أن الكفار كانوا يطلبون الصلح، [وكان يرى][(٩)] أنهم يسلمون فأخبره[(١٠)] الله تعالى. [أنهم لا يسلمون، ولن يرضوا][(١١)] عنه حتى يتبع ملتهم، فنهاه الله عن الركون إلى شيء مما يدعونه إليه. فقال تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) يعني دين الله هو دين الإسلام. (ولئن اتبعت أهواءهم) وهذا الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد منه أمته. أي لئن اتبعت دينهم بعد ما جاءك من

---

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) في ظ [الحق ويقال أي بالدعوة إلى الحق].

(٣) زاد ابن حيان في البحر وقرأ أبي «وما تسأل» وقرأ ابن مسعود: «ولن تسأل» وهذا كله خبر، وقراءة الجمهور وقراءة أبي يحتمل أن تكون الجملة مستأنفة وهو الأظهر، ويحتمل أن تكون في موضع الحال. وأما قراءة ابن مسعود فيتعين فيها الاستئناف». البحر المحيط ٣٦٧/١، وانظر حرز الأماني بشرح أبي شامة.

(٤) في ظ [عما].

(٥) موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي ضعيف. قال أحمد: منكر الحديث. تهذيب التهذيب ٣٥٦/١٠، الجرح والتعديل ١٥١/٨.

(٦) محمد بن كعب بن سليم القرظي، من التابعين الثقات، روى الحديث مرسلاً كان عالماً بتأويل القرآن. التهذيب ٤٢٠/٩.

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ٥٥٨/١ (١٨٧٥)، (١٨٧٦)، (١٨٧٧). ومحمد بن كعب بن سليم القرظي تابعي فهو مرسل والمرسل لا تقوم به حجـة، ثم إن موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي ضعيف جداً كما في التاريخ الكبير للبخاري ٤/١ (٢٩١) والصغير (١٧٢) والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/٤ (١٥١) وقال البخاري: منكر الحديث وقال ابن معين: لا يحتج بحديثه، وقال أبو حاتم: منكر الحديث.

(٨) في ظ [يعني ما ظهر أن الكعبة هي القبلة].

(٩) في أ [وكانوا يرون].

(١٠) في أ [فأعلمه].

(١١) في ظ [أنهم لن يرضوا].

العلم، أي بعد ما ظهر أن دين الإسلام هو الحق (مالك من الله) أي من عذاب الله (من ولي) ينفعك (ولا نصير) أي مانع يمنعك منه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٢١﴾

قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب يصفونه في كتبهم حق صفته لمن سألهم. قال مجاهد: يتبعونه حق اتباعه. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود قال: والله إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأ حق قراءته كما أنزل الله تعالى: ولا يحرف عن مواضعه. ويقال: يقرأونه حق قراءته. ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويصدقونه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي بمحمد - صلى الله عليه وسلم -. ويقال: بالقرآن ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ وهو كعب الاشراف وأصحابه ويقال نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب وهم اثنان وثلاثون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب[1] من أرض الحبشة وكانوا يتبعون القرآن حق اتباعه.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ. وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قد ذكرناها من قبل.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قرأ ابن عامر (أبراهام)[2] وروي عنه أنه قرأ (أبرهم)[3] وهي لغة بعض العرب وقرأ غيره (إبراهيم) في جميع القرآن [وهي اللغة المعروفة][4] وهو اسم أعجمي ولهذا لا ينصرف. وروي عن ابن عباس أنه قال: أمر الله تعالى إبراهيم بعشر خصال من السنن خمس في الرأس، وخمس في الجسد[5]، وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - نحو هذا[6]. حدثنا أبي قال: حدثنا محمد بن الفضل

(١) جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ذو الجناحين، الصحابي الجليل ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة. التقريب ١/١٣١.

(٢) في ظ [ابراهم].

(٣) في ظ [إبراهـم]. لم تصح هذه القراءة عن ابن عامر، ولم تتواتر عنه، وإنما ورد عنه قراءة بلفظ «ابراهام»... راجع الحرز بشرح الفاصح وبشرح أبي شامة، والإتحاف، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٣.

(٤) ساقطة من ظ.

(٥) في أ [أبيكم]. أخرجه ابن جرير بإسناد صحيح ٣/٩ (١٩١٠) وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٢٦٦ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٦) انظر صحيح مسلم ١/٢٢٣ في كتاب الطهارة باب خصال الفطرة (٥٦/٢٦١) وانظر شرحه للإمام النووي رحمه الله (٣/١٥٠).

البلخي قال: حدثنا أبو بشر محمود بن مهدي، قال: حدثنا يزيد بن هارون عن الحجاج بن أرطأة[١] عن عطاء قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: عشر مما علمهن وعمل بهن أبوكم إبراهيم عليه السلام: خمس في الرأس، وخمس في الجسد، فأما التي في الرأس: فالسواك، والمضمضة والاستنشاق وقص الشارب وإعفاء اللحية، وأما التي في الجسد فالختان والاستحداد والاستنجاء ونتف الإبط، وقص الأظفار[٢]، ويقال: وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات أي اختبره والاختبار من الله تعالى أن يظهر حاله ليستوجب الثواب[٣] لأن الله تعالى لا يعطي الثواب والعقاب [بما يعلم][٤] ما لم يظهر منه ما يستوجب الثواب [٥] والعقاب، كما علم من إبليس [الكفر] [٦]، ولم يلعنه ما لم يختبره ويظهر منه ما يستوجب به اللعنة والعقوبة ـ وقوله عز وجل ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ يعني عمل بهن. ويقال: كان إبراهيم أفضل الناس في زمانه وكرم على الله تعالى فابتلاه الله عز وجل بخصال لم يبتل بها غيره، فكان من الابتلاء أن أمه ولدته في غار. ومن الابتلاء حيث [٧] نظر إلى الكوكب فقال: هذا ربي. وروى الحسن أنه قال: كان الابتلاء بثلاثة أشياء: أولها: الابتلاء بالكوكب والشمس والقمر، والثاني: بالنار، والثالث: بأمر سارة. ويقال: كل من كان أكرم على الله كان [ابتلاؤه أشد][٨]، لكي يتبين فضله ويستوجب الثواب. كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلايا ﴿فأتمهن﴾ أيّ عمل بهن. ويقال: (فأتمهن) أي وفي بهن، فلما وفىّ الأمر جعله الله تعالى إماماً للناس [ليقتدوا][٩] به. وفي هذا دليل: أن الإنسان لا يبلغ درجة الأخيار إلا بالتعب وجهد النفس، فلما جعله الله تعالى إماماً ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ والإمام الذي يؤتم به فأعجبه ذلك، وتمنى أن يكون ذلك لذريته بعده مثل ذلك، فـ ﴿قَالَ﴾: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ يعني اجعلهم أئمة يقتدى بهم ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ﴾ يعني الكافرين، يعني لا يصلح أن يكون الكافر إماماً للناس. ويقال: لا تصيب رحمتي الكافرين. فالله تعالى أخبره أنه يكون في ذريته كفار وأخبره أنه لا ينال عهده من كان كافراً. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: (لا ينال عهدي الظالمين) [أي الكافرين يعني لا يصلح أن يكون الكافر إماماً للناس ويقال لا تصيب الرحمة الكافر فالله تعالى أخبره أنه يكون في ذنبه وأخبره أنه لا ينال عهده من كفر وكان كافراً قرأ حمزة وعاصم رواية حفص (لا ينال عهدي)[١٠] بسكون الياء. وقرأ الباقون بنصب الياء [عهدي الظالمين][١١] وهما لغتان ومعناهما واحد.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ يقول: وضعنا البيت، يعني الكعبة معاداً لهم يعودون إليه مرة بعد مرة. وقال قتادة: مجمعاً للناس يثوبون إليه من كل جهة وفي كل سنة فلا يقضون منها وطراً. (وأمناً) أي جعلناه

---

(١) الحجاج بن أرطأة بن ثور بن هبيرة بن شراحيل النخعي، كان حافظاً مدلساً ومعجباً بنفسه لا يحتج به. تهذيب التهذيب ٢/١٩٦.

(٢) أخرجه بألفاظ متقاربة مسلم في الحديث السابق والنسائي ١/١٧، ٨/١٢٦ ـ ١٢٨ والترمذي رقم (٢٧٥٧) وابن ماجه ١/١٠٧ في الطهارة (٢٩٣) وأحمد في المسند (١٣٧) والبيهقي في السنن ١/٣٦، ٥٢، ٥٣، ٣٠٠ وأبو عوانة ١/١٩١ وابن أبي شيبة ١/١٩٥ والدارقطني في السنن ١/٩٥، وذكر السيوطي في الدر المنثور ١/١١٢ وابن كثير في التفسير ١/٢٣٨.

(٣) في ظ [أو العقاب]. (٤) سقط من ظ. (٥) في ظ [أو]

(٦) في ظ «الحسد». (٧) في أ [أنه]. (٨) في أ [ابتلاء الله أشد].

(٩) في ظ [ليقتدى]. (١٠) ما بين المعقوفين من أ. (١١) ما بين المعقوفين من ظ.

أمناً لمن التجأ إليه. [يعني من وجب عليه القصاص][١]. ولهذا قالوا لو أن رجلاً وجب عليه القصاص فدخل الحرم لا يقتص منه في الحرم. وهكذا روي عن ابن عمر أنه قال: لو وجدت قاتل عمر في الحرم ما هيجته أي ما أزعجته ولكن يمنع منه المنافع حتى يضطر ويخرج فيقتص منه. ويقال: آمناً لغير الممتحنين، وهي الصيود إذا دخلت الحرم أمنت. ويقال: آمناً من الجذام، ثم قال تعالى ﴿وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ قرأ نافع وابن عامر (واتخَذوا) بفتح الخاء على وجه الخبر معناه: جعلنا البيت مثابة للناس فاتخذه مصلى. وقرأ الباقون بكسر الخاء على معنى الأمر[٢] قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديلمي قال: حدثنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان عن زكريا بن أبي زائدة[٣] عمن حدثه عن عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يطوف بالبيت يوم الفتح، فلما فرغ من طوافه أتى المقام فقال: هذا مقام أبينا إبراهيم، فقال عمر: أفلا تتخذه مصلى يا رسول الله، فأنزل الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) ويقال: المسجد الحرام كله مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ هكذا روي عن مجاهد وعطاء. وقوله تعالى ﴿وعَهِدْنا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرنا إبراهيم وإسماعيل ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ أي مسجدي من الأوثان، ويقال: من جميع النجاسات ثم قال ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي [طهرا المسجد من الأوثان والنجاسات][٤] لأجل الطائفين الذين يطوفون بالبيت وهم الغرباء ﴿وَٱلْعَاكِفِينَ﴾ وهم أهل الحرم المقيمون بمكة من أهله وغيرهم ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي أهل الصلاة من كل جهة من الآفاق. قرأ نافع وعاصم في رواية حفص (طهرا بيتي) بنصب الياء وقرأ الباقون بسكون الياء.[٥]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً﴾ يعني الحرم ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ فاستجاب الله تعالى دعاءه فتحمل الثمار إلى مكة من كل جهة، فيوجد فيها في كل وقت من [كل نوع][٦] واشترط إبراهيم في دعائه فقال ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ وإنما اشترط هذا الشرط، لأنه قد سأل ربه الإمامة لذريته، فلم يستجب له في الظالمين، فخشي إبراهيم أن يكون أمر الرزق هكذا، فسأل الرزق للمؤمنين خاصة، فأخبره الله تعالى: أنه يرزق الكافر والمؤمن، وأن أمر الرزق ليس كأمر الإمامة، قالوا: لأن الأمامة فضل، والرزق عدل، فالله تعالى يعطي [بفضله][٧] من يشاء [من عباده][٨] من كان أهلاً لذلك وعد له لجميع الناس لأنهم عباده، وإن كانوا كفاراً. فذلك قوله تعالى ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ قرأ ابن عامر ومن تابعه [من أهل الشام][٩] (فأمتعه) بالتخفيف من أمتعت وقرأوالباقون بالتشديد[١٠] من متعت. يعني سأرزقه في الدنيا يسيراً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي مصيره، ويقال: ملجأه ﴿إِلَى عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ صاروا إليه.

---

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) واختلف من المواجه بهذا الأمر: فقيل: إبراهيم وذريته، أي وقال الله لإبراهيم وذريته اتخذوا. وقيل: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته، أي وقلنا اتخذوا، ويؤيده ما رُوي عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث فذكر منها وقلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى. البحر المحيط ١/ ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) زكريا بن أبي زائدة خالد بن ميمون بن فيروز، ثقة كثير الحديث، كان قاضياً بالكوفة. التهذيب ٣/ ٣٢٩.

(٤) ما بين المعقوفين من أ. (٥) انظر باب ياءات الإضافة من الشاطبية. (٦) في ظ [أنواع الثمار].

(٧) في ظ [فضله]. (٨) سقط في ظ. (٩) ما بين المعقوفين من أ. (١٠) راجع: البحر المحيط ١/ ٣٨٤.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني يبني إبراهيم القواعد، يعني أساس البيت، أي الكعبة. والقواعد جماعة واحدها قاعدة ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يعني إسماعيل يعينه. قال مقاتل: وفي الآية تقديم وتأخير، معناه وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت. ويقال: إن إبراهيم كان يبني البيت وإسماعيل يعينه، والملائكة يناولون الحجر من إسماعيل، وكانوا ينقلون الحجر من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتاء، والجودي، ولبنان، وحراء. فلما فرغا من البناء، قالا ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [يعني أعمالنا](١) ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لدعائنا بنياتنا(٢). وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا عمل خيراً ينبغي أن يدعو الله بالقبول ويقال: ينبغي أن يكون خوف الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشد من شغله بالعمل لأن الله تعالى قال (إنما يتقبل الله من المتقين) وروي في الخبر أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لما فرغا من البناء جثيا على الركب وتضرعا وسألا القبول فقال جبريل لإبراهيم: قد أجيب لك، فاسأل شيئاً آخر فقالا ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي مخلصين لك. ويقال: واجعلنا مثبتين على الإسلام ويقال مطيعين لك ويقال أمتنا على الإسلام ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أي اجعل بعض ذريتنا من يخلص لك، ويثبت على الإسلام ثم قال ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي علمنا أمور مناسكنا. وقال القتبي: الرؤية المعاينة كقوله عز وجل: (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) وقوله (وإذا رأيت ثم رأيت) ويقال تذكر الرؤية ويراد بها العلم. كقوله تعالى (أو لم يـر الذين كفروا) وكقوله (أرنا مناسكنا): أي [علمنا](٣). وكقوله (لتحكم بين الناس بما أراك الله). قرأ ابن كثير ومن تابعه من أهل مكة (وأرنا) بجزم الراء في جميع القرآن، والباقون بكسر الراء، وهما لغتان والكسر أظهر وأفصح(٤). وقال ابن عباس في رواية أبي صالح (ربنا واجعلنا مسلمين لك) أي مطيعين وموحدين (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)(٥) أي جماعة موحدة مطيعة لك. ويقال: أشكل عليهما موضع البيت، فبعث الله تعالى سحابة فقالت له: ابن بحيالي، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت بحيال السحابة. ثم قال تعالى [وأرنا مناسكنا](٦) ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ أي تجاوز عنا الزلة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعبادك. ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ قال مقاتل: لأن إبراهيم علم أن في ذريته من يكون كفاراً، فسأل الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً فقال (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك) [يعني القرآن](٧) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي مواعظ القرآن من الحلال والحرام. ويقال: علم التفسير. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يطهرهم من الكفر والشرك. ويقال: يأمرهم بالزكاة ليطهر أموالهم. قال مقاتل: استجاب الله دعاءه في سورة الجمعة. وهو قوله تعالى (هـو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وروي عن

(١) ما بين المعقوفين من ظ.
(٢) أخرجه ابن جرير بنحوه ١/٥٨ (٢٠٣٧)، (٢٠٣٩) والسيوطي في الدر المنثور ١/١٢٧.
(٣) في ظ [أعملنا].
(٤) راجع: البحر المحيط ١/٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٥) سقط في ظ.
(٦) سقط في ظ.
(٧) من ظ.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[١] ـ أنه قال: أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ـ عليهما السلام ـ. وهي قوله (ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد) ثم قال تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي المنيع الذي لا يغلبه شيء ويقال: العزيز الذي لا يعجزه شيء عما أراد. ويقال: العزيز بالنقمة، ينتقم ممن عصاه متى شاء، الحكيم في أمره الذي يكون عمله موافقاً للعلم.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: عن سنته ودينه وهو الإسلام. ويقال لفظه[٢] لفظ الاستفهام، ومعناه التقريع والتوبيخ، (ومن) ها هنا بمعنى (ما) فكأنه يقول: وما يرغب عن دين إبراهيم ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ قال أبو عبيدة: إلا من أهلك نفسه. وقال الأخفش[٣]: معناه إلا من سفه من نفسه. وهذا كما قال في آية أخرى (ولا تعزموا عقدة النكاح) أي على عقدة النكاح. ويقال: إلا من جهل أمر نفسه، فلا يتفكر فيه كما قال في آية أخرى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) قال الكلبي ومن يرغب عن دين إبراهيم الإسلام والحج والطواف إلا من خسر نفسه. ثم: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ يقول: اخترناه في الدنيا للنبوة والرسالة والإسلام والخلة ﴿وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ أي في الجنة. ويقال: مع الصالحين في الجنة وهو أفضل الصالحين ما خلا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ قال ابن عباس: يعنى أخلص. ويقال: معناه قل لا اله الا الله. ويقال: معناه استقم على ما أنت عليه. ويقال: حين خرج من السرب[٤]، نظر الى الكوكب والقمر والشمس فابتلي بذلك فألهمه الله تعالى الاخلاص فقال (اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) الآية. فهذا معنى قوله (اسلم) أي أخلص دينك لله فـ ﴿قَالَ﴾ ابراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي أخلصت ديني لرب العالمين ويقال: فوض امرك الى الله فقال فوضت أمري الى الله (ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب) أي بشهادة أن لا اله الا الله. قرأ نافع وابن عامر (وأوصى) وقرأ الباقون (وَوَصَّىٰ) وهو أبلغ من أوصى لأنه لا يكون إلا لمرات كثيرة[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٨٠٠، والطبري ٣/٨٢، والسيوطي في الدر المنثور ١/١٣٩، ٥/٢٠٧ والبغوي في المعالم ١/١١١ وابن سعد في الطبقات ١/١ (١٩٦) والقرطبي في التفسير ٢/١٣١ والحديث في كنز العمال (٣١٨٣٣)، (٣١٨٣٤)، (٣١٨٣٥)، (٣١٨٩) والبيهقي في دلائل النبوة ١/٦٩.

(٢) في ظ [من]. (٣) في ظ [معناه إلا من سفه نفسه].

(٤) السَّرَب ـ بفتحتين ـ بيت في الأرض، وهو حجر الثعلب والأسد والضبع والذئب. الصحاح (سرب). وقال ابن منظور: هو حفير أو بيت تحت الأرض (اللسان: سرب).

(٥) انظر/ إبراز المعاني لأبي شامة، العقيلة للإمام الشاطبي. ذيل مورد الظمآن لابن عاشر، وشرح المورد للمارغني التونسي.

وقوله [بهَا يرجع] (١) الى الملة، والملة هي السنة والمذهب(٢). ويقال: انه جمع بنيه عند موته لأنه خشي عليهم كيد ابليس فجمعهم وأوصاهم بأن يثبتوا على الاسلام. قال مقاتل: (وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْراهِيمُ بَنِيهِ) الأربعة: اسماعيل واسحاق ومدين ومداين، ثم أوصى بها يعقوب بنيه، وهم اثني عشر ابناً وذلك حين دخل مصر فرآهم يعبدون الاصنام، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الاسلام وكان اثنا عشر ابناً: روبيل، وشمعون، يهوذا، ولاوى، ونفتال، وريالون، ويشجر، وداني، [واشترفياحان، وحان](٣)، ويوسف، وبنيامين. قال الله تعالى ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي اختار لكم دين الاسلام ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يعني اثبتوا على الإسلام وكونوا بحال لو أدرككم الموت يدرككم على الاسلام، وأنتم مخلصون بالتوحيد. فقالت اليهود للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ألست تعلم أن يعقوب ـ عليه السلام ـ يوم مات أوصى بنيه بدين اليهودية؟

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

فأنزل الله تعالى ﴿أَمْ كُنتُم شُهَدَآءَ﴾ يقول: أكنتم حضورا ﴿إِذْ﴾ حين(٤) ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ معناه إنكم تدعون ذلك كأنكم كنتم حضورا في ذلك الوقت يعني أنكم تقولون ما لا علم لكم بذلك، والله تعالى يخبر ويبين أن وصيته كانت بخلاف ما قالت اليهود وإنما لم ينصرف (شهداء) لمكان ألف التأنيث في آخره(٥)، واذا دخلت ألف التأنيث أو هاء التأنيث في آخر الكلام فانه لا ينصرف. ثم قال تعالى ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي من تعبدون بعد موتي. ﴿قَالُواْ: نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وإِلَـهَ آبَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ﴾ روي عن الحسن البصري(٦) أنه قرأ (قالوا نعبد الهك واله أبيك ابراهيم). وقرأ غيرة(٧) (قَالُواْ نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وإِلَهَ آبَآئِكَ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيـلَ وَإِسْحَاقَ) واسماعيل كان عم يعقوب، ولكن العم بمنزلة الاب بدليل ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: عم الرجل صنو أبيه(٨). ثم قال: ﴿إِلٰهاً وَاحِداً﴾ أي نعبد الها واحدا ﴿وَنَحْنُ لَـهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون له بالتوحيد.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي جماعة قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَلَا تُسْئَلُونَ

(١) في أ [وقوله يرجع بها].

(٢) قال الجوهري وابن منظور: الملة: الشريعة والدين. وقال أبو إسحاق: الملة في اللغة: السنة والطريقة. (الصحاح واللسان: ملل).

(٣) في ظ [واشترقغا وجاذو]. (٤) من ظ. (٥) ودخلت ألف التأنيث هنا لتأنيث الجماعة كما تدخل الهاء.

(٦) وكذا ابن عباس وابن يعمر والجحدري. البحر المحيط ١/٤٠٢.

(٧) قال أبو حيان: وهي قراءة الجمهور، وعليها فإبراهيم وما بعده بدل من آبائك أو عطف بيان، وإذا كان بدلاً فهو من البدل التفصيلي. البحر المحيط ١/٤٠٢.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٦٥ الترمذي ٥/٦٥٢ في المناقب باب مناقب العباس (٣٧٥٨) وقال: حسن صحيح من حديث عبد المطلب بن ربيعة. ومن حديث علي. أخرجه أحمد في المسند ١/٩٤ والترمذي في المصدر السابق (٣٧٦٠) وقال: حسن صحيح وعزاه في الكنز لابن جرير ولابن عساكر.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون : نحن على دينهم فقال لهم (تلك أمة قد خلت) لا تقدرون عليهم فيشهدوا (لكم)(١)، فلهم ما عملوا وانما لكم ما تعملون، وانما ينظر اليوم الى أعمالكم، ولا ينفعكم من أعمالهم شيء.

وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ وذلك أن يهود المدينة ونصارى أهل نجران اختصموا فقال كل فريق: ديننا أصوب، ونبينا أفضل فسألوا عن ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا أينا أفضل؟ فقال لهم: كلكم على الباطل، فأعرضوا عنه [فنزلت هذه الآية](٢) (وقالوا كونوا هودا أو نصارى) [يعني اليهود قالوا: كونوا على دين اليهود والنصارى قالوا: كونوا على دين النصرانية](٣) تهتدوا من الضلالة. قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿(قُلْ) لهم(بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وانما نصب الملة على معنى: بل نتبع ملة ابراهيم حنيفا(٤) ويقال: معناه واتبعوا ملة ابراهيم وقال مقاتل: بل الدين ملة ابراهيم حنيفا أي مخلصا. وقال القتبي: حنيفا أي مستقيما. ويقال للأعرج حنيف [نظراً الى السلامة](٥)، كما يقال للديغ: سليم، وللجبانة مفازة، وان كانت مهلكة. وقال الزجاج(٦): أصل [الحنف](٧) اذا كان أصابع الرجل مقبلا بعضها الى بعض اقبالا لا تنصرف عن ذلك أبداً، فكذلك كان ابراهيم عليه السلام مقبلاً على دين الاسلام، [مائلا عن الاديان كلها (وما كان من المشركين) ولكن كان على دين الاسلام](٨). فقال أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيف نقول حتى لا نكذب أحدا من الانبياء.

قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

فعلمهم الله عز وجل بقوله: ﴿قُولُوٓا آمَنَّـا بِٱللهِ﴾ أي صدقنا بأنه واحد لا شريك له ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يقول: صدقنا بما أنزل الينا، أي بما أنزل على نبينا من القرآن﴿وَمَآ أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول صدقنا بما أنزل على ابراهيم من الصحف. ﴿وَ﴾ ما أنزل إلى ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب، كان له اثنا عشر ابناً، فصار أولاد كل واحد منهم سبطاً، والسبط بلغتهم بمنزلة القبيلة للعرب، وانما أنزل على أنبيائهم وكانوا

(١) سقط في ظ. (٢) في أ [فنزل قوله تعالى]. (٣) ما بين المعقوفين من أ.
(٤) قال الزجاج/ نصب على أنه خبر كان، أي: بل تكون ملة إبراهيم، وقال أبو عبيد: منصوب على الاغراء أي الزموا ملة إبراهيم أو نصب على نزع الخافض أي مقتدي ملة، أي بملة. وهو يحتمل أن يكون خطاباً للكفار فيكون المضمر اتبعوا أو كونوا، ويحتمل أن يكون من كلام المؤمنين فيقدر بـ «متبع» أو تكون، نقتدي. البحر المحيط ١/ ٤٠٦.
(٥) في ظ [تطير إلى السلامة]. (٦) معاني القرآن وإعرابه ١/ ١٩٥. (٧) في ظ [الخفيف].
(٨) ما بين المعقوفين من أ.

يعملون به، فأضاف اليهم، كما أنه أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأضاف الى أمته [فقال (وَمَا أنزل إلينا) فكذلك الاسباط أنزل على أنبيائهم فأضاف اليهم لأنهم كانوا يعملون به][1]. ثم قال تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني وما أنزل على الانبياء من الله تعالى وقد آمنا بجميع الأنبياء وبجميع الكتب ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من رسله كما فرقت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ مسلمون﴾ أي مخلصون له بالتوحيد. ثم قال تعالى للمؤمنين ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَآ آمَنتُم بِهِ﴾ يعني به يا أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ من الضلالة ﴿وإن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرضوا عن الايمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبجميع الأنبياء عليهم السلام ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ يقول لهم في خلاف من الدين. ويقال: في ضلال. [والشقاق في اللغة: له ثلاثة معان[2]:][3] أحدها: العداوة مثل قوله تعالى (ولا يجرمنكم شقاقي) والثاني: الخلاف مثل قوله (وان خفتم شقاق بينهما) والثالث: الضلالة مثل قوله (وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يدفع الله عنكم مؤنتهم. وقال الزجاج[4]: هذا ضمان من الله تعالى: النصر لنبيه، أنه سيكفيه إياهم باظهاره على كل دين سواه، كقوله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) يعني أن عاقبة الأمر كانت لهم. قال مقاتل: يعني قتل بني قريظة واجلاء بني النضير. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بقولهم للمؤمنين حيث قالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا، العليم بعقوبتهم. ثم فضل دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على كل دين فقال تعالى:

صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: اتبعوا دين الله والزموه لا دين اليهود والنصارى﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ يعني، أي دين أحسن من دين الله تعالى، وهو دين الاسلام ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أي موحدون مقرون، وذلك[5] أن النصارى اذا ولد لأحدهم ولد غمروه في اليوم السابع في ماء لهم، ليطهروه بذلك ويقولون: هذا طهور مكان الختان، وهم صنف من النصارى يقال لهم: المعمودية. قال الله تعالى (ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) أي مطيعون، ولنا الختان طهور طهر الله به ابراهيم عليه السلام وروى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ختن إبراهيم [عليه السلام نفسه بالقدوم][6] وهو ابن مائة وعشرين سنة [والقدوم موضع بالشام][7] ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة[8]. وقال القتبي: هذا من الاستعارة حيث سمى الختان صبغة لأنهم كانوا يصبغون أولادهم في ماء. قال الله تعالى: صبغة الله لا صبغة النصارى يعني اتبعوا دين الله والزموا [دين الله][9]

---

(١) ما بين المعقوفين من أ.

(٢) ورد في اللسان: للشقاق معنيان هما: العداوة والخلاف. (اللسان: شقق).

(٣) في أ [والشقاق له ثلاث معان في اللغة].

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/١٩٥.

(٥) راجع: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٠٥ نشر الانجلو المصرية.

(٦) في ظ [بالقدوم].

(٧) سقط في ظ.

(٨) أخرجه البخاري ٦/٣٨٨ في كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (٣٣٥٦) وفي ١١/٨٨ في الاستئذان باب الختان بعد الكبر ونتف الابط (٦٢٩٨) ومسلم ٤/١٨٣٩ في الفضائل باب من فضائل إبراهيم الخليل (١٥١/ ٢٣٧٠) ولفظ المصنف رحمه الله عند البخاري في الأدب المفرد (١٢٥٠) وذكره المنتقى الهندي في الكنز رقم (٣٢٢٩٣).

(٩) من ظ.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

ثم قال الله تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ليهود أهل المدينة والنصارى أهل نجران ﴿أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ يعني أتخاصموننا في دين الله ونحن نوحد الله وقال الزجاج(١): نزلت [هذه الآية](٢) في اليهود [والذين](٣) [كانوا](٤) يظاهرون المشركين فقال: أنتم تقولون: أنكم توحدون الله ونحن نوحد الله تعالى، فلم تظاهرون علينا من لا يوحد الله تعالى ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي ثواب أعمالنا ﴿وَلَكُمْ﴾ ثواب ﴿أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي مقرون له بالوحدانية مخلصون له بالعبادة.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ قرأ الكسائي وعاصم وحمزة في رواية حفص(٥) (أم تقولون) بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون: بالياء (أم يقولون) [على معنى المغايبة](٦). ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يعني إن تعلقتم أيضا بدين الأنبياء فنحن على دينهم، وقد آمنا بجميع الأنبياء، فان ادعيتم أن الأنبياء كانوا على دين اليهودية أو النصرانية [وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى](٧) ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ فالله تعالى أخبر أنهم كانوا على دين الاسلام، وقد بين ذلك في كتبهم حيث قال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ لان الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق بأن يبينوه فكتموه قال الله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يخفى على الله من عملهم شيء فيجازيهم بذلك. ويقال: هذ القول وعيد للظالم وتعزية للمظلوم.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرنا تفسيرها.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

قوله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني الجهال وهم اليهود والمنافقون. ويقال: هم أهل مكة ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ أي يقولوا: ما الذي صرفهم ﴿عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ يعني التي صلوا إليها من قبل، وذلك أن الأنصار قبل قدوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسنتين كانوا يصلون الى بيت المقدس، فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/١٩٨. (٢) من ظ. (٣) في ظ [الذين].
(٤) سقط من ظ. (٥) وكذا ابن عامر. انظر/ البحر المحيط ١/٤١٤. (٦) ساقطة من ظ.
(٧) في أ [النصرانية وإسحاق ويعقوب والإسباط كانوا هـوداً أو نصارى].

المدينة صلى الى بيت المقدس ثمانية عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، [ثم أمر بالتحويل إلى مكة][١]. فقال أهل مكة[٢]: رجع محمد الى قبلتنا، فعن قريب يرجع إلى ديننا فأنزل الله تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يقول: إن الصلاة الى بيت المقدس والصلاة الى الكعبة لله اذا كان بأمر الله ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي يرشد من يشاء الى قبلة الكعبة ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي ديناً يرضاه. روي عن أبي العالية الرياحي أنه قال: رأيت مسجد صالح النبي - صلى الله عليه وسلم - وقبلته إلى الكعبة. قال: وكان موسى - عليه السلام - يصلي من الصخرة الى الكعبة، وهي قبلة الأنبياء كلهم صلوات الله عليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [والوسط[٣] هو العدل][٤] كما قال تعالى في آية أخرى: (قال أوسطهم) أي أخيرهم وأعدلهم والعرب تقول[٥]: فلان من أوسط قومه أي خيارهم وأعدلهم ومنه قيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - : هو أوسطقريش حسبا. أي جعلناكم عدلاً للخلائق. ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني للنبيين ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ بالتصديق لكم وذلك أن الله تعالى إذا جمع الخلق يوم القيامة فيسأل الأنبياء - عليهم السلام - عن تبليغ الرسالة كقوله تعالى: (ليسأل الصادقين عن صدقهم) فيقولون: قد بلغنا الرسالة فتنكر أممهم تبليغ رسالته فتشهد لهم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بتبليغ الرسالة فتطعن الأمم في شهادتهم [فيزكيهم][٦] النبي - صلى الله عليه وسلم - فذلك معنى[٧] قوله تعالى: [(لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ومعنى قوله][٨](وكذلك) أي وكما[هديناكم][٩] للإسلام [والقبلة][١٠] الكعبة فكذلك جعلناكم أمة عدلاً لتكونوا شهداء على الناس. وللآية تأويل آخر: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ أي عدلاً، لتكونوا شهداء على الناس). يقول: إنكم حجة على جميع من خلقنا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - حجة عليكم. والشهادة في اللغة[١١]: هي البيان فلهذا يسمى الشاهد بينة لأنه بين حق المدعي يعني أنكم تبينون لمن بعدكم)،والنبي - صلى الله عليه وسلم - يبين لكم. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ أي ما أمرناك بالصلاة إلى القبلة الأولى ويقال: ما حولنا القبلة التي كنت عليها ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ يقول: إلا لنختبر ونبين ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ يطيع الرسول في تحويل القبلة ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي يرجع إلى دينه بعد تحويل الله القبلة ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي وقد كانت لثقيلة وهو صرف القبلة ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي حفظ الله قلوبهم على الإسلام وأكرمهم باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - في تحويل القبلة وهم أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا: يا رسول الله فإخواننا الذين ماتوا ما صنع الله بصلاتهم التي صلوا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ

(١) في ظ [فلما صرفت قبلته إلى الكعبة].
(٢) في ظ [مكة إذا حركت القبلة إلى الكعبة].
(٣) من ظ.
(٤) انظر المفردات في غريب القرآن (٨٢٠).
(٥) راجع اللسان: وسط ٤٨٣٣ - ٤٨٣٤.
(٦) في ظ [فزكاهم].
(٧) من ظ.
(٨) ما بين المعقوفين ساقط من ظ.
(٩) في ظ [هديتكم].
(١٠) في ظ [ولقبلة].
(١١) انظر: الصحاح ٢/٤٩٤ المغرب ١/٤٥٩، القاموس المحيط ١/٣١٦ والمصباح المنير ١/٤٩٧.

﴿إِيمَانَكُمْ﴾ يعني لم يبطل إيمانكم وإنما تحولت قبلتكم. ويقال: يعني صلاتهم إلى بيت المقدس التي صلوا إليها وماتوا عليها لأن اليهود قالوا: قد بطل إيمانكم حين تركتم القبلة، فنزل (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعني يبطل إيمانكم. قال الضحاك: يعني لم يبطل تصديقكم بالقبلتين. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني بالمؤمنين رحيم حين قبلها منهم ولم يضيع إيمانهم. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: (لـرؤف) بالهمزة على وزن (رعف) وقرأ الباقون: (رؤوف) على وزن فعول في جميع القرآن وهما لغتان ومعناهما واحد(١).

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ أي رفع بصرك إلى السماء وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل: وددت لو أن الله تعالى صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها، وإنما أراد الكعبة لأنها قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وذلك لأنها كانت أدعى للعرب إلى الإسلام فقال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك لا أملك شيئاً (فاسأل)(٢) ربك فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يديم النظر إلى السماء فأنزل الله تعالى ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي رفع بصرك إلى السماء ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ أي فلنحولنك ولنوجهنك في الصلاة ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ يعني تهواها أي تميل نفسك إليها. فأمره الله تعالى بالتوجه فقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني نحوه وتلقاءه [﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي إلى الكعبة](٣) ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني أن القبلة إلى الكعبة هي الحق وهي قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٤) يعني جحودهم القبلة إلى الكعبة فقالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ائتنا بعلامة على تصديق مقالتك وهم اليهود والنصارى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي بكل علامة ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ أي ما صلوا إلى قبلتك ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أي بمصل إلى قبلتهم ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ يقال: معناه كيف ترجوا أن يتبعوك ويصلوا إلى قبلتك وهم لا يتبعون بعضهم بعضاً. ثم قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَائَهُم﴾ هذا الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد [منه](٥) أمته يعني لئن صليت إلى قبلتهم أو اتبعت مذهبهم ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي البيان أن دين الإسلام هو الحق والكعبة هي القبلة ﴿إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي الضارين بنفسك.

---

(١) راجع/ شرح الحرز، إرشاد المريد للضباع، وكذا أبو شامة على الحرز والبحر المحيط ١/٤٢٦.

(٢) في ظ [فسل]. (٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) اغفل المؤلف القراءة في «يعملون» وقد قرأها ابن عامر وحمزة والكسائي بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء والظاهر أنه عائد على أهل الكتاب. البحر المحيط ١/٤٣٠. (٥) في ظ [به].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بين الغلمان. قال عبد الله بن سلام والله إني لأنا كنت أشد معرفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مني بإبني فقال له عمر - رضي الله عنه - : وكيف ذلك يا ابن سلام؟ فقال: لأني أشهد أنه رسول الله حقاً وصدقاً ويقيناً وأنا لا أشهد بذلك على ابني لأني لا أدري ما أحدثت النساء بعدي [فقال له: والله يا ابن سلام لقد صدقت أو أصبت](١) ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ﴾ يعني طائفة من اليهود ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ في كتابهم ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه نبي مرسل. قال مقاتل: إن اليهود قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : لم تطوفون بالبيت المبني بالحجارة فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - إن الطواف بالبيت حق وإنه هو القبلة مكتوب في التوراة، فجحدوا ذلك فنزل قوله تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب) يعني التوراة يعرفون أن البيت قبلة كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ذلك في أمر القبلة. ثم قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يا محمد إن الكعبة قبلة إبراهيم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين. إنهم يعرفون أنها قبلة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي قبلة والوجهة [والجهة](٢) والوجه بمعنى واحد أي لكل ذي ملة قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ (أي مستقبلها)(٣). [وقيل: لكل دين وملة قبلة هو موليها](٤). قرأ ابن عامر(٥):(هو مولاها) والباقون(٦) بالكسر أي هو بنفسه موليها [يعني الله مولاها](٧) وقال مقاتل: لكل أهل ملة قبلة هم مستقبلوها يريدون بها [وجه](٨) الله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَاتِ﴾ أي قال لهذه الأمة استبقوا بالطاعات وهذا كما قال في آية أخرى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) أي جعلنا لكل قوم شريعة وسبيلاً فإذا أخذوا بالسنة والمنهاج [رضي عنهم](٩) فأمر الله تعالى أهل هذه الشرائع أن يستبقوا الخيرات في الأعمال الصالحة فقال تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾ في الأرض ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً﴾ يعني يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة. وقال مجاهد (ولكل وجهة هو موليها) أمر كل قوم بأن يحولوا وجوههم إلى الكعبة. ويقال: ولكل أمة قبلكم قبلة أمرتهم بأن يستقبلوها فاستبقوا الخيرات، يقول: بادروا الأمم [بالطاعات](١٠). ثم قال تعالى [(أينما تكونوا) (يأت بكم الله) يعني يقبض أرواحكم ويجمعكم يوم القيامة](١١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على جمعكم يوم القيامة.

---

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) ساقطة من ظ. (٣) سقط من ظ. (٤) ما بين المعقوفين ساقطة من ظ.

(٥) بفتح اللام أي هو موجهها، اسم مفعول، وهي قراءة ابن عباس. والتقدير: «ولكل ذي ملة قبلة الله موليها وجهه»، ثم رد إلى ما لم يسم فاعله راجع/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٧، والبحر المحيط ١/٤٣٧، والاتحاف.

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٧، والبحر المحيط ١/٤٣٧، والإتحاف. (٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) سقط في ظ. (٩) من ظ. (١٠) في ظ [بالطاعة]. (١١) ما بين المعقوفين من ظ.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ [يقول: حيث صليت][1] ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ بالصلاة ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي نحوه وتلقاءه، ﴿وَإِنَّ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني التوجه إلى الكعبة بالصلاة هو الحق من ربك ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازيكم بأعمالكم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ أي لكي لا يكون لليهود ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ لأنهم يعلمون أن الكعبة هي القبلة فلا حجة لهم عليكم ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي إلا من ظلم باحتجاجه فيما وضح له كما يقول الرجل لصاحبه: مالك على الحجة إلا أن تظلمني. وقال بعضهم: (إلا الذين ظلموا) يعني ولا الذين ظلموا لا حجة لهم عليكم وذكر عن أبي عبيدة أنه قال: (إلا الذين ظلموا) أي ولا الذين ظلموا فهذا موضع واو العطف فكأنه قال: ليس للناس عليكم حجة ولا الذين ظلموا منهم أي لا حجة لهم عليكم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أي بانصرافكم إلى الكعبة ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في تركها قرأ نافع في رواية ورش: (ليلا) بغير همز[2]. والباقون: (لئلا) بالهمز لأن أصله (لأن لا) وإنما أسقط نافع الهمزة للتخفيف ثم قال تعالى: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بتحويل القبلة وبإرسال الرسول ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُم﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ أي القرآن وقوله (منكم) أي من العرب. ويقال: آدمي مثلكم لأنه لو كان من الملائكة لا يستطيعون النظر إليه فأرسل آدمياً مثلكم يتلو عليكم القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ قال الكلبي: ويصلحكم بالزكاة. وقال مقاتل: يطهركم من الشرك والكفر[3]. وقال الزجاج[4]: خاطب به العرب أنه بعث رسولاً منكم وأنتم كنتم أهل الجاهلية لا تعلمون [الكتاب][5] والحكمة فكما أنعمت عليكم بالرسالة فأذكروني بالتوحيد. ويقال قوله: (كما) وصل بما قبله ومعناه ولأتم نعمتي عليكم كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم. ويقال: وصل بما بعده ومعناه كما أرسلنا فيكم رسولاً مِنكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ فاعرفوا هذه النعمة[6].

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) راجع البحر المحيط ١/٤٤٠، ٤٤١.

(٣) في ظ [والكفر ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون].

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/٢١٠.

(٥) سقط في ظ.

(٦) في ظ [النعمة واذكروني بالتوحيد].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿فَٱذْكُرُونِي﴾ [بالتوحيد][1] (أذكركم) [يقول: اذكروني بالطاعة أذكركم بالمغفرة][2] فحق على الله أن يذكر [من ذكره فمن ذكره في طاعته ذكره الله تعالى بخير من ذكر الله من أهل المعصية في معصية][3] ذكره الله باللعنة وسوء الدار. ويقال: اذكروني في الرخاء أذكركم عند البلاء. ويقال: اذكروني في [الضيق][4] أذكركم بالمخرج. ويقال: اذكروني في الخلاء أذكركم في الملأ. ويقال: اذكروني في ملأ من الناس أذكركم في ملأ من الملائكة قال الفقيه: [حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال][5]: حدثنا محمد بن الفضيل الضبي عن الحصين[6] عن مجاهد[7] عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ما اجتمع قوم يذكرون الله تعالى إلا ذكرهم الله في ملأ أعز منهم وأكرم وما تفرق قوم من مجلس لا يذكرون الله في مجلسهم إلا كانت حسرة عليهم يوم القيامة[8] ويقال: اذكروني بالشكر، أذكركم بالزيادة. ويقال: اذكروني بالدعاء أذكركم بالإجابة ويقال: اذكروني في الدنيا بالإخلاص أذكركم في الآخرة بالخلاص. ثم قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [يعني اشكروا][9] نعمتي التي أرسلنا[10] فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ولا تجحدوا هذه النعمة. ويقال: النعمة في الحقيقة هي العلم وما سوى ذلك فهو تحويل من راحة إلى راحة وليس بنعمة لأن الطعام إذا أكله الإنسان فبعد ساعة يطلب منه الفرج والثوب الحسن ربما يمل منه إذا كان يؤذيه الحر أو البرد والعلم لا يمل منه صاحبه، بل ربما يطلب له الزيادة فأمر الله تعالى بشكر هذه النعمة التي بعث رسولاً ليعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ يعني صدقوا بتوحيد الله تعالى وهذا نداء المدح وقد ذكرنا[11] قبل هذا أن النداء على ست مراتب. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إذا سمعت الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا) فارع له بسمعك فإنه أمر تؤمر به أو نهي تنهى عنه ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ يقول استعينوا بالصبر على أداء الفرائض وبالصلاة خاصة. قال الزجاج[12]: استعينوا بالصبر على ما أنتم عليه وإن أصابكم مكروه. وقال مجاهد: استعينوا بالصبر أي بالصوم والصلاة. وقال الضحاك: استعينوا بالصبر على صوم شهر رمضان وعلى الصلوات الخمس. ويقال: الصبر هو الصبر بعينه. ذكر في هذه الآية الطاعة الظاهرة والطاعة الباطنة فأمر بالصبر والصلاة لأنه ليس شيء من الطاعة الظاهرة أشد من الصلاة على البدن لأنه يجتمع فيها أنواع الطاعات: الخضوع والإقبال

---

(١) ساقطة من ظ. (٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) ما بين المعقوفين من ظ. (٤) في ظ [الضر]. (٥) ما بين المعقوفين من ظ.

(٦) الحصين بن عبد الرحمن الكوفي من كبار أصحاب الحديث، ثقة. تهذيب التهذيب ٢/٣٨١.

(٧) من ظ.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/١٥١، وأخرجه أحمد بنحوه ٣/٩٤، وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٥٧٧) وذكره البغوي في شرح السنة ٤/٦٥ والبخاري في التاريخ ١/٣٨٣.

(٩) من ظ. (١٠) في أ [أرسلت]. (١١) في ظ [ذكرنا أمر النداء]. (١٢) معاني القرآن وإعرابه ١/٢١١.

والسكون والتسبيح والقراءة فإذا تيسر عليه الصلاة تيسر عليه ما سوى ذلك وليس شيء من الطاعات الباطنة أشد من الصبر على البدن فأمر الله بالصبر والصلاة لأنه حسن. ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ فالله تعالى مع كل أحد ولكن خص الصابرين لكي يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يفرج عنهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ قال الضحاك: هم النفر الذين قتلوا عند بئر معونة. وقال الكلبي: هم الذين قتلوا ببدر قتل من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً [ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين][١] وكان الناس يقولون: مات فلان ومات فلان، فأنزل الله تعالى: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: أموات بل أحياء) [لأنهم][٢] في الحكم: كالأحياء لأنه يجري ثوابهم إلى يوم القيامة ولأنهم يسرحون في الجنة حيث شاءوا. كما قال في آية أخرى: (عند ربهم يرزقون فرحين ولكن لا تشعرون).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يعني المؤمنين ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ يقول: لنختبرنكم بخوف العدو وهو الخوف الذي أصابهم يوم الخندق حتى بلغت القلوب الحناجر (والجوع) وهو القحط الذي أصابهم فكان يمضي على أخذهم أياماً لا يجد طعاماً ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ﴾ يعني ذهاب أموالهم، ويقال موت الماشية ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ يعني الموت والقتل والأمراض ﴿وَٱلثَّمَرَاتِ﴾ نقصان الثمرات فلا تخرج الثمرات كما كانت تخرج أو تصيبها الآفة. ويقال: الثمرات هو موت الولد وهو ثمرة القلب. ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ﴾ يعني الذين يصبرون على هذه المصائب والشدائد التي ذكرنا. ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ صبروا ولم يجزعوا ﴿وَقَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعني يقولون: نحن عبيد الله وفي ملكه إن عشنا فعليه أرزاقنا وإن متنا فإليه مردنا وإليه راجعون بعد الموت[٣] ونحن راضون بحكمه ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ والصلاة من الله تعالى على ثلاثة أشياء: توفيق الطاعة والعصمة عن المعصية، ومغفرة الذنوب جميعاً فبالصلاة الواحدة تتكون لهم هذه الأشياء الثلاثة فقد وعد لهم الصلوات الكثيرة، ومقدار ذلك لا يعلمه إلا الله ثم قال: ﴿وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ أي الموفقون للاسترجاع. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال لم يكن الاسترجاع إلا لهذه الأمة ألا ترى أن يعقوب ـ عليه السلام ـ قال (يا أسفي على يوسف) فلو كان له الاسترجاع لقال ذلك وروي عن عثمان بن عطاء عن أبيه أنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: من ذكر مصيبة أو ذكرت عنده فاسترجع جدد الله [ثوابه][٤] كيوم أصيب بها[٥]. وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصابته مصيبة [فليتذكر][٦] مصيبته فيّ، فإنها من أعظم المصائب[٧]. وروى هذان الحديثان عن علي بن أبي طالب

---

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [يعني هم]. (٣) من ظ. (٤) في ظ [ثوابها].

(٥) أخرجه ابن ماجه ١/٥١٠ في كتاب الجنائز باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٦٠٠) وقال الشهاب البوصيري: في إسناده ضعف لضعف هشام بن زياد، وقد اختلف الشيخ هل هو روي عن أبيه أو عن أمه ولا يعرف لهما حال، قيل: ضعفه أحمد، وقال ابن حبان: روى الموضوعات عن الثقات.

(٦) في ظ [فليذكر].

(٧) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٧٦) وابن عدي في الكامل ٦/٢٠٥٦ والحديث في كنز العمال (٦٦٥٣) وأخرجه بنحوه=

عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضاً وروي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: [نعم العدلان][١] ونعم العلاوة [(فالعدلان قوله تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) والعلاوة قوله تعالى][٢]: (وأولئك هم المهتدون).

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ قال أهل اللغة[٣]: الصفا: الحجارة الصلبة (التي لا تنبت [بها شيء][٤] والواحدة: صفاة يقال: حصى وحصاة) والمروة[٥]: الحجارة اللينة والشعائر: [علامة][٦] متعبداته [واحدها][٧] شعيرة. يعني أن الطواف بالصفا والمروة من أمور المناسك ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ روي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما. وروي عن ابن عباس، وأنس بن مالك أنهما كانا يقرآن كذلك ومعنى ذلك أن من حج البيت أو اعتمر فترك السعي لا يفسد حجه ولا عمرته ولكن يجب عليه جبر النقصان وهو إراقة الدم وفي مصحف الإمام (فلا جناح عليه أن يطوف بهما) بحذف كلمة (لا) وذلك أن أهل الجاهلية كان لهم صنمان على الصفا والمروة: أحدهما يقال له (اساف) والآخر (نائلة) وكان المشركون يطوفون بين الصفا والمروة ويستلمون الصنمين فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعمرة القضاء كان الأنصار لا يسعون فيما بين الصفا والمروة ويقولون: السعي فيما بينهما من أمر المشركين فنزلت هذه الآية. ويقال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة، طاف بالبيت، والمسلمون معه فلما سعى بين الصفا والمروة رفع المسلمون أزرهم وشمروا قمصهم كيلا يصيب ثيابهم ذينك الصنمين فنزل قوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ يعني من أمور المناسك ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ يعني لو أصاب ثيابه من ذلك لا يضره ولا إثم عليه فخرج عمر فتناول المعول وكسر الصنمين. قال الفقيه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا علي بن أحمد قال: حدثنا محمد بن الفضل عن يعلى بن منبه[٨] عن صالح بن حيان[٩] عن أبي بريدة[١٠] عن أبيه قال: دخل جبريل عليه السلام المسجد فبصر بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نائماً في ظل الكعبة فأيقظه فقام وهو

= ابن ماجه ١/٥١٠ (١٥٩٩) وفي اسناده موسى بن عبيدة الريذي ضعيف مما لا يحتج بحديثه.

(١) ساقطة من ظ. (٢) سقط في أ.

(٣) في اللسان: قال الأصمعي: الصفواء والصفوان كله واحد.. وقال ابن السكيت: الصفا العريض من الحجارة الأملس، جمع صفاه. اللسان مادة صفا، وراجع معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/٢١٦.

(٤) في ظ [شيئاً].

(٥) قال ابن منظور: المَرْو: حجارة بيض براقة تكون فيها النار، وتقدح منها النار. واحدتها مروة، وبها سميت المروة بمكة.. (اللسان: مرا).

(٦) في ظ [علامات]. (٧) في ظ [والواحدة].

(٨) يعلى بن أمية بن أبي عبيدة بن همام التميمي، حليف قريش، وهو يعلى بن منبه، وهي أمه، صحابي مشهور، مات سنة بضع وأربعين. التقريب ٢/٣٧٧.

(٩) في ظ حسان. وهو صالح بن حيان القرشي، ويقال الفراس الكوفي. ضعيف الحديث. التهذيب ٤/٣٨٦.

(١٠) في أ [بردة].

ينفض رأسه ولحيته من التراب فانطلق به نحو باب بني شيبة فلقيهما ميكائيل فقال جبريل لميكائيل: ما يمنعك أن تصافح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أجد من يده ريح نحاس فقال جبريل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفعلت ذلك؟ وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نسي ذلك ثم ذكر فقال: صدق أخي مررت أول أمس على (أساف ونائلة) فوضعت يدي على أحدهما وقلت: إن قوماً رضوا بكما آلهة مع الله هم قوم سوء قال صالح: قلت [لأبي بريدة][(١)] وما أساف ونائلة؟ قال: كانا إنسانين من قريش يطوفان بالكعبة [فوجدا فيها][(٢)] خلوة فراود أحدهما صاحبه (فمسخهما)[(٣)] الله تعالى نحاساً [فجاءت بهما][(٤)] قريش وقالوا: لولا أن الله رضي بأن نعبد هذين الإنسانين ما مسخهما نحاساً. (وأساف) كان رجلاً ونائلة كانت امرأة. قال الزجاج[(٥)]: الجناح في اللغة: أخذ من جنح إذا مال وعدل عن المقصد وأصل ذلك من جناح الطير. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً﴾. قرأ حمزة والكسائي (يطوع) بالياء وجزم العين[(٦)] لأن الأصل يتطوع فأدغمت التاء في الطاء وشددت. وقرأ الباقون[(٧)] (تطوع) على معنى الماضي والمراد به الإستقبال يعني إذا زاد في الطواف حول البيت على ما هو واجب عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ يقبل منهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [بنياتهم وبما نووا][(٨)] وقال القتبي: يطوف أصله يتطوف فأدغمت التاء في الطاء ويقال: الجناح: الإثم ويقال إن الله شاكر عليم يقبل اليسير ويعطي الجزيل ـ ويقال: إن الله شاكر بقبول أعمالكم عليم بالثواب ويقال: الطواف للغرباء أفضل من الصلاة لأنهم يقدرون على الصلاة إذا رجعوا إلى منازلهم ولا يمكنهم الطواف إلا في ذلك الوقت فالله تعالى قد حث على الطواف. بقوله ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٠)﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ نزلت في شأن رؤساء اليهود منهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وابن صوريا يقول: يكتمون ما أنزلنا في التوراة من البينات: الحلال والحرام وآية الرجم ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ يعني أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ﴾ أي في التوراة ويقال: في القرآن ﴿أُوْلَٰئِكَ يَلْعَنُهُمْ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ ٱللَّاعِنُونَ﴾ [أي يخذلهم الله ويلعنهم اللاعنون][(٩)] قال ابن عباس: وذلك أن الكافر إذا وضع في قبره سئل من ربك وما دينك؟ فيقول: لا أدري فيقال له: ما دريت فهكذا كنت في الدنيا ثم يضربه ضربة [فيصيح منها صيحة يسمعها][(١٠)] كل شيء إلا الثقلين فلا يسمع صوته شيء إلا يلعنه فذلك قوله تعالى: (ويلعنهم اللاعنون) وروي عن ابن مسعود أنه قال إذا تلاعن اثنان فإن كان أحدهما مستحقاً[(١١)] للعنة رجعت اللعنة إليه وإن لم يكن يستحق أحدهما اللعنة ارتفعت اللعنة إلى السماء فلم تجد هناك موضعاً فتنحدر فترجع إلى الذي تكلم بها إن كان أهلاً لذلك وإن لم يكن أهلاً لذلك رجعت إلى الكفار. وفي بعض الروايات إلى اليهود فذلك قوله تعالى: (ويلعنهم اللاعنون) ثم استثنى التائبين من الجملة فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من الكفر واليهودية ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾

(١) في أ [لابن بريوة]. (٢) في ظ [فوجدا بها]. (٣) في ظ [فنحسهما].
(٤) في ظ [فجاءتهما]. (٥) معاني القرآن وإعرابه ١/٢١٨. (٦) على الجزم بمن الشرطية.
(٧) راجع / البحر المحيط ١/٤٥٨، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٨. (٨) في أ [بما نووا].
(٩) سقط من ظ. (١٠) [illegible] (١١) في أ [مستحقاً].

أعمالهم فيما بينهم وبين ربهم. ويقال: معناه وأصلحوا لمن أفسد من السفلة (وبينوا) صفته في كتبهم قوله ﴿فَأُوْلَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أتجاوز عنهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المتجاوز لمن تاب ورجع فتقبل توبته.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ثبتوا على كفرهم حتى ماتوا على ذلك ﴿أُوْلَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ [وَٱلْمَلَٰئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ]﴾(١) قال الكلبي: يعني لعنة المؤمنين خاصة. وقال بعضهم: [يلعنهم](٢) لعنة جميع الناس لأن من يخالف دينهم يلعنهم في الدنيا وأهل دينهم [يلعنونهم](٣) في الآخرة كما قال في آية أخرى: (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة ولعنته(٤): عذاب النار أي ما توجبه اللعنة. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني لا يهون عليهم طرفة عين ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يعني لا يؤجلون.

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

(والهكم إله واحد) قال مقاتل: يعني ربكم رب واحد وقال الضحاك: كان لمشركي العرب ثلاثمائة وستون صنماً يعبدونها من دون الله تعالى فدعاهم الله إلى [التوحيد](٥) والإخلاص لعبادته فقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ويقال: نزلت هذه الآية في صنف من المجوس يقال لهم: المانوية(٦) فكان رئيسهم يقال له: (ماني) فقال لهم أرى الأشياء زوجين وضدين مثل الليل والنهار والنور والظلمة والحر والبرد والخير والشر والسرور والحزن والذي يصلح للشيء لا يصلح لضده فمن كان خالق النور والخيرات لا يكون خالق الشر والظلمات فهما اثنان: أحدهما يخلق الشر والآخر يخلق الخير فنزلت هذه الآية (وإلهكم إله واحد) أي خالقكم خالق واحد (هو خالق الأشياء كلها. وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال بعض الناس: هذا الكلام نصفه كفر [وهو قوله: (لا إله) ونصفه إيمان وهو قوله: (إلا هو). ولكن هذا الكلام](٧) ليس بسديد: لأن الله تعالى أمر رسوله: بأن يأمرهم حتى يقولوا: لا إله إلا الله فلا يجوز أن يأمرهم بالكفر. وقال بعضهم: النصف الأول منسوخ والنصف الثاني ناسخ. وهذا أيضاً لا يصح لأن المنسوخ هو الذي كان مباحاً [قبل النسخ والكفر لم يكن مباحاً](٨) أبداً وأحسن ما قيل فيه: إن قوله: (لا إله) نفي معبود الكفار، وقوله: (إلا هو)(٩) إثبات معبود المؤمنين. أو نقول: [لا إله](١٠): نفي الألوهية [عمن لا يستحق الألوهية](١١). وقوله (إلا الله) اثبات الألوهية لمن يستحق الألوهية.

---

(١) في ظ [ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين]. (٢) في ظ [لعنة]. (٣) في ظ [يلعنهم].
(٤) في أ [واللعْنة]. (٥) في ظ [توحيده].
(٦) فرقة من المجوس أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، ظهر في زمان سابور بن أردشير وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، زعم أن العالم مصنوع من أصلين قديمين النور والظلمة. انظر الملل والنحل ٢٤٤/١.
(٧) ما بين المعقوفين من ظ. (٨) ما بين المعقوفين من ظ. (٩) في ظ [الله].
(١٠) ساقطة من أ. (١١) ساقطة في ظ.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

لما نزلت هذه الآية أنكر المشركون توحيد الله تعالى وطلبوا منه دليلاً على إثبات وحدانيته فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّموَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني في خلق السموات والأرض دليل على وحدانية الله في أنه خلقها بغير عمد ترونها وزينها بمصابيح والأرض بسطها أيضاً وجعل لها أوتاداً وهي الجبال وفجر فيها الأنهار وجعل فيها البحار[1] ﴿وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعني في مجيء الليل وذهاب النهار ومجيء النهار وذهاب الليل. [ويقال اختلافهما في الكون][2] ويقال: نقصان الليل، وتمام[3] النهار ونقصان النهار وتمام[4] الليل. ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ يعني السفن. ويقال للسفينة الواحدة: (الفلك) ولجماعة السفن (الفلك)[5] يعني السفن التي تسير في البحر فتقبل مرة وتدبر مرة بريح واحدة فتسير في البحر ﴿بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الكسب والتجارة وغير ذلك وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾ يعني المطر الذي ينزل من السماء ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي اخضرت الأرض بعد يبسها ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ يقول: خلق في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيف ٱلرِّيَاحِ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (الريح) بغير ألف والباقون: [6] (الرياح) بالألف واختار أبو عبيدة في قراءته: أن كل ما في القرآن من ذكر العذاب (الريح) بغير ألف وكل ما في القرآن من ذكر الرحمة: (الرياح) بالألف واحتج بما روى أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان إذا هاجت الريح قال: اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً[7]. ومعنى قوله تعالى وتصريف الرياح أي هبوب الريح مرة جنوباً ومرة شمالاً ومرة صباً ومرة دبوراً. قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ أي المذلل والمطوع. ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي في هذه الأشياء التي ذكر في هذه الآية آيات[8] لوحدانيته[9] لمن كان له عقل وتمييز. ويقال: هذه الآية تجمع أصول التوحيد وقد بين فيها[10] دلائل وحدانيته لأن الأمر لو كان بتدبير اثنين مختلفين في التدبير لفسد[11] الأمر باختلافهما. كما قال تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾

---

(١) في أ [الاشجار]. (٢) من أ. (٣) في أ ظ [في تمام]. (٤) سقط في ظ.

(٥) قال ابن منظور: والفُلك ـ بالضم ـ السفينة تذكر وتؤنث وتقع على الواحد والاثنتين والجمع، فإن شئت جعلته من باب جنب، وإن شئت من باب دلاص وهجان وهذا المذهب الأخير هو مذهب سيبويه «وفيه خلاف بين اللغويين». راجع اللسان: فلك.

(٦) راجع/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٨، ١١٩، والبحر المحيط ١/٤٦٧.

(٧) راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٩.

(٨) في أ [اثبات]. (٩) في أ [لواحدانية الله]. في ظ [ههنا]. (١١) في أ [فنحيل].

ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَاداً﴾ يعني بعض الناس وصفوا لله شركاء وأعدالاً وهي الأوثان ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه يحبون الأوثان كحبهم لله تعالى لأنهم كانوا يقرون بالله تعالى. وقال بعضهم: معناه، يحبون الأوثان كحب المؤمنين لله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلَّهِ﴾ لأن الكفار يعبدون أوثانهم في حال الرخاء فإذا أصابتهم شدة تركوا عبادتها والمؤمنون يعبدون الله تعالى في حال الرخاء والشدة فهذا معنى قوله تعالى: (والذين آمنوا أشد حباً لله) فإن قيل إذا كان المؤمنون أشد حباً لله [فما معنى][1] قوله: يحبونهم كحب الله؟ قيل له: يحتمل أن بعض المؤمنين حبهم مثل حبهم وبعضهم أشد حباً[2] وفي أول الآية: ذكر بعض المؤمنين[3] وفي آخر الآية ذكر المؤمنين الذين هم أشد حباً لله. والحب لله أن يطيعوه في أمره وينتهوا عن نهيه فكل من كان أطوع [لله][4] فهو أشد حباً له. كما قال القائل:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

ثم قال لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني حين يرون العذاب ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ وفي الآية مضمر[5] ومعناه يا محمد لو رأيت الذين ظلموا في العذاب لرأيت أمراً عظيماً كما تقول: لو رأيت فلاناً تحت السياط فيستغني عن الجواب لأن معناه مفهوم فكذلك ههنا لم يذكر الجواب لأن المعنى معلوم. قرأ نافع وابن عامر: [(ولو ترى) بالتاء على معنى المخاطب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرأ الباقون[6]: (بالياء ومعناه)][7] ولو يرى عبدة الأوثان اليوم ما يرون يوم القيامة أن الأوثان لا تنفعهم شيئاً وأن القوة لله جميعاً تركوا عبادتها. وقرأ ابن عامر (إذ يرون العذاب) بضم الياء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون بنصب الياء على معنى الخبر عنهم[8]. وقرأ الحسن وقتادة[9]: (أن القوة لله جميعاً) على معنى الابتداء وقرأ العامة [(أن القوة لله)][10] بالنصب على معنى البناء[11] يعني بأن القوة لله جميعاً[12] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني للرؤساء والاتباع من أهل الأوثان ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ يعني القادة ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ وهم السفلة ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ يقال حين يروا العذاب ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي العهود والحلف التي كانت بينهم في الدنيا وقال القتبي: الأسباب يعني الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا. وقال بعضهم وتقطعت بهم الأسباب، أي الخلة والمواصلة كما قال في آية أخرى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ويقال:

---

(١) في ظ [فايش معنى].
(٢) في ظ [حبا الله].
(٣) في ظ [المؤمنين الذين حبهم مثل حب الكفار].
(٤) في ظ [له].
(٥) في أ [اضمار].
(٦) انظر/ شرح الحرز لأبي شامة، والاتحاف (تفسير سورة البقرة). وحجة القراءات ١١٩، ١٢٠ والبحر المحيط ١/٤٧١ وما بعدها.
(٧) سقط في ظ.
(٨) انظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٠.
(٩) هذه القراءة ليست شاذة ولكنها صحيحة متواترة مقرؤ بها عن أبي جعفر شيخ نافع والإمام يعقوب البصري فقد قرأها هكذا «أن القوة وإن الله». انظر: الدرة للقراءات العشر بشرح السمانودي وشرح القاضي، وطيبة النشر عند هذه الآية، وقد كسراها على الابتداء.
(١٠) من أ.
(١١) في أ [الابتداء].
(١٢) من ظ.

الأرحام والمودة التي كانوا يتواصلون بها فيما بينهم قوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا﴾ أي السفلة ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا وذلك أن الرؤساء لما تبرؤوا منهم ولا ينفعونهم شيئاً ندمت السفلة على اتباعهم في الدنيا ويقولون في أنفسهم لو أن لنا كرة أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أي من القادة ﴿كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا﴾ من القادة قال الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [لأنهم يرون أعمالهم][1] غير مقبولة لأنها كانت لغير وجه الله تعالى فيكون ذلك حسرة عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يعني التابع والمتبوع والعابد والمعبود.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾ وذلك أن قوماً من العرب مثل بني عامر وبني مدلج وخزاعة وغيرهم حرموا على أنفسهم أشياء مما أحل الله [لهم][2] من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة وغير ذلك فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ من الحرث والأنعام [وحلالاً نصب على الحال][3] ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ يعني طاعات الشيطان. وقال مقاتل[4]: يعني تزيين الشيطان. ويقال: وساوس الشيطان. وقال القتبي: الخطوات جمع الخطوة. وقال الزجاج: خطواته أي طرقه ومعناه لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِٱلسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ﴾ يعني بالإثم والقبيح من العمل. ويقال: السوء الذي يجب به الحبس والحساب والفحشاء: التي يستوجب بها العقوبة في النار. ويقال: السوء الذي يجب به التعزير في الدنيا والفحشاء التي يجب بها الحد. ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. يعني أن الشيطان يأمركم بأن تكذبوا على الله لأنهم كانوا يقولون هذه الأشياء حرم الله علينا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي اعملوا بما أنزل الله في القرآن من تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ﴿قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾. يعني ما وجدنا عليه آباءنا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ معناه، أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً فيتابعوهم بغير حجة. فكأنه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة وهذه الواو مفتوحة وهي واو: (أولو) لأنها واو العطف أدخلت عليها ألف التوبيخ وهي ألف الاستفهام. قرأ أبو عمرو ومن تابعه من أهل البصرة: (كذلك يريهم الله بكسر الهاء والميم وكذلك في كل موضع تكون الهاء والميم بعدهما ألف ولام. مثل قوله تعالى (وضربت عليهم الذلة) (ويلههم الأمل) وكان عاصم وابن عامر ونافع: يقرأون بكسر الهاء وضم الميم وكان حمزة والكسائي يقرآن: بضم الهاء والميم وكان ابن كثير يقرأ: (إنه لكم عدو مبين) يضم الميم وكذلك إنما يأمركم وكذلك كل ميم نحو هذا مثل: (أنعمت عليهم غير المغضوب

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ.
(٢) ما بين المعقوفين من ظ.
(٣) في ظ [عليهم].
(٤) في أ [قتادة].

عليهم). (وعلى قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) وكان نافع في رواية ورش عنه يقرأ: بسكون الميم. [(إلا أن يستقبله ألف أصلية فيضم الميم مثل قوله: (سواء عليهم أنذرتهم) (إذ يتنازعون بينهم أمرهم). (وقد خلقكم أطواراً) وكان حمزة والكسائي يقرأون بسكون الميم][١]. إلا أن يستقبله ألف ولام مثل قولـه: (وضربت عليهم الذلة)[٢]. وأما قوله: (خطوات الشيطان) كان نافع وأبو عمرو وحمـزة وعاصم في روايـة أبي بكر [يقـرأون][٣] (خطوات) بجزم الطاء وقرأ الكسـائي وابن كثير وعـاصم في رواية حفص: (خـطوات) بضم الطاء وهمـا لغتان ومعناهما واحد[٤].

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

ثم قال تعالى ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾. فهذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الكفر، إنهم مثل البهائم لا يعقلون شيئاً سوى ما يسمعون من النداء. وفي الآية إضمار ومعناه مثلك يا محمد مع الكفار كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً. وهذا قول الزجاج[٥]. وقال القتبي: قال الفراء[٦]: ومثل واعظ الذين كفروا فحذف ذكر الواعظ. كما قال تعالى (واسأل القرية) وقال القتبي أيضاً: (مثل الذين كفروا) يعني ومثلنا في وعظهم فحذف اختصاراً إذ كان في الكلام [ما يدل][٧] عليه (كمثل الذي ينعق) يعني الراعي إذا صاح في الغنم لا يسمع إلا دعاءً ونداءً فحسب ولا تفهم قولاً ولا تحسن جواباً فكذلك الكافر لا يعقل المواعظ. ﴿صُمٌّ﴾ عن الخبر فهم لا يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾ أي خرس لا يتكلمون بالحق ﴿عُمْيٌ﴾ لا يبصرون الهدى. ويقال: كأنّهم صم لأنهم يتصاممون عن سماع الحق. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الهدى.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا
عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني من الحلال من الحرث والأنعام ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني إن كنتم [إياه تعبدون أي][٨] تريدون بترك أكله رضاء الله تعالى فكلوه فإن رضي الله تعالى أن تحلوا حلاله وتحرموا حرامه. ويقال: إن محرم ما أحل الله مثل محل ما حرم الله. ويقال: في هذه الآية بيان

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) ميم الجمع في (عليهم ـ إليهم ـ فيهم) إما أن يكون بعدها متحرك، وإما أن يكون بعدها ساكن فأما ما بعدها متحرك فقد قرأه ابن كثير بضم الميم في حالة الوصل مثل «عليهمو غير المغضوب عليهمو» وقالوا: عن نافع له وجهان: الإسكان كالجماعة والصلة كابن كثير. وقرأها ورش بالصلة بواو بشرط أن يكون بعده همزة قطع فقط هكذا «سواء عليهمو ءانذرتهم أم» والباقون بالإسكان. وأما ميم الجمع التي بعدها ساكن فأبو عمرو بكسر الهاء هكذا «عليهم القتال بهم». وأما حمزة والكسائي فيضمان الهاء ويكسران الميم هكذا «يريهم الله» والباقـون بضم الميم وكسر الهاء هكـذا «عليهم القتال» انـظر/ الحرز سـورة الفاتحة وابن الفاصح والإتحاف.

(٣) ساقطة من ظ.

(٤) حرز الأماني بشرح أبي شامة، وارشاد المريد للضباع.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٢٦

(٦) معاني القرآن ١/٩٩.

(٧) في أ [دليلاً].

(٨) سقط في ظ.

فضل هذه الأمة لأنه تعالى خاطبهم بما خاطب به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ـ لأنه قال لأنبيائه: (يا أيها الرسل [كلوا من الطيبات). وقال لهذه الأمة][١] (كلوا من طيبات ما رزقناكم) وقال في أول الآية: (كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً). فلما أمر الله تعالى بأكل هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها على أنفسهم قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لم يكن هذه الأشياء محرمة فالمحرمات ما هي؟ فبين الله تعالى المحرمات. فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ والميتة سوى السمك والجراد و (والدم) يعني الدم المسفوح أي الجاري. كما قال في آية أخرى: (أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير) يعني حرم عليكم (ولحم الخنزير) فذكر اللحم خاصة والمراد به اللحم والشحم وجميع أجزائه وهذا شيء قد أجمع المسلمون [على تحريمه][٢] فقد ذكر الميتة وإنما انصرف إلى بعض منها وأحل البعض منها وهو السمك والجراد وذكر الدم [وإنما المراد به][٣] بعض الدم لأنه لم يدخل فيه الكبد والطحال وذكر لحم الخنزير فانصرف النهي إلى اللحم وغيره ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ يعني ما ذبح بغير اسم الله تعالى. والإهلال في اللغة[٤]: هو رفع الصوت وكان أهل الجاهلية إذا ذبحوا رفعوا الصوت بذكر آلهتهم فحرم الله تعالى على المؤمنين أكل ما ذبح لغير اسم الله تعالى وفي الآية دليل: أنه إذا ترك التسمية عمداً لا يؤكل لأنه قد ذبح بغير اسم الله تعالى ثم إن الله تعالى علم أن بعض الناس يبتلون بأكل الميتة عند الضرورة فرخص لهم في ذلك بقوله تعالى (فمن اضطر). قرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ بكسر النون وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان ومعناهما واحد[٥]. يقول: فمن أجهد إلى شيء مما حرم الله إلى أكل الميتة ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. يعني غير مفارق الجماعة ولا عاد على المسلمين بالسيف فمن خرج لقطع الطريق، أو خرج على إمام المسلمين فلا رخصة له عند بعضهم[٦]. وقال بعضهم: من خرج في معصية فلا رخصة له. وقال بعضهم: كل من اضطر إلى أكل الميتة رخص له أن يأكل سواء أخرج للمعصية أو غيرها. وهذا قول أصحابنا. ومعنى قوله (غير باغ) أي غير طالب [للحرام][٧] ولا راض بأكله. (ولا عاد) يعني لا يعود إلى أكله بعد[٨] أكل مقدار ما يسد به الرمق. وروي عن ابن عباس نحو هذا. قال: حدثنا محمد بن سعيد الترمذي قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمي[٩] قال: حدثنا عبد الله بن صالح[١٠] [عن معاوية بن صالح][١١] عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) قال: من أكل شيئاً من هذه الأشياء وهو مضطر فلا حرج[١٢] عليه ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى[١٣] وهو قوله: (فمن اضطر غير باغ ولا عاد). ثم اختلفوا في حد الاضطرار الذي يحل له أكل الميتة. قال بعضهم: إذا كان بحال يخاف على نفسه التلف [وهو قول الشافعي][١٤].

---

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [عليه]. (٣) في أ [والمراد به].

(٤) انظر اللسان/ هلل. (٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٢.

(٦) عند الإمام الشافعي رضي الله عنه لأن الرخص لا تناط بالمعاصي، ومعنى ذلك أن فعل وجود شيء، نظر في ذلك الشيء، فإن كان تعاطيه في نفسه حراما امتنع معه فعل الرخصة، وإلا فلا وبهذا يظهر الفرق بين المعصية بالسفر والمعصية فيه. انظر الأشباه والنظائر للسيوطي (١٤٠).

(٧) في ظ [شبعا]. (٨) في ظ [بعدما].

(٩) هو محمد بن الحجاج الحضرمي المصري، صدوق ثقة. الجرح والتعديل ٧/٢٣٥.

(١٠) عبد الله صالح المصري، ثقة. التهذيب ٥/٢٥٦.

(١١) من ظ. (١٢) في أ [جناح].

(١٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ١/١٦٨ لابن أبي حاتم.

(١٤) انظر: قليوبي وعميرة ٤/٢٦٢، والأشباه والنظائر للسيوطي (٨٤). ابن عابدين ٦/٣٣٨.

وروي عن ابن المبارك أنه قال: إذا كان بحال لو دخل السوق لا ينظر إلى شيء سوى الخبز. وقال بعضهم: إذا كان بحال يضعفه عن أداء الفرائض. وقد اختلفوا أيضاً في أكله: قال بعضهم: أكله حرام إلا أنه لا إثم عليه، ألا ترى أنه قال في سياق الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وقال بعضهم: هو حلال ولا يسعه تركه لأنه قال في آية أخرى: (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) فلما استثني منه ثبت أنه حلال. وروي عن مسروق أنه قال: من اضطر إلى ميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾ نزلت في رؤساء اليهود كانوا يرجون أن يكون النبي ـ عليه السلام ـ منهم فلما كان من غيرهم خشوا بأن تذهب منافعهم من السفلة فعمدوا إلى صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغيروها. ويقال: غيروا تأويلها فنزلت هذه الآية ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ يعني في التوراة بكتمان صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ يعني يختارون به عرضاً يسيراً[١] من [منافع][٢] الدنيا ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ ٱلنَّارَ﴾ يعني يأكلون[٣] الحرام وإنما سمي الحرام ناراً لأنه يستوجب به النار. كما قال في آية أخرى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً). ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ أي لا يكلمهم بكلام الخير لأنه يكلمهم بكلام العذاب حيث قال تعالى: (اخسئوا فيها ولا تكلمون) ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ أي ولا يطهرهم من الأعمال الخبيثة السيئة. وقال الزجاج[٤]: ولا يزكيهم أي لا يثني عليهم خيراً ومن لا يثنى عليه فهو معذب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع يعني الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب وكذلك كل من كان عنده علم فاحتاج الناس إلى ذلك فكتمه فهو من أهل هذه الآية. وهذا كما روى أبو هريرة عن النبي: صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [من كتم علماً ألجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من نار[٥]][٦]. ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الذين﴾ يعني رؤساء اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلاَلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني اختاروا الكفر على الإيمان ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ يعني اختاروا النار على الجنة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يقول: فما الذي أجرأهم على فعل أهل النار. ويقال: معناه فما أبقاهم في النار كما يقال: فما أصبر فلاناً على الحبس: أي أبقاه: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العذاب ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن ﴿بالحق﴾ أي بالعدل ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَابِ﴾

---

(١) في أ [قليلاً]. (٢) في ظ [متاع].
(٣) من ظ. (٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٣٠.
(٥) أخرجه ابن حبان. كذا في الموارد (٩٦٢٩٥) والطبراني في الكبير ١١/ ٥ والخطيب في التاريخ ٥/ ٣٩، ٩/ ٩٢، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ٥ وابن عدي ٣/ ١٠٦٢، ٦/ ٢١٧٤، والعقيلي ٣/ ٧٤ وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ١٦٣ والحديث في الدر المنثور ١/ ١٦٢! وفي الكنز (٢٩٠٣١). وفي رواية «من سئل عن علم يعلمه فكتمه» فعند أبي داود والترمذي وابن ماجه.
(٦) في ظ [من كتم علماً أعطاه الله تعالى أُلْجِمَ بلجام من نار].

أي في القرآن ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. أي في ضلالة بينة ويقال: معناه أن الله تعالى أنزل القرآن على محمد ـ عليه السلام ـ بالعدل فتركوا أتباعه وخالفوه فاستوجبوا بذلك العذاب ويقال: لفي شقاق بعيد أي في خلاف بعيد من الحق وذكر عن قتادة أنه قال: (فما أصبرهم على النار) أي فما أجرأهم على العمل الذي يقرب إلى النار(١) وروي عن مجاهد أنه قال: ما أعلمهم بعمل أهل النار ويريد ما أدومهم على عمل أهل النار(٢) وقال أبو عبيدة(٣): ما الذي صيرهم ودعاهم إلى النار.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

ثم قال ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص: (ليس البر) بنصب الراء على معنى خبر ليس. وقرأ الباقون: بالرفع على معنى اسم ليس. من قرأ بالرفع فهو الظاهر في العربية لأن ليس يرفع الاسم الذي بعده بمنزلة كان وأما من قرأ بالنصب فإنه يجعل الاسم ما بعده ويجعل (البر)(٤) خبره. وتفسير الآية: قال مقاتل: في قوله ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ أي ليس البر أن تحولوا وجوهكم في الصلاة. ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ لا تعملوا غير ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ يعني صدق بالله بأنه واحد لا شريك له. (قرأ نافع وابن عامر (ولكن البر) بكسر النون وضم الراء. . وقرأ الباقون: (ولكن البر) بنصب النون مشددة وبنصب الراء(٥). ويقال: معناه ليس البر كله في الصلاة ولكن البر ما ذكر في هذه الآية من العبادات. ثم اختلفوا في معنى قوله: ﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ [قال بعضهم معناه ولكن ذو البر من آمن بالله](٦). وقال بعضهم: معناه ولكن البر بر من آمن بالله وكلا المعنيين(٧) ذكرها(٨) الزجاج في كتابه(٩). وقال بعضهم(١٠) ليس البار من يولي وجهه إلى المشرق والمغرب ولكن البار من آمن بالله [وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ](١١). ثم ذكر في هذه الآية خمسة أشياء من الإيمان فمن لم يقر بواحدة منها فقد كفر. أحدها: الإيمان بالله تعالى أنه واحد لا شريك له [والتصديق](١٢) باليوم الآخر وبالبعث الذي فيه جزاء الأعمال وأنه كائن وأن أهل الثواب يصلون إلى الثواب وأهل العقاب يصلون إلى العقاب (والتصديق)(١٣) بالكتاب أنه منزل من الله تعالى القرآن وسائر الكتب: التوراة والإنجيل والزبور ويقر بالملائكة أنهم عبيده ويقر بالنبيين أنهم رسله وأنبياؤه فهذه الخمس من الإيمان فمن جحد واحدة منها فقد كفر. ثم ذكر الفضائل فقال تعالى ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ يعني يعطي المال على شهوته وجوعه وهو شحيح يخشى الفقر، ويأمل العيش. ويقال: على حبه الإعطاء بطيبة من نفسه يعطي ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني الضيف النازل(١٤)

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٣/٣٣١.
(٢) ابن جرير في المصدر السابق ٣/٣٣٣.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/٦٤.
(٤) انظر الحرز بشرح أبي شامة، والإتحاف.
(٥) حجة القراءات لابن زنجله ص ١٢٣.
(٦) ما بين المعقوفين من ظ.
(٧) في أ [التفسيرين].
(٨) في أ [وذكرها].
(٩) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٣٢.
(١٠) في ظ [ليس البراى].
(١١) سقط في ظ.
(١٢) في ظ [وصدق].
(١٣) في ظ [صدوق].
(١٤) ساقطة من ظ.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين يسألون الناس ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ يعني المكاتبين. وقد قيل: (ابن السبيل) هو المنقطع من ماله. ثم ذكر الفرائض فقال تعالى ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا۟﴾ فيما عاهدوا فيما بينهم وبين الله تعالى وفيما بينهم وبين الناس ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [أي بالبأساء وهي شدة الفقر][1] [البأس][2] قال القتبي: يعني الفقر وهو من البؤس والضراء المرض والزمانة ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ يعني يصبرون عند الحرب. وقال القتبي: البأس: الشدة ومنه يقال: لا بأس عليك يعني لا شدة عليك (فلهذا سمي [الحرب البأس][3] لأن فيه شدة. ثم قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ [يعني صدقوا][4] في إيمانهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن نقض العهد. فإن قيل: أيش معنى قوله: ﴿والصابرين في البأساء والضراء﴾ وموضعه موضع رفع ولم يقل: (والصابرون) قيل له: قد قال بعض من تعسف في كلامه: إن هذا غلط الكاتب حين كتبوا مصحف الإمام والدليل على ذلك ما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ أنه نظر في المصحف وقال: أرى فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها وهكذا قال في سورة النساء (والمقيمين الصلاة) وفي سورة المائدة (والصابئون). لكن الجواب عند أهل العلم أن يقال: إنما صار نصباً للمدح وللكلام يصير نصباً للمدح أو للذم ألا ترى إلى قول القائل:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل.

وإنما جعله نصباً للمدح وروي عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن رجلاً سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن البر فنزلت هذه الآية: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم﴾ الآية وقال الضحاك (أولئك الذين صدقوا) يعني صدقت نياتهم فاستقامت قلوبهم بأعمالهم. (وأولئك هم المتقون) يعني المطيعون لله تعالى ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ يعني فرض عليكم وأوجب عليكم القصاص. فإن قيل: الفرض على من يكون؟ على الولي أو على غيره؟ قيل له: الفرض على القاضي إذا اختصموا إليه بأن يقضي على القاتل بالقصاص إذا طلب الولي لأن الله تعالى قد خاطب جميع المؤمنين بالقصاص ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعاً أن يجتمعوا على القصاص فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص فخاطب الولي بالقصاص وخاطب غيره بأن يعين الولي على ذلك وهو قوله ﴿كتب عليكم القصاص﴾ أي فرض عليكم إذا كان (في)[5] القتل عمداً. ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنْثَى بِٱلْأُنْثَى﴾ قال بعضهم: كان في أول الشريعة أن الحر يقتل بالحر والعبد بالعبد ولا يقتل الحر بالعبد ولا العبد بالحر ولا الذكر بالأنثى ثم نسخ بقوله تعالى: (النفس بالنفس) وقال بعضهم هي غير منسوخة لأنه قد ذكر هذه الآية: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ ولم يذكر في هذه الآية: أن العبد

(١) سقط في ظ.
(٢) في ظ [البأساء].
(٣) في أ [البأس الحرب].
(٤) سقط من أ.
(٥) من أ.

لو قتل حراً ما حكمه فبين في آية أخرى وهو قوله: (النفس بالنفس). وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حيين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية فكان بينهم قتلى وجراحات وكان لأحدهما طول على الأخرى فقالوا: لنقتلن بالعبد منا الحر منكم وبالمرأة الرجل منكم وبالرجل منا الرجلين منكم فلما جاء الإسلام طلب بعضهم من بعض ذلك فنزلت هذه الآية: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾. ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي ترك ولي المقتول من أخيه: أي القاتل ولم يقتله وأخذ الدية. ﴿فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني يطلب الدية بالرفق ولا يعسر عليه وأمر بالمطلوب بأن يؤدي الدية إلى الطالب لقوله: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾. وقال القتبي (فمن عفي له من أخيه شيء) قال: قبول الدية في العمد والعفو عن الدم (فاتباع بالمعروف) أي مطالبة جميلة (وأداء إليه بإحسان) لا يبخسه ولا يمطله معناه (ولا يدفعه)[١] إذا عفى أحد [ولي القصاص][٢] صار نصيب الآخر مـلأ فيتبعه بالمعروف والقاتل يؤدي إليه نصيبه بإحسان. ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لأن أهل التوراة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك وأهل الإنجيل كان لهم العفو وليس لهم قود ولا دية فجعل الله تعالى القصاص والدية والعفو تخفيفاً لهذه الأمة فمن شاء قتل ومن شاء أخذ الدية ومن شاء عفا. وقال بعض الناس: إن الولي إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية وإن لم يرض القاتل [وهو قول الشافعي][٣]. وقال أصحابنا: [ليس له أن يأخذ الدية إلا برضا القاتل[٤]. وليس في هذه الآية دليل: أن له أن يأخـذ[٥] [الدية بكره منه][٦] وفيها دليل أن لـه أن يقبل الـدية[٧] وإذا رضي القـاتل واصطلحنا على ذلك. ثم قال تعالى ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني أن يقتل بعد ما يأخذ الدية (فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي وجع. وقال قتادة: يقتل ولا يتقبل منه الدية إذا اعتدى واحتج بما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا أعفي عن أحد قتل بعد أخذ الدية[٨]. ولكن معناه عندنا: أنه إذا طلب الولي القتل فأما إذا عفا عنه الثاني وتركه جاز عفوه لأنه قتل بغير حق فصار حكمه حكم القاتل الأول لأنه لو عفي عنه لجاز ذلك فكذلك الثاني ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ بقاء لأن الناس يعتبرون بالقصاص فيمتنعون عن القتل وهذا كما قال القائل:

أبـلغ أبـا مـالـك عـنـي مـغـلغـلة ... وفـي الـعـقـاب حـيـاة بـيـن أقـوام

وهذا معنى قوله: ولكم في القصاص حياة ﴿يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ يعني يا ذوي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ القتل مخافة القصاص.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فرض عليكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [أي][٩] مـالاً والخير في القرآن على وجوه: أحدها: المال كقوله تعالى: (إن ترك خيراً) وقوله: (وما أنفقتم من خير) (وما تنفقوا من خير) أي

(١) سقط في ظ. (٢) في أ [الوليين]. (٣) من أ. (٤) ما بين المعقوفين من ظ.
(٥) في أ [يأخذ منه]. (٦) ما بين المعقوفين من أ. (٧) في أ [ومعناه عند أصحابنا أن له أن يقبل الدية].
(٨) أخرجه أبو داود في السنن رقم (٤٥٠٧) وأحمد في المسند ٣٦٣/٣ وذكره الحافظ في الفتح ٢٠٩/١٢ والحديث في المشكاة (٣٤٧٩).
(٩) في ظ [يقول ان ترك].

المال. والثاني: الإيمان كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً) أي إيماناً وكقوله تعالى: (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً). والثالث الخير: الفضل كقوله تعالى: (وأنت خير الراحمين) والرابع: الخير: العافية كقوله: (وإن يمسسك الله بخير) (وإن يردك بخير) والخامس: الأجر كقوله: (لكم فيها خير) أي أجر. وقال بعضهم: الوصية واجبة على كل مسلم لأن الله تعالى قال: (كتب عليكم) أي فرض علكيم الوصية. وروي عن ابن عمر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما حق امرىء [مسلم][1] يبيت ليلة [وعنده][2] مال يوصي به إلا ووصيته مكتوبة عنده[3]. وقال بعضهم: هي مباحة وليست بواجبة[4]. وقد روي عن الشعبي أنه قال: الوصية ليست بواجبة فمن شاء أوصى ومن شاء لم يوص. وقال إبراهيم النخعي: مات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يوص وقد أوصى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فإن أوصى فحسن وإن لم يوص فليس عليه شيء وقال بعضهم: إن كان عليه حج أو كفارة أي شيء من [الكفارات][5] فالوصية واجبة وإن لم يكن عليه شيء من الواجبات فهو بالخيار إن شاء أوصى وإن شاء لم يوص وبهذا القول نأخذ. ثم بين مواضع الوصية فقال تعالى: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال مجاهد: كان الميراث للولد والوصية للوالدين والأقربين فصارت الوصية للوالدين منسوخة وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: نسخت الوصية للوالدين والأقربين ممن يرث وثبتت الوصية[6] لمن لا يرث من القرابة. ويقال: في الآية تقديم وتأخير معناه كتب عليكم الوصية للوالدين والأقربين [(إذا حضر أحدكم الموت) وكانوا يوصون للأجنبيين ولم يوصوا للقرابة شيئاً فأمرهم الله تعالى بالوصية للوالدين والأقربين)][7]. ثم نسخت الوصية للوالدين بآية الميراث قوله ﴿بالمعروف حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي واجباً عليهم. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ أي غيره بعدما سمع الوصية ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ أي وزره على الذين يبدلونه ويغيرونه لا على الموصي لأن الموصي قد فعل ما عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بالوصية ﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابها وبجزاء من غير الوصية: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ أي علم من الموصي الجنف وهو الميل عن الحق (فلا إثم عليه) إذا غير وصيته فردها إلى الحق لأن تبديله كان للإصلاح ولم يكن للجور. وقال الكلبي: (فمن خاف من موص جنفاً) أي علم من الميت الخطأ في الوصية ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ يعني تعمداً للجور في وصيته فزاد على الثلث ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي رد ما زاد على الثلث ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. هكذا قال مقاتل. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الإضرار في الوصية من الكبائر. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (فمن خاف من موص)[8] بنصب الواو وتشديد الصاد وقرأ الباقون: بسكون الواو وتخفيف الصاد فمن قرأ بالنصب والتشديد فهو من وصى يوصي ومن قرأ بالتخفيف فهو من أوصى يوصي وهما لغتان ومعناهما واحد [«فإن الله غفور رحيم» معناه غفور لمن جنف رحيم لمن أصلح].

---

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [وغير].

(٣) أخرجه البخاري ٥/٣٥٥ في الوصايا باب الوصايا (٢٧٣٨). ومسلم ٣/١٢٤٩ في الوصية (١٦٢٧/١).

(٤) قال البغوي: قال قوم كانت الوصية للوالدين والأقربين فرضاً فنسخت الوصية للذين يرثون منهم بآية الميراث وبقيت فريضة للذين لا يرثون من الوالدين والأقارب وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن وطاوس وقتادة وحكاه البيهقي عن الشافعي في القديم وبه قال إسحاق وداود واختاره أبو عوانة الاسفراييني وابن جرير وآخرون. وفي الحديث دليل على أن الوصية مستحبة غير واجبة لأنه فوض إلى ارادته فقال: له شيء يوصي فيه «يعني يريد أن يوصي فيه وهو قول عامة أهل العلم. انظر شرح السنة ٥/٢٧٨، فتح الباري ٥/٢٦٥.

(٥) في ظ [الواجبات]. (٦) في ظ [وبقيت]. (٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) في أ [موصي جنفا أي علم من الميت خطأ في الوصية].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ
﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ
يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ
أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ
مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ
دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ
ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ
أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ
وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا
تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾** يعني فرض عليكم صيام رمضان **﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾** أي فرض على الذين من قبلكم من أهل الملل كلها. **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** الأكل والشرب والجماع بعد صلاة العشاء الآخرة وبعد النوم. ويقال: كما كتب في الذين من قبلكم في الفرض. [ويقال: كما كتب على الذين من قبلكم في[1] العدد][2] **﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾** أي معلومات وإنما صارت الأيام نصباً لنزع الخافض ومعناه في أيام معدودات. وقال مقاتل: كل شيء في القرآن معدودة أو معدودات فهو دون الأربعين وما زاد على ذلك لا يقال معدودة. ثم قال تعالى **﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضاً﴾** فلم يقدر على الصوم **﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾** فلم يصم **﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾** أي فعليه أن يقضيها بعد مضي الشهر مثل عدد الأيام التي فاتته **﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾** أي يطيقون الصوم **﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾** أي يدفع لكل مسكين مقدار نصف صاع من حنطة ويفطر ذلك اليوم **﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً﴾** أي تصدق على مسكينين مكان كل يوم أفطره **﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾** من أن يطعم مسكيناً واحداً والصيام خير له من الإفطار وهو قوله: **﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** من أن تفطروا وتطعموا قال الكلبي: كان هذا في أول الإسلام ثم نسخت هذه الآية بالآية التي بعدها. وهكذا قال القتبي: وهكذا روي عن

---

(١) في أ [في العدد ويقال في].

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.

سلمة بن الأكوع[١] أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كان[٢] من أراد أن يفطر ويفدي فعل حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها [وهو قوله][٣] ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾[٤] وقال الشعبي: لما نزلت هذه الآية: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كان الأغنياء يطعمون ويفطرون ويفتدون ولا يصومون فصار الصوم على الفقراء فنسختها هذه الآية ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فوجب الصوم على الغني والفقير وقال بعضهم: ليست بمنسوخة وإنما [نزلت في الشيخ الكبير. وروي عن عائشة أنها كانت تقرأ: (وعلى الذين يطوقونه) يعني يكلفونه فلا يطيقونه. وروي عن عطاء عن ابن عباس أنه قال: ليست بمنسوخة وإنما هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة اللذين][٥] لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان كل يوم مسكيناً. قرأ نافع وابن عامر (فدية طعام مسكين) بضم الهاء وكسر الميم بالألف على الإضافة وقرأ الباقون بتنوين الهاء (فدية طعام) بضم الميم (مسكين) بغير ألف. قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص: (شهر) بفتح الراء والباقون: بالضم. وإنما صار رفعاً لمعنيين: أحدهما أنه مفعول ما لم يسم فاعله يقول: كتب عليكم شهر رمضان ومعنى آخر: أنه خبر مبتدأ يعني هذا شهر رمضان. ومن قرأ بالنصب احتمل أنه صار نصباً لوقوع الفعل عليه أي صوموا شهر رمضان ويقال: صار نصباً لنزع الخافض أي: في شهر رمضان. ويحتمل: عليكم شهر رمضان. كقوله: (صبغة الله) يعني الزموا. قوله: ﴿ٱلَّذِي أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ﴾ قرأ ابن كثير (القرآن) بالتخفيف وقرأ الباقون: بالهمز. وقال ابن عباس في معنى قوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ يعني أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في السماء الدنيا ثم أنزل به جبريل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نجوماً نجوماً أي الآية والآيتين في أوقات مختلفة أنزل عليه في إحدى وعشرين سنة. وقال مقاتل: أنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ كل عام في ليلة القدر إلى سماء الدنيا نزل إلى السفرة من اللوح المحفوظ في عشرين شهراً ونزل به جبريل في عشرين سنة. حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا فارس بن مردويه حدثنا محمد بن الفضيل العابد حدثنا الفضل بن دكين[٦] عن سفيان الثوري عن خالد الحذاء[٧] عن أبي قلابة قال[٨]: أنزلت التوراة في ثنتي عشرة ليلة مضت من رمضان والإنجيل في ثمانية عشرة ليلة والقرآن في أربعة وعشرين ليلة. قال الفقيه: حدثنا إسحاق بن إبراهيم القطان قال: حدثنا محمد بن صالح الترمذي قال: حدثنا سويد بن نصر[٩] قال: حدثنا عبد الله بن المبارك عن ابن جريج قال: قال ابن عباس في قوله ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ قال: أنزل القرآن: جملة واحدة على جبريل في ليلة القدر. وقال ابن جريج[١٠]: كان ينزل من القرآن في ليلة القدر كل شيء ينزل في تلك السنة فينزل ذلك من السماء السابعة على جبريل في السماء الدنيا ولا ينزل جبريل من ذلك على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كلما أمر به تعالى. قوله عز وجل ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ أي القرآن هدى للناس من الضلالة وبياناً لهم ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ يعني بيان الحلال

---

(١) سلمة بن عمرو بن الاكوع. كان شجاعاً رامياً، توفي سنة ٧٤ هـ. التهذيب ٤/ ١٥٠، الإصابة ٣/ ١٥١.

(٢) سقط من ظ. (٣) سقط من ظ. (٤) أخرجه البخاري ٨/ ١٨١ في كتاب التفسير.

(٥) سقط في أ.

(٦) الفضل بن دكين الكوفي، واسم دكين عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولاهم الأحول أبو نعيم الملائي، ثقة ثبت. التقريب ٢/ ١١٠.

(٧) خالد بن مهران الحذاء ثقة. والحذاء نسبة إلى بيع الحذاء، وتوفي سنة ١٤٣ هـ. التهذيب ٢/ ١٢٠.

(٨) عبد الله بن زيد الجرمي، ثقة فاضل كثير الإرسال، توفي سنة ١٠٧ هـ التهذيب ٥/ ٢٢٤.

(٩) سويد بن نصر بن سويد المروزي الطوساني، ثقة، توفي سنة ٢٤٠ هـ التهذيب ٤/ ٢٨٠.

(١٠) ابن جرير في التفسير ٣/ ٤٤٧.

والحرام ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ أي المخرج من الشبهات (فمن شَهِدَ مِنكُم الشَّهْر فَلْيَصمْهُ) أي من كان منكم شاهداً ولم يكن مريضاً ولا مسافراً فليصم الشهر ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ فأفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يقضيه بعد ذلك. روي عن عبد الله بن عمر: أنه كان يكره قضاء رمضان متفرقاً. وعن علي بن أبي طالب مثله، وقال معاذ بن جبل وأبو عبيدة بـن الجراح وجماعة من الصحابة: أحـصِ العدد وصم كيف شئت. واختلفوا في حد المريض الذي يجوز له الإفطار: قال بعضهم: إذا كان بحال يخاف على نفسه التلف. وقال بعضهم: إذا استحق اسم المريض جاز له [أن يفطر](١) وقال بعضهم: إذا كان بحال يخاف أن يزيد الصوم في مرضه جاز له أن يفطر. وهو قول أصحابنا. ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ في الإفطار في حال المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ بالصوم في المرض والسفر ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾. قال الكلبي: يعني لتتموا [عدة ما](٢) أفطرتم من الصوم في السفر أو في المرض. وقال الضحاك: (ولتكملوا العدة) يعني إذا غم عليكم هلال شوال فأكملوا الشهر ثلاثين يوماً. قرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو في رواية هارون: (ولتكملوا) بنصب الكاف وتشـديد الميم وقـرأ الباقـون بالتخفيف وسكون الكاف وهما لغتان(٣) يقال: كملت الشيء وأكملته مثل وصيت وأوصيت ثم قال ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لتعظمـوا الله على ما هداكم لشرائعه وسننه وأمر دينه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. أي لتشكروا الله تعالى على هذه النعمة(٤) حيث رخص لكم الفطر في المرض والسفر. وقال مقاتل: لعلكم تشكرون في هذه النعم أن هداكم لأمر دينه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. وذلك أنه لما نزلت هذه الآية (ادعوني أستجب لكم) قال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله في أي وقت ندعوا الله حتى يستجاب دعاؤنا؟ فنزلت هذه الآية (وإذا سألك عبادي عني) ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ يعني أجيبكم في أي وقت تدعونني وقال بعضهم: سأله بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت هذه الآية: (وإذا سألت عبادي عني فإني قريب). وقال مقاتل: إن عمر واقع امرأته بعدما صلى العشاء فندم على ذلك وبكى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بذلك ورجع من عنده مغتماً وكان ذلك قبل الرخصة فنزلت هذه الآية (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم في إحدى الروايتين: (دعوة الداعي إذا دعاني) بالياء والباقون كلهـم: بحذف الياء(٥). وأصله بالياء إلا أن الكسر يقوم مقام الياء. ويقال فإني قريب في الإجابة أجيب دعوة الداعي إذا دعاني: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ بالطاعة ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ وليصدقوا بوعدي. قال ابن عباس في رواية الكلبي: فليستجيبوا لي الاستجابة أن تقولوا بعد صلاتكم لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. (وليؤمنوا بي) والإيمان أن تقول: آمنت بالله وكفرت بالطاغوت وأن وعدك حق وأن لقاءك حق وأشهد أنك أحد فرد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأنك باعث من في القبور. وروي عن ابن عباس أنه قال: ما تركت هذه الكلمات دبر(٦) كل صلاة منذ نزلت هذه الآية وروي عن الكلبي أنه قال: ما تركتها منذ أربعين سنة ويقال: معناه أجيبوا لي بالطاعة إذا دعاكم [رسول الله](٧) ـ (وليؤمنوا بي) أي ليصدقوا بتوحيدي. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي يهتدون من الضلالة. قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعني الجماع. وروى بكر عن عبد الله المزني عن ابن عباس أنه قال: الغشيان واللمس والإفضاء والمباشرة والرفث هو الجماع ولكن الله حيـي كريم يكني بما شـاء: وسبب نزول هذه الآية أن عمر بن الخطاب ـ

---

(١) في ظ [الإفطار]. (٢) في أ [العدة ما].
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٢٦. (٤) في أ [النعم]. (٥) حجة القراءات لابن زنجلة ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٦) في أ [بعد]. (٧) سقط من ظ.

رضي الله عنه ـ واقع امرأته بعد صلاة العشاء في شهر رمضان بعد النوم فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كنت جديراً بذلك فرجع مغتماً فنزلت هذه الآية ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي رخص لكم الجماع مع نسائكم. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي هن سكن لكم وأنتم سكن لهن. ويقال: هن ستر لكم من النار وأنتم ستر لهن من النار ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تظلمون أنفسكم قال القتبي: أصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة فيه وقد سمي الله تعالى هذا الفعل خيانة لأن الإنسان قد اؤتمن على دينه فإذا فعل بخلاف ما أمر الله به ولم يؤد الأمانة فيه فقد خانه [بمعصيته][1]. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فتجاوز عنكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ولم يعاقبكم بما فعلتم ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ أي جامعوهن ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني اطلبوا ما قضى الله لكم من الولد الصالح. وقال الزجاج[2]: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي اتبعوا القرآن فيما أبيح لكم فيه وأمرتم به. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ نزلت في شأن صرمة بن قيس[3] عمل في النخيل بالنهار فلما رجع منزله غلب عليه النوم قبل أن يأكل شيئاً فأصبح صائماً فأجهده الصوم فرآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في آخر النهار فقال له: مالك يا ابن قيس أمسيت طليحاً[4] فقال ظللت أمس في النخيل نهاري كله أجر بالجرين حتى أمسيت فأتيت أهلي فأرادت أن تطعمني شيئاً سخناً فأبطأت علي [فنمت][5] فأيقظوني وقد حرم علي الطعام والشراب فلم آكل فأصبحت صائماً فأمسيت وقد أجهدني الصوم. فنزلت هذه الآية (وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا) ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ وهذا أمر أباحه الله وليس بأمر حتم. كقوله: (وإذا حللتم فاصطادوا) وكقوله: (فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) [فلفظه][6] لفظ الأمر والمراد به الإباحة وقد أباح الله الأكل والشرب والجماع إلى وقت طلوع الفجر بقوله: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ أي يستبين لكم بياض النهار من سواد الليل. ويقال: في الابتداء (لما)[7] نزل قوله تعالى: (حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ كان بعضهم يأخذ خيطين [أحدهما أبيض والآخر أسود][8] يجعل ينظر إليهما ويأكل ويشرب[9] حتى يتبين له الأسود من الأبيض. وذكر عن عدي بن حاتم الطائي أنه قال: أخذت خيطين فجعلت أنظر إليهما فلم يتبين الأسود من الأبيض ما لم يسفر الفجر فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته فتبسم وقال: إنك لعريض القفا إنما هو سواد الليل وبياض النهار فنزل قوله: (من الفجر) فارتفع الاشتباه[10]. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أي إلى أول الليل وهو غروب الشمس. ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ يقول: ولا تجامعوهن ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ يقول ولا تجامعوهن وأنتم معتكفون فيها وذلك

(١) في ظ [بالمعصية].

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٤٤.

(٣) صرمة بن أنس، ويقال: ابن قيس بن مالك بن عدي، مشهور بكنيته. الإصابة ٣/٤٤٢.

(٤) الطليح: هو المتعب المجهد، حكى عن الأعرابي: أنه لطليح سفر، وطلح سفر، ورجع سفر، وردية سفر بمعنى واحد. اللسان: طلح.

(٥) سقط من ظ. (٦) في ظ [اللفظ]. (٧) في ظ [حين].

(٨) ما بين المعقوفين من ظ. (٩) من ظ.

(١٠) أخرجه البخاري ٨/١٨٢ في التفسير، ومسلم ٢/٧٦٦ في الصوم (٣٣/١٠٩٠) وقال القاضي عياض: إنما أخذ الخيطين وجعلهما تحت رأسه وتأول الآية لكونه سبق إلى فهمه أن المراد بها هذا وكذا وقع لغيره ممن فعل فعله حتى نزل قوله تعالى «من الفجر» فعلموا أن المراد به بياض النهار وسواد الليل. وقال: معناه أن جعلت تحت وسادك الخيطين اللذين أرادهما الله تعالى وهما الليل والنهار فوسادك يعلوها ويغطيها، وحينئذ يكون عريضاً.

أنه لما رخص لهم الجماع في ليلة الصيام فكان الرجل إذا كان [معتكفاً][(١)] فإذا بدا له خرج بالليل إلى أهله فتغشاها ثم يغسل ويرجع إلى المسجد فنزلت هذه الآية: (ولا تباشروهن) [أي لا تجامعوهن][(٢)] ليلاً ولا نهاراً (وأنتم عاكفون[(٣)] في المساجد) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ قال الكلبي: يعني المباشرة في الاعتكاف معصية الله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ في الاعتكاف. وقال الزجاج[(٤)]: الحد في اللغة هو المنع فكل من منع فهو حداد ولهذا سمي حد الدار حداً لأنه يمنع [الغير عن][(٥)] دخولها. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ يعني النهي عن الجماع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. الجماع حتى يفرغوا من الاعتكاف. ويقال (تلك حدود الله) أي جميع ما ذكر الله تعالى من أول الآية إلى آخرها في أمر الصيام وغيره ونبين لهم الآيات لعلهم يتقون فينتهون عما نهاهم ويتبعون ما أمرهم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالظلم وشهادة الزور ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ يقول تلجأوا بالخصومة إلى الحكام. وقال الزجاج[(٦)]: تعملون بما يوجبه ظاهر الحكم وتتركون ما علمتم أنه الحق. ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا﴾ يعني طائفة ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ أي باليمين الكاذبة وشهادة الزور. ويقال: بالإثم أي بالجور. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه جور ويقال: إنكم تعلمون أنكم تأخذون بالباطل. وهذه الآية نزلت في شأن امرىء القيس بن عباس الكندي[(٧)] وعيدان بن أشوع الحضرمي اختصما إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فادعى أحدهما على صاحبه شيئاً فأراد الآخر أن يحلف بالكذب فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه وأرى أنه من حقه وأنه لا يرى أنه من حقه فإنما أقضي له بقطعة من النار[(٨)] فنزلت هذه الآية فيهما وصارت عامة لجميع الناس وروى سعيد بن المسيب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: شاهد الزور إذا شهد لا يرفع قدميه من مكانهما حتى يلعنه الله من فوق عرشه.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ الأهلة: [جمع هلال][(٩)] واشتقاقه من قولهم: استهل الصبي إذا صاح

---

(١) في ظ [في اعتكافه]. (٢) سقط من ظ. (٣) في أ [معتكفون].

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٢٤٤/١. (٥) في ظ [غيرها نحن]. (٦) معاني القرآن وإعرابه ٢٤٦/١.

(٧) امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن معاوية الأكرمين الكندي، كان من الصحابة الذين حضروا حصار حصن النجير باليمن، وقتل عمه المرتد عن الاسلام. الإصابة ١١٢/١.

(٨) أخرجه مسلم ١٣٣٧/٣ كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣/٤) وأحمد في المسند ٢٠٣/٦ والشافعي في المسند (١٠٥) والدارقطني في السنن ٢٣٩/٤ والبيهقي في السنن ١٤٩/١٠ والبغوي في التفسير ١٤/٦ وفي الشرح ٣٦٤/١٢ والنسائي ٢٤٧/٨ وابن أبي شيبة ٢٣٣/٧، ٢٣٤، ١٦٨/١٠، ٢٦٨/١٤ والترمذي في السنن رقم (١٣٣٩) والطحاوي في معاني الآثار ١١٥/٤.

(٩) في ظ [جماعة الهلال].

وأهل بالحج: أي رفع صوته بالتلبية وكذلك الهلال يسمى هلالاً لأنه يهل الناس بذكره أي يرفعون الصوت عند رؤيته وإنما سمي الشهر شهراً لشهرته[١]. وقال الضحاك في معنى الآية: إن المسلمين سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن خرص النخيل والتصرف في زيادة الشهر ونقصانه فنزلت هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ أي التصرف في حال زيادته ونقصانه سواء. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: نزلت هذه الآية في شأن معاذ بن جبل وثعلبة بن غمة الأنصاري: لأنهما قالا يا رسول الله ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ثم ينقص [فنزلت هذه الآية][٢] (يسألونك عن الأهلة: قل هي مواقيت للناس والحج) أي هي: علامات للناس في حل ديونهم وصومهم وفطرهم وعدة نسائهم ووقت الحج.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[٣] قال الضحاك: وذلك أن الكفار كانوا لا يدخلون البيت في أشهر الحج من بابه وكانوا يدخلونه من أعلاه فنزلت هذه الآية: وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: وذلك أن الناس كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم قبل الحج فإن كان من أهل المدن يعني من أهل البيوت ثقب في ظهر بيته فمنه يدخل ومنه يخرج أو يضع سلماً فيصعد منه وينحدر عليه وإن كان من أهل الوبر يعني من أهل الخيام يدخل من خلف الخيمة إلا من الحمس وإنما سموا الحمس لأنهم يحمسون في دينهم أي شددوا على أنفسهم فحرموا أشياء أحلها الله لهم وحللوا أشياء كانت حراماً على غيرهم وهو الدخول من الباب. فنزلت هذه الآية: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ يعني ليس التقوى بأن تأتوا البيوت من خلفها إذا أحرمتم. (ولكن البر) يعني التقوى (من اتقى) أي أطاع الله واتبع أمره ويقال: ولكن ذو البر من اتقى الشرك والمعاصي. ثم قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ يعني أدخلوها محلين ومحرمين ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ولا تقتلوا الصيد في إحرامكم وهذا قول الكلبي وقال مقاتل: واتقوا الله ولا تعصوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تنجون من العقوبة.

وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا۟﴾ وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة فنزل بالحديبية بقرب مكة والحديبية: اسم بئر فسمي ذلك الموضع باسم تلك البئر فصده المشركون عن البيت فأقام بالحديبية شهراً فصالحه المشركون على أن يرجع من عامه كما جاء على أن تخلى له مكة في العام المقبل ثلاثة أيام وصالحوه على أن لا يكون بينهم قتال إلى عشر سنين فرجع إلى المدينة

---

(١) راجع اللسان: هلل ٤٦٨٩، شهر/ ٢٣٥١.
(٢) في ظ [فيدق فنزل].
(٣) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٦).

وخرج في العام الثاني للقضاء فخاف أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقاتلهم المشركون وكرهوا القتال في الشهر الحرام فنزلت هذه الآية ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله ﴿الذين يقاتلونكم﴾ يعني في الحرم أو في الشهر الحرام ﴿ولا تعتدوا﴾ بأن تنقضوا العهد وتبدءوهم بالقتال في الشهر الحرام أو في الحرم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يعني من يبدأ بالظلم. ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم في الحل والحرم، والشهر الحرام. فأمرهم الله تعالى: بقتل المشركين الذين ينقضون العهد وقوله ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ من مكة ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي الشرك بالله ﴿أَشَدُّ﴾ أي أعظم عند الله ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام. ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي في الحرم ﴿حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي يبدؤكم بالقتال ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ﴾ أي بدأوكم بالقتال ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾ أي هكذا جزاؤهم القتل في الحرم وغيره. قرأ حمزة والكسائي[1]: (ولا تقتلوهم) بغير ألف (حتى يقتلوكم) (فإن قاتلوكم) وقرأ الباقون في هذه المواضع الثلاثة: بالألف. فمن قرأ بالألف فهو من المقاتلة ومن قرأ بغير ألف فمعناه لا تقتلوهم حتى يقتلوا منكم. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن قتالكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إذا أسلموا وهذا كقوله: (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني الشرك بالله ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ كله ﴿لِلَّهِ﴾ يعني الإسلام ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا﴾ عن قتالكم وتركوا الشرك ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ يقول لا سبيل ولا حجة عليهم في القتل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ الذين بدأوكم بالقتال. وقال القتبي: أصل العدوان الظلم يعني لا جزاء للظلم إلا على الظالمين فسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه حتى دخلوا مكة وطافوا بالبيت ونحروا الهدي وأقاموا بمكة ثلاثة أيام ثم انصرفوا [فنزلت هذه الآية][2]﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني الشهر الحرام الذي دخلت فيه الحرم بالشهر الحرام الذي صدوكم عنه العام الأول وهو ذو العقدة ﴿وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ (أي ما اقتصصت لكم في ذي القعدة كما صدوكم. ويقال: إذا قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام والحرمات قصاص) يعني قتالكم يكون لقتالهم قصاصاً فكما تركوا الحرمة فأنتم تتركون [أيضاً][3]ذلك. ويقال: إن سبب نزول هذه الآية أن المشركين سألوا المسلمين فقالوا: في أي شهر يحرم عليكم القتال؟ وأرادوا أن يقفوا على ذلك حتى يقاتلوهم في الشهر الذي حرم القتال على المؤمنين فنزل قوله: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوهم فيه) أي في وقت قاتلكم المشركون حل لكم قتالهم. ثم قال تعالى ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي قاتلكم في الشهر الحرام ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي قاتلوهم فيه وإنما سمي الثاني اعتداء لأنه مجازاة الاعتداء فسمي بمثل اسمه[4] وهذا كقوله عز وجل: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ثم صارت هذه الآية حكماً في جميع الجنايات إن من جنى على انسان أو في ماله فله أن يجازيه بمثل ذلك بظاهر هذه الآية:﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ) عن الاعتداء قبل أن يعتدوا عليكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني يعين من اتقى الاعتداء.

---

(١) راجع/ طلائع البشر في توجيه القراءات العشر للقمحاوي، والإتحاف والمهذب في القراءات العشر للدكتور محيسن، حجة القراءات لابن زنجلة ١٢٧، ١٢٨.

(٢) في ظ [فنزل قوله تعالى].

(٣) سقط في ظ.

(٤) ومثل هذا يسميه البلاغيون «المشاكلة» وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. تحقيقاً: نحو قوله تعالى ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل اعتدى عليكم﴾ وتقديراً: مثل قوله تعالى ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾ ولعل أبا علي الفارسي كان أول من أطلق عليه اسم المشاكلة. راجع معجم المصطلحات البلاغية. د/ أحمد مطلوب ٢٥٨/٣.

وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعة الله. قال ابن عباس وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أمر الناس بالخروج إلى الجهاد قام اليه ناس من الأعراب حاضري المدينة فقالوا: بماذا نجهز؟ فوالله ما لنا زاد ولا يطعمنا أحد فنزل قوله تعالى (وانفقوا [في سبيل الله(يعني تصدقوا][1] يا أهل الميسرة (في سبيل الله) أي في طاعة الله ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ يعني ولا تمسكوا بأيديكم عند الصدقة فتهلكوا وهكذا قال مقاتل. ومعنى قول ابن عباس ولا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا أي لاتمسكوا عن النفقة والعون للضعفاء فإنهم إذا تخلفوا عنكم غلب عليكم العدو فتهلكوا ومعنى آخر: ولاتمسكوا فيرث منكم غيركم فتهلكوا بحرمان منفعة أموالكم. معنى آخر: ولا تمسكوا فيذهب عنكم الخلف في الدنيا والثواب في الآخرة. ويقال:(ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) يعني لا تنفقوا من حرام فيرد عليكم فتهلكوا. وقال الزجاج[2]: التهلكة: معناه الهلاك يقال: هلك يهلك هلاكا وتهلكة: معناه إن لم تنفقوا عصيتم الله فهلكتم وروي عن البراء بن عازب أن رجلا سأله عن التهلكة فقال: أهو الرجل إذا التقى الجمعان فحمل فيقاتل حتى يقتل؟ قال: لا ولكن الرجل يذنب ثم لا يتوب. وقال قتادة قيل لأبي هريرة: ألم تر سعد[3]بن هشام[4] لما التقى الصفان حمل فقاتل حتى قتل ألقى بيده إلى التهلكة؟ فقال أبو هريرة: كلا والله ولكنه تأويل[5] آية من كتاب الله: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله)[6] وقال أبو عبيدة السلماني: التهلكة أن يذنب (الرجل)[7] فيقنط من رحمة الله فيهلك. وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثرنا قلنا فيما بيننا: إن أموالنا قد ضاعت فلو أقمنا فيها وأصلحنا منها ما ضاع فأنزل الله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة: في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا ونصلحها فأمرنا بالغزو ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾أي أحسنوا النفقة من الصدقة﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في النفقة ويقال: وأحسنوا في النفقة أي أخلصوا النية في النفقة. ويقال: أحسنوا الظن بالله تعالى فيما أنفقتم أنه يخلف عليكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة.

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ

(١) ما بين المعقوفين من ظ. (٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٥٥. (٣) في ظ [سعيد].
(٤) سعد بن هشام بن عامر الانصاري، ابن عم أنس بن مالك، ثقة. التهذيب ٣/ ٤٨٣.
(٥) في ظ [تأويل]. (٦) ذكره ابن جرير في التفسير ٣/ ٥٨٨. (٧) سقط من ظ.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

قوله تعالى: (وأتمو الحج والعمرة لله.) قرأ الشعبي[١]: (والعمرة لله) بالضم على معنى الابتداء وقرأ العامة (والعمرة)[٢] بالنصب على معنى البناء. قال ابن عباس: تمام العمرة إلى البيت وتمام الحج إلى آخر الحج. وقال مقاتل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ من المواقيت ولا تستحلوا فيهما ما لا ينبغي لكم وذلك أنهم كانوا يشركون في إحرامهم ومعنى قول مقاتل أنهم كانوا يشركون فيقولون: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال: وأتموها ولا تخلطوا بهما شيئا آخر. ثم خوفهم فقال: ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ فيما تعديتم ثم قال عز وجل ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي حبستم عن البيت بعدما أحرمتم. وقال القتبي: الإحصار هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عدو. وقال الفراء[٣]: الإحصار ما ابتلي به الرجل في إحرامه من المرض أو العدو وغيره. وقال بعضهم: لا يكون الإحصار إلا من العدو[٤] وقال بعضهم: يكون من العدو [وغيره][٥] وبه قال علماؤنا ـ رحمهم الله ـ. ثم قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي ابعثوا [إلى البيت ما استيسر][٦] من الهدي والله تعالى رخص لمن عجز عن الوصول إلى البيت بالعدو أن يبعث الهدي فينزع عنه بمكة ويحل الرجل من إحرامه إذا ذبح هديه ويرجع إلى أهله ثم يقضي حجه وعمرته بعد ذلك. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ يعني المحصر إذا بعث بالهدي لا يجوز له أن يحل من إحرامه ما لم يذبح هدية يقول: لا يحلق رأسه حتى يكون اليوم الذي واعده فيه ويعلم أن هديه قد ذبح ثم صار هذا أصلاً لجميع الحجاج من كان قارناً أو متمتعاً لايجوز له أن يحلق رأسه إلا بعد أن يذبح هديه وإن لم يكن محصراً. ثم قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ يعني إذا حلق رأسه على وجه الإضمار مثل قوله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) يعني إذا كان[٧] أفطر. وروي عن كعب بن

---

(١) قراءة الشعبي هذه لم تتواتر وكذا قراءة الحسن «والعمرة» بالرفع شاذة والصحيح هو إسكان الميم ونصب التاء.

(٢) سقط من ظ.
(٣) معاني القرآن ١/١١٧.

(٤) والإحصار يطلق في اللغة على المنع من أحصره وحصره، والأول في المرض أشهر والثاني في العدو أشهر، ووقوع الأول في القرآن للعدو ولا يخرجه عن الفصاحة وعرفه علماء الشافعية بأنه المنع من النسك ابتداءً أو دواماً أما كلاً أو بعضاً وأسباب الحصر ستة عندهم: العدو والمرض والسيادة والزوجية والأصلية، والدينية، فيندب للفرع وأن سفل استئذان جميع أصوله ولو كفاراً أو ارقاء في أداء النسك ولو فرضاً ولكل منهم منعه منه إحراماً وسفراً وتحليله بعد إحرامه إن كان تطوعاً إلا إن كان مسافراً معه أو كان سفره دون مرحلتين ويجب التحلل بأمره. انظر تفصيل هذا في: قليوبي وعميرة ٢/١٤٦. مغني المحتاج ١/٥٣٢.

(٥) في ظ [ومن المرض].
(٦) ما بين المعقوفين من ظ.
(٧) من ظ.

عـجرة[١] أنه قال فيَّ نزلت [هذه الآية][٢]. وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مر بي والقمل يتناثر على وجهي فقال: أيؤذيك هوام رأسك فقلت نعم فأمر بي بأن احلق [رأسي فقال: احلق رأسك][٣] وأطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من حنطة أو صم ثلاثة أيام أوانسك نسيكة يعني اذبح شاة فنزلت هذه الآية: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام﴾[٤] ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ أي شاة يذبحها حتى يبلغ الهدي محله. ويروى عن عبد الرحمن الأعرج[٥] أنه قرأها: بتشديد الياء[٦]. وواحدها هدية. وقرأ الباقـون: بالتخفيف يقـال للواحدة: هدي وهدية. ثم قال ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وهذا على سبيل الاختصار والإضمار. ومعناه فاذا أمنتم من العدو فاقضوا ما وجب عليكم من الحج والعمرة. ويقال: إذا أمنتم من العدو وبرأتم من المرض فحجوا واعتمروا. ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ يعني فعليه ما تيسر من الهدي وللمتمتع أن يحج ويعتمر في سفرة واحدة من أشهر الحج. والمحرمون أربعة: مفرد بالحج ومفرد بالعمرة والمتمتع والقارن فأما المفرد بالحج أن يحج ويعتمر والمفرد بالعمرة أن يعتمر ولا يحج وأما المتمتع أن يعتمر في أشهر الحج ويمكث بمكة حتى يحج بعدما فرغ من عمرته وأما القارن فهو الذي يحرم بالحج والعمرة جميعاً: فمن كان مفردا بالحج أو بالعمرة فلا يجب عليه الهدي ومن كان متمتعاً أو قارناً فعليه الهدي. وقال عبد الله بن عمر أنه قال: الهدي: الجزور[٧] وقال ابن عباس: أقله شاة[٨] وبه قال علماؤنا ثم قال ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾. قال ابن عباس: آخرها يوم عرفة. ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾. قال بعضهم: إذا رجعتم [٩] إلى أهليكم. وقال بعضهم: إذا رجعتم من منى: وقال بعضهم: إذا رجعتم إلى الأمر الأول يعني إذا فرغتم من أمر الحج وبهذا القول نقول[١٠] ثم قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في البدل يعني العشرة (الكاملة)[١١] كلها بدل عن الهدي يعني ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفـداء[١٢] ﴿لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ [حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ذلك الفداء][١٣] لمن لم يكن منزله في الحرم. وقال قتادة ومقاتل: ذلـك يعني التمتع لمن لم يكن أهله حاضـري المسجد الحـرام يعني الحرم. ﴿وَٱتَّقُـواْٱللهَ﴾ فيما أمـركم به ونهـاكم عنه. ﴿وَٱعْـلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إن خالفتم. ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات وهو: شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجة ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾. قال القتبي: الفرض وجوب الشيء يقال: فرضت عليك كذا أي أوجبته[١٤] قال الله تعالى (فنصف ما فرضتم) أي ما ألزمتم أنفسكم. وقال: (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) وقال تعالى ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي فمن أحرم في هذه الأشهر بالحج ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فلا رفث ولا فسوق) بالرفع مع التنوين والباقـون بالنصب بغير تنوين[١٥]. واتفقوا في قوله: (ولا جدال) بالنصب غير أبي جعفر المدني فانه قرأ بالرفع وهذا يقال له: لا التبرية فكل

---

(١) كعب بن عجرة بن أمية بن عدي القضاعي المدني، حليف الأنصار. الإصابة ٥/٥٩٩.

(٢) من ظ.

(٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري ٤/١٢ في المحصر باب قول الله تعالى ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ البقرة: ١٩٦) (١٨١٤) وفي ٤/١٦ (١٨١٥) ومسلم ٢/٨٦١ في الحجر باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى (٨٣/١٢٠١).

(٥) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج أبو داود المدني تابعي جليل، شذرات الذهب ١/١٥٣.

(٦) وهي قرآءة شاذة غير متواترة، والصحيحة «الهدي» بإجماع السبعة.

(٧) انظر الدر المنثور ١/٢١٣

(٨) المصدر السابق ١/٢١٢.

(٩) ما بين المعقوفين من ظ.

(١٠) في أ [نأخذ].

(١١) من أ.

(١٢) من ظ.

(١٣) سقط في ظ.

(١٤) الصحاح ٣/١٠٩٧، المغرب ٢/١٣٣، المصباح المنير ٢/٧١٩.

(١٥) أما قراءة الرفع فعلى اعتبار أن «رفث» اسم لا العاملة عمل ليس «ولا فسوق» عطف عليه، و «لا» مكررة للتأكيد ونفي الاجتماع وبناء=

موضع يدخل فيه لا التبرية فصاحبه بالخيار إن شاء نصبه بغير تنوين وإن شاء ضمه بالتنوين مثل قوله (ولا خـلة) (ولا شفاعة). وتفسير الرفث هو الجماع كقوله: (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وقال بعضهم: الرفث: التعرض بذكر النساء والفسـوق: هو السباب، والجدال: أن تماري صاحبك حتى تغيظه[١]. أي من كان محرماً لا يجامع في إحرامه ولا يسب ولا يماري ويقال: الفسوق الذبح للأصنام. كقوله تعالى: (أو فسقاً أهل لغير الله به) والجدال هو أن قريشاً كانت تقف بالمزدلفة وكانوا يجادلون[٢]كل فريق يقولون: نحن أصوب سبيلاً. وروي عن مجاهد أنه قال قد استقر الحج في ذي الحجة فلا جدال فيه وذلك أن المشركين كانوا يحجون عامين في ذي العقدة وعامين في ذي الحجة فلما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة بعث أبا بكر ليحج بالناس فوافق ذلك آخر عام ذي القعدة فلما حج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع وافق ذلك (أول)[٣] عام في ذي الحجة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا إن الزمان قد إستدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض[٤]. يعني رجع أمر الحج [إلى ذي الحجة][٥]كما كان فنزل (وَلَا جِدالَ)﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني من ترك الفسوق والمرأة والجدال ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي يقبله الله فيجازيكم به. ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ في سفركم للحج والعمرة ما تكفون به وجوهكم عن المسألة. ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال مقاتل وذلك أن أناساً من أهل اليمن[٦] كانوا يخرجون بغير زاد ويصيبون من أهل الطريق[٧] ظلماً فنزلت في شأنهم (وتزودوا [فإن خير الزاد التقوى][٨]. وقال بعضهم: تزودوا لسفر الدنيا بالطعـام وتزودوا لسفـر الآخرة بـالتقوى فـإن خير الـزاد التقوى. ويقـال خير الـزاد التقـوى هـو التوكل على الله وأن لا يؤذي أحداً لأجل الزاد والطعام. ثم قال: ﴿وَاتَّقُون يَا أُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ يعني اطيعوني يا ذوي [الألباب][٩] أي العقول فيما أمرتكم به. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك أنهم كانوا إذا حجوا كفوا عن التجارة وطلب المعيشة في الحج فلم يشتروا ولم يبيعوا حتى تمضي أيام حجهم فجعل الله تعالى لهم رخصة في ذلك فقال تعالى ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ (أي مأثم عليكم)[١٠] أن تطلبوا رزقاً من ربكم من التجارة في أيام الحج. وقال مقاتل: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:عن سوق عكاظ وسوق منى وذي المجاز في الجاهلية كنا نقوم في [التجارة][١١] قبل الحج وبعد الحج فهل يصلح لنا البيع والشراء في أيام حجنا؟ فنزلت هذه الآية. ومعنى آخر: ما روي عن عبد الله بن عمر: أن رجلا سأله فقال إني رجل أكري الإبل إلى مكة أفيجزيني عن حجي: فقال أولست تلبي؟ وتقف بعرفات وترمي الجمار؟ فقال: [بلى][١٢] فقال: [سأل رجل][١٣] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مثل ما سألتني فلم يجبه حتى نزلت هذه

= الثالث على الفتح وهو «جدال» على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، ويقدر الرفع أيضاً على معنى «لا يكونن رفث ولا فسوق.

أما قراءة الباقين بالنصب فعلى جعل «لا» للتبرئة، وانفرد أبو جعفر برفع الكلمات الثلاث وهي قراءة صحيحة متواترة أيضاً.

انظر: الدرة المتممة للعشر بشرح السمانودي والقاضي من سورة البقرة، وكذا أبو شامة والإتحاف والمهذب في القراءات العشر للدكتور محيسن.

(١) انظر لهذه المعاني: اللسان: رفث. (٢) في ظ [يجادلون في] (٣) في ظ [أوله].

(٤) أخرجه البخاري ٣/٥٧٣ في الحج باب الخطبة أيام منى (١٣٢) وفي ٨/١٠٨ (٤٤٠٦) وفي ١٠/٧ في الأضاحي (٥٥٥٠) وفي ١٣/٤٢٤ (٧٤٤٧) ومسلم ٣/١٣٠٥ في القسامة (٢٩، ١٦٧٩/٣١).

(٥) من ظ. (٦) من ظ. (٧) في ظ [الطريق يعني عن النكدي وقال بعضهم معناه يصيبون].

(٨) من ظ. (٩) في ظ [العقول]. (١٠) في ظ [أي لا مأثم].

(١١) من ظ. (١٢) في ظ [نعم]. (١٣) في أ [سئل].

الآية: ﴿ليس عليكم جناح [أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾][1] وروي عن ابن عباس نحوه[2]. ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا أَفَضتم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ يقول إذا رجعتم من عرفات بعد غروب الشمس ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ يعني بالمزدلفة. وقال عطاء: إنما سميت عرفات لأن جبريل كان يعلم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمور المناسك فكان يقول له: عرفت فيقول عرفت فسميت عرفات. وقال ابن عباس: إنما سميت منى لأن جبريل قال لآدم عليهما السلام: تمن قال: أتمنى الجنة فسميت منى قال: وإنما [سمي الجمع جمعاً][3] لأنه آجتمع فيه آدم وحواء والجمع أيضاً: هو المزدلفة وهو المشعر الحرام. ثم قال: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ يقول: (اشكروا الله)[4] كما هداكم لدين الإسلام ﴿وَإِن كُنتُم﴾ أي وقد كنتم ﴿مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى وكانت قريش لا تخرج من الحرم إلى عرفات وكان الناس يقفون خارج الحرم من كان من أهل اليمن وغيرهم بعرفات ويفيضون منها فأمر الله تعالى قريشاً أن يقفوا من حيث وقف الناس ويفيضوا من حيث أفاض الناس فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ تعالى لذنوبكم في الموقف ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ متجاوز عن ذنوبكم. فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخرج بالناس جميعاً إلى عرفات فيقف بها. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله تعالى يباهي ملائكته بأهل عرفات ويقول: انظروا إلى عبادي جاءوا من كل فج عميق شعثاً غبراً اشهدوا: أني قد غفرت لهم. ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ أي فرغتم من أمر حجكم. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ باللسان ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ في ذلك الموقف ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾ يقول: أو أكثر ذكراً وذلك أن العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد الذي بمنى وبين الجبل ثم ذكر كل واحد منهم أباه بما كان يعلم منه من الخير ثم يتفرقون قال الله تعالى: (فاذكروني) بالخير (كذكركم آباءكم) بالخير فإن ذلك الخير مني وقال عطاء بن أبي رباح: قوله (كذكركم آباءكم) هو كقول الصبي: أبه أبه يعني أن الصبي إذا كان أول ما يتكلم فإن أكثر قوله: أب أب ويقال فاذكروا الله كذكركم آباءكم لأبيكم آدم لأنه لا أب له بل أشد ذكراً لأني خلقته من غير أب ولا أم وخلقتكم من الآباء والأمهات ثم قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ وهم المشركون كانوا يقولون إذا وقفوا: اللهم ارزقنا إبلاً وبقراً وغنماً وعبيداً[5] وإماءً وأموالاً ولم يكونوا يسألون لأنفسهم التوبة ولا المغفرة فأنزل الله تعالى: (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا) ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي من نصيب. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس: يعني الشهادة والمغفرة والغنيمة ﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي الجنة. وقال القتبي: الحسنة النعمة كقوله: (إن تصبك حسنة تسوءهم) أي نعمة وقال الحسن البصري: (آتنا في الدنيا حسنة) أي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة) أي الجنة [قال الإمام: حسنة الدنيا ثوابك وقوت من الحلال يكفيك وزوجة صالحة ترضيك وعلم إلى الحق يهديك وعمل صالح ينجيك. وأما حسنة الآخرة فارضاء الخصومات وعفو السيئات وقبول الطاعات والنجاة من الدركات والفوز بالدرجات] ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي ادفع عنا عذاب النار. ﴿أُوْلَئِكَ﴾ يعني المؤمنين][6] الذين يدعون بهذا الدعاء ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ أي حظ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من حجهم ويقال: لهم ثواب مما عملوا. وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً كان على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: اللهم ما كنت (معاقبني)[7] به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فأضني الرجل في مرضه حتى نحل

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) أخرجه أبو داود المصدر السابق (١٧٣٤). أخرجه أبو داود ٢/١٤٢ في المناسك باب الكري (١٧٣٣).

(٣) في ظ [سميت جمع].

(٤) في ظ [اشكروه].

(٥) سقط في أ.

(٦) ما بين المعقوفين من أ.

(٧) في ظ [تعاقبني].

جسمه فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاه فأخبر بأنه كان يدعوا بكذا وكذا فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا ابن آدم إنك لا تستطيع أن تقوم بعقوبة الله تعالى ولكن قل : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فدعا بها الرجل فبرأ[1]. ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قال الكلبي: إذا حاسب فحسابه[2] سريع ويقال: والله سريع الحفظ. وقال الضحاك: يعني لا يخالطه العباد في الحساب يوم القيامة ولا يشغله ذلك. ويقال: يحاسب كل انسان فيظن كل واحد منهم[3] أنه يحاسبه خاصة. وقوله تعالى:

وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أي معروفات وهي أيام التشريق. وقال القتبي: أيام التشريق (والمعلومات أيام العشر)[4]. [وقال يحيى بن سعيد: سألت عطاء عن الأيام المعدودات وعن المعلومات قال: الأيام المعدودة: أيام النحر والمعلومات أيام العشر. وقال بعضهم الأيام المعدودات أيام التشريق بدليل ما سبق في سياق الآية: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والمعلومات أيام النحر][5] بدليل قوله: (في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) فذكر النحر في تلك الأيام. وقال الضحاك: معنى قوله: (واذكروا الله في أيام معدودات) [أي معروفات وهي أيام التشريق][6] أي كبروا دبر كل صلاة من يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق ويقال: (واذكروا الله في أيام معدودات) يعني التكبير عند رمي الجمار. قوله: (فمن تعجل في يومين) أي رجع إلى أهله، بعدما رمى في يومين وترك الرمي في اليوم الثالث (فلا إثم عليه) [في تعجيله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلى آخر النفر ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تأخيره][7] ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يعني قتل الصيد في الإحرام وفي الحرم. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن مسعود قال: إنما جعلت المغفرة لمن اتقى في حجه. ويقال: لمن اتقى بعد انصرافه من حجه عن جميع المعاصي وإنما حذرهم الله تعالى لأنهم إذا رجعوا من حجهم يجترؤون على الله تعالى بالمعاصي فحذرهم عن ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ يعني كلامه وحديثه وهو أخنس بن شريق[8] كان حلو الكلام حلو المنظر فاجر السريرة. وروى أسباط عن السدي قال: أقبل أخنس بن شريق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة فقال: إنما جئت أريد الإسلام وقال: الله يعلم أني صادق فأعجب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله ثم خرج من

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٠٧
(٢) في ظ [فحاسبه].
(٣) في أ [إنسان].
(٤) في أ [النحر].
(٥) ما بين المعقوفين من ظ.
(٦) سقط من ظ.
(٧) ما بين المعقوفين من ظ.
(٨) الأخنس بن شريق الثقفي، أبو ثعلبة واسمه أبي، الإصابة ١/٣٨.

عنده فمر بزرع للمسلمين فأحرقه ومر [بحمار للمسلمين فعقره][(١)] فنزلت هذه الآية[(٢)] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي يعجبك كلامه وحديثه ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ من الضمير أنه يحبه وهو يريد الإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ أي شديد الخصومة. قال القتبي[(٣)] أي أشدهم خصومة. يقال: رجل ألد بين اللد واللدد[(٤)]، وقوم لد كما قال في آية أخرى: (وتنذر به قوماً لُدّاً) ثم قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقول إذا فارقك رجع عنك سعى في الأرض) [أي مضى في الأرض بالمعاصي][(٥)] ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ أي يعصي الله في الأرض ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ أي يحرق الكدس ويعقر الدواب ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ أي لا يرضى بعمل المعاصي. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في صنعك ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ﴾ أي الحمية ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ يعني الحمية في الإثم يعني تكبراً يقول الله تعالى: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي ولبئس الفراش ولبئس القرار. [فهذه الآية نزلت في شأن][(٦)] أخنس بن شريق ولكنها صارت عامة لجميع الناس فمن عمل مثل عمله استوجب تلك العقوبة. وقال بعض الحكماء أن من يقتل حماراً ويحرق كدساً استوجب الملامة ولحقه الشين إلى يوم القيامة فالذي يسعى بقتل مسلم كيف يكون حاله وذكر أن يهودياً كانت له حاجة إلى هارون الرشيد فاختلف إلى بابه سنة فلم تنقض حاجته فوقف يوماً على الباب فلما خرج هارون الرشيد سعى ووقف بين يديه وقال: اتق الله يا أمير المؤمنين فنزل هارون عن دابته وخر ساجداً لله تعالى فلما رفع رأسه أمر [به][(٧)] فقضيت حاجته فلما رجع قيل: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك بقول يهودي؟ قال: لا ولكن تذكرت قول الله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) إلى آخره وقال قتادة: ذكر لنا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إذا دعيتم إلى الله فأجيبوا وإذا سئلتم بالله فأعطوا فإن المؤمنين كانوا كذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في شأن صهيب بن سنان الرومي[(٨)] مولى عبد الله بن جدعان وفي نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم [ياسر أبو][(٩)] عمار بن ياسر وسمية أم عمار وخباب بن الأرت[(١٠)] وغيرهم أخذهم المشركون فعذبوهم فأما صهيب فإنه كان شيخاً كبيراً وله مال ومتاع فقال لأهل مكة: إني شيخ كبير وإني لا أضركم إن كنت معكم أو مع عدوكم فأنا أعطيكم مالي ومتاعي وذروني وديني أشتريه منكم بمالي ففعلوا ذلك فأعطاهم ماله إلا مقدار راحلته وتوجه إلى المدينة فلما دخل المدينة لقيه أبو بكر فقال له: ربح البيع يا صهيب فقال له: وبيعك فلا يخسر فقال: وما ذلك يا أبا بكر فيخبره بما نزل فيه ففرح بذلك صهيب. وقتل ياسر أبو عمار وأم عمار سمية فنزلت هذه الآية في شأن صهيب (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) أي يشري نفسه ودينه وهذا من أسماء الأضداد يقال: شرى واشترى

---

(١) في ظ [بحمُرُ للمسلمين فعقرها]. (٢) انظر الطبري ٤/٢٢٩. (٣) تفسير غريب القرآن (٨٠).

(٤) ساقطة من أ. (٥) ما بين المعقوفين من ظ. (٦) ما بين المعقوفين من ظ.

(٧) في ظ [بحاجته.]

(٨) صهيب بن سنان بن مالك الرومي أبو يحيى، شهد بدراً والمشاهد بعدها توفي سنة ٣٩ هـ الإصابة ٣/٤٤٩.

(٩) سقط من أ.

(١٠) خباب بن الأرتّ بن جندلة التميمي، أبو عبد الله، كان من السابقين الأولين في الإسلام، شهد بدراً، توفي سنة ٣٧ هـ. الإصابة ٢/٦٥٨.

وباع وابتاع. (ابتغاء مرضاة الله) أي طلب [يشتري نفسه ودينه][١] رضاء الله ﴿وَٱللَّهُ رَؤُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي رحيم بهم ثم صارت هذه الآية عامة لجميع الناس من بذل ماله ليصون به نفسه ودينه فهو من أهل هذه الآية.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾. قرأ[٢] نافع وابن كثير والكسائي: (السلم) بنصب السين وقرأ الباقون: بالكسر (والسلم) بالكسر هو الإسلام والسلم بالنصب هو المسالمة والصلح ويقال: السلم والسلم في اللغة[٣]: هو الصلح قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فيمن أسلم من أهل الكتاب كانوا يتقون السبت ويحرمون أكل لحوم الجمال فنزلت: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة). أي في شرائع دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُواتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ يعني طاعات الشيطان. قال مقاتل: استأذن عبد الله بن سلام وأصحابه بأن يقرءوا التوراة في الصلاة وأن يعملوا ببعض ما في التوراة [فنزل قوله][٤]: ﴿ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فإن اتباع السنة الأولى ـ بعدما بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خطوات الشيطان. وقال بعضهم ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ أي اثبتوا على شرائع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تخرجوا منها وقوله: (كافة) أي عبارة عن الجميع فيجوز أن يكون معناه ادخلوا جميعاً ويجوز أن يكون معناه: ادخلوا في جميع شرائعه ولا تتبعوا خطوات الشيطان أي لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليها الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُم﴾ أي ملتم عن شرائع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشرائعه ﴿فَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز بالنعمة حكيم في أمره وقال مقاتل أي حكيم حكم عليهم بالعذاب الشديد.

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ هل في القرآن على سبعة أوجه[٥]. في موضع يراد بها (قد) كقوله: (هل أتاك) أي قد أتاك. ومرة يراد بها (الاستفهام) كقوله (هل إلى مرد من سبيل) ومرة يراد بها (السؤال) كقوله (فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً) ومرة يراد بها (التفهيم) كقوله: (هل أدلكم على تجارة) ومرة يراد بها (التوبيخ) كقوله (هل أنبؤكم على من تنزل الشياطين) [ومرة][٦] يراد بها (الأمر) كقوله (فهل أنت منتهون) أي انتهوا ومرة يراد بها (الجحد) كقوله في هذا الموضع: (هَلْ يَنْظُرُونَ ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ما ينظرون. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هذا من

---

(١) من ظ.

(٢) راجع حجة القراءات لابن زنجلة (٦٠٨).

(٣) راجع اللسان: سلم.

(٤) سقط من ظ.

(٥) راجع ذلك في البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/٤٥٧، ٤٥٨.

(٦) في ظ [وقد يذكر].

المكتوم الذي لا يفسر. . . وروى عبد الرزاق[١] عن سفيان الثوري[٢] قال: قال ابن عباس تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير يعلمه العلماء وتفسير تعرفه العرب وتفسير لا [يقدر][٣] أحد عليه لجهالته وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل ومن ادعى علمه فهو كاذب وهذا موافق لقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) [(وكذلك هذه الآية سكت بعضهم عن تأويلها وقالوا: لا يعلم تأويله إلا الله)][٤] وبعضهم تأولها فقال: هذا وعيد للكفار فقال: (هل ينظرون) أي ما ينتظرون ولا يؤمنون (إلا أن يأتيهم الله) يعني أمر الله تعالى كما قال في موضع آخر (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) يعني أمر الله وقال بعضهم: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) يعني بما وعد لهم من العذاب ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ يعني في غمام فيه ظلمة [وقيل في ظلل يعني بظلل][٥] وقال: على غمام فيه ظلمة. ﴿وَٱلْمَلَائِكَةُ﴾ قرأ أبو جعفر بكسر الهاء يعني في ظلل من الغمام وفي الملائكة قال قتادة وهي قراءة شاذة والقراءة المعروفة بالضم يعني تأتيهم الملائكة[٦]. وقال قتادة (والملائكة) يعني تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ويقال: يوم القيامة ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي فرغ مما يوعدون يعني دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني عواقب الأمور. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر (ترجع) بنصب التاء ويكون الفعل للأمور وقرأ الباقون: بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله[٧].

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم﴾ قال مقاتل: معناه سل علماء بني إسرائيل كم أعطيناهم ﴿مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ حين فرق لهم البحر وأغرق عدوهم وأنزل عليهم المن والسلوى. ويقال: (كم آتيناهم من آية بينة) يعني نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي يغير نعمة الله تعالى ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعني يقول إذا لم يشكر نعمة الله تزول عنهم النعم ويستوجبوا العقوبة.

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ قال الكلبي: نزلت في شأن رؤساء[٨] قريش زين لهم ما بسط لهم [في الدنيا][٩] من الخير ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟﴾ في أمر المعيشة لأنهم كانوا فقراء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ أي

---

(١) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم أبو بكر الصنعاني، ثقة، حافظ، مصنف، مات سنة إحدى عشرة، التقريب ١/٥٠٥.

(٢) من ظ. (٣) في ظ [يعذر]. (٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) في ظ [ويقال على غمام فيه ظلمة].

(٦) هي بكسر التاء عطفاً على الغمام، وقوله «قراءة شاذة» ليس صواباً، بل هي قراءة صحيحة متواترة، وقراءة الرفع عطفاً على لفظ الجلالة.

انظر: الدرة المتممة والإتحاف والنشر لابن الجزري «سورة البقرة».

(٧) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٠، ١٣١. (٨) من ظ. (٩) في أ [فيها].

أطاعوا الله وهم فقراء المؤمنين ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ أي فوق المشركين في الجنة والحجة في الدنيا. وقد اختلفوا في قوله: (زين للذين كفروا) قال بعضهم: يعني زينها لهم إبليس لأن الله تعالى قد زهد فيها وأعلم أنها متاع الغرور ولكن الشيطان زين لهم الأشياء كما قال في آية أخرى (وزين لهم الشيطان أعمالهم [وقال في آية أخرى (وزينا لهم أعمالهم) فكان ذلك مجازاة لكفرهم][1] [وقال بعضهم: معناه أن الله تعالى زين لهم لأنه خلق فيهم الأشياء العجيبة][2] فنظر إليها الذين كفروا فاغتروا بها وروي عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يقول الله تعالى لملائكته: لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من ذهب ولصببت عليه الدنيا صباً[3] ومصداق ذلك في القرآن (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) الآية وقال عليه الصلاة والسلام: لو كانت الدنيا تزن عند الله[4] جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء[5] ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يرزق (من يشاء رزقاً كثيراً لا يعرف حسابه). ويقال (بغير حساب) أي يرزقه ولا يطلب منه حسابه بما يرزقه ويقال: بغير حساب أي ليس له أحد يحاسبه منه بما يرزقه ويقال: بغير حساب أي بغير احتساب. كما قال في آية أخرى (ويرزقه من حيث لا يحتسب) وكل ما في القرآن: (يرزق من يشاء بغير حساب) فهو على هذه الوجوه الأربعة.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال الزجاج[6]: الأمة على وجوه منها القرن من الناس كما يقال: مضت أمم أي قرون والأمة: الرجل الذي لا نظير له ومنه قوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة) والأمة: الدين وهو الذي قال هاهنا: (كان الناس أمة واحدة) أي على دين واحد وعلى ملة واحدة. وقال بعضهم: كان الناس كلهم على دين الإسلام جميع من كان مع نوح في السفينة ثم تفرقوا. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقال بعضهم: كان الناس كلهم كفاراً في عهد نوح وعهد إبراهيم عليهما السلام فبعث الله للناس النبيين إبراهيم وإسماعيل، ولوطاً وموسى ومن بعدهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنة لمن أطاع الله، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالنار لمن عصى الله ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: بالعدل ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي يقضي بينهم ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من[7] [أمور] الدين ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الدين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ يعين أعطوا الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي البيان من الله ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ يعني اختلفوا فيه حسداً بينهم ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي هداهم ووفقهم حتى أبصروا

---

(١) ما بين المعقوفين من أ.
(٢) ما بين المعقوفين من ظ.
(٣) نسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧ لابن مردويه عن ابن عباس.
(٤) في ظ [الله قدر].
(٥) أخرجه الترمذي. كذا في التحفة ٦/٦١١ وابن ماجه في الزهد ٢/١٣٧٧ (٤١١٠) والسيوطي في الدر المنثور ٦/١٧ وابن حجر في المطالب (٣١٧٢) والخطيب في التاريخ ٤/٩٢ والقرطبي ٦/٤١٥، ١٦/٨٨، وذكره الهيثمي في المجمع بنحوه ١٠/٢٨٨.
(٦) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٧٤.
(٧) سقط من ظ.

الحق من الباطل (بأذنه) بتوفيقه ويقال: برحمته ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني الإسلام [وقال بعضهم فهدى][1] الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق [بإذنه][2] أي بعصمته والله [يعصم][3] من يشاء إلى دين الإسلام ويقال: يوفق الله بتوفيقه إذا جهدوا في طلب الحق (والله يهدي) أي يوفق من يشاء إلى صراط مستقيم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ يقول: ظننتم ـ أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ من أتباع الرسل من قبلكم أي لم يأتكم صفة الذين مضوا من قبلكم يعني لم يصبكم مثل الذي أصاب من قبلكم. ويقال لم تبتلوا بمثل الذي ابتلي من قبلكم. ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾. البأساء: الشدة والبؤس والضراء: الأمراض والبلاء ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ /أي حركوا وأجهدوا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾. قال مقاتل: يعني شعيب النبي صلى الله عليه وسلم وهو اليسع. وقال الكلبي: هذا في كل رسول بعث إلى أمته واجتهد في ذلك حتى قال: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ روي عن الضحاك أنه قال: يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ[4] ومعنى ذلك أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا كما ابتلي الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا فيصيبكم مثل ذلك حتى يقول: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) يعني فتح الله تعالى قريب أي فتح الله تعالى إلى مكة عاجلاً. وإنما ظهر لهم ذلك في يوم الأحزاب فأصابهم خوف شديد وكانوا كما قال الله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) فصدق الله وعده وأرسل عليهم[5] ريحاً وجنوداً[6] وهزم[7] الكفار فذلك قوله تعالى: (ألا إن نصر الله قريب) قرأ نافع: (حتى يقول الرسول) بالرفع على معنى المستأنف[8]. وقرأ الباقون: بالنصب على معنى الماضي[9].

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما حثهم على الصدقة قال عمرو بن الجموح: يا رسول الله: كم ننفق وعلى من ننفق؟ فنزلت هذه الآية: (يسألونك ماذا ينفقون) أي ماذا يتصدقون من أموالهم. ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ أي من مال ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني أنفقوا على الوالدين والقرابة وعلى جميع المساكين فهذا جواب لقولهم: على من ننفق؟ ونزل في جواب قولهم: ماذا ننفق؟ قوله تعالى: (قل العفو) أي الفضل من المال ثم نسخ ذلك بآية الزكاة. وقال بعضهم:

---

(١) في ظ [ويقال فعصم]. (٢) من أ.
(٣) في ظ [يهدي]. (٤) ذكره ذلك القرطبي عنه ٣/٣٥. (٥) في أ [رسلاً ريحاً].
(٦) في ظ [وجنود لم تروها]. (٧) في ظ [وهزموا].
(٨) وحجته: إنها بمعنى قال الرسول على الماضي وليست على المستقبل، وإنما ينصب من هذا الباب ما كان مستقبلاً مثل قوله «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» «حتى يأتي وعد الله»، فرفع «يقول» ليعلم أنه ماض. ، انظر حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣١.
(٩) وحجتهم: أنها بمعنى الانتظار وهو حكاية حال. ابن زنجلة ١٣١.

آية الزكاة نسخت كل صدقة كانت قبلها. وقال بعضهم: هذه الآية ليست بمنسوخة وإنما فيها بر الوالدين وصلة الأرحام. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾. أي يجازيكم به.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليكم القتال ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي شاق عليكم وذلك أن الله تعالى لما أمرهم بالجهاد كرهوا الخروج وإنما كانت كراهيتهم له لأنه كان في الخروج عليهم مشقة لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى. ثم قال ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً﴾ يعني الجهاد ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن فيه فتحاً وغنيمة وشهادة وفيه إظهار الإسلام ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو الجلوس عن الجهاد لأنه يسلط عليكم عدوكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أن الجهاد خير لكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [أن ذلك خير][1] حين أحببتم القعود عن الجهاد [ويقال: والله يعلم ما كان فيه صلاحكم وأنتم لا تعلمون ذلك قوله تعالى][2]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾. وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث عبد الله بن جحش[3] مع تسعة رهط في جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين إلى عير لقريش فلقوا العير وكان ذلك في آخر الشهر فأمر عبد الله بن جحش بعض أصحابه فحلق رأسه فلما رآهم المشركون آمنوا وظنوا أنه دخل رجب فقاتلهم المسلمون وأخذوا أموالهم فعيرهم المشركون بذلك فنزلت هذه الآية: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) قال الزجاج[4]: معناه يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. وقال القتبي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام هل يجوز؟ فأبدل قتالاً من الشهر الحرام ﴿قُلْ: قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي عظيم عند الله وتم الكلام ثم قال: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول منع الناس عن الكعبة أن يطاف بها ﴿وكفر به﴾ أي بالله تعالى ويقال: ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي بالحج قوله ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وإنما صار خفضاً لأنه عطف على سبيل الله كأنه قال: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وكفر بالله تعالى ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أي من المسجد ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي أعظم عقوبة عند الله من القتال في الشهر الحرام ﴿والفتنة﴾ يعني الشرك ﴿أكبر من القتل﴾ أعظم عقوبة من القتل في الشهر الحرام ثم قال ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ الإسلام إلى دينهم الكفر ﴿إِنْ ٱسْتَطَاعُوا﴾ يعني إن قدروا على ذلك ولكنهم لا يقدرون عليه ثم هدد المسلمين ليثبتوا على دينهم الإسلام فقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ الإسلام ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بالله

(١) في ظ [ذلك]. (٢) ما بين المعقوفين من ظ.
(٣) عبد الله بن جحش بن دياب الأسدي، أول أمير في الإسلام عقدت له الراية، استشهد بأحد الإصابة ٤/ ٣٥.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٨١.

تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت حسناتهم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ يعني لا يكون لأعمالهم التي عملوا ثواب كما قال في آية أخرى: (فجعلناه هباءً منثوراً) وقال تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) ﴿وَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون. قال الفقيه: حدثنا أبو إبراهيم محمد بن سعيد قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا إبراهيم بن داود قال: حدثنا المقدمي[1] عن المعتمر بن سليمان[2] عن أبيه قال: حدثنا الحضرمي عن أبي السوار[3] عن جندب بن عبد الله[4] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث رهطاً وبعث عبد الله بن جحش وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال: لا تكره أحداً من أصحابك على المسير فلما بلغ المكان قرأ الكتاب فاسترجع ثم قال: [السمع والطاعة][6] لله ولرسوله فرجع رجلان ومضى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب فقال المشركون: [قتلهم محمد في الشهر الحرام فأنزل الله تعالى الآية (يسألونك عن الشهر الحرام. . .) إلى آخر الآية][7] فقال المشركون: إن لم يكن عليهم وزر فليس لهم أجر[7].

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

فنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوْا﴾ من مكة ﴿وَجَاهَدُوْا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طاعة الله بقتل ابن الحضرمي ﴿أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ينالون جنة الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بقتالهم في الشهر الحرام ثم نسخ تحريم القتال في الشهر الحرام وصار مباحاً بقوله تعالى: (فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة) فنهاهم الله[8] عن ظلم أنفسهم بالسيئات والخطايا وأمرهم بالقتال عاماً وروى أبو يوسف عن الكلبي أن القتال في الشهر الحرام لا يجوز. وقال أبو جعفر الطحاوي: لا نعلم أن أهل العلم اختلفوا أن قتال المشركين في الشهر الحرام غير جائز. وروي عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن قتال الكفار في الشهر الحرام فقال لا بأس به وكذلك قال سليمان بن يسار[9] وغيره.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ

(١) محمد بن أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدم المقدمي، أبو عبد الله الثقفي مولاهم البصري، توفي سنة ٧٣٤ هـ، التهذيب ٧٩/٩.

(٢) أبو محمد البصري التيمي، ثقة صدوق، التهذيب ٢٢٧/١٠.

(٣) حسان بن حريث العدوي البصري، من الثقات، التهذيب ١٢٣/١٢ ـ ٢٤٨/٢.

(٤) أبو عبد الله جندب بن عبد الله بن شعبان، التهذيب ١١٧/٢.

(٥) في أ [سمعاً وطاعةً]. (٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) ذكره ابن جرير في التفسير ٣٠٦/٤.

(٨) في أ [الله ثم نسخ تحريم القتال في الشهر الحرام].

(٩) سليمان بن يسار الهلالي، أبو أيوب مولى ميمونة، ثقة مأمون، فقيهاً، كثير الحديث، التهذيب ٢٢٩/٤.

يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ قال بعض المفسرين: إن الله لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا وقد أعطى هذه الأمة ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب لهم الشرائع دفعة واحدة ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة فكذلك في تحريم الخمر كانوا مولعين على شربها فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر) أي عن شرب الخمر والميسر هو القمار ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في تجارتهم ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير ولم يتركها بعض الناس وقالوا[1]: نأخذ منفعتها ونترك إثمها ثم نزلت هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فتركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما يمنعنا عن الصلاة وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة حتى نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا: إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآية فصارت حراماً عليهم حتى كان بعضهم يقول: ما حرم علينا شيء أشد من الخمر. وقيل: إثم كبير في أخذها ومنافع في تركها. وروي أن الأعشى توجه إلى المدينة ليسلم فلقيه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا لا تصل[2] إليه فإنه يأمرك بالصلاة فقال: إن خدمة الرب واجبة فقالوا له: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء فقال إن اصطناع المعروف واجب فقيل له إنه ينهي عن الزنا فقال: إن الزنا فحش قبيح في العقل وقد صرت شيخاً فلا أحتاج إليه فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر قال: أما هذا فإني لا أصبر عنه فرجع. وقال: أشرب الخمر سنة ثم ارجع إليه فلم (يبلغ)[3] إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسر عنقه فمات. وقال بعضهم في هذه الآية ما يدل على تحريمه لأنه سماها إثماً وقد حرم الإثم في آية أخرى وهي قوله تعالى: (قل: إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي) وقال بعضهم أراد [بالإثم][4] الخمر بدليل قول الشاعر[5]:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

وروي عن جعفر الطيار أنه كان لا يشرب الخمر في الجاهلية وكان يقول: الناس [يطلبون][6] زيادة العقل فأنا لا أنقص عقلي. وأما الميسر فكانوا يشترون جزوراً ويضربون سهامهم فمن خرج سهمه أولاً يأخذ نصيبه من اللحم ولا يكون عليه من الثمن شيء ومن بقي سهمه آخراً فكان عليه ثمن الجزور كله [وليس][7] له من اللحم شيئاً. وقال عطاء ومجاهد: الميسر القمار (كله)[8] حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب. قرأ حمزة [والكسائي][9]: (قل فيهما إثم كبير) بالثاء من الكثرة والباقون (بالياء)[10] كبير[11] أي ذنب عظيم. قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي ماذا يتصدقون. ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي الفضل من المال يريد أن يعطي ما فضل من قوته وقوت عياله ثم نسخ بآية الزكاة. وقرأ أبو عمرو: (قل العفو) بالرفع يعني الإنفاق وهو الزكاة هو العفو وقرأ الباقون: بالنصب يعني أنفقوا الفضل[12]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ﴾ يعني أمره ونهيه كما يبين لكم أمر الصدقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يعني في الدنيا أنها لا تبقى ولا تدوم ولا يدوم إلا العمل الصالح وفي الآخرة أنها تدوم وتبقى ولا

---

(١) سقط في ظ.
(٢) في ظ [لا تقصد].
(٣) في ظ [يصل].
(٤) في ظ [به].
(٥) البيت في اللسان: اثم. غير منسوب.
(٦) في ظ [يظلمون].
(٧) في ظ [ولم يكن].
(٨) سقط من ظ.
(٩) سقط من أ.
(١٠) انظر / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(١١) من ظ.
(١٢) حجة القراءات ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

تزول. وقال بعضهم: معناه كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا لعلكم تتفكرون في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ﴾ يقول: عن مخالطة اليتامى وذلك أنه لما نزلت هذه الآية (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً). تركوا مخالطتهم فشق عليهم ذلك وكان عند الرجل منهم يتيم فجعل له بيتاً على حدة وطعاماً على حدة ولا يخالطه بشيء من ماله فقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، قد أنزل الله آية في أموال اليتامى ما قد أنزل من الشدة فعزلناهم على حدة أفيصلح لنا أن نخالطهم؟ فنزلت هذه الآية (يسألونك عن اليتامى) [أي عن مخالطة اليتامى][١] ﴿قُلْ: إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ يقول: (أي لما لهم)[٢] خير من ترك مخالطتهم ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ أي تشاركوهم في النفقة والخدمة والدابة ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين. ويقال: الامتناع منه خير وإن تخالطوهم فهم إخوانكم. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لمال اليتيم ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [بماله][٣] يعني لا بأس بالخلطة، وإذا قصدت به الإصلاح ولم تقصد به الإضرار به [ثم قال][٤] ﴿وَلو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾. قال القتبي: ولو شاء الله لضيق عليكم ولشدد عليكم ولكنه لم يشأ إلا التسهيل عليكم وقال الزجاج[٥]: (لأعنتكم) [معناه][٦] لأهلككم: وأصل العنت في اللغة من [قول العرب][٧] عنت البعير إذا انكسرت رجله وحقيقته ولو شاء الله لكلفكم ما يشتد عليكم. وقال الكلبي (وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ) في مخالطتهم فجعلها حراماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقد ذكرناها.

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾. نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان يأتي مكة ويخرج منها أناساً من المسلمين [كانوا بها][٨] سراً من أهل مكة فلما قدم مكة جاءته امرأة يقال لها عناق كانت بينهما خلة في الجاهلية فقالت له هل لك أن تخلو بي فقال لها: يا عناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك وقد حرمت علينا ولكني أسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أتزوجك إن شئت فلما رجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله عن ذلك فنزلت هذه الآية: (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ يقول: نكاح أمة مؤمنة ﴿خَيْرٌ مِّن﴾ نكاح حرة ﴿مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي أعجبكم نكاحها ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: لا تنكحوا نساءكم المشركين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِن﴾ تزويج ﴿مُّشْرِكٍ﴾ حر ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني إلى عمل أهل النار ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ يعني إلى التوحيد والتوبة (بإذنه) أي بأمره ويقال: يدعوكم إلى مخالطة المؤمنين لأن ذلك أوصل إلى الجنة والمغفرة بإذنه أي بعلمه الذي يعلم أنه أوصل لكم إليها ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي أمره ونهيه في أمر التزويج ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ينتهون عن المعاصي والنكاح الحرام. ويقال: أن رجلاً من الأنصار أعتق جارية له فأراد رجل من قريش أن يتزوجها فعيروه بذلك فنزلت هذه الآية (ولأمة مؤمنة خير من مشركة).

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ. (٢) سقط من ظ. (٣) في ظ [لما له]. (٤) من ظ.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٨٧، ومجاز القرآن ١/ ٧٣.
(٦) من ظ. (٧) من ظ. (٨) من ظ.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

ثم قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ قال ابن عباس: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له: عمرو بن الدحداح سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله كيف نصنع بالنساء إذا حضن؟ أنقربهن أم لا؟ فنزل[1] (قوله تعالى) (ويسألونك عن المحيض) يقول عن النساء إذا حضن ويقال: ويسألونك عن مجامعة النساء في المحيض. ﴿قُلْ: هُوَ أَذًى﴾ يعني الدم هو قذر نجس ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾ أي لا تجامعوهن [في حال][2] الحيض ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ [يعني لا تجامعوهن وهن حيض ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾][3]. قرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية أبي بكر: (حتى يطهرن) بتشديد الطاء والهاء والنصب والباقون: بالتخفيف أي يغتسلن وأصله (يتطهرون) فادغمت التاء في الطاء فصار (يطهرن) فمن قرأ (يطهرن) أي يغتسلن ومن قرأ (يطهرن) أي حتى يطهرن من الحيض[4] قال الفقيه الزاهد نعمل بالقراءتين جميعاً فإن كانت المرأة أيام حيضها أقل من عشرة أيام فلا يجوز أن يقربها ما لم تغتسل أو يمضي عليهاوقت صلاة وإن كانت أيام حيضها عشرة فإذا انقطع عنها الدم وتمت العشرة جاز له أن يقربها بغير غسل. ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ يعني أي اغتسلن من الحيض ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي جامعوهن من حيث رخص لكم الله في موضع الجماع. ويقال: لما نزلت هذه الآية (فاعتزلوا النساء في المحيض) اعتزلوا النساء في أيام الحيض وأخرجوهن من البيوت فقدم أناس من الأعراب وقالوا: يا رسول الله البرد (شديد)[5] وقد اعتزلنا النساء وليس كلنا يجد سعة لذلك فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أمركم أن تعتزلوا (النساء عن)[6] مجامعتهن ولم يأمركم أن تخرجوهن من البيوت كما تفعل الأعاجم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ﴾ (يعني التوابين من الشرك)[7] والذنوب ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي من الجنابة والأحداث. ويقال: ويحب المتطهرين من إتيانهن في المحيض في أدبارهن يتنزهون عن ذلك ويقال: (ويحب التوابين من الذنوب والمتطهرين) الذين لم يذنبوا. فإن قيل: كيف قدم بالذكر الذي تاب من الذنوب على الذي لم يذنب؟ قيل له: إنما قدمهم لكيلا يقنط التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه كما ذكر في آية أخرى: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) ثم قال عز وجل: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ يقول: مزرعة لكم للولد ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ والحرث في اللغة هو الزرع فسمى النساء حرثاً على وجه الكناية أي هن للولد كالأرض للزراعة قوله ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي كيف شئتم إن شئتم مستقبلين وإن شئتم مستدبرين [إذا كان في صمام واحد وذلك أن اليهود كانوا][8] يقولون: لا يجوز إتيان النساء إلا مستلقياً وكانوا يقولون إذا أتاها من خلفها يكون الولد أحول [فنزل قوله تعالى][9] (فاتوا حرثكم أنى شئتم)[10] [قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينظر الله عز

---

(١) في ظ [فنزلت]. (٢) في أ [وهن]. (٣) في أ [حتى يطهرن].
(٤) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٤، ١٣٥. (٥) من ظ. (٦) سقط من ظ. (٧) سقط من ظ.
(٨) ما بين المعقوفين من ظ. (٩) في ظ [فنزلت هذه الآية].
(١٠) أخرجه البخاري ٨/١٨٩ في التفسير والترمذي ٨/٣٢١ كما في تحفة الأحوذي

وجل إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها. وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ملعون من أتى امرأة في دبرها](١) ثم قال تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ من الولد الصالح. ويقال قدموا لأنفسكم من العمل الصالح. ويقال: سموا الله أي قولوا بسم الله الرحمن الرحيم عند(٢) ذلك. ثم قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي اخشوا الله ولا تقربوهن في حال الحيض ولا في أدبارهن ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أي تصيرون إليه يوم القيامة. فيجزيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يحافظون على حدود الله ويصدقون بوعده.

وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي علة وأصل العرضة في اللغة(٣): هو الإعتراض فكأنه يعترض باليمين في كل وقت فيكون كناية عن العلة. وقيل: العرضة أن يحلف (الرجل)(٤) في كل شيء فمنعوا من ذلك ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾ يعني لكي تبروا وتتقوا لأنهم إذا أكثروا اليمين لم يبروا وبهذا أمر أهل الإيمان [وقال الفراء (ولا تجعلوا الله عرضة) الحلف بالله متعرضاً أي مانعاً لكم دون البر والمتعرض بين الشيئين المانع](٥) وقال القتبي: لا تجعلوا الله بالحلف مانعاً لكم أن تبروا وتتقوا ولكن إذا حلفتم على أن لا تصلوا رحماً ولا تتصدقوا ولا تصلحوا أو على (شبه)(٦) ذلك من أبواب البر فكفروا اليمين وقال الكلبي: هذه الآية نزلت في عبد الله [بن رواحة الأنصاري](٧) حين حلف أن لا يدخل على ختنه بشير بن النعمان ولا يكلمه فجعل يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل ولا يحل لي (أن لا أبر)(٨) في يميني فنزل قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) يقول: علة لأيمانكم (أن تبروا) يعني تصلوا قرابتكم وتتقوا اليمين في المعصية وترجعوا إلى ما هو خير لكم منها ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بين إخوانكم وروي عن عكرمة عن عبد الله بن عباس أنه كان يقول: لا تحلفوا أن لا تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فمن حلف على شيء(٩) منه فعلى الذي حلف عليه أن يفعل ويكفر عن يمينه. وقال الزجاج(١٠): معنى الآية بأنهم كانوا يقبلون في البر بأنهم قد حلفوا فأعلم الله تعالى أن الإثم إنما هو في الإقامة في ترك البر واليمين إذا كفرت فالذنب فيها مغفور. ثم قال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي بالإثم في الحلف إذا كفرتم ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بعزمكم على أن لا تبروا ولا تتقوا قال ابن عباس (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وهو أن يحلف الرجل بالله في شيء يرى أنه فيه صادق ويرى أنه كذلك وليس كذلك فيكذب فيها ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم يعني هو أن يحلف على شيء ويعلم أنه فيها كاذب. ويقال: لا يؤاخذكم الله باللغو في اليمين إذا حلفتم وكفرتم إذا كان الحنث خيراً ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم

---

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) في ظ [سموا الله تعالى عند ذلك].

(٣) قال ابن منظور) عرضة «في الآية أي: نصباً لأيمانكم».

وقال الفراء: لا تجعلوا الحلف بالله معترضاً مانعاً لكم أن تبروا، فجعل العرضة بمعنى المعترض ونحو ذلك. وقال الزجاج: المعنى: لا تعترضوا باليمين بالله في أن تبروا. . .، اللسان: عرض ص ٢٨٩٢.

(٤) في ظ [الإنسان]. (٥) سقط من ظ. (٦) في ظ [أشباه].

(٧) من ظ. (٨) في ظ [إلا أن أبر]. (٩) في أ [ذلك]. (١٠) معاني القرآن وإعرابه ١/٢٩٢.

أي أثمتم بغير كفارة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن حنث وكفر بيمينه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث رخص لكم في ذلك ولم يعاقبكم. ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِم﴾ يعني الذين يحلفون أن لا يجامعوا نساءهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ يعني لهم أجل أربعة أشهر بعد اليمين ﴿فَإِن فَآءُوا﴾ يعني إن رجعوا[١] عن اليمين وجامعوا نساءهم)[٢] من قبل أن تمضي أربعة أشهر بعد اليمين وكفروا عن أيمانهم ولا تبين المرأة عن الزوج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ
لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ
أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ
مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن
يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ
زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا
تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ
وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ يعني أوجبوا الطلاق بترك الجماع حتى مضت أربعة أشهر وقعت عليها تطليقة بمضي أربعة أشهر. وقال بعضهم: لا يقع الطلاق ولكن يؤمر الزوج بعد مضي أربعة أشهر أن يجامعها أو يطلقها. وقال بعضهم يقع الطلاق بمضي أربعة أشهر وهو قول علمائنا. وروي عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود أنهما قالا عزيمة الطلاق انقضاء أربعة أشهر وذلك قوله تعالى (وإن عزموا الطلاق) أي أوجبوا الطلاق بترك الجماع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم بكلمة الإيلاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم. ﴿وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ يعني وجب عليهن العدة ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي ثلاث حيض وقال بعضهم: ثلاثة أطهار وقال أكثر أهل العلم: المراد به الحيض وأصل القرء: الوقت وظاهر الآية عام في إيجاب العدة على جميع المطلقات ولكن المراد به الخصوص لأنه لم يدخل في الآية خمس من المطلقات الأمة والصغيرة والآيسة والحامل وغير المدخولة. ثم قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن

(١) في أ [رجعوا قال القتبي آليت من امرأتي أولى إيلاء والإسم الألية].

(٢) سقط من ظ.

﴿يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ يعني الحمل والحيض لا يحل لها أن تقول إني حامل وليست بحامل أو إني حائض وليست بحائض ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يقول إن كن يصدقن بالله واليوم الآخر ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحاً﴾ يعني للنساء على الأزواج من الحقوق مثل ما للرجال على النساء يعني في حال التربص إذا كان الطلاق رجعياً ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يقول بما عرف شرعاً ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي فضيلة في النفقة والمهر ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيما حكم من الرجعة في الطلاق الذي يملك فيه الرجعة. ثم بين الطلاق الذي يملك فيه الرجعة فقال تعالى ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ يعني يقول الطلاق الذي يملك فيه الرجعة تطليقتان. ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني إذا راجعها يمسكها بمعروف ينفق عليها ويكسوها ولا يؤذيها ويحسن معاشرتها ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ يعني يؤدي حقها ويخلي سبيلها. ويقال: (أو تسريح بإحسان) يعني يطلقها التطليقة الثالثة ويعطي مهرها ويقال: يتركها حتى تنقضي عدتها (ويقال يؤتي حقها ويخلي سبيلها ويقال أو تسرح بإحسان)(١) قال ابن عباس: كان أهل(٢) الجاهلية إذا طلق (امرأته)(٣) تطليقة أو تطليقتين كان الزوج(٤) أحق بها وإذا طلقها الثالثة كانت المرأة أحق بنفسها واحتج بقول الأعشمي وكانت امرأته من بني مروان(٥) فأخذه بنو مروان حتى يطلق امرأته فلما طلقها واحدة قالوا له: عد فطلقها الثانية قالوا له: عد فطلقها الثالثة فعرف أنها بانت منه ولا تحل له فقال عند ذلك:(٦)

أَيَا جَارتِي بِيني فإنَّكِ طالقه ... كذاك أمورُ الناس غادٍ وطارقَه
[وبيني فإنَّ البَيْنَ خَيْرٌ من العَصَا ... وأن لا تزالُ فَوْقَ رَأْسِك بارقة
وذوقي فتى الحي إني ذائق ... فتاة أناس مثل ما أنت ذائقة
لقد كان في شأن قومك منكحٌ ... وفتيان هزان الطوال العرايضه](٧)

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾ نزلت في جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول وزوجها ثابت بن قيس وكانت تبغضه فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: لا أنا ولا ثابت فقال لها: أتردين عليه حديقته فقالت: نعم وزيادة فقال: أما الزيادة فلا فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوجها وخلعها من زوجها(٨) فذلك قوله تعالى: (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) من المهر ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ يعني: يعلما ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي أمر الله فيما أمر ونهى. قرأ حمزة (يخافا) بضم الياء على فعل ما لم يسم فاعله والباقون: بالنصب وقرأ ابن مسعود:(٩) (إلا أن يخافوا) ثم قال ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ يقول: إن علمتم أن لا يكون بينهما صلاح في المقام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ﴾ أي لا حرج على الزوج أن يأخذ مما افتدت به المرأة إن كان النشوز من قبل المرأة فأما إذا كان النشوز من قبل الزوج فلا يحل له أن يأخذ بدليل ما قاله في آية أخرى: (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) ثم قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي أحكامه وفرائضه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي لا تجاوزوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي يتجاوز أحكام الله وفرائضه بترك ما أمر الله تعالى أو

(١) سقط من ظ. (٢) في أ [الرجل].
(٣) سقط من ظ. (٤) في أ [الرجل]. (٥) في أ [مزان].
(٦) راجع ديوان الأعشى ص ٤٤٨. (٧) ما بين المعقوفين من أ.
(٨) أخرجه البخاري ٩/ ٣٩٥ في الطلاق باب الخلع (٥٢٧٣).
(٩) قراءة ابن مسعود هذه لم تتواتر ولم يقرأ بها أحد من الأئمة السبعة.
انظر: شرح الحرز لأبي شامة، والمهذب للدكتور محيسن.

بعمل ما نهاه](١) ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ يقول: الضارون [الشاقون](٢) بأنفسهم. ويقال: (تلك حدود الله) يعني الطلاق مرتان فلا تجاوزوهما إلى الثالثة ومن يتعد حدود الله بالتطليقة الثالثة فأولئك هم الظالمون ﴿فإنْ طَلَّقَهَا﴾ الثالثة ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الثالثة ﴿حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أي تتزوج بزوج آخر ويدخل بها وإنما عرف الدخول بالسنة وهو ما روي عن ابن عباس أن رفاعة القرظي طلق امرأته ثلاثاً (وكانت تدعى تميمة بنت وهب)(٣) فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير [(فأتت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالت: إن رفاعة طلقني فبت طلاقي فتزوجني عبد الرحمن](٤) ولم يكن عنده إلا كهدبة الثوب فقال لها: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة فقالت نعم قال: ليس ذلك ما لم تذوقي من عسيلته ويذوق من عسيلتك(٥). فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ يعني إذا طلقها الثالثة. قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني واحدة أو اثنتين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ يعني المرأة والزوج ﴿أَن يَتَرَاجَعَا﴾ ويقال: فإن طلقها الزوج الثاني بعدما دخل عليها فلا جناح عليهما يعني المرأة والزوج الأول (أن يتراجعا) يعني أن يتزوجها مرة أخرى ﴿إِن ظَنَّا﴾ يعني إن علما ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي فرائض الله يقول إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني. قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي فرائض الله وأمره ونهيه وأحكامه ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويقال: إنما قال لقوم يعلمون لأن الجاهل إذا بين له فإنه لا يحفظ ولا يتعاهد والعالم يحفظ ويتعاهد فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجهال. ثم وقوله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي مضى عليهن ثلاث حيض قبل أن (يغتسلن)(٦) وقبل أن (يخرجن)(٧) من العدة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني يراجعها ويمسكها بالإحسان(٨) قوله ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (أولا)(٩) يراجعها ويتركها حتى تخرج من العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً﴾ والضرار في ذلك أن يدعها حتى إذا حاضت ثلاث حيض وأرادت أن تغتسل راجعها ثم طلقها يريد بذلك أن يطول عليها [عدتها](١٠) فنهى الله عن ذلك فقال تعالى: (ولا تمسكوهن ضراراً) ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ أي لتظلموهن ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الإضرار ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ يقول: أضر بنفسه بمعصيته في الإضرار. وقال الزجاج: (فقد ظلم نفسه) يعني عرض نفسه للعذاب لأن إتيان ما نهى الله عنه تعرض لعذاب الله لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير [موضعه]. ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً﴾ يعني القرآن لعباً ويقال إنهم كانوا يطلقون ولا يعدون ذلك طلاقاً ويجعلونه لعباً فنزل (ولا تتخذوا آيات الله هزوا). قرأ عاصم في رواية حفص: (هزواً) بغير همز وكذلك قوله: (كفواً أحد) والباقون: بالهمز. وهما لغتان، ومعناهما واحد. ثم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقول احفظوا نعمة الله عليكم بالإسلام ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ يقول احفظوا ما ينزل الله عليكم في القرآن من المواعظ (والحكمة) يعني الفقه في القرآن ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ يقول: ينهاكم عن الضرار ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الضرار ﴿وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالكم فيجازيكم به. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يقول: انقضت عدتهن ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يقول: لا تحبسوهن ولا تمنعوهن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بمهر ونكاح جديد وذلك أن معقل بن يسار(١١) كانت أخته

---

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) من أ. (٣) من أ. (٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) أخرجه البخاري ٥/٤٥٩ في الشهادات باب شهادة المختبىء (٢٦٣٩)، ومسلم ٢/١٠٥٥ في النكاح باب لا تحل المطلقة ثلاثاً (١١١/١٤٣٣).

(٦) في ظ [تغتسل]. (٧) في ظ [تخرج]. (٨) في أ [بإحسان].

(٩) في ظ [أي ولا]. (١٠) في ظ [العدة].

(١١) معقل بن يسار المزني، أسلم قبل الحديبية، وشهد بيعة الرضوان، التهذيب ١٠/٢٣٥.

تحت أبي الدحداح فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها ثم ندم فخطبها فرضيت وأبى أخوها أن يزوجها له وقال لها: وجهي من وجهك حرام إن تزوجتيه فنزلت هذه الآية ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي يؤمر به ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي يصدق بالله واليوم الآخر ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ يعني خير لكم ويقال: أصلح لكم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من الريبة (أي الزنا)[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ من حب كل واحد منهما لصاحبه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ويقال: ذلكم أطهر لقلوبكم من العداوة لأن المرأة تأتي الحاكم فيزوجها فتدخل في قلوبهم العداوة والبغضاء. وقال الضحاك: والله يعلم أن الخير في الوفاء والعدل وأنتم لا تعلمون ما عليكم بالتفريق من العقوبة ومن العذاب. وقال مقاتل: فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معقلاً وقال: إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك عن أبي الدحداح فقال آمنت بالله وزوجتها منه وفي هذه الآية دليل: أن الولي إذا منع المرأة عن النكاح كان للحاكم أن يزوجها.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ يعني سنتين كاملتين ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ يعني أن يكمل الرضاعة. فإن قيل: لما ذكر الحولين [فما الحاجة إلى][2] الكاملين؟ قيل له هذا للتأكيد لأن بعض الحولين يسمى حولين كما قال في آية أخرى: (الحج أشهر معلومات) وإنما هي (شهران وعشرة أيام فههنا لما ذكر الحولين[3] الكاملين علم أنه أراد الحولين بغير نقصان. ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ أي على الأب أجر الرضاع ونفقة الأم ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي على قدر طاقته ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني لا يجب على الأب من النفقة والكسوة إلا مقدار طاقته. ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ يقول: لا ينزع الولد من الأم لكونها أحق بولدها من غيرها. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ولا تضار) بضم الراء على معنى الخبر تبعاً لقوله (لا تكلف نفس إلا وسعها) ولفظه لفظ الخبر والمراد به النهي وقرأ الباقون: بالنصب على صريح النهي[4]. ويقال [أصله لا تضارر ثم أدغمت الراء في الراء][5] ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ يعني الأب لا يضار بالولد فتطرح الأم الولد [إليه][6] بعدما عرفت أنه لا يقبل ثدي غيرها فلا يجوز لها أن تفعل ذلك. ويقال: (ولا مولود له بولده) يعني إذا كان الأب يجد ظئراً أرخص من الأم والأم أبت أن ترضع إلا بأجر كثير فإن الأب لا يجبر على ذلك وله أن يدفع إلى ظئر أخرى. قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ يعني إذا (مات الأب)[7] وله وارث سوى الأب فعلى وارث الصبي مثل ما على الأب. ويقال على وارث الأب لا يضارها ولا تضاره ويقال مثل ذلك يعني الكسوة الرزق في رضاع الصبي ونفقته

---

(١) سقط من ظ. (٢) في أ [انشى معنى]. (٣) سقط من أ.

(٤) أما قراءة الرفع فلأن الفعل مضارع لم يسبقه ناصب ولا جازم، واعتبرت «لا» هنا ناهية ومعناه النهي، وذلك لأن الأمر قد يجيء على لفظ الخبر في التنزيل، ألا ترى قوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن﴾ ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾.

(٥) سقط من ظ. (٦) في ظ [على الأب]. (٧) في ظ [لم يكن للصبي أب وله ورثه].

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي فطاماً ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ يعني الأب والأم دون الحولين. ويقال: بعد الحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [إن لم يرضعاه سنتين) أي لا حرج عليهما](١) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ يعني أن تأخذوا ظئراً لأولادكم إذا أرادت الأم النكاح ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم﴾ ما أتيتم بالمعروف يعني لا إثم عليكم إذا أعطيتم الظئر(٢) ﴿مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (ما أعطيتم)(٣) بما تعرفونه. ويقال: أعطيتم ما شرطتم لهن. ثم خوفهما في الإضرار فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني الأبوين فلا يضار واحد منهما لصاحبه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الإضرار فيجازيكم به. قرأ ابن كثير: (ما أتيتم) بغير مد يعني ما جئتم وفعلتم وقرأ الباقون بالمد يعني ما أعطيتم(٤).

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ أي يموتون ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ أي يتركون نساء من بعدهم ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ يعني ينتظرن بأنفسهن ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ لا يتزوجن ولا يتزين ولا يخرجن [من بيوتهن ولا يتزين](٥) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي فلا إثم عليكم ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من الزينة والكحل والخضاب. وذلك أن المرأة إذا انقضت عدتها فكان أولياؤها يمنعونها من الزينة فأباح الله تعالى لهن الزينة بعد العدة. ويقال: فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني إذا تزوجن بزوج آخر إذا كان الزوج كفواً لها فلا يمنع من نكاحها ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الزينة والمنع من نكاحها وغير ذلك وهذه الآية عامة يستوي فيها المدخولة وغير المدخولة (ويستوي فيها)(٦) الصغيرة والكبيرة في وجوب العدة من الزينة والمنع وغير ذلك.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ فقد أباح للخاطب أن يتعرض للنكاح ونهاه عن الخطبة والعقد فقال: (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به) يقول: لا بأس بأن يأتي الرجل المرأة المتوفى عنها زوجها فيعرض لها ويقول: إنك لتعجبيني وإنك لموافقة لي فأرجو أن يكون بيننا اجتماع ونحو ذلك من الكلام فهذا هو التعريض من خطبة النساء(٧) ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني أضمرتم في أنفسكم. قال الزجاج(٨): كل شيء سترته فقد أكننته [وكننته](٩) فهو مكنون فلذلك أباح الله تعالى التعريض. ثم قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ يعني خافوا الله

---

(١) من أ.
(٢) في ظ [للظئر ما آتيتم بالمعروف].
(٣) سقط من ظ.
(٤) راجع / حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٧.
(٥) من أ.
(٦) سقط من ظ.
(٧) سقط من ظ.
(٨) معاني القرآن وإعرابه ١/٣١٢.
(٩) سقط من ظ.

في العدة من تزويجهن ﴿وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ يعني نكاحاً ويقال: جماعاً. وقال القتبي(١): سمي الجماع سراً(٢) لأنه يكون في السر فيكنى عنه ﴿إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني عدة حسنة نحو أنك لجميلة وإني فيك لراغب وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ يقول: ولا تحققوا عقدة النكاح يعني لا تتزوجوهن في العدة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني حتى تنقضي عدتها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يعني ما في قلوبكم من الوفاء وغيره ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ يعني أن تخالفوه فيما (أوجب عليكم)(٣) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي غفور ذو تجاوز حليم حيث لم يعجل عليكم بالعقوبة.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي (لا)(٤) حرج عليكم ﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي (تماسوهن) بالألف من المفاعلة وهو فعل بين اثنين وقرأ الباقون بغير ألف لأن الفعل للرجال خاصة(٥) وقال بعضهم: المس هو الجماع خاصة فما لم يجامعها لا يجب عليه تمام (المهر)(٦) وقال بعضهم: إذا جامعها أو خلا بها وجب عليه جميع الصداق إذا كان سمى لها مهراً [وإن لم يكن سمى لها مهراً](٧) فلها مهر مثلها إن دخل بها وإن لم يدخل بها فلها المتعة فذلك قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ يعني إذا تزوج الرجل امرأة ثم لم يعجبه المقام معها فلا بأس بأن يطلقها قبل أن يمسها قوله ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني لا حرج عليكم أن تتزوجوا النساء ولم تسموا لهن مهراً ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعني إذا طلقها قبل أن يدخل بها فعلى الزوج أن يمتعها ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم(٨) في رواية حفص: (قَدَره) بنصب الدال وقرأ الباقون بالجزم ومعناهما واحد قوله: ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي: أدنى ما يكون من المتعة ثلاثة أثواب درع وخمار وملحفة وهكذا قال في رواية الضحاك: ﴿حَقًّا﴾ [أي واجباً](٩) ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أن يمتعوا النساء على قدر طاقتهم ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يعني من قبل أن تجامعوهن وقبل أن تخلوا بهن هكذا قال في رواية الضحاك ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ يعني على الزوج نصف ما فرض لها من المهر ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ يعني إلا أن تترك المرأة فلا تأخذ شيئاً ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يعني الزوج يكمل لها جميع الصداق ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يقول: أن تعفوا بعضكم بعضاً كان أقرب إلى البر فأيهما ترك لصاحبه فقد أخذ بالفضل ويقال: إن الله تعالى ندب إلى الإنسانية فأمر كل واحد منهما بالعفو ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ يعني لا تتركوا الفضل والإنسانية فيما بينكم في إتمام المهر أو في الترك ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك.

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ٩٠. (٢) من ظ. (٣) سقط من ظ.
(٤) سقط من ظ. (٥) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٧ - ١٣٨. (٦) في ظ [الصداق].
(٧) من ظ.
(٨) وكذا ابن عامر، وراجع القراءتين في حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٧. (٩) في ظ [أي واجباً].

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿حافِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ والصَّلاة الوُسْطَى﴾ قال ابن عباس أي (حافظوا على الصلوات المكتوبات الخمس في مواقيتها بوضوئها وركوعها وسجودها ﴿وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى﴾ يعني الصلاة الوسطى خاصة حافظوا عليها. ويقال: هي صلاة العصر. ويقال هي صلاة الصبح ويقال: هي صلاة الظهر. حدثنا القاسم بن محمد بن روزية قال: حدثنا عيسى بن خشنام قال حدثنا سويد بن سعيد[1] عن مالك بن أنس عن داود بن الحصين[2] أنه بلغه عن رجل عن زيد بن ثابت أنه بلغه عن علي وابن عباس أنهما كان يقولان: صلاة الوسطى صلاة الصبح قال مالك وذلك رأي[3].
أخبرني القاسم بن محمد قال: حدثنا عيسى بن خنشام قال: حدثنا سويد بن سعيد بن مالك بن أنس عن داود بن الحصين عن رجل عن زيد بن ثابت أنه قال: صلاة الوسطى: صلاة الظهر[4] وبهذا الإسناد عن مالك عن زيد بن أسلم[5] عن القعقاع بن الحكم[6] عن أبي يونس مولى عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني فلما بلغتها آذنتها فأملت علي: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى: صلاة العصر[7]. قال الفقيه: حدثنا أبو إبراهيم الترمذي [عن أبي إسحاق عن أبي جعفر الطحاوي قال: حدثنا علي بن معبد[8] قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم[9] عن أبي إسحاق][10] عن أبي جعفر محمد بن علي عن (عمرو بن رافع) مولى عمر وكان يكتب المصاحف أنه قال: اكتبتني حفصة ابنة عمر مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى تأتيني فأمليها عليك كما حفظتها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما بلغتها أتيتها بالورقة فقالت: اكتب حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر[11]. ويقال: هي قراءة عبد الله بن مسعود. [وروي عن أبي هريرة وابن عمر أنهما قالا: صلاة الوسطى العصر][12] وروي عن عاصم بن أبي النجود

---

(١) سويد بن سعيد بن سهل الهروي، أبو محمد، الحدثاني الأنباري، التهذيب ٤/٢٧٢.

(٢) داود بن الحصين، أبو سليمان، التهذيب ٣/١٨١

(٣) في ظ [أخرجه مالك بلاغاً ١/١٣٩ في كتاب صلاة الجماعة باب الصلاة الوسطى]، (٢٧) ورواه أبو داود مرفوعاً في كتاب الصلاة باب وقت صلاة الظهر.

(٤) رواه مالك بلاغاً في ١/١٣٩ في كتاب صلاة الجماعة باب الصلاة الوسطى (٢٨) وقال مالك: وقول علي وابن عباس أحب ما سمعت إليَّ في ذلك.

(٥) زيد بن أسلم العدوي، أبو عبد الله المدني، ثقة، كان عالماً بالتفسير، التهذيب ٣/٣٥٣.

(٦) القعقاع بن حكيم الكناني المدني، ثقة، التهذيب ٨/٣٧٣.

(٧) أخرجه مسلم ١/٤٣٧ ـ ٤٣٨ في كتاب المساجد باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي العصر (٦٢٩/٢٠٧) وأخرجه أبو داود في الصلاة باب في وقت العصر والترمذي ٥/٢٠٢ في كتاب التفسير باب من سورة البقرة (٢٩٨٢) والنسائي في الصلاة باب المحافظة على صلاة العصر.

(٨) علي بن معبد بن نوح المصري الصغير، أبو الحسن البغدادي، التهذيب ٧/٣٨٥.

(٩) يعقوب بن إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، أبو يوسف المدني، التهذيب ١١/٣٨٠.

(١٠) ما بين المعقوفين من ظ.

(١١) أخرجه مالك موقوفاً في الموطأ ١/١٣٩ في صلاة الجماعة باب الصلاة الوسطى (٢٦).

أخرجه البخاري ٨/١٩٥ في التفسير باب «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى»(٤٥٣٢)، وفي ٧/٤٠٥ في المغازي باب غزوة الخندق (٤١١١) وفي ١١/١٩٤ في الدعوات باب الدعاء على المشركين (٦٣٩٦).

ومسلم ١/٤٣٧ في المساجد باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر (٦٢٧/٢٠٥).

(١٢) سقط من ظ.

عن زر بن حبيش عن علي أنه قال: كنت [ظننت][١] أنها صلاة الفجر حتى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول يوم الخندق وقد شغلوه عن صلاة العصر قال: ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً أشغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر [وإنما كان فائدة التخصيص بصلاة العصر لأن ذلك وقت الشغل][٢] ويخاف فوتها ما لا يخاف لسائر الصلوات وقد أكد بالذكر قال: [(والصلاة الوسطى)][٣] خاصة [ومن طريق][٤] المعقول [يدل أيضاً على أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر][٥] لأن قبلها صلاتي النهار وبعدها صلاتي الليل. ثم قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي قوموا [لله طائعين][٦] في الصلاة مطيعين. ويقال: صلوا لله قائمين فكأنه أمر بطول القيام في الصلاة. كما قال في آية أخرى: (يا مريم اقنتي لربك) وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن أفضل الصلاة فقال: التي يطيل القنوت فيها[٧]. يعني القيام. ويقال: قانتين يعني ساكتين كما روي عن زيد بن أرقم أنه قال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام[٨]. وقال الزجاج[٩]: المشهور في اللغة الدعاء في القيام وحقيقة القانت القائم بأمر الله تعالى. ثم قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾ يعني إذا خفتم العدو فصلوا قياماً فإن لم تستطيعوا فصلوا ركباناً على الدواب حيث ما توجهت بكم بالإيماء وهذا موافق لما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه ذكر صلاة الخوف ثم قال في آخره فإن كان الخوف أشد من ذلك صلوا على أقدامكم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها[١٠] ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ يعني العدو والخوف ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾ يعني صلوا كما علمكم أربعاً أو اثنتين وعلمكم ﴿مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني علمكم الصلاة ولم تكونوا تعلمون من قبل.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ أي يموتون ويتركون نساءهم من بعدهم ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم﴾ أي يوصون لنسائهم. قرأ ابن كثير ونافع والكسائي وأبو بكر عن عاصم (وصية) بالضم يعني عليهم وصية وقرأ الباقون: بالنصب يعني يوصون وصية لأزواجهم ﴿مَّتَاعاً﴾ أي نفقة وكسوة ﴿إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾

(١) سقط من ظ. (٢) ما بين المعقوفين من ظ. (٣) من ظ.
(٤) ما بين المعقوفين من ظ. (٥) سقط من ظ.
(٦) أخرجه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ٢/٥٢٠ في صلاة المسافرين باب أفضل الصلاة طول القنوت (٧٥٦/١٦٤).
(٧) أخرجه مسلم ١/٣٨٣ في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٩/٣٥).
(٨) معاني القرآن وإعرابه ١/٣١٦.
(٩) انظر حديث صلاة الخوف أخرجه البخاري في التفسير ٨/١٩٩ وفي ٧/٤٢١ في المغازي باب غزوة ذات الرقاع، وأخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٢/٥٧٥.
(١٠) راجع الإتحاف وأبو شامة، والمهذب وحجة القراءات لابن زنجلة ١٣٨.

يقول: لا يخرجن من بيوت أزواجهن وهذا في أول الشريعة كانت العدة حولاً وهكذا كان في الجاهلية. ألا ترى إلى قول لبيد:(١)

وهُـمُ ربيـعٌ لـلمُـجَاوِرِ فـيـهـمُ والـمُـرْمِـلاتِ إذَا تـطَاوَلَ عَـامُـهـا

ثم نسخ ما زاد على الأربعة أشهر وعشراً ونسخت الوصية للأزواج بقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا وصية لوارث ويقال(٢): نسخ بآية الميراث(٣). ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ يعني من الزينة يحتمل أنه أراد به الخروج بعد مضي السنة ويحتمل الخروج في السنة إذا خرجت بعذر في أمر لا بد لها منه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقد ذكرناها ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمطلقات أربع: مطلقة يسمي لها مهراً [ومطلقة لم يسم لها مهراً](٤) ومطلقة دخل بها ومطلقة لم يدخل بها فالمتعة لا تكون واجبة إلا لمطلقة واحدة وهي التي لم يسم لها مهراً وطلقها قبل الدخول كما ذكر في الآية التي سبق ذكرها وفي سائر المطلقات المتعة مستحبة وليست بواجبة ﴿حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي واجباً على المتقين وذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا يجبر عليه إلا في المطلقة التي ذكرنا. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني أمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما أمرتم به. ويقال: آياته يعني دلائله. ويقال: آيات القرآن.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ﴾ يقول: ألم تخبر: وهذا على سبيل التعجب كما يقال. ألا ترى إلى ما صنع فلان. ويقال ألم تر يعني ألم تعلم؟ ويقال: ألم ينته إليك خبرهم؟ يعني الآن نخبرك عنهم ـ قال ابن عباس: وذلك أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمر الناس بالخروج إلى الغزو فخرجوا فبلغهم أن في ذلك الموضع طاعوناً فامتنعوا عن الخروج إلى هناك ونزلوا في موضعهم فهلكوا كلهم فبلغ خبرهم إلى بني إسرائيل فخرجوا ليدفنوهم فعجزوا عن ذلك لكثرتهم فحظروا عليهم الحظائر ثم أحياهم الله بعد ثمانية أيام وبقيت منهم بقايا من البحر ومعهم النتن إلى اليوم(٥) وقال بعضهم: بلغهم أن هناك للعدو شوكة وقسوة فامتنعوا عن الخروج إليهم فأهلكهم الله تعالى. وقال بعضهم: إن أرضاً وقع بها الوباء فخرج الناس منها هاربين فنزلوا منزلاً فماتوا كلهم فمر بهم نبي يقال له حزقيل ـ عليه السلام ـ فقال: الحمد لله القادر الذي يحيي هذه النفوس البالية ليعبدوه فدعا لهم فأحياهم الله تعالى فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ قال ابن عباس في رواية الكلبي [وفي رواية الضحاك]:(٦) ثمانية آلاف ويقال: سبعون ألفاً ويقال: ثمانية عشر ألفاً. وقال بعضهم: هم ألوف كما قال الله تعالى ولا يعرف كم عددهم [إلا الله](٧) ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي خرجوا من ديارهم مخافة الموت ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ: مُوتُواْ﴾ أي أماتهم الله ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعني على أولئك الكفار حين أحياهم. يقال: هو ذو من على جميع الناس ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعمة يعني الكفار ويقال: على الذي

(١) انظر ديوان لبيد بن ربيعة ص ٤٢.
(٢) من حديث أبي أمامة أخرجه ابن ماجة ٢/٩١٣ وأحمد في المسند ٤/١٨٧ والبيهقي في السنن الكبرى ٦/٢١٩.
(٣) في ظ [المواريث].
(٤) سقط من ظ.
(٥) انظر هذا في الدر المنثور ١/٣١١.
(٦) ما بين المعقوفين من ظ.
(٧) سقط من ظ.

أحياهم. . وفي هذه الآية: دلالة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث أخبر عمن قبله [ولم يكن قرأ][1] الكتب فظهر ذلك عند اليهود والنصارى وعرفوا أنه حق. وفي هذه الآية: إبطال قول من يقول: إن الإحياء بعد الموت لا يجوز وينكر عذاب القبر لأن الله تعالى يخبر أنه قد أماتهم ثم أحياهم.

﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٤﴾

قوله: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس في رواية أبي صالح: لما أحياهم الله قال لهم (قاتلوا في سبيل الله). ويقال: هذا أمر بالجهاد لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم: قاتلوا في سبيل الله. ﴿وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لمقالتهم عليم بالأرض التي وقع فيها الوباء.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ نزلت في شأن أبي الدحداح قال: يا رسول الله إن لي حديقتين لو تصدقت بواحدة منهما أيكون لي مثلها في الجنة؟ قال نعم قال وأم الدحداح معي؟ يعني امرأته قال نعم قال: والدحداح معي يعني ابنه فقال: نعم. قال: أشهدك أني قد جعلت حديقتي لله تعالى: ثم جاء إلى الحديقة فقام على الباب وتحرج الدخول فيها بعدما جعلها لله تعالى ونادى: يا أم الدحداح اخرجي فإني جعلت حديقتي لله تعالى فخرجت وتحولت إلى حديقة أخرى، وقالت له: هنيئاً لك بما فعلت أو كما فعلت فنزل قوله تعالى: (فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) يعني ألفي ألف ضعف. قال الفقيه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال: حدثنا فارس ابن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضيل قال: حدثنا المعلى بن منصور قال: حدثنا جعفر قال حدثنا علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي[2] قال: بلغني عن أبي هريرة حديث أنه قال إن الله تعالى يكتب [للعبد][3] المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة فحججت ذلك العام لألقى أبا هريرة (فأكلمه)[4] في هذا الحديث فلقيته فأخبرته فقال: ليس كذا قلت ولم يحفظ الذي حدثك عني وإنما قلت: ألفي ألف حسنة ثم قال أبو هريرة أولستم تجدون في كتاب الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ فقوله (كثيرة) أكثر من ألف ألف ومن ألفي ألف[5]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ﴾ أي يقتر الرزق على من يشاء ﴿وَيَبْصُطُ﴾ أي يوسع على من يشاء من عباده. ويقال: يقبض الصدقات ويخلفها الثواب في الدنيا والآخرة وقال بعضهم يسلب قوماً ما أنعم عليهم ويوسع على آخرين. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة قرأ حمزة والكسائي ونافع وأبو عمرو: (فيضاعفه) بالألف وبضم الفاء[6] وقرأ عاصم (فيضاعفه) بالألف وبنصب الفاء وقرأ ابن كثير (فيضعفه) بغير ألف وبضم الفاء وقرأ ابن عامر:

---

(١) من ظ.

(٢) عبد الرحمن بن معقل بن عمرو بن عدي بن وهب النهدي، سكن الكوفة ثم البصرة توفي سنة ٧٥ هـ، التهذيب ٦/٢٧٧.

(٣) من ظ.

(٤) سقط من ظ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/٣١٣ عن ابي عثمان النهدي.

(٦) مع تشديد العين. حجة القرءات لابن زنجلة ١٣٨ ـ ١٣٩.

(فيضعفه) بغير ألف وبنصب الفاء[١] فأما من قرأ: (فيضاعفه) [بالألف والضم][٢]، (يضعفه) فهما لغتان بمعنى[٣] واحد يقال: ضاعفت الشيء وضعفته[٤] ومن قرأ بضم الفاء عطفه على قوله (يقرض الله) ومن نصبه فعلى جواب الاستفهام وقرأ نافع (يبصط) بالصاد وقرأ الباقون: بالسين[٥] وهو أظهر عند أهل اللغة وفي كل موضع يكون الصاد قريباً من الطاء جاز أن يقرأ بالسين وبالصاد مثل المصيطرون ومثل: الصراط لأنه يشتد فرق الصاد عند ذلك فيجوز القراءة بالسين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا
نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ
طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً
مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى
مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن
يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ
هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ
طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ
يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ
هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ
مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ

---

(١) مع تشديد العين. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٨ ـ ١٣٩، وراجع القراءات جميعاً. الحرز بشرح الفاصح، والمهذب والإتحاف. فمن رفع عطف على «يُقْرض الله» ومن نصب نصب على جواب الاستفهام باعتبار الفاء للسببية. وأما حجتهم في التشديد: ففيه تكرير الفعل وزيادة الضعف على الواحد إلى ما لا نهاية له. وحجة التخفيف: قالوا: إن أمر الله أسرع من تكرير الفعل إنما هو كـن فكان. قال الكسائي: المعنى فيهما واحد. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٩.

(٢) سقط من ظ. (٣) في أ [ومعناهما]. (٤) في أ [وضاعفته].

(٥) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٩.

ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يعني الرؤساء والقادة. وقال بعضهم: اشتقاق الملأ في اللغة(١) من الملأ وهم الجماعة التي تملأ باديتهم. وقال بعضهم: الناظر إذا نظر إليهم امتلأ عينه هيبة منهم وذلك أن كفار بني إسرائيل قهروا مؤمنيهم فقتلوهم. وسبوهم وأخرجوهم من ديارهم وكان رئيسهم جالوت فلما اضطر المسلمون في ذلك جاءوا إلى نبي لهم يقال له: اشمويل بن هلقانا ـ عليه السلام ـ بلغة العبرانية وبالعربية إسماعيل بن هلقان ﴿إِذْ قَالُواْ: لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ يعني أشمويل ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً﴾ يعني ادع لنا الله تعالى أن يجعل لنا ملكاً يعني رجلاً ينتظم به أمرنا ﴿نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فـ ﴿قَالَ﴾ لهم أشمويل ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ قرأ نافع: (هل عسِيتم) بكسر السين وقرأ الباقون: بالنصب وهي اللغة المعروفة والأول لغة لبعض العرب: (هل عسيتم) ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ﴾ يعني إذا بعث الله لكم ملكاً وفرض عليكم القتال لعلكم لا تقاتلون وتجبنون عن القتال ﴿قَالُواْ: وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول كيف لا نقاتل في سبيل الله ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ يعني أخذوا ديارنا وسبوا أبنائنا ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ أي فرض عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ وتركوا القتال ولم يثبتوا (إلا قليلاً منهم)(٢) وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّالِمِينَ﴾ [يعني أن الله تعالى يعلم جزاء من تولى عن القتال](٣) ثم بين لهم القصة بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ يعني قال: أجابكم ربكم إلى ما سألتم من بعث ملك تقاتلون في سبيل الله معه وقد جعل لكم طالوت ملكاً وكان طالوت فيهم حقير الشأن وكانت النبوة في بني لاوي بن يعقوب والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أهل بيت النبوة ولا من أهل بيت الملك. ويقال: كان رجلاً يبيع الخمر ويقال: كان بقاراً. ويقال: كان دباغاً ولكنه كان عالماً فرفعه الله بعلمه ﴿قَالُواْ: أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ يعني المسلمون قالوا لنبيهم: من أين يكون له الملك ﴿عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأن منا الملوك ﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ طالوت ﴿سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [ينفق علينا](٤) والملك يحتاج إلى (مال)(٥) ينفق على جنوده وأعوانه ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني اختاره عليكم ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ أي فضيلة ﴿فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ وكان رجلاً جسيماً وكان عالماً. [ويقال: كان عالماً](٦) بأمر الحرب.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والواسع في اللغة(٧): هو الغني. ويقال: واسع بعطية الملك عالم لمن يعطيه. ويقال: واسع يعني باسط الرزق عليم بمن يصلح له الملك. فظنوا أنه يقول لهم من ذات نفسه وقالوا له إن كان الله تعالى أمرك بذلك فأتنا بآية قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وذلك أن الكفار كانوا أخذوا التابوت وكان التابوت للمسلمين فإذا خرجوا للغزو والتابوت معهم كانوا يرجون الظفر فأخذ

---

(١) راجع اللسان: ملأ.
(٢) في أ [والله عليم بالظالمين].
(٣) ما بين المعقوفين من ظ.
(٤) من ظ.
(٥) في ظ [ما].
(٦) سقط من ظ.
(٧) قال ابن منظور: في أسمائه سبحانه وتعالى الواسع: هو الذي وَسِعَ رزقُه جميع خلقه ووسعت رحمته كل شيء وغناه كل فقر، اللسان: وسع.

الكفار التابوت ووضعوه في [مزبلة أي في](١) مخرأة لهم فابتلاهم الله تعالى بالباسور(٢). ويقال إن أصل الباسور من ذلك الوقت وأصل الجزام من وقت أيوب ـ عليه السلام ـ وتغير الطعام من قبل بني إسرائيل. فجعل الله تعالى آية ملك طالوت رد التابوت إليهم فذلك قوله تعالى: (إن آية ملكة) [يعني علامة ملكه](٣) (أن يأتيكم التابوت) ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. قال الكلبي: سكينة أي: طمأنينة [من ربكم](٤) إذا كان التابوت في مكان اطمأنت قلوبهم [بالظفر](٥). وقال مقاتل: السكينة كانت دابة ورأسها كرأس الهرة ولها جناحان فإذا صوتت عرفوا أن النصر لهم. ويقال: كانت جوهراً أحمر يسمع منه الصوت. ويقال: كانت ريحاً تهب فيها لها صوت يعرفون أن النصرة لهم عند الصوت قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ يعني الرضاض(٦) من الألواح وقفيز من منّ في طست من ذهب وعصا موسى وعمامة هارون قال الكلبي: وكان التابوت من [عود الشمشار](٧) الذي يتخذ منه الأمشاط فلما ابتلاهم الله تعالى بالباسور عرفوا أن ذلك من التابوت فقالوا: لعل اله بني إسرائيل الذي فينا يعنون التابوت هو الذي يفعل بنا هذا الفعل فأخرجوا بقرتين من المدينة وتركوا أولادها في المدينة وربطوا التابوت على عجلة ثم ربطوا العجلة بالبقرتين ثم وجهوهما(٨) نحو بني إسرائيل فضربت الملائكة جنوبهما وساقوهما حتى هجموا بهما على أرض بني إسرائيل فأصبحوا والتابوت بين أظهرهم. وذلك قوله تعالى: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني الملائكة ساقوا العجلة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ يعني إن في رد التابوت علامة لملك طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بأن ملكه من الله تعالى فعرفوا وأطاعوه. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ يعني فتجهز طالوت وخرج بالجنود وهم سبعون ألفاً فصاروا في حر شديد فأصابهم عطش شديد فسألوا طالوت الماء. فـ ﴿قَالَ﴾ لهم طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ وهو بين الأردن، وفلسطين وإنما كان الابتلاء ليظهر عند طالوت من كان مخلصاً في نيته من غيره وأراد أن يميز عنهم من لا يريد القتال لأن من لا يريد القتال إذا خالط العسكر يدخل الضعف والوهن في العسكر لأنه إذا انهزم وهرب ضعف الباقون. ويقال: إن أشمويل هو الذي أخبر طالوت بالوحي حتى أخبر طالوت قومه حيث قال: (إن الله مبتليكم بنهر)(٩) ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ يعني ليس معي على عدوي إذا شرب بغير غرفة ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني لم يشرب منه [يعني](١٠) غرفة ﴿فإنه مني﴾ أي معي على عدوي ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾. قرأ نافع [وابن كثير](١١) وأبو عمرو: (غرفة بنصب الغين وقرأ الباقون برفع الغين فمن قرأ بالنصب يكون مصدر غرفة أي مرة واحدة باليد. ومن قرأ بالضم هو ملء الكف وهو اسم الماء مثل: الخطوة والخطوة قال بعض المفسرين الغرفة بكف واحدة والغرفة بالكفين(١٢) وقال بعضهم كلاهما لغتان ومعناهما واحد(١٣). فلما خرجوا من المفازة وقد أصابهم العطش [وقفوا](١٤) في النهر ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ بغير غرفة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً(١٥). وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لأصحابه يوم بدر: أنتم على عدد المرسلين وعدد قوم طالوت ثلاثمائة وثلاثة عشر فأمر من شرب بغير غرفة أن يرجعوا. ويقال: قد ظهر على

---

(١) ساقطة في ظ.

(٢) الباسور كالناسور، أعجمي: داء معروف، قال الجوهري: هي علة تحدث في المقعدة وفي داخل الأنف أيضاً. راجع / الصحاح واللسان / بسر.

(٣) ما بين المعقوفين من ظ.

(٤) من ظ.

(٥) من ظ.

(٦) في أ [الرضراض].

(٧) في ظ [عمود الشمشاذ].

(٨) في أ [ولّوا وجوههما].

(٩) من أ.

(١٠) في ظ [بغير].

(١١) سقط من ظ.

(١٢) في أ [بكفين].

(١٣) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٠.

(١٤) في ظ [وقعوا].

(١٥) من أ.

شفاههم علامة عرف بها من شرب من الذي لم يشرب فردهم وأمسك المخلصين منهم. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ﴾ يعني جاوز النهر ﴿هُوَ﴾ يعني طالوت ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾ ودنوا إلى عسكر جالوت وكان معه مائة ألف فارس كلهم شاكون في السلاح. ﴿قَالُواْ﴾ أي المؤمنون ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لما رأوا من كثرتهم ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ يعني أيقنوا بالموت لما رأوا من كثرة العدو فأيقنوا بهلاك أنفسهم. ويقال: أيقنوا بالبعث بعد الموت وهو قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُواْ ٱللَّهِ﴾ وهم أهل العلم منهم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ يعني كم من جند قليل ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ عدتهم ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بنصر الله وأمره إذا خلصت نيتهم وطابت أنفسهم بالموت في طاعة الله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾ بالنصرة على عدوهم أي معينهم ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ يقول: خرجوا واصطفوا لجالوت دعوا الله تعالى: ﴿قَالُواْ: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ أي اصبب علينا صبراً معناه ارزقنا الصبر على القتال ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند القتال ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ قال وكان داود - عليه السلام - راعياً وكان له سبعة أخوة مع طالوت فلما أبطأ خبر إخوته على أبيهم وكان اسمه إيشا أرسل إليهم ابنه داود ينظر إليهم ما أمرهم ويأتيه بخبرهم فلما خرج مر على حجر فقال له الحجر: خذني فإني حجر إبراهيم قتل بي عدوه فأخذه وجعله في مخلاته ثم مر بآخر فقال له: خذني فإني حجر موسى الذي قتل بي كذا وكذا، ثم مر بثالث فقال له: خذني فأنا الذي أقتل جالوت فأخذه وجعله في مخلاته فأتاهم وهم بالصفوف وقد برز جالوت وقال: من يبارزني؟ فلم يخرج إليه أحد ثم قال: يا بني إسرائيل لو كنتم على حق لخرج إلي بعضكم فقال داود [لإخوته][١]: أما فيكم أحد يخرج إلى هذا الأقلف؟[٢] فقالوا له: اسكت فذهب داود إلى ناحية من الصف ليس فيها [أحد من اخوته][٣] فمر طالوت به وهو يحرض الناس فقال له داود: وما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلف؟ قال [طالوت][٤] أنكحه ابنتي [واجعل له][٥] نصف ملكي. قال داود: فأنا أخرج إليه فأعطاه طالوت درعه وسيفه فلما خرج في الدرع جرها لأن طالوت كان أطول الناس فرجع (داود)[٦] إلى طالوت وقال: إني لم أتعود القتال في الدرع فرد الدرع إليه فقال له طالوت: فهل جربت نفسك؟ قال: نعم وقع ذئب في غنمي فضربته بالسيف فقطعته نصفين فقال له طالوت: إن الذئب ضعيف فهل جربت نفسك في غير هذا؟ قال: نعم دخل أسد في غنمي فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتها فقال له: هذا أشد [ثم قال له][٧] ما اسمك؟ قال داود بن إيشا فعرفه فرأى أنه أجلد إخوته فأخذ قذافته وخرج فلما رآه جالوت قال: خرجت إليّ لتقتلني بالقذافة كما تقتل الكلاب؟ فقال له داود: وهل أنت إلا مثل الكلاب قال الكلبي: وكان على رأس جالوت بيضة ثلاثمائة رطل فقال له جالوت: إما أن ترميني وإما أن أرميك. فقال له داود: بل أنا أرميك ثم أخذ واحداً من الأحجار الثلاثة فرماه فوقع في صدره ونفذ من صدره فقتل خلفه خلقاً كثيراً. وقال بعضهم: صارت الأحجار كلها واحداً فلما رماها تفرقت في عسكره فقتلت خلقاً كثيراً. وقال بعضهم: رمى واحداً بعد واحد فقتل جالوت وخلقاً كثيراً وهزمهم الله بإذنه فذلك قوله عز وجل: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ ثم إن طالوت زوج داود ابنته وأراد أن يدفع إليه نصف ملكه فقال له وزراؤه: إن دفعت إليه نصف ملكك فيصير منازعاً لك في ملكك ويفسد عليك الملك فامتنع من ذلك وأراد قتل داود - عليه السلام - وكان في ذلك ما شاء الله حتى دفع إليه النصف ثم خرج طالوت إلى بعض المغازي فقتل هناك فتحول الملك كله إلى داود ولم يجتمع بنو إسرائيل كلهم على ملك واحد إلا على داود. فذلك قوله عز وجل: ﴿وَآتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ يعني ملك اثني عشر سبطاً

---

(٢) الأَقْلَف - هو الذي لم يختن. انظر اللسان: قلف وترتيب القاموس: قلف.

(٣) في ظ [أخوته]. (٤) سقط من ظ. (٥) في أ [وأعطيته].

(٦) سقط من ظ. (٧) سقط من ظ.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني النبوة وأنزل عليه الزبور أربعمائة وعشرين سورة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي علم داود من صنع الدروع وكلام الطيور وتسبيح الجبال معه وكلام الدواب ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي يدفع البلاء عن المؤمنين بالنبيين ـ عليهم السلام ـ ويدفع بالمؤمنين عن الكفار ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي هلك أهلها. ويقال: ولولا دفع الله جالوت بطالوت لهلكت بنو إسرائيل كلهم. ويقال: ولولا دفع الله البلايا بسبب المطيعين لهلك الناس كما جاء في الأثر: (لولا رجال خشع وصبيان رضع وبهائم رتع لصببت عليكم العذاب صباً[1]) وروي عن الحسن أنه قال: لولا الصالحون لهلك الطالحون. ويقال: لولا ما أمر الله [المؤمنين][2] بحرب الكفار لفسدت الأرض بغلبة الكفار. ويقال لولا ما ينتفع بعض الناس ببعض لأن في كل أرض بلدة يتولد [فيها][3] شيء لا يوجد ذلك في سائر البلدان فينتفع بها أهل سائر البلدان وينتفع بعضهم ببعض فيكون في ذلك صلاح أهل الأرض. قرأ نافع ههنا (ولولا دفاع الله) وفي الحج: (إن الله يدافع) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف في كلا الموضعين وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر: (ولولا دفع الله) بغير ألف (إن الله يدافع) بالألف وتفسير القراءتين واحد وهما لغتان معروفتان[4]. ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي ذو من عليهم بالدفع عنهم ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهو ما قص عليه من أخبار الأمم ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي ننزلها بقراءة جبريل عليك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالصدق ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني إنك لمن جملة المرسلين الذين ذكرناهم. وقال الزجاج[5] تلك آيات الله أي هذه الآيات التي أنبئت أي العلامات التي تدل على توحيده وتثبت رسالته إذ كان يعجز عن إتيان مثلها المخلوقون وإنك من هؤلاء المرسلين لأنك قد أتيتهم بالعلامات.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ الذين أنزلنا عليك خبرهم في القرآن ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا. ويقال: التفضيل يكون على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون دلالة نبوته أكثر. والثاني: أن تكون أمته أكثر. والثالث: أن يكون بنفسه أفضل ثم بين تفضيلهم فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [مثل][6] موسى ـ عليه السلام ـ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني إدريس ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى: (ورفعناه مكاناً علياً) وقال الزجاج[7]: جاء في التفسير أنه أراد محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه أرسله إلى الناس كافة وليس شيء من الآيات التي أعطاها الله الأنبياء ـ

---

(١) حديث ضعيف. انظر كشف الخفاء ٢/ ٢٣٠. (٢) في ظ [المسلمين]. (٣) في ظ [منها].

(٤) قراءة نافع في هذا الموضوع وفي سورة الحج واحدة «ولولا دِفَاع» وحجة نافع: أن الدفاع مصدر لـ «فاعل» تقول: دَافَعَ الله عنك الشيء يُدافع مُدَافَعَةً ودفاعاً والعرب تقول: أحسن الله عنك الدفاع.

وأما قراءة الباقين. بغير ألف فحجتهم: أن الله عز وجل لا مدافع له وأنه هو المنفرد بالدفع من خلقه، وكان أبو عمرو يقول: إنما الدفاع من الناس والدفع من الله. راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٢٩ (٦) سقط من ظ. (٧) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٣٠.

عليهم السلام ـ إلا والذي أعطى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر لأنه قد كلمته الشجرة وأطعم من كف من التمر خلقاً كثيراً وأمر يده على شاة أم معبد فدرت لبناً كثيراً بعد الجفاف ومنها انشقاق القمر فذلك قوله (ورفع بعضهم فوق بعض درجات) يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ﴾ يعني العجائب والدلائل وهو: أن يحيي الموتى بإذنه ويبرىء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني أعناه بجبريل حين أرادوا قتله: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ﴾ أي ما اختلف الذين ﴿مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ﴾ التي أتاهم بها موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وقال الزجاج[١]: يحتمل وجهين: ولو شاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة ويحتمل ولو شاء الله اضطرهم إلى أن يكونوا مؤمنين كما قال تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (ولكن اختلفوا) في الدين فصاروا فريقين: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بالكتاب والرسل ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ وجعلهم على أمر واحد ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي يعصم من يشاء من الاختلاف ويخذل من يشاء فلا مرد لأمره ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي تصدقوا قال بعضهم: أراد به الزكاة المفروضة. وقال بعضهم: صدقة التطوع. ثم بين لهم أن الدنيا فانية [وأنه في الآخرة][٢] لا ينفعهم شيء[٣] إلا ما قدموه قال تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يقول: لا فداء فيه ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ يعني [الصدقة][٤] وهذا كما قال في آية أخرى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ للكافرين كما يكون في الدنيا. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) بالنصب وكذلك في سورة إبراهيم: (لا بيع فيه ولا خلال) وقرأ الباقون: بالضم مع التنوين[٥]. ثم قال تعالى عز وجل: ﴿وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم. والظلم في اللغة[٦]: وضع الشيء في غير موضعه وكان المشركون يقولون الأصنام شركاؤه وهم شفعاؤنا عند الله فوحد الله نفسه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

فقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ يقول: لا خالق ولا رازق ولا معبود إلا هو. ويقال: الإثبات إذا كان بعد النفي فإنه يكون أبلغ في الإثبات فلهذا قال: (الله لا إله إلا هو) فبدأ بالنفي ثم استثنى الإثبات فيكون ذلك أبلغ في الإثبات﴿الحي القيوم﴾ يقول: الحي الذي لا يموت ويقال: الحي الذي لا بدىء له يعني لا ابتداء له﴿القيوم﴾ يعني القائم على كل نفس بما كسبت ويقال: القائم بتدبير أمر الخلق في إنشائهم ورزقهم ومعنى القائم: هو الدائم. ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ روي عن علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال السنة والنوم

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٣١. (٢) من ظ. (٣) من ظ.
(٤) في ظ [لا صداقة]. (٥) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٠. (٦) اللسان: ظلم، ترتيب القاموس: ظلم.

كلاهما واحد ولكنه أول ما يدخل في الرأس يقال له سنة ويكون بين النائم واليقظان فإذا وصل إلى القلب صار نوماً ويقال: معناه(١): أنه ليس بغافل عن أمور الخلق فيكون النوم على وجه الكناية. وقال بعضهم هو على ظاهره أنه مستغن عن النوم. وروي في بعض الأخبار أن موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ حين رفع إلى السماء سأل بعض الملائكة أينام ربنا؟ وقال بعضهم خطر ذلك بقلبه، ولم يتكلم به فأمره الله تعالى أن يأخذ زجاجتين [وأمره بأن يحفظهما ثم ألقى عليه النوم فلم يملك نفسه حتى نام فانكسرت الزجاجتان](٢) في يده فقال له: يا موسى لو كان لي نوم لهلكت السموات والأرض أسرع من كسر الزجاجتين في يدك(٣) فذلك قوله تعالى: (لا تأخذه سنة ولا نوم) ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ﴾ كلهم عبيده وإماؤه وهو مستغن عن الشريك ويقال: معناه أن كل ما في السموات والأرض يدل على وحدانيته ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ يقول: من ذا الذي يجترىء أن يشفع عنده ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ دون أمره رداً لقولهم حيث قالوا: هم شفعاؤنا عند الله. وفي الآية دليل على إثبات الشفاعة لأنه قال: (إلا بإذنه) ففيه دليل على أن الشفاعة قد تكون بإذنه للأنبياء والصالحين ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني الله لا إله إلا هو الحي القيوم هو الذي يعلم ما بين أيديهم من أمر الدنيا يعني يعلم أن الأصنام لا يدعون الألوهية ﴿وما خلفهم﴾ يعني يعلم أنه لا شفاعة لهم. وقال مقاتل: (يعلم ما بين أيديهم) يعني ما كان قبل خلق الملائكة (وَمَا خَلْفَهُمْ) [أي ما يكون بعد خلقهم](٤) وقال الزجاج(٥): يعني يعلم(٦) الغيب الذي [تقدمهم والغيب الذي يأتي من بعدهم. وقال الكلبي: يعلم ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما](٧) خلفهم من أمر الدنيا. ثم قال: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ يعني الملائكة لا يعلمون الغيب لأن بعض الناس يعبدون الملائكة ويرجون شفاعتهم فأخبر أنهم لا يملكون شيئاً ولا يعلمون مما تقدمهم ولا مما بعدهم إلا بما أنبأهم الله تعالى. ويقـال: لا يدركـون جميع علمـه والإحاطـة في اللغة(٨): إدراك الشيء بكماله (إلا بما شاء) فيعلمهم. ثم أخبر عن عظمته فقال تعالى: ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضَ﴾ أي ملأ كرسيه السموات والأرض وروي عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: السموات السبع والأرضون السبع تحت [جنب](٩) الكرسي كحلقة بأرض فلاة وهكذا قال الكلبي ومقاتل. وقال بعضهم: الكرسي هو المكان الذي خلق الله فيه السموات والأرض وقال بعضهم: الكرسي والعرش واحد ولكنه مرة ذكر بلفظ العرش ومرة ذكر بلفظ الكرسي. وقال بعضهم: الكرسي غير العرش. قال الفقيه حدثنا عبد الرحمن بن محمد قال: [حدثنا فارس بن مردويه قال](١٠) حدثنا محمد بن الفضيل: قال: حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة(١١) عن عاصم بن بهدلة وهو عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: [بين كل سماءين](١٢) مسيرة خمسمائة عام وبين الكرسي [وبين العرش](١٣) مسيرة خمسمائة عام والعرش فوق الماء والله فوق العرش ـ أي بالعلو والقدرة يعلم ما أنتم عليه. وقال الزجاج(١٤): قال ابن عباس: (وسع كرسيه السموات والأرض) يعني علمه وقال قوم: كرسيه

---

(١) انظر معاني القرآن واعرابه للزجاج ١/٣٣٣. (٢) ما بين المعقوفين من أ.

(٣) قال القرطبي: لا يصح، وهو ضعيف. انظر تفسير القرطبي ٣/٢٧٣.

(٤) سقط من ظ. (٥) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٣٤. (٦) سقط من ظ.

(٧) ما بين المعقوفين من ظ.

(٨) قال ابن منظور: وكل من بلغ أقصى شيء وأحصى علمه فقد أحاط به، وأحاط بالأمر إذا أحدق به من جوانبه كله. اللسان: حوط. وكذا ترتيب القاموس/ حوط ١/٧٤٠.

(٩) سقط من ظ. (١٠) سقط من ظ.

(١١) حماد بن سلمة بن دينار البصري أبو سلمة مولى تميم من الثقات، فقيهاً فصيحاً. التهذيب ٣/١١.

(١٢) في ظ [وبين المساء السابعة]. (١٣) في ظ [وبين الماء]. (١٤) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٣٤.

قدرته التي يمسك بها السموات والأرض وهذا قريب من قول ابن عباس ثم أخبر عن قدرته فقال: ﴿وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ يقول: ولا يثقله حفظهما أي حفظ السموات والأرض. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي الرفيع تعالى فوق خلقه العظيم يعني أعلا وأعظم من أن يتخذ شريكاً ويقال: يحمل الكرسي أربعة أملاك لكل ملك أربعة أوجه: وجه إنسان وجه ثور ووجه أسد ووجه نسر أقدامهم في الصخرة التي تحت الأرضين هكذا قال الكلبي ومقاتل. ويقال: يدعو بالوجه الذي كوجه الإنسان لنبي آدم ويسأل الله تعالى لهم الرزق والرحمة والمغفرة وبالوجه الذي كوجه الثور يدعو للأنعام [والرزق](١) وبالوجه الذي كوجه الأسد يدعو للوحوش وبالوجه الذي كوجه النسر يدعو [للطيور](٢). وروي عن محمد ابن الحنفية. أنه قال لما نزلت آية الكرسي: خر كل صنم في دار الدنيا(٣) وخر كل ملك في الدنيا على وجهه وسقطت التيجان [عن رؤوسهم](٤) وهربت الشياطين فضرب بعضهم بعضاً فاجتمعوا إلى إبليس وأخبروه بذلك فأمرهم أن يبحثوا عن ذلك فجاءوا إلى المدينة فبلغهم أن آية الكرسي قد نزلت [وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: من قرأ آية الكرسي خلف كل صلاة أعطاه الله تعالى صلاة الشاكرين وصلاة المطيعين وصلاة الصابرين ولا يمنعهم دخول الجنة إلا الموت](٥).

لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يعني لا تكرهوا في الدين أحداً بعد فتح مكة وبعد إسلام العرب ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي قد تبين الهدى من الضلالة. ويقال: قد تبين الإسلام من الكفر فمن أسلم وإلا وضعت عليه الجزية ولا يكره على الإسلام ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ يعني بالشيطان [ويقال: الصنم](٦) ويقال: هو كعب بن الأشرف ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [يقول: بالثقة يعني بالإسلام ويقال: فقد تمسك بلا إله إلا الله](٧) ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ يعني لا انقطاع لها ولا زوال لها ولا هلاك لها. ويقال: قد استمسك بالدين الذي لا انقطاع له من الجنة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [بقولهم](٨) ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي حافظهم ومعينهم وناصرهم ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني من الكفر إلى الإيمان واللفظ لفظ المستقبل والمراد به الماضي يعني أخرجهم ويقال: ثبتهم على الاستقامة كما أخرجهم من الظلمات. ويقال: يخرجهم من الظلمات أي من ظلمة الدنيا(٩) ومن ظلمة القبر ومن ظلمة الصراط إلى الجنة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ يعني اليهود أولياؤهم كعب بن الأشرف وأصحابه. ويقال: المشركون أولياؤهم الشياطين ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ يعني يدعونهم إلى الكفر كما قال في آية أخرى: (أن

(١) في ظ [بالرزق]. (٢) في ظ [للطير]. (٣) وعلى وجهه].
(٤) سقط في ظ. (٥) ما بين المعقوفين من أ. (٦) ما بين المعقوفين من أ.
(٧) ما بين المعقوفين من أ. (٨) في ظ [لقولهم]. (٩) من ظ.

أخرج قومك) يعني ادع قومك ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني أهل النار هم فيها خالدون أي دائمون.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ يقول: ألم تخبر بقصة الذي خاصم إبراهيم في توحيد ربه ﴿أَنْ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ وهو النمرود بن كنعان وهو أول من ملك الدنيا كلها وكانوا خرجوا إلى عيد لهم فدخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ على أصنامهم فكسرها فلما رجعوا قال لهم: أتعبدون ما تنحتون؟ فقالوا له من تعبد أنت؟ قال: أعبد ربي الذي يحيي ويميت. وقال بعضهم: كان النمرود يحتكر الطعام وكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام[1] يشترون منه وإذا دخلوا عليه سجدوا له فدخل عليه إبراهيم ولم يسجد له فقال له النمرود: مالك لم تسجد؟ فقال: أنا لا أسجد إلا لربي. فقال النمرود من ربك؟ (فقال [له إبراهيم][2]: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ﴾ له [النمرود][3]: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قال إبراهيم كيف تحيي وتميت؟ فجاءه برجلين فقتل أحدهما وخلى سبيل الآخر ثم قال: قد أمت أحدهما وأحييت الآخر. ﴿قَالَ﴾ له ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ إنك أحييت الحي ولم تحيي الميت وإن ربي يحيي الميت فخشي إبراهيم أن يلبس النمرود على قومه فيظنون أنه أحيا الميت كما وصف لهم النمرود فجاءه بحجة أظهر من ذلك حيث قال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنْ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فإن قيل: لِمَ لَمْ يثبت إبراهيم على الحجة الأولى؟ وانتقل إلى حجة أخرى والانتقال في المناظرة من حجة إلى حجة غير محمود. قيل له: الانتقال على ضربين: انتقال محمود إذا كان بعد الإلزام وانتقال مذموم إذا كان قبل الإلزام وإبراهيم ـ عليه السلام ـ انتقل [بعد][4] الإلزام لأنه قد تبين له فساد قوله حيث قال له: إنك قد أحييت الحي ولم تحيي الميت. وجواب آخر: إن قصد إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكن للمناظرة وإنما كان قصده إظهار الحجة فترك [مناظرته][5] في الإحياء والإماتة على ترك الإطالة وأخذ [بالاحتجاج][6] بالحجة المسكتة ولأن الكافر هو الذي ترك حد النظر حيث لم يسأل [ـ عما قال له][7] إبراهيم ـ (دللا)[8] ولكنه اشتغل بالجواب عن ذات نفسه حيث قال: أنا أحيي وأميت. وقوله تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ أي انقطع وسكت متحيراً. يقال: بهت الرجل إذا تحير. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى الحجة والبيان. وروي في الخبر أن الله عز وجل قال: وعزتي وجلالي لا تقوم الساعة حتى آتي بالشمس من المغرب ليعلم أني أنا القادر على ذلك ثم أمر النمرود بإبراهيم فألقي في النار وهكذا عادة الجبابرة أنهم إذا عورضوا بشيء وعجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعقوبة فأنجاه الله من النار وسنذكر قصة ذلك في موضعها إن شاء الله تعالى.

---

(١) في ظ [الطعام كانوا].
(٢) من ظ.
(٣) في ظ [غرود].
(٤) في أ [قبل].
(٥) في ظ [مناقضته].
(٦) في ظ [الاحتجاج].
(٧) في ظ [مما قاله].
(٨) ساقطة من ظ.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال بعضهم: معناه إحيائي ليس كإحياء النمرود ولكن إحيائي كإحياء عزير ـ عليه السلام ـ أحييته بعد مائة عام. وقال بعضهم هو معطوف على ما سبق من قوله: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و(إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) (أو كالذي مر على قرية). قال مقاتل: والذي مر على قرية هو عزير بن شرخيا وكان من علماء بني إسرائيل فمر بدير هرقل بين واسط والمدائن على حمار فمر بها (وهي خاوية على عروشها). وقال الضحاك بن مزاحم: هو عزير النبي ـ عليه السلام ـ مر ببيت المقدس وقد خربها بخت نصر وقتل منهم سبعين ألفاً وأسر منهم سبعين ألفاً أي من بني إسرائيل فمر عزير فقال: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن بخت نصر غزا بني إسرائيل فسبى منهم ناساً كثيرة فجاء بهم وفيهم عزير بن شرخيا وكان من علماء بني إسرائيل فجاء بهم إلى بابل فخرج ذات يوم لحاجة له إلى دير هرقل على شاطىء دجلة فنزل تحت ظل شجرة وهو على حمار له فربط حماره تحت ظل شجرة ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكناً. (وهي خاوية على عروشها) يقول ساقطة على سقوفها وذلك أن السقف يقع قبل الحيطان ثم الحيطان على السقف فهي خاوية على عروشها. قال بعض أهل اللغة[١]: الخاوية الخالية. وقال بعضهم: بقيت حيطانها لا سقوف عليها. [وقال الزجاج[٢]: عروشها هي الخيام وهي بيوت الأعراب][٣]. فتناول من الفاكهة والتين والعنب ثم رجع إلى حماره فجلس يأكل من تلك الفاكهة ثم عصر من العنب فشربه ثم جعل فضل التين [والعنب][٤] في سلة وفضل العصير في الزق ثم نظر إلى القرى فتعجب من كثرة ثمرها وفناء أهلها فـ(قال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها) فلم يشك في البعث ولكن أحب أن يريه الله كيف يحيي الموتى فلما تكلم عزير بذلك نام في ذلك الموضع ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ في منامه ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ وأمات حماره ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ الله تعالى في آخر النهار ومنعه الله تعالى في حال موته عن أبصار الناس والسباع والطير فلما بعثه الله تعالى سمع صوتاً ﴿قَالَ﴾ له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ (أي)[٥] كم مكثت في نومك يا عزير ﴿قَالَ: لَبِثْتُ يَوْماً﴾ ثم نظر إلى الشمس وقد بقي منها شيء لم تغرب فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ﴿قَالَ﴾: له ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ يعني كنت ميتاً مائة عام ثم أخبره ليعتبر فقال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ يعني الفاكهة ﴿وَشَرَابِكَ﴾ يعني العصير ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعني لم يتغير كقوله: (من ماء غير آسن) أي غير متغير ويقال: لم يتسنه كأنه لم تأت عليه السنون. قرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو: (كم لبثت) بإدغام (الثاء)[٦] والتاء. وقرأ الباقون: بإظهارها وقرأ الكسائي: (لم يتسن) بغير هاء عند الوصل [وأثبتت][٧] عند القطع. وقرأ حمزة: بحذف الهاء عند

---

(١) انظر اللسان: خوا.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٣٩.

(٣) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) سقط في ظ.

(٥) في ظ [يا عزير هي].

(٦) سقط في ظ.

(٧) في ظ [وأثبت].

الوصل والقطع[١] جميعاً وقرأ الباقون بإثبات الهاء عند الوصل والقطع وقرأ نافع: (أنا أحيي) بمد الألف وكذلك في جميع القرآن نحو هذا إلا في قوله: (إن أنا إلا نذير) وقرأ الباقون بغير مد ومعنى القراءتين في هذا كله واحد[٢] ثم نظر عزير ـ عليه السلام ـ إلى حماره وقد بلي فنودي: أن انظر إلى حمارك فإذا هو عظم [أبيض يلوح][٣] وقد تفرقت أوصاله ثم سمع صوتاً قال: أيتها العظام البالية إني جاعل فيكن روحاً فاجتمعن فسعى بعضها إلى بعض حتى استقر كل شيء في موضعه ثم بسط عليه الجلد ونفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق فخر عزير ساجداً [لله تعالى][٤] وقال عند ذلك: أعلم أن الله على كل شيء قدير فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي عبرة للناس لأن أولاده قد[٥] صاروا شيوخاً وقد كان شاباً. ﴿وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحماً﴾. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو [بالزاي][٦] وقرأ الباقون [بالراء][٧] فمن قرأ بالراء فمعناه كيف نحييها ونظيرها (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أي يبعثون الموتى ومن قرأ بالزاي: أي كيف يضم بعضها إلى بعض النشز: ما ارتفع من الأرض وهذا كما جاءفي الأثر: الرضاع ما أنبت اللحم، وأنشز العظم. وقال أهل اللغة[٨]: أصل النشز الحركة يقال: نشز الشيء إذا تحرك ونشزت المرأة عن زوجها والمراد هاهنا [تضمنها][٩] ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ: أَعْلَمُ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (اعلم): بالجزم على [مضي][١٠] الأمر، وقرأ الباقون (قال: أعلم) على معنى الخبر عن نفسه [ومعناه][١١] علمت بالمعاينة ما كنت أعلمه قبل ذلك غيباً[١٢]. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء وغيره وقال بعضهم: أن عزيراً لما أحياه الله تعالى قال في نفسه كم لبثت قال: لبثت يوماً أو بعض يوم فلما رجع إلى منزله ولقيه أقرباؤه وحسبوا غيبته فقالوا له: بل لبثت مائة عام وهذا قول من قال: إن هذا لم يكن عزيراً النبي ـ عليه السلام ـ [بل رجل آخر سوى عزير النبي ـ عليه السلام ـ][١٣].

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَى﴾ وذلك أن النمرود لما قال له: أنا أحيي وأميت ووصف لهم ذلك فسألوا إبراهيم فقالوا له: كيف يحيي ربك الموتى فأراد إبراهيم أن يرى ذلك بالمعاينة حتى يخبرهم بما يرى من المعاينة فسأل ربه فقال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾. وقال مقاتل: مر إبراهيم فرأى جيفة على ساحل البحر يأكل منها دواب البحر والطيور وبعضها يصير مستهلكاً في الأرض فوقع في قلبه أن الذي تفرق في البحر وفي بطون الطير كيف يجمعها الله تعالى فأراد أن يعاين ذلك فقال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ فـ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ يعني أو لم تصدق بأني أحيي الموتى ﴿قَالَ: بَلَى﴾ قد صدقت ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي ليسكن قلبي. ويقال: إنما قال له: أو لم تؤمن؟ لكي يظهر إقراره لكي لا يظن أحد بعده أنه لم يكن مقراً

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٤٢ ـ ١٤٣ والنشر، والإتحاف وأبو شامة.
(٢) راجع النشر والإتحاف في الآية. (٣) في ظ [تلوح]. (٤) سقط في ظ.
(٥) في ظ [قد]. (٦) في ظ [بالراء]. (٧) في ظ [بالزاء].
(٨) راجع اللسان: نشز، وترتيب القاموس ٣٧٢/٤. (٩) في ظ [نضمها]. (١٠) في ظ [معنى].
(١١) سقط في ظ. (١٢) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٤ ـ ١٤٥. (١٣) ما بين المعقوفين سقط من ظ.

بذلك في ذلك الوقت فظهر إقراره بقوله: بلى وقال سعيد بن جبير: ليسكن قلبي أنك اتخذتني خليلاً. ﴿قَالَ: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ ٱلطَّيْرِ﴾ فأخذ ديكاً وحمامة وطاووساً وغراباً وفي بعض الروايات أخذ طاووساً وثلاثة [من الطيور](١) مختلفة ألوانها وأسماؤها وريشها ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾(٢) أي فقطعهن وقال السدي: يعني فدقهن وقال الأخفش: يعني اضممهن إليك. وذكر مقاتل بإسناده عن الأعمش قال: فيه تقديم وتأخير يعني فخذ إليك أربعة من الطيور فقطعهن واخلط بعضهن ببعض. ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً﴾ ثم فرقهن في أربعة أجبل ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ ففعل ذلك ودعاهن فسعين على أرجلهن. ويقال: إنه لما وضعهن على الأجبل هبت الرياح الأربعة التي تقوم يوم القيامة فواحدة من قبل المشرق والأخرى من قبل المغرب وواحدة من قبل اليمين والأخرى من قبل الشمال فرفعت الأعضاء المتفرقة عن مواضعها وحملتها إلى المواضع الأخرى حتى اجتمع أعضاء كل طير في موضعها فجعل إبراهيم ينظر ويتعجب حيث ينضم بعضها إلى بعض فقال عند ذلك قوله: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالبعث ولم أسأله [لريب](٣) كان في قلبي ولكن سألته ليسكن قلبي في الخلة. قرأ ابن كثير [أرْني] بجزم الراء وقرأ الباقون بالكسر وقرأ حمزة (فصرهن)(٤) بكسر الصاد والباقون بالضم فمن قرأ بالكسر يعني قطعهن ومن قرأ بالضم يعني فضمهن إليك ويقال: هما لغتان ومعناهما وتفسيرهما واحد.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في شأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم [فضة](٥) وقال يا رسول الله: كانت لي ثمانية آلاف درهم [فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم](٦) وأربعة آلاف أقرضتها لربي فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت. وقال عثمان بن عفان: يا رسول الله علي جهاز من لا جهاز له فنزلت هذه الآية: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ وفي الآية مضمر ومعناه مثل النفقة التي تنفق في سبيل الله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ وطريق آخر مثل الذين ينفقون أموالهم كمثل زارع زرع في الأرض حبة فـ ﴿أَنۢبَتَتْ﴾ الحبة ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي أخرجت سبع سنابل ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ فيكون جملتها سبعمائة فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصدقة بالبذر فيعطيه الله بكل صدقة سبعمائة حسنة. ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يزيد على سبع مائة لمن يشاء فيكون مثل المتصدق كمثل الزارع إذا كان الزارع حاذقاً في عمله ويكون البذر جيداً وتكون الأرض عامرة يكون الزرع مخصباً طيباً فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً والمال طيباً ويوضع في موضعه فيصير الثواب أكثر. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لتلك الأضعاف ﴿عَلِيمٌ﴾ بما [ينفقون وبما](٧) نووا فيها. قرأ ابن كثير وابن عامر: (والله يضعف) بتشديد العين وحذف الألف وقرأ الباقون: (يضاعف) بالألف ومعناهما واحد فالذي قرأ يضعف من

(١) من ظ.
(٢) في ظ [إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً].
(٣) من ظ.
(٤) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٦.
(٥) ساقطة من ظ.
(٦) ما بين المعقوفين من ظ.
(٧) في أ [يفعلون وما].

التضعيف والذي قرأ يضاعف من المضاعفة. ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يتصدقون بأموالهم ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُواْ مَنّاً وَلَا أَذًى﴾ أي لا يمنون عليهم بما تصدقوا عليهم ولا يؤذونهم ولا يعيرونهم بذلك ومعنى الأذى والتعيير هو أن يقع بينه وبين الفقير خصومة فيقول له: إني أعطيتك كذا وكذا. وقال بعضهم: المن يشبه بالنفاق والأذى يشبه بالرياء. ثم تكلم الناس في ذلك فقال بعضهم إذا فعل ذلك لا أجر له في صدقته وعليه وزر فيما من على الفقير به. وقال بعضهم: ذهب أجره فلا أجر له ولا وزر عليه وقال بعضهم: له أجر الصدقة ولكن ذهبت مضاعفته وعليه الوزر بالمن. ثم قال تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ثوابهم في الآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلهم من العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا من أمر الدنيا. ويقال: الآية نزلت في شأن عثمان بن عفان حين اشترى بئر رومة ثم جعلها سبيلاً على المسلمين.

قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي دعاء الرجل لأخيه بظهر الغيب ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي يعفو ويتجاوز [عمن ظلمه](١) خير من صدقة يعطيها ثم يمن على من تصدق عليه ويقال: قول معروف للفقير يعني إذا أتاه سائل سأله ولم يكن عنده شيء يعطيه فيدعو له بالجنة والمغفرة. ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ﴾ يعطيها له و ﴿يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ ويقال: وعد المعطي خير من صدقة يتبعها أذى. ويقال: وعد الكريم خير من نقد اللئيم. ويقال: دعاء(٢) الفقير إذا دعا لصاحب الصدقة ومغفرة الله خير من [الصدقة التي يتبعها أذى](٣). ويقال: قول معروف أن يتجاوز عمن أساء إليه ويحسن له القول خير له من صدقة يتبعها أذى. ويقال: الأمر بالمعروف والصبر على ما أصابه والتجاوز عن الذي [أضربه](٤) خير من صدقة يتبعها أذى ثم قال ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ أي غني عما عندكم من الصدقة حليم حيث [لم](٥) يعجل [العقوبة](٦) على من يمن [بالصدقة](٧).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَى﴾ فالله تعالى أمر عباده برأفته أن لا يمنوا بصدقاتهم لكي [لا يذهب](٨) أجرهم ثم ضرب لذلك مثلاً فقال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ يعني المشرك إذا تصدق فأبطل الشرك صدقته كما أبطل المن والأذى صدقة المؤمن ثم ضرب لهما مثلاً جميعاً لصدقة المؤمن الذي يمن وبصدقة المشرك فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ قال القتبي الصفوان الحجر الذي لا ينبت عليه شيء يعني كمثل حجر صلب عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ [يعني المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾](٩) يعني المطر ترك الصفا نقياً أجرد أملس ليس عليه شيء من تراب فكذلك نفقة صاحب الرياء

---

(١) في ظ [عن مظلمته]. (٢) في ظ [ادعاء الكريم بخير]. (٣) في ظ [صدقه يتبعها أذى].
(٤) في ظ [أضره]. (٥) في ظ [لا]. (٦) في ظ [بالعقوبة].
(٧) في ظ [بصدقته]. (٨) في ظ [يذهب]. (٩) ما بين المعقوفين من أ.

ونفقة المشرك لم يبق [لهما](١) ثواب. ثم قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ (والله لا يهدي القوم الكافرين)(٢) أي لا يجدون للصدقة ثواباً في الآخرة وهذا كما قال في آية أخرى و (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) [﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (يعني لا يرشدهم إلى الإسلام والإخلاص ولا يوفقهم الله بل يخذلهم مجازاة لكفرهم](٣) ثم ضرب مثلاً لنفقة المؤمن الذي يريد بنفقته وجه الله تعالى ولا يمن بها فقال عز وجل:

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ يعني يتصدقون طلب رضاء الله تعالى بصدقاتهم ﴿وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني وتصديقاً من قلوبهم يعني يصدقون الله تعالى بالثواب في الآخرة والخلف في الدنيا. ويقال: وتثبيتاً من أنفسهم يعني وتحقيقاً من قلوبهم يقصدون بها وجه الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ يعني بستاناً في مكان [مستو مرتفع](٤) ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ يعني البستان أصابه المطر الشديد ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: (أكلها): بجزم الكاف ونصب اللام وقرأ الباقون بالضم [أكلها] وتفسير القراءتين واحد(٥). وقرأ عاصم وأبو عمرو: (بربوة) بنصب الراء وقرأ الباقون: بالضم](٦). وقرأ ابن سيرين: بكسر الراء وفيه ثلاث لغات: رَبْوَة وَرِبْوَة وَرُبْوَة(٧) وتفسير القراءات واحد(٨) وفي الآية تقديم وتأخير ومعناه: كمثل [جنة بربوة](٩) أصابها وابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فآتت أكلها ضعفين يعني البستان إذا أصابه المطر أو الطل والطل البطيء من المطر وهو مثل الندى (فآتت أكلها ضعفين) يعني أخضرت أوراق البستان وأخرجت ثمرها ضعفين فكذلك الذي يتصدق به لوجه الله تعالى يكون له الثواب ضعفين يعني للواحد عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا نهاية له ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثم ضرب مثلاً آخر لعمل الكافر والمنافق فقال تعالى:

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يقول: مثل الكافر كمثل شيخ كبير له بستان وله أولاد صغار ضعفاء عجزة لا حيلة لهم ومعيشته ومعيشة ذريته من بستانه ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ يعني ريحاً بها نار أي فأتته السموم الحارة فأحرقت

---

(١) في ظ [له].
(٢) سقط في ظ.
(٣) سقط في أ والمثبت من ظ.
(٤) في ظ [مرتفع مستوى].
(٥) راجع/ ١ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٦.
(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٦.
(٧) بتثليث الراء.
(٨) حجة القراءات ص ١٤٦.
(٩) في ظ [ربوة فيها جنة].

بستانه ولم يكن له قوة أن يغرس مثل بستانه ولم يكن عند ذريته خير يعينونه فيبقى متحيراً فكذلك الكافر إذا لقي ربه أحوج ما كان فلا يجد خيراً ولا يدفع عن نفسه ولا يكون له معين ولا يعود إلى الدنيا كما لا يعود الشيخ الكبير شاباً وكان أحوج إليه قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمثاله فتعتبرون.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ﴾ يقول: من حلالات ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ في الآية أمر بالصدقة من الحلال وفيها دليل: أن من تصدق من الحرام لا يقبل لأن الواجب عليه أن يردها إلى موضعها. ويقال: أنفقوا من طيبات يعني من مـال اللذيذ والشهي عندكم مما كسبتم. يقول: مما جمعتم من الذهب والفضة قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي من الثمار والحبوب ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي لا تعمدوا إلى رديء المال [فتصدقوا][1] منه وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما حث الناس على الصدقة فجعل الناس يأتون بالصدقة ويجمعون في المسجد فجاء رجل بعذق من تمر عامته حشف فنزلت هذه الآية: (ولا تيمموا الخبيث) يعني لا تعمدوا إلى الخشف [فتتصدقوا][2] منه ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ [بل][3] الطيب ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ يعني إلا أن يهضم أحدكم فيأخذ دون حقه مخافة أن يذهب جميع حقه فيأخذ ذلك للضرورة مخافة موت حقه والله تعالى غني عن ذلك فلا يقبل إلا الطيب. ويقال: (إلا أن تغمضوا) يعني إلا أن يضطر أحدكم فمسته الحاجة فرضي بذلك. قوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي غني عما عندكم من الصدقات حميد في أفعاله. ويقال حميد بمعنى محمود ويقال: حميد من أهل أن يحمد ويقال: حميد يقبل القليل ويعطي الجزيل.

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ يقول الشيطان يأمركم بشيئين والله تعالى يـأمركم بشيئين: أمـا الشيطان فـإنه [يأمركم][4] بالفقر[5] ويقول لا (تنفقوا ولا تتصدقوا فإنكم تحتاجون)[6] إلى ذلك ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْفَحْشَاءِ﴾ قال الكلبي يعني يمنع الزكاة. ويقال: جميع الفواحش مثل الزنا وقول الزور وغير ذلك. ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم يعني المغفرة من الله ﴿وَفَضْلًا﴾ يعني خلفاً في الدنيا ﴿وَٱللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تنفقون ويقال: عليم بمواضع الصدقات.

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ قال ابن عباس - يعني النبوة. وقال الكلبي يعني الفقه. وقال مقاتل: يعني علم

(١) في أ [فتصدقون]. (٢) في أ [فتصدقون]. (٣) في ظ [بدل].
(٤) في ظ [يعدكم]. (٥) في ظ [بالفقر]. (٦) في ظ [لا تنفق ولا تتصدق فإنك تحتاج].

القرآن. ويقال: الإصابة في القول. ويقال: المعرفة بمكائد الشيطان ووساوسه. وقال مجاهد: الإصابة في القوم والفهم والفقه. ﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ يقول: من يعط علم القرآن فقد أعطي خيراً كثيراً ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي ما يتفكر. ويقال: ما يتعظ بما في القرآن ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَابِ﴾ يعني ذوو العقول ويقال: إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل [مما][١] أعطي من جميع كتب الأولين من الصحف [وغيرها][٢] لأنه تعالى قال لأولئك: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وسمي لهذا خيراً كثيراً لأن هذا جوامع الكلم. وقال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم لأن ما أعطي أفضل مما [أعطوا][٣] أصحاب الدنيا لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً وقال: (قل: متاع الدنيا قليل) وسمى العلم خيراً كثيراً.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

لقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ يقول: ما تصدقتم من صدقة ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فوفيتم بنذوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي يحصيه ويقبله منكم وهذا وعد من الله تعالى فكأنه يقول: (أنه لا ينسى بل يعطي ثوابكم). ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يعني ليس للمشركين من مانع في الآخرة يمنعهم من العذاب ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وذلك أن الله تعالى لما حثهم على الصدقة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدقة السر أفضل أم صدقة العلانية؟ فنزل قوله: (إن تبدوا الصدقات) يعني إن تعلنوا الصدقات المفروضة. ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر: (فنعما هي) بنصب النون وكسر العين وقرأ [عاصم في رواية (حفص ونافع في رواية ورش وابن كثير: بكسر النون وكسر العين][٤] وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (فنعما) بكسر النون وجزم العين وكل ذلك جائز وفيه ثلاث لغات: نِعِم نَعِم ونِعْم وما زيدت فيها للصلة وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص (ويكفر) بالياء وضم الراء وقرأ حمزة ونافع والكسائي: (ونكفر) بالنون وجزم الراء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: (ونكفر) بالنون وضم الراء[٥] فمن قرأ بالجزم فهو جزاء الصدقة ومن قرأ بالضم فهي على المستقبل يعني إن تعلنوا الصدقات فحسن ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من صدقة العلانية. فأما صدقة التطوع فقد اتفقوا أن الصدقة في السر أفضل وأما الزكاة المفروضة: قال بعضهم: السر أفضل لأنه أبعد من الرياء وقال بعضهم العلانية أفضل لأن الزكاة من شعائر الدين فكل ما كان أظهر كان أفضل كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين ولأن في ذلك زيادة رغبة لغيره في أداء الزكاة. ثم قال تعالى ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني فيما تصدقتم في السر والعلانية يتقبل منكم ويكون في ذلك كفارة سيئاتكم ويعطي ثوابكم في الآخرة.

لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ

(١) في أ [ما]. (٢) سقط في أ. (٣) في ظ [أعطى].
(٤) ما بين المعقوفين من ظ. (٥) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٨.

وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ
﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ
يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ
إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم مكة لعمرة القضاء وخرجت معه أسماء بنت أبي بكر فجاءتها أمها قتيلة وجدها أبو قحافة فسألا منها حاجة فقالت: لا أعطيكما شيئاً حتى استأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإنكما لستما على ديني فاستأمرت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) أي يوفق من يشاء لدينه. فإن قيل قد قال في آية أخرى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) وقال هاهنا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يوفق قيل ما يشاء إنما أراد به هناك الدعوة وهاهنا أراد به الهدى خاصة وهو التوفيق إلى الهدى. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾ يعني ما تنفقوا من مال فثوابه لأنفسكم إذا تصدقتم على الكفار أو على المسلمين وروي عن عمر بن الخطاب أنه رأى رجلاً من أهل الذمة يسأل على أبواب المسلمين فقال: ما أنصفناك أخذنا منك الجزية ما دمت شاباً ثم ضيعناك بعدما كبرت وضعفت فأمر بأن يجرى عليه قوته من بيت المال. ثم قال تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ يعني لا تنفقوا إلا ابتغاء ثواب الله ﴿وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [أي يوف ثوابه][(١)] إليكم. ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم وصدقاتكم فيكون ما الأولى بمعنى الشرط وما الثاني [للجحود][(٢)] وما الثالثة للخبر ثم بين موضع الصدقة فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني النفقة والصدقة للفقراء الذين حبسوا أنفسهم في طاعة الله وهم أصحاب الصفة كانوا نحواً من أربعمائة رجل جعلوا أنفسهم للطاعة وتركوا الكسب والتجارة قوله ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلأَرْضِ﴾ أي لا يستطيعون الخروج إلى السفر في التجارة ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ قرأ حمزة وعاصم[(٣)] وابن عامر: (يحسبهم) بنصب السين في جميع القرآن وقرأ الباقون[(٤)]: بالكسر وتفسير[(٥)] القراءتين واحد يعني يظن الجاهل بأمرهم وشأنهم [أنهم][(٦)] ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ لأنهم يظهرون أنفسهم للناس باللباس وغيره كأنهم أغنياء ويتعففون عن المسألة قوله ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار ﴿لاَ يَسْأَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً﴾ يعني إلحاحاً قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ لا يسألون الناس إلحاحاً ولا غير إلحاح ويقال: أصله من اللحاف لأن السائل إذا كان ملحاً[(٧)] فكأنه يلصق بالمسؤول فيصير كاللحاف [يلتصق][(٨)] وجعل ذلك كناية عنه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يعني عليم بما أنفقتم ويقال: هذا على معنى التحريض فكأنه يقول: عليكم بالفقراء الذين أحصروا في سبيل الله [وقال بعضهم: هذا على معنى التعجب فكأنه يقول: عجباً للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله][(٩)]

---

(١) في ظ [أي يوفر ثوابكم].
(٢) في ظ [للجحد].
(٣) من ظ.
(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٨.
(٥) في أ [وتفسيرهما].
(٦) من أ.
(٧) في أ [محلفاً].
(٨) سقط في ظ.
(٩) ما بين المعقوفين من ظ.

ويقال: أنه رد إلى أول الآية وما أنفقتم من نفقة للفقراء الذين أحصروا ثم قال تعالى **﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾**. قال مقاتل الكلبي: نزلت هذه الآية في شأن علي بن أبي طالب كانت له أربعة دراهم لم يملك غيرها فلما نزل التحريض على الصدقة تصدق بدرهم بالليل وبدرهم بالنهار وبدرهم في السر وبدرهم في العلانية فنزلت هذه الآية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار)**﴿سِرّاً وَعَلاَنِيَةً﴾** يعني خفية وظاهراً. ويقال: هذا حث لجميع الناس على الصدقة يتصدقون في الأحوال كلها وفي الأوقات كلها **﴿فلهم أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**.

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ
(٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَاْ﴾ يعني يأكلون الربا استحلالاً **﴿لاَ يَقُومُونَ﴾** يوم القيامة من قبورهم **﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ﴾** أي يتخبطه الشيطان **﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾** أي من الجنون. ويقال: أنهم يبعثون يوم القيامة فقد انتفخت بطونهم كالحباب[1] وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم فيكون ذلك علامة آكل الربا. ويقال: يكون بمنزلة المجنون **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم﴾** يعني الذي نزل بهم لأنهم **﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَاْ﴾** معناه استحلوا الربا وكان الرجل اذا حل [أجل][2] ماله [طالبه][3] فيقول له المطلوب: زدني في الأجل وأزيدك في مالك فيفعلان ذلك. فإذا قيل لهما: أن هذا ربا قالا: الزيادة في أول البيع وعند حلول الأجل سواء. ويقال: أنهم استحلوا الربا وقالوا: الربا والبيع في الحل سواء فالله تعالى أبطل قولهم فقال تعالى **﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَاْ فَمَنْ جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾** ولم يقل جاءته لأن التأنيث ليس بحقيقي ويجوز أن يذكر ويؤنث لأنه انصرف إلى المعنى يعني فمن جاءه نهي **﴿مِّن رَّبِّهِ﴾** في

(١) قال الأزهري: حَبَابُ. الماء: نفّاخاته وفقاقيعه التي تطفو كلها القوارير وهي البباليل اللسان: حبب. وقال الفيروزبادي: الحب: الجرة أو الضخمة منها، أو الخشاب اوربع توضع عليها الجرة ذات العروتين. وجمعه: أَحْبَاب، وحَبَبَة وحِبَاب.
ترتيب القاموس ١/ ٥٧٠.

(٢) سقط في ظ.
(٣) في ظ [طلبة].

القرآن في بيان تحريم الربا ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ عن أكل الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ يعني ليس عليه إثم فيما مضى قبل النهي لأن الحجة لم تقم عليهم ولم يعلموا بحرمته وأما اليوم فمن تاب عن الربا فلا بد له من أن يرد الفضل ولا يكون له ما سلف لأن حرمة الربا ظاهرة بين المسلمين لأن كتاب الله تعالى فيهم ثم قال عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في المستأنف إن شاء عصمه وإن شاء لم يعصمه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى استحلال الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قال ابن مسعود آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه ملعونون على لسان محمد[١] ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عليه الصلاة والسلام: سيأتي على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا ومن لم يأكل الربا أصابه من غباره[٢] وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: الربا بضع وسبعون باباً أدناها كإتيان الرجل أمه[٣] يعني كالزاني بأمه. ثم قال تعالى ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي يبطله ويذهب ببركته ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يقول: يقبلها ويضاعفها ويقال: إن مال آكل الربا لا يخلوا من أحد أوجه ثلاثة: إما أن يذهب عنه أم عن ولده أو ينفقه فيما لا يصلح. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ يعني جاحد بتحريم الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ يعني عاص بأكله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [يعني أعطوا الزكاة][٤] المفروضة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد ذكرناه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ (أي أطيعوا الله)[٥] ولا تعصوه فيما نهاكم من أمر الربا ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مصدقين بتحريمه وقال أهل اللغة إن الحقيقة على ثلاثة أوجه: إن بمعنى ما كقوله (إن الكافرون) (إن كانت إلا صيحةً واحدةً) وإن بمعنى لقد كقوله (إن كان وعد ربنا لمفعولا) (وتالله إن كنا وتالله إن كدت لتردين) (وإن كنا عن عبادتكم لغافلين) وإن بمعنى إذ كقوله: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (وذروا ما بقي من الربا) نزلت هذه الآية في نفر من بني ثقيف وفي بني المغيرة من قريش وكانت ثقيف يربون لبني المغيرة في الجاهلية وكانوا أربعة أخوة منهم مسعود وعبد ياليل وأخواهما يربون لبني المغيرة فلما ظهر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل مكة وضع الربا كله وكان أهل الطائف قد صالحوا على أن لهم رباهم على الناس يأخذونه وما كان عليهم من ربا للناس فهو موضوع عنهم لا يؤخذ منهم وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب لهم كتاباً وكتب في أسفله إنَّ لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فلما حل الأجل طلب ثقيف رباهم فاختصموا إلى أمير مكة وهو عتاب بن أسيد[٦] فكتب بذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) ولا تستحلوا الربا (وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) يعني مصدقين بتحريم الربا. ثم خوفهم فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ أي لم تقروا بتحريم الربا ولم تتركوه ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾. قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر: فآذِنوا بمد

---

(١) أخرجه أبو داود ٣/٢٤٤ في البيوع باب في آكل الربا وموكله (٣٣٣٣) والترمذي ٣٩٦/٤ كما في التحفة وابن ماجة ٢/٧٧٤. وأخرجه مسلم بتمامه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه ٣/١٢١٩ في المساقاة باب لعن آكل الربا وموكله (١٠٦/ ١٥٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود ٣/٢٤٤ في البيوع باب في اجتناب الشبهات (٣٣٣١) وأحمد في المسند ٢/٤٩٤ والنسائي ٧/٢٤٣ في البيوع باب اجتناب الشبهات في الكسب وابن ماجه ٢/٧٦٥ في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن ماجة ٢/٧٦٤ في التجارات باب التغليظ في الربا (٢٢٧٤) وقال البوصيري في الزوائد في إسناده نجيح بن عبد الرحمن أبو معشر متفق على تضعيفه. وذكر السيوطي في اللآلىء ٢/٨٣ والمنذري في الترغيب ٣/٦.

(٤) سقط في ظ. (٥) سقط في ظ.

(٦) عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية الأموي، أبو عبد الرحمن، له صحبة. التقريب ٢/٣.

الألف وكسر الذال [وقرأ أبو عمرو وورش عن نافع (فَأْذَنُواْ) بترك الهمزة ونصب الذال][١] وقرأ الباقون: بجزم الألف[٢] ونصب الذال فمن قرأ (فاذنوا) بالجزم معناه فاعلموا (بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ) يعني بإهلاك من الله. ويقال: معناه فاعلموا بأنكم كفار بالله (وَرَسُولِهِ) ومن قرأ (فآذنوا) بالمد يقول: أعلموا بعضكم بعضاً بحرب أي بإهلاك من الله تعالى ورسوله فقالوا: مالنا بحرب من الله ورسوله طاقة فما توبتنا؟؟ فقال تعالى ﴿فإن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رؤوس أَمْوَالِكُمْ﴾ التي أسلفتم. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل ربا كان في الجاهلية فهو موضوع وأول ربا وضع ربا العباس بن عبد المطلب وكل دم كان في الجاهلية فهو موضوع وأول دم وضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. ثم قال: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ يعني الطالب لا يظلم بطلب الزيادة ويرضى برأس المال ولا يظلم المطلوب فينتقص عن رأس المال وذلك أنهم طلبوا رؤوس أموالهم من بني المغيرة فشكوا العسرة يعني بني المغيرة وقالوا: ليس لنا شيء وطلبوا الأجل إلى وقت إدراك ثمارهم فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني إن كان المطلوب ذو شدة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ يقول: أجله إلى أن يتيسر عليه بإدراك ثماره ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ يقول لو تصدقتم ولا تأخذونه (فهو ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ويقال: لئن تصدقتم بالتأخير فهو خير لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الصدقة خير لكم. قرأ نافع: (إلى ميسرة) بضم السين وقرأ الباقون والنصب وهما لغتان ومعناهما واحد وقرأ عطاء: (فناظرة) بالألف وقرأ العامة: بغير ألف ومعناها واحد [وقرأ عاصم: (وأن تصدقوا) بتخفيف الصاد وقرأ الباقون بالتشديد لأن التاء أدغم في الصاد وأصله تتصدقوا][٣]. ثم قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ﴾ [يقول اجتنبوا][٤] عذاب يوم ترجعون ﴿فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني في يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يقول: وهم لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً وروى الضاحك عن ابن عباس أنه قال: آخر آية نزلت من القرآن (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) قرأ أبو عمرو: (ترجعون) بنصب التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون: [بالضم][٥] ونصب الجيم[٦] قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

(١) ما بين المعقوفين من أ. (٢) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٨.

(٣) في الأصل مؤخر إلى ما بعد قوله «قرأ أبو عمرو» ترجعون «بنصب التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بالضم ونصب الجيم» والصواب تقديمه كما في ظ.

(٤) في ظ [يعني اخشوا]. (٥) في ظ [بضم التاء]. (٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٤٩.

جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ
بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ
وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ
ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الآية نزلت في السلم. ويقال: كل دين إلى أجل سلماً كان أو غيره، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني إلى أجل معلوم. وفي الآية دليل: أن المداينة لا تجوز إلا بأجل معلوم: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ يعني الدين والأجل. ويقال: أمر بالكتابة ولكن المراد به الكتابة والإشهاد لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة ويقال: أمر بالكتابة لكي لا ينسى ويقال: من أدان ديناً ولم يكتب فإذا نسي ودعى الله تعالى بأن يظهره يقول الله تعالى: أمرتك بالكتابة فعصيت أمري وإذا دعى بالنجاة من الزوجة يقول الله تعالى: جعلت الطلاق بيدك إن شئت طلقها وإن شئت فأمسكها. ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني يكتب الكاتب عن البائع والمشتري يعدل بينهما في كتابته ولا يزاد على المطلوب على حقه ولا ينقص من حق الطالب. ويقال: إن هذا أمر للكاتب بالكتابة وكانت المكاتبه[1] واجبة في ذلك الوقت على الكاتب لأن الكتبة كانوا قليلاً ثم نسخ بقوله: (ولا يضار كاتب ولا شهيد) وقال بعضهم: الكتابة لم تكن واجبة ولكن الأمر على معنى الاستحباب ثم قال: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ﴾ يقول: ولا يمتنع الكاتب عن الكتابة أن يكتب ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني يكتب شكراً لما أنعم الله عليه حيث علمه الكتابة واحتاج غيره إليه فكما أكرمه الله تعالى بالكتابة وفضله بذلك فيعرف شكره ولا يمتنع عن الكتابة لمن طلب منه ثم قال: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ يعني المطلوب هو الذي يملي على الكاتب حتى يكتب الكتابة لأن قول المطلوب حجة على نفسه فإذا أملى على الكاتب يكون ذلك إقراراً منه بوجوب الحق عليه. ثم خوف المطلوب لكيلا ينقص شيئاً من حق الطالب فقال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني المطلوب ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ يقول لا ينقص من الحق شيئاً يعني المطلوب. ويقال: يعني الكاتب ولا يبخس في الكتابة شيئاً ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ يعني إذا كان المطلوب ﴿سَفِيهاً﴾ أي جاهلاً بالإملاء. ويقال أحمق ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ يعني صبياً عاجزاً عن الإملاء ويقال: أخرس أو مجنون ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ﴾ يعني لا يحسن ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ على الكاتب فيرجع الإملاء على الطالب ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ يعني ولي الحق أي الطالب هكذا قال في رواية الكلبي. وقال في رواية الضحاك: يعني ولي المدين يعني إذا كان للصبي وصي أو ولي يرجع الإملاء عليه فليملل وليه ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالحق ثم أمر بالإشهاد فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ على حقكم ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ يعني من أهل دينكم من الأحرار البالغين ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ﴾ [فليكن رجلاً][2] ﴿وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ يعني من العدول ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني إذا نسيت إحدى المرأتين ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلأُخْرَىٰ﴾ يعني إذا حفظت إحداهما الشهادة فتذكر صاحبتها ويقال: [إذا][3] امتنعت إحداهما عن أداء الشهادة فتعظها الأخرى حتى تشهد. قرأ حمزة: (إن تضل) بكسر الألف ونصب التاء [وجزم][4] اللام وإنما كسر الألف على معنى الابتداء [والشرط][5] [وجزم اللام لحرف الشرط (فَتُذَكِّرُ) بضم (الراء)[6] وقرأ الباقون: بنصب الألف ومعناه لأن

---

(١) من ظ. (٢) من ظ. (٣) في ظ [ان].
(٤) في ظ [وضم اللام]. (٥) سقط في ظ. (٦) ما بين المعقوفين من ظ.

تضل[١]. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فتذكر) بالتخفيف وقرأ الباقون: بنصب الذال وتشديد الكاف وهما لغتان: أذكرته وذكرته ثم قال: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ يعني الشاهد إذا دعي إلى الحاكم ليشهد فلا يمتنع عن أداء الشهادة والإباء عن الشهادة حرام لأن الله تعالى نهى عن الإباء عن الشهادة. ويقال: إباء الشهادة على ثلاثة أوجه [أحدهما][٢]: أن يمتنع عن أدائه. والثاني أن يشهد ويقصر في أدائه لكيلا تقبل شهادته. والثالث: بأن لا يصون نفسه عن المعاصي فيصير منهما لا تقبل شهادته فكأنه وهو الذي أبطل حق المدعي وخانه حيث عصى الله تعالى حتى ردت شهادته بمعصيته. ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَسْأَمُوا﴾ يقول: ولا تملوا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً﴾ يعني قليل الحق أو كثيره، ﴿إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ لأن الكتابة أحصى للأجل وأحفظ للمال﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ﴾ أي أعدل ﴿وَأَقْوَمُ﴾[٣] وأصوب ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾ ﴿وَأَدْنَىٰ﴾ يقول: أحرى وأجدر ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ يعني لا تشكوا في شيء من حقوقكم ثم استثنى الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾ قرأ عاصم: (تجارة حاضرة) بالنصب وقرأ الباقون بالرفع فمن قرأ بالنصب جعله خبر تكون والاسم مضمر معناه إلا أن تكون المداينة تجارة [حاضرة][٤] ومن قرأ بالرفع جعله اسمه يعني اذا كان البيع بالنقد. ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يعني تداولونها أيديكم ولم يكن المال مؤجلا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [أي حرج][٥] ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ يعني التجارة ثم قال ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ على حقكم ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ على كل حال نقداً كان أو مؤجلاً وهذا أمر استحباب ولو ترك [الإشهاد][٦] جاز البيع. ثم قال تعالى ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يقال: لايعمد أحدكم إلى الكاتب والشاهد فيدعوهما إلى الكتابة والشهادة ولهما حاجة مهمة فيمنعهما عن حاجتهما [وليتركهما][٧] حتى يفرغا من حاجتهما أو يطلب غيرهما. ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ يقول إن تضاروا الكاتب والشاهد ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ يقول معصية منكم وترك الأدب قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الضرر ويقال: واتقوا الله ولا تعصوه فيما أمركم من أمر الكتابة والإشهاد ﴿ويعلمكم الله﴾ في أمر الكتابة. ويقال: ويؤدبكم الله ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [من أعمالكم][٨] ﴿عَلِيمٌ﴾. ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً﴾ يعني لم تجدوا من يكتب الكتاب. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: ولم تجدوا كاتبا يعني الكاتب والصحيفة ﴿فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾. (قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (فرهن))[٩]والباقون: (فرهان) فمن قرأ فرهان فهو جمع الرهن ومن قرأ: فرهن فهو جمع الرهان وهو جمع الجمع ويقال: كلاهما واحد وهو جمع الرهن[١٠]. يعني إذا كنتم في السفر ولم تجدوا من يكتب ولم تجدوا الصحيفة والدواة فاقبضوا الرهن. وفي الآية دليل: أن الرهن لا يصح إلا بالقبض لأنه جعل الرهن بالقبض. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ يعني إذا كان الذي عليه الحق أميناً عند الطلب

---

(١) أن تضل. قرأ حمزة بكسر الهمزة «إنْ تَضلَّ» على أن شرطية وتضل مجزومة به وفتحت اللام للادغام، والفاء من فتذكر واقعة في جواب الشرط وتذكر مرفوع لتجرده من الناصب والجازم والتقدير فهي تذكر، والجملة في محل جزم جواب الشرط، وقراءة حمزة برفع الراء فتذكر، وقرأنا في عاصم والسكائي بفتح أن أن مصدرية ناصبة لتضل وفتحته اعراب وتذكر بتشديد الكاف ونصب الراء عطفاً على أن تضل هكذا «أن تضل إحداهما فتذكر» وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح أن أيضاً ونصب (تذكَرَ) لكن بتخفيف الكاف هكذا (أن تضل احداهما فتذكر) من ذكر ومن شدد فمن ذكر. وراجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٥١.

(٢) في ظ [أحدها].
(٣) من ظ.
(٤) سقط من ظ.
(٥) من ظ.
(٦) من ظ.
(٧) في أ [وليتركها].
(٨) سقط في ظ.
(٩) في ظ [وقرأ].
(١٠) خبر بتقدير الا ان تحدث أو تقع تجارة.

فرهن مقبوضة «قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم الراء والهاء. هكذا فرهن بغير الف جمع رَهْن مثل سَقْف وسُقُف والباقون بكسر الراء وفتح الهاء ممدودة هكذا فِرِهَانٌ جمع رَهْن مثل كَعْب وكِعاب. راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٢.

ولم يطلب منه الرهن ورضي بدينه بغير رهن قوله ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ يعني أن المطلوب يقضي دينه حيث ائتمنه الطالب ولم يرتهن منه ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ﴾ ولا يمنع حقه. ثم رجع إلى الشهود فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَادَةَ﴾ عند الحاكم. يقول: من كانت عنده شهادة فليؤدها على وجهها ولا يكتمها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ يعني الشهادة ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ يعني فاجر قلبه قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها فهذا وعيد للشاهد على كتمان شهادته لكيلا يكتمها. قرأ حمزة وعاصم: (فليؤد الذي أوتمن) بضم الألف والباقون يقرأون بسكون الألف وكلاهما واحد[1].

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الخلق كلهم عبيده وإماؤه وهو خالقهم ورازقهم وحكمه نافذ فيهم معناه لا تعبدوا أحداً سواه لأنه هو الذي خلق المسيح والملائكة والأصنام. ويقال: لله ما في السموات وما في الأرض يعني في كل شيء دلالة ربوبيته ووحدانيته. ثم قال: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني، إن تظهروا ما في قلوبكم أو تضمروه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي يجازيكم به الله [وقال بعضهم يعني في كتمان الشهادة أن تعلنوا الشهادة أو تخفوها يحاسبكم به الله) أي يجازيكم به الله][2] وقال الكلبي: وإن تعلنوا ما في أنفسكم من المعصية أو تسروها ولا تظهروها يجازيكم[3] قال: لما نزلت هذه الآية شق[4] على المسلمين وقالوا: يا رسول الله إنا لنحدث أنفسنا بالأمر[5] المعصية ثم [لا نعملها أو نعملها][6] فهو سواء[7] فشق ذلك على [المؤمنين][8] مشقة شديدة فلما [علم][9] الله مشقة ذلك على [المؤمنين][10] أنزل على نبيه ما هو أهون عليه منه فقال:(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديلبي قال: حدثنا أبو عبيد الله عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: سبقت رحمتي غضبي[11]. قال سفيان: بلغني أن الأنبياء كانوا يأتون قومهم بهذه الآية (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فيقولون: لا نطيق هذا ولا نحتمله فأعقبهم الله المؤاخذة فلما عرض على هذه الأمة قبلوا فأعقبهم الله تعالى أن وضعها عنهم فأنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) الآية. ثم قال عز وجل: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ أي لمن تاب عن الذنوب ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي من أقام على ذلك وأصر عليه ويقال: فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم لمن انتزع عنه ويعذب من يشاء بالذنب الصغير إذا أصر عليه ويقال: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار. قرأ عاصم وابن عامر: (فيغفر) بضم الراء على معنى الابتداء. وقرأ الباقون بالجزم على جواب الشرط وكذلك في قوله: ويعذب من يشاء[12] ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[13]

(١) في ظ [قرأ نافع (فليؤد) بغير همز وقرأ أبو عمرو بالهمزة وتفسير القراءتين واحد».
(٢) في ظ [سقط في ظ]. (٣) في ظ «به الله». (٤) في ظ [ذلك].
(٥) في ظ «من». (٦) في ظ «لا نعمل بها أو نعمل بها». (٧) في ظ «قال نعم».
(٨) في ظ «المسلمين». (٩) في ظ «عرف». (١٠) في ظ [المسلمين].
(١١) أخرجه البخاري ٣/٤٠٤ في كتاب التوحيد ومسلم ٤/٢١٠٨ في كتاب التوبة باب في سعة رحمة الله (١٥/٢٧٥١).
(١٢) فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء «عطفاً على الجزاء المجزوم وهو يحاسب، والباقون بالرفع، هكذا فيغفر ويعذب على الاستئناف أي فهو يغفر ويعذب. راجع/ حجة القراءات لابن زنجلة ١٥٢.
(١٣) في ظ [من العقوبة والمغفرة قوله تعالى].

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ روي عن الحسن وعن مجاهد: أن هذه الآية نزلت في قصة المعراج وهكذا روي في بعض الروايات عن عبد الله بن عباس. وقال بعضهم: جميع القرآن نزل به جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا هذه الآية فإن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمعها ليلة المعراج. وقال بعضهم: لم يكن ذلك في قصة المعراج لأن ليلة المعراج كانت بمكة وهذه السورة كلها مدنية فأما من قال: إنها كانت في ليلة المعراج قال: لما صعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغ فوق السموات في مكان مرتفع ومعه جبريل حتى جاوز سدرة المنتهى فقال له جبريل: إني لم أجاوز هذا الموضع ولم يؤمر أحد بالمجاوزة عن هذا الموضع غيرك فجاوز النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بلغ الموضع الذي شاء الله فأشار إليه جبريل بأن يسلم على ربه فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التحيات لله والصلوات الطيبات فقال الله تعالى: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته فأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكون لأمته حظ في السلام فقال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فقال جبريل وأهل السموات كلهم: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال الله تعالى على معنى الشكر (آمن الرسول) أي صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أنزل إليه (من ربه) فأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يشارك أمته في الفضيلة فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ﴾ يعني يقولون آمنا بجميع الرسل ولا نكفر بواحد منهم ولا نفرق بينهم كما فرقت اليهود والنصارى فقال له ربه عز وجل كيف قبولهم للآي التي أنزلتها؟ وهي قوله: (وإن تبدوا ما في أنفسكم) فقال رسول الله ﴿وَقَالُواْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي أطعنا مغفرتك يا ربنا ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع. قال الله تعالى عند ذلك: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي طاقتها ويقال: إلا دون طاقتها ويقال: لا يكلف الصلاة قائماً لمن لا يقدر عليها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشر فقال له جبريل عند ذلك: سل تعط فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ يعني إن جهلنا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ يعني أن تعمدنا، ويقال: إن عملنا بالنسيان أو أخطأنا، يعني عملنا بالخطأ. فقال له جبريل: قد أعطيت ذلك قد رفع عن أمتك الخطأ والنسيان شيئاً آخر فقال عند ذلك: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾ يعني ثقلاً ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ وهو أنه حرم عليهم الطيبات بظلمهم وكانوا إذا أذنبوا بالليل [وجدوه][1] مكتوباً على بابهم وكانت الصلوات عليهم خمسين فخففت عن هذه الأمة وحطّ عنهم بعدما فرض [عليهم][2] إلى خمس صلوات ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ يقول: لا

(١) في ظ [وجدوا].
(٢) سقط في ظ.

تكلفنا من العمل ما لا نطيق فتعذبنا ويقال: ما يشق ذلك علينا [لأنه لو أمر بخمسين صلاة لكانوا يطيقون ذلك ولكنه يشق عليهم ولا يطيقون الإدامة على ذلك][1] ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ من ذلك كله ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي تجاوز عنا ويقال: واعف عنا من المسخ واغفر لنا من الخسف وارحمنا من القذف لأن الأمم الماضية بعضهم أصابهم المسخ وبعضهم [أصابهم الخسف وبعضهم][2] القذف ثم قال: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي أنت ولينا وحافظنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فاستجيب دعاؤه وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: نصرت بالرعب مسيرة شهر[3]. ويقال: إن الغزاة إذا خرجوا من بلادهم بالنية الخالصة وضربوا الطبل وقع الرعب والهيبة في قلوب الكفار مسيرة شهر علموا بخروجهم أو لم يعلموا ثم إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع أوحى الله تعالى إليه هذه الآيات ليعلم أمته بذلك ولهذه الآية تفسير آخر. قال الزجاج[4]: لما ذكر الله تعالى فرض الصلاة والزكاة في هذه السورة وبين أحكام الحج وحكم الحيض والطلاق والإيلاء وأقاصيص الأنبياء وبين حكم الربا والدين ثم ذكر تعظيمه بقوله تعالى: (لله ما في السموات وما في الأرض) الآية ثم ذكر تصديق جميع ذلك حيث قال: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) أي صدق [الرسل][5] بجميع هذه الأشياء التي جرى ذكرها وكذلك المؤمنون كلهم صدقوا بالله وملائكته وكتبه ورسله. قرأ حمزة والكسائي: (وكتابه) على معنى الوحدان [وقرأ الباقون: (وكتبه) على معنى الجمع][6] ثم قال: (لا نفرق بين أحد من رسله) فأخبر عن المؤمنين بأنهم يقولون: لا نفرق بين أحد من رسله. [قرأ الحضرمي: (لا يفرق) بالياء ومعنا كل آمن بالله وكل لا يفرق وقرأ ابن مسعود (لا يفرقون بين أحد من رسله)][7] وقالوا سمعنا وأطعنا أي قبلنا ما سمعنا لأن من سمع ولم يقبل قيل له أصم لأنه لم ينتفع بسماعه وقرأ أبو عمرو (من رسله [برفع][8] السين وكذلك [في][9] جميع القرآن [غير][10] هذه [الحروف][11] الأربعة: مثل رسلنا ورسلهم يقرأ بالسكون وقرأ الباقون: برفع السين في جميع القرآن. ومعنى قوله: (غفرانك ربنا) أي اغفر غفرانك وهو من أسماء المصادر كالكفران والشكران (وإليك المصير) يعني نحن مقرون بالبعث. ثم قال: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) يعني طاقتها قال الفقيه حدثنا أبو الحسين قال: حدثنا محمد بن يوسف قال: حدثنا محمد بن عبد الله قال: حدثنا مروان[12] عن عطاء بن عجلان[13] عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله تجاوز عن هذه الأمة ما حدثت به أنفسها أوهمت به ما لم تعمل به أو تتكلم به[14]. ثم قال: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا) أي لا تواخذ أحداً بذنوب غيره كما قال في آية أخرى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله: (إن نسينا) أي إن تركنا (أو أخطأنا) يعني إن كسبنا خطيئة فأخبر الله تعالى

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ. (٢) من ظ.

(٣) تقدم ضمن حديث «جُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِداً وطَهُوراً» والحديث متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٦٩.

(٥) في ظ [الرسول]. (٦) في ظ [وقرأ الباقون وكُتُبه على معنى الجمع]. (٧) سقط في الأصل والمثبت من ظ.

(٨) في ظ [بثقل]. (٩) في ظ [جميع ما في]. (١٠) في ظ [فاذا جاوز عن].

(١١) في ظ [الاحرف].

(١٢) مروان بن معاوية بن الحارث بن أسماء الفزاري، أبو عبد الله الكوفي، نزيل مكة ثم دمشق، ثقة حافظ، وكان يدلس أسماء الشيوخ. التقريب ٢/ ٢٣٩.

(١٣) عطاء بن عجلان الحنفي، أبو محمد البصري العطار، متهم ليس بثقة. التهذيب ٧/ ٢٠٨.

(١٤) أخرجه البخاري ٥/ ١٦٠ في العتق باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه (٢٥٢٨) وفي ١١/ ٥٤٨ في الأيمان والنذور (٦٦٦٤). ومسلم ١/ ١٦ في الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس (٢٠١/ ١٢٧) (٢٠٢/ ١٢٧).

بهذا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن المؤمنين وجعله في كتابه ليكون دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - لهم دعوة يدعون بها من بعده لأن هذا الدعاء قد استجيب له فينبغي أن يحفظ ويدعى به كثيراً قال الفقيه: حدثنا القاضي الخليل قال: حدثنا السراج قال: حدثنا أحمد بن سعيد [الرازي][1] قال: حدثنا سهل بن بكار[2] قال: حدثنا أبو عوانة[3] عن أبي مالك الأشجعي[4] عن ربعي بن حراش[5] عن حذيفة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فضلنا على الناس بثلاث خصال: جعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وأوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعط أحد قبلي ولا تعطي أحداً بعدي[6]. وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: تعلموا البقرة وآل عمران فإنهما تجيئان يوم القيامة كالغمامتين أو كالغيايتين أو كفرقتين من طير صواف ويحاجان عن صاحبهما ثم قال: تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البطلة[7] يعني السحرة. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نزل عليه ملك فقال له إن الله يبشرك بنورين لم يعطهما نبياً قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرأ بحرف [منهما][8] إلا أعطيته نوراً[9] وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لو بلغت سورة البقرة ثلاثمائة آية لتكلمت يعني لصارت بحال تتكلم لأنه لا يبقى شيء إلا إجتمع فيها من كثرة ما فيها من العجائب. والله [سبحانه وتعالى][10] أعلم [وصلى الله على سيدنا محمد][11].

---

(١) في ظ [الدارمي].

(٢) سهل بن بكار بشر الدارمي البصري، أبو بشر المكفوف، ثقة ربما وهم. مات سنة سبع أو ثمان وعشرين التقريب.

(٣) الوضاح بن عبد الله الواسطي البزار، أبو عزانة اليشكري، كان من سبي جرجان. التهذيب ١١/١١٦.

(٤) سعد بن طارق، أبو مالك الاشجعي الكوفي، ثقة. التقريب ١/٢٨٧.

(٥) ربعي بن حراش، أبو مريم العبسي الكوفي، ثقة عابد مخضرم. التهذيب ٣/٢٣٦، التقريب ١/٢٤٣.

(٦) أخرجه أحمد في المسند بنحوه ٥/٣٨٣ وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/٣٧٨ وأخرجه مسلم دون قوله «وأوتيت هذه الآيات» ١/٣٧١ في المساجد (٤/٥٢٢) وهو عند أبي عوانة ١/٣٠٣ والبيهقي ١/٢١٣ وابن أبي شيبة ١١/٤٣٥ وابن خزيمة (٢٦٤) وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٩٣ والطحاوي في مشكل الاثار ١/٤٥٠، وذكره القرطبي في التفسير ٥/٢٣١. وابن كثير ٢/٢٧٩. ٢٨٢.

(٧) أخرجه أحمد ٥/٢٥١ والدارمي في السنن ٢/٣٢٤ وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/١٨.

(٨) في ظ [منها].

(٩) أخرجه مسلم من حديث أبي أمامة ١/٥٥٣ في الصلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٢٥٢/ ٨٠٤).

(١٠) سقط في ظ. (١١) سقط في ظ.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (١)

مائتا(٢) آية وهي مدنية(٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾

﴿الٓمٓ﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما - أنا الله أعلم(٤) **﴿اللَّهُ﴾** يعني، هو الله الذي **﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**(٥) الذي لا يموت ولا يزول أبداً. ويقال: الحي الذي لا بادىء له **﴿الْقَيُّومُ﴾** يعني القائم على كل نفس بما كسبت ويقال: القائم بتدبير الخلق.

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: الحي قبل كل حي والحي بعد كل حي الدائم الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، والقائم على العباد بأرزاقهم، وآجالهم. ويقال «الحي القيوم» هو اسم الله الأعظم، ويقال: إن عيسى ابن مريم - عليهما السلام - كان إذا أراد أن يُحيي الموتى يدعو بهذا الاسم: يا حَيُّ يَا قَيّوم. ويقال: إن آصف بن برخيا، لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - دعا بقوله: يا حَيُّ يا قيوم. ويقال: إن بني إسرائيل سألوا موسى - عليه السلام - عن اسم الله الأعظم فقال لهم: قولوا [اهيا](٦) يعني يا حي «شراهيا» يعني

---

(١) واشتملت هذه السورة من الأغراض: على الابتداء بالتنويه بالقرآن ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وتقسم آيات القرآن ومراتب الأفهام في تلقيّها والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه لا يعد له دين وأنه لا يقبل دين عند الله بعد ظهور الإسلام غير الإسلام والتنويه بالتوراة والإنجيل والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن تمهيداً لهذا الدين فلا يحق للناس أن يكفروا به وعلى التعريف بدلائل آلهية الله تعالى وانفراده وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: من جعلوا له شركاء أو اتخذوا له أبناء وتهديد المشركين بأن أمرهم إلى زوال وألا يغرّهم ما هم فيه من البذخ وأن ما أعد للمؤمنين خير من ذلك وتهديدهم بزوال سلطانهم ثم الثناء على عيسى - عليه السلام - وآل بيته وذكر معجزة ظهوره وأنه مخلوق لله وذكر الذين آمنوا به حقاً وإبطال إلاهية عيسى ومن ثم أفضى إلى قضية وفد نجران ولجاجتهم ثم محاجة أهل الكتابين في حقيقة الحنيفية وأنهم بعداء عنها وما أخذ الله من العهد على الرسل كلهم: أن يؤمنوا بالرسول الخاتم وأنَّ الله جعل الكعبة أول بيت وضع للناس وقد أعاد إليه الدين الحنيف كما ابتداه فيه وأوجب حجة على المؤمن وأظهر ضلالات اليهود وسوء مقالتهم وافترائهم في دينهم وكتمانهم وما أنزل إليهم وذكر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام وأمرهم بالاتحاد والوفاق وذكرهم بسابق سوء حالهم في الجاهلية وهون عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين وذكرهم بالحذر من كيدهم وكيد الذين أظهروا الإسلام ثم عادوا إلى الكفر فكانوا مثلاً لتمييز الخبيث من الطيب وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم والصبر على تلقي الشدائد والبلاء وأذى العدو ووعدهم على ذلك بالنصر والتأييد والقاء الرعب منهم في نفوس عدوهم ثم ذكرهم بيوم أحد ويوم بدر وضرب لهم الأمثال بما حصل فيهما ونوه بشأن الشهداء من المسلمين وأمر المسلمين بفضائل الأعمال: من بذل المال في مواساة الأمة والإحسان وفضائل الأعمال وترك البخل ومذمة الربا وختمت السورة بآيات التفكير في ملكوت الله. انظر التحرير والتنوير ٣/١٤٤، ١٤٥.

(٢) في ظ [وهي مائتان].
(٣) سقط في ظ.
(٤) تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في تفسير سورة البقرة.
(٥) سقط في ظ.
(٦) في ظ [باهيا].

يا قيوم. ويقال: هو دعاء أهل البحر، إذا خافوا الغرق يدعون به [ثم قال تعالى:](١)

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾﴾

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني أنزل عليك جبريل بالقرآن ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل، ويقال: لبيان الحق. ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني موافقاً للكتب المتقدمة في التوحيد وفي بعض الشرايع ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني [أنزل](٢) التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى من قبل(٣) هذا الكتاب. وروي عن الفراء أنه قال(٤): اشتقاق التوراة من وري الزند، وهو ما يظهر من(٥) النور والضياء فسمي التوراة بها(٦) لأنه(٧) ظهر بها النور والضياء لبني إسرائيل ومن تابعهم، وإنما سمي الإنجيل لأنه أظهر الدين بعدما درس، وقد سمي القرآن إنجيلاً أيضاً لما روي في قصة مناجاة موسى ـ عليه السلام ـ أنه قال: يا رب أرى في الألواح أقواماً أناجيلُهم في صدورهم، فاجعلهم أمتي، قال الله تعالى هم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما أراد بالأناجيل القرآن. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر «التوراة» بكسر الراء والباقون(٨) بالفتح. ثم قال تعالى: ﴿هُدَىً لِلنَّاسِ﴾ معناه، وأنزل التَّوْراة على موسى والإنجيل على عيسى ـ عليهما السلام ـ بياناً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد التوراة والإنجيل. وقال الكلبي «الفرقان» هو الحلال والحرام، يعني بيان الحلال والحرام، ويقال: المخرج من الشبهات. ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي جحدوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [وبالقرآن](٩) ـ وما أوتي من آيات نبوته ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ﴾ في الآخرة. قال الكلبي: نزلت هذه الآية في وفد نجران، قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجادلوه بالباطل، ويقال: [في](١٠) شأن اليهود. ويقال: في شأن مشركي العرب. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي منيع بالنقمة(١١) ينتقم ممن عصاه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ لا يذهب ولا يغيب [عليه](١٢) شيء ﴿فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ معناه أنه لا يخفى عليه قول الكفار وعملهم، فيجازيهم يوم القيامة. وهم وفد نجران وسائر المشركين.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا بذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُم فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي يخلقكم كيف يشاء قصيراً أو طويلاً، حسناً أو ذميماً، ذكراً أو أنثى، ويقال: شقيّاً أو سعيداً، وهذا كما روي عن عبد الله بن

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ [أنزلت]. (٣) في ب [قبل النزول].
(٤) راجع اللسان: مادة «ورى». قال ابن منظور: ذكره الفراء في كتابه المصادر.
(٥) في ظ [منه]. (٦) في ظ [بذلك]. (٧) في ظ [قد].
(٨) أمال ابن ذكوان والكسائي وأبو عمرو ـ ألف التوراة إمالة محضة، وأما حمزة وورش فقد أمالاها بين بين، وروى قالون الفتح والإمالة. راجع/ شرح حوز الأماني ١٧٣، ١٧٤، وكنز المعاني ٣٠٧، ٣٠٨.
(٩) سقط في ظ. (١٠) في ظ [نزلت في]. (١١) في ظ [يعني ينتقم].
(١٢) في ظ [عنه].

مسعود أنه قال: الشقي من شقي في بطن أمّه، والسعيد من سعد في بطن أمه. ثم قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [يقول](١): الولد [يكونه](٢) في بطن أمه يكون نطفةً أربعين يوماً، ثم يصير علقة أربعين يوماً، ثم يصير مضغة أربعين يوماً ثم ينفخ فيه الروح، ثم يكتب شقي أم سعيد(٣). وذكر عن إبراهيم بن أدهم(٤) أن القراء اجتمعوا إليه ليسألوا ما عنده من الحديث، فقال لهم إني مشغول بأربعة أشياء، فلا أتفرغ لرواية الحديث، فقيل له: وما ذاك الشغل؟ فقال: أحدها: إني أتفكر في يوم الميثاق حيث قال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت. والثاني: حيث صوّرني في رحم أمي فقال الملك [الموكل](٥) على الأرحام يا رب شقي [أم](٦) سعيد؟ فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت. والثالث: حيث يقبض روحي ملك الموت فيقول: يا رب أمع الكفار أم مع المؤمنين فلا أدري كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: «وامتازوا اليوم أيُّها المجرمون» فلا أدري من أي الفريقين أكون(٧). ثم قال تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا خالق ولا مصور إلا هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني المنيع بالنقمة لمن جحده ﴿الْحَكِيمُ﴾ يحكم [تصوير](٨) الخلق على ما يشاء.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني [أنزل عليك](٩) جبريل(١٠) بالقرآن ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ يعني من القرآن آيات واضحات ويقال: مبينات بالحلال والحرام ويقال: ناسخات لم تنسخ قط ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني أصل كل كتاب وهي ثلاث آيات من سورة الأنعام وهو قوله تعالى: «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم»(١١) الآيات [وروي عن ابن عباس: أنه سمع رجلاً يقول فاتحة الكتاب؛ أم الكتاب فقال له ابن عباس: بل أم الكتاب قوله تعالى «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم إلى آخر ثلاث آيات](١٢) الآية. ثم قال تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قال

(١) في ظ [أنه قال]. (٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ٣٥٠ في كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) وأطرافه ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤.
وأخرجه مسلم ٤/ ٢٠٣٦ في كتاب القدر/ باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه (١/ ٢٦٤٣) وأحمد في المسند ١/ ٣٨٢ ـ ٤٣٠، وأخرجه أبو داود ٤/ ٢٢٨ في كتاب السنة/ باب في القدر (٤٧٠٨)، وأخرجه الترمذي ٤/ ٣٨٨ في القدر/ باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم (٢١٣٧).
وأخرجه ابن ماجه ١/ ٢٩ في المقدمة/ باب في القدر (٧٦)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٤٤، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٤، والبغوي في التفسير ١/ ٣١٨.

(٤) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد العجلي أو التميمي أبو إسحاق البلخي ثم الشامي أحد الزهاد والأعلام قال النسائي ثقة مأمون أحد الزهاد وقال البخاري مات سنة اثنتين وستين ومائة الخلاصة ١/ ٣٩ ـ ٤٠.

(٥) في ظ [الذي هو موكل]. (٦) في ظ [هوام]. (٧) في ظ [وإلى هذا ذهب أهل الخير].
(٨) في ظ [بتصوير]. (٩) سقط في ظ. (١٠) في ظ [أنزل].
(١١) في ظ [إلى آخر]. (١٢) زيادة من ظ.

الضحاك أي منسوخات. وقال الكلبي: يعني ما اشتبه على اليهود، كعب بن الأشرف وأصحابه «ألم، والمص» ويقال: المحكم ما كان واضحاً لا يحتمل التأويل والمتشابه: الذي يكون اللفظ يشبه اللفظ والمعنى مختلف ويقال: المحكم(١): الذي هو حقيقة اللغة والمتشابه: ما كان مجاوزاً. ويقال: المحكمات: التي فيها دلالة نبوة

(١) «المحكم والمتشابه»: ـ المحكم لغة: مأخوذ من حَكَمْتُ الدابة وأحْكَمْت: بمعنى منعت. والحُكْمُ: هو الفصل بين الشيئين فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين ويميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، ويقال: حكمت السفيه وأحْكَمْتُه، إذا أخذت على يديه، وحكمت الدابة وأحكمتها: إذا جعلت لها حَكَمَة: وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لأنها تمنع الفرس عن الاضطراب، ومنه الحكْمة: لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق، وإحكام الشيء: اتقانه، والمحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد من الغي في أوامره: والمحكم منه: ما كان كذلك.

والمتشابه لغة: مأخوذ من التشابه: وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر، والشبهة: هي ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنًى قال تعالى ﴿وأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ [سورة البقرة ٢٥] أي يشبه بعضه بعضاً لوناً لا طعماً وحقيقةً، وقيل متماثلاً في الكلام والجودة. وتشابُه الكلام: هو تماثُله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً. القرآن محكم ومتشابه:

جاء في القرآن الكريم ما يدل على أنه كله محكم إذ قال تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُه﴾ [سورة هود ١] وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه إذ قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ [سورة الزمر ٢٣] وجاء فيه ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه إذ قال جل ذكره ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب فيه آيات محكمات واخر متشابهات﴾. [سورة آل عمران ٧] ولا تعارض بين هذه الاطلاقات الثلاثة، لأن معنى إحكامه كله أن آياته نُظِمَتْ نَظْماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقص ولا خلل. ومعنى كله متشابه تشابه معانيه في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعته الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة وتجاوب نظمه وتأليفه في هذا الحُسْن والإحكام والإعجاز فهو كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أَيْنَ طرفاها.

وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه: أن من القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى منه، وذلك في الآيات المحكمات التي أحكِمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد الكريم، وذلك في الآيات المتشابهات التي يتطرق إليها الاحتمال والاشتباه. المحكم عند الفقهاء والأصوليين:

يطلق المحكم في اصطلاح الفقهاء والاصوليين على ما يقابل المنسوخ فيراد به الحكم الشرعي الذي لم يتطرق إليه نسخ، كما يطلق على ما يقابل المتشابه فيعنون به ما ورد من نصوص الكتاب والسنة دالاً على معناه بوضوح لا خفاء فيه.

آراء العلماء في المحكم والمتشابه:

اتفق العلماء على أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكماً أي متقناً، وبين كونه كله متشابهاً أي يشبه بعضه بعضاً في هذا الإتقان والإحكام وبين كونه منقسماً إلى ما اتضحت دلالته على مراد الله وما خفيت دلالته، ولكنهم اختلفوا في تحديد معنى المحكم والمتشابه اختلافات كثيرة أهمها:

١ ـ المحكم ما عرف المراد، به، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه.

٢ ـ المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أوجهاً.

٣ ـ المحكم استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

٤ ـ المحكم ما كانت دلالته راجحة وهو النص والظاهر لاشتراكهما في حصول الترجيح إلا أن النص راجح مانع من الغير والظاهر راجح غير مانع منه. وأما المتشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة، وهو المجمل والمؤول والمشكل لاشتراكها في أن دلالة كل منها غير راجحة، وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه فهو من قبيل الظاهر وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل (الفخر الرازي ٨/١٧٠، ١٧١) وهذا التعريف الآخر للإمام الرازي جامع مانع من حيث أنه لا يدخل في المحكم ما كان خفياً ولا في المتشابه ما كان جلياً لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاءً تاماً في بيان تقسيمه الذي بناه على راجح ومرجوح والذي أعلن لنا أن الراجح ما كان واضحاً لا خفاء فيه، وأما المرجوح ما كان خفياً لا جلاء معه. الفوائد التي أجلها من جعل بعض القرآن محكماً والبعض الآخر متشابهاً:

ذكر العلماء أن للمحكم والمتشابه في القرآن الكريم فوائد عدة منها: ـ

أ ـ أنه متى كانت المتشابهات موجودة، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب قال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلِمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾. =

محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمتشابه: الذي اشتبهت الدلالة فيه. فإن قيل: إذا أنزل القرآن للبيان فكيف لم يجعل كله واضحاً؟ قيل: الحكمة في ذلك والله أعلم أن يظهر فضل العلماء لأنه لو كان الكل واضحاً لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض وهكذا يفعل كل من يصنف تصنيفاً يجعل بعضه واضحاً وبعضه مشكلاً ويترك للحيرة موضعاً لأن ما هان وجوده قل بهاؤه. ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ﴾ يعني مَيْل عن الحق وهم اليهود ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ قال الضحاك: يعني ما نسخ منه ﴿ابْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَة﴾ أي طلب الشرك واستبقاؤه ما هم عليه ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي طلب [ثناء][1] هذه الأمة[2] ويقال: طلب وقت قيام الساعة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَه إلاَّ ٱللَّه﴾ يعني منتهى ملك هذه الأمة وذلك أن جماعة من اليهود دخلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيهم حيي بن أخطب وغيره فقالوا: بلغنا أنه نزل عليك «الم» فإن كنت صادقاً في مقالتك فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة لأن الألف في حساب الجمل واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فنزل: «وما يعلم تأويله إلا الله» يعني منتهى ملك هذه الأمة ثم قال تعالى: «والراسخون في العلم» قال الكلبي ومقاتل: استأنف الكلام يعني لما قال «وما يعلم تأويله إلا الله» فقد تم الكلام ثم استأنف فقال: ﴿والراسخون في العلم﴾ [أي البالغون العلم في كتبهم][3] التوراة والإنجيل ﴿يقولون آمنا به﴾ يعني القرآن ﴿كُلٌّ من عند ربنا﴾ ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وهو عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال بعضهم: هو معطوف عليه يقول: «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم» يعني يعلمون تأويله ويقولون: «آمنا به كل من عند ربنا» وروى ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس أنه كان يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم: آمنا به، وهذا يوافق قول الكلبي ومقاتل. وقال عامر الشعبي لو كان ابن عباس بين أظهرنا ما سألته عن آية من التفسير لأني أحلُّ حلاله وأحرِّم حرامه، وأومن بمتشابهه وأكل ما لم أعلم منه إلى عالمه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب﴾ يعني ما يتعظ بما أنزل من القرآن إلا ذوو العقول من

= ب ـ لو كان القرآن محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب وذلك ممّا ينفّر أرباب المذهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوّي مذهبه ويؤثر مقالته فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

ج ـ أن القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل. وحينئذ يتخلص عن ظلمة التقليد ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كله محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

د ـ لما كان القرآن مشتملاً على الحكم والمتشابه افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

هـ ـ وهو السبب الأقوى في هذا الباب أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسمٍ ولا بمتحيزٍ ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ونفي فوقع في التعطيل فكان الأصلح أن يخاطَبُوا بألفاظ دالّة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه. ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح. فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات. هذا والله أعلم.

انظر تفسير الفخر الرازي ١٧٢/٨ والإتقان في علوم القرآن ٣/٣ وما بعدها بتصرف.

(١) في ظ [بقاء]. (٢) في ظ [إلى أدنى زمان]. (٣) في ظ [يعني المبالغون في علم الكتاب كتابهم].

الناس ثم قال عبد الله بن سلام وأصحابه حين سمعوا قول اليهود وتكذيبهم ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ يعني لا تُحَوّل قلوبنا عن الهدى ﴿بعد إذ هديتنا﴾ يعني بعد ما أكرمتنا بالإسلام [وهديتنا لدينك][١] ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ يعني ثَبّتنا على الهدى ﴿إِنَّكَ أَنتَ الوهَّاب﴾ أي المعطي [المثبت][٢] للمؤمنين. ﴿ربنا إنك جامعُ الناس﴾ بعد الموت ﴿ليوم لا ريب فيه﴾ أي في يوم لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائنٌ لا محاله. «إن الله لا يخلف الميعاد» في البعث ويقال: معناه ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ في إجابة الدعاء يعني يوم يجمع الناس في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ يعني اليهود، ويقال جميع الكفار ﴿لن تغني عنهم﴾ كثرة ﴿أموالهم ولا أولادهم من الله﴾ [شيئاً][٣] يعني[٤] من عذاب الله ﴿شيئاً﴾ في الدنيا إذا نزل بهم شدة أو مرض، ولا في الآخرة عند نزول العذاب. ويقال: كل ما لم ينفق في طاعة الله، فهو حسرة له يوم القيامة، ويقال: إنما ذكر الأموال والأولاد [لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل الأموال والأولاد][٥]. فأخبر الله تعالى: [أنه لا ينفعهم][٦] في الآخرة لكيلا يفني الناس أعمارهم لأجل المال والولد، وإنما ذكر الله تعالى الكفار، لكي يعتبر بذلك المؤمنون. ثم قال تعالى: ﴿وأولئك هم وقود النار﴾ أي حطب النار. قرأ بعضهم «وُقُودُ النار» بضم الواو يعني: [إيقاد][٧] النار كما قال في آية أخر «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها» قالوا: معناه إذا أرادت النار أن تنطفيء بدلهم الله جلوداً [غيرها][٨] لتتقد النار. ﴿كدأب آل فرعون﴾ يعني [أن][٩] صنيع الكفار معك كصنيع آل فرعون مع موسى. وقال مقاتل كأشباه آل فرعون بالتكذيب بالعذاب في الدنيا، ويقال: إهلاك الله إياهم بالقتل، كإهلاك آل فرعون بالغرق، ويقال: تعاونُهم وتظاهرهم فيما بينهم عليك، كتظاهُر آل فرعون على موسى ﴿والذين من قبلهم﴾ أي قبل آل فرعون مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿كذبوا بآياتنا﴾ أي بدلائلنا وعجائبنا. ويقال: بكتبي ورسلي كما كذبك قومك يا محمد ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم وعاقبهم بشركهم ﴿والله شديد العقاب﴾ [للكافرين][١٠].

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

[قوله تعالى][١١] ﴿قل للذين كفروا﴾ قال الضحاك: يعني كفار مكة لما ظهروا يوم أحد فرحوا بذلك فنزل قوله تعالى: «قل للذين كفروا» من أهل مكة ﴿ستغلبون﴾ بعد هذا ﴿وتحشرون إلى نار جهنم﴾ وقال الكلبي: نزلت في شأن بني قريظة، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما هزم المشركين يوم بدر قالت اليهود: هذا النبي الأمّي الذي بشرنا به موسى، الذي نجده في التوراة، فأرادوا تصديقه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر

---

(١) من ظ.
(٢) في ظ [المثيب].
(٣) سقط في ظ.
(٤) في ظ [يعني لا ينفعهم].
(٥) زيادة من ظ.
(٦) في ظ [أنهما لا ينفعانهم].
(٧) في ب [اتقاد].
(٨) سقط في ظ.
(٩) سقط في ظ.
(١٠) في ظ [للكفار].
(١١) زيادة من ظ.

إلى وقعة أخرى له، فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا: والله ما هو إياه، فقد تغيّرت صفته وحاله، فشكوا فيه ولم يسلموا. وقد كان بينهم وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد، فأنزل الله تعالى: «قل للذين كفروا ستغلبون» وقال عكرمة: عن عبد الله بن عباس أنه قال: لما أصاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشاً يوم بدر، وقَدِم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر اليهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب قريشاً». قالوا: يا محمد لا تغرنك نفسك، إنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً[١] لا يعرفون القتال، فإنك لو قاتلتنا لعرفت، أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: «قل للذين كفروا ستغلبون [وتحشرون][٢]» يعني تُهْزمون وتُقْهرون وتُحْشرون بعد القتل، إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ يعني لبئس موضع القرار جهنم. قرأ حمزة والكسائي «سَيُغْلبونَ وَيُحشرُون» [بالياء][٣] على معنى الخبر والباقون بالتاء على معنى المخاطبة[٤].

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

ثم قال: ﴿قد كان لكم آية [يعني عبرة][٥] في فئتين﴾ أي جَمْعَيْن [يعني][٦] جَمْع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، وجمع [كـفار][٧] أهل مكة ﴿التقتا فئة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم﴾ قرأ نافع «ترونهم» على معنى المخاطبة، والباقون بالياء على معنى الخبر[٨]. وذكر عن الفراء أنه قال[٩]: كان الكفار ثلاثة أمثال المسلمين لأن المسلمين كانوا ثلاثمائة ونيفاً، وكان الكفار تسعمائة ونيّفاً وقوله «مثليهم» أي ثلاثة أمثالهم، والمعنى في ذلك عن طريق اللغة: أن الإنسان إذا كان عنده ألف درهم يقول: احتاج إلى مثليها، فإنه يحتاج إلى ثلاثة آلاف، وقال الزجاج[١٠]: هذا القول لا يصح في اللغة ولا في المعنى ولكن المسلمين يرونهم مثليهم [في العدد][١١] لكي لا يجبنوا، لأنه أعلمهم أن المائة تغلب المائتين، فأراهم في ﴿رأي العين﴾ أن المشركين مثليهم في العدد لكي لا يجبنوا، وهذا كما قال في آية أخرى: «وإذ يريكموهم إذ الْتَقَيْتم في أعينكم قليلاً، ويقللكم في أعينهم». وذلك أن المشركين كانوا تسع مائة [فأرى الله المسلمين][١٢] أنهم ستمائة لكي لا يجبنوا وأرى الكفار أن المسلمين أقل من ثلاثمائة ثم ألقى مع ذلك في قلوبهم الرعب حتى انهزموا [فكان][١٣] في

---

(١) الأغْمَار: جمع غُمْر ـ بضم فسكون ـ وهو الجاهل الغِرُّ الذي لم يجرب الأمور. قال ابن سيده: ويُقْتاس من ذلك لكل من لا غناء عنده ولا رأي. ورجل غُمْرٌ وغَمِرٌ: لا تجربة له بحرب ولا أمر ولم تمكنه التجارب. اللسان: غمر.

(٢) زيادة من ظ، والحديث أخرجه أبو داود في السنن ٣/١٥٤ في كتاب الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠١).

(٣) زيادة من ظ.

(٤) انظر / حجة القراءات لابن زنجلة ١٥٣، كنز المعاني شرح حرز الأماني ص ٣٠٨، ٣٠٩، وكذا الإتحاف والحجة لابن خالويه.

(٥) زيادة من ظ. (٦) زيادة من ظ. (٧) في ظ [كفار].

(٨) والقراءة بالياء على أن الرَّائينَ المشركون، والمرئيّين المؤمنون، ويحتمل العكس وقراءة نافع بناء الخطاب، والمخاطبون اليهود لكونهم حاضري الواقعة ببدر، أي يرون المسلمين مثل عددهم، أو مثلي عدد المشركين على اختلاف التفاسير. راجع/ كنز المعاني شرح حرز الأماني ص ٣٠٨، ٣٠٩، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٤.

(٩) معاني القرآن للفراء ١/١٩٤. (١٠) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٨٢. (١١) في سقط في ظ.

(١٢) في ظ [فرأى المسلمون]. (١٣) في ظ [فكانت].

ذلك دلالة من [الدلالات][(١)]. فمن قرأ [بالتاء على معنى المخاطبة][(٢)] لليهود: إن لكم آية وعلامة حيث رأيتم غلبة المسلمين على الكفار مع قلة المسلمين وكثرة الكفار فإن قيل: إن اليهود لم يكونوا حضوراً في ذلك الوقت، فكيف يرون ذلك؟ قيل له: إذا انتشر الخبر فهموا وعلموا ذلك صار كالمعاينة ولأن لهم جواسيس عند المسلمين يخبرون اليهود بذلك فصار كأن كلهم رأى ذلك، ومن قرأ بالياء معناه: أن المسلمين يرون الكفار مثليهم ويقال: إن المشركين حين خرجوا من مكة كانوا ألفاً وثلاثمائة رجل، فلما وجدوا العير[(٣)] سالمة[(٤)] رجع مع العير ثلاثمائة وخمسون وتخلف تسعمائة وخمسون للحرب، وكان أبو سفيان بن حرب في تلك العير، فرجع إلى مكة وحثهم على [المسير][(٥)]، ولم يكن حاضراً وقت الحرب، وإنما قال الكلبي في كتابه: نزلت في جمع أبي سفيان وأصحابه، لأن أبا سفيان هو الذي حثهم على الخروج ولم يخرج معهم، ثم قال تعالى: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوي بنصرته، وهم أهل بدر، فأرسل إليهم الملائكة وهزم المشركين، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يعني من ينصر الحق.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾
ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ
وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿زين للناس حب الشهوات﴾ حُسِّن وحُبِّب إليهم، وقد يكون التزيين من الله تعالى كما قال في آية أخرى «زينا لهم أعمالهم» وقد [كان][(٦)] من الشيطان كما قال في آية أخرى «وزين لهم الشيطان أعمالهم» فأما التزيين من الله تعالى فهو على وجهين: يكون على [جهة][(٧)] الامتحان للمؤمنين مع العصمة، وقد يكون للكفار على [جهة][(٨)] العقوبة مع الخذلان، وأما التزيين من الشيطان [فهو على جهة][(٩)] الوسوسة، فقال: زين للناس حب الشهوات ﴿من النساء والبنين﴾ بدأ بالنساء، لأن فتنة النساء أشد من فتنة جميع الأشياء كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال:[(١٠)] «ما تركت لأمتي فتنة أشد من فتنة النساء» ولأن النساء فتنتهن ظاهرة من وقت آدم عليه السلام

---

(١) في أ [الدلالة]. (٢) في المخطوطتين (بالياء فمعناه خطاب)، والصحيح ما أثبتناه، وهو موافق لتوجيه القراءتين كما سبق.
(٣) العير: مؤنثة: القافلة، وقيل: العير: الإبل التي تحمل المِيرة، لا واحد لها من لفظها. (اللسان: عير).
(٤) وبناء على تأنيث العير أثبتنا الصواب (سالمة) بدلاً من (سالماً).
(٥) في ظ [الخروج]. (٦) في ظ [يكون]. (٧) (٨) في ظ [وجه]. (٩) في ظ [على وجه].
(١٠) متفق عليه من رواية أسامة بن زيد رضي الله عنه، أخرجه البخاري ٩: ٣٧ في كتاب النكاح/ باب شئوم المرأة (٥٠٩٦) ومسلم ٤/٢٠٩٧ في كتاب الذكر والدعاء/ باب أكثر أهل الجنة الفقراء. (٩٧/٢٧٤٠) وأخرجه أحمد في المسند ٥/٢٠٠ والترمذي رقم (٢٧٨٠) والطبراني في الكبير ١/١٣٣ وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٦٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٩١ وأبو نعيم في الحلية ١٢/٣٢٩.

إلى يومنا هذا. ويقال: في النساء فتنتان وفي الأولاد فتنة واحدة إحداهما: أنها تؤدي إلى قطيعة الرحم، لأن المرأة تأمر زوجها بقطيعة الرحم عن الأمهات والأخوات والثانية: يبتلي بجمع المال من الحلال والحرام. وأما البنون: فإن الفتنة فيهم واحدة وهي ما ابتلي به من جمع المال لأجلهم فذكر البنين، وأراد به الذكور والإناث. وقال بعض الحكماء: أولادنا فتنة، إن عاشوا فتنونا وإن ماتوا أحزنونا. ثم قال تعالى: ﴿والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ روي عن الفراء أنه قال [١]: القناطير جمع قنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير، وروي عن [أبي عبيدة][٢] أنه قال: [٣] المقنطرة: [مُفَعَّلة من الورق][٤] كما يقال: ألف مؤلفة، وبذر مبذرة، ويقال: المقنطرة: هي [المكيلة][٥] ثم اختلفوا في مقدار القنطار: فروي عن مجاهد أنه قال: القنطار سبعون ألف دينار. وقال أبو هريرة: [٦] القنطار اثني عشر ألف أوقية. وقال معاذ بن جبل: [٧] ألف ومائتا أوقية. وقال بعضهم: [٨] مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ من ذهب، حكاه الكلبي وقال هو لغة رومية. وروي عن الحسن البصري أنه سئل عن القنطار ما هو؟ فقال: هو مثل دية [٩] أحدكم [١٠]. ثم قال تعالى: ﴿والخَيْلِ المُسَوَّمة﴾ يعني الراعية، كما قال في آية أخرى: «فيه تسيمون». أي ترعون وهو قول سعيد بن جبير ومقاتل. وقال يحيى بن كثير: هي السمينة المصورة. وقال أبو عبيدة: [١١] المُعْلَمة ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿والحَرْث﴾ يعني الزرع، ذكر أربعة أصناف، كل نوع من [المال][١٢] يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة، فيتمول[١٣] به التجار، وأما الخيل المُسَوَّمة فيتمول [بها][١٤] الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول به أهل الرساتيق[١٥]، فيكون فتنة كل

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ١٩٥. (٢) في ظ [عبيدة]. (٣) مجاز القرآن ١/ ٨٨

(٤) في ظ [مثقلة من القنطار]. (٥) في ظ [المكملة كما يقال: بِدَرٌ مُبَدَّرة].

(٦) وأخرجه ابن جرير الطبري، من حديث عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة أن القنطار ألف ومئتا أوقية. ابن جرير ٢/ ٤٤١ (٦٧٠٠) وذكره ابن كثير في التفسير ٢: ١٠٩، ١١٠ ـ وأشار الحافظ ابن كثير إلى الرواية التي حكاها المصنف رحمه الله وهي عند أحمد «حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القنطار اثنا عشر ألف أوقية، كل أوقية خير مما بين السماء والأرض وصحح الحافظ ابن كثير أن هذا الأثر موقوف.

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره/ ٦/ ٢٤٤ (٦٦٩٦)، (٦٦٩٧) وعن ابن عمر أيضاً عند ابن جرير (٦٦٩٨) عن عاصم ابن النجود مثله أيضاً (٦٦٩٩).

(٨) مجاز القرآن ١/ ٨٩، اللسان: قنطر.

(٩) الدية: مصدر وَدَى القاتل المقتول إذا أعطى وليَّه المال هو بدل النفس، ثم قيل لذلك المال: الدية تسميةً بالمصدر. ولذا جمعت، وهي مثل عدة في حذف الفاء كذا في المغرب ٢/ ٣٤٧ وانظر الصحاح ٦/ ٢٥٢١ القاموس ٤/ ٤٠١ المصباح ٢ (١٠١٣).

(١٠) أخرجه الطبري عن الحسن بلفظ القنطار ألف دينار، ديةُ أحدكم (٦٧١٢).

(١١) مجاز القرآن ١/ ٨٩. ونصه (والخيل المسوَّمة: المعلمة بالسيماء، ويجوز أن تكون «مسوَّمة» مرعاةً، من أَسَمْتُها، تكون هي سائمة، والسائمة: الراعية وربما يُسيمها).

(١٢) في ظ [الأموال].

(١٣) في الأصل (يتمول) والصحيح ما أثبتناه، فهو جواب (أما).

(١٤) في ظ [به].

(١٥) قال ابن منظور: الرُسْدَاق، والرُّزْدَاق، فارسي: بيوت مجتمعة، ولا تقل: رُسْتَاق. وكان الليث يقول للذي يقول له الناس الرَّسْتَق، وهو الصف. وَذْدَق، وهو دخيل. (اللسان: رزدق).

صنف في النوع الذي يتمول به، وأما النساء والبنين فهي فتنة للجميع. ثم زهد في [ذلك كله](١) ورغب في الآخرة فقال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي منفعة الحياة الدنيا تذهب ولا تبقى ﴿والله عنده حسن المآب﴾ أي المرجع في الآخرة الجنة، لا تزول ولا تفنى. ثم بَيّن أن الذي وعد المؤمنين في الآخرة خير مما زين للكفار فقال تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ أي من الذي زين للناس في الدنيا ﴿للذين اتقوا﴾ الشرك والفواحش والكبائر. ويقال: للذين اتقوا الزينة فلا تشغلهم عن طاعة الله. ﴿عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني البساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها الأنهار، فهو خير من الزينة الدنيوية وما فيها وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال(٢): لَشِبْرٌ في الجنة خير من الدنيا وما فيها قال: ﴿خالدين فيها﴾ يعني مقيمين فيها أبداً. ﴿وأزواجٌ مُطَهَّرة﴾ معناه في الخَلْق والخُلُق، فأما الخَلْقُ، فإنهن لا يَحضِنَ ولا يتمخَّطْن ولا يأتين الخلاء، وأما الخُلُق، فإنهن لا يغِرْن ولا يحسدن ولا ينظرن إلى غير أزواجهن، ﴿ورضوان من الله﴾ أي مع هذه النعم لهم رضوان من الله، وهو من أعظم النعم، كما قال في آية أخرى «وَرِضْوَانٌ من الله أكبر» قرأ عاصم في رواية أبي بكر «وَرُضْوَان» بضم الراء، والباقون بالكسر وهما لغتان وتفسيرهما واحد(٣): ﴿واللَّه بصيرٌ بالعباد﴾. أي عالم بأعمالهم وثوابهم. ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿الذين يقولون رَبَّنَا إِنَّنا آمَنَّا﴾ أي صَدَّقْنَا ﴿فَاغْفِرْ لنا ذُنُوبَنَا﴾ أي خطايانا التي كانت في الشرك وفي الإسلام ﴿وقِنَا عَذَابَ النَّار﴾ يعني ادفع عنا عذاب النار(٤) ﴿الصَّابرين﴾ يعني الجنة التي ذكر للذين اتقوا الشرك، وللصابرين](٥) الذين يصبرون على طاعة الله، ويصبرون [على](٦) المعاصي ويصبرون على ما أصابهم من الشدة والمصيبة ﴿والصادقين﴾ [يعني الصادقين](٧) في إيمانهم(٨) وفي قلوبهم، وفي وعدهم بينهم وبين الناس، وبينهم وبين الله تعالى ثم قال: ﴿والقانتين﴾ يعني المطيعين لله تعالى ﴿والمنفقين﴾ الذين يتصدقون من أموالهم في سبيل الله ﴿والمستغفرين بالأَسْحَار﴾ يعني يصلون لله عند الأسحار. ويقال: يصلون لله بالليل ويستغفرون عند السَّحَر.

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿شَهِدَ ٱللَّه أنَّه لَا إله إلاَّ هُوُ﴾ يعني أن الله تعالى قَبْل أن يخلق الخلق شهد أن لا إله إلا هو ﴿والملائكة﴾ ولما خلق الملائكة شهدوا بذلك، ثم لما خلق الله المؤمنين شهدوا بمثل ذلك وهم ﴿أولو العلم﴾ يعني المؤمنين شهدوا بذلك ﴿قَائِماً بالقِسْط﴾ يعني الله قائماً بالعَدْل على كل نفس. ويقال: من أقر بهذه الشهادة على عقد قلبه، فقد قام بالعدل وقال مقاتل: سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا لرؤساء اليهود: اتبعوا دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت اليهود: ديننا أفضل من دينكم، فقال الله عز وجل: «شهد الله أنه لا إله إلا هو

---

(١) في ظ [في الدنيا].

(٢) أخرجه ابن ماجه ١٤٤٨/٢ في كتاب الزهد/ باب صفة الجنة(٤٣٢٩) وقال البوصيري في زوائده ٣٢٤/٣ هذا إسناد ضعيف تقدم الكلام عليه مرات قلت ويقصد حجاج بن أرطأة وعطية العوفي وقال وأخرجه أيضاً بهذا الإسناد أبو بكر بن أبي شيبة في مسنده وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠٨/٤ من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقال: غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا عن هذا الشيخ ـ ضمن ترجمة شقيق بن سلمة (٢٥٣).

(٣) راجع/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٧، كنز المعاني ـ شرح حرز الأماني ص ٣٠٩.

(٤) في ظ [ثم قال عز وجل]. (٥) سقط في ظ. (٦) في ظ [عن].

(٧) سقط في ظ. (٨) في ظ [والصادقين في قلوبهم].

والملائكة وأولو العلم» يشهدون بذلك، وأولو العلم بالتوراة يشهدون بذلك، ويشهدون أن الله قائم بـالقسط أي بالعدل، وأن الدين عند الله الإسلام. قال الكلبي: وفيه وجه آخر وذلك أنه لما ظهر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة، قدم عليه حَبْران من أحبار الشام، فلما نظرا إلى المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان فلما دخلا عليه قالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال أنا محمد وأحمد. قالا: أَخْبِرْنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله تعالى فنزلت هذه الآية «شهد الله. . . الخ» فأسلم الرجلان وصدَّقا أن الدين عند الله الإسلام. وروي عن أبي عبيدة أنه قال[١]: «شَهِدَ اللَّهُ» يعني عَلِم اللَّهُ وبَيَّن الله، فالله عز وجل: دَلَّ على توحيده بجميع ما خلق فبيّن أنه لا يقدر أحدٌ أن ينشيء شيئاً واحداً مما أنشأ الله تعالى، وشَهِدت الملائكة بما علمت من عظيم قدرته، وشهد أولو العلم بما ثبت عندهم وتبين من خلقه الذي لا يقدر غيره عليه. وفي هذه الآية بيان فضل أهل العلم، لأنه ذكر شهادة نفسه ثم ذكر شهادة الملائكة ثم ذكر شهادة أهل العلم، ثم قال تعالى: ﴿لا إله إلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾ [فشهد بمثل ما شهد من قبل لتأكيد الكلام. وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً لكل حي من العرب صنم أو صنمان، فلما نزلت هذه الآية أصبحت تلك الأصنام كلها قد خرت ساجدة[٢].

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

ثم قال عز وجل:][٣] ﴿إِنَّ الدِّين عند الله الإسلام﴾ قرأ الكسائي: «أَنَّ الدين» بالنصب على معنى البناء، يعني شهدوا أنه لا إله إلا هو، وأَنَّ الدين عند الله الإسلام[٤]، [و][٥] الباقون بالكسر على معنى الابتداء، ومعناه: إن الدين المرضيَّ عند الله الإسلام ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذين أُوْتُوا الكِتَابَ﴾ في هذا الدين ﴿إلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُم الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ يعني بيان أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم اليهود والنصارى فلما بعث الله تعالى محمداً كفروا حسداً منهم، هكذا قال مقاتل. ويقال: إنهم كانوا مسلمين وكانوا يسمّون بذلك، وكان عيسى عليه السلام سمى أصحابه مسلمين، فحسدتهم اليهود لمشاركتهم في الإسم فغيَّروا ذلك الإسم، وسُمُّوا يهوداً، وأما النصارى فغيرهم عن ذلك الإسم «بولس» وسماهم نصارى فذلك قوله: «وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بينهم» يعني غَيَّروا الاسم حسداً منهم ثم قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّه، فإن الله سريع الحساب﴾ لأنه قد جاء في آية أخرى: «وما أَمْرُ السَّاعة إلَّا كَلَمحِ الْبَصَرِ» وقوله «سَرِيعُ الْحِسَابِ» يعني سريع المجازاة، ويقال: سريع التعريف للعامل عمله لأنه عالم بجميع ما عملوا لا يحتاج إلى إثبات شيء [وتذكر][٦] شيء. ويقال إذا حاسب فحسابه سريع، يحاسب جميع الخلق في وقت واحد، كل واحد منهم يظن أنه يحاسبه خاصة.

---

(١) الذي أورده أبو عبيدة: (شهد الله: قضى الله) مجاز القرآن ١/٨٩.

(٢) عزاه السيوطي في الدر (٢/١٢) لعبد بن حميد، وابن المنذر عن سعيد بن جبير.

(٣) ما بين المعقوفين من أ.

(٤) قراءة الكسائي بفتح همزة (أن) على أنه بدل كل من قوله تعالى ﴿أنَّه لا إله إلَّا هو﴾ أو بدل اشتمال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد، أو عطف عليه بحذف الواو. وقراءة الباقين بكسر الهمزة على الاستئناف، لتمام الكلام الذي قبله. وراجع/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٧ ـ ١٥٨، وكنز المعاني شرح حرز الأماني ٣٠٩.

(٥) في أ [وقرأ]. (٦) في ظ [ولا تذكر].

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿فإن حاجوك﴾ أي خاصموك وجادلوك في الدين ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي أخلصت ديني لله. وقال الزجاج[١]: إن الله تعالى أمر نبيه أن يحتج على أهل الكتاب والمشركين بأنه اتبع أمر الله الذي هم أجمعون مقرون أنه خالقهم ورازقهم، فأراهم الآيات والدلالات بأنه رسوله، وقوله: «أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّه» أي قصدت بعبادتي الله وأقررت بأنه لا إله غيره ﴿و﴾ كذلك ﴿من اتَّبعن﴾ وقال القتبي: معنى أسلمت وجهي لله: يعني أسلمت لله، والوجه زيادة، كما قال «كل شيء هالك إلا وجهه» يعني إلا هو ﴿وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني أُعْطُوا التَّوْرَاة والإنْجِيل ﴿والأمِّيِّن﴾ يعني مشركي العرب ﴿أأسلمتم﴾ يعني أخلصتم بالتوحيد، ويقال اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر فكأنه يقول: أَسْلِموا كما قال في آية أخرى «فَهل أنتم منتهون» يعني انتهوا، وقال [في آية أخرى][٢] «أفلا يتوبون إلى الله» أي توبوا [إلى الله][٣] ﴿فإنْ أَسْلَموا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ يعني[٤] أخلصوا بالتوحيد [وأسلموا][٥] وصدقوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالكتاب فقد اهتدوا من الضلالة ﴿وإن تَوَلَّوْا﴾ يقول: إن أَبَوْا أن يُسلموا ﴿فَإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغ﴾ بالرسالة ﴿واللَّهُ بَصِيرٌ بالعباد﴾ يعني بأعمالهم، ومعناه: ليس عليك من عملهم شيء، وإنما عليك التبليغ، وقد فعلتَ ما أمرتَ به.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُون بآيَاتِ اللَّه﴾ يعني يجحدون بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَقْتُلونَ النَّبِيِّين بغير حق﴾ يعني يتولون آباءهم بالقتل ويرضون بذلك. قرأ حمزة «يقاتلون» بألف من المقاتلة، والباقون بغير ألف[٦] وقرأ نافع «النبيئين» بالهمزة، وقرأ الباقون بغير همز ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾[٧] يعني بالعدل

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٩٠. (٢) سقط في ظ. (٣) في ظ [ثم قال].

(٤) في ظ [يعني أن]. (٥) سقط في ظ.

(٦) راجع/ كنز المعاني شرح الأماني ٣١١، ٣١٢، وحجة القراءات لابن زنجلة ١٥٨.

(٧) إنَّ الذين كفروا بآيات الله ويَقْتُلون النَّبِيِّين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس «آية ٢١». في هذه الآية عدة مسائل: ـ

المسألة الأولى: ـ

دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة. قال الحسن: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من أمر بالمعروف ونَهَى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه».

وعن درة بنت أبي لهب قالت: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على المنبر فقال: «من خير الناس يا رسول الله؟ قال: آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلُهم».

وفي التنزيل: «والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف» ثم قال: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر». فجعل تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين =

. . . .

= والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه. ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد، وإنما يقوم به السلطان إذا كانت إقامة الحدود إليه والتعزير إلى رأيه والحبس والإطلاق له والنفي والتغريب، فينصب في كل بلدة رجلاً صالحاً قويّاً عالماً أميناً ويأمره بذلك، ويمضي الحدود على وجهها من غير زيادة قال الله تعالى ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر﴾.

المسألة الثانية: ـ

وليس من شرط الناهي أن يكون عدلاً عند أهل السنة، خلافاً للمبتدعة حيث تقول: لا يغيره إلاّ عدل. وهذا ساقط، فإن العدالة محصورة في القليل من الخَلَف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس، فإن تشبثوا بقوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ وقوله: «كبرُ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» ونحوه، قيل لهم إنما وقع الذم ها هنا على ارتكابه ما نهى عنه لا على النهي عن المنكر. ولا شك في أن النهي عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، ولذلك يدور في جهنم كما يدور الحمار بالرّحى.

المسألة الثالثة: ـ

أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليه أكثر من ذلك. وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ولكنها مقيدة بالاستطاعة، قال الحسن: إنما يكلم مؤمن يُرْجَى أو جاهل يعلم، فأما من وضع سيفه أو سوطه فقال أتِقني أتقني فما لك وله، وقال ابن مسعود: بحسب المرء إذا رأى منكراً لا يستطيع تغييره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وروى ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه» قالوا: يا رسول الله وما إذلاله نفسه؟ قال «يتعرض من البلاء لما لا يقوم له». قلت: وأخرجه ابن ماجه عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جُنْدب عن حذيفة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلاهما قد تكلم فيه. وروي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات «اللهم إنَّ هَذَا مُنْكَر» فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه، وزعم ابن العربي أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغرر، وإن لم يرج زواله فأي فائدة عنده. قال: والذي عندي أن النية إذا حصلت فليقتحم كيف ما كان ولا يبال. قلت: هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع. وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل. وقال تعالى: ﴿وأْمُرْ بالمَعْرُوف وانْهَ عن المنكر واصْبِر على ما أصابك﴾ وهذا إشارة إلى الاذاية.

المسألة الرابعة: ـ

روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء. يعني عوام الناس. فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو القتل فليفعل، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل. وهذا تلقى من قول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا التي تبغى حتى تفيىء إلى أمر الله﴾.

وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل على النفس أو على المال عن نفسه، أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه. ولو رأى زيد عمراً وقد قصد مال بكر فيجب أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادراً عليه ولا راضياً به، حتى لقد قيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمام عادل لا يَظْلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرصون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

المسألة الخامسة: ـ

روى أنس بن مالك قال قيل: يا رسول الله، متى يتْرك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم». قلنا: يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رُذَالتكم». =

وهم مؤمنو بني إسرائيل، يأمرونهم بالمعروف، فكانوا يقتلونهم، فعيَّرهم الله بذلك، [وأوعدهم][١] النار، فقال: ﴿فَبَشِّرْهم بعذاب أليم﴾ أي وجيع، ويقال: أليم يعني مؤلم. ﴿أولئك الذين حَبِطَتْ أعمالهم﴾ يعني بطل ثواب حسناتهم فلا ثواب لهم ﴿في الدُّنْيا والآخِرَة وَمَا لَهُمْ من نّاصِرين﴾ يعني مانعين يمنعونهم من النار.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ألم تَرَ إلى الّذِين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يعني أُعْطُوا حظاً من علم التوراة. قال مقاتل: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة منهم حين قالوا نحن أَهْدَى سبيلاً، وما بعث الله رسولاً بعد موسى ـ عليه السلام ـ فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنتم تعلمون أن الذي أقول لكم حق فأَخْرِجُوا التوراة فأَبَوْا، فأنزل الله تعالى هذه الآية «أَلَمْ تر إلى الّذين أُوتُوا نصيباً مِنَ الْكِتَاب» ﴿يُدْعَوْن إلى كِتَاب اَللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ منهم وَهُم معرضون﴾. وقال الكلبي: نزلت في يهوديين من أهل خيبر زَنَيا، وكان الحكم في كتابهم الرجم فاختصموا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقضى عليهما بالرجم، فقالوا: ليس هذا [بحكم][٢] الله، فدعا بالتوراة ودعا بابن صوريا، وكان يسكن فَدَك[٣]، وكان أعور، فحلَّفه بالله فأقرّ بالقصة، [فأنزل الله تعالى][٤] «ألم تر إلى الذين أوتُوا نصيباً من الكتاب [يدعون إلى كتاب الله][٥] الآية. ثم قال: «ذلك أي ذلك الجزاء، قال مقاتل فيها تقديم وتأخير، ومعناه: فبشرهم بعذاب أليم ﴿ذلك «بانهم» [قالوا لن تمسنا النار﴾ ويقال: إنما جزاؤهم خلاف الكتاب، لأنهم][٦] قالوا لن تمسنا النار ﴿إلا أيّاماً معدودات﴾ يعني أربعين يوماً على عدد أيام عبادة العجل ويقال على عدد أيام الدنيا، ويقال: إن مذهبهم كان مذهب جَهْم، لأنهم لا يرون الخلود في النار. ﴿وَغرَّهُم في دِينِهم﴾ عَفْوُ الله عنهم بتأخير العذاب ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي يكذبون على الله، وهو قولهم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّه وأَحِبَّاؤُه، فذلك قولهم الذي غرهم.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

ثم خوَّفهم فقال تعالى ﴿فكيف إذا جمعناهم﴾ فقال[٧]: فكيف يصنعون وكيف يحتالون إذا جمعناهم ﴿لِيَوْم لَا رَيْبَ فيه﴾ يعني يوم القيامة لا شك فيه عند المؤمنين بأنه كائن: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾ أي وفيت وأُعْطِيَتْ كل نفس ثواب ما عملت ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يُنْقَصُون من ثواب أعمالهم [شيء][٨].

= قال زيد: تفسير معنى قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «والعلم في رذالتكم» إذا كان العلم في الفساق. أخرجه ابن ماجه.
تفسير القرطبي ٤/٣١ وما بعدها.

(١) في ظ [وأوعد لهم].
(٢) في ظ [حكم].
(٣) فدك بالتحريك قرية بالحجاز فيها عين فوارة ونخل مراصد الأطلاق ٣/١٠٢٠.
(٤) سقط في أ.
(٥) سقط في ظ.
(٦) ما بين المعقوفين من أ.
(٧) زيادة من ظ.
(٨) «زيادة من ظ.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**﴾. قال ابن عباس في رواية أبي صالح نزلت في شأن المنافقين، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة، قال عبد الله بن أبي [رأس][1] المنافقين: [إن محمداً][2] يتمنى أن ينال ملك فارس والروم وأنَّى له ذلك؟ فنزلت هذه الآية. وقال بعضهم: سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه أن يجعل له ملك فارس والروم في أمته، فعلمه الله بأن يدعو بهذا الدعاء، وهو قول مقاتل. وقال بعضهم: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أمر بحفر الخندق فظهر في الخندق صخرة عجزوا عن حفرها، فأخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المعول، وضرب ضربة فظهر من تلك الصخرة نور، فقال له سلمان، رأيت شيئاً عجيباً، فقال له النبي: هل رأيت ذلك؟ قال: نعم: فقال: رأيت في ذلك النور قصور أهل الشام. ثم ضرب ضربة أخرى فظهر أيضاً كذلك. فقال: رأيت قصور أهل فارس، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «سيظهر لأمتي ملك الشام، وملك فارس، فقال المنافقون: إن محمداً لا يأمن على نفسه واضطر إلى حفر الخندق، فكيف يتمنى ملك الشام وفارس فنزلت هذه الآية. وقال بعضهم: إن مشركي مكة قالوا: إن فارس والروم يبيتان في الحرير والديباج، فلو كان هو نبياً، كيف ينام على الحصير؟ فنزلت هذه الآية. «قل اللهم مالك الملك ﴿**تؤتي الملك من تشاء**﴾ وأصل اللهم في اللغة:[3] يا الله أمنا بخير أي اقْصِدْنا بالرحمة، ولكن لما كثر استعمال هذا اللفظ في الناس، صارت الكلمتان [ككلمة][4] واحدة [فقال]:[5] اللهم، يعني: اللهم يا مالك الملك تؤتي الملك من تشاء يعني تؤتي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تبعه: ﴿**وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاء**﴾ من فارس والروم ﴿**وتعز من تشاء**﴾ يعني أهل الإسلام ﴿**وتُذِلُّ من تشاء**﴾ يعني أهل الشرك والطغيان، ﴿**بيدك الخير**﴾ يعني النصرة والغنيمة والعز، ﴿**إنك على كل شيء قدير**﴾ من الذل والعز. وقال الضحاك: «تؤتي الملك من تشاء» يعني الإسلام «وتعز من تشاء» بالإسلام، «وتذل من تشاء» بالشرك، «بيدك الخير»، يعني الهداية والسعادة، «إنك على كل شيء قدير» وقال الزَّجاج:[6] «تؤتي الملك من تشاء: معناه، تولي الملك من تشاء أن تؤتيه وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه، إلا أنه حذف «الهاء» لأن في الكلام دليلاً عليه قال مقاتل: وقد قيل في الملك قولان: أحدهما هو المال والعبيد، والآخر من جهة الغلبة بالدين. ثم قال تعالى: ﴿**تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ**﴾ يعني ما نقص من الليل دخل في النهار حتى يبلغ خمسة عشر ساعة، وهو أطول ما يكون، والليل تسع ساعات وهو أقصر ما يكون ﴿**وتولج النهار في الليل**﴾ يعني أن ما نقص من النهار دخل في الليل حتى يصير الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات، وهو قول الكلبي، ويقال: «تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهار» أي تذهب بالليل وتجيء بالنهار وتذهب بالنهار وتجيء بالليل، هكذا إلى أن تقوم الساعة، ثم قال: ﴿**وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾. فقرأ نافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص «المَيِّت» بالتشديد [و][7] الباقون المَيْت بالتخفيف، وهما لغتان ومعناهما واحد[8]. قال الكلبي: يعني تخرج

---

(١) في أ [رئيس]. (٢) في أ [محمد]. (٣) راجع اللسان: أله. (٤) في ظ [كلمة].
(٥) في أ [فقالوا]. (٦) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٩٤. (٧) في ظ [وقرأ].
(٨) ولا فرق بين التشديد والتخفيف في الاستعمال كما تقول لين ولين، هين وهين. قال أبو حيان: ومن زعم أن المخفف لما قد مات، =

البيضة وهي ميتة من الطير وهو حي وتخرج الطير الحي من البيضة الميتة، وتخرج النطفة وهي ميتة من الإنسان الحي وتخرج الإنسان الحي من النطفة الميتة وتخرج الحبة من السنبلة [إلى آخره][(١)] وقال الحسن البصري: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن[(٢)]. ويقال: يخرج الجاهل من العالم، ويخرج العالم من الجاهل وروى معمر عن الزهري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل على بعض نسائه فإذا بامرأة حسنة الهيئة، فقال من هذه؟ قالوا: إحدى خالاتك قال: ومن هي؟ قالوا: هي خالدة بنت الأَسْود بن عَبْد يغوث[(٣)]. فقال: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: سبحان الـذي يخرج الحَيّ من الميت وكانت امرأة صالحة، وكان أبوها كافراً[(٤)]. ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بغير حساب﴾ يعني من غير أن تحاسب في الإعطاء فكأنه يقول: ليس فوقه من يحاسبه في الإعطاء، كما قال تعالى: «لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَل، وَ هُم يُسْأَلُون» ويقال من غير أن يحاسبه في الإعطاء. ويقال: بغير تقتير، ويقال: بغير حساب. كما قال: «ويرزقه من حيث لا يحتسب».

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: نزلت في شأن المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه من أهل النفاق، [وكانوا قد][(٥)] أظهروا[(٦)] الإيمان وكانوا [يتولون][(٧)] اليهود في العون والنصرة، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم ظفر على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه. وقال مقاتل: نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة[(٨)] وغيره ممن كانوا يظهرون المودة لكفار مكة، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: «لا يَتَّخِذ المؤمنون الكافرين أولياء» فهذا نهي بلفظ المغايبة، يعني لا يتخذونهم أولياء في العون والنصرة ﴿من دون المؤمنين، ومَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ يعني ليس في ولاية الله من شيء، ويقال: ليس في دين الله من شيء، لأن ولي الكافر يكون راضياً بكفره، ومن كان راضياً بكفره فهو كافر مثله كقوله

= والمشدد لما قد مات ولما لم يمت فيحتاج إلى دليل. (البحر المحيط ٢/٤٢١).

وقد جاء الاستعمالان في قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وانظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٥٩، كنز المعاني في شرح حرز الأماني ص ٣١٠، ٣١١.

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٦/٣٠٦ (٦٨١٥) ولفظه «المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والمؤمن عبد حي الفؤاد، والكافر عبد ميت الفؤاد وأخرجه أيضاً بلفظ المصنف رقم (٦٨١٦) عن الحسن بن يحيى وعن الحسن البصري أيضاً رقم (١٨١٩) وذكر أبو عبيدة نحوه في مجاز القرآن ١/٩٠.

(٣) خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث بن وهب القرشية الزهرية كانت امرأة صالحة من المهاجرات. الإصابة ٨/٥٨.

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ٦/٣٠٨ (٦٨٢١) وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/١٨١ وذكر طرقه الحافظ ابن حجر في الإصابة، في ترجمة خالدة بنت الأسود.

(٥) في ظ [وقد]. (٦) في ظ [الإسلام والإيمان]. (٧) في أ [يلوا].

(٨) حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزي مات سنة ثلاثين في خلافة عثمان وله خمس وستون سنة. الإصابة ١/٣١٤.

تعالى: «وَمَن يَتَوَلَّهم منكم فإنَّهُ مِنْهُم» ثم استثنى لما علم أن بعض المسلمين ربما [يُبْتَلون](١) في أيدي الكفار فقال تعالى: ﴿إلاَّ أَنْ تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(٢).

(١) في ظ [يتلون].

(٢) «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء».

قال القاسم في تفسيره لهذه الآية: (٤/٨٢٣ وما بعدها)».

تنبيه: قال بعض مفسري الزيدية: ثمرة الآية الكريمة تحريم موالاة الكفار، لأن الله تعالى نهى عنها بقوله «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء» ثم استثنى تعالى (التقية) فرخص في موالاتهم لأجلها. فتجوز معاشرة ظاهرة، والقلب مطمئن بالعداوة لهم والبغضاء وانتظار زوال المانع. وقد قال الحاكم: في الآية دلالة على جواز إظهار تعظيم الظلمة، اتقاء لشرهم. قال: وإنما يحسن بالمعاريض التي ليست بكذب. وقال الصادق: التقية واجبة، وإني لأسمع الرجل في المسجد يشتمني فاستتر عنه بالسارية لئلا يراني. وعن الحسن: تقية باللسان، والقلب مطمئن بالإيمان.

واعلم أن الموالاة التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار، لا تجوز. فإن قيل قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف فجواب ذلك أن المراد موالاتهم في أمر الدين وفيما فيه تعظيم له. فإن قيل في سبب نزول الآية أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منع «عبادة بن الصامت» عن الاستعانة باليهود على قريش، وقد حالف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حرب قريش، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم، وقد ذكر الراضي بالله أنه يجوز الاستعانة بالفساق على حرب المبطلين، قال وقد حالف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب، وعقد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حلفاً بينه وبين خزاعة. قال الراضي بالله: وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام، وقد استعان علي عليه السلام بقتلة عثمان، ولعل الجواب ـ والله أعلم ـ إن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها ويحمل على هذا استعانة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ باليهود. وممنوعة مع عدم الحاجة، أو خشية مضرة منه. وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت. فصارت الموالاة المحظورة تكون بالمعاداة بالقلب للمؤمنين والمودة للكفار للكفار على كفرهم. ولا لبس في تحريم ذلك ولا يدخله استثناء والموالاة بإظهار التعظيم وحسن المخاللة والمصادقة بإظهار الأسرار ونحو ذلك، فيما لا يضر المسلمين، فظاهر كلام الزمخشري أنه لا يجوز إلا للتقية. فحصل من هذا أن الموالي للكافر والفاسق عاص، ولكن أين تبلغ معصيته؟ يحتاج إلى تفصيل: إن كانت الموالاة بمعنى الموادة، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية. وإن كانت الموالاة كفراً. كفر. وإن كانت فسقاً. فسق. وإن كانت لا توجب كفراً ولا فسقاً، لم يكفر ولم يفسق. وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة، فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب، كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم ويحالفونهم على ذلك، فهذا لا حرج فيه بل هو واجب وإن كانت على أمر محظور كأن يحالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليه، فهذه معصية بلا إشكال، وكذلك إذا كانت بمعنى أن يظهر سر المسلمين ويحب سلامة الكافرين لا لكفرهم بل ليدلهم عليه أو لقرابة أو نحو ذلك، فهذه معصية بلا إشكال. لكن لا تبلغ حدها الكفر لأنه لم يرد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكم بكفر «حاطب بن أبي بلتعة» رغم أنه أرسل لقريش يطلعها على سر من أسرار الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن الله عز وجل أطلعه عليه الصلاة والسلام على ذلك قبل أن تصل رسالة «حاطب» للقرشيين وقال الراضي بالله: إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر. لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للعباس: ظاهرك علينا. وقد اعتذر بأنه خرج مكرها. وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز لا ليستعين به على المسلمين، ولا لاناسه، وكذلك أن يضيق لضيقة في قضية معينة لأمر مباح فجائز، كما كان من ضيق المسلمين من غلب فارس الروم. فصار تحقيق المذهب أن الذي يوجب الكفر من الموالاة أن يحصل من الموالي الرضا بالكفر. والذي يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق. إن قيل فما حكم من يجند مع الظلمة ليستعينوا به حتى على الجبايات وأنواع الظلم؟ قلنا: عاص بلا إشكال، وفاسق بلا إشكال لأنه صار من جملتهم. وفسقهم معلوم.

فإن قيل: فإن تجند معهم لحرب إمام المسلمين؟ قلنا: صار باغياً، وحصل فسقه من جهة البغي والظلم.

ومن هذه الآية استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف.، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه (إيثار الحق على الخلق).

قرأ يعقوب الحضرمي «تقية [وقراءة][1] العامة «تقاة» ومعناهما واحد، يعني يرضيهم بلسانه وقلبه مطمئن الإيمان [فلا إثم عليه كما قال الله تعالى في آية أخرى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»][2] قرأ حمزة والكسائي «تُقاةً» بالإمالة، وقرأ الباقون بتفخيم الألف[3]، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ يعني يخوّفكم الله بعقوبته، أي الذي يتخذ الكافر وليّاً بغير ضرورة، وهذا وعيد لهم ويقال: إذا كان الوعيد مبهماً فهو أشد، ثم قال تعالى: ﴿وإلى اللَّهِ المَصِيرُ﴾ أي مرجعكم في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾

﴿قُلْ إن تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكم﴾ يقول: إن تسروا ما في قلوبكم من النكوث وولاية الكفار ﴿أو تبدوه﴾ يعني

= وقال الإمام الفخر الرازي في (٨/ ١٤):

اعلم أن للتقيه أحكاماً كثيرة ونحن نذكر بعضها:

الحكم الأول: أن التقية إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار، ويخاف منهم على نفسه وماله فيداريهم باللسان. وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهم للمحبة والموالاة، ولكن بشرط أن يضمر خلافه، وأن يعرض في كل ما يقول، فإن التقية تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب.

الحكم الثاني للتقية: هو أنه لو أفصح بالإيمان والحق حيث يجوز له التقية كان ذلك أفضل ودليله ما قاله الحسن: من أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم نعم نعم فقال: أفتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم. وكان مسيلمة يزعم أن رسول بني حنيفة ومحمد رسول قريش، فتركه ودعا الآخر فقال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم قال: أفتشهد أني رسول الله؟ فقال: إني أصم ثلاثاً، فقدمه وقتله فبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه.

الحكم الثالث للتقية: أنـها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة، وقد تجوز أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين، فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحصنات واطلاع الكفار على عورات المسلمين، فذلك غير جائز البتة.

الحكم الرابع: ظاهر الآية يدل على أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبين إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة إذا شاكلت بين المسلمين والمشركين حلت التقية محاماة على النفس.

الحكم الخامس: التقية جائزة لصون النفس، وهي جائزة لصون المال يحتمل أن يحكم فيها بالجواز. لقولـه ـ صلى الله عليه وسلم ـ «حرمة مال المسلم كحرمة دمه».

ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من قتل دون ماله فهو شهيد» ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء. وجاز الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال، فكيف لا يجوز ههنا والله أعلم.

الحكم السادس: قال مجاهد: هذا الحكم كان ثابتاً في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين فأما بعد قوة دولة الإسلام فلا. وروى عوف عن الحسن: أنه قال: التقية جائزة للمؤمنين إلى يوم القيامة، وهذا القول أولى، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان.

(١) في أ [وقرأ]. (٢) زيادة من ظ.

(٣) أي بغير إمالة. وحجة حمزة والكسائي أن (فعلت) منها بالياء إذا قلت (وقيت) فأبقيا في لام الفعل دلالة على أصله في (فعلت) وهي الإمالة. وحجة الباقين أن فتحة القاف تغلب على الألف فتمنعها من الإمالة. حجة القراءات لابن زنجلة ١٥٩.

تعلنوه للمؤمنين: ﴿يَعْلمه الله﴾ لأن الله عليم ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ من عمل، فليس يخفى عليه شيء ﴿وَالله على كل شيء قدير﴾ من السر والعلانية والعذاب والمغفرة «قدر». ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا ﴿مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ يعني تجد ثوابه حاضراً، ولا ينقص من ثواب عمله شيء ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ يعني من شر في الدنيا ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمداً بَعِيداً﴾ يعني تتمنى النفس أن تكون بينها وبين ذلك العمل أجلًا بعيداً، كما بين المشرق والمغرب، ولم تعمل ذلك العمل قط، ثم قال ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾ أي عقوبته في عمل السوء ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال ابن عباس: يعني بالمؤمنين خاصة وهو رحيم بهم ويقال: رؤوف بالذين يعملون السوء حيث لم يعجّل بعقوبتهم. ويقال: ذكر في أول هذه الآية عدله عز وجل في قوله: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً». وفي وسطها تخويف وتهديد، وهو قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾ وفي آخرها ذكر رأفته ورحمته. وهو قوله ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ثم قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا كعب بن الأشرف وأصحابه إلى الإسلام، قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، يعني نحن في المنزلة بمنزلة الأبناء، ولنحن أشدّ حباً لله، فقال الله لنبيه: «قل: إن كنتم تحبون الله تعالى ﴿فاتبعوني﴾ على ديني، فإني رسول الله أؤدي رسالته ﴿يحببكم الله﴾ قال الزجاج: تحبون الله، أي تقصدون طاعته، فافعلوا ما أمركم الله عز وجل، لأن محبة الإنسان لله وللرسول، طاعته له ورضاه بما أمر، والمحبة من الله عفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته ﴿وَيَغْفِر لَكُم ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ويقال: الحب من الله عصمته وتوفيقه والحب من العباد طاعة، كما قال القائل[(1)]:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي [القِيَاسِ][(2)] بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فلما نزلت هذه الآية قالوا: إن محمداً يريد أن نتخذه حناناً، كما اتخذت النصارى عيسى حناناً فنزلت هذه الآية ﴿قل أطيعوا اللَّهَ والرسول﴾ فقرن طاعته بطاعة رسوله رغماً لهم ويقال: أطيعوا الله فيما أنزل، والرسول فيما بيّن، ﴿فإن تولوا﴾ يعني إن عرضوا عن طاعتهما، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ أي لا يغفر لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿إن اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني اختاره، ويقال اختار دينه، وهو دين الإسلام، ويقال: قد اختاره لخمسة أشياء: أولها: أنه خلقه بأحسن صورة بقدرته، والثاني: أنه علّمه الأسماء كلها، والثالث: أنه أمر الملائكة أن يسجدوا له والرابع: أسكنه الجنة، والخامس: جعله [أباً للبشر][(3)]. واختار نوحاً عليه السلام بخمسة أشياء: أولها: أنه جعله [أباً للبشر][(4)] لأن الناس كلهم غرقوا. فصارت ذريته هم الباقين، والثاني: أنه أطال عمره،

(١) القائل: هو الإمام الشافعي رضي الله عنه. والبيتان في ديوانه ص ٥٨.
(٢) في ظ [الفعال]. (٣) في ظ [اب البشر]. (٤) في ظ [اب البشر].

ويقال: طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمرهُ وحَسُن عَمَلُهُ، والثالث أنه استجاب دعاءه على الكفار والمؤمنين والرابع: أنه حمله على السفينة، والخامس: أنه كان أول من نسخ الشرائع، وكان قبل ذلك لم يحرم [تزوج][١] الخالات والأخوات والعمات. واختار (آل) إبراهيم[٢] ـ عليه السلام ـ بخمسة أشياء: أولها: أنه جعله أبا الأنبياء، لأنه روي أنه خرج من [صلبه][٣] ألف نبي من زمانه إلى [زمان][٤] النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والثاني: أنه اتخذه خليلاً، والثالث: أنه أنجاه من النار، والرابع: أنه جعله للناس إماماً، والخامس: أنه ابتلاه [الله بخمس كلمات][٥] بكلمات فوفقه حتى أتمّهن. ثم قال: ﴿وَآلَ عِمْرانَ﴾ قال مقاتل: يعني به [أبا][٦] موسى وهارون وقال الكلبي: هو عمران أبو مريم، وهو من ولد سليمان النبي ـ عليه السلام ـ «فإنه أراد به آل موسى وهارون، إنما كان اختارهما «على العالمين» حيث بعثا على قومه المن والسلوى، ولم يكن ذلك لأحد من الأنبياء في العالم، وإن أراد به أبا مريم، فإنه اصطفى آله يعني مريم بولادة عيسى ـ عليه السلام ـ بغير أب، ولم يكن ذلك لأحد في العالم[٧]. وقال الكلبي: يعني اختار هؤلاء الذين ذكروا في هذه الآية ﴿عَلَى العَالَمِينَ﴾، يعني عالمي زمانهم.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْض﴾ أي بعضهم على إثر بعض، ويقال بعضهم على دين بعض. ﴿والله سميع﴾ لقولهم «عليم»، بهم وبدينهم، ويقال قوله: «والله سميع عليم» انصرف إلى ما بعده، أي سميع بقول امرأة عمران. ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ وهي حنة أم مريم امرأة عمران بن ماثان وذلك أنها لما حبلت، قالت: لئن نجاني الله، ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرراً، والمحرر من لا يعمل للدنيا، ولا يتزوج، ويتفرغ لعمل الآخرة ويلزم المحراب، فيعبد الله تعالى فيه، وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي: محرراً أي خادماً لبيت المقدس، ولم يكن محرراً إلا الغلمان، فقال لها زوجها: إن كان الذي في بطنك أنثى، والأنثى عورة فكيف تصنعين؟ فاهتمت بذلك وقالت: يا ﴿رب إني نذرت لك﴾ وأنت تعلم ﴿ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ [السميع لدعائي العليم][٨] بنيتي وما في بطني. ﴿فلما وضعتها﴾ أي ولدت فإذا هي أنثى ﴿قالت: رب إني وضعتها أنثى﴾ [يعني ولدتها][٩] جارية ﴿والله أعلم بما وضعت﴾. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «والله أعلم بما وَضَعْتُ» بجزم العين وضم التاء، يعني أن المرأة قالت: والله أعلم بما وَضَعْتُ، والباقون بنصب العين وسكون التاء، فيكون هذا

---

(١) في ظ [تزوج].
(٢) سقط في ظ.
(٣) في أ [ذريته].
(٤) في أ [زمن].
(٥) سقط في ظ.
(٦) في ظ [أب].
(٧) ذكر ذلك القرطبي [٤/٦٤].
(٨) في ظ [العليم لدعائي العليم].
(٩) في أ [أي وضعتها].

قول الله: إنه [يعلم][1] بما وضعت تلك المرأة[2]. ثم قال تعالى: ﴿وَليس الذكر كالأنثى﴾ [في الخدمة][3] قال بعضهم هذا قول الله لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس الذكر كالأنثى يا محمد. وقال بعضهم: هي كلمة المرأة: أنها قالت: وليس الذكر كالأنثى [في الخدمة، وقال مقاتل: فيها تقديم، فكأنه يقول: قالت رب إني وَضَعْتُهَا أُنْثى وليس الذكر كالأنثى][4] والله أعلم بما وضعت. ثم قالت: ﴿وإني سميتها مريم﴾ يعني خادم الرب بلغتهم ﴿وإني أعيذُها بك﴾ يعني أعصمها وأمنعها بك: ﴿وذريتها﴾ إن كان لها ذرية ﴿من الشيطان الرجيم﴾ يعني الملعون. ويقال: المطرود من رحمة الله، ويقال: الرجيم بمعنى المرجوم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينَ﴾ حدثنا أبو الليث قال: حدثنا الخليل بن أحمد القاضي، قال: حدثنا أبو العباس، قال حدثنا إسحق بن إبراهيم، قال: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما من مولود يولد إلا والشيطان ينخسه حين يولد فيستهل صارخاً من الشيطان، إلا مريم وابنها عيسى ـ عليهما السلام ـ قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وإني أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم﴾[5].

وقال الزجاج[6]: معنى قوله: «إذ» يعني، إن الله اختار آل عمران، إذ قالت امرأة عمران: واصطفاهم إذ قالت الملائكة وقال أبو عبيدة[7]: معناه، قالت امرأة عمران، وقالت الملائكة و«إذ» زيادة وقال الأخفش: معناه، واذكر إذ قالت [امرأة عمران واذكر إذ قالت][8] الملائكة. [وقال أهل اللغة[9]: المحرر والعتيق في اللغة بمعنى واحد][10].

ثم إن حنة لفتها في خرق، [ثم][11] وضعتها في بيت المقدس عند المحراب فاجتمعت القراء أي الزهاد فقال زكريا: أنا أحق بها، لأن خالتها عندي فقال القُرّاء: إن هذه محررة، فلو تركت لخالتها، فكانت أمها أحق بها، ولكن نتساهم، فخرجوا إلى عين سلوان، فأَلْقَوْا أقلامهم في النهر قال بعضهم: كانت أقلامهم من الشَّبَّة فغابت أقلامهم في الماء، وبقي قلم زكريا على وجه الماء. وقال بعضهم: كانت أقلامهم من قَصَب، فبقيت أقلامهم على وجه الماء وغاب قلم زكريا في الماء. وقال بعضهم: أَلْقَوْا أقلامهم في النهر، فسال الماء بأقلامهم إلا قلم زكريا، فإنه جرى من الجانب الأعلى، فعلموا أن الحق له فضمّها إلى نفسه، فذلك قوله تعالى ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن﴾ أي تقبل منها نَذْرها ﴿وَأَنْبَتَهَا نباتاً حسناً﴾ وقال مجاهد: غذاها غذاء حسناً، ورباها تربية حسنة. ﴿وكفلها زكريا﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي بالتشديد أي كفلها الله إلى زكريا، وقرأ الباقون بالتخفيف أي ضمها زكريا إلى نفسه[12]، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية حفص: «زكريا» بغير إعراب وجزم الألف، وقرأ الباقون بالإعراب

---

(١) في أ [أعلم].

(٢) وحجة من قرأ بضم التاء: أنها قالت (رب إني وضعتها أنثى) كانت كأنها أخبرت الله بأمر هو أعلم به منها، فتداركت ذلك بقولها (والله أعلم بما وضعت) وأما الذين قرأوا بفتح العين وسكون التاء فحجتهم: أنها «قالت رب إني وضعتها أنثى» فكيف تقول بعدها «والله أعلم بما وضعت» أنا. . . . . وحجة أخرى: لو كان كله كلامها لكانت: (رب إني وضعتها أنثى) وأنت أعلم بما وضعت. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٠، ١٦١.

(٣) من ظ.

(٤) ما بين المعقوفين من ظ.

(٥) أخرجه البخاري ٦/٤٦٩ من كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» حديث (٣٤٣١) ومسلم ٤/١٨٣٨ في كتاب الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام (١٤٦/٢٣٦٦) (١٤٧/٢٣٦٦).

(٦) معاني القرآن واعرابه ١/٤٠٣.

(٧) مجاز القرآن ١/٩٠.

(٨) سقط من أ.

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٩٠.

(١٠) ما بين المعكوفين من أ.

(١١) من ظ.

(١٢) وحجة القارئين بتشديد الفاء: أنه رعاية للمعطوف عليه (فتقبلها) فكذلك (وكفلها) وحجة القارئين بالتخفيف إن الله قال (أيهم يكفل مريم) ولم يقل (يكفل). . . انظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ١٦١ وكنز المعاني شرح حرز الأماني ص ٣١١.

والمد، وهما لغتان معروفتان عند العرب فمن قرأ «كفلها» بالتشديد قرأ زكريا بنصب الألف لأنه يصير مفعولاً ومن قرأ «كفلها» بالتخفيف، قرأ زكريا برفع الألف على معنى الفاعل(١). وذكر في الخبر أن زكريا بنى لها محراباً في غرفة، وجعل باب الغرفة في وسط الحائط، لا يصعد إليها إلا بسلم واستأجر لها ظئراً(٢)، فكان يغلق عليها الباب، وكان لا يدخل عليها أحد إلا زكريا حتى كبرت، فإذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها امرأة زكريا(٣)، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: كانت أختها امرأة زكريا، وكانت إذا طهرت من حيضها واغتسلت ردها إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مطهرة من الحيض. وكان زكريا إذا دخل عليها في أيام الشتاء، رأى عندها فاكهة الصيف، وإذا دخل عليها في أيام الصيف وجد عندها فاكهة الشتاء. وكانت الحكمة في ذلك أن لا يدخل في قلب زكريا شيء من الريبة إذا رأى الفاكهة في غير أوانها وعلم أنه لم يدخل عليها أحد من الآدميين فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ ويقال: المحراب في اللغة أشرف المجالس، وهو المكان العالي(٤). وقد قيل: إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب، [فـ﴿قال﴾ لها](٥) زكريا ﴿يا مريم أنّى لك هذا﴾ يعني من أين لك هذا، فإنه لا يدخل عليك أحد غيري، ﴿فقالت﴾ مريم ﴿هو﴾ أي هذا الرزق ﴿من عند الله﴾ أي من فضل الله ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ في غير حينه ويقال: من حيث لا يحتسب.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿هنالك دعا زكريا ربه﴾ يقول: عند ذلك طمع في الولد، وكان آيسا من ذلك، وكان مفاتيح بيت القربان عند آبائه وقد صار ذلك بيده، وكان يخشى أن يخرج من أهل بيته إذا مات فقال عند ذلك: إن [الله](٦) قادر على أن يأتيها برزق الشتاء في الصيف وبرزق الصيف في الشتاء، فهو قادر أن يرزق لي الولد بعد الكبر فذلك قوله تعالى: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّه»، ﴿قَالَ: رَبِّ هَبْ لي مَن لُدْنَكَ﴾ أي من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَة﴾ أي من عندك تقية مهذبة، ويقال: مستوى الخلق، ويقال: مسلمة مطيعة، ويقال تقية ﴿إنك سميع الدعاء﴾ أي مجيب له.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَنَادَتْه المَلَائِكَةُ، وَهُوَ قَائِمٌ يصلي في المحراب﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء: [أي جبريل](٧) ـ عليه السلام ـ وإنما صار مذكراً على معنى الجنس كما يقال: فلان ركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وقرأ الباقون

(١) انظر حجة القراءات ١٦١، ١٦٢، وكنز المعاني ٣١١.
(٢) الظئر: هي المرضعة غير ولدها (اللسان: ظأر).
(٣) انظر الطبري ٦/٣٤٩٥.
(٤) المحراب: صدر البيت، وأكْرَمُ موضع فيه، وهو أيضاً الغرفة، وهو عند العامة: الذي يقيمه الناس اليوم مقام الإمام في المسجد. والمحراب: القبلة، ومحاريب بني إسرائيل: مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها. (اللسان: حرب).
(٥) في أ [فسألها]. (٦) في أ [الذي]. (٧) في ظ [أي ناداه].

«فنادته» على معنى التأنيث، لأن اللفظ لفظ الجماعة، والمراد به أيضاً جبريل(١) **﴿إن الله يبشرك بيحيى﴾**. قرأ حمزة وابن عامر «إن الله يبشرك» بكسر الألف، ومعناه فنادته الملائكة وقالوا له إن الله يبشرك وقرأ الباقون بالنصب ومعناه: فنادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى(٢). قال مقاتل: اشتق اسمه من اسم الله تعالى والله تعالى حي فسماه الله تعالى يحيى، ويقال: لأنه أحيا [به](٣) رحم أمه. ويقال: لأنه حي به المجالس. [ويقال غير ذلك بيحيى بأن الله يحييه فيكون حياً عند الله أبداً لأنه شهيد، قال الله تعالى **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء﴾**](٤). ثم قال تعالى: **﴿مُصَدِّقاً بكلمة من الله﴾** يعني بعيسى - عليه السلام - وكان يحيى أول من صدق بعيسى - عليهما السلام - وهو ابن ثلاث سنين فشهد له: أنه كلمة الله وروحه، فلما شهد بذلك يحيى عجب بنو إسرائيل لصغره فلما [شهد](٥) سمع زكريا شهادته، فقام إلى عيسى فضمه إليه وهو في خرقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين. وقال بعضهم: صدقه وهو في بطن أمه، كانت أم يحيى عند مريم إذ سجد يحيى بالتحية لعيسى، وكل واحد منهما كان في بطن أمه(٦) وذلك قوله: مصدقاً بكلمة من الله **﴿وسيداً﴾** يعني حكيماً **﴿وحصوراً﴾**(٧) يعني لا يأتي النساء وهو قول الكلبي. وقال سعيد بن جبير: السيد الذي يملك غضبه، والحصور الذي لا يأتي النساء، وقال مقاتل: يعني لا ماء له، يعني أن: يحيى لم يكن له ماء في الصلب، وقال بعضهم: هذا لا يصح، لأن العنة عيب بالرجال والنبي. لا يكون معيباً، ولكن معناه، أنه كان مانعاً نفسه من الشهوات، لأن الذي يمنع [نفسه](٨) من الشهوات مع قدرته، كانت فضيلته أكثر من الذي لا قدرة له(٩). ثم قال تعالى: **﴿ونبياً من**

---

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٢، كنز المعاني ص ٣١٢.

(٢) راجع حجة القراءات ١٦٢، ١٦٣، كنز المعاني ص ٣١٣.

(٣) في ظ [ربه في]. (٤) زيادة من ظ. (٥) سقط في ظ.

(٦) اعترض بأن هذا إنما يتم لو كان دعاء زكريا عليه السلام زمن طفولة مريم قبل العشر أو الثلاث عشرة، وليس في الآية سوى ما يشعر بأن زكريا عليه السلام لما تكرر منه الدخول على مريم ومشاهدته الرزق لديها وسؤاله وسماعه منها ذلك الجواب إشتاق إلى الولد فدعا بما دعا، وهذا الدعاء كما يمكن أن يكون في مباديء الأمر يمكن أن يكون في أواخره قبيل حمل مريم، وكونه في الأواخر غير بعيد لما أن الرغبة حينئذ أوفر حيث شاهد عليه السلام دوام الأمر وثباته زمن الطفولة وبعدها، وهذا قلما يوجد في الأطفال إذ الكثير منهم قد يلقي الله تعالى على لسانه في صغره ما قد يكون عنه بمراحل في كبره فليس عندنا ما يدل صريحاً على أن بين الولادة والتبشير مدة مديدة ولا بين الدعاء والتبشير أيضاً، نعم عندنا ما يدل على أن يحيى أكبر من عيسى عليهما السلام وهو ما اتفق عليه المسلمون وغيرهم ففي إنجيل متى ما يصرح بأنه ولد قبله وقتله هيردوس قبل رفعه وأنه عمد المسيح والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. انظر روح المعاني للألوس ١٤٧/٣.

(٧) قال أبو عبيدة: الحَصُور: له غير موضع، والأصل واحد، وهو الذي لا يأتي النساء، والذي لا يولد له، والذي يكون مع الندامى فلا يخرج شيئاً. والحصور أيضاً: الذي لا يخرج سراً أبداً. مجاز القرآن ٩٢/١.

(٨) سقط في ظ.

(٩) وهذا هو المختار عند أكثر المفسرين لأن الأنبياء لا نقيصة ولا عيب فيهم وعدم القدرة على النكاح وكذلك عدم وجود ماء الصلب نقص والفضل في كون القدرة على النكاح وكذلك ماء الصلب موجودتان في الإنسان ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه: درجة عليا وهي درجة نبينا - صلى الله عليه وسلم - الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: «حُبِّب إلي من دنياكم» هذا لقطة. والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: «هب لي من لدنك ذرية طيبة» كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٦١، ٤٦٢.

الصالحين﴾ يعني أن يحيى كان نبياً من الصالحين فلما بشره جبريل بذلك: **﴿قال رب أنى يكون لي غلام﴾**، قال ذلك على وجه التعجب لا على وجه الشك، قال لجبريل: رب أي يا سيدي: من أين يكون لي غلام يعني ولد، وهذا قول الكلبي. وقال بعضهم قوله: رب، يعني قال: يا الله على وجه الدعاء يا رب من أين يكون لي ولد، **﴿وقد بلغني الكبر﴾** قال القتبي: هذا من المقلوب يعني بلغت الكبر. وقال الكلبي كان يوم بشر ابن تسعين سنة وامرأته قريبة في السن منه، وقال الضحاك: كان ابن مائة وعشرين سنة، فذلك قوله: وقد بلغني الكبر، أي الهرم، **﴿وامرأتي عاقر﴾** لا تلد، **﴿قال كذلك﴾** قال بعضهم: تم الكلام عند قوله كذلك، يعني، هكذا كما قلت إنه قد بلغك الكبر، وامرأتك عاقر، ثم قال تعالى: **﴿اللَّهُ يفعل ما يشاء﴾** وقال بعضهم: معناه، قال كذلك، يعني: الله تعالى، هكذا قال: أنه يكون لك ولد، والله يفعل ما يشاء إن شاء أعطاك الولد في حال الصغر وإن شاء في حال الكبر.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

ثم قال تعالى: **﴿قال:** رب اجعل لي آية﴾ يعني اجعل لي علامة حين حملت امرأتي [أعرف][1] **﴿قال: آيتك﴾** يعني علامة الحبل **﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام﴾** يعني أنك تصبح فلا تطيق الكلام ثلاثة أيام **﴿إلَّا رَمْزاً﴾** أي كلاماً [خَفِيًّا][2]. ويقال: الرمز بالشفتين والحاجبين، والإيماء باليد والرأس[3]. قال بعضهم: كان منع الكلام عقوبة له، لأنه بُشِّر بالولد فسأل آية، فحبس الله لسانه [عن الناس][4] ثلاثة أيام. ولم يحبسه عن ذكر الله وعن الصلاة. وقال بعضهم: لم يكن عقوبة، ولكن [كانت][5] كرامة له حين جعلت له علامة لظهور الحبل، ومعجزة له. وروى أسباط عن السدي، أنه قال: لما بُشِّر بيحيى، قال له الشيطان: إن النداء الذي سمعت بالبشارة من الشيطان، ولو كان من الله لأوحى إليك، [كما أوحى إليك وإلى سائر الأنبياء][6]، فقال عند ذلك: «اجْعل لي آية» حتى أعلم أن هذه البشارة [منك][7] «قال: آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ» وقال في آخرة أخرى: «ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً» يعني، أنك مستوي الخَلْق ولا علة بك. ثم أمره بذكر ربه، لأن لسانه لم يمنع عن ذكر الله تعالى، فقال **﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾** يعني بالغداة والعَشِيِّ، ويقال: بالليل والنهار.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

﴿وإذ قالت الملائكة﴾ يعني جبريل، **﴿يا مريم إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾** يعني اختارك بالإسلام **﴿وَطَهَّرَكِ﴾** من الذنوب والفواحش ويقال: من دم الحيض والنفاس[8]، **﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾** يعني بولادة عيسى بغير

---

(١) في أ [أعرف]. (٢) في أ [خفيفاً].
(٣) قال أبو عبيدة: «الا رمزاً» باللسان من غير أن يبين، ويخفض بالصوت مثل همس. مجاز القرآن ١/٩٣.
(٤) وردت في أ بعد قوله: ثلاثة أيام. . .
(٥) سقط من ظ. (٦) سقط من ظ. (٧) في ظ [من الله تعالى].
(٨) ذكر ذلك السيوطي في الدر عن السدي ٢/٢٣.

أب. وقال بعضهم: اصطفاك، أي: فضلك على نساء العالمين يعني عالمي زمانها[(١)] ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ يعني أطيعي ويقال: أطيلي القيام في الصلاة وقال مجاهد: قامت في الصلاة حتى تورَّمَتْ قدماها، ونحل جسمها ثم قال تعالى: ﴿واسْجُدي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعين﴾ أي مع المسلمين يعني [مع][(٢)] قراء بيت المقدس.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

قوله: ﴿ذلك من أنباء الغيب﴾[(٣)] يعني الذي ذكر في هذه الآية من قصة زكريا ومريم، من أخبار الغيب، مما غاب عنك خبره ولم تكن حاضراً، وفي الآية [دليل][(٤)] نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم [ولم يكن قرأ الكتب، وأخبر عن ذلك][(٥)] وصدقه أهل الكتاب بذلك فذلك قوله تعالى [ذلك من أنباء الغيب][(٦)] ﴿نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ يعني لم تكن عندهم، وإنما تخبر عن الوحي، فقال: «وما كنت لديهم» ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ يعني يطرحون أقلامهم في النهر بالقرعة ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في أمر مريم. ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم﴾ يعني جبريل [عليه السلام][(٧)] وحده ﴿إن اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ منه﴾. قرأ

---

(١) انظر المصدر السابق. (٢) زيادة من ظ. (٣) «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك» آية ٤٤.
قال الزمخشري: فإن قلت: لم نفيت المشاهدة، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي إستماع الأنباء من حفاظها، وهو موهوم؟ قلت: كان معلوماً عندهم علماً يقيناً أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي في غاية الاستبعاد والاستحالة، فنفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي، مع علمهم بأنه لا سماع له ولا قراءة ونحوه «وما كنت بجانب الغربي» القصص ٤٤. «وما كنت بجانب الطور» القصص ٤٦. «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم» يوسف ١٠٢. انتهى. الكشاف ١٨٩/١.

(٤) في ظ [دلالة].

(٥) زيادة من ظ. وهي في أ بعد قوله: وصدقه أهل الكتاب بذلك.

(٦) سقط من ظ. (٧) سقط من ظ.

نافع وعاصم وابن عامر «يُبَشِّرك» بالتشديد في جميع القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد في جميع القرآن إلا في: «حم، عسق»: ذلك الذي يبشر الله عباده بالتخفيف، وقرأ حمزة بالتخفيف إلا في قوله «فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» ووافقه الكسائي في بعضها، فمن قرأ بالتشديد فهو من (المباشرة)(١)، ومن قرأ بالتخفيف، فمعناه يفرحك(٢). وكانت قصة البشارة أن مريم لما طهرت من الحيض، ودخلت المغتسل كما قال في سورة مريم: «إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» يعني أرادت أن تغتسل في جانب المشرفة، فلما دخلت المغتسل رأت بشراً كهيئة الإنسان كما قال «فتمثل لها بشراً سوياً» فخافت مريم، ثم قالت: «إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً» لأن التقي يخاف الرحمن، فقال لها جبريل «أنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً» وذكرها هنا بلفظ آخر ومعناه واحد قال: «إن الله يبشرك بكلمة منه» أي بـولد بغير أب يصير مخلوقاً بكلمة من الله وهو قوله كن فكان ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ ويقال: إنما سمي المسيح لأنه يسيح في الأرض ويقال: [المسيح بمعنى](٣) الماسح، كان يمسح وجه الأعمى فيبصر. وقال الكلبي: المسيح الملك. ثم قال: ﴿وجيهاً﴾ أي ذا جاه ﴿في الدنيا و﴾ له [منزلة](٤) ﴿في الآخرة﴾. وقال مقاتل: فيها تقديم، يعني وجيهاً في الدنيا [﴿ومن المقربين﴾ في](٥) الآخرة عند ربه. وقال الكلبي وجيهاً في الدنيا، يعني في أهل الدنيا بالمنزلة وفي الآخرة من المقربين في جنة عدن. ﴿ويُكَلِّمُ النَّاسَ في الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ أي في حال صغره وهو [طفل](٦) في حجر أمه طفلاً، وكهلاً، يعني إذا اجتمع عقله وكبر. فإن قيل: ما معنى قوله كهـلاً؟ والكلام من الكهل لا يكون عجباً، قيل له: المراد منه كلام الحكمة والعبرة. ويقال كهلاً: بعد نزوله من السماء وهو قول الكلبي. ﴿ومن الصالحين﴾ مع آبائه في الجنة ﴿قالت﴾ مريم ﴿رب أَنَّى يكونُ لي وَلَدٌ﴾ يعني من أين يكون لي ولد ﴿ولم يمسسني بشر﴾ وهو كناية عن الجماع فـ ﴿قال﴾ جبريل ﴿كذلك﴾ يعني هكذا كما قلت أنه لم يمسسك بشر، ولكن ﴿الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خَلْقاً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فنفخ جبريل في جيبهـا، يعني في نفسها. قال بعضهم: وقع نفخ جبريل في رحمها فعلقت بذلك. وقال بعضهم: لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل، لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم ـ عليه السلام ـ وأخذ الميثاق من ذريته، فجعل بعضهم في أصلاب الآباء، وبعضهم في أرحام الأمهات، فإذا اجتمع الماءان صار ولداً وإن الله تعالى جعل المَاءَيْن جميعاً في مريم بعضه في رحمها، وبعضه في صلبها، فنفخ فيها جبريل لتهييج شهوتها، لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخة جبريل، وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك، فذلك قوله: «إذا قَضَى أمراً» يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً سبحانه، «فإنما يقول له: كن فيكون» بغير أب. ثم قـال تعالى: ﴿ويعلّمـه الكتاب﴾. قرأ نافع وعاصم ﴿وَيُعلِّمه﴾ بالياء يعني أن الله يعلمه، وقرأ الباقون بالنون، ومعنـاه، أن الله يقول: ونعلمه ﴿الكتاب﴾(٧)، يعني كتب الأنبياء، [وهذا](٨) قول الكلبي. وقال مقاتل: يعني الخط، والكتابة، فعلّمه الله بالوحي والإلهام ﴿والحكمة﴾ يعني الفقه ﴿والتوراة والإنجيل﴾ يعني يحفظ التوراة [عن](٩) ظهر قلبه وقال بعضهم وهو عالم بالتوراة. وقال بعضهم: ألهمه الله بعدما كبر حتى تعلم في مدة يسيرة. ثم قال: ﴿ورسولاً إلى بني

(١) في ظ [البشارة].
(٢) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٣ وكنز المعاني ٣١٣.
(٣) سقط من ظ.
(٤) في أ [منزل].
(٥) في أ [و].
(٦) سقط في ظ.
(٧) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٣، كنز المعاني ٣١٤.
(٨) في أ [وهذا].
(٩) في أ [على].

إسرائيل﴾ نصب رسولاً لمعنيين: أحدهما: يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل. والثاني: ويكلم الناس ورسولاً. أي في حال رسالته إلى بني إسرائيل دليله أنه قال: **﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾**(١). [وذكر الزجاج: فالمعنى ـ والله أعلم ـ ويكلمهم رسولاً بأني قد جئتكم بآية من ربكم](٢). ثم أخبر عن أداء رسالته بعدما أوحى إليه في حال الكبر حيث قال لقومه: [أني](٣) قد جئتكم بآية [من ربكم](٤). يعني علامة لنبوتي. ثم بيّن العلامة فقال: **﴿إني أخلق [أي أقدر](٥) لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾**. ويقال: إن الناس سألوه عنه على وجه التعنت، فقالوا له: أخلق لنا خفَّاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقالتك فأخذ طيناً وجعل منه خفاشاً، ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض فكأن تسوية الطين والنفخ من عيسى ـ عليه السلام ـ والخلق من الله عز وجل كما أن النفخ من جبريل عليه السلام والخلق من الله عز وجل. ويقال: إنما طلبوا منه خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق، ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور، ويكون له ضرع يخرج منه ابن ولا يبصر في ضوء النهار، ولا في ظلمة الليل، وإنما يرى في ساعتين بعد غروب الشمس ساعة، وبعد طلوع الفجر ساعة، قبل أن يسفر جداً، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة، فلما أن رأوا ذلك منه ضحكوا وقالوا: هذا سِحْر. ثم قال تعالى: **﴿وأُبرىء الأكمه والأبرص﴾** الأكمه: الذي ولد أعمى، فقالوا: إن لنا أطباء يفعلون مثل هذا، فذهبوا إلى جالينوس وأخبروه بذلك، فقال جالينوس: إذا ولد أعمى لا يبصر بالعلاج، والأبرص: إذا كان بحال إذا غرزت الإبرة فيه لا يخرج الدم منه لا يبرأ بالعلاج. فرجعوا إلى عيسى عليه السلام وجاءوا بالأكمه والأبرص، فمسح يده عليهما فأبصر الأعمى وبرأ الأبرص، فآمن به بعضهم وجَحَد بعضهم، وقالوا: هذا سِحْر، ثم قال تعالى: **﴿وأُحْيي الموتى بإذن الله﴾** فأَخْبَروا بذلك «جالينوس»، فقال: الميت لا يعيش ولا يحيى بالعلاج، فإن كان هو يحيي الموتى فهو نبي، وليس بطبيب، فطلبوا منه أن يحيي الموتى فأحيا أربعة نفر، أحدهم: عازر، وكان صديقاً له فبلغه أنه مات فذهب مع أصحابه، وقد دفن، وأتى عليه أيام، فدعا الله فقام بإذن الله تعالى وَوَدَكُه يقطر، فعاش وَوُلد له. والثاني: ابن العجوز: مَرّ به وهو يحمل على سرير فدعا الله فقام بإذن الله تعالى ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله. والثالث: [ابنة](٦) من بنات العاشر، ماتت، وأتى عليها ليلة فدعا الله تعالى، فعاشت بعد ذلك وولد لها. والرابع سام بن نوح، لأن القوم قالوا له: إنك تحيي من كان موته قريباً فلعلهم لم يموتوا وأصابتهم سكتة، فأحيي لنا سام بن نوح فقال: دلوني على قبره، فخرج وخرج القوم معه حتى انتهوا إلى قبره فدعا الله [تعالى فأحياه وخرج](٧) من قبره، قد [شابت](٨) رأسه، فقال له عيسى كيف شابت رأسك ولم يكن في زمانكم شيب، فقال: يا روح الله، إنك لما دعوتني سمعت صوتاً يقول: أَجِبْ روحَ الله، فظننت أن القيامة قد قامت، فمن ذلك الهول شابت رأسي، فسأله عن النَّزْع، فقال له: يا [روح](٩) الله إن [مرارة](١٠) النزع لم تذهب عن حنجرتي، وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، [ثم قال](١١) للقوم: صدقوه فإنه نبي [الله](١٢). فآمن به بعضهم [وكذب به](١٣) بعضهم، وقالوا: هذا ساحر، فأرنا آية نعلم أنك صادق فأخبرنا بما نأكل في بيوتنا، وما نَدَّخر للغد، فأخبرهم، فقال يا فلان

---

(١) فصل أبو حيان الكلام في نصب «رسولاً» وزاد على هذين الوجهين وجوهاً أخرى راجع/ البحر المحيط ٢/٤٦٤.

(٢) ما بين المعقوفين من ظ.
(٣) سقط في ظ.
(٤) سقط في ظ.
(٥) سقط في ظ.
(٦) في أ [بنت].
(٧) في ظ [فخرج].
(٨) في ظ [شاب].
(٩) في ظ [نبي].
(١٠) في أ [حرارة].
(١١) في ظ [مقال].
(١٢) سقط في ظ.
(١٣) في ظ [وكذبه].

أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا، وادّخرت كذا وكذا، فذلك قوله عز وجل ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر ويقال: إن الله بعث كل نبي إلى قومه وأظهر لهم نوع ما كانوا يعرفونه، فكان في زمن موسى ـ عليه السلام ـ الغالب عليهم السحر، فبيَّن لهم من جنس ذلك، ليعرفوا أن ذلك ليس بِسِحْر، وأنه من الله تعالى. وكان الغالب في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ علم الطب فجاءهم عيسى بما عجز الأطباء عنه، فعرف الأطباء أن ذلك ليس من الطب. وكان في زمن نبينا ـ عليه السلام ـ الفصاحة والشعر، فجاءهم بقرآن عجز الفصحاء، والشعراء عن إتيان مثله ثم قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ يعني فيما صنع عيسى ـ عليه السلام ـ علامة لنبوته ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين أنه نبي. قرأ نافع: فيكون طائراً، وكذلك في سورة المائدة وقرأ الباقون بغير ألف: ومعناهما واحد(١)، ويقال: الطائر واحد، والطير جماعة. ثم قال: ﴿ومُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ من التوراة﴾ ومعناه، جئتكم مصدقاً، يعني [الكتاب](٢) الذي أنزل على وهو الإنجيل «مُصَدِّقاً» أي موافقاً لما بين يدي من التوراة. ﴿ولأحل لكم﴾ يعني أرخص لكم ﴿بعض الذي حُرِّم عليكم﴾ مثل الشحوم، ولحوم الإبل، ولحم كل ذي ظفر، وأما الميت ولحم الخنزير فهو حرام [أبداً](٣) قوله: ﴿وجئتُكم بآية من ربكم﴾ يعني أني لم أحل لكم شيئاً بغير برهان، فحقيق عليكم اتباعي لأني أتيتكم ببرهان، [وأتيتكم](٤) بتحليل الطيبات ﴿فاتقوا الله﴾ [فيما أمركم ونهاكم](٥)﴿وأطيعون﴾ فيما آمركم، وأنهاكم وأنصح لكم ﴿إن الله ربي وربكم﴾ هذا تكذيب لقول النصارى حيث قالوا: إن الله هو المسيح، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة فاعترف عيسى أنه عبد الله، وهو قوله تعالى: «إن الله ربي وربكم» أي خالقي وخالقكم، ورازقي ورازقكم، ﴿فاعبدوه﴾ أي وحدوه ولا تشركوا به شيئاً ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يعني هذا التوحيد الذي أدعوكم إليه طريق مستقيم لا عوج فيه وهو طريق الجنة.

فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

﴿فلما أحس عيسى منهم الكفر﴾ قال الكلبي: فلما عرف منهم الكفر بالله. ويقال: فلما سمع منهم كلمة الكفر، وقال الزجاج(٦): أحس في اللغة علم ووجد. ويقال: هل أحسست الخبر، أي هل عرفته وعلمته، وقال مقاتل: فلما رأى من بني إسرائيل الكفر، كقوله ـ عز وجل ـ «هل تُحِسُّ مِنْهُم منْ أَحَدٍ» يعني هل ترى. ويقال: [إنه لما علم](٧) عيسى أنهم أرادوا قتله: ﴿قال: مَنْ أَنْصَاري إلى اللَّهِ﴾ يقول من أعواني مع الله؟ قال القتبي: إلى [هاهنا](٨): بمعنى «مع» مثل قوله: «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أي مع أموالكم، كما يقال: الذود إلى الذود إبل، أي مع الذود، فقال: «مَنْ أَنْصَاري إلى الله» أي مع الله ﴿قال الحَوَارِيُّون: نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ قال الكلبي: الحواريون: هم أصفياء عيسى ـ عليه السلام ـ وكانوا اثني عشر رجلاً، وقال مقاتل: كانوا قَصَّارين(٩)فمر بهم

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٤، كنز المعاني ٣١٥.
(٢) في أ [للكتاب]. (٣) سقط في أ. (٤) في أ [وأنبئكم].
(٥) سقط في ظ. (٦) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٢١.
(٧) في أ [لما رأى]. (٨) سقط في ظ.
(٩) القصار والمقصر: المحور للثياب لأنه يدقها بالقصرة التي هي القطعة من الخشب وحرفته القصارة. (اللسان: قصر).

عيسى ـ عليه السلام ـ وقال «من أنصاري إلى الله»، قالوا: نحن أنصار الله، ويقال: إنـه مر بهم وهم يغسلون الثياب، فقال لهم إيش تصنعون؟ قالوا: نطهر الثياب فقال: ألا أدلكم [بطهارة][1] أنفع من هذا، قالوا نعم، فقال: **تَعَالَوْا** حتى نطهرَ أنفسنا من الذنوب فبايعوه، ويقال إنهم كانوا صيادين، فمرَّ بهم وقال: ألا أدلُّكم على اصطياد أنفعَ لكم من هذا، قالوا: نعم، فقال: تَعَالَوْا حتى نصطاد أنفسنا من شر إبليس فبايعوه[2]. وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: إنما سُمُّوا حواريين لبياض ثيابهم، وكانوا صيَّادين[3]. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «الزبير: ابْنُ عَمَّتي وَحَوارِيَّ من أُمَّتي[4]»، يعني به الخالص، فهذا يكون دليلاً لقول الكلبي إنهم خواصه وأصفياؤه. ومعنى آخر: نحن أنصار الله، يعني أنصار دين الله ﴿آمَنَّا بالله﴾ أي صدقنا بتوحيد الله ﴿واشهد بأنا مسلمون﴾ يعني أشهدنا لأنه على ذلك، فاشهد يا عيسى بأنا مسلمون. ثم قالوا: ﴿رَبَّنا آمَنَّا بما أنزلت﴾ من الإنجيل على عيسى ﴿واتبعنا الرسول﴾ أي عيسى عليه السلام على دينه ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ يعني اجعلنا مع من أسلم قبلنا، وشهدوا بوحدانيتك.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ثم قال تعالى: حكاية عن كفار قومه ﴿ومكروا﴾ يعني أرادوا قتل عيسى عليه السلام ـ ﴿ومكر الله﴾ تعالى، أي جـازاهم جزاء المكر، ﴿والله خير الماكرين﴾ لأن مكرهم جَوْرٌ، ومكر الله عَدْل. قال الكلبي: وذلك أن اليهود اجتمعوا على قتل عيسى فدخل عيسى عليه السلام البيت هارباً منهم فرفعه جبريل من الكوَّة إلى السماء، كما قال في آية أخرى: «وأيَّدْنَاه بروح القدس» فقال ملكهم لرجل خبيث يقال له يهوذا: ادخل عليه فاقتله، فدخل الرجل الخوخة فلم يجد هناك عيسى، وألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام [فلما خرج رأوه على شبه عيسى][5]، فأخذوه وقتلوه وصلبوه، ثم قالوا وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا، فإن كان هـذا [عيسى فأين صاحبنا][6] وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ فوقع بينهم قتال، فقتـل بعضهم بعضاً [فلمـا خرجـوا رأوه على بيت][7]، فذلك قوله «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ». قال الضحاك: وكانت القصة أن اليهود [خذلهم الله تعالى][8]، لما أرادوا قتل عيسى ـ عليه السلام ـ اجتمع الحواريون في غرفة، وهم اثنا عشر رجلاً، فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة، فأخبر إبليسُ جميع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل [فأحدقوا][9] بالغرفة، فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج فَيُقْتَلُ وهو معي في الجنة؟ فقال رجل منهم: أنا يا نبي الله فألقى إليه مدرعة من

---

(١) في ظ [بقصارة].

(٢) راجع (مادة: حور) في لسان العرب، فقد ذكر هذه المعاني وزيادة، ونقل عن الزجاج قوله: وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب، وكذلك الحواري من الدقيق، سمي به لأنه يُنقى من لباب البُرّ. قال: وتأويله في الناس: الذي قد رجع في اختياره مرة بعد مرة، فوجد نقياً من العيوب. انظر/ اللسان/ حور. ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٩٥/١.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٤٤٩/٦٥ (٧١٢٤) والحُوّاري بضم الحاء وتشديد الواو، وراء مفتوحة هو ما حور الطعام، أي بيض، ودقيق حواري هو الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.

(٤) أخرجه البخاري ٥٢/٦ في الجهاد/ باب فضل الطليعة (٢٨٤٦) ومسلم ١٨٧٩/٤ في فضائل الصحابة/ باب من فضائل طلحة والزبير. (٢٤١٥/٤٨) وأخرجه أحمد في المسند ١٠٢/١ وأورده ابن منظور في لسان العرب ثم قال: أي خاصة من أصحابي وناصري. (اللسان: حور).

(٥) ما بين المعقوفين من ظ. (٦) سقط في ظ. (٧) سقط في ظ.

(٨) سقط في ظ. (٩) في ظ [أي تحلقوا].

صوف وعمامة من صوف، وناوله عكازه، فألقي عليه شبه عيسى ـ عليه السلام ـ فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه، وأما المسيح فكساه الله الريش، وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار في الملائكة.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ففي الآية تقديم وتأخير، ومعناه إني رافعك من الدنيا إلى السماء، ومتوفّيك بعد أن تنزل من السماء على عهد الدجال، ويقال: إنه ينزل ويتزوج امرأة من العرب بعدما يقتل الدجال، وتلد له ابنة فتموت ابنته، ثم يموت هو بعدما يعيش سنين، لأنه قد سأل ربه أن يجعله من هذه الأمة فاستجاب الله دعاه، وروي عن أبي هريرة: أنه جاء إلى الكتاب وقال للمعلم: قل للصبيان حتى يسكتوا، فلما سكتوا، قال لهم: أيها الصبيان من عاش منكم إلى وقت نزول عيسى عليه السلام فليقرئه مني السلام، وإني كنت أرجو أن لا أخرج من الدنيا حتى أراه [هذا كناية عن قرب الساعة][1] ثم قال ﴿ومطهرك﴾ أي منجيك ﴿من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك﴾ على دينك ﴿فوق الذين كفروا﴾ بالحجة والغلبة ﴿إلى يوم القيامة﴾[2] [وروي عن عبد الله][3] بن عباس أنه قال: الذين اتبعوه هم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم هم الذين صدّقوه، ثم قال ﴿ثم إليَّ مَرْجِعُكم﴾ يعني الذين اتبعوك والذين كفروا، كلهم مرجعهم إلي ﴿فأحكم بينكم﴾ يعني بين المؤمنين والكفار ﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾، من الدين. ثم أخبر عن حال الفريقين في الآخرة فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة﴾ في الدنيا بالقتل والجزية، وفي الآخرة بالنار ﴿وما لهم من ناصرين﴾ يعني مانع يمنعهم من عذاب الله ﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، قال مقاتل: [هم][4] أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ قرأ عاصم في رواية حفص [فيوفيهم][5] بالياء يعني يوفيهم أجورهم وأما الباقون بالنون[6]. يعني أن الله قال: فنوفيهم أجورهم، وهذا لفظ الملوك، إنهم [يتكلمون][7] بلفظ الجماعة، ويقولون: نحن نفعل كذا وكذا ونكتب إلى فلان، ونأمر بكذا، فالله تعالى خاطب العرب بما يفهمون فيما بينهم، كما قال في سائر المواضع: «إنا أرسلنا»، «إنا أنزلنا» وكذلك هاهنا قال: «فنوفيهم أجورهم» أي نعطيهم ثواب عملهم ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي لا يرضى دين الكافرين.

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات﴾ يقول هذه الآيات وهذه القصص [بينات][8] في القرآن «وأنزلنا عليك»

---

(١) سقط في ظ.
(٢) في أ [حتى من كان موته قريباً].
(٣) في أ [قال عن].
(٤) سقط في ظ.
(٥) سقط في ظ.
(٦) انظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٤، وكنز المعاني ص ٣١٥.
(٧) في ظ [يذكرون أنفسهم].
(٨) في ظ [بيناه].

جبريل ليقرأ عليك من الآيات يعني من البيان ﴿والذكر الحكيم﴾ يعني القرآن كله. وقال الكلبي الذكر الحكيم الذي عند رب العالمين، في درة بيضاء وهو اللوح المحفوظ، ويقال هو القرآن، لأنه محكم ليس فيه تناقض ولا يقدر [أحد أن يأتي بمثله][1]. ويقال: هو الشرف كقوله: «وإنه لذكر لك ولقومك».

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

ثم قال ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ [نزلت][2] في وفد نجران السيد والعاقب والأسقف وجماعة من علمائهم وأحبارهم، قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناظروه في أمر عيسى ـ عليه السلام ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو عبد الله ورسوله، فقالوا: أرنا خلقاً من خلق الله تعالى بغير أب، وكان يحيي الموتى وكان فيه دليل على ما قلنا وكانوا يقولون: إنه اتخذه ابناً، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أسلموا فقالوا: قد أسلمنا قبلك، فقال لهم: كذبتم، إنما يمنعكم من الإسلام ثلاث، أكل لحم الخنزير، وعبادة الصليب وقولكم لله ولد، فقالوا له: من أبو عيسى؟ فنزل قوله تعالى: «إن مثل عيسى عند الله[3]﴿كمثل آدم﴾ يعني شبه خلق عيسى عند الله كشبه خلق آدم ﴿خَلَقَهُ من تُرابٍ﴾ يعني صوّره من غير أب ولا أم ﴿ثم قال له كُنْ فيكون﴾ فكان بشراً بغير أب [كذلك عيسى كان بشراً بغير أب][4] وفي هذه الآية دليل [علمي][5] أن الشيء يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن [يجتمعا][6] في وصف واحد، كما أن هاهنا خلق آدم من تراب، ولم يخلق عيسى من تراب، وكان بينهما فرق من هذا الوجه ولكن الشبه بينهما أنه خلقهما من غير أب، ولأن أصل خلقهما جميعاً كان من تراب، لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طيناً، ثم جعله صلصالاً، ثم خلقه منه، فكذلك عيسى عليه السلام حوله من حال إلى حال ثم خلقه بشراً من غير أب.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿الحق من ربك﴾ يعني [خبر عيسى][7]، كما أخبرتك وأنبأتك في القرآن ﴿فلا تكن من الممترين﴾ أي من الشاكين. [ويقال: المثل الذي ذكر في عيسى هو الحق من ربك، وهذا الخطاب للنبي ـ صلى

---

(١) في ظ [على مثله].
(٢) في ظ [نزل].
(٣) قال الرازي: الحكماء قالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه: ـ الأول: ـ ليكون متواضعاً، الثاني: ـ ليكون ستاراً، الثالث: ـ ليكون أشد التصاقاً بالأرض. وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض. قال تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [سورة البقرة ٣]، الرابع: ـ أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية. والخامس: ـ خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب. انظر الفخر الرازي ٨/ ٨٠ بتصرف.
(٤) ما بين المعقوفين من ظ.
(٥) سقط في أ.
(٦) في أ [يجتمعان] وهو خطأ لأنه فعل منصوب بين وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة.
(٧) في أ [جبريل عليه السلام].

الله عليه وسلم ـ، والمراد منه جميع من اتبعه ومعناه فلا تكونوا من الممترين، أي من الشاكين][(١)]، يعني إن مثله كمثل آدم ـ عليهما السلام ـ ﴿فمن حاجك فيه﴾ وذلك أن النصارى لما أخبرهم بالمثل في حق عيسى عليه السلام قالوا ليس كما تقول، وهذا ليس بمثل، فنزلت هذه الآية: ﴿فمن حاجك فيه﴾ يعني، خاصمك في أمر عيسى عليه السلام ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من البيان في أمره ﴿فقل: تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم﴾ أي نخرج أبناءنا وأبناءكم، ﴿و﴾ نخرج ﴿نساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ [يعني نحن بأنفسنا، ويقال: إخواننا][(٢)] ونجتمع في موضع ﴿ثم نبتهل﴾ أي نلتعن[(٣)]، وقال مقاتل يعني نخلص في الدعاء، ويقال هي المبالغة في الدعاء والتضرع ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فواعدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يخرجوا للملاعنة فجعلوا وقتاً للخروج وتفرقوا على ذلك، ثم ندموا، فلما [كان][(٤)] ذلك اليوم خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأخذ بيد الحسن والحسين، وخرج معه علي بن أبي طالب، وفاطمة ـ فلما اجتمعوا في [الموضع][(٥)] الذي واعدهم، طلب منهم الملاعنة، فقالوا نعوذ بالله، فقال لهم: إما أن [تلعنوا][(٦)] وإما أن تسلموا، وإما أن [تؤدوا][(٧)] الجزية،

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ. (٢) ما بين المعقوفين من ظ.

(٣) قال أبو عبيدة: نبتهل: أي نلتعن، يقال ما له بهله الله، ويقال عليه بهلة الله... إلخ. (مجاز القرآن ١/٩٦).

وقال ابن منظور: (وابتهال: التضرع، والاجتهاد في الدعاء وإخلاصه لله عز وجل، وفي التنزيل العزيز «ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» أي يخلص ويجتهد كل منا في الدعاء واللعن على الكاذبين منا اللسان: بهل).

قال الزمخشري: فإن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيفائه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك. ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذادة عنهم بأرواحهم حماة الحقائق. وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها، وفيه دليل، لا شيء أقوى منه، على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام. وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك. الكشاف ١/١٩٣.

استنبط من الآية جواز المحاجة في أمر الدين، وأن من جادل وأنكر شيئاً من الشريعة جازت مباهلته اقتداء بما أمر به ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمباهلة الملاعنة.

قال الكازروني في تفسيره: وقع البحث عند شيخنا العلامة الدواني قدس الله سره في جواز «المباهلة بعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار، وكلام الأئمة، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلَّا بالمباهلة، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعي في إزالة الشبهة وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك ومساس الضرورة اليها قال الإمام صديق خان في تفسيره: وقد دعا الحافظ ابن القيم، رحمه الله، من خالفه في مسألة صفات الرب تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل، إلى المباهلة بين الركن والمقام فلم يجبه إلى ذلك وخاف سوء العاقبة. وتمام هذه القصة مذكور في أول كتابه المعروف بـ «النونية» ـ انتهى ـ وقد ذكر في «زاد المعارف» في فصل فقه قصة وفد نجران ما نصه: ومنها أن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة الله ولم يرجعوا بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة وقد أمر الله، سبحانه، بذلك رسوله، ولم يقل إن ذلك ليس لأمتك من بعدك. ودعا إليه ابن عمه عبد الله بن عباس لمن أنكر عليه بعض مسائل الفروع، ولم ينكر عليه الصحابة، ودعا إليه الأوزاعي سفيان الثوري في مسألة رفع اليدين ولم ينكر عليه ذلك، وهذا من تمام الحجة. انتهى. انظر تفسير القاسمي ٤/٨٦٠.

(٤) في أ [جاء]. (٥) في أ [الموعد]. (٦) في ظ [تلتعنوا].

(٧) في ظ [تقبلوا].

فقبلوا الجزية، وصالحوه بأن يؤدوا كل سنة ألفي حلة [ألف][١] حلة في المُحَرَّم [وألف][٢] حلة في رجب، وأُمِّر عليهم «أبا عبيدة بن الجراح»، ورجعوا ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو أنهم التعنوا لهلكوا كلهم حتى العصافير في سقوف الحيطان.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَق﴾ يعني ما [أُخبِرُوا][٣] من أمر عيسى عليه السلام هو الخبر الحق يعني أنه كان عبدَ الله ورسولَه. ويقال: هذا القرآن هو الحق: ﴿وما من إلهٍ إلاّ اللَّه﴾ لا شريك له ﴿وإن الله لَهُوَ العزيز الحكيم﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في أمره حكم بخلق عيسى في بطن أمه من غير أب. ﴿فإن تَوَلَّوا﴾ يقول: أبَوْا، ولم [يسْلموا][٤] ﴿فإن الله عليمٌ بالمُفْسِدِين﴾ يجازيهم بذلك، وهذه كلمة تهديد ﴿قل يا أَهْلَ الكتابِ تَعَالَوْا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننا وبينكم﴾ يعني كلمة عدل بيننا وبينكم. ويقال في قراءة عبد الله بن مسعود: «إلى كلمة عدل بيننا وبينكم» يعني، لا إله إلا الله وهي كلمة الإخلاص ويقال: إلى كلمة تسوى بيننا وبينكم، فتصير دماؤكم كدمائنا، وأموالكم كأموالنا، ﴿ألاَّ نعبدَ إلاَّ اللَّه﴾ يعني ألا نُوَحِّد إلا الله ﴿ولا نشرك به شيئاً﴾ من خلقه ﴿ولا يتخذ بَعْضُنَا بعضاً أرْبَاباً من دونِ اللَّهِ﴾ لأنهم اتخذوا عيسى رباً من دون الله ويقال: لا يطيع بعضنا بعضاً في المعصية كما قال: «اتَّخذوا أَحْبَارَهم وَرُهْبَانَهُم أرباباً من دون الله» أي أطاعوهم في المعصية، ويقال لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً كما قالت النصارى إن اللَّه ثالثُ ثلاثة ﴿فإن تَوَلَّوْا﴾ يعني أبوا عن التوحيد ﴿فقـولوا﴾ لهم يـا معشر المسلمين ﴿اشهدوا بأنَّا مسلمون﴾ أي مخلصون لله بالعبادة والتوحيد ﴿يا أهل الكتاب لم تُحَاجُّون في إبراهيم﴾ وذلك أن اليهود والنصارى كانوا اجتمعوا في [بيت][٥] مدرسة اليهود، وكل فريق يقول: كان إبراهيم منا، وكان على ديننا فنزل: ﴿يا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ في إبْرَاهِيمَ﴾ أي لِمَ تخاصمون في دين إبراهيم ﴿وما أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإِنْجِيلُ إلا من بَعْدِهِ﴾ يعني من بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكن اليهودية والنصرانية إنما سميت بهذا الإسم بعد نزول التوراة والإنجيل. وقال الكلبي: نزلت في شأن النفر الذين كانوا بالحبشة من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم جعفر الطيار وغيره [كما قال الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً» أي أطاعوهم في المعصية][٦] [وكانت][٧] بينهم وبين أحبار الحبشة مناظرة في ذلك [الوقت][٨] فنزلت هذه الآية. وقال الزجاج[٩]: هذه الآية أبين

(١) (٢) في الأصل: (ألفا). وهو خطأ لأن مجموع ذلك يكون أربعة آلاف في السنة، في حين أن الصلح كان على ألفين في السنة.
(٣) في ظ [أخبرهم]. (٤) في ظ [ولم يؤمنوا]. (٥) سقط في ظ.
(٦) سقط في ظ. (٧) في ظ [وكان]. (٨) سقط في ظ.
(٩) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٣٣.

[الحجج][(١)] على اليهود والنصارى [بأن][(٢)] التوراة والإنجيل أنزلا من عبده،وليس [فيهما][(٣)] اسم لواحد من الأديان واسم الإسلام في كل كتاب وهو قوله: «لم تحـاجون في إبراهيم وما أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ والإنْجِيل إلاَّ مِنْ بَعْده» ﴿أفلا تعقلون﴾ يقول: أليس لكم ذهن الإنسانية أن تنظروا فيما تقولون. ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم﴾ يقول أنتم يا هؤلاء خاصمتم ﴿فيما لكم به علم﴾ في صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتجدونه في كتبكم ـ ﴿فلم تُحَاجُّونَ فيما ليس لكم به علم﴾ يقول: ما ليس في كتابكم، وهو أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿والله يعلم﴾ أن إبراهيم كان على دين الإسلام ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك.

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ما كان إبراهيمُ يُهوديًا ولا نَصْرَانيًا﴾ يقول: لم يكن إبراهيم عَليه السلام على دين اليهودية ولا النصرانية ﴿ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي مخلصاً ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني ما كان أي لم يكن على دينهم. وقال الزجاج[(٤)]: الحنف في اللغة: إقبال [صدر][(٥)] القدمين إقبالاً لا رجوع فيها أبداً فمعنى الحنيفية في الإسلام: الإقبال والميل إليه والإقامة على ذلك.

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ثم قال ﴿إن أولى الناس بإبراهيم﴾ يقول: أحق الناس بدين إبراهيم ﴿لَلَّذين اتَّبعوه﴾ واقتدوا به وآمنوا به ﴿وهذا النبي﴾ يعني هو على دينه ومنهاجه ﴿والذين آمنوا﴾ هم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على دينه، ﴿واللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في العَوْن والنُّصرة.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ يعني أرادت وتمنت جماعة من أهل الكتاب ﴿لَوْ يُضِلُّونكم﴾ أي يصرفونكم عن دين الإسلام ﴿وما يُضِلّون إلا أَنْفُسَهم﴾ أي وَبَالُ ذلك يرجع إلى أنفسهم. ويقال: «وما يضلون إلا أنفسهم» أمثالهم، كقوله ـ عز وجل ـ «فاقْتُلوا أَنْفُسكُمْ» أي بعضكم بعضاً ﴿وما يَشْعُرون﴾ قال مقاتل: أي وما يشعرون أنهم يضلون أنفسهم. وقال الكلبي: وما يشعرون أن الله يَدُلُّ نبيَّه ـ عليه السلام ـ على ضلالتهم، أي يُطْلِعُه.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ
بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

ثم قال: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يقول لم تجحدون بالقرآن ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنه نبي الله لأنهم كانوا يخبرون بأمره قبل مبعثه، ويقال: بآيات الله يعني بعجائبه ودلائله، ويقال بآية الرجم. ثم قال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ يقول: لِمَ تخلطون الكفر بالإيمان؟ لأنهم آمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه،

(١) في ظ [حجته]. (٢) في أ [أن]. (٣) في ظ [فيها].
(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٣٣، وانظر اللسان/ حنف. (٥) في أ [صدور].

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ يعني [بعث][(١)] محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه حق وأنه في التوراة.

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿وقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بالَّذِي أُنْزِلَ عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهار﴾ قال الكلبي: وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قَدِمَ المدينة [صلى][(٢)] نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً، أو ثمانية عشر شهراً، فلما صرف الله نبيه إلى الكعبة، عند صلاة الظهر، وقد كان صلى صلاة الصبح إلى بيت المقدس، وصلى صلاة الظهر والعصر إلى الكعبة فقال رؤوساء اليهود منهم: كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وغيرهما [للسفلة][(٣)]منهم: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار»، صدقوه بالقبلة التي صلى صلاة الصبح في أول النهار وآمنوا به، وإنه الحق، ﴿واكْفُرُوا آخِرَه﴾ يعني اكفروا بالقبلة التي صلى إليها آخر النهار ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلى قبلتكم [ودينكم][(٤)]. وقال مقاتل: معناه أنهم جاءوا إلى [محمد][(٥)] - صلى الله عليه وسلم - أول النهار، ورجعوا من عنده، وقالوا للسفلة: هو حق فاتبعوه، ثم قالوا: حتى ننظر في التوراة ثم رجعوا في آخر النهار فقالوا قد نظرنا في التوراة، فليس هو إياه، يعنون أنه ليس بحق، وإنما أرادوا أن يلبسوا على السفلة وأن يشككوا فيه، فذلك قوله: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ يعني قالوا لهم في أول النهار آمنوا به «واكفروا آخره» يعني قالوا في آخر النهار، واكفروا به «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون» أي يشكون فيه فيرجعون. ثم قال للسفلة: ﴿ولاَ تُؤْمِنُوا إلا لِمَنْ تبعَ دِينَكم﴾ قال بعضهم: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه ولا تؤمنوا، أي لاتصدقوا إلا لمن تبع دينكم، فإنه لن يُؤْتَى أَحَدٌ مثل ما أُوتيتُم من التوراة، والمَنّ والسَّلوى، ولا تخبروهم بأمر محمد - صلى الله عليه وسلم - فيحاجوكم عند ربكم، أي يخاصموكم ويجعلوه حجة عليكم، فقالوا ذلك حسداً، حيث كان النبي - صلى الله عليه وسلم - من غيرهم، قال الله تعالى ﴿قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى الله﴾ وإن الفضل بيد الله، وهو قول مقاتل. وقال الكلبي: [بغير][(٦)]تقديم وتأخير، يقول: «وَلاَ تُؤْمِنُوا» أي ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية، وصلى إلى قبلتكم، قل: إن الهدى هدى الله[(٧)]، يقول دين الله هو الإسلام. [﴿أن يُؤْتَى أَحَدٌ مثْل مَا أُوتيتُم﴾ يقول لن يعطى أحد مثل ما أوتيتم من دين الإسلام والقرآن الذي فيه الحلال والحرام][(٨)] ﴿أو يحاجوكم عند ربكم﴾ [أي: لن][(٩)]يخاصمكم اليهود «عند ربكم» يوم القيامة، ثم قال ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن الفضل بيد الله﴾ يعني النبوة والكتاب والهدى، بيد الله، أي: بتوفيق الله، ﴿يؤتيه من يشاء﴾ [يعني يوفق من يشاء][(١٠)]، ﴿والله واسع عليم﴾. يقول: واسع الفضل «عليم» [بمن][(١١)] يؤتيه الفضل ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ يعني بدينه يعطيه من يشاء من عباده ﴿والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم﴾ [أي ذو المن العظيم][(١٢)]، لمن اختصه بالإسلام

(١) في ظ [نعت]. (٢) في أ [صلوا]. (٣) في أ [من الصلة]. (٤) سقط في ظ.
(٥) في أ [النبي]. (٦) في أ [فيه]. (٧) في أ [زيادة: (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم). (٨) ما بين المعقوفين من ظ.
(٩) في أ [يقول أن]. (١٠) زيادة من ظ. (١١) في أ [لمن]. (١٢) زيادة من ظ.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ومن أهل الكتاب من إنْ تَأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إلَيْك﴾. قرأ أبو عمرو وحمزة: «يُؤَدِّهْ» بجزم الهاء، وهي لغة [لبعض](١)العرب، واللغة المعروفة هي بإظهار الكسرة(٢). قال مقاتل: يعني عبد الله بن سلام وأصحابه، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن الله تعالى ذكر أن أهل الكتاب فيهم أمانة وفيهم خيانة، وقال الضحاك ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار﴾ يعني [به](٣)عبد الله بن سلام، أودعه رجل ألفاً [ومائتي](٤) أوقيّة من الذهب [فأداها](٥)إليه. فمدحه الله تعالى [ويقال إن نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمانة فمن كتمه دخل تحت قوله «لايؤده إليك» ومن لم يكتمه دخل تحت قوله يؤده، ثم قال تعالى:](٦) ﴿ومنهم من إن تَأمَنْهُ بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك﴾ وهو فنْحاص بن عازورا اليهودي أودعه رجل ديناراً فخانه. ويقال: «يُؤَدِّه إليك» يعني النصارى كانوا أَلْيَنَ قُلوباً يؤدون الأمانة، واليهود لا يؤدون [الأمانة](٧)، فكانوا [إذا أخذوا](٨)أمانات الناس، أو مال اليتامى، فكانوا يغتنمون ذلك، كما يفعل بعض أهل الإسلام إذا [وقع في يده شيء من أموال المسلمين](٩)جعله كالغنيمة. ثم قال تعالى ﴿إلا ما دُمْتَ عَلَيْه قائما﴾ أي مُلِحّاً متقاضياً و﴿ذلك﴾ [يعني](١٠) الاستحلال ﴿بأنهم قالوا ليس علينا في الأُمِّيِّين سبيل﴾ [يعني يقولون](١١): ليس علينا في مال العرب مأثم. ويقال: من لم يكن على ديننا فَمَالُه لنا حلال، بمنزلة مذهب الخوارج أنهم يستحلون مال من كان على خلاف مذهبهم. ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ [وهم يعلمون](١٢) لأنهم كانوا يقولون: إن ذلك حلال في التوراة فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون على الله ﴿وهم يعلمون﴾ أن الله أمرهم بأداء الأمانة، وأخذ على ذلك ميثاقهم. فهذا قوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده﴾ أي بعهد الله الذي أخذ عليهم بأداء الأمانة [وهي نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ](١٣) ﴿واتقى﴾ محارمه، هذا قول مقاتل. وقال الكلبي: واتقى ظلم الناس. ﴿فإنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن نقض العهد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾

(١) في ظ [بعض].

(٢) قال ابن زنجلة: قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر: «يؤده إليك» و«لا يؤده إليك» بسكون الهاء. وحجتهم: أن من العرب من يجزم الهاء إذا تحرك ما قبلها فيقول: (ضربته ضرباً شديداً). . .

وقرأ الباقون: «يؤد هي إليك» و«لا يـؤدهـي إليك» يصلون بياء في اللفظ، وحجتهم: أن الياء بدل من الواو، وأصلهم «يؤد هو إليك»، لكن قلب الواو ياء لانكسار ما قبلها، فلا سبيل إلى حذف الياء وهي بـدل من الواو. . . حجـة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٦، ١٦٧.

(٣) سقط في ظ.

(٤) في ظ [ومائة].

(٥) في ظ [فأداه].

(٦) سقط في ظ.

(٧) زيادة من ظ.

(٨) في أ [يأخذون].

(٩) ما بين المعقوفين من ظ.

(١٠) زيادة من ظ.

(١١) في ظ [يقول].

(١٢) سقط في ظ.

(١٣) في ظ زاد: [وأخذوا على ذلك ميثاقهم وذلك قوله «بلى من أوفى بعهده»].

يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿إن الذين يشترون بعهد الله﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: نزلت في شأن [عبدان] [١] بن الأشوع، وامرىء القيس [بن عابس][٢] [٣]، ادّعى أحدهما على صاحبه حقاً، فأراد المدَّعى عليه أن يحلف بالكذب، فنزلت هذه الآية. وقال مقاتل: نزلت في شأن رؤساء اليهود كتموا نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجل منافع الدنيا، ويقال أن جماعة من علماء اليهود قَدِموا المدينة من الشام ليُسلموا، فلقيهم «كَعْب بن الأشرف»، فقال لهم: تعلمون أنه نبي؟ قالوا: نعم فقال لهم كعب: حَرَّمْتُم على أنفسكم خيراً كثيراً، لأني كنت أردت أن أَبْعث لكم الهدايا، فقالوا: حتى ننظر في ذلك، فنظروا ثم رجعوا، فقالوا: ليس هو الذي وجدنا صفته، فأخذ منهم إقرارهم وخطوطهم، وأَيْمَانهم على ذلك، ثم بعث إلى كل واحد منهم ثمانية أذرع من الكرباس، وخمسة أصوع[٤] من الشعير، فنزل في شأنهم ﴿إنَّ الذين يَشْتَرُون بعَهْدِ الله وأَيْمَانهم ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي عرضا يسيراً ﴿أولئكَ لا خَلاقَ لَهُم في الآخِرةِ﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ﴿ولا يكلمهم الله﴾ وقال الزجاج[٥]: قوله «ولا يكلمهم الله» يحتمل معنيين: أحدهما: (إسماع)[٦] كلام الله تعالى أولياءه خصوصاً لهم كما كلم موسى (خصوصية)[٧] له دون البشر، ويجوز أن يكون تأويله للغضب عليهم، كما يقال: فلان لا يكلم فلاناً، ولا ينظر إليه، أي هو غضبان عليه، وإن كان هو يكلمه بكلام السوء، فذلك معنى قوله «لايكلمهم» أي: بكلام الرحمة، ﴿ولاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [بالرحمة][٨] ﴿وَلاَ يُزَكّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾[٩]. ثم قال: ﴿وإنَّ منهُم لَفَرِيقاً﴾ يعني طائفة من اليهود، وهذه اللام لزيادة تأكيد على تأكيد ﴿يَلْوُون أَلْسِنَتَهُم بالكِتَاب﴾ أي يحرفون ألسنتهم بالكتاب، يعني (بنعت)[١٠] محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويغيرونه. ويقال: يغيرونه في التلاوة، فيقرأونه على خلاف ما في التوراة ويقال: يحرفون تأويله على خلاف ما فيه ﴿لِتَحْسَبُوه مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من التوراة ﴿ومَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من التوراة بل هم كتبوا وهم تأوّلوا ﴿ويَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله ومَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله﴾ أي ليس هو من عند الله ﴿ويَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذب.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ الله الكتاب﴾ أي التوراة والإنجيل، ﴿والحكم﴾ يعني الفهم ﴿والنبوة﴾ وهو

---

(١) في أ [عبد الله والصحيح ما جاء في ظ أنه (عبدان) وهو ابن الأشوع الحضرمي. أنظر الإصابة ٤/٧٦٠.

(٢) سقط في ظ.

(٣) امرؤ القيس بن عابس الكندي قال ابن السكن كان ممن ثبت على الإسلام.

(٤) في أ [آصع] ولكن هذا الجمع لم يرد في القاموس. قال الفيروزبادي. جمع الصاع: أصْوُع، وأصوع، وأصْع، وصُوَع، وصيعان. ترتيب القاموس المحيط ٢/٨٦٨ (صوع).

(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٤٢.

(٦) في أ [استماع].

(٧) في ظ [خصوصاً].

(٨) زيادة من ظ.

(٩) سقط في ظ.

(١٠) في ظ [يحرفون نعت].

عيسى بن مريم ـ عليهما السلام ـ ﴿ثم يقول للناس﴾ ما جاز له أن يقول للناس: ﴿كونوا عِبَاداً لي من دُونِ الله﴾. ويقال: إن اليهودَ والنصارى اختلفوا فيما بينهم، فجاء الفريقان جميعاً إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال كل فريق: نحن أولى بإبراهيم عليه السلام، فقال لهم: رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلكم على الخطأ، فغضبوا وقالوا: والله ما تريد إلا أن نتخذك حَنَّاناً (أي معبوداً)[1]، فأنزل الله تعالى: «مَا كَانَ لبشر أن يؤتيه الله [الكتاب»[2] يعني القرآن][3] «والحكم» يعني الحلال والحرام «والنبوة»، «ثم يقول للناس كانوا عباداً لي من دون الله». ﴿ولكن﴾ يقول لهم ﴿كونوا ربانيين﴾ أي متعبدين، ويقال: كونوا علماء فقهاء. قال الزجاج[4]: الربانيون: أرباب العلم والبيان أي (كانوا)[5] علماء ﴿بما كنتم تعلّمون الكتاب﴾ أي كونوا عاملين بما كنتم تعلمون، لأن العالم إنما يقال له عالم، إذا عمل (بما علم)[6]، وإن لم يعمل بعلمه فليس بعالم، لأن من ليس له من علمه منفعة فهو والجاهل سواء. ثم قال: ﴿وبما كنتم تَدْرُسُون﴾ يقول بما كنتم تقرأون، يعني كونوا علماء بذلك عاملين به. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «بما كنتم تَعْلَمُون» بنصب التاء والتخفيف، يعني يُعَلِّمكم الكتاب ودراستكم، والباقون بضم التاء والتشديد يعني تُعَلِّمُون غيركم، فإنما يأمركم بذلك[7]. ﴿ولا يأمركم أن تَتَّخِذُوا المَلاَئِكَة والنَّبِيِّين أَرْبَابًا﴾ يعني عيسى وعُزيراً والملائكة ـ صلوات الله عليهم ـ ولو أمركم بذلك لكَفَر، وتنزع النبوة منه ﴿أيأمركم بالكفر﴾ يعني بعبادة الملائكة ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُون﴾ أي مخلصون بالتوحيد لله. قرأ عاصم وحمزة وابن عامر: «ولا يَأْمُرَ» بنصب الراء، ينصرف إلى قوله «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ الله» فيصير نصباً بأن، والباقون «ولا يأمُركم» بضم الراء على معنى الإبتداء[8]

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وإذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يعني الميثاق حيث أخرجهم من صُلْبِ آدم ـ عليه السلام ـ وأَخَذَ عليهم الميثاق العهد أن يبلغ الأول الآخر وأن يصدق الآخر الأول فذلك قوله تعالى: «وإذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّين» يعني إقرار النَّبِيِّين ﴿لما آتيتكم﴾. قرأ حمزة «لِمَا» [آتيتكم][9] بكسر اللام والتخفيف، [يعني بما آتيتكم][10] والباقون [بنصب اللام][11]، ومعناه: فما آتيتكم يعني، أي كتاب آتيتكم لتؤمنوا به[12]. وقرأ بعضهم: بنصب اللام

---

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه السيوطي في: الدر المنثور ٢/٤٦، وعزاه لأبي إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

(٣) ما بين المعقوفين من أ. (٤) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٤٣. (٥) في ظ [كونوا]. (٦) في ظ [بعلمه].

(٧) وحجة القارئين بالتخفيف أنه سبحانه قال (بما كنتم تدرسون) بالتخفيف، ولم يقل (تدرسون).

وحجة القارئين بالتشديد: أن (تعلمون) أبلغ المدح من (تعلمون) لأن المعلم لا يكون معلماً حتى يكون عالماً بما يعلمه الناس قبل تعليمه، وربما كان عالماً ليس بمعلم. حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٦٧. وانظر/ كنز المعاني ـ شرح حوز الأماني ص ٣١٨، ٣١٩.

(٨) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٨، وكنز المعاني ص ٣١٩.

(٩) زيادة في ظ. (١٠) زيادة في ظ. (١١) في أ [بالنصب].

(١٢): من قرأ بالكسر جعل (ما) بمعنى الذي، والمعنى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين للذي آتيتكم) أي لهذا، فهذه اللام لام الإضافة، =

والتشديد، أي حين آتيتكم ﴿من كتاب وحكمة﴾ يعني بيان الحلال والحرام. وقرأ نافع «آتيناكم» بلفظ الجماعة وهو لفظ الملوك، والباقون «آتيتكم» بلفظ الوحدان[1]. ويقال: أخذ الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًا إلا ذكر له محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته، وأخذ عليه ميثاقه أن يبينه لقومه وأن يأخذ منهم ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم ولا يكتمونه. ﴿ثم جاءكم رسول﴾ يعني به أهل الكتاب الذين كانوا في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مصدق لما معكم﴾ في التوحيد وبعض الشرائع، وذلك أن الله تعالى لما أخذ ميثاق الأنبياء وأخذ الأنبياء الميثاق من قومهم بأن يبينوه، فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة فكذبوه فذكرهم الله تعالى ما أتاهم به أنبياؤهم فقال تعالى: ﴿وإذ أَخَذَ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول﴾ يعني محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصدق لما معكم من التوراة، ﴿لَتُؤْمِنُنَّ به﴾ يعني قال لهم في الميثاق لتؤمنن به، أي لتصدقنه إذا بُعث ﴿وَلَتَنصُرنَّه﴾ إذا خرج ﴿قال﴾ لهم: ﴿أأقررتم﴾ بتصديقه، يعني هل أقررتم بما أخذ عليكم من الميثاق بتصديقه ونصره، ﴿وأخذتم على ذلكم إصري﴾ يعني هل قبلتم على ذلك عهدي الذي أخذت عليكم على إيمانكم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قالوا أَقْرَرْنَا﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿فاشْهَدُوا﴾ بعضكم على بعض بأني قد أخذت عليكم العهد ﴿وأنا معكم من الشاهدين﴾ على إقراركم. قال الزجاج[2]: قوله «فاشهدوا» أي فاثبتوا[3] لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدعي وأنا معكم من الشاهدين، وشهادة الله للنبيين تبينه أمر نبوتهم بالآيات (المعجزات)[4]. وقال القتبي: أصل الإصر، الثقل، فسمي العهد إصراً، لأنه يمنع [صاحبه عن مخالفة][5] الأمر الذي أخذ [عليه فثقل][6]

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي أعرض عن الإيمان، وعن البيان بعد ذلك الإقرار والعهد قوله: ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الناقضون [للعهد][7]، ويقال: [هم العاصون][8]، وأصل الفسق الخروج من الطاعة كقوله تعالى «ففسق عن أمر ربه» أي خرج عن طاعة ربه. وقوله تعالى: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾. قال الكلبي: وذلك أن كعب بن الأشرف [وأصحابه][9] [اختصموا][10] مع النصارى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا أينا أحق بدين إبراهيم، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «كلا الفريقين بريء من دينه» فقالوا ما نرضى بقضائك، ولا

= واللام متعلقة بـ (أخذ الميثاق) المعنى: (أخذ الميثاق لإتيانه الكتاب والحكمة أخذ الميثاق).

قال الفراء: من كسر اللام يريد: أخذ الميثاق الذي آتاهم من الحكمة.

قال الزجاج: ويكون الكلام يؤول إلى الجزاء كما تقول: (لما جئتني أكرمتك).

وأما قراءة فتح اللام: فكان الكسائي يقول: معناه: مهما أتيتكم على تأويل الجزاء قال: وجوابه: فمن تولى . . .

وقال الزجاج: (ما) هنا على ضربين، يصلح أن تكون للشرط والجزاء، وهو أجود الوجهين. . راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٨، ١٦٩.

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٦٩، وكنز المعاني ٣١٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٤٦. (٣) في ظ [فبينوا]. (٤) في ظ [المعجزة].

(٥) سقط في أ. (٦) في أ [له وثقل]. (٧) زيادة من ظ.

(٨) في أ [لهم العاصون]. (٩) سقط في أ. (١٠) في أ [اختصم].

نأخذ بدينك فنزل قوله تعالى: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُون» أي يطلبون. قرأ عاصم في رواية حفص «يبغون» «وإليه يرجعون» كلاهما بالياء وقرأ أبو عمرو «يبغون» بالياء «وإليه ترجعون» بالتاء، وقرأ الباقون: كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة، فمن قرأ بالياء يعني أفغير دين الله يطلبون من عندك، ومن قرأ بالتاء يعني: أفغير دين الله تطلبون[١]، «وله أسلم» أي أخلص وخضع «من في السموات والأرض طوعاً وكَرْهاً». قال الكلبي: أما أهل السموات فأسلموا لله طائعين، وأما أهل الأرض فمن ولد في الإسلام أسلم طوعاً، ومن أبى قُوتِل حتى دخل في الإسلام كرهاً وما أفاء الله عليهم مما يسبون فيجاء بهم في السلاسل فيكرهون على الإسلام، وقال مجاهد: يسجد ظل المسلم ووجهه طائع، ويسجد ظل الكافر وهو كاره، وقال مقاتل: «وله أسلم من في السموات» يعني الملائكة، «والأرض» يعني المؤمنين «طوعاً وكرهاً» يعني أهل الأديان يقولون: الله ربكم، وخالقكم فذلك إسلامهم وهم مشركون. معنى قوله: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خضعوا من جهة ما فطرهم عليه، ودبرهم لا يمتنع ممتنع من جبلة ما جبل عليها، ولا يقدر على تغيير ما خلق عليها طوعاً وكرهاً، ثم قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ [كما خلقكم أي][٢] كما بداكم، (فلا)[٣] تقدرون على الإمتناع، كذلك يبعثكم كما بدأكم، قرأ عاصم في رواية حفص: «يرجعون»، وقرأ الباقون بالتاء[٤].

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

ثم قال: ﴿قل آمنا بالله﴾ خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد به أمته، فقال: قل للمؤمنين إن لم يؤمن أهل الكتاب (فقولوا أنتم) «آمنا بالله» ﴿وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وأسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وقد ذكرناه في سورة البقرة.

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

قوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً﴾، قال الكلبي: نزلت في شأن مرثد بن أبي مرثد وطُعْمَة بن أُبَيْرق[٥] ومقيس بن صبابة[٦]، والحارث بن سُوَيد[٧] وكانوا عشرة، وقال [مقاتل][٨]: كانوا اثني عشر، وقال الضحاك، يعني

---

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٠، وكنز المعاني ٣٢٠. (٢) سقط في ظ. (٣) في أ [ولا].

(٤) حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٠، وكنز المعاني ٣٢٠.

(٥) طعمة بن أبيرق بن عمر الأنصاري، ذكره أبو إسحاق المسيلمي في الصحابة وقال شهد المشاهد كلها إلا بدراً وقد تكلم في إيمانه. الإصابة ٣/٢٨٥.

(٦) مِقْيَس بن صبابة كان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد تيعس أخاه قتيلاً فشكا ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذها ثم عدا على قاتل اخيه فقتله وارتد وأقام بمكة. الإصابة ٦/٢٨٦.

(٧) الحارث بن سويد بن الصامت الأنصاري الأوسي ارتد ولحق بالكفار فنزل ﴿كيف يهدي الله قوماً...﴾ الآية الإصابة ١/٢٩٣.

(٨) سقط في أ.

لا يقبل من جميع الخلق من أهل الأديان ديناً غير دين الإسلام، ومن يتدين غير الإسلام ديناً ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ منه وهُوَ في الآخرة من الخاسرين﴾ «أي من المغبونين لأنه ترك منزله في الجنة، واختار منزله في النار.

كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا
لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ
أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِم وشهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي بعدما ظهر لهم العلامات ﴿والله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين﴾ فإن قيل: في ظاهر الآية: أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله ومن كان ظالماً لا يهديه الله، وقد رأينا كثيراً من المرتدين، أسلموا وهداهم الله وكثيراً من الظالمين تابوا عن الظلم. قيل له: لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقْبِلُون إلى الإسلام، فأما إذا جاهدوا وقصدوا الرجوع وفقهم الله لذلك لقوله «والذين جَاهَدُوا فينا لنهدينهم سبلنا» وتأويل آخر: «كيف يهدي الله»، يقول كيف يرشدهم إلى الجنة كما قال في آية: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُم طَرِيقاً. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ». ويقال: كيف يرحمهم الله وينجيهم من العقوبة. ويقال: كيف يغفر الله لهم. وقالت المعتزلة: «كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّه» معناه، كيف يكونون مهتدين لأنهم لا يرون الهداية والإهتداء في الإبتداء، إلا على سبيل الجزاء ويرون ذلك من كسب العبد. ثم قال ﴿أولئك جزاؤهم﴾ يعني أهل هذه الصفة التي ذكر[1] ﴿أنَّ عَلَيْهِم لَعْنَةَ الله﴾ أي سخط الله، ويقال: الطرد والتبعيد من رحمة الله والخذلان، ويقال: يلعنهم بالقول ﴿والملائكة﴾ يعني عليهم لعنة الله والملائكة ﴿والناس أجمعين﴾ إذا لعن رجل رجلاً، فإن لم يكن أهْلاً لذلك رجعت اللعنة إلى الكفار. ويقال: من لم يكن على دينهم، يلعنهم في الدنيا، ومن كان على دينهم يلعنهم في الآخرة لقوله تعالى: «وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» فذلك قوله تعالى: «والنَّاس أَجْمَعين». ثم قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيها﴾ يعني في اللعنة. فيما توجبه اللعنة، وهو عذاب النار خالدين فيها ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لا يهون عليهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يؤجلون، ثم استثنى التوبة فقال تعالى: ﴿إلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا﴾ يقول: من بعد الكفر، وأصلحوا أعمالهم بالتوبة. ويقال: أصلحوا لمن أفسدوا من الناس ﴿فإنَّ اللَّه غَفُورٌ رحيمٌ﴾ لما كان منهم في الكفر رحيم بهم بعد التوبة. قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية أي الرخصة بالتوبة، كتب أخو الحارث بن سُوَيْد إلى الحارث: إن الله قد عرض عليكم التوبة، فرجع وتاب، وبلغ ذلك إلى أصحابه الذين بمكة، فقالوا: إن محمداً تتربص به ريب المنون، فقالوا: نقيم بمكة على الكفر متى بدا لنا الرجعة رجعنا[2] فينزل فينا ما نزل في «الحارث» فتقبل توبتنا فأنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ ثم ازْدَادُوا

---

(١) في أ [ذكرها].

(٢) في ظ [زيادة (فمتى أردنا الرجعة رجعنا).

كُفْراً﴾ أي ثبتوا على كفرهم بقولهم: نقيم بمكة ما بدا لنا «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهم» ما أقاموا على الكفر. قال الزجاج(١): كانوا كلما نزلت آية كفروا بها، فكان ذلك زيادة كفرهم، وقوله: **﴿[لن]**(٢) **تقبل توبتهم﴾** [أي توبتهم](٣) الأولى، وحبط أجر عملهم. ويقال: «لن تقبل توبتهم» معناه: إنهم [لن](٤) يتوبوا كما [قال الساعة](٥) «ولا يقبل منها شفاعة» أي لا يشفع (لها)(٦) أحد، ثم قال تعالى: **﴿وأولئك هم الضالون﴾** عن الإسلام، وهم الذين لم يتوبوا. **﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾** قال الكلبي: يعني وزن الأرض ذهباً. وقال مقاتل: إن الكافر إذا عاين النار [في الآخرة](٧) يتمنى أن يكون له الأرض ذهباً فيقدر على أن (يفتدي)(٨) به نفسه من العذاب [لافتدى به،ولو افتدى به](٩) «ما تقبل منه» [أولئك لهم عذاب أليم](١٠) ونظيرها في سورة المائدة: «إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم ما فِي الأَرْضِ» قوله تعالى: **﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾** الآية.

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح أنه قال: لن تنالوا ما عند الله من ثوابه في الجنة حتى تنفقوا مما تحبون [أي حتى تخرجوا أموالكم طيبة بها أنفسكم](١١)، وقال مقاتل: يعني لن تنالوا التقوى حتى تنفقوا مما تحبون من الصدقة، أي بعض ما تحبون من الأموال. **﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾** يعني الصدقة وصلة الرحم **﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾** أي لا يخفي عليه فيثيبكم عليه. ويقال: لن تنالوا البر حتى تستكملوا التقوى. ويقال: لا تكونوا بارين حتى تنفقوا مما تحبون (أي من الصدقة، أي بعض ما تحبون من الأموال)(١٢) وروي عن عمر بن عبد العزيز(١٣). أنه كان يشتري أعدالاً من السُّكَّر ويتصدق بها فقيل له: هلا تصدقت بثمنه، فقال: لأنَّ السُّكَّر أحب إلي فأردت أن أتصدق مما أحب. وروي عن عبد الله بن عمر أنه اشترى جارية جميلة وكان يحبها فمكثت عنده أياماً ثم أعتقها وزوجها من رجل، فَوُلِد لها ولد، فكان يأخذ ولدها ويضمه إلى نفسه ويقول: أشم منك ريح أمك، فقيل له: قد رزقك الله من حلال، وأنت تحبها فلم تركتها؟ فقال: ألم تسمع هذه الآية: «لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون» [وروي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تقرأ في مصحف مذهب فلما انتهت إلى هذه الآية باعته وتصدقت بثمنه](١٤).

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: **﴿كل الطعام كان حِلاًّ لبني إسرائيل﴾**. قال في رواية الكلبي: خرج يعقوب إلى بيت المقدس،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٥٢. (٢) سقط في أ. (٣) زيادة من ظ.
(٤) في ظ [لم]. (٥) في أ [قال]. (٦) في أ [فيها].
(٧) زيادة من ظ. (٨) في أ [يفدي]. (٩) سقط في أ.
(١٠) سقط في أ. (١١) في ظ [من الصدقة، قال: وهي منسوخة، نسختها آية الزكاة]. (١٢) سقط في ظ.
(١٣) عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي أبو حنفي الخليفة الصالح والملك العادل توفي سنة ١٠١ هـ. وانظر مناقب ابن الجوزي في سيرة عمر بن عبد العزيز فوات الوفيات ٢/١٠٥ حلية الأولياء ٥/٢٥٣.
(١٤) سقط في ظ.

فلقيه ملك في الطريق فظن يعقوب أنه لص، فعالجه فغمز الملك رجل يعقوب فهاج به عرق النساء، فنذر أن يحرم أحب الطعام إليه إن برأ من ذلك لما رأى فيه من الجهد، فلما برأ كان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وألبانها فحرمها على نفسه، فقالت اليهود: هذا التحريم من الله تعالى في التوراة، فنزل قوله تعالى: «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل» أي كان حلالاً إلا الميتة والدم ولحم الخنزير ثم قال: ﴿إلا ما حرم إسرائيلُ على نفسه، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّل التوراة﴾ وليس تحريمها في التوراة، ثم قال لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قُلْ﴾ لليهود ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ يعني اقرأوها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن تحريمها في التوراة، لأنهم كانوا يقولون: إن ذلك حرام من وقت نوح وأنت وأصحابك تستحلونها. وقال الضحاك إن يعقوب لما أصابه عرق النساء، (أمره)[1] الأطباء أن يتجنب لحوم الإبل فحرم على نفسه لحوم الإبل، فقالت اليهود: حرَّمْناها على أنفسنا لأن يعقوب حرَّمها على نفسه فنزل تحريمها في التوراة فنزلت الآية. ويقال: معناه كل طعام هو حلال لأمتك، مثل ما كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، وبعضها حُرِّم عليهم بذنوبهم. وقال الزجاج[2]: هذه الآية أعظم (دليل)[3] لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه أخبرهم بأنه ليس في كتابهم، وأمرهم بأن يأتوا بالتوراة فأبوا، وعرفوا أنه قال ذلك بالوحي.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يعني اختلق على الله الكذب ﴿مَن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ البيان في كتابهم: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون﴾ يعني يظلمون أنفسهم ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أن تحريمه ليس في التوراة، ويقال «قُلْ صَدَقَ اللَّه» حين قال: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يهودياً ولا نصرانياً». ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي مخلصاً مستقيماً وكلوا لحوم الإبل وألبانها كما (أكلها)[4] إبراهيم، ولا تحرموا على أنفسكم شيئاً بأهوائكم ﴿وما كان﴾ إبراهيم ﴿من المشركين﴾ يعني على دينهم.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ﴾[5] قال مقاتل: يعني أول مسجد وضع للناس، أي للمؤمنين. ويقال: أول

---

(١) في ظ [وصف له]. (٢) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٥٣. (٣) في ظ [دلالة]. (٤) في ظ [أكله].

(٥) في كونه «أول» قولان. أحدهما: أنه أول بيت كان في الأرض واختلف أرباب هذا القول، كيف كان أول بيت على ثلاثة أقوال. أحدها: أنه ظهر على وجه الماء حين خلق الله الأرض، فخلقه قبلها بألفي عام، ودحاها من تحته، فروى سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: كانت الكعبة خشبة على وجه الماء، عليها ملكان يسبحان الليل والنهار قبل الأرض بألفي سنة، وقال ابن عباس: وضع البيت في الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي سنة، ثم دحيت الأرض تحت البيت، وبهذا القول يقول ابن عمر، وابن عمرو قتادة، ومجاهد والسدي وآخرون. والثاني: أن آدم استوحش حين أهبط فأوحى الله إليه، أن: ابْنِ لي بيتاً في الأرض، فاصنع حوله نحو ما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي، فبناه، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. والثالث: أنه أهبط مع=

موضع خلق هو موضع [الكعبة للناس][(١)] أي قبلة للناس ﴿للذي ببكة﴾ قال الكلبي: إنما سمي بكة لأن الناس يبك بعضهم بعضاً أي يزدحم[(٢)]. وقال الزجاج[(٣)]: بكة: موضع البيت، وسائر ما (حواليه)[(٤)] مكة. وقال القتبي: بكة ومكة شيء واحد، والباء تبدل من الميم، كما يقال: سمد رأسه وسبده إذا استأصله (أي قلع بأصله)[(٥)]، ويقال: بكة موضع المسجد ومكة البلد حوله، ثم قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي فيها بركة ومغفرة للذنوب ﴿وهدى للعالمين﴾ يعني قبلة لمن صلى إليها، وذلك أن اليهود قالوا للمؤمنين: لم عمدتم إلى الحجارة تطوفون بها، وتصلون إليها؟ وجعلوا يعظمون بيت المقدس فنزلت هذه الآية. وروى الكلبي: أن آدم ـ عليه السلام ـ بني البيت [فلما كان زمان الطوفان رفع إلى السماء السادسة «بحبال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لم يدخلوه قط قبله. ويقال: أنزل من السماء وهو من ياقوتة حمراء][(٦)]. فلما كان زمان الطوفان رفع إلى السماء الرابعة. ثم قال تعالى: ﴿فيه آياتٌ بينَات﴾ يعني علامات واضحات كالحجر الأسود والحطيم، ﴿مقام إبراهيم﴾ وروي عن عبد الله بن عباس: أنه كان يقرأ «فيه آية بينة مقام إبراهيم» وقرأ غيره، آيات بينات مقام إبراهيم[(٧)] ومعناه من تلك الآيات مقام إبراهيم ﴿ومَن دَخَلَه﴾ يعني الحرم ﴿كان آمناً﴾ يعني أن من دخله فيه، فإنه لا يهاج منه إذا وجب عليه القتل خارج الحرم: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص حِجُّ بكسر الحاء والباقون بالنصب، وهما لغتان ومعناهما واحد[(٨)]. ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ أي بلاغاً، والاستطاعة هي الزاد والراحلة وتخلية الطريق، ويقال: ولله على الناس فريضة حج البيت. ثم قال: ﴿ومن كفر﴾ يعني ومن لم ير الحج واجباً فقد كفر فذلك قوله: ومن كفر ﴿فإن الله غني عن العالمين﴾ يعني غني عمن حج وعمن لم يحج، قال الفقيه: حدثني أبي قال: حدثني أبو بكر المعلم، قال: حدثنا أبو عمران (الفارابي)[(٩)]، قال: حدثنا عبد الرحمن بن حبيب، قال: حدثنا داود بن (المحبر)[(١٠)]، قال: حدثنا عباد بن كثير عن عبد خير، عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال في خطبته: أيُّها النَّاس، إن الله تعالى فرض الحج على من استطاع إليه سبيلاً، ومن لم يفعل فَلْيَمُتْ على أيِّ حال يهودياً أو نصرانياً، أو مجوسياً، إلا أن يكون به مرض أو منع من سلطان جائر، ألا لا نصيب له من شفاعتي ولا يرد حوضي. وروي عن أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: السبيل: الزاد والراحلة، وكذلك روي عن ابن عباس[(١١)] ـ وقال مجاهد: مقام إبراهيم أثر قدميه.

= آدم، فلما كان الطوفان، رفع فصار معموراً في السماء وبنى إبراهيم على أثره، رواه شيبان عن قتادة، القول الثاني: أنه أول بيت وضع للناس للعبادة، وقد كانت قبله بيوت، هذا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وعطاء بن السائب وآخرين ـ تفسير زاد المسير ١/٤٢٤، ٤٢٥ ـ ويؤيد هذا القول ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد» رواه أحمد في المسند. والبخاري ومسلم.

(١) في ظ [مكة].

(٢) وقال أبو عبيدة: بكة، هي اسم لبطن مكة، وذلك لأنهم يتباكون فيها ويزدحمون (مجاز القرآن ١/٩٧) وقال ابن منظور: (وبكة: مكة، سميت بذلك لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم، وقيل لأن الناس يتباكون فيها من كل وجع، أي يتزاحمون وقال يعقوب: بكة ما بين جبلي مكة، لأن الناس يبك بعضهم بعضاً في الطواف أي يزحم (اللسان: بكك).

(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٥٤. (٤) في أ [حوالي]. (٥) سقط في ظ.

(٦) ما بين المعقوفين من ظ. (٧) راجع البحر المحيط ٣/٨. (٨) كنز المعاني ٣٢٠، حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٠.

(٩) في أ [الفارابي]. (١٠) في أ [محبر].

(١١) أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس (٢/٩٦٧) كتاب المناسك، باب ما يوجب الحج (٢٨٩٧). وأخرجه الترمذي من حديث ابن=

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم قال: ﴿**قل يا أهل الكتاب**﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿**لم تكفرون بآيات الله**﴾ يعني لم (تكفـرون)[1] بالحج والقرآن ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ**﴾ من الجحود والكفر ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ**﴾ يقول لم تصرفون الناس ﴿**عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي عن دين الله الإسلام، والحج[2] ﴿**تَبْغُونَهَا عِوَجاً**﴾ أي تطلبونها تغيراً وزيناً ﴿**وأنتم شهداء**﴾ أن ذلك في التوراة ﴿**وما الله بغافل عما تعملون**﴾ من كتمان صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته. ويقال في اللغة: ما كان ينتصب انتصاب العـود والحائط، يقـال، عوج بالنصب، وما لم ينتصب مثل الأرض والكلام، ويقال: عوج، كما قال تعالى: «لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً» وقال تعالى: «ولم يجعل له عوجاً. قيماً».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً**﴾ يقول طائفة ﴿**من الّذين أُوتُواْ الْكِتَابَ**﴾ وهم رؤساء اليهود ﴿**يردوكم بعد إيمانكم كافرين**﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن لأنهم كانوا يدعون إلى الكفر، واتباع مذهبهم وكان يتبعهم بعض المنافقين فنهى الله تعالى المؤمنين عن متابعتهم. ثم قال تعالى على وجه التعجب: ﴿**وكيف تكفرون**﴾ يقول: كيف تجحدون بواحدانية الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿**وأَنْتُمْ تُتْلَى عليكم آيَاتُ الله**﴾ يقول: يُقْرأ عليكم القرآن وفيه دلائله وعجائبه، ﴿**وفيكُم رَسُولُه**﴾ يعني معكم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الزَّجاج[3]: يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فيهم وهم يشاهدونه، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة، لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذي أتى به فينا، فكأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فينا وإن لم (نشاهده)[4]. ثم قال عز وجل: ﴿**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ**﴾ يقول: يتمسك بدين الله ﴿**فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم**﴾[5] يقول: وفق وأرشد من الضلالة ﴿**إلى صراط مستقيم**﴾ يعني: الطريق الذي يسلك به إلى الجنة، وهو دين الإسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

= عمر ٥/٢٠٩ كتاب تفسير القرآن (٢٩٩٨)، والبيهقي في السنن ٤/٣٢٧ ـ ٣٣٠ كتاب الحج، والحاكم في المستدرك ١/٤٤١.

(١) في ظ [تجحدون]. (٢) في ظ [زيادة بعد قوله والحج من آمن بالإسلام والحج].
(٣) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٥٨. (٤) في أ [يشاهدوه]. (٥) سقط في ظ.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [١٠٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ يقول أطيعوا الله حق طاعته، وحق طاعته أن يطاع فلا يعصى طرفة عين، وأن يشكر فلا يكفر طرفة عين، وأن يذكر فلا ينسى طرفة عين فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى «فاتَّقُوا الله ما اسْتَطَعْتُم» فنسخت هذه الآية هكذا، قال الكلبي والضحاك [ومقاتل وغيرهم][١] من المفسرين: إن هذه الآية منسوخة وقال بعضهم: لا يجوز أن يقال هذه الآية منسوخة لأنه لا يجوز أن يأمرهم بشيء لا [يطيقونه][٢] (ولكن الجواب أن يقال عن هذا: إنهم يطيقونه)[٣] ولكن تلحقهم مشقة شديدة، (ولأن)[٤] ذلك مجهود الطاقة، ولا يستطيعون الدوام عليه، والله تعالى لا يكلف عباده إلا دون ما يطيقون، فخفَّف عنهم بقوله تعالى: [(فاتقوا الله ما استطعتم) ولم ينسخ آخر الآية (أولها)][٥] وهو قوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلَّا وأنْتُم مسلمون﴾ يعني اثبتوا على الإسلام، وكونوا بحال يلحقكم الموت وأنتم على الإسلام ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾ يقول: تمسَّكوا بدين الله وبالقرآن، ويقال: تمسكوا بسبيل السنة والهدى، «ولا تفرقوا» يقول: ولا تختلفوا في الدين كاختلاف اليهود والنصارى ويقال: لا تختلفوا فيما بينكم بالعداوة والبغضاء، ويقال ﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾ يعني اطلبوا النصرة من الله لا من القبائل والعشيرة. ويقال «واعتصموا بحبل الله جميعاً» يعني ما اشتبه عليكم فردوه إلى كتاب الله كقوله تعالى «فإنْ تَنَازَعْتُم في شَيْءٍ فَرُدُّوه إلى الله والرسول» وقال بعض الحكماء: إن مثل من في الدنيا كمثل من وقع في بئر فيها من كل نوع من الآفات فلا يمكنه (أن يخرج منها)[٦]، والنجاة من آفاتها إلا بحبل وثيق، فكذلك الدنيا دار محنة، وفيها كل نوع من الآفات، فلا سبيل إلى النجاة منها إلا بالتمسك بحبل وثيق، وهو كتاب الله تعالى. ثم (ذكَّرهُم)[٧] نعمته فقال تعالى: ﴿اذكروا﴾ نعمتي واحفظوا ﴿نعمة الله عليكم﴾ الإسلام ﴿إذ كنتم أعداء﴾ في الجاهلية ﴿فألف﴾ الله ﴿بين قلوبكم﴾ يعني جمع بين قلوبكم بالإسلام تودُّداً ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ يقول فصرتم بنعمة الإسلام ﴿إخواناً﴾ في الدين. وكل ما ذكر في القرآن أصبحتم، معناه صِرْتم، كقوله «إن أَصْبَحَ مَاؤُكم غورا» أي صار ماؤكم غورا. وهذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج، كان بينهم قتال قبل الإسلام بأربعين عاماً حتى كادوا أن يتفانوا، فلما بُعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة آمن به الأوس والخزرج وهم بالمدينة، ثم خرج إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة قبل أن يهاجر منهم سبعون رجلاً، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه عمه العباس حتى أتى إلى العقبة (إلى سبعين)[٨] رجلاً من الأنصار فعاهدوه ثم رجعوا إلى المدينة، وهاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم بعد الحولين، فوقعت بين الأوس والخزرج أُلْفَةٌ، وزالت عنهم العداوة التي كانت (بينهم)[٩] في الجاهلية بالإسلام، وهذا كما ذكر في آية أخرى «لو أَنْفَقْتَ ما في

---

(١) في أ [وغيرهما].
(٢) في أ [يستطيعونه].
(٣) سقط في ظ.
(٤) في ظ [وكان].
(٥) سقط في ظ.
(٦) في ظ [الخروج منها].
(٧) في أ [ذكر لهم].
(٨) في أ [فرأى سبعين].
(٩) في ظ [عنهم].

الأرض جميعاً ما أَلَّفْت بين قلوبهم ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ» وروي عن جابر بن عبد الله، أن رجلين من الأنصار أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج تفاخرا فيما بينهما واقتتلا، فاستعان كل واحد منهما بقومه فاجتمعت الأوس والخزرج، وأخذوا السلاح وخرجوا للحرب، فبلغ الخبر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج إليهم في ثلاثين من المهاجرين وهو راكب على حمار له، قال جابر: فما كان من طالع يومئذ أكرم إلينا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ طلع علينا، فأومأ إلينا بيده، فكففنا، ووقف بيننا على حمار له فقال: «يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تقاته». [إلى قوله: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم][١] . . . إلى قوله: «عذاب عظيم». فألقوا السلاح، واطفأوا الحرب التي كانت بينهم، وعانق بعضهم بعضاً يبكون، فما رأيت الناس أكثر باكياً من يومئذ، فلم يكن في الأرض شخص أحب إليهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول هذه الآية، ثم قال تعالى: ﴿وكُنْتُم على شَفَا حُفْرَةٍ من النَّار﴾ قال القتبي: أشفى على كذا: إذا أشرف عليه[٢] شَفَا حُفْرة: أي حرف حفرة[٣]، ومعناه: وكنتم في الجاهلية على هلاك بالشرك، من مات في الجاهلية كان في النار، ﴿فأنقذكم منها﴾ بعدما كنتم على حرف من النار، ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ يعني علاماته حيث كنتم، أعداء في الجاهلية إخواناً في الإسلام ﴿لعلكم تهتدون﴾ [أي لكي تهتدوا][٤] من الضلالة وتعرفوا علامته بهذه النعمة ﴿ولتكن منكم أمة﴾ فهذه لام الأمر كقوله «فليعمل عملاً صالحاً» يعني لتكن منكم أمة، قال الكلبي: يعني جماعة، وقال مقاتل: يعني عصبة. وقال الزجاج[٥]: ولتكونوا كلكم أمة واحدة تدعون إلى الخير «ومن» ها هنا لتخص المخاطبين من بين سائر الأجناس وهي مؤكدة كقوله تعالى: «فاجتنبوا الرجس من الأَوْثَان» وقوله: ﴿يدعون إلى الخير﴾ يعني إلى الإسلام ويقال: إلى جميع الخيرات ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ قال الكلبي: يعني باتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وينهون عن المنكر﴾ يعني الجبت والطاغوت. ويقال: المنكر: يعني العمل الذي بخلاف الكتاب والسنة، ويقال: ما لا يصلح في العقل. وروي عن سفيان الثوري أنه قال: إنما يجب النهي عن المنكر إذا فعل فعلاً يخرج عن الاختلاف (أي اختلاف العلماء)[٦] ويقال: إنما أمر بعض الناس بقوله: «ولتكن منكم أمة» ولم يأمر جميع الناس، لأن كل واحد من الناس لا يحسن الأمر بالمعروف، وإنما يجب على من يعلم. ويقال: إن الأمراء يجب عليهم الأمر والنهي باليد والعلماء باللسان والعوام بالقلب، وهنا كما قال عليه الصلاة والسلام: إذا رأى أحد منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[٧]. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «بحسب امرىء إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير أن يعلم الله من قلبه أنه كاره». وروي عن بعض الصحابة أنه قال: إن الرجل إذا رأى منكراً لا يستطيع النكير عليه، فليقل ثلاث مرات: «اللهم إنَّ هذا منكر» فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليه. ثم قال تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ يعني الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هم الناجون، ويقال: فازوا بالنعيم [ثم قال][٨]: ﴿ولا تكونوا﴾ في الاختلاف ﴿كالَّذِينَ تَفَرَّقوا﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿واخْتَلَفُوا من بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فافترقت اليهود فرقاً [والنصارى فرقاً][٩]، فنهى الله المؤمنين عن

---

(١) سقط من أ. (٢) أنظر اللسان: شفي. (٣) وكذا قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/٩٨.

(٤) زيادة من ظ. (٥) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٦٢. (٦) سقط من ظ.

(٧) أخرجه مسلم (١/٦٩) كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر. . . (٧٨/٤٩)، والترمذي (٤٠/٤٠٧) كتاب الفتن/ باب ما جاء في تغيير المنكر (٢١٧٢)، والنسائي (٨/١١١) كتاب الإيمان/ باب تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٨) وأحمد في المسند (٣/٢٠).

(٨) زيادة من ظ. (٩) زيادة من ظ.

ذلك. ثم خوفهم فقال: ﴿وأولئك لهم عَذَابٌ عظيم﴾ يعني دائم لا يرفع عنهم أبداً، يعني الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، أي العلامات في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيان الطريق. ثم بَيَّن منازل الذين تفرقوا والذين لم يتفرقوا فقال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ، وَتَسْوَدُّ وُجُوه﴾ يعني يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم ويقال إن ذلك عند قوله تعالى: (وامتازوا اليوم أيها المجرمون)[١] تكون وجوه المؤمنين مُبْيَضَّة ووجوه (الكفار)[٢] مُسْودَّة، ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه، فرأى في كتابه (حسناته)[٣] استبشر، وابيضّ وجهه، وإذا قرأ المنافق والكافر كتابه فرأى (فيه سيئاته)[٤] اسودّ وجهه. ويقال: إن ذلك عند الميزان، إذا رجحت حسناته ابيضّ وجهه وإذا رجحت سيئاته اسود وجهه ويقال إذا كان يوم القيامة، يؤمر كل قوم بأن يجتمعوا إلى معبودهم، فإذا انتهوا إليه حزنوا واسودت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون فيقول الله تعالى للمؤمنين: «من ربكم»؟ فيقولون: ربنا الله ـ عز وجل ـ فيقول لهم أتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون سبحانه إذا عرفنا عرفناه، فيرونه كما شاء الله، فيخر المؤمنون سجداً لله تعالى، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضاً، وبقي المنافقون وأهل الكتاب، لا يقدرون على السجود، فحزنوا واسودّت وجوههم، فذلك قوله «يوم تَبْيَضّ وجوه وتسود وجوه» ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ يعني، يقال لهم: أكفرتم؟ ولكن حُذِفَ القول، لأن في الكلام دليلاً عليه «بعد إيمانكم» يعني يوم الميثاق قالوا: بَلَى، يعني المرتدين والمنافقين. ويقال: هذا لليهود، وكانوا مؤمنين بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يُبْعث، فلما بُعث كفروا به، وقال أبو العالية: هذا للمنافقين خاصة، يقول: أكفرتم في السر بعد (إيمانكم أي)[٥] مع إقراركم في العلانية ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن، [حدثنا الخليل بن أحمد قال][٦]: (حدثنا عباد بن الوليد قال حدثنا محمد بن عباد البنائي)[٧] قال: حدثنا حميد بن الخياط، قال: سألت أبا العالية عن هذه الآية: «فأما الذين اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم أكفرتم بعد إيمانكم» فقال: حدثنا (أبو أمامة)[٨] عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إنهم الخوارج وسألته عن قوله: «لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً من دونكم» «آل عمران: ١١٨» قال: إنهم الخوارج. قوله: ﴿وأما الذين ابْيَضَّتْ وجُوهُهُم ففي رحمة الله﴾ أي في جنة الله. قال الزجاج[٩]: يعني في الجنة التي صاروا إليها برحمة الله تعالى، لأن الجنة تُنَالُ برحمته، ولا تُنَال بالجهد، وإن اجتهد المجتهد، لأن نعمة الله تعالى لا يكافئها عمل «ففي رحمة الله» أي في ثواب الله ﴿هم فيها خالدون﴾ أي دائمون.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن ﴿نتلوها عليك﴾ يعني ننزل جبريل، فيقرأ عليك ﴿بالحق﴾ أي بالصدق.

---

(١) سقط في ظ. (٢) في ظ: الكافرين. (٣) في أ [حسناته].
(٤) في ظ: في كتابه سيئات. (٥) سقط في ظ. (٦) سقط في ظ
(٧) في ظ: (حدثنا محمد بن صاعد قال حدثنا عباد بن الوليد قال حدثنا محمد بن عباد الهناني).
وعباد هو: عباد بن الوليد الغبري، أبو بدر المؤدب. قال ابن أبي حاتم: صدوق، مات سنة اثنين وستين ومائتين. الخلاصة ٣١/٢.
ومحمد هو: محمد بن عباد الهنائي أبو عباد البصري، قال أبو حاتم: صدوق. تهذيب التهذيب ٢٤٦/٩.
(٨) في أ [أبو أسامة]. (٩) معاني القرآن وإعرابه ٤٦٥/١.

وقال الزجاج[١]: «تلك آيات الله» أي تلك التي جرى ذكرها، حجج الله وعلاماته نتلوها عليك، أي نعرّفك إياها. ﴿وما اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين﴾ يعني لا يعذبهم بغير ذنب، ﴿وَلِلَّهِ ما في السموات وما في الأرض﴾ قال بعضهم: هذا معطوف على الأول كأنه يقول: «وما اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين» لأنهم كلهم عبيده ومخلوقه ومرزوقه فلا يريد ظلمهم. وقال بعضهم: هذا ابتداء كلام، بين لعباده أن جميع ما في السموات وما في الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره. ثم قال تعالى: ﴿وإلى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمور﴾ يقول: تصير أمور العباد إلى الله في الآخرة.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال الكلبي: أخبر الله تعالى أن خير الدين عند الله دين أهل الإسلام، ووصفهم بالوفاء، فقال تعالى «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» (أخرجت للناس)[٢]... يقول (كنتم)[٣] خير أهل دين كان الناس لا يظلمون من خالطهم، منهم أو من غيرهم، فجعلهم الله خير الناس للناس، ﴿تأمرون بالمعروف﴾ ويقال: خير أمة أُخْرِجَت للناس (تأمرون)[٤] بالمعروف (فتقاتلون)[٥] الكفار ليسلموا، فترجع منفعتهم إلى غيرهم، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «خير الناس من ينفع الناس»[٦] ويقال «كنتم خير أمة» يعني «كنتم» عند الله في اللوح المحفوظ، ويقال: كنتم مذ أنتم خير أُمَّة، ويقال: هذا الخطاب لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني أنتم خير الأمة كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٧]: «خَيْر القرون أصحابي ثم الذين يلونهم». ثم وصفهم فقال: «تَأْمُرُونَ بالمَعْرُوف»، أي بالتوحيد والإسلام ﴿وتنهون عن المنكر﴾ أي عن الشرك ﴿وتؤمنون بالله﴾ أي تصدقون بتوحيد الله، وتثبتون على ذلك. وقال الزجاج[٨]: «تؤمنون بالله» معناه تقرون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الله، لأن من كفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يوحد الله، لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التي أتى بها من ذات نفسه. ثم قال تعالى: ﴿ولو آمن أهل الكتاب﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿لكان خَيْراً لهم﴾ من الإقامة على دينهم، ﴿منهم المؤمنون﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، ومن آمن من اليهود والنصارى ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ وهم كعب بن الأشرف وأصحابه، والذين لم يؤمنوا منهم ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ يعني باللسان، بالسب وغيره، وليس لهم قوة القتال ﴿وإن يقاتلوكم﴾ يعني إن أعانوكم في القتال فلا منفعة لكم منهم لأنهم ﴿يُوَلُّوكم الأدبار﴾ وينهزمون ﴿ثم لا يُنْصَرون﴾ يقول: لا يُمْنَعون من الهزيمة فكأنه يحكي ضعفهم عن القتال، يقول: لو كانوا عليكم لا يضرونكم، ولو كانوا معكم لا ينفعونكم، وهذا حالهم إلى (يوم القيامة)[٩] وهم اليهود،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٦٦.
(٢) سقط في ظ.
(٣) في ظ [أنتم].
(٤) في ظ [يأمرون].
(٥) في ظ [فيقاتلون].
(٦) قال في كشف الخفا (١/٤٧٢): لم أر من ذكر أنه حديث أولاً فليراجع، لكن معناه صحيح، وفي أحاديث ما يشهد لذلك كحديث «الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» ويشهد له ما رواه القضاعي عن جابر ـ كما في الجامع الصغير ـ بلفظ «خير الناس أنفعهم للناس».
(٧) أخرجه الترمذي (٤/٤٧٦) كتاب الشهادات (٢٣٠٢). بلفظ «خير الناس قرني»..
(٨) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٦٧.
(٩) في ظ [اليوم].

ليس لهم شوكة ولا قوة القتال في موضع من المواضع، ويقال: «وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأَدْبَار» يعني: إن خرجوا إلى قتالكم وأرادوا قتالكم يولون الأدبار، أي ينهزمون منكم. ويقال: يُوَلُّوكم الأَدْبَار يعني منهزمين. «ثم لا يُنْصَرُون» يقول: لا يُمْنَعون منكم وهو قول الكلبي.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

ثم قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ يقول: جُعِلَت عليهم الجزية ويقال: أُلْزِم عليهم القتال ﴿أَيْنما ثُقِفُوا﴾ أي وُجِدوا ﴿إلا بحبل من الله﴾ أي بعهد من الله ﴿وحبل من الناس﴾ يعني تحت قوم يؤدون إليهم الجزية، فإن لم يكن لهم عهد قتلوا ﴿وباؤا بغضب من الله﴾ يقول: استوجبوا الغضب من الله تعالى. ويقال: رجعوا بغضب من الله ﴿وضربت عليهم المسكنة﴾ يعني جعل عليهم زي الفقر قال الكلبي: فترى الرجل منهم غنياً وعليه من البؤس (والفقر)[1] والمسكنة. ويقال: إنهم يظهرون من أنفسهم الفقر، لكيلا تضاعف عليهم الجزية ﴿ذلك﴾ الذي يصيبهم ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ يعني رضوا بما فعل آباؤهم، فكأنهم قتلوهم ﴿ذلك﴾ الغضب ﴿بما عَصَوْا﴾ الله ﴿وكانوا يعتدون﴾. بأفعالهم (كلما)[2] ذكر الله عقوبة قوم في كتابه (بين)[3] المعنى الذي يعاقبهم لذلك، لكيلا يظن أحد أنه عذَّبهم بغير جُرْم.

ثم بيَّن فضيلة من آمن من أهل الكتاب، على من لم يؤمن فقال تعالى: ﴿لَيْسوا سواء﴾ قال بعضهم: هذا معطوف على الأول «منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون» ليسوا سواء في الثواب، فيكون هاهنا وقف. وقال بعضهم: هذا ابتداء ويكون فيه مضمر فكأنه يقول: ليس من آمن منهم، ويتلون آيات الله كمن هو كافر. كقوله تعالى: «أَمَّنْ هُوَ قَانِت آناء الليل سَاجِداً وقائماً» معناه ليس كالذي هو من أهل النار، فكذلك هاهنا. قال: ليس من آمن ﴿من أهل الكتاب﴾ كمن لم يؤمن، فبين الذين آمنوا فقال: من أهل الكتاب ﴿أمة قائمة﴾ يعني مُهَذَّبة عاملة بكتاب الله تعالى. ويقال: مستقيمة. وروى الزجاج عن الأخفش قال[4]: ذو أمة قائمة، يعني ذو طريقة قائمة ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن في الصلاة ﴿آناء الليل﴾ يعني في ساعات الليل ﴿وهم يسجدون﴾ أي يصلون لله. قوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني يقرون بالله وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ويأمرون بالمعروف﴾ أي باتباعه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي عن الشرك ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي يبادرون إلى الطاعات والأعمال الصالحة ﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي مع الصالحين، وهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الجنة.

﴿وما يَفْعَلوا من خير فلن يكفروه﴾ يعني لن تجحدوه ولن تنسوه، يقول: تجزون به، وتثابون عليه في

(١) سقط في ظ. (٢) في أ [فكما]. (٣) في أ [فبين]. (٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٦٩.

الآخرة. وهذا كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال[١]: البرُّ لا يَبْلَى والإثم لا يُنسى. ثم قال تعالى: ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي عليم بثوابهم وهم مؤمنو أهل الكتاب، ومن كان بمثل حالهم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص. «وما يَفْعَلوا من خير فلن يُكْفروه» كلاهما بالياء، والباقون كلاهما بالتاء على معنى المخاطبة[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُم﴾. قال مقاتل: ذكر قبل هذا مؤمني أهل الكتاب، ثم ذكر كفار أهل الكتاب. وهو قوله: «إن الذين كفروا...». وأما الكلبي، فقال: هذا ابتداء. «إن الذين كفروا» لن تغني عنهم كثرة ﴿أموالهم ولا﴾ كثرة ﴿أولادهم من﴾ عذاب ﴿الله شيئاً﴾. وقال الضحاك: يعني اليهود والنصارى وجميع الكفار، وكل من خالف دين الإسلام، وذلك أنهم تفاخروا بالأموال والأولاد، وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين. فأخبر الله تعالى: أن أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم من عذاب الله شيئاً. ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا﴾. قال الكلبي: يعني ما ينفقون في غير طاعة الله ﴿كمثل ريح فيها صر﴾ أي برد شديد ﴿أصابت﴾ الريح الباردة ﴿حرث قوم ظلموا أنفسهم﴾ بمنع حق الله تعالى منه. ﴿فأهلكته﴾ يقول: أحرقته فلم ينتفعوا منه بشيء، فكذلك نفقة من أنفق في غير طاعة الله، لا (تنفعه)[٣] في الآخرة، كما لا ينفع هذا الزرع في الدنيا. وقال مقاتل يعني نفقة السفلة على رؤساء اليهود. وقال الضحاك: مثل نفقة الكفار من أموالهم في أعيادهم، وعلى أضيافهم وما يعطي بعضهم بعضاً على الضلالة كمثل ريح» الآية. ثم قال: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ يعني أصحاب الزرع هم ظلموا أنفسهم بمنع حق الله تعالى، فكذلك الكفار، أبطلوا ثواب أعمالهم بالشرك بالله تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً من دُونكم﴾ يعني خلّة وصداقة من غير أهل دينكم. وإنما

---

(١) هذا جزء من حديث ذكره السيوطي في الجامع كذا في الفتح ١/١٩، وعزاه لعبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلاً بلفظ «البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان».

(٢) راجع: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٧٠، وكنز المعاني ٣٢٠.

(٣) في أ [لا تنفع].

سميت بطانةً لقربها من البدن «من دونكم» أي من دون المؤمنين. نزلت الآية في شأن جماعة من الأنصار كانت بينهم وبين اليهود مواصلة وخاصية وكانوا على ذلك بعد الإسلام، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك. ويقال: كل من كان على خلاف مذهبه ودينه لا ينبغي له أن يحادثه لأنه يقال في المثل(١):

عن المَرْءِ لَا تَسْأَلْ [وَأَبْصِرْ](٢) قرينه [فإنَّ القَرِينَ](٣) بالمقارن يَقْتَدِي

وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال(٤): المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من [يخالل](٥). وروي عن [ابن مسعود](٦) أنه قال(٧): اعتبروا الناس بأَخْدَانهم. ثم بين الله المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُم خَبَالًا﴾ أي: فساداً، يعني لا يتركون الجهد في فسادكم، يعني أنهم لا يتركون وإن لم يقاتلوكم في الظاهر، فإنهم لا يتركون جهدهم في المكر والخديعة ﴿وَدُّوا ما عَنِتُّم﴾ ما أَثِمْتُم بربكم. وقال الزّجاج(٨): الخَبَالُ في اللغة، ذِهَابُ الشيء، والعَنَتُ في الأصل: المشقة. وقال القتبي: الخَبَال: الفساد، وقال أيضاً «وَدُّوا ما عنتم» أي ما (أعنتكم)(٩)، وهو ما نزل بكم [من مكروه](١٠). ثم قال:﴿قد بَدَتِ البَغْضَاءُ﴾ أي ظهرت العداوة والتكذيب لكم ﴿من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر﴾ أي والذي في صدورهم من العداوة «أكثر» مما أظهروا بأفواههم. ويقال: «وَمَا تُخْفِي صُدُورهم أكبر» أي قصدهم قتل محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنهم كانوا يضمرون ذلك ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ يعني: أخبرناكم بما أخفوا، وبما أبدوا بالدلالات والعلامات ﴿إن كنتم تَعْقِلون﴾ وتصدقون. ﴿ها أنتم أولاء﴾ «يعني ها أنتم يا هؤلاء ﴿تُحِبُّونَهُم﴾ لمظاهرتكم إياهم، ﴿ولا يُحِبُّونكم﴾ لأنهم ليسوا على دينكم، وقال الضحاك: معناه كيف تحبون الكفار، وهم لا يحبونكم ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ يعني بالتوراة والإنجيل وسائر الكتب، ولا يؤمنون بذلك كله وقد فضلكم الله عليهم بذلك، لأنهم لا يؤمنون إلا بكتابهم،﴿وإذا لقوكم﴾ يعني المنافقين منهم(١١) ﴿قالوا آمنا﴾ بمحمد - صلى الله عليه وسلم - إنه رسول الله(١٢) ﴿وإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُوا عليكم الأنامل﴾ يعني أطراف الأصابع ﴿من الغيظ﴾ والحنق عليكم، فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء قد ظهروا وكثروا. قال الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿مُوتُوا بِغَيْظِكم﴾ يقول: موتوا بحنقكم، على وجه الدعاء والطرد واللعن، لا على وجه الأمر والإيجاب، لأنه لو كان على وجه الإيجاب لماتوا من ساعتهم. كما قال في موضع آخر: «فقال لهم

---

(١) القائل هو طَرَفة بن العبد البكري أصغر أصحاب المعلقات السبع سِنًّا، يقال له «ابن العشرين». والبيت آخر أبيات معلقته في إحدى رواياتها. قال التبريزي: وقيل إنه «لعدي بن زيد». أنظر/ شرح القصائد العشر للتبريزي ص (٢٠٠).

(٢) في أ [وسل عن].

(٣) في أ [فكل قرين] والتصحيح من شرح المعلقات للتبريزي.

(٤) أخرجه الترمذي (٤/٥٠٩) (٢٣٧٨) كتاب الزهد وأبو داود (٤/٢٥٩) كتاب الأدب/ باب من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٣) وأحمد في المسند (٢/٣٠٣) والحاكم في المستدرك (٤/١٧١).

(٥) في أ [يخالط]. (٦) في ظ [ابن عباس].

(٧) ذكر السيوطي - كذا في الفتح - نحوه من حديث ابن مسعود مرفوعاً وعزاه لابن عدي في الكامل وموقوفاً للبيهقي في الشعب بلفظ «اعتبروا الأرض بأسمائها واعتبروا الصاحب بالصحاب» ورمز له بالضعف. وقال المناوي: قال بعضهم: طرقه كلها ضعيفة لكن له شواهد كخبر الطبراني «اعتبروا الناس بإخوانهم». فيض القدير (١/٥٥٢ - ٥٥٣).

(٨) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٧٣. وقال ابن الأعرابي: «لا يألونكم خبالاً»: أي لا يقصرون في فسادكم (اللسان: خبل).

(٩) في ظ [اعنفتم]. (١٠) في ظ [من كل مكروه]. (١١) زيادة في ظ. (١٢) زيادة من ظ.

اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا من ساعتهم [فهاهنا لم يرد به الإيجاب][1]. وقال الضحاك: «قل موتوا بغيظكم» يعني أنكم تخرجون من الدنيا بهذه الحسرة والغيظ، يعني اللفظ لفظ الأمر، والمراد به الخبر يعني أنكم تموتون بغيظكم ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني بما في قلوبكم من العداوة للمؤمنين، إن الله يجازيكم بذلك.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

[ثم قال للمؤمنين][2] ﴿إن تمسسكم حسنة﴾ يعني الظفر والغنيمة كما أصابكم يوم بدر ﴿تسؤهم﴾ أي يسوؤهم ﴿وإن تُصِبْكُم سيئة﴾ يعني الهزيمة، كما أصابكم يوم أحد، ويقال: الشدة في العيش والقحط. ﴿يفرحوا بها وإن تصبروا﴾ على أذى المنافقين واليهود﴿وتتقوا﴾ المعصية [والشرك][3] وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: وإن تصبروا على أمر الله وتتقوا معاصيه. ﴿لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ يقول: لا تضركم عداوتهم شيئاً. قرأ ابن كثير ونافع. وأبو عمرو «لَا يَضِرْكُم» بكسر الضاد وجزم الراء وقرأ الباقون: بضم الضاد وتشديد الراء: ومعناهما قريب في التفسير[4]. يعني لا ضير عليكم من كيدهم. ﴿إنَّ اللَّهَ بِمَا يَعملون محيط﴾ يعني أحاط علمه بأعمالهم، والإحاطة هي إدراك الشيء بكماله.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿وإذ غَدَوْتَ من أَهْلك﴾ يعني خرجت من منزلك بالصباح، ويقال: من عند أهلك، وهي عائشة ـ رضي الله عنها ـ ﴿تُبَوِّىءُ المؤمنين﴾ يعني تهيىء للمؤمنين ﴿مقاعد للقتال﴾ يعني مواضع للحرب، قال الكلبي: هو يوم أحد. وقال مقاتل: هو يوم الخندق. ﴿والله سميع﴾ لدعائك ﴿عليم﴾ بأمر الكفار. ﴿إذْ هَمَّت طائفتان منكم﴾ يعني أرادت وأضمرت طائفتان من المسلمين، وهما حيا بني حارثة وبني سلمة من الأنصار ﴿أن تفشلاَ﴾ يعني أن تَجْبُنَا عن القتال ـ مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترجعا. ﴿والله وليهما﴾ أي ناصرهما (وحافظهما)[5]، حيث لم يرجعا، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج من المدينة يوم أحد، ومعه ألف رجل فرجع، عبد الله بن أبي بن سلول مع ثلاثمائة من المنافقين ومن تابعهم فدخل الفشل في قبيلتين من الأنصار وهم المؤمنون، فأرادوا أن يرجعوا، فحفظ الله تعالى قلوبهم فلم يرجعوا، فذلك قوله «والله وليُّهما» أي حافظ قلوبهما. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكل المؤمنون﴾. يعني على المؤمنين أن يتوكلوا على الله، وهذه كلها مِنَنٌ ذكرها الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليعرف ويشكر الله تعالى، ويصبر على ما يصيبه من الأذى.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ

---

(١) زيادة من ظ.
(٢) زيادة من ظ.
(٣) زيادة من ظ.
(٤) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١٧٧ وكنز المعاني ص ١٣٢.
(٥) في ظ [وحافظ قلوبهما].

أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

ثم ذكَّرهم أمر بَدْر فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أي أعانكم الله ببدر ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ يعني قليلة. ﴿فاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اعرفوا هذه النعمة، واتقوا الله ولا تعصوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا الله. ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني يوم أحد. ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُم أَنْ يُمِدَّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ منزلين﴾ من السماء. يقول الله تعالى: ﴿بلى إن تَصْبِرُوا﴾ مع نبيكم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معصيته بالهزيمة ﴿وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِم هَذَا﴾ يعني العدو يأتوكم من وجوههم ﴿يُمْدِدْكُم رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ من الملائكة مُسَوِّمين﴾ يعني مُعلمين بالصوف الأبيض في نواصي الخيل، وفي أذنابها، عليهم البياض، قد أَرْخَوْا أطراف العمائم بين أكتافهم، فأنزل الله تعالى عليهم يوم بدر ثلاثة آلاف ووعد لهم يوم أحد خمسة آلاف، ولكنهم لما عصوا وتركوا أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجعوا عنهم، ولو أنهم صبروا لنزلت عليهم(١). قرأ عاصم وابن كثير وأبو عمرو «مسوِّمين» بكسر الواو، والباقون بالنصب ومعناهم قريب، وهو إرخاء أطراف العمائم بين الأكتاف(٢) وهذا كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال يوم بدر تسوَّموا فإن الملائكة قد تسومت(٣).

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ يعني المدد من الملائكة. قال بعضهم: إن الملائكة لم تقاتل، وإنما بعثهم للبشارة، وتسكين قلوب المؤمنين، لأن في قتال الملائكة، لم يكن للمؤمنين فضيلة، وإنما كانت الفضيلة للمؤمنين إذا كانوا هم الذين يقاتلون، ويهزمون الكفار، ولو كان ذلك لأجل الإعانة، لكان ملك واحد يكفيهم، كما فعل بقوم لوط ـ ألا ترى أنه قال تعالى: «وَيُقَلِّلُكُم في أعينهم» فجعل الفضيلة في قلتهم في أعين الكفار، ونصرتهم بالغلبة، وهذا معنى قوله تعالى: «وما جَعَلَه اللَّهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُم» ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ به﴾ يعني (تطمئن)(٤) إليه قلوبكم. وقال بعضهم: إن الملائكة كانوا يقاتلون [وكانت](٥) علامة ضربهم في الكفار ظاهرة، لأن كل موضع أصابت ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع حتى إن أبا جهل قال لابن مسعود: أنت ما قتلتني إنما قتلني الذي لم [يصل](٦) سناني إلى سنْبك فرسه، وإن اجتهدت». وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة، لتسكن قلوب المؤمنين، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة، وكل عسكر من المسلمين صبروا واحتسبوا تأتيهم تلك الملائكة ويقاتلون معهم. ويقال: الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون

---

(١) أنظر: تفسير الطبري ١٨٦/٧ وما بعدها.

(٢) من قرأ بالكسر على إسم الفاعل بمعنى سَوَّمُوا أَنْفُسَهم: أي جعلوا لها علامة يعرفون بها. ومن قرأ بالفتح على اسم المفعول كان الله تعالى سَوَّمهم من السومة وهي العلامة. كنز المعاني ٣٢١، ٣٢٢، حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٣، ١٧٤.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٨٦/٧ (١٧٧٦) من حديث «عسير بن إسحاق القرشي» أبو محمد مولى بني هاشم روي عن المقدار بن الأسود وعمرو بن العاص وأبي هريرة وكان قليل الحديث. وقال أبو حاتم والنسائي «لا نعلم أحداً روي عنه غير ابن عون» قال ابن معين «ثقة» وقال أيضاً: «لا يساوي حديثه شيئاً ولكن يكتب حديثه وهذا الحديث مرسل، وعن رجل: يكتب حديثه ولا يحتج به.

(٤) في ظ [لتسكن]. (٥) في أ [وكان]. (٦) في أ [تصل].

ويسبحون، وثواب ذلك للذين يقاتلون يومئذ، وسنذكر قصة بدر في سورة الأنفال إن شاء الله تعالى. ثم قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يعني ليس بكثرة العدد ولا بقلته، ولكن النصر من الله تعالى كما قال في آية أخرى: «إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً».

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

ثم قال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أرسل الملائكة، ونصر المؤمنين لكي يقطع طرفاً، أي يستأصل جماعة من الذين كفروا ﴿أو يكبتهم﴾ قال الكلبي: أي يهزمهم. وقال مقاتل: يعني: يخزيهم، كقوله «كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ»، ويقال: يقنطهم. ﴿فينقلبوا﴾ إلى مكة ﴿خائبين﴾ لم يصيبوا ظفراً ولا خيراً، وقد قتل منهم [سبعون][1]، وأسر منهم [سبعون][2] ويقال: معناه، وما جعله الله إلا بُشْرَى لكم ولتطمئن قلوبكم به وليقطع طرفاً من الذين كفروا ثم قال عز وجل: «ليس لك من الأمر شيء». روي جويبر عن الضحاك قال: لما كان يوم أحد، كسرت رباعية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وادمي ساقه، (وقتل)[3] سبعون رجلاً من الصحابة فَهَمَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو على المشركين، فأنزل الله تعالى «لَيْسَ لَكَ من الأَمر شَيْءٌ» أي: ليس لك من الحكم شيء «أو يتوب عليهم» يعني كفار قريش يهديهم إلى الإسلام. وقال الكلبي: فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلعن الذين انهزموا من الصحابة يوم أحد، فنزل ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، يعني الذين انهزموا ﴿أو يُعَذِّبهم فإنهم ظالمون﴾ قال: فلما نزلت هذه الآية كف ولم يلعن المشركين، ولا الذين انهزموا من الصحابة، لعلم الله فيهم: أنهم سيتوبون، وأن المشركين سيؤمن كثير منهم وقد آمن كثير منهم فمنهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم. قال مقاتل: وكان سبعون رجلاً من أصحاب الصُّفَّة خرجوا إلى الغزو محتسبين، فقتل السبعون جميعاً فشق ذلك على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا الله عليهم أربعين يوماً في صلاة الغداة فنزل قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء» ويقال: معنى قوله: أو يتوب عليهم. أو يعذبهم إن لم يكونوا من أهل التوبة.

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

ثم عظم نفسه فقال تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني أن جميع الخلق في ملكه، وعبيده. ﴿يغفر لمن يشاء﴾ وقال الضحاك: يغفر لمن يشاء الذنب (العظيم)[4] ﴿ويعذب من يشاء﴾ على الذنب الصغير، إذا أصر على ذلك ﴿واللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. في تأخير العذاب [عنهم حيث][5] لم يعاقبهم (قبل)[6] توبتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تأكلوا الربا أَضْعَافاً مضاعفة﴾ قال الزَّجاج[7]: يعني لا تضاعفوا أموالكم بالربا. وقال

---

(١) في أ [سبعين]. (٢) في أ [سبعين]. (٣) في ظ [وقتلوا]. (٤) في ظ [الكبير].
(٥) في أ [و]. (٦) في ظ [وقيل توبتهم]. (٧) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨١.

القتبي: هو ما يضاعف منها شيء بعد شيء. ويقال: أضعافاً مضاعفة عند البيع، (ببيعه)[١] بأكثر من قيمته مضاعفة بعد العقد، أن يزيده في الأجل ويزيد في المال. ويقال: المضاعفة: هي نعت الأضعاف، كما قال تعالى: «حَلالاً طيباً» والطيب: هو نعت الحلال. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في الربا فلا تستحلوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تنجوا من العذاب. ثم خوّفهم فقال: ﴿واتَّقُوا النَّارَ التي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني خُلقت وهيئت للكافرين. وقالت المعتزلة: من أتى بالكبيرة ومات عليها، فإنه يخلد في النار (كالكافر، فإنه)[٢] وعد لأكل الربا النار كما وعد الكفار وقال أكثر أهل العلم والتفسير: هذا الوعيد لمن استحل الربا ومن استحل الربا فإنه يكفر ويصير إلى النار، ويقال: معناه: اتقوا العمل الذي ينزع منكم الإيمان فتستوجبوا النار، لأن من الذنوب ما يستوجب به نزع الإيمان، ويخاف عليه، فمن ذلك عقوق الوالدين. وقد جاء في ذلك أثر: أن رجلاً كان عاقاً لوالدته يقال له علقمة فقيل له عند الموت قل: لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى (جاءت)[٣] أمه فرضيت [منه][٤] ومن ذلك قطيعة الرحم، وأكل الربا، والخيانة في الأمانة. وذكر أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة أنه قال: (أكبر)[٥] ما في الذنوب (الذي ينزع)[٦] الإيمان من العبد عند الموت، ثم قال أبو بكر: (فنظرنا)[٧] في الذنوب التي تنزع الإيمان من العبد، فلم نجد شيئاً أسرع نزعاً للإيمان من ظلم العباد.

وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا الله في الفرائض والرسول في السنن، ويقال وأطيعوا الله في تحريم الربا والرسول فيما بلغكم من التحريم ﴿لعلكم تُرْحَمُون﴾ ولا تُعَذَّبُونَ ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم﴾. قرأ نافع ومن تابعه من أهل المدينة، وابن عامر ومن تابعه من أهل الشام «سارعوا» بغير الواو على معنى الابتداء، وقرأ الباقون (بالواو)[٨] على معنى العطف[٩]، قال الكلبي: معناه وسارعوا إلى التوبة من الربا. وقال مقاتل: وسارعوا بالأعمال الصالحة التي هي مغفرة لذنوبكم وإلى الجنة. وقال الضحاك: يعني سارعوا إلى (النجاء)[١٠] الأكبر إلى الصف المقدم [في الصلاة][١١]، وإلى [الصف المقدم في][١٢] القتال، ويقال: وسارعوا حتى لا تفوتكم تكبيرة الافتتاح ثم قال تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾، قال القتبي: أي سعتها، ولم يرد به العَرْض الذي هو خلاف الطول، والعرب تقول: بلاد عريضة أي واسعة. ويقال: عَرْضُ الجنة كعرض سبع سماوات، وكعرض سبع أرضين، لو ألزق بعضها إلى بعض، وإنما ذكر العرض ولم يذكر الطول، لأن طولها لا يعرف ولا يدرك. وقال الكلبي: الجنان (أربع)[١٣]: جنة عدن وهي الدرجة العليا، وجنة المأوى، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، كل جنة منها كعرض السموات والأرض لو وصل بعضها إلى بعض. ويقال: لم يرد بهذا التقدير، ولكنه أراد بذلك أنها أوسع شيء رأيتموه، وقال السدي[١٤]: لو كسرت السموات وصرن خردلاً فبكل خردلة لله جنة

(١) في أ [بيعه]. (٢) في ظ [كالكفار لأنه]. (٣) في أ [جاءته]. (٤) في أ [عليه].
(٥) في ظ [أكثر]. (٦) في ظ [التي تنزع]. (٧) في أ [فنظر]. (٨) في ظ [وسارعوا].
(٩) راجع: كنز المعاني ٣٢٢، وحجة القراءات لابن زنجلة ١٧٤. (١٠) زيادة من ظ. (١١) سقط من ظ.
(١٢) في أ [صف]. (١٣) في ظ [أربعة].
(١٤) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي الكبير أبو محمد القرشي. تهذيب التهذيب ٣١٣/١.

عرضها كعرض السموات والأرض. حدثنا محمد بن داود، قال: حدثنا (محمد)[١] بن يحيى قال: حدثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا يعقوب[٢] عن أبي حازم[٣]قال: أخبرني سهل بن سعد[٤]، قال: إن أدنى أهل الجنة، يقال له تَمَنَّ، فيقول: أعطني كذا، [أعطني كذا][٥] حتى إذا لم يجد شيئاً يتمنى لُقِّن، فيقال لـه تَمَنَّ، قل كـذا (قل كذا)[٦]، فيقول: فيقال له (هو)[٧] لك (ولك)[٨] مثله معه وفي رواية أبي سعيد الخدري[٩]: لك هذا وعشرة أمثاله معه. ثم قال تعالى: ﴿أُعِدَّت للمتقين﴾ يعني الجنة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

ثم نَعَت المتقين فقال ﴿الَّذِينَ يُنفقُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ﴾ إلخ الآية، [نعت للمتقين، ويقال: إن كل نعت من ذلك هو نعت على حدة، فكأنه يقول: أعدت للمتقين الذين ينفقون من السراء... إلخ][١٠]. قوله: «في السَّرَّاء والضَّرَّاءِ» أي ينفقون أموالهم في حال اليسر وفي حال العسر وهذا قول الكلبي وقال مقاتل والضحاك: في حال السعة والشدة. ويقال في حال الصحة والمرض، ويقال: «في السراء» يعني في حال الحياة، «وفي الضراء» يعني[١١] بعد الموت ويقال: في سراء المسلمين في عرسهم وولائمهم، «والضراء» في نوائبهم ومآتمهم، ويقال: «في السَّرَّاءِ» يعني النفقة التي تسركم، مثل النفقة التي على الأولاد والأقربين، «والضراء» النفقة على الأعـداء والكاشحين ويقال: «في السراء» يعني: على الأنبياء يضيفهم، ويهدي إليهم «والضَّرَّاء» يعني على أهل الضر، يتصدق عليهم. ﴿والكاظمين الغيظ﴾ يعني (المرددين)[١٢] الغيظ في أجوافهم وأصله في اللغة: كظم البعير إذا رَدَّد جِرَّتَه[١٣]، ومعناه الذين إذا أصابهم الغيظ تجاوزوا ولم يعاقبوا. ﴿والعافين عن الناس﴾ قال الكلبي: يعني عن المملوكين ويقال: «والعافين عن الناس» بعد قدرتهم عليهم، فيعفوا عنهم. ﴿والله يُحِبُّ المحسنين﴾ من الأحرار والمملوكين، ويقال: الذين يحسنون بعد العفو ويزيدون عليه إحساناً. وروي عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه، ثم لم ينفذه، زوجه الله من الحور العين حيث يشاء[١٤]،

---

(١) في أ [أحمد والصحيح]: محمد وهو: محمد بن يحيى بن عبد الله الأهلي أبو عبد الله النيسابوري. التهذيب ٩/٥١١.

(٢) هو: يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المدني حليف بني زهرة سكن الإسكندرية وثقة ابن معين وأحمد وذكره ابن حبان في الثقات. التهذيب ١١/٣٩١ ـ ٣٩٢.

(٣) سلمة بن دينار أبو حازم الأعرج ثقة. التهذيب ٤/١٤٣ ـ ١٤٤.

(٤) سهل بن سعد بن مالك الأنصاري الساعدي من مشاهير الصحابة يقال كان إسمه «حزنا» فغيره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكاه ابن حبان. الإصابة ٣/١٤٠.

(٥) زيادة من ظ. (٦) في أ [أو كذا]. (٧) سقط في ظ.

(٨) في ظ [ذلك].

(٩) أخرجه مسلم في الصحيح ١/١٧٥ في كتاب الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٣١١/١٨٨).

(١٠) سقط في أ. (١١) في ظ [زيادة: يعصي]. (١٢) في أ [المترددين].

(١٣) انظر اللسان (كظم) وفيه: والأصل في الكظم: الإمساك على غيظ وغم، والجرة: ما تخرجه من كروشها فتجتر.

(١٤) أخرجه أحمد في المسند٣/٤٤٠ وأخرجه أبو داود في السنن ٤/٢٤٨ في الأدب/ باب من كظم غيظا (٤٧٧٧) وأخرجه الترمذي ٤/٣٢٦ ـ ٣٢٧ في كتاب البر والصلة/ باب في كظم الغيظ (٢٠٢١) وأخرجه ابن ماجه ٢/١٤٠٠ في كتاب الزهد (٤١٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٦١.

وفي خبر آخر عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: ما عَفَى رجلٌ عن مَظْلَمة قط إلا زاده الله بها عزًا(١).

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين إذا فَعَلُوا فاحشة﴾ نزلت في شأن رجل تَمَّار، جاءت امرأة تشتري منه تمراً، فأدخلها في [حانوته](٢) وقبلها ثم ندم على ذلك، فنزلت هذه الآية ويقال نزلت هذه الآية في رجل مَسّ امرأة أخيه في الله وكان أخوه خرج غازياً ثم ندم وتاب. ويقال: إنها نزلت في شأن بهلول النباش(٣) تاب عن صنيعه فنزلت هذه الآية، فقال تعالى: «والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً» يعني الزِّنا ﴿أو ظَلَموا أنفسهم﴾ يعني القُبْلَة (واللمس)(٤). ويقال: الفاحشة: كل فعل يستوجب به الحد في الدنيا «أو ظَلَمُوا أنفسهم» ما دون ذلك. ويقال: الفاحشة: ما استوجب به النار «أو ظلموا أنفسهم» ما استوجب به الحساب والحبس. وقال إبراهيم النخعي: الظلم ها هنا تفسير الفاحشة(٥)، فكأنه يقول: «والذين إذا فعلوا فاحشة وظلموا أنفسهم». ﴿ذَكَروا الله﴾ أي خافوا الله، ويقال: ذكروا مقامهم بين يدي الله، ويقال: ذكروا عذاب الله ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ يعني الاستغفار باللسان، والندامة بالقلب. ويقال: الاستغفار باللسان بغير ندامة (القلب)(٦) توبة الكذابين. وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار الكثير. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاّ اللَّهُ﴾ يعني لا يغفر الذنوب إلا الله. ﴿ولم يُصِرُّوا على مَا فَعَلُوا﴾ يعني لم يقيموا على ما فعلوا من المعصية. ﴿وهم يَعْلَمُونَ﴾ أنها معصية فلا يرجعون. ويقال: في الآية تقديم وتأخير فكأنه يقول: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله. ﴿أولئك﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿جزاؤهم﴾ يعني ثوابهم ﴿مَغْفِرَةٌ مِن رَبِهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنعم أَجْر الْعَامِلِين﴾ يعني نعم ثواب العاملين الجنة، وهو قول الكلبي. وقال مقاتل: نعم ثواب التائبين من الذنوب الجنة ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾ أي قد مضت لكل أمة سنة ومنهاج فإذا اتبعوها رضي الله عنهم. قال الكلبي: قد مضت سنة بالهلاك فيمن كان قبلكم، فانظروا: أي فاعتبروا كيف كان جزاء المكذبين. وقال مقاتل: نحو هذا، وقال: يخوف الله هذه الأمة بمثل عذاب الأمم (السابقة)(٧). وقال السدي: ﴿فَسِيرُوا في الأَرْضِ﴾ أي اقرءوا القرآن ﴿فانظروا كيف كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، لأن من لم يسافر، فإنه لا يعرف ذلك. وأما من قرأ القرآن فإنه يعرف ذلك. وقال الحسن: اقرأوا القرآن وتدبروا فيه، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

(١) أخرجه أحمد في السند ٢/٤٣٨. (٢) في ظ [الحانوت].

(٣) بهلول بن دويب النباش جاء ذكره في حديث لم يثبت. الإصابة ١/١٧٣.

(٤) في أ [والمس].

(٥) أخرجه ابن جرير في التفسير ٧/٢١٨ (٧٨٤٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/٧٧ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) في أ [للقلب]. (٧) في أ [الخالية].

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

[ثم قال][1]: ﴿هذا بيان للناس﴾ يعني القرآن بيان للناس من الضلالة ﴿وهُدًى﴾ من العمى ﴿وَمُوعِظَةٌ﴾ من الجهل، ويقال: هدى وموعظة أي كرامة ورحمة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا، ولا تجبنوا، ويقال: ولا تَعْجزوا عن عدوكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما أصابكم من القتل والهزيمة يوم أحد ﴿وأنتم الأَعْلَوْن﴾ يعني الغالبون، يقول: آخر الأمر لكم، ويقال: وأنتم الأَعْلون في الجنة. ويقال: هذا وعد لأصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المستأنف «وأنتم الأَعْلون» أي الغالبون على الأعداء بعد أحد فلم يخرجوا بعد ذلك في عسكر إلا ظفروا في عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي كل عسكر كان بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا كان فيه واحد من الصحابة، كان الظفر لهم، فهذه البلدان كلها إنما فتحت في عهد أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم بعد انقراضهم ما فتحت بلدة على الوجه، كما كانوا يفتحون في ذلك الوقت. ويقال: في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة، لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ «إنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى». وقال لهذه الأمة: «وأنتم الأَعْلَوْن». ويقال: اشتُقَّت هذه اللفظة من اسم الله تعالى، لأن اسمه العلي الأعلى، وقال للمؤمنين: «وأنتم الأَعْلَون» ﴿إنْ كُنْتُم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدقين بوعد الله، ويقال: معناه: إذ كنتم مؤمنين. ويقال: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: ولا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين وأنتم الأعلون، ويقال: إن هذا وعد لهم بأنهم غالبون إن ثبتوا وصدقوا، فلو أنهم ثبتوا وصدقوا لغَلَبُوا كما غَلبوا يوم بدر، ولكنهم تركوا أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجع الأمر عليهم، وكانت القصة في ذلك أنهم لما غَلَبوا المشركين يوم بدر وأصابوا منهم ما أصابوا، وسنذكر قصة بدر في سورة الأنفال ـ إن شاء الله تعالى ـ فرجع أبو سفيان بن حرب إلى مكة بالعير. وانهزم المشركون وذهب عكرمة بن أبي جهل، ورجال (أُصِيب)[2] أبناؤهم وآباؤهم وإخوانهم ببدر إلى أبي سفيان بن حرب، وهو رئيس مكة، فكلموه، وأتاه كل من كان له في ذلك العير مال. فقالوا: إن محمداً قد قتل خياركم [فاستعينوا بهذه الأموال][3] على حربه ففعلوا. قال الضحاك: (فأعانهم)[4] أبو سفيان بمائة راحلة، وما يصلحها من الزاد والسلاح، (فسارت)[5] قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، وعليهم «أبو سفيان بن حرب»، وكان في القوم «خالد بن الوليد» و «عمرو بن العاص»، و «عكرمة بن أبي جهل»، وذلك قبل دخولهم في الإسلام فلم يبق أحد من قريش إلا وخرج أهله معه وولده، يجعلهم خلف ظهره ليقاتل عنهم، فلما سمع (معهم)[6] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب الناس وقال في خطبته: إني رأيت فيما يرى النائم كأن في سيفي ثلمة فأولتها مصيبة في نفسي، ورأيت بقوراً قد ذبحت فأولتها قتلى في أصحابي، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتُها المدينة، فأشيروا عليَّ، وكره الخروج إليهم، فكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن لا يخرج إليهم، ولكنه كان منافقاً، فقال يا رسول الله، لا تخرج إليهم فإنا ما خرجنا إلى عدوٍّ قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصبنا منه فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة [وغيرهم ممن فاتته

---

(١) زيادة من ظ.
(٢) في أ [أصيبت].
(٣) في ظ [فاعينو بهذا المال].
(٤) في ظ [قد أعانهم].
(٥) في أ [فسافرت].
(٦) في أ [ذلك].

بدر](١): أخرج لهم يا رسول الله، لكي لا يرى أعداء الله أنا قد جَبُنَّا (عنهم)(٢) (وضعفنا عن قتالهم)(٣)، فلم يزالوا به حتى دخل ولبس لأمته، ثم خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم، وقد خرج الناس، [فقالوا: استكرهنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم](٤) فقالوا: يا رسول الله قد استكرهناك، وما كان لنا ذلك فإن شئت فاخرج، وإن شئت فاقعد، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ينبغي للنبي أن يضع سلاحه إذا لبسه حتى يقاتل. فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسار إلى أُحدٍ فانخذل عبد الله بن أبي بن سلول، قال في رواية الكلبي: فرجع معه ثلاثمائة من الناس، وبقي مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو سبعمائة رجل وقال في رواية الضحاك: فانخذل في ستمائة رجل من اليهود، وبقي مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألف رجل من المؤمنين الطيبين، ثم خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزل بالشِّعب من أحد، وأمر عبد الله بن جبير على الرُّماة وقال لهم: لا تَبْرَحوا من هذا الموضع واثبتوا [ههنا](٥) إن كان الأمر علينا أو لنا. وقال في رواية الكلبي: كان الرماةُ خمسين رجلاً، وقال في رواية الضحاك كانوا سبعين رجلاً، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهره إلى أحد، ودنا المشركون وأخذوا في الحرب فقامت هند امرأة أبي سفيان وصواحبتها حين حميت الحرب يضربن بالدُّفوف خلف قريش ويقلن:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ نَمْشِي على النَّمَارِق
إن تُقْبِلُوا نُعَانِقْ أو تُدْبِرُوا نفارق
فِرَاقَ غَيْرَ وَامِقْ

فقاتل أبو دجانة في نفر من المسلمين قتالاً شديداً، وقاتل علي بن أبي طالب حتى (انكسر)(٦) سيفه، وقاتل سعد بن أبي وقاص، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لسعد: إرم فداك أبي وأمي(٧)، فقتلوا جماعة من المشركين، وَصَدَقَهم الله وعده، وأنزل نصره، حتى كانت هزيمة القوم لا شك، فكشفوهم عن عسكرهم قال الزبير: رأيت هنداً وصواحبتها هوارب، فلما نظر الرماة إلى القوم وانهزموا أقبلوا على النهب، فقال لهم عبد الله بن جُبَيْر، لا تَبْرحوا عن هذا الموضع، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عَهِدَ إليكم، فلم يلتفتوا إلى قوله وظنوا أن المشركين قد انهزموا، فبقي عبد الله بن جبير مع ثمانية نفر، فخرج خالد بن الوليد مع خمسين ومائتي فارس من قِبَل الشِّعب، فقتلوا من بقي من الرماة ودخلوا خلف أقفية المسلمين، وتفرق المسلمون، ورجع المشركون وحملوا حملةً واحدة فصار المسلمون ثلاثة أنواع: بعضهم جريح، وبعضهم قتيل، وبعضهم منهزم، وكان مصعب بن عمير يَذُبُّ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قُتِلَ دونه، ثم قاد زياد بن (السكن)(٨) فقاتل بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قُتِل، وخلص الحرب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقذف بالحجارة حتى وقع بشفتيه وأصيبت رباعيَتُه، وكُلِمَتْ شفته، وأدمي ساقه فقال سفيان بن عيينة: لقد أصيب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [نحو](٩) ثلاثين رجلاً كلهم جثوا بين يديه، أو قال كلهم يتقدم بين

---

(١) زيادة من ظ. (٢) في ظ [لهم]. (٣) في ظ [أوضعفنا عنهم].
(٤) زيادة من ظ. (٥) زيادة من ظ. (٦) في ظ [القوي].
(٧) أخرجه البخاري ٣٥٨/٧ في المغازي / باب (١٨) حديث (٤٠٥٩) ومسلم ١٨٧٦/٤ في فضائل الصحابة / باب فضل سعد بن أبي وقاص ـ (٤١/ ٢٤١١) والترمذي في السنن رقم (٣٧٥٥) وابن ماجه (١٢٩، ١٣٠) وأحمد في المسند ١/ ١٢٤، ١٣٧ والطيالسي في المسند كما في المنحة (٢٥٤١) والطبراني في الكبير ١٠٤/١.
(٨) في ظ [سكن]. (٩) زيادة من ظ.

يديه ثم يقول: وجهي لوجهك الوفاء ونفسي لنفسك الفداء وعليك سلام الله غير مودع. فرجع الذي قتل مصعب بن عمير، فظن أنه (قتل)[١] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال للمشركين: قتلت محمداً، فصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قُتل. ويقال: كان ذلك إبليس ـ لعنه الله ـ فولى المسلمون هاربين متحيّرين، وجاء إبليس لعنه الله ونادى بأعلى صوته في المدينة ألا إن محمداً قد قتل، وأَخَذَت النسوة في البكاء في البيوت، فأقبل أَنَس بن النضر، عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رِجَالٍ من المهاجرين والأنصار، فقال: ما يُجْلسكم، قالوا: قتل محمد فقال: ما تصنعون بالحياة بعده، موتوا كراماً على ما مات عليه نبيُّكم، ثم أقبل نحو العدو فقاتل حتى قتل، قال كعب بن مالك، فأول من كنت عرفت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين عرفت عينيه من تحت المغفر تزهران، فناديت بأعلى صوتي، يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأشار إليَّ (أن)[٢] اسكت، وقال أنس بن مالك: قد شج وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم، ويقول: كيف يفلح قوم خَضَّبُوا وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم. ويقال: إن أصحابه لما اجتمعوا قالوا: يا رسول الله لو دعوت الله على هؤلاء الذين صنعوا بك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم أُبْعَثْ طَعَّاناً ولا لَعَّاناً، ولكن بعثت داعياً ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فجاءه أُبَيّ بن خلف الجمحي، فقال: يا محمد لا نَجوتُ إن نجوتَ مني فهم المسلمون بقتله، فقال لهم: دعوه حتى دنا منه، فتناول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحربة من الحارث بن الصمة ورماه بها، فخدشه في عنقه خدشاً غير (كبير)[٣] وقد كان ذلك لقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة، وقال: عندي فرس أعلفه كل يوم فرق ذرة أقتلك عليه، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل أنا أقتلك ـ إن شاء الله ـ فلما خدشه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عنقه رجع إلى قريش وهو يقول: قتلني محمد فقالوا له ما بك من طعن، فقال: بلى لقد قال لي: أنا أقتلك، والله لو (بصق)[٤] علي بعد تلك المقالة لقتلني، فمات قبل أن يصل إلى مكة في (طريقها)[٥] وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقفاً عند أحد وقد اجتمع عليه بعض أصحابه، فعلت عليه فرقة من قريش في الجبل فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينبغي لهم أن يعلونا فأقبل عمر ورهط من المهاجرين فقاتلوهم حتى أهبطوهم من الجبل. وقد كان «جبير بن مطعم» قال لمملوك له يقال له «وحشي»: إن أنت قتلت محمداً جعلت لك أعنة الخيل، وإن أنت قتلت علي بن أبي طالب جعلت لك مائة ناقة، كلها سود الحدقة، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حرٌّ فقال وَحْشي: أما محمد فعليه حافظ من الله تعالى لا يخلص إليه أحد، وأما عَلَيٌّ فما برز إليه رجل إلا قتله، وأما حمزة فرجل شجاع فعسى أن أُصادفه في غِرَّته فاقتله مكانه، وكانت هند كلما مر بها وَحْشي أو مرّت به هند قالت له: إيهاً أبا دسمة إشف واستشف، فكمن وحشي خلف صخرة وكان حمزة حمل على قوم من المشركين، فلما رجع من حملته مر بوحشي وهو خلف الصخرة فزرقه (بمزراق)[٦] فأصابه فسقط فذهبت هند ابنة عتبة والنسوة [اللاتي][٧] معها، يمثلن بالقتلى، يجدعن الآذان والأنوف (وشَقَّت)[٨] هند بطن حمزة وأخذت كبده ومضغته، ثم صعدت هند على صخرة وهي تنادي بأعلى صوتها نَحْنُ جَزَيْنَاكم بيوم بَدْر، وأقبل أبو سفيان وهو (يصرخ)[٩] بأعلى صوته: أعلُ هبل يوماً بيوم بدر فقال النبي ـ عليه السلام ـ لعمر أجبه يا عمر، فأجابه عمر: الله أعلى وأجل لا (سواه)[١٠] قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. ثم ركب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) في ظ [بان].
(٢) زيادة من ظ.
(٣) في ظ [كثير].
(٤) في ظ [بزق].
(٥) في ظ [الطريق].
(٦) في ظ [بالمزراق].
(٧) في أ [التي].
(٨) في أ [فشقت].
(٩) في أ [ينادي].
(١٠) في ظ [لاسواء].

بغلته وظاهر بين (درعيه)[١] وأخرج يده من جيب الدرع، وسَلّ سيفه «ذا الفقار» وباشر (القتال)[٢] بنفسه وحمل على المشركين والتأم إليه المسلمون فأعانوه، وهزم الله جمع المشركين. «وقُتل يومئذ من المسلمين سبعون رجلاً، أربعة نفر من المهاجرين وستة وستون من الأنصار، وقتل يومئذ من المشركين تسعة عشر رجلاً أو أكثر وكثرت القروح في أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعزَّاهم الله تعالى في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي وحمزة «قُرْحٌ» بضم القاف والباقون بالنصب. قال الفراء[٣]: القَرْح والقُرْح واحد، ويقال القَرْح بالنصب مصدر، والقُرح بالضم اسم ويقال القَرْحُ بالنصب: الجراحة، وبالضم: ألم الجراحة، يعني إن أصابكم الجراحات يوم أحد، ﴿فقد مس القوم قرح مثله﴾ يقول: قد أصاب المشركين جراحات مثلها يوم بدر ﴿وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ يقول: يوم لكم ويوم عليكم، وهذا كما يقال في الأمثال: الأيام دُوَل، والحرب سِجَال، ثم بَيّن المعنى الذي تداول مرة لهم ومرة عليهم فقال تعالى: ﴿ولِيَعْلَم اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا﴾ يعني يتبين المؤمن من المنافق أنهم يشكون في دينهم أم لا، لأن المؤمن المخلص يتبين حالُه عند الشدة والبلايا. وهذا كما روي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: إن الذهب والفضة [يختبران][٤]بالنار، والمؤمن يختبر بالبلايا والاختبار من الله تعالى إظهار ما علم منه من قبل فذلك قوله تعالى «وليعلم الله الذين آمنوا» يعني ليبين لهم الله الذي يعلم إيمانه لأنه يعطي الثواب، بما يظهر منه لا بما يعلم منه، وكذلك العقوبة: ألَا ترى أنه عَلِم من إبليس المعصية في [المستقبل][٥] ثم لم يلعنه ما لم يظهر منه. ثم قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ منكم شهداء﴾ يعني لكي يتخذ منكم شهداء وإنما كان لأجل ذلك، لا لأجل حب الكفار ﴿واللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالمين﴾ أي الجاحدين.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

﴿وليمحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا﴾ أي لكي يُطْهر المؤمنين ويكفر ذنوبهم. والتمحيص في اللغة[٦]: الاختبار (والتطهير)[٧]، والله بَيّن أنه يُداول الأيـام بين الناس، لكي يَـظْهر المؤمن من المنـافق، ويكرم بعض المؤمنين بالشهادة لينالوا ثواب الشهداء، وقد ذكر ثوابهم بعد هذا في هذه الصورة، وليكفر ذنوبهم: ﴿وَيَمْحَقَ الكافرين﴾ أي يهلكهم ويستأصلهم لأنهم يجترؤون فيخرجون مرة أخرى فيستأصلهم. ﴿أم حَسِبْتُم أَنْ تَدْخُلوا الْجَنَّة﴾، قال مقاتل: بيّن للمؤمنين أنه نازل بهم الشدة والبلاء في ذات الله، لكي يصبروا ويحتسبوا فقال: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الْجَنَّة» يقول: أظننتم أن تدخلوا الجنة بغير شيء، قبل أن يصيبكم من الشدة في ذات الله فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلم اللَّهُ الذين جاهدوا منكم﴾. قال مقاتل: أي ولما يرى الله الذين جاهدوا منكم. ويقال ولما يظهر جهاد الذين جاهدوا منكم. ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابرين﴾ الذين يصبرون عند البلاء. ويقال: ويعلم الكارّين أي غير الفارين عن القتال.

---

(١) في ظ [درعين]. (٢) في أ [القتل].

(٣) معاني القرآن ١/٢٣٤. وقال الكسائي: هما لغتان مثل (الضُّعف والضَّعف) (والفُقْر والفَقْر).

وأولى القولين بالصواب قول الفراء لتصييرهما لمعنيين والدليل على ذلك قول الله عز وجل حين أسّاهم بهم في موضع آخر بما دل على أنّه أراد الألم فقال: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) فدل ذلك على أنه أراد: (إن يمسسكم ألم من أيدي القوم فإن بهم من ذلك مثل ما بكم). حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٤.

(٤) في أ [يختبرا وهو خطأ لأنه لا مبرر لحذف النون فالفعل مرفوع بثبوتهما].

(٥) في أ [المستأنف]. (٦) راجع اللسان محص وترتيب القاموس ٤/٢٠٩.

(٧) في أ [كالتطهير].

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ من قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أنه لما وصف الله لهم ما نزل بشهداء بدر من الكرامة فقالوا: ليتنا نجد قتالاً فنقتل فيه لكي نصيب مثل ما أصابوا فلما لقوا القتال يوم أحد هربوا، فعاقبهم الله تعالى بقوله: ولقد كنتم تمنون الموت أي القتال والشهادة من قبل أن تلقوه لأن القتال سبب الموت ﴿فقد رأيتموه﴾ يوم أحد ﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى السيوف فيها الموت. وقال الزجاج(١): معناه: ولقد كنتم تمنون (القتال)(٢) [لأن القتال سبب الموت فقد رأيتموه يعني](٣) وأنتم بصراء، كقولك: رأيت كذا وكذا، ولم يكن في عينيك علة ويقال: وأنت تنظرون إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقال القتبي: فقد رأيتموه، يعني أسبابه، وهو السيف ـ.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول [قد خلت من قبله الرسل]﴾(٤). لأنهم هربوا حيث سمعوا بقتله فقال تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ كسائر الرسل، ﴿أفإن مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُم على أعقابكم﴾، أي رجعتم إلى دينكم الشرك، ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ أي يرجع إلى الشرك بعد الإسلام ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ يقول: لن ينتقص من ملكه وسلطانه شيئاً، وإنما يضر نفسه ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ يعني الموحدين الله تعالى في الآخرة الجنة، ويقال: وسيجزي الله المؤمنين المجاهدين الجنة.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿وما كان لنفس أن تموت﴾ قبل أجلها ﴿إلا بإذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿كِتَاباً مُّؤَجَّلاً﴾ يقول: في موتها كتاباً مؤجلاً في اللوح، فلا يسبق أجله. وقال الزجاج(٥): قوله كتاباً مؤجلاً، أي كتب كتاباً ذا أجل، وهو الوقت المعلوم، وذكر الكتاب على معنى التأكيد [كقوله: «كتاب الله عليكم» أي أن المحرمات مفروضة عليكم على معنى التأكيد](٦). وفي هذه الآية إبطال قول المعتزلة: لأنهم يقولون: إن من قتل فإنما يهلك قبل أجله وكل ما ذبح من الحيوان كان هالكاً قبل أجله لأنه يجب على القاتل الضمان والدية، وقد بين الله تعالى في هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٨٦.
(٢) في أ [الموت].
(٣) زيادة من ظ.
(٤) زيادة من ظ.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ١/٤٨٨.
(٦) زيادة من ظ.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾. قال الكلبي: يعني يرد ثواب الدنيا بالعمل الذي افترض الله عليه «نؤته منها» يعني أعطاه الله ما يحب، وما له في الآخرة من نصيب ﴿وَمَنْ يُرِد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين﴾ في الآخرة. ومن الناس من قال: إن الرياء يدخل في النوافل، ولا يدخل في الفرائض لأن الفرائض واجبة على جميع الناس. وقال بعضهم: يدخل في الفرائض ولا يدخل في النوافل، لأنه لو لم يأت بها لا يؤاخذ بها، فإذا أتى بهذا القدر ليس عليه غير ذلك. وقال بعضهم: كلاهما سواء فالرياء [يدخل](١) في الفرائض والنوافل جميعاً، وهذا القول أصح، لقوله تعالى: «وإذا قَامُوا إلى الصَّلاة قَامُوا كُسَالى يُرَاءُونَ النَّاس». ثم إن الله تعالى أخبرهم بما لَقِيَتِ الأنبياءُ والمؤمنون قبلهم (فعزَّاهم)(٢) ليصبروا فقال تعالى سبحانه: ﴿وكأيّن من نبي﴾ قرأ ابن كثير: ﴿وكأين﴾ بعد الألف والهمزة، وقرأ الباقون بغير مد ومعناهما واحد(٣)، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «وكأيِّن من نبي» «قُتِل» بضم القاف وكسر التاء، وقرأ الباقون: ﴿قاتل﴾ فمن قرأ «قاتل» فمعناه كم من نبي قاتل معه جموع كثيرة، ومن قرأ «قتل» معناه وكم من نبي قتل ﴿مَعَهُ﴾ جماعة كثيرة، وقوله ﴿رِبِّيُّونَ﴾. قال الكلبي: الربية الواحدة من عشرة آلاف. وقال الزجاج(٤): ههنا قراءتان «رُبِّيُّون» بضم الراء [ورِبِّيون](٥) بكسرها، فأما بالضم فهي الجماعة الكثيـرة (٦)، عشرة آلاف، وأما الرِّبِّيُّون بالكسر: العلماء الأتقياء الصبراء على ما يصيبهم في الله تعالى. ويقال: «وكأين من نبي قتل». يعني كم من نبي قتل وكان معه ربيون كثير ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ بعد قَتْلِه عن القتال، وما عجزوا بما نزل بهم من قتل أنبيائهم وأنفسهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ في سبيل الله وَما ضَعُفُوا﴾ لَعدُوِّهم ويقال: وما جبنوا [ثم قال](٧): ﴿وما استكانوا﴾ يقول: وما خضعوا لعدوهم، ولكنهم صبروا ﴿واللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فكأنه يقول للمؤمنين فهلا قاتلتم مع نبيكم - صلى الله عليه وسلم - وبعد قتله وإن قتل كما قاتلت القرون الماضية من قبلكم إذا أصيبت أنبياؤهم. ثم أخبر عن قول الذين قاتلوا مع النبيين، فقال تعالى ﴿وما كَانَ قولهم﴾ عند قتل أنبيائهم ﴿إلا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي هي دون الكبائر ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ أي العظائم من الذنوب ﴿وثَبِّتْ أَقْدَامنا﴾ عند القتال ﴿وانْصُرْنَا على القوم الكافرين﴾ معناه، هلا قلتم كما قالوا، وقاتلتم كما قاتلوا. وقرأ بعضهم: «قولهم» بالضم والمعنى في ذلك أنه جعل القول اسم كان فيكون معناه: وما كان قولهم إلا قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا. ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان وجعل الإسم ما بعده.

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ [أي](٨) أعطاهم الله ثواب الدنيا بالغنيمة والنصرة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ أي الجنة ﴿والله يحب المحسنين﴾ [المؤمنين المجاهدين](٩).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ

---

(١) زيادة من ظ. (٢) في ظ [فيعزيهم].
(٣) قراءة ابن كثير هكذا: (وكائن من نبي). انظر/ حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٤، ١٧٥.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٩٠.
(٥) زيادة من ظ. ولم يصح هنا إلا قراءة واحدة «بالكسر» وعليها كل القراء السبعة، أما ضم الراء فهي قراءة شاذة.
(٦) في أ [الكبيرة]. (٧) زيادة من ظ. (٨) في ظ [يقول].
(٩) زيادة من ظ.

خَسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تُطيعوا الذين كفروا﴾ يعني المنافقين ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ كفاراً بعد إيمانكم ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ إلى دينكم الأول. ﴿بل الله مولاكم﴾ أي: أطيعوا الله فيما يأمركم هو مولاكم يعني وليكم وناصركم ﴿وهو خير الناصرين﴾ أي المانعين من كفار مكة.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿سَنُلْقِي في قُلُوبِ الَّذين كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير، ونافع وعاصم وحمزة «الرعب» بتسكين العين، وقرأ ابن عامر والكسائي «الرعب» بالضم، وأصله الضم إلا أنه إذا اجتمع ضمتان حذفت إحداهما عند من قرأ بالجزم(١). ومعنى الآية: سنلقي الهيبة في قلوب المشركين، وذلك بعد هزيمة المؤمنين قذف الله تعالى في قلوب الذين كفروا الرعب فانهزموا إلى مكة. ويقال حين صعد «خالد بن الوليد» الجبل، قصد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجع «خالد» منهزماً. ويقال: عني به يوم الأحزاب ألقي [في قلوبهم](٢) الرعب فانهزموا: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا باللَّهِ﴾ يعني بأنهم أشركوا بالله ﴿ما لم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ يعني كتاباً فيه عذر وحجة لهم بالشرك ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي مصيرهم إلى النار في الآخرة، ﴿وبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني أن مثوى المشركين النار.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ
فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ
بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا
لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ

(١) راجع حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٦ وكنز المعاني ٣٢٣.
(٢) في ظ [فيهم].

﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وذلك أنهم لما أخذوا في الحرب انهزم المشركون فلما أخذ بعض المسلمين في النهب والغارة رجع الأمر عليهم، وانهزم المسلمون: فذلك قوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَه» ﴿إذ تَحُسُّونهم بإذنه﴾ يقول: تقتلونهم بأمره. وقال القتبي: تحسونهم: يعني تستأصلونهم بالقتل، يقال: جراد محسوس إذا قتله البرد(١) ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر﴾ يعني، جَبُنْتُم من عدوكم واختلفتم في الأمر ﴿وعصيتم﴾ أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿من بعد ما أراكم﴾ يعني أراكم الله [﴿ما تحبون﴾ يعني](٢) من النصر على عدوكم وهزيمة الكفار والغنيمة. [ثم قال](٣): ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ أي يطلب الغنيمة ﴿ومِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا عند المشركين [حتى قتلوا](٤). وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: كنا لا نعرف أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزلت «هذه الآية، فَعَلِمْنا أن فينا من يريد الدنيا». ﴿ثم صَرَفَكُم عنهم﴾ بالهزيمة من بعد أن أظْفركم عليهم ﴿ليبتليكم﴾ بمعصية [الرسول](٥) بالقتل والهزيمة. ﴿ولقد عفا﴾ الله ﴿عنكم﴾ ولم يعاقبكم عند ذلك فلم تقتلوا جميعاً ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ في [عفوه](٦) وإنعامه ﴿على المؤمنين﴾ [بالعفو والإنعام](٧): ﴿إذ تُصْعِدُون﴾ يعني إلى الجبل هاربين حيث صعدوا الجبل منهزمين من العدو، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعوهم يا معشر المسلمين، أنا رسول الله، فلم يلتفت إليه أحد حتى أتوا على الجبل [فذلك قوله تعالى: «إذ تصعدون» يعني الجبل](٨) وهذا قول الكلبي. وقال الضحاك: إذ تصعدون في الوادي منهزمين. وقال القتبي: يعني تبعدون في الهزيمة، يقال: أصعد في الأرض إذا (أمعن) في الهزيمة. وقرأ الحسن: «تَصْعَدُون» بنصب التاء، أي تَصْعَدُون الجبل وقرأ العامة بالضم. ﴿ولا تَلْوون على أَحَدٍ﴾ يقول ولا تقيمون على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: لا يقيم بعضكم على بعض ﴿والرَّسُولُ يَدْعُوكم في أخراكم﴾ يقول: مِنْ خَلْفِكم: ﴿فأثابكم غمًّا بغم﴾ يقول: جعل ثوابكم غماً على أثر الغم ويقال: جزاكم غماً على أثر الغم، ويقال: غماً متصلاً بالغم فأما الغم الأول: فإشراف خالد بن الوليد بخيل المشركين، وهم في ذلك الجبل، قاله الكلبي: وقال مقاتل: الغم الأول ما فاتهم من الفتح والغنيمة فاجتمعوا، وكانوا يذكرون فيما بينهم ما أصابهم في ذلك اليوم، والغم الثاني: إذ صعد «خالد بن الوليد» فلما عاينوه، أذْعَرهُم ذلك أي خوفهم فأنساهم ما كانوا فيه من الحزن فذلك قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُم﴾ من الفتح والغنيمة ﴿ولا ما أصابكم﴾ من القتل والهزيمة. ويقال: الغم الأول: الجُرح والقتل، والغم الثاني: أنهم سمعوا بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قتل، فأنساهم الغم الأول. قال: ﴿واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾ يعني لا يخفى عليه شيء من أعمالكم فيجازيكم بها. ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نعاساً﴾ الأمنة في اللغة الأمن(١٠)، قال الكلبي: إذا أَمِنَ القوم نعسوا. وقال الضحاك: النعاس عند القتال أَمَنَةٌ من الله تعالى، ويقال: الذي يصيبه الغم والهزيمة: لا يكون له شيء أحسن من النعاس فيذهب عنه همه، فأصاب القومَ النعاسُ فذهب عنهم الغم وأمنوا. قوله تعالى: ﴿يَغْشَى طائفة منكم﴾ يعني النعاسَ يغشى ويعلو طائفة منكم

(١) في ظ [زيادة قوله: ويقال محسوس الجراد والزرع]. (٢) زيادة من ظ. (٣) زيادة من ظ.
(٤) زيادة من ظ. (٥) في ظ [الرماة]. (٦) في أ [فضله].
(٧) زيادة من ظ. (٨) ما بين المعكوفين من ظ. (٩) في أ [أسرع].
(١٠) راجع: اللسان: أمن.

من كان من أهل الصدق واليقين قرأ حمزة والكسائي «تغشى» بالتاء، وقرأ الباقون بالياء، فمن قرأ بالتاء انصرف إلى قوله «أمنة» ومن قرأ بالياء يكون نعتاً للنعاس[١]. ثم قال: ﴿وطائفة قد أهَمَّتهم أنْفُسهم﴾ يعني أهل النفاق، وقال الكلبي: هو «معتب بن قُشَيْر» وأصحابه، ﴿يَظُنُّونَ باللَّهِ غَيْرَ الحق﴾ يعني أنهم يظنون أن لن ينصر الله محمداً وأصحابه ﴿ظن الجاهلية﴾، قال الكلبي: يعني كظنهم في الجاهلية. وقال مقاتل: «ظن الجاهلية» كظن الجهال المشركين مثل أبي سفيان وأصحابه. ﴿يقولون: هَل لَنا من الأمر من شيء﴾ يعني النصرة والفتح ﴿قل إنَّ الأَمْرَ كُلَّه لله﴾ يعني النصرة والغنيمة كله من الله ﴿يخفون في أنفسهم﴾ أي يُسِرُّون في أنفسهم ﴿ما لا يُبْدُون لك﴾ أي يقولون ما لا يظهرون لك ﴿يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا﴾ أي يقولون: لو كان ديننا حقاً ما قتلنا ﴿ها هنا﴾ قال الكلبي: وفي الآية تقديم وتأخير ومعناه يقولون: هل لنا من الأمر من شيء يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل: إن الأمر كله لله. [وقال الضحاك: «قل: إنَّ الأمر كله»][٢] يعني القدر خيره وشره من الله. قرأ أبو عمرو: «قل: إنَّ الأَمْرَ كُلّه لله» بضم اللام، والباقون بالنصب فمن (قرأ بالرفع)[٣] جعله اسماً مستأنفاً ومن نصب جعله نعتاً للأمر. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُم لَبَرَزَ﴾ يقول: لظهر ويقال: لخرج الذين ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْل﴾ أي قُضِيَ عَلَيهم القتل ﴿إلى مَضَاجِعِهم﴾ أي إلى مواضع مصارعهم، معناه أنهم وإن لم يخرجوا إلى (العدو)[٤]، وقد قضى الله عليهم بالقتل لخرجوا إلى مواضع قتلهم لا محالة، حتى ينفذ فيهم القضاء. قال تعالى: ﴿وليبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكم﴾ يعني ليختبر ويظهر ما في قلوبكم ﴿وَلِيُمَحِّص﴾ يعني ليظهر ويكفر ﴿مَا فِي قُلُوبكم﴾ من الذنوب ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾ يعني بما في القلوب من الخير والشر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

ثم نزل في المنهزمين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُم﴾ أي الذين انهزموا منكم ﴿يوم الْتَقَى الْجَمْعَان﴾ يعني جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ قال القتبي: «استزلهم أي طلب زلتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً، أي طلبت عجلته، واستعملته، أي طلبت عمله. ويقال: زَيَّن لهم الشيطان ﴿ببعض ما

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٦ وكنز المعاني ٣٢٣.
(٢) ما بين المعكوفين من ظ.
(٣) في ظ [رفع].
(٤) في ظ [الغزو].

كسبوا﴾ يعني الذي أصابهم كان بأعمالهم، كما قال في آية أخرى: «وَمَا أَصَابَكُم من مّصِيبَةٍ فِبما كَسَبَتْ أَيْدِيكُم» ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ حيث لم يستأصلهم ﴿إن الله غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿حَلِيمٌ﴾ إذ لم (يعجل عليهم بالعقوبة)[١].

قال حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا أبو بكر عن غيلان بن جرير، أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن: أتسبُّني وقد شهدت بدراً، ولم تشهدها، وبايعتُ تحت الشجرة ولم تُبايع، وقد كنت توليت فيمن تولى يوم الجمع، أي يوم أحد فرد عليه عثمان وقال: أما قولك: إنك شهدت بدراً ولم أشهدها، فإني لم أغب عن شيء شهده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت [مريضة][٢] فكنت معها أُمرِّضها وضرب لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسهم في سهام المسلمين، وأما بيعة الشجرة، فبعثني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رداً على المشركين بمكة، فضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمينه على شماله قال: هذه لعثمان، فيمين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى خير من يميني وشمالي، وأما يوم الجمع فقال الله تعالى: «إنَّ الذين تَوَلَّوا منكم يوم التقى الجمعان، إنما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ببعض ما كسبوا ولقد عَفَى الله عنهم» فكنت فيمن عفى الله عنهم[٣]، فخصم «عثمان» «عبد الرحمن بن عوف»، ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الّذين آمنوا لا تَكُونُوا كالّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: منافقي أهل الكتاب، ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ من المنافقين ﴿إذا ضَرَبُوا في الأرض﴾ يعني: إذا ساروا في الأرض تجاراً مسافرين فماتوا في سفرهم ﴿أو كَانُوا غُزًّى﴾ يعني خرجوا في الغزو فقتلوا. قال القتبي: غزًّا جمع غاز، مثل صائم وصُوَّم، ونائم ونوم[٤] ﴿لو كانوا عندنا﴾ بالمدينة ﴿ما ماتوا﴾ في سفرهم ﴿وما قتلوا﴾ في الغزو ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلك﴾ الظن ﴿حَسْرَةً في قلوبهم﴾، ويقال: جعل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم لأنه ظهر نفاقهم، وقال الضحاك: ليجعل الله ذلك حسرة في قلوب المنافقين، لأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في أشجار الجنان حيث شاءت[٥]، وأرواح قتلى المنافقين في حواصل طير سُودٍ تسرح في الجحيم ثم قال تعالى: ﴿والله يُحْيِي ويُمِيت﴾ أي يحيي في السفر ويميت في الحضر، ويحيي في الحضر ويميت في السفر، ويقال: والله يحيي قلوب المؤمنين، ويميت قلوب الكافرين، يحيي قلوب المؤمنين بالنصرة والخروج إلى الغزو، ويميت قلوب المنافقين بالتخلف (وظن السوء)[٦] وقال الضحاك: يعني يحيى من أحيى من نطفة بقدرته، ويميت من أمات بعزته، وسلطانه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون بَصِير﴾ قرأ عبد الله بن كثير وحمزة والكسائي «يعملون» بالياء على معنى المغايبة، وقرأ الباقون بالتاء[٧]، ومعناه: قل لهم: والله بما تعملون بصير. ﴿وَلَئِن قُتِلْتُم فِي سَبِيلِ اللَّه أو مُتّم﴾ يعني إن متم في إقامتكم، أو قتلتم في سبيل الله وأنتم مُؤْمنون، ﴿لَمَغْفِرَةٌ منَ اللَّه﴾ لذنوبكم ﴿ورَحْمَةٌ﴾ يعني [ونعمة][٨] وجنة ﴿خير مما تجمعون﴾ [في الدنيا من الأموال][٩] يا معشر المنافقين [قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم «متم» بضم الميم في جميع القرآن، والباقون بكسرها وهما لغتان ومعناهما واحد ثم قال][١٠] ﴿ولَئِن مُّتم أَوْ قُتِلْتُم﴾ في الغزو ﴿لإلى اللَّه تُحْشَرُون﴾ بعد الموت. قرأ عاصم في رواية حفص «خير مما

(١) في أ [يعجلهم بالعقوبة]. (٢) في أ [متمرضة]. (٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/١٠١.

(٤) في ظ [زيادة]: وعاف وعفى انظر/ مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٠٦.

(٥) انظر/ صحيح مسلم ٣/١٥٠٢/ كتاب الإمارة باب بيان أن أرواح ـ الشهداء في الجنة (١٢١/١٨٨٧).

(٦) في ظ [وسوء الظن]. (٧) انظر/ كنز المعاني ٣٢٤ وحجة القراءات لابن زنجلة ١٧٧.

(٨) زيادة من ظ. (٩) هذه العبارة وردت في ظ. بعد (يا معشر المنافقين).

(١٠) ما بين المعكوفين من ظ وقد جاء في أ بعد ذلك ولكنه في غير موضعه بعد تفسير قوله تعالى: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وتوجيه القراءتين كالآتي:

=

يَجْمَعون» بالياء، وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة[١]. ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول: فبرحمة من الله و«ما» صلة، فالله: ذكر منه أن جعل رسوله رحيماً رؤوفاً بالمؤمنين حيث قال فبرحمة من الله ﴿لنت لهم﴾ يا محمد أي لينت لهم جانبك، وكنت رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي خشنا في القول غليظ القول ﴿لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي لتفرقوا من عندك، ولكن الله جعلك سهلاً سَمْحاً طلقاً ليناً لطيفاً باراً رحيماً وهكذا، قال [الضحاك: ثم قال][٢]: ﴿فاعفُ عنهم﴾ أي فتجاوز عنهم ولا تعاقبهم بما يكون (منهم)[٣] من الزلة والذنب، ﴿واستغفر لهم﴾ من ذلك الذنب ﴿وشاوِرْهُم في الأَمْرِ﴾، يقول: إذا أردت أن تعمل عملاً فاعمل بتدبيرهم ومشاورتهم ويقال: ناظرهم في الأمر، ويقال: ناظرهم عند القتال، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ: وشاوِرْهُم في بَعْضِ الأمر، لأنه كان يشاورهم فيما لم ينزل عليه الوحي فيه، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاقلاً ذا رأي، ولكنه أمر بالمشورة ليَقْتَدي به غيره، ولأن في المشاورة توددُّاً لأصحابه لأنه إذا شاوَرهم تَوَدَّد قلوبهم، وفي المشورة أيضاً ترك الملامة لأنه يقال: فعلت كذا بمشاورتكم، وروى سهل بن سعيد الساعدي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد عبد باستغناء رأي[٤]. ثم قال تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي لا تتوكل على المشورة، ولكن توكل على الله بعد المشورة، لا على الأصحاب ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ «الذين يتوكلون على الله».

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

ثم أخبر عز وجل: أن النصرة من عند الله كلها فقال تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُم اللَّه﴾ [يقول: أن يمنعكم الله][٥]. ﴿فَلا غَالِبَ لَكُم﴾ من العدو [يعني يوم][٦] بدر، ﴿وإن يَخْذُلْكُم﴾ يعني يوم أحد ﴿فَمَنْ ذا الّذي يَنْصُرُكُم مِنْ

= من قرأ بالضم حجته أنها من (مَاتَ يَمُوتُ): (فَعَل يَفْعُل) مثل (دام يدوم، وقال يقول، وكان يكون) ولا يقال: (كِنْتُ) ولا (قِلْتُ). وحجة أخرى: وهو قوله (وفيها تَمُوتُون) (ويوم أَمُوتُ) ولو كانت على اللغة الأخرى لكانت (تَمَاتُون) و(يوم أَمَاتُ) لأنه من (مِتَّ تَمَاتُ). وأما من قرأ (مِتُّم) بالكسر فله حجتان:

إحداهما: ذكرها الخليل قال: (يقال: مِتُّ تموت ودِمْتَ تدوم، (فِعل يفعُل) مثل (فَضِل يَفْضُل) وكان الأصل عنده (مَوِتَ) ثم استثقل الكسرة على الواو فنقلت إلى الميم فصارت مَوْت) ثم حذفت الواو لما اتصلت بها تاء المتكلم لاجتماع الساكنين فصارت (مِتُّ).

والثانية: قال الفراء: (مِتُّ) مأخوذة من (يَمَاتُ) على (فَعِلَ يَفْعَل) مثل(سَمِعَ يَسْمَع) وكان الأصل (يَمْوَتُ) ثم نقلوا فتحة الواو إلى الميم وقلبوا الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها فصارت (يَمَاتُ) إلا أنه لم يجيء (يَمَاتُ) في المستقبل، والعرب قد تستعمل الكلمة بلفظ مًا ولا تقيس ما تصرف منها على ذلك القياس، من ذلك قولهم: (رَأَيْت) همزته في الماضي، ثم أجمعوا على ترك الهمزة في المستقبل فقالوا: (ترى ونرى) بغير همز فخالفوا بين لفظ الماضي والمستقبل، فكذلك خالفوا بين لفظ (مت) و(تموت) ولم يقولوا: (تَمَاتُ) والضم هو اللغة الفصيحة حجة القراءات لابن زنجلة ١٧٨، ١٧٩ كنز المعاني ٣٢٤.

(١) كنز المعاني ٣٢٥. (٢) زيادة من ظ. (٣) في أ [فيهم].

(٤) أخرجه القضاعي في المسند كذا في فتح الوهاب بتخريج أحاديث الشهاب ٢/٤٩ (٥٠٥) من رواية سليمان بن عمرو النخعي عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي وسليمان بن عمرو «كذاب».

(٥) زيادة من ظ. (٦) في أ [كيوم].

بعده﴾ أي يمنعكم من عدوكم ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي فليتق الواثقون في النصرة، ويقال: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله، لأنهم عرفوا أنه لا ناصر لهم غيره.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم «يَغُل» بنصب الياء، وقرأ الباقون [«يُغَل» بضم الياء][(١)] ونصب الغين، فمن قرأ بالنصب معناه: وما كان لنبي أن يخون في الغنيمة، ومن قرأ بالضم، فمعناه: لا ينسب إلى الغلول[(٢)] وذلك أنه لما كان يوم أحد أخذوا في النهب والغارة، وتركوا القتال وخافوا أن تفوتهم الغنيمة وظنوا أن من أخذ شيئاً يكون له، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يقسم لهم، فنزلت هذه الآية: «وما كان لنبي أن يغل»، يقول: ما جاز لنبي أن يخون في الغنيمة، وما جاز لأصحابه أن ينسبوه إلى الخيانة، ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ﴾ (أي يخن)[(٣)] في الغنيمة ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَة﴾ يعني يحمله على ظهره. وهذا كما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لأعرفن أحدكم يوم القيامة يأتي على عنقه شاة لها ثغاء [فيقول]:[(٤)] يا محمد فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، يريد أن من غل شاة أو بقرة أتى بها يوم القيامة يحملها[(٥)]. ويقال: من غل شيئاً في الدنيا، يمثل له يوم القيامة في النار، ثم يقال له: انزل إليه فَخُذْه، فيهبط إليه، فإذا انتهى إليه حمله، فكلما انتهى به إلى الباب سقط منه إلى أسفل جهنم، فيرجع فيأخذه، فلا يزال (كذلك)[(٦)] ما شاء الله. ويقال: يأت بِمَا غَلَّ: يعني تشهد عليه يوم القيامة تلك الخيانة والغلول. ويقال: هذا على سبيل (التمثيل)[(٧)] يأت بما غل «يوم القيامة)[(٨)] أي بوباله فيكون وباله على عنقه، كما قال في آية أخرى: «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم» ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْس﴾ أي توفي وتجازي كل نفس ﴿ما عملت﴾ من خير أو شر ﴿وهم لا يُظْلَمُون﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّه﴾ قال الكلبي: يعني أفمن أخذ الحلال من الغنيمة ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّه﴾ يعني كمن استوجب سخطاً من الله بأخذ الغلول من الغنائم، ثم بين مستقر كل من غل (يوم القيامة)[(٩)]، ومن أخذ من الحلال فقال لمن غل: ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صاروا إليه يعني النار. وقال (في حق من) أخذ الحلال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّه﴾ يعني لهم درجات في الجنة عند الله [ويقال: هم ذوو درجات عند الله][(١٠)]. ﴿والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بمن غل وبمن لم يغل. وقال القتبي[(١١)]: هي طبقات ـ عند الله ـ في الفضل، فبعضهم أرفع من بعض. وقال أبو عبيدة والكسائي: لهم درجات عند الله[(١٢)]. ويقال: لمن لم يغل درجات في الجنة، ولمن غل درجات في النار.

---

(١) في أ [بالضم]. (٢) راجع تفصيلاً أوسع لتوجيه القراءتين في/ حجة القراءات لابن زنجلة. ص ١٧٩ ـ ١٨١.

(٣) في ظ [يعني يخون]. (٤) في أ [فليقول].

(٥) أخرجه البخاري ٦/١٨٥ في الجهاد/ باب الغلول (٣٠٧٣)، ومسلم ٣/١٤٦١ ـ ١٤٦٢ في الإمارة/ باب غلظ تحريم الغلول (٢٤/١٨٣١) وقوله: (أُلْفِيَنَّ): أجدنّ، وقوله (ثغاء): صوت الشاة.

(٦) في ظ [هكذا إلى]. (٧) في ظ [المثل]. (٨) في أ [يعني يأتي].

(٩) في ظ [من الغنيمة]. (١٠) ما بين المعكوفين من ظ. (١١) تفسير غريب القرآن ١١٥. (١٢) مجاز القرآن ١/١٠٧.

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم
مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ
مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ
وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿لَقد مَنَّ الله على المؤمنين﴾ أي أنعم الله (عليهم)(١) **﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً من أَنْفُسِهِم﴾** يعني من أصلهم ونسبهم من العرب يعرفون نسبه. ويقال: «من أنفسهم» يعني من جنسهم، من بني آدم، ولم يجعله من الملائكة، وإنما خاطب بذلك المؤمنين خاصة، لأن المؤمنين هم الذين صدقوه فكأنه منهم. وقرىء في الشاذ: «من أَنْفَسكم»(٢) بنصب الفاء، أي من (أشرفهم)(٣)، وقد كانت له فضيلة في ثلاثة أشياء: أحدها: أنه كان من نسب شريف، لأنهم اتفقوا: أن العرب أفضل، ثم من العرب قريش [ثم من قريش بنو هاشم](٤) فجعله من بني هاشم. والثاني: أنه كان أمينا فيهم قبل الوحي، [والثالث: أنه كان أمياً](٥) لكي لا يرتاب فيه الافتعال. ثم قال: **﴿ويتلو عليهم آياته﴾** أي يعرض عليهم القرآن **﴿ويزكيهم﴾** [يعني: يأخذ منهم الزكاة ليطهر أموالهم ويقال: ويزكيهم يعني، يطهرهم من الذنوب والشرك، ويقال:](٦) ويزكيهم أي (يأمرهم)(٧) بكلمة الإخلاص، وهي قول: لا إله إلا الله «ويعلمهم الكتاب» يعني القرآن، و«الحكمة» أي الفقه، وبيان الحلال والحرام **﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** أي وقد كانوا من قبل مجيء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفي خطأ بَيِّن. ثم رجع إلى قصة أحد، وذكر التعزية للمؤمنين بما أصابهم من الجراحات، فقال: **﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾** يعني يوم أحد **﴿قد أصبتم مثليها﴾** يوم بدر لأن المسلمين يوم بدر قتلوا سبعين نفساً من صناديد قريش، وأسروا سبعين، وقتل من المسلمين يوم أحد سبعين، ولم يؤسر منهم أحد، فذلك قوله تعالى: «قد أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها» وقوله: «أَوَلَمَّا» فالألف للإستفهام، والواو للعطف، «وما» صلة فكأنه قال: ولئن متم، أو قتلتم، أو أصابتكم مصيبة يوم أحد، قد أصبتم مثليها يوم بدر، **﴿قلتم: أني هذا﴾** يعني قلتم فمن أين لنا هذا، وكيف أصابنا هذا ونحن مسلمون. **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾** أي من عند قومكم، بمعصية الرماةِ بتركهم ما أمرهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال الضحاك: قل هو من عند أنفسكم، يعني بذنوبكم التي سلفت منكم قبل القتال، يعني أن في ذلك تطهيراً لما سلف من ذنوبكم، وهو قوله تعالى: «وما أَصَابَكُم من مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾** من النصرة والهزيمة **﴿وما أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجمعان﴾** فبإذن الله أي)(٨) جمع المسلمين [وجمع](٩) المشركين **﴿فبإذن الله﴾** أي(١٠) فبإرادة

(١) في ظ [على المؤمنين].
(٢) راجع البحر المحيط ٣/١٠٣.
(٣) في أ [أشرافهم].
(٤) ما بين المعكوفين من ظ.
(٥) سقط في أ.
(٦) ما بين المعكوفين من ظ.
(٧) في أ [يؤمهم].
(٨) سقط في ظ.
(٩) من ظ.
(١٠) زيادة من ظ.

الله أصابكم ﴿وليعلم المؤمنين﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ يعني أصابتكم المصيبة، لكي يظهر المؤمن من المنافق، ثم بين أمر المنافقين وصنيعهم وقلة حسبتهم في أمر الجهاد فقال: ﴿وقيل لهم: تَعَالَوْا قَاتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ يعني، إن لم تقاتلوا لوجه الله، فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وحريمكم، قال الكلبي: ويقال: ادفعوا يعني كثروا [وقال القتبي: «ادفعوا» أي كثروا][(١)]، لأنكم إذا كثرتم [ثم][(٢)] دفعتم القوم [بكثرتكم][(٣)] ﴿قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يعني أن ميلهم إلى الكفر أقرب من ميلهم إلى الإيمان وقوله (لاتبعناكم) أي[(٤)] لجئنا معكم. قال الضحاك: وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما خرج يوم أحد أبصر كتيبة خثناء، وفيها كبكبة من الناس، فقال: من هؤلاء؟ فقيل: يا نبي الله هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي، فقال: إنا لا نستعين بالكفار فرجع عبد الله مع حلفائه من اليهود، فقال له عمر: أقم مع المؤمنين، فقال: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ويقال: إن عونهم للكفار أكثر من عونهم للمؤمنين ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ ذكر الأفواه على معنى التأكيد، لأن الرجل يقول بالمجاز بالإشارة، وهذا كما قال: «يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِم» ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم» ﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُون﴾ من النفاق والكفر، ونزل فيهم أيضاً: ﴿الَّذِينَ قالوا لإِخْوَانِهِم﴾ من المنافقين ﴿وَقَعَدُوا﴾ عن الجهاد ﴿لو أَطَاعُونَا﴾ في القعود عن الجهاد ﴿ما قُتِلُوا﴾ في الغزو ﴿قل﴾ (لهم)[(٥)] يا محمد ﴿فادرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُم﴾ في حال حضور ﴿الموت إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾ في مقالتكم. قال الفقيه: سمعت بعض المفسرين بسمرقند يقول: لما نزلت هذه الآية (فادرءوا عن أنفسكم الموت) مات يومئذ سبعون نفساً من المنافقين.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

ثم نزل [في شأن][(٦)] الشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ الله﴾ يعني في طاعة الله ﴿أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُون﴾ من التحف وذلك أن المسلمين كانوا يقولون: مات فلان، ومات فلان، فنزلت هذه الآية «بل أحياء عند ربهم يرزقون». وهذا قول الكلبي، ويقال: ولا تظنن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً كسائر الأموات بل أحياء، يعني هم كالأحياء عند ربهم، لأنه يُكتب لهم أجرهم إلى يوم القيامة فكأنهم أحياء في الآخرة، ويقال: لا (تظن)[(٧)] كما يظن الكفار بهم أنهم لا يبعثون، بل يبعثهم الله، ويقال: أرواحهم في المنزلة والكرامة بمنزلة الشهداء[(٨)] الأحياء، وروي عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمَّا أُصيب إخوانكم يوم أُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش، فلما وجدوا طيب منقلبهم ومطعمهم ومشربهم، ورأوا ما [عند][(٩)] الله لهم من الكرامة [وما هم فيه من النعيم][(١٠)] قالوا: ياليت إخواننا علموا ما أعدَّ الله لنا من الكرامة، وما نحن فيه من النعيم، لئلا [ينكلوا][(١١)] عند اللقاء، ولم يجبنوا عند القتال، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون[(١٢)] ﴿فرحين﴾ أي معجبين ﴿بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فضله﴾ أي من رزقه في الجنة

---

(١) سقط في أ. (٢) سقط في ظ. (٣) في أ [بكثرتهم]. (٤) ما بين المعكوفين من أ.
(٥) سقط في ظ. (٦) سقط في أ. (٧) في ظ [يظن بهم].
(٨) سقط في ظ. (٩) في ظ [أعد]. (١٠) سقط في أ.
(١١) في أ [يتكلوا]. (١٢) أخرجه .بو داود ٣/ ١٥ في كتاب الجهاد/ باب فضل الشهادة (٢٥٢٠).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ من خَلْفهم﴾ من إخوانهم من بعدهم أن يأتوهم ثم رجع إلى الشهداء فقال تعالى: ﴿ألا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا من الدنيا. قرأ ابن عامر وعاصم وحمزه «ولا تَحْسَبَنَّ» بنصب السين في جميع القرآن وقرأ الباقون بالكسر، وقرأ ابن عامر «قُتِّلُوا» بتشديد التاء على [معنى التكثير][1] يعني أنهم يقتلون واحداً فواحداً [وقرأ][2] الباقون بالتخفيف[3].

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى: ﴿ويستبشرون بنعمة من الله وفضل﴾ يقول: بجنة من الله ويقال: بمغفرة من الله. ﴿وَفَضْلٍ﴾ يعني الكرامات في الجنة. وروي عن مجاهد أنه كان يقول: السيوف مفاتيح الجنة. وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الشهيد يشفع في سبعين من أهله[4]، قال الفقيه: أروي هذا الحديث بمعناه لا بلفظه[5]: إن الله تعالى أكرم الشهداء بخمس كرامات لم يكرم بها أحد من الأنبياء ولا أنا، إحداها: أن

---

(١) سقط في أ. (٢) سقط في ظ. (٣) انظر اتحاف فضلاء البشر ١/٤٩٣ - ٤٩٤.

(٤) أخرجه أبو داود ٣/٣٤ كتاب الجهاد بلفظ «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته».

(٥) الأصل أن يتحمل المتحمل ما تحمله عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يؤديه على وفق ما تحمل في اللفظ والأسلوب، لا يغير ولا يبدل، ثم يؤديه ممن تحمله عنه هكذا إلى أن يصل إلينا من غير تغيير ولا تبديل.

وجاء تأييداً لهذا الأصل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - «نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع». وجاءت رواية القرآن على ذلك، فكتب كما تحمل، وأدى كما سمع، وكتب وتواتر حتى لم يبق فيه ريب ولا شك. أما رواية الحديث فدخلها الأداء بالمعنى، ووقع فيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص، فهل هو جائز أو غير جائز؟. قالوا: غير جائز في أمور:

١ - فيما إذا لم يكن الراوي عالماً عارفاً بالألفاظ ومقاصدها، ولم يكن خبيراً بما يحيل معانيها، ولا بصيراً بمقادير التفاوت بينها.

٢ - فيما تضمنته بطون الكتب المصنفة والجامعة وغيرها.

٣ - صرح الزركشي: إن كان مما تعبد بلفظه فإنه تجب الرواية باللفظ كقوله في الحديث (ونبيك الذي أرسلت).

٤ - قال السيوطي: وعندي إذا كان جوامع الكلم، فإنه يجب روايته بلفظه.

أما ما عدا ذلك فإنهم اختلفوا فيه على مذاهب:

١ - قالت طائفة من أصحاب الحديث والفقه والأصول: لا يجوز إلا بلفظه.

٢ - قيل: يمنع في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويجوز في غيره.

٣ - قيل: إن نسي اللفظ جاز وإلا منع.

٤ - جوازه لمن يحفظ اللفظ، ومنعه لمن نسيه.

٥ - قيل: يجوز ذلك للصحابة دون غيرهم، وبهذا جزم ابن العربي في أحكام القرآن.

٦ - قيل: يجوز بإيزاء مرادف:

٧ - قيل: إن كان موجبه علماً جاز، وإن كان موجبه عملاً لم يجز.

٨ - قول: جمهور السلف والخلف من الطوائف - منهم الأئمة الأربعة - وهو الجواز في جميعه إذا قطع بأداء المعنى.

قال ابن الصلاح: والأصح جواز ذلك في الجميع إذا كان علماً بما وصفناه، قاطعاً بأنه أدى معنى اللفظ الذي بلغه، لأن ذلك هو الذي تشهد به أحوال الصحابة والسلف الأولين، وكثيراً ما كانوا ينقلون معنى واحداً في أمر واحد بألفاظ مختلفة، وما ذلك إلا لأن معولهم كان على المعنى دون اللفظ.

=

جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت، وهو الذي سيقبض روحي، وأما الشهداء، فالله تعالى [هو الذي يقبض](١) أرواحهم بقدرته كيف يشاء، ولا يسلط على أرواحهم ملك الموت، والثانية: أن [جميع](٢) الأنبياء قد غُسِّلوا بعد الموت، وأنا أُغسَّل بعد الموت، وأما الشهداء، [فلا](٣) يغسلون ولا حاجة لهم إلى [ماء](٤) الدنيا، والثالثة: أن جميع الأنبياء قد كفنوا، وأنا أكفن أيضاً، والشهداء لا يكفنون بل يدفنون في ثيابهم، والرابعة: أن جميع الأنبياء لما ماتوا فقد سُمُّوا أمواتاً، وإذا مت أنا يقال: قد مات، والشهداء لا يُسمون موتى، والخامسة: أن الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة، وشفاعتي أيضاً يوم القيامة، وأما الشهداء فيشفع لهم في كل يوم فيمن يستشفعون. ثم قال تعالى: ﴿وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ قرأ الكسائي: «وإنَّ» بكسر الألف، والباقون بالنصب، فمن قرأ بالنصب، فمعناه يستبشرون بنعمة من الله، ويستبشرون بأن الله لايضيع ثواب المؤمنين [الموحدين](٥)، ومن قرأ بالكسر على معنى الابتداء: إن الله لا يبطل ثواب عمل الموحدين(٦) وهذا الخبر للترغيب في الجهاد، وأما الشهداء والأولياء فيشفع لهم لا يبلغون إلى درجة الأنبياء، ومن قال إنهم يبلغون إلى درجة الإباحة، ومن أنكر كرامات الأولياء فهو معتزلي.

ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ قال في رواية الكلبي: وذلك أن أبا سفيان حين رجع من أُحد نادى فقال: يا محمد إن الموعد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر: قل له: ذلك بيننا وبينك إن شاء الله تعالى، ثم ندم أبو سفيان فقال لنعيم بن مسعود(٧)، وكان يخرج إلى المدينة للتجارة: إذا أتيت المدينة، فخوّفهم لكيلا يخرجوا، فلما قدم نعيم المدينة قال: إن أبا سفيان قد جمع خلقاً كثيرة، فكره أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الخروج إليهم، وتثاقلوا، فلما رأى ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم قال: والذي نفسي بيده، لأخرجن إليهم، وإن لم يخرج معي منكم أحد، قال: فمضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [للميعاد](٨) ومعه نحواً من سبعين رجلاً حتى آنتهوا إلى ذلك الموضع وكان هناك سوق فلم

= قال في (مسلم الثبوت) وشرحه، ولم ينكر عليه من أحد، بل قبله الكل في كل عصر.

ماذا يقول المؤدي بالمعنى؟

ينبغي لمن أدى بالمعنى أن يقول عقيبه: أو كما قال، أو نحوه، أو شبهه أو ما أشبه ذلك من الألفاظ.

قال السيوطي: وقد كان قوم من الصحابة يفعلون ذلك، وهم أعلم الناس بمعاني الكلام خوفاً من الذلل لمعرفتهم بما في الرواية بالمعنى من الخطر.

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في ظ. (٣) سقط في أ.
(٤) سقط في أ. (٥) سقط في ظ. (٦) انظر تفسير القرطبي ٤/٢٧٦.
(٧) نعيم بن مسعود بن عامر أسلم ليالي الخندق مات في خلافة عثمان تهذيب التهذيب ١٠/٤٦٦.
(٨) سقط في ظ.

يخرج أحد من أهل مكة، فتسوقوا من السوق حاجتهم، وانصرفوا فنزل قوله تعالى: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله والرَّسُولِ» ﴿من بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحِ﴾[١]﴾ [يعني][٢] أصابتهم الجراحات يوم أحد ﴿[للذين أَحْسَنُوا مِنْهُم﴾ أي الذين][٣] أوفوا الميعاد ﴿واتقوا﴾ السخط في معصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب كثير. ﴿الذين قال لهم الناس﴾ يعني «نعيم بن مسعود» وإنما أراد به جنس الناس وكان رجلاً واحداً ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿فاخْشَوْهُمْ﴾ ولا تخرجوا إليهم ﴿فزادهم إيماناً﴾ أي تصديقاً ويقيناً وجرأة على القتال ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ أي ثقتنا بالله، وأيقنوا أن الله لا يخذل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ونِعْمَ الوَكِيلُ» أي نعم الثقة لنا، ﴿فانْقَلَبُوا﴾ [انصرفوا ﴿بنعمة من الله﴾ أي بأجر من الله ﴿وفضل﴾ يعني ماتسوقوا به من السوق، واشتروا الأشياء بسعر رخيص ﴿لم يمسسهم سوء﴾ يعني قتال ﴿واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ أي ذو مَنٍّ عظيم، وقال في رواية الضحاك: كان ذلك يوم أُحد، لما انهزمت قريش ونزلت في مواضع وكثرت الجراحات في أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهمّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخروج إليهم فأجابه سبعون رجلاً فنزلت هذه الآية. قوله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ يعني نعيم بن مسعود، لأن كل عات متمرد شيطان يخوف أولياءه يعني بأوليائه الكفار. ويقال: يخوف أشكاله. وقال الزجاج: «إنما ذلكم الشيطان» أي ذلك التخويف عمل الشيطان يخوفكم من أوليائه. وقال القتبي: يخوف أولياءه أي بأوليائه، أي كما قال تعالى: «لينذر بأساً شديداً» يعني لينذركم: ببأس شديد. ثم قال تعالى: ﴿فلا تخافوهم﴾ في الخروج ﴿وخافون﴾ في القعود ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي مصدقين. قال الزجاج: معناه إن كنتم مصدقين فقد أعلمتكم أني أنصركم عليهم.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾، قال الكلبي: يعني به المنافقين ورؤساء اليهود كتموا صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الكتاب، فنزل ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾. ويقال: إن أهل الكتاب لما لم يؤمنوا شق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الناس ينظرون إليهم، ويقولون: إنهم أهل الكتاب، فلو كان قوله حقاً لاتبعوه، فنزلت هذه الآية. «ويقال: نزلت في مشركي قريش: لأنهم كانوا أقرباءه، والناس يقولون لو كان قوله حقاً لاتبعه أقرباؤه، فشق ذلك عليه، فنزلت ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي يبادرون في الكفر ولا يصدقونك ﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً﴾ أي لا ينقصوا من ملك الله شيئاً وسلطانه شيئاً بكفرهم، وهذا كما روى أبو ذر الغفاري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: قال الله «لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً، ولو كان أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص من ملك الله جناح بعوضة[٤]». ثم قال تعالى: ﴿يريد الله

---

(١) قال الفراء في قوله «إن يمسسكم قرح» وقرح بضم القاف قال: وأكثر القراء على فتح القاف، وكأن القرح الجراح بأعيانها قال: وهو مثل الوجْد والوُجْد، ولا يجدون إلا جهدهم وجهدهم. انظر لسان العرب ٣٥٧١/٥.

(٢) سقط من ظ. (٣) سقط من أ.

(٤) أخرجه مسلم بنحوه مطولاً ١٩٩٤/٤ وابن ماجه ١٤٢٢/٢ وأحمد في المسند ١٥٤/٥.

أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة أي نصيباً في الجنة ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ في الآخرة. قرأ نافع «ولا يُحْزِنْك» بضم الياء وكسر الزاي، وكذلك ما كان نحو هذا في جميع القرآن إلا في قوله تعالى «لا يحزنهم الفزع الأكبر» وقرأ الباقون: بنصب الياء وضم الزاي[1] وهما لغتان وتفسيرهما واحد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين اشتروا﴾ يعني اختاروا ﴿الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً﴾ يقول لن ينقصوا من ملك الله شيئاً وإنما أضروابأنفسهم حيث استوجبوا لأنفسهم العذاب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ يعني لا يظن الكفار أن الذي نملي لهم ونمهلهم خير لهم ويقال: ما نعطيهم من المال والولد لا يظنن أن ذلك خير لهم في الآخرة، بل هو شر لهم في الآخرة ﴿إنما نملي لهم﴾ ﴿ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ أي نعطي لهم المال والولد يهانون به من العذاب، ويقال: إنما نملي لهم أي بما أصابوا من الظفر يوم أُحد لم يكن ذلك خيراً لأنفسهم وإنما كان ليزدادوا عقوبة. ويقال: إنما نملي لهم ونؤخر العذاب عنهم ليزدادوا إثماً، أي جرأة على المعاصي، وإنما كان ذلك مجازاة لكفرهم وخبث نياتهم. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما من بر (وفاجر)[2] إلا والموت خير له، لأنه إن كان براً، فقد قال الله تعالى: «وما عند الله خير للأبرار» وإن كان فاجراً، فقد قال الله تعالى: «إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً». قرأ ابن عامر وعاصم «لا يحسبن» بالياء ونصب السين، قرأ الباقون بالتاء وكسر السين، وكذلك الذي بعد هذا.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾. قال الكلبي وذلك أن قريشاً من أهل مكة قالوا: يا رسول الله: (إنك تزعم أن) الرجل منا في النار، وإذا ترك ديننا واتبع دينك قلت: هو من أهل الجنة، فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا مَن يأتيك منا؟ ومن لا يأتيك، فأنزل الله تعالى: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه» من الكفر والنفاق ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ يقول: حتى يخلص الكافر من المؤمن. ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أي ليبين لكم المؤمن من الكافر قبل أن يؤمن، وقال الفراء: لم يكن الله ليعلمكم ذلك فيطلعكم على غيبه، ﴿ولكن الله يجتبي﴾ يقول: يصطفي ﴿من رسله من يشاء﴾ للنبوة والرسالة من خلقه فيوحي إليه بإذنه، قال في رواية الضحاك: إن المنافقين أعلنوا الإسلام وأسروا الكفر، وصلوا وجاهدوا مع المؤمنين،

(١) أنظر اتحاف فضلاء البشر ١/٤٩٥.
(٢) سقط في ظ.

فأحب الله أن يميز بين الفريقين، وأن يدل رسوله على سرائر المنافقين فقال تعالى « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب »يعني المنافق من المؤمن وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يطلع أنبياءه ورسله «يعني أن المؤمنين» لا يعلمون سر المنافقين، ولكن الله يبين ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال: «ما كان الله ليذر المؤمنين» أي ليترك من علم أنه من أهل الإيمان على ما أنتم عليه من الكفر حتى يوفقه للإيمان. «وما كان الله ليطلعكم على الغيب» ولكن الله يطلع أنبياءه ورسله بالوحي حتى يكون ذلك علامة لنبوتهم ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا﴾ بالله ورسله ﴿وتتقوا﴾ الشرك والمعصية ﴿فلكم أجر عظيم﴾. أي ثواب عظيم في الجنة، ويقال إن الكفار لما سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبين لهم من يؤمن منهم، فنزل قوله «فآمنوا بالله ورسله» يعني ولا تشتغلوا بما لا يعنيكم، واشتغلوا بما يعنيكم، فآمنوا «بالله ورسله» فإنكم إن فعلتم ذلك «فلكم أجر عظيم». قرأ حمزة والكسائي: «حتى يُميز»[1] مع التشديد بضم الياء ونصب الميم وقرأ الباقون، بنصب الياء وكسر الميم بغير تشديد وتفسيرهما واحد إلا أنك إذا قرأت بالتشديد قد يكون عبارة عن الكثرة والمبالغة.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

ثم قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ أي بما أعطاهم الله من المال، يبخلون ويمنعون الزكاة والصدقة وصلة الأرحام، فلا يظنوا أن ذلك ﴿هو خير لهم بل هو شر لهم﴾ يعني أن البخل، شر لهم. ويقال: الفضل شر لهم. ﴿سيطوقون﴾ يقول: سيوثقون ﴿ما بخلوا به﴾ من الزكاة كهيئة الطوق. وروي عن ابن عباس أنه قال: «يأتي كنز أحدهم شجاع أقرع له زبيبتان، طوقاً في عنقه يلدغ خديه ويقول أنا الزكاة التي بخلت بي في الدنيا». وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو هذا[2]، فذلك قوله تعالى «سيطوقون ما بخلوا به» ﴿يوم القيامة﴾ ويقال هو طوق من نار في عنقه، ويقال: هو على وجه المثل، يعني وبال ذلك في عنقهم، كما قال في آية أخرى: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه». قوله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ يعني: إذا هلك الخلق كلهم أهل السموات من الملائكة، وأهل الأرض من الإنس والجن وسائر الخلق، ويبقى رب العالمين، ثم يقول: «لمن الملك اليوم» فلا يجيب أحد، فيرد على نفسه فيقول: لله الواحد القهار. فذلك قوله تعالى «ولله ميراث السموات والأرض» يعني يهلك أهل السموات والأرض ولم يبق لأحد ملك وإنما سمي ميراثاً على وجه المجاز، لأن القرآن بلغة العرب وكانوا يعرفون أن من رجع الملك إليه يكون ميراثاً على وجه المجاز، وأما في الحقيقة فليس بميراث، لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن يملكه

---

(١) انظر حجة القراءات ١/١٨٢.

(٢) والحديث روي مرفوعاً من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أخرجه البخاري ٣/٣١٥ في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة... (١٤٠٣). وقوله (زبيبتان) تثنية زبيبة بفتح الزاي وموحدتين، وهم الزبدتان اللتان في الشدقين يقال تكلم حتى زبد شدقاه أي خرج الزبد منهما وقيل غير ذلك... انظر الفتح ٣/٣١٧.

من قبل، والله ـ عز وجل ـ مالكهما وكانت السموات وما فيها والأرض وما فيها له، وإنما كانت الأموال عارية عند أربابها، فإذا ماتوا رجعت العارية إلى صاحبها الذي كانت له في الأصل. ومعنى الآية: إن الله تعالى أمر عباده أن ينفقوا ولا يبخلوا قبل أن يموتوا ويتركوا المال [ميراث الله][(١)] لله تعالى، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا، ثم قال تعالى: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عالم بمن يؤدي الزكاة، وبمن يمنعها فيجازي كل نفس بما عملت. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[(٢)]: بـما «يعملون» بالياء، والباقون بالتاء على وجه المخاطبة: «لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء»، وقال في رواية الضحاك: لما نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً» قالت الفجرة من كفرة اليهود، أفقير ربنا فيستقرضنا، قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، فنزلت هذه الآية[(٣)]، ويقال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث أبا بكر إلى اليهود ليأمرهم بالإسلام، وأن يعطوا الصدقة ويؤمنوا، فلما انتهى إليهم أبو بكر، قال «فنحاص بن عازورا» (أيسأل)[(٤)] الله منا الصدقة، فهو فقير ونحن أغنياء، فنزلت هذه الآية: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا﴾ أي حفظ قولهم ونجازيهم. ويقال: سنكتب ما قالوا، يعني يكتب عليهم الكرام الكاتبون ويؤاخذون به في الآخرة. ﴿وقتلهم﴾ أي ونكتب قتلهم ﴿الأنبياء بغير حق﴾ يعني بلا جرم ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم في الآخرة ذلك. قرأ حمزة[(٥)] «سيُكتَب» بضم الياء ونصب التاء. «وقتلُهم الأنبياء» بضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله، يعني يكتب قتلهم الأنبياء ويقول بالياء والباقون «سنكتب» بالنون «وقتلهم» بنصب اللام ونقول بالنون.
وقوله: «ذوقوا عذاب الحريق» روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لو أن شرارة وقعت بالمشرق لغلت منها جماجم قوم بالمغرب ولو أن حلقة من سلاسل النار وضعت على رأس جبل لاحترق إلى سبع أرضين، فهذا معنى قوله عذاب الحريق[(٦)].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

ثم قال: ﴿ذلك بما قدمت﴾ يعني يقال لهم: ذلك العذاب بما قدمت ﴿أيديكم﴾ من الكفر والتكذيب، أي بما قدمتم، وذكر الأيدي على معنى الكتابة. ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي لا يعذب أحداً بغير ذنب.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الذين قالوا﴾ يعني كعب بن الأشرف، ومالك بن الضيف وغيرهما من رؤساء اليهود، قالوا ﴿إن الله عهد إلينا﴾ يعني أمرنا في التوراة ﴿أن لا نؤمن﴾ يعني، إن لا نصدق ﴿لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ يعني تجيء نار من السماء، فتأكل القربان بالبينات، فإن جئتنا بها صدقناك قال الله تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم﴾ يعني بالآيات والعلامات، وبالذي قلتم يعني قد جاءكم الرسل بالذي قلتم من أمر القربان ﴿فلم قتلتموهم﴾ يعني زكريا ويحيى وغيرهما ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما تقولون.

---

(١) سقط في أ. (٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١/١٨٤. (٣) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١/٩.
(٤) سقط في أ. (٥) انظر الحجة لابن زنجلة ٢/١٨٤ ـ ١٨٥.
(٦) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٤/١٣٠ واتحاف السادة المتقين. ١/٥١٩ وكنز العمال (٣٩٤٨٧) (٣٩٥٠١).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿فإن كذبوك﴾ بما تقول لهم ﴿فقد كذب رسل من قبلك﴾ فالله تعالى يعزي نبيه ليصبر على تكذيبهم فقد ﴿جاؤوا بالبينات﴾ (يعني الرسل جاءوا بالبينات أي من قبلك، وقد جاءوا) بالآيات والعلامات ﴿والزبر﴾، قال الكلبي: يعني بأحاديث الأنبياء من قبلهم، بالنبوة على ما يكون ﴿والكتاب المنير﴾ يعني الحلال والحرام، وقال الزجاج: «الزبر» جماعة الزبور، وهو الكتاب، يقال زَبَرْتُ أي كتبت، ويقال: زَبَرْتُ أي قرأت، «والكتاب المنير» يعني المعنيّ بالحلال والحرام. قرأ (أبو عمرو)(١) «بالزبر» مع الباء، وقرأ الباقون: «والزبر» بالواو(٢).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ قال الكلبي لما نزل قوله تعالى: «كل من عليها فان» قالت الملائكة هلك أهل الأرض، فلما نزل: «كل نفس ذائقة الموت» أيقنت الملائكة أنها هلكت معهم. ثم قال: ﴿وإنما توفون أجوركم﴾ أي توفون ثواب أعمالكم ﴿يوم القيامة فمن زحزح عن النار﴾ يقول: بُعِد ونُحِّي عنها ﴿وأدخل الجنة فقد فاز﴾ يعني نجا وسعد في الجنة. حدثنا محمد بن الفضل، قال حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال حدثنا المسيب، عن الأعمش، عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة، عن عبد الله بن عمرو: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه(٣) وقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾. قال ابن عباس: «متاع الغرور» مثل القدر والقارورة، والسكرجة ونحو ذلك، لأن ذلك لا يدوم، وكذلك الدنيا تزول وتفنى ولا تبقى، ويقال هو مثل الزجاج الذي يسرع إليه الكسر ولا يصلحه الجبر. ويقال كزاد المسافر يسرع إليه الفناء، فكذلك الدنيا.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ يقول: لتختبرن في أموالكم بالنقصان والذهاب. ويقال:

---

(١) انظر الحجة ٢/١٨٥.

(٢) واختلف أهل النحو في ذلك؛ فقال قوم: (مررت بزيد وعمرو) و(مررت بزيد وبعمرو) سواء، وكذلك: «جاؤوا بالبينات والزبر «وبالزُّبُر». وقال الخليل: (مررت بزيد وعمرو) مروراً واحداً كأنك مررت بهما في حال واحد، فكذلك (جاءت الرسل بالبينات والزبر) في حال وفي وقت واحد؛ و(مررت بزيد وبعمرو): مرورين، هذا لا يكون في وقت واحد، فكذلك قوله: «وجاؤوا بالبينات» ثم جاؤوا «بالزبر» وأراد بالبينات: المعجزات، ثم جاؤوا بعد ذلك بالزبر أي بالكتب.

(٣) أخرجه مسلم ١٤٧٢/٣ في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول (١٨٤٤/٤٦) وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «فليأت إلى الناس ما يجب أن يؤتى إليه» هذا من جوامع كلامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبديع حكمه وهو قاعدة مهمة ينبغي الاعتناء بها، وإن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه.

بوجوب الحقوق فيها، وفي أنفسكم بالأمراض والأوجاع والقتل ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ حين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ يعني مشركي العرب ﴿أذى كثيراً﴾ باللسان والفعل. ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، كانوا ـ أهل الجاهلية ـ يهددونه ويشتمونه، ويقولون: إنما يفعله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمشاورته فأمره الله تعالى بأن يصبر على أذاهم(١). فقال تعالى: ﴿وإن تصبروا﴾ على أذاهم ﴿وتتقوا﴾ المكافأة، ويقال: وتتقوا معاصيه. ﴿فإن ذلك من عزم الأمور﴾ يعني من حقائق الأمور، ويقال: إن ذلك الصبر من خير الأمور.

وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ
وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ
أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ
ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا
مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا
وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ
ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ
فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ
وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني أخذ عليهم الميثاق حين أخذ ذرية آدم من ظهورهم. ويقال: أخذ عليهم الميثاق بالوحي في كتب الأنبياء ﴿لتبيننه للناس﴾ يعني نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفته ﴿ولا تكتمونه﴾ عنهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر(٢) «ليبيننه للناس ولا يكتمونه» كلاهما بالياء وقرأ الباقون بالتاء، فمن قرأ بالياء فمعناه أخذ عليهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، ومن قرأ بالتاء، فمعناه أخذ عليهم الميثاق وقال لهم لتبيننه للناس ولا تكتمونه. ثم أخبر عن سوء معاملتهم ونقضهم الميثاق فقال تعالى: ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ أي: طرحوه خلف ظهورهم، يعني أنهم تركوا الميثاق ولم يعملوا به ﴿واشتروا به﴾ أي بكتمان نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفته ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي عَرضاً يسيراً من متاع الدنيا

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص (٩٩).
(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦.

﴿**فبئس ما يشترون**﴾ يعني بئس ما يختارون لأنفسهم الدنيا على الآخرة: ﴿**لا تحسبن**﴾ يقول: لا تظنن يا محمد ﴿**الذين يفرحون بما أوتوا**﴾ يقول يعجبون بما أوتوا، يعني بما غيروا من نعته وصفته، وهذا قول الكلبي، وقال الضحاك: إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد في كتابنا أن الله يبعث نبياً في آخر الزمان يختم به النبوة، فلما بعثه الله، سألهم الملوك، أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقالت اليهود طمعاً في أموال الملوك: هو غير هذا، فأعطاهم الملوك مالاً فقال الله تعالى: «لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا» أي بما أعطاهم الملوك: ﴿**ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**﴾ لأنهم كانوا يقولون نحن على دين إبراهيم، ولم يكونوا على دينه ويقال كانوا يقولون نحن أهل الصلاة، والصوم والكتاب، ويريدون أن يحمدوا بذلك. قال الله تعالى: ﴿**فلا تحسبنهم**﴾ يقول فلا تظنهم ﴿**بمفازة من العذاب**﴾ معناه، لا تظنن أنهم ينجون من العذاب بذلك ﴿**ولهم عذاب أليم**﴾ أي دائم لا يخرجون منه أبداً: ﴿**ولله ملك السموات والأرض**﴾ أي خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. ويقال: جميع من في السموات والأرض عبيده وفي ملكه. ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ «من النبات وغيره. ويقال: هذا معطوف على أول الكلام: إنهم لا ينجون من عذابه يأخذهم متى شاء لأنه على كل شيء قدير» «إن في خلق السموات والأرض» وذلك إن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم بآية لصحة دعواه، لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فنزل: ﴿**إن في خلق السموات والأرض**﴾ أي خلقين عظيمين. ويقال: فيما خلق في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق في الأرض من الجبال والبحار والأشجار. ﴿**واختلاف الليل والنهار**﴾ يقول: وذهاب الليل ومجيء النهار ويقال: اختلاف لونيهما ﴿**لآيات**﴾ أي لعبرات ﴿**لأولى الألباب**﴾ أي لذوي العقول. ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً**﴾ أي يصلون لله «قياماً» إن استطاعوا على القيام، «وقعوداً» إن لم يستطيعوا القيام ﴿**وعلى جنوبهم**﴾ إن لم يستطيعوا القعود لزمانة، ويقال: معناه الذين يذكرون الله في الأحوال كلها في حال القيام والقعود والاضطجاع، كما قال في آية أخرى: «اذكروا الله ذكراً كثيراً» ثم قال: ﴿**ويتفكرون في خلق السموات والأرض**﴾ أي يعتبرون في خلقهما. قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا ابن زرارة الحلبي عن أبي حباب، عن عطاء بن أبي رباح، قال: دخلت مع ابن عمر وعبيد بن عمير على عائشة، (فسلمنا)(١) عليها، فقالت: من هؤلاء؟ فقلت عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير، فقالت: مرحباً بك يا عبيد بن عمير، مالك لا تزورنا؟ فقال عبيد: زر غبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، فقال ابن عمر: دعونا من هذا، حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبكت بكاء شديداً ثم قالت: كل أمره عجب، أتاني في ليلتي، فدخل في فراشي حتى ألصق جلده بجلدي، فقال: يا عائشة أتأذنين لي أن أعبد ربي، فقلت: والله إني لأحب قربك، والله إني لأحب هواك، فقام إلى قربة ماء فتوضأ ثم قام فبكى وهو قائم حتى روت الدموع حجره، ثم اتكأ على شقه الأيمن ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن فبكى حتى روت الدموع الأرض، ثم أتاه بلال بعدما أذن للفجر فلما رآه يبكي قال: أتبكي يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً وما لي لا أبكي وقد أنزلت علي الليلة: «إن في خلق السموات والأرض. . . إلى قوله فقنا عذاب النار» ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها(٢). وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: تفكروا في الخلق ولا تتفكروا

---

(١) في ظ فسلمنا.

(٢) ذكره العجلوني وعزاه لابن حبان وقال رواه أيضاً أنس وجابر وابن عباس وابن عمرو وعلي وأبو الدرداء وأبو ذر وعائشة وغيرهم، حتى قال ابن طاهر إن ابن عدي أورده في أربعة عشرة موضعاً من كامله كلها معللة، وقال في الدرر وضعَّفها كلها، وأفرد أبو نعيم طرقه، ثم الحافظ ابن حجر في الإنارة بطرق غيب الزيارة، وقال في اللآليء رواه في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ =

في الخالق[١]، وقال صلى الله عليه وسلم تفكر ساعة خير من عبادة سنة[٢]، ثم قال تعالى عز وجل: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي يتفكرون ويقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، عبثاً بغير شيء، ولكن خلقتهما لأمر هو كائن ﴿سبحانك فقنا عذاب النار﴾ يعني ادفع عنا عذاب النار. وقال الزجاج: معنى سبحانك، أي تنزيهاً لك من أن تكون خلقتهما باطلاً، «فقنا عذاب النار» أي صدَّقْنا رسلك، وسلَّمنا أن لك جنة وناراً، فقنا عذاب النار. ﴿ربنا إنك من تدخل النار﴾ ﴿فقد أخزيته﴾ أي أهنته وفضحته ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ يعني ما للمشركين من مانع من العذاب إذ نزل بهم. ويقولون أيضاً: ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ يعني محمداً يدعو إلى التصديق ﴿أن آمنوا بربكم﴾ أي صدقوا بتوحيد ربكم «فآمنا» أي صدقنا بتوحيد ربنا. وقال محمد بن كعب القرظي: ليس كل الناس لقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن المنادي هو كتاب الله يدعو إلى الإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن آمنوا بربكم فآمنا ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا﴾. وقال الكلبي: الذنوب الكبائر ودون الكبائر، والسيئات الشرك، وقال الضحاك: ذنوبنا: يعني ما عملوا في حال الجاهلية، «وكفر عنا سيئاتنا». يعني: ما عملوا في حال الإسلام، ويقال الذنوب والسيئات بمعنى واحد. ويقال: الذنوب هي الكبائر، والسيئات ما دون الكبائر التي تكفر من الصلاة إلى الصلاة. ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي مع المطيعين «ويقال: اجعل أرواحنا مع أرواح المطيعين» والصالحين. ويقولون أيضاً: ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ يعني أعطنا ما وعدتنا من الخير والجنة على لسان رسلك، ويقال هو ما ذكر من استغفار الملائكة والأنبياء، للمؤمنين، وهو قوله «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض»، وما ذكر من دعاء نوح وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ للمؤمنين، ثم قال تعالى: ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ يعني لا تعذبنا ويقال لا تخذلنا ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ يعني ما وعدت، من الخير والثواب للمؤمنين ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ فأخبر الله عن فعلهم وذكر ما أجابهم به، وأنجز لهم موعده، وبين لهم ثوابه وهو قوله: «فاستجاب لهم ربهم». روي عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من دعا الله بهذه الدعوات فإنه يستجاب له، لأنه قال تعالى فاستجاب لهم ربهم ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم﴾ يعني ثواب عمل عامل في طاعتي ﴿من ذكر أو أنثى﴾ يعني رجلاً أو امرأة، قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الديبلي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، قال: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن رجل من ولد أم سلمة، يقال له سلمة بن الأكوع عن أم سلمة، أنها قالت: يا رسول الله، إني أسمع الله ذكر الهجرة، فذكر فيها الرجال ولم يذكر فيها النساء. فأنزل الله تعالى: «إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» ﴿بعضكم من بعض﴾، قال الكلبي: أي بعضكم أولياء بعض في الدين،

= زُوروا غِباً تزدادوا حباً، وقال في المقاصد وتبعه النجم بعد ذكرهما طرقه: وبمجموعها يتقوى الحديث وإن قال البزار أنه ليس فيه حديث صحيح، فهو لا ينافي ما مكناه وما أحسن قول ابن درُيَدْ:

عليك باغباب الزيارة إنها ... إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
فإني رأيت الغيث يسأمُ دائباً ... ويسأل بالأيدي إذا هو أمْسكا

انظر كشف الخفاء ١/ ٥٢٨.

(١) انظر الدرر المنثور ٢/ ١١٠ وإتحاف السادة المتقين ١/ ١٦٢ ابن كثير ٧/ ٤٤١.

(٢) ذكره العجلوني في الكشف ١(٣٧٠، ٣٧١) وقال ذكره الفاكهاني بلفظ فكر ساعة وقال أنه من كلام سري السقطي وفي لفظ ستين سنة، وذكره في الجامع الصغير بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة، وورد عن ابن عباس وأبي الدرداء بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة قال النجم إن العراقي قال في جزء له رويناه من حديث عبد الله بن سلام أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون، فقال ما لكم تتفكرون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل، قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه، ولا تتفكروا فيه فإن لهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلقٌ من خَلْق الله لم يعصوا طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان عنهم؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا، قالوا مِن ولد آدم هم؟ قال لا يدرون خُلِقَ آدم أم لا.

وقال الضحاك: يعني يشبه بعضاً في الطاعة، ويقال: بعضكم على أثر بعض، ويقال: بعضكم على دين بعض ﴿فالذين هاجروا﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ يعني أن أهل مكة أخرجوا مؤمنيهم من مكة ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ أي عُذِّبوا في طاعتي ﴿وقاتلوا﴾ مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المشركين ﴿وقُتلوا﴾ أي قتلهم المشركون. قرأ حمزة والكسائي(١) «وقتلوا وقاتلوا» على معنى التقديم والتأخير، كقوله تعالى: «إني متوفيك ورافعك» وقرأ الباقون: «وقاتلوا وقتلوا»إلا ابن كثير وابن عامر: قرءا «وقتّلوا بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة، فذكر الله فعلهم ثم ذكر ثوابهم، فقال: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم﴾ أي لأمحون عنهم ذنوبهم ﴿ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري يعني من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ﴿ثواباً من عند الله﴾ يعني أن الجنات جزاء لأعمالهم من عند الله وقال الزجاج: إنما صار نصباً، لأنه مصدر مؤكد، معناه: لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ولأثيبنهم ثواباً. وروي عن الفراء أنه قال: إنما صار نصباً على التفسير، ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي حسن الجزاء وهو الجنة، ويقال: حسن المرجع في الآخرة خير من الدنيا.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ يقول: لا يحزنك يا محمد ذهابهم ومجيئهم في تجاراتهم ومكاسبهم في الأرض، ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين ومعناه لا يغرنكم تجارات الكفار وتصرفهم في أموالهم في البلاد لأن ذلك ﴿متاع قليل﴾ لأن الكفار كانوا في رخاء وعيش، وكانت لهم رحلة الشتاء والصيف، وكان المؤمنون في ضيق وشدة، فأخبر الله تعالى بمرجع الكفار في الآخرة، وبمرجع المؤمنين فقال تعالى: لا يغرنك تقلب الذين كفروا أي ما هم فيه من العيش والسعة، فإنما هو متاع أي يفنى بعد وقت قريب قوله ﴿ثم مأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم إلى جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ بئس موضع القرار في النار، وبئس المصير إليها فما (ينفعهم) تجاراتهم وأموالهم.

لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

ثم ذكر مرجع المؤمنين ومصيرهم فقال: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ أي اتقوا الشرك والفواحش ووحّدوا، ﴿ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبداً ﴿نزلاً من عند الله﴾ يقول ثواباً من عند الله للمؤمنين الموحدين خاصة. ﴿وما عند الله﴾ الجنة ﴿خير للأبرار﴾ من الدنيا للمؤمنين المطيعين. ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب، معناه، من أهل الكتاب من

(١) انظر الحجة ١ /١٨٧.

آمن بالله فصدق بقوله: ﴿وما أنزل إليكم﴾ من القرآن وصدق ﴿وما أنزل إليهم﴾ من التوراة والإنجيل يعني على أنبيائهم، فذكر حالهم وبين ثوابهم لكي يرغب غيرهم من أهل الكتاب ليؤمنوا إذا علموا بثوابهم، ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿خاشعين لله﴾ أي متواضعين لله، والخشوع: أصله التذلل وكذلك الخضوع، وقد فرق بعض أهل اللغة بين الخشوع والخضوع، فقال: الخضوع في البدن خاصة، والخشوع يكون في البدن والبصر والصوت والقلب كما قال الله تعالى: «وخشعت الأصوات للرحمن» وقال: «خاشعة أبصارهم». ثم قال تعالى: ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني عرضاً يسيراً كفعل اليهود، ﴿أولئك لهم أجرهم﴾ أي ثوابهم ﴿عند ربهم﴾ الجنة ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي شديد العقوبة ويقال: سريع الحفظ والتعريف. ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ أي اصبروا على البلاء والجهاد وأداء الفرائض، وعن المعاصي. ﴿وصابروا﴾ مع نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عدوكم حتى يدعوا دينهم إلى دينكم، يعني يتركوا الشرك، ويدخلوا في الإيمان ﴿ورابطوا﴾ مع عدوكم ما أقاموا وهذا قول الكلبي. وقال عكرمة: اصبروا على البلاء وعلى طاعة الله «وصابروا» أهل الضلالة «ورابطوا» الخيول. وقال الزجاج: اصبروا على دينكم وصابروا على عدوكم، ورابطوا أي أقيموا على جهادكم بالحرب. ﴿واتقوا الله﴾ في جميع ما أمركم ونهاكم. وقال القتبي: أصل المرابطة: أن يربطوا خيولهم في الثغر. ﴿لعلكم تفلحون﴾ يقول: تفوزون وتأمنون النار وتنجون منها، ويقال: أصل الفلاح البقاء بالنعمة، ويقال: الفلاح أن يبلغ الإنسان نهاية ما (يؤمل). والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين آمين.

سُورَةُ النِّسَاءِ (١)

وهي مائة وستة وسبعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

﴿يا أيها الناس﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: «يا أيها الناس» قال الناس عامة، وقد يكون: «يا أيها الناس» خاصة وعامة، يعني خاصة لأهل مكة، وفي هذا الموضع عام لجميع الناس **﴿اتقوا ربكم﴾** يعني اخشوا ربكم، ويقال: أطيعوا ربكم. ويقال: احذروا المعاصي لكي تنجوا من عقوبة ربكم. وقال: وحدوا

---

(١) **سميت هذه السورة في كلام السلف «سورة النساء» ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت (ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده)** وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة وكتب التفسير ولا يعرف لها اسم آخر، لكن يؤخذ مما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود من قوله (نـزلت سورة النساء القصرى) يعني سورة الطلاق ـ أنها شاركت هذه السورة في التسمية بسورة النساء، وأن هذه السورة تميز عن سورة الطلاق باسم سورة النساء الطولى، ولم أقف عليه صريحاً، ووقع في كتاب «بصائر ذوي التمييز» للفيروزابادي أن هذه السورة تسمى سورة النساء الكبرى، واسم سورة الطلاق سورة النساء الصغرى ولم أره ـ لغيره.

ووجه تسميتها بإضافة إلى النساء أنها افتتحت بأحكام صلة الرحم، ثم بأحكام تخص النساء، وأن فيها أحكاماً كثيرة من أحكام النساء الأزواج والبنات، وختمت بأحكام تخص النساء.

وكان ابتداء نزولها بالمدينة، لما صح عن عائشة أنها قالت: «ما نزلت سورة البقرة وسورة النساء إلا وأنا عنده» وقد عُلم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنى بعائشة في المدينة في شوال لثمان أشهر خلت من الهجرة، واتفق العلماء على أن سورة النساء نزلت بعد البقرة، فتعين أن يكون نزولها متأخراً عن الهجرة بمدة طويلة. والجمهور قالوا: نزلت بعد آل عمران، ومعلوم أن آل عمران نزلت في خلال سنة ثلاث أي بعد وقعة أُحد، فيتعين أن تكون سورة النساء نزلت بعدها. وعن ابن عباس: «أن أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم سورة الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء» فإذا كان كذلك تكون سورة النساء نازلة بعد وقعة الأحزاب التي هي في أواخر سنة أربع أو أول سنة خمس من الهجرة وبعد صلح الحديبية الذي هو في سنة ست، حيث تضمنت سورة الممتحنة شرط إرجاع من يأتي المشركين هارباً إلى المسلمين عدا النساء وهي آية «إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات» الآية، وقد قيل: إن آية (وآتوا اليتامى أموالهم نزلت في رجل من غَطَفَان له ابن أخ يتيم، وغطفان أسلموا بعد وقعة الأحزاب ـ إذ هم من جملة الأحزاب أي بعد سنة خمس.

ومن العلماء من قال: نزلت سورة النساء عند الهجرة وهو بعيد، وأغرب منه من قال: إنها نزلت بمكة لأنها أفتتحت بيا أيها الناس وما كان فيه يا أيها الناس فهو مكي، ولعله يعني أنها نزلت بمكة أيام الفتح لا قبل الهجرة، لأنهم يطلقون المكي بإطلاقين. وقال بعضهم: نزل صدرُها بمكة وسائرُها بالمدينة، والحق أن الخطاب «بيا أيها الناس» لا يـدل إلا على إرادة دخول أهـل مكة في الخطاب، ولا يلزم أن يكون ذلك بمكة ولا قبل الهجرة فإن كثيراً مما فيه «يا أيها الناس» مدني بالاتفاق، ولا شك في أنها نزلت بعد =

ربكم ولا تشركوا به شيئاً. ثم دل على وحدانية نفسـه بصنيعه. فقال: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني آدم، ﴿وخلق منها زوجها﴾ يعني خلق من نفس آدم زوجها حواء، وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم، فكان آدم بين النائم واليقظان، فخلق من ضلع من أضلاعه اليسرى حواء، فلما استيقظ، قيل له: من هذه يا آدم؟ قال: امرأة، لأنها خلقت من المرء، فقيل: ما اسمها قال: حواء، لأنها خلقت من حي، وقد قيل: إنما سميت حواء لأنه كان على شفتيها حوه، وقيل: لأن لونها كان يضرب إلى السمرة، فسميت حواء من قولك أحوا،

= آل عمران، لأن في سورة النساء من تفاصيل الأحكام ما شأنه أن يكون بعد استقرار المسلمين بالمدينة، وانتظام أحوالهم وأمنهم من أعدائهم، وفيها آية التيمم،والتيمم شرع يوم غزوة المريسيع سنة خمس وقيل: سنة ست. فالذي يظهر أن نزول سورة النساء كان في حدود سنة سبع وطالت مدة نزولها، ويؤيد ذلك أن كثيراً من الأحكام التي جاءت فيها مفصلة تقدمت مجملة في سورة البقرة من أحكام الأيتام والنساء والمواريث، فمعظم ما في سورة النساء شرائع تفصيلية في معظم نواحي حياة المسلمين الإجتماعية من نظم الأموال، والمعاشرة، والحكم، وغير ذلك. على أنه قد قيل: إن آخر آية منها وهي آية الكلالة هي آخر آية نزلت من القرآن إلا أنه يجوز أن يكون بين نزول سائر سورة النساء وبين نزول آية الكلالة التي في آخرها مدة طويلة، وأنه لما نزلت آية الكلالة الأخيرة أمروا بإلحاقها بسورة النساء التي فيها الآية الأولى، ووردت في السنـة تسمية آية الكلالة الأولى آية الشتاء، وآية الكلالة الأخيرة آية الصيف، ويتعين ابتداء نزولها قبل فتح مكة لقوله تعالى ﴿وما لَكُم لَا تُقَاتِلُون في سَبِيل اللَّه والمُسْتَضْعَفِينَ من الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ يعني مكة وفيها آية ﴿إِنَّ اللَّه يَأْمُرُكُم أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا﴾ نزلت يوم فتح مكة في قصة «عثمان بن طلحة الشيبي» صاحب مفتاح الكعبة، وليس فيها جدال مع المشركين سوى تحقير دينهم نحو قوله ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ باللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إثماً عظيماً ـ فَقَد ضَلَّ ضَلالاً بعيداً﴾ إلخ وسوى التهديد بالقتال، وقطع معذرة المتقاعدين عن الهجـرة، وتوهين بأسهم عن المسلمين، مما يدل على أن أمر المشركين قد صار إلى وهن، وصار المسلمون في قوة عليهم، وأن معظمها ـ بعد التشريع ـ جدال كثير مع اليهود وتشويه لأحوال المنافقين، وجدال مع النصارى ليس بكثير، ولكنه أوسع مما في سورة آل عمران، مما يدل على أن مخالطة المسلمين للنصارى أخذت تظهر بسبب تفشي الإسلام في تخوم الحجاز الشامية لفتح معظم الحجاز وتهامة.

وقد عُدَّت الثالثة والتسعين من السور، نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾.

وعدد آياتها مائة وخمس وسبعون في عدد أهل المدينة ومكة والبصرة، ومائة وست وسبعون في عدد أهل الكوفة، ومائة وسبع وسبعون في عدد أهل الشام.

وقد اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم، فكانت فاتحتها مناسبة لذلك بالتذكير بنعمة خلق الله وأنهم محقوقون بأن يشكروا ربهم على ذلك، وأن يراعوا حقوق النوع الذي خلقوا منه بـأن يصلوا أرحامهم القـريبة والبعيدة، وبالرفق بضعفاء ـ النوع من اليتامى، ويراعوا حقوق صنف النساء من نوعهم بإقامة العدل في معاملاتهن، والإشارة إلى عقود النكاح والصداق، وشرع قوانين المعاملة مع النساء في حـالتي الإستقامـة والإنحراف من كـلا الزوجين، ومعـاشرتهن، والمصالحة معهن، وبيان ما يحل للتزوج منهن، والمحرمات بالقرابة أو الصهر، وأحكام الجواري بملك اليمين، وكذلك حقوق مصير المال إلى القرابة، وتقسيم ذلك، وحقوق حفظ اليتامى في أموالهم، وحفظها لهم، والوصاية عليهم.

ثم أحكام المعاملات بين جماعة المسلمين في الأموال والدماء، وأحكام القتل عمداً وخطأ، وتأصيل الحكم الشرعي بين المسلمين في الحقوق، والدفاع عن المعتدي عليه، والأمر بإقامة العدل بدون مصانعة، والتحذير من إتباع الهوى، والأمر بالبر والمواساة وأداء الأمانات، والتمهيد لتحريم شرب الخمر.

وطائفة من أحكام الصلاة، والطهارة، وصلاة الخوف، ثم أحوال اليهود لكثرتهم بالمدينة، وأحوال المنافقين وفضائحهم، وأحكام الجهاد لدفع شوكة المشركين، وأحكام معاملة المشركين ومساويهم، ووجوب هجرة المؤمنين من مكة، وإبطال مآثر الجاهلية.

وقد تخلل ذلك مواعظ، وترغيب، ونهي عن الحسد، وعن تمني ما للغير من المزايا التي حرم منها من حرم بحكم الشرع أو بحكم الفطرة، والترغيب في التوسط في الخير والإصلاح وبث المحبة بين المسلمين. انظر التنوير ٤/٢١١، ٢١٣، ٢١٤.

كقوله تعالى: «فجعله غثاء أحوى» ثم قال تعالى: ﴿وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ يعني خلق منهما، يعني من آدم وحواء، ونشر منهما رجالاً كثيراً ونساءً، يعني خلق منهما رجالاً كثيراً ونساءً. قال مقاتل:[١] أي خلق منهما ألف ذرية من الناس. ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي أطيعوا الله ﴿الذي تساءلون به﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم وأبو عمرو، في رواية هارون[٢]: «تسألون» بغير تشديد، وقرأ الباقون: بالتشديد، [فأما من قرأ بالتشديد][٣]، لأن أصله تتساءلون، فأدغم إحدى التاءين في السين وأقيم التشديد مقامه، ومن قرأ بالتخفيف فالأصل أيضاً: تتساءلون فحذف إحدى التاءين لاجتماع الحرفين من جنس واحد للتخفيف. ثم قال: ﴿والأرحام﴾ قرأ حمزة:[٤] «والأرحام» بكسر الميم، والباقون بنصب الميم، ومعناه: واتقوا الله الذي تسألون به الحاجات، يعني الذي يسأل الناس بعضهم بعضاً، فيقول الرجل للرجل: أسألك بالله، وأنشدك بالله والأرحام، يقول: واتقوا [الله][٥] في ذوي الأرحام فصلوها ولا تقطعوها، وأما من قرأ بالكسر: معناه، أسألك بالله وبالرحم أن تعطيني شيئاً. وقال الزجاج من قرأ بالخفض فخطأ في العربية [وفي أمر الدين، أما الخطأ في العربية][٦] لأن الإسم يعطف على الاسم المفصح به ولا يعطف على المكنى به إلا في اضطرار الشعر كقول الشاعر:[٧]

---

(١) انظر التفسير ١/٢٢١.

(٢) إلا أن في نسبة تخفيف السين لأبي عمرو غير صحيح لأن أبا عمرو قرأ (تَسَّاءلون) بتشديد السين مثل نافع وابن كثير وابن عامر. انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٨٨) سراج القاريء (١٨٨).

(٣) سقط في ظ.

(٤) فقرأ حمزة بخفض الميم «والأرحام» عطفاً على الضمير في (به) على مذهب الكوفيين، أو أعيد الجار وحذف للعلم به وجُرَّ على القسم تعظيماً للأرحام حثاً على صلتها، والباقون بالنصب عطفاً على لفظ الجلالة أو على محل (به) كقولك: مررتَ به وزيداً، وهو من عطف الخاص على العام والمعنى: اتقوا مخالفته، وقطع الأرحام متدرج فيها فنبه سبحانه بذلك وقرنها باسمه تعالى على أن صلة الأرحام بمكان عند الله تعالى، وطَعْن الزجاج في قراءة الخفض مردود، ولقد أفاض الإمام «أبو شامة» في «شرح الحرز» عند قول الناظم «وحمزة والأرحام بالخفض جملا» وذكر كلام النحويين الطاعنين في هذه القراءة وما استدلوا به وقال في آخر شرح البيت المذكور ما نصه: «وأورد بعض أئمة العربية ذلك فقد سبق جوابه ثم قال أبو شامة أيضاً: وحكى أبو نصر بن القشيري رحمه الله في تفسيره كلام أبي إسحاق الزجاج الذي حكيناه ثم قال: ومثل هذا الكلام مردود عند أئمة الدين لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراءة ثبتت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تواتراً بعرفة أهل الصنعة، وإذا ثبت شيء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن رد ذلك فقد رد على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستقبح ما قرأ به وهذا مقام محذور لا تقلد فيه أئمة اللغة والنحو، ولعلهم أرادوا أنه صحيح فصيح وإن كان غيره أفصح منه فإنا لا ندعي أن كل القراءات على أرفع الدرجات في الفصاحة اهـ كلام القشيري.
ثم علق عليه أبو شامة رحمه الله بقوله: وهذا كلام حسن صحيح:
انظر إبراز المعاني شرح الحرز سورة ـ النساء، الإنصاف لابن الأنباري، وانظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٨٨) وما بعدها.

(٥) سقط في ظ. (٦) سقط من ظ.

(٧) والبيت هكذا بالأصل.

قد كنتَ من قبلُ تهجُونا وَتَفْضَحُنَا ... فما بك والأيام مِنْ عجب

هذا البيت من شواهد سيبويه التي لم يعرف قائلها والشاهد فيه عطف الأيام على الضمير المتصل المجرور بالياء من غير إعادة الجار وذلك عند البصريين قبيح لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، وهو عند الكوفيين جائز في السعة، بدليل قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلونَ به الأَرْحامِ﴾ في قراءة حمزة بجر «الأرحام» عطفاً على الهاء في (به) وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُم﴾ فإن (ما) عطف على الضمير المجرور بفي. وقوله تعالى: ﴿لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْم مِنْهُم والمؤمِنُون يُؤْمنون بما أُنْزِلَ إليكَ وَمَا أُنْزِلَ من قَبْلِكَ والمقيمين الصَّلاةَ﴾ فإن (المقيمين) عطف على الكاف في (إليك) أو الكاف في (قبلك) وبدليل قول الشاعر [وهو عباس بن مرداس السلمي] الشاعر المخضرم.

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فما لنا بك والأيام من عجب[(١)]

وأما في غير الشعر فلا يستعمل، وأما الخطأ الذي في الدين، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: **لا تحلفوا بآبائكم**[(٢)]، فالسؤال بالأرحام أمر عظيم ولكن روي عن إبراهيم النخعي: أنه كان يقرأ بالخفض أيضاً. ثم قال تعالى: **﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾** أي حفيظاً لأعمالكم يسألكم عنها فيما أمركم به، وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما من عمل حسنة أسرع ثواباً من صلة الرحم وما من عمل سيئة أسرع عقوبة من البغي، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع[(٣)] وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [إن الله][(٤)] لما خلق الرحم قال له: أصل من وصلك واقطع من قطعك[(٥)]. ويقال الرحم مشتق من الرحمة، فمن قطعها فليس له من رحمة الله تعالى نصيب. وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرحم معلق بالعرش فمن قطعها قطعني ومن وصلها وصلني[(٦)].

= أَكُرُّ عَلى الكتيبةِ لا أُبالي أفيها كَانَ حَتْفِي أَمْ سِوَاهَا

فإن «سواها» عطف على «ها» في قوله فيها، وقول الآخر:

هَلَّا سَأَلْت بِذي الجَمَاجِم عَنهُم وأبي نَعِيم ذي اللّواءِ المحرق

فإن قوله «أبي نعيم» عطف على «هم» في قوله «عنهم»، ومثله قوله الآخر:

تُعَلَّقُ في مثل السَّواري سيوفُنا وما بينها والكَعْبِ غوط نفانف

فقوله الكعب عطف على ها في بينها، والجواب عن هذا بأن الواو في قوله تعالى (والأرحام) للقسم لا للعطف. وما في قوله (وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُم) عطف على لفظ الجلالة أي أن الله يفتيكم والقرآن كذلك وأن «المقيمين» نصب على المدح، والأبيات إن سلم حملها على ما قبل فهي من الشذوذ بحيث لا يقاس عليها. انظر المفصل ٧٨/٣.

وانظر سيبويه وشرح شواهده للأعلم ٣٩٢/١، الكامل للمبرد (٤٥١) الإنصاف لابن الأنباري (٤٦٤) شرح المفصل ٧٨/٣ والبغدادي في الخزانة ٣٣٨/٢ شرح شواهد الألفية للعيني ١٦٣/٤ همع الهوامع للسيوطي ١٢٠/١ شرح الأشموني على الألفية ١٥/٣.

(١) والبيت هكذا في ظ.

قد كُنْتَ من قَبْلُ تَهجُونَا وَتَفْضَحُنَا فما بكِ والأيام من عَجَبِ

(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ أخرجه أبو داود ٥٦٩/٣ في «الأيمان والنذور» باب في «كراهية الحلف بالآباء» (٣٢٤٨). وأخرجه النسائي ٥/٧ في الأيمان وابن حبان، ذكره الهيثمي في الموارد ص ٢٨٦ في الأيمان (١١٧٦) وبلفظ «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم» من حديث ابن عمر أخرجه البخاري ٥٣٠/١١ في الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ومسلم ١٢٦٦/٣ ـ ١٢٦٧ ـ ١٢٦٧ في الأيمان (١٦٤٦/٣).

(٣) أخرجه وكيع في الزهد بإسناد مرسل (٤٠٦) وعبد الرزاق في المصنف ١٧٠/١١ ـ ١٧١ وذكره السيوطي في الجامع الصغير وعزاه للبيهقي في السنن الكبرى، وأخرجه ابن ماجه ١٤٠٨/٢ في الزهد باب البغي، وابن عدي في الكامل ١٣٨٧/٤ وقال البوصيري في إسناده صالح بن موسى الطلحي وهو ضعيف، وانظر بقية التخريج في السير والصلة لابن الجوزي. والبلاقع جمع بَلْقَع وبَلْقَعَة، وهي الأرض القفر التي لا شيء بها ويريد أن الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق. وقيل هو أن يفرق الله شمله ويغير عليه ما أولاه من نعمة. انظر النهاية في غريب الحديث ١٥٣/١، وانظر البر والصلة للإمام ابن الجوزي طبعة مكتبة السنة.

(٤) سقط في ظ.

(٥) متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري ٥٨٠/٨ في التفسير (٤٨٣١ ـ ٤٨٣٢) (٥٩٨٧)، (٧٥٠٢) وأخرجه مسلم ١٩٨٠/٤ في البر والصلة باب صلة الرحم ٢٥٥٤/١٦.

(٦) متفق عليه من رواية السيدة عائشة رضي الله عنها واللفظ لمسلم، أخرجه البخاري ٤١٧/١٠ في الأدب (٥٩٨٩) وأخرجه مسلم ١٩٨١/٤، في كتاب البر والصلة (٢٥٥٥/١٧) وانظر تحفة الأشراف للحافظ المزي ٢٢٩/١٢.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

ثم قال: ﴿**وآتُوا اليتامى أموالهم**﴾ يقول للأولياء: (آتوا) اليتامى أموالهم التي عندكم إذا بلغوا النكاح، يعني الحلم. ﴿**ولا تتبدلوا الخبيث**﴾ يعني الحرام ﴿**بالطيب**﴾ يعني بالحلال من أموالكم، يقول: لا تذروا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرام من أموال اليتامى ويقال: لا تخلطوا الخبيث بالطيب، ويقال: لا تخلطوا من مالكم الرديء، وتأخذوا الجيد من مال اليتيم، يعني أن يرسل شاة عجفاء في غنمه، ويأخذ مكانها شاة سمينة، وفي الحبوب كذلك. ويقال: لا تجعلوا أموالهم وقاية لأموالكم. ثم قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم**﴾ يعني مع أموالكم ﴿**إنه كان حوبا كبيراً**﴾ يعني إثماً عظيماً. قرأ الحسن[١] «حوبا» بنصب الحاء، قال مقاتل: هو بلغة الحبش، قال القتبي الحُوب والحَوْب واحد، وهو الإثم. وقال مقاتل[٢]: نزلت في رجل من غطفان، كان معه مال كثير لابن أخيه فلما بلغ اليتيم، طلب ماله، فمنعه العم، فنزلت الآية. فقرأها عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الرجل: أطعنا الله ورسوله، ونعوذ بالله من الحوب الكبير، فدفع إليه ماله، فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لقد أصاب الأجر، وبقي الوزر، فقالوا: كيف بقي الوزر، وقد أنفقه في سبيل الله، فقال: أصاب الغلام الأجر وبقي الوزر على والده. قوله تعالى: ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى**﴾ يعني ألا تعدلوا في أموال اليتامى، يقال في اللغة[٣]: أقسط الرجل: إذا عدل، وقسط: إذا جار. وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ المقسطون في الدنيا على منابر من نور يوم القيامة[٤]. يعني العادلون قال الله تعالى: «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا» يعني الجائرون [ثم قال تعالى][٥] ﴿**فانكحوا ما طاب لكم...**﴾ وذلك أنهم كانوا يسألون عن أمر اليتامى ويخافون ألا يعدلوا، وكانوا يتزوجون من النساء ما شاءوا فنزلت هذه الآية: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم» ﴿**من النساء مثنى و ثلاث ورباع**﴾ يعني[٦] فكما خفتم ألا تعدلوا في اليتامى، فخافوا في النساء إذا اجتمعن عندكم ألا تعدلوا بينهن. وروى عروة[٧] عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان الناس يتزوجون اليتامى ولا يعدلون بينهن، ولم يكن لهم أحد يخاصم عنهن، فنهى الله المؤمنين عن ذلك، فقال: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى[٨]) الآية. ويقال: إنهم كانوا يتزوجون امرأة لها أولاد أيتام، وكانوا لا يحسنون النظر إليهم، فنزل. (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم) يعني بغير ولد، مثنى وثلاث ورباع، ثم قال تعالى: ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا**﴾ في القسم والنفقة ﴿**فواحدة**﴾ يقول: تزوجوا امرأة واحدة،

---

(١) هذه القراءة شاذة لا يقرأ بها لعدم تواترها.

(٢) انظر التفسير ١/٢٢٢.

(٣) انظر لسان العرب ٥/٣٦٢٧، ترتيب القاموس ٣/٦١٨.

(٤) اخرجه مسلم ٣/١٤٥٨ في كتاب الإمارة (١٨/١٨٢٧) وأخرجه النسائي ٨/٢٢١ في كتاب أدب القضاء (٥٣٧٩).

(٥) سقط في ظ. (٦) سقط في ظ.

(٧) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، أبو عبد الله المدني، أحد القراء السبعة، وأحد علماء التابعين، وقال الزهري: عروة بحر لا تكدره الدِّلاء، مات سنة اثنتين وتسعين وقيل غير ذلك.

(٨) بنحوه أخرجه البخاري ٨/٨٦ ـ ٨٧ في كتاب التفسير (٤٥٧٣ ـ ٤٥٧٤) ومسلم ٤/٢٣١٢ في كتاب التفسير (٦ ـ ٣٠١٨/٧).

وإن خفتم ألا تعدلوا في الواحدة ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ يعني الإماء. ويقال: إن خفتم ألا تعدلوا في القسم بين النساء فواحدة أي واشتروا الإماء، لأن الواحدة لا تحتاج إلى القسمة، والإماء لا يحتاج فيهن إلى القسمة، وقال بعض الروافض بظاهر هذه الآية: أنه يجوز نكاح تسع نسوة لأنه قال: مثنى وثلاث ورباع، فيكون ذلك تسعاً. ولكن أجمع المفسرون: إن المراد به التفصيل لا الإجتماع، ومعناه مثنى، أو ثلاث، أو رباع. وبذلك جاءت الآثار، وهو حديث: غيلان بن سلمة:(١) أنه أسلم ومعه عشرة نسوة، فخيره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاختار أربعاً (وفارق البواقي(٢) وروي عن الكلبي ومقاتل: أن قيس بن الحارس(٣) كان عنده ثمان نسوة حرائر فلما نزلت هذه الآية، أمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطلق أربعاً ويمسك أربعاً(٤)، وروى محمد بن الحسن في كتاب السير الكبير أن ذلك كان الحارث بن قيس الأسدي، وهذا هو المعروف عند الفقهاء، ثم قال تعالى: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ أي أحرى ألا تميلوا، ولا تجوروا ولا تظلموا. ثم قال تعالى:

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾

﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ يعني أعطوا النساء مهورهن فريضة. ويقال: ديانة، كما يقال: فلان ينتحل [إلى](٥) مذهب كذا، أي يدين(٦) بكذا، ويقال: نحلة، أي صدقة وهبة، لأن المهر نحلة من الله تعالى للنساء، حيث لم يوجب عليهن وأوجب لهن. وقال في رواية الكلبي: إن أهل الجاهلية، كان الولي إذا زوجها(٧) فإن كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلاً ولا كثيراً، وإن كانت غريبة حملوها على بعير إلى زوجها، ولا يعطوها مهرها ـ غير ذلك البعير ـ شيئاً، فنزل: قوله تعالى: «وآتوا النساء صدقاتهن نحلة»، يعني به الأولياء يعني أعطوهن مهورهن نحلة، يقول عطية لهن وقال في رواية مقاتل:(٨) كان الرجل يتزوج بغير مهر، ويقول: أرثك وترثيني، فنزلت الآية: وآتوا النساء، يعني الأزواج، صدقاتهن نحلة، أي مهور النساء نحلة، يعني فريضة ﴿فإن طبن لكم﴾ يا معشر الأزواج، أي أحللن لكم ووهبن لكم. قال في رواية الكلبي، يعني الأولياء، إذا وهبت المرأة المهر للولي

---

(١) غَيْلَان بن سَلمة بن معتب بن مالك الثقفي سمي أبو عمر جده شُرَحبيل قال البغوي: سكن الطائف وأسلم بعد فتح الطائف. الإصابة ٥/١٩٢.

(٢) أخرجه الشافعي في المسند ٢/١٦ في النكاح (٤٣) وأحمد ٢/٤٤ والترمذي ٣/٤٣٥ في النكاح (١١٢٨) وابن ماجه ١/٦٢٨ في النكاح (١٩٥٣) وابن حبان ٣/٢٦٩ في النكاح (٩٤) والحاكم في المستدرك ٢/١٩٢ في النكاح والبيهقي ٧/١٨ في النكاح.

(٣) قيس بن الحارث بن حذار الأسدي له صحبة.

(٤) أخرجه أبو داود ٢/٢٧٢ في الطلاق، باب في من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع (٢٢٤٢) وأخرجه ابن ماجه ١/٦٢٨ في كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة (١٩٥٢).

(٥) سقط في ظ. (٦) سقط في ظ. (٧) ذكر ذلك القرطبي ٥/١٧. (٨) انظر التفسير ١/٢٢٣.

(فذلك قوله: فإن طبن لكم ﴿عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً﴾ أي طيباً لا إثم فيه ﴿مريئاً﴾ أي لا داء فيه. ويقال: هنيئاً مريئاً، يعني حلالاً طيباً. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا كان أحدكم مريضاً، فليسأل من امرأته، درهمين من مهرها حتى تهب له بطيبة نفسها، فيشتري بذلك عسلاً فيشربه مع ماء المطر فحينئذ قد اجتمع الهنيء، والمريء، والشفاء والماء المبارك[1]، يعني أن الله سبحانه تعالى سمى المهر هنيئاً مريئاً، إذا وهبت وسمى العسل شفاء، وسمي ماء المطر مباركاً، فإذا اجتمعت هذه الأشياء يرجى له الشفاء ثم قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ يعني النساء، والأولاد الصغار يعني لا يجعل الرجل ماله في يدي امرأته وأولاده، ثم يجعل نفسه محتاجاً إليهم، فلا يدفع إليه عند حاجته. ويقال: لا تدفعوا أموالكم مضاربة، ولا إلى وكيل لا يحسن التجارة. وروي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: من لم يتفقه، فلا يتجر في سوقنا، فذلك قوله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) يعني الجهال بالأحكام[2]. ويقال: لا تدفعوا إلى الكفار، ولهذا كره علماؤنا أن يوكل المسلم ذمياً [بالبيع والشراء][3] أو يدفع إليه مضاربة. ثم قال تعالى: ﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ يعني الأموال التي جعل الله قواماً لمعاشكم. ثم قال: ﴿وارزقوهم فيها﴾ يعني الأولاد الصغار أطعموهم ﴿واكسوهم﴾ من أموالكم، وكونوا أنتم القوام على أموالكم،﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ يعني إذا طلبوا منكم النفقة، ولم يكن عندكم في ذلك الوقت شيء، فعدوا لهم عدة حسنة، أي: سأفعل ذلك. ثم قال: ﴿وابتلوا اليتامى﴾ يعني: اختبروا اليتامى، وجربوا عقولهم، ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ يعني الحلم. ويقال: مبلغ الرجال ﴿فإن آنستم منهم رشداً﴾ يقول: إذا رأيتم منهم رشداً وصلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ التي معكم ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾ في غير حق ﴿وبداراً﴾ يعني مبادرة في أكله ﴿أن يكبروا﴾ يعني مخافة أن يكبروا فيأخذوا أموالهم منكم. ثم قال: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾ أي ليحفظ نفسه عن مال اليتيم ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ وقد اختلف الناس في تأويل هذه الآية، وقالوا فيها ثلاثة أقوال: قال بعضهم: يجوز للمعسر أن يأكل على قدر قيامه عليه، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأكل إلا على وجه القرض ويرد عليه إذا كبر وقال بعضهم: لا يجوز في الأحوال كلها. فأما من قال: إنه يجوز أكله على قدر قيامه، فإنه احتج بما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إني أنزلت مال الله مني بمنزلة مال اليتيم المراد منه بيت المال فمن كان غنياً فلستعفف، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف[4]. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً سأله فقال: يا ابن عباس أتي إليّ بمواشي أيتام، فهل عليَّ جناح إن أصبت من رسل مواشيهم؟ قال ابن عباس: إن كنت تبغي ضالتها، وتهنأ جرباها وتلوط حياضها، ولا تفرط لها يوم وردها فلا جناح عليك إن أصبت من رسلها[5]. وقال مجاهد:[6] كان يقول من أدركت من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن للوصي أن يأكل بالمعروف مع اليتيم، فإنه يحلب غنمه، ويقوم

---

(١) ذكر ذلك القرطبي ٥/٢٠.

(٢) قلت: وأما الجاهل بالأحكام وإن كان غير محجور عليه لتنميته لماله وعدم تدبيره فلا يدفع إليه المال لجهله بفاسد البياعات وصحيحها وما يحل وما يحرم منها. وكذلك مثله في الجهل بالبياعات ولما يخاف من معاملته بالربا وغيره. والله أعلم. القرطبي (٥/٢١).

(٣) سقط في ظ.

(٤) بنحوه أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٧/٥٨٢ (٨٥٩٧).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/١٢ وعزاه لمالك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس في ناسخه عن القاسم بن محمد قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال...

(٦) انظر التفسير ١/١٤٦.

على ماله ويحفظه وأما من قال: أنه يجوز أكله على وجه القرض، احتج بما روي عن محمد بن سيرين[١] أنه قال: سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى: (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف)، قال: هو قرض ثم يرد عليه إذا كبر، فقال: ألا ترى أنه قال في سياق الآية: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾. وقال أبو العالية: ما أكل فهو دين عليه[٢]، وقال الشعبي مثله، وأما من قال أنه لا يجوز أكله، فلأن الله تعالى قال: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) وتلك الآية محكمة، وهذه من المتشابهة لأنه يحتمل التأويل: إنهم يأكلون على وجه القرض أو على وجه الإباحة، فيرد حكم المتشابه إلى المحكم. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخة بتلك الآية. قال الفقيه ـ رحمه الله ـ: إذا كان الوصي فقيراً فأكل من مال اليتيم مقدار قيامه عليه، أرجو أن لا بأس به، لأن كثيراً من العلماء أجازوا ذلك والاحتراز عنه أفضل. قرأ نافع وابن عامر[٣]: (التي جعل الله لكم قيما) بكسر القاف ونصب الياء بغير ألف، والباقون بالألف ومعناهما قريب. وقال أهل اللغة: قياماً، وقواماً، وقيماً[٤]، بمعنى واحد. وقوله تعالى: (فإذا دفعتم إليهم أموالهم) يعني إذا أدرك اليتامى، ودفعتم إليهم أموالهم. (فأشهدوا عليهم) على ذلك، وإنما الإشهاد على معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز كقوله تعالى: (وأشهدوا إذا تبايعتم) ثم قال: ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي شهيداً في أمر الآخرة، وأما في أمر الدنيا، ينبغي أن يشهد العدول على ذلك، لدفع القال عن نفسه، لأن الله تعالى لا يشهد له في الدنيا. قوله تعالى:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء، وإنما يورثون الرجال من كان يقاتل ويحوز الغنيمة، حتى مات أوس بن ثابت الأنصاري[٥]، وترك ثلاث بنات، وترك امرأة يقال لها أم كجة[٦]، فقام ابن عمه وأخذ ماله فجاءت المرأة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكرت له القصة[٧]. ويقال: مات رفاعة وترك ابنه وابنته، فأخذ الابن ميراثه كله فجاءت امرأته إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته بذلك فنزل قوله: (للرجال نصيب) أي: حظ (مما ترك الوالدان والأقربون) ﴿وللنساء نصيب﴾ أي حظ ﴿مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه﴾ يعني أن قل المال ﴿أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ أي حظاً معلوماً لكل واحد من

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٧/٥٨٢.
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٧/٥٨٥.
(٣) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٠ ـ ١٩١).
(٤) قاله الكسائي، انظر المصدر السابق، وأصل الكلمة كما ذكر المصنف رحمه الله (قِوَاماً) فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصارت: (قياماً).
(٥) أوس بن ثابت الأنصاري توفي يوم أحد الإصابة ١/٨١.
(٦) أم كجة الأنصارية زوجة أوس بن ثابت. الإصابة ٨/٢٧٠.
(٧) انظر أسباب النزول للواحدي (١٠٦) وانظر الدر المنثور ٢/١٢٢.

الميراث، فبين في هذه الآية: أن للرجال نصيباً، وللنساء نصيباً، ولكن لم يبين مقدار نصيب كل واحد منهم، ثم بين في الآية التي بعدها فقال: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين﴾ قال مقاتل: فيها تقديم وتأخير، ومعناه: إذا حضر أولوا القربى، قسمة الميراث، ﴿فارزقوهم منه﴾ يعني فاعطوهم من الميراث قال مقاتل وهذا كان قبل قسمة الميراث ثم قال تعالى: ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ يعني إذا كان الورثة كباراً يعطون من الميراث لذوي القربى، وإن كانت الورثة صغاراً، ليقل لهم الأولياء قولاً معروفاً أي عدوا لهم عدة حسنة، يقول لهم، إذا أدرك الصغار أمرناهم يعطوكم شيئاً ويعرفون حقكم. وقال القتبي: (إذا حضر القسمة) فيه قولان: أحدهما: أن تكون قسمة الوصية إذا حضرها أقرباؤكم فاجعلوا لهم حظاً من الثلث، ووجه آخر أن يكون قسمة الميراث فارضخوا لهم منها ثم قال: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ يقول: وليخش على أولاد الميت الضياع، كما أنكم لو تركتم أولاداً ﴿ذرية ضعافاً﴾ يقول: عجزة صغار، يعني الذي يحضره الموت لا يقال له: قدم لنفسك وأوص بكذا وكذا، حتى يوصي بعامة ماله، فليخش على ذرية الميت، كما يخشى على ذرية نفسه. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[(١)] قال: إذا حضر الرجل الوصية، فلا ينبغي أن يقول له أوص بمالك، فإن الله تعالى رازق أولادك، ولكن يقول له: قدم لنفسك، واترك لولدك، فذلك قوله تعالى: ﴿خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ يعني يقول للميت قولاً عدلاً: وهو أن يلقنه: لا إله إلا الله، ولا يأمره بذلك، ولكن يقول ذلك في نفسه حتى يسمعه منه ويتلقن، وهكذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)[(٢)] ولم يقل مروهم بذلك [لأنه لو أمر بذلك][(٣)] فلعله يغضب ويجحد. قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ يعني بغير حق ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ أي حراماً، لأن الحرام يوجب النار، فسماه الله باسمها. ويقال: إنه يلقم من النار إذا صار إلى جهنم فذلك قوله تعالى: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾. وروي في الخبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال في بعض قصة المعراج أنه قال:[(٤)] رأيت أقواماً بطونهم كالحبالى فيها الحيات والعقارب فقلت: من هؤلاء يا جبريل قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً[(٥)]، ﴿وسيصلون سعيراً﴾ أي سيدخلونها في الآخرة. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (وسيصلون) بضم الياء على فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون[(٦)] النصب، وهذا كقوله: سيدخلون وسيدخلون. وقال القتبي: في قوله، (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم). معناه، وليخش الذين يكفلون اليتامى، وليفعل بهم ما يحب أن يفعل بولده من بعده.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢١/٨.

(٢) أخرجه مسلم ٦٣١/٢ في الجنائز باب تلقين الموتى لا إله إلا الله (٩١٦/١) وأبو داود (٣١١٧) والترمذي (٩٧٦) والنسائي ٥/٤ وابن ماجه (١٤٤٤ ـ ١٤٤٥) وأحمد في المسند ٣/٣ وابن حبان وذكره الهيثمي في الموارد (٧١٩) والطبراني في الكبير ٣٣٣/١٠ ـ وابن أبي شيبة ٣٣٧/٣.

(٣) سقط من ظ.

(٤) وقصة المعراج عند البخاري ٣٠٢/٦ في بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم ١٥١/١ في الأيمان (١٦٤/٢٦٥) وعند البخاري أيضاً في المناقب (٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤/٢٦٤).

(٥) ذكره الهيثمي في المجمع ٧١/١ في كتاب الأيمان باب في الإسراء وقال: رواه أحمد وفيه أبو الصلت لا يعرف ولم يَرْو عنه غير علي بن زيد.

(٦) وحجتهم قوله (لا يصلاها إلا الأشقى) أي إذا دنا منها يصيبه حرها، وحجة من قرأ بفتح الياء قوله (سأصليه سقر) وقال قوم (سيصلون: يحرقون) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩١).

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾

﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ أي يبين الله لكم ميراث أولادكم كما بين قسمة المواريث، يعني إذا مات الرجل أو المرأة، وترك أولاداً ذكوراً وإناثاً [يكون][1] **﴿للذكر مثل حظ الانثيين﴾** يعني لكل ابن سهمان، ولكل بنت سهم.

وروى ابن أبي نجيح، عن عطاء قال: كان ابن عباس يقول: كان الميراث للولد وكانت الوصية للوالدين والأقربين، فنسخ الله من ذلك ما أحب: فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للوالدين لكل واحد منهما السدس، وللمرأة الثمن أو الربع، وللزوج النصف أو الربع[2]. ثم قال تعالى: **﴿فإن كن نساء فوق اثنتين﴾** يعني إذا ترك الميت بناتاً ولم يترك ابناء، فللبنات إن كن اثنتين فصاعداً، **﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾** من الميراث ولم يذكر في الآية حكم البنتين ولكن أجمع المسلمون، ما خلا رواية عن ابن عباس أنه قال: للاثنتين النصف كما كان للواحدة، وللثلاث بنات الثلثان. وأما سائر الصحابة فقد قالوا: إن للاثنتين الثلثين، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ روى جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة [سعد][3] بن الربيع بابنتيها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاتان ابنتا سعد، وقد قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ

(١) سقط من ظ.

(٢) أخرجه البخاري ٨/٩٣ في كتاب التفسير (٤٥٧٨).

(٣) ورد الاسم في «أ» سعيد وهو تحريف ظاهر.

مالهما، ولم يدع لهما مالاً ولا تنكحان إلا ولهما مال فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : سيقضي الله ذلك، فأنزل الله تعالى آية الميراث فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عمهما وقال: أعط لابنتي سعد الثلثين، واعط أمهما الثمن، والباقي لك[١]، ثم قال تعالى: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ يعني إن ترك الميت بنتاً واحدةً فلها النصف من الميراث والباقي للعصبة بالخبر. قرأ نافع (وإن كانت واحدة) بالرفع على اسم كانت، وقرأ الباقون: بالنصب على معنى الخبر، ويكون الاسم فيه مضمراً[٢]. ثم قال تعالى: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾ الميت من المال، ﴿إن كان له ولد﴾ ذكر أو أنثى، أو ولد الإبن، ﴿فإن لم يكن له﴾ للميت ﴿ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿وورثه أبواه﴾ يعني إن لم يكن للميت وارث سوى الأبوين ﴿فلأمه الثلث﴾ يعني للأم ثلث المال والباقي للأب. قرأ حمزة والكسائي[٣] (فلإمه) بكسر الألف، لكسر ما قبله، وقرأ الباقون بالضم ثم قال تعالى: ﴿وإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ يعني، إذا كان للميت أخوة، وقد اتفق أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن اسم الإخوة يقع على الاثنين فصاعداً، إلا في قول ابن عباس: ثلاثة فصاعداً[٤]، واتفقوا أن الذكور والإناث فيه سواء فيكون للأم السدس، والباقي للأب: ﴿من بعد وصية﴾ يعني أن قسمة المواريث[٥] من بعد وصية ﴿يوصي بها﴾ الميت ﴿أو دين﴾ يعني بعد قضاء الدين، وإنفاذ الوصية. وروى الحارث[٦] عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدين قبل الوصية[٧] وأنتم تقرؤون (من بعد وصية يوصي بها أو دين) يعني، إن في الآية تقديماً وتأخيراً وروي عن ابن عباس: هكذا. قرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم[٨] (يوصى بها) على فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون: (يوصي بها) يعني الميت إن كان يوصي بها أو عليه دين. ثم قال تعالى: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ يعني في الآخرة إذا كان أحدهما أرفع درجة من الآخر، يسأل

---

(١) أخرجه أحمد في السند ٣٥٢/٣ وأبو داود ٣١٦/٣ في الفرائض (٢٨٩٢) والترمذي ٤١٤/٤ ـ ٤١٥ في الفرائض (٢٠٩٢) وقال: حسن صحيح وأخرجه ابن ماجه ٩٠٨/٢ ـ ٩٠٩ في الفرائض (٢٧٢٠) والحاكم في المستدرك ٣٤٢/٤ في الفرائض وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

(٢) والتقدير: وإن كانت البنت واحدة قال الزجاج (فالنصب أجود لأن قوله قبلها (فإن كن نساء) قد بين أن المعنى (كان الأولاد نساء) وكذلك المولود واحدة فلذلك اخترنا النصب. انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٢).

(٣) وحجتهما أنهما استثقلا ضم الألف بعد كسرة أو ياء فكسراً للكسرة والياء ليكون عمل اللسان من جهة واحدة إذا لم يكن تغيير الألف من الضم إلى الكسر يزيل معنى ولا يغير إعراباً يفرق بين معنيين فأتبعا لذلك الكسرة الكسرة. وحجة من قرأ بالضم: أن الأصل في ذلك كله الضم وهو بنية هذا الإسم وذلك أنك إذا لم تصله بشيء قبله لم يختلف في ضمة ألفه فحكمه إذا اتصل بشيء ألا يغيره عن حاله، وأما قوله (في بطون أمهاتكم) فإن حمزة يكسر الهمزة والميم، اتبع الكسرة الكسرة. انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٢).

(٤) انظر سنن البيهقي ٢٢٧/٦ في الفرائض، باب فرض الأم وانظر تفسير الطبري ٤٠/٨.

(٥) في ظ [الميراث].

(٦) الحارث بن عبد الله الهمداني الأعور، من أهل الكوفة وقد اختلف في توثيقه. انظر التهذيب ١٤٥/٢ وما بعدها.

(٧) أخرجه الترمذي ٣٧٨/٤ في كتاب الوصايا، باب ما جاء يبدأ بالدين قبل الوصية (٢١٢٢) وقال: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣٣٦/٤ وابن ماجه ٩٠٦/٢ في الوصايا (٢٧١٥) وأحمد في المسند ٧٩/١، ١٣١، ١٤٤ والطيالسي في المسند (منحة) ٢٧٢/١ والحميدي في المسند ٣٠/١ ـ ٣١ والدارقطني في السنن ٨٦/٤ ـ ٨٧ ـ والبيهقي ٢٦٧/٦ وفي إسناده الحارث مختلف فيه وهو حسن بشواهده ويعضده الإجماع على مقتضاه انظر التلخيص ١١٠/٣ ومراتب الإجماع (١١٠).

(٨) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٣) وانظر شرح شعلة على الشاطبية (٣٣٣).

الله تعالى، حتى يرفع إليه الآخر لتقر عينه به، فقال: (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) يعني أيهم أرفع درجة فيلتحق به صاحبه. ويقال: معناه إن الله علمكم قسمة المواريث، وإنكم لا تدرون أيهم أقرب (لكم نفعاً حتى تعطوه حصته ويقال: لا تدرون أيهم أقرب) موتاً فيرث منه الآخر. ثم قال تعالى: ﴿فريضة من الله﴾ يعني بيان قسمة المواريث[١] من الله تعالى، ويقال: القسمة فريضة من الله تعالى، لا يجوز تغييرها عما أمر الله به، ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان عليماً﴾ بالمواريث[٢] ﴿حكيماً﴾ حكم قسمتها وبينها لأهلها. وقال الزجاج: معناه، وكان الله عليماً بالأشياء قبل خلقها، حكيماً فيما يقرر بتدبيره منها. وقال بعضهم: لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال، فالخبر منه بالماضي، كالخبر منه بالاستقبال. وقال سيبويه: كان القوم شاهدوا علماً وحكماً فقيل لهم: إن الله كان عليماً كذلك لم يزل على ما شاهدتم. ثم قال تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ إذا ماتت المرأة فتركت زوجاً، فللزوج النصف ﴿إن لم يكن لهن ولد﴾ ذكراً أو أنثى، أو ولد ابن، ﴿فإن كان لهن ولد﴾ أو ولد ابن فللزوج الربع ﴿فلكم الربع مما تركن﴾ مما تركت المرأة ﴿من بعد وصية بوصين بها أو دين﴾ ثم قال: ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ يعني إذا مات الزوج وترك امرأة فللمرأة الربع ﴿إن لم يكن لكم ولد﴾ ولا ولد ابن ﴿فإن كان لكم ولد﴾ فإن كان للميت ولـد وولد ابن ﴿فلهن الثمن﴾ سواء كان له امرأة واحدة، أو أربع نسوة، فلهن الربع بغير ولد، والثمن مع الولد [أو مع ولد الابن] لأنه قال: ولهن الربع. فجعل حصتهن الربع أو الثمن، ثم قال: ﴿مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ ثم قال: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ والكلالة ما خلا الوالد والولد. ويقال: هو اسم الميت الذي ليس له ولد ولا والد. قال أبو عبيدة: هو مصدر من تكله النسب، أي أحاط به، والأب والابن طرفا الرجل، فيسمى لذهاب طرفيه كلالة. وقرأ بعضهم[٣]: (يورث) بكسر الراء. قال أبو عبيدة: من قرأ (يورث) بكسر الراء، جعل الكلالة الورثة ومن قرأ بنصب الراء جعل الكلالة الميت. وروى الشعبي عن أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قالا: الكلالة من لا ولد ولا والد[٤].

وروي عنهما أيضاً أنهما قالا: الكلالة ما سوى الولد والوالد. قوله تعالى: ﴿أو امرأة﴾ يعني إن كانت الكلالة هي امرأة ثم قال تعالى: ﴿وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس﴾ من الميراث ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ يعني الإخوة من الأم وقد أجمع المسلمون ان المراد ها هنا الإخوة من الأم، لأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين، ففهموا أن المراد ها هنا الإخوة من الأم ثم قال: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وقد ذكرناه ﴿غير مضار وصية من الله﴾ يعني غير مضار للورثة فيوصي بأكثر من الثلث، (وصية من الله) يعني أن تلك القسمة فريضة من الله ﴿والله عليم﴾ يعني علم بأمر الميراث ﴿حليم﴾ على أهل الجهل منكم [وقال عليه الصلاة والسلام من قطع ميراثاً فرضه الله قطع الله ميراثه من الجنة][٥] وقرأ بعض المتقدمين[٦] (والله عليم حكيم). يعني،

(١) انظر الصحاح ٣/١٠٩٧ المغرب ٢/١٣٣ المصابح ٢/٧١٩.

(٢) في ظ [الميراث].

(٣) وهي قراءة الحسن، وقرأ أبو رجاء والحسن والأعشى بكسر الراء وتشديدها من ورث، وقرأ الجمهور يُورَثُ بفتح الراء مبنياً للمفعول من أورث مبنياً للمفعول انظر البحر المحيط (٣/١٨٩) والقرطبي (٥/٥٢).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري عن الشعبي ٨/٥٤.

(٥) هذا الحديث سقط من ظ.

(٦) وهذه قراءة لم يتواتر ولم يقرأ بها والصحيح «واللَّهُ عليمٌ حليم».

حكم بقسمة الميراث والوصية، ثم قال: ﴿تلك حدود الله﴾ يعني هذه فرائض الله، مما أمركم به من قسمة المواريث، ويقال: تلك أحكام الله، وتلك بمعنى هذه، يعني هذه أحكام الله قد بينها لكم لتعرفوا وتعملوا ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في قسمة المواريث، فيقربها، ويعمل بها كما أمره الله ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ أي ذلك الثواب هو الفوز العظيم إلى النجاة الوافرة. قوله تعالى: ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ في قسمة المواريث، فلم يقسمها، ولم يعمل بها ﴿ويتعد حدوده﴾ أي يخالف أمره ﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ لأنه إذا جحد صار كافراً ﴿وله عذاب مهين﴾ يهان فيه. قرأ نافع وابن عامر[1] (ندخله) كلاهما بالنون على معنى الإضافة إلى نفسه، وقرأ الباقون: كلاهما بالياء لأنه سبق ذكر اسم الله تعالى. قوله تعالى:

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾

﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ يعني الزنا، وهي المرأة الثيب إذا زنت ﴿فاستشهدوا عليهن﴾ أي اطلبوا عليهن ﴿أربعة﴾ من الشهود ﴿منكم﴾ أي من أحراركم المسلمين، عدولاً ﴿فإن شهدوا﴾ عليهن بالزنا ﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ يعني احبسوهن في السجن ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي حتى يمتن في السجن ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ يعني مخرجاً من الحبس، ثم نسخ فصار حدهن الرجم، لما روي عن عبادة بن الصامت[2] - رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة، وتغريب عام، والثيب بالثيب، جلد مائة والرجم بالحجارة[3]. ثم ذكر في الآية حد البكر فقال ﴿واللذان﴾ لم يحصنا ﴿يأتيانها﴾ يعني الفاحشة ﴿منكم﴾ يعني من الأحرار المسلمين ﴿فآذوهما﴾ باللسان يعني بالتعيير، بما فعلا، ليندما على ما فعلا، ﴿فإن تابا﴾ من بعد الزنا ﴿وأصلحا﴾ العمل ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي فلا تسمعوهما الأذى بعد التوبة ﴿إن الله كان تواباً﴾ أي متجاوزاً ﴿رحيماً﴾ بهما. ثم نسخ الحبس والأذى بالرجم والجلد، وإنما كان التعيير في ذلك الزمان لأن التعيير حل محل الجلد، وأما اليوم فلا ينفعهم التعيير، وروي عن عبد الله بن أبي نجيع عن مجاهد قال:[4] واللاتي يأتين الفاحشة (من نسائكم) واللذان يأتيانهما منكم، كان ذلك

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (١٩٣) شرح شعلة (٣٣٥).

(٢) عبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن نهر الأنصاري، أبو الوليد، شهد العقبتين وبدراً وهو أحد النقباء. الخلاصة ٢/٣٢.

(٣) أخرجه مسلم ٣/١٣١٦ في الحدود، باب حد الزنى ١٢/١٦٩٠ وأخرجه أبو داود (٤٤١٥) والترمذي (١٤٣٤) وابن ماجه (٢٥٥٠) والطحاوي في المشكل (٩٢/١) والبيهقي في السنن ٨/٢١٠، ٢٢٢ وأحمد في المسند ٥/٣١٨ والدارمي في السنن ٢/١٨١.

(٤) انظر التفسير ١/١٤٩.

في أول الأمر، ثم نسخ بالآية التي في سورة النور[(١)]. قرأ ابن كثير:[(٢)] (واللذان) بتشديد النـون، لأن الأصل (اللذيان) فحذف الياء وأقيم التشديد مقامه، وقرأ الباقون: بالتخفيف ثم قال تعالى: ﴿إنما التوبة على الله﴾ يعني قبول التوبة على الله، ويقال: توفيقه على الله. ويقال: إنـما التجاوز من الله ﴿للذين يعملونَ السوء بجهالة﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ كل مؤمن يذنب فهو جاهل في فعله[(٣)]. ويقال إنما الجهالة إنهم يختارون اللذة الفانية على اللذة الباقية، وذلك الجهل لا يسقط عنهم العذاب، إلا أن يتوبوا، قوله: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال ابن عباس: كل من تاب قبل موته فهو قريب. ﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ أي يقبل توبتهم ﴿وكان الله عليماً [حكيماً﴾ يعني عليماً][(٤)] بأهل التوبة، حكيماً حكم بالتوبة، وقال مقاتل: نزلت الآية في رجل من قريش سكر، وذكر شعراً ذكر فيه اللات والعزى، وأنكر البعث، فلما أصبح أخبر بذلك، فندم على ذلك واسترجع، فنزلت الآية: (ثم يتوبون من قريب)، يعني قبل الموت. قال: حدثنا محمـد بن الفضل، قـال: حدثـنا محمد بن جعفـر، قال: حـدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا أبو حفص، عن صالح المري[(٥)]، عن الحسن قال: من عير أخاه بذنب قد تاب إلى الله [منه][(٦)] ابتلاه الله به[(٧)]. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر[(٨)]. وقال

(١) وهي قول الله عز وجل: ﴿الزَّانية والزَّاني فاجْلِدُوا كلَّ وَاحِدٍ مِنهما مِائَةَ جَلْدة﴾.

(٢) وكذلك (هاذان) (وهاتين) (أرنا اللذين) وحجته أن الأصل في قوله (واللذان) (اللذيان) فحذف الياء وجعل النون المشددة عوضاً من الياء المحذوفة التي كانت في (الذي) وكذلك في (إحدى ابنتي هاتين) شدد هذه النونات وجعل التشديد عوضاً من الياء المحذوفة والألف.

إذا سأل سائل فقال: (لم شددتَ النون في هذه الكلمة ولم تشددْها في قوله (برهانان) (وغلامان)؟ فالجواب عن ذلك من وجهين:

أحدهما: أن هذه النون لما كانت ثابتة في الأحوال كلها ولم ـ تكن الإضافة تسقطها لأن هذه الأسماء لا تضاف البتة ففرقوا بينها وبين النون الضعيفة التي تسقط في الإضافة فتقول: (هذان غلاما زيد) فلما كانت أقوى شـددت ليدل بـالتشديـد على قوتهـا (بالإضافة) لغيرها من النونات التي تتسلط الإضافة عليها.

والوجه الثاني: يقال لهذه النون في المبهمات: يدل من الألف المحذوفة والياء المحذوفة وهما حرفان في الأصل من نفس الكلمة. والنون في التثنية في قولك (برهانان ورجلان) بدل من التنوين الـذي هو زائد وعارض في الكلمة فجعلت للنون التي (هي) بدل من الأصل مزية على النون التي هي بدل من عارض في الأصل وتلك المزية: التشديد.

وقرأ الباقون جميع ذلك بالتخفيف وحجتهم أن من كلام العرب أن ـ يحذفوا ويعوضوا وأن يحذفوا ولا يعوضوا، فمن عوض آثر تمام الكلمة، ومن لم يعوض آثر التخفيف، ومثل ذلك في تصغير (مغتسل) تقول (مُغَيْسل ومُغَيْسيل) فمن قال (مُغَيْسِيل) لم يعوض من التاء شيئاً ومن قال ـ (ومغيسيل) عوض من التاء. انظر ابن زنجلة ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٨/ ٩٠ (٨٨٣٧).

(٤) سقط من ظ.

(٥) صالح بن بشير بن وادع أبو بشر البصري، القاضي المعروف بالمري كان من عباد البصرة توفي سنة ١٧٢ هـ. التهذيب ٤/ ٣٨٢.

(٦) سقط من ظ.

(٧) أخرجه الترمذي مرفوعاً عن معاذ بن جبل ٤/ ٦٦١ في كتاب صفة القيامة (٢٥٠٥) وقال حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وذكره السيوطي في الجامع الكبير ١/ ٨٠٢ وعزاه لابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، وذكره السخاوي في المقاصد ٤٢١/ ١١٥٦ وعزاه لابن منيع والطبراني والبيهقي عن يحيى بن جابر قال ما عاب رجل قط رجلاً بعيب إلا ابتلاه الله بذلك العيب. والحديث مرفوعاً أخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٨٢.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ١٣٢ والترمذي في السنن ٥/ ٢٤٧ في الدعوات ٣٥٣٨ وابن ماجه ٢/ ١٤٢٠ في الزهد ٤٢٥٣ وابن حبان، وذكره الهيثمي في الموارد ٦٠٧ في التوبة ٢٤٤٩ والحاكم في المستدرك ٤/ ٢٥٧ في التوبة والإنابة وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

الحسن: إن إبليس لما أهبط من الجنة قال: بعزتك لا أفارق ابن آدم ما دام الروح في جسده، قال الله تعالى: فبعزتي لا أحجب التوبة عن ابن آدم ما لم يغرغر بنفسه[١]. قال أبو العالية الرياحي:[٢] نزلت أول الآية في المؤمنين والوسطى في المنافقين، والأخرى في الكافرين، فأما توبة المؤمنين فذكرها قد مضى، وأما ذكر توبة المنافقين فقوله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ الآية، يعني ليس قبول التوبة للذين أصروا على فعلهم ﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ أي الشرق والنزع وعاينه ملك الموت، ﴿قال: إني تبت الآن﴾ فليس لهذا توبة، ثم ذكر توبة الكفار ﴿ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي وجيعاً دائماً. قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية، وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة، وله ولد من غيرها، أو له وارث غير الابن، فألقى ثوبه عليها وورث نكاحها بالصداق الأول، ويقول: أنا ولي زوجك فورثتك فإن كانت جميلة أمسكها، وإن لم تكن جميلة طول عليها، لتفتدي منه فنزلت هذه الآية. وقال في رواية الضحاك: كان الرجل عنده عجوز، ونفسه تتوق إلى الشابة، فيكره فراق العجوز لمالها فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدي منه بمالها، أو تموت فيرث مالها، فنزلت هذه الآية، وأمر الزوج بأن يطلقها إن كره صحبتها، فلا يمسكها كرهاً، فذلك قوله تعالى: (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً). قرأ عاصم وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ونافع:[٣] (كرهاً) بنصب الكاف، وقرأ حمزة والكسائي: (كرها) [بالضم][٤]. قال القتبي: (الكره) بالنصب بمعنى الإكراه، (والكره) بالرفع المشقة، ويقال: ليفعل ذلك طوعاً أو كرهاً، يعني طائعاً أو مكرهاً. ثم قال تعالى: ﴿ولا تعضلوهن﴾ أي لا تمنعوهن من الأزواج ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ من المهر وغيره ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وهي المعصية في النشوز على زوجها، فيحل له ما أخذ

---

(١) بلفظ «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب عز وجل: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» أخرجه من رواية أبي سعيد الخدري أحمد في المسند ٢٩/٣ ـ ٤١ وأبو يعلى في المسند ٤٥٨/٢ ٢٩٩/١٢٧٣ وذكره الهيثمي في المجمع ٢٠٧/١٠ وقال رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢٦١/٤ في كتاب التوبة والإنابة، وأخرجه البغوي في شرح السنة ٧٦/٥ ـ ٧٧.

(٢) ذكره القرطبي ٦٢/٥.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٥ وشرح شعلة ٣٣٦.

(٤) وفي ظ [بضم الكاف].

منها. ويقال: إلا أن تزني فيحل له أن يفتدي منها، يعني إذا كانت بطيبة نفسها. قرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر[(١)] (بفاحشة مبينة) بنصب الياء، وقرأ الباقون (مبينة) بكسر الياء، فمن قرأ بالكسر يعني، الفعل الفاحشة، يعني فاحشة ظاهرة تبين منها نفسها، ومن قرأ بالنصب، يكون بمعنى المفعول. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في محصن بن أبي قيس وامرأته هند بنت المغيرة وفي جماعة[(٢)]. وقال الكلبي: نزلت في حصن بن أبي قيس وامرأته كبشة بنت معن. ثم قال تعالى: ﴿**وعاشروهن بالمعروف**﴾ أي: صاحبوهن بالجميل ﴿**فإن كرهتموهن**﴾ أي كرهتم صحبتهن ﴿**فعسى**﴾ يقول: فلعل ﴿**أن تكرهوا شيئاً**﴾ من صحبتكم إياهن ﴿**ويجعل الله فيه خيراً كثيراً**﴾ يعني في صحبتهن، يرزق لكم ولداً صالحاً وهذا كقوله عز وجل (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ويقال: (ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) لعله إن أمسكها، فيعطفه الله عليها من بعد ذلك، وأما أن يخلي سبيلها فيزوجها الله زوجاً غيره فيرزقها الله منه الولد. ثم قال: ﴿**وإن أردتم استبدال زوج**﴾ يعني تغيير زوج ﴿**مكان زوج**﴾ يعني إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته، ولم يكن منها نشوز[(٣)]، وأراد أن يتزوج غيرها ﴿**وآتيتم إحداهن قنطاراً**﴾ من الذهب في المهر. قال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار[(٤)]. وقال عطاء: سبعة آلاف دينار[(٥)]. وقال الحسن: ألف دينار أو إثني عشرة ألف درهم[(٦)]. وقال قتادة[(٧)]: كان يقال: القنطار مائة رطل من الذهب، أو ثمانون ألفاً من ورق. وروي عن عبد الوهاب بن عطاء[(٨)] عن الكلبي قال: كل ما لم أسنده لكم فهو كله عن أبي صالح عن ابن عباس قال: القنطار ألف مثقال مما كان من ذهب أو فضة[(٩)] ثم قال تعالى: ﴿**فلا تأخذوا منه شيئاً**﴾ أي: فلا تستحلوا أن تأخذوا مما أعطيتم شيئاً، إذا لم يكن النشوز من قبلها. ثم قال: ﴿**أتأخذونه بهتاناً**﴾ يقول: أتستحلون أخذه ظلماً ﴿**وإثماً مبيناً**﴾ أي ذنباً ظاهراً. ثم قال تعالى: ﴿**وكيف تأخذونه**﴾ يقول: كيف تستحلون أخذه يعني أخذ مهورهن ﴿**وقد أفضى بعضكم إلى بعض**﴾ يقول: قد اجتمعا في لحاف واحد. قال الفراء: الإفضاء، أن يخلو الرجل والمرأة، إن لم يجامعها أو جامعها، وقد وجب المهر، وقال الكلبي: الإفضاء: إذا كان معها في لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها، فقد وجب المهر. وروى [عوف][(١٠)] الأعرابي[(١١)] عن زرارة بن أبي أوفى[(١٢)] قال: قضى الخلفاء الراشدون المهديون أن من أغلق باباً وأرخى ستراً فقد وجب المهر والعدة[(١٣)]. وقال مقاتل: الإفضاء: الجماع، وبهذا القول

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٦ شرح شعلة ٣٣٦.

(٢) وهم صفوان بن أمية، ومنصور بن مازن، والأسود بن خلف.

(٣) والنشوز: مصدر نَشَزَت المرأة نشوزاً إذا استعصت على بعلها وأبغضته، ونَشَزَ بعلُها عليها: إذا ضربها وجفاها. انظر الصحاح ٨٩٩/٣ ولسان العرب ٤١٧/٥ المصباح ٩٣٥/٢.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤٨/٦، ٦٧١٩ (٦٧٢٠).

(٥) وفي تفسير الطبري عن عطاء (وسبعون ألفاً).

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤٧/٦، ٦٧١٢.

(٧) أخرجه الطبري في المصدر السابق ٦٧١٥.

(٨) عبد الوهاب بن عطاء الحفاف أبو النصر العجلي، مولاهم، البصري توفي سنة ٢٠٤ هـ. التهذيب ٤٥٠/٦.

(٩) قال الطبري رحمه الله في التفسير ٢٤٩/٦: وقد ينبغي أن يكون ذلك كذلك لأن ذلك لو كان محدوداً قدره عندهالم يكن بين متقدمي أهل التأويل فيه كل هذا الإختلاف وقال فالصواب في ذلك أن يقال هو المال الكثير كما قال الربيع بن أنس.

(١٠) سقط من أ.

(١١) عوف بن أبي جميلة العبدي الهجري، أبو سهل، البصري، المعروف بالأعرابي. التهذيب ٤٥٠/٦.

(١٢) زرارة بن أوفى العامري الحرشي أبو حاجب، البصري، القاضي، توفي سنة ٩٣ هـ. التهذيب ٣٢٢/٣.

(١٣) أخرجه البيهقي ٢٢٥/٧ في كتاب الصداق باب من قال: «من أغلق باباً وأرخى ستراً فقد وجب الصداق» وأخرجه عبد الرزاق في النكاح باب وجوب الصداق وابن أبي شيبة في النكاح باب من قال إذا أغلق الباب. . . انظر التلخيص الحبير ٢١٨/٣.

قال بعض الناس، وأما علماؤنا رحمهم الله ـ قالوا: إذا خلا بها خلوة صحيحة[١] يجب كمال المهر والعدة، دخل بها أو لم يدخل بها. ثم قال: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ يقول: أوجبن عليكم عقداً وثيقاً بالنكاح، وهو قوله تعالى: (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فصار ذلك على الرجال ميثاقاً غليظاً من النساء. ثم بين ما يحل للرجال من النساء وما لا يحل فقال:

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

فقال تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء﴾، يعني لا تتزوجوا من قد تزوج آباؤكم من النساء. ويقال اسم النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه وقوله ﴿إلا ما قد سلف﴾ يقول: لا تفعلوا ما قد فعلتم في الجاهلية، وكل الناس يتزوج الرجل منهم امرأة الأب برضاها، بعد نزول قوله (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً) حتى نزلت هذه الآية: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم. . .) الآية، فصار حراماً في الأحوال كلها. ويقال: إلا ما قد سلف، يعني: ولا ما قد سلف، كقوله تعالى: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) ولا خطأ وقد قيل: إن في الآية تقديماً وتأخيراً، ومعناه، ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء [فإنكم إن فعلتم تواخذون وتعاقبون إلا ما قد سلف][٢] إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، إلا ما قد سلف. وقد قيل: إن في الآية إضماراً تقول (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم) من النساء فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف. ثم قال: ﴿إنه كان فاحشة﴾ أي معصية ﴿ومقتاً﴾ أي بغضاً ﴿وساء سبيلاً﴾ أي بئس المسلك. ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ أي نكاح أمهاتكم، فذكر الأمهات والمراد منه الأمهات والجدات. ﴿وبناتكم﴾ ذكر البنات والمراد به البنات والحفيدات [أي بنات الأولاد][٣] ثم قال تعالى: ﴿وأخواتكم﴾ يعني من النسب ﴿وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾.

---

(١) وهو قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وابن عمر ومعاذ بن جبل والمغيرة بن شعبة وأبي موسى وأحمد رضي الله عنهم. وقال مالك والشافعي: لا يوجب.

وصورة المسألة: إذا خلا بها ثم طلقها قبل الدخول فعندنا لها كل المهر وعليها العدة، وعندهما: نصف المهر ولا عدة عليها وصحة الخلوة (بانتفاء الموانع من الوطء شرعاً وحساً فالشرع: كالصوم والصلاة المفروضين والإحرام فرضه ونفله والحيض والنفاس والحس مثل: المرض والرتق والقرن. من إيثار الإنصاف ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) ما بين المعكوفين سقط من ظ. (٣) سقط من ظ.

ثم قال تعالى: ﴿وأمهات نسائكم﴾ يعني أن نكاح أمهات نسائكم حرام عليكم سواء دخل بالإبنة أو لم يدخل بها. هكذا روي عن ابن عباس وعن جماعة من الصحابة[١] إنهم قالوا ذلك، ثم قال: ﴿وربائبكم﴾ يعني حرام عليكم نكاح بنات نسائكم ﴿اللاتي في حجوركم﴾ يعني التي يربيها في حجره حرام عليه إذا دخل بأمها ﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ يعني إن لم يكن دخل بأمها فهي حلال، له أن يتزوجها [وقد اتفقوا على أن][٢] كونها في الحجر ليس بشرط غير قول روي عن بعض المتقدمين وإنما ذكر الحجر لتعارفهم فيما بينهم وتسميتهم بذلك الإسم. ثم قال تعالى: ﴿وحلائل أبنائكم﴾ يعني حرام عليكم نساء أبناءكم ﴿الذين من أصلابكم﴾ يقال: إنما اشترط الذين من الأصلاب، لزوال الاشتباه لأن القوم كانوا يتبنون في ذلك الوقت ويجعلون الابن المتبنى بمنزلة ابن الصلب في الميراث والحرمة، وتبنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن حارثة، فتزوج زيد بن حارثة امرأة[٣]، ثم طلقها فتزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعيره المشركون بذلك، وقالوا تزوج امرأة ابنه فنزل قوله تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم)[٤] وذكر في هذه الآية فقال: (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) لكي لا يظن أحد أن امرأة الابن المتبنى تحرم عليه. ثم قال تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ أي حرم عليكم أن تجمعوا بين الأختين في النكاح في حالة واحدة، ثم قال تعالى ﴿إلا ما قد سلف﴾ يقول: إلا ما قد مضى في الجاهلية. وروى هشام بن عبيد الله[٥]، عن محمد بن الحسن، أنه قال: كان أهل الجاهلية يعرفون هذه المحرمات كلها، التي ذكر في هذه الآية إلا اثنتين: أحدهما: نكاح امرأة الأب، والثانية: الجمع بين الأختين ألا ترى أنه قال تعالى: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف) [(وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) ولم يذكر في سائر المحرمات، إلا ما قد سلف][٦]. ويقال: إلا ما قد سلف يعني، دع ما قد مضى ﴿إن الله كان غفوراً﴾ لما كان في الجاهلية ﴿رحيماً﴾ بما كان في الإسلام إن تاب من ذلك. ثم قال تعالى.

وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٧/٧٠ ـ ٧١. (٢) سقط من أ.

(٣) زينب بنت جحش الأسدية، أم المؤمنين، قالت عائشة ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين والتقى وأصدق حديثاً وأوصل للرحم منها، ماتت سنة عشرين. الخلاصة ٣/٣٨٢.

(٤) أسباب النزول للواحدي ٢٦٥.

(٥) هشام بن عبيد الله الرازي السبتي اختلف في توثيقه.

(٦) ما بين المعكوفين سقط من أ، والمثبت من ظ، والحديث انظر تفسير القرطبي ٥/٧٩.

أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿والمحصنات من النساء﴾ قال في رواية الكلبي وفي رواية الضحاك، يعني ذوات الأزواج حرام عليكم[(١)] ﴿إلا ما ملكت إيمانكم﴾ من سبايا، فإذا ملك الرجل امرأة لها زوج في دار الحرب، واستبرأ[(٢)] رحمها بحيضة، فهي حلال له وهذا موافق لما روي عن ابن سعيد الخدري: إن المسلمين أصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج من المشركين، فتأثم المسلمون منهن وقالوا: لهن أزواج، فأنزل الله تعالى: (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم)[(٣)] يقول: ما أفاء الله عليكم من ذلك وإن كان لهن أزواج من المشركين، فلا بأس بأن يأتيها الرجل، إذا استبرأ رحمها. وقال في رواية مقاتل: (والمحصنات من النساء) يعني، كل امرأة ليست تحتكم فهي حرام عليكم، ثم استثنى من المحصنات فقال: إلا ما ملكت إيمانكم، يعني إلا ما قد تزوجتم من النساء مثنى وثلاث ورباع قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي: هذا ما حرم عليكم في الكتاب. ويقال: (كتاب الله عليكم)، معناه، هذا الذي يقرأ عليكم هو كتاب الله تعالى فاتبعوه، ولا تخالفوه. وقال الزجاج (كتاب الله عليكم) منصوب على التأكيد، محمول على المعنى، لأن معناه: حرمت عليكم أمهاتكم، كتب الله عليكم هذا كتاباً، ويجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر، كأنه قال: الزموا كتاب الله، فيكون عليكم مفسراً له. ثم قال تعالى: ﴿واحل لكم ما وراء ذلكم﴾ يقول: رخص لكم ما سوى ذلكم فالله تعالى قد ذكر ما حرم في هذه الآية من قوله: (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم) أربع عشرة من المحرمات، سبع بالنسب، وسبع بالسبب[(٤)] ثم بين المحللات فقال: (وأحل لكم ما وراء ذلكم) يعني ما سوى هذه الأربع عشرة التي ذكر في هذه الآية، فلو كان الأمر على ظاهر هذه الآية، لكان يجوز ما سوى ذلك إلا أنه قد جاء الأثر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب[(٥)]، وقال: لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها[(٦)]، فوجب اتباعه، لأن الله تعالى قال: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[(٧)]، (وأحل لكم) بضم الألف، وقرأ الباقون:

(١) انظر تفسير ابن عباس ٥٥.

(٢) استبراء الجارية (لا يمسها حتى يبرأ رحمها ويتبين حالها هل هي حامل أم لا. انظر النهاية في غريب الحديث ١/١١١ ـ ١١٢.

(٣) أخرجه مسلم ٢/١٠٧٩ في الرضاع باب جواز وطء المسبية (٣٣/١٤٥٦) وأوطاس: اسم موضع أو بقعة في الطائف.

(٤) فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت. والسبع المحرمات بالصهر ـ والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب، وحلائل الأبناء، والجمع بين الأختين، والسابعة (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم) قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه وغير جائز نكاح واحدة منهن بإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الأبنة ولا تحرم الإبنة بالدخول بالأم وبهذا قول جميع أئمة الفتوى بالأمصار. انظر القرطبي ٥/٧٠.

وأثر عنهم قولهم: العقد على البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات.

(٥) من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه البخاري ٩/١٣٩ ـ ١٤٠ في النكاح (٥٠٩٩) ومسلم ٢/١٠٦٨ في الرضاع باب ما يحرم من الرضاعة (٢/١٤٤٤) ومن حديث علي أخرجه مسلم ٢/١٠٧١ (١١/١٤٤٦) والشافعي في المسند ٢/٢٠ (٦١).

(٦) بلفظ لا يجمع أخرجه البخاري ٩/١٦٠ في النكاح (٥١٠٩) ومسلم ٢/١٠٢٨ في النكاح (٣٣/١٤٠٨) وبلفظ «نهى أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على بنت أخيها، والمرأة على خالتها» وأخرجه الدارمي ٢/١٣٦ في النكاح وأبو داود ٢/٥٥٣ (٢٠٦٥) والترمذي ٣/٤٣٣ (١١٢٦) وقال حسن صحيح وأخرجه النسائي ٦/٩٨ باب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها.

(٧) وترجيح ابن خالويه في الحجة بترجيح قراءة ضم الهمزة (أحل) على قراءة الفتح غير سديد، لأن القراءة لا تؤخذ بالرأي، وإنما متى =

بالنصب فمن قرأ بالضم، لأنه عطف على قوله: (حرمت عليكم)، ومن قرأ بالنصب لأنه نسق على قوله: (كتاب الله عليكم) ثم قال تعالى: ﴿أن تبتغوا بأموالكم﴾ يعني أن تتزوجوا بأموالكم، ويقال: تشتروا بأموالكم الجواري ﴿محصنين غير مسافحين﴾ يقول: كونوا متعففين من الزنا غير زانين ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ قال مقاتل: يعني به المتعة أي فما استمتعتم منهن إلى جل مسمى، ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي أعطوهن ما شرطتم لهن من المال. وإنما كانت إباحة المتعة في بعض المغازي ثم نهي عن ذلك. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ:[1] فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى[2]. وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال ما كانت المتعة إلا رحمة، رحم الله بها هذه الأمة ولولا نهي عمر عنها، ما زنى إلا شقي. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إنما رخص في المتعة في بعض المغازي ثم نسختها آية الطلاق والميراث والعدة[3]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: (فما استمتعتم به منهن) قال: النكاح فآتوهن أجورهن، يعني مهورهن. وقال في رواية الكلبي: فما استمتعتم به منهن بعد النكاح فاتوهن أجورهن، أي مهورهن ﴿فريضة﴾ لهن عليكم[4]. وقال الضحاك: (فما استمتعتم به منهن) أي، فما تزوجتم بهن فأعطوهن مهورهن. ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ قال بعضهم: يعني المتعة، قبل أن تنسخ أجاز لهما أن يتراضيا على زيادة الأجل والمال، وقال بعضهم: يعني المهر، لا جناح على الزوجين أن يتراضيا بعد النكاح على زيادة المهر. ﴿إن الله كان عليماً﴾ فيما رخص لكم من نكاح الأجانب ﴿حكيماً﴾ فيما حرم عليكم من ذوات المحارم. ثم قال تعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ أي غنى، يقول: من لم يجد منكم سعة في المال ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ يعني الحرائر، فليتزوج الإماء فذلك قوله ﴿فمن ما ملكت أيمانكم﴾ من الإماء. ويقال: من لم يستطع منكم طولاً، يعني من لم يكن له منكم مقدرة على الحرة، فليتزوج الأمة، يعني إذا لم يكن له امرأة حرة. وقد قال بعض الناس: إذا كان للرجل من المال مقدار ما يمكنه أن يتزوج بالحرة، لا يجوز أن يتزوج الأمة. وفي قول علمائنا: يجوز إذا لم يكن عنده امرأة حرة لأنه لو صرف إلى ذلك الوجه لا يضر، لأن كل مال يمكن أن يتزوج به الأمة. يمكن أن يتزوج به الحرة، ولكن معناه، كون الحرة عنده أفضل ثم قال تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ يعني يتزوج الأمة المسلمة. وقال بعض الناس: لا يجوز أن يتزوج أمة يهودية أو نصرانية لأن الله تعالى قال: (من فتياتكم المؤمنات). وفي قول علمائنا: يجوز نكاح الأمة اليهودية والنصرانية، وذكر المؤمنات ليس بشرط، أنه لا يجوز غيرها، وهذا بمنزلة قوله: (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فإن خاف ألا يعدل، فيتزوج أكثر من واحدة جاز، ولكن الأفضل أن لا يتزوج، فكذلك ها هنا الأفضل أن يتزوج الأمة إلا مؤمنة، ولو تزوج غير المؤمنة جاز. ثم قال تعالى: ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ يقول: والله أعلم بإيمانكم في الحقيقة وأنتم تعرفون الظاهر، وليس عليكم أن تبحثوا عن الباطن. وقال مقاتل: في الآية تقديم وتأخير، ومعناه، فما ملكت إيمانكم بعضكم من بعض، [(يعني يتزوج هذا وليدة هذا وهذا وليدة هذا) ثم قال: (والله أعلم بإيمانكم) من غيره. ويقال: معناه، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض، يعني: بعضكم من بعض][5] في النسب، يعني محلكم ولد آدم ولا فخر فيما بينكم. ويقال: دينكم واحد أي بعضكم على دين بعض. ثم قال تعالى: ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ يعني الولاية بإذن أربابهن ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ يقول: أعطوهن

= صح سندها صحت القراءة بها، وكلا القراءتين متواتر صحيح. وانظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٨ وشرح شعلة ٣٣٨.

(١) هذه القراءة لا تصح تلاوة لأنها غير متواترة، والأمر كما وضحه العلامة الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره ٨/ ١٧٩.

(٢) انظر تفسير الطبري ٨/ ١٧٧.

(٣) تفسير القرطبي ٥/ ٨٦. (٤) انظر تفسير ابن عباس ٥٥. (٥) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

مهورهن بالمعروف (يعني بإذن أهلهن، لأنه إذا أعطى الأمة مهرها بغير إذن مولاها واستهلكت ضمن الزوج للمولى). ويقال: مهراً غير مهر البغي، يعني بعدما أطلق ذلك، ثم قال: ﴿محصنات﴾ أي عفائف ﴿غير مسافحات﴾ أي: غير زواني. ويقال: غير معلنات بالزنا. ﴿ولا متخذات أخدان﴾ يعني، أخلاء في السر، لأن أهل الجاهلية كان فيهن زواني في العلانية، ولهن رايات منصوبة، وبعضهن اتخذن أخداناً، يعني أخلاء في السر ولا يفعلن بالعلانية، فنهى الله عن نكاح الفريقين جميعاً فقال: تزوجوا محصنات غير معلنات بالزنا، ولا في السر. قرأ الكسائي[1] (محصنات) بكسر الصاد في جميع القرآن إلا في قوله (والمحصنات من النساء) وقرأ الباقون في جميع القرآن بالنصب. ثم قال تعالى: ﴿فإذا أحصن﴾ يعني أسلمن، ويقال: إذا أعففن. قرأ عاصم وحمزة والكسائي[2] (فإذا أحصن) بالنصب، وقرأ الباقون: بالضم وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ بالنصب، ومعناه إذا أسلمن. وقرأ ابن عباس: بالضم، يعني أحصن بالأزواج. ﴿فإن أتين بفاحشة﴾ يعني الزنا، ﴿فعليهن﴾ أي وجب عليهن ﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ يعني إذا زنت الأمة فحدها نصف حد الحرة، خمسون جلدة، والفائدة في نقصان حدهن ـ والله أعلم ـ أنهن أضعف من الحرائر، فجعل عقوبتهن أقل. ويقال: لأنهن لا يصلن إلى مرادهن، كما تصل الحرائر إلى مرادهن. ويقال: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة، ألا ترى: أن الله تعالى قال لأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد، فكذلك الأمة، لما كانت نعمتها أقل كانت عقوبتها أدنى. وذكر في الآية حد الإماء خاصة، ولم يذكر حد العبيد، ولكن حد العبيد والإماء سواء خمسون جلدة في الزنا، وفي حد القذف وشرب الخمر أربعون جلدة، لأن حد الأمة إنما نقص لنقصان الرق، وذلك في العبد موجود. وروي عن علي بن أبي طالب،

---

(١) قوله: ﴿والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ اتفق القراء على فتح الصاد في هذا الحرف. واختلفوا فيما عداه. فقرأ الكسائي: أن ينكح المُحْصِنات المؤمنات) ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المُحْصِنات﴾ بكسر الصاد في جميع القرآن) أي هن أَحْصَنَّ أنفسهن بالإسلام والعفاف، فذهب الكسائي إلى أن المحصنات المسلمات العفايف هن أحصن أنفسهن بالإسلام والعفاف. والعرب تقول: (أحصنت المرأة فهي محصنة) وذلك إذا حفظت نفسها وفرجها. وحجته في فتح الحرف الأول وكسر ما عداه: أن المعنى فيه غير موجود فيما عداه وذلك أن (المحصنات) ها هنا هن ذوات الأزواج اللاتي أحصنهن أزواجهن سوى ملك اليمين اللاتي كان لهن الأزواج فكن محصنات بهم فأحلهن بعد استبرائهن بالحيض، فأما ما سوى هذا الحرف فإن المراد فيه ما ذكرنا من الإسلام والعفة.

عن الحسن في قوله (والمحصنات من النساء) قال: ذوات الأزواج. فقال الفرزدق: (قد قلت فيه شعراً) قال الحسن: (ما قلت يا أبا فراس؟) قال: (قلت:

وذاتِ حَليلٍ أَنْكحتها رماحُنا حَلَالٌ لمن يبني بها لم تطَلَّق

روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث يوم حنين سرية أصابوا حياً من العرب يوم أوطاس فهزموهم وقتلوهم وأصابوا نساءً لهن أزواج، فكان ناس من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأثموا من غشيانهن من أجل أزواجهن فأنزل الله عز وجل: ﴿والمحصنات من النساء﴾ أي المتزوجات ﴿إلا ما ـ ملكت أيمانكم﴾ أي السبايا من ذوات الأزواج لا بأس في وطئهن بعد استبرائهن.

وقرأ الباقون: (المحصَنات) بفتح الصاد أي متزوجات أحصنهن أزواجهن والأزواج مُحْصَنُون والنساء مُحْصَنَات.

قال أبو عمرو: (الزوج يحصن المرأة والإسلام) وكذلك (فإذا أحصن) أي أحصنهن الأزواج والإسلام قال. ولا تقول العرب (هذا قاذف محصنة ولا محصنات) ولا (محصنة ومحصنات) فتأويل (المحصنات) أن أزواجهن أعفوهن أو إسلامهن أحصنهن فهن محصنات بذلك. انظر حجة القراءات ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٨.

وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قالا: حد العبد نصف حد الحر[١]. ثم قال تعالى: ﴿ذلك﴾ يعني هذا الذي ذكر في الآية. وهو رخصة نكاح الأمة ﴿لمن خشي العنت منكم﴾ يعني الإثم في دينه، ويقال: الزنا والفجور [قال القتبي أصله المضرور الإفساد][٢] قال تعالى: (وان تصبروا) عن نكاح الإماء (خير لكم) من تزوجهن لأنه، لو تزوج الأمة، يصير ولده عبداً. وروي عن عمر أنه قال: أيما حر تزوج بأمة، فقد أرق نصفه أي يصير ولده رقيقاً، فالصبر عن ذلك أفضل لكيلا يرق ولده[٣]. وقال مجاهد: ﴿وإن تصبروا خير لكم﴾ يقول: وإن تصبروا على نكاح الأمة خير لكم من أن تقعوا في الفجور. ﴿والله غفور﴾ لما أصبتم منهن قبل تحليله ﴿رحيم﴾ حين رخص في نكاح [الاماء][٤] ويقال: رحيم إذ لم يعجل العقوبة.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أي يبين لكم أن الصبر خير لكم من نكاح الإماء. ويقال: يبين لكم إباحة نكاح الأمة عند العذر. ثم قال تعالى: ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي شرائع الذين من قبلكم بأنه لم يحل لهم تزوج الإماء وقد أحل لكم ذلك. وقال مقاتل: يريد الله ليبين لكم حكم حلاله وحرامه من النساء، ويهديكم أي يبين لكم شرائع من كان قبلكم[٥] ﴿ويتوب عليكم﴾ أي يتجاوز عنكم ما كان منكم قبل التحريم ﴿والله عليم﴾ بمن فعله منكم بعد التحريم ﴿حكيم﴾ فيما نهاكم عن نكاح الاماء إن لم يجد طولاً، والنهي نهي استحباب لا نهي وجوب. ويقال: إن هذا ابتداء القصة، يريد الله أن يبين لكم كيفية طاعته، (ويهديكم) يعني يعرفكم سنن الذين من قبلكم، يعني أنهم لما تركوا أمري فكيف عاقبتهم، وأنتم إذا فعلتم ذلك لا أعاقبكم، ولكني أتوب عليكم (والله عليم بمن تاب) (حكيم) حكم بقبول التوبة. ثم قال تعالى: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ أي يتجاوز عنكم ما كان منكم من قبل التحريم. ويقال: يتجاوز عنكم الزلل والخطايا. ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ (يعني اليهود والنصارى، ويقال المجوس. (أن تميلوا ميلاً عظيماً) يعني أن تخطئوا خطأ عظيماً، لأن بعض الكفار كانوا يجيزون نكاح الأخت من الأب، وبنات الأخ وبنات الأخت، فلما حرم الله تعالى ذلك قالوا للمسلمين: إنكم

(١) انظر أثر عمر في تنصيف حد الإماء في ابن أبي شيبة في المصنف ٥/٥٠١ (٢٨٣٨٤) (٢٨٢١٤)، وانظر أثر على في تنصيف حد العبد في ابن أبي شيبة ٥/٤٨٦، (٢٨٢٢٦).

(٢) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/١٤٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة.

(٤) في ظ الأمة.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ٢/١٤٣ وعزاه لابن أبي حاتم.

تنكحون ابنة الخالة والعمة فأنزل الله تعالى هذه الآية. ويقال: ويريدون الذين يتبعون الشهوات. ويقال: إن اليهود يريدون أن يقفوا منكم على الزلل والخطايا، يعني أن الله تعالى قد بين لكم لكي لا يقفوا منكم على الزلل والخطايا. ثم قال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ يقول: يهون عليكم الأمر إذا رخص لكم في نكاح [الإماء][1] ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ أي لا يصبر على النكاح وقال الضحاك: يخفف عنكم أي يريد أن يضع عنكم أوزاركم ويضع عنكم آثامكم. قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يعني بالظلم، باليمين الكاذبة، ليقطع بها [مال أخيه ثم استثنى ما استفضل الرجل من][2] مال أخيه في تجارته أنه لا بأس به فقال ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾. ويقال: إلا ما كان بينهما تجارة، وهو أن يكون مضارباً له، فله أن يأكل من مال المضاربة إذا خرج إلى السفر. ويقال: إلا ما يأكل الرجل شيئاً عند اشترائه ليذوقه. قرأ حمزة والكسائي وعاصم[3] (تجارة) بنصب الهاء على معنى خبر تكون. وقرأ الباقون بالضم على معنى الإسم. ثم قال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، فإنكم أهل دين واحد. ويقال: (ولا تقتلوا أنفسكم)، يعني أن يوجب الرجل على نفسه [قتل نفسه فإيجابه] باطل[4]. وقال القتبي: (ولا تأكلوا أموالكم) يعني لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، ولا يقتل بعضكم بعضاً، كقوله: (ولا تلمزوا أنفسكم) أي لا تعيبوا إخوانكم. ويقال: (ولا تقتلوا أنفسكم) أي لا تقتلوها بالكسل والبخل. ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ إذ نهى عن القتل، وعن أخذ الأموال. قوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً﴾ يعني اعتداء. ويقال: مستحلاً ﴿وظلماً﴾ أي وجوراً ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ هذا وعيد لهم من الله تعالى، يعني يدخله في الآخرة النار ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي عذابه هين عليه. قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾. قال مقاتل[5]: يعني ما نهى عنه من أول هذه السورة إلى هذه الآية. وقال في رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس[6] ـ رضي الله عنه ـ (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه). الكبائر: كل شيء سمى الله تعالى فيه النار لمن عمل بها، أو شيء نزل فيه حد في الدنيا، فمن اجتنب من هذا وهو مؤمن، كفر الله عنه ما سواه من الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، وشهر رمضان إلى شهر رمضان إن شاء الله تعالى. قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا محمد بن جعفر، قال حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي الضحاك، عن مسروق عن ابن سمعود، قال: الكبائر من أول السورة إلى قوله: إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه[7]. وروي عن ابن مسعود أنه قال: الكبائر أربعة: الإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن مكر الله، والشرك بالله[8]. وروى عامر الشعبي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، [واليمين الغموس[9]][10] وقال ابن عمر: الكبائر تسعة:

---

(١) في ظ [الأمة].
(٢) ما بين المعكوفين سقط من أ.
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٩.
(٤) سقط من أ.
(٥) انظر التفسير ١/٢٣٣.
(٦) انظر تفسير ابن عباس (٥٦).
(٧) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٨/٢٣٣ (٩١٧١) (٩١٧٢) وساق الطبري رحمه الله أسانيد عديدة لهذا الأثر فارجع إليه إن شئت، وذكره الهيثمي في المجمع ٧/٤ وقال رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.
(٨) أخرجه الطبري في التفسير ٢/٢٤٣ (٩١٩١) (٩١٩٢)، (٩١٩٣) وذكره السيوطي في الدر ٢/١٤٧، ونسبه أيضاً لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وابن أبي الدنيا في التوبة ١١/٥٥٥ في الأيمان والنذور (٦٦٧٥).
(٩) وهي الحلف على فعل أو ترك ماض كاذباً، سميت به لأنها تغمس صاحبها في الإثم واختلف أهل العلم في اليمين الغموس هل لها كفارة؟ فذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين: لا كفارة لأنها أعظم من أن تكفر، وذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى: تكفر.
(١٠) أخرجه عن عبد الله بن عمرو البخاري ١١/٥٥٥ في الأيمان والنذور ٦٦٧٥ وفي ١٢/٢٦٤ (٦٩٢٠) والترمذي ٣٠٢١.

الشرك بالله، وقتل المؤمن متعمداً، والفرار من الزحف وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والسحر، وعقوق الوالدين][١]، واستحلال حرمة البيت الحرام[٢]. ويقال: الكبيرة ما أصر عليها صاحبها. ويقال لا كبيرة مع الإستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. ثم قال تعالى: ﴿نكفر عنكم سيئاتكم﴾ يقول: نمحو عنكم ذنوبكم ما دون الكبائر ﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ في الآخرة، وهي الجنة. قرأ نافع[٣] مدخلاً بنصب الميم، والباقون: بالضم، فمن قرأ بالنصب فهو إسم الموضع، وهو الجنة، ومن قرأ بالضم فهو المصدر والموضع جميعاً. قوله تعالى:

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾. قال ابن عباس: يعني لا يتمنى الرجل مال أخيه، ولا امرأته ولا دابته ولكن، ليقل اللهم ارزقني مثله، وقال الكلبي: مثله. وفيها وجه آخر: وهو أن الرجال قالوا: إن الله فضلنا على النساء، فلنا سهمان ولهن سهم، ونرجوا أن يكون لنا أجران في الأعمال. وقالت أم سلمة: ليت الجهاد كتب على النساء، فنزلت هذه الآية[٤] (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ ويقال: إن النساء قلن كما نقص سهمنا في الميراث، كذلك ينقص من أوزارنا، ويكون الإثم علينا أقل من الرجال، فنزلت الآية: (للرجال نصيب مما اكتسبوا) ولا يتمنى أحدكم أكثر مما عمل، (وللنساء نصيب مما اكتسبن) من الشر ولا ينقص منهن شيء مما عملن من الإثم. ﴿وسئلوا الله من فضله﴾ جميعاً الرجال والنساء ﴿من فضله﴾ أي من رزقه ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ فيما يصلح لكل واحد منهم من السهام وبمن يصلح للجهاد. قرأ ابن كثير والكسائي:[٥] (وسلوا الله) بغير همز في جميع القرآن، وقرأ الباقون، (واسألوا

(١) ما بين المعكوفين سقط من أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/١٤٦ ونسبه إلى علي بن الجعد في الجَعْديّات.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ١٩٩، شرح شعلة ٣٣٨.

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي ١١٠.

(٥) وحجتهما إجماع الجميع على طرح الهمزة في قوله: (سل بني إسرائيل) و(سلهم أيهم بذلك زعيم) فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه فطرحا الهمزة من جميع ذلك.

الله) بالهمز، وأصله الهمز، إلا أنه حذف الهمز للتخفيف. قوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالي﴾ أي بينا موالي، يعني الورثة من الولد والإخوة وابن العم. ويقال: الموالي العصبة، العم وابن العم وذوي القربى، كقوله: (وإني خفت الموالي من ورائي) معناه ولكل واحد منكم جعلنا الورثة لكي يرث ﴿مما ترك﴾ وهم ﴿الوالدان والأقربون﴾. ثم قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾. قال الكلبي ومقاتل:[1] كان الرجل يرغب في الرجل فيحالفه ويعاقده على أن يكون في ميراثه كبعض ولده ثم قال: (فآتوهم نصيبهم) أي اعطوهم حظهم الذي سميتم لهم من الميراث، هكذا قال مجاهد[2]. ثم نسخ بقوله تعالى: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) ويقال: إنهم كانوا يوصون لهم بشيء من المال فأمرهم بأن يؤتوا نصيبهم من الثلث. ويقال: أراد به مولى الموالاة، كانوا يرثون السدس. ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي شاهد إن أعطيتموهم أو لم تعطوهم. قرأ أهل الكوفة: حمزة والكسائي وعاصم[3]، والذين (عقدت أيمانكم) بغير ألف، والباقون: بالألف، قال أبو عبيدة والإختيار، (عاقدت) بالألف لأنه من معاقدة الحلف فلا يكون إلا بين اثنين ومن قرأ (عقدت) معناه عقدت لهم أيمانكم، فأضمر فيها لهم. ثم قال: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾. نزل في سعد بن الربيع[4] لطم امرأته بنت محمد بن مسلمة[5]، فجاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقصاص، فنزل جبريل من ساعته بهذه الآية (الرجال قوامون على النساء) يعني مسلطون في أمور النساء وتأديبهم ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ وذلك أن الرجل له الفضل على امرأته في إنفاقه عليها [ودفع الحق إليها][6] ويقال: إن الرجال لهم فضيلة في زيادة العقل والتدبير، فجعل لهم حق القيام عليهن بما لهم من زيادة عقل ليس ذلك للنساء. ويقال: للرجال، زيادة قوة في النفس والطبع ما ليس للنساء، لأن طبع الرجال غلب عليه الحرارة واليبوسة، فيكون فيه قوة وشدة، وطبع النساء غلب عليه الرطوبة والبرودة، فيكون فيه معنى اللين والضعف، فجعل

= فإن سأل سائل فقال: (هلا طرحا من غير المواجهة كما طرحا من المواجهة فقرأ (وليسلوا ما أنفقوا) بغير همز؟) الجواب: لم يطرحا الهمزة من غير المواجهة لأن العرب لم تطرح اللام من أوله كما طرحته من المواجهة فقالوا: (ليقم زيد) فتركوه على أصله. وقالوا (قم يا زيد) فحذفوا ذلك على أنهم لم يستثقلوا في غير المواجهة ما استثقلوه في المواجهة فلهذا حذفا من المواجهة كما حذفت العرب اللام من المواجهة ولم يحذفا الهمزة من غير المواجهة كما لم تحذف العرب اللام من غير المواجهة.

وقرأ الباقون: (واسألوا الله) بالهمز وحجتهم في ذلك أن العرب لا تهمز (سل) فإذا أدخلوا الواو والفاء و (ثم) همزوا. فإن سأل سائل فقال: (إذا أدخلوا الواو والفاء لم همزوا؟ هلا تركوها؟) فالجواب في ذلك: أن أصل (سل): أسأل) فاستثقلوا الهمزتين فنقلوا فتحة الهمزة إلى السين فلما تحركت السين استغنوا عن ألف الوصل فإذا تقدمه واو أو فاء ردوا الكلمة إلى الأصل، وأصله (واسألوا) لأنهم إنما حذفوا لاجتماع الهمزتين فلما زالت العلة ردّوها إلى الأصل. انظر حجة القراءات ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(١) انظر التفسير ١/٢٣٤. (٢) انظر التفسير ١/١٥٤.

(٣) وحجتهم أن الأيمان عقدت بينهم لأن في قوله (أيمانكم) حجة على أن أيمان الطائفتين هي عقدت ما بينهما وفي إسناد الفعل إلى الأيمان كفاية من الحجة.

وحجة الباقين أن العقد كان من الفريقين وكان هذا في الجاهلية: يجيء الرجل الذليل إلى العزيز فيعاقده ويحالفه ويقول له: (أنا ابنك ترثني وأرثك وحرمتي حرمتك ودمي دمك، وثاري ثارك فأمر الله جل وعز بالوفاء فهذا العقد لا يكون إلا بين اثنين وقيل إن ذلك أمر قبل تسمية المواريث وهي منسوخة بآية المواريث انظر حجة القراءات ٢٠١ ـ ٢٠٢. وانظر شرح شعلة ٣٣٩.

(٤) انظر أسباب النزول ١١١.

(٥) عميرة بنت محمد بن مسلمة الأنصارية نزل فيها (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ على النِّساء) الآية. الإصابة ٨/١٥٠.

(٦) ما بين المعكوفين سقط من أ.

لهم حق القيام عليهن بذلك. ثم قال: ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي فضلوا على النساء بما أنفقوا من أموالهم عليهن من المهر والنفقة. ثم قال: ﴿فالصالحات قانتات﴾ يعني المحصنات من النساء في الدين قانتات مطيعات لله تعالى ولأزواجهن. ويقال: الصالحات يعني المحسنات إلى أزواجهن من النساء في الدين (قانتات) أي [مطيعات لله ولأزواجهن][1] ويقال: الصالحات، يعني الموحدات (قانتات) يعني قائمات بأمور أزواجهن ﴿حافظات للغيب﴾ أي لغيب أزواجهن في فروجهن، وفي أموال الأزواج ﴿بما حفظ الله﴾ يقول أي: يحفظ الله إياهن. قال مقاتل:[2] (وما) صلة يعني يحفظ الله لهن، ثم قال عز وجل: ﴿والـلاتي تخافـون نشـوزهن﴾ أي تعلمـون عصيـانهن ﴿فعـظوهن﴾ بالله، أي يقـول لها: اتق الله فـإن حق الزوج عليـك واجب، فإن لم تقبـل ذلك قـوله تعـالى: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ قال الكلبي: أي ينسها وهو الهجر[3]. ويقال: لا يقرب فراشهـا، لأن الزوج إذا أعرض عن فراشها، فإن كانت محبة للزوج يشق عليها، فترجع إلى الصلاح، وإن كانت مبغضة فتظهر السرور فيها، فيتبين أن النشوز من قبلها. وقال الضحاك: واهجروهن في المضاجع، أي يعرض عنها، فإن ذلك يغيظها فإن لم ينفعها ذلك. ﴿واضربوهن﴾ يعني ضرباً غير مبرح، ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ يقول: لا تطلبوا عليهن عللاً، ولا تكلفوهن الحب لكم، فإن الحب أمر القلب، وليس لها ذلك بيدها ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ أي رفيعاً علا فوق كل كبير، فلا يطلب من عباده الحب، ولا يكلفهم ما لا يطيقونه، ويطلب منهم الطاعة، فأنتم أيضاً لا تكلفوهن. ويقال: إن الله مع علوه يتجاوز عن عباده، فأنتم أيضاً تجاوزوا ولا تطلبوا العلل. ثم قال تعالى للأولياء: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ يقول: إن علمتم خلافاً بين الزوجين، ويقال: إن خفتم الفراق بينهما، ولا تدرون من أيهما يقع النشوز فقوله: ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ يعني رجلاً عدلاً من أهل الزوج له عقل وتمييز، يذهب إلى الرجل ويخـلو به، ويقول له: أخبرني [ما][4] في نفسك، أتهواها أم لا؟ حتى أعلم بمرادك، فإن قال: لا حاجة لي بها، خذ مني لها ما استطعت، وفرق بيني وبينها، فيعرف أن من قبله جاء النشوز، وإن قال: فإني أهواها [فارضيها][5] من مالي بما شئت ولا تفرق بيني وبينها، فيعرف أنه ليس بناشز. ويخلو ولي المرأة بها، ويقول: أتهوين زوجك أم لا؟ فإن قالت: فرق بيني وبينه، واعطه من مالي ما أراد، علم أن النشوز من قبلها. وإن قالت: لا تفرق بيننا ولكن حثه حتى يزيد في نفقتي ويحسن إلي، علم أن النشوز ليس من قبلها. فإذا ظهر لهما الذي كان النشوز من قبله يقبلان عليه بالعظة، والزجر والنهي، وذلك قوله تعالى: (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) ﴿إن يريدا اصلاحاً﴾ يعني عدلاً، فينظران في أمرهما بالنصيحة والموعظة ﴿يوفق الله بينهما﴾ بالصلاح، ويقال: كل اثنين يقومان في الإصلاح بين اثنين بالنصيحة يقع الصلح بينهما لقوله تعالى: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما). ثم قال: ﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي عليماً بهما خبيراً بنصيحتهما. وفي هذه الآية دليل على إثبات التحكيم، وليس كما يقول الخوارج، إنه ليس الحكم لأحد سوى الله تعالى، فهذه كلمة حق، ولكن يريدون بها الباطل. قوله تعالى:

وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ

(١) في ظ مطيعات لله عز وجل. (٢) انظر التفسير ١/ ٢٣٥. (٣) انظر تفسير ابن عباس ٥٦.
(٤) سقط من أ. (٥) سقط من أ.

أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

﴿واعبدوا الله﴾ قال بعضهم: هذا الخطاب للكفار. واعبدوا الله، يعني وحدوا الله **﴿ولا تشركوا به شيئاً﴾** أي لا تثبتوا على الشرك. ويقال: الخطاب للمؤمنين: اعبدوا الله، يعني اثبتوا على التوحيد، ولا تشركو به. ويقال: (اعبدوا الله) يعني أطيعوا الله فيما أمركم به، وأخلصوا له بالأعمال، ولا تشركوا به شيئاً، ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين وللمنافقين وللكفار، فأمر المؤمنين بالطاعة والمنافقين بالإخلاص، والكفار بالتوحيد. وروى عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كل عبادة في القرآن إنما يعني بها التوحيد[١] ويقال هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، وذكر فيها أحكاماً [كانت تعرف تلك][٢] من طريق العقل، وإن لم ينزل به [القرآن][٣]، وهو قوله تعالى: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً). **﴿وبالوالدين إحساناً﴾** يعني أحسنوا إلى الوالدين. **﴿وبذي القربى﴾** يعني صلوا القرابات قوله **﴿واليتامى﴾** يعني، أحسنوا إلى اليتامى. ويقال: هذا أمر للأوصياء بالقيام على أموالهم. ثم قال تعالى: **﴿والمساكين﴾** أي عليكم بإطعام المساكين، ثم قال: **﴿والجار ذي القربى﴾** أي عليكم بالإحسان إلى الجار الذي بينك وبينه قرابة، فله ثلاث حقوق، هكذا روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنـه قال: (الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار القريب المسلم فله حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام، والجار الذي له حقان، وهو الجار المسلم، فله حق الإسلام وحق الجوار. والجار الذي له حق واحد هو الجار الكافر له حق الجوار)[٤]. ثم قال تعالى: **﴿والجار الجنب﴾** يعني الجار الذي لا قرابة بينهما، وهو من قوم آخرين. **﴿والصاحب بالجنب﴾** [أي الرفيق في السفر. وروي عن معاذ بن جبل أنه قال «الصاحب بالجنب»][٥] يعني المرأة[٦]، ثم قال **﴿وابن السبيل﴾** يعني الضيف ينزل عليكم فأحسنوا إليه، وحقه ثلاثة أيام، وما زاد على ذلك فهو صدقة. ثم قال: **﴿وما ملكت أيمانكم﴾** من الخدم أحسنوا إليهم. وقد روي في الخبر:[٧] اطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون، فإنهم لحم ودم، وخلق أمثالكم، رواه علي عن أبي طالب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: الله الله

---

(١) انظر تفسير ابن عباس ٥٦. (٢) في ظ [كان يعرف ذلك]. (٣) في ظ [الكتاب].

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار ٢/٣٨٠ (١٨٩٦) باب حق الجار وذكره الهيثمي في المجمع ٨/١٦٤ وقال رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد الحارثي وهو وضّاع.

(٥) ما بين المعكوفين سقط من ظ، والمثبت من أ.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير عن علي ٨/٣٤٢ (٩٤٧١) وأخرجه أيضاً عن ابن أبي ليلى (٩٤٧٤) وعن إبراهيم النخعي (٩٤٧٥)، ٩٤٧٦، ٩٤٧٧، ٩٤٧٨، ٩٤٧٩.

(٧) بنحوه متفق عليه من رواية أبي ذر البخاري ١٠/٤٦٥ في الأدب (٦٠٥٠) ومسلم ٣/١٢٨٢ في كتاب الأيمان (٣٨/١٦٦١) واللفظ الذي ذكر المصنف أخرجه الطبراني في الكبير من حديث كعب بن مالك كما في الجامع الصغير للسيوطي ٢/٩٨ (١٤٤٣) (الفيض) ورمز له بالضعف وعزاه المناوي في الفيض لابن السني وقال: قال الهيثمي فيه عبد الله بن زحر وعلي بن زيد وهما ضعيفان وقد وثقا. وقال الذهبي عبد الله ضعيف وله صحيفة واهية.

فيما ملكت أيمانكم وذكر الحديث. .وروي عن أنس بن مالك عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه، وما زال يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن، وما زال يوصيني بالمماليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم مدة إذا انتهوا إليها أعتقوا، وما زال يوصيني بالسواك حتى ظننت أن يحفي فمي، وما زال يوصيني بقيام الليل، حتى ظننت أن خيار أمتي لم يناموا ليلاً[١]. ثم قال تعالى: ﴿**إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً**﴾ يعني من كان مختالاً في مشيه، فخوراً على الناس، وهذا قول الكلبي[٢]. وقال القتبي: المختال: ذو الخيلاء والكبر، وهذا قريب من الأول، ويقال: فخوراً في نعم الله لا يشكرها، ويتكبر على الناس. ثم قال تعالى: ﴿**الذين يبخلون**﴾ قال مجاهد، ومقاتل:[٣] نزلت في اليهود يبخلون بكتمان صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتابهم ﴿**ويأمرون الناس بالبخل**﴾ يعني أمروا قومهم أن يكتموا صفته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**ويكتمون ما آتاهم الله من فضله**﴾ في التوراة. ويقال: أبخل الناس الذي يبخل بعلمه، ويقال: (الذين يبخلون) يعني في المال، لأن رؤساءهم كانوا لا يعطون أحداً من أموالهم شيئاً، لأن عادتهم كان الأخذ والمنع، وكانوا أيضاً يأمرون بالبخل، لأن من كان في معصية، فإنه يأمر غيره بذلك لكي لا يظهر عيبه، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، يعني لا يشكرون على ما أعطاهم الله من نعمته، ولا يخرجون الزكاة. ثم قال تعالى: ﴿**وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ أي عذاباً شديداً. قرأ حمزة والكسائي:[٤] (بالبخل) بنصب الباء والخاء، وقرأ الباقون (بالبخل) بضم الباء وجزم الخاء. وقال بعض أهل اللغة: ها هنا أربع لغات، وهي لغة الأنصار: بخل، وبخل، وبخل، وبخل، إلا أنه قرأ بحرفين ولا يقرأ بالحرفين الآخرين ثم قال تعالى: ﴿**والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس**﴾، قال مقاتل[٥] يعني اليهود، وقال الضحاك: يعني المنافقين ينفقون أموالهم مراءاة للناس. ﴿**ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**﴾ يعني ولا يصدقون في السر، ويقال: نزلت في مطعمي يوم بدر، وهم رؤساء مكة أنفقوا على الناس ليخرجوا إلى بدر[٦]. ثم قال تعالى: ﴿**ومن يكن الشيطان له قريناً**﴾ ففي الآية مضمر فكأنه قال: (ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فقرينهم الشيطان، ومن يكن الشيطان له قريناً ﴿**فساء قريناً**﴾ أي قرينهم الشيطان في الدنيا يأمرهم بالبخل، ويقال: قرينه في النار في السلسلة ثم قال تعالى:

---

(١) الحديث بهذا اللفظ ذكره القرطبي في التفسير ٥/ ١٢٥ وقال ذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره. والجزء الأول ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

أخرجه البخاري ١٠/ ٤٤١ في الأدب (٦٠١٤، ٦٠١٥) ومسلم ٤/ ٢٠٢٥، في كتاب البر باب الوصية بالجار (١٤٠/ ٢٦٢٤، ١٤١/ ٢٦٢٥) وأبو داود (٥١٥١، ٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٢، ١٩٤٣) وابن ماجه (٣٦٧٣، ٣٦٧٤)، وأحمد في المسند ٢/ ٨٥. وقوله (عن النساء) أخرجه أحمد بن منيع كذا في المطالب العالية للحافظ بن حجر ٢/ ٥٢ (١٦٢٥).

وقوله (عن المماليك) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٣٥ وقال باطل، وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٥١ (١٢٥٥) وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٥/ ٤٤٨ (٧٩١٤) (فيض) ـ وعزاه للبيهقي في الشعب قلت وهو في الشعب ٦/ ٣٦٩ الباب الثامن والخمسون من شعب الإيمان (٨٥٥٤) وقال وحديث المملوك صحيح على شرط مسلم والبخاري وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ١١ والبخاري وقوله (في قيام الليل) أخرجه أبو حنيفة كذا في مسنده ١٦٧ وهو في كنز العمال (٢١٤٢٥)، وذكره السيوطي في جامعه الكبير (٢٢٥٣) حديث (٤١٥/ ١٨٧٨٧) وعزاه للديلمي من حديث أنس.

(٢) انظر تفسير ابن عباس ٥٧.

(٣) انظر تفسير مجاهد ١/ ١٥٨ ومقاتل ١/ ٢٣٦.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٣ شرح شعلة ٣٣٩.

(٥) انظر التفسير ١/ ٢٣٧.

(٦) انظر تفسير القرطبي ٥/ ٣٢٣ ونقل عن العربي فقال قال ابن العربي: ونفقة الرئاء تدخل في الأحكام من حيث إنها لا تجزي.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ
إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وماذا عليهم﴾ أي وما كان عليهم **﴿لو آمنوا بالله﴾** مكان الكفر **﴿واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله﴾** مكان البخل في غير رياء، ويقال: وماذا عليهم، أي لم يكن عليهم شيء من العذاب لو آمنوا بالله [واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله من الأموال وهي الصدقة][1] **﴿وكان الله بهم عليماً﴾** أنهم لم يؤمنوا. ويقال: إن الله عليم بثواب أعمالهم، ولا يظلمهم شيئاً من ثواب أعمالهم قوله تعالى: **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾** يعني، لا ينقص من ثواب أعمالهم وزن الذرة قال الكلبي: وهي النملة الحميراء الصغيرة. ويقال: هو الذي يظهر في شعاع الشمس، ويقال: لا يظلم مثقال ذرة، يعني لا يزيد عقوبة الكافر مثقال ذرة ولا ينقص من ثواب المؤمنين مثقال ذرة. ثم قال تعالى: **﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾**، قرأ نافع وابن كثير:[2] (وإن تك حسنة) بضم الهاء، لأنه اسم تك، بمنزلة اسم كان، وقرأ الباقون (حسنة) بالنصب، وجعلوه خبر تك، والاسم فيه مضمر، ومعناه، وإن تكن الفعل حسنة، يضاعفها، يعني إذا زاد على حسناته مثقال ذرة من حسنة يضاعفها الله تعالى حتى يجعلها مثل أحد، ويوجب له الجنة، فذلك قوله تعالى: **﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾** يعني الجنة. وروى عبد الله بن مسعود[3] ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: خمس آيات في سورة النساء أحب إلي من الدنيا وما فيها، قوله تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه.. الآية) وقوله (ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم... الآية) وقوله: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة.... الآية)، وقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.. الآية)، وقوله (ومن يعمل سوءاً يجز به... الآيـة).

وقوله تعالى: **﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾** أي فكيف يصنعون؟ وكيف يكون حالهم؟ إذا جئنا من كل أمة بشهيد، يعني بنبيها هو شاهد بتبليغ الرسالة من ربهم **﴿وجئنا بك﴾** يا محمد **﴿على هؤلاء شهيداً﴾** يعني على أمتك شهيداً بالتصديق لهم، لأن أمته يشهدون على الأمم المكذبة للرسالة، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للأمم الخالية: هل بلغتكم الرسل رسالاتي؟ فيقولون: لا، فقالت الرسل: قد بلغنا، ولنا شهود. فيقول ـ عز وجل ـ ومن شهودكم؟ فيقولون: أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيؤتى بأمة محمد ـ عليه السلام ـ فيشهدون بتبليغ الرسالة بما أوحي إليهم من ربهم في كتابهم في قصة الأمم الخالية، فتقول الأمم [الماضية][4] إن فيهم زواني، وشارب الخمر، فلا يقبل شهادتهم، فيزكيهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول المشركون: (والله ربنا ما كنا مشركين) فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، فذلك قوله تعالى: (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) أي تخسف بهم الأرض. ويقال: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد،

---

(١) سقط من أ.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٣ وشرح شعلة ٣٤٠.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٥٦ (٩٢٣٣) وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٢/١٤٥ لأبي عبد القاسم بن سلام وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني.

(٤) في ظ [الخالية].

الرسل يشهدون على قومهم بتبليغ الرسالة، ويشهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته بتبليغ الرسالة من قبل، ومن لم يقبل. حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا أبو منيع، قال: حدثنا أبو كامل[١] قال: حدثنا فضيل[٢] عن يونس بن محمد بن فضالة[٣] عن أبيه، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاهم من بني ظفر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر ومعه ابن مسعود ومعاذ وناس من الصحابة، فأمر قارئاً فقرأ حتى إذا أتى على هذه الآية: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) بكى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اخضلت وجنتاه، فقال: يا رب هذا علمي بمن أنا بين ظهرانيهم فكيف بمن لم أرهم؟[٤] ثم قال تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا﴾ يعني يتمنى الذين كفروا، يعني الكفار، ﴿وعصوا الرسول، لو تسوى بهم الأرض﴾ أي يكونوا تراباً يمشي عليهم أهل الجمع ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾. وهو قولهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) قال الزجاج: قال بعضهم (ولا يكتمون الله حديثاً) مستأنف، لأن ما عملوا ظاهر عند الله تعالى، لا يقدرون على كتمانه. وقال بعضهم: هو كلام بناء، يعني يودون أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثاً، لأنه مظهر كذبهم. قرأ حمزة والكسائي: (تسوى) بنصب التاء وتخفيف السين، وتشديد الواو، يعني يخسف بهم، وقرأ عاصم وابن كثير وأبو عمرو:[٥] (تسوى) بضم التاء [فأدغم إحدى التائين في الأخرى][٦] على فعل لم يسم فاعله، أي يصيروا تراباً، وتسوى بهم الأرض وقرأ نافع وابن عامر: (تسوى) بنصب التاء وتشديد السين والواو لأن أصله تتسوى، فادغم إحدى التائين في السين. ثم قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ قال مقاتل: وذلك أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاماً، فدعا أبا بكر، وعمر وعثمان، وعلياً، وسعداً ـ رضي الله عنهم ـ فأكلوا، وسقاهم خمراً، فحضرت صلاة المغرب فأمهم علي، فقرأ (قل يا أيها الكافرون) على غير الوجه، فنزل (يا أيها الذين آمنوا، لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ وكان ذلك قبل تحريم الخمر. وقال: (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)، يعني موضع الصلاة وهو المسجد، حتى تعلموا ما تقولون، ويقال: حتى تصيروا بحال تعلموا ما تقولون، فحينئذ تقربوا المسجد، لأنهم إذا لم يعلموا ما يقولون فلا يعرفون الحرمة. ثم قال تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ يقول:

---

(١) فضيل بن حسن بن طلحة البصري أبو كامل الجحدري. التهذيب ٨/ ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٢) فضيل بن سليمان النميري أبو سليمان البصري. التهذيب ٨/ ٢٩١.

(٣) يونس بن محمد بن فضالة بن أشتي الظفري أبو محمد روى عن أبيه. الجرح والتعديل ٩/ ٢٤٦.

(٤) ذكره القرطبي نقلاً عن أبي الليث ٥/ ١٢٨ ـ ١٢٩ وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢/ ٢٦٩ والحديث أخرجه الطبراني في الكبير ١٩/ ٢٢١ وذكره الهيثمي في المجمع ٧/ ٧ باب سورة النساء وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٦٣.

(٥) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٣ شرح شعلة ٣٤٠.

(٦) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

ولا تقربوا الصلاة جنباً إلا عابري سبيل، يعني إلا أن يكون مسافراً، فلا يجد الماء، فيتيمم ويصلي إذا كان جنباً، وقال الزجاج: وحقيقته ألا تصلوا إذا كنتم جنباً ﴿حتى تغتسلوا﴾ إلا أن لا تقدروا على الماء. وقال القتبي: لا تقربوا الصلاة، يعني لا تقربوا المساجد، وأنتم جنب إلا مجتازين وقال بعضهم: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى من النوم. وروى [السدي][1] عمن حدثه عن ابن عباس في قوله: (ولا جنباً إلا عابري سبيل) قال: في السفر يتيمم ويصلي[2]. ويقال: إلا أن تكون في المسجد عين فيدخل ليغترف الماء. ثم قال تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى﴾، نزلت في عبد الرحمن بن عوف أصابته جنابة، وهو جريح، فرخص له بأن يتيمم، ثم صارت الآية عامة في جميع الناس. وروي عن عبد الله بن عباس، وجابر بن سمرة[3] وغيرهما من الصحابة، أن رجلاً كان به جدري[4] على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأصابته جنابة فغسلوه فمات من ذلك، فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: قتلوه قتلهم الله فهلا يمموه.[5] وروي عن ابن عباس أنه قال: وإن كنتم مرضى، قال: فإنما هو المجذوم والمجدور والمقروح[6]. ثم قال تعالى: ﴿أو على سفر﴾ أي إذا كنتم مسافرين ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ والغائط في اللغة: إسم المكان المطمئن من الأرض، وإنما هو كناية عن قضاء الحاجة. ثم قال تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾، قرأ حمزة والكسائي:[7] (أو لمستم)، وقرأ الباقون: (لامستم)[8] من الملامسة، قال ابن عباس:[9] يعني الجماع، وقال بعضهم: هو المس باليد. ﴿فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً﴾ يعني إذا أصابكم الحدث أو الجنابة، ولم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً[10] طيباً أي تراباً نظيفاً. ويقال الصعيد: هو ما علا وجه الأرض. ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾. قال بعضهم: الوجه والكفين، وهو قول الأعمش والأوزاعي[11]. وقال بعضهم: إلى المنكبين، وهو قول الزهري[12]. وقال عامة أهل العلم: الوجه واليدين إلى المرفقين وبذلك جاءت الآثار عن

---

(١) بياض في أ. (٢) أخرجه الطبري في التفسير ٨/٣٧٩ (٩٥٣٥).

(٣) جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب العامري السوائي يكنى أبا عبد الله توفي سنة ٧٤ هـ. الإصابة ١/٢٢١.

(٤) وفي الحديث (شجة في رأسه).

(٥) أخرجه أبو داود ١/٢٣٩ ـ ٢٤٠ في الطهارة باب في المجروح يتيمم ٣٣٦ والدارقطني في السنن ١/١٨٩ ـ ١٩٠ في الطهارة (٣) وبلفظ الجحدري أخرجه ابن أبي شيبة ١/٩٦ باب في الجنب به الجُدَري والحصبة ١٠٧٧.

(٦) ذكره السيوطي ٢/١٦٦ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابـن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٧) بغير ألف جعلا الفعل للرجال دون النساء. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٥.

(٨) بالألف انظر المصدر السابق. (٩) انظر التفسير ٥٧.

(١٠) وهو في اللغة: القصد على الإطلاق.

وفي الشرع: القصد إلى الصعيد لإزالة الحدث، وفي الدرر ١/٢٨ وشرعاً: استعمال الصعيد بقصد التطهير.

وفي الصحاح ٥/٢٠٦٤ يممته قصدته، وتيممه تقصدته، وتيممت الصعيد للصلاة، وأصله التعمد والتوخي، من قولك: تيممتك وتأممتك.

قال ابن السكّيت: قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طيباً﴾ أي اقصدوا الصعيد ثم كثر استعمالهم لهذه الكلمة حتى صار التيمم مسح الوجه واليدين بالتراب.

عن الفراء: الصعيد: التراب، وقال ثعلب: وجه الأرض لقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زلقاً﴾ والجمع صُعُد وصُعُدات مثل طُرُق وطُرُقات والصُّعُود خلاف الهبوط، والصُّعود بالضم: المصدر يقال صعد في السلم صعوداً كذا في الصحاح ٢/٤٩٧. انظرأنيس الفقهاء ٥٧/٥٨.

(١١) انظر تفسير البغوي ١/٤٣٦. (١٢) انظر تفسير البغوي ١/٤٣٦.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن عامة الصحابة اعتباراً بالوضوء[١] ثم قال تعالى: ﴿**إن الله كان عفواً غفوراً**﴾ أي ذو الفضل والعفو حين أجاز لكم التراب مكان الماء، غفوراً لتقصيركم. قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب**﴾ يعني أعطوا حظاً من علم التوراة ﴿**يشترون الضلالة**﴾ يعني يختارون الكفر على الإسلام. قال القتبي: وهذا من الاختصار، ومعناه: يشترون الضلالة بالهدى، أي يستبدلون هذا بهذا كقوله: (إن العهد كان مسئولا) أي مسئولا عنه، ثم قال تعالى: ﴿**ويريدون أن تضلوا السبيل**﴾ أي تتركوا طريق الهدى، وهو طريق الإسلام ﴿**والله أعلم بأعدائكم**﴾ أي يعلم بعداوتهم إياكم، يعني، هو يعلم بالحقيقة وأنتم تعلمون الظاهر. ويقال هذا وعيد لهم فكأنه يقول: هو أعلم بعذابهم كما قال في آية أخرى: (والله أعلم بالظالمين) يعني عليم بعقوبتهم ومجازاتهم ثم قال تعالى: ﴿**وكفى بالله ولياً**﴾ أي ناصراً لكم ومعيناً لكم ﴿**وكفى بالله نصيراً**﴾ يعني مانعاً لكم. قوله تعالى: ﴿**من الذين هادوا**﴾ أي مالوا عن الهدى. قال الزجاج: (من الذين هادوا): فيه قولان: فجائز أن يكون من صلة، والمعنى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا ويجوز أن يكون معناه من الذين هادوا قوم ﴿**يحرفون الكلم عن مواضعه**﴾ أي، يحرفون نعته عن مواضعه، وهو نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**ويقولون سمعنا**﴾ قولك ﴿**وعصينا**﴾ أمرك ﴿**واسمع غير مسمع**﴾ منك ﴿**وراعنا ليًا بألسنتهم**﴾ أي يلوون لسانهم بالسب، ﴿**وطعناً في الدين**﴾ أي في دين الإسلام. قال القتبي: كانوا يقولون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا حدثهم وأمرهم سمعنا، ويقولون في أنفسهم: وعصينا، وإذا أرادوا أن يكلموه بشيء قالوا: إسمع يا أبا القاسم، ويقولون في أنفسهم: لا سمعت ويقولون: راعنا، يوهمونه في ظاهر اللفظ أنهم يريدون انظرنا حتى نكلمك بما تريد، ويريدون به السب بالرعونة، ليّاً بألسنتهم أي قلباً للكلام بها. ﴿**ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا**﴾ مكان سمعنا وعصينا ﴿**واسمع**﴾ مكان اسمع لا سمعت. ﴿**وانظرنا**﴾ مكان قولهم: راعنا ﴿**لكان خيراً لهم وأقوم**﴾ أي وأصوب من التحريف والطعن. ثم قال تعالى: ﴿**ولكن لعنهم الله بكفرهم**﴾ أي خذلهم الله وطردهم مجازاة لهم بكفرهم، ﴿**فلا يؤمنون إلا قليلاً**﴾ يعني لا يؤمنون إلا بالقليل لأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يؤمنون بجميع ما عندهم، ولا بسائر الكتب وإنما يصدقون ببعض ما عندهم. ويقال: لا يؤمنون، إلا القليل منهم،

---

(١) انظر تفسير البغوي ١/٤٣٦ والقرطبي ٥/١٥٥، ١٥٦ وانظر تفسير الطبري ٨/٤١٤.

وهم مؤمنو أهل الكتاب ويقال: إنهم لا يؤمنون، وهم بمنزلة رجل يقول: فلان قليل الخير، يعني لا خير فيه. ثم خوفهم فقال: ﴿يا أيها الذين آتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا﴾ أي صدقوا بالقرآن ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي موافقاً للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع، ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾ وطمسها أن يردها على بصائر الهدى، ويقال. طمسها أن يحول الوجوه إلى الأقفية، ويقال: يخسف الأنف والعين فيجعلها طمساً، ويقال: من قبل أن يطمس أي تسود الوجوه، قال بعضهم: يعني به في الآخرة، ويقال: هذا تهديد لهم في الدنيا. وذكر أن عبد الله بن سلام قدم من الشام، فلم يأت أهله حتى أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي[1]، ويقال: من قبل أن نطمس وجوهاً، يعني وجه القلب وهو كناية عن القسوة، وقال مقاتل: يعني من قبل أن تحول القبلة، كقوله: (ولكل وجهة هو موليها). ثم قال تعالى: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ أي نمسخهم كما مسخنا أصحاب السبت القردة، ثم قال: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي كائناً، وهذا وعيد من الله تعالى لهم ليعتبروا ويرجعوا. قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾ أي دون الشرك ﴿لمن يشاء﴾ يعني لمن مات موحداً. نزلت الآية في شأن وحشي قاتل حمزة، وذلك أن الناس لما التقوا يوم أحد، وقد جعل لوحشي جزاء إن قتل حمزة فقتله لم يوف له، فلما قدم مكة ندم على صنعه الذي صنع هو وأصحابه معه، فكتبوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاباً: إنا قد ندمنا على ما صنعنا، وإنه ليس يمنعنا من الدخول معك، إلا أنا سمعناك تقول: إذ كنت عندنا بمكة: (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. . .) إلى قوله: (يضاعف له العذاب يوم القيامة) وقد دعونا مع الله إلهاً آخر، وقتلنا النفس، وزنينا، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزل: (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً) فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الآيات إلى وحشي وأصحابه فلما قرأوا كتبوا إليه إن هذا شرط شديد، فنخاف ألا نعمل عملاً صالحاً، فلا نكون من أهل هذه الآية، فنزل (إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فبعث إليهم فقرأوها. فبعثوا إليه: فقالوا: إن في هذه الآية شرطاً أيضاً نخاف ألا نكون من أهل مشيئته فنزل قوله: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً) فبعثها إليهم، فلما قرأوها، وجدوها أوسع مما كان قبلها، فدخل هو وأصحابه في الإسلام. وروي عن ابن عمر[2] أنه قال: كنا إذا مات الرجل منا على كبيرة، شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فأمسكنا عن الشهادة. وهذه الآية رد على من يقول: إن من مات على كبيرة يخلد في النار لأن الله تعالى قد ذكر في آية أخرى: (إن الحسنات يذهبن السيئات) يعني ما دون الكبائر [فلم يبق لهذه المشيئة موضع سوى الكبائر][3] ثم قال تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ يعني اختلق على الله كذباً عظيماً، ويقال: فقد أذنب ذنباً عظيماً. قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

(١) انظر تفسير القرطبي ٥/١٥٨.
(٢) ذكره السيوطي في الدر ٢/١٦٩ وقال أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) ما بين المعكوفين سقط من ظ.

ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

﴿الم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ يقول: يبرءون أنفسهم من الذنوب، ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ وذلك، لأن رؤساء اليهود كانوا يقولون: هل على أولادنا من ذنب، فما نحن إلا كهيئتهم فهذا الذي زكوا به أنفسهم، قال الله تعالى: (بل الله يزكي من يشاء) أي يصلح ويبريء من يشاء من الذنوب. ويقال: يكرم من يشاء بالإسلام ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾. قال الكلبي ومقاتل: الفتيل الذي يكون في شق النواة[1]، وهو الأبيض ويقال: هو ما فتلته بين أصبعيك من الوسخ، فإذا مسحت إحداهما بالأخرى، يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم بذلك المقدار، ثم قال تعالى: ﴿أنظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي يختلقون على الله الكذب ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي ذنباً مبيناً. روى مقاتل عن الضحاك قال: الفتيل، والنقير، والقطمير، كلها في النواة. ثم قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ يعني أعطوا حظاً من علم التوراة، ﴿يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ الجبت: حيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف. وقال القتبي: كل معبود من حجر، أو صورة، أو شيطان، فهو جبت وطاغوت، قال: ويقال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، ويقال: في هذه السورة رجلان من اليهود، وإيمانهم بهما تصديقاً لهما، وطاعتهم إياهما. ثم قال تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ يعني لمشركي مكة ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ وذلك أن رؤساء اليهود قدموا مكة بعد قتال أحد، ونقضوا العهد، وبايعوا المشركين، وقالوا: أنتم أهدى سبيلاً من المسلمين. حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الديبلي، قال: حدثنا أبو عبيد الله قال: حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، قال: جاء كعب بن الأشرف، وفي رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس، قال: جاء كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب إلى مكة، فأتيا قريشاً، فقالت لهما قريش: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، ديننا القديم، ودين محمد الحديث، ونحن نصل الرحم ونسقي الحجيج، ونفك العناة، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج، بنو غفار، فنحن أهدى أم هو؟ قالا: بل أنتم أهدى سبيلاً منهم، فأنزل الله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب. . . . الآية)[2] إلى قوله: (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً). يعني أهدى ديناً من المهاجرين والأنصار. قوله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي خذلهم وطردهم الله من رحمته، ويقال: عذبهم الله بالجزية. ﴿ومن يلعن الله، فلن تجد له نصيراً﴾ أي مانعاً. قوله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ يقول: لو كان لهم، يعني لليهود حظ من الملك ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لا يعطون أحداً من بخلهم وحسدهم نقيراً، والنقير: النقطة التي على ظهر النواة ﴿أم يحسدون الناس﴾ أي أيحسدون الناس. ويقال: بل يحسدون الناس، يعني به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿على ما آتاهم الله من فضله﴾ من النبوة، وكثرة تزوجه النساء، ويقولون لو كان نبياً لشغلته النبوة عن كثرة النساء فيحسدونه بذلك. قال الله تعالى: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة﴾

(١) انظر تفسير القرطبي ٥/١٦٠.
(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ١١٤.

يعني النبوة والعلم والفهم، ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ فكان يوسف عليه السلام ـ ملكاً على مصر، وكان سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ ملكاً، وكانت له ثلاثمائة امرأة حرة سوى السرية، قال مقاتل هكذا، وقال الكلبي: كانت له سبع مائة امرأة، وثلاثمائة سرية، وكان لداود ـ عليه السلام ـ مائة امرأة[1]، فلم يكن يمنعهم النبوة عن ذلك، ويقال: إن الفائدة في كثرة تزوجه أنه كانت له قوة أربعين نبياً، وكل من كان أقوى فهو أكثر نكاحاً. ويقال: إنه أراد بالنكاح كثرة العشيرة، لأن لكل امرأة قبيلتين قبيلة من قبل الأب، وقبيلة من قبل الأم، فكلما تزوج امرأة صرف وجوه القبيلتين إلى نفسه، فيكونون عوناً له على أعدائه. ويقال: إن كل من كان أتقى كانت شهوته أشد، لأن الذي لا يكون تقياً، إنما ينفرج بالنظر واللمس، ألا ترى إلى ما روي في الخبر: العينان تزنيان، واليدان تزنيان، فإذا كان في النظر، وفي المس نوع من قضاء الشهوة، فلا ينظر التقي، ولا يمس، فيكون الشهوة مجتمعة في نفسه، فيكون أكثر جماعاً. وقال أبو بكر الوراق: كل شهوة تقسي القلب إلا الجماع فإنه يصفي القلب، ولهذا كان الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يفعلون ذلك[2]. قوله تعالى: ﴿فمنهم من آمن به﴾ يعني من اليهود من آمن به، بالكتاب الذي أنزل على إبراهيم، وآمن بالكتاب الذي [أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ][3] ﴿ومنهم من صد عنه﴾ يعني أعرض عنه مكذباً، وهذا قول الكلبي[4]. وقال مقاتل:[5] (فمنهم من آمن به) يعني من آل إبراهيم (من آمن به) يعني بالكتاب الذي جاء به (ومنهم من صد عنه) لم يؤمن به. وقال الضحاك: أم يحسدون الناس، يعني اليهود كانوا يحسدون قريشاً لأن النبوة فيهم[6]، (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب) يعني إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، الكتاب يعني التنزيل، والحكمة: يعني السنة، وآتيناهم ملكاً عظيماً: يعني قريشاً وبني هاشم ملكاً عظيماً، يعني الخلافة لا تصلح إلا لقريش، (فمنهم من آمن به) يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ومنهم من صد عنه) أي كفر به. ثم قال تعالى: ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ أي وقوداً لمن كفر به. ثم بين مصير من كذب به، وموضع من آمن به فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ﴿سوف نصليهم ناراً﴾ أي ندخلهم ناراً في الآخرة. ويقال: صلى: إذا دخل النار لأجل شيء، وأصلاه: إذا أدخله للإحتراق والاصطلاء بالنار: الاستدفاء. ثم قال تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ يقول كلما احترقت جلودهم ﴿بدلناهم﴾ يعني جددنا لهم ﴿جلوداً غيرها﴾ لأنهم إذا احترقوا خبت عنهم النار ساعة فبدلوا خلقاً جديداً، ثم عادت تحرقهم، فهذا دأبهم فيها، وقال مقاتل: تجدد في كل يوم سبع مرات، وقال الحسن: بلغني أنه ينضج كل يوم سبعين ألف مرة، وقال الضحاك: سبعين جلداً في كل يوم. وقد طعنت الزنادقة في هذا وقالوا: إن الجلد الذي تبدل لم يذنب فكيف يستحق العقوبة والعذاب. قيل لهم: إن ذلك الجلد هو الجلد الأول، ولكنه إذا أحرق أعيد إلى الحال الأول،

---

(١) انظر تفسير ابن عباس ٥٨. (٢) انظر تفسير القرطبي ٥/١٦٤. (٣) في ظ [الذي جاء به].
(٤) انظر تفسيره ابن عباس ٥٨. (٥) انظر التفسير ١/٢٤٤. (٦) انظر تفسير القرطبي ٥/١٦٢.

كالنفس إذا صارت تراباً، وصارت لا شيء، ثم أحياها الله تعالى، فكذلك ها هنا. وقوله تعالى: (جلوداً غيرها) على وجه المجاز، كما قال في آية أخرى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يعني يزاد في سعتها، وتسوى جبالها وأوديتها. وقوله: ثم قال تعالى ﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي لكي يجدوا مس العذاب ﴿إن الله كان عزيزاً﴾ في نقمته ﴿حكيماً﴾ في أمره، حكم لهم بالنار. ثم بين مصير الذين صدقوا به فقال عز وجل: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن (وعملوا الصالحات) يعني الطاعات التي أمرهم الله تعالى بها ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي مقيمين فيها ﴿أبداً لهم فيها أزواج مطهرة﴾ في الخلق والخلق ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾. قال الضحاك: يعني، ظلال أشجار الجنة، وظلال قصورها[١] وقال الكلبي:[٢] يعني ظلاً ظليلاً أي دائماً. وقال مقاتل: يعني أكنان القصور، (ظليلاً) يعني لا خلل فيها. قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ وذلك أن مفتاح الكعبة كان في يد بني شيبة، وكانت السقاية في يد بني هاشم، فلما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة، دعا عثمان بن طلحة، وقال له: هات المفتاح فخشي عثمان أن يعطيه إلى عمه العباس، فجاء بالمفتاح وقال لرسول الله [صلى الله عليه وسلم ـ حين دفع إليه][٣]، خذه بأمانة الله، فدخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ البيت، فإذا فيه تمثال إبراهيم ـ عليه السلام ـ مصور على الحائط وبيده قداح، وعنده إسماعيل والكبش مصوران فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاتل الله الكفار ما لإبراهيم والقداح، فأمر بالصور فمحيت، فقضى حاجته من البيت ثم خرج، فطلب منه العباس بأن يدفع إليه المفتاح فنزلت هذه الآية: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ثم صارت الآية عامة لجميع الناس، برد الأمانات إلى أهلها، ويقال: نزلت في شأن اليهود حيث كتموا نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت أمانة عندهم فمنعوها. ويقال: هذا أمر لجميع المسلمين: بأداء الفرائض، وجميع الطاعات لأنها أمانة عندهم، كقوله تعالى: (إنا عرضنا الأمانة. . . . إلى قوله: وحملها الإنسان) ثم قال تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ يقول بالحق. وقال الضحاك: (وإذا حكمتم بين الناس) أي بين القوم (أن تحكموا بالعدل) أي بالبينة على المدعي واليمين على المدعى عليه[٤]. ﴿إن الله نِعمّا يعظكم به﴾ يعني يأمركم بالعدل والنصيحة والاستقامة، وأداء الأمانة ﴿إن الله كان سميعاً﴾ بمقالة العباس، ﴿بصيراً﴾ برد المفتاح إلى أهله. قرأ ابن عامر والكسائي وحمزة:

(١) انظر تفسير القرطبي ١٦٥/٥. (٢) انظر المصدر السابق. (٣) ما بين المعكوفين سقط من أ.

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري ومسلم من رواية ابن عباس. البخاري ٢١٣/٨ في التفسير (٤٥٥٢) ومسلم ١٣٣٦/٣ في الأقضية (١٧١١/١) ومن حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند الترمذي ٦٢٦/٣ في الأحكام (١٣٤١)، والدارقطني ٢١٨/٤ في الأقضية والبيهقي ٢٥٦/١٠ في الدعوى.

﴿نعما﴾ بنصب النون، وكسر العين، والاختلاف فيه كالاختلاف الذي في سورة البقرة، وذلك قوله تعالى: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ أي في الفرائض ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي في السنن، ويقال: أطيعوا الله فيما فرض، وأطيعوا الرسول فيما بين، ويقال: (أطيعوا الله) يقول: لا إله إلا الله، وأطيعوا الرسول، يقول: محمد رسول الله. ﴿وأولي الأمر منكم﴾ يعني أطيعوا أولي الأمر منكم. قال الكلبي ومقاتل:[1] يعني أمراء السرايا. وقال الضحاك: يعني الفقهاء والعلماء في الدين[2]. ويقال: الخلفاء والأمراء، ويجب طاعتهم ما لم يأمروا بالمعصية قوله: ﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ من الحلال والحرام والشرائع، ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ يعني إلى أمر الله فيما يأمر بالوحي، وإلى أمر الرسول فيما يخبر عن الوحي، ثم بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - لما انقطع الوحي يرد إلى كتاب الله تعالى، وإلى سنة رسوله - عليه الصلاة والسلام - ويقال [معناه][3] إذا أشكل عليكم شيء فقولوا الله ورسوله أعلم وهذا كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. وقال الخليل بن أحمد البصري: الناس أربعة: رجل لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، فهذا أحمق فاجتنبوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فهذا جاهل فعلموه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فهذا نائم فأيقظوه، ورجل يدري، وهو يدري أنه يدري، فهذا عالم فاتبعوه. ثم قال تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ يعني إن كنتم تصدقون بالله واليوم الآخر، ثم قال: ﴿ذلك خير﴾ أي الرد إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله، خير من الإختلاف[4] ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي وأحسن عاقبة. وروي عن علي بن أبي طالب -

---

(١) انظر التفسير ١/٢٤٦. (٢) انظر تفسير القرطبي ٥/١٦٨. (٣) سقط من أ.

(٤) ومعنى الرد إلى الرسول: إنهاء الأمور إليه في حياته وحضرته كما دل عليه قوله في نظيره (وإلى الرَّسُول) فأما بعد وفاته أو في غيبته فالرد إليه: الرجوع إلى أقواله وأفعاله والاحتذاء بسنته. روى أبو داود عن أبي رافع عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: لا أُلْفِيَن أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر مما أَمَرْتُ به أو نَهَيْتُ عنه فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه). وفي روايته عن العرباض بن سارية أنه سمع رسول الله يخطب يقول (أيحسب أحدكم وهو متكيء على أريكته وقد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن ألا وإني والله قد أَمَرْتُ وَوَعَظْتُ وَنَهَيْتُ عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر) وأخرجه الترمذي من حديث المقدام وعرض الحوادث على مقياس تصرفاته والصريح من سنته.

والتنازع: شدة الإختلاف وهو تفاعل من النزع أي الأخذ قال الأعشى:

نَـازَعتُـهم قُـضُـبَ الـرَّيـحـانِ مـتـكـئـاً وقـهـوة مـزة راووقـهـا خـضـل

انظر التحرير ٥/٩٨ - ٩٩.

ومن ذلك اختلاف أهل العلم في الأحكام الشرعية التي طريقها الإجتهاد والنظر في أدلة الشريعة.

فكل هذا الإختلاف والتنازع مأمور أصحابه برد أمره إلى الله والرسول ورد كل نوع من ذلك يتعين أن يكون بحيث يرجى معه زوال الاختلاف وذلك ببذل الجهد والوسع في الوصول إلى الحق الجلي في تلك الأحوال. فما روي عن مجاهد وميمون بن مهران في تغيير التنازع بتنازع أهل العلم إنما هو تنبيه على الفرد الأخفى من أفراد العموم وليس تخصيصاً للعموم. وذكر الرد إلى الله في هذا مقصود منه مراقبة الله تعالى في طلب انجلاء الحق في مواضع النزاع تعظيماً لله تعالى فإن الرد إلى الرسول يحصل به الرد إلى الله إذ الرسول هو المنبيء عن مراد الله تعالى فذكر اسم الله هنا هو بمنزلة ذكره في قوله (فإن لله خمسه وللرسول) الآية. ثم الرد إلى الرسول في حياة الرسول وحضوره ظاهر وهو المتبادر من الآية، وأما الرد إليه في غيبته أو بعد وفاته فبالتحاكم إلى الحكام الذين أقامهم الرسول أو أمرهم بالتعيين وإلى الحكام الذين نصبهم ولاة الأمور للحكم بين الناس بالشريعة ممن يظن به العلم بوجوه الشريعة وتصاريفها فإن تعيين صفات الحكام وشروطهم وطرق توليتهم فبما ورد عن الرسول من أدلة صفات الحكام يقوم مقام تعيين أشخاصهم وبالتأمل في تصرفاته وسنته ثم الصدر على ما يتبين للمتأمل من حال يظنها هي مراد الرسول لو سئل عنها في جميع أحوال النزاع في فهم الشريعة واستنباط أحكامها المسكوت عنها من الرسول، أو المجهول قوله فيها. انظر التحرير ١٠٠ - ١٠١.

رضي الله عنه ـ أنه قال: حق على الإمام أن يحكم بالعدل، ويؤدي الأمانة [إلى أهلها][(١)] فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه فإن الله تعالى أمرنا بأداء الأمانة والعدل، ثم أمرنا بطاعتهم[(٢)]. وقال مجاهد:[(٣)] (وأولى الأمر منكم) العلماء والفقهاء، وهكذا روي عن جابر[(٤)]. وقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ وذلك منافقاً يقال له: [بشر][(٥)] كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي: إنطلق بنا إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت تلك الخصومة في حكم الإسلام على المنافق، وفي حكم اليهود على اليهودي فقال اليهودي: نأتي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحكم بيننا وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشرف حتى يحكم بيننا، فكانا في ذلك إذ سمع عمر بن الخطاب قولهما، فقال: ما شأنكما؟ فأخبراه بالقصة، فقال عمر: أنا أحكم بينكما، فأجلسهما ثم دخل البيت، وخرج بالسيف، وقتل المنافق: فنزلت هذه الآية: (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك) يعني بالقرآن، **﴿وما أنزل من قبلك﴾** يعني سائر الكتب [المنزلة][(٦)] **﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾** وهو كعب بن الأشرف **﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾** يعني أمروا بتكذيبه. وقال الضحاك: نزلت الآية في شأن المنافقين[(٧)]، لأنهم آمنوا بلسانهم، ولم يؤمنوا بقلوبهم، وركنوا إلى قول اليهود، ومالوا إلى خلاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذلك قوله: (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا) يعني إلى كهنة اليهود، وسحرتهم، ثم قال: **﴿ويريد الشيطان أن يضلهم﴾** عن الهدى وعن الحق **﴿ضلالاً بعيداً﴾** ثم قال: **﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾** يعني إلى ما أمر الله في كتابه، وإلى ما أمر الرسول، وإلى ما أنزل إلى الرسول. **﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾** أي يعرضون عنك إعراضاً، ويقال: صد، يصد، يكون لازماً، ويكون متعدياً، وإنما يتبين ذلك بالمصدر، ويقال: صد، يصد صداً، إذا صرف غيره، كقوله تعالى: (فصدهم عن السبيل) وصد، يصد، صدوداً إذا أعرض بنفسه كقوله تعالى: (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) وكقوله: (رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً). قوله تعالى: **﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة﴾** يقول: فكيف يصنعون إذا أصابتهم عقوبة **﴿بما قدمت أيديهم﴾** أي بما عملت أيديهم **﴿ثم جاءوك يحلفون بالله﴾** قال في رواية الكلبي: نزلت في شأن ثعلبة بن

---

(١) سقط في ظ. (٢) انظر تفسير القرطبي ١٦٨/٥. (٣) انظر المصدر السابق.
(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٥٠١/٨. (٥) في أ يسر وهو تحريف ظاهر. (٦) سقط من ظ.
(٧) انظر أسباب النزول للواحدي ١٢٠.

حاطب[١]، كانت بينه وبين الزبير بن العوام[٢] خصومة، فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للزبير، فخرجا من عنده، فمرا على المقدام بن الأسود[٣]، فقال للمقدام: لمن كان القضاء يا ثعلبة؟ فقال ثعلبة: قضى لابن عمته الزبير، ولوى شدقه، على وجه الاستهزاء، فنزلت هذه الآية:[٤] (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) أي بليه شدقه، فلما نزلت هذه الآية: أقبل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتذر إليه ويحلف وذلك قوله ﴿ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً﴾ أي ما أردنا إلا الإحسان في المقالة ﴿وتوفيقاً﴾ يقول: صواباً. وقال الضحاك ومقاتل:[٥] نزلت في شأن الذين بنوا مسجد ضرار، فلما أظهر الله نفاقهم، وأمر بهدم المسجد، حلفوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دفعاً عن أنفسهم، ما أردنا ببناء المسجد إلا طاعة الله، وموافقة الكتاب. قوله تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ من الضمير، وقال الزجاج: معناه قد علم الله أنهم منافقون، والفائدة لنا، أن اعلموا: أنهم منافقون، قال: ومعنى قوله: (وتوفيقاً) أي طلباً لما وافق الحق. ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تعاقبهم ﴿وعظهم﴾ بلسانك ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ يقول: خوفهم، وهددهم، إن فعلتم الثاني عاقبتكم قال مقاتل: تقدم إليه تقدماً وثيقاً، ثم نسخ بقوله: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿وما أرسلنا من رسول﴾ ومن، صله، فكأنه يقول: وما أرسلنا رسولاً ﴿إلا ليطاع بإذن الله﴾ أي لكي يطاع بأمر الله. ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ بصنعهم ﴿جاؤوك﴾ بالتوبة ﴿فاستغفروا الله﴾ لذنوبهم ﴿واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ أي متجاوزاً. قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ كقول القائل: لا والله لا يؤمنون ﴿حتى يحكموك﴾ حتى يقروا ويرضوا بحكمك يا محمد ﴿فيما شجر بينهم﴾ أي فيما اختلفوا

---

(١) ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسي الأنصاري. الإصابة ٢٠٦/١.

(٢) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب الأسدي أحد العشرة السابقين، وأحد البدريين، وأول من سل سيفاً في سبيل الله، هاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها توفي سنة ست وثلاثين بعد منصرفه من وقعة الجمل. الخلاصة ٣٣٤/١.

(٣) المقدام بن الأسود الكندي هو ابن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر النهراني وقيل الحضرمي. الإصابة ١٣٣/٦.

(٤) أخرجه البخاري ٣٤/٥ في كتاب المساقاة ٢٣٥٩ وفي التفسير ٢٥٤/٨ (٤٥٨٥) ومسلم ١٨٢٩/٤، ١٨٣٠ ـ في الفضائل (٢٣٥٧/١٢٩) وانظر تفسير الطبري ٥١٩/٨ (٩٩١٢)، (٩٩١٣)، (٩٩١٤).

(٥) انظر التفسير ٢٤٨/١.

فيه، ويقال: تشاجرا: أي اختلفا، ويقال: فيما التبس عليهم، قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا الديبلي، قال: حدثنا أبو عبيد[١] الله، عن سفيان، عن عمر، وعن رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة أنها قالت: كان بين الزبير بن العوام وبين رجل خصومة فقضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته، فأنزل الله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم)[٢] **﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم﴾** أي في قلوبهم **﴿حرجاً﴾** أي شكاً **﴿مما قضيت﴾** أنه الحق **﴿ويسلموا تسليماً﴾** أي ويخضعوا لأمرك في القضاء خضوعاً. وقال الزجاج: تسليماً، مصدر مؤكد، فإذا قلت: ضربه ضرباً، فكأنك قلت: لا شك فيه كذلك: (ويسلموا تسليماً) أي ويسلمون لحكمك تسليماً لا يدخلون على أنفسهم شكاً. قوله تعالى: **﴿ولو أنا كتبنا عليهم: أن اقتلوا أنفسكم﴾** يعني لو فرضنا عليهم القتل، **﴿أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾** والقليل منهم، عمار بن ياسر، وابن مسعود، وثابت بن قيس، قالوا: لو أن الله تعالى أمرنا بأن نقتل أنفسنا، أو نخرج من ديارنا لفعلنا. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الإيمان أثبت في قلوب الرجال من الجبال الرواسي[٣]. قرأ ابن عامر:[٤] (إلا قليلاً منهم) بالألف، وهكذا في مصاحف أهل الشام، وقرأ الباقون: [بغير الألف][٥]، بالضم، فمن قرأ بالضم، فمعناه، ما فعلوه ويفعله قليل منهم، على معنى الاستئناف، ومن قرأ بالنصب على معنى أنه على خلاف الأول، للاستثناء، كقوله تعالى: (الا المستضعفين) ثم قال تعالى: **﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾** أي ما يؤمرون به، **﴿لكان خيراً لهم﴾** [أي الثواب في الآخرة][٦] **﴿وأشد تثبيتاً﴾** أي تحقيقاً في الدنيا. قوله تعالى: **﴿وإذاً لآتيناهم﴾** يقول: حينئذ لأعطيناهم **﴿من لدنا﴾** أي من عندنا **﴿أجراً عظيماً﴾** في الآخرة، يعني الجنة. **﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾** أي ديناً قيماً يرضاه لهم. قوله تعالى:

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

---

(١) في أ أبو عبد تحريف. (٢) تقدم.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٨/٥٢٦ (٩٩٢١) وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢/٣٠٩ ونسبه السيوطي أيضاً في الدر ٢/١٨١ لابن أبي حاتم.

(٤) قرأ ابن عامر: (ما فَعَلُوه إلا قليلاً) بالنصب أي استثنى «قليلاً» منهم. والعرب تنصب في النفي والإيجاب فتقول (في الإيجاب) سرت بالقوم إلا زيداً، ومررت بالقوم إلا زيداً) (ورأيت القوم إلا زيداً) وتقول في النفي: (ما جاءني أحدٌ إلا زيدٌ) فترفع على البدل من (أحد) كأنه يصح وضعه مكانه أن تقول: (ما جاءني إلا زيد).

وقد يجوز أن تقول: (ما جاءني أحد إلا زيداً) أو (ما قام القوم إلا زيداً) فلا تجعله بدلاً ولكن تجعله استثناء منقطعاً أي استثنى زيداً فعلى هذا قوله: (إلا قليلاً) أي استثني قليلاً أو (إلا قليل) على البدل من الواو. المعنى ما فعله إلا قليل منهم.

واعلم أن الاختيار في الاستثناء إذا كان منفياً وكان ما بعد إلا من جنس ما قبلها فالرفع أولى على البدل كقولك: (ما في الدار أحد إلا زيد) والنصب جائز فتقول: (ما في الدار أحد إلا زيداً) وإذا كان ما بعد (إلا) ليس من جنس ما قبله فالنصب أولى كقولك: (ما في الدار أحدٌ إلا حماراً) و (ماله ابن إلا بنتاً) فنصبه على الاستثناء لأن الحمار لا يكون من جنس الإنسان. والرفع جائز على البدل قال الشاعر:

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

وجائز أن يكون جعل أنيس ذلك البلد: اليعافير والعيس.

وقرأ الباقون: (إلا قليل) بالرفع على البدل وقد ذكرت. انظر لابن زنجلة ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٥) سقط في أ. (٦) في ظ في الآخرة في الثواب.

وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ
فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ
ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

﴿ومن يطع الله والرسول﴾ قال في رواية الكلبي: نزلت الآية في شأن ثوبان، مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان شديد الحب له، وكان قليل الصبر عنه، حتى تغير لونه، ونحل جسمه فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما غير لونك؟ فقال: ما بي من مرض، ولكني إذا لم أرك استوحشت وحشة عظيمة، حتى ألقاك، وأذكر الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، فنزل قوله تعالى: (ومن يطع الله والرسول) **﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾** في الجنة. وقال في رواية الضحاك: وذلك أن نفراً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا يا نبي الله، وإن صرنا إلى الجنة، فإنك تفضلنا في الدرجات، كما أنك تفضلنا بدرجات النبوة، فلا نراك، فنزل:(١) (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم. . . الآية). حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا أبو العباس، قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا جهضم، عن عطاء بن السائب، عن الشعبي: أن رجلاً من الأنصار، أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله: لأنت أحب إليَّ من نفسي وولدي وأهلي، فلولا أني آتيك فأراك لا ريب أي لا شك أني سوف أموت، قال: وبكى الأنصاري، فقال: ما أبكاك: قال: ذكرت أنك تموت، ونموت، وترفع مع النبيين، ونكون نحن وإن دخلنا الجنة دونك، فلم يجبه بشيء فأنزل الله تعالى: (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم)(٢) **﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾** أي من المسلمين، ثم قال **﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾** في الجنة، أي رفقاء، كقوله تعالى: (ثم يخرجكم طفلاً). أي أطفالاً، وكقوله: (كل صيحة عليهم هم العدو) أي الأعداء. **﴿ذلك الفضل من الله﴾** أي المن والعطية من فضل الله **﴿وكفى بالله عليماً﴾** بالثواب في الآخرة. قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾** أي عدتكم من السلاح **﴿فانفروا ثبات﴾** يعني عصباً سرايا **﴿أو انفروا جميعاً﴾** مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأجمعكم. وقال الزجاج: الثبات: الجماعة المتفرقة، فتأويله أنفروا جماعات متفرقة، وانفروا مجتمعاً بعضكم إلى بعض. وقوله عز وجل: **﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾** فاللام الأولى زيادة للتأكيد، واللام الثانية للقسم، أي وإن منكم من يتثاقل ويتخلف عن الجهاد، يعني المنافقين، فهذا الخطاب للمؤمنين، فكأنه يقول: إن فيكم منافقين يتثاقلون، ويتخلفون عن الجهاد، **﴿فإن أصابتكم﴾** معشر المسلمين **﴿مصيبة﴾** يعني نكبة وشدة وهزيمة من العدو. **﴿قال﴾** ذلك المنافق الذي فيكم وتخلف عن الجهاد **﴿قد أنعم الله علي﴾** بالجلوس **﴿إذ لم أكن معهم شهيداً﴾** أي حاضراً في تلك الغزوة. قوله تعالى: **﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾** يعني الفتح والغنيمة، **﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾** أي معرفة وودا في الدين، **﴿يا ليتني كنت معهم﴾** في تلك الغزوة **﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾** فأصيب غنائم كثيرة. وقال مقاتل:

(١) انظر أسباب النزول ١٢٢.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير بلفظ مقارب ٨/٥٣٤ (٩٩٢٤) عن سعيد بن جبير وذكره الحافظ ابن كثير عن عائشة رضي الله عنها في التفسير ٢/٣١٠ ـ ٣١١ وقال وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة) ومن طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمران العابدي به ثم قال لا أرى بإسناده بأساً والله أعلم.

في الآية تقديم وتأخير، ومعناه: فإن أصابتكم مصيبة، قال: قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً، كأن لم يكن بينكم وبينه مودة في الدين ولا ولاية. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص[1] (كأن لم يكن) بالتاء لأن المودة مؤنثة، وقرأ الباقون بالياء، لأن تأنيثه ليس بحقيقي. ثم أمر المنافقين بأن يقاتلوا لوجه الله تعالى فقال عز وجل:

﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ يعني فليقاتل الذين معكم في طاعة الله **﴿الذين يشرون الحياة الدنيا﴾** أي يختارون الدنيا على الآخرة. ويقال: هذا الخطاب للمؤمنين فكأنه يقول: فليقاتل في سبيل الله الكفار الذين يشرون الحياة الدنيا **﴿بالآخرة﴾**. ثم قال تعالى: **﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾** أي في طاعة الله **﴿فيقتل﴾** يقول فيستشهد **﴿أو يغلب﴾** أي يقتل العدو ويهزمهم **﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾** أي ثواباً عظيماً في الجنة، فجعل ثوابهما واحداً، يعني إذا غلب أو غلب، يستوجب الثواب في الوجهين جميعاً، وقال الضحاك: في قوله: (ومن يقاتل في سبيل الله) قال: ومن قاتل في سبيل الله فواق ناقة غفرت له ذنوبه، ووجبت له الجنة. (والفواق بالرفع ما بين الحلبتين، والفواق بالنصب، الراحة). وذلك قوله: (فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)، أي ثواباً عظيماً في الجنة، ثم حث المؤمنين على القتال فقال تعالى: **﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾** أي (وعن المستضعفين **﴿من الرجال والنساء والولدان﴾** ويقال: وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله، وسبيل المستضعفين. ويقال: **﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾** وفي خلاص المستضعفين، وقال الضحاك: وذلك أن كفار قريش أسروا سبعة نفر من المسلمين، وكانوا يعذبونهم، فأمر الله تعالى بقتال الكفار ليستنقذوا الأسرى من أيديهم **﴿الذين يقولون﴾** يعني المستضعفين بمكة يدعون الله تعالى ويقولون **﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾** بالشرك **﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾** أي، من عندك حافظاً يحفظنا **﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** أي مانعاً يمنعنا منهم، قال الكلبي: لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة، جعل الله لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولياً، وعتاب بن أسيد، نصيراً، وكان عتاب بن أسيد[2]، ينصف الضعيف من الشديد، فنصرهم الله به، وأعانهم، وكانوا أعز من بمكة من الظلمة قبل ذلك. (فصار المسلمون الضعفاء أعزاء، كما كان الكفار قبل ذلك). ثم مدح الله المؤمنين بقتالهم لوجه الله تعالى، فقال تعالى: **﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾** أي في طاعة الله، وإعزاز الدين وذم المنافقين، وبين أن قتالهم للشيطان، فقال تعالى: **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** أي في طاعة الشيطان، ثم حرض المؤمنين على القتال، فقال **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾** أي جند الشيطان، وهم المشركون **﴿إن كيد الشيطان﴾** أي مكر

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٠٨، وشرح شعلة ٣٤١.

(٢) عتاب بن أسيد بن أبي القبيص الأموي، أسلم يوم الفتح وكان صالحاً فاضلاً. الإصابة ٤/٢١١.

الشيطان ﴿كان ضعيفاً﴾ أي واهياً. ويقال: أراد به يوم بدر، حيث قال لهم الشيطان، أي الكفار لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه. ويقال ﴿إن كيدالشيطان كان ضعيفاً﴾ أي مكره ضعيف لا يدوم وهذا كما يقال: للحق دولة وللباطل جولة [أي ما له ري] ثم(١) قال عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم: كفوا أيديكم﴾ يعني ألم تخبر عنهم، ويقال: أنه معناه، ألا ترى إلى هؤلاء، وذلك أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين كانوا بمكة، استأذنوا في قتل كفار مكة سراً، لما كانوا يلقون منهم من الأذى، فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: مهلاً كفوا أيديكم عن قتالهم ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فإني لم أؤمر بقتالهم، فلما هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة أمره الله تعالى بالقتال، فكره بعضهم، فنزلت هذه الآية ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ عن القتل، ﴿وأقيموا الصلاة﴾، أي أتموها ﴿وآتوا الزكاة﴾ يعني أقروا بها واعطوها إذا وجبت عليكم، ﴿فلما كتب عليهم القتال﴾ أي فرض عليهم القتال بالمدينة ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس﴾ أي يخشون عذاب الكفار ﴿كخشية الله﴾ أي كخشيتهم من عذاب الله ﴿أو أشد خشية﴾ أي بل أشد خشية، ويقال: معناه، أو أشد خشية يعني أكثر خوفاً ﴿وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ أي لم فرضت علينا القتال، ﴿لولا أخرتنا﴾ أي يقولوا هلا أجلتنا ﴿إلى أجل قريب﴾، وهو الموت. فبين الله تعالى لهم: أن الدنيا فانية فقال ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ أي: منفعة الدنيا قليلة، لأنها لا تدوم، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثلي ومثل الدنيا، كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها(٢). ثم قال تعالى: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ يقول: ثواب الآخرة أفضل لمن اتقى الشرك والمعاصي ﴿ولا تظلموا فتيلا﴾ وقد ذكرناه. قرأ نافع وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: (ولا تظلمون) بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون: بالياء على معنى الخبر، يعني المتقين. قوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ أي في الأرض يأتيكم الموت ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، أي في القصور الطوال المشيدة، المبنية إلى السماء، حتى لا يخلص إليه [أحد من بني آدم](٣). وقال القتبي (البروج) الحصون، و (المشيدة): المطولة. وذلك أنهم لما تثاقلوا عن الخروج إلى الجهاد مخافة الموت، فأخبرهم الله تعالى: إنهم لا يموتون قبل الأجل، إذا جاء أجلهم لا ينجون من الموت وإن كانوا في موضع حصين،

---

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٩١ وابن ماجه ٢/١٣٧٦ في كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، وابن سعد في الطبقات ١/٢/١٥٩، والطبراني في الكبير ١٠/٢٠١، وأبو نعيم في الحلية ٤/٣٣٤ وذكر الحافظ ابن كثير في التفسير ٨/٤٤٧، والمنذري في الترغيب ٤/١٩٨، والسيوطي في الدر ٣/٢٣٨، ٤/٥٨.

(٣) في ظ [بنو آدم].

وهذا قوله تعالى: (قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين). ثم أخبر عن المنافقين فقال: ﴿**وإن تصبهم حسنة يقولوا**﴾ أي الفتح والغنيمة، والخصب، يقولوا: ﴿**هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة**﴾ أي نكبة وهزيمة، ﴿**يقولوا: هذه من عندك**﴾ أي من شؤمك، يعني أصابتنا بسببك، أنت الذي حملتنا على هذا ﴿**قل: كل من عند الله**﴾ يقال: الرخاء والشدة، ويقال القدر خيره وشره من الله تعالى. ثم قال تعالى: ﴿**فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون**﴾ يعني للمنافقين لا يكادون يفقهون ﴿**حديثاً**﴾ أي لا يفهمون قولاً أن الشدة والرخاء من الله تعالى أي لا يسمعون، ولا يفهمون، ما يحدثهم ربهم في القرآن. قوله تعالى.

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

﴿**ما أصابك من حسنة**﴾ يعني النعمة، وهو الفتح والغنيمة ﴿**فمن الله**﴾ أي وبفضله ﴿**وما أصابك من سيئة**﴾ يعني البلاء والشدة، من العدو [**أو الشدة في العيش**][1] ﴿**فمن نفسك**﴾ أي فبذنبك وأنا قضيته عليك. ويقال: ما أصابك من حسنة يوم بدر، فمن الله، وما أصابك من سيئة يوم أحد، فمن نفسك، أي، بذنب أصحابك، يعني بتركهم المركز. ويقال: ما أصابك من حسنة، يعني، الدلائل والعلامات لنبوتك، فمن الله وما أصابك من سيئة (يعني انقطاع الوحى فمن نفسك، يعني بترك الاستثناء، حيث انقطع عنك جبريل أياماً، بترك استثنائك به. ويقال: ما أصابك من حسنة، يعني، تكثير الأمة، فمن الله وما أصابك من سيئة) من أذى الكفار، فبتعجيلك، فقوله تعالى: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا) «سورة الشعراء: ٣» ويقال: فيه تقديم وتأخير، ومعناه ﴿**فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهوه حديثاً**﴾ بقولهم: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾ قل كل من عند الله. ثم قال تعالى: ﴿**وأرسلناك للناس رسولاً**﴾ أي، ليس عليك سوى تبليغ الرسالة. ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ على مقالتهم وفعلهم. ثم قال تعالى: ﴿**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ يعني من يطع الرسول فيما أمره، فقد أطاع الله، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (كان يدعوهم بأمر الله تعالى، وفي طاعة الله تعالى، ويقال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ) قال: من يحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله[2]، فقال المنافقون: إن هذا الرجل يريد أن نتخذه حنانا، فأنزل الله تعالى تصديقاً لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال: (من يطع الرسول فقد أطاع الله). ثم قال تعالى: ﴿**ومن تولى**﴾ أي أعرض عن طاعة الله، وطاعة رسوله ﴿**فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ أي رقيباً وكان ذلك قبل الأمر بالقتال. ثم أخبر عن أمر المنافقين فقال: ﴿**ويقولون طاعة**﴾ أي يقولون بحضرتك: قولك طاعة، وأمرك معروف، فمرنا بما شئت، فنحن، لأمرك نتبه، ﴿**فإذا برزوا**﴾ أي خرجوا ﴿**من عندك بيت**﴾ أي: ألغت ويقال: غيرت ﴿**طائفة منهم غير الذي تقول**﴾ وقال الزجاج:

---

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه البخاري ٦/١١٦ في الجهاد (٢٩٥٧)، ومسلم ٣/١٤٦٦ في الإمارة (٣٣/١٨٣٥).

لكل أمر قضي بليل قد بيت. قرأ أبو عمرو، وحمزة: [1] (بيت طائفة) بالإدغام لقرب مخرج التاء من الطاء، وقرأ الباقون: بالإظهار، لأنهما كلمتان. ثم قال تعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ يعني يحفظ عليهم ما يغيرون وقال الزجاج: (والله يكتب) له وجهان: يجوز أن يكون ينزله إليك في كتابه، وجائز أن يكون يحفظ ما جاءوا به. ثم قال تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي اتركهم ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي شهيداً. ويقال: ﴿وتوكل على الله﴾ أي ثق بالله، وكفى بالله وكيلاً أي شهيداً أو يقال وتوكل على الله ثقة لك، ثم نسخ بقوله تعالى: (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) قوله تعالى:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ يعني أفلا يتفكرون في مواعظ القرآن، ليعتبروا بها، ويقال: أفلا يتفكرون في معاني القرآن، فيعلمون أنه من عند الله تعالى لأنه ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي تناقضاً كثيراً، ويقال: أباطيل وكذباً كثيراً، لأن الاختلاف في قول الناس وقول الله تعالى لا اختلاف فيه، فلهذا قال أهل النظر: إن الإجماع حجة، لأن الإجماع من الله تعالى، ولو لم يكن من الله تعالى لوقع فيه الاختلاف، ولهذا قالوا: إن القياس إذا انتقض سقط الاحتجاج به، لأنه لو كان حكم الله تعالى لم يرد عليه النقض. قوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف﴾ يعني المنافقين، إذا جاءهم خبر من أمر السرية، بالفتح والغلبة على العدو سكتوا وقصروا عما جاءهم من الخبر أو الخوف، أي وإن جاءهم خبر من السرية ببلاء وشدة، نزلت بالمؤمنين ﴿أذاعوا به﴾ أي أفشوه ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم﴾، قال الكلبي: يقول: لو سكتوا عن إفشائه، حتى يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي يفشيه، وأولو الأمر منهم: مثل: أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ ﴿لعلمه الذين يستنبطونه﴾ يقول: يبتغونه ﴿منهم﴾ فيكون هؤلاء الذين يستمعونه ويفشونه، ويعلمونه إلا قليلاً منهم، يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لولا من الله عليكم ورحمته ونعمته ﴿لاتبعتم الشيطان﴾، فيه تقديم وتأخير، وقال مقاتل: أذاعوا به أي أفشوه ﴿إلا قليلاً﴾ منهم لا يفشون الخبر. وقال الزجاج: (أذاعوا به) أي أظهروه، ومعنى (يستنبطونه منهم) أي يستخرجونه، وأصله من النبط، وهو أول الماء الذي يخرج من البئر، إذا حفرت، ولو ردوا ذلك إلى أن يأخذوا من قبل الرسول، ومن قبل أولي الأمر منهم لعلمه هؤلاء الذين أذاعوا به من ضعف المسلمين، وعلموا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذوي العلم، وكانوا يعلمون مع ذلك. وقال عكرمة: [2] لعلمه الذين يخوضون فيه ويسألون عنه. وقال أبو العالية: [3] يعني الذين

(١) انظر شرح شعلة على الشاطبية ٣٤١ سراج القاري ١٩٢.
(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ١/٤٥٦.
(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٨/٥٧٢ (٩٩٩٩) وزاد نسبته السيوطي في الدر ٢/١٨٧ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

يستحسنونه منهم. وقال الضحاك[١]: ولو ردوا أمرهم في الحلال والحرام، إلى الرسول في التصديق به والقبول منه، وإلى أولى الأمر منهم، يعني حملة الفقه والحكمة، لعلمه الذين يستنبطونه منهم، يعني يتفحصون عن العلم، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ بالقرآن ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ وهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وفي هذه الآية دليل على جواز الاستنباط من الخبر والكتاب، لأن الله تعالى قد أجاز الاستنباط من قبل الرسول وأهل العلم ثم قال: ﴿فقاتل في سبيل الله﴾ أي في طاعة الله ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾، قال مقاتل: يعني ليس عليك ذنب غيرك، وقال الزجاج، أمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجهاد، وإن قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصر، وقال أبو بكر في أهل الردة: لو خالفتني يميني لجاهدت بشمالي. ويقال: واعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا سفيان بأن يخرج إلى بدر الصغرى فكره المسلمون الخروج (فأمره الله تعالى بأن يخرج، وإن كان وحده) فقال: ﴿وحرض المؤمنين﴾ أي على القتال يعني على الجهاد، بقتال أعداء الله ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي يمنع قتال الذين كفروا، والبأس: هو القتال. كما قال في آية أخرى: (وحين البأس) ثم قال تعالى: ﴿والله أشد بأساً﴾ أي عذاباً، ويقال: قوة ﴿وأشد تنكيلاً﴾ أي أشد عقوبة في الآخرة عن عقوبة الكفار في الدنيا.

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيبٌ منها﴾. قال الضحاك: يعني من سن سنة حسنة في الإسلام فله أجرها، وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء[٢]. ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ أي من سن في الإسلام سنة قبيحة محدثة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. وقال الكلبي: (من يشفع شفاعة حسنة) يعني يصلح بين اثنين يكن له أجر منها (ومن يشفع شفاعة سيئة) يمشي بالنميمة والغيبة، يكن له كفل منها، يعني إثم منها. وقال مجاهد: إنما هي شفاعة في الناس بعضهم لبعض، يعني يشفع لأخيه [المسلم][٣] في دفع المظلمة عنه. وروى سفيان، عن عمرو بن دينار أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: اشفعوا إلي تؤجروا، فإن الرجل منكم يسألني الأمر فأمنعه كي ما تشفعوا فتؤجروا[٤]. وقال الحسن: الشفاعة تجري أجرها لصاحبها ما جرت منفعتها. والكفل في اللغة:[٥] النصيب،

(١) أخرجه الطبري في المصدر السابق (١٠٠٠٥) وانظر معالم التنزيل للبغوي ١/٤٥٦.

(٢) وهذا تفسير بالحديث، والحديث أخرجه مسلم ٢/٧٠٥ في الزكاة باب الحث على الصدقة (٦٩/١٠١٧) وأحمد ٤/٣٥٧، ٣٥٩ والطبراني في الكبير ٢/٣٩٤.

(٣) سقط من ظ.

(٤) أخرجه النسائي ٥/٧٨ في باب الاحتيال في الصدقة (٢٥٥٧) وبنحوه أخرجه البخاري ٣/٣٥١ في الزكاة (١٤٣٢ و٦٠٢٧، ٦٠٦٨، ٧٤٧٦)، وأخرجه أبو داود (٥١٣٢)، وأحمد ٤/٤٠٤، ٤٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٦٧ والحميدي ٧٧١.

(٥) أنظر الصحاح ٤/١٨١١ والمغرب ٢/٢٢٧ المصباح ٢/٨٢٧.

كقوله تعالى: (يؤتكم كفلين من رحمته). ثم قال تعالى: ﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ والمقيت: المقتدر، يقال: أقات على الشيء، يعني اقتدر، ويقال: المقيت، الشاهد على الشيء الحافظ له، ويقال: مقيتاً، يعني بيده الرزق وعليه قوت كل دابة، كقوله تعالى: (وقدر فيها أقواتها). قوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية﴾ يعني إذا سلم عليكم ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أي ردوا جوابها، بأحسن منها ﴿أو ردوها﴾ أي مثلها، فأمر الله تعالى المسلمين برد السلام، بأن يردوا بأحسن منها، وهو أن يقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أو يرد مثله، فيقول: وعليكم السلام. وقال قتادة: فحيوا بأحسن منها للمسلمين، أو ردوها لأهل الذمة. فيقول لهم: وعليكم[1]. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلاً دخل عليه، وقال: السلام عليكم، فقال له وعليكم السلام فلك عشر حسنات، ودخل آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه، فقال: لك عشرون حسنة، ودخل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد عليه، فقال: لك ثلاثون حسنة[2]. وروي عنه أنه نهى أن ينقص الرجل من سلامه، أو من رده، وهو أن يقول: السلام عليك، ولكن ليقل: السلام عليكم. ويقال: إنما ذلك للمؤمنين، لأن المؤمن، لا يكون وحده، ولكن يكون معه الملائكة[3]. وفي هذه الآية دليل: أن السلام سنة، والرد واجب، لأن الله تعالى أمر بالرد، والأمر من الله تعالى واجب. ويقال (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) يعني إذا أهدي إليكم بهدية، فكافئوا بأفضل منها أو مثلها، وهذا التأويل ذكر عن أبي حنيفة. ثم قال تعالى: ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ أي مجازياً. قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ نزلت في شأن الذين شكوا في البعث، فأقسم الله تعالى بنفسه ﴿ليجمعنكم﴾ وهذه لام القسم، وكل لام بعدها نون مشددة، فهي لام القسم، وقوله: ﴿ إلى يوم القيامة﴾ قال بعضهم: إلى صلة في الكلام، معناه ليجمعنكم يوم القيامة. ويقال: ليجمعنكم في الموت، وفي قبوركم إلى يوم القيامة، ثم يبعثكم ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه، وهو البعث، يعني لا شك فيه عند المؤمنين، ويقال: يعني لا ينبغي أن يشك فيه، ثم قال تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي من أوفى من الله قولاً وعهداً. قرأ حمزة والكسائي:[4] (ومن أزدق) بالزاي وقرأ الباقون: (أصدق) وأصله الصاد، إلا أنه لقرب مخرجيهما يجعل مكانه زاي. قوله تعالى:

فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٥٨٧/٨ (١٠٠٤٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠ والدارمي في السنن ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٨١ في الاستئذان وأبو داود ٥/ ٣٧٩ في الأدب ٥١٩٥ والترمذي ٥/ ٥٢ ـ ٥٣ في الاستئذان (٢٦٨٩) وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ٣٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود ٥/ ٣٨٧ في الأدب (٥٢٠٩) والترمذي ٥/ ٧٢ في الاستئذان (٢٧٢٢) وقال حسن صحيح والنسائي في عمل اليوم والليلة ٣١٨.

(٤) انظر شرح شعلة ٣٤٢، وسراج القاريء ١٩٣.

أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ
ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

﴿**فما لكم في المنافقين فئتين**﴾ نزلت في تسعة نفر ارتدوا عن الإسلام، فخرجوا من المدينة، وانطلقوا إلى مكة، ثم إنهم خرجوا تجاراً إلى الشام، فقال بعض المسلمين: نخرج إلى هؤلاء ونقتلهم ونأخذ أموالهم، وقال بعضهم: هم مسلمون فلا يجوز أخذ أموالهم، ويقال: كان قوم من المنافقين بمكة، خرجوا إلى الشام، فاختلف المسلمون في أمرهم، فبين الله تعالى للمسلمين نفاقهم فقال تعالى: (فما لكم في المنافقين) يعني، صرتم في المنافقين فئتين أي فريقين تختصمون في أمرهم ﴿**والله أركسهم بما كسبوا**﴾ أي أذلهم ويقال: أهلكهم، ويقال: أركسهم: أي ردهم إلى كفرهم، ويقال: ركست الشيء وأركسته إذا أرددته إلى الحال الأول. ثم قال تعالى: ﴿**أتريدون أن تهدوا من أضل الله**﴾ [يعني أترشدون إلى الهدى من أضله الله][(1)] ﴿**ومن يضلل الله**﴾ عن الهدى ﴿**فلن تجد له سبيلاً**﴾ يعني، ديناً، ويقال: مخرجاً. ثم قال تعالى ﴿**ودوا لو تكفرون**﴾ أي ترجعون عن هجرتكم ﴿**كما كفروا**﴾ أي كما رجعوا ﴿**فتكونوا**﴾ أنتم وهم على الكفر ﴿**سواء**﴾ ومن هذا يقال في المثل: إن من أحرق يوماً كدسه، يتمنى حرق أكداس الأمم، فكذلك الكفار، كانوا يتمنون أن يكون الناس كلهم كفاراً، حتى يحترقوا معهم. قال الله تعالى: ﴿**فلا تتخذوا منهم أولياء**﴾ في الدين والنصرة ﴿**حتى يهاجروا في سبيل الله**﴾ حتى يتوبوا، ويرجعوا إلى دار الهجرة بالمدينة ﴿**فإن تولوا**﴾ يعني أبوا الهجرة ﴿**فخذوهم**﴾ يعني فأسروهم ﴿**واقتلوهم حيث وجدتموهم**﴾ يعني أين وجدتموهم من الأرض. ﴿**ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً**﴾ في العون. ثم استثنى الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فقال: ﴿**إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾ وهم خزاعة، وبنو مدلج، وبنو خزيمة، وهلال بن عويمر الأسلمي وأصحابه، صالحهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن كل من أتاهم من المسلمين، فهو آمن ومن جاء منهم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو آمن، وفي هذه الآية إثبات الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كانت في الموادعة مصلحة للمسلمين. ثم قال تعالى: ﴿**أو جاءوكم حصرت صدورهم**﴾ أي ضاقت قلوبهم ﴿**أن يقاتلوكم**﴾ من قبل العهد ﴿**أو يقاتلوا قومهم**﴾ معكم من قبل القرابة. ثم قال تعالى: ﴿**ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم**﴾ ذكر منته على المؤمنين أنه يدفع عنهم البلاء، ومنعهم عن قتالهم، ثم قال تعالى: ﴿**فإن اعتزلوكم**﴾ في القتال ﴿**فلم يقاتلوكم، وألقوا إليكم السلم**﴾ أي الصلح، معناه أنهم لو ثبتوا على صلحهم، فلا تقاتلوهم، فذلك قوله: ﴿**فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً**﴾ أي حجة وسلطاناً في قتالهم، ثم قال عز وجل: ﴿**ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم**﴾ وهم أسد وغطفان، كانوا إذا أتوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقولون: آمنا بك، وإذا رجعوا إلى قومهم قالوا: آمنا بالعقرب والخنفساء، يقول: إنهم لم يريدوا بذلك تصديق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما أرادوا به الاستهزاء. وقال مجاهد:[(2)] هم ناس من أهل مكة كانوا يأتون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون بالأوثان، ويريدون أن يأمنوا ها هنا، وها هنا، فذلك قوله تعالى: ﴿**كلما ردوا إلى الفتنة**﴾، يقول: كلما دعوا إلى الشرك

(1) ما بين القوسين سقط من ظ.
(2) انظر التفسير ١/ ١٦٩.

﴿أركسوا فيها﴾ يقول: عادوا إليه، ودخلوا فيه ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ في القتال ﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي لم يلقوا إليكم الصلح ﴿ويكفوا أيديهم﴾ عن قتالكم، يعني إن لم يكفوا أيديهم ﴿فخذوهم﴾ يعني أسروهم ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ يعني حيث أدركتموهم، ووجدتموهم ﴿وأولئكم﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿جعلنا لكم عليهم سلطاناً﴾ يعني حجة ﴿مبيناً﴾ أي حجة مبينة في القتال. وقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ يقول: وما جاز لمؤمن أن يقتل مؤمناً متعمداً، إلا خطأ بغير قصد منه، ويقال: معناه، ولا خطأ أي ما جاز له أن يقتل عمداً ولا خطأ. ثم قال تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ نزلت الآية في شأن عياش بن أبي ربيعة[١]، حين قتل الحارث بن زيد[٢]، وذلك أن عياشاً هاجر إلى المدينة مؤمناً، فجاءه أبو جهل بن هشام، والحارس بن هشام[٣] وهما أخواه لأمه، ومعهما الحارث بن زيد، فقالوا له: إن أمك تناشدك بحقها، ورحمها أن ترجع إليها، وإنك أحب الأولاد إليها، وقد حلفت ألا يظلها بيت، ولا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً حتى ترجع إليها، فارجع إليها وكن على دينك، فخرج معهم، فلما خرج من المدينة أوثقوه بحبل وضربوه، وحملوه إلى مكة، وألقوه في الشمس وحلفت أمه بأن لا يحله أحد ما لم يكفر بالله، فتركوه على حاله حتى أعطاهم الذي أرادوه، فحلوه من الوثاق فقال له الحارث بن زيد: إن كان الذي كنت عليه هدى، فقد تركته، وإن كان ضلالة فقد كنت في ضلالة، فحلف عياش بأن يقتل الحارث بن زيد إذا لقيه خالياً. ثم إن عياشاً خرج إلى المدينة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أسلم الحارث بن زيد بعد ذلك فلقيه عياش في بعض سكك المدينة ولم يعلم بإسلامه فقتله، ثم علم بإسلامه، فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بالأمر الذي كان منه، فنزلت هذه الآية[٤] فيه وصارت الآية عامة لجميع الناس، وهو قوله: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي فعليه عتق رقبة مؤمنة، ولو أعتق رقبة كافرة لم يجز بالإجماع. ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ أي وعليه دية مسلمة إلى أهل القتيل، والدية مائة من الإبل. ﴿إلا أن يصدقوا﴾ وأصله: يتصدقوا، فادغم التاء في الصاد، وأقيم التشديد مقامه، ومعناه، إلا أن يعفو عنه أولياء القتيل، ولا يأخذوا منه شيئاً، ثم قال: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن﴾ يعني إن كان القتيل من أهل الحرب، وقد أسلم في دار الحرب، فقتله رجل في دار الحرب، فعلى

---

(١) عياش بن أبي ربيعة عمرو بن المغيرة المخزومي هاجر إلى الحبشة له أحاديث قتل يوم اليرموك أو اليمامة. الخلاصة ٣١٤/٢.

(٢) الحارث بن زيد بن أنيسة وقيل ابن يزيد من بني معيص بن عامر القرشي العامري. الإصابة ٣٠٨/١.

(٣) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو أبو عبد الرحمن القرشي المخزومي أخو أبي جهل أسلم يوم فتح مكة. الإصابة ٣٠٧/١.

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي ١٢٦.

القاتل الكفارة، عتق رقبة مؤمنة ولا دية عليه، وهذا بالإجماع. وقد نزلت في شأن أسامة بن زيد، قتل رجلاً يقال له: مرداس، وكان مسلماً، فنزلت هذه الآية[١]. وروي عن عطاء بن السائب عن ابن عباس أنه قال: كان الرجل [يأتي فيسلم، ثم][٢] يأتي قومه، وهم مشركون، فيقيم فيهم فيغزوهم جيوشاً من جيوش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقتل الرجل، فنزلت هذه الآية:[٣] (فإن كان من قوم عـدو لكم وهو مؤمن) ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ وليس عليه دية، ثم قال: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ يعني إن كان المقتول من أهل الذمة، ﴿فدية مسلمة﴾ أي فعليه دية مسلمة ﴿إلى أهله﴾ ﴿و﴾ عليه أيضاً ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾. وروي عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن مستأمنين دخلا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكساهما وحملهما، فلما خرجا من عنده لقيهما عمرو بن أمية الضمري، فقتلهما، ولم يعلم أنهما مستأمنان ففداهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدية حرين مسلمين، فنزلت هذه الآية: (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) ولهذا قال علماؤنا[٤] ـ رحمهم الله ـ إن دية الذمي والمسلم سواء، وهكذا روي عن أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم ـ أن دية الذمي والمسلم سواء، مائة من الإبل، ثم قال: ﴿فمن لم يجد﴾ أي قاتل الخطأ إذا لم يجد رقبة مؤمنة ﴿فصيام شهرين﴾ أي فعليه صيام شهرين ﴿متتابعين توبة من الله﴾ أي تلك الكفارة، توبة للقاتل من الله تعالى. ويقال: سبب التجاوز من الله. ثم قال: ﴿وكان الله عليماً﴾ يعني عليماً بالقاتل ﴿حكيماً﴾ حكم بالكفارة على من قتل خطأ.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ روي عن سالم بن أبي الجعد[٥] قال: كنت عند عبد الله بن عباس بعدما كف بصره فجاءه رجل فناداه: ما تقول فيمن قتل مؤمناً متعمداً، فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها. ﴿وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً﴾. فقال: أرأيت: إن تاب وآمن، وعمل صالحاً، ثم اهتدى. قال: وأنى له الهدى سمعت نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: يأتي قاتل المؤمن متعمداً، ويتعلق به المقتول عند عرش الرحمن، فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني؟ فوالذي نفسي بيده في هذا أنزلت هذه الآية، فما نسختها آية بعد نبيكم، وما نزل بعده من برهان[٦]. وروي عن ابن عمر، وأبي هريرة أنهما قالا: لا توبة له[٧] وقال غيرهم له

---

(١) انظر أسباب النزول ١٢٩. (٢) سقط في أ. (٣) انظر أسباب النزول ١٢٥.

(٤) وذهب الشافعية ومن لف لفهم إلى أن دية أهل الكتاب ثلث دية المسلم، وروي ذلك عن عمر وعثمان وهو قول سعيد بن المسيب وعكرمة وإسحاق. انظر شرح السنة ١٠/٢٠٤، مغني المحتاج ٤/٥٧. وانظر تفسير الطبري ٩/٥١ وما بعدها.

(٥) سالم بن أبي الجعد رافع الأشجعي مولاهم الكوفي ثقة توفي سنة ١٠٠ هـ. التهذيب ٣/٤٣٢.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري ٩/٦٣ (١٠/٨٨) وأحمد في المسند (٢١٤٢).

(٧) قال البغوي في تفسيره ٥/٤٦٥ والذي عليه الأكثرون وهو مذهب أهل السنة أن قاتل المسلم عمداً توبته مقبولة لقوله تعالى: ﴿وإنّي لَغَفّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ وقال: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو تشديد ومبالغة في الزجر عن القتل، كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال: إن لم يقتل يقال له لا توبة لك، وإن قتل ثم جاء يقال لك توبة. ويُروى مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما وليس في الآية متعلق لمن يقول بالتخليد في النار بارتكاب الكبائر لأن الآية نزلت في قاتل وهو كافر وهو «مِقْيَس بن صُبَابَة» وقيل: إنه وعيد لمن قتل مؤمناً مستحلاً لقتله بسبب إيمانه.

التوبة، لأن الله تعالى ذكر الشرك، والقتل، والزنا، ثم قال: (إلا من تاب وآمن . . . . . إلى قوله . . . فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) ويقال: معناه، فجزاؤه جهنم خالداً فيها، أي داخلاً فيها، لأنه لم يذكر فيها الأبد، كما أن الرجل يقول: خلدت فلاناً في السجن، أي أدخلته ويقال: فجزاؤه جهنم أي إن جازاه وروى أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إذا وعد الله لعبده ثواباً، فهو منجزه، وإن أوعد له العقوبة، فله المشيئة، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفى عنه[1]. ويقال: معناه، من يقتل مؤمناً متعمداً، يعني مستحلاً لقتله فجزاؤه جهنم خالداً فيها، لأنه كفر باستحلاله، ويقال: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) يعني يقتله متعمداً، لأجل إيمانه، كما روي في الأثر: أن بغض الأنصار كفر[2]، إن كان بغضهم لأجل نصرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكذلك ههنا إذا قتله لأجل إيمانه، صار كافراً، ويقال: هو منسوخ بقوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ويقال: معناه فجزاؤهم جهنم بقتله، خالداً فيها بارتداده، لأن الآية نزلت في شأن رجل قتل مؤمناً متعمداً[3]، ثم ارتد عن الإسلام، وهو مقيس بن ضبابة، وجد أخاه هشام بن ضبابة قتيلاً في بني النجار، فذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعث معه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من بني فهر إلى بني النجار، وأمره: بأن يقرئهم السلام، ويأمرهم بأن يطلبوا قاتله، فإن وجدوه قتلوه، وإن لم يجدوه، حلفوا خمسين يميناً وغرموا الدية، فلما أتاهم مقيس بن ضبابة،رسول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبلغهم الرسالة،فقالوا:سمعاً وطاعة لأمر الله ورسوله، وقالوا: ما نعرف قاتله، فحلفوا وغرموا الدية، فلما رجع مقيس بن ضبابة قال في نفسه: إني بعت دم أخي بمائة من الإبل، ودخلت فيه حمية الجاهلية، وقال: أقتل هذا الفهري مكان أخي، وتكون الدية فضلاً لي، فقتله، وتوجه إلى مكة وقال في ذلك شعراً:

قتلت بـه فـهـراً وحـمـلت عـقـلـه ـــ سـراة بني الـنـجـار أربـاب فـارع[4]
فـادركت ثـأري واضـطجعت مـوسـدا ـــ وكـنـت إلـى الأوثـان أول راجـع[5]

= ومن استحل قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافراً مخلداً في النار، وقيل قوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها﴾ معناه هي جزاؤه إن جازاه ولكنه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له بكرمه فإنه وعد أن يغفر لمن يشاء، حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالداً فِيهَا﴾ فقال أبو عمرو بن العلاء: من العجم أتيت يا أبا عثمان، إن العرب لا تعد ـ الإخلاف في الوعيد خلفاً وذماً، وإنما تعد إخلاف الوعد خلفاً وذماً وأنشد:

وإنـي وإن أَوْعَـدتُّـه أو وَعَـدتُّـه ـــ لـمـخـلـف إيـعـادي ومـنـجـز مَـوْعِـدي

والدليل على أن غير الشرك لا يوجب التخليد في النار: ما روينا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة). انظر تفسير البغوي ١/٤٦٥.

(١) انظر تفسير القرطبي ٥/٢١٥.

(٢) انظر فضائل الأنصار في صحيح البخاري ٧/١٣٧ وما بعدها وفي الحديث الصحيح سمعت البراء بن عازب رضي الله عنه قال سمعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله» البخاري ٧/١٤١ في مناقب الأنصار ٣٧٨٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٥/٢١٥.

(٤) والبيت هكذا في أ:

ثَـأَرْتُ بـه مـهـزا وحَـمَّـلْتُ عَـقْـلَه ـــ سَـرَاةَ بـنـي الـنَّـجَّـارِ أَرْبَـابَ فَـارِعِ

(٥) انظر سيره ابن هشام ٣/٣٠٥، وتاريخ الطبري ٣/٦٦، تفسير الطبري ٩/٦٢.

=

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

فنزلت هذه الآية في شأنه، إن جزاءه جهنم خالداً فيها وكل من يعمل مثل عمله ثم قال عز وجل **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾** أي يقول: إذا خرجتم، وصرتم في الجهاد **﴿فتبينوا﴾** نزلت الآية في شأن أسامة بن زيد، لقي رجلاً يقال له: مرداس، فقال له مرداس: لا إله إلا الله، وسلم عليهم، وقال: السلام عليكم، إني مؤمن فقتله أسامة ولم يصدقه بأنه مسلم، فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله، فقال أسامة إنه قال بلسانه دون قلبه. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: هلا شققت عن قلبه، فقال أسامة: استغفر لي، فقال له: فكيف لك بلا إله إلا الله ثلاث مرات، ثم استغفر له الرابعة، وأمره بأن يعتق رقبة. وروى شهر بن حوشب، عن جندب بن سفيان، عن رجل من بجيلة قال: كنت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ جاءه بشير من السرية، فأخبره بالفتح، وقال يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما نحن نطلب القوم، وقد هزمهم الله تعالى، فقصدت رجلاً بالسيف، فلما أحس أن السيف واقع به، فقال: إني مسلم، فقتلته، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقتلت مسلماً! فقال: يا رسول الله؛ إنه قال متعوذاً، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ أفلا شققت عن قلبه[1]! فقال: يا رسول الله استغفر لي، فقال: لا استغفر لك، فمات الرجل فدفنوه ثم أصبح على وجه الأرض، ثم دفنوه، ثم أصبح على وجه الأرض ثلاث مرات فلما رأى ذلك قومه، استحيوا وحزنوا، فحملوه وألقوه في شعب من التلك الشعاب، فنزلت هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) أي قفوا وانظروا من تقتلون[2]. قرأ حمزة والكسائي:[3] (فتثبتوا) بالثاء، وقرأ الباقون فتبينوا) بالباء، فمن قرأ بالثاء فهو من التثبت، يقول: قفوا، ولا تعجلوا في الأمر حتى يتبين لكم الكافر من المسلم، ومن قرأ بالباء، فهو من التبين، ومعناهما قريب. ثم قال تعالى: **﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾** قرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن كثير، والكسائي:[4] (السلام) بالألف. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة: (السلم) بغير ألف، وأما من قرأ: (السلام)، فلأن مرداساً قال لهم: السلام عليكم، وأما من قرأ السلم، فهو الدخول

=

شَفَى النَّفْسَ أَنْ قَدْ بَاتَ بِالقَاعِ مُسْنَداً	تُضَرِّجُ ثَوْبَيْهِ دِمَاءُ الأَخَادِعِ
وكانت هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِه	تُلِمُّ فتحميني وِطَاءَ المَضَاجِعِ
حَلَلْتُ بِهِ وِتْرِي وَأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتِي	وَكُنْتُ إِلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ
ثَأَرْتُ بِهِ فِهْراً	....

في المخطوطة: (قَتَلْتُ به فِهْراً) وليس صواباً إنما قتل قاتل أخيه هشام بن صُبَابَة قالوا: اسمه (أوس) لا (فهر). أما (فهر) في قوله: (ثأرت به فهرا) فإنه يعني أبناء فهر وهم رهطه أدرك ثأرهم بقتله الأنصاري وفي مطبوعة تاريخ الطبري (قهراً) بالقاف والصواب بالفاء و (فارع) أطم بالمدينة لبني النجار كان «لحسان بن ثابت» رحمه الله ذكره في شعره. من الطبري ٩/٦٢.

(١) بنحوه أخرجه البخاري ١٢/١٩٩ في الديات (٦٨٧٢)، ومسلم ١/٩٦ في كتاب الإيمان (١٥٨/٩٦) وأبو داود (٢٦٤٣)، والطحاوي في مشكل الآثار ٤/٢٥١، ٢٥٨ والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٩. وابن أبي شيبة في المصنف ١٠/١٢٢.

(٢) أسباب النزول للواحدي ١٢٨. (٣) انظر النشر في القراءات العشر ١/٢٥٤. (٤) انظر المصدر السابق.

والانقياد، والمتابعة، يعني إن انقاد لكم، وتابعكم فلا تقولوا له: لست مؤمناً، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد، أي دخل في الانقياد، كما تقول: أشتى الرجل، إذا دخل في الشتاء، وأربع إذا دخل في الربيع. ثم قال: ﴿**تبتغون عرض الحياة الدنيا**﴾ وذلك أن الرجل كانت معه غنيمة حين قتلوه، وأخذوا ما كان معه من الغنيمة، فعيرهم الله تعالى بطمعهم في المال، ثم قال: ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ أي عند الله ثواب كثير في الآخرة لمن اتقى، ويقال: غنائم كثيرة في الدنيا، فاطلبوا من حيث أذن لكم، وأبيح لكم، ثم قال تعالى: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ أي هكذا كنتم من قبل الهجرة بمنزلة مرداس تأمنون في قومكم بالتوحيد، من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تخيفوا أحداً، وكنتم تأمنون بمثله قبل هجرتكم ﴿**فمن الله عليكم**﴾ بالهجرة، ويقال: هكذا كنتم، يعني كنتم تكتمون إيمانكم من قبل، ويقال: أي كنتم كفاراً، فمن الله عليكم بالإسلام، ثم قال تعالى: ﴿**فتبينوا**﴾ أي قفوا، وانظروا في أمركم لكي لا تقتلوا مؤمناً، فصارت الآية عامة لجميع السرايا، إذا دخلوا دار الحرب، ينبغي أن يتبينوا لكي لا يقتلوا مؤمناً. ثم قال: ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ أي عالماً بكم وبأعمالكم. ثم قال تعالى:

لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ يعني القاعدين عن الجهاد لا يكون حالهم مثل حال الذين يجاهدون في الثواب والأجر ﴿**غير أولي الضرر**﴾ أي القاعدين الذين لا عذر لهم، ومن كان له عذر، فهو خارج من هذا، قال ابن عباس: يعني، ابن أم مكتوم(١)، ومحمد بن جحش، ويقال: عبد الله بن جحش(٢) فقال: إنا عميان فهل لنا من رخصة فنزلت(٣) (غير أولي الضرر) حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي، قال: حدثنا إبراهيم بن داود، قال: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأوسي(٤) قال: حدثنا إبراهيم بن سعد(٥) عن صالح ابن كيسان(٦)، عن ابن شهاب(٧)، عن سهل بن سعد الساعدي قال: رأيت مروان بن الحكم(٨) جالساً في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أملى عليه: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر)، ﴿**والمجاهدون في سبيل الله**﴾ فجاءه ابن أم مكتوم

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن شريح هو ابن أم مكتوم. الإصابة ٤/١١١.

(٢) عبد الله بن جحش، وصف بكونه أعمى، نزلت فيه وفي ابن أم مكتوم الآية الإصابة ٤/٤٦.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٢٢٥ في التفسير باب (٥) (٣٠٣٢) وقال حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى بن عمرو بن أويس العامري القرشي الأويسي أبو القاسم المدني الفقيه صدوق ثقة. التهذيب ٦/٣٤٥.

(٥) إبراهيم بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري المدني نزل بغداد ثقة حجة. التهذيب ١/١٢١.

(٦) صالح بن كيسان المدني أبو محمد مؤدب ولد عمر بن عبد العزيز وثّقه ابن معين، التهذيب ٤/٣٩٩.

(٧) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري أبو بكر المدني أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام. قال مالك: كان ابن شهاب من أسخى الناس وتقيا ماله في الناس. الخلاصة ٢/٤٥٧.

(٨) مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي أمير المدينة أيام معاوية ثم بويع بالخلافة، ولد بعد الهجرة بأربع سنوات، وكانت ولايته تسعة أشهر. التهذيب ١٠/٩١.

وهو يمليها علي فقال: يا رسول الله: لو استطيع الجهاد لجاهدت، وكان رجلاً أعمى، فأنـزل الله تعالى على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن يرض فخذي ثم سري عنه [أي زال عنه التغير](١) فأنزل الله تعالى: (غير أولي الضرر)(٢) يعني، إلا أن يكون أولي الضرر. قرأ نافع والكسائي، وابن عامر: (غير أولي الضرر) بنصب الراء. وقرأ حمزة وعاصم، وابن كثير، وأبو عمرو: (غير أولي الضرر) بالضم(٣). وقرأ بعضهم: (غير أولي الضرر) بالكسر، فمن قرأ بالضم جعله نعتاً للقاعدين، أي يعني لا يستوي القاعدون غير أولي الضرر، ومن قرأ بالنصب فهو على معنى الاستثناء، ويقال: هو نصب على الحال، ومن قرأ بالكسر، فلحرف الكسر وهو من قوله تعالى: (والمجاهدون في سبيل الله: ﴿**بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين**﴾ أي بغير عذر ﴿**درجة**﴾ أي فضيلة في الآخرة ﴿**وكلًا**﴾ يعني المجاهدين والقاعدين، والمعذورين ﴿**وعد الله الحسنى**﴾ أي وعد الله لهم الثواب وهو الجنة، ثم قال تعالى: ﴿**وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**﴾ أي بغير عذر ثم بين الأجر فقال: ﴿**درجات منه ومغفرة**﴾ أي فضائل من الله في الجنة أي سبعين درجة. روى هشام بن حسان عن جبلة بن عطية، عن ابن محيريز(٤) قال: ما بين الدرجتين، حضر الفرس أو الجواد سبعين عاماً. ثم قال تعالى: (ومغفرة) يعني مغفرة لذنوبهم، ﴿**ورحمة**﴾ نعمة في الجنة ﴿**وكان الله غفوراً**﴾ لمن جاهد ﴿**رحيماً**﴾ إذ سوى بين من له عذر بالفضل مع غيره. قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

﴿**إن الذين توفاهم الملائكة**﴾ يعني ملك الموت يقبض أرواحهم ﴿**ظالمي أنفسهم**﴾ يعني الذين أسلموا

---

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه البخاري ٨/١٠٨ في التفسير (٤٥٩٢)، وأخرجه الترمذي (٣٠٣١).

(٣) قال ابن زنجلة قال الزجاج: فأما الرفع فمن جهتين: إحداهما أن يكون (غير) صفة للقاعدين وإن كان أصلها أن تكون صفة للنكرة المعنى: (لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولى الضرر) أي لا يستوي القاعدون الأصحاء والمجاهدون وإن كانوا كلهم مؤمنين قال: ويجوز أن يكون (غير) رفعا على جهة الاستثناء المعنى: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولو الضرر فإنهم يساوون المجاهدين لأن الذي أقعدهم عن الجهاد الضرر.

ومن نصب جعله استثناء من القاعدين وهو استثناء منقطع عن الأول. المعنى: لا يستوي القاعدون إلا أولي الضرر فإنهم يساوون، وحجتهم أن الأخبار تظاهرت بأن هذه الآية لما نزلت شكا ابن أم مكتوم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عجزه عن الجهاد في سبيل الله فاستثنى الله أهل الضرر من القاعدين وأنزل (غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ).

ويروى عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لي: اكتب (لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ من المُؤْمِنِينَ والمُجَاهِدُون في سَبِيلِ اللَّه) فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال: (يا رسول الله إني أحب الجهاد في سبيل الله ولكن بي من الزَّمَانَة ما قد ترى، ذهب بصري) قال زيد: فثقلت فخذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على فخذي حتى خشيت أن ترضها، ثم سري عنه، ثم قال: اكتب (لا يَسْتَوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر). انظر حجة القراءات ٢١٠ ـ ٢١١.

(٤) عبد الله بن محيريز الجمحي سكن بيت المقدس وهو من التابعين الثقات، ومن خير المسلمين. التهذيب ٦/٣٢.

بمكة وتخلفوا عن الهجرة، وخرجوا مع المشركين إلى بدر، فلما رأوا قلة المؤمنين شكوا وكفروا، فقتل بعضهم، فأخبر الله تعالى عن حالهم فقال تعالى ﴿قالوا فيم كنتم﴾ يعني الملائكة تقول لهم: في أي شيء كنتم؟ ويقال: أين كنتم عن الهجرة؟ ﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي يقولون: كنا مقهورين في أرض مكة، لا نقدر أن نظهر الإيمان ﴿قالوا﴾ أي قالت الملائكة: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة﴾ يعني المدينة مطمئنة آمنة. ﴿فتهاجروا﴾ يعني تهاجروا إليها، فقال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾ أي منزلهم ومصيرهم إلى النار ﴿وساءت مصيراً﴾ أي بئس المصير، صاروا إليها. حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص، قال: [حدثنا الطحاوي قال:](1) حدثنا إبراهيم بن مرزوق، قال: حدثنا أبو عبد الرحمن المقري(2)، عن حيوة بن شريح(3) عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل(4)، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: إن ناساً من المسلمين مع المشركين، يكثرون سواد المشركين، يأتي السهم يرمي به، فيصيب أحدهم فيقتله، فأنزل الله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ـ الآية(5)) ثم استثنى أهل العذر فقال: ﴿إلا المستضعفين﴾ أي المقهورين ﴿من الرجال والنساء والولدان﴾ فليس مأواهم جهنم وهم الذين ﴿لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً﴾ أي لا يجدون سعة الخروج عنهم إلى المدينة ولا يعرفون طريقاً إلى المدينة. ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي يتجاوز عنهم وعسى: من الله واجب ﴿وكان الله عفواً﴾ عنهم ﴿غفوراً﴾ لهم فلا يعاقبهم. فقال عبد الله ابن عباس: أنا ممن استثنى الله يومئذ، وكنت غلاماً صغيراً وكان ذلك، قبل [نسخ](6) الهجرة، ثم نسخت الهجرة بعد فتح مكة. حدثنا أبو الفضل، ابن أبي حفص، قال: حدثنا الطحاوي، قال: حدثنا أبو أمية محمد بن إبراهيم قال: حدثنا عبيد الله بن موسى(7)، قال: حدثنا إبراهيم بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن الحارث(8)، عن عمرو بن شعيب(9) عن أبيه، عن جده قال: لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة خطب الناس فقال في خطبته: ولا هجرة بعد الفتح، وروى طاووس عن ابن عباس: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يوم الفتح: إنه لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا(10) ثم قال تعالى

وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

(١) سقط في أ.
(٢) عبد الله بن يزيد المخزومي المدني المقري الأعور أبو عبد الرحمن مولى الأسود بن سفيان. التهذيب ٨٢/٦.
(٣) حيوه بن شريح بن صفوان بن مالك أبو زرعة المصري فقيه زاهد من الثقات. التهذيب ٦٩/٣.
(٤) محمد بن عبد الرحمن بن نوفل بن الأسود الأسدي المدني ثقة كثير الحديث. التهذيب ٣٠٧/٩.
(٥) أخرجه البخاري ١١١/٨ في كتاب التفسير (٤٥٩٦، ٤٥٩٦، ٧٠٨٥).
(٦) سقط في أ.
(٧) عبيد الله بن موسى بن أبي المختار العبسي، مولاهـم، الكوفي أبو محمد الحافظ. التهذيب ٥٠/٧.
(٨) عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش المخزومي أبو الحارث المدني ولد في زمان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التهذيب ١٥٦/٦.
(٩) عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي السهمي. التهذيب ٤٨/٨.
(١٠) أخرجه البخاري ٣/٦ في الجهاد (٢٧٨٣)، ومسلم ٩٨٦/٢ في الحج (١٣٥٣/٤٤٥).

أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

﴿ومن يهاجر في سبيل الله﴾ يقول في طاعة الله إلى المدينة ﴿يجد في الأرض مُراغماً كثيراً﴾ يقول ملجأ ومحولاً من الكفر إلى الإيمان ﴿وسعة﴾ من الرزق. وقال القتبي: المراغم، والمهاجر واحد، ويقال: راغمت وهاجرت لأنه إذا أسلم خرج مراغماً لأهله، أي مغايظاً لهم، والمهاجر، المنقطع. وقيل للذاهب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هجرة مراغم، لأنه إذا خرج هجر قومه. وروي عن معمر عن قتادة، قال: لما نزلت: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. . الآية) فقال رجل من المسلمين ـ وهو مريض: والله ما لي عذر إني أجد الدليل في الطريق، وأني لموسر، فاحملوني، فحملوه، فأدركه الموت في الطريق، فقال أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو بلغ إلينا لتم أجره، وقد مات بالتنعيم[1] وجاء بنوه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبروه بالقصة، فنزلت هذه الآية: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت﴾ يعني في الطريق ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي ثوابه على الله الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لما كان منه في الشرك ﴿رحيماً﴾ حين قبل توبته، وكان اسمه جندع بن ضمرة. قوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ يعني إذا خرجتم إلى السفر ﴿فليس عليكم جناح﴾ ويقول: لا مأثم، ولا حرج عليكم ﴿أن تقصروا من الصلاة، إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ يعني يقتلكم، والفتنة في أصل اللغة الاختبار، ثم سمى القتل فتنة، لأن معنى الاختبار كما قال: (على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم) أي يقتلهم فالله تعالى، قد أباح قصر الصلاة عند الخوف، ثم صار ذلك عاماً لجميع المسافرين أن يقصروا من الصلاة، خافوا أو لم يخافوا. وروي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عليه ـ أنه سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته)[2]. ثم قال تعالى: ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ ظاهر العداوة، ومعناه، كونوا بالحذر منهم. قوله تعالى

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

﴿وإذا كنت فيهم، فأقمت لهم الصلاة﴾ يعني بالمؤمنين ومعناه، إذا كنت بحضرة العدو، وحضرت الصلاة، ﴿فلتقم طائفة منهم﴾ أي جماعة منهم ﴿معك﴾ في الصلاة ﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ يعني الذين يصلون معك، ويقال وليأخذوا أسلحتهم الذين هم بإزاء العدو، ﴿فإذا سجدوا﴾ يعني إذا صلوا الذين خلف الإمام ركعة واحدة

(١) وهو حبيب بن حمزة الليثي كما في أسباب النزول للواحدي ١٣٢.

(٢) أخرجه مسلم ١/٤٨٧ في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة المسافرين (٤/٦٨٦).

﴿فليكونوا من ورائكم﴾ أي ينصرفون إلى موضع العدو ويقفون هناك، ﴿ولتأت طائفة أُخرى، لم يصلوا﴾ كانوا بإزاء العدو ﴿فليصلوا معك﴾ ركعة أُخرى، ولم يذكر في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، ولكن [ذكر][1] في الخبر عن عبد الله ابن عمر[2]، وغيره أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين صلى صلاة الخوف، صلى بالطائفة الاولى ركعة، وبالطائفة الأُخرى ركعة كما ذكر في الآية، ثم جاءت الطائفة الاولى، وذهبت هذه الطائفة إلى موضع العدو، حتى قضت الطائفة الاولى الركعة الأُخرى، وسلموا، ثم جاءت الطائفة الأُخرى وقضوا الركعة الاولى، وسلموا، حتى صارت لكل طائفة ركعتان، وهذا اختيار أصحابنا في صلاة الخوف، ثم قال تعالى: ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا﴾ يقول: تمنى الذين كفروا ﴿لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم﴾ يعني أمتعة الحرب ﴿فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ يعني يحملون عليكم حملة واحدة، وإنما حذرهم لكي يكونوا بالحذر منهم. ثم قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في غزوة أنمار[3]، فهزمهم، وسبى ذريتهم، فلما رجعوا أصابهم المطر، فنزلوا وادياً تحت الأشجار، فوضع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلاحه، وذهب إلى الجانب الآخر من الوادي وحده فجاء السيل، فحال بينه وبين أصحابه، وكان بعض المشركين على ذلك الجبل، فرآه حين حال السيل بينه وبين أصحابه فجاءه واحد منهم يقال: له حويرث بن الحارث وقال: أنا أقتله، فأتاه، وقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال: الله عز وجل، فسل سيفه، وأراد أن يضربه، فدفع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكافر في صدره دفعة، فسقط السيف من يده، فوثب عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ سيفه، وقال: من يخلصك مني؟ فقال: لا أحد، فقال له: إن أسلمت حتى أرد عليك سيفك، فقال: لا أسلم، ولكن أعاهد الله تعالى ألا أكون لك ولا عليك أبداً، فرد عليه سيفه، فقال الرجل: يامحمد، أنت خير مني لأنك قدرت على قتلي، فلم تقتلني، فرجع الكافر إلى أصحابه فأخبرهم بالقصة، فآمن بعضهم، ثم انقطع السيل وجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أصحابه وأخبرهم بالقصة، وقرأ عليهم هذه الآية ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى﴾ أي أصابتكم الجراحات، ﴿أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم﴾ من العدو يعني كونوا بالحذر منهم. وقال الضحاك: ﴿وخذوا حذركم﴾ أي تقلدوا سيوفكم، فإنما ذلك هيبة الغزاة[4]. ثم قال تعالى: ﴿إن الله أعد للكافرين﴾ في الآخرة ﴿عذاباً مهيناً﴾ يهانون فيه. ثم قال عز وجل

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ

(١) في ظ وروي.

(٢) انظر صلاة الخوف من طريق ابن عمر في صحيح البخاري ٢/٤٢٩ في كتاب الخوف باب صلاة الخوف (٩٤٢).

(٣) قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في الفتح ٧/٤٩٤ في كتاب المغازي باب غزوة أنمار، تابع حديث (٤١٤٠) ولم يذكر أهل المغازي، غزوة أنمار وذكر مغلطاي أنها غزوة أمِر بفتح الهمزة وكسر الميم. فقد ذكر ابن إسحاق أنها كانت في صفر وعند ابن سعد: قدم قادم بجلب فأخبر أن أنمار وثعلبة قد جمعوا له فخرج لعشر خلون من المحرم فأتى محلهم بذات الرقاع، وقيل إن غزوة أنمار وقعت في أثناء غزوة بني المصطلق، لما روى أبو الزبير عن جابر: أرسلني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منطلق إلى بني المصطلق فأتيته وهو يصلي على بعيره الحديث، ويؤيده رواية الليثي عن القاسم عن محمد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلى في غزوة بني أنمار صلاة الخوف ويحتمل أن رواية جابر لصلاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعددت.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٣٩.

ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ
إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ قال بعضهم: فإذا فرغتم من الصلاة، ﴿فاذكروا الله﴾ بالقلب واللسان على أي حال كنتم ﴿قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ إن لم تستطيعوا القيام، ويقال: فإذا قضيم الصلاة، أي إذا صليتم في دار الحرب، فصلوا على الدواب، أو قياماً، أو قعوداً، أو على جنوبكم، إن لم تستطيعوا القيام، إذا كان خوفاً، أو مرضاً، وهذا كما قال في آية أُخرى: (فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً). يقال: (فإذا قضيتم الصلاة) أي فرغتم من صلاة الخوف. ﴿فاذكروا الله﴾ أي فصلوا لله، وصلاة الصحيح قياماً، والمريض قاعداً، أو على جنوبكم إن كان المرض أشد من ذلك. ثم قال تعالى: ﴿فإذا اطمأننتم﴾ يقول: أمنتم، ورجعتم إلى منازلكم، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ يعني: فأتموا الصلاة أربعاً، وهذا كقوله: (يمشون مطمئنين) أي مطمئنين. ثم قال ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ يعني فرضاً مفروضاً، معلوماً للمسافر ركعتان، وللمقيم أربع، وقال مقاتل: ﴿كتاباً موقوتاً﴾ يعني فريضة معلومة، كقوله: (كتب عليكم) أي فرض عليكم. وقال الزجاج: ﴿كتاباً موقوتاً﴾ أي مفروضاً موقتاً فرضه. قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ يقول: لا تضعفوا في ابتغاء القوم، أي في طلب المشركين أبي سفيان وأصحابه بعد يوم أُحد، وذلك أن المسلمين، لما أصابتهم الجراحات يوم أُحد، وكانوا يضعفون عن الخروج إلى الجهاد، فأمرهم الله تعالى بأن يظهروا من أنفسهم الجد والقوة، وهذا الخطاب لهم ولجميع المسلمين الغزاة إلى يوم القيامة، قوله: ﴿إن تكونوا تألمون﴾. قال عكرمة: الألم: الوجع، وكذلك قال الضحاك والسدي:(١) إن أصابكم الوجع والجراحات في الحرب ﴿فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي، يصيبهم الوجع مثل ما يصيبكم، ولكم زيادة ليست للمشركين وذلك قوله تعالى: ﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ يعني الثواب في الآخرة ﴿وكان الله عليماً﴾ بما كان ﴿حكيماً﴾ بما يكون. ثم قال:

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ
خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ
أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ
وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ
جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ يعني أنزلنا عليك جبريل عليه السلام ليقرأ عليك القرآن بالعدل، والأمر

(١) انظر تفسير الطبري (السدي) (١٠٤٠١) والضحاك (١٠٤٠٨).

والنهي ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي بما أعلمك الله، وألهمك، وبما أوحى إليك، ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ ولا تكن للسارقين معيناً. وروى محمد بن إسحق[١]، عن عاصم بن عمر[٢]، عن جدّه قتادة بن النعمان[٣] قال: كان بنو أبيرق، وكانوا ثلاثة[٤] بشر، وبشير، ومبشر، فكان بشر يكنى، أبا طعمة، وكان شاعراً، وكان منافقاً، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يقول: قال فلان، وكان لعمي رفاعة[٥] بن زيد عليه فيها طعام، وسلاح، فطرقه بشر من الليل، فأخذ ما فيها من الطعام والسلاح، فلما أصبح عمي دعاني وقال له: إنه أغير علينا الليلة، فقلت: من فعله؟ فقال: بشير وأخوه فجئت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرته أن بشيراً قد سرق من عمي الطعام والسلاح، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، وأما السلاح فليردوه علينا، فجاء قومه، وكانوا أهل لسان وبيان فقالوا: إن رفاعة وابن أخيه عمدوا إلى أهل بيت منا يتهمونهم بالسرقة، فوقع قولهم عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ موقعاً، فبين الله خيانتهم فنزل[٦]: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ وهو ابن طعمة، وقال الضحاك سرق طعمة بن أبيرق اليهودي درعاً للزبير بن العوام، فاختصما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال للزبير: لا بد لك من أن تأتي على ذلك بحجة قيمة، وشهادة صحيحة فأنزل الله تعالى تصديقاً لقوله ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾، وقال مقاتل[٧]: سرق طعمة بن أبيرق المنافق درعاً من يهودي فلما جاءوا إلى بيته بالأثر رمى الدرع في دار رجل من الأنصار، وأنكر فجاء قومه ليبرؤه من السرقة، فنزلت هذه الآية، وقال الكلبي: سرق طعمة بن أبيرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النعمان، فوضعه عند رجل من اليهود يقال له: زيد بن السمين، وأنكر السرقة، فجاء قومه يخاصمون عنه، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾[٨]. قوله تعالى: ﴿واستغفر الله﴾ عن جدالك، عن طعمة حين جادلت عنه، ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ يقول: ولا تخاصم عن الذين يضرون أنفسهم بالسرقة ﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ أي خائناً بالسرقة، فاجراً برميه على غيره. ثم قال تعالى: ﴿يستخفون من الناس﴾. قال الضحاك: لما سرق الدرع اتخذ حفرة في بيته، وجعل الدرع تحت التراب فنزل: يستخفون من الناس بالتراب ﴿ولا يستخفون من الله﴾ يقول: لايخفى مكان الدرع على الله ﴿وهو معهم﴾ أي رقيب حفيظ عليهم. ويقال: يستخفون: يعني يستترون من الناس، وهم قوم طعمة ولا يستخفون من الله، يقال: ولا يقدرون أن يستتروا من الله (وهو معهم) يعني عالماً بهم وبخيانتهم. ﴿إذ يبيتون﴾ يقول إذ يؤلفون، ويغيرون ﴿ما لا يرضى من القول﴾ يقول: ما لا يرضوا لأنفسهم من القول، وهم سرقوا، ويقال: ما لا يرضي الله ولا يحبه، ثم قال: ﴿وكان الله بما يعملون محيطا﴾ أي عالماً بهم وبخيانتهم. ثم أقبل على قوم طعمة فقال: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ يقول: ها أنتم هؤلاء

---

(١) محمد بن إسحاق بن يسار المدني من أعلام التابعين من أحفظ الناس، التهذيب ٩/٣٨.

(٢) عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري توفي سنة ١٢٠ هـ. التهذيب ٥/٥٤.

(٣) قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الأنصاري الصحابي المشهور، الإصابة ٥/٢٢٩.

(٤) بشر بن الحارث بن عمرو بن الحارثة الأنصاري الظفري كان منافقاً يهجو الصحابة ثم سرق الدرع ثم ارتد. الإصابة ١/١٥٥.

(٥) رفاعة بن زيد بن عامر بن سوار الأنصاري الظفري عم قتادة. الإصابة /٤/٢٠٩.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٩/١٧٧ (١٠٤١١) وأخرجه الترمذي ٥/٢٢٨ في كتاب التفسير (٣٠٣٦) وقال حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني. وروى يونس بن بكير وغير واحد هذا الحديث عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً ولم يذكروا فيه عن أبيه عن جده، وقتادة هو أخو أبي سعيد الخدري لأمه وأخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٣٨٥ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٢/٢١٤، ٢١٥ لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

(٧) انظر التفسير ١/٢٦٦. (٨) انظر أسباب النزول ١٣٤.

﴿جادلتم﴾ أي خاصمتم ﴿عنهم في الحياة الدنيا، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ يقول: فمن يخاصم الله عنهم يوم القيامة. ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي، كفيلاً، ويقال: خصيماً.

وقال الضحاك(١): أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقيم الحد على طعمة بن أبيرق وكان طعمة مطاعاً في اليهود، فجاءت اليهود شاكين في السلاح، وهربوا بطعمة وجادلوا عنه فنزل ها أنتم هؤلاء، يعني اليهود. . . الآية، ثم قال:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ قال الضحاك: نزلت الآية في شأن وحشي قاتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ أشرك بالله وقتل(٢) ثم جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إني لنادم، فهل لي من توبة؟ فنزل: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) ﴿ثم يستغفر الله﴾ الآية، وقال الكلبي: نزلت في شأن طعمة (ومن يعمل سوءاً) بسرقة الدرع، أو يظلم نفسه برميه غيره، وجحوده، ثم يستغفر الله أي يتوب إلى الله ﴿يجد الله غفوراً﴾ متجاوزاً ﴿رحيماً﴾ لمن اتقى الشرك. وروي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفعني الله به ما شاء، وإذا سمعته من غيره حلفته(٣). وحدثني أبو بكر الصديق، وصدق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قال ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ، ويصلي ركعتين، ويستغفر الله تعالى إلا غفر الله له(٤)، وتلا هذه الآية: ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه. . . الآية) ثم قال تعالى: ﴿ومن يكسب إثماً﴾ يعني الشرك بالله تعالى ﴿فإنما يكسبه على نفسه﴾ أي يضر بنفسه، ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ ثم قال: ﴿ومن يكسب خطيئة، أو إثماً﴾ يعني عمل بالمعصية ﴿ثم يرم به بريئاً﴾ قال مقاتل: وهو طعمة حين رمى بالدرع في دار الأنصاري، واتهمه به، وهو قوله: ثم يرم به بريئاً، وقال الضحاك: يعني به المنافقين، حيث قالوا في عائشة ـ رضي الله عنها ـ قولاً عظيماً فقال: ومن يكسب خطيئة، أو إثماً بالمعاصي، ثم يرم به بريئاً يعني عائشة وصفوان ثم قال تعالى: ﴿فقد احتمل بهتاناً﴾يقول: فقد قال: كذباً، ﴿وإثماً مبيناً﴾ ذنباً ظاهراً. قوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته﴾ يعني فضل الله عليك بالنبوة، ورحمته بالوحي ﴿لهمت طائفة منهم﴾ أي جماعة ﴿أن يضلوك﴾ أي يخطئون في الحكم ﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي وما يرجع وبال ذلك إلا على أنفسهم ﴿وما يضرونك من شيء﴾ وإنما

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٤١. (٢) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٤٣ ـ ٢٤٤. (٣) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٤٤.

(٤) أخرجه الترمذي (٤٠٦، ٣٠٠٦)، وابن ماجه (١٣٩٥) أخرجه أحمد في المسند ١/٢، والدارمي في السنن ١/٣٨٥. وأخرجه ابن السني في اليوم والليلة (٣٥٣)، وأخرجه ابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد ص ٦٠٨ باب فيمن أذنب ثم صلى واستغفر (٢٤٥٤) والحديث في كنز العمال (١٠٢٧٧) وانظر تفسير ابن كثير ٢/١٣.

يضرون بأنفسهم. قال الضحاك: نزلت الآية في وفد ثقيف، قدموا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا: جئناك، لنبايعك على أن لا تكسر أصنامنا، ولا تعشرنا، فلم يجبهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت: لهمت طائفة منهم أن يضلوك، وقال الكلبي: يعني قوم طعمة[1]. ثم قال: ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب**﴾ يعني القرآن ﴿**والحكمة**﴾ يعني القرآن والحكمة ـ يعين القضاء والمواعظ ﴿**وعلمك**﴾ بالوحي ﴿**ما لم تكن تعلم**﴾ قبل الوحي ﴿**وكان فضل الله عليك عظيماً**﴾ بالنبوة. ثم قال:

لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

﴿**لا خير في كثير من نجواهم**﴾ وهو ما يتناجون فيما بينهم ويقال: في كثير من أحاديثهم، وهم وفد ثقيف، أو قوم طعمة. ﴿**إلا من أمر بصدقه**﴾ يقول: إلا نجوى من أمر بصدقة ﴿**أو معروف**﴾ يعني لقرض، كقوله: (فليأكل بالمعروف) ويقال: المعروف، يعني القول بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿**أو إصلاح بين الناس**﴾ يعني يذهب فيما بين اثنين ليصلح بينهما ﴿**ومن يفعل ذلك**﴾ الذي ذكرنا ﴿**ابتغاء**﴾ يعني طلباً ﴿**مرضات الله فسوف نؤتيه**﴾ يعني في الآخرة ﴿**أجراً عظيماً**﴾ قرأ حمزة وأبو عمرو:[2] (نؤتيه) بالياء، أي يؤتيه الله تعالى وقرأ الباقون: (نؤتيه) بالنون، أي نحن نعطيه في الآخرة أجراً عظيماً، أي ثواباً عظيماً، قوله تعالى: ﴿**ومن يشاقق الرسول**﴾ يعني يخالفه في التوحيد ﴿**من بعد ما تبين لهم الهدى**﴾ أي من بعد ما تبين لهم التوحيد ﴿**ويتبع غير سبيل المؤمنين**﴾ أي يتبع ديناً غير دين المؤمنين، ويقال: يتبع طريقاً أو مذهباً غير طريق المؤمنين، وفي الآية دليل: أن الإجماع حجة[3]، لأن من

---

(١) انظر تفسير ابن عباس ٦٤.

(٢) وحجتهما أنه قرب من ذكر الله وهو قوله (مرضاة الله) فجعلا الفعل بعده على لفظ ما تقدمه ليأتلف نظام الكلام على سياق واحد وحجة من قرأ بالنون قوله تعالى ﴿**ومَنْ يُقَاتِلْ في سَبيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١١ ـ ٢١٢ وانظر سراج القاري ١٩٤.

(٣) والإجماع في اللغة يطلق على العزم والاتفاق. انظر القاموس ص ١٥/٣ والمصباح المنير ١٧١/١ وشرعاً اتفاق مجتهدي أمة الإجابة في عصر من العصور على أمر من أمور الشرع بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

انظر المستصفى ١١٠/١، الإحكام للآمدي ٢٨٠/٢، المعتمد ٤٥٧/٢ فواتح الرحموت ٢١٧/٢، كشف الأسرار ٢٢٧/٣، تيسير التحرير ٢٢٤/٣ واختلف العلماء في حجية الإجماع ووجوب العمل به على مذهبين:

أحدهما: ـ وهو مذهب الجمهور ـ أنه حجة ويجب العمل بمقتضاه.

ثانيهما: ـ وهو مذهب النظام والخوارج والشيعة ـ ليس بحجة، وهو قول مردود عليهم..

اختلفوا في أن الإجماع من الأمم السالفة غير أمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حجة على القولين حكاهما الأستاذ أبو إسحاق وغيره وأصحهما أن الإجماع من خصائص هذه الأمة.

قال سليم الرازي في التقريب: لأنا حكمنا بأن الإجماع حجة بالشرع لا بالعقل وقد خص الشرع إجماع المسلمين بالحجة دون =

خالف الإجماع، فقد خالف سبيل المؤمنين، وقال الضحاك: قدم نفر من قريش المدينة وأسلموا، ثم انقلبوا إلى مكة مرتدين، فنزلت هذه الآية:[1] ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي دين الإسلام، ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ المسلمين ﴿نوله ما تولى﴾ نكله إلى الأصنام يوم القيامة، وهم لا يملكون لهم ضراً، ولا نفعاً، ولا ينجوهم من عذاب الله تعالى، وقال مقاتل: (نوله ما تولى) أي نتركه وما اختار لنفسه، وقال الكلبي: (نوله ما تولى) يعني نوله في الآخرة ما تولى في الدنيا، وهذا كما قال بعض الحكماء: من أراد أن يعلم كيف يعامل معه في الآخرة فلينظر، كيف يعامل هو في الدنيا، وقال الكلبي: نزلت الآية في شأن طعمة، لما ظهر حاله وسرقته، هرب إلى مكة، وارتد، فنقب بمكة حائطاً لرجل، فسقط حجر، فبقي في النقب حتى وجدوه على حاله، فأخرجوه من مكة، فخرج إلى الشام، فسرق بعض أموال القافلة، فرجموه، وقتلوه، فنزل قوله:[2] ﴿نوله ما تولى﴾ ﴿ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾. قرأ حمزة وعاصم، وأبو عمرو:[3] (نوله، ونصله) بجزم الهاء وقرأ الباقون: بالكسر، وهما لغتان، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ

= غيرهم، وصحح الأستاذ أن إجماع كل أمة حجة ولم يزل ذلك في الملل وتوقف القاضي في المسألة، وقال إمام الحرمين: إن كان مستندهم قطعياً فحجة، أو مظنون فالوقف.

قلت: قد رد الشافعي في الأم قول من ادعى في مناظرته أن أهل العلم إذا أجمعوا على شيء كان دليلاً على إجماع من مضى قبلهم، قال الشافعي: قلت له: أرأيت قولك: إجماعهم يدل على إجماع من قبلهم أترى الاستدلال بالتوهم أولى بدونهم أم بخبرهم؟ قال: بل بخبرهم قلت: فإن قالوا لك فما قلنا به مجتمعين ومفترقين ما قلنا الخير فيه فالذي يثبت مثله عندنا عمن قلنا إنهم مختلفون فيه وبما قلنا به ما ليس فيه خبر عمن قبلنا. شرع لنا أولا؟

فإن قلنا: إنه شرع لنا وثبت أن الإجماع حجة كان إجماعهم في حقنا حجة وإلا فلا (٨١ ق).

الثاني: أن الإجماع في أمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل يشبه بالسمع أو بالعقل؟ والصحيح عند الأكثرين منهم القاضي أبو بكر وغيره أنه ثبت بالسمع.

فإن قلنا: بالسمع لم يكن حجة إذا لم تتم الحجة إلا بإجماعنا وإن قلنا بالعقل وهو اختيار إمام الحرمين وغيره ثبت.

وقد صرح بهذا البناء المذكور الشيخ أبو محمد الجويني في كتاب المحيط بمذهب الشافعي كما نقلته من خط ابن الصلاح. ورأيت في التقريب في أصول الفقه لسليم الرازي حكاية قول آخر أن الشرع والنقل دلا عليه. انظر سلاسل الذهب ٣٣٧ ـ ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ـ ٣٤٠.

(١) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٤٧. (٢) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٤٧.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٢، وقول المصنف رحمه الله وعاصم أي بجزم الهاء: ليس بسديد، وإنما إسكان الهاء من رواية شعبة فقط، وأما حفص عن عاصم بمد الهاء.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ قال الضحاك: وذلك أن شيخاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله، إني شيخ منهمك في الذنوب والخطايا، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً مذ عرفته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه ولياً، ولم أواقع المعاصي جرأة على الله، ولا مكابرة له، وإني لنادم، وتائب مستغفر، فما حالي عند الله، فأنزل الله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به)، ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ ويقال: نزل في شأن وحشي وقد ذكرناه من قبل. ﴿ومن يشرك بالله﴾ أي من يعبد غير الله ﴿فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ يعني فقد ضل عن الهدى ضلالاً بعيداً عن الحق. ثم قال تعالى، في ذم الكفار وبين جهلهم فقال: ﴿إن يدعون من دونه إلا أناثاً﴾ يقول: ما يعبدون من دون الله إلا أصناماً أمواتاً، وهذا قول ابن العباس[١]، وعن الحسن أنه قال: الإناث الشيء الميت الذي ليس فيه روح[٢]، وقال السدي: سموها إناثاً اللات، والعزى، ومناة[٣]. ثم قال تعالى: ﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ وذلك أن الشيطان كان يدخل في الصنم، ويكلمهم، وهم يعبدون الصنم، وفيه الشيطان، ويقال: إبليس زين لهم عبادة الأصنام، وإذا عبدوا بإذنه فكأنهم عبدوا الشيطان، ثم قال: مريداً: أي مارداً، مثل قدير، وقادر، والمارد: العاتي ويقال: كل فاسد مفسد يكون مريداً أي يكون فاسداً لنفسه ويفسد غيره، ثم قال تعالى: ﴿لعنه الله﴾ يعني طرده الله من رحمته، وهو إبليس حيث لم يسجد لآدم، فلما لعنه ﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي حظاً معلوماً، قال مقاتل: يعني من كل ألف واحد في الجنة، وسائرهم في النار، فهذا نصيب مفروض، ثم قال: ﴿ولأضلنهم﴾ يعني عن الهدى والحق ﴿ولأمنينهم﴾ يعني لأخبرنهم بالباطل، أنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ وهي البحيرة، وذلك أن أهل الجاهلية، كانوا يشقون آذان الأنعام ويسمونها بحيرة، وذكر قصتهم في سورة المائدة. ثم قال: ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ قال عكرمة: هو الخصاء[٤]، وهكذا روي عن ابن عباس، وأنس بن مالك[٥] وروي عن سعيد بن جبير قال: هو دين الله، وهكذا قال الضحاك ومجاهد[٦]، وقيل لمجاهد أن عكرمة يقول: هو الخصاء، فقاله: ماله، لعنه الله[٧] وهو يعلم أنه غير الخصاء، فبلغ ذلك عكرمة فقال: هو فطرة الله. وقال الزجاج: إن الله تعالى خلق الأنعام ليركبوها، فحرموها على أنفسهم وخلق الشمس والقمر والحجارة، مسخرة للناس، فجعلوها آلهة يعبدونها فقد غيروا خلق الله عز وجل، ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً﴾ أي يعبد الشيطان ويطيعه ﴿من دون الله﴾، يعني ترك أمر الله تعالى وطاعته ﴿فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ أي ضل ضلالاً مبيناً بيناً عن الحق. ثم قال تعالى: ﴿يعدهم﴾ يعني الشيطان يخوفهم بالفقر، حتى لا يصلوا رحماً، ولا ينفقوا في خير ﴿ويمنيهم﴾ أي يخبرهم بالباطل، أنه لا ثواب لهم في ذلك العمل ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي باطلاً. قوله تعالى: ﴿أولئك مأواهم جهنم﴾ يعني الذين يطيعون الشيطان مصيرهم إلى جهنم ﴿ولا يجدون عنها محيصاً﴾ أي مفراً ومهرباً. قوله تعالى:

---

(١) انظر التفسير ٦٥. (٢) انظر تفسير الطبري ٩/٢٠٨.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٧/٢٠٧ (١٠٤٣٢) وانظر تفسير البغوي ١/٤٨١.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٨/٢١٦ (١٠٤٥٤) (١٠٤٥٥)، وانظر في تفسير البغوي ١/٤٨٢.

(٥) انظر تفسير الطبري ٩/٢١٥ (١٠٤٤٨) (١٠٤٥٠) (١٠٤٥١).

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ٩/٢١٧ (١٠٤٧٢) (١٠٤٧٣) (١٠٤٧٤) (١٠٤٧٤) (١٠٤٧٥) (١٠٤٧٩) (١٠٤٨٢).

(٧) أخرجه الطبري في التفسير ٩/٢١٦ (١٠٤٥٥).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي صدقوا بالله تعالى والرسول، والقرآن وأدوا الفرائض وانتهوا عن المحارم ﴿**سندخلهم جنات**﴾ وهي البساتين ﴿**تجري من تحتها الأنهار**﴾ وهي أربعة أنهار: نهر من ماء غير آسن، ونهر من لبن، ونهر من خمر، ونهر من عسل مصفى، ﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ يعني مطمئنين فيها لا يتغير بهم الحال، فهذا وعد من الله تعالى، ثم قال: ﴿**وعد الله حقاً**﴾ أي صدقاً، وكائناً، أنجز لهم ما وعد لهم من الجنة ﴿**ومن أصدق من الله قيلا**﴾ أي قولاً ووعداً. قوله تعالى: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب**﴾ وذلك أن أهل الكتاب قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وقال المؤمنون: إنا أسلمنا لا تضرنا الذنوب، فنزل: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب**﴾ يقول ليس لكم يا معشر المسلمين ما تمنيتم، ولا أهل الكتاب ما تمنوا ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ أي من يعمل معصية دون الشرك يعاقب به. وقال الزجاج: معناه، ليس ثواب الله بأمانيكم، ولا أماني أهل الكتاب، وقد جرى ما يدل على إضمار الثواب، وهو قوله: ﴿**والذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾ أي إنما يدخل الجنة من آمن وعمل صالحاً ليس كما تمنيتم ﴿**ومن يعمل سوءاً يُجْزَ به**﴾ أي لا ينفعه تمنيه. ويقال: لما نزلت هذه الآية: ﴿**من يعمل سوءاً يجز به**﴾ شق ذلك على المسلمين، وقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ كيف الفلاح بعد هذه الآية يا رسول الله فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألست تمرض؟ ألست تصيبك اللأواء؟ أي الشدة، فذلك كذ- جزاؤه. حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا العباسي، قال: حدثنا الحسن بن صباح[1] قال: حدثنا عبد الوهاب الخفاف[2] عن زياد[3] عن علي بن زيد[4]، عن مجاهد قال: مر ابن عمر على ابن الزبير، وهو مصلوب، فنظر إليه، فقال يغفر الله لك ثلاثة، والله ما علمتك إلا كنت صواماً قواماً، وصالاً للرحم، أما والله، إني لأرجو مع مساوىء ما أصبت أن لا يعذبك الله بعدها أبداً، ثم التفت فقال ـ سمعت أبا بكر الصديق يقول: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (من يعمل سوءاً يجزبه في الدنيا)[5]. وروى محمد بن قيس عن أبي هريرة قال: لما نزلت (من يعمل سوءاً يجزبه) شق ذلك على المسلمين، فشكوا ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال:

---

(١) الحسن بن محمد الصباح الزعفراني أبو علي البغدادي، كان أحد الثقات توفى سنة ٢٥٩ هـ. التهذيب ٢/٣١٨.

(٢) عبد الوهاب بن عطاء الخفاف أبو نصر العجلي، مولاهم، البصري توفي سنة ٢٠٤ هـ. التهذيب ٦/٤٥٢.

(٣) زياد بن أبي زياد الجصاص، أبو محمد الواسطي، بصري الأصل قال النسائي: ليس بثقة وقال الدارقطني: متروك وذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما وهم. التهذيب ٣/٣٦٨.

(٤) على بن زيد بن عبد الله بن جدعان أبو الحسن. البصري، ثقة سيء الحفظ توفي سنة ١٢٩ هـ. التهذيب ٧/٣٢٢.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٩/٢٤١ (١٠٥٢٢)، وأخرجه أحمد في المسند ٢٣، وقال الشيخ شاكر إسناده ضعيف، وذكره ابن كثير في التفسير ٢/٣٧٠ عن أبي بكر بن مردويه عن محمد بن هشام، بن جهيمة عن يحيى بن أبي طالب عن عبد الوهاب بن عطاء ثم قال: ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن الفضل بن سهل بن عبد الوهاب بن عطاء به مختصراً ذكره، وزاد نسبته السيوطي في الدر ٢/٢٦٦. للخطيب في المتفق والمفترق.

قاربوا وسددوا فكل ما يصيب المؤمن كفارة، حتى الشوكة تشاكه، والنكبة تنكبه[1] وقال الضحاك: السوء الكفر، وقال مجاهد: قالت قريش: لن نبعث، ولن نعذب، فنزلت ﴿ليس بأمانيكم﴾ أي أماني كفار قريش، ولا أماني أهل الكتاب، ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي يعاقب عليه. ثم قال تعالى: ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً﴾ يعني الكافر، لا يجد لنفسه ﴿من دون الله﴾ أي من عذاب الله ولياً يمنعه ﴿ولا نصيراً﴾ ينفعه ويمنعه من العذاب. ثم قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ يعني يؤدي الفرائض، وينتهي عن المحارم ﴿من ذكر أو أنثى﴾ أي من رجل أو امرأة ﴿وهو مؤمن﴾ أي مصدق بالثواب والعقاب ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ لا شك فيها ﴿ولا يظلمون﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم ﴿نقيراً﴾ وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة. قرأ أبو عمرو، وابن كثير[2]: (فأولئك يدخلون الجنة) بضم الياء، ونصب الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الخاء، أي يدخلون الجنة بأعمالهم ثم فضل دين الإسلام على سائر الأديان، فقال تعالى:

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه﴾ أي أخلص دينه ﴿لله وهو محسن﴾ في عمله. ويقال: وهو موحد ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي مستقيماً، ويقال: مائلاً إلى دين الإسلام، ثم قال تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان يوسع على الضعفاء الطعام، واحتاج في بعض الأوقات إلى الطعام، فبعث غلمانه مع الجمال إلى خليل له بمصر، ليقرضه شيئاً من الطعام فيرد عليه إذا أدرك إنـزاله، فلما انتهوا إليه، قال: إني أخاف أن أحتاج قبل إدراك الإنزال، فلم يدفع إليهم، ورجعوا، فاستحيى الغلامان أن يدخلوا في قرية إبراهيم والناس ينظرون إليهم، وليس معهم شيء، فجعلوا الرحل في الجواليق، وحملوا على الجمال، وجاءوا إلى منزل إبراهيم ـ عليه السلام ـ وألقوا الأحمال، وتفرقوا وجاء واحد منهم، وأخبر إبراهيم بالقصة، فاغتم لذلك، ودخل البيت ونام، فخرجت جواريه، ونظرن إلى الأحمال، فإذا الجواليق دقيق، ففرعن منها، وجعلن يخبزن خبزاً، حتى إذا استيقظ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وخرج وقال: من أين هذا الدقيق؟ فقلن من عند خليلك المصري، فقال إبراهيم: ليس هذا من عند خليلي المصري، ولكن من عند خليل السماء، فاتخذه الله تعالى خليلاً بذلك. ويقال: لما دخلت عليه الملائكة في شبه الآدميين، وجاءهم بعجل سمين، فلم يأكلوا منه، وقالوا إنا لا نأكل شيئاً بغير ثمن، فقال لهم: أعطوني ثمنه وكلوه، قالوا: وما ثمنه، قال: أن تقولوا في أوله بسم الله وفي آخره الحمد لله،

(١) أخرجه مسلم ١٩٩٣/٤ في كتاب البر والصلة باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض.. (٢٥٧٤) وقوله (النكبة تنكبه) هي مثل العثرة يعثرها برجله وربما جرحت إصبعه. وأصل النكب النكبة والقلب والحديث أخرجه أحمد في المسند ٢٤٨/٢ ـ والترمذي (٣٠٣٨).

(٢) وشعبة أيضاً وانظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٢ ـ ٢١٣ سراج القاري ١٩٤، شرح شعلة ٣٤٣.

فقالوا فيما بينهم: حقاً على الله أن يتخذه خليلاً فاتخذه الله خليلاً. ويقال: إنه أضاف رؤساء الكفار، وأهدى لهم هدايا وأحسن إليهم، فقالوا له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن تسجدوا لله سجدة، فسجدوا، فدعا الله تعالى، وقال: أللهم إني قد فعلت ما أمكنني، فافعل أنت، ما أنت أهل لذلك، فوفقهم الله تعالى للإسلام فاتخذه الله خليلاً لذلك. وروى جابر عن عبد الله، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إتخذ الله إبراهيم خليلاً، لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام[1]. ثم قال: عز وجل: **﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾** كلهم عبيده، وفي ملكه وحكمه نافذ فيهم **﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾** أحاط علمه بكل شيء قوله تعالى: **﴿ويستفتونك في النساء﴾** أي يسألونك عن ميراث النساء، نزلت في أم كجة التي ذكرنا في أول السورة **﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾** أي يبين لكم ما لهن من الميراث **﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾** أي وكتاب الله يفتيكم بذلك، **﴿في يتامى النساء﴾** يعني في ميراث يتامى النساء **﴿اللاتي تؤتونهن﴾** لا تعطونهن **﴿ما كتب لهن﴾** أي ما فرض لهن من الميراث **﴿وترغبون﴾** أي وتزهدون **﴿أن تنكحوهن﴾** لدمامتهن. وروى معمر عن إبراهيم قال: كان الرجل يكون عنده اليتيمة الدميمة ولها مال، ويكره أن يزوجها من غيره، من أجل مالها، قال إبراهيم: وكان عمر يأمر الرجل إذا كانت عنده اليتيمة الدميمة، ولها مال أن يتزوجها[2]. وروى عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كانت يتيمة في حجر رجل، فأراد أن يتزوجها، ولم يكمل صداق نصابها، فأمروا بإكمال الصداق، وقال مجاهد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان شيئاً ويقولون: لا يغزون، ففرض الله لهم الميراث، وأمر لليتيم بالقسط، ثم قال تعالى: **﴿والمستضعفين﴾** يقول: يسألونك عن ميراث المستضعفين **﴿من الولدان﴾** ويقال: يفتيكم في المستضعفين من الولدان **﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾** أي بالعدل **﴿وما تفعلوا من خير، فإن الله كان به عليماً﴾** يجازيكم وفي هذه الآية دليل على أن ما سوى الأب والجد إذا زوج اليتيمة جاز، وفيه أنه إذا زوج من نفسه جاز، إذا كانت غير ذي رحم محرم. قوله تعالى:

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

﴿وإن امرأة خافت﴾ أي علمت **﴿من بعلها﴾** يعني زوجها **﴿نشوزاً﴾** يعني عصياناً في الأثرة **﴿أو إعراضاً﴾**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣٠ ـ ٢٣١ وعزاه للبيهقي في الشعب وذكره الواحدي في أسباب النزول ١٣٥ قلت والذي في الشعب ٢/١٨٥ باب في حب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. (١٤٩٤) بلفظ اتخذ الله إبراهيم خليلاً وموسى نجياً واتخذني حبيباً وقال البيهقي: ومسلمة بن علي ـ أحد رجال إسناد البيهقي ـ ضعيف عند أهل الحديث، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/٣٣٣ (١٧) وضعفه.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٩/٢٥٥ (١٠٥٤٤).

عنها، وترك محادثتها (نزلت في رافع بن خديج[١])، تزوج امرأة أشب من امرأته خوله بنت محمد بن مسلمة، وقال في رواية الكلبي: نزلت في ابنة محمد بن مسلمة وفي زوجها أسعد بن الزبير، تزوجها وهي شابة، فلما أدبرت وعلاها الكبر، تزوج عليها امرأة شابة، وآثرها عليها، وجفا بنت محمد بن مسلمة، فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم. فشكت إليه، فنزل ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾ يعني ترك مجامعتها ﴿أو إعراضاً﴾ يعني يعرض بوجهه ويقل مجالستها ومحادثتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي لا إثم على الزوج والمرأة ﴿أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ قرأ أهل الكوفة: عاصم وحمزة والكسائي[٢] ﴿أن يصلحا بينهما﴾ بضم الياء والتخفيف، وهو من الصلح، وقرأ الباقون: أن يصالحا بالألف وتشديد الصاد، لأن أصله وتصالحاً [فأدغمت][٣] التاء في الصاد، وأقيم التشديد مكانه. ثم قال: ﴿والصلح خير﴾ يعني الصلح خير من الفرقة، ويقال: الصلح خير من النشوز، ويقال: الصلح خير من الخصومة والخلاف. وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾ قال: قول الرجل لامرأته أنت كبيرة وإني أريد أن أستبدل بك شابة، فقري على ولدك، ولا أقسم لك من نفسي شيئاً ورضيت بذلك، فذلك الصلح بينهما، قال: وهذا قول أبي السنابل بن بعكك[٤] حين جرى بينهما هذا الصلح[٥]، ثم صارت الآية عامة، في جواز الصلح الذي يجري فيما بين الناس، لقوله تعالى: (والصلح خير). ثم قال تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ يعني، الشح حملها على أن تدع نصيبها، ويقال: شحت المرأة بنصيبها من زوجها، أن تدعه للأخرى، وشح الرجل بنصيبه من الأخرى، وقال مقاتل[٦]: طمعها وحرصها يجرها إلى أن ترضى. ثم قال تعالى: ﴿وأن تحسنوا﴾ يقول: تحسنوا إليهن ﴿وتتقوا﴾ الميل والجور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ في الإحسان والجور. قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء﴾ يقول: لن تقدروا أن تسووا بين النساء في الحب، بين الشابة والكبيرة ﴿ولو حرصتم﴾ أي ولو جهدتم، ولكن اعدلوا في القسمة والنفقة ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ بالنفقة والقسمة إلى الشابة ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ بغير قسمة، كالمسجونة لا أيم، ولا ذات بعل، وروي عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: من كان له امرأتان فمال إلى أحدهما، جاء يوم القيامة

---

(١) رافع بن خديج بن رافع بن عدي بن يزيد، الأنصاري، الأوسي، مات زمن معاوية الإصابة ٢/١٨٦.

(٢) وحجتهم في ذلك أن العرب إذا جاءت مع الصلح بـ(بين) قالت: (أصلح القوم بينهم وأصلح الرجلان بينهما) قال الله عز وجل ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وإذا لم تأت بـ(بين) قالوا: (تصالح القوم وتصالح الرجلان) ففي مجيء (بينهما) مع قوله (أن يصلحا) دليل واضح على صحة ما قلنا. وأخرى: لو كان الصواب: (يصالحا) لجاء المصدر على لفظ الفعل فقيل: (تصالحا) لا صلحاً فلما جيء بالمصدر على غير بناء الفعل دل على ذلك أنه صدر على غير هذا اللفظ.

وقرأ الباقون: (يَصَّالَحَا) بفتح الياء وتشديد الصاد وفتح اللام أي: (يتصالحا) فأدغموا التاء في الصاد لقرب مخرجهما، وحجتهم: أن المعروف من كلام العرب إذا كان/ بين اثنين مشاجرة أن يقولوا: (تصالح القوم فهم يتصالحون) ولا يكادون يقولون (أصلح القوم فهم مصلحون)، وأخرى: أنه لو كان الوجه: (أن ـ يصلحا) لخرج مصدره على لفظه فقيل: (إصلاحاً) قلت: هذا غير لازم لهم وذلك أن العرب تضع الإسم موضع المصدر فتقول: (هذا يوم العطاء) أي يوم الإعطاء وفي التنزيل: (وأَنْبَتَها نَبَاتاً حسناً) ولم يقل (إنباتاً). حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) في أ [باقي ٦، ٧].

(٤) أبو السنابل بن بعكك بن الحارث بن عقيلة بن السباق القرشي العبدري. قال البخاري: لا أعلم أنه عاش بعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم هـ.

(٥) انظر تفسير مجاهد ١/١٧٧، والطبري ٩/٢٧٦.

(٦) انظر التفسير ١/٢٧٣.

وشقه مائل[١]، وفي رواية أخرى، وأحد شقيه ساقط. وروى أبو أيوب[٢] عن أبي قلابة[٣] قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم بين نسائه، فيعدل في القسمة، ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك[٤]، يعني الحب والجماع. ثم قال تعالى: ﴿وأن تصلحوا﴾ يعني تصلحوا بينهما بالسوية ﴿وتتقوا﴾ الجور والميل ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ حيث رخص لكم في الصلح. ثم قال عز وجل: ﴿وإن يتفرقا﴾ يعني الزوج والمرأة ﴿يغني الله كلا من سعته﴾ يعني من رزقه، وقال مجاهد، يعني الطلاق. وروي عن جعفر بن محمد، أن رجلاً شكا إليه الفقر، فأمره بالنكاح فذهب الرجل وتزوج، ثم جاء إليه فشكا إليه الفقر، فأمره بالطلاق فسئل عن ذلك، فقال: أمرته بالنكاح وقلت: لعله من أهل هذه الآية (إن يكونوا فقراء، يغنهم الله من فضله) فلما لم يكن من أهل هذه الآية، قلت: فلعله من أهل هذه الآية: (وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته)[٥]. وروي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ:[٦] فتذروها كأنها مسجونة. ثم قال: ﴿وكان الله واسعاً﴾ يعني واسع الفضل (حكيماً) حكم بفرقتهما وتسويتهما. ثم قال تعالى:

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/٢٤٢ باب في القسم بين النساء (٢١٢٣)، وأخرجه الترمذي ٣/٤٤٧ باب ما جاء في التسوية بين الضرائر (١١٤١) وعنده وشقه ساقط.
وأخرجه النسائي ٧/٦٣ في باب ميل الرجل إلى بعض نسائه، وأخرجه ابن ماجه ١/٦٣٣ في باب القسمة بين النساء (١٩٦٩) وعنده (شقه ساقط)، وأخرجه ابن حبان، أورده الهيثمي في الموارد (١٣٠٧) والحاك في المستدرك ٢/١٨٦، وأحمد في المسند ٢/٣٤٧، ٤٧١ والطيالسي في المسند ١/٣١٢ (منحة)، والدارمي في السنن ٢/١٤٣، وابن الجارود في المنتقى (٧٢٢)، وابن أبي شيبة في المصنف ٤/٣٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٢٩٧.
(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني أبو بكر البصري مولى عنزة كان فقيهاً فاضلاً كثير العلم. توفي سنة ١٣١ هـ. التهذيب ١/٣٩٧.
عبد الله بن زيد بن عمرو أبو قلابة البصري الجرمي أحد الأعلام الثقات من التابعين توفي سنة ١٠٤ هـ. التهذيب ٥/٢٢٤.
(٤) هذا الحديث مخرج من وجهين الأول من رواية أبي مرسلاً أخرجه الترمذي في السنن ٣/٤٤٦ كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر عقب الحديث (١١٤٠) وقال: وهذا ـ أي الإرسال ـ أصح من حديث حماد بن سلمة). وحديث حماد بن سلمة من طريق عائشة مرفوعاً، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/١٣٩ كتاب النكاح ٤٤ في التخفيف في النكاح الحديث (١٤٦٦) وأعله النسائي والترمذي والدارقطني بالإرسال وقال أبو زرعة: لا أعلم أحداً تابع حماد بن سلمة على وصله) والثاني: عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً أخرجه أحمد في المسند ٦/١٤٤ وأخرجه الدارمي في السنن ٢/١٤٤ كتاب النكاح باب في القسمة بين النساء، وأخرجه أبو داود في السنن ٢/٦٠١ كتاب النكاح باب في القسم بين النساء الحديث (٢١٣٤) وأخرجه الترمذي في السنن ٣/٤٤٦ كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر الحديث (١١٤٠) واللفظ له وأخرجه النسائي في المجتبى من السنن ٧/٦٣ ـ ٦٤ كتاب عِشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه وأخرجه ابن ماجة في السنن ١/٦٣٣ كتاب النكاح باب القسمة بين النساء ٤٧ الحديث (١٩٧١) وأخرجه ابن حبان ذكره الهيثمي في موارد الظمآن ص ٣١٧ ـ كتاب النكاح ١٧ باب ما جاء في القسم الحديث ١٣٠٥ وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/١٨٧ كتاب النكاح باب التشديد في العدل. . . وقال: (صحيح على شرط مسلم) ووافقه الذهبي. انظر المصابيح ٢/٤٤٠ ـ ٤٤١.
(٥) انظر تفسير القرطبي ٥/٢٦٢. (٦) انظر البحر المحيط ٣/٣٦٥.

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا﴾ أي أمرنا ﴿الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ يعني، أهل التوراة والإنجيل ﴿وإياكم﴾ يعني أمرناكم ـ يا أمة محمد ـ عليه السلام ـ في كتابكم ﴿أن اتقوا الله﴾ فيما أوصاكم به في كتابكم من التوحيد ثم بعد التوحيد بالشرائع ﴿وأن تكفروا﴾ يقول: تجحدوا بما أوصاكم، وبوحدانية الله تعالى ﴿فإن لله ما في السموات، وما في الأرض﴾ يعني هو غني عن عبادتكم ﴿وكان الله غنياً﴾ عن إيمان الخلق، وطاعتهم ﴿حميداً﴾ محموداً في أفعاله. وقوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ يعني كلهم عبيده وإماؤه، ويقال هذا موصولاً بالأول، وكان الله غنياً حميداً في أفعاله، لأن له ما في السموات، وما في الأرض، وهو رازقهم والمدبر في أمورهم، ثم قال: ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي حفيظاً ورباً. ثم ذكر التهديد لمن رجع عن عبادته فقال: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس﴾ أي يهلككم إذا عصيتموه ﴿ويأتِ بآخرين﴾ أي يخلق خلقاً جديداً غيركم، من هو أطوع لله منكم، وهذا كما قال في آية أخرى: (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ثم قال تعالى: ﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي يذهبكم ويأت بغيركم، ويقال: في الآية تخويف، وتنبيه لجميع من كانت له، ولاية أو إمارة أو رئاسة، فلا يعدل في رعيته، أو كان عالماً فلا يعمل بعلمه ولا ينصح الناس، أن يذهبه، ويأتي بغيره. قوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ يعني من كان يطلب الدنيا بعمله الذي يعمل، ولا يريد به وجه الله، فليعمل لآخرته كما قال: ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ يعني الرزق في الدنيا، والثواب في الآخرة، وهو الجنة، ويقال في الآية مضمر، فكأنه يقول من كان يريد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وقال الزجاج: كان المشركون مقرين بأن الله خالقهم، وأنه يعطيهم خير الدنيا، فأخبر الله تعالى، إن خير الدنيا والآخرة إليه. وروي عن عيسى بن مريم أنه قال للحواريين: أنتم لا تريدون الدنيا ولا الآخرة، لأن الدنيا والآخرة لله تعالى، فاعبدوه، إما لأجل الدنيا وإما لأجل الآخرة، وروي في بعض الأخبار: أن في جهنم وادياً تتعوذ منه جهنم، أعد للقراء المرائين، ثم قال: ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ يعني عالماً بنية كل واحد منهم. وروى سهل بن سعد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: نية المؤمن خير من عمله وعمل المنافق خيراً من نيته، وكان يعمل على نيته(1).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ

---

(1) أخرجه الطبري في الكبير ٦/٢٢٨، وأبو نعيم في الحلية ٣/٢٥٥ ـ والخطيب في التاريخ ٩/٢٣٧، وذكره الشوكاني في الفوائد ص ٢٥٠ ـ (٨٣) وقال قال ابن دحية: لا يصح، وقال البيهقي إسناده ضعيف وله شواهد، وذكره الهيثمي في الممع ١/٦٦ باب في نية المؤمن وعمل المنافق قال رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار الجرشي لم أر من ذكر له ترجمة.

رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ أي كونوا قوامين بالعدل، وأقيموا الشهادة لله بالعدل، ومعناه قولوا الحق ﴿ولو على أنفسكم﴾ أي وإذا كانت عندكم شهادة فأدوا الشهادة ولو كانت الشهادة على أنفسكم ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ ثم قال: ﴿إن يكن غنياً، أو فقيراً﴾ أي أدوا الشهادة لا تكتموها سواء كان لغني أو لفقير، ولا تميلوا إلى الغني لأجل غناه، ولا تكتموا الشهادة على الفقير لأجل فقره، ويقال: اشهدوا على الوالدين، كانا غنيين أو فقيرين، ﴿فالله أولى بهما﴾ أي بالغني وبالفقير. ويقال: أولى بالوالدين وأرحم بهما، إن كانا غنيين، أو فقيرين ثم قال: ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ أي لا تشهدوا بهواكم، ولكن اشهدوا على ما شهدتم عليه، ثم قال تعالى: ﴿أن تعدلوا﴾ يعني أولى بهما أن تعدلوا على وجه التقديم والتأخير، ويقال فلا تتبعوا الهوى، أن لا تعدلوا، وقال مقاتل: يعني فلا تتبعوا الهوى للقرابة، واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق إلى الهوى، وقال تعالى: ﴿وإن تلووا﴾ أي تحرفوا الشهادة وتلجلجوا بها ألسنتكم، فلا تقيموها على الوجه، لتبطل به الشهادة، ﴿أو تعرضوا﴾ عنها فلا تشهدوا بها عند الحاكم. قرأ حمزة وابن عامر[1]: (وأن تلوا) بواو واحد، يعني من الولاية، يعني أقيموا الشهادة إذا وليتم، وقرأ الباقون: (تولووا) بواوين من التحريف. ﴿فإن الله كان بما تعملون﴾ من كتمان الشهادة وإقامتها ﴿خبيراً﴾ يعني عالماً، فهذا تهديد للشاهد، لكيلا لا يقصروا، في آداء الشهادة ولا يكتموها. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقم شهادته على من كانت) ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجحد لحق هو عليه بل يؤده، ولا يلجئه إلى السلطان والخصومة. قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله) قال الضحاك: يعني أخبار أهل الكتابين، الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد[2] ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال في رواية الكلبي: نزلت في عبد الله بن سلام، وأسيد وأسد ابني كعب، وثعلبة ابن قيس وغيرهم، قالوا: يا رسول الله، نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة، وبعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل. فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: بل آمنوا بالله ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكتابه القرآن وبكل كتاب كان من قبل، فنزلت هذه الآية:[3] ﴿يا أيها الذين آمنوا: آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي

---

(١) وحجتهم في ذلك ما جاء في التفسير: (إن لوى الحاكم في قضيته فإن الله كان بما تعملون خبيراً) وأخرى: روى ابن جريج عن مجاهد (وإن تلووا) أي تبدلوا الشهادة (أو تعرضوا) أي تكتموها فذهب مجاهد: أن هذا خطاب من الله جل وعز للشهداء لا للحكام. وأصل الكلمة: (تلويُوا) فاستثقلوا الضمة على الياء فحذفوها وحذفت الياء لالتقاء الساكنين ثم ضموا الواو لمجاورتها الثانية.

ومن قرأ بواو واحدة ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون أصله (تلووا) فأبدل من الواو المضمومة همزة فصار (تلؤوا) بإسكان اللام ثم طرحت الهمزة وطرحت حركتها على اللام فصار (تلوا). ويجوز أن يكون من (الولاية) من قولك: (وليت الحكم والقضاء بين الرجلين) أي: (إن قمتم بالأمر أو أعرضتم فإن الله كان بما تعملون خبيرا). والأصل (توليوا) فحذفت الواو كما حذفت من بعد (فصار تليوا ثم حذفنا الياء ونقلنا الضمة إلى اللام فصار: (تلوا). انظر حجة القراءات ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٣٤ وعزاه لابن المنذر.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ١٣٨.

نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل﴾. ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خاطب به جميع المؤمنين، آمنوا بالله يعني أثبتوا على الإيمان، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يعني يوم الميثاق ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ ويقال: نزلت في شأن أهل الكتاب، لأنه علم أن فيهم من يؤمن، فلقربهم من الإيمان، سماهم مؤمنين كما قال: (إنهم جند مغرقون) وكانوا لم يغرقوا بعد. ويقال: إنهم كانوا يقولون: نحن مؤمنون، فقال لهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي بزعمهم، كما قال: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أي بزعمه. قرأ نافع، وعاصم عن حمزة، والكسائي[1]: ﴿والكتاب الذي نزل﴾ بنصب النون والزاي، ﴿والكتاب الذي أنزل﴾ بنصب الألف، وقرأ الباقون: (نزل) بضم النون وكسر الزاي، ونزل وأنزل، بضم الألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله. ثم قال: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ أي من يجحد بوحدانية الله تعالى، وملائكته أنهم عبيده، وبرسله أنهم أنبياؤه، وعبيده، وبالبعث بعد الموت ﴿فقد ضل﴾ عن الهدى ﴿ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق. وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا﴾ قال مقاتل: يعني آمنوا بالتوراة وبموسى ـ عليه السلام ـ ثم كفروا من بعد موسى، ثم آمنوا بعيسى ـ عليه السلام ـ والإنجيل، ثم كفروا من بعده ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن. ويقال: إن الذين آمنوا بموسى، ثم كفروا بعيسى، ثم آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل أن يبعث، ثم كفروا به بعدما بعث ثم ازدادوا كفراً، يعني ثبتوا على كفرهم. وقال في رواية الكلبي: آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ ثم كفروا به بعده، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً، يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ[2]. وقال في رواية الضحاك: نزلت في شأن أبي عامر الراهب، وهو الذي بنى مسجد الضرار، آمن بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم كفر، ثم آمن، ثم [كفر][3] مات على كفره. وقال الزجاج: يجوز أن يكون محارباً آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر، ويجوز أن يكون منافقاً أظهر الإيمان وأبطن الكفر، ثم آمن ثم كفر ثم ازداد كفراً بإقامته على النفاق، فإن قيل: إن الله تعالى لا يغفر كفراً مرة واحدة، فأيش الفائدة في قوله: ﴿آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا، ثم كفروا؟﴾ قيل له: لأن الكافر إذا أسلم فقد غفر له ما قد سلف من ذنبه، فإذا كفر بعد إيمانه، لم يغفر الله له الكفر الأول، فهو مطالب بجميع ما فعل في كفره الأول، فذلك قوله عز وجل: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ يعني إذا ماتوا على كفرهم ﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾ أي لا يوفقهم طريقاً. ثم قال تعالى:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

﴿بشر المنافقين﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر). فقال المؤمنون: هذا لك، فما لنا؟ فنزل قوله تعالى: (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً)، فقال المنافقون: فما لنا؟ فنزل قوله تعالى: (بشر المنافقين) ﴿بأن لهم عذاباً إليماً﴾ في الآخرة. ثم نعت المنافقين فقال: ﴿الذين

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٦، ٢١٧، وسراج القاري ١٩٥ ـ ١٩٦، وشرح شعلة ٣٤٥.

(٢) انظر تفسير ابن عباس ٦٦. (٣) سقط في ظ.

يتخذون الكافرين﴾ يعني اليهود **﴿أولياء﴾** في العون والنصرة **﴿من دون المؤمنين﴾** ثم عيرهم بذلك فقال: **﴿ايبتغون عندهم العزة﴾** يعني يطلبون عندهم المنعة، والظفر على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه.

العزة في اللغة: المنفعة والغلبة كما يقال: من عز بزا، أي من غلب سلب، ويقال: عز الشيء، إذا اشتد وجوده. ثم ذكر أنه لا نصرة لهم من الكفار، والنصرة من الله تعالى، فقال: **﴿فإن العزة لله جميعاً﴾** يعني الظفر والنصر كله من الله تعالى، وهذا كما قال في آية أخرى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ثم قال: **﴿قد نزل عليكم في الكتاب﴾** وذلك أن المشركين بمكة كانوا يستهزئون بالقرآن، فنهى الله تعالى المسلمين عن القعود معهم، وهو **قوله**: (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم. . . إلى **قوله**: فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) فامتنع المسلمون عن القعود معهم، فلما قدموا المدينة، كانوا يجلسون مع اليهود والمنافقين وكان اليهود يستهزئون بالقرآن فنزلت هذه الآية: (فقد نزل عليكم في الكتاب) يعني في سورة الأنعام: **﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها﴾** أي يجحد بها، **﴿ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾** أي حتى يأخذوا في كلام أحسن، ثم قال تعالى: **﴿إنكم إذاً مثلهم﴾** يعني لو جلستم معهم كنتم معهم في الوزر وفي هذه الآية دليل: أن من جلس في مجلس المعصية، ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية أو عملوا بها، فإن لم يقدر بأن ينكر عليهم، ينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية. وروى جويبر عن الضحاك، أنه قال: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين، وكل مبتدع إلى يوم القيامة[1]. قرأ عاصم: (وقد نزل عليكم) بنصب النون والزاي، وقرأ الباقون: بضم النون، وكسر الزاي على فعل ما لم يسم فاعله. ثم قال تعالى **﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾** يعني إذا ماتوا على كفرهم، ونفاقهم فبدأ بالمنافقين، لأنهم شر من الكفار، وجعل مأواهم جميعاً النار. وقال في رواية الكلبي: قوله تعالى: **﴿فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾** نسخ بقوله عز وجل: (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) وقال عامة المفسرين: إنها محكمة، وليست بمنسوخة[2]. ثم أخبر عن المنافقين فقال تعالى:

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

﴿الذين يتربصون بكم﴾ يعني ينتظرون بكم الدوائر، وهو تغيير الحال عليكم **﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾** يعني النصرة والغلبة على العدو، **﴿قالوا: ألم نكن معكم﴾** فأعطونا من الغنيمة **﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾** يعني

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٦٨.

(٢) انظر المصدر السابق.

الظفر والغلبة على المؤمنين ﴿قالوا﴾ للكفار ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ يعني، ألم نخبركم بصورة المسلمين، ونطلعكم على سرهم، ونخبركم عن حالهم، ويقال: ألم نستحوذ عليكم: يعني ألم نغلب عليكم بالمودة لكم. والاستحواذ هو الاستيلاء على الشيء، كقوله تعالى: (استحوذ عليهم الشيطان) ثم قال: ﴿ ونمنعكم من المؤمنن﴾ يعني نجادل المؤمنين عنكم، ونجنبهم عنكم، قال الله تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي بين المؤمنين والمنافقين والكافرين، ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي الحجة ويقال: دولة دائمة، أي لا تدوم دولتهم، وروي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه سئل عن قوله عز وجل أن الله تعالى يقول: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) وهم يسلطون علينا، ويغلبوننا فقال: لا يسلط الكافر على المؤمن في الآخرة، يوم القيامة ثم بين حال المنافقين في الدنيا وخداعهم فقال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله﴾ أي يظنون أنهم يخادعون الله ﴿وهو خادعهم﴾ أي يجازيهم جزاء خداعهم، وهو أنهم يمشون مع المؤمنين على الصراط يوم القيامة، ثم يسلبهم النور فيبكون في ظلمة، ثم قال تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة﴾ يعني المنافقين ﴿قاموا كسالى﴾ أي متثاقلين ﴿يراؤون الناس﴾ أي لا يرونها حقاً، ويصلون مرآة للناس وسمعة ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ قال ابن عباس: لو كان ذلك القليل لله تعالى لكان كثيراً وتقبل منهم، ولكن لن يريدوا به وجه الله تعالى. ثم قال: ﴿مذبذبين بين ذلك﴾ أي مترددين، ويقال: منفضحين بين ذلك ﴿لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء﴾ يعني ليسوا مع المؤمنين في التصديق ولا مع اليهود في الظاهر ﴿ومن يضلل الله﴾ أي من يخذله الله عن الهدى ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ أي مخرجاً. ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ أي صدقوا، قال مقاتل: الذين آمنوا بزعمهم، وهم المنافقون ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ ويقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في الظاهر، وأسروا النفاق، ويقال: يعني المؤمنين المخلصين، كانت بينهم وبين اليهود صداقة وكانوا يأتونهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ ثم قال تعالى: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ يعني حجة مبينة في الآخرة. ثم بين مأوى المنافقين في الآخرة فقال تعالى:

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟
وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا
عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ المنافق في اللغة اشتقاقه(١) من نافقاء اليربوع، ويقال: لليربوع حجران، أحدهما نافقاء، والآخر قاصعاء، فيظهر نفسه في أحدهما ويخرج من الآخر، ولهذا يسمى المنافق منافقاً لأنه يظهر من نفسه أنه مسلم، ويخرج عن الإسلام إلى الكفر. قرأ [أهل الكوفة](٢) حمزة والكسائي وعاصم(٣): (الدرك) بجزم الراء وقرأ الباقون: بالنصب، وهما لغتان: الدرك، والدرك، وجماعتهما، أدراك: وهي المنازل بعضها أسفل من بعض، فأعد للمنافقين الدرك الأسفل من النار، وهي الهاوية، ثم قال تعالى: ﴿ولن تجد لهم

(١) انظر لسان العرب ٤٥٠٨/٦، ٤٥٠٩. (٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٨، وشرح شعلة ٣٤٦، وسراج القاري ١٩٦.

﴿نصيراً﴾ أي مانعا يمنعهم من العذاب. ثم قال تعالى: **﴿إلا الذين تابوا﴾** من النفاق **﴿وأصلحوا﴾** أعمالهم **﴿واعتصموا بالله﴾** أي تمسكوا بدين الله وبتوحيده **﴿وأخلصوا دينهم لله﴾** أي بتوحيدهم لله بالإخلاص، فإن فعلوا ذلك **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** أي المصدقين على دينهم، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ثم قال: **﴿وسوف يؤت الله المؤمنين﴾** أي يعطي الله المؤمنين **﴿أجراً عظيماً﴾** يعني ثواباً عظيماً في الآخرة، وفي هذه الآية دليل: أن المنافقين هم شر خلق الله، لأنه أوعدهم الدرك الأسفل من النار، ثم استثنى لهم أربعة أشياء: التوبة، والإخلاص، والإصلاح، والإعتصام، ثم قال بعد هذا كله: **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** ولم يقل: هم المؤمنون، ثم قال: **﴿وسوف يؤت الله المؤمنين﴾** ولم يقل: سوف يؤتيهم الله، بغضاً لهم، وإعراضاً عنهم، والمنافقون هم الزنادقة والقرامطة الذين هم بين المؤمنين، يظهرون من أنفسهم الإسلام، وإذ اجتمعوا فيما بينهم يسخرون بالإسلام وأهله، فهم من أهل هذه الآية. ومأواهم الهاوية. قوله تعالى: **﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾** أي ما يصنع الله بعذابكم **﴿إن شكرتم﴾** يعني إن آمنتم بالله تعالى ووحدتموه، ويقال معناه ما حاجة الله إلى تعذيبكم لو كنتم موحدين شاكرين له **﴿وآمنتم﴾** به وصدقتم رسله، ثم قال تعالى: **﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾** أي شاكراً للقليل من أعمالكم، عليماً بأعمالكم وثوابكم، ويقال: شاكراً يقبل اليسير، ويعطي الجزيل، عليماً بما في صدوركم، ويقال: بمن شكر وآمن، فلا يعذب شاكراً، ولا مؤمناً، قوله تعالى:

لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ
أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ
أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ أي لا يحب أن يذكر بالقول القبيح لأحد من الناس **﴿إلا من ظلم﴾** فيقتص من القول بمثل ما ظلم، فلا جناح عليه. نزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ شتمه رجل فسكت أبو بكر مراراً ثم رد عليه ـ ويقال: (إلا من ظلم) فيدعوا الله تعالى على ظالمه، وقال الفراء: **﴿إلا من ظلم﴾** يعني ولا من ظلم، وقال السدي: يقول: من ظلم فانتصر بمثل ما ظلم، فليس عليه جناح[1] وقال الضحاك[2]: **﴿لا يحب الله الجهر بالسوء﴾** أي لا يحب لكم أن تنزلوا برجل فإذا ارتحلتم عنه، تذمون طعامه، إلا رجلاً أردتم النزول عليه عند حاجتكم فمنعكم، وقال مجاهد: هو في الضيافة، إذا دخل الرجل المسافر إلى القوم يريد أن ينزل عليهم، فلم يضيفوه، فقد رخص له أن يذكر كلاماً عنهم، ويقول فيهم[3]، ويقال: يعني يسبه مثل ما سبه، ما لم يكن كلاماً فيه حد، أو كلمة لا تصلح، ولو لم يقل كان أفضل. وقرأ بعضهم[4]: **﴿إلا من ظلم﴾** متصل بما يفعل الله

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٣٤٨/٩ (١٠٧٦٢). (٢) انظر القرطبي ٤/٦.
(٣) انظر تفسير الطبري ٣٤٦/٩ (١٠٧٥٨). (٤) القراءة المتواترة ظُلم بضم الظاء أما بالفتح فهي شاذة كما ذكر المصنف رحمه الله.

بعذابكم إلا من ظلم يعني من إشراك بالله، وهو شاذ من القراءة. ثم قال تعالى: ﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ أي سميعاً بدعاء المظلوم عليماً بعقوبة الظالم. ثم أخبر عن التجاوز أنه خير من الانتصار فقال تعالى: ﴿إن تبدوا خيراً﴾ يعني أن تظهروا حسنة ﴿أو تخفوه﴾ يعني الحسنة ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ يعني يتجاوز عن ظالمه، ولا يجهر بالسوء عنه، فهو أفضل لأن الله تعالى قادر على عباده، فيعفوا عنهم [وذلك][1] قوله: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ يعني إن الله أقدر على العقوبة لكم فيعفوا عنكم. قوله تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله﴾ قال ابن عباس نزلت الآية في أهل الكتاب يؤمنون بموسى وعيسى ويكفرون بغيرهما، وهو قوله: ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ يعني يريدون أن يتخذوا ديناً، لم يأمر به الله ورسوله ﴿ويقولون: نؤمن ببعض﴾ بموسى وعزير والتوراة ﴿ونكفر ببعض﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعيسى والإنجيل، والقرآن ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ يعني بين اليهودية والإسلام قوله تعالى: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ حين كفروا ببعض الرسل ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ يهانون فيه. وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله﴾ يعني، أقروا بوحدانية الله تعالى، وصدقوا بجميع الرسل ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ في الإيمان والتصديق، يعني لم يكفروا، ولم يجحدوا بأحد من الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ ويصدقون بجميع الكتب ﴿أولئك﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿سوف نؤتيهم أجورهم﴾ أي سنعطيهم ثوابهم في الجنة ﴿وكان الله غفوراً﴾ لذنوبهم ﴿رحيماً﴾ بهم لما كان منهم في الشرك. قرأ عاصم في رواية حفص:[2] (يؤتيهم) بالياء، وقرأ الباقون (نؤتيهم) بالنون.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا
ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا
عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ
ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ
مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ يعني جملة واحدة، كما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ ويقال: إن كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء وأصحابهما قالوا: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً تحمله الملائكة إلينا فتقرؤه، قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾، يعني إن هؤلاء، من أصل أولئك القوم الذين ﴿فقالوا﴾ لموسى عليه السلام ﴿أرنا الله جهرة﴾ يعني عياناً، وهم القوم الذين ساروا مع موسى عليه السلام إلى طور سيناء ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ أي أحرقتهم النار ﴿بظلمهم﴾

---

(١) في ظ [وهو].

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٩، وسراج القاري ١٩٦، شرح الشعلة ٣٤٦.

أي بقولهم وسؤالهمن ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ أي ومع ذلك قد عبدوا العجل، وهم قوم موسى في حال غيبته ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي جاءهم موسى بالآيات والعلامات ﴿فعفونا عن ذلك﴾ كله ولم نستأصلهم ﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة بينة، وهي اليد والعصا ﴿ورفعنا فوقهم﴾ يقول: قلعنا فوقهم ﴿الطور بميثاقهم﴾ يعني بإقرارهم بما في التوراة حين أبوا أن يتقبلوا الشرائع. ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ يعني باب أريحة منحنية أصلابهم، ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ يقول: لا تستحلوا أخذ السمك في يوم السبت قرأ نافع في رواية ورش:[1] (لا تعدوا) بالتشديد، لأن أصله لا تعتدوا، فادغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه، وقرأ الباقون ﴿لا تعدوا﴾: بالتخفيف من عدا، يعدو، عدواناً. ثم قال تعالى: ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ يعني إقراراً وثيقاً شديداً في التوراة، يعني تركوا هذه الأشياء كلها، ونقضوا الميثاق، ثم قال عز وجل: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ ولم يذكر في هذه الآية جوابهم، والجواب فيه مضمر، فكأنه قال: وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، فبنقضهم الميثاق لعنهم الله تعالى، وخذلهم، كقوله: (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) ثم قال: ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ يعني بكفرهم بآيات الله لعنهم الله وخذلهم. ثم قال تعالى: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾يعني وبقتلهم الأنبياء بغير جرم ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ يعني ذا غلاف ولا نفقه حديثك، وقرأ بعضهم[2] [غلف] بضم اللام، وجماعة الغلاف، يعني أن قلوبنا أوغية (لكل علم، ولا نفقه حديثك، قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها﴾ يعني ختم الله على قلوبهم ﴿بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي لا يؤمنون إلا قليل منهم، ويقال: لا يؤمنون إلا بـالقليل، (لأنهم آمنـوا ببعض، وكفروا ببعض، وقال مقاتل: يعني، ما أقل ما يؤمنون، يقول: بأنهم لا يؤمنون البتة. ثم قال تعالى: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ وذلك أن مريم كانت متعبدة لله تعالى، ناسكة، اصطفاها الله تعالى بولد بغير أب فعيرها اليهود، واتهموها، وقذفوها بيوسف بن ماثان، وكان يوسف خادم بيت المقدس، ويقال: كان ابن عمها، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم وبين بهتانهم، فقال: (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) يعني لعنهم الله وخذلهم بذلك ﴿وقولهم﴾ أي وبقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ هذا قول الله، لا قول اليهود، وقول اليهود: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم، ثم قال الله تعالى: (رسول الله) يعني الذي هو رسـول الله وذلك أن اليهود، لما اجتمعوا على قتله، هرب منهم ودخل في بيت فأمر ملك اليهود رجلاً يدخل البيت يقال له: يهوذا ويقال: ططيانوس فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ ورفع عيسى ـ عليه السلام ـ إلى السماء، فلما دخل الرجل إلى البيت لم يجده، فألقى الله شبه عيسى عليه، فلما خرج ظنوا أنه عيسى فقتلوه، وصلبوه، ثم قالوا إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ فاختلفوا فيما بينهم فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم فقال: ﴿وما قتلوه، وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ يعني ألقي شبه عيسى على غيره فقتلوه، ثم قال: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه﴾ أي من قتله ﴿ما لهم به من علم﴾ يعني لم يكن عندهم علم يقين أنه قتل أو لم يقتل ﴿إلا اتباع الظن﴾ أي قالوا قولاً بالظن ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي لم يستيقنوا بقتله ويقال يقيناً ما قتلوه ﴿بل رفعه الله إليه﴾ وقال مقاتل:[3] بل رفعه الله إلى السماء في شهر رمضان ليلة القدر، وقال الضحاك: رفعه في يوم عاشوراء، بين صلاتي المغرب والعشاء، ثم قال تعالى: ﴿وكان الله عزيزاً﴾ أي منيعاً حين منع عيسى من القتل ﴿حكيماً﴾ حين حكم رفعه إلى السماء وقوله عز وجل:

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٨، وشرح شعلة ٣٤٦، وسراج القاري ١٩٦ ـ ١٩٧.

(٢) ابن عباس والأعرج وابن محيصن. انظر القرطبي ٢/ ١٩.

(٣) انظر التفسير ١/ ٢٨٠.

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ يقول: وما من أهل الكتاب **﴿إلا ليؤمنن به﴾** يعني بعيسى ـ عليه السلام ـ **﴿قبل موته﴾** وذلك أن اليهودي إذا حضرته الوفاة، وعاين أمر الآخرة، ضربته الملائكة وقالت له: يا عدو الله، أتاك عزير فكذبته، ويقال للنصراني: يا عدو الله أتاك عبد الله ورسوله، وهو عيسى، فزعمت أنه ابن الله، فيؤمن عند ذلك، ويقر أنه عبد الله ورسوله، ولا ينفعه إيمانه في ذلك الوقت، ويكون إيمانهم عليهم شهيداً، يوم القيامة. وروي عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ قبل موته، فقيل له: وإن غرق، أو احترق، أو أكله السبع يؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ؟ فقال نعم[١]. وروي أن الحجاج بن يوسف سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتي بالأسير من اليهود والنصارى، فآمر بضرب عنقه وأنظر إليه في ذلك الوقت، فلا أرى منه الإيمان، فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة، يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به، ولا ينفعه، فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا؟ قال: أخذته من محمد ابن الحنفية، فقال له الحجاج لقد أخذت من عين صافية وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: (قبل موته)، يعني قبل موت عيسى ـ عليه السلام ـ هكذا قال الحسن[٢] قال الفقيه: حدثنا عمر بن محمد، قال: حدثنا أبو بكر الواسطي، قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف، قال: حدثنا يزيد بن زريع عن رجل، عن الحسن في قوله: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، قال: قبل موت عيسى، والله إنه لحي عند الله الآن، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون[٣]. وروي عن ابن عباس أنه قال: يمكث عيسى ـ عليه السلام ـ في الأرض أربعين سنة نبياً إماماً مهدياً، ثم يموت وتصلي عليه هذه الأمة[٤]. وقال الضحاك: يهبط عيسى ـ عليه السلام ـ من السماء إلى الأرض بعد خروج الدجال، فيكون هبوطه على صخرة بيت المقدس، ثم يقتل الدجال، ويكسر الصليب ويهدم البيع والكنائس، ولا يبقى على وجه الأرض يهودي، ولا نصراني إلا آمن بالمسيح ودخل في الإسلام. ثم قال تعالى: **﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾** يعني يكون عليهم عيسى ـ عليه السلام ـ شهيداً، بأنه قد بلغهم الرسالة. قوله تعالى: **﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾** يعني بشركهم حرمنا عليهم أشياء كانت حلالاً لهم، وهو كل ذي ظفر وشحوم البقر والغنم أحلت لهم. **﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾** أي بصرفهم كثيراً من الناس، عن دين الله على وجه التقديم **﴿وأخذهم الربا﴾** أي حرم عليهم الحلال بكفرهم، وبصرف الناس عن دين الله، وبأخذهم الربا **﴿وقد نهوا عنه﴾** أي يعني عن أخذ الربا في التوراة **﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾** وهو أخذ الرشوة في الحكم، **﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾** أي هيأنا لهم عذاباً وجيعاً دائماً.

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

وقوله: **﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾** يعني المبالغون في العلم الذين أدركوا علم الحقيقة، وهم مؤمنو

---

(١) انظر تفسير مجاهد ١/ ١٨٠. (٢) انظر الطبري ٩/ ٣٨٠. (٣) انظر تفسير القرطبي ٦/ ٩. (٤) انظر تفسير الطبري ٩/ ٣٨٠.

أهل الكتاب، وذلك أن اليهود أنكروا، وقالوا: هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل، وأنت تحلها، ولم تكن حرمت بظلمنا، فنزل: (لكن الراسخون في العلم منهم) يصدقون بما أنزل إليك أنه الحق. ويقال: إن مؤمني أهل الكتاب يعلمون أن الذي أنزل إليك من القرآن هو الحق، وأنك نبي مبعوث، وهو مكتوب عندهم. ثم قال: ﴿والمؤمنون﴾ يعني أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يؤمنون بما أنزل إليك﴾. ثم قال: (والمؤمنون بما أنزل إليك) يعني يصدقون بالقرآن ﴿وما أنزل من قبلك﴾ ويصدقون بما أنزل من قبلك من كتب الله ثم وصفهم فقال: ﴿والمقيمين الصلاة﴾ قال بعض الجهال: هذا غلط الكاتب حيث كتب مصحف الإمام، كان ينبغي أن يكتب: (والمقيمون) فأوهم وكتب والمقيمين، واحتج بما روي عن عائشة أنها قالت: ثلاثة أحرف في المصحف غلط من الكاتب، قوله تعالى: (والمقيمين الصلاة) وقوله (والصائبون والنصارى) وقوله: (. . إن هذان لساحران . .) وروي عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال: أرى فيه لحناً، وستقيمه العرب بألسنتها، ولكن هذا بعيد عند أهل العلم، والخبر لم يثبت عن عثمان، ولا عن عائشة ـ رضي الله عنهما ـ لأن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا حماة الدين والقدوة في الشرائع والأحكام فلا يظن بهم أنهم تركوا في كتاب الله تصحيفاً يصلحه غيرهم، وهم أخذوه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمعنى في قوله: (والمقيمين الصلاة) قال بعضهم: يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة، يعني بالنبيين المقيمين الصلاة، وقال بعضهم: لكن الراسخون في العلم منهم، ومن المقيمين الصلاة، يؤمنون بما أنزل إليك. ثم قال تعالى: ﴿والمؤتون الزكاة﴾ يعني الذين يعطون الزكاة المفروضة ﴿والمؤمنون بالله، واليوم الآخر﴾ يعني المقرون بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت، ثم قال: ﴿اولئك﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ أي يعطيهم الله في الآخرة ثواباً عظيماً وهو الجنة. قرأ حمزة: (سيؤتيهم) بالياء، وقرأ الباقون: بالنون. قوله تعالى

إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

﴿إنا أوحينا إليك﴾ يعني أرسلنا إليك جبريل ﴿كما أوحينا إلى نوح﴾ يعني كما أرسلنا إلى نوح. ويقال: أوحينا إليك بأن تثبت على التوحيد، وتأمر الناس بالتوحيد كما أوحينا إلى نوح بأن يثبت على التوحيد، ويدعو الناس إلى التوحيد ﴿والنبيين من بعده﴾ أي أوحينا إليهم بذلك: ﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق﴾ وهما إبنا إبراهيم عليهم السلام ﴿ويعقوب﴾ وهو إبن إسحق ﴿والأسباط﴾ وهم أولاد يعقوب عليه السلام، كانوا اثني عشر سبطاً، أوحينا إلى أنبيائهم بأن يثبتوا على التوحيد، ويدعو الناس إلى ذلك، ﴿و﴾ أوحينا إلى ﴿عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبوراً﴾ قرأ حمزة[1]: (زبورا) بضم الزاي، وقرأ الباقون بالنصب في جميع القرآن ومعناهما واحد وهو عبارة عن الكتاب. ثم قال: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ يعني قد سميناهم لك من قبل، يعني بمكة ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ يعني: لم نسميهم لك وقد أرسلناك كما أرسلنا هؤلاء،

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٩، سراج القاري ١٩٧.

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: كان الأنبياء ألفي ألف ومائتي ألف، وقال مقاتل: كان الأنبياء ألف ألف، وأربعمائة ألف، وأربعة وعشرين ألفاً. وروي أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (بعث على أثر ثمانية آلاف من الأنبياء، منهم اربعة آلاف من بني (١)إسرئيل). قال الفقيه أبو الليث حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا أحمد بن محمد القاضي، قال: حدثنا إبراهيم بن حشيش البصري عن شعبة، عن أبي إسحق عن الحارث الأعور، عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا نبي الله كم كانت الأنبياء؟ وكم كان المرسلون فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: كانت الانبياء مائة ألف نبي واربعة وعشرون ألف نبي، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر(٢).

ثم قال: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾. قال بعضهم: معناه، أنه قد أوحى إليه وإنما سماه كلاماً على وجه المجاز كما قال في آية أخرى: (أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم) أي يستدلون بذلك، والعرب تقول: قال الحائط كذا، وقال عامة المفسرين، وأهل العلم أن هذا كلام حقيقة، لا كلام مجاز لأنه قد أكده بالمصدر حيث قال: (وكلم الله موسى تكليماً)، والمجاز لا يؤكد لأنه لا يقال: قال الحائط قولاً، فلما أكده بالمصدر نفى عنه المجاز وقال في موضع آخر: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له: كن، فيكون) وقد أكده بالتكرار، ونفى عنه المجاز. وقال في موضع آخر: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) يعني الأنبياء الذين لم يكونوا مرسلين، فأراهم في المنام، أو من وراء حجاب بكلام مثل ما كلم الله موسى، أو يرسل رسولاً، وهو رسالة جبريل إلى المسلمين. ثم قال تعالى:

رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾
لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ
يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين﴾ أي أرسلنا رسلاً مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار ﴿لئلا يكون﴾ يقول لكيلا يكون ﴿للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ يعني بعد إرسال الرسل، كي لا يقولوا يوم القيامة إنك لم ترسل إلينا رسولاً، ولو أن الله تعالى لم يرسل رسولاً، كان ذلك عدلاً منه، إذ أعطى كل واحد من خلقه من العقل ما يعرفه، ولكن

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير ٦/ ١٤ وعزاه للمصنف رحمه الله هنا، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٦٢ ضمن ترجمة صفوان بن سليم وقال: غريب من حديث زياد تفرد به زكريا، ورواه أحمد بن حازم عن صفوان ومحمد عن أنس مقروناً. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١/ ١٢٨، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢/ ٤٢٣ وضعف الإسناد الذي ساق به والحديث في كنز العمال (٣٢٢٨٠).

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٢/ ٤٢٢ وعزاه لابن مردويه في التفسير وقال أيضاً رواه ابن حبان البستي (١) في كتابه (الأنواع والتقسيم وقد وسمه بالصحة وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام هذا ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث فالله أعلم. وقد روى الحديث من وجه آخر عن صحابي آخر فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال قلت: يا نبي الله كم الأنبياء: قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً. معان بن رفاعة السلامي ضعيف وعلي بن يزيد ضعيف والقاسم أبو عبد الرحمن ضعيف أيضاً.

أرسل تفضلاً منه، ولكي يكون زيادة في الحجة عليهم، ثم قال تعالى: ﴿**وكان الله عزيزاً حكيماً**﴾ (عزيزاً) بالنقمة لمن يجحده (حكيماً) حكم إرسال الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ. قوله تعالى: (لكن الله يشهد بما أنزل إليك). قال ابن عباس، وذلك أن رؤساء مكة أتوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: سألنا اليهود عن صفتك ونعتك، فزعموا أنهم لا يعرفونك في كتابهم، فأتنا بمن يشهد لك بأنك نبي مبعوث، فنزل: ﴿**لكن الله يشهد**﴾ يعني إن لم يشهد لك أحد منهم فالله تعالى أعظم شهادة من خلقه، هو يشهد لك بأنك نبي ويظهر نبوتك. قال القتبي: هذا من الاختصار، لأنه لما نزل: (إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) قال المشركون: لا نشهد لك بهذا، فمن يشهد لك؟ فنزلت هذه الآية، حكاية قولهم، فقال تعالى: لكن الله يشهد﴿**بما أنزل إليك**﴾ لأن كلمة: لكن، إنما تجيء بعد نفي شيء، فوجب ذلك الشيء بها. ثم قال تعالى: ﴿**أنزله بعلمه**﴾ أي بأمره، ويقال: أنزل القرآن الذي فيه علمه، ثم قال تعالى: ﴿**والملائكة يشهدون**﴾ أيضاً على شهادتك بالذي شهدت أنه الحق ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ فلا أحد أفضل من الله تعالى شهادة بأنه أنزل [عليك القرآن](1). قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله**﴾ يعني صرفوا الناس عن دين الله ﴿**قد ضلوا ضلالاً بعيداً**﴾ عن الحق. ثم قال تعالى: ﴿**إن الذين كفروا وظلموا**﴾ أي جحدوا وأشركوا ﴿**لم يكن الله ليغفر لهم**﴾ أي ما داموا على كفرهم ﴿**ولا ليهديهم طريقاً**﴾ يعني لا يوفقهم لطريق الإسلام. ﴿**إلا طريق جهنم**﴾ يعني يتركهم، ويخذلهم في طريق الكفر عقوبة لكفرهم، ولجحودهم، وهو طريق جهنم، ويقال: إلا العمل الذي يجبرهم إلى جهنم، وقال الضحاك: لا يهديهم طريقاً يوم القيامة، أي لا يرفع لهم طريق جهنم، وذلك أن أهل الإيمان يرفع لهم في الموقف طريق تأخذ بهم إلى الجنة، ويرفع لأهل الكفر طريق ينتهي بهم إلى النار. ثم قال تعالى: ﴿**خالدين فيها أبداً**﴾ أي دائمين فيها ﴿**وكان ذلك على الله يسيراً**﴾ أي خلودهم، وعذابهم في النار هين على الله تعالى. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿**يا أيها الناس**﴾، قال ابن عباس: يعني أهل مكة. ﴿**قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم**﴾ أي بشهادة أن لا إله إلا الله، ويقال: ببيان الحق، ويقال: للحق، يعني للعرض والحجة وقوله تعالى: (قد جاءكم) على وجه المجاز، لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كان فيهم، ولكن معناه، أنه قد ظهر فيكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قال في آية أخرى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أي ظهر فيكم ثم قال ﴿**فآمنوا خيراً لكم**﴾ أي صدقوا بوحدانية الله تعالى والقرآن الذي جاءكم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيراً لكم من عبادة الأوثان، لأن عبادة الأوثان لا تغنيكم شيئاً، ثم قال تعالى: ﴿**وإن تكفروا**﴾أي إن تجحدوا بالله وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) في ظ [وتأخير].

فإن الله غنياً عنكم ﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾ كلهم عبيده وإماؤه. **﴿وكان الله عليماً﴾** بخلقه **﴿حكيماً﴾** في أمره. ثم قال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾**. قال الضحاك: أي لا تكذبوا في دينكم، وقال بعض أهل اللغة الغلو[1]، مجاوزة القدر في الظلم، ويقال: الغلو أن تجاوز ما حد لك، وقال القتبي: يعني لا تفرطوا في دينكم، فإن دين الله بين المقصر والغالي، وغلا في القول إذا تجاوز المقدار، وقال ابن عباس: وذلك أن اليعقوبية، وهم صنف من النصارى قالوا: عيسى هو الله[2]، وقالت النسطورية[3]: هو ابن الله، وقالت المرقوسية ويقال لهم الملكانية[4]: هو ثالث ثلاثة، فنزل (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، قال مقاتل[5]: الغلو في الدين أن يقول على الله غير الحق[6]، ويقال: لا تتعمقوا في دينكم. ثم قال تعالى: **﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾** يعني لا تصنعوا بالله بما لا يليق بصفاته، فإن الله تعالى واحد لا شريك له، ولا ولد له. ثم قال تعالى: **﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم﴾** وهو قوله: (كن فيكون) ثم قال: **﴿وروح منه﴾** قال ابن عباس في رواية الكلبي: يعني أمر منه، فأتاها جبريل فنفخ في جيب درعها، فدخلت تلك النفخة بطنها، ثم وصل إلى عيسى ابن مريم فتحرك في بطنها، وأمه أمة الله تعالى **﴿فآمنوا بالله ورسله﴾** يعني صدقوا بوحدانية الله تعالى، وبما جاءكم به الرسل من الله تعالى، **﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾** يعني لا تقولوا أن الله ثالث ثلاثة **﴿انتهوا خيراً لكم﴾** يقول: توبوا إلى الله تعالى من مقالتكم، فالتوبة خيرٌ لكم من الإصرار على الكفر **﴿إنما الله إله واحد﴾** ثم نزه نفسه عما قال الكفار فقال: **﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾** ثم قال تعالى: **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾** من الخلق **﴿وكفى بالله وكيلاً﴾** يعني كفيلاً، ويقال: شاهداً، ولا شاهد أفضل منه. قوله تعالى:

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ

---

(١) وقال بعضهم: غَلَوْتُ في الأمر غُلُوّاً وغلاية وغلانياً إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه. قال الأعشى وأنشده ابن بري. أو زد عليه الغلاينا. انظر لسان العرب ٥/ ٣٢٩٠ وترتيب القاموس ٤/٤١٨.

(٢) أصحاب يعقوب قالوا بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده بل هو هو وعنهم أخبرنا القرآن الكريم **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾** [سورة المائدة ٧٢] وانظر تفصيل ذلك في الملل والنحل ٢/ ٣٠ ويسمون الآن (أرثوذكس).

(٣) أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة قال: إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود والعلم والحياة وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. انظر تفصيل ذلك في الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٢٩.

(٤) أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتدرعت بناسوته ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابناً بل المسيح مع ما تدرع به ابن فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

وصرحت الملكانية بأن الجوهر غير الأقانيم وذلك كالموصوف والصفة وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث وأخبر عنهم القرآن **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾**.

انظر تفصيل أباطيلهم في الملل والنحل ٢/ ٢٧.

(٥) انظر تفسير ابن عباس ٦٩.

(٦) انظر تفسير مقاتل ١/ ٨٤.

عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ يعني لن يتعظم، ولن يأنف، ولن يتكبر، ويقال: لن يحتشم أن يكون عبداً لله. ويقال: إن وفد نجران أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وناظروه في أمر عيسى - عليه السلام - فقال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم -: كان عبد الله ورسوله، فقالوا: لا تقل هكذا فإن عيسى يأنف عن هذا القول، فنزل تكذيباً لقولهم: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله)، يعني كان عيسى مقراً بالعبودية. ثم قال تعالى: ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ يعني حملة العرش، لن يأنفوا عن الإقرار بالعبودية، وقال مقاتل: الملائكة المقربون، أقرب إليه، فلم يأنفوا عن عبادته فكيف يأنف عيسى - عليه السلام - وهو عبد من عباده. ثم قال تعالى: ﴿ومن يستنكف﴾ أي يتعظم ﴿عن عبادته ويستكبر﴾ والاستكبار: هو الاستنكاف، يقال: استنكف واستكبر، يعني استكبر عن طاعته ﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ يأمر بهم إلى النار. ثم قال عز وجل: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿فيوفيهم أجورهم﴾ أي يوفر لهم ثواب أعمالهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي من رزقه في الجنة ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادة الله تعالى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ أي وجيعاً دائماً ﴿ولا يجدون لهم من دون الله﴾ يعني من عذاب الله ﴿ولياً﴾ يعينهم ﴿ولا نصيراً﴾ مانعاً يمنعهم. ثم قال عز وجل:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أي بياناً من ربكم وحجة من ربكم، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ أي بياناً من العمى، وبيان الحلال من الحرام وهو القرآن. قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ أي صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿واعتصموا به﴾ أي تمسكوا بدينه ﴿فسيدخلهم في رحمة منه﴾ يعني الجنة ﴿وفضل﴾ أي الثواب ﴿ويهديهم إليه﴾ أي يرشدهم إلى دينه ويوفقهم لذلك، وفي الآية تقديم وتأخير، فكأنه يقول: يهديهم في الدنيا ﴿صراطاً مستقيماً﴾ أي ديناً لا عوج فيه ويثيبهم على ذلك، ويدخلهم في الآخرة في رحمة منه وفضل، وهو الجنة والكرامة. قوله تعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني يسألونك في حكم الميراث ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ روي عن قتادة أنه قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد[1]، وكذلك قال ابن عباس[2]

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٨/٥٧ (٨٧٦٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ٨/٥٥ (٨٧٥٠).

وروي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إني قد رأيت رأياً فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأً فمن نفسي ومن الشيطان: الكلالة: ما عدا الوالد والولد[١]. وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: ثلاث لا يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهن لنا، كان أحب إلي من الدنيا وما فيها: الكلالة، والخلافة وأبواب الربا[٢]. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنه سئل عن الكلالة فقال: ألم تر الآية التي أنزلت في النساء: (قل الله يفتيكم في الكلالة[٣] إن امروء هلك ليس له ولد) يعني هذا تفسير الكلالة وهذه الآية نزلت في شأن جابر بن عبد الله سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إن لي أختاً فما لي من ميراثها؟ فنزلت هذه الآية فبين ميراث جابر أولاً ثم ميراث أخته، فصارت الآية عامة لجميع الناس. قال: ﴿إن امرؤ هلك﴾ يعني إن مات رجل ﴿ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ من المال ﴿وهو يرثها﴾ يعني إذا ماتت الأخت والأخ حي ورثها ﴿إن لم يكن لها ولد﴾. وقد ذكرت الآية حكم الأخ والأخت، إذا لم يكن لهما ولد، ولم يبين أنه لو كان لأحدهما ولد فمات أحدهما فما حكمه؟ ولكن بين على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن للابنة النصف وما بقي فللأخت، وإن كانت الأخت هي التي ماتت وتركت ابنة وأخاً فللابنة النصف وما بقي فللأخ وفي هذا إجماع، وفي الأول اختلاف، قال ابن عباس[٤]: لا ترث الأُخت مع الابنة شيئاً، وخالفه جميع الصحابه، وقالوا كلهم الأخوات مع البنات عصبة. ثم قال تعالى ﴿فإن كانتا آثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾، (يعني إذا كان للميت أختان أو أكثر فلهما الثلثان إذا كانتا آثنتين، وإن كن أكثر من ذلك فلهن الثلثان أيضاً بالإجماع، ثم قال:). ﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً﴾ يعني إخوة وأخوات ﴿فللذكر مثل حظ الأُنثيين﴾ يعني لكل سهمان ولكل أخت سهم، هذا إذا كانت الأخوة والأخوات من الأب والأم، أو من الأب خاصة فأما إذا كانوا من قبل الأم فهم شركاء في الثلث، ليس لهم أكثر من ذلك كما ذكرنا في أول السورة وهذا بالإجماع، ثم قال عز وجل: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي يبين الله لكم قسمة المواريث، لكي لا تضلوا ولا تخطئوا في قسمتها، وقد يحذف (لا) فيراد به إثباته، كقوله (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) يعني أن لا تميد بكم، وقد يذكر (لا) ويراد حذفه كقوله: (قال ما منعك ألا تسجد) يعني أن تسجد، وكقوله (لا أقسم) أقسم ثم قال تعالى ﴿والله بكل شيء عليم﴾ من قسمة المواريث وغيره، أي اتبعوا ما أنزل الله تعالى وبين لكم في كتابه. (والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً).

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٥٣/٨، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٢٣/٦، ٢٢٤ وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٣٦/٢ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٢٥٠/٢ لعبد الرزاق وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(٢) أخرجه البخاري ٤٨/١٠ في كتاب الأشربة (٥٥٨٨)، وأخرجه مسلم ٢٣٢٢/٤ في كتاب التفسير (٣٠٣٢/٣٢)، ٣٠٣٢/٣) وأخرجه ابن ماجه ٩١١/٢ في كتاب الفرائض (٧٢٧) وقال البوصيري عن إسناد ابن ماجه رجال إسناده ثقات إلا أنه منقطع.

(٣) أخرجه مسلم ١٢٣٦/٣ في كتاب الفرائض (١٦١٧/٩).

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ٤٤٣/٩.

سورة المائدة (١)

كلها مدنية وهي مائة وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

[قال الفقيه ـ رضي الله عنه][٢] حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا إسحق بن إبراهيم

---

(١) هذه السورة سميت في كتب التفسير وكتب السنة بسورة «المائدة» لأن فيها قصة المائدة التي سألها الحواريون من عيسى ـ عليه السلام ـ وقد اختصت بذكرها، وفي مسند أحمد بن حنبل وغيره وقعت تسميتها سورة المائدة في كلام عبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين وأسماء بنت يزيد وغيرهم فهذا أشهر أسمائها.

وتسمى أيضاً سورة «العقود»: إذ وقع هذا اللفظ في أولها. وتسمى أيضاً المنقذة ففي أحكام القرآن لابن الفرس: روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (سورة المائدة تدعى في ملكوت السماوات المنقـذة) قال: أي أنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب. وفي كتاب كنايات الأدباء لأحمد الجرجاني (يقال: فلان لا يقرأ سورة الأخيار أي لا يفي بالعهد وذلك أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يسمون سورة المائدة «سورة الأخيار» قال جرير:

إن البعيثَ وعَبْدَ آلَ مَتَاعس لا يَقْرَآن بسورةِ الأَخْيَار

وهي مدنية باتفاق روي أنها نزلت منصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحديبية بعد سورة الممتحنة فيكون نزولها بعد الحديبية بمدة لأن سورة الممتحنة نزلت بعد رجوع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة من صلح الحديبية وقد جاءته المؤمنات مهاجرات وطلب منه المشركون إرجاعهن إليهم عملاً بشروط الصلح فأذن الله للمؤمنين بعدم إرجاعهن بعد امتحانهن.

روى ابن أبي حاتم عن مقاتل أن آية ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ـ إلى ـ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ نزلت عام الحديبية، فلعل ذلك الباعث للذين قالوا: إن سورة العقود نزلت عام الحديبية وليس وجود تلك الآية في هذه السورة بمقتضٍ أن يكون ابتداء نزول السورة سابقاً على نزول الآية، إذ قد تلحق الآية بسورة نزلت متأخرة عنها. وفي الإتقان: أنها نزلت قبل سورة النساء ولكن صح أن آية ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ نزلت يوم عرفة في عام حجة الوداع. ولذلك ـ اختلفوا في أن هذه السورة نزلت متتابعة أو متفرقة ولا ينبغي التردد في أنها نزلت منجمة.

وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبيء بأنها أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود أي بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به، فقد كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ البيعة على الصلاة والزكاة والنصح لكل مسلم، كما في حديث جابر بن عبد الله في الصحيح وأخذ البيعة على الناس بما في سورة الممتحنة كما روى عبادة بن الصامت، ووقع في أولها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ**﴾ فكانت طالعتها براعة استهلال.

وذكر القرطبي: أن فيها تسع عشرة فريضة ليست في غيرها وهي سبع في قوله ﴿**وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ، وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ، وَمَا عَلَّمْتُم من الجَوَارِح مكلبين ـ وطَعَامُ الذين أوتوا الكتاب والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب، وتمام الطهور إذا قمتم إلى الصلاة**﴾. (أي إتمام ما لم يذكر في سورة النساء) ـ ﴿**والسارق والسارقة**﴾ ﴿**ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم**﴾ إلى قوله ﴿**عزيز ذو انتقام**﴾ ﴿**وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام**﴾ وقوله تعالى: ﴿**شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت**﴾ الآية وقوله ﴿**وإذا ناديتم إلى الصلاة**﴾ ليس في القرآن ذكر للأذان للصلوات إلَّا في هذه السورة. ا هـ.

وقد احتوت على تمييز الحلال من الحرام في المأكولات، وعلى حفظ شعائر الله في الحج والشهر الحرام، والنهي عن بعض =

(٢) سقط في أ.

الحنظلي(١)، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي(٢)، قال: حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية(٣)، عن جبير(٤) بن [نفير](٥)، قال: دخلت على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ فقلت نعم، قالت فإنها من آخر ما أنزل الله على نبيه [فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه](٦)، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه(٧). وقال الشعبي: لم ينسخ من هذه السورة غير قوله: (ولا الشهر الحرام ولا الهدي، ولا القلائد... الآية)(٨). وقال بعضهم: نسخ منها قوله: (أو آخران من غيركم) قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ

= المحرمات من عوائد الجاهلية مثل الأزلام. وفيها شرائع الوضوء والغسل والتيمم، والأمر بالعدل في الحكم، والأمر بالصدق في الشهادة، وأحكام القصاص في الأنفس والأعضاء، وأحكام الحرابة وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن نفاق المنافقين، وتحريم الخمر والميسر، والأيمان وكفارتها. والحكم بين أهل الكتاب، وأصول المعاملة بين المسلمين وبين أهل الكتاب وبين المشركين والمنافقين، والخشية من ولايتهم أن تفضي إلى ارتداد المسلم عن دينه. وإبطال العقائد الضالة لأهل الكتابين، وذكر مساوىء من أعمال اليهود، وإنصاف النصارى فيما لهم من حسن الأدب وأنهم أرجى للإسلام، وذكر قصة التيه وأحوال المنافقين، والأمر بتخلق المسلمين بما يناقض أخلاق الضالين في تحريم ما أحل لهم، والتنويه بالكعبة وفضائلها وبركاتها على الناس وما تخلل ذلك أو تقدمه من العبر، والتذكير للمسلمين بنعم الله تعالى، والتعريض بما وقع فيه أهل الكتاب من نبذ ما أمروا به والتهاون فيه. واستدعاؤهم للإيمان بالرسول الموعود به. وختمت بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصارى وتمجيد الله تعالى. انظر التحرير ٦/٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤.

(١) أبو يعقوب الحنظلي المعروف بابن راهويه المروزي. انظر تهذيب التهذيب ١/٢١٦.

(٢) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري أبو سعيد البصري. انظر تهذيب التهذيب ٦/٢٧٩.

(٣) حدير بن كريب الحضرمي، ثقة كبير انظر تهذيب التهذيب ٢/٢١٨.

(٤) بن مالك بن عامر الحضرمي انظر التهذيب ٢/٦٤.

(٥) في أ [نصير]. (٦) سقط في أ.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣١١ في التفسير، باب تفسير سورة المائدة. وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وأخرجه أحمد في المسند ٦/١٨٨ عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح. وزاد (وإذا سألتها عن خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال القرآن) وأخرجه البيهقي من طريق الحاكم ٧/١٧٢ في النكاح باب جماع أبواب نكاح حرائر أهل الكتاب. وعزاه الشوكاني في فتح القدير ٣١٢ فضلاً عن هؤلاء لابن جرير الطبري والنسائي، قلت: انظر تفسيره ١/٤٢٧، وأخرجه ابن مردويه.

(٨) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٥٢ لعبد بن حميد وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر والنحاس انظر فتح القدير ٢/٤.

إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فهذا نداء المدح، والنداء في القرآن على سبع مراتب: نداء المدح: مثل قوله: (يا أيها النبي) (يا أيها الذين آمنوا) (يا أيها الرسل). ونداء الذم مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين كفروا) (يا أيها الذين هادوا). ونداء التنبيه: مثل قوله: (يا أيها الإنسان). ونداء الإضافة: مثل قوله: (يا عبادي). ونداء النسبة: مثل قوله: (يا بني آدم) (يا بني إسرائيل) ونداءالاسم: مثل قوله: (يا إبراهيم) (يا داود). ونداء التعبير: مثل قوله: (ياأهل الكتاب). فههنا نداء المدح: (يا أيها الذين آمنوا) وهو من جوامع الكلم لأنه قال: «يا أيها الذين آمنوا» يعني صدقوا، ولم يقل بأي شيء صدقوا، معناه الذين صدقوا بوحدانية الله تعالى، وصدقوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن وصدقوا بجميع الرسل، وبالبعث والحساب والجنة والنار. وقال عبد الله بن مسعود كل مؤدب يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن، فإذا سمعت الله يقول: (يا أيها الذين آمنوا) فارعها سمعك، فإنه خير مأمور به، أو شر منهي عنه[١]. ويقال: جميع ما في القرآن: (يا أيها الذين آمنوا) نزل بالمدينة وكل ما يقال في القرآن: (يا أيها الناس) نزل أكثره بمكة، وقد قيل نزل بالمدينة أيضاً ويقال: كل ما في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) ذكر في مقابله في الإنجيل: (يا أيها المساكين). ثم قال: ﴿اوْفُوْا بِالْعُقُوْدِ﴾ يعني أتموا الفرائض التي ذكر الله تعالى في القرآن، وعقد على عباده ما أحل لهم وحرم عليهم، أن يوفوا بها. وقال مقاتل: ﴿أوفوا بالعقود﴾ يعني بالعهود التي بينكم وبين المشركين، ويقال: جميع العقود التي بينه وبين الناس، والتي بينه وبين الله تعالى، وهذا من جوامع الكلم، لأنه اجتمع فيه ثلاثة أنواع من العقود: أحدها: العقود التي عقد الله تعالى على عباده، من الأوامر والنواهي. والنوع الثاني: العقود التي يعقدها الإنسان بينه وبين الله تعالى من النذور والأيمان وغير ذلك. والنوع الثالث: العقود التي بينه وبين الناس: مثل البيوع والإجارات وغير ذلك، فوجب الوفاء بهذه العقود كلها[٢]. ثم قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ يعني رخصت لكم ﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾ والأنعام تشتمل على الإبل والبقر، والغنم والوحش، دليله على قوله تعالى: (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) ثم قال: (ثمانية أزواج)، وأما البهيمة فهي كل حي لا يتميز، وإنما قيل لها بهيمة لأنها أبهمت من أن تميز، ثم قال: ﴿إلاَّ مَاْ يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يعني رخصت لكم الأنعام كلها، إلا ما حرم عليكم في هذه السورة وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير وغير ذلك، وذلك أنهم كانوا يحرمون السائبة، والبحيرة، فأخبر الله تعالى: أنهما حلالان (إلا ما يتلى عليكم) يعني إلا ما بين في هذه السورة. ثم قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ يعني أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون. ثم قال: ﴿إِنَّ الله يَحْكُمُ مَاْ يُرِيدُ﴾ يعني يحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، لأنه أعرف بصلاح خلقه، وما يصلحهم، وما لا يصلحهم وليس لأحد أن يدخل في حكمه، وهذا كقوله: (ولا يشرك في حكمه أحداً) وقال: (لايسأل عما يفعل وهم يسألون)

---

(١) أخرجه ابن كثير في التفسير ٤/٣ قال قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدَّثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر. حدثني معن وعوف أو أحدهما: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إليَّ فقال: إذا سمعت. الخ.

(٢) ولا وجه لتحقيق بعضها دون بعض فالقدر الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن خالفهما فهو رده.

قوله تعالى: ﴿يَاْ أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَائِرَ اللهِ﴾ الشعائر ما جعل الله علامات الطاعات، وأحدها شعيرة، ومعناه لا تستحلوا شيئاً من ترك المناسك كلها، مما أمر الله تعالى من أمر الحج، وهو السعي بين الصفا والمروة، والخروج إلى عرفات ورمي الجمار والطواف واستلام الحجر[١] وغير ذلك[٢]. وذلك أن الأنصار كانوا لا يسعون بين الصفا والمروة، وكان أهل مكة لا يخرجون إلى عرفات، وكان أهل اليمن يرجعون من عرفات، فأمر الله تعالى في هذه السورة بأن لا يتركوا شيئاً من أمور المناسك، ثم قال: ﴿وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ يعني لا تستحلوا القتل في الشهر الحرام ﴿وَلَا الْهَدْيَ، وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ يقول: لا تتعرضوا له ولا تستحلوا، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا خرجوا إلى مكة، وكانوا إذا قلدوا الهدي أمنوا بذلك، ومن يكن له هدي جعل في عنق راحلته قلادة، ومن لم يكن معه راحلة جعل في عنقه قلادة من شَعر أو وبر، فيأمن بذلك فإذا رجع من مكة جعل شيئاً من لحاء شجر مكة في عنق راحلته فيأمن بذلك، ليعرف أنه كان حاجاً، فأمرهم الله تعالى بأن لا يستحلوا ذلك، يعني من فعل ذلك، لا يتعرض له. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا آمِّيْنَ﴾ يقول: ولا تستحلوا قاصدين ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ نزلت في «شُرَيْح بن ضُبَيْعة بن شُرَحْبِيل اليماني» دخل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلمه، فلما خرج من عنده مَرَّ بسرح لأهل المدينة، فساقها وانتهى إلى اليمامة، ثم خرج من هناك نحو مكة، ومعه تجارة عظيمة فهم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يخرجوا إليه، ويغيروا على أمواله، فنزل: (ولا آمين البيت الحرام)[٣]، ﴿يبتغون فضلاً من ربهم﴾ يعني الربح في المال، ﴿وَرِضْوَانًا﴾ يعني يطلبون بحجهم رضوان ربهم فلا يرضى عنهم حتى يؤمنوا، ثم نسخ بقوله: (اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم). ولم ينسخ قوله (لا تحلوا شعائر الله)، ولكنه محكم فوجب إتمام أمور المناسك. ولهذا قال أصحابنا: (إن الرجل إذا دخل في الحج ثم أفسده فعليه أن يأتي بجميع أفعال الحج، ولا يجوز أن يترك ثم عليه القضاء في السنة الثانية، ونسخ قوله: (ولا الشهر الحرام) فيجوز القتال في الشهر الحرام بقوله: (قاتلوا المشركين كافة). وقوله تعالى: (ولا الهدي، ولا القلائد) فهو محكم أيضاً، ولم ينسخ فكل من قلد الهدي (وتوجه إلى مكة) ونوى الإحرام صار محرماً، ولا يجوز له أن يحل بدليل هذه الآية، فهذه الأحكام معطوفة بعضها على بعض، بعضها منسوخة وبعضها محكمة. فإن قيل: قد قال: يبغون فضلاً من ربهم، ورضواناً، فأخبر أنهم يطلبون رضوان ربهم، ولم يذكر أن طلبهم كان باطلاً، قيل له: لأنه لم يذكر في لفظ الآية أمر الكفار، وإنما بين النهي عن التعرض للذين يقصدون البيت، فإن كان الذي قصد كافراً فقد بين في آية أُخرى أنه لم يقبل منه، وإن لم يذكر ها هنا وهو قوله: (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقال: ﴿وَإِذَاْ حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ﴾ يعني: إذا حللتم من إحرامكم، فاصطادوا إن شئتم، فهذه رخصة بلفظ الأمر كقوله: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) وكقوله: (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود... الآية) وقال الضحاك: (وإذا حللتم) يعني إذا خرجتم من إحرامكم، وخرجتم من حرم الله تعالى، وأمنه فاصطادوا. ثم قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُم شَنَئَان قَوْمٍ﴾ يقول: ولا يحملنكم عداوة كفارة مكة ﴿أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني عام الحديبية ﴿أَنْ تَعْتَدُواْ﴾

---

(١) في ب [والأسود وطواف الزيارة وغير ذلك].

(٢) وهذا التعريف ليس على صيغة الحدود والتعريفات لأنه تعريف بالخصائص ويطلق في الشرع «عبارة عن قصد مخصوص إلى مكان مخصوص في زمان مخصوص».

انظر طلبة الطلبة ٢٧، شرح الحدود ٩٥، المطلع ١٦٠، تبين الحقائق ٢/٢، وانظر تفصيل أحكامه في البدائع ١٠٧٨/٣، المسبوط ٢/٤، شرح المهذب ٣/٧، المغني ٢١٣/٣، الكافي لابن عبد البر ٣٥٦/١.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ١٣٩ وبنحوه انظر الدر المنثور ٢٥٤/٢.

على حجاج اليمامة (من المشركين)، فتستحلوا منهم. وفي الآية دليل: أن المكافأة لا يجوز من غير جنس الذي فعل به وتكون تلك المكافأة اعتداء، لأن الله تعالى قال: (ولا يجرمنكم شنآن قوم) يعني ببغض قوم وعداوتهم (أن تعتدوا) يعني تجاوزوا الحد في المكافأة قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر:[١] (شنآن) بجزم النون وقرأ الباقون (شنآن) بالنصب. وقال القتبي، لا يقال في المصادر فعلان، وإنما يقال ذلك في الصفات مثل عطشان، وسكران، وفي المصادر يقال: فعلان، مثل طيران ولهفان وشنآن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[٢] (إن صدوكم) بكسر الألف على معنى الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب على معنى البناء. ثم قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ يعني تعاونوا على أمر الله واعملوا به. وروى ابن عباس: البرُّ: ما أمر الله تعالى به[٣]، يعني تحاثوا على أمر الله، واعملوا به، وانتهوا عما نهى الله تعالى عنه، وامتنعوا عنه، وهذا موافق لما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: الدال على الخير كفاعله[٤] وقد قيل: الدال على الشر كصانعه[٥]. ثم قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ قال القتبي: العدوان على وجهين: عدوان في السبيل كقوله: (فلا عدوان إلا على الظالمين) وكقوله (فلا عدوان عليّ) والثاني: عدوان في الظلم، كقوله (فلا تتناجوا بالإثم والعدوان) وكقوله (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) يعني به حجاج أهل اليمامة وصارت الآية عامة في جميع الناس. ثم قال: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ يقول: واخشوا الله وأطيعوه فيما يأمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب. قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ يعني حرم عليكم أكل الميتة، والميتة كل ما مات حتف أنفه بغير ذكاة، فهو حرام، إلا الجراد والسمك فقد أباحهما على لسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال: أحلت لنا [دمان وميتتان][٦] السمك والجراد، والكبد والطحال[٧] ثم قال: ﴿وَالدَّمُ﴾ يعني حرم عليكم أكل الدم وشربه، وهو الدم المسفوح، كما قال في آية أخرى: (إلا أن يكون ميتة، أو دماً مسفوحاً) وأما الدم الذي بقي بعد الإنهار فهو مباح، مثل الطحال والكبد والصفرة التي بقيت في اللحم، ثم قال: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ يعني أكل لحم الخنزير فذكر اللحم والمراد به اللحم والشحم وغير ذلك، وهذا حرام بإجماع المسلمين، ثم قال: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني حرم عليكم أكل ما ذبح لغير الله، وأصل الإهلال، رفع الصوت ومنه، استهلال الصبي، وإهلال الحج وإنما سمي الذبح إهلالاً لأنهم كانوا يرفعون الصوت عند الذبح بذكر آلهتهم، فحرم الله تعالى ذلك، ثم قال: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ وهي الشاة التي تختنق فتموت، وكان بعض أهل الجاهلية، يستحلون ذلك ويأكلونها ثم قال ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ يعني حرم عليكم أكل الموقوذة، وهي التي تضرب بالخشب فتموت. وأصله في اللغة: هي الإشراف على الهلاك، (فإذا ضرب بالخشب حتى أشرف على الموت، ثم يتركه، يقال: وقذه، ويقال: فلان وقيذ وقذته العبادة، أي ضعف وأشرف على الهلاك). ثم قال: ﴿والمتردية﴾ وهي الشاة التي تخر من الجبل أو تتردى في بئر فتموت، ﴿والنطيحة﴾ وهي الشاة التي تنطح صاحبها

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢١٩، سراج القارىء ١٩٨.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٠، وسراج القارىء ١٩٨، شرح شعلة ٣٤٧.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ٩/٤٩١.

(٤) أخرجه أبو يعلى في المسند ٧/٢٧٥ (١٥٤١ / ٤٢٩٦) وفي إسناده زياد بن عبد الله النميري، وأخرجه أيضاً البزار كما في كشف الأستار ٢/٣٩٩ باب قضاء الحوائج من طريق بشر بن معاذ ثنا السكن بن إسماعيل بإسناد إلى أبي يعلى، وأخرجه الترمذي في العلم (٢٦٧٢) وقال غريب من هذا الوجه وهو عند أبي حنيفة في مسنده عن أنس (٤٧٢).

(٥) انظر تفسير القرطبي ٦/٤٦. (٦) في أ [تقديم وتأخير].

(٧) أخرجه الشافعي في المسند ٢/١٧٣ في الصيد والذبائح (٦٠٧)، وأحمد ٢/٩٧، وابن ماجه ٢/١١٠١ في الأطعمة (٣٣١٤)، والدارقطني ٤/٢٧١ في الصيد والذبائح (٢٥)، والبيهقي ١/٢٥٤ في الطهارة وفي ٩/٢٥٧ في الصيد والذبائح.

فيقتلها ثم قال: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ وهي فريسة السبع، فحرم الله تعالى أكل هذه الأشياء كلها على المؤمنين، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُم﴾ يعني إلا ما أدركتم ذكاته، فذكيتموه قبل أن يموت، فلا بأس بأكله.

قال القتبي: أصل الذكاة من التوقد، يقال: ذكيت النار إذا ألقيت عليها شيئاً من الحطب، وإنما سميت الذكية ذكية، لأنها صارت بحال ينتفع بها. وقال الزجاج: أصل الذكاة، تمام الشيء، وقوله إلا ما ذكيتم يعني ما أدركتم ذبحه على التمام. ثم قال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ قال القتبي: النصب هو حجر أو صنم منصوب، كانوا يذبحون عنده، وجمعه أنصاب، ويقال: كانوا يذبحون لأعيادهم باسم آلهتهم ثم قال: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلَامِ﴾ والأزلام: القداح واحدها زلم، على ميزان قلم وأقلام، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يجتمعون عشرة أنفس ويشترون جزوراً، وجعلوا لحمه على تسعة أجزاء، وأعطى كل واحد منهم سهماً من سهامه فجمعوا السهام عند واحد منهم، أو شيء من الأحجار، ثم يخرج هذا الرجل واحداً واحداً من السهام، فكل من خرج سهمه يأخذ جزءاً من ذلك اللحم فإذا خرج تسعة من السهام لا يبقى شيء من اللحم، ولا يكون للذي بقي اسمه آخراً شيء من اللحم وكان ثمن الجزور كله عليه، وكان نوع آخر: أنهم كانوا يجعلون عشرة من القداح، وكان لكل واحد منها سهم، ولم يكن لثلاثة منها نصيب من اللحم، وهو السفيح والمنيح والوغد، وكان للسبعة لكل سهم نصيب، وهو القذ والتوأم، والرقيب والمعلى، والحلس والناقس، والمسبل، ويقال: كان إذا أراد واحد منهم السفر أخرج سهمين من القداح في واحد منها مكتوب أمرني ربي، وفي الآخر نهاني ربي، فيخرج أحدهما، فإن خرج باسمه: أمرني ربي، وجب عليه الخروج ولم يجز له التخلف، وإن خرج الآخر، لا يسعه الخروج، فنهى الله تعالى عن ذلك كله، بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ يعني هذه الأفعال معصية وضلالة، واستحلالها كفر ثم قال: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ يعني كفار العرب، أن تعودوا كفاراً حين حج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجة الوداع وليس معهم مشرك. وقال الضحاك(١): نزلت هذه الآية حين فتح مكة(٢) [وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ](٣) فتح مكة لثمان بقين من رمضان، سنة سبع، ويقال: سنة ثمان ودخلها ونادى منادي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا من قال لا إله إلا الله فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، فانقادت قريش لأمر الله ورفعوا أيديهم وأسلموا. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ يقول: فلا تخشوا صولة المشركين فأنا معكم، وناصركم، ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ في ترك أمري ثم قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يعني أتممت لكم شرائع دينكم، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث كان بمكة لم يكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام، فنزلت هذه الآية: (اليوم أكملت لكم دينكم) يعني دينكم، حلالكم وحرامكم. وروى حماد بن سلمة(٤) عن عمار بن أبي عمار(٥) عن ابن عباس أنه قرأ: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فقال له يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين يوم الجمعة، ويوم عرفة(٦). قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال حدثنا ابن صاعد، قال: حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي(٧)،

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦/٤١. (٢) في أ [أي من وقت الهجرة]. (٣) سقط في ب.

(٤) أبو سلمة البصري، ثقة، انظر تهذيب التهذيب ٣/١١.

(٥) أبو عمر مولى بني هاشم ويقال مولى بني الحارث بن نوفل أبو عمرو ويقال أبو عمر، ويقال أبو عبد الله المكي. انظر تهذيب التهذيب ٧/٤٠٤.

(٦) أخرجه الترمذي ٥/٢٣٣ في التفسير (٣٠٤٤) وقال حسن غريب وعزاه ـ السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٥٨ للطيالسي وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير والطبراني والبيهقي في الدلائل.

(٧) يعقوب بن إبراهيم بن كثير أبو يوسف. انظر تهذيب التهذيب ١١/٣٨١.

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن قيس بن مسلم[١] عن طارق[٢]، أن اليهود قالوا لعمر بن الخطاب إنكم لتقرأون آية، لو نزلت فينا لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال عمر: إني لأعلم حيث نزلت، وفي أي يوم نزلت، أنزلت بيوم عرفة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقف بعرفة[٣]، فإن قيل في ظاهر هذه الآية دليل، ان الدّين يزيد حيث قال: (اليوم أكملت لكم دينكم)، قيل له: ليس فيها دليل، لأنه أخبر أنه أكمل في ذلك اليوم وليس فيها دليل: أنه لم يكمل قبل ذلك، ألا ترى أنه قال في سياق الآية: (ورضيت لكم الإسلام ديناً) ليس فيه دليل أنه لم يرض قبل ذلك، ولكن معناه أنه قد أظهر وقرر، كما جاء في الخبر أن رجلاً أعتق ستة أعبد له في مرضه، فأعتق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إثنين منهم[٤]، يعني أظهر عتقهما وقرر، ولم يرد به الابتداء. وقال مجاهد[٥]: معناه، اليوم أتممت لكم ظهور دينكم، وغلبة دينكم ونصرته وقال قتادة: معناه، أخلص لكم دينكم. ثم قال ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يعني منتي، فلم يحج معكم مشرك، ﴿وَرَضِيتُ﴾ يعني اخترت ﴿لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وروي في الخبر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاش بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين ليلة، ثم مضى لسبيله ـ صلوات الله عليه ـ وقال الزجاج: (اليوم) صار نصباً للظرف، ومعناه: اليوم أكملت لكم دينكم. وقال معاذ بن جبل: النعمة لا تكون إلا بعد دخول الجنة، فصار كأنه قال: رضيت لكم الجنة، لأنه لا تكون النعمة تماماً حتى يضع قدميه فيها[٦]. ثم رجع إلى أول الآية فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ وذلك أنه لما بين المحرمات علم أن بعض الناس اضطروا إلى أكله فأباح لهم أكله عند الضرورة. فقال: فمن اضطر، يعني اجهد إلى شيء مما حرم الله تعالى عليه، في مخمصة، يعني مجاعة، وأصل الخمص ضمور البطن ودقته، فإذا جاع فقد خمص بطنه، ثم قال: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ يعني غير متعمد المعصية لأكله فوق الشبع وأصل الجنف: الميل. وقال الزجاج: يعني غير متجاوز للحد، وغير آكل لها على وجه التلذذ فلا إثم عليه في أكله. وقال أهل المدينة: المضطر يأكل حتى يشبع. وقال أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله: يأكل مقدار ما يأمن به الموت، وكذلك قال الشافعي[٧]. ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني غفور فيما أُكل، رحيم حين رَخَّص له في أكله عند الاضطرار. قرأ عاصم وحمزة وأبو عمرو[٨]: (فمن اضطر) بكسر النون لاجتماع الساكنين، وقرأ الباقون: بالضم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ

(١) قيس بن مسلم الجدلي العدواني أبو عمرو الكفوفي. انظر تهذيب التهذيب ٤٠٤/٨.

(٢) طارق بن شهاب بن عبد شمس بن هلال البجلي أبو عبد الله. انظر تهذيب التهذيب ٥/٤.

(٣) البخاري في كتاب الإيمان (٤٥)، وفي المغازي (٤٤٠٧)، وفي التفسير (٤٦٠٦)، وفي الإعتصام (٧٢٦٨)، ومسلم في التفسير (٣، ٤، ٥، ٣٠١٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٤٣)، والنسائي في المجتبى في مناسك الحج (٢. ٣٠)، (٥٠١٢).

(٤) من حديث عمران بن حصين. أخرجه مسلم ١٢٨٨/٣ في الإيمان باب من أعتق شركاً له (١٦٦٨/٥٦).

(٥) انظر تفسير القرطبي ٤٢/٦ وقال: قلت الأول أصح أنها نزلت في يوم جمعة وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقف بعرفة على ناقته العضباء.

(٦) ذكر ذلك القرطبي ولم يعزوه لأحد انظر تفسيره ٤٢/٦.

(٧) لأن ذلك ضرورة، والضرورة تقدر بقدرها.

(٨) انظر البحر المحيط ٤٢٧/٣.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ نزلت الآية في شأن «عدي بن حاتم الطائي»، قال: قلت يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنا قوم نتصيَّد بهذه الكلاب والبزاة، فما يحل لنا منها؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما علّمت من كلب أو بازيٍّ، ثم أرسلته، وذكرت اسم الله تعالى عليه فكل ما أَمْسَكَ عليك، فقلت: وإن قتله، قال: إن قتله ولم يأكل منه شيئاً، فكل فإنما أمسك عليك، وإن أكل منه شيئاً فلا تأكل، فإنما أمسك على نفسه قال: قلت: فإذا خالط كلابنا كلابٌ أخرى حين ترسلها؟ قال: لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك عليك، ونزلت هذه الآية(١): (يسألونك ماذا أحل لهم) يعني ماذا رخص لهم من الصيد [ويقال لما أنزل قوله تعالى «حرمت عليكم» قالوا إن الله تعالى حرم هذه الأشياء فأي شيء لنا حلال يا رسول الله](٢) ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني رخص لكم الحلالات من الذبائح [﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ يعني وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح من الطير](٣) والكلاب الكواسب، ويقال: الجوارح الجارحات. ثم قال: ﴿مُكَلِّبِيْنَ﴾ بكسر اللام، وقرأ بعضهم بالنصب، فمن قرأ بالكسر يعني به أصحاب الكلاب، المعلِّمين للكلاب ومن قرأ بالنصب، أراد به الكلاب، يعني الكلاب المعلَّمة، (مكلبين) يعني معلمين (٤) ثم قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ يعني تؤدبونهن في طلب الصيد ﴿مِمَّا عَلَّمَكُم اللَّهُ﴾ يقول كما أدبكم الله تعالى، وروي عن مجاهد أنه سئل عن الصقر والبازي والفهد، قال: هذه كلها جوارح، ولا بأس بصيده إذا كان معلماً. ثم قال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني حبسن عليكم ﴿وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ إذا أرسلتم الكلاب على الصيد. وفي هذه الآية دليل: أن الكلب إذا كان أَكَل لا يؤكل، لأنه أمسك لنفسه، وفيها دليل: أنه لا يجوز إلا بالتسمية، لأنه قد أباح على شرط التسمية، وعلى شرط أن يمسك لصاحبه، وفيها دليل أيضاً أن الكلب إذا كان غير معلَّم لا يجوز أكلُ صيده، وفيها دليل أيضاً أن العالِم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأن الكلب إذا عُلِّم يكون له فضيلة على سائر الكلاب، وأن الإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، وهذا كما روي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما يُحْسِن. ثم خوّفهم فقال: ﴿واتَّقُوْا اللَّهَ﴾ أي اخشوا الله ولا تأكلوا الميتة ولا تأكلوها لم يذكر اسم الله عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾ يعني سريع المجازاة، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني المذبوحات من الحلال يعني اليوم أظهر وبين حله، ثم قال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِيْنَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني ذباح أهل الكتاب ﴿حِلٌّ لَكُمْ﴾ يعني حلال لكم أكله ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يعني ذبائحكم وطعامكم رخص لهم أكله. وقال الزجاج: تأويله أحل لكم أن تطعموهم، لأن الحلال والفرائض إنما تعتمد على أهل الشريعة. ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني أحل لكم تزوج العفائف من المؤمنات ﴿وَالْمُحْصَنَاْتُ مِنَ الَّذِيْنَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ يعني العفائف من أهل الكتاب ﴿مِنْ قَبْلِكُم﴾ يعني أُعْطوا الكتاب من قبل كتابكم وهو التوراة والإنجيل، واختلفوا في نكاح الصابية وقد ذكرناه في سورة البقرة ثم قال: ﴿إِذَاْ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني أعطيتموهن مهورهن ﴿مُحْصِنِيْنَ غير مسافحين﴾ يقول: كونوا متعففين عن الزنا ﴿وَلَاْ مُتَّخِذِي أَخْدَاْنٍ﴾ يقول: لا تتخذوا خِدْناً فتزنوا بها سراً، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٢٨. (٢) سقط في ظ. (٣) سقط في أ.

(٤) ويشترط في كون الكلب معلماً أربعة أمور أحدها: أن ينزجر بمزجر صاحبه، ثانياً: أن يسترسل بإرساله. ثالثاً: أن يمسك الصيد. رابعاً: أن لا يأكل منه.

يعيِّرون من يزني [في العلانية ولا يعيرون من يزني](١) سراً فحرم الله زنا السر والعلانية، فلما نزلت هذه الآية قلن ـ نساء أهل الكتاب ـ لولا أن الله تعالى قد رضي بديننا، لم يبح للمسلمين نكاحنا، فنزل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [وقيل لنا نزل قوله حرمت عليكم الميتة ثم رخص من حالة الاضطرار فقال بعضهم لا نأخذ الرخصة من الاضطرار فنزل (ومن يكفر بالإيمان)](٢). ويقال: هذا ابتداء خطاب وهو لجميع المسلمين فقال: (ومن يكفر بالإيمان) قال ابن عباس: يعني من يكفر بالتوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله فقد حبط عمله. وقال مجاهد: معناه: ومن يكفـر بالإيمان، فقد حبط عمله، يعني بطل ثواب عمله ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾ يعني من المغبونين في العقوبة. ولهذا قال أصحابنا رحمهم الله: إن الرجل إذا صلى، ثم ارتد، ثم أسلم في وقت تلك الصلاة، وجب عليه إعادة تلك الصلاة، ولو كان حج حجة الإسلام، فعليه أن يعيد الحج، لأنه قد بطل ما فعل قبل ارتداده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُم إِلَى الصَّلَاةِ﴾ يعني إذا أردتم أن تقوموا إلى الصلاة وأنتم محدثون، ويقال: إذا قمتم من نومكم إلى الصلاة ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُم وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ يعني مع المرافق ﴿وَامْسَحُواْ بِرُوءسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ يعني مع الكعبين. قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وحمزة، وعاصم(٣)، وفي رواية أبي بكر (وأرجلكم) بكسر اللام، وقرأ الباقون: بالنصب، فمن قرأ بالنصب فإنه جعله نصباً

(١) سقط في أ. (٢) ما بين المعقوفين من أ.
(٣) وحجتهم: أنها معطوف على الوجوه والأيدي فأوجبوا الغسل عليهما وعن أبي عبد الرحمن (عبد الله بن عمر) قال: (كنت أقرأ أنا

لوقوع الفعل عليه، وهو الغسل، يعني واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، ومن قرأ بالكسر، جعله كسراً لدخول [حرف الخفض][1] وهو الباء، فكأنه قال: وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، يعني، إذا كان عليه خفان وقد ثبت ذلك بالسنة، ويقال: صار كسراً بالمجاورة، كما قال في آية أخرى: (وحور عين) قرأ بعضهم بالكسر بالمجاورة. فهذه الأربعة التي ذكرت في الآية من فرائض الوضوء، وما سوى ذلك آداب وسنن فإن قيل: الآية إذا قرئت بقرائتين، فالله تعالى قال بهما جميعاً، أو بأحدهما؟. قيل له: هذا على وجهين: إن كان لكل قراءة معنى غير المعنى الآخر، فالله تعالى قال بهما جميعاً، وصارت القراءتان بمنزلة الآيتين، وإن كانت القراءتان معناهما واحد فالله تعالى قال لأحدهما، ولكنه رخص بأن يقرأ بهما جميعاً. ثم قال تعالى: (وإن كنتم جنباً فاطهروا) قد يوصف الجمع بصفة الواحد، كقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ وكقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) قوله: ﴿فَاطَّهَّرُواْ﴾ معناه، فتطهروا إلا أن التاء أدغم في الطاء لأنهما من مكان واحد، فإذا أدغمت فيها، سكن أول الكلمة، وزيدت ألف الوصل للابتداء. ثم قال: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ، فَلَمْ تَجِدُواْ مَاءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيْدًا طَيِّباً، فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيْكُم مِنْهُ﴾ يعني من الصعيد، ثم قال: ﴿مَا يُرِيْدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾

= والحسن والحسين قريباً من علي ـ عليه السلام ـ وعنده ناس قد شغلوه فقرأنا (وأرجلكم) فقال: رجل: (وأرجلِكم) بالكسر فسمع ذلك علي عليه السلام فقال: (ليس كما قلت ثم تلا: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ هذا من المقدم والمؤخر في الكلام قلت: (وفي القرآن من هذا التقديم والتأخير: كثير) قال الله: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ ثم قال: ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ وعطف بـ ﴿المحصنات﴾ على الطيبات وقال: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً﴾ ثم قال: ﴿وأجل مسمى﴾ فعطف ﴿الأجل﴾ على (الكلمة) وبينهما كلام فكذلك في قوله ﴿وأرجلكم﴾ عطف بها على الوجوه والأيدي على ما أخبرتك به من التقديم والتأخير.

وأخرى هي صحة الأخبار عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنه توضأ فغسل رجليه، وأنه رأى رجلاً يتوضأ وهو يغسل رجليه فقال: (بهذا أمرت) وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار)، وعن ابن مسعود قال: (خلّلوا الأصابع بالماء لا تلحقها النار). وقال عبد الملك: قلت لعطاء: (هل علمت أحداً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسح على القدمين؟) فقال: (والله ما أعلمه). والأخبار كثيرة في هذا المعنى وقد ذكرناها في تفسير القرآن.

وأخرى قال الزجاج: الدليل قوله ﴿إلى الكعبين﴾ أن الغسل هو الواجب في الرجل، وأن المسح لا يجوز: وهذا لتحديد قوله ﴿إلى الكعبين﴾ كما جاء في تحديد اليد (إلى المرافق) ولم يجىء في شيء من المسح تحديد قال: ﴿فامسحوا برؤوسكم﴾ بغير تحديد في القرآن.

قال: ويجوز أن يقرأ ﴿وأرجلكم﴾ على معنى ﴿واغسلوا﴾ لأن قوله ﴿إلى الكعبين ﴾ دل على ذلك كما وصفنا وينسق بالغسل على المسح كما قال الشاعر:

يا ليت بعلك قد غدا متقلداً سيفاً ورُمْحا

والمعنى: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر؛ ﴿وأرجلِكم﴾ خفضاً عطفاً على الرؤوس وحجتهم في ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: (الوضوء غسلتان ومسحتان) وقال الشعبي: نزل جبرائيل بالمسح، ألا ترى أنه أهمل ما كان مسحاً، ومسح ما كان غسلاً في التيمم. والصواب من القول: ما عليه فقهاء الأمصار: أن الغسل هو الواجب نحو الرجلين، ويجوز أن يكون قوله ﴿وأرجلِكم﴾ بالخفض حملت على العامل الأقرب للجوار وهي في المعنى للأول، كما يقال: (هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ) فيحمل على الأقرب وهو في المعنى للأول. انظر ابن زنجلة ٢٢١ ـ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(١) في ب [حرف الجر عليه].

يقول: لا يكلفكم في دينكم من ضيق ﴿وَلَكِنْ يُرِيْدُ لِيُطَهِّرَكُم﴾ يعني يطهركم من الأحداث والجنابة ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمته عَلَيْكُمْ﴾ بما أنعم من الرخص ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا الله لما رخص لكم، ولم يضيق عليكم. قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: احفظوا منن الله عليكم بإقراركم بوحدانية الله تعالى، ﴿وَمِيْثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ يعني يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم عليه السلام، وقال: (. . ألست بربكم؟ قالوا: بلى) هكذا قال في رواية الكلبي، ومقاتل، والضحاك[١]. وقال بعضهم: هو الميثاق الجبلة والإدراك، فكل من أدرك فقد أخذ عليه الميثاق، وشهدت له خلقته وجبلته، فصار ذلك كالإقرار منه ثم قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يوم الميثاق، قلتم سمعنا قولك يا ربنا وأطعنا أمرك، ثم قال: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في نقض العهد والميثاق ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ﴾ يعني عالم بسرائركم. ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ كُوْنُواْ قَوَّامِيْنَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني قوالين بالحق، ثم قال: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُواْ﴾ وذلك أن الله تعالى لما فتح على المسلمين مكة أمر الله المسلمين أن لا يكافئوهم بما سلف، وأن يعدلوا في القول والحكم والنصفة، وذلك قوله: ﴿اعْدِلُواْ﴾ يعني قولوا الحق والعدل ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ يعني فإنه أقرب للطاعة، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول واخشوا الله بما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة وغيره. ثم بين ثواب من عمل بطاعته فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيْمٌ﴾ يعني ثواب عظيم في الجنة، ويقال: إن أهل مكة قالوا، بعدما أسلموا ما لنا في الآخرة وقد أخرجناك وأصحابك، فقالوا: وعد الله الذين آمنوا بالله وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعملوا الصالحات بعد الإسلام، لهم مغفرة لما فعلوا في حال الشرك، وأجر عظيم في الآخرة. ثم قال: ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني جحدوا وكذبوا، بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن، وماتوا على ذلك، ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾ يعني مقيمين فيها أبداً. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم المدينة ـ وصالح بني قريظة، وبني النضير[٢] وهما قبيلتان بقرب المدينة، وأخذ منهم الميثاق بأن لا يكون بينهم القتال، وأن يتعاونوا فيما بينهم على الديات، فدخل مستأمنان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرجا من عنده فقتلهما «عمرو بن أمية الضمري»، ولم يعلم بأنهما مستأمنان، فوداهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدية حُرَّين مسلمين فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أبي بكر وعمر وعلي إلى بني النضير ليستعين بهم في ديتهما، فقالوا: مرحباً حتى نستأذن إخواننا من بني قريظة. وقال في رواية الكلبي خرج إلى بني قريظة، فقالوا: حتى نستأذن إخواننا من بني النضير، وأدخلوهم داراً وأجلسوهم في صفّة، وجعلوا يجمعون السلاح، وهموا بقتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وكانوا ينتظرون كعب بن الأشرف، وكان غائباً، فنزل جبريل، وأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقصة وخرج، فلما أبطأ الرجوع قام أبو بكر فخرج، ثم خرج عمر ثم خرج علي رضي الله عنهم، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم)، ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يقول: أرادوا وتمنوا أن يمدوا أيديهم إليكم بالقتل، ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ بالمنع. قال الفقيه أبو الليث: حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا نصير بن يحيى[٣]، قال: حدثنا أبو سليمان، عن محمد بن الحسن عن

---

(١) انظر تفسير الطبري ٩٣/١٠، وابن كثير ٥٧/٣ تفسير القرطبي ٧٢/٦.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠١/١٠، سيرة ابن هشام ١٩٠/٢، تفسير ابن كثير ٥٩/٣، وأسباب النزول للواحدي ١٤٣، وانظر الدر المنثور ٢٦٦/٢.

(٣) البلخي أخذ الفقه عن محمد بن الحسن الشيباني. انظر الفوائد البهية ٢٢١.

محمد بن عبد الله[1] عن الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى بني النضير ليستعين بهم في دية الكافرَيْن اللذيْن قتلهما «عمرو بن أمية الضمري»، فهم بنو النضير بقتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبلغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسار إليهم فحاصرهم وأمر بقطع النخيل وحاصرهم حتى قالوا: أتؤمننا على دمائنا وذرارينا، وعلى ما حملت الإبل إلا الحلقة، يعني السلاح، قال: نعم، ففتحوا الحصون وأجلاهم إلى الشام[2]، فهذا الخبر موافق رواية مقاتل، أنه خرج إلى بني النضير[3]. وقال الضحاك: كان سبب نزول هذه الآية: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج ذات ليلة إلى البقيع، إلى قبور الشهداء وحده فأتاه رجل من اليهود شديد محارب، فقال: إن كنت نبياً كما تزعم فأعطني سيفك هذا، فإن الأنبياء لا يبخلون، فأعطاه سيفه، فشهر اليهودي السيف وهزه ليضربه به، فلم يجترىء للرعب الذي قذفه الله تعالى في قلبه ثم رد عليه السيف، فنزل: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم)[4] ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. ففي الآية مضمر، فكأنه قال: فاتقوا الله، وتوكلوا على الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، يعني على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويثقوا بالنصر لهم. قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني في التوراة من الإيمان بالله تعالى وبأنبيائه، وأن يعملوا بما في التوراة، ثم قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ قال مقاتل[5]: يعني شهداء على قومهم بعث الله تعالى من كل سِبْطٍ منهم رجلاً، ليأخذ كل رجل منهم على سبطه الميثاق، يكونوا شهداء على قومهم. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[6] (وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً) قال: من كل سبط من بني إسرائيل رجلاً، أرسلهم موسى عليه السلام ـ إلى

(١) محمد بن عبد الله بن مسلم بن عبيد الله الزهري أبو عبد الله المدني. تهذيب التهذيب ٩/٢٧٨.
(٢) انظر المصادر السابقة. (٣) انظر تفسير مقاتل ١/٣٠٢. (٤) انظر أسباب النزول ١٤٣.
(٥) انظر تفسيره ١/٣٠٢. (٦) انظر تفسيره ١/١٨٨.

الجبارين، فوجدوهم يدخل في كُمِّ أحدهم اثنان منهم، ولا يحمل عن عنقود عنبهم إلا خمسة منهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نزع حبة منه خمسة أنفس أو أربعة، فرجع النقباء كلهم ينهون سبطهم عن القتال إلا يوشع بن نون، وكالب بن يافت ويقال: كالوب بن يوقنا، أمرا قومهما بالقتال. وقال القتبي: النقيب، الكفيل على القوم، والنقابة والنكابة شبه بالعرافة، ويقال: نقيباً، يعني أميناً، وقال ابن عباس:[١] نقيباً، يعني ملكاً، حين بعثهم موسى إلى بيت المقدس، جعل موسى ـ عليه السلام ـ عليهم اثني عشر ملكاً على كل سبط منهم ملك. و ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالى للنقباء ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾، ويقال: قال الله لبني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق في التوراة (إني معكم) أي معينكم وحافظكم، وناصركم ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ يعني ما دمتم أقمتم الصَّلاةَ ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُم بِرُسُلِي﴾ يعني صدقتم برسلي ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ يعني أعنتموهم[٢]. وقال القتبي: أي عظمتموهم، والتعزيز التعظيم. وقال السدي[٣]: يعني نصرتموهم بالسيف. وقال الأخفش: يعني وقَّرْتموهم وقَوَّيتموهم. وقال الضحاك: شرفتموهم بالنبوة كما شرفهم الله تعالى. ويقال: آمنتم برسلي: أي أمرتم قومكم حتى يؤمنوا برسلي، ونصرتموهم ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾. أي تأمرون قومكم بذلك ثم بين جزاءهم وثوابهم إن فعلوا ذلك فقال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ أي لأمحون ﴿عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني ذنوبكم ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثم قال ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق ﴿مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني أخطأ قصد الطريق. ثم قال عز وجل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ يعني لما أخذ عليهم الميثاق، نقضوا الميثاق فبنقضهم ميثاقهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ أي لعنهم الله، يعني طردهم من رحمته ويقال: (لعناهم) يعني عذبناهم بالمسخ، ويقال: بالجزية، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يعني يابسة، ويقال: خالية عن حلاوة الإيمان. قرأ حمزة والكسائي (قسية) بغير ألف، وقرأ الباقون (قاسية)[٤] ومعناهما واحد. ويقال: قست فهي قاسية وقسية ثم قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ والكلم جمع كلمة، يعني يغيرون صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿عن مواضعه﴾، يعني في كتابهم مما وافق القرآن، يعني عن صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتابهم، ويقال: استحلوا ما حرم الله تعالى عليهم، ولم يعملوا به فكان ذلك تغيير الكلم عن مواضعه. ثم قال: ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ يعني: تركوا نصيباً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: مما أمروا به في كتابهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني لا يزال يظهر لك منهم الخيانة ونقض العهد.

وقال القتبي: عن أبي عبيدة: إن العرب تضع لفظ الفاعل في موضع المصدر كقولهم للخوان: مائدة، وإنما

---

(١) انظر تفسيره ٧٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس انظر الدر المنثور ٢/٢٦٧.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٠/١٢١.

(٤) وحجتهم: إجماعهم على قوله: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) فلما أجمعوا على احداهما واختلفوا في الأخرى رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. وهما لغتان بمنزلة (عالم وعليم).

وحجة من قرأ (قَسِيَّة) هي أن (فعيلا) أبلغ في الذم والمدح من (فاعل) كما أن (عليماً) أبلغ من (عالم) (وسميعاً) أبلغ من (سامع) وهي (فعيلة) من القسوة.

وقال آخرون: بل معنى (قسية) غير معنى القسوة وإن معنى القسية: التي ليست بخالصة الإيمان أي قد خالطها كفر فهي فاسدة، ولهذا قيل للدراهم قد خالطها غش من نحاس أوغيره: (قسية) وقال أبو بعيدة: القسية: هي الرديئة مشبهة بالدراهم القسية.

والأصل في (قاسية): (قاسوة) لأنه من (قسايقسو) فقلبوا الواو ياء لما قبلها من الكسرة والأصل في قسية: (قسيوة) فقلبوا الواو ياء وأدغموا الياء في الياء. انظر ابن زنجلة ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

يميد بهم ما في الخوان فيجوز أن يكون الهاء صفة للخائن كما يقال: رجل طاغية، ورواية للحديث، ثم قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ يعني مؤمنيهم لم ينقضوا العهد ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ يعني اتركهم ولا تعاقبهم ﴿وَاصْفَحْ﴾ عنهم يعني أعرض عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعفون عن الناس وهذا قبل الأمر بقتال أهل الكتابين قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ وذلك أن الله تعالى لما ذكر حال اليهود، ونقضهم الميثاق فقال على أثر ذلك، إن النصارى لم يكونوا أحسن معاملة من اليهود ثم بين معاملتهم فقال: (ومن الذين قالوا: إنا نصارى) ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ في الإنجيل بأن يتبعوا قول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني تركوا نصيباً مما أمروا به في الإنجيل من اتباع قول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: نقضوا العهد كما نقض اليهود، ويقال: إنما سموا أنفسهم النصارى لأنهم نزلوا قرية يقال لها «ناصرة» نزل فيها عيسى ـ عليه السلام ـ فنزلوا هناك، وتواثقوا بينهم، ويقال: إنما سموا النصارى لقول عيسى: (من أنصاري إلى الله) قال الحواريون نحن أنصار الله ثم قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ يعني ألقينا بينهم العداوة ﴿وَالْبَغْضَاءَ﴾ ويقال: الإغراء في أصل اللغة: الإلصاق، يقال: أغريت الرجل إغراءاً إذا ألصقت به. ويقال: إن أصل العداوة التي كانت بينهم ألقاها إنسان يقال له «بولس» كان بينه وبين النصارى قتال وكان يهودياً فقتل منهم خلقاً كثيراً، فأراد أن يحتال بحيلة يلقي بينهم القتال، ليقتل بعضهم بعضاً، فجاء إلى النصارى وجعل نفسه أعور، وقال لهم: أتعرفوني؟ فقالوا أنت الذي قتلت منا، وفعلت ما فعلت، فقال قد فعلت ذلك كله وأنا تائب لأني رأيت عيسى بن مريم في المنام، نزل من السماء، فلطم وجهي لطمة وفقأ عيني، فقال: أي شيء تريد من قومي؟، فتبت على يده، وإنما جئتكم لأكون بين ظهرانيكم وأعلمكم شرائع دينكم كما علمني عيسى في المنام، فاتخذوا له غرفة فصعد تلك الغرفة وفتح كوة إلى الناس في الحائط، وكان يتعبد في الغرفة، وربما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويجيبهم من تلك الكوة، وربما يأمرهم حتى يجتمعوا، ويناديهم من تلك الكوة، ويقول لهم بقول، كان في الظاهر منكراً، وينكرون عليه، فكان يفسر ذلك القول بتفسير يعجبهم ذلك فانقادوا كلهم له، وكانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به، فقال لهم يوماً من الأيام: اجتمعوا قد حضرني علم، فاجتمعوا، فقال لهم: أليس قد خلق الله تعالى هذه الأشياء في الدنيا كلها لمنفعة بني آدم؟ قالوا: نعم، فقال لم تحرمون على أنفسكم هذه الأشياء؟ يعني الخمر والخنزير، وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً، فأخذوا بقوله واستحلوا الخمر والخنزير، فلما مضى على ذلك أيام، دعاهم، وقال: حضرني علم فاجتمعوا، وقال لهم: من أي ناحية تطلع الشمس فقالوا: من قبل المشرق، فقال: ومن أي ناحية يطلع القمر والنجوم؟ فقالوا: من قبل المشرق فقال: ومن يرسلهم من قبل المشرق؟ قالوا: الله تعالى، فقال: فاعلموا أنه من قبل المشرق، فإن صليتم له فصلوا إليه، فحول صلاتهم إلى المشرق، فلما مضى على ذلك أيام، دعا طائفةً منهم، وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة، وقال لهم: إني أريد أن أجعل نفسي الليلة قرباناً لأجل عيسى، وقد حضرني علم وأريد أن أخبركم في السر لتحفظوا عني وتدعوا الناس إلى ذلك، ويقال أيضاً: إنه أصبح يوماً وفتح عينه الأخرى، ثم دعاهم وقال لهم جاءني عيسى الليلة، وقال: قد رضيت عنك، فمسح يده على عيني فبرئت، فالآن أريد أن أجعل نفسي قرباناً، ثم قال لهم هل يستطيع أحد أن يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا، فقال إن عيسى قد فعل هذه الأشياء فاعلموا بأنه هو الله، فخرجوا من عنده، ثم دعا طائفة أخرى فأخبرهم بذلك أيضاً وقال: إنه كان ابنه، ثم دعا بطائفة ثالثة وأخبرهم بأنه ثالث ثلاثة وأخبرهم بأنه يريد أن يجعل نفسه الليلة قرباناً فلما كان في بعض الليل خرج من بين ظهرانيهم، فأصبحوا وجعلوا كل فريق منهم يقول: قد علمني كذا وكذا، وقال الفريق الآخر: إنت كاذب، بل علمني كذا وكذا، فوقع بينهم القتال فاقتتلوا، وقتلوا خلقاً كثيراً وبقيت العداوة بينهم ﴿إِلَى يَوْمِ

﴿الْقِيَامَةِ﴾ وهم ثلاث فرق: فرقة بينهم النسطورية قالوا: المسيح ابن الله، وصنف منهم يقال لهم: الماريعقوبية، قالوا: إن الله هو المسيح، وصنف يقال لهم الملكانية، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، المسيح وأمه والله، فأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ويقال: ألقى بينهم العداوة بالجدال والخصومات في الدين[(١)] وذلك يحبط الأعمال وقال معاوية بن قرة:[(٢)] إياكم وهذه الخصومات في الدين، فإنها تحبط الأعمال[(٣)]. ثم قال: **﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** يعني ينبئهم في الآخرة الذي هو على الحق. ثم قال عز وجل:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿يُبَيِّن لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾** يعني يكتمون ما بين في التوراة، وذلك أنهم كتموا آية الرجم، وتحريم الخمر، وأكل الربا، ونعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾** يعني يتجاوز عن كثير، ولا يخبركم به وذكر أن رجلاً من أحبارهم جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله فقال: ما هذا الذي عفوت عنا؟ فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يبين، وإنما أراد اليهودي أن يظهر مناقضة كلامه، أنه لم يترك شيئاً، وقد بينه كله فلما لم يبين له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قام من عنده وذهب وقال لأصحابه: أرى أنه صادق فيما يقول، لأنه كان وجد في كتابه، أنه لا يبين له ما سأله. ثم قال تعالى: **﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾** يعني ضياء من الضلالة وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن والنور هو الذي يبين الأشياء، ويرى الأبصار حقيقتها، فيسمى القرآن نوراً، لأنه يقع في القلوب مثل النور، لأنه إذا وقع في قلبه، يبصر به، ثم قال: **﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾** يعني القرآن يبين لكم الحق من الباطل. قوله تعالى: **﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾** يعني بالقرآن **﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾** يعني مَنْ طلب الحق ورغب فيه، **﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾** يعني دين الله الإسلام، والسبل، جماعة السبيل، وهو الطريق، يعني به طريق الهدى، والسلام اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، يعني هو دين الله وتعالى. ثم قال: **﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾** يعني يخرج من قلوبهم حلاوة الكفر، ويدخل فيها حلاوة الإيمان ويوفقهم لذلك **﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ**

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/١٣٧.

(٢) معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزني أبو إياس البصري قال خليفة وغيره مات سنة ثلاث عشرة ومائة. انظر تهذيب التهذيب ١٠/٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) انظر المصدر السابق.

مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني يوفقهم دين الإسلام قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ثم قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يقول: من يقدر أن يمنع من عذاب الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يعني لو أراد الله أن يهلك عيسى وأمه وجميع الخلق، ولا يقدر عيسى على رد ذلك. فكيف يكون إلهاً وهو لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه، ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني خزائن السموات والأرض، وجميع الخلق عبيده وإماؤه، وحكمه نافذ فيهم، ثم قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لأن نصارى أهل نجران كانوا يقولون: لو كان عيسى بشراً كان له أب، فأخبر الله تعالى على أنه قادر على أن يخلق خلقاً بغير أب. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من خلق عيسى وغيره. قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ يعني نحن من الله تعالى بمنزلة الأبناء من الآباء، في المنزلة والكرامة، والوالد إذا سخط على ولده في وقت، يرضى عنه في وقت آخر. ويقال: معناه نحن أبناء الله وأحباؤه. قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ يعني يحرقكم، لأنهم كانوا مقرين بأنه يحرقهم أربعين يوماً، أياماً معدودة، قل لهم فهل رأيتم والداً يحرق ولده، أو يحرق مُحِبَّه، ففي الآية دليل: أن الله تعالى إذا أحب عبده يغفر ذنوبه ولا يعذبه بذنوبه، لأنه احتج عليهم فقال: (فلم يعذبكم) إن كنتم أحباء الله تعالى وقال في آية أخرى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)، ففيه دليل على أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذي يجاهدون لقوله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً)[٢] ثم قال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ يعني أنتم لستم بأبناء الله، ولا أحبائه، ولكن أنتم خلق كسائر خلق الله تعالى، ثم قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي يتجاوز عمن يشاء فيهديه لدينه ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهينه ويتركه على الكفر ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني إليه المرجع، فيجزيهم بأعمالهم. قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني يا أهل التوراة والإنجيل، وإنما أضافهم إلى الكتاب ـ والله أعلم ـ على وجه التعبير، يعني أنتم أهل الكتاب فلم لا تعملون بكتابكم؟ كقوله: يا عاقل، لم لا تفعل كذا وكذا، وإنما تذكر العقل على معنى التعبير، أي إنك لا تعمل عمل العقلاء ثم قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يُبَيِّنُ لَكُم﴾ الدين والأحكام والشرائع ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ يعني بعد انقطاع من الرسل والوحي، وقال مقاتل[١]: في الآية تقديم وتأخير، معناه: قد جاءكم رسولنا على فترة[٢] من الرسل، يبين لكم،

(١) انظر تفسيره ١/٣٠٦.

(٢) والفترة: أصلها السكون، يقال فتر الشيء سكن، وقيل: هي الانقطاع، قاله أبو علي الفارسي وغيره ومنه فتر الماء: إذا انقطع عما كان عليه من البرد إلى السخونة وفتر الرجل عن عمله: إذا انقطع عما كان عليه من الجد فيه وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن=

وإنما سمي فترة لأن الدين يفتر ويندرس عند انقطاع الرسل، يعني بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ وقال قتادة: كان بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ خمسمائة وستون سنة[1]. وقال الكلبي:[2] خمسمائة وأربعون سنة وقال الضحاك ومقاتل: كان بينهما ستمائة سنة[3]. وقال وهب: كان بينهما ستمائة وعشرون سنة[4]. ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولُواْ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ يعني لكي لا تقولوا ما جاءنا من رسول بعد مادرس الدين ليبشرنا وينذرنا ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿وَنَذِيرٌ﴾ من النار ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من المغفرة والعذاب وبعث الرسل.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني احفظوا منة الله عليكم، ونعمته، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ قال في رواية الكلبي: يعني السبعين[5]، سوى موسى وهارون عليهما السلام وهم الذين اختارهم موسى فانطلقوا معه إلى الجبل. ويقال: (إذ جعل فيكم أنبياء) يعني في بني إسرائيل، فكان فيهم أربعة آلاف نبي ـ عليهم السلام ـ ثم قال: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ يعني بعد العبودية لفرعون. قال ابن عباس:[6] إن الرجل إذا لم يدخل عليه أحد في بيته إلا بإذنه فهو ملك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: (وجعلكم ملوكاً) أي جعل لكم أزواجاً وخدماً وبيوتاً[7] وبنين ويقال: من استغنى عن غيره فهو ملك.

= حدة النظر، والمعنى: أنه انقطع الرسل قبل بعثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدة من الزمان انظر فتح القدير ٢/ ٢٥.

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٥٧ وعزاه الشوكاني في الفتح ٢/ ٢٦ لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) انظر فتح القدير ٢/ ٦، الدر المنثور ٢/ ٢٦٩. (٣) انظر تفسير فتح القدير ٢/ ٢٦ وتفسير مقاتل ١/ ٣٠٦.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٦/ ٨١ وقال ابن كثير رحمه الله ٣/ ٦٥ والمشهور أنها ستمائة سنة، ولا منافاة بين من يقول ستمائة ومن يقول ستمائة وعشرون سنة، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنيين.

(٥) وبنحوه انظر ابن جرير ١٠/ ١٦٠. (٦) انظر المصدر السابق ١٠/ ١٦٢

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير ١٠/ ١٦٢ وابن المنذر وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٦٨.

وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما حِيزَتْ له الدنيا[(١)] ثم قال: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِيْنَ﴾ يعني أعطاكم ما لم يعط أحداً من الخلق، وهو المن والسلوى، والغمام، وغير ذلك ثم قال عز وجل: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُواْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [يعني المطهرة، والمقدسة][(٢)] في اللغة: هو المكان الذي يتطهر فيه، فتأويله البيت الذي يتطهر فيه الإنسان من الذنوب، ثم قال: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني التي أمركم الله أن تدخلوها ويقال: التي وعد لإبراهيم أن يكون ذلك له ولذريته وذلك أن الله وعد لإبراهيم أن يكون له مقدار ما يمد بصره (فصار ذلك ميراثاً منه حين خرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال له جبريل: انظر يا إبراهيم، فنظر فقال: يعطي الله تعالى لك ولذريتك مقدار مد بصرك من الملك) وهي أرض فلسطين وأردن وما حولهما، فقال موسى لقومه: (ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) يعني التي جعل لأبيكم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولكم ميراث منه.

وقال القتبي: أصل الكتاب، ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ ثم يتفرع منه المعاني، ويقال كتب، يعني، قضى كما قال: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) ويقال: كتب أي فرض، كما قال: (كتب عليكم الصيام) أي فرض، ويقال: (كتب عليكم) أي جعل كما قال: (فاكتبنا مع الشاهدين) ويقال: كتب أي أمر كما قال ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) يعني أمر الله لكم بدخولها. قال: ويقال: كتب ها هنا بمعنى جعل. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَرتَدُّوا عَلى أَدْبَارِكُمْ﴾ يعني لا ترجعوا عما أمرتم به من الدخول ﴿فَتَنْقَلِبُوا﴾ أي فتصيروا ﴿خَاسِرِيْنَ﴾ بفوات الدرجات ووجوب الدركات أي مغبونين في العقوبة. فبعث موسى ـ عليه السلام ـ اثني عشر رجلاً، من كل سبط رجلاً يأتيهم بخبر الجبارين، فلما أتوهم لقيهم بعض أصحاب تلك المدينة جاءوا وأخذوا أصحاب موسى، فجعل كل رجل، رجلين من أصحاب موسى ـ عليه السلام ـ في كمه حتى جاءوا بهم إلى الملك، ويقال: لقيهم رجل واحد اسمه «عوج»، فاحتملهم في ثوبه، وأتى بهم حتى ألقاهم بين يدي الملك؛ فنظر إليهم، وقال هؤلاء يريدون أن يأخذوا مدينتنا، فأراد قتلهم، فقالت امرأته (ايش تصنع بقتل هؤلاء الضعفاء)؟ ويكفيهم ما رأوا من أمر القوم وأمر هذه البلدة، فأَنْعِم عليهم، ودعهم حتى يرجعوا ويذهبوا إلى موسى وقومه بالخبر، فأرسلهم الملك، وأعطاهم عنقوداً من العنب فحملوه على عمودين فرجعوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ وقالوا: فيما بينهم لا تخبروا قوم موسى بهذا الخبر، فإنهم يجبنون عن القتال، والله تعالى قد وعد لموسى، بأن يفتح عليهم هذه البلدة، ولا تخبروا أحداً سوى موسى[(٣)]. فلما رجعوا أخبروا بخبرهم إلا اثنين منهم وهو يوشع بن نون وكالب بن يوقنا، فلما أمر موسى قومه بدخول البلدة. ﴿قَالُواْ يَا مُوْسَى إِنَّ فِيْهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾ قال مقاتل: يعني طول كل رجل منهم ستة أذرع ونصف[(٤)]. وقال الكلبي:[(٥)] طول كل رجل منهم ثمانون ذراعاً. وقال الزجاج: الجبار من الآدميين العاتي، وهو الذي يجبر الناس على ما يريد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخرجُوا مِنْهَا﴾ يعني من تلك البلدة وهي الأرض المقدسة، واسمها إيلياء، ويقال: مدينة أخرى يقال لها أريحا. ﴿فَإِنْ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ يعني يوشع بن نون، وكالب ﴿مِنَ الَّذِيْنَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١١٣/(٣٠١)، والترمذي ٥٧٤/٤ في الزهد (٢٣٤٦) وقال حسن غريب، وابن ماجه ١٣٨٧/٢ في الزهد (٤١٤١).

(٢) سقط في أ.

(٣) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ٧١/٣ وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخباراً من وضع بني إسرائيل.

(٤) انظر تفسير مقاتل ٣٠٧/١ وفيه سبعة أذرع ونصف.

(٥) انظر تفسير القرطبي ٨٣/٦.

بالإسلام، ويقال: من الذين يخافون الجبارين، (أنعم الله عليهما) فلم يخافا وصدقا في مقالتهما ﴿ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ وهي أريحا أو إيلياء ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ يعني أن القوم إذا أرادوا كثرتكم، انكسرت قلوبهم وانقطعت ظهورهم، فتكونوا غالبين، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوكلوا﴾ يعني فثقوا بأنه ناصركم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾ يعني مصدقين بوعد الله تعالى فقال لهم موسى: ادخلوا عليهم ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى﴾ أتصدق اثنين، وتكذب العشرة ﴿إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُواْ فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ يعني قل لربك أن ينصرك عليهم كما نصرك على فرعون. وقال أبو عبيدة: يعني اذهب فقاتل، وليقاتل معك ربك، وليتم أمرك كما أتم قبل ذلك، فهو يعينك فإنا لا نستطيع قتال الجبابرة. ويقال: اذهب أنت وربك، يعني أنت وسيدك هارون، لأن هارون كان أكبر منه بسنتين أو بثلاث سنين ﴿فَقَاتِلَا، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾. فغضب موسى عليه السلام من قولهم: ﴿قال: رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيْ﴾ هارون وقال الزجاج: لا أملك إلا نفسي وأخي، يحتمل [معنيين: أحدهما: لا أملك إلا نفسي][1]، وأخي لا يملك إلا نفسه. ويحتمل: لا أملك إلا نفسي وأخي لأن أخاه كان مطيعاً له، فهو يملك طاعته. ثم قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِيْنَ﴾ يعني أقض بيننا وبين القوم العاصين. ثم ﴿قَالَ الله تعالى فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الأرض المقدسة دخولها محرم عليهم ﴿أَرْبَعِيْنَ سَنَةً﴾ ثم قال: ﴿يَتِيْهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ضلالاً، يعني يتحيرون فيها، ولا يعرفون وجه الخروج منها ضلالاً في التيه. ويقال: فإنها محرمة عليهم، وتم الكلام، ثم قال: أربعين سنة يتيهون في الأرض فعمي عليهم السبيل، فحبسهم بالنهار وسيّرهم بالليل يسهرون ليلتهم، ويصبحون حيث أمسوا، وكان التيه بين فلسطين وايلة ست فراسخ في اثني عشر فرسخاً، فمكثوا فيها أربعين سنة لم يقدروا على الخروج منها. قال بعضهم: لم يكن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ في التيه. لأن الأنبياء لا يعذبون، وقال بعضهم: كانا فيه، وسهل الله تعالى عليهما، كما سهل على إبراهيم ـ عليه السلام ـ النار وجعلها برداً وسلاماً. ويقال: إن موسى وهارون قد ماتا في التيه، وهلكت تلك العصابة ولم يبق منهم إلا يوشع وكالب، فخرج يوشع بذرياتهم إلى تلك المدينة وفتحوها عند غروب الشمس. وذكر في الخبر أن يوشع دعا بأن ترد الشمس فردت ثلاث ساعات حتى فتحوا البلدة، فاختلفت النجوم عن مجاريها من ذلك اليوم. فخفي على المنجمين، فلما بقوا في التيه ندم موسى على دعائه. فأوحى الله تعالى إليه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِيْنَ﴾ يعني لا تحزن على قوم سميتهم فاسقين. وقال بعضهم: هذا الخطاب لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تحزن على قومك إن لم يؤمنوا. ويقال: (أربعين سنة) صار نصباً بمعنى يتيهون، لأن في التفسير إن دخلوها لم يكن محرم عليهم أبداً (كذا قاله ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ[2]) وإنما دخلها أولادهم. وقال قوم حرمت أربعين سنة فكانوا يتيهون أربعين سنة، وفتحوا. قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) سقط في أ.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٠/١٩٣.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اقرأ على قومك ﴿نَبَأَ﴾ يعني خبر ﴿ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالصدق ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ وذلك أن حواء ـ عليها السلام ـ ولدت غلاماً وجارية في بطن واحـد، قابيل وأخته إقليما، ثم ولدت في بطن آخر هابيل وأخته ليوذا، فلما كبروا أمر الله تعالى بأن يزوج كل واحد منهما أخت صاحبه، وكانت أخت قابيل أحسن فأبى قابيل وقال: بل زوج كل واحد منا أخته، فقال آدم: إن الله تعالى أمرني بذلك، فقال له قابيل: إن الله تعالى لم يأمرك بهذا، ولكنك تميل إلى هابيل، فأمرهما بأن قربا قرباناً، فأيكما تقبل قربانه، كان أحق بها فعمد قابيل، وكان صاحب زرع إلى شر زرعه، ووضعه عند الجبل وعمد قابيل، وكان صاحب مواشي إلى خير غنمه، فوضعها عند الجبل، وكان قابيل يضمر في قلبه أنه إن تقبل منه أو لم يتقبل لا يسلم إليه أخته، فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل، وكان ذلك علامة القبول، وتركت قربان قابيل، فذلك قوله: إذ قربا قرباناً يعني وضعا قرباناً ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ يعني هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ يعني قابيل، فـ ﴿قَالَ﴾ قابيل لهابيل ﴿لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ﴾ ولم؟ قال: لأن الله قد قبل قربانك، ورد عليّ قرباني، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِيْنَ﴾ ولم يكن الذنب مني، وإنما لم يتقبل منك لخيانتك وسوء نيتك. وقال بعض الحكماء: العاقل من يخاف على حسناته، لأن الله تعالى قال: (إنما يتقبل الله من المتقين) والخاسر من يأمن من عذاب الله لأن الله تعالى قال: (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون). قوله تعالى: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ يعني هابيل قال لقابيل، لئن مددت إلي يدك ﴿لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِيْنَ﴾ ثم قال: ﴿إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يعني، إني أريد أن ترجع بإثمي، يعني بقتلك إياي، وبإثمك الذي عملت قبل قتلي وهي الخيانة في القربان وغيره. ويقال إني أريد أن ترجع بإثمي يعني أن لا أبسط يدي إليك، لترجع أنت بإثمي وإثمك، ولا يكون علي من الإثم شيء. ويقال: معناه إني أريد أن تؤخذ بإثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني لكي لا يكون من أصحاب النار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِيْنَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيْهِ﴾ يعني تابعت له نفسه على قتل أخيه، (ويقال: انقادت له طاعة نفسه. وقال قتادة:[1] زينت له نفسه بقتل أخيه) ﴿فَقَتَلَهُ﴾. قال بعضهم: إنه كان لا يدري كيف يقتله، حتى جاء إبليس فتمثل عنده برجلين فأخذ أحدهما حجراً ولم يزل يضرب الآخر حتى قتله فتعلم ذلك منه. وقال بعضهم: بل كان يعرف ذلك بطبعه، لأن الإنسان وإن لم ير القتل فإنه يعلم بطبعه أن النفس فانية ويمكن إتلافها، فأخذ حجراً وقتله بأرض الهند، فلما رجع إلى آدم قال له: ما فعلت بهابيل، فقال له قابيل: أجعلتني رقيباً على هابيل؟ فذهب حيث يشاء، فبات آدم تلك الليلة محزوناً، فلما أصبح قابيل رجع إلى الموضع الذي قتله، فرأى غراباً وقال بعضهم: كان يحمله على عاتقه أياماً لا يدري ما يصنع به؟ حتى رأى غراباً ميتاً، فجاء غراب آخر، وبحث التراب برجليه، ودفن الغراب الميت في التراب فذلك قوله تعالى: فقتله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾ يعني فصار من المغبونين في العقوبة. قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾ وقابيل ينظر إليه وقال القتبي: هذا من الإختصار، ومعناه، بعث غراباً يبحث التراب على غـراب الميـت ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيْهِ﴾ يعني كيف يغطي عورة أخيه ﴿قَالَ﴾ قابيل عند ذلك: ﴿يَا وَيْلَتَا[2] أَعَجَزْتُ﴾ يعني أضعفت في الحيلة ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٠/٢٢١.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (يا ويلتي ويا حسرتي ويا أسفي فأمالا. وحجتهما: أن النية فيها إضافة الويل والحسرة والأسف إلى نفسه فكأنه=

﴿هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ يعني فأغطي عورة أخي، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِيْنَ﴾ على حمله حيث لم يدفنه حين قتله. قال ابن عباس[1]: ولو كانت ندامته على قتله، لكانت الندامة توبة منه، ويقال: إن آدم وحواء أتيا قبره، وبكيا أياماً عليه، ثم إن قابيل كان على ذروة جبل فنطحه ثور فوقع على السفح، فتفرقت عروقه. ويقال: دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض. وقال مقاتل:[2] كان قبل ذلك السباع والطيور تستأنس بآدم فلما قتل قابيل أخاه هربوا، فحلقت الطيور بالهواء، والوحوش بالبرية، والسباع بالغياض فتزوج شيت ـ عليه السلام ـ بإقليما وروي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا تقتل نفس ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سن القتل[3]. وقال بعضهم: هذه القصة كان في بني إسرائيل وهما أخوان قتل أحدهما الآخر، ولكن هذا خلاف قول المفسرين[4]. قال الله تعالى:

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ يعني من أجل خيانة ابن آدم حين قتل أخاه، ﴿كَتَبْنَا﴾ يعني فرضنا ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وغلّظنا وشدّدنا في التوراة ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يعني قتل نفساً بغير أن يقتل نفساً ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾ يعني بغير فساد في الأرض، وهو الشرك بالله. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾. يعني إذا قتل نفساً بغير جُرم، واستحل قتله، فكأنه قتل الناس جميعاً يعني إذا قتل نفساً فجزاؤه جهنم خالداً فيها. ثم قال ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ يعني نجّاها من غرق، أو حرق، أو يعفو عن القتل ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ يعني له من الأجر كأنما أحيا الناس جميعاً، لأن في حياة نفس واحدة يكون منفعة لجميع الناس، لأنه يدعو لجميع الخلق، ثم قال ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا[5] بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالبيان في الأمر والنهي ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً

= في المعنى: يا ويلتي ويا حسرتي فلما جعل الياء ألفاً أمالاها ليعلما أن أصلها كان ياء لأن الإمالة من الياء.

وقرأ الباقون بغير إمالة وحجتهم أنها ألف الندبة ولا أصل لها في الإمالة. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٤.

(١) انظر تفسير ابن عباس ٧٤. (٢) انظر تفسيره ١/٣١٢.

(٣) أخرجه البخاري ٦/٣٦٤ في كتاب أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم ٣/١٣٠٤ في القسامة (٢٧/١٦٧٧).

(٤) انظر تفسير الطبري ١٠/٢٠٨.

(٥) قرأ أبو عمرو (رسْلنا) و (رسْلكم) و (رسْلهم) بإسكان السين إذا كان بعد اللام أكثر من حرف وكذلك مذهبه في: (سبلنا).

فإذا كان بعد اللام حرف ضم السين مثل (رسُله) وحجته أنه استثقل حركة بعد ضمتين لطول الكلمة وكثرة الحركات فأسكن السين=

﴿مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ يعني لمشركون تاركون لأمر الله تعالى. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إن للتأكيد، وما: صلة يحاربون الله ورسوله، يعني يخالفون الله ورسوله، ويتركون أمر الله وأمر رسوله مجاهرة وعياناً ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بالقتل وأخذ المال. ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾. قال مقاتل: نزلت هذه الآية في سبعة نفر من بني عرينة، قدموا المدينة فاجتووها، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو خرجتم إلى إبلنا وأصبتم من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا، ثم مالوا على الرعاة فقتلوهم وساروا بالإبل وارتدوا عن الإسلام، فأرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في آثارهم علياً، فأتى بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم وتركهم بالحَرَّة حتى ماتوا(1)، وهذا قبل أن تنزل آية الحدود. وروى أسباط عن السدي(2) قال: نزلت في سودان عرينة، فأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمثل بهم فنهاه الله تعالى عن ذلك وأمره أن يقيم فيهم الحد الذي أنزل عليه. وقال سعيد بن جبير(3) أنه مثل بهم ثم نزل بعد ذلك: (إنما جزاء الذين يحاربون الله الآية). وقال ابن عباس(4) في رواية أبي صالح: وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بردة، هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن، ومن أتـى المسلمين منهم فهو آمن فمر أناس من بني كنانة يريدون الإسلام، فمروا بأصحاب أبي بردة ولم يكن أبو بردة حاضراً يومئذ فخرج أصحابه إليهم، فقتلوهم وأخذوا أموالهم فنزلت هذه الآية: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسولـه . . الآية) ثم صارت الآية عامة في جميع الناس. واختلف العلماء في حكمهم:(5) وهم قطاع الطريق وهم ثلاثة أصناف: صنف يأخذ المال ولا يقتـل،

= والباء فإذا قصرت الكلمة لم يسكن السين. وقرأ الباقون بضم السين. وحجتهم أن بناء (فعول) (وفعيل) على (فُعُل) بضم العين في كلام العرب ولم تدع ضرورة إلى إسكان الحرف فتركوا الكلمة على حق بنيتها. انظر حجة القراءات ٢٢٥.

(1) أخرجه البخاري ٣/٤٢٨ (١٥٠١)، في كتاب الزكاة، أخرجه مسلم ٣/١٢٩٦ في كتاب القسامة ٩/١٦٧١ وقولـه واجتووهـا: معناه: ـ استوخموها. أي لم توافقهم وكرهوها لسقم أصابهم قالوا: وهو مشتق من الجوى وهو داء في الجوف.

(2) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٠/٢٥١.

(3) انظر الدر المنثور ٢/٢٧٨. (4) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٠/٢٤٣.

(5) قال ابن كثير في تفسيره: المحاربة هي المخالفة والمضادة وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر وقد قال الله تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ فإذا علمت ذلك فاعلم أن المحارب الذي يقطع الطريق ويخيف السبيل ذكر الله أن جزاءه واحدة من أربع خلال هي: ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾. وظاهر هذه الآية الكريمة: أن الإمام مخير فيها بفعل ما يشاء منها بالمحارب كما هو مدلول أو لأنها تدل على التخيير.

ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ وقوله تعالى: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة﴾ وقوله تعالى: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾.

وكون الإمام مخيراً بينهما مطلقاً من غير تفصيل هو مذهب مالك، وبه قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك كما نقله عنهم ابن جرير وغيره وهو رواية ابن أبي طلحة عن ابن عباس ونقله القرطبي عن أبي ثور وسعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد والضحاك والنخعي ومالك وقال وهو مروي عن ابن عباس.

ورجع المالكية هذا القول بأن اللفظ فيه مستقل غير محتاج إلى تقدير محذوف لأن اللفظ إذا دار الإستقلال والإفتقار إلى تقدير محذوف فالاستقلال مقدم لأنه هو الأصل إلاَّ بدليل منفصل على لزوم تقدير المحذوف وإلى هذا أشار في (مراقي السعود) بقوله:

كـذلـك مـا قـابـل ذا احـتـلال مـن الـتـأصـل والاسـتـقـلال =

وصنف يأخذ المال ويقتل، وصنف يقتل ولا يأخذ المال، قال بعضهم: إذا وجد من إنسان صنف من هذه الأصناف فللإمام أن يقيم عليه أي العقوبات شاء، لأن الله تعالى قال: (أن يقتلوا، أو يصلبوا. . .) فقد خُيِّر في عقوبتهم وهو قول الحسن وعطاء[1]. وقال بعضهم: لكل صنف عقوبة على حدة. والاختيار عند أصحابنا رحمهم الله أنه إن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن قتل ولم يأخذ المال: قتل، وإن قتل وأخذ المال: قطع وقتل عند أبي حنيفة، وعند أبي يوسف ومحمد رحمهما الله يقتل ولا يقطع. وروي عن سعيد بن جبير[2] أنه قال: إن قَتل قُتل، وإن قَتل وأخذ المال قطع ثم صلب. وروي عن ابن عباس نحو هذا[3] ويكون أو بمعنى الواو فكأنه قال: أن يقتلوا ويصلبوا ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾. وقال بعضهم: يقتل ثم يصلب على وجه النكال والعبرة. وقال بعضهم: يصلب حياً ثم يطعن في لبته، يخضخض حتى يموت. قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني يطلب حتى لا يجد قراراً في موضع ويقال: (ينفوا من الأرض) يعني يحبس فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها، فصار كأنه نفي عن الأرض. واحتج هذا القائل بقول بعض أهل السجن في ذلك:

خَرَجْنَا من الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا فَلَسْنَا من الأمواتِ فيها ولاَ الأَحْيَا
إذا جاءنَا السَّجَّان يَوْماً لِحَاجَةٍ عَجِبْنَا، وقلنا: جَاءَ هذا من الدُّنْيَا[4]

= إلى قوله:

كذاك ترتيب لإيجاب العمل بماله الرجحان مما يحتمل

والرواية المشهورة عن ابن عباس أن هذه الآية منزلة على أحوال وفيها قيود مقدرة وإيضاحه: أن المعنى أن يُقتلوا إذا قَتلوا ولم يأخذوا المال، أو يُصلبوا إذا قَتلوا وأخذوا المال، أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إذا أخذوا المال ولم يَقْتلوا أحداً، أو يُنْفوا من الأرض إذا أخافوا السبيل ولم يَقْتلوا أحداً ولم يأخذوا مالاً. وبهذا قال الشافعي وأحمد وأبو مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني وغير واحد من السلف والأئمة.

قاله ابن كثير ونقله القرطبي وابن جرير عن ابن عباس وأبي مجلز وعطاء الخراساني وغيرهم.

ونقل القرطبي عن أبي حنيفة إذا قَتلَ قُتل، وإذا أخذ المال ولم يَقْتُل قُطِعت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المال وقَتل فالسلطان مخير فيه إن شاء قطع يده ورجله وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه، ولا يخفى أن الظاهر المتبادر من الآية هو القول الأول. لأن الزيادة على ظاهر القرآن بقيود تحتاج إلى نص من كتاب، أو سنة، وتفسير الصحابي لهذا بذلك ليس له حكم الرفع لإمكان أن يكون عن اجتهاد منه ولا نعلم أحداً روى في تفسير هذه الآية بالقيود المذكورة خبراً مرفوعاً إلا ما رواه ابن جرير في تفسيره عن أنس حدثنا علي بن سهل.

قال: حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرنيين إلى أن قال قال أنس: (فسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) جبريل عن القضاء فيمن حارب فقال: من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته، ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه) وهذا الحديث لو كان ثابتاً لكان قاطعاً للنزاع ولكن فيه ابن لهيعة، ومعلوم أنه خلط بعد احتراق كتبه ولا يحتج به، وهذا الحديث ليس رواية عن ابن المبارك ولا ابن وهب: لأن روايتهما عنه أعدل من رواية غيرهما وابن جرير نفسه يرى عدم صحة هذا الحديث الذي ساقه لأنه قال في سوقه للحديث المذكور: وقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتصحيح ما قلنا في ذلك بما في إسناده نظر وذلك ما حدثنا به علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم إلى آخر الإسناد الذي قدمنا آنفاً وذكرنا معه محل الغرض من المتن ولكن هذا الحديث وإن كان ضعيفاً فإنه يقوي هذا القول الذي عليه أكثر أهل العلم ونسبه ابن كثير للجمهور. انظر أضواء البيان ٢/٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩.

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/٣٥٩.
(٢) أخرجه ابن جرير عنه انظر التفسير ١٠/٢٦٠.
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) انظر تفسير القرطبي ٦/١٠٠، وانظر روح المعاني للألوسي ٦/١١٩.

ويقال: ينفى إلى دار الحرب. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني ذلك القتل والقطع لهم عذاب وعقوبة في الدنيا ولا يكون ذلك كفارة لذنوبهم إن لم يتوبوا ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي أشد مما كان في الدنيا وهو عذاب النار. ثم استثنى فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهِم﴾ يعني رجعوا عن صنيعهم قبل أن يؤخذوا ويردوا المال فلا يعاقبون في الدنيا ولا في الآخرة ويغفر الله تعالى لهم ذنوبهم وذلك قوله: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لذنوبهم رحيم حين قبل توبتهم. قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾ يعني احذروا المعاصي لكي تنجوا من عذاب الله ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيْلَةَ﴾ يعني اطلبوا القرابة والفضيلة بالأعمال الصالحة. ﴿وَجَاْهِدُواْ فِيْ سَبِيْلِهِ﴾ يعني في طاعته. ويقال: جاهدوا العدو ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لكي تنجوا من العقوبة وتنالوا الثواب. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاْ فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَاْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول: إن الكافر إذا عاين العذاب ثم تكون له الدنيا جميعاً ومثلها معها، فيقدر على أن يفتدي بها من العذاب لافتدى بها، يقول الله تعالى لو كان ذلك لهم ففعلوه ﴿مَاْ تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك النداء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أي وجيع ثم قال تعالى: ﴿يُرِيْدُونَ أَنْ يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَاْ هُمْ بِخَاْرِجِيْنَ مِنْهَاْ﴾ وذلك أنهم يريدون أن يخرجوا من الأبواب فتستقبلهم الملائكة فيضربونهم بمقامع من حديد، ويردونهم إليها ﴿وَلَهُمْ عَذَاْبٌ مُقِيْمٌ﴾ دائم أبداً. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن قوماً يخرجون من النار بعدما يدخلونها قيل له: سبحان الله أليس الله يقول: (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) فقال جابر: (اقرأوا ـ إن شئتم ـ أول الآية (إن الذين كفروا يعني هذا للكفار خاصة دون العاصين من المؤمنين) قوله تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)﴾

﴿وَالسَّاْرِقُ وَالسَّاْرِقَةُ﴾ بدأ بالرجل لأن السرقة في الرجال أكثر، وقال في الزنا: (الزانية والزاني) بدأ بالنساء لأن الزنا في النساء أكثر، وهن الفاتنات للرجال ﴿فَاْقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾ روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: (فاقطعوا أيمانيهما) وغيره قرأ: أيديهما، واتفقوا أن المراد به اليمين من الكرسوع. نزلت الآية في «طعْمَة بن أُبَيْرق»، ثم صارت الآية عامة في جميع السُّرَّاق[1]. وقال بعضهم: إذا سرق قليلاً أو كثيراً يجب القطع واحتج لظاهر الآية. روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده[2]، ويسرق الحبل فتقطع يده. وروي عن ابن الزبير أنه قطع في نعل ثمنه درهم، وقال: لو سرق خيطاً

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري ١٢/٩٧ في كتاب الحدود (٦٧٩٩)، ومسلم ٣/١٣١٤ في كتاب الحدود (٧/١٦٨٧).

لقطعته[(١)]. وقال بعضهم: لا يقطع في أقل من ثلاثة دراهم أو ربع دينار فصاعداً والاختيار عند علمائنا رحمهم الله: أن اليد لا تقطع في أقل من عشرة دراهم[(٢)] وبه جاءت الآثار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن الصحابة رضي الله عنهم. قرأ بعضهم (السارق والسارقة) بالنصب وكذلك قوله: (الزانية والزاني) بالنصب، وإنما جعله نصباً لوقوع الفعل عليه ـ وهو شاذ[(٣)] من القراءة والقراءة المعروفة بالرفع.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/٢٩٥.

(٢) واختلف العلماء فيما يقطع فيه السارق فذهب أكثرهم إلى العمل بحديث عائشة رضي الله عنها وهو حديث الباب أن نصاب السرقة ربع دينار كما ذكره المصنف رحمه الله وإن سرق دراهم أو متاعاً قُوِمَ بالدنانير فإن بلغت قيمته ربع دينار قطع.

روي ذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعائشة وهو قول عمر بن عبد العزيز وإليه ذهب الأوزاعي والشافعي وقال مالك: نصاب السرقة ثلاثة دراهم فإن سرق ذهباً أو متاعاً قُوّم بالدراهم فإن بلغت قيمته ثلاثة دراهم قطعت يده. وقال أحمد: إن سرق ذهباً فبلغ ربع دينار قطع وإن سرق فضة فبلغت ثلاثة دراهم أو ربع دينار قطع عملاً بالخبرين.

قلت: والخبر الثاني فيه الأمر بالقطع في ثلاثة دراهم.

قال الخطابي: والقول الأول أصح وهو الرد إلى ربع دينار لأن الأصل في التقدير في ذلك الزمن الدنانير فجاز أن تقوم بها الدراهم ولهذا كتبت في الصكوك قديماً عشرة دراهم وزنتها سبعة مثاقيل فعرفت الدراهم بالدنانير وذهب أصحاب الرأي إلى أنه لا يقطع في أقل من دينار أو عشرة دراهم معالم السنن ٣/٣٠٢ شرح السنة ١٠/٣١٤. انظر فتح العلام ٦١٠ ـ ٦١١.

(٣) وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي عبلة (والسارقَ والسارقَة) بالنصب على الإشتغال. قال سيبويه: الوجه في كلام العرب النصب كما تقول (زيداً فاضربه) ولكن أبت العامة إلا الرفع يعني عامة القراء وجلهم، ولما كان معظم القراء على الرفع تأوله سيبويه على وجه يصح وهو أنه جعله مبتدأ والخبر محذوف لأنه لو جعله متبدأ والخبر (فاقطعوا) لكان تخريجاً على غير الوجه في كلام العرب ولكان قد تدخل الفاء في خبر أل وهو لا يجوز عنده وقد تجاسر أبو عبد الله محمد بن عمر المدعو بالفخر الرازي ابن خطيب الري على سيبويه وقال عنه ما لم يقله فقال الذي ذهب إليه سيبويه ليس بشيء ويدل على فساده وجوه. الأول أنه طعن في القراءة المنقولة بالمتواتر عن الرسول وعن أعلام الأمة وذلك باطل قطعاً (قلت) هذا تقوّل على سيبويه وقلة فهم عنه ولم يطعن سيبويه على قراءة الرفع بل وجهها التوجيه المذكور وأفهم أن المسألة ليست من باب الاشتغال المبني على جواز الإبتداء فيه وكون جملة الأمر خبره أو لم ينصب الإسم إذ لو كانت منه لكان النصب أوجه كما كان في (زيداً اضربه) على ما تقرر في كلام العرب، فكون جمهور القراء عدلوا إلى الرفع دليل على أنهم لم يجعلوا الرفع فيه على الإبتداء المخبر عنه بفعل الأمر لأنه لا يجوز ذلك لأجل الفاء. فقوله أبت العامة إلَّا الرفع تقوية لتخريجه وتوهين للنصب على الإشتغال مع وجود الفاء، لأن النصب على الاشتغال المرجح على الإبتداء في مثل هذا التركيب لا يجوز إلا إذا جاز أن يكون متبدأ مخبراً عنه بالفعل الذي يفسر العامل في الاشتغال وهنا لا يجوز ذلك لأجل الفاء الداخلة على الخبر فكان ينبغي أن لا يجوز النصب فمعنى كلام سيبويه يقوي الرفع على ما ذكر فكيف يكون طاعناً في الرفع. وقد قال سيبويه وقد يحسن ويستقيم عبد الله فاضربه إذا كان مبنياً على مبتدأ مضمر أو مظهر فأما في المظهر فقولك هذا زيد فاضربه . . . وإن شئت لم تظهر هذا ويعمل عمله إذا كان مظهراً وذلك كقولك (الهلال والله فانظر إليه) فكأنك قلت هذا الهلال ثم جئت بالأمر ومن ذلك قول الشاعر:

وقـائـلـة خَـوْلَان فـانـكـح فـتـاتَـهـمُ وأكـرومـةُ الـحـيـين خـلوٌ كـمـا هـيـا

هكذا سمع من العرب تنشده انتهى. فإذا كان سيبويه يقول وقد يحسن ويستقيم (عبد الله فاضربه) فكيف يكون طاعناً في الرفع وهو يقول أنه يحسن ويستقيم لكنه جوزه على أن يكون المرفوع مبتدأ محذوف الخبر كما تأوله في السارق والسارقة أو خبر مبتدأ المحذوف الخبر كما تأوله في ﴿السارق والسارقة﴾ أو خبر مبتدأ محذوف كقوله (الهلال والله فانظر إليه). وقال الفخر الرازي (فإن قلتَ) يعني سيبويه لا أقول إن القراءة بالرفع غير جائزة، ولكنـي أقول القراءة بالنصب أولى فنقول له هذا أيضاً رديء لأن ترجيح القراءة التي لم يقرأ بها إلا عيسى بن عمر على قراءة الرسول وجميع الأمة في عهد الصحابة والتابعين أمر منكر مردود (قلت) هذا السؤال لم يقله سيبويه ولا هو ممن يقوله وكيف يقوله وهو قد رجح قراءة الرفع على ما أوضحناه؟ وأيضاً فقوله لأن ترجيح القراءة التي لم يقرأ بها إلا عيسى بن عمر على قراءة الرسول وجميع الأمة في عهد الصحابة والتابعين تشنيع وإيهام أن عيسى بن =

وروي عن محمد(١) بن يزيد المبرد أنه قال: رفعه بالابتداء لأن القصد ليس إلى واحد من السراق بعينه [والزناة بعينه](٢) إنما هو كقولك: من سرق فاقطعوا يده، ومن زنا فاجلدوه. ثم قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ يعني عقوبة لهما بما سرقا ﴿نَكَالًا﴾ يعني عقوبة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ جزاء: صار نصباً لأنه مفعول له يعني جزاء بجزاء فعلهما ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ حكم على السارق بقطع اليد. ثم قال عزوجل: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ يعني من بعد سرقته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل بعد السرقة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يعني يتجاوز عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من ذنبه ﴿رَحِيمٌ﴾ به بعد التوبة يعني إذا تاب ورد المال لا تقطع يده. ثم قال عز وجل:

= عمر قرأها من قبل نفسه وليس كذلك بل قراءته مستندة إلى الصحابة وإلى الرسول فقراءته قراءة الرسول أيضاً وقوله وجميع الأمة لا يصح هذا الإطلاق لأن ـ عيسى بن عمر وإبراهيم بن أبي عبلة ومن وافقهما وأشياخهم الذين أخذوا عنهم هذه القراءة هم من الأمة.

وقال سيبويه وقد قرأ ناس ﴿والسارق والسارقة﴾ ﴿والزانية والزاني﴾ فأخبر أنها قراءة ناس، وقوله وجميع الأمة لا يصح هذا العموم.
قال الفخر الرازي: الثاني من الوجوه التي تدل على فساد قول سيبويه أن القراءة بالنصب لو كانت أولى لوجب أن يكون في القراءة من قرأ ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ بالنصب ولما لم يوجد في القراء أحد قرأ كذلك علمنا سقوط هذا القول (قلت) لم يدّع سيبويه أن قراءة النصب أولى فيلزمه ما ذكر وإنما قال سيبويه وقد قرأنا، والسارق والسارقة والزانية والزاني وهو في العربية على ما ذكرت لك من القوة ولكن أبت العامة إلّا القراءة بالرفع ويعني سيبويه بقوله من القوة لو عري من الفاء المقدر دخولها على خبر الإسم المرفوع على الإبتداء وجملة الأمر خبره، ولكن أبت العامة جمهور القراء إلّا الرفع لعلة دخول الفاء إذ لا يصح أن تكون جملة الأمر خبراً لهذا المبتدأ فلما دخلت الفاء رجح الجمهور الرفع ولذلك لما ذكر سيبويه اختيار النصب في الأمر والنهي لم يمثله بالفاء بل عارياً منها. قال سيبويه: وذلك قولك (زيداً اضربه وعمراً أمرر به وخالداً اضرب أباه وزيداً اشتر له ثوباً) ثم قال وقد يكون في الأمر والنهي أن يبني الفعل على الاسم وذلك قوله (عبد الله فاضربه) ابتدأت عبد الله فرفعت بالابتداء ونبهت المخاطب له ليعرفه باسمه ثم بنيت الفعل عليه كما فعلت ذلك في الخبر فإذا ـ قلت (زيداً فاضربه) لم يستقم لم تحمله على الابتداء ألا ترى أنك لو قلت (زيد فمنطلق) لم يستقم فهذا دليل على أنه لا يجوز أن يكون مبتدأ يعني مخبراً عنه بفعل الأمر المقرون بالفاء الجائز دخولها على الخبر، ثـم قال سيبويه فإن شئت نصبته على شيء هذا يفسره لما منع سيبويه بالرفع فيه على الابتداء وجملة الأمر خبره لأجل الفاء أجاز نصبه على الإشتغال لا على أن الفاء هي الداخلة في خبر المبتدأ وتلخيص ما يفهم من كلام سيبويه أن الجملة الواقعة أمراً بغير فاء بعد إسم يختار فيه النصب يجوز فيه الابتداء وجملة الأمر خبره فإن دخلت عليه الفاء فإما أن تقدرها الفاء الداخلة على الخبر أو عاطفة، فإن قدرتها الداخلة على الخبر فلا يجوز أن يكون ذلك الإسم مبتدأ وجملة الأمر خبره إلا إذا كان المبتدأ أجري مجرى اسم الشرط لشبهه به وله شروط ذكرت في النحو وإن كانت عاطفة كان ذلك الإسم مرفوعاً إما مبتدأ كما تأول سيبويه في قوله (والسارق والسارقة) وإما خبر مبتدأ محذوف كما قيل (القمر والله فانظر إليه) والنصب على هذا المعنى دون الرفع لأنك إذا ـ نصبت احتجت إلى جملة فعلية تعطف عليها بالفاء وإلى حذف الفعل الناصب وإلى تحريف الفاء إلى غير محلها فإذا قلت (زيداً فاضربه) فالتقدير (تنبه فاضرب زيداً اضربه) حذفت (تنبه) وحذفت (اضرب) وأخرت الفاء إلى دخولها على المفسر وكان الرفع أولى لأنه ليس فيه إلا حذف مبتدأ أو حذف خبر فالمحذوف أحد جزأي الإسناد فقط والفاء واقعة في موقعها ودل على ذلك المحذوف سياق الكلام والمعنى قال سيبويه وأما قوله عز وجـل ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كـل واحد منهمـا﴾ ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فإن هذا لم يبن على الفعل ـ ولكنه جاء على مثل قوله تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ ثم قال بعد ﴿فيها أنهار﴾ فيها كذا وكذا فإنما وضع مثل للحديث الذي بعده وذكر بعد أخبار وأحاديث كأنه قال ومن القصص مثل الجنة أو مما نقص عليكم مثل الجنة فهو محمول على هذا الإضمار أو نحوه والله أعلم. انظر البحر المحيط ٤٧٦/٣، إلى ٤٨٠.

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه توفي سنة ٢٨٦ هـ. انظر الأعلام ١٤٤/٧.

(٢) سقط في ظ.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاْتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض. يعني خزائن السموات: المطر وخزائن الأرض: النبات. ويقال: له ملك السموات والأرض يحكم فيها ما يشاء ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ إذا أصر على ذنوبه ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ إذا تاب ورجع، ومعناه أن السارق إذا تاب ورد المال لا يقطع ويتجاوز عنه وإن لم يتب قطعت يده. ألا ترى أن الله تعالى قال: (له ملك السموات والأرض، يعذب) إذا لم يتب ويتجاوز إذا تاب، فافعلوا أنتم مثل ذلك لأن الله تعالى مع قدرته يتجاوز عن عباده وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ من المغفرة والعذاب. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُوْلُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِيْنَ يُسَارِعُونَ فِيْ الْكُفْرِ﴾ نـزلت في شأن «أبي لبـابة بن عبد المنذر»، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما حاصر بني قريظة فأشار إليهم أبو لبابة وكان حليفاً لهم، إنكم إن نزلتم من حصونكم قتلكم فلا تنزلوا، فنزلت هذه الآية (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) أي يبادرون ويقعون في الكفر ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوْا: آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني ذلك بألسنتهم ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوْبُهُمْ﴾ في السر. وقال الضحاك(١) نزلت الآية في شأن المنافقين كانت علانيتهم تصديقاً، وسرائرهم تكذيباً. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِيْنَ هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ يعني: قوالون للكذب وقال القتبي: تفسير (سماعون للكذب) أي قابلون للكذب لأن الرجل يسمع الحق والباطل، ولكن يقال: لا تسمعْ من فلان قولاً أي لا تقبله، ومعنى آخر: إنهم يسمعون منك ليكذبوا عليك لأنهم إنما جالسوه لكي يقولوا سمعنا منه كذا وكذا، وإنما صار (سماعون) رفعاً لأن معناه هم (سماعون للكذب) من ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِيْنَ﴾ يعني أهل خيبر لم يأتوك وذلك أن رجلاً وامرأة من أهل خيبر زنيا فكرهوا رجمهما فكتبوا إلى يهود بني قريظة: أن يذهبوا بهما إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن حكم بالجلد رضوا عنه بحكمه، وإن حكم بالرجم لم يقبلوا، وروى نافع عن ابن عمر أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكروا له: أن رجلاً وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: يحمّمان ويجلدان يعني تسود وجوههما فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها آية الرجم فأتوا بالتوراة، فأتوا بها فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها وقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا صدق عبد الله بن سلام يا محمد، فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجما. قال ابن عمر: فرأيت الرجل يحنو على المرأة يقيها

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/٣٠٧.

الحجارة⁽¹⁾. وروى الشعبي عن جابر ابن عبد الله [2] أنه قال: زنا رجل من أهل فَدَك[3] فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة، أن يسألوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فإن أمركم بالحد فحدوه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه، فسألوه فدعا ابن صوريا، وكان عالمهم وكان أعور فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنشُدك الله كيف تجدون حد الزاني في كتابكم؟ فقال ابن صوريا: فأما إذ ناشدتني بالله فإنا نجد في التوراة أن النظر زنية والاعتناق زنية، والقبلة زنية فإن شهد أربعة بأنهم رأوه كالميل في المكحلة فقد وجب الرجم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو ذلك. وروي عن أبي هريرة قال: بينما نحن عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ جاء رجال من اليهود، وقد تشاوروا في صاحب لهم، زنا بعدما أُحصن قالوا: فانطَلقوا فلنسأل هذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن أفتانا بفتوى فيها تخفيف فاحتججنا عند الله تعالى بها، وإن أفتانا بما فرض الله علينا في التوراة من الرجم تركنا ذلك فقد تركنا ذلك في التوراة وهي أحق أن تطاع، فقالوا: يا أبا القاسم: إنه زنى صاحبٌ لنا قد أحصن فما ترى عليه من العقوبة؟ فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقمنا معه حتى أتى بيت مدارس اليهود فوجدهم يتدارسون التوراة، فقال لهم: يا معشر اليهود أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام ما تجدون في التوراة من العقوبة على من زنى وقد أحصن؟ فقالوا: إنا نجد أن يجلد ويحمم، وسكت حبرهم وهو في جانب البيت، فأقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [ينشده فقال له حبرهم إذا ناشدتنا فإنا نجد عليه الرجم فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ] كان أول ما ترخصتم به أمر الله تعالى؟ قال: إنه قد زنى رجل قد أحصن وهو ذو قرابة لملك من ملوكنا فسجنه وأخر عنه الحد وزنى رجل آخر فأراد الملك رجمه فجاء قومه وقالوا: لا ترجمْه حتى ترجم فلاناً فاصطلحوا بينهم على عقوبة دون الرجم وتركوا الرجم، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإني أقضي بينكم بما في التوراة فنزل قوله تعالى: (ومن الذين هادوا سماعون للكذب، سماعون لقوم آخرين) ﴿لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. قال الزجاج: يعني من بعد أن وضعه الله تعالى مواضعه، وأحل حلالة وحرم حرامه ﴿يَقُوْلُوْنَ: إِنْ أُوتِيْتُمْ هَذَاْ فَخُذُوهُ﴾. يعي إن أمركم بالجلد فاقبلوه واعملوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ﴾ يقولون: إن لم يوافقكم على ما تطلبون ويأمركم بالرجم فلا تقبلوا منه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ يعني كفره وشركه ـ. ويقال: فضيحته ويقال: اختباره ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يقول لن تقدر أن تمنعه من عذاب الله شيئاً. ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر ولم يرد أن يدخل حلاوة الإيمان في قلوبهم وخذلهم مجازاة لكفرهم. ﴿لَهُمْ فِيْ الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يعني القتل والسبي والجزية، وهو قتل بني قريظة، وإجلاء بني النضير، ﴿وَلَهُمْ فِيْ الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيْمٌ﴾. أعظم مما كان في الدنيا. ثم قال تعالى.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

﴿سَمَّاْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّاْلُونَ لِلسُّحْتِ﴾. قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي[4] (السحت) بضم الحاء، وقرأ

---

(١) أخرجه البخاري ١٢/١٦٦ في الحدود باب أحكام أهل الذمة (٦٨٤١)، (٧٥٤٣)، ومسلم ٣/١٣٢٦ في الحدود باب رجم اليهود (٢٦/١٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ٤/١٥٦ في الحدود (٤٤٥٢)، وأخرجه مسلم مختصراً ٣/٢٨ في كتاب الحدود (٢٨ م/ ١٧٠١).

(٣) بالتحريك قرية بالحجاز انظر مراصد الإصطلاع ٣/١٠٢٠.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٢٥، وسراج القارىء ١٩٩، شرح شعلة ٣٤٩.

الباقون بضمة واحدة، وهما لغتان، السُّحْتُ، والسُّحُت وهو الاستئصال، يقال: أسحته، وسَحَتُه إذا استأصله، وكانوا يأكلون الرِّشا وكان عاقبته الاستئصال، فسماه به كما قال: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً) «أي يأكلون ما عاقبته نار». وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل لحم نبت بالسحت فالنار أولى به، قالوا يا رسول الله وما السحت؟ قال: الرشوة في الحكم[١]. وقال عليه السلام: لعن الله الراشي والمرتشي[٢]. وروي عن وهب بن منبه[٣] أنه قيل له: الرشوة حرام في كل شيء؟ فقال: لا إنما يكره من الرشوة، أن ترشو لتعطي ما ليس لك، أو تدفع حقاً قد لزمك، فأما إذا أردت أن ترشو لتدفع عن دينك ودمك ومالك فليس بحرام. قال الفقيه أبو الليث: وبهذا القول نأخذ، لا بأس بأن يدفع الرجل عن نفسه وماله بالرشوة[٤]. وهذا كما روي عن عبد الله بن مسعود أنه كان بالحبشة فرشا بدينارين وقال: إنما الإثم على القابض دون الدافع. ثم قال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُم﴾ يعني أهل الكتاب إذا خاصموا إليك فأنت بالخيار، إن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فأعرض عنهم ولا تحكم بينهم، ثم قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. يعني بالعدل، وهو الرجم. ولها وجه آخر: أن الصلح كان بينهم أن تكون جراحات بني قريظة نصف من جراحات بني النضير، وفي القتل كذلك، فأمر الله تعالى بأن يحكم بالعدل بينهم، وهو قوله عز وجل: (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِيْنَ﴾ يعني العادلين في الحكم. وروي عن عكرمة أنه قال: (فإن جاءوك فاحكم بينهم، أو أعرض عنهم). نسختها آية أخرى: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) (وقال مجاهد: لم ينسخ من المائدة إلا آيتان قوله: (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) نسختها، (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله). وقوله: (ولا تحلوا شعائر الله) نسختها، قوله: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقال الزهري[٥]: مضت السنة أن يرد أهل الكتاب في حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم، إلا أن يأتوا راغبين حكم الله، فيحكم بينهم بكتاب الله تعالى. وهذا القول، يوافق قول أبي حنيفة، أن لا يحكم بينهم ما لم يتراضوا بحكمنا. ثم قال:

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير ٣٢٣/١٠ وابن مردويه عن ابن عمر وأخرجه ابن عدي في الكامل ١٩٣٦/٥، والطبراني في الكبير ١٣٦/١٩، وفي الصغير ٢٣٥/١.

(٢) أخرجه بلفظ لعن رسول الله إلخ أحمد في المسند ١٦٤/٢، وأبو داود ٩/٤ ـ ١٠ في الأقضية (٣٥٨٠)، والترمذي ٦٢٣/٣ في ـ الأحكام باب ما جاء في الراشي (١٣٣٧) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه ٧٧٥/٢ في الأحكام ٢٣/٣.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١١٩/٦ ـ ١٢٠.

(٤) انظر كتاب تحقيق القضية في الفرق بين الرشوة والهدية وهو بتحقيقنا.

(٥) انظر تفسير القرطبي ١٢١/٦.

ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ وكيف يقرون بحكمك ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ يعني آية الرجم، وحكم الجراحات، فلم يقروا بها ولا يعملوا بها، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني يعرضون عن العمل به من بعد ما بين الله في كتابهم. ثم قال: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني ليسوا بمصدقين بما عندهم، وهم يقولون: نحن نؤمن بالتوراة وهم كاذبون. ثم قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٞ﴾ يعني بيان الشرائع والأحكام، يعني حكم الرجم والجراحات ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ يعني يقضي بها النبيون الذين أسلموا يعني صدقوا بالتوراة من لدن موسى إلى عيسى، وبينهما ألف نبي، ويقال: أربعة آلاف نبي، ويقال أكثر من ذلك، كانوا يحكمون بما في التوراة ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ يعني كانوا يحكمون لهم وعليهم. ويقال: يحكم بها الأنبياء من لدن موسى إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهذا قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرجم بحكم التوراة. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ قال بعضهم: الربانيون: العلماء والأحبار: القراء. ويقال: الربانيون: الذين في العمل أكثر وفي العلم أقل والأحبار الذين في العلم أكثر، وفي العمل أقل، مثل الفقهاء والعباد. ويقال: كالفقهاء والعلماء.

وقال القتبي: كلاهما واحد وهما العلماء. ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يعني عُلّموا واستودعوا من كتاب الله التوراة، ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ بما في كتاب الله: الرجم وسائر الأحكام ثم قال: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ يعني يهود أهل المدينة لا تخشوا يهود أهل خيبر وأخبروهم بآية الرجم ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ في كتمانه ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ يعني عرضاً يسيراً ثم قال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعني إذا لم يقر، ولم يبين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ قال ابن عباس من يجحد شيئاً من حدود الله فقد كفر ومن أقر ولم يحكم بها فهو فاسق[1] روى وكيع عن سفيان قال: قيل لحُذَيْفة: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) نزلت في بني إسرائيل فقال حُذَيفة نعم الأخوة لكم وبنو إسرائيل كانت لكم كل حلوة ولهم مرة لتسلكن طريقهم قدر الشراك[2]. يعني هذه الآية عامة فمن جحد حكم الله فهو من الكافرين. ثم بين الحكم الذي في التوراة فقال:

وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾ يعني فرضنا على بني إسرائيل في التوراة ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ إذا كان القتل عمداً ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾

(١) أخرجه ابن جرير ١٠/٣٥٧، وانظر تفسير ابن كثير ٣/١١١.

(٢) انظر ابن جرير ١٠/٣٥٠.

إذا كان عمداً ﴿وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ﴾ إذا كان عمداً ﴿وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ﴾ إذا كان عمداً ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ إذا كان عمداً ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ إذا كان عمداً. وروى عكرمة عن ابن عباس[١] أن بني النضير كان لهم شرف على بني قريظة وكانت جراحاتهم على النصف فحملهم على الحق، وجعل دم القرظي والنضيري سواء فقال كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف: لا نرضى بحكمك لأنك تريد أن تصغرنا بعداوتك فنزل: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ثم صارت الآية عامة في جميع الناس في وجوب القصاص في النفس وفي الجراحات. قرأ عاصم وحمزة ونافع[٢]: (أن النفس بالنفس والعين بالعين) والحروف الست كلها بالنصب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر كلها بالنصب غير الجروح فإنهم يقرأونها بالضم على معنى الابتداء وقرأ الكسائي كلها بالضم إلا النفس. ثم قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني عفى عن مظلمته في الدنيا وترك القصاص ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال القتبي: فهو كفارة للجارح وأجر للمجروح. وقال مجاهد: كفارة للجارح وأجر للعافي. وقال بعضهم: هو كفارة للعافي أي يكفر الله تعالى عنه بعفوه بعض ما سلف من ذنوبه. ويقال: كفارة له أي للجارح يعني إذا ترك الولي حقه سقط القصاص عن الجارح. وروى محرر عن أبي هريرة عن رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصيب بشيء في جسده فتركه لله تعالى كانت كفارة له[٣]. وقال الحسن[٤]: ينادي منادٍ يوم القيامة من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا من قد عفى ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني يظلمون أنفسهم، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه فالذي عرض نفسه للعقوبة فقد وضع الشيء في غير موضعه. قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني اتبعنا على أثر الرسل عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني موافقاً لما قبله ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾. يقال: إن عيسى يصدق التوراة ثم قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً﴾ من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يعني بيان الأحكام ﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ يعني الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد وفي بعض الشرائع ﴿وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والفواحش. ثم قال ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ﴾. قرأ حمزة[٥]: (ولِيحكم) بكسر اللام ونصب الميم وقرأ الباقون: بالجزم فمن قرأ بالكسر فمعناه، وآتيناه الإنجيل لكي يحكم أهل الإنجيل ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ ومن قرأ بالجزم فهو على الأمر والمراد به الخبر عن

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/٣٢٦، ٣٢٧، وانظر سنن أبي داود ٤/١٦٨ (٤٤٩٤)، والنسائي ٨/١٨، ١٩ في كتاب القسامة.

(٢) وحجة من رفع (الجروح) ذكرها اليزيدي عن أبي عمرو فقال: (رفع على الإبتداء) يعني: (والجروح من بعد ذلك قصاص). وحجة أخرى هي: إنما اختاروا الانقطاع عن الكلام الأول والاستئناف بـ (الجروح) لأن خبر الجروح يتبين فيه الإعراب وخبر الاسم الأول مثل خبر الإسم الثاني والثالث والرابع والخامس فأشبه الكلام بعضه بعضاً ثم استأنفوا الجروح فقالوا (والجروح قصاص) لأنه لم يكن خبر (الجروح) يشبه أخبار ما تقدمه فعدل (إلى) الإستئناف وحجة الكسائي في ذلك صحة الخبر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قرأ (والعين بالعين والأنف بالأنف) كلها بالرفع قال الزجاج: (رفعه على وجهين: على العطف على موضع (النفس بالنفس) والعامل فيها المعنى وكتبنا عليهم النفس أي قلنا لهم النفس. ويجوز أن يكون (والعين بالعين) على الإستئناف وعند الفراء أن الرفع أجود الوجهين وذلك لمجيء الاسم الثاني بعد تمام خبر الأول وذلك مثل قولك (إن عبد الله قائم وزيد قاعد) وقد أجمعوا على الرفع في قوله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) فكان إلحاق ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى، قرأ نافع (والأذان بالأذن) ساكنة الذال في جميع القرآن كأنه استثقل الضمتين في كلمة واحدة فأسكن، وقرأ الباقون بالضم على أصل الكلمة انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/٤١٢، وانظر الترغيب والترهيب ٣/٣٠٦، وابن كثير ٣/١١٧.

(٤) بنحوه انظر تفسير ابن كثير ٣/١١٥.

(٥) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٧ ـ ٢٢٨، وسراج القارىء ٢٠٠.

أمر قد سبق لهم، يعني أمرهم الله تعالى: أن يحكموا بما في الإنجيل. ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني في الإنجيل وكان ـ حكمهم العفو ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني العاصين. وقوله تعالى:

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني أنزلنا إليك يا محمد الكتاب بالحق، يعني بيان الحق، ويقال: بالعرض والحجة ولم ينزله بغير شيء، ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني موافقاً للتوراة والإنجيل والزبور في التوحيد، وفي بعض الشرائع، ثم قال تعالى: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ يقول: شاهداً على سائر الكتب، بأن الكتاب الأول من الله تعالى، ويقال: (مهيمناً عليه) يعني قاضياً عليه. ويقال: ناسخاً لسائر الكتب. وروي عن ابن عباس[1] أنه قال:) مؤتمناً على ما قبله. وقال القتبي: أميناً عليه. ويقال: ومهيمناً عليه في معنى مؤتمن. إلا أن الهاء أبدلت من الهمزة، كما يقال: هَرَقْتُ الماء، وأرَقْتُه، وإياك، وهياك. ثم قال: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني فاحكم بين الناس بما أنزل الله تعالى في القرآن، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني لا تعمل بأهوائهم ومرادهم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني لا تترك الحكم بما بين الله تعالى في القرآن من بيان الحق، وبيان الأحكام، ثم قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ يقول: جعلنا لكل نبي شريعة، والإيمان واحد، ولم يختلف الرسل في الإيمان، وإنما اختلفوا في الشرائع، قال القتبي: الشرعة والتشريعة واحد، يعني السنة، والمنهاج: الطريق الواضح، وقال الزجاج: الشرعة والدين والمنهاج: الطريق. وقد قيل: هما شيء واحد، وهو الطريق[2]. ويقال: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) معناه فرضت على كل أمة ما علمت أن صلاحهم فيه. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني جعلكم على شريعة واحدة، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليخبركم ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ يعني أمركم من السنن والشرائع المختلفة، ليتبين من يطيع الله فيما أمره ونهاه ومن يعصيه. ثم قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني بادروا بالطاعات وبالأعمال الصالحة، وإلى الصف المقدم، والتكبيرة الأولى، ثم قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين والسنن يوم القيامة. فهذا وعيد وتهديد لتستبقوا الخيرات ولا تتبعوا البدعة ولا تخالفوا الكتاب. ثم قال: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وذلك أن يهود بني النضير قالوا فيما بينهم: إذهبوا بنا إلى محمد ـ عليه السلام ـ لعلنا نفتنه عن دينه وإنما هو بشر، فأتَوْه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعك اليهود، ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك،

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/ ٣٧٨. (٢) انظر المغرب ١/ ١٤٣٩ الصحاح ٣/ ١٢٣٦.

فتقضي لنا عليهم، فنؤمن بك فأبى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك فنزلت هذه الآية. (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) يعني اقض بينهم بما في القرآن. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الحكم ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ يعني يصرفوك ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ وقال في رواية الضحاك تزوج مجوسي ابنته، فجاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطلبت نفقتها، فأمر الله تعالى رسوله أن يفرق بينهما بقوله: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله). وقال في رواية الكلبي: طلبوا منه بأن يحكم بينهم في الدماء على ما كانوا عليه في الجاهلية فنزل: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك). قال القتبي: أصل الفتنة، الاختبار، ثم يستعمل في أشياء يستعمل في التعذيب كقوله: (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) وكقوله: (يوم هم على النار يفتنون) وتكون الفتنة: الشرك كقوله: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)، وتكون الفتنة: العبرة، كقوله: (لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) وتكون الفتنة الصد عن السبيل، كقوله: (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك). ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني أبَوْا أن يرضوا بحكمك ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني يعذبهم في الدنيا، قال الكلبي: يعني بالجلاء إلى الشام، والإخراج من دورهم، وقال الضحاك: يعني يريد الله أن يأمر بهم إلى النار بذنوبهم. ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ يعني رؤساء اليهود ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ يعني لكافرون، والفاسق: هو الذي يخرج عن الطاعة. ثم قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ يعني يطلبون منك شيئاً لم ينزله الله إليك في حكم الزنا والقصاص، كما يفعل أهل الجاهلية. قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام[1]: (تبغون) على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون: بالياء على معنى المغايبة. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً﴾ يقول: ومن أعدل من الله قضاء ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني يصدقون بالقرآن. قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ في العون والنصرة، وذلك أنه لما كانت وقعة أُحد خاف أناس من المسلمين أن يظهروا عليهم الكفار، فأراد من كانت بينه وبين النصارى واليهود صحبة أن يتولوهم ويعاقدوهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) يعني معيناً وناصراً ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني بعضهم على دين بعض ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ يعني من اتخذ منهم أولياء ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ يعني على دينهم ومعهم في النار، ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى الحجة، ويقال: لا يرشدهم ما لم يجتهدوا ويقصدوا الإسلام. ثم بين حال المنافقين فقال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني (شرك) ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ يقول: يبادرون في معاونتهم [ومعاقدتهم][2] وولايتهم

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٢٨، شرح شعلة ٣٥١.
(٢) سقط من ظ.

﴿يَقُولُونَ: نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعني ظهور المشركين. ويقال شدة وجذوبة فاحتجنا إليهم. ويقال: نخشى الدائرة على المسلمين فلا ننقطع عنهم. قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني نصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي أيسوا منه، أو أمر من عنده، يعني من قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير، ويقال: الفتح: أي فتح مكة أو أمر من عنده: يعني الخصب. وقال القتبي: الفتح أن يفتح المغلق، ثم قال: النصرة: فتح لأن النصرة يفتح الله بها أمراً مغلقاً، كقوله: (فإن كان لكم فتح من الله) وكقوله: (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) يعني إظهار نفاقهم، ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِيْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من النفاق ﴿نَادِمِيْنَ﴾ لأن المنافقين لما رأوا من أمر بني قريظة والنضير، ندموا على ما قالوا. ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِيْنَ آمَنُواْ﴾ يعني في ذلك الوقت الذي يظهر نفاقهم ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِيْنَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يقول: إذا حلفوا بالله فهو جهد اليمين ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ على دينكم. قرأ نافع وابن كثير وابن عامر[1]: (يقول الذين آمنوا) بغير واو ومعناه: إن الله تعالى لما بين حال المنافقين بين على أثره حال المؤمنين فقال تعالى: (يقول الذين آمنوا) يعني قال الذين آمنوا بعضهم لبعض، وقرأ أهل الكوفة حمزة وعاصم، والكسائي: (ويقول الذين آمنوا) بالواو وضم اللام ومعناه: (عسى الله أن يأتي بالفتح ويندم المنافقون ويقول الذين آمنوا عند ذلك): (هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم) وقرأ أبو عمرو: (ويقول) بالواو ونصب اللام عطفاً على قوله: (عسى الله أن يأتي بالفتح) وعسى أن يقول الذين آمنوا ثم قال تعالى: ﴿حَبِطَتْ﴾ يعني بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني المنافقين الذين كانوا يحلفون أنهم مع المؤمنين، وعلى دينهم ولم يكونوا معهم، حبطت أعمالهم فلا ثواب لهم في الآخرة ﴿فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِيْنَ﴾ يعني صاروا خاسرين في الدنيا، وفي الآخرة. قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ﴾ قرأ نافع وابن عامر:[2] (ومن يرتدد منكم) بالدالين وقرأ الباقون: بالدال الواحدة مع التشديد، فأما من قرأ: يرتدد فهو الأصل في اللغة، وروي عن أبي عبيدة أنه قال رأيت في مصحف عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بالدالين، وأما من قرأ: (يرتد) لأنه أدغم الدال الأولى في الثانية فأسكن الأولى ثم حرك الثانية إلى النصب لالتقاء الساكنين، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في شأن أهل الردة الذين ارتدوا على عهد أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وذلك أن العرب ارتدوا، وقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فأما من نعطي من أموالنا بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا، وخرج مسيلمة الكذاب فغلب على اليمامة وامتنعوا فشاور أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قتالهم فقال أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف نقاتل قوماً وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى، فقال أبو بكر الصديق: الزكاة من حقها ثم قال: والله لو منعوني عقالاً مما كانوا يؤدونه

(١) انظر شرح شعلة ٣٥١، سراج القارىء ٢٠٠.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٠.

إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقاتلتهم عليه(١). فاتفقت الصحابة على قول أبي بكر وجمعوا العسكر وجاءهم من قبل اليمن سبعة آلاف رجل، واجتمع ثلاثة آلاف من أفناء الناس فخرجوا وأميرهم «خالد بن الوليد» وقاتلهم، وخرج مسيلمة الكذاب مع أهل اليمامة واجتمع الأعراب معه وكان بينهم قتال شديد فقتل يومئذ من المسلمين مائة وأربعون رجلاً ومنهم «ثابت بن قيس بن شماس»، «وسالم مولى أبي حذيفة» وغيرهما فكاد المسلمون أن ينهزموا كلهم حتى نصرهم الله وأظهرهم على أعدائه، وقُتل مسيلمة الكذاب وأصحابه، وتاب أهل الردة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يعني: يحبون الله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني رحيمة لينة على المؤمنين ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقول: شديدة غليظة (على الكافرين) يعني أهل اليمن. وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: أتاكم أهل اليمن هم أَلْيَنُ قلوباً وأرق أفئدة، والإيمان يمان والحكمة يمانة(٢). وروي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: (فسوف يأتي الله بقوم) يعني الجند من جنود الله مردا وعوناً للخليفة أبي بكر يحبهم الله كحب الوالد لولده أذلة على المؤمنين كالعبد لسيده (أعزة على الكافرين) كالسبع على فريسته. ويقال: فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه هو أبو بكر وأصحابه. وقال الحسن:(٣) هو والله أبو بكر وأصحابه وقال الضحاك:(٤) هو أبو بكر وأصحابه لما ارتدت العرب جاهدهم حتى ردهم إلى الإسلام وهذا من شمائل أبي بكر حيث اتفقت الصحابة على رأيه وذكر أنه لما قبض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ همَّ المنافقون أن يُظهروا كفرهم وتحير أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ذلك حتى جاء عمر، وصعد المنبر فقال: من قال إن محمداً قد مات فأنا أفعل به كذا وكذا بل هو حي حتى يخرج إليكم وقد وعدنا الله تعالى أن يظهره على الدين كله. فجاء أبو بكر فقال له: انزل يا عمر فصعد أبو بكر فقال: من كان يعبد محمداً ـ عليه السلام ـ فقد مات محمد ـ عليه السلام ـ ومن كان يعبد الله تعالى فهو حي لا يموت ومن أراد أن يرجع عن دينه فليس بيننا وبينه إلا السيف فخاف المنافقون فكتموا(٥) نفاقهم وقرأ: (إنك ميت وإنهم ميتون) وقرأ: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) فقال عمر: كأني لم أكن سمعت هذه الآية. ثم اختلاف آخر كان في دفنه فقال أبو بكر: يدفن حيث مات، فاتفقوا على قوله ثم اختلاف آخر كان في سقيفة بني ساعدة في الخلافة فاتفقوا على قوله ثم اختلاف أهل الردة وكلهم اتفقوا على قوله فذلك قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني في طاعة الله ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ يعني لا يخافون ملامة الناس بما يعملون من الطاعات ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ يعني ذلك توفيق الله ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يوفق من يشاء، ويقال ذلك دين الله الإسلام يهدي به من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني واسع الفضل عليم بمن يصلح للهدى. قوله تعالى:

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن اليهود أظهروا لنا العداوة وحلفوا أن لا يخالطونا في شيء ومنازلنا فيهم بعيدة من المسجد

(١) أخرجه البخاري ١/٧٥ في الإيمان (٢٥)، ومسلم ١/٥٣ في الإيمان (٣٦/٢٢).
(٢) أخرجه البخاري ٨/٩٨ في المغازي (٤٣٨٨)، ومسلم ١/٧٢ في الإيمان (٨٤ ـ ٥٢/٨٧).
(٣) انظر تفسير الطبري ١٠/٤١١. (٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٠/٤١٢. (٥) فخاف المنافقون فكتموا.

ولا نجد محدثاً دون هذا المسجد فنزلت هذه الآية (إنما وليكم الله ورسوله) يقول: حافظكم وناصركم الله ورسوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فقال: يا رسول الله رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين. وقال الضحاك: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما هاجر إلى المدينة أتاه بنو أسد بن خزيمة وهم سبعمائة رجالهم ونساؤهم فلما قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله اغتربنا وانقطعنا عن قبائلنا وعشيرتنا، فمن ينصرنا فنزل: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)[1]. ثم قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن بلالاً لما أذّن وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس في المسجد يصلون بين قائم وراكع وساجد فإذا هو بمسكين يسأل الناس فدعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم قال: ماذا؟ قال: خاتم فضة، قال: ومن أعطاك؟ قال: ذلك المصلى، قال في أي حال أعطاك؟ قال: أعطاني وهو راكع فنظر فإذا هو عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على «عبد الله بن سلام» (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ يعني يتصدقون في حال ركوعهم حيث أشار بخاتمه إلى المسكين حتى نزع من أصبعه وهو في ركوعه. ويقال يراد به جميع المسلمين أنهم يصلون ويؤدون الزكاة ثم قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني يجعل الله ناصره ويجالس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ يعني جند الله ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ قال محمد بن إسحق نزلت هذه الآية في «عبادة بن الصامت» حين تبرأ من ولاية اليهود يعني يهود بني قينقاع وتولى الله ورسوله فأخبر الله تعالى: أن العاقبة لمن يتولى الله ورسوله فإن الله ينصر أولياءه ويبطل كيد الكافرين فذلك قوله تعالى: (فإن حزب الله هم الغالبون) يعني هم الظاهرون على أعدائه والعاقبة لهم. وقوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾ يعني الذين آمنوا بلسانهم ولم يؤمنوا بقلوبهم. ويقال: أراد به المخلصين نهاهم الله تعالى عن ولاية الكفار. وروى محمد بن إسحق بإسناده عن عبد الله بن عباس قال: كان «رفاعة بن زيد بن تابوت وسويد بن الحارث» قد أظهرا الإسلام ونافقا وكان رجال من المسلمين يوادونهما فأنزل الله تعالى: (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم) الإسلام (هزوا ولعبا)[2] يعني سخرية وباطلاً ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني مشركي العرب. قرأ أبو عمرو والكسائي:[3] (والكفار) بالخفض وقرأ الباقون: بالنصب، فمن قرأ بالخفض فمعناه من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفار أولياء، ومن قرأ بالنصب فهو معطوف على قوله: (لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم ولا تتخذوا الكفار أولياء). ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين فلا تتخذوا الكفار أولياء. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ﴾ يعني إذا أذن المؤذن للصلاة وإنما أضاف النداء إلى جميع المسلمين لأن المؤذن يؤذن لهم ويناديهم

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ١٤٨.
(٢) أسباب النزول للواحدي ١٤٩.
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٠، سراج القارىء ٢٠١.

فأضاف إليهم، فقال: وإذا ناديتم إلى الصلاة﴿اتَّخذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾ يعني الكفار إذا سمعوا الأذان استهزؤوا به وإذا رأوهم ركعاً وسجداً ضحكوا واستهزؤوا بذلك ﴿ذَلِكَ﴾ الاستهزاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني لا يعلمون ثوابه. **وقال الضحاك**: سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل وقال: من أتَّخِذُه مؤذِّناً؟ قال: يا محمد عليك بالعبد الأسود فإنه مشهود في الملائكة وجهير الصوت، وأحبّ المؤذنين إلى الله تعالى، فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلالاً وعلمه الأذان وأمره أن يصعد سطح المسجد ويؤذن فلما أذن سخر منه أهل النفاق وأهل الشرك وكذلك يوم فتح مكة أمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يؤذن على ظهر الكعبة فسخر منه كفار الأعراب وجهالهم فنزل قوله تعالى: (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً) يعني المنافقين واليهود ومشركي العرب. وروى أسباط عن السدي قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكاذب فدخلت خادمته ليلة من الليالي بنار وهم نيام فسقطت شرارة في البيت فاحترق البيت واحترق هو وأهله، واستجيب دعاه في نفسه. وروي عن ابن عباس هذه الحكاية نحو هذا، إلا أنه ذكر اليهودي. وقوله تعالى:

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾
قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ
ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ
قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا**﴾ يقول: ما تطعنون فينا وتعيبوننا ﴿**إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ أي سوى أنا قد آمنا بالله وآمنا بـ ﴿**وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا**﴾ يعني من القرآن ﴿**وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ**﴾ القرآن يعني التوراة والإنجيل ﴿**وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ**﴾ يعني لم تؤمنوا لفسقكم وعصيانكم. وقال الزجاج: معنى (هل تنقمون منا) **هل** تكرهون منا إلا إيماننا وبفسقكم: إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على الحق لأنكم فسقتم ولم تثبتوا على دينكم لمحبتكم الرئاسة ومحبتكم المال. وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ**﴾ قال مقاتل: وذلك أن اليهود قالوا للمؤمنين: ما نعلم أحداً من أهل هذه الأديان أقل حظاً في الدنيا ولا في الآخرة منكم فنزل: (قل هل أنبئكم) يعني أخبركم بشر من ذلك. ﴿**مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ**﴾ يعني ثوابا عند الله فقالت اليهود: من هم؟ قال: ﴿**مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**﴾ فقال المسلمون لليهود: يا إخوة القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم وخجلوا. ومثوبة: صار نصباً للتمييز يعني التفسير. ثم قال: ﴿**وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ**﴾ قرأ حمزة :(وَعَبُدَ الطاغوت) بنصب العين والدال وضم الباء وكسر التاء من الطاغوت، لم يصح في اللغة أن يقال: لجماعة الأعبد وإنما يقال: أعبد ولا يقال عبد، وقرأ الباقون (وعبد الطاغوت) يعني جعل منهم من عبد الطاغوت ومعناه خذلهم حتى عبدوا الشيطان. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: (وعُبَّد الطاغوت)[1] بضم العين ونصب الباء بالتشديد يعني جمع عابد، يقال: عابد وعبَّد مثل راكع وركَّع وساجد

---

(١) قرأ حمزة (وعبد) بضم الباء (الطاغوت) جر يقال (عبد وعبد).

قال الشاعر:

أبني لبينى إن أمكم أمة وإن أباكم عبد

قال الفراء: الباء تضمها العرب للمبالغة في المدح والذم نحو: (رجل حذُر ويقظ) أي مبالغ في الحذر فتأويل (عَبُد) أنه بلغ الغاية =

وسُجَّد، وقرأ ابن مسعود: (وعبدوا الطاغوت) يعني يعبدون الطاغوت وقرأ بعضهم: (وعُبُدَ الطاغوت) بضم العين والباء ونصب الدال وهو جماعة العبيد. ويقال: عبيد وعُبُد على ميزان: رغيف ورُغُف وسرير وسُرُر. ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني شر منزلة عند الله ﴿وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيْلِ﴾ يعني أخطأ عن قصد الطريق وهو الهدى. ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاؤكُمْ قَالُواْ آمَنَّا﴾ وهم المنافقون من أهل الكتاب قالوا صدقنا ووجدنا نعتك وأرادوا بذلك أن يمدحهم المسلمون وهذا كقوله: (ويحبون أن يُحْمدوا بما لم يفعلوا) فأخبر الله تعالى عن حالهم فقال: ﴿وَقَدْ دَخلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ﴾ يعني هم كافرون في الأحوال كلها ولا ينفعهم ذلك القول: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ يعني عليم بمجازاتهم وهذا تهديد لهم. ثم قال:

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾

﴿وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ﴾ يعني المعصية ﴿والعُدْوَانِ﴾ يعني الظلم وهو الشرك ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ يعني الرشوة في الأحكام ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُـواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعني لبئس ما كانوا يتزودون من دنياهم لآخرتهم. ثم قال: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾ يعني هلا ينهاهم الربانيون يعني علماؤهم وعبادهم وإنما شكا من علماء السوء الذين لا يأمرون بالمعروف ويجالسونهم ويؤاكلونهم وكل عالم لم يأمر بالمعروف ويجالس أهل الظلم والمعصية فإنه يدخل في هذه الآية فقال: ﴿وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ حين لم ينهوهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ورضوا بفعلهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك أن الله تعالى قد بسط عليهم الرزق فلما عصوه وجحدوا نعمته قتر عليهم الرزق فقالوا عند ذلك: يد الله محبوسة عن البسط فأمسك عنا الرزق، قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيْهِمْ﴾ يعني أمسكت أيديهم عن الخير ويقال: هذا وعيد لهم غلت أيديهم في نار جهنم. ويقال: جُعِلوا بخلاء فلا يعطون الناس شيئاً مما أعطاهم الله تعالى ثم قال: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُواْ﴾ يعني عُذِّبوا وطُرِدوا من

= في طاعة الشيطان. وكذا قرأ مجاهد ثم فسره وقال: (وخَدَم الطاغوت) قال الزجاج: (وكأن اللفظ لفظ واحد يدل على الجميع كما تقول للقوم: (منكم عبد العصا) تريد: إن فيكم عبيد العصا). والنصب في (عَبَد) من وجهين: أحدهما على: (وجعل منهم عبد الطاغوت) والثاني على الذم على: (أعني عبد الطاغوت).

وقرأ الباقون: (وعبد الطاغوت) ولهم في ذلك حجتان:

إحداهما: النسق على قوله (من لعنه الله) (وعبد الطاغوت) ـ والطاغوت هو الشيطان أي أطاعه فيما سوّل له وأغواه به. والثانية: أن ابن مسعود وأبيّاً قرآ: (وعبدوا الطاغوت) حملا الفعل على معنى (من) لأن (من) واحد في اللفظ وجمع في المعنى. فقراءة العامة على اللفظ وقراءتهما على المعنى كما قال: (ومنهم من يستمعون إليك) على المعنى ثم قال: (ومنهم من ينظر إليك) على اللفظ انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣١ ـ ٢٣٢.

رحمة الله لقولهم ذلك، ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يعني رزقه واسع باسط على خلقه ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يقول: يرزق لمن يشاء مقدار ما يشاء فله خزائن السموات والأرض وهذا كما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: قال الله تعالى: لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم سأل كل رجل ما بلغت أمنيته فأعطيته لم ينقص ذلك من خزائن ملكي مقدار ما يغترف من البحر برأس إبرة واحدة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ يعني من اليهود ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً﴾ يعني تمادياً بالمعصية ﴿وَكُفْراً﴾ وجحوداً بالقرآن، يعني كل ما نزل عليك شيء من القرآن كفروا به، فيزيد جحودهم في طغيانهم، وإنما نسب ذلك إلى ما أنزله، لأن ذلك سبب لطغيانهم وجحودهم وهذا كما قال في آية أُخرى: (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) يعني أن ذلك سبب لخسرانهم. ثم قال تعالى: (وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني جعلهم الله مختلفين في دينهم متباغضين كما قال في آية أُخرى: (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ يقول: كلما أجمعوا أمرهم على المكر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فرقه الله تعالى وأطفأ نار مكرهم أي يسكته الله تعالى ووهن أمرهم وهذا على وجه الكناية كما قال: (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) ثم قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾ يعني يعملون فيها بالمعاصي ويدعون الناس إلى عبادة غير الله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني لا يرضى بعمل الذين يعملون بالمعاصي والله لا يحب أهل الفساد ولا عملهم وقوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿آمَنُوا﴾ يعني صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿واتَّقَوا﴾ الشرك والمعاصي ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُم سَيِّئَاتِهِم﴾ يعني غفرنا ذنوبهم ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يعني أقروا بما فيها وبينوا ما كتموا ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مَنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني بما أنزل إليهم من ربهم، يعني عملوا بما أنزل إليهم من ربهم في كتابهم ويقال: القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني يرزقهم الله تعالى المطر من فوقهم في الوقت الذي ينفعهم ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني النبات من الأرض. وقال الزجاج: هذا على وجه التوسعة يقال: فلان خيره من فوقه إلى قدمه، يعني: لو أنهم فعلوا ما أمروا لأعطاهم الله الخير من فوقهم ومن تحت أرجلهم يعني صاروا في الخير في الدينا والآخرة وروى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فله أجران، ثم قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ يعني عصبة وجماعة عادلة وهم مؤمنو أهل الكتاب من أهل التوراة والإنجيل ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ الذين لم يصدقوا ولم يؤمنوا. قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟

ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وذلك أن اليهود قالوا للنبي ـ عليه لسلام ـ حين دعاهم إلى الإسلام فجعلوا يستهزئون به ويقولون إنك تريد أن نتخذك حَنَّاناً كما اتخذت النصارى عيسى ـ عليه السلام ـ فلما رأى ذلك سكت عنهم فأمره الله أن يدعوهم ولا يمنعه عن ذلك تكذيبهم إياه. فقال: (يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك) من القرآن يعني ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ إن لم تبلغ جميع ما أنزل إليك ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني كأنك لم تبلغ شيئاً من رسالته لأنه أمر بتبليغ جميع الرسالة فإذا ترك البعض صار بمنزلة التارك للكل، كما أن من جحد آية من كتاب الله تعالى صار جاحداً للجميع ويقال: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته يعني فما بلغت المبلغ الذي تكون رسولاً وروى «سمرة بن جندب» عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم فإن كنتم تعلمون أني قد قَصَّرْتُ عن شيء من تبليغ رسالات ربي فأخبروني حتى أبلغ رسالات ربي كما ينبغي لها أن تبلغ فقام الناس فقالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك[(١)]. وروى مسروق عن عائشة قالت: من حَدَّثك أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتم شيئاً من الوحي فقد كذب، ثم قرأت (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... الآية)[(٢)]. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني اليهود ويقال: كيد الكفار. وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرسه أصحابه بالليل حتى نزلت هذه الآية فخرج إليهم وقال: لا تحرسوني فإن الله قد عصمني من الناس[(٣)]. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى دينه ويقال لما نزلت هذه الآية قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أبالي من خذلني من اليهود ومن نصرني. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر[(٤)] (فما بلغت رسالاته) بلفظ الجماعة وقرأ الباقون: (رسالته) بلفظ الواحد يغني عن الجماعة. ثم علّمه كيف يبلغ الرسالة فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الدين ولا ثواب لأعمالكم ﴿حَتَّى تُقِيْمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيْلَ﴾ يعني تعملوا بما في التوراة والإنجيل ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني حتى تقروا بما أنزل على نبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن وتعملوا به. ثم قا: ﴿وَلَيَزِيْدَنَّ كَثِيْراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ يعني تمادياً بالمعصية وكفراً بالقرآن يعني إنما عليك تبليغ الرسالة والموعظة، فإن لم ينفعهم ذلك فليس عليك شيء ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني لا تحزن عليهم إن كذبوك[(٥)]. وروى محمد بن إسحق بإسناده عن ابن عباس أنه قال: جاء رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الضيف وقالوا: يا محمد: ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ وتؤمن بما عندنا من التوراة؟ وتشهد أنها من الله حق؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: بلى ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح ٢/٣٢٥ في باب استحباب استحداث التوبة عند كسوف الشمس وفي إسناده ثعلبة بن عباد العبدي مجهول كما قال ابن المديني وغيره، وأخرجه أحمد في المسند كما في الفتح الرباني ٦/١٨٩ ـ ١٩٢، والنسائي مختصر ٣/١١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٨/١٢٤ في كتاب التفسير (٤٦١٢)، وأخرجه مسلم ١/١٥٩ في كتاب الإيمان (٢٨٧/١٧٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٩٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٢، سراج القارىء ٢٠١.

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٠/٤٧٣.

أحداثكم فقالوا: فإنا قد آمنا بما في أيدينا وإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك فنزل (يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل). قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. قال في رواية الكلبي: هم قوم آمنوا بعيسى ولم يؤمنوا بغيره ولم يرجعوا، ويقال إن الذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون ويقال: في الآية تقديم، يعني (إن الذين آمنوا) من آمن من اليهود والنصارى والصابئين ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فلهم أجرهم عند ربهم. وقال: في هذه السورة (والصابئون) وقال في موضع آخر: (والصابئين) لأنه معطوف على خبر إن وكل اسم معطوف على خبر إن كان فيه طريقان إن شاء رفع، وإن شاء نصب كقوله: (إن زيداً قادم وعمرو، : إن شاء نصب الثاني وإن شاء رفعه كقوله تعالى: (إن الله بريء من المشركين ورسوله). وقد قرأ: ورسوله ولكنه شاذ وكذلك هاهنا جاز أن يقول: (والصابئين) (والصابئون) إلا أن في هذه السورة كتب بالرفع. ثم قال: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني لمن آمن والذين سبق ذكرهم، فلهم ثوابهم عند ربهم الجنة فلا خوف عليهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني عهدهم في التوراة ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني بما لا يوافق هواهم ﴿فَرِيقاً كَذَّبُواْ﴾ مثال عيسى ومن قبله ﴿وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ مثل يحيى وزكريا وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام. فالله تعالى أمر النبي بتبليغ الرسالة وأمره بأن لا يحزن عليهم إن لم يؤمنوا لأنهم من أهل السوء الذين فعلوا هذه الأفعال، ثم قال: ﴿وَحَسِبُواْ أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني ظنوا أن لا يبتلوا بتكذيبهم الرسل، وقتلهم الأنبياء. ويقال: ظنوا أن لا يعاقبوا ولا يصيبهم البلاء والشدة والقحط ويقال: ظنوا أن قتل الأنبياء لا يكون كفراً. ويقال: ظنوا أن لا تفسد قلوبهم بالتكذيب وقتل الأنبياء. قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو: (أن لا تكونُ فتنة) بضم النون، وقرأ الباقون بالنصب[1]، فمن قرأ بالنصب

---

(١) ونصبه بـ (أن) و (لا) لا تفصل بين العامل والمعمول فيه كقولك: (أحب أن تذهب) و (أحب ألا تذهب) وحجتهم قوله: ـ ﴿ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله﴾ كل هذا نصب بـ (أن لا) ولما أجمعنا على إحداهما واختلفوا في الأخرى رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. واعلم أن (أن) تدخل في الكلام على أربعة أضرب.

(أن) الناصبة للفعل وهي التي ذكرناها تقول (أريد أن تخرج).

والثاني (أنْ) الخفيفة عن (أنّ) الثقيلة كقول الأعشى:

في فتية كسيوف الهند قد علموا ... أنْ هالكٌ كل من يحفى وينتعل

أراد: أنه هالك.

والموضوع الثالث: أن تكون بمعنى (أي) كقوله: (أن امشوا) معناه. أي امشوا.

والرابع: أن يكون للتوكيد كقوله: (ولما أن جاءت). انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

بمعنى أن ومن قرأ بالضم يعني حسبوا أنه لا تكون فتنة معناه: حسبوا أن فعلهم غير فاتن لهم. ثم قال تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ يعني عموا عن الحق وصموا عن الهدى فلم يسمعوه ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيهِم﴾ يقول: تجاوز عنهم، ورفع عنهم البلاء فلم يتوبوا ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ ويقال: معناه تاب الله على كثير منهم وعموا وصموا كثير منهم. ويقال: من تاب الله عليهم، يعني بعث محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدعوهم إلى التوراة ثم عموا وصموا بتكذيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ويقال عموا وصموا حين عبدوا العجل، ثم تاب الله عليهم بعدما قتلوا سبعين ألفاً)، وهذا على جهة المثل، يعني لم يعملوابما سمعوا ولم يعتبروا بما أبصروا فصاروا كالعمي والصمي. ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم الرسل، يعني عليم بمجازاتهم. قوله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وذلك أن نصارى أهل نجران يزعمون أنهم مؤمنون بعيسى فأخبر الله تعالى أنهم كافرون بعيسى، وأنهم كاذبون في مقالتهم وأخبر أن المسيح دعاهم إلى توحيد الله، وأنهم كاذبون على المسيح وهو قوله ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوا الله وأطيعوه ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ يعني خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم. ثم قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ يعني ويموت على شريكه ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ أن يدخلها ﴿وَمَأوَاهُ النَّارُ﴾ يعني مصيره إلى النار ﴿وما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يعني ليس للمشركين من مانع يمنعهم من العذاب. ثم أخبر أن الفريق الآخر من النصارى هم كفار أيضاً فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ فيه مضمر معناه: ثالث ثلاثة آلهة. ويقال: ثلث من ثلاثة آلهة يعني أباً وأماً وروحاً قدساً. يعني الله ومريم وعيسى. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يعني هم كاذبون في مقالتهم، ثم أوعدهم الوعيد إن لم يتوبوا فقال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني إن لم يتوبوا ولم يرجعوا عن مقالتهم ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ فهذا لام القسم فكأنه أقسم بأنه ليصيبهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني إن أقاموا على كفرهم. ثم دعاهم إلى التوبة فقال: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ من النصرانية ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عن مقالتهم الشرك فإن فعلوا فإن ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رحيم﴾ بقبول التوبة. ويقال: قوله: (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه) لفظه لفظ الاستفهام والمراد به الأمر فكأنه قال: توبوا إلى الله وكذلك كل ما يشبه هذا في القرآن، مثل قوله: (أتصبرون) يعني اصبروا. ثم بين الله تعالى أن المسيح عبده ورسوله، وبين الحجة في ذلك فقال:

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن
قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ يعني هو رسول كسائر الرسل ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾، وهو من جماعة الرسل ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ شبه النبيين، وذلك حين صدقت جبريل حين قال لها: (إنما أنا رسول ربك). والصديق في اللغة هو المبالغ في التصديق. وقال في آية أخرى: (وصدقت بكلمات ربها). ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ يعني المسيح وأمه كانا يأكلان ويشربان ومن أكل وشرب تكون حياته بالحيلة والرب: لا يأكل ولا يشرب. ويقال: (كانا يأكلان الطعام)، كناية عن قضاء الحاجة لأن الذي يأكل الطعام فله قضاء الحاجة، ومن كان هكذا لا يصلح أن يكون رباً ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ يعني العلامات في عيسى ومريم، إنهما لو كانا إلهين ما أكلا الطعام ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. يقول: من أين يكذبون بإنكارهم بأني واحد. وقال القتبي: (أني يؤفكون) يعني أنى يصرفون عن الحق ويعدلون عنه يقال: أفك الرجل عن كذا إذا عدل عنه. ثم أخبر الله تعالى عن جهلهم وقلة عقلهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني عيسى ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ يقول ما لا يقدر لكم ﴿ضَرًّا﴾ في الدنيا ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ في الآخرة، وتركتم عبادة الله ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم ﴿الْعَلِيمُ﴾. بعقوبتكم. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ يقول: لا تجاوزا الحد، والغلو: هو الإفراط والاعتداء ويقال: لا تتعمقوا، ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ وهم الرؤساء من أهل الكتاب يعني لا تتبعوا شهواتهم، لأنهم آثروا الشهوات على البيان والبرهان ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ وهم رؤساء النصارى ضلوا عن الهدى ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيراً﴾ من الناس ﴿وَضَلُّواْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. يعني أخطأوا عن قصد الطريق. وقال مقاتل: نزلت في برصيصا العابد فجاءه الشيطان فقال له: قد فضلك الله على أهل زمانك، لكي تحل لهم الحرام، وتحرم عليهم الحلال وتسن لهم سنة ففعل فاتبعه الناس بذلك ثم ندم على فعله فعمد إلى سلسلة فجعلها في ترقوته فعلق نفسه، فجاءه ملك فقال له: أنت تتوب، فكيف لك من تابعك؟ فذلك قوله: (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقوله تعالى:

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا
عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ
لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

﴿لُعِنَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ﴾ يعني اليهود ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ وذلك أن الله تعالى مسخهم قردة، حيث اصطادوا السمك يوم السبت، ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني وعلى لسان عيسى ابن مريم حيث دعا عليهم

فمسخهم الله تعالى خنازير، ويقال: لعن الذين كفروا، أي أُبْعِدوا من رحمة الله على لسان داود وعيسى ابن مريم. وقال الزجاج: يحتمل معنيين: أحدهما أنهم مسخوا بلعنتهما فجعلوا قردة وخنازير، وجائز أن يكون داود وعيسى لعنا من كفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني، لعن الكفار الذين على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. يعني الذين أصابهم من اللعنة بما عصوا يعني بعصيانهم، وكانوا يعتدون في دينهم. ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ يعني لم يمتنعوا عن قبيح من الأفعال، ورضوا به، ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾. حين لم ينهوا عن المنكر. ثم قال ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ﴾ قال مقاتل(١): يعني اليهود ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي العرب. وقال الكلبي: (ترى كثيراً) من المنافقين(٢)، (يتولون الذين كفروا) يعني اليهود. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. معناه لبئس الفعل الذي كانوا يستوجبون به السخط من الله تعالى ويوجب لهم العقوبة (والعذاب) ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني دائمون. ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ (يعني المنافقين لو كانوا يصدقون بتوحيد الله ونبوة محمد حقيقة) وما أنزل إليه من القرآن ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ (يعني لو كان إيمان المنافقين حقيقة ما اتخذوا اليهود أولياء) في العون والنصرة ﴿وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني ناقضين للعهد. ثم قال:

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ وهم يهود بني قريظة وبني النضير، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني مشركي أهل مكة، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى﴾ قال بعضهم: إنما أراد الذين هم النصارى في ذلك الوقت لأنهم كانوا أقل مظاهرة على المؤمنين، وأسرع إجابة للإسلام. وقال أكثر المفسرين إن المراد به النصارى الذين أسلموا، وفي سياق الآية دليل عليه، وهو قوله: (فأثابهم الله بما قالوا) وروى أسباط عن السدي(٣) قال: بعث النجاشي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثني عشر رجلاً من الحبشة، وسبعة قسيسين، وخمسة رهبان، ينظرون إليه ويسألونه، فلما لقوه، وقرأ عليهم ما أنزل الله عليه، بكوا وآمنوا به ورجعوا إلى النجاشي فهاجر النجاشي معهم

(١) انظر تفسيره ١/٣٣٤.

(٢) ونسبه القرطبي لمجاهد: ٦/١٦٤ وانظر تفسير ابن كثير ٣/١٥٦.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير ٣/١٥٧ وقال هذا من أفراد السدي فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة وصلى عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم مات وأخبر به أصحابه وأخبر أنه مات بأرض الحبشة.

فمات في الطريق، فصلى عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون، واستغفروا له. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه سئل عن هذه الآية فقال: هم الوفد الذين قدموا مع جعفر الطيار من أرض الحبشة[١]. وعن الزهري، أنه سئل عن هذه الآية فقال: ما زلنا نسمع أنها نزلت في النجاشي وأصحابه[٢] ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِيْنَ وَرُهْبَاناً﴾ يعني المتعبدين وأصحاب الصوامع، [ويقال: قسيسين علماؤهم، ورهباناً يعني خائفين من الله تعالى][٣]، وقال بعض أهل اللغة: القس، والقسيس: رؤساء النصارى، والقَس، بفتح القاف النميمة ثم قال ﴿وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني لا يتعظمون على الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ يعني تسيل من الدمع، ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ يقول: مما عرفوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعته وصفته ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بالقرآن بأنه من الله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِيْنَ﴾ يعني المهاجرين والأنصار. وروى عكرمة عن ابن عباس قال[٤]: (مع الشاهدين) هم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشهدون له بالبلاغ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلغوا الرسالة. ثم قال: ﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وذلك أنهم لما رجعوا إلى قومهم قال لهم كفار قومهم: تركتم ملة عيسى، ويقال: إن كفار مكة عاتبوهم على إيمانهم، وقالوا: لم تركتم دينكم القديم وأخذتم الدين الحديث؟ فقالوا: (وما لنا لا نؤمن بالله) ومعناه: وما لنا لا نصدق بالله، أن محمداً رسوله، والقرآن من عنده ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني وبما جاءنا من الحق، ﴿وَنَطْمَعُ﴾ يقول: نرجو ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِيْنَ﴾ يعني مع المؤمنين الموحدين في الجنة. فمدحهم الله تعالى، وحكى عن مقالتهم، وأخبر عن ثوابهم في الآخرة فقال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ من التوحيد ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِيْنَ﴾ يعني ثواب الموحدين المطيعين، وقد احتج بعض الناس بهذه الآية أن الإيمان هو مجرد القول، لأنه قال: فأثابهم الله بما قالوا، ولكن لا حجة لهم فيها لأن قولهم كان مع التصديق، والقول بغير التصديق لا يكون إيماناً. ثم بين عقوبة من ثبت على كفره ولم يؤمن فقال: ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ يعني مات على ذلك، ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ والجحيم هو النار الشديدة الوقود، يقال جحم فلان النار إذا شدد وقودها. ويقال لعيْن الأسد جحمة، لشدة توقدها. قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ نزلت في جماعة من

(١) انظر تفسير مجاهد ١/٢٠٢، وانظر تفسير ابن كثير ٣/١٥٧.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣٠٧ وعزاه لابن جرير الطبري.
(٣) في (أ) (والبرهان عبادهم ويقال: القسيسين الصديقين والرهبان الخائفين من الله تعالى).
(٤) انظر تفسير ابن عباس ٧٩، والطبري ١٠/٥١٠.

أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم سمعوا من النبي ـ عليه السلام ـ وصف القيامة يوماً، وخوف النار والحساب فاجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون، فتواثقوا بأن يخصوا أنفسهم ويترهبوا، فنهاهم الله عن ذلك، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾.

قال: حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن محمد قال: حدثنا محمد بن فضيل، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك[1] عن مدرك بن قزعة عن سعيد بن المسيب قال: جاء عثمان بن مظعون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: يا رسول الله، غلبني حديث النفس، ولا أحب أن أحدث شيئاً حتى أذكر لك، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما تحدثك نفسك يا عثمان؟ قال: تحدثني أن أخصي نفسي، قال مهلاً يا عثمان، فإن إخصاء أمتي الصيام، قال: يا رسول الله، إن نفسي تحدثني أن أترهب في رؤوس الجبال، فقال: مهلاً يا عثمان، فإن ترهيب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلوات، قال: يا رسول الله فإن نفسي تحدثني أن أسيح في الأرض؟ قال: مهلاً يا عثمان: فإن سياحة أمتي الغزو في سبيل الله، والحج والعمرة، قال: فإن نفسي تحدثني أن أخرج من مالي كله؟ قال مهلاً يا عثمان، فإن صدقتك يوماً بيوم، وتكف نفسك وعيالك، وترحم المساكين واليتيم أفضل من ذلك، فقال: يا رسول الله، فإن نفسي تحدثني أن أطلق خَوْلة، فقال مهلاً يا عثمان، فإن الهجرة في أمتي مَنْ هجر ما حرم الله، أو هاجر إليّ في حياتي، أو زار قبري بعد وفاتي، أو مات وله امرأة، أو امرأتان أو ثلاث أو أربع، قال، يا رسول الله: فإن نهيتني أن أطلقها، فإن نفسي تحدثني بأن لا أغشاها قال، مهلاً يا عثمان، فإن الرجل المسلم إذا غشي أهله أو ما ملكت يمينه فلم يكن من وقعته تلك ولد، كان له وصيفاً في الجنة، وإن كان من وقعته تلك ولد فمات قبله كان فرطاً وشفيعاً يوم القيامة، فإن مات بعده كان له نوراً يوم القيامة، فقال: يا رسول الله، فإن نفسي تحدثني بأن لا آكل اللحم، قال: مهلاً يا عثمان، فإني أحب اللحم وآكله إذا وجدته، ولو سألت ربي أن يطعمنيه في كل يوم لأطعمنيه، قال يا رسول الله فإن نفسي تحدثني بأن لا أمس الطيب، قال مهلاً يا عثمان فإن جبريل أمرني بالطيب غباغباً، وقال: لا تتركه يا عثمان، لا ترغب عن سنتي فمن رغب عن سنتي، ثم مات قبل أن يتوب صرفت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة، ونزلت هذه الآية (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم)، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يقول: يعني لا تحرموا حلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ﴾ ويقال: إن مُحَرِّم ما أحل الله، كمُحِلِّ ما حرم الله[2]. ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾ من الطعام والشراب﴿واتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تحرموا ما أحل الله لكم ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني إن كنتم مصدقين به، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه. ثم أمرهم الله تعالى بأن يكفروا أَيْمَانهم، لأنه لما حرموا الحلال على أنفسهم كان ذلك يميناً منهم، ولهذا قال أصحابنا: إذا قال الرجل لشيء حلال، هذا الشيء علي حرام يكون ذلك يميناً، فأمرهم الله تعالى بأن يأكلو ويحنثوا في أيمانهم وفي الآية دليل: أن الرجل إذا حلف على شيء، والحنث خير له، ينبغي أن يحنث ويكفر بيمينه. وفيها دليل: أن الكفارة بعد الحنث، لأنه أمرهم بالحنث بقوله: (فكلوا) ثم أمرهم بالكفارة. وهو قوله تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ قال ابن عباس:[3] اللغو أن يحلف الرجل على شيء بالله، وهو يرى أنه صادق، وهو فيه كاذب، وهكذا روي عن أبي هريرة أنه كان يقول: لغو اليمين: أن يحلف الرجل على

---

(١) روي عن أبيه ومحمد بن عمر وبن علقمة وخلق قال النسائي ليس به بأس وذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ٩/٦١.

(٢) بنحو هذه الآثار انظر أسباب النزول للواحدي ١٥٢، وتفسير ابن عباس ٧٩.

(٣) انظر تفسير الطبري ٤/٤٣٢.

شيء يظن أنه الذي حلف عليه - هو صادق - فإذا هو غير ذلك[١]. وقال الحسن: هو الرجل يحلف على الشيء، يرى أنه كذلك وليس هو كذلك[٢]. وقال سعيد بن جبير: الرجل يحلف باليمين الذي لا ينبغي أن يحلف بها، يحرم شيئاً هو حلال، فلا يؤاخذه الله بتركه لكن يؤاخذه الله إن فعل[٣]. وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل، أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا، وأخرجني الله من مالي وولدي[٤]، وقالت عائشة: اللغو: هو قول الرجل، لا والله، وبلى والله، على شيء لم يعقده قلبه[٥]. ثم قال: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدتُمُ الْأَيْمَانَ﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية حفص[٦] (عقّدتم) بالتشديد، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (عَقَدتم) بالتخفيف وقرأ ابن عامر: (بما عقدتم) فمن قرأ: (عاقدتم) فهو من المعاقدة والمعاقدة تجري بين الاثنين، وهو أن يحلف الرجل لصاحبه بشيء، ومن قرأ بالتشديد، فهو للتأكيد، ومن قرأ بالتخفيف، لأن اليمين تكون مرة واحدة، والتشديد تجري في التكرار والإعادة. وروى عبد الرزاق، عن بكار بن عبد الله، قال: سئل وهب بن منبه عن قوله: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قال: الأَيْمَانُ ثلاثة لغو، وعقد، وصبر فأما اللغو: فلا والله، وبلى والله، لا يعقد عليه القلب، وأما العقد: أن يحلف الرجل، لا يفعله فيفعله فعليه الكفارة، وأما الصبر: بأن يحلف على مال ليقتطعه بيمينه، فلا كفارة له. وروى حسين بن عبد الرحمن[٧]، عن أبي مالك الغفاري قال:[٨] الأيمان ثلاثة، يمين تكفر، ويمين لا تكفر، ويمين لا يؤاخذ الله بها، وذكر إلى آخره. ثم بين كفارة اليمين فقال تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾. روي عن علي بن أبي طالب[٩] - رضي الله عنه - أنه قال: الغداء والعشاء، وسئل شريح[١٠] عن الكفارة فقال: الخبز والزيت، والخل والطيب، فقال السائل: أرأيت إن أطعمت الخبز واللحم؟ قال ذلك أرفع طعام أهلك، وطعام الناس. وروي عن ابن الخطاب[١١]، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - أنهما قالا، لكل مسكين، نصف صاع من حنطة، يعني، إذا أراد أن يدفع إليهم، وإن أراد أن يطعمهم فالغداء والعشاء. ثم قال: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال مجاهد: [١٢] أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت. وقال إبراهيم النخعي:[١٣] لكل مسكين ثوب. وقال الحسن: [١٤] ثوبان أبيضان ثم قال:﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يعني يعتق رقبة، ولم يشترط ها هنا المؤمنة، فيجوز الكفارة بالكافرة والمؤمنة، فالرجل بالخيار بين هذه الأشياء الثلاثة، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الطعام ولا الكسوة ولا الرقبة فعليه ﴿فَصِيَامُ﴾ يعني صيام ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وروى سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح قال: سئل طاووس عن صيام الكفارة قال: يفرق: قال له مجاهد كان عبد الله يقرأ: متتابعات. قال: طاووس[١٥] فهو أيضاً متتابعات. وروى مالك عن حميد، عن مجاهد[١٦]، قال: كان أبي يقرأ، فصيام ثلاثة أيام متتابعات في الكفارة اليمين. ثم قال (ذلك) يعني الذي ذكر ﴿كفارة إيمانكم﴾ عن الطعام والكسوة والعتق والصوم ثم قال ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يعني ليعلم الرجل ما حلف عليه، فليكفر يمينه، إذا حنث ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

---

(١) انظر تفسير الطبري ٤/٤٣٢. (٢) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٢٦.
(٣) انظر تفسير الطبري ٤/٤٤٠. (٤) انظر تفسير الطبري ٤/٤٤٥. (٥) أنظر تفسير الطبري ٤/٤٢٩.
(٦) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٤، سراج القارىء ٢٠١، شرح شعلة ٣٥٣.
(٧) حصين بن عبد الرحمن السلمي أبو الهذيل الكوفي انظر التهذيب ٢/٣٨١، الخلاصة ١/٢٧٤.
(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣١٢ وعزاه لعبد بن حميد.
(٩) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٣٣. (١٠) انظر المصدر السابق ١٠/٥٣٣. (١١) انظر المصدر السابق ١٠/٥٣٤.
(١٢) انظر المصدر السابق ١٠/٥٤٥. (١٣) انظر المصدر السابق ١٠/٥٤٩. (١٤) بنحوه انظر المصدر السابق ١٠/٥٤٨.
(١٥) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٦٠. (١٦) انظر تفسير الطبري ١٠/٥٦٠.

﴿اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني أمره ونهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا رب هذه النعمة، إذ جعل لكم مخرجاً من أيمانكم بالكفارة، والكفارة في اللغة: هو التغطية، يعني يغطي إثمه. قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ نزلت هذه الآية في شأن سعد بن أبي وقاص لأنهم كانوا يشربونها وكانت لهم حلالاً، فجرى بين سعد وبين رجل من الأنصار افتخار في الأنساب، فاقتتلا فشج رأس سعد، فدعا عمر بن الخطاب فقال: اللهم أرنا رأيك في الخمر، فإنها متلفة للمال، مذهبة للعقل، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر) فقال عمر: اللّهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية. (إنما الخمر والميسر ﴿والأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني حرام، وهو من تزيين الشيطان، ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني فاتركوا شربها، ولم يقل، فاجتنبوها لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه: اجتنبوا ما ذكرنا ونهيناكم عن ذلك قوله (كلوا من ثمره إذا أثمر) ولم يقل: من ثمرها. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُم الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني عن طاعة الله ﴿وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ لأنهم مُنِعوا عن الصلاة إذا كانوا سكارى، ولأنه إذا سكر لا يعقل الطاعة وأداء الصلاة، ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُون﴾ يعني انتهوا عن شربها، فقال عمر: قد انتهينا يا رب[1]. وعن عطاء بن يسار أن رجلاً قال لكعب الأحبار، أحُرِّمت الخمرة في التوراة؟ قال: نعم، هذه الآية (إنما الخمر والميسر) مكتوب في التوراة إنا أنزلنا الحق لنذهب به الباطل، وتبطل به اللعب والدفف والمزامير، والخمر مرة لشاربها، أقسم الله تعالى بعزه وجلاله أن من انتهكها في الدنيا، أعطشته في الآخرة يوم القيامة، ومن تركها بعدما حرمتها لأسقيتها إياه في حظيرة القدس، قيل: وما حظيرة القدس؟ قال: الله هو القدس، وحظيرته الجنة[2]. ثم قال تعالى: ﴿وأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني في تحريم الخمر ﴿واحْذَرُواْ﴾ عن شربها ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتم﴾ يقول: أعرضتم عن طاعة الله وطاعة الرسول ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِين﴾ فهذا تهديد لمن شرب الخمر بعد التحريم. فلما نزلت هذه الآية قال حُيَيُّ بن أخطب، فما حال من مات منهم، وهم يشربونها، فعير بذلك أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه عن ذلك، فنزلت[3] هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ يعني شربوا قبل تحريمها، ولم يعرفوا تحريمها، ويقال: إن بعض الصحابة كانوا في سَفْرَة، فشربوا منها بعد التحريم ولم يعرفوا تحريمها فلما رجعوا

(١) أخرجه أبو داود ٣٢٥/٣ في الأشربة باب تحريم الخمر (٣٦٧٠)، أخرجه الترمذي ٢٣٦/٥ في التفسير (٣٠٤٩)، والنسائي ٢٥٢/٨ في الأشربة باب تحريم الخمر.

(٢) ذكره السيوطي عن عبد الله بن عمر وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في سننه انظر الدر المنثور ٣١٧/٢.

(٣) انظر أسباب النزول ١٥٦.

سألوا عن ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) يعني شربوا قبل تحريمها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ الشرك ﴿وَآمَنُوا﴾ يعني صدقوا بوحدانية الله تعالى والقرآن ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَواْ﴾ المعاصي (وآمَنوا) يعني صدقوا بعد تحريمها (ثم اتقوا وأحسنوا) ﴿والله يحب المحسنين﴾ في أفعالهم ويقال: معناه، ليس عليهم جناح فيما طعموا قبل تحريمها، إذا اجتنبوا شربها بعد تحريمها. وروى عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: شرب نفر من أهل الشام الخمر، وعليهم يومئذ معاوية بن أبي سفيان، وقالوا هي لنا حلال، وتأولوا قوله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ فكتب في ذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: أن ابعثهم إلي قبل أن يفسدوا مَنْ قِبَلك، فلما قدموا على عمر، جمع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم ما ترون؟ فقالوا: إنهم قد افتروا على الله كذباً وشرعوا في دينه ما لم يأذن به، فاضرب أعناقهم، وعلي ساكت، فقال: يا علي ما ترى؟ قال: أرى أن تستتيبهم فإن تابوا فاضربهم ثمانين جلدة، وإن لم يتوبوا فاضرب أعناقهم فاستتابهم فتابوا فضربهم ثمانين جلدة وأرسلهم[1].

قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ يعني: ليختبرنكم الله، والاختبار من الله هو إظهار ما علم منهم، بشيء من الصيد يعني ببعض الصيد، فتبعيضه يحتمل أن يكون معناه، ما داموا في الإحرام، فيكون ذلك بعض الصيد، ويحتمل أن يكون على معنى التخصيص يحمل ذلك على وجه تبيين جنس من الأجناس كما قال: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ويحتمل بعض الصيد، يعني صيد البر دون صيد البحر. ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيْكُمْ﴾ يعني تأخذونه بأيديكم بغير سلاح، مثل البيض والفراخ ﴿وَرِمَاحُكُم﴾ يعني تأخذونه بسلاحكم، وهو الكبار من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني يميز الله من يخاف من الذين لا يخافون، وبين فضل الخائفين: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني من أخذ الصيد بعد النهي ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني وجيع يعني الكفارة والتعذيب في الدنيا والآخرة، والعذاب إن مات بغير توبة، ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ يعني وأنتم محرمون، ويقال: وأنتم محرمون أو في الحرم. ثم بين الكفارة فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ يعني عليه الفداء مثل ما قتل. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[2] فجزاء مثل بتنوين الهمزة وبضم اللام وقرأ الباقون: بالضم بغير تنوين، وبكسر اللام، فأما من قرأ بالتنوين فمعناه فعليه جزاء، ثم صار المثل نعتا للجزاء، وأما من قرأ بغير تنوين فعلى معنى الإضافة إلى الجزاء، يعني عليه جزاء ما قتل من النعم، يشتري بقيمته من النعم ويذبحه، يعني إذا كان المقتول يوجد بقيمة النعم. ثم قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني

(١) انظر تفسير الطبري ٦/١٩٣.
(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٥، سراج القارىء ٢٠٢، شرح شعلة ٣٥٤.

رجلان مسلمان عدلان ينظران إلى قيمة المقتول، ثم يشتري بقيمته ﴿هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ يعني يبلغ بالهدي مكة ويذبحه هناك، ويتصدق بلحمه على الفقراء ﴿أَوْ كَفَّارة طعام مَسَاكِيْنَ﴾ يعني إن شاء يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به على كل مسكين نصف صاع من حنطة ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾ يعني يصوم مكان كل نصف صاع من حنطة يوماً، قال ابن عباس إنما يقوّم لكي يعرف مقدار الصيام من الطعام فهو بالخيار بين هذه الأشياء الثلاثة إن شاء أطعم وإن شاء أهدى، وإن شاء صام[١]. قرأ نافع وابن عامر[٢]: (أو كفارة طعام مساكين) بغير تنوين على معنى الإضافة، وقرأ الباقون (كفارة) بالتنوين، والطعام نعتاً لها، ثم قال: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ يعني عقوبة ذنبه لكي يمتنع عن قتل الصيد، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ يعني عما مضى قبل التحريم، ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد التحريم ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ يعني يعاقبه الله تعالى، ومع ذلك يجب عليه الكفارة، وقال بعضهم: لا يجب عليه الكفارة إذا قتل مرة أخرى، وروى عكرمة عن ابن عباس:[٣] أنه سئل عن المحرم يصيب الصيد فيحكم عليه، ثم يصيبه أيضاً، قال: لا يحكم عليه، وتلا هذه الآية (ومن عاد فينتقم الله منه) فذلك إلى الله، إن شاء عفا، وإن شاء عاقبه. وعن شريح:[٤] أن رجلاً أتاه فسأله أن يحكم عليه، فقال له شريح: هل أصبت صيداً قبله؟ قال: لا، قال: لو كنت أصبته قبل ذلك لم أحكم عليك. وقال بعضهم: سواء قتل قبل ذلك أو لم يقتل فهو سواء، لأنه قاتل في المرة الثانية كما هو قاتل في المرة الأولى. وروي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم:[٥] أنهم حكموا ولم يسألوه، أنك أصبت قبل ذلك أم لا، وروى ابن جريج عن عطاء[٦] أنه سئل عن قوله: (عفا الله عما سلف) قال: يعني ما كان في الجاهلية، ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه ومع ذلك عليه الكفارة. وروى سعيد بن جبير[٧] مثله. وقد قال بعض الناس: إنه إذا قتل خطأ فلا تجب عليه الكفارة وهذا القول ذكر عن طاووس اليماني[٨]، وقال غيره: تجب عليه الكفارة [وروى][٩] ابن جريج عن عطاء، قال سألت عن قوله: (ومن قتله منكم متعمداً) فلو قتله خطأ، أيغرم قال: نعم، يعظم بذلك حرمات الله، ومضت به السنن[١٠]. وعن الحسن قال: يحكم عليه في الخطأ والعمد. وعن إبراهيم النخعي، وعن مجاهد مثله[١١]. وبهذا القول نأخذ، ونقول: بأن العمد والخطأ سواء، والمرة الأولى والثانية سواء. ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيْزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ من أهل المعصية أخذ الصيد بعد التحريم. ويقال: ومن عاد مستحلاً أو مستخفاً بأمر الله تعالى فينتقم الله منه يعني يعذبه الله تعالى، والله عزيز ذو انتقام يعذب من عصاه قوله تعالى:

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني في الإحرام وغير الإحرام ﴿وَطَعَامُهُ مُتَاعاً لَكُمْ وللسَّيَّارَةِ﴾ يعني للمقيمين والمسافرين، وهي السمكة المالحة، ويقال: (وطعامه) ما نضب

(١) بنحوه انظر تفسير الطبري ١١/١٥.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٧، سراج القارىء ٢٠٢، شرح شعلة ٣٥٤.

(٣) انظر تفسير الطبري ١١/٥١.

(٤) انظر المصدر السابق ١١/٥١.

(٥) انظر المصدر السابق ١١/٢٨.

(٦) انظر المصدر السابق ١١/٤٨.

(٧) انظر المصدر السابق ١١/٤٩.

(٨) انظر تفسير الطبري ١١/١١.

(٩) في ظ [قال].

(١٠) انظر المصدر السابق ١١/١٥.

(١١) انظر قول النخعي ومجاهد في تفسير الطبري ١١/٤٩.

الماء عنه فأخذ بغير صيد ميتاً. ويقال: كل ما سقاه الماء، فأنبت من الأرض فهو طعام البحر. قال الفقيه: حدثنا الفضل بن أبي حفص قال حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال: حدثنا محمد بن خزيمة[١]، قال: حدثنا حجاج بن المنهال[٢] قال: حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كنت في البحرين، فسألني أهل البحرين عما يقذف البحر من السمك، فقلت كلوه، فلما رجعت إلى المدينة سألت عن ذلك عمر بن الخطاب، فقال: ما أمرتهم به، فقلت أمرتهم بأكله، فقال: لو أمرتهم بغير ذلك لضربتك بالدرة، ثم قرأ عمر: (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم) فصيده ما صيد وطعامه: ما رمي به[٣]. ثم قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ يعني ما دمتم محرمين فلا تأخذوا الصيود ﴿واتَّقُواْ اللَّهَ﴾ فلا تأخذوه في إحرامكم ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجزيكم بأعمالكم. قوله تعالى:

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ يعني لجأ إلى الحرم آمنا للناس كان الرجل إذا أصاب ذنباً أو قتل قتيلاً ثم لجأ إلى الحرم آمنا بذلك، ويقال: قياماً للناس يعني قواماً لمعايشهم قرأ ابن عامر[٤]: (قيماً) على جهة المصدر، وقرأ الباقون: (قياماً) على جهة الاسم والمصدر. وإنما سميت الكعبة كعبة لارتفاعها ولهذا سمي الكعبان، ويقال للجارية: إذا نهدت ثدياها، قد كعبت ثدياها وهي كاعب كما قال: (وكواعب أتراباً). ثم قال: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ والْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ يعني جعل الشهر الحرام والهدى والقلائد آمناً للناس وقواماً لمعايشهم لأنهم كانوا إذا توجهوا إلى مكة وقلدوا الهدي أمنوا ويقال: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس، يعني معالم للناس. وقال مقاتل[٥] ابن حيان: يعني علماً لقبلتهم يصلون إليها. وقال سعيد بن جبير[٦]: صلاحاً لدينهم وحرم عليهم الغارة في الشهر الحرام وأخذ الهدي والقلائد في الشهر الحرام ﴿ذَلِكَ﴾ الذي جعل الله من الأمن ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني لتعلموا أن الله يعلم صلاح ما في السموات وما في الأرض، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يقول: عليم بكل شيء من صلاح الخلق. ويقال: هو مردود إلى ما أنبأ الله تعالى على لسان نبيه في هذه السورة من أخبار المنافقين، وإظهار أسرارهم فقال: (ذلك الذي ذكر الله تعالى: لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) وأن الله بكل شيء عليم من السر والعلانية.

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا

---

(١) أبو عبد الله الفلاسي البلخي المتوفي سنة ٣١٤ هـ انظر الجواهر المضيئة ٣/١٥٢، اللباب ٣/١٤.

(٢) حجاج بن المنهال الأفاطي أبو محمد السلمي وقيل البرساني مولاهم البصري، روى عن جرير بن حازم والحمادين وشعبة وخلقه. انظر التهذيب ٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ١١/٦١.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٨٦، سراج القارىء ٢٠٢.

(٥) عزاه السيوطي في الدر المنثور ١/٣٣٤ لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وفي تفسير مقاتل (أمثالهم وحياة لهم في الجاهلية. انظر التفسير ١/٤٤٤.

(٦) انظر تفسير الطبري ١١/٩١.

تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿اعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ﴾ يعني إذا عاقب فعقوبته شديدة لمن عصاه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾ لمن أطاعه. قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. يعني أن الرسول ليس عليه طلب سرائرهم، وإنما عليه بتبليغ الرسالة والله تعالى هو الذي يعلم سرائرهم. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيْثُ وَالطَّيِّبُ﴾ يعني لا يستوي الحلال والحرام. قال في رواية الكلبي: نزلت في شأن حَجَّاج اليمامة شريح بن ضبيعة حين أراد المسلمون أخذ ماله فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأخبرهم أن أخذ ماله حرام، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيْثِ﴾ يعني كثره مال شريح بن ضبيعة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لا تستحلوا ما حرم الله عليكم ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يا ذوي العقول ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. يعني تأمنون من عذابه. وروى أسباط عن السدي[1] أنه قال: الخبيث هم المشركون، والطيب هم المؤمنون. وقال الضحاك: (لا يستوي الخبيث والطيب) يعني صدقة من حرام لا تصعد إلى الله تعالى لا توضع في خزائنه، وصدقة من حلال تقع في يد الرحمن يعني يقبلها (ولو أعجبك كثرة) يعني مثقال حبة من صدقة الحلال أرجح عند الله من جبال الدنيا من الحرام. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس وغيرهما أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرأ: (ولله على الناس حج البيت) وقال: (يا أيها الناس كتب عليكم الحج) فقام رجل فقال: في كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه ثم عاد، فقال: والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجب، ولو وجب ما استطعتموه ولو تركتموه لكفرتم، ثم قال: إنما هي حجة واحدة أو قال: مرة واحدة ونزل:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم﴾[2]. (وعن أبي عوانة أنه قال: سألت عكرمة عن قوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾. قال: ذلك يوم قام فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوه فأكثروا عليه فغضب، وقال لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم فقام رجل فكره المسلمون يومئذ مقامه فقال: يا رسول الله، من أبي؟ فقال: حذافة، يعني رجلاً غير أبيه فقال: عمر بن الخطاب يا رسول الله، رضينا بالله رباً وبك نبياً فنزلت هذه الآية[3]. (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم). وروي في خبر آخر أن رجلاً سأله فقال: أين أبي؟ فقال في النار[4]. وروي عن نافع[5] أنه سئل عن هذه الآية فقال: لم تنزل منذ قط كثرة السؤال تكره. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِيْنَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ يعني وقت الذي ينزل جبريل ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ يعني

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١/٩٧، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣٣٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن السدي.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١١/١٠٥ وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٠.

(٣) أخرجه مسلم ٤/١٨٣٢ في كتاب الفضائل (١٣٦ / ٢٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير ١١/١٠٣، وانظر تفسير ابن كثير ٣/١٩٩.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٣٣٦ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

تظهر لكم. ويقال: فيها تقديم يعني، وإن تسألوا عنها تبد لكم حين نزول القرآن ثم قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ يعني عن تلك الأشياء حين لم ينزل فيها القرآن ولم يوجبها عليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ ذو التجاوز ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل عليكم بالعقوبة. ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ يعني عن هذه الأشياء ﴿من قبلكم﴾، حيث سألوا المائدة من عيسى، وغيرهم سألوا أنبيائهم أشياء ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِيْنَ﴾. يعني صاروا كافرين، قوله تعالى:

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ﴾ يعني ما جعل الله حراماً من بحيرة، لقولهم: إن الله أمرهم بتحريمها ونزلت في مشركي العرب فكانت الناقة إذا ولدت البطن الخامس فإن كان الخامس ذكراً ذبحوه للآلهة وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن مات أكله الرجال والنساء وإن كان الولد الخامس أنثى شَقُّوا أذنها وهي البحيرة ثم لا يُجَزّ لها وبر ولا يُذكر عليه اسم الله، وألبانها للرجال دون النساء فإذا ماتت اشترك فيها الرجال والنساء. ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ وأما السائبة: فهي الأنثى من الأنعام كلها إذا قدم الرجل من سفره، أو برأ من مرضه أو بنى بناء سيب شيئاً من الأنعام للآلهة وخرجها من ملكه ويسلمها إلى سدنة البيت لآلهتهم ولا يركبونها وكان صوفها وأولادها للرجال دون النساء. ﴿وَلَا وَصِيْلَةٍ﴾ وأما الوصيلة: فهي من الغنم إذا ولدت سبعة أبطن فإن كان الولد السابع جدياً ذبحوه لآلهتهم وكان لحمه للرجال دون النساء، وإن كانت عناقاً كانوا يستعملونها بمنزلة سائر الغنم، وإن كان جدياً وعناقاً قالوا: إن الأخت قد وصلت بأخيها، فحرمتا جميعاً. وكانت المنفعة للرجال دون النساء وإن ماتا تشارك الرجال والنساء. ﴿وَلَا حَامٍ﴾ وأما الحام: فهو الفحل من الإبل إذا ركب ولده قالوا: قد حمى ظهره، فيهمل ولا يحمل ولا يركب ولا يمنع من المياه ولا عن المراعي، فإذا مات أكله الرجال والنساء، وكانوا يقولون هذه الأشياء كلها من أحكام الله تعالى، قال الله تعالى: ما حرم الله هذه الأشياء، ﴿وَلَكِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾. وروى عبد الرازق عن معمر عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إني لأعرف أول من سَيَّب السوائب، وأول من غيّر عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: عمرو بن لحي[1] أخو بني كعب، لقد رأيته يجر قصبه في النار، يؤذي ريحه أهل النار، وإني لأعرف من بحر البحائر، قالوا: من هو، يا رسول الله؟ قال: رجل من بني مَدْلِج كانت له ناقتان، فجدع آذانهما، وحرم ألبانهما، ثم شرب ألبانها بعد ذلك، فلقد رأيته في النار، وهو وهما يعضانه بأفواههما، ويخبطانه بأخفافهما[2]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني ليس لهم عقل يعقلون أن الله هو المحلل والمحرم، وليس لغيره أن يحل ويحرم. ثم أخبر عن جهلهم فقال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ

(١) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي من قحطان أول من غير دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأوثان انظر الأعلام ٥/٨٤، البداية والنهاية ٢/١٨٧ ـ ١٨٩.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١١/١٢٠، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٠٤.

إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ من تحليل ما حرمتم على أنفسكم، وما بين رسوله ويقال: تعالوا إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله، ﴿قَالُوا: حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين والسنة. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. يعني أيتبعون آباءهم، وإن كان آباؤهم جهالاً، فنهاهم الله عن التقليد، وأمرهم بالتمسك بالحق وبالحجة. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه الزموا أنفسكم كما تقول: عليك زيداً، معناه الزم زيداً، معناه: إلزموا أمر أنفسكم لا يؤاخذكم بذنوب غيركم، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ وأصل اللغة: لا يضرركم فأدغم أحد الراءين في الثاني وضمت الثانية لالتقاء الساكنين وهذا جواب الشرط وموضعه الجزم. وروي عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن هذه الآية فقال: إذا رأيتم شُحًّا مطاعاً وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم. وروي عمر بن جارية اللخمي[1] عن أبي أمية قال: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحاً مطاعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك نفسك فإن من بعدكَم أيام الصبر المتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملاً قالوا: يا رسول الله كأجر خمسين عاملاً منهم، قال: لا، بل كأجر خمسين عاملاً منكم[2]. وروي عن أبي بكر الصديق أنه قال: (يا أيها الناس إنكم تتلون هذه الآية على غير تأويلها إنه كان رجال طعموا بالإسلام وذاقوا حلاوته وكانت لهم قرابة من المشركين فأرادوا أن يذيقوهم حلاوة الإسلام وأن يدخلوهم في الإسلام فنزل (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) والذي نفس أبي بكر بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب من عنده[3]. وروي عن أبي العالية أنه قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود فوقع بين رجلين ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال بعضهم: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف فقال بعضهم: عليك نفسك إن الله تعالى يقول: (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) يقول: لا يضركم ضلالة من ضل (إِذَا اهْتَدَيْتُم) فقال ابن مسعود: مه لم يجيء تأويل هذه الآية بعد فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإذا اختلفت القلوب والأهواء فعند ذلك جاء تأويلها[4]. وقوله تعالى: (لا يضركم ﴿مَنْ ضَلَّ﴾ يقول: لا يضركم ضلالة من ضل ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، إذا ثبتم على الحق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ﴿مَرْجِعُكُم جَمِيْعَاً﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. وقال في رواية الكلبي نزلت في «منذر بن عمرو» بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أهل هجر ليدعوهم إلى الإسلام فأبوا الإسلام فوضع عليهم الجزية، فقال: (لا يضركم من ضل). من

---

(١) عمرو بن جارية اللخمي، يقال أنه عم عتبة بن أبي حكيم، روى عن أبي أمية الشعباني وعروة بن محمد بن عمار بن ياسر، ذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ٨/١١، ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود ٤/١٢٣ في كتاب الملاحم (٤٣٤١)، أخرجه الترمذي ٥/٢٤٠ في كتاب التفسير (٣٠٥٨) وابن ماجه ٢/١٣٣٠ - ١٣٣١ في الفتن (٤٠١٤).

(٣) أخرجه أبو داود ٤/١٢٢ في الملاحم (٤٣٣٨)، وأخرجه الترمذي ٥/٢٣٩ في التفسير (٣٠٥٧)، والنسائي في الكبرى في التفسير وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥).

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١١/١٤٣ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ١/٣٣٩ لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ.

أهل هجر وأقر بالجزية (إذا اهتديتم) إلى الله يعني آمنتم بالله. قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ (شهادة): رفع بالابتداء وخبره (إثنان) ومعناه شهادتكم فيما بينكم اثنان مسلمان عدلان ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فأراد أن يشهد على وصيته وكان مقيماً،ولم يكن مسافراً فَلْيُشْهِدْ على وصيته اثنين مسلمين ﴿حِيْنَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَاعَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُم فِي الأَرْضِ﴾ يعني إذا كنتم في السفر ولم تقدروا على مسلمين فأشهدوا رجلين من غيركم ، يعني من غير أهل دينكم. وروى مغيرة عن إبراهيم قال إذا كان الرجل في سفر فلم يجد المسلمَيْن يشهدهما على وصيته فيشهد غير أهل دينه فإن اتهما حبسا من بعد الصلاة فيغلظ عليهما في اليمين وإن شهد رجلان من الورثة أنهما خانا وكذبا صدقا بما قالا،وأخذ من الآخرين يعني من الشاهـدين ما ادعى عليهما. وروي عن مجاهد[١] أنه قال: إذا مات المؤمن في السفر لا يحضره إلا كافران أشهدهما على ذلك فإن رضي ورثته مما حلفا عليه من تركته فذلك، ويحلف الشاهدان أنهما لصادقان، فإن ظهر أنهما خانا حلف اثنان من الورثة وأبطلا أيمان الشاهدين. وروي عن شريح أنه قال: لا تجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في السفر ولا تجوز في السفر إلا على الوصية[٢]. وهكذا قال إبراهيم النخعي[٣] وبه قال ابن أبي ليلى واحتجوا بظاهر هذه الآية. وقال علماؤنا: لا يجوز شهادة الذمي على المسلم في الوصية ولا في غيره[٤].

وروي عن عكرمة[٥] أنه قال: (أو آخران من غيركم) قال من غير عشيرتكم، وكذلك قال الحسن (أو آخران من غيركم) يعني من غير قبيلتكم كلهم من أهل العدالة، قال: ألا ترى إلى قوله (تحبسونهما من بعد الصلاة)[٦]. وقال زيد بن أسلم: كان ذلك في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك كان في أول الإسـلام، والأرض أرض الحرب والناس كفار إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بالمدينة[٧]. وروى أبو حنيفة عن حماد عن إبراهيم، قال: أو آخران من غيركم قال: هي منسوخة[٨]. وقال الضحاك: نسخت هذه الآية بقوله

---

(١) انظر تفسيره ١/٢٠٩. (٢) انظر تفسير الطبري ١١/١٦٣. (٣) انظر المصدر السابق ١١/١٦٣.
(٤) انظر قرة عيون الأخيار ٧/١١٢ ـ ١١٣، إيثار الإنصاف ٣٤٢.
(٥) انظر تفسير الطبري ١١/١٦٧، وانظر الدر المنثور ٢/٣٤٣.
(٦) انظر المصدر السابق. (٧) انظر تفسير الطبري ١١/١٦٦. (٨) انظر تفسير القرطبي ٦/٢٢٦.

تعالى: (وأشهدوا ذوي عدل منكم) ورفع اليمين عن الشهود وأبطل شهادة أهل الذمة إلا بعضهم على بعض. ويقال: لنزول هذه الآية قصة وذلك أن ثلاثة نفر خرجوا إلى السفر تميم الدّاري وعدي بن زيد، وبديل بن ورقاء مولى العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص فحضر بديل بن ورقاء الوفاة وكان مسلماً وأوصى إلى تميم الدّاري وإلى عدي بن زيد وكانا نصرانيين وأمرهما أن يسلّما أمتعته إلى أهله، وكتب أسماء الأمتعة وأدرجه في ثيابه فلما قدما المدينة وسلما المتاع إلى أهله فوجد أهله الكتاب وفيه أسماء الأمتعة، وفيه جام فضة لم يسلماه إليهم فخاصمهما المطلب بن أبي وداعة وعمرو بن العاص إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت الآية: (إن أنتم ضربتم في الأرض، ﴿فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ بموت بديل بن ورقاء، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ يعني صلاة العصر. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقضي بين الناس بعد صلاة العصر فحلّف الشاهدَيْن فحلفا أنهما لم يكتما شيئاً فذلك قوله تعالى: (إن أنتم ضربتم في الأرض) يعني سافرتم في الأرض فأصابتكم في السفر مصيبة الموت يعني موت بديل بن ورقاء تحبسونهما، يعني تقيمونهما من بعد الصلاة، يعني صلاة العصر، عند منبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ يعني ظننتم بالشاهدين ريبة، أو شككتم في أمرهما ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ يعني باليمين يعني أن الشاهدين يحلفان بالله أنهما لم يشتريا بأيمانهما ثمناً قليلاً من عرض الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يعني ذا قرابة معنا في الرحم لأن الميت كان بينه وبينهما قرابة ﴿وَلَا نَكْتُم شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ إن سألنا عن ذلك، فإن كتمناها يعني الشهادة: ﴿إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِيْنَ﴾ يعني الفاجرين ثم وجد الجام، أي الكأس بعد ذلك في أيديهما يبيعانه في السوق وقالا: إنا كنا اشتريناه منه، فاختصموا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ يعني خانا وكتما شيئاً من المال ﴿فَآخَرَانِ﴾ من أولياء الميت ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يعني مقام النصرانيين ﴿مِنَ الَّذِيْنَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ يعني يحلف أولياء الميت أن المتاع متاع صاحبنا ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ يعني يمين المسلمين وشهادتهما أحق، يعني أولى من شهادة الكافرين ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ في الشهادة والدعوى ﴿إِنَّا إِذاً﴾ اعتدينا فحينئذ ﴿لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾. قرأ عاصم في رواية حفص[1]: (استحق) بنصب التاء، وقرأ الباقون: بضم التاء فمن قرأ بالنصب جعل الذين نعتاً للمدعين (ومعناه فآخران من المستحقين يقومان مقامهما، ومن قرأ بالضم: جعل الذين نعتاً للمدعى عليهم) وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر[2] (الأولين) وقرأ الباقون: (الأوليان) فمن قرأ الأولين يجعله خفضاً لأنه بدل من الذين فكأنه يقول: من الأولين اللذين استحق عليهم. ومن قرأ: (الأوليان) صار رفعاً على البدل مما في يقومان المعنى فليقم الأوليان بالميت. قال القتبي: (الذين استحق عليهم الأوليان) وهما الوليان يقال: هذا الأولى بفلان ثم يحذف من الكلام بفلان فيقال: هذا الأولى وهذان الأوليان، كما يقال: هذا الأكبر، وهذان الأكبران، و(عليهم) هاهنا يعني منهم يعني استحق منهم كما قال الله تعالى: (إذا اكتالوا على الناس يستوفون) يعني من الناس يستوفون. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ﴾ يعني ذلك أحرى وأجدر أن يأتوا بالشهادة يعني يقيموا الشهادة ﴿عَلَى وَجْهِهَا﴾ كما كانت، يعني يقيموا شهادة المدعي مقام شهادة المدعى عليه إذا ظهرت الخيانة، لكي لا يخونا في الشهادة ويأتيا بالشهادة على

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٨، سراج القارىء ٢٠٢.

(٢) انظر المصدرين السابقين واختلف أهل العربية في السبب الذي من أجله رفع (الأوليان) فقال الزجاج: رفعهما على البدل من الألف في (يقومان) المعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين. فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما. وقال آخرون: بدل من قوله: (فآخران) فهذا بدل المعرفة من النكرة وقالوا: يجوز أن يكون (الأوليان) خبر الابتداء الذي هو (فآخران) ويجوز أن يكون (الأوليان) مبتدأ و(آخران) خبراً مقدماً، التقدير: فالأوليان آخران يقومان مقامهما. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٩.

وجهها. ثم قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني إذا خافا أن ترد اليمين إلى غيرهما امتنعا عن الكذب، وقد احتج بعض الناس بهذه الآية بأن اليمين ترد إلى المدعي ولا حجة له فيه لأن رد اليمين حادثة أخرى وهو ظهور الخيانة منهما لأن دعوى الثاني دعوى الشرى ودعوى الأول دعوى الكتمان ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولا تخونوا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ ما تؤمرون به ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. يعني الخائنين. قوله تعالى:

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ (يوم) صار نصباً لأن معناه اتقوا يوم يجمع الله الرسل ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ يقول ماذا أجابكم قومكم في التوحيد. ﴿قَالُوا: لَا عِلْمَ لَنَا﴾ من هول ذلك اليوم ومن شدة المسألة وهي في بعض مواطن يوم القيامة، قالوا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما لم يكن.

وروى أسباط عن السدي قال: نزلوا منزلاً ذهبت فيه العقول فلما سئلوا؟ قالوا: لا علم لنا ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم. ويقال: هذا عند زفرة جهنم فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل عند ذلك إلا قال: نفسي نفسي فعند ذلك قالوا: لا علم لنا. ويقال: كان ذلك عند أول البعث ثم يشهدون بعد ذلك بتبليغ الرسالة. قوله تعالى:

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ بالنبوة، وهذا في الآخرة ﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾. ثم بين النعمة التي أنعم الله عليه في الدنيا قال: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني أعنتك بجبريل - عليه السلام - و﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ يعني بعد ثلاثين سنة حين أوحى الله إليه. قال الكلبي: فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ثم رفعه الله. ويقال: أوحي إليه وهو ابن ثلاثين سنة ومكث في الرسالة ثلاث سنين ورفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني الخط بالقلم، والحكمة يعني الفقه والفهم ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ وقال في موضع آخر: (فَأَنْفُخ فيه) بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى الطير وقال هاهنا (فتنفخ فيها) بلفظ التأنيث لأنه انصرف إلى الهيئة المتخذة. ويقال: فيها يعني في الطين ﴿فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾. قرأ نافع: (طائراً) بالألف وقرأ الباقون: طيراً ﴿وتُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي. وإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ يعني تحيي الموتى بإذني يعني أحييته بدعائك. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: التقى عيسى ابن مريم عليه السلام وإبليس على عقبة من عقبات بيت المقدس فقال له إبليس أنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلم الناس في المهد صبياً وأنك أحييت الموتى وتبرىء الأكمه والأبرص فقال عيسى عليه السلام: بل العظيم الذي بإذنه أحييت الموتى وهو الذي أنطقني فقال إبليس: أنت إله الأرض فقال عيسى - عليه السلام -:

بل إله الأرض والسماء واحد فكان في ذلك حتى جاءه جبريل وضربه بجناحه وألقاه في لجج البحار. ثم قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ إذ هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالعلامات والعجائب ﴿فَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِيْنٌ﴾. يعني سحر ظاهر. قرأ حمزة والكسائي(١): (ساحر) بالألف وقرأ الباقون: (سحر) بغير ألف فمن قرأ بالألف يعني هذا رجل ساحر، ومن قرأ بغير ألف يعني هذا الفعل سحر، والاختلاف في أربع مواضع: هاهنا، وفي سورة يونس، وفي سورة هود، وفي سورة الصف، قرأ حمزة والكسائي في هذا كله بالألف وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر في هذا كله بغير ألف وقرأ عاصم وابن كثير: بغير ألف إلا في سورة يونس. وقوله تعالى:

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّيْنَ﴾ يعني ألهمتهم وألقيت في قلوبهم ويقال: أوحيت إلى عيسى ليبلغ الحواريين: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي﴾ يعني صدقوا بتوحيدي ﴿وَبِرَسُولِي﴾ فلما أبلغهم الرسالة ﴿قَالُوا: آمَنَّا﴾ يقول: صدقنا بهما ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. أي مقرون ويقال: هذا معطوف على أول الكلام إذ قال الله يا عيسى وقال له أيضاً: وإذا أوحيت إلى الحواريين يعني ألهمتهم. وقال مقاتل(٢): يقوم عيسى خطيباً يوم القيامة بهذه الآيات ويقوم إبليس خطيباً لأهل النار بقوله: (إن الله وعدكم وعد الحق.. الآية). قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيْعُ رَبُّكَ﴾. قرأ الكسائي(٣) بالتاء (هل تستطيع ربَّك) وبنصب الباء وقرأ الباقون بالياء وبضم الباء فمن قرأ: بالتاء (هل تستطيع ربك) معناه هل تستطيع أن تدعو ربك، ومن قرأ بالياء، معناه: هل يجيبك ربك؟. ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وذلك أن عيسى لما خرج اتبعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضه كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علة أو كانوا زمنى أو عمياناً وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون، وبعضهم نظارة فخرج إلى موضع فوقعوا في مفازة ولم يكن معهم نفقة فجاعوا فقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو الله تعالى بأن ينزل علينا مائدة من السماء فجاءه شمعون فأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء فـ ﴿قَالَ﴾ عيسى: قل لهم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ﴾. ويقال: هذا القول للحواريين: قل لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، فلا تسألوا لأنفسكم البلاء فأخبر شمعون بذلك القوم فـ ﴿قَالُوا﴾ لشمعون قل له: ﴿نُرِيْدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ يعن المائدة ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يعني تسكن قلوبنا إلى ما دعوتنا إليه ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك نبي ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِيْنَ﴾. لمن غاب عنا ولمن بعدنا فقام عيسى وصلى ركعتين ثم

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٣٩، سراج القارىء ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢) انظر تفسيره ١/٣٥٢.
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٠، سراج القارىء ٢٠٥، شرح شعلة ٣٥٦.

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ وكان يوم الأحد فصار ذلك اليوم عيداً لهم ويقال: (عيداً لنا) يعني حجة لنا، (وآخرنا) يعني حجة لمن بعدنا ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ يعني نزولها علامة منك لنبوتك ﴿وارْزُقْنَا﴾ يعني وأعطنا المائدة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِيْنَ﴾ من غيرك. فأوحى الله تعالى إلى عيسى بقوله: ﴿قَالَ اللَّهُ: إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُم﴾ ما سألتم من المائدة ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْد﴾ يعني بعد نزول المائدة ﴿مِنْكُمْ﴾ ويكفر بعيسى بعد أكله من المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُه أَحَداً مِن الْعَالَمِيْن﴾. يعني أحداً من الخلق. وقال بعضهم: هذه كلمة تهديد ولم ينزل عليهم المائدة. وروي في بعض التفاسير أنهم قالوا لعيسى: رضينا بما في هذه الآية فقال عيسى لشمعون وكان أكبر الحواريين: هل معك شيء من الزاد؟ قال: نعم فجاءه بخمسة أرغفة وسمكتين صغيرتين فقطعهما قطعاً صغاراً ثم قال: اجلسوا رفقاء فقعدوا عشرة عشرة فألقى عيسى ـ عليه السلام ـ بين كل رفقة قدر ما يحمله بإصبعيه فجعل الطعام يزيد حتى جاوز ركبتهم فشبعوا وفضل خمسة ثم عاد من الغد ففعل مثل ما فعل بالأمس. وروي أن الرغيف والسمكتين نزلت من السماء وهم ينظرون إليها وقيل: كانت مائدة [من در وقيل من بلور وقفت في الهواء فاجتمعوا يأكلون منها وروي أن المائدة كان عليها الفواكه وكل شيء إلا الخبز واللحم، وروي أن الجميع كانوا خمسة آلاف ونيفاً][(١)]، وروي اثنى عشر ألفاً والله أعلم بالصواب).

وقال عامة المفسرين[(٢)]: إن المائدة قد أنزلت عليهم. وروي عن سلمان الفارسي أن عيسى ـ عليه السلام ـ قام ولبس جبة من شعر وقام ووضع يمينه على يساره وطأطأ رأسه خاشعاً لله تعالى وبكى حتى سالت الدموع على لحيته وصدره وهو يدعو ويتضرع فنزلت مائدة من السماء فوقها منديل والناس ينظرون إليه وعيسى ـ عليه السلام ـ ينظر ويبكي ويقول: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة حتى استقرت المائدة بين يدي عيسى والناس حوله. قال عيسى: بسم الله وكشف المنديل للناس فإذا فيه سمكة مشوية لا شوك فيها والوَدَكُ يسيل منها، والخل عند رأسها، والملح عند ذنبها، وعليها أربعة أرغفة وعليها ألوان البقول إلا الكراث فقال: كلوا من رزق ربكم، فأكل منها ألف رجل ويقال: خمسة آلاف رجل، ورجعت المائدة كما كانت[(٣)]. وقال بعضهم: نزلت يوماً واحداً ولم تنزل أكثر من ذلك وقال بعضهم ثلاثة أيام، وقال بعضهم سبعة أيام، وقال بعضهم أكثر من ذلك فلما رجعوا عن ذلك الموضع شكوا فيه وكفروا فمسخهم الله خنازير، وروي عن ابن عمر[(٤)] أنه قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون. وروي عن أبي عبد الرحمن السُّلمي[(٥)] قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكة وعن عطية العوفي[(٦)] قال: كانت سمكة فيها طعم كل شيء. قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ

---

(١) ما بين المعقوفين من أ.
(٢) انظر تفسير الطبري ١١/٢٢٧.
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٢٣.
(٤) انظر تفسير الطبري ١١/٣٣٣.
(٥) انظر تفسير الطبري ١١/٢٢٧.
(٦) انظر المصدر السابق.

أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿وَإِذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ روى أسباط عن السدي قال: لما رفع عيسى، وقالت النصارى ما قالت وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك سأله عن قولهم[1]. وقال الضحاك:[2] يدعى بعيسى يوم القيامة ويدعى بالنصارى فيقفهم ويسأله ليفضحهم على رؤوس الناس، وقال الزجاج: هو سؤال التوبيخ للذين اعتدوا عليهم لأنهم مجمعون أنه صادق وأنه لا يكذبهم الصادق عنده وذلك أوكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ، والتوبيخ ضرب من العقوبة. ويقال: إن الله تعالى لما قال لعيسى: (أأنت قلت للناس اتخذوني ﴿وَأُمِّيَ إِلَاهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أخذته الرِّعدة من هيبة ذلك القول حتى سمع صوت عظامه في نفسه ﴿قَالَ: سُبْحَانَكَ﴾ فنزه الرب عن ذلك أن يكون أمرهم بذلك (فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيْ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ﴾ يقول ما ينبغي وما يجوز لي أن أقول ما ليس لي بحق يعني ليس بعدل أن يعبدوا غيرك ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُه﴾ يعني إن قلت لهم ذلك القول ﴿فَقَدْ عَلِمْتَه﴾ فإنك ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ يعني ما كان مني في الدنيا ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يعني ولا أطلع على غيبك وما كان منك وقال أهل اللغة: نفس الشيء: جملة الشيء وحقيقته وذاته، فمعناه تعلم ما في ضميري ولا أعلم ما في حقيقتك وغيبك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون وقيل: تعلم ما في نفسي التي نسبت إلي وامرتني بالتسليم إليك ولا أعلم ما في نفسك التي سلمت إليك فأنت مالكها بجميع ما كان وما يكون منها وأنت علام الغيوب قبل كونها وكون فعلها. قرأ حمزة:[3] (الغيوب) بكسر الغين ومعناهما واحد وقرأ نافع وعاصم وابن عامر[4] (إني منزِّلها) بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان نَزَل، وأَنْزَلَ بمعنى واحد. ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ يعني في الدنيا بالتوحيد ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحّدوا الله وأطيعوه ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِم شَهِيداً﴾ يعني على بني إسرائيل أي بلغتهم الرسالة. ويقال شهيداً يعني حفيظاً بما أمرتهم ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ يعني ما دمت مقيماً في الدنيا بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ يعني رفعتني إلى السماء ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الحفيظ والشاهد عليهم ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيْد﴾ من مقالتي ومقالتهم وما أدري ما أحدثوا بعدي. ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادُكَ، وإِنْ تَغْفِرْ لَهُم فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيم﴾ قرأ ابن مسعود: (فإنك أنت الغفور الرحيم)[5] وقرأ غيره: (العزيز الحكيم) فإن قيل وكيف سأل المغفرة للكفار قيل له: لأن عيسى علم أن بعضهم قد تاب ورجع عن ذلك فقال: (إن تعذبهم) يعني الذين ماتوا على الكفر فإنهم عبادك وأنت القادر عليهم (وإن تغفر لهم) يعني الذين أسلموا ورجعوا عن ذلك. وقال: بعضهم: احتمل أنه لم يكن في كتابه، أن الله لا يغفر أن يشرك به فلهذا المعنى دعا لهم ولكن التأويل الأول أحسن، ويقال: إن تغفر لهم يعني لكذبهم الذي قالوا عليّ خاصة لا لشركهم وهذا التأويل ليس بسديد. والأول أحسن. وروي عن أبي ذر الغفاري عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قرأ هذه الآية ذات ليلة فرددها حتى أصبح: إن تعذبهم فإنهم

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١/٢٣٤. (٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٢٧.
(٣) انظر سراج القارىء ٢١٣، شرح شعلة ٣٥٥.
(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٢. (٥) انظر البحر المحيط ٤/٦١ وما بعدها.

عبادك وإن تغفر لهم الآية[١]. وقال بعضهم: [في الآية تقديم وتأخير ومعناه: إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم وأن تغفر لهم][٢] فإنهم عبادك. قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِيْنَ صِدْقُهُم﴾ قرأ نافع:[٣] (هذا يومَ) بالنصب، وقرأ الباقون: بالرفع فمن قرأ بالنصب فعلى الظرف أي قال الله تعالى هذا لعيسى في يوم ينفع الصادقين صدقهم، ومن قرأ بالرفع فعلى معنى خبر هذا يعني هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم. ويقال: ينفع النبيين صدقهم بتبليغ الرسالة. ويقال: ينفع المؤمنين إيمانهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يعني ثوابهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِيْنَ فِيْهَا أَبداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم﴾ بالطاعة ﴿وَرَضُواْ عنْهُ﴾ بالثواب ﴿ذَلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني المؤمنين فازوا بالجنة. قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض. ﴿وَمَا فِيْهِنَّ﴾ من الخلق كلهم عبيده وإماؤه. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ يعني من خلق عيسى من غير بشر. والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤٩/٥. (٢) ما بين المعقوفين من ب. (٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٢.

سُورَةُ الأَنْعَامِ(١)

وهي مائة وخمس وستون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال مقاتل: سورة الأنعام كلها مكية غير قوله تعالى: (وما قدروا الله حق قدره. . . الآية) وقال ابن عباس(٢) في

---

(١) سميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات من قوله: ﴿**وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا** ـ إلى قوله ـ **إذ وصاكم الله بهذا**﴾ وهي مكية بالاتفاق فعن ابن عباس: أنها نزلت بمكة ليلاً جملة واحدة كما رواه عنه عطاء وعكرمة والعوفي وهو الموافق لحديث ابن عمر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتقدم آنفاً، وروي أن قوله تعالى: ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾ الآية نزل في مدة حياة أبي طالب أي قبل سنة عشر من البعثة فإذا صح كان ضابطاً لسنة نزول هذه السورة وروى الكلبي عن ابن عباس أن ست آيات منها نزلت بالمدينة ثلاثاً من قوله ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ إلى منتهى ثلاث آيات وثلاثاً من قوله ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ـ إلى قوله ـ **ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون**﴾ وعن أبي جحيفة أن آية ﴿**ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة**﴾ مدنية.

وقيل نزلت آية ﴿**ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي**﴾ الآية بالمدينة بناء على ما ذكر من سبب نزولها الآتي وقيل نزلت آية ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه**﴾ الآية وآية ﴿**فالذين آتيناهم الكتاب يعرفونه**﴾ الآية وآية ﴿**فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به**﴾ الآية كلتاهما بالمدينة بناء على ما ذكر من أسباب نزولهما كما سيأتي وقال ابن العربي في أحكام القرآن عند قوله تعالى: ﴿**قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً. . .**﴾ الآية أنها في قول الأكثر نزلت يوم نزول قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ الآية أي سنة عشر فتكون هذه الآيات مستثناة من مكية السورة ألحقت بها. وقال ابن عطية في تفسير قوله تعالى ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ الآية من هذه السورة إن «النقّاش» حكى أن سورة الأنعام كلها مدنية، ولكن قال ابن الحصار: لا يصح نقل في شيء نزل من الأنعام في المدينة وهذا هو الأظهر وهو الذي رواه أبو عبيد والبيهقي وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس وأبو الشيخ عن أبي بن كعب.

وعن ابن عباس أنها نزلت بمكة جملة واحدة ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكتّاب فكتبوها من ليلتهم.

وروى سفيان الثوري وشريك عن أسماء بنت يزيد الأنصارية: نزلت سورة الأنعام على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جملة وهو في مسير وأنا آخذة بزمام ناقته إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة ولم يعينوا هذا المسير ولا زمنه غير أن أسماء هذه لا يعرف لها مجيء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل هجرته ولا هي معدودة فيمن بايع في العقبة الثانية حتى يقال إنها لقيته قبل الهجرة، وإنما المعدودة أسماء بنت عمرو بن عدي فحال هذا الحديث غير بين. ولعله التبس فيه قراءة السورة في ذلك السفر بأنها نزلت حينئذ.

قالوا: ولم تنزل من السور الطوال سورة جملة واحدة غيرها. وقد وقع مثل ذلك في رواية شريك عن أسماء بنت يزيد كما علمته آنفاً، فلعل حكمة إنزالها جملة واحدة قطع تعلل المشركين في قولهم ﴿**لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة**﴾. توهماً منهم أن تنجيم نزوله يناقض كونه كتاباً فأنزل الله سورة الأنعام وهي في مقدار كتاب من كتبهم التي يعرفونها كالإنجيل والزبور ليعلموا أن الله قادر على ذلك، إلَّا أن حكمة تنجيم النزول أولى بالمراعاة، وأيضاً ليحصل الإعجاز بمختلف أساليب الكلام من قصر وطول وتوسط، فإن طول الكلام قد يقتضيه المقام كما قال «قيس بن خارجة» يفخر بما عنده من الفضائل وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب إلخ. . .

=

(٢) انظر تفسير القرطبي ٦/٢٤٦ قال قال الثعلبي سورة الأنعام مكية إلا ست آيات نزلت بالمدينة.

رواية أبي صالح: سورة الأنعام كلها مكية غير ست آيات (قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم.. إلى آخر الثلاث) وقوله: (وما قدروا الله حق... وقوله: ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً). وقيل: نزلت جملة واحدة[1] وشيعها

= وقال أبو داؤد بن جرير الأيادي يمدح خطباء إياد:

يـرمـون بـالـخـطـب الـطوال وتـارة وحْـي الـمَـلاَحِظِ خـيـفـةَ الـرُّقـبـاء

واعلم أن نزول هذه السورة جملة واحدة على الصحيح لا يناقض ما يذكر لبعض آياتها من أسباب نزولها لأن أسباب نزول تلك الآيات إن كان لحوادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه السورة فيكون نزول تلك الآيات مسبباً على تلك الحوادث وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات. على أن أسباب النزول لا يلزم أن تكون مقارنة لنزول آيات أحكامها فقد يقع السبب ويتأخر تشريع حكمه.

وعلى القول الأصح أنها مكية فقد عدت هذه السورة الخامسة والخمسين في عد نزول السور. نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات.

وعدد آياتها مائة وسبع وستون في العدد المدني والمكي، ومائة وخمس وستون في العدد الكوفي، ومائة وأربع وستون في الشامي والبصري.

ابتدأت بإشعار الناس بأن حق الحمد ليس إلا لله لأنه مبدع العوالم جواهرَ وأعراضاً فعلم أنه المتفرد بالإلهية وإبطال تأثير الشركات من الأصنام والجن بإثبات أنه المتفرد بخلق العالم جواهره وأعراضه وخلق الإنسان ونظام حياته وموته بحكمته تعالى وعلمه ولا تملك آلهتهم تصرفاً ولا علماً.

وتنزيه الله عن الولد والصاحبة قال أبو إسحاق الاسفرائيني: في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد.

وموعظة المعرضين عن آيات القرآن والمكذبين بالدين الحق، وتهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالقرون المكذبين من قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى وأنهم ما يضرون بالإنكار إلا أنفسهم.

ووعيدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم ثم عند البعث، وتسفيه المشركين فيما اقترحوه على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طلب إظهار الخوارق تهكماً. وإبطال اعتقادهم أن الله لقنهم على عقيدة الإشراك قصداً منهم لإفحام الرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبيان حقيقة مشيئة الله.

وإثبات صدق القرآن بأن أهل الكتاب يعرفون أنه الحق. والإنحاء على المشركين تكذيبهم بالبعث وتحقيق أنه واقع وأنهم يشهدون بعده العذاب وتتبرأ منهم آلهتهم التي عبدوها وسيندمون على ذلك كما أنها لا تغني عنهم شيئاً في الحياة الدنيا فإنهم لا يدعون إلا الله عند النوائب. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه لا يؤخذ بإعراض قومه وأمره بالإعراض عنهم.

وبيان حكمة إرسال الله الرسل وأنها الإنذار والتبشير وليست وظيفة الرسل إخبار الناس بما يتطلبون علمه من المغيبات. وأن تفاضل الناس بالتقوى والإنتساب إلى دين الله. وإبطال ما شرعه أهل الشرك من شرائع الضلال. وبيان أن التقوى الحق ليست مجرد حرمان النفس من الطيبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية.

وضرب المثل للنبي مع قومه بمثل إبراهيم مع أبيه وقومه وكأن الأنبياء والرسل على ذلك المثل من تقدم منهم ومن تأخر.

والمنة على الأمة بما أنزل الله من القرآن هدى لهم كما أنزل الكتاب على موسى وبأن جعلها الله خاتمة الأمم الصالحة.

وبيان فضيلة القرآن ودين الإسلام وما منح الله لأهله من مضاعفة الحسنات. وتخللت ذلك قوارع للمشركين وتنويه بالمؤمنين، وامتنان بما اشتملت عليها مخلوقات الله وذكر مفاتح الغيب. انظر التنوير والتحرير ١٢١/٧ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤.

(١) قال فخر الدين: قال الأصوليون (أي علماء أصول الدين) السبب في إنزالها دفعة واحدة أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوءة والمعاد، وإبطال مذاهب المعطلين والملحدين، فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزل الله على قدر حاجاتهم وبحسب الحوادث، وأما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله الله جملة واحدة.

وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدها مقارعة جدال لهم واحتجاج على سفاهة أحوالهم من قوله **﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾** وفيما حرموه على أنفسهم مما رزقهم الله. انظر التحرير ١٢٥/٧

سبعون ألف ملك[١]. قال شهر بن حوشب:[٢] نزلت الأنعام جملة واحدة وهي مكية غير آيتين: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم. . .) وقال: بعضهم: كلها مكية. وقال كعب الأحبار:[٣] مفتاح التوراة قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وخاتمها خاتمة سورة هود: (ولله غيب السموات والأرض) وقوله تعالى: (الحمد لله) حمد الرب نفسه ودل بصنعه على توحيده (الذي خلق السموات والأرض) يعني خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم وخلق الأرض وما فيها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ يعني خلق الليل والنهار ويقال: الكفر والإسلام[٤]. وقال الضحاك: هذه الآية نزلت في شأن المجوس قالوا: الله خالق النور، والشيطان خالق الظلمة، فأنزل الله تعالى إكذاباً لقولهم ورداً عليهم فقال: (وجعل الظلمات والنور). يعني أن الله واحد لا شريك له وهو الذي خلق السموات والأرض وهو الذي خلق الظلمات والنور ﴿ثُمَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا﴾ يعني المجوس ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يعني يشركون[٥]. ويقال (ثم الذين كفروا بربهم يعدلوا) يعني مشركي مكة بربهم يعدلون يعني يعبدون الأصنام. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِيْنٍ﴾ يعني آدم وأنتم من ذريته ومن نسله ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ يعني أجل ابن آدم منذ يوم ولد إلى يوم يموت ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني البرزخ منذ يموت إلى يوم البعث فهو مكتوب في اللوح المحفوظ. فهذا قول مقاتل والحسن وقال عكرمة: (أجلاً) يعني أجل الدنيا (وأجل مسمى) يعني أجل الآخرة وهكذا قال سعيد بن جبير:[٦] ويقال (أجلاً) يعني أجل كل واحد (وأجل مسمى) يعني يوم القيامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ يعني تشكون في البعث بعد الموت وفي الأجل المسمى. ثم قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ يعني هو المتفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض. وهذا كقوله: (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) يعني وهو خالق السموات والأرض. ويقال: هو الذي يوحد ويقر بوحدانيته أهل السموات والأرض ويقال: عالم بما في السموات وبما في الأرض. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ يعني يعلم سر أعمالكم ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ يعني علانيتكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم بذلك. ثم أخبر عن أمر المشركين فقال.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ

(١) انظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور ٣/٣.

(٢) ذكره السيوطي رحمه الله في الدر المنثور ٣/٣ وعزاه للفريابي وإسحاق بن راهويه مسنده وعبد بن حميد والمصنف رحمه الله لم يذكر الآية الثانية وهي التي بعدها كما في الدر.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٥٢/١١ وزاد نسبته السيوطي في الدر ٣/٣ لابن الضريس في فضائل القرآن وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٤) قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر انظر تفسير القرطبي ٢٤٩/٦ وقال القرطبي معقباً على ذلك واللفظ يعمه.

(٥) وذكره مثله السيوطي في الدر المنثور عن مجاهد وعزاه لأبي الشيخ انظر الدر المنثور ٤/٣.

(٦) انظر تفسير الطبري ٢٥٧/١١.

يَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ من آيةٍ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولم يتفكروا فيها ليعتبروا في توحيد الله تعالى. وذلك أن مشركي مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يريهم علامة. وقالوا: إنا نريد أن تدعو لينشق القمر نصفين، لنؤمن بك وبربك ونصدقك فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانشق القمر شقتين. وذهب أحد النصفين إلى جانب حراء والآخر إلى جانب آخر وهم ينظرون إليه. وقال ابن مسعود: أنا رأيت حراء بين فلقتي القمر. فأعرضوا عنه فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين فنزلت[1] (اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا) ونزلت هذه الآية: (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم) يعني انشقاق القمر (إلا كانوا عنها معرضين)، يقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني بالقرآن حين جاءهم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستهزؤوا بالقرآن. بأنه ليس من الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ يعني سيعلمون جزاء تكذيبهم واستهزائهم بالقرآن بأنه ليس من الله تعالى. ويقال: يأتيهم أخبار﴿مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾من العذاب حين رأوها معاينة. فهذا وعيد لهم أنه يصل إليهم العذاب إما في الدنيا وإما في الآخرة. ثم وعظهم ليخافوا ويرجعوا فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني من قبل كفار مكة ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني مكناهم وأعطيناهم من المال والولد ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً﴾ يعني المطر متتابعاً كلما احتاجوا إليه ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ يعني عذبناهم ﴿بِذُنُوبِهِم﴾ وبتكذيبهم رسلهم ﴿وأَنْشأنا مِن بَعْدِهِم﴾ يعني وجعلنا من بعد هلاكهم ﴿قَرْناً آخَرِين﴾ قال الزجاج: القرن أهل كل [مدة][2] فيها نبي، أو فيها طبقة من أهل العلم كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : خير القرون أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. ثم قال:

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ﴾ ذلك أن النضر بن الحارث وعبد الله بن أمية وغيرهما، قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً من السماء، قال الله تعالى: (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) يقول: مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يقول عاينوه وأخذوه بأيديهم ما يصدقونه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني يقول الذين كفروا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ولا يؤمنون به. ﴿وَقَالُوا: لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ من

---

(١) وحديث إنشقاق القمر أخرجه ٦/٦٣١ في المناقب (٣٦٣٦) وفي ٨/٦١٧ (٤٨٦٣)، ومسلم ٤/٢١٥٨ في صفة القيامة (٤٣ - ٤٥/٢٨٠٠).

(٢) في أ [مدينة].

السماء فيكون معه نذيراً فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً﴾ من السماء ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ يعني لهلكوا إذا عاينوا الملك ولم يؤمنوا ولم يصدقوا لنزل العذاب بهم ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ يعني لا ينتظر بهم حتى يعذبوا. ويقال: لو نزل الملك لنزل بإهلاكهم. ويقال: لو أنزلنا ملكاً لا يستطيعون النظر إليه فيموتوا. ثم قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً﴾ يعني لو أنزلنا ملكاً بالنبوة ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ يعني لأنزلناه على شبه رجل على صورة آدمي ألا ترى أنهم حين جاءوا إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاءوا على صورة الضيفان، وعلى داود ـ عليه السلام ـ مثل خصمين وكان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صورة دحية الكلبي. ثم قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ يعني لو نزل الملك على أشباه الآدميين لا يزول عنهم الاشتباه والتلبس. وروى بعضهم عن ابن عامر أنه قرأ:[١] (ما يلبسون) بنصب الباء يعني جعلنا عليه من الثياب ما يلبسونه على أنفسهم ظنوا أنه آدمي والقراءة المعروفة: بالكسر يقال: لبس يلبس إذا لبس الثوب ولبس يلبس: إذا خلط الأمر. وقال القتبي: (وللبسنا) يعني أضللناهم بما ضلوا به من قبل أن يبعث الملك. ثم قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد كما استهزأ بك قومك في أمر العذاب ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ﴾ يقول: وجب ونزل بالذين ﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بالرسل ويقال: فحاق أي رجع. وقال أهل اللغة: الحيق، ما يشتمل على الإنسان من مكروه فَعَلَته نفسه كقوله: (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله). وقال الضحاك: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً في المسجد الحرام مع المستضعفين من المؤمنين بلال بن رباح، وصهيب بن سنان، وعمار بن ياسر وغيرهم. فمر بهم أبو جهل بن هشام في ملأ من قريش وقال: يزعم محمد أن هؤلاء ملوك أهل الجنة فأنزل الله تعالى على رسوله هذه الآية ليثبت بها فؤاده ويصبره على أذاهم[٢] فقال: (ولقد استهزىء برسل من قبلك) يعني إن سخر أهل مكة من أصحابك فقد فعل ذلك الجهلة برسلهم فجعل الله تعالى دائرة السوء على أهل ذلك الاستهزاء. ثم أمر المشركين بأن يعتبروا بمن قبلهم وينظروا إلى آثارهم في الأرض فقال:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قُلْ سِيْرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني قل لأهل مكة سافروا في الأرض ﴿ثُمَّ انْظُرُوا﴾ يعني اعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ﴾ يعني آخر أمر ﴿الْمُكَذِّبِيْنَ﴾ بالرسل والكتب. وقال الحسن: (سِيْرُوا في الأرض) يعني اقرأوا القرآن فانظروا كيف كان عاقبة المتقدمين في العذاب. فقال أهل مكة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن فعلت هذا الفعل لطلب المال فاترك هذا الفعل إنا نجمع لك مالاً تصير به أغنى أهل مكة فنزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلْ للَّه﴾ يعني ما في السموات وما في الأرض يعطي منها من يشاء. ثم قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِه الرَّحْمَةَ﴾ فلا يعذبكم في الدنيا. وروى عطاء عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن لله مائة رحمة أنزل منها واحدة فقسمها بين الخلائق فيها يتراحمون وبها تعطف الوحوش على أولادها

---

(١) وقرأ ابن محيصن (ولبسنا) بلام واحدة، والزهري (وللبّسنا) بتشديد الباء انظر البحر المحيط ٤/٧٩.

(٢) بنحوه انظر الدر المنثور ٣/٥.

وادّخر لنفسه تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة(١). ويقال: كتب الرحمة حيث أمهلهم ولم يهلكهم ليرجعوا ويتوبوا. ثم قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني ليجمعنكم يوم القيامة وهذا كما يقال: جمعت هؤلاء إلى هؤلاء أي ضممت بينهم في الجمع ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني في البعث أنه كائن. ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال بعضهم: هذا ابتداء وخبره لايؤمنون وقال بعضهم: هذا بدل من قوله: ليجمعنكم. ثم عظم نفسه فقال:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ يعني ما استقر ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الدواب والطير في البر والبحر فمنها ما يستقر في الليل وينتشر بالنهار ومنها ما يستقر بالنهار وينتشر الليل. ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني السميع لمقالتهم، العليم بعقوبتهم. ثم قال: ﴿قُلْ: أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ وذلك أن المشركين قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إن آباءك كانوا على مذهبنا وإنما تركت مذهبهم للحاجة فارجع إلى مذهب آبائك حتى نغنيك بالمال فنزلت (قل أغير الله أتخذ ولياً) يعني أعبد رباً. ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خالق السموات والأرض ويقال: مبتدئهما. ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - (كل مولود يولد على الفطرة)(٢) أي على ابتداء الخلقة وهو الإقرار بالله حين أخذ عليهم العهد في أصلاب آباءهم، وإنما صار (فاطر) كسراً لأنه من صفة الله تعالى يعني أغير الله فاطِر السموات والأرض. وقال الزجاج: يجوز الضم على معنى هو فاطر السموات والأرض، ويجوز النصب على معنى: اذكروا فاطر السموات، إلا أن الاختيار الكسر. ثم قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يعني يرزق ويقال: وهو يرزق ولا يعان على رزق الخلق. وقرأ بعضهم: (وهو يُطْعِمُ ولا يَطْعَم) بنصب الياء يعني يرزق ولا يأكل. ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ من أهل مكة. يعني أول من أسلم من أهل مكة واستقام على التوحيد ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني وقال لي ربي: لا تكونن من المشركين بقولهم: ارجع إلى دين آبائك. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ يعني إني أعلم إن عصيت ربي فرجعت إلى آبائي وعبدت غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني عذاباً شديداً في يوم القيامة. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ سوء العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعني غفر له وعصمه. [قرأ ابن كثير(٣) ونافع وأبو عامر وعاصم في رواية حفص (من يصرف عنه)](٤) بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر(٥): (من يصرف) بنصب الياء ومعناه، من يصرف الله عنه

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٣١ في الأدب جعل الله الرحمة (٦٠٠٠) ومسلم ٤/٢١٠٨ في التوبة باب سعة رحمة الله (١٩/٢٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري ٣/٣١٩ في الجنائز (١٣٥٨، ١٣٥٩)، وفي ٨/٥١٢ في التفسير (٤٧٧٥)، وفي ١١/٤٩٣ في القدر (٦٥٩٩)، ومسلم ٤/٢٠٤٧ في القدر (٢٢/٢٦٥٨).

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٢ - ٢٤٣، سراج القارىء ٢٠٦، شرح شعلة ٣٥٨.

(٤) سقط في أ.

(٥) انظر المصدرين السابقين.

ولأنه سبق ذكر قوله: (ربي) فانصرف إليه. ثم قال: ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِيْن﴾ يعني صرف العذاب: هـو النجاة الوافرة. وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: سدِّدوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لا ينجو أحد بعمله قالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته(١). يعني أن الخلق كلهم ينجون برحمة الله تعالى. ثم خوَّفه ليتمسك بدينه فقال:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني إن يصبك الله بشدة أو بلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا يقدر أحد من الآلهة التي يدعونها ولا غيرها كشف الضر إلا الله تعالى. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ يقول: وإن يصبك بسعة أو صحة الجسم فإنه لا يقدر أحد على دفع ذلك ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الغنى والفقر والعافية. ثم قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الغالب والعالي عليهم. ويقال: القادر والمالك عليهم ﴿وَهُوَ الْحَكِيْمُ﴾ في أمره ﴿الْخَبِيْرُ﴾ بأفعال الخلق. ثم قال ﴿قُلْ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا محمد ألا وجد الله رسولاً غيرك وما نرى أحداً من أهل الكتاب يصدقك بما تقول، فأرنا من يشهد لك أنك رسوله. فقال الله تعالى (قل): لأهل مكة (أي شيء أكبر شهادة) يعني حجة وبرهاناً. ويقال: من أكبر شهادة؟ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ: اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأني رسول الله. والشهيد في اللغة:(٢) هو المبين وإنما سمى الشاهد شاهداً لأنه يبين دعوى المدعي بأمر الله نبيه ـ عليه السلام ـ بأن يحتج عليهم بالله الواحد القهار، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وخلقهم أطواراً. ثم قال: ﴿وأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ يعني لأخوفكم بالقرآن يا أهل مكة ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني ومن بلغه القرآن سواكم فأنا نذير وبشير من بلغه القرآن من الجن والإنس. قال قتادة(٣)، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بلغوا عني ولو آية) من كتاب الله تعالى فمن بلغه فكأنما عاين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلمه. وقال محمد بن كعب(٤) القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قرأ: (لأنذركم به ومن بلغ). وقال مجاهد(٥): (لأنذركم به) يعني أصحاب محمد ـ صلى

(١) أخرجه البخاري ١١/٣٠٠ في الرقاق ٦٤٦٣، وأخرجه مسلم ٤/٢١٧٠ في المنافقين (٢٨١٦/٧٦)، وأخرجه من رواية جابر ٤/٢١٧١ في صفات المنافقين (٢٨١٧/٧٧).

(٢) الشهيد فعيل بمعنى مفعول، سمي به لأنه مشهود له بالجنة بالنص، أو لأن الملائكة يشهدون موته إكراماً له، أو بمعنى فاعل لأنه حي عند الله تعالى حاضر. والشهيد بمعنى المستشهد المقتول انظر المغرب ١/٤٥٩ وليس هو المقصود هنا بل المقصود ما ذكر المصنف رحمه الله.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٢٩٠ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٣/٧ لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٢٩٠ وذكره السيوطي في الدر المنثور وزاد نسبته لابن أبي شيبة، وابن الضريس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) انظر تفسيره ١/٢١٣.

الله عليه وسلم ـ (ومن بلغ) يعني من العجم وغيرهم. ثم قال: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُوْنَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ من الأصنام فإن قالوا: نعم (قُلْ: لَا أَشْهَدُ) بما شهدتم ولكن ﴿قُلْ﴾ أشهد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون﴾ من الأصنام والأوثان. قوله تعالى

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿الَّذِيْنَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَه﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾. وقال عبد الله بن سلام: أنا أعرف بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من إبني لأني أشهد أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أشهد لابني لأني لا أدري ما أحدثت النساء بعدي[١]. ثم قال: ﴿الَّذِيْنَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونْ﴾ يعني كعب بن الأشرف ومن تابعه ممن طلبوا الرئاسة آثروا الدنيا على الآخرة. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني ممن اختلق على الله كذباً باتخاذ الآلهة، وقوله الشرك ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يعني بالقرآن أنه ليس من عند الله، ﴿إِنَّه لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني أنه لا يأمن الكافرون من عذابه. قال في اللغة: (إنه): مرة تكون الإشارة مثل قوله: (إنه هو الغفور الرحيم) ومرة تكون للعماد مثل قوله تعالى: (إنه لا يفلح الكافرون) (وإنه لا يفلح الظالمون) وقوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِيْنَ أَشْرَكُوا: أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِيْنَ كُنْتُمْ تَزْعُوْن﴾ يعني أين آلهتكم التي تزعمون يعني تعبدون من دون الله. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ وأصل الفتنة في اللغة: هو الإختبار ويقال: فتنت الذهب في النار إذا أدخلته لتعلم جودته، وإنما سمي جوابهم فتنة لأنهم حين سئلوا اختبروا بما عندهم بالسؤال فلم يكن الجواب من ذلك الإختبار فتنة إلا هذا القول. ويقال: ثم لم تكن معذرتهم وجوابهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالواْ: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْن﴾. [قال مجاهد][٢] إن المشركين لما رأوا يوم القيامة: أن الله لا يغفر ذنوبهم يقول بعضهم لبعض: يا ويلكم جئتم بما لا يغفر الله لكم هلموا الآن فلنكْذِبْ على أنفسنا ونحلف على ذلك فحلفوا فحينئذ ختم على أفواههم فتشهد أيديهم وأرجلهم عليهم. قرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص[٣]: (ثم لم تكن فتنتهم) بالتاء لأن الفتنة مؤنث (فتنتهم) بضم التاء لأنه اسم تكن. وقرأ حمزة والكسائي: (ثم لم يكن) بالياء لأن الفتنة وإن كانت مؤنثة إلا أن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفتنة بمعنى الافتان فانصرف إلى المعنى (فتنتهم) بالنصب فجعلاه خبر تكن والإسم ما بعده وقرأ أبو عمرو ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: (ثم لم تكن) بالتاء والنصب وقرأ حمزة والكسائي: (والله ربَّنا) بنصب الباء ومعناه يا ربنا وقرأ الباقون[٤]: (والله ربِّنا) بكسر الباء على معنى النعت. قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (انظر كيف كذبوا على أنفسهم أي كيف صار وبال تكذيبهم على أنفسهم. ويقال: يقول الله تعالى للملائكة

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٢٩٦.
(٢) في أ [يعني وانظر تفسيره ١/٢١٣].
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٤٣، شرح شعلة ٣٥٨.
(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٤، شرح شعلة ٣٥٨.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿**انْظُر كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**﴾، يعني انظر إليهم كيف يكذبون على أنفسهم ﴿**وَضَلَّ عَنْهُمْ**﴾ يعني ذهب عنهم. ويقال: اشتغل عنهم الآلهة بأنفسها ﴿**مَا كَانُواْ يَفْتَرُون**﴾ على الله من الكذب في الدنيا. قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ**﴾ يعني إلى حديثك وقراءتك يعني يستمعون ولا ينفعهم ذلك ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوه**﴾ يعني غطاء مجازاً لكفرهم ﴿**وَفِي آذانِهِم وَقْرَاً**﴾ يعني صمماً وثقلاً لا يفقهون حديثك. وقال قتادة[1]: يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئاً، كمثل البهيمة التي تسمع القول ولا تدري ما هو. ثم قال: ﴿**وَإِنْ يَرَوْا كلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**﴾ يعني انشقاق القمر، وغيره ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤكَ يُجَادِلُوْنَك**﴾ يعني مخاصمونك بالباطل وينكرون أن القرآن من الله تعالى ﴿**يَقُولُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيْرُ الأَوَّلِيْن**﴾ وذلك أن النضر بن الحارث كان يخبر أهل مكة بسير المتقدمين وبأخبارهم، فقالوا له: ما ترى فيما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لا أفهم مما يقول شيئاً، لا أدري أنه من أساطير الأولين الذي أخبركم به مثل حديث رستم واسفنديار، وقال القتبي: واحدها أسطورة واسطارة ومعناها التُّرهات والأباطيل البسابس، وهي شيء لا نظام له وليس بشيء وفي هذا دلالة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم بالسر فيُظهِر الله أسرارهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ**﴾ يعني أهل مكة ينهون الناس عن محمد أن يتبعوه ويتباعدون عنه، أي يتنافرون. ويقال: نزل في شأن أبي طالب كان يقول للنبي ـ عليه السلام ـ أن قريشاً لن يصلوا إليك حتى أوسد في التراب فامض يا إبن أخي فما عليك غضاضة يعني ذلًّا وكان لا يسلم لأجل المقالة. فنزل (وهم ينهون عنه) يعني أبا طالب ينهى قريشاً عن إيذائه وينأى عنه ويتباعد عن دينه. وهذا قول الكلبي، والضحاك ومقاتل. والقول الأول أيضاً قول الكلبي. ثم قال: ﴿**وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ**﴾ يعني وما يهلكون إلا أنفسهم ﴿**وَمَا يَشْعُرُون**﴾ بذلك. قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّار**﴾. قال الكلبي: يعني حبسوا على النار[2] وقال مقاتل[3] يعني عرضوا على النار وقال الضحاك[4]: يعني جمعوا على أبوابها ويقال: وقفوا على متن جهنم والنار تحتهم. وروي في الخبر: أن الناس كلهم وقفوا على متن جهنم، كأنها متن الأهالة ثم نادى مناد، خذي أصحابك ودعي أصحابي. ثم قال: ﴿**فَقَالُوا يَاْ لَيْتَنَا نُرَدُّ**﴾ إلى الدنيا ولم يذكر في الآية الجواب لأن في الكلام ما دل عليه فكأنه يقول: ولو ترى يا محمد

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٣٠٧.
(٢) تفسير القرطبي ٦/٣٦٣.
(٣) انظر التفسير ١/٣٧٠.
(٤) انظر تفسير القرطبي ٦/٢٦٣.

كفار قريش حين وقفوا على النار لعجبت من ذلك فقالوا: يا ليتنا نرد إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِن الْمؤمِنِيْنَ﴾ قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص[1]: (ولا نكذب [بالنصب (ونكون) بالنصب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم في رواية أبي بكر: (ولا نكذب)[2]] ونكون) كلاهما بالضم على معنى الخبر. ومن قرأ بالنصب فلأنه جواب التمني وجواب التمني إذا كان بالواو والفاء يكون بالنصب كقولك: ليتك تصير إلينا ونكرمك[3]. وقرأ بعضهم: (ولا نكذبُ) بالضم و(نكونَ) بالنصب في رواية هشام بن عمار عن ابن عامر. وقرأ عبد الله بن مسعود: (فلا نكذب) بالفاء. قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ﴾ يعني ظهر لهم ﴿مَا كَانُوا يُخْفُون مِنْ قَبْلُ﴾ بألسنتهم لأن الجوارح تشهد عليهم بالشرك، فحينئذ يتمنون الرجعة ﴿وَلَوْرُدُّوا﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ يعني رجعوا إلى كفرهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون﴾ في قولهم: (ولا نكذب بآيات ربنا) لأنهم قد علموا في الدنيا وعاينوه وقد عاين إبليس وشاهد، ومع ذلك كفر وكذلك هاهنا لو رجعوا لكفروا كما كفروا من قبل: لأنك ترى في الدنيا إنساناً أصابه مرض أو حبس في السجن أخلص بالتوبة لله تعالى أن لا يرجع إلى الفسق فإذا برأ من مرضه أو أطلق من الحبس رجع إلى الحال الأول. قوله تعالى:

وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

﴿وَقَالُواْ: إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعني ما هي إلا آجالنا تنقضي في الدنيا، فيموت الآباء ويجيء الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين﴾ بعد الموت فيبين الله تعالى حالهم يومئذ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ يعني عرضوا وسيقوا وحبسوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني عند ربهم وعند عذاب ربهم ﴿قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا﴾ يعني العذاب والبعث ﴿بِالْحَقِّ قَالُواْ: بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أقروا في وقت لا ينفعهم الإقرار ﴿قَال: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرون﴾ به وتجحدونه. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ يعني غبن الذين جحدوا بالله وبالبعث حين اختاروا العقوبة على الثواب ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعةُ بَغْتَةً﴾ يعني فجأة ومعناه أنهم جحدوا وثبتوا على جحودهم حتى إذا جاءتهم القيامة ﴿قَالُواْ: يَا حَسْرَتَنَا﴾ يعني يا ندامتنا وخزينا والعرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم تقع فيه جعلته نداء كقوله: (يا حسرتنا) و(يا ويلتنا) و(يا ندامتنا) ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ يعني ضيعنا وتركنا العمل ﴿فِيهَا﴾ يعني في الدنيا من عمل الآخرة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُون أَوْزَارَهم﴾ يعني آثامهم ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ يعني إنهم يحملون آثامهم. وروى

---

(١) والمعنى: ليت مصيرك يقع. وإكرامنا ويكون المعنى ليت ردنا وقع ولا تكذب أي رددنا لم تكذب.
(٢) ما بين المعقوفين سقط من ب.
(٣) وقال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله عارٌ عليك إذا فعلْتَ عظيمُ

أسباط عن السدي[١] قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا آتاه ملك قبيح الوجه، أسود اللون. منتن الريح عليه ثياب دنسة فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك فيقول: كذلك كان عملك قبيحاً فيقول: ما أنتن ريحك فيقول كذلك كان عملك منتناً فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيكون معه في قبره فإذا بعث يوم القيامة قال له إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات فأنت اليوم تحملني فيركب على ظهره حتى يدخله النار قال: وذلك قوله: (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) وذلك على سبيل المجاز يعني يحملون وبال ذلك [على ظهورهم][٢] وعقوبته ويقال: وقرت ظهورهم من الآثام ثقلت وحملت وأصل الوزر في اللغة: هو الثقل. ثم قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يعني يحملون. قوله تعالى:

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَعِب وَلَهْوٌ﴾ يعني لعب كلعب الصبيان يبنون بنياناً ثم يهدمونه ويلعبون ويلهون ويبنون ما لا يسكنون [كذلك أهل الدنيا يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون][٣] ويأملون ما لا يدركون. ثم قال: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِيْنَ يَتَّقُون﴾ الشرك والفواحش ﴿أَفَلَا تَعْقِلُون﴾ أي أن الآخرة أفضل من الدنيا، قرأ ابن عامر: [٤] (وَلَدَارُ الآخِرَة) بلام واحدة بالتخفيف وبكسر الآخرة على معنى الإضافة [وقرأ الباقون: (وللدار الآخرة) بلامين والآخرة بالضم على معنى النعت][٥] وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص: (أفلا تعقلون) بالتاء على معنى المخاطبة. والباقون بالياء على معنى المغايبة. قوله تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّه لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُون﴾ روى سفيان عن أبي إسحق عن ناجية بن كعب[٦] قال: قال أبو جهل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما نتهمك ولكن نتهم الذي جئت به فنزلت هذه الآية[٧]. وروى أبو معاوية عن

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٣٢٨، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ٣/٩ لابن أبي حاتم.

(٢) سقط في أ. (٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٦، سراج القارىء ٢٠٧، شرح شعلة ٣٥٩.

(٥) سقط في أ.

(٦) الأسدي الكوفي روى عن ابن مسعود وعلي وعمار وعنه خلق، وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ١٠/٣٩٩ ـ ٤٠١.

(٧) أخرجه الترمذي ٥/٢٤٣ في التفسير (٣٠٦٤)، وأخرجه ابن جرير في التفسير ١١/٣٣٤ (١٣١٩٥)، والحاكم في المستدرك ٢/٣١٥ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والضياء في المختارة.

إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح قال: جاء جبريل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو حزين، فقال: ما يحزنك؟ قال: كذّبني هؤلاء فقال: إنهم لا يكذبونك، يعلمون أنك صادق فنزلت هذه الآية:[١] (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) من تكذيبهم إياك في العلانية ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السر ويعلمون أنك صادق وكانوا يسمونه أميناً قبل أن يوحي إليه فلما أوحي إليه كذبوه، فقال ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِين بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُون﴾ وهم يعلمون أنك صادق. والجحد يكون ممن علم الشيء ثم جحده كقوله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) قرأ نافع والكسائي:[٢] (فإنهم لا يكذبونك) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد فمن قرأ بالتخفيف فمعناه أنهم لا يجحدونك كاذباً، ومن قرأ بالتشديد فمعناه: أنهم لا ينسبونك إلى الكذب ولا يكذبونك في السر، وقرأ نافع:[٣] (يحزنك) برفع الياء وكسر الزاي وقرأ الباقون (ليحزنك) بنصب الياء وضم الزاي ومعناهما واحد. ثم عزاه ليصبر على أذاهم فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني أن قومهم كذبوهم كما كذبك قريش ﴿فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وأُوذُوا﴾ يعني صبروا على تكذيبهم وأذاهم ﴿حَتَّى أَتَاهُم نَصْرُنَا﴾ يعني عذابنا لهلالكهم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني لا مغير لوعد الله فهذا وعد من الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنصرة، كما نصر النبيين من قبله. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبأى الْمُرْسَلِيْنَ﴾ يعني من خبر المرسلين كيف أنجيت المرسلين وكيف أهلكت قومهم. فلما وعد الله تعالى بالنصرة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعجل أصحابه لذلك، وأرادوا أن يعجل بهلاك الكفار، فنزل: ﴿وإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد به قومه، فقال: إن عظم عليك إعراضهم عن الإيمان، ولا تصبر على تكذيبهم إياك ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْض﴾ يعني إن قدرت أن تطلب سِرْباً في الأرض والنافقاء، إحدى جحري اليربوع ﴿أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ﴾ يعني مصعداً إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بآية﴾ فافعل ذلك على وجه الإضمار وهذا كما قال في آية أخرى (من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء) الآية. وروى محمد بن المنكدر: أن جبريل قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن الله أمر السماء أن تطيعك، وأمر الأرض أن تطيعك، وأمر الجبال أن تطيعك، فإن أحببت أن ينزل عذاباً عليهم. قال: يا جبريل أؤخر عن أمتي، لعل الله أن يتوب عليهم. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ يعني لهداهم إلى الإيمان. ويقال: ولو شاء لاضطرهم إلى الهدى، كما قال في آية أخرى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ (ومعناه ولو شاء الله لجمعهم على الهدى قهراً وجبراً، ولكن ما فعل، وكلفهم وتركهم فاختيارهم). ثم قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِن الْجَاهِلِيْنِ﴾ يعني بأنه لو شاء لهداهم. وقال الضحاك: يعني القدر خيره وشره من الله تعالى، فلا تجعل معرفة ذلك بعد البيان. ثم قال:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِيْنَ يَسْمَعُون﴾ يعني يطيعك ويصدقك الذين يسمعون منك كلام الهدى والمواعظ. قال

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٣٣٢ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٠.
(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٤٧، سراج القارىء ٢٠٧.
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٤٦.

الزجاج: يعني يسمع سماع قابل، فالذي لا يقبل كأنه أصم كما قال القائل: أصم عما ساءه سميع. ويقال: فلا تكونن من الجاهلين، بأنه يؤمن بك بعضهم، ولن يؤمن بك البعض، وإنما يؤمن بك الذي وفقه الله للهدى، وهو أهل لذلك وقال: (إنما يستجيب الذين يسمعون) يعني يعقلون الموعظة. ثم قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ أي كفار مكة سماهم الله موتى لأنه لا منفعة لهم في حياتهم (يبعثهم الله) يعني يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني الكفار في الآخرة فينبئهم، فهذا تهديد لهم. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ: لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني الكفار قالوا: هلا نزل عليه آية من ربه، يعني علامة لنبوته. ﴿قُلْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ كما سألوك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بأن الله قادر على أن ينزلها. ويقال: لا يعلمون بما في نزول الآية، لأنه لو نزلت الآية عليهم فلم يؤمنون به، استوجبوا العذاب. قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فذكر الجناحين للتأكيد، لأنه يقال: طار في الأمر، إذا أسرع فيه، فإذا ذكر الجناحين صار تأكيداً له. وقرأ بعضهم (ولا طائرٌ) بالضم، لأن معناه، وما دابةٌ في الأرض ولا طائرٌ لأن (من) زيادة فيكون الطائر عطفاً ورفعاً، وهي قراءة شاذة، ثم قال: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ في الخلق والموت والبعث، تعرف بأسمائهم ﴿مَا فَرَّطْنَا﴾ يقول: ما تركنا ﴿فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ مما يحتاج إليه الخلق، إلا قد بيناه، ويقال: في القرآن. قد بين كل شيء يحتاج إليه ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ﴾ يعني الدواب والطير يحشرون ثم يصيرون تراباً. وروى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: يَحْشُرُ الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة، والبهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدله أن يأخذ للجَمَّاء من القَرْنَاء ثم يقول: كوني تراباً[1]. وعن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا أبا ذر، هل تدري فيما انتطحنا؟ قلت: لا، قال: لكن الله تعالى يدري فسيقضي بينهما[2] وقال: بعضهم هذا على وجه المثل، لأنه لا يجري عليهم القلم فلا يجوز أن يؤاخذوا به. ثم قال:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿صُمٌّ﴾ عن الخبر، فلا يسمعون الهدى ﴿وَبُكْمٌ﴾ يعني خرساً فلا يتكلمون بخير ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني في الضلالات ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ يعني يخذله فيموت على الكفر ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني يستنقذه من الكفر فيوفقه للإسلام. ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾[3] الكاف زيادة في بيان الخطاب ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١١/٣٤٧، والحاكم في المستدرك ٢/٣١٦ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٢/١١ لعبد الرزاق وأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٦٢، وابن جرير الطبري في التفسير ١١/٣٤٨ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١١.

(٣) قرأ نافع: (قل أرأيتكم) و (أرايتم) بالألف من غير همز وحجته في ذلك أنه كره أن يجمع بين همزتين ألا ترى أنه قرأ (وإذا رايت)=

القيامة. ثم رجع إلى عذاب الدنيا فقال: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ ليدفع عنكم العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قال أهل اللغة:(١) بل للاستدراك والإيجاب بعد النفي، وإنما تستعمل في موضعين: أحدهما لتدارك الغلط، والثاني: لترك شيء وأخذ شيء آخر فها هنا بين أنهم لا يدعون غير الله تعالى، وإنما يدعون الله ليكشف عنهم العذاب ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ وإنما قرن بالاستثناء وبالمشيئة، لأن كشف العذاب فضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء، ثم قال: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني تتركون دعاء الآلهة عند نزول الشدة. ثم ذكر حال الأمم الماضية لكي يعتبروا فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فكذبوهم على وجه الإضمار ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ يعني بالخوف والشدة ﴿والضَّرَّاءِ﴾ يعني الزمانة والفقر وسوء الحال والجوع. وقال الزجاج: البأساء: الجوع، والضراء: النقص في الأموال والأنفس. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يعني لكي يرجعوا إليه، ويؤمنوا به قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ يقول: فهلا إذا جاءهم عذاباً ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ إلى الله ويؤمنون به، حتى يرفع عنهم العذاب يعني أنهم لو آمنوا لدفع عنهم العذاب، ولكن أصروا على ذلك فذاك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني جفت ويبست قلوبهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم الأصنام. ثم قال.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني: الأمم الخالية حين لم يعتبروا بالشدة، ولم يرجعوا: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من النعم والخصب. ويقال: إن الله تعالى يبتلي العوام بالشدة فإذا أنعم عليهم يكون استدراجاً، وأما الخواص فيبتليهم بالنعمة والرخاء، فيعرفون ويعدون ذلك بلاء، كما روي في الخبر:(٢) إن الله تعالى أوحى إلى موسى بن عمران (إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك، فقل: ذنب عجلت عقوبته). فهؤلاء الذين أرسل إليهم، ابتلاهم الله تعالى بالشدة فلم يعتبروا، ولم يرجعوا، فتح عليهم أبواب كل خير، عقوبة لهم لكي يعتبروا فيها. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد(٣)

= بالهمز لأنه لم يتقدمه همزة الإستفهام فيترك الثانية.

وقرأ الكسائي: (أريتكم) بغير همزة ولا ألف. وحجته إجماع العرب على ترك الهمزة في المستقبل في قولهم: (ترى ونرى) فبنى الماضي على المستقبل مع زيادة الهمزة في أولها فإذا لم تكن في أولها همزة الإستفهام لم يترك الهمزة مثل: (رأيت) لأن من شرطه إذا تقدمها همزة الإستفهام فحينئذ يستثقل الجمع بينهما، وأخرى وهي أنها كتبت في المصاحف بغير ألف.

وقرأ الباقون: (أرأيتكم) و(أرأيتم) بالهمزة وحجتهم أنهم لم يختلفوا فيما كان من غير استفهام فكذلك إذا دخل حرف الاستفهام فالحرف على أصله ألا ترى أنهم لم يختلفوا في قوله (رأيت المنافقين) و (رأيت الناس). انظر ابن زنجلة ٢٥٠.

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ١٨٥، مغني اللبيب ١/ ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء ٤/ ١٩٦ أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه ورواه أبو نعيم من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف.

(٣) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الرحمن البغدادي روى عن خلق وروى عنه خلق انظر التهذيب ٥/ ١٤١ ـ ١٤٣.

قال: حدثنا أبو عتبة[١]، قال: حدثنا محمد بن حمير[٢]، عن شهاب بن خراش[٣] عن حرملة،[٤] عن عقبة بن مسلم[٥]، عن عقبة بن عامر[٦]، قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأيت الله تعالى يعطي عبداً من الدنيا على معصية مما يحب، فإنما ذلك منه استدراج ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فلما نسوا ما ذكروا به، فتحنا عليهم أبواب كل شيء. . . . الآية). وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا، فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها، إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه (فلما نسوا ما ذكروا به) يعني تركوا ما وعظوا به (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) يعني أرسلنا عليهم كل خير ويقال: فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق. قرأ ابن عامر:[٧] (فتّحنا) بالتشديد على معنى المبالغة، والباقون: بالتخفيف ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ من أنواع الخير، فأعجبهم ما هم فيه ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني أصبناهم بالعذاب فجأة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يعني آيسين من كل خير. وقال مجاهد:[٨] الإبلاس الفضيحة. وقال الفراء: المبلس: المنقطع بالحجة. وقال الزجاج: المبلس: الشديد الحسرة والآيس الحزين. وقال بعضهم في الآية تقديم وتأخير، ومعناه، فلما فتحنا عليهم أبواب كل شيء ونسوا ما ذكروا به أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. ثم قال عز وجل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني قُطع أصلهم فلم يبق منهم أحد ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك أعدائه واستئصالهم. ويقال: الحمد لله الذي ينتقم من أعدائه ولا ينتقم منه أحد، ويقال: هذا تعليم ليحمدوه سبحانه على إهلاك الظالمين. قوله تعالى:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ

---

(١) أحمد بن الفرج بن سليمان الكندي أبو عتبة الحمصي المعروف بالحجازي المؤذن بجامع حمص قال مسلمة بن قاسم ثقة مشهور قال ابن حبان في الثقات يخطي انظر التهذيب ١/ ٦٧ ـ ٦٩.

(٢) محمد بن حمير بن أنيس القضاعي ثم السليمي أبو عبد الحميد ويقال أبو عبد الله الحمصي روى عن خلق انظر التهذيب ٩/ ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) شهاب بن ضراس بن حوشب بن يزيد بن الحارث الشيباني الحوشي أبو الصلت الواسطي ابن أخي العوام انظر التهذيب ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٤) حرملة بن عمران بن قراد التجيبي أبو حفص المصري وثقه أحمد وابن معين توفي سنة ١٦٠ هـ انظر التهذيب ٢/ ٢٢٩.

(٥) عقبة بن مسلم التجيبي أبو محمد المصري القاص إمام المسجد العتيق بمصر وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات له توفي قريباً من سنة عشرين ومائة انظر التهذيب ٧/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٦) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٤٥، وابن جرير في التفسير ١١/ ٣٦١ وزاد السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٢ نسبته إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه وابن المنذر والطبراني في الكبير وذكره الهيثمي في المجمع ٧ ـ ٢٠، ١٠/ ٢٤٥ ـ والبيهقي في الشعب وأخرجه الدولابي التفسير ٣/ ٣٥١ وهي في المشكاة ([٥٢٠١) وفي الكنز (٣٠٧٤٣).

(٧) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٠.

(٨) لم أجده عن مجاهد بل الذي في تفسير الطبري عن مجاهد: الإبلاس الاكتئاب انظر تفسير الطبري ١١/ ٣٦١.

ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي قل لأهل مكة أرأيتم ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ فلم تسمعوا شيئاً ﴿وَأَبْصَارَكُمْ﴾ فلم تبصروا شيئاً ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ فلم تعقدوا شيئاً ﴿مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعني هل أحد يرده عليكم ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ يعني يخلقها لكم. ثمَّ قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي كيف تبين لهم العلامات فيما ذكر من تخويفهم ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يعني يُعرضون ولا يعتبرون. قرأ نافع: (أرأيتم: بعد الألف بغير همز، وقرأ الكسائي بغير مد ولا همز. وقرأ الباقون: بالهمز. فهي كلها لغات العرب. ثم قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ: إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ يعني فجأة أو علانية ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ . يعني لا يهلك إلا القوم الكافرون. ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِيْنَ وَمُنْذِرِيْنَ﴾ يعني ليس لهم أن يقترحوا من أنفسهم وإنما أرسلهم بتبليغ الرسالة مبشرين بالجنة لمن أطاعه، ومنذرين بالنار لمن عصاه ﴿فَمَنْ آمَنَ﴾ يعني صدق بالرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ يعني سلك طريقهم، وأصلح العمل، ويقال: أخلص العمل بعد الإيمان ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لا خوف عليهم من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون عند الصراط. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ يعني يصيبهم العذاب بكفرهم، ولا يعذب أحداً بغير ذنب. ثم قال:

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ يعني مفاتيح الرزق ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني متى ينزل العذاب بكم، هذا جواب لقولهم: (لولا أنزل عليه ملك)، (ولولا نزل عليه آية من ربه) ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مَلَكٌ﴾ من السماء، إنما أنا بشر مثلكم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ يعني ما أتبع ﴿إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ من القرآن ﴿قُلْ: هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيْرُ﴾ يعني الكافر والمؤمن ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمثال القرآن ومواعظه. قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعني خوّف بالقرآن ﴿الَّذِيْنَ يَخَافُونَ﴾ يعني يعلمون ﴿أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وإنما خص بالإنذار الذين يعلمون، وإن كان منذراً لجميع الخلق لأن الحجة عليهم وجبت لاعترافهم بالمعاندة، وهم أهل الكتاب، كانوا يقرون بالبعث ويقال: هم المسلمون، يعلمون أنهم يبعثون يوم القيامة، ويؤمنون به ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني يعلمون أنه ليس لهم من دون الله يعني من عذاب الله ﴿وَلِيٌّ﴾ في الدنيا ﴿وَلاَ شَفِيْعٌ﴾ في الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني أنذرهم لعلهم يتقون المعاصي. ويقال: (لعلهم يتقون) لكي يتقوا ويثبتوا على الإسلام. فإنهم إن لم يثبتوا ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِيْنَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ روي عن سعد بن أبي وقاص[1]

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٥/٤٦/٢٤١٣)، وأخرجه ابن جرير في التفسير ١١/٣٧٨، وأخرجه ابن ماجه ٤/١٣٨٣ في=

أنه قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم عبد الله بن مسعود، قالت قريش: تدني هؤلاء السفلة، هم الذين يلونك، أي يصرونك، فوقع في قلبه أن يطردهم فنزل: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي). وروى أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس قال: كان رجال يستبقون إلى مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهم بلال، وصهيب فيجيء أشراف من قومه وسادتهم فيجلسون ناحية، فقالوا له: إنا سادات قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا؟ فهم أن يفعل فنزل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الآية. ويقال: إن أبا جهل وأصحابه احتالوا ليطرد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه عن نفسه فقالوا أن محمداً يتبعه الموالي والأراذل فلو طردهم لاتبعناه فاستعانوا بعمر ـ رضي الله عنه ـ فأخبر عمر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يفعل ذلك، فنزل[1]: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) يعني يعبدون ربهم، (بالغداة والعشي) يعني يصلون لله تعالى في أول النهار وآخره ﴿يُرِيْدُونَ وَجْهَهُ﴾ يعني يريدون بصلواتهم وجه الله تعالى ﴿مَاْ عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما عليك من عملهم من شيء. ﴿وَمَاْ مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني الإثم. ويقال: معناه فما عليك إن لم يسلموا فليس عليك من أوزارهم شيء. ويقال: يعني به الضعفة من المسلمين فلا تطردهم، لأنه ليس عليك من حسابهم من شيء (أي فليس عليك من أرزاقهم شيء لكن أرزاقهم على الله) ثم قال: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ يعني لو طردتهم من مجلسك فتكون من الضارين بنفسك. قرأ ابن عامر[2]: (بالغدوة) وقرأ الباقون: (بالغداة) وهما لغتان ثم قال:

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا﴾ يقول: هكذا ابتلينا ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني الشريف بالوضيع والعربي بالمولى والغني بالفقير ﴿لِيَقُوْلُواْ أَهَؤلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فلم يكن الاختيار لأجل أن يقولوا ذلك ولكن كان الاختبار سبباً لقولهم. وهكذا قوله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً). فلم يأخذوه لأجل ذلك ولكن كان أخذهم سبباً لذلك فكأنهم أخذوه لأجل ذلك هاهنا. ما كان الاختبار لأجل أن يقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا لأنهم كانوا يقولون: لو كان خيراً ما سبقونا إليه ومعناه: ليظهر الذين يقولون: هؤلاء من الله عليهم من بيننا. قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِيْنَ﴾. يعني بالموحدين منكم من غيرهم. قال الكلبي: فلما نزلت هذه الآية جاء عمر ـ رضي الله عنه ـ فاعتذر فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَاْ جَاءَكَ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ يعني عمر ﴿فَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ يعني قبلتُ توبتكم. ويقال: قبل الله عذركم ويقال: المعنى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) يعني الضعفة من المسلمين فابتدىء بالسلام وقل: سلام عليكم ﴿كَتَبَ

= كتاب الزهد (٤١٢٨)، وأخرجه النسائي في الكبرى في كتاب المناقب، وعبد بن حميد كما في المنتخب (١٣١) وأبو يعلى (٨٢٦)، والحاكم في المستدرك ٣/٣١٩ وصححه وأقره الذهبي، وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ١٦١ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٣/١٣ للفريابي وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية والبيهقي في الدلائل.

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ١٦٣.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥١، سراج القارىء ٢٠٨.

﴿رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يعني أوجب الرحمة وقبول التوبة **﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾** يعني من ركب معصية وهو جاهل بركوبها وإن كان يعلم أنها معصية **﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾** بعد السوء **﴿وَأَصْلَحَ﴾** العمل **﴿فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** (غفور) يعني متجاوز للذنوب (رحيم) حين قبل التوبة. ويقال: معناه من عمل منكم سوءاً ثم تاب يغفر له، فكيف من كان قصده الخير فهو أولى بالرحمة. وروى سفيان عن مجمع[(١)] عن ماهان الحنفي[(٢)] قال: جاء قوم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أصابوا ذنوباً عظاماً فأعرض عنهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل: (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقلْ: سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبكُم على نفسه الرحمة)[(٣)]. قرأ عاصم وابن عامر[(٤)] (أنه من عمل): بنصب الألف فإنه غفور بالنصب على معنى البناء، ومعناه: كتب أنه. وقرأ نافع: (أنه) بالنصب على معنى البناء (فإنه) بالكسر على معنى الابتداء. وقرأ الباقون: كلاهما بالكسر على معنى الابتداء. ثم قال:

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

﴿وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾. قل القتبي: يعني نأتي بها متفرقة شيئاً بعد شيء ولا ننزلها جملة متصلة. ويقال: (نفصل الآيات) يعني نبين الآيات بالقرآن. **﴿وَلِتَسْتَبِيْنَ سَبِيْلُ الْمُجْرِمِيْنَ﴾** يعني طريق المشركين لماذا لا يؤمنون لأنهم إذا رأوا الضعفاء يسلمون قبلهم امتنعوا. ويقال: (ولتستبين سبيل المجرمين) يعني تفرقهم. قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص[(٥)]: (ولتستبين سبيل) بالتاء و(سبيلُ) بالضم لأن السبيل مؤنث كقوله (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله). ومعناه ليظهر لكم طريق المشركين. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (وليستبين) بالياء (سبيل المجرمين) بالضم لأن السبيل هو الطريق، والطريق يذكر ويؤنث. وقرأ نافع: (ولتستبين) بالتاء (سبيل) بالنصب يعني لتعرف يا محمد طريق المشركين. قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي نُهِيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِيْنَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** يعني الأصنام. ويقال معناه قل إني نهيت عن طرد الضعفاء عن مجلسي كما نهيت عن عبادة الأصنام. ثم قال: **﴿قُلْ: لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾** يعني لا أذهب مذهبكم. ويقال: لا أتبع هواكم يعني لا أرجع إلى دينكم في بغض الفقراء ومجانبتهم **﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً﴾** يعني إن فعلت ذلك فقد ضللت إذاً. قرأ بعضهم: (ضَلِلْت) بالكسر وهو شاذ[(٦)] يعني ضللت سبيل الهدى **﴿وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِيْنَ﴾** يعني لم أكن على الحق. ثم قال:

---

(١) مجمع التيمي وهو ابن سمعان الحائل أبو حمزة كوفي وثقه يحيى بن معين انظر الجرح والتعديل ٨/٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) أبو سالم الكوفي الأعور العابد روى عن خلق وروى عنه خلق ذكره ابن حبان في الثقات قتل سنة ثلاث وثمانين انظر التهذيب ١٠/٢٥ ـ ٢٦.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ١١/٣٩١.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٢، سراج القارىء ٢٠٨.

(٥) انظر سراج القارىء ٢٠٩، وحجة القراءات ٢٥٣.

(٦) وقرىء (ضَلِلت) بفتح اللام وكسرها وهما لغتان. قال أبو عمرو بن العلاء: ضلِلت بكسر اللام لغة تميم وهي قراءة يحيى بن وَثَّاب وطلحة بن مصرف والأولى هي أوضح والأفصح لأنها لغة أهل الحجاز وهي قراءة الجمهور وقال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد وقد ضللت أضل قال الله تعالى: **﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي﴾** [سبأ: ٥] فهذه لغة نجد وهي الفصيحة وأهل العالية يقولون: ضللت بالكسر أضل. انظر القرطبي ٦/٢٨٢.

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿قُلْ: إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يعني على أمر بين. ويقال: على دين من ربي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ يعني بالقرآن ويقال: بالعذاب. وذلك أن النضر بن الحارث قال: إن كان ما تقوله حقاً فأتنا بعذاب الله فنزل: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يعني ما القضاء في ذلك إلا لله في نزول العذاب ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ بنزول العذاب. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم[1]: (يقص الحق) بالصاد يعني يبين الحق ويقال: يأمر بالحق وقرأ الباقون: (يقض الحق) بالضاد ولكن لا يكتب بالياء لأن الياء سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين ويقوم الكسر مقام الياء كقوله تعالى: (سندع الزبانية) فحذفت الواو. وتفسيره يقضي قضاء الحق. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه: (يقضي بالحق) ثم قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِيْنَ﴾ يعني الحاكمين القاضين. ثم قال: ﴿قُلْ: لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِيْنَ﴾ يعني بعقوبة الظالمين هو أعلم متى ينزل بهم العذاب. قوله تعالى:

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ يعني خزائن الأرض والرزق ونزول العذاب. ويقال: عنده الوصلة إلى علم الغيب ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني يعلم ما يهلك في البر والبحر ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب وقوت ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ من الشجر ﴿إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ يعلم من وقت سقوطه وموضع مسقطه. وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ليس أحد من خلق الله تعالى أكثر من الملائكة وليس من شجرة تخرج إلا وملك موكل بها[2] ويقال: إن الإنسان كالشجرة وأعضاءه كالأغصان، والحركات منه كالأوراق فهو يعلم حركة بني آدم. ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ يعني تحت الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة. ويقال: الحبة التي تحت الأرض التي يخرج منها النبات ثم قال ﴿وَلاَ رَطْبٍ﴾ يعني الماء ﴿وَلاَ يَابِسٍ﴾ يعني الحجر. ويقال: ولا رطب: يعني العمران والأمصار والقرى (ولا يابس) يعني الخراب والبادية. ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِيْنٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: ولا رطب ولا يابس يعني لا قليل ولا كثير (إلا في كتاب مبين) يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: القرآن قد بين فيه كل شيء بعضه مفسر، وبعضه يعرف بالاستدلال والاستنباط. وقرأ بعضهم: (ولا حبة) (ولا رطب ولا يابس)[3] كل ذلك بالضم على معنى

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٤، سراج القارىء ٢٠٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٥ وعزاه لمسدد في مسنده وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) قرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميقع بالرفع فيهما والأولى أن يكونا معطوفين على موضع من ورقة ويحتمل الرفع على الابتداء وخبره إلاّ في كتاب مبين. انظر البحر المحيط ٤/١٤٦.

الابتداء. وهي قراءة شاذة. والقراءة المعروفة بالكسر لأجل: (من). قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتوفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ يعني يقبض أرواحكم في منامكم ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ﴾ يعني ما كسبتم من خير أو شر ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني من النوم في النهار، ويرد إليكم أرواحكم ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ يعني ليتم أجلكم وتأكلون رزقكم إلى آخر العمر. قال بعضهم: إذا نام الإنسان تخرج منه روحه كما روي في الخبر «الأرواح جنود مُجَنَّدَة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1] يعني الأرواح إذا تعارفت وقعت الألفة بين الأبدان وإذا لم تتعارف الأرواح تناكرت الأبدان. وقال: إن الروح إذا خرجت في المنام من البدن يبقى فيه الحياة فلهذا تكون فيه الحركة والنفس، وإذا انقضى عمره خرجت روحه وتنقطع حياته وصار ميتاً لا يتحرك ولا يتنفس. فإن قيل: لو خرجت روحه فكيف لا يتوجع لخروجه إذا نام. قيل: لأنه يخرج بطيبة نفسه ويعلم أنه يعود، وأما إذا انقطع عمره خرج بالكره، فتوجع له، وقال بعضهم: لا تخرج منه الروح ولكن يخرج منه الذهن وهو الذي يسمى بالفارسية: (روان). وقال بعضهم: إنما هو ثقل يدخل في نفسه وهو سبب لراحة البدن وغذائه، كقوله: (وجعلنا نومكم سباتاً) أي راحة ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى. وهذا أصح الأقاويل. وقوله تعالى ﴿ثُم إليه مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مصيركم في الآخرة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. من خير أو شر فيجازيكم بذلك. وقوله تعالى:

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِه﴾ يعني القادر الغالب عليهم ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ والحفظة جمع الحافظ مثل الكتبة والكاتب يعني به الملائكة موكلين ببني آدم ملكين بالليل وملكين بالنهار ويكتب أحدهما الخير والآخر الشر فإذا مشى يكون أحدهما بين يديه والآخر خلفه، فإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. كقوله: (عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد). ويقال: لكل إنسان خمسة من الملائكة: اثنان بالليل واثنان بالنهار والخامس لا يفارقه لا ليلاً ولا نهاراً وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني حضر أحدكم الوفاة عند انقضاء أجله ﴿تَوَفَّتْه رُسُلُنَا﴾ يعني ملك الموت وأعوانه ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ يعني لا يؤخرون طرفة عين. قرأ حمزة[2] (توفيه) بلفظ التذكير بالإمالة. وقرأ الباقون: (توفته) بلفظ التأنيث لأن فعل الجماعة إذا تقدم على الإسم جاز أن يذكر ويؤنث. ويقال: معه سبعون من ملائكة الرحمة وسبعون من ملائكة العذاب فإذا قبض نفساً مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء، وإذا قبض نفساً كافرة

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً من رواية عائشة رضي الله عنها ٦/٣٦٩ في كتاب الأنبياء ٣٣٣٦ وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله وصله المصنف في الأدب المفرد عن عبد الله بن صالح عن الليث وأخرجه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه مسلم ٤/٢٠٣١ في البر ١٥٩/ ٢٦٣٨.

انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٤. سراج القارىء ٢٠٩.

دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها ثم يصعدون بها إلى السماء ثم ترد إلى سجّين، وروح المؤمن إلى عليين. ﴿ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ يعني يرد أمورهم إلى الله تعالى ﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ﴾ ألا: كلمة التنبيه، ومعناه إعلموا أن الحكم لله تعالى في خلقه ما يشاء ويقضي بينهم يوم القيامة ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِيْنَ﴾ يعني إذا حاسب فحسابه سريع. ويقال: وهو أحكم الحاكمين وأعدل القاضين. وقوله تعالى:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني من أهواله وشدائده، والظلمات كناية عن الأهوال والشدائد ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً﴾ وقال الكلبي: سراً وعلانية[١]. وقال مقاتل[٢]: يعني في خفض وسكون. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[٣]: (خُفْيةً) بكسر الخاء. والباقون: بالضم: وهما لغتان وكلاهما واحد. ﴿لَئِنْ أَنْجنا مِنْ هَذِهِ﴾ يعني من غم هذه الأهوال والشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾ يعني من الموحدين. ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيْكُمْ مِنْهَا﴾ يعني من أهوال البر والبحر ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ يعني ينجيكم من كل كرب يعني من كل غم وشدة. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ يعني ترجعون إلى الشرك. [وقرأ بعضهم[٤]: (ينجيكم) بالتخفيف، والقراءة المعروفة بالتشديد][٥]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: (لئن أنجانا) بالألف يعني أنجانا الله تعالى. وقرأ الباقون: (لأن أنجيتنا) على معنى المخاطبة وقرأ عاصم وحمزة والكسائي[٦]: (قل الله ينجيكم منها) بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد. ويقال: أَنْجى، يُنْجِي ونَجَّى يُنَجِّي. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يعني الحصب بالحجارة، كما فعل بقوم لوط، والغرق كما أرسل على قوم نوح، يعني إن استكبرتم وأصررتم وكذبتم رسلي مثل ما فعل قوم نوح أو فعلتم الفعلة التي فعل قوم لوط. ثم قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني يخسف بكم كما خسف بقارون ومن معه، إن استكبرتم واغتررتم بالدنيا كما فعل قارون. ثم قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعَاً﴾ يعني الأهوال المختلفة كما ألبس بني إسرائيل إن تركتم أمر رسولي واتبعتم هواكم كما فعل بنو إسرائيل ﴿وَيُذِيْقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني يقتل بعضكم بعضاً بالسيف كما فعل بالأمم الخالية إن فعلتم مثل ما فعلوا. فلما نزلت هذه الآية قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا جبريل: ما بقاء أمتي على ذلك؟ قال له جبريل: إنما أنا عبد مثلك، فادع ربك وسله لأمتك. فقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتوضأ وأسبغ الوضوء، فأحسن الصلاة ثم دعا فنزل جبريل فقال: إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم. فقال: يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبريل بهذه الآية: (آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا . . . الآية)[٧]. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: آفترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة

(١) انظر تفسير البغوي ٢/١٠٣. (٢) انظر تفسيره ١/٣٧٨. (٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٥ سراج القارىء ٢٠٩.
(٤) انظر حجة القراءات ٢٥٥، وسراج القارىء ٢٠٩. (٥) سقط في ب. (٦) المصدران السابقان.
(٧) أخرجه الطبري مطولاً عن الحسن ١١/٤٢٨ / ١٣٣٧٥.

وتفترق أمتي اثنان وسبعون فرقة، كلهم في النار إلا واحدة قالوا: يا رسول الله ما هذه الواحدة؟ قال أهل السنة والجماعة[(١)] الذي أنا عليه وأصحابي. وفي خبر آخر: السواد الأعظم. وروى عمر بن دينار عن جابر بن عبد الله[(٢)] أنه قال: لما نزلت هذه الآية: (قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أعوذ بوجه الله فلما نزلت: (أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض) قال: هاتان أهون. ويقال: عذاباً من فوقكم يعني سلطاناً جائراً، أو من تحت أرجلكم: من سفهائكم يقلبون عليكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض يعني الفتنة بين المحلّتين أو القريتين. ثم قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ﴾ يعني نبين الآيات من البلاء والعذاب في القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ يعني يعقلون ما هم عليه. ثم قال:

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ يعني بالقرآن ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن ﴿قُلْ: لَسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ يعني بحفيظ ومسلط وهذا قبل الأمر بالقتال. ﴿لِكُلِّ نبإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ المستقر: هو غاية ينتهي إليها. يقال: لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه وما كان منه في الآخرة فسوف تبدو لكم وستعلمون ذلك في الدنيا وفي الآخرة. ويقال: معناه سوف أُؤمر بقتالكم إذا جاء وقته ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِيْنَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني يستهزئون بالقرآن ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يعني قم من عندهم، واترك مجالستهم ﴿حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيْثٍ غَيْرِهِ﴾ أي حتى يكون خوضهم واستهزاؤهم في غير القرآن ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ يقول: إن أنساك الشيطان وصية الله تعالى فتجلس معهم ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِيْنَ﴾ يقول: قم إذا ذكرت

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٣٢ أخرجه أبو داود ٤/١٩٧ في كتاب السنة ٤٥٩٦ وأخرجه ابن ماجه ٢/١٣٢١ في كتاب ٣٩٩٣ وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات وأخرجه ابن عاصم في السنة ١/٣٢ ، ٣٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٧/٢٥٩ وأخرجه الطبراني في الكبير ١٨/٧٠ وابن عدي في الكامل ٧/٢٤٨٣ وهو في كنز العمال ٣٠٨٣٤، ٣٠٨٣٨ وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٠٨ وذكره الذهبي في الميزان ٤١٥٠ والسيوطي في الدر المنثور ٢/٦٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات قلت: والحديث عند البخاري في الصحيح ٤٦٢٨ في التفسير وفي التوحيد ٧٤٠٦ وعند النسائي في الكبرى كتاب النعوت وعند الترمذي ٣٠٦٥ وعند أحمد ٣/٣٠٩ وعند الحميدي رقم ١٢٥٩ وأبو يعلى ١٨٢٩، ١٩٦٧، ١٩٨٢، ١٩٨٣ وابن خزيمة في التوحيد ١١ وابن حبان في الصحيح ٩/١٧٤ (٧١٧٦).

ودع القوم الظالمين يعني المشركين. قرأ ابن عامر(١): (وإما يُنَسِّينك الشيطان) بنصب النون وتشديد السين. وقرأ الباقون: بالتخفيف والجزم وهما لغتان: نسيته وأنسيته. ثم قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِيْنَ يَتَّقُونَ﴾ يعني الشرك والاستهزاء ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ يعني من آثامهم ﴿مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾ يعني ذكروهم بالقرآن إذا فعلوا ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني لكي يتقوا الإستهزاء. قال الكلبي(٢): وذلك أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا: يا رسول الله: لئن قلنا كلما استهزؤا بالقرآن قمنا من عندهم، لا نستطيع أن نجلس في المسجد الحرام فنزل (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء. . . الآية). قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِيْنَ اتَّخَذُواْ دِيْنَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً.﴾ قال الضحاك: يعني كفار قريش، نصبوا أصنامهم في المسجد الحرام إلى أنصاب الحرم وقرطوها بالمقراط، وعلقوا بيض النعامة في أعناقها فنزل: (وذر الذين آتخذوا دينهم لعباً ولهواً). وقال الكلبي: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه لله تعالى وكل قوم آتخذوا دينهم يعني عيدهم لعباً ولهواً إلا هذه الأمة فإنهم آتخذوا عيدهم صلاة لله وحصناً للصدقة وهي الجمعة والفطر والأضحى(٣). قال مقاتل(٤): آتخذوا دينهم الإسلام لعباً يعني باطلاً ولهواً عنه ثم قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرِ بِهِ﴾ يعني عِظْ وَخَوِّفْ بالقرآن ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ يعني لكي لا تهلك نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني بما عملت. ويقال: تبسل نفس يعني تسلم نفس بذنوبها إلى النار وهذا قول الضحاك(٥). وقال الأخفش: أن ترهن نفس بما عملت. ويقال: تحبس وقال القتبي: أي تسلم للهلكة. ويقال: تخذل ولا تنصر ثم قال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ يعني إذا وقع في العذاب لم يكن لها مانع يمنعها من العذاب. ﴿وَلاَ شَفِيْعٌ﴾ يشفع لها ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [يقول: لو جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها أو يفتدي بما في الأرض جميعاً لا يؤخذ](٦) يعني لا يقبل منها ﴿أُولَئِكَ الَّذِيْنَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ يعني أهلكوا. ويقال أسلموا بذنوبهم إلى النار ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيْمٍ﴾ يعني ماء حار قد انتهى حره ﴿وَعَذَابٌ أَلِيْمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا. قوله تعالى:

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

﴿قُلْ: أَنَدْعُواْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾. قال مقاتل: وذلك أن كفار مكة عذبوا نفراً من المسلمين وراودوهم على الكفر قال الله تعالى للمسلمين: قولوا لهم: (أندعوا من دون الله) يعني الأوثان (مالا ينفعنا) في الآخرة (ولا يضرنا) في الدنيا ﴿وَنُرَدّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ نعود ونرجع إلى الشرك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ إلى الإسلام ﴿كَالذِي اسْتَهْوَتْه الشَّيَاطِيْنُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ يعني كمثل رجل كان مع قوم فضل الطريق فحيره الشياطين و﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ يعني إلى الطريق أن ﴿ائتِنَا﴾ فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم فذلك مثلنا، إن تركنا دين محمد ـ عليه السلام ـ. وقال مجاهد هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يقول: الكافر حيران يدعوه المسلم إلى

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٦، وسراج القارىء ٢٠٩ وشرح شعلة ٣٦٤.

(٢) انظر تفسير البغوي ٢/١٠٥.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٧/١٣ تفسير البغوي ٢/١٠٦.

(٤) انظر تفسيره ١/٣٨١.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٠٦.

(٦) سقط في أ.

الهدى فلا يجيب الكافر[١] وقال ابن عباس في رواية أبي صالح نزلت الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام فأبى أن يأتيهما وهو يدعوهما إلى الشرك فضرب الله تعالى له المثل بالذي استهوته الشياطين يعني أضلته[٢] ﴿قُلْ: إنَّ هُدَى اللَّهِ هو الْهُدَى﴾ يعني دين الله هو الإسلام ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾ يعني لنخلص بالعبادة والتوحيد بالله تعالى. قرأ حمزة[٣] (استهواه) [بلفظ التذكير بالإمالة][٤]. وقرأ الباقون (استهوته) بلفظ التأنيث لأن فعل الجماعة مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث كقوله: (توفته رسلنا) قوله تعالى:

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

﴿وَأَنْ أَقِيْمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني وأمرنا بالهدى وبالعمل يعني أقيموا الصلاة ﴿واتَّقُوهُ﴾ يعني وحدوه ويقال: أطيعوه، ويقال: هذا عطف على قوله: و (له أصحاب يدعونه إلى الهدى) وإلى إقامة الصلاة ويقال: معناه أمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة واتقوه يعني وحدوه وقيل: أطيعوه. ثم خوفهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني للحق والعبرة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ:﴾ اليوم صار نصباً لأن معناه وآتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً. ويقال: معناه واذكروا يوم يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني يوم البعث يقول: إنتشروا فانتشروا كلهم كقوله تعالى: [(يخرجون من الأجداث) يعني القبور][٥] (كأنهم جراد منتشر). ثم قال: ﴿قَوْلُه الْحَقّ﴾ قوله رفع بالابتداء وخبره الحق يعني قوله الصدق أنه كائن [قرأ ابن[٦] عامر (فيكون) بالنصب على معنى الخير وكذا في كل القرآن إلا في موضعين هاهناوفي آل عمران وقرأ الباقون بالرفع[٧] على معنى الخبر] ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم صار نصباً لنزع الخافض ومعناه: وله الملك في يوم ينفخ في الصور وهذا كقوله عز وجل: (لمن الملك اليوم.) وكقوله: (مالك يوم الدين) ويقال: هذا مبين لقوله الأول ومعناه يوم يقول له: كن فيكون يوم ينفخ في الصور. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: معناه يوم يُنْفُخ الأرواح في الصور يعني في الأجسام وهذا خلاف أقاويل جميع المفسرين لأنهم كلهم قالوا: هو نفخ إسرافيل في الصور[٨]. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه[٩]. وفي خبر آخر:وصاحب الصور قد التقمه ينتظر متى يؤمر فينفخ فيه[١٠] ثم قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ الغيب: ما غاب عن العباد، والشهادة: ما علم العباد به. ويقال: السر والعلانية. ويقال: عالم بما يكون وبما قد كان. ويقال: عالم بأمر الآخرة وبأمر الدنيا. ﴿وَهُوَ الْحَكِيْمُ الْخَبِيْرُ﴾ يعني الحكيم في أمره الخبير بأفعال الخلق وبأمر البعث. قوله تعالى:

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١/٤٥٣.
(٢) انظر تفسير ابن عباس ٨٩.
(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٦، سراج القارىء ٢٠٩.
(٤) في ب [على لفظ الواحدان بالإمالة].
(٥) ما بين المعقوفين سقط من أ.
(٦) ما بين المعقوفين سقط من ظ.
(٧) انظر تفسير القرطبي ٧/١٥.
(٨) انظر تفسير الطبري ١١/٤٦٣.
(٩) أخرجه الترمذي ٤/٥٣٦ في صفة القيامة باب ما جاء في شأن الصور ٢٤٣٠ وأخرجه أبو داود ٤/٢٣٦ في كتاب السنة باب في ذكر البعث والصور ٤٧٤٢ وأخرجه النسائي في الكبرى في كتاب التفسير وأخرجه أحمد في المسند ٣/٧٣.
(١٠) أخرجه أحمد في المسند ١/٣٢٦ وأخرجه الترمذي في الموضع السابق ٢٤٣١.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيْه آزَرَ﴾ وكان إسم أبيه تارح بن ناخور بلغة قومه وبلغة غيرهم كان آزر. وقال السدي كان اسم أبيه آزر(١). وهكذا قال الكلبي(٢). وقال بعضهم: لم يكن آزر إسم أبيه ولكن كان إسم كبير أصنامهم فقال أبوه لإبراهيم: ربي آزر فقال إبراهيم على وجه التعجب آزر ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾. وقال مجاهد(٣): آزر ليس اسم أبيه وإنما هو اسم صنم وقال الضحاك: عن ابن عباس: إن في هذه الآية تقديماً فكأنه قال: أتتخذ آزر أصناماً آلهة يعني أتتخذ الصنم إلهاً(٤). ويقال: آزر بلغتهم: المخطىء الضال، ومعناه وإذ قال إبراهيم لأبيه يا آزر (المخطىء، أتتخذ أصناماً آلهة.). وقرأ الحسن ويعقوب الحضرمي(٥): (آزر) بالضم ويكون معناه: وإذ قال إبراهيم لأبيه يا آزر والقراءة المعروفة بالنصب لأنه على ميزان أفعل فلا ينصرف فصار نصباً وهو بموضع الخفض، ولأنه اسم أعجمي، فلا ينصرف. ثم قال: ﴿إِنّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِيْنٍ.﴾ يعني في خطأ وجهل بَيِّنٍ بعبادتكم الأصنام. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيْمَ مَلَكُوتَ﴾ والملكوت والملك بمعنى واحد إلا أن الملكوت أبلغ مثل: رَهَبُوت، وَرَحَمُوت كما يقال في المثل: (رَهَبُوت خير من رَحَمُوت) يعني لأن ترهب خير من أن ترحم، يعني لما أن إبراهيم برىء من دين أبيه أراه الله ملكوت ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني عجائب السموات والأرض ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِيْنَ﴾ يعني لكي يكون من الموقنين والواو زيادة كقوله: (ولنحمل خطاياكم) يعني لكي تحمل وكذلك هاهنا ليكون من الموقنين يعني حتى يثبت على اليقين. قال بعضهم: صارت فرجة في السماء حتى رأى إلى سبع سماوات وصارت فرجة في الأرض حتى رأى إلى تحت الصخرة. ويقال: حين عرج به إلى السماء فنظر إلى عجائب السموات. وروي عن عطاء أنه قال: لما رفع إبراهيم في ملكوت السماوات أشرف على عبد يزني فدعا عليه فهلك، ثم أشرف على آخر يزني فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له ربه: - عز وجل -: على رِسْلِك يا إبراهيم فإنك مستجاب لك، وإني من عبدي على إحدى ثلاث خلال: إما أن يتوب فأتوب عليه وإما أن أُخْرِج منه ذرية طيبة، وإما أن يتمادى فيما هو فيه فأنا من ورائه(٦). أي أنا قادر عليه. وروي عن سلمان الفارسي(٧) أنه قال: لما رأى إبراهيم ملكوت السموات رأى عَبْداً على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه قال الله تعالى أَنْزِلوا عبدي كي لا يهلك عبادي. ويقال: إنه كان يقول: أنا أرحم الخلق فلما رأى المعصية فدعا عليهم قال الله تعالى: أنا أرحم بعبادي منك اهْبط لعلهم يرجعون(٨). ويقال: إن نمرود بن كنعان قالت له كهنتُه: يولد في هذه السنة غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة. ويقال: رأى في المنام أن كبشاً دخل عليه فنطح سريره بقرنه فسأل المعبِّرين، فأخبروه أنه يولد غلام ينازعك في ملكك فأمر بذبح كل غلام يولد، فحملت أم إبراهيم بإبراهيم ولم يتبين حملها ولم يعرف أحد أنها حامل حتى أخذها الطَّلْق فخرَّت إلى جبل من الجبال ودخلت في غار فولدت إبراهيم وخرجت

---

(١) أخرجه ابن جبر الطبري في التفسير ١١/٤٦٦. (٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٠٨.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١١/٤٦٦ وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٣. لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٧/١٦. (٥) انظر تفسير القرطبي ٧/١٧ البحر المحيط ٤/١٦٤.

(٦) أخرجه ابن جرير ١١/٤٧٤ (١٣٤٥٣). (٧) المصدر السابق ١٣٤٥٢. (٨) انظر المصدر السابق (عن أسامة) (١٣٤٥٤).

ووضعت صخرة على باب الغار فجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ ووضع إبهامه في فمه وكان يمصه ويخرج منه اللبن وكان يجعل سبّابته في فمه فيمصها ويخرج منها العسل حتى كبر وأدرك في أيام قليلة[1]. ويقال: إن أمه كانت تختلف إليه وترضعه حتى أرضعته سنتين وتحمل إليه الطعام حتى أدرك في المدة التي يدرك فيها الصبيان، فخرج من الغار فنظر إلى السماء وإلى الأرض وإلى الجبال فتفكر في نفسه ثم قال: إن لهذه الأشياء خالقاً خلقها، والذي خلق هذه الأشياء هو الذي خلقني فذلك قوله: (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين). وكان في ذلك التفكير إذا نظر إلى نجم يضيء وهو المشتري فرآه أَضْوَءَ الكواكب وقد علم أن الله تعالى أعلا الأشياء ولا يشبهه شيء من خلقه ورأى الكواكب أعلا الأشياء وكان أحسنها:

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبَاً، قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ وقال: هذا بغير فكرة، فكان ذلك منه زلة، ويقال إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام أهذا ربي؟ ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني غاب الكوكب ﴿قَالَ: لَا أُحِبُّ الآفِلِيْنَ﴾ يعني لا أحب ربنا يتغير عن حاله ويزول. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغَاً﴾ يعني طالعاً، ويقال: إن ذلك كان في وقت السحر وكان ذلك في آخر الشهر فرأى كوكباً يعني الزهرة حين طلعت وكان من أضوء الكواكب فلما ارتفع وطلع الفجر نقص ضوؤه قال لا أحب الآفلين، يعني لا أحب ربنا يتغير، فلما رأى القمر فرأى ضوءه أكثر ﴿قَالَ: هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الاستفهام ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ يعني نقص ضوؤه حين أسفر الصبح ﴿قَالَ: لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِن الْقَوْمِ الضَّالِّيْنَ﴾ يعني لئن لم يحفظ ربي قلبي لقد كنت اتخذت إلهاً ما لم يكن إلهاً. ﴿فَلَمَّا رأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ يعني طالعة قد ملأت كل شيء ضوءاً فـ﴿قَالَ: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرْ﴾ يعني أعظم، وأكثر نوراً ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ يعني غربت علم أنه ليس بإله فجاءته أمه فقال لها: من ربي؟ قالت: أنا قال: ومن ربك؟ قالت أبوك: قال: ومن رب أبي؟ قالت: نمرود بن كنعان قال: ومن ربه؟ قالت له: اسكت فقال لها كيف هو؟ هل يأكل ويشرب وينام؟ قالت: نعم قال: هذا لا يصلح أن يكون رَبًّا وإلهاً، فرجعت الأم إلى أب إبراهيم فأخبرته بالقصة فخرج إليه فسأله مثل ذلك ثم قال له في آخره: تعال حتى تعبد الذي خلقني وخلقك وخلق نمرود فغضب أبوه فرجع عنه ثم دخلت عليه رأفة الوالد لولده فرجع إليه وقال له: أدخل المِصْر لتكون معنا فدخل فرأى القوم يعبدون الأصنام فدَعَوْه إلى عبادة الأصنام فـ﴿قَالَ﴾ لهم حينئذ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فقيل له: من تَعْبُد أنت يا إبراهيم؟ فقال: أعبد الله الذي خلقني وخلق السموات والأرض فذلك قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي﴾ يعني أخلصت ديني وعملي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ﴾ يعني خلق السموات ﴿وَالْأَرْضَ حَنِيْفَاً﴾ يقول: إني وجهت وجهي مخلصاً مستقيماً ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ على دينكم. ويقال: أن قوله: (هذا ربي) قال ذلك لقومه على جهة الاستهزاء بهم. كما قال: (بل فعلهم كبيرهم هذا). ويقال: أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبيح فعلهم وخطأ مذهبهم وجهلهم لأنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس

(١) انظر المصدر السابق ١٣٤٥٩، ١٤٣٦٤.

والقمر فلما رأى الكوكب قال لهم: هذا ربي، وأظهر لهم أنه يعبد ما يعبدون فلما غاب الكوكب قال لهم: لا أحب الآفلين. فأخبرهم بأن الآفل لا يصلح أن يكون إلهاً. ثم قال في الشمس والقمر هكذا. كما روي عن عيسى ـ عليه السلام ـ أنه بعث رسولاً إلى ملك أرض فلما انتهى إليهم جعل يسجد ويصلي عند الصنم ويريهم أنه يعبد الصنم وهو يريد عبادة الله تعالى. ثم إن الملك ظهر له عدو، فقالوا لهذا الرسول: أشر علينا بشيء في هذا الأمر، فقال: نتشفع إلى هذا الذي نعبده، فجعلوا يسجدون له ويتشفعون إليه فلا يسمعون منه جواباً، فقالوا: إنه لا ينفعنا شيئاً. قال لهم: لم تعبدون من لا يدفع عنا ضراً؟ ارجعوا حتى نعبد من ينفعنا فقالوا: لمن نعبد؟ قال: لرب السماء فجعل يدعو ويدعون حتى فرّج الله عنهم فآمن به بعضهم. وكذلك هاهنا أراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يريهم قبح ما يعبدون من دون الله لعلهم يرجعون فلما لم يرجعوا قال (يا قوم إني بريء مما تشركون). قرأ حمزة والكسائي[1]: (رِأى كوكباً) بكسر الراء والألف وهي لغة لبعض العرب والنصب أفصح. قوله تعالى:

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى
شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ
إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ
﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

﴿وَحَاجَّه قَوْمُهُ﴾ معناه وحاجه قومه في دين الله، يعني خاصموه، ف﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ يعني أتخاصموني في دين الله ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ الله لدينه. قرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان[2]: (أتحاجّوني) بتشديد الجيم وتخفيف النون. وقرأ الباقون: بتشديد النون لأن أصله (أتحاجونني) بنونين فأدغم أحدهما في الآخر، فقال (أتحاجوني) يعني أتجادلوني في دين الله (وقد هداني) يعني بيّن لي الطريق، وكانت خصومتهم أنهم حين سمعوه عاب آلهتهم فقالوا له: أما تخاف تخبلك فتهلك؟ فقال: إني لا أخاف ما لا يسمع ولا يبصر. وقال الكلبي ومقاتل[3]: لما خوّفوه بذلك قال لهم: إنما تخافون أنتم إذ سوّيتم بين الذكر والأنثى والصغير والكبير، أما تخافون من الكبير إذ سويتموه بالصغير؟ وهذا قوله ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾. قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ فيضلني فأخاف منهم. ويقال: (إلا أن يشاء ربي شيئاً) يعني ملأ علم ربي كل شيء علماً يعني يعلم السر والعلانية ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني أفلا تتعظون فتؤمنون به؟ قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ يعني من الأصنام ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ يقول: كتاباً وعذراً وحجة لكم فيه ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب؟ الموحّد أم المشرك ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك. ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. قال بعضهم: هذا قول الله تعالى لما حكى قول إبراهيم للنبي ـ صلى

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٦ ـ ٢٥٧ سراج القارىء ٢١٠.
(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٧ سراج القارىء ٢١١.
(٣) انظر تفسير مقاتل ١/ ٣٨٥.

الله عليه وسلم ـ قال على أثر ذلك (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) يعني لم يخالطوا تصديقهم بالشرك ولم يعبدوا غيره[١]. ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ من الضلالة وقال بعضهم: هذا كله قول إبراهيم لقومه. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: من ابْتُلِي فصبر وأُعْطِي فشكر وظَلَم فاستغفر وظُلِمَ فغفر. قيل له: ما لهم يا رسول الله قال: (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[٢]. قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا الماسرجي قال: حدثنا أبو كريب[٣] قال: حدثنا ابن إدريس[٤] عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ألا ترون إلى قول لقمان لابنه (إن الشرك لظلم عظيم)[٥]. يعني إن الظلم أراد به الشرك. ثم قال ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يعني أعطيناها إبراهيم على قومه يعني وفقناه للحجة يخاصم بها قومه ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ يعني فضائل من نشاء في الدنيا بالحجة وفي الآخرة بالدرجات ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أمره ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه من يصلح للنبوة. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[٦] (درجات) بالتنوين. وقرأ الباقون: (درجات) على معنى الإضافة. ثم قال:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير عن ابن جريج ١١/٤٩٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤/١٠٤ باب في تعديد نعم الله عز وجل وشكرها ٤٤٣١ وذكره السيوطي في جامعه الصغير ٦/٢٢ (فيفي) وزاد نسبته للطبراني الكبير وقال المناوي في إسناد حديثه ضعف، والحديث ذكره السيوطي أيضاً في الدر ٣/٢٧ وفي كنز العمال ٥٦١٦.

(٣) محمد بن العلاء بن كريب الهمذاني أبو كريب الكوفي الحافظ روى عن خلق وروى عنه خلق، قال النسائي: لا بأس به، وقال مرة: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات، مات في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائتين. انظر التهذيب ٩/٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٤) عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن بن الأسود الأودي ـ الزغافري أبو محمد الكوفي روى عن أبيه وخلق وروى عنه خلق، قال أبو حاتم هو حجة يحتج به، وهو إمام من أئمة المسلمين ثقة انظر التهذيب ٥/١٤٤ ـ ١٤٦.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٣٢ في أحاديث الأنبياء :٢٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧ ومسلم في الإيمان ١٢٤ ـ ١٩٧ ـ ١٩٨ والترمذي في التفسير ٣٠٦٧.

(٦) وحجتهم في ذلك أن الله قد بين معنى هذا الكلام في غير موضع من القرآن فجعل المرفوع هو الإنسان وبين فضل من أحب أن يفضله بأن يرفعه فقال: (يرفع الله الذين آمنوا منكم) وقال: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً).

فجعلهم هم المرفوعين دون الدرجات وفي الآية تقديم وتأخير المعنى (نرفع من نشاء درجات) و (من) في موضع النصب ونجعل (درجات) مفعولاً ثانياً أو حالاً.

وقرأ الباقون: (نرفع درجات) بغير تنوين وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال (كقولك (نرفع أعمال من تشاء) فجعل اليزيدي الرفع للأعمال دون الإنسان والذي يدل على هذا أن الآثار قد جاءت في الدعاء مضافة كقولهم للميت: (اللهم شرف بنيانه وارفع درجته) ولا يقال: (ارفعه) وقد روى في التفسير في قوله: (نرفع درجات من نشاء) أي في العلم. انظر ابن زنجلة ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ يعني لإبراهيم ﴿إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال الضحاك: ولدت سارة إسحق ولها تسعة وتسعون سنة ولإبراهيم مائة وعشرون سنة ثم ولد لإسحق يعقوب ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ يعني إسحٰق ويعقوب هديناهما بالنبوة والإسلام ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعين هديناه للنبوة والإسلام من قبل إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾. قال الكلبي: يعني من ذرية نوح[1]. وقال الضحاك: يعني من ذرية إبراهيم[2] ﴿دَاوُدَ﴾ النبي ـ عليه االسلام ـ ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ وهو ابن داود ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو من ولد عيصو بن إسحق ﴿وَيُوسُفَ﴾ وهو ابن يعقوب ﴿ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني نعطيهم أفضل الثواب. ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ يعني من ذرية إبراهيم زكريا ﴿وَيَحْيَى وعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ قال الضحاك: كان إلياس من ولد إسماعيل[3] وذكر عن القتبي: أنه كان من سبط يوشع بن نون. ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِيْنَ﴾ يعني من المرسلين. ﴿وإسْمَاعِيلَ﴾ وهو من صلب إبراهيم ـ علية السلام ـ ﴿والْيَسَعَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[4]: (والليسع) مشدداً وقرأ الباقون: واليسع بالتخفيف فمن قرأ بالتشديد فالاسم منه: (ليسع) ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فصار الليسع ومن قرأ بالتخفيف فالإسم منه (يسع) ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فصار اليسع وكذا هذا الاختلاف في سورة (ص). وكان اليسع تلميذ إلياس وكان خليفته من بعده ﴿وَيُونُسَ﴾ ابن متى ﴿وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِيْنَ﴾ بالرسالة والنبوة في ذلك الزمان ثم ذكر آباءهم فقال: ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُـمْ﴾ يعني وقد (اصطفيناهم بالنبوة يعني آدم ونوحاً وإدريس وهوداً وصالحاً ـ عليهم السلام ـ ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام. ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ يعني دين الله ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني يكرم بدينه من يشاء من عباده ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ﴾ يعني هؤلاء النبيين ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ. ﴾ في الدنيا يعني إنما فضلهم الله بالطاعة. ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ يعني العلم والفهم والفقه ﴿وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي الأنبياء ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ يعني ألزمنا بها ﴿قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِيْنَ﴾. قال سعيد بن جبير: هم الأنصار[5]. ويقال: (فإن يكفر بها) يعني بآياتنا (فقد وكلنا بها) يعني بالإيمان بها (قوماً ليسوا بها بكافرين) يعني الأنبياء الذين سبق ذكرهم ويقال: الملائكة. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (فإن يكفر بها هؤلاء) يعني أمة محمد ـ عليه السلام ـ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها كافرين يعني النبيين الذين قص الله عنهم[6]. ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ هَدَى اللَّهُ﴾ يعني الأنبياء ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ يعني بسنتهم وتوحيدهم ﴿اقْتَدِهْ﴾ على دينهم استقم واعمل به. وفي هذه الآية دليل: أن شرائع المتقدمين واجبة علينا ما لم يظهر نسخها إذا ثبت ذلك في الكتاب أو على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله تعالى أمرنا بأن نقتدي بهداهم، واسم الهدى يقع على التوحيد والشرائع مثل قوله: (ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.) والكتاب يشتمل على الشرائع

(١) انظر تفسير الطبري ١١/٥٠٧.
(٢) وهو قول ابن عباس انظر تفسير الطبري ٧/٢٢.
(٣) انظر تفسير القرطبي ٧/٢٣.
(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٥٩ سراج القارى ٢١٢.
(٥) أخرجه ابن جرير الطبري من طريقة ابن عباس ١١/٥١٥.
(٦) انظر تفسير الطبري ١١/٥١٧.

وغيرها. قرأ حمزة والكسائي(١): (فبهداهم اقتده) بالهاء في الوقف والوصل جميعاً. وقرأ الباقون(٢): بالهاء في الوصل والوقف جميعاً لأنها هاء الوقف مثل قوله: (كتابيهْ) و (حسابيهْ) ثم قال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ يعني قل للمشركين لا أسألكم على الإيمان والقرآن جَعْلاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هو وهو القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني موعظة للعالمين الإنس والجن. قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعني ما عظّموا الله حق عظمته وما عرفوه حق معرفته، نزلت في مالك بن الضيف خاصمه عمر في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مكتوب في التوراة فغضب وقال: (ما أنزل الله على بشر من شيء) وكان رئيس اليهود فعزلته اليهود عن الرئاسة بهذه الكلمة. قال مقاتل(٣): نزلت هذه الآية بالمدينة وسائر السور بمكة ويقال: إن هذه السورة كلها مكية وكان مالك بن الضيف خرج مع نفر إلى مكة معاندين ليسألوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أشياء وقد كان اشتغل بالنعم وترك العبادة وسمن، فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم بمكة فقال له رسول الله: أنشدك الله أتجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ قال: نعم قال: فأنت الحبر السمين فقد سمنت من مأكلتك فضحك به القوم فخجل مالك بن الضيف وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فبلغ ذلك اليهود فأنكروا عليه فقال: إنه قد أغضبني فقالوا: كلما غضبت قلت بغير حق وتركت دينك؟ فأخذوا الرياسة منه وجعلوها إلى كعب بن الأشرف فنزلت هذه الآية: (وما قدروا الله حق قدره) حيث جحدوا تنزيله ﴿إِذْ قَالُواْ: مَآ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني على رسول من كتاب ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿نُوراً﴾ يعني ضياء ﴿وَهُدَىً﴾ يعني بياناً ﴿لِلنَّاسِ﴾ من الضلالة ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ يقول: تكتبونه في الصحف ﴿تُبْدُونَهَا﴾ يقول: تظهرونها في الصحف ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ يعني تكتمون ما فيه صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته وآية الرجم وتحريم الخمر ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنْتُم وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ يعني علمتم أنتم وآباؤكم في التوراة ما لم تعلموا. ويقال: علمتم على لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُل: اللَّهُ﴾ أنزله على موسى ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ إن لم يصدقوك ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾ يعني في باطلهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يعني يلهون ويفترون. قرأ ابن كثير وأبو عمرو(٤): (يجعلونه قراطيس يبدونها

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٦٠ سراج القارى ٢١٢.

(٢) وقرأ ابن عامر (اقتدهي) بالإشباع جعلها اسماً قال بعض أهل البصرة: جعل ابن عامر الهاء فيه ضميراً لمصدر وهو الاقتداء كأن الأصل فيه (فبهداهم اقتد اقتداء) ثم أضمر (الاقتداء) فقال (فبهداهم اقتدهي) انظر حجة القراءات ٢٦٠.

(٣) انظر التفسير ١/٣٨٧.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٦١ سراج القارى ٢١٢.

ويخفون كثيراً) كل ذلك بالياء على لفظ المغايبة. وقرأ الباقون: بالتاء على معنى المخاطبة لأن إبتداء الكلام على المخاطبة. ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن أنزلناه على محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿مُبَارَكٌ﴾ لمن عمل به لأن فيه مغفرة للذنوب. وقال الضحاك: (مبارك) يعني القرآن لا يتلى على ذي عاهة إلا برىء ولا يتلى في بيت إلا وخرج منه الشيطان. ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني هو مصدق الذي بين يديه من الكتب ﴿وَلِيُنْذِرَ﴾ قرأ عاصم[1] في رواية أبي بكر: (ولينذر) بالياء يعني الكتاب يعني أنزلناه للإنذار والبركة. وقرأ الباقون بالتاء يعني لتنذر به يا محمد ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني أهل مكة [وهي أصل القرى][2] وإنما سميت أم القرى لأن الأرض كلها دُحِيَتْ من تحت الكعبة. ويقال: لأنها مثلث قبلة للناس جميعاً أي يؤمونها. ويقال: سميت أم القرى لأنها أعظم القرى شأناً ومنزلة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني قرى الأرض كلها. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني بالبعث ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالقرآن ومن هم في علم الله أنه سيؤمن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بوضوئها وركوعها وسجودها ومواقيتها.

وقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً، أَوْ قَالَ: أُوحِيَ إِلَيَّ، وَلَمْ يُوحَ إِلَيْه شَيْءٌ﴾. نزلت في مسيلمة الكذاب زعم أن الله تعالى أوحى[3] إليه وهو قوله ﴿وَمَنْ قَالَ: سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني عبد الله بن أبي سرح كان كاتب الوحي فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أملى عليه: (سميعاً عليماً) يكتب: عليماً حكيماً، وإذا أملى عليه: عليماً حكيماً كتب هو سميعاً بصيراً وشك وقال: إن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يوحى إليه فقد أوحي إلي وإن كان ينزل إليه فقد أُنزِلَ إليّ مثل ما أُنزل إليه فلحق بالمشركين وكفر. وقال الضحاك: هو مسيلمة الكذاب كان يقول: بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جسيم الأمور وبعثت إلى محقرات الأمور. ويقال: هذا جواب لقولهم: (لو نشاء لقلنا مثل هذا). ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني ولو تعلم إذ الكافرون ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي في نزعات الموت وسكراته فحذف الجواب لأن في الكلام دليلاً عليه ومعناه لو رأيتهم لرأيتهم في عذاب شديد. ثم قال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ بالضرب ويقولون: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني أرواحكم الخبيثة قال الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أبو القاسم أحمد بن حسين قال: حدثنا محمد بن سلمة قال: حدثنا أبو أيوب

---

(١) وحجته قوله: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أي لينذر الكتاب أهل مكة وحجة من قرأ بالتاء قوله تعالى (إنما أنت منذر) انظر حجة القراءات ٢٦١.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر تفسير الطبري ١١/٥٣٣.

عن القاسم بن الفضل الحداني[١] عن قتادة عن أسامة بن زهير[٢] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن المؤمن إذا حضره الموت أتته الملائكة بحريرة فيها مسك ومن ضباير الريحان وتسل روحه كما تُسَلُّ الشَّعْرة من العجين، ويقال لها: يا أيتها النفس الطيبة اخرجي راضية مرضية ومرضيًّا عنك إلى روح الله وكرامته، فإذا خرجت روحه وُضِعَت على ذلك المسك والريحان وطويت عليه الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا حضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً ويقال لها: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة ومسخوطة إلى هوان الله وعذابه فإذا خرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وإن لها نشيجاً ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين[٣]. ثم قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يعني إذا بعثوا يوم القيامة. ويقال لهم: اليوم تجزون ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ يعني الهوان أي: الشديد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ بأن معه شريكاً ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ولم تقروا به. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ يعني في الآخرة فرادى لا ولد لكم ولا مال. الفرادى جمع فرد، يعني ليس معكم من دنياكم شيء ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني أعطيناكم من المال والولد ﴿وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ يعني آلهتكم ﴿الَّذِيْنَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ فِيْكُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني قلتم: لي شريك ولكم شفعاء عند الله ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص[٤]: (بينَكُم) بالنصب وقرأ الباقون: (بَيْنُكم) بالضم فمن قرأ بالضم جعل البَيْن اسماً يعني تقطع وصْلُكم ومودتكم، ومن قرأ بالنصب فمعناه لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم، فيصير نصباً بالظرف. كما نقول: (أصبحت بينكم) أي فيما بينكم ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَاْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني إشتغل عنكم ما كنتم تعبدون وتزعمون أنها شفعاؤكم. وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يعني يشق الحبة اليابسة فيخرج منها ورقاً خضراً، ويقال: فالق الحب مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها، والنوى كل ثمرة فيها نوى، مثل الخوخ والمشمش والغبير والأجاص ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ وقد ذكرنا تأويله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ يعني هذا الذي يفعل بكم هو الله تعالى ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني كيف تكفرون ومن أين تكذبون فذكر عيب آلهتهم. ثم دل على وحدانيته بصنعته ثم قال: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ يعني خالق الإصباح، والإصباح والصبح واحد، ويقال: الإصباح مصدر أصبح يصبح إصباحاً. والصبح: إسم، وقال: فالق الإصباح: يعني خالق النهار ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ قرأ أهل الكوفة حمزة والكسائي وعاصم[٥]: (وجعل الليل) على معنى الخبر، وقرأ الباقون: (جاعل الليل سكناً) على معنى الإضافة

(١) القاسم بن الفضل بن معدان بن قريط الحداني الأزدي أبو المغيرة البصري قال ابن معين مات سنة سبع وستين ومائة. انظر التهذيب ٨/٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) أسامة الفارس أبو ميمونة روى عن أبي هريرة روى عنه ابنه هلال بن أبي ميمونة ويحيى بن أبي كثير وقتادة. انظر الجرح والتعديل ٢/٢٨٤.

(٣) بنحوه أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٨٧.

(٤) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٦١ وسراج القاري ٢١٣.

(٥) انظر حجة القراءات ٢٦٢ سراج القارى ٢١٣.

يعني يسكن فيه الخلق. ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ يعني وجعل الشمس والقمر حسباً، يعني: منازلها بالحساب لا يجاوزانه، إذا انتهيا إلى أقصى منازلها رجعا[(١)]، وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل[(٢)]: (حسباناً) يعني يُعرف بها عدد السنين والحساب. وقال القتبي: (حسباناً) أي حساباً يقال: خذ كل شيء بحُسْبانه أي بحسابه. وقال الكلبي: ويقال: للشيء المعلق حسباناً. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يقول هذا فعل العزيز في ملكه، العليم بخلقه، لا فعل لأصنامكم فيه. ثم قال:

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ يعني: لتعرفوا الطريق ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِ وَالْبَحْرِ﴾ يعني لتهتدوا بالكواكب في الليالي وتعرفوا بها قبلتكم ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ يعني: بيَّنا العلامات لوحدانية الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وإنما أضاف إلى أهل العلم لأنهم هم الذين ينتفعون به فكأنه بين لهم. ويقال: لقوم يعلمون يعني يصدقون أنه من الله تعالى. ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم﴾ يعني خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم ﴿فَمُسْتَقَرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ يعني في الرحم ومستودع في الصلب ويقال: مستقر في الصلب ومستودع في الرحم، ويقال: مستقر في الدنيا ومستودع في القبر. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[(٣)]: (فَمُسْتَقِرٌّ) بكسر القاف. وقرأ الباقون: بالنصب فمن قرأ بالنصب فمعناه فلكم مستقر ولكم مستودع يعني موضع قرار وموضع إيداع. ومن قرأ بالكسر فعلى معنى الفاعل. يقال: قرّ الشيء واستقر بمعنى واحد يعني كنتم مستقرين. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يعني بينا الآيات لمن له عقل وذهن. قوله تعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني ماء المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ يعني بالمطر ﴿نَبَات كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني معاشاً للخلق من الثمار والحبوب وغير ذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً﴾ خضر واخْضرّ بمعنى واحد، الأخضر: يعني النبات الأخضر وهو أول ما يخرج، ثم قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً﴾ يعني السنبلة قد ركب بعضها بعضاً ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا﴾ يعني أخرجنا بالماء من النخل من طلعها يعني من عذوقها وثمرها ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ يعني عُذوقاً متدانية قريبة ينالها القائم والقاعد ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ يعني يخرج بالماء، قرأ الأعمش[(٤)]: (وجناتٌ) بالضم عطفها على قوله: (قنوان دانية) وقرأ العامة: بالكسر ومعناه وأخرجنا من أعناب ﴿وَالزَّيْتونَ﴾ يعني أخرجنا منه شجر الزيتون. ﴿وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً﴾ في المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم. يعني بعضها حلو وبعضها حامض (انْظُرُوا

---

(١) أخرجه في معالم التنزيل للبغوي ٢/١١٧.
(٢) انظر التفسير ١/٣٩٢.
(٣) انظر حجة القراءات ٢٦٢ ـ ٢٦٣ سراج القاري ٢١٣.
(٤) وفي حجة القراءات لابن زنجلة قرأ الأعشى عن أبي بكر انظر الحجة ٢٦٤.

إلى ثَمَرِهِ) قرأ حمزة والكسائي[١]: ﴿انظروا إلى ثُمُره﴾ بضم الثاء والميم، وقرأ الباقون بالنصب وكذلك ما بعده. فمن قرأ بالنصب فهو اسم الثمرة وإنما أراد به الجنس. ومن قرأ بالضم فهو جمع الثمار. ﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ يعني ونضجه يعني انظروا إلى نضجه واعتبروا به. واعلموا أن له خالقاً فهو قادر على أن يحييكم بعد الموت كما أخرج من الأرض اليابسة النبات الأخضر ومن الشجرة الثمار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ﴾ يعني في اختلاف ألوانه لعلامات ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون ويرغبون في الحق. قوله تعالى:

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ يعني وضعوا لله شركاء وقال مقاتل: وذلك أن بني جهينة قالوا: إن صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن بنات الرحمن، وذلك قوله: (وجعلوا لله شركاء الجن). وقال الكلبي: وجعلوا الجن شركاء الله نزلت هذه الآية في الزنادقة قالوا: إن الله تعالى وإبليس ـ لعنه الله ولعنهم ـ أخوان، قالوا: إن الله تعالى خالق الناس والدواب، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب. كقوله: (وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً) «سورة الصافات/ ١٥٨» قال الزجاج: معناه: أطاعوا الجن فيما سوّلت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء الله، وهذا قريب مما قاله الكلبي. ثم قال: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يعني جعلوا لله الذي خلقهم شركاء. ويقال: وخلقهم يعني خلق الجن. ويقال: وخلقهم يعني الذين تكلموا به ﴿وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِيْنَ وَبَنَاتٍ﴾ يعني وصفوا له بنين وبنات ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني بلا علم يعلمونه. ويقال بلا حجة وبيان. وروى عبد الله بن موسى[٢] عن جويرية[٣]، قال: سمعت رجلاً سأل الحسن[٤] عن قوله: (وخرقوا له): قال: كلمة عربية كانت العرب تقولها كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول بعض القوم خرقها. ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني تنزيهاً له: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني هو أعلا وأجل مما يصف الكفار بأن له ولداً. قرأ نافع[٥]: (وخرَّقوا) بالتشديد على معنى المبالغة. قوله تعالى: ﴿بَدِيْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خالق السموات والأرض يعني مبدعهما وهو أن يبتدىء شيئاً لم يكن، يعني ابتدعهما ولم يكونا شيئاً ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ.﴾ قال القتبي: (أنَّى) على وجهين: يكون بمعنى كيف كقوله: (فأتوا حرثكم أنى شئتم) «سورة البقرة: ٢٢٣» وكقوله: (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) سورة البقرة: ٢٥٩»، ويكون بمعنى من أين كقوله: (قاتلهم الله أنى يؤفكون) «سورة التوبة/ ٣٨» وكقوله: (أنى يكون له ولد) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ يعني

(١) انظر المصدر السابق وشرح شعلة ٣٧٢.

(٢) عبد الله موسى بن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله النبي الطلحي أبو محمد الحجازي وقال الحافظ في التقريب صدوق كثير الخطأ. انظر التهذيب ٦/٤٤ ـ ٤٥، التقريب ١/٤٥٤.

(٣) جويرية بن قدامة ويقال جارية بن قدامة. انظر التهذيب ٢/١٢٥.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٧ وقال أخرجه أبو الشيخ عن الحسن.

(٥) انظر حجة القراءات ٢٦٤ سراج القاري ٢١٣ شرح شعلة ٣٧١.

زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني الملائكة وعيسى وغيرهم. وهم خلقه وعبيده ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ مما خلق ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني الذي فعل هذا فهو ربكم ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا خالق غيره ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني وحّدوه وأطيعوه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يعني كفيل بأرزاقهم. ويقال: وكيل يعني حفيظ. ثم عظّم نفسه فقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. قال مقاتل: يعني لا يراه الخلق في الدنيا. وروى الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة، هل رأى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه؟ فقالت: لقد اقْشَعَرَّ قلبي مما قلت أين أنت من ثلاثة من حدثك بهن فقد كذب، من حدثك أن النبي ﷺ رأى ربه فقد كذب. ثم قرأت: لا تدركه الأبصار: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ومن حدثك أنه قد علم ما في غد فقد كذب ثم قرأت: (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) «سورة لقمان/ ٣٤» ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب ثم قرأت: (يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك). ثم قال: (وهو يدرك الأبصار) يعني لا يخفى عليه شيء ولا يفوته قال الزجاج: في هذه الآية دليل: أن الخلق لا يدركون الأبصار أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه فاعلم أنهم لا يحيطون بعلمه فكيف به. ثم قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ بخلقه وبأعمالهم. وقال أبو العالية: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وتدركه أبصار المؤمنين في الآخرة[1]. قوله تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بياناً من ربكم وهو القرآن الذي فيه البيان ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ يقول: من صدق بالقرآن وآمن به فثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ يعني من لم يصدق بالقرآن ولم يؤمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعليها جزاء العذاب ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يعني بمسلط وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ يعني نبين لهم الآيات في القرآن في كل وجه ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[2]: (دَارَسْتَ) يعني ذاكرت أهل الكتاب، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي: (وليقولوا: درست) يعني قرأت الكتب ويقال: تعلمت من جبر ويسار، وكانا غلامين بمكة عبرانيين. فقال أهل مكة: أنما يتعلم منهما. وقرأ ابن عامر: (دَرَسَت) بنصب الراء والسين يعني هذا شيء قديم قد خلقت. وقرأ بعضهم: (درست) أي قرئت، وروى عن عبدالله بن مسعود أنه قرأ: (ليقولوا) بغير واو (درس) بغير تاء يعني لكي يقولوا: دَرَسَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وكان نزول هذه الآيات سبباً لقولهم هذا فأضاف قولهم إلى الآيات. ثم قال ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أصحاب محمد عليه السلام ثم قال

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ

(١) انظر في هذا الدر المنثور ٢/ ٣٧.
(٢) انظر حجة القراءات ٢٦٤ سراج القاري ٢١٣ شرح شعلة ٢٧٢.

ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني إعمل بما أنزل إليك من ربك من أمره ونهيه حين دعى إلى ملة آبائه. ثم قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ يعني اتركهم على ضلالتهم. ثم قال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول: ولو شاء الله لجعلهم مؤمنين. ويقال: لو شاء لأنزل عليهم آية يؤمنوا بها. لو شاء لاستأصلهم فقطع سبب شركهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيْظًا﴾ يعني أن لم يوحّدوا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيْلٍ﴾ يعني بمسلط. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِيْنَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه كان يذكرون الأصنام بسوء ويذكرون عيبهم فقال المشركون: لتنتهين عن شتم آلهتنا أو لنسبنّ ربك فنهى الله تعالى المؤمنين عن شتم آلهتهم عندهم لأنهم جهلة ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً﴾ يعني اعتداء ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [يعني بلا علم منهم][(١)] ويقال: (عَدْواً) يعني ظلماً، صار نصباً بالمصدر. وفي الآية دليل: أن الإنسان إذا أراد أن يأمر بالمعروف فيقع المأمور به في أمر هو شر مما هو فيه من الضرب أو الشتم أو القتل ينبغي أن لا يأمره ويتركه على ما هو فيه. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا﴾ يقول: هكذا زينا ﴿لكل أمة﴾ يعني لكل أهل دين عملهم يعني ضلالتهم في الدنيا عقوبة ومجازاة لهم. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.﴾ يعني فيجازيهم بذلك. قوله تعالى:

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يسمونه جهد اليمين إذا كانت اليمين بالله، ولما نزل قوله تعالى: (إن نشأ ننزل عليهم من السماء.. الآية.) قالوا: أنْزِلها فوالله لنؤمنن بك وقال المسلمون: أنْزِلها لكي يؤمنوا: فنزل: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) يقول حلفوا بالله ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ إن شاء أنزلها وإن شاء لم ينزلها. ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا﴾ يقول: وما يدريكم أنها ﴿إِذَا جَاءَتْ﴾ يعني الآية ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال مقاتل: (وما يشعركم) يا أهل مكة أنها إذا جاءتكم لا تؤمنون، وقال الكلبي: (وما يشعركم) أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون[(٢)]. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي [بكر][(٣)]: (إنها) بالكسر على معنى الابتداء وإنما يتم الكلام عند قوله: (وما يشعركم) ثم ابتدأ فقال: (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) ويشهد لهذا قراءة عبد الله بن مسعود: (وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون) وقرأ الباقون: (أنها) بالنصب على معنى البناء ويشهد لها قراءة أبي: وما يشعركم لعلها إذا جاءت. وقرأ ابن عامر وحمزة: (لاتؤمنون)[(٤)] بالتاء على معنى المخاطبة، وهذه القراءة توافق لقول مقاتل. ثم قال:

---

(١) سقط في أ. (٢) انظر تفسير القرطبي ٤٣/٧. (٣) سقط في أ.

(٤) ونزيد ذلك تفصيلاً فنقول قال ابن زنجلة قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر (وما يشعركم أنها إذا جاءت) بكسر الألف. قال اليزيدي: الخبر متناه عند قوله: (وما يشعركم) أي ما يدريكم؟ ثم ابتدأ الخبر عنهم: (إنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم) وكسروا الألف على الاستئناف. قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله (وما يشعركم إنها إذا جاءت) ما منعها أن تكون كقولك: (وما يدريك أنه لا يفعل؟) =

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ يعني نترك قلوبهم وأبصارهم مغلقة كما هي، ولا أوفقهم ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قبل نزول الآيات. ويقال: عند انشقاق القمر لما لم يعتبروا به ولم يؤمنوا فعاقبهم الله تعالى وختم على قلوبهم فثبتوا على كفرهم ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ يقول: وندعهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ يعني في ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعني يترددون ويتحيرون فيه. ويقال: (كما لم يؤمنوا به أول مرة) يعني كما لم يؤمن به أوائلهم من الأمم الخالية لما سألوا الآية من أنبيائهم. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [هذا جواب لقولهم: لولا أنزل إليه ملك، فيكون[1] معه نذير قال الله تعالى: ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة] كما سألوا حتى يشهدوا بأنك رسول الله ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بأنك رسول الله ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ نافع وابن عامر[2]: (قِبَلًا) بكسر القاف ونصب الباء. وقرأ الباقون: بالضم فمن قرأ بالضم فمعناه جماعة القبيل والقبيل: الكفيل، ويقال: قبلا أي أصنافاً من الآدميين ومن الملائكة ومن الوحش. ومن قرأ: (قِبَلا) بالكسر معناه وحشرنا عليهم كل شيء معاينة فعاينوه. ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وهذا إعلام للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنهم لا يؤمنون كما أعلم نوحاً ـ عليه السلام ـ (أنه لن يؤمن من قومك إلا

= فقال: (لا يحسن ذلك في هذا الموضع إنما قال: (وما يشعركم) ثم ابتدأ فأوجب فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون) لو قال: (وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون) كان عذراً لهم) وحجتهم قوله بعدها: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) إلى قوله (ما كانوا ليؤمنوا) فأوجب لهم الكفر وقال: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) أي أن الآية إن جاءتهم لم يؤمنوا (كما لم يؤمنوا) أول مرة.

وقرأ الباقون: (أنها إذا جاءت بالفتح. قال الخليل: إن معناها: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون قال: وهذا كقولهم (إيت السوق إنك تشتري لنا شيئاً) أي لعلك. أنشد أبو عبيدة:

أريني جواداً مات هزْلاً لأنني ... أرى ما ترين أو بخيلاً مُخَلَّدَا

يريد لعلني أرى ما ترين.

يُروى في التفسير أنهم اقترحوا الآيات وقالوا: (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) إلى قوله (حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) فينزل الله: ﴿قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ أي لعلها إذا جاءت لا يؤمنون على رجاء المؤمنين.

وقال آخرون: بل المعنى: (وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون) فتكون (لا) مؤكدة للجحد كما قال: (وحرام على قرية... أهلكناها أنهم لا يرجعون) بمعنى: (وحرام عليهم أن يرجعوا). قال الفراء (سأل الكفار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم بالآية. التي نزلت في الشعراء: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ وقال المؤمنون: (بل يا رسول الله سل ربك أن ينزلها حتى يؤمنوا) فأنزل الله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ أي (إذا جاءت يؤمنون) (ولا) صلة كقوله: ﴿وما معنك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ أي أن تسجد.

قرأ حمزة وابن عامر: (إذا جاءت لا تؤمنون) بالتاء وحجتهما قوله: (وما يشعركم) (قال مجاهد: قوله (وما يشعركم) خطاب للمشركين الذين أقسموا فقال جل وعز: وما يدريكم أنكم تؤمنون /.

وقرأ: الباقون: بالياء إخباراً عنهم وحجتهم قوله: (نقلب أفئدتهم وأبصارهم) ولم يقل (أفئدتكم). انظر حجة القراءات ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧.

(١) ما بين المعقوفين من ب.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٦٧ سراج القارىء ٢١٤.

من قد آمن). ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني إلا من هو أهل لذلك فيوفقه الله تعالى ويقال: إلا أن يشاء الله يقول: قد شاء الله أن لا يؤمنوا حيث خذلهم ولم يوفقهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ عن ذلك. ويقال: أكثرهم يجهلون الحق أنه من الله تعالى. ويقال: يجهلون ما في العلامة من وجوب هلاكهم بعد العلامة أن لم يؤمنوا. قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يعني أعداء ومعنى ذلك كما جعلنا لك ولأمتك أعداء مثل أبي جهل وأصحابه كذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ قال مقاتل: وذلك أن إبليس وكل شياطين الإنس وشياطين الجن يضلونهم فإذا التقى شيطان الجن مع شيطان الإنس قال أحدهما للآخر: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأَضْلِلْ أنت صاحبك بكذا وكذا فذلك قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني يكلم بعضهم بعضاً بالإضلال. وقال عكرمة للجن شياطين مثل شياطين الإنس[1]. وروي عن الزبير بن العوام أن جنياً شكا إليه ما لقي من الشيطان فعلمه دعاء ليخلص منه فدعا به. ووجه آخر شياطين الإنس والجن يعني الشياطين من الإنس والشياطين من الجن لأن كل عات متمرد فهو شيطان. وروي عن أبي ذر الغفاري أنه قال: دخلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في المسجد فأمرني أن أصلي ركعتين فصليت ثم جلست عنده قال: يا أبا ذر تَعَوَّذ بالله من شياطين الإنس وشياطين الجن، فقلت: يا رسول الله أَوَ من الإنس شياطين؟ فقال النبي: ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ما تقرأ قوله: (شياطين الإنس والجن)[2] وكذلك هذان القولان من قوله تعالى: (في صدور الناس من الجنة الناس). ثم قال: (يوحي بعضهم إلى بعض) يعني يوسوس بعضهم بعضاً ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ يعني ما زين منه، وحسن وموه، يعني يزين القول باطلاً يغرهم بذلك، وأصل الزخرف: الذهب وسمى الزينة زخرفاً لأن أصل الزينة من الذهب يعني يزين لبعض الأعمال. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ يعني لو شاء ربك لمنعهم من الوسوسة ولكن الله يمتحن بما يعلم أنه أبلغ في الحكمة وأجزل في الثواب ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني خل عنهم وما يكذبون من القول والغرور. ثم قال ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يقول: ولتميل إلى ذلك الزخرف والغرور ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى هذه الزينة والغرور ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ يقول: لكي يقبلوا من الشياطين الزينة والغرور ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ يعني ليكسبوا ما هم مكتسبون من المعاصي وليعملوا ما هم عاملون. وقرأ بعضهم: (وليرضوه وليقترفوا) بجزم اللام على معنى الأمر والمراد به التهديد كقوله: (اعملوا ما شئتم) والقراءة المعروفة: بكسر اللام والمراد به التهديد، ومعناه اتركهم ليعلموا ما هم عاملون. وقوله تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/٥٢ (١٣٧٦٦).
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٧٨. وأخرجه الطبري ١٢/٥٣.

مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ يعني أَعْبُدُ غير الله؟ ويقال: أأطلب القضاء من غير الله؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ يعني مبيناً فيه أمره ونهيه بلغة يعرفونها. ويقال: مفرقاً سورة سورة وآية آية. ﴿وَالَّذِيْنَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني القرآن منزل من الله بالعدل. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص[1]: (منزّل) بتشديد الزاء. وقرأ الباقون: بالتخفيف ثم قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِيْنَ﴾ يعني الشاكين في أنه الحق. وأنه من الله تعالى خاطبه بذلك وأراد به غيره من المؤمنين لكي لا يشكوا فيه. قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: وجب قول ربك بأنه ناصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن عاقبة الأمر له ﴿صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ يعني صدقاً فيما وعد الله له من النصرة (وعدلاً) فيما حكم به ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: لا مغير لوعده كقوله: (لننصر رسلنا) ويقال: (لا مبدل لكلماته) يعني لا ينقض بعضها بعضاً ولا يشبه كلام البشر. وروى أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) قال: هو قول لا إله إلا الله ﴿وَهُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ﴾ «السميع» بما سألوا «العليم» بهم. ثم قال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني أهل أرض مكة فيما يدعونه إلى ملة آبائه. ويقال: وإن تطع أكثر من في الأرض يعني الكفار لأن أكثر من في الأرض كانوا الكفار ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيْلِ اللَّهِ﴾ يعني يصرفوك عن دين [الإسلام][2]. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني أن أكثرهم يتبعون أكابرهم بالظن ويتبعونهم فيما لا يعلمون أنهم على الحق. فإن قيل: كيف يعذبون وهم ظانون على غير يقين؟ قيل لهم: لأنهم اقتصروا على الظن والجهل لأنهم اتبعوا أهواءهم ولم يتفكروا في طلب الحق. ويقال: (إن يتبعون إلا الظن) يعني في أكل الميتة واستحلالها ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يعني ما هم إلا كاذبون باستحلالهم الميتة لأنهم كانوا يقولون: ما قتل الله فهو أولى بالحل وبأكله مما نذبحه بأيدينا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾ يعني: عن دينه وعن شرائع الإسلام ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِيْنَ﴾ لدينه. قرأ أهل الكوفة: عاصم وحمزة والكسائي: (وتمت كلمة ربك) وقرأ الباقون: (كلمات) بلفظ الجماعة. قوله تعالى:

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ
عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِيْنَ﴾ يعني مصدقين. فقد بين الله تعالى أنه لايجوز أكل الميتة وإنما يحل أكله إذا ذُبح وذُكر اسْمُ الله عليه. ثم قال: ﴿وَمَا لَكُم أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مما ذبح وذكر اسم الله عليه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ يعني بين لكم تحريمه في سورة المائدة وغيره من ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [يعني الميتة وغيرها][3] ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يقول: ما اجتهدتم إلى أكل الميتة عند الجوع. قرأ ابن

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٦٨ سراج القارىء ٢١٥.
(٢) في أ [الإسلام].
(٣) سقط في ظ.

كثير وابن عامر[١]، وأبو عمرو (فصل لكم) بضم الفاء، (ما حرم عليكم) بضم الحاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: (وقد فصل) بالنصب (وما حرم) بالضم. وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص كلاهما بالنصب يعني بين الله لكم ما حرم عليكم. ثم قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقول: يدعون إلى أكل الميتة بغير علم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ من الحلال إلى الحرام. قوله تعالى:

﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وبَاطِنَهُ﴾ يعني زنا السر والعلانية لأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون الزنا في العلانية ولا يرون به بأساً في السر فأخبر الله تعالى: أن الزنا حرام في السر والعلانية ويقال: ظاهر الإثم: وهو الزنا، وباطنه القُبْلة واللَّمس والنظر. وقال الضحاك: (ظاهر الإثم) الزنا (وباطنه): نكاح الأمهات والأخوات وقال قتادة: (ظاهر الإثم وباطنه) يعني قليله وكثيره[٢]. ويقال: ظاهره: إرتكاب المعاصي، وباطنه: ترك الفرائض. ويقال: باطنه: الرياء في الأعمال ويقال الكفر. ويقال جميع المعاصي. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ﴾ يقول: يعملون الفواحش ويتكلمون بها ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ سيعاقبون بما كانوا يكسبون من الإثم. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[٣]: وإن كثيراً لَيُضلون بأهوائهم بضم الياء، يعني يضلون الناس. وقرأ الباقون: (لَيَضِلُّون) بنصب الياء، يعني يَضلون بأنفسهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني ما لم يُذَك ولم يذبح، أو ذبح بغير اسم الله ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ يعني أكله معصية واستحلاله كفر ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يعني يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ يقول: ليخاصموكم في أكل الميتة وهو قولهم: ما قتله الله فهو أولى أن يؤكل. وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له: إن المختار[٤] يقول: يوحى إلي فقال: صَدَق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم[٥]. قال الفقيه، قال: حدثنا أبو الفضل بن أبي [حفص][٦]، قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال المشركون للمسلمين: ما قتل ربكم ومات فلا تأكلوه وما قتلتم أنتم وذبحتم فتأكلوه فأوحى الله تعالى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه[٧]... إلى قوله ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ يعني في أكل الميتة واستحلاله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم ففي الآية دليل: أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار مشركاً. ثم قال:

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٦٨ ـ ٢٦٩ سراج القاري ٢١٥.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/٧٢. (٣) انظر حجة القراءات ٢٦٩ سراج القاري ٢١٥.

(٤) المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو إسحاق من زعماء الثائرين على بني أمية، ادعى النبوة ونزول الوحي توفي سنة ٦٧ هـ انظر الإعلام ٧/١٩٢ الفرق بين الفرق ٣١ ـ ٣٧.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٤٣ وقال أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عمر.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٢/٧٩ (١٣٨٠٩).

(٧) أخرجه ابن جرير الطبري عن عكرمة انظر التفسير ١٢/٩٠.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني من كان ضالاً كافراً فهديناه إلى الإسلام والتوحيد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني أكرمناه بالمعرفة. ويقال: جعلنا له إيماناً يهتدي به سبيل الخيرات والنجاة يمشي به في الناس، يعني مع المؤمنين ويقال: أعطيناه نوراً يوم القيامة يمشي به على الصراط مع المؤمنين، لا يكن حاله ﴿كَمَنْ مَثَلُه فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني كمن قدر عليه الكفر ونزل في الكفر مخذولاً ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ يعني ليس براجع منها يعني ليسا بسواء. قال الكلبي: نزلت في عمار بن ياسر يعني ليس حاله بحال الكفار[1]. وقال مقاتل:[2] يعني به النبي - صلى الله عليه وسلم ـ ليس مثل أبي جهل بن هشام الذي بقي في الكفر. ويقال: يعني جميع المؤمنين ليس حالهم كحال الكفار. قرأ نافع: (أومن كان مَيِّتاً) بالتشديد، وقرأ الباقون: بالتخفيف ومعناهما واحد. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني هكذا نعاقب من اختار الكفر على الإيمان فنختم على قلبه مجازاة لكفره. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيْهَا﴾ يعني جعلنا مجرميها أكابرها وجبابرتها كماجعلنا في أهل مكة وهذا معطوف على ما قبله، أي مثل ذلك جعلنا في كل قرية، كما زين للكافرين ﴿لِيَمْكُرُوا فِيْهَا﴾ يعني ليتكبروا فيها ويكذبوا رسلهم ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ يعني وما يصنعون ذلك ﴿إِلَّا بِأَنْفُسِهِم﴾ يعني إلا على أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك على أنفسهم. قوله تعالى:

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

﴿وإذا جَاءَتْهُم ءَايَةٌ﴾ يعني الأكابر الذين سبق ذكرهم. ويقال: كفار مكة إذا جاءتهم علامة مثل انشقاق القمر وغيره ﴿قَالُواْ: لَنْ نُؤْمِنَ﴾ يعني لن نصدقك ولن نؤمن بالآية ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ﴾ أي مثل ما أعطى ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الآيات والعلامات. ويقال: لم نصدقك حتى يوحى إلينا كما أُوحي إلى الرسل وذلك أن الوليد بن المغيرة وأبا مسعود الثقفي قالا: لو أراد الله تعالى أن ينزل الوحي لأنزل علينا[3] قال بعضهم: أرادوا به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقال بعضهم: أرادوا به جميع الرسل. فقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ ومن يصلح للنبوة ومن لا يصلح فخص بها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿سَيُصِيْبُ الَّذِيْنَ أَجْرَمُوا﴾ يعني أشركوا ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني مَذَلَّة وهوان عند الله أي من عند الله العذاب بالمستهزئين ﴿وَعَذَابٌ شَدِيْدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ يعني يكذبون بالرسل. قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص[4]: «حيث

(١) انظر التفسير ١/٣٩٧. (٢) انظر حجة القراءات ٢٧٠. (٣) انظر تفسير القرطبي ٧/٥٣.
(٤) انظر حجة القراءات ٢٧٠ سراج القاري ٢١٥.

يجعل رسالته» بلفظ الوحدان، وقرأ الباقون: «رسالاته» بلفظ الجماعة. قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ يعني من يرد الله أن يوفقه للإسلام ويهديه لدينه ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه ويلينه لقبول الإسلام ويدخل فيه نور الإسلام وحلاوته. وقال القتبي: يشرح صدره يعني يفتحه. قال الفقيه قال: حدثنا الخليل بن أحمد، حدثنا الديبلي، قال: حدثنا أبو عبيد الله، عن سفيان، عن خالد بن أبي كريمة[١] عن عبد الله بن المسور[٢]: أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لما نزلت هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا: يا رسول الله فكيف ذلك؟ قال: إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح قالوا: وهل لذلك من علامة يعرف به؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزول الموت[٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ عن الإسلام فلا يقبله ويتركه بغير نور ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ عن الإسلام يعني غير موسع ﴿حَرَجاً﴾ يعني شاكاً. وقال ابن عباس[٤]: كالشجرة الملتفة بعضها في بعض لا يجد النور منفذاً ومجازاً، قرأ ابن كثير[٥] (ضيقاً) بتخفيف الياء وجزمها وقرأ الباقون بالتشديد. وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر[٦]: (حَرِجاً) بكسر الراء، وقرأ الباقون: بالنصب. فمن قرأ بالنصب فهو المصدر، ومن قرأ بالكسر فهو النعت.

ثم قال: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني مثله كمثل الذي يتكلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيع فكذلك قلب الكافر لا يستطيع قبول الإسلام. قرأ ابن كثير[٧] (يَصْعَد) بجزم الصاد ونصب العين بغير تشديد، من صَعَد يَصْعَد، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: (يَصَّاعد) بالألف مع تشديد الصاد وتخفيف العين لأن أصله يتصاعد فأدغم التاء في الصاد. وقرأ الباقون: (يَصَّعَّد) بتشديد الصاد والعين بغير ألف لأن أصله يتصعد فأدغم التاء في الصاد. ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ يعني العذاب ﴿عَلَى الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بترك حلاوة الإيمان على الذين لا يرغبون في الإيمان. ويقال: الرجس في اللغة: هو اللعنة والعذاب. قوله تعالى:

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ يعني هذا التوحيد دين ربك، مستقيماً يعني قائماً برضاه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ يعني قد بينا العلامات وبينا الآيات في أمر القلوب والهدى والضلالة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني يتعظون ويتفكرون في

(١) أبو عبد الرحمن روى عن أبي جعفر ومعاوية بن فرة وروى عنه الثوري. انظر الجرح والتعديل ٣/٣٤٩.

(٢) عبد الله بن المسور بن عبد الله بن عون بن جعفر بن أبي طالب أبو جعفر القرشي الهاشمي المدائني روى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرسل وضاع. انظر الجرح والتعديل ٥/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/١٠١ (١٣٨٥٦) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٤٥ وزاد نسبته إلى ابن المبارك والفريابي.

(٤) انظر تفسيره ١٩٤.

(٥) انظر حجة القراءات ٢٧١ سراج القاري ٢١٥.

(٦) انظر حجة القراءات ٢٧١ سراج القاري ٢١٥.

(٧) انظر حجة القراءات ٢٧١ سراج القاري ٢١٥.

توحيد الله تعالى. ويقال: معناه لا عذر لأحد في التخلف عن الإيمان لأن الله تعالى قد بين طريق الهدى، وقد بين العلامات في ذلك لمن كان له عقل وتمييز. ثم ذكر ما أعد الله للمؤمنين في الآخرة فقال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهي الجنة وهي دار السلام من الأمراض والآفات، والخوف والهرم وغير ذلك. ويقال: (لهم دار السلام): فالله السلام والجنة داره يعني دار رب العزة التي أعد لأوليائه بالثواب ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي الله تعالى حافظهم وناصرهم في الدنيا. ويقال: هو وليهم في الآخرة بالثواب، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يقول: وآذكر يوم يجمعهم الله ﴿جَمِيعًا﴾ يعني الجن الإنس. قرأ عاصم في رواية حفص[١] (يحشرهم) بالياء يعني أن الله يحشرهم. وقرأ الباقون: (نحشرهم) بالنون ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ يقول لهم: يا معشر الجن ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعني قد أضللتم كثيراً من الإنس. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أضلوهم ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني انتفع بعضنا ببعض وكان استمتاع الإنس بالجن في الدنيا أن أهل الجاهلية كانوا إذا سافر واحد منهم فأدركه المساء بأرض قفر وخاف بالليل فقال: أعوذ بسيد أهل هذا الوادي من سفهاء قومه، فأمن ولبث في جوارهم حتى يصبح، وكان استمتاع الجن بالإنس أن قالوا: لقد سوّدنا الإنس والجن فيزيدون شرفاً في قومهم يعني فيما بين الجن والإنس ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعني الموت الذي جعلته أجلنا في هذه الدنيا. وهذا قول الكلبي[٢]. وقال الضحاك: (ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعني خدع بعضنا بعضاً عن دينك يعني أن الجن قد خدعنا وأضلّنا[٣] (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعني ما كتبت علينا من الشقاوة. ﴿قَالَ: النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ يعني منزلكم وهم الجن والإنس ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في النار ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال الكلبي: مشيئة الله من كل شيء. ويقال: إلا ما شاء الله البرزخ والقيامة. قد شاء الله لهم الخلود فيها. ويقال: (إلا ما شاء الله) يخرج منها من أهل التوحيد. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.﴾. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي﴾ يعني نسلط ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ يعني كفار الجن على كفار الإنس. ويقال: نسلط بعض الظالمين بعضاً فيهلكه ويذله. وهذا كلام لتهديد الظالم لكي يمتنع عن ظلمه، لأنه لو لم يمتنع يسلط الله عليه ظالماً آخر ويدخل في الآية جميع من يظلم، ومن ظلم في رعيته أو التاجر يظلم الناس في تجارته، أو السارق وغيرهم. وقال فضيل بن عياض[٤]: إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم، فقف وانظر فيه متعجباً[٥]. وقال ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله على قوم، ولى أمرهم شرارهم[٦] بما كانوا يكسبون ثم تلا قوله «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً» وعن مالك بن دينار[٧] قال: قرأت في بعض الكتب المنزلة أن الله تعالى يقول: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، ونواصيها بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إلي أجعلهم عليكم رحمة. ثم قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني يسلط بعضهم على بعض بأعمالهم الخبيثة.

ثم يقول لهم:

---

(١) انظر سراج القاري،٢١٦ شرح شعلة ٣٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن ابن جريج وقال أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ وانظر تفسير القرطبي ٥٦/٧.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٥٥/٧.

(٤) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض البحصمي السبتي توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة انظر أزهار الرياض ١٧/٣ ووفيات الأعيان ١١٧/٢.

(٥) انظر تفسير القرطبي ٥٦/٧.

(٦) انظر المصدر السابق.

(٧) بنحوه ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٦/٣ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني يقول لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾. قال مقاتل[1]: بعث الله تعالى رسولاً من الجن إلى الجن ومن الإنس إلى الإنس ويقال: رسل الجن [السبعة][2]، الذين سمعوا القرآن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجعوا إلى قومهم منذرين وقالوا: يا قومنا أجيبوا داعي الله. ويقال: ألم يأتكم رسل منكم، يعني من الإنس خاصة. وقال ابن عباس[3]: كانت الرسل تبعث إلى الإنس وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث إلى الجن والإنس. ثم قال: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ يقول: يقرأون ويعرضون (عليكم ﴿ءَايَاتِي﴾ يعني القرآن ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ﴾ يعني يخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا: شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ يعني يقولون: بلى أقررنا أنهم قد بلغوا وكفرنا بهم. ثم قالت الرسل، وذلك بعدما شهد عليهم سمعهم وأبصارهم، يقول الله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني ما في الحياة الدنيا من زهرتها، وزينتها ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِيْنَ﴾ في الدينا، ويقول الله تعالى: (النار مثواكم خالدين فيها) على وجه التقديم والتأخير. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ يعني ذلك السؤال والشهادة. ويقال: (ذلك) يعني إرسال الرسل إلى الجن والإنس، ليعلم أن لم يكن الله مهلك القرى، يعني معذب أهل القرى بغير ذنب في الدنيا ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ عن الرسل. ويقال: غافلون عن العذاب لأنه قد بين لهم وأخذ عليهم الحجة. ثم قال:

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿وَلِكُلٍ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُواْ﴾ يعني ولكل واحد من المؤمنين فضائل في الجنة بعضهم أرفع درجة من بعض، وللكافرين درجات بعضهم أشد عذاباً من بعض ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يعني لمن ينسى الطاعة من المطيعين ولا المعصية من العاصين ويجازي كل نفس بما عملت. قرأ ابن عامر[4]: (عما تعملون) على معنى المخاطبة وقرأ الباقون: (يعملون) بالياء على معنى المغايبة. قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يعني غني عن عبادة خلقه ذو الرحمة بتأخير العذاب عنهم. ويقال: (ذو الرحمة) يعني ذو التجاوز عمن تاب ورجع إليه بالتوبة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني يهلككم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ خلقاً بعدكم من بعد إهلاككم (ما يشاء): إن

(١) انظر التفسير ١/ ٤٠٠.
(٢) في أ [التسعة].
(٣) ذكر هذا الأثر القرطبي ٧/ ٥٧ نقلاً عن المصنف رحمه الله.
(٤) انظر حجة القراءات ٢٧٢ سراج القاري ٢١٦.

يشأ مثلكم وإن يشأ أطوع منكم ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ﴾ يقول: كما خلقكم ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِيْنَ﴾ قرناً من بعد قرن ولكنه لم يهلككم رحمة منه لترجعوا وتتوبوا ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لآتٍ﴾ يعني الوعيد الذي أوعد في الآخرة من العذاب لآت، يقول: لكائن لا خلف فيه ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِيْنَ﴾ يعني بسابقين الله بأعمالكم الخبيثة [التي][1] يجازيكم بها، هذا قول مقاتل[2]: وقال الكلبي: بمعجزين أي، بفائتين[3] أن يدرككم، ويقال في اللغة[4]: أعجزني الشيء أي فاتني وسبقني. ثم قال: ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم﴾ أي على موضعكم، يقال: مكان، ومكانة، مثل منزل ومنزلة، ومعناه اعملوا على ما أنتم عليه. ويقال: معناه: اجتهدوا في إهلاكي ما استطعتم ويقال: اعملوا في منازلكم من الخير والشر فإنكم تجزون بهما لا محالة ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ بما أوحى الله إلي. ويقال: اعملوا بمكاني، وأنا عامل بمكانكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ فهذا وعيد من الله تعالى يقول: نبين لكم من تكون له عاقبة الأمر في الدنيا ومن تكون له الجنة في الآخرة. ثم قال: ﴿إِنَّه لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ مخاطباً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي في الآخرة ولا يأمن المشركون قرأ عاصم في رواية أبي بكر[5]: (اعملوا على مكاناتكم) في جميع القرآن بلفظ الجماعة وقرأ الباقون: مكانتكم. وقرأ حمزة والكسائي: (من يكون) بالياء لأنه انصرف إلى المعنى وهو الثواب. والباقون: قرأوا بالتاء لأن لفظ العاقبة لفظ مؤنث. قوله تعالى:

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ
وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ
فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ
لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ
عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ
وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ
ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ
سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ
وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

﴿وَجَعَلُواْ للَّه مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَام﴾ وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[6] قال: كانوا يسمون لله جزءاً من الحرث ولأوثانهم جزءاً فما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه وما ذهبت به الريح من الجزء

(١) في أ [حتى].
(٢) انظر التفسير ١/٤٠١.
(٣) انظر تفسير ابن عباس ٩٥.
(٤) انظر ترتيب القاموس ٢/١٦١ لسان العرب ٤/٢٨١٧.
(٥) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٧٢ سراج القاري ٢١٦.
(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٢/١٣٢ (١٠٩٠٢).

الذي سموه لله إلى جزء الأصنام تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا. وقال السدي: ما خرج من نصيب الأصنام: أنفقوه عليها، وما خرج من نصيب الله تصدقوا به فإذا هلك الذي لشركائهم وكثر الذي لله قالوا: ليس لآلهتنا بد من النفقة فأخذوا الذي لله وأنفقوه على الأصنام، وإذا هلك الذي لله وكثر الذي للأصنام قالوا: لو شاء الله لأزكى ماله فلا يزيدون عليه شيئاً[1]، فذلك قوله تعالى: (وجعلوا لله مما ذرأ) يعني مما خلق من الحرث والأنعام ﴿نَصِيبًا﴾ يعني جعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً فاقتصر على المذكور لأن في الكلام دليلاً على المسكوت عنه ﴿فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ يقول: بقولهم ولم يأمرهم الله بذلك ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ يعني للأصنام ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ﴾ يعني لأصنانهم ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ يقول: فلا يضعون شيئاً في نصيب الله ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾ يقول: يوضع في نصيبهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني لو كان معه شريك كما يقولون ما عدلوا في القسمة، ويقال ساء ما يحكمون حيث وصفوا لله شريكاً. قرأ الكسائي[2]: (بزُعمهم) بضم الزاي وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان ومعناهما واحد. ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ يعني زين لهم شركاؤهم وهم الشياطين قتل أولادهم لأنهم يقتلون أولادهم مخافة الفقر والحمية، ويدفنون بناتهم أحياء فزين لهم الشيطان ذلك، كما زين لهم تحريم الحرث والأنعام. ويقال: كان واحد منهم ينذر: أنه إذا ولد كذا وكذا ولد يذبح واحداً منهم كما فعل عبد المطلب، فزين لهم الشيطان قتل أولادهم فذلك قوله: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم). قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام[3]: (وكذلك زُين) بضم الزاي (قتلُ) بضم اللام (أولادَهم) بفتح الدال (شركائهم) بالخفض وإنما قرىء (زُيِّنَ) بالضم على فعل ما لم يسم فاعله، ومعناه قتل شركائهم على معنى التقديم، وهم أولادهم لأن أولادهم شركاؤهم في أموالهم فصار شركاؤهم نعتاً للأولاد، وصار الأولاد نصباً على وجه التفسير. وقرأ الباقون (زَيَّن) بالنصب لأنه فعل ماض (شركاؤهم) بالضم لأنه جعل الشركاء على وجه الفاعل ثم قال: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ يعني ليهلكوهم بذلك ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ يعني ليخلطوا وليشبهوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ يعني دين إبراهيم وإسماعيل. ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ يعني لو شاءَ الله لمنعهم من ذلك منع اضطرار وقهر وأهلكهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يعني دعهم وما يكذبون بأن الله أمرهم بذلك، ومعناه أن الله مع قدرته عليهم قد تركهم إلى وقت قدرهم فاتركهم أنت أيضاً إلى الوقت الذي تؤمر بقتالهم. ويقال: معناه دعهم فإن لهم موعداً بين يدي الله فيحاسبهم ويجازيهم بها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا: هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾ وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحرث وهو نوع من الزرع حرموها على النساء ﴿حِجْرٌ﴾ يعني حرام والحجر يكون عبارة عن العقل كقوله تعالى: (هل في ذلك قسم لذي حجر) أي لذي لب وعقل ويكون عبارة عن الحرام كقوله: (حجراً محجوراً) يعني حراماً محرماً، وكقوله: (هذه أنعام وحرث حجر) يعني حراماً ﴿لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ من الرجال دون النساء، وهو مالك بن عوف كان يفتيهم بالحل والحرمة وكان يقول هذا يجوز وهذا لا يجوز لأشياء كانوا حرموها برأيهم ثم قال: (وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وهي الحام من الإبل كانوا يتركونها ولا يركبونها ﴿وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ يعني عند [الذبيحة][4]، ويقال: عند الركوب وهي البحيرة ﴿افْتِرَاءً عليه﴾ يعني اختلافاً وكذباً على الله بأنه أمرهم بذلك ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ يعني سيعاقبهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني يكذبون على الله بأنه أمرهم. ﴿وَقَالُواْ: مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ قال الكلبي: يعني البحيرة والوصيلة حلال لذكورنا ما دامت في الأحياء

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/١٣٢ (٦ . ١٣٩).
(٢) انظر حجة القراءات ٣٧٣ سراج القاري ٢١٦.
(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٣ وسراج القاري ٢١٦ ـ ٢١٧.
(٤) في أ [الذبح].

وليس للنساء فيه شركة ولا نصيب، فذلك قوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً﴾ يعني من هذه الأنعام ﴿فَهُمْ فِيْهِ شُرَكَاءُ﴾ يعني الرجال والنساء في أكلها[١]. وقال الضحاك: كانت الناقة إذا ولدت فصيلاً ذكراً حرموا لحم الفصيل ولبن الناقة على النساء دون الرجال وإن وضعت فصيلاً ميتاً اشتركت الرجال والنساء في لحم الفصيل، ولبن الناقة[٢]، ذكر في أول الكلام (خالصة) لفظ التأنيث لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه حمله ما في بطون هذه الأنعام ثم قال: (ومحرم على أزواجنا) ذكر بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى قوله: (ما في بطون). قرأ عاصم في رواية أبي بكر[٣]: (وإن تكن) بالتاء على معنى التأنيث (ميتة) بالنصب يعني وإن تكن الجماعة ميتة صارت الميتة خبر كان. وقرأ ابن عامر: (وإن يكن ميتة) بالضم يعني وإن كانت ميتة جعلها اسم كان رفعاً. وقرأ ابن كثير: (وإن يكن.) بالياء (ميتة) بالضم يعني وإن كان ما فيه ميتة بلفظ التذكير وجعل الميتة اسم كان. وقرأ الباقون: (وإن يكن ميتة) جعلوا الميتة خبر كان بلفظ التذكير ثم قال: ﴿سَيَجْزِيْهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني سيعاقبهم بكذبهم. ﴿إِنَّهُ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ﴾ (حكيم) عليهم بالعذاب (عليم) بهم. وفي الآية دليل أن العالم ينبغي أن يتعلم قول من خالفه، وإن لم يأخذ به حتى يعلم فساد قوله ويعلم كيف يرد عليه لأن الله تعالى أعلم النبي ـ عليه السلام ـ وأصحابه قول من خالفهم في زمانهم ليعرفوا فساد قولهم. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِيْنَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يعنوا دفنوا بناتهم أحياء وقتلوهن ﴿سَفَهاً﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني جهلاً منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني [بغير] حجة منهم في قتلهن وهم ربيعة ومضر كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلاً من أصحابه كان لا يزال مغتماً بين يديه، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «مالك تكن محزوناً»؟ فقال: يا رسول الله إني قد أذنبت في الجاهلية ذنباً فأخاف أن لا يغفر لي وإني أسلمت، فقال له «أخبرني عن ذنبك» فقال: يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنت، فتشفعت إليَّ امرأتي بأن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت فصارت من أجمل النساء، فخطبوها فدخلت عليَّ الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة إني أريد أن أذهب بها إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي وأخذت عليَّ المواثيق بأن لا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت إلى البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمت بي وجعلت تبكي وتقول: يا أبت أي شيء تريد أن تفعل بي فرحمتها ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمي فجعلت مرة أنظر في البئر ومرة أنظر إليها وأرحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر: يا أبت قتلتني، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وقال: لو أُمِرْتُ أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك بما فعلت[٤]. ثم قال: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني ما أعطاهم ﴿افْتِرَاءً﴾ يعني كذباً

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن مجاهد ٢/١٤٨. (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٤ سراج القاري ٢١٩.

المعنى وإن تكن تلك الحمول التي في البطون ميتة، ويجوز أن ترد على (الأنعام) أو على معنى (ما) ولك أن ترجع عن لفظ (ما) و (من) إلى معناهما ومن معناهما إلى لفظهما لأن لفظهما واحد ـ ومعناهما الجمع والتأنيث. وقد جاء في التنزيل حرف قد حمله على اللفظ ثم رجع إلى المعنى ثم حمله ثانياً على اللفظ وهو قوله: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات) فوحد ـ وحمله على اللفظ، ثم قال: (خالدين فيها أبدا) فجمع على المعنى ثم قال: (قد أحسن الله له رزقاً) فرجع بعد الجمع إلى التوحيد وحمله أيضاً على التوحيد وكذلك قوله (هنا): ـ(وقالواما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) على معنى (ما) (ومحرم) مذكر بعد مؤنث على لفظ (ما) فهو حرف ثان، وهو حسن. انظر حجة القراءات ٢٧٤.

(٤) الحديث ذكره القرطبي في التفسير ٧/٦٤ ولم يذكر له إسناد.

﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بأنه قد حرم ذلك عليهم ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الهدى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ.﴾ يعني وما هم بمهتدين. ويقال: وما كانوا مهتدين من قبل، فخذلهم الله بذلك. قرأ ابن كثير وابن عامر[١]: (قَتّلوا) بالتشديد لتكثير الفعل، والباقون بالتخفيف. قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني خلق البساتين يعني الكروم وما يعرش، وهو الذي يبسط مثل القرع ونحو ذلك ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ يعني كل شجرة قائمة على أصولها ﴿وَالنَّخلَ والزَّرْعَ﴾ يعني خلق النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ يعني طعمه مثل الحامض والحلو والمر ﴿وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً﴾ يعني المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾يعني في الطعم ﴿كُلُواْ مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإنما ذكر ثمره بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى المعنى يعني ثمره الذي ذكرها، ﴿وءاتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يعني أعطوا زكاته يوم كيله ورفعه. قرأ أبو عمرو، وعاصم وابن عامر[٢]: (حصاده) بنصب الحاء وروى الحكم[٣] عن مقسم[٤] عن ابن عباس: قال: (وآتوا حقه يوم حصاده) قال: العُشْر ونصف العشر[٥]. وروى سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: (وآتوا حقه يوم حصاده) قال: عند الزرع أي يعطي القبض وهو بأطراف الأصابع ويعطي عند الصرام القبض ويدعهم يتتبعون آثار الصرام[٦]. وعن الربيع بن

(١) انظر حجة القراءات ٢٧٥.

(٢) وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان مثل الصرام والصرام قال الفراء بالكسر حجازية وأهل نجد وتميم بالفتح انظر حجة القراءات ٢٧٥.

(٣) الحكم بن عيينة الكندي مولاهم أبو محمد ويقال: أبو عبد الله ويقال: أبو عمر الكوفي توفي سنة ١١٣ وقيل ١١٤ هـ انظر التهذيب ٢/٤٣٢ ـ ٤٣٤.

(٤) مقسم بن مجرة ويقال: ابن نجدة أبو القاسم ويقال أبو العباس مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل ويقال مولى ابن عباس للزومه له انظر التهذيب ١٠/٢٨٨.

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/١٦١. (١٣٩٧٥) وزاد نسبته السيوطي في الدر ٣/٤٩ لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم واالنحاس والبيهقي في السنن.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير ٢/١٦٨ (١٤٠١٩).

انس: «وآتوا حقه يوم حصاده» قال: لقاط السنبل[١]. وقال الحسن[٢]: نسختها آية الزكاة. وقال إبراهيم: نسختها العشر ونصف العشر[٣]. وقال الضحاك: نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن[٤]. وهكذا قال عكرمة[٥]، وقال سفيان سألت السدي عن قوله تعالى: وآتوا حقه يوم حصاده، قال هذه السورة مكية نسختها العشر ونصف العشر قلت عمن؟ قال عن العلماء.[٦]

قال الفقيه: الذي قال أنه صار منسوخاً (يعني أداؤه يوم الحصاد بغير تقدير صار منسوخاً، ولكن أصل الوجوب لم يصر منسوخاً) وبين النبي - عليه السلام - التقدير وهو العشر أو نصف العشر ثم قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - عمد ثابت بن قيس إلى خمسمائة نخلة فصرمها وقسمها في يوم واحد فأمسى ولم يكن لأهله شيء فنزل: (ولا تسرفوا) يعني ولا تتصدقوا بكله، ودعوا لعيالكم شيئاً وروى عبد الرزاق، عن ابن جريج قال: جد لمعاذ بن جبل نخله، فلم يزل يتصدق حتى لم يبق منه شيء فنزل: (ولا تسرفوا)[٧]. ويقال: (ولا تسرفوا) يعني ولا تنفقوا في المعصية قال مجاهد: لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى ما يكون إسرافاً، ولو أنفقت درهماً في طاعة الشيطان، كان إسرافاً[٨]. وروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى: (ولا تسرفوا) قال: الإسراف ما قصرت عن حق الله تعالى. ويقال: (ولا تسرفوا) يقول: لا تشركوا الآلهة في الحرث والأنعام وقد ذكر قوله: (كلوا من ثمره) بلفظ التذكير، لأنه انصرف إلى المعنى يعني من ثمر ما ذكرنا، ثم قال: (إنه لا يحب المسرفين) يعني المشركين الذين يشركون الآلهة في الحرث والأنعام. ثم قال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ يعني أنشأ لكم، وخلق لكم من الأنعام حمولة وفرشاً أي مما يحمله عليه من الإبل والبقر، وفرشاً مثل الغنم وصغار الإبل، وقال القتبي: الفرش ما لا يطيق الحمل عليه وهي ما دون الحفاف التي لا تصلح للركوب، ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي من الحرث والأنعام حلالاً طيباً، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِيْنٌ﴾ ظاهر العداوة غير ناصح لكم. ثم قال:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يعني ثمانية أفراد لكم، يقال لكل فرد معه آخر زوج، يقول: خلقت لكم ثمانية أصناف. ويقال: كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج نزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه، حيث قالوا: ما في بطون هذه الأنعام، خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا[٩]. ففي هذه الآية دليل إثبات المناظرة في العلم لأن الله تعالى أمر النبي - عليه السلام - بأن يناظرهم، ويبين فساد قولهم، وفيها إثبات القول بالنظر والقياس، وفيها دليل أن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به ويروى إذا ورد عليه النقض لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة وأمرهم بطرد علتهم، وأمرهم بأن يثبتوا وجه الحرمة إن سبب الحرمة الأنوثة والذكورة أو إشتمال الرحم. فإن كان سبب الحرمة الأنوثة ينبغي أن يكون كل أنثى حراماً لوجود العلة وإن كان سبب الحرمة الذكورة ينبغي أن يكون كل ذكر حراماً لوجود العلة، وإن كان محرماً لاشتمال الرحم، وقد حرم الأولاد كلها ووجهت حرمتها لوجود العلة فيها، ، فبين انتقاض علتهم، وفساد قولهم وذلك قوله: (ثمانية أزواج) يعني ثمانية أصناف. ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني قولهم

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/١٦٧. (١٤٠١٢).
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٢/١٦٩ (١٤٠٢٨) وانظر الدر المنثور ٣/٤٩.
(٣) المصدر السابق ١٢/١٦٩ (١٤٠٣١).
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٤٩. وعزاه لابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٥) انظر المصدر السابق.
(٦) انظر المصدر السابق.
(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٤٩ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٨) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ١٢/١٧٤ (١٤٠٤٠).
(٩) انظر تفسير الطبري ١٢/١٨٦.

وذلك قوله: ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ يعني الذكر والأنثى، ﴿قُلْ: آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ يعني قل لهم من أين جاء هذا التحريم من قبل الذكرين حُرِّمَ أم من قبل الأنثيين ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ يعني، أم من قبل اشتمال الرحم فإنها لا تشتمل إلا على الذكر والأنثى ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ يعني أخبروني بسبب التحريم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.﴾ أن الله حرم ما تقولون ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ، وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ يعني من أين جاء هذا التحريم، ثم قال: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعني إذا لم تقدروا على إثبات تحريم ذلك بالعقل، فهل لكم كتاب يشهد على تحريم هذا، فذلك قوله أم كنتم شهداء، ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ يعني أمركم الله بهذا التحريم فسكت «مالك بن عوف» وتحير فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك لا تتكلم؟ فقال: بل تكلم أنت فأسمع، قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ بغير حجة وبيان ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني ليصرف الناس عن حكم الله تعالى بالجهل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى الحجة، ويقال: لا يوفقهم إلى الهدى مجازاةً لكفرهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[1]: (ومن المعز) بنصب العين وقرأ الباقون: بالجزم، ومعناهما واحد[2] ثم بين لهم ما حرم عليهم فقال:

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً﴾ يعني، لا أجد فيما أنزل علي من القرآن شيئاً محرماً ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ يعني على آكل ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾، قرأ ابن عامر[3]: (إلا أن تكون ميتةٌ) بالتاء على لفظ التأنيث (لأن الميتة مؤنث)، وقرأ (ميتة) بالضم لأنه إسم كان وقرأ حمزة وابن كثير: (إلا أن تكون) بالتاء بلفظ التأنيث) (ميتة) بالنصب فجعل الميتة خبراً لكان والاسم فيه مضمر وقرأ الباقون (إلا أن يكون) بلفظ التذكير (الميتة) بالنصب وإن

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٧٥ سراج القارىء ٢١٩.

(٢) والأصل تسكين العين لأنه جمع (ماعز) مثل (تاجر وتَجْر، وصاحب وصَحْب) وحجتهم إجماع الجميع على تسكين الهمزة في (الضأن) وهو جمع (ضائن) كماعز والهمزة والعين من حروف الحلق فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه، واعلم أنه إنما جاز فيهما الفتح ـ وإن كان الأصل الإسكان ـ لأن فيها حرفاً من حروف الحلق (والعرب تفتح إذا كان فيها حرف من حروف الحلق) وذلك نحو (النهر والنهر والزهر والزهر والظعن والظعن) وإنما جاز فتحها لأن الحركات ثلاث: ضمة وفتحة وكسرة فالفتحة من الألف فهي من حيز حروف الحلق هذا قول سيبويه. فإن قال قائل: هلا فتحت الهمزة من (الضأن) إذ كانت من حروف الحلق كما فتحت العين من (المعز)؟ الجواب: أن الهمزة أثقل من ـ العين لأنها تخرج من أقصى الحلق وتحريكها أثقل من تحريك العين وكذلك فرق بينهما. انظر حجة القراءات ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٧٦ سراج القاري ٢١٩.

جعلوه مذكراً لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه إلا أن يكون المأكول ميتة ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعني سائلاً جارياً ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي حرام ﴿أَوْ فِسْقًا﴾ يعني معصية ﴿أُهِلَّ﴾ يعني ذبح ﴿لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني لغير اسم الله. وقال بعضهم: في الآية تقديم ومعناه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به فإنه رجس، أي حرام يعني جميع ما ذكر في الآية هو رجس. ويقال: الرجس هو نعت للحم الخنزير خاصة. وروى عمر بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو وتلا هذه الآية (قل لا أجد فيما اوحي إلي . . . الآية[1]) يعني مالم يبين تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآيـة. وروى أبو بكـر الهذلي[2] عن الحسن أنه قال: والله لولا حديث سلمة بن المحبق ما لبسنا خفافكم ولا نعالكم ولا فراكم، حتى نعلم ما هي قال أبو بكر: فذكرت ذلك للزهري فقال: صدق الحسن ذلك عندي أوسع من هذا. حدثني عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ: (قل لا أجد في ما أوحى إلي محرماً). الآية قال: إنما حرم من الميتة أكلها وما يؤكل منها وهو اللحم أمـا الجلد والعظم والشَّعر والصوف فحلال[3]. قال: وقد احتج بعض الناس بهذه الآية على أن ما سوى هذه الأشياء التي ذكر في الآية مباح ولكن نحن نقول قد حرم أشياء سوى ما ذكر في الآية. وقد بين على لسان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك: كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير[4]. وقد قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا). ثم قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد ذكرنا تأويل هذه الآية. ثم قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ يعني أن هذه الأشياء التي ذكرنا في الآية كانت حراماً في الأصل وقد حرم الله أشياء كانت حلالاً في الأصل على اليهود بمعصيتهم ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ يعني الإبل والنعامة والبط، والأوز، وكل شيء له خف. وقال القتبي: كل ذي ظفر، يعني كل ذي مخلب من الطيور، وكل ذي حافر من الدواب وسمى ظفراً على الاستعارة. وقال الكلبي: كل ذي ظفر يعني ليس بمنشق ولا مجتر فهو حرام عليهم[5] ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ يعني شحوم البطون، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا.﴾ وقال الضحاك: إلا ما كان على اللحوم من الشحوم[6]. وقال الكلبي: يعني ما تعلق بالظهر من الشحم من الكليتين[7]. ويقال: حرم عليهم الثروب وأحل ما سواها وواحد الثروب ثرب، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ وهو المباعر واحدتها حاوية ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مثل الإلية. وروى جويبر عن الضحاك قال: ما التزق بالعظم[8]. ويقال: هو المخ ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ يعني ذلك التحريم عاقبناهم بشركهم، وظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أن هذه الأشياء كانت حلالاً في الأصل وحرمناهـا على

---

(١) انظر الدر المنثور ٣/٥٠.

(٢) سلمى بن عبد الله بن سلمى وقيل: اسمه روح وهو ابن بنت حميد بن عبد الرحمن الحميري قال الحافظ في التقريب متروك انظر التهذيب ١٢/٤٥ انظر التقريب ٢/٤٠١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٥١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس ٣/١٥٣٤ في الصيد والذبائح باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع ١٦/١٩٣٤ ومن حديث أبي هريرة عند مسلم ٣/٥٣٤ (١٥/١٩٣٣) ومن حديث جابر عند الترمذي ٤/٧٣ في الأطعمة ١٤٧٨ وقال حسن غريب.

(٥) انظر تفسير ابن عباس ٩٧.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٥٣ وعزاه لابن أبي حاتم عن أبي صالح.

(٧) انظر تفسير ابن عباس ٩٧.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٥٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

اليهود بمعصيتهم لأن اليهود كانوا يقولون إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل. ثم قال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني فيما تقول من التحريم والتحليل ﴿فَقُلْ: رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يعني رحمته وسعت كل شيء لا يعجل عليهم بالعقوبة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ يعني عذابه ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. قوله تعالى:

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا، وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ يعني ولا أشرك آباؤنا [ولكن شاء لنا ذلك وأمرنا به](١) ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من هذه الأشياء ويقال: مذهبهم مذهب الجبرية(٢). قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني الأمم الخالية كذبوا رسلهم كما كذبك قومك، وإنما كذبهم الله لأنهم قالوا ذلك على وجه السخرية لا على وجه التحقيق. كما قال المنافقون: (نشهد أنك لرسول الله.) فكذبهم الله في مقالتهم لأنهم قالوا على وجه السخرية. ثم قال: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ يعني الأمم الخالية أتاهم عذابنا فهذا تهديد لهم ليعتبروا، ثم قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم قل ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني بيان من الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فبينوه لنا بتحريم هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها، ثم بين الله أنهم قالوا ذلك بغير حجة وبيان فقال: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني ما تقولون إلا بالظن من غير يقين وعلم ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ يعني قل لهم ما أنتم إلا تكذبون على الله. قوله تعالى: ﴿قُلْ: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ يعني الحجة الوثيقة وهو محمد ـ عليه السلام ـ والقرآن فبين لهم ما أحل لهم وما حرم عليهم ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني لو شاء لوفقكم لدينه وأكرمكم بالهدى لو كنتم أهلاً للإسلام، ولكن لم يوفقهم لأنهم لم يجاهدوا في الله حق جهاده. ﴿قُلْ: هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ عليكم ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ على تحريمه ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فأخبر الله أنهم لو شهدوا كانت شهادتهم باطلة، ولا يجوز قبول شهادتهم لأنهم يقولون بأهوائهم ثم قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني بمحمد ـ صلى الله عليه

---

(١) ما بين المعقوفين من ظ.

(٢) الجبر: هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف:

فالجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

والجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبري.

والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة أثراً في الإبداع والإحداث استقلالاً: جبرياً ويلزمهم أن يسموا من قال من أصحابهم بأن المتولدات أفعال لا فاعل لها جبرياً إذا لم يثبتوا للقدرة الحادثة فيها أثراً والمصنفون في المقالات عدوا النجارية والضرارية من الجبرية وكذلك جماعة الكلابية من الصفاتية. والأشعرية سموهم تارة حشوية وتارة جبرية ونحن سمعنا إقرارهم على أصحابهم من النجارية فعددناهم من الجبرية ولم نسمع إقرارهم على غيرهم فعددناهم من الصفاتية. كذا صاحب الملل والنحل ١/ ٨٥ ـ ٨٦.

وسلم ـ وبالقرآن ﴿وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني البعث ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يعني يشركون بالله ثم قال تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

﴿قُلْ: تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني قل لمالك بن عوف وأصحابه الذين يحرمون الأشياء على أنفسهم وقالوا ما قالوا أبين لكم ما حرم الله عليكم وما أمركم به ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً.﴾ يقال: معناه أتل ما حرم ربكم عليكم فقد تم الكلام ثم قال: وأمركم ألا تشركوا به شيئاً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ يقول نهاكم عن عقوق الوالدين وأمركم ببرهم. ويقال: معناه حرم عليكم ألا تشركوا به شيئاً، ويقال: عناه حرم عليكم الشرك (وبالوالدين إحساناً) يعني أمركم بالإحسان إلى الوالدين ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ يعني من خشية الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُم وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ زنى السر والعلانية ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني إلا بالقصاص أو بالرجم أو بترك الإسلام فإن القتل بهذه الأشياء من الحقوق ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يقول: أمركم به في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.﴾ أمر الله بما حرمه في هذه الآيات. وروي عن عبد الله بن قيس [١] عن ابن عباس قال: هذه الآيات المحكمات: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم: . . إلى ثلاث آيات)[٢]. وقال الربيع بن خثيم لرجل: هل لك في صحيفة عليها خاتم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ ثم قرأ هذه الآيات: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم . . .)[٣] ويقال: هذه الآيات هن أم الكتاب وهن إمام في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ولا يجوز أن يرد عليها النسخ. ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ﴾ يقول: لا تأكلوا مال اليتيم، ولا تباشروه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني إلا بالقيام عليه لإصلاح ماله ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني احفظوا ماله حتى يبلغ رشده. قال مقاتل[٤]: يعني ثماني عشرة سنة. وقال الكلبي: الأَشُدُّ: ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة. ويقال: حتى

---

(١) عبد الله بن قيس عن ابن عباس في قوله (آيات محكمات) روى عنه أبو إسحاق ـ السبيعي ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه. انظر التهذيب ٥/٣٦٥.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٢/٢٢٦.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣/٥٤ وعزاه لعبد بن حميد وأبي عبيد وابن المنذر.

(٤) انظر التفسير ١/٧٠٤.

يبلغ مبلغ الرجال. ويقال: بلوغ الأشد ما بين ثماني عشرة إلى أربعين سنة[١]. ثم قال: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يعني أتموا الكيل والميزان عند البيع والشراء ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني بالعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني إلا جهدها في العدل يعني إذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن فلو وقعت فيه زيادة قليلة أو نقصان فإنه لا يؤاخذ به إذا اجتهد جهده ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يعني اصدقوا وقولوا الحق ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ يعني وإن كان الحق على ذي قرابة فقولوا الحق، ولا تمنعوا الحق ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يقول: أتموا العهود التي بينكم وبين الله، والعهد الذي بينكم وبين الناس ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ يقول: أمركم به في الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.﴾ يعني تتعظون فتمتنعون عما حرم الله عليكم. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٢]: (تذكرون) بتخفيف الذال وقرأ الباقون بالتشديد لأن أصله تتذكرون، فأدغم احدى التاءين في الذال. قوله تعالى: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾. قرأ حمزة والكسائي[٣]: (وإن هذا) بكسر الألف على معنى الابتداء، وقرأ الباقون بالنصب على معنى البناء. وقرأ ابن عامر: (وأنْ هذا) بجزم النون لأن أن إذا خففت منعت عملها ومعنى الآية: إن هذا الإسلام ديني الذي ارتضيته طريقاً مستقيماً ﴿فاتَّبِعُوه وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني لا تتبعوا اليهودية والنصرانية. ويقال: هذا صراطي مستقيماً: يعني طريق السنة والجماعة: (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل.) يعني الأهواء المختلفة. وروي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ عليه السلام ـ خطَّ بالأرض خطاً مستقيماً، ثم خط بجنبيه خطوطاً ثم قال: هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل. يعني الطريق الذي بجنبي الخط يعني به الأهواء المختلفة، ثم قال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ﴾ يعني فيضلكم عن دينه ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.﴾ يعني يجتنبون الأهواء المختلفة. قوله تعالى:

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ

(١) اختلف العلماء في أشد اليتيم: فقال ابن زيد:) بلوغه وقال أهل المدينة بلوغه وإيناس رشده، وعند أبي حنيفة خمس وعشرون سنة. قال ابن العربي: وعجباً من أبي حنيفة فإنه يرى أن المقدرات لا تثبت قياساً ولا نظراً وإنما تثبت نقلاً، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة ولكنه سكن دار الضرب فكثر ـ عنده المدلس ولو سكن المدن كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبراز الدين، وقد قيل: إن انتهاء الكهولة فيها مجتمع الأشد كما قال سُحَيْم بن وثيل:

أخو خمسين مجتمع أشدي ونجدني مداورة الشؤون

يروى (نجدني) بالدال والذال، والأشد واحد لا جمع له بمنزلة الآنك وهو الرصاص وقد قيل: واحد شد كفلس وأفلس وأصلح من شد النهار أي ـ ارتفع يقال: أتيته شد النهار ومد النهار وكان محمد بن الضبي ينشد بيت عنترة:

عهدي به شد النهار كأنما خضب اللبان ورأسه بالعظلم

وقال آخر:

تطيف به شد النهار ظعينة طويلة أنقاء اليدين سحوق

وكان سيبويه يقول: واحده شدة. قال الجوهري: وهو حسن في المعنى: لأنه يقال: بلغ الغلام شدته ولكن لا تجمع فعله على أفعل وأما أنعم فإنما هو جمع نعم من قولهم: يوم بؤس ويوم نعم. وأما قول من قال: واحده شَدّ مثل كلب وأكلب وشِدّ مثل ذئب وأذؤب فإنما هو قياس. كما يقولون في واحد الأبابيل: إبول قياساً على عجول وليس هو شيئاً سمع من العرب قال أبو زيد: أصابتني شدي على فعلي أي شدة وأشد الرجل إذا كانت معه دابة شديدة. انظر القرطبي ٧/٨٨، ٨٩.

(٢) انظر سراج القاري ٢١٩ شرح شعلة ٣٨٤. (٣) انظر حجة القراءات ٢٧٧. شرح شعلة ٣٨٤.

تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة، ويقال، الألواح التي كتبت عليها حين انطلق إلى الجبل. ويقال: معناه: ثم أتـل عليكم كما قال الله تعالى: (ثم آتينا موسى الكتاب) ويقال: ثم بمعنى الواو، يعني وآتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال القتبي: أي تماماً على المحسنين كما يقول: ثلث مالي لمن غـزا، أي للغزاة، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وعلى بمعنى اللام كما نقول في الكلام أتم الله عليه النعمة، بمعنى أتم له، قال: ومعنى الآية والله أعلم وآتينا موسى الكتاب تماماً على أحسن من العلم والحكمة أي مع ما كان له من العلم وكتب المتقدمين أعطيناه زيادة على ذلك، ويكون «الذي» بمعني «ما» قال: ومعنى آخر: آتينا موسى الكتاب تتميماً منا للمحسنين يعني الأنبياء والمؤمنين ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ منا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني بياناً لكل شيء. (قال: ويجوز معنى آخر، وآتينا موسى الكتاب إتماماً منا للإحسان على من أحسن تفصيلاً لكـل شيء يعني بيانـاً لكل شيء ﴿وَهُدَىً﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني ونعمـة ورحمة من العـذاب ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُـونَ﴾ يعني لكي يصدقوا بالبعث. ثم قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني القرآن فيه بركة لمن آمن به وفيه مغفرة للذنـوب ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني اقتدوا به ويقال إعملوا بما فيه من الأمر والنهي ﴿وَاتَّقُوا﴾ يعني وآجتنبوا ولا تتخذوا إماماً غير القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني لكي تُرْحَموا ولا تُعذَّبوا. قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يعني أنزلنا هذا القرآن لكي لا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا يعني اليهود والنصارى، ويقال أن تقولوا يعني لكراهة (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) وذلك أن كفار مكة قالوا: قاتل الله اليهود، كيف كذبوا أنبياءهم، والله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم فأنزل الله القرآن حجة عليهم ثم قال: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِيْنَ﴾ يعني عن قراءتهم الكتاب لغافلين عما فيه. ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يعني لكي لا تقولوا: ﴿لو أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ يعني أصوب ديناً منهم ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني حجة من ربكم وهو محمد ـ عليه السلام ـ والقرآن وإنما قال (جاءكم) ولم يقل (جاءتكم) لأنه انصرف إلى المعنى يعني البيان ولأن الفعل مقدم ﴿وهُدَىً وَرَحْمَةٌ﴾ بمعنى هدى من الضلالة ورحمة من العذاب. ويقال: قد جاءكم ما فيه من البيان وقطع الشبهات عنكم. ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني لا أحد أظلم وأشد في كفره ممن كذب بآيات الله تعالى ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ يعني أعرض عن الإيمان بها ﴿سَنَجْزِي الَّـذِيْنَ يَصْدِفُـونَ﴾ يعني يعرضون ﴿عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي شدة العذاب بما كانوا يعرضون عن الآيات. قوله تعالى:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ معناه أقمت عليهم الحجة وأنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا فماذا ينتظرون فهل ينتظرون ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يعني يأتي أمر ربك بما وعد لهم كقوله: (فأتاهم الله

من حيث لم يحتسبوا.) ويقال: أن تأتي عقوبة ربك وعذابه، وقد ذكر المضاف إليه، ويراد به المضاف كقوله تعالى: (واسأل القرية) يعني أهل القرية وكقوله: (وأشربوا في قلوبهم العجل) يعني حب العجل كذلك هاهنا يأتي أمر ربك يعني عقوبة ربك وعذاب ربك، ويقال: هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ، لَا يَنْفَعُ نَفْسَاً إِيْمَانُهَا﴾ حين طلعت الشمس من مغربها ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أن الكافر إذا آمن في ذلك الوقت لا يقبل إيمانه لأنها قد ارتفعت المحنة حين عاينوها وإنما الإيمان بالغيب، ثم قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرَاً﴾ يعني المسلم الذي يعمل في إيمانه خيراً كأن لم يقبل عمله قبل ذلك فإنه لا يقبل منه بعد ذلك ومن كان قبل من قبل ذلك فإنه يقبل منه بعد ذلك أيضاً أو كانت النفس مؤمنة ولم تكن كسبت خيراً قبل ذلك الوقت لا ينفعها الخير بعد. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد بإسناده عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال المرادي قال: بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سفر إذ جاء أعرابي فسأله عن أشياء حتى ذكر التوبة فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للتوبة باب في المغرب مسيرة سبعين عاماً أو أربعين عاماً فلا يزال حتى يأتي بعض آيات ربك(١)

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج قال: حدثنا زياد بن أيوب(٢) عن يزيد بن هارون، عن سفيان بن الحسين(٣) عن الحكم عن إبراهيم التيمي(٤) عن أبيه(٥)، عن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على حمار وعليه بردعة أو قطيفة، فنظر إلى الشمس حين غابت فقال: يا أبا ذر، هل تدري أين تغيب هذه؟ قلت الله ورسوله أعلم قال: فإنها تغرب في عين حمئة فتنطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش فإذا دنا خروجها أذن لها فخرجت فإن أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها فتقول: يا رب إن مسيري بعيد فيقول الله تعالى: اطلعي من حيث جئت فذلك قوله: (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها)(٦). وروي عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: لا يقبل الله من كافر عملاً ولا توبة إذا أسلم حين يراها إلا من كان صغيراً يومئذ فإنه لو أسلم بعد ذلك قُبِلَ ذلك منه ومتى كان مؤمناً مذنباً فتاب من الذنب قبلت منه(٧). وروي عن عمران بن حصين أنه قال: إنما لم يقبل وقت الطلوع حتى تكون صيحة فيهلك كثير من الناس فمن أسلم أو تاب في ذلك الوقت وهلك لم يقبل منه، ومن تاب بعد ذلك قبلت منه(٨). ثم قال: ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ.﴾ يعني انتظروا بالعذاب فإنا منتظرون بكم، حتى نظر أينا أسعد حالاً. قرأ حمزة والكسائي(٩): (إلا أن يأتيهم الملائكة) بالياء بلفظ التذكير. والباقون: (إلا أن تأتيهم) بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث. قوله تعالى:

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ١٢/٢٥٥ (١٤٢١٦) والطبراني في الكبير ٨/٦٥ والخرائطي في مكارم الأخلاق ٤١ والحديث في كنز العمال (١٠١٩٥).

(٢) زياد بن أيوب البغدادي أبو هاشم المعروف بدلويه طوسي الأصل، وثقه الدارقطني مات سنة ١٥٢ هـ انظر التهذيب ٣/٣٥٥.

(٣) سفيان بن حسين بن الحسن أبو محمد ويقال: أبو الحسن الواسطي انظر التهذيب ٤/١٠٧ ـ ١٠٩.

(٤) إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي الكوفي، كان من العباد. انظر التهذيب ١/١٧٦ ـ ١٧٧.

(٥) يزيد بن شريك بن طارق التيمي الكوفي انظر التهذيب ١١/٣٣٧.

(٦) أخرجه البخاري ٨/٤٠٢ في كتاب التفسير (٤٨٠٢) وأخرجه مسلم ١/١٣٨ في كتاب الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (٢٥٠/ ١٥٩).

(٧) انظر تفسير ابن عباس ٩٨.

(٨) ذكره القرطبي في التفسير ٧/٩٦. وعزاه للمصنف رحمه الله.

(٩) انظر حجة القراءات ٢٧٧ وسراج القاري ٢٢٠.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ١٥٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِيْنَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي[١]: (فارقوا دينهم) بالألف يعني تركوا دينهم الإسلام ودخلوا في اليهودية والنصرانية. وقرأ الباقون: (فرقوا دينهم) يعني آمنوا ببعض الرسل ولم يؤمنوا ببعض ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ يعني صاروا فرقاً مختلفة. وروي عن أسباط عن السدي أنه قال: هؤلاء اليهود والنصارى تركوا دينهم وصاروا[٢] فرقاً ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي لم تؤمر بقتالهم. ثم نسخ وأمر بقتالهم في سورة براءة. وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) إنهم الخوارج[٣]. وفي هذه الآية حث للمؤمنين على أن كلمة المؤمنين ينبغي أن تكون واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع ما استطاعوا ثم قال: (لست منهم في شيء) يقول: إنما عليك الرسالة وليس عليك القتال ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني الحكم إلى الله ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون.﴾ أي في الدنيا. ويقال: ليس بيدك توبتهم ولا عذابهم، إنما أمرهم إلى الله تعالى (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون). قوله تعالى:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦٠﴾

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ يعني ما جاء بالإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني بالشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود في النار لأن الشرك أعظم الذنوب والنار أعظم العقوبة فذلك قوله: (جزاءً وفاقاً) يعني جزاءً وافق العمل. ويقرأ: (فله عشر) بالتنوين (أمثالُها) بضم اللام فتكون الأمثال صفة للعشر وهي قراءة شاذة قرأها الحسن البصري[٤] ويعقوب الحضرمي[٥] والقراءة المعروفة: (عشر أمثالها) على معنى الإضافة. وتكلموا في المثل: قال بعضهم: إذا عمل عملاً يعطى في الآخرة ثواب عشرة ويقال: وأنه يكتب للواحدة عشرة. وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال وإذا عمل العبد حسنة كتب له عشرة أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسكها فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر لم يكتب عليه شيء وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة[٦]. ويقال: إن الله تعالى قد وعد للواحدة عشراً فهو أعرف بكيفيته فإن قيل ذكر هاهنا للواحدة عشر وذكر في آية أُخرى سبعمائة وفي آية أُخرى أضعافاً مضاعفة. قيل له: قد تكلم أهل العلم في ذلك: قال بعضهم يكون للعوام عشرة والخواص سبعمائة وأكثر إلى ما لا يحصى. وقال بعضهم: العشرة اشترط لسائر الحسنات والسبعمائة للتفقه في سبيل الله فالخاص والعام فيه سواء وقد جاء في الأثر ما يؤكد القولين. فقد روى عطية عن ابن عمر قال: نزلت هذه الآية في الأعراب: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) قال رجل: ما للمهاجرين يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هو أفضل من ذلك، (إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) «سورة النساء: ٤٠» وإذا قال الله لشيء عظيماً فهو

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٧٨ وسراج القاري ٢٢٠.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٢/ ٢٦٩ (١٤٢٦٠).
(٣) ذكره ابن كثير في التفسير ٣/ ٣٧٢ وقال لا يصح مرفوعاً.
(٤) انظر الطبري ١٢/ ٢٨١.
(٥) وابن جبير وعيسى بن عمر والأعمش والقزاز عن عبد الوارث انظر البحر المحيط ٤/ ٢٦١.
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور، ٦/ ١٠٤ وعزاه للطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

عظيم(١). وروى همام عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها يكتب له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها يكتب له بمثلها، حتى يلقى (٢)الله بلا ذنب. وروى ابن فاتك(٣) قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأعمال ستة فموجبتان، ومثل بمثل، وحسنة بحسنة، وحسنة بعشر، وحسنة بسبعمائة. فأما الموجبتان: فمن مات ولم يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار، وأما مثل بمثل فمن عمل سيئة فجزاء سيئة مثلها ومن هم بحسنة حتى تشتهي بها نفسه ويعلمها الله من قلبه كتب له حسنة وأما حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة في سبيل الله ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ولا يزادون على سيئاتهم شيئاً. قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا له: من أين لك هذه الفضيلة، وأنت بشر مثلنا، فإن فعلت لطلب المال فاترك هذا القول حتى نعطيك من المال ما شئت فنزل (قل إنني هداني ربي)﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني وفقني الله وهداني إلى دين الإسلام، وهو دين لا عوج فيه ﴿دِيْنَاً قِيَماً﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو(٤): (ديناً قَيِّماً) بنصب القاف وكسر الياء مشدودة وقرأ الباقون (قيماً) بكسر القاف ونصب الياء على معنى المصدر ومن قرأ بالنصب على معنى النعت (ديناً قيماً) يعني دينا عدلاً مستقيماً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيْفَاً﴾ يعني مستقيماً مخلصاً ﴿وَمَا كَانَ مِن الْمُشْرِكِيْنَ﴾ على دينهم ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ وأصل النسك ما يتقرب به، يعني قل: إن صلاتي المفروضة وقرباني وديني ﴿وَمَحْيَايَ﴾(٥) في الدنيا ﴿وَمَمَاتِي﴾ بعد الحياة. ويقال: ونسكي يعني أضحيتي وحجتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ.﴾. ﴿لَا شَرِيْكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ في الكتاب ﴿وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِيْنَ﴾ من أهل مكة. ويقال: أول المسلمين يوم الميثاق ويقال: صلاتي يعني صلاة العيد، ونسكي يعني الأضحية. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ قومي إلى أضحيتك واذبحي وقولي (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) ويقال: إن أول المخلصين بالثبات على الأسلام. قوله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبَّاً﴾ يعني يقول: أعبد وأطلب رباً غيره ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خلقه في السموات

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير ٢/ ٢٨٠ (١٤٢٩٤). (٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٦٥ وعزاه لابن مردويه.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٤٥ وذكره ابن كثير في التفسير ٣/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.
(٤) انظر حجة القراءات ٢٧٨ وسراج القاري ٢٢٠.
(٥) قرأ نافع (محيايْ) ساكنة الياء (ومماتيَ لله) بفتح الياء. وقرأ الباقون (ومحيايَ) بفتح الياء (ومماتي) ساكنة الياء. انظر حجة القراءات ٢٧٩.

والأرض، لأنهم كانوا يقولون له: نحن كفلاء لك بما يصيبك ومن تابعك فنزلت ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ يعني [إلا][1] لها أو عليها، إن كان خيراً فلها وإن كان شراً فعليها ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مصيركم في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ويبين لكم الحق من الباطل بالمعاينة، ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ يعني سكان الأرض من بعد إهلاك الأمم الخالية لأن النبي ـ عليه السلام ـ خاتم النبيين، وأمته قد خلفوا جميع الأمم. ويقال: خلائف يعني يخلف بعضكم بعضاً ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي فضل بعضكم على بعض في المال والرزق ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءَاتَاكُمْ﴾ يعني ليبتلي الموسر بالغِنَى ويطلب منه الشكر ويبتلى المُعْسِر بالفاقة ويطلب منه الصبر، ويقال: ليبلوكم، يعني بعضكم ببعض كما قال الله تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) ثم خوفه فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ كأنه جاء لأن «ما هو آت فهو قريب»، كما قال: (وما الساعة إلا كلمح البصر) ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني لمن أطاعه في فاقة أو غِنى. ويقال: سريع العقاب لمن لم يشكر نعمته وكان مصراً على ذلك (وإنه لغفور رحيم) لمن رجع وتاب، رحيم بعد التوبة. ويقال: (سريع العقاب) لمن لم يحفظ نفسه فيما أعطاه من فضل الله وترك حق الله في ذلك وإنه (لغفور) لمن تاب، (رحيم) بعد التوبة. قال الفقيه: قال: حدثنا أبو الحسن[2] بن حمدان، بإسناده عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتحميد[3]. قال وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: من قرأ سورة الأنعام، صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية في سورة الأنعام يوماً وليلة[4].

---

(١) سقط في أ.

(٢) في أ [الحسن].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣ وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣ وعزاه لابن مردويه عن ابن مسعود.

سُورَةُ الأَعْرَافِ (١)

وهي مائتان وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا
كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم
بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

﴿الٓمٓصٓ﴾ قال ابن عباس يعني أنا الله أعلم وأفصل[٢]، معناه أعلم بأمور الخلق وأفصل الأحكام والأمور والمقادير، وليس لي شريك في تدبير الخلق:

ويقال: معناه أنا الله المصور

ويقال: أنا الله الناصر، ويقال أنا الله الصادق.

وروى معمر بن قتادة[٣] قال: إنه إسم من أسماء القرآن. ويقال هو قسم. ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني أن هذا الكتاب أنزل إليك يا محمد ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي فلا يقعن في قلبك شك منه، من القرآن. أنه من الله عز وجل فالخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد به غيره. كقوله (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِيْنَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) ويقال فلا يكن في صدرك حرج منه أي[٤] فلا يضيقن صدرك بتكذيبهم إياك كقوله عز وجل (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) والحرج في اللغة[٥] هو الضيق. ثم قال ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ على معنى التقديم يعني كتاب أنزلناه إليك لتنذر به، أي لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وعظة للمؤمنين الذين يتبعونك ثم قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَبِّكُمْ﴾ أي صدقوا وآعملوا بما أنزل على نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - من القرآن ويقرؤه عليكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي ولا تتخذوا من دون الله

---

(١) انظر التحرير ٩/٥، ٦، ٧، ٨، ٩.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٤٣١٠، ١٤٣١١، ١٢/٢٩٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم كذا في الدر المنثور ١/٢٢.

(٤) سقط في ظ.

(٥) انظر لسان العرب ٢/٨٢١، ترتيب القاموس ١/٦١٣.

أرباباً ولا تعبدوا غيره. ثم أخبر عنهم فقال ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ «ما» صلة في الكلام، ومعناه قليلاً تتعظون يعني إنهم لا يتعظون به شيئاً. قرأ ابن عامر[1] يَتَذَكَّرُونَ على لفظ المغايبة بالياء وقرأ ابن كثير ونافع وأبـو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر تَذَّكَّرُون بالتاء على معنى المخاطبة بتشديد الذال والكاف لأن أصله تتذكرون، فأدغم إحدى التائين في الذال. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص تَذَكَّرون بتخفيف الذال فأسقط التشديد للتخفيف. ثم خوفهم فقال ﴿وَكَم مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ معناه وكم من أهل قرية وعظناهم فلم يتعظوا فأهلكناهم ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي جاءها عذابنا بعد التكذيب ﴿بَيَاتاً﴾ أي ليلاً، سمى الليل بياتاً لأنه يبات فيه ﴿أَوْهُمْ قَائِلُونَ﴾ عند القيلولة فإن لم تتعظوا أنتم يأتيكم العذاب ليلاً أو نهاراً كما أتاهم. ثم أخبر عن حال من أتاهم العذاب فقال ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي لم يكن قولهم حين جاءهم العذاب ولم تكن لهم حيلة إلا أنهم تضرعوا قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ظلمنا أنفسنا بترك طاعة ربنا من التوحيد. يعني إن قولهم بعدما جاءهم العذاب. يعني الهلاك لم ينفعهم. فاعتبروا بهم فإنكم إذا جاءكم العذاب لا ينفعكم التضرع. ثم أخبر عن حال يوم القيامة فقال ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني الأمم لنسألنهم هل بلغكم الرسل ما أرسلوا به إليكم وماذا أجبتم الـرسل ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِيْنَ﴾ عن تبليغ الرسالة وهذا كقولـه عز وجـل (لِيَسْأَلَ الصَّـادِقِيْنَ عَنْ صِدْقِهِمْ) ثم قـال تعالى ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ أي فلنخبرنهم بما عملوا في الدنيا ببيان وعلم منا ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عمّا بلغت الرسل وعما ردَّ عليهم قومهم، ومعناه وما كنا نسألهم لنعلم ذلك ولكن نسألهم حجةً عليهم. قوله

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي وزن الأعمال يومئذ بالعدل ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الناجون. وتكلموا في وزن الأعمال. قال بعضهم: توزن الصحائف التي كتبها الحفظة في الدنيا. وقال بعضهم يجعل للأعمال صورة وتوضع في الميزان. وقال بعضهم: هذا على وجه المثل وهو كناية عن التعديل. وهو قول المعتزلة. وقال بعضهم قد ذكر الله تعالى الوزن فنؤمن به ولا نعرف كيفيته[2].
وروى بلال الحبشي عن حذيفة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إنّ جبريل صاحب الميزان يوم القيامة، يقول له ربه زن بينهم فرد بعضهم على بعض ولا درهم يومئذ ولا فضة ولا دينار، فيرد الظالم على المظلوم ما وجد له من حسنة[3] فإن لم توجد له حسنة أخذ من سيئات المظلوم فترد على الظالم، فيرجع الظالم وعليه سيئات مثل الجبل. وروي عن ابن عباس[4] أنه قال توزن الحسنات والسئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن فيؤتى

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٧٩، سراج القـاري ٢٢١، شرح شعلة ٣٨٦.
(٢) اختلف السلف في وجود مخلوق يبين مقدار الجزاء من العمل يسمى بالميزان توزن فيه الأعمال حقيقة، فأثبت ذلك الجمهور ونفاه جماعة منهم الضحاك ومجاهد والأعمش وقالوا: هو القضاء السوي. وقد تبع اختلافهم المتأخرون: فذهب جمهور الأشاعرة وبعض المعتزلة إلى تفسير الجمهور، وذهب بعض الأشاعرة المتأخرين وجمهور المعتزلة إلى ما ذهب إليه مجاهد والضحاك والأعمش، والأمر هين، والاستدلال ليس ببين، والمقصود المعنى، وليس المقصود آلته، انظر التحرير ٨/٣٠.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٦٩ وعزاه لابن أبي الدنيا وابن جرير الطبري واللالكائي.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٦٩ وعزاه لأبي الشيخ وانظر زاد المسير لابن الجوزي ٣/١٧١.

بعمله في أحسن صورة وتثقل حسناته على سيئاته، وأما الكافر فيؤتى بعمله في أقبح صورة وتثقل سيئاته على حسناته. وقال بعضهم لا يوزن عمل الكافر وإنما توزن الأعمال التي بإزائها الحسنات. ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خسرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: غبنوا حظ أنفسهم ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، بما كانوا بآياتنا يجحدون بأنه ليس من الله تعالى، وقد ذكر الموازين بلفظ بالجمع. قال بعضهم: لأن المراد بها جميع الموزون. وقال بعضهم: أراد به الميزان، لأن الميزان يشتمل على الكفتين والشاهين والخيوط وقد ذكر باسم الجماعة. قال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكناكم في الأرض وعمرناكم، فذكر لهم التهديد ثم ذكر لهم النعم ليستحيوا من ربهم ولا يعصوه ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعني الرزق، وهو ما يخرج من الأرض من الكروم والثمار والحبوب. وروى خارجة[1] عن نافع أنه قرأ معائش بالهمز، لأنه على ميزان فعائل مثل الكبائر والصغائر. وقرأ الباقون بغير همز لأن الياء أصلية، وكان على ميزان مفاعل. ثم قال: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يعني إنكم لا تشكرون هذه النعمة. قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم وأنتم من ذريته، ثم صورناكم(يعني ذريته ويقال خلقناكم يعني آدم خلقه من تراب ثم صورناكم)[2] يعني آدم صوره بعد ما خلقه من طين. ويقال خلقناكم نطفاً في أصلاب الآباء ثم صورناكم في أرحام الأمهات. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التقديم، أي وقلنا للملائكة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، «ثُمَّ» بمعنى الواو، ويقال معناه خلقناكم وصورناكم وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم. وهي سجدة التحية لا سجدة الطاعة. فالعبادة لله تعالى والتحية لآدم عليه السلام. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي لم يسجد مع الملائكة. لآدم عليه السلام ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ يعني أن تسجد، ولا زيادة، ومعناه ما منعك عن السجود إذ أمرتك بالسجود لآدم. ﴿قَالَ﴾ إبليس عليه اللعنة إنما لم أسجد لأني ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أي: هذا الذي منعني عن السجود. فاشتغل اللعين بالقياس، والقياس[3] (في موضع النص)

---

(١) خارجة بن مصعب بن خارجة الضبعي بن الحجاج الخراساني السرخسي توفي سنة ١٦٨ هـ انظر التهذيب ٣/٧٦ ـ ٧٨.

(٢) سقط في ظ.

(٣) القياس في اللغة: التسوية والتقدير.

وفي الشرع: حَمْلُ معلوم على معلوم ـ أي إلحاقه به في حكمه ـ لمساواة بينهما في علة الحكم. أو هو: حمل مجهول الحكم على معلومه لمساواة بينهما في علة الحكم.

انظر تعريفات القياس في: القاموس ٢/٢٤٤، أصول الشاشي ص ٣٢٥، المعتمد ٢/٦٩٧، ١٠٣١، العدة ١/١٧٤، البرهان ٤

باطل، لأنه لما أقر بأنه هو الذي خلقه فقد أقر بأن عليه واجب، وعليه أن يأتمر بأمره. ومع ذلك لو كان القياس جائزاً (في موضع النص)[١] فإن قياسه فاسداً، لأن الطين أفضل من النار لأنّ عامة الثمار والفواكه والحبوب تخرج من الطين، ولأن العمارة من الطين والنار للخراب. ثم قال له عز وجل﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ قال مقاتل أي اهبط من الجنة[٢] ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيْهَا﴾ أي في الجنة. وقــال الكلبــي: فاهبط منها، أي اخرج من الأرض والحق بجزائر البحور ولا تدخل الأرض إلا كهيئة السارق[٣]، وعليه ذل الخوف وهو يروغ فيها فما يكون لك أن تتكبر فيها (لا)[٤] ينبغي لك أن تتكبر في هذه الأرض على بني آدم ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِيْنَ﴾ يعني من المهانين المذلين ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يعني أجلني إلى يوم البعث، اليوم الذي يخرج الناس من قبورهم. قال ابن عباس[٥]: أراد الخبيث ألا يذوق الموت فأبى الله تعالى أن يعطيه ذلك فـ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى النفخة الأولى، فحينئذ يذوق الموت وتصيبه المرارة بعدد الأولين والآخرين. قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾. قال الكلبي: أي فكما أضللتني[٦]. وقال مقاتل: يعني أما إذا أضللتني وقال بعضهم: فبما أغويتني يعني فبما دعوتني إلى شيء غويت به. ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني لأقعدن لهم على طريقك المستقيم، وهو دين الإسلام فأصد الناس عن ذلك. ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ روى أسباط عن السدي قال: من بين أيديهم الدنيا أدعوهم إليها ﴿ومن خلفهم﴾ الآخرة أشككهم فيها ﴿وعن أيمانهم﴾ قال الحق أشككهم فيه ﴿وعن شمائلهم﴾ قال الباطل أخففه عليهم وأرغبهم فيه[٧]. وقال في رواية الكلبي: ثم لآتينهم من بين أيديهم من أمر الآخرة، فأزين لهم التكذيب بالبعث بأنه لا جنة ولا نار[٨]، ومن خلفهم من أمر الدنيا فأزينها في أعينهم وأرغبهم فيها فلا يعطون حقاً، عن أيمانهم أي: من قبل دينهم فإن كانوا على الضلالة زينتها لهم وإن كانوا على الهدى شبهته عليهم حتى يشكوا فيه، وعن شمائلهم من قبل اللذات والشهوات. ويقال: معناه لآتينهم بالإضلال من جميع جهاتهم، ويقال: عن أيمانهم فيما أمروا به. وعن شمائلهم فيما نهوا عنه. ويقال وعن أيمانهم وعن شمائلهم أي فيما يعملون لأنه يقال عملت بذلك ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ يعني ذرية آدم لا يكونون شاكرين لنعمتك، ويقال شاكرين مؤمنين. وقال في آية أخرى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) قوله ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤوماً مَدْحُوراً﴾ قال الكلبي ومقاتل: يعني اخرج من الجنة مذؤوماً أي معيباً مدحوراً أي مطروداً. وقال الزجاج: مذؤوماً أي مذموماً. يقال: دأمت الرجل وذممته إذا عبته. مدحوراً أي مبعداً من رحمة الله تعالى ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي «مَنْ» أطاعك فيما دعوته إليه، و«اللام» زيـادة للتأكيد ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ممن أطاعك منهم، من الجن والإنس. ويكون هذا اللفظ بمعنى القسم والتأكيد وأنه يفعل ذلك لا محالة. قوله تعالى:

= ٧٤٥/٢، أصول السرخسي ١٤٣/٢. المستصفى ٥/٢ المحصول ١٨/٢/٢ الإحكام للآمدي ٢٦١/٣. المنتهى لابن الحاجب ص ١٢٢ الإبهاج ٥/٣، شرح التنقيح ٣٨٣، تيسير التحرير ٢٦٣/٣، فواتح الرحموت ٢٤٦/٢. نبراس العقول ص ٩، ١٣.

(١) سقط من أ. (٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥١/٢.

(٣) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥١/٢، وتفسير القرطبي ١١٢/٧.

(٤) سقط من أ.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥١/٢، وتفسير القرطبي ١١٢/٧.

(٦) انظر معالم التنزيل ١٥١/٢، وتفسير القرطبي ١١٣/٧، وأخرجه ابن جرير في التفسير ١٤٣٦١: ٣٣٢/١٢.

(٧) أخرجه الطبري من طريقة ابن عباس في التفسير ١٤٣٦٩ ٣٣٨/١٢. وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٣٩٠/٣ والبغوي في التفسير ١٥٢/٢.

(٨) أخرجه ابن جرير مثله عن قتادة انظر التفسير ١٤٣٧٢: ٣٣٩/١٢.

وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ
إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ
فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

﴿**وَياآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**﴾ يعني وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿**فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا**﴾ أي من حيث أحببتما موسعاً عليكما ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ يعني لا تأكلا من هذه الشجرة ﴿**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ فتصيرا من الضارين بأنفسكما. قوله تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**﴾ أي زين لهما الشيطان ﴿**لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا ووري عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا**﴾ يعني أراد إبليس لعنه الله بالوسوسة ليظهر ما سترا من عوراتهما. والسوأة كناية عن العورة. وذلك أن إبليس لما رأى محسوده في الجنة ورأى نفسه طريداً لم يصبر، واحتال لإخراجهما فأتاهما ﴿**وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ**﴾ يعني أنكما لو أكلتما تصيران كالملكين تموتان أبداً. أو تكونا كالملائكة وتعلمان الخير والشر ﴿**أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ يعني إن لم تكونا مَلَكَيْنِ فتكونا من الخالدين لا تموتان. وقرأ بعضهم[1] مَلِكَيْنِ بالكسر كما قال في آية أخرى (وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى) وهي قراءة يحيى بن كثير وهي قراءة شاذة[2]. قوله ﴿**وَقَاسَمَهُمَا**﴾ أي: حلف لهما ﴿**إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ بأنها شجرة الخلد، من أكل منها لم يمت، وكان آدم لم يعلم أن أحداً يحلف بالله كاذباً. ﴿**فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ أي غرهما بباطل، ويقال زَيَّنَ لهما. وأصله في اللغة من التقريب يعني قربهما إلى الشجرة ﴿**فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ**﴾ يقول فلما أكلا من الشجرة ووصل إلى بطونهما تهافت لباسهما عنهما ﴿**بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**﴾ أي ظهرت عوراتهما، وإنما سميت العورة سوأة لأن كشف العورة قبيح. قال الفقيه: حدثنا أبو جعفر[3] قال حدثنا أبو القاسم أحمد بن[4]حم. قد ذكر بإسناده عن أُبَيْ بن كعب عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن آدم كان رجلاً طويلاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها قبل ذلك، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت به شجرة من شجر الجنة فناداه ربه يا آدم. أتفر مني؟ قال يا رب إني أستحي[5]. وفيه دليل أن ستر العورة كان واجباً من وقت آدم. لأنه لما كشف عنهما سترا

(١) وهي قراءة ابن عباس ويحيى بن أبي كثير، والزهري، والضحاك، وابن حكم، وأنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام وقال لم يكن قبل آدم ملك فيصير ملكين، وقال النحاس ويجوز على هذه إسكان اللام. انظر تفسير القرطبي ١١٥/٧ والبحر المحيط ٢٧٩/٤.

(٢) سقط في أ.

(٣) محمد بن عبد الله بن عمر الهندوائي البلخلي. انظر الفوائد البهية ١٧٩.

(٤) أحمد بن عصمة الصغار انظر. الفوائد البهية ٣٦.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٣٥٢/١٢ وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه انظر التفسير ٢٩٤/٣.

عوراتهما بالأوراق فذلك قوله ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي أقبلا وعمدا يلصقان عليهما من ورق الجنة يعني من ورق التين يطبقان على أبدانهما ورقة ورقة منه. يقال خصف نعله، وهو إطباق طاق على طاق وأصل الخصف[1] الضم والجمع والخصف إنما هو إلصاق الشيء بالشيء ولهذا قيل خصاف. وقرأ بعضهم[2] وطفقا بالنصب وهما لغتان طَفِقَ يَطْفَقُ وطَفَق يَطْفِقُ. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي قال لهما ربهما ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ أي عن أكل تلك الشجرة ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا﴾ يعني ألم أقل لكما﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ظاهر العداوة. قوله عز وجل ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بأكلنا الشجرة فاغفر لنا وتجاوز عن معصيتنا ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ يعني إن لم تتجاوز عن ذنوبنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة. فهذه لام القسم، كأنهما قالا والله لنكونن من الخاسرين إن لم تغفر لنا وترحمنا. وقد ذكر الله تعالى قبول توبتهما في سورة البقرة وهو قوله تعالى (فَتَابَ عَلَيْهِ) أي قبل توبته. وفي الآية دليل أنّ الله تعالى يعذب عباده إذا أصروا على الذنوب ويتجاوز عنهم إذا تابوا، لأن إبليس لم يتب وسأل النظرة فجعل مأواه جهنم، وتاب آدم ورجع عن ذنبه فقبل توبته قوله ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ يعني آدم وحواء عليهما السلام وإبليس لعنه الله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾يعني إبليس عدو لآدم وحواء ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: منزل وموضع القرار ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي: معاش إلى وقت الموت قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ أي في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ من الأرض، من قبوركم يوم القيامة. قرأ الكسائي وابن عامر[3] يَخْرُجُون بنصب الياء وضم الراء. وقرأ الباقون بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. قوله تعالى:

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً﴾ يقول خلقنا لكم الثياب ﴿يُوَارِي سَوْءاتِكُمْ﴾ يعني يستر عوراتكم، ويقال معناه أنزلنا عليكم المطر ينبت لكم القطن والكتّان لباساً لكم ﴿وَرِيشاً﴾ قرأ الحسن البصري[4] ورياشاً بالألف.

---

(١) الخصف: النعل ذات المطراق وقصت الورق على بدنه الزقها وأطبقها عليه ورقة ورقة تريب القاموس ٦٥/٢.

(٢) وهي قراءة أبو السماك انظر البحر المحيط ٢٨٠.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٠. سراج القاري ٢٢١، شرح شعلة ٣٨٧.

(٤) قرأ نافع وابن عامر والكسائي: «ورياشاً ولباس التقوى» بالنصب عطفوا على الريش. المعنى: وأنزلنا عليكم لباس التقوى. وقرأ الباقون بالرفع. قال الزجاج: ورفعه على ضربين: أحدهما: أن يكون مبتدأ ويكون (ذلك) من صفته ويكون (خير) خبر

وقرأ غيره وريشاً بغير ألف. وقال القتبي: الريش والرياش ما ظهر من اللباس، وريش الطائر ما ستره الله به، ويقال الريـاش المال[١] والمعاش.

قال الفقيه حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر. حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبي أمامة عن عوف بن أبي جميلة عن معبد الجهني[٢] في قوله ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً﴾ قال هو ماتلبسون. ورياشاً قال المعاش ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ هو الحياء ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لباس التقوى، وهو الحياء خير من الثياب، لأن الفاجر إنْ كان حسن الثياب فإنه بادي العورة ألا ترى إلى قول الشاعر[٣] حيث يقول:

إنـي كـأنـي أرى مـن لا حـيـاء لـه ولا أمـانـة وسط الـقـوم عـريـانـاً

وقال القتبي: لباس التقوى أي ما ظهر عليه من السكينة والوقار. والعمل الصالح.

كما قال (لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ) أي ما ظهر عليهم من سوء آثارهم وتغير حالهم. ويقال لباس التقوى الإيمان ويقال العفة. قرأ نافع والكسائي وابن عامر لِبَاسَ التقوى بالنصب يعني أنزل لباس التقوى ومعناه ستر العورة وقرأ الباقون بالضم (لِبَاسُ) على معنى الابتداء، ويقال فيه مضموم يعني هو لباسُ التقوى. ومعناه ستر العورة، أي: لباسُ المتقين. وقرأ عبد الله بن مسعود ولباس التقوى خير. وقال مجاهد كان أناس من العرب يطوفون حول البيت[٤] عراة فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً﴾ يعني من المال ويقال معنى قوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني اللباس خير من تركه، لأنهم كانوا يطوفون عراة قوله ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: من نعم الله على الناس، ويقال من عجائب الله ودلائله ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون. قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يقول لا يضلنكم الشيطان عن طاعتي فيمنعكم من الجنة ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ حين تركا طاعتي وعصيا أمري ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ يعني لا يفتننكم الشيطان عن دينكم في أمر الثياب فينزعها عنكم فتبدو عوراتكم كما فعل بأبويكم، نزع عنهما لباسهما وأظهر عورتهما. وقال بعض الحكماء: إن المعصية شؤم تضر بصاحبها فتجعله عرياناً كما فعلت بآدم. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يعني كونوابالحذارمنه، فإنه يراكم، هو أي: إبليس وجنوده من الشياطين من حيث لا ترونهم، يعني كونوا على حذر لأنه يجري من بني آدم مجرى الدم، وذكر أن إبليس لما لعن قال رب إنَّك باعث إلى بني آدم رسلاً وكتباً. فما رسلي؟ قال الكهنة. قال فما كتابي؟ قال الوشم قال فما قراءتي؟ قال الشعر. قال فما مسجدي؟ قال السوق قال فما مؤذني؟ قال المزامير. قال فما بيتي؟ قال الحمام. قال فما مصائدي؟ قال النساء. قال فما طعامي؟ قال كل ما لم يذكر اسم الله عليه ـ قال فما شرابي؟ قال كل سكر[٥]. قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾

= الابتداء المعنى: (ولباس التقوى المشار إليه خير). ويجوز أن يكون (ولباس التقوى) مرفوعاً بإضمار (هو) المعنى: وهو لباس التقوى أي وستر العورة لباس المتقين، وحجتهم كما جاء في التفسير قيل: ولباس التقوى أفضل من الأثاث والكسوة. وجاء أيضاً: ولباس التقوى الحياء. انظر حجة القراءات ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(١) ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم. انظر الدر المنثور ٣/٧٦، وانظر تفسير الطبري ١٤٤٢٨، ١٢/٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) وهو سوار بن المضرب انظر النوادر في اللغة ٢٣٢.

(٤) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٥٥.

(٥) ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان.

(يعني قرناء)[١] ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالآخرة ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ «يعني المشركين حرموا على أنفسهم أشياء قد أحل الله لهم، وكانوا يطوفون بالبيت عراة وقالوا لا نطوف في ثياب قد أذنبنا فيها، وكان رجالهم يطوفون بالنهار ونساؤهم بالليل. وإذا طافت المرأة بالنهار اتخذت إزاراً من سير، وكان تبدو عورتها إذا مشت. وكانت تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله[٢]

وإذا قيل لهم لم فعلتم هكذا ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ يعني بتحريم هذه الأشياء وبالطواف عراة. قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: المعاصي ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أتكذبون على الله وتقولون بغير علم. ثم بين لهم ما أمرهم الله تعالى به فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والصواب وكلمة التوحيد. وهي شهادة ألّا إله إلّا الله ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا وجوهكم ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: حولوا وجوهكم إلى الكعبة عند كل صلاة. وقال الكلبي: يعني إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد فصلوا فيه، فلا يقولن أحدكم أصلي في مسجدي، وإذا لم يكن في مسجد فليأت أي مسجد شاء، قال مقاتل: يعني حولوا ولوا وجوهكم إلى القبلة في أي مسجد كنتم ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يقول وحدوه واعبدوه بالإخلاص. ويقال إنّ أهل الجاهلية كانوا يشركون في تلبيتهم ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. فأمرهم الله أن يوحدوه في التلبية مخلصين له الدين ثم قال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي ليس كما تشركون فاحتج عليهم بالبعث متصلاً بقوله ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ كما بدأكم تعودون أي: ليس بعثكم بأشد من ابتدائكم. وقال الحسن: كما خلقكم ولم تكونوا شيئاً، فأحياكم كذلك يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة ويقال: كما بدأكم يوم الميثاق من التصديق والتكذيب تعودون إلى ذلك، حيث قال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي. ويقال. كما بدأكم فخلقكم من التراب تعودون تراباً بعد الموت.

وقال ابن عباس[٣] كما بدأكم مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً. كذلك تموتون عليه وتبعثون عليه. ثم قال ﴿فَرِيقاً هَدَى﴾ وهم المؤمنون فعلم الله تعالى منهم الطاعة ويكرمهم بالمعرفة ﴿وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وجب عليهم الضلالة فخذلهم ولم يكرمهم بالتوحيد حيث علم منهم المعصية والكفر ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾ يعني لأنهم اتخذوا الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني اتخذوهم أولياء وأطاعوهم بالمعصية ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي: يظنون أنهم على الهدى. قال الزجاج: فيه دليل أن من لا يعلم أنه كافر وهو كافر يكون كافراً. لأن بعضهم قال لا يكون كافراً وهو لا يعلم. وذلك القول باطل لأن الله تعالى قال (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) وقال ويحسبون أنهم مهتدون قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ

---

(١) سقط في ظ.

(٢) أخرجه عن ابن عباس مسلم في التفسير (٣٠٢٨/٢٥) والنسائي في المجتبى (٢٩٥٦) وانظر تفسير الطبري ٣٧٧/١٢.

(٣) قال السيوطي في الدر ٧٧/٣ أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم انظر الطبري ٣٨٤/١٢ (١٤٤٧٨).

ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يَا بَنِي آدَمَ: خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: البسوا ثيابكم واستروا عوراتكم عند كل صلاة. قال السدي(١): كان هؤلاء والذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون الودك فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التحريم. ويقال الإسراف أن يأكل ما لا يحل أكله، أو يأكل مما يحل له أكله فوق القصد ومقدار الحاجة. وقيل لبعض الأطباء: هل وجدت الطب في كتاب الله تعالى؟ قال نعم قد جمع الله الطب كله(٢) في هذه الآية (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا) ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا تحرموا ما أحل الله لكم فإن المحرم ما أحل الله كالمحل ما حرم الله تعالى، قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ وهو أنه لما نزل قوله خذوا زينتكم لبسوا الثياب وطافوا بالبيت مع الثياب فعيرهم المشركون فنزل (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ) يعني لبس الثياب التي أخرج لعباده أي: خلقها لهم لعباده أي أوجد وقيل أظهر وقيل على حقيقته، كان في السماء أو في الأرض فأخرجه ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ يعني الحلال وهو اللحم والشحم والدسم. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل: في الآية تقديم، ومعناه قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قرأ نافع خالصة «بضم التاء»(٣)، وقرأ الباقون بالنصب (خَالِصَةً) فمن قرأ بالضم فهو خبر بعد خبر يعني هي ثابتة لهم خالصة. أي ثابتة معناه قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا يشترك فيها المؤمن والكافر، وهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة. وقال القتبي: هذا من الاختصار ومعناه قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة وفي الآخرة خالصة. ثم قال ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني العلامات ويقال نبين الآيات من أمره ونهيه وما يكون في الدنيا والآخرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يفهمون أمر الله تعالى، ثم أخبرهم بما حرم عليهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ﴾ يعني المعاصي ويقال الإثم يعني الخمر كما قال القائل(٤):

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم(٥) يذهب بالعقول

﴿وَالْبَغْيَ﴾ يعني حرم الاستطالة وظلم الناس ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ يقول وحرم أن تشركوا بالله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ يقول ما لم ينزل به كتاباً فيه عذركم وحجة لكم ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾ (أي وحرم عليكم أن تقولوا على الله (٦) ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنه حرم عليكم. ثم خوفهم فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ يعني لكل أهل دين مُهلة للعذاب. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ بالعذاب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ بعد الأجل ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ساعة قبل الأجل. ثم قال:

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤٠٢/٣.

(٢) ذكره البغوي في التفسير ١٥٧/٢ عن علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال (كلوا واشربوا) وانظر تفسير القرطبي ١٢٣/٧.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٢٨١، شرح شعلة ٣٨٨.

(٤) والبيت دون نسبة في تهذيب اللغة ١٦١/١٥.

(٥) والصحاح للجوهري ١٨٥٨/٥، لسان العرب ٢٩/١ الغريبين للهروي ١٨/١.

(٦) سقط في ظ.

يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا
يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟
كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ
لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ
لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

﴿**يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ**﴾ وأصله إنْ ما، ومعناه متى ما يأتيكم ﴿**رُسُلٌ مِنْكُمْ**﴾ أي: من جنسكم ﴿**يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي**﴾ أي: يقرءون عليكم ويعرضون عليكم كتابي ﴿**فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ**﴾ أي اتقى الشرك[1] وأطاع الرسول وأصلح العمل يعني: فمن اتقى عما نهى الله عنه وأصلح. أي: عمل بما أمر الله تعالى به ﴿**فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ يعني لا خوف عليهم من العذاب، ولا هم يحزنون من فوات الثواب، ويقال فلا خوف عليهم فيما يستقبلهم ولا هم يحزنون على ما خلفوا من الدنيا، ويقال معناه إمَّا يأتينَّكم رسل منكم وأيقنتم، فلا خوف عليكم فيما يستقبلكم، فذكر الله ثواب من اتقى وأصلح ثم بين عقوبة من لم يتق فقال عز وجلّ: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا**﴾ أي: تعظموا عن الإيمان فلم يؤمنوا بالرسل وتكبروا عن الإيمان ﴿**أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أي: دائمون. قوله تعالى ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ**﴾ قال الكلبي: فمن أكفر. وقال بعضهم هذا التفسير خطأ، لأنه لا يصح أن يقال: هذا أكفر من هذا، ولكن معناه، ومن أشد في كفره، ويقال فلا أحد أظلم، ويقال أي ظلم أشنع وأقبح ﴿**مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً**﴾، يعني من اختلق على الله كذباً. أي شركاً ﴿**أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ**﴾ جحد بالقرآن ﴿**أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ أي: حظهم من العذاب، ويقال نصيبهم حظهم مما أوعدهم الله في الكتاب، الإهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة. وقال ابن عباس[2]: هو ما ذكر في موضع آخر ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾ ويقال نصيبهم أي ما قضي وقدر عليهم في اللوح المحفوظ من السعادة والشقاوة، ويقال نصيبهم رزقهم وأجلهم في الدنيا ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ**﴾ يعني أمهلهم حتى يأتيهم ملك الموت وأعوانه عند قبض أرواحهم. ويقال يقول لهم خزنة جهنم قبل دخولها ﴿**قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ**﴾ يعني أن الملائكة يقولون ذلك عند قبض أرواحهم ﴿ **مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ يمنعونكم من النار ﴿**قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا**﴾ أي اشتغلوا عنا بأنفسهم ﴿**وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ في الدنيا. وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم، ثم قال ﴿**قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ أي: قالت لهم خزنة النار ادخلوا النار مع أمم قد مضت على مذهبكم ﴿**مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ**﴾ يعني النار ﴿**أُمَّةٌ**﴾ جماعة ﴿**لَعَنَتْ أُخْتَهَا**﴾ أي: على الأمة التي دخلت قبلها في النار. قال مقاتل: يعني: لعنوا أهل ملتهم، يلعن المشركون المشركين والنصارى النصارى وقال

(١) سقط في ظ. (٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٥٩/٣. (٣) انظر تفسير البغوي ١٥٩/٣.

الكلبي[(١)]: تدعو على الأمم التي قبلهم في النار، يبدأ بالأمم الأولى فالأولى، ويبدأ أولاً بقابيل وولده، ويقال يبدأ بالأكابر فالأكابر مثل فرعون، كما قال في آية آخى (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً) ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ يعني اجتمعوا في النار، وأصله تداركوا فيها، يعني اجتمع القادة والأتباع في النار، وقرأ بعضهم: حَتَّى إِذَا أَدْرَكُوا فيه أي: دخلوا في إدراكها، كما يقال أشتى الرجل إذا دخل في الشتاء وهي قراءة شاذة. ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ﴾ أي: قال أواخر الأمم لأولهم، ويقال قالت الأتباع للقادة والرؤساء ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى ﴿فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾ أي: أعظم زيادة من العذاب. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: على القادة زيادة من العذاب ولكن لا تعلمون ما عليهم. قرأ عاصم[(٢)] في رواية أبي بكر ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالياء، أي لا يعلم فريق منهم عذاب فريق آخر. ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ أي: أولهم دخولاً لآخرهم دخولاً، ويقال القادة للأتباع ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في شيء كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم سواء في الكفر، ضللتم كما ضللنا. قال الله تعالى ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ ويقال، الخزنة فذوقوا العذاب، ويقال هذا قول بعضهم لبعض فذوقوا العذاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: تكفرون في الدنيا وبترككم الإيمان.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ يعني استكبروا عن قبولها، ويقال عن النظر فيها ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأعمال الكفار أي ليس لهم عمل صالح يفتح لهم أبواب السماء، ويقال: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا. وقال بعضهم: أبواب السماء أي: أبواب الجنة. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة وروي عن ابن[(٣)] مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الجمل فقال زوج الناقة، وقال الضحاك الجمل الذي له أربع قوائم. وقال بعض الناس: الجمل هو أشتر بالفارسية. وقال الحسن هو ولد الناقة. وروي عن ابن عباس[(٤)] رضي الله عنهما أنه قرأ حَتَّى يَلِجَ الْجُمَّل بضم الجيم وتشديد الميم وهو حبل السفينة

---

(١) أخرجه الطبري عن السدي ١٢/٤١٦.
(٢) انظر حجة القراءات ٢٨٢، شرح شعلة ٣٨٨.
(٣) ذكره السيوطي في الدر ٣/٨٤ وعزاه لسعيد بن منصور والفريابي وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ والطبراني في الكبير.
(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/٨٤ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبي الشيخ من طرق.

الغليظ، وسئل عكرمة(١) عن قوله حتى يلج الجمل. قيل وما الجمل؟ قال الحبل الذي يصعد به النخل. قال سعيد بن جبير: هو حبل السفينة الغليظ(٢). قرأ أبو عمرو (٣) لا تُفْتَحْ بالياء بلفظ التذكير بالتخفيف وقرأ الباقون بالتاء المشددة. فمن قرأ بالتأنيث فلأنها من جماعة الأبواب، ومن قرأ بالتذكير فلأن الفعل مقدم، ومن قرأ بالتشديد أراد به تكثير الفتح ومن قرأ بالتخفيف فتفتح مرة واحدة. وقرأ بعضهم(٤) في سُمِّ بضم السين وهي قراءة شاذة وهما لغتان. قال أبو عبيدة: كل ثقب فهو سم. ثم قال عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هكذا نعاقب المشركين. ثم ذكر ما أوعدهم في النار فقال عز وجل ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش من النار ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: مُغشاهم النار من فوق رؤسهم، ومعناه أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً. كقوله (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) ويقال لهم من جهنم مهاد أي: حظهم من جهنم كالمهاد، فأخبر عن ضيق مكانهم في النار ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ نعاقب الكافرين. قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن الله تعالى لما أخبر عن حال الذين كذبوا بآياته واستكبروا عن قبولها أخبر عن حال الذين آمنوا بـآياتـه فقال «وَالَّـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي: صدقوا وعملوا الصالحات أي: الطاعات والأعمال الصالحة ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلف نفساً بعد الإيمان من العمل إلا بقدر طاقتها ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني دائمون، ثم قال عز وجل ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ قال بعضهم أي: في الدنيا أخرج الله تعالى الغل والحسد من قلوبهم وألف بين قلوبهم كما قال الله تعالى (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ) ويقال هذا في الجنة يخرج الغل والحسد من قلوبهم. قال ابن عباس(٥) رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعليّ ونحوهم من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ومن تابعهم على سنتهم ومنهاجهم إلى يوم القيامة. وقال عليّ بن أبي طالب لعمران بن طلحة بن عبيد الله: أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى فيهم(٦): «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ». فأنكر عليه بعضهم. فقال عليّ إن لم نكن نحن فمن هم؟ يعني إن الذين كانوا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن في قلوبهم من الغل حتى ينـزع عنهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم وقصورهم وأشجارهم الأنهار ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ أي: أكرمنا بهذه الكرامة، ويقال إن الذي وفقنا للأمر الذي أوجب لنا هذا الثواب وهو الإسلام، ويقال هدانا لهاتين العينين، وذلك أن أهل الجنة لما انتهوا إلى باب الجنة فإذا هم بشجرة تنبع من ساقها عينان فيعمدون إلى إحداهما فيشربون منها فيخرج الله تعالى ماكان في أجوافهم من غل وقذر، فذلك قوله تعالى (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً) ثم يعمدون إلى الأخرى فيغتسلون فيها فيطيب الله تعالى أجسادهم من كل درن وحسد. وجرت عليهم نضرة ولا تشعث رؤوسهم ولا تغبر وجوههم ولا تشحب أجسادهم أبداً، تتلقاهم خزنة الجنة فينادون في التقديم أي قبل أن يدخلوها أَنْ تِلْكُمُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٨٤/٣ وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٣٣/٧ انظر تفسير ابن كثير ٤١٠/٣ وفيه النسبة لسعيد رضي الله عنه وانظر تفسير ابن عباس بهامش الدر ٩٥/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٢، شرح شعلة ٣٨٨.

(٤) قرأ بها ابن سرين انظر تفسير القرطبي ١٣٣/٧. وقال أبو حيان في البحر ٢٩٧/٤ وقرأ عبد الله وقتادة وأبو رزين وابن مصرف وطلحة بضم السين سم وقرأ أبو عمران الحرفي وأبو نهيل والأصمعي عن نافع بكسر السين.

(٥) انظر تفسير الطبري ٤٣٨/١٢.

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٤٣٨/١٢ (١٤٦٦٢).

الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فقالوا بعد ما اغتسلوا من العينين **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** أي: وفقنا حتى اغتسلنا من هاتين العينين. ويقال لما دخلوا الجنة ونظروا إلى كراماتها (**قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا**) يعني لهذا الثواب. ﴿**وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾ أي: ما كنا لولا أن وفقنا الله، ذلك أنهم علموا أن الله تعالى له عليهم المن والفضل فيما أعطاهم. قرأ إبن عامر مَاكُنَّا لِنَهْتَدِي بغير واو على الاستئناف وقرأ الباقون والواو وعلى معنى العطف. ﴿**لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ يعني جاءت رسل ربنا بالحق فصدقناهم ﴿**وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ**﴾ قال بعضهم: قبل أن يدخلوها قال لهم حزنة الجنة تلكم الجنة(التي وعدتم ويقال بعد ما دخلوا بها يقال لهم تلك الجنة أي هذه الجنة التي)[١]﴿**أُورِثْتُمُوهَا**﴾ يعني أنزلتموها بإيمانكم واقتبستموها ﴿**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ في دار الدنيا، وهذا كما روي في الخبر: إنه يقال لهم يوم القيامة جوزوا الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم[٢]. قوله تعالى:

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا**﴾ أي ما وعدنا يعني في الدنيا من الثواب وجدناه صدقاً ﴿**فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ**﴾ من العذاب ﴿**حَقًّا**﴾ أي صدقاً ﴿**قَالُوا نَعَمْ**﴾ فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الإعتراف، قرأ الكسائي[٣] قالوا نَعِمْ بكسر العين في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالنصب. وروي عن عمر أنه سمع رجلاً يقول نَعَمْ بالنصب فقال له عمر النَّعَم المال، وقل نَعِمْ يعني بكسر العين. وروى الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كانت أشياخ قريش إلا يقولون نَعِمْ فماتت. يعني اللغة ﴿**فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّه عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ وذلك أنه ينادي منادٍ بين الجنة والنار تسمعه الخلائق كلهم إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ المحسنين ولعنة الله على الظالمين أي كرامة الله وفضله وإحسانه على المؤمنين وعذاب الله مع عقابه على الكافرين ثم قال ﴿**الَّذِينَ يَصُدّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي الناس عن دين الله وهو الإسلام، وهم الرؤساء منهم، منعوا أتباعهم عن الإيمان ﴿**وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً**﴾ يقول: يريدون بملة الإسلام غيراً وزيغاً ﴿**وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ**﴾ يعني أنهم كانوا جاحدون بالبعث. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي[٤] أَنَّ لَعْنَةَ الله بالتشديد ونصب الهاء. وقرأ الباقون أَنْ لَعْنَةُ بتخفيف أَنْ وضم الهاء. قوله ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ**﴾ إي: بين أهل الجنة وأهل النار سور ﴿**وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ**﴾ وروى مجاهد عن ابن عباس[٥] قال: الأعراف سور كعرف الديك. وقال القتبي: الأعراف سور بين الجنة والنار. وسمي بذلك لارتفاعه، وكل مرتفع عند العرب أعراف. وقال السدي إنما سمي الأعراف لأن أصحابه يعرفون الناس، روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم قتلوا في سبيل

---

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر زاد المسير في التفسير لابن الجوزي ٣/٢٠٠.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٢ ـ ٢٨٣، شرح شعلة ٣٨٩.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٨٣، سراج القاري ٢٢٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٨٦ وعزاه للفريابي وهناد وعبد بن حميد وابن جرير ١٢/٤٥٠ وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الله في معصيـة آبائهم، فمنعهم من النـار قتلهم في سبيـل الله ومنعهم من الجنـة معصيتهم آبـاؤهم[١]. وعن حذيفة[٢] بن اليمان أنه قال: قوم إستوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يكن لهم حسنات فاضلة يدخلون بها الجنة، ولا سيئات فاضلة يدخلون بها النار. وهذا القول أيضاً روي عن ابن[٣] عباس مثل هذا وروي عن ابن[٤] عباس أيضاً أنه قال: هم أولاد الزنا. وروي عن أبي[٥] مجلز[٦] أنه قال هم الملائكة. فبلغ ذلك مجاهداً فقال كذب أبو مجلز. **يقول الله تعالى** وعلى الأعراف رجال. فقال أبو مجلز لأن الملائكة ليسوا بإناث، ولكنهم عباد الرحمن. قال الله (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إناثاً) ﴿**يَعْرِفُونَ كلًّا بِسِيمَاهُمْ**﴾ يعني أن أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة إذا مروا بهم ببياض وجوههم، ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم. والسيما هي العلامة ﴿**وَنَادَوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم**﴾ يعني[٧] فإذا مر بهم زمرة من أهل الجنة قالـوا أنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يعني إنّ أهـل الأعراف يسلمون على أهل الجنة ﴿**لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾ يعني إنّ أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أنْ يدخلوها. وقال الحسن[٨]: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدهم بهـا. ويقال: لم **يدخلوها** يعني أهل الجنة لم يدخلوها حتى يسلم عليهم أهل الأعراف. وهم يطمعون في دخولها. ويقال: أهل النار لم يدخلوها أبداً. وهم يطمعون. وطمعهم أن أفيضوا علينا من الماء. قوله تعالى:

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا
يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ
أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ
هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٤٥٦/١٢ وإسناده ضعيف.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٧/٣ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير ٤٥٣/١٢ (١٤٦٨٦) وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في البعث.
(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٨٨/٣.
(٤) انظر تفسير القرطبي ١٣٦/٣ وقال ذكره القشيري عن ابن عباس وتفسير ابن كثير ٤١٦/٣.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٨/٣ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابـن الأنباري في الأضداد وأبي الشيخ والبيهقي في البعث.
(٦) لاحق بن حميد السدوس أبو مِجْلز بكسر أوله وإسكان الجيم آخره زاي البصري، وثقه أبو زرعة والعجلي وابن سعد مات سنة ١٠٦ هـ انظر الخلاصة ١٤١/٣.
(٧) سقط في ظ.
(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨٩/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ قال من سرعة ما انصرفوا كأنهم صرفوا، تلقاء أصحاب النار يعني أنهم إذا نظروا قِبَلَ أصحاب النار أي تلقاء أصحاب النار ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي مع الكافرين في النار ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ يعني في النار ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي ما أغنى عنكم ما كنتم تستكبرون عن الإيمان. وقرأ بعضهم[1] وما كنتم تستكثرون. يعني تجمعون المال الكثير. وهي قراءة شاذة. ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعني إنّ أهل الأعراف يقولون يا وليد ويا أبا جهل: أهؤلاء؟ يعني صهيباً وبلالاً والضعفة من المسلمين الذين كنتم تحلفون لا ينالهم الله برحمة. يعني إنّهم لا يدخلون الجنة ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وعن أبي مجلز أنه قال: وعلى الأعراف رجال من الملائكة، نادوا أصحاب الجنة قبل أن يدخلوها سلام عليكم لم يدخلوها. وهم يطمعون دخولها يعني في الجنة. وإذا نظروا إلى أصحاب النار حين مروا بهم «قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا» من المشركين «يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ» يعني لأهل الجنة. قال مقاتل: فأقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار معهم. فقالت الملائكة لأهل النار أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة. ثم تقول الملائكة لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة. ويقال إن أهل النار يقولون لأهل الأعراف ما أغنى عنكم جمعكم وعملكم وأنتم والله تكونون معنا في النار ولا تدخلون الجنة. فيقول الملائكة لأهل النار أهؤلاء الذين أقسمتم يعني أصحاب الأعراف لا ينالهم الله برحمة[2]. ثم يقال لأصحاب الأعراف ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. قوله عز وجل ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي اسقونا من الماء أو شيئاً من الفواكه وثمار الجنة فإنّ فينا من معارفكم. فعلم الله تعالى أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. فأجابهم أهل الجنة ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني الماء والثمار. وروي في الخبر[3] أنّ أبا جهل بن هشام بعث إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستهزىء به. أطعمني من عنب جنتك أو شيئاً من الفواكه. فقال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه قل له إن الله حرمهما على الكافرين، ثم وصفهم عز وجل فقال ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً﴾ أي اتخذوا الإسلام باطلاً ودخلوا في غير دين الإسلام. ويقال اتخذوا عبداً لهواً وفرحاً ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي غرهم ما أصابهم من زينة الدنيا ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ أي نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي كما تركوا العمل ليومهم هذا. ويقال كما تركوا الإيمان ليومهم هذا يعني أنكروا البعث ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني بجحدهم بآياتنا بأنها ليست من عند الله تعالى ـ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ أي أكرمناهم بالقرآن ﴿فَصَّلْنَاهُ

---

(١) انظر البحر المحيط ٣٠٣/٤.

(٢) انظر تفسير ذلك في معالم التنزيل للبغوي ١٦٣/٢ وتفسير ابن كثير ٢١٨/٣؛ وتفسير القرطبي ١٣٧/٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٩٠/٣ بلفظ لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت إلى ابن أخيك فيرسل إليك بعنقود من جنته لعله يشفيك فجاء الرسول وأبو بكر عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أبو بكر: إن الله حرمهما على الكافرين، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أبي صالح.

﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ يعني بينا فيه الآيات، الحلال والحرام «على علم» أي بعلم منا ﴿هُدًى﴾ يعني بياناً من الضلالة ويقال جعلناه هادياً ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي نعمة ونجاة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لمن آمن وصدق به. يعني: أكرمناهم بهذا الكتاب فلم يؤمنوا ولم يصدقوا. وإنما أضاف إلى المؤمنين لأنهم هم الذين يهتدون به ويستوجبون به الرحمة. ثم قال ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما ينتظرون إلا عاقبة ما وعدهم الله تعالى في القرآن من العذاب ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ عاقبة ما وعدهم الله. وهو يوم القيامة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ يقول الذين تركوا العمل والإيمان ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني في الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك أنهم حين عاينوا العذاب وذكروا قول الرسل وندموا على تكذيبهم إياهم. يقولون قد جاءت رسل ربنا بالحق. أي بأمر البعث فكذبناهم ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ لأنهم يرون الشفعاء يشفعون للمؤمنين، فيقال لهم ليس لكم شفيع. فيقولون ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي هل نرد إلى الدنيا فنصدق الرسل ونعمل غير الشرك «فَنَعْمَلَ» صار نصباً لأنه جواب الاستفهام، وجواب الاستفهام إذا كان بالفاء فهو نصب. وكذلك جواب الأمر والنهي. يقول الله تعالى ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي قد غبنوا حظ أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون بأن الآلهة شفعاؤهم عند الله قوله:

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما عير المشركين بعبادة آلهتهم ونزل قوله «لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له» وقوله (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا من ربك الذي تدعونا إليه؟ وأرادوا أن يجحدوا في اسمه طعناً أو في شيء من أفعاله فنزلت هذه الآية. فتحيروا وعجزوا عن الجواب. فقال إن ربكم الله (أي خالقكم ورازقكم)[١] الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام. قال ابن عباس[٢] أي من أيام الآخرة. طول كل يوم ألف سنة. وقال الحسن البصري من أيام الدنيا[٣]. ويقال يعني في ست ساعات من ستة أيام من أطول أيام الدنيا ولو شاء أن يخلقها في ساعة واحدة لخلقها ولكن علّم عباده التأني والرفق والتدبير في الأمور ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال بعضهم هذا من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله. وذكر عن يزيد بن هارون[٤] أنه سئل عن تأويله فقال تأويله الإيمان به وذكر أن رجلاً دخل على مالك بن أنس فسأله عن قوله (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) فقال: الاستواء غير مجهول والكيفية غير معقولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا ضالاً. فأخرجوه. وذكر عن محمد بن جعفر نحو هذا[٥]. وقد تأوله بعضهم وقال «ثم» بمعنى الواو فيكون على معنى الجمع والعطف لا على معنى التراخي والترتيب. ومعنى قوله

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٦٤ وانظر تفسير القرطبي ٧/١٤٠.

(٣) انظر المصدرين السابقين، وقال مجاهد وغيره: أولها الأحد وآخرها الجمعة.

(٤) السلمي أبو خالد الواسطي، أحد الأعلام الحفاظ المشاهير، وثقه العجلي، وقال أبو حاتم؛ إمام لا يسأل عن مثله مات سنة ٢٠٦ هـ انظر الخلاصة ٣/١٧٨.

(٥) انظر الدر المنثور ٣/٩١.

استوى أي استولى، كما يقال فلان استوى على بلد كذا يعني استولى عليه فكذلك هذا[١]. معناه خالق السموات والأرض، ومالك العرش. ويقال ثم صعد أمره إلى العرش. وهذا معنى قول ابن عباس. قال صعد على العرش. يعني أمره، ويقال قال له كن فكان، ويقال (ثم استوى على العرش) أي[٢] كان فوق العرش قبل أن يخلق السموات والأرض ويكون على بمعنى العلو والارتفاع، ويقال استوى يعني استولى. وذكر أن أول شيء خلقه الله تعالى القلم ثم اللوح. فأمر القلم بأن يكتب في اللوح ما هو كائن إلى يوم القيامة. ثم خلق ما شاء. ثم خلق العرش ثم حملة العرش ثم خلق السموات والأرض. وإنما خلق العرش لا لحاجة نفسه ولكن لأجل عباده ليعلموا أين يتوجهون في دعائهم لكي لا يتحيروا في دعائهم، كما خلق الكعبة علماً لعبادتهم ليعلموا إلى أين يتوجهون في العبادة. فكذلك خلق العرش علماً لدعائهم ليعلموا إلى أين يتوجهوا بدعائهم ثم قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ﴾ يعني إن الليل يأتي على النهار فيغطيه ولم يقل يغشي النهار الليل لأن في الكلام دليلاً عليه. وقد بين في آية أخرى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) فكذلك ههنا، معنا يغشي النهار الليل ويغشي الليل النهار. يعني إذا جاء النهار يذهب بظلمة الليل وإذا جاء الليل يذهب بنور النهار.

قرأ حمزة والكسائي وعاصم[٣] في رواية أبي بكر يُغَشِّي بتشديد الشين ونصب الغين. وقرأ الباقون بجزم الغين مع التخفيف، وهما لغتان غَشَّى ويُغَشِّي وأَغْشَى يُغْشِي بقوله ﴿يَطْلُبُه حَثِيثاً﴾ أي: سريعاً في طلبه أبداً ما دامت الدنيا باقية ثم قال ﴿والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مسخَّراتٍ بأَمْرِهِ﴾ أي: جاريات مذللات لبني آدم بأمره.

قرأ ابن عامر[٤] والشَّمسُ والقمرُ والنجومُ كلها بالضم على معنى الابتداء وقرأ الباقون بالنصب. ومعناه خلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره. ثم قال: ﴿ألاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ ألا كلمة التنبيه، يعني اعلموا أن الخلق لله تعالى وهو الذي خلق الأشياء كلها وأمره نافذ في خلقه. قال سفيان بن عيينة[٥]: الخلق هو الخلق والأمر هو القرآن وهو كلام الله وليس بمخلوق ولا هو بائن منه وتصديقه قوله ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ ويقال الأمر هو القضاء، ثم قال ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ابن عباس[٦] رضي الله عنهما يعني تعالى الله عما يقول الظالمون، ويقال تبارك الله تفاعل من البركة أي: ذو البركة يعني أن البركة كلها من الله تعالى والبركة فيما يذكر عليه اسم الله رب العالمين. أي: سيد الخلق أجمعين فلما وصف وبالغ في ذلك وأعجزهم فأمرهم بأن يدعوه فقال:

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ

---

(١) وهذا خروج عن معنى النص الذي يجب اعتقاده وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والنووي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل المبرأ من المشبه وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فإن الله لا يشبه شيء من خلقه، و(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) قال: نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت الآيات والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى. اللهم أمِتْنَا على ذلك.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٤، سراج القاري ٢٢٣.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٨٤، سراج القاري ٢٢٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٩٢/٣ وعزاه لابن أبي حاتم البيهقي في الأسماء والصفات.

(٦) انظر معالم التنزيل للبغوي ١٦٥/٢.

إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ قال الكلبي: يعني في الأحوال كلها. يعني ادعوا الذي خلق هذه الأشياء في الأحوال كلها. ويقال خفية يعني اعتقدوا عبادته في أنفسكم لأن الدعاء معناه العبادة ثم قال ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني أن يدعوا بما لا يحل أو يدعوا على أحد باللعن والخزي أو تدعوا عليه بالشر. ثم قال ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ وذلك أن الله تعالى إذا بعث نبياً فأطاعوه صلحت الأرض وصلح أهلها وفي المعصية فساد الأرض وفساد أهلها، ويقال لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها أي لا تجوروا في الأرض فتخرب الأرض[1] لأن الأرض قامت بالعدل، ويقال لا تخربوا المساجد فتتركوا الجماعات ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ يعني اعبدوه خوفاً وطمعاً أي: خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته: ويقال ادعوه في حال الخوف والضيق، ويقال خوفاً عن قطيعته ورجاء إلى الغاية. ثم قال ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل قريبة قال بعضهم لأن القريب والبعيد يصلحان للواحد والجمع والمذكر والمؤنث. كما قال (لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) وقال (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) وقال بعضهم تفسير الرحمة ههنا المطر فذكر بلفظ المذكر، وقال بعضهم إن رحمة الله قريب. يعني الغفران والعفو فانصرف إلى المعنى. ومعناه المحسنون قريب من الجنة وهم المؤمنون ثم قال ﴿وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَي رحْمَتِهِ﴾ أي قدام المطر.

قرأ حمزة والكسائي[2] الريح بلفظ الوحدان. وقرأ الباقون الرياح بلفظ الجماعة. واختار أبو عبيد أن كل ما ذكر في القرآن من ذكر الرحمة فهو رياح وكل ما كان فيه ذكر العذاب فهو ريح واحتج بما روي عن النبي عليه السلام أنه كان يقول: إذا هبت الريح يقول اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً[3].

وقرأ ابن عامر[4] نُشْراً بضم النون وجزم الشين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع نُشُراً بضمتين.

وقرأ حمزة والكسائي نشراً بنصب النون وجزم الشين.

وقرأ عاصم بشراً بالباء ويكون من البشارة كما قال في آية أخرى (يُرْسِلُ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ).

ومن قرأ نَشْراً بالنون والنصب فيكون معناه يرسل الرياح تَنْشُر السحاب نَشْراً، ومن قرأ بالضمتين يكون جمع نشور، يقال ريح نشور، أي تنشر السحاب ورياح نُشُر، ومن قرأ بضمة واحدة لأنه لما اجتمعت الضمتان حذفت إحداهما للتخفيف ثم قال ﴿حَتَّى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾ من الماء، والسحاب جمع السحابة يعني الريح حملت سحاباً ثقالاً ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ يعني السحاب تمر بأمر الله تعالى إلى أرض ليس فيها نبات ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾

---

(١) سقط في أ.

(٢) وممن قرأ الرياح جميعاً ابن عباس والسلمي وابن أبي عبلة وانظر تفصيل ذلك في البحر المحيط ٣١٦.

(٣) أخرجه الشافعي في المسند ١/ ١٧٥ (٥٠٢) وأبو يعلى في المسند ٤/ ٣٤١ في مسند ابن عباس ١٢٩/ ٢٤٥٦ والطبراني في الكبير ١١/ ٢١٣ ١١٥٣٣ وعزاه الحافظ في المطالب ٣/ ٢٣٨ (٣١٧١).

(٤) انظر حجة القراءات ٢٨٥، سراج القاري ٢٢٣.

يعني بالمكان. ويقال بالسحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي نخرج بالماء من الأرض الثمرات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ أي يقول: هكذا نحيي الموتى بالمطر كما أحييت الأرض الميتة بالمطر. وذكر في الخبر[١] أنه إذا كان قبل النفخة الأخيرة أمطرت السماء أربعين يوماً مثل مَني الرجال فتشرب الأرض فتنبت الأجساد بذلك الماء ثم ينفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون. وفي هذه الآية إثبات القياس وهو رد المختلف إلى المتفق[٢]، لأنهم كانوا متفقين أن الله تعالى هو الذي ينزل المطر ويخرج النبات من الأرض. فاحتج عليهم لإحيائهم بعد الموت بإحياء الأرض بعد موتها. ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتعظوا وتعتبروا في البعث أنه كائن. ثم ضرب مثلاً للمؤمنين والكافرين فقال:

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ يعني المكان العذب الزكي اللين من الأرض اللينة يخرج نباته إذا أمطرت فينتفع به، كذلك المؤمن يسمع الموعظة فتدخل في قلبه فينتفع بها وينفعه القرآن كما ينفع المطر الأرض الطيبة ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾ يعني الأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا من كد وعناء، فكذلك الكافر لا يسمع الموعظة ولا ينتفع بها[٣] ولا يتكلم بالإيمان ولا يعمل بالطاعة إلا كرهاً لغير وجه الله، ثم قال ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أي هكذا نبين الآيات والعلامات والأمثال لمن آمن وشكر رب هذه النعم ووحده. قوله عز وجل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني بعثنا نوحاً إلى قومه بالرسالة فأتاهم، ويقال معناه جعلنا نوحاً رسولاً إلى قومه. ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله، ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي ليس لكم رب سواه.

قرأ الكسائي[٤] إلهٍ غَيْرِه بكسر الراء.

وقرأ الباقون غَيْرُهُ بالضم. فمن قرأ بكسر الراء فلأجل مِنْ وجعله كله كلمة واحدة والغير تابعاً له. ومن قرأ بالضم فمعناه مالكم إله غيره ودخلت من مؤكدة.

ثم قال ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو الغرق فـ ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الرؤساء والأجلة

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٤٢٦/٣ وذكره البغوي موقوفاً عن ابن عباس وأبي هريرة انظر معالم التنزيل ١٦٧/٢.
(٢) وهذا تعريف بالرسم لا بالحد وتقدم تعريف القياس والكلام عليه فارجع إليه إن شئت.
(٣) سقط في ظ.
(٤) انظر حجة القراءات ٢٨٦، سراج القارى ٢٢٤.

والأشراف، سموا بذلك لأنهم ملِئوا بما يحتاج إليه منهم، ويقال لأنهم ملأوا الناظر هيبة إذا اجتمعوا في موضع قالوا **﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** يعني في خطأ بَيِّنٍ **﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وفي الآية بيان أدب الخلق في حسن الجواب والمخاطبة. لأنه رد جهلهم بأحسن الجواب وهذا كما قال الله تعالى (وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) يعني السداد من القول ثم قال **﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾** أي أمنعكم من الفساد وأدعوكم إلى التوحيد وأحذركم من العذاب. وقال أهل اللغة: أنصح لكم وأنصحكم لغتان بمعنى واحد كما يقال شكرت لك وشكرتك ثم قال **﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** يعني أعلم أنكم إن لم تتوبوا يأتيكم العذاب وأنتم لا تعلمون ذلك، وذلك أن سائر الأنبياء عليهم السلام خوفوا أمتهم بعذاب الأمم السابقة كما قال شعيب لقومه (أَنْ يُصيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) وأما قوم نوح فلم يكن بلغهم هلاك أمة قبلهم. فقال لهم نوح وأعلم من الله ما لا تعلمون من العذاب الذي ينزل بكم. فقالت الكبراء للضعفاء لا تتبعوه. فإن هذا بشر مثلكم فأجابهم نوح فقال **﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾** يعني ينزل الكتاب والرسالة على رجل منكم تعرفون حسبه ونسبه «لينذركم» بالنار ولتتقوا الشرك. قال بعضهم: «هذه الواو صلة وهو زيادة في الكلام. ومعناه لينذركم لكي تتقوا. وقال بعضهم هذه واو العطف أي: جاءكم رسول لكي ينذركم **﴿وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** يعني لكي تنجوا من العذاب. قرأ أبو عمرو[1] أبلغكم بجزم الباء والتخفيف. وقرأ الباقون أُبَلّغكم بالتشديد فيكون فيه معنى المبالغة قوله **﴿فَكَذَّبُوهُ﴾** أي نوحاً **﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾** يعني الذين اتبعوه من المؤمنين في السفينة، والفلك اسم للواحد والجماعة ـ يعني أنجينا المؤمنين من الغرق **﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾** عن نزول العذاب ويقال عمين عن الحق يعني جعلوا أمره باطلاً. وقد بين الله قصته في سورة هود قوله عز وجل:

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ
بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ
﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ
أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٨٦ ـ ٢٨٧، وسراج القاري ٢٢٤.

وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ (يعني أرسلنا إلى عاد نبيهم هوداً عطفاً على قوله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم)[١] لم يكن هود أخاهم في الدين ولكن كان من نسبهم. قال السدي: كانت عاد قوماً من أهل اليمن[٢] فأتاهم هود فدعاهم إلى الإيمان وذكرهم ووعظهم فكذبوه. ويقال عاد اسم ملك ينسب القوم كلهم إليه. ويقال اسم القرية ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوه ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عن الشرك و ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾وقد ذكرناه﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي جهالة ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ بأنك رسول الله ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ جهالة ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ يعني كنت فيكم قبل اليوم أميناً فكيف تتهموني اليوم ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني الرسالة والبيان ﴿على رجل منكم﴾ تعرفون نسبه ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي جعلكم خلفاء في الأرض بعد هلاك قوم نوح ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أي: فضيلة في الطول على غيركم. والخلفاء والخلائف جمع الخليفة.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بسْطة بالسين.

وقرأ حمزة بإشمام الزاي.

وقرأ الباقون بالصاد قال ابن عباس[٣] رضي الله عنهما كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعاً. وروى إبراهيم بن يوسف عن المسيب[٤] عن الكلبي قال كان طول قوم عاد أطولهم مائة وعشرين ذراعاً وأقصرهم ثمانون ذراعاً ـ وقال مقاتل [٥] عن قتادة كان طول كل رجل منهم اثني عشر ذراعاً فذلك قوله (لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) ويقال كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم على الإسلام. وكان إدريس جد أبي نوح ولم يكن بين آدم ونوح نبي مرسل، وكان إدريس نبياً ولم يؤمر بدعوة الخلق، ويقال أنزل عليه عشرون صحيفة، وقد آمن به كثير من الناس، وكان بين نوح وإبراهيم ألف سنة ويقال ألفان وأربعون سنة وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وكان بين موسى وعيسى ألف سنة وبين عيسى ومحمد عليه السلام خمسمائة سنة. وكان هود بين نوح وإبراهيم فلما دعا قومه فكذبوه أنذرهم بالعذاب وقال إن الله تعالى يرسل عليكم الريح فيهلككم بها فاستهزؤوا به وقالوا أي ريح يقدر علينا، فأمر الله تعالى خازن الريح أن يخرج من الريح العقيم التي هي تحت الأرض مقدار ما يخرج من حلقة الخاتم كما قال في آية أخرى (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) فجاءتهم وحملت الرجال والدواب كالأوراق في الهواء فأهلكتهم كلهم فلم يبق منهم أحد. كما قال ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك بعد ما أنذرهم وأخذ عليهم الحجة وذكرهم نعم الله تعالى، قال لهم ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: اشكروا نعمة الله قال بعضهم: الآلاء إيصال النعم، والنعماء دفع البلية. وقال بعضهم على ضد هذا، وقال أكثر المفسرين الآلاء والنعماء بمعنى واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني لكي تنجوا من البلايا ومن عذابه.

---

(١) سقط في ظ. (٢) انظر تفسير الطبري ١٢/٥٠٧، وتفسير ابن كثير ٣/٤٣١.

(٣) وفي تفسير البغوي عن ابن عباس: ثمانون ذراعاً انظر ٢/١٧٠ وفي القرطبي ما يوافق نقل المصنف رحمه الله عن ابن عباس. انظر ٧/١٥١.

(٤) انظر الخازن ٢/٢٤٨.

(٥) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٧٠ ومثله عن قتادة أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور ٣/٩٦.

قوله تعالى: ﴿قَالُو أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ قالوا له يا هود أتأمرنا أن نعبد رباً واحداً ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي نترك عبادة آلهتنا التي كان يعبدها آباؤنا قال لهم هود عليه السلام إن لم تفعلوا ما آمركم يأتيكم العذاب قالوا﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب أي: بما تخوفنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنك لرسول الله ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: وجب عليكم عذاب وغضب من ربكم ﴿أَتُجَـٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: تجعلون قول أنفسكم وقول آبائكم حجة من غير أن يثبت لكم من الله حجة وقد اتخذتم الأصنام بأيديكم وسميتموها آلهة ﴿مَانَـزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَـٰنٍ﴾ يقول ليس لكم علة وعذر وحجة بعبادة الأصنام ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ الهلاك ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ يعني لنزول العذاب بكم لأنهم أرادوا إهلاكه قبل أن يهلكوه قال الله تعالى ﴿فَأَنْجَيْنَـٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يعني بنعمة منا عليهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: قطع أصلهم واستأصلهم ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني أن الذين أهلكهم الله تعالى كلهم كانوا كافرين. قوله تعالى:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحاً﴾ يعني أرسلنا إلى ثمود نبيهم صالحاً. قال بعضهم ثمود اسم القرية وقال بعضهم ثمود اسم القبيلة وأصله في اللغة الماء القليل. ويقال كانت بئراً بين الشام والحجاز ويقال هي عين يخرج منها ماء قليل في تلك الأرض ويقال لها أرض الحجر كما قال في آية أُخرى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ الْحِجْـرِ الْمُرْسَلِينَ) وقال بعضهم كان في تلك القرية أهل تسعمائة بيت وقال بعضهم ألف وخمسمائة فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله سنين كثيرة فكذبوه وأرادوا قتله فخرجوا إلى عبد لهم فأتاهم صالح ودعاهم إلى الله تعالى، فقالوا له إن كنت نبياً فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة عَشَرَاءَ[1] حتى نؤمن بك ونصدقك فقام صالح وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فتحركت الصخرة وانصدعت عن ناقة عشراء ذات زغب[2] فلم يؤمنوا به فولدت الناقة ولداً، وقال بعضهم خرج

(١) وهي التي مضى على حملها عشرة أشهر وقيل ثمانية.
(٢) والزغْب شعيرات صفر والمراد هنا من لها وَبَرٌ ناعم.

ولدها خلفها من الصخرة. فصارت الناقة بلية ومحنة عليهم، وكانت من أعظم الأشياء فتأتي مراعيهم فتنفر منها دوابهم وتأتي العين وتشرب جميع ما فيها من الماء فجعل صالح الماء قسمة بينهم يوماً للناقة ويوماً لأهل القرية. فإذا كان اليوم الذي تشرب الناقة لا يحضر أحد العين وكانوا يحلبونها في ذلك اليوم مقدار ما يكفيهم وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون فاجتمعوا لقتل الناقة فقال لهم صالح لا تفعلوا فإنكم إذا قتلتموها يأتيكم العذاب فجاءوا ووقفوا على طريق الناقة فلما مرت بهم الناقة متوجهة إلى العين رماها واحد منهم يقال له مصدع بن وهر فأصابت السهم رجل الناقة. فلما رجعت الناقة من العين خرج قدار بن سالف وهو أشقى القوم كما قال الله تعالى (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) فضربها بالسيف ضربة فقتلها وقسموا لحمها على أهل القرية. وروي عن الحسن البصري[١] رحمة الله عليه أنه قال لما عقرت ثمود الناقة ذهب فصيلها حتى صعد جبلاً وقال ثلاث مرات أين أمي أين أمي أين أمي؟ فأخبر بذلك صالح فقال يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فقالوا وما العلامة في ذلك؟ فقال أن تصبحوا في اليوم الأول وجوهكم مصفرة، وفي اليوم الثاني وجوهكم محمرة، وفي اليوم الثالث وجوهكم مسودة، ثم خرج صالح من بين أظهرهم مع من آمن منهم فأصبحوا في اليوم الأول وجعل يقول بعضهم لبعض قد إصفر وجهك وفي اليوم الثاني يقول بعضهم لبعض قد احمر وجهك وفي اليوم الثالث يقول بعضهم لبعض قد آسود وجهك. فأيقنوا جميعاً الهلاك. فجاء جبريل عليه السلام وصاح بهم صيحة واحدة فماتوا كلهم. ويقال قد أتتهم النار فأحرقتهم فذلك قوله تعالى ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوا الله ﴿مالكم من إله غيره﴾ قد ذكرناه ﴿قَدْ جَاءَتكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يقول قد أتيتكم بعلامة نبوتي وهي الناقة كما قال الله تعالى ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ أي: علامة لنبوتي لكي تعتبروا وتوحدوا الله ربكم ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾يقول دعوها ترتع في أرض الحجر ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يقول لا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو ما عذبوا به. قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: بعد هلاك عاد ﴿وَبوأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أنزلكم في أرض الحجر ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ وذلك أنه كانت لهم قصور يسكنون فيها أيام الصيف وقد اتخذوا بيوتاً في الجبل لأيام الشتاء فذكرهم نعمة الله تعالى، فقال اذكروا هذه النعم حيث وفقكم الله حتى اتخذتم القصور في سهل الأرض واتخذتم البيوت في الجبال ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله عليكم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تعملوا في الأرض بالمعاصي. قوله عز وجل ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾. قرأ ابن عامر[٢] وَقَالَ ٱلْمَلَأُ بالواو. وقرأ الباقون بغير واو. أي: قال الملأ الذين تكبروا عن الإيمان من قومه وهم القادة للذين استضعفوا ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بصالح ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني أتصدقون صالحاً بأنه مرسل من ربه إليكم ﴿قَالُوا﴾ يعني المؤمنين ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون به ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: من رسالة صالح ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عصوا وتركوا أمر ربهم وأبوا عن طاعته، ثم التوحيد. ويقال فيه تقديم ومعناه عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنهم عقروا الناقة ليلة الأربعاء في عشية الثلاثاء فأهلكهم الله في يوم السبت، ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي: بما تخوفنا به من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني إن كنت رسول رب العالمين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾أي: الزلزلة ويقال صيحة جبريل كما قال في آية أخرى (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) ويقال أخذتهم الزلزلة ثم أخذتهم الصيحة، ويقال النار ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: صاروا في

(١) انظر تفسير الطبري ٥٣٦/١٢، وتفسير ابن كثير ٤٣٨/٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٨٧.

مدينتهم ومنازلهم ميتين لا يتحركون وأصله من الجثوم[١] ويقال أصابهم العذاب بكرةً يوم الأحد ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ فيه تقديم وتأخير أي: حين كذبوه خرج من بين أظهرهم ﴿وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: دعوتكم إلى التوبة وحذرتكم العذاب ﴿وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِحِينَ﴾ أي: لا تطيعون الداعين ويقال إنما قال ذلك بعد إهلاكهم قال على وجه الحزن إني قد أبلغتكم الرسالة. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال إن الله تعالى لم يهلك قوماً ما دام الرسول فيهم. فإذا خرج من بين ظهرانيهم أتاهم ما أوعد لهم. وقال في رواية الكلبي لما هلك قوم صالح رجع صالح ومن معه من المؤمنين فسكنوا ديارهم وقال في رواية الضحاك خرج صالح إلى مكة فكان هناك حتى قبضه الله تعالى. قوله عز وجل

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني وأرسلنا لوطاً إلى قومه، ويقال معناه واذكروا لوطاً إذ قال لقومه ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ يعني اللواطة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ يعني لم يعمل بمثل عملكم ﴿مِنْ أَحدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قبلكم ﴿إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي تجامعون الرجال من دون النساء. يعني إن إتيان الرجال أشهى إليكم من إتيان النساء. وقرأ أبو عمرو [٢] آينَّكُمْ بالمد بغير همز. وقرأ ابن كثير ونافع إِنَّكُم بهمزة واحدة بغير مد. وقرأ الباقون بهمزتين بغير مد. ومعنى ذلك كله واحد. وهو الاستفهام. ثم قال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ أي: متعدون من الحلال إلى الحرام. ﴿وَمَاكَان جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وإنما صار «جواب» نصباً لأنه خبر كان. والاسم هو ما بعده (إلّا أنْ قالوا ﴿أَخرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يعني يتقذرون منا ويتنزهون عن فعلنا ﴿فَأَنْجَيْنَـهُ وأَهْلَهُ﴾ يعني ابنتيه زعوراء وريثا ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ وهي واعلة ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني من الباقين في الهلاك فيمن أهلكوا ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾يعني الحجارة ويقال أمطَر بالعذاب ومطر بالرحمة، ويقال أمطر ومطر بمعنى واحد ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كيف كان آخر أمرهم. وقد بين قصته في سورة هود. وقال مجاهد[٣] لو أن الذي يعمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وبكل قطرة في الأرض ما زال نجساً إلى يوم القيامة وقد اختلف الناس في حَدِّه. قال بعضهم هو كالزاني، فإن كان محصناً يرجم وإن كان غير محصن يجلد. وروي عن الشعبي أنه قال يرجم في الأحوال كلها محصناً كان أو غير محصن. وروي عن علي بن[٤] أبي طالب رضي الله عنه أنه أتي برجل قد عمل بذلك العمل فأمر بأن يلقى من أشرف البناء منكوساً ثم يتبع بالحجارة لأن الله تعالى ذكر

---

(١) جثم: لصق بالأرض يجثم الطائر وأصل الجثوم للأرنب انظر لسان العرب ٥٤٥/١.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٨٧، سراج القارىء ٢٢٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠١/٣، وعزاه لابن أبي الدنيا والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ١٠١/٣، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا والبيهقي.

قتلهم بالحجارة وهو قوله تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً﴾ أي حجارة، وقال بعضهم يعزر ويحبس حتى تظهر توبته ولا يحد. وهو قول أبي حنيفة رحمه[1] الله. ثم قال تعالى

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم
بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
(٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ
لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨)
قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ
(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا
هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ
آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ يعني أرسلنا إلى مدين نبيهم شعيباً، ومدين هو آل مدين. وكان مدين إبن

(١) قال سبط ابن الجوزي في إيثار الإنصاف ٢٠٩ اللواط لا يوجب الحد عند أبي حنيفة رحمه الله ولكنه يوجب التعزير والحبس إلى أن يتوب أو يموت. وقالا: يوجب الحد فإن كانا محصنين رُجِمَا، وإن كانا بكرين جُلِدَا، وهو أحد قولي الشافعي وأحمد.

وقال الشافعي في القول الآخر: يقتلان على كل حال محصنين كانا أو غير محصنين له: قوله تعالى: **﴿الزانية والزاني﴾** وهذا ليس بزنى لأنه يصح نفي الزنى عنه يقال: لاط ولا يقال: زنى والدليل عليه: اختلاط الصحابة فإن بعضهم أوجب الحد وبعضهم لم يوجبه، وقول البعض لا يكون إجماعاً.

احتجوا: بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقتلوا الفاعل والمفعول به في عمل قوم لوط والواقع على البهيمة ومن وقع على ذات محرم فاقتلوه) أخرجه أحمد ١/٣٠٠. ولأن الصحابة أجمعوا على القتل وإن اختلفوا في كيفيته فمن قائل: يقتل صبرا، ومن قائل: يُحَدّ حَدَّ الزنى وقال أبو بكر رضي الله عنه: يحرق بالنار. وقال ابن عباس: ينكسان من شاهق ويرجمان بالحجارة، وعلي ـ رضي الله عنه ـ رجم لوطياً، فحصل الاتفاق منهم على أصل القتل فقلنا به ورجحنا قول البعض على البعض فيما اختلفوا فيه. انظر إيثار الإنصاف ٢٠٩ ـ ٢١٠.

إبراهيم خليل الرحمن تزوج ريثاء ابنة لوط فولدت آل مدين فتوالدوا وكثروا ثم صار هو اسماً للمدينة فسميت المدينة مدين وسمي أولئك القوم مدين فكفروا بالله تعالى ونقصوا المكيال والميزان في البيع وأظهروا الخيانة فبعث الله تعالى إليهم شعيباً. وقال الضحاك: كان شعيب أفضلهم نسباً وأصدقهم حديثاً وأحسنهم وجهاً، ويقال إنه بكى من خشية الله تعالى حتى ذهب بصره فصار أعمى فدعا قومه إلى الله تعالى و ﴿قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوه وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال بعضهم مجيء شعيب النبي عليه السلام إليهم آية ولم يكن لشعيب علامة سوى مجيئه وإخباره أن الله تعالى واحد وقال بعضهم كانت له علامة لأن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا وقد جعل له علامة ليظهر تصديق مقالته إلا أن الله تعالى لم يبين لنا علامته، وقد بين علامة بعض الأنبياء ولم يبين علامة الجميع ثم قال ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اتموا الكيل والميزان بالعدل ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقول ولا تنقصوا الناس حقوقهم في البيع والشراء ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ يعني لا تعملوا في الأرض المعاصي بعد ما بين الله تعالى طريق الحق وأمركم بالطاعة ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني وفاء الكيل وترك الفساد في الأرض خير لكم من النقصان والفساد في الأرض إن كنتم مصدقين بما حرم الله تعالى عليكم قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا ترصدوا بكل طريق، توعدون أهل الإيمان بالقتل ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يقول: تمنعون الناس عن دين الإسلام ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يقول تريدون بملة الإسلام زيغاً وغيراً. وروي عن ابن أبي نجيح(٢) عن مجاهد(٣) في قوله «بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ» قال بكل سبيل، حتى تصدوا أهلها عنها وتبغونها عوجاً. قال وتلتمسون بها الزيغ. ويقال معناه لا تقعدوا على كل طريق تخوفون الناس، وتخوفون أهل الإيمان بشعيب عليه السلام. ثم قال ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كنتم قليلاً في العدد فكثَّر عددكم. ويقال كنتم فقراء فأغناكم وكثر أموالكم. ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل. يعني الذين قبلهم، قوم نوح وقوم عاد وقوم هود وقوم صالح. ثم قال ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ يعني إن كان جماعة منكم صدقوا بي ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بي أي: لم يصدقوا ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ يعني حتى تنظروا عاقبة المؤمنين أفضل أم عاقبة الكافرين فذلك قوله حتى يحكم الله بيننا. يعني حتى يقضي الله بين المؤمنين وبين الكافرين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ﴾ أي: أعدل العادلين ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني الأشراف والرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان من قومه ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: لتدخلن في ديننا الذي نحن عليه. ويقال هذا الخطاب لقومه الذين آمنوا. لترجعن إلى ديننا كما كنتم. ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يعني أتجبروننا على ذلك؟ قالوا نعم قال لهم شعيب ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ يقول قد اختلقنا على الله كذباً إن دخلنا في دينكم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّـٰنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ (يقول إن الله تعالى أكرمنا بالإسلام وأنقذنا من ملتكم)(٤) يقال معناه كنا كاذبين مثلكم لو دخلنا في دينكم بعد إذ نجانا الله منها. ويقال: أكرمنا الله تعالى بالإسلام ولم يجعلنا من أهل الكفر فأنقذنا وأبعدنا من ملتكم ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله﴾ يعني: ما ينبغي لنا وما يجوز لنا أن ندخل في ملتكم إلا أن يشاء الله ﴿ربنا﴾ دخولنا فيها وأن ينزع المعرفة من قلوبنا ويقال (معناه وما يكون لنا أن

(١) سقط في ظ.
(٢) عبد الله بن أبي نجيح الثقفي، مولاهم، أبو يسار المكي، وثَّقه أحمد، مات سنة ١٣١ هـ وانظر الخلاصة ١٠٥/٢.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٢/٣، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٤) سقط في ظ.

نعود فيها) إلا أن يكون في علم الله ومشيئته أنا نعود فيها ويقال معناه: إلا أن يشاء الله. يعني لا يشاء الله الكفر مثل قولك لا أكلمك حتى يبيض القار وحتى يشيب الغراب وهذا طريق المعتزلة ثم قال ﴿**وسع ربنا كل شيء علماً**﴾ يعني: علم ما يكون منا ومن الخلق ﴿**على الله توكلنا**﴾ أي: فوضنا أمرنا إلى الله. لقولهم لنخرجنك يا شعيب ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**﴾ أي: اقض بيننا وبين قومنا بالعدل. وروى قتادة عن ابن عباس(١) قال: ما كنت أدري ما معنى قوله «ربنا افتح بيننا» حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لعلي بن أبي طالب تعال أفاتحك يعني: أخاصمك وقال القتبي الفتح أن تفتح شيئاً مغلقاً كقوله (حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها) وسمي القضاء فتحاً لأن القضاء فصل للأمور وفتح لما أشكل منها ﴿**وأنت خير الفاتحين**﴾ يعني: خير الفاصلين قوله تعالى: ﴿**وقال الملأ الذين كفروا من قومه لأن اتبعتم شعيباً**﴾ أي: لأن أطعتم شعيباً في دينه ﴿**إنكم إذاً لخاسرون**﴾ يعني: جاهلون فلما وعظهم شعيب ولم يتعظوا أخبرهم أن العذاب نازل بهم فلم يصدقوه فخرج شعيب ومن آمن معه من بين أظهرهم فأصابهم يعني أهل القرية حر شديد فخرجوا من القرية ودخلوا غيضة كانت عند قريتهم وهي الأيكة كما قال الله تعالى في آية أخرى (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) فارسل الله تعالى ناراً فأحرقت الأشجار ومن فيها من الناس ويقال أصابتهم زلزلة فخرجوا فأتتهم نار فأحرقتهم وذلك قوله تعالى ﴿**فأخذتهم الرجفة**﴾ يعني الزلزلة والحر الشديد فهلكوا واحترقوا ﴿**فأصبحوا في دارهم جاثمين**﴾ يعني صاروا ميتين قوله تعالى: ﴿**الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها**﴾ يعني كأن لم يكونوا فيها قط وقال قتادة(٢) كأن لم يغنوا فيها يعني كأن لم يتنعموا فيها ويقال معناه من كان رآهم بعد إهلاكنا إياهم ظن أنه لم يكن هناك أحد يعني لم يعيشوا ويقال: كأن لم يعمروا ثم قال ﴿**الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين**﴾ يعني المغبونين في. عقوبة يعني إنهم كانوا يقولون لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون فصار الذين كذبوا هم الخاسرون لا الذين آمنوا منهم قوله تعالى ﴿**فتولى عنهم**﴾ يعني أعرض عنهم حين خرج من بين أظهرهم ﴿**وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي**﴾ في نزول العذاب ﴿**ونصحت لكم**﴾ وقد ذكرناه ﴿**فكيف آسى على قوم كافرين**﴾ أي: كيف أحزن بعد النصيحة على قوم إن عذبوا. قوله تعالى:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ
مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

﴿**وما أرسلنا في قرية من نبي**﴾ ﴿**إلا أخذنا أهلها**﴾ ففي الآية مضمر ومعناه وما أرسلنا في قرية من نبي فكذبوه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٣/٣ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الوقف والابتداء والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٠٣/٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

إلا أخذنا أهلها[1] ﴿بالبأساء والضراء﴾ يعني عاقبنا أهلها بالخوف والبلاء والقحط والفقر. ويقال البأساء ما يصيبهم من الشدة في أموالهم، والضراء ما يصيبهم في أنفسهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يعني لكي يتضرعوا، فأدغمت التاء في الضاد وأقيم التشديد مقامه، ومعناه لكي يدعوا ربهم ويؤمنوا بالرسل ويعرفوا ضعف معبودهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ يعني: حولنا مكان الشدة الرخاء ومكان الجدوبة الخصب ﴿حَتَّى عَفَواْ﴾ أي: كثروا واستغنوا وكثرت أموالهم فلم يشكروا الله تعالى، ويقال حتى عفوا أي: حتى سروا به ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّراءُ وَالسَّراءُ﴾ أي: مثل ما أصابنا، مرة يكون الرخاء ومرة يكون الشدة ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني أتاهم العذاب من حيث لم يعلموا به، ويقال إن الشدة للعامة تكون تنبيهاً وزجراً، والنعمة تكون استدراجاً، وأما النعمة للخاصة فهي تنبيه لأنه يعد ذلك عقوبة كما روي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل ذنب عجلت عقوبته قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ﴾ يعني وحدوا الله تعالى واتقوا الشرك ﴿لَفَتَحْنَا[2] عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ يعني أنزلنا عليهم من السماء المطر والرزق والنبات من الأرض ﴿وَلَكِن كَذَّبُواْ﴾ الرسل ﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ أي: عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الشرك. ففي الآية دليل على أن الكفاية والسعة في الرزق من السعادة إذا كان المرء شاكراً وتكون عقوبة له إذا لم يكن شاكراً، لأنه قال في آية أخرى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة) يعني الغنى يكون وبالاً لمن لا يشكر الله تعالى وعقوبة له ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾ أي: ينزل عليهم عذابنا ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ فتحت الواو لأنها واو العطف أدخلت عليها ألف الاستفهام، وكذلك أفأمن لأنها فاء العطف دخلت عليها ألف الاستفهام. قرأ نافع وابن كثير[3] أو أمن بجزم الواو لأن أصله أو وأمن، وأو حرف من حروف الشك، فأدغم في حرف النسق ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ يعني يأتيهم عذابنا نهاراً ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني لاهون عنه ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ﴾ يعني عذاب الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ يعني عذاب الله ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونون بالعقوبة قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم
مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ

---

(١) سقط في ظ.

(٢) قرأ ابن عامر (لفتّحنا) بالتشديد أي مرة بعد مرة. وحجته قوله: بركات من السماء ولم يقل بركة، وقرأ الباقون بالتخفيف أرادوا الواحد. انظر حجة القراءات ٢٨٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٩، سراج القاري ٢٢٥.

جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾
قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ﴾ يعني أو لم يبين. قال القتبي: أصل الهدى الإرشاد كقوله **﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي﴾** يعني يرشدني، ثم يصير الإرشاد لمعان منها إرشاد بيان مثل قوله: **﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ يعني أو لم يبين لهم** ومنها إرشادٌ بمعنى بالدعاء كقوله **﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾** يعني: نبياً يدعوهم وقوله: **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾** أي: يدعون الخلق. وقرأ بعضهم أو لم نهد بالنون يعني أو لم نبين لهم الطريق ومن قرأ بالياء معناه أولم يبين الله للذين يرثون الأرض من بعد أهلها يعني: ينزلون الأرض **﴿من بعد﴾** هلاك **﴿أهلها﴾** ويقول: أو نبين لأهل مكة هلاك الأمم الخالية كيف أهلكناهم ولم يقدر معبودهم على نصرتهم **﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾** يعني أهلكناهم بذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم عند التكذيب ثم قال **﴿ونطبع على قلوبهم﴾** يعني: نختم على قلوبهم بأعمالهم الخبيثة عقوبة لهم **﴿فهم لا يسمعون﴾** الحق ولا يقبلون المواعظ ثم قال عز وجل **﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾** أي: تلك القرى التي أهلكنا أهلها نخبرك في القرآن من حديثها **﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾** يعني بالعلامات الواضحة والبراهين القاطعة التي لو اعتبروا بها لاهتدوا **﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾** يعني: إن أهل مكة لم يصدقوا بما كذب به الأمم الخالية. وقال مجاهد[1] فما كانوا ليؤمنوا بعد العذاب بما كذبوا من قبل، وهذا مثل قوله تعالى: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) وقال السدي[2] فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل أي: يوم الميثاق فما كانوا ليؤمنوا في دار الدنيا بما كذبوا من قبل يوم الميثاق وأقروا به وهو قوله: (ألست بربكم قالوا بلى) ثم في الدنيا ما وجدناهم على ذلك الإقرار[3] ويقال: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما كذبوا من قبل مجيء الرسل معناه: أن مجيء الرسل لم ينفعهم **﴿كذلك يطبع الله﴾** يعني: هكذا يختم الله تعالى **﴿على قلوب الكَفرين﴾** مجازاة لكفرهم قوله تعالى: **﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾** «مِنْ» زيادة للصلة يعني: ما وجدنا لأكثرهم وفاء فيما أمروا به. يعني الذين كذبوا من الأمم الخالية ويقال ما وجدنا لأكثرهم من عهد لأنهم أقروا يوم الميثاق ثم نقضوا العهد حيث كفروا. ويقال: ما وجدنا لأكثرهم من عهد أي: قبول العهد الذي عاهدوا على لسان الرسل ثم قال **﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾** يعني وقد وجدنا أكثرهم لناقضين العهد تاركين لما أمروا به. قوله تعالى: **﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى﴾** يعني أرسلنا من بعد الرسل الذين ذكرهم في هذه السورة ويقال ثم بعثنا من

(١) ومثله عن الربيع أخرجه ابن جرير وأبي الشيخ انظر الدر المنثور ٣/١٠٤.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٠٤ وعزاه لابن جرير وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) زيادة من أ.

بعد هلاكهم موسى وهو موسى بن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني: اليد البيضاء والعصا ﴿إلى فرعون﴾ وهو ملك مصر واسمه الوليد بن مصعب وروي عن وهب بن منبه أنه قال كان فرعون في وقت يوسف فعاش إلى وقت موسى عليهما السلام فبعث الله تعالى إليه موسى ليأخذ عليه الحجة وأنكر عليه ذلك عامة المفسرين وقالوا هو كان غيره وكان جباراً ظهر بمصر واستولى عليها وأرسل الله تعالى إليه موسى فذلك قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون ﴿وَمَلإيْه﴾ يعني جنوده وأتباعه ﴿فظلموا بها﴾ يعني فجحدوا بالآيات ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ يعني كيف صار آخر أمر المشركين وقال ابن عباس رضي الله عنهما أول الآيات العصا فضرب بها موسى باب فرعون ففزع منها فرعون فشاب رأسه فاستحيا فخضب بالسواد، فأول من خضب بالسواد فرعون، قال ابن عباس كان طول العصا عشرة أذرع على طول موسى وكانت من آس الجنة يضرب بها الأرض فتخرج النبات فلما دخل عليه مع هارون ﴿وَقَالَ﴾ له ﴿مُوسَى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك قال له فرعون كذبت قال موسى ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قرأ نافع(١) حقيق علي بالتشديد. وقرأ الباقون بتخفيف على. فمن قرأ بالتخفيف فمعناه واجب على أن لا أقول أي: واجب أن أترك القول على الله إلا الحق. ومن قرأ بالتشديد معناه واجب علي ترك القول على الله إلا الحق أي: لا أقول على الله إلا الحق فلما كذبوه قال إني لا أقول بغير حجة وبرهان ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِن ربكُمْ﴾ يعني قد جئتكم بعلامة لنبوتي ﴿فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولا تستعبدهم لأن فرعون كان قد استعبد بني إسرائيل واتخذهم في الأعمال سخرة فـ ﴿قَالَ﴾ له فرعون ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ أي: بعلامة لنبوتك ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك رسول الله ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ يعني ألقى موسى عصاه من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وهي أعظم الحيات، ويقال الثعبان الحية الذكر الصفراء الشقراء ويقال صارت حية من أعظم الحيات رأسها مع شرف قصر فرعون ففتحت فاها نحو فرعون وكان فرعون على سريره فوثب فرعون عن سريره وهرب منها وهرب الناس وصاحوا إلى موسى ونادى فرعون يا موسى خذها عني فأخذها فإذا هي عصا بيضاء بيده كما كانت وجعل الناس يضحكون مما يصنع موسى ومعنى قوله ثعبان مبين يعني: أنها حية تسعى لا لبس فيها فقال له فرعون، هل معك غير هذا؟ فقال: نعم ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني: أخرج يده، أخرجها من جيبه كما قال في آية أخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يعني: من غير برص ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يعني لها شعاع غلب على نور الشمس، ومعنى قوله للناظرين يعني يتعجب ويتحير منها الناظرون. ويقال إن البياض من غير برص لأن الناس يكرهون النظر إلى الأبرص فأخبر أن(٢) ذلك بياض ينظرون إليه من غير سوء ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها فصارت كما كانت ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: الأشراف والرؤساء قال مقاتل إن فرعون قال بهذه المقالة فصدقه قومه كما قال في سورة الشعراء (قال للملأ حوله أن هذا لساحر عليم) يعني حاذق بالسحر ثم قال لقومه ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ تصديقاً لقوله ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ بسحره يعني من أرض مصر فقال لهم فرعون ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يعني: أي فماذا تشيرون في أمره؟ ويقال إن بعضهم قال لبعض فماذا تأمرون؟ أي: ماذا ترون في أمره ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني احبسهما ولا تقتلهما، وأصله في اللغة التأخير أي: أخر أمرهما حتى تجتمع السحرة فيغلبوهما فإنك إن قتلتهما قبل أن يظهر حالهما يظن الناس أنهما صادقان فإذا تبين كذبهما عند الناس فاقتلهما حينئذ. فذلك قوله (أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ) أي ابعث ﴿في الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يعني الشرط يحشرون الناس إليك أي ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي حاذق بالسحر قرأ ابن كثير(٣)

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٨٩، سراج القاري ٢٢٥. (٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات ٢٨٩ ـ ٢٩٠، ٢٩١.

أرجئهوا بالهمزة والواو بعد الهاء. وقرأ الكسائي أرجهي إلا أنه يكسر الهاء ولا يتبع الياء. وقرأ أبو عمر وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحدى الروايتين أرجئه بالهمزة بغير مد والضمة وهذه اللغات كلها مروية عن العرب وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر والكسائي بكل سَحَّار[1] عليم على وجه المبالغة في السحر وقرأ الباقون بكل ساحر وهكذا في يونس واتفقوا في الشعراء. قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾ يعني قالوا لفرعون أتعطينا جعلاً ومالاً ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِيْنَ﴾ لموسى ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿نَعَمْ﴾ لكم الجعل ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ﴾ يعني لكم المنزلة به سوى العطية، يعني إنكم تكونون أول من يدخل علي بالسلام. قرأ[2] أبو عمرو آينَّ لَنَا لأَجْراً بمد الألف. وقرأ عاصم في رواية حفص إن بهمزة واحدة بغير ياء وقرأ الباقون بهمزتين[3] وقرأ ابن كثير ونافع إنَّ لَنَا بهمزة واحدة بغير ياء وقرأ عاصم وحمزة والكسائي أئِن لنا بهمزتين فلما اجتمع السحرة وغدوا للخروج يوماً، وأعلن الناس بخروجهم ليجتمعوا عند سحرهم كما قال في آية أخرى ﴿قَالَ مَوْعِدُكُم يَوْمُ الزِّينة﴾ أي: يوم عيد كان لهم ويقال يوم النيروز فلما اجتمعت السحرة ﴿قَالُواْ يَا مُوْسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ يعني إما أن تطرح عصاك على الأرض وإما أن نكون نحن الملقين قبلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ يعني السحرة ألقوا الحبال والعصى ﴿سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي أخذوا أعينهم بالسحر ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يعني طلبوا رهبتهم حتى رهبهم الناس. قال الكلبي: كانت السحرة سبعين فألقوا سبعين عصا وسبعين حبلاً ـ وقال بعضهم كانوا اثنين وسبعين حبلاً. وروى أسباط عن السدي[4] قال قال ابن عباس[5] كانوا بضعاً وثلاثين ألفاً. وقال محمد بن إسحاق[6] كانوا ألف رجل وخمسمائة رجل ومع كل واحد منهم عصا. وقد كانوا خاطوا الحبال[7] وجعلوها مموهة بالرصاص وحشوها بالزئبق حتى إذا ألقوها تحركت كأنها حيات لأن الزئبق لا يستقر في مكان واحد. فلما طلعت عليه الشمس صارت شبيهاً بالحيات فنظر موسى، فإذا الوادي قد امتلأ بالحيات. فدخل فيه الخوف ونظر الناس إلى ذلك فخافوا من كثرة الحيات فذلك قوله «واسترهبوهم» يعني أفزعوهم وأخافوهم ﴿وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ يعني بسحر تام ويقال وجاءوا بسحر عظيم يعني بقول عظيم حيث قالوا (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) ويقال وجاءوا بكذب عظيم حيث قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون. قال الله تعالى:

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا

(١) انظر سراج القاري ٢٢٥، حجة القراءات ٢٩١. (٢) حجة القراءات ٢٩٢. (٣) سقط من أ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر ١٠٦/٣ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٥) وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. انظر الدر المنثور ١٠٦/٣.
(٦) أخرج الطبري عن محمد بن إسحاق خمسة عشر ألف ساحر انظر تفسير الطبري ٢٨/١٣ ومثله في تفسير القرطبي ١٦٥/٧.
(٧) في أ [الثياب].

رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني اطرح عصاك إلى الأرض. فألقى عصاه من يده فصارت حية أعظم من جميع حياتهم ﴿فَـإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يعني تلتقم وتأكل جميع ما جاءوا به من الكذب والسحر. قرأ عاصم[١] في رواية حفص «تَلْقَفْ» بجزم اللام والتخفيف وقرأ الباقون[٢] بنصب اللام وتشديد القاف، ومعناهما واحد. ثم إن الحية قصدت إلى فرعون فنادى موسى. فأخذها فإذا هي عصا على حالها، فنظرت السحرة فإذا حبالهم وعصيهم قد ذهبت ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أي: استبان الحق وظهر أنه ليس بسحر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر، أي: ذهب وهلك واضمحل ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ أي: وغَلَب موسى السحرة عند ذلك ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ يعني: رجعوا ذليلين. قالوا لو كان هذا سحراً فأين صارت حبالنا وعصينا؟ ولو كانت سحراً لبقيت حبالنا وعصينا، وهذا من الله تعالى وليس بسحر فآمنوا بموسى، قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ يعني خروا ساجدين لله تعالى قال الأخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا ويقال وفقهم الله تعالى للسجود ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال لهم فرعون إياي تعنون؟ فأراد أن يلبس على قومه فقالوا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فقدم فرعون لما سألهم لأن بعض الناس كانوا يظنون عند مقالتهم رب العالمين أنهم أرادوا به فرعون، فلما سألهم فرعون وقالوا برب موسى وهارون ظهر عند جميع الناس أنهم لم يريدوا به فرعون، وإنما أرادوا به الإيمان بموسى وبرب العالمين ﴿قَالَ فِرْعَوْن آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني: صدقتم بموسى ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يعني قبل أن آمركم بالإيمان بموسى. قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر[٣] آمنتم بالمد وقرأ الباقون بغير مد بهمزتين ومعناهما واحد ويكون استفهاماً. إلا عاصم في رواية حفص[٤] قرأ آمنتم بهمزة واحدة بغير مد على وجه الخبر ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني صنعاً صنعتموه فيما بينكم وبين موسى في المدينة ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني إنكم أردتم أن تخرجوا الناس من مصر بسحركم، ثم قال لهم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: تعلمون ماذا أفعل بكم. ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُـمْ مِنْ خِلاَفٍ﴾ يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطىء نهر مصر ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي لا نبالي من عقوبتك وفعلك فإن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا﴾ يعني وما تعيب علينا وما تنكر منا إلا إيماننا بالله تعالى. ويقال وما نقمتك علينا ولم يكن منا ذنب ﴿إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ يعني لما ظهر عندنا أنه حق. ثم سألوا الله تعالى الصبر على ما يصيبهم لكي لا يرجعوا عن دينهم فقالوا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾ يعني أنزل علينا صبراً عند القطع والصلب ومعناه ارزقنا الصبر وثبت قلوبنا حتى لا نرجع كفاراً ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ على دين موسى. وروي عن عبيد الله[٥] بن

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٩٢.

(٢) وقرأ البزي (فإذا هي تلقف) بتشديد التاء أراد (تتلقف) فأدغم التاء في التاء وكذلك في سورة طه (وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٩٣. (٤) سقط في ظ.

(٥) تقدم مثله من كلام ابن عباس رضي الله عنه وأخرج مثله أيضاً من كلام قتادة رضي الله عنه وابن جرير الطبري وعن ابن حميد كذا في الدر المنثور ١٠٧/٣ وانظر البحر المحيط ٣٦٤/٤ وأثر عبيد بن عمير انظره ٣٦/١٣ وفي تفسير ابن كثير ٤٥٥/٣.

عمير أنه قال كانت السحرة أول النهار كفاراً فجرة وآخر النهار شهداء بررة. وقال بعض الحكماء إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة واحدة فكيف بالذي أقر وسجد خمسين سنة كيف لا يرجو رحمته ومغفرته. قوله تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إن السحرة قد آمنوا به فلو تركتهما يؤمن بهما جميع أهل مصر فيفسدوا في الأرض يعني موسى وقومه ويغيروا عليك دينك في أرض مصر ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ وذلك أن فرعون كان قد جعل لقومه أصناماً يعبدونها، وكان يقول لهم هؤلاء أربابكم الصغار وأنا ربكم الأعلى. فذلك قوله تعالى (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) يعني يدعك ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها.

وروي عن عمرو بن دينار عن ابن عباس[١] أنه كان يقرأ «ويذرك وإلا هتك» يعني عبادتك وتعبدك. قال ابن عباس كان فرعون يُعْبد ولا يَعْبُد ويقال معنى قوله «أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» يعني يغلبوا عليكم ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم كما فعلتم بهم، كما قال في آية أخرى ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ فقال لهم فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ لأنهم قد كانوا تركوا قتل الأبناء فأمرهم أن يرجعوا إلى ذلك الفعل. قرأ ابن كثير ونافع[٢] سَنَقْتُلُ أبناءهم بجزم القاف والتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد على معنى التكثير والمبالغة في القتل. ثم قال ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي مسلطون. فشكت بنو إسرائيل إلى موسى:

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ
قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ يعني سلوا الله التوفيق ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني اصبروا على أذاهم حتى يأتيكم الفرج ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يعني أرض مصر ينزلها من يشاء من عباده ويقال الجنة.

قرأ عاصم في رواية حفص يُوَرِّثها بالتشديد.

وقرأ الباقون بالتخفيف وهما لغتان ورّث وأوْرث بمعنى واحد. ثم قال ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين يعملون في طاعة الله تعالى على نور من الله، مخافة عقاب الله ورجاء ثواب الله تعالى، أي: آخر الأمر لهم. وروي في الخبر أن مسيلمة الكذاب كتب إلى النبي عليه السلام كتاباً: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٠٧ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وأبي الشيخ من طرق. وأخرج أيضاً ابن الأنباري عن الضحاك مثله.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٤، سراج القاري ٢٢٦.

الله عليه وسلم: أما بعد فإن الأرض بيني وبينك نصفان إلا أن العرب قوم يظلمون الناس فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: أما بعد فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين[١]. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ يعني إن قوم موسى قالوا لموسى إنهم قد عذبوا قبل أن تأتينا بالرسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ لأن قوم فرعون كانوا يكلفون بني إسرائيل من العمل ما لا يطيقون وكان آل فرعون لا يعرفون شيئاً من الأعمال. وكان بنو إسرائيل حذاقاً في الأشياء والأعمال. فكانوا يأمرونهم بالعمل ولا يعطونهم الأجر، ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يجعلكم سكاناً في أرض مصر. من بعد هلاكهم. يعني من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يعني يبتليكم بالنعمة كما ابتلاكم بالشدة فيظهر عملكم في حال اليسر والشدة لأنه قد وعد لهم بقوله تعالى: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) ويقال فينظر كيف تعملون من بعده. يعني من بعد انطلاق موسى إلى الجبل، فعبدوا العجل. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بالجوع والقحط ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون ويؤمنون فلم يتعظوا. قال الله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ يعني الخير والخصب والرخاء ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ يعني: نحن أهل لهذه الحسنة وأحق بها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني القحط والبلاء والشدة ﴿يَطَّيَّرُوا بموسى وَمَنْ مَعَهُ﴾ وأصله يتطيروا فأدغمت التاء في الطاء، كقوله يَذَّكَّرونَ أي: يتشاءمون بموسى ومن معه على دينه قال الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني إن الذي أصابهم من عند الله وبفعلهم، ويقال: إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم في الدنيا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله تعالى ولا يعلمون ما عليهم في الآخرة. قوله تعالى:

وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ يقول متى ما تأتنا، ويقال كلما تأتينا، وروي عن الخليل[٢] أنه قال مهما تأتنا

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التاريخ ٣/١٤٦ كتاب مسيلمة الكذاب إلى ـ سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والجواب عنه. وذكره ابن هشام في السيرة ٢/٣٤٢.

(٢) انظر تأويل مشكل القرآن ٤٠٥.

أصلها الشرطية أدخلت معها ما الزائدة كقوله متى ما تأتني آتك، وما زائدة، فكأنه قال ما تأتنا به. فأبدلوا الهاء من الألف وهكذا قال الزجاج ﴿بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني بشيء من آية ﴿لِتَسْحَرَنا بِهَا﴾ يعني لتأخذ أعيننا بها ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بمصدقين بأنك مبعوث رسول الله، فغضب موسى عند ذلك فدعا عليهم قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ وهو المطر الدائم من السبت إلى السبت حتى خربت بنيانهم وانقطعت السبل، وكادت أن تصير مصر بحراً واحداً. فخافوا الغرق فاستغاثوا بموسى فأرسلوا إليه. اكشف عنا العذاب نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فكشف عنهم المطر، وأرسل الله عليهم الريح فجففت الأرض فخرج من النبات شيء لم يروا مثله بمصر قط، قالوا هذا الذي جزعنا منه خير لنا ولكنا لم نشعر به فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنقضوا العهد وعصوا ربهم. فمكثوا شهراً فدعا عليهم موسى فأرسل الله تعالى عليهم الجراد مثل الليل فكانوا لا يرون الأرض ولا السماء من كثرتها فأكل كل شيء أنبتته الأرض فاستغاثوا بموسى ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يعني يا أيها العالم سل لنا ربك ليكشف عنا العذاب ونؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فأرسل الله تعالى ريحاً فاحتملت الجراد وألقته في البحر. فلم يبق في أرض مصر جرادة واحدة، فقال لهم فرعون انظروا هل بقي شيء فنظروا فإذا هو قد بقي لهم بقية من كلئهم وزرعهم ما يكفيهم عامهم ذلك، قالوا قد بقي لنا ما فيه بلغتنا هذه السنة. فقالوا يا موسى لا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل، فمكثوا شهراً ثم دعا عليهم فأرسل الله تعالى عليهم القُمَّلَ. قال قتادة[١]: القمل أولاد الجرادة التي لا تطير، وهكذا قال السدي، وذكر عن أبي عبيدة أنه قال: القمل عند العرب «الحمنان» وهو[٢] ضرب من القردان، فلم يبق من الأرض عود أخضر إلا أكلته. فأتاهم منه مثل السيل على وجه الأرض فأكل كل شيء في أرض مصر من نبات الأرض أو ثمر. فصاحوا إلى موسى واستغاثوا به وقالوا ادع لنا ربك هذه المرة يكشف عنا العذاب ونحن نطيعك ونعطيك عهداً وموثقاً لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فأرسل الله تعالى ريحاً حارة فأحرقته فلم يبق منه شيء وحملته الريح فألقته في البحر. فقال لهم موسى أرسلوا معي بني إسرائيل. فقالوا له قد ذهبت الأنزال كلها فأيش تفعل بعد هذا؟ فعلى أي شيء نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل. اذهب فما استطعت أن تضر بنا فافعل. فمكثوا شهراً فدعا الله تعالى عليهم موسى فأرسل الله تعالى عليهم آية وهي الضفادع فخرجوا من البحر مثل الليل الدامس فغشوا أهل مصر ودخلوا البيوت ووقفوا على ثيابهم وسررهم وفرشهم، وكان الرجل منهم يستيقظ بالليل فيجد فراشه وقد امتلأ من الضفادع (فكان الرجل يكلم صاحبه في الطريق يجعل فمه في أذنه ليسمع كلامه من كثرة نعيق الضفادع) فضاق الأمر عليهم فصاحوا إلى موسى فقالوا يا موسى لئن رفعت عنا هذه الضفادع لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا لهم موسى ربه فأذهب الله تعالى عنهم الضفادع. فقال لهم موسى أرسلوا معي بني إسرائيل فقالوا نعم أخرج بهم ولا تخرج معهم بشيء[٣] من مواشيهم وأموالهم. فقال لهم موسى: إن الله أمرني أن أخرج بهم ولا أخلف من أموالهم ومواشيهم شيئاً. فقالوا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل. فمكثوا شهراً فدعا عليهم. فأرسل الله تعالى عليهم الدم فجرت أنهارهم دماء فلم يكونوا يقدرون على الماء العذب ولا غيره، وبنو إسرائيل في الماء العذب وكلما دخل رجل من آل فرعون ليستقي من أنهار بني إسرائيل قلما دخل فيه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن أبي صخر وعزاه لابن أبي حاتم انظر الدر المنثور ٣/١١٠ وانظر تفسير الطبري ١٣/٥٤، ٥٥ وابن كثير ٣/٤٦١.

(٢) وواحدتها (حمنانة وانظر قول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/٢٢٦، وانظر تفسير الطبري ١٣/٥٦ ولسان العرب (قمل).

(٣) سقط في ظ.

صار الماء دماً من بين يديه ومن خلفه. فركب فرعون وأشراف أصحابه حتى أتوا أنهار بني إسرائيل فإذا هي عذبة صافية فجعل فرعون يدخل الرجل منهم فإذا دخل واغترف صار الماء في يده دماً فمكثوا كذلك سبعة أيام لا يشربون إلا الدم فمات كثير منهم في ذلك فاستغاثوا بموسى فقال فرعون أقسم بإلهك يا موسى لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل فدعا موسى ربه فأذهب الله تعالى عنهم الدم وعذب ماؤهم وصفي. فعادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ يعني متتابعات. قال الحسن وسعيد بن جبير وغيرهما قالوا مما كانوا يعافون بين كل آيتين شهراً، فإذا جاءت الآية قامت عليهم سبعاً من السبت إلى السبت[١]. وروي عن مجاهد[٢] أنه قال: الطوفان المطر الكثير. وقوله آيات صارت نصباً للحال. وقوله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني تعظموا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ يعني أقاموا على كفرهم. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني وجب عليهم العذاب وحل بهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يعني سل لنا ربك ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي بما أمرك ربك أن تدعو الله[٣] ويقال بالعهد الذي سأل ربك ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي: رفعت عنا العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ يعني لنصدقنك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ يعني العذاب ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ يعني إلى وقت الغرق، ويقال إلى بقية آجالهم ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ يعني ينقضون العهد الذي عاهدوا عليه مع موسى. قال الله تعالى ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُم فِي الْيَمِّ﴾ يعني في البحر. بلسان العبرانية وذلك أن الله تعالى أمر موسى بأن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلاً. فاستعارت نسوة بني إسرائيل من نساء آل فرعون حليهن وثيابهن وقلن إن لنا خروجاً، فخرج موسى ببني إسرائيل في أول الليل وهم ستمائة ألف من رجل وامرأة وصبي، فذكر ذلك لفرعون فتهيأ للخروج إليهم. فلما كان وقت الصبح ركب فرعون ومعه ألف ألف رجل ومئتا ألف رجل فأدركهم حين طلعت الشمس، وانتهى موسى إلى البحر، فضرب البحر فانفلق له اثنا عشر طريقاً، وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً فعبر كل سبط في طريق، وأقبل فرعون ومن معه حتى انتهوا إلى حيث عبر موسى. فدخلوا تلك الطريق في طلبهم، فلما دخل آخرهم وهم أولهم أن يخرج أمر الله تعالى أن ينطبق عليهم فغرقهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني الآيات التسع وهي اليد والعصا والسنون ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يعني معرضين فلم يتفكروا ولم يعتبروا بها. حتى رجع موسى ببني إسرائيل فسكنوا أرض مصر فذلك قوله ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ أي الأرض المقدسة ﴿وَمَغَارِبَهَا﴾ يعني الأردن وفلسطين. ويقال مشارق الأرض يعني الشام. ومغاربها ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني بالبركة، الماء والثمار الكثيرة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ يقول وجبت نصرة ربك بالإحسان ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد[٤] هو ظهور قوم موسى على فرعون وتمكين الله لهم في الأرض. وقال مقاتل: يعني بالكلمة التي ذكرها في سورة القصص ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وقال الكلبي: وتمت كلمة ربك يعني نعمة ربك الحسنى يعني أنهم يجزون

---

(١) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٩١، والدر المنثور ٣/١١١.

(٢) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/١٩١. (٣) سقط من أ.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير عن ابن أبي نجيح ١٣/٧٨ وعنده وغيره عن مجاهد (تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) وهي قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. . .) انظر تفسير الطبري ١٣/٧٦ ـ ٧٧ وتفسير ابن كثير ٣/٤٦٤.

الحسنى الجنة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ ولم يدخلوا في دين فرعون. ويقال وتمت كلمة ربك. أي: ما وعدهم الله من إهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض ثم قال ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ يعني أهلكنا ما كان يعمل فرعون وأبطلنا كيده ومكره ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يعني أهلكنا ما كانوا يبنون من البيوت والكروم.

وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي[١] بكر يَعْرُشُونَ بضم الراء.

وقرء الباقون بالكسر ومعناهما واحد. قوله تعالى:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يقول مروا[٢] على قوم يعني يعبدون الأصنام ويقومون على عبادتها، وكل من يلازم شيئاً ويواظب عليه يقال عكفه، ولهذا سمي الملازم للمسجد معتكفاً. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً﴾ قال الجهال من بني إسرائيل لموسى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها. ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ يعني تكلمتم بغير علم وعقل وجهلتم الأمر قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني مهلك مفسد ما هم فيه من عبادة الأصنام ﴿وَبَاطِلٌ﴾ يعني ضلال ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والتبار الهلاك. كقوله تعالى (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً) أي هلاكاً. ثم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً﴾ يعني أسوى الله آمركم أن تعبدوا وتتخذوا إلهاً ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني: على عالمي زمانكم يعني أنه قد أحسن إليكم فلا تعرفون إحسانه وتطلبون عبادة غيره، وهم الذين كانوا أجابوا السامري حين دعاهم إلى عبادة العجل بعد انطلاق موسى إلى الجبل. ثم ذكر النعم فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ (من آل فرعون يعني اذكروا حين أنجاكم الله من آل فرعون وقرأ الباقون وإذ أنجيناكم)[٣]. قرأ ابن عامر[٤] وإِذْ أَنْجَاكُمْ يعني اذكروا حين أنجاكم الله ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وقرأ الباقون وإذ أنْجيناكُم. ومعناه مثل ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني: يعذبونكم بأشد العذاب. ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني: يستخدمون نساءكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: الإنجاء نعمة من ربكم عظيمة ويقال في قتل الأبناء واستخدام النساء بلية من ربكم عظيمة.

قرأ نافع[٥] يَقْتُلُونَ أبناءكم بنصب الياء مع التخفيف.

وقرأ الباقون بضم الياء وكسر التاء مع التشديد (يُقَتِّلونَ) على معنى التكثير.

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٤، سراج القاري ٢٢٦.

(٢) قرأ حمزة والكسائي (يعكِفون) بكسر الكاف. وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان: تقول عكف يعكف ويعكف وكذلك عرش يعرش ويعرش. انظر حجة القراءات ٢٩٤.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٢٩٤، سراج القاري ٢٢٦.

(٥) انظر المصدرين السابقين.

وقرأ حمزة والكسائي[1] «يَعْكِفُونَ» بكسر الكاف.

وقرأ الباقون بالضم (يَعْكُفُونَ). قوله تعالى:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ قرأ أبو عمرو ووَعَدْنَا بغير ألف. والباقون بالألف. ومعناهما واحد ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ يعني: ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة. ويقال ثلاثين من ذي الحجة وعشر من المحرم، والمناجاة في يوم عاشوراء، وكانت المواعدة ثلاثين يوماً وأمر بأن يصوم ثلاثين يوماً، فلما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف فمه فاستاك عود خرنوب وقيل بورقة موز. فقالت له الملائكة كنا نجد من فيك ريح المسك فأفسدته بالسواك، فأمر بأن يصوم عشراً أخر فصارت الجملة أربعين يوماً كما قال في آية أخرى (وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) يعني صارت في الجملة أربعين ولكن مرة ثلاثين يوماً ومرة عشرة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يعني ميعاد ربه أربعين ليلة يعني ميعاد ربه ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي﴾ يعني: قال له قبل انطلاقه إلى الجبل اخلفني ﴿فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي على قومي ﴿وَأَصْلِحْ﴾ يعني: مرهم بالصلاح. ويقال وأصلح بينهم ويقال ارفق لهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي؛ ولا تتبع سبيل أي: طريق العاصين ولا ترضى به واتبع سبيل المطيعين. وقال بعض الحكماء من ههنا ترك قومه عبادة الله وعبدوا العجل لأنه سلمهم إلى هارون ولم يسلمهم إلى ربهم، ولهذا لم يستخلف النبي بعده وسلم أمر أمته إلى الله تعالى فاختار الله لأمته أفضل الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فأصلح بينهم. قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ يعني: لميعادنا لتمام أربعين يوماً، ويقال ليمقاتنا أي: للوقت الذي وقتنا له ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ فسمع موسى كلام الله تعالى بغير وحي فاشتاق إلى رؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ انظر صار جزماً لأنه جواب الأمر ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ يعني إنك لن تراني في الدنيا ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ يعني انظر إلى أعظم جبل بمدين ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ يعني سوف تقدر أن تراني إن استقر الجبل مكانه معناه: كما أن الجبل لا يستقر لرؤيتي فإنك لن تطيق رؤيتي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال الضحاك. ألقى عليه من نوره فاضطرب الجبل من هيبته. يعني من رهبة الله تعالى. وقال القتبي تجلى ربه للجبل. أي ظهر وأظهر من أمره ما شاء. يقال جلوت المرآة والسيف إذا أبرزته من الصدأ وكشف عنه، وجلوت العروس إذا أبرزتها. فلما تجلى ربه للجبلِ أي: جبل زبير ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾. قرأ حمزة والكسائي[2] جعله دكاء بالهمز يعني جعله أرضاً دكاء. وقرأ الباقون دَكًا بالتنوين. يعني دَكَّه دكاً قال

(١) تقدم في الحاشية.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٥، سراج القاري ٢٢٦.

بعضهم صار الجبل قطعاً فصار على ثمان قطع فوقع ثلاث بمكة وثلاث بالمدينة واثنان بالشام. ويقال صار ستة فرق، ويقال صار أربع فرق، ويقال صار كله رملاً عالجاً، أي ليناً. وروى عكرمة عن ابن[١] عباس أنه قال جعله دكاً أي تراباً وقال القتبي جعله دكاً أي ألصقه بالأرض ويقال ناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام [٢]أي تراباً. وروي عن وهب بن منبه[٣] أنه قال: لما سأل موسى النظر إلى ربه أمر الله الضباب والصواعق والظلمات والرعد والبرق فهبطن حتى أحطن بالجبل، وأمر الله تعالى ملائكة السموات فهبطوا وارتعدت فرائص[٤] موسى وتغير لونه. فقال له جبريل: اصبر لما سألت ربك فإنما رأيت قليلاً من كثير، فلما غشي الجبل النور خمد كل شيء وانقطعت أصوات الملائكة وأنهار الجبل من خشية الله تعالى حتى صار دكاً قوله تعالى ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ قال مقاتل يعني ميتاً. كقوله عز وجل: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمواتِ﴾ يعني مات، ويقال وخر موسى صعقاً أي: مغشياً عليه ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من غشيانه، قال مقاتل رد الله حياته إليه ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قولي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ روى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: قد كان قبله من المؤمنين. ولكن يقول أول من آمن بأنّه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة[٥]. وقال مقاتل أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا. وقال القتبي أراد به في زمانه كقوله (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) ويقال معناه ثبت إليك بأن لا أسألك بعد هذا سؤالاً محالاً فاعترف أنه طلب شيئاً في غير حينه وأوانه ووقته.

وقال الزجاج: قد قال موسى أرني أنظر إليك يعني أرني أمراً عظيماً لا يرى مثله في الدنيا مما لا تحتمل عليه نفسي. (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) أي أمر ربه، قال وهذا خطأ ولكن لما سمع كلامه قال يا رب إنِّي سمعت كلامك وأحب أن أراك. قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ يعني بنبوتي. قرأ ابن كثير ونافع بِرِسَالَتِي[٦].

وقرأ الباقون برسَالاَتي بلفظ الجماعة ومعناهما واحد. أي: اختصصتك بالنبوة ﴿وَبِكَلَامِي﴾ أي: بتكلمي معك من غير وحي ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي: اعمل بما أعطيتك ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لما أعطيتك. وقال القتبي قوله وأنا أول المؤمنين أراد به في زمانه كقوله (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) قوله تعالى:

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١١٩/٣ وعزاه لابن جرير ٩٧/١٣ (٥٠٧٨) وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الروية. وانظر معالم التنزيل للبغوي ١٩٧/٢.

(٢) سقط في ظ. (٣) انظر الخازن ٢٨٣/٢.

(٤) الفريصة المضغة التي بين الثدي ومرجع الكتف من الرجل والدابة انظر لسان العرب ٣٣٨٦/٥.

(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٠٣/١٣، وانظر تفسير ابن كثير ٤٦٩/٣.

(٦) انظر حجة القراءات ٢٩٥، سراج القاري ٢٢٧.

بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ روي عن سعيد بن جبير[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أعطى الله تعالى موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة. قال التوراة مكتوبة، ويقال طول الألواح عشرة أذرع ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ من الجهل ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني تبياناً لكل شيء من الحلال والحرام.

قال الفقيه ـ رحمه الله تعالى ـ حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن القاري قال حدثنا أبو بكر بن أبي العوام قال حدثنا أبي قال حدثنا يحيى بن سابق عن خيثمة بن خليفة عن ربيعة عن أبي جعفر عن جابر[٢] بن عبد الله أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كان فيما أعطى الله موسى في الألواح عشرة أبواب: يا موسى لا تشرك بي شيئاً فقد حق القول مني لتلفحن وجوه المشركين النار. واشكر لي ولوالديك أقك المتالف وانسىء لك في عمرك وأحييك حياة طيبة وأقلبك إلى خير منها. ولا تقتل النفس التي حرمتها إلا بالحق فتضيق عليك الأرض برحبها والسماء بأقطارها وتبوء بسخطي ونار. ولا تحلف باسمي كاذباً فإني لا أطهر ولا أذكي من لم ينزهني ولم يعظم أسمائي. ولا تحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله فإن الحاسد عدو لنعمتي راد لقضائي ساخط لقسمتي التي أقسم بين عبادي. ولا تشهد بما لم يقع بسمعك ويحفظ قلبك فإني لواقف أهل الشهادات على شهاداتهم يوم القيامة ثم أسألهم عنها سؤالاً حثيثاً. ولا تزن ولا تسرق فأحجب عنك وجهي وأغلق عنك أبواب السماء. وأحبب للناس ما تحب لنفسك. ولا تذك لغيري فأني لا أقبل من القربان إلا ما ذكر عليه اسمي وكان خالصاً لوجهي وتفرغ لي يوم السبت وجميع أهل بيتك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى جعل يوم السبت لموسى عيداً واختار لنا يوم الجمعة فجعلها لنا عيداً.

قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ يعني اعمل بما أمرك الله بجد ومواظبة عليها ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يعملون بما فيها من الحلال والحرام. ويقال أمرهم بالخير وانههم عن الشر. يعني اعملوا بالخير وامتنعوا عن الشر ويقال اعملوا بأحسن الوجوه. وهو أنه لو يكافىء ظالمه وينتقم منه جاز، ولو تجاوز كان أحسن. وقال الكلبي[٣]: كان موسى عليه السلام أشد عبادةً من قومه فأمر بما لم يؤمروا به يعني أمر بأن يعمل بالمواظبة وأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن الفعل ثم قال ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قاتل مقاتل: يعني سنة أهل مصر[٤]. يعني هلاكهم حين قذفهم البحر فأراهم سنة الفاسقين في التقديم ويقال جهنم هي دارُ الكافرين،ويقال إذا سافروا أراهم منازل عاد وثمود،[٥] وقال مجاهد مصيرهم في الآخر إلى النار قوله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ يعني أصرف قلوب الذين يتكبرون عن الإيمان حتى لا يؤمنوا فأخذ لهم بكفرهم ولا أو فقهم. بتكذيبهم الأنبياء مجازاة لهم. ويقال أمنع قلوبهم من التفكر في أمر الدين وفي خلق والسموات والأرض الذين يتكبرون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني يتعظمون عن الإيمان لكي لا يتفكروا في السماء ولا يعقلون فيها ولا يذكرونها. ويقال سأصرف عن النعماء التي أعطيتها المؤمنين يوم القيامة، أصرف عنهم تلك النعمة، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ امتنعوا منها كي ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٢١. وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٢٢ وعزاه لابن مردويه وأبي نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق وانظر حلية الأولياء ٣/٢٦٥ ـ ٢٦٦ وقال غريب من حديث أبي جعفر وحديث ربيعة ولم تكتبه إلا بهذا الإسناد من هذا الوجه.
(٣) انظر تفسير البغوي ٢/٢٠٠.
(٤) انظر تفسير البغوي ٢/٢٠٠.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وبن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ يعني طريق الحق، الإسلام ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ يعني لا يتخذوه ديناً ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ يعني طريق الضلالة والكفر ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ أي: ديناً ويتبعونه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ قال مقاتل أي: بآياتنا التسع. وقال الكلبي يعني بمحمد والقرآن ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ يعني: تاركين لها.

قرأ حمزة والكسائي سبيل الرَّشَدِ[1] بنصب الراء والشين.

وقرأ الباقون الرُّشْدِ بضم الراء وإسكان الشين. وهما لغتان ومعناهما واحد.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بمحمد والقرآن ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ يعني: كذبوا بالبعث بعد الموت ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: بطلت حسناتهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ أي: هل يثابون ﴿إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: في الدنيا. قوله تعالى:

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني من بعد انطلاقه إلى الجبل. وذلك أن موسى عليه السلام لما وعد لقومه ثلاثين يوماً فتأخر عن ذلك، قال السامري لقوم موسى إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون فعاقبكم الله تعالى بتلك الخيانة ومنع الله عنا موسى. فاجمعوا الحلي الذي أخذتم من آل فرعون حتى نحرقها فلعل الله تعالى يرد علينا موسى، فجمعوا الحلي، وكان السامري صائغاً فجعل الحلي في النار واتخذ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ وقد كان رأى جبريل على فرس الحياة. فكلما وضع الفرس حافره (ظهر النبات في موضع حافره) فأخذ كفاً من أثر حافره من التراب وألقى ذلك التراب في العجل فصار العجل من حليهم عجلاً جسداً. قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز. إنّما معنى الجسد معنى الجثة فقط وروي عن ابن عباس قال: صار عجلاً له لحم ودم وله خوار يعني صوت مثل صوت العجل ولم يسمع منه إلا صوت واحد. وقال بعضهم سمع منه صوت ولم يسمع منه[2] إلا مثل صوت العجل. وقال بعضهم جعله مشتبكاً فدخل فيه الريح فسمع منه صوت مثل صوت العجل، فقال لقومه هذا إلهكم وإله موسى فاغتر به الجهال من بني إسرائيل وعبدوه قال الله تعالى ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني لا يقدر على أن يكلمهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ يعني لا يرشدهم طريقاً ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني: كافرين بعبادتهم إياه.

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٩٥، سراج القاري ٢٢٧.

(٢) سقط من أ.

وقرأ حمزة والكسائي[١] من حِلِيِّهِم بكسر الحاء. وقرأ الباقون من حُلِيِّهِم بضم الحاء. فمن قرأ بالكسر فهو اسم لما يحسن به من الذهب والفضة.

ومن قرأ بالضم فهو جمع الحَلْي، ويقال كلاهما جمع الحَلْي وأصله الضم إلا أن من كسر فلاتباع الكسرة بالكسرة. قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ**﴾ يعني: ندموا على ما صنعوا، يقال: سقط في يده إذا ندم وأصله أن الإنسان إذا ندم جعل يده على رأسه ﴿**وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا**﴾ أي: علموا أنهم قد ضلوا عن الهدى ﴿**قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا**﴾.

قرأ حمزة والكسائي[٢] لئن لم تَرْحَمْنَا بالتاء على معنى المخاطبة رَبَّنَا بالنصب يعني يا ربنا.

وقرأ الباقون لئن لم يرحمنا رَبُّنا بالياء وضم الباء على معنى الخبر ﴿**وَيَغْفِرْ لَنَا**﴾ بعد التوبة. عطف على قوله لئن لم يرحمنا ربنا ﴿**لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ يعني من المغبونين. قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ**﴾ يعني: من الجبل ﴿**غَضْبَانَ أَسِفاً**﴾ يعني حزيناً. ويقال الأسف في اللغة شدة الغضب ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ ويقال أشد الحزن كقوله ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ﴿**قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي**﴾ يعني بعبادة العجل. يعني بئسما فعلتم في غيبتي ﴿**أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**﴾ يعني استعجلتم ميعاد ربكم، ويقال أعصيتم أمر ربكم، ويقال: معناه أعجلتم بالفعل الذي استوجبتم به عقوبة ربكم ﴿**وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ**﴾ من يده. قال الكلبي: انكسرت الألواح وصعد عامة الكلام الذي كان فيها من كلام الله تعالى إلى السماء. وقال بعضهم هذا الكلام في ظاهره غير سديد. لأن الكلام صفة والصفة لا تفارق الموصوف، فلا يجوز أن يقال الكلام يصعد ويذهب. ولكن تأويله أن الألواح لما انكسرت ذهب أثر المكتوب منها. وهذا إذا كان من غير الأحكام، وأما الأحكام أيضاً فلا يجوز أن تذهب عنه، وإنما أراد بذلك حجة عليهم. وروي في الخبر أن الله تعالى أخبر موسى أن قومه عبدوا العجل. قال موسى يا رب من اتخذ لهم العجل؟ قال السامري. قال ومن جعل فيه الروح؟ قال أنا. قال فأنت فتنت قومي. قال له ربه تركتهم لمرادهم. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليس الخبر كالمعاينة[٣] لما أخبر الله تعالى بأن قومه قد عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما عاين ألقى الألواح ثم قال ﴿**وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ**﴾ يعني أخذ بشعر رأسه ولحيته ﴿**يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ**﴾ (يعني قال له هارون: يا ابن أمي لا تأخذ بلحيتي)[٤] قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص[٥] يا ابنَ أمَّ بنصب الميم. وقرأ الباقون بالكسر. وهكذا في سورة طه. فمن قرأ بالنصب جعله كاسم واحد، كأنه يقول يا ابن أماه. كما يقال يا ويلتاه ويا حسرتاه ومن قرأ بالكسر فهو على معنى الإضافة إلى نفسه وكان موسى أخاه لأبيه وأمه ولكن ذكر الأم ليرفعه عليه ﴿**إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي**﴾ يعني قهروني واستذلوني ﴿**وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي**﴾ يعني: هموا بقتلي ﴿**فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ**﴾ يعني: لا تفرح على أعدائي. يعني الشياطين ويقال أصحاب العجل ﴿**وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ يعني لا تظنن أني رضيت بما فعلوا قال موسى ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي**﴾ بما فعلت بأخي هارون، ويقال: لإلقاء الألواح ﴿**وَ**﴾ اغفر ﴿**لأَخِي**﴾ ما كان منه من التقصير في

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٩٦، سراج القاري ٢٢٧. (٢) انظر حجة القراءات ٢٩٦ ـ ٢٩٧، سراج القاري ٢٢٨.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٧١، وابن حبان أورده الهيثمي في الموارد (٢٠٨٧)، والخطيب في التاريخ ٣/٣٦٠، ٦/٥٦، ٨/١٢، ٢٨ وابن عبد البر في التمهيد ٤/٣٣٤ والاستذكار ١/٤٩ وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/٢٠٣، ٤/١٥٨٠، ٧/٢٤٩٣ ونسبه العجلوني في كشف الخفاء فضلاً عن هؤلاء لابن منيع والطبراني والعسكري والبغوي والدارقطني في الأفراد.

(٤) سقط في ظ. (٥) انظر حجة القراءات ٢٩٧، سراج القاري ٢٢٨.

تركهم على عبادة العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ يعني جنتك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يعني: أنت أرحم بنا منا بأنفسنا. وقال الحسن: يعني أنت أرحم بنا من الأبوين قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ يعني: اتخذوا العجل إلهاً ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يصيبهم عذاب من ربهم ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما أمروا بقتل أنفسهم، ويقال: هذا قول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم يعني يصيب أولادهم ذلة في الحياة الدنيا وهي الجزية ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب المكذبين. ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ يعني: رجعوا عن الشرك بالله وعن السيئة ﴿وَآمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ ومن بعد التوبة ويقال: من بعد السيئات ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بعني «لغفور» لذنوبهم «رحيم» بهم بعد التوبة. ثم رجع إلى قصة موسى عليه السلام وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أخذ الألواح يعني: لما سكت عن موسى الغضب ويقال: ولما سكت موسى عن الغضب ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ يعني في بقيتها، فنسخت له الألواح وأعيدت له في اللوحتين مكان التي انكسرت ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يعني: فيما بقي منها بياناً من الضلالة ورحمة من العذاب ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يعني: يخافون الله ويعملون له بالغيب. ويقال وفي نسختها يعني في كتابتها هدى من الضلالة ورحمةٌ من العذاب للذين يخشون ربهم قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَه﴾ أي: من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ يعني للميقات الذي وقتنا له ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني الزلزلة تزلزل الجبل بهم فماتوا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ يعني من قبل أن يصحبوني ﴿وإِيَّايَ﴾ بقتل القبطي ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ قال الكلبي ظن موسى أنه إنما أهلكهم باتخاذ بني إسرائيل العجل[١].

وروي عن عليّ بن أبي طالب أنه قال: انطلق موسى وهارون ومعهما شَبَّر وَشَبِيِّر وهما ابنا هارون حتى انتهوا إلى جبل وفيه سرير فنام عليه هارون فقبض. فرجع موسى إلى قومه فقالوا له أنت قتلته حسداً على خلقه ولينه. قال كيف أقتله ومعي ابناه؟ فاختاروا من شئتم فاختاروا سبعين فانتهوا إليه فقالوا له من قتلك يا هارون قال ما قتلني أحد ولكن توفاني الله تعالى: فأخذتهم الرجفة فماتوا كلهم فقال موسى رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي[٢].

---

(١) انظر معالم التنزيل ٢/٢٠٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٨/٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت وابن جرير ١٤٢/١٣ وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وعزاه صاحب البحر المحيط لابن أبي شيبه. انظر البحر ٣٩٩/٤.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لما انطلق موسى إلى الجبل أمر بأن يختار سبعين رجلاً من قومه، فاختار من كل سبط ستة رجال فبلغوا اثنين وسبعين، فقال موسى إني أمرت بسبعين فليرجع اثنان ولهما أجر من حضر. فرجع يوشع بن نون وكالوب بن يوقنا. فذهب موسى مع السبعين إلى الجبل. فلما رجع إليهم موسى من المناجاة قالوا له إنك قد لقيت ربك فأرنا الله جهرة حتى نراه كما رأيته، فجاءتهم نار فأحرقتهم فماتوا. فقال موسى: حين أماتهم الله تعالى «رب لو شئت أهلكتهم من قبل» هذا اليوم وإياي معهم أتهلكنا بما فعل السفهاء منا[1] يعني أتوقعني في ملامة بني إسرائيل وتعييرهم بفعل هؤلاء السفهاء، ثم أحياهم الله تعالى.

وروى أسباط عن السدي قال إن موسى انطلق بسبعين من بني إسرائيل يعتذرون إلى ربهم عن عبادة العجل. وذكر نحو حديث عبد الله بـن عباس. ثم قال ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ يعني بليتك وعذابك. ويقال يعني عبادة العجل بليتك حيث جعلت الروح فيه ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: بالفتنة ﴿مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ من الفتنة ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: حافظنا وناصرنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ يعني ذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يعني ولا تعذبنا. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ يعني: المتجاوزين عن الذنوب. قوله تعالى:

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني: اقضي لنا وأعطنا في الدنيا العلم والعبادة والنصرة والرزق الحسن الحلال ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني وأعطنا في الآخرة حسنة. وهي الجنة ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني: تبنا إليك وأقبلنا إليك. هكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وقتادة[2]. وأصله في اللغة الرجوع من الشيء إلى الشيء ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ يعني هذا عذابي أخص به من أشاء من العباد من كان أهلاً لذلك ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إنْ رحمتهم ويقال: إن الزلزلة والرجفة كانتا عذابي وأنا أنزلتها وأنا أصيب بالعذاب من أشاء، وما سألت من الغفران فمن رحمتي، ورحمتي وسعت كل شيء من كان أهلاً لها ويقال لكـل شيء حظ من رحمتي. وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري[3] عن قتادة والحسن قالا: ورحمتي التي وسعت كل شيء يعني: وسعت في الدنيا البر والفاجر، وفي يوم القيامة للذين اتقوا خاصة. ويقال لما نزلت هذه الآية ورحمتي وسعت كل شيء تطاول إبليس وقال أنا من تلك الأشياء، فأكذبه الله تعالى وآيسه فأنزل قوله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني فسأقضيها

---

(١) انظر البحر المحيط ٤/٣٩٩، وذكره السيوطي في الدر ١٢٨/٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٨٨/٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٠/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم أبي الشيخ، وانظر تفسير الطبري ١٥٩/١٣.

وسأوجبها للذين يتقون الشرك(١) ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقالت اليهود والنصارى نحن آمنا بالآيات وهي التوراة والإنجيل ونعطي الزكاة فهذه الرحمة لنا. فأكذبهم الله تعالى وأنزل ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ الآية. ويقال ورحمتي وسعت كل شيء يعني: طمع كل قوم برحمتي وأنا أوجبتها للمؤمنين. وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يتقون الشرك ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون. يعني: يصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم الذي لا يكتب ولا يقرأ الكتب. قال الزجاج: الأُمِّيُّ الذي هو على خِلْقَةِ أمه لم يتعلم الكتابة وهو على جبلته، ويقال إنما سمي محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لأنه كان من أم القرى وهي مكة ثم قال﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مكتوباً عندهم﴾ يعني يجدون نعته وصفته ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني شرائع الإسلام بالتوحيد ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عن الشرك وما لا يعرف في الشريعة ولا في السنة ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: يرخص لهم الحلالات من الشحوم واللحوم وأشباهها ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ يعني: ويبين لهم الحرام، الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يعني: ثقلهم من العهود.

قرأ ابن عامر(٢) آصَارَهُمْ على معنى الجماعة. وأصل الإصر الثقل فسمي العهد إِصْراً لأن حفظ العهد يكون ثقيلاً، ويقال: يعني: الأمور التي كانت عليهم في الشرائع، ويقال هو ما عهد عليهم من تحريم الطيبات، ثم قال ﴿وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهي كناية عن أمور شديدة. لأن في الشريعة الأولى كان الواحد منهم إذا أصابه البول في ثوبه وجب قطعه. وكان عليهم ألا يعملوا في السبت وغير ذلك من الأعمال الشديدة فوضع عنهم ذلك ثم قال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني صدقوه وأقروا بنبوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني عظموه وشرفوه. ويقال أعانوه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ بالسيف ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ يعني القرآن ﴿الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: والناجون في الآخرة وهم في الرحمة التي قال الله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قوله:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ
اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٨، سراج القاري ٢٢٨.

﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني يا أهل مكة ويقال: هو لجميع الناس ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ ويقال: إنه أول نداء نادى به في مكة بهذه الآية، وكان من قبل يدعو واحداً واحداً. فلما نزلت هذه الآية أظهر ونادى في الناس يا أيها الناس إنِّي رسول الله إليكم جميعاً من ذلك الرب ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق في السماء ولا في الأرض إلا هو ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يعني: يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا ويحيي للبعث ثانياً. ويقال يحيي يعني: يخلق الخلق من النطفة ويميتهم عند انقضاء آجالهم. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يعني يصدق بالله ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ يعني: القرآن. قال السدي[١]: وكَلِمَتُهُ يعني صدق بأن عيسى صار مخلوقاً بكلمة الله ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من الضلالة. قوله ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يعني جماعة يدعون إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعني وبالحق يعملون. وقال بعضهم يعني به مؤمني أهل الكتاب. وهم عبد الله بن سلام وأصحابه. وهذا كما قال في آية أخرى (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ) الآية وقال بعضهم هم قوم من وراء الصين « من أمة موسى » ما وراء رمل عالج.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسري به إلى البيت المقدس ومعه جبريل. فرفعه إليهم وكلمهم وكلموه فقال لهم جبريل هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا لا. قال فإن هذا محمد النبي الأمي. قالوا يا جبريل وقد بعثه الله تعالى؟ قال: نعم. فآمنوا به وصدقوه وقالوا يا رسول الله إن موسى بن عمران أوصى إلينا أن من أدرك ذلك النبي منكم فليقرأ عليه السلام مني ومنكم ورد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على موسى ورد عليهم السلام. ثم قال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لي أرى بيوتكم مستوية؟ قالوا لأنا قوم لا يبغي بعضنا على بعض، قال فمالي لا أرى عليها أبواباً؟ قالوا إنا لا يضر بعضنا بعضاً. قال فمالي لا أراكم تضحكون؟ قالوا ما ضحكنا قط لأن الله تعالى أخبرنا في كتابه أن جنهم عرضها ما بين الخافقين. وقعرها الأرض السفلى. وقد أقسم الله تعالى ليملأنها من الجنة والناس أجمعين. قال فهل تبكون على الميت؟ قالوا يا رسول الله كيف نبكي على الميت وكلنا ميتون. وهو سبيل لا بد منه. والله أعطانا والله أخذ منا. قال فهل تمرضون؟ قالوا:[٢] يا رسول الله إنما يمرض أهل الذنوب والخطايا فأما نحن فمعصومون بدعاء نبي الله موسى عليه السلام. قال فكيف تموتون إذا لم تمرضوا؟ قالوا إذا استوفى أحدنا رزقه جاءه ملك الموت فقبض روحه فندفنه حيث يموت قال فهل تحزنون إذا ولد لأحدكم جارية قالوا يا رسول الله لا ولكنا نصوم لله تعالى شهراً شكراً فإذا ولد لأحدنا غلام نصوم لله شهرين شكراً لله تعالى. قال فهل فيكم حيات وعقارب؟ قالوا نعم قال كيف تصنعون[٣] بهن قالوا: يا رسول الله نمشي عليهن ويمشين علينا ولا نؤذيهن ولا تؤذينا آمنات منا ونحن آمنون منهن. قال فهل لكم ماشية؟ قالوا نعم نجز أصوافها فنتخذ منه الأفنية والأكسية ونأكل من لحومهن الكفاف وكل أهل القرية فيها شرع أي سواء ليس أحد أحق به منا. قال فهل تزِنُون أو يوزن عليكم؟ قالوا لا نزن ولا يوزن علينا ولا نكيل ولا يكال علينا ولا نشتري ولا نبيع. قال فمن أين تأكلون؟ قالوا يا رسول الله نخرج فنزرع ويرسل الله تعالى السماء علينا فينبته ثم

(١) انظر البحر المحيط ٤٠٦/٤. (٢) سقط من أ. (٣) سقط في ظ.

نخرج إليه فنحصده ونضعه في أماكن من القرية، فيأخذ أهل القرية منها الكفاف ويدعون ما سواه. قال فهل تجامعون النساء؟ قالوا نعم يا رسول الله لنا بيوت مظلمة وثياب معلومة فإذا أردنا المجامعة لبسنا ثيابنا تلك ودخلنا تلك البيوت لا يرى الرجل عورة امرأته ولا المرأة عورة زوجها. قال فهل فيكم زنا؟ قالوا يا رسول الله لا فإن فعل ذلك أحد منا لظننا أن الله تعالى يبعث عليه ناراً فيحرقه أو يخسف به الأرض. ولكن إذا كان للرجل منا ابنة طلبها منه رجل فيزوجه إياها إرادة الأجر والعفة. قال فهل تكنزون الذهب والفضة؟ قالوا لا يا رسول الله إنما يكنز الذهب والفضة من لا يثق بالله ومن يرى أن الله تعالى لم يتكفل له برزقه، فأما نحن فلا نكنز الذهب والفضة. فأقرأهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر سور من القرآن أنزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة فعلمهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن وأمرهم بالصلاة والزكاة ورجع من ليلته[1] وقال قتادة: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال قد أعطيتم مثلها ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾. يعني في هذه الأمة ثم قال ﴿وَقَطَّعْنَاهم﴾ يعني: بني إسرائيل فرقناهم ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾ يعني جماعة، والأسباط جَمْعُ. والسبط في بني إسرائيل مثل القبيلة عند العرب. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ يعني في التيه ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ إلى قوله ﴿رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ كل ذلك مذكور في سورة البقرة. قرأ أبو عمرو[2] نَغْفِر لكم بالنون خَطَايَاكُمْ وقرأ ابن عامر تُغْفَرُ لكم بالتاء والضم خطِيئَتُكُمْ بالرفع وبلفظ الواحد. وقرأ نافع تُغْفَرَ لكم بالتاء والضم. خَطِيئَاتُكُمْ بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون نَغْفِر لكم بالنون خطيئاتِكُمْ بلفظ الجماعة. قوله تعالى:

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

(١) ذكره القرطبي مختصراً انظر ١٩٢/٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٩٨ ـ ٢٩٩، سراج القاري ٢٢٨.

تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ واسمها أيلة. وذلك أن اليهود قالوا نحن من أبناء إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - فلا يعذبنا الله تعالى إلا مقدار عبادة العجل. فقال الله تعالى واسألهم عن القرية يعني أهل القرية[1] التي كانت حاضرة البحر كيف عذبهم الله تعالى بذنوبهم. ثم أخبر عن ذنوبهم فقال تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يعني أنهم استحلوا الصيد في يوم السبت، ويقال: يعتدون في يوم السبت، وأصل الاعتداء هو الظلم، يقال عدوت على فلان إذا ظلمته واعتديت عليه. ثم قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ يعني يوم استراحتهم شوارع في الماء. وهو جمع الشارع ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ يعني إذا لم يكن يوم السبت ويوم الراحة لا تأتيهم وإنما تم الكلام عند قوله تأتيهم ثم ابتدأ فقال ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ يعني: هكذا نختبرهم. وقال بعضهم إِنَّمَا يتم الكلام عند قوله: ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك يعني لا تأتيهم كما تأتيهم يوم السبت لأن في يوم السبت تأتيهم الحيتان شارعات من أسفل الماء إلى أعلاه وفي سائر الأيام يأتيهم القليل ولا يأتيهم كما يأتيهم في يوم السبت ثم ابتداء الكلام فقال ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني نختبرهم بما كانوا يعصون الله تعالى ثم قال عز وجل:[2] ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عصبة وجماعة منهم. وهي الظلمة، للأمة الواعظة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ لأن الواعظة نهوهم عن أخذ الحيتان وخوفوهم. فرد عليهم الظلمة لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾. قرأ عاصم[3] في إحدى الروايتين[4] مَعْذِرةً بالنصب. يعني: نعتذر إلى ربكم معذرة. وقرأ الباقون مَعْذِرَةٌ بالضم يعني هي معذرة، يعني لا ندع الأمر بالمعروف حتى نكون معذورين عند الله تعالى ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني لعلهم ينتهون ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعني تركوا ما وعظوا به ﴿أَنْجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني عذبنا الذين تركوا أمر الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ يعني شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني يعصون ويتركون أمر الله تعالى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان القوم ثلاثة فرق. فرقة كانوا يصطادون وفرقة كانوا ينهون وفرقة لم ينهوا ولم يستحلوا وقالوا للواعظة: لم تعظون قوماً الله مهلكهم[5]. وروى أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال: أتيت ابن[6] عباس وهو يقرأ في المصحف ويبكي فدنوت منه حتى أخذت بلوحي المصحف وقلت ما يبكيك؟ قال تبكيني هذه السورة وهو يقرأ سورة الأعراف. وقال هل تعرف أيلة؟ قلت نعم. قال إن الله تعالى أسكنها حياً من اليهود وابتلاهم بحيتان حرمها عليهم يوم السبت وأحلها لهم في سائر الأيام، فإذا كان يوم السبت خرجت إليهم الحيتان، فإذا ذهب السبت غابت في البحر حتى يغوص لها الطالبون، وإن القوم اجتمعوا واختلفوا فيها، فقال فريق منهم: إنما حرمت عليكم يوم السبت أن تأكلوها، فصيدوها يوم السبت وكلوها في سائر الأيام. وقال الآخرون بل حرم عليكم أن تصيدوها أو تنفروها أو تؤذوها، وكانوا ثلاث فرق، فرقة على أَيْمانهم وفرقة على شمائلهم وفرقة على وسطهم، فقالت الفرقة اليمنى فجعلت تنهاهم في يوم السبت وجعلت تقول الله يحذركم بأس الله، وأما الفرقة اليسرى فأمسكت أيديها وكفت ألسنتها، وأما الوسطى فوثبت على السمك تأخذه، وجعلت الفرقة الأخرى التي كفت أيديها وألسنتها ولم تتكلم تقول: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً. فقال الذين ينهون معذرة إلى ربكم ولعلكم تتقون فدخل الذين أصابوا السمك

---

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في أ. (٣) انظر حجة القراءات ٣٠٠، سراج القاري ٢٣٠.

(٤) في رواية حفص. (٥) انظر تفسير ابن كثير ٤٩٣/٣.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٧/٣ وعزاه لعبد الرزاق ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن.

إلى المدينة وأبى الآخرون أن يدخلوا معهم، فغدا هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا المدينة فجعلوا ينادون من فيها فلم يجبهم أحد فقالوا لعل الله خسف بهم أو رموا من السماء بحجارة. فارفعوا رجلاً ينظر، فجعلوا رجلاً على سلم فأشرف عليهم فإذا هم قردة تتعادى ولها أذناب قد غير الله تعالى صورهم بصنيعهم فصاح إلى القوم فإذا هم قد صاروا قردة، فكسروا الباب ودخلوا منازلهم فجعلوا لا يعرفون أنسابهم ويقولون لهم ألم ننهكم عن معصية الله تعالى ونوصيكم؟ فيشيرون برؤوسهم بلى. ودموعهم تسيل على خدودهم فأخبر الله تعالى (أنه أنجى الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا)[١] قوله «أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس». ولا يدري ما صنع بالذين لم ينهوا ولم يأخذوا. وقال عكرمة: بل أهلكهم الله لأنه أنجى الذين ينهون عن السوء وأهلك الفريقين الآخرين فوهب له ابن عباس بردة بهذا الكلام. وروي في رواية أخرى أنهم كانوا يأخذون الحظائر والحياض بجنب البحر ويسيلون الماء فيها يوم السبت من البحر حتى يدخل فيها السمك (ويأخذونه في يوم الأحد فقالوا: إنا نأخذه في يوم الأحد فلما لم يعذبوا استحلوا الأخذ في يوم السبت)[٢] من البحر، وقالوا إنما حرم الله على ابنائنا ولم يحرم علينا، فنهاهم الصلحاء فلم يمتنعوا فضربوا حائطاً بينهم وصارت الواعظة في ناحية والذين استحلوا في ناحية والحائط بين الفريقين، فأصبحوا في يوم من الأيام ولم يفتح الباب الذي بينهما فارتقى واحد منهم الحائط فإذا القوم قد مسخوا إلى قردة، وقال بعضهم كان القوم أربعة أصناف، صنف يأخذون وصنف يرضون وصنف ينهون وصنف يسكتون. فنجا صنفان وهلك صنفان، قال بعضهم كانوا صنفين: صنف يأخذون وصنف ينهون. وروى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال كانوا ثلاث فرق فهلك الثاني ونجا الثالث والله أعلم ما فعل بالفرقة الثالثة. قرأ نافع[٣] بعذاب بِيْس بكسر الباء وسكون الياء بلا همز وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بعذاب بَيْأس بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة. وقرأ الباقون بعذاب بئيس بنصب الباء وكسر الياء والهمزة وسكون الياء وهي اللغة المعروفة. والأولى لغة لبعض العرب. ثم قال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ يعني تركوا ما وعظوا به ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يعني صاغرين مبعدين عن رحمة الله. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ يعني: أعلم ربك ويقال: قال ربكم، وكل شيء في القرآن تأذن فهو إعلام، ومعناه قال ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ أي ليسلطن ﴿عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: على بني إسرائيل والذين لا يؤمنون بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني يعذبهم بالجزية والقتل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب من أصر على كفره ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿رَحِيمٌ﴾ بعد ذلك، ثم قال ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ أي: فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: فرقاً ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ أي المؤمنون وهم مؤمنو أهل الكتاب. ويقال هم الذين وراء رمل عالج ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وهم الكفار منهم ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ يعني اختبرناهم بالخصب والجدوبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى الإيمان ثم قال ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني بعد بني إسرائيل خلف السوء ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ يقول: يستحلون أخذ الحرام من هذه الدنيا وهو الرشوة في الحكم ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قال مجاهد[٤] يعني: يأخذون ما يجدون حلالاً أو حراماً ويتمنون المغفرة ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: وإن يجدوا مثله من العرض يأخذوه ويقال: معناه: إنهم يصرون على الذنوب وأكل الحرام فإذا أخذوا أول النهار يعودون إليه في آخر النهار ولا يتوبون عنه ويقال[٥] يطلبون بعلمها الدنيا ويقال يأخذون عرض هذا

---

(١) سقط في ظ.
(٢) سقط في ظ والمثبت في أ.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٠٠، سراج القاري ٢٣٠.
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٢١٢/١٣.
(٥) سقط في ظ.

الأدنى ويقولون سيغفر لنا هذه المرة وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ويقولون مثل ذلك: أي سيغفر لنا لأنا لا نشرك بالله شيئاً. وقال سعيد بن[(١)] جبير: يأخذون عرض هذا الأدنى. يقول يعملون بالذنوب ويقولون سيغفر لنا. ما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار وما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل. وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه يعني الذنوب. قال الله تعالى: **﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾** يعني ألم يؤخذ عليهم ميثاقهم في التوراة **﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾** أي إلا الصدق **﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾** أي قرءوا ما فيه: **﴿وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** أي: يتقون الشرك ويحلون حلاله ويحرمون حرامه **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** أن الآخرة خير من الدنيا ويقال أفلا يعقلون ما يدرسون من الكتاب ويقال: أفلا يعقلون أن الإصرار على الذنوب ليس من علامة المغفورين. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية[(٢)] حفص أَفَلَا تَعْقِلُونَ بالتاء على وجه المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة. قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾** يعني يعملون بالتوراة ولا يغيرونها عن مواضعها **﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾** يعني أتموا الصلاة المفروضة **﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾** يعني: عمل الموحدين وهم الذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[(٣)] يُمسكون بالتخفيف. وقرأ الباقون يُمَسِّكُون بالتشديد على معنى المبالغة ثم قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول قلعنا ورفعنا الجبل فوقهم **﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** أي: كهيئة الغمام **﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾** أي: أنه يعني أيقنوا الجبل واقع بهم **﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾** أي: قيل لهم اعملوا بما أعطيناكم من التوراة بقوة أي :بجد ومواظبة **﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾** أي :اعملوا ما فيه من الحلال والحرام والأمر والنهي[(٤)] **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** المعاصي وذلك حين أبوا أن يقبلوا التوراة. فرفع الجبل فوقهم فقبلوا وقوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾** أي: اذكر يا محمد إذ أخذ ربك ويقال معناه وقد أخذ ربك من بني آدم، من ظهور بني آدم **﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾** يعني: أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم وقال بعضهم يعني الذرية التي تخرج وقتاً بعد وقت إلى يوم القيامة **﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** فقال لهم **﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾** يعني إنَّ كل بالغ تشهد له خلقته بأن الله تعالى واحد **﴿شَهِدْنَا﴾** يعني قال الله تعالى شهدنا **﴿أَنْ تَقُولُوا﴾** أي لكيلا تقولوا، ويقال هذا كراهة أن يقولوا **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**. وروي عن أبي صالح عن ابن[(٥)] عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله مسح على ظهر

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٩/٣ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الشعب وانظر تفسير الطبري ٢١٢/١٣.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٠١.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) سقط في ظ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر وعزاه لابن عبد البر في التمهيد.

آدم فأخرج ذريته من صلبه كهيئة الذر، من هو مولود إلى يوم القيامة فقال لهم ألست بربكم قالوا بلى، شهدنا بأنك ربنا، قال بعضهم هذا التفسير لا يصح. وطعنوا فيه من وجوه. أحدها أن الرواية لم تصح لأنها رواية أبي صالح. وأبو صالح ليس ممن يعتمد على روايته[١] لأنه روي عن الشعبي أنه كان يمر بأبي صالح ويفرك أذنه ويقول له إنك لم تحسن أن تقرأ القرآن فكيف تفسره بالرأي، قالوا ولأن هذا غير محتمل في اللغة لأنه قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم، قالوا ولأنه لا يجوز من الحكيم أن يخاطب الذر وإنما يجوز خطاب من هو عاقل، ومن كان مثل الذر كيف يجوز خطابه، قالوا ولأنه لا يجوز أن تكون حجة الله بشيء لم يذكر وإنما تكون الحجة بشيء يكون الإنسان ذاكراً له، قالوا ولأن الله تعالى قال: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ولم يقل أحييتنا ثلاث مرات. ولكن الجواب أن يقال إن الرواية صحيحة لأنّ الآثار قد جاءت عن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لا يجوز دفعه، فمن ذلك ما حدثنا الخليل بن أحمد. قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم وهو ابن علية عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[٢] رضي الله عنهما... في قوله تعالى وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم. قال مسح الله تعالى ظهر آدم فأخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ ميثاقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى. قال حدثنا الشيخ الرئيس أبو طاهر محمد بن داود قال حدثنا محمد بن أحمد باستراباذ قال حدثنا أحمد بن زكريا قال حدثنا عبد السلام بن صالح عن جعفر بن سليمان عن أبي هارون العبدي عن أبي سعيد[٣] الخدري قال حججنا مع عمر في أول خلافته فوقف على الحَجَر ثم قال: أما إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبَّلك ما قبلتك. فقال له عليٌّ رضي الله عنه لا تقلِ هذا يا أمير المؤمنين فإنه يضر وينفع بإذن الله. ولو أنك قرأت القرآن وعلمت ما فيه ما أنكرت على ما قلت. قال الله تعالى: **﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى﴾** فلما أقروا بالعبودية على أنفسهم كتب إقرارهم في رق ثم دعا هذا الحِجر، فقال له افتح قال فألقمه. ذلك الرق، فهو أمين الله في هذا المكان يشهد لمن استلمه ووافاه يوم القيامة. فقال له عمر رضي الله عنه لقد جعل الله بين ظهرانيكم من العلم غير قليل. وروى ربيع بن أنس. عن أبن العالية عن أبي بن[٤] كعب في قوله تعالى: **﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾** الآية قال جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً ثم صورهم ثم استنطقهم ثم قال ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا بأنك ربنا. قال فإني أرسل إليكم رسلي وأنزل عليكم كتبي فلا تكذبوا رسلي وصدقوا وعدي وأخذ عهدهم وميثاقهم فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال آدم رب لو شئت سويت بين عبادك فقال إني أحببت أن أشكر قال والأنبياء يومئذ مثل السرج. فأخذ عليهم ميثاق الرسالة أن يبلغوها فهو قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ..﴾** الآية. قال الفقيه أخبرني الثقة بإسناده عن مالك بن أنس عن زيد بن أبي أنيسه عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار أن عمر بن الخطاب[٥]

---

(١) انظر ميزان الاعتدال ٤/٥٣٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٤١ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٤٤ وعزاه للجندي في فضائل مكة وأبو الحسن القطان في الطولات والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان وضعّفه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٤٢ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الله بن أحمد بن حنبل في فوائد المسند وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن منده في كتاب الرد على الجهمية واللالكائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر في تاريخه.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٤٢ وعزاه للحاكم وأبي الشيخ وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في الأسماء والصفات.

رضي الله عنه سئل عن هذه الآية فقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن هذه الآية فقال إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح على ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار. وبهذا احتج الجبرية أن ما عمل عبد عملاً من خير أو شر إلا ما قدره الله تعالى يوم الميثاق. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما خلق الله تعالى آدم أخرج ذريته من ظهره مثل الذر، فقال لأصحاب اليمين هؤلاء في الجنة ولا أبالي وقال للآخرين هؤلاء في النار ولا أبالي[1]. وروي أسباط عن السدي في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. قال لما أخرج الله تعالى آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمين فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر. فقال ادخلوا الجنة برحمتي. ومسح صفحة ظهره اليسرى أخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال لهم ادخلوا النار ولا أبالي فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. ثم أخذ منهم الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى. فأجابه طائفة طائعين وطائفة كارهين فقال هو والملائكة شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين[2]. فلما رويت فيه من الأخبار من طرق شتى لا يجوز رده، ويرجع الطعن إلى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي الله تعالى عنهم ويجب للطاعن أن يطعن في فهم نفسه لا في الصحابة. وهذا كقوله ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أما الجواب عن قولهم إنه قال من ظهورهم ولم يقل من ظهر آدم فالمعنى في ذلك والله أعلم أنه قد أخرج ذرية آدم الذين هم ولده من صلبه ثم أخرج من ظهورهم ذريتهم ثم أخرج من بعدهم حتى أخرج جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة فأخرج من ظهورهم كل نسمة تخرج من ظهره. فذكر الأخذ من ظهور ذريته ولم يذكر ظهر آدم لأن في الكلام دليلاً عليه كما قال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يذكر فرعون لأن في الكلام دليلاً عليه. وأما الجواب عن قولهم إنه لا يجوز خطاب الذر فعن هذا القول جوابان. أحدهما: أنه يجوز أن يكونوا كالذر في الصغر ويرزقهم الله تعالى: من العقل ما يكونوا به من أهل الخطاب، ألا ترى أن نملة سليمان بن داود عليهما السلام قد تكلمت بكلام العقلاء وفهم ذلك عنها سليمان وسبّح الطير والجبال مع داود. فكذلك هذا. والجواب الثاني: أنهم كانوا كالذر في الإزدحام والكثرة. لا في الخلقة والجثة. ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم (لأن الذر إذا كثرت وازدحمت لا يعرف عددها. فكذلك ذرية آدم كانوا في الكثرة والازدحام مثل الذر ولكنهم في الخلقة مثل خلقتهم اليوم)[3]. والجواب عن قولهم أنَّه لا تكون الحجة بشيء لم يذكر: أن يقال أن الله تعالى قد أرسل الرسل وأخبرهم بذلك الميثاق. وإذا أخبرهم الرسل بذلك صار حجة عليهم، فإن قيل إن الرسل وإن أخبروهم فإذا لم يذكروا ذلك فكيف يصير حجة عليهم؟ قيل لهم وإن لم يذكروا صار قول الثقات حجة عليهم. ألا ترى أن رجلاً لو طلق امرأته وقد نسي فشهد عليه شاهدان عدلان بأنه قد طلقها قبل غيبته عنها. يجب عليه أن يقبل قولهما، وكذلك لو صلى فشهد عليه عدلان أنه ترك ركعة من صلاته وجب عليه أن يأخذ بقولهما وإن كان لا يذكر فكذلك ههنا. والجواب عن قولهم إنه لم يقل أحييتنا ثلاث مرات لأن الإحياء المعروف مرتان فذكر الإحياء الذي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٨٦ والحاكم في المستدرك ١/٣١.
(٢) انظر السيوطي في الدر المنثور ٣/١٤١، وانظر تفسير الطبري ١/٢٤٢.
(٣) سقط من أ.

كان معروفاً عنده وقوله تعالى: (شَهِدْنَا) قال بعضهم هذا حكاية عن قول الذرية قالوا بلى شهدنا وتم الكلام. ثم في الآية مضمر ومعناه أخذنا عليهم الميثاق لكي لا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (وقال بعضهم إنما تم الكلام عند قوله بلى ثم إنه قال تعالى شهدنا يعني شهدنا عليكم وأخذنا عليكم الميثاق لكيلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين)[١] ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾ أي: لكيلا تقولوا ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ونقضوا العهد ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ لم نعلم به ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آباؤنا المشركون. فإن قيل هل كان إقرارهم إيماناً منهم؟ قيل له أما المؤمنون كان إقرارهم إيماناً وأما الكافرون فلم يكن إقرارهم إيماناً لأن إقرارهم كان تقية ولم يكن حقيقة قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو[٢] ذرياتهم بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون ذريتهم بلفظ واحد ـ لأن الذرية قد أضافها إلى الجماعة فاستغنى عن لفظ الجمع. وقرأ أبو عمرو أن يقولوا بالياء، وكذلك في قوله أو يقولوا. وقرأ الباقون كليهما بالتاء على معنى الخطاب. قوله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يعني: هكذا نبين الآيات في أمر الميثاق ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى اقرارهم وإلى التوبة. فالواو الأولى للعطف وهو قوله وكذلك والواو الثانية زيادة للوصل وهي قوله ولعلهم يرجعون ومعناه: وكذلك نفصل الآيات لعلهم يرجعون. أي لكي يرجعوا. قوله تعالى:

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إن لم يرجعوا بذكر الميثاق ولم يتوبوا ولم يتعظوا فاتل عليهم ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ أي: خبر الذي أعطيناه ﴿آيَاتِنَا﴾ يعني أكرمناه باسم الله الأعظم، ويقال: آتيناه آياتنا يعني الكتب وهي علم التوراة وغيره ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ يعني: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، ويقال تهاون بها ولم يعرف حقها ولا حرمتها وخرج منها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ يقول غره الشيطان ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: فصار من الظالمين وفي الضالين. قال بعضهم[٣] هو بلعم بن باعوراء، كان عابداً من عباد بني إسرائيل وكان مستجاب الدعوة فنزع الله تعالى الإيمان عنه بدعاء موسى عليه السلام. وذلك أن موسى عليه السلام قاتل فرعوناً من الفراعنة، فجمع ذلك الفرعون الكهنة والسحرة فقال لهم أعينوني على هؤلاء. يعني قوم موسى، فقالوا لن تستطيعهم ولكن بجوارك رجل منهم فلو بعثت إليه واستعنت به، فبعث الملك إلى بلعم فلم يجبه فبعث الملك إلى امرأة بلعم الهدايا وطلب منها بأن تأمره بأن يجيب الملك، فجاءته «امرأته» وقالت نحن في جوار هذا الملك فلا بد لك من إجابته، فأجابهم إلى ذلك وركب أتاناً له وخرج إليهم فسار حتى إذا كان في بعض الطريق وقفت أتانه فضربها، فلما ألح عليها كلمته الأتان وقالت أنظر إلى ما بين يديك فنظر فإذا هو جبريل. قال له خرجت مخرجاً ما كان ينبغي لك أن تخرج، فإذا خرجت فقل حقاً. قال فلما قدم عليه أمر له بالذهب والفضة والخدم والفرش فقبل. فقال له قد دعوتك لتدعو لي على هذا

(١) زيادة في أ. (٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٠١، سراج القاري ٢٣١. (٣) انظر أسباب النزول ١٦٩.

العسكر دعوة قال غداً، فلما تلاقى القوم، قال بلعم: إن بني إسرائيل أمة موسى ملعون من لعنهم ومبارك من بارك عليهم. فقالوا له ما زدتنا إلا خبالاً. قال بلعم ما استطعت غير ما رأيت. ولكني أدلك على أمر إن فعلته فوقعوا به خُذلوا ونصرت عليهم، تعمد إلى نساء حسان فتجعل عليهن الحلي والثياب والعطر ثم ترسلهن في عسكرهم، فإن وقعوا بهن خذلوا، ففعل ذلك فما تعرض لهن منهم إلا سفهاؤهم فخذلوا. فأخبر بذلك موسى فدعا عليه فنزع الله منه الإيمان. وقال[١] بعضهم إنما هو أمية بن أبي الصلت. قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان وكان يخبر أنَّ نبينا يبعث وكان قد أظل زمانه، وكان يرى أن الوحي ينزل عليه لكثرة علمه، فلما سمع بخروج النبي - صلى الله عليه وسلم - وقصته كفر حسداً له. وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع شعره قال آمن لسانه وكفر قلبه. فذلك قوله آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ثم قال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا﴾ يعني بالآيات، ويقال: رفعناه في الآخرة بما علمناه من آياتنا ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني أمية بن أبي الصلت أو بلعم بن باعوراء، مال إلى الدنيا ورضي بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: هوى نفسه ويقال عمل بهوى المرأة وترك رضى الله، ويقال: أخذ مسافل الأمور وترك معاليها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ يقول مثل بلعم كمثل الكلب ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ يقول إن طردته فهو يلهث ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ يعني: وإن تركته فهو يلهث. قال القتبي: كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب فإنه يلهث في حال الراحة والصحة والمرض، فضرب الله تعالى به مثلاً، يعني كما أن الكلب إن طردته أو تركته يلهث فكذلك بلعم أو أمية بن أبي الصلت إن وعظته لم يتعظ وإن تركته لم يفعل. وقال مجاهد[٢]: يعني الكفار إن قرىء عليهم الكتاب لم يقبلوا وإن لم يقرأ عليهم لم يعملوا[٣] هم أهل مكة ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَتِنَا﴾ يعني ذلك صفة الذين جحدوا نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ أي: اقرأ عليهم القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لكي يتعظوا بأمثال القرآن ويؤمنوا به قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلاً﴾ يعني: بئس مثل ﴿الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَتِنَا﴾ يعني بئس مثل من كان مثل الكلب. وإنما ضرب المثل بالكلب تقبيحاً لمذهبهم. ويقال بئس مثل القوم الذين كذبوا وكانت صفتهم مثل صفة بلعم وهم أهل مكة كذبوا بآياتنا فلم يؤمنوا بها مثل بلعم ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ يعني: يضرون بأنفسهم. ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ يعني: من يهده الله لدينه فهو المهتدي من الضلالة ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ يعني ومن يضله عن دينه ويخذله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ بالعقوبة، قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً﴾ يعني خلقنا لجهنم كثيراً ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ فإن قيل قد قال في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فأخبر أنه خلق الجن والإنس لعبادته، وههنا يقول خلقهم لجهنم. قيل له قد خلقهم للأمرين جميعاً، منهم من يصلح لجهنم فخلقه لها، ومنهم من يصلح للعبادة فخلقه لها. ولأن من لا يصلح لشيء لا يخلقه لذلك الشيء. ويقال معنى قوله إلا ليعبدون يعني إلا للأمر والنهي، ويقال إلا ليعبدون يعني

---

(١) انظر أسباب النزول ١٧٠.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/٢٧٢.
(٣) سقط في ظ.

إلا لكي يمكنهم أن يعبدوا وقد بينت لهم الطريق، ويقال في هذه الآية تقديم وتأخير ومعناه: ولقد ذرأنا جهنم لكثير من الجن والأنس ثم وصفهم فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يعني لا يعقلون بها الحق كما قال في آية أخرى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني الهدى ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني: الهدى ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ﴾ فشبههم بالأنعام لقلة رغبتهم وتغافلهم عن الحق، يعني إنهم كالأنعام في ذهنهم لا في صورهم لأنه ليس للأنعام إلا الأكل والشرب، فهي تسمع ولا تعقل كذلك الكافر هو غافل عن الأمر والنهي والوعد والوعيد ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ سبيلاً يعني الكفار أخطأ طريقاً من الأنعام، لأن الأنعام إذا عرفت أنها تركت الطريق رجعت إلى الطريق، والكفار لا يرجعون إلى الطريق، ولأن الأنعام تعرف ربها والكفار لا يعرفون ربهم. ويقال لما نزلت هذه الآية أولئك كالأنعام. تضرعت الأنعام إلى ربها فقالت: يا ربنا شبهت الكفار بنا ونحن لا ننكر وحدانيتك. فأعذر الله تعالى الأنعام فقال: «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» من الأنعام لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكفار غير مطيعين لله تعالى ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يعني عن أمر الله تعالى وعما ينفعهم. قال الفقيه أبو الليث حدثنا الفقيه أبو جعفر. قال حدثنا أبو يعقوب إسحاق بن عبد الله القاري. قال حدثنا حازم بن يحيى الحلواني قال حدثنا الحسين بن الأسود. قال حدثنا أبو أسامة عن يزيد بن سنان عن أبي منيب الحمصي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي الدرداء[1] قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنفاً حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنفاً كالريح في الهواء، وصنفاً عليهم الثواب والعقاب، وخلق الله الإنس ثلاثة أصناف. صنفاً كالبهائم وهم الكفار قال: قال الله تعالى لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا إلى قوله أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ». وصنفاً آخر أجسادهم كأجساد بني آدم وأرواحهم كأرواح الشياطين، وصنفا في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله».. قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وذلك أن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن. فقال أبو جهل أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين. فأنزل الله تعالى: «وِللَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» الرحمن الرحيم الملك القدوس ونحوه. فدعا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجل فقال ادع الله أو ادع الرحمن رغماً لأنف المشركين. ويقال ولله الأسماء الحسنى يعني الصفات العلى «فادعوه بها». وروى أبو هريرة[2] رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة. ومن أسمائه عز وجل الرحمن الرحيم وقد ذكرنا تفسيرها. ومن أسمائه الأحد وأصله الوحد بمعنى الواحد وهو الذي ليس كمثله شيء، ومنها الصمد وهو السيد الذي صمد إليه كل شيء أي قصده، ومنها القيوم وهو البالغ في القيام بكل ما خلق، ومنها الولي يعني المتولي أمور المؤمنين، ومنها اللطيف وهو الذي يلطف بالخلق من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، ومنها الودود المحب الشديد المحبة ومنها الظاهر والباطن الذي يعلم ما ظهر وما بطن، ومنها البديع الذي ابتدع الخلق على غير مثال، ومنها القدوس أي ذو البركة ويقال الطاهر، ومنها الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء، ومنها الحنان أي ذو الرحمة والعطف، ومنها المنان الكثير المن على عباده، ومنها الفتاح يعني الحاكم، ومنها الديان يعني المجازي، ومنها الرقيب يعني الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ومنها ذو القوة المتين يعني الشديد القوة على أمره، ومنها الوكيل الذي يتوكل بالقيام بجميع ما خلق، ومنها السبوح الذي تنزه عن كل سوء، ومنها السلام يعني: الذي سَلِم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٤٧ وعزاه للحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وأبي يعلي وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/٣٧٧ في التوحيد باب إن لله مائة إسم إلا (٧٣٩٢) ومسلم ٤/٢٠٦٣ في كتاب الذكر (٦/٢٦٧٧).

الخلق من ظلمه، ومنها المؤمن الذي أمن الخلق من ظلمه، ومنها العزيز أي: المنيع الذي لا يغلبه شيء، ومنها المهيمن يعني: الشهيد، ومنها الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد ومنها المتكبر الذي تكبر عن ظلم العباد ومنها الباري يعني الخالق، وساير الأسماء التي ثبتت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن الصحابة رضي الله عنهم. وقال الزجاج: لا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يصف به نفسه ولم يسم به نفسه فيقول يا جواد. ولا ينبغي له أن يقول يا سخي. لأنه لم يسم به نفسه، وكذلك يقول يا قوي. ولا يقول يا جلد. ثم قال: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ حمزة يلحدون[1] بنصب الياء والحاء وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء (يُلْحِدُونَ) فمن قرأ بالنصب فمعناه وذروا الذين يميلون في أسمائه يعني يُحَوِّرون ويمارون في أسمائه ويعدلون. فسموا اللات والعزى. ومن قرأ بالضم فمعناه وذورا الذين يجادلون ويمارون في أسمائه، ويقال إن الله تعالى قد احتج على الكفار بأربعة أشياء، بالخلق وهو قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ وقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً ولو اجتمعوا له﴾ والثاني في الملك وهو قوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وقال في الأوثان ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً﴾ والثالث في القوة وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيب ذو القوة المتين وقال في الأوثان ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ فوصفهم بالعجز. والرابع بالأسماء فقال ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال في الأوثان ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ويقال إن الكفار أرادوا أن يسموا آلهتهم الله فجرى على لسانهم اللات وقال أهل اللغة[2] إنما سمى اللات لأنه كان عنده رجل كان يلت السويق، وأرادوا أن يسموا العزيز فجرى على لسانهم العزى وأرادوا أن يسموا منان فجرى على لسانهم مناة، وبقيت تلك الأسماء للأصنام وأصل الإلحاد هو الميل ولهذا سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية ثم قال ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني وسيهانون[3] ويعاقبون بما كانوا يعملون من الشرك والإلحاد في الأسماء.

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِ﴾ يعني جماعة وهم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يهدون بالحق يعني يدعون إلى الحق ويأمرون بالحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُون﴾ يعني بالحق يعملون وذلك أنه لما نزل قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالحَقِّ﴾ قال أناس من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله قد ذكر الله تعالى هؤلاء الرهط بالخير الجسيم من بني إسرائيل إن آمنوا بك وجعل لهم أجرين ولنا أجراً واحداً وقد

(١) انظر حجة القراءات ص ٣٠٣: قال الكسائي: هما لغتان يقال (لحد وألحد) وقال غيره: (يلحدون أي يطعنون في أسمائه ويلحدون: يعرضون). وكان ابن جريج يقول: (يلحدون) قال: اشتقوا أسماء آلهتهم من أسماء الله، اشتقوا (العزى) من العزيز، (اللات) من الله. وقال أبو عبيد: (يلحدون: يجورون ولا يستقيمون، وإنما سمي (اللحد) لأنه في ناحية ولو كان مستقيماً كان ضريحاً) وحجة الرفع قوله: (ومن يرد فيه بإلحاد) أي ـ باعتراض. حجة القراءات ٣٠٣.

(٢) سقط في ظ. (٣) سقط في ظ.

صدقناك والرسل والكتب فنزل «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّة» يعني من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يهدون بالحق وبه يعدلون. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني بمحمد والقرآن ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ يعني سنأخذهم بالعذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني من حيث لا يشعرون وقال الكلبي: يعني نزين لهم فنهلكهم من حيث لا يعلمون. يقول سنأتيهم بالعذاب وهم المستهزءون فيقتل كل رجل منهم بغير قتلة صاحبه. وقال القتبي الاستدراج أن يذيقهم من بأسه قليلاً قليلاً، ويقال استدرج فلان فلاناً يعني يعرف ما عنده وأصل هذا من الدرجة لأن الراقي يرقى درجة درجة فاستعير من هذا كقوله تعالى (وَالْمُرسَلاَتِ عُرْفاً) يعني الملائكة يتابعون بعضهم بعضاً كعرف الفرس وكقوله تعالى ﴿وَيَقْبِضُون أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: يمسكون عن العطية وقال السدي[1] سنستدرجهم يعني كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها ثم نأخذهم من حيث لا يعلمون. فذلك الاستدراج ثم قال ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يعني: وأمهلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِيْن﴾ يعني: أن عقوبتي شديدة ويقال إن صنيعي محكم، ويقال إن أخذي شديد ثم قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفكَّروا﴾ يعني: أهل مكة فيما يأمرهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعبدوا خالقهم ورازقهم وكاشف الضرعنهم ولا يعبدوا من لا يقدر على شيء منه، أمثل هذا يكون مجنوناً ويقال معناه أولم يتفكروا في دلائل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعجزاته ليستدلوا بأنه نبي. وقد تم الكلام. ثم استأنف فقال ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ ويقال هذا على وجه البناء ومعناه أولم يتفكروا ليعلموا ما بصحابهم من جنة يعني: جنوناً. ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صعد ذات ليلة الصفا فدعا قريشاً إلى عبادة الله تعالى بأسمائهم فرداً فرداً[2] فقال بعضهم إن صاحبكم لمجنون فوعظهم الله تعالى فقال أولم يتفكروا. يقول أو لم يجالسوه ويكلموه هل به من جنون ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: رسولاً بيناً وهذا كقوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفَكَّروا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ) ووعظهم ليعتبروا في صنعه فيوحدوه فقال ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: في خلق السموات والأرض ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ في السماء من الشمس والقمر والنجوم وما خلق الله في الأرض من الجبال والبحار وغير ذلك فيعتبروا ويؤمنوا بأن الذي خلق الذي ترون هو رَبّ واحد لا شريك له ﴿وَأَنْ عَسَى﴾ يعني وينظروا في أن عسى ﴿أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني قد دنا هلاكهم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني إن لم يؤمنوا بالقرآن فبأي حديث يؤمنوا بعد القرآن لأن هذا آخر الكتب نزولاً وليس بعده كتاب ينزل ثم قال تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ أي: من يخذله الله عن دين الإسلام فلا هادي له إلى الهدى ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتركهم في ضلالتهم يترددون. قرأ أبو عمرو وَيَذَرُهُمْ[3] بالياء وضم الراء على معنى الخبر وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وَنَذَرُهُمْ بالنون وضم الراء وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وَيَذَرْهُمْ بالياء وجزم الراء وجعلوه جواب الشرط. ومعناه من يضلل الله يذره.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا

(١) ذكره السيوطي ٣/١٤٩ وعزاه لابن أبي حاتم أبي الشيخ.
(٢) انظر البحر المحيط ٤/٤٣١.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٠٣، سراج القاري ٢٣١.

مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾أي: قيام الساعة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى حينها وقيامها. ويقال هذا الكلام على الاختصار، ومعناه أي أوان قيامها ثم قال ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: علم قيام الساعة عند ربي وما لي بها من علم ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يكشفها لحينها إلا الله، ويقال لا يقدر أحد على إظهارها إلا هو. يعني: إلا الله، ويقال لا يعلم أحد قيامها إلا هو ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: ثقل علم قيام الساعة على أهل السموات وأهل الأرض، ويقال ثقلت أي: خفي علمها، وإذا خفي الشيء ثقل علمه، ويقال معناه ثقل حمل ذكرها لفظاعة شأنها وأمرها. ثم قال ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يعني فجأة ثم قال ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال مقاتل كأنك استحفيت عنها السؤال حتى علمتها(١). وقال القتبي: أي كأنك حفي تطلب علمها، ومنه يقال تحفى فلان بالقوم إذا بالغ في البر، ويقال كأنك حفي عنها أي كأنك جاهل بها، ويقال في الآية تقديم: ومعناه يسألونك كأنك حفي عنها يعني كأنك عالم بها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وروى إبراهيم بن يوسف بإسناده أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأله رجل. فقال: متى الساعة؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن أشراط الساعة عشرة. يقرب فيها الماحل ويطرف فيها الفاجر ويعجز فيها المنصف وتكون الصلاة مناً والزكاة مغرماً والأمانة مغنماً واستطالة القراء، فعند ذلك تكون إمارة الصبيان وسلطان النساء ومشورة الإماء. ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني علم قيامها عند الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها كائنة ولا يصدقون بها. قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ قال مقاتل يعني: لا أقدر لنفسي أن أسوق إليها خيراً أو أدفع عنها ضراً حين ينزل بي فكيف أملك علم الساعة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيصيبني ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: غيب النفع والضر إذ جاء ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ يعني لاستكثرت من النفع وما أصابني الضر. وقال الكلبي: (٢) إنّ أهل مكة قالوا له ألا يخبرك ربك بالبيع الرخيص قبل أن يغلو فتشتريه فتربح فيه فنزل قل لهم ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير للجدوبة والقحط، ويقال لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح. وقال الضحاك: قال لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً يعني الغني والفقر إلا ما شاء الله إن شاء أغنى عبده وإن شاء أفقره، ولو كنت أعلم الغيب أي: مواضع الكنوز لاستخرجتها. وما مسني السوء يعني الفقر ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: مخوف بالنار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ يعني مبشراً بالجنة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بالبعث.

هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ

---

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور مثله عن مجاهد ٣/١٥١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر تفسير الخازن ٢/٢٦٥ وزاد المسير ٣/٢٩٩.

إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني من نفس آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني خلق من نفس آدم، من ضلع من أضلاعه اليسرى زوجته حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يعني ليطمئن إليها ويجامعها، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: سكن إليها وجامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ يعني: خفيف الماء ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت بالحمل، يقول قامت بالحمل وقعدت ولا تدري أهي حبلى أم لا ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ يعني ثقل الولد في بطنها ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وذلك أن إبليس أتاها فقال يا حواء ما هذا الذي في بطنك؟ قالت ما أدري. قال أخاف إنها بهيمة وإني من الله بمنزلة، فإن دعوت الله فولدت إنساناً صالحاً أتسميه باسمي؟ قالت نعم. وما اسمك. قال: عبد الحارث فكذب فدعت حواء وآدم فذلك قوله دعوا الله ربهما ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾ يعني أعطيتنا ولداً سوياً صحيح الجوارح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وهذا قول سعيد[(١)] بن جبير رواه عن ابن عباس. وروى معمر عن قتادة أنه قال: كان آدم لا يولد له ولد إلا مات فجاء الشيطان وقال إن سرك أن يعيش ولدك فسمه عبد الحارث ففعل، فأشركا في الاسم ولم يشركا في العبادة. وروي عن السدي[(٢)] أنه قال: اسم إبليس هو الحارث يوم لعن، فأراد أن ينسب إليه فأمرها فسمته عبد الحارث فعاش بعد ذلك أياماً ثم مات. فذلك قوله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ يعني أعطاهما ﴿صَالِحاً﴾ خلقاً آدمياً سوياً ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر[(٣)] جَعَلاَ لَهُ شِرْكاً بكسر الشين وجزم الراء. وقرأ الباقون شُرَكَاء بالضم ونصب الراء. فمن قرأ بالكسر فهو على معنى التسمية وهو اسم يقوم مقام المصدر. ومن قرأ بالضم فمعناه جعلا له شركاء يعني الشريك في الاسم. وإنما ذكر الشركاء وأراد به الشريك يعني الشيطان. فإن قيل من قرأ بالكسر كان من حق الكلام أن يقول جعلا لغيره شركاً لأنهما لا ينكران أن الأصل لله تعالى وإنّما جعلا لغيره شركاً أي: نصيباً، قيل له معناه جعلا له شركاء يعني ذا شرك. فذكر الشرك والمراد به شركه كقوله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) أي: أهل القرية . فضرب الله تعالى بهذا مثلاً للكفار يعني كما أن آدم وحواء. أعطاهما ورزقهما فاشركوا في عبادته. ثم نزه نفسه عن الشرك فقال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: هو أعلا وأجل من أن يوصف بالشرك ثم رجع إلى قصة الكفار فقال الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ يعني أيشركون الآلهة مع الله تعالى: وهم كفار مكة ما لا يخلق شيئاً وهي الآلهة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: ينحتون ويصنعونها بأيديهم ﴿وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ يعني: لا يستطيعون نصراً لمن يعبدهم ﴿وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني: لا يستطيعون أن يمتنعوا مما نزل بهم من العذاب ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ قال الكلبي يعني الآلهة. وإن يدع المشركون آلهتهم إلى أمر ﴿لاَيَتَّبِعُوكُمْ﴾ يعني لا يتبعهم آلهتهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ لا تعقل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٥٢/٣ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر تفسير الطبري ٣١١/١٣.

(٣) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٠٤، سراج القاري ٢٣٢.

شيئاً لأنه ليس فيها روح. وقال مقاتل وإن تدعوهم إلى الهدى يعني كفار مكة «لا يتبعوكم» لايتبعوكم يعني النبي عليه السلام «سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون» فلا يؤمنون. قرأ نافع[1] لا يَتْبَعُوكُمْ بجزم التاء وقرأ الباقون بالنصب والتشديد لا يتَّبِعُوكُم، وهما لغتان تبعه وأتْبعه معناهما واحد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ يعني تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يعني مخلوقين مملوكين أشباهكم وليسوا بآلهة ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنها آلهة. ثم قال عز وجل: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ يعني في حوائجكم ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ يعني يعطون بها ويمنعون عنكم الضر ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ يعني عبادتكم ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني دعاءكم. وقد احتجت المشبهة بهذه الآية أن من لا يكون له يد ولا رجل ولا بصر لا يصلح أن يكون إلهاً. ولكن لا حجة لهم في ذلك. لأن الله تعالى بين ضعف معبودهم وعجزهم وبين أنهم اشتغلوا بشيء لا فائدة فيه ولا منفعه لهم في ذلك. ثم قال ﴿قُلِ﴾ يا محمد يعني لكفار مكة ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُم﴾ يعني آلهتكم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ يعني اعملوا بي ما شئتم ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ يعني: لا تمهلون ولا تؤجلون، لأنهم خوفوه بآلهتهم. قرأ أبو عمرو ثم كِيدُوني بالياء في حال الوصل. وقرأ الباقون بغير الياء. ثم قال عز وجل:

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ يعني حافظي وناصري الله الذي نزل الكتاب. يعني: القرآن، ويقال إن الذي يمنعني منكم الله الذي أنزل جبريل بالكتاب ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ يعني: المؤمنين فيحفظهم ولا يكلهم إلى غيره ثم قال ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني تعبدون من دون الله ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون منعكم ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي يمنعون ممن أذاها، لأن الكفار كانوا يلطخون العسل في فم الأصنام، وكان الذباب يجتمع عليه فلا تقدر دفع الذباب عن نفسها. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ قال الكلبي يعني إن دعا المشركون آلهتهم لا يسمعون أي يجيبونهم[2]: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني الأصنام تراهم مفتحة أعينهم وهم لا يبصرون شيئاً. قال مقاتل: وإن تدعوهم إلى الهدى يعني كفار مكة لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون الهدى. قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما[3]: يعني خذ ما أعطوك من الصدقة يعني ما فضل من الأكل والعيال. ثم نسخ بآية الزكاة، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ يعني الفضل وأمر بالمعروف يعني: ادعهم إلى التوحيد ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي من جهل عليك مثل أبي جهل وأصحابه، وكان ذلك قبل

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٠٥، وسراج القاري ٢٣٢.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٣/٣٢٨.

(٣) انظر الطبري ١٣/٣٢٨، زاد المسير ٣/٣٠٨.

أن يؤمر بالقتال، ويقال خُذِ الْعَفْوَ وَأْمرْ بالْعُرْفِ يعني: اعف عمن ظلمك وأعط من حرمك وصل من قطعك. قال الفقيه أبو الليث حدثنا عن الشعبي الخليل بن أحمد قال حدثنا الدبيلي قال حدثنا أبو عبيد الله وحدثنا سفيان عن أبي هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لما نزلت هذه الآية خُذِ الْعَفْوَ وَ أمُرْ بِالْعُرْفِ وأعرض عن الجاهلين سأل عنها جبريل. فقال جبريل حتى أسأل العالم. فذهب ثم أتاه فقال يا محمد إن الله تعالى يأمرك أن تَصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عن من ظلمك[١]. وقال القتبي في قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوتيت جوامع الكلم[٢] فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر في هذه الآية كيف جمع له في هذا كل خلق عظيم، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وصلة الأرحام وغض البصر، وفي الإعراض عن الجاهلين الحلم وتنزيه النفس عن ممارات السفيه وعن منازعة اللجوج وإنما سمي المعروف معروفاً لأن كل نفس تعرفه وكل قلب يطمئن إليه قوله تعالى[٣]: ﴿ وإمَّا يَنْزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ قال مقاتل يعني: ولا يفتننكم فتنة في أمر أبي جهل ﴿فاستعذ بالله﴾ قال الكلبي: أي وإما يصيبنك من الشيطان وسوسة فاستعذ بالله. وقال الزجاج النزع أدنى حركة، ومعناه إن أتاك من الشيطان أدنى وسوسة فاستعذ بالله ﴿إنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني سميع لدعائك عليم بوسوسة الشيطان.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني آتقوا الشرك والفواحش ﴿إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني ذنب ﴿تَذَكَّرُوا﴾ يعني عرف المتقون أنها معصية ﴿فإذا هم مبصرون﴾ يعني إذا هم على بصيرة[٤] منتهون عن المعصية وقال الزجاج: تذكروا ما أوضح الله لهم من الحجة فإذا هم مبصرون. قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي[٥] طيف بغير ألف. وقرأ الباقون بالألف (طائف) وروي عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ إذا مسهم طيف والطيف الغضب. وعن مجاهد[٦] في قوله طائف قال الغضب. ثم ذكر حال الكفار فقال عز وجل ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ يعني إخوان الشياطين يمدونهم أي: يدعونهم إلى المعصية ويقال يلجونهم في الشرك والضلالة ﴿ثم لا يقصرون﴾ عنها كما أقصر المسلمون عنها حين أبصروها. قرأ نافع يمدونهم[٧] بضم الياء وكسر الميم من أَمَدَّ يُمِدّ. وقرأ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٥٣ عن الشعبي وعزاه لابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم أبي الشيخ.

(٢) أخرجه مسلم ١/٣٧١ في المساجد (٥/٥٢٣) وبلفظ بعثت بجوامع الكلم أخرجه البخاري ٦/١٢٨ في الجهاد (٢٩٧٧، ٧٢٧٣) ومسلم ١/٣٧١ (٦/٥٢٣).

(٣) سقط في ظ.

(٤) مثبت في أ.

(٥) انظر حجة القراءات ٣٠٥، وسراج القاري ٢٣٢.

(٦) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٥٥ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ وانظر تفسير الطبري ١٣/٣٣٦.

(٧) انظر حجة القراءات ٣٠٦، سراج القاري ٢٣٢.

الباقون يمدونهم بالنصب من مَدَّ يَمُدُّ. قال بعضهم هذا عطف على قوله وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وإخوانهم يمدونهم في الغي. وقال الزجاج معناه التقديم والمعنى لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي. يعني الشياطين. والغي الجهل والوقوع في الهلكة قوله تعالى: ﴿**وإذا لم تأتهم بآية**﴾ وذلك حين أبطأ عليه جبريل حين سألوه شيئاً ﴿**قالوا لولا آجتبيتها**﴾ أي: هلا أتاهم من تلقاء نفسه، وهذا كقوله (ائت بقرآن غير هذا) ﴿**قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي**﴾ أي قل إذا أمرت بأمر فعلت ولا أبتدع ما لم أومر ﴿**هذا بصائر من ربكم**﴾ يعني القرآن بيان من ربكم. وقال بعض أهل اللغة البصائر في اللغة طرائق الأمر واحدتها بصيرة، ويقال طريقة الدين. معناه ظهور الشيء وبيانه، ﴿**وهدى ورحمة**﴾ أي القرآن هدى من الضلالة ويقال كرامة ورحمة من العذاب ونعمة لمن آمن به ﴿**لقوم يؤمنون**﴾ يعني: يصدقون

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿**وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة قبل نزول هذه الآية فنهوا[1] عن ذلك وأمروا بالسكوت. وروى عبد الوهاب عن مجاهد عن أبي العالية الرياحي قال كان النبي ـ عليه السلام ـ إذا صلى فقرأ وقرأ أصحابه خلفه حتى نزل وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا فسكت القوم وقرأ النبي ـ عليه السلام ـ[2] وروى قتادة عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا قال في الصلاة[3] وروى مغيرة عن إبراهيم مثله. وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له، هذا لكل قاريء؟ قال لا ولكن هذا في الصلاة المفروضة[4]. وقال أبو هريرة[5]رضي الله عنه مثله. وقال مجاهد[6]: وجب الإنصات في موضعين في الصلاة والإمام يقرأ وفي الجمعة والإمام يخطب. وعن مجاهد أنه قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وقال عطاء والحسن إن هذا في الصلاة والخطبة. ويقال فاستمعوا له وأنصتوا أي: اعملوا بما في كتاب الله تعالى ولا تجاوزوا عنه إلى غيره. ثم قال ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ لكي ترحموا فلا تعذبوا. قوله تعالى: ﴿**وَٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً**﴾ يقول إقرأ يا محمد إذا كنت إماماً بنفسك تضرعاً. يعني: مستكيناً ﴿**وَخِيْفَةً**﴾ يعني وخوفاً من عذابه وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي واذكر ربك في نفسك يعني سراً ﴿**وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بالغُدُوِّ وٱلآصَالِ**﴾ يعني العلانية حتى يسمع من خلفك. وقال الضحاك معناه اجهر بالقراءة في صلاة الغداة والمغرب والعشاء ﴿**وَلاَ تَكُنْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ**﴾ يعني لا تغفل عن القراءة

---

(١) انظر تفسير الخازن ٢/٢٧٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٥٦ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير ١٣/٣٤٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٥٥ وعزاه لابن المنذر وابن جرير.

(٥) انظر الدر المنثور ٣/١٥٥.

(٦) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٥٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

في الظهر والعصر، فإنك تخفي القراءة فيهما. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «اذكروا الله ذكراً كثيراً خاملاً، قيل وما الذكر الخامل؟ قال الذكر الخفي». قوله تعالى: «بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ» يعني غدوة وعشية. وروى يحيى بن إيوب عن خالد بن زيد عن سعيد بن أبي هلال عن من سمع عقبة بن عامر قال: المسر بالقراءة كالمسر بالصدقة والمعلن بالقراءة كالمعلن بالصدقة ثم قال ولا تكن من الغافلين يعني عن القراءة في الصلاة. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ أنسجد لِمَا تَأْمُرُنَا واستكبروا عن السجود. فنزل إن الذين عند ربك يعني الملائكة لا يستكبرون عن عبادته يعني لا يتعظمون ولا يستنكفون عن طاعته ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ يقول ويذكرونه ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ يعني يصلون. وقال أهل اللغة. الآصال جمع الأُصُل، والأُصُل جمع الأَصِيل والآصال جمع الجمع يعني العشيات والله أعلم بالصواب

فهرس المحتويات

تفسير سورة آل عمران

تفسير سورة النساء

تفسير سورة المائدة

تفسير سورة الأنعام

تفسير سورة الأعراف

تفسير السمرقندي

المسمّى

بحر العلوم

لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن ابراهيم السمرقندي
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ علي محمد معوّض		الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

سُورَةُ الأَنفَالِ (١)

وهي سبعون وخمس آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ يعني الغنائم وأحدها غنيمة نفل. وكذلك قال لبيد[٢]:

إن تقوى ربنا خير نفل[٣] وبإذن الله رَيْثي والعَجَلْ

(١) ابتدأت هذه السورة ببيان أحكام الأنفال وهي الغنائم وقسمتها ومصارفها. والأمر بتقوى الله في ذلك وغيره. والأمر بطاعة الله ورسوله وفي أمر ـ الغنائم وغيرها. وأمر المسلمين بإصلاح ذات بينهم وأن ذلك من مقومات معنى الإيمان الكامل.
وذكر الخروج إلى غزوة بدر وخوفهم من قوة عددهم وما لقوا فيها من نصر.
وتأييد من الله ولطفه بهم.
وامتنان الله عليهم بأن جعلهم أقوياء.
وعدهم بالنصر والهداية وإن اتقوا بالثبات للعدو، والصبر.
والأمر بالاستعداد لحرب الأعداء.
والأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع.
والأمر بأن يكون قصد النصرة لفدين نصب أعينهم.
ووصف السبب الذي أخرج المسلمين إلى بدر.
وذكر مواقع الجيشين وما جرى من القتال.
وتذكير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ أنجاه من مكر المشركين به بمكة وخلصه من عنادهم وإن مقامه بمكة كان أماناً لأهلها فلما فارقهم فقد حق عليهم عذاب الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام.
ودعوة المشركين للانتهاء عن مناوأة الإسلام وإيذانهم بالقتال والتحذير من المنافقين.
وضرب المثل بالأمم الماضية التي عاندت رسل الله ولم يشكروا نعمة الله.
وأحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتب على نقضهم العهد ومتى يحسن السلم. وأحكام الأسرى.
وأحكام المسلمين الذين تخلفوا في مكة بعد الهجرة وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية.

(٢) لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامري أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات، عاش حتى أدرك الإسلام فأسلم. توفي سنة ٤١ هـ انظر الأعلام ٥/ ٢٤٠ خزانة الأدب ١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

(٣) انظر ديوانه ١٧٤.

قال ابن عباس: عن صلة في الكلام[١] وإنّما هو يسألونك الأنفال أي: الغنائِم ويقال فيه تقديم ومعناه يسألون عنك الأنفال، ويقال: يسألونك لمن الأنفال؟ يقال: إنما سألوا عنها لأنها كانت محرمة من قبل فسألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل (يسألونك عن الأنفال) يعني الغنائم. قال الفقيه: حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال حدثنا إبراهيم بن أبي داود قال حدثنا سعيد بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن الحارث عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت[٢] قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فلقي العدو فلما هـزمهم الله تعالى أتبعهم طـائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم واستولت طائفة بالعسكر والنهب، فقال الذين طلبوهم نحن طلبنا العدو وبنا نفاهم الله تعالى وهزمهم فلنا النفل. وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحدقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا ينال العدو منه غرة فهو لنا، وقال الذين استولوا على العسكر والنهبة والله ما أنتم بأحق منا بل هو لنا نحن حويناه واستوليناه. فأنزل الله تعالى يسألونك عن الأنفال ﴿قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بينهم عن فواق أي: عن سواء وروى أسباط عن السدي[٣] قال: كانت الأنفال لله ورسوله فنسخ بقوله ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ وعن عكرمة ومجاهد مثل قوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُم﴾ يعني: اخشوا الله وأطيعوه في أمر الغنيمة وأصلحوا ذات بينكم أي: ما بينكم من الاختلاف في الغنيمة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: في أمر الصلح والغنيمة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم صادقين ويقال معناه اتركوا المراء في أمر الغنيمة بأن كنتم مصدقين ثم نعت المؤمنين المصدقين فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ويقال إنما المصدقون الذين إذا أمروا بأمر في الغنيمة وغيرها من قبل الله عز وجل خافت قلوبهم، ويقال إنما المصدقون الذين إذا ذكر الله أي ذكر عندهم أمر الله، ويقال إذا أمروا بأمر من الله تعالى وجلت قلوبهم يعني قبلت قلوبهم فسمي قبول القلوب وجلاً لأن بالوجل يثبت القبول. لأنهم وجلوا عقوبة الله تعالى فقبلوه. ثم قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ﴾ يعني: قرئت عليهم آياته بالأمر والنهي في أمر الصلح أو غيره ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ أي تصديقاً ويقيناً. وقال الضحاك: يعني زادتهم يقيناً[٤] بحكم الناسخ مع تصديقهم بحكم المنسوخ. وقال الزجاج: تأويل «الإيمان» التصديق، فكل ما يتلى عليهم من عند الله صدقوا به فزادهم تصديقاً، فذلك زيادة إيمانهم، وروي عن ابن عباس أنه قال: زادتهم تصديقاً بالفرائض مع تصديقهم بالله[٥] ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يعني يفوضون أمرهم إلى الله تعالى ويثقون به ولا يثقون بما في أيديهم من الغنائم ويعلمون أن الله هو رازقهم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: يتمونها في مواقيتها بركوعها وسجودها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون مما أعطيناهم من الأموال وينفقونها في طاعة الله قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حقاً﴾ يعني: أهل هذه الصفة هم المؤمنون الموحدون صـدقاً، وهم المصـدقون ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: فضائل عند ربهم في الآخرة، ويقال لهم منازل في الرفعة على قدر أعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٢٢٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير ١٣/ ٣٧٠ وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه وانظر تخريج الحديث الثاني من الدر المنثور.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ انظر الدر المنثور ٣/١٦١.

(٤) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/ ٢٢٩ دون نسبه.

(٥) انظر شرح الجوهرة ٣٥.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ مغفرة لذنوبهم وثواب حسن في الجنة، ويقال الفتوح والغنيمة. قال ابن عباس: المؤمن مؤمن حقاً والكافر كافر حقاً[(١)] (في قوله هم المؤمنون حقاً قال:)[(٢)] قوله تعالى:

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ قال القتبي معناه: كراهتهم فيما فعلته في الغنائم ككراهتهم الخروج معك. ويقال معناه أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك [من بيتك بالحق.... قيل الحق هنا القرآن وقيل الحرب، ويقال لهم مغفرة ورزق كريم كما أخرجك ربك] من بيتك بالحق وإنْ كان فريقاً من المؤمنين لكارهون. فكذلك ننفل الغنيمة لمن نشاء وإنْ كرهوا ذلك. ويقال هذا ابتداء القصة ومعناه امض على وجهك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ وكان هذا بعد خروجه إلى بدر. وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وفي تلك السنة حولت القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام وكانت غزوة بدر في شهر رمضان وكانت قصته أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغه أن عير قريش خرجت من الشام فيهم أبو سفيان بن حرب ومخرمة بن نوفل في أربعين رجلاً من تجار قريش ويقال أكثر من ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه هذه عير قريش قد أقبلت فاخرجوا إليها. فلعل الله أن ينفلكموها وتتقووا بها على جهاد عدوكم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من جهينة، حليفين من الأنصار بأن ينظرا ويأتيا بخبر العير، فخرجا وأتيا وادي الصفراء وهي منزل على طريق الشام. فقالا لأهل الصفراء هل أحسستم من أحد؟ قالوا لا، فخرجا فمرا بجاريتين متلازمتين، فقالت إحداهما للأخرى اقضيني درهماً لي عليك. فقالت لا والله ما عندي اليوم، ولكن عير قريش نزلت بموضع كذا، يقدمون غداً فأعمل لهم وأقضيك درهمك فسمع الرجلان ما قالت الجاريتان فرجعا، فجاء أبو سفيان بن حرب حين أمس الصفراء فقال لأهل الصفراء هل أحسستم من أحد؟ قالوا لا. إلاَّ رجلين نزلا عند هذا الكثيب ثم ركبا. فرجع أبو سفيان إلى ذلك الموضع فرأى هناك بعر الإبل فأخذ بعرة ففتها فوجد فيها النوى فقال علائق أهل يثرب واللات والعزى، فأرسل من الطريق ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يخبرهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعترض لعيركم فأدركوه. وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت قبل أن يقدم ضمضم بن عمرو بثلاثة أيام في منامها كأنّ راكباً أقبل على بعير أورق[(٣)] ومعه راية سوداء فدخل المسجد الحرام ثم نادى بأعلى صوته يا آل فلان ويا آل فلان انفروا إلى مصارعكم إلى ثلاث، ثم ارتقى على أبي قبيس ونادى ثلاث مرات ثم قلع صخرة من أبي قبيس فرماها على أهل مكة فتكسرت فلم يبق أحد من قريش إلا أصابته فلقة منها، فلما أصبحت قصت رؤياها على أخيها العباس وقالت إني أخاف أن

---

(١) سقط في أ. (٢) انظر معالم التنزيل ٢/٢٢٩.

(٣) وهو ما في لونه بياض إلى سواد انظر ترتيب القاموس ٤/٥٤١.

يصيب قومك سوء، فاغتم العباس لما سمع منها وذكر العباس ذلك للوليد بن عتبة وكان صديقاً له فذكر الوليد ذلك لأبيه عتبة بن ربيعة فذكر ذلك عتبة لأبي جهل بن هشام وفشى ذلك الحديث في قريش فخرج العباس إلى المسجد وقد اجتمع فيه صناديد قريش يتحدثون عن رؤيا عاتكة. فقال أبو جهل يا أبا الفضل: متى حدثت فيكم هذه النبية؟ أما رضيتم أن قلتم منا نبي حتى قلتم منا نبية: فوالله لننتظرن بكم ثلاثاً، فإن جاء تأويل رؤياها وإلا كتبنا عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب. فقال له العباس: يا كذاب يا مصفر الاست[١] بالله أنت أولى بالكذب واللؤم منا. فلما كان اليوم الثالث جاء ضمضم وقد شق قميصه وجزع أذن ناقته وجعل التراب على رأسه وهو ينادي: يا معشر قريش الغوث الغوث أدركوا عيركم فقد عرض لها أهل محمد، فاجتمعوا وخرجوا وهم كارهون مشفقون من رؤيا عاتكة ومعهم القينات والدفوف بطراً ورياء كما قال الله تعالى: (خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَـاءَ النَّـاسِ)، وكل يوم يطعمهم واحد من أغنيائهم، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة وأمر أصحابه بالخروج فخرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار. وخرجوا على نواضحهم ليس لهم ظهر غيرها ومعهم ثلاثة أفراس ويقال فرسان فخرجوا بغير قوت ولا سلاح لا يرون أنه يكون ثمة قتالاً، فلما نزلوا بالروحاء نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم وقال: يا محمد إن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين إما العير وإما العسكر، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بخروج المشركين من مكة إلى عيرهم فشق ذلك على بعضهم وقالوا: يا رسول الله هلا كنت أخبرتنا أنه يكون ثَمَّ قتالاً فنخرج معنا سلاحنا وقوسنا. إنما خرجنا نريد العير والعير كانت أهون شوكة وأعظم غنيمة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أشيروا عليَّ. فكان أبو بكر وعمر يشيران عليه بالمسير وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول أشيروا عليَّ وكان يحب أن يتكلم الأنصار فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله امض حيث شئت وأقم حيث شئت فوالله لئن أمرتنا أن نخوض البحر لنخوضنه، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَـاعِدُونَ) ولكن نقول: (اذهب أنت وربك فقاتلا فنحن معكما متبعون) فنزل[٢] ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يعني: القتال. ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ يخاصمونك في الحرب[٣] ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ يعني: بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني ينظرون إلى القتل ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ يعني إما العير وإما العسكر ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ أي: تمنون غير ذات السلاح. وقال القتبي: ومنه قيل فلان شاك السلاح، ويقال غير ذات الشوكة يعني: شدة القتال ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ الغنيمة ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني أن يظهر الإسلام بتحقيقه بما أنزل عليك من القرآن ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني يهلك الشرك ويستأصله ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يظهر الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ يعني الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: المشركون. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم سيروا على بركة الله فإني رأيت مصارع القوم. وجاءت قريش وأدركوا العير وأفلتوهم. فقال بعضهم لبعض: إنما خرجتم لأجل العير فلما وجدتم العير فارجعوا سالمين. فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نقتل محمداً ومن معه. فسار النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل بَدْراً بجانب الوادي الأدنى. ونزل المشركون على جانبه الأقصى على الماء والوادي فيما بينهما. فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة حتى أوتر. وكانت ليلة النصف من شهر رمضان وقال في قنوته: اللهم لا تفلتن أبا جهل بن هشام وفلاناً وفلاناً، فباتوا تلك الليلة وقد أجنبوا

(١) كلمة تقال للجبان.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٠١، وانظر الدر المنثور ٣/١٦٦.

(٣) سقط في أ.

وليس معهم ماء فأتاهم الشيطان عند ذلك ووسوس إليهم فقال لهم تزعمون أنكم على دين الله وأنكم تصلون محدثين مجنبين والمشركون على الماء. وكان الوادي ذا رمل تغيب فيه الأقدام. فمطرت السماء حتى سال الوادي فاشتد ذلك الرمل واغتسل المسلمون من جنابتهم وشربوا وسقوا دوابهم. فذلك قوله ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ إلى قوله ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ وكان عليّ والزبير يحرسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء سقاة قريش يسقون الماء فأخذهم عليّ والزبير فسألاهم عن أبي سفيان فقالوا ما لنا بأبي سفيان من علم فقالا «فمع» من أنتم؟ فقالوا مع قريش من أهل مكة فقالا كم هم؟ قالوا لا ندري هم كثير. فضرباهم، فقالوا هم قليل فتركاهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تضربونهم إن صدقوكم وتتركونهم إن كذبوكم. فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كم القوم؟ فقالوا هم كثير. فلا ندري كم هم. فقال كم ينحر لهم في كل يوم؟ فقالوا في يوم ينحر لهم عشرة جزر وفي يوم تسعة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم القوم ما بين تسعمائة إلى ألف وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين. وكانوا قد خرجوا من مكة ألفاً ومائتين وخمسين فرجع الأخنس بن شريق مع ثلاثمائة من بني زهرة مع العير وبقي تسعمائة وخمسون رجلاً فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة ورفع يديه وقال: اللهم لا تهلك هذه العصابة فإنك إن أهلكتهم لا تعبد على وجه الأرض أبداً. فقال أبو بكر يا رسول الله قد دنا القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبشر يا أبا بكر فإني رأيت جبريل معتجراً بعمامة يقود فرساً بين السماء والأرض. فأمده الله بجبريل في ألف من الملائكة وميكائيل في ألف من الملائكة وإسرافيل في ألف من الملائكة فذلك قوله ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ فقال أبو جهل: اللهم انصر أحب الدينين إليك ديننا العتيق ودين محمد الحديث وقال عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش: إنّ محمداً رجل منكم فإن يكن نبياً فأنتم أسعد الناس به وإن يكن ملكاً تعيشوا في ملك أخيكم وإن يكن كاذباً يقتله سواكم. لا يكون هذا منكم وإني مع ذلك لأرى قوماً زرق العيون لا يموتون حتى يقتلوا عدداً منكم. فقال أبو جهل يا أبا الوليد جبنت وانتفخ سحرك. فقال له عتبه: يا كذاب ستعلم اليوم أينا الجبان فلبس لأمته وخرج معه أخوه شيبة بن ربيعة وخرج معه ابنه الوليد بن عتبة فتقدموا إلى القوم وقالوا يا محمد ابعث لنا أكفاءنا. فخرج إليهم قوم من الأنصار فقالوا لهم من أنتم؟ فقالوا نحن أنصار الله ورسوله فقالوا لا نريدكم ولكن نريد إخواننا من قريش. فانصرفوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا بني هاشم تقدموا إليهم. فقام عليٌّ بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعليهم البيض فقال لهم عتبة تكلموا حتى نعرفكم. فقال حمزة أنا أسد الله وأسد رسوله. فقال عتبة كفوء كريم. قال فمن هذان معك؟ فقال عليّ بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فذهب الشيخ إلى الشيخ والشاب إلى الشاب والكهل إلى الكهل، فذهب إلى شيبة بن ربيعة وكلاهما شيخان. وذهب عليّ إلى الوليد بن عتبة وكلاهما شابان، وذهب حمزة إلى عتبة بن ربيعة وكلاهما كهلان. فقتل حمزة بن عبد المطلب عتبة بن ربيعة، وقتل عليّ بن أبي طالب الوليد بن عتبة واختلف عبيده بن الحارث وشيبة بن ربيعة في ضربتين، ضرب عبيدة بالسيف على رأس شيبة بن ربيعة، وضرب شيبة ضربة في رجل عبيدة، فمال حمزة وعليٌّ على شيبة بن ربيعة فقتلاه وحملا عبيدة إلى العسكر فمات عبيدة في حال انصرافهم قبل أن يصل إلى المدينة فدفن بمضيق الصفراء. ففي هذا الخبر دليل من الفقه أن المشركين إذا طلبوا البراز فلا بأس للمؤمنين بأن يخرجوا بغير إذن الإمام ما لم ينههم عن ذلك، لأن الأنصار قد خرجوا قبل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه دليل أنه لا بأس بأن ينصر أحد المبارزين صاحبه لأن حمزة وعليًّا قد أعانا عبيدة على قتل شيبة، وفيه دليل أنه لا بأس بالافتخار عند الحرب لأن حمزة قال أنا أسد الله وأسد رسوله، ولا بأس بأن يتبختر في مشيته في حال القتال.

ثم خرج مهجع مولى عمر بن الخطاب فأصابته رمية بين الصفين فكان أول قتيل يوم بدر، وحرض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس على القتال فقال عمير بن الحمام السلمي وهو قائم وفي يده تمرات يأكلها. يا رسول الله إن قتلت في سبيل الله فلي الجنة؟ قال نعم فألقى التمرات وأخذ سيفه وشد على القوم فقاتل حتى قتل، فخرج أبو جهل بن هشام على جمل له لعنه الله، فخرج إليه شاب من الأنصار يقال له معاذ بن عمرو بن الجموح فضربه ضربة على فخذه فخر أبو جهل عن بعيرة فخرج إليه عبد الله بن مسعود، فلما رآه أبو جهل قال: يا ابن أم عبد لمن الدولة؟ وعلى من الدائرة؟ فقال له ابن مسعود لله ولرسوله يا عدو الله لأنت أعتى من فرعون. لأن فرعون جزع عند الغرق وأنت لم يـزدك هذا الصرع إلّا تمادياً في الضلالة، ثم وضع رجله على عاتق أبي جهل. فقال له أبو جهل لأنت رويعنا بالأمس لقد ارتقيت مرتقاً عظيماً، فقتله ابن مسعود «وحز رأسه»، وجاء برأسه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فخر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساجداً، ثم قال لأبي بكر ويقال لعليّ ناولني كفاً من تراب، فأخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبضة من التراب ورَمَاهَا في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فدخلت في أعين القوم كلهم، فأقبل أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقتلونهم ويأسرون منهم وحملوا على المشركين والملائكة معهم، وقُذِفَ في قلوب المشركين الرعب، فقتلوا في تلك المعركة منهم سبعين وأسروا سبعين واستشهد يومئذ من المهاجرين ثلاثة عشر رجلاً، ورجع رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بـالأسارى والغنائم إلى المدينة، واستشار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمر الأسارى، فأقبل على أبي بكر فقال ما تقول يا أبا بكر؟ فقال قومك وبنو عمك فإن قتلتهم صاروا إلى النار وإن تفدهم فلعل الله يهديهم إلى الإسلام ويكون ما نأخذه منهم قوة للمسلمين وقوة على جهاد أعدائهم. ثم أقبل على عمر فقال: ما تقول يا أبا حفص؟ فقال عمر: إن في يديك رؤوس المشركين وصناديدهم فاضرب أعناقهم وسيغني الله المؤمنين من فضله. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنّ مثلك يا أبا بكر من الملائكة مثل ميكائيل فإنه لا ينزل إلا الرحمة، ومثلك من الأنبياء مثل إبراهيم حيث قال ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عصاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثل عيسى حيث قال (إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). ومثلك يا عمر مثل جبريل فإنه ينزل بالعذاب والشدة، ومثلك من الأنبياء مثل نوح «حيث» قال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دياراً) ومثل موسى حيث قال (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حتى يروا العذاب الأليم) وروى سماك بن حرب عن عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين فرغ من بدر عليك بالعير فإنه ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو أسير في وثاقه إنه لا يصلح. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم؟ قال لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك(١) قوله تعالى:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٦٩ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسّنه وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رأى كثرة المشركين علم أنه لا قوة لهم إلا بالله. فدعا ربه فقال: اللهم إنك وعدتني النصر وإنك لا تخلف الميعاد. فاستجاب له ربه ونزل «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» يقول واذكروا إذ تسألون ربكم وتدعونه يوم بدر بالنصرة على عدوكم، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ يعني فأجابكم ربكم ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ يعني: أزيدكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ يعني متتابعين «بعضهم» على أثر بعض. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر مُرْدَفِينَ[1] بالنصب وقرأ الباقون بالكسر. وكلاهما يرجع إلى معنى واحد، وهو التتابع. وقال عكرمة: أمدهم يوم بدر بألف من الملائكة وعددهم ثلاثة آلاف من الملائكة لغزوة بعده بدعائه وزاده ألفين فذلك خمسة آلاف من الملائكة، ويقال هذا كله كان يوم بدر. ثم قال عز وجل ﴿وَمَاجَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى﴾ يقول ما أنزل الله من الملائكة إلا للبشارة. وقال بعضهم: إن الملائكة لم يقاتلوا وإنّما كانوا مبشرين. وروي عن ابن عباس أنه قال: قاتلت الملائكة يوم بدر ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ولا يوم حنين، «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ» يعني مدد الملائكة إلاّ بُشْرَى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني لتسكن إليه قلوبكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني ليس النصر بقلة العدد ولا بكثرة العدد ولكن النصرة من عند الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز بالنقمة، حكيم حكم بالنصرة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين والهزيمة للمشركين. قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ يقول ألقى عليكم النوم ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ يعني: أمناً من عند الله. وروى عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس عند القتال أمنة من الله وهو في الصلاة من الشيطان. قرأ نافع يُغْشِيكُمْ[2] (النُّعَاسَ) بضم الياء وجزم الغين ونصب النعاس ومعناه يُغْشِيكُمْ اللَّهُ النُّعَاسَ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يَغْشَاكُمُ النُّعَاسُ بالألف ونصب الياء وضم النعاسُ. يعني أخذكم النعاسُ. وقرأ الباقون بضم الياء وتشديد الشين ونصب النعاس (يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ) ومعناه يغشيكم اللَّهُ النعاسَ أمنةً منه، والتشديد للمبالغة ثم قال ﴿وَيُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ يعني بالماء من الأحداث والجنابة ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني وسوسة الشيطان وكيده. وقال القتبي: أصل الرجز العذاب كقوله: (رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ) ثم سمى كيد الشيطان رجزاً. لأنه سبب العذاب. ثم قال: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني يشدد قلوبكم بالنصرة منه عند القتال ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ يعني لتستقر الرجل على الرمل حتى أمكنكم الوقوف عليه، ويقال ويثبت به الأقدام في الحرب. ثم قال تعالى

---

(١) قرأ نافع: (مردَفين) بفتح الدال مفعول بهم أي الله أردفهم أي ـ بعثهم على آثار من تقدمهم. قال أبو عبيد: (تأويله أن الله تبارك وتعالى أردف المسلمين بهم) وكان مجاهد يفسرها: (ممدّين) وهو تحقيق هذا المعنى.

وقرأ الباقون: (مردِفين) بكسر الدال أي جاؤوا بعدهم على آثارهم أي (ردفوا) أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ و (أردف) بمعنى ـ ردف، قال الشاعر:

إذا الجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتَ بآل فاطِمَةَ الظُّنُونا

قال أبو عبيد: أراد بقوله (أردفت): (ردفت) أي جاءت بعدها ألا ترى أن الجوزاء تطاع بعد طلوع الثريا وعلى أثرها) ـ وقال ابن عباس: (مردفين أي متتابعين) وقال آخرون منهم أبو عمرو: (مردفين) أي أردف بعضهم بعضاً فالإرداف أن يجعل الرجل صاحبه خلفه، تقول: (ردفت) الرجل أي ركبت خلفه، ـ وأردفته إذا أركبته خلفي) وقال آخرون منهم أبو بكر بن مجاهد: (مردفين أي متقدمين لمن وراءهم، كأن من يأتي بعدهم ردف لهم أي أتوا في ظهورهم، فعلى هذا الوجه لا يكون (أردف) بمعنى (ردف)، لأنهم أردفوا خلفهم. انظر حجة القراءات ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٠٨، سراج القارىء ٢٣٣.

إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾
وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني ألهم ربك الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أي معينكم وناصركم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بشروا المؤمنين بالنصر. فكان الملك يمشي أمام الصف فيقول أبشروا فإنكم كثير وعدوكم قليل. والله ناصركم ﴿سَأُلْقِي﴾ يعني سأقذف ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يعني الخوف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «والمؤمنين». ثم علم المؤمنين كيف يضربون ويقتلون فقال تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ يعني على الأعناق ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني أطراف الأصابع وغيرها. ويقال كل مفصل. قال الفقيه: سمعت من حكى عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: أراد الله ألاَّ يلطخ سيوفهم بفرث المشركين فأمرهم أن يضربوا على الأعناق ولا يضربوا على الوسط، ويقال معناه اضربوا كل شيء استقبلكم من أعضائهم ولا ترحموهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ يعني ذلك الضرب والقتل بسبب أَنَّهُمْ ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني عادوا الله ورسوله وخالفوا الله ورسوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ﴾ ورسوله يعني من يخالف الله ﴿وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ يعني ذلكم القتل يوم بدر ﴿فَذُوقُوهُ﴾ في الدنيا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ يوم القيامة مع القتل في الدنيا، يعني إن القتل والضرب لم يصر كفارةً لهم. قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني إذا لقيتم الذين كفروا بتوحيد الله تعالى يوم بدر ﴿زَحْفاً﴾ يعني مزاحفة، ويقال زحف القوم إذا دنوا للقتال، ومعناه إذا وافقتموهم للقتال ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ يعني منهزمين. ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ يعني ظهره منهزماً يومئذ يعني يوم حربهم. وقال الكلبي[(١)]: يعني يوم بدر خاصة. ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ يعني مستطرداً للكرة يريد الكرة للقتال ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾ يعني ينحاز من فئة إلى فئة من أصحابه يمنعونه عن العدو. قال أهل اللغة[(٢)] تحوزت وتحيزت أي: انضممت إليه ومعناه إذا كان منفرداً فينحاز ليكون مع المقاتلة. ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وفي الآية تقديم، يعني ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله، أي استوجب الغضب من الله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة. وروي عن الحسن أنه قال: كان هذا يوم بدر وغيره، وعن الضحاك قال: هذا يوم بدر خاصة لأنه لم يكن لهم فئة ينحازون إليها، وعن داود بن أبي هند عن أبي[(٣)] نضرة قال: نزلت يوم بدر لأنهم لم ينحازوا إلا إلى المشركين، لم يكن في الأرض مسلمون غيرهم. وقد قال بعضهم بأن الآية غير منسوخه، لأنه لا يجوز للواحد أن يهرب من الاثنين وأن يهرب من الجماعة، وإذا لم يكن معه سلاح جاز له أن يهرب ممن معه سلاح، وإذا لم يكن رامياً جاز له أن يهرب من الرامي. فإذا كان عدد المسلمين نصف عدد الكفار ومعهم سلاح لا يجوز لهم أن يهربوا

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٣٨. (٢) انظر ترتيب القاموس ١/٧٣٦.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٧٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

منهم، وإذا كان المسلمون اثني عشر ألفاً ومعهم سلاح لا يجوز لهم أن يهربوا من الكفار وإن كانوا مائة ألف، لأنه روي عن رسول(١) الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: خير الصحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة إذا كانت كلمتهم واحدة. فينبغي لهم أن يجعلوا كلمتهم واحدة ويقاتلوهم حتى ينصرهم الله تعالى. والآية نزلت في الذي لا يجوز له الهرب. وروى سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي المغيث(٢) عن أبي هريرة عن النبي(٣) ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات. قيل وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات. قوله تعالى

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ وذلك أن المسلمين كانوا يقولون قتلنا فلاناً وقتلنا فلاناً. فأراد الله تعالى أن لا يعجبوا بأنفسهم فقال: «فلم تقتلوهم» يقول فما قتلتموهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ يعني الله تعالى نصركم عليهم وأمدكم بالملائكة ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ يعني الله تعالى(٤) تولى ذلك وذلك حين رمى النبي عليه السلام قبضة من التراب فملأ الله تعالى أعينهم بها فانهزموا. قال الله تعالى «وما رميت» يعني: لم تصب رميتك ولم تبلغ ذلك المبلغ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ تعالى: تولى ذلك ويقال: رمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد بالحربة فأصاب أبي بن خلف الجمحي فقتله. قرأ حمزة والكسائي(٥) وَلَكِنِ اللَّهُ رمى بكسر النون والتخفيف اللَّهُ بالضم وكذلك في قوله ولكِنِ اللَّهُ قتلهم. وقرأ الباقون بنصب النون مع التشديد ونصب ما بعده ، (وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) . ثم قال ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾ يعني لينصرهم نصراً جميلاً ويختبرهم بالتي هي أحسن، ويقال ولينعم المؤمنين نعمة بينة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني سميع لدعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليم بإجابته. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الهلاك والهزيمة للكفار، ويقال معناه الأمر من ربكم. ثم إبتدأ فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني مضعف كيد الكافرين يعني :صنيع الكافرين ببدر. قرأ إبن كثير ونافع وأبو عمرو(٦) مُوَهِّنٌ كَيْدَ الكافرين بنصب الواو والتشديد

(١) أخرجه أبو داود ٣/٣٦ في الجهاد باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا (٢٦١١)، وأخرجه الترمذي (١٥٥٥) وأحمد في المسند ١/٢٩٤، ٢٩٩، وابن خزيمة (٢٥٣٨)، وعبد الرزاق (٩٦٩٩)، والحاكم في المستدرك ١/٤٤٣، ٢/١٠١.

(٢) سالم المدني مولى ابن مطيع روى عن أبي هريرة وعنه ثور بن يزيد الديلي وخلق وثقه ابن سعد ذكره ابن حيان في الثقات. انظر التهذيب ٣/٤٤٥.

(٣) أخرجه البخاري ٥/٣٩٣ وذكره ابن حبان في الثقات. انظر التهذيب ٣/٤٤٥.

(٤) أخرجه البخاري ٥/٣٩٣ في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم ١/٩٢ في الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (١٤٥/ ٨٩).

(٥) سقط في أ.

(٦) حجة القراءات ٣٠٩، وسراج القارىء ٢٣٣.

(٧) انظر حجة القراءات ٣٠٩، سراج القارىء ٢٣٤.

منونة. كَيْدَ بنصب الدال وقرأ عاصم في رواية حفص مُوهِنُ كَيْدَ بضم النون بغير تنوين، كَيْدِ بكسر الدال على معنى الإضافة. وقرأ الباقون مُوهِنٌ كَيْدَ: بالتنوين والتخفيف كَيْدَ بالنصب فالموْهِنُ والمُوهَنُ واحد، ويقال وهنت الشيء وأوهنته إذا جعلته واهناً ضعيفاً. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يقول إن تستنصروا فقد نصركم الله حين قلتم، وذلك أن أبا جهل بن هشام قال: اللهم انصر أحب الدينين وأحب الجندين وأحب الفئتين إليك، فاستجيب دعاؤه على نفسه وعلى أصحابه. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن قتاله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من قتاله ويقال إن أهل مكة حين أرادوا الخروج إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم أي الفئتين أحب إليك فانصرهم فنزل إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا عن قتال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن الكفر (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) من الإقامة عليه ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ لقتال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿نَعُدْ﴾ على القتل والأسر والهزيمة ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ يعني جماعتكم ﴿شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ في العدد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني معين لهم وناصرهم قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين(١) وأَنَّ اللَّهَ بالنصب. والباقون بالكسر (وإِنَّ اللَّهَ) على معنى الاستئناف ويشهد لها قراءة عبد الله بن مسعود واللَّهُ مع المؤمنين ثم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر الغنيمة والصلح ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يعني لا تعرضوا عن أمره، ويقال عن طاعته، ويقال عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ المواعظ في القرآن وفي أمر الصلح، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني لم يفهموا ولم يتفكروا فيما سمعوا، ويقال قوله: ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا يعني: وهم لا يسمعون يعني: لا يطيعون. قال الكلبي وهم بنو عبد الدار لم يسلم منهم إلا رجلان، مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، وقال الضحاك ومقاتل: أي سمعنا الإيمان وهم لا يسمعون يعني: المنافقين ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني شر الناس. عند الله ﴿الصُّمُّ﴾ عن الهدى ﴿الْبُكْمُ﴾ يعني الخرس الذين لا يتكلمون بخير ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الإيمان يعني بني عبد الدار وغيرهم من الكفار، لم يسلموا. قوله تعالى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾ يقول لو علم الله تعالى فيهم صدقاً لأعطاهم الإيمان وأكرمهم به ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ يعني لو أكرمهم بالإسلام ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني أعرضوا عن الإيمان بما سبق في علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون. وقال الزجاج معناه ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم الجواب عن كل ما يسألون عنه ولو أسمعهم يعني لو

(١) انظر حجة القراءات ٣١٠، سراج القارىء ٢٣٤.

بين لهم كل ما يختلج في نفوسهم لأعرضوا عنه لمعاندتهم. قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ﴾ يعني أجيبوا الله بالطاعة، في أمر القتال ﴿وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ إلى القتال أو غيره، وإنّما قال إذا دعاكم ولم يقل إذا دعواكم لأن الدعوة واحدة. ومن يجب الرسول فقد أجاب الله تعالى. قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني القرآن الذي به حياة القلوب، ويقال لما يحييكم يعني يهديكم في أمر الحرب الذي يعزكم ويصلحكم ويقويكم بعد الضعف، ويقال لما يحييكم أي: يهديكم، ويقال لما يحييكم يعني لما يكون سبباً للحياة الدائمة في نعيم الآخرة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا فارس بن مردويه عن محمد بن الفضل عن أبي صالح مطيع عن حماد بن سلمة عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس[١] قال: يحول بين المؤمن ومعاصيه التي تسوقه وتجره إلى النار، ويحول بين الكافر وطاعته التي تجره إلى الجنة. ويقال تحول بين المرء وإرادته لأن الأمر لا يكون بإرادة العبد وإنما يكون بإرادة الله تعالى. كما قال أبو الدرداء:

يريد المرءُ أن يعطى مناه ويأبى الله إلاّ ما أرادَا

ويقال: يحال بين المرء وأجله لأن الأجل حال دون الأمل. وقال سعيد بن جبير: يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر[٢]. وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه يعني: حتى يتركه ولا يفعله[٣] ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يعني في الآخرة فتثابون بأعمالكم. قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ قال مقاتل نزلت الآية في شأن عليّ وطلحة والزبير.

قال الفقيه: حدثنا عمر بن محمد قال حدثنا أبو بكر الواسطي قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا قبيصة عن سفيان عن جويبر عن الضحاك[٤] في قوله تعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) قال نزلت في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. قال حدثنا عمر بن محمد قال حدثنا أبو بكر الواسطي قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو معاوية عن السدي عن المعلى عن أبي ذَر أن عمر رضي الله عنه أخذ بيده يوماً فغمزها فقال خل عني يا قفل الفتنة. فقال عمر ما قولك قفل الفتنة؟ قال إنك جئت ذات يوم فجلست في آخر القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تصيبنكم فتنة ما دام هذا فيكم. وروي عن عليّ رضي الله عنه أنه قال: جعلت أنا وعثمان فتنة لهذه الأمة. وقال بعضهم قوله لا تصيبن. هذا على وجه النهي. ومعناه اتقوا فتنة ثم نهى فقال لا تصيبن يعني الذين ظلموا منكم خاصة أي: لا يتعرض الذين ظلموا منكم خاصة لما نزل بهم. وقال بعضهم: هذا جواب الأمر بلفظ النهي مثل قوله تعالى: (لَا يحطمنكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ) ثم قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن وقع في الفتنة. ثم ذكرهم النعم فقال تعالى ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ يعني واحفظوا نعمة الله عليكم إذ كنتم قليلاً في العدد، وهم المهاجرون ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني مقهورون في أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يعني يختلسكم ويذهب بكم الكفار ﴿فَآوَاكُمْ﴾ بالمدينة ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ بنصره يوم بدر. وقال قتادة[٥] كانوا بين أسدين بين قيصر وكسرى يخافون أن يتخطفهم الناس وهم أهل فارس والروم والعرب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٧٦ وعزاه لابن أبي حاتم وذكره أيضاً وعزاه لابن أبي شيبة وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٧٠. (٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٧٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٧٧ وعزاه لابن المنذر وابن جرير وأبي الشيخ.

ممن حول مكة ثم قال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال وهو الغنيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني لكي تشكروا الله وتطيعوه وتعرفوا ذلك منه. قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ روى أسباط عن السدي[١] قال: كانوا يسمعون من النبي عليه السلام الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّه وَالرَّسُولَ)، ويقال كل رجل مؤتمن على ما فرض الله عليه إن شاء أداها وإن شاء خانها. وقال القتبي: الخيانة أن يؤتمن على شيء فلا يؤدي إليه. ثم سمى العاصي من المسلمين خائناً لأنه قد ائتمن على دينه فخان. كما قال في آية أخرى (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ) ويقال نزلت[٢] الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة أن لا ينزلوا على حكم سعد وأشار إلى حلقه إنه الذبح. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حاصر بني قريظة من بعد انصرافهم من الخندق ووقف بباب الحصن وفيه ستمائة رجل من اليهود وقد كانوا ظاهروا قريشاً على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فناداهم: يا إخوة القردة والخنازير انزلوا على حكم الله ورسوله. فقالت اليهود: يا محمد ما كنت فحاشاً قبل هذا، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة بن عبد المنذر فدخل على اليهود فركنوا إليه وقالوا: يا أبا لبابة أتأمرنا بالنزول إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأشار بيده إلى حلقه يعني: إنه الذبح إن نزلتم إليه. فقال أبو لبابة: والذي نفسي بيده ما زالت قدماي من مكاني حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، وأوثق نفسه إلى سارية المسجد حتى أنزل الله تعالى توبته ونزل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّه وَالرَّسُولَ)﴿وتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ يعني لا تخونوا أماناتكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها خيانة. قال محمد بن إسحاق[٣] لا تخونوا الله والرسول يعني لا تظهروا له من الحق ما يرضى عنكم ثم تخالفوه في السر. قال فإن ذلك هلاكاً لأنفسكم وخيانة لأماناتكم. ثم قال عز وجل: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني بلاء عليكم، لأن أبا لبابة إنما ناصحهم من أجل ماله وولده الذي كان عند بني قريظة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة لمن صبر ولم يخن. قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني إن تطيعوا الله ولا تعصوه ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ يعني يجعل لكم مخرجاً في الدنيا ونجاة ونصراً في الدين، ويقال المخرج من الشبهات.

وقال مجاهد[٤]: مخرجاً في الدنيا والآخرة. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يقول يمحو عنكم ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني يستر ذنوبكم وعيوبكم ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني ذو الكرم والتجاوز عن عباده. قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذلك أن نفراً من قريش اجتمعوا في دار الندوة، وكانت قريش إذا اجتمعوا للمشورة

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٨٣. (٢) انظر أسباب النزول ١٧٥. (٣) انظر تفسير الطبري ١٣/٤٨٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٧٩ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

والتدبير كانوا يجتمعون في تلك الدار، فاجتمعوا فيها وأغلقوا الباب لكيلا يدخل رجل من بني هاشم، ليمكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم ويحتالوا في أمره، فدخل إبليس في صورة شيخ وعليه ثياب أطمار وجلس معهم فقالوا: من أدخلك أيها الشيخ في خلوتنا بغير إذننا؟ فقال: أنا رجل من أهل نجد، ورأيت حسن وجوهكم وطيب ريحكم فأردت أن أسمع حديثكم واقتبس منكم خيراً وقد عرفت مرادكم فإن كرهتم مجلسي خرجت عنكم. فقالوا هذا رجل من أهل نجد وليس من أرض تهامة لا بأس عليكم منه، فتكلموا فيما بينهم.

فقال عمرو بن هشام: أرى أن تأخذوه وتجعلوه في بيت وتسدوا بابه وتجعلوا له كوة لطعامة وشرابه حتى يموت. فقال إبليس بئس الرأي «الذي» رأيت تعمدون إلى رجل له فيكم أهل بيت وقد سمع به من حولكم فتحبسونه وتطعمونه، يوشك أهل بيته الذين فيكم أن يقاتلوكم أو يفسدوا جماعتكم. فقالوا صدق والله الشيخ. ثم تكلم أبو البحتري بن هشام. قال: أرى أن تحملوه على بعير ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب به حيث شاء. فقال إبليس عدو الله بئس الرأي الذي رأيت. تعمدون إلى رجل أفسد جماعتكم ومعه منكم طائفة فتخرجوه إلى غيركم فيأتيهم سوء فيفسد منهم أيضاً جماعة ويقبل إليكم ويكون فيه هلاككم. فقالوا صدق والله الشيخ. فقال أبو جهل: أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل، ثم تعطونهم السيوف فيضربونه جميعاً. فلا يدري قومه من يأخذون وتؤدي قريش ديته. فقال إبليس. صدق والله هذا الشاب. فتفرقوا على ذلك. فأمر الله تعالى بالهجرة وأخبره بمكر المشركين. فنزلت هذه الآية[1]﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يعني ليحبسوك في البيت أو يقتلوك بالبيت ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً بن أبي طالب بأن يبيت في مكانه، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه، ونام عليّ مكانه وأهل مكة يحرسونه ويظنون أنه في البيت. ثم دخلوا البيت فإذا هو عليّ رضي الله عنه فقالوا: يا عليّ: أين محمد؟ فقال لا أدري فطلبوه فلم يجدوه ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ يعني ويمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويريدون به الشر ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ يعني يريد بهم الهلاك حين أخرجهم إلى بدر فقتلوا ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ يعني أصدق الماكرين فعلاً وأفضل الصانعين صنعاً وأعدل العادلين عدلاً. قوله تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟
أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ يعني قد سمعنا قولك ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ أي مثل هذا القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ نزلت في شأن نضر بن الحارث[2] كان

(١) انظر تفسير البحر المحيط ٤/٤٨٧.
(٢) انظر أسباب النزول ١٥٨.

يحدث عن الأمم الخالية من حديث رستم وإسفنديار، فقال إن الذي يخبركم محمد مثل ما أحدثكم من أحاديث الأولين وكذبهم. فقال له عثمان بن مظعون اتق الله يا نضر فإنه ما يقول إلّا حقاً. فقال النضر بن الحارث قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ يعني إن كان ما يقول محمد من القرآن حقاً ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال أبو عبيدة: كل شيء في القرآن أمطر فهو من العذاب، وما كان من الرحمة فهو مطر. وروى أسباط عن السدي[1] قال: قال النضر بن الحارث اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزل (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ) فأستجيب دعاؤه وقتل في يوم بدر قال سعيد بن جبير[2] قتل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ثلاثة صبراً النضر بن الحارث وطعمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط، وكان النضر أسره المقداد، فقال المقداد يا رسول الله أسيري فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه كان يقول في الله ورسوله ما يقول، فقال يا رسول الله أسيري فقال اللهم اغن المقداد من فضلك. فقال المقداد هذا الذي أردت فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾. وكان ذلك القول من النضر حين كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة. فأخبر الله تعالى أنه لا يعذبهم وأنت بين ظهرانيهم حتى يخرجك عنهم كما أخرج الأنبياء قبلك عن قومهم ثم عذبهم. ثم قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني يصلون لله الخمس وهم أهل الإيمان وقال مجاهد[3]: وهم يستغفرون يعني وهم مسلمون. ويقال وفيهم من يؤول مرة إلى الإسلام، ويقال وهم يستغفرون يعني: وفي أصلابهم من يسلم. وروي عن أبي موسى[4] الأشعري أنه قال: كان أمانان في الأرض رفع الله أحدهما وبقي الآخر. (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) وقال عطية[5]: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يعني المشركين حتى يخرجك منهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون يعني المؤمنين.

ثم عاد إلى ذكر المشركين فقال ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني بعد ما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بينهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ يعني المشركين. قال الكلبي يعني ما كانوا أولياء المسجد الحرام، ويقال وما كانوا أولياء الله[6] ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ يعني: ما كان أولياء الله إلا المتقون من الشرك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد الله تعالى. ثم قال ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ معناه وما لهم ألا يعذبهم الله وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ يعني لم تكن صلاتهم حول البيت إلّا مكاءً يعني إلا الصفير، وتصديةً يعني التصفيق باليدين[7] إذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام.

قرأ الأعمش (ما كان صَلَاتَهم) بالنصب إلّا مكاءٌ وتصديةٌ بالضم. وهكذا قرأ عاصم في إحدى الروايتين. فجعل الصلاة خبر كان. وجعل المكاء والتصدية اسم كان وقرأ الباقون صَلَاتُهُمْ بالضم فجعلوه اسم كان. ومكاءً وتصديةً بالنصب على معنى خبر كان. ثم قال ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بتوحيد الله تعالى فأهلكهم الله تعالى في الدنيا ولهم عذاب الخلود في الآخرة قوله تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠٢ وعزاه لابن أبي شيبة.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨١ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للترمذي وانظر تفسير الطبري ١٣/٥١٣.

(٥) انظر البحر المحيط ٤/٤٩٠.

(٦) انظر تفسير الخازن ٣/٢٥ وانظر تفسير البغوي ٢/٢٤٧.

(٧) انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٧.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ
ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ
كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم [(ليصدوا عن سبيل الله) يعني ليصرفوا الناس عن دين الله وطاعته][1] قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في المطعمين يوم بدر، وهم الذين كانوا يطعمون أهل بدر حين خرجوا في طريقهم. قال الله تعالى ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ وكانوا ثلاثة عشر رجلاً أطعموا الناس الطعام فكان على كل رجل منهم يوماً، منهم أبو جهل وأخوه الحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وغيرهم. يقول الله تبارك وتعالى «فَسَيُنْفِقُونَهَا» ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يعني تكون نفقاتهم عليهم حسرة وندامة. لأنه تكون لهم زيادة العذاب فتكوى بها جنوبهم وظهورهم. وقال مجاهد[2]: هو نفقة أبي سفيان على الكفار يوم أحد. وقال الحكم[3]: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية ذهباً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ يعني يهزمون ولا تنفعهم نفقتهم شيئاً. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يعني إن القتل والهزيمة لم تكن كفارة لذنوبهم فيحشرون في الآخرة إلى جهنم. ثم قال تعالى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يعني الخبيث من العمل والطيب من العمل ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾ قول الكلبي[4]. وقال مقاتل: ليميز الله الكافرين من المؤمنين ويجعل في الآخرة الخبيثة أنفسهم ونفقاتهم وأقوالهم فيركم، بعضه على بعض جميعاً فيجعله في جهنم. ويقال ليميز الله الخبيث من الطيب بين نفقة المؤمنين ونفقة المشركين فيقبل نفقة المؤمنين ويثيبهم على ذلك ويجعل نفقة الكفار وبالاً عليهم ويجعل ذلك سبباً لعقوبتهم فتكوى بها جباههم. وقال القتبي فيركمه أي يجعله ركاماً بعضه على بعض ثم قال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: المغبونين في العقوبة.

قرأ حمزة والكسائي لِيُمَيِّزَ اللَّهُ بضم الياء مع التشديد والباقون لِيَميزَ بالنصب مع التخفيف. ومعناهما واحد. مَازَ يُميزُ ومَيَّزَ يُمَيِّزُ. قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الشرك وعن قتال محمد وعن المؤمنين ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني يتجاوز عنهم ما

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٨.

سلف من ذنوبهم وشركهم ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتال محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ بنصرة أوليائه وقهر أعدائه، ويقال يعني القتل. بحذرهم بالعقوبة لكيلا يعودوا فيصيبهم مثل ما أصابهم. وقال الكلبي: فقد مضت سنة الأولين أن ينصر الله أنبياءه ومن آمن معهم كقوله ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم حث المؤمنين على قتال الكفار فقال تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني لا يكون الشرك بمكة، ويقال حتى لا يتخذوا شركاء ويوحدوا ربهم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ يعني يظهر دين الإسلام ولا يكون دين غير دين الإسلام ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن الشرك وعن عبادة الأوثان وقتال المسلمين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فينبئهم بأعمالهم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني أبوا وأعرضوا عن الإيمان يا معشر المسلمين ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ يعني حافظكم وناصركم. ثم قال ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني الحفيظ والمانع. قوله تعالى:

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ من شَيْءٍ﴾ فعلمهم قسمة الغنيمة وجعل أربعة أخماسها للذين أصابوها وأمر بأن يقسم الخمس على خمسة أسهم. وقال بعضهم. على ستة أسهم. وقال أبو العالية[١] الرياحي: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة أسهم، أربعة لمن شهدها، ويأخذ الخمس فيجعله على ستة أسهم، سهم لله تعالى للكعبة [سهم الرسول وسهم لذوي القربى أي: قرابة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسهم لليتامى وسهم للمساكين][٢]، وسهم لابن السبيل، وقال بعضهم: سهم الله ورسوله واحد[٣]. وروى سفيان عن قيس بن مسلم قال: سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية عن قوله ﴿فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ فأن لله خمسه قال: هذا مفتاح الكلام لله الدنيا والآخرة. ثم قال وقد اختلف بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سهم الرسول وسهم ذوي القربى. فقال بعضهم[٤]: للخليفة، وقال بعضهم لقرابة الخليفة، فاجتمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والعدة في سبيل الله تعالى. فكانا كذلك في خلافة أبي بكر وعمر. وروى أبو يوسف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان الخمس على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم على خمسة أسهم، سهم الله ورسوله واحد، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل. وقسم بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبو بكر وعمر وعثمان

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٥ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير ١٣/٥٥٠ وابن المنذر وابن أبي حاتم وانظر تفسير البغوي ٢/٢٤٩.

(٢) سقط في ظ.

(٣) وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي والشعبي، انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٩.

(٤) وهو قول قتادة. انظر تفسير البغوي ٢/٢٤٩.

وعليّ على ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل. وبهذا أخذ أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه أن الخمس يقسم على ثلاثة أسهم ولا يكون لأغنياء ذوي القربى شيء، ويكون لفقرائهم فيه نصيب كما يكون لسائر الفقراء، وكذلك يتاماهم وابن السبيل منهم. وذلك قوله (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ يجوز أن تكون متعلقة بقوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ إن كنتم آمنتم بالله عز وجل، ويجوز أن يكون معناه فاقبلوا ما أمرتم به من الغنيمة في الخمس إن كنتم آمنتم بالله يعني إذ كنتم صدقتم بتوحيد الله ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يعني وصدقتم بما أنزلنا على عبدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القرآن يوم الفرقان، يعني يوم بدر. قال الكلبي أي: يوم النصرة ويوم بدر في أمر الغنيمة، فَرَّقَ بين الحق والباطل. وقال مقاتل: معناه وما أنزلنا من الفرقان يوم بدر فاقرُّوا بحكم الله تعالى في أمر الغنيمة. ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ يعني يوم جمع المسلمين وجمع المشركين ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني على نصرة المؤمنين وهزيمة الكافرين. ثم قال الله تعالى ﴿إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني اذكروا هذه النعمة إذ كنتم بالعدوة الدنيا. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[1] بالعِدْوَةِ بالكسر. وقرأ الباقون بالضم ومعناهما واحد، وهو شفير الوادي، ويقال عِدْوَة الوادي وعُدْوته، يعني كنتم على شاطىء الوادي مما يلي المدينة، ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ يعني من الجانب الآخر مما يلي مكة، ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾يعني العير أسفل منكم بثلاثة أميال على شاطىء البحر حين أقبلوا من الشام ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ يعني ولو تواعدتم أنتم والمشركون بالإجماع للقتال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أنتم والمشركون ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع الله بينكم على غير ميعاد ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ يعني كائناً، وكان من قضائه هزيمة الكفار ونصرة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه. قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليكفر من أراد الكفر بعد البيان له من الله تعالى ﴿وَيَحْيَي مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ يقول ويؤمن من أراد أن يؤمن بعد البيان له من الله تعالى. وقال الكلبي: ليهلك من هلك على الكفر بعد البيان، ويحيى من حي بالإيمان عن بينة. ويقال هذا وعيد من الله تعالى لأهل مكة. يقول ليقم على كفره من أراد أن يقيم بعد ما بينت له الحق ببدر حين فرقت الحق من الباطل، ويحي يعني يقم على الإيمان من أراد أن يقيم بعد ما أرسلت إليه الرسول وأقمت عليه الحجة. قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر، وابن كثير في رواية شبل البزي[2] مَنْ حَيِيَ بإظهار اليائين. والباقون بياء واحدة. وأصله بيائين إلا أن أحد الحرفين أدغم في الآخر لأنهما من جنس واحد ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قوله تعالى

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا

(١) انظر حجة القراءات ٣١٠ ـ ٣١١، سراج القارىء ٢٣٤.
(٢) انظر حجة القراءات ٣١١، سراج القارىء ٢٣٥.

﴿تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى في المنام أن العدو قليل قبل أن يلتقوا فأخبر أصحابه بما رأى في المنام أن العدو قليل[١]. فقالوا رؤيا النبي - صلى الله عليه وسلم - حق، والقوم القليل، فلما التقوا ببدر قلل الله المشركين في أعين المؤمنين لتصديق رؤيا النبي - صلى الله عليه وسلم - . ثم قال ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾ يعني لجبنتم وتركتم الصف ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني اختلفتم في أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ يعني ولكن الله أتم للمسلمين أمرهم على عدوهم. ويقال: سلم يعني قضى بالهزيمة على الكفار والنصرة للمؤمنين. ويقال: إذ يريكهم الله في منامك قليلاً يعني في عينك. لأن العين موضع النوم، أي في: موضع منامك. وروي عن الحسن[٢] قال: معناه في عينيك التي تنام بها ثم قال ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني إني عالم بسرائركم. ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ يعني يوم بدر ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ في العدد. وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود[٣] قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال أراهم مائة. حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه فقال كما ألفاً. ثم قال ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ معشر المؤمنين في أعين المشركين وذلك حين لقوا العدو، قلل الله المشركين في أعين المؤمنين لكيلا يجبنوا وقلل المؤمنين في أعين المشركين ليزدادوا جرأة على القتال حتى قتلوا ولكي يظهر الله عندهم فضل المؤمنين ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ يعني إذا قضى الله تعالى أمراً فهو كائن، وهو النصرة للمؤمنين والذل لأهل الشرك بالقتل والهزيمة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني: عواقب الأمور في الآخرة. ثم حرض المؤمنين على القتال فقال: تبارك وتعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ يعني جماعة من الكفار فاثبتوا لهم وقاتلوهم مع نبيكم ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ يعني في الحرب ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني تفوزون به ثم قال الله تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمركم من القتال ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ يعني: لا تختلفوا فيما بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يعني فتجبنوا من عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾. قال مجاهد[٤]: يعني نصرتكم، وذهب ريحهم يوم أحد حين نازعتموه. وقال الأخفش: يعني دولتكم. وقال قتادة[٥] ريح الحرب. وأصله في اللغة تستعمل في الدولة، ويقال الريح له اليوم يراد به الدولة. ثم قال ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني لقتال عدوكم ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني معين لهم وناصرهم. ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا﴾ معناه قاتلوا لوجه الله تعالى. ولا تقاتلوا رياءً وسمعةً ولا تكونوا يا أصحاب النبي - عليه السلام - كالذين خرجوا ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم أهل مكة ﴿بَطَراً﴾ يعني أشراً وأصله الطغيان في النعمة ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ يعني لكي يذكروا بمسيرهم ويقولوا تسامع الناس بمسيرنا. وقال محمد بن إسحاق: خرجت قريش وهم تسعمائة وخمسون مقاتلاً ومعهم مائتا فرس يقودونها وخرجوا ومعهم القيّنات يضربون بالدفوف ويغنون بهجاء المسلمين. ثم قال ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني يصرفون الناس عن دين الإسلام ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني: عالم بهم وبأعمالهم. قوله تعالى

(١) ذكر ذلك البغوي عن مقاتل انظر اتفسير ٢/٢٥٢.
(٢) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٢.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/١٨٩ وعزاه لابن أبي شيبة، وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه وانظر تفسير الطبري ١٣/٥٧٢.
(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٨٩ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير ١٣/٥٧٦ وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/٥٧٢.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ
لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: مسيرهم ومعناه أن خروجهم لما كان للشيطان زين لهم الشيطان أعمالهم وذلك أن أهل مكة لما وجدوا العير أرادوا الرجوع ألى مكة فأتاهم إبليس على صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني فقال لهم لا ترجعوا حتى تستأصلوهم فإنكم كثير وعدوكم قليل ثم قال ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ يعني لا يطيقكم أحد لكثرتكم وقوتكم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ يعني اجتمع الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي: راجعاً وراءه فقال له الحارث بن هشام[1] أين ما ضمنت لنا؟ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ فقال له الحارث وهل ترى إلا جعاشيش أهل يثرب، والجعاشيش جمع جعشوش وهو الرجل الحقير الدميم القصير فقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. قال ابن عباس[2]: خاف إبليس أن يأخذه جبريل أسيراً فيعرفه الناس فيراه الكفار فيعرفونه بعد ذلك فلا يطيعونه، ولم يخف على نفسه الموت والقتل لأنه كان يعلم أن له بقاء إلى يوم ينفخ في الصور، قال إبليس إني أرى ما لا ترون أي أرى جبريل معتجراً بردائه يقود الفرس، فلما تولى قالوا هزم الناس سراقة، فسار سراقة بعد رجوعهم إلى مكة وقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم. فقالوا له ألم تأتنا يوم كذا وكذا؟ فخلف أنه لم يحضر. فلما أسلموا علموا أنه كان إبليس. وقال مقاتل: لم يجتمع جمع قط منذ كانت الدنيا أكثر من يوم بدر وذلك أن إبليس جاء بنفسه وحضرت الشياطين وحضر كفار الجن كلهم وتسعمائة وخمسون من المشركين وثلاثمائة وثلاثة عشر من المؤمنين، وتسعون من مؤمني الجن وألف من الملائكة وروي عن الحسن البصري أنه كان إذا قرأ هذه السورة كان يقول: طوبى لجيش كان قائدهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومبارزهم أسد الله، وجهادهم في طاعة الله ومددهم ملائكة الله وجارهم أمين الله وثوابهم رضوان الله. قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني شكاً ونفاقاً. قال الحسن[3]: هم قوم من المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أبيْ وأصحابه. ويقال معناه. إذ يقول المنافقون وهم الذين في قلوبهم مرض. قال ابن عباس[4]: نزلت الآية في الذين أسلموا بمكة وتخلفوا عن الهجرة فأخرجهم أهل مكة إلى بدر كرهاً. فلما رأوا قلة المؤمنين ارتابوا ونافقوا وقالوا لأهل مكة ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ وقاتلوا مع المشركين فقتل عامتهم. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني يثق بالله ولا يثق بغيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بالنقمة ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بهزيمة المشركين. فلما قتلوا ضربت

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٤/٩.

(٢) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٣/٩١ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٤) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٥.

الملائكة وجوههم وأدبارهم فنزل ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني ولو ترى يا محمد إذ يتوفى الذين كفروا، يعني حين يقبض أرواح الذين كفروا ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ عند قبض أرواحهم ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ﴿وَ﴾ يقول لهم الملائكة يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ولم يذكر الجواب لأن في الكلام دليلاً عليه ومعناه لو رأيت ذلك لرأيت أمراً عظيماً. قرأ ابن عامر إذ تَتَوَفَّى الذين بلفظ التأنيث وقرأ الباقون[1] يَتَوَفَّى بلفظ التذكير. وروي عن ابن مسعود أنه كان يُذَكِّر الملائكة في جميع القرآن خلافاً للمشركين بقولهم الملائكة بنات الله. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني ذلك العذاب بما قدمت أيديكم من الكفر والتكذيب وبترككم الإيمان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يقول لم يعذبهم بغير ذنب ثم قال عز وجل:

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني صنيعهم كصنيع آل فرعون، ويقال كأشباه آل فرعون في التكذيب والجحود ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الخالية ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني جحدوا بعذاب الله في الدنيا أنه غير نازل بهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني عاقبهم وأهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وشركهم ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يعني: قوي في أخذه، شديد العقاب لمن عصاه. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ في الدين والنعم، فإذا غيروا غير الله عليهم ما بهم من النعم، وهذا قول الكلبي. وروى أسباط عن السدي[2] في قوله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم. قال أنعم الله تعالى بمحمد ـ عليه السلام ـ على أهل مكة وكفروا به فنقله إلى الأنصار. ويقال أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف فلم يشكروا فجعل لهم مكان الأمن الخوف ومكان الرخاء الجوع. وهذا كقوله (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً) إلى قوله (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ). وقال الضحاك: ما عذب الله قوماً قط وسلبهم النعم ولا فرق بينهم وبين العافية حتى كذبوا رسلهم فلما فعلوا ذلك ألزمهم الذل وسلبهم العز فذلك قوله تعالى: ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ثم قال ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لمقالتهم، عليم بأفعالهم ثم قال ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ في الهلاك ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: فرعون لإدعائه الربوبية وآله لأنهم عبدوا غيري ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني مشركين، ومعناه كصنيع آل فرعون قد أعطاه الله تعالى الملك والعز في الدنيا ولم يغير عليه تلك النعمة حتى كذب بآيات الله فغير الله عليه النعمة وأهلكه مع قومه.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ

---

(١) حجة القراءات ٣١١، وسراج القارىء ٢٣٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٦١ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني شر الناس. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في بني قريظة[1]، كعب بن الأشرف وأصحابه لأنهم عاهدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم نقضوا العهد وأعانوا أهل مكة بالسلاح على قتال النبي - عليه السلام -. ثم قالوا نسينا وأخطأنا، فعاهدهم مرة أخرى فنقضوا العهد فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ نقض العهد قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ يقول إن تظفر بهم في الحرب يعني في القتال، ويقال إن أدركتهم في القتال ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ يقول نكل بهم في العقوبة ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ يعني ليتّعِظ بهم من بعدهم الذين بينك وبينهم عهد، ويقال افعل بهم فعلاً من العقوبة والتنكيل يفرق به من رواهم من أعدائك. وقال أبو عبيدة: «فشرد بهم» إنها لغة لقريش سمع بهم أي خوف والتشريد في كلامهم التشريد والتفريق ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني: النكال فلا ينقضون العهد. قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ يعني وإن علمت من قوم نقض العهد، والخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة، وسمي ناقض العهد خائناً لأنه اؤتمن بالعهد فغدر ونكث ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: فأعلمهم بأنك قد نقضت العهد وأعلمهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء. وقال القتبي إذا أردت أن تعرف فضل العربية على غيرها فانظر في الآية وقد ترجموا سائر الكتب، ومن أراد أن يترجم القرآن إلى لغة أخرى فلا يمكنه ذلك، لأنك لو أردت أن تنقل قوله وإما تخافن من قوم خيانة لم تستطع بهذا اللفظ ما لم تبسط مجموعها وتظهر مستورها فتقول إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضاً، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ يعني الناقضين للعهد. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعين لا يظنن الذين كفروا من العرب وغيرهم من الذين جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿سَبَقُوا﴾ يعني فاتوا بأعمالهم الخبيثة ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ يقول لن يفوتوا الله تعالى حتى يعاقبهم. ويقال لا يجحدون الله تعالى عاجزاً عن عقوبتهم. قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص (ولا يَحْسَبَنَّ) بالياء على وجه المغايبة ونصب السين، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر[2] (ولا تَحْسَبَنَّ) بالتاء على وجه المخاطبة ونصب السين، وقرأ الباقون على وجه المخاطبة وكسر السين. وقرأ ابن عامر[3] (أَنَّهُمْ) بالنصب على معنى البناء. وقرأ الباقون بالكسر على معنى الابتداء. فمن قرأ بالنصب معناه لأنهم لا يعجزون يعني لا يفوتون. وقرأ بعضهم بكسر النون (لا يُعْجِزُونِ) يعني لا يعجزونني وهي قراءة شاذة. قوله تعالى:

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ

(١) ذكر ذلك البغوي عن الكلبي انظر التفسير ٢/٢٥٧.
(٢) انظر حجة القراءات ٣١٢، وسراج القارىء ٢٣٥.
(٣) انظر حجة القراءات ٣١٢ سراج القارىء ٢٣٥.

لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن
يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ يعني السلاح. وروى عقبة بن عامر[١] أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ على المنبر وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة «قال ألا إنَّ القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ثلاثاً. وفي خبر آخر: وزيادة لهو المؤمن في الخلاء وقوته عند القتال. وروي عن عكرمة[٢] قال: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. قال الحصون. ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ قال الإناث من الخيل ثم قال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ أي: تخوفون بالسلاح ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني تخوفون بالسلاح كفار العرب ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني بني قريظة ثم قال ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ يعني لا تعرفونهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم ويعرفكم فأعدوا لهم أيضاً. وقال مقاتل[٣]: وآخرين من دونهم أي من دون كفار العرب يعني اليهود. وقال السدي[٤]: وآخرين من دونهم أهل فارس. ثم قال ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني السلاح والخيل ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً. ويقال إن الجن لا تدخل بيتاً فيه قوس وسهام قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ يقول إن أرادوا الصلح ومالوا إليه ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ يعني مل إليها، يعني صالحهم. قرأ عاصم[٥] في رواية أبي بكر وإن جنحوا للسِّلْمِ بالكسر، وقرأ الباقون بالنصب (للسَّلْم) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يقول ثق بالله وإن نقضوا العهد والصلح فإني أنصرك ولا أخذلك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني سميع بمقالتهم، عليم بنقض العهد. قال الفقيه: إنما يجوز الصلح إذا لم يكن للمسلمين قوة القتال. فأما إذا كان للمسلمين قوة فلا ينبغي أن يصالحوهم وينبغي أن يقاتلوهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية إن لم يكونوا من العرب، وإنّما لم توضع الجزية على العرب وتوضع على غيرهم حتى لا تبقى بقية كفر في أنساب النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن العرب كلهم من نسبه ولا توضع حتى يسلموا أو يقتلوا، إنما أمر الله تعالى نبيه بالصلح حين كانت الغلبة للمشركين وكانت بالمسلمين قلة. ثم قال ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح يعني يهود بني قريظة أرادوا أن يصالحوك لتكف عنهم حتى إذا جاء مشركو العرب أعانوهم عليك. قال الله تعالى ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ يعني إن أرادوا إن يخدعوك فإن حسبك الله بالنصرة لك ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ أي: وأعانك وقواك ﴿بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الأنصار وهم قبيلتان، الأوس والخزرج. قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني لين قلوبهم من العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني ما قدرت أن تؤلف بينهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالإسلام ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ حكم بالألفة بين

---

(١) أخرجه مسلم ٣/١٥٢٢ في الإمارة باب فضل الرمي (١٦٧/ ١٩١٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/١٩٢ وعزاه لأبي الشيخ والبيهقي في الشعب وانظر تفسير الطبري ١٤/٣١، وانظر تفسير البغوي ٢/٢٥٩.

(٣) انظر تفسير البغوي ٢/٢٥٩.

(٤) انظر المصدر السابق.

(٥) انظر حجة القراءات ٣١٢، سراج القارىء ٢٣٥.

الأنصار بعد العداوة، وحكم بالنصرة على أعدائه. وروى أبو أسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود[١] قال: نزلت هذه الآية في المتحابين في الله (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وقال عبد الله: المؤمن متآلف يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ يعني: حسبك الله بالنصرة والعون لك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال بعضهم مَنْ في موضع رفع ومعناه وحسبك من اتبعك من المؤمنين وهم الأنصار ويقال يعني عمر بن الخطاب. ويقال هذه الآية خاصة من هذه السورة نزلت بمكة حين أسلم عمر، وكان المسلمون تسعة وثلاثين. فلما أسلم عمر، تم عددهم أربعون وظهر الإسلام بمكة بإسلام عمر. وقال بعضهم: من في موضع النصب، يعني حسبك ومن اتبعك من المؤمنين وقال الضحاك: ومن آتبعك من المؤمنين حسبهم الله وهو ناصرهم في الدنيا والآخرة. ثم قال عز وجل ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ يعني حثهم على قتال الكفار ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ﴾ يعني محتسبين في الجهاد ﴿يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ﴾ يعني يقاتلوا مائتين ويثبتوا على القتال لينصرهم الله ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ يعني محتسبة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أمر الله تعالى. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[٢]. فإن يكن منكم مائة. صابرة يغلبوا ألفاً يوم بدر. جعل على كل رجل منهم قتال عشرة فرفعوا أصواتهم بالدعاء فضجوا فجعل على كل رجل قتال رجلين تخفيفاً من الله وهو قوله ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ يعني هوَّن الله عليكم القتال الذي افترضه عليكم يوم بدر ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ يعني عجزاً عن القتال ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ يعني محتسبه صادقة ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من المشركين ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ من المشركين ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: بأمر الله تعالى وبنصرته ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر لهم على عدوهم. وقال مقاتل: لم يكن فريضة ولكن كان تحريضاً فلم يطق المؤمنون فخفف الله عنهم بعد قتال بدر فنزل (ٱلْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ) وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال فرض على المسلمين أن لا يفر رجل من عشرة، ولا عشرة من مائة فجهد الناس وشق عليهم فنزلت هذه الآية الأخرى «ٱلآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ» ففرض عليهم أن لا يفر رجل من رجلين ولا قوم من مثلهم فنقص من النصرة بقدر ما نقص من العدد. وروى عطاء عن ابن عباس[٣] قال: من فر من رجلين

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٤/٤٧ وابن المبارك في الزهد (٣٦٣) وابن أبي الدنيا في الإخوان (١٤) والبزاز كما في الكشف (٢٢١٥) والحاكم في المستدرك ٢/٣٢٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠١ وعزاه لأبي الشيخ وانظر تفسير الطبري ١٤٥/ ٥٤.

(٣) أخرجه الطبري مرفوعاً ١١/٩٣ وذكره البيهقي في المجمع ٥/٢٣١ ـ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأخرجه موقوفاً كما في الدر ٣/٢٠٠ ابن المنذر وابن أبي حاتم.

فقد فر ومن فر من ثلاثة لم يفر. قال الفقيه: إذا لم يكن معه سلاح ومع الآخر سلاح جاز له أن يفر. لأنه ليس بمقاتل. قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

﴿مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ يقول ما ينبغي وما يجوز لنبي أن يبيع الأسارى. يقول لا يقبل الفدية عن الأسارى ولكن السيف ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: حتى يغلب في الأرض على عدوه. قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر[١] فإن تكن كلاهما بالتاء بلفظ التأنيث لأن لفظ المائة جماعة العدد مؤنث. وقرأ حمزة وعاصم وأبو عمرو الأولى خاصة بالياء والأخرى بالتاء. وقرأ الباقون كليهما بالياء بلفظ التذكير لأن الفعل مقدم. وقرأ حمزة وعاصم[٢] وَعَلِمَ أنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً بنصب الضاد وجزم العين. وقرأ الباقون بضم الضاد ومعناهما واحد. ضَعْف وضُعْف وهما لغتان. وقرأ بعضهم ضُعَفاً بضم الضاد ونصب العين وهي قراءة أبي جعفر المدني يعني عجزة. قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أتريدون عرض الدنيا وهي الفداء؟ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أسروا الأسارى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما. ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ قال أبو بكر: هم بنو العم والعشيرة أرى لهم أن تأخذ منهم الفدية فتكون لنا عدة على الكفار ولعل الله يهديهم الإسلام. وقال عمر أرى أن تمكننا منهم فنضرب أعناقهم. فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يفعل ما قال أبو بكر. قال عمر: فلما كان من الغد جئت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان. فقلت يا رسول الله من أي شيء تبكي؟ فقال أبكي للذي عرض عليَّ لأصحابك من أخذهم الفداء. فنزل «مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى»[٣]. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه أحد غير عمر. قرأ أبو عمرو[٤] أنْ تَكُونَ لَهُ أَسْرَى بلفظ التأنيث. والباقون بلفظ التذكير لأن الفعل مقدم. ثم قال ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ يعني عز الدين ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز في ملكه حكيم في أمره. قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يقول لولا أن الله أحل الغنائم لأمة محمد ـ عليه السلام ـ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ يعني لأصابكم فيما أخذتم من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم طيبها لهم وأحلها لهم فقال عز وجل ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً﴾ وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لم تحل الغنيمة لقوم سود الرؤوس قبلكم. كان تنزل نار من السماء فتأكلها حتى كان يوم بدر فوقعوا في الغنائم فأحلت لهم فأنزل الله تعالى لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ.[٥] وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أعطيت خمساً لم يعطها[٦] أحد قبلي. بعثت إلى الناس كافة، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وجعلت

(١) انظر حجة القراءات ٣١٣، سراج القارىء ٢٣٥.
(٢) انظر حجة القراءات ٣١٣، سراج القارىء ٢٣٥.
(٣) أخرجه الترمذي ٥/٢٥٣ في التفسير (٣٠٨٤) وانظر أسباب النزول ١٦٠.
(٤) انظر حجة القراءات ٣١٣، سراج القارىء ٢٣٥.
(٥) انظر تفسير الطبري ١٤/٦٦. (٦) تقدم.

لي شفاعة لأمتي يوم لقيامة. وروى الضحاك في قوله تعالى «مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى» قال إنه لما كان يوم بدر ووقعت الهزيمة على المشركين، أسرع أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أخذ أسلاب المشركين، ممن قتل منهم وأخذ الغنائم وفداء الأسرى وشغلوا أنفسهم بذلك عن القتال. فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله: ألا ترى إلى ما يصنع أصحابك؟ تركوا قتال العدوا وأقبلوا على أسلابهم وإني أخاف أن تعطف عليهم خيل من خيل المشركين. فنزل «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا» يعني أتطلبون الغنائم وتتركون القتال «وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» يعني قهر المشركين وإظهار الإسلام «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ» لولا ما سبق في الكتاب يعني أن الغنائم تحل لهذه الأمة لأصابكم عذاب عظيم. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[١] لو نزل من السماء عذاب ما نجا أحد غير عمر لأنه لم يترك القتال. وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (لولا كتاب من الله سبق) قال سبقت من الله الرحمة لهذه الأمة قبل أن يعملوا بالمعصية[٢]. وقال الحسن: سبقت المغفرة لأهل بدر[٣]. وعن الحسن أنه قال: لولا كتاب من الله سبق. قال: في الكتاب السابق من الله تعالى أن لا يعذب قوماً إلا بعد قيام الحجة عليهم. وقال سعيد بن جبير لولا ما سبق لأهل بدر من السعادة لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ من الفداء عَذَابٌ عَظِيمٌ ويقال لولا كتاب من الله سبق أن لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون[٤]. ثم قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ولا تعصوه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي متجاوز يعني: ذو تجاوز فيما أخذتم من الغنيمة قبل حلها وحين إذ أحلها لكم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾.. قرأ أبو عمرو[٥] من الأسارى بالضم وزيادة الألف وقرأ الباقون الأسرى بالنصب بغير الألف... فمن قرأ الأسرى فهو جمع الأسير يقال أسير وأسرى مثل جريح وجرحى ومريض ومرضى وقتيل وقتلى من قرأ الأسارى فهو جمع الجمع ويقال هما لغتان بمعنى واحد وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما وضع الفداء على كل إنسان من الأسارى أربعين أوقية من الذهب فكان مع العباس عشرون أوقية من ذهب فأخذها منه ولم يحسبها من فدائه وكان قد خرج بها معه ليطعم بها أهل بدر مَن المشركين لأنه أحد الثلاثة عشر الذين ضمنوا أطعام أهل بدر وقد جاءت نوبته فأراد أن يطعمهم فاقتتلوا يومئذ فلم يطعمهم حتى أخذ وأخذ ما معه فكلم العباس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل العشرين أوقية من فدائه فأبى عليه وقال هذا شيء خرجت لتستعين به علينا فلا نتركه لك فوضع عليه فدائه وفدى ابن أخيه عقيل فقال العباس تترك عمك يسأل الناس بكفه فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أين الذهب الذي أعطيت لأم الفضل وقلت لها كيت وكيت فقال له من أعلمك بهذا يا ابن أخي قال الله أخبرني فأسلم العباس وأمر ابن أخيه أن يسلم فنزل قل لمن في أيديكم من الأسارى يعني: العباس وابن أخيه ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ يعني معرفة وصدقاً وإيماناً كقوله «لن يؤتيهم الله خيراً» أي إيماناً ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ يعني يعطيكم في الدنيا أفضل مما أخذ منكم من الفداء ﴿ويغفر

---

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض ٢/٣٦٤.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير ١/٥٣١ وزاد السيوطي في الدر ٣/٢٠٣ لابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) انظر البحر المحيط ٤/٥١٩. (٤) انظر تفسير الطبري ١٤/٦٨. (٥) انظر النشر ١/٢٧٧.

لكم﴾ ذنوبكم ﴿والله غفور﴾ لما كان منكم في الشرك ﴿رحيم﴾ بكم في الإسلام روى سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال بعث العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البحرين بثمانين ألفاً ما آتاه من مال أكثر منه لا قبل ولا بعد قال فنثرت على حصير ونودي بالصلاة فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمثل على المال قائماً، وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضاً. قال فجاء العباس فقال يا رسول الله أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر، ولم يكن لعقيل مال فأعطني من هذا لمال. قال خذ من هذا المال. قال فجثا في خميصته وهب فأراد أن يقوم فلم يستطع فرفع رأسه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله ارفع عَلَيَّ. فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال أعد من المال طائفة وقم بما تطيق قال ففعل. فجعل العباس يقول وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله تعالى فقد أنجزها فلا ندري ما يصنع في الأخرى وهو قوله ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وعن أبي صالح أنه قال: رأيت للعباس بن عبد المطلب عشرين عبداً كل واحد منهم يتجر بعشرة آلاف. قال العباس أنجزني الله أحد الوعدين فأرجو أن ينجز الوعد الثاني. ويقال يؤتكم خيراً مما أخذ منكم يعني الجنة. قوله تعالى:

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني خلافك ويميلوا إلى الكفر بعد الإسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني عصوا الله وكفروا من قبل ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يعني فأمكنك منهم وأظهرك عليهم يوم بدر حتى قهرتهم وأسرتهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث أمكنك منهم. يعني أن خانوك أمكنتك منهم لتفعل بهم مثل ما فعلت من قبل. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني صدقوا بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من مكة إلى المدينة أي: ﴿وَجَاهَدُوا﴾ العدو ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني في طاعته وفيما فيه رضاه. ثم ذكر الأنصار فقال ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا﴾ يعني أووا ونصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمهاجرين، يعني أنزلوهم وأسكنوهم ديارهم ونصروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسبق ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني في الميراث وفي الولاية ليرغبهم في الهجرة. وكانت الهجرة فريضة في ذلك الوقت ثم قال ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى المدينة ﴿مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ في الميراث. قرأ حمزة[1] وِلَايَتِهِمْ بكسر الواو. وقرأ الباقون وَلَايَتِهِمْ بالنصب يعني النصرة. ومن قرأبالكسر فهو من الإمارة والسلطان. ثم قال: ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ يعني إلى المدينة. يا رسول: هل نعينهم إذا استعانوا بنا؟ يعني الذين آمنوا ولم يهاجروا. فنزل ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يعني استعانوا بكم على المشركين فانصروهم ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ على من قاتلهم ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يعني إلا أن يقاتلوا قوماً بينكم وبينهم عهد فلا تنصروهم عليهم وأصلحوا بينهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في العون والنصرة قوله تعالى:

(١) انظر حجة القراءات ٣١٤ سراج القارىء ٢٣٦.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني في الميراث يرث بعضهم من بعض ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ يعني إن لم تفعلوا، يعني ولاية المؤمنين للمؤمنين والكافرين للكافرين ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلية ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يعني سفك الدماء. فافعلوا ما أمرتم واعرفوا أن الولاية في الدين. وقال الضحاك: والذين كفروا: يعين كفار مكة وكفار ثقيف بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه يعني إن لم تطيعوا الله في قتل الفريقين تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. وقال مقاتل: وفي الآية تقديم وتأخير ومعناه وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا تفعلوه يعني إن لم تنصروهم على غير أهل عهدكم من المشركين تكن فتنة في الأرض. يعني كفر وفساد كبير في الأرض قم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أو الذين ءَاوَوْا﴾ يعني أنزلوا وأوطنوا ديارهم المهاجرين ﴿وَنَصَرُوا﴾ النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما سُمِّي المهاجرون مهاجرين لأنهم هجروا قومهم وديارهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً﴾ يعني صدقاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني ثواب حسن في الجنة. ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا هُمْ مِنْ بَعْدُ﴾ يعني من بعد المهاجرين ﴿وَهَاجَرُوا﴾ يعني من بعد المهاجرين ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ يعني على دينكم. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ يعني في الميراث من المهاجرين والأنصار. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[٢] قال: كان المسلمون يتوارثون بالهجرة وبالمؤاخاة التي آخى بينهم النبي - عليه السلام - وكانوا يتوارثون بالإسلام وبالهجرة وكان الرجل يسلم ولا يهاجر فلا يرثه أخاه. فنسخ ذلك بقوله «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَولَى بِبَعْضٍ» وروى الحسن بن صالح عن ابن عباس[٤] أنه قال: هيهات «هيهات» أين ذهب عبد الله بن مسعود: إنما كان المهاجرين يتوارثون دون الأعراب فنزل «وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ» ثم قال ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني في حكم الله. كقوله تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ) يعني حكم الله تعالى، ويقال في كتاب الله أي: مبين في القرآن، ويقال في كتاب الله يعني في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من قسمة المواريث وبما فرض عليكم من المواريث «والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد»

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٩٧ وعزاه لابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي عن ابن عباس في الدر ٣/٢٠٧ وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم.

(٤) انظر الدر المنثور ٣/٢٠٧.

سُورَةُ التَّوْبَةِ (١)

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قال ابن عباس كلها مدنية وقال مقاتل مدنية إلا قوله تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» الآية

(١) انظر من التحرير ١٠/ ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠.

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كلام السلف «سورة براءة» ففي الصحيح عن أبي هريرة في قصة حج أبي بكر بالناس قال أبو هريرة: (فأذَّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة) وفي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت قال (آخر سورة نزلت سورة براءة) وبذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه وهي تسمية لها بأول كلمة منها.

وتسمى سورة التوبة في كلام بعض السلف في مصاحف كثيرة فعن ابن عباس (سورة التوبة هي الفاضحة) وترجم لها الترمذي في جامعه باسم التوبة. ووجه التسمية: أنها وردت فيها توبة الله تعالى على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهو حدث عظيم.

ووقع هذا الاسمان معاً في حديث زيد بن ثابت في صحيح البخاري في باب جمع القرآن قال زيد (فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) حتى خاتمة سورة براءة.

وهذان الاسمان هما الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

ولهذه السورة أسماء أخر وقعت في كلام السلف من الصحابة والتابعين فروي عن ابن عمر عن ابن عباس: كنا ندعوها (أي سورة براءة) - المقشقشة (بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشه إذا أبراه من المرض) كان هذا لقباً لها ولسورة (الكافرون) لأنهما تخلصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين.

وكان ابن عباس يدعوها (الفاضحة): قال ما زال ينزل فيها (ومنهم ومنهم) حتى ظننا أنه لا يبقى أحد إلا ذكر فيها.

وعن حذيفة: إنه سماها سورة العذاب لأنها نزلت بعذاب الكفار أي عذاب القتل والأخذ حين يثقفون.

وعن الحسن البصري أنه دعاها الحافرة كأنها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق فأظهرته للمسلمين.

وعن قتادة: أنها تسمى المثيرة لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها. وعن ابن عباس أنه سماها المبعثرة لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين أي أخرجتها من مكانها وفي الإتقان أنها تسمى المخزية - بالخاء والزاي المعجمة وتحتية من بعد الزاي وأحسب أن ذلك لقوله تعالى (إن الله مخزي الكافرين). وفي الإتقان أنها تسمى المنكّلة بتشديد الكاف. وفيه أنها تسمى المشدّدة. وعن سفيان أنها تسمى المدمدة بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنها كانت سبب هلاك المشركين فهذه أربعة عشر اسماً.

وهي مدنية بالاتفاق قال في الإتقان: واستثنى بعضهم قوله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) الآية، ففي صحيح البخاري أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال (يا عم لا إله إلاّ الله كلمة أحاج لك بها عند الله) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية (يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب) فكان آخر قول أبي طالب: أنه على ملة عبد المطلب فقال النبي (لأستغفرن لك ما لم أنْهَ عنك) وتوفي أبو طالب فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين).

وشذ ما روي عن مقاتل: أن آيتين من آخرها مكيتان وهما (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة وسيأتي ما روي أن قول =

قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق قال أخبرني أسامة قال حدثنا عوف بن أبي جميلة قال حدثني يزيد الفارسي وهو كاتب ابن عباس عن ابن [1] عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان ما حملكم على أن عدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المائين فقرنتموهما معاً ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان النبي ـ صلى الله عليه

= تعالى (أجعلتم سقاية الحاج) الآية نزل في العباس إذ أسر يوم بدر فعيّره علي بن أبي طالب بالكفر وقطيعة الرحم فقال: نحن نحجب الكعبة إلخ. وعدد آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام والبصرة: مائة وثلاثون آية، وفي عدد أهل الكوفة مائة وتسع وعشرون آية.

افتتحت السورة بتحديد مدة العهود التي بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين وما يتبع ذلك من حالة حرب وأمن وفي خلال مدة الحرب مدة تمكينهم من تلقي دعوة الدين وسماع القرآن.

وأتبع بأحكام الوفاء والنكث وموالاتهم.

ومنع المشركين من دخول المسجد الحرام وحضور مناسك الحج.

وإبطال مناصب الجاهلية التي كانوا يعتزون بأنهم أهلها.

وإعلان حالة الحرب بين المسلمين وبينهم.

وإعلان الحرب على أهل الكتاب من العرب حتى يعطوا الجزية وأنهم ليسوا بعيداً من أهل الشرك وأن الجميع لا تنفعهم قوتهم ولا أموالهم.

وحرمة الأشهر الحرام.

وضبط السنة الشرعية وإبطال النسيء الذي كان عند الجاهلية.

وتحريض المسلمين على المبادرة بالإجابة إلى النفير للقتال في سبيل الله ونصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وذم المنافقين المتثاقلين والمعتذرين والمستأذنين في التخلف بلا عذر وصفات أهل النفاق.

وذكر أذاهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقول وأيمانهم الكاذبة وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف وكذبهم في عهودهم وسخريتهم بضعفاء المؤمنين.

والأمر بضرب الجزية على أهل الكتاب ومذمة ما أدخله الأحبار والرهبان في دينهم من العقائد الباطلة ومن التكالب على الأموال.

وأمر الله بجهاد الكفار والمنافقين.

ونهي المؤمنين عن الاستعانة بهم في جهادهم والاستغفار لهم.

ونهي نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الصلاة على موتاهم.

وضرب المثل بالأمم الماضية.

وذكر الذين اتخذوا مسجد الضرار عن سوء نية وفضل مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة.

وانتقل إلى وصف حالة الأعراب من محسنهم ومسيئهم ومهاجريهم ومتخلفهم.

وقوبلت صفات أهل الكفر والنفاق بأضدادهم صفات المسلمين وذكر ما أعد لهم من الخير.

وذكر في خلال ذلك فضل أبي بكر وفضل المهاجرين والأنصار.

والتحريض على الصدقة والتوبة والعمل الصالح.

والجهاد وأنه فرض على الكفاية والتذكير بنصر الله المؤمنين يوم حنين بعد يأسهم.

والتنويه بغزوة تبوك وجيشها.

والذين تاب الله عليهم من المتخلفين عنها.

والامتنان على المسلمين بين أرسل فيهم رسولاً منهم جبله على صفات فيها كل خير لهم.

وشرع الزكاة ومصارفها والأمر بالفقه في الدين ونشر دعوة الدين. انظر التحرير ١٠/٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وأبي داود والترمذي وحسنه، والنسائي وابن أبي داود في المصاحف وابن المنذر والنحاس في ناسخه وابن حبان وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

وسلم ـ تنزل عليه السور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب له ويقول: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما أنزل عليه بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتهما يشبه بعضها بعضاً فظننت أنها منها. وقبض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بسم الله الرحمن الرحيم وذكر الكلبي أنه قال: براءة من الأنفال فلذلك لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم وهي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين. وروي عن عليّ بن أبي[1] طالب أنه سئل عن ذلك فقال لأنها نزلت في السيف وليس في السيف أمان وبسم الله الرحمن الرحيم من الأمان. وروي عن عائشة[2] أنها قالت: نسي الكاتب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في أول هذه السورة فتركت على حالها. قوله تعالى:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تبرؤ من الله ورسوله إلى من كان له عهد من المشركين، من ذلك العهد، ويقال براءة أي قطيع من الله ورسوله إلى من كان له عهد من المشركين من ذلك العهد. ويقال معناه هذه الآية براءة من الله ورسوله، ويقال هذه السورة براءة من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال ابن عباس، البراءة نقض العهد إلى الذين عاهدتم من المشركين يقول من كان بينه وبين رسول الله عهد فقد نقضه، وذلك أن المشركين نقضوا عهودهم قبل الأجل وأمر الله تعالى نبيه فيمن كان له عهد أربعة أشهر أن يقره إلى أن يمضي أربعة أشهر، ومن كان عهده أكثر من ذلك أن يحطه إلى أربعة أشهر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[3] قال: أقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك حين فرغ منها فأراد الحج. ثم قال إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك، فأرسل أبا بكر وعلياً فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم التي كانوا يجتمعون بها فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر وهي الأشهر الحرام ثم لا عهد لهم فذلك قوله تعالى ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ يعني فسيروا في الأرض أربعة أشهر آمنين غير خائفين ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ يعني غير سابقي الله بأعمالكم وغير فائتين بعد الأربعة الأشهر ومعناه إنكم وإن أجلتم هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ يعني واعلموا أن الله ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ يعني مذل الكافرين ويقال معذب الكافرين في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. ثم قال عز وجل:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٠٩ وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) وهذا خبر باطل لا يصح بوجه الوجوه عن السيدة الطاهرة عائشة رضي الله عنها علاوة على أنه يصادم صريح القرآن الكريم فانظر إلى قوله تعالى: ﴿إن نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٠٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني إعلام من الله ورسوله. وروي عن أبي هريرة رضي[1] الله عنه أنه قال: كنت مع عليّ بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة ببراءة فقيل له ما كنتم تنادون قال كنا ننادي إنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد فإن أجله إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج بعد العام مشرك. ويقال بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا بكر ومعه عشر آيات وأمره أن يقرأها على أهل مكة، ثم بعث علياً وأمره أن يقرأ هذه الآيات. ويقال إنما أمر علياً بالقراءة لأن أبا بكر كان خفيض الصوت وكان عليّ جهوري الصوت فأراد أن يقرأ عليّ حتى يسمعوا جميعاً فذلك قوله تعالى: (وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) ﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وروى الأعمش عن عبد الله بن أبي سنان قال خطبنا المغيرة[2] بن شعبة يوم النحر فقال هذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر. وقال[3] الحسن إنما سمي الحج الأكبر لأنه حج أبو بكر فاجتمع فيها المسلمون والمشركون ووافق أيضاً عيد اليهود والنصارى فلذلك سمي الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركين في ذلك اليوم. وروي عن عليّ رضي الله عنه قال: الحج الأكبر يوم النحر وروي عن محمد بن قيس بن مخرمة أن النبي ـ عليه السلام ـ قال الحج الأكبر يوم عرفة. وإنما سمي يوم عرفة يوم الحج الأكبر لأنه يوقف بعرفة[4]. ويقال الحج الأكبر هو الحج والحج الأصغر هو العمرة. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما العمرة هي الحجة الصغرى. وقال ابن أبي أوفى الحج الأكبر يوم إهراق الدماء وحلق الشعر وهو يوم النحر. ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ يعني ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ بعضهم ورسُولَهُ بنصب اللام ومعناه أن رسوله بريء من المشركين وهي قراءة شاذة ثم قال ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ يعني: رجعتم من الكفر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الإقامة عليه ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أبيتم الإسلام وأقمتم على الكفر وعبادة الأوثان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ﴾ يعني: لن تفوتوا من عذابه. ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة إلى الأبد في النار. ثم استثنى الذين لم ينقضوا العهد فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم بنو كنانة وبنو ضمرة ﴿ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾ من عهودكم ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً﴾ يقول ولم يعاونوا عليكم أحداً ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ يعني: إلى إتمام أجلهم ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون نقض العهد. قوله تعالى:

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (٢٩٥٨)، وأحمد في المسند ٢/٢٩٩ والدارمي ١/٣٣٢ ـ ٣٣٣، ٢/٢٣٧. وابن حبان في الصحيح ٦/٤٩ ـ (٣٨٠٩) والحاكم في المستدرك ٢/٣٣١ وزاد نسبته السيوطي في الدر ٣/٢٠٩. لابن المنذر وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١٢ عن الشعبي وقال أخرجه ابن أبي شيبة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ يقول إذا مضى الأشهر التي جعلتها أجلهم ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في الحل والحرم، يعني المشركين الذين لا عهد لهم بعد ذلك الأجل. ويقال إن هذه الآية (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) نسخت سبعين آية في القرآن من الصلح والعهد والكف مثل قوله (قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) وقوله (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) وقوله (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) وقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وما سوى ذلك من الآيات التي نحو هذا صارت كلها منسوخة بهذه الآية ثم قال ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ يعني أيسروهم وشدوهم بالوثاق ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ يعني إن لم تظفروا بهم فاحصروهم في الحصن والحصار. قال الكلبي: يعني واحبسوهم عن البيت الحرام أن يدخلوه وقال مقاتل: واحصروهم يعني التمسوهم. ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ يعني: ارصدوا لهم بكل طريق. **وقال الأخفش: يعني اقعدوا لهم على كل مرصد.** وكلمة على محذوفة من الكلام ومعناه **واقعدوا لهم على كل طريق** يأخذون ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: وأقروا بالصلاة ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ يعني: وأقروا بالزكاة المفروضة ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ يعني: اتركوهم ولا تقتلوهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني غفور لما كان من الذنوب في الشرك، رحيم بهم بعد الإسلام. فقال رجل من المشركين يا عليّ. إن أراد رجل منا بعد انقضاء الأجل أن يأتي لمحمد ويسمع كلامه أو يأتيه لحاجة أيقتل؟ فقال عليّ لا. يقول الله تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ يعني: استأمنك. ويقال فيه تقديم، ومعناه وإن استجارك أحد من المشركين، يقول إن طلب أحد من المشركين منك الأمان ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي: فأمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني: أعرض عليه القرآن حتى يسمع قراءتك كلام الله تعالى. فإن أبى أن يسلم. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ يقول فرده إلى مأمنه من حيث أتاك ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أمرتك بذلك لأنهم قوم لا يعلمون حكم الله تعالى، وفي الآية دليل أنَ حربياً لو دخل دار الإسلام على وجه الأمان يكون آمناً ما لم يرجع إلى مأمنه. ثم قال على وجه التعجب ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ ويقال على وجه التوبيخ، يعني: لايكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله. ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني بني كنانة. وبني ضمرة وهم لم ينقضوا العهد فأمر الله بإتمام عهدهم، ويقال هم بنو خزاعة وبنو مدلج وبنو خزيمة. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ على وفاء العهد ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ بالوفاء على التمام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾الذين يتقون ربهم ويمتنعون عن نقض العهد. قوله تعالى:

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن

نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يقول كيف تقاتلوهم، ويقال كيف يكون لهم عهد وقد سبق في الكلام ما يدل على هذا الإضمار، وإن يظهروا عليكم. يقول: يغلبوا عليكم ويظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يعني: لا يحفظوا فيكم قرابة ولا عهداً. وقال سعيد بن جبير الإل هو الله. وقال ابن[١] عباس الإل القرابة والذمة العهد. وقال مجاهد لا يرقبون الله ولا عهداً. وعن الضحاك أنه قال الإل القرابة والذمة العهد. ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: بألسنتهم مثل قول المنافقين ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ يعني وتنكر قلوبهم، يقولون قولاً بغير حقيقة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصون بنقض العهد. قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قال مقاتل. باعوا الإيمان بعرض من الدنيا قليل، وذلك أن أبا سفيان كان يعطي الناقة والطعام والشيء ليصد بذلك الناس عن متابعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقال الكلبي: اشتروا بآيات الله ثمناً. يقول: كتموا صفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتابهم بشيء من المآكلة، يأخذونه من السفلة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بئسما كانوا يعملون بصدهم الناس عن دين الله. قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يعني: لايحفظون في المؤمنين قرابة ولا عهداً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ بنقض العهد وترك أمر اللهتعالى. قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصلاة وَآتَوُا الزَّكَاة﴾ يعني: أقروا بهما ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ يعني: هم مؤمنون مثلكم ﴿وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني بين العلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنه من الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يقول: وإن نقضوا عهودهم ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ يقول من بعد أجله ﴿وَطَعَنُوا﴾ يقول وعابوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الإسلام ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ يعني: قادة أهل الكفر ورؤساؤهم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر لا إيمان بالكسر وهي قراءة الحسن البصري أي: لا إسلام لهم والباقون بالنصب يعني لا قرار لهم قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر[٢]. أية بهمزة واحدة والباقون بهمزتين. ثم قال ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ يعني لعلهم ينتهون عن نقض العهد ـ ثم حث المؤمنين على قتال كفار قريش وذلك قبل فتح مكة. فقال عز وجل ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ يقول: نقضوا عهودهم من قبل أجلها ﴿وهمُّوا بإخراج الرسول﴾ يقول: هموا بقتال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١٤ وعزاه للطستي.
(٢) انظر حجة القراءات ٣١٥.
قرأ ابن عامر: (إنهم لا إيمان لهم) بكسر الألف. أي لا إسلام ولا دين لهم. وقال آخرون: معناه لا أمان لهم، مصدر (آمنته أومنه إيماناً) المعنى إذا كنتم أنتم آمنتموهم فنقضوا هم عهدهم فقد بطل الأمان الذي أعطيتموهم.
وقرأ الباقون: (لا أيمان لهم) بالفتح جمع يمين. وحجتهم قوله: (اتخذوا أيمانهم جنة) وهو الاختيار لأنه في التفسير لا عهود لهم ولا ميثاق ولا حلف، فقد وصفهم بالنكث في العهود.

مَرَّةٍ﴾ بنقض العهد حين أعانوا بني بكر على خزاعة ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ لا تقاتلوهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ في ترك أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى. ثم وعد لهم النصرة فقال تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يعني: بالقتل والهزيمة ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يعني: ويذلهم بالهزيمة ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على قريش ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ويفرح قلوب بني خزاعة. وفي الآية دلالة نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعذب الكفار بأيديهم ويخزهم وينصركم فأنجز وعده ولم يظهر خلاف ما وعد لهم. قال الفقيه: حدثنا أبي قال حدثنا أحمد بن يحيى السمرقندي قال حدثنا محمد بن الحسن الجورباري قال حدثنا حماد بن زيد عن عكرمة قال: لما وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل مكة، وقد كانت بنو خزاعة حُلفاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الجاهلية، وكانت بنو بكر حلفاء قريش، فدخلت بنو خزاعة في صلح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ودخلت بنو بكر في صلح قريش، ثم كان بين بني بكر وبين بني خزاعة فقال، فأمدت قريش بني بكر بسلاح وطعام وظلوا عليهم، ثم إن قريشاً خافوا أن يكونوا قد نقضوا العهد وغدروا، فقالوا لأبي سفيان اذهب إلى محمد وجدد العهد، فليس في قوم أطعموا قوماً ما يكون فيه نقض العهد، يعني الذي أطعم الطعام لا ينقض عليه العهد. فانطلق أبو سفيان في ذلك. فلما قصد أبو سفيان المدينة. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قد جاءكم أبو سفيان وسيرجع راضياً بغير قضاء حاجته، فلما قدم أبو سفيان المدينة أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر جدد الحلف وأصلح بين الناس، فقال له أبو بكر: الأمر إلى الله وإلى رسوله، ثم أتى عمر فقال له نحو ما قال لأبي بكر فقال له عمر: نقضتم؟ فما كان منه جديداً فأبلاه الله وما كان منه متيناً أو شديداً فقطعه الله تعالى. فقال له أبو سفيان: ما رأيت كاليوم شاهد عشيرة مثلك. يعني شاهداً على هلاك قومه. ثم أتى فاطمة رضي الله عنها فقال لها يا فاطمة: هل لك في أمر تسودين فيه نساء قريش؟ ثم قال لها نحو ما قال لأبي بكر وعمر فقالت الأمر إلى الله وإلى رسوله. ثم أتى علياً فذكر له نحواً من ذلك. فقال له عليّ ما رأيت كاليوم رجلاً أضل منك. أنت سيد الناس فجدد وأصلح بين الناس، فضرب أبو سفيان يمينه على يساره وقال أجرت الناس بعضهم من بعض ثم رجع إلى قومه فأخبرهم بما صنع فقالوا. ما رأينا كاليوم وافد قوم. والله يا أبا سفيان ما جئتنا بصلح فنأمن ولا بحرب فنحذر فقدم وافد بني خزاعة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بما صنع القوم ودعاه إلى النصرة فقال في ذلك شعراً:

اللهم إني ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا
وهم أتونا بالوتين هجدا ... نتلوا الكتاب ركعاً وسجدا
ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا ... فانصر رسول الله نصرا أعتدا
وابعث جنود الله تأتي مددا ... فيهم رسول الله قد تجردا

فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرحيل[1]. وروي في خبر أن النبي[2] ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢١٥ وعزاه لابن إسحاق والبيهقي في الدلائل.

(٢) أخرجه أبو داود ٣/٢٣١ في الأيمان والنذور (٣٢٨٥)، والطحاوي في مشكل الآثار ٢/٣٧٨، ٣٧٩، وعبد الرزاق في المصنف (١١٣٠٦، ١٦١٢٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٤٧ ـ ٤٨، والطبراني في الكبير ١١/٢٨٢ والخطيب في التاريخ ٧/٤٠٤.

والله لأغزون قريشاً. والله لأغزون قريشاً. وقال: والله لا نصرت إن لم أنصركم. فخرج إلى مكة ومعه عشرة آلاف رجل. ثم رجعنا إلى حديث عكرمة. قال فتجهزوا وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالناس حتى نزلوا برمال الظهران. فخرج أبو سفيان من مكة فرأى النيران والعسكر فقال ما هذه؟ فقيل هؤلاء بنو تميم. فقال والله هؤلاء أكثر من أهل مِنًى. فلما علم أنه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ تنكر وأقبل يقول دلوني على العباس. فأتاه فانطلق به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أدخله عليه فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبا سفيان أسلم تسلم. فقال كيف أصنع باللات والعزى. قال حماد بن زيد حدثني أبو الخليل عن سعيد بن جبير أن عمر رضي الله عنه قال وهو خارج من القبة وفي عنقه السيف أخر عليهما. أما والله لو كنت خارجاً عن القبة ما سألت عنهما أبداً. قال من هذا؟ فقالوا عمر بن الخطاب فأسلم أبو سفيان. فانطلق به العباس إلى منزله فلما أصبح رأى الناس قد تحركوا للوضوء والصلاة فقال أبو سفيان للعباس يا أبا الفضل أَوَ أمروا فيَّ بشيء؟ قال لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة. فتوضأ ثم انطلق به إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. فلما قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الصلاة قاموا فلما كبر كبروا فلما ركع ركعوا فلما سجد سجدوا. فقال أبو سفيان يا أبا الفضل مارأيت كاليوم طاعة قوم، لا فارس الأكارم ولا الروم ذات القرون. قال حماد بن زيد فزعم يزيد بن حازم عن عكرمة أنه قال يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك عظيم الملك. فقال له العباس إنه ليس بملك ولكنها نبوة قال هو ذاك. وقال حماد. قال أيوب ثم قال واصباح قريش. وقال العباس يا رسول الله لو أذنت لي فأتيتهم ودعوتهم وأمنتهم وجعلت لأبي سفيان شيئاً يذكر به. قال فافعل. فركب العباس بغلة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدخل مكة فنادى يا أهل مكة أسلموا تسلموا فقد استبطأتم بأشهب باذل. قد جاءكم الزبير من أعلا مكة. وجاء خالد من أسفل مكة، وخالد وما خالد، والزبير وما الزبير. ثم قال من أسلم فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن. ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظهر عليهم فآمن الناس جميعاً إلا بني بكر من خزاعة. فقاتلتهم خزاعة إلى نصف النهار فأنزل الله تعالى (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) وهم خزاعة

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: حقد قلوب خزاعة. وروى مصعب بن سعد عن أبيه قال لما كان يوم فتح مكة آمن الناس إلا ستة ونفر عكرمة بن أبي جهل وعبد الله ابن أخطل ومقيس بن ضبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح وامرأتين. فقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. وروى عبد الله بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ عليه السلام ـ حين سار إلى مكة ذكر إلى أن قال دخل صناديد قريش من المشركين إلى الكعبة وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم. فطاف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالبيت فصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: ما تقولون وما تظنون؟ قالوا نقول أخ كريم وابن عم حليم رحيم. قال أقول كما قال يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم) قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور ودخلوا في الإسلام، وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الباب الذي يلي الصفا فخطب والأنصار أسفل منه، فقالت الأنصار

بعضهم لبعض أما إن الرجل أخذته الرأفة بقومه وأدركته الرغبة في قرابته، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقلتم كذا وكذا؟ والله إني رسول الله حقاً، إن المحيا لمحياكم وإن الممات لمماتكم فقالوا يا رسول الله قلنا مخافة أن تفارقنا ضناً بك. قال أنتم الصادقون عند الله وعند رسوله. قال الله تعالى ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: من أهل مكة يهديهم الله لدينه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يؤمن من خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره. قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ وذلك أنه لما أمرهم الله تعالى بالقتال شق ذلك على بعض المؤمنين. فنزل قوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا) يعني أظننتم أن تتركوا على الإيمان أيها المؤمنون ولا تبتلوا بالقتال ولا تؤمروا به ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ يعني لم يميز الذين جاهدوا منكم من الذين لم يجاهدوا، وقد كان يعلم الله تعالى ذلك منهم قبل أن يجاهدوا وقبل أن يخلقهم، ولكن كان علمه علم الغيب ولا يستوجبون الجنة والثواب بذلك العلم وإنما يستوجبون الثواب والعقاب بما يظهر منهم من الجهاد. ويقال معناه أظننتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد وبغير تعب النفس. وهكذا قال في آية أخرى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) وكما قال في رواية أخرى (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا) الآية. ثم قال ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ﴾ يعني: لم يتخذوا من دون الله تعالى ولا رسوله يعني ولا من دون رسوله ﴿وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ويميز الذين لا يتخذون ولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين، يميزهم من غيرهم ﴿وَلِيجَةً﴾ يعني: بطانة من غير أهل دينه يفشي إليه سره. وقال الزجاج: الوليجة البطانة وهي مأخوذة من ولج الشيء في الشيء إذا دخل، يعني: ولم يتخذوا بينهم وبين أهل الكفر خُلَّةً ومودة، ويقال نزلت في حاطب بن أبي بلتعة حين كتب ألى أهل مكة يخبرهم بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الخروج إليهم، وأراد بذلك مودة أهل مكة، وفيه نزلت يا أيها الذين آمنوا (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ) الآية ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني من الخير والشر والجهاد والتخلف ومودة أهل الكفر، قوله تعالى:

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ﴾. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي[١] مَسَاجِدَ بلفظ الجماعة وكذلك الثاني يعني جميع المساجد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأول مَسْجِدَ بغير ألف والثاني بألف. وروي عن ابن كثير كلاهما بغير ألف، يعني المسجد الحرام. ومن قرأ مساجد أيضاً يجوز أن يحمل على المسجد الحرام لأنه يذكر المساجد ويراد به مسجد واحد كما قال (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ) يعني به النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم قال تعالى: (شَاهِدِينَ ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ يعني ما كانت لهم عمارة المسجد في حال إقرارهم بالكفر، يعني لا ثواب لهم بغير إيمان ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني بطل ثواب أعمالهم، ويقال شاهدين على أنفسهم يعني كلامهم يشهد عليهم بالكفر ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني يكونون في النار هم خالدين، ويقال شاهدين عليهم يوم القيامة، فلا ينفعهم عمارة المسجد بغير إيمان. وروى أسباط عن السدي[٢] في قوله شاهدين على أنفسهم بالكفر أنه قال: يسأل النصراني ما أنت؟ فيقول نصراني. ويسأل اليهودي ما أنت؟ فيقول يهودي، ويسأل المشرك ما أنت؟

(١) انظر حجة القراءات ٣١٦، شرح شعلة ٤١٠ ـ ٤١١.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٤/١٦٥.

فيقول مشرك. فذلك قوله تعالى: «شاهدين على أنفسهم بالكفر». ويقال هذه الآية نزلت في شأن العباس حين أُسِرَ يوم بدر فأقبل عليه نفر من المهاجرين وعيروه بقتال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبقطيعة الرحم. فقال العباس مالكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا؟ فقال له عليٌّ فهل لكم من المحاسن شيء؟ فقال نعم إنا نعمر المسجد الحرام ونحجّ الكعبة ونسقي الحاج ونفك العاني ونفادي الأسير ونؤمن الخائف ونقري الضيف. فنزل (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ) إلى قوله (أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ يعني صدق بوحدانية الله تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني آمن بالبعث بعد الموت، لأن عمارة المسجد بإقامة الجماعات وهم كانوا لا يقيمون الصلاة. فلم يكن ذلك عمارة المسجد فذلك قوله ﴿وَأَقَامَ الصَّلاَةَ﴾ يعني يداوم على الصلوات الخمس ويقيمها بركوعها وسجودها في مواقيتها ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ يعني ولم يوحد إلا الله ولم يعبد غيره ﴿فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[1] يعني: أُولئك هم المهتدون لدينه ولهم ثواب أعمالهم. قوله تعالى:

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني كإيمان من آمن بالله وجاهد. وقال القتبي: أجعلتم سقاية الحاج يعني: صاحب سقاية الحاج كمن آمن بالله. ويقال أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن بالله. كما قال في آية أُخرى (لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِد يذكر فيها اسم الله كثيراً) والصلوات لا تهدم وإنما أراد به بيوت الصلوات كما قال (مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ) يعني أهل قريتك، كذلك ههنا سقاية الحاج. أراد به صاحب السقاية. قرأ[2] بعضهم سُقَاة الحاج وعُمْرَةَ المسجد الحرام يعني جمع الساقي والعامر وهي قراءة شاذة. ثم قال ﴿لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني لا يستوون عند الله في الثواب والعمل عند الله ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا يرشد المشركين إلى الحجة، ويقال لا يكرمهم بالمعرفة ما لم يتركوا كفرهم. كما قال في آية أُخرى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ يعني صدقوا بوحدانية الله يعني: وهاجروا إلى المدينة ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني هؤلاء أفضل عند الله وأفضل درجة في الجنة من الذين لم يهاجروا ولم يؤمنوا ولم يعمروا المسجد الحرام ولم يسقوا الحاج ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الناجون من النار. قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ يعني يفرحهم

(١) سقط في ظ.

(٢) ابن الزبير وسعيد بن جبير إلا أن ابن جبير نصب المسجد على إرادة التنوين في عَمَرة انظر تفسير القرطبي ٨/٥٩.

﴿رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ يعني بالجنة منه ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ يعني: رضي الله تعالى عنهم. كما قال في آية أخرى (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) بالثواب الذي أعطاهم وقال ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ يعني: دائماً لا ينقطع عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: مقيمين دائمين في الجنات ﴿أَبَداً﴾ هو تأكيد للخلود ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهي الجنة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني لا تتخذوا الذين بمكة أولياء. قال مقاتل[1]: نزلت الآية في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهاهم الله تعالى عن ولايتهم. وقال في رواية الكلبي: لما أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهجرة إلى المدينة، فجعل الرجل يقول لامرأته ولأخيه إنا قد أمرنا بالهجرة فتخرج معه، ومنهم من تعلقت به زوجته وعياله فيقولون له تدعنا لمن حتى نضيع؟ فيرق لهم ويجلس معهم، فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ» في الدين والعون ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ يعني إن اختاروا الكفر ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾ ويقال اختاروا الجلوس مع الكفار على الجلوس مع المؤمنين ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ بعد نزول هذه الآية ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الضارون بأنفسهم. قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ يعني قومكم. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[2] وَعَشِيرَاتُكُمْ بالألف بلفظ الجماعة وقرأ الباقون بغير ألف ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني اكتسبتموها بمكة ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ يعني تخشون أن تبقى عليكم فلا تنفق ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ يعني منازلكم التي بمكة تعجبكم الإقامة فيها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني أن كان هذه الأشياء أحَب إليكم من أن تهاجروا إلى الله ورسوله بالمدينة ـ ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ يعني في طاعة الله تعالى ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يعني: فانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني فتح مكة، ويقال الموت والقيامة. وقال الضحاك. حتى يأتي الله بأمره يعني: حتى يأمر الله بقتال آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وعشيرتكم. ثم قال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهذا وعيد من الله تعالى للذين لم يهاجروا. ويقال من أول سورة براءة إلى قوله «وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» نزلت بعد فتح مكة، ثم من قوله «وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ» إلى ههنا كان نزل قبل فتح مكة، فوضع ههنا، ثم ما بعد هذا نزل بعد فتح مكة وهو قوله تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى: « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ». فأمرهم الله تعالى بأن يقاتلوا ويتوكلوا على الله ويطلبوا النصرة منه ولا يعتمدوا على الكثرة والقلة لأن النصرة من الله تعالى. فذلك قوله تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» يعني: نصركم الله في مواطن كثيرة (وهو يوم بدر ويوم بني قريظة ويوم خيبر ويوم فتح مكة)[3] وخاصة يَوْمَ حُنَيْنٍ. ﴿إِذْ

(١) انظر تفسير الخازن ٥٨/٣.
(٢) انظر حجة القراءات ٣١٦، سراج القارىء ٢٣٦.
(٣) سقط في ظ.

﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ يعني: جماعتكم ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾ يعني: عن قضاء الله تعالى كثرتكم شيئاً، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى حنين في إثني عشر ألفاً وعشرة آلاف التي خرجت معه من المدينة إلى فتح مكة، وخرج معه ألفان من أهل مكة، فقال رجل من المسلمين يقال له سلمة بن سلام[1] لن نغلب اليوم من قلة، وقد كان فتح مكة في شهر رمضان وبقيت عليه أيام من رمضان، فمكث حتى دخل شوال، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً من بني سليم عيناً له يقال له عبد الله بن أبي حدرد، فأتى حنيناً، وكان بينهم يسمع أخبارهم، فسمع من مالك بن عوف أمير القوم يقول لأصحابه أنتم اليوم أربعة آلاف رجل فإذا لقيتم العدو فاحملوا عليهم حملة رجل واحد واكسروا جفون سيوفكم، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلا أفرج لكم، وكان مالك بن عوف على هوزان. فأقبل ابن أبي حدرد حتى أتى النبي ـ عليه السلام ـ فأخبره بمقالتهم. فقال رجل من المسلمين فوالله يا رسول الله لا نغلب اليوم من كثرة، فساء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمته، وابتلى الله المؤمنين بكلمته تلك[2]. قال الفقيه حدثنا أبو جعفر قال حدثنا الفقيه علي بن أحمد الفارسي قال حدثنا نصير بن يحيي قال حدثنا أبو سليمان. قال حدثنا الفقيه محمد بن الحسن عن مجمع بن يعقوب عن إسحاق بن عبد الله عن أبي طلحة قال سمعت أنس بن مالك يقول: لما انتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى وادي حنين وهو وادي من أودية تهامة له مضايق وشعاب، فاستقبلنا من هوازن جيش لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من السواد والكثرة، وقد ساقوا أموالهم ونساءهم وأبناءهم وراءهم ثم صفوا فحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ثم جاؤوا بالإبل والغنم وراء ذلك لكيلا يفروا بزعمهم، فلما رأينا ذلك السواد حسبناهم رجالاً كلهم فلما انحدرنا والوادي وهو وادي حدور، فبينا نحن فيه إن شعرنا. أي: ما شعرنا إلا بالكتائبُ قد خرجت علينا من مضايق الوادي وشعبه فحملوا علينا حملة رجل واحد، وقد كانت قريش بمكة طلبوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخرجوا معه إلى حنين فلم يقل لهم لا، ولا نعم، فخرجوا وكانوا هم أول من انهزم من الناس. قال أنس: فولوا دبرهم وأتبعهم الناس منهزمين مايلوون على شيء، فسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ يقول: والتفت عن يمينه وعن يساره يا أنصار الله وأنصار رسوله: أنا عبد الله ورسوله، صابر اليوم، ثم تقدم بحربته أمام الناس. فوالذي بعثه بالحق ما ضربنا بسيف ولا طعنا برمح حتى هزم الله تعالى. ثم رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المعسكر وأمر بطلبهم وأن يقتل كل من قدر عليه منهم وجعلت هوازن تولي، وثاب من انهزم من المسلمين.

قال الراوي: فقالت: أم سليم وكانت يومئذ تقاتل شادة على بطنها بثوب تقول: أرأيت يا رسول هؤلاء الذين أسلموا وفروا عنك وخذلوك، لا تعف عنهم، إن أمكنك الله تعالى منهم فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أم سليم عفو الله أوسع. وروي في خبر آخر أن دريد بن الصمة كان شيخاً كبيراً في عسكر مالك بن عوف، وكان صاحب تدبير، وكان لا يبصر شيئاً ما لم ترفع حاجباه، فقال مالي أسمع رغاء الإبل وثغاء الغنم وصوت الصبيان. فقالوا له إن مالك بن عوف أمر بإخراج الأموال لكي يقاتل كل واحد منهم عن ماله. فقال لهم هلا أخبرتموني بذلك قبل الخروج، فالرجل إذا جاءته الهزيمة متى يبالي بماله وولده؟ ولكن إذا فعلتم ذلك فاكسروا جفون سيوفكم واحملوا حملة رجل واحد. ففعلوا ذلك فانهزم المسلمون، ولم يبق مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا العباسَ بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعدة من الأنصار. فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن بغلته وأخذ السيف ومضى نحو العدو وجعل ينادي يا أصحاب الشجرة

---

(١) انظر تفسير الخازن ٣/٧٢.
(٢) أخرجه الطبري عن السدي ١٤/١٨٢.

يا أصحاب سورة البقرة إليّ إليّ، فأمده الله تعالى بخمسة آلاف من الملائكة. ورجع إليه المسلمون وانهزم المشركون وأخذ المسلمون أموالهم، وهو الذي يسمى يوم أوطاس فنزلت هذه الآية: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) فأخبر الله تعالى أن الغلبة ليست بكثرتكم ولكن بنصرة الله تعالى وكان ذلك من آيات الله ثم قال ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني برحبتها وسعتها من خوف العدو ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يعني منهزمين لا يلوون على أحد. قوله تعالى:

ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعني: رحمته ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني خمسة آلاف من الملائكة، وفي الآية دليل أن المؤمن لا يخرج من الإيمان وإن عمل الكبيرة لأنهم ارتكبوا الكبيرة حيث هربوا، وكان عددهم أكثر من عدد المشركين فسماهم الله تعالى مؤمنين ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بالقتل والهزيمة ﴿وَذَلِكَ﴾ يعني: ذلك العذاب[1] ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي عقاب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من أصحاب مالك بن عوف من كان أهلاً للإسلام. وروي عن محمد بن كعب القرظي قال لما انهزم مالك بن عوف سار مع ثلاثة آلاف، فقال لأصحابه هل لكم أن تصيبوا من محمد مالاً؟ قالوا نعم فأرسل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إني أريد أن أسلم فما تعطيني؟ فأرسل إليه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ إني أعطيك مائة من الإبل ورعاتها، فجاء فأسلم، فأقام يومين أو ثلاثة فلما رأى المسلمين ورقتهم وزهدهم واجتهادهم رق لذلك، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا ابن عوف ألا نفي لك بما أعطيناك من الشرط؟ فقال يا رسول الله أمثلي من يأخذ على الإسلام شيئاً؟. قال فكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتح عامة الشام. ثم قال الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما كان من الشرك ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم في الإسلام. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ يعني: قذر ورجس ولم يقل أنجاس لأن النَّجس مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فهذه الآية من الآيات التي قرأها عليهم عليّ بن أبي طالب بمكة. يعني لا يدخلوا أرض مكة. وقال مقاتل يعني الحرم كله. وقال مالك بن أنس لا يجوز للكفار أن يدخلوا المساجد، لأن الله تعالى قال إنما المشركون نجس، كما أن الجنب لا يجوز له أن يدخل المسجد. وقال الزهري: له أن يدخل جميع المساجد إلا المسجد الحرام. وهو قول الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة رضي الله عنه وأصحابه[2] يجوز للذمي

---

(١) سقط في أ.

(٢) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٢/٩١٣ وقد اختلف الناس في هذا كثيراً ـ أي في دخول الكفار المسجد ـ فرأى الشافعي أن هذا مخصوص بالمسجد الحرام لا يتعداه إلى غيره من المساجد وهذا جمود منه على الظاهر الذي يسقط هذا الظاهر فإن الله لم يقل: =

أن يدخل جميع المساجد لأن الكفار كانوا يدخلون مسجد المدينة إذا قدموا وافدين من قومهم. وهذه الآية نزلت في شأن أهل الحرب. إنهم لا يدخلون المسجد الحرام بغير أمان، ولا يكون لهم ولاية البيت. وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: لا يدخلون المسجد الحرام إلا برق أو عهد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ يعني حاجة وفقراً. وقال الزجاج: العيلة الفقر. كما قال الشاعر:(١)

وما يدري الفقير متى غناه ... ولا يدري الغني متى يعيل

ثم قال ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أنه لما منع المشركون من مكة قال أناس من التجار لأهل مكة من أين تأكلون إذا فعلتم هذا؟ فنزل «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله» يعني من رزقه ففرحوا بذلك، فأسلم أهل جده وصنعاء من أهل اليمن فحملوا الطعام إلى مكة من البر والبحر وأغناهم الله تعالى بذلك يعني أغناهم عن تجار الكفار بالمؤمنين ثم قال ﴿إِنْ شَاءَ﴾ يعني: يدوم لكم بمشيئة الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره. قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: لا يصدقون بتوحيد الله ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ يقول لا يخضعون لدين الحق ولا يقرون بشهادة لا إله إلا الله ومعناه: لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين لأن أهل الكتاب كانوا يقرون بالله ولكنهم قالوا لله ولد، وأقروا بالبعث ولكنهم لا يقرون لأهل الجنة بالنعمة لأنهم لا يقرون بالأكل والشرب والجماع، فليس يدينون دين الحق يعني دين الإسلام، ويقال دين الله تعالى لأن الله تعالى هو الحق، فأمر الله تعالى بقتلهمْ إلا أن يعطوا الجزية وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ قال بعضهم: عن قهر وذل كما يقال اليد في هذا لفلان. يعني الأمر النافذ لفلان، ويقال عن يده يعني: عن إنعام عليهم بذلك. لأن قبول الجزية وترك أنفسهم يد ونعمة عليهم، ويقال عن اعتراف للمسلمين بأن أيديهم فوق أيديهم، ويقال عن يدٍ يعني: عن قيام

= لا يقرب هؤلاء المسجد الحرام فيكون الحكم مقصوراً عليهم ولو قال: لا يقرب المشركون والأنجاس المسجد الحرام لكان تنبيهاً على التعليل بالشرك أو النجاسة أو العلتين جميعاً بل أكد الحال ببيان العلة وكشفها فقال: (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام) يريد ولا بد لنجاستهم فتعدت العلة إلى كل موضع محترم بالمسجدية ومما قاله مع غيره من الناس أن الكافر يجوز له دخول المسجد بإذن المسلم واستدل عليه بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربط «ثُمامة بن أثال» في المسجد وهو مشرك. قال علماؤنا: هذا الحديث صحيح لكن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كان علم إسلامه وهذا وإن سلمناه فلا يضرنا لأن علم النبي بإسلامه في المال لا يحكم له به في الحال، وقال جابر بن عبد الله العموم بمنع المشركين عن قربان المسجد الحرام مخصوص في العبد والأمة. وهذا قول باطل وسند ضعيف لا يخص العمومات المطلقة فكيف ـ المعللة بالعلة العامة المتناولة لجميعها وهي الشرك؟. انظر أحكام القرآن ٢/٩١٣، ٩١٤.

(١) أحيحة بن الجلاس الدوسي. انظر جمهرة أشعار العرب ١٢٥.

يمشون بها صاغرين تؤخذ من أيديهم. وقال الأخفش: يعني: كرهاً وهم صاغرون يعني ذليلين. قال الفقيه قتال الكفار على ثلاثة أنواع. في وجه يقاتلون حتى يسلموا. ولا يقبل منهم إلا الإسلام. وهم مشركو العرب والمرتدون من الأعراب أو من غيرهم، وفي وجه آخر يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وهم اليهود والنصارى والمجوس، فأما اليهود والنصارى بهذه الآية وأما المجوس بالخبر. وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[١] وفي الوجه الثالث واختلفوا فيه، وهم المشركون من غير العرب وغير أهل الكتاب مثل الترك والهند ونحو ذلك. في قول الشافعي لا يجوز أخذ الجزية منهم. وفي قول أبي حنيفة وأصحابه يجوز أخذ الجزية منهم كما يجوز من المجوس لأنهم من غير العرب. قوله تعالى:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قرأ عاصم والكسائي عزيرٌ بالتنوين[٢] وقرأ الباقون بغير تنوين. فمن قرأ بالتنوين لأن الابن خبر وليس بنسبة، ومن قرأ بغير تنوين فلالتقاء الساكنين. كما قرأ بعضهم (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/٢٢٤، ١٢/٢٤٣، وعبد الرزاق في المصنف (١٠٠٢٥، ١٩٢٥٣)، ومالك في الموطأ (٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/١٨٩، وذكره السيوطي في المنثور ٣/٢٢٩ وابن كثير في التفسير ٣/٣٧. والطبراني في الكبير ١٩/٤٣٧ وانظر تلخيص الحبير ٣/١٧١.

(٢) وحجته أنه اسم خفيف فوجهة الصرف لخفته وإن كان أعجمياً وقال قوم: يجوز أن تجعله عربياً لأنه على مثال المصغرات من الأسماء العربية وهو يشبه في التصغير (نصيراً) أو (بكيراً) فأجرى وإن كان في الأصل أعجمياً، وأخرى أن الكلام عند السكوت على (عزير ابن الله) ناقص وأن قوله (ابن) خبر عن (عزيز) فنون من أجل حاجة الكلام إليه كقولك: (زيد ابن عمنا) فلما كانت الفائدة في (ابن) أوقعت التنوين وإذا تركت التنوين كان (الابن) نعتاً وكانت الفائدة بعد النعت كقولك: زيد ابن عمنا ظريف.

وقرأ الباقون: (عزير ابن الله) بغير تنوين وحجتهم أن التنوين حرف الإعراب مشبه للواو والياء والألف كما يسقطن إذا سكن وسكن ما بعدهن كذلك يسقط التنوين إذا سكن وأتى بعده ساكن. فكأنهم ذهبوا إلى أنه مصروف وأن التنوين سقط الساكنين وأنشد الفراء:

إذا غطيفُ السلمي فرا

فأسقط التنوين من (غطيف) والدليل على صحة هذا القول أن هارون قال: سألت أبا عمرو من هُزَير فقال: (أنا أصرف (عزيراً) ولكني أقول هذا الحرف (عزير ابن الله) فدل قوله (أنا أصرف عزيراً) على أنه عنده مصروف، وأنه حذف التنوين عنده لغير ترك صرفه بل هو لما أخبرتك به من حذفه للساكنين.

ويجوز أن نقول أن «عزير» اسم أعجمي غير مصروف قال الزجاج: (يجوز حذف التنوين لالتقاء الساكنين وقد روي (قل هو الله أحد الله الصمد) فحذف التنوين لسكونه وسكون اللام فكذلك حذف التنوين من «عزير ابن الله» لسكونه وسكون الباء.

وفيه وجه آخر: أن يكون الخبر محذوفاً فيكون معناه (عزير ابن الله معبودنا) فيكون (ابن نعتاً ولا اختلاف بين النحويين أن أثبات التنوين أجود). قال: (والوجه إثبات التنوين لأن (ابن) خبر وإنما يحذف التنوين في الصفة نحو قولك: (جاءني زيد بن عمرو) فبحذف التنوين لالتقاء الساكنين ولأن ابن مضاف إلى علم وإن النعت والمنعوت كالشيء الواحد وإذا كان خبراً فالتنوين.

الصَّمَدُ) بغير تنوين فلا اختلاف بين النحويين أن إثبات التنوين أجود من طريق أهل اللغة. وإنما قالت اليهود لأنه لما خرب بُخْتُنَصَّر بيت المقدس وأحرق التوراة حزنوا على ذهاب التوراة فأملاها عليهم عزير صلوات الله عليه عن ظهر قلبه فتعلموها وفي أنفسهم منها شيء مخافة أن يكون قد زاد فيها أو نقص منها شيئاً، فبينما هم كذلك إذ وقعوا على جراب مدفونة في قرية فيها التوراة، فعارضوا بها على ما كتبوا من عزير عليه السلام. فلم يزد شيئاً ولم ينقص حرفاً. فقالوا عند ذلك ما علم عزير هذا إلا وهو ابن الله. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك لأن المسيح كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى. فقالوا لم يكن يفعل هذا إلا وهو ابن الله، ويقال إنّ الإفراط في كل شيء مذموم، لأن النصارى أفرطوا في حب عيسى ـ عليه السلام ـ تغالوا وقالوا فيه ما قالوا. حتى كفروا بسبب ذلك، واليهود أفرطوا بحب عزير وقالوا فيه ما قالوا حتى كفروا، كما أفرطت الروافض[1] في حب عليّ حتى أبغضوا غيره. وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما[2]. ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: ذلك كذبهم بألسنتهم، ويقال معناه يقولون بأفواههم قولاً بلا فائدة ولا برهان ولا معنى صحيح تحته ثم قال ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: يوافقون قول الذين كفروا ﴿مِن قَبْلُ﴾ حين قالوا الملائكة بنات الله. وقال قتادة: يشبهون قول الذين كفروا، يعني إنَّ قول اليهود يوافق قول النصارى، وقول النصارى يوافق قول اليهود، ويقال: يتشابهون في قولهم هذا من تقدم من كفر منهم، يعني أنما قالوا اتباعاً لهم بدليل قوله تعالى (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ). قرأ عاصم يُضَاهِئُونَ بكسر الهاء مع الهمزة وهي لغة لبعض العرب. وقرأ الباقون بالسكون بغير همزة وهي اللغة المعروفة. وقال القتبي: يضاهون يعني: يشبهون يعني: قول من كان في عصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اليهود والنصارى قول أوليهم الذين كانوا قبلهم. ثم قال ﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين يكذبون بتوحيد الله تعالى. ثم قال عز وجل ﴿ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ يعني علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ يعني: أصحاب الصوامع والمتعبدين منهم ﴿أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: اتخذوهم كالأرباب. يطيعونهم في معاصي الله تعالى. قال الفقيه الزاهد حدثنا الفقيه أبو جعفر، قال حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن القاري قال حدثنا محمد بن عيسى قال حدثنا الحسن بن يزيد الكوفي عن عبد السلام بن حرب عن غطيف بن أعين

---

(١) قال ابن قتيبة بلغني عن الأصمعي أنه قال سميت الرافضة لأنهم رفضوا «زيد بن علي» وتركوه، ثم لزم هذا الاسم كل من غلامنهم في مذهبه وببعض السلق، وقال بعض أصحاب الكلام إنما سموا رافضة: لرفضهم «زيد بن علي» وتركهم الخروج معه انظر تفصيل ذلك في كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ٢٧٠.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة والطبراني عن عمر وابن عمرو والدارقطني وابن عدي والبيهقي عن علي موقوفاً، والبخاري في الأدب المفرد في معناه قول بعضهم: «لا يكن حبُّك كلفاً ولا بغضك تلفاً». وأخرج الخرايطي من الحسن «تنقوا الإخوان والأصحاب والمجالس، وأحبوا هوناً وأبغضوا هوناً، فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا، وإن رأيت دون أخيك ستراً فلا تكشفه» وقد رمز السيوطي لحسنه ولعله لاعتضاده وإلا فقد تكلموا في كثير من رجاله، وما أحسن ما أخرجه الرافعي عن أبي إسحاق السبيعي من أنه قال: كان علي بن أبي طالب يذاكر أصحابه وجلساؤه في حسن الأدب بقوله:

وكُنِ معدناً للخير واصْفَحْ عن الأذى ... فإنك راءٍ ما عملت وسامِعُ
وأحْبِبْ إذا أحْبَبْتَ حُبّاً مُقَارِباً ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبْغِضْ إذا أبغضتَ بُغْضاً مقارِباً ... فإنك لا تدري متى الحب راجع

انظر كشف الخفاء ١/٥٤، ٥٥.

عن مصعب بن سعيد عن عدي بن حاتم قال[(١)]: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ من سورة براءة «اتخذوا أحْبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» قال أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوا وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموا. ثم قال ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني اتخذوا المسيح ابن مريم رباً من دون الله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يقول: وما أمرهم عيسى - عليه السلام - ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني إلا قوله اعبدوا الله ربي وربكم. ويقال وما أمروا في جميع الكتب إلا ليعبدوا إلهاً يعني ليوحدوا الله تعالى (إلهاً وَاحِداً) ثم نزه نفسه فقال تعالى (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني عما يعبدون من دونه. ثم قال عز وجل:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يُرِيدُونَ﴾ يعني اليهود النصارى ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني يريدون (أن) (يردوا القرآن تكذيباً بألسنتهم ويقال: يريدون أن يغيروا دين الإسلام بألسنتهم ويقال: يريدون أن)[(٢)] يبطلوا كلمة التوحيد بكلمة الشرك ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ يعني لا يرضى الله تعالى ولا يترك ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ يعني يظهر دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فيظهره ثم قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ يعني بالقرآن والتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يعني دين الإسلام ويقال دين الله تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يعني: يظهره بالحجة على الدين كله. ويقال بالقهر والغلبة والرعب في قلوب الكفار. وقال ابن عباس: ليظهره على الدين كله. يعني بعد نزول عيسى عليه السلام لا يبقى أحد إلا دخل في دين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ قال[(٣)] السدي: الأحبار اليهود والرهبان النصارى. وقال ابن عباس: الأحبار العلماء والرهبان أصحاب الصوامع ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يعني: بالظلم بغير الحق ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن دين الله، ثم بين الله تعالى حالهم للمؤمنين لكي يحذروا منهم ولا يطيعوهم. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يجمعونها

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٢٣٠ وعزاه لابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٢٣١ وعزاه لأبي الشيخ.

ويمنعون زكاتها. قال بعضهم هذا نعت للأحبار والرهبان. وقال بعضهم هذا ابتداء في كل من جمع المال ومنع منه حق الله تعالى. وقال ابن[١] عباس: الكنز الذي لا يؤدى عنه زكاته وروى نافع عن ابن[٢] عمر أنه قال: أي مال كان على وجه الأرض لا تؤدى زكاته فهو كنز يعذب صاحبه يوم القيامة. وما كان في بطن الأرض يؤدى زكاته فليس بكنز. وروي عن عليّ بن[٣] أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أربعة آلاف فما دونها نفقة وما كان أكثر منها فهو كنز. ثم قال ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني أهل هذه الصفة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله. يعني لا يؤدون حقها في طاعة الله تعالى. وقال «ولا ينفقونها» ولم يقل ينفقونهما لأنه انصرف إلى المعنى، يعني لا ينفقون الكنوز. ويقال لا ينفقون الأموال. ويقال يعني الفضة. وقال بعضهم نزلت في شأن الكفار. وقال بعضهم: كان هذا في أول الإسلام، ووجب عليهم أن يؤدوا الفضل ثم نسخ بآية الزكاة. وقال بعضهم: كل مؤمن لا يؤدي الزكاة فهو من أهل هذه الآية. وهو قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يعني يوقد على الكنوز ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ويقال لهم ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ يعني: فذوقوا العذاب بما كنتم تكنزون. قال الفقيه حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله[٤] بن مسعود رضوان الله عليهم أنه قال: والذي لا إله غيره لا يعذب رجل بكنز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً. ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل درهم على حدة وكل دينار على حده. وروى أبو أمامة الباهلي قال: مات رجل من أهل الصُّفة فوجد في مؤتزره دينار. فقال رسول[٥] الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كية، ومات رجل آخر فوجد في مؤتزره ديناران فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كيتان. والمعنى في ذلك أنه قد أصاب ذلك من الغلول. ولو لم يكن أصابه من الغلول لكان لا يستحق العقوبة لأن الزكاة لا تجب في أقل من عشرين ديناراً. وقال بعضهم كان هذا في الوقت الذي وجب عليه أن ينفق الفضل. قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فأعلم الله تعالى المسلمين أن عدة الشهور التي يعدون، اثنا عشر شهراً على منازل العمر. فجعل حجهم وأعيادهم وصيامهم على هذا العدد. فالحج والصوم يكون مرة في الشتاء ومرة في الصيف. وكانت أعياد أهل الكتاب في متعبداتهم في سنتهم على حساب دوران الشمس،

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٣٣ وعزاه لابن المنذر وذكره أيضاً وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لمالك وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم أبي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٣٣ وعزاه لابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ.
(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/١٣٧، ١٣٨ وابن حبان، وأورده ـ الهيثمي في المورد (٢٤٨١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٦٤٩)، وابن أبي شيبة ٣/٣٧٢، والطبراني في الكبير ٨/١٤٨ وذكره السيوطي في الدر ٢/٥٧، ٥/١٤٨ والهيثمي في المجمع ١٠/٢٤٠ وابن كثير في التفسير ٤/٨٥.

على كل سنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، فجعل شهور المسلمين بالأهلة كما قال الله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) ويقال إن عدة الشهور يعني عدد الشهور التي وجبت عليكم الزكاة فيها، اثنا عشر شهراً في كتاب الله يعني في اللوح المحفوظ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كتبها عليكم ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ يعني رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني: ذلك الحساب المستقيم لا يزاد ولا ينقص. وقال مقاتل بن حيان: ذلك الدين القيم. يعين: ذلك القضاء البين. وهكذا قال الضحاك. ثم قال ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قال بعضهم في الأربعة أشهر. وقال قتادة:(١) الظلم في الشهر الحرام أعظم وزراً مما سوى ذلك. وإنْ كان الظلم على كل حال غير جائز ولكن الله تعالى يعظم من أمره ما يشاء. ويقال فلا تظلموا فيهن أنفسكم يعني: في هذه الاثني عشر شهراً، ويقال هو على وجه التقديم، إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فلا تظلموا فيهن أنفسكم منها أربعة حرم. يعني وخاصة في الأربعة أشهر. ثم قال ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يعني جميعاً في الشهر الحرام وغيره. وكان القتال في الشهر الحرام محرماً. فنسخ بهذه الآية. وصار مباحاً في جميع الشهور. وقال بعضهم: هو غير مباح. ومعنى هذه الآية وقاتلوا المشركين كافة إن قاتلوكم في الشهر الحرام. وإنْ لم يقاتلوكم لا يجوز. والقول الأول أصح لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد حاصر الطائف في الشهر الحرام ثم افتتحها بعد ما مضى الشهر الحرام. فلو كان القتال حراماً لم يحاصرهم في الشهر الحرام. ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ ثم قال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني معينهم وناصرهم. قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

﴿إِنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ يعني تأخير المحرم إلى صفر زيادة الأثم في كفرهم. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد(٢) أنه قال: كانوا يحجون في ذي الحجة عامين ثم يحجون في المحرم عامين ثم يحجون في صفر عامين وكانوا يحجون في كل سنة في كل شهر عامين حتى وافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه الآخر من العامين في ذي القعدة قبل حجة النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم حج النبي - صلى الله عليه وسلم - من قابل في ذي الحجة وقال في خطبته: ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض(٣). وروى أسباط عن السدي أنه قال: كان رجل من بني مالك بن كنانة يقال له جنادة بن عوف يكني أبا أمامة ينسيء عدد الشهور(٤). وقال في رواية الكلبي(٥): كان اسمه نعيم بن ثعلبة من بني كنانة، وقال في رواية مقاتل كان اسمه ثمامة الكناني، وكانت العرب

(١) ذكره البغوي في التفسير ٢/٢٨٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢/٢٣٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البخاري ٣/٥٧٣ في الحج باب الخطبة أيام منى (١٧٤١)، ٨/١٠٨ في المغازي (٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٤٤٧) مسلم ٣/١٣٠٥ - ١٣٠٧ في القسامة (٢٩ - ٣١/١٦٧٩).

(٤) انظر معالم التنزيل للبغوي ٢/٢٩١.

(٥) انظر المصدر السابق.

يشتد عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أرادوا أن يغيروا قام الكناني يوم منى، وخطب الناس وقال إني قد أحللت لكم المحرم وحرمت لكم صفر مكانه. فقاتل الناس في المحرم. فإذا كان صفر غمدوا السيوف ووضعوا الأسنة، ثم يقوم من قابل ويقول إني قد أحللت صفر وحرمت المحرم فذلك قوله تعالى: ﴿**يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً**﴾. قرأ ورش عن نافع، وقرأ ابن كثير[1] إنما النَّسيُّ بتشديد الياء بغير همز. وقرأ الباقون بالهمز ومعناها واحد. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص يُضَلُّ به بضم الياء ونصب الضاد على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون يُضِلُّ به بكسر الضاد ويكون معناه أن أخيرهم عمل يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويقاتلون فيه ويحرمونه عاماً ولا يقاتلون فيه ﴿**ليواطئوا**﴾ يعني: ليوافقوا ﴿**عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ**﴾ يعني: حسن لهم قبح أعمالهم ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ يعني لا يرشدهم إلى دينه مجازاة لكفرهم قوله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني في الجهاد ﴿**اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**﴾ يعني: تثاقلتم. فأدغم التاء في الثاء وأجلب الألف لتسكين ما بعد هذه يعني: قعدتم ولم يخرجوا. وذلك أن النبي[2] - صلى الله عليه وسلم - أمر الناس بالخروج إلى غزوة تبوك وكان في أيام الصيف حين اشتد الحر وطابت الثمار والظلال فكانوا يتثاقلون عن الخروج فعاتبهم الله فقال: ﴿**أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ**﴾. يقول آثرتم واخترتم عمل الدنيا على عمل الآخرة. ﴿**فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ يعني: منفعة الدنيا ﴿**فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ يعني: بجنب منفعة الآخرة إلا ساعةً. ويقال معناها ما يتمتع به في الدنيا قليل عندما يتمتع به أولياء الله تعالى في الجنة. ثم خوفهم فقال ﴿**إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ**﴾ الله وأصله إن لا تنفروا. فأدغم النون في اللام ومعناه إن لم تنفروا. يعني إن لم تخرجوا إلى الغزو مع نبيكم - صلى الله عليه وسلم - يُعَذِّبْكُمْ ﴿**عَذَاباً أَلِيماً**﴾ يعني: يسلط عليكم عدوكم ويهلككم ﴿**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ**﴾ خيراً منكم وأطوع لله تعالى ﴿**وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً**﴾ يقول ولا تنقصوا من ملكه شيئاً بجلوسكم عن الجهاد ﴿**وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ أن يستبدل بكم قوماً غيركم. قوله تعالى:

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ

---

(١) انظر حجة القراءات ٣١٨، وسراج القارىء ٢٣٦.

(٢) انظر تفسير البغوي ٢/ ٢٩٢.

وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ يعني إن لم تنصروه وتخرجوا معه إلى غزوة تبوك فالله ينصره كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة من مكة ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ يعني كان واحداً من اثنين يعني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبا بكر رضي الله عنه ولم يكن معهما غيرهما. فنصرهما الله تعالى ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وذلك حين أراد أهل مكة قتله فهاجر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة فجاء النبي ـ عليه السلام ـ إلى بيت أبي بكر فلم يجده فجلس إلى أن جاء أبو بكر فقبَّل رأس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال مالك بأبي أنت وأمي؟ قال ما أرى قريشاً إلا قاتلي. فقال أبي بكر دمي دون دمك ونفسي دون نفسك لا يصنع بك شيء حتى يبدأ بي. فقال اخل بي. قال أبو بكر ليس بك عين إنَّما هما ابنتاي أسماء وعائشة قال قد أذن لي بالخروج من مكة فقال أبو بكر يا رسول الله إن عندي بعيرين حبستهما للخروج فخذ أحدهما واركبه. قال لا آخذه إلا بالثمن. فأخذه بالثمن وهي ناقته القصوى فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ علياً بـن أبي طالب بأن يبيت مكانه، وخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أبو بكر حتى أتيا جبل ثور(١) جبل بأسفل مكة.

قال الفقيه حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي. قال حدثنا يحيى بن أبي طالب عن عبد الرحمن بن إبراهيم الرازي قال حدثنا الفرات عن ميمون بن مهران عن عتبة بن محصن عن أمير المؤمنين(٢) عمر رضي الله عنه أنه قال: والله لليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر. فقيل وأي ليلة هي؟ قال لما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هارباً من أهل مكة ليلاً فتبعه أبو بكر فجعل أبو بكر يمشي أمامه ومرة خلفه ومرةً عن يمينه ومرةً عن يساره. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هذا يا أبا بكر؟ قال يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك. وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك وعن يسارك لا آمن عليك. قال فمشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت. فلما رآها أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار. فأنزله وقال: والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله أنا. فإن كان من شيء نزل بي قبلك. فدخل، فلم ير شيئاً فحمله وأدخله وقال في رواية محمد بن إسحاق كان الغار معروفاً بالهوام فجعل أبو بكر يسد الجحور حتى بقي جحران فوضع عقبيه عليهما حتى أصبح. وقال في رواية عمر وكان في الغار خرق فيه حيات، فخشي أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فألقمه قدمه فجعلن يضربنه ويلسعنه وجعلت الدموع تنحدر على خده من شدة الألم ما يجده ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول يا أبا بكر لا تحزن فذلك قوله تعالى إذ يقول لصاحبه (لا تحزن إنّ اللّه معنا فأنزل اللّه سكينته) يعني الطمأنينة لأبي بكر، فهذه ليلته.

قال الفقيه حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا أبو بكر القاضي قال حدثنا أحمد بن جرير قال حدثنا عمرو بن عليّ قال حدثنا عون بن عمرو القيس عن مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يذكرون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الغار. أمر الله تعالى شجرة فخرجت في وجه النبي ـ صلى الله

(١) انظر البغوي ٢/٢٩٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٤١ وعزاه البيهقي في الدلائل وابن عساكر.

عليه وسلم ـ فسترت وجه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن الله تعالى بعث العنكبوت فنسجت ما بينهما فسترت وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تزقان حتى وقفتا بين العنكبوت وبين الشجرة، فأقبلت فتيان قريش من كل بطن، معهم عصيهم وقسيهم وهراوتهم حتى إذا كانوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قدر مائتي ذراع. قال الدليل وهو سراقة بن مالك انظروا إلى هذا الحجر. ثم قال لا أدري أين وضع رجله. قال الفتيان أنت لم تخطىء منذ الليلة أثره حتى إذا أصبحنا. قال انظروا في الغار. فاستقدم القوم حتى إذا كانوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قدر خمسين ذراعاً نظروا فإذا حمامتان وحشيتان بفم الغار. فرجعوا وقالو رأينا حمامتين وحشيتين بفم الغار فعرفنا أنه ليس فيه أحد فسمعهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعرف أن الله درأ بهما عنه فشمت عليهما. يعني أنه بارك عليهما فأحرزهما الله تعالى في الحرم فأفرختا فيه كما هما إلى الآن. وفي خبر آخر زيادة وقد كان أبو بكر أمر عامر بن فهيرة أن يرعى له غنمه بثور. فكان يريح إليهما غنمه وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما بأخبار أهل مكة فكانا فيه ثلاث ليال، وكانا يريحان الغنم. ويحلبان كل ليلة ما أرادا فلما هدأوا من الالتماس وجاءهم عبد الله بن أبي بكر فأخبرهم بذلك، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعامر بن فهيرة واستأجرا رجلاً من بني الدئل يهديهم الطريق يقال له عبد الله بن أريقط. أخذ بهم أسفل مكة حتى خرجوا قريباً من جدة ثم عارضوا الطريق قريباً من عسفان، ففطن سراقة بن مالك آثارهم فلبس لأمته وركب فرسه حتى أدرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرسخت قوائم فرسه فقال يا محمد ادع الله أن يطلق فرسي فإني أرى الحي قد التمسوني. فإن أكن وراءك خير لك فأرد عنك من وراءي من الناس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللهم إن كان صادقاً فأطلق فرسه. فانطلق فرسه. فقال يا محمد خذ سهماً من كنانتي فمر به على إبلي، فإن أردت لبوناً فخذ، وإن أردت حمولة فخذ، فرجع سراقة فوجد الناس يلتمسون أثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لهم ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ههنا وقد عرفتم من بصيرتي بالآثار. قال فرجعوا عنه. فقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أبي بكر المدينة فذلك قوله تعالى (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) قوله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾ وإنما كان يخاف أبو بكر على نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ذهاب التوحيد والإسلام لا على نفسه. (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) في الدفع عنا ﴿**فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ**﴾ يعني: طمأنينته عليه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يعني: على أبي بكر، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم تزل السكينة معه. وقال حبيب بن أبي ثابت «فأنزل الله سكينته عليه» يعني: على أبي بكر، وقال في رواية الكلبي: فأنزل الله سكينته على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى سكن واطمأن. قال حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا أحمد بن محمد الحاكم القاضي قال حدثنا أحمد بن جرير قال حدثنا الحسن بن عرفة قال حدثنا أبو سوار عن أبي العطوف عن الزهري.قال: قال رسول(١) الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحسان بن ثابت هل قلت في أبي بكر شيئاً؟ قال نعم. قال فقل حتى أسمع فقال(٢):

وَثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ ... طَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذْ يَصْعَدُ الْجَبَلا
وَكَانَ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا ... مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٢٣/١/٣ والحاكم في المستدرك ٧٧/٣، ٨٨ وذكره السيوطي في المنثور ٢٤١/٣ والهندي في الكنز (٣٥٦٧٣، ٣٥٦٨٥).

(٢) انظر ديوانه ٣٠٠.

قال فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه. وقال صدقت يا حسان هو كما قلت. ثم قال تعالى ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يعني: الشرك بالله تعالى ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ يعني: شهادة أن لا إله إلا الله. قرأ الأعمش ويعقوب الخضرمي وَكَلِمَةَ اللَّهِ بالنصب يعني وجعل كلمةَ اللَّهِ. وقراءة العامة وكلمةُ اللَّهِ بالضم على معنى الاستئناف ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ حكم بإظهار التوحيد وإطفاء دعوة المشركين. قوله تعالى:

انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ قال الكلبي [١]. خفافاً. يعني أهل العسرة من المال وقلة العيال، وثقالاً يعني أهل الميسرة في المال والصبية العيال. وقال الكلبي: ويقال فيها وجه آخر. انفروا خفافاً يقول نشاطاً في الجهاد. وثقالاً غير نشاط في الجهاد. وكذا قال مقاتل. ويقال[٢] انفروا خفافاً وثقالاً يعني شباناً وشيوخاً وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن أبا[٣] طلحة الأنصاري قرأ هذه الآية انفروا خفافاً وثقالاً فقال ما أرى الله تعالى إلا سينفرنا شباناً وشيوخاً. قال جهزوني. فقلنا قد غزوت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وعمر. وأنت اليوم شيخ كبير. قال جهزوني فجهزناه، فركب البحر فمات في غزاته. وروى سفيان عن منصور عن الحكم[٤] قال: مشاغيل وغير مشاغيل. وروى مسروق عن أبي الضحى[٥] قال: أول ما نزلت من سورة براءة هذه الآية (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً) ثم نزل أولها وآخرها. وروي عن ابن عباس أنه قال نسختها هذه الآية (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) وقال بعضهم ليست بمنسوخة ولكنها في الحالة التي وقع فيها النفير وجب على جميع الناس الخروج إلى الجهاد وإذا لم يكن النفير عاماً يكون فرضاً عاماً. فإذا خرج بعض الناس سقط عن الباقين وبه نأخذ. ثم قال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني الجهاد خير لكم من الجلوس ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني تصدقون

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٢٩٦.

(٢) من كلام عكرمة رضي الله عنه ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٤٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن سعد وابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حيان وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للفريابي وأبي الشيخ.

بثواب الله ويقال معناه ان كنتم تعلمون أن الخروج إلى الجهاد خير لكم من القعود فانفروا خفافاً وثقالاً. ثم نزل في شأن المنافقين الذين تخلفوا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً﴾ يعني: غنيمة قريبة ويقال سهلاً قريباً ﴿وَسَفَراً قَاصِداً﴾ يعني هيناً يقيناً ﴿لاَّتَّبَعُوكَ﴾ يعني: لو علموا أنهم يصيبون مغنماً (لاَّتَّبَعُوكَ ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والشقة السفر يعني: ثقل عليهم السفر ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي الذين تخلفوا ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ يعني: لو قدرنا. ولو كانت لنا سعة في المال والزاد ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى الغزو. وقال الله تعالى ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني بحلفهم كذباً ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ بحلفهم وأن لهم سعة للخروج ولكنهم لم يريدوا الخروج. قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ وذلك أن بعض المنافقين استأذنوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ولم يكن لهم عذر. فأذن لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) وقال عون بن عبد الله أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب ويقال إن النبي ـ عليه السلام ـ فعل فعلين قبل أن يؤذن له فعاتبه الله على ذلك وعفا عنه. أحدهما في فداء أسارى بدر، والثاني في إذنه للمنافقين بالتخلف فقال له عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ولم يقل يعافيك لم أذنت لهم في التخلف والقعود عن الجهاد.

قال الفقيه سمعت من يذكر عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال معناه: عافاك الله يا سليم القلب لم أذنت لهم. فيقال إن الله تعالى إذا قال لعبده لم فعلت كذا وكذا؟ يكون ذلك أشد عليه من الموت كذا وكذا مرةً لهيبة قوله لم فعلت كذا؟ ولو أنه بدأ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله لم أذنت لكان يخاف على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام إلا أن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه ثم قال « لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ » بالقعود عن الجهاد ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني معرفة الذين صدقوا بعذرهم وإيمانهم ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ في عذرهم وإيمانهم ويقال معناه حتى يتبين لك المؤمن المخلص من المنافق. ثم بين له علامة المؤمنين وعلامة المنافقين فقال الله تعالى ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ يعني: بغير عذر ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في السر والعلانية ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ يعني بالمؤمنين المخلصين. ثم ذكر علامة المنافقين فقال ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ يعني: في القعود عن الجهاد ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني لا يصدقون في السر ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: شكت قلوبهم ونافقت قلوبهم (ولا يتوبون ولا يرجعون عن ذلك)[1] ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ يعني في شكهم ونفاقهم يتحيرون. قوله تعالى:

وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك إلى الغزوة ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ يعني: اتخذوا لأنفسهم قوة من السلاح. معناه إن

(١) سقط في ظ.

تركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف ثم قال: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ يعني: لم يرد الله خروجهم معك لخبثهم وسوء نياتهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ يعني: حبسهم وأقعدهم عن الخروج. ويقال ثقلهم عن الخروج. ويقال جعل حلاوة الجلوس في قلوبهم حتى أقعدهم عن الخروج ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يعني ألهموا وخيل لهم القعود مع المتخلفين. ثم أخبر الله تعالى أن لا منفعة للمسلمين في خروجهم معهم بل عليهم مضرة منهم فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ يعني: المنافقين لو خرجوا معكم ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ يعني فساداً. ويقال شراً وجبناً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ يقول: ساروا بينكم، والإيضاع في اللغة هو إسراع الإبل. كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - حين أفاض من عرفات: أيها الناس عليكم بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل ولا في إيجاف الخيل يعني إن المنافقين لو خرجوا معكم يسرعون الإبل فيما بينكم ويؤتونكم. ثم قال ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يعني يطلبون منكم الشرك ويطلبون هزيمتكم وعيوبكم ويفشون سركم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ يعني: وفي عسكركم عيون وجواسيس للمنافقين. ويقال: وفيكم من يسمع ما يقول المنافقون ويقبلون منه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني بالمنافقين، وهذا وعيد لهم. يعني: عليم بعقوبتهم ثم قال عز وجل ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل غزوة تبوك. لأنهم قصدوا قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل كثرة المؤمنين. ويقال طلبوا إظهار الشرك قبل غزوة تبوك ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ يعني: احتالوا في هلاكك من كل وجه. ويقال: قلبوا لك الأمور ظهراً لبطن، فانظر كيف يصنعون ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني: كثر المسلمون، ويقال حتى جاء الحق يعني: الإسلام ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: ظهر دين الله الإسلام ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يعني: كارهون الإسلام. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ يعني جد بن قيس كان من المنافقين، حرضه النبي - صلى الله عليه وسلم - على الخروج إلى الغزو فقال يا رسول الله: إن قومي يعلمون حرصي على النساء فأخشى إني لو خرجت وقعت في الإثم ولا تفتني ببنات الأصفر. وكان الأصفر رجلاً من الحبش ملك ناحية من الروم فتزوج رومية فولدت له بنات اجتمع فيهم سواد الحبش وبياض الروم، فكن فتنة فقال جد بن قيس لا تفتني ببنات الأصفر فإني أخاف أن لا أصبر وأضع يدي على الحرام فأذن له النبي - صلى الله عليه وسلم - بالقعود. فنزل «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي» يعني من المنافقين من يقول ائذن لي في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ يعني: ولا توقعني في الفتنة ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يعني: في الكفر والنفاق وقعوا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني: جعلت جهنم للكافرين، وهو جد بن قيس ومن تابعه قوله تعالى:

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن
قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم
مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ

إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ يعني إن أصابك الغنيمة والنصر ساءهم ذلك ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ يعني الشدة والنكبة الهزيمة ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: حذرنا بالقعود والتخلف من قبل المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما أصابك وبتخلفهم. قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾يعني: إلاّ ما قضى لنا وقدر علينا من شدة أو رخاء. ويقال إلاّ ما كتب الله لنا يعني في اللوح المحفوظ، ويقال إلاّ ما كتب الله لنا في القرآن وهو قوله تعالى (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) ثم قال ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: ولينا وناصرنا وحافظنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني وعلى المؤمنين واجب أن يتوكلوا على الله. ويقال: وعلى الله فليثق الواثقون، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ إمّا الشهادة وإمّا الغنيمة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ يعني ننتظر بكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهو الموت ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾يعني: فيأمرنا أن نقتلكم، ويقال معناه قل هل تربصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين يعني: إلا إحدى الخيرين. ونحن نتربص بكم إحدى الشرين. فبين ما ننتظر وتنتظرونه فرق عظيم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يعني: انتظروا بنا الهلاك ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ يعني: المنتظرين لإهلاككم، ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ يعني: قل للمنافقين أنفقوا طوعاً من قبل أنفسكم أو كرهاً مخافة القتل ﴿لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ النفقة ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: منافقين. فقوله أنفقوا اللفظ لفظ الأمر والمعنى معنى الخبر يعني إن أنفقتم. كما إنه يذكر لفظ الخبر والمراد به الأمر كقولك غفر الله لك وقولك رحم الله فلاناً. يعني اللهم اغفر له. وههنا اللفظ لفظ الأمر ومعناه الخبر والشرط يعني إن أنفقتم طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم. قرأ حمزة والكسائي(١) كُرْهاً بضم الكاف. وقرأ الباقون كَرْهاً بالنصب. ثم بين المعنى الذي لم تقبل نفقاتهم من أجله فقال تبارك وتعالى ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ يعني في السر. قرأ حمزة والكسائي(٢) لَنْ يُقْبَلَ بالياء على لفظ التذكير. وقرأ الباقون بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم، فيجوز أن يذكر ويؤنث قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ يعني: متثاقلين ولا يرونها واجبة عليهم ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ غير محتسبين. ثم قال عز وجل ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ يعني: كثرة أموالهم ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في الآية تقديم وتأخير. قال ابن عباس: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ثم قال ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني تذهب أنفسهم وتقبض أرواحهم. وأصله الذهاب كقوله تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الْبَاطِلُ) ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني يقبض أرواحهم على الكفر. قوله تعالى:

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ

(١) حجة القراءات ٣١٩. (٢) انظر المصدر السابق.

وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يعني إنهم مؤمنون على دينكم في السر وهم كاذبون في ذلك القول ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ يعني ليسوا على دينكم في السر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يعني: يخشون. فأظهروا الإيمان وأسروا النفاق قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ يعني حرزاً يلجأون إليه ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ يعني الغيران في الجبل. وقال القتبي: كل شيء غرت فيه فغبت فيه غار ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾يعني: سرباً في الأرض ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾يعني ذهبوا إليه وتركوك ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في المشي ومنه قيل: فرس جموع إذا ذهب في عدوه فلم يفته شيء ويقال الجمح مشي بين مشيتين وهو من لغات اليمن. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ روي عن ابن كثير أنه قرأ يَلْمُزُكَ بضم الميم والباقون بالكسر وهما لغتان ومعناهما واحد. يقول من المنافقين من يطعنك ويعيبك، ويقال لمزته إذا عبته. وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري[1] قال: بينما رسول الله ـ عليه السلام ـ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة، التميمي فقال اعدل يا رسول الله، فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله أتأذن لي فأضرب عنقه. فقال دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدُكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمْرُق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود إحدي ثدييه[2] مثل ثدي المرأة البضعة يخرجون على حين فرقة من الناس. ويروى على حين الفتن من الناس فنزلت فيهم «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ» الآية. قال أبو سعيد أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ـ عليه السلام ـ وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه أتى بالرجل بالنعت الذي نعته رسول الله ـ عليه السلام ـ وروي عن ابن عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعطى المؤلفة قلوبهم من الصدقات فقال أبو الخواص والنبي ـ عليه السلام يعطي وروى بعضهم أبو الجواظ ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم؟ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أبالك أما كان موسى راعياً؟ أما كان داود راعياً؟ فذهب أبو الخواص فقال النبي ـ عليه السلام ـ احذروا هذا وأصحابه[3]فنزل (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ يعني الصدقات ﴿رضوا﴾ بالقسمة ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ لا يرضون بالقسمة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يعني إنهم لو رضوا بما رزقهم الله تعالى وبما يعطيهم رسول الله من العطية ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ يعني يقيننا بالله ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني سيعطينا الله من رزقه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ يعني سيعطينا رسول الله من الغنيمة إذا كان عنده سعة وفضل ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ يعني طامعون وراجون. ولم يذكر جوابه لأن في الكلام دليلاً عليه، ومعناه ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم. ثم بين لهم موضع الصدقات فقال

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ يعني ليست الصدقات للذين يلمزونك في الصدقات وإنما الصدقات ﴿لِلْفُقَرَاءِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٠، ٥٠٥٨، ٦١٦٣، ٦٩٣١، ٤٣٥١، ٤٦٦٧، ٧٤٣٢) وأخرجه مسلم في الزكاة باب ذكر الخوارج وصفاته (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٠٦٤) وانظر الدر المنثور ٣/ ٢٥٠.

(٢) في الحديث في إحدى يده.

(٣) قال الحافظ ابن حجر ٢/ ٢٨٢ في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف لم أجده.

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ قال بعضهم الفقراء الضعفاء الأحوال الذين لهم بلغة من العيش بدليل قول الشاعر[١]

أما الفقير الذي كانت حَلُوبَتُه وَفْقَ العِيال فلم يُترك له سَبَدُ

والمسكين الذي لا شيء له بدليل قول الله تعالى (أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) يعني الذي لم يكن بينه وبين التراب شيء يقيه منه. وقال بعضهم الفقير الذي لا شيء له والمسكين الذي له أدنى شيء. كما قال الله تعالى (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) سماهم مساكين وإن لهم سفينة. وقال بعضهم: الفقير الذي لا يسأل الناس إلحافاً. كما قال الله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إلى قوله (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً) والمسكين الذي يسأل الناس. وقال بعضهم الفقير الذي يسأل الناس والمسكين الذي لا يسأل الناس كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ليس المسكين الذي يطوف على أبوابكم فتردونه باللقمة واللقمتين وإنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه. وقال قتادة، الفقير الذي به زمانة والمسكين الصحيح المحتاج. وقال بعضهم الفقير الذي يكون عليه زي الفقر ولا تعرف حاجته والمسكين الذي يكون عليه زي الفقر وتكون حاجته ظاهرة ثم قال: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السعاة الذين يجبون الصدقات فيعطون على قدر حاجتهم ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم قوم كان يعطيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتألفهم بالصدقات على الإسلام وكانوا رؤساء في كل قبيلة، منهم أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وصفوان بن أمية وغيرهم. فلما توفي رسول الله - عليه السلام - جاؤوا إلى أبي بكر وطلبوا منه، فكتب لهم كتاباً فجاؤوا بالكتاب إلى عمر بن الخطاب ليشهدوه. فقال أي شيء هذا؟ فقالوا سهمنا. فأخذ عمر الكتاب ومزقه وقال إنما كان يعطيكم النبي - عليه السلام - يتألفكم على الإسلام. فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف، فرجعوا إلى أبي بكر. فقالوا أنت الخليفة أم هو؟ قال: هو إن شاء. فبطل سهمهم ثم قال ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: وفي فك الرقاب وهم المكاتبون ثم قال ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ يعني: أصحاب الديون الذين استدانوا في غير فساد ولا تبذير. وقال مجاهد[٢] ثلاثة من الغارمين رجل ذهب السيل بماله ورجل أصابه حريق فهلك ماله ورجل ليس له مال وله عيال فهو يستدين وينفق على عياله. ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الذين يخرجون إلى الجهاد ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يعني المسافر المنقطع من ماله. قال بعضهم وجب أن يقسم الصدقات على ثمانية أصناف وهو قول الشافعي كما بين في هذه الآية. وقال أصحابنا إذا صرف الصدقات إلى صنف من هذه الأصناف جاز وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال إذا اعطى الرجل الصدقة صنفاً واحداً من الأصناف الثمانية جاز. وعن عبد الله بن عباس أنه قال إذا وضعتها في صنف واحد فحسبك. إنّما قال «إنمّا الصدقات للفقراء» لأن لا تجعلها في غير هذه الأصناف. وعن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه أتي بصدقة فبعث بها إلى أهل بيت واحد. ثم قال تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ يعني وضع الصدقات في هذه المواضع فريضة من الله وهو مما أمر الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأهلها ﴿حَكِيمٌ﴾. حكم قسمتها وبينها لأهلها. قوله تعالى:

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ

---

(١) وهو قول الراعي انظر تفسير القرطبي ١٠٧/٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣٥٢/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ قال ابن عباس نزلت في جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد ومحشر بن خويلد وأبو ياسر بن قيس وذلك أنهم كانوا يتنالون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال رجل منهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر. فقال الجلاس نقول ما نشاء فإنما (هُوَ أُذُنٌ) سامعه ثم نأتيه فيصدقنا. والأذن الذي يقبل كل ما قيل له. قال تعالى: (قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ) يعني: إن كان الأمر كما تذكرون فهو خير لكم ولكنه (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) يعني يصدق الله ويصدق المؤمنين لا أنتم. والباء واللام زائدتان يعني ويصدق محمد المؤمنين فذلك قوله تعالى (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ) يعني من المنافقين من يؤذي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يعني سامع لمن حدثه ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ[1]﴾ قرأ العامة قل أُذُنُ بغير تنوين خَيْرٍ لَكُمْ بالكسر. وقرأ بعضهم قل أذُنٌ بالتنوين وَخَيْرٌ بالتنوين والضم. فمن قرأ أذُنٌ بالتنوين فمعناه إن كان محمد كما قلتم أذنٌ فهو خيرٌ لكم. أي صلاح لكم ومن قرأ بالكسر أذُنُ خَيْرٍ فهو على معنى الإضافة أي أذن خير وأذن نعمة. وقرأ نافع قل أُذْن بجزم الذال والباقون بالضم وهما لغتان ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يعني: يصدق بالله تعالى في مقالته ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني يصدق قول المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يعني هو نعمة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ أي: هو نعمة الذين آمنوا في السر والعلانية. قرأ حمزة ورحمةٍ على معنى الإضافة يعني: أذن رحمة. وقرأ الباقون ورحمةٌ بالضم على معنى الاستئناف. ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: وجيع. ثم جاؤوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحلفوا فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون في حلفهم فقال ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ بحلفهم الكاذب ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ قال الزجاج: لم يقل أحق أن يرضوهما لأن في الكلام دليلاً عليه لأن في رضى الله تعالى رضى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحذف تخفيفاً ومعناه والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلفُ

أي نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راضٍ. ويقال يكره أن يجمع بين ذكر الله تعالى وذكر رسوله في كتابة واحدة ويستحب أن يكون ذكر الله تعالى مقدماً و ذكر النبي ـ عليه السلام ـ مؤخراً. وذكر في بعض الأخبار أن خطيباً قام عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال في خطبته من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال النبي ـ عليه السلام ـ بئس الخطيب أنت. لأنه كان يجب أن يقول ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى. ثم قال ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بقلوبهم في السر قوله تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ

---

(١) قرأ نافع: (قل هو أُذْن) بإسكان الذال في كل القرآن. كأنه استثقل ثلاث ضمات فسكن وقرأ الباقون بضم الذال على أصل الكلمة، قرأ أبو بكر في رواية الأعشى: (قل هو أذنٌ) منون (خير لكم) بالرفع والتنوين المعنى: (قل يا محمد فمن يستمع منكم ويكون قريباً منكم قابلاً للعذر خير لكم).

وقرأ الباقون (أذن خيرٍ) بالإضافة وهو نفي لما قالوه المعنى: (أذن خير لا أذن شر) أي مستمع خير ثم بين ممن يقبل فقال: (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أي يسمع ما ينزله الله عليه فيصدق به ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه ولا يصدق المنافقين والباء واللام زائدتان المعنى: يصدق الله ويصدق المؤمنين). انظر حجة القراءات ٣١٩ ـ ٣٢٠.

ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟
إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن
نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أنه مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يخالف الله ورسوله، ويقال يخالف أمر الله وأمر رسوله. يعني أمر الله تعالى في الفرائض وأمر رسوله في السنن وفيها بيِّن. وقال الأخفش يحادد الله يعني يعادي الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ بعضهم فإن له بالكسر على معنى الاستئناف. وقرأ العامة بالنصب على معنى البناء ﴿خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: العذاب الشديد قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال الزجاج. قوله يحذر لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر. أي ليحذر المنافقون. ويقال هو على وجه الخبر يحذر. يعني: يخشى المنافقون. وذلك أن بعضهم قال لو أني جلدت مائة جلدة أحب إليّ من أن ينزل فينا شيء يفضحنا. فنزل (يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّؤُهُمْ﴾ يعني سورة براءة (تُنَبِّؤُهُمْ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق. وكانت سورة براءة تسمى الفاضحة. ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ يعني مظهر ما تخافون من إظهار النفاق. ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وذلك أن رسول الله ـ عليه السلام ـ حين رجع من تبوك وبين يديه هؤلاء الثلاثة يسيرون ويقولون إن محمداً يقول إنّه نزل في إخواننا الذين تخلفوا بالمدينة كذا وكذا وهم يضحكون ويستهزؤون. فأتاه جبريل فأخبره بذلك فبعث إليهم النبي ـ عليه السلام ـ عمار بن ياسر وقال له اذهب إلى أولئك واسألهم عماذا يتحدثون ويضحكون وأخبره أنهم يستهزؤون بالقرآن وأنه إذا أتاهم وسألهم يقولون إنّما كنا نخوض ونلعب. فلما جاء إليهم عمار بن ياسر قال لهم ما كنتم تقولون؟ قالوا إنما كنا نخوض ونلعب فيما يخوض فيه الركب إذا ساروا ونضحك بيننا. فقال عمار صدق الله وبلغ رسوله هكذا أخبرني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنكم تقولـون ذلك. غضب الله عليكم هلكتـم فعرفـوا عند ذلك أنه نزل فيهم شيء فجاؤوا واعتذروا فنزل[1]: ﴿قُلْ﴾ يعني: قل لهم يـا محمد ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ القـرآن ﴿وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تستهزؤون﴾ وقال قتادة إذا رأيا العبد يقول الله انظروا إلى عبدي يستهزىء قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون فجاؤوا إلى النبي واعتذروا فنزل قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يعني: كفرتم في السر بعد إيمانكم في العلانية. (ويقال قد أقمتم على كفركم الأول في السر بعد إيمانكم مع إقراركم في العلانية)[3] بالإيمان ﴿إِنْ نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ وكان فيهم مخلص واحد، ولم يقل معهم شيئاً ولكن ضحك معهم فقال (إن نعف عن طائفة منكم) وهو المؤمن المخلص ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ يعني المنافقين. وقال القتبي: قد يذكر الجماعة ويراد به الواحد كقوله «إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ) وهم المخلصون (نُعَذِّبْ طَائِفَةً) وهم الطَّيِّبَاتِ) وأراد به النبي ـ عليه السلام ـ. ويقال (إن نَّعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ) وهم المخلصون (نُعَذِّبْ طَائِفَةً) وهم المنافقون ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مذنبين كافرين في السر. قرأ عاصم[4] إنْ نَعْفُ بالنون نُعَذِّبْ بالنون

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٣٠٨.
(٢) سقط في «أ».
(٣) سقط في «أ».
(٤) انظر حجة القراءات ٣٢٠، وسراج القارىء ٢٣٧.

وكسر الذال طائفةً بالنصب. وقرأ الباقون إنْ يُعفَ بالياء والضم تُعَذَّب التاء ونصب الذال طائفةٌ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله. قوله تعالى:

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ٱلْمُنَافِقُون وَٱلْمُنَافِقَاتُ﴾ يعني: من الرجال والنساء ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني: بعضهم على دين بعض في السر ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنْكَرِ﴾ يعني: بالتكذيب بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالشرك وبما لا يرضي الله تعالى. ويقال: المنكر ما يخالف الكتاب والسنة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعني: عن التوحيد واتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يعني: يمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله ويقال كفوا عن الحق ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾ يقول: تركوا طاعة الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ يعني تركهم في النار ويقال تركهم في الحرمان والخذلان كقوله تعالى (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ يعني: الخارجين عن طاعة الله تعالى. وكل منافق فاسق وقد يكون فاسقاً ولا يكون منافقاً. ولا يكون منافقاً إلا وهو فاسق. ثم قال عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ الوعد يكون بالخير ويكون بالشر إذا قيد به والوعيد لا يكون إلاّ بالشر فقال (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ) ﴿وَٱلْمُنَافِقَاتِ﴾ يعني المنافقين الذين كانوا بالمدينة ومن كان على مذهبهم ويكون إلى يوم القيامة ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ وهم أهل مكة ومن كان يمثل حالهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ يعني: تكفيهم النار جزاءً لكفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: طردهم الله من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ يعني: دائم. قوله ﴿كَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني صنيعكم مع نبيكم كما صنع الأمم الخالية مع أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ. وقال الضحاك: يعني: لعن المنافقين كما لعن الذين من قبلكم من الأمم الخالية. ويقال ولهم عذاب دائم كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلَاداً﴾ يعني: لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً ولا ينفعكم أموالكم ولا أولادكم أيضاً ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ يعني: فانتفعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا ﴿فاسْتَمْتَعْتُمْ بخلاقكم﴾ كما يقول انتفعتم أنتم بنصيبكم من الآخرة في الدنيا ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم الخالية ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بنصيبهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل ﴿كالذي خَاضُوا﴾ ويقال كذبتم الرسول كما كذبوا رسلهم ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة حبطت أعمالهم ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ﴾ يعني: بطل ثواب أعمالهم. فلا ثواب لهم لأنها كانت في غير إيمان ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ يعني: في الآخرة. قوله تعالى:

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن

كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: ألم يأتهم خبر الذين من قبلهم في القرآن عند التكذيب، كيف فعلنا بهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف أغرقناهم ﴿وَ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ كيف أهلكناهم بالريح العقيم ﴿وَ﴾ قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح كيف أهلكناهم بالصيحة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو النمرود بن كنعان كيف أهلكناه بأضعف الخلق وهو البعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب كيف أهلكناهم بعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ يعني: مدائن قوم لوط. والمؤتفكات جمع المؤتفكة لأنها ائتفكت بهم. يعني انقلبت. كقوله تعالى (وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) يعني أمطرت عليهم الحجارة، وقال مقاتل: المؤتفكات يعني المكذبات ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي فتركوا طاعتي فأهلكتهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني: لم يهلكهم بغير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتركهم طاعتي وتكذيبهم الرسل قوله تعالى:

وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني: بعضهم على دين بعض وبعضهم معين لبعض في الطاعة ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: بالإيمان واتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يعني: عن الشرك ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعين: يقرون بها ويقيمونها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي ويقرون بها ويؤدونها قوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يطيعون الله في فرائضه ويطيعون الرسول في السنن وفيما بَيَّنَ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني ينجيهم الله من العذاب الأليم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره، حكم للمؤمنين بالجنة وللكافرين بالنار قال الفقيه: ذكر عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: سيرحمهم الله في خمسة مواضع: عند الموت وسكراته، وفي القبر وظلماته، وعند الكتاب وحسراته، وعند الميزان ونداماته، وعند الوقوف بين يدي الله تعالى وسؤالاته. قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾أي: المصدقين من الرجال والمصدقات من النساء ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ يعني: منازل طاهرة تطيب فيها النفس ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ في قصور من الدُّر والياقوت.

وقال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل وعبد الله بن محمد قالا حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضيل العابد قال: حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا سفيان بن حصين عن يعلى بن مسلم عن مجاهد قال: قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر «جَنَّاتِ عَدْنٍ» فقال هل تدرون ما جنات عدن؟ قال: قصر في الجنة من ذهب له خمسمائة ألف باب وعلى كل باب خمسة وعشرون ألفاً من الحور العين لا يدخلها إلا نبي. وهنيئاً لصاحب القبر وأشار الى قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو صديقٍ وهنيئاً لأبي بكر أو شهيد. وأنَّى لعمر بالشهادة. ثم قال ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يقول رضاء الرب عنهم أعظم مما هم فيه من الثواب والنعيم في الجنة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاة الوافرة. قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ٧٣
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ
وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ يعني جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالقول الشديد. قال ابن[1] مسعود في قوله جاهد الكفار والمنافقين. قال جاهد بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تستطع فبقلبك والقه بوجه مكفهر. وعن الحسن[2] قال جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحدود. يعني أقم عليهم حدود الله ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أشدد عليهم. يعني على الفريقين جميعاً في المنطق. ثم بين مرجعهم جميعاً في الآخرة وقال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني مصيرهم ومآلهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذي صاروا إليه. ثم بين خبثهم وسؤ معاملتهم وفعالهم فقال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجساً. فقال الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير. فسمع عامر بن قيس ذلك فقال والله ان محمداً لصادق ولأنتم شر من الحمير فلما رجعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه عامر بن قيس فأخبره فقال الجلاس بل كذب عليّ وأمرهما أن يحلفا عند المنبر. فقام الجلاس وحلف ثم قام عامر بن قيس وحلف إنه قد قاله وما كذبت عليه. ثم رفع يديه فقال اللهم أنزل على نبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبيِّن الصادق منا. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون آمين. فنزل جبريل قبل أن يتفرقوا بهذه الآية (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ يقول كفروا في السر بعد أن أقروا في العلانية ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ يعني: أرادوا قتل عامر بن قيس. ويقال قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنهم اجتمعوا ذات ليلة في مضيق جبل ليقتلوه إذا مر بهم. فدفعهم الله عنه. ويقال «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» وهو قول عبد الله بن أُبي بن سلول لأصحابه (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ) وقال: سَمِّن كلبك يأكلك. يعني نحن سلطناهم على أنفسنا فنزل: (وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) وقال مقاتل كان المنافقون أصحاب العقبة هموا ليلاً بقتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعقبة في غزوة تبوك. فنزل وهموا بما لم ينالوا. وهكذا قال الضحاك. ثم قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ يعني: وما عابوا وما طعنوا على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قدم المدينة وكان أهل المدينة في شدة من عيشهم لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة. فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة استغنوا (فذلك قوله إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ثم)[3] قال الله تعالى ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ يعني إن تابوا من الشرك والنفاق، يكون خيراً لهم من الإقامة عليه ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أبوا عن التوبة ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعني: في الدنيا بإظهار حالهم وفي الآخرة في نار جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني مانع يمنعهم من العذاب وذكر أنه لما نزلت هذه الآية تاب الجلاس بن سويد وحسنت توبته. قوله تعالى:

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٥٨ وعزاه البيهقي في شعب الإيمان.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق عن قتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٣) سقط في أ.

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ قال في رواية الكلبي: نزلت الآية في شأن حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام فجهد بذلك جهداً شديداً فحلف بالله ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني المال الذي بالشام ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منه ولأؤدين حق الله تعالى منه. فلم يفعل لمَّا أعطاه الله المال. قال مقاتل نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري. كان محتاجاً فقال (لَئِنْ آتَانَا) الله (مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ). فابتلاه الله فرزقه ذلك. وذلك أن مولًى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأ فدفع النبي - صلى الله عليه وسلم - ديته إلى عصبته وهو ثعلبة فبخل ومنع حق الله تعالى

قال الفقيه حدثنا أبو الفضل ابن أبي حفص قال: حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال حدثنا الربيع بن سليمان المرادي قال: حدثنا أسد بن موسى قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثنا معاذ بن رفاعة عن عليّ بن يزيد عن القاسم عن أبي[1] أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله ادع الله لي أن يرزقني مالاً. فقال ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال ثم رجع إليه فقيل يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال ويحك يا ثعلبة أما ترضى أن تكون مثلي. والله لو سألت الله تعالى أن يسيل عليّ الجبال ذهباً وفضة لسالت. ثم رجع إليه فقال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فوالله لئن آتاني الله مالاً لأؤدين لكل ذي حق حقه. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللهم ارزق ثعلبة مالاً. فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، حتى ضاقت بها أزقة المدينة فتنحى بها. وكان يشهد الصلوات مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يخرج إليها. ثم نمت حتى تعذرت عليها مراعي المدينة فتنحى بها وكان يشهد الجمعة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يخرج إليها. ثم نمت فترك الجمعة والجماعات وجعل يتلقى الركبان ويقول ماذا عندكم من الخير وما كان من أمر الناس فأنزل الله تعالى على رسوله (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ) فاستعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلين على الصدقات رجلاً من الأنصار ورجلاً من بني سليم وكتب لهما كتاب الصدقة وأمرهما أن يصدقا الناس وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله، فأتيا ثعلبة وطلبا منه فقال صدقا الناس فإذا فرغتما فمرا بي. ففعلا فلما رجعا إليه وطلبا منه فأبى وقال ما هذه إلا أخية الجزية فانطلقا. حتى أتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبراه فأنزل الله تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فركب رجل من الأنصار هو ابن عم لثعلبة راحلته حتى أتى ثعلبة فقال ويحك يا ثعلبة هلكت. قد أنزل الله فيك من القرآن كذا وكذا. فأقبل ثعلبة بن حاطب وجعل على رأسه التراب وهو يبكي ويقول يا رسول الله اقبض مني صدقة مالي. فلم يقبض منه صدقةً حتى قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أتى إلى أبي بكر فلم يقبل منه صدقته ثم أتى إلى عمر فلم يقبل صدقته ثم أتى إلى عثمان فلم يقبل صدقته ومات في خلافة عثمان فذلك قوله (فَلَمَّا آتَاهُمْ) يعني:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٦٠ وعزاه للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال والطبراني وابن منده والبارودي وأبي نعيم في معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر.

لما أعطاهم (مِنْ فَضْلِهِ) يعني: من المال (بَخِلُوا بِهِ) بمنع حق اللّهِ تعالى (وَتَوَلَّوْا) عن الصدقة (وَهَمْ مُعْرِضُونَ) فلم يفوا بما قالوا (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ) يقول جعل عاقبتهم على النفاق (إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) وهو يوم القيامة **﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** بقوله لئن آتانا الله من فضله لنصدقن. وقال عبد الله بن[١] مسعود: اعتبروا المنافق بثلاث. إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر. ثم قرأ (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ) إلى قوله (وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). فقد ذكر الثلاثة في هذه الآية. قوله تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في أصحاب العقبة حين هموا بما لم ينالوا. وهذا عطف على قوله (لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ. **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** أي علم غيب كل شيء مما هموا به. قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾** يعني يطعنون ويعيبون **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾** وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك حثَّ الناس على الصدقة. فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وزن كل درهم مثقالاً. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثرت هل تركت لأهلك شيئاً؟ فقال يا رسول الله كان مالي ثمانية آلاف درهم فأما أربعة آلاف درهم فأقرضتها ربي عز وجل، وأما أربعة آلاف فأمسكتها لنفسي. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله فيه حتى إنّه بلغ ماله حين مات أنه طلق إحدى نسائه الثلاث في مرضه فصالحوها عن ثلث الثمن لها بثمانين ألف درهم ونيف وفي رواية أُخرى ثمانين ألف دينار ونيف. وجاء عاصم بن عدي بسبعين[٢] وسقاً من تمر وكل واحد منهم جاء بمقدار طاقته حتى جاء أبو عَقيل بن قيس بصاع من تمر وقال آجرت نفسي الليلة بصاعين فصاع أقرضته لربي وصاع تركته لأهلي. فأمره بأن ينثره في الصدقة[٣]. وروي أن امرأة جاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتمرةٍ واحدة. فلم ينظر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها. فنزل (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) إلى آخره وكان نفر من المنافقين جلوساً يستهزؤون فقالوا لقد تصدق عبد الرحمن وعاصم بن عدي على الرِّب، فلقد كان الله غنياً عن صاع أبي عقيل. فنزل الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين يعني يطعنون المتصدقين الذين يتصدقون بأموالهم وهم عبد الرحمن وعاصم وغيرهما. **﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾** قال أهل اللغة الجُهْدُ بالضم الطاقة والجَهْدُ بالفتح المشقة. وقال الشعبي الجُهْدُ هو العسرة يعني القلة والجَهْد بالنصب هو الجهدُ في العمل. **﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾** يقول: يستهزؤون بهم **﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾** يعني يجازيهم جزاء سخريتهم. وهذا كقوله: (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) ثم قال **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** يعني وجيع دائم. فلما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٦١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) وفي تفسير البغوي ٢/٣١٥ بمائة وسق.

(٣) انظر المصدر السابق.

نزلت هذه الآية جاؤوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا رسول الله استغفر لنا فنزل ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر. أي إن شئت استغفر لهم وإن شئت فلا تستغفر لهم. يعني للمنافقين ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ثم بَيَّنَ المعنى الذي لم يغفر لهم بسببه فقال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني في السر. وقال قتادة(١) ومجاهد لما نزلت هذه الآية قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأزيدنّ على سبعين. فاستغفر لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم. فأنزل الله تعالى (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني المنافقين الذين كفروا بالله ورسوله في السر والله تعالى لا يهديهم ما داموا ثابتين على النفاق. قوله تعالى:

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يقول عجب ورضي المتخلفون عن الغزو وهم المنافقون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ يعني: بتخلفهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ يعني: قال بعضهم لبعض لا تخرجوا إلى الغزو فإن الحر شديد. قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يعني لو كانوا يفهمون ويعقلون. وفي قراءة ابن مسعود لو كانوا يعلمون. ثم قال عز وجل ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به التوبيخ. قال الحسن(٢) يعني (فليضحكوا قليلاً) في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ في الآخرة في النار ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني عقوبة لهم بما كانوا يكفرون. وعن أبي رزين أنه قال في قوله تعالى: فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً قال يقول الله تعالى: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا فإذا صاروا إلى النار بكوا بكاءً لا ينقطع فذلك الكثير. وروى الأعمش عن عمارة بن عمير عن أبي عامر عن عمرو بن شرحبيل قال: مر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ملأ من قريش وفيهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة فقال أبو جهل هذا نبيكم يا بني عبد مناف. فقال عتبة وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك. فسمعه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل عليهم وقال: أما أنت يا عتبة فلم تغضب لله ولا لرسوله وإنما غضبت للأصل. وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك إلا غير كثير من الدهر حتى تبكي كثيراً وتضحك قليلاً. وأما أنتم يا ملأ قريش فوالله لا يأتي عليكم إلا غير كثير من الدهر حتى تدخلوا في هذا الأمر الذي تنكرون طائعين أو كارهين. قال فسكتوا كأنما ذر على رؤوسهم التراب فلم يردوا عليه شيئاً(٣). وروى أنس بن(٤) مالك عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يرسل الله تعالى البكاء على أهل النار فيبكون حتى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ومثله عن ابن عباس انظر الدر المنثور ٣/٢٦٥.

(٣) أخرجه الطبري في التاريخ ٢/٣٤٧، ٣٤٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٢/١٤٤٦ في كتاب الزهد (٤٣٢٤) وذكره المنذري في الترغيب ٤/٤٩٢ والمتقي الهندي في الكنز ٣٩٥٢٦ ـ وبنحوه ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٥.

تنقطع الدموع. ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود. قوله تعالى:

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: إن رجعك الله من تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً﴾ إلى الغزو ﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً﴾ ويقال معناه لن تخرجوا إلّا مطوعين من غير أن تكون لكم شركة في الغنيمة ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالتخلف عن غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ يعني: مع المتخلفين الذين تخلفوا بغير عذر. ويقال الخالف الذي يخلف الرجل في أهله وماله. ويقال الخالف الذي خالف قومه. ويقال الخالف الفاسد ويقال الخالف المرأة والخوالف النساء. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ يعني لا تصل أبداً على من مات من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ يعني: لا تدفنه ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في السر ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني ماتوا على الكفر. قال مقاتل ذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء إليه ابن عبد الله بن أُبي بن سلول وهو رأس المنافقين حين مات أبوه فقال: أنشدك الله أن لا تشمت بي الأعداء. فطلب منه أن يصلي على أبيه. فأراد النبي أن يفعل. فنزلت هذه الآية. فانصرف النبي ـ عليه السلام ـ[1] ولم يصل عليه وقال في رواية الكلبي: لما اشتكى عبد الله بن أُبي بن سلول عاده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فطلب منه عبد الله أن يصلي عليه إذا مات وأن يقوم على قبره وأن يكفنه في القميص الذي يلي جلده، فقبل ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عمر. فجئت إلى رسول الله ـ عليه السلام ـ حين أراد أن يصلي عليه، فقلت يا رسول الله أتصلي عليه وهو صاحب كذا وكذا؟ فقال دعني يا عمر. ثم عدت ثانياً ثم عدت ثالثاً، فنزلت هذه الآية. وروى عكرمة عن ابن[2] عباس أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد صلى عليه وقام على قبره وكفنه في قميصه فنزل «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً» الآية. فنهي أن يصلي على أحد من المنافقين بعده. قال ابن عباس والله لا أعلم أي صلاة كانت؟ وما خادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنساناً قط. وفي خبر آخر: إنّ عمر قال: يا رسول الله أتصلي عليه وتعطيه قميصك وهو كافر منافق؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما علمتَ يا عمر عسى أن يسلم بسبب هذا القميص خلق كثير ولا يغنيه قميص من عذاب الله شيئاً. فأسلم من أهاليه ومن بني الخزرج خلق كثير. وقالوا لولا أن عبد الله عرفه حقاً ما تبرك بقميصه وما طلب منه أن يصلي عليه. ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ يعني بالأموال في الآخرة على وجه التقديم ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. قوله تعالى:

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/٣١٦ وانظر البخاري (١٢٦٩) (٥٧٩٦) ومسلم (٤/٢٧٧٤). والترمذي (٣٠٩٨) والنسائي (١٩٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٦٦، ٤٦٧١ وأخرجه الترمذي في التفسير (٣٠٩٧) والنسائي في المجتبى (١٩٦٦).

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا
نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني سورة براءة ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ صدقوا بقلوبكم كما أقررتم بلسانكم ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ يعني: استأذنك في القعود، أهل السعة والغنى من المنافقين ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يعني: دعنا وائذن لنا نتخلف ونقعد مع القاعدين الذين تخلفوا في المدينة عن الجهاد ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يعني: بأن يجالسوا النساء بالمدينة. يقال الخوالف هم خساس الناس ودناتهم يقال: خالفه أهل إذا كان دونهم ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ التوحيد. ويقال لا يعلمون ثواب الخروج إلى الجهاد. ثم قال عز وجل ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ﴾ يعني إن لم يجاهد المنافقون فالله تعالى غني عنهم ويجاهد الرسول ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ يعني إن لم تخرجوا أنتم. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ يعني الحسنات. ويقال زوجات حسان في الجنة، والخيرة الزوجة، والخيرة الثواب. وقال القتبي والأخفش الخيرات واحدها خيرة وهن الفواضل، وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال في قوله (وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ) قال: لكل مسلم خيرةٌ ولكل خيرةٌ خيمة ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من الله تعالى تحفة وكرامة وهدية لم يكن قبل ذلك، لا طمحات ولا مرحات ولا بخرات ولا دفرات (حورٌ عينٌ) كأنهن الآية. قال أهل اللغة طمحات يعني ناكسات رؤوسهن. مرحات خفيفة الروح. بخرات منتن ريح الفم. ودفرات منتن ريح الإبط. ثم قال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: الناجون في الآخرة. قوله تعالى:

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ
مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى
ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ
مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني النجاة الوافرة والثواب الجزيل قوله تعالى ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قرأ ابن عباس المُعْذَرُونَ بالتخفيف وهكذا قرأ الحضرمي. وقراءة العامة المُعَذِّرُونَ بالتشديد(١) فمن قرأ بالتخفيف يعني الذين أعذروا وجاؤوا بالعذر. ومن قرأ بالتشديد يعني

(١) وقرأ الكسائي في رواية قتيبة: (وجاء المعذرون) بالتخفيف أي الذين يعذروا وجاؤوا بعذر. وكان ابن عباس يقرؤها كذلك ويقول: =

المعتذرين إلا أن التاء أدغمت في الذال لقرب المخرجين يعني: الذين يعتذرون، كان لهم عذر أو لم يكن لهم، وهذا قول الزجاج. وروي عن ابن[1] عباس رضي الله عنه أنه قال: وجاء المُعْذِرُونَ بالتخفيف وهم المخلصون أصحاب العذر. وقال لعن الله المُعَذِّرِينَ بالتشديد لأن المعذِّرين هم الذين يعتلُّون بلا علة ويعتذرون بلا عذر ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فمن قرأ بالتشديد يكون هذا نعتاً لهم. ومن قرأ بالتخفيف يكون صنفين ويكون معناه وجاء الذين لهم العذر وسألوا العذر وقعد الذين لا عذر لهم. وهم الذين كفروا بالله ورسوله في السر. ثم بين أمر الفريقين فقال ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهم الذين تخلفوا بغير عذر. ثم بين حال الذين تخلفوا بعذر فقال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ يعني على الزمني، والشيخ الكبير ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ في الجهاد ﴿حَرَجٌ﴾ أي: لا إثم عليهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يعني ليس على الموحدين المطيعين من حرج إذا تخلفوا بالعذر ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لهم بتخلفهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ يعني ولا حرج على الذين ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الجهاد. روى أسباط عن السدي أنه قال: أقبل رجلان من الأنصار أحدهما عبد الله بن الأزرق والآخر أبو ليلى. فسألاه أن يحملهما. ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾. وروي عن محمد بن كعب[2] القرظي أنه قال: أتاه سبعة نفر من أصحابه. سالم بن عمير وحزم بن عمرو وعبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى وسلمان بن صخر وعتبة بن زيد وعمرو بن عتمة وعبد الله بن عمرو المزني يستحملونه. فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ يعني: تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ في الخروج إلى الجهاد. قوله تعالى:

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا
لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ
إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

= (هم أهل العذر) أي جاؤوا معذرين ولهم عذر والمعذر الذي قد بلغ أقصى العذر. والعرب تقول: (أعذر من أنذر) أي بالغ في العذر.

وقرأ الباقون: (وجاء المعّذرون) بالتشديد أي المعتذرون، إلا أن التاء أدغمت في الذاك لقرب المخرجين قال الزجاج: ومعنى المعتذرين الذين يعتذرون: كان لهم عذر (أو لم يكن لهم عذر) وهو ها هنا أشبه بأن يكون لهم عذر وأنشدوا:

إلى الحَوْل ثم اسْم السَّلامِ عَلَيْكُمَا ... ومن يَبْكِ حَوْلاً كَامِلا فَقَدِ اعْتَذَرْ

بريد: قد أعذر. وقد يكون لا عذر له. وقال الله تعالى ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم﴾ ثم قال: ﴿لا تعتذروا﴾ أي لا عذر لكم.

وكان ابن عباس يقول: (رحم الله المعذرين ولعن الله المعذرين) ذهب إلى من يعتذر بغير عذر: وقال آخرون: المعذرون المقصرون أي الذين يوهمون أن لهم عذراً ولا عذر لهم. انظر ابن زنجلة ٣٢١.

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٦ وعزاه لابن الأنباري في كتاب الأضداد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٧ وعزاه لابن جرير.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٥﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ الحرج ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في التخلف ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ يعني: لهم سعة للخروج ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ختم ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ التوحيد قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ يعني: لا نصدقكم إن لكم عذراً ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ يعني: أخبرنا الله تعالى بأنه ليس لكم عذر. ويقال أخبرنا الله عن نفاقكم. ويقال أخبرنا الله عن أعمالكم سرائركم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فيما تستأنفون وسيرى المؤمنون ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ يعني: ترجعون بعد الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوا ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. قوله ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: إذا رجعتم إليهم من الغزو ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يعني: لتتجاوزوا وتصفحوا عنهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يعني أصفحوا وتجاوزوا عنهم في الدنيا. ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ يعني قذر ونجس ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني مصيرهم في الآخرة إلى جهنم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق. قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ يعني إن أنت رضيت عنهم يا محمد والمؤمنون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني المنافقين. قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾ يعني أسد وغطفان وأعراب حاضري المدينة، هم أشد في كفرهم ونفاقهم من غيرهم ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ يعني: أحرى وأولى وأحق (أَلَّا يَعْلَمُوا) ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ لأنهم كانوا أجهل وأقل علماً من غيرهم. وقال الكلبي: يعني لا يعلمون الفرائض التي أنزل الله على رسوله. وقال مقاتل: هم أقل علماً بالسنن من غيرهم. وروى الأعمش عن إبراهيم[1] قال: كان زيد بن صوحان جالساً يحدث وقد أصيبت يده يوم نهاوند، فجاء أعرابي وقال والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني. فقال له زيد أو ليس الشمال؟ قال الأعرابي والله لا أدري الشمال يقطعون أو اليمين. فقال زيد: صدق الله «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» ويقال أن لا يعلموا أحكام الله في كتابه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم (حكيم) في أمرهم. ونزل فيهم ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً﴾ يعني: ما ينفق في الجهاد، يحسبه غُرْماً ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ يعني ينتظر بكم الموت. يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة وقال القتبي: الدوائر دوائر الزمان وهي صروفه التي تأتيه مرة بالخير ومرة بالشر. يقول الله تعالى ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعني: عاقبة السؤ والهلاك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[2] دائرة السُّوءِ بضم السين يعني عاقبة المضرة والشر. وقرأ الباقون بالنصب. يقال رجل سوء إذا كان خبيثاً. وعن الفراء أنه قال الفتح مصدر والضم اسم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بهلاكهم ثم ذكر من أسلم من الأعراب جهينة وغفار وأسلم فقال تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٨ وعزاه لابن سعد وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٢١ ـ ٣٢٢، سراج القارىء ٢٣٧.

وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ في الجهاد ﴿قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: قربة إلى الله تعالى ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ يعني طلب دعاء الرسول ـ عليه السلام ـ واستغفاره. يقول الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: نفقاتهم قربة لهم إلى الله تعالى وفضيلة ونجاة لهم ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يعني: في جنته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم قرأ نافع في رواية ورش قُرُبَةٌ بضم الراء[١]. وقرأ الباقون بجزم الراء ومعناهما واحد. قوله

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ وهم الذين صلوا إلى القبلتين ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وشهدوا بدراً عن قتادة قال: قلت لسعيد بن المسيب من المهاجرون الأولون؟ قال من صلَّى إلى القبلتين مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو من المهاجرين الأولين. وقال السدي: كانت الهجرة قبل أن تفتح مكة فلما فتحت مكة كان من أسلم بعده ولحق بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تابع. وروي عن مجاشع بن مسعود النهدي أنه جاء بابن أخيه ليبايعه على الهجرة فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا بل بايع على الإسلام. فإنه لا هجرة بعد الفتح. ويكون من التابعين بإحسان قرأ العامة والأَنْصَارِ بالكسر. وقرأ الحضرمي والأَنْصَارُ بالضم[٢]. فمن قرأ بالضم فهو عطف على السابقين التابعين ومعناه والسابقون والأنصار ومن قرأ بالكسر فهو عطف على المهاجرين. ومعناه ومن المهاجرين ومن الأنصار. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) بغير واو. وقراءة العامة بالواو[٣]. فمن قرأ بغير واو يكون نعتاً للأنصار. ومن قرأ بالواو يكون نعتاً لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة. وروي عن محمد بن كعب[٤] القرظي أنه قال: سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ هذه الآية «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ». فقال له عمر. من أقراك هذه الآية؟ فقال أقرأنيها أُبي بن كعب. فقال لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما جاءه قال يا أُبي أنت أقرأته هذه الآية هكذا؟ قال نعم. قال أنت سمعتها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال نعم قال: كنت أظن أنا قد ارتفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا. قال أُبي. تصديق هذه الآية أول سورة الجمعة وأوسط سورة الحشر وآخر سورة الأنفال، أما أول سورة الجمعة (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ) وأوسط سورة الحشر (وَالَّذِينَ جَاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ)وآخر سورة الأنفال(وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا) وقال الشعبي: السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يعني: على دينهم بإحسانهم ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يعني عن الله تعالى بثوابه لهم في الجنة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ ابن

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٢ وسراج القارىء ٢٣٧.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٨/١٥٠.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٨/١٥١ ـ ١٥٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٦٩ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

كثير(١) «مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ» بزيادة «من» وقرأ الباقون جنات تجري تحتها الأنهار بغير «من». صار «تَحْتَهَا» نصباً لنزع الخافض ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ ٱلفَوْزُ ٱلعَظِيمُ﴾ يعني الثواب الوافر. قوله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ يعني الأعراب الذين حوالي المدينة ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهو عبد الله بن أُبَي وأصحابه ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ يعني: مرنوا وثبتوا على النفاق، فلا يرجعون عنه ولا يتوبون ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يقول: لا تعرفهم أنت لسبب إيمانهم بالعلانية ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لأني عالم السر والعلانية. ونعلم نفاقهم ونعرفك حالهم ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ قال مقاتل: أحد العذابين عند الموت، ضرب الملائكة الوجوه والأدبار، والعذاب الثاني عذاب القبر، وهو ضرب منكر ونكير. وقال الكلبي: أول العذابين أنه أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر، وروى أسباط بن النضر الهمداني عن إسماعيل بن عبد الملك السدي قال عن أبي مالك عن ابن(٢) عباس أنه قال: قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطيباً يوم الجمعة فقال يا فلان اخرج فإنك منافق. ثم قال يا فلان اخرج إنك منافق. ثم قال يا فلان اخرج فإنك منافق. فأخرجهم بأسمائهم. وكان عمر لم يشهد الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا واختبأوا من عمر وظنوا أنه قد علم بأمرهم. فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم يصلوا. فقال له رجل من المسلمين أبشر يا عمر، قد فضح الله المنافقين «وهذا هو العذاب الأول» والعذاب الثاني عذاب القبر. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد(٣) في قوله: سنعذبهم مرتين قال الجوع والقتل. ويقال القتل والسبي. وقال الحسن: عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يعني عذاب جهنم. أعظم مما كان في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني بتخلفهم عن الغزو. وهم أبو لبابة بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن خزام. ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً﴾ وهو التوبة ﴿وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ بتخلفهم عن غزوة تبوك. وروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: تخلف أبو لبابة عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية المسجد ثم قال: والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ. فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى كاد يخر مغشياً عليه. حتى تاب الله عليه. فقيل له قد تيب عليك فقال والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذي يحلني. فجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحله بيده. ثم قال أبو لبابة يا رسول الله: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب. وأن انخلع من مالي كله واجعله صدقة لله تعالى ولرسوله. فقال: يجزيك الثلث يا أبا لبابة(٤). وروي عن الزهري عن كعب بن مالك قال: أول أمر عتب

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٢ سراج القارىء ٢٣٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر عن ابن مسعود ٣/٢٧٢ وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٧١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) وهو عند عبد الرزاق ٩٧٤٥ وانظر زاد المسير ٣/٣٤٤ وانظر تفسير البغوي ٢/٣٢٤.

على أبي لبابة أنه كان بينه وبين يتيم عذق. فاختصما إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقضى به لأبي لبابة. فبكى اليتيم. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعه فأبى قال: فاعطه إيّاه ولك مثله في الجنة. قال لا. فانطلق أبو الدحداحة فقال لأبي لبابة بعني هذا العذق بحديقتي؟ قال نعم. ثم انطلق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله: أرأيت إن أعطيت هذا اليتيم هذا العذق إلي مثله في الجنة؟ قال نعم. فأعطاه إيّاه. قال: وأشار أبو لبابة إلى بني قريظة حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وأشار إلى حلقه يعني الذبح. والثالث أنه تخلف عن غزوة تبوك ثم تيب عليه فذلك قوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وعسى من الله واجب أن يتجاوز عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قوله تعالى:

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يعني من الذين قبلت توبتهم. جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: هذه أموالنا فخذها وتصدق بها عنا فكره أن يأخذها فنزل: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) (تطهرهم بها من ذنوبهم)[1] ويقال هذا ابتداء، يعني خذ من أموال المسلمين صدقة. يعني الصدقة المفروضة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يعني تطهر أموالهم ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ يعني تصلح بها أعمالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يعني استغفر لهم وادع لهم ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يعني دعاءك واستغفارك سكن لهم يعني: طمأنينة لهم إن الله تعالى قد قبل منهم الصدقة. ويقال إن الله قبل منهم التوبة ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لقولهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بثوابهم. قرأ نافع وابن كثير (وأبو عمرو وابن عامر) وعاصم في رواية أبي بكر[2] إنَّ صَلَوَاتِكَ بلفظ الجماعة. وقرأ الباقون صَلَاتَكَ. وقال أبو عبيدة وهذ أحب إليّ لأن الصلاة أكثر من الصلوات. ألا ترى إلى قول الله تعالى «أقيموا الصلاة» وإنَّما هي صلاة الأبد. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يعني ويقبل الصدقات ومعناه وما منعهم عن التوبة والصدقة فكيف لم يتوبوا ولم يتصدقوا. ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده والصدقة. وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله يقبل الصدقة إذا كانت من طيب فيربيها كما يربي أحدكم فصيله أو مهره حتى تكون اللقمة[3] مثل أحد ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني المتجاوز لمن تاب الرحيم بالمؤمنين قوله تعالى:

وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني ويراه رسوله ويراه المؤمنون. وقال ابن مسعود

---

(١) سقط في أ.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٢٢ ـ ٣٢٣، سراج القارىء ٣٢٨.
(٣) أخرجه البخاري ٣/٢٧٨ في الزكاة باب الصدقة من كسب طيب (١٤١٠) ومسلم ٢/٧٠٢ في الزكاة (٦٣/ ١٠١٤).

رضي الله عنه: إن الناس قد أحسنوا القول كلهم. فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فإنما يذبح نفسه. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ يعني يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا. قوله ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني موقوفون لأمر الله. وقال القتبي: مؤخرون على أمر الله. ويقال: متروكون لأمر الله ماذا يأمر الله تعالى لهم. ويقال مؤخر أمرهم ولم يتبين شيء. فنزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا وهم: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع. ثم بين توبتهم في الآية التي بعدها: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا». قرأ حمزة والكسائي[1] ونافع مُرْجَوْنَ بغير همز. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهمز. واختلف عن عاصم وابن عامر[2]. وأصله من التأخير. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بتخلفهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يتجاوز عنهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم في أمرهم ما يشاء. قوله تعالى

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً﴾ يعني بنوا مسجداً مضرة للمسلمين. وقال القتبي يعني مضارة ليضاروا به مخالفيهم ليدخلوا عليهم المضرة ﴿وَكُفْراً﴾ يعني وإظهاراً للكفر ﴿وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وابن عامر «الذين» بغير واو. وقرأ الباقون بالواو ومعناهما واحد. إلا أن الواو للعطف. نزلت الآية في سبعة عشر من المنافقين من بني غنم بن عوف قالوا تعالوا نبني مسجداً يكون فيه متحدثنا ومجمع رأينا. فانطلقوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوه أن يأذن لهم في بناء المسجد وقالوا قد بعد علينا المسير إلى الصلاة معك فتفوتنا الصلاة فأذن لنا أن نبني مسجداً لذوي العلة والليلة المطيرة. فأذن لهم. وكانوا ينظرون رجوع أبي عامر الراهب من الشام. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سماه فاسقاً. وقال: لا تقولوا راهباً ولكن قولوا فاسق وقد كان آمن بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتين ثم رجع عن الإسلام فدعا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمات كافراً. فلما ظهر أمرهم ونفاقهم جاؤوا يحلفون (إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى) أي أردنا ببناء المسجد[3] فنزل «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً». يعني بنوا المسجد للضرار والكفر وللتفريق بين المؤمنين لكي يصلي بعضهم في مسجد قباء وبعضهم في مسجدهم وليجتمع الناس إلى مسجدهم ويتفرق أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني انتظاراً لمن هو كافر بالله ورسوله من قبل بناء المسجد أن يقدم عليهم من قبل الشام، وهو أبو عامر الراهب ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ أي: ما أردنا ببناء المسجد إلاّ صواباً لكيلا تفوتنا الصلاة بالجماعة ولكي يرجع أبو عامر[4] فيسلم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما حلفوا، وإنّما اجتمعوا فيه لإظهار النفاق

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٣.

(٢) وفي السراج ٢٣٨ قرأ شعبة وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بزيادة همزة مضمومة بعد الجيم وتعيين للباقين القراءة بحذف الهمزة وانظر شرح شعلة ٤١٥، وحجة القراءات ٣٢٣.

(٣) في أ [ببنائه]. (٤) في أ [أبو عامر الراهب].

والكفر ثم قال ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعني لا تصل فيه أبداً. لأنهم طلبوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتي ويصلي فيه لكي يتبرك بصلاته فيه فنهاه الله عن ذلك ونزل «لا تقم فيه أبداً» ثم قال ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يعني المسجد الذي بني على التوحيد من أول يوم. قال الأخفش: بني لوجه الله تعالى منذ أول يوم. ويقال بني للذكر والتكبير والتهليل وإظهار الإسلام وقهر الشرك من أول يوم بني. ثم قال ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ يعني أولى وأجدر أن تصلي فيه ثم قال ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ يعني الاستنجاء بالماء. ويقال يحبون أن يتطهروا يعني يطهروا أنفسهم من الذنوب وذلك أن ناساً من أهل قباء كانوا إذا أتوا الخلاء استنجوا بالماء وهم أول من فعل ذلك واقتدى بهم من بعدهم. وروي في الخبر أن النبي(١) ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقف بباب المسجد، بعد نزول الآية وقال لمن فيه: إنّ الله قد أحسن عليكم الثناء في طهوركم. فبم تطهرون؟ قالوا: نستنجي بالماء فقرأ عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الآية وذلك قوله (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّروا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ وقال سعيد(٢) بن المسيب: المسجد الذي أسس على التقوى مسجد المدينة الأعظم. وعن سهل بن(٣) سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المسجد الذي أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد رسول الله وقال الآخر هو مسجد قباء فذكر ذلك إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: هو مسجدي هذا. وروي عن ابن عباس(٤) أنه قال هو مسجد قباء. ثم قال

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ يعني أصل بنيانه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ يعني على توحيد الله تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ من الله عز وجل. قرأ نافع وابن عامر(٥) أَفَمَنْ أُسِّسَ بضم الألف وكسر السين بُنْيَانُهُ بضم الألف والنون (على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون أسس بنصب الألف وبنيانه بنصب النون) ومعنى الآية إن البناء الذي يراد به الخير ورضاء الرب تبارك وتعالى ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ يعني مسجد الضرار أصل بنائه ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ انْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يعني على طرف هار، ليس له أصل. قرأ حمزة وابن عامر وأبي بكر عن عاصم جُرْفٍ بجزم الراء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٢٢، وابن خزيمة في الصحيح (٨٣) ـ والطبراني في الكبير ١٧/ ١٤٠، وذكره الهيثمي في الجمع ١/٢١٢ وذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٤١٧) وابن كثير في التفسير ٤/١٥١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣/٢٨٧ وعزاه لابن أبي شيبة وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والزبير بن بكار في أخبار المدينة وأبي يعلى وابن حبان ـ والطبراني والحاكم في الكنز وابن مردوية وأخرجه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري مسلم في كتاب الحج باب بيان أن المسجد الذي ـ أسس على التقوى هو مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥١٤/ ١٣٩٨) والنسائي في المجتبى (٦٩٧) وأحمد في المسند ٣/٨، ٢٣، ٢٤، ٩١ وابن أبي شيبة ٢/٣٧٢ وأبو يعلى (٩٨٥) وأخرجه ابن حبان كما في الإحسان (١٦٠٦، ١٦٢٦) والحاكم ٢/٣٣٤ والبيهقي في الدلائل ٢/٥٤٤.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(٥) انظر حجة القراءات ٣٢٣، سراج القارىء ٢٣٨.

والباقون بالضم ومعناهما واحد. وقال القتبي: يعني على شفا جرف هائر والجرف ما ينجرف بالسيول من الأودية والهائر الساقط. يقال تهور البناء وانهار وهار إذا سقط. وهذا على سبيل المثل. يعني إن الذي بنى المسجد إنّما بنى على جرف جهنم فانهار بأهله في نار جهنم. وقال الكلبي: بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين بعد رجوعه من غزوة تبوك فأحرقاه وهدماه ثم قال ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى دينه. يعني الذين كفروا في السر. قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً﴾يعني مسجد الضرار ريبةً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني حسرة وندامة بما أنفقوا فيه وبما ظهر من أمرهم ونفاقهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني لا يزال حسرة في قلوبهم إلى أن يموتوا. لأنهم إذا ماتوا انقطعت قلوبهم. ويقال إلا أن تقطع قلوبهم. أي في القبر. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص[1] إلا أنْ تَقَطَّعَ بالنصب فيكون الفعل للقلوب يعني إلَّا أنْ تَتَقَطَّعَ قلوبهم وتتفرق. والباقون بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بهدم مسجدهم قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ معناه إنه طلب من المؤمنين أن يعدوا أنفسهم وأموالهم ويخرجوا إلى الجهاد [والقتال][2] في سبيل الله تعالى ليثيبهم (الجنة). وذكر الشراء على وجه المثل، لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى، وهي عند أهلها عارية، ولكنه أراد به التحريض والترغيب في الجهاد. وهذا كقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) ثم قال ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني في طاعة الله تعالى مع العدو ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ يعني العدو ويقتلهم العدو. قرأ حمزة والكسائي[3] فَيُقْتَلُونَ بالرفع وَيَقْتُلُونَ بالنصب على معنى التقديم والتأخير. وقرأ الباقون يَقْتُلُونَ بالنصب ويُقْتَلُونَ بالرفع ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ يعني واجباً لهم ذلك بأن يفي لهم ما وعد (وبين ذلك) ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني ليس أحد أوفى من الله تعالى في عهده وشرطه. لأنه عهد أن مَنْ قتل في سبيل فله الجنة فيفي عهده وينجز وعده ثم قال ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ وهذا (إعلان)[4] لهم أنهم يربحون في مبايعتهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الثواب الوافر والنجاة والوافرة. قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخره. لهم الجنة أيضاً. ويقال هم التائبون. ويقال صار رفعاً بالابتداء وجوابه مضمر قرأ عاصم التائبين العابدين. يعني اشترى من المؤمنين التائبين العابدين إلى آخره

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٥٤، وسراج القارىء ٢٣٩.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر حجة القراءات ٢٣٥.

(٤) في أ [إعلام].

ويقال: اشترى من عشرة نفر أولهم الغزاة، ومن التائبين الذين يتوبون عن الذنوب والذين هم (الْعَابِدُونَ) يعني الموحدون. ويقال المطيعون لله تعالى، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله تعالى على كل حال ﴿السَّائِحُونَ﴾ قال ابن عباس[1] وابن مسعود[2] ومجاهد[3] والحسن[4] يعني الصائمين. وأصله السائح في الأرض. لأن السائح في الأرض ممنوعاً عن الشهوات. فشبه الصائم به. وذكر عن بعضهم أنه قال: هم الذين يصومون شهر الصبر وهو [شهر][5] رمضان وأيام البيض. ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ يعني الذين يحافظون على الصلوات ﴿السَّاجِدُونَ﴾ الذين يسجدون لله تعالى في الصلوات ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني يأمرون الناس بالتوحيد وأعمال (الخير)[6] ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الذين ينهون الناس عن الشرك والأعمال الخبيثة ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ يعني العاملين بفرائض الله عليهم. وذكر عن خلف بن أيوب أنه أمر امرأته في بعض الليل أن تمسك الرضاع عن الولد فقالت لم؟ فقال لأنه قد تمت سنتان. فقيل له لو تركتها حتى ترضع تلك الليلة أيش يكون فقال: أين قول الله تعالى «والحافظون لحدود الله» ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين بهذا الشرط والعاملين به

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَاكَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني ما ينبغي وما جاز للنبي والذين آمنوا ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان (فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال ألم يستغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان؟ فذكرت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فنزل (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾[7] يعني ذا قرابة في الرحم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني أهل النار وماتوا على الكفر وهم في النار. ويقال أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يستغفر لأبويه وهما مشركان واستأذن منه المسلمون أن يستغفروا لآبائهم فنهاهم الله عن ذلك وقال «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ» (وَالَّذِينَ آمَنُوا أن يستغفروا للمشركين). وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخرجنا معه حتى انتهينا إلى قبر فجلس إليه فناجاه طويلاً ثم رفع رأسه باكياً فبكينا لبكاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقبل إلينا فتلقاه عمر رضي الله عنه وقال ما الذي أبكاك يا رسول الله؟ فأخذ بيد عمر وأقبل إلينا فأتيناه فقال أفزعكم بكائي؟ فقلنا نعم يا رسول الله فقال: إن القبر الذي رأيتموني أناجيه قبر آمنة بنت وهب بن عبد مناف وإني استأذنت ربي بالاستغفار لها فلم يأذن لي. فأنزل الله[8] (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا . .) فأخذني ما يأخذ الولد للوالدين من الرقة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٢٨١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن مردويه.
(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر.
(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأبي نعيم في الحلية.
(٥) سقط في ظ. (٦) في أ [الخيرات]. (٧) ذكره البغوي في التفسير ٢/ ٣٣١.
(٨) ذكره السيوطي في الدر ٣/ ٢٨٣ وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

فذلك الذي أبكاني. وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال استأذنت ربي أن استغفر لوالدي فلم يأذن لي. واستأذنته أن أزور قبرهما فأذن لي[١]. فنزلت هذه الآية. ثم قال عز وجل ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وذلك أن أباه وعده أن يسلم وكان يستغفر له رجاء أن يسلم. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال مازال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، ﴿فَلَمَّا﴾ مات ﴿تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، يعني ترك الدعاء له ولم يستغفر له بعد ما مات على الكفر. وللآية [هذه][٢] وجه آخر. روي عن الزهري عن سعيد بن المسيب[٣]عن أبيه المسيب بن حرب قال: لما حضرت أبا طالب الـوفاة جاءه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بـن أمية. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي طالب يا عم قل لا إله إلا الله كلمة النجاة أشهد لك بها عند الله تعالى، فقال أبو جهل أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ويعانده أبو جهل بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أما والله لاستغفرن لك ما لم أنه عنه. فأنزل الله تعالى (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاء) ونزل «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الآية. وفي قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وروى سماك عن عكرمة عن ابن عباس[٤] أنه قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعة، غسلين وحناناً والأواه والرقيم. وروي عن عبد الله بن عباس في رواية أخرى أنه قال: الأواه الذي يذكر الله في الأرض الوحشية. وروي عن ابن مسعود[٥] أنه قال الأواه الرحيم. وقال مجاهد[٦]: الموقن وقال الضحاك الداعي الذي يلح إلى الله تعالى المقبل إليه بطاعته. ويقال المؤمن بلغة (الحبش)[٧]ويقال الأواه معلم الخير. وقال كعب الأواه الذي إذا ذكر والله قال أواه من النار. وقال القتبي: المتأوه حزناً وخوفاً. (حليم) يعني عن الجهل.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنزل الله

---

(١) أخرجه مسلم ٢/٦٧١ في الجنائز باب استئذان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه (١٠٨/ ٩٧٦).

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١) ومسلم في الإيمان باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (٣٩، ٤٠/ ٢٤). وأخرجه النسائي في المجتبى (٤٠٣).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٨٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم.

(٧) في أ [الحبشة].

تعالى عليه الفرائض ففعل بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون. ثم إن الله تعالى أنزل ما ينسخ الأمر الأول، وقد غاب الناس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يبلغهم ذلك (فعملوا)[١] بالمنسوخ وكانوا يصلون إلى القبلة الأولى ولا يعلمون ويشربون الخمر ولا يعلمون تحريمها فذكروا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) وإن عملوا بالمنسوخ ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يعني ما نسخ من القرآن. يعني إنه قبل منهم ما عملوا بعد النسخ ولا يؤاخذهم بذلك. ويقال وما كان الله ليهلك قوماً حتى يقيم عليهم الحجة، ويقال لَيُعَذِّبَهُمْ في الآخرة، يعني يبين لهم ما يتقون. ويقال لا يتركهم بلا بيان بعد أن أكرمهم بالإيمان حتى يبين لهم ما يحتاجون، ويقال لا ينزع الإيمان عنهم بعد أن هداهم إلى الإيمان حتى يبين لهم الحدود والفرائض فإذا تركوا ذلك ولم يروه حقاً عذبهم الله تعالى ونزع عنهم المعرفة ويقال «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً» على الإبتداء «حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ» فيصيروا فيه ضلالاً. وهذا طريق المعتزلة والطريق الأول أصح بـه نأخذ ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني عليم بكل ما يصلح للخلق ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني يحكم فيهما بما يشاء من الأمر بعد الأمر. يأمر بأمر ثم بغيره ما يشاء ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يعني يحيي الموتى ويميت الأحياء ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني من عذاب الله تعالى ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني من قريب ينفعكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني مانعاً يمنعكم. وقال الكلبي: يحيي ويميت يعني في السفر ويميت في الحضر يعني إن هذا ترغيب في الجهاد لكي لا يمتنعوا مخافة القتل. قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي تجاوز عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذنه للمنافقين بالتخلف. كقوله (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) ويقال: لقد تاب الله على النبي يعني غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. كما ذكر في أول سورة الفتح. ثم قال ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ يعني تجاوز عنهم (ذنوبهم) لما أصابهم من الشدة في ذلك الطريق ثم نعتهم فقال ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ يعني وقت الشدة في غزوة تبوك. كانت لهم العسرة في أربعة أشياء، عسرة النفقة والركوب والحر والخوف ﴿مِنْ بَعْدِ مَاكَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ يعني تميل قلوب طائفة منهم عن الخروج إلى الغزو. ويقال من بعد ماكادوا أن يرجعوا من غزوتهم من الشدة. ويقال هم قوم تخلفوا عنه ثم خرجوا فأدركوه في الطريق ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني تجاوز عنهم ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حين تاب عليهم. قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص[٢] «يَزِيغُ (قُلُوبُ)[٣] بالياء بلفظ المذكر والباقون بالتاء بلفظ التأنيث[٤]. والتأنيث إذا لم يكن حقيقياً جاز التذكير والتأنيث لأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث.

---

(١) في أ [فكانوا يعملون بالمنسوخ.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٢٥، سراج القارىء ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) سقط في أ.

(٤) اعلم أن فعل جماعة يتقدم لمذكر أو مؤنث إن شئت أنثت فعله إذا قدمته وإن شئت ذكرته كما قال جل وعز: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾، فإذا أنثت أردت جماعة وإذا ذكرت أردت جمعاً. ومن قرأ (يزيغ) بالياء جعل في (كاد) اسماً وترتفع (القلوب) بـ (يزيغ)، والتقدير [كاد الأمر يزيغ قلوب فريق منهم). وإنما قدرنا هذا التقدير لأن. (كاد) فعل، و (يزيغ) فعل، والفعل لا يلي الفعل، وعلى هذه القراءة لا يجوز أن يرتفع القلوب بـ (كاد). ومن قرأ بالتاء ارتفعت (القلوب) بـ (كاد) فلا يجوز حينئذ إلا ـ (تزيغ) بالتاء، لأن فيه إضماراً للقلوب ومعناه التأخير، والتقدير: (من بعدما كاد قلوب فريق منهم تزيغ).

ومن رفع (القلوب) بـ (تزيغ) أضمر في (كاد): (الأمر) كما ذكرنا في قراءة حمزة وحجة التاء قوله: (وتطمئن قلوبنا) ولم يقرأ أحد بالياء في هذا الموضع.

(فإن) قيل: لم أنث (تزيغ) ولم تؤنث (كاد) وهما فعلان؟

الجواب: قال الفراء: (كاد) فعل و (تزيغ) فعل ذلك أن تذكرهما جميعاً ولك أن تؤنثهما جميعاً، فلما كان لك الوجهان ذكرت الأول=

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾

قوله ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ يعني وتاب على الثلاثة وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية. قال الفقيه: سمعت أبي رحمه الله يذكر بإسناده عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لم أتخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدراً، فلم يعاتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحداً تخلف عن بدر، إنَّما خرج يريد العير فخرجت قريش معينين لعيرهم فالتقوا على غير موعد. ثم لم أتخلف عن غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها. فأذن للناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوتهم وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار. وكان كل ما أراد غزوة إلا ورى بغيرها. وكان يقول الحرب خدعة. فأراد في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبتهم. وأنا أيسر ما كنت، قد جمعت راحلتَيْن. وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحال وأنا في ذلك أصبو إلى الظلال وطيب الثمار فلم أزل كذلك حتى قام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غازياً، بالغداة وذلك يوم الخميس وكان يحب أن يخرج الناس يوم الخميس فأصبح غادياً، فقلت انطلق غادياً إلى السوق غداً (فأشتري)[1] ثم ألحق بهم. فانطلقت إلى السوق من الغد فعسر على بعض شأني فرجعت فقلت أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم، فعسر علي بعض شأني فلم أزل كذلك حتى التبس بي الريب وتخلفت عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف في المدينة فيحزنني أن لا أرى أحداً تخلف إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، وكان الجميع من تخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بضعاً وثمانين رجلاً ولم يذكرني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بلغ تبوك فلما بلغ تبوك قال: فما فعل كعب بن مالك فقال رجل من قومي خلَّفَه يا رسول الله حسن برديه والنظر إلى عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت (يا هذا)[2] والله يا نبي الله ما نعلم منه إلاَّ خيراً. فلما قضى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غزوة تبوك وقفل ودنا من المدينة جعلت أتذكر بماذا أخرج من سخطة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل ذي رأي من أهلي حتى إذا أقبل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ راح عني الباطل وعرفت ألا أنجو (إلاّ بالصدق ودخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضحى فصلى في المسجد ركعتين وكان إذا جاء من السفر فعل ذلك فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه ويستغفر لهم ويقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى. فدخلت المسجد فإذا هو جالس فلما رآني تبسم (تبسم المُغضب) فجئت فجلست بين يديه فقال: ألم تكن ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى يا نبي الله: فقال ما خلفك؟ فقلت (والله)[3] لو أني بين أحد من الناس غيرك جلست فخرجت من سخطه عليّ بعذر، ولقد أوتيت جَدَلاً. ولكني قد علمت يا رسول الله أني لو أخبرتك اليوم بما تجد عليّ فيه وهو حق فإني أرجو فيه عفو الله. وإن حدثتك حديثاً ترضى علي فيه وهو كذب أوشك الله أن يطلعك عليّ. والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حالاً حين تخلفت عنك. قال أما هذا فقد صدقكم الحديث. قم حتى

= لأن بعده فعلاً آخر ملتزماً بالقلوب، فذكرت الأول لأنه تباعد من (القلوب)، وأنثت الذي يجنب (القلوب).

وقال آخرون: (كاد) ليس بفعل متصرف ولا يكادون يقولون منه فاعلاً ولا مفعولاً به فذكرته وأنثت (تزيغ) لأنه فعل مستقبل متصرف. انظر حجة القراءات ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(١) في أ [فاشترى جهازي]. (٢) سقط في أ. (٣) في أ [والله يا نبي الله]

يقضي الله فيك. فقمت فسار على أثري ناس (من قومي)[١] يؤنبونني، وقالوا والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قط قبل هذا فهلا اعتذرت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يرضى عنك فكان استغفاره سيأتي من وراء ذلك ولم تقف نفسك موقفاً لا تدري ما يقضى لك فيه، فلم يزالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي. فقلت هل قال هذا القول أحد غيري؟ قالوا نعم. فقلت من هو؟ فقالوا هلال بن أمية ومرارة بن الربيع فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة. فقلت والله لا أرجع إليه في هذا أبداً ولا أكذب نفسي. قال فنهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كلامنا الثلاثة. قال فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد وتنكر لنا الناس حتى ماهم بالذين نعرفهم وتنكرت لنا الأرض حتى ما هي باللتي نعرف وكنت أقوى أصحابي فكنت أخرج وأطوف بالأسواق وآتي المسجد وآتي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم عليه وأقول هل حرك شفتيه بالسلام فإذا قمت أصلي إلى سارية فأقبلت على صلاتي نظر [إلي][٢] بمؤخر عينيه فإذا نظرت إليه أعرض عني. واستكان صاحباي فجعلا يبكيان الليل والنهار ولا يطلعان رؤوسهما. فبينما أنا أطوف بالسوق، إذا برجل نصراني جاء بطعام له يبيعه يقول من يدلني على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ فأتاني، وأتاني بصحيفة من ملك غسان، وإذا فيها: أما بعد فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولست بدار مضيقة ولا هوان. فالحق بنا نواسيك. فقلت هذا أيضاً من البلاء يعني الدعوة إلى الكفر. فسجَّرْت لها التنور فأحرقتها فيه. فلما مضت أربعون ليلة إذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أتاني فقال: اعتزل امرأتك. فقلت أطلقها؟ فقال لا. ولكن لا تقربها. فجاءت إمرأة هلال بن أمية فقالت يا نبي الله إن هلالاً شيخ ضعيف فهل تأذن لي أن أخدمه؟ قال نعم ولكن لا يقربنك فقالت يا نبي لله والله مابه حركة من شيء ما زال مكباً يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان. قال كعب فلما طال علي البلاء اقتحمت على أبي قتادة حائطه وهو ابن عمي. فسلمت عليه فلم يرد عليّ جواباً. فقلت أنشدك الله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسولَـهُ؟ فسكت. ثم قلت أنشدك بالله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسوله؟ حتى عاودته ثلاث مرات. قال الله ورسوله أعلم. فلم أملك نفسي أن بكيت. ثم اقتحمت الحائط خارجاً. حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس عن كلامنا صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر (ثم جلست)[٣] وأنا في المنزلة التي قال الله تعالى (ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) إذ سمعت نداء من ذروة سلع، اسم جبل، أن أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج. ثم جاء رجل يركب على فرس يركض، يبشرني فكان الصوت أسرع من فرسه. فأعطيته ثوبي بشارة ولبست ثوبين آخرين وانطلقت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجعل الأنصار يستقبلونني فوجاً فوجاً ويهنئونني ويبشرونني، ولم يقم أحد من المهاجرين غير طلحة بن عبيد الله. قام وتلقاني بالتهنئة. فما نسيت ذلك منه. وانطلقت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون وهو يستنير كاستنارة القمر. وكان إذا سُرَّ بالأمر استنار وجهه كالقمر. فجئت فجلست بين يديه. فقال أبشر يا كعب بخير يوم أتى عليك منذ ولدتك أمك فقلت يا نبي الله أمن عندك أم من عند الله؟ قال بل من عند الله. قوله تعالى: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) إلى قوله «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» الآية فقلت يا نبي الله إن من توبتي ألا أحدث إلاّ صدقاً. وأن أنخلع من مالي كله صدقة لله ورسوله. قال أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قال فما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين صدقته أنا وصاحباي ألا نكون كذبنا فهلكنا كما هلكوا وإني لأرجو ألا يكون

---

(١) سقط في أ. (٢) سقط في أ. (٣) سقط في أ.

الله أبلى أحداً في الصدق كما أبلاني. ما تعمدت لكذبة قط وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. وروى الزهري عن كعب بن مالك قال: كانت توبتنا نزلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلثا الليل. فقالت أم سلمة يا نبي الله ألا نبشر كعباً بن مالك؟ قال إذاً يحطمنكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليلة. وكانت أم سلمة محسنة في شأني تحزن بأمري. وذلك قوله تعالى: (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خلِّفُوا)يعني وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ويقال وعلى الثلاثة الذين تخلفوا عن التوبة يعني أبا لبابة ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَت عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني بسعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني ضاقت قلوبهم ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني علموا وأيقنوا أن لا مفر من عذاب الله ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ يعني إلا بالتوبة إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ يعني يتجاوز عنهم حتى تابوا. ويقال أكرمهم فوفقهم للتوبة كي يتوبوا. ويقال تاب عليهم ليتوب من بعدهم ويقتدي بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يعني المتجاوز لمن تاب الرحيم بهم بعد التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اخشوا الله ولا تعصوه، يعني من أسلم من أهل الكتاب ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال الضحاك يعني مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الغزو بإخلاص ونية. ويقال هذا الخطاب (للمنافقين)[١] الذين كانوا يعتذرون بالكذب، ومعناه يا أيها الذين آمنوا في العلانية اتقوا الله وكونوا مع الثلاثة الذين صدقوا. وروي عن كعب بن مالك أنه قال فينا نزلت «وكونوا مع الصادقين». وقال الكلبي يعني الأنصار والمهاجرين الذين صلوا القبلتين. وقال مقاتل الذين وصفهم الله تعالى في آية أخرى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) الآية. ويقال مع الصادقين في إيمانهم يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله عليهم. حدثنا الفقيه (أبو جعفر) قال: حدثنا أبو بكر القاضي. حدثنا أحمد بن جرير. حدثنا قتيبة حدثنا عبد الرحمن (البخاري)[٢] عن جويبر عن الضحاك[٣] في قوله «وكونوا مع الصادقين». قال أمروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما، رضي الله عنهم قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ يعني المنافقين الذين بالمدينة وحوالي المدينة ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في الغزو ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبر وأشفق من نفس محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يتركوا محبته، ويقال ولا يرغبوا بأنفسهم يعني بإبقاء أنفسهم على إبقاء نفسه. يعني ينبغي لهم أن

---

(١) في ج [إلى المنافقين]. (٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٨٩ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

يتبعوه حينما يريد ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني النهي عن التخلف. ويقال ذلك التحضيض الذي حضهم عليه ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في غزوهم ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ يعني ولا تعب ولا مشقة في أجسادهم، ثم قال ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ يعني مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ يعني أرضاً وموضعاً من سهل أو جبل ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يعني يحزن الكفار ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ يعني لا يصيبون من عدو قتلاً أو غارة أو هزيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ يعني ثواب عمل صالح. يعني يضاعف حسناتهم على حسنات القاعدين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول لا يبطل ثواب المجاهدين. وفي هذاه الآية دليل أن ما أصاب الإنسان من الشدة يكتب له بذلك ثواب. وقال بعضهم لا يكتب له بالشدة ثواب ولكن يحط عنه الخطيئة. وقال بعضهم لا يكون بالمشقة أجر ولكن بالصبر على ذلك. ثم قال عز وجل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ في الجهاد ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ يعني قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ من الأودية مقبلين إلى العدو أو مدبرين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يعني كتب لهم ثواب ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول ليجزيهم بأعمالهم. ويقال يجزيهم أحسن من أعمالهم، لأنه يعطي بحسنة واحدة عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يدرك حسابه. ويقال ليجزيهم بأحسن أعمالهم ويصير سائر أعمالهم فضلاً.

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ روي عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله «وما كان المؤمنون لينفروا كافة». يعني ما كان للمؤمنين لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده (بالمدينة)[1] ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ يقول فهلا خرج ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني عصبة من جماعة ويقم طائفة مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يعني ليتعلموا العلم وشرائع الدين. فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن وتعلمه القاعدون من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيعلمونهم. ويقولون إن الله تعالى قد أنزل على نبيكم بعدكم كذا وكذا، وهذا قوله ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يعني يتعظون بما أمروا ونهوا عنه. ولها وجه آخر وهو ما روي أيضاً عن معاوية بن صالح عن علي بن طلحة عن ابن عباس[2] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما دعا على مضر بالسنين أجدبت بلادهم. وكانت القبيلة تقبل بأسرهم حتى يلحقوا بالمدينة ويعلنوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجهدوهم فأنزل الله تعالى يخبر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم ليسوا بمؤمنين فردهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم بعد ذلك، وهو قوله (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) وروى أسباط بن السدي قال: أقبلت أعراب هذيل وأصابتهم مجاعة واستعانوا بتمر المدينة وأظهروا الإسلام. وكانوا (يفخرون)[3] على المؤمنين فيقولوا نحن أسلمنا طائعين بغير قتال. وأنتم قوتلتم فنحن خير منكم، فآذوا المؤمنين فأنزل الله تعالى فيهم يخبرهم بأمرهم. قال (وَمَاكَانَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) أي جميعاً. (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ) يعني من كل بطن طائفة فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسمعوا كلامه ثم رجعوا إلى قومهم فأخبروهم (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) يعني يتعظون فيعملون به ولا يعملون بخلافه. وفي هذه الآية دليل أن أخبار الآحاد مقبولة ويجب

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكرع السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٩٢ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.
(٣) في أ [يفتخرون].

العمل بها لأن الله تعالى أخبر أن الطائفة من الفرقة إذا تفقهت في الدين وأنذرت قومهم صح ذلك. ولفظ الطائفة يتناول الواحد والأكثر لأن أقل الفرقة اثنان والطائفة من الإثنين واحد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ يعني ما حولكم وبقربكم وهم بنو قريظة والنضير وفدك وخيبر. فأمر الله تعالى كل قوم بأن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار. قال أبو جعفر الطحاوي. منع الله تعالى نبيه عن قتال الكفار بقوله (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ثم أباح قتال من يليه بقوله (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) ثم أباح قتال جميعهم بقوله (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني معين لهم، ينصرهم على عدوهم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي من المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ بعضهم لبعض ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِيمَاناً﴾ يعني تصديقاً (بهذه السورة مع تصديقكم)[1] استهزاء بها قال الله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيماناً﴾ يعني تصديقاً بهذه السورة مع تصديقهم بالله تعالى وثباتاً على الإيمان ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بما أنزل من القرآن. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الشنابازي قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال حدثنا محمد بن الفضل العابد قال حدثنا يحيى بن عيسى قال حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص؟ قال لا. الإيمان مكمل في القلب زيادته ونقصانه[2]

---

(١) سقط في أ.

(٢) هذا باطل وانظر في بطلان ما ورد في أحاديث الإيمان يزيد وينقص ميزان الاعتدال ٥٣٩، ٨١٠٣ وتنزيه الشريعة ١/١٤٩ ـ ١٥١، واللآلىء المصنوعة ١/١٩ ـ ٢١، لسان الميزان ١/٨٠٥، ٥/١١٥٨ الموضوعات لابن الجوزي ١/١٣٢، فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص ـ يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ـ فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان؟ فأقول: السلف هم ـ الشهود العدول وما لأحد عن قولهم عدول فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به والزائد موجود والناقص موجود والشيء لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال يزيد بلحيته وسمنه ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالآداب والسنن، فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود، ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان. فإن قلت: فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة؟ فأقول: إذا تركنا المداهنة ولم نكترث بتشغيب من تشغيب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول: الإيمان إسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول: أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الإعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص وهذا الإعتقاد عقدة عن القلب تارة تشتد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلاً. ولا تستبعد هذا... واعتبره باليهودي وصلابته في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا تحقيق وبرهان وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من يمكن تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن [illegible] =

كفر قال الفقيه حدثنا أبو أسحاق إبراهيم بن أحمد المستملي قال حدثنا أبو عمران المؤدب الدستجردي قال حدثنا صخر بن نوح قال حدثنا مسلم بن سالم عن ابن الحويرث عن عون بن عبد الله قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في خطبته لو كان الأمر على ما يقول الشكاك الضلال إن الذنوب تنقص الإيمان لأمسى أحدنا حين ينقلب إلى أهله وهو لا يدري ما ذهب من إيمانه أكثر او أبقى. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ قال الكلبي: شكاً إلى شكهم. وقال مقاتل: إثماً على إثمهم. وقال القتبي: أصل الرجس النتن ثم قد سمي الكفر والنفاق رجساً لأنهما نتن ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني ماتوا على الكفر لأنهم كانوا كفاراً في السر ولم يكونوا مؤمنين في الحقيقة.

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ قرأ حمزة[1] «أولا ترون» بالتاء ويكون الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه. وقرأ الباقون بالياء يعني المنافقون، ولا يعتبرون (أنهم يُفْتَنُونَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾ يقول: يبتلون بإظهار ما في صدورهم من النفاق في كل عام ﴿مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم [وكفرهم في السر][2] ﴿وَلَا هم يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني لا يتعظون ولا يتفكرون. قال الكلبي: كانوا ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين فيعاقبون ثم يتوبون عن نقض العهد. وقال مقاتل وذلك أنهم إذا خلـوا تكلموا بما لا يحل لهم. فإذا أتوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرهم بما تكلموا به فيعرفون أنه نبي ثم يأتيهم الشيطان فيحدثهم أنه يخبرهم بما بلغه عنهم فيشكون فيه، فذلك قوله (يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) يعني يعرفون مرة أنه نبي وينكرون مرة أُخرى (ثُمَّ لَا يَتُوبُون) عنَ ذلك (وَلَا هُم يَذَّكَّرُونَ) فيما أخبرهم. ويقال يفتنون يعني يبتلون بالأمراض والأسقام ويعاهدون الله لو زال عنا لفعلنا كذا وكذا. ثم لا يفون به ولا يتوبون من النفاق ولا هم يذكرون. أي لا يتعظون بما أنزل عليهم. قوله ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل سورة براءة فيها عيب المنافقين ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ ويتغامزون ويقولون فيما بينهم ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا رآهم أحد

= بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم وهذا موجود في الاعتقاد الحق أيضاً والعمل يؤثر في نماء هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سقي الماء في نماء الأشجار ولذلك قال الله تعالى: ﴿فزادتهم إيماناً﴾ وقال تعالى: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدركه إلّا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لها بحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عقده استعصاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد في اليتيم معنى الرحمة إذا عمل بموجب اعتقاده فمسح رأسه وتلطف به أدرك من باطنه تأكيد الرحمة وتضاعفها بسبب العمل: وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقدامه على الخدمة وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزدها. انظر الإحياء ١/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٦، سراج القارىء ٢٤٠، شرح شعلة ٤١٦.

(٢) سقط في ظ.

قاموا وصلوا وإن لم يرهم أحد لم يصلوا، قال تعالى ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ يعني خرجوا من المسجد. ويقال انصرفوا من الإيمان ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان وعزل قلوبهم عن الفهم بخروجهم من المسجد وانصرافهم عن الإيمان، ويقال هذا على وجه الدعاء واللعن كقوله (قَاتَلَهُمْ اللَّهُ) ويقال هذا على معنى التقديم. ومعناه صرف الله قلوبهم لأنهم انصرفوا عن الإيمان. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أمر الله تعالى

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

قوله﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ قال مقاتل: يعني يا أهل مكة قد جاءكم رسول من أنفسكم تعرفونه ولا تنكرونه. ويقال هذا الخطاب لجميع العرب. «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ» يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يعني من جميع العرب. لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها قرابة وهذا من المجاز والاستعارة لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فيهم ولم يجيء من موضع آخر. معناه ظهر فيكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال هذا الخطاب لجميع الناس «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» يعني آدمياً مثلكم. قرأ بعضهم من أَنْفَسِكُمْ بنصب الفاء يعني من أشرفكم وأعزكم وهي قراءة شاذة. ثم قال تعالى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يعني شديد عليه ما أثمتم وعصيتم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال الكلبي: يعني على إيمانكم. وقال مقاتل: حريص عليكم بالرشد والهدى. وقال قتادة حريص على من لم يسلم أن يسلم. ثم قال ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي رفيق بجميع المؤمنين رحيم بهم ثم قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني إن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يعني قل كفاني الله وفوضت أمري إلى الله ووثقت به ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا ناصر ولا رازق ولا معين إلاّ هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني به أثق ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعني خالق السرير العظيم. أعظم من السموات والأرض. وقرأ بعضهم الْعَظِيمُ بالرفع فجعل العظيم من نعت الله تعالى وقراءة العامة الْعَظِيمِ بالخفض ويكون العظيم نعتاً للعرش، وذكر عن عثمان بن[١] عفان أنه لما جمع القرآن في المصحف. [كان لا يثبت آية في المصحف][٢]حتى يشهد بها رجلان، فجاء خزيمة بن ثابت بهاتين الآيتين «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ» إلى آخر السورة فلم يطلب منه البينة وأثبته في المصحف. وروي عن حذيفة أنه قال: يسمون سورة براءة سورة التوبة وهي سورة العذاب. عن ابن عباس أنه قال كنا نسميها الفاضحة. فما زالت تنزل [في المنافقين][٣] «ومنهم» حتى أشفق كل واحد على نفسه « والله أعلم بالصواب»

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٩٦ وعزاه ابن أبي داود في المصاحف.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ظ.

سُورَةُ يُونُسَ (١)

وهي مائة وتسع آيات مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ

(١) انظر التحرير ١١/٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠.

ابتدئت هذه السورة بمقصد إثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن دلالة نبه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطعة في أول السورة كما تقدم في مفتتح سورة البقرة ولذلك اتبعت تلك الحروف بقوله تعالى: ﴿**تلك آيات الكتاب الحكيم**﴾ إشارة إلى أن إعجازه لهم هو الدليل على أنه من عند الله. وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله ﴿**قل فاتوا بسورة مثله**﴾.

وأتبع بإثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله رسولاً بشراً.

وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد الله تعالى بالألهية بدلالة أنه خالق العالم ومدبره فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيته وإلى إبطال معاذير المشركين بأن أصنامهم شفعاء عند الله.

واتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء فذلك إبطال أصول الشرك.

وتخلل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات وبيان حكمة الجزاء وصفة الجزاء وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للناس.

ووعيد منكري البعث المُعْرضين عن آيات الله وبصد أولئك وعد الذين آمنوا فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول.

فمن ذلك التنبيه على أن إمهال الله تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه.

ومن ذلك التذكير بما حل بأهل القرون الماضية لما أشركوا وكذبوا الرسل.

والاعتبار بما خلق الله للناس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر وما في أحوال السير في البحر من الألطاف.

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها وأن الآخرة هي دار السلام.

واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة وتبرؤ الآلهة الباطلة من عبدتها. وإبطال إلهية غير الله تعالى بدليل أنها لا تغني عن الناس شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة.

وإثبات أن القرآن منزل من الله وأن الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة وتحدي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين. وإنذار المشركين بعواقب ما حال بالأمم التي كذبت الرسل، وأنهم إن حل بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم، وأن ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب.

وتوبيخ المشركين على ما حرّموه مما أحل الله من الرزق. وإثبات عموم العلم لله تعالى. وتبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة وتسلية الرسول عما يقوله الكافرون وأنه لو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم.

ثم تخلص إلى الإعتبار بالرسل السابقين نوح ورسلٍ من بعده ثم موسى وهارون. ثم استشهد على صدق رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهادة أهل الكتاب.

وختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام مما يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام وأن اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه. انظر التحرير ١١/٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾، قال ابن عباس[١] يعني: أنا الله أرى (من العرش إلى الثرى فهل يرى أحد مثل ما أرى) وهكذا عن الضحاك[٢]، وقد ذكرنا تفسير الحروف في أول سورة البقرة، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (الر) بإمالة الرا[٣]. وقرأ ابن كثير وحفص بنصب الراء. وقرأ نافع بين ذلك. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني هذه آيات الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد تلك الآيات التي وعدتك يوم الميثاق أن أوحينا إليك الكتاب. ﴿الْحَكِيمِ﴾ قال مقاتل يعني المحكم من الباطل لا كذب فيها ولا اختلاف. وقال الكلبي: يعني بما حكم أحكم بحلاله وحرمته ويقال الحكيم[٤]يعني الحاكم على الكتب كلها. ويقال تلك آيات يعني حجج وبراهين. وهي التي احتج بها النبي - صلى الله عليه وسلم - على دعواه ثم قال ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ لأن أهل مكة كانوا يتعجبون ويقولون (أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً) فنزل «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ يقول: أعجب أهل مكة أن اختار عبداً من عبيدي وأرسله إلى عبادي، من جنسهم وحسبهم حتى يقدروا أن ينظروا إليه، يعرفونه ولا ينكرونه، ثم بين ما أوحى الله تعالى إليه فقال ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾يعني: خوف أهل مكة بما في القرآن من الوعيد. ويقال في الآية تقديم ومعناه تلك آيات الكتاب الحكيم للناس أكان عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وقال غلبة المفسرين على ظاهر التنزيل ثم قال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بما في القرآن من الثواب في الجنة ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل يعني بأن أعمالهم التي قدموها بين أيديهم سلف خير عند ربهم وهي الجنة. وقال ابن عباس[٥] يعني: الصحابه عند ربهم وهي الجنة وروي عن أبي سعيد[٦] الخدري أنه قال: يعني شفاعة محمد - صلى الله عليه وسلم - لهم شفيع صدق عند ربهم. وقال الحسن: هي رضوان الله في الجنة. وقال القتبي يعني عملاً صالحاً قدموه. ﴿قَالَ الكافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر[٧] لَسِحْرٌ بغير ألف يعني إن هذا القرآن لسحر مبين. كذب ظاهر. قرأ الباقون لَسَاحِرٌ مُبِينٌ فإن قيل. إنما قال الكفار هذا القول فما الحكمة في حكاية كلامهم في القرآن؟ قيل: الحكمة فيه من وجوه أحدها: أنهم كانوا يقولون قولاً فيما بينهم فيظهر قولهم عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فكان في ذلك علامة لنبوته لمن أيقن به. والثاني: أن في ذلك تعزية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليصبر على ذلك كما قال (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) والثالث: أن في ذلك تنبيهاً لمن بعده أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يمتنع بما يسمع من المكروه

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾

(١) تقدم الكلام على أوائل السور وانظر الدر المنثور ٣/٢٩٩.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) سراج القارىء (٢٤١) شرح شعلة (٤١٧) انظر حجة القراءات لابن زنجلة (٣٢٧).
(٤) في أ [الكتاب الحكيم].
(٥) انظر تفسير البغوي ٢/٣٤٣.
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٠ وعزاه لابن مردويه.
(٧) انظر حجة القراءات (٣٢٧).

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقد ذكرناه ثم قال ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني يقضي القضاء وينظر في تدبير الخلق. وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن ابن سابق قال: يدبر أمر الدنيا أربعة، جبريل وميكاييل وملك الموت وإسرافيل. أما جبريل فعلى الرياح والوحي والجنود، وأما ميكاييل فعلى النبات والمطر، وأما ملك الموت فعلى الأنفس، وأما إسرافيل فينزل إليهم بما يؤمرون ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ لأن الكفار كانوا يعبدون الأصنام ويقولون هم شفعاؤنا عند الله. وبعضهم كانوا يعبدون الملائكة. فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة لأحد إلاّ بإذن الله تعالى. ويقال: ما من شفيع إلا من بعد إذنه يعني لا يشفع أحد لأحد يوم القيامة من الملائكة ولا من المرسلين إلا من بعد إذنه في الشفاعة لهم ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني الذي يفعل هذا من خلق السموات والأرض وتدبير الخلق هو ربكم وخالقكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فدل أولاً على وحدانيته [وتدبيره][1] ثم أمرهم بالتوحيد والطاعة فقال «فَاعْبُدُوهُ» يعني وحدوه وأطيعوه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني أفلا تتعظون بالقرآن. ويقال أفلا تتعظون بأن لا تعبدوا من لا يملك شيئاً وتعبدون من يملك الدنيا وما فيها. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص تَذَكَّرُونَ بالتخفيف. وقرأ الباقون بالتشديد، لأن أصله تتذكرون فأدغم إحدى التاءين في الذال وأقيم التشديد مقامه. ثم خوفهم فقال ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ يعني مرجع الخلائق كلهم يوم القيامة ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ يعني البعث كائناً وصدقاً. وقال الزجاج: «وَعْدَ اللَّهِ» صار نصباً على معنى وعدكم الله وعداً. لأن قوله إليه مرجعكم معناه الوعد بالرجوع ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ قال أهل اللغة[2] الياء صلة ومعناه إنه بدأ الخلق ثم يعيده يعني خلق الخلق في الدنيا ثم يحييهم بعد الموت يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني لكي يثبت الذين آمنوا بالبعث [بعد الموت][3] ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ يعني عملوا الطاعات بالعدل. وقال الضحاك: يعني الذين قاموا بالعدل وأقاموا على توحيده، يعطيهم من رياض الجنة حتى يرضوا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني ويجزي الذين كفروا. ثم بين جزاءهم فقال ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني ماءً حاراً قد انتهى حره ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يعني يجحدون الرسالة والكتاب. ثم ذكّرهم النعم لكي يستحيوا منه ولا يعبدوا غيره فقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾[4] بالنهار ﴿وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ بالليل. ويقال جعل الشمس ضياء مع الحر والقمر نوراً بلا حر ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ يعني جعل الليل والنهار منازل، يزيد أحدهما وينقص الآخر ولا يجاوزان

---

(١) في أ [وقدرته].

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ٢/١٨٢ مغني اللبيب ١/١٠١.

(٣) سقط في أ.

(٤) قرأ ابن كثير في رواية القواس: (جعل الشمس ضِئاء) بهمزتين. وحجته: قوله تعالى: ﴿رئاء الناس﴾ وضِئاء جمع ضوء مثل بحر وبحار والأصل (ضِواء) فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصارت ضياء كما تقول (ميزان وميقات)، وجائز أن يكون الضياء مصدراً مثل (الصوم والصيام) والأصل (صِوام) فقلبت الواو ياء تقول أضاء القمر يضوء ضوءاً وضياء) كما تقول: (قام يقوم قياماً). انظر حجة القراءات ٣٢٨.

المقدار الذي قدره ويقال قدره يعني القمر منازل كل ليلة بمنزلة من النجوم وهي ثمانية وعشرون منزلاً في كل شهر. وهذا كقوله «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ» ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ يعني لتعلموا بالقمر حساب السنين والشهور، كقوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ) ثم قال ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني لتعلموا عدد السنين والحساب وتعتبروا وتعلموا أن له خالقاً ومدبراً وهو قادر على أن يحيي الموتى. ثم قال ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني يبين العلامات يعني علامة وحدانيته ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لمن كان له عقل وذهن وتمييز. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص[1] يُفَصِّلُ الآيات بالياء. وقرأ الباقون بالنون ومعناهما قريب.

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك أن أهل مكة قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ائتنا بعلامة كما أتت بها الأنبياء قومهم فنزل «إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» يعني في مجيء الليل وذهاب النهار ومجيء النهار وذهاب الليل ما يأخذ النهار من الليل وما يأخذ الليل من النهار ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من العجائب يعني: فيما خلق الله ﴿آيَاتٍ﴾ يعني: لعلامات ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخشون عقوبته. ويقال لقوم يتقون الشرك، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني لا يخافون البعث بعد الموت. ويقال لا يرجون ثوابنا بعد الموت ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني اختاروا ما في الحياة الدنيا يعني: على ثواب الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ يقول: ورضوا بها وسكنوا إليها وآثروها وفرحوا بها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ يعني عن محمد والقرآن معرضون فلا يؤمنون. ويقال تاركين لها ومكذبين بها، ويقال لم يتفكروا فيها. قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يعني أهل هذه الصفة مصيرهم إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: جزاء لكفرهم وتكذيبهم، ثم أنزل فيما أعد للمؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وقال مقاتل: يهديهم على الصراط إلى الجنة بالنور بإيمانهم، يعني بتوحيدهم الله تعالى [في الدنيا][2] وقال الضحاك: يدعوهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة. وقال الكلبي: نحو هذا. ويقال هذا على معنى التقديم ومعناه إن الذين يهديهم ربهم بإيمانهم حتى آمنوا وعملوا الصالحات. ويقال يهديهم ربهم في الدنيا يعني يثبتهم على الإيمان ويدخلهم في الآخرة الجنة بإيمانهم. ويقال ينجيهم ربهم بإيمانهم، وقال الحسن: يرحمهم ربهم بإيمانهم ثم قال ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ يتنعمون فيها. ثم قال ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ يعني قولهم في الجنة ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يعني: فهذه علامة بينهم وبين خدمهم في الجنة فإذا قالوا هذه المقالة جاءهم الخدام بالموائد بين أيديهم (وأوتوا) بما يشتهون، فإذا فرغوا من الطعام قالوا الحمد لله رب العالمين فذلك قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٢٨، سراج القارىء ٢٤٢.
(٢) سقط في أ.

رَبِّ العَالِمِينَ﴾ يعني وآخر قولهم بعد ما فرغوا من الطعام أن يقولوا الحمد لله رب العالمين. «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام» على معنى التقديم. وقال الضحاك في قوله عز وجل «دَعْوَاهُمْ فِيهَا» وذلك أن أهل الجنة إذا دخلوا القيامة وصاروا إلى الجنة يكون فاتحة كلامهم: سبحانك اللهم على ما مننت به علينا وتحيتهم فيها سلام. يقول يسلم عليهم الملائكة من الله تعالى. ويقال يسلم بعضهم على بعض ويقال يسلمون على الله تعالى. ويقال تحيتهم لله تعالى بالسلام كقوله (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) «وآخر دعواهم» يعني بعد ما رأوا من الكرامات وبعد ما أكلوا من الطعام حمدوا الله تعالى على ما أعطاهم من الخير.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ قال مقاتل: وذلك حين تمنى النضر بن الحارث العذاب فنزل قوله «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ» يقول لو استجيب لهم في الشر استعجالهم بالخير كما يحبون أن يستجاب لهم في الخير ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ في الدنيا بالهلاك. وقال مجاهد[١] والضحاك والكلبي ولو يعجل الله للناس الشر. يعني العقوبة إذا دعا على نفسه وولده وعلى صاحبته مثل أخزاك الله ولعنك الله. كما يعجل لهم الخير إذا دعوه بالرحمة والرزق والعافية لماتوا وهلكوا. وقال القتبي: هذا من (الإضمار)[٢] ومعناه ولو يعجل الله للناس الشر. يعني إجابتهم بالشر. استعجالهم بالخير. يعني كإجابتهم بالخير. وإنما صار «اسْتِعْجَالَهُمْ» نصباً على معنى مثل استعجالهم. قرأ ابن عامر[٣] «لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ» بالنصب يعني لقضى الله أجلهم لأنه اتصل بقوله ولو يعجل الله. وقرأ الباقون «لَقُضِيَ إِلَيْهِم أَجَلُهُمْ» بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله ثم قال ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني نترك الذين لا يخافون البعث بعد الموت ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: في ضلالهم يعمهون يعني: يتحيرون ويترددون. قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ يقول إذ مس الكافر ما يكره من المرض والفقر والبلاء ﴿دَعَانَا﴾ يقول: أخلص في الدعاء إلينا ﴿لِجَنْبِهِ﴾ يعني وهو مطروح على جنبه إذا اشتد به المرض ﴿أَوْ قَاعِداً﴾ إذا كانت العلة أهون ﴿أَوْ قَائِماً﴾ إذا بقي فيه أثر العلة. ويقال دعانا في الأحوال كلها مضطجعاً كان أَوْ قَائِماً أَوْ قَاعِداً. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ﴾ رفعنا عنه بلاءه ﴿مَرَّ﴾ يقول: استمر على ترك الدعاء ونسي الدعاء، ويقال مر في العافية على ما كان عليه قبل أن يبتلى ولم يتعظ بما ناله ﴿كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ يعني: إلى بلاء أصابه قبل ذلك فلم يشكره. ويقال معناه أمن من أن يصيبه مثل الضر الذي دعا فيه حين مسه ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) في أ [الاقتصار].

(٣) انظر حجة القراءات ٣٢٨ سراج القارىء ٢٤٢.

يعني المشركين (ما كانوا يعملون) يعني: بالدعاء عند الشدة وترك الدعاء عند الرخاء. قوله ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني أهلكناهم بالعذاب لما كذبوا الرسل وأقاموا على كفرهم، خوّف أهل مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لكيلا يكذبوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالآيات بالأمر والنهي ﴿وَمَاكَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لم يصدقوا الرسل ولم يرغبوا في الإيمان. ويقال وما كانوا ليصدقوا بنزول العذاب بما كذبوا من قبل يوم الميثاق ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي﴾ يعني نعاقب ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي الكافرين

ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ يعني جعلناكم يا أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ «خَلَائِفَ ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني من بعد هلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا على معنى التهديد. يعني إنْ كانت معاملتكم مثل معاملتهم في تكذيب الرسل أهلكتكم كما أهلكت تلك القرون. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني كفار قريش لما سمعوا القرآن، قالوا ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يعني امحه وانسخه فإنا نجد فيه تحريم عبادة الأوثان وما نحن عليه، وهذا قول الضحاك. وقال الكلبي «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ» يعني المستهزئين وكانوا خمسة رهط «قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا» يعني لا يخافون البعث بعد الموت «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ» ائت يا محمد، أو اجعل مكان آية الرحمة آية العذاب ومكان آية العذاب آية الرحمة. وقال الزجاج: معناه بقرآن ليس فيه ذكر البعث والنشور وليس فيه عيب آلهتنا، أو بدل منه ذكر البعث والنشور. ﴿قُلْ مَايَكُونُ لِي﴾ يعني قل: ما يجوز لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ يقول: من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ يعني: لا أعمل إلا ما أومر به وأنزل عليَّ من القرآن ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ يعني أعلم أني لو فعلت ما لم أؤمر به أصابني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يوم القيامة. قال مقاتل والكلبي: نسختها (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبك وما تأخر) يعني: ما قرأته ولا عرضته عليكم ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم به، ومعناه أن الله تعالى لو لم يجعلني رسولا (إليكم) ما تلوته عليكم كما لم أتل عليكم قبل الوحي. ويقال معناه لو رضي الله لكم ما أنتم عليه من الكفر والجهل ما بعثني إليكم رسولا. قرأ أبو عمرو وحمزة ونافع في رواية ورش والكسائي ولا أدْرِيكُمْ بكسر الراء[1]. وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان، ومعناهما واحد. وعن الحسن أنه قرأ ولا أدرأتكم بالتاء قال أبو عبيدة ما أرى ذلك إلا غلطاً منه في الرواية لأنه لا مخرج لها في العربية ثم قال ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني إلى أربعين سنة من قبل هذا القرن. فهل سمعتموني أقرأ شيئاً من هذا عليكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنّي لم أتقوله من تلقاء نفسي. ولكنه وحي الله من عنده لأنه لو كان من تلقاء نفسي لسمعتم مني قبل هذا شيئاً منه.

(١) انظر حجة القراءات ٣٢٨ ـ ٣٢٩، سراج القارىء ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني من أشد في كفره ممن اختلق على الله كذباً أنَّ معه شريكاً ﴿أَوْكَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿إِنَّه لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: المشركون. وقال الضحاك «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلى اللَّه كَذِباً» يعني مسيلمة الكذاب «إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ» يعني أتباعه وأشياعه ونظراؤه. قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوها ﴿وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ﴾ يعني الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يشفعون لنا في الآخرة ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ أتخبرون الله ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ﴾ من الآلهة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني الأصنام بأنها تشفع لأحد يوم القيامة. ويقال معناه أتخبرون الله بشفاعة آلهتكم. أما علموا أنها لا تكون أبداً. ويقال معناه أتشركون مع الله بجاهل لا يعلم ما في السموات ولا ما في الأرض. ثم نزه نفسه عن الولد والشريك فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني تنزيهاً له ﴿وَتَعَالَى﴾ يعني ارتفع ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الآلهة ويقال معناه هو أعلا وأجل من أن يوصف له شريك. قرأ عاصم وأبو عمرو (وابن عامر)[١] يُشْرِكُونَ بالياء على معنى المغايبة. وقرأ الباقون بالتاء على وجه المخاطبة ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال مقاتل: وما كان الناس إلا على ملة واحدة. يعني على عهد آدم وعلى عهد نوح من بعد الغرق. كانوا كلهم مسلمين ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ في الدين بعد ذلك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً (على عهد آدم فاختلفوا حين قتل أحد بني آدم أخاه فتفرقوا مؤمناً وكافراً. [وقال الكلبي: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً) كافرة على عهد إبراهيم فتفرقوا مؤمناً وكافراً][٢]. وقال الزجاج (وَمَا كَانَ النَّاسُ) يعني العرب. كانوا على الشرك قبل مجيء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاختلفوا بعده فآمن بعضهم وكفر بعضهم. قال الزجاج: وقيل أيضاً (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً) يعني: ولدوا على الفطرة واختلفوا بعد الفطرة ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ [لولا أنَّ الله جعل لهم أجلاً للقضاء بينهم «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» في وقت اختلافهم. ويقال][٣] (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ) في اللوح المحفوظ بأن لا يعجل بعقوبة العاصين ويتركهم لكي يتوبوا ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وقال مقاتل (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة (لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) في الدنيا. وقال الكلبي: لولا أن الله تعالى أخبر هذه الأمة أن لا يهلكهم كما أهلك الذين من قبلهم لقضى بينهم في الدنيا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٢٩، سراج القارىء ٢٤٣.

(٢) سقط في أ. (٣) سقط في ظ.

ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ
إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ
بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ
بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ
إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ
إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ
أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وذلك حين قال عبد الله بن أمية: (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) وسألته قريش أن يأتيهم بآية فقال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ نزول الآية من عند الله تعالى ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولها ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها. ويقال فانتظروا بي الموت إني معكم من المنتظرين لهلاككم. قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني: أصبنا الناس ﴿رَحْمَةً﴾ يعني المطر. ويقال العافية ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ من بعد القحط ومن بعد الشدة والبلاء ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ يعني تكذيباً بالقرآن. ويقال تكذيباً بنعمة الله تعالى ويقولون سقينا بنوء كذا ولا يقولون هذا من رزق الله تعالى. وقال القتبي إذا لهم مكر في آياتنا يعني قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سبباً آخر ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يعني: أشد عذاباً وأشد أخذاً ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني [الحفظة يكتبون][1] ما تقولون من التكذيب قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ يعني يحملكم في البر على الدواب وفي البحر في السفن. ويقال هو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر. قرأ ابن عامر[2] يَنْشُرُكُمْ بالنون والشين من النشر يعني يبثكم. والقراءة المعروفة يُسَيِّرُكُمْ من التسيير. يعني يسهل لكم السير ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ يعني: في السفن ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ﴾ يقال للسفينة الواحدة جَرَتْ وللجماعة جَرَيْنَ. واسم الفلك يقع على الواحد وعلى الجماعة، ويكون مذكراً إذا أريد به الواحد ومؤنثاً إذا أريد به الجماعة كقوله (فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ) وقال (وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ) ذكرا بلفظ التأنيث مرة، وبلفظ التذكير مرة، وفيه الدليل أن الكلام يكون بعضه على وجه المخاطبة وبعضه على وجه المغايبة، كما قال ههنا «حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ» بلفظ المخاطبة ثم قال «وَجَرَيْنَ بِهِم» بلفظ المغايبة «بِرِيحٍ ﴿طَيِّبَةٍ﴾ يعني لينة (ساكنة ﴿[وَفَرِحُوا۟ بِهَا]﴾)[3] بالريح الطيبة ﴿جَآءَتْهَا﴾ يعني: السفينة ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ يعني: شديدة ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل النواحي ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ يعني: علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم، وقال القتبي وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بالقرية يقال

(١) سقط في ظ.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٢٩، سراج القارىء ٢٤٣.
(٣) سقط في ظ.

دنا القوم من الهلكة قال الله تعالى «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» وأُحِيطَ بثمره، فصار ذلك كناية عن الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني أخلصوا لله تعالى يعني: الدعاء وقالوا ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ يعني من هذه الريح العاصف، ويقال من هذه الأهوال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ يعني: الموحدين المطيعين ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ يعني: يعصون ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني الدعاء إلى غير عبادة الله تعالى والعمل بالمعاصي والفساد قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني إثم معصيتكم عليكم وهذا كقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) ويقال مظالمكم فيما بينكم يعني: على أنفسكم أي جنايتكم عليكم. وهذا كما يقال في المثل (المحسن سيجزى بإحسانه والمسيء يكفيه مساويه) يعني ووباله يرجع إليه ثم قال ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: تمتعون فيها أيام حياتكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ ويقال عيشكم في الدنيا قليل، ويقال عمر الدنيا في حياة الآخرة قليل ثم إلينا مرجعكم أي بعد الموت في الآخرة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: نخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص[1] «مَتَاعَ» بالنصب ويكون نصباً على المصدر. ومعناه تمتعون متاع الحياة الدنيا. وقرأ الباقون «مَتَاعُ» بالضم ومعناه هو متاع الحياة، ثم ضرب للحياة الدنيا مثلاً فقال ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: في فنائها وبقائها ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يعني يدخل الماء في الأرض فينبت به النبات فاتصل كل واحد بالآخر فاختلط ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ يعني مما يأكل الناس من الحبوب والثمار ومما تأكل الأنعام والدواب من العشب والكلأ ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ يعني زينتها ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ يعني حسنت بـألوان النبات. وأصله تزينت فحذفت التاء وأقيم التشديد مقامها. وهذا كقوله (ادَّارَكَ) وأصله تدارك ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ يعني: وحسب أهل الزرع ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ يعني على غلاتها وأنها ستتم لهم الآن ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ قال أبو عبيدة. الحصيد المستأصل. ويقال الحصيد كحصيد السيف ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ يعني صار كأن لم يكن بالأمس فكذلك الدنيا والإنسان يجمع المال ويشتري الضياع ويبني البنيان فيظن أنه قد نال مقصده فيأتيه الموت فيصير كأنه لم يكن، أو رجل ولد له مولود فإذا بلغ فظن أنه قد نال مقصوده فيموت ويصير كأنه لم يكن ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني نبين [علامات][2] غرور الدنيا وزوالها لكيلا يغتروا، ونبين بقاء الآخرة ليطلبوها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بأمثال القرآن ويعتبرون بها

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ يعني: يدعو إلى عمل الجنة ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الدين القيم. ويقال إن عطاءه على قسمين خاص وعام. فأما العطاء الخاص فالتوفيق والعصمة واليقين. وأما العطاء العام فالصحة والنعمة والأمن. والدعوة هنا عامة والهداية خاصة. فقد دعا جميع الناس بقوله «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ» ثم قال «وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فجعل الهداية خاصة لأنها فضله، وفضل الله يؤتيه من يشاء. وقال قتادة: «وَاللَّهُ يَـدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ»، والله هو السلام وداره الجنة. ويقال السلام هو السلامة وإنما سميت الجنة دار السلام لأنها سالمة من الآفات والأمراض وغير ذلك. روى أبو أيوب عن أبي قلابة عن أنس أن[3] النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: نامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني. ثم قيل لي إن سيداً

---

(١) انظر حجة القراءات ٢٣٠، سراج القارىء ٢٤٣.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر من حديث أنس وعزاه لابن مردويه ـ انظر الدر المنثور ٣/٣٠٥.

بني داراً وصنع مائدة وأرسل داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيد. فالله تعالى هو السيد والدار الإسلام والمائدة الجنة والداعي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ يكرم من يشاء بالمعرفة من كان أهلاً لذلك ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى دين الإسلام.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ للذين وحدوا الله وأطاعوه في الدنيا لهم الجنة في الآخرة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي فضلاً. قال عامة المفسرين [الزيادة][1] هي النظر إلى وجه الله تعالى. وهكذا روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [2] وعن أبي بكر الصديق[3] وحذيفة بن اليمان[4] وأبي موسى الأشعري[5] وغيرهم. قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو العباس السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: حدثنا عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: تلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ثم قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار نادى منادٍ: «يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً يحب أن ينجزكموه، فيقولون وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ولم يبيض وجوهنا وأدخلنا الجنة ونجانا من النار. قال ثم يكشف الحجاب فينظرون إلى الله تعالى. فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجه الله تعالى[6] قال الفقيه رضي الله عنه: وأخبرنا الثقة بإسناده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة قالا: الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى. وعن أبي موسى الأشعري قال: الحسنى هي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى. وعن عامر بن سعد وقتادة وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعكرمة[7] مثله

قال الفقيه سمعت محمد بن الفضيل العابد قال: سمعت علي بن عاصم قال: أجمع أهل السنة والجماعة أن الله تعالى لم يره أحد من خلقه (في الدنيا) وأن أهل الجنة يرونه يوم القيامة. وقال الزجاج: القول في النظر إلى وجه الله تعالى كثير في القرآن. والتفسير مروي بالأسانيد الصحاح أنه لا شك في ذلك. وقال مجاهد[8]: «للذين أحسنوا

(١) سقط في (ظ).

(٢) انظر صحيح مسلم ٢٩٧، ٢٩٨ (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، والنسائي في الكبر كتاب النعوت، وابن ماجه (١٨٧).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٠٦/٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن خزيمة وابن المنذر وأبي الشيخ والدارقطني وابن منده في الرد على الجهمية وابن مردويه واللالكائي والآجري والبيهقي كلاهما في الرؤية.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والدارقطني واللالكائي والآجري والبيهقي.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعنادين السري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والدارقطني واللالكائي والبيهقي.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة (٢٩٧، ٢٩٨/ ١٨١) وتقدم في الحاشية.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٨) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال الحسنى مثلها والزيادة المغفرة والرضوان. وروي عن علقمة[(١)] قال: الحسنى مثلها وزيادة عشر أمثالها. ويقال الحسنى الجنة وما فيها من الكرامة، والزيادة ما يأتيهم كل يوم من التحف والكرامات من الله تعالى: فيأتيهم رسول رب العالمين فيقول لهم أنا رضيت عنكم فهل رضيتم عني ثم قال تعالى ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ يعني لا يعلو ولا يغشى وجوههم سواد، وهو كسوف الوجوه عند معاينة النار. ويقال حزن ولا ذلة يعني ولا مذلة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. يعني دائمين. ثم بين حال أهل النار فقال ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يعني أشركوا بالله وعبدوا الأصنام والشمس والقمر والملائكة والمسيح، فهذه كلها من السيئات ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ بلا زيادة يعني لا يزاد على ذلك. وهذا موصول بما قبله. فكأنه قال «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها بلا زيادة. وهذا كقوله تعالى (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا) ويقال جزاء سيئة بمثلها. يعني جزاء الشرك النار فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أشد من النار فيكون العذاب موافقاً لسيئاتهم كقوله تعالى (جَزَاءً وِفَاقاً) أي موافقاً لشركهم ثم قال ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني: يغشى وجوههم الذلة وهي سواد الوجوه من العذاب ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعني: مانع يمنع من عذاب الله تعالى، ثم وصف سواد وجوههم فقال: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ يعني سواد الليل مظلماً ويقال قطعاً من الليل. يعني بعضاً من الليل وساعة منه.

قال الفقيه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا محمد بن عقيل الكندي قال حدثنا العباس الدوري قال حدثنا يحيى بن أبي بكر عن شريك عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[(٢)] أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم. قرأ ابن كثير والكسائي[(٣)] قِطْعاً بجزم الطاء وهو اسم ما قطع منه يعني طائفة من الليل قرأ الباقون قطعاً بنصب الطاء يعني: جمع قطعة وإنما أراد به سواد الليل «مُظْلِماً» وصار نصباً للحال أي في حالة الظلام ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: مقيمون.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ وهذا كله في يوم نجمعهم جميعاً. يعني الكفار وآلهتهم ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ يعني قفوا أنتم وآلهتكم. ويقال الرؤساء والأتباع ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يعني ميزنا وفرقنا بين المشركين وبين آلهتهم. وأصله في اللغة[(٤)] من زال يزول. وأزلته وزيلته بمعنى واحد. ويقال فرقنا بينهم

---

(١) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/٦١٢ في كتاب صفة جهنم، باب منه ما جاء أن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم (٢٥٩١) وابن ماجه ٢/٤٤٥ في الزهد (٤٣٢٠).

(٣) انظر حجة القراءات ٢٣٠، سراج القارىء ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٤) انظر ترتيب القاموس ٢/٤٤٩.

من التـواصل والألفة، يعني بين الرؤساء والأتباع. ويقال يأمر الله تعالى أن تلحق كل أمة بما كانوا يعبدون من دون الله. فيتفرق أهل الملل، وذلك قوله «فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ» يعني بين أهل الشرك وأهل الإسلام «ثم قال للمشركين ماذا كنتم تعبدون فينكرون ويحلفون ثم يقرون بعدما يختم على أفواههم وتشهد أعضاؤهم أنهم كانوا يعبدون الأصنام ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ يعني: آلهتهم لمن عبدها ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا بأمرنا، ولا نعلم بعبادتكم إيانا ولم تكن فينا روح فنعقل عبادتكم إيانا .فيقول من عبدها قد عبدناكم وأمرتمونا فأطعناكم فقالت الآلهة ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ يعني عالماً ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ يعني: ولم نعلم أنكم تعبدوننا والفائدة في إحضار الأصنام أن يظهر عند المشركين ضعف معبودهم فيزيدهم حسرة على ذاك ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] «تَتْلُوا» بالتائين، يعني عند ذلك نقرأ كل مفس، برة أو فاجرة ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ يعني: ما عملت من خير أو شر وهذا قوله (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)، ويقال تتلو يعني تتبع كقوله (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) يعني تبعها، والباقون تَبْلُو بالتاء والباء يعني عند ذلك تجد. ويقال تظهر. كقوله (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) وقال القتبي أي يختبر. ثم قال ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ يعني رجعوا في الآخرة إلى الله مولاهم الحق ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني: اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسها ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: يختلقون من الأوثان فلا يكون لهم شفاعة. ويقال بطل افتراؤهم واضمحل.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا
بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن
لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني قل يا محمد للمشركين من يرزقكم من السماء بالمطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ومن الأرض بالنبات ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي من يخلق لكم السمع والأبصار ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ ومن يقدر أن يخرج الحي من الميت، يعني الفرخ من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يعني البيضة من الطير والنطفة من الإنسان والمؤمن[2] سن الكافر والكافر من المؤمن ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني من يقدر أن يدبر الأمر بين الخلق وينظر في تدبير الخلائق. ويقال من يرسل الملائكة بالأمر ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ يفعل ذلك كله (لا الأصنام) لأن الأصنام لم يكن لهم قدرة على هذه الأشياء ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك فتوحدونه إذ تعلمون أن لا يقدر أحد أن يفعل هذه الأشياء إلا الله تبارك وتعالى. ويقال أفلا تتقون. أي تطيعون الله الذي يملك ذلك ثم قال تعالى ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ وغيره من الآلهة باطل ليس بشيء ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يعني فما عبادتكم. بعد ترك عبادة الله تعالى إلا عبادة الشيطان. ويقال فماذا بعد التوحيد إلا الشرك ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعني فمن أين تمتنعون عن الإيمان بالله. ويقال فأنى تصرفون عن هذا الأمر بعد المعرفة. وقـال مقاتل: فمن أين تعدلون

(١) انظر حجة القراءات ٣٣١، سراج القارىء ٢٤٤.

(٢) في أ [المسلم].

به غيره. ويقال كيف ترجعون عن هذا الإقرار. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يعني: هكذا وجبت كلمة العذاب من ربك كقوله (وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ) ويقال وجبت كلمة ربك وهو قوله: (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) قوله ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ يعني: كفروا بربهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بعلم الله تعالى السابق فيهم. ويقال أنَّهم لا يؤمنون. يعني لأنهم لا يؤمنون، فوجب عليهم العذاب بترك إيمانهم. قرأ نافع وابن عامر(١) «كَلِمَاتُ رَبِّكَ» بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون «كَلِمَةُ رَبِّكَ». وكذلك الاختلاف في قوله(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني أصنامكم التي تعبدونها هل يقدرون أن يخلقوا خلقاً من غير شيء ثم يبعثونهم في الآخرة كما يفعل الله تعالى. فإن أجابوك وإلا فـ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني إن معبودكم لا يستطيع ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني من أين تكذبون. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يقول هل يقدر [أحد](٢) من آلهتكم أن يهدي إلى الحق. أي يدعو الخلق إلى الإسلام، فقالوا لا ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ يعني: يدعو الخلق إلى الإسلام ويوفق من كان أهلاً لذلك ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ أي يدعو إلى الحق أحق أن يعمل بأمره ويعبد ﴿أَمَّنْ لَا يَهِدِّي﴾ طريقاً ولا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ يعني [لا](٣) يمشي بنفسه إلا أن يحمل من مكان، قرأ نافع وأبو عمرو «أَمَّنْ لَا يَهْدِّي» بجزم الهاء وتشديد الدال. لأن أصله في اللغة يهتدي فادغم التاء في الدال وأقيم التشديد مقامه، وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش «يَهَدِّي» بنصب الياء والهاء وتشديد الدال. لأن حركة التاء وقعت على الهاء، وقرأ عاصم في رواية حفص «يَهِدِّي» بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال لأنه لما اجتمع الساكنان حرك أحدهما بالكسر. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر(٤) «يِهِدِّي» بكسر الياء والهاء (وتشديد الدال) فأتبع الكسرة الكسرة. وقرأ حمزة والكسائي «يَهْدِي» بجزم الهاء وتخفيف الدال. ويكون معناه لا يهتدي. قال الكسائي قوم من العرب يقول هديت الطريق. بمعنى اهتديت. فهذه خمس من القراءات في هذه الآية، ثم قال ﴿فَمَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كيف تقضون لأنفسكم يعني تقولون قولاً ثم ترجعون ويقال «مَالَكُمْ» كلام تام فكأنه قيل لهم أي شيء لكم في عبادة الأوثان. ثم قيل لهم «كَيْفَ تَحْكُمُونَ» أي على أي حال تحكمون، ويقال معناه كيف تعبدون آلهتكم بلا حجة ولا تعبدون الله بعد هذا البيان لكم.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣١.
(٢) سقط في (ظ).
(٣) سقط في (أ).
(٤) انظر حجة القراءات ٣٣١ - ٢٣٢، سراج القارىء ٢٤٤.

تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾

ثم قال ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يعني لا يستيقنون أن اللات والعزى آلهة بالظن. ومعناه أنهم يتركون عبادة الله تعالى وهو الحق لأنهم يقرون بأن الله خالقهم فيتركون الحق ويتبعون الظن ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يعني علمهم لا يغني من عذاب الله شيئاً. ويقال وما يتبع أكثرهم يعني [ما قذف الشيطان في أوهامهم «إِنَّ الظَّنَّ»][1] يعني ما قذف الشيطان في أوهامهم، لا يستطيعون أن يدفعوا (الحق بالباطل)، ويقال وما يتبع. يعني وما يعمل أكثرهم إلا ظنّاً، يظنون في غير يقين وهم الرؤساء، وأما السفلة فيطيعون رؤساءهم «إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من عبادتهم الأصنام وما يقولون من القول المختلف والكذب ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ يعني لهذا القرآن مختلف ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى. وقال القتبي: ما كان هذا القرآن أن يضاف إلى غير الله تعالى أو يختلق ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكن نزل بتصديق الذي بين يديه من التوراة والإنجيل. ويقال معناه ولكن بتصديق النبي الذي أنزل القرآن بين يديه، يعين الذي هو قبل سماعكم، لأن القرآن تصديق لما جاء من أنباء الأمم السابقة وأقاصيص أنبيائهم[2] يعني بيان كل شيء ويقال بيان الحلال والحرام ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني: لا شك فيه عند المؤمنين إنه نزل. ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: أيقولون؟ وهم كفار مكة ﴿افْتَرَاهُ﴾ تقوله من ذات نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعني مثل القرآن ﴿وَادْعُوا﴾ استعينوا على ذلك ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ممن تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه تقوله من تلقاء نفسه. فلما قال لهم ذلك سكتوا ولم يجيبوا فنزل قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ يعني القرآن لم يعلموا ما فيه. ويقال: لم يعلموا ما عليهم بتكذيبهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يعني ولما يأتهم عاقبة ما وعدوا في هذا القرآن. يعني: سيئاتهم، ما وعد لهم وهو كائن في الدنيا بالعذاب وفي الآخرة بالنار ثم قال ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هكذا كذب الأمم الخالية رسلهم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: كيف صار جزاء المكذبين لرسلهم، فيه تعزية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحث له على الصبر وتخويف لهم بالعقوبة، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: بعقوبة من لم يؤمن به، قال مقاتل: وَمِنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ (من أهل الكتاب)، وَمِنْهُمْ مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ من أهل مكة، وقال الكلبي ومنهم من يؤمن به من اليهود، يعني: يؤمن به قبل موته، ومنهم من لا يؤمن به يعني: بعلم الله تعالى السابق فيه. وقال الزجاج معناه ومنهم من يعلم أنه حق فيصدق بقلبه ويعاند ويظهر الكفر. ومنهم من لا يؤمن به أي يشك ولا يصدق. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني المشركين بما أتيتهم به ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي﴾ يعني: ديني ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ يعني: دينكم ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ وأدين ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وتدينون به غير الله تعالى. وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ولما نزلت آية القتال نسخت هذه الآية ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قال الكلبي: نزلت في شأن اليهود قدموا مكة وكانوا يسمعون قراءة القرآن فيعجبون به ويشتهونه وتغلب عليهم الشقاوة فلا يسلمون قال الله تعالى ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ يعني تفقه الكافر الذي لا يعقل الموعظة، وقال الضحاك: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» وذلك أن كفار قريش دخلوا المسجد الحرام والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم عند المقام يصلي وهو يقرأ سورة طه، قال الوليد بن المغيرة يا معشر قريش إنما يتلو محمد ليأخذ بقلوبكم. فقال أبو جهل اللعين وأصحابه لا

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في ظ.

تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. فنزل «أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ» وذلك أنهم صموا عن الحق. ويقال أفأنت تسمع الصم أي من يتصامم ولا يستمع إليك ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول: أي وإن كانوا مع ذلك لا يرغبون في الحق. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعني بغير رغبة ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يعني: ترشد من يتعامى ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحق ولا يرغبون فيه. قال (مقاتل): والقتبي: هذا من جوامع الكلم حيث بَيَّنَ فضل السمع على البصر حيث جعل مع الصم فقدان العقل، ولم يجعل مع العمى إلا فقدان البصر.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ يقول: لا ينقص من (أجور) الناس شيئاً ولا يحمل عليهم من أوزار غيرهم ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يعني يضرون أنفسهم بتركهم الحق. قرأ حمزة والكسائي وَلَكِنِ النَّاسُ بكسر النون مع التخفيف وضم السين. وقرأ الباقون ولكنَّ النَّاسَ بالنصب والتشديد ونصب السين قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يقول: يجمعهم في الآخرة ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾[1] قال الكلبي: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلّا ساعةً من النهار، وقال الضحاك كأن لم يلبثوا في القبور إلا ما بين العصر إلى غروب الشمس أو ما بين صلاة الغداة إلى طلوع الشمس. ويقال يعني بين النفختين، لأنه يرفع عنهم العذاب فيما بين ذلك. وقال مقاتل: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال الكلبي يعني: يتعارفون بينهم حين خرجوا من قبورهم ثم تنقطع عنهم المعرفة فلا يعرف أحد أحداً. وقال الضحاك: يتعارفون بينهم حين خرجوا. وذلك أن أهل الإيمان يبعثون يوم القيامة على ما كانوا عليه في [دار][2] الدنيا من التواصل والتراحم، يعرف بعضهم بعضاً محسنهم لمسيئهم. وأما أهل الشرك فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. قال الله تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ يعني بالبعث بعد الموت ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ يقول لم يكونوا مؤمنين في الدنيا قال تعالى ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْنَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نرينك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ مصيرهم في الآخرة، وروي عن عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما. أنهما قالا: أخبر الله تعالى نبيه أن يستخلف أمته من بعده ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب. قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ يعني لأهل كل دين رسول أتاهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ يعني فأبلغهم فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين رسولهم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. وقال مجاهد: فإذا جاء

---

(١) قرأ حفص «ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا» بالياء إخبار عن الله وقرأ الباقون: بالنون: الله يخبر عن نفسه انظر حجة القراءات ٣٣٢.

(٢) سقط في (ظ).

رسولهم يعني يوم القيامة قضي بينهم بالعدل وهم لا يظلمون. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو قوله تعالى (فإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب ينزل بنا ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ يعني ليس في يدي دفع مضرة ولا جر منفعة ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يقويني عليه، قال مقاتل: معناه قل لا أملك لنفسي أن أدفع عنها (سوءاً)[1] حين ينزل، ولا أن أسوق إليها خيراً إلا ما شاء الله فيصيبني، فكيف أملك (نزول) العذاب بكم وقال القتبي: «الضُّر» بضم الضاد الشدة والبلاء. كقوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) وكقوله (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ) «والضَّر» بفتح الضاد ضد النفع ومنه قوله تعالى «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضراً وَلَا نَفْعاً» يعني: قل لا أملك جر نفع ولا دفع ضَرٍّ. ثم قال ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ وقته في العذاب. ويقال لكل أمة أجل. يعني: مهلة، ويقال أجل الموت. ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وقتهم بالعذاب ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يعني لا يتأخرون (عنه ساعة) ولا يتقدمون عنه ساعة فكذلك هذه الأمة إذا نزل بهم العذاب لا يتأخر عنهم ساعة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ يعني عذاب الله تعالى ﴿بَيَاتاً﴾ ليلاً كما جاء إلى قوم لوط ﴿أَوْ نَهَاراً﴾ يعني مجاهرة كما جاء إلى قوم شعيب ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يقول بأي شيء يستعجل منه المجرمون يعني المشركين. ويقال ماذا ينفعهم استعجالهم منه، أي من عذاب الله تعالى. قوله ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني إذا وقع العذاب صدقتم به. يعني بالعذاب، ويقال بالله ﴿ءَآلْآنَ﴾[2] يعني يقال لهم آمنتم بالعذاب حين لا ينفعكم ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وهذا اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التهديد. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني قالت لهم خزنة جهنم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الذي لا ينقطع ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يقول: هل تثابون ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟

(١) في أ [شراً].

(٢) قرأ نافع: (آلان) (بفتح) اللام وإسقاط الهمزة، نقل فتح الهمزة إلى اللام كما قرأ ورش: (الأرض) (الأخرة). وقرأ إسماعيل عن نافع: (الآن) بإسكان اللام وبه قرأ الباقون على أصل الكلمة. انظر حجة القراءات ٣٣٣.

هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ قال قتادة ومقاتل، وذلك أن حيي بن أخطب حين قدم مكة قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحق هذا العذاب؟ قال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ يعني إي والله إنّه لكائن، ويقال معناه ويسألونك عن البعث أحق هو؟ ويسألونك عن دينك أحق هو؟ «قُلْ إِي وَرَبِّي» يعني قل يا محمد نعم ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ يعني العذاب «نازل بكم إن لم تؤمنوا» ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ «بفائتين من العذاب حتى يجزيكم به. ثم أخبر عن حالهم حين نزل بهم العذاب فقال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ يعني كفرت وأشركت بالله تعالى لو كان لها ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يعني النفس لافتدت من سوء العذاب ولا يقبل منها ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ يعني أخفوا الندامة. يعني القادة من السفلة ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ حين نزل بهم العذاب ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بين القادة والسفلة بالعدل. ويقال قضي بينهم. يعني بين الخلق بالعدل فيعطى ثوابهم على قدر أعمالهم. ويقال يقضى بين الكفار بالعدل وبين المؤمنين بالفضل. ثم قال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً. ثم بيَّن استغناءه عن عبادة (الخلق)[1] وقدرته عليهم فقال ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني كلهم عبيده وإماؤه وهو قادر عليهم، ويقال كل شيء يدل على توحيده وأن له صانعاً ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني البعث بعد الموت هو كائن ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا يصدقون به ثم قال تعالى ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني يا أهل مكة. ويقال جميع الناس ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني نهياً من ربكم عن الشرك على لسان نبيكم ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يعني القرآن شفاء للقلوب من الشرك ويقال شفاء من العمى لأن فيه بيان الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ويقال صواباً وبياناً ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني القرآن نعمة الله على المؤمنين، نعمة من العذاب لمن آمن وعمل بما فيه. قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني قل يا محمد للمؤمنين بفضل الله والإسلام. ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ (القرآن) وروي عن ابن عباس[2] أنه قال: بفضل الله يعني القرآن. وبرحمته الإسلام، يعني بنعمته عليكم إذ أكرمكم بالإسلام والقرآن. وهكذا قال أبو سعيد الخدري. وقال الضحاك ومجاهد[3]: بفضل الله القرآن وبرحمته الإسلام. وقال مقاتل: بفضل الله الإسلام وبرحمته القرآن، وعن الحسن[4] مثله. وقال القتبي مثله قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني بالقرآن والإيمان ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الأموال. قرأ ابن عامر[5] (فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) بالتاء. كلاهما على معنى المخاطبة[6] وقرأ الباقون (يجمعون)[7] بالياء على معنى المغايبة

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٨ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير. (٥) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٣.

(٦) اعلم أن كل أمر للغائب والحاضر لا بد من لام تجزم الفعل كقولك (ليقم زيد) (لينفق ذو سعة) وكذلك إذا قلت: قم واذهب، فالأصل: (لتقم) و(لتذهب) بإجماع النحويين فتبين أن المواجهة كثر استعمالهم لها فحذفت اللام اختصاراً وإيجازاً واستغنوا بـ(افرحوا) عن (لتفرحوا) وبـ(قم) عن (لتقم). فمن قرأ بالتاء فإنما قرأ على الأصل وحجته أنها عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: عن أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أمرت أن أقرأ عليك) قال: قلت (وقد سماني ربك؟) قال: (نعم) قال: فقرأ علي (يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ): (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون) بالتاء. وقد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (لتأخذوا مصافكم) أي: خذوا مصافكم فهذا أمر المواجهة. انظر حجة القراءات ص ٣٣٣.

(٧) سقط في أ.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ
عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ
مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ في الكتاب ويقال من السماء، ويقال ما أعطاكم الله من الرزق والحرث والأنعام والبحيرة والسائبة وبَيَّن في كتابه تحليلها ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً﴾ حراماً على النساء وحلالاً على الرجال ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ يعني الله عز وجل أمركم بتحريمه وتحليله ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ يعني بل على الله تفترون يعني تختلقون على الله كذباً ما لم يقله ولم يأمر به. فقال قل الله أذن لكم؟ فقالوا بلى أمرنا بها. قال الله تعالى «أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» بل على الله تختلقون. ثم قال تعالى ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ يعني وما ظنهم حين ينزل بهم العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وكيف ينجون منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لذو مَنٍّ على الناس بتأخير العذاب عنهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (نعمة الله تعالى)[1] عليهم بتأخير العذاب عنهم. قوله تعالى: ﴿وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: وما تكون يا محمد في أمر من الأمور ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وما تقرأ من الله من قرآن مما أوحي إليك. فخاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخاطب أمته أيضاً فقال ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ يعني عالماً بكم وبأعمالكم فلا تنسوه. ويقال إلَّا جعل عليكم شاهداً من الملائكة وهم الحفظة ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يعني حين تأخذون في قراءة القرآن. ويقال حين تخوضون فيه «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ» قرأ الكسائي[2] ﴿وَمَا يَعْزِبُ﴾ بكسر الزاي. وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان جيدتان. وهكذا (ذكر عن) الفراء يعني وما يغيب ﴿عن ربك مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ قال الكلبي: وهي النملة الحميراء. وقال مقاتل: أصغر نملة في الأرض. ويقال الذَّر ما يرى في شعاع الشمس. والمثقال عبارة عن الوزن. يعني لا يغيب عنه وزن الذرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يعني ولا أخف من وزن الذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ يعني ولا أثقل من وزن الذرة. ويقال لا أقل منه ولا أعظم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني مكتوباً في اللوح المحفوظ. قرأ حمزة[3] «ولا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ» بضم الراءين. ومعناه ولا يغيب عنه أصغر من ذلك ولا أكبر منه. فيصير رفعاً لأنه فاعل. وقرأ الباقون بالنصب، لأن معناه ولا يغيب عنه بمثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا بمثقال ذرة أصغر من ذلك. فموضعه خفض إلا أنه لا ينصرف. فصار نصباً.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ
﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى

---

(١) في أ [النعمة عليهم].

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٤، سراج القارىء ٢٤٥.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٣٤، سراج القارىء ٢٤٥.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ يعني المؤمنين. ويقال: أحباء الله. وهم حملة القرآن والعلم. ويقال الذين يجتنبون الذنوب في الخلوات ويعلمون أن الله تعالى مطلع عليهم، وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سئل عن أولياء الله تعالى فقال: هم الذين (إذا رُؤوا) ذُكِرَ اللَّهُ تعالى، وقال وهب بن منبه[(١)] : [قال][(٢)] الحواريون لعيسى بن مريم يا روح الله من أولياء الله؟ قال الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها. ونظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة ويحبون الله تعالى ويحبون ذكره. وقال الضحاك: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ» يعني المخلصين لله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لا يخافون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين زفرت جهنم، ثم نعتهم فقال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى ويتقون الشرك والفواحش «لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» يعني البشارة وهي الرؤيا الصالحة يراها العبد المسلم لنفسه أو يرى له غيره. وروي عن عبد الله بن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة[(٣)]، وفي خبر آخر من أربعين جزءاً[(٤)]. وفي خبر آخر من ستة وأربعين جزءاً[(٥)]. وروى عطاء بن يسار عن رجل كان يفتي بالبصرة، قال سألت أبا الدرداء عن هذه الآية ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال أبو الدرداء ما سألني عنها أحد منذ (سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) فقال ما سألني عنها أحد قبلك. هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوتُرى له[(٦)] ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة. وعن عبادة بن الصامت أنه سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - فأجابه بمثل ذلك[(٧)]. ويقال لهم البشرى في الحياة الدنيا يعني عند الموت يبشره الملائكة كما قال في آية أخرى (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٠٩ وعزاه لأحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) سقط في (أ).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١١ وعزاه لأحمد وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي بلفظ جزء من ستة وأربعين جزءاً، وبلفظ المصنف أخرجه مسلم ٤/١٧٧٥ في كتاب الرؤيا (٩/٢٢٦٥).

(٤) ذكره الحافظ في الفتح ١٢/٣٨٠ وعزاه للترمذي والطبري من حديث أبي رزين العقيلي، قلت وأشار له الترمذي في جامعه ٤/٤٦٢.

(٥) أخرجه البخاري من رواية أنس بن مالك ١٢/٣٦١ باب رؤيا الصالحين (٦٩٨٣)، ومسلم (٧/٢٢٦٤) وأخرجه البخاري من رواية أبي سعيد الخدري ١٢/٣٧٣ (٦٩٨٩).

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي، وحسنه والحكيم في نوادر الأصول، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للطيالسي وأحمد والدارمي والترمذي وابن ماجه والهيثم بن كليب الشامي والحكيم الترمذي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

تُوعَدُونَ) وفي الآخرة يبشره الملائكة حين يخرج من القبر ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير ولا تحويل لقول الله تعالى. لأن قوله حق بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا. ويقال لا تبديل لكلمات الله يعني لا خلف لمواعيده التي وعد في القرآن ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني: الثواب الوافر. ويقال النجاة الوافرة. قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يقول يا محمد لا يحزنك تكذيبهم ﴿إِنَّ ٱلعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ بأن النعمة والقدرة لله تعالى. وجميع من يتعزز إنما هو بإذن الله تعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ السميع لمقالتهم العليم بهم وبعقوبتهم على ترك توحيدهم ثم قال ﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلأَرْضِ﴾ يعني من الخلق كلهم عبيده وإماؤه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: وما يعبد الذين يعبدون من دون الله، الأوثان والأصنام. ولم يأت بجوابه. وجوابه مضمر ومعناه ما هي لي شركاء ولا نفع لهم في عبادتها ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ يعني ما يعبدون الإصنام إلاّ بالظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يقول وما هم إلا يكذبون. يقول ما أمرهم الله تعالى بعبادتها ولا تكون لهم شفاعة. ثم دل بصنعه على توحيده فقال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني خلق لكم اللّيل لتقروا فيه من النصب والتعب ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ يعني: خلق النهار مطلباً للمعيشة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في تقليب الليل والنهار ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات وعلامات لوحدانية الله ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: المواعظ، ثم رجع إلى ذكر كفار مكة فقال تعالى ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ حين قالوا: الملائكة بنات الله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن الولد ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ﴾ من الخلق سماهم عبيده وإمائه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ يعني ما عندكم من حجة بهذا القول ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ بغير حجة.

قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ
إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ
لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بأن له ولداً ﴿لاَ يُفْلِحُونَ﴾ «يعني: لا يأمنون من عذابه ولا ينجون منه ﴿مَتَاعٌ﴾...» يعني منفعتهم ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ قليل ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يعني مصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بكفرهم قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ فإن لم تعتبروا بذلك. فاتل عليهم، يعني إقرأ عليهم خبر نوح في القرآن ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: عظم وثقل ﴿مَقَامِي﴾ طول مقامي (فيكم) ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: وعظي لكم بالله تعالى. وعظته بالله تعالى ما ذكر في سورة نوح وهو قوله (ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) إلى قوله (كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) الآية فلما وعظهم بذلك أرادوا قتله حين قالوا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ) أي من المقتولين بالحجارة فقال لهم نوح «إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي» فيكم وعظتي لكم ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: وثقت وفوضت أمري إلى الله

تعالى ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ يعني كيدكم. ويقال قولكم (وعملكم)، ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ يعني وادعوا شركاءكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: امضوا إلى ﴿وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ أي: ولا تمهلون ويقال: اقضوا ما أنتم قاضون واستعينوا بآلهتكم ويقال: اعملوا بما في أنفسكم من الشر وروي عن نافع أنه قرأ فاجمعوا بالوصل والجزم من جمعت وقرأ الباقون فأجمعوا بالقطع من الإجماع وقرأ الحسن البصري ويعقوب الحضرمي شركاءكم أي: أين شركاؤكم ليجمعوا أمرهم معكم ويعينوكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة يقول: أظهروا أمركم فلا تكتموه يعني: القتل وقال القتبي: الغمة والغم واحد كما يقال: كربة وكرب أي: لا يكن أمركم غماً عليكم ثم اقضوا إليَّ أي: اعملوا بما تريدون كقوله: اقض ما أنت قاض ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني اعرضتم وأبيتم عن الإيمان وأبيتم أن تقبلوا (ما أتيتكم به) وأمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني ما سألتكم بذلك أجراً في الدنيا ومعناه إن أعرضتم عن الإيمان لا يضرني لأني لا أطلب منكم بذلك أجراً في الدين ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ما ثوابي إلا على الله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني وأمرت أن أستقيم على التوحيد مع المسلمين قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب بأنه غير نازل بهم ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ من الغرق ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يعني خلفاء من بعد هلاك كفارهم ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني كذبوا نوحاً بما أتاهم به ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ كيف كان آخر أمر من أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد هلاك قوم نوح ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ مثل هود وصالح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ﴿فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالأمر والنهي. ويقال بالآيات والعلامات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ قال مقاتل: يعني ما كان كفار مكة ليصدقوا بالعذاب أنه نازل بهم كما لم يصدق به أوائلهم من قبل كفار مكة. وقال الكلبي: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به عند الميثاق حين أخرجهم من صلب آدم. وقال وما كانوا ليؤمنوا. يعني أولئك القوم بعد ما كان دعاهم الرسل بما كذبوا به من قبل أن يأتيهم الرسل ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يعني: نختم على قلوب المعتدين من الحلال والحرام، ويقال صار تكذيبهم طبعا على قلوبهم فمنعهم عن الإيمان. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تكبروا عن الإيمان ﴿وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ يعني مشركين. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني ظهر لهم الحق ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: الذي أتيتنا به كذب بين ف﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ وفي الآية مضمر ومعناه أتقولون للحق لما جاءكم إنه سحر؟ ثم قال أسحر هذا؟ يعني أيكون مثل هذا سحراً. فليس ذلك بسحر. ولكن ذلك علامة للنبوة ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. ويقال لا ظفر لهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ يعني: قال

فرعون وقومه لموسى عليه السلام «أجئتنا» ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ يعني لتصرفنا وتصدنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ يقول: عما كان يعبد آباؤنا ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَاءُ﴾ يعني السلطان والشرف والملك ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني في أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بمصدقين بأنكما رسولا رب العالمين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ
ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ
إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: حاذق (بالسحر)[1] قرأ حمزة والكسائي[2] «سَحَّارٍ» على معنى المبالغة وقرأ الباقون «سَاحِرٍ» ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ يعني: اطرحوا ما في أيديكم من العصي والحبال ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما معهم من الحبال والعصي إلى الأرض ﴿قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ يعني العمل الذي عملتم به هو السحر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ يعني سيهلكه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا يرضى عمل المفسدين. قرأ أبو عمرو آلسحر. بالمد على وجه الاستفهام. ويكون معناه «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ يعني ما الذي جئتم به؟ وتم الكلام. ثم قال «آلسِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ» يعني عمل السحرة. قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني يظهر دينه الإسلام بتحقيقه ونصرته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني فرعون وقومه. قال الله تعالى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ يعني ما صدق بموسى ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني: قبيلته من قومه الذين كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط. وروى مقاتل عن ابن عباس[3] أنه قال: «إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ». يعني: من قوم موسى عليه السلام وهم بنو إسرائيل[4]، وهم ستمائة ألف، قال وكان يعقوب حين ركب إلى مصر من كنعان في اثنين وسبعين إنساناً فتوالدوا بمصر حتى بلغوا ستمائة ألف، ويقال «إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ» يعني خربيل، وهو الذي قال في آية أخرى (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ) ثم قال ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ [يعني: فما آمن لموسى عليه السلام خوفاً من فرعون][5] ﴿وَمَلَإِهِمْ﴾ إشارة إلى فرعون بلفظ الجماعة كقوله (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة. ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ يعني (يقتلهم) ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لعات ويقال الغالب. ويقال المخالف والمتكبر في أرض مصر

---

(١) سقط في أ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٥، سراج القارىء ٢٤٥.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية﴾ قال: الذرية القليل.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) سقط في(ظ).

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني لمن المشركين روى موسى بن عبيدة عن محمد بن المنكدر قال: عاش فرعون ثلاثمائة سنة. منها مائتين وعشرين سنة لم ير مكروهاً، ودعاه موسى عليه السلام ثمانين سنة ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يعني ثقوا بالله تعالى وذلك حين قالوا له (أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) فلما قال لهم هذا موسى عليه السلام ﴿قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يعين فوضنا أمرنا إليه ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ بلية وعبرة ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لا تنصرهم علينا. قال مجاهد[1]: يعني لا تعذبنا بأيدي فرعون ولا بعذاب من عندك. فيقولوا لو كانوا على الحق ما عذبوا وما سُلِّطنا عليهم فيفتتنوا بنا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ يعني: بنعمتك ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ يعني فرعون وقومه.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ﴾هارون وذلك لما منعهم فرعون وقومه الصلاة علانية وخربوا مساجدهم ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ يعني اتخذوا لقومكما بمصر مساجد في جوف البيوت. ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ يعني مساجد، فتصلون (فيها) ويقال حولوا بيوتكم نحو القبلة. وقال مجاهد[2] كانوا يصلون في البيع فأمرهم بأن يصلوا في البيوت، وقال إبراهيم النخعي: كانوا خائفين فأمرهم بالصلاة في بيوتهم. وكان إبراهيم النخعي خائفاً من الحجاج وكان يصلي في بيته. ثم قال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتموها بركوعها وسجودها. ولم يأمرهم بالزكاة لأن فرعون (عليه اللعنة) قد استعبدهم وأخذ أموالهم فلم يكن لهم مال يجب عليهم الزكاة فيه، ثم قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين بتوحيد الله تعالى بالجنة. قرأ عاصم في رواية حفص «أَنْ تَبَوَيَا» بالياء بلا همز. لأنه كره الهمزة بين حرفين فجعلها ياء. وقرأ الباقون بغير ياء بالهمزة. إلا أنه روي عن حمزة أنه كان لا يهمز. قوله تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾وذلك أن أهل مصر لما عذبوا بالطوفان والجراد والسنين قالوا «لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ» ثم نكثوا العهد ولم يؤمنوا فغضب موسى عليهم ودعا الله تعالى عليهم وقال «رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ» يعني الأشراف من قومه ﴿زِينَةً وَأَمْوَلًا فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا﴾ يعني أعطيتهم ليضلوا ﴿عَنْ سَبِيلِكَ﴾ عن دينك الإسلام. قرأ أهل الكوفة وعاصم وحمزة والكسائي[3] «لِيُضِلُّوا» بضم الياء يعني ليضلوا الناس ويصرفونهم عن دينك. وقرأ الباقون «لِيَضِلُّوا» بنصب الياء يعني يرجعون عن دينك ويمتنعون جملة (واحدة) عنه ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ يعني: غير دراهمهم ودنانيرهم. وذلك حين وعد فرعون بأن يؤمن ويرسل معه بني إسرائيل. ثم نقض العهد فدعا عليهم موسى عليه السلام. وروى

(١) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن السندر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٣٥.

معمر عن قتادة[١]: في قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» قال بلغنا أن حروثاً لهم صارت حجارة. وعن السدي[٢] أنه قال: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة وعن أبي العالية[٣] (الرياحي) أنه قال: صارت أموالهم حجارة. وقال مجاهد[٤] في قوله تعالى: (ربنا اطمس على أموالهم) يعني أهلكها وقال القتبي في قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» أي اقسها. ويقال اطبع قلوبهم وأمتهم على الكفر فلا توفقهم للإيمان لكي لا يؤمنوا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وهو الغرق. ودعا موسى عليه السلام (وأَمَّن هارون) عليه السلام ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ قال محمد بن[٥] كعب (القرظي) دعا موسى وأمن هارون. وعن أبي العالية[٦] وعكرمة[٧] وأبي صالح[٨] مثله. وعن أبي هريرة[٩] مثله وعن أنس بن مالك أنه قال: كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن الله تعالى أعطاني خصالاً ثلاثاً: أعطاني صلاة بالصفوف وأعطاني تحية (هي) تحية أهل الجنة. وأعطاني التأمين ولم يعط أحداً من النبيين قبلي إلا أن يكون الله تعالى أعطاه لهارون، يدعو موسى ويؤمن هارون قال مقاتل: فمكث موسى بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وهكذا روى الضحاك أن الاجابة ظهرت بعد اربعين سنة وقال بعضهم بعد أربعين يوماً وقال بعضهم، هذا الدعاء حين خرج موسى ببني إسرائيل وأيس من إيمانهم. ثم قال تعالى ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: على الرسالة والدعوة ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٠] يعني طريق فرعون وآله من أهل مصر. وروى ابن ذكوان عن ابن عامر أنه قرأ «تَتْبَعَانِّ» بجزم التاء ونصب الباء. وقرأ الباقون تَتَّبِعَانِّ (بنصب التاء) والتشديد وكسر الباء ومعناهما واحد. وهذه النون (أدخلت) مؤكدة.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

ثم قال تعالى ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ يعني: بحر قلزم. ويقال هو نهر مصر وهو النيل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ يعني: لحقهم. وقال القتبي أتبعت القوم أي لحقتهم. وتبعتهم كنت في أثرهم ثم قال ﴿بَغْياً وَعَدْواً﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.
(٦) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.
(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.
(٨) أخرجه ابن جرير كما في الدر المنثور ٣/٣١٥.
(٩) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأبي الشيخ.
(١٠) انظر حجة القراءات ٣٣٦، سراج القارىء ٢٤٦.

يعني تكبراً، «وَعْدواً» يعني ظلماً. ويقال: بغياً في المقالة حيث قال (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) وعدواً يعني اعتدوا عليهم وأرادوا قتلهم ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ يعني كربة الموت. ويقال ألجمه الماء. ويقال بلغه الموت [والأجل][1] وذلك أن بني إسرائيل لما رأوا فرعون ومن معه قالوا هذا فرعون وقد كنا نلقى منه ما نلقى فكيف بنا وأين المخرج في البحر. فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر. فضرب فصار اثني عشر طريقاً يابساً. فلما انتهى فرعون إلى البحر فرآه قد يبس فقال لقومه إن البحر قد يبس خوفاً مني. فصدقوه وهو قوله (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) ولما جاوز قوم موسى، ودخل قوم فرعون فلما هَمَّ أولهم أن يخرج من البحر ودخل آخرهم طم عليهم البحر فغرقهم و﴿قَالَ﴾ فرعون عند ذلك ﴿آمَنْتُ أنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[2] إِنَّهُ بالكسر على معنى الابتداء والباقون بالنصب على معنى البناء. يعين صدقت بأنه «لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ على دينهم. ويقال أنا من المخلصين على التوحيد. قال الله تعالى ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ يعني: أتؤمن في هذا الوقت حين عاينت العذاب وقد عصيت قبل نزول العذاب. وهذا موافق لقوله تعالى: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) الآية. ويقال إن جبريل: هو الذي قال له «آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني من الكافرين. قال الفقيه أبو الليث حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا علي بن أحمد قال حدثنا نصر بن يحيى قال حدثنا أبو مطيع عن الحسن بن دينار عن حميد بن هلال قال: كان جبريل عليه السلام يناجي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له ذات يوم يا محمد ما غاظني عبد من عباد الله تعالى مثلما غاظني فرعون لما أدركه الغرق «قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ» فخشيت أن تدركه الرحمة، فضربت بيدي إلى البحر. فأخذت كفاً من حمئه وربما قال من طينه فكبسته في فيه فما نبس بكلمة[3]. قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نخرجك من البحر بجسدك. وقال أبو عبيدة نلقيك على نجوة من الأرض، والنجوة من الأرض ما ارتفع منها ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ يعني عبرة لمن بعدك من الكفار لكيلا يدعوا الربوبية. وقال قتادة لما أغرق الله فرعون لم يصدق طائفة من الناس بذلك فأخرجه الله تعالى ليكون لهم عظة وآية ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا﴾ يعني عن هلاك فرعون ﴿لَغَافِلُونَ﴾ فلا يخافون ولا يعتبرون ثم قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني أنزلنا بني إسرائيل ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يعني منزل صدق وهو أرض مصر وذلك أن الله تعالى قد وعد لهم بأن يورثهم أرض مصر. فلما غرق فرعون رجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض مصر فنزلوا بها وسكنوا الديار. ويقال مبوأ صدق يعني أرضاً كريمة يعني أرض أردن وفلسطين. ويقال منزل حسن. وقال قتادة[4]: أرض الشام ويقال الأرض المقدسة ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني من ميراث أهل مصر وأهل الشام ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في الدين حتى جاءهم البيان. يعني جاءهم موسى عليه السلام بعلم التوراة فاختلفوا من بعد يوشع بن نون. ويقال: فما اختلفوا في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى جاءهم العلم. يعني: خرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاءهم بالقرآن. لأنهم لم يزالوا مؤمنين به. وذلك أنهم يجدونه مكتوباً عندهم. فلما جاءهم محمد ـ صلى الله

---

(١) سقط في (ظ).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٦، سراج القارىء ٢٤٧.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٢٦٨ في كتاب التفسير (٣١٠٧، ٣١٠٨) وأخرجه أحمد في المسند ١/٢٤٠، ٢٤٥، ٣٠٩، ٣٤٠، وانظر مجمع الزوائد ٧/٣٦.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٦ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

عليه وسلم ـ جحدوا به بعد العلم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الذين آمن بعضهم وكفر بعضهم.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني مؤمني أهل التوراة. وذلك أن كفار قريش قالوا إن هذا الوحي يلقيه إليه الشيطان. فأنزل الله تعالى «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» فسيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أسأل أحداً ولا أشك فيه. بل أشهد أنه الحق[1]، وقال القتبي فيه تأويلان. أحدهما أن تكون المخاطبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد فيه غيره من الشكاك لأن القرآن أنزل عليه بمذاهب العرب وهم يخاطبون الرجل بشيء ويريدون به غيره كما قالوا «إيَّاكِ أعني واسمعي يا جارة»، وكقوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) أراد به الأمة يدل عليه قوله تعالى في آخره (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) وكقوله (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) ووجه آخر، إن الناس كانوا على ثلاث مراتب. منهم من كان مؤمناً ومنهم من كان كافراً ومنهم من كان شاكاً. وإنّما خاطب بهذا الشاك. ثم قال ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يعني من الشاكين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني بالكتاب (وبالرسالات) ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني من المغبونين. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يعني وجبت عليهم كلمة ربك بالسخط وقدر عليهم الكفر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن انه من الله تعالى ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ يعني: علامة ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعني الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، قرأ نافع وابن عامر «كَلِمَاتُ رَبِّكَ» وقرأ الباقون «كَلِمَةُ رَبِّكَ» قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ يقول لم يكن أهل قرية كافرة آمنت عند نزول العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ وقبل منها الإيمان ودفع عنهم العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ قال مقاتل: فلولا على ثلاثة أوجه الأول يعني فلم. مثل قوله «فلولا كانت قرية آمنت» (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ). الثاني: فلولا يعني فهلا، كقوله (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا) (فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) والثالث: فلولا يعني فلوما. كقوله (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ). ويقال فلولا ههنا بمعنى فهلا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها. ومعناه فهلا آمنت في وقت ينفعها إيمانها. فأعلم الله تعالى أن الإيمان لا ينفع عند نزول العذاب، ثم قال «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ» معناه لكن قوم يونس (لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ) يعني إنهم آمنوا قبل المعاينة فكشفنا عنهم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا» كما نفع قوم يونس، وعن قتادة إنَّ قوم

(١) انظر الدر المنثور ٣/٣١٧.

يونس عليه السلام خرجوا ونزلوا على تل فدعوا الله تعالى أربعين ليلة حتى تاب الله عليهم. وروي عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم: أن يونس بعثه الله تعالى إلى قومه فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وترك ما هم فيه من الكفر، فأبوا فدعا ربه فقال يا رب قد دعوتهم فأبوا فأوحى لله تعالى إليه أن ادعهم فإن أجابوك وإلا فأعلمهم أن العذاب يأتيهم إلى ثلاثة أيام، فدعاهم فلم يجيبوه فأخبرهم بالعذاب. فقالوا ما جربنا عليه كذباً مذ كان معنا فإن لم يلبث معكم وخرج من عندكم فاحتالوا لأنفسكم، فلما كان بعض الليل خرج يونس من بينهم. فلما كان اليوم الثالث رأوا حمرة وسواداً في السماء كهيئة النار والدخان فظنوا أن العذاب نازل بهم فجعلوا يطلبون يونس عليه السلام فلم يجدوه. فلما كان آخر النهار أيسوا من يونس وجعل يهبط السواد والحمرة. فقال قائل منهم إن لم تجدوا يونس عليه السلام فإنكم تجدون رب يونس. فادعوه وتضرعوا إليه، فخرجوا من القرية إلى الصحراء وأخرجوا النساء والصبيان والبهائم وفرقوا بين كل إنسان وولده وبين كل بهيمة وولدها ثم (عجوا) إلى الله تعالى مؤمنين مصدقين وارتفعت أصوات الرجال والنساء والصبيان (وخوار) البهائم وأولادها واختلطت الأصوات وقربت منهم الحمرة والدخان حتى غشي السواد سطوحهم وبلغهم حر النار، فلما عرف الله تعالى منهم صدق التوبة رفع عنهم العذاب بعدما كان غشيهم. فذلك قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ يعني لم يكن أهل قرية «آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا» عند نزول العذاب «إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا» يعني صدقوا بالألسن والقلوب عرف الله تعالى منهم الصدق «كَشَفْنَا عَنْهُمْ» يعني رفعنا وصرفنا ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني عذاب الهون ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ يعني إلى منتهى آجالهم. وفي هذه الآية تخويف وتهديد لكفار مكة ولجميع الكفار إلى يوم القيامة أنهم (إن) لم يؤمنوا ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم إيمانهم عند نزول العذاب.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ يعني وفقهم لذلك وهداهم. ويقال في الآية مضمر ومعناه ولو شاء ربك أن يؤمنوا لآمنوا كلهم جميعاً ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ يعني الكفار ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ويقال هو عمه أبو طالب. ولها وجه آخر. ولو شاء ربك لأراهم علامة لضطروا إلى الإيمان كما فعل بقوم يونس، ولكن لم يفعل ذلك لأن الدنيا دار ابتلاء ومحنة، ثم قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بإرادة الله تعالى وتوفيقه ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ يعني: الكفر ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني: يترك حلاوة الكفر في قلوب الذين لا يرغبون في الإيمان. ويقال ويجعل الرجس يعني الاثم ويقال الرجس يعني: العذاب. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] «وَنَجْعَلُ الرِّجْسَ» بالنون وقرأ الباقون ويجعل بالياء. ثم أخبر أنه لا عذر لمن تخلف عن الإيمان لأنه قد بين العلامات وهو قوله ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ﴾ من الدلائل من الشمس والقمر والنجوم

(١) انظر سراج القارىء ٧٦٨، شرح شعلة ٤٢٥.

﴿وَ﴾ ما في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الجبال والبحار والأشجار والثمار فاعتبروا (به) ثم قال حين لم يعتبروا به ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ ما تنفع العلامات التي في السموات والأرض ﴿وَالنُّذُرُ﴾ يعني: الرسل ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يرغبون في الإيمان ولا يطلبون الحق. وقال أبو العالية لا تنفع الآيات والرسل عن قوم قد قدر عليهم أنهم لا يؤمنون. ويقال «عَنْ» ههنا صلة ومعناه وما تغني الآيات والنذر قوماً لا يؤمنون يعني علم الله (في الأزل) أنهم لا يؤمنون. ثم خوفهم فقال تعالى ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني أن يصيبهم العذاب مثل ما أصاب الأمم الخالية ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا﴾ يعين انتظروا بالعذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ويقال انتظروا لهلاكي فإني معكم من المنتظرين بهلاككم. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ يعني أنجيناهم من العذاب والهلاك ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ معهم. انصرف هذا إلى قوله «مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ» «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا»، يعني أنجيناهم من العذاب والذين آمنوا يعني أنجيناهم معهم، ومعناه إذا جاءهم العذاب ينجي الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن آمن معه كما انجى سائر الرسل والذين آمنوا معهم ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ يعني: هكذا واجب علينا ﴿نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب، قرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص[1] «ثُمَّ نُنْجِي» بجزم النون وتخفيف الجيم. وقرأ الباقون «نُنَجِّي» بالنصب والتشديد. وكذلك في قوله «نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» ومعناها واحد نجيته وأنجيته.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

ثم قال عز وجل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة وذلك حين دعوه إلى دين (آبائهم)[2] فقال ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ (الإسلام)، وترجون أن أرجع إلى دينكم وأترك هذا الدين فلا أفعل ذلك وهو قوله ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة. ويقال معناه إن كنتم في شك من ديني فأنا مستيقن في دينكم ومعبودكم أنهما باطلان «فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ يعني أوحده وأطيعه ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يعني: يميتكم عند انقضاء آجالهم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من (الموقنين)[3] على دينهم ولا أرجع عن ذلك. قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ يعني إنَّ الله تعالى قال لي في القرآن أن أخلص عملك ودينك ﴿لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ يعني استقم على التوحيد مخلصاً ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أو يقال «وأمرت أن أكون من المسلمين» إلى ههنا أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول ذلك للكفار وقد تم الكلام إلى هذا الموضع ثم قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا أمرتك «وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» يعني وأمرتك أن تخلص عملك ودينك للدين حنيفاً. يعني استقم على ذلك. والحنف في اللغة هو الميل والإقبال إلى شيء لا يرجع عنه أبداً. لهذا سمي الرجل أحنف

(١) انظر حجة القراءات ٣٣٧، شرح شعلة ٤٢٥.
(٢) في أ [أبائه]. (٣) في أ [المؤمنين].

إذا كان أصابع رجليه مائلاً بعضها إلى بعض. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: لا تعبد غير الله ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ يعني مالا ينفعك إن عبدته ولا يضرك إن عصيته وتركت عبادته ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ذلك يعني فإن عبدت غير الله ﴿فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني من الضارين بنفسك. قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني: إن يصيبك الله بشدة أو بلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا دافع لذلك الضر إلا هو يعني لا تقدر الأصنام على دفع الضر عنك ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يعني وإن يصيبك بسعة في الرزق وصحة في الجسم ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ يعني: لا مانع لعطائه ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ يعني: بالفضل ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من كان أهلاً لذلك ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. فأعلم الله تعالى أنه كاشف الضر ومعطي الفضل في الدنيا وهو الغفور للمؤمنين الرحيم بقبول حسناتهم. [(قال الفقيه أبو الليث)][(١)] حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا شيخ بصري عن الحسن[(٢)] أنه قال: قال عامر بن عبد قيس ما أبالي ما أصابني من الدنيا وما فاتني منها بعد ثلاث آيات ذكرهن الله تعالى في كتابه. قوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) وقوله (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) وقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ يعني من آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ يعني ثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ يعني ومن كفر ولم يؤمن ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يعني جنايته على نفسه وإثم الضلالة على نفسه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني لست عليكم بمسلط. وهذا قبل الأمر بالقتال ثم قال تعالى ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ يعني إن لم يصدقوك فاعمل بما أنزل إليك من القرآن ﴿وَاصْبِرْ﴾ على تكذيبهم ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ يعني يقضي لله تعالى بعذابهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين، ويقال واصبر حتى يحكم الله يعني حتى يأمر الله المؤمنين بقتالهم، ويقال فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه يعني من اجتهد حتى اهتدى فإنما يهتدي لنفسه. ومن ضل فإنما يضل عليها. يعني ومن تغافل عن الحق حتى ضل فعقوبته عليها «والله أعلم».

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣١٨ وعزاه لأبي الشيخ.

سُورَةُ هُودٍ (١)

وهي مائة وثلاث وعشرون آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ
وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ
فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿**آلر**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني أنا الله أرى. ويقال الألف آلاؤه واللام لطفه والراء ربوبيته ﴿**كِتَابٌ**﴾ يعني: هذا الكتاب وهو القرآن. ﴿**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**﴾ من الباطل فلم يوجد فيه عوج ولا تناقض ﴿**ثُمَّ**

---

(١) انظر التحرير ١١/٣١١ ـ ٣١٢ ـ ٣١٤.

سميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات ولأن ما حكي عنه فيها أطول مما حكي عنه في غيرها ولأن عاداً وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله: ﴿**ألا بعداً لعاد قوم هود**﴾.

وهي مكية كلها عند الجمهور وروي ذلك عن ابن عباس وابن الزبير وقتادة إلا آية واحدة وهي ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار ـ إلى قوله ـ للذاكرين**﴾.

وقال ابن عطية: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة. وهي قوله تعالى: ﴿**فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك**﴾. وقوله ﴿**أفمن كان على بينة من ربه ـ إلى قوله ـ أولئك يؤمنون به**﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام وقوله ﴿**وأقم الصلاة طرفي النهار**﴾ الآية قيل نزلت في قصة «أبي اليسر» كما سيأتي والأصح أنها كلها مكية وأما ما روي من أسباب النزول في بعض آياتها توهّم لاشتباه الاستدلال بها في قصة بأنها نزلت حينئذ على أن الآية الأولى من هذه الثلاث واضح أنها مكية.

ابتدأت هذه السورة بالإيماء إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومىء إليه الحروف المقطعة في أول السورة وبإتلائها بالتنويه بالقرآن وبالنهي عن عبادة غير الله تعالى وبأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى وإثبات الحشر والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس وأن الله مدبر أمور كل حي على الأرض وخلق العوالم بعد أن لم تكن وأن مرجع الناس إليه وأنه ما خلقهم إلاّ للجزاء وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته عما يقول المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم ﴿**أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك**﴾. وأن حسبهم آية القرآن الذي تحداهم بمعارضته فعجزوا عن معارضته فتبين خذلانهم فهم أحقاء بالخسارة في الآخرة. وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين. وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم وعاد وثمود وإبراهيم وقوم لوط ومدين ورسالة موسى تعريضاً بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها وأن في تلك الأنباء عظة للمتبعين بسيرهم وأن ملام ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك. وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

ثم عرض باستئناس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته باختلاف قوم موسى في الكتاب الذي أوتيه فما على الرسول وأتباعه إلاّ أن ـ يستقيم فيما أمره الله وأن لا يركنوا إلى المشركين وأن عليهم بالصلاة والصبر والمضي في الدعوة إلى الصلاة فإنه لا هلاك مع الصلاة. وقد تخلل ذلك عظات وعبر والأمر بإقامة الصلاة. انظر التحرير ٣١١، ٣١٢، ٣١٣.

﴿فُصِّلَتْ﴾ يعني: بين أمره ونهيه. وقال الحسن[1] أحكمت آياته بالأمر والنهي، وفصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقال مجاهد[2]: فصلت أي فسرت. وقال القتبي أحكمت فلم تنسخ. ثم فصلت بالحلال والحرام. ويقال فصلت أي أنزلت شيئاً بعد شيء فلم تنزل جملة واحدة ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ يعني أنزل جبريل على محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله تعالى. حكيم في أمره خبير بالعباد وبأعمالهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني: نزل جبريل بالقرآن. وقد بين فيه ألا توحدوا ولا تطيعوا غير الله ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ يعني: قل لهم يا محمد إنني لكم من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ يعني: مخوف من عذابه للكافرين ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة للمؤمنين ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني وآمركم أن تستغفروا ربكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني: وتوبوا إليه من الشرك والذنوب ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً﴾ يعني: يعيشكم في الدنيا عيشاً حسناً في خير وعافية ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ إلى منتهى آجالكم. وقال القتبي أصل الإمتاع الإطالة. يقال حبل ماتع وقد متع النهار إذا طال، يمتعكم يعني يعمركم ويقال: يمتعكم متاعاً حسناً يعني: يجعلكم راضين بما يعطيكم ويقال ويجعل حياتكم (في الطاعة)[3] ثم قال ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ يعني: (يعطي في الآخرة كل ذي فضل في العمل في الدنيا فضله «في الآخرة» في الدرجات. وروى جويبر عن الضحاك قال يؤت كل ذي عمل ثواب عمله. وقال سعيد بن جبير في قوله: ويؤت كل ذي فضل فضله قال:) من عمل حسنة كتبت عشر حسنات ومن عمل سيئة كتبت عليه سيئة واحدة، فإن لم يعاقب بها في الدنيا أُخذ من العشرة واحدة وبقيت له تسع حسنات[4]. ثم قال ابن مسعود رضي الله عنه هلك من غلب آحاده أعشاره ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الإيمان ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: قل لهم يا محمد إني أخاف عليكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يعني القحط. قال مقاتل: فحبس الله تعالى عنهم المطر سبع سنين حتى أكلوا الموتى. ويقال: (عذاب يوم كبير) يعني: عذاب النار يوم القيامة. ويقال إنّي أخاف. يعني أعلم فيوضع الخوف موضع العلم لأن فيه طرفاً من العلم.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

ثم قال ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مصيركم في الآخرة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني هو قادر على بعثكم بعد الموت. قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال الكلبي يقول يكتمون ما في صدورهم من العداوة ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ يعني ليستروا ذلك منه ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يعني يلبسون ثيابهم. يعني حين يُغشي

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) في أ [راضيين بالطاعة].

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٠ وعزاه لابن جرير.

الرجل نفسه بثيابه يعني ﴿يَعْلَمُ﴾ ما تحت ثيابه ويعلم ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾من العداوات﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم. قال الكلبي نزلت في شأن أخنس بن شريق. وقال مقاتل ألا إنهم يثنون صدورهم يعني يلوون. وذلك أن كفار مكة كانوا إذا سمعوا القرآن نكسوا رؤوسهم على صدورهم كراهية استماع القرآن «ليستخفوا منه»يعني من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[١]قال: أخفى ما يكون الإنسان إذا أسر في نفسه شيئاً وتغطى بثوبه فبذلك أخفى ما يكون. والله تعالى يطلع على ما في نفوسهم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: ما في قلوب العباد من الخير والشر. قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ يعني: إلا الله القائم على رزقها، ويقال الله ضامن لرزقها. ويقال يرزقها الله حيث ما توجهت ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ يعني يعلم مستقرها حيث تأوي بالليل ومستودعها حيث تموت وتدفن. وروي عن عبد الله بن مسعود[٢]قال: مستقرها الأرحام ومستودعها الأرض التي تموت فيها. وقال عبد الله[٣]: إذا كان موت الرجل بأرض أتيت له حاجة، حتى إذا كان عند انقضاء أمده قبض فتقول الأرض يوم القيامة هذا ما استودعتني. وقال سعيد بن جبير ومجاهد المستقر الرحم. والمستودع الصلب. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: المستقر والمستودع وبيان كل شيء ورزق كل دابة مكتوب في اللوح المحفوظ خلق من درة بيضاء. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال ابن عباس يعني: من أيام الآخرة وقال الحسن من أيام الدنيا ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلق السموات والأرض لأنه لم يكن تحته شيء سوى الماء. قال حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن (محمد)[٤] قال حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا أبو مطيع عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال: بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام. وبين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام. [وبين الكرسي وبين الماء خمسمائة عام][٥] والعرش فوق الماء والله فوق العرش بعلوه وقدرته يعلم ما أنتم فيه. وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس[٦] قال: كان عرشه على الماء. فلما خلق الله تعالى السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفه تحت العرش وهو البحر المسجور وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى وهو مكتوب في الكتاب الأول ويسمى اليم وعن سعيد بن جبير قال سئل ابن عباس[٧] عن قول الله تعالى «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» على أي شيء كان الماء؟ قال على متن الريح ويقال: كان عرشه على الماء يعني فوق الماء كقولك السماء فوق الأرض لا أنه ملتزق بالماء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾يعني: ليختبركم أيكم أحسن أي: أخلص عملاً وأزهد في الدنيا، والاختبار من الله تعالى هو إظهار ما يعلم من خلقه ثم قال ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ما هذا إلا كذب بين حيث يخبرنا أنه يكون البعث. قرأ حمزة والكسائي سَاحِرٌ مبين بالألف. وقرأ الباقون (سحر مبين) بغير ألف

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) في أ [عبد الرحمن بن عوف].

(٥) سقط في أ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٢ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق في المصنف والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعْدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا
عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةٗ ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ
إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ
إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٞ وَأَجْرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾
فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ
مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ
مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ
لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾** يعني سنيناً معلومة. يعني إلى الوقت الذي جعل أجلهم. وقال القتبي يعني: إلى حين بغير توقيت وقوله (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) إنما هو سبع سنين **﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾** يعني العذاب على وجه الاستهزاء **﴿أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾** يعني العذاب **﴿لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾** يعني: ليس أحد يصرف العذاب عنهم إذا نزل بهم في الدنيا وفي الآخرة **﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾** يعني: نزل بهم **﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾** يعني: أصبنا الإنسان منا (رحمة) يعني نعمة وخيراً وعافية **﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾** يعني آيس من رحمة الله كفور بنعم الله تعالى. ثم قال **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾** يعني: أعطيناه خيراً وعافية وسعة في الرزق **﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾** يعني: أصابته **﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾** يعني لا يشكر الله تعالى. ذكر في الابتداء لَيَقُولَنَّ بنصب اللام بلفظ الواحد (لتقديم الفعل) على الاسم. وفي الثاني بضم اللام لأنه فعل الجماعة ولم يذكر الاسم، وفي الثالث بنصب اللام لأنه فعل الواحد ويقول ذهب السيئات عني **﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** يعني بطراً فرحاً بما أعطاه الله تعالى وهو الطغيان في النعمة، فخور في نعم الله تعالى ومتكبر على الناس. ثم استثنى فقال تعالى: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾** وهم المؤمنون الذين صبروا على الطاعات والشدائد، ليسوا كذلك وليسوا من أهل هذه الصفة إذا ابتلوا صبروا وإذا أعطوا شكروا **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** بينهم وبين ربهم **﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾** لذنوبهم في الدنيا **﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾** يعني ثواباً عظيماً في الجنة. قوله تعالى: **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾** يعني لا تترك **﴿بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾** وذلك أن كفار مكة قالوا كيف لا ينزل إليه ملك أو يكون له كنز وطلبوا منه بأن لا يعيب آلهتهم فهمَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بـأن يترك عيبها رجاء أن يتبعوه فنزل فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك من أمر الآلهة **﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾** في البلاغ **﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾** يعني المال **﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾** يعينه ويصدقه، فأمره بأن لا يترك تبليغ الرسالة فقال: يا محمد **﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾** يعني إنما عليك تبليغ الرسالة والتخويف **﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾** يعني: شهيد بأنك رسول الله تعالى. قوله تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾** يعني: أيقولون؟ والميم صلة. افتراه. يعني اختلقه من تلقاء نفسه **﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾** يعني مختلقات، قال الكلبي يعني بعشر سور مثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود. لأن العاشرة هي سورة هود. وقال بعضهم: هذا التفسير لا يصح، لأن سورة هود مكية والبقرة وآل عمران

والنساء والمائدة مدنيات أنزلت بعد سورة هود بمدة طويلة. ولكن معناه فأتوا بعشر سور مثل سور القرآن. أي سورة كانت مفتريات. يعني مختلفات أن كنتم تزعمون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يختلقه من ذات نفسه ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني استعينوا بآلهتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالتكم، فسكتوا فلم يجيبوا فنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن لم يجيبوك، خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلفظ الجماعة كما قال (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ) ويقال أراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ يقال فاعلموا يا أهل مكة انما أنزل بعلم الله. يعني أنزل جبريل هذا القرآن بإذن الله تعالى وبأمره. وقال القتبي بعلم الله يعني من علم الله والباء مكان من. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني فاعلموا أن لا إله إلا هو. يعني أن الله تعالى هو منزل الوحي وليس أحد ينزل الوحي غيره ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مقرين بأن الله أنزله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال مخلصون بالتوحيد. ويقال «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» هذا على وجه الأمر يعني أسلموا.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني من كان يريد بعمله الدنيا ولا يريد به وجه الله ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ يعني: ثواب أعمالهم في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم شيء في الدنيا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل القبلة. وقال الحسن نزلت في المنافقين والكافرين ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾يعني ثواب أعمالهم (في الدنيا) لأنه لم يكن لوجه الله تعالى ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وروى أنس بن مالك[1] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق، فرقة يعبدون الله تعالى خالصاً، وفرقة يعبدون الله تعالى رياءً، وفرقة يعبدون الله تعالى ليصيبوا بها الدنيا. فيقول الله تعالى للذي كان يعبد الله للدنيا: وماذا أردت بعبادتك؟ فيقول الدنيا. فيقول الله عز وجل لا جرم، لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، ويقول انطلقوا به إلى النار. ويقول للذي كان يعبد الله رياء ماذا أردت بعبادتك؟ فيقول الرياء. فيقول الله تعالى انطلقوا به إلى النار. ويقول للذي كان يعبد الله تعالى خالصاً ماذا أردت بعبادتك؟ فيقول أنت أعلم به مني. كنت أعبدك لوجهك وذاتك. قال صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني على بيان من ربه، وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ يقول: يقرأ جبريل هذا القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو شاهد منه. يعني: من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٣ وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان وهو في الشعب ٥/٣٢٦ ـ ٣٢٧ (٦٨٠٨).

الله تعالى. وهذا قول ابن عباس[١] وأبي العالية ومجاهد وقتادة وإبراهيم النخعي ويقال: أفمن كان على بينة من ربه. يعني أن الله بين أمره ونبوته بدلائل أعطاها محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَيَتْلُوهُ) أي: يقرأ القرآن جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (شَاهِدٌ مِنْهُ) أي ملك أمين من الله تعالى وهو جبريل. وقال شهر بن حوشب: القرآن شاهد من الله تعالى. ومعناه: يتلو القرآن وهو شاهد من الله تعالى. وقال الحسن[٢]: ويتلوه شاهد منه. يعني لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال قتادة: لسانه شاهد منه وكذلك قال عكرمة[٣]. قال حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج قال: حدثنا أبو إسماعيل قال: حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم قال: حدثنا الخليل عن قتادة عن عروة عن محمد بن علي[٤] قال: قلت لعليّ إنَّ الناس يزعمون في قوله تعالى: «وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أنك أنت التالي. قال وددت أني أنا هو، ولكنه لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ويقال: الشاهد القرآن ويتلوه يعني بعده، ويقال يتلوه يعني يتبعه كقوله (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) قال القتبي: هذا كلام على الاختصار ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه كالذي يريد الحياة الدنيا وزينتها فاكتفى من الجواب بما تقدم كقوله (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً) يعني: كمن هو بخلاف ذلك ثم قال ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ يعني جبريل قرأ التوراة على موسى عليه السلام من قبل أن يتلو القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا قول الكلبي ومقاتل. ويقال عبد الله بن سلام يتلو القرآن وكان من قبله يتلو التوراة. والتأويل الأول أصح. لأن هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم في المدينة. ويقال هم الذين آمنوا بمكة من أهل الكتاب حين قدموا من الحبشة ثم قال ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ يعني: إماماً يُهتدى به ويعمل به. ورحمةً. يعني ونعمة من العذاب لمن آمن به. يعني كتاب موسى عليه السلام ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني بالقرآن وهذا كقوله (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) يعني بالقرآن ثم قال ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: من يجحد بالقرآن ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يعني: مصيره. قال سعيد بن جبير[٥] ما بلغني حديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى حتى بلغني عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار. فجعلت أقول وأتفكر أين هذا في كتاب الله؟ حتى أتيت على هذه الآية: ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده. قال هي في أهل الملل كلها ثم قال ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ يعني: فلا تك في شك (أن موعده النار) ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل: فلا تك في شك أن القرآن من الله تعالى وأنه الحق من ربك. أي الصدق من ربك. رداً لقولهم إنه يقول ذلك من شيطان يلقيه إليه يقال له الري. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما من أحد إلا ومعه شيطان فاغر بين يديه. إلا أن الله تعالى أعانني عليه وأسلم[٦] ثم قال ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن بأنه من عند الله تعالى.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ

---

(١) انظر الدر المنثور ٣/٣٢٤.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٥ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٦) ذكره الحافظ في المطالب ٤/٢٩ (٣٨٧٦) وقال البوصيري: وعزاه لمسدد رواه مسدد وأبو يعلى والبزار وقال: لا نعلم روى شريك إلَّا هذا وآخر ورواه ابن حبان وقال الحافظ رواه أبو يعلى.

﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني ومن أشد في كفره ممن افترى. يقول ممن اختلق على الله كذباً بأن معه شريكاً ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني يساقون إلى ربهم يوم القيامة ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني الرسل قد بلغناهم الرسالة. وقال الضحاك ويقول الأشهاد يعني الأنبياء. وقال قتادة[١] ومجاهد[٢]: ويقول الأشهاد يعني الملائكة. وقال الأخفش الأشهاد. واحدها شاهد. مثل أصحاب وصاحب. ويقال شهيد وأشهاد مثل شريف وأشراف. قال الله تعالى ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يعني افتروا على الله عز وجل بأن معه شريكاً وقال الله ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني: عذابه وغضبه على المشركين ثم وصفهم فقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني يصرفون [الناس][٣] عن دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يطلبون بملة الإسلام زيفاً وغيراً ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ينكرون البعث قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: لم يفوتوا ولم يهربوا من عذاب الله تعالى حتى يجزيهم بأعمالهم الخبيثة ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني ما كان لهم من عذاب الله تعالى مانع يمنعهم من العذاب ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾. يعني الرؤساء. يكون لهم العذاب بكفرهم وبما أضلوا غيرهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ في العذاب. لايقدرون أن يسمعوا ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ في النار شيئاً. ويقال ذلك التضعيف لهم لأنهم كانوا لا يستطيعون الاستماع إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدنيا من بغضه وما كانوا يبصرون أي [عمياً][٤] لا ينظرون إليه من بغضه. وقال الكلبي: يضاعف لهم العذاب بما كانوا لا يستطيعون سماع الهدى وبما كانوا لا يبصرون الهدى. ويقال كانوا يستطيعون أن يسمعوا فلم يسمعوا وكانوا يستطيعون أن يبصروا فلم يبصروا. ويقال يعني لم يكن لهم سمع القلب وما كانوا يبصرون أي لم يكن لهم بصر القلب. قرأ ابن كثير وابن عامر «يُضَعَّفُ لَهُمُ»[٥] بتشديد العين بغير ألف. وقرأ الباقون «يُضَاعَفُ» بالألف ومعناهما واحد. ثم بين أن ضرر ذلك يرجع إلى أنفسهم فقال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني غبنوا حظ أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: ويبطل عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، فات عنهم ولا ينفعهم شيئاً. ثم قال تعالى ﴿لَا جَرَمَ﴾ قال القتبي يعني حقاً. ويقال يعني: نعم ويقال: لا جرم يعني: لا شك. ويقال: لا كذب. ويقال: لا جرم أي لا بلى. وذكر عن الفراء أنه قال: لا جرم كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فكثر استعمالهم إياها حتى صارت بمنزلة حقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٥ وعزاه لأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.
(٣) سقط في ظ.
(٤) سقط في ظ.
(٥) تقدم وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٣.

﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ يعني الخاسرين. ويقال «الأخسر» إذا قلت بالألف واللام يكون بمعنى الخاسر. وإذا قلت أخسر. بغير اللام يكون أخسر من غيره. ثم أخبر عن المؤمنين وما أعد لهم في الآخرة فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وعملوا الصالحات يعني الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ قال القتبي يعني: تواضعوا. والإخبات التواضع. وقال: مقاتل: أخلصوا. ويقال يخشعوا فرقاً من عذاب ربهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يعني: أهل الجنة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني دائمون لا يموتون ولا يخرجون منها ثم ضرب مثل المؤمنين والكافرين

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

فقال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ يعني مثل المؤمن والكافر ومثل الذي يبصر الحق ومثل الذي لا يبصر الحق ﴿كَٱلْأَعْمَى﴾ يعني عن الإيمان ولا يبصره ﴿وَٱلْأَصَمِّ﴾ عن الإيمان ولا يسمعه، وهو الكافر ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ وهو المؤمن ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ في الشبه ويقال معناه: مثل الفريقين ـ يعني الذي لا يسمع ولا يبصر. هل يستوي بالذي يسمع ويبصر. ويقال معناه كالأعمى والبصير والأصم السميع. وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكفار مكة: هل يستوي الأعمى والبصير والسميع؟ قالوا لا قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنهما لا يستويان. قرأ حمزة والكسائي وحفص (عن عاصم) أفلا تَذَكَّرُونَ بالتخفيف(١). وقرأ الباقون تَذَّكَّرُونَ بالتشديد. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر إِنِّي بكسر الألف(٢). ومعناه قال لهم إني لكم نذير وقرأ الباقون أَنِّي لكم بالنصب ومعناه ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بالإنذار. وفي الآية تهديد لأهل مكة معناه: واتل عليهم نبأ نوح يعني إن لم يتعظوا بما ذكرت فاتل عليهم خبر نوح. وروى أبو صالح عن ابن عباس: أن نوحاً أوحي إليه وهو ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعا قومه مائة وعشرين سنة وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة ومكث بعد هلاك قومه ثلاثمائة وخمسين سنة. فذلك ألف سنة إلا خمسين عاماً. وذكر عن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى: إلى نوح وهو (ابن تسعمائة ودعا قومه) خمسين سنة فلما هلك قومه عاش بعدهم خمسين سنة فتمام عمره ألف وخمسون وقال عكرمة: إنما سمي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه. ويقال كان اسمه شاكر، فمن

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٣.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٢٨٨، حجة القراءات لابن زنجلة ٣٣٧.

كثرة نوحه على نفسه سمي نوحاً. فدعا قومه إلى الله وقال لهم إنّي لكم نذير مبين من العذاب. ويقال: مبين يعني مبين بلغة تعرفونها ﴿أن لاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ اللَّهِ﴾ يعني ألاّ تطيعوا ولا توحدوا إلاّ الله ﴿إنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: الغرق قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني الأشراف من قومه ﴿مَا نَرَاكَ إلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا﴾ يعني آدمياً مثلنا ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ يعني آمن بك ﴿إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ يعني: سفلتنا وضعفاؤنا ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قال الكلبي: ظاهر الرأي. يعني إنهم يعرفون الظاهر فلا تمييز لهم. وقال مقاتل يعني: بدا لنا أنهم سفلتنا وضعفاؤنا بادي الرأي وقال القتبي أراذلنا يعني شرارنا وهو جمع أرذل. وقوله: بادي الرأي: بغير همز أي ظاهر الرأي من بدأ يبدو. وأما باديء بالهمزة يعني أول الرأي من قولك بدأ يبدأ. قرأ أبو عمرو باديء الرأي بالهمز[(١)] وقرأ الباقون على ضد ذلك. ثم قال: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ قوم نوح قالوا لنوح ما نرى لكم علينا من فضل في ملك ولا مال ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ يعني نحسبك من الكاذبين. وقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة. ويقال إنما أراد به نوحاً ومن آمن معه ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّي﴾ يعني إن كنت على دين ويقين وبيان من ربي ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقول أكرمني بالرسالة والنبوة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ يعني عميت عليكم هذه البينة. ويقال عميتم عن ذلك. يقال عمي عليه هذا إذا لم يفهم. ويقال التبست عليكم هذه النعمة وهذه البينة التي هي من الله تعالى فلم تبصروها ولم تعرفوها. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[(٢)]، «فعُمِّيتْ» بضم العين وتشديد الميم على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون بنصب العين والتخفيف. ومعناه واحد يعني: خفيت عليكم هذه النعمة والرحمة واتفقوا في سورة القصص (فَعَمِيتْ عَلَيْكُمْ الأنباءُ) بالنصب. ثم قال ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ يعني: كيف نعرفكموها وأنتم للنبوة كارهون؟ قال قتادة أماوالله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه، ولكن لم يملك ذلك. ويقال أفنفهمكموها وأنتم لها كارهون، يعني منكرون. ويقال أنحملكموها. يعني معرفتها. ويقال أنعلمكموها وأنتم تكذبونني ولا تناظروني في ذلك. ثم أخبرهم عن شفقته وقلة طمعه في أموالهم فقال ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ يعني لا أطلب منكم على الإيمان أجراً يعني رزقاً ولا جعلاً ﴿إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني ما ثوابي إلا على الله[(٣)] ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنهم طلبوا منه

---

(١) انظر النشر ٢ / ٢٨٨، . حجة القراءات ٢٣٨.

(٢) انظر النشر ٢ / ٢٨٨، وحجة القراءات ٣٣٨، إتحاف فضلاء البشر ٢ / ١٢٤.

(٣) أعلم أن الواجب على اتباع الرسل من العلماء وغيرهم أن يبذلوا ما عندهم من العلم مجاناً من غير أخذ عوض على ذلك وأنه لا ينبغي أخذ الأجرة على تعليم كتاب الله تعالى ولا على تعليم العقائد والحلال والحرام.

ويعتضد ذلك بأحاديث تدل على نحوه فمن ذلك ما رواه ابن ماجه والبيهقي والروياني في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: علمت رجلاً القرآن فأهدى لي قوساً فذكرت ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: (إن أخذتها أخذت قوساً من نار) فرددتها. قال البيهقي وابن عبد البر في هذا الحديث: هو منقطع أي بين عطية الكلاعي وأبي بن كعب وكذلك قال المزي.

وتعقبه ابن حجر بأن عطية ولد في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأعله ابن القطان بأن راوية عن عطيه المذكور هو عبد الرحمن بن مسلم وهو مجهول.

وقال فيه ابن حجر في التقريب. شامي مجهول. وقال الشوكاني في نيل الأوطار: وله طرق عن أبي. قال ابن القطان: لا يثبت منها شيء قال الحافظ وفيما قاله نظر، وذكر المزي في الأطراف له طرقاً وممن قال بهذا: الإمام أحمد من إحدى الروايتين وأبو حنيفة والضحاك وابن قيس وعطاء. وكره الزهري وإسحاق تعليم القرآن بأجر. وقال عبد الله بن شقيق: هذا الرغف التي يأخذها المعلمون من السحت، وممن كره أجرة التعليم مع الشرط: الحسن وابن سيرين وطاوس، والشعبي والنخعي قاله في المغني وقال: إن ظاهر كلام الإمام أحمد جواز أخذ المعلم ماأعطيه من غير شرط وذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أخذ الأجرة على تعليم ≡

أن يطرد من عنده من الفقراء والضعفاء فقال ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ فيجزيهم بأعمالهم. ويقال إنهم ملاقو ربهم فيشكونني إلى الله تعالى إن لم أقبل منهم الإيمان وأطردهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ما أمرتكم به وما جئتكم به

وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ يعني لو طردتهم فيعذبني الله بذلك فمن يمنعني من عذاب الله إن طردتهم عن مجلسي ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون ولا تفهمون أن من (آمن)(١) بالله لا يطرد ثم قال ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ يعني مفاتيح الله في الرزق ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أن الله يهديكم أم لا. ويقال ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ يعني علم ما غاب عني ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من (الملائكة)(٢) ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ يعني: تحتقر أعينكم من السفلة ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً﴾ يعني لا أقول إن الله تعالى لا يكرم بالإيمان ولا يهدي من هو حقير في أعينكم ولكن الله يهدي من يشاء. ثم قال ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني بما في قلوبهم من التصديق والمعرفة ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني إن طردتهم فلم أقبل منهم الإيمان بسبب ما لم أعلم ما في قلوبهم كنت ظالماً على نفسي. فعجز قومه عن جوابه. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ قال مقاتل: ماريتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ يعني مرانا. وقال الكلبي: دعوتنا فأكثرت دعاءنا. ويقال وَعظتنا فأكثرت موعظتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ يعني لا نقبل موعظتك فأتنا بما تعدنا من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأن العذاب نازل بنا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ إن شاء يعذبكم وإن شاء يصرفه عنكم ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ يعني: إن أراد أن يعذبكم لا تفوتون من عذابه. ثم قال ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ يعني دعائي وتحذيري ونصيحتي ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾

= القرآن وهو مذهب مالك والشافعي. وممن رخص في أجور المعلمين: أبو قلابة وأبو ثور وابن المنذر ونقل أبو طالب عن أحمد أنه قال: التعليم أحب إليَّ من يتوكل لهؤلاء السلاطين ومن أن يتوكل لرجل من عامة الناس في ضيعة ومن أن يستدين ويتجر لعله لا يقدر على الوفاء فيلقى الله تعالى بأمانات الناس التعليم أحب إليَّ. وهذا يدل على أن منعه منه في موضع منعه للكراهة لا للتحريم قاله ابن قدامة في المغني. انظر أضواء البيان ٣/ ٢٠ - ٢١ - ٢٣ - ٢٤.

(١) في أ [يؤمن]. (٢) في ظ [من السماء].

يعني: إن أردت أن أدعوكم من الشرك إلى التوحيد والتوبة والإيمان ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ يعني لا تنفعكم دعوتي إن أراد الله أن يضلكم عن الهدى ويترككم على الضلالة ويهلككم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يعني هو أولى بكم. ويقال هو ربكم رب واحد ليس له شريك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم. ثم قال تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ قال مقاتل: الخطاب لأهل مكة. معناه أتقولون إن محمداً تقوله من ذات نفسه ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ من ذات نفسي ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ يعني خطيئتي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ يعني: من خطاياكم. وقال الكلبي: الخطاب أيضاً لقوم نوح أم يقولون: افتراه يعني: قوم نوح يقولون افتراه أي: اختلقه من تلقاء نفسه فقال لهم نوح: افتريته فعليَّ إجرامي أي: آثامي وأنا بريء مما تجرمون أي: مما تأثمون قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (قال الحسن[1]: إن نوحاً عليه السلام لم يدع على قومه حتى نزلت هذه الآية) إنَّه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن. فدعا عليهم عند ذلك فقال (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) ثم قال ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وذلك أن نوحاً ندم على دعائه وجعل يحزن عليهم. فقال الله تعالى «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» يعني: لا يحزنك إذا نزل بهم الغرق ما كانوا يفعلون من الكفر. قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ يقول اعمل السفينة. ويقال للواحد وللجماعة الفلك بأعيننا. قال الكلبي يعني: بمنظرٍ منا، ووحينا. يعني بوحينا إليك. وقال مقاتل يعني: بتعليمنا وأمرنا ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني (فلا تراجعني في قومك ولا تدعني بصرف العذاب عنهم ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بالطوفان. ويقال ولا تخاطبني في الذين ظلموا يعني ابنه كنعان). وقال عكرمة: كان طول سفينة نوح ثلاثمائة ذراع وعرضها ورفعها أحدهما ثلاثون والآخر أربعون. وقال الحسن[2] طولها ألف ومائتا ذراع وعرضها ستمائة ذراع. وقال ابن عباس[3] طولها ثلاثمائة ذراع وطولها في الماء ثلاثون ذراعاً وعرضها خمسون ذراعاً. وقال القتبي قرأت في التوراة: إن الله تعالى أوحى إليه أن اصنع الفلك وليكن طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وارتفاعها ثلاثون ذراعاً وليكن بابها في عرضها وادخل أنت في الفلك وامرأتك وبنوك ونساء بنيك ومن كلٍ زوجين من الحيوان ذكراناً وإناثاً. فإني منزل المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة فأتلف كل شيء خلقته على الأرض. فأرسل الله تعالى ماء الطوفان على الأرض في سنة ستمائة من عمر نوح ولبث في الماء مائة وخمسين يوماً وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. وروي عن وهب بن منبه أنه قال: مكث نوح ينجر السفينة مائة سنة، فلما فرغ من عملها أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كلٍ زوجين اثنين. فحمل فيها امرأته وبنيه ونساءهم فركب فيها لسبع عشرة ليلة خلت من صفر، فمكث في الماء سبعة أشهر لم يقر لها قرار فأرسيت على الجودي خمسة أشهر فأرسل الغراب لينظر كم بقي من الماء فمكث على جيفة. فغضب عليه نوح ولعنه. ثم أرسل الحمامة فوقعت في الماء فبلغ الماء قدر حمرة رجليها فجاءت فأرته فبارك عليها نوح.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) ذكره السيوطي في الدرر ٣/٣٢٨ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٢٧ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ يعني ينجر السفينة. ويقال إن الله تعالى أمره بأن يغرس الأشجار فغرسها حتى أدركت وقطعها حتى يبست ثم اتخذ منها السفينة. فاستأجر أجراء ينحتون معه ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ يعني الأشراف من قومه ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ يعني استهزؤوا به وكانوا يقولون إن الذي يزعم أنه نبي صار نجاراً، ومرة كانوا يقولون أتجعل للماء إكافاً[1] فأين الماء ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ يعني إن تسخروا منا اليوم فإنا نسخر منكم بعد الهلاك. يعني يصيبكم جزاء السخرية ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منا. يعني بما تسخرون ويقال إن تستجهلوا بنا بهذا الفعل فإنا نستجهلكم بترك الإيمان كما تستجهلوننا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني (تعرفون بعد هذا)[2] من أحق بالسخرية. وهذا وعيد لهم ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني يهلكه ويذله ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ يعني ينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع عنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني قولنا بالعذاب. ويقال عذابنا وهو الفرق ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني نبع الماء من أسفل التنور وقال مقاتل التنور الذي يخبز فيه في أقصى داره بالشام وقال (ابن عباس) وفار التنور يعني: نبع الماء من وجه الأرض. وقال علي بن أبي طالب[4] يعني طلوع الفجر. أي تنوير الصبح (يعني إذا طلع الفجر كان وقت الهلاك) وروي عن[5] عليّ رضي الله عنه أيضاً أنه قال فار منه التنور وجرت منه السفينة أي مسجد الكوفة ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ يعني في السفينة ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني من كل صنفين ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني واحمل أهلك فيها معك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالغرق. يعني سوى من قدرت عليه الشقاوة والكفر فلا تحمله. يعني امرأته الكافرة وابنه كنعان. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ معه - يعني احمل في السفينة من آمن معك

قال الفقيه: أخبرني الثقة بإسناده عن وهب بن منبه قال أمر نوح بأن يحمل من كلٍ زوجين اثنين فقال رب كيف أصنع بالأسد والبقرة؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب وكيف أصنع بالحمام والهرة؟ قال يا نوح من ألقى بينهم العداوة؟ قال أنت يا رب. قال فإني أؤلف بينهم حتى يتراضوا. قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا قبيصة بن عقبة قال حدثنا سفيان عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس[6] قال: كثر الفأر في السفينة حتى خافوا على حبال السفينة. فأوحى الله تعالى إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها فعطس فخرج منها سنوران فأكلا الفأر. وكثرت العذرة في السفينة فشكوا إلى نوح فأوحى الله تعالى إلى نوح أن امسح ذنب الفيل فمسحه فخرج خنزير فأكل العذرة. [وفي خبر آخر فخرج منه خنزيران فأكلا العذرة][7] قال الفقيه أبو الليث رحمه الله في خبر وهب بن منبه دليل أن الهرة كانت من قبل وفي هذا الخبر أن الهرة لم تكن من قبل والله أعلم بالصواب منهما. وروي عن ابن عباس أنه قال لما فار (الماء من) التنور فأرسل الله تعالى من السماء بمطر شديد، فأقبلت الوحوش حين أصابتها السماء إلى نوح وسخرت له فحمل في السفينة من كل طير

---

(١) الإكاف والأكاف من المراكب شبه الرحال والأقتاب. لسان العرب ١/ ١٠٠.

(٢) في أ [بعد هلاكهم].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٨ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٩ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٢٨ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٣١ وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٧) سقط في أ.

زوجين ومن كل دابة زوجين ومن كل بهيمة زوجين ومن كل سبع زوجين يعني الذكر والأنثى. فقال نوح رب هذه الحية والعقرب كيف أصنع بهما فبعث الله تعالى جبريل فقطع فقار العقرب وضرب فم الحية. وكان نوح جعل للسفينة ثلاثة أبواب بعضها (أسفل من بعض)[١] فجعل في الباب الأسفل السباع والهوام، وجعل في الباب الأوسط البهائم والوحوش، وجعل في الباب الأعلى بني آدم من ذكر منهم فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: هم ثمانون إنساناً. وقال الأعمش في قوله: وما آمن معه إلا قليل: كان نوح وثلاثة بنين ونساؤهم، وقال مقاتل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة. قرأ عاصم في رواية حفص[٢] من كلٍّ بالتنوين يعني من كل شيء ثُمَّ قال زوجين. على وجه التفسير للكل. وقرأ الباقون من كلِّ زوجين بغير تنوين على معنى الإضافة

وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ يعني ادخلوا في السفينة ويقال: الجأوا فيها من الغرق (بسم الله مجراها) يعني: إذا ركبتموها فقولوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية[٣] حفص «مَجْرِيهَا» بنصب الميم وهكذا قرأ ابن مسعود والأعمش. وقرأ الباقون بضم الميم (واتفقوا في مُرْسَاهَا أنها بضم الميم) إلا أن حمزة والكسائي قرآ بالإمالة. فأما من قرأ بضم الميم فيكون بمعنى المصدر ومعناه: يعني إجراؤها وإرساؤها بأمر الله تعالى وهذا قول الفراء ويقال معناه بسم الله من حيث تجري وتحبس، ومن قرأ بالنصب فمعناه بسم الله جريها وحبسها، يعني بأمر الله تعالى. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ يعني أمواجاً ﴿كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ﴾ كنعان. وقرأ بعضهم[٤] ابنها. يعني ابن امرأته. وقرأ بعضهم نوح ابنه بضم الألف. وهي بلغة طيء، ويقال إنه لم يكن ابنه ولكن كان ابن امرأته، وقراءة العامة ونادى نوح ابنه. قالوا ﴿وَكَانَ﴾ ابن نوح ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ يعني في ناحية من السفينة ويقال من الجبل. ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ أسلم واركب في السفينة معنا ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ يعني ولا تثبت على الكفر ولا تتخلف مع الكافرين. قرأ عاصم[٥] «يا بُنِيَّ اركب» بنصب الياء وقرأ الباقون «يا بُنَيِّ اركب» بالكسر. وقال أبو عبيدة: القراءة عندنا بالكسر[٦] للإضافة

---

(١) في أ [بعضها فوق بعض].

(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٩، النشر ٢/٢٨٨.

(٣) انظر النشر ٢/٢٨٨، حجة القراءات ٣٤٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/١٢٥.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٩/٢٧.

(٥) انظر النشر ٢/٢٨٩، حجة القراءات ٣٤٠.

(٦) قال الزجاج: كسرها من وجهين: أحدهما أن الأصل (يا بني) والياء تحذف في النداء أعني ياء الإضافة وتبقى الكسرة تدل عليها ويجوز أن تحذف الياء لسكونها وسكون الراء من قوله (اركب) وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ. والفتح من وجهتين: =

إلى نفسه. كما اتفقوا في قوله (يا بني لا تقصص رؤياك) وفي لقمان (يَابُنَيَّ إِنَّهَا). وإنما فرق عاصم فيما يرى الألف الخفيفة الحقيقية التي في قوله اركب. ﴿قَالَ سَآوِي﴾ يعني قال ابنه سأصعد ﴿إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يعني يمنعني من الماء أم من الغرق ولا أومن ولا أركب السفينة ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يقول: لا مانع اليوم من عذاب الله أي: الغرق لا جبل ولا غيره ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ يعني إلا من قد آمن فعصمه الله ثم قال ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يعني فرق بين كنعان وبين الجبل الموج وهذا قول الكلبي. وقال مقاتل وحال بينهما يعني بين نوح وابنه الموج ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ يعني: فصار من المغرقين. وروي عن ابن عباس(١) أنه قال أمطرت السماء أربعين يوماً وخرج ماء الأرض أربعين يوماً الليل والنهار. فذلك قوله (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) وارتفع الماء على كل جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً. وروي عن الحسن أنه قال: ارتفع الماء فوق كل جبل وكل شيء ثلاثين ذراعاً وسارت بهم السفينة فطافت بهم الأرض كلها في خمسة أشهر ما استقرت على شيء حتى أتت الحرم [(فلم تدخله](٢) ودارت بالحرم أسبوعاً ورفع البيت الذي بناه آدم إلى السماء السادسة وهو البيت المعمور) وجعل الحجر الأسود على أبي قبيس. ويقال أودع فيه ثم ذهبت السفينة في الأرض حتى انتهت بهم إلى الجودي، وهو جبل بأرض الموصل فاستقرت عليه بعد خمسة أشهر. قال ابن عباس: ركب نوح السفينة لعشر مضين من رجب، وخرج منها يوم عاشوراء، فذلك ستة أشهر. فلما استقرت على الجودي كشف نوح الطبق الذي فيه الطير فبعث الغراب ليأتيه بالخبر فأبصر جيفة فوقع عليها، فأبطأ على نوح فلم يأته. ثم أرسل الحدأة على أثره فأبطأت عليه ثم أرسل بالحمامة فلم تجد موقفاً في الأرض فجاءت بورق الزيتون فعرف نوح أن الماء قد نقص فظهرت الأشجار ثم أرسلها فوقفت على الأرض فغابت رجلاها في الطين فجاءت إلى نوح فعرف أن الأرض قد ظهرت وذلك وقوله ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ معناه انشفي ماءك الذي خرج منك ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ يعني احبسي وامسكي ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ يعني نقص الماء وظهرت الجبال والأرض ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ يعني فرغ من الأمر. ومعناه نجا من نجا وهلك من هلك ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ يعني استقرت السفينة على الجودي وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أني أنزل السفينة على جبل. فتشامخت الجبال وتواضع الجودي لله تعالى فأرسيت عليه السفينة. وقال الحكيم خرج قوس قزح بعد الطوفان أماناً لأهل الأرض أن يغرقوا جميعاً ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني سحقاً ونكساً للقوم الكافرين. وهو التبعيد من رحمة الله تعالى.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ
إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ

= الأصل: (يا بنياً) بالألف فتبدل الألف من ياء الإضافة العرب تقول: (يا غلاماً أقبل) ثم تحذف الألف لسكونها وسكون الراء وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ ويجوز أن تحذف الألف للنداء كما تحذف ياء الإضافة (وإنما حذفت ياء الإضافة) وألف الإضافة في النداء كما تحذف في التنوين لأن ياء الإضافة زيادة في الاسم كما أن التنوين زيادة. انظر حجة القراءات ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٤ وعزاه لابن سعد وابن عساكر.

(٢) سقط في ظ.

أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنك قد وعدتني أن تنجيهم من العذاب ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعني أنت الصادق في وعدك ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني أعدل العادلين ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذي وعدتك أن أنجيهم. وروي عن الحسن أنه قال: إنه تخلف لأنه لم يكن ابن نوح. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: كنت عند الحسن. قال ونادى نوح ابنه. فقال لعمر الله ما هو ابنه. قلت يا أبا سعيد يقول الله تعالى «وَنَادَى نُوحٌ ابنهُ» وأنت تقول هو ليس بابنه، قال أفرأيت قوله: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ». قلت إنه ليس من أهلك الذي وعدتك أن أنجيهم. (ولا يختلف)[1] أهل الكتاب أنه ابنه. قال إن أهل الكتاب يكذبون. وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أنه ابنه غير أنه خالفه في العمل. وقال بعض الحكماء إن الابن إذا لم يفعل ما يفعل الأب انقطع عنه، والأمة إذا لم يفعلوا ما فعل نبيهم أخاف أن ينقطعوا عنه. ثم قال ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ الكسائي[2]. إنه عَمِلَ غَيْرَ صَالح بكسر الميم ونصب الراء. وروت أم سلمة[3] عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يقرأ هكذا ومعناه إن ابنك عمل عمل المشركين ولم يعمل عمل المؤمنين. وقرأ الباقون «عَمَلٌ غَيْرُ» بالتنوين والضم وضم الراء. ومعناه إن سؤالك ودعاءك لابنك الكافر عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني بياناً. وقرأ أهل الكوفة فلا تسألن بتخفيف النون[4] بغير ياء لأن الكسر يقوم مقام الياء. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: رأيت في مصحف عثمان هكذا. وقرأ أبو عمرو «فَلَا تَسْأَلْنِي» بإثبات الياء بغير تشديد وهو الأصل في اللغة. وقرأ ابن كثير «فَلَا تَسْأَلَنَّ»بنصب النون والتشديد بغير ياء ويكون معناه التأكيد في النهي. وقرأ ابن عامر ونافع في رواية قالون «فلا تسألنِّ» بالكسر بغير ياء مع التشديد. وقرأ نافع في رواية ورش «فلا تسألنيِّ» بالياء مع التشديد ثم قال ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أنهاك أن تكون من الجاهلين يعني من يترك أمري. ويقال من المكذبين يقدر الله تعالى ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ يعني اعتصم وامتنع بك ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني احفظني بعد اليوم لكيلا أسألك ما ليس به علم ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ يعني إن لم تغفر لي ولم ترحمني ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ يعني انزل من السفينة مسلماً من عذابنا وغرقنا. ويقال بسلام عليك كما قال (سلام على نوح في العالمين) ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ يعني وسعادات ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ يعني: الذين كانوا في السفينة معه ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ يعني من كان من أهل الشقاء سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يصيبهم في الآخرة. وقال مقاتل: اهبط من السفينة بسلام منا. فسلمه الله ومن معه من الغرق وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك. يعني بالبركة إنهم توالدوا وكثروا وأمم سنمتعهم، وهم قوم هود وشعيب ولوط. وقال محمد بن كعب[5] القرظي في قوله: (اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) قال: دخل في السلام والبركة كل مؤمن ومؤمنة إلى

(١) سقط في ظ.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٤١، النشر ٢/٢٨٩.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٦ وعزاه لأحمد وأبي داود والترمذي والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم في الحلية.
(٤) حجة القراءات ٣٤٣، النشر ٢/٢٨٩.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يوم القيامة. ودخل في المتاع والعذاب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. ويقال إنهم لما خرجوا من السفينة بنوا مدينة وسموها مدينة ثمانين. ويقال ماتوا كلهم ولم يكن منهم نسل إلا من أولاد نوح وكان له ثلاثة بنين سام وحام ويافث سوى الذي غرق. كما قال في موضع آخر (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ)

تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا
بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ
﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ يعني ما سبق من ذكر نوح وقومه في أخبار الغيب يعني: من (أحاديث ما غاب عنك) فكان في إخبار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قصته دلالة نبوته لأنه لا يعرف ذلك إلا بالوحي ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يعني إخبار الغيب ينزل بها عليك جبريل ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ القرآن ﴿فَاصْبِرْ﴾ يعني إن لم يصدقوك فاصبر على تكذيبهم ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: آخر الأمر للموحدين الذين يتقون الشرك والفواحش قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ يعني أرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ﴾ نبيهم ﴿هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوا الله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني ليس لكم من رب سواه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ يعني: ما أنتم إلا تكذبون في مقالتكم بأن لله شريكاً. قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الإيمان ﴿أَجْراً﴾ يعني جعلاً ورشوة، ومعناه لست بطامع في أموالكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ يعني ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الذي خلقكم هو ربكم وهو أحق بعبادتكم من غيره ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ قال الضحاك يعني وحدوا ربكم. وقال الكلبي: يعني صلوا لربكم. ويقال معناه قولوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني توبوا إليه من شرككم ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يعني إن تبتم يغفر لكم ذنوبكم ويرسل عليكم المطر متتابعاً دائماً وينبت لكم كل ما تحتاجون إليه ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ يعني شدة مع شدتكم بالمال والولد. ويقال صحة الجسم وطول العمر ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ يقول (لا تعرضوا كافرين)[1]. ويقال لا تعرضوا عما أدعوكم إليه من الإيمان والتوحيد. ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ يعني بحجة وبيان ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ يقول: لا نترك عبادة آلهتنا بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا نصدقك بأنك رسول الله. ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ يعني ما نقول إلا أصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يعني بشر من بعض الأوثان الجنون والخبل فاجتنبها

(١) سقط في أ.

سالماً. ويقال: ما نقول لك إلا نصيحة كيلا يصيبك من بعض آلهتنا شدة فرد عليهم هود ف﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾ أنتم ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً﴾ يعني اعملوا بي أنتم وآلهتكم ما استطعتم واحتالوا في هلاكي ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ أي لا تمهلون، ثم قال تعالى ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني فوضت أمري إلى الله ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يعني خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذُ بِنَاصِيَتِهَا﴾ يعني قادراً عليها يحييها ويميتها وهو يرزقها وهي في ملكه وسلطانه ثم قال ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يعني على الحق][(١)] وإن كان هو قادراً على كل شيء فإنه لا يشاء إلا العدل. وقال مجاهد[(٢)]: إن ربي على صراط مستقيم. يعني على الحق. ويقال على صراط مستقيم. يعني بيده الهدى وهو يهدي إلى صراط مستقيم وهو دين الإسلام. ويقال يعني: يدعوكم إلى طريق الإسلام ويقال معناه أمرني ربي أن أدعوكم إلى صراط مستقيم

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني تتولوا. ومعناه إن أعرضتم عن الإيمان فلم تؤمنوا وهذا كقوله (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) ثم قال ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ يعني إن تتولوا فأنا معذور. لأني قد أبلغتكم الرسالة ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ إن شاء ويقال: قد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم من التوحيد ونزول العذاب في الدنيا ويستخلف ربي بعد هلاككم قوماً غيركم. يعني خيراً منكم وأطوع لله تعالى ﴿وَ لاتَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ يعني إن لم تؤمنوا به فلا تنقصون من ملكه شيئاً ويقال إهلاككم لا ينقصه شيئاً. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يعني حافظاً ولا يغيب عنه شيء. ويقال: معناه: حفظ كل شيء عليه. ثم قال ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني عذابنا وهو الريح العقيم ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يعني بنعمة منا ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني من العذاب الذي عذب به عاد في الدنيا ومما يعذبون به في الآخرة. ثم قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني كذبوا بعذاب ربهم أنه غير نازل بهم. ومعناه يا أهل مكة: انظروا إلى حالهم كيف عذبوا في الدنيا وفي الآخرة. وهذا كقوله تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) فكذلك ههنا. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم. بين جرمهم ثم بين عقوبتهم. فقال ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هوداً خاصة. ويقال معناه كذبوا هوداً بما أخبرهم عن الرشد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني عملوا بقول كل جبار. ويقال أخذوا بدين كل جبار. والجبار الذي يضرب ويقتل عند الغضب، عنيد يعني معرضاً ومجانباً عن الحق. ثم بين عقوبتهم فقال ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ يعني ألحقوا ﴿فِي هذه الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعني العذاب والهلاك وهي الريح العقيم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة أخرى وهو عذاب النار إلى الأبد ﴿أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [وهذا تنبيه للكفار أن عادا كفروا ربهم][(٣)] فأهلكهم الله تعالى. فاحذوروا كيلا يصيبكم بكفركم ما أصابهم بكفرهم. ويقال «أَلَا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ» يعني ينادي منادٍ يوم القيامة لإظهار حالهم ألا إن عاداً كفروا ربهم وقال

(١) سقط في أ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٧ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.
(٣) سقط في ظ.

الضحاك: ترفع لهم راية الغدر يوم القيامة فينادي منادٍ [يوم القيامة][1] هذه غدرة قوم عاد. فيلعنهم الملائكة وجميع الخلق فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ يعني خزياً وسحقاً ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ يعني وأرسلنا إلى ثمود. وإنما لم ينصرف لأنه اسم لقبيلة. وفي الموضع الذي ينصرف جعله اسماً للقوم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوا الله وأطيعوه ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني ليس لكم رب غيره ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ يعني هو الذي خلقكم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني خلق آدم من أديم الأرض وأنتم ولده ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني أسكنكم وأنزلكم فيها. وأصله أعمركم، يقال أعمرته الدار إذا جعلتها له أبداً وهي العُمْرَى. وقال مجاهد[2]: واستعمركم يعني أطال عمركم فيها ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني توبوا من شرككم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ يعني قريباً ممن دعاه. مجيباً بالإجابة لمن دعاه من أهل طاعته. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ يعني كنا نرجو أن ترجع إلى ديننا قبل أن تدعونا إلى دين غير دين آبائنا ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ يعني يريبنا أمرك ودعاؤك إيانا إلى هذا الدين ومعناه إنا مريبون في أمرك. ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يقول أخبروني إن كنت على بيان وحجة ودين أتاني من ربي ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يقول أكرمني الله تعالى بالإسلام والنبوة أيجوز لي أن أترك أمره ولا أدعوكم إلى الله وإلى دينه ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ يقول: فمن يمنعني من عذاب الله إن رجعت إلى دينكم وتركت دين الله تعالى ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يقول: ما تزيدونني في مقالتكم إلا بصيرة في خسارتكم. ويقال: معناه فما تزيودنني غير تكذيب لأن التكذيب سبب لخسارتهم. ويقال معناه: فما تزيدونني إن تركت ما أوجب الله عليَّ من الدعوة غير تخسير. لأن العذاب إذا نزل بي لا تقدرون على دفعه عني

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٣٨ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

صالحاً لما دعا قومه إلى الإسلام كذبوه. فضاق صدره فسأل ربه أن يأذن له بالخروج من عندهم. فأذن له فخرج وانتهى إلى ساحل البحر. فإذا رجل يمشي على الماء. فقال له صالح ويحك من أنت؟ فقال أنا من عباد الله. قال كنت في سفينة كان قومها كفرة غيري. فأهلكهم الله تعالى ونجاني منهم فخرجت إلى جزيرة أتعبد هناك. فأخرج أحياناً وأطلب شيئاً من رزق الله تعالى ثم أرجع إلى مكاني. فمضى صالح وانتهى إلى تل عظيم فرأى رجلاً (يتعبد)[1] فانتهى إليه وسلم عليه فرد عليه السلام. فقال له صالح: من أنت؟ قال كانت ههنا قرية كان أهلها كفاراً غيري. فأهلكهم الله تعالى ونجاني منهم فجعلت على نفسي أن أعبد الله تعالى ههنا إلى الموت وقد أنبت الله تعالى لي شجرة رمان وأظهر لي عين ماء فآكل من الرمان وأشرب من ماء العين وأتوضأ منه. فذهب صالح وانتهى إلى قرية كان أهلها كفاراً كلهم غير أخوين مسلمين يعملان عمل الخوص. فضرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثلاً. قال لو أن مؤمناً دخل قرية فيها ألف رجل، كلهم كفار وفيها مؤمن واحد فلا يسكن قلبه مع أحد حتى يجد المؤمن. ولو أن منافقاً دخل قرية فيها ألف رجل مؤمن ومنافق واحد فلا يسكن قلب المنافق مع أحد ما لم يجد المنافق. فدخل صالح فانتهى إلى الأخوين ومكث عندهما أياماً وسألهما عن حالهما فأخبراه أنهما يصبران على إيذاء المشركين وأنهما يعملان عمل الخوص ويمسكان قوتهما ويتصدقان بالفضل. فقال صالح: الحمد لله الذي أراني في الأرض من عباده الصالحين الذين صبروا على أذى الكفار. فأنا أرجع إلى قومي وأصبر على أذاهم، فرجع إليهم وقد كانوا خرجوا إلى عيدٍ لهم فدعاهم إلى الإيمان فسألوا منه أن يخرج لهم ناقة من الصخرة، فدعا الله تعالى فأخرج لهم ناقة عشراء. فذلك قوله (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً) أي علامة وعبرة ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ يعني في أرض الحجر ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ يعني لا تعقروها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ يعني يصيبكم ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فولدت الناقة ولداً، وكانت لهم بئر (واحدة)[2] عذبة. قال ابن عباس: كان للناقة شرب يوم لا يقربونها. ولهم شرب يوم وهي لا تحضرها وكانوا يستقون الماء في يومهم ما يكفيهم للغد فيقسمونه فيما بينهم فإذا كان يوم شربها كانت ترتع في الوادي. ثم تجيء إلى البئر فتبرك فتدلي رأسها في البئر فتشرب منها ثم تعود فترعى ثم تعود إلى البئر فتشرب منها فتفعل ذلك نهارها كله. وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، منهم قدار بن سالف ومصدع بن دهر ـ وكانت في تلك القرية امرأة جميلة غنية وكانت تتأذى بالناقة لأجل سايمتها فقالت: من عقر الناقة أزوج نفسي منه، فخرج قدار بن سالف ومصدع بن دهر وكمن لها مصدع في مضيق من ممرها ورماها بسهم فأصاب رجلها، فمرت بقدار وهي تجر رجلها فضربها بالسيف فعقرها وقسموا لحمها على جميع أهل القرية وكان في القرية تسعمائة أهل بيت ويقال ألف وخمسمائة. فذلك قوله ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ يعني عيشوا وانتفعوا في داركم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثم يأتيكم العذاب ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ فقالوا له ما العلامة في ذلك؟ قال: أن تصبحوا في اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي اليوم الثالث مسودة. ثم خرج صالح من بينهم. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ يعني بنعمة منا ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني من عذاب يومئذ قرأ نافع والكسائي[3] وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ بنصب الميم لأنه إضافة إلى اسم غير متمكن فيجوز النصب وقرأ الباقون «يَوْمِئِذٍ» بكسر الميم على معنى الإضافة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أخبر الله تعالى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قادر في أخذه المنيع ممن عصاه

---

(١) في أ [هناك].

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٤٤، والنشر ٢/ ٢٨٩.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة جبريل، صاح صيحة فماتوا كلهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يعني: صاروا خامدين ميتين ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يعني صاروا كأن لم يكونوا في الدنيا ويقال كأن لم ينزلوا في ديارهم ولم يكونوا ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ يعني جحدوا وحدانية الله. فهذا تنبيه وتخويف لمن بعدهم ﴿أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ يعني خزياً وسحقاً لثمود في الهلاك. قرأ الكسائي(١) «أَلَا بُعْداً لِثَمُودٍ» بكسر الدال مع التنوين، وجعله اسماً للقوم، فلذلك جعله منصرفاً. وقرأ الباقون بنصب الدال لأنه اسم القبيلة. وإنما يجري في قوله «أَلَا إِنَّ ثَمُودا» إتباعاً للكتابة في مصحف الإمام. وأما الكسائي فأجراه لقربه من قوله ألا إن ثمودا كفروا ربهم

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني ببشارة الولد، وذلك أن مدينة يقال لها «سدوما» (ويقال «سدوم»)(٢) وكانت بلدة فيها من السعة والخير ما لم يكن في سائر البلدان. وكان الغرباء يحضرون من سائر البلدان في أيام الصيف ويجمعون من فضل ثمارهم مما كان خارجاً من الكروم والحدائق. فجاء إبليس لعنه الله فشبه نفسه(٣) بغلام أمرد وجعل يدخل كرومهم وحدائقهم ويراودهم إلى نفسه حتى أظهر فيهم الفاحشة. وجاء إلى نسائهم وقال إن الرجال قد استغنوا عنكن فعلمهن أن يستغنين عن الرجال حتى استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء. فأوحى الله تعالى: إلى لوط ليدعوهم إلى الإيمان ويمتنعوا عن الفواحش فلم يمتنعوا فبعث الله جبريل ومعه أحد عشر من الملائكة بإهلاكهم فجاؤوا إلى إبراهيم كهيئة الغلمان فدخلوا على إبراهيم فنظر فرأى اثني عشر غلاماً أمرد. ويقال كانوا ثلاثة جبريل وميكاييل وإسرافيل ويقال كانوا أربعة فسلموا عليه. ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ يعني رد عليهم السلام. قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر(٤) قالوا سلاماً قال سَلَامٌ كلاهما سلام إلا أن الأول صار نصباً لوقوع الفعل عليه والآخر رفعاً بالحكاية. ومعناه قال قولا فيه سلام وقرأ حمزة والكسائي «قالوا سلاماً قال سِلْمٌ» بكسر السين وسكون اللام يعني أمري سلم ما أريد إلا السلامة ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ يعني فما مكث ﴿أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قال السدي: الحنيذ السمين. كما قال في آية أُخرى (بِعِجْلٍ سَمِينٍ) ويقال: حنيذ يعني نضيج. ويقال المشوي الذي يقطر منه الدسم. وقال أهل اللغة بأجمعهم الحنيذ المشوي بغير تنور. وهو أن يتخذ له في الأرض حنذاً فيلقى فيه. قال مقاتل: إنما جاءهم بعجل لأنه كان أكثر ماله البقر. فلما قربه إليهم ووضع بين أيديهم كفوا ولم يأكلوا ولم يتناولوا منه ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ يعني (لا تصل إلى الطعام)(٥)

---

(١) انظر النشر ٢/٢٩٠، وحجة القراءات ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٣٤٦، وانظر النشر ٢/٢٩٠.

(٥) في أ [ولم يمدوا أيديهم إلى الطعام.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ يقول أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ يعني وأضمر منهم خوفاً حيث لم يأكلوا من طعامه وظن أنهم لصوص. وذلك أنه في ذلك الزمان إذا لم يأكل أحد من طعام إنسان يخاف عليه عائلته ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ بهلاكهم. وقال السدي[١] لما لم يأكلوا من الطعام قال لهم إبراهيم ما لكم لا تأكلون طعامي؟ قالوا إنا قوم لا نأكل طعاماً إلا بثمن. فقال إبراهيم إن لطعامي ثمناً فأصيبوا منه. قالوا: وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله عليه في أوله وتحمدونه في آخره. فقال جبريل لميكاييل حق له أن يتخذه الله خليلاً. قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ وفي الآية تقديم يعني بشرناها بإسحاق فضحكت سروراً. ويقال ضحكت تعجباً من خوف إبراهيم ورعدته في حشمه وخدمه ولم يخف ولم يرتعد من نمرود الجبار حين قذفه في النار. وهذا قول القتبي. وقال عكرمة[٢]: ضحكت يعني حاضت: يقال ضحكت الأرنب إذا حاضت. وغيره من المفسرين يجعلها الضحك بعينه، وكذلك هو في التوراة، قرأت فيها إنها حين بشرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت من بعد ما بليت أعود شابة. وقال قتادة[٣]. ضحكت من أمر القوم وغفلتهم وجبريل جاءهم بالعذاب يعني قوم لوط ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ قال الشعبي[٤] الوراء ولد الولد. وروى حبيب بن أبي ثابت أن رجلاً دخل على ابن عباس[٥] ومعه ابن ابنه فقال له من هذا؟ فقال ابن ابني. فقال ابنك من وراء. فوجد الرجل في نفسه. فقرأ إبن عباس «وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ» وقال مقاتل يعني ومن بعد إسحاق يعقوب. وقال أبو عبيدة الوراء ولد الولد. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص بنصب الباء[٦]. وقرأ الباقون بالضم. فمن قرأ بالضم فهو على معنى الابتداء يعني ويكون من وراء إسحاق يَعْقُوبُ. ومن قرأ بالنصب فهو عطف على الباء في قوله بإسحاق. فيكون في موضع الخفض إلا أنه لا ينصرف ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ يعني عقيماً لم ألد قط وقد كبرت في السن ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ قال الكلبي: كانت ساره بنت ثمان وتسعين سنة وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة، أكبر منها بسنة وقال الضحاك: كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة وسارة بنت تسع وتسعين سنة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي لأمر عجيب ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني من قدرة الله ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني نعمته وسعادته عليكم ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعني يا أهل البيت ويقال: أتعجبين أي ألا تعلمين أن رحمة الله وبركاته عليكم أن يستخرج الأنبياء كلهم من هذا البيت. وقال السدي: أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً فدلكه بين أصبعيه فإذا هو شجرة تهتز فعرفت أنه من الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ في فعاله، ويقال حميد لأعمالكم ﴿مَجِيدٌ﴾ يعني شريف.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ يعني الفزع من الرسل ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بالولد ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يعني يخاصم ويتشفع في قوم لوط، وكان لوط ابن أخيه وهو لوط بن هازر بن آزر، وإبراهيم بن آزر. ويقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠ وعزاه لابن جرير.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأبي الشيخ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤١ وعزاه لابن الأنباري.
(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذروابن أبي حاتم.
(٦) انظر النشر ٢/ ٢٩٠، حجة القراءات ٣٤٧.

ابن عمه. وسارة كانت أخت لوط. (فلما سمعا بهلاك قوم لوط اغتما لأجل لوط) وروى معمر عن قتادة[1] قال لهم: أرأيتم لو كان فيها خمسون من المسلمين أتعذبونهم؟ قالوا لا نعذبهم. قال أربعون؟ قالوا ولا أربعون قال ثلاثون؟ قالوا ولا ثلاثون. حتى بلغوا عشرة. قال مقاتل: فما زال ينقص خمسة خمسة حتى انتهى إلى خمسة أبيات. يعني لو كان فيها خمسة أبيات من المسلمين لم يعذبهم. ثم قال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ الأواه الذي إذا ذكر الله تعالى تأوه. منيب أي راجع إليه بالتوبة وقد ذكرناه في سورة التوبة. ثم قال جبريل ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني اترك جدالك ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني عذاب ربك ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يعني غير مصروف عنهم. ثم خرجوا من عند إبراهيم متوجهين إلى قوم لوط (فانتهوا)[2] إليهم نصف النهار، فإذا هم بجواري يسقين من الماء فأبصرتهم ابنة لوط وهي تستقي من الماء فقالت لهم ما شأنكم ومن أين أقبلتم وأين تريدون؟ قالوا أقبلنا من مكان كذا ونريد مكان كذا. فأخبرتهم عن حال أهل المدينة وخبثهم فأظهروا الغم من أنفسهم فقالوا هل أحد يضيفنا؟ قالت ليس فيها أحد يضيفكم إلا ذلك الشيخ وأشارت إلى أبيها لوط وهو على بابه. فأتوا لوطاً. فلما رآهم وهيئتهم ساءه ذلك فذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ يقول ساءه مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ يعني صدره اغتماماً ومخافة عليهم. لا يدري أيأمرهم بالرجوع أم بالنزول ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يعني شديد. ثم قال لامرأته ويحك قومي واخبزي ولا تعلمي أحداً. وكانت امرأته كافرة منافقة فانطلقت تطلب بعض حاجتها وجعلت لا تدخل على أحد إلا أعلمته وتقول إن عندنا قوماً من هيئتهم كذا وكذا فلما علموا بذلك جاؤوا إلى باب لوط فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يعني يسرعون إليه وهو مشي بين المشيتين. ويقال يدفعون إليه دفعاً. ويقال يشتدون إليه شداً ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني من قبل أن يبعث إليهم لوط. ويقال من قبل إتيان الرسل كانوا يعملون الفواحش وهي اللواطة والكفر. فلما أرادوا الدخول ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني أحل لكم من ذلك (وكان لوط يناظرهم. ويقول هن أطهر لكم. وكان جبريل مع أحد عشر من الملائكة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤١ وعزاه لعبد الرزاق وأبي الشيخ.

(٢) حين انتهوا.

وكسروا الباب فضرب أعينهم)[١] قال الضحاك «هؤلاء بناتي» عرض عليهم بنات قومه. وقال قتادة[٢]: أمرهم لوط أن يتزوجوا النساء وقال هن أطهر لكم ولم يعرض عليهم بناته. وروى سفيان عن ليث عن مجاهد[٣] قال: لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي هو أب أمته. وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» وهو أب لهم. وهي قراءة أبي بن كعب. وهكذا قال سعيد بن جبير[٤] إنه أراد بنات أمته. ويقال إن رؤساءهم كانوا خطبوا بناته وكان يأبى. فقال لهم إني أزوجكم بناتي. هن أطهر لكم من الحرام. وكان النكاح بين الكافر والمسلم جائزاً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ يقول لا تفضحوني في أضيافي ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يعني مرشداً صالحاً يزجركم عن هذا الأمر. ويقال رجل عاقل. ويقال رجل على الحق يستحي مني ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ يعني من حاجة. ويقولون ما لنا في النساء من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الأضياف ف﴿قَالَ﴾لوط ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ يعني منعة بالولد ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (أي أرجع إلى عشيرة كثيرة)[٥] يعني لو كانت عشيرة ومنعة لمنعكم مما تريدون. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: رحم الله لوطاً لقد أوى إلى ركن شديد[٦]. يعني إن الله ناصره. وروى عكرمة عن ابن عباس[٧] قال: ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في عز من قومه. ويقال لما أرادوا الدخول وضع جبريل يده على الباب فلم يقدروا على فتحه فكسروا الباب ودخلوا فامتلأت داره، فمسح جبريل جناحه على وجوههم فذهبت أعينهم. كما قال في آية أخرى (فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) فرجعوا وقالوا يا لوط جئت بالسحرة حتى طمسوا أعيننا والله لنهلكنك غداً. فلما سمع لوط تهديدهم إياه ساءه صنيع القوم وخاف. فلما رأى جبريل ما دخله ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ يعني لن يقدروا أن يصنعوا بك شيئاً ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ يعني: سر وادلج بأهلك[٨] ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال الكلبي: القطع من الليل آخر السحر وقد بقيت منه قطعة. وقال السدي: سألت أعرابياً عن قوله «بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ» قال ربع الليل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني لا يتخلف منكم أحد ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا﴾ من العذاب. ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير ونافع[٩] فاسر بجزم الألف وقرأ الباقون فَأَسْرِ. ومعناهما واحد. يقال سريت وأسريت إذا سرت بالليل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[١٠] «إِلَّا امْرَأَتُكَ» بضم التاء وقرأ الباقون بالنصب. فمن قرأ بالنصب انصرف إلى الإسراء يعني أسر بأهلك إلا امرأتَكَ على معنى الاستثناء. وفي قراءة ابن مسعود فاسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتَكَ. ومن قرأ بالضم فهو ظاهر يعني أنها تتخلف مع الهالكين وقال لوط لجبريل عليه السلام إن أبواب المدينة قد أغلقت فجمع لوط أهله وابنتيه ريثا وزغورا فحمل جبريل لوطاً وابنتيه وماله على جناحه إلى مدينة ذعر وهي إحدى مدائن

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٢ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) سقط في أ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن قتادة وقال أخرجه ابن جرير وعن الحسن وقال أيضاً أخرجه ابن جرير. انظر الدر المنثور ٣/٣٤٣.

(٧) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لسعيد بن منصور وأبي الشيخ.

(٨) سقط في ظ.

(٩) انظر حجة القراءات ٣٤٧، النشر ٢/٢٩٠.

(١٠) انظر المصدرين السابقين.

(١١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٥ وعزاه لابن عبيد وابن جرير.

لوط وهي (خمس مدائن)[١] وهي على أربعة فراسخ من سدوما ولم يكونوا على مثل عملهم فقال له جبريل ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ يعني هلاكهم وقت الصبح. فقال لوط يا جبريل الآن عجل هلاكهم. فقال له جبريل ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فلما كان وقت الصبح أدخل جبريل جناحه تحت أرض[٢] المدائن الأربعة فاقتلعها من الماء الأسود ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح وصياح الديك ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض. فذلك قوله ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ قال وهب بن منبه: لما رفعت إلى السماء أمطر الله عليهم الكبريت والنار ثم قلبت. وقال مقاتل أمطر على أهلها من كان خارجاً من المدائن الأربعة حجارة ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يعني من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر ﴿مَنْضُودٍ﴾ يعني متتابع بعضه على أثر بعض. وقال مجاهد[٣] سجيل بالفارسية سنج وجك كقوله (حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) وروي عن ابن عباس[٤] في بعض الروايات قال سنك وكل وقال أبي عبيدة السجيل الشديد. منضود أي ملتزق بالحجارة ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال الفراء مخططة بالحمرة والسواد في البياض. وقال أبي عبيدة: مسومة أي معلمة. ويقال مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يصيبه. ويقال مختمة، وقال وكيع رفع إلى حجر منها بطرسوس ثم قال ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني من قوم لوط عليه السلام. ويقال هذا تهديد لأهل مكة وغيرهم من المشركين فقال وما هي من الظالمين ببعيد لكيلا يعملوا مثل عملهم. ويقال وما هن من الظالمين ببعيد قريات لوط ليست ببعيدة من أهل مكة فأمرهم بأن يعتبروا بها وقال الزجاج: سجيل يعني ما كتب لهم أن يعذبوا به. ويقال سجيل من سجلته يعني أرسلته. ومعناه حجارة مرسلة عليهم. ويقال كثيرة شديدة

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا
يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ
رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا
تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ يعني وأرسلنا إلى مدين (أخاهم ﴿شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٤٥ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وحدوا الله (وأطيعوه)[١] ﴿مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني ليس لكم رب سواه ﴿وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ في البيع والشراء ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ يعني بسعة في المال والنعمة ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ يعني: إن لم ترجعوا عن نقصان المكيال والميزان تزول عنكم النعمة والسعة ويصيبكم القحط والشدة وعذاب الآخرة. وقال مجاهد[٢] إني أراكم بخير. يعني برخص السعر. ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ يعني أتموا الكيل والوزن ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يقول بالعدل ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني لا تنقصوا الناس حقوقهم ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني لا تسعوا في الأرض بالفساد والمعاصي ونقصان الكيل والوزن. وقال سعيد بن المسيب إذا أتيت أرضاً يوفون المكيال والميزان فأطل المقام بها وإذا أتيت أرضاً ينقصون المكيال والميزان فأقل المقام بها. وقال عكرمة: أشهد أن كل كيال ووزان في النار. قيل له فمن وفى الكيل والوزن قال ليس رجل في المدينة يكيل كما يكتال ولا يزن كما يتزن والله تعالى يقول (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) ثم قال تعالى: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: ما أبقى الله لكم من الحلال خير لكم من الحرام ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني مصدقين فصدقوني فيما أقول لكم. وقال مجاهد بقية الله خير لكم. يعني طاعة الله خير لكم ويقال (ثواب الله خير لكم في الآخرة)[٣] ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يعني رقيباً ووكيلاً، وإنما عليَّ البلاغ. ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ يعني: قال له قومه. قرأ حمزة والكسائي[٤] وعاصم في رواية حفص «أصلاتُكَ» بلفظ الوحدان يعني أقراءتك. ويقال أدعاؤك. وقرأ الباقون «أَصَلَوَاتُكَ» بلفظ الجماعة. يعني أكثرة صلواتك يأمرك ﴿أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وكان شعيب كثير الصلاة ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ من نقصان الكيل والوزن ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ يعني السفيه الضال استهزاء منهم به ﴿قَالَ يَاقَوم أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ يعني على دين وطاعة وبيان وأتاني رحمة من ربي ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ يعني بعثني بالرسالة فهداني لدينه ووسع عليَّ من رزقه. وقال الزجاج جواب الشرط ههنا متروك. المعنى إن كنت على بينة من ربي أتبع الضلال. فترك الجواب لعلم المخاطبين بالمعنى. ثم قال ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ يعني: لا أنهاكم عن شيء وأعمل ذلك العمل من نقصان الكيل والوزن. ومعناه أختار لكم ما أختار لنفسي نصيحة لكم وشفقة عليكم ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ﴾ يقول ما أريد إلا العدل ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ يعني ما قدرت يعني لا أترك جهدي في بيان ما فيه مصلحة لكم. ثم قال ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ (يعني وما تركي هذه الأشياء ودعوتي إلا بالله)[٥] يعني إلا بتوفيق الله وبأمره ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني وثقت به ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يعين أقبل وأدعو إليه بالطاعة ثم قال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ يعني لا يحملنكم بغضي وعداوتي أن لا تتوبوا إلى ربكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ يعني: يقع بكم العذاب ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ يعني مثل عذاب قوم نوح بالغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ بالريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ الصيحة. فإن طال عهدكم بهم فاعتبروا بمن هو أقرب منكم وهم قوم لوط فقال ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يعني كان هلاكهم قريباً منكم ولا يخفى عليكم أمرهم.

وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ

(١) سقط في أ.
(٢) ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٤٦ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.
(٣) سقط في أ. (٤) انظر النشر ٢/٢٩٠، حجة القراءات ٣٤٨. (٥) سقط في أ.

أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ يعني وتوبوا إلى الله. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بعباده ﴿وَدُودٌ﴾ يعني متودد إلى أوليائه بالمغفرة. ويقال محب لأهل طاعته. ويقال الودود بمعنى الواد. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ يعني لا نعقل ما تدعونا إليه من التوحيد ومن وفاء الكيل والوزن. يعنون إنك تدعونا إلى شيء خلاف ما كنا عليه وآباؤنا ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ يعني ومع ذلك أنت ضعيف فينا. وقال مقاتل يعني ذليلاً لا قوة لك ولا حيلة. وقال الكلبي يعني ضرير البصر. ويقال إنه ذهب بصره من كثرة بكائه من خشية الله تعالى. ويقال وحيداً لم يوافقك من عظمائنا أحد ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ يعني لولا عشيرتك لقتلناك، لأنهم كانوا يقتلون رجماً. وقال القتبي: أصل الرجم الرمي. كقوله (وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ) ثم قد يستعار ويوضع موضع الشتم. إذ الشتم رمي. كقوله (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) يعني لأشتمنك ويوضع موضع الظن كقوله (رَجْماً بِالْغَيْبِ) أي ظناً. والرجم أيضاً الطرد واللعن. وقيل للشيطان رجيم لأنه طريد يرجم بالكواكب. وقد يوضع الرجم موضع القتل لأنهم كانوا يقتلون بالرجم ولأن ابن آدم قتل أخاه بالحجارة. فلما كان أول القتل رجماً سمي القتل رجماً وإن لم يكن بالحجارة ثم قالوا ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ يعني بكريم ويقال بعظيم يعني: لا خطر لك عندنا لولا حرمة عشيرتك. ويقال وما قتلك علينا بشديد ثم ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني حرمة قرابتي أعظم عندكم من حرمة الله تعالى. ويقال خوفكم من عقوبة قرابتي أكبر من خوف الله. ويقال عشيرتي أعظم عليكم من كتاب الله تعالى. (ومن أمره) ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ يقول تركتم أمر الله تعالى وراءكم خلف[1] ظهوركم وتعظمون أمر رهطي وتتركون تعظيم الله تعالى ولا تخافونه وهذا قول الفراء. وقال الزجاج: معناه: اتخذتم أمر الله وراءكم ظهرياً. أي نبذتموه وراء ظهوركم. (والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر قد جعل فلان هذا الأمر بظهره. وقال الأخفش وراءكم ظهرياً)[2] يقول لم تلتفتوا إليه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني عالماً بأعمالكم من نقصان الكيل والوزن وغيره والإحاطة هي إدراك الشيء بكماله ثم قال تعالى ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني اعملوا في هلاكي وفي أمري ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ في أمركم، والمكانة والمكان بمعنى واحد. ثم قال ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني يهلكه ويهينه ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ يعني ستعلمون من هو كاذب. ويقال معناه: من يأتيه عذاب يخزيه ويخزي أمره من هو كاذب على الله، بأن معه شريكاً ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ يعني انتظروا بي العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ يعني منتظر بكم العذاب في الدنيا.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟
فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

(١) سقط في ظ.
(٢) سقط في أ.

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ
وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني عذابنا. وذلك أنه أصابهم حر شديد فخرجوا إلى غيضة لهم فدخلوا فيها فظهرت لهم سحابة كهيئة الظلة فأحرقت الأشجار وصاح جبريل صيحة فماتوا كلهم. كما قال في آية أخرى (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) وذلك قوله تعالى (ولما جاء أمرنا) يعني عذابنا ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يعني صاروا في مواضعهم ميتين لا يتحركون. قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يعني كأن لم يعمروا فيها ﴿أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ﴾ يعني بعداً من رحمة الله تعالى ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ من رحمته. وروى أبو صالح عن إبن عباس قال: لم تعذب أمتان بعذاب واحد إلا قوم شعيب وصالح. صاح بهم جبريل فأهلكهم. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعني حجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يعني قومه ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني أطاعوا قول فرعون حين قال: (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى) فأطاعوه في ذلك. وحين قال لهم (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) فأطاعوه وتركوا موسى. قال الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ يقول ما قول فرعون بصواب. قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول يتقدم أمام قومه يوم القيامة وهم خلفه كما كانوا يتبعونه في الدنيا ويقودهم إلى النار ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ يقول أدخلهم النار ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ يقول بئس المدخل المدخول. يعني بئس المصير الذي صاروا إليه قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ يعني جعل عليهم اللعنة في الدنيا وهو الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة أخرى وهي النار ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ يعني اللعنة على أثر اللعنة. ومعناه بئس الغرق وزفرة النار ترادفت عليهم اللعنتان. لعنة الدنيا الغرق، ولعنة الآخرة النار. وقال القتبي: بئس الرفد المرفود يعني: بئس العطاء المعطى. يقال رفدته أي أعطيته وقال الزجاج: كل شيء جعلته عوناً لشيء وأسندت به شيئاً فقد رفدته. وقال قتادة[1] في قوله «يَقْدُمُ قَوْمَهُ» يعني يمضي بين أيديهم حتى يهجم بهم على النار وفي قوله «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ» قال لعنة في الدنيا وزيدوا بها اللعنة في الآخرة. قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ يعني هذا الذي وصفت لك وقصصت عليك من أخبار الأمم والقرون الماضية ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ يعني ينزل جبريل ليقرأ عليك، ليكون فيها دلالة نبوتك ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ يعني من تلك القرى قائم ومنها ما هو حصيد والقائم يعني الظاهر ينظر إليه الناظر. (والحصيد الذي قد أبيد)[2] وحصد يعني خرب وهلك أصحابه. ويقال القائم على بنيانه والحصيد ما خرب. وقال قتادة: منها قائم يعني خاوية على عروشها وحصيد يعني مستأصلة. وقال الضحاك منها قائم يعني مدينة عاد هلكوا وبقيت مساكنهم. وحصيد يعني مدائن قوم لوط حصدت أي قلعت من الأرض السفلى ثم قال تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ يعني لم نعذبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني أضروا بأنفسهم حيث أكلوا رزق الله وعبدوا غيره وكذبوا رسله ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ يعني ما نفعتهم عبادة آلهتهم ﴿الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إنما سماهم آلهة على وجه المجاز يعني آلهتهم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٨/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وأبي الشيخ.
(٢) سقط في ظ.

بزعمهم ولم يكونوا آلهة في الحقيقة. ومعناه لم تقدر أصنامهم أن تمنعهم من عذاب الله من شيء ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يعني حين جاء عذاب ربك. وقال القتبي: إذا رأيت لِلَمَّا جواباً فهو بمعنى حين كقوله تعالى (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) يعني حين أغضبونا وكقوله «لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» يعني حين جاء أمر ربك. يعني عذاب ربك ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ يعني: غير تخسير كقوله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) أي خسرت.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ يعني هكذا عقوبة ربك ﴿إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني إذا عاقب القرى ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾يعني أهلها كفار جاحدون بوحدانية الله تعالى. قرأ عاصم الجحدري «إِذْ أَخَذَ» بألف واحدة لأن إذ تستعمل للماضي وإذا تستعمل للمستقبل وهذه حكاية من الماضي. يعني حين أخذ ربك القرى وهي قراءة شاذة. وقراءة العامة «إِذَا أَخَذَ» بألفين ومعناه أخذ ربك متى أخذ القرى ثم قال ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: عقوبته مؤلمة شديدة. وروى أبو موسى الأشعري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة» الآية ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في الذي أخبرتك عن الأمم الخالية لعبرة ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ ويقال في عذابهم موعظة وعبرة بالغة لمن آمن بالله واليوم الآخر. ويقال فيه عبرة لمن أيقن بالنار وأقر بالبعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني مجموع فيه الأولون والآخرون ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ يشهده أهل السموات وأهل الأرض قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ يعني: إلى حين معلوم. ويقال: لانقضاء أيام الدنيا ومعناه أنا قادر على إقامتها الآن ولكن أؤخرها إلى وقت معدود ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ يعني إذا جاء يوم القيامة. ويقال يوم يأت ذلك اليوم ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يعني: لا تتكلم نفس بالشفاعة إلا بأمره. ويقال معناه لا يجترىء أحد أن يتكلم من هيبته وسلطانه بالإحتجاج وإقامة العذر إلا بإذنه. قرأ عاصم وإبن عامر وحمزة[٢] «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء في الوصل والقطع. وقرأ الباقون بالياء عند الوصل. قال أبو عبيدة القراءة عندنا على حذف الياء في الوصل والوقف. قال ورأيت في مصحف (الإمام)[٣] عثمان «يَوْمَ يَأْتِ» بغير ياء. وهي لغة هذيل. قال وروي عن عثمان أنه عرض عليه المصحف فوجد فيه حروفاً من اللحن فقال: لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف. فكانت قدم هذيلاً في الفصاحة. ثم قال ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ يعني: يوم القيامة من الناس، شقي معذب في النار، وسعيد. يعني: مكرم في الجنة. قوله

(١) أخرجه البخاري ٨/٣٥٤ في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم ٤/١٩٩٧ في كتاب البرو الصلة في باب تحريم الظلم (٦١/٢٥٨٣).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٤٨.

(٣) سقط في أ.

تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ يعني كتب عليهم الشقاوة ﴿فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال الربيع بن أنس[١]: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر. وروي عن إبن عباس[٢] أنه قال زفير كزفير الحمار وهو أول ما ينهق الحمار، والشهيق وهو أول ما يفرغ من نهيقه في آخره. ويقال زفير وشهيق معناه أنيناً وصراخاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين دائمين في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يعني سماء الجنة وأرضها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني إلا من أخرجهم منها وهم الموحدون. وقال الكلبي ومقاتل خالدين فيها ما دامت السموات والأرض. يعني كما تدوم السموات والأرض لأهل الدنيا فكذلك يدوم الأشقياء في النار إلا ما شاء ربك أي الموحدون يخرجون من النار وقال الضحاك يعني سماء القيامة وأرضها وهما باقيتان. ويقال العرب كانت من عادتهم أنهم إذا ذكروا الأبد يقولون ما دامت السموات والأرض فذكر على عادتهم. ومعناه إنهم خالدون فيها أبداً. ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ إن شاء أدخل النار خالداً وإن شاء أخرجه إن كان موحداً وأدخله الجنة.

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٣] سُعِدُوا بضم السين. وقرأ الباقون بنصب السين. فمن قرأ بالنصب فمعناه الذين استوجبوا السعادة في الجنة. ومن قرأ بالضم فمعناه وأما الذين سُعِدُوا أي قدر لهم السعادة وخلقوا للسعادة ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن يحبس في المحشر وعلى الصراط. ويقال الذين شقوا يعني الكفار والذين سعدوا المؤمنين ومعناه الكفار في النار إلا ما شاء الله أن يسلموا، والمؤمنون في الجنة إلا ما شاء الله أن يرجعوا عن الإسلام. ويقال إلا ما شاء ربك يعني قد شاء ربك ثم قال ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يعني رزقاً غير منقطع عنهم ولا ينقص من ثمارهم ولا من نعمتهم. ثم قال تعالى ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ يعني في شك ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ إن الله تعالى يعاقبهم بذلك ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: لا يرغبون في التوحيد كما لم يرغب آباؤهم من قبل الذين هلكوا ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ يعني نوف لهم ولآبائهم حظهم من (العذاب غير منقوص عنهم، وهو قول مقاتل، وقال سعيد بن جبير: نصيبهم من الكتاب)[٤] الذي كتب في اللوح المحفوظ من السعادة والشقاوة. وقال مجاهد[٥] وإنا

---

(١) ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٦ وعزاه لابن الأنباري في الوقف.

(٣) انظر النشر ٢/٢٩٠، حجة القراءات ٣٤٩.

(٤) سقط في ظ.

ومثله عن ابن عباس ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

لموفوهم نصيبهم يعني ما قدر لهم من خير أو شر. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ يعني أعطينا موسى التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يعني آمن به بعضهم وكفر به بعضهم وهذا تعزية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يصبر كما صبر موسى على تكذيبهم ثم قال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني وجب قول ربك بتأخير العذاب عن أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني لجاءهم العذاب ولفرغ من هلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يعين من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني ظاهر الشك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ قرأ إبن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وإنْ كل بجزم النون. وقرأ الباقون بالنصب والتشديد. فمن قرأ بالجزم معناه وما كلّ إلا ليوفينهم كقوله (وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ) يعني ما كلّ. ومن قرأ بالتشديد يكون إنَّ لتأكيد الكلام. وقرأ حمزة وإبن عامر وعاصم في رواية حفص[1]

---

(١) ونزيد ذلك تفصيلاً ونقول قرأ أبو عمرو والكسائي (وإنّ كلا لمَا) بتشديد (إن) وتخفيف (لما). وجهة بين وهو أنه نصب (كلا) بـ (إن) و (إن) تقتضي أن تدخل على خبرها اللام أو (على) اسمها إذا حل محل الخبر فدخلت هذه اللام وهي لام الإبتداء على الخبر في قوله تعالى: ﴿وإن كلا لما﴾ وقد دخلت في الخبر لام أخرى وهي لام القسم وتختص بالدخول على الفعل ويلزمها في أكثر الأمر إحدى النونين فلما اجتمعت اللامان فُصِل بينهما بـ (ما)، فلام (لما) لام (إن) وما دخلت للتوكيد ولم تغير المعنى ولا العمل. واللام التي في (ليوفينهم لام القسم. وقال أهل الكوفة: في (ما) التي في (لما) وجهان أحدهما أن يكون بمعنى (من) أي (وإن كلا لمن ليوفينهم ربك) كما قال سبحانه «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وإن أكثر استعمال العرب لها في غير بني آدم والوجه الآخر أن يجعل (ما) التي في (لما) بمعنى (ما) التي تدخل صلة في الكلام ويلي هذا الوجه في البيان قراءة نافع وابن كثير.

فأما تخفيف (إن) وترك النصب على خاله فلأن (إن) مشبهه بالفعل فإذا حذف التشديد بقي العمل على حاله وهي مخففة من (إن) قال سيبويه: (حدثني من أثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمـراً لمنطلق). فإن سأل سائل فقال: إنما نصبت بـ (إن) تشبيها بالفعل فإذا خففت زال شبه الفعل فلم نصبت بها؟

فالجواب أن من الأفعال: ما يحذف منه فيعمل علم التام كقولك (لم يك زيد منطلقاً) فكذلك (إن) جاز حذفها وإعمالها. وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص: (كلاً لمَّا) بالتشديد فيهما، قال الكسائي: من شدّد (إن) و (لما) فالله أعلم بذلك وليس لي به علم. وقال الفراء: (أما الذين شددوا فإنه والله أعلم) (لمما).

(ثعلب يروي بكسر الميم: (لمن) أراد: لمن ما ليوفينهم). فلما اجتمعت الميمات حذفت واحدة فبقيت ثنتان أدغمت واحدة في الأخرى كما قال الشاعر:

وإني لـمـمـا أصدر الأمـر وجـهـه إذا هـو أعـيـا بـالـسـبـيـل مـصـادره

وقال آخرون معنى ذلك: (وإن كلا لما) (بالتشديد أراد: لما) بالتنوين ولكن حذف منه التنوين كما حذف من قوله ﴿أرسلنا رسلنا تترى﴾. قال الفراء: وحدثت أن الزهري قرأ: (وإن كلا لما) بالتنوين يجعل (اللم): شديداً كقوله: ﴿أكلا لما﴾ أي شديداً فيكون المعنى: ﴿وإن كلا شديداً وحقاً ليوفينهم أعمالهم﴾ بمنزلة قولك في الكلام: وإن كلا حقاً ليوفينهم.

وقال آخرون منهم المازني: إن أصلها: (لمما) ثم شددت اليمين زيادة للتوكيد وكيلاً يحذفها الإنسان ويشبهها بقوله ﴿فبما رحمة من الله﴾، فيقول: (وإن كلا ليوفينهم) فيجتمع لامان لهذا شددت. قال الفراء: وأما من جعل (لما) بمنزلة (إلا) فإنه وجه لا نعرفه كما لا يحسن (إن زيداً إلاّ منطلق) فكذلك لا يحسن (وإن كلا إلا ليوفينهم) شرح هذا أن (إن) إثبات للشيء وتحقيق له و (إلا) تحقيق أيضاً وإيجاب وإنما تدخل نقضاً لجحد قد تقدمها كقولك: «ما زيد إلا منطلق» وكقوله ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ أي (﴿ما كل نفس إلاّ عليها حافظ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وإن كلا لما﴾ لم يتقـدمه حرف جحد فيقول إن (لما) بمعنى (إلّا) كما ذكرنا. وإنما تقدم ها هنا (إن) التي للتحقيق فقد بطل قول من قال: (إن لما بمعنى إلّا) ووجهها ما قد ذكرنا عن أهل النحو. وقرأ أبو بكر: (وإن كلا) خفيفة (لما) مشددة (وإن) مخففـة من (إن) وقد ذكرنا أن العرب تقول؛ (إن عمراً لمنطلق) ولا يجوز أن يجعل (إن) بمعنى التي تكون بمعنى الجحد لأنها قد نصبت و (إن) إذا كانت بمعنى الجحد لا تنصب. قال الكسائي: من خفف (إن) وشدد (لما) (لست أدري) والله أعلم بوجهه إنما نقرأ كما أقرئنا قال: وذلك أن (إن) إذا نصبت بها وإن كانت مخففة كانت بمنزلتها مثقلة و (لما) إذا شددت كانت بمنزلة (إلّا) قلت: وجه هذه القراءة ما قد ذكرنا في قراءة حمزة وابن عامر والله أعلم. انظر حجة القراءات ٣٥٠ ـ ٣٥١ ـ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. فمن قرأ بالتخفيف يكون لصلة الكلام، ومعناه وإنَّ كلاً ليوفينهم. فتكون ما صلة كقولهم عما قليل يعني عن قليل. ومن قرأ بالتشديد يكون بمعنى إلاَّ يعني: وإنَّ كُلًّا إلا ليوفينهم كقوله (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) (فمن قرأ بالتشديد كتلك الآية يكون معناه إلا عليها حافظ)[١] ومعنى الآية إن كلا الفريقين ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ ثواب ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ بالخير خيراً وبالشر شراً ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الخير والشر. قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ يعني استقم على التوحيد والطاعة كما أمرت ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أيضاً يستقيموا على التوحيد ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تعصوا الله في التوحيد وطاعته ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال: حدثنا محمد بن الفضل قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو حفص عن سعيد عن قتادة[٢] في قوله تعالى فاستقم كما أُمرت قال إن الله تعالى أمر بالاستقامة على التوحيد وأن لا يطغى في نعمته. وقال القتبي فاستقم كما أُمرت: يعني امضي على ما أمرت به

وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ قال قتادة ولا ترجعوا إلى الشرك فتمسكم النار يعني تصيبكم النار. وقال أبو العالية[٣]: ولا ترضوا بأعمال أهل البدع. والركون هو الرضا. ويقال: ولا تميلوا إلى دين الذين كفروا. ويقال ولا ترضوا قول الذين ظلموا. وروى أبو هريرة عن النبي[٤] ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: المرء على دين خليله لينظر أحدكم من يخالل وعن عبد الله بن مسعود أنه قال اعتبروا الناس باخدانهم. ثم قال ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني حين تمسكم النار لم يكن لكم من عذاب الله من أولياء. يعني من أقرباء ينفعكم ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا تمنعون من العذاب. قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني واستقم كما أُمرت وأقم الصلاة أي أتممها ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ صلاة الفجر والظهر والعصر ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني دخولاً من الليل ساعة بعد ساعة. واحدها زلفة. وهي صلاة المغرب والعشاء ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني الصلوات الخمس يكفرن السيئات فيما دون الكبائر ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ يعني الصلوات الخمس توبة للتائبين. قال الكلبي: نزلت الآية في عمرو بن غزية الأنصاري ويقال نزلت في شأن أبي اليسر. كان يبيع التمر فجاءته امرأة تشتري تمراً فأدخلها في الحانوت وفعل بها كل شيء إلا الجماع. ثم ندم فأخبر بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية. ويقال نزلت في شأن أبي مقبل الثمار. وروي عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود[٥] أنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إني لقيت امرأة في البستان

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥١ وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٣٠٣ وأبو داود ٥/١٦٨ في الأدب (٤٨٣٣) والترمذي ٤/٥٥٩ في كتاب الزهد (٢٣٧٨) وقال حسن غريب والحاكم في المستدرك ٤/١٧١ في كتاب البر وقال صحيح إن شاء الله تعالى ووافقه الذهبي.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٢ وعزاه لابن حبان.

فضممتها إليّ[1] وقبلتها وفعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها. فسكت عنه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية. فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجل وقرأها عليه. فقال عمر رضي الله عنه أله خاصة أم للناس كافة؟ قال بل للناس كافة وروى حماد بن سلمه عن علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت مع سلمان[2] فأخذ غصناً من شجرة يابسة فحته ثم قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق ثم قرأ هذه الآية «وأقم الصلاة طرفي النهار» إلى آخرها. ثم قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد على التوحيد ولا تركن إلى الظلمة واصبر على ما أصابك. ويقال واصبر أي أقم على هذه الصلوات الخمس حتى لا تترك منها شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني ثواب الموحدين المخلصين ويقال المقيمين على الصلوات.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ يعني فهلا كان ﴿مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ يعني ذووا بقية من آمن. وقال مقاتل: يعني فلم يكن من القرون من قبلكم أولوا بقية يعني ذو بقية من دين ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ينهون عن الفساد في الأرض. وقال القتبي: فهلا أولوا بقية من دين. يقال: قوم لهم بقية إذا كان فيهم خير. قال القتبي: إذا رأيت فلولا بغير جواب يريد به هلا كقوله (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ) وقال بعض المفسرين جعل «لولا» ههنا وفي سورة يونس بمعنى لم. وقال الزجاج: معناه أولوا تمييز، ويجوز أولوا طاعة وفضل، ومعنى بقية. إذا قلت في فلان بقية معناه فيه فضل فيما يمدح به. إلا قليلاً ممن أنجينا منهم. استثناء منقطع. والمعنى لكن قليلاً ممن أنجينا ممن ينهي عن الفساد. وروى سيف بن سليمان المكي بإسناده عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة[3]. ثم قال ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يقول اشتغل الذين كفروا ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ يعني ما أنعموا وأعطوا من المال. ويقال: ارتكبوا على ما خولوا في الدنيا واشتغلوا عما سواها من أمر الآخرة. ويقال واتبع الذين ظلموا. يعني السفلة. ما أترفوا يعني: من أترفوا وهم القادة والرؤساء. وقال الفراء: اتبعوا في دنياهم ما عودوا من النعيم وإيثار الدنيا على الآخرة ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني مشركين قوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ يعني: لم يكن ربك يعذب أهل قرية بظلم بغير جرم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ يعني موحدين مطيعين. وروي عن إبن عباس أنه قال: ما أهلك الله قوماً إلا بعملهم ولم يهلكهم بالشرك، يعني لم يهلكهم بشركهم وهم مصلحون لا يظلم بعضهم بعضاً.

---

(١) في أ [إلى نفس وباشرتها].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٥٣/٣ وعزاه للطيالسي وأحمد والدارمي وابن جرير والطبراني والبغوي في معجمه وابن مردويه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٩٢/٤، والطبراني في الكبير ١٣٨/١٧، ١٣٩ والدولابي في الكنى والأسماء ٤٤/١، والبغوي في شرح السنة ٣٤٦/١٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٢٦٧/٧ ـ ٢٦٨، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٧٦)، وذكره ابن كثير في التفسير ١٥٤/٣، ٥٧٨.

لأن مكافأة الشرك النار لا دونها. وإنما أهلكهم الله بمعاصيهم زيادة على شركهم. مثل قوم صالح بعقر الناقة، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة، وقوم شعيب بنقصان الكيل والوزن وقوم فرعون بإيذائهم موسى عليه السلام وبني إسرائيل. ويقال وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. أي فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وقال الفراء: لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم وإن كانوا مجرمين

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول لجمع الناس على أمة الإسلام وأكرمهم بدين الإسلام كلهم. ولكن علم أنهم ليسوا بأهل لذلك ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ يعني عصم ربك من الإختلاف. وقال عطاء ولا يزالون مختلفين يعني اليهود والنصارى والمجوس إلا من رحم ربك الحنيفية ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني الحنيفية خلقهم للرحمة. وقال الحسن[1]: لذلك خلقهم يقول للإختلاف هؤلاء لجنته وهؤلاء لناره. وقال ابن عباس[2] ولذلك خلقهم يعني: فريقين فريقاً يرحم ولا يختلف وفريقاً لا يرحم ويختلف. ويقال ولذلك خلقهم يعني : للأمر والنهي بدليل قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) يعني للأمر والنهي. وقال الضحاك وللرحمة خلقهم. وقال مقاتل: وللرحمة خلقهم وهو الإسلام. وروى حماد بن سلمة عن الكلبي قال خلقهم أهل الرحمة أن لا يختلفوا. وقال قتادة ولذلك خلقهم للرحمة والعبادة ولا يزالون مختلفين يقول: لا يزال أهل الأديان مختلفين في دين الإسلام. ثم استثنى بعضاً وقال «إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» وهم المؤمنون أهل الحق ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ يقول: سبق ووجب قول ربك للمختلفين ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا لام القسم فكأنه أقسم أن يملأ جهنم من كفار الجنة والناس أجمعين. قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ يعني ننزل عليك من أخبار الرسل ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يقول ما نشدد به قلبك ونحفظه ونعلم أن الذي فعل بك قد فعل بالأنبياء قبلك ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قال قتادة[2]: أي في الدنيا. وقال ابن عباس[3] يعني في هذه السورة. وروى سعيد بن عامر عن عوف عن أبي رجاء قال خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فقرأ سورة هود وفسرها فلما أتى على هذه الآية «وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ» قال في هذه السورة. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية ومجاهد مثله. وهكذا قال مقاتل عن الفراء. ثم قال ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ يعني تأدبة لهذه الأمة ﴿وَذِكْرَى﴾ يعني عظة وعبرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين بتوحيد الله تعالى.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٧ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٦ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه من طرق.

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قال الله تعالى ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بتوحيد الله تعالى ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني في منازلكم على إهلاكي ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ في أمركم ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بهلاكي ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ بكم العذاب والهلاك فهذا تهديد لهم. ثم قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني غيب نزول العذاب متى ينزل بكم. ويقال سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ يعني عواقب الأمور كلها (ترجع إليه)[1] يوم القيامة ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ يقول أطعه واستقم على التوحيد ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ يقول فوض إليه جميع أمورك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني الذي يفعل الكفار. قرأ نافع وعاصم[2] في رواية حفص «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ» بضم الياء ونصب الجيم على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون بنصب الياء وكسر الجيم فيكون الفعل للأمر. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص[3] «عَمَّا تَعْمَلُونَ» بالتاء على وجه المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على وجه المغايبة. وروي عن كعب[4] الأحبار أنه قال: خاتمة التوراة هذه الآية «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» إلى آخر السورة. «والله سبحانه أعلم».

(١) سقط في أ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٥٣.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٣٥٧ وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن الضريس في فضائل القرآن وابن جرير وأبي الشيخ.

سُورَةُ يُوسُفَ (١)

وهي مائة وإحدى عشرة آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿آلر تِلْكَ﴾ وذلك أن اليهود والنصارى قالوا لأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلوا صاحبكم عن انتقال يعقوب وأولاده من كنعان إلى مصر ومبدأ أمرهم. فنزل «آلر» يقول أنا الله أرى وأسمع سؤالهم إياك يا محمد عن هذه القصة ويقال معناه أنا الله أرى صنيع إخوة يوسف ومعاملتهم معه. ويقال أنا لله أرى (ما يرى الخلق وما لا يرى)[٢] ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾ يعني حججه وبراهينه. ويقال هذه الآيات التي وعدتكم في التوراة أن أنزلها على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وعدهم بأن ينزل عليه كتاباً في كثير من أوائل سوره حروف الهجاء ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يعني مبين حلاله وحرامه. ويقال بين فيه خبر يوسف وإخوته. وروى معمر[٣] عن قتادة رحمه الله قال: بين الله رشده وهداه. قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاه قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ يقول إنا أنزلنا جبريل ليقرأ على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن بلسان العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني لعلكم تفهمون ما فيه. ثم قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ وذلك أن المسلمين قالوا لسلمان أخبرنا عن التوراة فإن فيها العجائب. فأنزل الله تعالى «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ» في هذا القرآن. ويقال: لا يصح هذا لأن سلمان أسلم بالمدينة وهذه السورة مكية ولكن أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمنوا نزول سورة لا يكون فيها أمر ونهي وأحكام فنزلت هذه السورة. ويقال كانت اليهود تفاخروا بأن لهم قصة يوسف مذكورة في التوراة. فنزلت هذه السورة أفصح من لغة اليهود لذهاب افتخارهم على المسلمين فقال «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ» سماه الله في إبتدائه أحسن القصص وفي آخره عبرة فقال «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ». ويقال ينزل عليك جبريل بأحكم الخبر ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يقول بالذي أوحينا إليك. ويقال بوحينا إليك ﴿هَذَا ٱلْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني وقد كنت من قبل أن ينزل عليك القرآن ﴿لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ عن خبر يوسف لم تعلمه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ قرأ إبن عامر «يا ابتَ»[٤] بنصب التاء في جميع القرآن لأن أصله يا أبتاه. وقرأ الباقون بالكسر لأجل الإضافة[٥] ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ

(١) انظر التحرير ٢/١٩٧ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) في أ ما ترى الخلائق وما لا ترى.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٣.

(٥) وقال الزجاج: إن التاء كثرت ولزمت في الأب عوضاً عن ياء الإضافة فلهذا كسرت التاء لأن الكسرة أخت الياء. ومن فتح فله =

﴿عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ يعني رأيت في المنام كأن أحد عشر كوكباً نزل من السماء، والشمس والقمر (نزلا من السماء)[١]، يسجدون لي. وروي عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة[٢] قال: الكواكب إخوته. والشمس والقمر أبواه. وقال معمر. قال بعض أهل العلم: أبوه وخالته وفي رواية الكلبي: رؤياه كانت ليلة القدر في ليلة الجمعة.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

قال تعالى ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فلما قصها على أبيه انتهره وزجره. وقال ليوسف في السر: إذا رأيت رؤيا بعد هذا فلا تقصها على إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾ يعني يعملوا بك عملاً ويحتالوا بك حيلة في هلاكك. فإن قيل: قوله «رأيتهم» هذا اللفظ يستعمل في العقلاء. وفي غير العقلاء يقال رأيتها ورأيتهن فكيف قال ههنا رأيتهم؟ قيل له لأنه حكى عنها الفعل الذي يكون من العقلاء وهي السجدة. فذكر باللفظ الذي يوصف به العقلاء ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة. قرأ أبو جعفر القاريء المدني أَحَدَ عْشَرَ بجزم[٣] العين. وقراءة العامة أَحَدَ عَشَرَ بالنصب. قال أبو عبيدة هكذا تقرؤها لأنها أعرف اللغتين. والناس عليه. ثم قال ﴿وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يقول يصطفيك ويختارك بالنبوة. قال بالحسن والجمال والمحبة في القلوب ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ يعني من تعبير الرؤيا. ويقال: يعني: هي الكتب المنزلة. ويقال عواقب الأمور. يعني يفهمك حتى تكون عالماً بعواقبها. ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ يعني يثبتك على الإسلام. ويقال: بالنبوة والإسلام ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ وأكرمهما بالنبوة وثبتهما على الإسلام. قال الزجاج: وقد فسر له يعقوب الرؤيا. فالتأويل أنه لما قال يوسف: «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً» تأول لأحد عشر نفساً لهم فضل وأنهم يستضاء بهم. لأن الكواكب لا شيء أضوء منها. وتأول الشمس والقمر أبويه. فالقمر الأب والشمس الأم والكواكب إخوته. فتأول ليوسف أنه يكون نبياً وأن إخوته يكونون أنبياء. لأنه أعلمه أن الله تعالى يتم نعمته عليه وعلى إخوته كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق ويقال كما أتمها على أبويك حين رأى

= وجهان: أحدهما أن يكون أراد: (يا أبتا) فأبدل من ياء الإضافة ألفاً ثم حذف الألف كما تحذف الياء وتبقى الفتحة دالة على الألف كما أن الكسرة تدل على الياء والوجه الآخر أنه إنما فتح التاء لأن هذه التاء بدل من ياء المتكلم وأصل ياء المتكلم الفتح فتقول: (يا غلامي) وإنما قلنا ذلك لأن الياء هو إسم والإسم إذا كان على حرف واحد فأصله الحركة فتكون الحركة تقوية للإسم فلما كان أصل هذه الياء الفتحة كان الواجب أن تفتح لأنها بدل من الحرف الذي (هو) أصله ليدل على المبدل.

وقف ابن كثير وابن عامر: (يا أبه) على الهاء. وحجتهما أن التغييرات تكون في حال الوقف دون الإدراج فتقول (رأيت زيداً) فتقف عليه بالألف. ووقف الباقون بالتاء. وحجتهم أن هذه التاء بدل من الياء فكما أن الياء على صورة واحدة في الوصل والوقف فكذلك البدل يجب أن يكون مثل المبدل منه على صورة واحدة. انظر حجة القراءات ٣٥٤.

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤. وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٤٠.

إبراهيم في المنام ذبح إبنه فأمره الله تعالى أن يفديه. وروي عن سعيد بن جبير عن إبن عباس أنه كان يجعل الجد أباً ثم يقرأ هذه الآية «كما أتمها على أبويك» ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعني عليم بما صنع به إخوته. حكيم بما حكم من إتمام النعمة عليه

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ قرأ إبن كثير «آية» بلفظ الوحدان(١). وهكذا قرأ مجاهد. يعني فيه علامة لنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وقرأ الباقون «آيات» بلفظ الجماعة. وهذا موافق لمصحف الإمام عثمان. حكى أبو عبيدة أنه رأى في مصحف الإمام هكذا. ومعنى الآية أن في خبر يوسف وإخوته عبرة وموعظة لمن سأل عن أمرهم. قال ابن عباس وذلك أن حبراً من أحبار اليهود دخل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم وكان قارئاً للتوراة. فوافق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ سورة يوسف كما أُنزلت في التوراة. فقال له الحبر يا محمد من علمكها؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ ـ علمنيها. فرجع الحبر إلى اليهود فقال لهم أتعلمون والله إن محمداً يقرأ سورة يوسف كما أُنزلت في التوراة؟ فانطلق بنَفرٍ منهم حتى جاءوا ودخلوا عليه فجعلوا يستمعون إلى قراءته ويتعجبون. فقالوا يا محمد من علمكها؟ قال الله علمنيها فنزلت: «لَقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين». وكان بدء أمرهم أن يعقوب عليه السلام كان مع خاله، وكان لخاله إبنتان إحداهما «لايا» ويقال «لاواه» وهي أكبرهما، والأخرى «راحيل» وهي أصغرهما، فخطب يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما، فقال له خاله هل لك مال؟ قال لا، ولكن أعمل لك، قال صداقها أن ترعى لي سبع سنين، وفي بعض الروايات قال أن تخدمني سبع سنين، فقال يعقوب أخدمك سبع سنين على أن تزوجني راحيل، وهي شرطي، قال ذلك بيني وبينك، فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما قضى الأجل زفت إليه الكبرى وهي لايا، قال يعقوب إنك خدعتني وإنما أردت راحيل، فقال له خاله إنا لا ننكح الصغيرة قبل الكبيرة فهلم فاعمل لي سبع سنين أُخرى، أزوجك أختها، وكان الناس يجمعون بين الأختين إلى أن بعث الله موسى عليه السلام، فرعى له سبع سنين فزوجه راحيل فجمع بينهما، وكان خاله حين جهزها دفع إلى كل واحدة منهما أمة تخدمها. فوهبتا الأمتين ليعقوب فولدت لايا أربعة بنين وولدت راحيل اثنين. وولدت كل واحدة من الأمتين ثلاثة بنين. فجملة بنيه اثنا عشر سوى البنات

قال الفقيه أبو الليث سمعت أهل التوراة يقولون إن أسماء أولاد يعقوب مبينة في التوراة. زوبيل وشمعون ويهوذا ولاوى فهؤلاء من امرأته لايا، ويوسف وبنيامين من امرأته الأُخرى راحيل، والستة الباقون من الأمتين خورية وبالعربية يساخر، وزبلون وبالعربية زبالون ودون ونفتال وحوذ وبالعربية حاذ وروى بعضهم خاذ بالخاء وأوشر. فأراد يعقوب أن يخرج إلى بيت المقدس ولم يكن له نفقة، وكان ليوسف خال له أصنام من ذهب فقالت لايا ليوسف

(١) وحجته قوله: (لقد كان في قصصهم عبرة) ولم يقل عبر كأنه جعل شأنه كله آية كما قال عز وجل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ فأفرد كل واحد منهما آية انظر حجة القراءات ٣٥٥، النشر ٢٩٣/٢، سراج القارىء ٢٥٤.

إذهب واسرق من أصنامه فلعلنا نستنفق به فذهب يوسف (فأخذها)[١] وكان يوسف أعطف على أبيه وكان أحب أولاده إليه فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له ورأى يوسف في المنام أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له ﴿إِذْ قَالُوا﴾ عند ذلك ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني جماعة عشرة، فهو يؤثرهما علينا في المنزلة والحب ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني في خطأ بين في حب يوسف وأخيه حيث قدم الصغيرين في المحبة علينا ونحن جماعة ونفعنا أكثر من نفعهما. وقال مقاتل كان فضل حسن يوسف على الناس في زمانه كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وقال القتبي: العصبة ما بين العشرة إلى الأربعين. ثم قال بعضهم لبعض ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيداً من أبيكم ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقول ليقبل لكم أبوكم بوجهه ويصف لكم وجهه. ويقال: يصلح حالكم عند أبيكم وتكونوا من بعدِهِ قوماً صالحين. يعني تصلح أحوالكم عند أبيكم بعد ذهاب يوسف. ويقال وتكونوا من بعد هلاكه قوماً تائبين إلى الله تعالى. وقال بعض العلماء هكذا يكون المؤمن يهيىء التوبة قبل المعصية.

قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني من إخوة يوسف ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله عظيم. وقال الكلبي: كان صاحب هذا القول يهوذا، لم يكن أكبرهم ولكن كان أعقلهم. وقال قتادة والضحاك: صاحب هذا القول روبيل وكان أكبر القوم سناً ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ يعني اطرحوه في أسفل الجب. وقال الزجاج: الغيابة كل ما غاب عنك (أو غيب شيئاً عنك)[٢] قرأ نافع[٣] غيابات بلفظ الجماعة وقرأ الباقون غَيَابَةِ لأن المعنى على موضع واحد. وروي عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ غَيْبَةِ ٱلْجُبِّ. وقال الزجاج ٱلْجُبُّ البئر التي ليست بمطوية. سميت جُبًّا لأنها قطعت قطعاً ولم يحدث فيها غير القطع. ثم قال ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ يعني يأخذه بعض من يمر عليه من المسافرين ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يعني إن كنتم لا بد فاعلين من الشر الذي تريدون. وروي عن الحسن ومجاهد أنهما قرآ «تلتقطه» بالتاء ومعناه تلتقطه السيارة وينصرف إلى المعنى. فلما قال لهم ذلك يهوذا أو روبيل أطاعوه بذلك وجاءوا إلى أبيهم و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ أن ترسله معنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ يعني لحافظون ويقال محبون مشفقون. قرأ أبو جعفر القاريء المدني[٤] «لَا تَأْمَنْا بجزم النون. وقرأ الباقون بإشمام النون إلى الرفع لأن أصلها تَأْمَنْنَا فادغمت أحداهما في الأُخرى وأقيم التشديد مقامه وبقي رفعه ثم قال: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً﴾ يعني أخوة يوسف قالوا لأبيهم: أرسل يوسف معنا إلى الغنم ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قال مجاهد: يحفظ بعضنا بعضاً ونتحارس وقال قتادة: ننشط ونسعى ونلهو وقال القتبي من قرأ بتسكين العين أي نأكل. يقال رتعت الإبل إذا رعت. ومن قرأ بكسر العين أراد به نتحارس ويرعى بعضنا بعضاً أي يحفظ. قرأ إبن كثير[٥] نَرْتَعِ بالنون وكسر العين ونلعب بالنون.

---

(١) في أ [فأخذوا واحداً منها]. (٢) سقط في أ. (٣) انظر حجة القراءات ٣٥٥، والنشر ٢/٢٩٣.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٤١. (٥) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٥.

وقرأ(١) نافع يَرْتَعِ بالياء وكسرالعين. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ بالياء وجزم العين. وقرأ أبو عمرو وإبن عامر «نَرْتَعْ ونَلْعَبْ» بالنون وجزم العين. واتفقوا في جزم الباء. قال أبو عبيدة قلت لأبي عمرو كيف يقولون نلعب وهم أنبياء؟ قال لم يكونوا يومئذ أنبياء. قال أبو الليث رحمه الله: لم يريدوا به اللعب الذي هو منهى عنه وإنما أرادوا به المطايبة في خروجهم. وفيه دليل أن القوم إذا خرجوا من المصر فلا بأس بالمطايبة والمزاح في غير مأثم ويقال: يرتع ويلعب يعني: يجيء ويذهب حتى يتشجع ويترجل. ويقال: حتى نجمع النفع والسرور ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ لا يصيبه أذىً ولا مكروه، وإنا مشفقون عليه ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ يعني إن ذهابكم به ليحزنني قرأ نافع «لَيُحْزِنُنِي» بضم الياء وكسر الزاي. وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الزاي ومعناهما واحد. ثم قال ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ يعني أخاف أن تضيعوه فيأكله الذئب ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يعني مشغولين في أمركم. قرأ أبو عمرو والكسائي ونافع في رواية ورش(٢)الذِّيبُ؟ بغير همز. وقرأ الباقون بالهمز. وهما لغتان. وروي عن بعض الصحابة أنه قال: لا ينبغي أن يلقن الخصم بحجةٍ. لأن إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس إلى أن قال ذلك يعقوب. وإنما قال ذلك يعقوب لأنه رأى في المنام أن ذئباً كان يعدوا على يوسف فأنجاه بنفسه

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني جماعة عشرة ﴿إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ يعني لعاجزين. فلما قالوا ذلك رضي بخروجه فبعثه معهم وأوصاهم عند خروجه أن يحسنوا إليه ويتعاهدوا أمره ويردوه إذا طلب الرجوع فقبلوا ذلك منه. ويقال إنه أبى أن يرسله معهم حتى أتوا يوسف فقالوا له أطلب من أبيك ليبعثك معنا وطلب يوسف ذلك من أبيه فبعثه معهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ يعني فلما برزوا به إلى البَرِيَّة ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ يقول: واتفقوا أن يلقوه في أسفل الجب. ثم أظهروا له العداوة فجعل أحدهم يضربه فيستغيث فيضربه الآخر فجعل لا يرى منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه فقال يهوذا أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب. وهي بئر على رأس فرسخين من كنعان. ويقال أربع فراسخ فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفة البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أتوارى به في الجب. فقالوا ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يؤنسوك. فدلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ورادوا أن يموت. وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى إلى صخرة في البئر وقام عليها وجعل يبكي فجاءه جبريل يؤنسه ويطعمه. قال الله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ يعني لتخبرنهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ يعني: بصنيعهم هذا بمصر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني لا

(١) في أ [الباقون ونافع].

(٢) انظر حجة القراءات ٣٥٧، وإتحاف فضلاء البشر ١٤٢/٢.

يعرفونك بمصر. ويقال: معناه: وأوحينا إليه. . لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أن الله تعالى أوحى إليه وهم لا يعرفون. ويقال لما أرادوا أن يلقوه في البئر تعلق بإخوته. فقال لـه جبريل لا تتعلق بهم فإنك تنجو من البئر فألقوه حتى وقع في قعرها فارتفع حجر حتى قام عليه. ثم إنهم أخذوا جدياً من الغنم فذبحوه ثم لطخوا القميص بدمه ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ يعني أقبلوا إلى أبيهم عشاء يبكون. فلما سمع أصواتهم يعقوب. فزع وقال يا بني مالكم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ يعني نَتَصَيَّدُ. ويقال ننتضل أي يسابق بعضنا لبعض في الرمى ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ فلما قالوا هذا القول بكى يعقوب وصاح بأعلى صوته ثم قال أين قميصه؟ فأخذ القميص وبكى، ثم قال إن هذا الذئب كان بابني رحيماً كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه. وروى سماك عن عامر أنه قال: في قميص يوسف ثلاث آيات. حين قد قميصه من دبر، وحين ألقي على وجه أبيه فارتد بصيراً، وحين جاءوا على قميصه بدم كذب. على أن الذئب لو أكله لخرق قميصه. فقال لهم كذبتم فقالوا له ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ يعني بمصدق لنا في مقالتنا ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ في مقالتنا ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ (يعني بدم السخلة ولم يكن دم يوسف. ويقال بدم كذب أي مكذوب به. وقرأ بعضهم بدم كدب بالدال يعني بدم طري فأروه القميص بالدم ليعرف به. وهي قراءة شاذة وقراءة العامة بالذال)[1] ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ يقول: زينت واشتهت لكم أنفسكم أمراً فضيعتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يعني على صبر جميل بلا جزع. ويقال معناه لا حيلة لى إلا الصبر. ويقال فصبري صبر جميل وروي عن بعض الصحابة أنه كان يقرأ «فَصَبْراً جَمِيلاً» يعني أصبر صبراً جميلاً. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن قوله «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» قال صبر[2] لا شكوى فيه ومن بث فلم يصبر. ثم قال ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يقول: أستعين بالله وأطلب العون من الله على ما تقولون وتكذبون من أمر يوسف. قوله تعالى:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي قافلة يمرون من قبل مدين إلى مصر، فنزلوا بقرب البئر ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: طالب مائهم. ويقال أرسل كل قوم ساقيهم ليستقي لهم الماء. فجاء مالك بن ذعر إلى الجب الذي فيه يوسف ﴿فأدلى دلوه﴾ يقول: أرخى وأرسل دلوه في البئر فتعلق يوسف بالدلو فنظر مالك بن ذعر فإذا هو بغلام أحسن ما يكون من الغلمان ﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ قرأ إبن كثير ونافع وأبو عمرو وإبن عامر[3] «يَا بُشْرَايَ» بالألف والياء ونصب الياء. وقرأ عاصم «يَا بُشْرَىْ» بنصب الراء وسكون الياء. وقرأ نافع في رواية ورش والألف والياء مع السكون «يَا بُشْرَايْ» وكذلك يقرأ في «مَثْوَايَ» و «مَحْيَايَ» و «عَصَايَ» بسكون بالياء. وقرأ حمزة والكسائي «يَا بُشْرِي» بغير ألف وسكون الياء وكسر الراء. فمن قرأ يا بشرَايَ. يكون بمعنى الإضافة ألى نفسه. ومن قرأ يا بشْرَى يكون على معنى تنبيه المخاطبين. كقوله يا عجبًا. وإنما أراد به اعجبوا. ومن قرأ يا بشرى كأنه اسم رجل

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر امنثور ٤/١٠ وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب الصبر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حيان بن أبي جبلة.

(٣) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٧.

دعاه باسمه بشرى. وقال أبو عبيدة هذه القراءة تقرأ لأنها تجمع المعنيين إن أراد به الإسم أو أراد به البشرى بعينها. وقال السدي تعلق يوسف بالحبل فخرج، فلما رآه صاحب الدلو نادى رجلاً من أصحابه يقال له: البشرى، وقال: يا بشراي هذا غلام. وقال قتادة[١]: وغيره إنه بشر واردهم حين وجد يوسف. ثم قال ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ يعني التُّجار بعضهم من بعض. وقال بعضهم لبعض اكتموه من أصحابكم لكيلا يسئلوكم فيه شركة فإن قالوا لكم ما هذا الغلام؟ قولوا استبضعنا بعض أهل الماء لنبيعه لهم بمصر فذلك قوله: «وأَسَرُّوهْ بِضَاعَةً» يعني أسروه وأعلنوه بضاعة. فرجع إخوته بعد ثلاثة أيام فرأوا يوسف في أيديهم فقالوا هذا غلام أبق منا منذ ثلاثة أيام. فقيل لهم ما بال هذا الغلام لا يشبه العبيد وإنما هو يشبهكم؟ فقالوا إنما ولد في حجرنا (وإنه إبن وليدة أمنا أمرتنا ببيعه. وقالوا ليوسف بلسانهم لئن أنكرت أنك عبد لنا أخذناك ونقتلك. أترى أنا نرجع بك إلى يعقوب أبداً وقد أخبرناه أن الذئب قد أكلك. فقال يا إخوتاه ارجعوا بي إلى أبي ضامن لكم رضاه وأنا لا أذكر لكم هذا أبداً فأبوا عليه فذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يعني بما يصنع به إخوته. قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ بثمن يعني باعوه ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ يعني ظلماً وحراماً لم يحل بيعه. ويقال بدراهم رديئة. ويقال البخس الخسيس ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أي يسير عددها. وقال مجاهد: البخس القليل. والمعدودة عشرين درهماً. وقال كان في ذلك الزمان ما كان فوق الأوقية وزنوه وزناً، وما كان دون الأوقية عدوه عداً. وقال بعضهم باعوه بعشرة دراهم. لأن إسم الدرهم يقع على ما بين الثلاثة إلى العشرة فأصاب كل واحد منهم درهماً. وروي عن الضحاك أنه قال: باعوه بإثني عشر درهماً. وقال إبن مسعود: بيع بعشرين درهماً. وقال عكرمة[٢]: البخس أربعون درهماً وقال بعضهم: لم يبعه إخوته ولكن الذين وردوا الماء وجدوه في البئر وأخرجوه من البئر فباعوه بثمن بخس دراهم معدودوة وهو قول المعتزلة (لأن مذهبهم أن الأنبياء معصومون عن الكبيرة قبل النبوة لأن الكبيرة عندهم تخرج المؤمن عن الإيمان وعند أهل السنة الكبيرة لا تخرج المؤمن عن الإيمان وجاز جريان المعصية قبل النبوة)[٣]وقال عامة المفسرين إن إخوته باعوه (وروي عن ابن عباس[٤] أن إخوته باعوه)[٥] بعشرين درهماً وكتب يهوذا شراءه على رجل منهم. ثم قال ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يعني الذين اشتروه لم يعلموا بحاله وقصته ويقال: يعني: إخوة يوسف. في ثمنه لم يكونوا محتاجين إليه. ثم إن مالك بـن ذعر لما أدخله مصر باعه. قال مقاتل: باعه بعشرين ديناراً ونعلين وحلة. وقال الكلبي: بعشرين درهماً ونعلين وحلة. وقال بعضهم باعه بوزنه فضة. وقال بعضهم باعه بوزنه ذهباً. وقال وهب بن منبه باعه مالك بن ذعر بعد ما عرضه في بيع «من يزيد» ثلاثة أيام فزاد الناس بعضهم على بعض حتى بلغ ثمنه بحيث لا يقدر أحد عليه فاشتراه عزيز مصر. وكان خازن الملك وصاحب جنوده، لإمرأته زليخا بوزنه مرة مسكاً ومرة لؤلؤاً ومرة ذهباً ومرة فضة ومرة حللاً وسلم إليه كلها.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره الهيثمي في الدر المنثو ٤/١١ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) سقط في ظ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٥) سقط في ظ.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ
مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن
رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامرأَتِهِ﴾ (قال ابن عباس كان اسمه قطيفر وهو العزيز) قال لامرأته واسمها زليخا ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ يعني منزله وولايته ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في ضياعنا وغلاتنا على وجه التبرك به ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ يقول نتبناه فيكون ابناً لنا. وروى ابن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود[١] قال: أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا». وبنت شعيب التي قالت «يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ». وأبو بكر حين تفرس في عمر وولاه من بعده. قال الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني في أرض مصر وهي (أربعين فرسخاً في أربعين فرسخاً)[٢]﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعني كي يلهمه تعبير الرؤيا وغير ذلك من العلوم ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ إذا أمر بشيء لا يقدر أحد أن يرد أمر الله تعالى إذا أراد بأحد من خلقه. ويقال والله تعالى غالب على أمره يعني وليته فيتم أمر يوسف الذي هو كائن ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعني أهل مصر. ويقال يعني أهل مكة لا يعلمون أن الله تعالى غالب على أمره.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني تمت قوة نفسه وعقله. ويقال بلغ مبلغ الرجال. ويقال الأشد بلوغ ثلاثين سنة. وقال الضحاك: يعني بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة ويقال الأشد ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثمان وثلاثين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾أي: أكرمناه بالنبوة والعلم والفهم والفقه فجعلناه حكيماً وعليماً ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني هكذا نكافىء من أحسن. ويقال هكذا نجزي المخلصين في العمل بالفهم والعلم. قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني: راودته عما أرادت عليه مما تريد النساء من الرجال فعلم بذكره ذكر الفاحشة. ومعناه طلبت إليه أن يمكنها من نفسه. يعني امرأة العزيز واسمها زليخا. ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ﴾ عليها وعلى يوسف وجعلت تغره وتمازحه ويوسف يعظها بالله ويزجرها. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان يوسف إذا تبسم رأيت النور في ضواحكه وإذا تكلم رأيت شعاع النور في كلامه يذهب من بين يديه. ولا يستطيع آدمي أن ينعت نعته. فقالت له: يا يوسف ما أحسن عينيك؟ قال هما أول شيء يسيلان إلى الأرض من جسدي. ثم قالت يا يوسف ما أحسن ديباج وجهك قال هو للتراب يأكله. ثم قالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتشر من جسدي ﴿وَقَالَتْ﴾ يا يوسف ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم[٣] «هَيْتَ» بنصب الهاء والتاء يعني أقبل. ويقال هلم إلي والعرب تقول هيت فلان لفلان إذا دعاه وصاح به وهكذا قرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن وقرأ ابن عامر في رواية هشام «هِئْتُ» بكسر الهاء والهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك. وقرأ ابن كثير «هَيْتُ» لك بنصب الهاء وضم التاء ومعناه: أنا لك وأنا فداؤك. وقرأ نافع وابن عامر في إحدى الروايتين «هِيتَ» بكسر الهاء ونصب التاء بغير همز. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يعني:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ والحاكم وصححه.

(٢) في أ [وهي أربعون فرسخاً].

(٣) انظر النشر ٢/٢٩٣، حجة القراءات ٣٥٧، سراج القارىء ٢٥٦.

قال يوسف أعوذ بالله أن أعصيه وأخونه ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ يعني إن سيدي الذي اشتراني أحسن إكرامي فلم أكن لأفعل بامرأته ذلك ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني لا ينجو الزناة من عذاب الله تعالى. وفي هذه الآية دليل أن معرفة الإحسان واجب. لأن يوسف امتنع عنها لأجل شيئين لأجل المعصية والظلم ولأجل إحسان الزوج إليه. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ روى حماد بن سلمة عن الكلبي أنه قال: كان من همها أنها دعته إلى نفسها واضجعت. وهَمَّ بها بالموعظة والتخويف من الله تعالى وقيل: أنه حل سراويله وجلس بين رجليها[1] ﴿لَوْلَا أَنْ رَآى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يقول مثل له يعقوب في الحائط عاضاً على شفتيه فاستحيى فتنحى بنفسه، وقال وهب بن منبه لم تزل تخدعه حتى هم بها ودخل معها في فراشها، فنودي من السماء مهلا يا يوسف فإنك لو وقعت في الخطيئة محي اسمك عن ديوان النبوة. وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه سئل عن قوله «لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» ما بلغ من همه قال أطلق هيمانه. فنودي يا يوسف لا تكن كالطائر له ريش فزنا فسقط ريشه، ويقال كان همها هم إرادة وشهوة وهمه هم اضطرار وغلبة. وقال بعضهم كان همه حديث النفس والفكر، وحديث النفس والفكر مرفوعان. وقال بعضهم هم بها يعني يضربها وقال بعضهم يعني هم بالفرار عنها وقال بعضهم: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ» تم الكلام. ثم «وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» يعني لما رأى البرهان لم يهم بها. فقد قيل هذه الأقاويل والله أعلم. وقد روي في الخبر أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة غير يحيى بن زكريا ولكنهم كانوا معصومين من الفواحش قوله تعالى: (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: مثل له يعقوب فضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال محمد بن كعب لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ قال لولا أن قرأ القرآن من تحريم الزنا وذلك أنه استقبل بكتاب الله تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) قال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

(١) وهذا من التقول على نبي الله يوسف عليه السلام بأنه جلس بين رجلي كافرة أجنبية ولوائح الكذب على مثل هذا ظاهر قال أبو حيان في البحر المحيط والذي اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها ألبتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول: لقد قاربت لولا أن عصمك الله. ولا تقول: • إن جواب (لولا) متقدم عليها وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك بل صريح أدوات الشروط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها. وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد. بل نقول: إن جواب (لولا) محذوف لدلالة ما قبله عليه كما يقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت فيقدرونه إن فعلت فأنت ظالم. ولا يدل قوله أنت ظالم على ثبوت الظلم بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل وكذلك هنا التقدير: [لولا أن رأى برهان ربه لهم بها] فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم، ولا التفات إلى قول الزجاج ولو كان الكلام: ولهم بها كان بعيداً فكيف مع سقوط اللام؟ لأنه يوهم أن قوله: ﴿هم بها﴾ هو جواب (لولا) ونحن لم نقل بذلك وإنما هو دليل الجواب وعلى تقدير أن يكون نفس الجواب فاللام ليست بلازمة لجواز أن يأتي جواب (لولا) إذا كان بصيغة الماضي باللام. وبغير لام تقول: لولا زيد لأكرمتك ولولا زيد أكرمتك فمن ذهب إلى أن قوله: وهم بها﴾ نفس الجواب لم يبعد ولا التفات لقول (ابن عطية وإن قول) من قال: إن الكلام قد تم في قوله ﴿ولقد همت به﴾ وإن جواب (لولا) في قوله: (وهم بها) وإن المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم به فلم يهم يوسف عليه السلام. قال: وهذا قول يرده لسان العرب وأقوال السلف أ هـ. أما قوله: يرده لسان العرب فليس كما ذكر وقد استدل من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب قال الله تعالى: ﴿إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ فقوله: إن كادت لتبدي به: إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل وإما أن يتخرج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به. وأما أقوال السلف: فنعتقد أنه لا يصح على أحد منهم شيء من ذلك لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضا مع كونها قادحة في بعض فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي روي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدروا جواب (لولا) محذوفاً ولا يدل عليه دليل لأنهم لم يقدروا لهم بها ولا يدل كلام العرب إلاّ على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط لأن ما قبل الشرط دليل عليه. انظر أضواء البيان ٣/٦١ ـ ٦٢.

﴿السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ يقول: هكذا صرفت السوء والفحشاء عن يوسف بالبرهان حين استعاذ إليّ[1] بقوله معاذ الله ثم قال ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بالتوحيد والطاعة. قرأ إبن كثير وأبو عمرو وإبن عامر[2] «الْمُخْلِصِينَ» بكسر اللام ومعناه ما ذكرناه. وقرأ الباقون «الْمُخْلَصِينَ» بالنصب يعني المعصومين من الذنوب والفواحش. ويقال أخلصه الله تعالى بالنبوة والرسالة والإسلام

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ يعني تبادرا إلى الباب يعني يوسف وزليخا. أما يوسف فاستبق ليخرج من الباب، وأما زليخا فاستبقت لتغلق الباب على يوسف فأدركته قبل أن يخرج فتعلقت به قبل أن يخرج من الباب ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ يعني مزقت قميصه من خلفه ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ يعني صادفا ووجدا سيدها ﴿لَدَى البابِ﴾ يعني زوجها عند الباب. ﴿قَالَتْ﴾ زليخا لزوجها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً﴾ يعني قالت لزوجها ما جزاء يعني ما عقاب من أراد بأهلك سوءا. يعني قصد بها الزنا ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ يعني: يحبس في السجن ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني يضرب ضرباً وجيعاً. وذلك أن الزوج قال لهما ما شأنكما؟ قالت له زليخا كنت نائمة في الفراش عريانة فجاء هذا الغلام العبراني وكشف ثيابي وراودني عن نفسي فدفعته عن نفسي فانشق قميصه ﴿قَالَ﴾ يوسف بل ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَّفْسِي﴾ يعني دعتني إلى نفسها (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا) قال مجاهد: قميصه شاهد أنه قَدْ قُدَّ من دبر، فظهر أن الذنب لها بتلك العلامة وروي عن[3] ابن عباس أنه قال: كان صبي في المهد لم يتكلم بعد فتكلم وقال «إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ» الآية وقال قتادة[4]: كان رجلاً حكيماً من أهلها. ويقال كان رجلاً من خواص الملك. وروي عن عكرمة أنه قيل له أنه صبي، قال لا، ولكنه رجل حكيم. وقال الحسن: كان رجلاً له رأي فقال برأيه. وروى أبو صالح عن إبن عباس أنه قال: كان زوجها على الباب مع إبن عم لها يقال له ممليخا وكان رجلاً حكيماً فقال قد سمعنا الاشتداد والجلبة من وراء الباب ولا ندري أيكما قدام صاحبه؟ إن كان قد شق القميص من قدامه فأنت صادقة فيما قلت. وإن كان مشقوقاً من خلفه فهو صادق. فنظروا إلى قميصه فإذا هو مشقوق من خلفه فذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ يعني زليخا ﴿وَهُوَ﴾ يعني يوسف ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (وإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾ يعني زليخا ﴿وَهُوَ﴾ يعني يوسف ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك أن

(١) في أ [بي].
(٢) انظر النشر ٢/٢٩٥، سراج القارىء ٢٥٧.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٥ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الرجل لا يأتيها إلا مقبلاً. ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ يعني مقدوداً من دبر ﴿قَالَ﴾ إبن العم ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ يعني صنيعكن. ويقال قال الزوج ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ يعني صنيعكن عظيم يخلص إلى البريء والسقيم والصالح والطالح. وفي هذه الآية دليل أن القضاء بشهادة الحال جائز. وقال بعض الحكماء سمى الله كيد الشيطان ضعيفاً وسمى كيد النساء عظيماً، لأن كيد الشيطان بالوسوسة والخيال. وكيد النساء بالمواجهة والعيان. ثم أقبل على يوسف فقال ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يعني يا يوسف أعرض عن هذا القول ولا تذكره واكتم هذا الحديث. ثم أقبل عليها فقال ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ يعني توبي وارجعي عن ذنبك. ويقال ابن عمها هو الذي قال لها واستغفري لذنبك يعني: اعتذري إلى زوجك من ذنبك ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يعني من المذنبين. وفشا ذلك الخبر في مصر وتحدثت النساء فيما بينهن.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال الكلبي: (هو)[١] أربع نسوة، امرأة ساقيه، يعني ساقي الملك وامرأة الخباز وامرأة صاحب السجن وامرأة صاحب الدواب ويقال هن خمس خامستهن امرأة صاحب الملك. ويقال أربعون امرأة ويقال جماعة كثيرة من النساء اجتمعت في موضع وقلن فيما بينهن ﴿امرأةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني تطلب عبدها وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قال الحسن[٢] أي شق شغاف قلبها حبه. وقال عامر الشعبي الشغوف المحب والمشغوف المحبوب. وقال القتبي: قد شغفها حباً أي بلغ الحب شغافها وهو غلاف القلب. قال ومن قرأ قد شعفها أي فتنها من قولك فلان شعوف بفلانة. ويقال شغف الشيء إذا علاه. قد شغفها أي علاها. ويقال أهلكها فلا تعقل غيره «إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» يعني في خطأ بين ويقال في عشق بين أي لا تعقل غيره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ يعني سمعت زليخا بمقالتهن. وإنما سمي قولهن مكراً. والله أعلم لأن قولهن لم يكن على وجه النصيحة والنهي عن المنكر، ولكن كان على وجه الشماتة والتعيير ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ فدعتهن ﴿وَأَعَدَّتْ لَهُنَّ متكأً﴾ أي اتخذت لهن وسائد يتكين عليها. وذلك أنها اتخذت ضيافة ودعت النساء ووضعت الوسائد لجلوسهن. وقال الفراء من قرأ مُتّكاً غير مهموز[٣] فإنه الأُترج وكذلك قال ابن

---

(١) في أ [هن].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) قرأ أبو جعفر (متكاً) بتنوين الكاف وحذف الهمزة بوزن (متقي) خفف بترك الهمزة كقولهم (توضَّيْتُ في توضأت) وعن المطوعي =

عباس. روى منصور عن مجاهد أنه قال من قرأ مثقلة قال يعني الطعام ومن قرأ مخففة قال الأُترج ويقال الزُّمَّاوَرْد[١] (وهو نوع من التمر)[٢] وقال عكرمة[٣]: كل شيء يقطع بالسكين ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ يعني أعطت زليخا كل واحدة من النسوة سكيناً وأمرت يوسف بأن يلبس أحسن ثيابه وزينته أحسن الزينة ﴿وَقَالَتْ﴾ له ﴿أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ يعني اخرج على النساء فخرج عليهن روى أبو الأحوص عن ابن مسعود[٤] قال: أوتي يوسف وأمه ثلث حسن الناس في الوجه والبياض وغير ذلك. وكانت المرأة إذا رأت يوسف غطى وجهه مخافة أن تفتن به. فلما خرج يوسف إلى النسوة غطى (نفسه)[٥] فنظرن إليه. ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ يقول أعظمنه أي أعظمن شأنه وتحيرن وبقين مدهوشات طائرة عقولهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ يقول حززن وخدشن أيديهن بالسكين ولم يشعرن بذلك ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ يعني معاذ الله. ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ قرأ بعضهم بالرفع[٦]وقرأ بعضهم ما هذا ببشر يعني: مثل هذا لا يكون بشراً وقراءة العامة ما هذا بشراً بنصب الراء والتنوين لأنه خبر «ما» ولأنه صار نصباً لنزع الخافض. ومعناه ما هذا بشراً يعني: مثل هذا لا يكون آدمياً ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يعني على ربه. فإن قيل إنهن لم يرين الملك فكيف شبهنه بشيء لم يرينه؟ قيل له لأن المعروف عند الناس أنهم إذا وصفوا أحداً بالقبح يقولون هذا يشبه الملك وهذا يشبه الجن كما إنهم إذا وصفوا أحداً بالقبح يقولون هو كالشيطان وإن لم يروا الشيطان قرأ أبو عمرو[٧]«حَاشَا لِلَّهِ» بالألف. وقرأ الباقون بغير ألف. وكذلك الذي بعده ﴿قَالَتْ﴾ زليخا للنسوة ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يقول عذلتنني فيه وعبتنني فيه فهل عذرتنني؟ فقلن لها: أنت معذورة. قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع بنفسه مني ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾ يعني احبسنه في السجن ﴿وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ يعني من المهانين بالسجن ويقال مذللين. وقرأ بعضهم[٨] «ليكونَنَّ» بتشديد النون وهذا خلاف مصحف الإمام. وقراءة العامة وليكوناً لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف بالألف. ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يقول: يا سيدي ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾ النسوة ﴿إِلَيْهِ﴾ من العمل القبيح. قرأ بعضهم «قَالَ رَبِّ السَّجْنُ» بنصب السين على معنى المصدر. يقال سجنته سَجْناً وهي قراءة شاذة وقراءة العامة بالكسر. يعني نزول بيت السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، يعني به امرأة العزيز خاصة. ويقال أراد به النسوة اللاتي حضرن هناك. لأنهن قلن له أطع مولاتك ولا تخالفها فإن لها عليك حقاً وقد اشترتك بمالها وهي تحسن إليك وتحبك وتطلب هواك. فقال رب السجن أحب إليَّ. وقال بعض الحكماء لو أنه قال رب العافية أَحَبُّ إليّ لعافاه الله تعالى. ولكن لما نجا بدينه لم يبال بما أصابه في الله. ثم قال: ﴿وإلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ يعني إن لم تصرف عني عملهن وشرهن ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي أمل إليهن ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني من المذنبين

= (متكأ بسكون التاء وبالهمزة على وزن (مفعلًا) مأخوذ من تكىء يتكأ بمعنى اتكأ قال ابن جني: وأما متكأ ساكنة بالتاء فقالوا هو اترج.انظر المحتسب لابن جني ١/٣٤٠.

(١) الزماورد بالضم: طعام من البيض واللحم ترتيب القاموس ٤/٥٩٧.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧ وعزاه لابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني.

(٥) في أ [وجهه].

(٦) انظر تفسير القرطبي ٩/١٢٠ ـ ١٢١.

(٧) انظر تفسير القرطبي ٩/١٢١.

(٨) النشر ٢/٢٩٥، حجة القراءات ٣٥٩.

فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فيما دعاه[1] ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ يعني فعلهن وشرهن ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع لمن دعاه يعني: السميع للدعاء فيما دعاه يوسف. العليم به. ثم إن المرأة قالت لزوجها إن هذا الغلام العبراني لا ينقطع عني وقد فضحني في الناس يعتذر إليهم ويخبرهم أنني راودته عن نفسه ولست أطيق أن أعتذر بعذري. فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس وأخبرهم بحالي وإما أن تحبسه حتى ينقطع حديثه فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ يعني ثم بدا للزوج من بعد ما رأى شق القميص وقضاء إبن عمها بينهما ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ قال الكلبي: سجنه خمس سنين. ويقال حتى حين. يعني إلى يوم من الأيام وإلى وقت من الأوقات. قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ يعني حبس معه في السجن الخباز والساقي، عبدان للملك غضب عليهما. يعني صاحب شرابه وصاحب مطعمه﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ ليوسف ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يعني عنباً بلغة عمان. قال الضحاك إن ناساً من العرب يسمون العنب خمراً. ويقال معناه أعصر العنب الذي يكون عصيره خمراً. وذلك أنه قال رأيت في المنام كأني دخلت كرماً فيه حبلة حسنة فيها ثلاث من القضبان وفي القضبان ثلاثة عناقيد عنب قد أينع وبلغ. فأخذته وعصرته في الكأس ثم أتيت به الملك فسقيته. ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ يقول رأيت في المنام كأني أحمل فوق رأسي ثلاث سلال خبزاً ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ يقول: أخبرنا بتفسير هذه الرؤيا ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي من الموحدين وذلك أنه ينصر المظلوم ويعين الضعيف وكان يداوي مرضاهم ويعزي مكروبهم. فإذا احتاج واحد منهم قام وجمع له شيئاً. ويقال إنا نراك من المحسنين. يعني من الصادقين في القول. ويقال كان متعبداً لربه. ويقال كان أهل السجن يجتمعون عنده ويسألونه أشياء فيخبرهم. فقالا إنا نراك من المحسنين. يعني نراك عالماً وقد أحسنت العلم ﴿قَالَ﴾ لهما يوسف عليه السلام ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ يعني تطعمانه ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ يقول أخبرتكما بتفسيره وألوانه ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ الطعام. وإنما أراد بذلك أن يبين لهما علامة نبوته. وهذا مثل قول عيسى عليه السلام لقومه (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) فلما أخبر يوسف بذلك. قالا وكيف تعلم ولست بساحر ولا عراف ولا كاهن قال يوسف ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ أراد أن يبين لهما علامة نبوته لكي يسلما. ثم قال ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ يعني تبرأت من ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ يعني دين قوم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي لا يصدقون بوحدانيته ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني بالبعث جاحدون. ثم

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ

(١) في أ [دعاه يوسف].

ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ
خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ
فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

قال تعالى ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني: دينهم ﴿مَاكَانَ لَنَا﴾ أي ما جاز لنا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الآلهة ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (يعني ويقال ذلك الإرسال الذي أرسل إليه بالنبوة من فضل الله):[1] ﴿عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ يعني المؤمنين. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني أهل مصر ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ النعمة. ثم دعاهما إلى الإسلام فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يعني الخباز والساقي ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أي الآلهة وعبادتها ﴿خَيْرٌ أَمْ﴾ عبادة ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من الآلهة ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: لا عذر ولا حجة لعبادتكم إياها ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما القضاء في الدنيا والآخرة إلا لله ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ يعني أمر (في الكتاب) أن لا تطيعوا في التوحيد إلا إياه ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني التوحيد، الدين المستقيم وهو دين الإسلام الذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: أهل مصر ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن دين الله هو الإسلام. ثم أخبرهما بتأويل الرؤيا بعد ما نصحهما ودعاهما إلى الإسلام وأخذ عليهما الحجة فقال ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ وهو الساقي. قال له يوسف تكون في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج، فتكون على عملك وتسقي سيدك خمراً. قراءة العامة[2] «فَيَسْقِي» بنصب الياء. يقال سَقَيْتُهُ إذا ناولته. وقرأ بعضهم «فَيُسْقِي» من أسقيته إذا جعلت له ساقياً. يعني تتخذ الشراب الذي يسقى الملك ثم بين تأويل رؤيا الآخر فقال ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ﴾ يعني يخرج من السجن بعد ثلاثة أيام ويصلب ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فلما أخبرهما يوسف بتأويل الرؤيا قالا ما رأينا شيئاً فقال لهما يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿قُضِيَ الأمر الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يعني تسألان. رأيتماها أو لم ترياها. قلتما لي وقلت لكما. فكذلك يكون. وروى إبراهيم النخعي عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه قال إنهما كانا تحالما ليجرباه. فلما أول رؤياهما قالا إنما كنا نلعب. قال يوسف قضي الأمر الذي فيه تستفتيان

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ
فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ

---

(١) سقط في أ.

(٢) وقرأ الجمهور فيسقى ربه من سقى، وفرقة فيسقى ومن أسقى وهما لغتان بمعنى واحد. وقرىء في السبعة نسقيكم ونسقيكم. وقال صاحب اللوامع سقى وأسقى بمعنى واحد في اللغة والمعروف. أن سقاه ناوله ليشرب وأسقاه جعل له سقياً، ونسب ضم الفاء لعكرمة والجحدري ومعنى ربه سيده. وقال ابن عطية وقرأ عكرمة والجحدري فيسقى ربه خمراً بضم الياء وفتح القاف: أي ما يرويه. وقال الزمخشري وقرأ عكرمة فيسقى ربه فيسقى ما يروي به على البناء للمفعول. انظر البحر المحيط ٥/٣١١.

وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ يعني: قال يوسف ـ عليه السلام ـ للذي علم أنه ينجو من السجن والقتل وهو الساقي ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال يوسف للساقي إذا دعاك الملك وسقيته فاذكرني عنده إني مظلوم قد عدا علي إخوتي فباعوني ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ يعني: أنسى (الشيطان يوسف أن يستغيث بالله فاستغاث بالملك. وقال الفراء: أنسى)[1] الشيطان الساقي أن يذكر يوسف عند الملك. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى «فأنْسَاهُ الشَّيطَانُ»: قال هو يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه وأمره بذكر الملك وابتغى الفرج من عنده ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ بقوله اذكرني عند ربك. وروى معمر عن قتادة[2] أنه قال بلغني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لو لم يستعن يوسف على ربه لما لبث في السجن طول ما لبث. وروي عن أبي عبيدة أنه قال: البضع ما دون نصف العقد. يعني من واحد إلى أربعة. وقال الأصمعي ما بين الثلاث إلى التسع. (هكذا قال قطرب والسدي. وروى منصور عن مجاهد قال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع)[3]. وذكر عبد العزيز بن عمير الكندي أن يوسف رأى جبريل في السجن فقال له: يا أخا المنذرين مالي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين رب العزة يُقرِئُكَ السلام ويقول أما استحيت مني إذ استغثت بالآدميين فبعزتي لألبثنك في السجن بضع سنين. قال بعضهم يعني سبع سنين سوى الخمس الذي مكث فيه وذلك اثنتا عشرة سنة. وقال بعضهم جميع ما أقام فيه سبع سنين وقال بعضهم ثماني عشرة سنة. وقال بعضهم إن الملك رأى في المنام. واسم الملك ريان بن الوليد فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى﴾ يعني رأيت في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن من نهر مصر ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ بقرات ﴿عِجَافٌ﴾ هزلى فابتلع العجاف السمان فدخلن في بطونهن فلم ير منهن شيء ورأيت ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يعني العرافين والسحرة والكهنة ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ يعني عبروا رؤياي وبينوا تفسيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي تفسرون ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يعني أباطيل الأحلام مختلطة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ يعني: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل. وقال أهل اللغة : كل رؤيا لا تأويل لها فهي أضغاث أحلام. أي أباطيل الأحلام. واحدها ضغث

وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣١٢.

﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ يعني تذكر بعد حين. يعني بعد سبع سنين. وقال الزجاج أصل ادكر اذكر. ولكن التاء أبدلت بالدال وأدغم الذال في الدال. وقال القتبي: الأمة الصنف من الناس والجماعة كقوله تعالى (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) ثم تستعمل الأمة في الأشياء المختلفة. يقال للإمام أمة كقوله «إن إبراهيم كان أمة» لأنه سبب للاجتماع ويسمى الدين أمة كقوله (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي على دين. لأن القوم يجتمعون على دين واحد فيقام ذلك اللفظ مقامه. ويسمى الحين أمة كقوله «وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ». وكقوله (إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) وإنما سمى الحين أمة أيضاً لأن الأمة من الناس ينقرضون في حين. فيقام الأمة مقام الحين. وقرأ بعضهم: (وادَّكَرَ بعد أَمَةٍ) يعني بَعْدَ بعُدِ نسيانٍ يقال (أَمِهْتُ أي نسيت)[1] وقال الفراء: يقال رجل مأموه كأنه ليس معه عقل. فلما تذكر الساقي حال يوسف جاء وجثا بين يدي الملك وقال ل﴿أنا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ يعني بتأويل ما رأيت من الرؤيا. وروى عن الحسن أنه كان يقرأ أنا آتيكم بتأويله. وقراءة العامة أُنَبِّؤُكُمْ بتأويله فقال وما يدريك يا غلام ولست بمعبر ولا كاهن؟ فقصَّ عليه أمره الذي كان وقت كونه في السجن برؤيته الرؤيا وتعبير يوسف لها وصدق تعبيره على نحو ما وصفه له وأخبره بحال «يوسف» وحكمته وعلمه وفهمه ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ يعني أرسلوني أيها الملك إلى يوسف. خاطبه بلفظ الجماعة كما يخاطب الملوك. فأرسله الملك. فلما جاء إلى يوسف في السجن ودخل عليه واعتذر إليه بما أنساه الشيطان ذكر ربه وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ والصديق كثير الصدق. يعني أيها الصادق فيما عبرت لنا ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عجاف﴾ هزلى ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ يعني إلى أهل مصر ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قَدْرك ومنزلتك، ويقال إلى الناس. يعني إلى الملك لكي يعلم مكانك فيكون ذلك سبباً لخلاصك إذا علم تعبير رؤياه. فعبر يوسف رؤياه وهو في السجن فقال: أما السبع البقرات السمان فهي سبع سنين خصب. أما السبع العجاف فهي سبع سنين شدة وقحط ولا يكون في أرض مصر البر وأما السبع السنبلات الخضر فهي الخصب واليابسات هي القحط. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[2] يعني ازرعوا لسبع سنين دأباً يعني دائماً ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من الزرع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ يعني في كعبره فهو أبقى لكم لكي لا يأكله السوس إذا كانت في الكعبرة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: تدرسون بقدر ما تحتاجون إليه فتأكلون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الخصب ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني مجدبات[3] ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ يعني للسنين. ويقال ما قدمتم: يعني ما جمعتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ يعني تدخرون وتحرزون ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القحط ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يعني يمطر الناس. والغيث المطر. ويقال هومن الإغاثة يعني يغاثون بسعة الرزق ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني ينجون من الشدة. ويقال يعصرون العنب والزيتون. قرأ حمزة والكسائي[4] «تَعْصِرُونَ» بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة يعني الناس وقرأ بعضهم «يُعْصَرُونَ» بضم الياء ونصب الصاد يعني

---

(١) سقط في ظ.

(٢) قرأ حفص (سبع سنين دأباً بفتح الهمزة وقرأ الباقون ساكنة الهمزة وهما لغتان مثل النهر والنهر والظعن والظعن) وكل إسم كحان ثانية حرفاً من حروف الحلق جاز حركته وإسكانه انظر حجة القراءات ٣٥٩، وانظر النشر ٢/ ٢٩٥.

(٣) في أ [سبع سنين قحط].

(٤) انظر النشر ٣/ ٢٩٥، حجة القراءات ٣٥٩.

يمطرون من قوله تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ) فرجع الساقي إلى الملك وأخبره بذلك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ﴾ قال بعضهم كان الملك رأى الرؤيا ونسيها فأتاه يوسف فأخبره بما رأى وأخبره بتفسيره. ولكن في ظاهر الآية أن الملك كان ذاكراً لرؤياه وأن يوسف عبر رؤياه وهو في السجن قبل أن ينتهي إلى الملك. وقال الملك ائتوني به يعني بيوسف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ برسالة الملك: إنَّ الملك يدعوك ﴿قَالَ﴾ يوسف للرسول ﴿ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني إلى سيدك وهو الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلتِي قطعن أَيْدِيَهُنَّ﴾ يعني سله حتى يتبين أني مظلوم في حبسي أو ظالم ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ يعني إن سيدي وخالقي عالم بما كان منهن. قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إبراهيم الدبيلي (قال حدثنا أبو عبيد الله عن سفيان عن عمر بن دينار عن عكرمة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[1] لولا الكلمة التي قال يوسف «لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» ما لبث في السجن طول ما لبث، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له. لو كنت أنا لم أخبرهم حتى يخرجوني. ولقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله لو كنت أنا الذي دعيت إلى الخروج لبادرتهم إلى الباب ولكن أحب أن يكون له العذر بقوله فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ التي قطعن أَيْدِيَهُنَّ. قال ابن عباس: لو خرج يوسف حين دعي لم يزل في قلب الملك منه شيء فلذلك قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة.

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ؛وذلك أن الملك أرسل إلى النسوة وجمعهن(ثم سألهنّ فقال ما خطبكن)[2] يعني ما حالكن وشأنكن وأمركن ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني طلبت امرأة العزيز إلى يوسف المراودة عن نفسه هل ليوسف في ذلك ذنب. فأخبرن الملك ببراءة يوسف ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ يعني معاذ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ يعني ما رأينا منه شيئاً من الفاحشة، ولم يكن له ذنب. فلما رأت امرأة العزيز أن النسوة شهدن عليها، اعترفت على نفسها وأقرت بذلك. فذلك قوله تعالى ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني ظهر الحق ووضح ويقال استبان. قال زجاج هو في اللغة من الحصة. أي بانت حصة الحق وجهته من حصة الباطل ومن جهته ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ يعني طلبت إليه أن يمكنني من نفسه ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ أي: إنه لم يراودني، وهو صادق فيما قال ذلك اليوم. قال يوسف عند ذلك إنما فَعَلْتُ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ لم أخن في امرأته إذا غاب عني فذلك قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ﴾ يعني لا يرضى عمل الزانين. وروى إسماعيل بن سالم عن أبي صالح قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب قال هو يوسف لم يخن العزيز في امرأته. وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما[3] أنه قال: لما قال يوسف «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ

---

(١) سقط في أ.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ط/٢٣ وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الشعب.

أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ» قال له جبريل عند ذلك ولا يوم هممت بما هممت به قال يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ يعني من الهم الذي هممت به ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ﴾ يعني بالمعصية. ويقال القلب آمر للجسد بالسوء والإثم. يقال في اللغة إذا أمرت النفس بشيء هي آمرة وإذا أكثرت الأمر يقال هي أمارة فقال إن النفس لأمارة بالسوء يعني مائلة إلى الشهوات ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا من عصم الله تعالى من المعصية ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ للهم الذي هممت به ﴿رَحِيمٌ﴾ حين تاب عليّ وعصمني وغفر لي

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ يعني أجعله في خاصة نفسي. فلما خرج يوسف من السجن ودع أهل السجن ودعا لهم. وقال اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم ولا تستر الأخبار عنهم، فمن ثمة تقع الأخبار عند أهل السجن قبل أن تقع عند عامة الناس. ولما دخل يوسف على الملك وكان الملك يتكلم سبعين لساناً فأجابه يوسف بذلك كله. ثم تكلم يوسف بالعبرانية فلم يحسنها الملك. فقال ما هذا اللسان يا يوسف؟ قال هذا لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ ثم كلمه بالعربية فلم يحسنها الملك. فقال ما هذا اللسان؟ فقال لسان عمي إسماعيل ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي قال له الملك، مكين في المنزلة أمين على ما وكلتك. ﴿قَالَ﴾ له يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني على خراج مصر ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للتدبير. ويقال حفيظ بما وكلت به ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع الألسن ويقال عليم بـأخذهـا ووضعها مواضعها. وإنما سأل ذلك صلاحاً للخلق لأنه علم أنه ليس أحد يقوم بإصلاح ذلك الأمر مثله. ويقال حفيظ. يعني علیماً بساعة الجوع. وكان الملك يأكل في كل يوم نصف النهار، فلما كانت الليلة التى قضى الله بالقحط أمر يوسف بأن يتخذ طعام الملك بالليل. فلما أصبح الملك قال الجوع الجوع فأتى بطعام مهيء. قال وما يدريكم بذلك؟ قالوا أمرنا بذلك يوسف. ففوض الملك أموره كلها إلى يوسف وهو قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ يعني صنعنا ليوسف ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ يعني ينزل منها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ قرأ إبن كثير(١) (حَيْثُ نَشَاءُ) بالنون يعني حيث يشاء الله. وقرأ الباقون بالياء حيث يشاء يوسف. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ تختص بنعمتنا، النبوة والإسلام والنجاة من نشاء ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: لا نبطل ثواب الموحدين حتى نوفيه جزاءه في الدنيا ومع ذلك له ثواب في الآخرة فذلك قوله تعالى ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ يعني ثواب الآخرة أفضل مما أعطي في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك. وروي في

(١) انظر النشر ٢/٢٩٥ حجة القراءات ٣٦٠.

الخبر أن زوج زليخا مات وبقيت امرأته زليخا فجلست يوماً على الطريق فمر عليها يوسف في حشمه. فقالت زليخا الحمد لله الذي جعل العبد ملكاً بطاعته وجعل الملك مملوكاً بشهوته وتزوجها يوسف فوجدها عذراء وأخبرت أن زوجها كان عنيناً لم يصل إليها. ثم وقع القحط بالناس. حتى أكلوا جميع ما في أيديهم واحتاجوا إلى ما عند يوسف وقد كان يوسف جمع في وقت الخصب مقدار ما يكفي السنين المجدبة للأكل والبيع فجعل الناس يعطونه أموالهم، العروض والرقيق والعقار وغير ذلك ويأخذون منه الطعام. ووقع القحط بأرض كنعان، حتى أصاب آل يعقوب الحاجة إلى الطعام. فقال يعقوب لبنيه إنهم يزعمون أن بمصر ملكاً يبيع الطعام فخرج بنو يعقوب وهم عشرة نحو مصر حتى أتوا يوسف فدخلوا عليه وعليه زي الملك فلم يعرفوه وعرفهم يوسف وكلموه بالعبرانية فأرسل يوسف إلى الترجمان وهو يعلم لسانهم ولكنه أراد أن يشتبه عليهم فذلك قوله تعالى ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يعني عرف يوسف أنهم إخوته ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ يعني: لم يعرفوا أنه يوسف، لأنهم رأوه في حال الصغر، وكان يوسف على زي الملوك بخلاف ما كانوا رأوه في الصغر. روى أسباط عن السدي وغيره قال: استعمله الملك على مصر وكان صاحب أمره الذي يلي البيع والتجارة. فبعث يعقوب بنيه إلى مصر فلما دخلوا على يوسف عرفهم. فلما نظر إليهم قال: أخبروني ما أمركم فإني أنكر شأنكم. قالوا نحن قوم من أرض الشام قال فما جاءكم قالوا جئنا نمتار طعاماً قال كأنكم عيون. كم أنتم؟ قالوا عشرة قال أنتم عشرة آلاف كل رجل منكم أمير ألف. فأخبروني خبركم قالوا إنا إخوة بنو رجل صديق وإنا كنا اثني عشر فكان أبونا يحب أخاً لنا وهو هلك في الغنم ووجدنا قميصه ملطخاً بالدم فأتينا به أبانا فكان أحبنا إلى أبينا منا قال فإلى من سكن منكم أبوكم بعده؟ قالوا إلى أخ له أصغر منه. قال فكيف تخبروني أنه صديق وهو يختار الصغير منكم دون الكبير وكيف تخبروني أنه هلك وبقي قميصه، فلو كان اللصوص قتلوه لأخذوا قميصه. ولو كان الذئب أكله لمزق قميصه. فأرى كلامكم متناقضاً. احبسوهم. ثم قال إن كنتم صادقين في مقالتكم فخلفوا عندي بعضكم واتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» قالوا اختر أينا شئت فارتهن شمعون ثم أمر بوفاء كيلهم. فذلك قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني كال لهم كيلهم وأعطى كل واحد منهم حمل بعير ثم ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِ الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يعني: أفضل من يضيف ويكرم الذي نزل به ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ أي بالأخ ﴿فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ فيما تستقبلون ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ يعني ولا تستقبلوا إلى مرة أُخرى فإني لا أعطي لكم الطعام. قال الزجاج القراءة بالكسر. يعين بكسر النون وهو الوجه ويجوز ولا تقربونَ بفتح النون. لأنها نون الجماعة كما قال: (فِيمَ تُبَشِّرُونَ) بفتح النون. قال: ويكون ولا تقربون لفظه لفظ الخبر ومعناه النهي.

قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ يعني: سنطلب من أبيه أن يبعثه معنا ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ يعني: لصانعون

(ذلك فنطلبه من أبيه ليبعثه)(١) ويقال وإنا لضامنون ذلك ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص(٢) «لفتيانه» بالألف والنون وقرأ الباقون «لِفِتْيَتِهِ». فقال أهل اللغة: الفتيان والفتية بمعنى واحد. وهم الغلمان والخدم يعني: قال يوسف لغلمانه وقومه الذين يكيلون يعني: الطعام ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ يعني: دسوا دراهمهم في رحالهم يعني: في جواليقهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ يعني: يعرفون كرامتي عليهم ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ يعني: إذا رجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الثانية. قال الفراء؛ فيها قولان: أحدهما: أن يوسف خاف ألا يكون عند أبيهم دراهم فجعل البضاعة في رحالهم لعلهم يرجعون ولا يتأخرون عن الرجوع بسبب الدراهم والقول الآخر أنهم إذا عرفوا بضاعتهم وقد اكتالوا الطعام ردوها عليه ولا يستحلون إمساكها لأنهم أنبياء الله تعالى لا يستحلون إمساك مال الغير ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ فيما نستقبل يعني الحنطة وأخبروه بالقصة قالوا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكْتَلْ﴾ يعني يشتري هو ويكيلون لنا ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من الضيعة حتى نرده إليك قرأ حمزة والكسائي(٣) «يَكْتَلْ» بالياء وقرأ الباقون بالنون فمن قرأ بالياء يعني هو يكتال لنفسه لأنهم كانوا لا يبيعون من كل رجل إلا وقرا واحداً. ومن قرأ بالنون فمعناه أن الملك قد أخبر أنه لا كيل لنا في المستقبل فلو أرسلته معنا فإنا نكتال منه. فلما أخبروه بذلك ﴿قَالَ﴾ يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: هل أئتمنكم عليه ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ومعناه: هكذا قلتم لي في أمر يوسف ولا أقدر أن آخذ عليكم من العهد أكثر ما أخذت عليكم في يوسف من قبل. قرأ إبن مسعود هل تحفظونه إلا كما حفظتم أخاه يوسف من قبل. ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾ منكم إن أرسله معكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ حين أطعته. ولا بد أن أرسله. قرأ حمزة والكسائي(٤) وعاصم في رواية حفص «حَافِظاً» بالألف. وقرأ الباقون «حِفْظاً» بغير ألف. والحافظ الإسم والحفظ المصدر.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ يعني أوعيتهم وجواليقهم ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ يعني دراهمهم ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا﴾ لأبيهم ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ يعني ما نكذب. إنه ألطف علينا وأكرمنا ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا﴾ أي دراهمنا ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ يعني نمتار لأهلنا يقال: مار أهله وأمار لأهله إذا حمل إليهم قوتهم من غير بلده. يعني ابعثه معنا لكي نحمل الطعام لأهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من الضيعة ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي حمل بغير من أجله. روى الأعمش

(١) سقط في أ.
(٢) انظر النشر ٢/٢٩٥ حجة القراءات ٣٦١.
(٣) انظر المصدرين السابقين.
(٤) انظر ٢/٢٩٥، ـ ٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٢.

عن إبراهيم عن علقمة أنه كان يقرأ رِدَّتْ إلينا بكسر الراء. لأن أصله رددت فأدغمت إحدى الدالين بالأخرى ونقل الكسر إلى الراء . وهي قراءة شاذة . ثم قال ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ يعني سريع لا حبس فيه إن أرسلته معنا ـ ويقال ذلك أمر هين الذي نسأل منك . ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: تعطوني عهداً وثيقاً من الله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال الكلبي: إلا أن ينزل بكم أمر من السماء أو من الأرض. وروى معمر عن قتادة أنه قال: إلا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك. وقال مجاهد: (إلا أن يحاط بكم) يعني: تهلكوا جميعاً. وقال الفراء إلا أن يأتيكم من أمر الله تعالى ما يعذركم ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ يعني أعطوه عهودهم ﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يعني كفيلاً. ويقال: شهيداً. ثم ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ قال يعقوب لبنيه حين أرادوا الخروج يا بني لا تدخلوا من باب واحد يعني: إذا دخلتم مصر فلا تدخلوا من سكة واحدة ومن طريق واحد ويقال من درب واحد ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ يعني من سكك متفرقة ومن طرق شتى لكي لا يظن بكم أحد أنكم جواسيس. ويقال[1] خاف يعقوب عليهم العين لجمالهم وقوتهم وهم كلهم بنو رجل واحد. فإن قيل أليس هذا بمنزلة الطيرة (وقد نهى عن الطيرة)[2]. قيل له لا. ولكن أمر العين حق وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يرقي من العين ويتعوذ منها للحسن والحسين ثم قال ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني من قضاء الله ﴿مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ﴾ يعني ما القضاء ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ إن شاء أصابكم العين وإن شاء لم يصبكم ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني فوضت أمري وأمركم إليه ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يعني فليثق الواثقون. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ من السكك المتفرقة ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني حذرهم لا يغني من قضاء الله من شيء. يعني إن العين لو قدرت أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ يعني: حزازة في قلبه وهي الحزن ﴿قَضَاهَا﴾ يعني أبداها وتكلم بها. ويقال: معناه: لكن لحاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ يعني: علم يعقوب أنه لا يصيبهم إلا ما أراد الله تعالى وقدر عليهم وعلن أن دخولهم في سكك متفرقة لا ينفعهم من قضاء الله تعالى من شيء. ويقال: معناه: إنه عالم بما علمناه. ويقال لذو علم لما علمناه. أي لتعليمنا إياه. ويقال لذو حظ لما علمناه. ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا يصيبهم إلا ما قدر الله تعالى عليهم.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ
إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن
جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد كذا في الدر ٤/٢٦.

(٢) سقط في أ.

كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يعني: إخوته ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ يعني ضم إليه أخاه بنيامين ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال بعضهم: أخبره في السر أنه أخوه. وقال بعضهم لم يخبره ولكن معناها إني لك كأخيك الهالك. فأنزلهم يوسف منزلاً وأجرى عليهم الطعام والشراب. فلما كان الليل أتاهم بالفرش. وقال لينام كل أخوين منكم على فراش واحد ففعلوا، وبقي الغلام وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي فبات معه يوسف يشم ريحه. ويقال لما كان عند الطعام أمر كل اثنين ليأكلا في قصعة واحدة وبقي بنيامين وحده فبكى، وقال لو كان أخي في الأحياء لأكلت معه فقال له يوسف إني أنا أخوك. يعني بمنزلة أخيك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول لا تحزن بما يعيرون يوسف وأخاه بشيء. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يعني: كال لهم كيلهم ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ يعني: وضع ودس الإناء ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. فخرجوا وحملوا الطعام وذهبوا فخرج يوسف على أثرهم حتى أدركهم ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ يعني: نادى منادٍ بينهم. واسم المنادي أفرايم من فتيان يوسف قال: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ إناء الملك. فانقطعت ظهورهم وساء ظنهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ يعني: وأقبلوا إليهم ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ يعني ماذا تطلبون ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال المنادي والغلمان: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ قال قتادة[1]: إناء الملك الذي يشرب فيه. وقال عكرمة[2]: هو إناء من فضة. وقال سعيد بن جبير[3]: هو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه. وكانت الأعاجم تشرب فيه. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[4] أنه قال: كان إناء من فضة مثل المكوك وكان للعباس واحد منها في الجاهلية. وروي عن أبي هريرة[5] أنه قرأ صاع الملك. يعني الصاع الذي يكال به الحنطة. وقرأ بعضهم صَوْعَ الملك وقرأ يحيى بن عمرو صَوْغَ الملك بالغين. يعني إناء مصوغاً[6]. وقراءة العامة صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ. يعني الإناء وهي المشربة من فضة وكان الشرب في إناء الفضة مباحاً في الشريعة الأولى. وأما في شريعتنا فالشراب في إناء الفضة حرام. ثم قال ﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ يعني: قال المنادي من جاء بالصوع فله حمل بعير من بر ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ يعني: أنا كفيل بتسليمها إليه. لأن الملك يتهمني

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه السيوطي في الدر ٤/٢٧ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وأبي الشيخ وابن منده في غرائب شعبة وابن مردويه والضياء.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧ وعزاه لسعيد بن منصور وابن الأنباري.

(٦) قال صاحب البحر ٥/٣٣٠ وقرأ الجمهور صُوَاع بضم الصاد بعدها واو مفتوحة بعدها ألف بعدها عين مهملة. وقرأ أبو حيوة والحسن وابن جبير فيما نقل ابن عطية كذلك إلاَّ أنه كسر الصاد. وقرأ أبو هريرة ومجاهد صاع بغير واو وعلى وزن فَعْل فالألف فيها بدل من الواو المفتوحة. وقرأ أبو رجاء صَوْع على وزن قوس. وقرأ عبد الله بن عون ابن أبي أرطبان صُوع بضم الصاد، وكلها لغات في الصاع. وقرأ الحسن وابن جبير فيما نقل عنهما صاحب اللوامع صُوَاغ بالغين المعجمة على وزن غراب. وقرأ يحيى بن يعمر كذلك إلاَّ أنه يحذف الألف ويسكن الواو.

وقرأ زيد بن علي صوغ مصدر صاغ وصواغ وصوغ مشتقان من الصوغ مصدر صاغ يصوغ أقيما مقام المفعول بمعنى مصوغ الملك. انظر بحر المحيط ٥/٣٣٠.

في ذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ يعني: قال إخوة يوسف والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: ما جئنا لنعمل بالمعاصي في أرض مصر ونخون أحداً ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾. وكان الحكم في أرض مصر للسارق الضرب والتضمين. وكان الحكم بأرض كنعان أنهم يأخذون السارق ويسترقونه ففوضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم. ﴿قَالُوا﴾ يعني: المؤذن وأصحابه لأولاد يعقوب ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ يعني فما جزاء السارق ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ يعني إخوة يوسف ﴿جَزَاؤُهُ﴾ يعني: عقابه ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ يعني في وعائه ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ يعني الاستعباد جزاء سرقته ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يعني: هكذا نعاقب السارق في سنة آل يعقوب ﴿فَبَدَأَ﴾ يعني المنادي ،ويقال: يوسف ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ يعني: أوعية إخوته وطلب في أوعيتهم ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾[١] فلم يجد فيها. وروى معمر عن قتادة أنه قال: كلما فتح متاع رجل استغفر الله تائباً ما صنع حتى بقي متاع الغلام. فقال ما أظن هذا أخذ شيئاً. قالوا بلى فاستبرأه، فطلب فوجد فيه فاستخرجها من وعاء أخيه. فلما استخرجت من رحله انقطعت ظهور القوم وتحيروا. وقالوا يا بنيامين لا يزال لنا منكم بلاء. ما لقينا من ابني راحيل. فقال بنيامين بل ما لقي ابنا راحيل منكم. فأما يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم. وأما أنا فسرقتموني. قالوا فمن جعل الإناء في متاعك قال الذي جعل الدراهم في متاعكم فسكتوا فذلك قوله ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني: كذلك صنعنا ليوسف. والكيد الحيلة. يعني كذلك احتلنا له وألهمناه الحيلة. ثم قال ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ يعني: في قضاء ملك مصر. لأنه لم يكن في قضائه أن يستعبد الرجل في سرقته ثم قال ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: وقد شاء الله أن يأخذه بقضاء أبيه. ويقال ما كان يقدر أن يأخذ في ولاية الملك بغير حكم إلا بمشيئة الله تعالى. ويقال: إلا أن يشاء الله ذلك ليوسف ثم قال ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني: من نشاء بالفضائل. وقرأ أهل الكوفة[٢] «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ» بتنوين التاء. وقرأ الباقون دَرَجَاتِ مَنْ نَشَاءُ بغير تنوين. على معنى الإضافة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يعني ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى. وروى وكيع عن أبي معشر عن محمد[٣] بن كعب أن رجلاً سأل علياً عن مسألة فقال فيها قولاً. فقال الرجل ليس هو كذا ولكنه كذا. فقال عليّ أصبتَ وأخطأتُ «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ». وروي عن سعيد[٤] بن جبير أن ابن عباس حدث بحديث. فقال رجل عنده الحمد لله. «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» فقال ابن عباس: إن الله هو العالم وهو فوق كل عالم.

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ

(١) في أ [فطلبه في أوعيتهم قبل وعاء أخيه].
(٢) انظر النشر ٢/٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٣.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨ وعزاه لابن جرير.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات.

أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ يعني: قال إخوة يوسف إن يسرق بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ يعني فأضمر الكلمة يوسف ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ أي: في قلبه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ يعني: لم يعلن لهم جواباً ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: صنيعاً من يوسف. لأن يوسف سرق الوثن وأنتم تسرقون الصواع وذلك أن يوسف كان سرق صنماً من ذهب من خاله لاوى. وقال قتادة[١]ذكر لنا أنه سرق صنماً كان لجده أب أمه فعيروه بذلك. فقال أنتم شر مكاناً. لأن سرقتكم قد ظهرت وسرقة أخيه لم تظهر إلا بقولكم ولا ندري أنتم صادقون في مقالتكم أم لا. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني بما تقولون. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: عوقب يوسف ثلاث مرات حين هَمَّ فسجن. وحين قال «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ» وحين قال «إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» فردوا عليه وقالوا فقد سرق أخ له من قبل قوله تعالى: ﴿قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ يعني: ضعيفاً حزيناً على ابن له مفقود ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ رهناً ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن فعلت ذلك إلينا فقد أحسنت إلينا الإحسان كله. ويقال إنا نراك من المحسنين. يعني: من أتاك من الآفاق. فأحسن إلينا ف﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يعني أعوذ بالله ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ رهناً ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ لو أخذنا غيره. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ يعني: من بنيامين أن يرد عليهم (ويقال: أيسوا من الملك أن يقضي حاجتهم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ يعني اعتزلوا يتناجون بينهم ليس معهم غيرهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يعني كبيرهم في العقل وهو يهوذا ولم يكن أكبرهم في السن وهذا في رواية الكلبي ومقاتل. وقال مجاهد[٢]: كبيرهم أي أعلمهم وهو شمعون وكان رئيسهم. وقال قتادة[٣]: كبيرهم في السن روبيل وهو الذي أشار إليهم ألا يقتلوه ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: عهداً من الله في هذا الغلام (لَتَأْتُنَّنِي بِهِ) أي لتردنه إليَّ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ يعني: ما تركتم وضيعتم العهد في أمر يوسف من قبل هذا الغلام ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ يعني فلن أزال في أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَبِّي﴾ أي حتى يبعث إليَّ أحداً أن آتيه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ فيرد علي أخي بنيامين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ يعني: أعدل العادلين وأقضى القاضين. وروى أسباط عن السدي أنه قال: كان بنو يعقوب إذا غضبوا لن يطاقوا. فغضب روبيل فقال أيها الملك والله لتتركنا[٤] أو لأصيحن «صيحة» لا تبقى امرأة حامل إلا ألقت ما في «بطنها» وقامت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه. وقال ابن عباس كان يهوذا إذا غضب وصاح لم تسمع صوته امرأة حامل إلا وضعت حملهـا. وتقوم كل شعرة في جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فيسكن. فقال يوسف لابن له صغير اذهب وضع يدك عليه، فذهب ووضع يده عليه فسكن غضبه. فقال: إن في هذا الدار أحداً من آل يعقوب ثم قال لإخوته ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ﴾ يعني: قال يهوذا: ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابنك سَرَقَ﴾ أي سرق

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨ وعزاه لابن جرير.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٤) في (أ) أتترك أخانا.

الصواع يعني: إناء الملك. وروي عن ابن عباس[١] أنه كان يقرأ «سُرِّق» بضم السين وكسر الراء مع التشديد. يعني اتهم بالسرقة ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أي وما قلنا إلا ما رأينا حين أخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ يعني وما كنا نرى أنه سرق. ولو علمنا ما ذهبنا به. ويقال إنا لم نطلع على أنه سرق ولكنهم سرقوه.

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعني: أهل القرية. قال الكلبي: وهي قرية من قرى مصر. ويقال هي مصر بعينها. ويقال هو المنزل المؤذن فيه إنكم لسارقون. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ يعني: سل أهل العير الذين كانوا معنا من أرض كنعان ﴿وإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا. فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول فاتهمهم. فقال كلما خرجتم من عندي نقصتم واحداً. ذهبتم مرة فنقصتم يوسف وذهبتم مرة فنقصتم شمعون وذهبتم الآن ونقصتم بنيامين فقد صرتم كالذئاب يأكل بعضكم بعضاً. ثم قال تعالى ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ قال يعقوب: اشتهت وزينت لكم قلوبكم ﴿أَمْراً﴾ فصنعتموه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يعني: عليّ صبر جميل حسن من غير جزع لا أشكو فيه إلى أحد ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ يعني لعل الله أن يرد علي يوسف ويهوذا وبنيامين ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمكانتهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ أن يردهم عليّ قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يعني: أعرض عن بينه وخرج عنهم ﴿وَقَالَ يَا أَسفى عَلَى يُوسُفَ﴾ يعني يا حزنا والأسف أشد الحسرة ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ يعني من البكاء ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني مغموماً مكروباً، يتردد الحزن في جوفه. والكظيم والكاظم بمعنى واحد. مثل القدير والقادر. وهو المتمسك على حزنه لا يظهره ولا يشكوه. وروي عن الحسن[٢] أنه قال مكث يعقوب ثمانين سنة ما تجف دموعه ولا يفارق قلبه الحزن يوماً وما كان على الأرض يومئذ أحد أكرم على الله منه. قال وألقي يوسف في الجب وهو يومئذ إبن سبع سنين وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعدما جمع الله شمله ثلاثاً وعشرين سنة. وروي عن ابن عباس أنه قال غاب يوسف عنه اثنين وعشرين سنة. وقال سعيد بن جبير[٣] ما أعطيت أمة من الأمم «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» غير هذه الأمة. ولو كان أوتيها أحد قبلكم لأوتيها يعقوب حين قال يا أسفى على يوسف. وروي عن إبراهيم بن ميسرة أنه قال: لو أن الله أدخلني الجنة لعاتبت يوسف بما فعل بأبيه حيث لم يكتب إليه ولم يعلمه حاله ليسكن ما به من الغم.

قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟

(١) انظر الدر المنثور ٤/٢٩

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠ وعزاه لعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ يعني: لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي دنفاً من الوجع. ويقال حتى تبلى وتهرم. وقال القتبي «لا» تحذف من الكلام ويراد إثباتها لقوله: تفتؤ أي: لا تزال كقوله تفتأ وكقوله (أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ) أي أن لا تحبط. (وقال الربيع بن أنس)[١] حتى تكون بالياً يابس الجلد. وقال محمد بن إسحاق حتى تكون حرضاً يعني لا عقل لك. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ﴾ يعني: من الميتين. وقال مجاهد[٢] الحرض ما دون الموت. والهالك الميت ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾ يعني همي وغمي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لما رأى من فظاظتهم وسوء لفظهم، ولا أشكو ذلك إليكم. وقال القتبي: البث أشد الحزن. إنما سمي الحزن البث لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه. أي يفشوه ثم قال ﴿وأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن يوسف حي وليس بميت. وإنما كان يعلم ذلك من تحقيق رؤيا يوسف حين رأى في المنام أحد عشر كوكباً. أن ذلك سيكون. ويقال إن يعقوب رأى ملك الموت في المنام وسأله: هل قبضت روح قرة عيني يوسف؟ قال لا، ولكن هو في الدنيا حي فلذلك قال «وأعلم من الله ما لاتعلمون» ثم قال تعالى ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ يعني: انطلقوا إلى مصر فاطلبوا خبر يوسف ﴿وَأَخِيهِ﴾ قالوا له أما بنيامين فلا نترك الجهد في أمره. وأما يوسف فإنه ميت وإنا لا نطلب الأموات. فقال لهم يعقوب ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ يعني لا تقنطوا من رحمة الله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني الجاحدون للنعمة. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يعني: رجعوا إلى يوسف ودخلوا عليه ﴿قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ يعني: أصابنا وأهلنا الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبَضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ قال الحسن: يعني قليلة. ويقال نفاية. وكان لا يؤخذ في الطعام. ويؤخذ في غيره. لأن الطعام كان عزيزاً فلا يؤخذ فيه إلا الجيد. وعن عبد الله بن الحارث[٣] في قوله وجئنا ببضاعة مزجاة قال: متاع الأعراب الصوف والسمن[٤] ونحو ذلك. وعن ابن عباس[٥] قال: يعني: جئنا بدراهم رديئة وقال سعيد بن جبير: بدراهم زيوف ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ يعني: أتمم لنا الكيل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ (يعني: تفضل علينا باستيفائه منا مكان الجيد وتصدق علينا)[٦] ما بين الثمنين يعني: ما بين الجيد والرديء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يعني: يثيبهم في الآخرة بما صنعوا. وقال ابن عباس: لو علموا أنه مسلم لقالوا إن الله يجزيك بالصدقة. يعني: إنه كان يلبس عليهم فلا يعرفون حاله ومذهبه. فأخرج يوسف

---

(١) سقط في (أ).

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٤/ ٣٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) في أ [واللبن].

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٦) سقط في ظ.

الكتاب الذي كان كتبه يهوذا حين باعوا يوسف ودفعه إليهم فعرف يهوذا خطه. وقالوا: نحن بعنا هذا الغلام إذا كنا نرعى الغنم. فقال لهم ظلمتم وبعتم الحر. فدعا يوسف السيافين وأمر بإخوته بأن يقتلوا جميعاً فاستغاثوا كلهم وصرخوا وقالوا إن لم ترحمنا فارحم الشيخ الضعيف فإنه قد جزع على ولد واحد فكيف وقد أهلكت أولاده كلهم.
﴿قَالَ﴾ لهم يوسف ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ يعني: شابون مذنبون ووصف لهم ما فعلوا به.

قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ
وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن
كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير[1] إِنَّكَ لَأَنْتَ بهمزة واحدة وكسر الألف. يعني حققوا إنه يوسف. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر أإِنَّكَ بهمزتين على معنى الإستفهام يعني إنك يوسف أم لا؟ وقرأ نافع وأبو عمرو آينك بهمزة واحدة مع المد ومعناه مثل الأول على معنى الإستفهام ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني أنعم علينا بالصبر ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ أي يتق الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾[2] على البلاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ثواب الصابرين. قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني: إخوة يوسف اعتذروا إليه وقالوا لقد فضلك الله علينا واختارك ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ يقول وقد كنا لعاصين لله فيما صنعنا بك. ﴿قَالَ﴾ يوسف - عليه السلام - ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. يعني: لا تعيير عليكم اليوم ولا عيب ولا عار عليكم. وأصل التثريب الإفساد. ويقال أثربت الأمر علينا إذا أفسدت ثم قال ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ من غيره ثم قال تعالى ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وروي عن وهب بن منبه قال: كان القميص من الجنة وهو القميص الذي ألبس جبريل إبراهيم حين ألقي في النار فبردت عليه النار فصار عند إسحاق ثم صار عند يعقوب فجعله يعقوب في عوذة وعلقه في عنق يوسف فكان معه حين ألقي في الجب ونزع عنه القميص فبشره جبريل وألبسه في الجب. وكان

(١) انظر حجة القراءات ٣٦٣ النشر ٢٩٦

(٢) قرأ ابن كثير: (إنه من يتقي ويصبر) بإثبات الياء. وحجته: أن من العرب من يجري المعتل مجرى الصحيح فيقول: (زيد لم يقضي) ويقدر في الياء الحركة فيحذفها منها فتبقى الياء ساكنة للجزم قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ والأَنْبَاءُ تَنْمِي ... بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ

ولم يقل (ألم يأتك) وقال آخر:
هُزِّي إليك الجذع يَجْنِيك الجَنَى.
وكان ينبغي أن يقول: (يجنك الجنى) لأنه جواب الجزاء ويقوي هذا قراءة حمزة في قوله: (فلا تخف دركاً ولا تخشى) ولم يقل (تخش) قال الفراء: (تخشى) في موضع جزم لأن من العرب من يفعل ذلك قال: وإن شئت استأنفت: (ولا تخشى). وقال نحويو البصرة: يجوز أن يجعل (من يتقي) بمنزلة (الذي يتقي) كما تقول (الذي يأتيني) وتحمل المعطوف على المعنى لأن (من) إذا كانت بمنزلة الذي فكأنما هو بمنزلة الجزاء الجازم بدلالة أن كل واحد يصلح دخول الفاء في جوابه فتقول (الذي يأتيني فله درهم) (كما تقول: (من يأتيني فله درهم)). انظر حجة القراءات ٣٦٤ - ٣٦٥.

القميص معه وقال لإخوته اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾[١] وذلك أنه سألهم فقال: ما فعل أبي بعدي. قالوا لما فارقه بنيامين عمي من الحزن. قال اذهبوا بقميصي هذا (فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً كما كان أول مرة)[٢]. ثم قال ﴿وَائْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فاختلفوا فيما بينهم فقال كل واحد منهم أنا أذهب به. فقال يوسف يذهب به الذي ذهب بقميصي الأول. فقال يهوذا أنا ذهبت بالقميص الأول وهو ملطخ بالدم وأخبرته بأنه قد أكله الذئب وأنا اليوم أذهب «بالقميص» فأخبره أنه حي وأفرحه كما أحزنته. وأمر لهم بالهدايا والدواب والرواحل فتوجهوا نحو كنعان.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ يعني خرجت العير من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قال ابن عباس: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت بريح قميص يوسف من مسيرة ثمان ليال. فقال يعقوب إني لأشم ريح يوسف ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ يقول لولا أن تعيروني وتجهلوني. يقال فنده الهرم إذا خلط في كلامه ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ يعني ولد ولده قالوا ليعقوب إنك مختلط في الكلام كما كنت في القديم من ذكر يوسف. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يعني جاه يهوذا بالبشارة ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ يعني دفع القميص إليه ووضعه على وجهه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ يعني رجع بصيراً كما كان ﴿قَالَ﴾ يعقوب لولد ولده ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ويقال قال لولده ألم أقل لكم حين قلت لكم «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» أن يوسف في الأحياء ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فاعتذروا إليه فيما فعلوا به وطلبوا منه أن يستغفر لهم واعترفوا[٣] بذنبهم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يعني: عند السحر استغفر لكم. ويقال: معناه سوف أستغفر لكم إن شاء الله على وجه التقديم في قوله «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ». فأخر الاستغفار إلى أن قدموا مصر فاستغفر لهم ليلة الجمعة عند السحر ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع وندم على ما فعل فخرجوا كلهم بأثقالهم وأهاليهم ومواشيهم وكانوا اثنين وسبعين رأساً. وروى أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود[٤] أنه قال: كان أهل بيت يعقوب حين دخلوا مصر ثلاثة وسبعين إنساناً رجالهم ونساؤهم. فخرجوا مع موسى عليه السلام وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً (فلما دنوا) من مصر خرج يوسف بجماعته وحاشيته حتى أدخلهم مصر.

---

(١) في أ [يعني يعود بصيراً كما كان أول مرة].

(٢) سقط في أ.

(٣) في أ [واعترفوا أنهم كانوا خاطئين].

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ﴾ أي ضم إليه ﴿أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال أبو عبيدة هذا من كلام يعقوب، حيث قال سوف أستغفر لكم إن شاء الله، وكذلك قال ابن جريج. ويقال: هذا من كلام يوسف. قال لهم حين دخلوا مصر انزلوا بأرض مصر، ويقال: إنما قال لهم قبل أن يدخلوها: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من الجوع. ويقال «آمنين» من الخوف لأنها أرض الجبابرة قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني على السرير أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. قال مقاتل: يعني أباه وخالته. وكانت أمه راحيل قد ماتت وخالته تحت يعقوب. وعن وهب بن[1] منبه قال أبوه وخالته وعن سفيان الثوري مثله. وهو قول ابن عباس وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: الخالة أم ويقال إن أمه راحيل قد ماتت في ولادة بنيامين ولذلك سمي بنيامين واليامين وجع الولادة بلسانهم ثم قال ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ على وجه التقديم يعني وخروا له سجداً ورفع أبويه على العرش وكانت تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف فسجد له إخوته وأبوه وخالته ﴿وَقَالَ﴾ يعني يوسف عند ذلك ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني هذا السجود تحقيق رؤياي من قبله ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ يعني جعل رؤياي صدقاً ويقال: كائناً. وروي عن ابن عباس أنه قال: كان بين رؤياه وبين ذلك اثنان وعشرون سنة. وروى أبو عثمان النهدي عن سلمان[2] أنه قال كان بين رؤياه وبين أن رأى تأويلها أربعون سنة. وعن عبد الله[3] بن شداد أنه قال: وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة وإليه ينتهي الرؤيا. وقال السدي: كان بينهما تسع وثلاثون سنة. وقال حين رأى رؤياه كان يوسف ابن تسع سنين فظهر تأويلها وهو ابن أربعين سنة. ثم قال ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يعني: جاء بكم معافين سالمين من البادية. يعني: أرض كنعان و﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني من بعد أن أفسد وألقى الشيطان ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ من الفرقة والجماعة. ويقال: لطيف في فعاله إن شاء فرق وإن شاء جمع ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما صنعوا ﴿الْحَكِيمُ﴾ إذ رد عليّ أبي وجمع بيني وبين إخوتي.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله إن الله تعالى مدح يوسف في هذه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٧ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٨ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في العقوبات وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم والبيهقي في الشعب.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وأبي الشيخ والبيهقي.

السورة في ثمانية مواضع أولها إن أخوته لما فعلوا به ما فعلوا صرف العداوة من إخوته إلى الشيطان فقال «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشيطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» والثاني حين راودته المرأة قال «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» فعرف حرمة سيده ولم يهتك حرمته الثالث «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» فاختار السجن على الشهوة الحرام. والرابع قال« وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ» بعد ما ظهر أن الذنب كان من غيره. والخامس لما اعتذر إليه إخوته قال لهم «لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُم ٱلْيَوْمَ» والسادس أنه بعث القميص على يد إخوته. كما أدخلوا على أبيهم الحزن في الابتداء أراد أن يدخلوا عليه السرور فقال «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا» والسابع لما لقي أباه لم يذكر عنده ما لقي من الشدة وإنما ذكر المحاسن حيث قال «يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ البَدْوِ» والثامن لما تم أمره تمنى الموت وترك الدنيا. قال «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ» أي أعطيتني من الملك يعني: بعض الملك وهو ملك مصر **﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾** يعني: بعض التأويل. ويقال من ههنا لإبانة الجنس لا للتبعيض ومعناه رب قد آتيتني من الملك وعلمتني تأويل الأحاديث يعني: تعبير الرؤيا **﴿فَاطِرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾** يعني خالق السموات والأرض **﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾** يعني أمتني مخلصاً بتوحيدك **﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾** يعني بآبائي المرسلين. ويقال عاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة وعاش يوسف بعده ثلاثاً وعشرين سنة ومات يوسف وهو ابن مائة وعشرين سنة ويقال ابن مائة وعشر سنين وأوصى يعقوب بأن يدفن عند آبائه. فحمل إلى الأرض المقدسة فدفن مع أخيه يحصوص بن إسحاق فلما مات يوسف أرادوا أن يحملوه إلى الأرض المقدسة فلم يتركهم أهل مصر واختلفوا في دفنه وأراد أهل كل محلة أن يدفن في مقابرهم وكاد أن يقع بينهم قتال حتى اصطلحوا واتفقوا على أن يدفن عند قسمة مياههم في أعلا مصر لكي يصيب بركته أهل مصر. وكان هناك إلى زمن موسى ـ عليه السلام ـ فرفعه موسى وحمله إلى الأرض المقدسة ووضعه عند آبائه. وقد كان يوسف أوصى إلى بني إسرائيل أن يحملوا عظامه من أرض مصر إذا خرجوا من مصر.

ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ
أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ
أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ
أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ﴾** يقول من أخبار ما غاب عنك علمه يا محمد **﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾** يعني: ننزل عليك جبريل بالقرآن ليقرأه عليك **﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾** يعني: عند إخوة يوسف **﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾** يعني: قولهم أن يطرحوا يوسف في البئر **﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾** أي يحتالون ليوسف ثم قال: **﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** في الآية تقديم. ومعناه وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت لعلم الله السابق فيهم. ويقال: ولو

حرصت بمؤمنين. يعني: من قدرت عليه الكفر وعلمت أنه أهل لذلك لا يؤمن بك ثم قال تعالى ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: على الإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: إن لم يجيبوك فلا تبال لأنهم لا ينقصون من رزق ربك شيئاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجن والإنس. وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ﴾ يعني وكم من علامة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الشمس والقمر والنجوم وفي الأرض، الأمم الخالية والأشياء التي خلقت في الأرض ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ يعني: مكذبين لا يتفكرون ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ قال ابن[1] عباس: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله. فهذا إيمان منهم. ثم هم يشركون به غيره. وقال القتبي: الإيمان قد يكون في معان. فمن الإيمان تصديق وتكذيب ببعض. قال الله تعالى «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» يعني مقرون أن الله خالقهم. وهم مع ذلك يجعلون لله شريكاً. وقال الضحاك[2]: كانوا مشركين في تلبيتهم. وقال عكرمة: يعلمون أنه ربهم وهم مشركون به من دونه ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ﴾ يعني: مغشاهم العذاب ويقال: غاشية قطعة ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾. يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني هذه الملة ديني الإسلام. ويقال هذه دعوتي ﴿أَدْعُوا﴾ الخلق ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى ويقال أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وحقيقة. ويقال على بيان ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يعني من اتبعني على ديني فهو أيضاً على بصيرة ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيهاً لله عن الشرك ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأنبياء كانوا من الآدميين ولم يكونوا من الملائكة. قرأ عاصم في رواية حفص[3] «نُوحِي إِلَيْهِمْ» بالنون. وقرأ الباقون بالياء «يُوحَى إِلَيْهِمْ» ومعناهما واحد ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ يعني: منسوبين إليها. ثم أمرهم بأن يعتبروا فقال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: يسافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ويقال يقرءوا القرآن ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يعني يعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كيف كان آخر المنذرين من قبلهم من الأمم الخالية ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة أفضل من الدنيا. ثم رجع إلى حديث الرسل الذين كذبهم قومهم فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ[4] الرُّسُلُ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) انظر النشر ٢/ ٢٩٦، حجة القراءات ٣٦٥.

(٤) قرأ ابن كثير في رواية البزي: (فلما استايسوا منه) (وحتى إذا استايس) بغير همز وتقديم الألف، والأصل الهمز لأنه من (اليأس) والعرب تقول: (يئست وأيست) لغتان فمن قال (استايس) بغير همز فهي على لغة من يقول (أيست) نقل العين إلى موضع الفاء فصار (استعفل): استأيس ثم خففت الهمزة فصارت ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها فصارت (استايس) وهو من الأياس.

يعني: أيسوا من إيمان قومهم أن يؤمنوا ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[١] «كُذِبُوا» بتخفيف الذال. وقرأ الباقون بالتشديد. وروى الأعمش عن أبي الضحى عن ابن عباس أنه قرأ «كُذِبُوا» بالتخفيف. ويقال لما أيست الرسل[٢] أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوا عليهم جاءهم بالنصرة. وروى ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه قال حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا. قال كانوا بشراً فضعفوا وسئموا وظنوا أنهم قد كذبوا وأشار بيده إلى السماء. قال ابن أبي مليكة فذكرت ذلك لعروة فقال قالت[٣] عائشة رضي الله عنها معاذ الله ما حدث الله ورسوله شيئاً إلا وعلم أنه سيكون قبل أن يموت. قالت ولكن نزل الأنبياء البلاء حتى خافوا أن يكون من معهم كذبوهم من المؤمنين. وكانت تقرأ «قد كُذِّبُوا» بالتشديد. وعن عائشة قالت استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم أن يصدقوهم وظنوا أن من قد آمن بهم من قومهم قد كذبوهم. وقال القتبي الذي قالت عائشة أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله تعالى ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي للأنبياء بالنصرة ثم قال ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ يعني من آمن بالأنبياء. قرأ عاصم وابن عامر[٤] «فَنُجِّيَ» بنون واحدة مع التشديد. وقرأ الباقون بالنونين (وأصله فَنُنْجِيَ بالنونين)[٥] إلا أن من قرأ بنون واحدة ادغم إحداهما في الأخرى ثم قال ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: الكافرين

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ يعني: في قصة يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني: لذوي العقول. يعني عجيبة لمن له عقل لكيلا يحسد أحد أحداً. ويقال: لمن أراد أن يعتبر بيوسف ويقتدي به ولا يكافىء أحداً بسيئة. ويقال عبرة يعني دلالة لنبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن أراد أن يؤمن به ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ يعني: مثل هذا الكلام لا يكون اختلاقاً وكذباً ﴿وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: بيان الحلال والحرام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني رحمة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن.

= وقرأ الباقون: (حتى إذا استيأس) بالهمز من (اليأس) على لغة من يقول: (يئست) فالياء فاء الفعل والهمز عينه. والعرب تقول: (يئس واستيأس وعجب واستعجب، وسخر واستسخر) وفي التنزيل: (وإذا رأوا آية يستسخرون). انظر حجة القراءات ٣٦٦.

(١) انظر النشر ٢/٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٦.

(٢) في أ أي ظنوا أن قد كذبهم قومهم الذين آمنوا بهم.

(٣) ذكره السيوطي ٣/٤٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٤) انظر النشر ٢/٢٩٦ حجة القراءات ٣٦٧.

(٥) سقط في ظ.

سُورَةُ الرَّعْدِ(١)

وهي ثلاث وأربعون آية مدنية وقيل مكية إلا قوله «ولا يزال الذين كفروا»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر﴾ قال ابن عباس(٢) أنا الله أعلم وأرى. ويقال معناه أنا الله أرى ما تحت العرش إلى الثرى وما بينهما. ويقال أنا الله أعلم وأرى مالا يعلم الخلق وما لا يرى ويقال: أنا الله أعلم وأرى ما يعملون ويقولون. ويقال هذا قسم أقسم الله به ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ قال قتادة(٣): يعني التي قبل القرآن. يعني التوراة والإنجيل ﴿وَالَّذِي﴾ يعني: القرآن ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: الكتب التي قبل القرآن، والقرآن الذي

(١) هكذا سميت من عهد السلف وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا لم يختلفوا في اسمها. وإنما سميت بإضافتها إلى «الرعد» لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق﴾ فسميت بالرعد لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة فإن هذه السورة مكية كلها أو معظمها وإنما ذكر الرعد في سورة البقرة وهي نزلت بالمدينة وإذا كانت آيات ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ إلى قوله ﴿وهو شديد المحال﴾ مما نزل بالمدينة. وهذه السورة مكية في قول مجاهد وروايته عن ابن عباس ورواية علي بن أبي طلحة وسعيد بن جبير عنه وهو قول قتادة وعن أبي بشر قال: سألت سعيد ابن جبير عن قوله تعالى: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ (أي في آخر سورة الرعد) أهو عبد الله بن سلام فقال: كيف وهذه سورة مكية؟ وعن ابن جريج وقتادة في رواية عنه وعن ابن عباس أيضاً: أنها مدنية وهو عن عكرمة والحسن البصري وعن عطاء عن ابن عباس، وجمع السيوطي وغيره بين الروايات بأنها مكية إلاَّ آيات منها نزلت بالمدينة يعني قوله: ﴿هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ إلى قوله ﴿شديد المحال﴾ وقوله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾، قال ابن عطية والظاهر أن المدني فيها كثير وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني. وأقيمت هذه السورة على أساس إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أوحى إليه من إفراد الله بالإلهية والبعث وإبطال أقوال المكذبين فلذلك تكررت حكاية أقوالهم خمس مرات موزعة على السورة بدءاً ونهاية ومهد لذلك بالتنويه بالقرآن وأنه منزل من الله والاستدلال على تفرده تعالى بالإلهية. ثم انتقل إلى تفنيد أقوال أهل الشرك ومزاعمهم في إنكار البعث. وتهديدهم أن يحل ما حل بأمثالهم والتذكير بنعم الله على الناس. وإثبات أن الله هو المستحق للعبادة دون آلهتهم. وأن الله العالم بالخفايا وأن الأصنام لا تعلم شيئاً ولا تنعم بنعمة. والتهديد بالحوادث الجوية أن يكون منها عذاب للمكذبين كما حل بالأمم قبلهم والتخويف من يوم الجزاء والتذكير بأن الدنيا ليست دار قرار وبيان مكابرة المشركين في اقتراحهم مجيء الآيات على نحو مقترحاتهم ومقابلة ذلك بيقين المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لقي من قومه إلاَّ كما لقي الرسل عليهم السلام من قبله. انظر التحرير ١٣/٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٢ عزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

أُنزل إليك كله من الله تعالى وهو الحق والإيمان به واجب. وقال ابن عباس تلك آيات الكتاب يعني تلك آيات القرآن. ومعناه هذه آيات الكتاب والذي أُنزل من ربك هو الحق يعني: القرآن ويقال «تلك آيات الكتاب» يعني: الأحكام والحجج والدلائل «والذي أنزل إليك» يعني جبريل ليقرأ عليك (من ربك)(١) الحق. يعني اتبعوه واعملوا به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون إنه من الله تعالى. فلما ذكر أنهم لا يؤمنون بين الدلائل التي توجب التصديق بالخالق ثم قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يعني: ليس لها عمد ترونها. وهذا قول الحسن(٢). وقتادة: (رفعها الله تعالى بغير عمد)(٣). وقال ابن عباس وسعيد بن جبير معناه لها عمد ولكن لا ترونها. يعني أنتم ترونها بغير عمد في المشاهدة ولكن لها عمد. وكلا التفسيرين معناهما واحد. لأن من قال إن لها عمداً ولكن لا ترونها يقول العمد هو قدرة الله تعالى التي تمسك السموات والأرض. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال ابن عباس: كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض. وقد ذكرناه من قبل ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ذلك لبني آدم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يقول: يسير إلى وقت معلوم لا يجاوزه، وللشمس والقمر منازل كل واحد منهما يغرب في كل ليلة في منزل ويطلع في منزل حتى ينتهي إلى أقصى منازله. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يعني: يقضي القضاء ويبعث الملائكة بالوحي والتنزيل ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يقول: يبين العلامات في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ يعني تصدقون بالبعث

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يعني: بسط الأرض من تحت الكعبة على الماء وكانت تكفي بأهلها كما تكفي السفينة فأرساها الله بالجبال وهو قوله تعالى ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال الثوابت من فوقها ﴿وَأَنْهَاراً﴾ يعني: خلق في الأرض أنهاراً ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: خلق فيها من ألوان الثمرات. ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: خلق من كل شيء لونين من الثمار حلواً وحامضاً، ومن الحيوان ذكراً وأنثى ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يعني: يعلو الليل على النهار ويعلو النهار على الليل واقتصر بذكر أحدهما إذ كان في الكلام دليل عليه. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر(٤) «يُغَشِّي» بنصب الغين وتشديد الشين. وقرأ الباقون بالجزم والتخفيف. ثم بين أن ما ذكر من هذه الأشياء فيه برهان وعلامات لمن تفكر فيها فقال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: فيما ذكر من صنعه ﴿لَآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في اختلاف الليل والنهار فيوحدونه. ثم بين أن في

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٣٦٨ إتحاف فضلاء البشر ٢/١٥٩.

الأرض علامات كثيرة ودلائل كثيرة لوحدانيته لمن له عقل سليم فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ يعني: بالقطع الأرض السبخة والأرض العذبة. متجاورات يعني ملتزقات متدانيات قريبة بعضها من بعض فتكون أرض سبخة وتكون إلى جنبها أرض طيبة جيدة. وقال قتادة[١]: قطع متجاورات أي قرى متجاورات، ويقال العمران والخراب والقرى المغاور ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ يعني: الكروم ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ قرأ بعضهم: بضم الصاد.[٢]وقراءة العامة بالكسر وهما لغتان ومعناهما واحد. قال مجاهد[٣] وقتادة: الصنوان النخلة التي في أصلها نخلتان وثلاث أصلهن واحدة. وقال الضحاك: يعني النخل المتفرق والمجتمع. ويقال صنوان النخلة التي بجنبها نخلات وغير صنوان يعني: المنفردة. وروي عن[٤] النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لا تؤذونني في العباس فإنه بقية آبائي وإن عم الرجل صنو أبيه. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص «وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ» كلها بالضم على معنى الابتداء . وقرأ الباقون كلها بالكسر على معنى النعت للجنات. ويقال على وجه المجاورة. لأن الزرع لا يكون في الجنات. ثم قال ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ يعني: الماء والتراب واحد وتكون الثمار مختلفة في ألوانها وطعومها. لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب في القياس أن لا تختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا ثبت في مغرس واحد وسقي بماء واحد. ولكنه صنع اللطيف الخبير. وقال مجاهد[٥]: هذا مثل لبني آدم أصلهم من أب واحد، ومنهم صالح ومنهم خبيث. ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إنه من الله تعالى. قرأ حمزة والكسائي: «يُسْقَى وَيُفَضِّلُ» بالياء. وقرأ عاصم وابن عامر في أحد الروايتين يُسْقَى بالياء بلفظ التذكير. ونُفَضِّلُ بالنون[٦]. وقرأ الباقون «تُسْقَى» بالتاء «ونُفَضِّلُ» بالنون. ثم قال تعالى

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٣ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص: (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع. وحجتهم ذكرها العباس فقال: سألت أبا عمرو: (كيف لا تقرأ (وزرع) بالجر؟) قال: (الجنات لا تكون من زرع) فذهب أبو عمرو إلى أن الزرع وما بعده مردود على قوله (قطع) كأنه قال: في الأرض قطع متجاورات وفيها جنات وفيها زرع ونخيل). وقرأ الباقون بالجر كلها. حملوا الزرع والنخيل على الأعناب كأنه قال: جنات من أعناب وغير ذلك من زرع ونخيل، وحجتهم في ذلك على أن الأرض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع سميت جنة: قوله: ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ فكما سميت الأرض ذات النخل والزرع جنة كذلك يكون في قراءة من قرأ: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ أن يكون الزرع والنخيل محمولين على الأعناب.

قرأ عاصم وابن عامر: (يسقى بماء واحد) أي يسقى المذكور بماء واحد، وحجتهما قوله: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره﴾ على معنى من ثمر المذكور. (وقرأ) الباقون: (تسقى) بالتاء أي تسقى هذه الأشياء بماء واحد قالوا: ولا يكون التذكير لأنك إن حملته على الزرع فقد تركت غيره. وإن حملته على الجنات مع حمله على الزرع فقد ذكرت المؤنث وحجتهم قوله تعالى: بعدها (ونفضل بعضهما على بعض فقال (بعضها) فكما حمل هذا على التأنيث كذلك يحمل (تسقى). انظر حجة القراءات ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٤ وعزاه لابن الشيخ.

(٦) انظر حجة القراءات ٣٧٠، والنشر ٢/٢٩٧.

وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ
وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ
عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ قال الكلبي: يعني إن تعجب من تكذيب أهل مكة لك وكفرهم بالله فعجب قولهم. يقول: أعجب من ذلك قولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾. وقال مقاتل: وإن تعجب مما أوحينا إليك من القرآن تعجب قولهم أئذا كنا تراباً ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إكذاباً منهم بالبعث قرأ الكسائي «أَإِذَا» بهمزتين (على وجه الاستفهام «إِنَّا لَفِي خَلْقٍ» بهمزة واحدة. وقرأ عاصم وحمزة كليهما بهمزتين)[1]. وقرأ أبو عمرو «آيِذَا» بهمزة واحدة مع المد وكذلك في قوله «آيِنَّا» بالمد. وقرأ ابن كثير «أَيِذَا» بالياء وكذلك «أَيِنَّا». وقرأ ابن عامر «إِيذا كُنَّا» بهمزة واحدة بغير استفهام[2] «آيِنَّا» بالهمزة والمد. قال لأنهم لم يشكوا في الموت وإنما شكوا في البعث فينبغي أن يكون الاستفهام في الثاني دون الأول. ثم قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ يعني جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يعني تغل أيمانهم على أعناقهم بالحديد في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون فيها ولا يخرجون منها. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قال ابن عباس: سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم العذاب استهزاء منهم بذلك فنزل «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» يعني: بالعذاب قبل العافية ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ يعني: العقوبات والنقمات قبل قريش فيمن هلك. وأصل المثلة الشبه وما يعتبر به وجمعه المثلات ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوا مَغْفِرَةٍ﴾ يقول: تجاوز ﴿لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ يعني: على شركهم إن تابوا. ويقال: بتأخير العذاب عنهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن مات منهم على شركه. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَبِّهِ﴾ يعني هلا أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ علامة من ربه لنبوته. قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ يعني: مخوف ومبلغ لهذه الأمة الرسالة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال الكلبي: داع يدعوهم إلى الضلالة أو إلى الحق. وقال الضحاك يعني: إنما أنت منذر وأنا الهادي. وقال سعيد بن جبير[3]: الهادي هو الله. وقال عكرمة[4]: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو نذير وهو الهادي يعني يدعوهم إلى الهدى ولكل قوم هاد. وقال مجاهد[5] يعني: لكل قوم نبي. قرأ ابن كثير[6] «هَادِي» بالياء عند الوقف وكذلك قوله (مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ). وقرأ الباقون بغير ياء. قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾

---

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٧١، وإتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير الطبري.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٦١.

ذكراً أو أُنثى ويعلم ما في الأرحام سوياً أو غير سوي ثم قال ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ (يعني ما تنقص)[١] الأرحام من تسعة أشهر في الحمل[٢] ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يعني: على التسعة أشهر في ذلك الحمل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ قال قتادة[٣]: رزقهم وأجلهم. وقال ابن عباس من الزيادة والنقصان والمكث في البطن والخروج. كل ذلك بمقدار قدره الله تعالى فلا يزيد على ذلك. وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: «وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ». يعني الحامل.[٤]

---

(١) سقط في أ.

(٢) أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن أقل أمد الحمل وأكثره وأقل أمد الحيض وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد لأن الله استأثر بعلم ذلك لقوله: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام﴾ الآية.

ولا يجوز أن يحكم في شيء من ذلك إلا بقدر ما أظهره الله لنا ووجد ظاهراً في النساء نادراً أو معتاداً. وسنذكر إن شاء الله أقوال العلماء في أقل الحمل وأكثره وأقل الحيض وأكثره ونرجح ما يظهر رجحانه بالدليل.

فنقول وبالله تعالى نستعين:

اعلم أن العلماء أجمعوا على أن أقل أمد الحمل ستة أشهر دل على ذلك القرآن لأن قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ إن ضممت إليه قوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ بقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر فدل ذلك على أنها أمد للحمل يولد فيه كاملاً.

وقد ولد عبد الملك بن مروان لستة أشهر وهذه الأشهر الستة بالأهلة كسائر أشهر الشريعة لقوله تعالى: (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾. قال القرطبي (ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك وأظنه في كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها حكاه ابن عطية. والذي يظهر والله تعالى أعلم أن الشهر المعدود من أوله يعتبر على حاله من كمال أو نقصان وأن المنكسر يتمم ثلاثين، أما أكثر أمد الحمل فلم يرد في تحديده شيء من كتاب ولا سنة والعلماء مختلفون فيه وكلهم يقول بحسب ما ظهر له من أحوال النساء. فذهب الإمام أحمد والشافعي: إلى أن أقصى أمد الحمل أربع سنين وهو إحدى الروايتين المشهورتين عن مالك والرواية المشهورة الأخرى عن مالك خمس سنين وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن أقصاه سنتان وهو رواية عن أحمد وهو مذهب الثوري وبه قالت عائشة رضي الله عنها وعن الليث ثلاث سنين وعن الزهري ست وسبع وعن محمد بن الحكم سنة لا أكثر وعن داود تسعة أشهر.

وقال ابن عبد البر هذه مسألة لا أصل لها إلاّ الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء وقال القرطبي (روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال (قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المغزل) فقال: سبحان الله من يقول هذا هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين وكانت تسمى حاملة الفيل. وأظهر الأقوال دليلاً أنه لا حدلأكثر أمد الحمل وهو الرواية الثالثة عن مالك كما نقله عنه القرطبي لأن كل تحديد بزمن معين لا أصل له ولا دليل عليه وتحديد زمن بلا مستند صحيح لا يخفى سقوطه والعلم عند الله تعالى. أضواء البيان ٨٤، ٨٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) اختلف العلماء في الدم الذي تراه الحامل هل هو حيض أم دم فساد؟ فذهب مالك والشافعي في أصح قوليه إلى أنه حيض وبه قال قتادة والليث وروي عن الزهري وإسحاق وهو الصحيح عن عائشة وذهب الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد إلى أنه دم فساد وعلة وأن الحامل لا تحيض، وبه قال جمهور التابعين منهم سعيد بن المسيب وعطاء والحسن وجابر بن زيد وعكرمة ومحمد بن المنكدر والشعبي ومكحول وحماد والثوري والأوزاعي وابن المنذر وأبو عبيد وأبو ثور واحتج من قال إن الدم الذي تراه الحامل حيض بأنه دم بصفات الحيض في زمن إمكانه وبأنه متردد بين كونه فساداً لعلة أو حيضاً والأصل السلامة من العلة فيجب استصحاب الأصل.

واحتج من قال بأنه دم فساد بأدلة: منها: ما جاء في بعض روايات حديث ابن عمر في طلاقه امرأته في الحيض أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لعمر: (مُرْه فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملاً) وهذه الرواية أخرجها أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وقالوا: قد جعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحمل علامة على عدم الحيض كما جعل الطهر علامة لذلك. ومنها: حديث (لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تُسْتَبْرأ بحيضة) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وصححه ≡

إن ترى الدم نقص من الولد وإن لم تر الدم يزيد في الولد. وروى أسباط عن السدي قال: قال إن المرأة إذا حملت واحتبس حيضها كان ذلك الدم رزقاً للولد، فإذا حاضت على ولدها خرج وهو أصغر من الذي لم تحض عليه. «وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ» وهي الحيضة التي على الولد وما تزداد فحين يستمسك الدم فلا تحيض وهي حبلى. قال الفقيه: هذا الذي قال السدي إن الحامل تحيض إنما هو على سبيل المجاز. لأن دم الحامل لا يكون حيضاً ولكن معناه إذا سال منها الدم فيكون ذلك استحاضة. قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا ابن خزيمة قال حدثنا عليّ قال حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله. لا يعلم ما تغيض الأرحام أحد إلا الله. ولا يعلم ما في غد أحد إلا الله. ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله. ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله. ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله.

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ يعني: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. ويقال: عالم بما كان وبما لم يكن. ويقال: عالم السر والعلانية ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[1] يعني: هو أكبر وأعلى من أن تكون له صاحبة وولد.

= الحاكم وله شواهد قالوا: فجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحيض علامة على براءة الرحم فدل ذلك على أنه لا يجتمع مع الحمل.
ومنها أنه دم في زمن لا يُعْتَادُ فيه الحيض غالباً فكان غير حيض قياساً على ما تراه اليائسة بجامع غلبة عدم الحيض في كل منهما. وقد قال الإمام أحمد رحمه الله إنما يعرف النساء الحمل بانقطاع الدم. ومنها: أنه لو كان دم حيض ما انتفت عنه لوازم الحيض فلما انتفت عنه دل ذلك على أنه غير حيض لأن انتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم فمِنْ لازم الحيض حرمة الطلاق، ودم الحامل لا يمنع طلاقها للحديث المذكور آنفاً الدال على إباحة طلاق الحامل الطاهر ومِنْ لازم الحيض أيضاً انقضاء العدة به ودم الحامل لا أثر له في انقضاء عدتها لأنها تعتد بوضع حملها لقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾. وفي هذه الأدلة مناقشات ذكر بعضها النووي في شرح المهذب. واعلم أن مذهب مالك التفصيل في أكثر حيض الحامل فإن رأته في شهرها الثالث إلى انتهاء الخامس تركت الصلاة نصف شهر ونحوه وفسروا نحوه بزيادة خمسة أيام فتجلس عشرين يوماً فإن حاضت في شهرها السادس فما بعده تركت الصلاة عشرين يوماً ونحوها وفسروا نحوها بزيادة خمسة أيام تجلس خمساً وعشرين وفسره بعضهم بزيادة عشر فتجلس شهراً فإن حاضت الحامل قبل الدخول في الشهر الثالث. فقيل حكمه حكم الحيض في الثالث وقد تقدم. وقيل حكمه حكم حيض غير الحامل فتجلس قدر عادتها وثلاثة أيام استظهاراً. أضواء البيان ٣/٩٣ ـ ٩٤.

(١) قرأ ابن كثير: (المتعالي) بإثبات الياء في الوصل والوقف وهو القياس وليس ما فيه الألف واللام من هذا كما لا ألف ولام فيه من هذا النحو نحو (غاز وقاض) قال سيبويه: (إذا لم يكن في موضع تنوين (يعني إسم الفاعل) فإن البيان أجود في الوقف وذلك قولك: (هذا القاضي) لأنها ثابتة في الوصل) يريد أن الياء مع الألف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف في إسم الفاعل إذا لم يكن فيه الألف واللام نحو: هذا قاض فاعلم فالياء مع غير الألف واللام تحذف في الوصل ومع الألف واللام لا تحذف. وقرأ الباقون: (المتعال) بغير ياء وحجتهم خط المصحف بغير ياء والمتعال (متفاعل) من (العلو) والأصل: (متعالو) فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها لقولك (الداعي والغازي) والأصل الداعو والغازو). انظر حجة القراءات ٣٧٢.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ يعني: سواء عند الله من أسر القول ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ يعني: من أخفى العمل وأعلن العمل ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ يعني: في ظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي منصرف في حوائجه. يقال سَرَبَ يَسْرُبُ إذا انصرف ومعناه: المختفي[١] والظاهر عنده سواء. وقال مجاهد[٢]: المستخفي المختفي بالمعصية والسارب يعني: الظاهر بالمعاصي ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ قال ابن عباس له حافظات ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني بأمر الله حتى ينتهوا به إلى المقادير فإذا جاءت المقادير خلوا بينه وبين المقادير. المعقبات يعني الملائكة يعقب بعضهم بعضاً في الليل والنهار. إذا مضى فريق خلفه بعده فريق. وروي عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: له معقبات. قال الملائكة يتعاقبون بالليل والنهار يحفظونه من أمر الله يعني: بأمر الله. ويقال للمؤمن طاعات وصدقات يحفظونه من أمر الله أي من عذاب الله عند الموت وفي القبر وفي يوم القيامة ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ يعني: لا يبدل ما بقوم من النعمة التي أنعمها عليهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ يقول: يبدلوا ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. بترك الشكر. قال مقاتل: يعني كفار مكة. نظيرها في الأنفال (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ) إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف فلم يعرفوها. فغير ما بهم فجعل ذلك لأهل المدينة. قال أبو الليث رحمه الله: في الآية تنبيه لجميع الخلق ليعرفوا نعمة الله عليهم ويشكروه لكيلا تزول عنهم النعم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ يعني: إذا أراد بهم عذاباً أو هلاكاً فلا مرد لقضائه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يعني: ليس لهم من عذابه ولي ولا قريب يمنعهم ولا ملجأ يلجأون إليه. قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ يعني: خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم الحاضر. ويقال: خوفاً لمن يخاف ضرر المطر وطمعاً لمن يحتاج إلى المطر. لأن المطر يكون لبعض الأشياء ضرراً ولبعضها رحمة ثم قال ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ يعني: يخلق السحاب الثقال من الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يعني: بأمره. قال: حدثنا عمر بن محمد قال: حدثنا أبو بكر الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا وكيع عن عمرو بن أبي زائدة أنه قال سمعت عكرمة يقول: الرعد ملك يزجر السحاب بصوته كالحادي بالإبل[٣]. وروى وكيع عن المسعودي عن سلمة بن كهيل أنه سئل عن الرعد. فقال هو ملك (يزجر السحاب)[٤]وسئل عن البرق فقال هو في مخاريق بأيدي الملائكة. وسئل وهب بن منبه عن الرعد فقال: ثلاث ما أظن أحداً يعلمهن إلا الله عز وجل. الرعد والبرق والغيث وما أدري من أين هن وما هن فقيل له «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» قال: نعم ولا ندري أنزل من السماء أو من السحاب ولقحت فيه أو يخلق في السحاب

---

(١) في أ [في المعصية وسارب بالنهار الظاهر بالمعاصي].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٤٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أكثر المفسرين على أن الرعد إسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه. انظر تفسير البغوي ٤/١١.

(٤) سقط في أ.

فيمطر. وسمى السحاب سماء. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن الرعد فقال: هو ملك في السماء واسمه الرعد والصوت الذي يسمع هو زجر السحاب. ويؤلف بعضه إلى بعض فيسوقه. ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ يقول: يسبح الملائكة كلهم خائفين لله تعالى ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي نار من السماء لا دخان لها ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن عباس: هو الله تعالى شديد المحال يعني (شديد العقاب)[1]. ويقال أصله في اللغة الحيلة. وقال قتادة[2]: يعني الحيلة والقوة ويقال هو شديد القدرة والعذاب ويقال المحال في اللغة هو الشدة[3] ويقال بعضهم: هو كناية عن الذي يجادل. ويكون معناه فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله. يعني يصيبهم في حال جدالهم. وقال مجاهد جاء يهودي إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا محمد أخبرني من أي شيء ربك أمن لؤلؤ هو؟ فأرسل الله عليه صاعقة فقتلته فنزل «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ». يعني: شديد العداوة وقال قتادة: دخل عامر بن الطفيل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: أسلم على أن لك المدر ولي الوبر. يعني لك ولاية القرى ولي ولاية البوادي فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنت من المسلمين لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال عامر لك الوبر ولي المدر. فأجابه بمثل ذلك. قال عامر ولي الأمر من بعدك. فأجابه بمثل ذلك فغضب عامر وقال لأملأنها عليك رجالاً. ألفا رجل أشعر وألفا أمرد. فخرج ولقي أربد بن قيس فقال له ادخل على محمد وألهه وأنا أقتله، فدخلا عليه فجعل عامر يسأله ويقول أخبرنا يا محمد عن إلهك أمن ذهب هو أم من فضة؟ فلما طال حديثه قاما وخرجا. فقال مالك لم تقتله؟ قال كلما أردت أن أقتله وجدتك بيني وبينه فجاء جبريل فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك فدعا عليه فأصابته صاعقة فقتلته فنزل «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال»قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يعني: كلمة الإخلاص لا إله إلا الله. يدعو الخلق إليها. ويقال معناه: له على العباد دعوة الحق أن يدعوه فيجيبهم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ يقول: لا ينفعهم بشيء ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يعني: كمادٍ يديه ﴿إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ والعرب تقول لمن طلب شيئاً لا يجده هو كقابض الماء يعني كمن هو مشرف يدعو الماء بلسانه ويشير إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ يعني: فلا يناله أبداً. وقال مجاهد[4]: كالذي يشير بيده إلى الماء فيدعوه بلسانه فلا يجيبه أبداً. هذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك الذي عبد مع الله إلهاً آخر. أنه لا (يجيبه الصنم)[5] ولا ينفعه كمثل العطشان الذي ينظر إلى الماء من بعيد ولا يقدر عليه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول ما عبادة أهل مكة ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يضل عنهم إذا احتاجوا إليه في الآخرة.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٣) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٢٥.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذروابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٥) في أ [لا تجيبهم الأصنام].

ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ
قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ
ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ
وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ قال قتادة[1]: أما المؤمن فيسجد لله طائعاً. وأما الكافر فيسجد كرهاً. ويقال أهل الإخلاص يسجدون لله طائعين وأهل النفاق يسجدون له كرهاً (ويقال من ولد في الإسلام يسجد طوعاً ومن سبي من دار الحرب يسجد كرهاً)[2] ويقال يسجد لله يعني يخضع له من في السموات والأرض ولا يقدر أحد أن يغير نفسه عن خلقته ﴿وَظِلاَلُهُمْ﴾ يعني: تسجد ظلالهم. وسجود الظل دورانه. ويقال ظل المؤمن يسجد معه وظل الكافر يسجد لله تعالى إذا سجد الكافر للصنم ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني أول النهار وآخره وقال أهل اللغة الأصيل ما بين العصر إلى المغرب وجمعه أُصل والآصال جمع الجمع قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني قل: يا محمد لأهل مكة من خالق السموات والأرض؟ فإن أجابوك وإلا ف﴿قُلْ اللَّهُ﴾ ثم قال ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أفعبدتم غيره ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي كما لا يستوى الأعمى والبصير. كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. ويقال الأعمى الجاهل الذي لا يتفكر ولا يرغب في الحق والبصير العالم الذي يتفكر ويرغب في الحق ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي كما لا تستوي الظلمات والنور فكذلك لا يستوي الإيمان والكفر. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[3] «يَسْتَوِي» بلفظ التذكير بالياء. وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث لأن تأنيثه ليس بحقيقي. فيجوز أن يذكر ويؤنث ولأن الفعل مقدم على الاسم ثم قال ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني بل جعلوا لله شركاء من الأصنام ويقال معناه: اجعلوا لله شركاء. والميم صلة. ثم قال ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: هل خلق الأوثان خلقاً كما خلق الله فاشتبه عليهم خلق الله تعالى من خلق غيره. فلما ضرب الله مثلاً لآلهتهم سكتوا. قال الله تعالى ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قل يا محمد الله عز وجل خالق جميع الموجودين ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني (الذي لا شريك له)[4] القاهر لخلقه القادر عليهم ثم ضرب الله تعالى مثلاً للحق والباطل. لأن العرب كانت عادتهم أنهم يوضحون الكلام بالمثل وقد أنزل الله تعالى القرآن بلغة العرب فأوضح لهم الحق من الباطل بالمثل فقال ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني: سال في الوادي الكبير بقدره وفي الوادي الصغير بقدره. فشبه القرآن بالمطر وشبه القلوب بالأودية وشبه الهدى بالسيل ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ يعني: عالياً على الماء. فشبه الزبد بالباطل يعني احتملته القلوب

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٧٣، النشر ٢/٢٩٧.
(٤) سقط في ظ.

على قدر أهوائها باطلاً كبيراً. فكما أن السيل يجمع كل قدر كذلك الأهواء تحتمل الباطل. وكما أن الزبد لا وزن له فكذلك الباطل لا ثواب له فذلك قوله (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً) يعني يذهب كما جاء ويقال جفاءً أي: سريعاً. وقال مقاتل: جفاءً أي يابساً فلا ينتفع به ويقذفه السيل وقال القتبي: الجفاء ما رمى به الوادي في جنباته ويقال جفأت القدر بزبدها إذا ألقيته عنها. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني يبقى الماء الصافي. فكذلك الإيمان واليقين ينتفع به أهله في الآخرة كما ينتفع بالماء الصافي في الدنيا. والباطل لا ينتفع به لا في الدنيا ولا في الآخرة. ثم ضرب مثلاً آخر بالذهب والفضة فقال تعالى ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾[(1)] من الذهب والفضة ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ يعني النحاس حِلْيَةٍ تلبسونها يخرج منها الخبث ويبقى الذهب والفضة خالصاً. ثم ضرب مثلاً آخر فقال ﴿أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ يعني: النحاس والحديد والصفر يزول عنها الخبث ويبقى الصفر والحديد (خالصاً) فيتخذ منها المتاع. فهذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد. كما يضمحل هذ الزبد ويبقى خالص الماء وخالص الذهب والفضة والحديد والصفر فكذلك يضمحل الباطل عن أهله. وكما يمكث الماء في الأرض (ويخرج) نباتها. وكما يبقى خالص الذهب والفضة حين يدخلان النار فكذلك يبقى الحق وثوابه لصاحبه. وقال القتبي في قوله فاحتمل السيل زبداً رابياً قال: هذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل يقول الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلا. فإن الله سيمحقه (ويبطله) ويجعل العاقبة للحق وأهله مثل مطر سال في الأودية بقدرها. فاحتمل السيل زبداً رابياً أي: عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق. ومن جواهر الأرض التي تدخل الكير توقدون عليها بمعنى: الذهب والفضة للحلية (أَوْ مَتَاعٍ) يعني: الشبه والحديد والآنك يكون للآنية له خبث (يعلوها) مثل زبد الماء فأما الزبد فيذهب جفاء يتعلق بأصول الشجر (وكنبات الوادي) وكذلك خبث الفلز يعني: الجوهر يقذفه فهذا مثل الباطل وأما ما ينفع الناس وينبت المرعى فيمكث في الأرض فكذلك الصفر من الفلز يبقى صالحاً فهو مثل الحق ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ﴾ على وجه التقديم والتأخير يعني: هكذا يضرب الله المثل للحق والباطل. ويقال معناه هكذا يبين الله الحق من الباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على معنى التقديم والتأخير وقد ذكرناه من قبل ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعني: يبين الله الأشباه ويوضح الطريق ويقيم الحجة. ثم قال ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: للذين أجابوا ربهم بالطاعات في الدنيا لهم الجنة في الآخرة ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ يعني: لم يجيبوه ولم يطيعوه في الدنيا ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ يعني وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ يقول لفادوا به أنفسهم من العذاب ولو فادوا به لا يقبل منهم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني شديد العقاب ويقال المناقشة في الحساب وروي عن إبراهيم[(2)] النخعي أنه قال: أتدرون ما سوء الحساب؟ قالوا لا. قال هو الذنب يحاسب عليه العبد ثم لا يغفر له. وعن الحسن[(3)] أنه سئل عن سوء الحساب قال يؤخذ العبد بذنوبه كلها فلا يغفر له منها ذنب ثم قال ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ يعني: الفراش من النار. ويقال بئس موضع القرار في النار.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: (ومما يوقدون عليه) بالياء وحجتهم أن الكلام خبر لا خطاب فيه بدلالة قوله: (وأما ما ينفع الناس) فأخبر عنهم فكذلك (ومما يوقدون) جرى بلفظ الخبر نظيراً لما أتى عقيبه من الخبر.

وقرأ الباقون: بالتاء ردوا على المخاطبة في قوله (قبلها) ﴿قل أفاتخذتهم من دونه﴾ انظر حجة القراءات ٣٧٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وأبي الشيخ.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ.

أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ
وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ
﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ
عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِك الْحَقُّ**﴾ يعني يعلم أن القرآن الذي أنزل من الله تعالى هو الحق ﴿**كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**﴾ يعني كمن هو لا يعلم. ويقال أفمن يعلم أن ما ذكر من المثل حق كمن لا يعلم وهذا كقوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ) يعني المثل، ويقال أفمن يرغب في الحق حتى يعلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق كمن هو أعمى. يعني كمن لا يرغب فيه ﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ يعني يتعظ بما أنزل إليك من القرآن ذوو العقول من الناس وهم المؤمنون. ثم وصفهم فقال ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ**﴾ يعني العهد الذي بينهم وبين الله تعالى والعهد الذي بينهم وبين الناس ﴿**وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾ يعني الميثاق الذي أخذ عليهم يوم الميثاق. ويقال يعني: أهل الكتاب، الميثاق الذي أخذ عليهم في كتابهم. قوله ﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ يعني: يصلون الأرحام ولا يقطعونها. وقال يعني: الإيمان بجميع الأنبياء ﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ يعني يمتنعون عما نهاهم الله تعالى عنه. والخشية من الله الامتناع عن المحرمات والمعاصي ﴿**وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾ يعني شدته ﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا**﴾ يعني صبروا عن المعاصي وصبروا على أداء الفرائض وصبروا على المصائب والشدائد وصبروا على أذى الكفار والمنافقين ﴿**ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ يعني: صبروا على طلب[1] مرضاة الله تعالى ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ**﴾ يعني: أتموها بركوعها وسجودها في مواقيتها ﴿**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ يعني: من الأموال ﴿**سِرًّا وَعَلاَنِيَةً**﴾ يعني يتصدقون في الأحوال كلها ظاهراً وباطناً. ويقال مرة يتصدقون سراً مخافة الرياء ومرة يتصدقون علانية لكي يقتدى بهم. ويقال يتصدقون صدقة التطوع في السر وزكاة الفريضة علانية ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾ يقول: يدفعون بالكلام الحسن السيئة. يعني: الكلام القبيح فهذا كله صفة ذوي الألباب وهم الذين استجابوا لربهم، ثم بين ثوابهم ومرجعهم في الآخرة فقال: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ يعني: لهم الجنة وهم المهاجرون والأنصار ومن كان في مثل حالهم إلى يوم القيامة. فقال تعالى: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ**﴾ يعني: ومن آمن وأطاع الله تعالى: ﴿**مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**﴾ يدخلون أيضاً جنات عدن وهذا كقوله: (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ) ﴿**وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ**﴾ ويسلمون عليهم ويقولون ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ على أمر الله تعالى وطاعته ﴿**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ يعني نعم العاقبة الجنة. فقد بين حال الذين استجابوا لربهم والذين يعلمون أن الذي أنزل إليك هو الحق. ثم بين حال الذين لم يستجيبوا له وهم الذين ينقضون الميثاق

---

(١) في أ [يصبرون على ما ذكر ابتغاء مرضاة الله].

فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يعني: من بعد تأكيده وتغليظه، يعني: بعد إقرارهم بالتوحيد يوم الميثاق ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يعني: الأرحام. ويقال الإيمان بالنبيين ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعاء إلى عِبادة غير الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ يعني يلعنهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يعني: سوء المرجع. ويقال: لهم اللعنة. يعني هم مطرودون من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة «ولهم سوء الدار» يعني عذاب النار في الآخرة.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يقتر في الرزق. يعني: يختار للغني الغنى وللفقير الفقر. لأنه يعلم أن صلاحه فيه. وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله تعالى خلق الخلق وهو بهم عليم. فجعل الغنى لبعضهم صلاحاً وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً فذلك الخيار للفريقين. وقال الحسن البصري: ما أحد من الناس يبسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه. (وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص علمه وعجز رأيه)[(١)]. ثم قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول: استأثروا الدنيا على الآخرة ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ يعني: الدنيا بمنزلة الأواني التي لا تبقى. مثل السكرجة[(٢)] والزجاجة وأشباه كل ذلك التي يتمتع بها ثم تذهب فكذلك هذه الدنيا تذهب وتفنى. وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع. وقال مجاهد[(٣)]: إلا متاع. أي قليل ذاهب وهكذا قال مقاتل.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ يعني هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني علامة لنبوته. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده من الهدى يعني إذا لم يرغب فيه ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ يرشد إلى دينه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ يعني: من رجع إلى الحق. ويقال رجع عن الشرك. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا مقرون بالأولى يعني ويهدي الَّذِينَ آمَنُوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: تسكن وترضى قلوبهم ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: إذا ذكروا الله تعالى بوحدانيته آمنوا به

---

(١) سقط في ظ.

(٢) بضم السين والكاف والراء والتشديد وهي إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم ـ وهي فارسية انظر لسان العرب ٣/٢٠٤٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٨ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

غير شاكين. وقال الكلبي يعني: وتسكن وترضى قلوبهم لمن يحلف لهم بالله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ يعني: ترضى وتسكن قلوب المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا بالله وبمحمد وبالقرآن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ يعني: غبطة لهم. قال مجاهد[١]: طوبى لهم يعني الجنة. ويقال: شجرة في الجنة. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي اليسر[٢] عن مغيث بن سمي في قوله تعالى: «طُوبَى لَهُمْ». قال: طوبى شجرة في الجنة ساقها من ذهب الورقة منها تغطي الدنيا ليس في الجنة منزل إلا وفيه غصن من أغصانها. وقال أبو هريرة:[٣] طوبى شجرة في الجنة. وقال قتادة[٤] هي كلمة عربية. يقول الرجل طوبى لك إذا أصبت خيراً. وقال عكرمة طوبى لهم (أي نعما لهم) ويقال طوبى لهم أي خير لهم. ثم قال تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ يعني: حسن المرجع في الآخرة. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ يقول: هكذا بعثناك في أمة كما بعثنا إلى من كان قبلك من الرجال في الأمم الخالية ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا﴾ يعني: قد مضت من قبل قومك ﴿أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: أرسلناك لتقرأ عليهم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ يعني: يجحدون ويكذبون. وذلك أن عبد الله بن أمية المخزومي وأصحابه قالوا: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب. قال الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ يعني: قل يا محمد الرحمن الذي تكفرون به هو الله ربي الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني: فوضت أمري إليه ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ يعني: وإليه أتوب وأرجع.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ وذلك أن عبد الله بن أمية وغيره من كفار مكة قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - سير لنا جبال مكة ذهباً وفضة حتى نعلم أنك صادق في مقالتك. أو قرب أسفارنا كما فعل سليمان بن داود بريحه أو كلم موتانا كما فعل عيسى بن مريم بدعائه. فنزل (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ غدوها شهر ورواحها شهر ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ فلم يذكر جوابه لأن في الكلام دليلاً عليه. يعني لو فعلنا بقرآن قبل قرآن محمد - صلى الله عليه وسلم - لفعلنا ذلك بقرآن محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال لو فعل أحد من الأنبياء ما تسألوني لفعلت لكم ولكن الأمر إلى الله تعالى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. فذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً﴾ ويقال: معناه: ولو أن قرآناً سيرت به الجبال عن أماكنها أو قطعت به الأرض أو كلم بـه الموتى لم يؤمنوا به. وهذا كقوله: (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِم الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) الآية إلى قوله: «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا». بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً إن شاء هدى من كان أهلاً لذلك وإن شاء لم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
(٢) في أ [عن أبي اليسر عن أبي الأوفى].
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٨، ٥٩ وعزاه لابن جرير.

يهد من لم يكن أهلاً لذلك. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال الحسن وقتادة: أفلم يعلم. وقال الفراء لم أجد في العربية مثل هذا[1]. ويقال معناه أفلم يتبين للذين آمنوا وهو بلسان النخع. ويقال هو من الأياس ومعناه أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بأنهم لا يؤمنون ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ يعني: إنهم لم يكونوا أهلاً لذلك فلم يهدهم. وروى ابن أبان بأسناده عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأ «أفلم يتبين» فقيل له أفلم ييأس الذين آمنوا. فقال إني لأرى الكاتب كتبها وهو ناعس. وروى في خبر آخر أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس[2] عن قوله «أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا» قال أفلم يعلم. قال وهل تعرف العرب ذلك. قال ابن عباس نعم أما سمعت قول مالك بن عوف وهو يقول:

قد يئس الأقوام أني أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ثم قال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ يعني: نكبة وشدة. ويقال القارعة: داهية تقرع. ويقال لكل مهلكة قارعة. ويقال نازلة تنزل لأمر شديد. فالمراد هنا سرية من سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تأتيهم وتصيبهم من ذلك شدة. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ يعني: تنزل أنت يا محمد بجماعة أصحابك قريباً من دارهم يعني من مكة. وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سار بجنوده حتى أتى عسفان ثم بعث مائتي راكب حتى انتهوا قريباً من مكة ثم قال ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني: فتح مكة. قالوا هذه الآية مدنية. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أي بفتح مكة على النبي - صلى الله عليه وسلم.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٞ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك قومك. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أمهلتهم بعد الاستهزاء ولم أعاقبهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب عند المعصية بالتكذيب فأهلكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يعني: فكيف رأيت إنكاري وتعبيري عليهم بالعذاب. لم ير النبي - صلى الله عليه وسلم - عقوبتهم إلا أنه

---

(١) قال الآلوسي في تفسيره ١٥٦/٣ ومعنى قوله سبحانه ﴿أفلم يايئس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلموا وهي - كما قال «القاسم بن معن» لغة هوازن وقال ابن الكلبي هي لغة حي من النخع وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لهم بالشِّعْبِ إذ يَأْسِرونني ... ألم تيأسوا أني ابْنُ فارس زهدم

وقول رباح بن عدي: وسيذكره المصنف رحمه الله.

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنُهُ ... وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

فإنكار الفراء ذلك وزعمه أنه لم يُسمع أحدٌ من العرب يقول يئست بمعنى علمت ليس في محله ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، والظاهر أن استعمال اليأس في ذلك حقيقة وقيل: مجاز لأنه متضمن للعلم فإن الآيس عن الشيء عالم بأنه لا يكون. انظر روح المعاني ١٥٦/٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٣/٤ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.

علم بحقيقته فكان رأي عيانٍ. قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يقول هو الله القائم على كل نفس برة وفاجرة بالرزق لهم والدفع عنهم. وجوابه مضمر يعني كمن هو ليس بقائم على ذرة. وهذا كقوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) ثم قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: قالوا ووصفوا لله شريكاً. وقال مقاتل؛ وجعلوا لله شركاء. يقول أنا القائم على كل نفس بأرزاقهم وأطعمتهم كالذين يصفون أن لي شريكاً. معناه لا تكون عبادة الله بعبادة غيره. ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ يعني قل يا محمد سموا هؤلاء الشركاء. يعني سموا دلائلهم وبراهينهم وحججهم. ويقال سموا منفعتهم وقدرتهم. ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: تخبرونه بما علم أنه لا يكون. ويقال: معناه: أتشركون معه جاهلاً لا يعلم ما في الأرض ويقال معناه: أتخبرون الله بشيء لا يعلم من آلهتكم. يعني يعلم الله أنه ليس لها في الأرض قدرة ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: أتقولون قولاً بلا برهان ولا حجة. ويقال: بباطل من القول. يعني إن قلتم إن لها قدرة لقلتم باطلاً. وقال قتادة:[1] الظاهر من القول الباطل. وكذلك قال مجاهد. ثم قال ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ يقول: ولكن زين للذين كفروا من أهل مكة كفرهم وقولهم الشرك ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر[2] «وصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ» بنصب الصاد. يعني إن الكافرين صدوا الناس عن السبيل. يعني: عن دين الله الإسلام. وقرأ الباقون «وصُدُّوا» بضم الصاد على فعل ما لم يسم فاعله مثل قوله (زُيِّنَ لَهُ) ثم قال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني: من يخذل عن دينه الإسلام ولا يوفقه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني: ما له من مرشد إلى دينه غير الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لهم في الدنيا الشدائد والأمراض. ويقال: وعند الموت. ويقال: القتل على أيدي المسلمين والغلبة عليهم. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ يعني: أشد ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يعني: ملجأ يلجأون إليه فيمنعهم من عذاب الله تعالى.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال بعضهم: المثل هنا أراد به الصفة ولم يرد به التشبيه لأنه قد ذكر من قبل حديث الجنة وهو قوله تعالى: «لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى» وقال بعد ذلك: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا». ثم بين ههنا صفة الجنة فقال (مثل الجنة)[3] يعني: صفة الجنة التي وعد المتقون الذين يتقون الشرك والفواحش روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقرأ «أمثال الجنة التي وعد المتقون» يعني صفاتها وأحاديثها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ يعني: نعيمها لا ينقطع عنهم أبداً ﴿وَظِلُّهَا﴾ يقول: وهكذا ظلها دائم أبداً ليس فيها شمس. وقال بعضهم: أراد به التشبيه لأن الله عرفنا أمور نعيم الجنة التي لم نرها ولم نشاهدها بما شاهدنا من أمور الدنيا. ومعناه مثل الجنة التي وعد المتقون جنة تجري من تحتها الأنهار ثم قال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني تلك الجنة جزاء الذين اتقوا الشرك والفواحش[4] ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ يعني: مصيرهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٤ وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ.
(٢) انظر النشر ٢/٢٩٨، حجة القراءات ٣٧٣.
(٣) سقط في ظ.
(٤) سقط في أ.

وجزاؤهم النار. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب يعجبون بذكر الرحمن ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ يعني أهل مكة ينكرون ذكر الرحمن ويقولون ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة. يعنون مسيلمة الكذاب. ويقال: ومن الأحزاب من ينكر بعضه يعني: مِن أهل الكتاب من ينكر ما كان فيه نسخ شرائعهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ يعني: أمرت أن أقيم على التوحيد ﴿وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾شيئاً ثم قال: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ يقول أدعو الخلق إلى توحيده ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ يعني المرجع في الآخرة ثم قال ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿حُكْماً﴾ يعني: القرآن حكماً على الكتب كلها ويقال محكماً ﴿عَرَبِيًّا﴾ يعني القرآن بلغة العرب ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ قال الكلبي يعني: لئن صليت إلى قبلتهم يعني: نحو بيت المقدس ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يعني من بعدما أتاك العلم بأن قبلتك نحو الكعبة. ويقال ولئن اتبعت أهواءهم. يعني أهل مكة. فيما يدعونك إلى دين آبائك بعد ما ظهر لك أن الإسلام هو الحق ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني من عذابه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ ينفعك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من عذاب الله. الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمُراد به أصحابه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وذلك أن اليهود عَيَّروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا لو كان هذا نبياً كما يزعم لشغلته النبوة عن تزوج النساء فنزل (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك) يا محمد ﴿وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ قال الكلبي. كان لسليمان بن داود عليه السلام ثلاثمائة امرأة مهرية وتسعمائة سرية. وكان لداود مائة امرأة. ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ يعني: ليس ينبغي لرسول ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ إلى قومه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: بأمر الله تعالى ويقال: معناه ما كان يقدر أحد أن يأتي بآية من الآيات إلا بإذن الله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل أجل من آجال العباد كتاب مكتوب لا يزاد عليه ولا ينقص منه. ويقال لكل أجل وقت قد كتب. وقال الفراء هذا مقدم ومؤخر أي لكل كتاب أجل مثل قوله (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) أي سكرة الحق بالموت وكذلك قال ابن عباس قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[1] روى ابن أبي نجيح عن مجاهد[2] أن قريشاً لما نزلت هذه الآية «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بآيَةٍ إلا بإذن الله». قالوا ما نراك يا محمد تملك من شيء ولقد فرغ من الأمر. فنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم. فإنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما نشاء فيمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق العباد ومصايبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وروى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل أنه كان يقول في دعائه. اللّهم إن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا وإن كنت كتبتنا أشقياء فامحنا واكتبنا سعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ما تشاء وعندك أم الكتاب. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[3] أنه قال يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ إلا الشقاوة والسعادة والموت

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: (وَيُثْبِتُ) بالتخفيف من (أثبت يثبت إثباتاً) فهو (مثبت) إذا كتب. وحجتهم قولهم (فلان ثابت).

قرأ الباقون: (يثبت) بالتشديد أي يقر الله ما قد كتبه فيتركه على حاله. وحجتهم قوله: (وأشدُّ تثبيتاً) وقال قوم: هما لغتان مثل (وفيت وأوفيت) و (عظّمته وأعْظَمْته). انظر حجة القراءات ٣٧٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٥ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦ وعزاه لابن مردويه.

والحياة. وروى منصور عن مجاهد[١] أنه قال إلا الشقاوة والسعادة لا يتغيران. ويقال يمحو الله ما يشاء من أعمال بني آدم ما كتب الحفظة ما ليس فيه جزاء خير ولا شر ويثبت ما فيه جزاء خير أو شر. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت إن الحفظة إذا رفعت ديوان العبد. فإن كان في أوله وآخره خير يمحو الله ما بينهما من السيئات وإن لم يكن في أوله وآخره حسنات يثبت ما فيه من السيئات. وقال مقاتل: يمحو الله يعني: ينسخ الله ما يشاء من القرآن ويثبت ويقر المحكم الناسخ ما يشاء فلا ينسخه. ويقال يمحو الله يعني: المعرفة عن ما يشاء ويثبت في قلب من يشاء. وهو مثل قوله (يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ ويقال: يقضي على العبد البلاء فيدعو العبد فيزول عنه كما روي في الخبر الدعاء يرد البلاء. ثم قال ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ يعني أصل الكتاب وجملته وهو اللوح المحفوظ كتب فيه كل شيء قبل أن يخلقهم.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب والزلازل والمصايب في الدنيا إذ كذبوك وأنت حي. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يقول: أو نميتك قبل أن نرينك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ بالرسالة ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ يعني الجزاء. ثم قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ يعني: نفتحها من نواحيها. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: هو ذهاب العلماء. وقال ابن عباس[٢]: ذهاب فقهائها وخيار أهلها. وعن ابن مسعود نحوه. وقال الضحاك أو لم ير المشركون أنا ننقصها من أطرافها. يعني يأخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما حولهم من أراضيهم وقراهم وأموالهم أفهم الغالبون. يعني أولا يرون أنهم المغلوبون والمنتقصون. وعن عكرمة[٣] أنه قال الأرض لا تنقص ولكن تنقص الثمار وينقص الناس. وعن عطاء أنه قال: هو موت فقهائها وخيارها. وقال السدي: يعني: ينقص أهلها من أطرافها ولم تهلك قرية إلا من أطرافها. يعني: تخرب قبل. ثم يتبعها الخراب. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ يقول: لا راد لحكمه ولا مغير له ولا مرد لما حكم لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ النصرة والغنيمة ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ إذا حاسب فحسابه سريع. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: صنع الذين من قبلهم كصنيع أهل مكة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ يعني: يجازيهم جزاء مكرهم وينصر أنبياءه ويبطل مكر الكافرين. ثم قال: ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ برّة وفاجرة ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ يعني: الجنة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٦٨ وعزاه لابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ يعني: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر اليهود. ويقال: يعني: أهل مكة ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يقول: كفى الله شاهداً بيني وبينكم. على مقالتكم ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يعني: ومن آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه شهيداً بيني وبينكم لأنهم وجدوا نعته وصفته في كتبهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ» بجزم الثاء والتخفيف. وقرأ الباقون بنصب الثاء وتشديد الباء (وَيُثَبِّتُ) ومعناهما واحد. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[1] «وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ» (بلفظ الوحدان وهو اسم جنس فيقع على الواحد وعلى الجماعة. وقرأ الباقون «الْكُفَّارُ» بلفظ الجماعة. وقال أبو عبيدة: رأيت في مصحف الإمام «وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ» بلفظ الجماعة وروي عن)[2] عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ «وَمِنْ عِنْدِهِ» بالكسر يعني القرآن من عند الله تعالى. وروي عنه أيضاً وسيعلم الكافرون. وقرأ أبي بن كعب «وسيعلم الذين كفروا» وقال عبد الله بن مسعود: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بعد ذلك بمدة فكيف يجوز أن يكون المراد به عبد الله بن سلام. وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قرأ بالكسر. وقرأ بعضهم «وَمَنْ عِنْدَهُ عُلِمَ الكتاب» بضم العين وكسر اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وروي عن ابن عباس أنه كان يقول هذه السورة مدنية وكان يقرأ «وَمَنْ عِنْدَهُ» بالنصب.

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٧٥، النشر ٢/٢٩٨.

(٢) سقط في ظ.

سُورَةُ إبراهِيمَ (١)

وهي اثنتان وخمسون(٢) آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ
مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ

---

(١) أضيفت هذه السورة إلى إسم إبراهيم - عليه السلام - فكان ذلك إسماً لها لا يعرف لها غيره.

ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر إبراهيم - عليه السلام - جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات (ألر) وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء - عليهم السلام - التي جاءت قصصهم فيها. أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة الحجر ولذلك لم تضف سورة الرعد إليه مثل ذلك لأنها متميزة بفاتحتها بزيادة حرف ميم على ألف ولام وراء وهي مكية كلها عند الجمهور وعن قتادة إلا آيتي ﴿ألم ترى إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً - إلى قوله - وبئس القرار﴾ وقيل: إلى قوله ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ نزل ذلك في المشركين في قضية بدر. وليس ذلك إلا توهماً. وعدة آياتها أربعاً وخمسين عند المدنيين، وخمساً وخمسين عند أهل الشام، وإحدى وخمسين عن أهل البصرة، واثنتين وخمسين عند أهل الكوفة. واشتملت من الأغراض على أنها ابتدئت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن وبالتنويه بشأنه وأنه أنزل لإخراج الناس من الضلالة والامتنان بأن جعله بلسان العرب وتمجيد الله تعالى الذي أنزله ووعيد الذين كفروا به وبمن أنزل عليه وإيقاظ المعاندين بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ما كان بدعاً من الرسل. وأن كونه بشراً أمر غير مناف لرسالته من عند الله كغيره من الرسل وضرب له مثلاً برسالة موسى - عليه السلام - إلى فرعون لإصلاح حال بني إسرائيل وتذكير قومه بنعم الله ووجوب شكرها.

وموعظته إياهم بما حل بقوم نوح وعاد ومن بعدهم وما لاقته رسلهم من التكذيب وكيف كانت عاقبة المكذبين وإقامة الحجة على تفرد الله تعالى بالإلهية بدلائل مصنوعاته. وذكر البعث وتحذير الكفار من تغرير قادتهم وكبرائهم بهم من كيد الشيطان وكيف يتبرأون منهم يوم الحشر. ووصف حالهم وحال المؤمنين يومئذ. وفضل كلمة الإسلام وخبث كلمة الكفر. ثم التعجيب من حال قوم كفروا نعمة الله وأوقعوا من تبعهم في دار البوار بالإشراك والإيماء إلى مقابلته بحال المؤمنين. وعد بعض نعمه على الناس تفضيلاً ثم جمعها إجمالاً. ثم ذكر الفريقين بحال إبراهيم - عليه السلام - ليعلم الفريقان من هو سالك سبيل إبراهيم - عليه السلام - ومن هو ناكب عنه من ساكني البلد الحرام. وتحذيرهم من كفران النعمة. وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالذين ظلموا من قبل. وتثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - بوعد النصر. وما تخلل ذلك من الأمثال. وختمت بكلمات جامعة من قوله (هذا بلاغ للناس) إلى آخرها. انظر التحرير والتنوير ١٣/١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) في أ [وهي خمسون آية].

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿آلر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: هذا كتاب أنزلنا جبريل ليقرأه عليك وهو القرآن ﴿لِتُخرِجَ النَّاسَ﴾ أي لتدعو الناس ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: من الكفر إلى الإيمان. وسمى الكفر ظلمات لأن الكفر طريق الضلالة فمن وقع فيه ضل الطريق وسمى الإيمان نوراً لأنه طريق واضح مبين ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: بأمر ربهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ يعني: دين الإسلام، العزيز المنيع بالنقمة لمن عصاه ولم يجب الرسل. الحميد لمن وحده. ويقال الحميد في فعاله. ويقال الحميد لأفعال الخلق يشكر لهم اليسير من أعمالهم ويعطي الجزيل. ثم قال تعالى: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق. قرأ ابن عامر ونافع[1] «اللَّهُ» بالضم على معنى الابتداء. وقرأ الباقون «اللَّهِ» بالكسر على معنى البناء ثم قال ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني الكافرين بوحدانية الله تعالى ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: غليظ دائم. والويل الشدة من العذاب. ويقال: الويل وادٍ في جهنم. ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ يعني يستأثرون ويختارون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: يصرفون الناس عن ملة الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ يعني: يريدون بملة الإسلام غيراً وزيغاً ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق. يعني: في خطإ طويل بعيد عن الحق. قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ يعني: بلغة قومه ليفهموه وليكون أبين لهم يعني: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ طريق الهدى ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن دين الإسلام من لم يكن أهلاً لذلك. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إلى دينه الإسلام من كان أهلاً لذلك[2] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وقضائه ويقال الحكيم حكم بالضلالة والهدى لمن يشاء. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني: باليد والعصا ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ يعني: ادع قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: من الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ يعني: خوفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ليؤمنوا. وقال مجاهد:[3] أيام نعمه. وكذلك قال قتادة والسدي يعني ذكرهم نعمائي ليؤمنوا بي وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن حببني إلى عبادي. قال يا رب كيف أحببك إلى عبادك والقلوب بيدك. فأوحى الله إليه أن ذكرهم نعمائي ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني: في الذي فعلت بالأمم الخالية وما أعطيتهم من النعم لعلامات ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله والصبار هو البالغ في الصبر ﴿شَكُورٍ﴾ يعني شكور لنعم الله تعالى. وهو على ميزان فَعُول وهو المبالغة في الشكر.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

(١) النشر ٢/٢٩٨، سراج القارىء ٢٦٥. (٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٠، وعزاه لابن جرير.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ
إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني: من فرعون وآله. كما قال في آية أخرى (وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) يعني: فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يقول: يعذبونكم بأشد العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الصغار ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يعني: يستخدمون نساءكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ يعني: ذبح الأبناء واستخدام النساء ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يعني: بلية عظيمة لكم من خالقكم. ويقال في إنجاء الله نعمة عظيمة لكم. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: قال. ويقال أعلم ربكم ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي عليكم ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من النعمة ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيد الله وجحدتم نعمتي عليكم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ في الآخرة. قال الفقيه: حدثنا أبي رحمه الله بإسناده عن أبي هريرة أنه قال: من رزق ستاً لم يحرم ستاً. من رزق الشكر لم يحرم الزيادة لقوله تعالى: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ». ومن رزق الصبر لم يحرم الثواب لقوله تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» ومن رزق التوبة لم يحرم القبول لقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ» ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة لقوله تعالى: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً» ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة لقوله تعالى: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» ومن رزق النفقة لم يحرم الخلف لقوله تعالى: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ». قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ يعني إن جحدتم نعم الله ولم تؤمنوا به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ يعني: عن إيمانكم وطاعتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ لمن عبده منكم بالمغفرة. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يقول: ألم يأتكم في القرآن خبر الذين من قبلكم من الأمم الماضية، كيف عذبهم الله تعالى عند تكذيب رسلهم ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ كيف أهلكهم بالغرق ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكهم الله بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أهلكهم بالصيحة. فهذا تهديد لأهل مكة ليعتبروا بهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كيف عذبوا ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: لا يعلم عددهم إلا الله قال ابن مسعود: كذب النسابون. وقرأ «وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ». ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: جاء الرسل بالأمر والنهي ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال مقاتل: وضع الكفار أيديهم على أفواههم فقالوا للرسل اسكتوا فإنكم كذبة. وإن العذاب غير نازل بنا وروى هبيرة بن يزيد عن عبد الله بن مسعود في قوله «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ». قال جعلوا أصابعهم في فيهم. وقال القتبي أي عضوا عليها حنقاً وغيظاً.

قال مجاهد[1] وقتادة: يعني: ردوا عليهم قولهم وكذبوهم. ويقال: فردوا أيديهم. يعني: نِعَم رسلهم. لأن مجيئهم بالبينات نعم. ومعنى قوله في أفواههم أي بأفواههم. أي ردوا تلك النعمة بالنطق بالتكذيب ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ فهذا هو ردهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ يعني: بما تدعونا إليه ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وهو المبالغة في الشك يعني ظاهر الشك.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٢ وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم
مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ
ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ يقول: أفي وحدانية الله شك وعلامات وحدانيته ظاهرة ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: تشكون في الله خالق السموات والأرض ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ يعني: يدعوكم إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى ليتجاوز عنكم ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: منتهى آجالكم فلا يصيبكم فيه العذاب. فأجابهم قومهم ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يقول: ما أنتم آلا آدميون مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ أي تصرفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الآلهة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: بحجة بينة. ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يقول: ما نحن إلا آدميون مثلكم كما تقولون ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ويختاره للنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ جواباً لقولهم فأتونا بسلطان مبين يعني لا ينبغي أن نأتيكم بِسُلْطانٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأن الأمر بيد الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله قوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَاسُبُلَنَا﴾ يعني: وفقنا لطريق الإسلام. ويقال أكرمنا بالنبوة ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليثق الواثقون. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يعني: لتدخلن في ديننا. فهذا كله تعزية للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يقول أوحى الله تعالى إلى الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ فهذا لام القسم. ويراد به التأكيد للكلام أن يهلك الكافرين من قومهم ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يقول: لننزلنكم في الأرض من بعد هلاكهم. فأهلك الله تعالى قومهم فسكن الرسل ومن آمن معهم من المؤمنين ديارهم ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ يعني: ذلك الثواب لمن خاف مقامه يوم القيامة بين يدي رب العالمين. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: يقومون ثلاثمائة عام لا يؤذن لهم فيقعدون. أما المؤمنون فيهون عليهم كما يهون عليهم الصلاة المكتوبة، وروي عن منصور عن خيثمة أنه قال: كنا عند عبد الله بن عمر. فقلنا إن عبد الله بن مسعود كان يقول إن الرجل ليعرق حتى يسبح في عرقه ثم يرفعه العرق حتى يلجمه فقال ابن عمر. هذا للكفار فما للمؤمنين؟ فقلنا الله أعلم. فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن حدثكم أول الحديث ولم يحدثكم آخره إن للمؤمنين كراسي يجلسون عليها ويظلل عليهم بالغمام ويكون يوم القيامة عليهم

كساعة من نهاره ثم قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وخشي عذابي عليه. قرأ نافع في رواية ورش[١] «وَعِيدِي» بالياء يعني عذاب الله وقرأ الباقون بغير ياء لأن الكسرة تقوم مقامه. وأصله الياء.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

ثم قال ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ يقول واستنصروا. قال قتادة[٢]: استنصرت الرسل على قومها. وقال مقاتل: يعني قومهم دعوا الله فقالوا: اللهم إن كانت رسلنا صادقين فعذبنا. ويقال استنصر كلا الفريقين ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يقول خسر عند الدعاء كل متكبر عن الإيمان معرض عن التوحيد. وقال الزجاج الجبار الذي يضرب عند الغضب ويقتل عند الغضب. وقال مجاهد:[٣] كل جبار عنيد أي معاند للحق مجانب. ويقال نزلت في أبي جهل. قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ يقول: من قدامهم يعني: بعد الموت ويقال من بعدهم جهنم. ويقال يعني أمامه كقوله تعالى: (وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ) يعني: أمامهم. ثم قال: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ يعني: بما يسيل من جلودهم من القيح والدم. ويقال ماء كهيئة الصديد. قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يعني: يردده في حلقه ﴿وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقول: ولا يقدر على ابتلاعه لكراهيته ويقال يجتره ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ (يعني: غم الموت وألمه وطعمه من كل مكان من جسده)[٤]. ويقال: من كل ناحية ومن كل عرق ومن كل موضع شعرة يجد مرارة الموت ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ يعني: لا يموت أبداً ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ يعني: من بعد الصديد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يعني: شديد لا يفتر عنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: صفة الذين كفروا. ويقال: مثل أعمال الذين كفروا بربهم يوم القيامة ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ يقول: ذرت به الريح ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ يعني: قاصف شديد الريح. فكذلك أعمال الكفار. أحبط الله ثواب أعمالهم وهذا كقوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) لأن أعمالهم كانت بغير إيمان ولا تُقبل الأعمال إلا بالإيمان. ولا ثواب لهم بها. قرأ نافع «اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ» بالألف وقرأ الباقون بغير ألف ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ يعني لا يقدرون على ثواب أعمالهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ يعني: الخطأ البعيد عن الحق. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ يعني: ألم تعلم أن الله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[٥] «خالِقُ السموات والأرض» بكسر الضاد على معنى الإضافة. وقرأ الباقون «خَلَقَ

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٦٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٧٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) سقط في ظ.

(٥) وحجتهما أنه إذا قرىء على (فاعل) وأضيف دخل به معنى (الماضي) ودخل فيه معنى المدح يكسبه لفظ فاعل. ومما يقوي ذلك:

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ» بنصب الضاد على معنى فعل الماضي. وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ يعني بالعدل ويقال ببيان الحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يقول يميتكم ويهلكهم إن عصيتموه ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني: قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع لله تعالى فهذا تهديد من الله ليخافوه. ثم قال ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يعني: إهلاككم ليس على الله بشديد.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ يقول وخرجوا من قبورهم لأمر الله تعالى. يعني القادة والأتباع اجتمعوا للحشر والحساب. وهذا كقوله (وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً). ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني: الأتباع والسفلة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ في الدنيا نطيعكم فيما أمرتمونا به ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ يقول: حاملون عنا ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا﴾ يعني القادة للسفلة ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ يعني: لو أكرمنا الله بالهدي والتوحيد لهديناكم لدينه. ويقال: معناه لو أدخلنا الله الجنة لشفعنا لكم. ثم قالت القادة للسفلة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ العذاب ﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني: من مفر ولا ملجأ من العذاب. وروى أسباط عن السدي أنه قال: يقول أهل النار تعالوا فلنصبر لعل الله يرحمنا بصبرنا فيصبرون فلا يرحمون. فيقولون تعالوا فلنجزع لعل الله يرحمنا بجزعنا فيجزعون فلا يغني عنهم شيئاً فيقولون «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ». قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ روى سفيان عن رجل عن الحسن[1] أنه قال: إذا كان يوم القيامة ودخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ» الآية. ويقال إنهم لما دخلوا النار أقبلوا على إبليس وجعلوا يلومونه ويقولون أنت الذي أضللتنا فيرد عليهم. فبين الله تعالى رده عليهم لكيلا يغتروا به في الدنيا فذلك قوله «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ» يعني لما فرغ من الأمر حين دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فقال إبليس لأهل النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ يعني: البعث بعد الموت أو الجنة والنار ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ بأنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فكذبتم الوعد ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني لم يكن لي قدرة الإكراه والقهر. ويقال لم أكن ملكاً فقهرتكم على عبادتي ويقال: لم يكن لي حجة على ما قلت لكم ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ يعني: سوى أن دعوتكم إلى طاعتي ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ يعني أجبتم لي

﴿فاطر السموات والأرض﴾ ألا ترى أن ﴿فاطراً﴾ بمعنى خالق وكذلك (فالق الإصباح) هو على فاعل دون فَعَلَ.

وقرأ الباقون: ﴿خَلَقَ السموات والأرض﴾ نصباً وحجتهم أن أكثر ما جاء في القرآن على هذا اللفظ من قوله: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ ﴿خلق السموات بغير عمد﴾ ونظائر ذلك. انظر حجة القراءات ٣٧٧.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٧٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

طوعاً واختياراً ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بدعوتي إياكم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالإجابة ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم فأخرجكم من النار ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ يقول: ولا أنتم مغيثي فتخرجونني من النار ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ قال الكلبي: فيه تقديم وتأخير. يقول إني كفرت من قبل[١] (ما عذلتموني)[٢] وكنت كافراً قبل ذلك فليس لكم عندي صراخ ولا إجابة. وقال مقاتل معناه: إني تبرأت اليوم مما أشركتموني مع الله في طاعتي من قبل في الدنيا. وقال القتبي في قوله: إني كفرت وتبرأت كقوله في سورة الممتحنة (كَفَرْنَا بِكُمْ) أي تبرأنا منكم وكقوله في العنكبوت (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ) يعني: يتبرأ وهذا موافق لقوله تعالى: (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ). ثم قال: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الكافرين لهم عذاب دائم. قرأ[٣] حمزة (بِمُصْرِخِيِّ) بكسر الياء وهي قراءة الأعمش. وقرأ الباقون بنصب الياء. قال أبو عبيدة: النصب أحسن والأول ما نراه إلا غلطاً. وهكذا قال الزجاج. ويقال: هي لغة لبعض العرب والنصب هي اللغة الظاهرة. قرأ أبو عمرو «أَشْرَكْتُمُونِي» بالياء عند الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء.

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: وحدوا الله وأدوا الفرائض وانتهوا عن المحارم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهي الأنهار التي ذكرت في آية أُخرى (أَنْهَارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ) الآية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين في الجنة لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمر سيدهم ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يعني: يسلم بعضهم على بعض. ويقال لهم التحية من الله تعالى. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ يقول: كيف بين الله شبهاً ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة الإخلاص لا إله إلا الله. لا تكون في كلمة التوحيد زيادة ولا نقصان ولكن يكون لها مدد. وهو التوفيق بالطاعات في الأوقات ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة. كما أنه ليس في الثمار شيء أحلى وأطيب من الرطب فكذلك ليس في الكلام شيء أطيب من كلمة الإخلاص. ثم وصف النخلة فقال ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني: في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني رأسها في الهواء فكذلك الإخلاص يثبت في قلب المؤمن كما تثبت النخلة في الأرض فإذا تكلم المؤمن بالإخلاص فإنها تصعد في السماء كما أن النخلة رأسها في السماء وكما أن النخلة لها فضل على سائر الشجر في الطول واللون والطيب والحسن فكذلك كلمة الإخلاص لها فضل على سائر الكلام. فهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن. يقول المعرفة في قلب المؤمن العارف ثابتة كالشجرة الثابتة في الأرض بل هي أثبت لأن الشجرة تقطع ومعرفة العارف لا يقدر أحد أن يخرجها من قلبه إلا المعرف الذي عرفه. ويقال وفرعها في السماء يعني: ترفع أعمال المؤمن المصدق إلى السماء. لأن الأعمال لا تقبل بغير إيمان. لأن الإيمان أصل. والأعمال فروعه فترفع الأعمال ويقبل منه. ثم قال ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ يعني: تخرج ثمارها

(١) سقط في ظ.
(٢) في أ [وعبد تموني].
(٣) انظر النشر ٢/٢٩٨، سراج القارىء ٢٦٥، حجة القراءات ٣٧٧.

في كل وقت وتخرج منها في كل وقت من ألوان المنفعة كل حين يعني في كل وقت. روى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس أنه قال تؤتي أكلها كل حين يعني غدوة وعشية. وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال النخلة يكون حملها شهرين، فنرى أن الحين شهران. وروى هشام بن حسان عن عكرمة أنه قال حلف رجل فقال إن فعلت كذا إلى حين فعليَّ كذا فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى ناس من الفقهاء فسألهم فلم يقولوا شيئاً. قال عكرمة فقلت: إن من الحين حيناً لا يدرك كقوله تعالى: (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) وقوله: (فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) ومنها ما يدرك كقوله: (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين) فأراد ما بين خروج الثمرة إلى صرامها فأراد به ستة أشهر. قال فأعجب أي فرح بذلك عمر ابن عبد العزيز. وروي عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن امرأة حلفت ألَّا تدخل على أهلها حيناً. قال الحين ما بين طلوع الطلع إلى أن يجد وبين أن يجد إلى أن يطلع الطلع، يعني ستة أشهر. وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال الحين ما بين الثمرتين. يعني سنة. وعن وهب بن منبه أنه قال الحين السنة وعن مقاتل: سنة. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الحين ستة أشهر. وقال عكرمة: النخلة لا يزال فيها شيء ينتفع به إما ثمرة وإما حطبة. فكذلك الكلمة الطيبة ينتفع بها صاحبها في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بأمر ربها ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ يعني يبين الأشباه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: يتعظون ويتفكرون في الأمثال فيوحدونه.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: كلمة الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة ليس لها حلاوة ولا طهارة ولا رائحة طيبة. فكذلك الشرك بالله خبيث. ثم وصف الشجرة فقال: ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ يقول اقتلعت من فوق الأرض ﴿مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يعني: ليس لها أصل يجيء بها الريح ويذهب فكذلك الكفر ليس له أصل ولا حجة في الأرض ولا في السماء. ثم قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ بلا إله إلا الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: يثبتهم على ذلك القول عند النزع ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ يعني: في القبر. وقال البراء بن عازب[1] نزلت الآية في عذاب القبر. يسأل من ربك ومن نبيك وما دينك؟ يعني إذا أجاب فقد ثبته الله تعالى وقال الضحاك إذا وضع المؤمن في قبره وانصرف عنه الناس دخل عليه ملكان فيجلسانه ويسألانه من ربك ومن نبيك وما دينك وما كتابك وما قبلتك؟ فيثبته الله في القبر كما يثبته في الحياة الدنيا بالإقرار بالله تعالى وكتبه ورسله. وروى ابن طاووس عن[2] أبيه أنه قال في الحياة الدنيا يعني قول لا إله إلا الله يثبتهم عليها في الدنيا وفي الآخرة عند المسألة في القبر وهكذا قال قتادة. وقال الربيع بن أنس في الحياة الدنيا يعني: في القبر. وفي الآخرة يعني: يوم الحساب. ويقال في الحياة الدنيا وفي الآخرة يعني: يموت على الإيمان ويبعث يوم القيامة مع الإيمان. ثم قال ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: عن الحجة فلا يقولونها في القبر. وروي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (١٣٦٩، ٤٦٩٩) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧١/٧٣) وأبو داود (٤٧٥٠) والترمذي (٣١٢٠) والنسائي (٢٠٥٧) وابن ماجه (٤٢٦٩).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨١ وعزاه لابن جرير وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

قال إذا دخل الكافر والمنافق قبره قالا له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول لا أدري فيقولان له لا دريت ويضربانه بمرزبة فيصيح صيحة يسمعها ما بين الخافقين إلا الجن والإنس وهو قوله تعالى: (وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ) ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: ما شاء للمؤمنين أن يثبتهم وللكافرين أن يضلهم عن الجواب.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً﴾ قال مقاتل: كانت النعمة أن الله أطعمهم من جوع يعني قريشاً وآمنهم من خوف. يعني من القتل ثم بعث فيهم رسولاً منهم فكفروا بهذه النعمة وبدلوها. وهم بنو أمية وبنو المغيرة ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ يعني وأنزلوا سائر قريش دار البوار يعني: دار الهلاك بلغة عمان. أهلكوا قومهم ثم يصيرون بعد القتل إلى جهنم يوم القيامة فذلك قوله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً» (أي غيروا نعمة الله عليهم بالكفر) «وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» يعني: دار الهلاك ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ هي دارهم في الآخرة[1]. قال الكلبي أحلوا قومهم دار البوار يعني مصرعهم ببدر. «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا» يعني: يدخلونها يوم القيامة ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يعني: بئس المستقر جهنم. ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ يعني: أي شركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: ليصرفوا الناس من دين الإسلام قرأ أبو عمرو وابن كثير[2] «لِيَضِلُّوا» بنصب الياء يعني إنهم أخطأوا الطريق وضلوا. وقرأ الباقون بالضم. يعني ليصرفوا الناس عن الهدى. قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ يعني: عيشوا في الدنيا وتمتعوا بها ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ يعني: مرجعكم يوم القيامة إلى النار. قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر[3] (قُلْ لِعِبَادِ) بغير ياء. وقرأ الباقون «لِعِبَادِيَ» بالياء مع النصب. وأصله الياء إلا أن الكسرة تغني عن الياء. وقال بعض الحكماء شرف الله تعالى عباده بهذه الياء وهي خير لهم من الدنيا وما فيها. لأن فيه إضافة إلى نفسه والإضافة تدل على العتق. لأن رجلاً لو قال لعبده يا ابن أو يا ولد لا يعتق. ولو قال يا ولدي أو يا ابني يعتق بالإضافة إلى نفسه. فكذلك إذا أضاف الله العباد إلى نفسه فيه دليل على أن يعتقهم من النار ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: يتمونها بركوعها وسجودها ومواقيتها ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا

(١) في أ [قال قتادة وهم قادة المشركين يوم بدر].
(٢) انظر حجة القراءات ٣٧٨، النشر ٢/٢٩٩.
(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٦٩.

رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: سراً على المتعففين وعلانية على السائلين ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يعني: لا فداء فيه ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ يعني لا مخالة تنفعه وهي الصداقة «لأنه» إذا نزل بهم شدة في الدنيا يعادون ويشفع خليلهم وليس في الآخرة شيء من ذلك وإنما هي أعمالهم. قرأ ابن كثير وأبو عمرو «لا بَيْعَ ولا خِلَالَ» بنصب العين واللام. وقرأ الباقون بالرفع والتنوين فيهما. وهذا الاختلاف مثل قوله: «ولا خُلَّةَ وَلَا شَفَاعَة». ثم بين دلائل وحدانيته فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ يعني: فأنبت بالمطر ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ يقول: بإذنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يعني: دائمين مطيعين. يعني: ذلل لكم ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني: لبني آدم يلتمسون فيها المعيشة وينتشرون في النهار إلى حوائجهم وفي الليل مستقرهم ومنامهم. ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يعني: أعطاكم من كل شيء لم تحسنوا أن تسألوا فأعطيتكم برحمتي. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: لم تسألوه بكل الذي أعطاكم. وقال معمر والحسن: آتاكم من كل الذي سألتموه. قال مجاهد:(١) كل ما رغبتم إليه قرأ بعضهم(٢) «مِنْ كُلٍّ» بالتنوين يعني أعطاكم من كل شيء ثم قال: ما سألتموه يعني لم تسألوه ولا طلبتموه ولكن أعطيتكم برحمتي يعني ما ذكر مما سُخِّر للناس في هذه الآيات. وقراءة العامة «مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» من غير تنوين على معنى الإضافة يعني: من جميع ما سألتموه. ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ يعني: لا تقدروا على أداء شكرها. ويقال تحصوها يعني: لا تحفظوها ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ يعني: الكافر ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ يعني: يظلم نفسه بالكفر بنعم الله تعالى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ
أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ
مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ يعني: مكة، آمناً من القتل والغارة. ويقال من الجذام والبرص ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء البيت سأل ربه أن يجعل البلد آمناً، وخاف على بنيه. لأنه رأى القوم يعبدون الأصنام والأوثان. فسأل ربه أن يجنبهم عن عبادة الأوثان فقال (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ) يقول احفظني وبني ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يعني: لكي لا نعبد. وفيه دليل أن المؤمن لا ينبغي له أن يأمن على إيمانه وينبغي أن يكون متضرعاً إلى الله ليثبته على الايمان كما سأله إبراهيم لنفسه ولبنيه بهذا الإسلام وأخاف أن تنزعه مني. فما دام هذا الخوف معي رجوت ألا تنزعه مني ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ يقول: بهن ضل كثير من الناس. فكأن الأصنام سبب لضلالتهم فنسب الإضلال إليهن وإن لم يكن منهن عمل في الحقيقة. وقال بعضهم: كان الاضلال منهن لأن الشياطين كانت تدخل أجواف الأصنام وتتكلم فذلك الاضلال منهن ثم قال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٦٩.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني: من آمن بي فهو معي على ديني. ويقال فهو من أمتي ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يعني لم يطعني ولم يوحدك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني: أنزلت بعض ذريتي وهو إسماعيل عليه السلام ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يعني: بأرض مكة. وذلك أن لسارة كانت جارية يقال لها هاجر فوهبتها من إبراهيم فولدت منه إسماعيل فغارت سارة وناشدته أن يخرجها من أرض الشام فأخرجهما إبراهيم عليه السلام إلى أرض مكة ثم رجع إلى سارة فلما كبر إسماعيل رجع إبراهيم إليه وبنى معه البيت فذلك قوله «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» يعني: بأرض ليس فيها زرع ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يعني: حرم فيه القتال والاصطياد وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام وغير ذلك ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: وفقهم ليتموا الصلاة. وإنما ذكر الصلاة خاصة لأنها أولى العبادات وأفضلها ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: تشتاق إليهم قال مجاهد[1]: لو قال إبراهيم أفئدة الناس لزاحمتكم الروم وفارس ولكنه قال أفئدة من الناس. وقال سعيد بن جبير: لو قال إبراهيم أفئدة الناس لحجت اليهود والنصارى: ولكن قال أفئدة من الناس. ﴿وَارْزُقْهُمْ﴾ يعني أطعمهم ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ يعني: لكي يشكروا.

رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾

ثم قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ من الوجد بإسماعيل وهاجر والحب لهما ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ عند سارة من الصبر عنهما ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لا يذهب على الله شيء ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ يعني: من عمل أهل السماء وأهل الأرض. قال بعضهم: هذا كلام إبراهيم. وقال بعضهم هذا كلام الله تعالى «والله أعلم بالصواب». ثم رجع إلى كلام إبراهيم فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ يعني: بعد الكبر وهو ابن تسع وتسعين سنة في رواية الكلبي. وفي رواية الضحاك ابن مائة وعشرين سنة ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وكان إسماعيل أكبرهما بثلاث عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ يعني لمجيب الدعاء قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ يعني: أكرمني بإتمام الصلاة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يعني فأكرمهم أيضاً لإتمام الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي استجب دعائي. ويقال معناه تقبل عملي واستجب دعائي ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ قرأ بعضهم ولوالدتي لأن أمه كانت مسلمة وقرأ بعضهم ولوَلَدَيّ[2]. يعني: إسماعيل وإسحاق. وقراءة العامة «وَلِوَالِدَيَّ» لأنه كان يستغفر لأبيه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٨٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٩/ ٢٤٦

عن موعدة وعدها إياه ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني اغفر لجميع المؤمنين ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يعني: يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة وابن عامر[1] ولا تَحْسَبَنَّ بنصب السين وقرأ الباقون بالكسر ومعناهما واحد. يعني لا تظن يا محمد أن الله غافل عما يعمل الظالمون يعني: المشركون. يعني إن أعمالهم لا تخفى على الله ولو شئت لعجلت عقوبتهم في الدنيا. قال ميمون بن مهران إن هذه الآية تعزية للمظلوم ووعيد الظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني يمهلهم ويؤجلهم قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين «نُؤخرهُمْ» بالنون وقرأ الباقون بالياء ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ يعني: تذهب فيه أبصار الكافرين. وذلك حين عاينوا النار تشخص أبصارهم. قوله ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين. يقال أهطع البعير في السير إذا أسرع. ويقال مهطعين أي ناظرين قاصدين نحو الداعي. وقال قتادة:[2] يعني مسرعين ﴿مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾ المقنع الذي يرفع رأسه شاخصاً بصره لا يطرق. وقال مجاهد:[3] مهطعين مديمي النظر. مقنعي رؤوسهم رافعيها. وقال الخليل ابن أحمد المهطع الذي قد أقبل إلى الشيء ينظره ولا يرفع عينه عنه. مقنعي يعني: رافعي رؤوسهم مادي أعناقهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يعني: لا يرجع إلى الكفار بصرهم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ يعني: خالية من كل خير كالهواء ما بين السماء والأرض وقال السدي: هوت أفئدتهم بين موضعها وبين الحنجرة فلم ترجع إلى موضعها ولم تخرج كقوله ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ وهكذا قال مقاتل. وقال أبو عبيدة هواء أي مجوفة لا عقول فيها ثم قال: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يعني: خوف أهل مكة ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا رَبَّنَا ﴿أَخِّرْنَا﴾ أي أجلنا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لنرجع إلى الدنيا[4] ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ يعني: الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ على دينهم. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول حلفتم وأنتم في الدنيا من قبل هذا اليوم ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي لا تزولون عن الدنيا ولا تبعثون.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ﴾ يعني: نزلتم ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني منازل قوم عاد وثمود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ يقول: كيف عاقبناهم عند التكذيب ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ يقول: بينا ووصفنا لكم عصيانهم وجحودهم والعذاب الذي نزل بهم - يعني إنكم سمعتم هذا كله في الدنيا فلم تعتبروا فلو رجعتم بعد هذا اليوم لا تنفعكم الموعظة أيضاً. ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ يعني: صنعوا صنيعهم يعني: الأمم الخالية ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ يعني: علم الله مكرهم ولا يخفي عليه. قال علي[5] بن أبي طالب: وعند الله مكرهم التابوت

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٧١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٨٨ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

(٣) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) سقط في ظ.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٨٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري.

والنسور وهو نمرود بن كنعان وقومه. وروى وكيع بإسناده عن عليّ رضي الله عنه قال: إن جباراً من الجبابرة قال لا أنتهي حتى أعلم ما في السماء فاتخذ أفراخ نسور. ثم أمر بها فأطعمت اللحم حتى اشتدت وغلظت واستفحلت فاتخذ تابوتاً يسع فيه رجلان. ثم أمر بالنسور فجوعت ثم ربط أرجلها بالأوتاد وشدت بقوائم التابوت وجعل في وسط التابوت اللحم. ثم جلس في التابوت هو ورجل معه ثم أرسل النسور وجعل اللحم على رأس خشبة على التابوت فطارت النسور إلى السماء ما شاء الله. ثم قال لصاحبه انظر ماذا ترى؟ فنظر فقال أرى الجبال كأنها الدخان ثم سار ما شاء الله ثم قال انظر فنظر فقال: ما أرى إلا السماء وما تزداد منها إلا بعداً. قال: نكس الخشبة فانقضت النسور حتى سقطت إلى الأرض فسمع هزة الجبال فكادت الجبال أن تزول من أماكنها ثم قرأ عليّ رضي الله عنه ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي وقد كان مكرهم ليزيل الجبال عن أماكنها ويقال إن نمرود بن كنعان هو أول من تجبر وقهر وسن سنن السوء. وأول من لبس التاج فأهلكه الله تعالى ببعوضة في خياشمه فعذب بها أربعين يوماً ثم مات. وقال قتادة وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال يعني الكفار ادعوا لله تعـالى ولداً فكاد أن يزول الجبال. ويقال يعني أهل مكة مكروا في دار الندوة وقد كاد مكرهم أن يزول منهم أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمر دين الإسلام. إذ ثبوته كثبوت الجبال. لأن الله تعالى وعد لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إظهار دين الإسلام. بدليل ما قال بعد هذا ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ قرأ الكسائي[1] «لَتَزُولُ» بنصب اللام الأولى ورفع الثاني وقرأ الباقون بكسر الأولى ونصب الثانية «لِتَزُولَ» ومعناه ما كان مكرهم ليزول به أمر دين الإسلام إذ ثبوته كثبوت الجبـال ومن قرأ «لَيَزُولُ» فمعناه وإن كان مكر الكفار ليبلغ إلى إزالة الجبال. فإن الله ينصر دينه. وروي عن ابن مسعود أن قرأ[2] «وإنْ كَاد مَكْرُهُمْ». قوله تعالى: (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهَ) يعني: في نزول العذاب بكفار مكة إن شاء عجل لهم العقوبة في الدنيا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ذو النقم من الكفار.

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ قال عليّ بن أبي طالب يعني: غير هذه الأرض التي عليها بنو آدم، أرض بيضاء نقية لم يعمل فيها بالمعاصي ولا سفك عليها الدماء. وهكذا قال ابن مسعود[3]. قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو يعقوب قال: حدثنا محمد بن يونس العامري قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا القاسم بن الفضل عن الحسن عن عائشة[4] أنها قالت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ قال أما عند مواطن ثلاثة فلا، عند الصراط والكتاب والميزان. قالت قلت ألم يقل الله تعالى (يَوْمَ تُبَدَّلُ

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٧٩، النشر ٢ / ٣٠٠، سراج القارىء ٢٦٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤ / ٩٠ وعزاه للبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لأحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر.

الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ) أين الناس يومئذ؟ قال سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك. فقال الناس يومئذ على الصراط. وروي عن ابن عباس أنه قال: تمد الأرض مد الأديم ويزاد في سعتها. ثم قال: ﴿والسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ يعني: خرجوا من قبورهم وظهروا ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾لخلقه. قوله تعالى: ﴿ وَتَـرَى الْمُجرِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾ مسلسلين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ يعني في الأغلال يقرن كل كافر مع شيطان ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ يعني: قمصهم ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ قال قتادة: هو النحاس المذاب. وقال الحسن البصري قطران الإبل[1] الآنك. وقال عكرمة[2] هو القطران الذي يطلى به الأشياء حتى يشتعل ناراً وقال الضحاك من صفر حار قد انتهى حره. وقال القتبي. مقرنين أي قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال. وروي عن أبي هريرة أنه كان يقرأ من قِطْرانٍ. يقول القطر النحاس والآن الذي انتهى حره. ثم قال تعالى: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ يعني: تعلو لوجوههم النار لا يمتنعون منها. قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذا حاسب فحسابه سريع. قوله ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: هذا القرآن إرسال وبيان من الله تعالى. ويقال: أبلغكم عن الله تعالى: ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ يعني: ليخوفوا بالقرآن عن معصية الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ يعني: لكي يعلموا ﴿أَنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ صادق ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ أي ليتعظ بما أنزل من التخويف في القرآن ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يعني: ذوو العقول من الناس.

والله أعلم بالصواب[3].

---

(١) في أ [القطران الآنك]. (٢) وقع في (ظ).

(٣) تم المجلد الأول من تفسير أبي الليث بحمد الله وحسن توفيقه والصلاة والسلام على خير خلقه محمد سيد الأبرار وعلى آله وأصحابه المصطفين الأخيار، وقع الفراغ في تتميمه يوم الثلاثاء السابع من جمادى الأولى سنة اثنين وستين وسبعمائة، الحمد لله على نواله والصلاة على محمد وآله أجمعين.

سُورَةُ الحِجر (١)

تسعون وتسع آيات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾
ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم قال الله عزّ وجلّ: ﴿آلر تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب ﴿وقُرْآنٍ مُبينٍ﴾ أي: بين حلاله وحرامه. والكتاب والقرآن واحد. وقال قتادة: في قوله: وقرآن مبين بين الله رشده وهداه

---

(١) سميت هذه السورة سورة الحجر ووجه التسمية أن إسم الحجر لم يذكر في غيرها.

والحجر: إسم البلاد المعروفة به وهو حجر ثمود. وثمود هم أصحاب الحجر وهي مكية كلها وحكي الاتفاق عليه.

وعن الحسن استثناء قوله تعالى ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ بناء على أن سبعاً من المثاني هي سورة الفاتحة وعلى أنها مدنية هذا لا يصح لأن الأصح أن الفاتحة مكية.

واستثناء قوله تعالى: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ بناء على تفسير ﴿المقتسمين﴾ بأهل الكتاب وهو صحيح وتفسير ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ أنهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة وهذا باطل.

وقال في الإتقان: ينبغي استثناء قوله ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ لما أخرجه الترمذي وغيره في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاة.

وهو يشير بذلك إلى ما رواه الترمذي من طريق نوح بن قيس الجُذَامي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حَسْنَاء فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر (أي من صفوف الرجال) فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ قال الترمذي ورواه جعفر بن سليمان ولم يذكر ابن عباس. وهذا أشبه أن يكون أصح من حديث نوح اهـ. وهذا توهين لطريق نوح.

قال ابن كثير في تفسيره: (وهذا الحديث فيه نكارة شديدة. والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس لابن عباس ذكر. فلا اعتماد إلا على حديث جعفر بن سليمان وهو مقطوع. وعدد آياتها تسع وتسعون باتفاق العادّين.

افتتحت بالحروف المقطعة التي فيها تعريض بالتحدي بإعجاز القرآن. وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه. وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم. وتوبيخهم بأنهم شَغَلَهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم. وإنذارهم بالهلاك عند حلول أوان الوعيد عينه الله في علمه.

وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عدم إيمانِ من لم يؤمنوا وما يقولونه في شأنه وما يتوركون بطلبه منه وأن تلك عادة المكذبين مع رسلهم. وأنهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأن الله حافظ كتابه من كيدهم. ثم إقامة الحجة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم وذكر البعث ودلائل إمكانه. وانتقل إلى خلق نوع الإنسان =

وخيره. ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قرأ نافع وعاصم[١] رُبَمَا بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد[٢]. قال عاصم قرأت عند زر بن حبيش رُبَّمَا بالتشديد. فقال إنك لتحب الرُّب وقال هي رُبَّمَا مخففة ولكن معناها واحد. فالتخفيف لغة لبعض العرب واللغة الظاهرة بالتشديد أي: ربما يأتي على الكافر يوم يتمنى أنه كان أسلم. ويقال أقسم الله تعالى بالألف واللام والراء إن هذا القرآن حق وهو بين لكم الحق من الباطل. وأقسم أنه رب يوم يأتي على الكافر يتمنى فيه أن لو كان مؤمناً في الدنيا يقول الكافر يا ليتني كنت مؤمناً في الدنيا أي: يعني: يقول يوم القيامة يا ليت كنت. وذلك أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً من أحوال المسلمين وَدَّ أن لو كان مسلماً. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[٣] أنه قال: يخرج من النار حين يقال اخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. فيتمنى الكافر أن لو كان مؤمناً فذلك قوله «رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا» وروي عن حماد بن أبي سلمة أنه قال: سألت إبراهيم[٤] النخعي عن هذه الآية. قال نزلت في الكفار يعيرون أهل التوحيد ويقولون ما أغنى عنكم إيمانكم وأنتم معنا. فيغضب الله لهم فيأمر الله النبيين والملائكة فيشفعون. فيخرج أهل التوحيد من النار حتى إن إبليس يتطاول رجاء أن يخرج، ويتمنى الكافر أن لو كان مسلماً في الدنيا. حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا صالح بن أحمد قال. حدثنا محمد بن شوكر قال: حدثنا القاسم قال: حدثنا أبو حنيفة عن يزيد بن صهيب عن جابر بن عبد الله قال: سألته عن الشفاعة فقال: يعذب الله قوماً من أهل الإيمان ثم يخرجهم منها بشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلت له فأين قوله (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا) قال اقرأ ما قبلها (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية. يعني إن تلك الآية نزلت في الكفار. وقال مجاهد: إذا أخرج من النار من قال لا إله إلا الله فعند ذلك يقولون يا ليتنا كنا مسلمين. وعن أبي العالية مثله ثم قال ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ يقول اتركهم وحل عنهم يا محمد في الدنيا يأكلوا ويتمتعوا يأكلوا كالأنعام ويتمتعوا بعيشهم في الدنيا لا تهمهم الآخرة ولا يعرفون ما في غد ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ يعني يشغلهم الأمل الطويل عن الطاعة وعن ذكر الله تعالى. ويقال يشغلهم طول الأمل عن الطاعة وعن ذكر الأجل (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد لهم. أي: يعرفون ما نزل بهم من العذاب والشدة يوم القيامة. قوله:

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

= وما شرف الله به هذا النوع. وقصة كفر الشيطان. ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط ـ عليهما السلام ـ وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر. وختمت بتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانتظار ساعة النصر وأن يصفح عن الذين يؤذونه ويكل أمرهم إلى الله ويشتغل بالمؤمنين وأن الله كافيه أعداءه. انظر التنوير ١٤/٥، ٦، ٧.

(١) انظر النشر ٢/٣٠١، سراج القارىء ٢٦٨، حجة القراءات ٣٨٠.

(٢) قال الكسائي: (هما لغتان والأصل التشديد لأنك لو صغَّرت (رب) لقلت: (رُبَيْب) فرددت إلى أصله) فإن قال قائل فما موضع (ما) في (ربما) قيل: فيه وجهان: أحدهما أن تكون (ما) نائبة عن اسم منكور في موضع جر بمعنى (شيء) وذلك كقول الشاعر:

ربما تكره النفوس من الأمر   له فَرْجَةٌ كحلِّ العقال

فـ (ما) في هذا البيت اسم لما تقدم من عود الذكر إليه من الصفة. المعنى رب شيء تكرهه النفوس.

قال البصري: تقديره: (رب وُدٍّ يودُّ الذين كفروا) والوجه الآخر: أن تدخل كافة نحو هذه الآية وذلك أن (إنَّ) و (رب) لا يليهما إلاَّ الأسماء فإذا وليتهما الأفعال وصلوهما بـ (ما) كقوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ انظر ابن زنجلة ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٢ لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٤ وعزاه للحاكم في الكنى.

وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا
لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ
﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ
نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: أهل قرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يعني أجلاً مؤقتاً ووقتاً معروفاً ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ يعني: لا يموت أحد قبل أجله ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بعد أجلهم طرفة عين ﴿وَقَالُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي الذي يزعم أنه ينزل عليه القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ نزلت في عبد الله بن أمية ﴿لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يعني: هلا تأتينا الملائكة فتخبرنا بأنك رسول الله ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك نبي مرسل وأن العذاب نازل بنا. قال الله تعالى ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوحي والعذاب وقبض أرواحهم ﴿وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ يعني: إذا نزلت عليهم الملائكة لا يؤجلون بعد نزول الملائكة. قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ما نُنَزِّلُ بالنون وتشديد الزاي ونصب الملائكة من قولك نَزَّل يُنَزِّلُ. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] «ما تُنَزَّلُ» بالتاء والضم ونصب الزاي مع التشديد. على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون «ما تَنَزَّلُ» بنصب التاء وتشديد الزاي. فجعل الفعل للملائكة ثم قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يعني القرآن: ويقال يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القتل. وقال قتادة:[2] يعني القرآن يحفظه الله تعالى من أن يزيد فيه الشيطان باطلاً أو يبطل منه حقاً. وذلك قال مقاتل. ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: قد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: في أمم وقرون الأولين قبل أمتك ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: كانوا يسخرون منهم كما سخر منك قومك. ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ بعضهم نُسْلِكُه بضم النون وكسر اللام. وقراءة العامة بنصب النون وضم اللام وهما لغتان يقال سلكت الخيط في الإبرة إذا أدخلته فيها. ومعناه هكذا ندخل الإضلال في قلوب المجرمين أي: المشركين عقوبة ومجازاة لكفرهم. ويقال معناه هكذا نطبع على قلوب المجرمين، ويقال: نجعل حلاوة التكذيب بالعذاب. ويقال: الشرك في قلوب المشركين الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: لا يصدقون بالله ويقال بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: بالعذاب إنه غير نازل ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت سنة الأولين. نأتيهم بالعذاب عند التكذيب، ويقال تقدمت سيرة الأولين بالهلاك. قوله ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فصاروا يصعدون فيه، وينزلون. يعني الملائكة ويراهم المشركون وهم أهل مكة ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ يقول: أخذت وغشيت أبصارنا ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أي: ولقالوا سحرنا فلا نبصر. وروى قتادة عن أبي صالح أنه قال: لو

(١) انظر حجة القراءات ٣٨١، النشر ٢/٣٠١.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فتح الله عليهم باباً من السماء فظلت الملائكة يعرجون فيه لقالوا أخذت أبصارنا. قرأ ابن كثير[١] سَكِرَتْ بالتخفيف وهكذا قرأ الحسن. وقرأ الباقون بالتشديد وقال القتبي: سُكِّرَتْ بالتشديد أي: غُشِّيَتْ، ومنه يقال سُكِّر النهر إذا سد ومنه يقال: سكر الشراب وهو الغطاء على العقل. ومن قرأ سُكِرَت بالتخفيف يعني: سحرت. يعني إنهم لا يعتبرون به كما لم يعتبروا بانشقاق القمر حين رأوه معاينة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾[٢] أي خلقنا نجوماً. ويقال: هي القصور في السماء. وقال الضحاك وسعيد بن المسيب ومجاهد: هي النجوم ﴿وَزَيَّنَّاهَا للنَّاظِرِينَ﴾ أي: زينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي مرجوم ويقال ملعون مبعد من الرحمة ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: لكن من اختلس السمع خلسة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: لحقه نجم حار متوهج متوقد لا يخطئه الشهاب أن يصيبه، فإما أن يأتي على نفسه أو أن يخبله حتى لا يعود إلى الاستماع إلى السماء. وقال ابن عباس: إن أهل الجاهلية من الكهنة قالوا: لا يكون كاهن إلا ومعه تابع من الجن، فينطلق الشياطين الذين كانوا مع الكهنة فيقعدون من السماء مقاعد السمع ويستمعون إلى ما هو كائن في الأرض من الملائكة فينزلون به على كهنتهم فيقولون إنه قد كان كذا وكذا من الأمر فتفشيه كهنتهم إلى الناس فيتكلمون به قبل أن ينزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (من الأنبياء السابقين) فإذا تكلم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا قد علمنا قبلك. وكانت الشياطين تحجب عن الاستماع في السموات حتى بعث عيسى بن مريم عليه السلام، فلما بعث منعوا من ثلاث سموات وكانوا يصعدون في أربع سماوات فلما بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منعوا من السموات السبع. وكان الشيطان المارد منهم يصعد ويكون آخر أسفل منه، فإذا استمع قال للذي أسفل منه قد كان من الأمر كذا وكذا، فيهرب الأسفل ويرمي الذي استمع بالشهاب ويأتي الأسفل بالأمر الذي سمع إلى كهنتهم فذلك قوله «إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ

---

(١) انظر النشر ٢/٣٠١ حجة القراءات ٣٨٢.

(٢) والبروج: جمع بُرْج ـ بضم الباء ـ وحقيقته البناء الكبير المتخذ للسكنى أو للتحصّن. وهو يرادف القصر. قال تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ وأطلق البرج على بقعة معينة من سمت طائفة من النجوم غير السيارة وتسمى النجوم الثوابت متجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها لا تتغير فيما يشاهد من الجو فتلك الطائفة تكون بشكل واحد يشابه نقطاً لو خُططت بينها خطوط لخرج منها شبه صورة حيوان أو آلة سموا باسمها تلك النجوم المشابهة لهيئتها وهي واقعة في خط سير الشمس. وقد سماها الأقدمون من علماء التوقيت بما يرادف معنى الدار أو المكان وسماها العرب بروجاً ودارات على سبيل الاستعارة المجعولة سبباً لوضع الاسم تخيلوا أنها منازل للشمس لأنهم وقتوا بجهتها سمت موقع الشمس من قبة الجو نهاراً فيما يخيل للناظر أن الشمس تسير في شبه قوس الدائرة. وجعلوها اثني عشر مكاناً بعدد شهور السنة الشمسية.

وهي على هذا الترتيب ابتداء من برج مدخل فصل الربيع: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت. فاعتبروا لبرج الحمل شهر (أبريل) وهكذا. انظر التحرير ١٤/٢٨ ـ ٢٩.

مُبِينٌ» ثم قال ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاها﴾ يقول: بسطناها على الماء ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: الجبال الثوابت لكي لا تتحرك من أمكنتها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الجبال ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي مقسوم معلوم ويقال من كل شيء موزون مما يخرج من الجبال من الحديد والرصاص والفضة والذهب. ويقال: وَأَنْبَتْنَا فِيهَا. يعني: الأرض مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ يعني: مقدراً معلوماً من الحبوب ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: عيشاً من الزرع والنبات ويقال وأنبتنا فيها أي في الأرض من كل شيء موزون أي معدود من الحبوب وغيره ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يعني خلقنا فيها معايشهم ومعايش البهائم والوحوش والطيور. يعني: أنتم لستم ترزقونها وأنا أرزقها. قوله ﴿وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا عِنْدَنَا خزَائِنُهُ﴾ أي: مفاتيح رزقه ويقال: علمه كقوله: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) ويقال: يعني خزائن الغيب وهو المطر، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ أي: المطر ﴿إلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: بكيل ووزن معروف. قال ابن عباس أي: يعلمه الخزان إلا يوم الطوفان الذي اغرق الله به قوم نوح فإنه طغى على خزانه وكثر فلم يحفظوا ما خرج منه يومئذ، خرج أربعين يوماً.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[١] يعني: بعث الله الريح فتلقح السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة ثم تمطر. هذا قول ابن مسعود[٢]، وقال ابن عباس[٣] أي: في قوله (وأرسلنا الرياح لواقح) ملقحات تُلقح الأشجار، وقال قتادة لواقح أي تلقح السحاب وهكذا قال الكلبي.

قرأ حمزة «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ» بلفظ الوحدان وقرأ الباقون بلفظة الجماعة. ثم قال ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ يعني: فأرويناكموه به أي حبستم الماء في الغدران والحياض لتسقوا الضياع والمواشي ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي بمالكين وحافظين، ويقال ليس مفاتيحه بأيديكم ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي: نحيي للبعث ونميت في الدنيا، ويقال: نحيي الأرض بالمطر أيام الربيع ونميتها أيام الخريف ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي المالكون ويقال: معناه يهلك الخلق ويبقى الرب تبارك وتعالى. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾ أي: الأموات ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ يعني: الأحياء، ويقال: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصف الأول ولقد علمنا المستأخرين في الصف الآخر. وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس[٤] أنه قال: كانت امرأة حسناء تصلي خلف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان بعض القوم يتقدم الصف الأول لكيلا يراها ويتأخر بعضهم. فإذا ركع نظر من تحت إبطيه. فنزلَ «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ولقد علمنا المستأخرين» ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حرض الناس على الصف الأول وكان قوم بيوتهم قاصية من المسجد فقالوا لنبيعن

---

(١) انظر ابن زنجلة ٣٨٢ وتقدم ذلك.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٦ وعزاه لأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة الحجر (٣١٢٢) والنسائي في المجتبى كتاب الإمامة باب المنفرد خلف الصف (٨٧٠) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٤٦) والطيالسي في المسند (٢٧١٢) وابن جرير في التفسير (١٤/١٨). والطبراني في الكبير ١٢/١٧١ (١٢٧٩١) وابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد (١٧٤٩) والحاكم في المستدرك ٢/٣٥٣، والبيهقي ٣/٩٨.

دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد حتى ندرك الصف الأول فصارت الديار البعيدة خالية فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أتى المسجد فإنه يكتب آثاره ويكتب له بكل خطوة كذا وكذا حسنة وترفع له كذا وكذا درجة فجعل الناس يشترون الدور البعيدة من المسجد لكي يكتب لهم آثارهم فنزل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» وإنما يؤجرون بالنية فاطمأنوا وسكنوا. وقال مجاهد(١) ولقد علمنا المستقدمين أي: ما مضى ولقد علمنا المستأخرين ما بقي من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال قتادة المستقدمين آدم ومن مات قبل نزول هذه الآية والمستأخرين من لم يخلق بعد، كلهم قد علمهم، وقال الحسن: المستقدمين في الخير والمستأخرين عنه يقول: المبطئين.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

وقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ يعني: يجمعهم يوم القيامة ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ حكم بحشر الأولين والآخرين ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾ أي: آدم ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ أي: من طين يتصلصل إذا مشيت عليه يتقلقل وإذا تركته ينغلق ﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: من طين أسود منتن. وقال الأخفش أي: من طين مصبوب، ويقال مسنون أي: متغير الرائحة كقوله: (لَمْ يَتَسَنَّه) ويقال: الذي أتت عليه السنون. وقال القتبي: الصلصال الطين اليابس الذي لم تصبه نار، إذا ضربته صوت وإذا مسته النار فهو فخار، والمسنون المتغير الرائحة. والحمأ جمع حمئة وهو الطين المتغير ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: إبليس ويقال: الجان أبو الجن خلقناه من قبل آدم ﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ قال ابن عباس: هي نار لا دخان لها تكون بين السماء وبين الحجاب. وقال آخرون من نار السموم أي من نار حارة.

قال الكسائي الجن والجنة من أصل واحد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ يعني وقد قال ربك للملائكة الذين هم في الأرض مع إبليس سكان الأرض ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً﴾ أي: سأخلق خلقاً ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي جمعت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أي: جعلت الروح فيه ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي فخروا له.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٩٨ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

أي فاسجدوا له بأجمعكم ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: سجدة التحية لا سجدة العبادة، وكانت التحية لآدم عليه السلام والعبادة لله تعالى ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ روي عن الخليل بن أحمد أنه قال «أجمعون» على معنى توكيد بعد توكيد، وذكر عن محمد بن يزيد عن المبرد أنه قال: معناه سجدوا كلهم في حالة واحدة وقال الزجاج الأول أجود لأن أجمعين معرفة فلا يكون حالاً ثم قال ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قال بعضهم معناه لكن إبليس لم يكن من الساجدين. لأن إبليس لم يكن من الملائكة. فيكون الاستثناء من غير جنس ما تقدم بدليل قوله: (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ) وقال بعضهم استثنى إبليس من الملائكة وكان من جنسهم إلا أنه لما لم يسجد لعن وغير عن صورة الملائكة (ولا يكون الاستثناء من غير جنس) فذلك قوله (إِلَّا إِبْلِيسَ ﴿أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: تعظم عن السجود لآدم مع الملائكة ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: مع الملائكة ﴿قَالَ﴾ أي إبليس ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ويقال من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: ملعون مطرود فألحقه بجزائر البحور ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: طرد من رحمته يوم الحساب. قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أي: أجلني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ أي: من المؤجلين ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: إلى النفخة الأولى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ يعني كما أضللتني عن الهدى لأجل آدم. وقال القتبي: بإغوائك إياي أي: لأضلنهم عن الهدى ﴿أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[١]. «الْمُخْلِصِينَ» بكسر اللام. أي: المخلصين في العبادة ويقال الموحدين وقرأ الكسائي ونافع وحمزة وعاصم «الْمُخْلَصِينَ» بنصب اللام أي: المعصومين من الشرك. قال: حدثنا الفقيه أبو جعفر. قال: حدثنا أبو القاسم. قال: حدثنا محمد بن سلمة قال: حدثنا أحمد بن عبد الله قال: حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام عن الحسن قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لما لعن إبليس قال فبعزتك لا أُفارق قلب ابن آدم حتى يموت. قال: قيل له: وعزتي لا أحجب عنه التوبة حتى يغرغر بالموت»، ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي: هذا التوحيد صراط ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ على دلالته، وهذا قول الحسن[٢] ويقال: معناه: على ممر من أطاعك ومن عصاك كقوله: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) ويقال: معناه: هذا بيدي لا بيدك. وقال الضحاك: هذا سبيل الله علي مستقيم أي عليّ هدايته ودلالته كقوله: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) وروي عن ابن[٣] سيرين أنه كان يقرأ هذا صراط عَلِيٌّ مستقيم» بكسر اللام ورفع الياء مع التنوين ومعناه هذا صراط رفيع مستقيم وهو قول قتادة أي: طريق شريف لا عوج فيه.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أي: عبادي الذين لا يطيعونك ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة ولا ملك ولا أسلطك

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٧٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٩ وعزاه لابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٩٩ وعزاه لأبي عبيد وابن جرير وابن المنذر.

عليهم. كقوله: (إنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) ثم قال: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: من أطاعك من الكافرين، ويقال: معناه: إنما نفاذ دعوتك ووسوستك لمن اتبعك من المشركين، ثم بين مصير من اتبعه ومصير من لم يتبعه فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لمصير من اتبعه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي: سبعة منازل ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: لكل منزل صنف ممن يعذب من الكفار على قدر منزلته من الذنب نصيب معروف، أسفلها: هاوية. وهي لآل فرعون ولأصحاب المائدة الذين كفروا بعيسى وللمنافقين والزنادقة، والثانية: لظى وهي منزلة المجوس والثنوية الذين (قالوا بإلهين) والثالثة: سقر وهي منزل المشركين وعبدة الأوثان والرابعة: الجحيم وهي منزلة اليهود الذين كذبوا الرسل وقتلوا أنبياء الله بغير حق والخامسة: الحطمة وهي منزلة النصارى الذين كذبوا محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا قولاً عظيماً والسادسة: السعير وهي منزلة الصابئين ومن أعرض عن دين الإسلام وخرج منه والسابعة: جهنم وهي أعلى المنازل وعليها ممر الخلق كلهم وهي منزل أهل الكبائر من المسلمين. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح الباب الأول: جهنم والثاني: السعير والثالث: سقر والرابع الجحيم والخامس لظى والسادس الحطمة والسابع: الهاوية. وقال بعضهم: جهنم اسم عام يقع على الإدراك كلها. والأول أصح إن جهنم اسم لا يقع على الإدراك. وهكذا روي عن جماعة من الصحابة ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: الذين يتقون الشرك والفواحش ويتقون إجابة الشيطان في بساتين وعيون طاهرة ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ يعني: مسلمين آمنين ويقال سالمين ناجين من العذاب ﴿آمِنِينَ﴾ أي: من الموت والخوف وإبليس والعزل والحوادث والآفات والعاقبة والقطيعة والفراق. قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حسد وعداوة كانت بينهم في الدنيا، ويكونون في الآخرة ﴿إِخْوَانًا﴾ صار نصباً على الحال ﴿عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: متزاورين متحدثين. وروى سفيان عن منصور عن إبراهيم أن علياً[1] قال أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ» وروى ربعي بن خراش قال: قال رجل من همدان فقال: يا أمير المؤمنين الله أعدل من ذلك، فصاح به عليٌ فقال إذا لم نكن نحن فمن هم؟ ثم قال ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يقول: لا يصيبهم في الجنة تعب ولا مشقة ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي: من الجنة.

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ
إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا
تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

ثم قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أي: أخبر عبادي يا محمد ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب منهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (لمن مات على الكفر ولم يتب) قال: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا إسحاق بن عبد الرحمن قال: حدثنا محمد بن شاذان الجوهري، قال: حدثنا محمد بن مقاتل قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثنا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

مصعب بن ثابت عن عاصم بن عبيد عن عطاء[١] عن رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: اطلع علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الباب الذي يدخل منه بنو شبية ونحن نضحك فقال: أتضحكون؟ ثم قال: لا أراكم تضحكون. ثم أدبر فكأن على رؤوسنا الرخم. حتى إذا كان عند الحجر. ثم رجع القهقرى فقال جاء جبريل فقال يا محمد إن الله تعالى يقول لم تقنط عبادي؟ «نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ». وقال قتادة[٢]: ذكر لنا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لو علم العبد قدر رحمة الله ما تورع عن حرام ولو علم العبد قدر عقوبة الله لبخع نفسه» أي: في عبادة الله تعالى ثم قال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن أضياف إلا أن هذا اللفظ مصدر والمصدر لا يثنى ولا يجمع، وذلك حين بعث الله تعالى جبريل في اثني عشر من الملائكة قوله ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على إبراهيم ﴿فَقَالُوا سَلاَماً﴾ أي: فسلموا عليه فرد عليهم السلام كما قال في موضع آخر (قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلام). وقال الكلبي فأنكرهم إبراهيم في تلك الأرض لأنهم لم يطعموا من طعامه ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفين. ﴿قَالُوا لاَ تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف منا وبشروه فقالوا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ قرأ حمزة «نَبْشُرك» بجزم الباء مع التخفيف ونصب النون وضم الشين. وقرأ الباقون بالتشديد. ﴿بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بإسحاق عليم في صغره حليم في كبره. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: بعد ما أصابني الكبر والهرم. ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ قرأ نافع[٣] «فَبِمَ تُبَشِّرُونِ» بكسر النون مع التخفيف لأن أصله تبشروني بالياء فأقيم الكسر مقامه وقرأ ابن كثير «فبم تبشرونِّ» بكسر النون مع التشديد لأنه في الأصل بنونين فأدغم إحداهما في الأخرى مثل قوله: «تَأْمُرُنِّي» «أَتُحاجُونِّي» وقرأ الباقون «تُبَشِّرُونَ» بنصب النون مع التخفيف لأنها نون الجماعة. وقال أبو عبيدة هذا أعجب إليّ لصحتها في العربية ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالولد ويقال بالصدق ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من الولد، ويقال: من نعم الله تعالى ﴿قَالَ إبراهيم وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ أي: من نعمة ربه ﴿إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ أي الجاهلون. قرأ الكسائي وأبو عمرو[٤] (يَقْنِطُ «بكسر النون وقرأ الباقون «يَقْنَطُ» بالنصب ومعناهما واحد.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) ذكره السيوطي في الدر ٤/١٠٢ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.
(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) انظر حجة القراءات ٣٨٢ ـ ٣٨٣، النشر ٢/٣٠٢.
(٤) انظر حجة القراءات ٣٨٣، النشر ٢/٣٠٢.

وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: قال لهم إبراهيم ما حالكم وشأنكم وبماذا جئتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين. قال إبراهيم: من هم؟ قالوا قوم لوط. قال إبراهيم أتهلكونهم وفيهم لوط. فقالوا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ يعني ابنتيه زعورا وريثا ويقال: امرأة له أخرى غير التي أهلكت ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] «إنا لَمُنْجُوهُمْ» بالتخفيف وقرأ الباقون بنصب النون وتشديد الجيم من أَنْجي يُنْجِي وَنَجَّى يُنَجِّي بمعنى واحد ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا﴾ عليها الهلاك ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: لمن المتخلفين للهلاك. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[2] «قَدَرْنَا» بالتخفيف وهو من القدر وقرأ الباقون بالتشديد وهو من التقدير قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لما دخلوا عليه أنكرهم ولم يعرفهم. ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بما كانوا يشكون من نزول العذاب بهم ﴿وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب وهو العدل والصدق ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بأن العذاب نازل بهم. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: في بعض الليل. قرأ ابن كثير ونافع «فَاسْرِ» بجزم الألف والباقون بالنصب، سريت وأسريت إذا سرت ليلاً ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ يقول: امش وراءهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ يعني: لا يتخلف منكم أحد ﴿وَامْضُوا﴾ أي: انطلقوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى المدينة. وهي مدينة زعر قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ يعني: أخبرناه وأوحينا إليه ذلك الأمر. ثم فسر ذلك الأمر فقال ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ يعني: إنهم مستأصلون عند الصباح، ويقال وقضينا إليه ذلك الأمر يعني أمرناه بالخروج إلى الشام إلى المدينة زعر. لأن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. قوله ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بدخول الرجال منزل لوط ﴿قَالَ لوط إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ يقول: أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: لا تذلوني في أضيافي ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ألم ننهك أن تضيف أحداً من الغرباء ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي: بنات قومي أزوجكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: فتزوجوا النساء فإن الله تعالى خلق النساء للرجال وأمر بتزويجهن.

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياتك يا محمد إنهم لفي جهالتهم وضلالتهم يعمهون أي: يترددون ويتجبرون، يعني: إن أهل مكة يسمعون هذه العجائب ولا تنفعهم وهم على جهلهم مصرون. قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا ابن معاذ قال: حدثنا عبد العزيز بن أبان عن سعيد بن زيد عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس[3] أنه قال: ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما سمعت

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٤، النشر ٢/٣٠٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٨٤، النشر ٢/٣٠٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣ وعزاه لابن أبي شيبة والحرث بن أبي أسامة وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

الله أقسم بحياة أحد غيره فقال «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ». ثم رجع إلى قصة قوم لوط فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: أخذتهم صيحة جبريل ﴿مُشْرِقِينَ﴾ يعني: عند طلوع الشمس وذلك أن جبريل قلع الأرض وقت الصبح (فرفعها مع الملائكة إلى قريب من السماء ثم قلبها وأهواها إلى الأرض وصاح بهم وقت طلوع الشمس فذلك قوله ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وقد ذكرناها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هلاك قوم لوط ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: علامات ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ يقول: للمتفكرين. وقال قتادة[١]: للمعتبرين. وقال الضحاك: للناظرين وقال مجاهد[٢]: للمتفرسين. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو يعقوب قال: حدثنا عمار بن الربيع الباهلي عن أبي صالح بن محمد عن محمد وهو ابن مروان عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ». وقال الزجاج: حقيقته في اللغة النظار[٣] المثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، يقال: توسمت في فلان كذا وكذا. أي عرفت ذلك فيه. ثم قال ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي قريات لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: بطريق واضح بين يرونها حين مروا بها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هلاك قوم لوط ﴿لآيَةً﴾ أي: لعلامة وعبرة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ كَانَ﴾ يقول: وقد كان ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ أي: أصحاب الغيضة، والغيضة والأيكة الشجرة. وهم قوم شعيب.

قال قتادة[٤]: مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقال بعضهم: آل مدين والأيكة واحد. لأن الأيكة كانت عند مدين وهذا أصح. ﴿لَظَالِمِينَ﴾ أي: لكافرين قوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: قريات لوط وشعيب ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لبطريق واضح. وقال القتبي: أصل الامام ما يؤتم به. قال الله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً) أي يؤتم ويقتدى بك، ثم تستعمل لمعاني منها الكتاب إماماً لأنه يؤتم بما أحصاه الكتاب قال الله تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) أي بكتابهم وقال تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) أي: في اللوح المحفوظ وهو الكتاب، وسمي الطريق إماماً لأن المسافر يأتم به ويستدل به قال الله تعالى: «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ» أي بطريق واضح أي: قريات قوم لوط وقرية شعيب عليهما السلام.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وهم قوم صالح كذبوا صالحاً. والحجر أرض ثمود ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: الناقة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يقول: مكذبين بها ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ من أن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) ذكره السيوطي في المصدر السابق لابن جرير وابن المنذر.

(٣) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٥٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تقع عليهم الجبال. ويقال: آمنين من نزول العذاب فلم يعرفوا نعمة الله تعالى، ويقال: آمنين من العذاب بعقر الناقة. فعقروا الناقة وقسموا لحمها فأهلكهم الله تعالى بصيحة جبريل فذلك قوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: حين أصبحوا ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يعني: فما نفعهم ما كانوا يكسبون من الكفر والشرك) قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق والباء توضع موضع اللام أي: لينظر عبادي إليها فيعتبروا، ويقال: وما خلقناهما إلا عذراً وحجة على خلقي ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة لا محالة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي: اعرض عنهم إعراضاً جميلاً بلا جزع منك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: عليماً بمن يؤمن وبمن لا يؤمن، ويقال العليم يعلم متى تقوم الساعة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي﴾ أي: فاتحة الكتاب ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ أي: سائر القرآن. وهذا قول ابن عباس وعليّ بـن أبي طالب وابن مسعود[١]. وروى مجاهد عن ابن عباس[٢] أنه قال: السبع المثاني السبع الطوال. وعن سعيد بن[٣] جبير قال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس. قال لأنه يثني فيها حدود الفرائض والقرآن. ويقال: السبع المثاني والقرآن كله وهو سبعة أسباع سمي مثاني لأن ذكر الأقاصيص فيه مثنى كقوله: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ) وقال طاووس: القرآن كله مثاني، وقال أبو العالية[٤] المثاني فاتحة الكتاب سبع آيات، وإنما سمي مثاني لأنه يثني مع القرآن كلما قريءُ القرآن، قيل: إنهم يزعمون أنها السبع الطوال، قال: لقد أنزلت هذه الآية وما أنزل شيء من الطوال، وسئل الحسن[٥] عن قوله سبعاً من المثاني. قال «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» حتى أتى على آخرها. وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «الحمد لله رب العالمين أم الكتاب وأم القرآن والسبع المثاني». وقـال قتادة[٦]: سبعاً من المثاني هي فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة وتطوع يعني: في كل صلاة، ويقال من المثاني أي: مما أثني به على الله تعالى لأن فيها حمدَ الله تعالى وتوحيده. «ومن» ههنا على ضربين يكون للتبعيض، من القرآن أي: أعطيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثني بها على الله تعالى وآتيناك القرآن العظيم، ويجوز أن يكون السبع هي المثاني

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٤ وعزاه لابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) أخرجه النسائي في المجتبى في كتاب الافتتاح باب تأويل قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم﴾ (٩١٦) وأخرجه ابن جرير في التفسير ١٤/٣٥، ٣٦، والحاكم في المستدرك ٢/٣٥٥، وابن الضريس في فضـائل القرآن (١٨٢). والطبراني في الكبير ١١/٥٩ (١١٠٣٨).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٥ وعزاه لسعيد بن منصور وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٤) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٥) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن جرير.

(٦) ذكره السيوطي في المصدر السابق وعزاه لابن الضريس وابن جرير.

كقوله: (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) أي: اجتنبوا الأوثان. قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظرن بعين الرغبة ﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ أي: إلى ما أعطيناهم في الدنيا. يعني: ما أعطيناك من القرآن أفضل مما أعطيناهم من الأموال فاستغن بما أعطيناك من القرآن والدين والعلم ولا تنظر إلى أموالهم. قوله: ﴿أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً منهم وألواناً من الأموال. يعني: أعطينا رجالاً منهم. أي: المشركين منهم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار مكة إن لم يؤمنوا. لأن مقدوري عليهم الكفر ويقال ولا تحزن عليهم إن نزل بهم العذاب ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: لين جناحك عليهم أي: تواضع للمؤمنين ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أخوفكم بعذاب مبين بلغة تعرفونها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: كما أنزلنا العذاب على المقتسمين وهم الذين أقسموا على عقبات مكة ليردوا الناس عن دين الإسلام وعن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويقال: «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» بالقرآن كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين وهم اليهود والنصارى اقتسموا فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى فرقوا القرآن آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. ويقال: إن أهل مكة قالوا أقاويل مختلفة. قوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: فرقوا القول فيه. قال بعضهم: سحر وقال بعضهم شعر وهذا قول قتادة. ويقال: أصله في اللغة: الفرقة يقال: فرقوه أي: عضوه أعضاء. يقال: ليس دين الله بالتعضية أي بالتفريق. وروى الضحاك عن ابن عباس(١) أنه قال: جزؤوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

ثم قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: أقسم بنفسه ليسألنهم يوم القيامة ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وعن ترك قول لا إله إلا الله وعن الإيمان بالله والرسول ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر أمرك وامض واقض ما أمرتك ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتركهم حتى يجيء أمر الله تعالى. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل نزول هذه الآية مستخفياً لا يظهر شيئاً مما أنزل الله عليه حتى نزلت هذه الآية ثم قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي: أظهر أمرك فقد أهلك الله المستهزئين وهم خمسة رهط فأهلكوا كلهم في يوم وليلة. وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أراد الخروج إلى الموسم أيام الحج ليدعو الناس فمنعه المستهزءون وبعثوا على كل طريق رجلاً. فإذا سألهم أحد من الغرباء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قالوا هو ساحر كاهن ثم قالوا هذا دأبنا كل سنة فشق على النبي - صلى الله عليه وسلم - فأهلكهم الله تعالى. منهم الوليد بن المغيرة نزل جبريل عليه السلام على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال كيف تجد هذا فقال بئس الرجل فقال كفيناكه. فمضى وهو يتبختر في ردائه ويقال: ببردته فمر برجل يصنع السهام فتعلق سهم بردائه وأخذ طرف ردائه ليجعله على كتفه فأصاب السهم أكحله فنزف فمات. ومنهم العاص بن وائل السهمي مر عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - فسئل عنه فقال:

(١) أخرجه البخاري في التفسير باب قوله تعالى: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ (٤٧٠٥) ورواه الطبري من طريق الضحاك وانظر الدر المنثور ٤/١٠٦.

بئس الرجل هو فقال كفيناكه فوطيء على شوكة فتساقط لحمه عن عظامه حتى هلك. ومنهم الحارث بن حنظلة أصاب ساقه شيء فانتفخ. فمات ومنهم أسود بن عبد يغوث أصابه العطش فجعل يشرب الماء حتى انتفخ بطنه فمات. ومنهم أسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد عـزى ضـربه جبريل بجناحه فمات ويقال: خرج مع غلام له فأتاه جبريل عليه السلام وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك حتى مات وهو يقول قتلني رب محمد، وفي رواية الكلبي أن أسود بن عبد يغوث خرج من أهله فأصابه السواد حتى عاد حبيشاً فأتى أهله فلم يعرفوه وأغلقوا دونه الباب حتى مات وروي في خبر آخر أن العاص بن وائل السهمي خرج في يوم مطير على راحلته مع ابنين له فنزل شعباً من الشعاب فلما وضع قدمه على الأرض لدغت رجله. فطلبوا فلم يجدوا شيئاً فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق بعير فمات مكانه، وعن أبي بكر الهذلي(١) أنه قال قلت للزهري إن سعيد بن جبير وعكرمة قد اختلفا في رجل من المستهزئين فقال سعيد: هو الحارث بنت عيطلة وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس فقال صدقاً. كانت أمه اسمها عيطلة وأبوه قيساً. ويقال إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه عطش فلم يزل يشرب عليه الماء حتى أنفد فمات وهو يقول قتلني رب محمد. فنزل «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ» قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾ أي: يقولون ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا يفعل بهم. وهذا وعيد لسائر الكفار. قوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم إياك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: صل بأمر ربك ويقال اشتغل بعبادة ربك ولا تشغل قلبك بهم. ﴿وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ يعني من المصلين. قوله ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ يعني على التوحيد ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: واستقم على التوحيد حتى يأتيك اليقين أي: الموت. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا المحارمي عن إسماعيل بـن عياش عن شرحبيل بن مسلم عن جبير بن نصير عن أبي مسلم الخولاني(٢) أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «ما أوحى الله تعالى إليّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إليّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين».

والله أعلم.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٨ وعزاه لابن جرير وأبي نعيم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٠٩ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم في التاريخ وابن مردويه والديلمي.

سُورَةُ النَّحْلِ (١)

مائة وعشرون وثمان آيات مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله. أخبرنا الثقة بإسناده عن الشعبي قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة إلاَّ هذه الآية «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» وقال ابن عباس: سورة النحل كلها مكية إلاَّ أربع آيات نزلت بالمدينة قوله «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا». وقوله «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا» وقوله «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا» وقوله «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ» إلى آخرها.

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي يوم القيامة ويقال يعني العذاب كقوله: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) وقوله: (أَتَاهَا أَمْرُنا ليلاً أو نهاراً) أي؛ أتى أمر الله يعني: يأتي أي هو قريب لأن ما هو آتٍ آتٍ وهذا وعيد لهم إنها كائنة. وقال ابن عباس لما نزلت هذه الآية (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ) ثم نزلت بعدها (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) قالوا يا محمد تزعم أن الساعة قد اقتربت ولا نرى من ذلك شيئاً، فنزل «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ» أي عذاب الله فوثب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً لا يشك أن العذاب قد أتاهم فقال لهم جبريل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قال فجلس النبي ـ صلى الله

---

(١) سميت هذه السورة عند السلف «سورة النحل» وهو اسمها المشهور في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة. ووجه تسميتها بذلك أن لفظ النحل لم يذكر في سورة أخرى.

وعن قتادة أنها تسمى سورة النِعَم ـ أي بكسر النون وفتح العين ـ قال ابن عطية: لما عدد الله فيها من النعم على عباده. وهي مكية في قول الجمهور وهو عن ابن عباس وابن الزبير وقيل إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة منصرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوة أحد وهي قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة. قيل: نزلت في نسخ عزم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يمثل بسبعين من المشركين إن أظفره الله بهم مكافأة على تمثيلهم بحمزة.

وعن قتادة وجابر بن زيد أن أولها مكي إلى قوله تعالى: ﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾ فهو مدني إلى آخر السورة والراجح أن بعض السورة مكي وبعضها مدني.

معظم ما اشتملت عليه السورة إكثارُ متنوع الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، والأدلة على فساد دين الشرك وإظهار شناعته وأدلة إثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنزال القرآن عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وأن شريعة الإسلام قائمة على أصول ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإثبات البعث والجزاء.

عليه وسلم ـ بعد قيامه ثم قال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد والشريك، ويقال: إرتفع وتعاظم عن صفة أهل الكفر فقال عز وجل: ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان. قرأ حمزة والكسائي[١] «تُشْرِكُونَ» بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء بلفظ المغايبة. وكذلك ما بعده. ثم قال ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: جبريل ﴿بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي والنبوة والقرآن ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بأمره. قال القتبي: مِنْ توضع موضع الباء كقوله (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) أي بأمر الله وقال ههنا «يلقى الروح من أمره» أي بأمره ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يختار للنبوة والرسالة. وقال قتادة[٢]: ينزل الملائكة بالرحمة والوحي على من يشاء من عباده، يعني: من كان أهلاً لذلك. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[٣] «يُنْزِلُ» بجزم النون من قولك أَنْزَلَ يُنْزِلُ. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «تَنَزَّلُ» بالتاء ونصب النون والزاي مع التشديد على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ الباقون «يُنَزِّلُ» بالياء وكسر الزاي مع التشديد من قولك نَزَّلَ يُنَزِّلُ ثم قال تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ﴾ أي: خوفوا بالقرآن الكفار وأعلموهم أن الله واحد لا شريك له فذلك قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: أطيعون ووحدون ثم قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: للحق ويقال: للزوال والفناء ﴿تَعَالَى﴾ تنزه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

ثم قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يقول: من ماء الرجل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ يقول: جدل بالباطل ظاهر الخصومة. وهو أبي بن خلف حيث أخذ عظماً بالياً ففته بيده وقال: عجباً لمحمد يزعم أنه يعيدنا بعد ما كنا عظاماً ورفاتاً وإنا نعاد خلقاً جديداً. فنزل «أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ» الآية ثم بين النعمة فقال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ الدفء ما يستدفأ به من الأكسية وغيرها والذي يتخذ منه البيوت من الشعر والوبر والصوف، وأما المنافع فظهورها التي تحمل عليها وألبانها. ويقال: الدفء الصغار من الإبل. وروى عكرمة عن ابن عباس[٤] أنه قال: (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ). أي في نسل كل دابة. ثم قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من لحومها. قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: ولكم يا بني آدم في الأنعام جمال حسن المنظر ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: حتى تروح الإبل راجعة إلى أهلها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: تسرح إلى الرعي أول النهار ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أمتعتكم وزادكم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ إلا بجهد الأبدان. وروى سماك عن عكرمة قال بلد لم تكونوا

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٥، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٨٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٨٥، انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ١٨٠.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٠ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالغيه إلا بشق الأنفس) قال: هي مكة. ويقال: هذا الخطاب لأهل مكة كانوا يخرجون إلى الشام وإلى اليمن ويحملون أثقالهم على الإبل ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ لم يعجلكم بالعقوبة ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي: جمالاً ومنظراً وحسناً. وروى سعيد بن جبير عن ابن[1] عباس أنه سئل عن لحوم الخيل. فكرهه وتلا هذه الآية. (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة). يعني إنما خلق هذه الأصناف الثلاثة للركوب والزينة لا للأكل. وسائر الأنعام خلقت للركوب والأكل كما قال (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) وبه كان يقول أبو حنيفة إن لحم الخيل مكروه[2]. ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: خلق أشياء تعلمون وخلق أشياء مما لا تعلمون. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إن الله خلق أرضاً بيضاء مثل الدنيا ثلاثين مرة محشوة خلقاً من خلق الله تعالى لا يعلمون أن الله تعالى يعصى طرفة عين. قالوا يا رسول الله أمن ولد آدم هم؟ قال ما يعلمون أن الله خلق آدم. قالوا فأين إبليس منهم؟ قال ما يعلمون أن الله خلق إبليس ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ويخلق ما لا تعلمون» قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيان الهدى، ويقال هداية الطريق ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من الطرق ما هو مائل عن طريق الهدى إلى طريق اليهودية والنصرانية. وروى جويبر عن الضحاك أنه قال: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» يعني: بيان الهدى (وَمِنْهَا جَائِرٌ) أي سبيل الضلالة وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود ومنها جائر أي مائل عن طريق الهدى ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لو علم الله تعالى أن الخلق كلهم أهلاً للتوحيد (لهداهم). ويقال: لو شاء الله لأنزل آية يضطر الخلق إلى الإيمان (بها).

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: المطر ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ وهو ما يستقر في الأرض من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) وقال الشافعي: إنها تؤكل وعمدته الحديث الصحيح المروي عن سيدنا جابر بن عبد الله نحرنا على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرساً فأكلناه وروى أيضاً أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أذن في لحوم الخيل وحرم لحوم الحمر.

الغدران وتشربون منه وتسقون أنعامكم ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: ومن الماء ما ينتشر في الأرض فينبت منه الشجر والنبات ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون أنعامكم. قوله﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾ أي: يخرج لكم بالمطر الزرع والزيتون ﴿وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ﴾ أي: الكروم ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من ألوان الثمرات. قرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] «نُنْبِتُ لكم» بالنون وقرأ الباقون بالياء ومعناهما واحد. ثم قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني فيما ذكر من نزول المطر وخروج النبات لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في إنشائه. ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ذلل لكم الليل والنهار لمعايشكم ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: خلق الشمس والقمر ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بأمره أي: مذللات ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بإذنه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن له ذهن الإنسانية. ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي: وما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار والثمار ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: في اختلاف ألوانها لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون قرأ ابن عامر« والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ» كلها بالرفع على معنى الابتداء. وقرأ عاصم في رواية حفص «والشَّمْسَ والْقَمَرَ» بالنصب على معنى البناء أي: سخر لكم الشمس والقمر ثم ابتدأ فقال «والنُّجُومُ» بالضم على معنى الابتداء وقرأ الباقون الثلاثة كلها بالنصب ويكون بمعنى المفعول ثم قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ أي: ذلل لكم البحر ويقال: ذلل لكم ما في البحر ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ أي: من البحر ﴿لَحْماً طَرِيّاً﴾ أي: السمك الطري ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ﴾ يعني: من البحر ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[2] يعني: لؤلؤاً تتزينون بها، يعني: زينة للنساء ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: مقبلة ومدبرة فيه

---

(١) انظر النشر ٢/٣٠٢، سراج القارىء ٢٦٩، حجة القراءات ٣٨٦.

(٢) اعلم أن ظاهر هذه الآية الكريمة يدل على أنه يجوز للرجل أن يلبس الثوب المكلل باللؤلؤ والمرجان لأن الله جل وعلا قال فيها في معرض الامتنان العام على خلقه عاطفاً على الأكل (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) وهذا الخطاب خطاب الذكور كما هو معروف ونظير ذلك قوله تعالى في سورة فاطر ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ وقال القرطبي في تفسيره: امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر فلا يحرم عليهم شيء منه وإنما حرم تعالى على الرجال الذهب والحرير. وقال صاحب الإنصاف: يجوز للرجل والمرأة التحلي بالجوهر ونحوه وهو الصحيح من المذهب وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز للرجل أن يلبس الثوب المكلل باللؤلؤ مثلاً ولا أعلم للتحريم مستنداً إلا عموم الأحاديث الواردة بالزجر البالغ عن تشبه الرجال بالنساء كالعكس قال البخاري في صحيحه (باب ـ المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال).

فهذا الحديث نص صريح في أن تشبه الرجال بالنساء حرام لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يلعن أحداً إلا على ارتكاب حرام شديد الحرمة. ولا شك أن الرجل إذا لبس اللؤلؤ والمرجان فقد تشبه بالنساء. فإن قيل: يجب تقديم الآية على هذا الحديث وما جرى مجراه من الأحاديث من وجهين:

الأول: أن الآية نص متواتر والحديث المذكور خبر آحاد والمتواتر مقدم على الآحاد.

الثاني: أن الحديث عام في كل أنواع التشبه بالنساء والآية خاصة في إباحة الحلية المستخرجة من البحر والخاص مقدم على العام؟

فالجواب: أنا لم نر من تعرض لهذا والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم: أن الآية الكريمة وإن كانت أقوى سنداً وأخص في محل النزاع فإن الحديث أقوى دلالة على محل النزاع منها: وقوة الدلالة في نص صالح للاحتجاج على محل النزاع أرجح من قوة السند لأن قوله: ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ يحتمل معناه احتمالاً قوياً: أن وجه الامتنان به أن نساءهم يتجملن لهم به فيكون تلذذهم وتمتعهم بذلك الجمال والزينة الناشىء عن تلك الحلية من نعم الله عليهم. وإسناد اللباس إليهم لنفعهم به وتلذذهم بلبس أزواجهم له. بخلاف الحديث فهو نص صريح غير محتمل في لعن من تشبه بالنساء ولا شك أن المتحلي باللؤلؤ مثلاً متشبه بهن فالحديث يتناوله بلا شك. وقال ابن حجر في فتح الباري في الكلام على الحديث المذكور واستدل به على أنه

ويقال: تذهب وتجيء بريح واحدة. وقال عكرمة[١]: يعني: السفينة حين تشق الماء. يقال مخرت السفينة إذا جرت لأنها إذا جرت تشق الماء. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لكي تطلبوا من رزقه حين تركبون السفينة للتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا الله فيما صنع لكم من النعمة. ثم قال: ﴿وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال الثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني: لكيلا تميد بكم وقد يحذف «لا» ويراد إثباته كما قال ههنا «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» أي لا تميل بأهلها. وروى معمر عن قتادة[٢] أنه قال: لما خلقت الأرض كادت تميد فقالت الملائكة ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال. وقال القتبي: الميد الحركة والميل. ويقال أن تميد أي: كراهة أن تميد بكم ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي وجعل لكم أنهاراً ﴿وَسُبُلاً﴾ أي: طرقاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعرفون بها الطرق ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي: جعل في الأرض علامات من الجبال وغيرها تهتدون به الطرق في حال السفر ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بالجدي والفرقدين تعرفون بها الطرق في البر والبحر. وروى عبد الرزاق عن معمر في قوله: «وَعَلَامَاتٍ» قال: قال الكلبي[٣] الجبال، وقال قتادة: النجوم. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد[٤] في قوله: «وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» قال: منها ما يكون علامة ومنها ما يهتدى به. وقال عمر بن الخطاب: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في طرقكم وقبلتكم ثم كفوا وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم. وقال السدي وعلامات أي: الجبال بالنهار يهتدون بها الطرق والنجوم بالليل. ثم قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ يعني هذه الأشياء التي وصفت لكم ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ أي لا يقدر أن يخلق شيئاً وهم الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون في صنعه فتوحدوه وتعبدوه ولا تعبدوا غيره.

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي: لا تطيقوا إحصاءها فكيف تقدرون على أداء شكرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب ورجع ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ في قلوبكم ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالقول ويقال: ما تخفون من أعمالكم وما تعلنون. أي تظهرون منها، فالسر والعلانية عنده سواء. ثم قال:

= يحرم على الرجل لبس الثوب المكلل باللؤلؤ وهو واضح، لو ورد علامات التحريم وهو لعن من فعل ذلك ـ وأما قول الشافعي: ولا أكره للرجل لبس اللؤلؤ إلا لأنه من زي النساء فليس مخالفاً لذلك: لأن مراده أنه لم يرد في النهي عنه بخصوصه شيء. انظر أضواء البيان ٣/٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٣ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٣ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونَ اللَّهِ﴾(١) أي يعبدون من دون الله من الأوثان ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ أي: لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: ينحتون من الأحجار والخشب وغيره. ثم قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قال في رواية الكلبي يعني: أن الأصنام أموات ليس فيهاروح ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنام ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يحيون فيحاسبون. ويقال أموات يعني: أن الكفار غير أحياء. يعني: كأنهم أموات لا يعقلون شيئاً وما يشعرون أيّان يبعثون غيره ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: الذين لا يصدقون بالبعث ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ أي جاحدة للتوحيد. ويقال: قلوبهم خبيثة لا تدخل المعرفة فيها ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أي متعظمون عن الإيمان. ثم قال عز وجل: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ويقال: نعم وذكر عن الفراء أنه قال: لا جرم بمنزلة لا بد ولا محالة ثم كثرت في الكلام حتى صارت بمنزلة حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: ما يكتمون وما يظهرون من الكفر والمكر في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: المتعظمين عن الإيمان ويقال: لا يحب المتكبرين الذين يتكبرون على الناس قال الفقيه حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا الفضل بن دكين عن مسعر بن كدام عن أبي مصعب عن أبيه عن أبي بن كعب قال: سيأتي المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر في صور الرجال يغشاهم ويأتيهم الذل من كل مكان.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني: الخراصين من أهل مكة. وروى أسباط عن السعدي(٢) قال: اجتمعت قريش فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه رجل ذهب بعقله، وفي رواية أخرى بقلبه فانظروا أناساً من أشرافكم فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين فمن جاء يريده ردوه عنه. فخرج ناس منهم في كل طريق فكان إذا جاء الرجل من وفد القوم ينظر ما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل بهم فقالوا له: أنا فلان بن فلان. فيعرفه بنسبه ثم قال أنا أخبرك عن محمد. فلا تنفر إليه هو رجل كذاب لم يتبعه إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه. أما أشياخ قومه وأخيارهم فهم مفارقوه فيرجعون أي: الوافدون وإذا كان الوافد ممن عزم الله له على الرشد يقول: بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ماذا يقول، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقولون: «خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة» فذلك قوله (وإذا قيل لهم) أي: للمقتسمين من أهل مكة ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: ما الذي أنزل ربكم على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: الذين يذكرون أنه منزل هو كذب الأولين وأحاديثهم قال الله تعالى ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ أي: آثامهم ﴿كَامِلَةً﴾ أي وافرة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا يغفر لهم شيء، وذنوب المؤمنين تكفر عنهم من الصلاة إلى الصلاة ومن رمضان إلى رمضان ومن الحج إلى الحج وتكفر بالشدائد والمصائب وذنوب الكفار لا تغفر لهم ويحملونها كاملة يوم القيامة أي: يحملون وبال الذنوب التي

---

(١) قرأ عاصم: ﴿والذين يَدْعُون من دونِ الله﴾ بالياء إخباراً عن المشركين وقرأ الباقون: ﴿والذين تَدْعُون من دونِ الله﴾ وحجتهم ما تقدم وما تأخر: فما تقدم: ﴿وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله﴾ وما تأخر: ﴿إلَهُكم إلهٌ واحد. . .﴾. انظر حجة القراءات ٣٨٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٦ وعزاه لابن أبي حاتم.

عملوا بأنفسهم ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ أي: يصدونهم عن الإيمان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير عذر وحجة وبرهان ويقال من أوزار الذين يضلونهم أي: أوزار إضلالهم وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ثم قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس ما يحملون من الذنوب، ويقال: بئس الزاد زادهم الذنوب.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد صنع الذين من قبلهم مثل المقتسمين، فأبطل الله كيدهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: قلع بنيانهم من أساس البيت ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي سقف البيت قال الكلبي: وهو نمروذ بن كنعان بنى صرحاً طوله في السماء خمسة آلاف ذراع (وخمسون ذراعاً) وكان عرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسون ذراعاً فهدم الله بنيانه وخر عليهم السقف من فوقهم فأهلكهم الله. وقال القتبي: هذا مثل أي: أهلك من قبلهم من الكفار كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله فخر عليه، ويقال هدم بنيان مكرهم من الأصل فخر عليهم السقف أي : رجع وبال مكرهم إليهم كقوله تعالى: (ولا يحيق المكر السيىء إلاّ بأهله) ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يعلمون. قوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يعذبهم، وما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: تعادونني وتخالفونني فيهم، يعني: بسببهم وعبادتهم. قرأ نافع[1] «تُشَاقُّونِ» بكسر النون على معنى الإضافة. والباقون بنصب النون لأنها نون الجماعة ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: الملائكة ويقال: يعني المؤمنين ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي العقاب ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: الشدة من العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالى ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: انقادوا واستسلموا حين رأوا العذاب قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: ما كنا نشرك بالله. وقال الكلبي: هم قوم خرجوا مع المشركين يوم بدر قد تكلموا بالإيمان فلما رأوا قلة «المؤمنين» رجعوا إلى الشرك فقتلوا، ويقال: جميع المشركين. قال الله تعالى: ﴿بَلَى﴾ أشركتم بالله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك.

فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٨، النشر ٢/٣٠٣.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: يقول لهم خزنة جهنم ادخلوا أبواب جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين فيها أبداً ﴿فلبئس مثوى المتكبرين﴾ يعني لبئس مأوى المتكبرين عن الإيمان. ثم نزل في المؤمنين الذين يدعون الناس إلى الإيمان وذلك أن أهل مكة لما بعثوا إلى أعقاب مكة رجالاً ليصدوا الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجالاً من أصحابه إلى أعقاب مكة فكان الوافد إذا قدم إليهم قالوا له إن هؤلاء المشركين كذبوا، بل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو إلى الحق ويأمر بصلة الرحم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعوا إلى الخير فذلك قوله تعالى: ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي يدعوا إلى الخير ﴿للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي للذين وحدوا في هذه الدنيا لهم الحسنة في الآخرة أي الجنة ﴿ولدار الآخرة﴾ يعني: الجنة ﴿خير﴾ أي أفضل من الدنيا ﴿ولنعم دار المتقين﴾ يعني المطيعين. قال مقاتل في قوله «قالوا خيراً» أي قالوا للوافد أنه يأمر بالخير وينهى عن الشر. قالوا خيراً. ثم قطع الكلام يقول الله تعالى للذين أحسنوا، أي أحسنوا العمل في هذه الدنيا لهم حسنة في الآخرة أي: في الجنة، ولدار الآخرة خير يعني الجنة أفضل من ثواب المشركين الذين يحملون أوزارهم. ويقال: هذه كلها حكاية كلام المؤمنين إلى قوله المتقين قرأ عاصم في رواية أبي بكر تسرون وتعلنون بالتاء على معنى المخاطبة ويدعون بالياء على معنى المغايبة وروي عن حفص الثلاث كلها بالياء على معنى المغايبة وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة ثم وصف دار المتقين فقال ﴿جنات عدن﴾ يعني الدار التي هي للمتقين جنات عدن ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون﴾ أي: يحبون ويتمنون ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي: هكذا يثبت الله المتقين الشرك قوله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة﴾ أي ملك الموت ﴿طيبين﴾ يقول زاكين طاهرين من الشرك والذنوب ﴿يقولون﴾ أي: يقول لهم خزنة الجنة في الآخرة ﴿سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا. ويقال هذا مقدم ومؤخر أي: جنات عدن يدخلونها. ثم قال الذين تتوفاهم الملائكة قرأ حمزة[1] الذين يتوفاهم بالياء بلفظ التذكير والباقون بالتاء بلفظ التأنيث لأن الفعل إذا كان قبل الاسم جاز التذكير والتأنيث. قوله ﴿هل ينظرون﴾ يقول: ما ينظرون وهم أهل مكة ﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ أي: ملك الموت يقبض أرواحهم ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي: عذاب ربك يوم بدر ويقال: يوم القيامة ﴿كذلك فعل﴾ أي كذلك كذب ﴿الذين من قبلهم﴾ رسلهم كما كذبك قومك فأهلكهم الله تعالى ﴿وما ظلمهم الله﴾ يعني: بإهلاكه إياهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بتكذيبهم رسلهم. قرأ حمزة والكسائي[2] إلا أن يأتيهم بالياء بلفظ التذكير والباقون بلفظ التأنيث لأن الفعل مقدم.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٨، النشر ٢/٣٠٣.
(٢) انظر حجة القراءات ٢/٣٠٣.

ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا
أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ
فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ
ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي
يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاء ما عملوا **﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾** أي: نزل بهم **﴿مَاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** من العذاب أنه غير نازل بهم. قوله: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾** أي: أهل مكة **﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** قالوا ذلك على وجه الاستهزاء يعني إن الله قد شاء لنا ذلك الذي **﴿نحن﴾** فيه. **﴿ولا آباؤنا﴾** ولكن شاء لنا ولآبائنا. **﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾** ولا آباؤنا. ولكن شاء لنا من تحريم البحيرة والسائبة وأمرنا به ولو لم يشأ ما حرمنا من دونه من شيء قال الله تعالى **﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** يقول هكذا كذب الذين من قبلهم من الأمم **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾** أي: ليس عليهم إلا تبليغ الرسالة **﴿الْمُبِينُ﴾** أي: بينوا لهم ما أمروا به. قوله **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾** أي: في كل جماعة **﴿رَسُولاً﴾** كما بعثناك إلى أهل مكة **﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾** أي: وحدوا الله وأطيعوه **﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** أي: اتركوا عبادة الطاغوت وهو الشيطان والكاهن والصنم **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾** لدينه وهم الذين أجابوا الرسل للإيمان **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ﴾** يعني وجبت **﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾** فلم يجب الرسل إلى الإيمان **﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾** يقول سافروا في الأرض **﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** يقول اعتبروا كيف كان آخر أمر المكذبين. فلما نزلت هذه الآية قرأها ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم فلم يؤمنوا فنزل قوله: **﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ﴾** يعني: على إيمانهم **﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾** يقول: من يضلل الله وعلم أنه أهل لذلك وقدر عليه ذلك. قال مقاتل: من يضلل الله فلا هادي له. قرأ أهل الكوفة حمزة وعاصم والكسائي(١) «لَا يَهْدِي» بنصب الياء وكسر الدال أي: لا يهدي من يضلله الله. وقرأ الباقون «لَا يُهْدَى» بضم الياء ونصب الدال على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ولم يختلفوا في «يُضلُّ» إنه بضم الياء وكسر الضاد. وقال إبراهيم بن الحكم سألت أبي عن قوله تعالى فإن الله لا يهدي من يضل فقال: قال عكرمة(٢): قال ابن عباس: من يضلله الله لا يهدى. **﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾** أي: من ما نعني من نزول العذاب قوله: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** وكل ما حلف بالله فهو جهد اليمين، لأنهم كانوا يحلفون بالأصنام بآبائهم ويسمون اليمين بالله جهد اليمين وكانوا ينكرون البعث بعد الموت وحلفوا بالله حين قالوا: **﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾** فكذبهم الله تعالى في مقالتهم فقال: **﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾** أوجبه على نفسه ليبعثهم بعد الموت **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** أي لا يصدقون بالبعث بعد الموت قوله

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٨ ـ ٣٨٩. النشر ٢/٣٠٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٧ وعزاه لابن أبي حاتم.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من الدين يوم القيامة، يعني: يبعثهم ليبين لهم أن ما وعدهم حق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: ليستبين لهم عندما خرجوا من قبورهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في الدنيا.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ يعني: إن بعثهم على الله يسير ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة[١] «فَيَكُونُ» بضم النون وقرأ الباقون بالنصب. قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: هاجروا من مكة إلى المدينة في طاعة الله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي عذبوا ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لننزلنهم بالمدينة ولنعطينهم الغنيمة، فهذا الثواب في الدنيا ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ﴾ أي: الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ أي أفضل ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يصدقون بالثواب. ثم نعتهم فقال ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على العذاب ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يثقون به ولا يثقون بغيره، منهم بلال بن حمامة وعمار بن ياسر وصهيب بن سنان وخباب بن الأرت. قال مقاتل: نزلت الآية في هؤلاء الأربعة عذبوا على الإيمان بمكة. وقال في رواية الكلبي: نزلت في ستة نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرهم أهل مكة وذكر هؤلاء الأربعة واثنين آخرين عابس وجبير مولى لقريش. فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام. فأما صهيب فابتاع نفسه بما له ورجع إلى المدينة. وأما سائر أصحابه فقالوا بعض ما أرادوا ثم هاجروا إلى المدينة بعد ذلك ثم قال: قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم﴾ كما أوحى إليك وذلك أن مشركي قريش لما بلغهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرسالة ودعاهم إلى عبادة الله تعالى أنكروا ذلك وقالوا لن يبعث الله رجلاً إلينا ولو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث إلينا من الملائكة الذين عنده. فنزل «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ» إلى الأمم الماضية «إِلَّا رِجَالًا» مثلك «نُوحِي إِلَيْهِمْ» كما نوحي إليك. قرأ عاصم في رواية حفص[٢] «نُوحِي» بالنون وقرأ الباقون بالياء. ثم قال ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: أهل التوراة والإنجيل ﴿إِنْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾. وفي الآية تقديم وتأخير، أي: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم بالبينات والزبر. وروى أسباط عن السدي[٣] قال: البينات الحلال والحرام، والزبر كتب الأنبياء. وقال الكلبي: البينات أي: بالآيات الحلال والحرام والأمر والنهي ما كانوا يأتون به قومهم منها وهو كتاب النبوة ويقال: البينات التي كانت تأتي بها الأنبياء مثل عصا موسى وناقة صالح. وقال مقاتل: والزبر يعني: حديث

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٨٩، النشر ٢/٢٠٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٠، النشر ٢/٣٠٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١١٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

الكتب ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتقرأ للناس ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ما أمروا به في الكتاب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتفكروا فيه ليؤمنوا به. ثم خوفهم فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: أشركوا بالله ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ يعني: أن تغور الأرض بهم حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون بهلاكهم. قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في سفرهم في ذهابهم ومجيئهم في تجارتهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: على تنقص ويقال يأخذ قرية بالعذاب ويترك أخرى قريبةً منها. فيخوفها بمثل ذلك. وهذا قول مقاتل. وروي عن بعض[1] التابعين: أن عمر سأل جلساءه عن قوله: «أو يأخذهم على تخوف» فقالوا: ما نرى إلا عند بعض ما يرون من الآيات يخوفهم. فقال عمر: ما أراه إلَّا عندما يتنقصون من معاصي الله. فخرج رجل فلقي أعرابياً فقال: يا فلان ما فعل دينك؟ قال تخيلته أي: تنقصته فرجع إلى عمر فأخبره بذلك. ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لا يعجل عليهم بالعقوبة.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم
مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ
﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ
إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ
لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ قرأ حمزة والكسائي «أَوَلَمْ تَرَوْا» بالتاء على معنى الخاطبة. وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة يعني: أولم يعتبروا. ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ عند طلوع الشمس وعند غروبها ﴿يَتَفَيَّأُوا ظِلَالُهُ﴾ يعني: يدور ظله ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾. قال القتبي: أصل الفيء الرجوع، وتفيوء الظلال رجوعها من جانب إلى جانب ﴿سجداً لله وهم داخرون﴾ أي: صاغرون وهم مطيعون وأصل السجود التطأطوء والميل، يقال سجد البعير إذا تطأطأ وسجدت النخلة إذا مالت، ثم قد يستعار السجود ويوضع موضع الاستسلام والطاعة، ودوران الظل من جانب إلى جانب هو سجوده لأنه مستسلم منقادمطيع فذلك قوله:(سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) قرأ أبو عمرو[2] «تَتَفَيَّأُ» بالتاء بلفظ التأنيث والباقون بالياء لأن تأنيثه ليس بحقيقي ولأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث. ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي: يستسلم ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة والشمس والقمر والنجوم ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني: يسجد لله جميع ما في الأرض من دابة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: وما على الأرض من الملائكة. ويقال فيه تقديم وتأخير، ومعناه ما في السموات من الملائكة وما في الأرض من دابة. ويقال: معناه: يسجد له جميع ما في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١١٩ وعزاه لابن جرير.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٠ ـ ٣٩١، النشر ٢/ ٣٠٤.

السموات وما في الأرض من دابة والملائكة، يعني الدواب والملائكة والذين هم في السموات والأرض. ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: لا يتعظمون عن السجود لله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي: يخافون الله تعالى. روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن لله تعالى ملائكة في السماء السابعة سجداً مذ خلقهم الله تعالى إلى يوم القيامة ترعد فرائصهم من مخافة الله تعالى. فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم فقالوا ما عبدناك حق عبادتك. فذلك قوله «يخافون ربهم من فوقهم» أي: يخافون خوفاً معظمين مبجلين. ويقال: خوفهم بالقهر والغلبة والسلطان. ويقال: معناه: يخافون ربهم الذي على العرش كما وصف نفسه بعلوه وقدرته. والطريق الأول أوضح كقوله (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أي: لا يعصون الله تعالى طرفة عين. قرأ أبو عمرو يتفيؤ بالتاء بلفظ التأنيث وقرأ الباقون بالياء لأن تأنيثه مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث.

قوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: لا تقولوا ولا تصفوا إلهين اثنين، أي نفسه والأصنام. ويقال: نزلت الآية في صنف من المجوس. إنهم وصفوا إلهين اثنين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي: فاخشوني ووحدوني وأطيعوني ولا تعبدوا غيري ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق، الجن والإنس كلهم عبيده وإماؤه ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾. أي دائماً خالصاً، ويقال: الألوهية والربوبية له خالصاً، ويقال: دينه واجب أبداً لا يجوز لأحد أن يميل عنه. ويقال: معناه: وله الدين والطاعة رضي العبد بما يؤمر به أولم يرض. والوصب في اللغة:[1] الشدة والتعب ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي: تعبدون غيره ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ يعني: إن الذي بكم من الغنى وصحة الجسم من قبل الله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ يعني: الفقر والبلاء في جسدكم ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ يعني إليه تتضرعون ليكشف الضر عنكم. كما قال في سورة الدخان (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾. ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ﴾ يعني الكفار ﴿بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يعبدون غيره. قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: يجحدوا بما أعطيناهم من النعمة ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ (اللفظ لفظ الأمر والمراد به التهديد. كقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) يعني: تمتعوا بقية آجالكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعرفون في الآخرة ماذا نفعل بكم. قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً﴾ أي: يجعلون لآلهتهم نصيباً من الحرث والأنعام كقوله: (فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لشركائنا) وقوله: «لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً» قال بعضهم: يعني: الكفار جعلوا لأصنامهم نصيباً ولا يعلمون منهم ضراً ولا نفعاً، وبعضهم قال: معناه: يجعلون للأصنام الذين لا يعلمون شيئاً نصيباً أي: حظاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الحرث والأنعام قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: تكذبون على الله لأنهم كانوا يقولون إنَّ الله أمرنا بهذا.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا
وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

---

(١) وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/٣٦١ (واصباً) أي دائماً قال أبو الأسود الدؤلي.

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه يوماً بذم الدهر أجمع واصبا

وانظر الطبري ١٤/٧٤، والقرطبي ١٠/١١٤.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

قوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ يعني: يصفون لله ويقولون الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له عن الولد ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني الأولاد الذكور أي: يصفون لغيرهم البنات ولأنفسهم الذكور. ثم وصف كراهتهم البنات لأنفسهم فقال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى﴾ يقول: إذا بشر أحد الكفار بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾ أي: صار وجهه متغيراً من الحزن والخجل ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: مكروباً مغموماً من الحزن يتردد حزنه في جوفه. قوله: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ﴾ يعني: يكتم ما به من القوم، ويقال: يستر وجهه من القوم ويختفي من سوء ﴿مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: ما ظهر على وجهه من الكراهية ويدبر في نفسه كيف أصنع بها ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي: الأنثى التي ولدت له على هوان، يعني: أيحفظه على هوان ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي﴾ أي: يدقه ﴿التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئسما يفضون به. لأنفسهم الذكور وله الإناث ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: المشركين ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أي: جزاء السوء النار في الآخرة. ويقال: يعني: عاقبة السوء، ويقال: لآلهتهم صفة السوء صم بكم عمي ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ أي: الصفة العليا وهي: شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) فهذه الصفة العليا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره. أَمَرَ الخلق أن لا يعبدوا غيره. قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بشركهم ومعصيتهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي لم يترك على ظهر الأرض من دابة. ودل الإضمار على الأرض لأن الدواب إنما هي على الأرض. يقول: أنا قادر على ذلك ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي إلى وقت معلوم. ويقال: ما ترك عليها من دابة لأنه لو أخذهم بذنوبهم لمنع المطر وإذا منع المطر لم يبق في الأرض دابة إلا أهلكت ولكن يؤخر العذاب إلى أجلٍ مسمىً. وروي عن عبد الله بن[1] مسعود أنه قال: لو عذب الله الخلائق بذنوب بني آدم لأصاب العذاب جميع الخلائق حتى الْجِعْلَان في جحرها ولأمسكت السماء عن الأمطار ولكن يؤخرهم بالفضل والعفو. ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجل العذاب ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي: لا يتأخرون عن الوقت ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدمون قبل الوقت. ثم قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي: يصفون ويقولون ﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾: لأنفسهم وهو البنات ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: يقولون الكذب ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي: الذكور من الولد ويقال الجنة. أي: يصفون لأنفسهم مع أعمالهم القبيحة أن لهم في الآخرة الجنة ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يعني حقاً. ويقال لا بد ولا محالة ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ وهو كقوله: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين) إلى قوله: (ساء ما يحكمون) ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرِطُونَ﴾ قرأ نافع[2] بكسر الراء يعني: أفرطوا في القول وأفرطوا في المعصية. وقرأ الباقون ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بتفح الراء أي: مُتْرَكُونَ في النار ويقال: منسيون في النار وهو قول سعيد[3] بن جبير. وقال قتادة[4]: أي

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.
(٢) انظر النشر ٢/٣٠٤، وحجة القرءات ٣٩١.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢١ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

معلجون في النار. ويقال: الفارط في اللغة: الذي يتقدم إلى الماء وهذا قول يوافق قول قتادة.

تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

ثم قال: ﴿تاللَّهِ﴾ يقول: والله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: بعثنا ﴿إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: بعثنا إلى أمم من قبلك الرسل كما أرسلناك إلى قومك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ضلالهم حتى أطاعوا الشيطان وكذبوا الرسل ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: قرينهم في النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهذا تهديد لكفار مكة أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، وتعزية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين لأنهم كانوا في طرق مختلفة اليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرهم. فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يبين لهم طريق الهدى. ثم قال: ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزلنا القرآن بياناً من الضلالة ونعمة من العذاب لمن آمن به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في إحيائها لعلامة لوحدانيته، إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئاً. ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يطيعون ويصدقون ويعتبرون ويبصرون. قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر[1] «نَسْقِيكُمْ» بنصب النون وقرأ الباقون بضم النون ومعناهما قريب، يقال: سقيته وأسقيته بمعنى واحد. (مما في بطونه): ولم يقل مما في بطونها، والأنعام جماعة مؤنثة وفي هذا قولان: إن شئت رددت إلى واحد من الأنعام وواحدها نعم والنعم تذكر وتؤنث كقوله: (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ) أي: من الحجر. وإن شئت قلت على تأويل آخر نسقيكم وهو مما في بطونه أي: بطون ما ذكرنا. وهذا مثل قوله: (جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ) وقال (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) ولم يقل فاجتنبوها أي فاجتنبوا ما ذكرنا. ثم قال تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ يعني: يخرج اللبن من بين الفرث والدم. قال ابن عباس في رواية أبي صالح إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر في كرشها طحنته الكبد فكان أسفله فرث وأوسطه لبن وأعلاه دم الكبد مسلط على هذه الأصناف الثلاثة فيقسم الدم فيجري في العروق، ويجري اللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو في الكرش. وقال بعضهم: إذا استقر العلف في الكرش صار دماً بحرارة الكبد ثم ينصرف الدم في العروق. فمقدار ما ينتهي إلى الضرع صار لبناً لبرودة الضرع بدليل أنَّ الضرع إذا كانت فيه آفة يخرج منه الدم مكان اللبن. ثم قال: ﴿لَبَناً خَالِصاً﴾. صار اللبن نصباً على معنى التفسير ﴿سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: سهلاً في الشرب ولا يغص به شاربه، ويقال: يشتهي شاربه (إليه) ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ

---

(١) انظر النشر ٢/٣٠٤، والحجة ٣٩١.

مِنْهُ﴾ أي: من التمر، ويقال: «منه» كناية عن الأول وهو قوله «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون» من ذلك ﴿سَكَراً﴾ والسكر هو نقيع التمر إذا غلى واشتد قبل أن يطبخ، ويقال: سكراً أي: خمراً قال ابن عباس: نزلت هذه الآية وهي يومئذ كانت لهم حلال وهكذا قال الحسن والقتبي: إن هذه الآية نزلت في الخمر ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ يعني: الخل والزبيب والرُّبُّ. وروي عن ابن عباس(١) أنه قال: تتخذون منه سكراً يعني: ما حرم منه. ورزقاً حسناً ما أحل منه. وقال الشعبي: السكر النبيذ والخل، والرزق الحسن التمر والزبيب. وقال الضحاك: السكر الحرام والرزق الحسن الحلال وهؤلاء كلهم قالوا قبل تحريم الخمر. وقال الأخفش: سكراً طعاماً. يقال هذا سكر لك أي طعام لك. وقال القتبي: لست أدري هذا: ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ توحيد الله تعالى.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي: ألهمها إلهاماً. مثل قوله: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا). ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ أي: مسكناً ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ يعني: أن اتخذي من الجبال من الشجر مسكناً ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني: ومما يبنون من سقوف البيت. قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر(٢) «يَعْرُشُونَ» بضم الراء. والباقون بالكسر ومعناهما واحد أي: ومما يبنون من سقوف البيت ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من ألوان الثمرات. أي ألهمها بأكل الثمرات ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي: ادخلي الطريق الذي يسهل عليك، ويقال: خذي طرق ربك مذللاً أي: مسخراً لك. وقال مقاتل: فاسلكي سبل ربك يعني: ادخلي طرق ربك في الجبال وفي خلال الشجر ذللاً. لأنَّ الله تعالى. ذلل لها طرقها حيث ما توجهت ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ أي: من بطون النحل من قبل أفواهها مثل اللعاب ﴿شَرَابٌ﴾ يعني: العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أي: العسل أبيض وأصفر وأحمر، ويقال: يخرج من أفواه الشباب من النحل الأبيض. ومن الكهول الأصفر ومن الشيوخ الأحمر ﴿فِيهِ﴾ أي: في العسل ﴿شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ روي أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد(٣) الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال له: اسقه عسلاً فسقاه ثم جاء فقال: سقيته فلم يزده إلا استطلاقاً. فقال له: اسقه عسلاً. فسقاه ثم جاءه فقال: سقيته فلم يزده إلاَّ استطلاقاً فقال له: اسقه عسلاً صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبريء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٢ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والحاكم وصححه.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٣ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه والحديث عند البخاري ١٠/١٣٩ في الطلب باب الدواء بالعسل (٥٦٨٤)، ومسلم ٤/١٧٣٦ في السلام باب التداوي بسقي العسل (٢٢١٧/٩١).

قال الفقيه أبو الليث: إنما يكون العسل شفاء إذا عرف الإنسان مقداره ويعرف لأي داء هو. فإذا لم يعرف مقداره ولم يعرف موضعه فربما يكون فيه ضرر، كما أن الله تعالى جعل الماء حياة كل شيء وربما يكون الماء سبباً للهلاك. وقال السدي: العسل شفاء الأوجاع التي يكون شفاؤها فيه. وقال مجاهد: «فيه شفاء للناس» أي: في القرآن بيان للناس من الضلالة. وروى أبو الأحوص عن عبد الله بن مسعود أنه قال: العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور. وروى الأسود عن ابن مسعود[١] أنه قال: عليكم بالشفاء من القرآن والعسل ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: فيما ذكر من أمر النحل لعلامة لوحدانيتي ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: علموا أن معبودهم لم يغنهم من شيء ثم قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي: يقبض أرواحكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: إلى أسفل العمر وهو الهرم ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: صار بحال لا يعلم ما علم من قبل. ويقال: لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً. ويقال: إن الهرم اسوأ العمر وشره، وقوله: «لكي لا يعلم» أي حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئاً لشدة هرمه بعد ما كان يعلم الأمور قبل الهرم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ على تحويلكم. ويقال: معناه: ومنكم من يرد إلى أرذل العمر أي: إني محولكم من حال إلى حال تكرهونه ولا يقدر معبودكم أن يمنعني عن ذلك. والله عليم قدير على ذلك. قوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: فضل الموالي على العبيد في المال ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: الموالي لا يرضون بدفع المال إلى المماليك ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا ترضون لأنفسكم أن كون عبيدكم معكم شركاء في أموالكم. فكيف ترضون لله تعالى أن تصفوا له شريكاً في ملكه وصفاته وتصفوا له ولداً من عباده. وقال قتادة: هو الذي فضل في المال والولد لا يشرك عبيده في ماله. فقد رضيتم بذلك لله تعالى ولم ترضوا به لأنفسكم. وقال مجاهد: ضرب الله مثلاً للآلهة الباطلة مع الله تعالى. ويقال: نزلت الآية في وفد نجران حين قالوا في عيسى عليه السلام ما قالوا. ثم قال تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢] يقول بوحدانية الله تعالى تكفرون وترضون له ما لا ترضون لأنفسكم.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني: خلق لكم من جنسكم إناثاً ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ أي: خلق لكم من نسائكم بنين ﴿وَحَفَدَةً﴾ أي: ولد الولد. ويقال: هم الأعوان والخدم والأصهار. وروي عن زر بن حبيش عن ابن مسعود[٣] أنه قال: الحفدة الأختان. وقال مجاهد: الخدم وأنصاره وأعوانه. وعن ابن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٣ وعزاه لابن ماجه وابن مردويه والحاكم وصححه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) قرأ أبو بكر: ﴿أفبنعمةِ الله تَجْحَدُون﴾ بالتاء أي قل لهم يا محمد أفبنعمة الله أي بهذه الأشياء التي ذكرها تجحدون وحجته قوله أول الآية: ﴿واللَّهُ فضَّل بعضكم على بعض﴾. وقرأ الباقون: ﴿يَجْحدون﴾ بالياء، الله وبخهم على جحودهم ويقوي الياء قوله تعالى بعدها: ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾. انظر حجة القراءات ٣٩٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٤ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه.

مسعود أنه قال: هم أصهاره. وقال الربيع بن أنس: البنون بنو الرجل من امرأته والحفدة بنو المرأة من غيره وقال زر بن حبيش: الحفدة حشم الرجل وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الولد الصالح. وقال أهل اللغة: أصله في اللغة السرعة في المشي ويقال في دعاء الوتر وتحفد أي: ونجتهد في الخدمة والطاعة. ثم قال: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال الكلبي: يعني الحلال إن أخذتم به. وقال مقاتل: الطيبات الخبز والعسل وغيرهما من الأشياء الطيبة بخلاف رزق البهائم والطيور. ثم قال: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال الكلبي: يعني الآلهة. وقال مقاتل: (أفبالباطل) يقول: بالشيطان يصدقون بأن مع الله إلهاً آخر. ويقال أفبالباطل يؤمنون يعني: أفيعبدون الأصنام التي لا تقدر على مضرتهم ولا على منفعتهم. ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: يجحدون بواحدانية الله تعالى. ويقال: وبنعمة الله هم يكفرون فلا يؤمنون برب هذه النعمة. قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ﴾ أي: لا يقدر لهم ﴿رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: إنزال المطر ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: والنبات ﴿شَيْئاً﴾ يعني: لا يملكون شيئاً من ذلك وقال القتبي: إنما نصب «شيئاً» بإيقاع الرزق عليه. ومعناه: يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئاً. كما تقول ويخدم من لا يستطيع إعطاءه درهماً ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: ذلك ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ يعني: لا تصفوا لله شريكاً. فإنه لا إله غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أنه لا شريك له، ويقال: إن الله يعلم ضرب الأمثال ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ضرب المثل.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ أي: وصف الله شبهاً ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً﴾ وهو الكافر ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ يقول: لا يقدر على مال ينفقه في طاعة الله ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ أي مالاً حلالاً ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ أي: يتصدق منه ﴿سِرّاً وَجَهْراً﴾ يقول: يتصدق خفية وعلانية وهو المؤمن ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ في الطاعة مثلاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ضرب المثل. وروي عن ابن عباس[1] أنه قال: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان والآخر أبو الفيض بن أمية وهو كافر لا يقدر أن ينفق خيراً لمعاده وعثمان أنفق لآخرته. فهل يستويان؟ أي: هل يستوي الكافر والمؤمن. ويقال: ضرب المثل للآلهة ومعناه: إن الإثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما قادراً على الإنفاق والآخر عاجزاً لا يستويان فكيف يسوون بين الحجارة التي لا تتحرك ولا تعقل وبين الذي هو على كل شيء قدير. فبين الله تعالى علامة ضلالتهم ثم حمد نفسه ودل خلقه على حمده فقال «الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون» ثم زاد في البيان وضرب مثلاً آخر فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ يعني: أخرس وهو الصنم ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من مال ولا منفعة ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ يعني: ثقل على وليه وقرابته، يعني: الصنم عيال ووبال على عابده ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ يعني: حيث يبعثه لا يجيء بخير ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر.

يعني: بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يدل الخلق على التوحيد. ويقال: هذا المثل للكافر مع النبي - صلى الله عليه وسلم - . يعني الكافر الذي لا يتكلم بالخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل أي التوحيد ويدعو الناس إليه وهو على صراط مستقيم يدعو الناس إليه وهو دين الإسلام. وقال السدي(١): المثلين ضربهما الله لنفسه وللآلهة.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: ما غاب عن العباد ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ كرجع البصر ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ يقول: بل هو أقرب أي أسرع. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن البعث والإحياء في قدرة الله تعالى ومشيئته كلمح البصر. ولم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر ولكنه وصف سرعة القدرة على الإتيان بها. ويقال أو هو أقرب الألف زيادة ومعناه وهو أقرب. ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: من البعث وغيره. قوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي «إِمَّهاتكم» بكسر الألف والباقون بالضم ومعناهما واحد وقال الزجاج: الأصل في الأمهات أمات ولكن الهاء زيدت مؤكدة كما زادوها في قولهم أهرقت الماء وأصله أرقت الماء ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ يعني: لا تعقلون شيئاً ويقال: لا تعلمون الأشياء كلها ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ تعقلون بها الخير والشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروا النعمة. ثم بين لهم العبرة ليعتبروا بها ويعرفوا بها وحدانيته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ يقول: مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: أي: في الهواء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عند قبض الأجنحة وعند بسطها ﴿إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: علامات لوحدانية الله لمن علم أن معبودهم لم يعنه في ذلك يعني الكفار لا يعلمون متى يبعثون. وأيان كلمة الاختصار وأصله أي أوان؟ ثم قال تعالى (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) يعني ربكم رب واحد فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي: لمن آمن به، قرأ ابن عامر وحمزة(٢) «ألم تروا» بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء. ثم قال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ أي: خلق لكم البيوت قراراً ومأوىً لكم ويقال: معناه: سخر لكم الأرض لتبنوا فيها البيوت ويقال: معناه وفقكم لبناء البيوت لسكناكم وقراركم، فذكر النعم والمنن والدلائل لوحدانيته. ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: من الشعر والصوف والوبر (بيوتاً) أي: الفساطيط والخيام ﴿تَسْتَخِفُّونَها﴾ أي تستخفون حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ اقامَتِكُمْ﴾ أي: يوم انتقالكم وسفركم ويوم نزولكم (ومن أصوافها) أي: من أصواف الغنم ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ يعني: الإبل

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٥ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٣، النشر ٢/٣٠٤.

﴿وأشعارها﴾ يعني أشعار المعز (أثاثاً) أي: متاع البيت من الفرش والأكسية. وقال قتادة والكلبي: يعني: المال ﴿ومتاعاً إلى حين﴾ يعني: المنفعة حتى تعيشون فيه إلى الموت، ويقال: تنتفعون بها إلى حين تبلى، وتهلك وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «ظعنكم»[1] بنصب العين وقرأ الباقون بالجزم ومعناهما واحد.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾

قوله ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ أي: أشجاراً تستظلون بها. ويقال بيوتاً تسكنون فيها ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي: جعل لكم في الجبال بيوتاً تسكنون فيها ويقال: أكناناً: يعني: الغيران والأسراب واحدها كن ﴿وجعل لكم سرابيل﴾ أي: القمص (تقيكم الحر) يعني: والبرد. اكتفاء أحدهما إذا كان يدل على الآخر. وقال قتادة في قوله «مما خلق ظلالاً». أي: من الشجر وغيره «وجعل لكم من الجبال أكناناً» يعني: غيراناً في الجبال يسكن فيها تقيكم من الحر أي: من القطن والكتان والصوف قال: وكانت تسمى هذه السورة سورة النعم ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ وهي: الدروع من الحديد تدفع عنكم قتال عدوكم ثم قال: (كذلك يتم نعمته عليكم) أي: ما ذكر من النعم في هذه السورة ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تعرفون رب هذه النعم فتوحدوه وتخلصوا له بالعبادة. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ «لعلكم تسلمون» بنصب التاء واللام ومعناه تسلمون من الجراحات إذا لبستم الدروع وتسلمون من الحر والبرد إذا لبستم القمص. ثم قال بعد ما بين العلامات ﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن الإيمان ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ تبلغهم رسالتي وتبين لهم الهدى من الضلالة. ثم قال تعالى: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ أي: يعرفون أن خالق هذه الأشياء هو الله تعالى ثم ينكرونها ويقولون هي بشفاعة آلهتنا. وهذا قول الكلبي. وقال السدي: يعني يعرفون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نبي وأنه صادق ولا يؤمنون به. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها». قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها وسرابيل الحديد والثياب، يعرف هذا الكافرون ثم ينكرونها ويقولون هذا كان لآبائنا وورثناها. ويقال: إنكارهم قولهم لولا كذا لكان كذا، ويقال: «يعرفون نعمة الله» وذلك أنهم إذا سئلوا من خلقهم؟ يقولون الله. ثم ينكرونها يعني البعث ﴿وَأَكْثَرُهُم الْكَافِرُونَ﴾ يعني: كلهم كافرون بالتوحيد. ويقال: جاحدون بالنعم. قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ أذكر يوم نبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي: نبياً شاهداً على أمته بالرسالة أنه بلغها ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي:

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٣، النشر ٢/٣٠٤.

في الكلام ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقول: لا يرجعون من الآخرة إلى الدنيا. وقال أهل اللغة: عَتَب يَعْتِب إذا وجد عليه وأعْتَبَ يُعْتِبُ إذا رجع عن ذنبه واستعتب يستعتب إذا طلب منهم الرجوع. أي: لا يطلب منهم الرجوع منهم إلى الدنيا. قوله: ﴿وَإذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ أي: الكفار ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يهون عليهم العذاب حين رأوها ﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون ولا يؤجلون ولا يتركون ساعة ليستريحوا. قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أي: آلهتهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو﴾ يعني: نعبد ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ يقولون نعبد دونك وهم أمـرونا بذلك، ويقال: يعني السفلة إذا رأوا شركاءهم يعني: أمراءهم ورؤساءهم قالوا ربنا هؤلاء قادتنا الذين كنا ندعو من دونك. أي هم أمرونا بالمعصية فأطعناهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ يعني: الآلهة والقادة وأجابوهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ما أمرناكم بذلك.

وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وخضعوا وانقادوا، العابد والمعبود، والتابع والمتبوع، يومئذ خضعوا كلهم يومئذ لله تعالى ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: اشتغل عنهم آلهتهم بأنفسهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني: يختلفون ويقال: بطل عنهم ما كانوا يقولون من الكذب في الدنيا. ثم بين عذابهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ يعني: القادة ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ من الشرك والتكذيب زدناهم عذاباً فوق عذاب السفلة، ويقال: التابع والمتبوع زدناهم في كل وقت عذاباً مع العذاب. وقال مقاتل: يجري الله عليهم خمسة أنهار من نحاس ذائب، ثلاثة أنهار في مقدار وقت الليل واثنان في مقدار وقت النهار بما كانوا يفسدون في الدنيا ـ وقال الكلبي: نحو هذا.

قال الفقيه أبو الليث: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف عن عبيد الله عن إسرائيل عن السدي عن مرة عن عبد الله[1] بن مسعود في قوله «زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ» قال: أفاعي في النار. وعن ابن مسعود أيضاً قال: زيدوا عقارب في النار أنيابها كالنخيل الطوال، وعن مجاهد أنه قال: في النار عقارب كالبغال، أنيابهن كالرماح تضرب إحداهن على رأسه فيسقط لحمه على قدميه، وقال: يسألون الله تعالى المطر في النار ألف سنة ليسكن ما بهم من شدة الحر والغم فيظهر لهم سحابة فيظنون أنها تمطر عليهم فجعلت السحابة تمطر عليهم الغيث فإذا هي تمطر عليهم بالحيات والعقارب ويقال: يسلط عليهم الجوع ويقال الجرب ويقال: الخوف. قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: رسولاً من الآدميين ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمر والنهي، إلا أن بعضه مفسر وبعضه مجمل يحتاج إلى الاستخراج والاستنباط. وقال مجاهد: ما

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٢٧ وعزاه لهناد بن السري.

يسأل الناس عن شيء إلا في كتاب الله تبيانه ثم قرأ «تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» وقال علي بن أبي طالب: كل شيء علمه في الكتاب إلا أن آراء الرجال تعجز عنه. ثم قال: ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي: هدى من الضلالة «ورحمة» أي: نعمة لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ أي: بتوحيد الله وشهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان إلى الناس والعفو عن الناس، ويقال: الإحسان القيام بالفرائض ﴿وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: صلة الرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: عن الزنا ويقال: جميع المعاصي ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني: ما لا يعرف في شريعة ولا في سنة، ويقال: المنكر ما وعد الله عليه النار ﴿والْبَغْيِ﴾ يعني: الاستطالة والكبرة فقد أمر بثلاثة أشياء ونهى عن ثلاثة أشياء وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين وجميع الخصال المحمودة، وروي عن عثمان[1] بن مظعون أنه قال: ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياءً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنه كان يدعوني فيعرض عليَّ الإسلام فاستحييت منه فأسلمت ولم يقر الإسلام في قلبي، فمررت به ذات يوم وهو بفناء بابه جالساً محتبياً فدعاني فجلست إليه فبينما هو يحدثني إذ رأيت بصره شخص إلى السماء حتى رأيت طرفه قد انقطع. ثم رأيته خفضه عن يمينه ثم ولّاني وركه ينفض رأسه كأنه يستفهم شيئاً يقال له. ثم دعا فرفع رأسه إلى السماء ثم خفضه حتى وضعه عن يساره ثم أقبل عليَّ محمراً وجهه يفيض عرقاً. فقلت يا رسول الله ما رأيتك صنعت هذا في طول ما كنت أجالسك. فقال: ولقد رأيت ذلك؟ قلت: نعم قال: بينما أحدثك إذ رفعت بصري إلى السماء فرأيت جبريل ينزل عليّ فلم تكن لي همة غيره حتى نزل عن يميني فقال يا محمد «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» إلى آخر الآية. قال عثمان: فوقر الإيمان في قلبي فآمنت وصدقته. قال: فأتيت أبا طالب فأخبرته بما نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا وتفلحوا، ولئن كان محمد صادقاً أو كاذباً ما يأمركم إلاَّ بمكارم الأخلاق. فلما رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عمه اللين قال: يا عماه أتأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك؟ وجهد عليه فأبى أن يسلم فنزل (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) إلى آخر الآية.

قال الفقيه أبو الليث: حدثنا أبو منصور عبد الله الفرائضي بسمرقند بإسناده عن عكرمة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على الوليد بن المغيرة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ» إلى آخر الآية فقال له: يا ابن أخي أعد عليَّ فأعاد عليه فقال: والله يا ابن أخي إنّ له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هذا بقول البشر. وقال قتادة: في قول الله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية قال: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يستحسنونه بينهم إلا أمر الله به وليس من خلق سيِّىءٍ يتعايرونه بينهم إلاَّ نهى الله عنه. ثم قال تعالى ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي: يأمركم وينهاكم عن هذه الأشياء التي ذكرها الله في الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٨/٤ وعزاه لأحمد والبخاري في الأدب وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا
تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن
يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ يقول: إذا حلفتم بالله فأتموا له بالفعل. ويقال أوفوا بعهد الله يعني: العهود التي بينكم وبين الله تعالى والعهود التي بينكم وبين الناس. ثم قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ يعني: لا تنكثوا العهود ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني: بعد تغليظها وتشديدها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي: شهيداً على إتمام العهود والوفاء بها، ويقال: حفيظاً على ما قال الفريقان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في وفاء العهد والنقض. ثم ضرب الله تعالى مثلاً فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقض العهد ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ وهي ربطة الحمقاء بنت عمرو بن كعب بن سعد وهي أم أخنس بن شريق الزهري ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ أي: من بعد ما أبرمته وأحكمته، كانت إذا غزلت الشعر والكتان نقضته ثم غزلته فقال: ولا تنقصوا العهد بعد توكيده كما نقضت المرأة غزلها. وقال القتبي. أي: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيمان والعهود ثم تنقضوا ذلك فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت ثم نقضت ذلك النسج فجعلته أنكاثاً. والأنكاث ما نقض من غزل الشعر وغيره. وأحدها نكث ثم قال ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دغلاً وخيانة ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي: فريق منكم ﴿هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: هي أكثر وأغنى من أمة من فريق. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في كندة ومراد، وذلك أنه كان بينهم قتال حتى كَلَّ الظهر ثم توادعوا لستة أشهر حتى يصلح الظهر أي: الدواب ويجم الخيل، فلما مضت خمسة أشهر أمر قيس بن معدي كرب بالجهاد إليهم فقالوا قد بقي من ا لأجل شهر فمكث حتى علم أنه يأتيهم بعد انقضاء الأجل بيوم ثم سار إليهم فإذا هو يوم انقضاء الأجل فقتلوه وهزموا قومه فذلك قوله: «ولا تتخذوا أيمانكم» يعني: عهودكم بالله دخلاً أي: مكراً وخديعة بينكم «أن تكون أمة هي أربى من أمة» يعني أن تكون أمة أكثر من أمة فينقضون العهد لأجل كثرتهم، فلا تحملنكم الكثرة على نقض العهد ﴿إنّما يبلوكم الله به﴾ يعني: إنما يبتليكم الله بالكثرة لنقض العهد والوفاء. وقال مجاهد(١): كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز نقضوا وحالفوا الأعز فنزل «إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ» أي: يختبركم بنقض العهود وبالكثرة ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ويبين لكم ما نقضتم من العهود ويجازيكم به قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على ملة واحدة وهي الإسلام ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يخذل من علم أنه ليس من أهل الإسلام. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يكرم بالإسلام من هو أهل لذلك ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ﴾ فهذه اللام لام القسم والتأكيد يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يسألكم عما كنتم تعملون من الوفاء والنقض بالعهد.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٢٩ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: إن ناقض العهد يزل عن الطاعة كما تزل قدم الرجل بعد الاستقامة ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أي: تتجرعوا العقوبة ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صرفتم الناس عن دين الله الإسلام ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: شديد في الآخرة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي لا تختاروا على عهد الله والحلف به ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي: عرضاً يسيراً من الدنيا ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ في الآخرة من الثواب الدائم ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ثواب الجنة ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الآخرة خير من الدنيا، ويقال: إن كنتم تصدقون بثوابه. قال الكلبي: نزلت الآية في رجل من حضرموت يقال له عبدان بن الأشوع قال: يا رسول الله إنّ امرأ القيس الكندي جاورني في أرض فاقتطع أرضي فذهب بها وغلبني عليها. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيشهد لك أحد على ما تقول؟ قال: يا رسول الله إنَّ القوم كلهم يعلمون أنِّي صادق فيما أقول ولكنه أكرم عليهم مني عليهم. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لامرىء القيس. ما يقول صاحبك؟ قال الباطل والكذب فأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يحلف. فقال عبدان: إنه لفاجر وما يبالي أن يحلف فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لم يكن لك شهود فخذ يمينه. فقال عبدان. وما لي يا رسول الله إلا يمينه؟ فقال لا. فأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحلف. فلما قام ليحلف أخره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له: إنصرف فانصرف من عنده فنزلت هذه الآية (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً) إلى قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أي: ما عندكم من أمور الدنيا يفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي: ثواب الله في الجنة دائم لأهلها ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عن اليمين وأقروا بالحق. ويقال الذين صبروا على الإيمان وأقروا بالحق ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بالإحسان الذي كانوا يعملون في الدنيا. ويقال: يجزيهم بأحسن أعمالهم ويبقى سائر أعمالهم فضلاً. قال الكلبي: فلما نزلت هاتان الآيتان قال امرؤ القيس: أمَّا ما عندي فينفد وأمَّا صاحبي فيجزى بأحسن ما كان يعمل. اللَّهم إنه صادق فيما قال، لقد اقتطعت أرضه. والله وما أدري كم هي. ولكنه يأخذ ما يشاء من أرض ومثلها معها بما أكلت من ثمارها. فنزل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: لا يقبل العمل منه ما لم يكن مؤمناً، فإذا كان مؤمناً وعمل صالحاً يقبل منه، ثم قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ في الجنة، ويقال: يجعل حياته في طاعة الله ويقال: فلنقنعنه باليسير من الدنيا. وروي عن ابن عباس[1] أنه قال: الكسب الطيب والعمل الصالح، وعن عليّ إنه قال: القناعة، وقال الحسن:[2] لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة، وقال الضحاك: الرزق الحلال وعبادة الله تعالى ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يثيبهم بإحسانهم ويعفو عن سيئاتهم. قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر في إحدى الروايتين[3] «وَلَنَجْزِيَنَّ الذين

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٣٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٣٩٣ ـ ٣٩٤، النشر ٢/ ٣٠٥.

واختلف عن ابن عامر فرواه النقاش عن الأخفش والمطوعي عن الصوري كلاهما عن ابن ذكوان كذلك، وكذلك رواه الرملي عن ≡

صبروا» بالنون وقرأ الباقون بالياء، واتفقوا في قوله «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ» بالنون.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ يعني: إذا أردت أن تقرأ القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة فتعوذ بالله. وهذا كقولك إذا أكلت فقل بسم الله، يعني: إذا أردت أن تأكل وهذا مثل قوله: (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ) يعني: إذا أردتم القيام للصلاة. وقوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ يعني: اللعين ويقال: الخبيث ويقال: المرجوم، ويقال: فيه تقديم ومعناه: فاستعذ بالله إذا قرأت القرآن ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ ليس له غلبة ولا حجة، ويقال: ليس له نفاذ الأمر ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يثقون به ولا يثقون بغيره. قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي: غلبته وحجته ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يطيعونه من دون الله تعالى، فمن أطاعه فقد تولاه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: أشركوا بعبادة ربهم إياه. وقال مقاتل: أي بالله تعالى. وقال القتبي: (والذين هم به مشركون) لم يرد أنهم بإبليس كافرون ولو كان هكذا لكانوا مؤمنين. وإنما أراد به الذين هم من أجله مشركون بالله تعالى كما يقال: صار فلان بك عالماً أي من أجلك. قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً﴾ يعني: ناسخة ﴿مَكَانَ آيَةٍ﴾ يعني: منسوخة أي نسخنا آية بآية. قال ابن عباس: إنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا نزلت عليه آية فيها شدة أخذ الناس بها وعملوا ما شاء الله أن يعملوا. فيشق ذلك عليهم فينسخ الله تعالى هذه الشدة ويأتيهم بما هي ألين منها وأهون عليهم رحمة من الله لهم، فيقول لهم كفار قريش والله ما محمد إلَّا يسخر بأصحابه. يأمرهم اليوم بأمر، وغداً يأتيهم بما هو أهون عليهم منه. وما يعلمه إلا عابس غلام حويطب بن عبد العزى ويسار بن فكيهة مولى ابن الحضرمي، وكانا قد أسلما وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتيهما فيحدثهما ويعلمهما. وكانا يقرآن كتابهما بالعبرانية فنزل (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ يعني: بما يصلح للخلق ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: مختلق من تلقاء نفسك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله أمرك بما يشاء نظراً لصلاح العباد. وقال مقاتل: في الآية تقديم ومعناه: «وإذا بدلنا آية مكان آية» «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فنقول على

= الصوري من غير طريق الكارزيني وهي رواية عبد الله بن أحمد بن الهيثم المعروف بدلبة عن الأخفش وبذلك قرأ الداني على شيخه عبد العزيز الفارسي عن النقاش وكذلك روى الداجوني عن أصحابه عن هشام وبه نص سبط الخياط صاحب المبهج عن هشام من جميع طرقه وهذا مما انفرد به فإنا لا نعرف النون عن هشام من غير طريق الداجوني ورأيت في مفردة قراءة ابن عامر للشيخ الشريف أبي الفضل العباسي شيخ سبط الخياط ما نصه: [وليجزين] بالياء واختلف عنه والمشهور عنه بالياء وهذا خلاف قول السبط وقد قطع الحافظ أبو عمرو وبتوهيم من روى النون عن ابن طوران وقال لا شك في ذلك لأن الأخفش ذكر ذلك في كتابه بالياء وكذلك رواه عنه ابن شنبوذ وابن الأخرم وابن أبي حمزة وابن أبي داود وابن مرشد وابن عبد الرزاق وعامة الشاميين وكذا ذكره ابن ذكوان في كتابه بإسناده (قلت ولا شك في صحة النون عن هشام وابن ذكوان جميعاً من طرق العراقيين قاطبة فقد قطع بذلك عنهما الحافظ الكبير قاطبة من جميع طرقهم عن هشام وابن ذكوان جميعاً بالياء وجهاً واحداً وكذا هو في العنوان والمجتبي لعبد الجبار والإرشاد والتذكرة لابن غلبون وبذلك قرأ الباقون. انظر النشر ٢/ ٣٠٥.

الله تعالى الكذب. قلت كذا ثم نقضته فجئت بغيره ثم قال في التقديم: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ».

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني: قل يا محمد: نزل جبريل بالقرآن، والتشديد لكثرة نزوله ويقال: نَزَّلَ بمعنى تَنَزَّلَ كما يقال قَدَّمَ بمعنى تَقَدَّمَ وَبَيَّنَ بمعنى تَبَيَّنَ، ويقال: نزله بمعنى تلاه وبلغه، ويقال: قل: نزله روح القدس يعني: جبريل الذي يأتيك بالناسخ والمنسوخ ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: من عند ربك ويقال: من كلام ربك ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوحي ويقال: بالصدق، ويقال: للحق ويقال: لصلاح الخلق ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليحفظ قلوب الذين آمنوا على الإسلام، ويقال: لِتطمئن إليه قلوب الذين آمنوا ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ بالجنة. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ يعني: أن كفار قريش يقولون ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون: جبراً ويسار. وروى حصين عن عبد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان من أهل اليمن نصرانيان. إسم أحدهما يسار والآخر جبر صيقليان وكانا يقرآن بلسانهما فكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمر عليهما يسمع منهما فقال المشركون إنما يتعلم منهما. فأكذبهم الله تعالى حيث قال ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: رومي اللسان وقال مقاتل: كان غلام لعامر بن الحضرمي اسمه يسار يهودي أعجمي اللسان. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أذاه كفار قريش يدخل عليه ويحدثه فقال المشركون: إنما يعلمه يسار فقال الله تعالى: رداً عليهم «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ» أي يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمه أعجمي أي عبراني وأصل الإلحاد الميل ﴿وَهَٰذَا﴾ يعني القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: مفقه بلغتهم، وروي عن طلحة بن عمير أنه قال: بلغني أن خديجة كانت تختلف إلى غلام ابن الحضرمي. وكان نصرانياً وكان صاحب كتب يقال له جبر وكانت قريش تقول إنَّ عبد ابن الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ» ثم أسلم جبر بعد ذلك وحسن إسلامه وهاجر مع سيده. قرأ ابن كثير «روح القُدْسِ» بجزم الدال وقرأ الباقون «الْقُدُسِ» بضم الدال. وقرأ حمزة والكسائي[1] «يَلْحَدُونَ» بنصب الياء والحاء وقرأ الباقون «يُلْحِدُونَ» بضم الياء وكسر الحاء ومعناهما واحد.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٤.

﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ أي: لا يوفقهم الله ولا يكرمهم لقلة رغبتهم في الإيمان، ويقال: لا ينجيهم في الآخرة من النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ قال الزجاج: معناه: إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلَّا الله كذبوا بها وهؤلاء أكذب الكذبة. قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعليهم غضب من الله، على معنى التقديم. ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ أي: أكره على الكفر وتكلم بالكفر مكرهاً ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيمَانِ﴾ أي: قلبه معتقد عليه، وهو عمار بن ياسر وأصحابه. وذلك أن ناساً من أهل مكة آمنوا فخرجوا مهاجرين فأدركتهم قريش بالطريق فعذبوهم فكفروا مكروهين فنزلت هذه الآية فيهم وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله، وروي عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن عمار بن ياسر أخذه بنو المغيرة فطرحوه في بئر ميمونة حتى أمسى، فقالوا له أكفر بمحمد وأشرك بالله فبايعهم على ذلك وقلبه كاره فنزلت الآية، وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى عمار بن ياسر وهو يبكي فجعل يمسح الدموع من عينيه ويقول: أخذني الكفار ولم يتركوني حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. فقال كيف وجدت قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان فقال إن عادوا فعد. وقال مقاتل: أسلم جبر مولى ابن الحضرمي فأخذه مولاه وعذبه حتى رجع إلى اليهودية ثم رجع إلى هؤلاء النفر فنزلت الآية «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإِيْمَانِ» ثم بين حال الذين ثبتوا على الكفر فقال: ﴿وَلَكِنْ مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ أي فتح صدره بالقبول، يعني: قبل الكفر طائعاً وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح ارتد ولحق بمكة ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: شديد في الآخرة ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: اختاروا الدنيا ﴿عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي: لا يرشد إلى دينه ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى دينه.

﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ مجازاة لهم ﴿وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: ختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي: التاركون لأمر الله تعالى ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿إِنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر وأبويه وبلال وصهيب وخباب بن الأرت، عذبهم المشركون ثم هاجروا إلى المدينة فأخبروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا) ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ يقول: عذبهم أهل مكة ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على البلاء وصبروا على دينهم وصبروا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على طاعة الله تعالى ﴿إِنَّ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٢/٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد الفتن ويقال: من بعد الهجرة **﴿لَغَفُورٌ﴾** لذنوبهم **﴿رَّحِيمٌ﴾** ويقال: نزلت الآية في عياش بن أبي ربيعة وقد ذكرناه في سورة النساء. قرأ ابن عامر[1] «مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنُوا» بفتح الفاء والتاء أي: أصابتهم الفتنة وقرأ الباقون «فُتِنُوا» على معنى فعل ما لم يسم فاعله.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله: **﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾** كل نفس صار نصباً لنزع الخافض ومعناه: إن ربك من بعدها لغفور رحيم في يوم تأتي أي: تحضر ويقال: معناه: واذكروا (يَوْمَ تَأْتِي **﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَّفْسِهَا﴾** يعني: كل إنسان يخاصم عن نفسه ويذب عنها ويقول: نفسي نفسي. وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه ويقول: رب نفسي نفسي أي أريد نجاة نفسي. **﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾** أي: كل نفس برة أو فاجرة جزاء ما عملت في دار الدنيا من خير أو شر **﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾** أي: لا ينقصون من حسناتهم ولا يزادون على سيئاتهم.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله: **﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾** يقول: وصف الله شبهاً **﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾** يعني: مكة من العدو **﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾** من العدو أي: ساكنة مقيمة أهلها بمكة **﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾** أي: يحمل إليها طعامها ورزق أهلها **﴿رَغَداً مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾** يعني موسعاً من كل أرض يحمل إليها الثمار وغيرها **﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾** أي: طغت وبطرت ويقال: كفرت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾** أي: عاقبهم الله تعالى سبع سنين، ومعنى اللباس هنا: سوء الحال واصفرار الوجوه **﴿وَالْخَوْفِ﴾** يعني: خوف العدو وخوف سرايا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** أي: عقوبة لهم وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا عليهم فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر. اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. فاستجاب الله دعاءه فوقع القحط والجدوبة حتى اضطروا إلى أكل الميتة والكلاب. قال القتبي: أصل الذوق بالفم، ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختيار فأذاقها الله لباس الجوع والخوف يعني ابتلاهم الله بالجوع والخوف وظهر عليهم من سوء آثارهم وتغير الحال عليهم. قوله: **﴿وَلَقَدْ**

---

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٥، النشر ٢/٣٠٥.

﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: الجوع ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: كافرين. ثم إن أهل مكة بعثوا أبا سفيان بن حرب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا رسول الله: ما هذا البلاء هبك عاديت الرجال فما بال الصبيان والنساء. فأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يحمل إليهم الطعام فحمل إليهم الطعام ولم يقطع عنهم وهم مشركون. فقال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾ أي: من الحرث والأنعام حلالاً طيباً يعني: وهم خزاعة وثقيف ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إن كنتم تريدون بذلك رضاء الله وعبادته فإن رضاه أن تستحلوا ما أحل الله وتحرموا ما حرم الله. ثم بين المحرمات فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ذبح بغير اسم الله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي أجهد إلي بشيء مما حرم الله عليه ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ في أكله أي: لا يأكل فوق حاجته، ويقال: غير مفارق الجماعة ولا عاد عليهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ فيما أكل ﴿رَحِيمٌ﴾ حين رخص له في أكل الميتة عند الاضطرار. ثم قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: لا تقولوا يا أهل مكة فيما أحللت لكم ﴿هَذَا حَلَالٌ﴾ على الرجال ﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾ على النساء، ويقال: في الآية تنبيه للقضاة والمفتين كيلا لا يقولوا قولاً بغير حجة وبيان. ثم قال: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي: بتحريم البحيرة والسائبة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يفوزون ولا ينجون من العذاب ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: عيشهم في الدنيا قليل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا
لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا
لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ يقول: مالوا عن الإسلام وهم اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في القرآن من قبل هذه السورة في سورة الأنعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ما حرمنا عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم فحرمنا عليهم الأشياء عقوبة لهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: عملوا المعصية بجهالة. وروي عن ابن عباس أنه قال كل سوء يعمله العبد فهو فيه جاهل وإن كان يعلم أن ركوبه سيئة ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: العمل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد السيئة، ويقال: من بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ﴾ أي: إماماً يقتدى به، «قانتاً» أي: مطيعاً لربه. وروى عامر عن مسروق أنه قال ذكر عند عبد الله بن مسعود معاذ بن جبل. فقال عبد الله بن مسعود كان معاذ بن جبل أمةً قانتاً. فقال رجل: وما الأمة؟ قال: الذي يعلم الناس الخير. والقانت الذي يطيع الله ورسوله. وقال القتبي: إنَّما سماه أمةً لأنه كان سبب الاجتماع. قال: وقد يجوز أنه سماه أمةً لأنه اجتمع عنده خصال الخير، ويقال: إنَّما سماه أمةً لأنه آمن وحده حين لم يكن مؤمن غيره. وهذا كما روي عن رسول الله - صلى الله عليه

وسلم ـ أنه قال: يجيء زيد بن عمرو بن نفيل يوم القيامة أمةً وحده، وقد كان أسلم قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين لم يكن بمكة مؤمن غيره. وتابعه ورقة بن نوفل، وعاش ورقة بن نوفل إلى وقت خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أنزل عليه الوحي. ثم قال: ﴿حَنِيفاً مُسْلِماً﴾ أي مستقيماً قائلاً عن الأديان كلها ﴿ولم يك من المشركين﴾ أي مع المشركين على دينهم، وأصله ولم يكن فحذفت النون لكثرة استعمال هذا الحرف. قوله ﴿شَاكِراً لأنْعُمِهِ﴾ أي: ما أنعم الله عليه ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره للنبوة ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى دين قائم وهو الإسلام ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يقول: أكرمناه بالثناء الحسن، ويقال: بالنبوة ويقال: بالولد الطيب ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني مع الأنبياء في الجنة. قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: بعده هذه الكرامة التي أعطيناها إياك. أمرناك ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دين إبراهيم يعني: استقم عليه ﴿حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ على دينهم.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يقول: إنما أمروا في السبت بالقعود عن العمل «على الذين اختلفوا فيه» يعني: في يوم الجمعة. وذلك أن موسى عليه السلام أمرهم أن يتفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً. فيعبدوه ولا يعملوا فيه شيئاً من أمر الدنيا. وستة أيام لصناعتهم ومعايشهم ويتفرغوا في يوم الجمعة فأبوا أن يقبلوا ذلك اليوم وقالوا إنَّما نختار السبت اليوم الذي فرغ الله فيه من أمر الخلق فجعل ذلك عليهم وشدد عليهم. ثم جاءهم عيسى بالجمعة فاختاروا يوم الأحد. وقال مجاهد: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» أي: في السبت اتبعوه وتركوا الجمعة. وروى همام عن أبي هريرة[1] أنه قال: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة وأوتيناه من بعدهم، يعني: يوم الجمعة فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع، واليهود غداً والنصارى بعد غد. ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين فبين لهم الحق معاينة ثم قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: إلى دين ربك وإلى طاعة ربك ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: بالنبوة والقرآن ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يعني: عظهم بالقرآن ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: حاجهم وناظرهم بالحجة والبيان، ويقال: باللين، وفي الآية دليل أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا قصد بها إظهار الحق، وهذا مثل قوله :(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٣٤ وعزاه للشافعي في الأم والبخاري ومسلم والحديث عن البخاري ٢/٣٥٤ في الجمعة، باب فرض الجمعة (٨٧٦). ومسلم ٢/٥٨٥ في الجمعة، باب هداية هذه الأمة (١٩/٨٥٥).

وقوله: (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً) ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ لدينه. قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ قال ابن عباس: وذلك حين قتل المشركون حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد ومثلوا به، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن أمكننا الله منهم لنمثلن بالأحياء فضلاً عن الأموات فنزل «وإنْ عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» الآية. وقال محمد بن كعب القرظي لما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حمزة بالحال التي هو بها، حين مثل به فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين منهم. فلما رأى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما به من الوجع قالوا: لئن ظفرنا بهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب أحد فنزل «وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا...» ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ فلم تعاقبوا ولم تمثلوا ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من المثلة أي: ثواب الصبر خير من المكافأة ثم صارت الآية عامة في وجوب القصاص أنه لا يجوز إلا مثلاً بمثل والعفو أفضل. قال: ﴿وَاصْبِرْ﴾ يعني: أثبت على الصبر ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يعني: ألهمك ووفقك للصبر ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفار قريش إن لم يسلموا ﴿وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1] قرأ ابن كثير «في ضِيقٍ» بكسر الضاد. وقرأ الباقون بالنصب ومعناهما واحد أي: لا يضيق صدرك مما يقولون لك ويصنعون بك. وقال مقاتل: نزلت الآية في المستهزئين. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: معين للذين اتقوا الشرك ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ﴾ في العمل ويقال: معين الذين اتقوا مكافأة المسيء والذين هم محسنون إلى من أساء إليهم. والله أعلم بالصواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) انظر حجة القراءات ٣٩٥، النشر ٢/٣٠٥.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ (١)

مائة وإحدى عشرة آيات مكية
وقيل إلا قوله «وإن كَادوا ليستَفِزّونك مِنَ الأرض» إلى آخر ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

قال ابن عباس[٢] في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ يقول: عجبٌ من أمر الله الذي أسرى. ويقال: تنزيه لله تعالى. وروى موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سبحان فقال: نزه الله نفسه عن السوء. وروي عن عليّ بن أبي طالب أن ابن أبي الْكَوَّاءَ سأله عن سبحان فقال عليّ كلمة الله لنفسه[٣]. ويقال معناه: سبحوا الله، (سُبْحَانَ ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[٤] أي: أدلج برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لَيْلًا﴾ أي: في

---

(١) سميت في كثير من المصاحف سورة الإسراء وصرح الألوسي بأنها سميت بذلك إذ قد ذكر في أولها الإسراء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واختصت بذكره.

وتسمى في عهد الصحابة سورة بني إسرائيل. وتسمى أيضاً سورة سبحان لأنها افتتحت بهذه الكلمة قاله الفيروز أبادي في (بصائر ذوي التمييز). وهي مكية عند الجمهور قيل: إلا آيتين منها. وهما ﴿وإن كادوا ليفتنونك ـ إلى قوله ـ قليلاً﴾ وقيل: إلا أربعاً ـ هاتين الآيتين وقوله ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ وقوله ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ الآية. وقيل: إلاّ خمساً. هذه الأربع وقوله ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ إلى آخر السورة. وقيل: إلا خمس آيات غير ما تقدم، وهي المبتدأة بقوله ﴿أولئك الذين يدعون﴾ الآية وقوله ﴿أقم الصلاة﴾ الآية وقوله ﴿وآت ذا القربى حقه﴾ الآية وقيل: إلا ثمانياً من قوله ﴿وإن كادوا ليفتنونك ـ إلى قوله ـ سلطاناً نصيراً﴾ وعدد آياتها مائة وعشر في عد أهل العدد بالمدينة ومكة والشام والبصرة. ومائة وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة.

والعماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وإثبات أن القرآن وحي من الله. وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه. وذكر أنه معجز ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه وأبطال إحالتهم أن يكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرى به إلى المسجد الأقصى. فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه الصلاة والسلام على عادة القرآن في ذكر المُثُل والنظائر الدينية ورمزاً إلهياً إلى أن الله أعطى محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله. وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل. فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية وغير ذلك مايتضح من السورة الكريمة انظر التحرير ١٥/٨٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٣٦ وعزاه للطستي.

(٣) أنظر لسان العرب ٣/١٩١٤.

(٤) زعم بعض أهل العلم أن الإسراء كان بروحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون جسده زاعماً أنه في المنام لا اليقظة لأن رؤيا الأنبياء وحي. وزعم بعضهم: أن الإسراء بالجسد، والمعراج بالروح دون الجسد، ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقظة لا مناما لأنه قال (بعبده) والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، ولأنه قال (سبحان) والتسبيح إنما يكون

ليلة، ويقال أسرى يعني: سار بعبده ليلاً ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: مكة. وقال ابن عباس: من بيت أم هانيء ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ يعني: إلى بيت المقدس.

قال الفقيه: أخبرني الثقة بإسناده عن أبي سعيد[1] الخدري قال: حدثنا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الليلة التي أسرى به فيها فقال: أوتيت بدابة هي أشبه الدواب بالبغل وهو البُرَاقُ وهو الذي كان يركبه الأنبياء قال: فانطلق بي يضع يده عند منتهى بصره. فسمعت نداء عن يميني يا محمد على رِسْلِكَ فمضيت ولما أعرج عليه، ثم سمعت نداء عن شمالي فمضيت ثم استقبلتني امرأة عليها من كل زينة. فمدت يدها وقالت على رِسْلِكَ فمضيت ولم ألتفت إليها. ثم أتيت البيت المقدس. أو قال المسجد فنزلت وأوثقته بالحلقة التي كانت الأنبياء يوثقون بها. ثم دخلت المسجد فصليت. فقلت يا جبريل: سمعت نداء عن يميني فقال: ذاك داعي اليهودية، أَما إنك لو وقفت عليه لتهودت أمتك، فقلت: وسمعت نداء عن شمالي. قال كان ذلك داعي النصارى. أما إنك لو وقفت عليه لتنصرت أمتك، وأما المرأة، كانت الدنيا تزينت لك، أما إنك لو وقفت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة قال: ثم أوتيت بإنائين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقال لي: اشرب أيهما شئت. فأخذت اللبن وشربت. فقال: أصبت الفطرة أي أعطيت أمتك الإسلام. أما إنك لو أخذت الخمرة لغوت أمتك ثم جيء بالمعراج الذي تعرج فيه أرواح بني آدم. فإذا هو أحسن ما رأيت. فعرج بنا فيه. وذكر قصة طويلة فنزل (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

= عند الأمور العظام فلو كان مناماً لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ لأن البصر من آلات الذات لا الروح وقوله هنا ﴿لنريه من آياتنا﴾. ومن أوضح الأدلة القرآنية على ذلك قوله جل وعلا: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن﴾ فإنها رؤيا عين يقظة لا رؤيا منام كما صح عن ابن عباس وغيره.

ومن الأدلة الواضحة على ذلك ـ أنها لو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة ولا سبباً لتكذيب قريش لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح. فالذي جعله الله فتنة هو ما رواه بعينه من الغرائب والعجائب فزعم المشركون أن من ادعى رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة فصار فتنة لهم. وكون الشجرة الملعونة التي هي شجرة الزقوم على التحقيق فتنة لهم ـ أن الله لما أنزل قوله: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾ قالوا: ظهر كذبه لأن الشجر لا ينبت بالأرض اليابسة فكيف ينبت في أصل النار. ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا: ﴿لنريه من آياتنا﴾ الآية وقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، وما زعمه بعض أهل العلم من أن الرؤيا لا تطلق بهذا اللفظ لغة إلاَّ على رؤيا المنام مردود، بل التحقيق: أن لفظ الرؤيا يطلق في لغة العرب على رؤية العين يقظة أيضاً ومنه قول الراعي وهو عربي قح:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفساً كان قبل يلومها

فإنه يعني رؤية صائد بعينه ومنه أيضاً قول أبي الطيب:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

قال صاحب اللسان. وزعم بعض أهل العلم: أن المراد بالرؤيا في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك﴾ الآية رؤيا منام، وأنها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾. الآية والحق الأول. وركوبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على البراق يدل على أن الإسراء بجسمه لأن الروح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف وعلى كل حال: فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه: أنه أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السموات السبع. وقد دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه يقظة لا مناماً كما دلت على ذلك أيضاً الآيات التي ذكرنا. وعلى ذلك من يعتد به من أهل السنة والجماعة فلا عبرة بمن أنكر ذلك من الملحدين. انظر أضواء البيان ٣/٣٩١ ـ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٣٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن مردويه وهو عند مسلم ١/١٤٥ في كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٢٥٩/١٦٢).

﴿بِعَبْدِهِ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أول الليل، من المسجد الحرام. يقول من الحرم من بيت أم هانيء بنت أبي طالب ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ أي: الأبعد يعني: إلى مسجد إيلياء وهو بيت المقدس ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بالماء والأشجار، وهو المدائن التي حوله، مثل دمشق والأردن وفلسطين ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: لكي نريه من آياتنا، أراه الله تعالى في تلك الليلة من عجائب السموات والأرض ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالة أهل مكة وإنكارهم ﴿الْبَصِيرُ﴾ أي: العليم بهم. وذلك أنه لما أخبرهم عن قصة تلك الليلة أنكروا، وروي الزهري عن عروة قال: إنه لما أسري برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المسجد الأقصى أصبح فأخبر الناس بذلك فارتد ناس كثير ممن كان صدقه وفتنوا بذلك وكذبوا به، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا له: هذا صاحبك يزعم أنه قد أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ثم رجع من ليلته. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فإني أشهد إن كان قال ذلك إنه قد صدق. فقالوا: أتصدقه بأنه جاء إلى الشام في ليلة واحدة ورجع قبل أن يصبح؟ فقال أبو بكر: نعم إني أصدقه في أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء غدوة وعشية. فلذلك سمي أبا بكر «الصديق». قال الزهري: أخبرني أنس بن مالك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرضت عليه الصلاة ليلة أسري به خمسين. ثم نقصت إلى خمس. ثم نودي يا محمد ما يبدل القول لدي. وإن لك بالخمس خمسين[1].

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة جملةً واحدةً ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: بياناً لهم من الضلالة أي: دللناهم به على الهدى ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ يعني: ألّا تعبدوا من دوني ربًّا. قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ يعني بالذرية ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة في أصلاب الرجال وأرحام النساء. ويقال: معناه: ألّا تعبدوا ذُريةً من حملنا مع نوح. مثل عيسى وعزير. قرأ أبو عمرو[2] «يَتَّخِذُوا» بالياء على معنى المغايبة والخبر عنهم. أي: أعطيناك الكتاب لكيلا يتخذوا إلٰهاً غيري. وقرأ الباقون بالتاء[3] على معنى المخاطبة. أي: قل لهم لا تتخذوا إلهاً غيري ثم أثنى على نوح فقال تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ أي: كان يحمد الله إذا شرب وأكل واكتسى. ويقال: الشكور هو المبالغ في الشكر أي: كان شاكراً في الأحوال كلها. قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي

---

(١) أخرجه البخاري ١/٥٤٧ في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات (٣٤٩) ومسلم (٢٥٩/١٦٢).

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٦، النشر ٢/٣٠٦.

(٣) وحجتهم في الانصراف إلى الخطاب بعد الغيبة قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ثم قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالضمير في ﴿تتخذوا﴾ وإن كان على لفظ الخطاب فإنما يعني به الغيب في المعنى، ويجوز أن تكون (أن) بمعنى (أي) التي هي للتفسير على هذا التأويل لأنه انصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب، ويجوز أن تكون زائدة وتضمر القول المعنى: ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل وقلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾. ويجوز أن تكون الناصبة للفعل فيكون المعنى: (وجعلناه هدى كراهة أن تتخذوا من دوني وكيلاً) أو (بأن لا تتخذوا) انظر حجة القراءات ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

إِسْرَائِيلَ﴾ يقول: أعلمنا وبينا كقوله: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ) أي: أعلمناه وبيناه﴿فِي الْكِتَابِ﴾ يعني: أخبرناهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي: لتعصن ﴿فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً﴾ والعلو العتو على الله تعالى والجرأة. وهذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: يعني: لتهلكن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً. يعني: لتقهرن قهراً شديداً. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت. حتى بعث الله طالوت ومعه داود فقتله داود. ثم رُدَّت الكرة لبني إسرائيل. ثم جاء وعد الآخرة من المرتين، «لِيَسُؤُوا وُجُوهَكُمْ» أي: يقبحوا وجوهكم وليدمروا تدميراً وهو بُخْتُنُصَّرُ وإن عدتم عدنا فعادوا فبعث الله عليهم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: «وَعْدُ أُولاَهُمَا» جاءتهم فارس معهم بختنصر[1] ثم رجعت فارس. يعني: أهل فارس ولم يكن قتال ونصرت بنو إسرائيل عليهم فذلك وعد الأولى، فإذا جاءَ وَعدُ الآخرة جاءهم بختنصر ودمر عليهم. وروى أسباط عن السدي أن وعد الأولى كان ملك النبط فجاسوا خلال الديار، ثم إن بني إسرائيل تجهزوا وغزوا النبط فأصابوا منهم واستنقذوا ما في أيديهم فردت الكرة عليهم. وكان بختنصر في ذلك الوقت يتيماً في ذلك العسكر وخرج ليسأل شيئاً فلما رأى كبر جمع الجيوش وجاء بهم وخوفهم وخرب البلدة. قال القتبي: إن بختنصر غزاهم فرغبوا إلى الله تعالى وتابوا فردَّ الله عنهم. بعد أن فتحوا المدينة وجالوا في أسواقها ثم أحدثوا فبعث الله إليهم أرميا النبي عليه السلام فقام فيهم بوحي الله فضربوه وقيدوه وحبسوه. فبعث الله تعالى إليهم عند ذلك بختنصر ففعل ما فعل. وقال الكلبي: لما عصوا الله وهو أول الفسادين سلط الله عليهم بختنصر، خرج من بابل فأتاهم بالشام وظهر على بيت المقدس فقتل منهم أربعين ألفاً ممن كان يقرأ التوراة وأدخل بقيتهم أرضه فمكثوا كذلك سبعين سنة، حتى مات. ثم إن رجلاً من أهل همدان يقال له: كورش غزا أهل بابل فظهر عليهم وسكن الدار وتزوج امرأة من بني إسرائيل وطلبت إلى زوجها أن يرد قومها إلى أرضهم. ففعل فردهم إلى أرض بيت المقدس فمكثوا فيها، فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه ثم عادوا فعصوا المرة الثانية. فسلط الله عليهم ملكاً من ملوك الروم يقال له إسبسيانوس فحاصرهم سنين ثم مات فبعث الله عليهم ابنه ططيوس بن إسبسيانوس فحاصرهم سنين. ثم فتحها بعد ذلك فقتل منهم مائة ألف وثمانين ألفاً حتى قتل يحيى بن زكريا وحبس منهم مثل ذلك وخرب بيت المقدس فلم يزل خراباً حتى بناه المؤمنون في زمن عمر رضي الله عنه فذلك قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ يقول: أول الفسادين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلطنا عليكم ﴿عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: ذوي قتال شديد ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ يقول: قتلوكم وسط الأزقة وقال القتبي: فجاسوا أي: عاثوا وأفسدوا ويكون جاسوا بمعنى: دخلوا بالفساد ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ يعني: كائناً لئن فعلتم لأفعلن بكم.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: أعطيناكم الدولة. ويقال: الرجعة عليهم قوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ

(١) ملك الكرافيين أغار على العرب ـ انظر تاريخ الطبري ١/٥٥٨ باب ذكر خبر غزو بختنصر للعرب.

﴿وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ يعني: أكثر رجالاً وعدداً. وقال القتبي: أصله من نفر ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، والنفير والنافر مثل القدير والقادر. قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ﴾ يقول: إن وحدتم الله وأطعتموه ﴿أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: يثاب لكم الجنة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أي: أشركتم بالله ﴿فَلَهَا﴾، ويقال: في الآية مضمر ومعناه. وإن أسأتم فلها رب يغفر لها ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: آخر الفسادين ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أخذ من السوء أي: بعثناهم إليكم ليقبحوا وجوهكم بالقتل والسبي. قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر «لِيَسُوءَ» بالياء وفتح الهمزة يعني: الوعد، ويقال: يعني: الملك سلط عليهم. وقرأ الكسائي «لَنَسُوءَ» بالنون ونصب الواو فيكون الفعل لله تعالى. وقرأ الباقون «لَيَسوُّوا» بالياء(١) وضم الهمزة بلفظ الجماعة يعني: إن القوم يفعلون ذلك ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: بيت المقدس ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ يقول: وليخربوا ما ظهروا عليه تخريباً. وقال الكلبي: أي ليدمروا وليخربوا ما علوا. أي: ما ظهروا عليه تتبيراً أي: إهلاكاً. وقال الزجاج: يقال لكل شيء متكسر من الحديد والذهب والفضة والزجاج تبر، ومعنى ما علوا أي: وليدمروا في حال علوهم. قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد هذين الموتين. فرحمهم وعادوا إلى ما كانوا عليه وبعث فيهم الأنبياء وكانوا رحمة لهم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي: إن عدتم إلى المعصية عدنا إليكم بالعذاب، ويقال: إن عدتم إلى تكذيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كذبتم سائر الأنبياء عدنا. يعني: سلطناه عليكم فيعاقبكم بالقتل والجزية في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي: سجناً ومحبساً، قال الحسن: أي سجناً وقال قتادة أي: وحبساً يحبسون فيها وقال مقاتل: أي: محبساً يحبسون فيها ولا يخرجون أبداً كقوله: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا) ويقال: هذا فعيل بمعنى فاعل. وقال الزجاج: حصيراً أي: حبيساً، أخذ من قوله: حصرت الرجل إذا حبسته وهو محصور. والحصير المنسوج. وإنما سمي حصيراً لأنه حصرت طاقاته بعضها فوق بعض.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: يدعو ويدل ويرشد إلى التي هي أقوم وهو توحيد الله تعالى وهو «شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان برسله والعمل بطاعته، هذه صفة الحال التي هي أقوم ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: القرآن بشارة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ في الجنة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي: هيئنا لهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: وجيعاً. قرأ حمزة والكسائي(٢) «وَيَبْشُرُ» بنصب الياء وجزم الباء والتخفيف وقرأ الباقون «وَيُبَشِّرُ» بضم الياء والتشديد قوله: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ وأصله في اللغة: ويدعو بالواو. إلا أنه حذف الواو في الكتابة لأن الضمة تقوم مقامه. مثل قوله: (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) وأصله: سندعو، أي: يدعو الإنسان باللعن على نفسه وأهله وولده وماله وخدمه ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾

---

(١) انظر النشر ٢/٣٠٦، حجة القراءات ٣٩٧.

(٢) تقدم وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢/١٩٤.

أي: دعاءه بالرزق والعافية والرحمة وما يستجاب له، فلو استجيب له إذا دعاه باللعن كما يستجاب له بالخير هلك. ويقال: نزلت في النضر بن الحارث حيث قال: «فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ» ﴿وَكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً﴾ يستعجل. يعني: إن آدم عجل بالقيام قبل أن يتم فيه الروح. وكذلك النضر بن الحارث يستعجل بالدعاء على نفسه ويستعجل بالعذاب، ويروي الحكم عن إبراهيم عن سلمان[1] أنه قال: لما خلق الله تعالى آدم بدأ بأعلاه قبل أسفله فجعل آدم ينظر وهو يخلق فلما كان بعد العصر قال: يا رب عجل قبل الليل فذلك قوله: وكان الإنسان عجولاً. قال ابن عباس: لما جعل فيه الروح فإذا جاوز عن نصفه أراد أن يقوم فسقط فقيل له لا تعجل فذلك قوله: «وَكَانَ الإنْسَانُ عَجُولاً» قوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارِ آيَتَيْنِ﴾ يعني: خلقنا الشمس والقمر علامتين يدلان على أن خالقهما واحد. ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ يعني: ضوء القمر وهو السواد الذي في جوف القمر. وقال محمد بن كعب[2]: كانت شمس بالليل وشمس بالنهار فمحيت شمس الليل. وقال ابن عباس: كان في الزمان الأول لا يعرف الليل من النهار فبعث الله جبريل فمسح جناحه بالقمر فذهب ضوؤه وبقي علامة جناحه وهو السواد الذي في القمر، فذلك قوله: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: وتركنا علامة النهار مضيئة مبينة ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: لكي تطلبوا رزقاً من ربكم في النهار ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي: حساب الشهور والأيام ﴿وَكَلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي: بيناه في القرآن.

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال ابن عباس:[3] أي: خيره وشره مكتوب عليه لا يفارقه، وقال قتادة: سعادته وشقاوته. قال الفقيه: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا يزيد بن ربيع عن يونس عن الحسن قال في قوله (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه): طائره عمله وإليه هداه أمِّيًّا كان أو غير أمي، وروى الحكم[4] عن مجاهد أنه قال: ما من مولود إلا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد وقال الضحاك[5]: طائره في عنقه الشقاوة والسعادة والأجل والرزق ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يُلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ أي مفتوحاً. قرأ ابن عامر[6] «يُلَقَّاهُ» بضم الياء وتشديد القاف يعني: يعطاه والباقون «يَلْقَاهُ» أي: يراه. وقوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: شاهداً. ويقال: محاسباً. لما ترى فيه كل حسنة وسيئة محصاة عليك. قال ابن عباس: فإن كان مؤمناً أعطي كتابه بيمينه وهي: صحيفة يقرأ سيئاته في باطنها وحسناته في ظاهرها فيجد فيها عملتَ كذا وكذا وصنعتَ كذا وكذا وقلتَ كذا وكذا في سنة كذا وكذا في شهر كذا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٦ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن عساكر.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن داود في كتاب القدر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٦٧ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٦) النشر ٢/٣٠٦، حجة القراءات ٣٩٨.

وكذا وفي يوم كذا وكذا وفي ساعة كذا وكذا وفي مكان كذا وكذا، فإذا انتهى إلى أسفلها قيل له: قد غفرها الله لك اقرأ ما في ظهرها فيقرأ حسناته فيسره ما يرى فيها ويشرق لونه، عند ذلك يقول «هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ». قال ويعطى الكافر بشماله ويقرأ حسناته في باطنها وسيئاته في ظاهرها، فإذا انتهى إلى آخره قيل له هذه حسناتك قد ردت عليك، اقرأ ما في ظهرها فيرى فيها سيئاته قد حفظت عليه كل صغيرة وكبيرة فيسوءه ذلك ويسود وجهه وتزرق عيناه ويقول عند ذلك «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ» وهو قوله (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) أي: حفيظاً. وقال مقاتل: وذلك حين جحد فختم على لسانه وتكلمت جوارحه فشهدت جوارحه على نفسه وذلك قوله: «كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» أي: شهيداً. فلا شاهد عليك أفضل من نفسك قوله: ﴿مَنِ اهْتَدَى﴾ (يعني من اجتهد حتى اهتدى) ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ يعني: فثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي: ومن تغافل حتى ضل ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إثمه على نفسه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تؤاخذ نفس بذنب نفس أخرى ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ حجة عليهم مع علمه أنهم لا يطيعون وينذرهم ما هم عليه من المعصية فإن أجابوا وإلّا عذبوا.

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ يعني: أهل قرية ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أكثرنا جبابرتها، يقال: أَمَرَ إِذَا أكثر وآمَرَ أيضاً. هما لغتان. وروي عن زينب بنت جحش أنها قالت: دخل علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول: ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا وحلق إبهامه بالتي تليها. قالت: قلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث. ويقال: أَمَرَ وآمر مثل فعل وأفعل يعني: أكثر. ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم: خير المال مهرة مأمورة أي: خيل كثير النتاج قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ونافع في إحدى الروايتين وابن كثير في إحدى الروايتين «أَمَّرْنَا» بالتشديد بغير مد، وفي إحدى الروايتين عن ابن كثير ونافع «آمَرْنَا» بالمد والتخفيف. وقرأ الباقون بالتخفيف بغير مد. فمن قرأ بالتشديد فمعناه: سلطنا جبابرتها، ومن قرأ بالمد يعني: أكثرنا جبابرتها. ومن قرأ بالتخفيف له معنيان: أحدهما: أكثرنا جبابرتها وأشرافها، ومعنى آخر: أمرناهم بالطاعة وخذلناهم حتى تركوا الأمر وعصوا الله تعالى ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي: عصوا فيها ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليها السخط بالعذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ أي: أهلكناها بالعذاب إهلاكاً. قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ يعني: إن الله تعالى عالم بذنوبهم قادر على أخذهم ومجازاتهم، فيه تهديد لهذه الأمة لكي يطيعوا الله تعالى ولا يعصوه فيصيبهم مثل ما أصابهم، قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: من كان يريد بعمله الذي افترض الله عليه ثواب الدنيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ﴾ أي: أعطينا له ﴿فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من عرض الدنيا ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن نهلكه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: أوجبنا له جهنم ﴿يَصْلَاهَا﴾ أي: يدخلها ﴿مَذْمُوماً﴾ ملوماً في عمله ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مطروداً مقصيًّاً من كل خير قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ من المؤمنين بعمله الذي افترض الله عليه ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ يعني: عمل للآخرة عملها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ

﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ يعني: عملهم مقبولاً ويقال: معناه: من كان غرضه وقصده وعزمه الدنيا وحطامها وزهرتها عجلنا له فيها أي للمزيد في الدنيا ما نشاء لمن نريد يعني لمن نريد أن نعطيه بإرادتنا لا بإرادته ومن كان قصده وعزمه الآخرة فنعطي له ما نريد من الآخرة.

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: كلا الفريقين من المؤمنين والكافرين نعطي هؤلاء من أهل المعصية ﴿وَهَؤُلَاءِ﴾ من أهل الطاعة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: من رزق ربك. وقال الحسن[1]: كلًّا نمد. نعطي من الدنيا البر والفاجر ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ يعني: محبوساً عن البر والفاجر في الدنيا. ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ في الدنيا بالمال ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ يقول: ولفضائل الآخرة أرفع درجات مما فضلوا في الدنيا ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي: وأرفع في الثواب. وقال الضحاك[2]: «وَلَلا ﹶ ﹺرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ» في الجنة، الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه والأسفل لا يرى أن فوقه أحداً. وقال مقاتل: فضل المؤمنين في الآخرة على الكفار أكبر من فضل الكفار على المؤمنين في المال في الدنيا، وقال بعض الحكماء: إذا أردت هذه الدرجات وهذا التفضيل فاستعمل هذه الخصال التي ذُكِرَ في هذه الآيات إلى قوله «عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً». وروي عن ابن عباس أنه قال: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح موسى عليه السلام حيث كتب الله له فيها، أنزلها الله تعالى على نبيه محمد عليه السلام وهي كلها في التوحيد وهي في الكتب كلها موجودة لم تنسخ قط وهو قوله تعالى ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً﴾ يعني: تبقى شقياً مذموماً يذمك الله ويذمك الناس بفعلك ﴿مَخْذُولاً﴾ يعني: يخذلك الذي تعبده. ويقال: فتبقى في النار يذمك الله ويذمك الناس وتذم نفسك مخذولاً أي: يخذلك معبودك ولا ينصرك. قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ يعني: أمر ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي أمر ربك لا تطيعوا أحداً إلا إياه، يعني: إلا الله تعالى يعني: لا تطيعوا أحداً في المعصية وتطيعوا الله في الطاعة، ويقال لا توحدوا إلا الله. وفي قراءة ابن مسعود وَوَصَّى رَبُّكَ ألا تطيعوا إلَّا إِيَّاهُ ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي: أمر بالإحسان إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي[3] «إِمَّا يَبْلُغَانِ» بلفظ التثنية لأنه سبق ذكر الوالدين. وقرأ الباقون «يَبْلُغَنَّ» بلفظ الوحدان. لأنه انصرف إلى قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ يعني: إن بلغ الكبر أحدهما ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ يعني: إن بلغ أحد الأبوين عندك الهرم أو كلا الأبوين ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تقذرهما ولا تقل لهما قولاً رديئاً عند خروج الغائط منهما إذا احتاجا إلى معالجتهما عند ذلك. قال الفقيه: حدثنا أبو عبد الرحمن بن محمد قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا أصرم عن عيسى بن عبد الله الأشعري عن زيد بن علي بن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٧٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي نعيم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٧٠ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر النشر ٢/ ٣٠٦، حجة القراءات ٣٩٩.

الحسين عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أفٍ لحرمه فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. . . وقال مجاهد[1]: إذا كبرا فلا تأف لهما لأنهما قد رأيا منك مثل ذلك. وقال القتبي: أُفٍ بكسر وفتح وبضم وهو ما غلظ من الكلام يعني: لا تستثقل شيئاً من أمورهما ولا تغلظ لهما القول. قرأ ابن كثير وابن عامر[2] بنصب الفاء، وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص أُفٍّ بكسر الفاء مع التنوين وقرأ الباقون أفِّ بكسر الفاء بغير تنوين ومعنى ذلك كله واحد. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يعني: لا تغلظ عليهما بالقول ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ أي ليناً حسناً.

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: كن ذليلاً رحيماً عليهما. وروى هشام عن عروة عن أبيه في قوله: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) قال: كن لهما ذليلاً ولا تمتنع من شيء أحباه. وقال عطاء: جناحك يعني: يداك لا ينبغي أن ترفع يدك على والديك ولا ينبغي لك أن تحد بصرك إليهما تغيظاً. وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إذا دعاك أبواك وأنت في الصلاة فأجب أمك ولا تجب أباك. وعن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لو كان جريج الراهب فقيهاً لعلم أن إجابة أمه أفضل من صلاته.

قال الفقيه أبو الليث ـ رضي الله عنه ـ لأن في ذلك الوقت كان الكلام الذي تحتاج إليه مباحاً في الصلاة. وكذلك في أول شريعتنا ثم نسخ الكلام في الصلاة فلا يجوز أن يجيبها إلا إذا علم أنه وقع لها أمر مهم فيجوز له أن يقطع ثم يستقبل. ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: عند معالجتك إياهما في الكبر. ويقال: معناه: رب اجعل رحمتهما في قلبي حتى أربيهما في كبرهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ أي: كما عالجاني في صغري، ويقال: معناه: ادع لهما بالرحمة بعد موتهما أي: كن باراً بهما في حياتهما وادع لهما بعد موتهما. ثم قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من اللين لهما ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي بارين بالوالدين محسنين إليهما ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ أي: للراجعين من الذنوب إلى طاعة الله تعالى. ويقال: في الآية مضمر ومعناه: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ» فإن لم تكونوا صالحين فارجعوا إلى الله وتوبوا إليه تعالى. وقال مجاهد: الأواب الذي يذكر ذنوبه في الخلوة ويستغفر منها. وقال سعيد[3] بن جبير الأواب: الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وقال الحسن الأواب: الذي يقبل إلى الله بقلبه وعمله. وقال السدي الأواب: المحسن وقال القتبي: الأواب: التائب مرة بعد مرة من قولك آب يؤوب. ويقال: الأواب: الذي يصلي بين المغرب والعشاء. قوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أي: صلته ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ أي: اعط السائلين ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي: الضيف النازل وحقه ثلاثة أيام. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ أي: لا تنفق مالك في غير طاعة الله تعالى. وروي عن عثمان بن الأسود أنه قال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧١ وعزاه لابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٣٩٩، النشر ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

سمعت مجاهداً ونحن نطوف بالبيت ورفع رأسه إلى أبي قبيس فقال: لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً. وروى الأعمش عن الحكم عن أبي عبيد وكان ضريراً وكان عبد الله[1] بن مسعود يدنيه فجاءه يوماً فقال: من نسأل إن لم نسألك؟ فقال سل. قال فما الأواب؟ قال الرحيم قال فما التبذير؟ قال إنفاق المال في غير حقه. قال فما الماعون؟ قال: ما يعاون الناس فيما بينهم. قال فما الأمة؟ قال الذي يعلم الناس الخير.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ﴾ أي: المنفقين أموالهم في غير طاعة الله تعالى ﴿كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني أعوان الشياطين ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي: كافراً ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: عن قرابتك في الرحم وغيرهم ممن يسألك حياء منه ورحمة له ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: انتظار رزق من ربك أن يأتيك أو قدوم مال غائب عنك ترجو حضوره ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أي: هيناً ليناً. يعني: عِدْهُمْ عدة حسنة وقال مقاتل: نزلت الآية في خباب بن الأرت وبلال وعمّار ونحوهم من أصحاب الصُّفة كانوا يسألون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يجد شيئاً يعطيهم فيعرض عنهم فنزلت الآية. وقال السدي: معناه لا تعرض عن قرابتك وعن المساكين وابن السبيل ابتغاء أن تصيب مالاً «فقل لهم قولاً ميسوراً» أي قل لهم نعم وكرامة. ليس عندنا اليوم شيء فإن أتانا شيء نعرف حقكم. وقال محمد بن الحنفية كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يقول لشيء لا، فإذا سئل وأراد أن يفعل. يقول نعم وإذا لم يرد أن يفعل سكت. فكان قد علم ذلك منه قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ يقول: لا تمسك يدك في النفقة من البخل بمنزلة المغلولة يده إلى عنقه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ في الإسراف فتعطي جميع ما عندك فيجيء الآخرون ويسألونك فلا تجد ما تعطيهم. وهذا قول ابن عباس. وقال قتادة: لا تمسكها عن طاعة الله وعن حقه ولا تبسطها كل البسط يقول لا تنفقها في المعصية وفيما لا يصلح. وقال مقاتل في قوله: لا تبسطها كل البسط. أي: في العطية ولا يبقى عندك شيء فإذا سئلت لم تجد ما تعطيهم. وقال بعض الحكماء: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأمته كالوالد. ولا ينبغي للوالد أن يعطي جميع ماله لبعض ولده ويترك الآخرين فنهاه الله تعالى أن يعطي جميع ماله المسكين الواحد وأمره أن يقسم بالسوية كي لا ييأسوا منه ثم قال تعالى ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ يعني: لو أعطيت جميع مالك فتبقى مَلُوماً يلومك الناس وتلوم نفسك، مَحْسُوراً. منقطعاً عن المال فلا مال لك، والمحسور في اللغة المنقطع. وروي في الخبر[2] أن امرأة بعثت إبنها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك درعاً، فإن قال حتى يأتينا شيء فقل له إنها إذْنْ تستكسيك قميصك. فأتاه فقال له إن أمي تستكسيك درعاً فقال له: حتى يأتينا شيء. فقال: إنها تستكسيك قميصك. قال:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٧ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٨ وعزاه لابن جرير.

فنزع قميصه ودفعه إليه ولم يبق له قميص يخرج به إلى الصلاة فنزلت هذه الآية. يعني تبقى عرياناً لا تقدر أن تخرج إلى الصلاة

قال الفقيه: إذا أردت أن تعرف أن البخل قبيح فانظر إلى هذه الآية وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أعطى قميصه حتى عجز عن الخروج إلى الصلاة عاتبه الله على ذلك فبدأ بالنهي عن الإمساك فقال «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً» فنهاه أولاً عن البخل ثم نهاه عن دفع الكل وهو التبذير.

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء من كان صلاحه في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء ويقدر لمن يشاء ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ من البسط والتقتير، يعلم صلاح كل واحد من خلقه. قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: مخافة الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ أي: ذنباً عظيماً. ويقال: ظلماً عظيماً. وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال يا رسول الله ثم أي؟ قال أن تزني بحليلة جارك. قال ثم أي؟ قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قرأ ابن عامر[٢] «خَطْأً» بنصب الخاء وجزم الطاء. وقرأ ابن كثير «خِطَاءً» بكسر الخاء وفتح الطاء ومد الألف. وقرأ الباقون «خِطْأً» بكسر الخاء وجزم الطاء بغير مد. يعني: إثماً كبيراً. ويقال خَطِيءَ يَخْطَأُ خِطْأً مثل: أَثِم يأْثم إثماً. ومن قرأ بالنصب معناه: إنَّ قتلهم كان غير صواب. يقال: أَخْطَأَ يُخْطِىءُ خَطْأً وإِخْطَاءً وقرأ بعضهم بنصب الخاء والطاء وهي قراءة شاذة[٣]. ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: معصية ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس المسلك، وروى عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لا أحد أغير من الله. وبذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحد أحب إليه المدح من الله تعالى. ولذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العُذْر من الله تعالى ولذلك بعث الرسل وأنزل الكتب. ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني: إلا بإحدى ثلاث مواضع، إذا قتل أحداً فيقتص به. أو زنى وهو محصن فيرجم. أو يرتد فيقتل. ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي: سبيلاً وحجة عليه إن شاء قتله وإن شاء عفا عنه وإن شاء أخذ الدية. يعني إذا اصطلحا. وقال مجاهد: كل سلطان في القرآن فهو حجة وكل ظن في القرآن فهو يقين. ثم قال: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ يعني: لا يقتل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٧٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٠٠، النشر ٢/٣٠٧.

(٣) قال الزجاج: (خطأ) له تأويلات أحدها معناه: إن قتلهم كان غير صواب يقال أخطأ يخطىء إخطاء وخطأ) والخطأ الاسم من هذا لا المصدر وقد يكون الخطأ من (خَطِيءَ يَخْطَأُ خطأ) إذا لم يصب مثل (فَزِعَ يفزَع فَزعاً). انظر حجة القراءات ٤٠٠.

غير القاتل حمية ولا يقتل بالواحد اثنين ولا يقتل بعد ما عفا أو أخذ الدية ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ أي: معاناً من الله تعالى في كتابه. جعل الأمر إليه في القَوَدِ. قرأ حمزة والكسائي[1] «تُسْرِفْ» بالتاء على معنى المخاطبة. وقرأ الباقون بالياء

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا على وجه التجارة لينمو مال اليتيم بالأرباح أو ينمو على وجه المضاربة ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني: حتى يتم خلقه. وقال القتبي: أشد الرجل غير أشد اليتيم وإن كان لفظهما واحداً. لأن قوله تعالى: (حَتَّى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ) إنّما هو الاكتمال، وذلك ثلاثون سنة. وأشد الغلام أن يشتد خلقه وذلك ثمان عشرة سنة. وقال مقاتل: هذه الآية منسوخة بقوله: (إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ) ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ يعني: الذي بينكم وبين الله تعالى والعهد الذي بينكم وبين الناس ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلاً﴾ يعني: إن ناقض العهد يسأل عنه يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ لغيركم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العدل بلغة الروم قرأ حمزةوالكسائي وعاصم في رواية حفص[2] «بالقِسْطَاسِ» بكسر القاف والباقون بالضم وهما لغتان، يعني: الميزان ويقال: هو القبان ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: الوفاء بجميع ما أمركم الله تعالى به ونهاكم عنه خير من البخس والنقصان ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: عاقبة ومرجعاً في الآخرة ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يقول: لا تقل ما لم تعلم فتقول: علمت ولم تعلم ورأيت ولم تر. وسمعت ولم تسمع. أي: كأنك تقفو الأمور. يقال: قفوت أثره، والقائف الذي يعرف الآثار ويتبعها، ثم حذرهم فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أي: يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة فيشهدن عليه، ويقال: معناه صاحب السمع والبصر والفؤاد يسأل يوم القيامة عن السمع والبصر والفؤاد. ويقال: قوله: (ولا تقف ما ليس لك به علم) أي: لا تقل ما لم تعلم ولا تسمع اللغو ولا تنظر إلى الحرام ولا تحكم على الظن. كل أولئك كان عنه مسئولاً. يعني: عن الكلام باللسان والتسمع بالسمع والتبصر بالبصر على وجه الإخبار وهو من جوامع الكلم ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ يعني: بالتكبر والفخر ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ﴾ يعني: لن تدخل ﴿الْأَرْضَ﴾ ولن تجاوزها ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ قال القتبي: يعني: لا تقدر أن تقطعها حتى تبلغ إلى آخرها. يقال: فلان أخرق إلى الأرض من فلان إذا كان أكثر أسفاراً، ولن تبلغ الجبال طولاً يريد أنه ليس للعاجز أن يمدح نفسه ويستكبر ثم قال: ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ أي: كل ما أمرتك به ونهيتك عنه ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: ترك ذلك معصية عند الله ﴿مَكْرُوهاً﴾ أي: منكراً. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[3] «سَيِّئَةً» بنصب الهاء مع التنوين يعني: خطيئة ومعناه: ما ذكر في الآية، تركه كان

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٢، النشر ٢/٣٠٧.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٠٢، النشر ٢/٣٠٧.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٠٣، النشر ٢/٣٠٧.

معصية وسيئة. وقرأ الباقون «سَيِّئُهُ» بضم الهاء على معنى الإضافة. قال أبو عبيدة: وبهذه القراءة نقرأ، وحجته قراءة أُبيّ، كان يقرأ سَيِّئَاتِهِ على معنى الإضافة.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾
أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا
ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾

ثم قال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: مما بين الله تعالى وأمر ونهى. كان ذلك مكتوباً في اللوح وأوحى إليك ربك ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أي: بيان الحلال والحرام ﴿وَلاَ تَجْعَلْ﴾ أي: لا تقل ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ فالخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به أمته ﴿فَتُلقى﴾ أي: فتطرح ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً﴾ أي: يلومك الناس ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مقصياً من كل خير. وقال القتبي: مدحوراً أي: مبعداً، يقال: في الدعاء اللهم ادحر عني الشيطان أي: ابعده مني. ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أي: أفاختاركم بالبنين ﴿وَاتَّخَذَ﴾ لنفسه ﴿مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ في العقوبة، ويقال: قولاً منكراً قبيحاً. قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ لقد بينا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتعظوا بالقرآن، ويقال: في القرآن من كل شيء يحتاج إليه الناس، ويقال بينا في هذا القرآن من كل وعد ووعيد ليتعظوا بما في القرآن فينتهوا عن عبادة الأوثان ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ أي: القرآن لا ينفعهم إلا تباعداً عن الإيمان. قرأ حمزة والكسائي[1] «لِيَذْكُرُوا» بالتخفيف يعني: ليذكروا ما فيه، وقرأ الباقون بالتشديد لأن أصله ليتذكروا فادغم التاء في الذال وشدد. قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ قال ابن عباس: قل لأهل مكة. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾[2] من الأوثان ﴿إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً، فكانوا كهيئته. وقال قتادة أي: لعرفوا فضل ذي العرش ومزيته عليهم. ويقال: ابتغوا طريقاً للوصول إليه. وقال مقاتل: لطلبوا سبيلاً ليقهروه كفعل الملوك بعضهم مع بعض، ثم نزه نفسه عن الشريك فقال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٣، النشر ٢/٣٠٧.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿قل لو كان معه آلهة كما تقولون﴾ بالتاء ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ بالياء الحرف الأول قرؤوه بالتاء على مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم أي: ﴿قل يا محمد للذين اشركوا: لو كان معه آلهة كما تقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ ثم قال جل وعز مستأنفاً بتنزيه نفسه لا على مخاطبتهم ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ ويجوز أن تحمله على القول كأنه يقول الله جل وعز لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قل أنت يا محمد: سبحانه وتعالى عما يقولون﴾. وقرأ ابن كثير وحفص جميعاً بالياء قوله: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ خطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين يخاطبهم بما يقول المشركون ثم عطف عليه بقوله ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كما تقولن﴾ بالتاء ﴿عما تقولون﴾ بالتاء أيضاً قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿قل للذين أشركوا: لو كان معه آلهة كما تقولـون﴾ ثم عطف عليه قوله: ﴿سبحانه وتعالى عما تقولون﴾. على مخاطبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهم. وحجة التاء قوله (قبلها): ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾. انظر حجة القراءات ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

له ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون إن معه شريكاً ﴿عُلُوًّا كَبِيراً﴾ أي: بعيداً عما يقول الكفار. قوله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السموات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ من الخلق ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ما من شيء إلا يسبح بأمره وبعلمه وقال الكلبي: كل شيء ينبت يسبح، من الشجر وغير ذلك. فإذا قطع منه صار ما قطع منه ميتاً لا يسبح. وقال قتادة: كل شيء فيه الروح يسبح من شجر أو غيره. وقال السدي: ليس شيء في أصله الأول إلا وهو يسبح. وروي عن الحسن أنه قيل له: أيسبح هذا الخوان؟ قال كان يسبح في شجره. فأمَّا الآن فلا، ويقال: إذا قطع الشجر فإنه يسبح ما دام رطباً بدليل ما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مر بقبرين فقال: إنَّهما ليعذبان في القبر وما يعذبان بكبيرة فأمَّا أحدهما. كان يمشي بالنميمة وأمَّا الآخر فكان لا يستنزه عن البول. ثم أخذ جريدتين من شجرة وغرس إحداهما في قبر والأُخرى في قبر الآخر. فقال لعلهما لا يعذبان ما دامتا رطبتين. قال الحكماء: الحكمة في ذلك أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى. ويقال: معناه: ما من شيء إلا يسبح بحمده، ويقال: معناه: وإن من شيء يسبح بحمده إلا يدل على وحدانية الله تعالى ويسبحه وأن الله خالقه ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ يعني: أثر صنعه فيهم، ولكن هذا بعيد وهوخلاف أقاويل المفسرين ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾ حيث لم يجعل العقوبة لمن اتخذ معه آلهة ﴿غَفُوراً﴾ لمن تاب منهم.

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يعني: أخذت في قراءة القرآن ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ قال بعضهم: الحجاب المستور هو أن يمنعهم عن الوصول إليه. كما روي(١) أن امرأة أبي لهب جاءت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان عنده أبو بكر فدخلت فقالت لأبي بكر هجاني صاحبك، قال أبو بكر: والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت. فقال أبو بكر: أما رأتك يا رسول الله؟ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت. وقال قتادة: الحجاب المستور هو الأكنة وقال مقاتل: الحجاب هو قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ يعني: جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية حتى لا يرغبوا في الحق، ويقال: جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعني: الجن والشياطين حجاباً مستوراً فلا يصلون إليك. وقال الكلبي: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا تلى القرآن ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات. إذا قرأهن حجب عنهم. إحداهن في سورة الكهف (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) والآية الثانية في النحل (أُولئك الذين طبع الله على قلوبهم)، والثالثة في حم الجاثية (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) الآية. ثم قال ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمماً وثقلاً لا يسمعون الحق. قرأ ابن كثير كما يقولون بالياء وكذلك في قوله: «عما يقولون» وكذلك «يسبح له» الثلاثة كلها بالياء على معنى المغايبة. وقرأ حمزة والكسائي(٢) كلهن بالتاء على معنى المخاطبة ولفظ التأنيث وقرأ نافع وابن عامر الأول خاصة بالتاء والآخرين بالياء. وقرأ أبو عمرو الأوسط بالياء. واختلفوا عن عاصم في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٨٦ وعزاه لابن أبي شيبة والدارقطني في الأفراد وأبي نعيم في الدلائل.
(٢) انظر ما تقدم في الحاشية.

رواية حفص الآخر خاصة بالياء وروى أبو بكر مثل ابن عامر قوله تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ يعني: وحدانيته، قول لا إله إلا الله ﴿ولوا على أدبارهم نفوراً﴾ أي: أعرضوا تباعداً عن الإيمان. وقال القتبي: ولوا على أدبارهم هرباً. وهو مثل ما قال مقاتل وذلك حين قال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قولوا لا إله إلا الله تتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم فنفروا من ذلك. ثم قال: ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ يعني: بالقرآن ﴿إذ يستمعون إليك﴾ أي: إلى قراءتك القرآن ﴿وإذ هم نجوى﴾ يعني: يتناجون فيما بينهم ﴿إذ يقول الظالمون﴾ أي: يقول المشركون للمؤمنين ﴿إن تتبعون﴾ يعني: ما تطيعون ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾ يعني: مقلوب العقل. وذكر القتبي عن مجاهد أنه قال مسحوراً أي: مخدوعاً. لأن السحر حيلة وخديعة كقوله: (فأنى تسحرون) أي: من أين تخدعون. وذكر عن أبي عبيدة قال: السحر الرئة يقال للرجل: انتفخ سحرك إذا جبن. يعني: إن تتبعون إلا رجلاً ذا رئة أي: بشراً مثلكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أي: وصفوا لك الأمثال حيث قالوا: ساحر أو مجنون ﴿فضلوا﴾ أي: أخطأوا في المقالة فتحيروا ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي: لا يجدون مخرجاً مما قالوا لتناقض قولهم لأنهم قالوا مرة ساحر والساحر عندهم المبالغ في العلم ومرة قالوا مجنون والمجنون عندهم من هو في غاية الجهل. قال ابن الصائب: وذلك أن أبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وغيرهم كانوا يأتون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستمعون إلى حديثه فقال النضر ذات يوم ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث أصحابه ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتاه تتحركان فقال أبو جهل: هو مجنون وقال أبو لهب: بل هو كاهن وقال حويطب: بل هو شاعر فنزل (وإذا قرأت القرآن إلى قوله: قل عسى أن يكون قريباً). وقوله: ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً﴾ أي صرنا عظاماً ﴿ورفاتاً﴾ أي: تراباً ﴿أئنا لمبعوثون﴾ أي: لمجيئون ﴿خلقاً جديداً﴾ والاختلاف في قوله: أئنا في القرآن مثل ما ذكرنا في الرعد.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر، يعني: لو كنتم من الحجارة ﴿أَوْ حَدِيداً﴾ أو من الحديد ﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد[1]: حجارة أو حديداً أو ما شئتم فكونوا.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٨٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فسيعيدكم الله الذي فطركم أول مرة كما كنتم، ويقال أو خلقاً مما يكبر في صدوركم يعني: السماء والأرض والجبال. وقال الكلبي: معناه لو كنتم الموت لأماتكم. وعن الحسن وسعيد بن جبير[1] وعكرمة قالوا: أو خلقاً مما يكبر في صدوركم يعني الموت فيبعثكم كما خلقكم أول مرة قالوا لو كنا من الحجارة أو من حديد أو من الموت فمن يعيدنا؟ وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ﴾ يامحمد فيسعيدكم الله ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ أي: خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾ يهزون إليك رؤوسهم تعجباً من قولك. وقال القتبي: يعني يحركونها استهزاء بقولك. وقال الزجاج أي: سيحركون رؤسهم تحريك من يستثقله ويستبطئه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ يعنون: البعث ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ وكل ما هو آت فهو قريب، وعسى من الله واجب. قالوا يا محمد فمتى هذا القريب؟ فنزل ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يعني: إسرافيل وهي النفخة الأخيرة ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ يقول: تخرجون من قبوركم بأمره وتقصدون نحو الداعي. وقال مقاتل: يوم يدعوكم من قبوركم فتستجيبون للداعي بأمره. وذلك أن إسرافيل يقوم على صخرة بيت المقدس يدعو أهل القبور في قرن: أيتها العظام البالية واللحوم المتفرقة والعروق المتقطعة اخرجوا من قبوركم فيخرجون من قبورهم. ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: ما لبثتم في القبور إلا يسيراً قال الكلبي: وذلك أنه يرفع عنهم العذاب ما بين النفختين. وبينهما أربعون سنة فينسون العذاب فيظنون أنهم لم يلبثوا في قبورهم إلاَّ يسيراً. وروي ذلك عن ابن عباس وهذا أصح ما قيل فيه. لأن بعض المبتدعين قالوا إذا وضع الميت في قبره لا يكون عليه العذاب إلى وقت البعث فيظنون أنهم مكثوا في القبر قليلاً قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال ابن عباس كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤذيهم المشركون بمكة بالقول فشكوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل «وَقُلْ لِعِبَادِي» أي المسلمين «يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» أي: يجيبوا بجواب حسن، برد السلام بلا فحش وهذا كقوله: (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) ويقال: نزلت الآية في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سبه رجل عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمر الله تعالى بالكف عنه. ويقال: نزلت في شأن عمر رضي الله عنه كان بينه وبين كافر كلام ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوسوس ويوقع بينهم العداء لعنه الله ليفسد أمرهم ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ أي: ظاهر العداوة وهذا كقوله ؛(إنَّ الشيطان لكم عـدو فاتخذوه عدواً).

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

ثم قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي أعلم بأحوالكم وما أنتم فيـه من أذى المشركين ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فينجيكم من أهل مكة إذا صبرتم على ذلك ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيسلطهم عليكم إذا جزعتم ولم تصبروا ﴿وَمَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٨٧/٤ وعزاه لعبد الله بن أحمد وابن جرير وابن المنذر.

﴿أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يعني: مسلطاً وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، ويقال: (وما أرسلناك عليهم وكيلًا) أي: ليست المشيئة إليك في الهدى والضلالة ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: ربك عالم بأهل السموات وأهل الأرض وهو أعلم بصلاح كل واحد منهم. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ منهم من فضل الله بالكلام وهو موسى ـ عليه السلام ـ ومنهم من اتخذه خليلاً وهو إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومنهم من رفعه مكاناً علياً وهو إدريس ـ عليه السلام ـ ومنهم من اصطفاه وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ أي: كتاباً. قال مقاتل: الزبور مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا فريضة، إنما ثناء على الله تعالى. قرأ حمزة ﴿زُبُوراً﴾ بضم الزاي. وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان ومعناهما واحد. قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ قال ابن عباس: إن ناساً من خزاعة كانوا يعبدون الجن وهم يرون أنهم هم الملائكة فقال الله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ» يعني: تعبدون من دون الله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يقدرون ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ يقول: صرف السوء عنكم من الأمراض والبلاء إذا نزل بكم ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ يقول: ولا تحويله إلى غيره ما هو أهون منه ويقال: ولا يحولونه إلى غيرهم. قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدونهم ويدعونهم آلهة. قرأ ابن مسعود «تَدْعُونَ» بالتاء على معنى المخاطبة ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يقول: يطلبون إلى ربهم القربة والفضيلة والكرامة بالأعمال الصالحة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أكرم على الله تعالى وأقرب في الفضيلة والكرامة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ أي: جنته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي: ناره ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ يعني: لم يكن لأحد أمان من عذاب الله تعالى، ويقال محذوراً أي ينبغي أن يحذر منه. وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود[1] أنه قال كان ناس من الإنس يعبدون قوماً من الجن. فأسلم الجن وبقي الإنس على كفرهم. فأنزل الله «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» يعني الجن «يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» وروى السدي عن أبي صالح عن ابن عباس[2] أنه قال «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ» عيسى وعزيراً والملائكة وما عبد من دون الله وهو لله مطيع.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾

قوله ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال ابن عباس يعني نميت أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٨٩ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل. والحديث عند البخاري في التفسير (٤٧١٤) (٤٧١٥)، ومسلم في التفسير (٢٨، ٢٩، ٣٠، (٣٠٣٠)).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر.

شَدِيداً﴾ يعني بالسيف والزلازل والأمراض والخوف والغرق والحرق ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ أي: في الذكر الذي عند الله. وقال مجاهد[١]: مهلكوها أي مبيدوها أو معذبوها بالقتل والبلاء، ما من قرية في الأرض إلا سيصيبها بعض ذلك. روى حماد بن سلمة عن أبي العلاء عن مكحول أنه قال: أول أرض تصير خراباً أرض أرمينة وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال أول أرض تصير خراباً أرض الشام وروى ابن سيرين عن ابن عمر أنه قال: البصرة أسرع الأرضين خراباً وأخبثهم تراباً، وروي عن عليّ أنه قال: أكثروا الطواف بهذا البيت قبل أن يحال بينكم وبينه فكأني برجل من الحبشة خمش الساقين قاعداً عليها يهدمها حجراً حجراً. ثم قال تعالى:﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ وذلك أن قريشاً طلبوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم بآية فنزل وما منعنا. أي: ليس أحد يمنعنا أن نرسل الآيات عندما سألوها ﴿إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ يعني: تكذيب الأولين حين أتتهم الآيات فلم يؤمنوا بها، فأتاهم العذاب.

قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو العباس بن السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال: حدثنا جريرعن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن[٢] عباس قال: سأل أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجعل الصفا لهم ذهباً وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعونها فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نتخير منهم ذرية. وإن شئت أن نريهم الذي سألوا. فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من كان قبلهم. فقال: بل أستأني بهم فنزل «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون» ثم قال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: معاينة يبصرونها، ويقال: علامة لنبوته ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾أي: جحدوا بها فعقروها فعذبوا. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ لهم ليؤمنوا. فإن أبوا أتاهم العذاب قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قال الكلبي: أحاط علمه بالناس. ويقال: هم في قبضته أي: قادر عليهم. وقال قتادة[٣]: يعني: يمنعك من الناس حتى تبلغ رسالات الله تعالى. وقال السدي معناه: إن ربك مظهرك على الناس. ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا محمد بن إبراهيم بن أحمدالدبيلي، قال: حدثنا أبو عبد الله قال: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن اين عباس[٤] في قوله: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس قال هي رؤيا عين أريها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة أسري به. ﴿وَالشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ﴾ قال هي شجرة الزقوم. قال الكلبي: هي ليلة أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس فنشر له الأنبياء كلهم فصلى بهم. ثم صلى الغداة بمكة فكذبوه وهو قوله «فِتْنَةً لِلنَّاسِ» حين كذبوه. يعين أهل مكة. قال عكرمة أمَا إنَّها رؤيا يقظة ليست برؤيا منام. وقال سعيد بن المسيب أُرِي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بني أمية على المنابر فساءه ذلك فقيل له إنّما هي دنيا يعطونها فقر عينه فنزل «وَمَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٠ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٠ وعزاه لأحمد والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة. والحديث عند الإمام أحمد في المسند ٢٥٨/١ وابن جرير في التفسير ١٥/٧٤ والحاكم في المستدرك ٣٦٢/٢ والبيهقي في الدلائل ٢/٢٧١ والبزار في المسند (٢٢٢٥) كما في كشف الأستار.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩١ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩١/٤ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والحديث عند البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٨٨٨) وفي التفسير (٤٧١٦) وفي القدر (٦٦١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٣٤)، والنسائي في التفسير ٦٥٧/١.

جعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ» يعني بني أمية ثم قال: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ» يعني ذكر الشجرة الملعونة في القرآن فتنة لهم. يعني بلية لهم وذلك أن المشركين قالوا يخبرنا هذا أنَّ في النار شجرة. وكيف يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجرة فصار ذلك فتنة لهم يعني بلية لهم. ويقال لمّا نزل (إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ) قالوا فيما بينهم وما شجرة الزقوم. قالوا الثمر والزبد فرجع أبو جهل إلى منزله فقال لجاريته زقمينا وأمرها أن تأتي بالتمر والزبد فخرج به إلى الناس وقال كلوا فإن محمداً يخوفكم بهذا فصار ذكر الشجرة فتنة لهم ثم قال ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي بذكر شجرة الزقوم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ يعني: تمادياً في المعصية. قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، فتعظم عن السجود لآدم.

قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ في الآية مضمر، معناه: فلعنه الله تعالى، قال إبليس: أرأيتك هذا الذي لعنتني لأجله وفضلته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: لئن أجلتني إلى يوم البعث. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع «أَخَّرْتَنِي» بالياء عند الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء. لأن الكسرة تقوم مقامه. ثم قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي: لأستزلن ذريته، يقول اطلب زلتهم. وقال القتبي: لاستأصلنهم. يقال احتنك الجراد ما على الأرض إذا أكله كله، ويقال: هو من حنك الدابة يحنكها حنكاً. إذا شد في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. أي لأقودنهم حيث شئت ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ يعني: الأنبياء والمخلصين لله ويقال: إلّا من عصمته مني ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ﴾ أي: من أطاعك ﴿مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ يعني: نصيبكم من العذاب في النار ﴿جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ أي: نصيباً وافراً. لا يفتر عنهم. قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ يقول: استزل ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ يقول: بدعائك ووسوستك ويقال: بأصوات الغناء والمزامير ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يعني: استعن عليهم بأعوانك من مردة الشياطين (وَرَجِلِكَ) يعني: الشياطين الذين يوسوسون للناس، ويقال: خيل المشركين ورجالتهم، وكل خيل تسعى في معصية الله تعالى فهي من خيل إبليس وكل راجل يمشي في معصية الله فهو من رجالته. قرأ عاصم في رواية حفص[1] «وَرَجِلِكَ» بفتح الراء وكسر الجيم يعني: راجلك فدل الواحد على الجنس. وقرأ الباقون بجزم الجيم، وهو جمع الراجل ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ﴾ أي: ما أكل من الأموال بغير طاعة الله تعالى وما جمع من الحرام، ويقال: وشاركهم في الأموال وهو ما جعلوا من الحرث والأنعام نصيباً لآلهتهم، ويقال: كل طعام لم يذكر اسم الله عليه فللشيطان فيه شركة. قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الفقيه أبو جعفر قال: حدثنا أحمد بن حنبل قال: حدثنا سفيان بن يحيى قال: حدثنا أبو مطيع عن الربيع بن زيد عن أبي محمد وهو رجل من أصحاب أنس قال: قال إبليس لربه: يا رب جعلت لبني آدم بيوتاً فما بيتي؟ قال الحمام، قال وجعلت لهم مجالس فما مجلسي؟ قال السوق، قال وجعلت لهم قرآناً فما قرآني؟ قال الشعر، قال وجعلت لهم حديثاً فما حديثي: قال: الكذب، قال:

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٥، النشر ٢/٣٠٨.

وجعلت لهم أذانا فما أذاني؟ قال المزمار، قال وجعلت لهم رسلاً فما رسلي؟ قال: الكهنة، قال: وجعلت لهم كتاباً فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: وجعلت لهم طعاماً فما طعامي؟ قال: كل ما لم يذكر عليه اسم الله. قال: وجعلت لهم شراباً فما شرابي؟ قال: كل مسكر، قال: وجعلت لهم مصايد فما مصايدي؟ قال: النساء. ثم قال: (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ) يعني: كل نفقة في معصية الله تعالى ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: أولاد الزنا فهذا قول مجاهد[١] وسعيد بن جبير ويقال: هو ما سموا أولادهم عبد العزى وعبد الحارث، ويقال: كل معصية بسبب الولد. ويقال إذا جامع الرجل أهله ولم يذكر اسم الله تعالى جامع معه الشيطان: ويقال: المرأة النائحة والسكرانة يجامعها الشيطان فيكون له شركة في الولد. قال الفقيه أبو الليث: هذا الكلام مجاز لا على وجه الحقيقة إنما يراد به المثل ثم قال: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ أي: باطلاً.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة. ويقال: نفاذ الأمر ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أي: كفيلاً على ما قال، ويقال: حفيظاً لهم. وقال أبو العالية: إنَّ عبادي الذي لا يطيعونك. ثم ذكر الدلائل والنعم ليطيعوه ولا يطيعوا الشيطان ثم قال: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: يسير لكم الفلك ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من رزقه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ أي رحيم بكم. ثم قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: إذا أصابكم الخوف وأهوال البحر ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: بطل من تدعون من الآلهةوتخلصون بالدعاء لله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يعني: من أهوال البحر ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: تركتم الدعاء والتضرع ورجعتم إلى عبادة الأوثان ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ أي: الكافر كفوراً بأنعم الله، ثم قال: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ﴾ إن عصيتموه ﴿ان يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ أي: يغور بكم ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ يعني: إلى الأرض السفلى. وقال مقاتل: يعني: ناحية من البر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أي: حجارة من فوقكم كما أرسل على قوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أي: مانعاً يمنعكم قوله: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: البحر ﴿تَارَةً أُخْرى﴾ يعني: مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ أي: ريحاً شديداً ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بالله وبنعمه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ أي: من يتبعنا ويطالبنا بدمائكم كقوله: (فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) أي مطالبة حسنة، ويقال: يعني: ثائراً ولا ناصراً لينتقم لكم مني. قرأ ابن كثير وأبو عمرو[٢] «أن نَخْسِفَ بكم» «أَوْ نُرْسِلَ» «أنْ نُعيدَكُمْ» «فَنُرْسِلَ عَلَيْكُم» «فَنُغْرِقَكُمْ» هذه الخمسة كلها بالنون وقرأ الباقون كلها بالياء.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٠٦، النشر ٢/٣٠٨.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بعقولهم وقال الضحاك: بالعقل والتمييز، ويقال: إن الله تعالى خلق نبات الأرض والأشجار وجعل فيها الروح لأنه ينمو ويزداد بنفسه ما دام فيه الروح، فإذا يبس خرج منه الروح وانقطع نماؤه وزيادته، وخلق الدواب وجعل لهن زيادة روح تطلب بها رزقها وتسمع بها الصوت، وخلق بني آدم وجعل لهم زيادة روح يعقلون بها ويميزون ويعلمون، وخلق الأنبياء وجعل لهم زيادة روح يبصرون بها الملائكة ويأخذون بها الوحي ويعرفون أمر الآخرة. ثم قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني: في البر على الرطوبة. يعني: الدواب وفي البحر على اليبوسة وهي السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلالات، ويقال: من نبات الحبوب والفواكه والعسل وجعل رزق البهائم التبن والشوك ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ يعني: على الجن والشياطين والبهائم. وروي عن ابن عباس أنه قال: فضلوا على الخلائق كلهم غير طائفة من الملائكة وهم جبريل وميكاييل وإسرافيل وأشباههم منهم. وروي عن أبي هريرة أنه قال: المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده.

قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: أذكر يوم ندعو كل أناس بكتابهم، ويقال: بداعيهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، يدعى إمامهم قبلهم، وقال أبو العالية بإمامهم أي: بأعمالهم، وقال مجاهد:[1] بنبيهم، وقال الحسن: بكتابهم الذي فيه أعمالهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يعني: يقرؤون حسناتهم ويعطون ثواب حسناتهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ يعني: لا يمنعون من ثواب أعمالهم مقدار الفتيل وهو ما فتلته من الوسخ بين أصبعيك ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي: من كان في هذه النعم أعمى، يعني: لم يعلم أنها من الله ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾[2] عن حجته ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: عن حجته. قال مجاهد: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الحجة فهو في الآخرة أعمى عن الحجة وأضل سبيلاً. أي: أخطأ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: ﴿ومَنْ كان في هذه أعمِى فهو في الآخرة أعمِى﴾ بكسر الميم فيها وحجتهم أن الألف تنقلب إلى الياء إذا قلت (أعميان) فالإمالة فيها حسنة.

وقرأ الباقون: ﴿أعمَى﴾(أعمَى)، بغير إمالة وحجتهم أن الياء (فيها) قد صارت ألفاً لانفتاح ما قبلها والأصل: ﴿ومن كان في هذه أعمَيَ﴾ بفتح الياء ﴿فهو في الآخرة أعمَيُ﴾ بضم الياء فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

وكان أبو عمرو أحذقهم ففرق بين اللفظين لاختلاف المعنيين فقرأ: ﴿ومن كان في هذه أعمِى﴾ بالأمالة ﴿فهو في الآخرة أعمَى﴾ بالفتح. فجعل الأول صفة بمنزلة (أحمر وأصفر) والثاني بمنزلة (أفعل منك) أي: أعمى قلباً. قال ابن كثير: (من عمي في الدنيا ما يرى من آيات الله وعبره فهو عما لم يـر من الآخرة أعمى وأضل سبيلاً).

قال أبو عبيد: (وكان أبو عمرو يقرأ هذا الحرف على تأويل ابن كثير: ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ يعني أشد عمى وأضل سبيلاً).

وحجة من أمال هي: أن الإمالة والفتح لا يأتيان على المعاني بل الإمالة تقريب من الياء. وإن كان بمعنى (أفعل) فلا يمنع من الإمالة كما لا يمتنع (الذي هو أدنى). انظر حجة القراءات ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

طريقا. وقال قتادة(١): من كان في هذه الدنيا أعمى عمَّا عاين من نعم الله وخلقه وعجائبه فهو في الآخرة التي هي غائبة عنه ولم يرها أعمى. وقال مقاتل: فيه تقديم ومعناه: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» ومن كان عن هذه النعم أعمى فهو عما غاب عنه من أمر الآخرة أعمى. وقال الزجاج: معناه: إذا عمي في الدنيا وقد تبين له الهدى وجعل إليه التوبة فعمى عن رشده فهو في الآخرة لا يجد متاباً ولا مخلصاً مما هو فيه. فهو أشد عمىً وأضلّ سبيلاً. أي: أضل طريقاً. لأنه لا يجد طريقاً إلى الهداية فقد حصل على عمله. وذكر عن الفراء أنه قال: تأويله من كان في هذه النعم التي ذكرتها أعمى لا يعرف حقها ولا يشكر عليها وهي محسوسة فهو في الآخرة أعمى، يعني: أشد شكاً في الذي هو غائب عنه في الآخرة من الثواب والعقاب.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: وقد كادوا ليصرفونك عن الذي أوحينا إليك إن قدروا على ذلك، وذلك أن ثقيفاً أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: نحن إخوانك وأصهارك وجيرانك. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماذا تريدون؟ قالوا: نريد أن نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما هن؟ قالوا: لا ننحني في الصلاة ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا بالطاغية سنة يعني: بطاعة الأصنام سنة. فقال لهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمّا قولكم لا ننحني في الصلاة فإنه لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود. قالوا: فإنا نفعل ذلك وإن كان فيه دناءة، وأمّا قولكم إنا لا نكسر أصنامنا بأيدينا. فإنا سنأمر من يكسرها، قالوا فتمتعنا باللات سنة، فقال: إني غير ممتعكم بها قالوا يا رسول الله: فإنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكره أن يقول لا مخافة أن يأبوا الإسلام فنزل: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ» وقال السدي: إن قريشاً قالت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك ترفض آلهتنا كل الرفض فلو أنك تأتيها فتلمسها أو تبعث بعض ولدك فيمسها كان أرق لقلوبنا وأحرى أن نتبعك. فأراد أن يبعث ابنه الطاهر فيمسح فنهاه الله تعالى عن ذلك ونزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ» وروى أبو العالية عن أصحابه، منهم القرظي(٢) قال: لما قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة والنجم فبلغ (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجي. فلما بلغ السجدة سجد، وسجد معه المشركون. ثم جاء جبريل فقال ما جئتك بهذا فنزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ» إلى قوله: «وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً» فلم يزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغموماً حتى نزل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) الآية وروى سعيد بن جبير عن قتادة قال: ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه وكان في قولهم أن قالوا: يا محمد إنك تأتي بشيء لم يأت به أحد من الناس. وأنت سيدنا وابن سيدنا فما زالوا يكلمونه حتى كاد أن يقاربهم. ثم إن الله تعالى منعه وعصمه عن ذلك فقال تعالى (وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) الآية وذلك قوله (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) في القرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ يعني: لتقول أو تفعل غير الذي أمرتك في القرآن ﴿وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي: صفياً وصديقاً، ويقال: إن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

المشركين قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اطرد عن مجلسك سقاط الناس ومواليهم حتى نجلس معك فهمَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يفعل ذلك فنزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» من تقريب المسلمين «وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً» لو فعلت ما طلبوا منك.

وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ يقول: عصمناك ويقال: حفظناك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: لقد هممت أن تميل إليهم ﴿شَيْئاً قَلِيلاً﴾ وتعطي أمنيتهم شيئاً قليلاً ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي: عذاب الدنيا ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ يعني: عذاب الآخرة وهذا قول ابن عباس[1]. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ضعف الحياة عذابها أي: عذاب الدنيا، وضعف الممات أي: عذاب الآخرة. وهذا مثل الأول. ويقال: ضعف الممات أي: عذاب القبر، ويقال: هذا وعيد للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني إنك لو فعلت ذلك يضاعف لك العذاب على عذاب غيرك كما قال تعالى: (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) لأن درجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودرجة من وصفهم فوق درجة غيرهم فجعل لهم العذاب أشد. وروي عن مالك ابن دينار أنه قال: سألت أبا الشعثاء عن قوله: «ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ» فقال: ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ يقول: مانعاً يمنعك من ذلك، ويقال: مانعاً يمنع من العذاب قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ وقد كادوا ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: ليستزلونك وليخرجوك من أرض مكة ﴿وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾ أي: بعدك ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ فيهلكهم الله تعالى وروى عبد الرزاق عن معمر أنه قال: قد فعلوا ذلك فأهلكهم الله تعالى يوم بدر ولم يلبثوا بعده إلا قليلاً وقال مقاتل: وإن كادوا ليستفزونك من الأرض يعني: من أرض المدينة نزلت الآية في حيي بن أخطب وغيره من اليهود حين دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة حسدوه وقالوا: إنك لتعلم أن هذه ليست من أرض الأنبياء إنما ارض الأنبياء الشام. فإن كنت نبياً فاخرج منها فنزل «وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا» أي: من أرض المدينة إلى الشام «وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً» وأمر بالرجوع إلى المدينة.

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي: هكذا سنتي فيمن قد مضى، أن أهلك من عصوا الرسول ولم يتبعوه ولا أهلكهم ونبيهم بين أظهرهم فإذا خرج نبيهم من عندهم عذبوا ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٤ وعزاه لابن جرير.

يعني: تغييراً أو تبديلاً. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص[١]: «لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ» وقرأ الباقون: «خَلْفَكَ» ومعناهما قريب يعني: بعدك ثم قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتمم الصلاة ودم عليها ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ يعني: بعد زوالها، الظهر والعصر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ يعني: إلى دخول الليل وهي المغرب والعشاء. وروي سالم عن ابن عمر[٢] أنه قال: دلوكها زيغها بعد نصف النهار أي تزوالها. وقال قتادة: زيغها عن كبد السماء وروى ابن طاووس عن أبيه أنه قال: دلوكها غروبها وروي معمر عن الشعبي عن ابن عباس أنه قال: لدلوك الشمس حين نزول الشمس وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: دلوكها غروبها. وقال ابن مسعود غروبها. وقال القتبي: إلى غسق الليل الغسق ظلامه ثم قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الغداة، وإنَّما سميت صلاة الغداة قرآناً لأن القراءة فيها أكثر وأطول. ويقال: لأنه يقرأ كلتا الركعتين وفي كلتا الركعتين القراءة فريضة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ أي: صلاة الغداة مشهودة يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار. ويقال: كان بمعنى صار. يعني: صار مشهوداً لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الغداة فينزل ملائكة النهار والقوم في صلاة الغداة قبل أن تعرج ملائكة الليل. فإذا فرغ الإمام من صلاته عرجت ملائكة الليل فيقولون: ربنا إنا تركنا عبادك وهم يصلون لك ويقول الآخرون ربنا أدركنا عبادك وهم يصلون لك. «وقرآنَ» صار نصباً لأن معناه: أقم قرآن الفجر ويقال: صار نصباً على وجه الإغراء أي: عليك بقرآن الفجر.

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٍ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٍ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

ثم قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ يعني: قم بالليل بعد النوم، والتهجد القيام بعد النوم ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ روى شهر بن حوشب عن أبي أمامة أنه قال: كانت النافلة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة. وقال مجاهد:[٣] لم تكن النافلة إلا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ويقال: «نَافِلَةً لَكَ» أي: فضلاً لك ويقال: خاصة لك ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ قال مقاتل: يعني: إن الشفاعة لأصحاب الأعراف، يحمده الخلق كلهم، ويقال: إخراج قوم من النار. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا محمد بن معاوية الأنماطي قال: حدثنا الحسن بن الحسين عن عطية العوفي قال: حدثنا أبو حنيفة عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري[٤] قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: في قوله: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً» قال: يخرج الله أقواماً من النار من أهل الإيمان بشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذلك المقام المحمود فيؤتى بهم نهراً يقال له: الحيوان فيلقون فيه فينبتون كما ينبت التقارير ثم يخرجون فيدخلون الجنة فيسمون فيها الجهنميون. قال: ثم يطلبون إلى الله تعالى أن يذهب عنهم هذا الاسم فيذهبه عنهم، وروي عن

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٨، النشر ٢/٣٠٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٥ وعزاه لعبد الرزاق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر ومحمد بن نصر والبيهقي في الدلائل.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٨ وعزاه لابن مردويه.

حذيفة بن اليمان أنه قال: يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم المنادي فيقول: يا محمد فيقول: لبيك وسعديك والخير بيديك وهو المقام المحمود، ويغبطه به الأولون والآخرون ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي: قال هذا حين أمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة بعد ما خرج منها فأمره الله بأن يقول: حين دخل المدينة رب أدخلني مُدخل صدق أي: أدخلني في المدينة إدخال صدق ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: من المدينة إلى مكة إخراج صدق، ويقال: أدخلني في الدين مدخل صدق. أي: ثبتني على الدين وأخرجني أي: احفظني من الكفر، ويقال: أخرجني من الدنيا إخراج صدق وأدخلني في الجنة. ويقال: أدخلني بعز وشرف وإظهار الإسلام، ويقال: أدخلني في القبر مدخل صدق وأخرجني من القبر مخرج صدق. وقال مجاهد: أدخلني في النبوة والرسالة مدخل صدق، وقال الحسن: مخرج صدق من مكة إلى المدينة. ومدخل صدق الجنة. وقال السدي: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وعن أبي صالح: أدخلني في الإسلام وارفعني بالإسلام ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ يعني: من عندك ﴿سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ أي: ملكاً مانعاً لا زوال فيه ولا يرد قولي، ويقال: حجة ثابتة ظاهرة، قوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ ظهر الإسلام والقرآن ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ يقول: هلك الشرك وأهله ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ يعني: الشرك كان هالكاً. لم يكن له قرار ولا دوام. روي عن عبد الله بن الشخير عن عبد الله بن[1] مسعود أنه قال: دخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول ذلك والصنم ينكب لوجهه.

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

ثم قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ أي: بيان من العمى، ويقال: شفاء للبدن إذا قرىء على المريض يبرأ أو يهون عليه ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ونعمة من العذاب لمن آمن بالقرآن ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ أي: المشركين ما نزل من القرآن ما يزيدهم إلَّا خساراً. أي: تخسيراً وغبناً قوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ﴾ أي: إذا وسعنا على الكافر الرزق ورفعنا عنه العذاب في الدنيا ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الدعاء، ويقال: النعمة هي إرسال محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعرض عنه الكافر ﴿وَنَآى بِجَانِبِهِ﴾ يعني: تباعد عن الإيمان فلم يقربه. قرأ ابن عامر[2] «وَنَاءَ» بمد الألف على وزن باع. وقرأ أبو عمرو بنصب النون وكسر الألف. وقرأ حمزة والكسائي بكسر النون والألف. وقرأ الباقون بنصب النون والألف ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ يعني: إذا أصابه الفقر في معيشته والسقم في الجسم كان آيساً من رحمة الله تعالى ثم قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال القتبي: على خليقته

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/١٩٩ وعزاه لابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والحديث عند البخاري في المظالم (٢٤٧٨) (٤٢٨٧) وفي التفسير (٤٧٢٠)، ومسلم في الجهاد والسير (٨٧م/ ١٧٨١)، والترمذي (٣١٣٨)، والنسائي في التفسير ١/٦٦٥.

(٢) اظر حجة القراءات ٤٠٨، النشر ٢/٣٠٨.

وطبيعته وهو من الشكل. وقال الحسن على شاكلته على بنيته وكذلك قال معاوية بن قرة وقال الكلبي: على ناحيته ومنهاجه وحديثه وأمره الذي هو عليه ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ أي: بمن هو أصوب ديناً ويقال: هو عالم بمن هو على الحق. قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: لا علم لي فيه. وقال مجاهد: الروح خلق من خلق الله تعالى له أَيْدٍ وأرجل. وقال مقاتل: الروح ملك عظيم على صورة الإنسان أعظم من كل مخلوق. ورويَ معمر عن قتادة والحسن أنهما قالا الروح هو جبريل. وقال قتادة: كان ابن عباس يكتمه. أي: يجعله من المكتوم الذي لا يفسر. ورويَ الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود[١] أنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم: سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه. فقالوا يا محمد ما الروح؟ فقام متوكئاً على عسيب. فظننت أنه يوحى إليه فنزل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي» فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. ويقال: الروح القرآن كقوله: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا) وروي في بعض الروايات عن ابن عباس أنه قال: الروح ملك له مائة ألف جناح وكل جناح لو فتحه يأخذ ما بين المشرق والمغرب، ويقال: إن جميع الملائكة تكون صفاً واحداً. والروح وحده يكون صفاً واحداً كقوله: (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفاً) واحداً ويقال: معناه: يسألونك عن الروح الذي هو في الجسد كيف هو قل الروح من أمر ربي. ويقال: الروح: جبريل كقوله: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ أي: يسألونك عن إتيان جبريل. كيف نزوله عليك قل الروح من أمر ربي ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: ما اعطيتموه من العلم مما عند الله إلاّ يسيراً.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني: حفظ الذي أوحينا إليك من القرآن من قلبك، ويقال: لئن شئنا لمحونا من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ أي: لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه، ويقال: ثم لا تجد لك مانعاً يمنعني من ذلك. قوله: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: لكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين وروى أبو حازم عن أبي هريرة[٢] أنه قال: سيؤتى على كتـاب الله تعالى فيرفع إلى السماء فلا تصبح على الأرض آية من القرآن وينزع من قلوب الرجال فيصبحون ولا يدرون ما هو. وروي عن ابن مسعود أنه قال: يصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) الآية ثم قال: ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ أي: بالنبوة والإسلام قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل هذا القرآن على نظمه وإيجازه ونسقه مع كثير مما ضمن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٩/٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والحديث عند البخاري في العلم (١٢٥) وفي التفسير (٤٧٢١) وفي الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٩٧) وفي التوحيد (٧٤٥٦) ومسلم في صفات المنافقين (٣٢، ٣٣ / ٧٩٤) والترمذي (٣١٤١) والنسائي ١ / ٦٧٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٠١/٤ وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

فيه من الأحكام والحدود وفنونها، ويقال: مثل هذا القرآن من تعريه عن التناقض مع كثرة الأقاصيص والأخبار، ويقال: على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله. لأن فيه علم ما كان وعلم ما يكون ولا يعرف ذلك إلّا بالوحي، ويقال: بمثل هذا القرآن لأنه كلام منثور لا على وجه الشعر لأن تحت كل كلمة معاني كثيرة ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ أي: معيناً.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ
الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ يعني: بينا للناس ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل لون ومن من الحلال والحرام والأحكام والحدود والوعد والوعيد ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: ثباتاً على الكفر. ويقال أبوا عن الشكر إلّا كفوراً. أي كفراناً مكانه ويقال: لم يقبلوه قوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نقربك ولن نصدقك، وهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي وأصحابه قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ) ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا﴾ يعني: تشقق الماء ﴿مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ أي: عيوناً. قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي[1] «تَفْجُرَ» بنصب التاء وجزم الفاء وضم الجيم مع التخفيف وقرأ الباقون «تُفَجِّرَ» بضم التاء ونصب الفاء مع التشديد. وقال أبو عبيدة هذا أحب إليّ لأنهم اتفقوا في الذي بعده ولا فرق بينهما في اللغة، فمن قرأ بالتشديد فللتكثير والمبالغة كما يقال: قَبَّلَ تَقْبِيلاً للمبالغة ثم قال: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستاناً ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أي: الكروم ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ أي: تشقق الأنهار ﴿خِلَالَهَا﴾ يعني: وسطها ﴿تَفْجِيراً﴾ أي: تشقيقاً ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أي: قطعاً. قرأ ابن عامر وعاصم ونافع «كِسَفاً» بنصب السين. وقرأ الباقون بالجزم ومعناهما واحد أي تسقط علينا طبقاً، واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته. ومن قرأ بالنصب جعلها جمع كسفة وهي القطعة ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أي: ضميناً كفيلاً، والقبيل الكفيل. ويقال: من المقابلة أي: معاينة، شهيداً يشهدون لك بأنك نبي الله تعالى ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد إلى السماء ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لصعودك ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَءُهُ﴾ روى أسباط عن السدي أنه قال: لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة جاءه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية المخزومي أخو أم سلمة فأبى أن يبايعهما فقالت أم سلمة ما بال أخي؟ يكون أشقى الناس بك رسول الله وابن عمك. فقال: أمّا ابن عمي فإنه كان يهجونا. وأمّا أخوك فإنه زعم أنه لا يؤمن بي حتى أرقى في السماء ولو رقيت إلى السماء لن يؤمن حتى آتيه بكتاب يقرؤه ثم دعاهما فقبل منهما وبايعهما. قال الله تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٠٩، النشر ٢/٣٠٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٠، النشر ٢/٠٨.

﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ فإني لا أقدر على ما تسألوني. قرأ ابن كثير وابن عامر(١) «قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي» بالألف على وجه الحكاية. وقرأ الباقون «قُلْ سُبْحَانَ» بغير ألف على وجه الأمر.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني: القرآن ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ يعني: الرسول من الآدميين ومعناه: أنه ليست لهم حجة سوى ذلك القول. قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ أي: لو كان سكانٌ ملائكة يمشون ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: مقيمين في الأرض ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ أي: لبعثنا عليهم رسولاً من الملائكة وإنما يبعث الملك إلى الملائكة والبشر إلى البشر. فلما قال لهم ذلك قالوا: له من يشهد لك بأنك رسول الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأني رسول الله ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ ثم قال ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي: من يكرمه الله تعالى بالإسلام ويوفقه ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ يعني: فهو على الهدى وعلى الصواب. قرأ نافع وأبو عمرو «المهتدي» بالياء عند الوصل. وقرأ الباقون بغير ياء ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يخذله الله عن دينه ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم من الضلالة ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي: نبعثهم يوم القيامة ونسوقهم منكبين على وجوههم يسحبون عليها ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ عن الهدى ويقال: في ذلك الوقت يكونون عمياً وبكماً وصماً. كما وصفهم ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ يقول: كلما سكن لهبها ولم تجد شيئاً تأكله «زدناهم سعيراً». أي: وقوداً، أعيدوا خلقاً جديداً. قال مقاتل: وذلك أن النار إذا أكلتهم فلم يبق منهم شيء غير عظام وصاروا فحماً سكنت النار فهو الخبو. ثم بدلوا جلوداً غيرها فتشتعل وتسعر عليهم فذلك قوله «زِدْنَاهُمْ سَعِيراً» وقال أهل اللغة: يقال خبت النار إذا سكن لهبها وإذا بقي من جمرها شيء يقال: خمدت فإذا طفئت ولم يبق شيء قالوا همدت ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: ذلك العذاب عقوبتهم وجزاء أعمالهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ أي: تراباً ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ بعد الموت.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ

---

(١) انظر حجة القراءات ٤١٠.

فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ
وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ
فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أو لم يخبروا في القرآن ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه عند المؤمنين أنه كائن ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: أبى المشركون عن الإيمان ولم يقبلوا إلّا الكفر. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ يقول: لو تقدرون على مفاتيح رزق ربي ﴿إِذاً لأَمْسَكْتُمْ﴾ أي لبخلتم وامتنعتم عن الصدقة ﴿خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ﴾ أي: مخافة الفقر ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ أي: ممسكاً بخيلاً. قال الزجاج: هذا جواب لقولهم «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً» وقال بعضهم: هذا ابتداء، وصف بخلهم. قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: علامات واضحات مضيئات بالحجة عليهم وهاديات إذ جاءهم موسى بالبينات.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن ابن عباس(١) في قوله تسع آيات بينات: وهي في سورة الأعراف «وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ» قال: السنين لأهل البوادي ونقص الثمرات لأهل القرى، فهاتان آيتان والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهذه خمسة ويد موسى إذ أخرجها بيضاء من غير سوء وعصاه إذا ألقاها فإذا هي ثعبان مبين. قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو موسى محمد بن إسحاق وخزيمة قالا: حدثنا علي بن حزم بن حشرم قال: حدثنا عيسى بن يونس عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن صفوان(٢) بن عسال قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي فنسأله عن هذه الآيات «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» فقال: لا تقل نبي. فإنه لو سمعها صارت له أربعة أعين. فأتوه فسألوه فقال: ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تقذفوا محصناً أو قال ولا تفروا يوم الزحف ولا تمشوا ببريء إلى سلطان ليقتله. وعليكم خاصة يا معشر اليهود ألا تعدوا في السبت، فقبلا يديه ورجليه فقالوا: نشهد إنك نبي الله ورسوله فقال: وما يمنعكما أن تسلما؟ فقالا: إن داود دعا ربه ألّا يزال في ذريته نبي. فنخاف أن يقتلنا اليهود ثم قال تعالى ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: سل مؤمني أهل الكتاب عن هذه الآيات ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ يعني: حين جاءهم موسى ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ أي: مغلوب العقل. قوله: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى يا فرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الآيات قرأ الكسائي(٣) «علمتُ» بضم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٤ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٠٤ وعزاه للطيالسي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن قانع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤١، النشر ٢/٣٠٩. وحجته: ما روي عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه قال: (لقد علمتُ) قال: (والله ما علم عدو الله إنما علم موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ) وقرأها بالرفع. مسألة فإن قلت: كيف يصح الاحتجاج عليه بعلمه

التاء يعني: علمت أنا ما أنزل هؤلاء الآيات ﴿إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: إن لم تصدقوني فأنا على يقين من ذلك. وقرأ الباقون بالنصب يعني: إنك تعلم ذلك كما قال في آية أخرى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم). ﴿بَصَائِرَ﴾ أي: علامات لنبوتي. ويقال: علامات بينات ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ﴾ أي: لأعلمنك ﴿يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أي: ملعوناً هالكاً. قال الحسن: مثبوراً أي: مهلكاً. وكذا قال قتادة. وروى مجاهد عن ابن عباس[1] أنه قال: مثبوراً أي: ملعوناً وكذا روى الكلبي والضحاك.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: يستزلهم ويخرجهم. ويقال: أي: يستخفهم من الأرض يعني: من الأردن وفلسطين ومصر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين مع موسى ﴿اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ أي: انزلوا أرض الأردن وفلسطين ومصر ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أي: البعث بعد الموت ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي: جميعاً، واللفيف الجماعة من كل قبيلة ثم قال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلنا عليك جبريل بالقرآن ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بالقرآن نزل جبريل، ويقال: أنزلناه بالحق والحكمة والحجة. ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً﴾ بالجنة للمؤمنين ﴿وَنَذِيراً﴾ بالنار للكافرين. ثم قال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾ حين أنزلنا به جبريل متفرقاً آية بعد آية وسورة بعد سورة ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على ترسل وسهل ليفهموه ويحفظوه وكان ابن[2] عباس يقرأ «فَرَّقْنَاهُ» بالتشديد أي: بينا فيه الحلال والحرام. ويقال: أنزلناه متفرقاً. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ أي: بيناه تبييناً.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ

= وعلمه لا يكون حجة على فرعون إنما يكون علم فرعون ما علمه من صحة أمر موسى حجة عليه؟ فالقول فيه: إنه لما قيل له: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ كان ذلك قدحاً في علمه لأن المجنون لا يعلم فكأنه نفى ذلك ودفع عن نفسه فقال: ﴿لقد علمت صحة ما أتيتُ به علماً صحيحاً كعلم الفضلاء﴾ فصارت الحجة عليه في هذا الوجه.

وقرأ الباقون: ﴿قال لقد عَلِمْتَ﴾ بفتح التاء على المخاطبة عن موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفرعون وحجتهم في ذلك أن فرعون ومن كان تبعه قد علموا صحة أمر موسى بدلالة قوله تعالى: ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك﴾ وقوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ يعني أن فرعون كان عالماً بأن: ما أنزل هؤلاء الآيات إلا الله ولكن جحد ما كان يعرف حقيقته وهو عالم بأن الله هو ربه. انظر حجة القراءات ٤١١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٠٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٠٥ وعزاه للنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾

قوله: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ﴾ أي: صدقوا بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ يعني: أو لا تصدقوا، ومعناه: إن صدقتم به أو لم تصدقوا فإنه غني عن إيمانكم وتصديقكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: أعطوا علم كتابهم وهم مؤمنو أهل الكتاب من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: يعرض عليهم القرآن عرفوه ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يقعون على الوجه ﴿سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تنزيهاً لربنا وقال الكلبي أي نصلي لربنا ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ وقد كان وعد ربنا لمفعولاً أي: كائناً ومقدوراً. قوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يقعون على الوجوه ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ أي: تواضعاً ومذلة، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ قال الكلبي: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في بدىء ما نزل من القرآن. وقد كان أسلم ناس من اليهود منهم عبد الله بن سلام وأصحابه وكان ذكره في التوراة كثيراً. فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فنزل «قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن». قرأ حمزة والكسائي «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أوِ ادْعُوا الرحمن» بكسر اللام والواو وقرأ أبو عمرو بكسر اللام في (قُلِ ادعو). وضم الواو في «أَوُ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» وقرأ الباقون كليهما بالضم ومعناهما واحد ﴿أَيّاً مَا تَدْعُو فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني: بأي الاسمين تدعون فهو حسن فله الأسماء الحسنى) أي: له الصفات العلى. ثم قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بمكة. وكان يصلي بأصحابه وإذا رفع صوته أذاه المشركون وإذا خفض لا يسمع صوته الذين خلفه. فأنزل الله تعالى ولا تجهر بصلاتك. أي بقراءتك فيؤذيك المشركون ولا تخافت بها في جميع الصلوات، يعني: لا تسر بقراءتك فلا يسمع أصحابك قراءتك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ يقول: بين الرفع والخفض، ويقال: معناه: ولا تجهر في جميع الصلوات ولا تخافت في جميع الصلوات وابتغ بين ذلك سبيلاً. أي: اجهر في بعض الصلوات وخافت في البعض ثم قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ قال الكلبي: وذلك أنه لما نزل «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» قالت كفار قريش: كان محمد يدعو إلهاً واحداً وهو اليوم يدعو إلهين. ما نعرف الرحمن إلاّ صاحب اليمامة. مسيلمة الكذاب فنزل: (وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) يعني: ذكر الرحمن. وأمره بأن يقول: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي: لم يتخذ ولداً فيرث ملكه، ولم يكن له شريك في الملك في عظمته. وقال أبو العالية: معناه: وقل الحمد لله الذي لم يجعلني ممن يتخذ له ولداً ولم يجعلني ممن يقول له شريك في الملك ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي: من اليهود والنصارى وهم أذل خليقة الله تعالى. يؤدون الجزية، وقال مقاتل: معناه: لم يذل فيحتاج إلى ولي يعينه، أي: لم يكن له ولي ينتصر به من الذل ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أي: عظمه تعظيماً. ولا تقل له شريك. وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه أنه قال: بلغني أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله: إني رجل كثير الدين كثير الهم. فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : اقرأ آخر سورة بني إسرائيل، «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُو الرَّحْمَنَ» حتى تختمها. ثم قل توكلت على الحي الذي لا يموت ثلاث مرات.

سُورَةُ الكَهْفِ (١)

مائة وعشرة آيات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)
وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا
ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)

قوله تعالى: ﴿**الحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ يقول الشكر لله والألوهية لله ﴿**الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ**﴾ أي أنزل على عبده محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن ﴿**وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً**﴾ أي: لم ينزله متناقضاً ﴿**قَيِّماً**﴾ بل أنزله مستقيماً ويقال: في الآية تقديم ومعناه الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً أي مستقيماً ولم يجعل له عوجاً أي لم ينزله مخالفاً للتوراة والإنجيل قال أهل اللغة: «عوجاً بكسر العين في الأقوال وبنصب العين في الأشخاص» ويقال: في كلامه عوج وفي هذه الخشبة عوج ﴿**لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً**﴾ أي: لينذركم ببأس شديد كما قال «**يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** أي:

(١) سماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة الكهف. وهي مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية قال: روي عن فرقد أن أول السورة إلى قوله ﴿**جُرُزاً**﴾ نزل بالمدينة قال: والأول أصح. وقيل قوله ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم**﴾ الآيتين نزلتا بالمدينة وقيل قوله ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً**﴾ إلى آخر السورة نزل بالمدينة وكل ذلك ضعيف. افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولاً من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب. وأدمج فيه إنذار المعاندين الذين نسبوا لله ولداً وبشارة للمؤمنين وتسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أقوالهم حين تريث الوحي لما اقتضته سنة الله مع أوليائه من إظهار عتبه على الغفلة عن مراعاة الآداب الكاملة. وذكر افتتان المشركين بالحياة الدنيا وزينتها وأنها لا تُكسب النفوس تزكية. وانتقل إلى خبر أصحاب الكهف المسؤول عنه. وحذرهم من الشيطان وعداوته لبني آدم ليكونوا على حذر من كيده. وقدم لقصة ذي القرنين قصة أهم منها وهي قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ لأن كلتا القصتين تشابهتا في السفر لغرض شريف. فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض وموسى ـ عليه السلام ـ خرج في طلب العلم. وفي ذكر قصة موسى تعريض بأحبار بني إسرائيل إذ اهتموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم ونسوا خبراً من سيرة نبيهم. وتخلل ذلك مستطردات من إرشاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيته. وأن الحق فيما أخبر به وأن أصحابه الملازمين له خير من صناديد المشركين ومن الوعد والوعيد وتمثيل المؤمن والكافر وتمثيل الحياة الدنيا وانقضائها وما يعقبها من البعث والحشر والتذكير وبعواقب الأمم المكذبة للرسل وما ختمت به من إبطال الشرك ووعيد أهله ووعد المؤمنين بضدهم والتمثيل لسعة علم الله تعالى. وختمت بتقرير أن القرآن وحي من الله تعالى إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان في هذا الختام مُحسّن رد العجز على الصدر. انظر التحرير ١٥/٢٤١ ـ ٢٤٢ ـ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

بأوليائه وهذا قول القتبي» وقال الزجاج: أي: لينذرهم بالعذاب البئيس ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: من قبله ويقال: لينذر بأساً شديداً أي: يخوفهم بالعذاب الشديد بما في القرآن مِنْ لَدُنْه أي: من عنده قرأ عاصم في رواية أبي بكر: «من لدْنه بجزم الدال وقرأ الباقون بالضم ومعناهما واحد[١] ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالجنة ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فيما بينهم وبين ربهم ثم بين الذي يبشرهم به فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ في الْجَنَّةِ ﴿مَاكِثِيْنَ فِيْهِ أَبَداً﴾ أي: مقيمين في الثواب والنعيم خالداً مخلداً و «مَاكِثِينَ» منصوب على الحال في معنى خالدين ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِيْنَ قَالُوا﴾ أي: يخوف بالقرآن الذين قالوا ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ وهم المشركون والنصارى ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم بذلك القول بيان ولا حجة ﴿وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾ أي: ولا حجة لآبائهم الذين مضوا فأخبر أنهم أخذوا دينهم من آبائهم بالتقليد لا بالحجة والبيان لأنهم قالوا كان آباؤنا على هذا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عظمت الكلمة قرأ الحسن[٢] بالضم ومعناه عظمت كلمة وهي قولهم: «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ فصارت نصباً بالتفسير ﴿إِنْ يَقُولُونَ إلا كَذِباً﴾ أي: ما يقولون إلا كذباً ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي: قاتل نفسك أسفاً وحزناً﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي: على أعمالهم ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ أي: بهذا القرآن أسفاً والأسف المبالغة في الحزن والغضب وهو منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِيْنَةً لَهَا﴾ أي: ما على وجه الأرض من الرجال زينة لها أي للأرض ويقال: جعلنا ما على الأرض من النبات والأشجار والأنهار زينة لها أي: للأرض ﴿لِنَبْلُوَهُم﴾ أي: «لنختبرهم» ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي: أخلص ويقال: أيهم أخلص في الزهد في الدنيا وأترك لها ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ أي: ما على الأرض في الآخرة من شيء من الزهرة ﴿صَعِيْداً جُرُزاً﴾ أي: تراباً أملس لا نبات فيه وقال القتبي: الصعيد المستوي قال: ويقال: وجه الأرض ومنه يقال: للتراب صعيد لأنه وجه الأرض (والجرز الذي لا نبات فيه يقال: أرض جرز وسنة جرز إذا كان فيه جدوبة ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ أي: غار في الجبل ﴿والرَّقِيمِ﴾ الكتاب. وقال قتادة: دراهمهم وقال عكرمة: عن ابن عباس[٣] قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين وحنان

---

(١) قرأ أبو بكر: ﴿من لَدْنِهي﴾ بإسكان الدال وإشمام الضم وكسر النون والهاء ووصل الهاء بالياء. الأصل ﴿لَدُنْ﴾ بضم الدال ثم إنه أسكن الدال استثقالاً للضمة كما تقول ﴿عَضْدٌ﴾ فلما أسكن الدال التقى ساكنان النون والدال فكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء لمجاورة حرف مكسور ووصلها بياء كما تقول: ﴿مررت بِهِ ي يا فتى﴾ وأما إشمام الضمة في الدال (ف) ليعلم أن الأصل كان في الكلمة الضمة. ومثل ذلك (قيل وجيء) فاعرفه فإنه حسن.

وقرأ الباقون: ﴿من لدُنْهُ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء على أصل الكلمة كقوله: ﴿من لدُنْ حكيم عليم﴾. انظر حجة القراءات ٤١٢.

(٢) ابن يعمر وابن محيصن والقواس عن ابن كثير بالرفع على الفاعلية، وقرىء بسكون الباء وهي في لغة تميم انظر البحر المحيط ٦/٩٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٢ وعزاه لعبد الرزاق.

والأواه والرقيم وقال القتبي: الرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف ونصب على باب الكهف والرقيم الكتاب وهو فعيل بمعنى مفعول «وبِهِ كِتَابٌ مَرْقُومٌ» أي: مكتوب وقال الزجاج: هو اسم الجبل الذي فيه الكهف وقال كعب الأحبار: الرَّقِيمُ اسم القرية. روي عن ابن عباس: أن قريشاً اجتمعوا كان فيهم الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل السهمي وأبو جهل بن هشام وأمية وأبي أبناء خلف والأسود بن عبد المطلب وسائر قريش فبعثوا منهم خمسة رهط[١] إلى يهود يثرب أي: يهود المدينة فسألوهم عن محمد وعن أمره وصفته وأنه خرج من بين أظهرنا ويزعم أنه نبي مرسل واسمه محمد وهو فقير يتيم فلما قدموا المدينة أتوا أحبارهم وعلماءهم فوجدوهم قد اجتمعوا في عيد لهم فسألوهم عنه ووصفوا لهم صفته فقالوا لهم نجده في التوراة كما وصفتموه لنا وهذا زمانه ولكن سلوه عن ثلاث خصال فإن أخبركم بخصلتين ولم يخبركم بالثالثة فاعلموا أنه نبي فاتبعوه فإنا قد سألنا مسيلمة الكذاب عن هؤلاء فلم يدر ما هن وقد زعمتم أنه يتعلم من مسيلمة الكذاب سلوه عن أصحاب الكهف أي: قصوا عليه أمرهم وسلوه عن ذي القرنين أن كان ملكاً وكان أمره كذا وكذا وسلوه عن الروح فإن أخبركم عن قليل أو كثير فهو كاذب ففرحوا بذلك فلما رجعوا وأخبروا أبا جهل ففرح وأتوه فقال أبو جهل: إنا سائلون عن ثلاث خصال فسألوه عن ذلك فقال لهم: ارجعوا غداً أخبركم ولم يقل إن شاء الله فرجعوا ولم ينزل عليه جبريل إلى ثلاثة أيام وفي رواية الكلبي: إلى خمسة عشر يوماً وفي رواية الضحاك: إلى أربعين يوماً فجلعت قريش تقول يزعم محمد أنه يخبرنا غداً بما سألناه وقد مضى كذا وكذا يوماً فشق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أتاه جبريل فقال لجبريل لقد علمت ما سألني عنه قومي فلم أبطأت علي فقال: أنا عبد مثلك (وَمَا نتنزل إِلاَّ بأَمْرِ رَبِّكَ) وقال: «وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» وكان المشركون يقولون: إن ربه قد ودعه وأبغضه فنزل: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» ونزل: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ فلما قرأ عليهم قالوا هذان ساحران يعني محمداً وموسى عليهما السلام ولم يصدقوه وقوله: «عَجَباً» يقول: هم عجب وأمرهم أعجب وغيرهم مما خلقت أعجب منهم الشمس والقمر والجبال والسموات والأرض أعجب منهم ثم بين أمرهم فقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: صاروا إليه وجعلوه مأواهم والفتية جمع فتى غلام وغلمة وصبي وصبية ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: ثبتنا على الإسلام ﴿وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ أي: هب لنا من أمرنا مخرجاً.

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟
أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم وألقينا عليهم النوم وقال الزجاج: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ» أي: منعناهم أن يسمعوا لأن النائم إذا سمع انتبه ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ ويراد بذكر العدد: التأكيد لأن الكثير يحتاج أن يعد وإنما صار نصباً لأنه مصدر قال ابن عباس في حديث أصحاب الكهف أنه قال إن مدينة كانت بالروم ظهر عليها ملك من الملوك يقال له: دقيانوس غلب على مدينتهم وأرضهم وكانت المدينة تسمى أفسوس فجعل يدعوهم إلى عبادة الأوثان ويقتلهم على ذلك فمن كفر بالله واتبع دينه تركه فهدى الله شاباً من أهل تلك المدينة إلى دين الإسلام فجعل يدعوهم سراً حتى تابعه على ذلك سبعة أغلمة ففطن لهم الملك فأرسل إليهم وأخذهم ودفعهم إلى آبائهم

(١) الرهط ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة لسان العرب ١٧٥٣/٣.

يحفظونهم حتى يرسل إليهم من يطلبهم من آبائهم فأرسل إليهم فهربوا فقالت آباؤهم والله لقد خرجوا من عندنا بالأمس فما ندري أين هم فمروا بغلام راعي ومعه كلب له فدعوهم إلى أمرهم فأعجبه ذلك فتابعهم عليه فمضى معهم واتبعه كلبه حتى أتوا غاراً أي: كهفاً فدخلوا فيه ثم أرسلوا بعضهم إلى السوق ليشتري لهم طعاماً من السوق فركب الملك والناس معه في طلبهم وهم يسألون عنهم فسمع رسولهم بذلك فعجل أن يشتري لهم كل الذي أرادوا فاشترى بعضه وأتاهم فأخبرهم أن الملك والناس في طلبهم فأكلوا ما أتاهم به ولم يشبعوا ثم ناموا على وجوههم فضرب الله على آذانهم بالنوم سنين عدداً وسار الملك والناس معه حتى انتهوا إلى باب الكهف فوجدوا آثارهم داخلين ولم يجدوا آثارهم خارجين فدخلوا الكهف فأعمى الله عليهم فطلبوهم فلم يجدوا شيئاً فقال الملك: سدوا عليهم باب الكهف حتى يموتوا فيه فيكون قبرهم إن كانوا فيه ثم انصرف الملك والناس معه فعمد رجلان مسلمان يكتمان إيمانهما إلى لوح من رصاص فكتبا فيه أسماء الفتية وأسماء آبائهم ومدينتهم وأنهم خرجوا فراراً من دقيانوس الملك الكافر فمن ظهر عليهم يعلم بأنهم مسلمون وألْزَقَاهُ في السد من داخل الكهف وقال في رواية السدي قال في قصة أصحاب الكهف: كان في المدينة فتية ليس منهم أحد يعرف صاحبه فخرج ملكهم فخرجا له وخرج الفتية ومنهم واحد له كلب وليس منهم أحد إلا وهو يقول في نفسه إن رأيت أحداً استضعف دعوته إلى الإيمان بالله فلما رجع الناس تخلف الفتية فاجتمعوا على باب المدينة وقد أغلق الباب دونهم فطلبوا أن يدخلوا فلم يفتح لهم فقال بعضهم: إني أسر إليكم أمراً فإن تابعتموني عليه رشدتم فقص عليهم أمره فقالوا جميعاً نحن على هذا آنذاك قوله عز وجل: ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . .**﴾ الآية فصاروا إلى الكهف فدخلوه ورقدوا فيه ورقد الكلب بفناء الكهف فضرب الله على آذانهم بالنوم فلما فقدهم أهلوهم انطلقوا إلى الملك فأخبروه فدعا بصخرة فكتب فيها أسماء وكتب فيها أنهم هلكوا في زمن كذا ثم ضربها في سور المدينة على الباب وهو الرقيم وفي رواية وهب بن منبه[1] قال: جاء من حواري عيسى بن مريم عليهما السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له: إن على بابها صنماً لا يدخلها أحد إلاَّ سجد له فكره أن يدخلها وأتى حماماً كان قريباً من تلك المدينة فكان يعمل فيه يعني أنه أجر نفسه من صاحب الحمام فرأى صاحب الحمام في حمامه البركة ودر عليه الرزق واجتمع إليه فتية من أهل المدينة فكان يخبرهم بخبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه وكانوا على مثل حاله في حسن الهيأة فكانوا في ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فماتا في الحمام جميعاً فأتى الملك فقيل له صاحب الحمام قتل ابنك فالتمسه فلم يقدر عليه فقال من كان (يصحبه) فسموا الفتية فالتمسوهم فخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم في زرع له وكان على مثل أمرهم فذكروا له أنهم التمسوا فانطلق معهم ومعه الكلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه وقالوا: نبيت ها هنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله فترون رأيكم فضرب على آذانهم فخرج الملك في أصحابه يتبعونهم حتى وجدوا آثارهم وقد دخلوا الكهف فلما أراد رجل منهم أن يدخل الكهف أرب فلم يطق أحد أن يدخل عليهم فقال له قائل: ألست لو كنت قدرت عليهم قتلتهم فسد عليهم باب الكهف ودعهم حتى يموتوا عطشاً وجوعاً ففعل ذلك ثم إن راعياً احتاج أن يبني حظيرة لغنمه فهدم ذلك السد وبنى عليه لغنمه فصار باب الكهف مفتوحاً وكلما غزا تلك المدينة فظهر عليها أظهر علامته إن كان مسلماً أظهر علامة المسلمين وإن كان كافراً أظهر علامة المشركين ثم مات دقيانوس وملك ملك آخر مسلم فأظهر علامة المؤمنين بالمدينة وكان يقال له: ستفاد الملك ثم إن أصحاب الملك استيقظوا بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين فنظر واحد منهم إلى الشمس وقد دانت إلى الغروب ويقال عند زوال الشمس فقال كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم «فقال كبيرهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢١٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

لا تختلفوا فإنه لم يختلف قوم إلا هلكوا ثم قال فقال الآخرون فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً أي أحلُّ وأظهر لأنهم كانوا يذبحون الخنازير فدفعوا الدراهم إلى رجل يقال له: تمليخا فلما انتهى إلى باب الكهف رأى حجارة مكسرة على بابه فقال: إن هذا شيء ما رأيناه بالأمس فلما خرج أنكر الطريق فدنا إلى باب المدينة فلم يعرفها فلما دخل المدينة لم يعرف أحداً من الناس فأشكل عليه فقال لعل هذه غير تلك المدينة فسأل إنساناً فقال: أي مدينة هذه فقال أقسوس فقال لقد أصابني شر وتغير عقلي فهذه مدينتنا ولا أعرفها ولا أعرف أحداً من أهلها فأخرج الدراهم وجاء إلى الخباز ودفعها إليه فأخذ الخباز الدراهم فأنكرها وقال من أين لك هذه الدراهم لقد وجدت كنزاً لتخبرني وإلا دفعتك إلى الملك وكان ملك يحدث بعد آخر يضرب دراهم على سكته وختمه فمن وجد معه دراهم غير تلك الدراهم علم أنه كنز فلما وجدوا معه تلك الدراهم قالوا هذا كنز فقال هذه الدراهم ما أخرجت من المدينة إلا أمس فظن الخباز أنه يتجانن عليه ليرسله فقال له: لقد علمت أنك تتجانن علي لا أرسلك حتى تعطيني من هذا الكنز وإلا دفعتك إلى الملك اجتمع الناس عليه وذهبوا به إلى الملك فجعل تمليخا يبكي خوفاً من الملك وأن يرفع إلى ملكهم الجبار الذي فرضه الذي أدخل على غيره سكن. فقال له الملك: من أين لك هذه الدراهم فقال خرجت بها عشية أمس أنا وأصحاب لي فراراً من دقيانوس الملك فقال إنك رجل شاب وذلك الملك قد مضى عليه دهر طويل فما أنا بالذي أرسلك حتى تخبرني من أين لك هذه الدراهم فقص عليه أمره وأمر أصحابه فقال أُناسٌ من المسلمين قد أخبروا بقصتهم أن آباءنا أخبرونا أن فتية قد خرجوا بدينهم وهم مسلمون فراراً من دقيانوس الملك وإنا والله لا ندري ولعله صادق فأركب وأنظر لعله شيء أراد الله أن يظهرك عليه أو يكون في ولا يفك فركب الملك وركب معه الناس المسلم والكافر حتى انتهوا إلى الكهف فلما رأى أصحابه الناس قد انتهوا إليهم عانق بعضهم بعضاً يبكون ولا يشكون إلا أنه الملك الجبار الكافر فقال لهم تمليخا: امكثوا حتى أدخل أولاً فدخل عليهم فأخبرهم بالقصة قال ابن عباس في رواية أبي صالح: دخل عليهم الملك والناس فسألوهم عن أمرهم فقصوا عليهم قصتهم فنظروا فإذا اللوح الرصاص الذي كتبه المسلمان فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم فقال الملك: هم قوم هلكوا في زمن دقيانوس وأحياهم الله في زماني فلم يبق أحد من الكفار مع الملك إلا أسلموا كلهم إذا رأوهم فبينما هم يتحدثون إذ ماتوا كلهم وقال في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إن القوم لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتى أدخل على أصحابي لا تهجموا عليهم فيفزعوا منكم فدخل فعمي عليهم المكان فلم يدروا أين ذهب ولم يقدروا على الدخول عليهم فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ فجعلوا عليهم مسجداً وصاروا يصلون فيه فذلك قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ يعني: أي الفريقين المسلم والكافر ﴿أحصى﴾ أي: احفظ ﴿لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ يعني: لما مكثوا أجلاً وكان المسلمان كتبا في اللوح فظهر لهم مقدار ما لبثوا فيه ولم يعلم الكفار مقدار ذلك ويقال: أي الحزبين يعني الذين كانوا مؤمنين قبل ذلك والذين أسلموا في ذلك الوقت ويقال أي الفريقين أصدق قولاً لأنهم قد اختلفوا في البعث منهم من كان ينكر ذلك فظهر لهم أن البعث حق ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ﴾ أي: ننزل عليك في القرآن خبر الفتية ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: صدقوا بتوحيد ربهم ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي: يقيناً وبصيرة في أمر دينهم.

وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى
الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا
طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ
ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: حفظنا قلوبهم على الإيمان. وقيل ألهمناهم الصبر حتى ثبتوا على دينهم ﴿إِذْ قَامُوا﴾ من نومهم ويقال: قاموا بإثبات الحجة ويقال: خرجوا من عند الملك ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً﴾ أي: لم نقل من دون الله رباً وإن فعلنا ﴿فقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي: كذباً وجوراً ويقال: شططاً أي: علواً يقال: قد أشط إذا عـلا في القول أي: جاوز الحد ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا﴾ أي: عبدوا ﴿مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ يعني: (هلا يأتون بحجة بينة على عبادة آلهتهم) قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أن له شريكاً ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ يقول بعضهم لبعض: لو تركتموهم وما يعبدون إلا الله يعني: لو تركتم ما يعبدون ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ويقال: لو اعتزلتم عبادتهم إلا الله يعني: قولهم الله خالقنا ويقال ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ هذا قولهم ثم قال حكاية عن قولهم: فقالَ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ يعني: أصحاب الكهف ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: فارجعوا إلى الكهف ويقال: فادخلوا الكهف ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: يهب لكم ربكم من نعمته ويقال: يبسط لكم من رزقه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾ أي: يجعل لكم من أمركم الذي وقعتم فيه ما يرفق بكم ويصلحكم ويقال: مخرجاً ونجاة ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ أي: تميل وتنحرف عن كهفهم ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ أي: تجاوزهم ويقال: تتركهم وتمر بهم وأصل القرض القطع ومنه سمي المقراض ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: شمال الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في ناحية من الغار ويقال في متسع منه فأخبر أنه بوأهم كهفاً مستقبلاً بنات نعش والشمس تميل عنه وتستدير طالعة وغاربة ولا تدخل عليهم فتؤذيهم ولا يلحقهم سمومها فيغير ألوانهم وأبدانهم وكانوا في متسع منه ينالهم نسيم الريح وينفس عنهم غمة الغار وكربه الغمة الهواء العفن ويجوز الرفع النصب ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ذلك الخبر والذكر ويقال ذلك الذي فعل بهم واختار لهم المكان الموافق من عجائب الله ولطفه وكرمه ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي من يوفقه الله للهدى فهو المهتدي ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ أي: موفقاً يرشده إلى التوحيد قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر[١] (مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفِقاً) بنصب الميم وكسر الفاء والباقون بكسر الميم ونصب الفاء (مِرْفَقاً) ومعناهما واحد وهوما يرتفق به وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[٢] (تَزَّاوَرُ) بتشديد الزاي مع الألف لأن أصله تتزاور أي: تميل فأدغم وشدد الزاي وقرأ ابن عامر (تَزْوَرُّ) بجزم الزاي وتشديد الراء ومعنى ذلك كله واحد وهو الميل (ويجوز الرفع والنصب).

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ

---

(١) انظر حجة القراءات ٤١٢، النشر ٢/٣١٠.

(٢) انظر حجة القراءات ٤١٣، النشر ٢/٣١٠.

بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم
بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ
أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ**﴾ لأن عيونهم مفتحة ويقال: من كثرة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴿**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام كان يقلبهم في كل سنة مرة لكيلا تأكل الأرض لحومهم وهو قول ابن عباس وقال مجاهد(١): مكثوا ثلاثمائة عام على شق واحد وقلبوا في التسع سنين ﴿**وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**﴾ أي: مَاداً ذراعيه بفناء الباب ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً**﴾ أي: لو هجمت عليهم اليوم لأدبرت فراراً من هيئتهم وروى سعيد بن جابر عن ابن عباس أنه قال: غزا معاوية غزوة نحو الروم فمروا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف لو كشفنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال ابن عباس قد منع الله ذلك عمن هو خير منك يعني: قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً) ﴿**وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً**﴾ فقال معاوية لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث ناساً فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف فلما ذهبوا ودخلوا بعث الله تعالى ريحاً فأخرجتهم ثم قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ**﴾ أي: أيقظناهم من نومهم جياعاً كما رقدوا ﴿**لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ**﴾ أي: ليتحدثوا بينهم ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: كَمْ لَبِثْتُمْ**﴾ أي: كم مكثتم في نومكم ﴿**قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً**﴾ فلما رأوا الشمس قد زالت قالوا: ﴿**أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ**﴾ وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كانت دراهم أصحاب الكهف مثل أخفاف الإبل قرأ ابن كثير ونـافع(٢) (؛وَلَمُلِّئْتَ) بتشديد اللام وهي لغة لبعض العرب وقرأ الباقون(٣) بالتخفيف وهما لغتان وقرأ أبو عمرو وهمزة وعاصم في رواية أبي بكر بورقكم بجزم الراء وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان ﴿**فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً**﴾ أي: أطيب خبزاً أو أحل ذبيحة وهذا قول ابن عباس ويقال: أي أهـلها أزكى طعاماً وقال عكرمة أي: أكثر وأرخص طعاماً ﴿**فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**﴾ أي: بطعام مِنْهُ وَيُقَالُ: أَزْكَى طعاماً أي: لم يكن غصباً ولا من جهة لا تحل ﴿**وَلْيَتَلَطَّفْ**﴾ أي: وليرفق في الشراء ﴿**وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحداً**﴾ أي: لا يُعلمن بمكانكم أحداً من الناس ﴿**إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ**﴾ يعني: إن يطلعوا عليكم ﴿**يَرْجُمُوكُمْ**﴾ أي: يقتلوكم ﴿**أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً**﴾ أي: لن تفوزوا ولن تسعـدوا إذاً أبداً إن عبدتم غير الله تعالى ﴿**وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ**﴾ يقول: أطلعنا الملك عليهم قال القتبي: وأصله في اللغة أن من عثر بشيء نظر إليه حتى يعرفه فاستعير العثار مكان التبين والظهور ﴿**لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾ يعني: البعث بعد الموت وذلك أن القوم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٦ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) انظر حجة القراءات ٤١٣، النشر ٢/٣١٠.
(٣) انظر النشر ٢/٣١٠، حجة القراءات ٤١٣.

كانوا مختلفين منهم من كان مقراً بالبعث ومنهم من كان جاحداً فلما ظهر حالهم عرفوا أن البعث حق وأنه كائن ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ يعني: إذ يختلفون فيما بينهم وقال بعضهم: اختلفوا فيما بينهم هو ما ذكر بعد هذا في عددهم وقال بعضهم: اختلفوا فقال المؤمنون فيما بينهم نبني مسجداً وقالت النصارى نبني كنيسة فغلب عليهم المسلمون وبنوا المسجد فذلك قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً﴾ أي: مسجداً ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: عالم بهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ يعني: الذين كانوا على دين أصحاب الكهف وهم المؤمنون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ قال الزجاج: فيه دليل أنه ظهر أمرهم وغلب الذين أقروا بالبعث على غيرهم لأنهم اتخذوا مسجداً والمسجد يكون للمسلمين.

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال بعضهم: اختلفوا في أمرهم في ذلك الوقت ويقال: هذا الاختلاف في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر الله تعالى نبيه أنه لو سأل أهل الكتاب يختلفون عليه فسألهم فاختلفوا وذلك أن أهل نجران السيد والعاقب ومن معهما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان السيد صارماً يعقوبياً والعاقب نسطورياً وصنف منهم ملكانياً فسألهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عدة أصحاب الكهف فقال السيد وأصحابه ثلاثة رابعهم كلبهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: العاقب و صحابه ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ أي: ظناً بالغيب لا علم لهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: صنف منهم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا إخبار من الله أن عدتهم سبعة قال ابن[1] عباس وفي رواية أخرى أنه قال: أظن القوم كانوا ثلاثة قال واحد منهم كم لبثتم. فقال الثاني لبثنا يوماً أو بعض يوم فقال الثالث ربكم أعلم بما لبثتم وروي عن ابن عباس[2] أنه قال: إنهم سبعة وذكر أسماءهم فقال مكسلينا وهو أكبرهم وتمليخا ومطرونس وسارينوس ونوانس وكشطود وبيونس وبطنبور وليونس وذكر في رواية وهب أسماؤهم بخلاف هذا إلا تميلخا فقد اتفقوا على اسمه وقال ابن عباس: كان اسم الكلب قطمير وقال سعيد بن جبير: كان اسمه فرفدين ويقال: كان لونه خليج ويقال: كان لونه غلبة بالفارسية ومعناه بالعربية أبلق وقال بعض المحدثين إن كلب أهل الكهف يكون معهم في الجنة وقال بعضهم يصير تراباً مثل سائر الحيوانات وإنما الجنة للمؤمنين خاصة ثم قال عز وجل ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ قال قتادة[3] فلا تُمار يقول: حسبك ما أعلمناك من خبرهم ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي: لا تسأل عن أصحاب الكهف من النصارى أحداً ﴿وَلَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٧ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن سعد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٧ وعزاه للطبراني في الأوسط.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢١٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: إلا أن تستثني فتقول: إن شاء الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يعني: إذا نسيت الاستثناء فاذكرها بعد ما ذكرت واستثن وهذا في غير اليمين وأما في اليمين فاتفق الفقهاء من أهل الفتوى أن الاستثناء لا يكون موصولاً إلا رواية عن ابن عباس روى عنه مجاهد قال: يستثني الرجل في يمينه متى ذكر ثم قرأ (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وهذه الرواية غير مأخوذة وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (كَانَ لِسُلَيمَانَ بنِ دَاودَ مِائَةُ إمْرَأَة فَقَالَ لأَطُوفَنَّ اللَّيلَةَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعاً وَكُلُّ امْرَأَةٍ تَأْتِي بِغُلَامٍ يُقَاتِلُ فِيْ سَبِيلِ اللَّهِ وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ تَأْتِ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ بِشَيْءٍ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ أَتَتْ بِشِقِّ غُلَامٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَوُلِدَ لَهُ ذَلِكَ وَكَانَ دَرَكاً لَهُ فِيْ حَاجَتِهِ) ثم قال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي﴾ أي: يرشدني ﴿لأَقْرَبَ﴾ أي: لأسرع ﴿مِنْ هَـذَا﴾ الميعاد الذي وعدت لكم ﴿رَشَداً﴾ أي: صواباً وهذا قول مقاتل وقال الزجاج: معناه عسى ربي أن يعطيني من الآيات والدلائل على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل على قصة أصحاب الكهف قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (أَنْ يَهْدِيَنِيْ) بالياء عند الوصل وقرأ الباقون بحذف الياء.

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

﴿وَلَبِثُوا فِي كهفهم ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ قرأ حمزة والكسائي(١) ثلاثَ مائةِ بكسر الهاء بغير تنوين على معنى الإضافة وقرأ الباقون بالتنوين ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: عالم بما لبثوا في رقودهم وقال الكلبي ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِي﴾ أي: أصحاب الكهف ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحداً﴾ قرأ ابن عامر(٢) ولا تشرك بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء ومعناه أنه قد جرى ذكر علمه وقدرته وأعلم أنه لا يشرك في حكمه أحداً كما قال: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبه أَحَداً إِلَّا مَن ارْتَضَى) ومن قرأ بالتاء يقول لا تنسبن أحداً إلى عالم الغيب ومعناه أنه لا يجوز لأحد أن يحكم بين رجلين بغير حكم الله فيما حكم أو دل عليه حكم الله فليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه. ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يقول: اقرأ عليهم الذي أنزل إليك ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ يقول: لا مغير لنزول القرآن ولا خلف له ويقال: ولا ينقص منه ولا يزاد فيه ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ أي: لا ملجأ يمنعك منه ويقال ملتحداً أي مانعاً يمنعك ويقال: معدلاً وإنما سمي اللحد لحداً لأنه في ناحية ويقال: معناه: وإن زدت فيه أو نقصت منه لن تجد من عذابه ملجأ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ يقول: واحبس نفسك ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يصلون لله تعالى

(١) انظر النشر ٢/٣١٠، حجة القراءات ٤١٤.
(٢) انظر حجة القراءات ٤١٥، النشر ٢/٣١٠.

﴿بِالغَدَاة وَالعَشِيِّ﴾[1] يعني: الصلوات الخمس قال ابن عباس: نزلت الآية في سلمان وصهيب وعمار بن ياسر وخباب بن الأرت وعامر بن فهيرة ونحوهم من الفقراء قالوا بينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس ذات يوم عنده سلمان على بساط منسق بالخوص أي منسوجاً إذ دخل عليه عيينة بن حصن الفزاري فجعل يدفعه بمرفقه وينحيه حتى أخرجه من البساط وكان على سلمان شملة قد عرق فيها فقال عيينة: إنَّ لنا شرفاً فإذا دخلنا عليك فأخرج هذا واضربه فوالله إنه ليؤذيني ريحه أما يؤذيك ريحه؟ فإذا خرجنا من عندك فأدخلهم وأذن لهم بالدخول إن بدا لك أن يدخلوا عليك أو اجعل لنا مجلساً (ولهم مجلساً) فنزل (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ. . .) إلى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يطلبون رضاه ﴿وَلَا تعد عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يتجاوزهم (إلى زينة الحياة الدنيا) ويقال: لا تحتقرهم ولا تزدريهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما قال عيينة بن حصن الفزاري وأمثاله ﴿وَلَا تطع مَن أَغْفَلْنَا قَلْبه عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: عن القرآن ﴿وَاتَّبع هَوَاهُ﴾ في عبادة الأصنام ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي: ضياعاً وقال السدي: هلاكاً قال أبو عبيدة: ندماً وقال القتبي: أصله من العجلة والسبق قال المفسرون: أي: سرفاً وقال الزجاج: تفريطاً وهو العجز.

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: القرآن يعني الذي أعطاكم به الحق من ربكم وهو قول (لا إله إلا الله يعني: ادعهم إلى الحق) ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: من شاء فليقل لا إله إلا الله ويقال: معناه: من شاء الله له بالإيمان آمن ومن شاء الله له الكفر كفر ويقال فمن شاء فليؤمن من لفظه لفظ المشيئة والمراد به الأمر يعني: آمنوا ومن شاء فليكفر لفظه لفظ المشيئة والمراد به الخبر ومعناه: ومن كفر ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾ يعني: للكافرين ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُها﴾ يعني: أن دخانها محيط بالكافرين قال الكلبي، ومقاتل: يخرج عنق من النار فيحيط بهم كالحظيرة ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهلِ﴾ أي: أسودَ غليظاً كرديء الزيت وهذا قول الكلبي والسدي وابن جبير وروى عكرمة عن ابن عباس[2] مثله ويقال: هو الصفر المذاب أو النحاس

---

(١) قرأ ابن عامر: ﴿بِالغُدْوَةِ والعَشِيِّ﴾ بضم الغين.

وقرأ الباقون بالفتح. وحجتهم: أن ﴿غداة﴾ نكرة تُعرَّف بالألف واللام و ﴿غُدْوَة﴾ معرفة فلا يجوز دخول تعريف على تعريف كما لا يقال: مررت بالزيد.

وحجة ابن عامر هي أن العرب تدخل الألف واللام على المعرفة إذا جاورت ما فيه الألف ليزدوج الكلام كما قال الشاعر:

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا شديداً بأحناء الخلافة كاهلُهْ

انظر حجة القراءات ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢١ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

المذاب إذ بلغ غايته في الحر وروى الضحاك عن ابن مسعود(١): أنه أذاب فضة من بيت المال ثم بعث إلى أهل المسجد وقال من أحب أن ينظر إلى المهل فلينظر إلى هذا وقال مجاهد: (٢) المهل القيح والدم الأسود كعكر الزيت ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ يعني: إذا هوى به إلى فيه أنضج وجهه ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ المهل ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ يقول: بئس المنزل النار رفقاؤهم فيها الشياطين والكفار (وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً) أي: مجلساً وأصل الارتفاق الاتكاء على المرفق ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ أي: لا نبطل ثواب من أحسن عملاً في الآخرة ثم بين ثوابهم فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ العدن الإقامة ويقال: العدن بطنان الجنة وهي وسطها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس: ما لطف من الديباج والاسبرق ما ثخن من الديباج وقال القتبي: يقول قوم: هو فارس معرب أصله إستبرك وقال الزجاج في قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ): يجوز أن يكون خبره (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) كأنه يقول: إنا لا نضيع أجرهم ويحتمل أن يكون الجواب قوله: (اولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ) ويجوز أن يكون جوابه لم يذكر وقد بين ثواب من أحسن عملاً في موضع آخر وهو قوله (مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) وقوله: (أَسَاوِرَ) جمع أسورة واحدها سوار والأسورة جمع الجمع ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأرائِكِ﴾ أي: على السرر في الحجال ولا يكون أريكة إلا إذا اجتمعا على والحجلة(٣) ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ الجنة ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ أي: منزلاً في الجنة قُرناؤهم الأنبياء والصالحون.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ أي: صف لأهل مكة صفة رجلين أخوين من بني مخزوم أحدهما مؤمن واسمه أبو مسلمة بن عبد الأسد والآخر كافر ويقال له: أسود بن عبد الأسد وهما من هذه الأمة وآخرين أيضاً من بني إسرائيل مؤمن وكافر فالمؤمن اسمه تمليخا ويقال: يهودا والكافر اسمه أبو قطروس هكذا روي عن ابن عباس ويقال: هذا المثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر به وروي عن ابن مسعود أنه قال: كانا مشركين من بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فاقتسما فأصاب كل واحد منهما أربعين ألف درهم وروي عن ابن عباس أنه قال كانا أخوين ورث كل واحد منهما من أبيه أربعة آلاف دينار فالكافر أنفق ماله في زينة الدنيا نحو شراء المنازل والخدم والحيوان وأنفق المؤمن ماله في طاعة الله تعالى وتصدق على الفقراء والمساكين وذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: بساتين قال السدي: (٤) كان بستاناً واحداً عليه جرار واحد وكان في وسطه نهر فلذلك قال جنتين لمكان النهر الذي بينهما وسماه جنة للمكان الدائر الذي عليه ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ يعني:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢١ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢١ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) الحجلة مثل القبة. وحجلة العروس: معروفة وهي بيت يزين بالثياب والأسرَّة والستور لسان العرب ٢/٧٨٧.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٢ وعزاه لابن أبي حاتم.

الجنتين ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أي: مزرعاً يقال: كان حول البستان نخيل وأشجار وداخل الأشجار كروم وداخل الكروم موضع الزرع والرطاب[١] ونحو طلك ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أعطت وأخرجت حملها وثمارها ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لم تنقص من ثمر الجنتين شيئاً وقال الزجاج: كلتا الجنتين آتت لأن لفظ كلتا واحد والمعنى: أن كل واحدة منهما آتت أكلها يعني: أعطت (وَأَخْرَجَتْ حَمْلَهَا. وَثَمَرَتَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً) يعني: لم ينقص من ثمر الجنتين شيئاً ولو قال: أتت لكان جائزاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا﴾ أي: أجرينا وسطها ﴿نَهراً﴾ والنهر بنصب الهاء والجزم بمعنى واحد في اللغة إلا أن قراءة النصب أصح ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو عمرو[٢] (ثمر) بضم الثاء وجزم الميم وقرأ الباقون غير عاصم بضم الثاء والميم ومعناهما واحد وقرأ عاصم بنصب الثاء والميم فمن قرأ بالنصب فهو ما يخرج من الشجر ومن قرأ بالضم فهو المال يقال: قد أثمر فلان مالاً ويقال: الثمر جمع ثمار ويقال: ثمرة وثمار وجمع الثمار ثمر ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ يعني: قال الكافر للمؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يفاخره ويراجعه وذلك أن أخاه احتاج فأتاه يسأله منه شيئاً فلم يعطه شيئاً وعاتبه بدفع ماله وذلك قوله تعالى: (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ يعني: وأكثر خدماً.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن
رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ
جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ
خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا
فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ وهو آخذ بيد أخيه المسلم ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالشرك فمن كفر بالله فهو ظالم نفسه لأنه أوجب لها العذاب الدائم ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ لأن أخاه المؤمن عرض عليه الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر فأجابه الكافر (فَقَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً) يعني: لن تفنى هذه أبداً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ أي: إن كان الأمر كما يقول ورجعت إلى ربي في الآخرة ﴿لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾ في الآخرة أي: مرجعاً قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر[٣] (خَيْراً مِنْهُمَا) لأنها كناية عن الجنتين وقرأ الباقون (منها) لأنه كناية عن قوله (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ أي: أخاه المسلم ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يكلمه ويعظه في الله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ يعني: خلقك

---

(١) الرطب، بالفتح: ضِدُّ اليابس. والرَّطبُ: الناعم. والرُّطب، بالضم ساكنة الطاءِ: الكَلأ. لسان العرب ٣/١٦٦٤.
(٢) انظر حجة القراءات ٤١٦، النشر ٢/٣١٠.
(٣) انظر النشر ٢/٣١١، حجة القراءات ٤١٦.

معتدل قوله: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ قرأ ابن عامر ونافع[١] في إحدى الروايتين (لَكِنَّا) بالألف وتشديد النون لأن أصله لكن أنا فأدغم فيه وقرأ الباقون لكن وفي مصحف الإمام[٢] (لَكِنْ أَنَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) فهذا هو الأصل في اللغة ومعناه لكن أنا أقول هو الله ربي ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ يقول فهلا إذ دخلت بستانك ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ يعني: بقوة الله أعطانيها لا بقوتي وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (مَنْ أُعْطِيَ خَيْراً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ لَمْ يرَ فِيهِ مَا يَكْرَهُ) ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ يعني إن رأيتني ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً﴾ في الدنيا ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ هذه في الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ناراً من السماء وهذا قول الكلبي أيضاً ومقاتل وقال القتبي: (حُسْبَاناً) أي: مرامي واحدها حسبانة وقال الزجاج: الحسبان أصله الحساب كقوله (وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) أي: بحساب وهكذا قال هنا حسباناً أي: حساباً بما كسبت يداك وقال بعض أهل اللغة الحسبان في اللغة سهم فارق وهو ما يرقي به ثم قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ أي: فتصير تراباً أملس لا نبات فيها ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أي: غائراً يقال: غار ماؤها فلم يقدر عليه ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ أي: حِيْلَةً ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي: فأهلك جميع ماله والاختلاف في الثمر كما ذكرنا ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: يصفق يده على الأخرى ندامة ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ من المال ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة على سقوفها ﴿وَيَقُولُ﴾ في الآخرة ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحداً﴾ في الدنيا.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: جنداً وقوماً وأعواناً يمنعونه من عذاب الله ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ أي: ممتنعاً هو بنفسه قرأ حمزة والكسائي[٣] (وَلَمْ يَكُنْ) بالياء بلفظ التذكير وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث وقال الزجاج: لو قال نصره لجاز وإنما ينصره على المعنى أي: أقواماً ينصرونه ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أي: عند ذلك وهو يوم القيامة يعني السلطان والحكم لله لا ينازعه أحد في ملكه يومئذ وهذا كقوله: (وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) فمن

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) وحجة من لم يثبت الألف في الوصل: قولك (أن قلت) محذوفة الألف فإذا وقفت عليها أثبتَّ الألف فقلت (أنا) وتحذف في الوصل في أجود اللغات نحو: (أن قمت) بغير ألف. ويجوز (أنا قمت) بإثبات الألف وهو ضعيف ومن قرأ ﴿لَكِنَّا﴾ بإثبات الألف في الوصل (ف) على لغة من قال (أنا قمت) قال الشاعر:

أنا شيخ العشيرة فاعرفوني حميداً قد تذرّيتُ السّناما

فكذلك (لكنا) تحذف الألف في الوصل وتثبتها في الوقف لأنهم زادوا الألف للوقف فإذا أدرجوا القراءة طرحوها لزوال السبب الذي من أجله زادوها ومن أثبت الألف في الوصل أجرى الوصل مجرى الوقف. قال الزجاج: إثبات الألف جيد لأن الهمزة قد حذفت من (أنا) فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة. انظر حجة القراءات ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٤١٨، النشر ٢/٣١١.

قرأ الحق بكسر القاف[1] جعله نعتاً لله ومن قرأ بالضم جعله نعتاً للولاية قرأ حمزة[2] ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ﴾ بكسر الواو وضم القاف وقرأ الباقون (الوَلَايَةِ لِلَّهِ الْحَقُّ) وقال بعضهم: الولاية بالكسر والنصب لغتان وقيل بالكسر مصدر الوالي يقال: والي بين الولاية وبالنصب مصدر الولي بين الولاية ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ أي: خير من أثاب العبد ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ أي: خير من أعقب قرأ حمزة وعاصم (عُقْباً) بجزم القاف[3] وقرأ الباقون بضم القاف ومعناهما واحد وهو العاقبة فبين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا وبين حالهما في الآخرة في سورة الصافات في قوله تعالى (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ. . . .) إلى قوله (فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ) ثم قال ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: للمشركين شبه ما في الدنيا من الزينة والزهرة ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو المطر ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: اختلط الماء بالنبات لأن الماء إذا دخل في الأرض ينبت به النبات فكأنه اختلط به ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه فاختلط الماء بنبات الأرض فنبت وحسن حتى إذا بلغ أرسل الله آفة فأيبسته فصار هشيماً أي: صار يابساً متكسراً بعد حسنه قال القتبي: وأَصْلُهُ من هشمت الشيء إذا كسرته ومنه سمي الرجل هاشماً (تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) أي: ذرته الرياح كالرماد ولم يبق منه شيء فكذلك الدنيا في فنائها وزوالها تهلك إذا جاءت الآخرة وما فيها من الزهرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ أي: قادراً من البعث وغيره قرأ حمزة والكسائي الريح بلفظ الوحدان وقرأ الباقون الرياح بلفظ الجماعة.

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: غروراً لا يبقى كما لا يبقى الهشيم حين ذرته الريح وإنما يبقى في الآخرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: الصلوات الخمس هكذا روي عن أبي الهيثم ومسروق وقال مسروق: الباقيات الصالحات هي الخمس صلوات وهي الحسنات يذهبن السيئات وكذلك قال ابن أبي مليكة وروى سفيان الثوري عن منصور[4] عن مجاهد[5] في قوله: (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه (خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ وَقَالَ خُذُوا جُنَّتَكُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ عَدُوه حضرَ قَالَ لَا بَلْ مِنَ النَّارِ قَالُوا وَمَا جُنَّتُنَا مِنَ النَّارِ قَال سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ) ويقال: كل طاعة يبقى ثوابها فهي الباقيات الصالحات الصلاة والصدقة والتسبيح وجميع الطاعات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ أي: خير من هذه الزينة والغرور عند الله تعالى وخير ما يثبت الله العبد وخير أملاً أي خير ما يوصل العبد الصلاة والتسبيح أي أفضل رجاء مما يرجو الكافر لأن ثواب الكافر النار ومرجعه إلى النار ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي برفع القاف وقرأ الباقون بخفضها انظر النشر في ٢/٣١١، وحجة القراءات ٤١٩.

(٢) والكسائي أيضاً انظر حجة القراءات ٤١٨.

(٣) انظر حجة القراءات ٤١٩.

(٤) منصور بن أحمد بن إبراهيم ويقال: ابن محمد أبو نصر العراقي أستاذ كبير محقق، مؤلف، شيخ خراسان. أنظر غاية النهاية ٢/٣١١.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٤ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وابن مردويه.

﴿الْجِبَالَ﴾ أي: نزيلها عن وجه الأرض ونسيرها كما نسير السحاب كقوله: (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة من تحت الجبال ويقال بارزة أي خالية مما فيها من الكنوز والأموات كما قال (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر(١) (وَيَوْمَ تُسَيَّرُ الْجِبَالُ) بالتاء مع الضمة ونصب الياء وضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون نسير بالنون ونصب اللام كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي: لم نترك منهم أحداً ولا نخلف منهم أحداً ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً﴾ يقول: جميعاً كقوله: (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا) أي: جميعاً يقول الله تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ فرادى: عراة حفاة ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا أهل ولا مال ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي: قد قلتم في الدنيا ﴿أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ أي: لن نبعثكم في الآخرة.

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: وضع كتاب كل امرىء منهم بيمينه أو بشماله ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين والمنافقين والعاصين ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين مما في الكتاب من الإحصاء ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيلتنا﴾ يا ندامتنا ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ يعني: الزلل والكبائر ويقال تبسماً وضحكاً ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ يقول: حفظها عليهم ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الكتاب ﴿حَاضِراً﴾ من خير أو شر مكتوباً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ أي: لا ينقص من ثواب أعمالهم ولا يزيد في سيآتهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الذين كانوا في الأرض مع إبليس ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال بعضهم: كان أصله من الجن فلحق بالملائكة وجعل يتعبد معهم وقال مقاتل: كان من الجن وهو جنس من الملائكة يقال لهم: الجن روي عن ابن عباس(٢) أنه كان من الملائكة الذين هم خزان الجنان ويقال كان من الجن أي صار من الجن كقوله (فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: تعظم من طاعة ربه وخرج عن طريق ربه يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ أفتطيعونه وتتركون أمر الله ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء كقوله (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ) ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ أي: بئس ما استبدلوا عبادة الشيطان بعبادة الله ويقال: بئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان.

۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ

---

(١) انظر حجة القراءات ٤١٩، النشر ٢/٣١١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٧ وعزاه لابن جرير.

لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ
ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ
ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾

ثم قال: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: ما استعنت بهم على خلق السموات والأرض يعني إبليس وذريته ﴿وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: ولا استعنت بهم على خلق ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ أي ما كنت أتخذ الذين يضلون الناس عرفاً يعني: الشياطين ﴿عَضُداً وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ أي: لعباد الأوثان وهو يوم القيامة نادوا شركائي أي: ادعوا آلهتكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم لي شركاء ليمنعوكم مني من عذابي ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ يعني الآلهة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لهم﴾ أي: لم يجيبوهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾ قال مجاهد[1]: وادٍ في جهنم وهكذا قال مقاتل وقال القتبي: أي: مهلكاً بينهم وبين آلهتهم في جهنم ومنه يقال أوبقته ذنوبه ويقال موعداً وقال الزجاج: وجعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم أي وجعلنا بينهم وبين شركائهم الذين أضلوهم موبقاً أي مهلكاً. قرأ حمزة ويوم (نَقُولُ)[2] بالنون وقرأ الباقون بالياء ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ أي: رآها المشركون من مكان بعيد ﴿فَظَنُّوا﴾ أي: علموا واستيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أي: داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي: معدلاً ولا ملجأً ولا مفراً يرجعون إليه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بينا ﴿فِيْ هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل وجه ونوع ليتعظوا فلم يتعظوا ويقال: بينا من كل وجه يحتاجون إليه ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ من أمر الباطل يعني من أمر البعث مثل أبي بن خلف وأصحابه قال الفقيه: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن محمد الصاعد قال: حدثنا العباس بن محمد الدوري قال: حدثنا محمد بن بشر قال للحجاج بن دينار: قال عن أبي غالب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) والدليل على أن الإنسان أراد به الكافر ما قال في سياق الآية (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ . . . » الآية ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ يقول: لم يمنع المشركون أن يصدقوا ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني: الرسول والكتاب والدلائل والحجج قوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: وما منعهم من الاستغفار والرجوع عن شركهم ﴿إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: عذاب الأمم الخالية ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أي: عياناً بالسيف قرأ عاصم وحمزة والكسائي[3] (قُبُلاً) بضم القاف والباء وقرأ الباقون بكسر القاف ونصب الباء فمن قرأ بالضم فهو بمعنى فعل من قبل أي مما يقابلهم ويجوز أن يكون جمع قبيل هو أن يأتيهم العذاب أنواعاً ومن قرأ بالكسر معناه:عياناً ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ﴾ أي: للمؤمنين بالجنة ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ أي: للكافرين بالنار ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي: يخاصموا بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي: ليزيلوا ويذهبوا به ﴿الْحَقَّ﴾ ومنه يقال: (حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ إذا زالت عن الحجة وقال مقاتل: ليدحضوا به أي: ليبطلوا به الحق يعني القرآن والإسلام يعني يريدون أن يفعلوا إن قدروا عليه ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾ أي: وما خوفوا به ﴿هُزُواً﴾ أي: سخرية.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٨ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٢٠ النشر ٢/٣١١.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٢٠، النشر ٢/٣١١.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: فلا أحد أظلم ويقال: أشد في كفره ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: وعظ بالقرآن ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يقول فكذب بها ولم يؤمن بها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: نسي ذنوبه التي أسلفها ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي جعلنا أعمالهم على قلوبهم أكنة ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لكيلا يعرفوه ولا يفهموه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ أي: صمماً وثقلاً مجازاة لكفرهم ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ أي: إلى الإسلام ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا﴾ أي: لن يؤمنوا ﴿إِذاً أَبداً وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ أي: المتجاوز إن رجعوا ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: بتأخير العذاب عنهم ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: لو يعاقبهم بكفرهم ﴿لَعَجَّلَ لَهُم الْعَذَابَ﴾ في الدنيا ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ أي: أجلاً ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ أي: ملجأً يلجأون إليه ولا منجا منه ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ أي: أهلها يعني ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ يعني: القرون الماضية حين أقاموا وثبتوا على كفرهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾ أي: لهلاكهم أجلاً يهلكون فيه قرأ عاصم في رواية أبي بكر[1] (لِمَهلَكهم) بنصب الميم واللام وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الميم وكسر اللام وقرأ الباقون بضم الميم ونصب اللام ومعنى ذلك كله واحد قال الزجاج: يكون للمصدر ويجوز للوقت وإن كان مصدراً فمعناه: جعلنا لوقت هلاكهم أجلاً[2].

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ أي: لتلميذه وهو يوشع بن نون وقال أهل الكتاب إنما هو موسى بن إفراتيم ابن يوسف بن يعقوب وذكر عن القتبي أنه قال: زعم أهل التوراة أنه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقال عامة المفسرين: هو موسى بن عمران الذي هو أخي هارون قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٢١، النشر ٢/٣١١.

(٢) ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول قال الزجاج: (مَهْلِك) اسم للزمان على (هَلك يهلِك) وهذا زمن مَهْلِكه مثل جلس يجلس. فإذا أردت المصدر قلت (مَهْلَك) بفتح اللام كقولك مَجْلَس فإذا أردت المكان قلت: (مَجْلِس) بكسر اللام).

حكى سيبويه عن العرب أنهم يقولون: (أتت الناقة على مضربها) أي على وقت ضِرابها. انظر حجة القراءات ٤٢١.

أبو العباس قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو المغيرة[١] قال: حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عبيد الله بن منبه أن ابن عباس تمارى هو وقيس وجبر بن قيس الفزاري في صاحب موسى الذي سأل موسى السبيل إليه قال ابن عباس هو الخضر إذ مر أبي بن كعب فناداه ابن عباس فقال تماريت أنا وهذا في صاحب موسى فقال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بينا موسى في ملأ بني إسرائيل إذ قام إليه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك فقال لا فأوحى الله إليه بل عبدي الخضر فسأل موسى السبيل إلى لقائه فجعل الله له الحوت آية فقال إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه فكان من شأنهما ما قص الله تعالى في القرآن وروى سعيد بن جبير[٢] قال: قلت لابن عباس: إن نوف البكالي زعم أن موسى نبي بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر فقال ابن عباس كذب عدو الله أخبرنا أبي بن كعب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (قام موسى خطيباً في بني إسرائيل وذكر نحو الحديث الأول وروى أسباط عن السدي قال بلغنا أن موسى بن عمران نبي الله خطب خطبة فأبلغ فيها فدخله بعض العجب وتعجبت بنو إسرائيل لبلاغته فقالوا يا نبي الله هل تعلم أحداً أبلغ منك فأوحى الله تعالى إليه أن لي عبداً في الأرض هو أعلم منك فاطلبه قال وما علامته قال: تنطلق معك بزاد فإذا تعبت في سفرك أي أعييت وفقدت زادك فعند ذلك تلقاه فانطلق موسى وفتاه يوشع بن نون وحملا معهما خبزاً وحوتاً فذلك قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ) قال الكلبي: وإنما سماه موسى فتىً لأنه كان يخدمه ويتبعه ويتعلم منه وكان يوشع من أشراف بني إسرائيل وهو الذي استخلفه موسى على بني إسرائيل وقال مقاتل: كان فتاه يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى من سبط يوسف ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي: بحر الملح وهو بحر فارس وبحر الروم والبحر العذب وقد قيل: معناه: آتي الموضع الذي يجتمع فيه بين العالمين يعني: موسى والخضر وهما بحران في العلم والتفسير الأول أصح لأنه ذكر بعد هذا حديث البحر ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي: زماناً ودهراً وقال الكلبي: الحقب الواحد ثمانون سنة ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: موسى ويوشع بن نون مجمع البحرين جلسا على شاطىء البحر فأصاب من طعامهما ونام موسى وجعل يوشع يتوضأ من عين على شاطىء البحر فانتضح من ذلك الماء على الحوت المالح فحيي فعاش الحوت وكانت تلك العين عين الحياة لا تصيب شيئاً إلا عاش فوثب الحوت في الماء فجعل الحوت يضرب بذنبه في الماء فلا يضرب في ذنبه في الماء إلا ينسى فأراد يوشع أن يخبر موسى بذلك فلما استيقظ موسى نسي يوشع أن يخبر موسى فذلك قوله ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ يعني: أن يوشع نسي أن يخبر موسى عن خبر الحوت ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ قال الفراء: أي أخذ طريقه يبساً وقال القتبي: اتخذ طريقه في البحر مذهباً ومسلكاً فذهبا عن ذلك الموضع في غدوتهما حتى أصابهما التعب ولم ينصب موسى في سفره وحتى كان يومئذ فنصب فقال لفتاه يوشع قوله ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ يوشع ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: مشقة وتعباً ﴿قَالَ﴾ يوشع لموسى ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي حين نزلنا عند الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ يقول: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك وأمره ﴿واتَّخَذَ سبيلَهُ في

---

(١) عبد القدوس بن الحجاج الخولاني أبو المغيرة الحمصي روى عن جرير بن عثمان وصفوان بن عمر وخلق انظر التهذيب ٦/٣٦٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٢٩ وعزاه للبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والحديث عند البخاري في العلم باب ما ذكر في ذهاب موسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البحر إلى الخضر (٧٤)، (٧٨)، (١٢٢، ٢٢٦٧، ٢٧٢٨، ٣٢٧٨، ٣٤٠٠، ٣٤٠١، (٤٧٢٥)، (٤٧٢٦، ٤٧٢٧، ٦٦٧٢) (٧٤٧٨) ومسلم في الفضائل (١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤/٢٣٨٠) والترمذي في التفسير (٣١٤٩) وقال حسن صحيح والنسائي ١٢/٢.

﴿البَحْرِ﴾ أي طريقه ﴿عَجَباً﴾ قال بعضهم: (عَجَباً) هو من كلام موسى وقال بعضهم: من كلام يوشع قال عجباً وذلك أن يوشع لما أخبره فقال موسى عجباً فكأنه من أعجب عجباً وقال بعضهم: هو كلام يوشع (قَالَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِيْ الْبَحْرِ عَجَباً) وذلك حين يبس له الماء وأثره في الماء ﴿قال﴾ موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نطلب من حاجتنا ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ يقتصان أثر طريقهما من جاء فيه وإنما سمي قاصاً لأنه يقص الأثر الأمم ومعناه أنهما رجعا في الطريق الذي سلكاه فلما انتهيا إلى الصخرة حيث قام الحوت أراه يوشع مكان الحوت وأثره في الماء فعجب موسى من أثره فأبصر رجلاً عند الصخرة قائماً يصلي وعليه مدرعة صوف وكساء صوف فلما فرغ من صلاته قال موسى: السلام عليك فقال وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل قال: ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل قال: أخبرني الذي أخبرك بمكاني فذلك قوله ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: أعطيناه النبوة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ أي: علم بعض الكوائن روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قصة الخضر في بعض الأخبار فقال كان ابن ملك من الملوك فأراد أبوه أن يستخلفه من بعده فلم يقبل وهرب منه ولحق بجزائر البحر فطلبه أبوه فلم يقدر عليه.

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ أي: هدىً وصواباً قرأ أبو عمرو وابن عامر[٢] رَشَداً بالنصب وقرأ الباقون بالضم عن عاصم ونافع ومعناهما واحد فقال له الخضر إن لك فيما في التوراة كفاية من طلب العلم في بني إسرائيل وفضل أنت سترى مني أشياء تنكرها ولا ينبغي للرجل الصالح أن يرى شيئاً منكر لا يغيره فذلك قوله تعالى: ﴿قَال إنك لَنْ تَسْتَطِيعَ معِي صَبْراً﴾ يعني: إنك ترى من أشياء لا تصبر عليها ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبراً﴾ أي: ما لم تعلم به علماً ويقال: معناه: كيف تصبر على ما ظاهره منكر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿سَتجِدُني إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابراً وَلاَ أَعْصِيْ لَكَ أَمراً﴾ أي: لا أترك أمرك فيما أمرتني ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿فإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ أي: صحبتني ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ فعلت ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي: حتى أخبرك منه خبراً يعني: إن أنكرته فلا تعجل علي بالمسألة فأمر موسى يوشع أن يرجع إلى بني إسرائيل وأقام موسى

---

(١) قرأ حفص عن عاصم: (وما أنسانيهُ) بضم الهاء على أصل الكلمة وأصلها الضم وإنما عدل عن كسر الهاء إلى الضم لما رأى الكسرات من (أنسانيهِ) وكانت الهاء أصلها الضم رأى العدول إلى الضم ليكون أخف على اللسان من الاستمرار على الكسرات، ومن كسر فلمجاورة الياء كما تقول (فيهِ عليه).

قرأ الكسائي: (أنسِانيه) بإمالة الألف وإنما أمال لأن الألف مبدلة من ياء وبعد الألف كسرة والعرب تميل كل ألف بعدها كسرة نحو (عابد وعالِم). انظر حجة القراءات ٤٢٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٢٢، والنشر ٢/٣١١ وفي الحجة قرأ أبو عمرو بفتح الراء والشين.

مع الخضر قرأ نافع[١] (فَلَا تَسْأَلَنِّي) بتشديد النون مع إثبات الياء والتقدير للتأكيد للنهي وقرأ ابن عامر (فَلَا تَسْأَلَنِّ) بتشديد النون بغير ياء لأن الكسرة تدل عليه وقرأ الباقون (فَلَا تَسْأَلْنِي) بالتخفيف وإثبات الياء وقرأ بعضهم بالتخفيف بغيره ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يعني: موسى والخضر وذلك أن موسى رد يوشع إلى بني إسرائيل وذهب موسى مع الخضر ﴿حَتَّى إذا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ وذلك أنهما لما أتيا السفينة قال أهل السفينة: لا يدخل علينا هذان الرجلان فإنا لا نعرفهما ونخاف على متاعنا منهما فقال الملاح بل سيماهما سيما الزهاد فحملهما في السفينة بغير نول أي مجاناً فأخذ الخضر فأساً لما ركب السفينة وجعل يثقب السفينة ويخرقها فقال أهل السفينة الله لا تخرق سفينتنا فتغرق فقال موسى حملنا بغير نول وتخرق السفينة وتغرق أهلها فذلك قوله (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: ثقبها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾قرأ حمزة والكسائي[٢] ليغرق بالياء والنصب، (أهلها) بضم اللام[٣] وقرأ الباقون بالتاء والضم وكسر الراء والنصب في اللام فمن قرأ برفع التاء فالأهل هو المفعول ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ أي: منكراً شديداً قال القتبي: ﴿إِمْراً﴾ أي داهية وكذلك (نُكْراً) إلا أن النكر أشد استعظاماً بالعين وإنكاراً بالقلب.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

﴿قَالَ﴾ له الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: قال له موسى: يا عبد الله إنه لا يحل لك أن تخرق سفينة القوم فتغرقهم فلم يكلمه الخضر وجعل يخرق السفينة حتى خرقها فتنحى موسى وجلس فقال وما كنت أمنع أن أتبع هذا الرجل يظلم هؤلاء القوم وقد كنت في بني إسرائيل أقرأ عليهم كتاب الله غدوة وعشية ويقبلون مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم فقال الخضر يا موسى أتدري ما حدثت به نفسك فقال موسى ما هو قال الخضر قلت كنت في بني إسرائيل أتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية يقبلونه مني فتركتهم وصحبت هذا الرجل الذي يظلم هؤلاء القوم قال له ألم أقل لك إنك لا تستطيع معي صبراً قال فجاء عصفور فوقع على جانب السفينة فنقر من البحر نقرة من الماء ثم طار فقال الخضر والله ما ذهبت أنا وأنت من العلم في علم الله تعالى إلا مثل ما يغرف هذا العصفور من الماء من هذا البحر ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي بما تركت من وصيتي وقال ابن عباس هذا من معاريض الكلام لأن موسى لم ينس ولكن قال لا تؤاخذني بما نسيت يقول إذا كان مني نسيان فلا تؤاخذني به ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ يعني لا تكلفني من أمري شدة ﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي: خرجا من السفينة ومضيا ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً﴾ قال الكلبي: كان اسمه خشنوذ وقال غيره كان اسمه خربث بن كاذري فقتله أي أخذ برأسه قرعة قال ابن عباس في رواية أبي صالح كان رجلاً إلا أنه لم يهتك[٤] بعد وكان كافراً يقطع الطريق وقال سعيد بن جبير في رواية ابن عباس كان صبياً غير مدرك فمر بغلمان يلعبون فأخذ برأس غلام منهم فقطعه وقال في بعض الروايات خنقه فذلك قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ وروي أن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس أن النبي نهى عن قتل الصبيان في دار العرب وأن صاحب موسى قد قتل صبياً فكتب إليه ابن عباس إنك لو

---

(١) وابن عامر كذلك. انظر حجة القراءات ٤٢٣.
(٢) انظر حجة القراءات ٢٤٣، النشر ٢/٣١٣.
(٣) جعلا الفعل لهم كأنه قال: أخرقت السفينة لترسو في البحر فيغرق في أهلها.
(٤) الهَتْكُ: خَرقُ الستر عما وراءه والاسمُ الهتكةُ، بالضمِّ. والهتيكة: الفَضيحةُ. لسان العرب ٦/٤٦١٢.

علمت من الصبيان ما علم صاحب موسى جاز لك أن تقتله ﴿قَالَ﴾ له موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: طاهرة بغير ذنب ويقال زكية لم تجن عليك بغير نفس يقول بغير دم وجب عليها قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[١] (زَاكِيَةً) بالألف وقرأ الباقون بغير ألف ومعناهما واحد مثل قاسية وقسية وقال القتبي الزكية المطهرة التي لم تذنب قط[٢] ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[٣] أي: منكراً أي أمراً فظيعاً قال القتبي إنما قال ها هنا نكراً لأن قتل النفس أشد استعظاماً من خرق السفينة وقال الزجاج: نكراً أقل من إمراً لأن إغراقه من في السفينة كان أعظم عنده من قتل النفس الواحدة.

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ وقد زاد هنا لك للتأكيد قيل: لأنه قد سبق منه الزجر مرة ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ يعني: ان طلبت صحبتك فلا تبايعني وقد قرىء فلا تصحبني أبداً ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ يقول: قد أعذرت فيما بيني وبينك في الصحبة ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: وهي أنطاكية ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافا قال بعضهم: سألاهم وقال بعضهم: لم يسألاهم ولكن كان نزولهما بين ظهرانيهم بمنزلة السؤال منهما ﴿فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يعني: لم يطعموهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً﴾ يعني: في تلك القرية ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ وهذا كلام مجاز لأن الجدار لا يكون له إرادة ومعناه كاد أن يسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ يعني: سواه الخضر ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي: جعلاً خبزاً تأكله قرأ ابن كثير وأبو عمرو[٤] لتخذت بغير ألف وكسر الخاء والباقون لاتخذت ومعناهما واحد وقرأ نافع (مِنْ لَدُنِي) بنصب اللام وضم الدال وتخفيف النون وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو[٥] من لدُنّي بتشديد النون وهي اللغة المعروفة والأول لغة لبعض العرب واختلف الروايات عن عاصم ﴿قَالَ﴾ الخضر ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٢٤، النشر ٢/٣١٣.

(٢) قال أبو عمرو (الزاكية: التي لم تذنب قط، والزكيّة التي أذنبت ثم غفر لها. وإنما قتل الخضر صغيراً لم يبلغ الحِنث). وقال آخرون: زاكية أي طاهرة وقال قتادة: (نامية وزكيّة: تقيّة ديِّنة) وقال الحسن: (بريئة) وقال آخرون منهم الكسائي: (هما لغتان مثل: عالم وعليم، وسامع وسميع إلا أن (فعيلا أبلغ في الوصف والمدح من (فاعل). ويقوي التشديد قوله: (غلاماً زكياً). انظر حجة القراءات ٤٢٤.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (نُكُرا) بضم الكاف في جميع القرآن. وقرأ إسماعيل عن نافع: (نُكْرا) ساكنة الكاف وبه قرأ الآخرون. وهما لغتان مثل الرُعْب والرُعُب والسُفْل والسُفُل، انظر حجة القراءات ٤٢٤.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٢٥. والنشر ٢/٣١٤.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٢٤، والنشر ٢/٣١٤.

وَبَيْنِكَ﴾ أي: هذا شرط الفراق بيني وبينك وأنت حكمت على نفسك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي تعلم ما رأيتني أصنع فأنكرت لتغرق أهلها وتأويله ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ويكسبون قوتهم ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي أجعلها معيبة ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أي: أمامهم ملك روي عن ابن عباس أنه كان يقرأ وكان أمامهم ملك ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ وكان ابن عباس يقرأ أيضاً كل سفينة صالحة غصباً أي: كل سفينة بغير عيب. وكان اسم الملك جلنذا يعني: أنها لو كانت بغير عيب أخذها الملك فإذا كانت مع العيب تبقى للمساكين قال الفقيه أبو الليث: فيه دليل أن للوصي أن ينقض مال اليتيم إذا رأى فيه صلاحاً وهو أنه لو كانت له دار نفيسة فخاف أن يطمع فيها بعض السلاطين فأراد أن يخرب بعضها ليبقيها لليتيم جاز وروي عن أبي يوسف أنه كان يجيز مصانعة الوصي في مال اليتيم وهو يدفع من ماله شيئاً إلى السلطان. ليدفعه عن بقية ماله.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أي يقول يكلفهما ﴿طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ يقول تمادياً وإثماً ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ قرأ نافع وأبو عمرو[1] يبدّلهما بتشديد الدال[2] وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد يقال: بدل وأبدل بمعنى واحد أي: يعطيهما ولداً غير هذا الولد ﴿رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ﴾ أي أفضل ﴿زَكَاةً﴾ أي: ولداً صالحاً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[3] أي: أوصل رحماً ويقال رحماً ويقال أقرب رحمة وعطفاً عليهما قال الكلبي: فولدت امرأته جارية فتزوجها نبي من الأنبياء فهدى الله على يده أمة من الأمم ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامِينِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أحدهما أصرم والآخر صريم ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قال الكلبي: أي مالا لهما وقال مقاتل ومجاهد: كل شيء في القرآن من كنز فهو مال غير هنا فإنه الصحف التي فيها علم وقال الضحاك كنز لهما أي: علم لهما قال الفقيه: حدثني أبي بإسناده عن أنس بن مالك قال. قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجد تحت الجدار الذي قال الله تعالى (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) لوح من ذهب والذهب لا يصدأ ولا ينقص مكتوب فيه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) عجبت لن يوقن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يوقن بزوال الدنيا وتقلبها

(١) انظر حجة القراءات ٤٢٧، النشر ٢/٣١٤.

(٢) وحجة التشديد قوله: ﴿وإذا بدَّلْنا آية﴾ وقال: (لا تبْدِيلَ لكلماتِ الله) ولم يقل (لا إبدال). وحجة التخفيف قوله: (وإن أردْتم استبدالَ زوج) فهذا قد يكون بمعنى الإبدال كما أن قوله:

فلمْ يتسجبْه عند ذاك مجيبُ

بمعنى لم يجبه. انظر حجة القراءات ٤٢٧.

(٣) قرأ ابن عامر: (وأقْربَ رُحُماً) بضم الحاء وحجته قول الشاعر:

وكيف بظلم جارية ومنها اللّينُ والرُّحُمُ

وقرأ الباقون رُحْماً وهما لغتان مثل (الرُّغْب والرُّغُب). انظر حجة القراءات ٤٢٧.

بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله روي عن ابن عباس أنه قال كان في اللوح خمس كلمات وذكر نحوه قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ ذا أمانة واسمه كاشح فحفظا بصلاح أبيها ولم يذكر منهما صلاحاً روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل أهله وولده وأهل دويرته وأهل الدويرات حوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُما﴾ أي يبلغا مبلغ الرجال ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: نعمة من ربك ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: من قبل نفسي ولكن الله أمرني به ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: تفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ تستطع وتسطع بمعنى واحد يقال اسطاع واستطاع قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا الخليل بن أحمد حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد الدوري قال: حدثنا الحجاج الأعور قال: حدثنا حمزة الزيات عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب (قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه وقال رحمة الله علينا وعلى موسى فلو كان صبر لقص الله علينا من خبرهما) وفي رواية أخرى (لقص الله علينا من خبرهما العجائب فلما أراد موسى أن يرجع قال للخضر أوصني فقال له الخضر إياك واللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران قال مجاهد: إنما سمي الخضر خضراً لأنه لا يكون بأرض إلا اخضرت.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وكان اسمه اسكندر وروي عن وهب بن منبه أنه قيل له لم سمي ذا القرنين فقال اختلف فيه أهل الكتاب فقال بعضهم لأنه ملك الروم وفارس وقال بعضهم لأنه كان في رأسه شبه القرنين وقال بعضهم: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها فسماه الملـك الذي عند قاف ذا القرنين ويقال: رأى في المنام أنه دنى من الشمس وأخذ منها فقص رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين وقال الزجاج: سمي ذا القرنين لأنه كان له ظفيرتان وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال ضرب على قرني رأسه وقيل: لأنه بلغ قطر الأرض وقال عكرمة: كان ذو القرنين نبياً ولقمان نبياً والخضر نبياً وروى مجاهد عن عبد الله بن عمرو ابن العاص كان ذو القرنين نبياً وروي عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن ذي القرنين فقال: كان رجلاً صالحاً ولقمان كان رجلاً حكيماً وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن ذي القرنين فقال هو ملك يسبح في الأرض وقال مجاهد: ملك الأرض أربعة اثنان مؤمنان واثنان كافران أما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران فالنمرود بن كنعان وبختنصر قال تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي خبراً وعلماً من الله تعالى ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناه وأعطيناه ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ أي: علماً ويقال أعطيناه علم الوصول إلى كل شيء يحتاج إليه من الحروف وغيرها ويقال علماً بالطريق ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي أخذ طريقاً فسار إلى المغرب ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر(١) حامئة بالألف وقرأ الباقون حمئة بغير ألف فمن قرأ حامئة يعني جائرة ومن قرأ بغير ألف يعني: من طينة سوداء

(١) انظر حجة القراءات ٤٢٨، النشر ٢/٣١٤.

منتنة وروي أن معاوية قرأ في عين حامئة فقال ابن عباس[١] ما نقرؤها إلا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها فقال كما قرأتها قال ابن عباس في بيتي نزل القرآن فبعث معاوية إلى كعب يسأله أين تجد الشمس تغرب في التوراة قال في ماء وطين وقال في مذرة[٢] سوداء قال القتبي حمئة ذات حمات والحامية حارة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع[٣] فاتبع بتشديد التاء وكذلك ما بعده وقرأ الباقون فاتبع بنصب الألف وجزم التاء بغير تشديد ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ أي: عند العين التي تغرب فيها الشمس مؤمنين وكافرين فظهر عليهم ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ قال مقاتل: أوصى الله تعالى إليه وقال ابن عباس: ألهمه الله تعالى ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ يعني: أن تقتل من كان كافراً ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ يعني: تنعم عليهم وتغفر لمن كان مؤمناً وقال بعضهم: كانوا كلهم كفاراً قيل له إما أن تعذب من لم يؤمن وإما أن تتخذ فيهم حسناً لمن آمن.

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: كفر بالله ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: نقتله إن لم يتب ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُ﴾ في النار ﴿عَذَاباً نُكْراً﴾ يقول: شديداً ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ صدق بالله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٤] جزاء بنصب الألف والتنوين وقرأ الباقون بضم الألف بغير تنوين. فمن قرأ بالنصب فمعناه أن له الحسنى جزاء صار الجزاء نصباً للحال ومن قرأ بالضم جزاءُ للإضافة بغير جزاء إحسان ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ أي: سنعد له في الدنيا معروفاً عدة ويقال وسنقول له قولاً جميلاً ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي: أخذ طريقاً وقال القتبي: السبب أصله الحبل ثم كل شيء توصلت به إلى موضع أو حاجة فهو سبب تقول فلان سببي إليك أي: وصلتي وتسمى الطريق سبباً لأنه يصل إلى الموضع الذي يريده ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ أي: لم يكن لهم من دون الشمس شيء يظلهم لا شجر ولا جبل ولا ثوب إلا عراة عماة عن الخلق وكانوا في مكان لا تستقر عليه البناء وقال قتادة:[٥] يقال: إنهم الزنج وكانوا في مكان لا ينبت فيه نبات وكانوا يدخلون سرباً إذا طلعت الشمس حتى تزول عنهم ويخرجون في معايشهم ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا بلغ مطلع الشمس أيضاً كما بلغ مغربها ثم استأنف فقال: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾ أي: بما عنده علماً وهذا قول مقاتل كذلك أي كما أخبرتك بهذا الخبر كذلك كان علمنا محيطاً به قبل ذلك ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي: أخذ طريقاً ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي: بين الجبلين قرأ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٤٨ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) مذر: مذرت البيضة مَذَراً فهي مذرة: فسدت، وامرأة مَذِرَة: قَذِرةٌ. لسان العرب ٦/٤١٦٣.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٢٨، النشر ٢/٣١٤.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٣٠، النشر ٢/٣١٥.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٤٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم.

نافع وعاصم في رواية أبي بكر السدين بضم السين وكذلك الثاني والذي في سورة يس وروى حفص عن عاصم أنه نصب كله وابن كثير وأبو عمرو نصبا هاهنا ورفعا في يس وحمزة والكسائي رفعا[١] بين السدين ونصبا ما سوى ذلك وقال بعض أهل اللغة[٢]: ما كان مسدوداً خلقه فهو سد بالنصب وما كان يعمل الناس فهو سد بالضم[٣] وروي عن ابن عباس ومجاهد وقيل: إن المراد هاهنا طرفا الجبل ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أي: من قبل الجبلين ﴿قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي: كلاماً غير كلامهم ولساناً غير لسانهم قرأ حمزة والكسائي[٤] يفقهون بضم الياء وكسر القاف يعني أن كلامهم لا يفهمه أحد غيرهم وقرأ الباقون يفقهون بالنصب يعني أنهم لا يفقهون قول غيرهم.

﴿قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿قَالُوا يَاذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي: يخرجون إلى أرضنا ويأكلون رطبنا ويحملون يابسنا ويقتلون أولادنا وكان يأجوج رجلاً ومأجوج رجلاً وكان أخوين من بني يافث بن نوح فكثر نسلهما فنسب إليهما ويقال سمي يأجوج ومأجوج لكثرتهم وازدحامهم لأنهم يموجون بعضهم في بعض ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ قرأ عاصم[٥] يأجوج ومأجوج بهمز الألف وقرأ الباقون بغير همز وقرأ حمزة والكسائي[٦] خراجاً بالألف وقرأ الباقون خرجاً بغير ألف ويقال الخراج هو الضريبة والخرج هو الجعل ويقال: أحدهما إسم والآخر مصدر ﴿عَلَى أَنْ تجعَل بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَداً﴾ أي: حاجزاً فـ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿مَا مَكَنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ قرأ ابن كثير[٧] ما مكنني بنونين وهو الأصل في اللغة وقرأ الباقون مكني فأدغم إحدى النونين في الأخرى وأقيم التشديد مقامه أي ما ملكني وأعطاني فيه ربي من القوة والمال خير من جعلكم في الدنيا ويقال ما يعطيني الله تعالى في الأخرى من ثواب خير

(١) انظر حجة القراءات ٤٣١، النشر ٢/٣١٥.

(٢) السَّدُّ والسُّدُ: الجَبَلُ والحاجز، لسان العرب ٣/١٩٦٨.

(٣) ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول: قال أبو عبيد: (كل شيء وجدته العرب من فعل الله من الجبال والشعاب فهو (سُدّ) بالضم وما بناه الآدميون فهو (سَدّ) بالفتح، وكذا قال أيضاً عكرمة فذهب حمزة والكسائي في قوله: (أن تجعل بيننا وبينهم سَداً) أنه من صنع الناس. وفي (يسٓ) إلى المعنى وذلك أنه يجوز أن يكون الفتح فيهما على معنى المصدر الذي صدر عن غير لفظ الفعل. لأنه لما قال: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سَدّاً﴾ كأنه قال (وسددنا) ثم أخرج المصدر على معنى الجعل إذا كان معلوماً أنه لم يرد بقوله في (يسٓ) (سُدّاً) ما أريد به في قوله: (بين السدين. . . .) لأنهما جبلان وهي ها هنا عارض في العين. انظر حجة القراءات ٤٣١.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٣٢، النشر ٢/٣١٥.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٣٢.

(٦) انظر المصدر السابق وانظر النشر ٢/٣١٥. قال الزجاج: (الخَرْج: الفيء، والخَراج: الضريبة وقيل الجزية قال: (والخراج عند النحويين الإسم لما يخرج من الفرائض في الأموال والخرْج المصدر). وقال غيره: (خَرْجا) أي عطية نخرجه إليك من أموالنا وأما المضروب على الأرض فالخراج ويدل على العطية قوله في جوابه لهم: (ما مكّنيّ فيه ربي خير) انظر حجة القراءات ٤٣٣.

(٧) انظر حجة القراءات ٤٣٣.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ قالوا وما تريد قال آلة العمل وهي آلة الحدادين ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ قالوا وَمَا هِيَ قال ﴿آتوني زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قرأ عاصم في إحدى الروايتين إيتوني على معنى جيئوني وقرأ الباقون (آتوني) بمد الألف أي: أعطوني فأتوه بقطع الحديد فبناه ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدفين﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[1] الصدفيـن بضم الصاد والدال وقرأ عاصم بضم الصاد وجزم الدال وقرأ الباقون بنصب الصاد والدال وهما ناحيتا الجبل فأخذ قطع الحديد وجعل بينهما حطباً وفحماً ووضع المنافخ وقال انفخوا فنفخوه حتى صار كهيأة النار ثم أتى بالصفر ويقال بالنحاس فـأذابه وأفرغ عليه حتى صار جبلاً من حديد ونحاس فذلك قوله: (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) أي: بين الجبلين ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ فنفخوا ﴿حَتَّى إذا جَعَلَهُ نَاراً﴾ أي صير الحديد ناراً ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ وهو الصفر المذاب أَصْبُبْ عليه قرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة[2] (قَالَ ائْتُونِي) بحزم الألف والباقون بالمد ﴿فَمَا اسْطاعوا﴾ أي فما قدروا ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يعني: أن يعلوا فوق السد ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي: ما قدروا على نقب السد ويقال ما استطاعوا له نقباً أي: ما تحت السد في الأرض لأنه بناه في الأرض إلى السماء قال الفقيه رضي الله عنه: حدثنا عمرو بن حمد قال: حدثنا أبو بكر الواسطي قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو حفص عن سعيد عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن يأجوج ومأجوج يحفرون الردم في كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذين عليهم ارجعوا فسنحفره غداً فيعيده الله كما كان حتى إذا بلغت مدتهم قال الذين عليهم ارجعوا فسنحفره غداً إن شاء الله تعالى فيعودون إليه فإذا هو كهيأته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فيستقون المياه وتحصن الناس في حصونهم فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفيتهم فيهلكهم الله بها وروى أبو صالح عن ابن عباس أن يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل منهم حتى يلد لصلبه ألف ابن وذكر أن يأجوج ومأجوج كما ذكرنا وهما ابنا يافث بـن نوح فإذا انكسر السد وذلك عند اقتراب الساعة يخرجون فيمرون ببحيرة طبرية بأرض الشام وهي مملوءة ماء فيشربها أولهم ثم يمر آخرهم فيقولون لقد كان هاهنا مرة ماء قال: والسد نحو نبات نعش ثم يمرون بالبحر فيأكلون ما في جوفه من سمك وسرطان وسلحفاة ودابة ثم يأكلون ورق الشجر ويأكلون ما فـي الأرض من شيء ويهرب الناس منهم فيقتلون من قدروا عليه ولا يستطيعون أن يأتوا أربعة مساجد المسجد الحرام ومسجد المدينة ومسجد بيت المقدس ومسجد طور سيناء ثم لا يرون على الأرض غيرهم ثم يقولون لقد قتلنا أهل الأرض وبقي أهل السماء فيرمون سهامهم[3] نحو السماء فتصيب الطير في جو السماء فترجع سهامهم مختضبة[3] بالدماء فيقولون لقد قتلنا أهل السماء وأهل الأرض ولم يبق غيرنا فيبعث الله تعالى عليهم دوداً يسمى النغف فيدخل في آذانهم فيقتلهم فتنتن الأرض من جيفهم ثم يرسل الله تعالى أربعين يوماً حتى يحمل السيل جيفهم فيرميها إلى البحر ويعود البحر كما كان قرأ حمزة[4] فما اسطّاعوا بتشديد الطاء والباقون بالتخفيف فلما فرغ ذو القرنين من بناء السد.

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ

(١) انظر حجة القراءات ٤٣٣، النشر ٢/٣١٥.
(٢) انظر حجة القراءات ٣٣٤، النشر ٢/٣١٦.
(٣) الخضاب: ما يُخضَبُ به من حنَّاءٍ وكتم ونحوه. وفي الصِّحاح: الخِضـابُ ما يختضبُ بِهِ. لسان العرب ٢/١١٧٩.
(٤) انظر حجة القراءات ٤٣٥، والنشر ٢/٣١٦.

عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أي: هذا السد رحمة من ربي عليكم ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يقول إذا جاء أجل ربي ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: كسراً قرأ أهل الكوفة[1] دكاء بالمد وقرأ الباقون بالتنوين دكاً إذا لم يكن لها سنام ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: صدقاً وكائناً بخروجهم ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يحرك في بعض وراء السد ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ قال أبو عبيدة: تنفخ الأرواح في الصور وقال عامة المفسرين يعني: ينفخ إسرافيل في الصور وهذا موافق لما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه وحنا جبهته عليه وينتظر متى يؤمر فينفخ فيه) ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ أي: يوم القيامة نجمع يأجوج ومأجوج وجميع الخلق ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: كشفنا الغطاء عنها قبل دخولهم جهنم ﴿لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ أي كشفاً ويكون المصدر لتأكيد الكلام ثم نعت الكافرين فقال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي أعين الكافرين ﴿فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِيْ﴾ أي: في عمىً عن التوحيد والقرآن فلم يؤمنوا ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي: استماعاً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بغضه وعداوته ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أن يعبدوا غيري ومعناه لا يحسبن الكافرون بأن يتخذوا أولياء يعبدون معي شيئاً لأن المشركين كانوا يدعون بعض المؤمنين إي الشرك وهذا كقوله: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) ويقال: و معناه: أفيظن الذين كفروا أن يعبدوا عبادي يعني الملائكة وعزيراً والمسيح من دوني أولياء يعني أرباباً ومعناه يظنون أنهم لو اتخذوهم أرباباً تنفعهم عبادتهم ويفوتون من عذابي ثم بين عذابهم فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي: منزلاً روي عن علي بن أبي[2] طالب أنه قرأ: (أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بجزم السين وضم الباء[3] معناه أيكفيهم مني ومن طاعتي أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء فحسبهم جهنم (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) أي: منزلاً

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ يعني: الخاسرين أعمالهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ أي: بطلت

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٣٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٢٥٣ وعزاه لأبي عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٣) قرأ الأعشى عن أبي بكر: (أفحسب الذين كفروا) برفع الباء وسكون السين. وتأويله: (أفيكفيهم أن يتخذوا العباد أولياء من دون الله). وموضع (أن يتخذوا) رفع بفعله.

وقرأ الباقون: ﴿أفحَسِبَ الذين كفروا﴾ أي: أفحسبوا أن ينفعهم اتخاذهم عبادي أولياء. وموضع (أن) نصب بوقوع الظن عليه. انظر حجة القراءات ٤٣٦.

أعمالهم ﴿فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ أي: يظنون أنهم يفعلون فعلاً حسناً قال علي ابن أبي[1] طالب هم الخوارج وهكذا روي عن أبي أُمَامَةَ الباهلي وروي عن سلمان الفارسي أنه قال هم رهبان النصارى أهل الصوامع وهكذا قال مقاتل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَلِقَائِهِ﴾ أي: البعث بعد الموت ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت حسناتهم ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾ أي لا توزن أعمالهم مثقال ذرة ويقال: لا نقيم لأعمالهم ميزاناً ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: هكذا عقوبتهم ﴿جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي﴾ أي: القرآن ومحمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿هُزُواً﴾ أي: استهزاء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ أي منزلاً وقال مقاتل الفردوس بلغة الروم البساتين عليها الحيطان وقال السدي الأعناب بالنبطية وروى الحسن عن سمرة بن جندب قال الفردوس ربوة خضراء من الجنة هى أعلاها وأحسنها وقال الكلبي جنات الفردوس من أدنى الجنان منزلاً وروى أبو أمامة الباهلي قال الفردوس سرة الجنة أي أوسطها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين فيها ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ أي: تحولاً رضوا بها وبثوابها وقال بعض المفسرين: تمام النعمة أنهم لا يتمنون التحول لأنهم لو تمنوا التحول عنها لتنقص النعم عليهم.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

﴿قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ وذلك أن اليهود قالوا بزعم محمد أن من أوتي الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً ثم يزعم ويقول (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) فكيف نوافق الخير الكثير مع العلم القليل فنزل قل يا محمد (لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي) يكتب به ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[2] أي لا تنفد كلمات ربي كما قال: في آية أُخرى (مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ أي: بمثل البحر وقرأ بعضهم ولو جئنا بمثله مِدَاداً وقراءة العامة مدداً ومعناهما واحد (وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) وهو قليل عند علم الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: من يخاف البعث بعد الموت ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ أي: خالصاً فيما بينه وبين الله تعالى ﴿وَلاَ يُشْرِكْ﴾ أي: لا يخلط ولا يرائي ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ وقال سعيد[3] بن جبير: فمن كان يرجو أي: من كان يوجو ثواب ربه وروي عن مجاهد[4] أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وقال إني أتصدق بالصدقة وألتمس بها وجه الله وأحب أن يقال لي خيراً) فنزل (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً) قرأ حمزة والكسائي وابن عامر في إحدى الروايتين

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) قرأ حمزة والكسائي: (قبل أن يَنْفَد كلماتُ ربي) بالياء ذهبا بالكلمات إلى معنى المصدر فكأنه قال: كلام ربي فذكّرا لتذكير الكلام. وقرأ الباقون: ﴿قبل أن تَنْفَد﴾ بالتاء. أخرجوا الفعل على لفظ الأسماء المؤنثة إذ لم يحل بين الاسم والفعل حائل. انظر حجة القراءات ٤٣٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٥ وعزاه لهناد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٥ وعزاه لهناد في الزهد.

أن ينفد بالياء بلفظ التذكير وقرأ الباقون بالتاء بلفظ التأنيث لأن الفعل إذا كان مقدماً على الاسم يجوز التـأنيث والتذكير قال الفقيه: حدثنا أبو الحسن أحمد بن عمران قال: حدثنا أبو عبد الله المديني عن مخلد بن عبد الواحد عن الخليل عن علي بن زيد بن جدعان عن زر بن حبيش عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة تكون فإن خرج الدجال في تلك الثمانية أيام عصمه الله من فتنة الدجال ومن قرأ الآية التي في آخرها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ . .﴾ إلى الخاتمة حين يأخذ مضجعه كان له نور يتلألأ في مضجعه إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وإن كان مضجعه بمكة فتلاها كان نور يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ من نومه إلى غير ذلك مما ورد في فضلها من الأخبار والآثار وصلى الله على سيدنا محمد النبي المختار وعلى آله وصحابته الأطهار صلاة وسلاماً دائمين ما تعاقب الليل والنهار آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ مَرْيَمَ (١)

وهي تسعون وثمان آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي
خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

قوله عز وجل ﴿كهيعص﴾ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص[٢] بنصب الهاء والياء[٣] وقرأ عاصم في رواية أبي بكر والكسائي بكسر الهاء والياء وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء ونصب الياء وقرأ حمزة وابن عامر بنصب الهاء وكسر الياء وقرأ نافع بين الكسر والفتح وهو اختيار أبي عبيدة ومعنى هذا كله واحد قال ابن عباس[٤] في تفسير قوله كهيعص قال كاف فالله كاف لخلقه (بالرزق والعطف عليهم)[٥] والهاء فالله الهادي للخلق وأما الياء فيد الله مبسوطة

---

(١) إسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم. سماها ابن عباس سورة كهيعص وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحها. وهي مكية عند الجمهور وعن مقاتل: أن آية السجدة مدنية ولا يستقيم هذا القول لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلّا أن تكون ألحق بها في النزول وهو بعيد. وذكر السيوطي في الاتقان قولاً بأن قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ الآية مدني ولم يعزه لقائل.

ويظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقد استهم في الخير، ثم التنزيه بإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى ـ عليهم السلام ـ ووصف الجنة وأهلها. وحكاية إنكار المشركين البعث بمقالة أُبَيّ بن خلف والعاصي بن وائل وتبجحهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم. وإنذار المشركين أن أصنامهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها ووعد الرسول النصر على أعدائه. وذكر ضرب من كفرهم بنسبة الولد لله تعالى.

والتنويه بالقرآن ولغته العربية. وأنه بشير لأوليائه ونذير بهلاك معانديه كما هلكت قرون قبلهم. انظر التحرير ١٦/٥٧، ٥٨، ٥٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٣٧.

(٣) وهو الأصل. العرب تقول (ها، يا) ومن العرب من يقول (هِا، يِا) قال سيبويه: إنما جازت فيه الإمالة نحو (يا، تا، هِا) لأنها أسماء ما تكتبه وإنما أمالتها العرب لتفصل بينها وبين الحروف لأن الإمالة إنما تلحق الأسماء ولأفعال. ويدلك على أنها أسماء أنها إذا أخبرت عنها أعربتها فتقول: هذه هاء وياء قال: ولا أُميل (لا) ولا (ما) لأنهما حرفان. قال: (ما) التي تكون إسماً بمنزلة (الذي) لا أميلها لأنها لا تتم إلا بصلة. انظر حجة القراءات ٤٣٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر ٤/٢٥٨ وعزاه لعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وعثمان بن سعيد الدارمي في التوحيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٥) سقط في ظ.

على خلقه بالرزق لهم والعطف عليهم وأما العين فالله تعالى عالم بخلقه وأمورهم وأما الصاد فالله تعالى صادق بوعده وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال هو اسم الله الأعظم وروي عنه أنه قال هو قسم أقسم الله بكهيعص ويقال هي حروف تدل على ابتداء السور نحو الر والمر وغيرهما ثم قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ معناه على طريق ابن عباس باسم الله الكافي الهادي العالم الصادق ذكر رحمة ربك عبده زكريا (بالرحمة) ومن قال هو ابتداء السورة فمعناه اقرأ كهيعص من قال إنه قسم فمعناه ورب كهيعص إنه ذكر عبده زكريا بالرحمة ثم قال: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيًّا) يعني: في هذه السورة ومعناه: ذكر[1] ربك عبده زكريا بالرحمة ذكره بالرحمة لا يكون إلا بالله تعالى ففي الآية تقديم وتأخير يقول ذكر ربك عبده زكريا بالرحمة وهو «زكريا بن ما ثان ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ يقول دعا ربه نداءً خفياً يقول أخفاه وأسره من قومه ويقال: دعا ربه دعاء سراً لأنه علم أن دعاء السر أنفع وأسرع إجابة ويقال دعا ربه خفياً يعني: خالصاً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف عظمي ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ يعني أخذ في الرأس شيباً: وبياضاً شيباً صار نصباً بالتمييز والمعنى اشتعل الرأس من الشيب يقال: للشيب إذا كثر جداً قد اشتعل رأس فلان بالشيب ثم قال: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني: لم تكن تخيب دعائي عندك إذا دعوتك ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ يعني: خشيت ويقال: أعلم الموالي يعني: الورثة ويقال: بنو العم ويقال: العصبة من ورائي يعني: من بعد موتي خاف أن يَرِثَهُ غير الولد وروي عن قتادة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (يرحم الله تعالى زكريا وما كان عليه من ورثة). وروي عن سعيد بن العاص أنه قال أملي[2] على عثمان (وَإِنِّي خَفَّتِ الْمَوَالِيَ) بنصب الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء ويقال: يعني: ذهبت الموالي وقال أبو عبيدة لولا خلاف الناس لاتبعنا عثمان فيها ثم قال ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ يعني: عقيماً لم تلد ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يعني ولداً ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ وقال عكرمة: يرثني ما لي ويرث من آل يعقوب النبوة وهكذا قال الضحاك وقال بعضهم: يرثني يعني علمي وسنتي لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون مالاً وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) وروى أبو الدرداء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الأنبياء لم يورثوا دراهم ولا دنانير وإنما ورثوا هذا العلم ويقال: لأنه رأى من الفتى وغلبة أهل الكفر فيخاف على إفساد مواليه إن لم يكن أحد يقوم مقامه ويخولهم بالموعظة قرأ أبـو عمرو والكسائي[3] يرثْني ويرثْ بجزم كلا الثائين على معنى جواب الأمر والشرط أي: أنك إذا وهبت لي ولياً يرثني وقرأ الباقون يرثني ويرث بالضم وقال عبيدة: وهذا أحب إلي قال: معناه: هب لي الذي هذه حاله وصفته لأن الأولياء قد يكون منهم الوراثة وغيره فيقول هب لي الذي يكون (ورائي وارث النبوة) ثم قال ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يعني صالحاً زكياً

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٥٩ وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٣٨، سراج القارىء ٢٨٣.

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ يعني: أوحى الله تعالى وأرسل إليه جبريل وأن جبريل عليه السلام أدى إليه الرسالة من الله عز وجل قال الله تعالى (إِنَّا نُبَشِّرُكَ) وقد بين ذلك في سورة آل عمران (فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِيْ الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) ثم قال هنا بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِياً﴾ يعني: لم نجعل لزكريا من قبل يحيى ولداً يسمى يحيى ويقال لم يكن قبله أحد يسمي بذلك الاسم ويقال: لم يكن بذلك الاسم في زمانه أحد وإنما سمي يحيى لأنه حي بالعلم والحكمة التي أوتيها ويقال لأنه حي به المجالس ويقال لأنه حيي به عقر أمه ويقال «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبلُ سَمِيًّا» أي: نظيراً ومثالاً قرأ حمزة «نُبْشِرك» وقرأ الباقون بالتشديد وضم النون ونصب الباء وكسر الشين (نُبَشِّرُكَ) فقال زكريا عند ذلك ﴿قَالَ رَبِّ﴾ يقول: يا سيدي ﴿أَنَّى يَكُونُ لِيْ غُلامٌ﴾ يعني: من أين يكون لي ولد ويقال: إنما قال ذلك على وجه الدعاء لله تعالى فقال: يا رب من أين يكون لي ولد ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ من الولد ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِياً﴾ يقول: تحول العظم مني يابساً. ومنه يقال: قلب عات إذا كان قاسي القلب غير لين ويقال لكل شيء انتهى فقد عتى ولم يكن زكريا شاكاً في بشارة الله عز وجل ولكن أحب أن يعلم من أي وجه يكون قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص والكسائي[1] عتياً بكسر العين وكذلك «صِلِياً وجِثِيًّا وَبِكِياً» إلا أن عاصماً خالفهما في «بُكيا» والباقون كلها بالضم وكأن أبا عبيدة اختار الضم لأنه أفصح اللغتين وهي قراءة أبي ﴿قال﴾ له جبريل عليه السلام ﴿كَذلِكَ﴾ يعني هكذا كما قلت إنك «قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِياً قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» ولكن الله عز وجل ﴿قال ربك هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يعني خلقه علي يسير ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يحيى ﴿ولم تك شيئاً﴾ قرأ حمزة والكسائي[2] وقد خلقناك بالألف مؤخرة والنون مقدمة والباقون خلقتك وهو اختيار أبي عبيدة قال زكريا عليه السلام «رَبِّ اجْعَلْ لِيْ آيَةً» في الولد روى أسباط عن السدي قال لما بشر زكريا عليه السلام جاءه الشيطان فقال إن هذا النداء الذي نوديته ليس من الله وإنما هو من الشيطان ليسخر بك ولو كان من الله عز وجل لأوحاه إليك كما كان يوحي إليك فـ ﴿قال﴾ عند ذلك ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أعلم بها أن هذا النداء منك ﴿قال﴾ الله تعالى له ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا﴾ يعني (علامتك أن)[3] لا تستطيع أن تكلم الناس ثلاث ليال وأنت صحيح سليم من غير خرس ولا مرض ورجع تلك الليلة إلى امرأته فقربها ووضع الولد في رحمها فلما أصبح اعتقل لسانه عن كلام الناس.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي: من المسجد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ يعني أشار إليهم وأومأ إليهم ويقال كتب كتاباً وألقاه على الأرض ولم يقدر أن يتكلم به ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ يعني صلوا لله تعالى ﴿بُكْرَةً وَعَشِياً﴾ يعني غدوة

(١) انظر حجة القراءات ٤٣٩، النشر ٢/٣١٧.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٣٩، النشر ٢/٣١٧.
(٣) سقط في ظ.

وعشياً فعرف عند ذلك أنه آية الولد قوله عز وجل ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ يعني: أوحى الله تعالى إليه أن (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) يعني بجد ومواظبة «وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» يعني أجرينا الحكمة على لسانه في حال صغره وذلك أنه مر بصبيان يلعبون فقالوا له تعال حتى نلعب فقال لهم: ما للعب خلقنا ويقال (خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) أي: بعد عون من الله تعالى ويقال بكثرة الدرس ﴿آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِياً﴾ يعني: النبوة والفقه والخير كله ﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني: آتيناه رحمة من عندنا وأصله من حنين الناقة على ولدها ﴿وَزَكَاةً﴾ يعني وصدقة منا ويقال: التطهير ويقال صلاحاً في دينه وقال سعيد بن جبير: الزكاة التزكية ﴿وَكَانَ تَقِياً﴾ يعني: مطيعاً لربه ﴿وبراً بِوَالِدَيْهِ﴾ يعني مطيعاً لهما ولا يعصيهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً﴾ يعني: لم يكن قتالاً والجبار الذي يقتل على الغضب ويضرب على الغضب ﴿عَصِيًّا﴾ يعني: لم يكن عصياً لربه والعصي والعاصي واحد قوله عز وجل: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ أي: السلام من الله عز وجل والسعادة تناله ﴿يوم ولد﴾ أي حين ولد ﴿ويوم يموت﴾ يعني: حين يموت ﴿ويوم يبعث حياً﴾ أي: حيث يبعث حياً وروى قتادة عن الحسن[١] أن يحيى عليه السلام قال لعيسى عليه السلام: حين التقيا أنت خير مني فقال عيسى صلوات الله عليه بل أنت خير مني سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي وروي عن بعض الصحابة أنه قال ما من الناس أحد إلا وهو يلقى الله عز وجل يوم القيامة ذو ذنب إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام وروي عن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما أذنب يحيى عليه السلام ولا هم بامرأة.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ
إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ
وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ
أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إذ انْتَبَذَتْ﴾ يعني: اذكر في القرآن خبر مريم ومعناه اقرأ عليهم ما أنزل عليك في القرآن من خبر مريم «إذ انْتَبَذَتْ» يعني: اعتزلت وتنحت ﴿مِنْ أهلها مَكَاناً شَرْقِياً﴾ يعني: مشرقة الشمس في دار أهلها ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ يعني (ضربت وأرخت من دونهم)[٢] ستراً ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: بعثنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ يعني: تشبه لها في صورة شاب تمام الخلق فدَنا منها فأنكرت مريم مكان الرجل ﴿قَالَتْ إِنِّي أعوذ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ يعني إن كنت مطيعاً لله وإنما قالت ذلك لأن التقي إذا وعظ بالله عز وجل اتعظ وخاف والفاسق يخوف بالسلطان والمنافق يخوف بالناس فالتقي يخوف بالله ويقال في الآية مضمر ومعناه احذر إن كنت تقياً ﴿قال﴾ لها جبريل ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا﴾ يعني ولداً صالحاً قرأ أبو عمرو ونافع في إحدى الروايتين[٣] ليهب لك بالياء وقرأ الباقون[٤] لأهب فمن قرأ ليهب فمعناه ليهب الله لك

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٢ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.
(٢) سقط في أ.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٠، النشر ٢/٣١٧.
(٤) قال الزجاج: من قرأ (لأهب لك) فهو على الحكاية وحمل الحكاية على المعنى على تأويل: ﴿قال أرسلت إليكِ لأهبَ لكِ﴾

ومن قرأ لأهب لك يكون فيه مضمر ومعناه إنما أنا رسول ربك قال لأهب لك غلاماً زكياً يعني: قال ربك وهذا اختيار أبي عبيدة وهو موافق لخط المصاحف ﴿قالت﴾ مريم لجبريل عليه السلام ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ يعني: من أين يكون لي ولد ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يعني: لم يقربني زوج ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾ يعني: لم أك فاجرة ﴿قَالَ﴾ لها جبريل ﴿كَذَٰلِكِ﴾ يعني: هكذا كما قلت ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ يعني خلقه علي يسير ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ يعني: عبرة لبني إسرائيل ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: ونعمة منا ﴿وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾ يعني: قضاء كائناً.

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ يعني: حملت مريم بعيسى عليه السلام وقال وهب بن منبه إن مريم حملت بعيسى عليه السلام تسعة أشهر وقال بعضهم ثمانية أشهر فتلك آية لأنه لا يعيش مولود في ثمانية أشهر وروي في بعض الروايات عن ابن عباس أنه قال ما هي إلا أن حملت ثم وضعت وقال: مقاتل حملت في ساعة ووضعت في ساعة ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ يعني: انفردت بولادتها مكاناً بعيداً قال القتبي: القصيُّ أشد بعداً من القاصي ثم قال: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ يعني: جاء بها وألجأها المخاض يعني: الطلق بولادة عيسى عليه السلام: ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: أصل النخلة قال ابن عباس النخلة اليابسة في شدة (الشتاء يعني)[(١)] الطلق ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً﴾ يعني: شيئاً متروكاً لم أذكر ويقال للشيء الحقير الذي إذا ألقي ينسى نسي وقال قتادة[(٢)] يعني لا أعرف ولا أدرى من أنا وقال عكرمة:[(٣)] يعني جيفة ملقاة وهكذا قال الضحاك[(٤)] وقال ربيعة[(٥)] بن أنس يعني: سقطاً قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص[(٦)] وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً بنصب النون والباقون نِسْياً بكسر النون قال أبو عبيد وبالكسر نقرؤها لأنها كانت أكثر في لغة العرب وأفشاها وعليها أهل الحرمين والبصرة ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي ونافع وعاصم في رواية حفص[(٧)] من بالكسر يعني الملك وهكذا قرأ مجاهد والحسن والباقون مَن بالنصب يعني به:

= فحذف من الكلام (أرسلتُ) لأدلة ما ظهر على ما حذف والقول الثاني: جبريل عليه السلام قال لمريم: (إنما أنا رسول ربك أرسلني لأهب لك) إذ كان النافخ في جيبها بأمر الله فتكون الهبة في المعنى من الله وهي في اللفظ مسندة إلى جبرئيل لأن الرسول والوكيل قد يسندان هذا النحو إلى أنفسهم وإن كان الفعل للموكل والمرسل للعلم بأنه في المعنى للمرسِل وأن الرسول مترجم عنه). انظر حجة القراءات ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٧ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لعبد بن حميد.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٦) انظر حجة القراءات ٤٤١، النشر ٢/٣١٨.

(٧) انظر حجة القراءات ٤٤١، النشر ٢/٣١٨.

عيسى عليه السلام وقال أبو عبيد بالأولى نقرأ يعني بالكسر لأن قراءتها أكثر والمعنى فيها أعم لأنه إذا قال مِنْ تَحْتِهَا فإنما هو عيسى خاصة ﴿أَلا تحْزَنِي﴾ بولادة عيسى وبمكان الجدب ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً﴾[1] أي: نـهراً صغيراً بحبال ويقال قد جعل ربك تحتك سرياً أي: بيتاً فذكر هذا القول عند ابن حميد فأنكره وقال هو الجدول ألا ترى أنه قال فكلي واشربي قال مجاهد[2]: السري بالسريانية وقال سعيد بن جبير: [3] بالنبطية ﴿وَهُـزِّي إِلَيكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ يقول: حركي أصل النخلة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيكِ رُطباً جَنِياً﴾ أي: غضاً طرياً قرأ حمزة[4] تساقط بنصب التاء وتخفيف السين وأصله تتساقط إلا أنه حذفت منه إحدى التائين للتخفيف وهذا كقوله (لَوْ تُسوى بِهِم الأَرْض) وأصله تتسوى وكقوله تَظَاهَرُونَ عليهم وكقوله تَنْشَقُّ وقرأ عاصم في رواية حفص تساقط بضم التاء وتخفيف السين وكسر القاف يعني: أن النخلة تساقط عليك وقرأ الباقون بالنصب وتشديد السين ونصب القاف لأن التشديد أقيم مقام التاء التي حذفت وروي[5] عن البراء بن عازب أنه كان يقرأ يساقط بالياء يعني أن الجذع يساقط عليك وقرأ بعضهم تساقط بالنون ومعناه: ونحن نساقط عليك وروي أنها كانت نخلة بلا رأس وكان ذلك في الشتاء فجعل الله تعالى لها رأساً وأنبت فيها رطباً فذلك قوله تساقط عليك رطباً أي غضاً طرياً قيل لها ﴿فَكُلي﴾ من الرطب ﴿واشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَقَرِّي عَيْناً﴾ أي طيبي نفساً بولادة عيسى وقال الربيع بن خيثم:[6] ما للنفساء عندي دواء إلا الرطب ولا للمريض إلا العسل ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ يعني: إن رأيت أحداً من الناس ﴿فقُولِي﴾ إن سألك أحد شيئاً فقولي ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ يعني: صمتاً وروي عن ابن عباس في بعض الروايات أنه كان يقرأ إني نذرت للرحمن صمتاً ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِياً﴾ يعني: قولي ذلك بالإشارة لا بالقول وكان المتقدمون يصومون من الكلام كما يصومون من الطعام.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ وذلك أن مريم حملت عيسى عليه السلام ودخلت على أهلها وكان أهلها أهل بيت صالحين ﴿قالوا﴾ لها أي: قومها ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً﴾ يعني أتيت وفعلت أمراً عظيماً منكراً لا يعرف منك ولا من أهل بيتك ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ يعني هارون ماثان وكان من أمثل بني إسرائيل يَا أُخْتَ هَارُونَ يعني: يا شبه

---

(١) السَّرِيُّ: النهر وقيل الجدول وقيل النهر الصغير كالجدول يجري إلى الداخل، لسان العرب ٣/٢٠٠٢.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٨ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٩ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٤) انظر حجة القراءات ٤٤٢ ـ ٤٤٣، والنشر ٢/٣١٨.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٦٩ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

هارون في الصلاة والصلاح ويقال كان رجل سوء يسمى هارون فعيروها به وشبهوها بهارون ويقال كان لها أخ يقال له هارون من أبيها ولم يكن من أمها وذكر أن أهل الكتاب قالوا كيف تقولون إن مريم أخت هارون وكان بينهما ستمائة سنة فذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين عليهم السلام يعني أن أخا مريم سُمِّي باسم هارون النبي عليه السلام ثم قال: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ يعني زانياً ﴿وَمَا كَانت أُمّكِ بَغِيًّا﴾ يعني: فاجرة ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ يعني أشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه يعني كلموا عيسى ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِيْ الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يعني: من هو في الحجر وهو رضيع ويقال: معناه: كيف نكلم من هو يكون في المهد ويقال معناه كيف نكلم من يكون في المهد صبياً فأنطق الله تعالى عيسى فتكلم و ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فأول الكلام الذي تكلم به رد على النصارى لأنه أقر بأنه عبد الله ورسوله ثم قال ﴿آتَانِي الْكِتَابَ﴾ روي عن ابن عباس[١] أنه قال: معناه علمني الكتاب في بطن أمي ويقال معناه يؤتيني الكتاب وهو الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ أي اكرمني الله تعالى بأن جعلني نبياً ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً﴾ يعني جعلني معلماً للخلق ﴿أينما كُنْتُ﴾ يعني: حيث ما كنت ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يعني: أوصاني وأمرني بإتمام الصلاة وإعطاء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ يعني جعلني رحيماً بوالدتي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ يعني: لم يخذلني حتى صرت به جباراً عصياً ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ يعني: السلام علي من الله تعالى ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ يعني: حين ولدت ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني حين أموت ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني: أبعث يوم القيامة فكلمهم بهذا ثم سكت فلم يتكلم حتى كان قدر ما يتكلم الغلمان.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ﴾ أي: ذلك الذي قال إني عبد الله عيسى بن مريم لا ما يقول النصارى إنه إله ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ يعني: خبر الصدق قرأ عاصم وابن عامر[٢] قول بنصب اللام والباقون بالضم فمن قرأ بالنصب فمعناه أقول قول الحق ومن قرأ بالضم معناه وهو قول الحق ﴿الذي فيه يمترون﴾ يعني يشكون في عيسى عليه السلام ويختلفون فيما بينهم ثم كذبهم في قولهم فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ يعني: عيسى ثم نزه عن الولد فقال ﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقاً مثل عيسى ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر[٣] فيكون بالنصب وقرأ الباقون بالضم وقرأ بعضهم تمترون بالتاء على وجه المخاطبة وقراءة العامة بالياء لأنها ليست فيها مخاطبة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو[٤] ربَّكم بالنصب على معنى البناء

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٧٠ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٣، النشر ٢/ ٣١٨.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٤، النشر ٢/ ٣١٨.
(٤) انظر حجة القراءات ٤٤٤، النشر ٢/ ٣١٨.

والباقون وإن الله بالكسر على معنى الابتداء وهي قراءة أبي عبيدة وفي قراءة أبي إن الله بغير واو فتكون قراءته شاهدة على الكسر ثم قال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني: وحدوه وأطيعوه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: هذا الإسلام طريق مستقيم ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يعني: الكفار من أهل النصارى من بينهم يعني: بينهم في عيسى وتفرقوا ثلاثة فرق قالت النسطورية عيسى ابن الله واليعقوبية قالوا إن الله هو المسيح والملكانية قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ﴿فَوَيْلٌ﴾ يعني: الشدة من العذاب ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: من عذاب يوم القيامة بأن عيسى لم يكن الله ولا ولده ولا شريكه ويقال: ويل صخرة في جهنم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في خطأ بين لا يسمعون الهدى ولا يبصرون ولا يرغبون فيه ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يقول وأنذرهم يا محمد أي خوفهم بهول يوم القيامة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ يعني فرغ من الأمر إذا دخل أهل الجنة الجنة ودخل أهل النار النار وهو يوم الندامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ يعني هم في الدنيا في غفلة من تلك الندامة والحسرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالبعث قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر[1] المدني عن محمد بن عمرو عن (أبي)[2] مسلمة عن الزهري عن أبي هريرة[3] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يؤتى بالموت فيوقف على الصراط فيقال يا أهل الجنة فيطلعون ويقال يا أهل النار فيطلعون فيقال هل تعرفون هذا فيقولون نعم يا ربنا هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين خلود لا موت فيها أبداً وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري[4] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحوه فذلك قوله (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ الآية.

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

ثم قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ يعني نميت أهل الأرض كلهم ومن عليها ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

---

(١) إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري، مولاهم، أبو إسحاق، توفي ببغداد سنة ١٨٠ وقيل سنة ١٧٧ انظر غاية النهاية ١/١٦٣ (٧٥٨).

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٢ وعزاه للنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحديث عند النسائي في التفسير ٢/٣١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧١ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وعبد ابن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حبان وابن مردويه والحديث عند البخاري في التفسير (٤٧٣٠) وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤٠، ٤١/٢٨٤٩) والترمذي في التفسير (٣١٥٦) وأخرجه النسائي ٢/٣٠.

في الآخرة ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني خبر إبراهيم ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ يعني صادقاً وقال الزجاج: الصديق اسم للمبالغة في الصدق يقال كل من صدق بتوحيد الله عز وجل وأنبيائه عليهم السلام وفرائضه وعمل بما صدق فيه فهو صديق ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر بن تارح ابن تاخور وكان يعبد الأصنام ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ دعاءك ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ عبادتك ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ﴾ من عذاب الله عز وجل ﴿شَيْئاً﴾ قرأ ابن عامر[1] يا أبت بالنصب والباقون بالكسر وكذلك ما بعده والعرب تقول في النداء يا أبت ولا تقول يا أبتي ثم قال ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ من الله تعالى من البيان ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أنه من عند غير الله عذبه الله في الآخرة بالنار ﴿فَاتَّبِعْنِي﴾ يعني: أطعني فيما أدعوك ويقال اتبع دين الله ﴿أَهْدِكَ﴾ يعني: أرشدك ﴿صِرَاطاً سَوِيًّا﴾ يعني: طريقاً عدلاً قائماً ترضاه ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ يعني: لا تطع الشيطان فمن أطاع شيئاً فقد عبده ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ يعني عاصياً ثم قال ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ﴾ يعني: أعلم أن يمسك ﴿عذاب﴾ إن أقمت على كفرك يصيبك عذاب ﴿من الرحمن﴾ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: قريناً في النار ﴿قال﴾ له أبوه ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ يعني أتارك أنت عبادة آلهتي ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يقول: إن لم تنته عن مقالتك ولم ترجع عنها لأسبنك وأشتمنك وكل شيء في القرآن من الرجم فهو القتل غيرها هنا فإن ها هنا المراد به السبُّ والشتم ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ يعني تباعد عني حيناً طويلاً ولا تكلمني وقال السدي (ملياً) تعني أبداًوقال قتادة واهجرني ملياً يعني تباعد عني سالماً ويقال لا تُكلمني دهراً طويلاً ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿سلامٌ عليك﴾ يعني أكرمك الله بالهدى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ يعني سأدعو لك ربي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ يعني باراً عوّدني الإجابة إذا دعوته ويقال تحفَّيْتُ بالرجل إذا بالغتُ في إكرامه وهذا قول القتبي ويقال: حفياً يعني عالماً يستجيب لي إذا دعوته وكان يستغفر له ما دام أبوه حياً فلما مات كافراً ترك الاستغفار له وكان يرجو أن يهديه الله عز وجل قولُه عز وجل:

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا
ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا
وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾
وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي
ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ
عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيّٗا ﴿٥٥﴾

﴿وَأَعتزِلُكُمْ﴾ يعني وأترككم ﴿وما تدعون من دون الله﴾ يعني أترك عبادة ما تعبدون من دون الله عز وجل ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ يعني: لا يخيبني إذا دعوته فهاجر إلى بيت المقدس ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني أكرمناه بالولد وهو إسحاق وولد الولد وهو يعقوب وقال بعض الحكماء من هاجر في طلب رضاء الله عز وجل أكرمه الله عز وجل في الدنيا والآخرة كما أن

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٤.

إبراهيم هاجر من قومه في طلب رضى الله تعالى عنه فأكرمه الله تعالى بإسحاق ويعقوب عليهما السلام والثناء العمل الصالح ثم قال تعالى ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أكرمناهم بالنبوة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يعني من نعمتنا المال والولد في الدنيا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم المال الصالح للرجل الصالح ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يعني أكرمناهم بالثناء الحسن وكل أهل دين يقولون دين إبراهيم بزعمهم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلصاً﴾ يعني: أخلصه الله عز وجل ويقال: مخلصاً يعني: جعله الله مختاراً خالصاً قرأ حمزة والكسائي وعاصم[١] بنصب اللام يعني أخلصه الله عز وجل ويقال: مخلصاً من الكفر والمعاصي الباقون مخلِصاً بالكسر يعني مخلصاً في العمل ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ إلى بني إسرائيل ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ يعني: من يمين موسى ولم يكن للجبل يمين ولا شمال ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي: كلمناه بلا وحي وقال الكلبي (وَقَرَّبناهُ نَجيًا) يعني وقربناه حتى سمع صرير القلم في اللوح وقال السدي[٢]: أُدخِلَ في السماء الدنيا وكلم وقال الزجاج (وَقَرَّبْناهُ نَجيًّا) مناجياً ثم قال عز وجل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ من نعمتنا ﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ فكان معه وزيراً معيناً ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ يعني: اذكر في القرآن خبر إسماعيل ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ إذا وعد أنجز قال مقاتل: إن إسماعيل وعد رجلاً أَنْ ينتظره فقام مكانه ثلاثة أيام للميعاد حتى رجع الرجل إليه وقال في رواية الكلبي كان ميعادُه الذي وعد فيه صاحبه انتظره حتى حال الحول وقال مجاهد إنه كان صادق الوعد يعني: لم يعد شيئاً إلا وفى به ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ يعني: كان رسولاً إلى قومه نبياً يُخبر عن الله عز وجل ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ يعني: أهل دينه وقومه ﴿بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يعني: بإتمام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ يعني صالحاً ذكياً.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ يعني: خبر إدريس ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ يعني: صادقاً يُخبر عن الله عز وجل وذكر عن وهب بن منبه أنه قال: إنما سمي إدريس لكثرة ما يدرس من كتاب الله عز وجل والسنن وأنزل عليه ثلاثين صحيفة وهو أول من لبس ثوب القطن وكانوا من قبل ذلك يلبسون جلود الضأن واسمه أخنوخ. ويقال إلياس ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾ يعني: الجنة وقال مجاهد[٣]: يعني في السماء الرابعة قال أخبرني الثقة بإسناده عن ابن عباس[٤] أنه سئل كعب الأحبار عن إدريس فقال كعب إن إدريس كان رجلاً خياطاً وكان يقوم الليل ويصوم النهار ولا يفتر عن ذكر الله عز وجل وكان يكتسب فيتصدق بالثلثين فأتاه ملك من الملائكة يقال له إسرافيل فبشره بالجنة وقال له هل لك من حاجة قال وددت أني أعلم إلى متى أجلي فأزدادُ خيراً فقال له ما أعلمه ولكن إن شئت حملتكَ إلى

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٤، النشر ٣/٣١٨.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٣ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٤ وعزاه لعبد بن حميد.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٤ وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم.

السماء قال: فحمله إلى السماء فلقي ملك الموت فسأله عن أجله ففتح كتاباً معه فقال لم يبق من أجلك إلا ست ساعات أو سبع ساعات وقال أُمرتُ أن أقبض نفسك هاهنا فقبض نفسه في السماء فذلك رفع مكانه(١) وروى الكلبي عن زيد بن أسلم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن إدريس جد أبي نوح وكان أهل الأرض يومئذ بعضهم مؤمناً وبعضهم كافراً فكان يصعد لإدريس من العمل ما كان يصعد لجميع بني آدم فأحبه ملك الموت فاستأذن الله تعالى في خلته قال فأذن له قال: فهبط إليه في صورة غير صورته على صورة آدمي لكيلا يعرفه فقال: يا إدريس إني أحب أن أصحبك وأكون معك فقال له إدريس إنك لا تطيق ذلك قال أنا أرجو أن يقويني الله عز وجل على ذلك فكان معه يصحبه وكان إدريس يسيح النهار كله صائماً فإذا جنه الليل أتاه رزقه حيث يمسي فيفطر عليه ثم يحيي الليل كله فساحا النهار كله صائمين حتى إذا أمسيا أتي إدريس رزقه فأكله ودعا الآخر فقال لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه فيطعم إدريس ثم يستقبلا الليل بالصلاة فإدريس تناله السآمة والفترة من الليل والآخر لا يسأم ولا يفتر فجعل إدريس يتعجب منه ثم أصبحا صائمين فساحا حتى إذا جنهما الليل أتى إدريس رزقه فجعل يطعم ودعي الآخر فقال لا والذي جعلك بشراً ما أشتهيه فيطعم ثم استقبلا الليل كله فإدريس تناله السآمة والفترة والآخر لا يسأم ولا يفتر فجعل إدريس يتعجب منه ثم أصبحا اليوم الثالث صائمين فساحا فمرا على كرم قد أينع وطاب فقال يا إدريس لو أنا أخذنا من هذا الكرم فأكلنا فقال إدريس ما أرى صاحبه فاشتريه منه وإني لأكره أن آخذ بغير ثمن قال فمضيا حتى مرا على غنم فقال يا إدريس لو أخذنا من هذا الغنم شاة فأكلنا من لحمها فقال له إدريس إنك معي منذ ثلاثة أيام فلو كنت آدمياً لطعمت وإني لأدعوك كل ليلة إلى الحلال فتأبى علي فكيف تدعوني إلى الحرام أن آخذه فبصحبة ما بيني وبينك إلا ما أنبأتني من أنت قال إنك ستعلم قال أخبرني من أنت قال أنا ملك الموت ففزع حين قال أنا ملك الموت قال فإني أسألك حاجة قال ما هي قال أن تذيقني الموت قال ما لي من ذلك شيء وليس لك بد من أن تذوقه قال: فإنه قد بلغني عنه شدة ولعلي أعلم ما شدته فأكون له أشد استعداداً قال فأوحى الله عز وجل إلى ملك الموت أن يقبض روحه ساعة ثم يرسله قال فقبض نفسه ساعة ثم أرسله فقال كيف رأيت قال لقد بلغني عنه شد فلقد كان أشد مما بلغني عنه قال: فإني أسألك حاجة أخرى قال: ما هي قال: أحب أن تُريني النار قال مالي من ذلك شيء ولكن سأطلب لك فإن قدرت عليه فعلت فسأل ربه فأمره فبسط جناحه فحمله عليه حتى صعد به إلى السماء فانتهى به إلى باب من أبواب النار فدقه فقيل من هذا فقال: ملك الموت فقال: مرحباً بأمين الله عز وجل فهل أمرت فينا بشيء فقال لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم ولكن هذا إدريس سألني أن أريه النار فأحب أن تروها إياه ففُتح منها بشيء فجاءت بأمر عظيم فخر إدريس مغشياً عليه فحمله ملك الموت وحبسه في ناحية حتى أفاق فقال له ملك الموت ما أحببت أن يصيبك هذا في صحبتي ولكن سألتني فأحببت أن أسعفك قال فإني أسألك حاجة أخرى لا أسألك غيرها قال ما هي قال أحب أن تريني الجنة قال مالي من ذلك شيء ولكن سأطلب لك فإن قدرت عليه فعلت فانطلق به إلى خزنة الجنة فدق باباً من أبوابها فقيل: من هذا فقال: أنا ملك الموت فقالوا: مرحباً بأمين الله عز وجل هل أمرت فينا بشيء فقال لو أمرت فيكم بشيء لم أناظركم ولكن هذا إدريس سألني أن أريه الجنة فأحب أن تروها إياه قال ففتح له الباب فدخل فنظر إلى شيء لم ينظر مثله قط فطاف فيها ساعة ثم قال له ملك الموت انطلق بنا فلنخرج فانطلق إلى شجرة فتعلق بها ثم قال والله لا أخرج حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني فقال ملك الموت إنه ليس حينها ولا زمانها ولكن طلبت إليهم لترى فانطلق بنا فأبى عليه فقبض الله ملكاً

---

(١) في أ [قوله ورفعناه مكاناً علياً].

من الملائكة فقال له ملك الموت اجعل هذا الملك حكماً بيني وبينك قال نعم قال الملك ما هو يا ملك الموت فأخبره بالقصة ثم نظر الملك إلى إدريس قال ما تقول يا إدريس قال أقول إن الله يقولُ «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ» ويقول:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) وقد وردتها وقال لأهل الجنة (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِين) فوالله لا أخرج منها حتى يكون الله عز وجل هو الذي يخرجني قال: فسمع هاتفاً يقول بإذني دخل وبإذني فعل فخل سبيله فذلك قوله عز وجل: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا) أي الجنة ويقال: ورفعناه في القدر والمنزلة ويقال ورفعناه في النبوة والعلم ثم قال عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ يعني إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس وسائر الأنبياء ﴿الذين أنعم الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ من سائر الأنبياء وهم ولد نوح إلا إدريس يعني: حملناهم على السفينة وهم في صلب نوح وأولاده ﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل﴾ وهو يعقوب ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ يعني: أكرمنا بالنبوة ويقال أكرمنا بالإسلام ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ يعني: واصطفينا بعد هؤلاء ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ يعني القرآن ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾ يعني يسجدون ويكون من خوف الله عز وجل بكى جمع باكي وقوله: (سُجَّداً وبُكِيًّا) منصوب على الحال وقال بعضهم: بكياً مصدر بكى يبكي بكياً وقال الزجاج: من قال مصدر فهو خطأ لأن سجداً جمع ساجد وبكيا عطف عليه فهو جمع باك.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ يعني بقي بعد الأنبياء الذين ذكرناهم من أول السورة إلى هنا بقيات سوء وهم اليهود والنصارى يقال: في الرداء خَلْفٌ بإمكان اللام وفي الصلاح خَلَفٌ بفتح اللام ثم وصفهم فقال ﴿أَضَاعُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: عن وقتها ويقال تركوها ويقال تركوا الصلاة فلم يؤدوها وجحدو بها فكفروا ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ يعني وشربوا الخمر ويقال استحلوا الزنا ويقال استحلوا نكاح الأخت من الأب ﴿فسوف يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ يعني شراً ويقال وادي في جهنم يسمى غيًّا ويقال مجازاة الغي كما قال الله عز وجل (يَلْقَ أَثَاماً) أي مجازاة الآثام ثم استثنى فقال تعالى ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ﴾ يعني رجع عن الكفر ﴿وَآمَنَ﴾ يعني: صدق بتوحيد الله عز وجل ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ بعد التوبة ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم ثم قال عز وجل: ﴿جَنَّاتِ عدْنٍ﴾ صار خفضاً لأن معناه يدخلون في (جنات عَدْنٍ) ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني ما غاب عن العباد والله عز وجل لا يغيب عنه شيء ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً﴾ يعني جائياً كائناً وقال القتبي (مَأْتِيًا) يعني المفعول بمعنى الفاعل يعني: جائياً وقال الزجاج: ﴿مَأْتِياً﴾ مفعول من الإتيان لأن كل وصل إليك فقد وصلت إليه وكل من أتاك فقد أتيته ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيْهَا﴾ يعني في الجنة ﴿لَغْواً﴾ يعني حَلفاً وباطلاً ﴿إِلاَّ سَلاَماً﴾ يعني: ويسمعون السلام يسلم بعضهم على بعض وقال الزجاج: اللغو ما يلغي من الكلام ويؤثم فيه والسلام اسم جامع للخير لأنه يتضمن السلامة يعني لا يسمعون إلا سلامهم ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يعني: طعامهم على مقدار البكرة والعشي

وليس هناك بُكرة ولا عشي وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أعجبهم ذلك فأخبرهم الله تعالى أن لهم في الجنة هذه الحالة وقال القتبي الناس يختلفون في مطاعمهم فمنهم من يأكل وجبة أي: مرة واحدة في كل يوم ومنهم من يأكل متى وجد بغير وقت ولا عداد ومنهم من يأكل الغداء والعشاء فأعدل هذه الأحوال كلها وأنفعها الغداء والعشاء والعرب تقول عن ترك العشاء مهرمة ويذهب بلحم الكارة يعني باطن الفخذ فجعل طعام أهل الجنة على قدر ذلك.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ يعني: مطيعاً لله عز وجل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وذلك حين أبطأ عليه الوحي وعند سؤال أهل مكة عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وأمر الروح عاتب المصطفى جبريل فقال الله تعالى (قل يا جبريل لمحمد)[1] ومعناه: قل (وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ما بين النفختين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يعني: لم يكن ينساك ربك حيث لم يوح إليك ويقال ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا جميع ما مضى من أمر الدنيا وما بين ذلك ما يكون في هذا الوقت منا (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) أي قد علم الله عز وجل ما كان وما يكون وما هو كائن حافظ لذلك ويقال ما نسيك ربك وإن تأخر عنك الوحي وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[2] أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل: ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت هذه الآية ثم قال ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالق السموات وخالق الأرض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق ويقال رب السموات والأرض أي مالكهما وعالم بهما وما فيهما ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي: أطعه ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ يعني: أحبس نفسك على عبادته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يعني: هل تعلم أحداً يسمى الله سوى الله وهل تعلم أحداً يسمى الرحمن سواه ويقال هل تعلم أحداً يستحق أن يقال له خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: أبي بن خلف ﴿أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ للبعث على معنى الاستفهام، قال الله عز وجل ﴿أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني أولا يتعظ ويعتبر ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ قرأ: نافع وعاصم وابن عامر[3] أولا يذْكر بجزم الذال مع التخفيف يعني أولا يعلم والباقون أولا يَذَّكّرُ بنصب الذال والتشديد ثم قال ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم الرب بنفسه ليبعثنهم وليجمعنهم يعني الذين أنكروا البعث ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يعني الشياطين ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ يعني: لنجمعنهم ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٧٨ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي والدلائل والحديث عند البخاري في بدء الخلق (٣٢١٨)، وفي التفسير (٤٧٣١، ٧٤٥٥)، والترمذي في التفسير (٣١٥٨) والنسائي ٢/٣٤.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٥، النشر ٢/٣١٨.

يعني: جميعاً قال أهل اللغة الجثيُّ جمع جَاثٍي مثل بارِك وبرك وساجد وسجدا وقاعد وقعد أي على ركبهم ولا يقدرون على القيام قال الزجاج الأصل في الجسم وجاز كسرها إتباعاً لكسر التاء وهو نصب على الحال ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني لنخرجن من كل شيعة من أهل كل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ يعني جراة على الله عز وجل وهم القادة في الكفر وساداتهم نبدأ بهم فنعذبهم في النار وروي عن سفيان عن علي بن[1] الأقمر عن أبي[2] الأحوص[3] في قوله أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا قال يبدأ بالأكابر فالأكابر جرماً قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: أحق بالنار دخولاً.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال بعضهم: أي داخلها المؤمن والكافر يدخلون على الصراط وهو ممدود على متن جهنم ويقال (وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا) يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم وروى سفيان عن إبراهيم[4] بن مهاجر عن مجاهد أن نافع بن الأزرق خاصم[5] ابن عباس وقال لا يردها مؤمن فقال ابن عباس أما أنا وأنت فسندخلها فانظر بماذا نخرج منها إن خرجنا وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يمرون على الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كأجود الخيل ومنهم من يمر كأجود الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى أن آخرهم مثل رجل نوره على إبهامي قدميه ثم يتكفأ به الصراط والصراط دحض مزلة كحد السيف عليه حسك[6] كحسك العتاد وحافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس فبين مارٍ ناج وبين مخدوش مكدوش في النار والملائكة عليهم السلام يقولون رب سلم سلم وروى سفيان عن ثور بن خالد بن[7] معدان قال إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا أَلَمْ يَعِدْنا رَبُّنا أَنَّا نَرِدُ النَّارَ قال إنكم قد مررتم بها وهي خامدة فذلك قوله عز وجل (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) يعني: الخلائق على الصراط والصراط في جهنم ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ يعني قضاء واجباً قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن مندوست قال: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا عدي بن عاصم قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا جرير عن أبي السليل[8] عن غنيم بن قيس[9] عن أبي العوام قال: قال كعب[10] هل تدرون ما قوله (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) قالوا: ما كنا نرى ورودها إلا دخولها قال لا ولكن ورودها أن

(١) علي بن الأقمر بن عمرو بن الحارث أبو الوازع الهمداني الوادعي الكوفي انظر طبقات ابن سعد ٦/٣١١، الجرح والتعديل ٦/١٧٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) عوف بن مالك بن نضلة الجشمي أبو الأحوص الكوفي من بني جشم بن معاوية ابن بكر بن هوازن انظر التهذيب ٨/١٦٩.

(٤) إبراهيم بن مهاجر بن جابر البجلي أبو إسحاق الكوفي انظر التهذيب ١/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٦) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم. لسان العرب ٢/ ٨٧٤.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨١ وعزاه لابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والحكيم وابن الأنباري في المصاحف.

(٨) ضريب بن نقير. ويقال نقير ويقال نقيل أو السليل القيسي الجريري البصري. انظر التهذيب ٤/٤٥٧ - ٤٥٨.

(٩) غنيم بن قيس المازني الكعبي أبو العنبر البصري. انظر التهذيب ٨/ ٢٥١.

(١٠) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

يجاء بجهنم كأنها متن أهالة حتى إذا استوت عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم نادى مناد خذي أصحابك وذري أصحابي فتخسف بكل ولي لها وهي أعلم بهم من الوالد لولده وينجو المؤمنون ندِيَّة ثيابهم قال: وحدثني الثقة بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية كبا لها الناس كبوةً شديدة وحزنوا حتى بلغ الحزن كل مبلغ وليس أحداً إلا وهو يدخلها فأنشأوا يبكون قال ونزل بابن مظعون ضيف فقال لامرأته هيئي لنا طعاماً فاستوصي ـ بضيفك خيراً حتى آتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانتهى إليه وهم يبكون فقال ما يبكيكم قالوا نزلت هذه الآية (وَإِنْ مِنْكُم إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا) يقول: كائناً لا يبقى أحد إلا دخلها فأنشأ عثمان بن مظعون يبكي ثم انصرف إلى منزله باكياً فلما أتى منزله سمعت امرأته بكاءه فأنشأت تبكي فلما سمع الضيف بكاءهما أنشأ يبكي فلما دخل عليهما عثمان قال لها ما يبكيك قالت سمعت بكاءك فبكيت فقال للضيف وأنت ما يبكيك قال عرفن أن الذي أبكاكما سيبكيني قال عثمان فابكوا وحق لكم أن تبكوا أنزل الله عز وجل اليوم على رسوله (وَإِنْ مِنْكُم إِلاَّ وَارِدُهَا) فمكثوا بعد هذه الآية سنتين ثم قال عز وجل ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ وروي في بعض الأخبار أنه نزل بعد ثلاثة أيام (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا) الشرك والمعاصي ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ يعني: المشركين جميعاً فيها ففرح المسلمون بها قرأ الكسائي[1] ننجي بالتخفيف والباقون بالنصب والتشديد نجا ينجي ونجا ينجي بمعنى واحد.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ تعرض عليهم يعني واضحات قد بين فيها الحلال والحرام ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني إن النضر بن الحارث قال لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: أهل مكة قالوا لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَيّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً﴾ يعني أهل الدينين يعني منزلاً قرأ ابن كثير[2] مُقاماً بضم الميم والباقون بالنصب فمن قرأ بالضم فهو الإقامة يقال أقمت إقامة ومقاماً ومن قرأ بالنصب فهو المكان الذي يقام فيه ﴿وأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ يعني: مجلساً وذلك أنهم لبسوا الثياب ودهنوا الرؤوس ثم قالوا للمؤمنين أي الفريقين خير منزلةً المسلمون أو المشركون وأرادوا أن يصرفوهم عن دينهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ يعني: أكثر أموالاً وَرِئْياً يعني: منظراً حسناً فلم يُغن عنهم ذلك من عذاب الله شيئاً قرأ نافع وابن عامر[3] وريًّا بتشديد الياء بغير همز يعني النعمة والباقون ورئياً بالهمز بغير تشديد يعني المنظر قال أبو عبيد وهكذا نقرأ مهموزاً لأنه من رؤية العين وإنما هي المنظر ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ يعني: قل يا محمد من كان في الكفر والشرك ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ يعني: يزيد له مالاً وولداً قوله فليمدد هذا لفظ الأمر ومعناه الخبر وتأويله أن الله عز وجل جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها ويمده فيها كما قال (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون) ﴿حَتَّى

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٦، النشر ٣١٨/٣.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٦، النشر ٣١٨/٢.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٤٦.

إذا رأوا مَا يُوعَدُون﴾ يعني في الآخرة من العذاب والثواب ﴿إِمَّا العَذَابُ﴾ في الدنيا ﴿وَإِمَّا السَّاعَةُ﴾ أي قيام الساعة ﴿فَسَيَعْلَمونَ﴾ يعني فسيعرفون يوم القيامة ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني صنيعاً في الدنيا ومنزلاً في الآخرة ﴿وأَضْعَفُ جُنْداً﴾ يعني أقل عدداً وقوة ومنعة أهم أم المؤمنون ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ يعني: يزيد الله عز وجل الذين آمنوا بالمنسوخ هدى بالناسخ ليعملوا بالناسخ دون المنسوخ ويقال جعل جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم ويزيدهم بصيرة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ وقد ذكرناه ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ يعني: وأفضل مرجعاً في الآخرة.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ﴾ يعني لأعطين ﴿مَالاً وَوَلَداً﴾ في الجنة روى أسباط عن السدي أن خباب[1] بن الأرت كان صائغاً يعمل للعاص بن وائل حلياً فجاء يسأله أجره فقال له العاص أنتم تزعمون أن لنا بعثة وجنة وناراً فإذا كان يوم القيامة فإني سأوتى مَالاً وَوَلداً وأعطيك منه فنزل(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) في الجنة قرأ نافع وعاصم وأبو عمرو[2] مالاً وَوَلَداً بفتح اللام والواو في كل القرآن غير أن أبا عمرو قرأ في سورة نوح بالضم وهكذا روي عن مجاد وقرأ حمزة والكسائي بضم الواو وجزم اللام من هاهنا إلى آخر السورة والتي في الزخرف والتي في سورة نوح وقال أبو عبيد إنما قرأ هكذا لأنهما جعلا الوُلْد غير الوَلَد فيقال الوُلْد جماعة الأهل والوَلَد واحد وقال الزجاج: الوُلْد مثل أسد وأُسْد وجائز أن يكون الوَلد بمعنى الولد قال أبو عبيد والذي عندنا في ذلك أنهما لغتان والذي نختاره منهما بفتح اللام والواو قال الله عز وجل رداً على الكافرين ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يقول أنظر في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ يعني: أعقد عند الله عقد التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ويقال أعهد إليه أن يجعل له في الجنة ﴿كَلَّا﴾ وهو رد عليه لا يعطي له ذلك واعلم أنه ليس في النصف الأول كلا وأما النصف الثاني ففيه نيف وثلاثون موضعاً ففي بعض المواضع في معنى الرد للكلام الأول وفي بعض المواضع للتنبيه في معنى الافتتاح وفي بعض المواضع يحتمل كلا الوجهين فأول ذلك أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلَّا تم الكلام عنده أي كلا لم يطلع الغيب ولم يتخذ عهداً ثم ابتدأ ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من ذلك قوله (فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا) لا يقتلونك وأما الذي هو للتنبيه في معنى الافتتاح قوله عز وجل (حَتَّى زرتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون) وقوله عز وجل سنكتب ما يقول من الكذب يعني: سنحفظ ما يقول ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني: نزيد له من العذاب مداً يعني بعضه على إثر بعضٍ ﴿وَنَرِثُهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨٣ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي والبيهقي في الدلائل وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٧ النشر ٢/٣١٩.

مَا يَقُولُ﴾ يعني نعطيه غير ما يقول في الجنة ونعطي ما يدعي لنفسه لغيره **﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾** يعني وحيداً بغير مال ولا ولد **﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾** يعني منعة في الآخرة **﴿كَلَّا﴾** رد عليهم أي لا يكون لهم منعة. وتم الكلام ثم قال **﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾** يعني: الآلهة يجحدون عبادتهم **﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾** يعني الآلهة تكون عوناً عليهم في العذاب ويقال عدواً لهم في الآخرة ومن هذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طلب رضا المخلوق في معصية الخالق عاد الحامد له ذاماً كما أن المشركين طلبوا العز من الآلهة فصارت الآلهة عوناً عليهم في العذاب فوجدوا ضد ما طلبوا منه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

ثم قال عز وجل **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾** يعني ألم تخبر في القرآن أنا سلطنا الشياطين **﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾** مجازاة لهم ويقال خلينا بينهم وبين الكفار فلم نعصمهم **﴿تَؤُزُّهُمْ ازّاً﴾** يعني: تزعجهم إزعاجاً وتغريهم إغراء حتى يركبوا المعاصي قال الضحاك (تَؤُزهم أزًّا) أي تأمرهم أمراً وقال الحسن: تقدمهم إقداماً إلى الشر وقال الكلبي نزلت الآية في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط **﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾** يا محمد **﴿عليهم﴾** بالعذاب **إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾** يعني أيام الحياة ثم ينزل بهم العذاب ويقال نعد عليهم النفس بعد النفس ويقال الأيام والليالي والشهور قوله عز وجل: **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾** يعني: أذكر يوم نحشر المتقين الذين اتقوا الشرك والفواحش **﴿إِلَى الرَّحْمَن وَفْداً﴾** يعني: ركباناً على النوق والوفد جمع الوافد مثل الركب جمع راكب والوفد الذي يأتي بالخبر والبشارة ويجازي بالحياة الكرامة وروي عن علي بن أبي طالب[1] أنه قرأ (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً) ثم قال أتدرون على أي شيء يحشرون أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولكن يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها أرحال الذهب وأزمتها من الزبرجد ثم ينطلق بهم حتى يقرعوا باب الجنة وقال الربيع بن أنس يوفدون إلى ربهم فيكرمون ويعظمون ويشفعون ويحيون فيها بالسلام ويقال: إلى الرحمن يعني إلى الرحمة وهي الجنة ويقال إلى الرحمن يعني إلى دار الرحمن ثم قال عز وجل **﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾** يعني: عطاشاً مشاة وأصله الورود على الماء والوارد على الماء يكون عطشاناً.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٥ وعزاه لابن مردويه.

﴿بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾

قال عز وجل ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ يعني: من جاء بلا إله إلا الله وقال سفيان الثوري: إلا من قدم عملاً صالحاً ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾ يعني: قلتم قولاً عظيماً منكراً ويقال كذباً وزوراً قال عز وجل ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يعني: من قولهم ﴿وتنشق الأرض﴾ يعني: تتصدع الأرض ﴿وتخر الجبال هَدًّا﴾ تصير الجبال كسراً ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ يعني بأن قالوا لله ولد روي عن بعض الصحابة أنه قال كان بنـو آدم لا يأتون شجرة إلا أصابوا منها منفعة حتى قالت فجرة بني آدم اتَّخذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً اقشعرت الأرض وهلك الشجر وقرأ نافع والكسائي يكاد بالياء على لفظ التذكير والباقون بالتاء لأن الفعل مقدم فيجوز كلاهما وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وعاصم في رواية حفص[١] يَتَفَطَّرْنَ بالتـاء والباقون بالنون ومعناهما واحد مثل ينشق وتنشق قال الله عز وجل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ يعني: ما اتخذ الله عز وجل ولداً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ يعني إلا أقر بالعبودية يعني به الملائكة وعيسى وعزيراً وغيرهم ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُم﴾ يعني حفظ عليهم أعمالهم ليجازيهم بها ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يعني: علم عددهم ويقال أحصاهم أي حفظ أعمالهم فيجازيهم وعدهم عداً أي علم عدد أنفاسهم وحركاتهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ يعني وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ يعني: يحبهم ويحببهم إلى الناس وقال كعب[٢] الأحبار قرأت في التوراة أنها لم تكن محبة لأحد إلا كان بدؤها من الله تعالى ينزل إلى أهل السماء ثم ينزلها إلى أهل الأرض ثم قرأت القرآن فوجدته فيه وهو قوله سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً يعني محبة في أنفس القوم روى سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة[٣] أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إذا أحب الله عبداً نادى جبريل قد أحببت فلاناً فأحبوه فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في الأرض وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل قد أبغضت فلاناً فينادي في أهل السماء ثم تنزل له البغضاء في أهل الأرض قوله عز وجل ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني هَوَّنا قراءة القرآن على لسانـك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الموحدين ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ أي جُدلاً بالباطل شديدي الخصومة وهو جمع ألد مثل أصم وصم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَـرْنٍ﴾ يعني من قبل قريش ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ يعني هل ترى منهم من أحد ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾ أي صوتاً خفياً والركز الصوت الذي لا يفهم والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٤٨ ـ ٤٤٩، النشر ٢/٣١٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٨٧ وعزاه لعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

والحديث عند البخاري ٦/٣٠٣ في بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم ٤/٢٠٣٠ في البر والصلة ١٥٧/٢٦٣٧.

سُورَةُ طه(١)

وهي مائة وثلاثون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿طه﴾قرأ أهل الكوفة وحمزة والكسائي في رواية أبي بكر(٢) «طِهِ» بكسر الطاء والهاء وقرأ ابن عامر وابن كثير وعاصم في رواية حفص بنصب الطاء والهاء وقرأ نافع وسطاً بين النصب والكسر وقرأ أبو عمرو وابن

---

(١) سميت سورة (طاها) باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها. ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من إسميهما تبعاً لرسم المصحف. وكذلك وردت تسميتها في كتب السنة. وذكر في الاتقان عن السخاوي أنها تسمى أيضاً (سورة الكليم) وفيه عن الهذلي في كامله أنها تسمى (سورة موسى). وهي مكية كلها على قول الجمهور واقتصر عليه ابن عطية وكثير من المفسرين وفي الاتقان أنه استثنى منها آية ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ الآية.

واستظهر في الإتقان أن يستثنى منها قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ الآية.

لما أخرج أبو يعلى والبزار عن أبي رافع قال: أضاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب فقال: لا إلا برهن فأتيت النبي فأخبرته فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض. فلم أخرج من عنده حتى نزلت

﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾الآية.

احتوت هذه السورة على التحدي بالقرآن بذكر الحروف المقطعة في مفتتحها. والتنويه بأنه تنزيل من الله لهدي القابلين للهداية فأكثرها في هذا الشأن. والتنويه بعظمة الله تعالى. وإثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنها تماثل رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس. فضرب المثل لنزول القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلام الله موسى ـ عليه السلام ـ.

وبسط نشأة موسى وتأييد الله إياه ونصره على فرعون بالحجة والمعجزات وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه. وإنجاء الله موسى وقومه وغرق فرعون وما أكرم الله به بني إسرائيل في خروجهم من بلد القبط. وقصة السامري وصنعه العجل الذي عبد بنو إسرائيل في مغيب موسى ـ عليه السلام ـ.

وكل ذلك تعريض بأن مآل بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صائر إلى ما صارت إليه بعثة موسى ـ عليه السلام ـ من النصر على معانديه. فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد عمن أعرضوا عن القرآن ولم تنفعهم أمثاله ومواعظه.

وتذكير الناس بعداوة الشيطان للإنسان بما تضمنته قصة خلق آدم. ورتب على ذلك سوء الجزاء في الآخرة لمن جعلوا مقادتهم بيد الشيطان وإنذارهم بسوء العقاب في الدنيا. وتسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما يقولونه وتثبيته على الدين. وتخلل ذلك إثبات البعث. وتهويل يوم القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال. انظر التحرير ١٦/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٤٩، ٤٥٠ إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٢٤٢.

العلاء بنصب الطاء وكسر الهاء قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية أبي صالح لما نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوحي بمكة اجتهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العبادة فاشتد عليه فجعل يصلي الليل كله حتى شق عليه ذلك ونحل جسمه وتغير لونه فقال أبو جهل وأصحابه إنك شقي فأتنا بآية أنه ليس مع إلهك إله فنزل (طَهَ) يعني يا رجل بلسان عك وعني به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال عكرمة والسدي هو بالنبطية وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال طه كقولك يا فلان ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا صلى رفع رجلاً ووضع أخرى فنزل طه يعني طىء الأرض بقدميك جميعاً وقال مجاهد[١] طه فواتح السورة ويقال طا طرب المؤمنين في الجنة وها هو إن الكافرين في النار ويقال الطا طلب المؤمنين في الحرب والها هرب الكافرين ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ يعني لتنصب نفسك وتتعبها ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ يقول: لم ننزله إلا عظة لمن يسلم وقال القتبي في الآية تقديم يقول ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى لا أن تشقى ثم قال ﴿تَنْزِيلاً﴾ يعني: تنزل به جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ يعني: نزل من عند خالق السموات والأرض العلى يعني: الرفيع وقال أهل اللغة العلى جمع العليا يقول السماء العليا والسموات العلى ثم قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ أي: حكمه ويقال كان فوق العرش حين خلق السموات والأرض ويقال استوى استولى وملك[٢] كما يقال استوى فلان على بلد كذا يعني استولى عليها وملكها فالله تعالى بين لخلقه قدرته وتمام ملكه أنه يملك العرش وله ما في السموات وما في الأرض فذلك قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ يعني: ما تحت الأرض السابعة السفلى وروى أسباط عن السدي[٣] في قوله عز وجل وما تحت الثرى قال الصخرة التي تحت الأرض السابعة وهي صخرة خضراء وهي سجين التي فيها كتاب الكفار ويقال الثرى تراب رطب مقدار خمسمائة عام تحت الأرض ولولا ذلك لأحرقت النار الدنيا وما فيها وروي عن ابن عباس أنه قال بسطت الأرض على الصخرة والصخرة بين قرني الثور والثور على الثرى وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله عز وجل.

وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: تعلن بالقرآن ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ أَخْفَى ﴾ يعني: ما أسررت في نفسك «وَأَخْفَى» يعني: ما لم تحدث في نفسك وهذا قول الضحاك[٤] وقال ابن عباس هكذا وقال عكرمة[٥]: السر ما حدث الرجل به أهله وأخفى ما تكلمت به نفسك وروى منصور بن عمار عن بعض الصحابة قال السر ما أسررت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٩ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) سقط في أ.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٩ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٩٠ وعزاه لعبد بن حميد.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٩٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

به في نفسك وأخفى من السر ما لم يطلع عليه أحد أنه كائِنٌ ثم قال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: هو الله الخالق الرزاق لا خالق ولا رازق غيره ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى﴾ يعني الصفات العلى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ يعني: خبر موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن ثم أخبره فقال ﴿إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾[1] يعني انزلوا مكانكم وقفوا ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ يعني: أبصرت ناراً وذلك حين رجع من مدين مع أهله أصابهم البرد فرأى موسى ناراً من البعد فقال لهم امكثوا إني آنست ناراً ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ يعني: بشعلة وهو ما اقتبس من عود ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدَىً﴾ يعني هادياً يدلنا على الطريق وكان موسى ـ عليه السلام ـ ضل الطريق وكانت ليلة مظلمة ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني: إنتهى إلى النار ﴿نُودِيَ﴾يعني: دعي ﴿يَا مُوسَى﴾ قال ابن عباس: لما أتى النار فإذا هي نار بيضاء تستوقد من شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها وهي خضراء فجعل يتعجب منها وقال في رواية (كعب)[2] فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء فيقتبسه فلما طال ذلك أهوى إليها بضغث في يده وهو يريد أن يقتبس من لهبها فلما فعل ذلك مالت نحوه كأنها تريده فاستأخر عنها ثم عاد فطاف بها فنودي يا موسى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِي ٱلْمُقَدَّسِ طُوَىً﴾[3] يعني: المطهر قال مقاتل طوى إسم الوادي وقال مجاهد: أي طي الأرض حافياً قال عامة المفسرين: إنما أمره أن يخلع نعليه لأنهما كانا من جلد حمار ميت وقال بعضهم أراد أن يصيب باطن قدميه من الوادي ليتبرك به وروي عن كعب الأحبار أنه كان جالساً في المسجد فجاء رجل يصلي فخلع نعليه ثم جاء آخر يصلي فخلع نعليه ثم جاء آخر فخلع نعليه فقال لهم كعب الأحبار أنبيكم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمركم بهذا قالوا لا قال فلم تخلعون نعالكم إذا صليتم قالوا سمعنا الله تعالى يقول: إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى قال أتدرون من أي شيء كانتا نعلاه قالوا لا قال إنما كانتا من جلد حمار ميت فأمره الله تعالى أن يخلعها ليمسه القدس كله وقال عكرمة «إخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى» قال لكي يمس راحة قدميه الأرض الطيبة قرأ ابن كثير وأبو عمرو[4] أني أنا ربك بنصب الألف يعني بأني أنا ربك على معنى البناء والباقون بكسر الهاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع طوى بنصب الواو بغير تنوين وقرأ الباقون بالتنوين

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)

ثم قال: ﴿وَأَنَا اخترتك﴾ يعني: اصطفيتك للرسالة قرأ حمزة بكسر الألف وتشديد النون وإنا اخترناك بالنون بلفظ الجماعة والباقون بنصب الألف وتخفيف النون وأنا اخترتك بالتاء قال أبو عبيدة وبهذا نقرأ لموافقة الخط

---

(١) قرأ حمزة ﴿لأهله امكثوا﴾ بضم الهاء وكذلك في القصص على أهل الكلمة وعلى لغة من يقول: مررت به يا فتى. وقرأ الباقون: بكسر الهاء وإنما كسروا لمجاورة الكسرة. انظر حجة القراءات ٤٥٠.

(٢) في أ [الكلبي وهب بن منبه].

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (طوى) بغير تنوين. وقرأ الباقون بالتنوين. قال الزجاج: فمن لم ينون ترك صرفه من وجهين: أحدهما أن يكون معدولاً عن (طاوٍ) فيصير مثل (عمر) المعدول عن (عامر) فلا يصرف كما لا ينصرف (عمر) والوجه الآخر أن يكون إسماً للبقعة، كما قال جل وعز: ﴿في البقعة المباركة من الشجرة﴾. ومن ينونه فهو إسم الوادي وهو مذكر سمي بمذكر على (فُعَل) مثل (حُطَم). انظر ابن زنجلة ٤٥١.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٥١، النشر ٢/٣١٩.

يعني: بخط عثمان ثم قال: ﴿فاستمع لما يوحى﴾ يعني: إعمل بما تؤمر وتنهى ثم قال ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني﴾ يعني: أطعني واستقم على توحيدي ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ يعني: لتذكرني فيها ويقال إن نسيت الصلاة فصلها إذا ذكرتها وروى الزهري عن سعيد[١] بن المسيب أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين نام عن الصلاة حتى طلعت الشمس قال: من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها إن الله تعالى يقول (أقم الصلاة لذكري) قال بعضهم هذا خطاب لموسى وقال بعضهم: هذا لخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قوله (واتبع هواه فتردى) ثم رجع إلى قصة موسى بقوله: (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى وما[٢] تلك بيمينك يا موسى) ثم قال ﴿إن الساعة آتية﴾يعني: كائنة ﴿أكاد أخفيها﴾ يعني: أسرها عن نفسي فكيف أعلنها لكم يا أهل مكة هكذا روي عن جماعة من المتقدمين وقال ابن عباس[٣] في رواية أبي صالح وقال القتبي كذلك في قراءة أبي أخفيها من نفسي وهكذا روى جماعة من المتقدمين وروى طلحة عن عطاء في قوله (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) عن نفسي وروي في إحدى الروايتين عن أبي بن كعب أنه كان يقول (أكاد أخفيها) بنصب الألف يعني: أكاد أظهرها وهي قراءة سعيد بن جبير[٤] قال أهل اللغة[٥]خفي أي أظهر وقال امرؤ القيس «خفاهن من انفاقهن كأنما * خفاهن ودق من عشيّ مجلب» يذكر الفرس أنه استخرج الفأرة من جحرهن كالمطر ثم قال ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ يعني: لتثاب كل نفس بما تعمل ثم قال عز وجل ﴿فلا يصدنك عنها﴾يعني: لا يصرفنك عنها يعني: عن الإقرار بقيام الساعة ﴿من لا يؤمن بها﴾ يعني: من لا يصدق بقيام الساعة ﴿واتبع هواه فتردى﴾ يعني: فتهلك ويقال: الردى الموت والهلاك ثم رجع إلى قصة موسى - عليه السلام -

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

فقال عز وجل ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ يعني: أي الشيء الذي بيدك وكان عالماً بما في يده ولكن الحكمة في سؤاله لإزالة الوحشة عن موسى لأن موسى كان خائفاً مستوحشاً كرجل دخل على ملك (وهو خائف) فسأله عن أي شيء فتزول بعض الوحشة عنه بذلك ويستأنس بسؤاله وقال بعضهم: إنما سأله تقريراً له أن ما في يده عصاً

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٣ وعزاه للترمذي وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والحديث عند مسلم من رواية أبي قتادة ١/٤٧٣ في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة (٣١١/٦٨١) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (٣٠٩/٦٨٠).

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٤ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٢٩٤ وعزاه لابن أبي حاتم وابن الأنباري.

(٥) خفا: خفا البرق خفواً وخُفُواً: لمع وخفا الشيء خفواً: ظهر. وخَفَى الشيء خفياً وخُفياً: أظهره واستخرجه. يقال: خفى المطر الفِئارَ إذا أخرجهن من أنفاقهن، أي من حجرهن، قال امرؤ القيس يصف فرساً:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدقٌ مِنْ سَحَابٍ مُرَكَّبِ

لكيلا يخاف إذا صار ثعباناً ﴿قال﴾ موسى ﴿هي عصاي أتوكأ عليها﴾ يعني: أعتمد عليها إذا أعييت ﴿وأهش بها على غنمي﴾ يعني: أخبط بها ورق الشجر لغنمي فإن قيل إنما سأله عما في يده ولم يسأله عما يصنع بها فلم أجاب موسى عن شيء لم يسأله عنه قيل له قد قال بعضهم في الآية إضمار يعني (وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصاي) فقال وما تصنع بها قال(أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي) وقال بعضهم: إنما خاف موسى بذلك لأنه أمره بأن يخلع نعليه فخاف أن يأمره بإلقاء عصاه فجعل يذكر منافع عصاه فقال: (أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي) ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ يعني: حوائج أخرى وواحدها مأربة وقال مقاتل كان موسى يحمل زاده على عصاه إذا سار وكان يركزها في الأرض فيخرج الماء وتضيء له بالليل بغير قمر فيهتدي على غنمه وروى أسباط عن السدي قال كان عصا موسى من عود شجر آس من شجر الجنة وكان استودعها إياه ملك من الملائكة في صورة إنسان يعني عند شعيب وقال علي بن أبي طالب كان عصى موسى من عود ورد من شجر الجنة إثني عشر ذراعاً من ذراع موسى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى﴾ يعني: الق عصاك من يدك فظن موسى أنه يأمره بإلقائها على وجه الرفض فلم يجد بداً ﴿فَأَلْقَاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ يعني تسرح وتسير على بطنها رافعة رأسها فخاف موسى وولى هارباً ﴿قال﴾ الله تعالى لموسى: ﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾ يعني: سنجعلها عصاً كما كانت أول مرة وأصل السيرة الطريقة كما يقال فلان على سيرة فلان أي على طريقته وإنما صار نصباً لنزع الخافض والمعنى سنعيدها إلى حالها الأولى فتناولها موسى فإذا هي عصاً كما كانت ثم قال عز وجل ﴿واضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ قال الكلبي: الجناح أسفل الإبط يعني أدخل يدك تحت إبطك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لها شعاع يضيء (كضوء)[1] الشمس ﴿من غير سوء﴾ يعني من غير برص ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ يعني علامة أخرى مع العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ يعني: العظمى ومعناه: لنريك الكبرى من آياتنا ولهذا لم يقل الكبريات لأنه وقع المعنى على واحدة.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ يعني علا وتكبر وادعى الربوبية أي اذهب إليه وادعه إلى الإسلام ﴿قال﴾ موسى عليه السلام ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِيْ صَدْرِي﴾ يعني يا رب وسع لي قلبي حتى لا أخاف منه ويقال لين قلبي بالإسلام حتى أثبت عليه ﴿وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي﴾ يعني: هون علي ما أمرتني به ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ يعني: ابسط العقدة أي: الرتة من لساني ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ يعني: يفهموا كلامي وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ في حال صغره رفعه فرعون في حجره فلطمه موسى لطمة ويقال أخذ بلحيته ومدها إلى الأرض فقال فرعون هذا من أعدائي الذين كنت أتخوف به فقالت امرأته آسية بنت مزاحم صبي جاهل لا عقل له ضع له طستاً من ذهب وطستاً من نار حتى تعلم ما يصنع فوضعوا له ذلك فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ فأخذ يده وأهوى بها إلى النار فأخذ جمرة فوضعها في فيه فكانت الرثوثة من ذلك فذلك قوله تعالى: يفقهوا قولي ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ يعني إجعل لي معيناً من أهلي أخي هارون ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ حتى يكون قوة لي والأزر الظهر وجماعته أزر ويراد به القوة

(١) سقط في ظ.

يقال آزرت فلاناً على الأمر أي قويته عليه وإنما نصب هارون لوقوع الفعل عليه والمعنى إجعل هارون أخي وزيراً فصار الوزير المفعول الثاني ثم قال تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ يعني في نبوتي قرأ ابن عامر[١] أشدد بنصب الألف وأُشركه بضم الألف على معنى الخبر عن نفسه أي أنا أفعل ذلك وإنما كان جزماً على الجزاء في الأمر وبالباقون أُشدد بضم الألف وأشركه بنصب الألف على معنى الدعاء يعني اللهم أشدد به أزري وأشركه في أمري قال أبو عبيدة بهذه القراءة نقرأ ويكون حرف ابن مسعود شاهداً لها وكان يقرأ هارون أخي وأشدد به أزري وأشركه في أمري وفي حرف أُبي وأشركه في أمري وأشدد به أزري قال كأنه دعا ثم قال ﴿كي نسبحك كثيراً﴾ يعني نصلي لك كثيراً ﴿ونذكرك﴾ باللسان ﴿كثيراً﴾ يعني: على كل حال (إنكَ كنت بنا بصيراً﴾ أي كنت عالماً بنا في الأحوال كلها ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد أُوتيت سؤلك يا موسى﴾ يعني: أعطيناك ما سألته

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ يعني قد أكرمتك بكرامات قبل هذا من غير أن تسألني ثم بين له الكرامات والنعم فقال ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى﴾ أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم (أي: ألهمنا أمك ما ألهمت ويقال ما يوحى على الحجر يعني كان إلهاماً ولم يكن وحياً)[٢] ﴿أن اقذفيه في التابوت﴾ يعني اجعلي موسى في التابوت ثم ﴿فاقذفيه في اليم﴾ يعني اطرحيه في البحر ﴿فليلقه اليم بالساحل﴾ يعني شاطىء البحر ﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾ يعني: آل فرعون ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ يعني: ألقيت محبتي عليك فكل من رآك أحبك ﴿ولتصنع على عيني﴾ يقول ما يصنع بك على منظر مني وبعلمي وبإرادتي ﴿إذ تمشي أختك فتقول﴾ لآل فرعون ﴿هل أدلكم على من يكفله﴾ يعني: أرشدكم على من يكفله يعني[٣] يضمه ويحوطه ويرضعه ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾ يعني رددناك إليها لتطيب نفسها ﴿ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم﴾ يعني من القود ﴿وفتناك فتوناً﴾ يعني ابتليناك ببلاء بعد بلاء ويقال بنعمة على إثر نعمة قال أخبرني الثقة بإسناده عن سعيد بن جبير[٤] قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى لموسى (وفتناك فتوناً) فسألته عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فإن له حديثاً طويلاً فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس ليخبرني ما وعدني من حيث الفتون فقال ابن عباس تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً فقال بعضهم إن بني إسرائيل لينتظرون ذلك ما يشكون فيه قال فرعون فكيف ترون فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشقار

(١) انظر حجة القراءات ٤٥٢، النشر ٢/ ٣٣٠.

(٢) سقط في ظ.

(٣) سقط في أ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٩٦ وعزاه لابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد بن حميد والنسائي وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون وأن الصغار يذبحون قالوا: يوشك أن يفني بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاماً ودعوا (أي اتركوا) عاماً لا تقتلوا منهم أحداً فنشأ الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا فتخافون مكاثرتهم إياكم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانيةً حتى إذا كان من قابل حملت بموسى فوقع في قلبها من الحزن والهم ما لا يعلم فذلك من الفتون يا ابن جبير فأدخل عليه في بطن أمه ما يراد به فأوحى الله تعالى إليها أنْ «لَا تَخَافِيْ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» وأمرها إذا هي ـ ولدته أن تجعله في التابوت ثم تلقيه في اليم فلما ولدته فعلت ما أُمرت به حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيته بيدي إلى دواب البحر تأكله فانطلق به الماء حتى رقابه عند فرضة مستقى جواري امرأة فرعون فرأينه وأخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن لبعض إن في هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ـ فحملنه كهيئته حتى دخلن به عليها فدفعنه إليها فلما فتحنه ونظرت فإذا فيه غلام[1] فألقى عليه منها محبة لم يلق مثلها على أحد قط من البشر وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً من ذكر كل شيء إلا ذكر موسى فلما سمع الذباحون بذكره أقبلوا إلى امرأة فرعون بشفارهم يريدون أن يذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت للذباحين اصبروا علي فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل ولا ينقص حتى آتي فرعون فأستوهبه إياه فإن وهبه لي فقد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم أنهكم فلما أتت فرعون به قالت قرة عيني لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا (أو نتخذه ولداً)[2] فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له لهداهُ الله تعالى بموسى كما هدى به امرأته قال فأرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار له ظِئراً فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل من ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك ثم أمرت به فأخرج إلى السوق واجتمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم تجد فأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته قصي أثره فاطلبيه هل تسمعين له ذكراً أحي ابني أم قد أكلته الدواب في البحر فبصرت به عن جنب أي عن بعد والجنب أن ـ يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهي إلى جنبه لا يشعر به فقالت «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون» فقالوا وما يدريك ما نصحهم له وهل يعرفونه حتى شكوا في ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في الملك ورجاء منفعته فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بالخبر فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتليء جنباه رياً فانطلق البشرى إلى امرأة فرعون يبشرونها بأن قد وجدنا لابنك ظئراً فأرسلت إليها فأتت به وبها فلما رأت ما تصنع به قالت لها امكثي عندي ترضعين ابني فإني لم أحب مثل حبه شيئاً قط قالت لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلو خيراً إلا فعلت به فإن طابت نفسك وإلا فإني غير تاركةٍ بيتي وولدي فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها فأنجزها الله عز وجل وعده فأنبته الله نباتاً حسناً فلم تزل بنو إسرائيل تمتنع به من الظلم والسحرة فلما ترعرع أي: كبر قالت امرأة فرعون لأم موسى أريني ابني فواعدتها يوماً وقالت لخزانها وقهارمتها لا يبقى منكم أحد إلا استقبل ابني بهدية وكرامة فلم تزل الهدايا والكرامة تستقبله من حيث خرج من بيت أمه إلى أن دخل إلى امرأة فرعون فلما دخل عليها بَجَّلَتْه: أُكرمته وفرحت به وأعجبها وبَجَّلت أُمه

---

(١) سقط في ظ.

(٢) سقط في أ.

بحسن أثرها عليه ثم قالت لأدخلن به على فرعون فليبجلنّه وليكرمنّه فلما دخلت به عليه جعلته في حجره فتناول موسى لحية فرعون ومدها إلى الأرض فقالت له الغواة من أعداء الله تعالى ألا ترى إلى ما وعد الله لإبراهيم أنه يريد أن يصرعك وينزع عنك ملكك ويهلكك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت له ما بدالك في هذا الصبي الذي وهبته لي فقال ألا ترينه أنه سيصرعني فقالت له اجعل بينك وبينه أمراً لتعرف فيه الحق ائت بجمرتين ولؤلؤتين فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين علمت أنه يعقل وإن تناول الجمرتين فاعلم بأنه لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب ذلك إليه فتناول الجمرتين فانتزعوهما منه مخافة أن يحرقا يديه فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم ولا بسخرة فبينما هو يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من آل فرعون فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى واشتد غضبه فوكزه فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي فأتى فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا فقال ائتوني بقاتله والذي يشهد عليه آخذ لكم بحقكم فبينما هم يطوفون لا يجدون شيئاً وإذا موسى قد رأى من الغد الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني وقد ندم موسى على ما كان منه بالأمس وكره الذي رأى مثل ذلك فخاف الإسرائيلي (من موسى)[1] وهو يريد أن يبطش بالفرعوني فقال الإسرائيلي إنك لغـوي مبين فخاف الإسرائيلي وظن أنه يريده فقال يـا موسى ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِيْ كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ فتاركا فانطلق الفرعوني إلى قومه وأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر فأرسل فرعون إلى الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى وجاء رجل من شيعة موسى فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر وذلك من الفتون يا ابن جبير فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاءً قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه تعالى فإنه قال عسى ربي أن يهديني إلى سواء السبيل «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَينِ تَذُوْدَانِ» يعني: أنهما حابستان غنمهما فقال: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما ننتظر فضل حياضهم فنسقي بها فسقى لهما موسى فجعل يغدق في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاة فراغاً فانصرفتا إلى أبيهما بغنمهما وانصرف موسى إلى شجرة فاستظل بها فاستنكر أبو الجاريتين سرعة صدورهما بغنمهما حُفلاً بطاناً فقال إن لكما لشأناً اليوم فحدثـاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه فأتته فدعته فلما دخل على شعيب فأخبره بالقصة قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين أي ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته وقوله تعالى «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْـرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ» فاحتملته الغيرة وقال وما يدريك ما أمانته وقوته فقالت أما قوته لما سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى منه في ذلك السقي وأما أمانته فإنه ما نظرني حين أقبلت إليه صَوَّبَ رأسه ولم يرفعه ولم ينظر إلي حين بلغته رسالتك فقال لي: امشي خلفي وانعتي إلي الطريق يعني صفي ودليني على الطريق فسرى عن أبيها فقال له هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك فكان على موسى ثمان سنين واجبة بسنتين عدة منه فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله كان من أمر ما قص الله عليك في القرآن فشكى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة ـ تمنعه عن كثير من الكلام فسأل ربه أن يعينه بأخيه ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به فأعطاه الله سؤاله وحل عقدة من لسانه فاندفع موسى بالعصا فلقي

(١) سقط في ظ.

هارون فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما بعد بالدخول ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقال إنا رسولا ربك قال فمن ربكما فأخبراه بالذي قص الله تعالى في القرآن فقال مَا تُريدَانِ فقال موسى أريد أن تؤمن بالله وأن ترسل معنا بني إسرائيل فأبى عليه ذلك وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فاقتحم فرعون عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وأخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ثم أعادها إلى كمه فصارت إلى لونها الأول فاستشار الملأ فيما رأى فقالوا اجمع لها السحرة فإنهم بأرضك كثير فأرسل فرعون في المدائن فحضر له كل ساحر متعالم فلما أتوا فرعون قالوا بما يعمل هذان الساحران قالوا يعملان بالحيات فقالوا والله ما في الأرض أحد يعمل بالحيات التي نعمل فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ويوم الزينة هو اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة وهو يوم عاشوراء فقال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر فنتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعنون بذلك موسى وهارون استهزاءً بهما قالت السحرة لموسى لِقُدْرَتِهِمْ بسحرهم إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال لهم موسى: ألقوا فألقوا حبالهم وعصيبهم فرأى موسى من سحرهم شيئاً عظيماً فأوجس في نفسه خيفة فأوحى الله تعالى إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فاغرة فاها فجعلت تلتقم العصي والحبال حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته فلما عرفت السحرة ذلك قالوا لو كان هذا ساحراً لم يبلغ من سحره كل هذا ولكن هذا أمر من أمر الله تعالى فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة أمر موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً فأصبح فرعون فبعث في المَدَائِنِ حَاشِرِين وتبعهم بجنود عظيمة فنسي موسى أين يضرب بعصاه البحر فلما تراء الجمعان وتقاربا قال قوم موسى إنا لمدركون إفعل ما أمرك الله تعالى فذكر موسى ما وعده الله عز وجل فضرب البحر بعصاه فانفلق البحر إثنتي عشرة فرقة فلما جاوز أصحاب موسى كلهم ودخل أصحاب فرعون كلهم التقى البحر عليهم فقال أصحاب موسى إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق فدعا موسى ربه فأخرجه حتى استيقنوا فمضوا حتى أنزلهم منزلاً ثم قال لهم أطيعوا هارون فإني استخلفته عليكم وإني ذاهب إلى ربي وأجلهم ثلاثين يوماً وصامهن وكره أن يكلمه ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت وهو أعلم قال يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح قال الله تعالى أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك ارجع حتى تصوم عشرة أيام ثم إئتني ففعل موسى الذي أمره ربه تعالى فلما رأى قوم موسى أنه لم يأتهم للأجل ساءهم ذلك وأخرج لهم السامري عجلاً جسداً له خوار من حلي آل فرعون فتفرقت بنو إسرائيل فقالت فرقة للسامري ما هذا قال هذا ربكم ولكن موسى أخطأ الطريق فقالوا لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى وقالت فرقة هذا من عمل الشيطان وليس هذا بربنا وأسرت فرقة في قلوبهم التصديق وقال لهم هارون إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فلما كلم الله موسى أخبره بما لقي قومه بعده فرجع موسى إلى قومه غضبان أسِفاً وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه كما قصَّ الله عز وجل في هذه السورة وذلك من الفتون يا ابن جبير، ويقال: وفتناك فتوناً أي اختبرناك اختباراً ويقال أخلصناك إخلاصاً كما قال تعالى إنه كان مخلصاً ثم قال عز وجل ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي عشر سنين عند شعيب ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ يعني: على وقت مقدور عليك يا موسى وهذا قول ابن عباس وقال مقاتل: على قدر أي على ميقات ويقال على موعد ويقال على قدر من تكلمي إياك ويقال على قضاء قضيته ويقال على تمام الذي يوحى للأنبياء أربعين سنة.

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾

فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ يعني: اخترتك للرسالة والنبوة ولإقامة حجتي فقال موسى يا رب حسبي حسبي فقد تمت كرامتي فقال الله تعالى ﴿إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ يعني آياتي التسع ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ يعني لا تفترا ولا تعجزا ولا تضعفا عن أداء رسالتي ﴿إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَونَ إِنَّه طَغَى﴾ يعني تكبر وعلا ﴿فَقولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾ يعني: كلاماً باللين والشفقة والرفق لأن الرؤساء بكلام اللين أقرب إلى الإنقياد من الكلام العنيف أي قولا له أيها الملك ويقال فقولا له قولا ليناً لوجوب حقه عليك بما رباك وإن كان كافراً وروى أسباط عن السدي قال: القول اللين أن موسى جاءه فقال له تسلم وتؤمن بما جئت به وتعبد رب العالمين على أن لك شباباً لا تهرم أبداً ويكون لك ملكاً لا ينزع منك أبداً حتى تموت ولا ينزع منك لذة الطعام والشراب والجماع أبداً حتى تموت فإذا مت دخلت الجنة قال فكأنه أعجبه ذلك وكان لا يقطع أمراً دون هامان وكان هامان غائباً فقال له فرعون إن لي من أوامره وهو غائب حتى يقدم فلم يلبث أن قدم هامان فقال له فرعون علمت بأن ذلك الرجل أتاني فقال هامان ومن ذلك الرجل فقال فرعون هو موسى قال فما قال لك فأخبره بالذي دعاه إليه قال: فما قلت له قال: لقد دعاني إلى أمر أعجبني فقال له هامان قد كنت أرى لك عقلاً وأن لك رأياً بيناً أنت رب أفتريد أن تكون مربوباً وبينا أنت تعبد أفتريد أن تعبد غيرك فغلبه على رأيه فأبى ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ يعني: يتعظ أو يسلم وقال الزجاج: لعل في اللغة للترجي والتطمع يقول لعله يصير إلى خير والله سبحانه وتعالى خاطب العباد بما يعقلون والمعنى عند سيبويه إذهبا على رجائكما وطمعكما وقد علم الله تعالى أنه لا يتذكر ولا يخشى إلا أن الحجة إنما تجب بإبائه وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فعليك باللين لأنك لست بأفضل من موسى وهارون ولا الذي تأمره بالمعروف ليس بأسوأ من فرعون وقد أمرهما الله تعالى بأن يأمراه باللين فأنت أولى أن تأمر وتنهى باللين.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾
فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ
عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا
عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿قَالَا﴾ أي: موسى وهارون ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ يعني أن يبادر بعقوبتنا يقال قد فرط منه أمر أي: قد بدر منه قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أنا فرطكم على الحوض ويقال أن يفرط علينا يعني أن يضر بنا ﴿أو أن يطغى﴾ يعني: يقتلنا قال كان هذا القول من موسى وهارون حين رجع موسى إلى مصر وأوحى إليهما فقالا عند ذلك إننا نخاف أن ـ يفرط علينا أو أن يطغى وقال بعضهم قد قال الله ذلك لموسى عند طور سيناء فأجابه موسى عن نفسه وعن هارون فأضاف القول إليهما جميعاً ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أي لا تخافا

عقوبة فرعون عند أداء الرسالة ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ أي معينكما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي أسمع ما يرد عليكما وأرى ما يصنع بكما ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ يعني فاذهبا إلى فرعون ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله في الآية دليل أنه يجوز رواية الأخبار بالمعنى وإنما العبرة للمعنى دون اللفظ لأن الله تعالى حكى معنى واحدة بألفاظ مختلفة وقال في آية أخرى«فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» وقا ها هنا «إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» وقال في آية أخرى «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ»وقال في موضع (آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى) ثم قال تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ يعني: لا تستعبدهم ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: باليد والعصا ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أي: على من طلب الحق ورغب في الإسلام قال الزجاج والسلام على من اتبع الهدى معناه أن من اتبع الهدى فقد سلم عذاب الله وسخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ﴾ في الآخرة بالدوام ﴿عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن التوحيد والإيمان ولم يذكر في الآية أنهما أتيا فرعون لأن في الكلام دليلاً عليه حيث ذكر قول فرعون ومعناه أنهما أتيا فرعون وأديا إليه الرسالة وقالا (إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ولم يقل من ربي تكبراً منه ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ يعني: شكله ويقال خلق لكل ذكر أنثى شبهه ﴿ثم هدى﴾ يعني: ألهمه الأكل والشرب والجماع وقال القتبي: الإهداء أصله الإرشاد[1] كقوله (عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي) ثم الإرشاد مرقيكون بالدعاء ومرة بالبيان وقد ذكرناه في سورة الأعراف ومرة بالإلهام كقوله «أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» أي: صورته ثُمَّ هَدَىٰ أي ألهمه إتيان الاناث ويقال ألهمه طلب المرعي وتوقى المهالك وقال الحسن[2] أعطى كل شيء من خلق ما يصلح له ثم هداه أن موسى أخبره بالبعث والجزاء وأمر الآخرة وقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ يعني: ما حال القرون الماضية وما شأنها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي﴾ يعني لا يخفى على ربي ﴿ولا ينسى﴾ ما كان من أمرهم وقال مجاهد لا يضل ربي أي لا يخفى على ربي شيء واحد وقال السدي أي لا يغفل ولا يترك وكان الحسن يقرأ لا يضل بضم الياء يعني لا يضله الله يعني به الكتاب وإلى هذا الموضع حكاية كلام موسى ثم إن الله تبارك وتعالى قال لمشركي مكة ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ يعني: موضع القرار وهو الرب[3] الذي ذكر موسى لفرعون ودعاه إلى عبادته قرأ حمزة والكسائي وعاصم مهداً والباقون مهاداً أي: فراشاً وبساطاً قال أبو عبيد المهد الفعل يقال مهدت مهداً والمهاد اسم ـ الموضع ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ يعني: حصل لكم فيها طرقاً ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فأخرجنا به أزواجاً﴾ يعني: أنبتنا بالمطر أصنافاً وألواناً ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ مختلف ألوانه ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر يعني لتأكلوا منه وترعوا أنعامكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني إن في اختلاف ألوانه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لعبرات ﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ يعني: لذوي العقول من الناس.

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ

(١) سقط في أ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٢ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٣) سقط في أ.

ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعني: آدم خلقناه من الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد موتكم ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يعني: نحييكم ونخرجكم من الأرض ﴿تَارَةً أُخْرَى﴾ ثم رجع إلى قصة فرعون فقال ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يعني العلامات والدلائل ﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات ﴿وَأَبَى﴾ أن يسلم ﴿قَالَ﴾ فرعون وقومه ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ﴾ يعني: ميعاداً لا نخلفه ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سِوًى﴾ أي: لا نجاوزه مكاناً سوى ذلك المكان وهذه قراءة نافع وأبي عمرو والكسائي وابن كثير يقرؤون بالكسر قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة[1] سُوى بضم السين معناه الإنصاف وقال بعضهم سُوى وسِوَى لغتان وقال مجاهد[2]: مكاناً منصفاً بينهم وقال السدي[3] أي عدلاً بينهم وقال القتبي: أي وسطاً بين الفريقين ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يعني: يوم عيد لهم وهو يوم النيروز وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس[4] قال هو يوم عاشورا ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ يعني إذا حشر الناس واجتمعوا على وقت الضحى ﴿فتولى فرعون﴾ يعني: رجع إلى أهله ﴿فجمع كيده﴾ يعني: سحرته ﴿ثم أتى﴾ يعني: أتى الميعاد قرأ بعضهم يوم الزينة بنصب الميم والمعنى يقع في يوم الزينة وقراءة العامة يوم الزينة رفع على معنى خبر الابتداء ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا﴾ يعني: ضيق الله عليكم الدنيا لا تفتروا على الله كذباً قال الزجاج ويلكم منصوب على أن الزمهم الله ويلاً ويجوز أن يكون على النداء كما قال (يا ويلتا أألد) قوله ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ يعني: يأخذكم بعذاب ويهلككم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[5] فيسحتكم بضم الياء وكسر الحاء والباقون فيسحتكم بالنصب وهما لغتان يقال سحته وأسحته إذا استأصله وأهلكه ﴿وقد خاب من افترى﴾ يعني: خسر من اختلق على الله كذباً.

فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾

﴿فتنازعوا أمرهم بينهم﴾ أي تناظروا أمرهم بينهم يعني: اختلفوا فيما بينهم سراً من فرعون وهم السحرة وقالوا[6] فيما بينهم إن كان ما يقول موسى حقاً واجباً فيكون الغلبة لموسى وذلك قوله عز وجل (فتنازعوا أمرهم

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٣ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٣ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٥٤.

(٦) سقط في أ.

بينهم) يعني: تناظروا أمرهم بينهم فذلك قوله ﴿وأسروا النجوى﴾ أي: أخفوا الكلام ﴿قالوا إن هذان لساحران﴾ يعني موسى وهارون ﴿يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ قرأ أبو عمرو[1] إن هذين لساحران لأن إن تنصب ما بعدها وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص إن هاذان بجزم أن وتشديد نون هاذان عند ابن كثير خاصة والباقون إنَّ بالنصب والتشديد هاذان لساحران بالتخفيف وقال أبو عبيد نقرأ بهذا ورأيت في مصحف عثمان إن هاذين بهذا الخط ليس فيه ألف وهكذا رأيت رفع الاثنين في جميع المصاحف بإسقاط الألف وإذا كتبوا النصب والخفض كتبوها بالياء وحكى الكسائي عن أبي الحارث بن كعب وخثعم وزيد وأهل تلك الناحية الرفع مكان النصب قال القائل:[2]

أي قلوص راكب تراها طاروا علاهن فطر علاها

---

(١) ونزيده إيضاحاً فنقول: قرأ أبو عمرو: ﴿إنّ هذَيْن﴾ بالياء لأن تثنية المنصوب والمجرور بالياء في لغة فصحاء العرب وأبو عمرو مستغن عن إقامة دليل على صحتها كما أن القارىء في قول الله جل وعز ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ مستغن عن الاحتجاج على منازعه إن نازعه في صحة قراءته.

وقرأ الباقون: ﴿إن هذان لساحران﴾ بالألف وحجتهم أنها مكتوبة هكذا في مصحف الإمام عثمان وهذا الحرف في كتاب الله مشكل على أهل اللغة وقد كثر اختلافهم في تفسيره ونحن نذكر جميع ما قال النحويون:

فحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس رؤساء الرواة :أنها لغة كنانة يجعلون ألف الإثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد يقولون: (أتاني الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان) قال الشاعر:

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابي التراب عقيم

قال الزجاج: وقال النحويون القدماء: ها هنا هاء مضمرة والمعنى: (إنه هذان لساحران) كما تقول: (إنه زيد منطلق) ثم تقول (إنَّ زيدٌ منطلق)، وقال المبرد: أحسن ما قيل في هذا أن يجعل (إن) بمعنى نعم المعنى: نعم هذان لساحران فيكون ابتداء وخبراً قال الشاعر:

ويقُلْنَ: شَيْبٌ قَدْ عَلاَ كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّه

أي: نعم فإن قيل: (اللام لا تدخل بين المبتدأ وخبره لا يقال: (زيد لقائم) فما وجه (هذان لساحران)؟

الجواب في ذلك: أن من العرب من يدخل لام التوكيد في خبر المبتدأ فيقول زيد لأخوك قال الشاعر:

خالي لأنت ومن جريرٌ خالهُ ينل العلاءَ ويكرم الأخوالا

وقال الزجاج المعنى: (نعم هذان لساحران) وقال قطرب: يجوز أن يكون المعنى: (أجل) فيكون المعنى والله أعلم (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) قالوا: أجل تصديقاً من بعضهم لبعض ثم قالوا: هذان لساحران ويجوز أن يكون اللام داخلة في الخبر على التوكيد. قال الفراء في هذان إنهم زادوا فيها النون في التثنية وتركوها على حالها في الرفع والنصب والجر كما فعلوا في (الذي) فقالوا الذين في الرفع والنصب والجر. وقرأ حفص: (إن هذان) بتخفيف (إن) جعل (إن) بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلا) التقدير (ما هذان إلا ساحران) وقرأ ابن كثير: (إن) بالتخفيف و(هذان) بالتشديد و(إن) تكون أيضاً بمعنى (ما) والأصل في (هذان): (هذان) فحذف الألف وجعل التشديد عوضاً من الألف المحذوفة التي كانت في (هذا) ومن العرب من إذا حذف عوض ومنهم من إذا حذف لم يعوض فمن عوض آثر تمام الكلمة ومن لم يعوض آثر التخفيف ومثل ذلك في تصغير (مُغْتَسَل) منهم من يقول (مُغَيْسِل) فلم يعوِّض ومنهم من يقول(مُغَيْسِيل) فعوض من التاء ياء. انظر حجة القراءات ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) نسب بعض الناس هذه الأبيات لرجل من بني الحرث ولم يذكر اسمه منهم ابن السِّيد، وقال قوم هي لأبي النجم ومنهم السيوطي، وقال أبو الحسن الأخفش في شرح نوادر أبي زيد (قال أبو حاتم سألت أبا عبيدة عن هذه الأبيات فقال لي انقط عليها هذا من صنعة المفضل) وفي هذه الأبيات اختلاف كثير في الرواية فيروى قوم شالوا علاهن إلخ. وترتيب الأبيات في رواية الصحاح هكذا.

أي قلوص راكب تراها فاشدد بمثنى حَقَب حَقْواها

وقال آخر:

إن أباهـا وأبـا أباهـا قـد بلغـا في الجـد غـايتـاهـا

وقال آخر[١]:

فمن يـك بـالـمـدينـة أمسى رحله فـإنـي وقـيـاربـهـا لـغـريـب

وروى وكيع عن الأعمش عن إبراهيم قالوا كانوا يريدون أن الألف والياء في القراءة سواء إن هاذان لساحران وإن هاذين لساحرين سواء وفي مصحف عبد الله إن هاذان ساحران وفي مصحف أبي إن ذان إلا ساحران ثم قال الله عز وجل: ﴿وَيَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ يقول: برجالكم الأمثل فالأمثل يقول ليغلبا على الرجال من أهل العقول والشرف وقال القتبي: يقال هؤلاء طريقة القوم أي: أشرافهم ويقال: أراد سنتكم ودينكم وقال الزجاج: معناه يذهبا بأهل طريقتكم كما قال (واسْأَلِ الْقَرْيَةَ التي كنا فيها) ثم قال عز وجل: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو[٢] فأجمعوا بجر الألف ونصب الميم يعني جيئوا بكل كيد تقدرون عليه لا تبقوا منه شيئاً وقرأ الباقون فأجمعوا بقطع الألف وكسر الميم ومعناه ليكن عزمكم كلكم على الكيد مجمعاً عليه ولا تختلفوا فتخذلوا وقال أبو عبيد بهذا نقرأ لأن الناس عليها ولصحتها في العربية يقال أجمعت الأمر واجتمعت عليه وإنما يقال جمعت الشيء المتفرق فتجمع ﴿ثم ائتوا صفاً﴾ يعني: جميعاً قال أبو عبيد الصف المصلى وقال الزجاج: ثم ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم قال ويجوز أن قوله ثم ائتوا مصطفين أي ـ مجتمعين ليكون أنظم لكم ولأمركم وأشد لهيبتكم ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى﴾ يعني قد فاز ونجا اليوم من علا بالغلبة ثم جمع فرعون بينهم وبين موسى عليه السلام ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ يعني السحرة ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ يعني: أن تطرح عصاك على الأرض ﴿وإما أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى﴾ إلى الأرض ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ فألقوا، في الكلام مضمر ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُم يُخَيَّلُ إِلَيهِ﴾ يعني

= نـاجـيـة ونـاجـيـاً أبـاهـا طـاروا عـلاهـن فـطر عـلاهـا

والشاهد هنافي قوله (حقواها) حيث أتى به بالألف في محل النصب وقد سبق الاستشهاد بهذه الأبيات على أن من العرب من يقول إذا وصل الحروف والأدوات بالضمائر لداك وعلاك وألاك في لديك وعليك وإليك فلا يقلبون ألفهن ياء وهي لغة بني الحرث بن كعب وعندهم يقلبون كل ياء ساكنة مفتوح ما قبلها ألفاً. (والقَلوص) بفتح القاف الناقة الشابة وقوله طاروا علاهن معناه نفروا مسرعين أو ارتفعوا على أبلهم، والحَقَب بفتحتين حبل يشد به الرحل إلى بطن البعير مما يلي ذكره كي لا يجتذبه التصدير وحقواها هو مثنى حَقْو بفتح فسكون وهو الخصر ومشد الإزار. انظر ابن يعيش ١٢٩. وانظر الإنصاف ١٨، وابن عقيل ١/٥٢، والتصريح على التوضيح ١/٦٥، والعيني ١/١٣٣، ٣/٣٤٦، همع الهوامع ١/٣٩ والدر ١/٣٢، والأشموني ١/٧٠، الشذور ١/٧٠.

(١) البيت لضابىء بن الحرث البرجمي قاله وهو محبوس بالمدينة في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ انظر كتاب سيبويه وشرح شواهده للأعلم ١/٣٨، وانظر مجالس ثعلب ٣١٦، ٥٩٨ وانظر الإنصاف لابن الأنباري ٩٤، شرح المفصل لابن يعيش ٨/٦٨ خزانة الأدب للبغدادي ٤/٣٢٣ مغنى اللبيب لابن هشام وشرح شواهده للسيوطي ٤٧٥، ٦٢٢ همع الهوامع ٢/١٤٤ الدرر اللوامع ٢/٢٠٠ معاهد التنصيص للعباسي ١/٦٥ التصريح على التوضيح ١/٢٢٨ شرح الأشموني على الألفية ١/٢٨٦، والاستشهاد بالبيت على أن قوله «وقيار» مبتدأ حذف خبره والجملة على هذا اعتراضية بين إسم إن خبرها وتقدير الكلام فإني بها وقيار وكذلك لغريب فإن قلت فلم لا تجعل الخبر المذكور في الكلام خبراً عن قيار ويكون المحذوف خبر إن وما بالكم تلتزمون أن يكون الأمر على عكس ذلك؟ فالجواب أن هذا الذي ذكرته كان أمراً ممكناً لو لم تكن اللام في الخبر المذكور وذلك لأن اللام لا تدخل في خبر المبتدأ إلا شذوذاً وهي تدخل في خبر إن بلا شذوذ ولا نكر فحمل الكلام على الأمر السائغ الذي لا شذوذ فيه لازم لا محيص عنه وسيبويه يجعل الجملة من المبتدأ والخبر معطوفة في نية التأخر لا معترضة. انظر ابن عييش ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٥٦ النشر ٢/٣٢١.

تراءت إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ يعني: كأنها حيات وروي عن الحسن أنه كان يقرأ بالتاءتخيل لأن جمع العصي مؤنث وقراءة العامة بالياء يعني: سعيها.

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ يعني أضمر في قلبه الخوف وخاف أن لا يظفر به إن صنع القوم مثل ما صنع ويقال خاف من الحيات من جهة الطبع ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ يعني ـ أَوْحَى اللَّهُ تعالى إلى موسى عليه السلام أن لا تخف ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى﴾ يعني الغالب قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: اطرح ما في يمينك من العصا ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ يعني تلقم ما عملوا ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ يعني عمل سحر قرأ عاصم[1] في رواية حفص تلقف بالجزم والتخفيف وقرأ ابن كثير في الروايتين[2] تلقف بالنصب والتشديد وضم الفاء وقرأ الباقون بجزم الفاء لأنه جواب الأمر وقرأ حمزة والكسائي كيد سحر بغير ألف وقرأ الباقون كيد ساحر وقال أبو عبيد: بهذا نقرأ لأن إضافة الكيد إلى الرجل أولى من إضافته إلى السحر وقرأ بعضهم كيد سحر بنصب الدال جعله نصباً لوقوع الفعل عليه وهو قوله تعالى (إنَّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحر) وهذا كقوله إنما ضربت زيداً وقراءة العامة بالضم لأنه خبر إن وما اسم ومعناه إن الذي صنعوه كيد سحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي: حيثما عمل ويقال لا يفوز حيثما كان وذهب قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِي السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾ يعني: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وهذا قول الأخفش وقال الفراء والقتبي: وقعوا للسجود ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ يعني صدقنا بـه ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿آمَنْتُمْ لَـهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُم﴾[3] يعني قبل أن آمركم ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ يعني موسى لعالمكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُم السِّحْرَ﴾ وإنما أراد به التلبيس على قومه لأنه علم أنهم لم يتعلموا من موسى وإنما علموا السحر قبل قدوم موسى وقبل ولادته ثم قال ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجلَكُم مِنْ خِلَافٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يعني على أصول النخل على شاطىء النيل ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ يعني: وأدوم أنا أم رب موسى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي لن نختار عبادتك وطاعتك ولن نتبع دينك ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ﴾ يعني على دين الله بعدما جاءنا من العلامات ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يعني ولا (عبادتك على) عبادة الذي خلقنا ويقال هو على معنى القسم أي لن نختارك ودينك والذي فطرنا

(١) انظر حجة القراءات ٤٥٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٥٧.

(٣) قرأ القواس عن ابن كثير وورش وحفص (قال آمنتم) على الخبر. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «آآمنتم له» بهمزتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة مطولة.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ يقول اصنع ما أنت صانع فاحكم فينا من القطع والصلب ما شئت ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول لست بحاكم علينا ولا تملكنا إلا في الدنيا ما دام الروح فينا قوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ يعني ما عملنا في حال الشرك ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ يعني ليغفر لنا ما أجبرتنا عليه من السحر يروى أن فرعون أكرههم على تعلم السحر ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني الله خير لنا منك وأدوم وثواب الله عز وجل خير من عطائك وأبقى مما وعدتنا به من التعذيب.

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ أي مشركاً والهاء للعباد وهذا قول الله تعالى عز وجل للنبي - صلى الله عليه وسلم - إنه من يأت ربه يوم القيامة كافراً ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ يعني لا يموت فيستريح من العذاب ولا يحيى حياة تنفعه قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً﴾ يعني يأتي يوم القيامة مؤمناً يعني مصدقاً ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ يعني الفضائل في الجنة ثم قال ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ يعني هي جنات عدن ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني دائمين في الجنة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ يعني ثواب من وحد قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني سر بعبادي ليلاً ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً﴾ يعني بين لهم طريقاً ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾ يعني يابساً ﴿لَا تَخَافُ دَرَكاً﴾ يعني إدراك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ الغرق قرأ حمزة[1] لا تخف دركاً على معنى النهي يعني لا تخف أن يدركك فرعون وقرأ الباقون لا تخاف بالألف ومعناه لست تخاف وقال أبو عبيد بهذا نقرأ لأن من قرأ بالجزم يلزم أن يخشى لأنه حرف معطوف على الذي قبله ثم قال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ يعني لحقهم فرعون بجموعه ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ يعني أصابهم من البحر ما أصابهم ويقال علاهم من البحر ما علاهم حين التقى البحر عليهم ويقال فغشيهم من البحر ما غرقهم ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ يعني أهلكهم وما نجا بنفسه ويقال أضلهم بحمله إياهم على الضلالة وما هدى يعني ما هداهم إلى الرشاد وهذا رد لقوله «اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ» ويقال: وما هدى يعني ما هداه إلى الصواب ثم ذكر نعمته على بني إسرائيل فقال عز وجل ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ يعني: فرعون ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ يعني يمين موسى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ حيث كانوا في التيه.

كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني: قال لهم كلوا من حلالات ما رزقناكم يعني أعطيناكم قرأ حمزة

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٥٨، النشر ٢/٣٢١.

والكسائي[١] (أنجيتكم وواعدتكم ما رزقتكم)[٢] الثلاثة كلها بالتاء وقرأ ابن كثير وعاصم ونافع، وابن عامر الثلاثة بالألف والنون وقرأ أبو عمرو بالتاء إلا قَوْلَهُ وواعدناكم ثم قال ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي لا ترفعوا منه شيئاً للغد ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ يعني فيجب وينزل عليكم عذابي ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ يعني: يجب وينزل عليه غضبي ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ يعني: هلك وتردى في النار وقرأ الكسائي[٣] فيُحل بضم الحاء ومن يحلل بضم اللام والباقون كلاهما بالكسر فمن قرأ بالضم يعني: ينزل ومن قرأ بالكسر يعني: يجب ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: رجع من الشرك والذنوب وآمن يعني: صدق بالله ورسله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً فيما بينه وبين ربه ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ يعني: علم أن لعمله ثواباً وهذا قول مقاتل وروى جويبر عن الضحاك في قوله ثم اهتدى أي ثم استقام وروى وكيع عن سفيان قال ثم اهتدى أي: مات على ذلك وقال ابن عباس (ثُمَّ اهْتَدَى) أي: مات على السنة.

وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾
قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا
قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن
زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ
إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ وذلك أن موسى لما انتهى إلى الجبل مع السبعين الذين اختارهم عجل موسى عليه السلام شوقاً إلى كلام ربه وأمرهم بأن يتبعوه إلى الجبل فقال الله تعالى لموسى عليه السلام (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) يعني ما أسبقك عن قومك وتركت أصحابك خلفك ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾ ويحتمل أن يكون أولاء صلة يعني: هم على أثري يجيئون من بعدي ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ يعني لكي يزداد رضاك عني قوله عز وجل ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ وهذا على وجه الاختصار لأنه لم يذكر ما جرى من القصة لأنه ذكر في موضع آخر فها هنا اختصر الكلام وقال (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ) يعني ابتلينا قومك من بعد انطلاقك إلى الجبل ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ يعني أمرهم السامري بعبادة العجل ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي: حزيناً وقال القتبي أسفاً أي شديد الغضب فلما دخل المحلة رآهم حول العجل فأبصر ما يصنعون حوله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ يعني: وعداً صدقاً ومعناه وعد الله عز وجل بأن يدفع الكتاب إلى موسى ليقرأه عليهم ويهتدوا به ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ يعني أطالت عليكم المدة ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ﴾ يعني: يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ يعني: سخط ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ بترك عبادة الله ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ يعني: ما تعمدنا ذلك قرأ حمزة والكسائي بملكنا بضم الميم يعني ما فعلناه بسلطان كان لنا ولا قدرة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر[٤] بملكنا بكسر الميم والملك ما حوته اليد وقرأ نافع وعاصم بمَلكنا بنصب الميم وهو بمعنى

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٠، النشر ٢/٣٢١.
(٢) في أ [وأوعدتكم وما رزقتكم].
(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٠، النشر ٢/٣٢١.
(٤) انظر حجة القراءات ٤٦١، النشر ٢/٣٢١ ـ ٣٢٢.

الملك ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً﴾ يعني آثاماً ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ يعني: من حلي آل فرعون ويقال أوزاراً يعني: حمالاً ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ يعني: فطرحناها في النار قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر[١] حَمَلْنَا بالنصب والتخفيف وقرأ الباقون بضم الحاء وتشديد الميم على فعل ما لم يُسم فاعله ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ يعني: ألقاها في النار كما ألقينا وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[٢] قال كان السامري من أهل قرية يعبدون البقر فدخل في بني إسرائيل وأظهر الإسلام معهم وفي قلبه حب عبادة البقر فابتلى الله عز وجل به بني إسرائيل فكشف له عن بصره فرأى أثر فرس جبريل عليه فأخذ من أثرها وقد كان هارون قال لبني إسرائيل إنكم قد تحملتم من حلي آل فرعون وأمتعتهم معكم وهي نجسة فتطهروا منها وأوقدوا لهم ناراً فأحرقوها فيه فجعلوا يأتون بالحلي والأمتعة فيقذفونها في النار فانسبك الحلى وأقبل السامري وفي يده تلك القبضة من أثر فرس الرسول يعني جبريل عليه السلام فوقف فقال: يا نبي الله ألقها فيه فقال نعم وهارون لا يظن إلا أنه من الحلى الذي يأتي به بنو إسرائيل فقذفها فيه وقال كن عجلاً جسداً له خوار وقال السدي جاء جبريل ليذهب بموسى إلى ربه وجبريل على فرس فبصر به السامري ويقال إن ذلك الفرس فرس الحياة فأخذ قبضة من أثر حافر الفرس فلما ألقى التراب[٣] في الحلي صار عجلاً جسداً له خوار فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ وقال بعضهم[٤]: كان السامري من بني إسرائيل وقد ولدته أمه في غار مخافة أن يذبح فرباه جبريل عليه السلام في الغار حتى كبر فلما رأى جبريل على فرس الحياة عرفه لأنه قد كان رآه في صغره فأخذ قبضة من تراب من أثر حافر فرسه ثم ألقاها في جوف العجل فصار عجلاً له خوار يعني صوتاً وقال مجاهد خوار العجل كان هفيف الريح إذا دخلت جوفه وهكذا روي عن علي بن أبي طالب وإحدى الروايتين عن ابن عباس أنه قال صار عجلاً له لحم ودم وخرج منه الصوت مرة واحدة فقال (هَذَا إلهكم) يعني قال السامري وَإِلَهُ مُوسَى ﴿فَنَسِيَ﴾ يعني: أخطأ موسى الطريق وروى عكرمة عن ابن عباس قوله فنسي أي نسي موسى أن يخبركم أن هنا إله وقال قتادة قوله هذا إلهكم وإله موسى ولكن موسى نسي ربه عندكم قال الله تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾ يعني: لم يكن لهم عقل يعلموا أنه لم يكن إلههم حيث لا يكلمهم ولا يجيبهم ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً﴾ يعني: لا يقدر على دفع مضرتهم ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ أي: ولا جر منفعة.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾
قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا
تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ
بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٢، النشر ٢/٣٢٢.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٥ وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم.
(٣) سقط في ظ.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٥ وعزاه لابن جرير.

﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ﴾ يعني: من قبل مجيء موسى إليهم ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ يعني: إنما ابتليتم بعبادة العجل ﴿وإن ربكم الرحمن﴾ يعني: إلهكم الرحمن ﴿فاتبعوني﴾ يعني اتبعوا ديني ﴿وأطيعوا أمري﴾ يعني قولي، قوله تعالى ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين﴾ يعني: لا نزال على عبادة العجل مقيمين ﴿حتى يرجع إلينا موسى﴾ فلما جاءهم موسى ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا﴾ يعني: أخطأوا الطريق بعبادة العجل ﴿ألا تتبعني﴾ يعني أن لا تتبع أمري في وصيتي فتناجزهم الحرب ثم قال: ﴿أفعصيت أمري﴾ يعني: أفتركت وصيتي ﴿قال﴾ له موسى ذلك بعد ما أخذ بشعر رأسه ولحيته فقال هارون عليه السلام ﴿يا ابن أمَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر يا ابن أمِّ بكسر الميم على معنى الإضافة والباقون بالنصب بمنزلة اسم واحد ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ أي: ولا بشعر رأسي ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ يعني: جعلتهم فريقين وألقيت بينهم الحرب ﴿ولم ترقب قولي﴾ يعني لم تنتظر قدومي ثم أقبل على السامري ﴿قال﴾ له ﴿فما خطبك يا سامري﴾ يقول ما شأنك وما الذي حملك على ما صنعت فـ ﴿قال﴾ السامري ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى المغايبة بصرت بما لم يبصروا به يعني: رأيت ما لم يروا وعلمت ما لم يعلموا به يعني بني إسرائيل قال موسى ما الذي رأيت دون بني إسرائيل فقال رأيت جبريل على فرس الحياة قوله ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ يعني: من أثر فرس جبريل وفي قراءة عبد الله بن مسعود فقبصت قبصة بالصاد وروي عن الحسن[2] أنه قرأ فقبصت قبصة بالصاد وهو الأخذ بأطراف الأصابع وقراءة الجماعة فقبضت بالضاد وهو القبض بالكف ﴿فنبذتها﴾ يعني فطرحتها في العجل ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أي زينت لي نفسي فلا تلمني بهذا الفعل ولمهم بعبادتهم إياه ﴿قال﴾ له موسى ﴿فاذهب فإن لك في الحياة﴾ يعني عقوبتك في الدنيا ﴿أن تقول لا مساس﴾ يعني لا أمس أحداً ولا يمسني أحد ويقال ابتلي بالوسواس وأصل الوسواس من ذلك الوقت ويقال معناه: لن تخالط أحداً ولن يخالطك أحد فنفاه عن قومه ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ في الآخرة قرأ ابن كثير[3] وأبو عمرو لن تخلفه بكسر اللام لن تغيب عنه ومعناه تبعث يوم القيامة لا تقدر على غير ذلك ولا تخلفه وقرأ الباقون تخلفه بنصب اللام يعني: لن تؤخر ولن تجاوز عنه ويقال معناه يكافئك الله تعالى على ما فعلت والله لا يخلف الميعاد ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ يعني عابداً ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ روى معمر عن قتادة[4] قال في حرف ابن مسعود لنذبحنه ثم (لنحرقنه) وقرأ الحسن لنحرقنه بالتخفيف وقراءة العامة بالتشديد ونصب الحاء ومعناه أنه يحرق مرة بعد مرة وقرأ أبو جعفر[5] المدني لَنَحرُقنه بنصب النون وضم الراء ومعناه لنبردنه بالمبارد، ويقال حرقه وأحرقه ﴿ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ يعني لنذرينه في البحر ذرواً والنسف التذرية.

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٢، النشر ٢/٣٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٢، النشر ٢/٣٢٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٧ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي المدني القاري أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر. انظر غاية النهاية ٢/٣٨٢ (٣٨٨٢).

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ
سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾
يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن
لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُم اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: أن العجل ليس بإلهكم وإنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ يعني: أحاط علمه بكل شيء وهو عالم بما كان وما يكون قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يعني أخبار ما مضى ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ يعني أعطيناك ﴿مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ يعني أكرمناك من عندنا بالقرآن ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يعني من يكفر بالقرآن ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾ يعني: حملاً من الذنوب ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يعني: دائمين في عقوبة الوزر ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ يعني: بئس الحمل الوزر وبئس ما يحملون من الذنوب قوله عز وجل ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ يعني: في يوم ينفخ في الصور وهو يوم القيامة قرأ أبو عمرو(١) ويوم ننفخ في الصور بالنون واحتج بقوله ونحشر المجرمين والباقون بالياء قال أبو عبيدة وبهذا نقرأ لأن النافخ ملك قد التقم الصور وأما الحشر فالله تعالى يحشرهم قال أبو عبيد: معناه ينفخ الأرواح في الصور وخالفه غيره ثم قال و﴿نحشر المجرمين﴾ أي: المشركين ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ يعني: عطاشاً ويقال عمياً ويقال زرق الأعين وروي عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس إن الله يقول في موضع (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً) (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً) فقال ابن عباس(٢): إن يوم القيامة له حالات في حال زرقاً وفي حال عمياً وقال القتبي زرقاً أي تبيض عيونهم من العمى أي ذهب السواد والناظر وقال الزجاج: يقال عطاشاً لأن من شدة العطش يتغير سواد الأعين حتى تزرق ثم قال: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: يتشاورون فيما بينهم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ يعني: ما مكثتم في القبور بعد الموت ﴿إِلَّا عَشْراً﴾ يعني: عشرة أيام ويقال عشر ساعات يقول الله عز وجل﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ يعني: أوفاهم عقلاً ويقال أعدلهم رأياً عند أنفسهم ﴿إِنْ لَبِثْتُم﴾ يعني: ما مكثتم في القبور ﴿إِلَّا يَوْماً وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ وذلك أن بني ثقيف من أهل مكة قالوا يا رسول الله كيف تكون الجبال يوم القيامة فنزل ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يعني: عن أمر الجبال ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾ يعني: يقلعها ربي قلعاً من أمكنتها والنسف التذرية أي: تصيير الجبال كالهباء المنثور ﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً﴾ قال القتبي: القاع واحدة القيعة وهي الأرض التي يعلوها السراب كالماء والصفصف المستوي وقال السدي القاع الأملس والصفصف المستوي ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ يعني: لا ترى فيها صعوداً ولا هبوطاً ويقال لا ترى فيها أودية ولا

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٣ النشر ٢/٣٢٢.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٧ وعزاه لابن أبي حاتم.

أمتاً يعني شخوصاً والأمت في كلام العرب ما نشز من الأرض ثم قال عز وجل ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي﴾ أي: يقصدون نحو الداعي ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ ومعناه لا يميلون يميناً ولا شمالاً ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يعني: خضعت وذلت وسكنت الكلمات للرحمن يعني: لهيبة الرحمن ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ يعني: كلاماً خفياً ويقال صوت الأقدام كهمس الإبل.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ
بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الشفاعة ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ يعني: إذا قال بإخلاص القلب لا إله إلا الله في الدنيا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿وما خلفهم﴾ من أمر الدنيا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ أي لا يدركون علم الله تعالى ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ قال قتادة[١]: ذلت الوجوه ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وقال القتبي: أصله من عنيته أي حبسته ومنه قيل للأسير (عان) وقال الزجاج رحمه الله عنت أي: خضعت يقال عنا يعنو أي: خضع ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي خسر من حمل شركاً ثم قال ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: من يعمل من الطاعات ومن للصلة والزينة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مع عمله لأن العمل لا يقبل بغير إيمان ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[٢] قال قتادة[٣]: أي: لا يزداد في سيآته ولا ينقص من حسناته أي لا يهضم قال السدي رحمه الله الظلم أن يأخذ لما لم يعمل والهضم النقصان من حقه قال القتبي ومنه قيل هضيم الكشحين أي ضامر الجنبين وهضمني الطعام أي أمرأني ويهضمني حقي قرأ ابن كثير فلا يخاف على معنى النهي والباقون فلا يخاف على معنى الخبر ثم قال عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ يعني: هكذا أنزلنا عليك جبريل ليقرأ عليك القرآن على لغة العرب وبينا في القرآن من أخبار الأمم الماضية وما أصابهم بذنوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني: لكي يتقوا الشرك ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يعني: يحدث الوعيد بهذا القرآن أو هذا القرآن لهم اعتباراً فيذكر به عذاب الله للأمم فيعتبروا[٤] وهذا قول مقاتل ويقال: أو يحدث لهم ذكراً أي: يحدث الوعيد بذكر العذاب فيزجرهم عن المعاصي ويقال (أو يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً) أي: شرفاً والذكر الشرف ثم قال عز وجل ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ يعني ارتفع وتعظم عن الشريك والولد (الْمَلِكُ الْحَقُّ) أهل الربوبية ويقال «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» يعني: ارتفع وتعظم من أن يزيد في سيآت

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٦٤، قرأ ابن كثير: «فلا يخف ظلماً» جزماً على النهي، وعلامة الجزم سكون الفاء. وسقطت الألف لسكونها وسكون الفاء.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) سقط في ظ.

أحد وينقص من حسنات أحد الملك الحق الذي يعدل بين الخلق ثم قال ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وذلك أن جبريل - عليه السلام - كان إذا قرأ القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتعجل النبي - صلى الله عليه وسلم - بقراءته قبل أن (يختم جبريل تلاوته مخافة أن لا يحفظ فنزل)[١](وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ) أن يفرغ جبريل - عليه السلام - من قراءته فيكون في الآية تعليم حفظ الأدب وهو الاستماع إلى من يتعلم منه وهذا مثل قوله (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) روى جرير بن حازم عن الحسن[٢] أن رجلاً لطم امرأته فجاءت تلتمس القصاص فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - بينهما القصاص قبل أن ينزل القرآن فنزل «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ» الآية أي: لا تعجل بالقصاص من قبل أن يقضي عليك بالقرآن ونزل قوله عز وجل (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) قال وكان الحسن[٣] يقرأ (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقْضِيَ إِلَيْكَ وَحْيَهُ) بالنصب يعني من قبل أن ينزل إليك جبريل بالوحي وقراءة العامة (يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ومعنى القراءتين واحد ثم قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ يعني: زدني علماً بالقرآن معناه زدني فهماً في معناه.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أمرنا آدم - عليه السلام - بترك أكل الشجرة من قبل يعني: من قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَنَسِيَ﴾ يعني: فترك أمرنا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي: حفظاً لما أمر به، روى سعيد بن جبيرعن ابن عباس أنه قال: «عهدنا إلى آدم فَنَسِيَ» يعني: فترك أمرنا (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) يعني: حزماً صريماً وقال قتادة يعني: صبراً وقال السدي: مثله وقال عطية[٤] (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) أي حفظاً بما أمر به روى سعيد بن جبير عن ابن عباس[٥] قال عهد إلى آدم فنسي فسمي الإنسان وقال القتبي النسيان ضد الحفظ كقوله تعالى (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) والنسيان الترك كقوله: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِي) وكقوله (فَذوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٩ وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٩ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد.

(٤) عطية بن الحارث الهمداني أبو ورق الكوفي قال أبو حاتم صدوق - انظر الخلاصة ٢/٢٣٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٠٩ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الصغير وابن منده في التوحيد والحاكم وصححه.

يَوْمِكُمْ هَذَا) وكقوله (وَلاَ تَنْسَوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أي: تعظم عنا السجود ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني إبليس عدو لك ولزوجك حواء فاحذرا منه ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا من الجنة فتشقى﴾ يعني: فتتعب ويتعبا بعمل كفيك ولا تأكل إلا كداً بعد النعمة وقال سعيد بن جبير لما هبط آدم من الجنة وكلف العمل فكان يمسح العرق عن جبينه فذلك قوله (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) وهو العرق الذي مسحه من الجبين ثم قال عز وجل ﴿إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ يعني: أن حالك ما دمت في الجنة لا تجوع ولا تعرى من الثياب ﴿وإنك لا تظمأ فيها﴾ يعني: لا تعطش في الجنة ﴿ولا تضحى﴾ يعني لا يصيبك الضحى وهو حر الشمس قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر[1] (وإنك) بالكسر على معنى الابتداء وقرأ الباقون وإنك بالنصب على معنى البناء قوله عز وجل ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ من أكل منها خلد ولم يمت ﴿وملك لا يبلى﴾ يعني: هل أدلك على ملك لا يفنى فهو أكل الشجرة ﴿فأكلا منها﴾ يعني: من الشجرة وقد ذكرنا تفسير الشجرة في سورة البقرة ﴿فبدت لهما سوآتهما﴾ أي ظهرت لهما عوراتهما ﴿وطفقا يخصفان﴾ أي: عمدا يلزقان ﴿عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه﴾ أي: ترك أمره بأكله من الشجرة ﴿فغوى﴾ أي: أخطأ ولم يصب بأكله ما أراد وما وعد له من الخلود ﴿ثم اجتباه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه بالنبوة ﴿فتاب عليه﴾ يعني: تجاوز عنه وقبل توبته ﴿وهدى﴾ يعني: هداه الله تعالى للتوبة بكلمات تلقاها ﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾ يعني: من الجنة آدم وحواء وإبليس والحية ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ يعني: يا ذرية آدم سيأتينكم مني الكتب والرسل خاطبه به وعني ذريته ﴿فمن اتبع هداي﴾ يعني: أطاع كتبي ورسلي ﴿فلا يضل﴾ باتباعه إياها في الدنيا ﴿ولا يشقى﴾ في الآخرة وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس[2] قال من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب فذلك قوله (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ يعني: عن القرآن والرسل ولم يؤمن وقال مقاتل: من أعرض عن الإيمان ﴿فإن له معيشة ضنكا﴾ يعني: معشية ضيقة روي عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري[3] أنهما قالا (معيشة ضنكا) يقول: عذاب القبر وروى أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[4] في قوله: (معيشة

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٤، النشر ٢/٣٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١١ وعزاه لابن أبي شيبة والطبراني وأبي نعيم في الحلية وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١١ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في كتاب عذاب القبر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١١ وعزاه لابن أبي شيبة والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم.

ضنكا) قال عذاب القبر ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ أي: أعمى عن الحجة وقال ابن عباس وذلك حين يخرج من القبر يخرج بصيراً فإذا سيق إلى المحشر عمي قال عكرمة رحمه الله في قوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال: عمي قلبه عن كل شيء إلا جهنم وقال الضحاك[١] في قوله (معيشة ضنكا) قال: الكسب الخبيث وقيل: معيشة سوء لأنه في معاصي الله وقال السدي (معيشة ضنكا) أي: عذاب القبر حين يأتيه الملكان وقال قتادة: الضنك الضيق يقول ضنكاً في النار قوله عز وجل: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى﴾ قال مجاهد:[٢] (لم حشرتني أعمى) لا حجة لي ﴿وقد كنت بصيراً﴾ بالحجة في الدنيا ويقـال (لم حشرتني أعمى) أي: أعمى العينين (وقد كنت بصيراً) في الدنيا ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾ يعني: الرسل والقرآن فنسيتها وتركت العمل بها ولم تؤمن بها ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ أي: تترك في النار (ويقال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها أي: تعلمت القرآن فنسيته وتركته وقال السدي: وكذلك اليوم تنسى أي: تترك في النار[٣]) وتترك عن الخير ثم قال عز وجل: ﴿وكذلك نجزي من أسرف﴾ يعني: هكذا نعاقب من أشرك بالله ﴿ولم يؤمن بآيات ربه﴾ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ يعني وأدوم قوله عز وجل ﴿أفلم يهد لهم﴾ يعني: أفلم يتبين لقومك ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ يعني: يمرون على منازلهم ﴿إن في ذلك لآيات﴾ يعني: في هـلاكهم لعبرات ﴿لأُولى النهى﴾ يعني: لعبرات لذوي العقول من الناس ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى﴾ وهذا مقدم ومؤخر يقول ولولا كلمة سبقت بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى أجل مسمى أي: إلى يوم القيامة أي: لكان لزاماً أي: لأخذتهم بالعذاب كما أخذت من كان قبلهم من الأُمم عند التكذيب ولكن نؤجلهم إلى يوم القيامة وهو أجل مسمى وقال القتبي: معناه: ولولا أن الله عز وجل جعل الجزاء يوم القيامة وسبقت بذلك كلماته لكان العذاب ملازماً لا يفارقهم وقال في الآية تقديم أي ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان العذاب لازماً.

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾

﴿واصبر على ما يقولون﴾ يعني على ما يقول أهل مكة من تكذيبهم إياك ﴿وسبح بحمد ربك﴾ يعني صل لربك وبحمد ربك وبأمره قبل طلوع الشمس يعني: صلاة الفجر وقبل غروبها يعني: صلاة العصر ويقال صلاة الظهر والعصر وروى جرير عن عبد الله البجلي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته يعني: لا تزدحمون مأخوذ عن الضم أي لا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته بظهوره كما في رواية الهلال ويروى لا تضامون بالتخفيف وهو الضم أي الظلم : أي: لا يظلم بعضكم في رؤيته بأن يراه البعض دون البعض فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن الصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ هذه الآية «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ على معنى التأكيد للتكرار ﴿وَمِنْ آنَاءِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٢ وعزاه لهناد.

(٣) سقط في أ.

اللَّيْلِ﴾ يعني: ساعات الليل ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني صلاة المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ يعني: غدوة وعشية ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ يعني: لعلك تعطى من الشفاعة حتى ترضى قرأ الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[1] «تُرْضَى» بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله والباقون بالنصب يعني: ترضى أنت وقال أبو عبيدة وبالقراءة الأولى نقرأ بالضم لأن فيها معنيين أحدهما ترضى أي تعطى الرضا والأخرى ترضى أن يرضاك الله وتصديقه قوله تعالى (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّكَ مَرْضِيّاً﴾وليس في الأخرى وهي القراءة بالنصب إلا وجه واحد ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾يعني لا تنظر بالرغبة إلى ما أعطينا رجالاً منهم من الأموال والأولاد ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: فإن زينة الدنيا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يعني: لنبتليهم بالمال وقلة الشكر ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي: جنة ربك ﴿خَيْرٌ﴾ من هذه الزينة التي في الدنيا ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: وأدوم قال الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا وكيع عن موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله عن أبي رافع قال: نزل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضيف فبعثني إلى يهودي أن يبيعنا أو يسلفنا إلى أجل فقال اليهودي لا والله إلاّ بِرَهْنٍ فرجعت إليه فأخبرته فقال لو باعني أو أسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض اذهب بدرعي الحديدي فذهبت بها فنزل من بعدي هذه الآية تعزية عن الدنيا (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ) إلى آخر الآية.

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ﴾ يعني قومك وأهلك وأهل بيتك بالصلاة ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ يعني: اصبر على ما أصابك فيها من الشدة روى عبد الرزاق[2] عن معمر عن رجل: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا دخل عليه نقص في الرزق أي ضيق أمر أهله[3] بالصلاة ثم قرأ (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) ﴿لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ لخلقنا ولا أن ترزق نفسك إنما نسألك العبادة ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ في الدنيا ما دمت حياً ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ يعني: الجنة للمتقين ﴿وَقَالُوا﴾ يعني الكفار ﴿لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني: هلا يأتينا محمد بعلامة لنبوته قال الله تعالى ﴿أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ﴾يعني: بيان ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ يعني ما في التوراة والإنجيل حتى يجدوا نعته فيه وهذا كقوله عز وجل «فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يقول: لو أن أهل مكة أهلكناهم قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٤ النشر ٢/٣٢٢.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٣ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.
(٣) في أ [أي ضيق أمر أهله بالصلاة].

فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ يعني: من قبل أن نعذب ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ﴾ يعني: منتظر لهلاك صاحبه أنا وأنتم وقال مقاتل: كان كفار مكة يقولون نتربص بمحمد (رَيْبَ ٱلْمَنُونِ) يعني: الموت ووعدهم النبي - صلى الله عليه وسلم - العذاب فأنزل الله تعالى (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ) يعني: أنتم متربصون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الموت ومحمد متربص بكم العذاب فأنزل الله تعالى (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ) ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ إذا نزل بكم العذاب ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي العدل ﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ منا ومنكم قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم[1] (أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ) بالتاء لأن لفظ البينة مؤنث والباقون أولم يأتهم بالياء لأن معناه البيان والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٥، النشر ٢/٣٢٢.

سورة الأنبياء (١)

وهي مائة واثنتا عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ يعني: قربت القيامة كقوله (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) ويقال معناه اقترب وقت حسابهم ويقال دنا للناس ما وعدوا في هذا القرآن ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: في جهل وعمى من أمر آخرتهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ يعني: جاحدين مكذبين وهم كفار مكة ومن كان مثل حالهم ثم نعتهم فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ

(١) سماها السلف (سورة الأنبياء) ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: (بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأُوَل وهن من تلادي) ولا يعرف لها إسم غير هذا. ووجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبياً ومريم ولم يأت في سورة القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبياً في قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ إلى قوله: ﴿ويونس ولوطا﴾ فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء وإلا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية، على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها، وهي مكية بالاتفاق وحكى ابن عطية والقرطبي الإجماع على ذلك ونقل السيوطي في الاتقان استثناء قوله تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ ولم يعزه إلى قائل، ولعله أخذه من رواية عن مقاتل والكلبي عن ابن عباس أن المعنى: ننقصها بفتح البلدان أي بناء على أن المراد من الرؤية في الآية الرؤية البصرية وأن المراد من الأرض أرض الحجاز وأن المراد من النقص نقص سلطان الشرك منها وكل ذلك ليس بالمتعين ولا بالراجح. والأغراض التي ذكرت في هذه السورة هي: ـ

الإنذار بالبعث وتحقيق وقوعه وإنه لتحقق وقوعه كان قريباً. وإقامة الحجة عليه بخلق السماوات والأرض عن عدم، وخلق الموجودات من الماء. والتحذير من التكذيب بكتاب الله تعالى ورسوله. والتذكير بأن هذا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به الرسل من قبله. وذكر كثير من أخبار الرسل ـ عليهم السلام. والتنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على المخاطبين وشأن رسول الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه رحمة للعالمين. والتذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع ولا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة. وحذرهم من أن يغتروا بتأخيره كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة وذكر من أشراط الساعة فتح يأجوج ومأجوج.

﴿رَبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ يعني: ما يأتيهم جبريل بالقرآن محدث والمحدث إتيان جبريل بالقرآن مرة بعد مرة ويقال قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - القرآن مرة بعد مرة ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يعني: يستمعون لاعبين ويقال وهم يلعبون يعني: يهزأون ويسخرون قوله عز وجل: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: ساهية قلوبهم عن أمر الآخرة ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أخفوا تكذيبهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - والقرآن ويتناجون فيما بينهم ثم بين أمرهم فقال الذين ظلموا معناه وأسروا النجوى يعني الذين ظلموا ثم بين ما يسرون فقال ﴿هَلْ هَذَا﴾ يعني: يقولون ما هذا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: آدمي مِثلكم[1] ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ يعني أفتصدقون الكذب ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وتعلمون أنه سحر ﴿قَالَ﴾ يا محمد ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ يعني: السر فأعلمهم الله تعالى أنه يعلم قولهم وأطلع نبيه - صلى الله عليه وسلم - على سرهم وعلانيتهم فقال (قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ) ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم سر أهل السموات وسر أهل الأرض قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[2] قال ربي يعلم على معنى الخبر وقرأ الباقون على معنى الأمر ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالتهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بهم وبعقوبتهم ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ يعني أباطيل أحلام كاذبة وقال أهل اللغة لا يكون الضغث إلا من أخلاط شتى فلذلك يقال أضغاث أحلام أي لما فيها من التخاليط وهو كل حلم لا يكون له تأويل ومن هذا قوله (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا) أي: أخلاط العيدان عدد مائة ويقال في الآية تقديم ومعناه بل قالوا أضغاث أحلام ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ يعني: إختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يعني: ينقضون قولهم بعضهم ببعض مرة يقولون سحر ومرة يقولون أضغاث أحلام ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ يعني: يقولون فأتنا بآية أي بعلامة كما في الرسل الأولين فأخبر الله تعالى أنهم لم يؤمنوا وإن أتاهم بآية فقال عز وجل: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم﴾ يعني: قبل كفار مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من للصلة والزينة يعني: لم يصدق قبلهم أهل قرية للرسل أي: إذ جاءتهم بالآيات ﴿أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أفقومك يصدقون إذ جاءتهم الآيات أي لا يؤمنون.

= - وذكرهم بما في خلق السماوات والأرض من الدلالة على الخالق.
- ومن الإيماء إلى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أتقن وأحكم لتجزى كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل.
- ثم ما في ذلك الخلق من الدلائل على وحدانية الخالق إذ لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة.
- وتنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى.
- وما يكرهه على فعل ما لا يريد.
- وأن جميع المخلوقات صائرون إلى الفناء.
- وأعقب ذلك بتذكيرهم بالنعمة الكبرى عليهم وهي نعمة الحفظ.
- ثم عطف الكلام إلى ذكر الرسل والأنبياء.
- وتنظير أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد - صلى الله عليه وسلم - وأحوال قومه.
- وكيف نصر الله الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم.
- وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطّعهُ الضالون قطعاً.
- وأثنى على الرسل وعلى من آمنوا بهم.
- وأن العاقبة للمؤمنين في خير الدنيا وخير الآخرة وأن الله سيحكم بين الفريقين بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه. انظر التحرير ١٧/ ٥، ٦، ٧، ٨.

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٦٥، والنشر ٢/ ٣٢٣.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رجالاً نوحي إِلَيْهِمْ﴾ يعني: لم أرسل إليهم الملائكة بالرسالة وكانت الرسل من الآدميين ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يعني: أهل التوراة والإنجيل: ﴿إِنْ كُنْتُم لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تصدقون وذلك أن أهل مكة قالوا لو أراد الله تعالى أن يبعث إلينا رسولاً لأرسل ملائكة قرأ عاصم في رواية حفص نُوحِي بالنون وكذلك في قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ) وقرأ حمزة والكسائي[1] الأول بالياء والثاني بالنون والباقون كلاهما بالياء وهو اختيار أبي عبيد ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ يعني: ما خلقنا الرسل جسداً لا يأكلون ولا يشربون ولكن جعلناهم أجساداً فيها أرواح يأكلون ويشربون وقال جسداً ولم يقل أجساداً لأن الواحد ينبيء عن الجماعة ويقال معناه وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام لأنهم قالوا (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ) ثم قال: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ يعني: في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ يعني: العذاب للكفار والنجاة للأنبياء عليهم السلام ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني فأنجينا الأنبياء عليهم السلام ومن نشاء من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: المشركين قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ يعني: القرآن فيه عزكم وشرفكم يعني: شرف العرب والذكر يوضع موضع الشرف لأن الشرف يذكر ويقال ذكركم أي فيه تذكرة لكم ما ترجون من رحمة وتخافون من عذابه كما قال (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) وقال السدي فيه ذكركم[2] يعني: ما تُعْنون به من أمر دنياكم وآخرتكم وما بينكم وقال الحسن فيه ذكركم يعني: أمسك به عليكم دينكم وفيه بيان حلالكم وحرامكم ويقال وعدكم ووعيدكم ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن فيه عزكم وشرفكم فتؤمنون به قوله عز وجل: ﴿وَكَمْ قصمنا﴾ القصم الكسر يعني كم أهلكنا ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: أهل قرية ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ يعني: خلقنا بعد هلاكها قوماً آخرين خيراً منهم فسكنوا ديارهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ يعني: رأوا عذابنا ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يعني: يهربون ويعدون وقال القتبي: أصل الركض تحريك الرجلين يقال: ركضت الفرس إذا أعديته بتحريك رجليك ومنه قوله (أركض برجلك).

لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لَا تركضوا﴾ يعني: قالت الملائكة عليهم السلام لا تهربوا وقال قتادة هذا على وجه

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٦، النشر ٢/٣٢٣.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

الاستهزاء وقال مقاتل لما انهزموا قالت لهم الملائكة عليهم السلام كهيئة الاستهزاء لا تركضوا وقال القتبي: هذا كما قال لبيد:

هلا سألت جموع كندة يوم ولوا أين أينا

قال ابن عباس إن قرية من قرى اليمن يقال لها حصور أرسل الله تعالى إليهم نبياً فكذبون ثم قتلوه فسلط الله عز وجل عليهم بختنصر فقتلهم وهزمهم فقالت لهم الملائكة عليهم السلام حين انهزموا لا تركضوا يعني: لا تهربوا ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيْهِ﴾ يعني: خولتم فيه من أمر دنياكم ﴿وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُم تُسْأَلُونَ﴾ عن قتل نبيكم ويقال عن الإيمان ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بقتل نبينا عليه السلام ويقال بالشرك بالله عز وجل قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ يعني: كلمة الويل قولهم ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ يعني: محصوداً وقال أهل اللغة: فعيل بمعنى مفعول والحصيد بمعنى محصود ويقع على الواحد والاثنين والجماعة، وقال السدي: الحصيد الذي قد حصد ويقال: كداسة الغنم بأظلافها خامدين ميتين لا يتحركون وقال مجاهد رحمه الله: خامدين بالسيف قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلق والعجائب ﴿لَاعِبِينَ﴾ أي: لغير شيء ولكن خلقناهم لأمر كائن ويقال وما خلقت هذه الأشياء إلا ليعتبروا ويتفكروا فيها ويعلموا أن خالق هذه الأشياء أحق بالعبادة من غيره ويكون لِيَ عليهم الحجة يوم القيامة قوله عز وجل ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً﴾ يعني: زوجة بلغة حضرموت ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يعني: من عندنا قال ابن عباس[1] اللهو الولد وقال الحسن[2] وقتادة: اللهو المرأة وقال القتبي: التفسيران متقاربان لأن المرأة للرجل لهو وولده لهو كما يقال: ريحانتاه وأصل اللهو الجماع فكني به المرأة والولد كما كني عنه باللمس وتأويل الآية أن النصارى لما قالوا في المسيح ما قالوا قال الله تعالى: (لو أردنا أن نتخذ لهواً (لاتخذناه من لدنا أي صاحبةً وولداً لاتخذنا ذلك من عندنا)[3] لا من عندكم لأن ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره ثم قال: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: ما كنا فاعلين ويجوز أن يكون إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله.

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

ثم قال عز وجل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالحق ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ ومعناه نبين الحق من الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يبطله ويضمحل به ويقال يكسره وقال أهل اللغة: أصل هذا إصابة الرأس والدماغ بالضرب وهو مقتل ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يعني: هالك ويقال زاهق أي: زائل ذاهب قال الفقيه أبو الليث رحمه الله في الآية دليل أن النكتة إذا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٤ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) سقط في ظ.

قابلتها نكتة أخرى على ضدها سقط الاحتجاج بها لأنها لو كانت صحيحة ما عارضها غيرها لأن الحق لا يعارضه الباطل ولكن يغلب عليه فيدمغه ثم قال: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ يعني: الشدة من العذاب وهم النصارى ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ يعني: تقولون من الكذب على الله ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني: لا يتعظمون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ يعني: لا يعيون الحسير المنقطع الواقف إعياء روي عن عبد الله بن الحارث أنه قال: قلت لكعب(١) الأحبار رضي الله عنه أرأيت قوله (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) أما شغلهم رسالة أما شغلهم عمل فقال لي: ممن أنت فقلت: من بني عبد المطلب فضمني إليه ثم قال: يا ابن أخي إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لنا النفس ألست تأكل وتشرب وتذهب وتجيء وأنت تتنفس كذلك جعل لهم التسبيح ثم قال عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ الميم صلة معناه أعبدوا من دون آلهةً ويقال: بل عبدوا آلهة ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: اتخذوها من الأرض ويقال من الأرض يعني: في الأرض ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ يعني: هل يحيون تلك الآلهة شيئاً وقرىء أيضاً يُنْشَرون بضم الياء ونصب الشين هل يحيون أبداً لا يموتون ثم قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: لو كان في السماء والأرض آلهة غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يعني: لخربت السموات والأرض ولهلك أهلها يعني أن التدبير لم يكن مستوياً ثم نزه نفسه عن الشريك فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عما يقولون من الكذب قوله عز وجل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يعني: عما يحكم في خلقه من المغفرة والعقوبة لأنه عادل ليس بجائر ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ عما يفعلون بعضهم ببعض لأنهم يجورون ولا يعدلون ومعناه لا يسأل عما يفعل على وجه الاحتجاج عليه ولكن يسأل عن معنى الاستكشاف والبيان كقوله عز وجل: (رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى) وروي عن مجاهد أنه قال: لا يسأل عن قضائه وقدره وهم يسألون عن أعمالهم ويقال لا يسأل عما يفعل لأنه ليس فوقه أحد وهم يسألون لأنهم مملوكون.

أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ
﴿٢٥﴾ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ
خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ
كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ الميم صلة يعني أعبدوا من دونه آلهة ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني: حجتكم وكتابكم الذي فيه عذركم ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ إلى يوم القيامة ﴿وَذِكْرُ من قَبْلِي﴾ (٢) يعني: خبر من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣١٥/٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) سقط في أ.

قبلي فلا أجد فيه أن الشرك كان مباحاً في وقت من الأوقات ويقال (هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي) يعني القرآن وكتب الأولين ثم قال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ يعني: لا يصدقون بالقرآن ويقال بالتوحيد ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني: مكذبون بالقرآن والتوحيد ثم بين ما أمر في جميع الكتب للرسل فقال عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ﴾ كما يوحى إليك ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ يعني: وحدون ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ وذلك حين قال مشركو قريش في الملائكة ما قالوا فقال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ يعني: بل عبيد أكرمهم الله تعالى بعبادته ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: لا يقولون ولا يعملون شيئاً ما لم يأمرهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يعملون ما يأمرهم به ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ يعني: لمن رضي عنه بشهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ يعني: من هيبته خائفون لأنهم عاينوا أمر الآخرة فيخافون عاقبة الأمر ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ يعني: من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: من دون الله ولم يقل ذلك غير إبليس عدو الله ﴿فَذَلِكَ﴾ يعني: ذلك القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِيْ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين قوله عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أو لم يخبروا في الكتاب قرأ ابن كثير[1] (أَلَمْ يَرَ) بغير واو والباقون أو لم بالواو ومعناهما قريب ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ يعني: فرقناهما وأبنا بعضها من بعض وقال مجاهد: كانت السماء لا تمطر والأرض لا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات وقال القتبي: كانتا منضمتين ففتقناهما ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد[2] قال: كانت السموات واحدة والأرض واحدة ففتقت السماء سبعاً والأرض مثلهن وقال الزجاج: ذكر السموات والأرض ثم قال (كَانَتَا رَتْقاً) ففتقناهما لأن السموات يعبر عنها بالسماء بلفظ الواحد وأن السموات كانت سماء واحدة وكذلك الأرض والمعنى أن السموات كانت واحدة ففتقتها وجعلتها سبعاً وكذلك الأرض وقيل إنما فتقت السماء بالمطر والأرض بالنبات بدليل قوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ فقال رتقا ولم يقل رتيقن لأن الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق ودلهم بهذا على توحيده حيث قال (وجعلنا من الماء كل شيء حي) يعني: جعلنا الماء حياة كل شيء وهو قول مقاتل وقال قتادة خلق كل شيء حي من الماء وقال أبو العالية رحمه الله (وجعلنا من الماء) يعني: من النطفة ﴿أفلا يؤمنون﴾ يعني أفلا يصدقون بتوحيد الله بعد هذه العجائب.

وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا
ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن
يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

وقوله عز وجل ﴿وَجعلنا في الأرض رواسي﴾ يعني: الجبال الثقال الثوابت ﴿أن تميد بهم﴾ يعني: كيلا

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٧، النشر ٢/٣٢٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣١٧ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

تميل ويقال: كراهية أن تميل بكم ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ يعني: في الأرض وفي الجبال أودية والفجاج جمع فج وهو كل شيء مخترق بين جبلين سبلاً يعني: طرقاً ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: لكي يعرفوا الطرق ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ من الشياطين ويقال: محفوظاً من السقوط كيلا تسقط عليهم ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ يعني: عن شمسها وقمرها ونجومها وما فيها من الأدلة والعبر معرضون يعني: لا يتفكرون فيها وقرأ بعضهم (وهم عن آياتها معرضون) ومعناه: إن السماء بنفسها أعظم آية لأنها متمسكة بقدرته ثم قال عز وجل ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾[١] يعني: الظلمة والضوء ﴿والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾ أي: في دوران يجرون وقال قتادة: يعني يجرون في فلك السلام وقال الكلبي[٢] كل شيء يدور فهو فلك وقال القتبي: الفلك القطب الذي تدور به النجوم وهو كوكب خفي بقرب الفرقدين ونبات نعش عليه تدور السماء فقد ذكر بلفظ العقل يسبحون لأنه وصف منهم الفعل كما ذكر من العقلاء ثم قال عز وجل ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ يعني: في الدنيا ﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ وذلك أن أناساً من الكفار قالوا: إن محمداً يموت فنزل ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ يعني: بالغنى والفقر والرخاء والشدة فتنة يعني: اختباراً لهم ﴿وإلينا ترجعون﴾ في الآخرة قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين يرجعون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون ترجعون بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ ابن عامر في إحدى الروايتين (يرجعون) بنصب الياء قوله عز وجل: ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بأبي سفيان بن حرب وأبي جهل بن هشام فقال أبو جهل لأبي سفيان هذا نبي بني عبد مناف يقول ذلك كالمستهزيء فنزل قوله: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ يعني: ما يقولون لك إلا سخرية ثم قال ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بالسوء ويقال: أهذا الذي يعيب آلهتكم ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدون تاركون وهذا كقوله عز وجل (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) قال الكلبي: وذلك حين نزل (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) فقال أهل مكة ما يعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب فنزل (وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ).

خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن
ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم
مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم
مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

قوله عز وجل: ﴿خَلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: مستعجلاً بالعذاب وهو النضر بن الحارث وقال القتبي:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣١٨/٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميدوابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣١٨/٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) أي: خلقت العجلة في الإنسان ويقال إن آدم عليه السلام استعجل حين خلق واستعجل كفار قريش نزول العذاب كما استعجل آدم عليه السلام قال الله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ قال الكلبي رحمه الله: هو ما أصاب قوم نوح وقوم هود وصالح وكانت قريش يسافرون في البلدان فيرون آثارهم ومنازلهم ويقال: يعني: القتل ببدر ويقال: يعني: يوم القيامة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بنزول العذاب ثم قال عز وجل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني: البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: إن كنت صادقاً فيما تعدنا أن نبعث فنزل قوله عز وجل ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ يعني: لا يصرفون ولا يرفعون ﴿عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾ لأن أيديهم تكون مغلولة ﴿وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون عما نزل بهم من العذاب وجوابه مضمر يعني: لو علموا ذلك الآن لامتنعوا من الكفر والتكذيب ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ يعني: الساعة تأتيهم فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ يعني: فتفجأهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صرفها عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يعني لا يمهلون ولا يؤجلون قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك قومك ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: نزل بالذين سخروا منهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: العذاب الذي كانوا به يستهزئون قوله عز وجل ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ يعني: من يحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ يعني: من عذاب الرحمن معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن إلا الرحمن ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عن التوحيد والقرآن ﴿مُعْرِضُونَ﴾ مكذبون تاركون قوله عز وجل ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الميم صلة يعني ألهم آلهة ﴿تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ يعني: من عذابنا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: لا تقدر الآلهة أن تمنع نفسها من العذاب أو السوء إن أرادوا بها فكيف ينصرونكم ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ يعني: يأمنون من عذابنا وقال مجاهد يعني: ولا هم منا ينصرون وقال السدي لا نصحبهم فندفع عنهم في أسفارهم وقال القتبي: أي لا يجارون لأن المجير صاحب لمجاره.

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أجلناهم وأمهلناهم ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ من قبلهم ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ يعني: الأجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ يعني: أفلا ينظر أهل مكة ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾ أي: نأخذ ونفتح الأرض ننقصها ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ما حول مكة أي ننقصها بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نواحيها ويقال يعني نقبض أرواح أشراف أهل مكة ورؤسائها وقال الحسن: هو ظهور المسلمين على المشركين وروى عكرمة عن ابن عباس قال: هو موت فقهائها وذهاب خيارها وقال الكلبي: يعني: السبي والقتل والخراب ثم قال تعالى: ﴿أَفَهُمُ

﴿الْغَالِبُونَ﴾ يعني: أن الله تعالى هو الغالب وهم المغلوبون ثم قال عز وجل ﴿قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ يعني: بما نزل من القرآن ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ يعني: أن من يتصامم لا يسمع الدعاء إذا ما يخوفون قرأ ابن عامر(١) ولا تُسْمع الصمم الدعاء بالتاء بلفظ المخاطبة ومعناه أن لا تقدر أن تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون يعني: إذا خوفوا والباقون ولا يسمع بالياء على وجه الحكاية ثم أخبر عن قلة صبرهم عند العذاب فقال: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُم نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ يعني: من أصابتهم عقوبة من عذاب ربك ويقال ولئن أصابهم العذاب أي طرف من العذاب ويقال أدنى شيء من عذاب ربك ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ظلمنا أنفسنا بترك الطاعة لله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ يعني: ميزان العدل ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: في يوم القيامة قال ابن عباس هو ميزان له كفتان (وله لسانان يوزن به الأعمال)(٢) الحسنات والسيئات فيجاء بالحسنات في أحسن صورة ويجاء بالسيئات في أقبح صورة ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينقص من ثواب أعمالهم شيئاً ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ يعني: وزن حبة ﴿مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع(٣) مثقال حبة بضم اللام وقرأ الباقون بالنصب فمن قرأ بالرفع فمعناه وإن حصل للعبد مثقال حبة من خردل ومن قرأ بالنصب معناه وإن كان العمل (مِثْقَالَ حَبَّة) يصير خبر كان ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ يعني: جئنا بها وأحضرناها وقرأ بعضهم (آتَيْنَا) بالمد يعني: جازينا بها وأعطينا بها وقراءة العامة بغير مد ثم قال: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ يعني: مجازين قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ يقول النصرة والنجاة فنصر موسى وهارون وأهلك عدوهما فرعون ﴿وَضِيَاءً﴾ يعني: الذي أنزل عليهما من الحلال والحرام في الكتاب قرأ ابن كثير وضئاءً بهمزتين والباقون بهمزة واحدة ﴿وَذِكْراً﴾ يعني: عظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الكفر والفواحش والكبائر وقال مجاهد: الفرقان الكتاب وقال السدي: الفرقان والنصر والضياء النور وذكراً قال التوراة وقال مقاتل: الفرقان والتوراة وروي عن ابن عباس(٤) أنه كان يقرأ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان (ضِيَاءً وَذِكْراً) يعني: أعطيناها التوراة نوراً وعظة ويروى عن عكرمة عن ابن عباس(٥) أنه كان يقرأ (الَّذِينَ استجابوا) بالواو يعني (والذين) (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ضِيَاءً) بغير واو وقال اجعلوا هذه الواو عند قوله (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ) ثم قال عز وجل ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: يعملون لربهم في غيب عنه والله تعالى لا يغيب عنه شيء ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ يعني: من عذاب الساعة خائفون قوله عز وجل ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ﴾ يعني: هذا القرآن ذكر مبارك يعني؛ فيه السعادة والمغفرة للذنوب والنجاة لمن آمن به ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ لكم ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ يعني أفأنتم للقرآن مكذبون جاحدون.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ

(١) انظر حجة القراءات ٤٦٧، النشر ٢/٣٢٣.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٨، النشر ٢/٣٢٤.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أكرمناه بالمغفرة من قبل النبوة وقال مقاتل: من قبل موسى وهارون وقال مجاهد: من قبل بلوغه وقال الكلبي: يقول ألهمناه رشدَه الخير وهديناه قبل بلوغه ويقال من قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ بأنه أهل للرشد ويقال: للنبوة ويقال: وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿إِذْ قَالَ﴾ يعني: حين قال ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي التصاوير يعني الأصنام ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: عابدون ويقال: التي عليها مقيمين روى ميسرة(١) النهدي أن(٢) علياً رضي الله عنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج فقال (ما هذه التماثيلُ التِيْ أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) فلما قال لهم ذلك إبراهيم ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ يعني: فنحن نعبدها ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطإٍ بَيِّنٍ قال السدي: كان أبوه يصنع الأصنام يبعث بها مع بنيه فيبيعونها فبعث إبراهيم بصنم ليبيعه فجعل ينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه وكان إخوته يبيعون ولا يبيع هو شيئاً وقال أنتم في ضلال مبين ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ﴾ إبراهيم بل أقول لكم حقاً وأدعوكم إلى عبادة الله تعالى ﴿بَلْ﴾ هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي: خالقكم ورازقكم ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو ربكم ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ يعني: هو الذي خلقهن ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ بأن الَّذِيْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ هو ربكم قال عز وجل ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ يعني: قال إبراهيم والله لأكسرن أصنامكم ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: بعد أن تنطلقوا ذاهبين إلى عيدكم وذلك أن القوم كانوا أرادوا أن يخرجوا إلى عيد لهم فقالوا لإبراهيم اخرج معنا حتى تنظر إلى عيدنا وكان القوم في ذلك الزمان ينظرون إلى النجوم فينظر أحدهم ويقول إنه يصيبني كذا وكذا من الأمر وكان ذلك معروفاً عندهم وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يخلفوا بعدهم إلا من كان مريضاً (فَنَظَرَ - إبْرَاهِيمُ - نَظْرَةً فِيْ النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيْمٌ) يعني: أشتكي غداً فأصبح من الغد معصوباً رأسه وخرج القوم إلى عيدهم ولم يتخلف أحد غيره فلما خرج القوم قال إبراهيم أما والله لأكيدن أصنامكم فسمعه رجل منهم فحفظها عليه فأخذ إبراهيم فأساً ويقال: قَدُوْماً جاء إلى بيت أصنامهم وكانوا قد وضعوا ألوان الطعام بين أيديهم فإذا رجعوا من عيدهم رفعوا ذلك الطعام ويأكلون تبركاً ودخل إبراهيم بيت الأصنام فرأى ذلك الطعام بين أيديهم فقال (أَلَا تَأْكُلُونَ) فلم يجيبوه فقال: (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ) يعني: جعل يضرب القوم بيده وقال السدي: قطع رؤوسها كلهاوقال ابن عباس: كسرها كسراً وقال بعضهم نَحَتَ وجوههم وقال بعضهم: قطع يد بعضهم ورجل بعضهم وأُذُنَ بعضهم فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾ يعني: فتاتاً ويقال: كسرهم قطعاً قطعاً وقال أهل اللغة: كل شيء كسرته فقد جذذته وقال أبو عبيد (يعني فتاتاً ويقال: كسرهم)(٣) أي استأصلهم ويقال جزا الله دابرهم أي استأصلهم وقرأ الكسائي(٤) (جِذاذاً) بالكسر والباقون بالضم

---

(١) ميسرة بن حبيب النهدي، أبو حازم الكوفي، ذكره ابن حبان في الثقات انظر التهذيب ١٠/٣٨٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٦٨، النشر ٢/٣٢٤.

وقُرِيءَفي الشاذ جَذاذا بالنصب ومعناه قريب بعضها من بعض وهو الكسر ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ لم يكسره وتركه على حاله وقال الزجاج: يحتمل الكبير في الخلقة ويحتمل أكبر ما عندهم في تعظيمهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: إلى الصنم الأكبر ويقال يرجعون إلى قوله باحتجاجه عليهم لوجوب الحجة عليهم فجعل القدوم على عنق ذلك الصنم الأكبر فلما رجعوا من عيدهم نظروا إلى آلهتهم مكسرة ويقال: حين دخل إبراهيم بيت الأصنام كان عندهم خدم يعني الوصائف فخرجن وقلن إن هذا الرجل مريض جاء يطلب من الآلهة العافية فلما خرج إبراهيم ودخلن فنظرن إلى الأصنام مقطوعة الرأس فخرجن إلى الناس بالويل والصياح وأخبرنهم بالقصة فتركوا عيدهم ودخلوا فلما رأوا ذلك ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِيْنَ﴾ في فعله ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يَعِيبُهُمْ ويقال: أخبر الرجل الذي سمع منه فقال: إني سمعت فتى يذكرهم قال تالله لأكيدن أصنامكم ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ صار إبراهيمُ رفعاً بمعنى يقال له هو إبراهيم وقال ويحتمل يقال له إبراهيم رفع على معنى النداء المفرد.

قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ
فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ
﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾
وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ يعني: يشهدون عليه بما يعرفون منه ويقال: يشهدون عقوبتهم له قال فجاؤوا به إلى ملكهم النمرود بن كنعان ﴿قَالُوا﴾ أي: قال له الملك ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني: عظيمهم عندكم وإنما قال هذا على وجه الاستهزاء لا على وجه الجد ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ يعني: إن كانوا يتكلمون فسألوهم من فعل هذا بكم ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ فلاموها يعني إلى أصحابهم ﴿فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُم الظَّالِمُونَ﴾ يعني: حَيْثُ قلتم إن إبراهيم كَسَّرها ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾ يعني: رجعوا إلى قولهم الأول وقال القتبي: أي ردوا إلى ما كانوا يعرفون من أنها لا تنطق فقالوا ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ يا إبراهيم يعني تعلم أنهم لا يتكلمون يا إبراهيم ﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً﴾ إنْ عبدتموهم ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن تركتموهم ﴿أُفٍّ لَكُمْ﴾ يعني: قذراً لكم وسحقاً لكم وتعساً لكم والاختلاف في قوله: أُفٍّ مثل ما سبق ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من ليس له ذهن ولا قوة ولا منفعة ولا مضرة أن لا تعبدوه قوله عز وجل: ﴿قَالُوا﴾ يعني: قال ملكهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ يعني: انتقموا لآلهتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ به شيئاً فافعلوا فأمر النمرود أهل القرى أن يجمعوا له حطباً أياماً كثيرة وأمر بأن يبنى بنياناً فبنى حائطاً

مستديراً وجمعوا الحطب ما شاء الله (ثم اضرموا فيه النار) فارتفعت النار حتى بلغت السماء في أعين الناظرين وكانت الطير يمر بها فيصيبها حر النار فلا تستطيع أن تجوز فيه فتقع ميتة فلما أرادوا أن يلقوه فيها لم يستطيعوا لشدة حرها ولم يقدر أحد أن يدنوا منها فبطل تدبيرهم وكادوا أن يتركوه حتى جاء إبليس عدو الله (لعنه الله) فدلهم على المنجنيق وهو أول منجنيق صنع وجاءوا بإبراهيم فأوثقوا يديه وجعلوه في المنجنيق وروي في الخبر أن السموات والأرض والجبال بكوا عليه وبكت عليه ملائكة السموات وقالوا ربنا عبدك إبراهيم يحرق فيك فقال لهم إن استغاث بكم فأغيثوه فلما رمي في المنجنيق قال: حسبي الله ونعم الوكيل فرمي به بالمنجنيق في الهوى فجعل يهوي نحو النار فقال جبريل: يا رب عبدك إبراهيم يحرق فيك قال الله تعالى إن استغاث بك فأَغِثْهُ فأتاه جبريل وهو يهوي نحو النار فقال أتطلب النجاة فقال أما منك فلا قال: أفلا تسأل الله أن ينجيك منها فقال إبراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي فلما أخلص قلبه لله تعالى فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: سلميه من حرك وبردك قال عكرمة بردت نار الدنيا كلها يومئذ فلم ينتفع بها أحد من أهلها وقال كعب ما أحرقت النار من إبراهيم غير وثاقه وقال قتادة إن الخطاف كانت تطفيء النار بأجنحتها وكانت الوزغة تنفخها وروت عائشة أن النبي[1] ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال اقتلوا الوزغة فإنها كانت تنفخ على إبراهيم النار وكانت تقتلهن وقال علي بن أبي طالب[2] في قوله (بَرْداً وَسَلَاماً) لو لم يقل وسلاماً لأهلكه البرد وكذلك قال ابن عباس[3] فضمه جبريل بجناحه ووضعه على الأرض وضرب جناحه على الأرض فأظهر الماء واخضرت الأرض فلما كان في اليوم الثالث خرج النمرود مع جيشه وأَشْرَفَ على موضع مرتفع لينظر إلى النار فرأى في وسط ذلك الموضع ماء وخضرة ورأى هناك شخصين والنار حواليهما فقال: إنا قد رمينا إنساناً واحداً فما لي أرى فيها شخصين فرجع متحيراً قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ يعني: حرقاً ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين﴾ يعني: الأذلين الأسفلين ﴿وَنَجَّيْنَاهُ ولُوطاً إِلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: إلى الأرض المقدسة فخرج إبراهيم من ذلك الموضع وقال للوط إني أريد أن أهاجر فصدقه واتبعه فخرجا إلى البيت المقدس ويقال إلى الشام التي باركنا فيها بالماء والثمار للناس.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ
سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٢١ وعزاه لأحمد والطبراني وأبي يعلى وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٢٢ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٢٣ وعزاه للفريابي وابن أبي حاتم.

وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

﴿ووهبنا له إسحاق﴾ يعني الولد **﴿ويعقوب نافلة﴾** يعني: زيادة وذلك أنه سأل الله تعالى الولد فأعطاه الله تعالى الولد وهو إسحاق عليه السلام وولد الولد فضله على مسألته وهو يعقوب عليه السلام ويقال نافلة: أي: غنيمة **﴿وكلا جعلنا صالحين﴾** يعني: أكرمناهم بالإسلام وقال الكلبي: كان لوط ابن أخي إبراهيم فكان لوط بن هازر ابن آزر وهو عم لوط وقال بعضهم كان ابن عمه وكانت سارة أخت لوط ثم قال عز وجل: **﴿وجعلناهم أئمة﴾** يعني: قادة في الخير ويقال: أكرمناهم بالأمانة والنبوة **﴿يهدون بأمرنا﴾** يعني: يدعون الخلق بأمرنا إلى أمرنا وإلى ديننا **﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات﴾** يعني: أمرناهم بالأعمال الصالحة ويقال بالدعاء إلى الله تعالى أي قول لا إله إلا الله **﴿وإقام الصلاة﴾** يعني: تـمام الصلاة **﴿وإيتاء الزكاة﴾** يعني: الزكاة المفروضة وصدقة التطوع **﴿وكانوا لنا عابدين﴾** يعني مطيعين وقوله عز وجل **﴿ولوطا﴾** يعني: واذكر لوطاً إذ **﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾** يعني: النبوة والفهم ويقال ولوطاً يعني وأوحينا إليهم واتينا لوطاً حكما وعلماً يعني النبوة والفهم **﴿ونجيناه من القرية﴾** يعني مدينة سدوما **﴿التي كانت تعمل الخبائث﴾** يعني: اللواطة **﴿إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾** يعني عاصين **﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾** يعني أكرمنا لوطاً في الدنيا بطاعتنا في الآخرة بالجنة **﴿إنه من الصالحين﴾** يعني: من المرسلين قوله عز وجـل **﴿ونوحاً﴾** يعني: واذكر نوحاً **﴿إذ نادى من قبل﴾** يعني دعا على قومه من قبل إبراهيم وإسحاق **﴿فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾** يعني الغرق وتكذيب قومه **﴿ونصرناه من القوم﴾** يعني: على القوم **﴿الذين كذبوا بآياتنا﴾** يعني: كذبوا نوحاً بما أنذرهم من الغرق ويقال: (نصرناه من القوم) أي: نجيناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا **﴿إنهم كانوا قوم سوء﴾** أي: كافرين **﴿فأغرقناهم أجمعين﴾** يعني: الصغير والكبير فلم يبق منهم أحد إلا هلك بالطوفان قال عز وجل **﴿وداود وسليمان﴾** يعني: واذكر داود وسليمان **﴿إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾** وذلك أن غنماً لقوم وقعت في زرع رجل فأفسدته قال ابن عباس[1] في رواية أبي صالح أن غنم قوم وقعت في كرم قوم ليلاً حين خرج عناقيده فأفسدته فاختصموا إلى داود بن ايشا عليه السلام فقوم داود الكرم والغنم فكانت القيمتان سواء يعني: قيمة الغنم وقيمة ما أفسدت من الكرم فدفع الغنم إلى صاحب الكرم فخرجوا من عنده فمروا بسليمان عليه السلام فقال بما قضى بينكم الملك فأخبروه فقال نعم ما قضى به وغير هذا أرفق للفريقين جميعاً فرجع أصحاب الكرم والغنم إلى داود فأخبروه بما قال سليمان فأرسل داود إلى سليمان فقال كيف رأيت قضائي بين هؤلاء فإني لم أقض بالوحي وإنما قضيت بالرأي فقال: نعم ما قضيت فقال: عزمت عليك أي: أنشدك بحق النبوة وبحق الوالد على ولده إلا أخبرتني فقال سليمان: غير هذا كان أرفق بالفريقين فقال وما هو قال سليمان يأخذ أهل الكرم الغنم ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها ونسلها ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم حتى إذا عاد الكرم كما كان ردوه فقال داود نعم ما قضيت به فقضى داود بينهم بذلك وقال بعضهم كان ذلك القضاء نافذاً فلم ينقض ذلك وكان سليمان في ذلك اليوم ابن إحدى عشر سنة فذلك قوله ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ يعني: دخلت فيه غنم القوم ويقال نفشت أي: دخلت فيه بالليل من غير حافظ لها وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الزهري رحمهم الله قال: النفش لا يكون إلا ليلاً والهمل بالنهار وروى قتادة عن الشعبي أن شاة وقعت في غزل الحواك فاختصموا إلى شريح رحمه الله فقال شريح انظروا أوقعت ليلاً أو نهاراً فإن كان بالليل يضمن وإن ـ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٤ وعزاه لابن جرير.

كان بالنهار لا يضمن ثم قرأ شريح (إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنمُ الْقَوْمِ) وقال: النفش بالليل والهمل بالنهار وكلاهما الرعي بلا راع وروى سعيد بن المسيب أن ناقة البراء[١] بن عازب دخلت حَائِطاً لقوم فأفسدته فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن حفظ الأموال على أهلها بالنهار وعلى أهل الماشية ما أصابت الماشية بالليل وبهذا الخبر أخذ أهل المدينة وقال أهل العراق لا يضمن ليلاً كان أو نهاراً إلا أن يتعمد صاحبها فيرسلها فيه وذهبوا إلى ما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [جُرْحُ العَجْماءِ جبار] (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِيْن) يعني: عالمين قوله عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يعني: ألهمناها سليمان ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني: النبوة والفهم بالحكم وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: لولا هذه الآية لم يجرؤ أحد منا أن يفتي في الحوادث ثم قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ يعني: كلما سبح داود يسبح معه الجبال والطير يعني سخرنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح وقال كان داود يمر بالجبال صبحاً وهي تجاوبه وكذلك الطير وقال قتادة[٢]: يسبحن أي يصلين معه إذا صلى يعني كل ما سبح داود تسبح معه الجبال والطير يعني : سخرنا الطير والجبال يسبحن معه ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: نحن فعلنا ذلك بهما.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعني: دروع الحديد وذلك أن داود خرج يوماً متنكراً ليسأل عن سيرته في مملكته فقال جبريل: نعم الرجل هو لولا أن فيه خصلة واحدة قال: وما هي قال: بلغني أنه يأكل من بيت المال وليس شيء أفضل من أن يأكل الرجل من كد يده فرجع داود عليه السلام وسأله الله عز وجل أن يجعل رزقه من كد يديه فألان له الحديد وكان يتخذ منها الدروع ويبيعها ويأكل من ذلك فذلك قوله: (وعلمناه) يعني: ألهمناه ويقال علمناه بالوحي صنعة اللبوس لكم ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ يعني: يمنعكم قتال عدوكم قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالتاء[٣] لتحصنكم وقرأ عاصم في رواية أبي بكر لنحصنكم بالنون بدليل قوله وعلمناه وقرأ الباقون بالياء للفظ التذكير يعني: ليحصنكم الله عز وجل ويقال: يعني اللبوس ومن قرأ بالتاء فهو كناية عن الصنعة واختار أبو عبيد بالتاء لتحصنكم لأن اللبوس أقرب إليه ثم قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُم شَاكِرُونَ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام يعني اشكروا وارث هذه النعم ووحدوه قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قرأ عبد الرحمن (الريحُ) بضم الحاء على معنى الابتداء وقراءة العامة (الريحَ) بالنصب ومعناه: وسخرنا لسليمان الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ يعني: قاصفة شديدة وقال في موضع آخر: (تجري بأمره رخاء) يعني: لينة فإنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ يعني: تسير بأمر الله عز وجل ويقال: بأمر سليمان ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والشجر ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي شيبة وأحمد وسعيد وبن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن حرام بن محيصة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٦٩، النشر ٢/٣٢٤.

عالِمِينَ﴾ يعني: من أمر سليمان وغيره قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ يعني: سخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له في البحر ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ من البنيان وغيره ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ من أن يهيجوا أحداً في زمانه ويقال يحفظهم أن لا يفسدوا ما عملوا ويقال وكنا لهم حافظين ليطيعوا سليمان ولا يعصوه قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ يعني: أذكر أيوب عليه السلام روي في الخبر أن أيوب كان بمنزلة الملك وهو أيوب بن مرضي النبي عليه السلام ـ وكانت له أموال من صنوف مختلفة وكانت له ضياع كثيرة وكان له ثلثمائة زوج نيران وغلمان يعملون له في ضياعة وأموال السوائم من الغنم والإبل والبقر وكان متعبداً ناسكاً منفقاً متصدقاً فحسده إبليس عدو الله وقال: إن هذا يذهب بالدنيا والآخرة وأراد أن يفسد عليه إحدى الدارين أو كلتيهما فسأل الله تعالى وقال: إن عبدك أيوب يعبدك لأنك أعطيته السعة في الدنيا ولولا ذلك لم يعبدك قال الله تعالى: إني أعلم منه أنه يعبدني ويشكرني وإن لم يكن له سعة في الدنيا فقال يا رب سلطني عليه فسلطه على كل شيء منه إلا على روحه وجاء إبليس إلى غنمه كهيأة النار وضرب عليها فأهلك جميع غنمه فجاءت رعاته فأخبروه بالقصة فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال هو الذي أعطى وهو الذي أخذ وهو أحق به ويقال إنه أحرق غنمه ورعاته فجاء إبليس على هيئة راع من رعاته فأخبره بذلك فقال له أيوب لو كان فيك خيراً لهلكت مع أصحابك ثم جاء إلى إبله وبقره ففعل مثل ذلك ثم جاء إلى زرعه كهيأة النار فأفسد جميع زرعه فأخبر بذلك فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وقال هو الذي أعطى وهو الذي أخذ وهو أحق به وكان له سبعة بنين ثلاث بنات ويقال سبعة بنيـن وسبعة بنات في بيت فجاء إبليس عليه اللعنة فهدم البيت عليهم فماتوا كلهم فذكر ذلك لأيوب فحمد الله تعالى وأثنى عليه على ذلك ولم يجزع وقال هو الذي أعطى ثم أخذ. ثم جاء إلى أيوب وهو في الصلاة فلما سجد نفخ في أنفه وفمه نفخة فانتفخ أيوب عليه السلام وخرجت به قروح وجعل تسيل منها الصديد وتفرق عنه أقرباؤه وأصدقاؤه ولم يبق معه إلا امرأته وقال ابن عباس في رواية أبي صالح كان اسم امرأته ماحين بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب ويقال كان اسمها رحمة فتأذى ـ به جيرانه وقالوا لامرأته احمليه من ها هنا فإنا نتأذى به فحملته حتى أخرجته إلى كناسة قوم ووضعته عليها وجعلت تدخل على الناس وتخدمهم وتأخذ شيئاً وتنفقه عليه فكان ذلك البلاء ما شاء الله فجاء إبليس في صورة طبيب وقال للمرأة إني أردت أن يبرأ من علته فمريه يشرب الخمر ويتكلم بكلمة الكفر فأخبرته المرأة بذلك فقال لها ذلك إبليس الذي أمرك بهذا فألحت عليه فغضب وقال والله لئن برئت لأضربنك مائة سوط فقالت متى تبرأ فقال عند ذلك: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضرُّ﴾ ويقال إنه اشتهى شيئاً يتخذ بالسمن فـدخلت امرأته على امرأة غني من الأغنياء وسألتها ذلك فأبت عليها ثم نظرت إلى ذوائبها فرأت ذوائبها مثل الحبل فقالت لئن دفعت إليَّ ذوائبك دفعت إليك ما تطلبين مني فدفعت بالمقراض وقطعت ذوائبها ودفعتها إليها وأخذت منها ما سألت وجاءت به ألى أيوب فقال لها أيوب من أين لك هذا فأخبرته بالقصة فبكى أيوب عند ذلك وقال رب إني مسني الضر قال بعضهم: مكث أيوب في بلائه سبع سنين وقال بعضهم عشر سنين (وروى ابن عباس)(١) عن أنس بن مالك(٢) أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن أيوب نبي الله لبث في بلائه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يعودانه ويغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذلك قال له ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به ثم راحا إليه فلم يصبرا حتَّى ذكرا ذلك له فعند ذلك قال: رب مسني الضر قال: فلما كان ذات يوم خرجت امرأته فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام في مكانه: أن (اركض

---

(١) قوله في أ [(ابن) فقط ولم يذكر عباس، شهاب].

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٨/٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني.

برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فشرب واغتسل فأذهب الله عز وجل ما به من البلاء فقال أيوب كان الركض برجلي أشد علي من البلاء الذي كنت فيه قال ابن عباس لما قال الله تعالى له: اركض برجلك ففعل فانفجرت اغتسل منها فصح جسده ثم قيل له اركض برجلك ففعل فخرجت عين فشرب منها فالتأم ما في جوفه فلما رجعت إليه المرأة لم تعرفه فقالت له بارك الله فيك هل رأيت نبي الله المبتلى فوالله ما رأيت أحداً أشبه به منك إذ كان صحيحاً قال فإني أيوب قال وكان له آنذاك أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين إحدهما على أندر القمح فأفرغت الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض ذلك قوله تعالى: (إذ نادى ربه أنى مسني الضر) أصابني البلاء والشدة ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ فعرض ولم يفصح بالدعاء.

فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

قال الله تعالى ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾ يعني رفعنا ما به من شدة ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قال مقاتل ولدت امرأة أيوب منه سبعة بنين وثلاث بنات قبل البلاء فأحياهم الله تعالى ثم ولدت بعد كشف البلاء سبعة بنين وثلاث بنات فذلك قوله (ومثلهم معهم) وقال الكلبي: ولدت سبعة بنين وسبع بنات فنشروا له وولدت امرأته مثلهم سبعة بنين وسبع بنات ويقال آتاه الله عز وجل أهله في الدنيا ومثلهم معهم في الآخرة وروى وكيع عن ابن سفيان عن الضحاك[١] أن ابن مسعود بلغه أن مروان بن الحكم قال (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) أي: أهلاً غير أهله فقال ابن مسعود لا بل أهله بأعيانهم ومثلهم معهم ثم قال ﴿رحمة من عندنا﴾ يعني نعمة منا ﴿وذكرى للعابدين﴾ يعني: عظة للمطيعين وهم أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ليعتبروا به لأن أيوب - عليه السلام - لم يفتر عن عبادة ربه عز وجل في بلائه ثم قال تعالى ﴿وإسماعيل وإدريس﴾ يعني: واذكر إسماعيل وهو إسماعيل ابن إبراهيم الخليل وإدريس وهو جد أبي نوح ﴿وذا الكفل﴾ قال بعضهم: كان ذو الكفل نبياً وقال مجاهد[٢] ذو الكفل لم يكن نبياً وكان رجلاً صالحاً تكفل لبني قومه أن يكفيه أمر قومه ويقضي بينهم بالعدل ولذلك سمي ذا الكفل ويقال إنما ذكره مع الأنبياء عليهم السلام لأنه عمل عمل الأنبياء وقال قتادة: كفل عن رجلٍ صلاته كان يصلي كل يوم ألف ركعة فكفل عنه فكان يصلي بعد موته فسمي ذا الكفل ويقال إنه كفل مائة نبي وأنجاهم من القتل وضمهم إلى نفسه فسمي ذا الكفل ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني: صبروا على طاعة الله عز وجل وعلى ما أصابهم من الشدة في الله تعالى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني: أكرمناهم بالنبوة ويقال: أدخلناهم في الجنة ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: المطيعين لله تعالى

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣٠ وعزاه لابن أبي الدنيا وأبي يعلى وابن جرير وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣١ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿وذا النون﴾ يعني: واذكر ذا النون يعني ذو السمكة وهو يونس بن متى ـ عليه السلام ـ ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾ يعني: مصارعاً من قومه ويقال كان ضيق الصدر سريع الغضب وذلك أنه لما دعا قومه إلى الله تعالى كذبوه فأخبرهم بأن العذاب نازل بهم فأتاهم العذاب فأخلصوا لله تعالى بالدعاء فصرف عنهم وكان يونس اعتزلهم ينتظر هلاكهم فسأل بعض من مر عليه من أهل تلك المدينة فلما علم أنهم لم يهلكوا أنف يرجع إليهم مخافة أن ينسب إلى الكذب وَيُعَيَّرَ به وذهب مغاضباً يعني: أنفاً قال القتبي: غضب وأنف بمعنى واحد لقربهما وقال بعضهم: إنما غضب على الملك وذلك أن ملكاً من الملوك يقال له ابن تغلب غزا بني إسرائيل ونزل أيام عافيتهم أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يسمى شعياء أن ائت حَزْقِيا الملك ومره ليبعث نبياً قوياً أميناً وكان في ملكه خمسة من الأنبياء فجاء شعياء إلى حزقيا وأخبره بذلك فدعى الملك يونس بن متى وأمره بأن يخرج فأبى أن يخرج وقال إن في بني إسرائيل أنبياء أقوياء غيري فعزم عليه الملك ليخرج فخرج وهو كاره فغضب على الملك فوجد قوماً قد شحنوا سفينتهم فقال لهم أتحملونني معكم فعرفوه فحملوه فلما شحنت السفينة بهم وأسرعت في البحر انكفأت وغرقت بهم فقال ملاحوها يا هؤلاء إن فيكم رجلاً عاصياً وإن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيكم رجل عاصي فاقترعوا فخرج بينهم يونس ـ عليه السلام ـ فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبي الله ثم أعادوا الثانية والثالثة فخرج سهم يونس فقال يا هؤلاء أنا والله العاصي قال فتلفف في كسائه وقام على رأس السفينة فرمى بنفسه فابتلعته السمكة فذلك قوله تعالى: (إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) يعني: لن يقدر عليه العقوبة ويقال إن ذنبه لم يبلغ الذي نقدر عليه العقوبة ويقال ظن أنا لن نضيق عليه الحبس كقوله فقدر عليه رزقه أي: ضيق وقرأ بعضهم ﴿فَظَنَّ أن لَنْ نُقَدِرَ عَلَيْهِ﴾ بالتشديد فهو من التقدير وقراءة العامة بالتخفيف ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يعني: في ظلمات ثلاث ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾ أي: ليس أحد له سجن كسجنك ﴿سُبْحَانَكَ﴾ إني تبت إليك ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي قال الله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يعني: غم الماء في بطن الحوت ويقال من غم الذنب وقد بقي في بطن الحوت أربعين يوماً ويقال أقل من ذلك ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر في إحدى الروايتين نُجِّي بنون واحدة وتشديد الجيم وقال الزجاج: هو لحن لأن فعل ما لم يسم فاعله لا يكون بغير فاعل وإنما كتب في المصحف بنون واحدة لأن الثانية تخفى مع الجيم وقال أبو عبيدة والذي عندنا أنه ليس بلحن وله مخرجان في العربية أحدهما أنه يريد ننجي مشددة كقوله (ونجيناه من الغم) ثم يدغم النون الثانية في الجيم والآخر معناه نجي نجاة المؤمنين قال: هذه القراءة أحب إلي لأن المصاحف كلها كتبت بنون واحدة وهكذا رأيت في مصحف الإمام عثمان رضي الله عنه وقرأ الباقون (ننجي المؤمنين) بنونين[1]

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ

---

(١) قرأ ابن عامر: ﴿وكذلك نُجِّي المؤمنين﴾ بنون واحدة والجيم مشددة قال الفراء: (لا وجه له عندي لأن ما لم يسم فاعله إذا خلا باسم رَفَع) وقالوا أيضاً: ﴿نُجِّي﴾ لم يُسمَّ فاعله وكان الواجب أن تكون الياء مفتوحة كما تقول: ﴿عُزِّيَ وقُضِيَ﴾ وقد احتج له غيره فقال: ﴿نُجِّي﴾ فعل ماض على ما لم يُسمَّ فاعله. ثم سكنّوا الياء وتأويله: (نجى النَجاءُ المؤمنين) فيكون (النجاءُ) مرفوعاً لأنه اسم ما لم (يُسَمَّ) فاعله، (والمؤمنين) نصب لأنه خبر ما لم يسم فاعله (كما) تقول: (ضُرب الضربُ زيداً) ثم يكنى عن الضرب فتقول (ضُرب زيداً) وحجتهم قراءة أبي جعفر قرأ (لِيُجْزَى قوماً بما كانوا) أي (لِيُجزى الجزاءُ قوماً) وقال أبو عبيد: يجوز أن يكون أراد: (نُنَجِّي) فأدغم النون في الجيم (والمؤمنين نصب لأنه مفعول به). فـ (نُجي) على ما ذكره أبو عبيد فعل مستقبل وعلامة الإستقبال سكون الياء. انظر حجة القراءات ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا
فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيا﴾ يعني: واذكر زكريا ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ يعني إذ دعا ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ يعني: وحيداً لا وارث لي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ يعني: أفضل الوارثين قال الله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يعني: رحم امرأته وكانت عقيماً لم تلد قط وكانت سيئة الخلق فأصلحها الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ﴾ يعني يبادرون في الطاعات وهو زكريا وامرأته ويحيى ـ عليهم السلام ـ ويقال الأنبياء الذين سبق ذكرهم ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ يعني: رغبة فيما عند الله من الثواب والجنة ورهباً أي: فرقاً من عذاب الله تعالى ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ يعني: مطيعين ويقال متواضعين قوله عز وجل: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: واذكر مريم التي حفظت نفسها من الفواحش ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ يعني: نفخ جبريل في نفسها بأمرنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً﴾ يعني عبرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: لجميع الخلق ويقال آية ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد الآية فيهما بمعنى واحد وهو الولادة بغير أب قوله عز وجل ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني دينكم دين الإسلام ديناً واحداً قرأ بعضهم أُمَّةٌ واحدةٌ بالضم ومعناه إن هذه أمتكم وقد تم الكلام ثم يقول أُمَّةٌ يعني هذه أمة واحدة وقرأ العامة بالنصب على معنى التفسير ثم قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ يعني فوحدوني ثم قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: عرفوا فيما بينهم وهم اليهود والنصارى ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فهذا تهديد للذين تفرقوا في الدين ثم بين ثواب الذين ثبتوا على الإسلام فقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: مصدق بتوحيد الله عز وجل ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ يعني: لا يُجحد ولا يُنسى ثواب عمله والكفران مصدر مثل الشكران والغفران ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ يعني: حافظين مجازين

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ
وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ
وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ يعني: على قرية فيما مضى ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[1] وحرم الباقون وحرام بنصب الحاء والألف

(١) انظر حجة القراءات ٤٧٠، النشر ٢/٣٢٤.

وَحِرْمٌ وَحَرَامٌ بمعنى واحد كقوله حل وحلال وروي عن عكرمة عن ابن عباس[١] أنه كان يقرأ وحرم وقال واجب عليهم أن لا يرجع منهم راجع ويقال معناه وحرام على أهل قرية أهلكناها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ويقال لا يرجعون لا زيادة ومعناه حرام عليهم أن يرجعوا ثم قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ**﴾ قرأ ابن عامر[٢] فُتِّحَتْ بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير وقرأ الباقون بالتخفيف وقرأ عاصم (يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) بالهمز والباقون بغير همز ﴿**وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ**﴾ قال مقاتل: يعني من كل مكان يخرجون من كل جبل أو أرض أو واد وخروجهم عند قيام الساعة وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه لا يموت واحد منهم إلا ترك من صلبه ألف ذرية فصاعداً وروى قتادة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أنه قال الإنس عشرة أجزاء منهم يأجوج ومأجوج تسعة أجزاء وجزء واحد سائر الإنس وروى سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزبعرا عن عبد الله بن مسعود قال يَخْرُجُ يَأْجُوجُ ومأجوج بعد الدجال يموجون في الأرض فيفسدون فيها ثم قرأ (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) أي يخرجون فيبعث الله تعالى عليهم دابة مثل هذا النغف فتلج في أسماعهم ومناخرهم فيموتون فتنتن الأرض فيرسل الله تعالى ماء فيطهر الأرض منهم فذلك قوله عز وجل: (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) يعني: أرسلت كقوله (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ) يعني: أرسلنا (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ) أي من كل أكمة ونشرة من الأرض يخرجون وقال بعضهم يكون خروجهم قبل الدجال والأصح: ما روي عن عبد الله بن مسعود قوله تعالى: ﴿**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ**﴾ يعني: قيام الساعة ﴿**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ**﴾ أي: فاتحة ﴿**أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا ويلنا**﴾ يعني: يقولون يَا وَيْلَنَا ﴿**قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ**﴾ يعني: في جهل ﴿**مِنْ هَذَا**﴾ اليوم ثم ذكروا أن المرسلين كانوا أخبروهم فقالوا: ﴿**بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ يعني: قد أخبرونا فكذبناهم قوله عز وجل ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾ وروي عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ حطب جهنم وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ حضب جهنم بالضاد وقراءة العامة حصب بالصاد يعني: رمياً في جهنم وكل ما يرمى في جهنم فهو حصب ويقال حصب هو الحطب بلسان الزنجية ومن قرأ حطب أي كل ما يوقد به جهنم ومن قرأ حضب بالضاد معناه ما يهيج به النار ﴿**أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ أي داخلون وقال ابن عباس في رواية أبي صالح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى قريشاً وهم في المسجد مجتمعون وثلثمائة وستون صنماً مصفوفة وصنم كل قوم بحيالهم فقال (إنكم وما تعبدون من دون الله) يعني (من هذه الأصنام في النار) ثم انصرف عنهم فشق ذلك عليهم مشقة عظيمة شديدة وأتاهم عبد الله[٣] بن الزبعرا وكان شاعراً فقال ما لي أراكم بحال لم أركم عليها قبل فقالوا: إن محمداً يزعم أنا وما نعبد في النار فقال: لو كنت هاهنا لخصمته فقالوا هل لك أن ترسل إليه فقال: نعم فبعثوا إليه فأتاهم فقال له ابن الزبعرا: أرأيت ما قلت لقومك أنفاً أخاص لهم أم عام فقال بل عام كل من عبد من دون الله فهو وما يعبد في النار قال أرأيت عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ هذه النصارى تعبده فعيسى والنصارى في النار وهذا عزير تعبده اليهود فعزير واليهود في النار وهذا حي يقال لهم بنو مليح يعبدون الملائكة فالملائكة وهم في النار فسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يجبهم فضج أصحابه وضحكوا فنزل (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) ونزل في عيسى وعزير والملائكة (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) يقال: إن هذه القصة لا تصح لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أفصح العرب وأنطقهم لساناً وأحضرهم جواباً كما وصف نفسه أَنَا أفصح العرب فلا يجوز أن يسكت على مثل هذا السؤال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٣٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٧٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٣٨ وعزاه لابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولم يكن السؤال لازماً ويقال: كان سكوته الاستخفاف لأنه سأل سؤالاً محالاً لأنه قال إنكم وما تعبدون من دون الله ولم يقل ومن تعبدون وما لا يقع على النواطق ومن تقع على النواطق ويقال هذ القول يقال لهم يوم القيامة لأنه قال: (قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ). يقال: لهم عند ذلك إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ فإن قيل ما الحكمة في إدخال الأصنام في النار قيل زيادة عقوبة للكفار لأن الأصنام أحجار فيكون الحر فيها أشد ويقال الفائدة في إدخال المعبود النار زيادة ذل وصغار عليهم حيث رأوا معبودهم في النار معهم من غير أن يكون للأصنام عقوبة لأنه لا يجوز التعذيب بذنب غيرهم ثم قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ أي ما دخلوها ومنعوا أنفسهم من النار ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني العابد والمعبود.

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا
مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ
الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ
نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ يعني: في النار صوتهم مثل نهيق الحمار ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني: عيسى وعزيراً في الجنة لا يسمعون زفيرهم ويقال يعني أن أهل النار لا يسمعون في النار الصوت وذلك حين يقال لهم (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ) فصاروا صماً بكماً عمياً ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ يعني الذين وجبت لهم منا الجنة يعني: عيسى وعزيراً ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ يعني: منجون من النار قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ يعني: صوت جهنم ﴿وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يعني لهم ما تمنت أنفسهم في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ يعني: دائمين ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس[1] رضي الله عنه: يعني النفخة الأخيرة دليل قوله تعالى (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين) وقال الحسن[2]: حين يؤمر بالعبد إلى النار وقال مقاتل: إذا ذبح الموت بين الجنة والنار فيأمن أهل الجنة من الموت ويفزع أهل النار فيفزعون حين أيسوا من الموت وقال الكلبي وسعيد بن جبير والضحاك إنه حين وضع الطبق على النار بعد ما أخرج منها من أخرج فيفزعوا لذلك فزعاً لم يفزعوا لشيء قط وذلك الفزع الأكبر وقال مقاتل وابن شريح: حين يذبح الموت على هيأة كبش أملح على الأعراف والفريقان ينظرون فينادي يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت وقال ذو النون المصري: هو القطيعة والفراق ويقال: إنه الموت لأن أول هول يراه الإنسان من أمر الآخرة هو الموت ويقال الفزع الأكبر عند قوله: (وامتازوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) ويقال: هذا حين دعوا إلى الحساب ويقال عند الصراط ثم قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: يوم القيامة لأهل الجنة قال مقاتل: يعني الملائكة الذين كتبوا أعمال بني آدم حين خرجوا من قبورهم فيقولون للمؤمنين ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فيه الجنة وقال الكلبي:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٠ وعزاه لابن جريروابن أبي حاتم.

تتلقاهم الملائكة عند باب الجنة ويبشرونهم بذلك ويقولون هذا يومكم الذي كنتم توعدون)[١] في الدنيا قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ يعني: واذكر يوم نطوي السماء ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال السدي[٢]: السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان دفع كتابه إلى السجل فطواه ويقال السجل الصحيفة ويقال: السجل الكاتب وروى أبو الجوزاء[٣] عن ابن عباس[٤] قال: السجل كان كاتب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره الله تعالى أنه يطوي السماء يوم القيامة كما يطوي السجل الكتاب قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص[٥] للكتب بلفظ الجماعة وقرأ الباقون للكتاب بلفظ الواحد وقرأ أبو حفص المدني (تُطْوَى) السماء بالتاء والضم على فعل ما لم يسم فاعله وقراءة العامة (نَطْوِيْ السَّمَاءَ) بالنون وقرأ بعضهم السجل بجزم الجيم والتخفيف وقراءة العامة بالتشديد وبكسر الجيم ثم استأنف الكلام فقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيْدُهُ﴾ يعني: خلقهم في الدنيا يعيدهم في الآخرة ويقال كما بدأناهم شقياً وسعيداً في الدنيا فكذلك يكونون في الآخرة ويقال كما بدأنا أول خلق من نطفة في الدنيا نعيده وأن تمطر السماء أربعين يوماً كمني الرجال فينبتون فيه ﴿وَعْداً عَلَينا﴾ يعني: وعدنا البعث صدقاً وحقاً لا خلف فيه كقوله: لَا رَيْبَ فِيْهِ (وَعْداً) صار نصباً للمصدر ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بهم أي: باعثين بعد الموت وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: (إنكم تحشرون يوم القيامة عراة غرلا بُهْماً ثم قال: كما بدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور﴾[٦] يعني: في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وكل كتاب زبور ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ يعني: من بعد اللوح المحفوظ ويقال الذكر التوراة يعني: كتبنا في الإنجيل والزبور والفرقان من بعد التوراة أي بينا في هذه الكتب ﴿أَنَّ الأَرْضَ﴾ يعني: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ يعني: ينزلها

---

(١) سقط في (أ).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أوس بن عبد الله الربعي أو الجوزاء المصري من ربعة الأزد انظر التهذيب ١/٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٠ وعزاه لأبي داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده في المعرفة وابن مردويه والبيهقي في سننه وصححه.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٧٠ ـ ٤٧١، النشر ٢/٣٢٥.

(٦) قرأ حمزة: ﴿ولقد كتبنا في الزُّبور﴾ بضم الزاي، يعني «في الكتب» جمع (زبر) مثل قرح وقروح. وقرأ الباقون: بفتح الزاي أراد زبور داوود. انظر حجة القراءات لابن زنجلة ٤٧١.

عبادي المؤمنون وهذا قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير ومقاتل رضي الله عنه ويقال: إن الأرض المقدسة يرثها أي: ينزلها بنو إسرائيل ويقال: يعني: أرض الشام يرثها أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: جميع الأرض تكون في آخر الزمان كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (سيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها). قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: في هذا القرآن ﴿لَبَلَاغًا﴾ إلى الجنة ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: موحدين ويقال: في هذا القرآن لبلاغاً بلغهم من الله عز وجل لقوم مطيعين وعن كعب أنه قال: إنهم أهل الصلوات الخمس قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: ما بعثناك يا محمد إلاَّ رحمة للعالمين يعني: نعمة للجن والإنس ويقال للعالمين أي: لجميع الخلق لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق وكان رحمة للمؤمنين حيث هداهم طريق الجنة ورحمة للمنافقين حيث أمِنوا القتل ورحمة للكافرين بتأخير العذاب وروى سعيد بن جبير عن ابن[1] عباس قال: من آمن بالله ورسوله فله الرحمة في الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي أن يصيبه ما كان يصيب الأمم السالفة قبل ذلك فهو رحمة للمؤمنين والكافرين وذكر في الخبر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لجبريل عليه السلام: يقول الله عز وجل: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فهل أصابك من هذه الرحمة قال: نعم أصابني من هذه الرحمة أني كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك لثناء أثنى الله تعالى عليّ بقوله عز وجل: (ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ربكم رب واحد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون بالتوحيد ويقال: مخلصون بالعبادة اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر يعني: أسلموا ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ قال: فإن أعرضوا عن الإيمان ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ﴾ يعني: أعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: على بيان علانية غير سر ويقال أعلمتكم بالوحي الذي يوحي إليّ لنستوي في الإيمان به ويقال: معناه أعلمتكم فقد صرت أنا وأنتم على سواء وهذا من الاختصار ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني: وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من نزول العذاب بكم في الدنيا فقل لهم: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني: العلانية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ يعني: ما تسرون من التكذيب بالعذاب ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ يعني: وما أدري ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ لعل تأخير العذاب عنكم في الدنيا فتنة لكم لأنهم كانوا يقولون لو كان حقاً لنزل بنا العذاب ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: بلاغ إلى منتهى آجالكم يعني: تعيشون إلى الموت قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ يعني: اقض بيني وبين أهل مكة بالعدل، ويقال: بالعذاب ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ﴾ أي: العاطف على خلقه بالرزق ﴿الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يعني: أستعين به على ما تقولون وتكذبون ويقال: المطلوب منه العون والنصرة وروي عن الضحاك أنه قرأ: (قل رب احكم بالحق) على معنى الخبر على ميزان افعل يعني: هو أحكم الحاكمين قال: لأنه لا يجوز أن يسأل أن يحكم بالحق وهو لا يحكم إلاَّ بالحق وقرأه العامة[2] (قل رب احكم) على معنى السؤال معناه أحكم بحكمك ثـم يخبر عن ذلك الحكم أنه حق قرأ عاصم في رواية حفص قال: رب احكم على معنى الحكاية وقرأ الباقون قل رب احكم وقرأ ابن عامر[3] في إحدى الروايتين على ما يصفون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ حمزة الزبور بضم الزاي وقرأ الباقون بالنصب والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٣/٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في الدلائل.

(٢) انظر حجة القراءات ٤٧١ النشر ٣٢٥/٢.

(٣) انظر النشر ٣٢٥/٢.

سورة الحج (١)

وهي سبعون وثمان آيات مدنية(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يقول أطيعوا ربكم ويقال: إخشوا ربكم ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿شيء عَظِيم﴾ يقول هـولها عظيم والزلزلة والزلزال شدة الحركة على الحال الهائلة من قولهم زلت قدمه إذا

---

(١) سميت هذه السورة سورة الحج في زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووجه تسميتها سورة الحج أن الله ذكر فيها كيف أمر إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى حج البيت الحرام وذكر ما شرع للناس يومئذ من النسك تنويهاً بالحج وما فيه من فضائل ومنافع وتقريعاً للذين يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وفي سورة آل عمران. واختلف في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية أو كثير منها مكي وكثير منها مدني.

فعن ابن عباس ومجاهد وعطاء: هي مكية إلا ثلاث آيات من قوله ﴿هذان خصمان﴾ إلى ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ قال ابن عطية: وعد النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات.

وعن ابن عباس أيضاً والضحاك وقتادة والحسن: هي مدنية إلا آيات ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ إلى قوله تعالى ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ فهن مكيات.

وعن مجاهد عن ابن الزبير: أنها مدنية ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال الجمهور هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني وهي مختلطة أي لا يعرف المكي بعينه والمدني بعينه. قال ابن عطية: وهو الأصح. وعدت آياتها عند أهل المدينة ومكة: سبعاً وسبعين، وعدها أهل الشام: أربعاً وسبعين، وعدها أهل البصرة: خمساً وسبعين، وعدها أهل الكوفة: ثمانياً وسبعين. واشتملت السورة على مقاصد كثيرة منها: ـ

خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهواله. والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالألهية وعن المجادلة في ذلك اتباعاً لوساوس الشياطين وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئاً ولا ينصرونهم في الدنيا والأخرة.

وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يُعرضون عن الحجة ليضلوا الناس. وأنهم يرتابون في البعث وهو ثابت لا ريبة فيه وكيف يرتابون فيه بعلة استحالة الإحياء بعد الإماتة ولا ينظرون أن الله يوجد الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم طوره أطواراً. وأن الله ينزل الماء على الأرض الهامدة فتحيا وتخرج من أصناف النبات فالله هو القادر على كل ذلك فهو=

(٢) في أ [مكية].

زالت عن الجهة سرعة ثم وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ يعني: تشغل كل مرضعة ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يعني: كل ذات ولد رضيع ويقال: تحَير كل والدة عن ولدها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تسقط ولدها من هول ذلك اليوم وروى منصور عن إبراهيم عن علْقَمَة (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيم) قال: هذا بين يدي الساعة وقال مقاتل: وذلك قبل النفخة الأولى ينادي ملك من السماء يا أيها الناس أتى أمر الله فيسمع الصوت أهل الأرض جميعاً فيفزعون فزعاً شديداً ويموج بعضهم في بعض فيشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير وتضع الحوامل ما في بطونها وتزلزلت الأرض وطارت القلوب وعن سعيد بن جبير أنه قال: إنما هو عن النفخة الأولى التي هي الفزع الأكبر ويقال هو يوم القيامة وقال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم قال: حدثنا الدبيلي قال: حدثنا أبو عبد الله قال: حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جذعان قال سمعت الحسن[1] يقول: حدثنا عمران بن الحسين قال كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مسير فنزلت عليه هذه (يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أتدرون أي يوم ذلك قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله عز وجل لآدم: قم فابعث بعث أهل الجنة قال فيقول آدم: وما بعث أهل الجنة يقول: من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون في النار وواحد في الجنة قال فأنشأ القوم يبكون فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إنـه لم يكن نبي قط إلا كانت قبله جاهلية فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن لم يكن كمل العدد من الجاهلية أخذ من المنافقين وما مثلكم في الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع وكالشامة في جنب البعير ثم قال عليه الصلاة والسلام إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا ثم قال: إن معكم لخليقتين ما كانتا في شيءٍ إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من كفرة الجن والإنس وروى أبو سعيد[2] الخدري عن رسول الله ـ صلى الله عليه

= يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير. وأن مجادلتهم بإنكار البعث صادرة عن جهالة وتكبر عن الامتثال لقول الرسول عليه الصلاة والسلام. ووصف المشركين بأنهم في تردد من أمرهم في اتباع دين الإسلام. والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم ـ عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين. وتذكير لهم بما مَنَّ الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته. وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب. وأنه يوشك أن يحل بهولاء مثله فلا يغرهم تأخير العذاب فإنه إملاء من الله لهم كما أملى للأمم من قبلهم وفي ذلك تأنيس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا وبشارة لهم بعاقبة النصر على الذين فتنوهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق. وأن اختلاف الأمم بين أهل هدى وأهل ضلال أمر به افترق الناس إلى ملل كثيرة. وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم لمشاهدة جزاء أهل الهدى وجزاء أهل الضلال. وأن المهتدين والضالين خصمان اختصموا في أمر الله فكان لكل فريق جزاؤه.

وسَلَّى الله رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والمؤمنين بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة آثار دعوة الرسل ولكن الله يُحكم دينه ويبطل ما يُلقي الشيطان فلذلك ترى الكافرين يعرضون وينكرون آيات القرآن. وفيها التنويه بالقرآن والمتلقين له بخشية وصبر ووصف الكفار بكراهيتهم القرآن، وبغض المرسل به والثناء على المؤمنين وأن الله يسر لهم اتباع الحنيفية وسماهم المسلمين. والإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم. وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقاً من الملائكة ومن الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله زلفى وأن الله هو مولاهم وناصرهم. انظر التحرير ١٧/ ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٣ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وعبد الله بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه من طرق. والحديث عند الترمذي في السنن (٣١٦٩) وأحمد ٤/ ٤٣٥ وابن جرير ١٧/ ٨٦ والحاكم ١/ ٢٨، ٢/ ٢٣٣، ٣٨٥، ٤/ ٥٦٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء=

وسلم ـ أنه قال: يقول الله تعالى لآدم: قم فابعث أهل النار فقال يا رب وما بعث أهل النار فيقول من كل ألف تسعماية وتسعة وتسعون فعند ذلك يشيب الصغير وتضع الحامل ما في بطنها ويقال: هذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه حامل ولا صغير ولكنه بين هول ذلك اليوم أنه لو كان حاملاً لوضعت حملها من شدة ذلك اليوم ثم قال تعالى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ يعني: ترى الناس سكارى من الهول أي كالسكارى وما هم بسكارى من الشراب ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي[1] (وَتَرَى النَّاسَ سَكْرَى وما هم بِسَكْرَى) بغير ألف وقرأ الباقون كلاهما بالألف وروي عن ابن مسعود[2] وحذيفة أنهما قرآ سَكْرى وهو اختيار أبي عبيدة وروي عن أبي زرعة أنه قرأ على الربيع بن خثيم (وتُرَى) بضم التاء وقراءة العامة بالنصب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يعني: يخاصم في الله يعني: في وحدانية الله ويقال في دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير حجة ويقال بغير علم يعلمه وهو النضر بن الحارث وأصحابه ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيْدٍ﴾ يعني: يطيع ويعمل بأمر كل شيطان متمرد في معصية الله عز وجل ويقال معناه ويتبع ما سول له الشيطان والمريد الفاسد يقال مرد الشيء إذا بلغ في الشر غايته ويقال مرد الشيء إذا جاوز حد مثله ثم قال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيهِ﴾ يعني: قضى عليه يعني الشيطان ﴿أَنَّهُ مَنْ تَولَّاهُ﴾ يعني من يتبع الشيطان ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن الهدى ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ يعني: يدعوه ﴿إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني: إلى عمل عذاب النار قوله عز وجل ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا كفار مكة ﴿إِنْ كُنْتُم فِيْ رَيْبٍ﴾ يعني: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت فانظروا إلى بدء خلقكم ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني من آدم عليه السلام من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الغبيط الجامد وجمعها علق ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ (وهي اللحمة القليلة قدر ما يمضغ)[3] مثل قطعة كبد ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ أي تامة ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ يعني:

= والصفات وهو عند البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) (٤٧٤١) (٦٥٣٠) (٧٤٨٣)، ومسلم في الإيمان (٣٧٩/٢٢٢)، وعبد بن حميد (٩١٧) منتخب وأحمد ٣٢/٣، والطبري ٨٧/١٧.

(١) انظر حجة القراءات ٤٧٢، النشر ٣٢٥/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٤/٤ وعزاه لسعيد بن منصور.

(٣) سقط في ظ.

غير تامة وهو السقط ويقال: مصورة وغير مصورة ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بدء خلقكم ويقال يخرج السقط من بطن أمه مصوراً أو غير مصور لنبين لكم بدء خلقكم كيف نخلقكم في بطون أمهاتكم ويقال لنبين لكم في القرآن أنكم كنتم كذلك ﴿ونُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فلا يكون سقطاً ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني إلى وقت خروجه من بطن أمه ويقال إلى وقت معلوم لتسعة أشهر ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ من بطون أمهاتكم أطفالاً صغاراً وقال القتبي: لم يقل أطفالاً لأنهم لم يخرجوا من أم واحدة ولكنه أخرجهم من أمهات شتى فكأنه قال: يخرجكم طفلاً طفلاً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ يعني ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ويقال إلى ست وثلاثين سنة والأشد هو الكمال في القوة والخير ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ أن يبلغ أشده ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي أضعف العمر وهو الهرم ويقال: يعني يرجع إلى أسفل العمر يعني يذهب عقله ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ يعني لكيلا يعقل بعد عقله الأول ثم دلهم على إحياء الموتى بإحيائه الأرض فقال تعالى ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يعني ميتة يابسة جافة ذات تراب ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ يعني المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ يعني تحركت بالنبات كقوله عز وجل (فَلَمَّا رَاهَا تَهْتَزُّ) يعني: تتحرك ويقال اهتزت يعني: استبشرت ﴿وَرَبَتْ﴾ يعني انتفخت للنبات وأصلهُ من ربا يربو وهو الزيادة ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ يعني: من كل صنف من ألوان النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ يعني: حسناً حتى يُبْهَجَ به فدلهم للبعث بعد إحياء الأرض ليعتبروا ويعلموا)بأن الله هو الحق وعبادته هي الحق وغيره من الآلهة باطل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: يعلم أنه يحيى الموتى ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كل شيء من البعث وغيره.

وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا
وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ يعني: يَعْلَمُوا أَنَّ السَّاعة ﴿آتِيَةٌ﴾ أي: كائنة أي: جائية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لا شك فيها عند المؤمنين وعند كل من كان له عقل وذهن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ يعني: يخاصم في دين الله عز وجل ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بلا بيان وحجة ﴿وَلَا هُدًى﴾ يعني: ولا دليل واضح من المعقول ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ يعني: ولا كتاب منزل مضيء فيه حجة ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ يعني: لاوى عنقه عن الإيمان وهو على وجه الْكِنَايَةِ ومعناه: يجادل في الله بغير علم متكبراً ويقال ثانيَ عطفه أي: معرضاً عنه ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو[1] ﴿لِيَضِلَّ﴾ بنصب الياء يعني: ليعرض عن دين الله عز وجل والباقون بالضم يعني: ليصرف الناس عن دين الإسلام قال الله تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ يعني النضر بن الحارث قتل يوم بدر صبراً ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ يعني: عذاب النار فأخبر الله تعالى أن ما أصابه في الدنيا من الخزي لم يكن كفارة[2] لذنوبه ثم قال عز وجل ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذلك العذاب يعني: يقال له

(١) انظر حجة القراءات ٤٧٢، النشر ٢/٣٢٥.
(٢) سقط في أ.

يوم القيامة هذا الْعَذَابُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ يعني: بما عملت يداك وذكر اليدين كناية يعني ذلك العذاب بكفرك وتكذيبك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ يعني: على شك وعلى وجه الرياء ولا يريد به وجه الله تعالى ويقال: على شك والعرب تقول: أنت على حرف أي على شك ويقال على حرف: بلسانه دون قلبه وروي عن الحسن قال يعبد الله على حرف أي: على إيمان ظاهر وكفر باطن ويقال على حرف أي: على انتظار الرزق وهذه الآية مدنية نزلت في أناس من بني أسد أصابتهم شدة شديدة فاحتملوا العيال حتى قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأغلوا الأسعار بالمدينة ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ يعني: إن أصابه سعة وغنية وخصب اطمأن به وقال نعم الدين دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلية وضيق في المعيشة ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: رجع إلى كفره الأول وقال: بئس الدين دين محمد ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ أي: غبن الدنيا والآخرة في الدنيا بذهاب ماله وفي الآخرة بذهاب ثوابه ويقال: خسر الدنيا والآخرة لأنه لم يدرك ما طلب من المال وفي الآخرة بذهاب الجنة وروي عن حميد أنه كان يقرأ (خَاسِرَ) بالألف وقراءة العامة خسر بغير ألف ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ يعني: الظاهر البين.

يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

قوله عز وجل: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ يعني: يعبد من دون الله ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده يعني الصنم ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إن عبده ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ يعني: الخطأ البين ويقال في خطأ طويل بعيد عن الحق ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يعني: يعبد لمن إثمه وعقوبته أكثر من ثوابه ومنفعته ويقال: ضره في الآخرة أكثر من نفعه في الدنيا فإن قيل: لم يكن في عبادته نفع البتة فكيف يقال من نفعه ولا نفع له قيل له إنما قال هذا على عاداتهم وهم يقولون لشيءٍ لا منفعة فيه ضره أكثر من نفعه كما يقولون لشيء لا يكون هَنَا بَعِيدٌ كما قالوا (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) ثم قال تعالى ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ يعني: بئس الصاحب ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ يعني: بئس الخليط ويقال: معناه: من كانت عبادته عقوبة عليه فبئس المعبود هو ثم ذكر ما أعد الله تعالى لأهل الصلاح والإيمان فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ يعني: يحكم في خلقه ما يشاء من السعادة والشقاوة قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ الهاء كناية عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجوز في اللغة الإضمار في الكفاية وإن لم تكن مذكورة إذا كان الأمر ظاهراً كقوله تعالى: (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) يعني: على ظهر الأرض وكقوله عز وجل: (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) يعني: الشمس ومعناه: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغلبة والحجة ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ الشفاعة في ﴿الآخِرَةِ﴾ قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني: فليربط بحبل من سقف البيت لأنه كلما علاك فهو سماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يعني: ليختنق ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ يعني: آخْتِنَاقُه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ معناه: هل

ينفعه ذلك قال ابن عباس: نزلت الآية في نفر من أسد وغطفان فقالوا: نخافُ أن لن ينصر الله محمداً عليه السلام فيقطع ما بيننا وبين حلفائنا من المودة يعني اليهود وقال القتبي: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم على المشركين يستبطئون ما وعد لهم من النصرة وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يتم لهم أمره فنزل (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ) يعني: محمداً - صلى الله عليه وسلم - بعد ما سمعوا منه النصرة والإظهار ولكن كلام العرب على وجه الاختصار يعني إن لم تثق بما أقول لك فاذهب واختنق أو اجتهد جهدك قال وفيه وجه آخر وهو أن يكون هاهنا السماء بعينها لا السقف فكأنه قال فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ أي: بحبل وليرتق فيه ثم ليقطع يعني الحبل حتى يخر فيهلك فلينظر هل ينفعه كقوله عز وجل (وإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ) وقال أبو عبيدة: (من كان يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَاوَالآخِرَة) يعني أن لن يرزقه الله وذهب إلى قول العرب أرض منصورة أي: ممطورة فكأنه قال: من كان قانطاً من رزق الله ورحمته فليفعل ذلك فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُه أي: حيلته ما يغيظ أي: غيظه لتأخير الرزق عنه وقال الزجاج: من كان يظن أن لن ينصره الله يعني محمداً - صلى الله عليه وسلم - حتى يظهره الله على الدين كله فليمت غيظاً.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني: جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات بالحلال والحرام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ يعني: يرشد إلى دينه من كان أهلاً لذلك فيوفقه لذلك وهذا كقوله (واللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن كان مثل حالهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني: مالوا عن الإسلام يعني اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ﴾ يعني: عبدة النيران ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني: عبدة الأوثان والأديان ستة فواحد لله تعالى والخمسة للشيطان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: يقضي ويحكم بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: بين هذه الأديان الستة وقال بعضهم: إن الفاء مضمرة في الكلام ومعناه: فإن الله يفصل بينهم على معنى جواب الشرط ويقال: جوابه في قوله: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من أعمالهم ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تعلم ويقال ألست تعلم ويقال: ألم تخبر في الكتاب ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿والشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ﴾ قال مقاتل: سجود هؤلاء حين تغرب الشمس تحت العرش ويقال: سجودها دورانها ﴿وَ﴾ سجود ﴿الشَّجَرُ وَالدَّوابُّ﴾ إذا تحول ظل كل شيء فهو سجوده قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: المؤمنين ﴿وَكَثِيرٌ حَقَ عَلَيهِ الْعَذَابُ﴾ أي: بترك سجودهم في الدنيا ويقال (وَكَثِيرٌ حَق عَلَيهِ الْعَذَابُ) بعدم الطاعة. ويقال: سجود الشجر، أي هو سجود ظلّها ويقال: يسجد أي: يخضع وفيه آية الخلق فهو سجودهم ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ يعني: من قضي الله عز وجل عليه بالشقاوة فما له من مسعد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: يحكم ما يشاء في خلقه من الإهانة والإكرام.

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟
أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

قوله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ يعني: أهل دينين ﴿إِخْتَصَمُوا فِيْ رَبِّهِم﴾ يعني: احتجوا في دين ربهم قال أبو ذر[1] الغفاري رضي الله عنه نزلت هذه الآية في الذين بارزوا يوم بدر يعني حمزة وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث من المؤمنين رضي الله عنهم وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة من المشركين يعني أن المؤمنين يخاصمون الكفار ويجاهدونهم ويقاتلونهم ثم بين مصير كلا الفريقين بقوله ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقال مجاهد[2] (هَذَانِ خَصْمَانِ) يعني: المؤمنين والكافرين اختصما في البعث فالكافرون ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ والمؤمنون يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار وقال عكرمة[3]: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا) أي: اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة: خلقت للرحمة وقالت النار: خلقت للعذاب وروي عن ابن[4] عباس أنه قال: (هَذَانِ خَصْمَانِ) وذلك أن اليهود قالوا كتابنا ونبينا أفضل وقالت النصارى ونبينا كان يحيى الموتى وهو أفضل من نبيكم فنحن أولى بالله وقال المؤمنون: نحن آمنا بالله وبجميع الأنبياء عليهم السلام وبجميع الكتب وأنتم كفرتم ببعض الرسل وببعض الكتب فديننا أولى من دينكم فنزل (هَذَانِ خَصْمَانِ) الآية وقال هذان خصمان اختصموا ولم يقل اختصما لأن كل واحد من الخصمين جمع قرأ ابن كثير[5] (هَذَانِّ) بتشديد النون والباقون بالتخفيف وفي الآية دليل أن الكفر كله ملة واحدة لأنه ذكر ستة ملل من الأديان ثم قال: هذان خصمان ثم بين مصير كلا الفريقين فقال (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ) أي: جحدوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن هيئت لهم ثياب أي: قُمُصٌ من نار ويقال: نحاس ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ قال مقاتل: يضرب الملك رأسه بالمقمع فيثقب رأسه ثم يصب من فوق رؤسهم الحميم الذي قد انتهى حَرُّهُ ﴿يُصْهَرُ﴾ بِهِ يعني: يذاب به ﴿مَا فِي بُطُونِهِم وَالْجُلُودُ﴾ يعني: تنضح الجلود فتسلخ ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ يضرب بها هامتهم ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾ يعني: من الغم والشدة التي أدركته ضرب بمقمعة من حديد فيهوي بها كذلك فذلك قوله: ﴿أُعِيْدُوا فِيْهَا﴾ أي: ردوا إليها ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: المحرق يعني يقال لهم ذوقوا عذاب النار وهذا الجزاء لأحد الخصمين ثم بين جزاء الخصم الآخر فقال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٨ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل. والحديث عند البخاري في المغازي (٣٩٦٦، ٣٩٦٨)، (٣٩٦٩)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٣/٣٤)، والنسائي في التفسير ٢/٨٤ وابن ماجه في الجهاد (٢٨٣٥).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٩ وعزاه لابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٤٩ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٧٤.

مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ يعني: يلبسون في الجنة **﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾** يعني: اقلبه **﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾** قرأ نافع وعاصم في رواية حفص،[1] ولؤلؤاً بالهمز والنصب وقرأ عاصم في رواية أبي بكر هكذا إلا أنه لم يهمز الواو الأولى وقرأ الباقون بالهمز والكسر فمن قرأ بالكسر فلأجل مِنْ ومن قرأ بالنصب فمعناه يحلون لؤلؤاً نصب لوقوع الفعل عليه وهو اختيار أبي عبيد ثم قال: **﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾** أي في الجنة قوله عز وجل: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** يعني: أرشدوا ويقال دعوا إلى قول التوحيد لا إله إلا الله ويقال القرآن **﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** يعني: الطريق المحمود في أفعاله وهو دين الإسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** يعني: أهل مكة **﴿وَيُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** يعني صرفوا الناس عن دين الإسلام **﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** يعني: وعن المسجد الحرام وهذه الآية مدنية وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما خرج مع أصحابه من الحديبية منعهم المشركون عن المسجد الحرام ثم وصف المسجد الحرام فقال: **﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً﴾** يعني: عاماً للمؤمنين جميعاً **﴿الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾** يعني: سواء المقيم في الحرم ومن دخل مكة من غير أهلهما ومعناه: المقيم والغريب فيه سواء ويقال في تعظيمه وحرمته ويقال المسجد الحرام أراد به جميع الحرم المقيم وغيره في حق النزول سواء وقال عمر رضي الله عنه يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء ولهذا قال أبو حنيفة: إن بيع دور مكة لا يجوز وفي إحدى الروايتين يجوز وهذا قول أبي يوسف والأول قول محمد[2] قرأ عاصم في رواية حفص سواءً بالنصب يعني: جعلناه سواء وقرأ الباقون سواءٌ بالضم على معنى الابتداء ثم قال: **﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾** وهو الظلم والميل عن الحق ويقال أصله ومن يرد فيه إلحاداً فزيد فيه الباء كما قال (تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ) ويقال: من اشترى الطعام بمكة للاحتكار فقد ألحد **﴿بِظُلْمٍ﴾** يعني: بشرك أو بقتل **﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** أي: مؤلم قال الزجاج: الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد وقال مقاتل: نزلت الآية في عبد الله بن أنيس بن خطل القرشي وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث رجلين أحدهما مهاجري والآخر أنصاري فافتخرا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة بقتله فقتل قرأ أبو عمرو[3] (وَالْبَادِي) بالباء عند الوصل وكذلك نافع في رواية ورش وقرأ حمزة والكسائي[4] وابن عامر بغير ياء في الوصل والقطع وقرأ ابن كثير بالياء في الوصل والقطع وهو الأصل في اللغة ومن أسقطه لأن الكسر يدل عليه.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ

---

(١) انظر المصدر السابق، وانظر النشر ٢/٣٢٦.

(٢) انظر تفصيل ذلك في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٧٥ ـ ١٢٧٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٧٥.

(٤) سقط في أ.

ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ قال مقاتل: يعني: دللنا لإبراهيم موضع البيت فبناه مع إسماعيل عليهما السلام ولم يكن له أثر ولا أساس البيت لأن البيت كان أيام الطوفان مرفوعاً قد رفعه الله إلى السماء وهو البيت المعمور وقال الكلبي: وَإِذْ بَوَّأْنَا أي جعلنا لإبراهيم مكان البيت يتكلم فيقول بموضع البيت جعله الله منزلاً لإبراهيم بعث الله تعالى سحابة على قدر البيت فيها رأس يتكلم فيقول: يا إبراهيم ابن على قدري وحيالي فأسس عليها البيت وذهبت السحابة ثم بناه حتى فرغ منه فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً﴾ وقال أبو قلابة: بناه من خمسة أجبل حراء وثبير وطور سيناء ولبنان وجبل أحد وقال الزجاج: وإذ بوأنا أي: جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم والمبوأ المنزل يعني أن الله تعالى علم إبراهيم عليه السلام مكان البيت فبناه على إسه القديم وكان البيت قد رفع إلى السماء قال ويروى أن البيت الأول كان من ياقوتة حمراء.

وروي عن ابن عباس أنه قال: رفع السماء إلى السادسة يطوف به كل يوم سبعون ألف ملك وهو بحيال الكعبة ثم قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ يعني أوحى الله تعالى إلى إبراهيم: أن طهر بيتي من النجاسات ومن عبادة الأوثان ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني لأجل الطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ يعني: المقيمين من أهل مكة ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يعني: أهل الصلاة بالأوقات من كل وجه. ثم قال الله عز وجل ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ يعني: ناد في الناس وذلك أن إبراهيم لما فرغ من بناء الكعبة أمره الله تعالى أن ينادي فصعد إبراهيم على أبي قبيس ونادى يا أيها الناس أجيبوا ربكم إن الله تعالى قد بنى بيتاً وأمركم بأن تحجوه. وقال مجاهد: فقام إبراهيم على المقام فنادى بصوت أسمع من بين المشرق والمغرب يأيها الناس أجيبوا ربكم فأجابوه من أصلاب الرجال لبيك قال: فإنما يحج من أجاب إبراهيم يومئذ[1] ويقال التلبية اليوم جواب الله عز وجل من نداء إبراهيم عن أمر ربه فذلك قوله ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾ يعني: على أرجلهم مشاة ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾[2] يعني على الإبل وغيرها فلا يدخل بعيره ولا غيره الحرم إلا وقد ضمر من طول الطريق ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من نواحي الأرض عميق يعني: بعيد. وقال مجاهد: الفج الطريق والعميق البعيد[3] وقال: إن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حجا ماشيين[4]. وقال ابن عباس: ما آسى على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً لأن الله تعالى قال: (يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ)[5] قال الفقيه أبو الليث: هذا إذا كان بيته قريباً من مكة فإذا حج ماشياً فهو أحسن وأما إذا كان بيته بعيداً فالركوب أفضل وروي عن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: الراكب أفضل لأن في المشي يتعب نفسه ويسوء خلقه وإن كان الرجل يأمن على نفسه أن يصبر فالمشي أفضل لأنه روي في الخبر أن الملائكة عليهم السلام تتلقى الحاج فيسلمون على أصحاب المحامل ويصافحون أصحاب البعير والبغال والحمير ويعانقون المشاة.

لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٤ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) الضُمْرُ والضُمُر مثل العُسْر والعُسُر: الهزال ولحاق البطن. لسان العرب (ضمر) ٤/٢٦٠٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٥ عن مجاهد وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الموضوع السابق عن ابن عباس وعزاه للخطيب في التاريخ.

ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ
وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ
وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ يعني: الأجر في الآخرة في مناسكهم ويقال: وليحضروا مناحرهم وقضاء مناسكهم ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ يعني: ولكي يذكروا الله ﴿فِي أيامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ يعني: يوم النحر ويومين بعده وقال مجاهد وقتادة: المعلومات أيام العشر والمعدودات أيام التشريق[١] وقال سعيد بن جبير: كلاهما أيام التشريق ويقال المعلومات أيام النحر والمعدودات أيام التشريق وهو طريق الفقهاء وأشبه بتأويل الكتاب لأنه ذكر في أيام معلومات الذبح وذكر في أيام معدودات الذكر عند الرمي ورخص بتركه في اليوم الآخر بقوله (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه)[٢] ثم قال: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني ليذكروا اسم الله عند الذبح والنحر على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وهو البقر والإبل والغنم ثم قال ﴿فكلوا منها﴾ يعني من لحوم الأنعام ﴿وأطعموا البائس[٣] الفقير﴾ يعني الضرير والزمن[٤] والفقير الذي ليس له شيء وقال الزجاج البائس الذي أصابه البؤس وهو الشدة قوله عز وجل (ثم ليقضوا تفثهم) يعني مناسكهم، وقال مجاهد التفث حلق الرأس وتقليم الأظفار[٥] وروي عن عطاء عن ابن عباس قال التفث الرمي والحلق والتقصير وحلق العانة ونتف الإبط وقص الأظافير والشارب والذبح[٦] وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال التفث ما عليه من المناسك[٧] وقال الزجاج: التفث لا يعرف أهل اللغة ما هو وإنما عرفوا في التفسير وهو الأخذ من الشارب وتقليم الأظافر والأخذ من الشعر كأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال ثم قال: ﴿وليوفوا نذورهم﴾ يقول من كان عليه نذر في الحج والعمرة مما أوجب على نفسه من هدي أو غيره فإذا نحر يوم النحر فقد أوفى بنذره ثم قال ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ يعني طواف الزيارة بعدما حلق رأسه أو قصر، وقال مقاتل: العتيق يعني عتقه في الجاهلية من القتل والسبي والجراحات وغيرها، وقال الحسن: العتيق يعني القديم[٨] كما قال (إن أول بيت)[٩] وقال مجاهد: عتيق يعني: أعتق من

---

(١) ذكر جزءاً منه السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٦ وعزاه لعبد بن حميد عن عطاء ومجاهد رضي الله عنهم.

(٢) سورة البقرة ٢٠٣٥.

(٣) قال في اللسان (بأس) ١/٢٠٠ البائس المبتلي وقال سيبويه البائس من الألفاظ المترحم بها كالمسكين قال: وليس كل صفة يترحم بها وإن كان فيها معنى البائس والمسكين.

(٤) الضرير: يقال للرجل إذا أضربه المرض رجل ضرير والزمن المريض مرضاً مزمناً. انظر اللسان (ضرر) ٤/٢٥٧٣.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٧. وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد بلفظ (قال) «ليقضوا تفثهم» قال حلق الرأس والعانة ونتف الإبط وقص الشارب والأظفار ورمي الجمار وقص اللحية.

(٦) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

(٧) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي شيبة وغيره.

(٨) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن بلفظ إنما سمي العتيق لأنه أول بيت وضع.

(٩) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

الجبابرة[١] ويقال أعتق من الغرق يوم الطوفان وهذا قوله الكلبي [٢] وقرأ حمزة والكسائي وعاصم: (ليقضوا) بجزم اللام وكذلك (وليوفوا) وقرأ أبو عمرو الثلاثة كلها بالكسر بمعنى لام كي وقرأ ابن كثير بكسر اللام الأولى خاصة [٣] فمن قرأ بالجزم جعلها أمر الغائب ومن قرأ بالكسر جعله خبراً عطفاً على قوله (ليذكروا) وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (وليوفوا) بنصب الواو وتشديد الفاء وقرأ الباقون بالتخفيف من أوفى يوفي والأول من وفى يوفي ومعناهما واحد.

ثم قال عز وجل ﴿ذلك﴾ يعني: هذا الذي ذكر من أمور المناسك ثم قال ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ يعني أمر المناسك كلها ﴿فهو خير له عند ربه﴾ يعني أعظم لأجره ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم وغيره ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في التحريم في سورة المائدة[٤] ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ يعني: اتركوا عبادة الأوثان ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ يعني: اتركوا ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ يعني: الكذب وهو قولهم هذا حلال وهذا حرام ويقال: معناه اتركوا الشرك ويقال: اتركوا شهادة الزور ثم قال عز وجل: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ يعني: مخلصين [مسلمين لله ويقال: معناه كونوا مخلصين بالتلبية][٥] لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ويقال إن هذا القول بالزور الذي أمرهم الله باجتنابه ثم قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: وقع من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ يعني: تختلسه الطير ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ يعني: تذهب الريح ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ يعني: بعيد فكذلك الكافر في البعد من الله عز وجل ويقال: معناه من يشرك بالله فقد ذهب أصله وقال الزجاج: الخطف هو أخذ الشيء: السرعة فهذا مثل ضربه الله عز وجل للكافرين في من بعدهم من الحق فأخبر أن بعد من أشرك من الحق كبعد من خر من السماء فذهبت به الطير وهوت به الريح في مكان (سَحِيقٍ) يعني: بعيد قرأ نافع فتَخطفه الطَّير بنصب الخاء والتشديد وقرأ الباقون بالجزم والتخفيف[٦] من خطف ومن قرأ بالتشديد فلأن أصله فتخطفه فادغم التاء في الطاء وألقيت حركة التاء على الخاء.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ يقول هذا الذي أمر من اجتناب الأوثان ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني: البدن

---

(١) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق بنحوه عن سعيد بن جبير وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٧٣.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة . . .﴾ الآية المائدة ٢، ٣.

(٥) سقط في ظ.

(٦) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٢٦.

فيذبح أعظمها وأسمنها وروي عن ابن عباس أنه قال: تعظيمهما استعظامها وأيضاً استسمانها واستحسانها[١] ثم قال: ﴿فإنَّهَا مِنْ تَقْوَى القلوب﴾ يعني: من إخلاص القلوب ويقال من صفاء القلوب وشعائر الله: معالم الله ودينه ندب الله إليها وأمر بالقيام بها وواحدها شعيرة قوله عز وجل: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ يعني: في البدن وقال مجاهد: يعني في ركوبها وشرب ألبانها وأوبارها[٢] ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني إلى أَجَلٍ مسمىً بدناً فمحلها إلى البيت العتيق وروي عن ابن عباس نحو هذا قول بعض الناس: إنه يجوز ركوب البدن وقال أهل العراق: لا يجوز إلا عند الضرورة ويضمن ما نقصها الركوب وهذا القول أحوط الوجهين ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يعني: منحرها في الحرم ورُوي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال. جميعُ فجاج مكة منحر[٣] ثم قال عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكل أهل دين ويقال لكل قوم من المؤمنين فيما خلا ﴿جعلنا منسكاً﴾ يعني: ذبحاً لهراقة دمائهم ويقال: مذبحاً يذبحون فيه قال الزجاج: معناه: جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله تعالى قرأ حمزة والكسائي (مَنْسِكاً) بكسر السين وقرأ الباقون بالنصب[٤] فمن قرأ بالكسر يعني مكان النسك ومن قرأ بالنصب فعلى المصدر وقال أبو عبيد: قراءتنا هي بالنصب لفخامتها ثم قال ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني: يذكرون اسم الله تعالى عند الذبح ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ربكم رب واحد ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ يعني: أخلصوا بالتسمية عند الذبيحة وفي التلبية ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ يعني: المخلصين بالجنة ويقال: المخبتين المجتهدين في العبادة والسكون فيها، قال قتادة: المخبتون المتواضعون وقال الزجاج: أصله من الخبت من الأرض وهو المكان المنخفض من الأرض ويقال: المخبت الذي فيه الخصال التي ذكرها الله بعده وهو قوله ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: خافت قلوبهم ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من أمر الله من المرازي والمصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ يعني: يقيمونها بمواقيتها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون وينفقون في الطاعة ثم ذكر البدن يعني ينحرون البدن فهذه الخصال الحسنة صفة المخبتين.

وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم﴾ قرأ بعضهم (والبُدُن) بضم الدال والباء وقراءة العامة بسكون الدال والمعنى واحد ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ يعني: جعلنا البدن من مناسك الحج ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يعني: في نحرها أجر في الآخرة ومنفعة في الدنيا ﴿فَاذْكُرُوا آسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ يعني [إذا نحرتم فاذكروا اسم الله عليها صواف أي][٥]

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٥٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.
(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد.
(٣) أخرجه أبو داود ٢/١٩٣ كتاب المناسك باب الصلاة بجمع (١٩٣٦)، وابن ماجه ٢/١٠١٣ كتاب المناسك باب الذبح (٣٠٤٨)، وأحمد في المسند ٣/٣٢٦، والبيهقي في السنن ٣/٣١٧، ٤/١٥٢ والحاكم في المستدرك ١/٤٦٠.
(٤) انظر حجة القراءات ٤٧٦، ٤٧٧.
(٥) سقط في ظ.

قائمة قد صفت قوائمها والآية تدل على أن الإبل تنحر قائمة وروي عن عبد الله بن عمر أنه مر برجل قد أناخ بعيره لينحره فقال له: انحره قائماً فإنه صفه أبي القاسم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وروي عن ابن مسعود وابن عباس[١] أنهما كانا يقرآن (فَاذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافِنَ)[٢] والصوافن التي تقوم على ثلاثة قوائم إذا أرادوا نحره تعقل إحدى يديه فهو الصافن وجماعته صوافن وقال مجاهد من قرأ صوافن قال قائمة معقولة من قرأها صواف قال يصف بين يديها[٣] وروي عن زيد بن أسلم أنه قرأ: صوافي بالياء منتصبة ويقال خالصة من الشرك[٤] وروي عن الحسن مثله وقال: خالصة لله تعالى[٥] وهكذا روي عنهما أبو عبيدة وحكى القتبي عن الحسن قال: كان يقرأ (صواف) مثل قاض وغاز أي: خالصة لله تعالى يعني: لا تشرك به في حال التسمية على نحرها ثم قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَت جُنُوبُهَا﴾ يعني: إذا ضربت بجنبيها على الأرض بعد نحرها يقال: وجب الحائط إذا سقط ووجب القلب إذا تحرك من الفزع ويقال: وجب البيع [إذا أبرم][٦] ﴿فَكُلوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فالقانع الراضي الذي يقنع بما أعطي وهو السائل والمعتر الذي يتعرض للمسألة ولا يتكلم ويقال القانع المتعفف الذي لا يسأل ويقنع بما أرسلت إليه والمعتر السائل الذي يعتريك للسؤال وقال الزهري: السنة أن يأكل الرجل من لحم أضحيته قبل أن يتصدق وروي عن عطاء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ليأكل أحدكم من لحم أضحيته[٧] وروى منصور عن إبراهيم قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين بقوله . (فَكُلُوا مِنْهَا فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل) قال الفقيه أبو الليث رحمه الله والأفضل أن يتصدق بثلثه على المساكين ويعطي ثلثه للجيران والقرابة أغنياء كانوا أو فقراء ويمسك لنفسه ثلثه وروي عن ابن مسعود نحو هذا وروي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن القانع والمعتر فقال: القانع الذي يقنع بما أعطي والمعتر الذي يعتري بالأبواب قال: أما سمعت قول زهير:

عَلَى مُكْثِريهِمُ حق من يَعْتَريهِمُ وعِنْدَ المقلينَ السماحة والبذل[٨]

وقال مجاهد: القانع جارك وإن كان غنياً ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: ذللناها لكم وهي البدن ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني: لكي تشكروا رب النعمة قوله عز وجل: ﴿لَنْ ينالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾ وذلك أن ـ أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن عند زمزم وأخذوا دماءها ولطخوها حول الكعبة وعلقوا لحومها بالبيت وقالوا

---

(١) في أ [عبد الله بن مسعود].

(٢) أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن أبي ظبيان قال سألت ابن عباس عن قوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ قال إذا أردت أن تنحر البدنة فأقمها على ثلاث قوائم معقولة ثم قل (بسم الله والله أكبر واللهم منك ولك). انظر الدر المنثور ٣٦٢/٤.

(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن مجاهد.

(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن عبيدة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٦٢/٤ وعزاه لعبد الرزاق وأبي عبيد وعبد بن حميد وابن الأنباري وابن المنذر في المصاحف وابن أبي حاتم.

(٦) سقط في ظ.

(٧) أخرجه مسلم بنحوه ١٥٦٢/٣ كتاب الأضاحي باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي والترمذي ٩٤/٤ كتاب الأضاحي باب ما جاء في كراهية أكل الأضحية.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٦٣/٤ وعزاه للطستي في مسائله.

اللهم تقبل منا فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزل (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا ولاَ دِمَاؤُهَا) يعني: لن يصل إلى الله عز وجل لحومها ولا دماؤها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ أي يصل إليه التقوى من أعمالكم الزاكية والنية الخالصة قرأ الحضرمي (لَنْ تَنَالَ اللَّه) بالتاء لأن لفظ اللحوم ـ مؤنثة ولكن تناله بالتاء لأن لفظ التقوى مؤنث وقراءة العامة بالياء[1] وانصرف إلى المعنى لأن الفعل مقدم ثم قال: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ يعني: ذلَّلها لكم ﴿لِتُكَبِّروا اللَّهَ﴾ يقول لتعظموا الله ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ يعني: أرشدكم لأمر دينه ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالجنة فمن فعل ما ذكر في هذه الآيات فهو محسن ويقال: المحسن الذي يحسن الذبيحة فيختار بغير عيب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: يدفع كفار مكة عن الذين آمنوا فلا ينالون منهم شيئاً وقال الزجاج: إذا فعلت هذا وخالفتم أهل الجاهلية فيما يفعلون في نحرهم وإشراكهم فإن الله يدافع عن حزبه أي المؤمنين ويقال: إن أهل مكة آذوا المسلمين قبل الهجرة فاستأذنوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قتالهم في السر فنهاهم الله عز وجل عند ذلك ثم قال عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: يدفع أذاهم عن المسلمين فأمرهم بالصبر قرأ ابن كثير وأبو عمرو (إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ) بغير ألف والباقون يدافع بالألف من دافع يدافع بمعنى دفع[2] ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ يعني: أثيم لأمانته كفور لربه ولنعمته وقال أهل اللغة: الخوان الفعال من الخيانة وهو المبالغة في الخيانة فمن ذكر اسماً غير اسم الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوان كفور قوله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ يعني: أذن للمؤمنين بقتال المشركين ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ يعني: أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا قرأ عاصم في رواية حفص (أُذن) بضم الألف على معنى [فعل ما لم يسم فاعله][3] أذن الله للذين يقاتلون بنصب التاء [على معنى أنهم مفعولون وقرأ ابن عامر أذن بنصب الألف على معنى أَذن الله للذين يقاتلون بنصب التاء][4] وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وأبو عمرو أذن بالضم يقاتلون بالكسر وقرأ الباقون بالنصب قرأ حمزة والكسائي وابن كثير يقاتلون بالكسر[5] ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ يعني: قادر وكان

---

(١) انظر إتحاف فضلاء النشر ٢/٢٧٥.

(٢) وحجة ابن كثير وأبي عمرو أن الله تعالى لا يدافعه شيء وهو يدفع عن الناس، فالفعل وحده له لا لغيره وحجة الباقين أن يدافع عن مرات متواليات لأن قول القائل: دافعت عن زيد يجوز أن يراد به دفعت عنه مرة بعد مرة وليس ينحى به نحو قاتلت زيداً بل ينحى به نحو قوله قاتلهم الله «والفعل له لا لغيره». حجة القراءات ٤٧٨.

(٣) سقط في ظ. (٤) سقط في ظ. (٥) انظر حجة القراءات ٤٧٨. النشر ٢/٣٢٦. إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٧٦.

المشركون لا يزالون يؤذونهم باللسان وباليد فشكوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما هاجروا أمروا بالقتال ثم أخبر الله عن ظلم كفار مكة فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يعني: بلا جرم أجرموا ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ يعني لم يخرج كفار مكة المؤمنين بسبب سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله فأخرجوهم بهذا السبب ويقال: في الآية تقديم ومعناه (أذن للذين يقاتلون) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ) ثم قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد [وإقامة][1] الحدود وكف الظلم يقول: لولا أن يدفع المشركين بالمؤمنين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ ويقال: ولولا دفع الله بالأنبياء وبالمؤمنين من غيرهم لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ يعني: كنائس اليهود ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ المسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ وقال مجاهد: لولا دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض في الشهادة في الحق لهدمت هذه الصوامع وما ذكر معها[2] وقال الزجاج: تأويل هذا ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض لهدمت في شريعة كل نبي المكان الذي يصلي فيه [فكان معناه لولا دفع الله][3] لهدم في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع وفي زمن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [وعلى جميع الأنبياء][4] المساجد قرأ نافع ولولا دفاع الله بالألف والباقون بغير ألف[5] وقرأ ابن كثير ونافع لهدمت بالتخفيف والباقون بالتشديد على معنى المبالغة والتكثير[6] ثم قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يعني: لينصرن بالغلبة على عدوه من ينصره بنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال لينصرن الله من ينصره يعني: ينصر الله من ينصر دينه بالغلبة كما قال في آية أخرى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ﴾ أي منيع قادر على أن ينصر محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغير عونكم قوله عز وجل ﴿الَّذِيْنَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِيْ الأَرْضِ﴾ يعني إن أنزلناهم بالمدينة وهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني بالتوحيد واتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: عن الشرك ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ يعني: لله ترجع عواقب الأمور يعني: عاقبة أمور العباد في الآخرة.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني إن يكذبوك يا محمد أهل مكة ﴿فقد كذبت قَبْلَهُم﴾ يعني: قبل قومك ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كذبوا نوحاً ﴿وَعَادٌ﴾ كذبت هوداً ﴿وَثَمُودُ﴾ كذبوا صالحاً ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيْمَ﴾ كذبوا إبراهيم ﴿وَقَوْمُ لُوْطٍ﴾ كذبوا لوطاً ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ كذبوا شعيباً ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ يعني كذبه قومه ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ يعني: أمهلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ يعني: عاقبتهم بعد المهل بالعذاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني: كيف رأيت تغييري

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٤ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) سقط في ظ. (٤) سقط في ظ. (٥) انظر حجة القراءات ٤٧٩.

(٦) وهما لغتان غير أن التشديد للتكثير «هدّمت» شيئاً بعد شيء مثل ذبحت وذبّحت المصدر السابق.

وإنكاري عليهم يعني: أليس قد وجدوا حقاً فكذلك كفار مكة تصيبهم العقوبة كما أصابهم ثم قال عز وجل: ﴿فَكَأَيِّن مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: وكم من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ يعني: أهلكنا أهلها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ يعني: كافرة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يعني: ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ يعني: خالية ليس عندها ساكن ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ يعني: طويلاً في السماء ويقال: معناه: كم من بئر معطلة عطلها أربابها وليس عليها أحد يستسقي وقصر مشيد يعني: قيل من حصن حصين طويل مشيد ليس فيه ساكن ويقال [المشيد هو المبني بالشيد وهو الجص وهو المشيد المطول ويقال](١): المشيد والمشيد سواء أي المطول قرأ أبو عمرو أهلكتها بالتاء وقرأ الباقون أهلكناها بلفظ الجماعة(٢) وقرأ نافع في رواية ورش وأبو عمرو في إحدى الروايتين وبير(٣) بالتخفيف وهي لغة لبعض العرب وقرأ الباقون بالهمز وهي اللغة المعروفة.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيْرُوا فِيْ الأَرْضِ﴾ يعني أو لم يسافروا في الأرض فيعتبروا ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ يعني: فتصير لهم قلوب بالنظر والعبرة يعقلون بها ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ التخويف ﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: النظرة بغير عبرة ويقال كلمة الشرك ﴿لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِيْ الصُّدُورِ﴾ يعني: العقول التي في الصدور وذكر الصدر للتأكيد ثم قال عز وجل ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ وهو النضر بن الحارث ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ في العذاب ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني إن يوماً من الأيام التي وعد لهم في العذاب عند ربك في الآخرة ﴿كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا ثم بين لهم العذاب في الآخرة حيث قال: (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) [ووصف طول عذابهم ويقال: إنه أراد في الدنيا ثم بين لهم العذاب في الآخرة حيث قال: (وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)](٤) ووصف طول عذابهم ويقال إنه أراد بذلك قدرته عليهم مجال استعجالهم أنه يأخذهم متى شاء قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (مِمَّا يَعُدُّونَ) بالياء وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة(٥) ثم قال عز وجل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ

---

(١) سقط في ظ.

(٢) وحجة هؤلاء إجماع الجميع على قوله ﴿وكم أهلكنا من قرية﴾. ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾﴿ألم نهلك الأولين﴾ ولم يأت شيء من ذكر الإهلاك بلفظ الواحد بل كله أتى بلفظ الجمع فكان إلحاق هذا الحرف بنظائره أولى. حجة القراءات ٤٧٩.

(٣) وبير أي بالياء بدلاً عن الهمزة.

(٤) سقط في ظ.

(٥) وحجة من قرأ بالياء أن ما قبله ويستعجلونك بالعذاب) فكذلك تعدون إخبار عنهم وحجة الباقين أن التاء أعم لأنه عنى الناس كلهم فكأنه قال: كألف سنة مما تعدون أنتم وهم ويقوي التاء قوله تعالى: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة﴾ مما تعده أنت يا محمد ومن استعجلك بعذابي. حجة القراءات ٤٨٠.

﴿قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ فلم أعجل عليها العقوبة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: كافرة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب ولكن لم يذكر العذاب لأنه سبق ذكره ثم قال ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يعني: المرجع في الآخرة قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: رسول مبين أبلغكم بلغة تعرفونها ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوا فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: عملوا في القرآن بالتكذيب ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين بغير ألف والتشديد في جميع القرآن والباقون بالألف والتخفيف[1] فمن قرأ معجزين أي: يعجزون من اتبع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويثبطونهم ومن قرأ معاجزين أي ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم يظنون أنهم لا يبعثون وقيل معاجزين أي: معاندين ومعناه ليسوا بفائتين ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني: النار.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى﴾ يعني: حدث نفسه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في حديثه ويقال: تمنى أو قرأ كما قال القائل:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... وَآخِرَهُ لاَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال آخر:

تَمَنَّى دَاوُدُ الزَّبُورَ عَلَى الرِّسْلِ ... أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِيْ أُمْنِيَّتِهِ

أي في تلاوته ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِيْ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: يذهب الله به ويبطله ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ يعني: بين الله عز وجل الناسخ من المنسوخ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: أتاه الشيطان في صورة جبريل وهو يقرأ سورة (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى)[2] عند الكعبة حتى انتهى إلى قوله (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)[3] ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق[4] العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعه المشركون يقرأ ذلك أعجبهم فلما انتهى إلى آخرها سجد، وسجد المشركون معه والمسلمون فأتاه جبريل عليه السلام فقال ما جئتك بهذا فنزل (وَمَا أَرْسَلْنَا

(١) حجة القراءات ٤٨١.
(٢) النجم (١).
(٣) النجم ١٩ ـ ٢٠.
(٤) الغرانيق جمع واحدها غرنوق وغرنيق وهي الأصنام وهي في الأصل الذكور من طير الماء سمي به لبياضه كانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه فشبهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء قال ابن الأنباري: ويجوز أن تكون الغرانيق في الحديث جمع الغرانق قال في اللسان وهو الحسن. انظر لسان العرب ٥/٣٢٤٩.

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآية وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس[١] نحو هذا قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إبراهيم بن محمد قال حدثنا جعفر بن زيد الطيالسي قال: حدثنا إبراهيم بن محمد قال حدثنا أبو عاصم عن عمار بن الأسود عن سعيد بن جبير وعن ابن عباس قال قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) ثم قال تلك الغرانيق العلى وإن الشفاعة منها ترتجى فقال المشركون قد ذكر آلهتنا فنزلت الآية[٢] وقال مقاتل قرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنجم بمكة عند مقام إبراهيم فنعس فقرأ تلك الغرانيق العلى فلما فرغ من السورة سجد وسجد من خلفه فنزل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) وقال قتادة: لما ألقى الشيطان ما ألقي قال المشركون قد ذكر الله آلهتنا بخير ففرحوا بذلك فذلك قوله (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) روى أسباط عن السدي قال: خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المسجد فقرأ سورة النجم فلما انتهى إلى قوله (وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) فألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى حتى بلغ إلى آخر السورة سجد وسجد أصحابه وسجد المشركون لذكره آلهتهم فلما رفع رأسه حملوه وأسندوا به بين قطري مكة حتى إذا جاءه جبريل عليه السلام عرض عليه فقرأ عليه الحرفين فقال جبريل عليه السلام معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا واشتد عليه فأنزل الله تعالى لتطييب نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وأخبره أن الأنبياء عليهم السلام قبله قد كانوا مثله ويقال إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل المسجد وجلس عنده جماعة من المشركين فتمنى في نفسه أن لا يأتيه من الله شيء ينفرون منه فابتلاه الله تعالى بما ألقى الشيطان في أمنيته وقال بعضهم: تمنى أي تفكر وحدث تلك الغرانيق العلى ولم يتكلم به لأن قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان حجة فلا يجوز أن يكون يجري على لسانه كلمة الكفر وقال بعضهم: لما رآه الشيطان يقرأ خلط صوته بصوت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ الشيطان تلك الغرانيق فظن الناس أنه قرأها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٦ وعزاه لعبد بن حميد من طريق السدي عن أبي صالح.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه للبزار والطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند رجاله ثقات من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس لكن تعقبت تلك القصة وقد ضعف طرقها الحافظ ابن كثير فقال: رويت من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وقال الشيخ ابن عاشور وهي قصة يجدها السامع ضغثاً على إبالة ولا يلقى إليها التحرير باله.

وما رويت إلا بأسانيد واهية ومنتهاها إلى ذكر قصة وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسندها إلى ابن عباس سند مطعون على أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم كان لا يحضر مجالس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين لأنها تخالف أصل عصمة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا التباس عليه في تلقي الوحي. ويكفي تكذيباً لها قوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾. وفي معرفة الملك. فلو رووها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ إلى قوله ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ فيقع في خلال ذلك مدحها بأنها ﴿الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجي﴾ وهل هذا إلا كلام يلعن بعضه بعضاً. وقد اتفق الحاكمون أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتها ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون فدل على أنهم سمعوا السورة كلها وما بين آية ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام وغيرها من معبودات المشركين. وتزييف كثير لعقائد المشركين فكيف يصح أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم فإن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها فإن تأويلها: أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة للدخل لاختلاف كلمات في مدحهن وهي هذه الكلمات وروجوها بين الناس تأنيساً لأوليائهم من المشركين وإلقاء للريب في قلوب ضعفاء الإيمان. وفي شرح الطيبي على الكشاف نقلاً عن بعض المؤرخين أن كلمات (الغرانيق) (أي هذه الجمل من مفتريات ابن الزِّبعري) انظر التحرير ١٧/٣٠٤ ـ ٣٠٥. انظر تفسير ابن كثير ٥/٤٣٩. تفسير الطبري ١٧/١٣٣. وتفسير البغوي ٣/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

قرأها وقال بعضهم: قال ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على وجه التعيير والزجر يعني: أنكم تعبدونها كأنهن الغرانيق العلى كما قال إبراهيم عليه السلام (فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقال الزجاج: ألقى الشيطان في تلاوة فذلك محنة يمتحن الله تعالى بها من يشاء فجرى على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء من صفة الأصنام فافتتن بذلك أهل الشقاوة والنفاق وروي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أن ابن عباس كان يقرأ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث)[1][2] والمحدث الذي يرى أمره في منامه من غير أن يأتيه الوحي ثم قال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بِمَا ألقى الشيطان (حكيم) حكم بالناسخ وبين قوله عز وجل ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ يعني: بلية ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني الذين قست قلوبهم من ذكر الله وهم المشركون ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق يعني: المشركين في خلاف طويل عن الحق ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني الذين أكرموا بالتوحيد والقرآن ويقال هم مؤمنو أهل الكتاب ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنَ رَبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: فيصدقوا به ويقال: لكي يعلموا أن ما أحكم الله في آياته حق وأن ما ألقى الشيطان باطل ويزداد لهم يقين وبيان فذلك قوله (فيؤمنوا به) أي: يثبتوا على إيمانهم ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ يعني: فتخلص له قلوبهم ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ يعني: إن الله عز وجل لحافظ قلوب المؤمنين في هذه المحنة حتى لم ينزع المعرفة من قلوبهم عند إلقاء الشيطان.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ أي: في شك منه يعني: من القرآن ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ يعني فجأة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ لا فرح فيه ولا راحة ولا رحمة ولا رأفة وهو عذاب يوم القيامة وقال السدي وقتادة يوم عقيم يوم بدر ويقال إنما سمي يوم عقيم لأنه أعقم كثيراً من النساء وقال عمرو بن قيس يوم عقيم يوم القيامة يوم ليس له ليلة ولا بعده يوم والعقيم أصله في اللغة المرأة التي لا تلد وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد له وكذلك كل شيء لا يكون فيه خير يعني لا يكون للكافرين خير في يوم القيامة كما قال الله تعالى (يوم على الكافرين غير يسير) ثم وصف ذلك اليوم فقال عز وجل ﴿الملك يومئذ لله﴾ لا ينازع فيه أحد ﴿يحكم بينهم﴾ يعني يقضي بين الخلق لا حاكم في ذلك اليوم غيره ثم قال ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني: أن حكمه في يوم القيامة إن المؤمنين ﴿في جنات النعيم﴾ قوله عز وجل ﴿الذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ يعني: الشدة ثم قال عز وجل: ﴿والذين هاجروا﴾ وذلك أن المسلمين قاتلوا فاستشهدوا ﴿في سبيل الله﴾ فقال الذين لم يستشهدوا وهل لنا

---

(١) مُحَدَّثٌ بضم الميم وفتح الحاء والدال المشددة يعني موحى إليه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف.

أجر فنزل (والذين هاجروا في سبيل الله) يعني: في طاعة الله من مكة إلى المدينة ﴿ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ يعني يرزقهم الغنيمة في الدنيا لمن لم يموتوا ولم يقتلوا ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾ يعني: أفضل الرازقين وأقوى المعطين ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾[1] يعني: الجنة إذا قتلوا وماتوا ﴿وإن الله لعليم حكيم﴾ حيث لم يعجل بالعقوبة وهذه الآية مدنية.

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

قوله عز وجل: ﴿ذلك ومن عاقب﴾ قال مقاتل: وذلك أن مشركي العرب لقوا المسلمين في الشهر الحرام فكره المسلمون القتال فقاتلهم المشركون فبغوا عليهم فنصر الله المسلمين عليهم فوقع في أنفس المؤمنين من القتال في الشهر الحرام فنزل (ذلك ومن عاقب) يقول هذا جزاء من عاقب ﴿بمثل ما عوقب به﴾ وقال بعضهم ذلك يعني ما وصفنا من صفة أهل الجنة وأهل النار فهو كذلك فقد تم الكلام (ومن عاقب) ابتداء الكلام بمثل ما عوقب به في الدنيا وقال الكلبي: الرجل يقتل وله الحميم فله أن يقتل به قاتله ﴿ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾ على من بغى عليه. ويقال إذا زاد على القتل لينصرنه الله ويقال إن الرجل إذا وجب له القصاص فله أن يقتل أو يأخذ الدية فإن أخذ أكثر من حقه بالقتل وأخذ الدية (ثم بغى عليه) أي: ظلم عليه يعني: غضب عليه أولياء المقتول باستيفاء حقه فجنوا عليه لينصرنه الله أي: له أن يطلب بجنايته ويقال له إذا ظلم على ولي المقتول بالاستطالة بالقتل أو بأخذ الدية لينصرنه الله بأخذ حقه ﴿إن الله لعفو غفور﴾ بقتالهم ثم قال عز وجل ﴿ذلك﴾ يعني ذلك القدرة ﴿بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾ ثم قال: ﴿ذلك﴾ يعني هذا الذي ذكر من صفته وقدرته ﴿بأن الله﴾ يعني: لعلموا أن الله ﴿هو الحق﴾ وأن عبادته الحق ﴿وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ ولا يقدرون على شيء ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ يعني هو أعلى وأكبر من أن يعدل به الباطل قرأ ابن عامر ثم قتلوا بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وأن ما يدعون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ليدخلنهم مدخلاً بنصب الميم وقرأ الباقون بالضم[2].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٩ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) وقرأه نافع (ليدخلنهم مدخلا) بفتح الميم جعله مصدراً واسم كان تقول: دخل يدخل مدخلاً وهذا مدخلنا وكل ما كان على؛ فعل يفعل فالمصدر واسم المكان على مفعل ودل قوله تعالى: ﴿ليدخلنهم﴾ على المصدر لأنهم إذا أدخلوا دخلوا فكأنه قال ليدخلنهم فيدخلون مدخلاً وقراءة الباقون مدخلاً بضم الميم حجتهم قوله تعالى ليدخلهم تقول: أدخل يدخل إدخالاً ومدخلاً. كما قال: وقل رب أدخلني مدخل صدق. حجة القراءات ٤٨٢.

لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ
ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ
لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ يعني: المطر ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ يعني: تصير الأرض مخضرة بالنبات ويقال ذات خضرة ﴿إن الله لطيف﴾ باستخراج النبات ﴿خبير﴾ أي عليم به وبمكانه ثم قال عز وجل ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ من الخلق ﴿وإن الله لهو الغني﴾ عن الخلق وعن عبادتهم ﴿الحميد﴾ يعني: المحمود في أفعاله. قوله عز وجل ﴿ألم تر أن الله سخر لكم﴾ يعني: ذلل لكم ﴿ما في الأرض والفلك تجري﴾ يعني: تسير ﴿في البحر بأمره﴾ يعني: بإذنه. وروي عن عبد الرحمن الأعرج أنه قرأ الفلك بضم الكاف على معنى الابتداء وقراءة العامة بالنصب لوقوع التسخير عليها يعني: سخر لكم الفلك ويقال: صار نسباً بمنطلق على أن تعني أن الفلك تجري ثم قال ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ يعني: لكيلا تقع على الأرض ويقال كراهية أن تقع على الأرض. ﴿إلا بإذنه﴾ يعني بأمره يوم القيامة ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يعني رحيم مع شركهم ومعصيتهم حيث يرزقهم في الدنيا ولم يعاقبهم في العاجل ثم قال عز وجل ﴿وهو الذي أحياكم﴾، يعني خلقكم ولم تكونوا شيئاً ﴿ثم يميتكم﴾ في الدنيا ﴿ثم يحييكم﴾ للبعث ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي كفور لنعمه لا يشكره ولا يطيعه قوله عز وجل ﴿لكل أمة﴾ يعني: لكل قوم ﴿جعلنا منسكاً﴾ يعني مذبحاً ﴿هم ناسكوه﴾ يعني ذابحوه وفي منسك من الاختلاف ما سبق ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ لا يخالفنك في أمر الذبيحة نزلت في قوم من خزاعة قالوا ما ذبح الله فهو أحل مما ذبحتم وقال الزجاج: المعنى فيه أي فلا يجادلنك ولا تجادلهم والدليل عليه وإن جادلوك ويقال فلا ينازعنك في الأمر يعني لا يغلبونك في المنازعة ﴿وادع إلى ربك﴾ يعني أدع الخلق إلى معرفة ربك وإلى توحيد ربك ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ يعني: على دين مستقيم قوله عز وجل ﴿وإن جادلوك﴾ يعني إن حاججوك في أمر الذبيحة والتوحيد ﴿فقل الله أعلم بما تعملون﴾ يعني عالماً بأعمالكم فيجازيكم وذلك قوله ﴿الله يحكم بينكم﴾ يقضي بينكم ﴿يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من الدين والذبيحة قال عز وجل ﴿ألم تعلم﴾ يا محمد ﴿أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب﴾ يعني إن ذلك العلم مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿إن ذلك﴾ في كتاب يعني إن كتابته ﴿على الله يسير﴾ يعني هين حال حفظه على الله أي: كتابته على الله يسير ثم قال عز وجل ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ يعني عذر ولا حجة قرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين ما لم ينزل بالتخفيف والباقون بالتشديد[1] ﴿وما ليس لهم به علم﴾ يعني ليس لهم بذلك حجة من المعقول ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي مانع يمنعهم من العذاب.

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٢٧٩.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

ثم قال عز وجل ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ يعني يعرض عليهم القرآن ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ يعني الغم والحزن والكراهية ﴿يكادون يسطون﴾ أي: هموا لو قدروا يضربون ويبطشون أشد البطش ﴿بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ يعني يقرأون عليهم القرآن وقال القتبي: يسطون أي يتناولونهم بالمكروه من الضرب والشتم ويقال يسطون يعني يفرطون عليهم والسطوة العقوبة ﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار﴾ يعني بأشد وأسوأ من ضربكم وبطشكم ويقال إنهم كانوا يعيرون أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ببذاذة حالهم ورثاثتها قال الله تعالى: قل لهم يا محمد أفأنبئكم بشر من ذلك يعني مما قلتم للمؤمنين قالوا ما هي قال النَّارُ ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: للكافرين قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ صاروا إليه قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ يعني: بين ووصف شبه به لآلهتكم أي: أجيبوا عنه وقال بعضهم ليس هاهنا مثل وإنما أراد به قطع الشغب لأنهم كانوا يقولون (لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ) فقال: يا أيها الناس ضرب مثل فاصغوا إليه استماعاً للمثل فأوقع في أسماعهم عيب آلهتهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويقال مثلكم مثل من عبد آلهة ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾ أي: لن يقدروا على خلق الذباب ويقال المثل في الآية لا غير وهو قوله: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلفوا ذباباً أي: لن يقدروا أن يخلقوا ذباباً من الذباب في المثل ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: على تخليقه ثم ذكر من أمرها ما هو أضعف من خلق الذباب فقال: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذبَابُ شَيْئاً﴾ وذلك أنهم كانوا يلطخون العسل على فم الأصنام فيجيء الذباب فيسلب منها ما لطخوا عليها ﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يقدرون أن يستنقذوا من الذباب ما أخذ منهم ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ يعني: الذباب والصنم ويقال ضعف العابد والمعبود.

مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله عز وجل: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عظموا الله حق عظمته حين أشركوا به غيره ولم يوحدوه ويقال ما وصفوه حق صفته ويقال ما عرفوه حق معرفته كما ينبغي وقال ابن عباس نزلت الآية في يهود المدينة حين قالوا خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استلقى فاستراح وضع إحدى رجليه على الأخرى وكذب أعداء الله فنزل ما قدروا الله حق قدره ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي قوي في أمره (عزيز) يعني: منيع في ملكه ومعبودهم لا قوة له ولا منفعة ويقال إن الله لقوي على عقوبة من جعل له شريكاً عزيز للانتقام منهم قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ قيل: جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت والحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: ويختار من الناس مثل منهم محمد وعيسى وموسى ونوح عليهم السلام فجعلهم أنبياء ورسلاً إلى خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميع لمقالتهم بصير بمن يتخذه رسولاً وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر الله تعالى أنه سميع مقالة من يكفر بصير بمن يصلح للرسالة فيختاره ويجعله رسولاً ثم قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني: من أمر الآخرة وأمر الدنيا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني: عواقب الأمور في الآخرة ويقال معناه: منه بدأ وإليه يرجع قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يعني: صلوا لله تعالى وقال بعض الناس: يسجد في هذا الموضع، يذكر ذلك عن عمر وابن عمر وروي عن ابن عباس أنه قال السجدة في الحج في الأولى منهما وهذا قول أهل العراق لأن السجدة سجدة الصلاة بدليل أنها مقرونة بالركوع معناه: اركعوا واسجدوا في الصلوات المفروضات التطوع وروي عن ابن عباس أنه قال: أول ما أسلموا كانوا يسجدون بغير ركوع فأمرهم الله تعالى بأن يركعوا ويسجدوا ثم قال: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي وحدوه وأطيعوه ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي: أكثروا من الطاعات والخيرات ما استطعتم وبادروا إليها ويقال: التسبيحات ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني: تنجون من عذاب الله تعالى قوله عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حق جِهَادِهِ﴾ يعني: إعملوا لله عز وجل حق عمله ويقال: جاهدوا في طاعة الله عز وجل وطلب مرضاته وقال الحسن: حق جهاده أن تؤدي جميع ما أمرك الله عز وجل به وتجتنب جميع ما نهاك الله عنه وأن تترك رغبة الدنيا لرهبة الآخرة وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلاً سأله فقال: أي الجهاد أفضل فقال كلمة عدل عند السلطان(1) ثم قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ يعني: إختاركم واصطفاكم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: في الإسلام من ضيق ولكن جعله واسعاً ولم يكلفكم مجهود الطاقة وإنما كلفكم دون ما تطيقون ويقال: وضع عنكم إصركم والأغلال التي كانت عليكم ويقال وما جعل عليكم في الدين من حرج وهو ما رخص في الإفطار في السفر والصلاة قاعداً عند العلة وقال قتادة: أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم يعطها إلا نبي كان يقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذهب فليس عليك من حرج وقال لهذه الأمة: وما جعل عليكم في الدين من حرج وكان يقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنت شهيد على قومك وقال لهذه الأمة: لتكونوا شهداء على الناس وكان يقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سل تعط وقال لهذه الأمة: ادعوني استجب لكم ثم قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال الزجاج: إنما صار منصوباً لأن معناه اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم قال: وجائز أن يكون وافعلوا الخير فعل أبيكم إبراهيم ويقال: معناه، وما جعل عليكم في الدين من حرج ولكن جعل لكم ملة سمحة سهلة كملة أبيكم إبراهيم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الله تعالى سماكم المسلمين ويقال: إبراهيم سماكم أي: من آمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن [ويقال

---

(1) أخرجه أبو داود ١٢٤/٤ (٤٣٤٤) كتاب الملاحم. والترمذي ٤٠٩/٤ كتاب الفتن (١٧٤) وابن ماجه ١٣٢٩/٢ كتاب الفتن (٤٠١١).

إبراهيم سماكم المسلمين يا أمة محمد] والطريق الأول أصح لأنه قال: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن [الله سماكم المسلمين في سائر الكتب من قبل هذا القرآن وفي هذا القرآن] ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته بأنه بلغهم الرسالة بالتصديق لهم ﴿وَتَكُونُوا شهداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: على سائر الأمم أن الرسل قد بلغتهم وقال مقاتل: وتكونوا شهداء على الناس يعني: للناس يعني للرسل على قومهم كقوله وما ذبح على النصب أي المنصب ثم قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأتموها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأدوها ثم قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ يعني: وثقوا بالله إذا فعلتم ذلك ويقال: معناه تمسكوا بتوحيد الله وهو قول لا إله إلا الله ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: وليكم وناصركم وحافظكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ يعني: نعم الحافظ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني: نعم المانع لكم برحمته والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ(١)

وهي مائة وسبع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا أبو بكر بن أبي سعيد قال: حدثنا محمد بن علي بن طرخان قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا عبد الرزاق عن يونس بن سليم عن زيد الأيلي عن الزهري عن عروة عن عبد الرحمن بن عبد القاريء عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ:

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ
هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ
﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

---

(١) تدور هذه السورة حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده والتنويه بالإيمان وشرائعه. فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك. وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله تعالى بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته ليبتدىء الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله لم يخلق الخلق سدى ولعباً. وانتقل إلى الاعتبار بخلق السماوات ودلالته على حكمة الله تعالى. وإلى الاعتبار والامتنان بمصنوعات الله تعالى التي أصلها الماء الذي به حياة ما في هذا العالم من الحيوان والنبات وما في ذلك من دقائق الصنع وما في الأنعام من المنافع ومنها الحمل. ومن تسخير المنافع للناس وما أوتيه الإنسان من آلات الفكر والنظر. وورد ذكر الحمل على الفلك فكان منه تخلص إلى بعثة نوح وحدث الطوفان.

وانتقل إلى التذكير ببعثة الرسل للهدى والإرشاد إلى التوحيد والعمل الصالح وما تلقاها به أقوامهم من الإعراض والطعن والتفرق وما كان من عقاب المكذبين وتلك أمثال لموعظة المعرضين عن دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعقب ذلك بالثناء على الذين آمنوا واتقوا. وبتنبيه المشركين على أن حالهم مماثل لأحوال الأمم الغابرة وكلمتهم واحدة فهم عرضة لأن يحل بهم ما حل بالأمم الماضية المكذبة. وقد أراهم الله مخايل العذاب لعلهم يقلعون عن العناد فأصروا على إشراكهم بما ألقى الشيطان في عقولهم. وذكروا بأنهم يقرون إذا سئلوا بأن الله مفرد بالربوبية ولا يجرون على مقتضى إقرارهم وأنهم سيندمون على الكفر عندما يحرضهم الموت وفي يوم القيامة. وبأنهم عرفوا الرسول وخبروا صدقه وأمانته ونصحه المجرد عن طلب المنفعة لنفسه إلا ثواب الله فلا عذر لهم بحال في إشراكهم وتكذيبهم الرسالة ولكنهم متبعون أهواءهم معرضون عن الحق. وما تخلل ذلك من جوامع الكلم. وختمت=

﴿قد أفلح المؤمنون﴾ إلى عشر آيات[(١)] وروي عن كعب الأحبار قال: إن الله تعالى لما خلق الجنة قال لها: تكلمي فقالت (قد أفلح المؤمنون)[(٢)] وروي عن غيره أنها قالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو هذا وقوله قد أفلح المؤمنون أي: سعد وفاز ونجا المصدقون بإيمانهم ثم نعتهم ووصف أعمالهم فقال: ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ يعني: متواضعين وقال الزهري سكون المرء في صلاته لا يلتفت يميناً ولا شمالاً وقال الحسن البصري: أي: خائفون وروي عنه أنه قال خاشعون الذين لا يرفعون أيديهم في الصلاة إلا في التكبيرة الأولى وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال الخشوع في الصلاة أن لا تلتفت في صلاتك يميناً ولا شمالاً وذكر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان إذا قام في الصلاة رفع بصره إلى السماء فلما نزلت هذه الآية رمى بصره نحو مسجده وروي عن أبي هريرة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ثم قال عز وجل[(٣)] ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ يعني الحلف والباطل من الكلام تاركون قال قتادة كل كلام أو عمل لا يحتاج إليه فهو لغو يقال: الذين هم عن الشتم والأذى معرضون كقوله عز وجل (وإذا مروا باللغو مروا كراماً)[(٤)] ثم قال ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ يعني: مؤدون ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ عن الفواحش وعن ما لا يحل لهم ثم استثنى فقال ﴿إلا على أَزْوَاجِهِمْ﴾ يعني على نسائهم الأربع وذكر عن القراءة أنه قال: على بمعنى من يعني إلا من نسائهم مثنى وثلاث ورباع ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يعني: الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا يلامون على الحلال ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ يعني: طلب بعد ذلك ما سوى نسائه وإمائه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يعني المعتدين من الحلال إلى الحرام ويقال: وأولئك هم الظالمون الحائرون الذين تعمدوا الظلم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يعني: ما ائتمنوا عليه من أمر دينهم مما لا يطلع عليه أحد ومما يأتمن الناس بعضهم بعضاً (وعهدهم) يعني: وفاء بالعهد راعون يعني: حافظين وأصل الرعي في اللغة[(٥)] القيام على إصلاح ما يتولاه قرأ ابن كثير والذين هم لأمانتهم بلفظ الوحدان وقرأ الباقون بلفظ الجمع[(٦)] يعني: بيع الأمانات ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني على المواقيت

= بأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يغض عن سوء معاملتهم ويدفعها بالتي هي أحسن ويسأل المغفرة للمؤمنين وذلك هو الفلاح الذي ابتدئت به السورة. انظر التحرير ١٨/٦، ٧.

(١) أخرجه الترمذي ٥/٣٠٥ كتاب التفسير باب ومن سورة المؤمنين (٣١٧٣) وأحمد في المسند ٢٢٣. والحاكم في المستدرك ١/٥٣٥، ٢/٣٩٣ وصححه وأقره الذهبي وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢. والبغوي في تفسيره ٣/٣٠١ وفي سنده يونس من سليم الصنعاني وهو مجهول ويونس بن يزيد الأيلي في روايته عن الزهري وهم قليل.

(٢) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن حكيم عن أبي هريرة ورمز له بالضعف وقال المناوي في شرحه ٥/٣١٩ رواه الحكيم الترمذي في النوارد عن صالح بن محمد عن سليمان بن عمر عن ابن عجلان عن المقبري عن أبي هريرة قال رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فذكره قال العراقي في شرح الترمذي وسليمان بن عمر وهو أبو داود النخعي متفق على ضعفه وإنما يعرف هذا عن ابن المسيب وقال في المغني ضعيف والمعروف أنه من قول سعيد ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه وفيه رجل لم يسم وقال ولده فيه سليمان بن عمر مجمع على ضعفه وقال الزيلعي بن عدي أجمعوا على أنه يضع الحديث.

(٤) سورة الفرقان: الآية ٧٢.

(٥) لسان العرب ٣/١٦٧٦.

(٦) وحجة من قرأ لأمانتهم، قوله تعالى: ﴿وعهدهم راعون﴾ ولم يقل (وعهودهم) وقال بعض النحويين: وجه الإفراد أنه مصدر وإسم جنس فيقع على الكثرة وإن كان مفرداً في اللفظ ومن هذا قوله ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ فأفرد وحجة الباقين إجماع الجميع

يحافظون لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ويتمونها بركوعها وسجودها قرأ حمزة والكسائي على صلاتهم بلفظ الوحدان وقرأ الباقون صلواتهم[1] بلفظ الجماعة ومعناهما واحد لأن الصلاة اسم جنس يقع على الواحد والأكثر فهذه الخصال صفة المؤمنين المخلصين في أعمالهم ثم بين ثوابهم فقال عز وجل ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ يعني النازلين ثم بين ما يرثون فقال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ وهي البساتين بلغة الروم عليها حيطان ويقال: لم يكن أحد من أهل الجنة إلا وله نصيب في الفردوس لأن هناك كلها بساتين وأشجار ويقال أولئك هم الوارثون يعني: يرثون المنازل التي للكفار في الجنة وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[2] ويقال الفردوس البستان الحسن ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني: في الجنة دائمون وقال القتبي: حدثني أبو حاتم السجستاني[3] قال كنت عند الأخفش وعنده الثوري فقال: يا أبا حاتم ما صنعت بكتاب المذكر والمؤنث قلت قد عملت شيئاً فقال: ما تقول في الفردوس قلت مذكر قال: فإن الله يقول (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) قلت أراد الجنة فأنث فقال: يا غافل أما تسمع الناس يقولون أسألك الفردوس الأعلى فقلت يا نائم إنما الأعلى ها هنا أفعل وليس بفعلى.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: آدم قال الكلبي ومقاتل: السلالة إذا عصر الطين يسيل الطين والماء بين أصابعه وقال الكلبي: خلقنا الإنسان يعني ابن آدم من نطفة سُلّت تلك النطفة من طين والطين آدم عليه السلام والنطفة ما يخرج من صلبه فيقع في رحم المرأة وقال الزجاج: سلالة من طين أي [من طين][4] آدم والسلالة القليل من أن ينسل وكل مبني على فعالة فهو يراد به القليل مثل النخالة والنطفة سلالة وإنما سميت النطفة سلالة لأنها تنسل من بين الصلب والترائب ثم جعلناه ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ يعني: في مكان حريز حصين ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: حولنا الماء دماً ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: حولنا الدم مضغة ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾ أي: خلقنا في المضغة عظاماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ قال عكرمة وأبو العالية والشعبي: معناه نفخ فيه الروح وروى الأخفش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه (قَالَ إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْل ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْل ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ عز وجل مَلَكاً فَيُؤْمَرُ بِأَنْ يَكْتُبَ أَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَهِيَ أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ)[5] وروي عن عطاء

= على قوله ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. حجة القراءات ٤٨٣.

(١) وحجة من قرأ على التوحيد إجماع الجميع على التوحيد في سورة الأنعام وسأل سائل عند قوله ﴿والذين هم على صلاتهم دائمون﴾ فرّد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه وحجة الباقين أن هذه مكتوبة بالمصحف بواو وكذلك في براءة وهـود فكان هذا دليلاً على الجمع وكتبوا ما عدا هذه الثلاث (الصلاة بألف من غير واو ولم يكتبوا الألف بعد الواو اختصاراً وإيجازاً) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك بنحوه ٢/٣٩٣ كتاب التفسير وقال حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) هو سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم السجستاني إمام البصرة في النحو والقراءة واللغة والعروض له تصانيف كثيرة أحسبه أول من صنف في القراءات توفي سنة خمس وخمسين ومائتين ويقال سنة خمسين ومائتين. غاية النهاية ١/٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٤) سقط في ظ.

(٥) أخرجه البخاري ١٢/٤٨٦ كتاب القدر (٦٥٩٤).

عن ابن عباس في قوله (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) قال نفخ فيه الروح وروى ابن نجيح[١] عن مجاهد[٢] (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) قال: حين استوى شاباً وروى معمر عن قتادة ثم أنشأناه خلقاً آخر قال: هو نبات الشعر والأسنان وقال بعضهم: هو نفخ الروح[٣] ويقال ذكراً أو أنثى ويقال: معناه ثم أنشأناه خلقاً آخر يعني: الجلد وروي عن عطاء عن ابن عباس أنه قال ينفخ فيه الروح[٤] وروي عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ ثم أنشأته خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني: أحكم المصورين وروى أبو صالح عن عبد الله بن عباس قال: كان عبد الله بن أبي سرح يكتب هذه الآيات للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما انتهى إلى قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) عجب من تفضل الإنسان أي من تفضل خلق الإنسان فقال ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أكتب هكذا أنزلت فشك عند ذلك وقال: لئن كان محمد صادقاً فيما يقول: إنه يوحى إليه فقد أوحي إلي كما أوحي إليه ولئن قال من ذات نفسه فلقد قلت مثل ما قال فكفر بالله تعالى وقال مقاتل والزجاج: كان عمر رضي الله عنه عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذْ أُنْزِلَتْ عليه هذه الآية فقال عمر: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: هكذا أنزلت عليّ فكأنه أجرى على لسانه هذه الآية قبل قراءة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [٥]وقد قيل إن الحكاية الأولى غير صحيحة لأن ارتداد عبد الله ابن أبي سرح كان بالمدينة وهذه الآية مكية قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً وقرأ الباقون بالألف معناهما واحد لأن الواحد يغني عن الجنس.

ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعني: تموتون عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعني: تحيون بعد الموت فذكر أول الخلق لأنهم كانوا مقرين بذلك ثم أثبت الموت لأنهم كانوا يشاهدونه ثم أثبت البعث الذي كانوا ينكرونه ثم ذكر قدرته فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ يعني: سبع سموات بعضها فوق بعض كالقبة وقال مقاتل والكلبي: غِلَظُ كل سماء خمسمائة عام وبين كل سمائين كذلك وقال أهل اللغة[٦]: الطرائق واحدها طريقة ويقال طارقت الشيء يعني: إذا جعلت بعضه فوق بعض وإنما سمي الطرائق لأن بعضها فوق بعض ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافلِينَ﴾ أي: عن خلقهن عاجزين تاركين ويقال لكل سماء طريقة

(١) هو يسار المكي أبو نجيح مولى ثقيف مشهور بكنيته ثقة وهو والد عبد الله بن أبي نجيح مات سنة تسع ومائة. التقريب ٢/٣٧٤.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٣) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.
(٤) ذكره السيوطي في الموضع السابق وعزاه لابن أبي حاتم.
(٥) انظر تفسير ابن كثير ٥/٤٦٣ والدر المنثور ٥/٧.
(٦) لسان العرب ٤/٢٦٦٦٤.

لأن على كل سماء ملائكة عبادتهم مخالفة لعبادة ملائكة السماء الأخرى يعني لكل أهل سماء طريقة من العبادة وما كنا عن الخلق غافلين أي لم نكن نغفل عن حفظهن كما قال (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً) قوله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ يعني: بوزن ويقال بقدر ما يكفيهم لمعايشهم ويقال بقدر يعني كل سنة (تمطر بقدر) السنة الأولى كما روي عن ابن مسعود أنه قال: ليست سنة بأمطر من سنة ولكن الله عز وجل يصرفه حيث يشاء ويقال وأنزلنا من السماء ماء أي أربعة أنهار تخرج من الجنة دجلة والفرات وسيحان وجيحان ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فأدخلناه في الأرض ويقال: جعلناه ثابتاً فيها من الغدران والعيون والركايا ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ يعني: يغور في الأرض فلا يقدر عليه كقوله عز وجل (إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً) ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ﴾ يعني: وأخرجنا بالماء جنات يعني الخضرة ويقال: جعلنا لكم بالماء البساتين ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني: الكروم ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ يعني: ألوان الفواكه سوى النخيل والأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ثم قال عز وجل ﴿وَشَجَرَةً﴾ أي وأنبتنا شجرة ويقال: خلقنا شجرة ﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ قال قتادة: طور سيناء جبل حسن وقال الكلبي: جبل ذو شجرة وقال مجاهد: الطور جبل والسيناء حجارة وقال القتبي: الطور جبل والسيناء إسم وقال مقاتل: خلقنا في الجبل الحسن الذي كلم الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ قرأ ابن كثير وأبو عمر ونافع طور سيناء بكسر السين وقرأ الباقون بالنصب[1] ومعناهما واحد ثم قال ﴿تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي: تخرج بالدهن قرأ ابن كثير وأبو عمرو تُنْبِت بضم التاء وكسر الباء يعني: تخرج الدهن وقرأ الباقون تَنْبُت بنصب التاء وضم الباء[2] وهو إختيار أبي عبيد أي: تنبت معه الدهن كما يقال: جاءني فلان بالسيف ﴿وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ يعني: الزيت يصطبغ به وجعل الله عز وجل في هذه الشجرة إداماً ودهناً وهي صبغ للآكلين.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ يعني: في الإبل والبقر والغنم لمن يعتبر فيها يقال العير بأوقار والمعتبر بمثقال ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ يعني من ألبانها وهي تخرج من بين فرث ودم قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (نَسْقِيكُمْ) بنصب النون وقرأ الباقون بالضم وهذا مثل ما في سورة النحل ثم قال: ﴿وَلَكُمْ

---

(١) وحجة من قرأ بكسر السين قوله تعالى ﴿وطور سينين﴾ والسيناء والسينين الحسن وكل جبل نبتت الثمار فيه فهو سينين وهما لغتان إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٨٢، حجة القراءات ٤٨٤.

(٢) قال الفراء هما لغتان: نبت الشجر وأنبت. قال الشاعر:

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتها ... قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل

المصدران السابقان.

﴿فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ يعني: في ظهورها وأصوافها وألبانها وأشعارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني: من لبنها ولحومها وأولادها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ يعني: على الأنعام في المفازة وعلى السفينة في البحر تسافرون قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ يعني: أرسلناه إلى قومه كما أرسلناك إلى قومك فإن قيل: إيش الحكمة في تكرار القصص قيل له لأن في كل قصة كررها ألفاظاً وفوائد ونكتاً ما ليس في الأخرى ونظمها سوى نظم الأخرى وقال الحسن للقصة ظهر وبطن فالظهر خبر يخبرهم والبطن عظة تعظهم ويقال: إنما كررها تأكيداً للحُجة والعظة كما أنه كرر الدلائل ويكفي دليل واحد لمن يستدل به تفضلاً من الله تعالى ورحمة منه فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ) ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: أطيعوا الله عز وجل ووحدوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يعني: ليس لكم رب سواه ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله عز وجل فتوحدونه يعني: اتقوه ووحدوه قوله عز وجل: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الأشراف الذين كفروا ﴿مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعني: خلقاً آدمياً مثلكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بالرسالة (ويقال يريد أن يتفضل عليكم يعني: يريد أن يجعل لنفسه فضلاً عليكم بالرسالة) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو شاء أن يرسل إلينا رسولاً لأنزل ملائكة ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يعني: مما يدعونا إليه نوح من التوحيد ﴿فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يعني: الجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ يعني: انتظروا به حتى يتبين لكم أمره وصدقه من كذبه ويقال: حتى حين أي حتى يموت فتنجوا منه فلما أبوا على نوح دعا عليهم.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ
وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا
مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ يعني: أعني عليهم بالعذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ يعني: بتحقيق قولي في العذاب لأنه أنذر قومه بالعذاب فكذبوه قوله عز وجل: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: إعمل السفينة بأعيننا يعني: بمنظر منا وبعلمنا ثم قال: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ يعني: بوحينا إليك وأمرنا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: عذابنا ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ يعني: بنبع الماء من أسفل التنور ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ يعني: فأدخل في السفينة ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني من كل حيوان صنفين ولونين ذكراً وأنثى ﴿وَأَهْلَكَ﴾ يعني: وأدخل فيها أهلك ﴿إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ يعني: إلا من وجب عليه العذاب وهو ابنه كنعان ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني ولا تراجعني بالدعاء في الذين كفروا وهو ابنه ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بالطوفان: قرأ عاصم في رواية حفص من كل زوجين بتنوين اللام وقرأ الباقون بغير تنوين

ثم قال عز وجل: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ يعني: ركبت في السفينة ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني: الشكر لله ﴿الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين قوله عز وجل ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ يعني: إذا نزلت من السفينة إلى البر فقل رب أنزلني ﴿مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر منزلاً بنصب الميم وكسر الزاي يعني موضع النزول وقرأ الباقون: منزلاً بضم الميم ونصب الزاي وهو اختيار أبي عبيدة وهو المصدر من أنزل ينزل فصار بمعنى أنزلني إنزالاً مباركاً[1] ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ من غيرك وقد قرأ في الشواذ وأنت خير المنزلين بنصب الزاي يعني أن الله تعالى قال لنوح عليه السلام قل هذا القول حتى تكون خير المنزلين ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في إهلاك قوم نوح ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني: لعبرات لمن بعدهم ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ يعني: وقد كنا لمختبرين بالغرق ويقال بالطاعة والمعصية وإن بمعنى قد كقوله (وإِنْ كَانَ مَكْرُهُم) يعني: وقد كان مكرهم قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: خلقنا من بعدهم ﴿قَرْناً آخَرِينَ﴾ وهم قوم هود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ يعني: بينهم هوداً عليه السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: قال لهم هود احمدوا الله وأطيعوه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ يعني: اتقوه، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ يعني: بالبعث بعد الموت ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ يعني: أنعمنا عليهم ويقال وسعنا عليهم حتى أترفوا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا﴾ يعني: قالوا ما هذا ﴿إِلاَّ بَشَرٌ﴾ يعني: آدمياً ﴿مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ يعني: كما تأكلون منه ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يعني: كما تشربون ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً﴾ يعني: آدمياً ﴿مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ أي: لمغبونون ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً﴾ أي: صرتم تراباً ﴿وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ يعني: محبون.

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾

قوله عز وجل: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ قرأ أبو جعفر المدني هيهات هيهات كلاهما بكسر التاء قال أبو عبيد قراءتها بالنصب لأنه أظهر اللغتين وأفشاهما وقال بعضهم: قد قُرِىء هذا الحرف بسبع قراءات بالكسر والنصب والرفع والتنوين وغير التنوين والسكون[2] وهذه الكلمة يعبر بها عن البعد يعني: بعيداً بعيداً ومعناه أنهم قالوا هذا لا يكون

(١) انظر حجة القراءات ٤٨٦.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٢٨٤.

أبداً يعني البعث ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: بَعِيداً بعيداً لِمَا تُوعَدُونَ ﴿إِنْ هِيَ﴾ يعني: ما هي ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: نحيا ونموت على وجه التقديم ويقال: معناه يموت الآباء وتعيش الأبناء ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ يعني: لا نبعث بعد الموت ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين فلما كذبوه دعا عليهم ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ يعني: قال هود أعني عليهم بالعذاب ﴿بِمَا كَذَّبُونِ قَالَ﴾ الله تعالى ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ يعني عن قريب وماصلة كقوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ) ﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ يعني: ليصيرن نادمين فأخبر الله تعالى عن معاملة الذين كانوا من قبل مع أنبيائهم وسوء جزائهم وأذاهم لأنبيائهم ليصبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أذى قومه ثم أخبر عن عاقبة أمرهم فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: العذاب وهو الريح العقيم ويقال: وهي صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ يعني: يابساً ويقال: هلكى كالغثاء وهو جمع غثاء وهو ما على السيل من الزبد لأنه يذهب ويتفرق وقال الزجاج: الغثاء البالي من ورق الشجر أي: جعلناه يبساً كيابس الغثاء ويقال: الغثاء النبات اليابس كقوله (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) ثم قال: ﴿فَبُعْداً﴾ يعني: سحقاً ونكساً ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: بعداً من رحمة الله تعالى قوله عز وجل ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً﴾ يعني: خلقنا من بعدهم قروناً ﴿آخَرِينَ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ وفي الآية مضمر ومعناه فأهلكناهم بالعذاب في الدنيا ما تسبق من أمة يعني: ما يتقدم ولا تموت قبل أجلها طرفة عين ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ بعد أجلهم طرفة عين قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ يعني: بعضها على إثر بعض قرأ ابن كثير وأبو عمرو (تترىً) بالتنوين وقرأ حمزة والكسائي بكسر الراء بغير تنوين وقرأ الباقون بنصب الراء وبغير تنوين وهو التواتر قال مقاتل: كلما في القرآن (تَتْراً وَمِدْرَاراً وَأَبَابِيلَ وَمُرْدِفِينَ يعني بعضها على إثر بعض قال القتبي: أصل تترى وترا فقلبت الواو تاءً كما قلبوها في التقوى والتخمة وأصلها وترأ والتخمة وأصلها ثم قال عز وجل ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً﴾ بالهلاك الأول فالأول ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وعبراً لمن بعدهم ويقال فجعلناهم أحاديث لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم وقال الكلبي: ولو بقي واحد منهم لم يكونوا أحاديث ﴿فَبُعْداً﴾ لِلْهَالِكِ ويقال فسحقاً ﴿لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني: بحجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ أي: قومه ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تعظموا عن الإيمان والطاعة ﴿وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾ يعني متكبرين ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ﴾ يعني أنصدق ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعني: خلقين آدميين ﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ أي: مستهزئين ذليلين ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ يعني: موسى وهارون ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ يعني: صاروا مفرقين في البحر.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني: لكي يهتدوا يعني: بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ يعني: عبرة وعلامة لبني إسرائيل ولم يقل آيتين وقد ذكرناه ثم

قال ﴿وَآويناهما إِلَى رَبْوَةٍ﴾ يعني: أنزلناهما إلى ربوة وذلك أنها لما ولدت عيسى عليه السلام هم قومها أن يرجموها فخرجت من بيت المقدس إلى أرض دمشق والربوة المكان المرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ يعني: أرضاً مستوية ومعين يعني الماء الجاري الطاهر وهو مفعول من العين وأصله معيون كما يقال: ثوب مخيط وقال سعيد بن المسيب الربوة هي دمشق ويقال هي بيت المقدس لأنها أقرب إلى السموات من سائر الأرض ويقال: إنها الرملة وفلسطين قرأ ابن عامر وعاصم ربوة بنصب الراء وقرأ الباقون بالضم ومعناهما واحد قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّها الرُّسُلُ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما خاطب به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته كما يجيء في مخاطبتهم ﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: من الحلالات قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا ابن صاعد قال: حدثنا أحمد بن منصور قال: حدثنا الفضيل بن دكين قال: حدثنا الفضل بن مرزوق قال: أخبرني عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وقال: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك[1] وقال الزجاج: خوطب بهذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقيل يأيها الرسل وتضمن هذا الخطاب أن الرسل عليهم السلام جميعاً كذا أمروا قال: ويروى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه وكان رزق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنيمة وأطيب الطيبات الغنائم ثم قال تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ يعني: قبل أن تعملوا قوله عز وجل ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: دينكم الذي أنتم عليه يعني ملة الإسلام دين واحد عليه كانت الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ يعني: أنا شرعته لكم فأطيعون قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو أن بنصب الألف وتشديد النون وقرأ ابن عامر بنصب الألف وسكون النون وقرأ الباقون بكسر الألف والتشديد على معنى الابتداء[2] ثم قال عز وجل ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ يقول فرقوا دينهم وتفرقوا في دينهم ومعناه أن دين الله تعالى واحد فجعلوه أدياناً مختلفة زبراً قرأ ابن عامر ﴿زُبَراً﴾ بنصب الباء أي قطعاً وفرقاً وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي (زُبُراً) بضم الباء أي كتباً معناه جعلوا دينهم كتباً مختلفة ويقال فتقطعوا كتاب الله وحرفوه وغيروه (زُبراً) ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يعني بما هم عليه من الدين معجبون راضون به.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله عز وجل ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ يعني اتركهم في جهالتهم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ يعني إلى حين يأتيهم ما

(١) أخرجه مسلم ٢/٧٠٣ كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٦٥ ـ ١٠١٥). وأحمد في المسند ٢/٣٢٨.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٢٨٥، حجة القراءات ٤٨٨.

وعدوا به من العذاب ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ يعني أيظنون وهم أهل الفرق ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ يعني أن الذين نزيدهم به ﴿مِنْ مَالٍ وَبَنِيْنَ﴾ في الدنيا ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِيْ الْخَيْرَاتِ﴾ يعني هو خير لهم في الآخرة قرأ بعضهم يُسَارَعُ بالياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقراءة العامة نُسارِع بالنون وكسر الراء يعني يظنون أنا نسارع لهم في الخيرات بزيادة المال والولد بل هو استدراج لهم وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام أيفرح عبدي أن أبسط له في الدنيا وهو أبعد له مني ويجزع عبدي المؤمن أن أقبض منه الدنيا وهو أقرب له مني ثم قال (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ)[1] وقد تم الكلام يعني أيظنون أن ذلك خير لهم في الدنيا ثم قال نسارع لهم في الخيرات ﴿بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك فتنة لهم ويقال إنما نمدهم به من مال وبنين وقد تم الكلام يعني أيظنون أن ذلك خير لهم في الدنيا ثم قال عز وجل نسارع لهم في الخيرات يعني نبادرهم في الطاعات، وهو خير لهم أي في الآخرة بل لا يشعرون أن زيادة المال والولد أن ذلك مكر بهم وشر لهم في الآخرة ثم ذكر المؤمنين فقال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ يعني: خائفين من عذابه ويقال هذا عطف على قوله (وَالَّذِيْنَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) ثم قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن يصدقون قوله ﴿وَالَّذِيْنَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ يعني: لا يشركون معه غيرهم ولكنهم يوحدون ربهم ويقال: بربهم لا يشركون وهو أن يقول لولا فلان ما وجدت هذا ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ يعني: يعطون ما أعطوا من الصدقة والخير ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يعني: خائفة وروى سالم بن معول عن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا بُقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ويزنون قال لا يا بنت أبي بكر ولكنهم هم الذين يصومون ويتصدقون ويصلون وروي عن أبي بكر بن خلف أنه قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقلنا كيف تقرئين يا أم المؤمنين (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتوا) قالت سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا) فقلت يا نبي الله هو الرجل الذي يسرق ويشرب الخمر قال لا يا بنت أبي بكر هو الرجل الذي يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه[2] وقال الزجاج: من قرأ يؤتون[3] ما آتوا معناه يعطون ما أعطوا ويخافون أن لا يقبل منهم ومن قرأ يأتون ما أتوا أي: يعملون من الخيرات ما يعملون ويخافون مع اجتهادهم أنهم مقصرون ثم قال تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ يعني: لأنهم إلى ربهم راجعون ومعناه يعملون ويوقنون أنهم يبعثون بعد الموت قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِيْ الْخَيْرَاتِ﴾ يعني: يبادرون في الطاعات من الأعمال الصالحة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ يعني: هم لها عاملون يعني الخيرات وقال الزجاج: فيه قولان أحدهما: معناه هم إليها سابقون كقوله عز وجل: (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ١١/٥ وعزاه لابن أبي حاتم عن أبي ميسرة قال أجد فيما أنزل الله على موسى أيفرح عبدي المؤمن أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له مني أو يجزع عبدي المؤمن أن أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له مني ثم تلا «أيحسبون. . . إلخ».

(٢) أخرجه الترمذي ٣٠٦/٥ كتاب التفسير (٣١٧٥)، وابن ماجه ١٤٠٤/٢ كتاب الزهد (٤١٩٨)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ١١/٥ وعزاه أيضاً للفريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عائشة.

(٣) قراء الجمهور ﴿يؤتون ما آتوا﴾ وقرأت عائشة رضي الله عنها وابن عباس والنخعي وقتادة والأعمش والحسن ﴿يأتون ما آتوا من الإتيان﴾. انظر البحر المحيط ٤١٠/٦. تفسير القرطبي ٨/١٢ ـ ٨٩.

لَها)(١) يعني: إليها ويجوز هم لها سابقون أي لأجلها أي: من أجل اكتسابها كقولك: أنا أكرم فلاناً لك أي: من أجلك.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ يعني: بقدر طاقتها ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يعني: وعندنا نسخة أعمالهم التي يعملون وهي التي تكتب الحفظة عليهم ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: يشهد عليهم بالصدق وقال الكلبي (وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا) أي: طاقتها فمن لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق﴾ وهو الذكر يعني اللوح المحفوظ. ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ يعني: لا يزاد في سيآتهم ولا ينقص من حسناتهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني في غفلة من الإيمان بهذا القرآن ويقال هم في غفلة من هذا الذي وصفنا من كتابة الأعمال ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ قال مقاتل: يقول لهم أعمال خبيثة دون الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: لتلك الأعمال لا محالة التي في اللوح المحفوظ وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ذكر الله تعالى (الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) ثم قال للكفار: (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا) ثم رجع إلى المؤمنين فقال (وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ) الأعمال التي عددتهم لها عاملون ثم قال عز وجل: ﴿حَتَّى إذا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني أغنياءهم وجبابرتهم بالعذاب قال مجاهد: يعني بالسيوف يوم بدر وقال الكلبي: بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يصيحون ويتضرعون إلى الله تعالى حين نزل بهم العذاب ويقال: يدعون ويستغيثون قول الله تعالى: ﴿لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ يعني: لا تضجوا ولا تتضرعوا اليوم ﴿إِنَّكُمْ مِنَّا لاَ تُنْصَرُونَ﴾ يعني: من عذابنا لا تمنعون قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِيْ تُتلى عَلَيْكُمْ﴾ أي: تقرأ وتعرض عليكم ﴿فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ أي: ترجعون إلى الشرك وتميلون إليه ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي ـ متعظمين ويقال: تنكصون أي: تقيمون عليه مستكبرين به يعني: بالبيت صار هذا كناية من غير أن يسبق ذكر البيت لأن ذلك البيت كان معروفاً عندهم وقال مجاهد: مستكبرين به أي بمكة بالبلد ﴿سَامِراً﴾ بالليل لجلسائهم ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بالقول الذي في القرآن ويقال تهجرون يعني تتكلمون بالفحش وسب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ [زوروها يعني المقابر ولا تقولوا هُجْراً](٢) يعني: فحشاً وقال القتبي: مستكبرين به يعني: بالبيت العتيق تهجرون به ويقولون نحن أهله سامراً والسمر حديث الليل وقال أهل اللغة: السمر في اللغة ظل القمر ولهذا سمي حديث الليل سمراً لأنهم كانوا يجتمعون في ظل القمر ويتحدثون قرأ نافع (سَامِراً تُهْجِرونَ) بضم التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بنصب التاء وضم الجيم وقال أبو عبيد: هذه القراءة أحب إلينا فيكون من الصدود والهجران كقوله (فكنتم على

---

(١) الزلزلة ٥.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٦١/٣، ٦٢ وعزاه للطبراني في الصغير وقال: وفيه محمد بن كثير بن مروان وهو ضعيف جداً وقوله هجراً بضم الهاء وسكون الجيم يعني فحشاً. انظر لسان العرب ٤٦١٨/٦.

أعقابكم تنكصون) يعني: تهجرون القرآن ولا تؤمنون به ومن قرأ تهجرون أراد الإفحاش في المنطق وقد فسرها بعضهم على الشرك.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ وأصله يتدبروا فأدغم التاء في الدال يعني أفلم يتفكروا في القرآن ﴿أَمْ جَاءَهُمْ﴾ من الأمان ﴿مَا لَمْ يأت آباءهم الأَوَّلِينَ﴾ حتى يؤمنوا وقال معناه جاءهم الذي لم يجىء آباءهم الأولين وهذا كقوله (لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ)(١) وقال الكلبي: أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين من البراءة من العذاب ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ يعني نسبة رسولهم ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ يعني: جاحدين قال أبو صالح عرفوه ولكن حسدوه ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يعني بل يقولون به جنون ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ يعني الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة والقرآن من عند الله عز وجل أن لا تعبدوا إلا الله ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ يعني: جاحدين مكذبين وهم الكفار قوله عز وجل ﴿وَلَو اتَّبَعَ الْحَقّ أَهْوَاءهم﴾ والحق هو الله تعالى يعني لو اتبع الله أهواءهم يعني: مرادهم ﴿لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يعني لهلكت لأن أهواءهم ومرادهم مختلفة ويقال لو كانت الآلهة بأهوائهم كما قالوا لفسدت السموات كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)(٢) ثم قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ يعني: أنزلنا إليهم جبريل عليه السلام بعزهم وشرفهم لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منهم ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني عن القرآن: أي تاركوه لا يؤمنون به ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ قرأ حمزة والكسائي خراجاً ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ يعني: فثواب ربك خير ويقال - قوت ربك من الحلال خير من جعلهم وثوابهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: أفضل الرازقين قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني دين مستقيم وهو الإسلام لا عوج فيه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني لا يصدقون بالبعث ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي عن الدين لعادلون ومائلون.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ يعني: من الجوع الذي أصابهم ﴿لَلَجُّوا﴾ أي: مضوا وتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: في ضلالتهم يترددون قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني: بالجوع ﴿فَمَا

(١) سورة يس: الآية ٦٠. (٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني: ما تضعفوا وما خضعوا لربهم ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ يقول: ما يرغبون إلى الله في الدعاء وبالطاعة ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: نفتح عليهم قال السدي: هو فتح مكة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ قال أبلسوا يومئذ وتغيرت وجوههم وألوانهم حين ينظرون إلى أصنامهم تكسرت وقال عكرمة: ذا عذاب شديد يعني: فتح مكة ويقال الجوع الشديد إذا هم فيه مبلسون أي آيسون من كل خير ورزق.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فهذه الأشياء من النعم ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ يعني: أنتم لا تشكرون ويقال شكركم فيما صنع إليكم قليل ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ يعني: خلقكم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الموتى ويميت الأحياء ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: ذهاب الليل ومجيء النهار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله ويقال أفلا تعقلون توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ يعني: كذبوا مثل ما كذب الأولون ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: هذا القول ﴿إِنْ هَذَا﴾ يعني: ما هذا ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديثهم وكذبهم قوله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ لكفار مكة ﴿لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ من الخلق ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن أحداً يفعل ذلك غير الله تعالى فأجيبوني ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: تتعظون فتطيعونه وتوحدونه ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وكلهم قرؤا الأول بغير ألف وأما الآخر فإن كلهم قرؤوا بغير ألف غير أبي عمرو فإنه قرأ الله والباقون[1] لله قال أبو عبيد: وجدت في مصحف الإمام كلها بغير ألف قال وحدثني عاصم الجحدري[2] أن أول من قرأ هاتين الألفين نصر بن عاصم الليثي[3] فأما من قرأ الله فهو ظاهر لأنه جواب السائل عما يسأل ومن قرأ لله فله مخرج في العربية

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٠ - ٤٩١.

(٢) عاصم بن أبي الصباح العجاج أبو المجشر الجحدري البصري أخذ القراءة عرضاً عن سليمان بن قته عن ابن عباس. انظر طبقات القراء ١/٣٤٩.

(٣) نصر بن عاصم الليثي البصري النحوي تابعي سمع من مالك بن الحويرث وأبو بكرة الثقفي عرض القرآن على أبي الأسود مات سنة تسعين. طبقات القراء ٢/٣٣٦.

سهل وهو ما حكى الكسائي عن العرب أنه يقال للرجل من رب هذه الدار فيقول لفلان يعني هي لفلان والمعنى في ذلك أنه إذا قيل من صاحب هذه الدار فكأنه يقول ـ لمن هذه الدار وإذا قال المجيب هي لفلان أو قال فلان فهو جائز ولو كان الأول الله لكان يجوز في اللغة ولكنه لم يقرأ والاختلاف في الآخرين[١] ثم قال: ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غير الله تعالى فتوحدونه قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: خزائن كل شيء ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يعني: يقضي ولا يقضى عليه ويقال وهو يؤمن من العذاب ولا يؤمن عليه أي ليس له أحد يؤمن الكفار من عذابه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ يعني: من الذين تصرفون عن الإسلام وعن الحق ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ قال الكلبي: يعني القرآن وقال مقاتل: يعني جئناهم بالتوحيد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إن الملائكة عليهم السلام كذا وكذا ثم قال:

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي من شريك ﴿إِذاً لذهب﴾ يعني: لو كان معه آلهة لذهب ﴿كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ﴾ يعني؛ لاستولى كل إله بما خلق وجمع لنفسه كلما خلق ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: ولغلب بعضهم على بعض ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الكذب قوله عز وجل: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني: عالم السر والعلانية ويقال عالم بما مضى وهو كائن ﴿فتعالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: هو أجلّ وأعلى مما يوصف له من الشريك والولد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص (عَالِمِ الغيب) بكسر الميم على معنى النعت لقوله: (سُبْحَانَ اللَّهِ) وقرأ الباقون بالضم[٢] على معنى الابتداء قوله: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب وما صلة ويقال إن أريتني عذابهم ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: أخرجني منهم قبل أن تعذبهم فلا تعذبني معهم بذنوبهم ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ قال الكلبي: هذا أمر قد كان بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهده أصحابه وقد مضى بعد الفتنة التي وقعت في الصحابة بعد قتل عثمان رضي الله عنه وذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم ير بعد نزول هذه الآية ضاحكاً ولا مبتسماً وقال مقاتل (وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) يعني: يوم بدر ويقال يوم فتح مكة ويقال قل رب إما تريني ما يوعدون يعني الفتنة (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) يعني: مع الفئة الباغية وهذا كقوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظلموا مِنْكُمْ خَاصَّة) وذكر عن الزبير أنه كان إذا قرأ هذه الآية يقول قد حذرنا الله فلم نحذر ثم قال عز وجل ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيئة﴾ يعني ادفع بحلمك جهلهم ويقال بالكلام الحسن الكلام القبيح ويقال: ادفع بقول لا إله إلا الله الشرك من أهل مكة ثم قال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يعني: بما يقولون من الكذب (ويقال معناه نحن أعلم بما يقولون)[٣]

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٠. (٢) انظر حجة القراءات ٤٩١. (٣) سقط في أ.

فلا تعجل أنت أيضاً ﴿وَقُلْ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني: أعتصم بك من نزغات الشيطان وضرباته ووساوسه ثم قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ يعني قل رب أعوذ بك من قبل أن يحضرون الشياطين عند تلاوة القرآن ويقال يحضرون عند الموت ويقال عند الصلاة وأصله أن يحضرونني إلا أنه يكتب يحضرون بحذف إحدى النونين للتخفيف.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ
قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ
وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا
قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ
﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا
صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

قوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ يعني: أمهلهم وأجلهم حتى إذا حضر أحدهم الموت وهم الكفار ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ يعني: يقول لملك الموت وأعوانه يا سيدي ردني ويقال: يدعو الله تعالى ويقول يا رب ارجعون ويقال إنما قال بلفظ الجماعة لأن العرب تخاطب جليل الشأن بلفظ الجماعة ويقال معناه يا رب مرهم ليرجعوني إلى الدنيا ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً﴾ يعني: خالصاً ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الدنيا قال الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ وهو رد عليهم يعني أنه لا يرد إلى الدنيا ثم قال ﴿إِنها كَلِمَة هُوَ قَائِلُهَا﴾ يعني: مقولها ولا تنفعه ثم قال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ يعني: من بعدهم القبر ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة ويقال: كل حاجز بين الشيئين فهو برزخ ويقال هو بين النفختين وقال قتادة البرزخ بقية الدنيا وقال الحسن: القبر بين الدنيا والآخرة قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني: النفخة الأخيرة ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: لا ينفعهم ﴿يومئذ﴾ النسبُ ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن ذلك فهذه حالات لا يتساءلون في موضع ويتساءلون في موضع آخر ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ يعني: الناجون من الآخرة ﴿ومن خفت موازينه﴾ يعني رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِيْ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحَ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ يعني: تنفح قال أهل اللغة: النفح واللفح بمعنى واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً وهو الدفع يعني تضرب وجوههم النار ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ يعني في النار ﴿كالِحونَ﴾ يعني: كلحت وعبست وجوههم والكلح الذي قد قلصت شفتاه عن أسنانه ونحو ما تُرى من رؤوس الغنم مشوية إذا بدت الأسنان يعني كلحت وجوههم فلم تلتق شفاههم وقال ابن مسعود كالرأس النضوج ثم قال ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ يعني يقال لهم ألم تكن ﴿آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني ألم يكن يقرأ عليكم القرآن فيه بيان هذا اليوم وما هو كائن فيه ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يعني بالآيات قوله عز وجل ﴿قَالُوا﴾ يعني إن الكفار قالوا

﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ التي كتبت علينا (والتي قدرت علينا)[١] في اللوح المحفوظ ﴿وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ عن الهدى قرأ حمزة والكسائي شقاوتنا بنصب الشين والألف وقرأ الباقون شِقوتنا بكسر الشين وسكون القاف بغير ألف[٢] وروي عن ابن مسعود شقاوتنا وشقوتنا ومعناهما قريب ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ يعني: من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر والتكذيب ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ قال﴾ أي: فحينئذ يقول الله تعالى ﴿إِخْسَئُوا فِيهَا﴾ يعني: اصغروا فيها واسكتوا أي: كونوا صاغرين ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ولا تكلمون بعد ذلك قال أبو الليث رحمه الله، حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا إبراهيم بن يوسف قال حدثنا أبو حفص عن سعيد عن قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن أهل النار يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم إنكم ماكثون ثم يدعون ربهم ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فلا يجيبهم مقدار ما كانت الدنيا مرتين ثم يجيبهم إخسئوا فيها ولا تكلمون فوالله ما نبت بعد هذا بكلمة إلا الزفير والشهيق وروي عن ابن عباس أنه قال: لما قال الله تعالى: اخسئوا فيها ولا تكلمون فإنما بقت أفواههم وانكسرت ألسنتهم فمن الأجواف يعوون عواء الكلب ويقال اخسئوا أي: تباعدوا تباعد سخط يقال خسأت الكلب إذا زجرته ليتباعد ثم بين لهم السبب الذي استحقوا تلك العقوبة به فقال ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ﴾ وهم المؤمنون ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ قوله عز وجل ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ يعني هزواً ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ يعني: أنساكم الهزء بهم العمل بطاعتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ في الدنيا قرأ عاصم وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو (سِخْرِيا) بكسر السين وكذلك في سورة ص وكانوا يقرؤون في الزخرف بالرفع قالوا لأن في هذين الموضعين من الاستهزاء وهناك من الزخرف من السخرة والعبودية فما كان من الاستهزاء فهو بالكسر وما كان من التسخير فهو بالضم وقرأ حمزة والكسائي ونافع (سُخْرِياً) كل ذلك بالضم[٣] وقال أبو عبيد: هكذا نقرأ لأنهن يرجعن إلى معنى واحد وهما لغتان سِخْرِيٌّ وسُخْرِيّ وذكر عن الخليل وعن سيبويه[٤] أن كلاهما واحد قوله عز وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: جعلت جزاءهم الجنة وهم المؤمنون بما صبروا يعني بصبرهم على الأذى وعلى أمر الله تعالى ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الناجون قرأ حمزة والكسائي إنهم بكسر الألف على معنى الابتداء والمعنى إني جزيتهم ثم أخبر فقال إنهم هم الفائزون وقال أبو عبيد: وقرأ الباقون أَنَّهُمْ بالنصب[٥] أَنِّي جزيتهم لأنهم هم الفائزون وقال أبو عبيد: الكسر أحب إلى علي ابتداء المدح من الله تعالى.

---

(١) سقط في أ.

(٢) وهما مصدران تقول شقي من الشقاوة والشَقْوة والشِقْوة كالفطنة والشقاوة كالسعادة. انظر حجة القراءات ٤٩١. والنشر ٢/٣٢٩.

(٣) قال الخليل: (هما لغتان) وقال آخرون: (بل ما كان في الاستهزاء فهو بالكسر وما كان من جهة السخرى فهو بالضم). والكسر أحسن لاتباع الكسرة ويقوي الكسرة قوله (بعدها): ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ والضحك بالهزء أشبه وحجة الرفع: إجماع الجميع على الرفع في سورة الزخرف: ﴿ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِياً..﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر حجة القراءات ٤٩٢.

(٤) هو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه أبو بشر وسيبويه كلمة فارسية معناها بالعربية (رائحة التفاح ولد سنة ١٤٨ أخذ عن الخليل ويونس والأخفش الأكبر كان إمام البصريين في النحو له الكتاب من كتب النحو المشهورة. وفيات الأعيان ٣/٤٦٣، بغية الوعاة ٢/٢٢٩.

(٥) الفتح على وجهين أحدهما أن يكون (أنهم في موضع المفعول الثاني لأن جزيت تتعدى إلى مفعولين قال الله جل وعز: ﴿وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾ ويجعل (أنهم) في موضع نصب على تأويل (إني جزيتهم اليوم بما صبروا) الفوز يعني الجنة وإن شئت لم تأت بالمفعول الثاني في (جزيت) فكان معناه: (أثبْتهم) ولم تذكر ما أَثْبَتهم) ثم قلت: لأنهم هم الفائزون بأعمالهم السابقة. قال محمد بن يزيد: (التفسير الأول أجود لأن الفوز هو الجزاء وليس بعلة للجزاء) ومن كسر (إنَّ) يقول: إن الكلام مذناه=

قَـٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ
إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا
بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ
﴿١١٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ كَم لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ يعني: في القبر ويقال في الدنيا ويروى عن ابن عباس في بعض الروايات أنه قال لا أدري في الأرض أم في القبر وقال مقاتل: كَـمْ لَبِثْتُم فِيْ القبر عدد سنين ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ قال الأعمش: يعني الحافظين وقال مقاتل: يعني ملك الموت وأعوانه وقال قتادة: يعني فاسأل الحساب وقال مجاهد: يعني الملائكة عليهم السلام وهكذا قـال السدي: ﴿قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ في القبر أو في الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كنتم تَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كنتم تصدقون أنبيائي عليهم السلام في الدنيا لعرفتم أنكم ما مكثتم في القبور إلا قليلاً قرأ حمزة والكسائي وابن كثير قل كم لبثتم على معنى الأمر وكذلك قوله قل إن لبثتم وقرأ الباقون (قال) بالألف[١] وقرأ حمزة والكسائي (فاسال العادين بغير همز وقرأ الباقون فاسأل بالهمزة ثم قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ أي: لعباً وباطلاً لغير شيء يعني: أظننتم أنكم لا تعذبون بما فعلتم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت قرأ حمزة والكسائي لا ترجعون بنصب التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بضم التاء[٢] ونصب الجيم وكذلك التي في القصص قالوا: لأنها من مرجع الآخرة وما كان من مرجع الدنيا فقد اتفقوا في فتحه مثل قوله: ﴿وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال أبو عبيد: وبالفتح نقرأ لأنهم اتفقوا في قوله تعالى: (أَنَّهُمْ لاَ يُرْجَعُونَ) وقال إنهم لا يرجعون (وَقَالَ إِنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) كقولـه (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) فأضاف الفعل إليهم ثم قال عز وجل: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ يقول ارتفع وتعظم من أن يكون خلق شيئاً عبثاً وإنما خلق لأمر كـائن ثم وحد نفسه فقال: ﴿لاَ إِلَهَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ يعني: السرير الحسن قوله عز وجل ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ يقول لا حجة له بالكفر ولاعذر يوم القيامة ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة يعني عذابه ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: لا يأمن الكافرون من عذابه ويقال: معناه جزاء كل كافر أنه لا يفلح الكافرون في الآخرة عند ربهم قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغفر وارحم﴾ يعني: تجاوز عني ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ يعني: من الأبوين وهذا قول الحسن ويقال من غيرك ويقال: إنما حسابه عند ربه فيجازيه كما قال: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ وقل رب اغفر وارحم فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يستغفر للمؤمنين ويسأل لهم المغفرة ويقال: أمره بأن يستغفر لنفسه ليعلم غيره أنه محتاج إلى الاستغفار كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إني أستغفر الله ربي وأتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة أو قال مائة مرة والله[٣] سبحانه وتعالى أعلم.

= عند قوله: (بما صبروا) ثم أخبر فقال: (إنهم هم الفائزون قال أبو عبيد: هذا مدح من الله لهم كما أشار المصنف. انظر حجة القراءات ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(١) انظر المصدر السابق النشر ٢/٣٣٩.

(٢) حجة من قرأ بنصب التاء قوله تعالى: ﴿وإنا إليه راجعون﴾ وحجة الباقين قوله تعالى ﴿وإليه تقلبون﴾ و﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾ انظر حجة القراءات ٤٩٤.

(٣) أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة ١١/١٠١٠. كتاب الدعوات باب استغفار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٦٣٠٧) ومسلم ٤/٢٠٧٥ كتاب الذكر باب استحباب الاستغفار (٤١/٢٧٠٢).

سُورَةُ النُّورِ (١)

وهي ستون وأربع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾ قرأ بعضهم (سُورَةٌ) بنصب الهاء وقراءة العامة بالضم(٢) فمن قرأ بالضم فمعناه هذه سورة أنزلناها ومن قرأ بالنصب فمعناه: أنزلنا سورة ويقال اقرأ سورة وقد قرئت سؤرة بالهمزة وبغير

(١) اشتملت هذه السورة من الأغراض ما يتعلق بأحكام معاشرة الرجال للنساء وآداب الخلطة والزيارة وأول ما نزلت بسببه قضية التزوج بامرأة اشتهرت بالزنى وصدر ذلك ببيان حد الزنى.
- وعقاب الذين يقذفون المحصنات.
- وحكم اللعان.
- والتعرض إلى براءة عائشة رضي الله عنها مما أرجفه عليها أهل النفاق. وعقابهم والذين شاركوهم في التحدث به.
- والزجر عن حب إشاعة الفواحش بين المؤمنين والمؤمنات.
- والأمر بالصفح عن الأذى مع الإشارة إلى قضية مسطح بن أثاثة.
- وأحكام الإستئذان في الدخول إلى بيوت الناس المسكونة ودخول البيوت غير المسكونة.
- وآداب المسلمين والمسلمات في المخالطة.
- وإفشاء السلام.
- والتحريض على تزويج العبيد والإماء.
- والتحريض على مكاتبتهم أي إعتاقهم على عوض يدفعونه لمالكيهم.
- وتحريم البغاء الذي كان شائعاً في الجاهلية.
- والأمر بالعفاف.
- وذم أحوال أهل النفاق والإشارة إلى سوء طويتهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم -.
- والتحذير من الوقوع في حبائل الشيطان.
- وضرب المثل لهدى الإيمان وضلال الكفر.
- والتنويه ببيوت العبادة والقائمين فيها.
- وتخلل ذلك وصف نعمة الله تعالى وبدائع مصنوعاته وما فيها من منن على الناس.
- وقد أردف ذلك بوصف ما أعد الله للمؤمنين وأن الله علم بما يضمره كل واحد وأن المرجع إليه والجزاء بيده. انظر التحرير ١٤٠ - ١٤١.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٢٩١.

همز فمن قرأ بالهمز جعلها من أسارت يعني: أفضلت كأنها قطعة من القرآن ومن لم يهمز جعلها من سور المدينة (سوراً) وقال النابغة للنعمان ابن المنذر:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب[١]

وإنما خص هذه السورة بذكر السورة لما فيها من الأحكام فذلك كله يرجع إلى أمر واحد وهو أمر النساء ثم قال تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ يعني: بيّنا حلالها وحرامها وقال القتبي: أصل الفريضة الوجوب وهاهنا يجوز أن يكون بمعنى بيّناها وقد يجوز أوجبنا العمل بما فيها وقال بعض أهل اللغة[٢]: أصل الفرض هو القطع ولهذا سمي ما يقطع من حافة النهر فرضة ويسمى الموضع الذي يقطع من السواك أي ليشد فيه الخيط فرض ولهذا يسمى الميراث فريضة لأن كل واحد قطع له نصيب معلوم قرأ ابن كثير وأبو عمرو (وَفَرَّضْنَاهَا) بتشديد الراء وقرأ الباقون بالتخفيف[٣] فمن قرأ بالتخفيف، فمعناه ألزمناكم العمل بما فرض ومن قرأ بالتشديد فهو على وجهين أحدهما على معنى التكثير أي إنا فرضنا فيها فروضاً ومعنى آخر وبيّنا وفصلنا فيها من الحلال والحرام ثم قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا﴾ يعني في السورة ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: الحدود والفرائض والأمر والنهي ويقال: الآيات يعني العلامات والعبرات ويقال: يعني آيات القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: تتعظون فلا تعطلون الأحكام والحدود قوله عز وجل: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ وقرأ بعضهم: (الزَّانيةَ)بالنصب على معنى اجلدوا الزانية والزاني وهكذا السارق والسارقة بالنصب على هذا المعنى ويقال: في الزنا بدأ بذكر المرأة لأن الزنا في النساء أكثر وفي السرقة بدأ بالرجال لأن السرقة في الرجال أكثر وقراءة العامة بالرفع على معنى الابتداء وقيل: إنما بدأ بالمرأة لأنها أحرص على الزنا من الرجال ويقال لأن الفعل ينتهي إليها ولا يكون إلا برضاها ثم قال: ﴿فَاجْلِدُوا[٤] كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يعني: إذا كانا غير محصنين ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قرأ ابن كثير رآفة بالهمزة والمد وقرأ أبو عمرو بالمد بغير همز وقرأ الباقون بالهمز بلا مد[٥] ومعنى الكل واحد وهو الرحمة وقال بعضهم: الرأفة اسم جنس والرحمة إسم نوع قال بعضهم الرأفة للمذنبين والرحمة للتائبين وهو قول سفيان الثوري وقال بعضهم الرأفة تكون دفع المكروه والرحمة إيصال المحبوب يعني: لا يحملنكم الشفقة عليهما على ترك الحد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: في دين الله أي: في حكم الله إن كنتم تؤمنون بالله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني: يوم القيامة وإنما سمي اليوم الآخر لأنه لا يكون بعده ليل ولا نهار فيصير كله بمنزلة يوم واحد وقد قيل: إنه تجتمع الأنوار كلها وتصير في الجنة يوماً واحداً وجمعت الظلمات كلها في النار وتصير كلها ليلة واحدة ثم قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ليحضر عند إقامة الحد طائفة من المؤمنين وفي حضور الطائفة ثلاث فوائد أولها: أنهم يعتبرون بذلك ويبلغ الشاهد الغائب والثانية: أن الإمام إذا إحتاج إلى الإعانة أعانوه والثالثة: لكي يستحي المضروب فيكون زجراً له من العود إلى مثل

---

(١) البيت للنابغة الذبياني انظر ديوانه ص ١٣ وانظر المصون لأبي أحمد العسكري ١٥٤.

(٢) انظر لسان العرب ٣٣٨٧/٥.

(٣) انظر حجة القراءات ٤٩٤، النشر ٣٣٠/٢.

(٤) لا خلاف أن المخاطب بهذا الأمر الإمام ومن ناب منابه وزاد الشافعي ومالك: السادة في العبيد قال الشافعي: في كل جلد وقطع وقال مالك: في الجلد دون القطع وقال أبو حنيفة: لا يقيمه إلا الإمام. وقيل: الخطاب للمسلمين لأن إقامة مراسم الدين واجبة على المسلمين ثم الإمام ينوب عنهم إذ لا يمكنهم الإجتماع على إقامة الحدود. انظر تفسير القرطبي ١٠٨/١٢ التحرير والتنوير ١٤٨/١٨.

(٥) انظر حجة القراءات ٤٩٥، إتحاف فضلاء البشر ٢٩٢/٢.

ذلك الفعل وقال الزهري: الطائفة ثلاثة فصاعداً وذكر عن أنس بن مالك أنه قال: أربعة فصاعداً لأن الشهادة على الزنا لا تكون أقل من أربعة وقال بعضهم: اثنان فصاعداً وقال بعضهم: الواحد فصاعداً وهو قول أهل العراق وهو استحباب وليس بواجب وروي عن ابن عباس أنه قال رجلان وعن مجاهد قال: واحد فما فوقه طائفة وروي عن ابن عباس مثله.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً يقال له مرثد بن أبي مرثد قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أأنكح عناقاً يعني امرأة بغية كانت بمكة قال: فسكت عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزلت هذه الآية (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً) ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ فقال: يا مرثد لا تنكحها[١] وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ليس هو على النكاح ولكنه الجماع[٢] ويقال إن أصحاب الصفة استأذنوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يتزوجوا الزواني وكانت لهن رايات كعلامة البيطار ليُعرف أنها زانية وقالوا لنا في تزويجهن مراد فأذن لنا فإنهن أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيراً والمدينة غالية السعر وقد أصابنا الجهد فإذا جاءنا الله تعالى بالخير طلقناهن وتزوجنا المسلمات فنزلت الآية الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة[٣] وقال سعيد بن جبير والضحاك: الزاني لا ينكح إلا زانية أي لا يزني حين يزني إلا بزانية مثله في الزنا والزانية لا تزني إلا بزان مثلها في الزنا ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: الزنا وقال الحسن البصري: الزاني المجلود بالزنا لا ينكح إلا زانية مجلودة مثله في الزنا وروي عن علي بن أبي طالب أن مجلوداً تزوج امرأة غير مجلودة ففرق بينهما[٤] ويقال: أراد به النكاح لا ينكح يعني لا يتزوج وكان التزويج حراماً بهذه الآية ثم نسخ بما روي أن رجلاً قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن امرأتي لا ترد يد لامس فقال: طلقها، قال: إني أحبها، فقال: أمسكها وقال سعيد[٥] بن المسيب الزاني لا ينكح إلا زانية كانوا يرون الآية التي بعدها

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/ ٢٢٠ كتاب النكاح باب في قوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾ (٢٠٥١) والترمذي ٥/ ٣٠٧ كتاب تفسير القرآن (٣١٧٧) والنسائي ٦/ ٦٦ كتاب النكاح.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٩ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي داود في ناسخه والبيهقي في السنن والضياء المقدس في المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٢/ ١١٣، أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠ وعزاه لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٥) أخرجه أبو داود في السنن من حديث ابن عباس ٢/ ٥٤١ كتاب النكاح باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء الحديث (٢٠٤٩) وأخرجه النسائي ٦/ ١٦٩ ـ ١٧٠ كتاب الطلاق باب ما جاء في الخلع وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ١٥٤ ـ ١٥٥ كتاب النكاح باب ما يستدل به على قصر الآية. .

وأخرجه من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً الشافعي في المسند ٢/ ١٥ كتاب النكاح الباب الثالث في الترغيب في الزواج الحديث (٣٧) وأخرجه النسائي ٦/ ٦٧ ـ ٦٨ كتاب النكاح باب التزويج الزانية وأخرجه من طريقين الأولى: عن هارون من رئاب

نسختها (وأنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم)[1] الآية ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: يقذفون العفائف من النساء الحرائر المسلمات ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على صدق مقالتهم ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ يقول: للحكام ويقال هذا الخطاب لجميع المسلمين ثم إن المسلمين فوضوا الأمر إلى الإمام وإلى القاضي ليقيم عليهم الحد ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ يعني: ثمانين سوطاً ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ أي: لا تقبلوا لهم شهادة بعد إقامة الحد عليهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني: العاصين قال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني: القذف ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ يعني: العمل بعد التوبة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعد التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة وقال شريح: يقبل توبته فيما بينه وبين الله تعالى فأما شهادته فلا تقبل أبداً وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: إذا تاب ذهب عنه الفسق ولا تقبل شهادته أبداً وروي عن ابن عباس أنه قال (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا) تاب الله عليهم من الفسق وأما الشهادة فلا تقبل أبداً وهكذا عن سعيد بن جبير ومجاهد وروي عن جماعة من التابعين أن شهادته تقبل إذا تاب مثل عطاء وطاوس وسعيد بن المسيب والشعبي وغيرهم وهو قول أهل المدينة والأول قول أهل العراق وبه نأخذ.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ثم قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ يعني: يقذفون أزواجهم بالزنا قال أبو الليث: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أحمد قال: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنا يزيد بن هارون عن عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس (عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[2] قال: لما نزل والذين يرمون المحصنات الآية قال مسعد بن عبادة وهو سيد الأنصار أهكذا أنزلت يا رسول الله فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا معشر الأنصار لا تسمعون إلى ما يقول سيدكم فقال سعد والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وإنها من الله تعالى ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله إني لا آتي بأربعة شهداء حتى يقضي حاجته قال فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند امرأته رجلاً فرأى بعينه وسمع بإذنه فلم ينجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله: إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني فكره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت الأنصار فقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة

= عن عبد الله بن عبيد بن عمير مرسلاً والثانية: عن عبد الكريم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس موصولاً مرفوعاً وقال (هذا الحديث ليس بثابت وعبد الكريم ليس بالقوي وهارون بن رئاب أثبت منه وقد أرسل الحديث وهارون ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم).

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد الرحمن بن حميد وأبي داود وأبي عبيد معاً في التاريخ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) سقط في ظ.

الآن يضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجاً فوالله إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي فعرفوا بذلك في تربد[١] وجهه فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزل والذين يرمون أزواجهم ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ فسري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: أبشر يا هلال فقد جعل الله لك مخرجاً فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهما وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما فقالت كذب علي فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لاعنوا بينهما فقيل لهلال إشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فلما كانت الخامسة قيل يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب قال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم قيل لها إشهدي فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فلما كانت الخامسة قيل لها اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فمكثت ساعة ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهما وقضى أن لا يدعي ولدها لأب وقال إن جاءت به أصيهب أريسج أثيبج خمش الساقين فهو لهلال وإن جاءت به أورق[٢] جعداً[٣] جمالياً[٤] خدلج الساقين[٥] سابغ الإليتين[٦] فهو للذي رميت به فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الإليتين فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: لولا الايمان لكان لي ولها[٧] شأن،[٨] قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر ولا يدعي لأب وروى بن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي أن عويمر العجلاني أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله أرأيت إن وجد الرجل مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه أو كيف يفعل قال: قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك قرآناً فاذهب فأت بها فتلاعنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما فرغا قال: كذبت عليها يا رسول الله إني أمسكتها فهي طالق ثلاثاً فطلقها ثلاثاً قبل أن يأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٩] قال ابن شهاب: تلك سنة المتلاعنين وفي رواية أخرى أنه فرق بينهما وقال الزهري: صار ذلك سنة في المتلاعنين فذلك قوله: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) يعني: الزوج

---

(١) تربد وجهه أي في إحمرار وجهه وتغيره. انظر لسان العرب ١٥٥٥/٣.

(٢) الأورق من الناس الأسمر والسمرة الورقة أنظر لسان العرب ٤٨١٧/٦.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية ٢٧٥/١: في حديث الملاعنة (إن جاءت به جعداً) الجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً فالمدح معناه أن يكون شديد الأسر والخلق أو يكون جعد الشعر وهو ضد السبط وأما الذم فهو القصير المتردد الخلق وقد يطلق على البخيل ايضاً.

(٤) رجل جمالي أي ضخم الأعضاء نام الخلق على التشبيه بالجمل لعظمه. انظر لسان العرب ٦٨٤/١.

(٥) الخدل الغليظ الممتلىء الساق. انظر لسان العرب ١١١٤/٣.

(٦) قال ابن منظور: في حديث الملاعنة: إن جاءت سابغ الاليتين أي عظيمهما من سبوغ الثوب والنعمة. انظر لسان العرب ١٩٢٧/٣.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٣/٥. وعزاه لأبي يعلى وابن مردويه عن أنس.

(٨) أخرجه أبو داود ٢٧٦/٢ كتاب الطلاق (٢٢٥٦) وأخرجه البخاري بنحوه ٤٤٩/٨ كتاب التفسير (٤٧٤٧).

(٩) أخرجه البخاري ٤٤٩/٨ كتاب التفسير باب ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ (٤٧٤٥)، ومسلم ١١٢٩/٢، ١١٣٤ كتاب اللعان (١٤٩٢/١).

خاصة ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: يحلف الزوج أربع مرات فيقول (في كل مرة) أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أني صادق فيما رميتها به من الزنا ﴿والخامسة﴾ يعني: ويقول في المرة الْخَامِسَةِ ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا قوله: ﴿وَيَدْرَؤُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعني: يدفع الحاكم الحد عن المرأة ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: بعد ما تحلف المرأة أربع مرات فتقول في كل مرة أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أن الزوج من الكاذبين في قوله: ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ يعني: وتقول المرأة في الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في مقالته قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص أربع شهادات بضم العين وقرأ الباقون بالنصب[1] فمن قرأ بالضم يكون على معنى خبر الابتداء فشهادة أحدهم التي تدرؤ حد القذف أربع شهادات ومن (قرأ بالنصب فالمعنى فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات)[2] قال أبو عبيد: وبهذا نقرأ ومعناه فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات فيكون الجواب في قوله إنه لمن الصادقين وقرأ عاصم أن لعنة الله بتخفيف أَنْ والجزم وقرأ الباقون بالتشديد وقرأ عاصم في رواية حفص (والخامسة أن غضب الله عليها) بالنصب وقرأ الباقون بالرفع[3] فإذا فرغا من اللعان فرق القاضي بينهما (وقال بعضهم: بعد اللعان وهو قول الشافعي رحمه الله أوفى قول علمائنا رحمهم الله لا تقع الفرقة ما لم يفرق بينهما ثم قال عز وجل):[4] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ وجوابه: مضمر ومعناه: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لبين لكم الصادق من الكاذب ويقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته لنال الكاذب منكم بما ذكرناه من عذاب عظيم ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ يعني: تواب لمن تاب ورجع حكيم بينهما بالملاعنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ يعني: قالوا بالكذب وقال الأخفش الإفك أسوأ الكذب وهذه الآية نزلت ببراءة عائشة رضي الله عنها قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: أخبرني الثقة بإسناده عن عائشة رضي الله عنها[5] أنها قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد أن يخرج في سفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه قالت فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك بعد ما نزلت آية الحجاب وكان ذلك في غزوة بني المصطلق قالت: فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه في مسيرنا حتى إذا فرغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوته وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فحملوا هودجي ورحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلهن ولم يفشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب قالت: فجلست

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٥، النشر ٢/٣٣٠. (٢) سقط في ظ. (٣) المصدران السابقان.
(٤) سقط في أ. (٥) ذكره ابن كثير في تفسيره ٦/١٨ ـ ١٩.

مكاني فظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي إذ غلبني النوم فنمت وقد كان صفوان بن المعطل السلمي يمكث في المعسكر إذا ارتحل الناس يتبع ما يقع من الناس من أمتعتهم فيحمله إلى المنزل الآخر فيعرفه فتجيء الناس ويأخذون أمتعتهم وكان لا يكاد يذهب من العسكر شيء فأصبح صفوان عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان يراني قبل أن يضرب على الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي فوالله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فركبتها فانطلق بي يقود بي الراحلة قالت: وكان عبد الله بن أبيّ إذا نزل في العسكر نزل في أقصى العسكر فيجتمع إليه ناس فيحدثهم ويتحدثون قالت: وكان معه في مجلسه يومئذ حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة فافتقد الناس عائشة حين نزلوا صحوة وهاج الناس في ذكرها أن عائشة قد فقدت (ودخل علي بن أبي طالب على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبر أن عائشة قد فقدت)[1] فبينما الناس كذلك إذ دنا صفوان بن المعطل فتكلم عبد الله بن أبي بما تكلم وحسان بن ثابت وسائرهم وأفشوه في العسكر وخاض أهل العسكر فيه فجعل يرويه بعضهم من بعض ويحدث بعضهم بعضاً قالت: وقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي إنما يدخل ويسلم ثم يقول كيف تيكم فذلك يُريبُني ولا أشعر بالسر فلما رأيت ذلك قلت يا رسول الله لو أذنت لي فانقلبت إلى أبوي يمرضاني قال: لا بأس عليك وإنما قلت ذلك لما رأيت من جفائه قالت: فانقلبت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان حتى قمت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة قالت: وكانوا لا يتخذون الكنف في بيوتهم إنما كانوا يذهبون في فسح المدينة قالت: فخرجت في بعض الليل ومعي أم مسطح حتى فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فقالت: تعس مسطع فقلت لها: بئس ما صنعت تسبين رجلاً وقد شهد بدراً فقالت: أولم تسمعي ما قال: قلت: وماذا قال قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي وأخذتني الحمى مكاني فرجعت أبكي ثم قلت لأمي: يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي منه شيئاً فقالت: هوني عليك فوالله لقل ما كانت امرأة قط رضية عند رجل يحبها ولها ضرائر لأكثرت عليها قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقا[2] لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله فأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك والنساء كثير فاستبدل وأما أسامة بن زيد فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه من الود فقال: يا رسول الله ما علمت منها إلا خيراً فلا تعجل وانظر واسأل أهلك قال: فسأل حفصة بنت عمر عنها فقالت: يا رسول الله ما رأيت عليها سوءاً قط وسأل زينب بنت جحش فقالت: مثل ذلك وسأل بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من أمر عائشة قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق نبياً ما رأيت عليها أمراً قط أغمضه عليها غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله قالت: فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دخل علي وعندي أبواي فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة لقد بلغك ما يقول الناس فإن كان ما يكون منك زلة ما يكون من الناس فتوبي إلى الله تعالى فإن الله يقبل التوبة عن عباده فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فانتظرت أبواي أن يجيبا عني فلم يفعلا فقلت: يا أبت أجبه فقال ماذا أقول فقلت: يا أماه أجيبيه فقالت: ماذا أقول ثم استعبرت فبكيت فقلت: لا والله لا أتوب مما ذكروني به وإني لأعلم

---

(١) سقط في آ.

(٢) لا يرقأ لي دمع أي لا ينقطع ولا يجف لي دمع. انظر لسان العرب ١٦٩٩/٣.

أنني لو أقررت بما يقول الناس لقلت وأنا منه بريئة ولا أقول فيما لم يكن حقاً ولئن أنكرت فلا تصدقني قالت: ثم أنسيت اسم يعقوب فلم أذكره فقلت ولكني أقول كما قال العبد الصالح أبو يوسف (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) قالت: فوالله ما برح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى تغشاه من الله ما كان يغشاه قالت: أنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله عز وجل يبرئني ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحياً يتلى ولساني كان أحقر من أن يتكلم الله في بقرآن يقرأ به في المساجد ولكنني كنت أرجو أن يرى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في منامه شيئاً ببراءتي فلما سري عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال:

يا عائشة أبشري أما والله فقد برأك الله تعالى فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى هو الذي أنزل براءتي[1] وفي رواية قالت: أحمد الله تعالى وأذمكم قالت: فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي برجل ما رأيت عليه سوءاً قط ولا دخل على أهلي إلا وأنا معه فقام سعد بن معاذ فقال أخبرنا يا رسول الله من هو فإن يكن من الأوس نقتله وإن يكن من الخزرج نرى فيه رأياً أمرتنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن حملته الحمية فقال: كلا ولكنها عداوتك للخزرج قال فاسْتَبَّا فقام أسيد بن حضير الأوسي وقال: يا سعد بن عبادة أتقول هذا كلا والله ولكنك منافق تحب المنافقين فاستب حي هذا وحي هذا فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللغط[2] نزل وتركهم وقد تلى عليهم ما أنزل الله عليه[3] في أمر[4] عائشة رضي الله عنها (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) يعني: جماعة منكم وهو ما قال عبد الله بن أبي وأصحابه ما برئت عائشة من صفوان وما برىء عنها صفوان والعصبة[5] عشرة فما فوقها كما قال الكلبي ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ﴾ يعني: عائشة ومن كان ينسبها والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبا بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنه لو لم يكن قولهم لم يظهر فضل عائشة رضي الله عنها وإنما ظهر فضل عائشة بما صبرت على المحنة فنزل بسببها سبعة عشر آية من القرآن من قوله (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ) إلى قوله: (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ووجه آخر بل هو خير لكم لأنه يؤخذ من حسناته ويوضع في ميزانه يعني: عائشة وصفوان وهذا خير له ثم قال: ﴿لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ يعني: لكل واحد منهم العقوبة بمقدار ما شرع في ذلك الأمر لأن بعضهم قد تكلم بذلك وبعضهم ضحك وبعضهم سكت فكل واحد منهم ما اكتسب من الإثم بقدر ذلك ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ يعني: الذي تكلم بالقذف ﴿مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: الحد في الدنيا فأقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحد عليهم وكان حميد[6] يقرأ وَالَّذِي تَوَلَّى كُبْرَهُ بضم الكاف يعني: عظمه قال أبو عبيد: والقراءة عندنا بالكسر وإنما الكبر في النسب وفي الولاء.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٤ ـ ٢٥ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد والبخاري وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب.

(٢) اللغط واللغط: الأصوات المبهمة المختلطة والجلبة التي لا تفهم وقيل: هو الكلام الذي لا يبين. انظر لسان العرب ٥/ ٤٠٤٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٦ ـ ٢٧ وعزاه للبخاري والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ٧٦.

(٥) قال ابن منظور: والعصبة والعصابة جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين وفي التنزيل (ونحن عصبة) وقال الأخفش: العصبة والعصابة جماعة ليس لها واحد. انظر لسان العرب ٤/ ٢٩٦٥.

(٦) حميد بن قيس الأعرج أبو صفوان المكي القارىء ثقة أخذ القراءة عن مجاهد بن جبير وعرض عليه ثلاث مرات توفي سنة ثلاثين ومائة. طبقات القراء ١/ ٢٦٥.

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني: هلا إذ سمعتم قذف عائشة وصفوان ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً﴾ يعني: هلا ظننتم به كظنكم بأنفسكم ويقال ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم كظن المؤمنين والمؤمنات بأمثالهم وبأهل دينهم خيراً ويقال يعني: هلا ظننتم كما ظن المؤمنون والمؤمنات ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفكٌ مُبِينٌ﴾ يعني: هلا قلتم حين بلغكم هذا الكذب هذا كذب بيّن وعلمتم أن أمكم لا تفعل ذلك ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يعني: هلا جاءوا بها ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ في قولهم اللفظ لفظ الماضي والمراد به المستقبل يعني اطلبوا منهم أربعة شهداء فإن لم يأتوا بها فأقم عليهم الحد ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ يعني: منته ونعمته عليكم ﴿فِيْ الدُّنْيَا والآخرَةِ لَمَسَّكُمْ﴾ يعني: أصابكم ﴿فِيمَا أَفَضْتم فيْهِ﴾ يعني: فيما قلتم من القذف ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة على وجه التقديم قوله عز وجل ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي يرويه بعضكم من بعض ويتلقاه بعضكم من بعض وقرىء (إذ تلِقُونه) بكسر اللام وضم القاف والتخفيف أي: تكذبون بألسنتكم ويقال: معناه تسرعون إلى الكذب يقال ولق يلق إذا أسرع إلى الكذب وروى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقرأ (إِذْ تَلِقونه) بكسر اللام[1] وقال ابن أبي مليكة هي أعلم لأن الآية نزلت فيها وروي عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرأ إذ يتلقونه وقال أبو عبيد: لولا قراءة أبي وكراهة الخلاف على الناس ما كان أحد أولى أن يتبع فيها من عائشة كما احتج ابن أبي مليكة ثم قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ من الفرية ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً﴾ أي: تحسبون عقوبته هينة ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر والعقوبة.

وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن
تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني: وهلا إذ سمعتم القذف ﴿قُلْتُم مَا يَكُونَ لَنَا﴾ يعني: ما ينبغي لنا ولا يجوز لنا ﴿أَنْ نَتَكَلَّم بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ وفي هذا بيان فضل عائشة رضي الله عنها حيث نزهها الله باللفظ الذي نزه به نفسه وهو لفظ سبحان الله ويقال: سبحان الله أن تكون امرأة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ زانية ما كانت امرأة نبي زانية قط ثم وعظ الذين يخوضون في أمر عائشة فقال عز وجل: ﴿يَعِظُكُم اللَّهُ﴾ يعني: ينهاكم الله عز وجل: ﴿أَنْ تَعُودُوا لمثله أبداً﴾ يعني: القذف ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بالله وبرسوله عليه السلام

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٢/١٣٦.

وباليوم الآخر ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: الأمر والنهي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ونزل في عبد الله بن أبيّ وأصحابه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ يعني: يظهر الزنا ويفشو ويقال: تحبوا ما شاع لعائشة رضي الله عنها من الثناء السيء[1] ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: عائشة وصفوان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ الحد ﴿وَالآخِرَةِ﴾ النار إن لم يتوبوا ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ﴾ أنهما لم يزنيا ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك منهما ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ﴾ وجوابه مضمر يعني: لولا منُّ الله عليكم ونعمته لعاقبكم فيما قلتم في أمر عائشة وصفوان ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالعقوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: (لا تتبعوا) تزيين الشيطان ووساوسه بقذف المؤمنين والمؤمنات ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه ومن يتبع خطوات الشيطان وقع في الفحشاء والمنكر ﴿فَإِنَّه﴾ يعني: به الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ يعني: المعاصي ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنة وروي عن أبي مجلز قال: خطوات الشيطان النذور في معصية الله تعالى فيه قال: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ﴾ يعني: ما ظهر وما صلح منكم ﴿مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ يعني: أحداً ومن صلة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّيْ﴾ يعني: يوفق للتوحيد ﴿مَنْ يَشَاء﴾ ويقال: ما زكى أي ما وحد ولكن الله يزكي أي يطهر ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَقالتهم ﴿عليم﴾ بهم ثم قال عز وجل: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ﴾ يعني: لا يحلف وهو يفتعل من الألية وهي اليمين قرأ أبو جعفر المدني وزيد بن أسلم ولا يتأل على معنى يتفعل ويقال: معناه ولا يدع أن ينفق ويتصدق وهو يتفعل من ألوت أني أصنع كذا ويقال ما ألوت جهدي أي: ما تركت طاقتي وذلك أن أبا بكر كان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره فلما تكلم بما تكلم به حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق عليه فنزلت هذه الآية ولا يَأْتَلِ ﴿أُوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُم﴾ في طاعة الله لأنه كان أفضل الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ يعني: السعة في المال وهذا من مناقب أبي بكر رضي الله عنه حيث سماه الله أولو الفضل في الإسلام ويقال: ولا يأتل يعني ولا يحلف أولو الفضل منكم يعني أولو الغنى والسعة في المال والأول أشبه لكي لا يكون حمل الكلام على التكرار ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أولي القربى يعني: لا يحلف أن لا يعطي ولا ينفق على ﴿أُوْلِي الْقُرْبَى﴾ يعني: على ذوي القربى وهو

---

(١) من أدب هذه الآية أن شأن المؤمن أن لا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء كذلك يجب عليه أن لا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو بالكذب مفسدة أخلاقية فإن مما يزع الناس عن المفاسد تهيبهم وقوعها وتجهمهم وكراهتهم سوء سمعتها وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها بله الإقدام عليها رويداً رويداً حتى تنسى وتنمحي صورها من النفوس فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر وخف وقع خبرها على الأسماع فدب بذلك إلى النفوس التهاون بوقوعها وخفة وقعها على الأسماع فلا تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على اقترافها وبمقدار تكرر وقوعها وتكرر الحديث عنها تصير متداولة. هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من لحاق الأذى والضر بالناس ضراً متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب. انظر التحرير ١٨٥.

مسطح ﴿وَالْمَسَاكِينَ وَالْمَهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وكان مسطح من فقراء المهاجرين ومن أقرباء أبي بكر ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ يقول: ليتركوا وليتجاوزوا ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقال أبو بكر: أنا أحب أن يغفر الله لي فقد تجاوزت عن قرابتي ويقال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبي بكر: ألا تحب أن يغفر الله لك قال نعم فقرأ عليه هذه الآية وأمره بأن ينفق على مسطح(١) وفي الآية دليل على أن من حلف على أمر فرأى الحنث أفضل منه فله أن يحنث ويكفر عن يمينه ويكون له ثلاثة أجور أحدها ائتماره بأمر الله تعالى والثاني أجر بره وذلك صلته في قرابته والثالث أجر التكفير ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: غفور لذنوبكم رحيم بالمؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني: العفائف ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ يعني: عن الزنا والفواحش ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: المصدقات بالألسن والقلوب ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ وأصل اللعنة هي الطرد(٢) والبعد ويقال للشيطان اللعين لبعده عن الرحمة وروي في الخبر أن يوم القيامة تكون هذه الأمة شاهدة على الأمم الأولين إلا الذين تجري على لسانهم اللعنة وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سمع رجلاً يلعن بعيره فقال أتلعنها وتركبها فنزل عنها ولم يركبها أحد(٣) قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي شديد يوم القيامة وذكر أن حسان بن ثابت ذهب بصره في آخر عمره فدخل يوماً على عائشة فجلس عندها ساعة ثم خرج فقيل لها إن الله تعالى قال: (لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) فقالت عائشة: أوليس هذا أعظم يعني: ذهاب بصره ويقال عذاب عظيم إن لم يتوبوا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بما تكلموا ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِيْنَهُمُ الْحَقَّ﴾ يعني: يوفيهم جزاء أعمالهم قرأ حمزة والكسائي يشهد بالياء بلفظ المذكر والباقون بالتاء بلفظ التأنيث(٤) لأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث وقرأ مجاهد (الحَقُّ) بضم القاف فيكون الحق نعت لله وتكون قراءة أبي بن كعب شاهدة له كأنه يقول يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم وقراءة العامة الحق بالنصب وإنما يكون نصباً لنزع الخافض أي: يوفيهم الله ثواب دينهم بالحق أي: بالعدل وجه آخر أن يكون الحق نعتاً للدين ويكون كقوله (حَقاً) ثم يدخل عليه الألف واللام قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي: عبادة الله

---

(١) ذكره بنحوه في مجمع الزوائد ٨٢/٧ وعزاه للطبراني وقال فيه ابن لهيعة وفيه ضعف.

(٢) انظر لسان العرب ٤٠٤٤/٥.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه من حديث عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد. مسلم ٢٠٠٤/٤ كتاب البر والصلة (٨٠ ـ ٢٥٩٥) وأحمد في المسند ٤٣١/٤ والطبراني في الكبير ١٩٠/١٨.

(٤) انظر حجة القراءات ٤٩٦، النشر ٣٣١/٢.

هي الحق المبين ويقال ما يعلمون أن ما قال الله هو الحق ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ قال الكلبي: الخبيثات من الكلام للخبيثين من الرجال يعني عبد الله بن أبي ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من الكلام على معنى التكرار والتأكيد ويقال الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال مثل عبد الله بن أبي تكون له زوجة خبيثة زانية وامرأة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تكون زانية خبيثة ويقال: الخبيثات للخبيثين يعني: لا يتكلم بكلام الخبيث إلا الخبيث ولا يليق إلا بالخبيث ويقال الكلمات الخبيثات إنما تلتصق بالخبيثين من الرجال ثم قال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ يعني: الطيبات من الكلام للطيبين من الرجال ويقال الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ على معنى التكرار والتأكيد ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني: عائشة رضي الله عنها وصفوان مما يقولون من الفرية ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: رزقاً في الجنة كثيراً ويقال كريم يعني: حسن وذكر عن ابن عباس أنه دخل على عائشة رضي الله عنها في مرضها الذي ماتت فيه فذكرت ما كان منها من الخروج في يوم الجمل وغيره فقال لها ابن عباس أبشري فإن الله تعالى يقول (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) والله تعالى ينجز وعده فسري بذلك عنها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: بيوتاً ليست لكم حتى تستأنسوا يعني: حتى تستأذنوا وروي عن سعيد بن جبير أن عبد الله بن عباس كان يقرأ حتى تستأذنوا ويقال تستأذنوا خطأ من الكاتب[١] وروي عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال أخطأ الكاتب في قوله حتى تستأنسوا، وقراءة العامة تستأنسوا وقال القتبي الاستئناس أن تعلم من في الدار يقال استأنست فما رأيت أحداً أي استعلمت وتعرفت ومنه قوله (فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً) أي علمتم وروي عن[٢] عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال جاءت امرأة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أحب أن يراني عليها أحد فيأتي الأب فيدخل فكيف أصنع قال ارجعي[٣] فنزلت هذه الآية (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ قال مجاهد؛ وهو التنحنح ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني: التسليم والاستئذان خير لكم من أن

---

(١) قال القرطبي بعد ذكره ما ذكره المصنف: هذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره فإن مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها (حتى تستأنسوا) وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان فهي التي لا يجوز خلافها وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس وقد قال عز وجل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وقال تعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون﴾ وقد روي عن ابن عباس أن في الكلام تقديماً وتأخيراً والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا حكاه أبو حاتم وقال ابن عطية: ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس وغيره أن تستأنسوا متمكنة في المعنى بينة الوجه في كلام العرب. انظر الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٤٢.

(٢) عدي بن ثابت الأنصاري الكوفي ثقة رمي بالتشيع مات سنة ست عشرة. التقريب ٢/١٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٨ والواحدي في أسباب النزول ، ١٨٠ والطبري في تفسير ١٨/١١١.

تدخلوا بغير إذن وسلام ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أن التسليم والإستئذان خير لكم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً﴾ يعني: في البيوت يأذن لكم في الدخول ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدخول ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تقيموا على أبواب الناس فلعل لهم حوائج ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ يعني: الرجوع أصلح لكم من القيام والقعود على أبواب الناس ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ إذا دخلتم بإذن أو بغير إذن ثم رخص لهم في البيوت على طريق الناس مثل الرباطات والخانات وذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله فكيف بالبيوت التي بين الشام ومكة والمدينة التي على ظهر الطريق ليس لها ساكن فنزل قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ مثل الخانات وبيوت السوق ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ يعني: منافع لكم ويقال في الخربات التي يدخل فيها لقضاء الحوائج فيها منفعة لكم ويقال في الخانات منفعة لكم من الحر والبرد ﴿والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من التسليم والاستئذان.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ
﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ
أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ
بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ
ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ
وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ
مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ
ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ يعني: يكفوا أبصارهم ومن صلة في الكلام ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عما لا يحل لهم وقال أبو العالية الرياحي: كلما ذكر حفظ الفرج في القرآن أراد به الحفظ عن الزنا إلا هاهنا فإن المراد به هاهنا الستر عن النظر يعني: قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم عن عورات النساء ويحفظوا فروجهم عن أبصار الناس وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ [لعلي رضي الله عنه يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والأخرى عليك][(١)] وروي عن عيسى بن مريم أنه قال: إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب

(١) أخرجه أبو داود ٢/٦١٠ كتاب النكاح باب ما يؤمر به من غض البصر (٢١٤٩). والترمذي ١٠١/٥ كتاب الأدب باب ما جاء في

قوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ وأطهر من الزينة يعني غض البصر والحفظ خير لكم من ترك الحفظ والنظر ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يعني: عالم بهم قوله عز وجل: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ يعني: يحفظن أبصارهن عن الحرام ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الفواحش ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: لا يظهرن مواضع زينتهن ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: وجهها وكفيها وهكذا قال إبراهيم النخعي وروي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الوجه والكفان وهكذا قال الشعبي وروى نافع عن ابن عمر أنه قال: الوجه والكفان وقال مجاهد: الكحل والخضاب وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: الكحل والخاتم وروي عن ابن عباس في رواية أخرى إلا ما ظهر منها أي: فوق الثياب وروى أبو إسحاق عن ابن مسعود أنه قال ثيابها[1] وروي عن ابن مسعود رواية أخرى أنه سئل عن قوله (إلا ما ظهر منها) فتقنع عبد الله بن مسعود وغطى وجهه وأبدى عن إحدى عينيه ثم قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: على الصدر والنحر قال ابن عباس: وكان النساء قبل هذه الآية (يسدلن خمرهن من ورائهن كما تفعل النبط فلما نزلت هذه الآية)[2] سدلن الخمر على الصدر والنحر ثم قال ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعني: لا يظهرن مواضع زينتهن وهو الصدر والساق والساعد والرأس لأن الصدر موضع الوشاح والساق موضع الخلخال والساق موضع السوار والرأس موضع الإكليل فقد ذكر الزينة وأراد بها موضع الزينة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ يعني: لأزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ يعني: يجوز للآباء النظر إلى مواضع زينتهن ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أو بنيْ إخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ وقد ذكر في الآية بعض ذوي الرحم المحرم فيكون فيه دليل على ما كان بمعناه لأنه لم يذكر فيها الأعمام والأخوال ولكن الآية إذ نزلت في شيء فقد نزلت فيما هو في معناه والأعمام والأخوال بمعنى الإخوة وبني الإخوة لأنه ذو رحم محرم وقد ذكر الأبناء في آية أخرى وهي قوله (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ) والنظر إلى النساء على أربع مراتب في وجه يجوز النظر إلى جميع أعضائها وهو النظر إلى زوجته وأمته وفي وجه يجوز النظر إلى الوجه والكفين وهو النظر إلى المرأة التي لا يكون محرماً لها ويأمن كل واحد منهما على نفسه فلا بأس بالنظر عند الحاجة وفي وجه يجوز النظر إلى الصدر والرأس والساق والساعد وهو النظر إلى امرأة ذي رحم أو ذات رحم محرم مثل الأخت والأم والعمة والخالة وأولاد الأخ والأخت وامرأة الأب وامرأة الابن وأم المرأة سواء كان من قبل الرضاع أو من قبل النسب وفي وجه لا يجوز النظر إلى شيء وهو أن يخاف أن يقع في الإثم إذا نظر ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: نساء أهل دينهن ويكره للمرأة أن تظهر مواضع زينتها عند امرأة كتابية لأنها تصف ذلك عند غيرها ويقال: نسائهن يعني العفائف ولا ينبغي أن تنظر إليها المرأة الفاجرة لأنها تصف ذلك عند الرجال ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني الجواري فإنها نزلت في الإماء وقال سعيد بن المسيب لا تغرنكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني: الجواري فإنها نزلت في الإماء لا ينبغي للمرأة أن ينظر العبد إلى شعرها ولا إلى شيء من محاسنها[3] وقال مجاهد: في بعض القراءات (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) الذين لم يبلغوا الحلم[4] وروى سفيان عن ليث قال كان بعضهم يقرأ (أو ما ملكت

= نظرة المفاجأة (٢٧٧٧) وأحمد في المسند ٣٥٣/٥ ضمن مسند بريدة الأسلمي رضي الله عنه والدارمي ٢٩٨/٢ والحاكم في المستدرك ١٩٤/٢ كتاب النكاح وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(١) انظر تفسير الطبري ٩٢/١٨ - ٩٣ تفسير ابن كثير ٤٧/٦.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٣/٥ وعزاه لابن أبي شيبة.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٣/٥ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

أيمانهن من الصغار) وقال الشعبي: لا ينظر العبد إلى مولاته ولا إلى شعرة منها ثم قال تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ﴾ يعني الخادم أو الأجير للمرأة يعني غير ذوي الحاجة مثل الشيخ الكبير ونحوه وقال مجاهد: هو الذي لا أرب له أي لا حاجة له بالنساء مثل فلان وكذا روى الشعبي عن علقمة وقال الحسن والزهري: غير أولو الإربة هو الأحمق وقال الضحاك: هو الأبله ويقال: هو الذي طبعه طبع النساء فلا يكون له شهوة الرجال وسئلت عائشة رضي الله عنها هل يرى الخصي حسن المرأة قالت: لا ولا كرامة أليس هو رجل قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر غير أولي الإربة بنصب الراء وقرأ الباقون بالكسر[١] فمن قرأ بالكسر يكون على النعت للتابعين فيكون معناها التابعين الذين هذه حالهم ومن نصب أراد به الاستثناء والمعنى إلا أولي الإربة ثم قال: ﴿مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يعني: لم يطلعوا ولم يشتهوا الجماع ثم قال ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ يعني: لا يضربن بإحدى أرجلهن على الأخرى ليقرع الخلخال بالخلخال ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ يعني: ما يواري الثياب من زينتهن وروى سفيان عن السدي قال: كانت المرأة تمر على المجلس وفي رجلها الخلخال فإذا جازت بالقوم ضربت رجلها ليصوت خلخالها فنزلت ولا يضربن بأرجلهن وقال بعض المفسرين: قد علم الله تعالى أن من النساء من تكون حمقاء فتحرك رجلها ليعلم أن لها خلخالاً فنهي النساء أن يفعلن كما تفعل الحمقاء[٢] ثم قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيْعاً﴾ يعني: من جميع ما وقع التقصير من الأوامر والنواهي التي ذكر من أول السورة إلى هاهنا ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: أيها المصدقون بالله ورسوله وفي هذه الآية دليل أن الذنب لا يخرج العبد من الإيمان لأنه أمر بالتوبة والتوبة لا تكون إلا من الذنب ولم يفصل بين الكبائر وغيرها فقال بعدما أمر بالتوبة أيها المؤمنون سماهم مؤمنين بعد الذنب ثم قال ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي تنجون من العذاب قرأ ابن عامر (أيهُ) بضم الهاء وكذلك في قوله (يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ) (وأَيُّهُ الثَّقَلانِ) وقرأ الباقون بالنصب[٣] قوله عز وجل: (وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُم) والأيَامَى الرجال والنساء الذين لا أزواج لهم يقال رجل أيم وامرأة أيم كما يقال رجل بكر وامرأة بكر ويقال الأيم من النساء خاصة كل امرأة لا زوج لها فهي أيم فأمر الأولياء بأن يزوجوا النساء وأمر الموالي بأن يزوجوا العبيد والإماء إذا احتاجوا إلى ذلك فقال للأولياء: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ يعني: من قومكم ومن عشيرتكم ثم قال المولى سبحانه: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ يعني: من عبيدكم زوجوهم امرأة وهذا أمر استحباب وليس بحتم ﴿وَإِمَائِكُمْ﴾ يعني: زوجوا إماءكم لكيلا يقعن في الزنا ﴿إِنْ يَكُونُوا فقَرَاءَ يُغْنِهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: يرزقهم الله من فضله وسعته وقال بعضهم: هذا منصرف إلى الحرائر خاصة دون العبيد والإماء وقال بعضهم: انصرف إلى جميع ما سبق ذكرهم من الأحرار والمماليك يُغنهم الله من فضله يعني: من رزقه والغني على وجهين غني بالمال وهو أضعف الحالين وغنيٌّ بالقناعة وهو أقوى الحالين كما روي في الخبر الغنى غنى النفس[٤] وروى هشام[٥] ابن

---

(١) انظر حجة القراءات ٤٩٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٤ وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير بنحوه.

(٣) المصدر السابق في (١).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ١١/٢٧٦ كتاب الرقاق باب الغنى غنى النفس (٦٤٤٦) ومسلم ٢/٧٢٦ كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض (١٢٠ ـ ١٠٥١).

(٥) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ثقة فقيه ربما دلس مات سنة خمس أو ست وأربعين. التقريب ٢/٣١٩.

عروة عن أبيه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [أَنْكِحُوا النِّسَاءَ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَّكُمْ بِالْمَالِ][1] وقال عمر رضي الله عنه ابتغوا الغنى في النكاح ثم قرأ يغنهم الله من فضله وروي عن جعفر بن[2] محمد أن رجلاً شكى إليه الفقر فأمره أن يتزوج فتزوج الرجل ثم جاء فشكى إليه الفقر فأمره بأن يطلقها فسأل عن ذلك فقال قلت لعله من أهل هذه الآية (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فلما لم يكن من أهلها قلت لعله من أهل آية أخرى (وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ) ثم قال ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الفضل ويقال واسع أي موسع في الرزق يوسع على من يشاء عليم بقدر ما يحتاج إليه كل واحد منهم ثم أخبر أنه لا رخصة لمن لم يجد النكاح في الزنا وأمر بالتعفف للذي لا امرأة له فقال عز وجل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ﴾ أي: ليحفظ نفسه عن الحرام الَّذِينَ ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ يعني: سعة بالنكاح المهر والنفقة ويقال: يعني امرأة موافقة ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه بالنكاح وقد قيل إنَّ الصبر والطلب خير من الهرب ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ قال ابن عباس وذلك أن مملوكاً لحُويطب يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية والذين يبتغون الكتاب[3] يعني: يطلبون الكتابة ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ يعني: حرفة قال مجاهد وعطاء : يعني مالاً وروي عن ابن سيرين عن عبيدة السلماني قال: أدَباً وصلاحاً وقال إبراهيم: يعني وفاءً وصدقاً وروى يحيى بن أبي كثير قال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: [إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً] أي حرفة ولا ترسلوهم كلاًّ على الناس] وقال ابن عباس الخير المال كقوله [إِنْ تَرَكَ خَيْراً] أي: مالاً وقيل: خيراً يعني: صلاحاً في دينه لكيلا يقع في الفساد بعد العتق وهذا أمر استحباب لا إيجاب وقال بعضهم: هو واجب وروى معمر عن قتادة قال: سأل سيرين أبو محمد بن سيرين أنس بن مالك بأن يكاتبهُ فأبى أنس بن مالك فرفع عليه عمر الدرة وتلى عليه هذه الآية (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً)[4] ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ يعني أعطاكم يعني: يعطه من الكتابة شيئاً ويقال: يعطى من بيت المال حتى يؤدي كتابة وقال عمرو عن علي رضي الله عنه يترك له ربع الكتابة[5] وقال قتادة: يترك له العشر[6] وقال: آتوهم أي: حث الموالي وغيرهم أن يعينوهم هذا أمر استحباب وليس بواجب وقال بعضهم : الحط واجب والأول أصح ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ يعني لا تكرهوا إماءَكم على الزنا وقال عكرمة: كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها: معاذة وكان يكلفها الخراج على الزنا فنزل (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ) ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ يعني: تعففاً ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: لتطلبوا بكسبهن وولدهن المال ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ يعني: يجبرهن على الزنا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ يعني: من بعد إجبارهن على الزنا ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهن ﴿رَحِيمٌ﴾ بهن يعني الإماء لأنهن كن مكرهات على فعل الزنا قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني واضحات ﴿وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني: فيه خير من قبلكم من الأمم الماضية ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ لكي يعتبروا بما أصابهم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٥ وعزاه للبزار وابن مردويه والديلمي من طريق عروة عن عائشة وابن أبي شيبة وأبي داود في مراسيه عن عروة مرفوعاً مرسلاً.

(٢) جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الصادق أبو عبد الله المدني توفي سنة ثمان وأربعين ومائة. انظر طبقات القراء ١/١٩٦.

(٣) سقط في أ.

(٤) ذكر السيوطي نحوه في الدر المنثور ٥/٤٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٦.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾

قوله عز وجل)﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه هادي أهل السموات وأهل الأرض ويقال هادي أهل السموات والأرض من يشاء ويبين ذلك في آخر الآية بقوله: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) ويقال: معناه الله مَنوِّرُ السموات والأرض وقال ابن عباس بدليل قوله ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فأضاف النور إليه وبدليل ما قال في سياق الآية (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) وروي عن أبي العالية أنه قال: معناه الله منور قلوب أهل السموات وقلوب أهل الأرض بالمغفرة والتوحيد يعني من كان أهلاً للإيمان ويقال الله منور السموات والأرض أما السموات فنورها بالشمس والقمر والكواكب وأما الأرض فنورها بالأنبياء والعلماء والعباد ـ عليهم السلام ـ ثم قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني: مثل نور المعرفة في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ يعني: كمثل كوة فيها سراج ويقال: المشكاة الكوة التي ليست بنافذة وهي بلغة الحبشة وروي في قراءة ابن مسعود مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح ثم وصف المصباح فقال: ﴿المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ يعني: كمثل سراج في قنديل في كوة فكذلك الإيمان والمعرفة في قلب المؤمن والقلب في الصدر والصدر في الجسد فشبه القلب بالقنديل والماء الذي في القنديل شبه بالعلم والدهن بالرفق وحسن المعاملة وشبه الفتيلة باللسان وشبه النار بالجوف في زجاجة يعني: في قلب مضيء ويقال: إنما شبَّه القلب بالزجاجة لأن ما في الزجاجة يرى من خارجها فكذلك ما في القلب يرى من ظاهره ويبين ذلك في أعضائه ويقال لأن الزجاجة تسرع الكسر بأدنى آفة تصيبها فكذلك القلب بأدنى آفة تدخل فيه فإنه يفسد ثم وصف ﴿الزُّجَاجَةُ﴾ فقال: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي﴾ يعني: استنار القنديل بصفاء الزجاجة من قرأ بضم الدال فهو منسوب إلى الدر يعني: يشبه في ضوئه الدر ومن قرأ بكسر الدال يعني الذي يدرأ عن نفسه يعني: لا يكاد يقدر النظر إليه من شدة ضوئه قرأ (نافع وابن كثير وعاصم في رواية حفص دري بضم الدال غير مهموز وقرأ أبو عمرو والكسائي بكسر الدال وبهمز الياء وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر بالضم والهمز[٢] ثم قال تعالى)[٣] ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني: السراج يوقد بدهن من شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ قرأ أبو عمر وابن كثير تِوقد بنصب التاء والواو والقاف بلفظ التأنيث وأصله تتوقد فحذف إحدى التائين وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي بضم التاء والتخفيف بلفظ التأنيث على فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون توقد بلفظ[٤] التذكير والتفسير على معنى فعل ما لم يسم فاعله فمن قرأ بالتأنيث انصرف إلى الزجاجة ومن قرأ بالتذكير انصرف إلى المصباح والسراج ثم وصف الشجرة المباركة فقال: زَيْتُونَةٍ ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: لم تكن بحال تصيبها الشمس في أول النهار وآخره فكذلك هذا المؤمن تكون كلمة الإخلاص في قلبه ثابتة مثل ثبوت الشجرة فلا يكون مشبهياً ولا معطلياً ولا قدرياً ولا جبرياً ولكنه على الاستقامة ويقال لا شرقية ولا غربية يعني: تكون في وسط الأشجار حتى لا تحرقها الشمس فكذلك هذا المؤمن بين أصحاب صلحاء يثبتونه على الاستقامة وروي عن الحسن أنه قال: ليس هذه من أشجار الدنيا لكن من أشجار الآخرة يعني: أن أشجار الدنيا لا تخلو من أن تكون شرقية أو غربية ولكن هذه

---

(١) سقط في أ.
(٢) انظر حجة القراءات ٤٩٩، النشر ٢/٣٣٢.
(٣) سقط في ظ.
(٤) المصدران السابقان.

من أشجار الآخرة فكذلك هذا المؤمن أصاب المعرفة بتوفيق الله عز وجل قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يعني: أن الزيت في الزجاجة يكاد أن يضيء وإن لم يكن موقداً فكذلك المؤمن يعرف الله تعالى ويخافه ويطيعه وإن لم يكن له أحد يذكره ويأمره وينهاه ثم قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني: الزجاجة نور والسراج نور والزيت نور فكذلك المؤمن اعتقاده نور وقوله نور وفعله نور وقال أبو العالية فهو يتقلب في خمسة أنوار فكلامه نور وعمله نور ومخرجه نور ومدخله نور ومصيره إلى النور يوم القيامة ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوفق ويعطي من يشاء يعني: الهدى وللآية وجه آخر الله نور السموات والأرض يعني الله مرسل الرسل لأهل السموات وأهل الأرض مثل نوره يعني: مثل نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسماه نوراً كقوله: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ) ثم قال مثل نوره (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) يعني: مثل نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صلب أبيه كالقنديل يضيء البيت المظلم فكما أن البيت يكون مضيئاً بالقنديل فإذا أخذ منه القنديل يبقى البيت مظلماً فكذلك محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان كالقنديل في صلب أبيه فلما خرج بقي صلب أبيه مظلماً (يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) يعني: نور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من نور إبراهيم خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ (زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) يعني: لم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ويقال: لا شرقية ولا غربية يعني: يعطي الله النبوة لمن يشاء ولها وجه آخر (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يعني منزل القرآن فنور بالقرآن السموات والأرض (مَثَلُ نُورِهِ) يعني: مثل نور القرآن في قلب المؤمن (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ) يعني قلب المؤمن بالقرآن توقد من شجرة مباركة يعني ينزل القرآن من رب كريم ذي بركة لا شرقية ولا غربية أي ليس القرآن بلغة السريانية ولا بلغة العبرانية ولكنه عربي مبين (يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) يعني: القرآن يضيء وألفاظه مهذبة وإن لم تفهم معانيه يهدي الله لنوره من يشاء يعني: يوفق ويكرم بفهم القرآن من يشاء ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: الله عز وجل يبين الأشياء للناس لكي يفهموا ويقال: المثل كالمرآة يظهر عنده الحق ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من ضرب الأمثال ثم

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

قال عز وجل ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ يعني: ما ذكر من القنديل المضيء يعني: هو في المساجد ثم وصف المساجد ويقال: هذا ابتداء القصة وفيه معنى التقديم يعني أذن الله أن ترفع البيوت وهي المساجد أذن الله أن ترفع أي تبنى وتعظم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يعني توحيده ويقال بالأذان والإقامة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ فيها يعني: يصلى لله في المساجد ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني عند الغداة والعشي قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر يسبح بنصب الباء على معنى فعل ما لم يسم فاعله ثم قال عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ يعني: هم رجال وقرأ الباقون يسبح بكسر الباء(١) ويكون الفعل للرجال يعني: يسبح فيها رجال لا تلهيهم يعني: لا يشغلهم البيع والشراء عن ذكر الله يعني: عن طاعة الله وعن مواقيت الصلاة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ يعني: عن إتمام الصلاة قال

(١) انظر حجة القراءات ٥٠١.

بعضهم: نزلت الآية في أصحاب الصفة وأمثالهم الذين تركوا التجارة ولزموا المسجد وقال بعضهم: هم الذين يتجرون ولا تشغلهم تجارة عن الصلوات في مواقيتها وهذا أشبه لأنه قال: ﴿وَإِيْتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ وأصحاب الصفة وأمثالهم لم يكن عليهم الزكاة وقال الحسن: (رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ) أما أنهم كانوا يتجرون ولم تكن تشغلهم تجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وروي عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق سمعوا الأذان فتركوا بياعاتهم وقاموا إلى الصلاة فقال هؤلاء: من الذين (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)[1] ثم قال ﴿يَخَافُونَ يَوْماً﴾ يعني: من اليوم الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ﴾ يعني يتردد فيه القلوب والأبصار في الصدر إن كان كافراً فإنه يبلغ الحناجر من الخوف وإن كان تقياً مؤمناً تقول الملائكة: (هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) فبين ما في قلبه في البصر وإن كان حزناً فحزن وإن كان سروراً فسرور ويقال: يتقلب يعني: يتحول حالاً بعد حال مرة يعرفون ومرة لا يعرفون ويقال يتقلب يعني: يتحول عما كانت عليه في الدنيا من الشك حين رأى بالمعاينة فيتحول قلبه وبصره من الشك إلى اليقين ثم قال عز وجل ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني: يجزيهم الله بإحسانهم ويقال: يجزيهم أحسن وأفضل من أعمالهم وهو الجنة ويقال ويجزيهم أكثر من أعمالهم بكل حسنة عشرةً وأضعافاً مضاعفةً ويقال: يجزيه ويغفر له بأحسن أعماله ويبقى سائر أعماله فضلاً ثم قال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يرزقهم من عطائه ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يرزقه ولا يحاسبه ويقال: يرزقه رزقاً لا يدرك حسابه ويقال: ليس أحد يحاسبه فيما يُعطي ويقال: بغير حساب أي: من غير حساب أي: من حيث لا يحتسب ثم ضرب مثلاً لعمل الكفار فقال عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحْرٖ لُّجِّيّٖ يَغْشَىٰهُ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٞ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ يعني: مثل أعمالهم الخبيثة في الآخرة كسراب بقيعة يعني: كمثل سراب في مفازة ويقال قاع وقيعة وقيعان يعني أرضاً مستوية كما يقال: صبي وصبية وصبيان ثم قال: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ يعني: العطشان إذا رأى السراب من بعيد يحسبه ماء ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ يعني: فإذا أتاه ليشرب منه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ يعني: لم يجده ماء ويقال لم يجده شيئاً مما طلبه وأراده فكذلك الكافر يظن أنه يثاب في صدقته وعتقه وسائر أعماله فإذا جاءه يوم القيامة وجده هباءاً منثوراً ولا ثواب له قوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أي: يوم القيامة عند عمله وهذا كما قال: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) يعني: مصير الخلائق إليه ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ يعني: يوفيه ثواب عمله ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فكأنه حاسب ويقال: سريع الحفظ ويقال إذا حاسب فحسابه سريع فيحاسبهم جميعاً فيظن كل واحد منهم أنه يحاسبه خاصة فلا يشغله حساب أحدهم عن الآخر لأنه لا يحتاج إلى أخذ الحساب ولا يجري فيه الغلط ولا يلتبس عليه ويحفظ على كل صاحب حسابه ليذكره فهذا المثل لأعمال الكفار والتي في ظاهرها طاعة فأخبر أنه لا ثواب لهم بها ثم ضرب مثلاً آخر للكافر فقال عز وجل ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير والطبراني والبيهقي في الشعب.

قال بعضهم: الألف زيادة ومعناه: وكظلمات يعني مثلهم أيضاً كظلمات ويقال: أو للتخيير يعني إن شئت فاضرب لهم المثل بالسراب وإن شئت بالظلمات فقال: أو كظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ يعني: مثل الكافر: كمثل رجل يكون في بحر عميق في الليل كثير الماء ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ﴾ يعني يكون في ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة السحاب فكذلك الكافر في ظلمة الكفر وظلمة الجهل وظلمة الجور والظلم ويقال: (يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ) يعني المعاصي ومن فوقه العداوة والحسد والبغضاء ومن فوقه سحاب يعني الخذلان من الله تعالى ثم قال: (ظُلُمَاتٌ) ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ كما قال للمؤمن نور على نور فيكون للكافر ظلمة على ظلمة قوله ظلمة وعمله ظلمة واعتقاده ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره إلى الظلمة وهو النار ويقال: شبه قلب الكافر بالبحر العميق وشبه أعضاءه بالأمواج الثلاث طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فهذه الظلمات الثلاث تمنعه عن الحق ثم قال: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ يعني: لم يكن أقرب إليه من نفسه فإذا أبرز يده لم يكد يراها من شدة الظلمة ومع ذلك لم ير نفسه فكذلك الكافر لم ينظر إلى القبر ولم يتفكر في أمر نفسه أيضاً كقوله عز وجل (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ثم قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ يعني: من لم يكرمه الله بالهدى (فما له من مكرم) بالمعرفة قرأ ابن كثير ظلماتٍ بكسر التاء والتنوين فكأنه يجعله بمنزلة قوله كظلمات قرأ الباقون بالضم[1] على معنى الابتداء وقرىء في الشاذ سحاب ظلمات على معنى الإضافة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يعني يصلي له ويذكر له ويقال: يخضع له ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الخلق ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ يعني مفتوحة الأجنحة وأصل الصف هو البسط ولهذا يُسمى اللحم القديد صفيفاً لأنه يبسط ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: كل واحد من المسبحين يعلم كيف يصلي وكيف يسبح يعني: والله يعلم عمل كل عامل فيجازيهم بأعمالهم إلا أنه لا يعجل بعقوبة المذنبين والكافرين لأنه قادر عليهم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا معنى قوله وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قال مجاهد: في قوله (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) الصلاة للإنسان والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه ثم قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾ يعني: يسوق سحاباً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يعني: يجمع بينه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ يعني: قطعاً قطعاً ويقال: يجعل بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (يعني: من وسط السحاب قرأ ابن عباس يخرج من خلله وقراءة العامة من خلاله)[2] وهي جمع خلل ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ

(١) انظر حجة القراءات ٥٠٢، النشر ٢/٣٣٢.
(٢) سقط في أ.

﴿السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ يعني: من جبال في السماء قال مقاتل: روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال جبال السماء أكثر من جبال الأرض فيها من برد أي: في الجبال من برد ويقال: وهو الجبال من البرد أي ينزل من السماء من جبال البرد وروي عن ابن عباس أنه قال: البرد هو الثلج وما رأيته ويقال: الجبال عبارة عن الكثرة يعني: ينزل الثلج مقدار الجبال كما يقال: عند فلان جبال من مال أي: مقدار جبال من كثرته ويقال البرد هو الذي له صلابة كهيأة الجمد ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: البرد يصيب الزرع والإنسان إذا كان في مفازة، قوله: ﴿وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ فلا يصيبه ويقال: يصيب به يعني: يعذب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ يعني: ضوء برقه ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ يعني: من شدة نوره قرأ أبو جعفر المدني يُذهب بضم الياء وكسر الهاء وقراءة العامة يذهب بنصب الياء [1] والهاء ثم قال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني: يذهب الله بالليل ويجيء بالنهار ويقال ينقص من النهار ويزيد في الليل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في تقلبهما واختلاف ألوانهما ﴿لَعِبْرَةً﴾ يعني: لآية ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يعني: لذوي العقول والفهم في الدين وسئل سعيد بن المسيب أي العبادة أفضل فقال: التفكير في خلقه والتفقه في دينه ويقال: [العِبَرُ بِالوقَارِ وَالْمُعْتَبِرُ بِمِثْقَالٍ] ثم قال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ يعني: من ماء الذكور قرأ حمزة والكسائي خالق كل دابة على معنى الإضافة وقرأ الباقون خلق كل دابة[2] على معنى فعل الماضي ويقال هذا معطوف على ما سبق (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) فكأنَّه يقول يهدي من يشاء ويضل من يشاء كما أنه يخلق ما يشاء من الخلق ألواناً ثم وصف الخلق فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ مثل الحية ونحو ذلك فإن قيل لا يقال: للدواب منهم وإن هذا اللفظ يستعمل للعقلاء قيل له الدابة اسم عام وهو يقع على ذي روح فيقع ذلك على العقلاء وغيرهم فإذا كان هذا اللفظ يقع على العقلاء وغيرهم فذكر بلفظ العقلاء ولو قال فمنه كان جائزاً وينصرف إلى قوله: كل ولكنه لم يقرأ وإنما قال يمشي على وَجْهِ المجاز وإن كان حقيقته المشي بالرجل لأنه جمعه مع الذي يمشي على وجه التبع ثم قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ مثل الإنسان ونحوه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ أي: على أربع قوائم مثل الدواب وأشباهها فإن قيل إيش الحكمة في خلق كل شيء من الماء قيل له لأن الخلق من الماء أعجب لأنه ليس شيء من الأشياء أشد طوعاً من الماء لأن الإنسان لو أراد أن يمسكه بيده أو أراد أن يبني عليه أو يتخذ منه شيئاً لا يمكنه والناس يتخذون من سائر الأشياء أنواع الأشياء قيل: فالله تعالى أخبر أنه يخلق الماء ألواناً من الخلق وهو قادر

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٠٠.

(٢) حجتهم أن المقصود من ذلك هو التنبيه على الاعتبار بما بعد الفعل من المخلوقات وإذا كان ذلك كذلك فأكثر ما يأتي فيه الفعل على (عفعَل) وهذا الموضع موضعه كما قال: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾. وقال ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً﴾ فنبههم بذلك أن يعتبروا ويتفكروا في قدرته فكذلك قوله ﴿والله خلق كلَّ دابة من ماء﴾. وحجة من قرأ: (خالقُ كلِّ دابة) فلظ قوله (خالق) أعم وأجمع لأنه يشتمل على ما مضى وما يحدث مما هو كائن. ويدل عليه قوله (خالق كل شيءٍ فاعبدوه). انظر حجة القراءات ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

على كل شيء ثم قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: كما يشاء وكيف يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخلق وخلقه ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: قادر قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم ونافع وابن كثير وأبو بكر (مُبيَّناتٍ) بنصب الياء في جميع القرآن يعني: مفصلات وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر مُبَيِّنَاتٍ بكسر الياء يعني: يبين للناس دينهم ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرشد من كان أهلاً لذلك ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: دين مستقيم وهو دين الإسلام.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ قال مقاتل: نزلت في شأن[1] بشر المنافق وذلك أن رجلاً من اليهود كانت بينه وبين خصومة وأن اليهودي دعا بشراً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال بشر نتحاكم إلى كعب بن الأشرق فإن محمداً يعيف علينا فنزل: (وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) وقال في رواية أخرى: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه اشترى أرضاً من علي فندمه قومه وقالوا عمدت إلى أرض سبخة لا ينالها الماء فاشتريتها ردها عليه فقال قد اتبعتها منه فقالوا ردها فلم يزالوا به حتى أتاه فقال اقبض مني أرضك فإني قد اشتريتها ولم أرضها لأنه لا ينالها الماء فقال له علي رضي الله عنه: بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها مني وأنت تعرفها وتعلم ما هي فلا أقبلها منك قال: فدعا على عثمان رضي الله عنهما أن يخاصمه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال قوم عثمان لا تخاصمه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن أنت خاصمته إليه قضي له عليك وهو ابن عمه وأكرم عليه منك ثم أختصما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقضي لعلي على عثمان فنزل في قوم عثمان[2] وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ يعني: صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ أي: يعرض عن طاعتهما طائفة منهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الإقرار ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بمصدقين قال بعضهم: هذا التفسير الذي ذكره الكلبي نغير صحيح لأن قوم عثمان إن كانوا مؤمنين من الذين هاجروا معه إلى المدينة وقد ذكر أنهم ليسوا بمؤمنين وقال بعضهم: هو الصحيح لأن قوم عثمان بعضهم منافقون ميفضون لبني هاشم لعداوة كانت بينهم في الجاهلية وكان عثمان يميل إلى قرابته ولا يعرف نفاقهم ويقال وما أولئك بالمؤمنين يعني: ليس عملهم عمل المؤمنين المخلصين ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إلى حكم الله ورسوله ويقال إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: ليقضي بينهم بالقرآن ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ يعني طائفة منهم معرضون عن طاعة الله ورسوله قوله عز وجل ﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يعني: القضاء ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ يعني: خاضعين مسرعين طائعين قال الزجاج: الإذعان الإسراع مع الطاعة ثم قال ﴿أَفِي

(١) أسباب النزول ١٨٨.

(٢) هذه كلام بعيد عن عثمان وقومه وذكر المصنف بعده ذكر ما يؤيد هذا.

﴿قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ يعني: شكوا في القرآن ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ يعني: يجور الله عليهم ورسوله قال بعضهم: اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإفهام فكأن الله تعالى يعلمنا بأن في قلوبهم مرض وأنهم شكوا ويقال: في قلوبهم مرض يعني: بل في قلوبهم مرض أم ارتابوا بل شكوا ونافقوا ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: هم الظالمون لا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: إلى كتاب الله ورسوله يعني: أمر رسوله ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: ليقضي بينهم بالقرآن ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأطعنا أمره فإن/فعلوا ذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: الناجون الفائزون.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: يطع الله في الفرائض ويطع الرسول في السنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما مضى ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون وروي عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى: (ومن يطع الله ورسوله) فيوحده ورسوله فيصدقه بالرسالة ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما بقي من عمره فأولئك هم الفائزون يعني: الناجون من العذاب آمنون عند سكرات الموت قال: فلما نزلت هذه الآية أقبل عثمان إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: يا رسول الله إن شئت لأخرجن من أرضي ولأدفعنها إليه وحلف على ذلك فمدحه الله عز وجل بذلك فقال عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: حلفوا بالله وإذا حلفوا بالله كان ذلك جهد اليمين ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ من الأموال قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ يعني هذه منكم طاعة معروفة لا طاعة نفاق فكأن فيه مضمراً لأن بعض الناس منافقون فأخبر أن هذه طاعة ليس فيها نفاق ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: في السر والعلانية ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني: أطيعوا الله في الفرائض وأطيعوا الرسول في السنن ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني: أعرضوا عن الطاعة لله والرسول ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يعني: ما أمر بتبليغ الرسالة وليس عليه من وزركم شيء ﴿وعليكم ما حملتم﴾ يعني: ما أمرتم والإثم عليكم وإذا تركتم الإجابة ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿تَهْتَدُوا﴾ من الضلالة ثم قال ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وفي الآية مضمر فكأنه يقول: وإن تعصوه وما على الرسول إلا البلاغ المبين يعني: ليس عليه إلا التبليغ قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وذلك أن كفار مكة لما صدُّوا المسلمين عن مكة عام الحديبية فقال المسلمون: لو فتح الله مكة ودخلناها آمنين فنزل قوله:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لينزلنهم في أرض مكة ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: من قبل أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ﴾ يعني: ليظهرن لهم ﴿دِيْنَهُمُ﴾ الإسلام ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾ من الكفار ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ يعني: لكي يعبدونني ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ويقال: معناه يعبدونني لا يشركون بي شيئاً أي: يظهر عبادة الله تعالى ويبطل الشرك وروى الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه بمكة زماناً نحواً من عشر سنين وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى إذا أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموا المدينة أمرهم الله تعالى بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فقال رجل من أصحابه يا رسول الله نحن أبداً خائفون هل يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يكون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملإ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة ونزلت هذه الآية (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ) الآية ويقال: نزلت في شأن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ليستخلفنهم يعني: يكونوا خلفاء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واحداً بعد واحد ثم قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني: بعد الأمن والتمكين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: العاصين قرأ عاصم في رواية أبي بكر كما استخلف بضم التاء على فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون بنصب التاء لأنه سبق[(١)] ذكر الله تعالى وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر (وليبدلْنهم) بالتخفيف وقرأ الباقون بتشديد الدال من بدل يبدل والأول من أبدل يُبدل[(٢)].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْءَايَٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا اسْتَـْٔذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: أقروا بها وأتموها ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني: أقروا بها وأعطوها ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد والطاعة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذبون قوله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: فائتين ويقال: سابقين أمر الله تعالى ويقال معناه لا تظن أنهم يهربون منا وأنهم يفوتون من عذابنا ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: صاروا إليه وبئس المرجع قرأ حمزة وابن عامر (لا يَحْسَبن) بالياء ونصب السين[(٣)] وقرأ الباقون بالتاء بلفظ المخاطبة وكسر السين قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(١) انظر حجة القراءات ٥٠٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) يجوز أن يكون فاعل الحسبان أحد شيئين: إما أن يكون قد يضمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنه قال: (لا يحسبن محمد الذين =

قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث غلاماً من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ظهيرة ليدعوه فانطلق الغلام ليدعوه فوجده نائماً قد أغلق الباب فأخبر الغلام أنه في هذا البيت فقرع الباب على عمر فلم يستيقظ فدخل فاستيقظ عمر فجلس فانكشف منه شيء فرآه الغلام فعرف عمر أنه قد رآه فقال عمر وددت أن الله تعالى نهى ابناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا هذه الساعة إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم[1] فنزلت هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: العبيد والإماء والولاية ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ يعني: وليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم يعني: الاحتلام وهم الأحرار من الغلمان ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ لأنها ساعات غرة وغفلة ثم بين الساعات الثلاث فقال: ﴿مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ لأن ذلك وقت لبس الثياب ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقت القيلولة ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ وذلك وقت النوم ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ يعني: ثلاث ساعات وقت غرة أي عورة وغفلة وهن أوقات التجرد وظهور العورة وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية واحدة (ثَلَاثَ) عورات بنصب الثاء وقرأ الباقون بالضم فمن قرأ بالنصب فمعناه ليستأذنكم ثلاث عورات أي: ثلاث ساعات ومن قرأ بالضم معناه هي ثلاث عورات فيكون خبراً عن الأوقات الثلاثة وروى عكرمة أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس عن قوله: لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فقال ابن عباس إن الله تعالى ستير يحب الستر وكان الناس لم يكن لهم ستور على أبوابهم ولا حجاب في بيوتهم فربما فاجأ الرجل ولده أو خادمه أو يتيم في حجره وهو مع أهله فأمرهم الله تعالى أن يستأذنوا في ثلاث ساعات التي سمى الله تعالى ثم جاء الله باليسر وبسط الرزق عليهم فاتخذوا الستور واتخذوا حجاب فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي قد أمروا به وقد[2] قيل: إن فيه دليلاً أن ذلك الحكم إذا ثبت فإذا زال المعنى زال الحكم وقال مجاهد: الاستئذان هو التنحنح ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليس عليكم معشر المؤمنين ولا عليهم يعني الخدم ﴿جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ يعني: بعد الساعات الثلاث ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ يعني: يتقلبون فيكم ليلاً ونهاراً يدخلون عليكم بغير استئذان في الخدمة ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يدخل بعضكم على بعض بغير إذن ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ يعني: أمره ونهيه في الاستئذان ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بصلاح الناس ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالاستئذان قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ﴾ يعني: الاحتلام ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الكبار من ولد الرجل وأقربائه معناه: فليستأذنوا في كل وقت كما استأذن الذين من قبلكم يعني: من الرجال ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: أمره ونهيه في كل وقت و ﴿الله عليم﴾ بصلاحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ حكم بالاستئذان.

وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ
مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا
عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

= كفروا معجزين) و(الذين) المفعول الأول والمفعول الثاني (معجزين). ويجوز أن يكون فاعل الحسبان (الذين كفروا) ويكون المفعول الأول محذوفاً تقديره: (لا يحسبن الذين كفروا إياهم معجزين في الأرض). انظر حجة القراءات ٥٠٥.

(١) أسباب النزول ١٨٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٦ وعزاه لأبي داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن.

ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: الآيسة من الحيض والقاعدة المرأة التي قعدت عن الزوج وعن الحيض والولد والجماعة قواعد ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾ يعني: لا يحتجن إلى الزوج ولا يرغب فيهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: جلبابهن ويخرجن بغير جلباب ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ والتبرج إظهار الزينة يعني: لا يردن بوضع الجلباب أن ترى زينتهن ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يعني: يتعففن فلا يضعن الجلباب ﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن يعني: أن العجوز إذا وضعت جلبابها وتبدي زينتها وتقول من يرغب في ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيتها وبفعلها ويقال: سميع عليم بجميع ما سبق في هذه السورة ويقال: سميع عليم انصرف إلى ما بعده فيما يتحرجون عن الأكل قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ قال في رواية الكلبي كانت الأنصار يتنزهون عن الأكل مع الأعمى والمريض والأعرج وقالوا إن هؤلاء لا يقدرون أن يأكلوا مثل ما نأكل فنزل لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ يعني: ليس على من أكل مع الأعمى حَرَجٌ ﴿وَلَا عَلَى﴾ من أكل مع ﴿الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى﴾ من أكل مع ﴿الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إذا أنصف في مؤاكلته وقال بعضهم: هذا التفسير خطأ وهو غير محتمل في اللغة لأنه أضاف الحرج إلى الأعمى لا إلى من أكل معه وقد قيل إن هذا صحيح لأنه ذكر الأعمى وأراد به الأكل مع الأعمى كقوله: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي حب العجل قال: وكما قال: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) وللآية وجه آخر وهو أن الأعمى كان يتحرج عن الأكل مع الناس مخافة أن يأكل أكثر منهم وهم لا يشعر والأعرج أيضاً يقول إني أحتاج لزمانتي أن يوسع لي في المجلس فيكون عليهم مضرة والمريض يقول الناس يتأذون مني لمرضي ويقذرونني فيفسد عليهم الطعام فنزل (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني: لا بأس بأن يأكلوا مع الناس ولا مأثم عليهم ولها وجه آخر وهو ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان الناس يخرجون إلى الغزو ويدفعون مفاتيحهم إلى الزَّمْنى والمرضى ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا في منازلنا وكانوا يتورعون منازلهم حتى نزلت هذه الآية وإلى هذا يذهب الزهري رضي الله عنه وذكر أيضاً أن مالك بن زيد وكان صديقه الحارث[1] بن عمرو خرج غازياً وخلف مالكاً في أهله وماله وولده فلما رجع الحارث رأى مالكاً متغيراً لونه فقال ما أصابك فقال: لم يكن عندي شيء اكله فجهدت من الشدة والجوع ولم يكن يحل لي أن آكل شيئاً من مالك فنزلت هذه الآية إلى قوله (أَوْ صَدِيقِكُمْ) وقوله: (وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم أو من بيوت عيالكم وأزواجكم ويقال بيوتكم أي بيوت أولادكم ويقال: من بيوتكم يعني: من بيوت بعضكم وذلك أنه لما نزل (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) امتنع الناس من أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزل في ذلك: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ يعني: من بيوت بعضكم بعضاً ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ يعني: لا

(١) الحارث بن عمرو بن الحارث السهمي الباهلي أبو مسقبة صحابي له حديث واحد. التهذيب ٢/١٥١، التقريب ١/١٤٢.

بأس أن يأكل من بيت هؤلاء بغير إذنهم لأنه يجري بينهما من الانبساط ما يعني عن الإذن ثم قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: خزائنه يعني: عبيدكم وإمائكم إذا كان له عبد مأذون فلا بأس أن يأكل من ماله لأن ذلك من مال مواليه ويقال: يعني حافظ البيوت فلا بأس أن يأكل مقدار حاجته ثم قال: ﴿وَصَدِيْقِكُمْ﴾ يعني لا جناح على الصديق أن يأكل من بيت صديقه إذا كان بينهما انبساط وروي عن قتادة أنه قال: لو دخلت على صديق ثم أكلت من طعامه بغير إذنه كان حلالاً ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ يعني: جماعة أو متفرقين في بيت هؤلاء ويقال: إنهم كانوا يمتنعون عن الأكل وحده وذكر في قوله تعالى: (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود) يعني: الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده فرخص في هذه الآية لأن الإنسان لا يمكنه أن يطلب في كل مرة أحداً يأكل معه وروى معمر عن قتادة قال نزلت الآية في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكل معه فنزل (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً) ثم قال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيوتاً﴾ قال مقاتل: يعني دخلتم بيوتاً للمسلمين ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض كما قال (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم بعضاً وروى عمرو بن دينار عن ابن عباس قال: فإذا دخلتم بيوتاً قال: هو المسجد فسلموا على أنفسكم فقولوا السلام علينا من ربنا ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني السلام ﴿مُبَارَكَةً﴾ بالأجر ﴿طَيِّبَةً﴾ بالمغفرة وقال إبراهيم النخعي (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) إذا كان في البيت إنسان يقول السلام عليكم وإذا لم يكن فيه أحد يقول السلام علينا من ربنا وعلى عباد الله الصالحين وهكذا قال مجاهد وقال الحسن والكلبي (فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: بعضكم على بعض وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: [أبخل الناس الذي يبخل بالسلام][(١)] ويقال معنى السلام إذا قال السلام عليكم يعني السلامة لكم مني فكأنه أمنه من شر نفسه ويقال: يعني: حفظكم الله من الآفات ويقال: السلام هو الله فكأنه الله حفيظ عليكم ومطلع على ضمائركم فإن كنتم في خير فزيدوا وإن كنتم في شر فانزجروا (تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) وأصل التحية هو البقاء والحياة كقوله حياك الله وإنما صار نصباً على المصدر ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: أمره ونهيه في أمر الطعام والشراب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا وتفهموا.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: المصدقين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٢/١٢٣ مطولاً عن عبد الله بن مغفل وعزاه للطبراني في الثلاثة وقال رجاله ثقات.

جامعٍ﴾ يعني مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا جمعهم على أمر لتدبير في أمر جهاد. أو في أمر من أمور الله تعالى فيه طاعة لله ولرسوله ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يعني: لم يفارقوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجمعهم يوم الجمعة فيستشيرهم في أمر الغزو فكان يثقل على بعضهم المقام فيخرجون بغير إذنه وقال بعضهم[1] نزلت في يوم الخندق وكان بعض الناس يرجعون إلى منازلهم بغير إذن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأمرهم بأن لا يرجعوا إلا بإذنه عليه السلام وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو ولا ينبغي لأحد أن يرجع بغير إذنه وفي الآية بيان حفظ الأدب بأن الإمام إذا جمع الناس لتدبير أمر من أمور المسلمين ينبغي أن لا يرجعوا إلا بإذنه وكذلك إذا خرجوا إلى الغزو ولا ينبغي لأحد أن يرجع إلا بإذنه ولا يخالف أمر السرية وروي عن مكحول أنه سئل عن هذه الآية وعنده عطاء فقال هذا في الجمعة وفي الزحف وفي كل أمر جامع ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وليسوا بمنافقين وكان المؤمنون بعد نزول هذه الآية لم يكونوا يرجعون حتى يستأذنوا وأما المنافقون ـ فيرجعون بغير إذن ثم قال ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ يعني: لبعض أمورهم وحوائجهم ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ولا تأذن لمن شئت لأن بعض المنافقين لم يكن لهم في الرجوع حاجة فإن أرادوا أن يرجعوا فلم يأذن لهم وأذن للمؤمنين وقال مقاتل نزلت في شأن عثمان حين استأذن في غزوة تبوك بالرجوع إلى أهله فأذن له ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ أي: فيما استأذنوك من الرجوع بغير حاجة لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ رَحِيمٌ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ به ثم قال عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: لا تدعوا محمداً باسمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ ولكن وقروه وعظموه وقولوا يا رسول الله ويا نبي الله ويا أبا القاسم وفي الآية بيان توقير معلم الخير لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلم الخير فأمر الله عز وجل بتوقيره وتعظيمه وفيه معرفة حق الأستاذ وفيه معرفة أهل الفضل ثم ذكر المنافقين فقال عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ يعني: يرى الله ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ﴾ يعني: يخرجون من المسجد ﴿لِوَاذاً﴾ يلوذ بعضهم ببعض وذلك أن المنافقين كان يشق عليهم المقام هناك يوم الجمعة وغيره فيتسللون من بين القوم ويلوذ الرجل بالرجل أو بالسارية لئلّا يراه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يخرج من المسجد يقال لاذ يلوذ إذا عاذ وامتنع بشيء ويقال: معنى (لِوَاذاً) هنا، من الخلاف يعني: يخالفون خلافاً فخوفهم الله تعالى عقوبته فقال ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعني: عن أمر الله تعالى ويقال عن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال عن زيادة في الكلام للصلة ومعناه يخالفون أمره إلى غير ما أمرهم به ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: الكفر لأن أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجب فمن تركه على وجه الجحود كفر ويقال فتنة يعني: بلية في الدنيا ويقال: فساد في القلب ويقال: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: يصيبهم عذاب عظيم في الآخرة ويقال: القتل بالسيف ويقال: يجعل حلاوة الكفر في قلبه وقوله أو على معنى الإبهام لا على وجه الشك والتخيير ثم قال عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الخلق عبيده وإماؤه في مملكته ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من خير أو شر فيجازيكم بذلك ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ من خير أو شر فيجازيهم بذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالهم وأقوالهم وبما في أنفسهم وروي عن الأعمش عن سفيان بن سلمة قال: شهدت ابن عباس ولي الموسم وقرأ سورة النور على المؤمنين وفسرها على المنبر فلو سمعتها الروم لأسلمت وقال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن إسحاق ٣/ ٣٣٠.

سُورَةُ الفُرْقَانِ(١)

وهي سبع وسبعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ
آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه يعني: تعالى وتعظم قال ابن عباس ويقال: تفاعل من البركة (٢) وهذه لفظة مخصوصة ولا يقال يتبارك كما يقال يتعالى ولا يقال متبارك كما يقال متعال ويقال تبارك أي ذو بركة والبركة هي كثرة الخير ويقال: أصله من بروك الإبل ويقال للواحد بارك وللجماعة برك وكان الإنسان إذا كان له إبل كثيرة وقد برك هو على الباب يقولون فلان ذو بركة ويقولون للذي كان له إبل تحمل إليه الأموال من بلاد بعيدة فلان ذو بركة فصار ذلك أصلاً حتى أنه لو كان له مال سوى الإبل لا يقال فلان ذو بركة قال الله تعالى (تَبَارَكَ) أي: ذو البركة ويقال: أصله من الدوام ويقال: بارك في موضوع إذا دام فيه ويقال معناه البركة في اسمه وفي الذي

---

(١) اشتملت هذه السورة على الابتداء بتمجيد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها. وادمج في ذلك التنويه بالقرآن وجلال منزله وما فيه من الهدى وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك والتنويه بشأن النبي - صلى الله عليه وسلم -. وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الأولى: إثبات أن القرآن منزل من عند الله والتنويه بالرسول المنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - ودلائل صدقه ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا وأنه على طريقة غيره من الرسل ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب. الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء والإنذار بالجزاء في الآخرة والتبشير بالثواب فيها للصالحين وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية الله وتفرده بالخلق وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك وإبطال إلهية الأصنام وما زعموه من بنوة الملائكة لله تعالى. وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة (تبارك الذي) الخ.

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه - صلى الله عليه وسلم - مبعوثاً إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾. وذكر بدائع من صنعه تعالى جمعاً بين الاستدلال والتذكير. وأعقب ذلك بتثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - على دعوته ومقاومته الكافرين. وضرب الأمثل للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم مثل قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط. والتوكل على الله والثناء على المؤمنين به ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم. والإشارة إلى عذاب قريب يحل بالمكذبين. انظر التحرير ١٨/٣١٤، ٣١٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٢ وعزاه لابن أبي حاتم.

ذكر عليه اسمه ثم قال ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ يعني: أنزل جبريل عليه السلام بالقرآن والفرقان هو المخرج من الشبهات ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ يعني: ليكون الفرقان نذيراً للإنس والجن ويقال: يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: يعني: الله تبارك وتعالى وأرادها هنا جميع الخلق وقد يذكر العام ويراد به الخاص من الناس كقوله عز وجل (وأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم ويذكر ويراد به جميع الخلائق كقوله (ربِّ الْعَالَمِينَ) ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خزائن السموات والأرض ويقال: له نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ ليورثه ملكه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فينازعه في عظمته ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كما ينبغي أن يخلقهم ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ يعني: بين الصلاح في كل شيء وجعله مقدراً معلوماً ويقال: كل شيء خلقه من الخلق فقدره تقديراً أي: قدر لكل ذكر وأنثى قوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني: تركوا عبادة الله الذي خلق هذه الأشياء وعبدوا غيره ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ يعني: عبدوا شيئاً لا يقدر أن يخلق ذباباً ولا غيره ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يتخذونها بأيديهم ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَراً﴾ أي: لا تقدر الآلهة أن تمتنع ممن أراد بها سوءاً ﴿وَلَا نَفْعاً﴾ أي: لا تقدر أن تسوق إلى نفسها خيراً ويقال: لا يملكون دفع مضرة ولا جر منفعة ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً﴾ يعني: لا يقدرون أن يميتوا أحداً ﴿وَلَا حَيَاةً﴾ أي: ولا يحيون أحداً ﴿وَلَا نُشُوراً﴾ يعني: بعث الأموات ويقال: ولا يملكون موتاً يعني: الموت الذي كان قبل أن يخلقوا ولا حياة يعني: أن يزيدوا في الأجل ولا نشوراً بعد الموت ويقال: (لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً) يعني: أن يبقوا أحداً (وَلَا نُشُوراً) يعني: أن يحيوه بعد الموت وإنما ذكر الأصنام بلفظ العقلاء لأن الكفار يجعلونهم بمنزلة العقلاء فخاطبهم بلغتهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾
وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي
يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ
ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ
أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار مكة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ يعني: ما القرآن إلا كذب ﴿افْتَرَاه﴾ يعني: كذباً اختلقه من ذات نفسه ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يعني: جبراً ويساراً ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾ وقال بعضهم: هذا قول الله تعالى رداً على الكفار بقولهم هذا (فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً) يعني: شركاً وكذباً ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يعني: أباطيل اكتتبها أي كتبها من جبر ويسار يعني أساطير الأولين ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ يعني: تقرأ وتملى عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني: غدوة وعشية قوله عز وجل: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَنزَلَهُ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: يعلم السر والعلانية ومعناه: لو كان هذا القول من ذات نفسه لعلمه الله تعالى وإذا علمه عاقبه كما قال تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ فكأنه يقول: إرجعوا وتوبوا فإنه كان غفوراً لمن تاب رحيماً بالمؤمنين قوله عز وجل:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ مثل ما نأكل **﴿وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾** يعني: يتردد في الطريق **﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾** يعني: معيناً يخبره بما يراد به من الشر **﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيهِ كَنْزٌ﴾** يعني: يعطى له كنز **﴿أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾** يعني: بستاناً **﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾** أي: وذلك أن كفار قريش اجتمعوا في بيت فبعثوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاهم فقال له العاص بن وائل السهمي وقريش معه: قد تعلم يا محمد أن لا بلاد أضيق من بلادنا ساحة ولا أقل أنهاراً ولا زرعاً ولا أشد عيشاً فادع ربك أن يسير عنا هذه الجبال حتى يفسح لنا في بلادنا ثم يفجر لنا فيها أنهاراً حتى نعرف فضلك عند ذلك ونراك تمشي في الأسواق معنا تبتغي من سير العيش فاسأل ربك أن يجعل لك قصوراً أو جناناً وليبعث معك ملكاً[1] يصدقك فنزل حكاية عن قولهم (أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) قرأ حمزة والكسائي نأكل بالنون وقرأ الباقون بالتاء[2] **﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾** يعني: ما تطيعون يا أصحاب محمد **﴿إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾** يعني: مغلوب العقل ويقال: مسحوراً أي مخلوقاً لأن الذي يكون مخلوقاً يكون حياته بالمعالجة بالأكل والشرب فيسمى مسحوراً ويقال: مسحوراً أي: سحر به قوله عز وجل: **﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾** يعني: انظر يا محمد كيف وصفوا لك الأشباه إلى ماذا شبهك قومك بساحر وكاهن وكذاب **﴿فَضَلُّوا﴾** عن الهدى ويقال: ذهبت حيلتهم وأخطأوا في المقالة **﴿فَلاَ يَسْتَطِيعونَ سَبِيلاً﴾** يعني: لا يجدون حيلة ولا حجة على ما قالوا لك ولا مخرجاً لأنه تناقض كلامهم حيث قالوا مرة مجنون ومرة ساحر.

تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾
بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا
تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ
ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ
كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾

ثم قال عز وجل: **﴿تَبَارَكَ﴾** وتعالى وقد ذكرناه **﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ﴾** يعني: خيراً مما يقول الكفار في الآخرة **﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً﴾** في الجنة ويقال: في الدنيا إن شاء أعطاك وروى سفيان عن حبيب بن أبي ثابت قال عن خيثمة قال: قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتحها لم نعط من قبلك أحداً ولا نعطي من بعدك أحداً ولا ينقصك ذلك مما عند الله شيئاً وإن شئت جمعناهما لك في الآخرة قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل اجمعوها لي في الآخرة فنزل (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ) الآية قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (وَيَجْعَلُ) بضم اللام على

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره عن سفيان عن حبيب ١٨/١٤٠ وانظر تفسير ابن كثير ٦/١٠٤.

(٢) حجتهم قوله تعالى: **﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾** فخصه بالوصف ولم يقل: (جعل لكم) فيدخلوا معه في الوصف ومن قرأ بالنون: أخبر المتكلم عن نفسه مع جماعة كأنهم أرادوا أن يكون للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جنة له دونهم يرونها ويأكلون منها حتى يتيقنوا صحة ذلك بأكلهم منه نظير ما أخبر عنهم في قيلهم له: **﴿لنْ نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً﴾** وقيلهم أيضاً له **﴿ولنْ نُؤْمِنَ لرُقِيِّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه﴾** ولم يقل (تقرؤه أنت علينا) (حتى تفجر لنفسك). انظر حجة القراءات ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

معنى خبر الابتداء والباقون بالجزم[1] لأنه جواب الشرط ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ معناه: ولكن كذبوا بالساعة يعني: بالقيامة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ يعني: هيأنا لمن كذب بالقيامة وقوداً وهُوَ نار جهنم ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ جهنم ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: من مسيرة خمسمائة عام ويقال من مسيرة خمسمائة سنة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يعني: منها ﴿تَغَيُّظاً﴾ على الكفار ﴿وَزَفِيراً﴾ يعني: صوتاً كصوت الحمار وقال قوم معناه يسمعون منها تغيظ المعذبين وزفيرهم كما قال (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) وقال عامة المفسرين التغيظ زفير يسمع من النار ألا ترى أنه قال (سَمِعُوا لَهَا) ولم يقل سمعوا منها ولا فيها وقال في آية أخرى (وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) وروي في الخبر أن جهنم تزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر على وجهه ترعد فرائصهم حتى أن إبراهيم الخليل عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول يا رب لا أسألك إلا نفسي ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا﴾ يعني: فيها ﴿مَكَاناً ضَيِّقاً﴾ يعني: يضيق عليهم المكان كتضييق الزُّجِّ[2] من الرُّمح ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي: مسلسلين في القيود موثقين في الحديد قرنوا مع الشياطين ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ فعند ذلك دعوا بالويل يعني: يقولون واهلاكاه فتقول لهم الخزنة: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ يعني: ادعوا ويلاً كثيراً دائماً قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: هذا الذي وصف من العذاب خير ﴿أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ فإن قيل كيف يقال: خير وليس في النار خير قيل له: قد يقال على وجه المجاز وإن لم يكن فيه خير، والعاقبة: تقول العاقبة خير من البلاء وإنما خاطبهم بما يتعارفون في كلامهم ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني الذين يتقون الشرك والكبائر ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾ يعني: جزاء بأعمالهم الحسنة ومرجعاً إليها ثم قال عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ﴾ أي يحبون ﴿خالدينَ﴾ أي: دائمين في الجنة ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً﴾ منه في الدنيا ﴿مَسْؤُولاً﴾ يسأله المتقون ويقال: مسئولاً يسأل لهم الملائكة عليهم السلام وهو قوله عز وجل: (رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ) ويقال: وعداً على لسان رسولهم وقد سألوا الله عز وجل ذلك وهو قوله (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) ويقال وعداً لا خلف فيه لمن سأله.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ يعني: نجمعهم ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يعني: ونحشر ما يعبدون ﴿مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام ويقال: المسيح وعزير ويقال: الملائكة عليهم السلام ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ يعني: أأنتم أمرتم ﴿عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ أن يعبدوكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ يعني: أم هم أخطأوا الطريق فتبرأت الملائكة والأصنام قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ أي: ما يجوز لنا ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ﴾ وقرأ الحسن وأبو جعفر المدني أن (نُتَّخَذَ) بضم النون ونصب الخاء ومعناه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من

---

(١) انظر المصدر السابق النشر ٢/٣٣٣.

(٢) الزج الحديدة التي تركب في أسفل الرمح انظر لسان العرب ٣/١٨١١.

دونك إلهاً فيعبد وقراءة العامة بنصب النون وكسر الخاء يعني: ما كان ينبغي[1] لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فيعبدوننا ويقال: معناه ما كان فينا روح نأمرهم بطاعتنا ويقال: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء فنعبدهم فكيف نأمر غيرنا بعبادتنا كقوله تعالى: (سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ) قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص ويوم يحشرهم بالياء فيقول بالياء وقرأ ابن عامر كلاهما بالنون وقرأ الباقون الأول بالنون والثاني بالياء[2] ثم قال: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني: أن هذا كان بكرمك وفضلك حيث لما عصوك لم تمنع عنهم الدنيا حتى اغتروا بذلك وظنوا أنهم على الحق حيث لم يصبهم بلاء ولم تمنع منهم النعمة فذلك قوله تعالى: (وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ) يعني: تركتهم في الدنيا يتمتعون وأجلتهم وآباءهم في المتاع والسعة ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ يعني: تركوا التوحيد والإيمان بالقرآن ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ أي: هلكى فاسدين وأصله الفساد يقال بارت السوق إذا كسدت وقال الكلبي بوراً يعني: هالكين فاسدة قلوبهم غير متقين ولا محسنين يقول الله تعالى لعبدة الأوثان ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ يعني: الأصنام ويقال الملائكة ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً﴾ يعني: لا يستطيع الكفار انصرافاً إلى غير حجتهم التي تكلموا بها ويقال لا يستطيعون صرفاً أي: إنصرافاً عن حجتهم ولا نصراً يعني: ولا ينتصرون من آلهتهم حين كذبتهم ويقال لا يقدرون يعني الأصنام ولا الملائكة صرف العذاب عنهم ولا نصراً يعني لا يمنعونهم منه ويقال الصرف الحيلة ويقال لا يقبل منهم فدية أن يصرفوا عن أنفسهم بالفدية قرأ عاصم في رواية حفص (فما تستطيعون بالتاء) على معنى المخاطبة يعني يقال لهم: لا تستطيعون صرف ذلك وقرأ الباقون بالياء[3] ومعناه أن الله تعالى يقول للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما يستطيعون صرف ذلك عنهم ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ يعني: يشرك بالله في الدنيا ويقال: يكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ في الآخرة وهو عذاب النار.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواباً لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴿إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ يعني: كانت الرسل من الآدميين ولم يكونوا من الملائكة عليهم السلام ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ يقول: ابتلينا بعضكم ببعض الفقير بالغني والضعيف بالقوي وذلك أن الشريف إذا رأى الوضيع قد أسلم أنف عن الإسلام وقال: أأسلم فأكون مثل هذا فثبت على دينه حمية يقول الله تعالى للشريف (أَتَصْبِرُونَ) أن تكونوا شرعاً سواء في الدين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي عالماً بمن يؤمن ومن لا يؤمن ويقال (جعلنا بعضكم لبعض فتنة يعني بلية الغني للفقير والقوي للضعيف لأن ضعفاء المسلمين وفقراءهم إذا رأوا الكفار في السعة والغنى ـ يتأذون منهم وكان في ذلك بلية لهم فقال تعالى (أتصبرون) اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر يعني اصبروا كقوله (أفلا يتوبون إلى الله) يعني توبوا إلى الله ويقال: أهل النعم بلية لأهل الشدة لأن أهل الشدة إذا رأوا أهل النعمة تنغص عيشهم فأمرهم الله تعالى بالصبر وذكر عن بعض المتقدمين أنه كان إذا رأى غنياً من الأغنياء يقول: نصبر يا رب نصبر يا رب أراد جواباً لقوله تعالى (أتصبرون) وكان ربك بصيراً يعني: عالماً بمن

---

(١) النشر ٢/٣٣٣، انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٠٦.
(٢) انظر حجة القراءات ٥٠٨.
(٣) المصدر السابق.

يصلح له الغنى والفقر ويقال (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) يعني: عالماً بثواب الصابرين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾ يعني: لا يخافون البعث بعد الموت ويقال لا يرجون الجنة والمغفرة وهم كفار أهل مكة ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ يعني: هلا أنزل علينا الملائكة فيخبروننا بأنك رسول الله إلينا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فيخبرنا بأنك مرسل قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا في أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: تعظموا في أنفسهم وأعرضوا عن الإيمان ويقال: لقد استكبروا في أنفسهم يعني: وضعوا لأنفسهم قدرا ومنزلة حيث أرادوا لأنفسهم الرسل من الملائكة عليهم السلام ورؤية الرب عز وجل: ﴿وعتوا عتواً كبيراً﴾ يعني: أبوا إباءً كثيراً ويقال: اجترءوا على الله اجتراء كثيراً وقال أهل اللغة[١] العاتي الذي لا ينفعه الوعظ والنصيحة ثم أخبر متى يرون الملائكة فقال عز وجل: ﴿يوم يرون الملائكة﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: للمشركين وتكون البشارة للمؤمنين ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ حِجراً مَحْجُوراً﴾ يعني: تقول لهم الملائكة: حراماً محرماً أي: تكون لهم البشرى يومئذ بما يبشر به المتقون وإنما قيل للحرام حجر لأنه حجر عليه وقال مجاهد: تقول الملائكة: حراماً محرماً أن يدخلوا الجنة[٢] وقال الحسن وقتادة: وهي كلمة كانت العرب تقولها كان الرجل إذا نزلت به الشدة قال: حجراً محجوراً أي: حراماً محرماً[٣] ويقال إن قريشاً كانوا إذا استقبلهم أحد كانوا يقولون له حاجورا حاجورا حتى يعرف أنهم من الحرم فلا يضرونهم وأخبر أنهم كانوا يقولون ذلك ولا ينفعهم ويقال: إن المشركين في الشهر الحرام إذا استقبلهم أحد يقولون حجراً محجوراً ويريدون أن يذكروه أنه في الشهر الحرام وذلك القول لا ينفعهم يوم القيامة وقرأ الحسن (حجراً) بضم الحاء وقراءة العامة بكسر الحاء[٤] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلوا مِن عَمَلٍ﴾ قال الكلبي يعني: عمدنا إلى ما عملوا من عمل لغير الله تعالى ويقال: قصدنا إلى ما عملوا من عمل ومعناه نظرنا في أعمالهم ولم نجد فيها خيراً فأبطلناها ولم نجعل لها ثواباً فذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مَنْثوراً﴾ قال الضحاك: هو الغبار ما لا يستطاع جمعه ولا أخذه بيد وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه الهباء المنثور الذي تراه في شعاع الشمس في الكوة[٥] وهذا قول عكرمة والكلبي وقال قتادة: هو ما ذرت الريح من حطام الشجر ويقال الغبار الذي يسطع من حوافر الدواب ثم قال عز وجل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ يعني: أفضل منزلاً ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[٦]

(١) قال ابن منظور: العاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل موعظة. انظر لسان العرب ٤/٢٨٠٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٦ وعزاه للعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٠٧.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٦ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) سقط في أ.

(يعني: مرجعاً ومجلساً وروي عن الأعمش عن إبراهيم في قوله: (خير مستقراً وأحسن مقيلاً) يعني: قال: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس إلى مقدار نصف النهار فيقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا لا ينتصف النهار من ذلك اليوم حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار[١] عنيا بذلك يوم القيامة ولأن مقدار ذلك اليوم خمسون ألف سنة وإنما أراد بتلك القيلولة القرار لا النوم لأنه لا يكون في الجنة نوم ولا في النار نوم قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر تشَّقق بتشديد الشين لأن أصله يتشقق فأدغم إحدى التائين في الشين وقرأ الباقون بالتخفيف[٢] وهذا مثل الإختلاق في قوله (تسألون) فقال (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ) ﴿بِالْغَمَامِ﴾ يعني: الغمام والغمام هو شيء مثل السحاب الأبيض فوق سبع سموات كما روي في الخبر أن دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام يعني: تشقق السماء وتظهر بالغمام ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ قرأ ابن كثير وننزل الملائكة بنونين ونصب الهاء ومعناه: أن الله تعالى يقول: ننزل الملائكة وقرأ الباقون (ونزل) على فعل ما لم[٣] يسم فاعله معناه: أن الله تعالى ينزل ملائكة السموات وروي في الخبر أنه تشقق سماء الدنيا فينزل ملائكة سماء الدنيا بمثلَيْ من في الأرض من الجن والإنس ويقول لهم الخلائق: أفيكم ربنا يعني: هل جاء أمر ربنا بالحساب فيقول: لا وسوف يأتي ثم تنزل ملائكة السماء الثانية بمثلي من في الأرض من الملائكة والإنس والجن ثم تنزل ملائكة كل سماء على هذا التضعيف حتى تنزل ملائكة سبع سموات فيظهر بالغمام وهو كالسحاب الأبيض فوق سبع سموات ثم ينزل بالأمر بالحساب فذلك قوله: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) ويقال: الغمام الذي قال في سورة البقرة (فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَة) ثم قال عز وجل: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وفي الآية تقديم ومعناه الملك يومئذ الحق للرحمن الحق صفة الملك والمعنى الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن لأنه لا يدعي الملك يومئذ أحد ويقال الحق يومئذ الملك الخالص ويقال: يعني: الملك الصدق ثم قال تعالى: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ يعني: شديداً وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين يسيراً وهذا كما قال في آية أخرى (عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسير).

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا
خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ
ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يعني: عقبة بن أبي معيط وذلك أن عقبة (كان لا يقدم من سفر)[٤] إلا صنع طعاماً وكان يدعو إلى الطعام من أهل مكة من أحب وأراد وكان يكثر مجالسة النبي ـ صلى الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٦٧ وعزاه لابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٠. النشر ٢/٣٣٤.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) سقط في ظ.

عليه وسلم ـ ويعجبه حديثه فقدم ذات يوم من سفره وصنع طعاماً ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى طعامه فأتاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما قدم الطعام إليه فأبى أن يأكل وقال ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وكان عندهم من العار أن يخرج أحدهم قبل أن يأكل (من الطعام شيئاً فألح عليه أن يأكل)(١) فلم يأكل فشهد بذلك عقبة فأكل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طعامه وكان أبيٌّ بن خلف الجمحي غائباً وكان خليله فلما قدم أخبر بذلك فأتاه فقال صبوت يا عقبة فقال لا والله ما صبوت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت فطعم فقال له: ما أنا بالذي أرضى عنك أبداً حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتشتمه وتكذبه ففعل ذلك فنزلت هذه الآية (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ) يعني: عقبة على يديه يعني: على أنامله وروي عن أنس بن مالك أنه قال يعض عقبة بن أبي معيط على يديه يوم القيامة يأكل لحم يديه حتى يبلغ العضد من الندامة وهو ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ يعني: اتخذت طريق الهدى وكنت معه على الإسلام قوله عز وجل: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ يعني: أبيٌّ بن خلف وقال إنما قال فلاناً ولم يذكر اسمه لحقارته ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي: عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي: حين جاءني ويقال إنه لم يذكر اسمه لأنه دخل في جميع الظالمين لأن مَنْ صَنَع مِثْل هَذَا الصَّنِيع يكون جزاؤه هذا وقتل عقبة يوم بدر صبراً وقتل أبيٌّ بن خلف يوم أحد ويقال: (لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيْلاً) يعني: الشيطان بدليل قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ يعني: يتبرأ منه يوم القيامة ونزل فيه (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ يعني: متروكاً لا يؤمنون به ولا يعملون بما فيه وقال القتبي يعني: جعلوه كالهذيان(٢) ويقال: فلان يهجر في منامه أي يهذب وقال مجاهد: يهجرون منه بالقول يعني يقولون فيه بالقبيح فبين الشكاية من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الرب عز وجل ثم إن الله عز وجل عزاه وأخبره أن الرسل من قبله كانوا يتأذون بقومهم فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: من المشركين فيهجرون الكتاب ثم قال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ يعني: هادياً إلى دينه من كان أهلاً لذلك ويقال وكفى بربك حافظاً على الدين ونصيراً أي: مانعاً ويقال: وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً يعني: فرعوناً كما جعلنا أبا جهل فرعونك ويقال سلطنا على كل نبي متكبراً ليتكبر عليه ويكذبه ويؤذيه وروي في الخبر لو أن مؤمناً ارتقى على ذروة جبل فقبض الله تعالى إليه منافقاً يؤذيه فيؤجر عليه (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً) يعني: اكتف بربك واصبر على أذاهم، صار هادياً ونصيراً نصباً على الحال أي: وكفى بربك في حال الهداية والنصرة نصيراً، ويقال: الباء زائدة للصلة ومعناه: كفى بربك هادياً إلى دينه ونصيراً.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا﴾ يعني: هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى

---

(١) سقط في ظ.
(٢) الهذيان الكلام الغير معقول مثل كلام المبرسم والمعتوه. انظر لسان العرب ٦/٤٦٤٥.

والإنجيل على عيسى عليهما السلام ويقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يعني: ليحفظ ويقوى به قلبك ونفرحك دخل قلبه الغم نزلت عليه آية وآيتان فيفرح بها ويقال: لنثبت به فؤادك يعني ليكون قبوله على المسلمين أسهل لأنه لو أنزلت الأحكام والشرائع كلها جملة واحدة شق على المسلمين قبولها كما شق على بني إسرائيل ويقال: أنزلناه هكذا لنرسخ القرآن في قلبك لكي تحفظ الآية والآيتين ويقال: كذلك أنزلناه لتحكم عند كل حادثة وعند كل واقعة لتقوي به قلبك في ذلك ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ يعني: بيناه تبييناً ويقال شيء رتل ورتيل إذا كان مبيناً وقال مجاهد: ورتلناه ترتيلاً أي بعضه على أثر بعض وروى عكرمة عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك جبريل عليه السلام به في عشرين سنة وهو قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) (وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: لا يخاصمونك بمثل مثل قوله: (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً) ثم قال: (إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) يعني: أنزلنا عليك جبريل بالقرآن فتخاصمهم به ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ يعني: وأحسن بياناً لترد به خصومهم ويقال: معناه: ولا يأتونك بحجة إلا بينا لك في القرآن ما فيه نقض لحجتهم وأحسن تفسيراً أي: جواباً لهم ويقال: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بما هو أحسن من مثلهم ويقال كل نبي إذا قال له قومه قولاً كان هو الذي يرد عليهم وأما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قالوا له شيئاً فالله تعالى هو الذي يرد عليهم ثم أخبرهم بمستقرهم في الآخرة فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يعني: يسحبون على وجوههم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ يعني: منزلاً في النار وضيقاً في الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً وذلك أن كفار مكة قالوا ما كان محمد وأصحابه أولى بهذا الأمر منا والله إنهم لشر خلق الله فأنزل الله عز وجل: (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ وروي في الخبر أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أصناف فصنف على النجائب[1] وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم فقيل يا رسول الله: كيف يحشرون على وجوههم فقال إن الذي أمشاهم على أقدامهم فهو قادر على أن يمشيهم على جوههم[2] فذلك قوله (أولَئِكَ شَرٌّ مكاناً).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾ أي: معيناً ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ﴾ يعني: به موسى كقوله عز وجل في سورة طه (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ) خاطب موسى خاصة إلى القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: فرعون وقومه كذبوا بآياتنا أي بتوحيدنا وديننا وقال الكلبي يعني: كذبوا بآياتنا التسع وقال بعضهم هذا التفسير خطأ لأن الآيات التسع أعطاها الله تعالى موسى بعد ذهابه إليه وقد قيل

(١) قال في اللسان ٤٣٤٢/٥: النجيب من الإبل والجمع النجب والنجائب وقد تكرر في الحديث ذكر النجيب من الإبل مفردا ومجموعاً وهو القوي منها الخفيف السريع.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٧٤/٣.

معناه اذهبا إلى القوم وهذا الخطاب لموسى عليه السلام ثم قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) يعني: بالعلامات التي خلق الله تعالى في الدنيا ويقال بآياتنا يعني: بالرسل وبكتب الأنبياء عليهم السلام الذين قبل موسى ثم قال: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ يعني: كذبوهما فأهلكناهم إهلاكاً ويقال: في الآية تقديم قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب يعني: كتاباً قبل التوراة قوله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ يعني: واذكر قوم نوح عليه السلام: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ يعني: نوحاً وحده كما قال (يَأَيُّهَا الرُّسُل) ولم يكن إلا واحد وقت هذا الخطاب فيجوز أن يذكر الجماعة ويراد به الواحد كما يذكر الواحد ويراد به الجماعة كقوله (وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) وإنما أراد به الناس ألا ترى أنه استثنى منه جماعة ويقال: إن نوحاً كان يدعو قومه إلى الإيمان به وبالأنبياء الذين بعده فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل فلهذا قال (لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُل) ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ يعني: عبرة لمن بعدهم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: وجيعاً ثم قال عز وجل: ﴿وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ يعني: واذكر عاداً وثمود وأصحاب الرس وهم قوم قد نزلوا عند بئر كانت تسمى الرس فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله تعالى ويقال إنما سُمُّوا أصحاب الرس لأنهم قتلوا نبيهم ورسولهم في بئر لهم وقال مقاتل: يعني: البئر التي كان فيها أصحاب ياسين بأنطاكية التي بالشام[1] ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ يعني: أهلكنا أمماً بين قوم ونوح وعاد وبين عاد وثمود إلى أصحاب الرس كثيراً ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ يعني: بينا لهم العذاب أنه نازل بهم في الدنيا ﴿وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تتبيراً﴾ أي: دمرناهم بالعذاب تدميراً يقال تبره إذا أهلكه.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَتَوا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ يعني: أهل مكة مروا على القرية ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قريات لوط أمطرنا عليهم الحجارة قوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يعني: أفلم يبصرونها فيعتبروا بها ﴿بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ يعني: بل كانوا لا يخافون البعث ويقال لا يرجون ثواب الآخرة وإنما جاز أن يعبر به عنهما لأن في الرجاء طرفاً من الخوف لأن كل من يرجو شيئاً فإنه يخاف وربما يدرك وربما لا يدرك قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ يعني: ما يقولون لك إلا سخرية فيما بينهم ويقولون ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ يعني: إلينا وهو قول أبي جهل حين قال لأبي سفيان بن حرب أهذا نبي بني عبد مناف

---

(١) الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾ الآية وهم الذين قتلوا حبيباً النجار وذكر المفسرون أقوالاً في أصحاب الرس منها أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة فبعث الله تعالى إليهم نبياً من ولد يهوذا بني يعقوب فحفروا له بئراً وألقوه فيها فهلكوا وهذا قول علي كرم الله وجهه. انظر زاد المسير ٦/ ٩٠.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يعني: أراد أن يصرفنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يعني: عن عبادة آلهتنا ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعني: ثبتنا على عبادتها لأدخلنا في دينه حكى قولهم ثم بين مصيرهم فقال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً يعني: تبين لهم أن الذي قلت لهم كان حقاً قوله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهه هواه﴾ يعني: اتخذ هوى نفسه إلهاً يعني: يعمل بكل ما يدعوه إليه هواه ويقال: إنهم كانوا يعبدون حجراً فإذا رأوا الحجر أحسن منه تركوا الأول وعبدوا الثاني ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ يعني: أتريد أن تكون بيدك المشيئة في الهدى والضلالة ويقال معناه أفأنت تكون عليه وكيلاً يعني: أتريد أن تكون رباً لهم فتجزيهم بأعمالهم يعني: لست كذلك فأنذرهم فإنما أنت منذر ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني: أتظن أنهم يريدون الهدى أو ﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الهدى ﴿إِنْ هُمْ﴾ يعني: ما هم ﴿إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ في الأكل والشرب ولا يتفكرون في أمر الآخرة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعني: أخطأ طريقاً من البهائم لأن البهائم ليسوا بمأمورين ولا بمنهيين وقال مقاتل البهائم تعرف ربها وتذكره وكفار مكة لا يعرفون ربهم فيوحدونه قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ قال بعضهم: فيه تقديم ومعناه ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وقال بعضهم فيه مضمر ومعناه ألم تر إلى صنع ربك كيف مد الظل يعني: بسط الظل بعد انفجار الصبح إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ يعني: دائماً كما هو لا شمس معه كما يكون في الجنة ظل ممدود ويقال تلك الساعة تشبه ساعات الجنة إلا أن الجنة أنور ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ حيث ما تكون الشمس يظهر الظل وقال القتبي إنما يكون دليلاً لأنه لو لم تكن الشمس لم يعرف الظل لأن الأشياء تعرف بأضدادها ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ يعني: الظل بعد غروب الشمس وذلك أن الشمس إذا غابت عاد الظل وذلك وقت قبضه لأن ظل الشمس بعد غروب الشمس لا يذهب كله جملة وإنما يقبض الله ذلك الظل قبضاً خفياً شيئاً فشيئاً دلَّ الله تعالى بهذا الوصف على قدرته ولطفه في معاقبته بين الظل والشمس (لمنافع الناس ولمصالح) عباده وبلاده ويقال ثم قبضناه أي: قبضناه سهلاً ويقال: يسيراً عند طلوع الشمس ثم قبضناه يسيراً يعني: هيناً سهلاً ويقال يسيراً يعني: خفياً فلا يدري أحد أين يصير وكيف يصير ويقال: ثم قبضناه يعني: ورفعناه رفعاً خفيفاً.

ويقال قوله (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً) أي: على الأوقات في النهار ليعرف زوال الشمس وأوقات الصلاة

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ
بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا
خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾ يعني: سكناً لتسكنوا فيه ويقال لباساً ستراً يستر جميع الأشياء ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتاً﴾ يعني: راحة للخلق ليستريحوا فيه بالنوم ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ أي: للنشور ينتشرون فيه لابتغاء الرزق ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً﴾ يعني: تنشر السحاب والاختلاف في القراءات كما ذكرنا في سورة الأعراف ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ يعني: مطهراً يطهر به الأشياء ولا يطهر بشيء ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ يعني: أرضاً لا نبات فيها فينبت بالمطر ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ يعني: نسقي

بالمطر ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ وهو جماعة الإنس يعني: نسقي به الناس والدواب لفظ البلدة مؤنث إلا أن معنى البلدة والبلد واحد فانصرف إلى المعنى ولو قال ميتة لجاز إلا أنه لم يقرأ ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: قسمناه بين الخلق ويقال نصرفه من بلد إلى بلد مرة بهذا البلد ومرة ببلد آخر كما روي عن ابن مسعود[1] أنه قال ما من عام بأمطر من عام ولكن الله تعالى يصرفه (في الأرض ثم قرأ هذه الآية كما روي عن ابن مسعود عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: ما من سنة بأمطر من أخرى ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم فإذا ـ عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي[2] والبحار وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما من عام بأكثر من عام ولكن يصرفه)[3] حيث يشاء فذلك قوله تعالى: ولقد صرفناه بينهم ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ يعني: ليتعظوا في صنعه فيعتبروا في توحيد الله تعالى فيوحدوه وقرأ حمزة والكسائي ليذكروا بالتخفيف وضم الكاف قرأ والباقون بالتشديد والنصب ثم قال:[4] ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ يعني: كفراناً في النعمة وهو قولهم مطرنا بنوء كذا[5] ويقال: إلا جحوداً وثباتاً على الكفر قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ قال مقاتل: ولو شئنا لبعثنا في زمانك في كل قرية رسولاً ولكن بعثناك إلى القرى كلها رسولاً اختصصناك بها ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك حين دعـوه إلى ملة آبائه ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾ يعني: شديداً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ يعني: أرسل ويقال حلى البحرين ويقال: فلق البحرين ويقال خلق البحرين العذب والمالح ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني: حلواً ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ يعني: مر مالح ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ أي: حاجزاً ﴿وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ أي: حرم على العذب أن يملح وحرم على المالح أن يعذب وحرم على كل واحد منهما أن يختلط بصاحبه وأن يغير كل واحد منهما طعم صاحبه قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾ أي: من النطفة إنساناً ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ فالنسب ما لا يحل لك نكاحُه من القرابة والصهر ما يحل لك نكاحه من القرابة وغير القرابة وهذا قول الكلبي وقال الضحاك: النسب القرابة والصهر الرضاع ويحرم من الصهر ما يحرم من النسب ويقال النسب الذي يحرم بالقرابة والصهر الذي يحرم بالنسب وهو ما ذكر في قوله تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُمْ وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وَبَنَاتُ الأُخْتِ)[6] فهذه السبع تحرم بالقرابة والسبع التي تحرم بالنسب فهو ما ذكر بعده وهو قوله تعالى: (وَأُمَّهَاتكم اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ) إلى آخر الآية وامرأة الأب ثم قال

---

(١) ذكره ابن كثير عن ابن مسعود وابن عباس ١٢٤/٦.

(٢) الفيافي: قال في السان: الفيف والفيفاة والمفازة لا ماء فيها. انظر لسان العرب ٣٥٠٢/٥.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥١١، النشر ٣٣٤/٢.

(٥) النوء النجم إذا مال للمغيب والجمع أنواء ونوان. انظر لسان العرب ٤٥٦٧/٦.

(٦) انظر النشر في القراءات العشر ٣٣٤/٢.

تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ فيما أحل من النكاح وفيما حرم ويقال: قديراً على ما أراد قوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوهم ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوهم ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ أي: عوناً للشياطين على ربه قال بعضهم: نزلت في شأن أبي جهل بن هشام ويقال في شأن جميع الكفار ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً ونذيراً﴾ يعني: ما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ونذيراً بالنار لمن عصاه ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ يعني: قل لكفار مكة ما أسألكم يعني: على القرآن والإيمان ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: من جُعل ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ يعني: إلا من شاء أن يوحده ويتخذ إلى ربه بذلك التوحيد سبيلاً يعني: مرجعاً ويقال: يعمل فيتخذ عند ربه مرجعاً صالحاً فيدخل به الجنة يعني: لا أريد الأجر ولكن أريد لكم هذا الذي ذكر وقصدي هذا لا أنْ آخذ منكم شيئاً.

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

قوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِيْ لَا يَمُوتُ﴾ وذلك حين دعي إلى ملة آبائه فأمره الله تعالى بأن يتوكل على ربه قال الكريم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ قال مقاتل: واذكر بأمره وقال الكلبي: صل بأمره ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ يعني: عالماً معناه وكفى بالله عالماً بذنوب عباده وبمجازاتهم فلا أحد أعلم بذنوب عباده ومجازاتهم منه ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّموَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِيْ سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ وقد ذكرناه وتم الكلام ثم قال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يعني: استوى الرحمن على العرش قال: ويجوز أن يكون على معنى الابتداء ثم قال: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْراً﴾ يعني: فاسأل (عنه عالماً ويقال معناه ما أخبرتك به من شيء فهو كما أخبرتك فاسأل)[1] بذلك عالماً حتى يبين لك ذلك كقوله: (فَإِنْ كُنْتَ فِيْ شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) الآية خاطب به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد به أمته قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ يعني: صلوا للرحمن ويقال: اخضعوا له ووحدوه ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ يعني: ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ لذلك الكذاب قرأ حمزة والكسائي بالياء على معنى المغايبة قرأ الباقون على المخاطبة ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ يعني: زادهم ذكر الرحمن تباعداً عن الإيمان فمن قرأ بالياء فمعناه لما يأمرنا الرحمن بالسجود ويقال لما يأمرنا محمد يعني لا نسجد لما يأمرنا كقوله: (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ) يعني: من طاب لكم ومن قرأ بالتاء أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو عبيد: هذا هو الوجه لأن المشركين خاطبوه بذلك وكانوا غير مقرين بالرحمن.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾

---

(١) المصدر السابق.

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

قوله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ﴾ وقد ذكرناه ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ يعني: خلق في السماء بروجاً يعني: نجوماً وكواكب ويقال: قصوراً وذكر أنه جعل في القصور حراساً كما قال في آية أخرى (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً) الآية ويقال: البروج الكواكب العظام وكل ظاهر مرتفع فهو برج وإنما قيل لها بروج لظهورها وارتفاعها ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ﴾ يعني: خلق فيها ﴿سِرَاجاً﴾ يعني: شمساً ﴿وَقَمراً منيراً﴾ يعني: منوراً مضيئاً قرأ حمزة والكسائي (سُرُجاً) بلفظ الجمع يعني الكواكب وقرأ الباقون (سِرَاجاً) وبه قال أبو عبيدة: بهذا نقرأ كقوله (وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً) ولأنه قد ذكر الكواكب بقوله: (بُرُوجاً) ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهار﴾ أي: خلق الليل والنهار ﴿خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّر﴾ أي خلفة يخلف كل واحد منها صاحبه يذهب الليل ويجيء النهار ويذهب النهاء ويجيء الليل ويقال: خلفة يعني: مخالفاً بعضه لبعض أحدهما أبيض والآخر أسود فهما مختلفان كقوله عز وجل: (إِنَّ فِيْ اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) الآية وعن الحسن أنه قال: النهار خلف من الليل لمن أراد أن يعمل بالليل فيفوته فيقضي فإذا فاته بالنهار يقضي بالليل لمن أراد أن يذكر قرأ حمزة (يَذْكُر) بتسكين الذال وضم الكاف يعني: يذكر ما نسي إذا رأى اختلاف الليل والنهار وقرأ الباقون بالتشديد[1] (يَذَّكَّر) وأصله يتذكر يعني: يتعظ في اختلافهما ويستدل بهما ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ يعني: العمل الصالح ويترك ما هو عليه من المعصية ويقال أو أراد شكوراً أو أراد توحيداً وإقراراً فيمكنه ذلك قوله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ يعني: وإن من عباد الرحمن عباداً يمشون ﴿عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ يعني: يمضون متواضعين وهذا جواب لقولهم وما الرحمن أنسجد فقال الرحمن الذي جعل في السماء بروجاً وهو الذي له عباد مثل هؤلاء يعني أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن كان مثل حالهم وهذا كقوله (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ) وكقوله: (فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ) الآية وقال مجاهد: يمشون على الأرض هوناً قال في طاعة الله متواضعين ويقال: هوناً أي هيناً لا جور فيه على أحد ولا أذى ويقال: هوناً يعني: سكينة ووقاراً وحلماً ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ يعني: كلمهم الجاهلون بالجهل ﴿قَالُوا سَلاَماً﴾ يعني: سداداً من القول ويقال: ردوا إليهم بالجميل وقال الحسن: أي حلماً لا يجهلون وإن جهل عليهم حلموا[2] وقال الكلبي: نسخت بآية القتال وقال بعضهم: هذا خطأ لأن هذا ليس بأمر ولكنه خير من حالهم والنسخ يجري في الأمر والنهي ثم وصف حال لياليهم فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً﴾ يعني: يقومون بالليل في الصلاة سجداً ﴿وَقِيَاماً﴾ يعني: يكونون في ليلتهم مرة ساجدين ومرة قائمين وروي عن ابن عباس أنه كان يقول: من صلى ركعتين أو أربعاً بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً ثم وصف خوفهم فقال إنهم مع جهدهم خائفون من عذاب الله عز وجل ويتعوذون منه فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ يعني: عباد الرحمن ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَراماً﴾ يعني: لازماً لا يفارق صاحبه وقال بعض أهل اللغة: الغرام في[3] اللغة أشد العذاب وقال محمد بن كعب القرظي: (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً) قال سألهم عن النعم فلم يأتوا بثمنها فأغرمهم ثمن النعم

---

(١) أنظر إتحاف فضلاء البشر، ٢ / ٣١٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٧٦/٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) قال في اللسان ٣٢٤٧/٥ قال الزجاج: الغرام أشد العذاب في اللغة.

وأدخلهم النار ثم قال: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقراً ومُقَاماً﴾ يعني: بئس المستقر وبئس الخلود والمقام الخلود كقوله: (دَارَ الْمُقَامَةِ) يعني: دار الخلود ويقال نصب المستقر للتمييز ومعناه لأنها ساءت في المستقر ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ
١ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ وقرأ نافع وابن عامر يُقْتِرُوا بضم الياء وكسر التاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو لم يَقْتِرُوا
بنصب الياء وكسر التاء وقرأ أهل الكوفة بنصب الياء وضم التاء[1] ومعنى ذلك كله واحد يعني: لم يسرفوا فينفقوا في معصية الله ولم يقتروا فيمسكوا عن الطاعة ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ يعني: بين ذلك عدلاً ووسطاً وقال الحسن: ما أنفق الرجل على أهله في غير إسراف ولا فساد ولا إقتار فهو في سبيل الله تعالى وقال مجاهد: لو كان لرجل مثل أبي قبيس ذهباً فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني: لا يشركون بالله ويقال: الشرك ثلاثة أولها أن يعبد غير الله تعالى والثاني أن يطيع مخلوقاً بما يأمره من المعصية والثالث أن يعمل لغير وجه الله تعالى فالأول كفر والآخران معصية ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بإحدى خصال ثلاث وقد ذكرناه ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ يعني: لا يستحلون الزنا ولا يقتلون النفس ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعني: الشرك والقتل والزنا ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ قال الكلبي يعني: عقاباً في النار وذكر عن سيبويه والخليل أنهما قالا: معناه جزاء الآثام ويقال: الآثام العقوبة وقال الشاعر:

جَزَى اللَّهُ ابْنَ عُرْوَةَ حِينَ أَمْسَى ... عَقُوقاً فَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامُ[2]

أي: عقوبة ثم قال عز وجل: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ يعني: في العذاب صاغراً يهان فيه قرأ عاصم يضاعف له بالألف وضم الفاء وقرأ ابن عامر وابن كثير يضعف بغير ألف والتشديد وجزم الفاء وقرأ الباقون يضاعفون بالألف وجزم الفاء وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وابن عامر ويخلدُ بضم الدال وروى حفص عن عاصم وابن كثير ويخلد بالإشباع والباقون بجزم[3] الدال ثم قال عز وجل: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: تاب

(١) انظر حجة القراءات ٥١٣، النشر ٢/٣٣٤.

(٢) البيت لبلعاء بن قيس الكناني أنظر الكامل للمبرد ص ٤٤٦، تفسير الطبري ١٩/٢٤، مجاز القرآن ٢/٨١.

(٣) قال ابن زنجلة: قرأ ابن كثير (يُضَعَّفْ له العذابُ) بالتشديد والجزم. وقرأ ابن عامر: (يضعَفُ بالتشديد والرفع (ويخلُدُ) بالرفع أيضاً. وقرأ أبو بكر: (يُضاعَفُ) بالرفع والألف (ويخلُدُ) بالرفع. وقرأ الباقون: (يُضاعَفْ) (ويَخْلُدْ) بالألف والجزم فيهما. فمن جزم جعله بدلاً من جواب الشرط والشرط قوله: (ومنْ يفعل ذلك) جوابه: يلقَ وعلامة الجزم فيه سقوط الألف و(يُضاعفْ) بدل من يلق ويخلُدْ نسقٌ عليه قال الزجاج: (وتأويل الأثام تأويل المجازاة على الشيء) قال أبو عمرو الشيباني: (يقال: لقد لقى أثام ذلك أي جزاء ذلك). وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه: يلقى جزاء الأثام ومثله (مُشْفقين مما كسبوا). قال أبو عبيدة: يلق (أثاماً) أي عقوبة أي عقوبته. ومن رفع فقد استغنى الكلام وتمّ جواب الشرط فاستأنف على تأويل تفسير (يلق أثاماً) كأن قائلاً قال: (ما لقى الآثم؟). فقيل: (يضاعف للآثم العذاب) و(يخلُدُ) نسق عليه و(يُضَعَّف) جيد تقول: ضاعفْتُ الشيء وضعَّفْتُه. انظر حجة القراءات ٥١٤ ـ ٥١٥.

من الشرك والزنا والقتل وصدَّق بتوحيد الله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ يعني: مكان الشرك الإيمان ومكان القتل الكف ومكان الزنا العفاف ومكان المعصية العصمة والطاعة ويقال: إنه يبدل في الآخرة مكان عمل السيآت والحسنات وروي عن ابن مسعود أنه قال: إن يوم القيامة إذا أعطى الإنسان كتابه لينظر في كتابه فيرى في أوله معاصي وفي الآخر حسنات فلما رجع إلى أول الكتاب رآه كله حسنات وروى أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يعرض عليه أصاغر ذنوبه وهو مشفق من الكبائر أن تجيء ذنوبه العظام فإذا أريد به خيراً قيل أعطوه مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب إن لي ذنوباً ما أراها هنا قال: ولقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[1] يضحك ثم تلا (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ) وذكر عن أبي هريرة أنه قال: خرجت من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألتني امرأة في الطريق فقالت زنيت ثم قتلت الولد فهل لي من توبة فقلت: لا توبة لك أبداً ثم قلت: أفتيتها ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهرنا فرجعت إليه فأخبرته بذلك فقال هلكت وأهلكت فأين أنت من هذه الآية (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ) إلى قوله: (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّآتِهِمْ حَسَنَاتٍ) فخرجت وقلت من يدلني على امرأة سألتني مسألة والصبيان يقولون جن أبو هريرة حتى أدركتها وأخبرتها بذلك فسرت وقالت: إن لي حديقة جعلتها لله ولرسوله[2] وقال بعضهم: هذه الآية مدنية نزلت في شأن وحشي وقال بعضهم: الآية قد كانت نزلت بمكة فكتب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المدينة إلى وحشي ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يعني: غفوراً لما فعلوا قبل التوبة لمن تاب رحيم [بالمؤمنين][3] بعد التوبة.

وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: تاب من الشرك والمعاصي وعمل صالحاً بعد التوبة ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ يعني: مناصحاً لا يرجع ويقال متاباً له في الجنة ويقال متاباً يعني: توبة يعني يتوب توبة مخلصة ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ يعني: لا يحضرون مجالس الكذب والفحش والكفر ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ يعني: مجالس اللهو والباطل ﴿مَرُّوا كِرَاماً﴾ يعني: حُلماء عُلماء معرضين عنها وقال القتبي: مروا كراماً لم يخوضوا فيه وأكرموا أنفسهم ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: وعظوا بالقرآن ﴿لَمْ يخرُّوا عَلَيْهَا﴾

---

(١) أخرجه مسلم ١/١٧٧ كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة (٣١٤ ـ ١٩٠) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٧٩ وعزاه لأحمد وهناد والترمذي وابن جرير والبيهقي وفي الأسماء والصفات عن أبي ذر.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره ٦/١٣٩ وقال هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف.

(٣) سقط في أ.

يعني: لم يقعوا عليها ﴿صُمًّا وعُمْياناً﴾ يعني: لا يسمعون ولا يبصرون ولكنهم سمعوا وانتفعوا به وهذا قول مقاتل وقال القتبي لم يخروا عليها أي لم يتغافلوا عنها فكأنهم صم لم يسمعوها عمي لم يروها ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعني: اجعل أزواجنا وذريتنا من الصالحين تقر أعيننا بذلك ويقال: وفقهم للطاعة واعصمهم من المعصية ليكونوا معنا في الجنة فتقربهم أعيننا قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وذريتنا بلفظ الوحدان وقرأ الباقون وذرياتنا بلفظ الجماعة[١] ثم قال ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ يعني: اجعلنا أئمة في الخير يقتدي بنا المؤمنون كما قال: «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا» أي: قادة في الخير وروي عن عروة أنه كان يدعو بأن يجعله الله ممن يحمل عنه العلم فاستجيب دعاؤه وروي عن مجاهد معناه واجعلنا ممن نقتدي بمن قبلنا حتى يقتدي بنا من بعدنا ويقال: معناه اجعلنا ممن يقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون فهذا كله من خصال عباد الرحمن من قوله: وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ إلى هاهنا فوصف أعمالهم ثم بين ثوابهم فقال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ﴾ يعني: غرف الجنة كقوله: (غُرَفٌ مِنْ فَوقِهَا غُرَف مَبْنِيَّة) ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: صبروا على أمر الله تعالى في الدنيا وعلى طاعته ﴿وَيُلَقَّونَ فِيهَا﴾ يعني: في الجنة ﴿تَحِيَّة﴾ يعني: التسليم ﴿وَسَلاماً﴾ يعني: سلام الله تعالى لهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر وإحدى الروايتين عن ابن عباس ويلقون فيها بنصب الياء وجزم اللام والتخفيف وقرأ الباقون ويُلقون بضم الياء ونصب اللام وتشديد القاف[٢] فمن قرأ بالتخفيف يعني: يلقي بعضهم بعضاً بالسلام ومن قرأ بالتشديد يعني: يجيء إليهم سلام الله يعني يلقى إليهم السلام من الله تعالى ثم قال عز وجل: ﴿خَالِدِينَ فِيْهَا﴾ يعني: دائمين في الجنة ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقراً وَمُقاماً﴾ يعني: موضع القرار وموضع الخلود قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي لولا عبادتكم ويقال: ما يفعل بعذابكم لولا عبادتكم غير الله تعالى ويقال: ما ينتظر بهلاككم لولا عبادة من يعبدوني لأنزلت عليكم عذابي ويقال: لولا دعاؤكم يعني: يقول لولا إيمانكم ثم قال عز وجل سبحانه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونَ لِزَاماً﴾ يعني: عذاباً يلزمهم فقتلوا ببدر وعجلت أرواحهم إلى النار فتلك عقوبتهم فيها ويقال: لزاماً يعني: موتاً وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: خمس قد مضين من ذلك اللزام واللزم والقمر والدخان والبطشة[٣] (ويقال ما يحتاج بعذابكم لولا عبادتكم الأصنام ويقال ما يفعل الله بعذابكم لولا عبادتكم غير الله ويقال ما ينتظر بهلاككم لولا عبادة من يعبدني لأنزلت عذابي إلى غير ذلك)[٤] والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) انظر النشر ٢/٣٣٥، حجة القراءات ٥١٥.

(٢) انظر النشر ٢/٣٣٥. إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٨٢ وعزاه للطبراني.

(٤) سقط في ظ.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (١)

وهي مائة وعشرون وست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾

قول الله سبحانه وتعلى ﴿طسم﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بإمالة الطاء وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتفخيم وهما لغتان معروفتان عند العرب ويجوز كلاهما وقرأ نافع بين ذلك وقرأ حمزة بإظهار النون والباقون بالإدغام[٢] لتقارب مخرجهما ومن لم يدغم أراد التبيين وكلاهما جائز وأما التفسير فروى معمر عن قتادة أنه قال: إسم من أسماء القرآن ويقال والطاء طوْله والسين سَنَاؤُهُ والميم ملكه ومجده ويقال: الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم عجزت العلماء عن تفسيرها وقال بعضهم هو قسم الله تعالى به ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يعني: هذه آيات الكتاب ويقال: تلك آيات الكتاب التي كنت وعدت في التوراة أن أنزلها على محمد - صلى الله عليه وسلم - الكتاب ﴿الْمُبِينُ﴾ يعني: القرآن بين لكم الحق من الباطل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ يعني: مهلك نفسك ويقال: قاتل نفسك بالحزن ﴿أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني:

---

(١) اشتملت السورة على التنويه بالقرآن والتعريض بعجزهم عن معارضته وتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن. وفي ضمنه تهديدهم على تعرضهم لغضب الله تعالى وضرب المثل لهم بما حل بالأمم المكذبة رسلها والمعرضة عن آيات الله. وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق فافتتحت بتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - وتثبيت له ورباطة لجاشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنة الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب ولذلك ختم كل إستدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تسجيلاً عليهم بأن آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون وأن الله عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب وأنه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم.

قال في الكشاف: كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه وفيها من الإعتبار ما في غيرها فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختم بما اختتمت به صاحبتها ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقرت عن الإنصات للحق فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهناً. ثم التنويه بالقرآن وشهادة أهل الكتاب له والرد على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين وأنه منزه عن أن يكون شعراً ومن أقوال الشياطين وأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإنذار عشيرته وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ وما تخلل ذلك من دلائل. انظر التحرير ١٩/٩٠، ٩١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٣.

إذا لم يصدقوا بالقرآن وذلك حين كذبه أهل مكة شق ذلك عليه وحزن بذلك فقال له: ليس عليك سوى التبليغ ولا تقتل نفسك إن لم يؤمنوا ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ يعني: علامة ﴿فَظَلَّتْ﴾ يعني: فصارت ﴿أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ يعني: وننزل عليهم آية تضطرهم إلى أن يؤمنوا ولكنه لم يفعل لأنه لو فعل ذلك لذهبت المحنة فلم يستوجبوا الثواب إذا آمنوا بعد معاينة العذاب كمن آمن يوم القيامة لا ينفعه إيمانه لأنه قد ظهر له بالمعاينة ويقال فظلت أعناقهم يعني: ساداتهم وكبراؤهم والأعناق الكبراء فإن قيل: جمع الأعناق مؤنث، قال: خاضعين ولم يقل خاضعات، قيل له لأن الكلام انصرف إلى المعنى فكأنه قال: هم لها خاضعون قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ يعني: مكذبين معرضين عن الإيمان به ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ يعني: كذبوا بالقرآن كما قال في آية أخرى فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ يعني: ﴿فَسَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ يعني: أخبار ﴿مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: يوم القيامة ويقال: قد جاءهم بعض ذلك في الدنيا وهو القتل والقهر والغلبة.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ
﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾
وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾

قوله عز وجل ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني: أو لم ينظروا في عجائب الأرض ويتفكروا فيها ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: من كل نوع من النبات ويقال: من كل لون حسن وقال القتبي: الكريم يقع على الأنواع والكريم الشريف الفاضل قال الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيماً) (إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) أي: شريف فاضل والكريم الصفوح وذلك من الشرف كما قال: (فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) أي الصفوح والكريم الكثير كما قال (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي كثير والكريم الحسن كما قال (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) أي: حسن (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً) أي: حسناً وروي عن الشعبي أنه قال: (كم أنبتنا فيها) يعني: بني آدم فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ الآيَةً﴾ يعني: في اختلاف النبات وألوانه (لآيَةً) يعني لعبرة لأهل مكة أنه إله واحد ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين بالتوحيد ولو كان أكثرهم مؤمنين يعني: وما كانوا مؤمنين بل كلهم كافرين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن لم يجب الرسل ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث لم يعجل بعقوبتهم ويقال رحيم بالمؤمنين قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ يعني: أتل عليهم اذ نادى ربك موسى كما قال: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) وقال مقاتل: إذ نادى ربك موسى يعني: أمر ربك يا محمد لموسى ﴿أَنْ ائتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: إذهب إلى القوم المشركين ﴿قَوْمَ فِرْعَونَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ قال مقاتل: يعني قل لهم ألا تتقون عبادة غيره وتوحدونه ويقال: (ألا يتقون) يعني: ألا تعبدون الله تعالى ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ﴾ أي: قال يا رب ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ بما أقول ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ إذا كذبوني في رسالتك ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ لمهابته قرأ يعقوب الحضرمي ويضيقَ صدري ولا ينطلق كلاهما بنصب القاف وجعله نصباً بأن ومعناه أخاف أن يكذبون وأن يضيق

صدري وأن لا ينطلق لساني وقراءة العامة بالضم(١) على معنى الإستئناف ثم قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ يعني: أرسله معي لكي يكون عوناً لي في أداء الرسالة ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ يعني: قصاص بقتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به قال القتبي: على معنى عندي أي لهم عندي ذنب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: لا تخف وقال الزجاج: كلا رَدْعٌ وتنبيه أي: لا يقدرون على ذلك ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ خاطب به موسى خاصة بأن يذهب مع أخيه إلى فرعون بآياتنا التسع ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ يعني: سامعين وقد بين ذلك في موضع آخر وهو قوله (أَسْمَعُ وَأَرَى) والاستماع سبب للسمع فيعبر به عنه.

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾
قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾
وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ
﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ
فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ يعني: موسى وحده ويضاف الشيء إلى اثنين ويراد به الواحد وقال القتبي: الرسول يكون بمعنى الجمع كما يكون الضيف بمعنى الجمع (قَالَ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي) وقال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة ويقال: رسول يعني به: رسولين كقوله: (إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ) فقال: (أَنَا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: قل لفرعون ذلك ولم يذكر إتيانه إلى فرعون لأن في الكلام دليلاً عليه وقد بين في موضع آخر حيث قال: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ) وقال مقاتل: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ) وانقطع الكلام ثم انطلق موسى وكان هارون بمصر فانطلقا إلى فرعون قال مقاتل: فلم يأذن لهما سنة ثم أخبر البواب فرعون أن هاهنا إنساناً يذكر أنه رسول رب العالمين فقال: آئذن له لعلنا نضحك منه وقال السدي: لما أتى باب فرعون ضرب موسى ـ عليه السلام ـ عصاه على الباب ففزع فرعون من ذلك فأذن له في الدخول من ساعته فلما دخل عليه عرفه فأدى الرسالة فقال له فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ (قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: أول ما بدأ فرعون بكلام السفلة ومن على نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أطعمه فقال: (ألم نربك فينا وليداً)(٢) يعني: ألم تكن صغيراً قد ربيناك ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾يعني: مكثت عندنا ﴿مِنْ عُمرِكَ سِنِينَ﴾ يعني: ثلاثين سنة ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتلت النفس التي قتلتها وقرأ في الشاذ (فعلتك) بكسر الكاف هي قراءة

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٣١٤.
(٢) سقط في أ.

الشعبي وقراءة العامة بالنصب والنصب يقع على فعل واحد والكسر على المرات يعني: قتلت مرة وهممت بالقتل ثانياً ثم قال: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي ويقال: كفرت بي حيث قتلت النفس ويقال: وأنت من الجاحدين للقتل يعني: لم تقر بالقتل فأخبره موسى أنه غير جاحد للقتل ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً﴾ يعني: قتلت النفس ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ عن النبوة كقوله: (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) ويقال: من الجاهلين ولم أتعمد القتل قال القتبي: أصل الضلالة العدول عن الحق ثم يكون لمعاني منها النسيان لأن الناسي عادل عنه فكما قال هاهنا: (فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) أي: من الناسين وكما قال: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) ثم قال عز وجل: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾ يعني: هربت منكم إلى مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ على نفسي أن تقتلوني ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ قال الكلبي: يعني النبوة وقال مقاتل: يعني العلم والفهم ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إليكم ثم قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أو كان هذا نعمة تمنها علي أن عبدت بني أسرائيل فكأنه أنكر عليه فقال كيف تكون نعمتك التى تمن علي فإنك قد عبدت بني إسرائيل أي: استعبدتهم وتمن علي ويقال قد اعترف له بالنعمة فقال وتلك نعمة تمن علي حيث عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني ويقال: معناه تلك نعمة إنما صارت نعمة بتعبيدك بني إسرائيل ولم تعبدني لأنك لو لم تعبدهم لم تجعلني أمي في التابوت حتى صرت في بيتك ولكن إنما صارت نعمة لأجلك حيث عبدت بني إسرائيل وقال مقاتل: وتلك نعمة تمنها علي يا فرعون بإحسانك إلي خاصة وبترك أبنائك أن عبدت بني إسرائيل وقال الكلبي: يقول تستعبد بني إسرئيل وتمن علي لذلك ﴿قَالَ فرعون﴾ لموسى ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ منكراً له وهذا جواب لقوله: (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فجاء بجواب قطع حجته ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بتوحيد الله تعالى فعجز فرعون عن الجواب ﴿فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى قول موسى ـ عليه السلام ـ قالوا له فيما تقول يا موسى فجاء بحجة أخرى ليؤكد عليهم ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني: أدعوكم إلى ربكم ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني إلى توحيد خالقكم وخالق آبائكم الأولين ﴿قَالَ﴾ فرعون لجلسائه ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ﴾ موسى ـ عليه السلام ـ ليس بمجنون مثلي أدعوكم إلى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني إن كان لكم ذهن الإنسانية فلما عجز عن الجواب مال إلى العقوبة كما يفعل السلاطين ﴿فَقَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي﴾ يعني: لئن عبدت رباً غيري ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ يعني: لأحبسنك في السجن قال إبن عباس وكان سجنه أشد من القتل ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ يعني: ولو جئتك بحجة بينة يستبين لكم أمري ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿فَأْتِ بِهِ﴾ يعني: فأرناه ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بأنك رسول ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ يعني: حية صفراء أعظم الحيات ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ يعني: أخرج يده فقال ما هذه فقالوا يدك فأدخلها في جيبه وأخرجها ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يعني: لها شعاع كشعاع الشمس وانتشر الضوء حوالي مصر للناظرين لمن نظر إليها من غير برص فعجبوا من ذلك.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ
ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ

إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

قوله عز وجل: فـ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ (إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: قال فرعون لمن حوله من)[1]يعني الرؤساء والأشراف وأصله في اللغة من ملأ قال بعضهم: الملأ إنما بما يراد بهم مائتان وخمسون وقال بعضهم: ثلاثمائة وخمسون وهم جماعة الملأ ويقال ملأ العين هيبة يعني إذا نظر إليها الناظر ثم قال: إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾ يعني: من أرض مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يعني: تشيرون ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ يعني احبسهما وأخرجهما ولا تقتلهما ولا تؤمن بهما وأصله من التأخير يعني أخر أمرهما حتى تنظر ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون عليك السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ يعني حاذقاً ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وهو يوم عيد لهم وهو يوم الزينة قال مقاتل وكانوا اثنين وسبعين ساحراً ويقال سبعون ألفاً وقال الزجاج ذكر أن السحرة كانوا اثني عشر ألفاً ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ يعني: أهل مصر ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ للسحرة للميعاد ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾ على أمرهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ قوله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ يعني: إلى الميقات ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾ يعني: لجعلاً ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ يعني: أتجازينا إن غلبناه ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ نجازيكم ﴿وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني: لكم مع الجائزة الكرامة والمنزلة عندي ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ يعني: اطرحوا ﴿فَأَلْقَوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: نغلب موسى ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يعني: تلتقم وتبتلعُ ما يطرحون من الحبال والعصي قوله عز وجل: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ أي: خروا سجداً لله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقال فرعون: إياي تعنون قالوا ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: خالق موسى وهارون ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ماذا أصنع بكم ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على شاطىء نهر مصر ﴿قَالُوا﴾ يعني: السحرة ﴿لاَضَيْرَ﴾ أي: لا يضرنا ما فعلت بنا ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ يعني إلى خالقنا راجعون ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ يعني: نرجو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ يعني: شركنا وسحرنا ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: أول المصدقين من قوم فرعون وذكر عن الفراء أنه قال: كان أول مؤمني أهل دهرهم وقال الزجاج: لا أحسبه عرف الرواية لأن الذين كانوا مع موسى روي في التفسير أنهم ستمائة ألف وسبعين ألفاً ولكن معناه أول من آمن في هذه الساعة

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

(١) سقط في أ.

لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

قوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ يعني: ببني إسرائيل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يعني: يتبعكم فرعون وقومه ويقال: أسرى يسري إسراء إذا سار ليلاً يعني: اذهبْ بهم بالليل ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يحشرون الناس لقتال موسى عليه السلام وخرج في طلبه وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يعني: طائفة وعصبة وجماعة قليلون وقال الزجاج الشرذمة في كلام العرب القليل ويروى أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ يعني: لمبغضين ويقال: إنا لغائظون بخلافهم لنا وذهابهم بحيلتنا ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي: مودون شاكون في السلاح قرأ ابن كثير ونافع حذرون بغير ألف والباقون بالألف حاذرون والحاذر المستعد والحذر المستيقظ ويقال الحاذر الذي يحذر في الفور والحذر الذي لا تلقاه إلا حذراً وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: (حَاذِرُونَ) بالألف وكان يقول يعني ذا أداة من السلاح ومعناه إنا قد أخذنا حذرنا من عدونا بسلاحنا قال الله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿مِنْ جَنَّاتٍ﴾ يعني: البساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ يعني: الأنهار الجارية ﴿وَكُنُوزٍ﴾ يعني: من الأموال الكثيرة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: المنازل الحسنة ويقال: المنابر التي يعظم عليها فرعون قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وعيون بضم العين في جميع القرآن والباقون بالكسر[1] وهما لغتان وكلاهما جائز وقال بعضهم: (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيونٍ) كلام فرعون إنا أخرجنا بني إسرائيل من أرض مصر والطريق الأول أشبه كما قال في آية أخرى (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيونٍ) الآية ثم قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني: هكذا أفعل بمن عصاني ثم استأنف فقال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ ويقال لك أورثناها يعني: هكذا أنزلنا في مساكن فرعون ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد ما غرق فرعون ثم قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ يعني: طلوع الشمس قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ﴾ يعني: تقاربا ورأى بعضهم بعضاً وذلك أن فرعون أُرسل في المدائن حاشرين ليحشروا الناس فركب وركب معه ألف ألف ومائتا ألف فارس سوى الرحالة أي: المشاة فلما دنوا من عسكر موسى ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى﴾ لموسى عليه السلام ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ يعني: يدركنا فرعون ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿كَلَّا﴾ لا يدرككم ﴿إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يعني: سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾
أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٦.

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى
هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل
لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ**﴾ يعني: وفي الآية مضمر ومعناه فضربه بالعصا فانفلق البحر ﴿**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ يعني: كالجبل العظيم ﴿**وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ**﴾ يعني: قربنا قوم فرعون إلى البحر وأدنيناهم إلى الغرق ومنه قوله تعالى: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) أي: أدنيت وقربت وروي عن الحسن قال وأزلفنا يعني: أهلكنا وقال غيره: وأزلفنا أي: جمعناهم في البحر حتى غرقوا ومنه قوله قبل الجمع المزدلفة ﴿**وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ**﴾ يعني: من البحر ﴿**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ**﴾ يعني: فرعون وقومه وقد ذكرنا القصة في موضع آخر ثم قال ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً**﴾ يعني: فيما صنع لآية يعني: لعبرة لمن بعدهم ﴿**وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ يعني مصدقين يعني: لو كان أكثرهم مؤمنين لم يهلكهم الله تعالى ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ**﴾ بالنعمة ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ لمن تاب قوله عز وجل: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ**﴾ يعني أخبر أهل مكة خبر إبراهيم ﴿**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ أي: كيف قال لقومه ثم أخبرهم عن ذلك وذلك أن إبراهيم عليه السلام لما ولدته أمه في الغار فلما كبر وخرج دخل المصر فأراد أن يعلم على أي مذهب هم وهكذا ينبغي للعاقل إذا دخل بلدة أن يسألهم عن مذهبهم فإن وجدهم على الاستقامة دخل معهم وإن وجدهم على غير الاستقامة أنكر عليهم فقال لهم إبراهيم ما تعبدون ﴿**قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**﴾ أي: نقوم عليها عابدين فأراد أن يبين عيب فعلهم فقال: ﴿**قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ**﴾ يعني: هل تجيبكم الآلهة سمّي الإجابة سمعاً لأن السمع سبب الإجابة ﴿**إِذْ تَدْعُونَ**﴾ يعني: هل يجيبونكم إذا دعوتموهم ﴿**أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ**﴾ إذا عبدتموهم ﴿**أَوْ يَضُرُّونَ**﴾ يعني: يضرونكم إن لم تعبدوهم ﴿**قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ يعني: وجدنا آباءنا يعبدونهم هكذا فنحن نعبدهم قال لهم إبراهيم عليه السلام ﴿**قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ**﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإعلام يعني اعلموا أن الذي كنتم تعبدون ﴿**أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ**﴾ وَأَجدادُكُم يعني: معبودكم ومعبود آبائكم وأجدادكم ﴿**الأَقْدَمُونَ**﴾ يعني الماضين ﴿**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي**﴾ يعني: إنهم أعدائي ﴿**إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ يقال: معناه: إلا من يعبد رب العالمين ويقال: كانوا يعبدون مع الله الآلهة فقال لهم: جميع ما تعبدون من الآلهة فإنهم عدو لي إلا رب العالمين فإنه ليس لي ويقال: معناه: أتبرأ من أفعالكم وأقوالكم إلا الذي تقولون رب العالمين وهو قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) ويقال إلا بمعنى لكن ومعناه فإنهم عدو لي لكن رب العالمين يعني: لكن أعبد رب العالمين ثم وصف لهم رب العالمين فقال ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ**﴾ يعني: يحفظني ويثبتني على الهدى ﴿**وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ**﴾ يعني: هو الذي يرزقني ويرحمني ثم قال: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ فقد أضاف سائر الأنبياء إلى الله تعالى وأضاف المرض إلى نفسه لأن المرض كسب يده كقوله عز وجل: ﴿**وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ وفيه كفارة وإذا كان أصله من كسب نفسه أضافه إلى نفسه ثم قال: ﴿**وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾ يعني: يميتني في الدنيا ويحييني في المبعث ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ يعني: أرجو أن يغفر خطيئتي وهو قوله: إِنِّي سَقِيمٌ ويقال وقوله: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقوله لسارة هذه أختي ويقال: يعني ما كان مني من الزلل ويقال: هو قوله (هَذَا رَبِّي) ويقال ما

كان نبي من الأنبياء إلا وقد هم بزلة ثم قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ يعني: النبوة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني: بالمرسلين في الجنة ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِيْنَ﴾ يعني: الثناء الحسن في الباقين وإنما أراد بالثناء الحسن لكي يفيدوا به فيكون له مثل أجر من اقتدى به ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ يعني: اجعلني ممن ينزل فيها.

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

ثم قال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِيْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ يعني: اهده إلى الحق من الضلالة والشرك يعني: إنه كان من المشركين في الحال كقوله عز وجل: (مَنْ كَانَ فِيْ الْمَهْدِ صَبِيًّا) يعني من هو في الحال صبي ويقال إنه كان من الضالين حين فارقته كقوله: (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ) وهذا الاستغفار حين كان وعده بالإسلام وقال مقاتل: إن إبراهيم عليه السلام قد كذب ثلاث كذبات وأخطأ ثلاث خطيئات وابتلي بثلاث بليات وسقط سقطة فأما الكذبات فقال (إِنِّي سَقِيمٌ) وقوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وقوله لسارة حين قال هي أختي والخطايا قوله للنجم والشمس والقمر (هَذَا رَبِّي) وأما البليات حين قذف في النار والختان والأمر بذبح الولد وسقط سقطة حين دعا لأبيه وهو مشرك وقال غيره: لم يكذب ولم يخطىء ولم يسقط لأنه قال إني سقيم يعني: سأسقم لأن كل آدمي سيصيبه السقم وقوله بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا قد قرنه بالشرط وهو قوله إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ وقوله لسارة هي أخته فكانت أخته في الدين وقوله (هَذَا رَبِّي) كان على وجه الاسترشاد لا للتحقيق ويقال كان ذلك القول على سبيل الإنكار والزجر يعني أمثل هذا ربي وأما دعاؤه لأبيه فعن وعدة وعدها إياه وقد بين الله تعالى بقوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ) الآية يعني أن أباه وعده أنه سيؤمن فما دام حياً يرجو أو يدعو وإذا مات ضالاً ترك الاستغفار ويقال: إن إبراهيم كان وعده أن يستغفر له حيث قال: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي فاستغفر له ليكون منجزاً لوعده ثم قال ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: لا تعذبني يوم يبعثون من قبورهم إلى هاهنا كلام إبراهيم وقد انقطع كلامه ثم إن الله تبارك وتعالى وصف ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ يعني: يوم القيامة لا ينفع المال الذي خلفوه في الدنيا وأما المال الذي أنفقوا في الخير فليس ينفعهم وَلاَ بَنُونَ يعني الكفار لأنهم كانوا يقولون (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً) فأخبر الله تعالى أنه لا ينفعهم في ذلك اليوم المال ولا البنون وأما المسلمون ينفعهم المال والبنون لأن المسلم إذا مات ابنه قبله يكون له ذخراً وأجراً في الجنة وإن تخلف بعده فإنه يذكره بصالح دعائه فينفعه ذلك ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من جاء بقلب سليم يوم القيامة ينفعه المال والبنون ويقال: إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ فذلك ينفعه والقلب السليم هو القلب المخلص وقال ابن عباس: يعني: بقلب خالص من الشرك وروى أبو أسامة بن عوف قال: قلت لابن سيرين ما القلب السليم قال أن تعلم أن الله عز وجل حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ويقال: سليم من اعتقاد الباطل ويقال: سليم من النفاق والهوى والبدعة وسئل أبو القاسم الحكيم عن القلب السليم فقال: له ثلاث علامات أولها أن لا يؤذي أحداً والثاني أن لا يتأذى من أحد والثالث إذا اصطنع مع أحد معروفاً لم يتوقع منه المكافأة فإذا هو لم يؤذ أحداً فقد جاء بالورع وإذا لم يتأذ من أحد فقد جاء بالوفاء وإذا لم يتوقع المكافأة بالاصطناع فقد جاء بالإخلاص.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ

هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ
فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ
﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: قربت الجنة للمتقين الذين يتقون الشرك والفواحش يعني: أن المتقين قربوا من الجنة ثم قال: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ يعني: أظهرت الجحيم وكشفت غطاءها للكافرين ويقال: يؤتى بها في سبعين ألف زمام ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يقال للكفار أين معبودكم الذين كنتم تعبدون من دون الله ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ يعني: هل يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ يعني: هل يمتنعون من العذاب فاعترفوا أنهم لا ينصرونهم ولا ينتصرون فأمر بهم إلى النار ويقال أينما كنتم تعبدون من دون الله يعني الشياطين لأنهم أطاعوها في المعصية فكأنهم عبدوها قوله عز وجل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ يعني: جمعوا فيها هم والغاوون ويقال: فكبكبوا فيها فقدموا من النار هم والغاوون يعني: الكفار والآلهة والشياطين الذين أغووا بني آدم وهذا قول مقاتل ويقال: فكبكبوا فيها يعني: ألقي بعضهم على بعض وقال القتبي: الأصل كببوا[1] أي ألقوا على رؤوسهم فيها فأبدل مكان إحدى الباءين كاف وقال الزجاج هو تكرير الانكباب لأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها ويقال جمعوا فيها ومنه حديث جبريل عليه السلام أنه ينزل في كبكبة من الملائكة يعني: جماعة من الملائكة عليهم السلام ثم قال عز وجل: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ يعني: جمعوا فيها جميعاً ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (يعني: الكفار والأصنام ويقال: الكفار والشياطين ويقال: الرؤساء والأتباع ومعناه: قالوا وهم يختصمون)[2] فيها على ما معنى التقديم ﴿تَاللَّهِ﴾ يعني: والله ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بين ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: نطيعكم كما يطيع المؤمنون أمر الله عز وجل ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: ما صرفنا عن الإيمان إلا الشياطين ويقال: رؤساؤناويقال: آباؤنا المشركون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ يعني: حيث يرون الأنبياء عليهم السلام يشفعون للمؤمنين والملائكة عليهم السلام يشفعون ولا يشفع أحد للكفار فيقولون ليس أحد يشفع لنا ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ يعني: قريب يهمه أمرنا قوله عز وجل ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ يعني: رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المصدقين على دين الإسلام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعبد غير الله ليعلم أنه يتبرأ منه في الآخرة ولا ينفعه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: الذين جمعوا في النار ولم يكونوا مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن عبد غيره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: نوحاً عليه السلام وحده ويقال جميع

---

(١) قال ابن منظور: كبكبة أي كبه وفي التنزيل (فكبكبوا فيها) يقال: كب الشيء يكبه وكبكبه قلبه. انظر لسان العرب ٣٨٠٣/٥.

(٢) سقط في أ.

الأنبياء عليهم السلام لأن نوحاً عليه السلام دعاهم إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام فلما كذبوه فقد كذبوا جميع الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ يعني: نبيهم سماه أخوهم لأنه كان منهم وابن أبيهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني ألا تخافون الله تعالى فتوحده ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فيما بينكم وبين ربكم وجعلني الله عز وجل أميناً في أداء الرسالة إليكم ويقال: إنه كان أميناً فيهم قبل أن يبعث ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: خافوا الله واتبعوني فيما أمركم به ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني: على الإيمان (مِنْ أَجْرٍ) أيَّ أجر ﴿إِن أَجْرِيَ﴾ يعني: ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقد ذكرناه.

قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿قالوا أنُؤمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ يعني: أنصدقك واتبعك سفلتنا ويقال: الضعفاء قرأ يعقوب الحضرمي وأتباعك الأرذلون وهو جمع تابع ومعناه وأتباعك الأرذلون وقراءة العامة ﴿وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[1] بلفظ الماضي فيقال: من اتبع قال لهم نوح ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: ما كنت أعلم أن الله تعالى يهديهم من بينكم ويدعكم ﴿إِنْ حِسَابُهُم إِلَّا عَلى رَبِّي﴾ يعني: ما حسابهم إلا على ربي ويقال ما سرائرهم إلا عند ربي ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ إن الله تعالى علام الغيوب قالوا لنوح أطردهم حتى نؤمن لك قال لهم نوح ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ما أنا إلا منذر لكم بلغة تعرفونها ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: من المقتولين ويقال: من المرجومين بالحجارة قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ بالعذاب والتوحيد ﴿فَافْتَح بَينِي وبَيْنَهُم فَتْحاً﴾ يعني: إقض بيني وبينهم قضاء ويقال للقاضي: فتاح وهذه لغة أهل اليمن ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب ومن أذى الكفار ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني: السفينة المملوءة الموقرة من الناس والأنعام وغير ذلك ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ يعني: من بقي ممن لم يركب السفينة ولفظ البعد والقبل إذا كان بغير إضافة يكون بالرفع مثل قوله (لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) وكقوله ﴿ثُمَّ أغرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِين﴾ وإذا كانت بالإضافة يكون نصباً في موضع النصب كقوله (وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخرِينَ) ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن استخف بفقراء المسلمين واستكبر عن قول الحق ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ فلم يؤمن من قومه إلا ثمانون من الرجال والنساء ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن تعظم عن الإيمان واستخف بضعفاء المسلمين واستهزأ بهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ /٣١٨.

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ
﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

وقوله عز وجل ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ**﴾ يعني: كذبوا هوداً عليه السلام ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾ أي نبيهم هود وقد ذكرناه ﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وقد تقدم ذكره ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً**﴾ يعني: بكل طريق علامة ويقال بكل شرف علماً ﴿**تَعْبَثُونَ**﴾ يعني: تلعبون ويقال: تضربون فتأخذون المال ممن مر بكم وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**آيَةً تَعْبَثُونَ**﴾ يعني: تبنون ما لا تسكنون وقال أهل اللغة: كل لعب لا لذة فيه فهو عبث واللعب ما كان فيه لذة فهم إذا بنوا بناء ولا منفعة لهم فيه فكأنهم يعبثون ثم قال عز وجل ﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ**﴾ يعني: القصور وقال مجاهد: المصانع قصور وحصون وقال القتبي: المصانع البناء واحدها مصنعة ويقال الريع الإرتفاع من الأرض ومعناه: أنكم تبنون البناء والقصور وتظنون أن ذلك يحصنكم مِنْ أقدار الله تعالى ويقال: وتتخذون مصانع يعني: الحياض ﴿**لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾ يعني: كأنكم تخلدون في الدنيا قوله عز وجل: ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُمْ**﴾ يعني: عاقبتم ويقال يعني: ضربتم بالسوط وقتلتم بالسيف ﴿**بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ يعني: فعلتم كفعل الجبارين لأن الجبارين يضربون ويقتلون بغير حق وأصل البطش في اللغة[1]: هو الأخذ بالقهر والغلبة ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ فيما آمركم به ﴿**وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ**﴾ يعني: أعطاكم ما تعلمون من الخير ثم بين فقال: ﴿**أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ**﴾ يعني: أعطاكم الأموال والبنين ﴿**وَجَنَّاتٍ وَعُيونٍ**﴾ يعني: البساتين والأنهار الجارية فاعرفوا رب هذه النعمة واشكروه ليديم عليكم النعمة فإنكم إن لم تشكروه ﴿**فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ يعني: أعلم أنه يصيبكم العذاب في الدنيا والآخرة قوله عز وجل ﴿**قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ**﴾ يعني: أنهيتنا وخوفتنا من العذاب ﴿**أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ**﴾ يعني: من الناهين روي عن ابن عباس أنه قال: هو الوعظ بعينه ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وابن كثير إن هذا إلا خلق بنصب الخاء وقرأ الباقون بالضم[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه ما هذا العذاب الذي تذكره إلا أحاديث الأولين ويقال الإحياء بعد الموت لا يكون وإنما هذا خلق الأولين أنهم يعيشون ثم يموتون ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾ قال القتبي: الخَلق الكذب كقوله: (إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاق) وكقوله: (إِنْ هذا إِلّا خَلْقُ الأَوّلينَ) أي: خوضهم للكذب والعرب تقول: للخرافات أحاديث الخلق قال: وأعمل الخلق[3]: التقدير وها هنا أراد بهم اختلاقهم وكذبهم وأما من قرأ بضم الخاء فمعناه إن هذا إلا عادة الأولين والعادة أيضاً تحتمل المعنيين مثل الأول ثم قال عز وجل:

---

(١) انظر لسان العرب ١/١ ٣٠١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٨، النشر ٢/٣٣٥.

(٣) واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة من موالي بني حنيفة أو بني مخزوم رأس المعتزلة سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري توفي سنة ١٣١ هـ. انظر شذرات الذهب ١/١٨٢. الأعلام ٨/١٠٨ - ١٠٩.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يعني: كذبوا هوداً فأهلكناهم بالريح ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعمل عمل الجبارين ولا يقبل الموعظة وهو تخويف لهذه الأمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم عاد ولو كان أكثرهم لم يهلكهم الله تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن يعمل عمل الجبارين ولا يقبل الموعظة وهو تخويف لهذه الأمة لكيلا يسلكوا مسالكهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صالحاً ومن قبله من المرسلين عليهم السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ يعني: نبيهم ﴿صَالِحُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقد ذكرناه. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ﴾ يعني: في هذا الخير والسعة آمنين من الموت ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: البساتين والأنهار ويقال: العيون ها هنا الآثار لأن قوم صالح لم يكن لهم أنهار جارية ويقال: كانت لهم بالشتاء آبار وكانوا يسكنون في الجبال وفي أيام الصيف كانوا يخرجون إلى القصور والكروم والأنهار ثم قال عز وجل: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال مقاتل يعني: متراكباً بعضه على بعض وقال القتبي: الهضيم الطلع قبل أن تنشق عنه القشر يريد أنه ينضم متكثر يقال رجل أهضم الكشحين إذا كان منضماً ويقال هضيم أي طري لين ويقال هضيم متهشهش في الفم ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع فرهين بغير ألف وقرأ الباقون فارهين بالألف[1] فمن قرأ فرهين فهو بمعنى أشرين بطرين وهو الطغيان في النعمة وإنما صار نصباً على الحال ومن قرأ فارهين أي حاذقين[2] ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به قوله عز وجل ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني: قول المشركين وهم التسعة رهط ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: لا يأمرون بالصلاح ولا يجيبونه ولا يطيعونه فأجابوه قوله ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

(١) قال الفراء: هما لغتان مثل طمع وطامع انظر حجة القراءات ٥١٩.

(٢) قال ابن منظور: الفاره الحاذق بالشيء والفروهة والفراهة والفراهية: النشاط وفره بالكسر أشر وبطر ورجل فره: نشيط أشر. وفي التنزيل (وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين) فمن قرأه كذلك فهو من هذا شرهين بطرين ومن قرأه فارهين فهو من فره بالضم. انظر لسان العرب ٣٤٠٦/٥.

﴿الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعني: من المخلوقين ويقال: ذو سحر والسحر هو الدية يعني إنك مثلنا وروي عن ابن عباس أنه قال: من المسحرين أي من المخلوقين وقال: أما سمعت قول لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر[1]

ويقال إنما أنت من المسحرين يعني سوقة مثلنا والسوق إذا كان دون السلوك ثم قال عز وجل ﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعني: آدمي مثلنا ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنك رسول الله تعالى ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾ والشرب في اللغة النصيب من الماء والشُّرب بضم الشين المصدر والشَّرب بنصب الشين جماعة الشراب فكان للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم فذلك قوله: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوْءٍ﴾ يعني: لا تصيبوها بعقر يعني لا تقتلوها فإنكم إن قتلتموها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: قتلوا الناقة ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ يعني: فصاروا نادمين على عقرها قوله عز وجل: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يعني: عاقبهم الله تعالى بالعذاب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن يعظم آيات الله تعالى وكانت النَّاقة علامة لنبوة صالح عليه السلام فلما أهلكوها ولم يعظموها صاروا نادمين والقرآن علامة لنبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن رفضه ولم يعمل بما فيه ولم يعظمه يصير نادماً غداً ويصيبه العذاب ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم صالح عليه السلام ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن لم يعظم آيات الله تعالى الرحيم لمن تاب ورجع.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ
الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ
الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: لوطاً وغيره ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وقد ذكرناه، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: أتجامعون الرجال من بين العالمين ﴿وَتَذَرُونَ﴾ يعني: وتتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني: من نسائكم ﴿بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ عَادُونَ﴾ يعني: معتدين من الحلال إلى الحرام ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ﴾ من مقالتك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا ﴿قَالَ﴾ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ يعني: من المبغضين ويقال: قلت الرجل إذا بغضته ومنه قوله: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى). قوله عز وجل: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من الفواحش ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني: الباقين في

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري انظر ديوانه ٧١.

العذاب يعني: وامرأته ويقال إن هذا من أسماء الأضداد يقال: غبر الشيء إذا مضى وغبر الشيء إذا بقى[١] وقال بعض أهل اللغة: القالي التارك للشيء الكاره له غاية الكراهية ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرِينَ﴾ يعني: أهلكنا الباقين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ يعني: بئس مطر من أنذر فلم يؤمن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن عمل الفواحش أي وارتكب الحرام. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة لمن ارتكب الفواحش وعمل الحرام رحيم لمن تاب وقد ذكرناه.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي الأيكةِ بكسر الهاء والألف والباقون ليكة بغير ألف ونصب الهاء إسم بلد ولا ينصرف من قرأ الأيكة فلأنها عرفت بالألف واللام فيصير خفضاً بالإضافة في الشاذ ليكة بكسر الهاء بغير ألف[٢] لأن الأصحاب مضاف إلى ليكة فصار إسماً واحداً ويقال الأيكة هي الشجرة الملتفة يقال: أيك وأيكة[٣] مثل أجم وأجمة ويقال: شجرة الدوم وهو شجر المقل ثم قال عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم قال بعضهم: كان شعيب بعث إلى قومين أحدهما مدين وكان شعيب منهم فسماه أخاهم حيث قال وإلى مدين أخاهم شعيباً والآخر أصحاب الأيكة ولم يكن شعيب ـ عليه السلام ـ منهم فلم يقل أخوهم وقال بعضهم: كان مدين والأيكة واحداً وهو الغيضة بقرب مدين فذكره في موضع أخوهم ولم يذكره في الآخر ثم قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني: ألا تخافون الله تعالى فتوحدوه ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه

أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ يعني: من الناقصين في الكيل والوزن وفي هذا

(١) غَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ غُبُورا مَكَثَ وَذَهَبَ وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ أي: بَقِيَ والغابر: الباقي والغابر الماضي وهو من الأضداد. انظر لسان العرب ٥/٣٢٠٥.

(٢) انظر حجة القراءات ٥١٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣١٩.

(٣) الأيكة الشجر الكثير الملتف. وقيل هو الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر قال أبو حنيفة: قد تكون الأيكة الجماعة من كل الشجر حتى من النخل وجمع الأيكة: أيك. انظر لسان العرب ١/١٩٠.

دليل على أنه أراد بهذا أهل مدين لأنه ذكر في تلك الآية (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ) كما ذكرها هنا ثم قال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعني: بميزان العدل بلغة الروم ويقال هو القبان ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يعني: لاتنقصوا الناس حقوقهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص بالقسطاس بكسر القاف والباقون بالضم[(١)] وهما لغتان ثم قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: لا تسعوا فيها بالمعاصي يقال: عثى يعثو وعاث يعيث وعثى يعثي إذا ظهر الفساد ثم قال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: الخليقة الأولى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ وقد ذكرناه ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: ما نظنك إلا من الكاذبين ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: جانباً من السماء وقريء كِسَفاً بنصب السين أي: قطعاً وهو جمع كسفة ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ﴾ لهم شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من نقصان الكيل ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في العذاب ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ لأنه أصابهم حر شديد فخرجوا إلى غيضة فاستظلوا بها فأرسل عليهم ناراً فأحرقت الغيضة فاحترقوا كلهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ صار العذاب نصباً لأنه خبر كان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة لمن نقص في الكيل والوزن ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: قوم شعيب ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة لمن نقص الكيل والوزن ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب ورجع.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: القرآن ويقال: إنه إشارة إلى ما ذُكر في أول السورة تلك آيات الكتاب المبين وأنه يعني: الكتاب لتنزيل رب العالمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر نزل بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف[(٢)] فمن قرأ بالتشديد فمعناه نَزَّلَ الله تعالى بالقرآن الروح الأمين يعني جبريل ـ عليه السلام ـ نصب الروح لوقوع الفعل عليه يعني: أنزل الله تعالى جبريل بالقرآن ومن قرأ بالتخفيف فمعناه: نزل جبريل ـ عليه السلام ـ بالقرآن فجعل الروح رفعاً لأنه فاعل ثم قال: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: نزله عليك ليثبت به قلبك ويقال أي يحفظ به قلبك ويقال: على قلبك أي: نزل على قدر فهمك وحفظك ويقال: أي: نزله عليك فوعاه قلبك وثبت فيه فلا تنساه أبداً كما قال (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) ويقال: على قلبك يعني: على موافقة قلبك ومرادك ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ يعني: من المخوفين بالقرآن للكفار من النار ثم قال عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ يعني: مبين لهم بلغتهم ويقال: بلغة قريش وهوازن وكان لسانهما أفصح قال

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٢٠.

(٢) حجتهم قوله تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ من رَبِّك﴾ وقوله: ﴿فإنَّهُ نزَّلَه على قلبك بإذن الله﴾ فلما كان في هذين الموضعين جبرائيل هو الفاعل بإجماع ردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه والباء للتعدية كما أن التشديد في قوله (نزّله) للتعدية. وحجة الباقين أن ذلك أتى عقيب الخبر عن تنزيل القرآن وهو قوله: ﴿وإنه لتنزيلُ رب العالمين﴾ والتنزيل مصدر (نزّل) بالتشديد فكأن قوله: (نزّلَ به روح الأمين) كانَ مردوداً على ما تقدمه من ذكر الله تعالى ليكون آخر الكلام منظوماً على لفظ أوله إذ كان على سياقه. انظر حجة القراءات ٥٢٠، ٥٢١.

مقاتل: وذلك أنهم كانوا يقولون إنه يُعلمه أبو فكيهة وكان أعجمياً رومياً فأخبر أن القرآن بلغة قريش ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته وصفته في كتب الأولين كما قال: (يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) والزبر الكتب واحدها زبور مثل رسل ورسول ويقال إنه يعني القرآن لفي زبر الأولين يعني بعضه كان في كتب الأولين ويقال نعت القرآن وخبره كان في كتب الأولين ثم قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً﴾ بالتاء وضم الهاء وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير آية بالنصب فمن قرأ بلفظ التذكير والنصب جعل أن يعلمه إسم كان وجعل آية خبر كان والمعنى أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل على جهة المعنى ومن قرأ بلفظ التأنيث والضم جعل آية هي الإسم وأن يعلمه خبر تكن ومعنى القراءتين واحد وذلك أن كفار مكة بعثوا رسولاً إلى يهود المدينة وسألوهم عن بعثته فقالوا هذا زمان خروجه ونعته كذا فنزل أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً يعني: لكفار مكة علامة ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: إن هذا علامة لهم ليؤمنوا به ثم قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ يعني: القرآن لو نزلناه بالعبرانية على رجل ليس بعربي اللسان من العبرانيين ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: على كفار مكة ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني بالقرآن فهذا منة من الله تعالى حيث خاطبهم بلغتهم ليعرفوه وليفهموه وقال القتبي: في قوله على بعض الأعجمين يقال رجل أعجمي إذا كان في لسانه عجمة وإن كان من العرب ورجل عجمي بغير ألف إذا كان من العجم وإن كان فصيح اللسان

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني: جعلنا التكذيب بالقرآن ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين مجازاة لهم أن طبع على قلوبهم وسلك فيها التكذيب ويقال: جعل حلاوة الكفر في قلوبهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: بالقرآن ويقال بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني يأتيهم العذاب فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به فيتمنون الرجعة والنظرة ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ فلما وعدهم العذاب قالوا فأين العذاب تكذيباً به يقول الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أبمثل عذابنا يستهزؤن ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ يعني: سنين الدنيا كلها ويقال سنين كثيرة ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب قوله عز وجل: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ يعني: ما ينفعهم ﴿مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا ثم خوفهم فقال ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: من أهل قرية فيما خلا ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ يعني: رسلاً ينذرونهم ﴿ذِكْرَى﴾ يعني: العذاب تذكرة وتفكراً قال بعضهم: إن ذكرى في موضع النصب وقال بعضهم: في موضع رفع أما من قال في موضع النصب فيقول لها منذرون يذكرونهم ذكرى يعني: يعظونهم عظة ومن

قال أنه في موضع رفع فيقول لها منذرون هم ذكرى ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعني: بإهلاكنا إياهم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ روي عن الحسن أنه قرأ وما تنزلت به الشياطون شبههُ بقوله كافرون ومسلمون قال أبو عبيدة وهذا وهم لأن واحدها شيطان والنون فيه أصلية وأما مسلمون وكافرون فالنون فيهما زائدة في الجمع لأن واحدهما مسلم وكافر وقال بعضهم: هذا غلط على الحسن لأنه كان فصيحاً لا يخفى عليه وإنما الغلط من الراوي ومعنى الآية أن المشركين كانوا يقولون إن الشيطان هو الذي يقرأ عليه قال الله تعالى: رداً لقولهم (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ يعني: وما جاز لهم ﴿وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك وقد حيل بينهم وبين السمع وقد روي عن ابن عباس أنه قال: لا يستطيعون أن يحملوا القرآن ولو فعلوا ذلك لاحترقوا ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ يعني: إنهم عن الاستماع لمحجوبون وممنوعون ثم قال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ وذلك حين دُعي إلى دين آبائه فأخبر الله تعالى أنه لو اتخذ إلهاً آخر عذبه الله تعالى وإن كان كريماً عليه كقوله (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) فكيف بغيره وروي في الخبر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: أرميا بأن يخبر قومه بأن يرجعوا عن المعصية فإنهم إن لم يرجعوا أهلكتهم فقال أرميا: يا رب إنهم أولاد أنبيائك وأولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ أفتهلكهم بذنوبهم فقال الله تعالى: وإنما أكرمت أنبيائي لأنهم أطاعوني ولو أنهم عصوني لعذبتهم وإن كان إبراهيم خليلي ويقال فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المراد به غيره لأنه علم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يتخذ إلهاً آخر ثم قال: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ يعني: إن عبدت غيري فتكون من الهالكين.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

قوله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ يعني: خوف أقرباءك بالنار لكي يؤمنوا أو يثبتوا على الإيمان من كان منهم مؤمناً وروى هشام عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل بيته فقال لهم: يا بني هاشم يا بني عبد المطلب تعلمون أني رسول الله إليكم وأني لا أملك لكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم وإنما أوليائي منكم المتقون فلأعرفن ما جاء الناس يوم القيامة بالآخرة وجئتم بالدنيا تحملونها على رقابكم وذكر السدي هكذا ثم قال ألا فاتقوا النار ولو بشق تمرة[1] وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: لما نزل (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصفا فصعد عليه ثم نادى بأعلى صوته يا صباحاه فاجتمع الناس فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: يا بني عبد المطلب يا بني هاشم أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أصدقتموني قالوا: نعم قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا دعوتنا [2] فنزل تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ثم قال عز

(١) أخرجه مسلم بنحوه ١٩٢/١ كتاب الإيمان باب في قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.

(٢) أخرجه البخاري ٥٠١/٨ كتاب التفسير باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. (٤٧٧٠)، ومسلم ١٩٣/١ ـ ١٩٤ كتاب الإيمان (٣٥٥ ـ ٢٠٨).

وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لين جانبك لمن اتبعك من المؤمنين يعني: من المصدقين ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ﴾ قال مقاتل: فيها تقديم يعني: الأقربين أي: فإن خالفوك ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالفاء فتوكل لأنه متصل بالكلام الأول ودخلت الفاء للجزاء وقرأ الباقون (وتوكل)[1] بالواو على وجه العطف وتوكل على العزيز الرحيم يعني: أي: ثق بالله وفوض جميع أمورك إلى العزيز الرحيم ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ في الصلاة وحدك ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ (أي وحين تصلي في الجماعة وقال عكرمة: وتقلبك في الساجدين)[2] قال في حال القيام والركوع والسجود يعني: يرى قيامك وركوعك وسجودك ويراك مع المصلين ويقال: الذي يراك حين تقوم من مقامك للصلاة بالليل ويقال: حين تقوم وتدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله ويقال وتقلبك في الساجدين يعني تقلبك في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات من آدم إلى نوح وإلى إبراهيم وإلى من بعده صلوات الله عليهم قوله عز وجل ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني: بآبائهم وبأعمالهم

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

ثم قال ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: هل أخبركم ﴿عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ هذا موصول بقوله: (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يعني: كذاب صاحب الإثم فاجر القلب الأفاك الكذاب والأثيم الفاجر يعني به كهنة الكفار ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ يعني: يلقون بآذانهم إلى السمع من السماء لكلام الملائكة عليهم السلام ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ يعني: حين يخبرون الكهنة وروى معمر عن الزهري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: الشياطين تسترق السمع فتجيء بكلمة حق فتقذفها في أذن وليها فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة وهذا كان قبل أن يحجبوا من السماء[3] ثم قال عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال قتادة ومجاهد: يتبعهم الشياطين وقال في رواية الكلبي الغاوون هم الرواة الذين كانوا يروون هجاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فيتبعهم ويقال الغاوون هم الضالون ويقال شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[4] ثم قال عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يعني: في كل وجه وفن يذهبون ويخوضون يأخذون مرة يذمون ومرة يمدحون وذكر عن القتبي أنه قال: في كل واد يهيمون من القول وفي كل مذهب يذهبون كما تذهب البهائم على وجهها وقال غيره هام الرجل والبعير إذا مضى على وجهه لا يدري أن يذهب فكذلك الشاعر يأخذ كلامه لا يدري أين ينتهي قرأ نافع وحده يتبعهم بجزم التاء والتخفيف وقرأ الباقون يتبعهم بنصب التاء والتشديد وهما بمعنى واحد يتبعهم ويتبعهم ثم

(١) انظر النشر ٢/٣٣٦.
(٢) سقط في ظ.
(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره ٦/١٨٣ وعزاه للبخاري بنحوه.
(٤) سقط في أ.

قال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: أن الشعراء يقولون قد فعلنا كذا وكذا وقلنا كذا فيمدحون بذلك أنفسهم وهم كذبة ثم استثنى شعراء المسلمين حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رضي الله عنهم فقال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ يعني: ذكروا الله في أشعارهم ويقال: وذكروا الله عز وجل في الأحوال كلها ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[1] يعني: نتصر شعراء المسلمين من شعراء الكافرين فكافؤوهم والباديء أظلم ويقال انتصروا من أهل مكة من بعد ما أخرجوا لأن الحرب تكون بالسيف وباللسان فأذن القتال بالشعر كما أذن بالسيف إذ فيه قهرهم ثم أوعد شعراء الكافرين فقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الذين هجوا المسلمين ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ يعني: أي مرجع يرجعون إليه في الآخرة يعني إلى الخسران والنار ويقال: هاتان الآيتان مدنيتان يذكر أنه لما نزل والشعراء يتبعهم الغاوون جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وهما يبكيان فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (والشُّعَرَاءُ) إلى قوله (إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فقال عليه السلام هذا أنتم (وَانْتَصرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)[2] وروي عن عكرمة قال: عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال إن من الشعر لحكمة وإن من الشعراء لحكماء وفي رواية أخرى وإن من البيان لسحراً[3] (والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم)[4].

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٩٩ وعزاه لعبد بن حميد والحاكم.

(٣) أخرجه البخاري ١١/٥٣ كتاب الأدب باب ما يجوز من الشعر (٦١٤٥).

(٤) سقط في ظ.

سُورَةُ النَّمْلِ (١)

وهي تسعون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ
مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ يعني: هذه الأحكام ويقال: تلك الآيات التي وعدتم بها وذلك أنهم وعدوا بالقرآن في كتبهم ويقال: يعني العلامات جميع الأحرف للقرآن ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ كلاهما واحد وإنما كرر اللفظ للتأكيد مبين يعني: بين ما فيه من أمره ونهيه ويقال مبين للأحكام الحلال والحرام ثم قال ﴿هُدًى﴾ يعني: القرآن هدى وبياناً من الضلالة لمن عمل به ويقال هدى يعني: هادياً ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني ما فيه من الثواب للمؤمنين قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وورش عن نافع[2] وبشرى بإمالة الراء وقرأ الباقون

(١) أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه بما يشير إليه الحرفان المقطعان في أولها. والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن ييسر الله الإهتداء به دون من جحدوا أنه من عند الله. والتحدي بعلم ما فيه من إخبار الأنبياء. والإعتبار بملك أعظم ملك أوتيه نبي وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام وما بلغه من العلم بأحوال الطير ومابلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة.

وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود. والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ. وفي ذلك إيماء إلى أن نبوءة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسالة تقارنها سياسة الأمة ثم يعقبها ملك وهو خلافة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الشريعة المحمدية سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لنبي إسرائيل ملك سليمان. ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كهانهم وعرافيهم وسدنة آلهتهم وإثبات البعث وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطها. وأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة ثم موادعة المشركين وإنباؤهم بأن شأن الرسول الإستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأن آيات الصدق سيشاهدونها والله مطلع على أعمالهم.

قال ابن الفرس ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ. ونفيه أن يكون فيها إحكام ولا نسخ معناه أنها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ. وقال القرطبي في تفسير آية **﴿وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾** الآية نسختها آية القتال. انظر التحرير ١٩/٢١٥، ٢١٦.

(٢) سقط في ظ.

بالتفخيم وكلاهما جائز والإمالة أكثر في كلام العرب والتفخيم أفصح وهي لغة أهل الحجاز للمؤمنين يعني: للمصدقين بالقرآن أنه من الله تعالى ثم نعتهم فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: يقرون بها ويتمونها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني: يقرون بها ويعظمونها ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بأنها كائنة ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث بعد الموت ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُم﴾ يعني: ضلالتهم عقوبة لهم ولما عملوا ومجازاة لكفرهم زينا لهم سوء أعمالهم ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: يترددون فيها ويتحيرون في ضلالتهم قوله عز وجل: ﴿أولَئِكَ﴾ يعني: أهل هذه الصفة ﴿الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يعني: شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ يعني: الخاسرون بحرمان النجاة والمنع من الحسنات ويقال هم أخسر من غيرهم وقال أهل اللغة: متى ذكر الأخسر مع الألف واللام فيجوز أن يراد به الأخسر من غيرهم وإن لم يذكر غيرهم وإن ذكر بغير ألف ولام فلا يجوز أن يقال هو أخسر إلا أن يبين أنه هو أخسر من فلان أو من غيره قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ يعني: كقوله: وما يلقاها يعني: مما يؤتي بها ويقال: وما يؤتى وإنك لتلقى القرآن يعني: لتلقن القرآن وقال أهل اللغة[1]: تلقى وتلقن بمعنى واحد إذا أُخِذَ وَقُبِلَ من غيره ويقال: وإنك لتلقى القرآن أي: يلقى إليك القرآن وحياً من الله عز وجل ثم قال: ﴿مِن لَّدُن حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ يعني: نزل عليك جبريل من عند حكيم عليم في أمره عليم بأعمال الخلق قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ﴾ قال بعضهم: معناه إنه عليم بما ينزل عليك كعلمه بقول موسى عليه السلام ويقال: حكمت لك بالنبوة كماحكمت لموسى إذ قال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ ناراً﴾ يعني: رأيت ناراً ﴿سَآتِيكُم مِّنها بِخَبَرٍ﴾ يعني: خبر الطريق ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ يعني: بنارٍ ويقال: كل أبيض ذو نور فهو شهاب والقبس كلما يقتبس من النار والقبس يعني المقبوس كما يقال: ضرب فلان يعني مضروبه قرأ عاصم وحمزة والكسائي شهاب قبس بالتنوين وقرأ الباقون بغير تنوين فمن قرأ منوناً جعل القبس نعت الشهاب ومن قرأ بشهاب غير منون أضاف الشهاب إلى القبس ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يعني: تستدفئون من البرد.

فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا
مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ يعني: النار ويقال يعني: الشجرة ﴿نُودِيَ أن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ يعني: بورك مَنْ عند النار وهو موسى عليه السلام ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني الملائكة عليهم السلام وهوعلى وجه التقديم يعني فلما جاءها ومن حولها من الملائكة نودي أن بورك من في النار أي عند النار ويقال من في طلب النار أو قصدها والمعنى: بورك فيك يا موسى وقال أهل اللغة[2]: باركه وبارك فيه وبارك عليه واحد وهذا تحية من الله تعالى

(١) انظر لسان العرب ٥/٤٠٦٤.
(٢) انظر لسان العرب ١/٢٦٥.

لموسى عليه السلام ثم قال: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يعني: قيل له: قل سبحان الله تنزيهاً لله تعالى من السوء ويقال: إنه أي الله في النداء قال فسبحان الله ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ وقال بعض المفسرين: كان ذلك نور رب العزة وإنما أراد به تعظيم ذلك النور كما يقال للمساجد بيوت الله تعظيماً لها ثم قال عز وجل: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ وذكر عن الفراء أنه قال: هذه الهاء عماد وإنما يراد به وصل الكلام كما يقال: إنما وما يكون للوصل كذلك ها هنا فكأنه قال: يا موسى إني أنا الله ﴿العزيز الحكيم﴾ ويقال: معناه: إن الذي تسمع نداءه هو الله العزيز الحكيم قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ يعني: من يدك فألقاها فصارت حية وقد يجوز أن يضمر الكلام إذا كان في ظاهره دليل ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ يعني: تتحرك ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ يعني: حية والجان هي الحية الخفيفة الأهلية فإن قيل: إنه قال في آية أخرى: فإذا هي ثعبان مبين والثعبان الحية الكبيرة فأجاب بعض أصحاب المعاني: إنه كان في كبر الثعبان وفي خفة الجان قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: والجواب الصحيح أن الثعبان كان عند فرعون والجان عند الطور ثم قال: ﴿وَلَّى مُدْبِراً﴾ يعني: أدبر هارباً من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يعني: لم يرجع ويقال: لم يلتفت يقول الله تعالى: لموسى ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ من الحية ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: لا يخاف عندي ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ قال مقاتل: إلا من ظلم نفسه من المرسلين مثل آدم وسليمان وإخوة يوسف وداود وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويقال: إلا من ظلم يعني: لكن من ظلم ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي (فعل إحساناً)[1] بعد إساءته ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال الكلبي: إلا من ظلم يعني (أشرك) فهذا الذي يخاف ثم بدل حسناً يعني: توحيداً بعد سوء يعني: بعد شرك فإني غفور رحيم قال أبو الليث رحمه الله: ويكون إلا على هذا التفسير بمعنى لكن لا وعلى وجه الاستثناء وذكر عن الفراء أنه قال الاستثناء وقع في معنى مضمر من الكلام كأنه قال: لا يخاف لدي المرسلون بل غيرهم الخائف وقال القتبي: هذا لا يصح[2] لأن الإضمار يصح إذا كان في ظاهره دليل ولكن معناه: أن الله تعالى لما قال إني لا يخاف لدي المرسلون علم أن موسى كان مستشعراً خيفة من قبل القبطي فقال: إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنه يخاف ولكني أغفر له فإني غفور رحيم ويقال: إلا من ظلم يعني: ولا من ظلم ولا يبين ظلمه ثم بدل حسناً بعد سوء فإنه لا يخاف أيضاً ثم قال عز وجل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ يعني: جيب المدرعة[3] ثم أخرجها ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يعني: من غير برص ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ يعني: هذه الآية من تسع آيات كما تقول أعطيت لفلان عشرة أبعرة فيها فحلان أي: منها وقد بين في موضع آخر حيث قال: «ولقد آتينا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بيناتٍ» وقد ذكرناها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي: إذهب إلى فرعون ﴿وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: إنهم كانوا قوماً عاصين قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ يعني: جاءهم موسى بآياتنا التسع ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني: معاينة ويقال مبينة أي: علامةً لنبوته ويقال: مبصرة يعني: مضيئة واضحة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ يعني: بالآيات بعد المعرفة ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم﴾ أنها من الله تعالى وإنما استيقنتها قلوبهم لأن كل آية رأوها استغاثوا بموسى وسألوا منه بأن يشكف عنهم فكشفنا عنهم فظهر لهم بذلك أنه من الله تعالى وفي الآية تقديم ومعناه وجحدوا بها ﴿ظُلْماً﴾ يعني: شركاً ﴿وَعُلُوّاً﴾ يعني: تكبراً وترفعاً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى واستيقنتها أنفسهم يعني: وهم يعلمون أنها من الله ثم قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: الذين يفسدون في الأرض بالمعاصي فكانت عاقبتهم الغرق.

---

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في أ.

(٣) قال في اللسان ٢/١٣٦١ والدراعة والمدرع ضرب من الثياب التي تلبس وقيل: جبة مشقوقة المقدم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً**﴾ يعني: علم القضاء والعلم بكلام الطير والدواب ﴿**وَقَالاَ**﴾ يعني: داود وسليمان ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ بالكتاب والنبوة وكلام البهائم والطير والملك ويقال: فضلنا على كثير من الأنبياء حيث لم يعط أحداً من الأنبياء عليهم السلام ما أعطانا وقال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً وأقضى من داود وكان داود أشد تعبداً من سليمان عليهما السلام ثم قال عز وجل: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾ يعني: ورث ملكه وقال الحسن: ورث المال والملك لا النبوة والعلم لأن النبوة والعلم من فضل الله ولا يكون بالميراث ويقال: ورث العلم والحكم لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون دراهم ولا دنانير ﴿**وقال**﴾ سليمان: لبني إسرائيل ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ**﴾ يعني: أفهمنا وألهمنا منطق الطير وذلك أن سليمان كان جالساً في أصحابه إذ مر بهم طير يصوت فقال لجلسائه: أتدرون ماذا يقول قالوا: لا قال: إنه يقول ليت الخلق لم يخلقوا فإذا خلقوا: علموا لماذا خلقوا قال: وصاح عنده ديك فقال: هل تدرون ماذا يقول قالوا لا قال إنه يقول اذكروا الله يا غافلين ثم قال تعالى: ﴿**وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ يعني أعطينا علم كل شيء ويقال النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح ﴿**إِنَّ هَذَا**﴾ الذي أعطينا ﴿**لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ يعني: المبين ويقال: المبين تبين للناس فضلهم ثم قال عز وجل: ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ**﴾ يعني: جموعه والحشر هو أن يجمع ليساق ثم قال: ﴿**مِنَ الْجِنِ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ يعني: يساقون ويقال: يوزعون يعني: يكفون ويحبس أولاهم على آخرهم وأصل الوزع الكف يقال: وزعت الرجل إذا كففته وعن الحسن أنه قال: لا بد للناس من وزعة أي من سلطان يكفهم وقال مقاتل: إنه استعمل جنياً عليهم يرد أولهم على آخرهم ويقال هكذا إعادة القوافل والعساكر (ويقال: وحشر أي: جمع لسليمان جنوده مسيرة له من الجن والإنس والطير فهم يوزعون يجلس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا قوله عز وجل:)[1] ﴿**حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ**﴾ وذلك أن سليمان كان له بساط فرسخ في فرسخ ويقال أربع فراسخ في أربع فراسخ وكان يضع عليه كرسيه وجميع عساكره ثم يأمر الريح فترفعه وتذهب به مسيرة شهر في ساعة واحدة فركب ذات يوم في جموعه فمر بواد النمل في أرض الشام ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُم**﴾ يعني: بيوتكم ويقال: حجركم ﴿**لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ**﴾ أي: لا يهلكنكم ويقال: لا يكسرنكم ﴿**سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ**﴾ وإنما خاطبهم بقوله: ادخلوا بخطاب العقلاء لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء ثم قال: ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ يعني: قوم سليمان لا يشعرون بكم ولو كانوا يشعرون بكم لا يحطمونكم لأنهم علموا أن سليمان عليه

---

(١) سقط في أ.

السلام ملك عادل لا بغي فيه ولا جور ولئن علم بها لم توطأ ويقال: وهم لا يشعرون يعني: جنوده خاصة لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده ويقال: وهم لا يشعرون يعني: النمل لا يشعرون بجنود سليمان حتى أخبرتهم النملة المنذرة فرفع الريح صوتها إلى سليمان ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه يعني: أنه لو شعر بكم لم يحطمكم ويقال: فتبسم ضاحكاً أي: متعجباً ويقال: فرحاً بما أنعم الله تعالى عليه صار ضاحكاً نصباً على الحال ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: ألهمني ويقال: أزعني من الكف أيضاً كأنه قال: احفظ جوارحي لكيلا تشتغل بشيءٍ سوى شكر نعمتك التي أنعمت عليَّ ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ يعني: النبوة والملك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ يعني: تقبله مني وذكر أنه مر بزارع فقال الزارع: إنه ما أعطى مثل هذا الملك لأحد؟ فقال له سليمان: ألا أنبئك بما هو أفضل من هذا: القصد في الغنى والفقر وتقوى الله تعالى في السر والعلانية والقضاء بالعدل في الرضا والغضب ثم قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أدخلني بنعمتك مع عبادك الصالحين يعني: المرسلين في جنتك فوقف سليمان عليه السلام بموضعه ليدخل النمل مساكنهم ثم مضى قرأ يعقوب الحضرمي وأبو عمرو في إحدى الروايتين لا يحطمنكم بسكون النون وقراءة العامة بنصب النون وتشديدها وهذه النون تدخل للتأكيد فيجوز التخفيف والتثقيل ولفظه لفظ النهي ومعناه: جواب الأمر يعني: إن لم تدخلوا مساكنكم حطمكم.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ يعني: طلب الطير وذلك أنه أراد أن ينزل منزلاً فطلب الهدهد ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ وكان رئيس الهداهد وكان سليمان قد جعل على كل صنف منهم رئيساً ثم جعل الكركي[1] رئيساً على جميع الطيور قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة مالي بسكون الياء وقرأ الباقون بنصب الياء وهما لغتان يجوز كلاهما ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ يعني: أم صار غائباً لم يحضر بعهد ويقال: الميم للصلة ومعناه: أكان من الغائبين يعني: أصار (من الغائبين)[2] وذكر أن الهدهد كان مهندساً يعرف المسافة التي بينهم وبين الماء ويقال كان يعرف الماء من تحت الأرض ويراه كما يرى من القارورة وروى عكرمة أنه قال: قلت لابن عباس كيف يرى الماء من تحت الأرض وأن صبياننا يأخذونه بالفخ فلا يرى الخيط والشبكة (من تحت التراب)[3] فقال ابن عباس ما ألقى هذه الكلمة على لسانك إلا الشيطان أما علمت أنه إذا نزل القضاء ذهب البصر[4] فدعا سليمان أمير الطير فسأله عن الهدهد فقال: أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته مكاناً فغضب سليمان عند ذلك وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني: لانتفن ريشه فلا يطير مع الطيور حولاً ولأشمسنه في الحر حتى يأكله الذر ﴿أَوْلَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني لأقتلنه حتى لا يكون له نسل ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ﴾ يعني: بحجة بينة واضحة أعذره بها ﴿مُبِينٍ﴾ بين فإن قيل: كيف يجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم قيل له: تجوز العقوبة على وجه التأديب إذا

---

(١) الكركي طائر والجمع الكراكي. انظر لسان العرب ٥/ ٣٨٦٠.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠٤ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي حاتم بنحوه.

كان منه ذنب كما يجوز للأب أن يؤدب ولده الصغير وأما الذبح فيجوز وإن لم يكن منه ذنب قرأ ابن كثير ليأتينني بنونين وقرأ الباقون بنون واحدة[١] فمن قرأ بنونين فهو للتأكيد لأن النون الأولى مشددة وتسمى تلك نون القسم وهي في الحقيقة نونين والنون الثانية للإضافة ومن قرأ بنون واحدة فقد استقل الجمع بين النونات واقتصر على نونين فأدغم إحداهما في الأخرى.

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٖ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قرأ عاصم بنصب الكاف وقرأ الباقون بالضم[٢] وهما لغتان ومعناهما واحد يعني: لم يلبث إلا قليلاً ويقال لم يظل الوقت حتى جاء الهدهد ﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ وفي الآية مضمر ومعناه فمكث غير[٣] بعيد أن جاءه الهدهد فقال له سليمان: أين كنت فخر له ساجداً وقال أحطت ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ يعني: علمت ما لم تعلم وجئتك بخبر لم تكن تعلمه ولم يخبرك عنه أحد ثم أخبره فقال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ فإن قيل كيف يجوز أن يقال أن سليمان لم يعلم به وكانت أرض سبأ قريبة منه وهناك ملك لم يعلم به سليمان قيل له علم به سليمان ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس ويقال أنه علم بها ولكنه لم يعلم أن ملكها قد بلغ هذا المبلغ وعلم أنهم أهل الضلالة والإحاطة هي العلم بالأشياء بما فيها وجهتها كما قال: وجئتك من سبإٍ يعني: من أرض سبأ وهي مدينة باليمن بنبأ يقيني يعني: بخبر صدق لا شك فيه ويقال: بخبر عجيب قرأ ابن كثير وأبو عمرو سبأَ بالنصب بغير تنوين وقرأ الباقون بالكسر والتنوين فمن قرأ بالنصب جعله اسم مدينة وهي مؤنثة لا تنصرف ومن قرأ بالكسر والتنوين جعله اسم الرجل ويقال: جعله اسم مكان فقال له سليمان: وما ذلك الخبر فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني تملك أرض سبأ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني: أعطيت علم ما في بلادها ويقال من كل صنف من الأموال والجنود وأنواع الخير مما يعطى الملوك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: سريراً كبيراً أعظم من سريرك ويقال: كان طول سريرها ثمانون ذراعاً في ثمانين مرصعاً بالذهب والدر والياقوت وقوائمه من اللؤلؤ والياقوت واسمها بلقيس قال مقاتل: كانت أمها من الجن ويقال ولها عرش عظيم أي: شديد قوله عز وجل: ﴿وَجَدتُّهَا﴾ يعني: رأيتها ﴿وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ يعني: يعبدون الشمس ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: طريق الهدى ومعناه: صدهم الشيطان عن الإسلام فهم لا يهتدون يعني لا يعرفون الدين قوله عز وجل: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ قرأ الكسائي ألا بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد[٤] فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: أن الهدهد قال عند ذلك أنْ لَا تسجدوا لله؟ وقال مقاتل: هذا قول

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٢٦ النشر ٢/٣٣٧.

سليمان قال لقومه: ألا يسجدوا (ويقال: هذا كلام الله ألا يسجدوا لله)(١) وهذا من الاختصار فكأنه قال: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله ومن قرأ بالتشديد فمعناه فصدهم عن السبيل أن لا يسجدوا لله يعني: لأن لا يسجدوا ويقال: معناه: وزين لهم الشيطان أعمالهم لأن لا يسجدوا وإذا قرىء بالتخفيف فهو موضع السجدة وإذا قرىء بالتشديد فليس بموضع سجدة في الوجهين جميعاً وهذا القول أحوط ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ يعني المخبئات ﴿فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مثل الثلج والمطر وفي الأرض مثل النبات والأشجار والكنوز والموتى ويقال: الذي يظهر سر أهل السموات والأرض ويعلنها فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ثم قال عز وجل: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك قرأ عاصم والكسائي في رواية حفص ما تخفون وما تعلنون بالتاء على معنى المخاطبة لهم وقرأ الباقون(٢) بالياء على معنى الخبر لهم.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾

﴿قَالَ﴾ سليمان: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ في قولك ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: أم أنت فيها من الكاذبين فكتب كتاباً وقال له ﴿اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يعني: على ماذا يتفقون ثم تول عنهم يعني: ارجع عنهم(٣) ويقال ليس فيها تقديم ومعناه اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم يعني: استأخر في ناحية غير بعيد فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يريدون من الجواب قرأ ابن عامر وابن كثير فألقهى إليهم بالياء وبعد الهاء وقرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين وقرأ حمزة وعاصم بالجزم وقرأ نافع فألقه إليهم بكسر الهاء(٤) ولا يبلغ الياء وكل ذلك جائز في اللغة والقراءة بالياء أوسع اللغتين. وأكثر استعمالاً قال مقاتل: فجعل الهدهد الكتاب في منقاره ثم طار حتى وقف على رأس المرأة فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها وروي في بعض الروايات أنها كانت نائمة في البيت وقد أغلقت بابها فدخل من الكوة ووضع الكتاب على صدرها ويقال عند رأسها وأكثر الروايات أنه ألقاه في حجرها فقرأت الكتاب قرأت فيه الخاتم فارتعدت وخضعت وخضع من معها من الجنود لأن ملك سليمان كان في خاتمه فقرأت الكتاب وأخبرتهم بما فيه قال مقاتل: ولم يكن في الكتاب إلا قوله: (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) لأن كلام الأنبياء عليهم السلام على الإجمال ولا يكون على التطويل(٥) وقال في رواية الكلبي نكتب فيه أن كنتم من الإنس فعليكم بالطاعة وإن كنتم من الجن فقد عبدتم إلى قوله عز وجل ﴿قَالَتْ﴾ أي المرأة ﴿يَأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: حسن ويقال كتاب مختوم وروي عن ابن عباس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال كرامة الكتاب ختمه(٦).

(١) سقط في ظ. (٢) المصدران السابقان.
(٣) سقط في أ. (٤) انظر حجة القراءات ٥٢٨.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٠٦ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٦) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢/١٦٠ وعزاه للقضاعي عن ابن عباس مرفوعاً بزيادة إني ألقي إلي كتاب كريم وأخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بسند فيه متروك.

ويقال: كل كتاب لا يكون مختوماً فهو مغلوب ويقال: كان سليمان عليه السلام إذا كتب إلى الشياطين ختمه بالحديد وإذا كتب إلى الجن ختمه بالصفر وإذا كتب إلى الإنس ختمه بالطين وإذا كتب إلى الملوك ختمه بالفضة فجعل ختم كتابها من ذهب ويقال: إن المرأة إنما قالت كتاب كريم لأنها ظنت أنه نزل من السماء فلما نظرت إليه قرأت عنوان (﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني: عنوانه من سليمان)[1] وأنه يعني: في داخله وأول سطره بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ أي: لا تتعظموا علي ولا تتطاولوا علي ويقال: لا تترفعوا علي وإن كنتم ملوكاً قوله عز وجل ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مستسلمين خاضعين ويقال يعني: مخلصين منقادين طائعين (قال محمد بن موسى: إنما بدأ سليمان بنفسه لعلمه بأن ذكره على سائر الملوك أعظم من ذكر معبوده فهول عليها بذكر نفسه ثم ذكر)[2] (معبوده فذهب بنفسها وانقادت في مملكتها وإنما خافت من هول سليمان حين آمنت بالله فقالت عند ذلك: رب ظلمت نفسي بعبادة الشمس وما خفت منك فالآن عرفتك وتبت إليك وأنت رب العالمين ﴿قَالَتْ﴾ المرأة)[3] ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ يعني: الأشراف والقادة ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ وكان لها ثلثمائة وثلاثة عشر قائداً تحت يد كل قائد ألف رجل وقد قيل أكثر من هذا أفتوني في أمري يعني: أجيبوني في أمري ويقال بينوا لي أمري وأخبروني ويقال: أشيروا علي ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ أي: قاضية أمراً ويقال: فاصلة أمراً ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ يعني: تحضرون أي: لا أقطع أمراً دونكم ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها ﴿نَحْنُ أُولُوا قوة وأولوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: عدة وكثرة وسلاحاً وقتال شديد ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ يعني: أخبرناك بما عندنا أيتها الملكة ومع ذلك لا نجاوز ما تقولين يعني: إن أمرتينا بقتال قاتلنا وإن أمرتنا بغير ذلك أطعناك ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ يعني: ماذا تشيرين إلينا.

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَانِ ءَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ﴾ يعني: المرأة ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ على وجه القوة والغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يعني: أهلكوها وخربوها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ يعني: أهانوا أشرافها وكبراءها ليستقيم لهم الأمر ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ قال ابن عباس: هذا قول الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: وكذلك يفعلون تصديقاً لقول المرأة قال الحسن: هذا قول بلقيس إن سليمان وجنوده كذلك يفعلون وأكثر المفسرين على خلاف ذلك ثم قالت المرأة ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ يعني: أصانعهم بالمال فإن كان من أهل الدنيا فإنه يقبل ويرضى بذلك ويقال: أختبره أملك هو أم نبي فإن كان ملكاً قبلها وإن كان نبياً لم يقبلها ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني: أنظر بماذا يرجع المرسلون من الجواب من عنده وذكر في الخبر أنها بعثت إليه لبنتين من ذهب والمسك والعنبر وبعثت بعشرة غلمان وعشرة جواري وكان في الجواري بعض الغلظة وكان في الغلمان بعض اللين وأمرت بأن تخضب أيديهم جميعاً وجعلتهم على هيئة الجواري وبعثت إليه جوهرة في ثقبها اعوجاج وطلبت أن يدخل الخيط فيها وكتبت إلى سليمان إن كنت نبياً فميز بين الجواري والغلمان فأمر سليمان الشياطين بأن يلقوا في طريق الرسل لبناً كثيراً من

(١) سقط في ظ. (٢) سقط في ظ. (٣) سقط في ظ.

الذهب فلما جاءت رسل بلقيس استحقروا هديتهم فلما قدموا على سليمان أمر بماء فوضع وأمر الغلمان والجواري بأن يتوضأ فجعل الغلام يحدر الماء على يده حدراً وأما الجواري فكن يصببن صباً وفي رواية أخرى كانت الجارية تأخذ الماء بكفها وتدلك ذراعها وأما الجوهرة فأخذ بوردة حمراء عقد فيها خيطاً ثم أدخلها في الحجر حتى خرجت من الجانب الآخر فرد الهدية وقال للوافد (أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ) يعني أتغرونني بالمال قوله عـز وجل: ﴿فَلَمـا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ قال بعضهم: يعني جاء الرسول وقال بعضهم يعني: جاء بريدها والأول أشبه لأنه خاطب الرسول ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾ قرأ حمزة أتمدونني بمال بنون واحدة والتشديد وقرأ الباقون بنونين[1] وأصله نونان إلا أن حمزة أدغم إحداهما في الأخرى وشددها وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو أتمدونني بالياء في الوصل لأنه في الأصل الياء وهو ياء الإضافة وقرأ الباقون بغير ياء[2] لأن الكسر يدل عليه ثم قال ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾ يعني: ما أعطاني الله عز وجل من النبوة والحكمة والدين والإسلام والملك ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ يعني: خير مما أعطاكم من الدنيا والمال ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ يعني: إذا أهدى بعضكم إلى بعض يقال معناه بل أنتم تفرحون بهديتكم إذا ردت إليكم لأنكم قليلون المال ويقال لأنكم مكاثرة بالدنيا قوله عز وجل: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: قال سليمان للأمير الوافد ارجع إليهم بالهدية فإن لم يحضروني ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ يعني: لا طاقة لهم بها قال بعض المتقدمين: ومتى يكون لهم طاقة بجنود سليمان وكان جنود سليمان من الجن والإنس والشياطين ﴿وَلَنُخرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ يعني: من أرض سبأ ﴿أَذِلَّةً﴾ يعني: مغلولة أيديهم إلى أعناقهم ﴿وهم صاغرون﴾ أي: ذليلون فلما بلغ الخبر إلى المرأة ورسالة سليمان لم تجد بداً من الخروج إليه فخرجت نحوه فلما علم سليمان بمسيرها إليه ﴿قال﴾ لجلسائه ﴿يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها﴾ يعني: بسرير بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ يأتوني مُسْلِمِينَ﴾ أي: موحدين لأنه قد كان أوحي إلى سليمان بأنها تسلم وقال بعضهم: إنما أراد سليمان بإحضار سريرها قبل أن تسلم ليكون السرير له لأنها لو أسلمت حرم عليه ما كان لها وقال بعضهم: إنـما أراد أن يبين دلالة نبوته عندها فتعلم المرأة أنه نبي فتسلم.

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَ عفريت من الجن﴾ يعني: ما أراد من الجن والعفريت هـو الشديـد القوي ويقـال العفريت من كل شيء المبالغ والحاذق في أمره ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ يعني في مجلس القضاء وكان قضاؤه إلى إنصاف النهار ويقال: إلى وقت الضحى ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ قوله عليه أي: على إتيان السرير القوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر واللؤلؤ وغير ذلك فقال سليمان: أنا أريد أسرع من هذا ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: آصف بن برخيا وكان وزيره ومؤدبه في حال صغره وكان يعلم الاسم الأعظم ويقرأ كتاب الله فقال يـا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ويقال: هو قوله: يا حي يا قيوم ويقال: يا ذا الجلال والإكرام ويقال: إن الذي عنده علم من الكتاب هو جبريل عليه السلام وهو قول المعتزلة قال الشيخ الإمام لأنهم لا

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٢٨، النشر ٢/٣٣٨.
(٢) المصدران السابقان.

يرون كرامة الأولياء وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا رضي الله عنه قال: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ يعني: قبل أن ينتهي إليك الذي وقع عليه منتهى بصرك وهو جاءٍ إليك ويقال قبل أن تطرف قال له سليمان: لقد أسرعت إن فعلت ذلك فدعا بالاسم الأعظم فإذا بالسرير قد ظهر بين يدي سليمان ﴿فَلَمَّا رَآه﴾ أي: رأى سليمان السرير ﴿مستقراً عنده﴾ أي: موجوداً عنده ﴿قال﴾ سليمان: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيْ﴾ يعني: ليختبرني ﴿أأشْكُرُ﴾ هذه النعمة ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ نعم الله تعالى إذا رأيت من دوني هو أعلم مني قال مقاتل: فلما رفع رأسه قال: الحمد لله الذي جعل في أهلي من يدعوه فيستجيب له ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: يفعل لنفسه لأنه يعود إليه حيث يستجيب المزيد من الله تعالى ﴿ومن كفر﴾ النعم يعني: ترك الشكر ﴿فإن ربي غني﴾ عن شكر العباد ﴿كَرِيمٌ﴾ في الإفضال على من شكره بالنعمة ويقال كريم لمن شكر من عباده (ويقال لما رأى آصف السرير مستقراً عنده خرج من فضل نفسه ورجع إلى فضل الله ورأى الحول والقوة لله تعالى فقال هذا من فضل ربي لا من فضل نفسي ولو لم يقل من فضل ربي لسقط عن المنزلة أسرع من إتيان السرير حيث قال: أنا آتيك به حيث شهر نفسه بالفضيلة ويقال: أنا آتيك به يعني بالله آتيك لا بالمدة والحيلة فأسقط الحول والقوة عن نفسه وسلم الأمر إلى الله فقال هذا من فضل ربي فلما رأى سليمان السرير عنده علم أن هذا ليس من قوة جلسائه إنما هو من صنع ربه)(١) قوله عز وجل ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ يعني: قال سليمان عليه السلام غيروا لها عرشها عن صورته والتنكير هو التغيير يقال: نكرته فنكر أي: غيرته فتغير وروى الضحاك عن ابن عباس قال: التنكير أن يزاد فيه أو ينقص منه يعني زيدوا في سريرها وانقصوا منه حتى نرى أنها تعرف سريرها(٢) أم لا وذلك قوله: ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ يعني: أتعلم أنه عرشها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ يعني: لا يعلموه يقال: إنه جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ويقال: إنه إنما أمر بذلك لأن الجن قالوا لسليمان عليه السلام: في عقلها شيء من النقصان فأراد سليمان أن يمتحن عقلها فأمر بأن يغير السرير ويسألها عن ذلك.

فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يعني: بلقيس وجلست على السرير ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني: أهكذا سريرك ﴿قَالَتْ﴾ بلقيس ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهته به قال مقاتل: شبهوا عليها فشبهت عليهم ولو قيل لها أهذا عرشك لقالت: نعم ويقال: إنها شكت في ذلك لأنها تركت سريرها في سبعة أبيات مقفلة أبوابها ومفاتيح الأقفال بيدها فقال سليمان ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ يعني: حمد الله على ما أعطاه من إتيان السرير وحضورها وعلى ما أعطاه قبل إتيانها من النبوة والإسلام فقال: وأوتينا العلم من قبلها يعني: أعطينا العلم من قبل مجيئها ويقال: أعطينا علم ملكها وعرشها من قبل مجيئها ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مخلصين لله تعالى ويقال: مسلمين منقادين له قوله عز وجل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: عبادتها التي كانت تعبد الشمس منعها عن الإسلام ويقال:

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٠٩ وعزاه لابن جرير ولابن أبي حاتم.

معناه صدها إبليس عن الإيمان فتكون ما هاهنا بمعنى الفاعل ويقال: ما هنا بمعنى المفعول فكأنه يقول: صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله كرجل يقول منعت فلاناً الماء يعني: عن الماء ويقال: معناه: أن الله تعالى صدها عما كانت تعبد من دون الله ووفقها للإسلام ويقال: صدها عن الإسلام العبادة التي كانت تعبدها لأنها نشأت ذلك وربيت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس ثم قال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي: من قوم جاحدين لله تعالى قوله عز وجل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ يعني: القصر وذلك لأنها لما أقبلت قالت الجن: لقد لقينا من سليمان ما لقينا من التعب فلو اجتمع سليمان وهذه وما عندها من العلم لهلكنا وخشوا أن يتزوجها ويكون بينهما ولد فيرث الملك فيبقون في ذلك العناء إلى الأبد فأرادوا أن يبغضوها إلى سليمان فقالوا: إن رجليها شعراوان وقال مقاتل: كانت أمها جنية وروى ابن أبي نجيح عن (مجاهد قال: كانت أمها جنية)[١] وكانت شعراء وقال بعضهم: هذا لا يصح لأن الجن ليسوا من جنس الآدميين فلا يكون بينهما شهوة ونسل وقد قال الله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى). يعني: آدم وحواء عليهما السلام فلا يجوز أن يكون النسل من غيرهما ويقال: إنهم قالوا لسليمان إن رجلها تشبه حافر الدواب فأراد سليمان أنَ ينظر إلى رجليها فأمر بأن يوضع سريرها في الصرح المبني من القوارير يعني من الزجاج وجعل تحت الصرح الماء فيه السمك فجلس سليمان على سريره في الصرح ومقدميه ثم أمر بلقيس بأن تدخل الصرح ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: فلما جاءت إلى الصرح رأت ما فيه من السمك حسبته لجة أي: ظنت أنه ماء كثير بين يدي سرير سليمان فأرادت أن تخوض في الماء فشمرت ثيابها ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ فنظر سليمان إلى ساقيها وكانت شعراً فاستشار سليمان الإنس في ذلك فأشاروا عليه بالموسى فقال سليمان: الموسى تخدش ساقيها فاستشار الجن فأشاروا عليه بالنورة[٢] فأصل النورة من ذلك الوقت وروي أن سليمان ما نظر إلى ساق أحسن من ساقيها ولا خلاف بين الروايتين لأنه يكون أحسن الساقين شعراوين وروي «عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت أنا أحسن ساقين أم بلقيس فقال النبيَ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت هي أحسن ساقين منك في الدنيا وأنت أحسن ساقين منها في الآخرة[٣] فلما كشفت عن ساقيها قال لها: سليمان لا تكشفي عن ساقيك ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ يقول: قصر مملس ولهذا يسمى الذي لم ينبت له شعر أمرد ويقال ممرد يعني: قوي شديد كما يقال: شيطان مريد «من قوارير» يعني من الزجاج: فلما رأت السرير والصرح علمت أن ملكها ليس بشيء عند ملك سليمان وأن ملكه من الله تعالى وأنه نبي حقاً ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام فأجابت فذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي للشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ أي: مع سليمان بالتوحيد وقيل إن سليمان لما عرفها الجنة فقالت ظلمت نفسي بسوء الظن لسليمان وأسلمت مع سليمان أي وأخلصت ديني لله)[٤] مع سليمان بالتوحيد ويقال مع سليمان يعني: أسلمت على يدي سليمان لله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتابت من شركها إلى الله تعالى قال مقاتل: فاتخذها سليمان لنفسه فولدت له داود بن سليمان «قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: هي أحسن الساقين من نساء العالمين وهي من أزواج سليمان في الجنة عليه السلام[٥].

---

(١) سقط في ظ.

(٢) النورة: أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريسون تستعمل لإزالة الشعر. انظر المعجم الوسيط ٢/٩٧١.

(٣) ذكره القرطبي في تفسير ١٣/١٣٩ ونسبه للقشيري.

(٤) سقط في ظ.

(٥) ذكره القرطبي في الموضع السابق بلا نسبة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ
يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾
قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ
تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ
ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً أَنِ أعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: أمرهم بأن يعبدوا الله ويطيعوه ويوحدوه ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني: مؤمنون وكافرون فإذا قوم صالح مؤمن وكافر يختصمون يقول كل فريق الحق معي وقد ذكرنا خصومتهم في سورة الأعراف وهي قوله: (قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) الآية فطلبت الفرقة الكافرة على تصديق صالح العذاب ﴿قَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعذاب ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ يعني: العافية ويقال: التوبة وهو قولهم: يا صالح إن كان ما أتيت به حقاً فأتنا بما تعدنا من العذاب ثم قال: ﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ يعني: لكي تُرحموا فلا تعذبوا قوله عز وجل: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ وأصله تطيرنا بك يعني: تشاءمنا بك ﴿وَبِمَنْ مَّعَكَ﴾ وذلك أنه قد أصابهم القحط بتكذيبهم إياه فقالوا: هذا الذي أصابنا بشؤمك وشؤم أصحابك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: ما أصابكم فمن الله ويقال: هذا الذي يصيبكم هو مكتوب عند الله ويقال: خيركم وشركم ورخاؤكم وشدتكم من عند الله عليكم بفعلكم ويقال: عقوبتكم عند الله ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي: تبتلون بذنوبكم ويقال: تختبرون بالخير والشر وأصل الفتنة هي الإختبار ويقال: فتنت الذهب بالنار لينظر إلى جودته قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: في قرية صالح وهي الحجر[1] ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ كانوا أغنياء قوم صالح ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ يعني: يعملون بالمعاصي في أرض قريتهم ولا يصلحون أي: لا يطيعون الله تعالى فيها ولا يتوبون من المعصية ولا يأمرون بها فسأل قوم صالح منه ناقة فصارت الناقة بلية لهم فكانت تأتي مراعيهم فتأكل جميع ما فيها فتنفر منها دوابهم وتشرب ماء بئرهم العذب الذي يشربون منه فجعلوا نيابة لشرب الماء اللبن فتشرب ذلك اليوم الماء كله وتسقيهم اللبن حتى يرووا فجاء هؤلاء التسعة وفيهم «قدار بن سالف» عاقر الناقة وكان ابن زانية أحمر أزرق «ومصدع بن دهر» وكانا قد قعدوا لها فلما مرت بهما رماها مصدع بسهم ثم قال: يا قدار اضرب فضرب عرقوبها فعقروها ثم سلخوها واقتسموا لحمها فأوعدهم الله الهلاك وبين لهم العلامة بتغيير ألوانهم فاجتمعوا التسعة ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ يعني: تحالفوا بالله ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء وضم التاء الثاني ﴿وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بالتاء وضم اللام والباقون بالنون ونصب التاء ثم لنقولن بالنون ونصب اللام[2] فمن قرأ بالنون جعل تقاسموا خبراً فكأنهم قالوا: متقاسمين فيما بينهم لنبيتنه وأهله أي: لنقتلنه وعياله ويقال: وأهله يعني: ومن آمن معه ومن قرأ بالتاء فمعناه جعل تقاسموا أمراً فكان أمر بعضهم بعضاً وقال بعضهم لبعض تحالفوا لنبيتنه وأهله ثم لنقولن ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ يعني: لولي صالح إن سألونا فنقول: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ يعني: إهلاك أهله وقومه ويقال: ما حضرنا عند إهلاك أهله

---

(١) مكان بين المدينة والشام كانت مساكن ثمود. معجم البلدان ٢ / ٢٥٥.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٣٣٠.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يعني: إنا لصادقون بما نقول لهم ويقال: معناه إنا لصادقون عندهم فيصدقونا إذا أخرجنا من بيوتنا.

وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً﴾ يعني: أراد قتل صالح ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً﴾ يعني: جثم[1] عليهم الجبل فماتوا كلهم ويقال: رجمتهم الملائكة عليهم السلام بالحجارة فماتوا فذلك قوله تعالى: (ومكروا مكراً) أي: أرادوا قتل صالح ومكرنا مكراً يعني: أراد الله عز وجل قتلهم جزاء لأعمالهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأن الملائكة يحرسون صالحاً في داره ـ قرأ عاصم في رواية أبي بكر: مهلك بنصب الميم واللام وفي رواية حفص مهلك بنصب الميم وكسر اللام وقرأ الباقون بضم الميم ونصب اللام ثم قال:[2] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ يعني: جزاء مكرهم ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي أنا بالنصب وقرأ الباقون بكسر[3] الألف فمن قرأ بالنصب فمعناه فانظر كيف كان عاقبة مكرهم لأنا دمرناهم ويجوز أن يكون خبر كان ومن قرأ بالكسر لأنه لما قال: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم يعني: إيش كان عاقبة مكرهم ثم فسر فقال: إنا دمرناهم على وجه الإستئناف ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: أهلكناهم بصيحة جبريل عليه السلام ويقال: خرجت النار من تحت أرجلهم وأحرقتهم ويقال: إنهم خرجوا ليلاً لإهلاك صالح فدمغتهم الملائكة بأحجار من حيث لا يرونهم فقتلوهم وقومهم أجمعين قوله عز وجل: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ يعني: خالية من الناس ويقال: بيوتهم خاوية يعني: مساكنهم خربة ساقطة ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: أشركوا ويقال: بكفرهم بالله تعالى صارت خاوية نصباً على الحال يعني: فانظر إلى بيوتهم خاوية وقرىء في الشاذ خاوية بالضم على معنى النعت للبيوت ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: في إهلاكهم وفيما أصابهم لغيره لمن بعدهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يعقلون ويصدقون ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: صدقوا صالحاً برسالته ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش.

وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

---

(١) جَثَم الإنسان يَجْثِمُ ويَجْثُمُ جَثْماً وجُثُوماً فهو جاثِمٌ: لَزِمَ مكانه فلم يبرح أي تلبد بالأرض وقيل هو أن يقع على صدره. انظر لسان العرب ٥٤٥/١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٣١، النشر ٣٣٨/٢.

(٣) المصدران السابقان.

ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلُوطاً إِذا قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ يعني: وأرسلنا لوطاً عطفاً على قوله ولقد أرسلنا إلى ثمود ويقال: معناه: واذكر لوطاً إذا قال لقومه يعني: حين قال لقومه قوله عز وجل: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ يعني: تجامعون الرجال شهوة منكم ﴿مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: جاهلون ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وإنما نصب الجواب لأنه خبر كان واسمه ﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يعني: يتنزهون ويقذروننا بهذا الفعل وإنا لا نحب أن يكون بين أظهرنا من ينهانا عن أعمالنا قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاه وَأَهْلَهُ﴾ يعني: ابنتيه ريثا وزعورا ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ لم ننجها من العذاب ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ أي: تركناها ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الباقين في العذاب ويقال: قضينا عليهما أنها من الباقين في العذاب قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً﴾ يعني: الحجارة ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ يعني: بئس مطر من أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا ثم قال عز وجل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾ قال بعضهم: معناه: قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: قل: الحمد لله وقال بعضهم: معناه: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الماضية يعني: ما ذكر في هذه السورة من هلاك فرعون وقومه وثمود وقوم لوط ويقال: قال: الحمد لله الذي علمك وبين لك هذا الأمر ويقال: إن هذا كان للوط حين أنجاه، أمره بأن يحمد الله تعالى ثم قال: وسلام على عباده يعني: المرسلين ﴿الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ يعني: إختارهم الله تعالى للرسالة والنبوة وروي عن مجاهد أنه قال: هم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك قال مقاتل وقال سفيان الثوري: هم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1] ثم قال: ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: الله تعالى أفضل أم الآلهة التي تعبدونها اللفظ لفظ الإستفهام والمراد به التقرير يعني: الله تعالى خير لهم مما يشركون فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قرأ هذه الآية قال: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم[2] ويقال: معناه: أعبادة الله خير أم عبادة ما يشركون به من الأوثان وقال القتبي: الله خيراً أما يشركون يعني أم من يشركون فتكون ما مكان من كما قال: «والسَّماء وَمَا بَنَاهَا» يعني: ومن بناها «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى» يعني: ومن خلق.

أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا
كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ
ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن
يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١١٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره ١٣/١٤٧ بلا نسبة.

صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ يعني: بالمطر ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ يعني: البساتين وأحدها حديقة وإنما سميت حديقة لأنها محاطة بالحيطان وقال بعضهم: إذا كانت ذا شجر يقال لها: حديقة سواء كان لها حائط أو لا ذات بهجة يعني: ذات حسن ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ يعني: ما كان لمعبودكم قوة ويقال: ما كان ينبغي لكم أن تنبتوا شجرها ويقال ما قدرتم عليه وقرأ أبو عمرو وعاصم أما يشركون بالياء على معنى الخبر وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة وقرأ عاصم في رواية أبي بكر قدرناها بتخفيف الدال والباقون بالتشديد ثم قال: ﴿أَإِلٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يعينه على صنعه اللفظ لفظ الإستفهام والمراد به الإنكار والزجر ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعدِلُونَ﴾ يعني: يشركون الأصنام ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ يعني: مستقراً لا تميد بأهلها ويقال: قراراً أي سكناً لأهلها ﴿وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً﴾أي: فجر بسواد الأرض أنهاراً ويقال: شق بينهما أنهاراً ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ إلى خلق لها ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي: خلق للأرض الجبال الثوابت ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ يعني: العذب والمالح حاجزاً يعني: ستراً مانعاً بقدرته لا يختلطان بعضهما في بعض ﴿أَإِلٰهٌ مَع اللَّهِ﴾ يعينه على صنعه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ولكن أكثرهم لا يعلمون بتوحيد الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ يعني: أمن يستجيب في البلاء للمضطر إذا دعاه ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ يعني: ومن يكشف الضر ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ يعني: سكان الأرض بعد هلاك أهلها ﴿أَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون تذكرون بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ حمزة والكسائي بتخفيف الذال وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية قالون أإله مع الله بالهمز والمد وقرأ الباقون بغير مد بهمزتين[2] ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني: من يرشدكم في أهوال البر والبحر ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: قدام المطر ﴿أَإِلٰهٌ مَع اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعظم الله عما يشركون ﴿أَمَّن يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: خلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم يعيدهم في الآخرة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: المطر ﴿وَالأَرْضِ﴾ يعني: النبات ﴿أَإِلٰهٌ مع اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ يعني: حجتكم وعلتكم بأنه صنع شيئاً من هذا غير الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة: ﴿لاَ يَعْلَمُ مَن في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الملائكة والناس ﴿الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ يعني: متى تقوم الساعة إلا الله رفع على معنى البدل فكأنه يقول لا يعلم أحد الغيب إلا الله أي: لا يعلم ذلك إلا الله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: متى يبعثون أو أن يبعثون ومتى يبعثون قوله عز وجل: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأدرك قرأ الباقون ادراك بالألف[3] فمن قرأ أدرك فمعناه: أدرك علمهم علم الآخرة وروي عن السدي

(١) انظر حجة القراءات ٥٣٣، النشر ٢/٣٣٨.
(٢) انظر حجة القراءات ٥٣٣.
(٣) المصدر السابق.

قال: اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا ويقال: معناه: علموا في الآخرة أن الذين كانوا يوعدون حق ولا ينفعهم ذلك ومن قرأ إدراك فأصله تدارك فادغم التاء في الدال وشددت وأدخلت ألف الوصل ليسلم السكون للدال ومعناه تتابع علمهم أي حكمهم على الآخرة واستعمالهم الظنون في علم الآخرة فهم يقولون تارة: إنها تكون وتارة: لا تكون الساعة ويقال: معناه: تدارك أي: تكامل علمهم يوم القيامة بأنهم يبعثون ويشاهدون ما وعدوا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: من قيام الساعة في الدنيا ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ يعني: يتعامون عن قيامها ويقال: بل هم منها عمون أي: من علمها جاهلون وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: بل إدراك وهذه القراءة أشد إيضاحاً للمعنى الذي ذكرناه ثم حكى قول الكفار فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُراباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ يعني: أحياء من القبور ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ يعني: هذا الذي يقول محمد عليه السلام: ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا﴾ الذي يقول ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديث الأولين وكذبهم مثل حديث رستم واسفنديار ويقال: إن هذا إلاَّ مثل رسل الأولين مما كذبوا.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ
مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم
بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ
﴿٧٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى
ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ
عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ يعني: فاعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: آخر أمر المشركين ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا بل ويقال ولا تحزن عليهم أي: على تكذيبهم وإعراضهم عنك ﴿وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ يعني: لا يضيق صدرك ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يعني: بما يقولون من التكذيب ويقال: ولا يضيق قلبك بمكرهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي: وعد العذاب ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بالمكذب ويقال: ولا تكن في ضيق مما يمكرون بقولهم فهذا دأبنا ودأبك أيام الموسم وهم الخراصون فكانوا يأمرون أهل الموسم بأن لا يسمعوا كلامه ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ عَسَى أن يَكُونَ رَدِفَ[1] لَكُمْ﴾ يعني: قرب وحضر لكم قال

(١) قال في التهذيب قوله تعالى ﴿ردف لكم﴾ قال: قرب لكم وقال الفراء: جاء في التفسير دنا لكم. انظر لسان العرب ١٦٢٧/٣.

الأعراف وفي سورة الشعراء. والمقصود من التفصيل ما يتضمنه من زيادة المواعظ والعبر. وإذ قد كان سوق تلك القصة إنما هو للعبرة والموعظة ليعلم المشركون سنة الله في بعثة الرسل ومعاملته الأمم المكذبة لرسلها. وتحدي المشركين بعلم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا خالط أهل الكتاب ذيل الله ذلك بتنبيه المشركين إليه وتحذيرهم من سوء=

القتبي أي تبعكم واللام زائدة فكأنه قال: ردفكم قال: وقيل في التفسير: دنا منكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب وهو عذاب القبر ويقال: يعني: القحط ويقال: يوم بدر ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حين لم يأخذهم بالعذاب عند معصيتهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بتأخير العذاب عنهم حتى يتوبوا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ يعني: ما تسر قلوبهم من عداوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الكفر والشرك قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ يعني: من أمر العذاب ويقال: ما من شيء غائب عن العباد ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: مكتوب في اللوح المحفوظ ويقال: أي: جملة غائبة عن الخلق إلا في كتاب مبين ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مقاتل: يعني: أن هذا القرآن يبين للناس أهل الكتاب ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يعني: إختلافهم وقال ابن عباس: إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أهواءً وأحزاباً بطعن بعضهم على بعض ويبرأ بعضهم من بعض فنزل القرآن بتبيان ما اختلفوا فيه ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّه﴾ يعني: القرآن ﴿لَهُدًى﴾ يعني: لبياناً من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من العذاب ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يعني: بين المختلفين في الدين ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أي: بقضائه يوم القيامة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع بالنقمة ويقال: العزيز يعني: القوي فلا يرد له أمر ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال خلقه سبحانه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: ثق بالله ويقال: فوض أمرك إلى الله ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ يعني: الدين المبين وهو الإسلام ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ فهذا مثل ضربه للكفار أي: فكما أنك لا تسمع الموتى فكذلك لا تتفقه كفار مكة ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ قرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء والنصب والصُّم بالرفع والباقون بالتاء وضم التاء وكسر الميم والصُّم بالنصب[1] فمن قرأ بالياء فلا يسمع فالفعل للصم ومن قرأ بالتاء فالخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك لا تسمع الصم الدعاء ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: أعرضوا عن الحق مكذبين قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة تهدي العمي بغير ألف وقرأ الباقون بالألف[2] فمن قرأ تهدي فمعناه ما أنت يا محمد بالذي تهدي الذين عميت بصائرهم عن آياتنا ولكن عليك الدعاء ويهدي الله من يشاء ومن قرأ بهادي فإن الباء دخلت لتأكيد النفي كقولك ما أنت بعالم فالياء لتأكيد النفي وخفض العمي للإضافة ثم قال: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: لا تسمع الهدى إلا من صدق بالقرآن أنه من الله تعالى ويقال: بآياتنا يعني: أدلتنا ﴿فَهُم مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون مقرون بها ويقال: مسلمون في علم الله تعالى.

= عاقبة الشرك وأنذرهم إنذاراً بليغاً. وفند قولهم (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) من الخوارق كقلب العصا حية ثم انتقاضهم في قولهم إذ كذبوا موسى أيضاً.

وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدى التوراة. وأبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حال بالأمم المكذبة رسل الله. وساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلها نعم عليهم وذكرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء. وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم وما لهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى. وأعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الأخرة وأن العاقبة للمتقين. وتخلل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة وإيماء إلى أن الله مظهرهم على المشركين بقوله ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآية. وختم الكلام بتسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتثبيته ووعد بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين. ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودوا أن تفصل.

(١) انظر حجة القراءات ٥٣٦، النشر ٢/٣٣٩.

(٢) المصدران السابقان.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: إذا وجب عليهم العذاب والسخط وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانه ولم يبق إلا من يموت كافراً في علم الله تعالى ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ بما يسوءهم يعني: الدابة التي تكلم الناس وخروجها من أول أشراط الساعة ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي أن بالنصب قرأ والباقون بالكسر فمن قرأ بالنصب يكون حكاية قول الدابة ومعناه تكلمهم بأن الناس ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بآيات ربهم وهو خروج الدابة ومن قرأ بالكسر يكون بمعنى الابتداء ويتم الكلام عند قوله تكلمهم ثم يقول الله تعالى: أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون يعني لا يؤمنون قال أبو عبيد: حدثنا هشام عن المغيرة أن أبا زرعة بن عمر وابن عباس قرأها تكلمهم بنصب التاء وكسر اللام وبسكون الكاف والتخفيف يعني تسمهم فيتبين الكافر من المؤمن قال الفقيه أبو الليث رحمه الله وحدثني الثقة عن أبي بكر الواسطي عن إبراهيم بن يوسف عن محمد بن الفضل الضبي عن أبيه عن سعيد بن مسروق عن ابن عمر رضي الله عليهم قال: ألا أريكم المكان الذي قال فيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخرج الدابة منه فضرب بعصاه قبل الشق الذي في الصفا وقال إنها ذات زغب وريش وإنها لتخرج تلبها أول ما تخرج كحضر الفرس الجواد ثلاثة أيام ولياليهن وإنها لتدخل عليهم وإنهم ليفرون منها إلى المساجد فتقول: أترون أن المساجد تنجيكم مني وروى مقاتل قال: تخرج الدابة من الصفا ولا يخرج إلا رأسها وعنقها فتبلغ رأسها السحاب فيراه أهل المشرق والمغرب ثم يقود إلى مكانها ثم تزلزل الأرض في ذلك اليوم في ست ساعات فيمسون خائفين فإذا أصبحوا جاءهم الصريخ بأن الدجال قد خرج وروي عن أبي هريرة أنه قال تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتجلو وجه المؤمن بعصا موسى وتختم وجه الكافر بخاتم سليمان ثم تقول لهم: يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار فترى أهل البيت مجتمعين على خوانهم يقول لهذا يا مؤمن ولهذا يا كافر وروى ابن جريج عن أبي الزبير قال رأسها رأس ثور وعيناها خنزير وأذناها فيل وقرناها قرنا أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين منها اثني عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتنكت على وجه المؤمن حتى يبيض وتختم الكافر بخاتم سليمان حتى يسود فيعرف المؤمن من الكافر وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال: تنكت في وجه الكافر نكتة سوداء فتفشو في وجهه حتى يبيض وجهه ويتابعون في الأسواق فيعرفون المؤمن من الكافر.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم
بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُل أُمَّةً فَوْجاً﴾ يعني: نوجب عليهم العذاب في يوم نحصر من كل أمة فوجاً يعني من أهل كل دين جماعة ويقال: يوم نحشر يعني: نجمع من كل أمة فوجاً يعني: جماعة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: يحبس أولهم لآخرهم: يجتمعوا ﴿حَتَّىٰ إذَا جاءوا﴾ يعني: اجتمعوا للحشر ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتي﴾ يعني: قال الله تعالى لهم: أكذبتم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن اللفظ لفظ الإستفهام

والمراد به التقرير يعني: قد كذبتم بآياتنا ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً﴾ اللفظ لفظ النفي والمراد به المناقشة في الحساب يعني: كذبتم كأنكم لم تعلموا ويقال: لم تعرفوها حق معرفتها ثم قال: ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ اللفظ لفظ السؤال والمراد به التوبيخ ومعناه ماذا كنتم تعملون. أن تؤمنوا بالكتاب والرسل يعني أي عمل منعكم عن ذلك ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: نزل عليهم العذاب ووجب عليهم ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ يعني: بما أشركوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يعني: لا يمكنهم أن يتكلموا من الهيبة لما ظهر لهم من المعاينة ولما تحيروا في ذلك ثم وعظ كفار مكة فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: ألم يعتبروا: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهار مُبصراً﴾ يعني: مضيئاً وأضاف الفعل إلى النهار لأن الكلام يخرج مخرج الفاعل إذا كان هو سبباً للفعل كما قال: بل (مَكْر اللَّيْلِ والنَّهارِ) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فيما ذكر من الليل والنهار لعبرات لقوم يصدقون بتوحيد الله تعالى.

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾
وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ
﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ
فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي
حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا
يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وقال عز وجل ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ أي: من شدة الصوت والفزع ويقال: وقال بعضهم: ماتوا النفخ ثلاثة أحدها: الفزع وهو قوله «فَفَزِعَ مَن فِي السَّمواتِ» ونفخة أخرى للموت: وهو قوله: «فَصَعِقَ من فِي السَّمَوَاتِ» ونفخة للبعث: وهي قوله: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَىٰ فإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ» وقال بعضهم: إنما هما نفختان والفزع والصعق كناية عن الهلاك ثم نفخة للبعث ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ثم يموتوا بعد ذلك ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ روى سفيان بإسناده عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ وكل أتوه بغير مد ونصب التاء وهي قراء حمزة وعاصم في رواية حفص والباقون بالمد والضم ومن قرأ بالمد وضم التاء فمعناه كل حاضروه ﴿داخرين﴾ أي: صاغرين ويقال: متواضعين ومن قرأ بغير مد يعني يأتوا الله ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي: تحسبها واقفة مكانها ويقال: مستقرة ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ حتى يقع على الأرض فتستوي أي: في أعين الناظرين كأنها واقفة قال القتبي: وكذلك كل عسكر غص به الفضاء فينظر الناظر فيرى أنها واقفة وهي تسير ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ يعني: ملأ كل أي: أحكم خلق كل شيء ويقال: الشيء المتقن أن يكون وثيقاً ثابتاً فما كان من صنع غيره يكون واهياً ولا يكون متقناً ﴿إنه خبير بما يفعلون﴾ أي: عليم بما فعلتم ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي بالإيمان والتوحيد وكلمة الإخلاص وشهادة أن لا إله إلا الله ﴿فله خير منها﴾ على وجه التقديم وله منها خير أي: حين ينال بها الثواب والجنة ويقال: فله خير منها أي: خير من الحسنة يعني: أكثر منها للواحد عشرة ويقال: فله خير منها من الحسنة وهي الجنة لأن

الجنة هي عطاؤه وفضله والعمل هو اكتساب العبد فما كان من فضله وعطائه فهو أفضل وهذا تفسير المعتزلة والأول قول المفسرين ﴿**وهم من فزع يومئذ آمنون**﴾ أي: من فزع يوم القيامة قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع في رواية ورش من فزع يومئذ بغير تنوين ويومئذ بكسر الميم والباقون بالتنوين ونصب الميم قال أبو عبيد: وبالإضافة نقرأ لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم وإذا قال: فزع بالتنوين صار كأنه قال: فزع دون فزع وقال غيره، إنما أارد به الأكبر لأن بعض الأفزاع تصيب الجميع وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: إنه خبير بما يفعلون بالياء على معنى الإخبار عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة ﴿**ومن جاء بالسيئة**﴾ أي: بالشرك ﴿**فكبت وجوههم في النار**﴾ ويقال: يكبون على وجوههم ويجرون إلى النار وتقول لهم خزنة النار ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾ من الشرك ويقال: فكبت أي: ألقيت وطرحت ﴿**إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة**﴾ أي: قل يا محمد لأهل مكة: أمرني الله تعالى أن أستقيم على عبادة رب هذه البلدة يعني: مكة الذي حرمها بدعاء إبراهيم عليه السلام وحرم فيها القتل والصيد قال بعضهم: كان حراماً أبداً قال بعضهم وهو أصح: إن إبراهيم لما دعا فجعلها الله حراماً بدعوته وقد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن إبراهيم حرم مكة وأنا حرمت المدينة ما بين لابتيها[١] ثم روي أنه قد رخص في المدينة ثم قال تعالى: وله كل شيء أي: وخلق كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين أي: من المخلصين ﴿**وأن أتلوا القرآن**﴾ يعني: أمرت أن أقرأ عليكم القرآن يا أهل مكة ﴿**فمن اهتدى**﴾ أي: آمن بالقرآن ﴿**فإنما يهتدي لنفسه**﴾ أي: يؤمن لنفسه ويثاب عليها ﴿**ومن ضل**﴾ ولم يوحد ولم يؤمن بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**فقل إنما أنا من المنذرين**﴾ أي: من المخوفين ومن المرسلين فليس عليَّ إلا تبليغ الرسالة ﴿**وقل الحمد لله**﴾ أي: الشكر لله على ما هداني ﴿**سيريكم**﴾ أيها المشركون آياته يعني: العذاب في الدنيا ﴿**فتعرفونها**﴾ أنها حق وذلك أنه أخبرهم بالعذاب فكذبوه فأخبرهم أنهم يعرفونها أنها حق وذلك إذا نزل بهم وهو القحط والقتل ويقال: هو فتح مكة ﴿**وما ربك بغافل عما تعملون**﴾ فهذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم وقال الزجاج في قوله (سيريكم) آياته أي سيريكم الله آياته في جميع ما خلق وفي أنفسكم قرأ نافع وعاصم في رواية حفص وابن عامر في إحدى الروايتين (تعملون) بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر عنه والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) أخرجه مسلم ٢/١٠٠١ كتاب الحج باب الترغيب في سكنى المدينة (٤٧٥ ـ ١٣٧٤).

(٢) انظر حجة القراءات ٥٤١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٣٧.

سُورَةُ القَصَصِ (١)

ثمانون وثمان آيات مكية إلا قول «إنّ الذي فَرضَ عَليكَ القرآن» لأنه نزل بين مكة والمدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿طَسمْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ المبين﴾ أي: القرآن وهو مبين للأحكام وقد ذكرناه (قال أبو سعيد الفاريابي في قوله تعالى (طا) قال: هو طاهر عما يعلوه والسين سامع لما وصفوه والميم ماجد حين سألوه والماجد كثير العطاء ويقال: أمجدني فلان إذا أكثر إعطاؤه ويقال: (طا) أي: أقسم الله بطالوت وسين أقسم الله بسليمان وميم أقسم الله بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ)[٢] ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ﴾ يعني: ننزل عليك جبريل عليه السلام يقرأ عليك ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: من خبر موسى وفرعون بالصدق ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الآية وإنما أنزل القرآن لجميع الناس ولكن المؤمنين هم الذين يصدقون فكأنه لهم وذلك أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يؤذونهم المشركون فيشكون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه السورة في شأنهم لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه ليصبروا كصبرهم وينجيهم ربهم كما أنجا بني إسرائيل من فرعون وقومه وهذا كقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ ان تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ» الآية ثم أخبر عن فرعون فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: اسْتكبر وتعظم عن الإيمان وخالف أمر موسى في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾ يعني: أهل مصر فرقاً ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ يعني: يستقهر ﴿طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: من أهل مصر وهم بنو إسرائيل فجعل بعضهم ينقل الحجارة من الجبل وبعضهم يعملون له عمل النجارة وبعضهم أعمال الطين ومن كان لا يصلح لشيء من أعماله يأخذ منه

---

(١) اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن والتعريض بأن بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله وعلى تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء من قول فرعون لموسى ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ إلى قوله ﴿وأنت من الكافرين﴾ ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون. وبين فيها سبب زوال ملك فرعون. وفيها تفصيل ما يجمل في سورة النمل من قوله: ﴿إذ قال موسى لأهله إني ءانست ناراً﴾ ففصلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس الناس ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون فكانت هذه السورة أوعب الأحوال لنشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم جعلت ما بعد ذلك لأن تفصيله في سورة لهم قصة رسالة موسى عليه السلام فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيلها من معرفة نافعة لهم تنظيراً لحالهم وحال أعدائهم. فالمقصود ابتداء هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أولها: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ أي للمؤمنين. انظر التحرير ٢٠/٦٢، ٦٣.

(٢) سقط في ظ.

كل يوم ضريبة درهماً فإذا غابت الشمس ولم يأت بالضريبة غلت يده اليمنى إلى عنقه ويأمره بأن يعمل بشماله هكذا شهراً. ثم قال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي يعني: أبناء بني إسرائيل صغاراً ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ يعني: يستخدم نساءهم وأصله من الاستحياء يعني يتركهن أحياء وروى أسباط عن السدي قال: بلغنا أن فرعون رأى فيما يرى النائم كأن ناراً أقبلت من أرض الشام فاشتملت على بيوت مصر وكانت الشام أرض بني إسرائيل أول ما كانوا فأحرقتها كلها إلا بيوت بني إسرائيل فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: يولد في بني إسرائيل مولود يكون على يديه هلاك أهل مصر فأمر فرعون بأن لا يولد في بني أسرائيل ذكر إلا ذبح وعمد إلى ما كان من بني إسرائيل خارج المصر فأدخله المدينة واستعبدهم ورفع العمل عن رقاب أهل مصر ووضعه على بني[1] إسرائيل» ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني: فرعون كان يعمل بالمعاصي.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وَنرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استضعفوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أردنا أن نمن بالنجاة على الذين استضعفوا في الأرض وهم بنو إسرائيل نمن. يعني: ننعم عليهم ﴿وَنَجْعَلَهُم أَئِمَّةً﴾ يعني: قادة في الخير ﴿وَنجعَلَهُم الْوَارِثِينَ﴾ يعني: أرض مصر وملك فرعون وقومه بعد هلاك فرعون ﴿وَنُمَكِنَ لَهُمْ﴾ يعني: نملكهم ويقال: ننزلهم في الأرض ﴿فِي الأَرْضِ﴾ يعني: في أرض مصر ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: ويرى بالياء والنصب وفرعون وهامان ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ بالرفع كل ذلك قرأ والباقون: ونرى بالنون والضم وفرعون وهامان وجنودهما كلها بالنصب[2] ونصب نرى لأنه معطوف على قوله أن نمن فكأنه قال: أن نمن وأن نرى ونصب فرعون لوقوع الفعل عليه ومن قرأ بالياء رفعه لأن الفعل منه ثم قال: وهامان وجنودها ﴿مِنْهُم مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ يعني: يرون ما كانوا يخافون من ذهاب الملك وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ موسى﴾ يعني: ألْهمنا أم موسى ﴿أَنْ أَرْضِعيه﴾ وذلك أن أم موسى حبلت فلم يظهر بها أثر الحبل حتى ولدت موسى وأرضعته ثلاثة أشهر أو أكثر فألهمها الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ يعني: إلى صباحه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ يعني: في البحر قال: مقاتل وهو النيل فعلمها جبريل ويقال: رأت في المنام بأنها تؤمر أن تلقيه في البحر ويقال كان هذا إلهاماً ويقال: كانت دلالة حيث علمت بالرؤيا أو شيء خيل لها أن تفعل ما فعلت كما أن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام ذبح إسحاق

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١١٩ مطولاً وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي.

(٢) حجتهم أن ما قبله للمتكلم فينبغي أن يكون ما بعده أيضاً كذلك ليكون الكلام من وجه والذي قبله «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم» فأجروا على لفظ ما تقدمه ليأتلف الكلام ومن قرأ» (يرى) حجتهم أن المعنيين يتداخلان لأن فرعون ومن ذكر معه إذا أراهم الله من المستضعفين ما كانوا يحذرون رأوا ذلك وإذا رأوه فلا شك أن الله جل وعز أراهموه. وانظر حجة القراءات ٥٤٢، وانظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٤٠.

وإسماعيل عليهما السلام وذكر أنها كانت تخبز يوماً وكان موسى عليه السلام على رأس التنور إذ دخل قوم فرعون يطلبون الولد فوضعته في التنور فدخلوا فلم يجدوا موسى عليه السلام فجاءت إلى التنور فوجدته يلعب بأصابعه في الأرض فاستيقنت أن الله تعالى يحفظه فجعلته في التابوت وألقته في النيل ثم قال: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ الغرق ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ أن لا يرد إليك ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: رسولاً إلى فرعون وقومه فلما ألقته في النيل جاء به الماء وكان ممر الماء في دار فرعون فوجدته جواري فرعون بين الماء والشجر فمن ثم سمي موسى بلفظ القبط موسى فذلك قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ يعني: إن أخذهم إياه كان سبباً لحزنهم فكأنهم أخذوه لذلك وإنما كان أخذهم لم يكن لذلك قرأ حمزة والكسائي: وحزناً بضم الحاء وسكون الزاي وقرأ الباقون: بنصب الحاء والزاي وهما لغتان(١) ومعناهما واحد ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ يعني: مشركين ويقال عاصين آثمين.

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ﴾ واسمها آسية لفرعون هذا الغلام ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فإنه آتانا به الماء من مصر آخر ومن أرض أخرى وليس من بني إسرائيل ويقال: أنها قالت إن هذا كبير ومولود قبل هذه المدة التي أخبر لك ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ فإنه لم يكن له ولد ذكر قال فرعون: فهو قرة عين لك فأما أنا فلا وروي عن ابن عباس أنه قال: لو قال فرعون أيضاً هو قرة عين لي لنفعه الله تعالى به ولكنه أبى ويقال قرة عين لي وقد تم الكلام ثم قالت ولك لا تقتلوه (قال: وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقف على قرة عين لي ولك ثم قال: لا تقتلوه أي: لا تقتلوه فلا الثاني إضمار في الكلام)(٢) والتفسير الأول أصح ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم على يديه ثم قال عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ يعني: خالياً من كل ذكر وشغل إلا ذكر موسى عليه السلام ويقال صار قلبها فارغاً حين بعثت أخته لتنظر فأخبرتها بأنه قد أخذ في دار فرعون فسكنت حيث لم يغرق ويقال: صار قلبها فارغاً لأنها علمت أنه لا يقتل وروي عن فضالة بن عبيد أنه قرأ: وأصبح فؤاد أم موسى فزعاً(٣) يعني: خائفاً وقراءة العامة فارغاً وتفسيره ما ذكرناه وقد قيل أيضاً فارغاً من شغل نفقته ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ يعني: وقد كادت لتظهر به قال مقاتل: وذلك أنها لما ألقت التابوت في النيل فرآت التابوت يدفعه مرة ويضعه أخرى فخشيت عليه الغرق فعند ذلك فزعت عليه وكادت أن تصيح ويقال: أنه لما كبر كان الناس

---

(١) قال تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ بضم الحاء وقال تعالى ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ بفتح الحاء وقال الفراء كأن الحزن الإسم والحزن المصدر تقول حزن حزناً. انظر حجة القراءات ٥٤٢، النشر في القراءات العشر ٣٤١/٢.

(٢) سقط في ظ.

(٣) هي قراءة فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبي العالية وابن محيصن وقرأ ابن عباس وقرأ عامر بالقاف وكسر الراء وإسكانها من قرع رأسه إذا أنحر شعره وكأنه خلا من كل شيء إلا من ذكر موسى. انظر البحر المحيط ١٠٧/٧ تفسير القرطبي ١٦٩/١٣.

يقولون: هو ابن فرعون فكان ذلك شق عليها وكادت أن تظهر أن هذا ولدي وليس بولد فرعون ويقال: لما دخل الليل دخل الغم في قلبها حيث لم تدر أين صار ولدها فأرادت أن تظهر ذلك ﴿لَوْلَا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي: ثبتنا قلبها ويقال: قوينا قلبها وألهمناها الصبر ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المصدقين بوعد الله تعالى حيث وعد لها بإنا رادوه إليك فلم تجزع ولم تظهر قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ يعني: قالت أم موسى: لأخت موسى وكان اسم أخته مريم (قصية) يعني: اتبعي أثره ويقال يعني: امشي بجنبه في الحد وهو في الماء حتى تعرف من يأخذه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ يعني: بصرته عن بعد كما قال «والجار الجنب» يعني البعيد منهم من قوم آخرين ويقال عن جنب يعني في جنب ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخت موسى ويقال: وهم لا يشعرون يعني وهم لا يعرفون(١) أنها ترقبه.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء أمه ويقال في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس أن أم موسى عليها السلام قالت لأخته قصيه أي اطلبي أثره بعد ما أخذه آل فرعون ولم يقبل رضع أحد وحرمنا عليه المراضع من قبل مجيء أخته ويقال: حرمنا عليه المراضع يعني: منعنا موسى أن يقبل ثدي مرضع من قبل أن نرده على أمه ﴿فقالت﴾ أخته حين تعذر عليهم إرضاعه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ يعني: يضمنونه لكم رضاعه ويقال: يضمنونه ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يعني: مشفقون للولد ويقال: مخلصون شفقة فقال هامان: خذوها حتى تخبرنا بقصة هذا الغلام فأخذت فألهمها الله تعالى أن قالت عند ذلك إنما ذكرت النصيحة لفرعون أعني وهم له ناصحون لفرعون لا لغيره فقال هامان لفرعون دعوها فقد صدقت فأرسل إليها فلما جاءت أمه وضعت الثدي في فمه فأخذ ثديها وسكن فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: كائن صدق وهو قوله إنا رادوه إليك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن وعد الله حق يعني أهل مصر قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشده﴾ ثم قال: قال مجاهد: يعني بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَاسْتَوَى﴾ يعني: بلغ أربعين سنة قال وفي رواية الكلبي الأشد ما بين ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ويقال: ولما بلغ أشده يعني منتهى قوته وهو ما فوق الثلاثين واستوى يعني: بلغ أربعين سنة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني: علماً وعقلاً ويقال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٢/٥ وعزاه لابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين بنحوه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وانظر تفسير القرطبي ١٧١/٣.

النبوة وعلم التوراة وروى مجاهد عن ابن عباس قال: الأشد ثلاثاً وثلاثين سنة وأما الاستواء فأربعون سنة والعمر الذي أعذر الله تعالى ابن آدم فيه إلى ستين سنة يعني: قوله: «أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ» ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني: المؤمنين قوله عز وجل: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ قال مقاتل يعني: قرية على رأس فرسخين وقال غيره يعني: المصر ﴿عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ يعني: نصف النهار وقت القيلولة ويقال ما بين المغرب والعشاء ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني: من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِن عَدُوِّهِ﴾ يعني: من القبط وقال القتبي: هذا من شيعته أي: من أصحابه وهذا من عدوه أي من أعدائه والعدو يدل على الواحد والجمع وذكر أن خباز فرعون أخذ رجلاً من بني إسرائيل سخرة فأمره بأن يحمل الحطب إلى دار فرعون ﴿فاستغاثه الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني: هذا الذي من شيعة موسى استغاث بموسى ﴿عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ يعني: ضربه بكفه ضربة في صدره وقال القتبي: فوكزه يعني: لكزه ويقال لكزته ووكزته إذا دفعته ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ يعني: مات الخباز بضربته وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه فمعنى قوله فقضى عليه أي قتله ولم يتعمد قتله وكان موسى شديد البطش ثم ندم على قتله فقال إني لم أؤمر بالقتل وإن كان كافراً ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني هو الذي حملني على هذا الفعل ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: يضل الخلق مبين يعني: ظاهر العداوة ثم استغفر إلى الله تعالى ﴿فقال﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ يعني: غفر الله ذنبه عز وجل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب لمن تاب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه

قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي
هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي
ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ
نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني: بالمغفرة كقوله «بِمَا أَغْوَيْتَنِي» يعني أما إذا أغويتني ثم قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ يعني (أعوذ بالله أن أكون) معيناً للكافرين لأن الإسرائيلي كان كافراً ولم يستثن على كلامه فابتلاه الله عز وجل في اليوم الثاني بمثل ذلك وكانوا لا يعرفون من قتل خباز الملك وكانوا يطلبون قاتله ﴿فَأَصْبَحَ﴾ موسى ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً﴾ أن يؤخذ فيقتل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يعني: ينتظر الطلب ويقال: ينتظر الأخبار ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يعني: رأى الإسرائيلي كان يقاتل مع رجل آخر من القبط يستصرخه يعني: يستغيثه كقوله «ما أنا بِمُصرِخِكُمْ» يعني: بمغيثكم ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ يعني: للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: ضال بين ويقال: جاهل بين ويقال: ظاهر الغواية وقد قتلت لك الأمس رجلاً وتدعوني إلى آخر ثم أقبل إليه فظن الذي من شيعته أنه يريده فذلك قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ يعني يريد أن يضرب القبطي فظن الإسرائيلي أنه يريده بعد ما عاتبه قرأ أبو جعفر المدني يبطش بضم

الطاء وقراءة العامة بالكسر ومعناهما واحد (فظن الإسرائيلي أن موسى يريد ضربه فـ)[١] ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ﴾ وقال بعضهم كان ذلك إبليس تشبه بالرجل الإسرائيلي ليظهر أمر موسى وقال بعضهم: كان ذلك الرجل بعينه فقال ذلك الرجل من الخوف ﴿إِن تُرِيدُ﴾ يعني: ما تريد ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: قتالاً قال الكلبي: من قتل رجلين فهو جبار ويقال: أن من سيرة الجبابرة القتل بغير حق ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ يعني: المطيعين لله تعالى فلما قال الإسرائيلي هذا علم القبطي أن موسى هو قاتل القبطي فرجع القبطي فأخبرهم أن موسى هو القاتل فائتمروا بينهم بقتل موسى قال فأذن فرعون بقتله فجأة خزيلي وهو مؤمن من آل فرعون وأخبر موسى بذلك فذلك قوله ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يعني: من وسط المدينة يمشي على رجليه ويقال يسرع ويشتد في مشيته فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ يعني: الأشراف من أهل مصر ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال أبو عبيد: يعني يتشاورون في أمرك وقال القتبي يعني: يهمون بك ليقتلوك ﴿فَأَخْرُجْ﴾ من هذه المدينة ﴿إِنِّي لَكَ من الناصحينَ﴾ قوله عز وجل ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ أي من مصر ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ يعني: ينتظر الطلب قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني: المشركين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي بوجهه نحو مدين وذلك أن موسى عليه السلام حين خرج وتوجه نحو مدين وكان بينه وبين مدين ثمانية أيام كما بين الكوفة والبصرة ويقال تلقاء مدين يعني: سلك الطريق الذي تلقاء مدين ويقال لما قال رب نجني من القوم الظالمين استجاب الله تعالى دعاءه فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بأن يسير تلقاء مدين فسار إلى مدين في عشرة أيام وهو قوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني: يرشدني قصد الطريق إلى مدين.

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ومدين بن إبراهيم عليهما السلام وكانت البير تنسب إليه الماء وصار مدين اسم قبيلة ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ أي: جماعة ﴿مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أنعامهم وأغنامهم ويقال هم أربعون رجلاً ويقال عشرة رجال ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ يعني: من دون الناس ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تطردان وقال سعيد بن جبير يعني: حابستان ويقال تحبسان غنمهما وقال القتبي: تذودان أي تكفان غنمهما وحذف الغنم اختصاراً ويقال كانتا تحبسان الغنم لكيلا تختلط بغيرها ويقال تحبسان الغنم لتصدر مواشي الناس وتسقيان بفضل الماء ومما فضل من أغنام الناس وهما ابنتا شعيب النبي عليه السلام ﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما ترعيان الغنم مع الرجال وما بالكما لا تسقيان ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر يصدر بنصب الياء وضم الدال وقرأ الباقون يصدر بضم الياء وكسر الدال فمن قرأ

---

(١) سقط في أ.

بالنصب فهو من صدر يصدر إذا رجع من الماء ومعناه لا نسقي حتى يرجع الرعاء ونسقي بفضلهم لأنا لا نقدر أن نسقي وأن نزاحم الرجال إذا صدروا سقينا بفضل مواشيهم ومن قرأ يصدر بالضم فهو من أصدر يصدر والمعنى حتى يصدر الرعاة أغنامهم ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لم يقدر على الخروج وليس له عوناً يعينه غيرنا فرجع الرعاة ووضعوا صخرة على البئر فانتهى موسى إلى البئر وقد أطبقت عليها الصخرة فاقتلعها ثم سقى لهما حتى أروتا أغنامهما وقال في رواية الكلبي كان للبئر دلو يجتمع عليه أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر فجاء موسى أهل الماشية فسألهم أن يهيؤا له دلواً من الماء فقالوا إن شئت أعطيناك الدلو على أن تسقي أنت قال نعم فأخذ موسى عليه السلام الدلو فسقى بها وحده فصب في الحوض ثم قربتا غنمهما فشربت فذلك قوله عز وجل: ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ يعني: أغنامهما ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ يعني: تحول إلى ظل الشجرة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي لما أنزلت إلي من الطعام فأنا محتاج إلى ذلك إنه كان جائعاً فسأل ربه ولم يسأل الناس ففطنت الجاريتان فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة فقال أبوهما هذا رجل جائع وقال لإحداهما اذهبي فادعيه فلما أتته عظمته وغطت وجهها فذلك قوله[1] ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ قوله على استحياء يعني على حياء لأنها كانت مقنعة ولم تك متبرجة ويقال: على استحياء يعني: على حياء لأنها كانت واضعة يدها على وجهها ويقال: على استحياء أي: مستترة بكم درعها (قال: فالوقف على تمشي إذا كان قولها على الحياء فأما إذا كان مشيها على الحياء فالوقف على استحياء والقول بالحياء أشبه من المشي بالحياء فكيف ما يقف يجوز بالمعنى)[2] فقالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال ويقال: أقل من ذلك فتبعها فلم يجد بداً من أن يتبعها لأنه كان بين الجبال خائفاً مستوحشاً فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها وتظهر عجيزتها وجعل موسى عليه السلام يعرض مرة ويغض أخرى فلما عيل صبره ناداها يا أمة الله كوني خلفي وأريني السمت بقولك يعني: دليني الطريق فلما دخل على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء مهيأ فقال له شعيب: اجلس يا شاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال له شعيب: لم لا تأكل أما أنت جائع فقال: بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً فقال: لا يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي إنا نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل وأخبره بقصة القتل والهرب فذلك قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: خرجت من ولاية فرعون ولا سلطان له في أرضنا وقال في رواية الكلبي: كان هذا الرجل اسمه نيرون ابن أخي شعيب وشعيب كان توفي قبل ذلك وقال عامة المفسرين: إن هذا كان شعيباً.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ
إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ
ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في ظ.

جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: قالت إحدى الابنتين التي جاءت به وقال في رواية مقاتل: هي الكبرى وقال في رواية الكلبي: هي الصغرى يا أبت استأجر موسى ليرعى لك الغنم ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ يعني: خير الأجراء من يكون قوياً في العمل أميناً على المال والعورة ثم قال: إيش تعلمين أنه قوي أمين بماذا فأخبرته بالقصة قال أبو الليث: حدثنا محمد بن الفضل قال: حدثنامحمد بن جعفر قال: حدثنا إبراهيم بن يوسف قال: حدثنا أبو معاوية عن الحجاج عن الحكم قال: كان سريع لا يفسر شيئاً من القرآن إلا ثلاث آيات (الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ) قال: الزوج وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب قال: الحكمة: الفقه والعلم وفصل الخطاب: البينة والإيمان وقوله: (إن خير مَن اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) قال: كانت قوته أن يحمل صخرة لا يقوى على حملها إلا عشرة رجال وكانت أمانته أن ابنة شعيب مشت أمامه فوصفتها الريح فقال لها: تأخري وصفي لي الطريق ﴿قَالَ﴾ شعيب لموسى ـ عليهما السلام ـ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ يعني: أزوجك إحدى ابنتي على أن ترعى غنمي ثمان سنين وهذا الحكم في هذه الأمة جائز أيضاً لو تزوج الرجل المرأة على أن يرعى غنمها كذا وكذا سنة أو يرعى غنم ابيها يجوز النكاح ويكون ذلك مهراً لها ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً﴾ (يعني: عشر سنين)[1] ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ يعني: فإن أتممت عشر سنين فبفضلك وليس ذلك بواجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ في السنتين يعني: أنت بالخيار في ذلك ويقال: بأن أشرط عليك العشر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من الوافين بالعهد وقال مقاتل: يعني: من المرافقين بك كقوله: (اخلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِح) يعني: أرفق بهم ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يعني: ذلك الشرط بيني وبينك أيما الأجلين أتممت لك إما الثماني وإما العشر ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا سبيل لك علي ويقال: لا ظلم علي بأن أطالب أكثر منه فإن قيل كيف تجوز الإجارة بهذا الشرط على أحد الأجلين بغير وقت معلوم قيل له العقد قد وقع على الثماني وهو قوله: أن تأجرني ثماني حجج وإنما خير في الزيادة والإجارة بهذا الشرط في الشريعة جائزة أيضاً ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يعني: شهيد فيما بيننا ويقال: شاهد على ما نقول وعلى عقدنا وذكر مقاتل أن رجلاً من الأزد سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيما الأجلين قضى موسى قال الله أعلم حتى سأل جبريل فأتاه جبريل فسأله فقال الله أعلم حتى أسأل إسرافيل ـ عليه السلام ـ فقال الله أعلم حتى أسأل رب العزة فأوحى الله تعالى إلى إسرافيل ـ عليه السلام ـ أن قد قضى موسى أبرهما وأوفاهما[2] وروي عن ابن عباس أنه قال قضى موسى أيم الأجلين وقد كان شرطه له أن ما ولدت في ذلك العام ولداً أبلق فهو له فولدت في ذلك العام كلها بلقا فأخذ البلق، ومثل هذا الشرط في شريعتنا غير واجب إلا أن الوعد من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ واجب فوفاه بوعده فلما أراد أن يخرج قال لشعيب ـ عليه السلام ـ يا شيخ أعطني عصا أسوق بها غنمي فقال لابنته التمسي له عصا فجاءت بعصا شعيب فقال شعيب ـ عليه السلام ـ ردي هذه وكانت تلك العصا أودعها إياه ملك في صورة إنسان وكان من عود آس الجنة فردتها والتمست غيرها فلم يقع في يدها غيرها فأعطته فخرج مع أهله فضل الطريق وكانت ليلة باردة مظلمة فذلك قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ يعني بامرأته ﴿آنَسَ﴾ يعني: أبصر ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امكُثُوا﴾ يعني: قفوا مكانكم ﴿إِنِّي انَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي خبر الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ قرأ عاصم جذوة بنصب الجيم وقرأ حمزة بضم الجيم وقرأ الباقون بالكسر فهذه

---

(١) سقط في أ.

(٢) هي من الإسرائيليات التي لا يلتفت إليها.

لغات[١] معناها واحد وهو قطعة من النار ويقال شعلة وهو عود قد احترق ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تصطلوا من البرد فترك امرأته في البرية وذهب.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ يعني النار ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِيءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ يعني من جانب الواد الأيمن عن يمين موسى - عليه السلام - ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ يعني من الموضع المبارك الذي كلم الله فيه موسى - عليه السلام - ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني الذي يناديك رب العالمين قوله عز وجل: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وقد ذكرناه قال الله تعالى ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ يعني من الحية يعني قد [آمنت أذينا لك][٢] منها مكروه ﴿اسْلُكْ يَدَكَ﴾ أي أدخل يدك ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي يدك قال بعضهم هذا ينصرف إلى قوله ولم يعقب من الرهب أي لم يلتفت من الخوف ويقال كان خائفاً فأمره بأن يضم يده إلى صدره ففعل حتى سكن عن قلبه الرعب قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو من الرهب بنصب الراء والهاء وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الراء وجزم الهاء والباقون الرهب بضم الراء وجزم الهاء ومعنى ذلك كله واحد[٣] وهو الخوف وقال بعضهم هو الكريم ثم قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني اليد والعصا آيتان وعلامتان من ربك وحجتان لنبوتك قرأ ابن كثير وأبو عمرو فذانك بتشديد النون وقرأ الباقون: بالتخفيف[٤] وهما لغتان وهو الإشارة إلى شيئين يقال للواحد ذلك وذاك والاثنين

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢ /٣٤١، حجة القراءات ٥٤٣

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٤٤.

(٤) قال بعض النحويين: إنما شددت النون في الإثنين للتأكيد لأنهم زادوا على نون الإثنين نوناً كما زادوا قبل كاف المشار إليه لاماً للتأكيد فقالوا في (ذاك): (ذلك) فلما زادوا في (ذاك) لامـاً زادوا في (ذانك) نوناً أخرى فقالوا: (ذانك) (وقال آخرون: إن الأصل في (ذانك): (ذاانك) بألفين، فحذفت الألف وجعل التشديد عوضاً من الألف المحذوفة التي كانت في (ذا) ومن العرب من إذا حذف عوض ومنهم من (إذا حـذف) لم يعوض. من عوض آثر تمام الكلمة ومن لم يعوض آثر التخفيف. ومثل ذلك في تصغير (مغتسـل)؛ منهم من يقول (مغيسل) فلا يعوض ومنهم من يقول (مغيسيل) فيعوض من التاء ياء. انظر حجة القراءات ٥٤٤ - ٥٤٥.

ذانك وذانك ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ ومعناه أرسلناك إلى فرعون بهاتين الآيتين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: عاصين ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾ يعني: أبين مني لساناً وكانت في لسان موسى عقدة من النار التي أدخلها فاه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً﴾ أي عوناً ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ يعني: لكي يصدقني ويعبر عن كلامي قرأ نافع ردا بغير همز والباقون بالهمز فمن قرأ بالهمز فهو الأصل ومن قرأ بغير همز فإنما ألقى فتحة الهمزة على الدال ولين الهمزة وقرأ عاصم وحمزة يصدقني بضم القاف والباقون بالجزم[١] فمن قرأ بالجزم جعله جواب الأمر ومن قرأ بالضم جعله صفة ردءاً أي ردءاً مصدقاً ثم قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي فرعون وقومه ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي نقويك بأخيك ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ يعني: حجة ثابتة وهي اليد والعصا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: لا يقدرون على قتلكما ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ يعني: من آمن بكما الغالبون في الحجة.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (يعني: جاء إلى فرعون وقومه بعلاماتنا وذكر في رواية مقاتل أن فرعون لم يأذن لهما إلى سنة وقال)[٢] في رواية السدي وغيره أنه لما جاء إلى الباب لم يأذن له البواب فضرب عصاه على باب فرعون ضربة ففزع من ذلك فرعون وجلساؤه فدعا البواب وسأله فأخبره أن بالباب رجلاً يقول أنا رسول رب العالمين فأذن له فدخل فأدى الرسالة وأراهم العلامة فقالوا هذا سحر فذلك قوله عز وجل ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً﴾ يعني ما هذا الذي جئت به إلا كذب مختلق يعني: الذي جئت به ما هو إلا سحر قد اختلقته من ذات نفسك ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَى﴾ قرأ ابن كثير بغير واو وقرأ الباقون بالواو فمن قرأ بالواو فهو عطف جملة على جملة ومن قرأ بغير واو فهو إستئناف قال موسى ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني أنا جئت بالهدى من عند الله ﴿وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ يعني: هو أعلم بمن تكون له الجنة والنار ويقال بمن يكون له عاقبة الأمر والدولة قرأ حمزة والكسائي: ومن يكون بلفظ التذكير وقرأ الباقون تكون بلفظ التأنيث[٣] ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: لا يأمن الكافرون من عذابه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لأهل مصر ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ فلا تطيعوا موسى وهذه إحدى كلمتيه التي أخذه الله بهما والأخرى (وقال أنا ربكم الأعلى) ثم قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي أوقد النار على اللبن حتى يصير آجراً قال مقاتل وكان فرعون أول من طبخ الآجر وبنى به ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً﴾ أي قطراً طويلاً منه وهو المنارة ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ﴾ السماء ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ يعني: وأقف عليه فبنى الصرح وكان بلاطه خبث القواير وكان الرجل لا يستطيع القيام

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤١، حجة القراءات ٥٤٥ ـ ٥٤٦.

(٢) سقط في ظ.

(٣) النشر في القراءات العشر ٢/٣٤١، انظر حجة القراءات ٥٤٦.

عليه من طوله مخافة أن تنسفه الرياح وكان طوله في السماء خمسة آلاف ذراع وعرضه ثلاثة آلاف ذراع فلما فزع من بنائه جاء جبريل - عليه السلام - فضرب جناحه على الصرح فهدمه ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾ أي أحسب موسى بما يقول أن في السماء إلهاً من الكاذبين.

وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ
يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا
ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ
إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: استكبر فرعون عن الإيمان هو وقومه ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني: بغير حجة ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ﴾ يعني: وحسبوا أنهم ﴿إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت قرأ نافع وحمزة والكسائي لا يرجعون بنصب الياء وكسر الجيم على فعل لأنهم وقرأ الباقون بضم الياء أي لا يردون بمعنى التعدي قول الله تعالى ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ يعني: عاقبناه وجنوده ﴿فَنَبَذْنَاهُم فِي الْيَمِّ﴾ يعني: أغرقناهم في البحر وقال مقاتل في النيل ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ يعني: خذلناهم حتى صاروا قادة ورؤساء للضلال والجهال ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يعني: إلى عمل أهل النار ويقال إلى الضلالة التي عاقبتها النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون من عذابي ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَة﴾ أي: عقوبة وهو الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من المهلكين والعرب؛ تقول قبحه الله أهلكه الله ويقال: وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة وذلك أنهم لما أهلكوا لعنوا فهم يعرضون على النار غدوة وعشية إلى يوم القيامة ويوم القيامة هم من المقبوحين الممقوتين المهلكين ويقال من المقبوحين أي: من المعذبين ويقال إنه قبح صورتهم ويقال: من المقبوحين أي من المشوهين قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطيناه التوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى﴾ بالعذاب أي: من بعد قوم نوح وعاد وثمود ﴿بصائر لِلنَّاسِ﴾ يعني: هلاكهم بصيرة للناس وغيرهم ويقال بصائر يعني الكتاب بياناً لبني إسرائيل ومعناه ولقد آتينا موسى الكتاب بصائر أي مبيناً للناس ﴿وَهُدىً﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به من العذاب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتعظوا فيؤمنوا بتوحيد الله ﴿وَمَا كُنْت بِجَانِبِ الْغَرْبِي﴾ أي: ما كنت يا محمد بناحية الجبل من قبل المغرب ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني: إذ عهدنا إليه بالرسالة ويقال: أحكمنا معه وعمدنا إليه بأمرنا ونبينا ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعني: حاضرين لذلك الأمر ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي الأجل فنسوا عهد الله ونسوا أمره ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: مقيماً في أهل مدين ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: تتلوا على أهل مكة القرآن يعني: أن الله تعالى أعلمك أخبار الأمم الماضية من حديث موسى وشعيب عليهما السلام ليكون علامة لنبوتكم

حيث يخبرك بخبر موسى ولم تكن حاضراً هناك ولم تكن تقرأ القرآن ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إليك لتخبرها بخبر أهل مدين وبخبر موسى ويقال: (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) يعني: أرسلناك رسولاً وأنزلنا هذه الأخبار لتخبرهم لولا ذلك لما علمتها.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ يعني: بناحية الجبل الذي كلم الله به موسى يعني عن يمين موسى ولولا ذلك ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ يعني: كلمنا موسى ويقال: إذ نادينا أمتك وذلك أن الله تعالى لما وصف نعت أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأحب موسى أن يراهم قال الله تعالى لموسى إنك لن تراهم وإن أحببت أسمعتك كلامهم فأسمعه الله تعالى كلامهم وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى قوله: (إذ نادينا) يعني نودوا يا أمة محمد أعطيهم قبل أن تسألوني واستجبت لكم قبل أن تدعوني[1] وروي أن عمر عن ابن مدرك[2] عن أبي زرعة قال نرفع الحديث في قوله: وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال: نودي يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني (وعن عمرو بن شعيب قال سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا» ما كان النداء وما كانت الرحمة قال كتاب كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خلقه بألفي عام وستمائة عام على ورقة أمن ثم وضعه على عرشه ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أدخلته[3] الجنة[4]) ثم قال ﴿وَلَكِنْ رَّحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: القرآن نعمة من ربك حيث اختصصت به نصب رحمة لأن معناه فعلنا ذلك للرحمة كقوله: فعلت ذلك ابتغاء الخير يعني لابتغاء الخير ثم قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ﴾ يعني: لم يأتهم ﴿مِن نَذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: لم يأتهم رسول من قبلك وهم أهل مكة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: لكي يتعظوا قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ يعني: عقوبة ونقمة وفي الآية تقديم، ومعناها لولا أن يقولوا ربنا لولا أرسلت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٢٩ وعزاه للفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.
(٢) علي بن مدرك النخعي أبو مدرك الكوفي ثقة مات سنة ١٢٠ هـ. التقريب ٢/ ٤٤.
(٣) أخرجه البخاري مختصراً ١٣/ ٥٣٢ كتاب التوحيد (٧٥٥٣)، ومسلم ٤/ ٢١٠٨ كتاب التوبة (١٥/ ٢٧٥١).
(٤) سقط في ظ.

إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين لعذبوا في الدنيا ولأصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهذا هو قول مقاتل ويقال معناه: لولا أن يصيبهم عذاب ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لعذبوا في الدنيا فيكون جوابه مضمراً، ويقال: معناه لو إني أهلكتهم قبل إرسالي إليك لقالوا يوم القيامة ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك أي: يقولوا لولا ذلك لم نحتج إلى إرسال الرسل فأرسلناك لكي لا يكون لهم حجة علي ثم قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني: الكتاب والرسل ﴿قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من قبل يعني هلا أعطي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن جملة واحدة كما أعطي موسى التوراة جملة يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: بالتوراة فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعني: تعاونا وذلك أن أهل مكة سألوا اليهود عنه فأخبروهم أنهم يجدون في كتبهم نعته وصفته فأمروهم بأن يسألوه عن أشياء فلما أجابهم قالوا: ساحران تظاهرا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدين قرأ حمزة والكسائي وعاصم سحران بغير ألف عنوا محمداً وموسى عليهما السلام ويقال: التوراة والفرقان ويقال: التوراة والإنجيل وقال سعيد بن جبير: يعني: موسى وهارون عليهما السلام ويقال موسى وعيسى عليهما السلام واحتج من يقرأ بغير ألف بما في سياق الآية ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ واحتج من قرأ بالألف بقوله تعالى تظاهرا تعاونا والتظاهر يكون بالناس يقول الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لهم فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه يعني: من التوراة والقرآن اتبعه أي أعمل به ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنهما ساحران ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ يعني: إن لم يجيبوك إلى الإثبات بالكتاب ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعبادة الأوثان ويقال: يؤثرون أهواءهم على الدين ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ يعني ومن أضر بنفسه ﴿مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: بغير بيان من الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يريد كفار مكة يعني: لا يرشدهم إلى دينه.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ينالهم في القرآن خبر الأمم الماضية كيف عذبوا لعلهم يتذكرون: أي لكي يخافوا فيؤمنوا بما في القرآن ويقال ولقد وصلنا لهم القول أي وصلنا لهم الكتب بعضها ببعض يعني: بعثنا بعضها على إثر بعض، ويقال: ولقد وصلنا أي أوصلنا لهم القول يعني: أنزلنا لهم القرآن آية بعد آية أنه هداية لعلهم يتذكرون يعني: لكي يتعظوا ثم وصف مؤمني أهل الكتاب فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: من قبل القرآن ﴿هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب وهم أربعون رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين قبل أن يبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اثنان وثلاثون من أهل أرض الحبشة قدموا مع جعفر الطيار وثمانية من أهل الشام ويقال إنهم ثمانية عشر رجلاً: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي صدقنا ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ يعني: القرآن وذلك أنهم عرفوا بما ذكر في كتبهم من نعت النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ وصفته وكتابه فقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يعني: من قبل هذا القرآن ومن قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كنا مخلصين ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: يعطون ثوابهم ضعفين مرة بكتابهم ومرة بـإيمانهم بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني: بصبرهم على ما أوتوا ويقال: بما صبروا أي بصبرهم على دينهم الأول وبما صبروا على أذى المشركين فصدقوا وثبتوا على إيمانهم حيث قال لهم أبو جهل وأصحابه: ما رأينا أحداً أجهل منكم تركتم دينكم وأخذتم دينه فقالوا ما لنا لا نؤمن بالله فذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون قول المشركين بالمعروف ويقال: يدفعون الشرك بـالإيمان ويقـال: يدفعون بالكلام الحسن الكلام القبيح ويقـال يـدفعون ما تقدم لهم من السيآت بما يعملون من الحسنات ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ يعني: إذا سمعوا الشتم والأذى والقبيح لم يردوا عليهم ولم يكافئوهم به ولم يلتفتوا إليه يعني إذا شتمهم الكفار لم يشتغلوا بمعارضتهم بالشتم ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ يعني: ديننا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ يعني: دينكم ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ورددوا معروفاً عليهم ليس هذا تسليم التحية وإنما هو تسليم المتاركة والمسالمة أي بيننا وبينكم المتاركة والمسالمة وهذا إن يؤمر المسلمون بالقتال ويقال السلام عليكم يعني: أكرمكم الله تعالى بالإسلام ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: لا نطلب دين الخاسرين ولا نصحبهم ويقال: هذه الآية مدنية نزلت في شأن عبد الله بن سلام وروى أسباط عن السدي قال لما أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال يا رسول الله ابعث إلى قومي فاسألهم عني فبعث إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فستر بينهم وبينه ستراً، وقال: أخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم قالوا ذاك سيدنا وأعلمنا قال أرأيتم إن آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني قالوا هو أفقه من أن يدع دينه ويتبعك قال أرأيتم إن فعل قالوا لا يفعل قال أرأيتم إن فعل قالوا إنه لا يفعل ولو فعل إذا نفعل فقال عليه السلام: أخرج يا عبد الله فخرج فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فوقعوا فيه وشتموه وقالوا ما فينا أحد أقل علماً ولا أجهل منك قال ألم تثنوا عليه آنفاً قالوا: إنا استحينا أن نقول اغتبتم صاحبكم فجعلوا يشتمونه وهو يقول (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) فقال ابن يا مني وكان من رؤساء بني إسرائيل: أشهد أن عبد الله بن سلام صادق فابسط يدك يا محمد فبسط يده فبايع ابن يامني مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1] فنزل (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ) إلى قوله (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وإلى قوله لا نبتغي الجاهلين.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ
الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن
لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ
مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ
يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾
وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ١٣٣/٥ وعزاه لابن أبي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يعني: لا ترشد من أحببته إلى الهدى. ويقال من أحببت هدايته إلى دينك وذلك أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا عماه قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه ويكلمه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى مات على الكفر فنزل (إنك لا تهدي من أحببت)[١] بهدايته ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يرشد من يشاء إلى دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يعني: بمن قدر له الهدى قوله عز وجل: ﴿وقالوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ يعني: الإيمان بك ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: نسبى ونخرج من مكة لإجماع العرب على خلافنا وهذا قول الحارث ابن عامر النوفلي حين قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كذبت كذبة قط فنتهمك اليوم ولكن متى ما نؤمن بك فتحسنا العرب من أرضنا[٢] يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾ يعني: أولم ننزلهم مكة حرماً أميناً يعني: كان الحرم أمناً لهم في الجاهلية من القتل والسبي وهم يعبدون غيري فكيف يخافون إن أسلموا أن لا يكون الحرم أمناً لهم فذلك قوله أولم نمكن لهم يعني أولم ننزلهم مكة حرماً آمناً من الغارة والسبي ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ﴾ بالتاء يعني: يحمل إليه ﴿ثَمَرَاتُ كُلِ شَيْءٍ﴾ أي من ألوان الثمرات (قرأ نافع تجبى بالتاء لأن الثمرات)[٣] مؤنثة وقرأ الباقون بالياء[٤] لتقديم الفعل ثم قال: ﴿رِزْقاً مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يأكلون رزقي ويعبدون غيري وهم آمنون في الحرم ويقال لا يعلمون أن ذلك من فضل الله عليهم ثم خوفهم فقال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ فيما مضى ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ كفرت برزق ربها ذكر القرية وأراد به أهل القرية يعني أنهم كانوا ينقلبون في رزق الله تعالى فلم يشكروه في نعمته ويقال بطرت معيشتها يعني: طغوا في نعمة الله فأهلكم الله تعالى بالعذاب في الدنيا ويقال عاشوا في البطر وكفران النعم ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ﴾ يعني: انظروا واعتبروا في بيوتهم وديارهم بقيت خالية ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وهم المسافرون ينزلون بها يوماً أو ساعة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين﴾ أي نرث الأرض ومن عليها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ يعني: لم يعذب أهل القرى ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ يعني: معظمها ويقال في أكبر قراها ويقال أم القرى مكة قرأ حمزة والكسائي في أمها بكسر الألف والباقون بالضم ومعناهما واحد يبعث في أمها رسولاً ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ يعني: لم نهلكها إلا بظلم أهلها ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما أعطيتم من مال ويقال ما أعطيتم من الدنيا فهو ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: فهو متاع الحياة الدنيا ينتفعوا بها أيام حياتهم ﴿وَزِينَتُهَا﴾ يعني: وزهراتها ولا تبقى دائماً ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب والجنة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني: أفضل وأدوم لأهله مما أعطيتم في الدنيا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي خير من الفاني قرأ عمرو يعقلون بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء[٦] على معنى المخاطبة.

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٣٦٥ كتاب التفسير باب إنك لا تهدي من أحببت (٤٧٧٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٣ ونسبه لعبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٤ وعزاه للنسائي وابن المنذر.

(٣) سقط في ظ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٤٨، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٢.

(٥) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٢، حجة القراءات ٥٤٨.

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ
ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾
وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ يعني الجنة ﴿فَهُوَ لاَقِيهِ﴾ يعني: مدركه ومصيبه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالمال ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار هل يستوي حالهما قال في رواية الكلبي نزل في عمار بن ياسر وأبي جهل بن هشام. وقال غيره هذا في جميع المؤمنين وجميع الكافرين ويقال نزلت في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي أبي جهل يعني من كان له في هذه الدنيا عدة مع دين الله خير ممن كان له سعة وفرج مع الشرك ثم هو يوم القيامة من المحضرين يعني من المعذبين في النار وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني واذكر يوم يدعوهم يعني المشركين ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ﴾ يعني المشركين ﴿كُنتُم تَزْعُمُونَ﴾ لهم شركاتي في الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وجبت عليهم الحجة فوجب عليهم العذاب ويقال وجب عليهم القول وهو قوله ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ ﴿رَبَّنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ يعني القادة يقولون ربنا هؤلاء الذين أضللنا يعني السفلة أغويناهم ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أضللناهم كما كنا ضالين ويقال: يقول الكافرون ربنا هؤلاء الذين أغوينا يعني الشياطين فقالت الشياطين أغويناهم يعني أضللناهم كما غوينا أي أضللنا ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ يعني: ما كانوا يأمرونا بعبادة الآلهة ﴿وَقِيلَ﴾ للكفار ﴿ادْعُوا شُرَكَائَكُمْ﴾ يعني آلهتكم التي تعبدون من دون الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ يقول الله عز وجل: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُم كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ يعني يودون لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا ويقال يودون أن لم يكونوا اتبعوهم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم أي لم يجيبوهم بحجة تنفعهم فيودون أنهم لم يعبدوهم لما رأوا العذاب ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيْهِمْ﴾ يعني يسألهم يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ في التوحيد ﴿فَعَمِيَت عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ﴾ يعني ألبست عليهم الحجج ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من الهول ﴿فَهُمْ لاَ يَتَسَآءلون﴾ يعني: لا يسأل بعضهم بعضاً عما يحتجون به رجاء أن يكون عنده من الحجة ما لم يكن عند غيره لأن الله تعالى ادحض حجتهم وفي الدنيا إذا اشتبهت عليه الحجة ربما يسأل عن غيره فيلقنه الحجة وفي الآخرة آيس من ذلك.

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا
تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ
ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ
ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم قال الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ يعني: من الشرك ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الناجين الفائزين بالخير قوله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ وذلك إن الوليد بن المغيرة كان يقول لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ يعني به نفسه وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف فقال تعالى «وربك يخلق ما يشاء ويختار» للرسالة من يشاء ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ يعني: ليس (الخيار إليهم ويقال هو ربك يخلق ما يشاء ويختار لهم ما يشاء ما كان لهم الخيرة أي ما كان لهم طلب الخيار والأفضل ويقال ما كان لبعضهم على بعض فضل والله تعالى هو الذي يختار وقال الزجاج الوقف على قوله ويختار والمعنى وربك يخلق ما يشاء ويختار ثم قال ما كان لهم الخيرة أي لم يكن لهم أبداً)(١) يختاروا على الله ويكون ما للنفي قال ووجه آخر أن تكون بمعنى الذي يعني وربك يخلق ما يشاء ويختار الذي لهم الخيرة أن يدعوهم إليه من عبادته ما لهم فيه الخيرة، ويقال: ما كان لهم الخيرة يعني: ليس لهم أن يختاروا على الله عز وجل وليس إليهم الإختيار، والمعنى لا نرسل الرسل إليهم على اختيارهم ثم قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي تنزيهاً لله ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: ما تضمر وتسر قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من القول ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق غيره ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ أي في الدنيا والآخرة وقال مقاتل: يعني يحمده أولياؤه في الدنيا ويحمدونه في الجنة ويقال له الألوهية في الدنيا والآخرة وله الحكم. يعني: نفاذ الحكم والقضاء يحكم في الدنيا والآخرة بما يشاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ﴾ يعني ألا تنظرون إلى نعمة الله تعالى في خلق الليل والنهار لمصلحة الخلق فلو جعل ﴿عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً﴾ أي دائماً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ المواعظ وتعتبرون بها قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني دائماً ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ يعني: تقرّون تريحون فيه ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ من يفعل ذلك بكم لأن العيش لا يصلح إلا بالليل والنهار فأخبر عن صنعه لمصلحة الخلق ليشكروه ويوحدوه ويعبدوه فقال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي ومن نعمته وفضله ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يعني في الليل وجعل لكم النهار ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ يعني: لتطلبوا من رزقه في النهار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون رب هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني: (أنذرهم) بذلك اليوم ويقال معناه اذكر ذلك اليوم الذي يناديهم أي يدعوهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ انها لي شريك ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي أخرجنا من كل أمة نبيها ورسولها (شَهِيْداً) بالرسالة والبلاغ ﴿فَقُلْنَا﴾ للمشركين ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم بأن معي شريكاً فلم يكن لهم حجة ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ يعني أن عبادة الله هي الحق ويقال علموا أنه التوحيد لله ويقال أن الحق ما دعا إليه الله وأتاهم به الرسول ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني:

---

(١) سقط في أ.

اشتغل عنهم بأنفسهم ما كانوا يفتدون يعني يكذبون في الدنيا يعني الأصنام ويقال يعني: الشياطين ويقال وضل عنهم ما كانوا يفترون يعني تشفعوا بما عبدوه من دون الله.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ
أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى
ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ
قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ
ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ
لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ
بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ يعني من بني إسرائيل ويقال كان ابن عم موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: تطاول وتكبر على بني إسرائيل وكان فرعون قد ملكه على بني إسرائيل حين كانوا بمصر فلما قطع موسى البحر ببني إسرائيل ومعه قارون فأغرق الله تعالى فرعون وجنوده يرجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض مصر وسكنوا ديارهم كما قال في رواية أخرى «وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» وجعلت (جنوده لهارون)[1] وهو الرأس والذي بقرب القربان، فقال قارون لموسى لك النبوة ولهارون الحبورة والمذبح وأنا لست في ذلك من شيء فقال له موسى أنا لم أفعل ذلك ولكن الله تعالى فعل ذلك فقال له قارون لا أصدقك على ذلك واعتزل قارون ومن تبعه من بني إسرائيل وكان كثير المال والتبع وروى عن الحسن أنه قال أول من شرف الشرف قارون لما بنى داره وفرغ منها وشرفها صنع للناس طعاماً سبعة أيام يجمعهم كل يوم ويطعمهم وروي عن ابن عباس أنه قال لما أمر الله تعالى موسى بالزكاة قال لقارون إن الله أمرني ان اخذ من مالك الزكاة فأعط من كل مائتي درهم خمسة دراهم فلم يرض بذلك فقال له اعط من كل ألف درهم درهماً فلم يرض بذلك وقال لبني إسرائيل إن موسى لم يرض حتى تناول أموالكم فما ترون قالوا رأينا لرأيك تبع قال: فإني أرى أن ترموه فتهلكوه فبعثوا إلى امرأة زانية فأعطوه حكمها على أن ترميه بنفسها ثم أتوه في جماعة بني إسرائيل فقالوا يا موسى ما على من يسرق من الحد، قال: تقطع يده قالوا

---

(١) سقط في أ.

وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا، قالوا وما على الزاني إذا زنا، قال: يرجم قالوا وإن كنت أنت قال وإن كنت أنا قالوا فأنت قد ازنيت قال أنا، وجزع من ذلك فأرسلوا إلى المرأة فلما جاءت وعظها وعظم عليها موسى الحلف بالله وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت قالت أما إذا حلفتني فإني أشهد أنك بريء وإنك رسول الله وقالت أرسلوا إليَّ فأعطوني حكمي على أن أرميك بنفسي قال: فخر موسى عليه السلام لله ساجداً يبكي فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك قد أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت فقال موسى خذيهم فأخذتهم[١] وقال في رواية الحسن خرج موسى عليه السلام مغضباً فدعى الله عز وجل: وقال: عبدك قارون الذي عبد (غيرك) دونك وجحدك فأوحى الله تعالى إلى موسى أني قد أمرت الأرض بأن تطيعك فجاء موسى حتى دخل إلى قارون حين اجتمع الناس في داره فقال يا عدو الله كذبتني بكلام له غيظ حتى غضب قارون وأقبل عليه بكلام شديد وهم به فلما رأى موسى ذلك قال يا أرض خذيهم قالوا: وكان قارون على فرش على سرير مرتفع في السماء فأخذت الأرض أقدامهم وغاب سريره ومجلسه وقد دخل من الدار في الأرض مثل ما أخذت منهم على قدرها فأقبل موسى يوبخهم ويغلظ لهم المقالة فلما رأى القوم ما نزل بهم عرفوا أن هذا الأمر ليس لهم به قوة فنادوا يا موسى كف عنا وارحمنا وجعلوا يتضرعون إليه ويطلبون رضاه وهو لا يـزداد إلا غضباً وتوبيخاً لهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فجعلوا يتضرعون إليه ويسألونه وهو يوبخهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أوساطهم وكانت الأرض تأخذ من الدار كل مرة مثل ما تأخذ منهم وهم يتضرعون في ذلك إلى موسى ويسألونه ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى آباطهم فمدوا أيديهم إلى وجه الأرض رجاء أن يمتنعوا بها ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فلم يبق على وجه الأرض منهم شيء إلا رؤوسهم ولم يبق من الدار إلا شرفها وقال قارون يا موسى أنشدك بالله وبالرحم فقال يا أرض خذيهم فاستوت الأرض عليهم وعلى الدار فانطلق موسى وهو فرح بذلك فأوحى الله تعالى إلى موسى يا موسى يتضرع إليك عبادي ودعوك وسألوك فلم ترحمهم أما وعزتي وجلالي لو أنهم سألوني واستغاثوا بي لرحمتهم ولكن تركوا أن يجعلوا رغبتهم ورجاءهم إلي وجعلوها إليك فتركتهم فذلك قوله تعالى: إن قارون كان مـن قـوم مـوسى (فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) يعني تطاول على بني إسرائيل وعلى موسى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ يعني: من المال ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ يعني خزائنه ﴿لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ﴾ قال مقاتل العصبة من العشرة إلى أربعين فإذا كانوا أربعين فهم أولوا قوة يقول لتعجز العصبة أولـو القوة عن حمل مفاتيح الخزائن وقال أهل اللغة ناء به الحمل إذا أثقله وقال القتبي تنوء بالعصبة أي تميل بها العصبة أي تميل بهم العصبة إذا حملتها من ثقلها وقال ابن عباس في رواية أبي صالح العصبة في هذا الموضوع أربعون رجلاً وخزائنه كانت أربع ماية ألف ما يحمل كل رجل منهم عشرة إلا أن[٢] ويقال مفاتحه يعني: مفاتيح خزاينه يحملها أربعون رجلاً ويقال أربعون بغلاً وروى وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال كان مفاتيح كنوز من جلد كل مفتاح مثل الإصبع كل مفتاح على خزانة على حدة فإذا ركب حمل المفاتيح على ستين بغلاً كل بغل أغر محجل[٣] ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ يعني لا تفخر بما أديت من الأموال ويقال لا تفرح بكثرة المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ يعني المرحين المفاخرين، ويقال: البطرين، ويقال: لا تفرح أي لا تأشر والأشر أشد الفرح الذي يخالطه حرص شديد حتي يبطر يعني يطغى وقالوا له ﴿وَابْتَغِ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٦/٥ وعزاه لابن أبي شيبة في المنصف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه بنحوه عن ابن عباس.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٧/٥ وعزاه لابن أبي حاتم بنحوه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٣٦/٥ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ يعني أطلب مما أعطاك الله من الأموال والخير ﴿الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ يعني لا تترك حظك من الدنيا أن تعمل لآخرتك ﴿وَأَحْسِنْ﴾ العطية من الصدقة والخير ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ يعني أعط الناس كما أعطاك الله ويقال أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني أنفقه في طاعة الله ولا تنفقه في معصية الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي المنفقين في المعصية (وقوله «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك في الدنيا» أي لا تضيع عمرك فإنه نصيبك من الدنيا ﴿قَالَ﴾[١] قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ قال مقاتل أي على خير علمه الله عندي[٢]) وقال في رواية الكلبي يعني: علم التوراة وكان قارون اقرأ رجل في بني إسرائيل في التوراة فأعطيت ذلك لفضل علمي وكنت بذلك العلم ومستحقاً بفضل المال ويقال على علم عندي يعني علم الكيميا وكان يعمل كيميا الذهب وقال الزجاج الطريق الأول أشبه لأن الكيميا لا حقيقة لها يقول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ تعالىٰ ﴿قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾ من الأموال منهم نمرود وغيره ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾يعني: لا يسأل الكافرون عن ذنوبهم لأن كل كافر يعرف بسيماه وهذا قول الكلبي وقال مقاتل لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية وقيل لا يسأل الكافرون يوم القيامة عن ذنوبهم سؤال النجاة بل يسألون سؤال العذاب والمناقشة قوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ يعني خرج قارون على بني إسرائيل(قال مقاتل: وهو على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليها أرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء عليهن من الحلل والثياب الحمر على البغال الشهب وقال قتادة خرج معه أربعة ألاف دابة عليها ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء عليها قطائف أرجوان[٣] وقال في رواية الكلبي خرج على ثلثمائة دابة بيضاء عليها نوع من الكساء وعليها ثلثمائة قطيفة حمراء عليها جواري وغلمان ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وكانوا من أهل التوحيد ﴿يَا لَيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ يعني مثل ما أعطي من الأموال قارون ﴿إِنَّهُ لَـذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقول ذو نصيب وافر في الدنيا. قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني أكرموا بالعلم بما وعد الله في الآخرة للذين تمنوا ذلك ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ يعني: ويحكم ثواب الله في الآخرة خير يعني أفضل ﴿لمن آمن﴾ يعني: صدق بتوجيه الله تعالى ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ فيما بينه وبين الله تعالى مما أعطى قارون في الدنيا ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا﴾ يعني ولا يلقن ولا يوقف ويرزق في الجنة ﴿إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ في الدنيا على أمر الله تعالى ويقال ولا يلقاها أي لا يعطى الأعمال الصالحة إلاَّ الصابرون على الطاعات وعن زينة الدنيا ويقال ولا يلقاها يعني ولا يلقن)[٤] بهذه الكلمة إلاَّ الصابرون عن زينة الدنيا يقول الله تعالى.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾ يعني قارون ﴿وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ يعني: بقارون وبداره وأمواله فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل إلى يوم القيامة ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: لم يكن له جنة وأعوان يمنعونه من عذاب الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ يعني: وما كان قارون من الممتنعين مما نزل به من عذاب الله.

قوله عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ حين رأوه في زينته وقالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم بنحوه عن قتادة.

(٢) سقط في ظ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه بنحوه.

(٤) سقط في ظ.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ قال القتبي قد اختلف في هذه اللفظة فقال الكسائي معناها ألم تر أن الله يبسط ويكأنه يعني ألم تر أنه لا يفلح الكافرون روى عبد الرازق عن معمر عن قتادة أنه قال ويكأن الله يعني أو لا يعلم أن الله ﴿يَبْسُطُ﴾ وهذا شاهد يقول الكسائي وذكر الخليل بن أحمد أنها مفصولة وي ثم يبتدىء فيقول كأن الله وقال ابن عباس في رواية أبي صالح كان الله يبسط ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كأنه لا يفلح الكافرون وقال وي صلة في الكلام وهذا شاهد لقول الخليل وقال الزجاج الذي قاله الخليل أجود وهو أن قوله وي مفصولة من كان لأن من يدم على شيء يقول وي يعاتب الرجل على ما سلف يقول: وي كأنك تصدت مكروهاً وقال مقاتل معناه ولكن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴿مِن عِبَادِهِ﴾ يعني: يوسعه على من يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يقتر ويقال ويضيق على من يشاء يعني: لولا أن الله من علينا لكنا مثل قارون في العذاب ﴿لَوْلاَ أن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بنا﴾ معهم ويقال لولا من الله علينا بالإيمان لكنا مثل قارون في العذاب ويقال لولا أن من الله علينا يعني: عصمنا مثل ما كان عليه من البطر والبغي لخسف بنا كما خسف به قال قرأ عاصم في رواية حفص بنصب الخاء وكسر السين لخسف الله بنا وقرأ الباقون بالضم على فعل ما لم يسم فاعله[1] ﴿ويكَأَنَّهُ﴾ يعني: ولكنه ﴿لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾ أي الجاحدون للنعم.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن
جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ
وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ
رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ﴾ يعني: الجنة ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأَرْضِ﴾ يعني: نعطيها للذين لا يريدون تعظيماً وتكبراً وتجبراً فيها عن الإيمان ﴿وَلاَ فَسَاداً﴾ في الأرض يعني: لا يريدون المعاصي في الدنيا وروى وكيع عن سفيان عن مسلم[2] البطين لا يريدون علواً في الأرض يعني: التكبر بغير حق ولا فساداً قال أخذ المال بغير حق[3] ويقال العلو الخطرات في القلب والفساد فعل الأعضاء ﴿وَالْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: الجنة للذين يتقون الشرك والمعاصي ويقال عاقبة الأمر وما يستقر عليه للمتقين الموحدين ويقال في العاقبة المحمودة للمتقين قوله عز وجل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ يعني: بكلمة الإخلاص وهي قول لا إله إلا الله ﴿فَلَهُ خَيْرٌ

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٤٩.
(٢) مسلم بن عمران البطين ويقال ابن أبي عمران أبو عبد الله الكوفي ثقة التقريب ٢/٢٤٦.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٣٩ للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿مِنْهَا﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى﴾ يعني: لا يثاب ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: يصيبهم بأعمالهم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ يعني: أنزل عليك (القرآن) ويقال أمرك بالعمل بما في القرآن ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الموت[(١)] وقال السدي إلى معاد يعني الجنة وهكذا روي عن مجاهد وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال يعني إلى مكة[(٢)] وقال القتبي معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البلاد وينصرف في الأرض ثم يعود إلى بلده والعرب تقول رد فلان إلى معاده يعني إلى بلده وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - حين خرج من مكة إلى المدينة اغتم لمفارقته مكة لأنها مولده وموطئه ومنشأه وبها عشيرته واستوحش فأخبر الله تعالى في طريقه أنه سيرده إلى مكة وبشره بالظهور والغلبة ثم قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ أي يعني: بالرسالة والقرآن وذلك حين قالوا إنك في ضلال مبين ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وذلك حين قالوا فنزل قل ربي أعلم من جاء بالهدى يعني: فأنا الذي جئت بالهدى وهو يعلم بمن هو في ضلال مبين نحن أو أنتم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ يعني: أن يلقى وينزل عليك القرآن ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ويقال في الآية تقديم ومعناه أن الذي فرض عليك القرآن يعني: جعلك نبياً ينزل عليك القرآن وما كنت ترجو قبل ذلك أن تكون نبياً بوحي إليك لرادك إلى معاد إلى مكة ظاهراً قاهراً ويقال إلا رحمة من ربك يعني لكن دين ربك رحمة واختارك لنبوته وأنزل عليك الوحي ثم قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ يعني: عوناً للكافرين حين دعوه إلى دين ابائه ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: لا يصرفنك عن آيات الله القرآن والتوحيد ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: بعد ما أنزل إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني: أدع الخلق إلى توحيد ربك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: لا تكونن مع المشركين على دينهم ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا تعبد غير الله ثم وحد نفسه فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني: لا خالق ولا رازق غيره ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ يعني: تهلك جميع الأشياء إلا الله فإنه لم يزل ولا يزال ويقال كل شيء هالك إلا وجهه أي كل عمل هالك لا ثواب له إلا ما يراد به وجه الله عز وجل ويقال كل شيء متغير إلا ملكه فإن ملكه لا يتغير ولا يزال إلى غيره أبداً ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي له القضاء وله نفاذ الأمر والحكم على ما يريد ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة ليجازيكم بأعمالكم وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال من قرأ سورة القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة إنه كان صادقاً في قوله كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (صدق الله جل ربنا وهو أصدق الصادقين وصدق رسله قوله صدق ووعده حق)[(٣)]

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٤٠ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٤٠ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٣) سقط في ظ.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ(١)

ستون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿آلٓم أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ يعني: أيظن الناس ﴿أن يُترَكُوا﴾ يعني: أن يمهلوا ﴿أن يَقُولُوا آمَنَّا﴾ أي: صدقنا ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يعني: لا يبتلون قال في رواية الكلبي لما نزلت هذه الآية (قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا جبريل ما بقاء أمتي على هذا فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ فادع الله لأمتك فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم سأل ربه عز وجل أن لا يبعث عليهم العذاب قال فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال يا محمد إن الله عز وجل قد أجار أمتك من خصلتين وألزمهم خصلتين قال فعاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتوضأ ثم صلى فأحسن الصلاة ثم سأل ربه عز وجل لأمته أن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال يا محمد قد سمع الله عز وجل مقالتك فإنه يقول: ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك فصدقهم مصدقون وكذبهم مكذبون ثم لم يمنعنا أن نبتليهم بعد قبض أنبيائهم ببلاء يعرف فيه الصادق من الكاذب ثم نزل قوله عز وجل «ألم أحسب الناس» الآية. قال مقاتل في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول قتيل قتل من المسلمين يوم بدر وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع أبواه وأمرأته وقد كان الله بين للمسلمين أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات الله عز وجل فنزل «ألم أحسب الناس أن يتركوا» وقال بعضهم لما أصيب المسلمون يوم أحد وكانت الكرة عليهم فعيرهم اليهود والنصارى والمشركون فشق ذلك على المسلمين فنزلت هذه الآية ويقال نزلت في عباس بن أبي ربيعة وفي نفر معه أخذهم المشركون وعذبوهم على الإسلام فنزلت

---

(١) هذه السورة تثبيت للمسلمين الذين فتنهم المشركين وصدوهم عن الإسلام أو عن الهجرة مع من هاجروا. ووعد الله بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم وملقنيهم من أهل الكتاب. والأمر بمجافاة المشركين والابتعاد منهم ولو كانوا أقرب القرابة. ووجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين وأن لهم في سعة الأرض ما ينجيهم من أذى أهل الشرك. ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم للمسلمين. وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام. والتأسي في ذلك بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بمثل ما جاؤوا به. وما تخلل أخبار من ذكر فيها من الرسل من العبر والإستدلال على أن القرآن منزل من عند الله بدليل أمية من أنزل عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتذكير المشركين بنعم الله عليهم ليقلعوا عن عبادة ما سواه وإلزامهم بإثبات وحدانيته بأنهم يعترفون بأنه خالق من في السموات ومن في الأرض. والاستدلال على البعث بالنظر في بدء الخلق وهو أعجب من إعادته. وإثبات الجزاء على الأعمال. وتوعد المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتة وهم يتهكمون باستعجاله. وضرب المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون الله بمثل وهي بيت العنكبوت. انظر التحرير ٢٠/٢٠١.

هذه الآية ويقال نزلت في جمع المسلمين ومعناه أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ثم لا يفرض عليهم الفرائض، وقال الزجاج: هذا اللفظ لفظ الإستخبار والمعنى تقرير وتوبيخ معنى أحسب الناس أن يقنع منهم بأن يقولوا آمنا فقط ولا يختبروا ويقال أن لا يعذبوا في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: اختبرنا الذين كانوا من قبل هذه الأمة وابتليناهم ببلايا ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ يعني: إنما يبتليهم ليبين الذين صدقوا من المؤمنين في إيمانهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ منهم فشكوا عند البلاء ويقال: معناه ليبين صدق الصادق وكذب الكاذب بوقوع صدقه ووقوع كذبه وقال القتبي: يعني ليميزن الله الذين صدقوا ويميز الكاذبين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ﴾ يعني: الشرك والمعاصي ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ يعني: أن يفوتونا، ويقال: يعجزونا، ويقال: يهربوا منا فلا نجازيهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يعني: بئس ما يقضوا لأنفسهم، قال الكلبي: نزلت في عتبة وشيبة والوليد بن عتبة بارزوا يوم بدر فبارزهم من المسلمين علي وحمزة وعبيدة بن الحارث فنزل في شأن مبارزي المسلمين ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾ يعني: الآخرة لكائن ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ السميع لمقالتهم، العليم بهم وبأعمالهم وقوله عز وجل: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: علي بن أبي طالب وصاحباه رضي الله عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾ يعني: عن نصرة العالمين يوم بدر ويقال نزلت في جميع المسلمين من كان يرجو لقاء الله أي يخاف الآخرة، ويقال: يخاف الموت فيستعد للآخرة والموت بالعمل الصالح، فإن أجل الله لآت ويعني كائن وهو السميع لدعائهم العليم بأمر الخلق ومن جاهد يعني: عمل الخيرات فإنما يجاهد لنفسه يعني: ثوابه لنفسه إن الله لغني عن العالمين يعني: عن أعمالهم فإنما ثوابهم لأنفسهم ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: لنمحون عنهم ﴿سَيِّآتِهِمْ﴾ يعني: ذنوبهم ويقال لنجزينهم يعني: ثواباً أفضل من أعمالهم لكل حسنة عشرة وأكثر، ويقال: لنجزينهم يعني: لنثيبنهم أحسن الذي كانوا يعملون أي أفضل من أعمالهم يعني يجازيهم بأحسن أعمالهم الذي كانوا يعملون في الدنيا فذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ يعني: ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يحسن يعني: براً بهما وقال الكلبي نزلت الآية في سعد بن أبي وقاص لما أسلم قالت له أمه: يا سعد بلغني أنك صبوت إلى دين محمد فوالله لا يظلني سقف بيت وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد، وترجع إلى دينك الذي كنت عليه فأبى عليها ذلك فثبتت على حالها لا تطعم ولا تشرب ولا تسكن بيتاً فلما خلص إليها الجوع لم تجد بداً من أن تأكل وتشرب[1] فحث الله سعد بالبر إلى أمه ونهاه أن يطيعها على الشرك فقال ﴿وَإِن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤١ ـ ١٤٢ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بنحوه.

جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما ليس لك به حجة يعني: الشرك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ثم حذره ليثبت على الإسلام فقال ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مصيركم في الآخرة ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: أخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر وأثيبكم على ذلك.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا
أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ
اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم
مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: أقروا وصدقوا بوحدانية الله تعالى وبنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الطاعات فيما بينهم وبين ربهم ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: مع الأنبياء والرسل عليهم السلام في الجنة ويقال لندخلنهم في جملة الصالحين ونحشرهم مع الصالحين قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ نزلت في عياش بن أبي ربيعة هاجر إلى المدينة قبل قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها فجزعت أمه من ذلك جزعاً شديداً فقالت لأخويه أبي جهل بن هشام والحارث بن هشام وهما أخواه لأمه وأبناء عمه فخرجوا في طلبه فظفروا به، وقالوا له إن بر الوالدة واجب فعليك أن ترجع فتبرها فإنها حلفت أن لا تأكل ولا تشرب، وأنت أحب الأولاد إليها فلم يوالوا به حتى تتابعهم فجاءوا به إلى أمه فعمدت أمه فقيدته، وقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بمحمد وضربوه حتى رجع إلى دينهم فنزل «ومن الناس من يقول آمنا بالله» ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ يعني: عذب في دين الله عز وجل: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ يعني: عذاب أخوته في الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة ويقال نزلت في قوم من المسلمين أخذوهم إلى مكة وعذبوهم حتى ارتدوا فنزل «من الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله» يعني: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله فينبغي للمسلم أن يصبر على إيذائه في الله (وصارت الآية لجميع المسلمين ليصبروا على ما أصابهم في الله عز وجل ثم قال)[1] ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: لو يجيء نصر من الله عز وجل بظهور الإسلام والغلبة على العدو بمكة وغيرها ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾ يعني: أوليس الله عليم ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من التصديق والتكذيب أعلم بمعنى عليم يعني: هو عليم بما في قلوب الخلق، ويقال معناه هو أعلم بما في صدورهم فهم أي بما في صدور أنفسهم ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: ليميزن الله الذين ثبتوا على دين الإسلام ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ يعني: ليميزن المنافقين الذين لم يكن إيمانهم حقيقة قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا وأنكروا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وذلك أن أبا سفيان بن حرب وأمية بن خلف وعتبة بن شيبة قالوا لعمر بن الخطاب

(١) سقط في أ.

رضي الله عنه أو خباب بن الأرت وأناس آخرين من المسلمين ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ يعني: ديننا الذي نحن عليه واكفروا بمحمد ودينه ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ يعني: نحن الكفلاء لكم بكل تبعة من الله عز وجل تصيبكم وأهل مكة شهداء علينا يقول الله عز وجل ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لا يقدرون أن يحملوا خطاياهم يعني وبال خطاياهم عنهم ولا يرفعون عنهم لأنهم لو استطاعوا أن يدفعوا لدفعوا عن أنفسهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في مقالتهم ثم قال عز وجل ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ يعني يحملون من أوزار الذين يضلونهم من غير أن ينقص من أوزار العاملين شيء وهذا كقوله عز وجل (لِيَحْمِلُوا أوزارهم كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) وهذا كما روي في الخبر «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1] ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني عما يقولون من الكذب قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾ يدعوهم إلى الإسلام ويحذرهم وينذرهم فأبوا إن يجيبوه فكذبوه ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ يعني الغرق ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وقال القتبي: الطوفان المطر الشديد، وكذلك الموت إذا كثر، وقال مقاتل: الطوفان ما طغى فوق كل شيء[2]، وقال بعض أهل اللغة: هذا الاشتقاق غير صحيح لأنه لو كان هذا لقال طغوان لأنه يقال طغى يطغوا، وقال بعضهم: هذا على وجه القلب كما يقال جذب وجبذ، ويقال أصله من الطوف أي سار وطاف في الأرض وقال الزجاج الطوفان من كل شيء ما كان كثيراً كالقتل الذريع الكثير يسمى طوفان[3] ثم قال عز وجل ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ يعني نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ من الغرق ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني جعلنا السفينة عبرة لمن بعدهم، وقد بقيت السفينة على الجودي إلى وقت قريب من وقت خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان ذلك علامة وعبرة لمن رآها ومن لم يرها لأن الخبر قد بلغه، ويقال: رسم السفينة التي بقيت بين الخلق وقت نوح وتجري في البحر علامة للعالمين.

وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ
رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ
كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ
ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

---

(١) أخرجه مسلم مطولاً ٢/٧٠٥ كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة (٦٩ ـ ١٠١٧) والنسائي ٥/٧٥ كتاب الزكاة.

(٢) انظر لسان العرب ٤/٢٧٢٣ ـ ٢٧٢٤.

(٣) قال ابن منظور: الطوفان الماء الذي يغشى كل مكان وقيل: المطر الغالب الذي يُغرِقُ من كثرته وقيل الطوفان: الموت العظيم. انظر لسان العرب ٤/٢٧٢٣.

قوله عز وجل: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: أرسلنا إبراهيم عطفاً على قوله «ولقد أرسلنا نوحاً» ويقال: معناه واذكر إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ يعني وحدوا الله عز وجل واتقوه يعني اخشوه ولا تعصوه ﴿ذلكم خير لكم﴾ يعني التوحيد وعبادة الله عز وجل خير من عبادة الأوثان ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قوله عز وجل ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ يعني أصناماً ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ يعني: تعملونها بأيديكم ثم يقولون إنها آلهة ويقال: تتخذونها آلهة كذباً ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ يعني لا يقدرون أن يعطوكم مالاً ولا يقدرون أن يرزقوكم ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ يعني الله عز وجل هو الذي يملك رزقكم فاطلبوا الرزق من الله عز وجل ﴿وَاعْبُدُوه وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وحدوه واشكروا له في النعم فإن مصيركم إليه ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الممات قال الله عز وجل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لأهل مكة ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ بما أخبرتكم من قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني كذبوا رسلهم ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ يعني إلا أن يبلغ الرسالة ويبين أمر العذاب ويقال إلا أن يبلغ الرسالة ويبين مراد الرسالة ثم قال الله عز وجل ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر «أو لم تروا» بالتاء على معنى المخاطبة يعني قل لهم يا محمد أو لم تروا وقرأ الباقون بالياء ومعناه يا محمد أو لم يروا هؤلاء الكفار ﴿كَيْفَ يُبْدِيءُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني يخلقهم في الابتداء ولم يكونوا نسياً ثم يعيدهم كما خلقهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إن الذي خلق الخلق يقدر أن يعيدهم وهو عليه هين قوله عز وجل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: سافروا في الأرض يعني فتعتبروا في أمر البعث، ويقال سيروا في الأرض يعني اقرؤوا القرآن ﴿فانظروا﴾ أي فاعتبروا ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ يعني: كيف خلق الخلق ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت للمبعث ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من أمر البعث وغيره ثم قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يعني: يخذل من يشاء ولا يهدي من لم يكن أهلاً لذلك ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يهديه إن كان أهلاً كذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يعني: ترجعون إليه في الآخرة قوله عز وجل ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني لا تهربون منه ولا تفوتونه ﴿وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني إن كنتم في الأرض ولا في السماء لا يقدرون أن يهربوا منه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍ﴾ يعني: من قريب ينفعكم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يعني ولا مانع يمنعكم من عذاب الله عز وجل.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَلِقَائِهِ﴾ يعني كفروا بالبعث بعد الموت ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ يعني من جنتي ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة ثم رجع إلى قصة إبراهيم حيث قال لقومه اعبدوا الله واتقوه قوله عز وجل ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ وفي الآية مضمر، ومعناه فقذفوه في النار فأنجاه الله من النار فلم تحرقه وجعلها برداً

وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما أنجاه الله من النار بعد ما قذفوه فيها ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني لعبرات ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بتوحيد الله تعالى فقال لهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً﴾ يعني إنما عبدتم من دون الله أوثاناً يعني أصناماً ﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على عبادة أصنامكم قرأ نافع وابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر مودة بنصب الهاء مع التنوين بينكم بنصب النون يعني اتخذتم أوثاناً آلهة مودة بينكم على عبادتها صار نصباً لوقوع الفعل عليه، وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص مودة بنصب الهاء بغير التنوين بينكم بكسر النون على معنى الإضافة، وقرأ الباقون مودة بالضم بينكم بالكسر[(١)] وروي عن الفداء أنه قال إنما صار المودة رفعاً بالصفة بقوله عز وجل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وينقطع الكلام عند قوله «إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً» ثم يبني ضرر مودتهم في الحياة الدنيا فقال تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ يعني ليس مودتكم تلك الأصنام بشيء لأن مودة ما بينكم في الحياة الدنيا تنقطع ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعني الأصنام من العابد والشياطين ممن عبدها ويقال يعني الاتباع والقادة تتبرأ القادة من الأتباع ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾ يعني الأتباع يلعن القادة والعابد يلعن المعبود ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يعني مصيركم إلى النار ﴿وَمَا لَكُمْ مِن نَاصِرِينَ﴾ يعني ما نعين من عذاب الله عز وجل.

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ
ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ يعني صدق لوط إبراهيم عليهما السلام على الهجرة ويقال صدقه بالنبوة حين لم تحرقه النار ﴿وقال﴾ إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ يعني إلى رضاء ربي وطاعة ربي، ويقال إلى أرض مصر في أرض ربي فهجر قومه الكافرون وخرج إلى الأرض المقدسة ومعه سارة ثم قال ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره ويقال حكيم حكم أن من لم يقدر في بلدة على طاعة الله عز وجل فليخرج إلى بلدة أخرى قوله

---

(١) فمن رفع فله مذهبان: أحدهما أن يجعل (إنما) كلمتين ويكون معنى (ما) بمعنى الذي وهو إسم (إن) و(مودة) خبر إن ومفعول (اتخذتم) محذوف، المعنى: إن الذي اتخذتموه مودةُ بينكم والثاني أن ترفعها بالابتداء و(في الحياة الدنيا) خبرها وتجعل (ما) كافة على هذا الوجه. وقال الزجاج: يجوز أن ترفع (مودة) على إضمار (هي) كأنه قال: (تلك مودة بينكم في الحياة الدنيا) أي: ألفتكم وإجماعكم على الأصنام مودة بينكم في الحياة الدنيا. ومن نصب جعل (المودة) مفعول (اتخذتم) وجعل (ما) مع (أن) كافة ولم يعد إليها ذكراً كما أعاد في الوجه الأول وانتصب (مودة) على أنه مفعول له أي: (اتخذتم الأوثان للمودة) (بينكم) نصب على الظرف..

والمعنى: (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً آلهة) فحذف كما حذف من قوله: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم﴾ معناه اتخذوا العجل إلهاً. انظر حجة القراءات ٥٥٠ ـ ٥٥١. النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٣.

عز وجل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ يعني المهاجر إلى طاعة الله عز وجل أكرمه الله في الدنيا وأعطاه ذرية طيبة وهو ولده إسحاق وولد ولده يعقوب عليهم السلام ووهب له أربعة أولاد إسحاق من سارة وإسماعيل من هاجر ومدين ومداين من غيرهما ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ يعني من ذرية إبراهيم النبوة والكتاب: يعني أكرم الله عز وجل ذريته بالنبوة وأعطاهم الصحف، ويقال: أخرج من ذريته ألف نبي ﴿وَالْكِتَابَ﴾ يعني الزبور والتوراة والإنجيل والفرقان ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني أعطيناه في الدنيا الثناء الحسن ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني مع النبيين في الجنة قوله عز وجل ﴿وَلُوطاً﴾ يعني وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص إنكم على معنى الخبر وقرأ أبو عمرو أئنكم بالمد على معنى الاستفهام، لتأتون الفاحشة يعني المعصية ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ واتفقوا في هذا الحرف على لفظ الاستفهام واختلفوا في الأول فقرأ الذين سميناهم على وجه الإخبار عنهم إنكم تفعلون وتكون على وجه التعيير وقرأ الباقون الأول على وجه الاستفهام فيكون اللفظ لفظ الاستفهام والمعنى منه التوبيخ والتقريع ثم قال ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ يعني تعترضون الطريق لمن مر بكم بعملكم الخبيث ويقال: وتقطعون السبيل يعني: تأخذون أموالكم كانوا يفعلون ذلك لكيلا يدخلوا في بلدهم ويتناولوا من ثمارهم، ويقال تقطعون السبيل النسل ﴿وَتَأْتُونَ فِي ناديكم المنكر﴾ يعني تعملون في مجالسكم المنكر وقال بعضهم: يعني به اللواطة كانوا يفعلون ذلك في المجالس بالعلانية ويقال أراد به المعاصي وهي الرمي بالبندق الصغير والحذف ومضغ العلك وحل إزار القباء واللعب بالحمام وشرب الخمر وضرب العود والمزامير. وغير ذلك من المعاصي وروت أم هانيء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله «وتأتون في ناديكم المنكر» قالوا كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم[1] ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ بالعذاب وإن العذاب نازل بنا ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي﴾ أي أعني ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ يعني المشركين.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ يعني بالبشارة بالولد ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعني قريات لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ يعني كافرين ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً﴾ يعني أتهلكهم

(١) أخرجه الترمذي ٥/٣١٩ كتاب تفسير القرآن باب من سورة العنكبوت (٣١٩٠) وقال حديث حسن إنما نعرفه من حديث حاتم ابن =

وفيهم لوط ﴿قَالُوا﴾ يعني قال جبريل عليه السلام ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ يعني من الباقين في الهلاك ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ يعني ساء مجيئهم ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ يعني اغتم بقدومكم فلا يدري أيأمرهم بالخروج أم بالنزول ويقال ضاق بهم القلب ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ﴾ علينا ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ من العذاب ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي لننجينه وإنا منجوك كلاهما بالتخفيف وقرأ أبو عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم كلاهما بالتشديد وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم الأول بالتشديد والثاني بالتخفيف ومعناهما واحد ويقال أنجيته ونجيته بمعنى واحد[1] ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثم قال عز وجل ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين منزلون بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف ومعناهما واحد[2] ﴿رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني أنزلنا عذابنا من السماء ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يعني يعصون الله عز وجل، قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ يعني من قريات لوط ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ يعني علامة ظاهرة واضحة يعني هلاكهم علامة ظاهرة، ويقال قرياتهم علامة ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعني لمن كان له ذهن الإنسانية (ولقد تركنا منها آية يعني الحجارة التي أنزلها الله تعالى من السماء على كل واحد منها اسم صاحبها ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ يعني وأرسلنا إلى مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾[3] يعني نبيهم شعيباً ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ يعني وحدوا الله وأطيعوه ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ يعني خافوا يوم القيامة لأنه آخر الأيام، ويقال: يوم الموت وهو آخر أيامهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني لا تعملوا في الأرض بالمعاصي في نقصان الكيل والوزن ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني أوعدهم بالعذاب على نقصان الكيل والوزن فكذبوه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ يعني العذاب ويقال الزلزلة وأصله الحركة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ﴾ يعني صاروا في دارهم يعني في محلتهم ﴿جَاثِمِينَ﴾ يعني ميتين أو يقال خامدين فصاروا كالرماد ويقال جثم بعضهم على بعض بالموت وقال أبو سهل جاثمين: أي ساقطين على وجوههم وركبهم وقال مقاتل شبه أرواحهم في أجسادهم وهم أحياء بالنار إذا اتقدت ثم طفيت فبينما أحياء إذ صاح بهم جبريل فصعقوا أمواتاً أجمعين.

وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم
مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ
وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

= أبي صغيرة عن سماك. وأخرجه أحمد في المسند ١/٣٤١، ٤٢٤

وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٤ وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وفي كتاب الصمت وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والشاشي وفي مسنده والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر.

(١) انظر حجة القراءات ٥٥١.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٥٢، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٣.

(٣) سقط في ظ.

ثم قال عز وجل ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ﴾ وقال بعضهم انصرف إلى قوله ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثموداً وقال بعضهم انصرف إلى قوله «فأخذتهم الرجفة» يعني أخذهم العذاب، وأخذ عاداً وثموداً، ويقال: معناه اذكر عاداً وثموداً، أو يقال: صار نصباً لنزع الخافض ومعناه وأرسلنا الرسل إلى عاد وثمود ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني: ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم آية في إهلاكهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ضلالتهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني صرفهم عن الدين، ويقال منعهم عن التوحيد ويقال صد يصد صداً إذا منعه وصد يصد صدوداً إذا امتنع بنفسه وأعرض قوله ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ في دينهم وهم يرون أنهم على الحق وهم على الباطل ويقال كانوا مستبصرين أي ذوي بصيرة ومع ذلك جحدوا ثم قال عز وجل: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ يعني أهلكنا قارون وفرعون وهامان ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالعلامات والآيات ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني طغوا فيها وتعظموا عن الإيمان ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ يعني بفائتين من عذابنا قوله عز وجل ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ يعني كلهم أهلكناهم بذنوبهم ويقال معناه أهلكنا كل واحد منهم بذنبه لا بذنب غيره ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ يعني الحجارة وهم قوم لوط ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ يعني قارون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم فرعون وقومه، وقال العتبي: الآخذ أصله باليد ثم يستعار في مواضع فيكون بمعنى القبول كقوله عز وجل وأخذتم على ذلكم إصري أي قبلتم عهدي والأخذ التعذيب كقوله ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ وكقوله ﴿فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ يعني عذبنا وكقوله (وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ) يعني ليعذبوه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ يعني لم يعذبهم من غير جرم منهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بجرمهم يستوجبون العقوبة.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني مثل عبادتهم الأصنام في الضعف وقلة نفعهم إياهم ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ يعني أضعف البيوت ﴿لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لأنه لا يغني من حر ولا من برد ولا من مطر وكذلك آلهتهم لا يدفعون عنهم ضراً ولا يقدرون لهم نفعاً ثم قال ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام كذلك، لأنهم قد علموا أن بيت العنكبوت أوهن البيوت، ولكن قوله «لو كانوا يعلمون» انصرف إلى قوله اتخذوا يعني لا يعلمون أن هذا مثله ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ وهذه كلمة تهديد يعني يعلم بعقوبتهم ويقال: إن الله يعلم أن الآلهة لا شفاعة لهم ولا قدرة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنعمة لمن عصاه ﴿الْحَكِيمُ﴾ حكم بالعقوبة على من عبد غيره، ويقال: حكم أن لا يعبد غيره ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يعني أمثال آلهتهم نبينها للناس ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ يعني لا يفهمها ويعلمها إلا الموحدون ويقال: يعني العاقلين، قرأ أبو عمرو وعاصم أن الله يعلم ما يدعون بالياء على لفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء[1] على لفظ المخاطبة يعني قل لهم يا محمد إن الله يعلم ما تدعون من دونه ثم قال عز وجل ﴿خَلَقَ اللَّهُ

(١) انظر حجة القراءات ٢ ٥٥.

﴿السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالعدل ويقال لبيان الحق ولم يخلقها باطلاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي خلق السموات والأرض ﴿لَآيَةً﴾ يعني لعبرات ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين وإنما أضاف إلى المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بها.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يعني اقرأ عليهم ما أنزل إليك ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني من القرآن، ويقال: هو أمر بتلاوة القرآن يعني اقرؤوا القرآن واعملوا بما فيه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني وأتم الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني ما دام العبد يصلي لله عز وجل انتهى عن الفحشاء والمنكر والمعاصي، ويقال: وأقم الصلاة يعني وأدِّ الصلاة الفريضة في مواقيتها بركوعها وسجودها والتضرع بعدها إن الصلاة تنهى عن الفحشاء يعني إذا صلى العبد لله صلاة خاشع يمنعه من المعاصي لأنه يرق قلبه فلا يميل إلى المعاصي وروى أبو أمامة الباهلي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «من لم تنهه صلاتة عن الفحشاء والمنكر لم تزده صلاته عند الله إلا مقتاً»[1] وروي عن الحسن البصري رحمه الله عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «من لم تنهه صلاته عن فحشاء ولا منكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً»[2] وقال الحسن: إذا لم تنته بصلاتك عن الفحشاء فلست بمصلي ثم قال ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني أفضل من سائر العبادات وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال قراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من صلاة لا يكون فيها كثير القراءة ثم قرأ هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال مقاتل: ولذكر الله إياك أفضل من ذكرك إياه بالصلاة وقال الكلبي يقول ذكره إياكم بالخير أكبر من ذكركم إياه والله يذكر من ذكره بالخير قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرجسي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٥ وعزاه لابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس وانظر تفسير القرطبي ١٣/٢٣١.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/٥٤ والقضاعي في مسند الشهاب ٢/٤٣ وابن أبي حاتم كما في ابن كثير من طريق ليث عن طاووس عن ابن عباس وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف وذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٤٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان. انظر فتح الوهاب ١/٣٩٤، ابن كثير ٦/٢٩٠.

سألني ابن عباس عن قوله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَر) فقلت هو التسبيح والتهليل والتقديس فقال: لقد قلت شيئاً عجيباً وإنما هو ذكر الله العباد أكثر من ذكر العباد إياه[١] وقال قتادة: ولذكر الله أكبر أي ليس شيء أفضل من ذكر الله. وسئل سلمان الفارسي أي العمل أفضل قال ذكر الله ويقال ذكر الله أفضل من الاشتغال بغيره، ويقال: ذكر الله حين كتبكم في اللوح المحفوظ من المسلمين أفضل، ويقال ذكر الله عز وجل لك بالمغفرة أفضل من ذكرك إياه، وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من ذكر الله في نفسه ذكره الله في نفسه ومن ذكره في ملأ ذكره الله عز وجل في ملأ أكبر من الملأ الذي ذكره فيهم وأطيب ومن تقرب من الله شبراً تقرب الله منه ذراعاً يعني بإجابته وتوفيقه ورحمته ومن تقرب إلى الله تعالى ذراعاً تقرب الله منه باعاً، ومن أتى الله ماشياً أتاه هرولة يعني بإجابته وتوفيقه[٢] ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم به قوله عز وجل ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ قال مقاتل ولا تجادلوا أهل الكتاب البتة يعني مؤمنيهم ثم استثنى كفارهم فقال ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ إلا بالتي هي أحسن فيها تقديم ثم نسخته آية قتال أهل الكتاب وقال الكلبي ولا تجادلوا أهل الكتاب إن الله عز وجل أمر المسلمين إذ كانوا بمكة قبل أن يأمرهم بالقتال، فقال: «ولا تجادلوا من آتاكم من أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن بالقرآن تعظونهم به وتدعونهم إلى الإسلام وهي التي أحسن إلا الذين ظلموا منهم في الملاعنة وهم أهل نجران: ويقال: ولا تجادلوا أهل الكتاب يعني لا تخاصموهم إلا بالتي هي أحسن يعني إلا بالكلمة التي هي أحسن وهي كلمة التوحيد إلا الذين ظلموا منهم يعني ولا الذين ظلموا منهم ويقال إلا الذين ظلموا منهم فلا بأس بأن تجادلوهم بما هو أشد ثم بين الكلمة التي هي أحسن فقال ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن والتوراة ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ يعني ربنا وربكم واحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني مخلصون بالتوحيد ثم قال عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن كما أنزلنا إلى موسى وعيسى عليهما السلام ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني يصدقون بالقرآن. ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني قريشاً ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ من اليهود ومشركي العرب ثم قال عز وجل ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ يعني من قبل القرآن ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي لم تكن تكتب شيئاً بيدك ﴿إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني فلو كنت قرأت الكتب أو كنت تكتب بيدك لشك أهل مكة في أمرك ويقولون إنه قرأ الكتب وأخذ منها ويقال معناه لارتاب المبطلون يعني لشك أهل الكتاب في أمرك لأنهم وجدوا في كتبهم نعته وصفته أنه أمي لا يقرأ الكتب كيلا يشكوا في صفته ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني بل هو يقين إنه نبي عند أهل العلم، ويقال يعني القرآن آيات بينات يعني واضحات ويقال بل إنه لا يقرأ ولا يكتب آيات بينات لأنه أخبر عن أقاصيص الأولين في صدور الذين أوتوا العلم يعني مؤمني أهل الكتاب ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ يعني الكافرون قوله عز وجل ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي علامة من ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ يعني العلامات ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني من عند الله عز وجل وليس بيدي شيء ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني مخوفاً مفقهاً لكم أنبئكم بلغة تعرفونها قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص آيات بلفظ الجماعة يعني آيات القرآن والباقون آية يعني آية واحدة يعني أنه كان لا يكتب وكان له في ذلك آية بينة لنبوته ويجوز أن يكونا معناه الآيات للجنس.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤٦/٥ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) أخرجه البخاري ٣٨٤/١٣ كتاب التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم ٢٠٦١/٤ كتاب الذكر (٢ ـ ٢٦٧٥).

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ
وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ
ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن فيه خير ما مضى وخير ما يكون أو لم يكفهم هذا علامة، ويقال: أو لم يكفهم أنهم فصحاء فجاءهم بالقرآن الذي أعجزهم عن ذلك وقال الزجاج كان قوم من المسلمين كتبوا شيئاً عن اليهود فأتوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفى هذا حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما أتاهم به نبيهم إلى ما أتى به غير نبيهم[1] فقال عز وجل«أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ» ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً﴾ يعني في هذا القرآن لنعمة لمن آمن به ﴿وذكرى﴾ أي موعظة ويقال تفكر ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني يصدقون بالقرآن فقال له كعب بن الأشرف فقد كان قدم مكة من يشهد لك أنك رسول الله إن لم يشهد لك فنزل ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً﴾ بأني رسول الله ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ يعني بالصنم ويقال بالشيطان ويقال بالطاغوت وهو كعب بن الأشرف ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ يعني جحدوا وحدانية الله ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني المغبونين في العقوبة، ويقال: خسروا حيث استوجبوا لأنفسهم العقوبة ثم قال عز وجل ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ وذلك أنهم قالوا إئتنا بعذاب الله يقول الله عز وجل ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي لولا الوقت الذي وقت لهم ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يعني جعلت لهم النار تحيط بهم قوله عز وجل ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُم الْعَذَابُ﴾ يعني يعلوهم ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو، ونقول ذوقوا بالنون[2] يعني نقول لهم نحن ذوقوا وهي حكاية عن الله سبحانه وتعالى بلفظ الجماعة وهو لفظ الملوك وقرأ الباقون بالياء[3] يعني يقول الله عز وجل ويقال وتقول

---

(١) قال الحافظ في الكافي الشافي ٣/٤٥٩ أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعدة أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاه قوم من المسلمين بكتاب في كتف «فذكر نحوه».

(٢) انظر حجة القراءات ٥٥٣. إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٥١.

(٣) وحجة من قرأ بالنون أن الكلام أتى عقيب لفظ الجمع في قولهم ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا﴾ وبعد ذلك ﴿ثم إلينا يرجعون﴾ ولنبوئنهم فجعلوا ما بين ذلك بلفظ الجمع ليأتلف الكلام على نظام واحد. وحجة من قرأ بالياء قوله تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم=

لهم الخزنة ذوقوا ما كنتم تعملون يعني جربوا عقوبة ما كنتم تعملون في الدنيا ثم قال عز وجل ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو بسكون الياء وقرأ الباقون بنصب الياء[١] وقرأ ابن عامر وحده ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ بنصب الياء وقرأ الباقون بسكونها، في مثل هذه المواضع لغتان يجوز كلاهما، ومعناه إن أرضي واسعة إذا أُمِرْتم بالمعصية والبدعة فاهربوا ولا تطيعوا في المعصية نزلت في ضعفاء المسلمين إن كنتم يعني إذا كنتم في ضيق من إظهار الإسلام بمكة «فَإِنَّ أَرْضِيَ وَاسِعَةٌ» يعني المدينة واسعة بإظهار الإسلام وروي عن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام»[٢] وإنما خص إبراهيم لأنه قال (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) ففر بدينه إلى أرض المقدسة إنما خص محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه هاجر من مكة إلى المدينة، ويقال: إن القوم كانوا في ضيق من العيش فقال إن كنتم تخافون شدة العيش فإن أرضي واسعة ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ أي موحدون بالمدينة علانية، ثم خوفهم بالموت ليهاجروا فقال ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ لأنهم كانوا يخافون على أنفسهم بالخروج فقال لهم: لا تخافوا فإن ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم قرأ عاصم في رواية أبي بكر يرجعون بالياء بلفظ المغايبة على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء على معنى الخطاب[٣] لهم ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني صدقوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات يعني الطاعات وهاجروا فسمى الهجرة من الأعمال الصالحة لأنها كانت فريضة في ذلك الوقت ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ يعني لننزلنهم ولنسكننهم ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً﴾ يعني غرفاً من الجنة قرأ حمزة والكسائي لنثوينهم بالثاء وقرأ الباقون لنبوئنهم بالباء، فمن قرأ بالثاء[٤] فهو من ثويت بالمكان يعني أقمت به كقوله «وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِيْ أَهْلِ مَدْيَنَ» ومن قرأ بالباء يعني لننزلنهم وذكر عن الفراء أنه قال كلاهما واحد بوأته منزلاً أي أنزلته وأثويته منزلاً: يعني أنزلته سواء كقوله (وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً) ثم قال ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) أي ثواب الموحدين ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الهجرة، ويقال: صبروا على أمر الله تعالى ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يثقون به ولا يهتمون للرزق لأنهم كانوا يقولون كيف نهاجر وليس لنا مال ولا معيشة فوعظهم الله ليعتبروا فقال.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

= شهيداً﴾ وقوله ﴿وكفروا بالله﴾ وهذان أقرب من لفظ الجمع فكان رده على لفظ ما قرب منه أولى من رده على الأبعد المصدران السابقان.

(١) وحجة من قرأ بإسكان الياء أن النداء باب الحذف كما تقول (يا رب). ويا قوم: فتحذف الياء وإذا وقفوا وقفوا على الياء والباقون على أن أصل كل ياء الفتح. انظر حجة القراءات ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

(٢) قال الحافظ في الكافي الشافعي ١/٤٥٥ أخرجه الثعلبي من رواية عباد بن منصور الباجي عن الحسن مرسلاً.

(٣) المصدر السابق.

(٤) وحجة من قرأ بالتاء قوله تعالى ﴿وما كن ثاوياً﴾ والباقون حجتهم قوله تعالى: ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾. انظر المصدر السابق والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٤.

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني وكم من دابة في الأرض أو من طائر في السماء ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ معها ولا يجمع للغداء إلا النملة والفأرة ويقال لا تخبىء رزقها ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وإيَّاكُمْ﴾ يعني يرزق الدواب حيث ما توجهت وإياكم إذا هاجرتم إلى المدينة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لمقالتكم ﴿العَلِيمُ﴾ بكم ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّه فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يعني من أين يكذبون بتوحيد الله عز وجل ثم رجع إلى (أهل)[١] الهجرة ورغبهم فيها فقال ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يوسع على من يشاء ﴿مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ويقتر لمن يشاء ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من البسط والتقتير ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني من بعد يبسها وقحطها ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقرارهم بذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربهم وهم مقرون بالله عز وجل خالق هذه الأشياء.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ﴾ يعني باطل ﴿وَلَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان، ولهو كلهو الشبان، ويقال: فرح لا يبقى للخلق ولا يبقى فيها إلا العمل الصالح روى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إن الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه أو عالماً أو متعلماً[٢]» وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه مرَّ بسخلة منتنة فقال والذي نفسي بيده للدنيا على الله أهون من هذه السخلة على أهلها[٣] ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ﴾ يعني هي دار الحياة لا موت فيها ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لو كانوا يصدقون بثواب الله عز وجل ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ يعني في السفن ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني موحدين وتركوا دعاء أصنامهم ويعلمون أنه لا يجيبهم أحد إلا الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يعني إلى القرار ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ به قوله عز وجل ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني ما أعطيناهم من النعمة ﴿ولِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر ونافع في رواية ورش وليتمتعوا بكسر اللام وقرأ الباقون بالجزم[٤] فمن قرأ بالكسر فمعناه لكي يتمتعوا لأن الكلام

---

(١) سقط في أ.

(٢) أخرجه الترمذي ٤/٥٦١ كتاب الزهد (٢٣٢٢) وابن ماجه ٢/١٣٧٧ كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١١٢).

(٣) أخرجه الترمذي في الموضع السابق حديث (٢٣٢١)، وابن ماجه ٢/١٣٧٧ كتاب الزهد باب مثل الدنيا (٤١١١).

(٤) انظر حجة القراءات ٥٥٥.

عطف على ما قبله يعني يشركون لكي يكفروا ولكي يتمتعوا في الدنيا ومن قرأ بالجزم فهو على معنى التهديد والتوبيخ بلفظ الأمر وتشهد له قراءة أبي كان يقرأ تمتعوا﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه وليتمتعوا يعني وليعشوا فسوف يعلمون إذا نزل بهم العذاب ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أو لم يعلموا ويعتبروا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يعني يختلس الناس فيقتلون ويسبون وهم آمنون يأكلون رزقي ويعبدون غيري فكيف أسلط عليهم، إذا أسلموا ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أفبالشيطان يصدقون أن لي شريكاً ويقال أفبالأصنام يؤمنون ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ يعني وبخالق هذه النعمة ورسوله يجحدون ثم قال عز وجل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ بأن معه شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ يعني بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي حين جاءه ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ مثوى أي مقاماً للكافرين بالتوحيد كما قال «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني رغبوا في طاعتنا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ يعني لنعرفنهم طريقنا، ويقال: معناه لنرشدنهم طريق الجنة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني في العون لهم ويقال والذين عملوا بما علموا لنوفقنهم لما لم يعلموا، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المحتويات

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود

تفسير سورة يوسف

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

تفسير سورة القصص

تفسير سورة العنكبوت

تفسير السمرقندي

المسمّى

بحر العلوم

لأبي الليث نصر بن محمّد بن أحمد بن ابراهيم السمرقندي
المتوفى سنة ٣٧٥ هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ علي محمد معوّض
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الدكتور زكريا عبد المجيد النوتي
كليّة اللغة العربيّة - جامعة الأزهر

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

سُورَةُ الرُّومِ(١)

وهي ستون آية مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ
سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ
مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾

قول الله سبحانه وتعالى ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ يعني: قهرت الروم ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ مما يلي فارس يعني: أرض الأردن وفلسطين ﴿وَهُمْ﴾ يعني: أهل الروم ﴿مِنْ بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ أهل فارس وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب إلى قيصر ملك الروم يدعوه إلى الإسلام فقرأ كتابه وقبله ووضعه على عينيه، وخاتمه بخاتمه، ثم أوثقه على صدره، ثم كتب جواب كتابه أنا نشهد أنك نبي ولكنا لا نستطيع أن نترك الدين القديم الذي اصطفى الله لعيسى فعجب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: قد ثبت الله ملكهم إلى يوم القيامة إلى أدنى الأرض منها بفتح الله عز وجل على المسلمين وكتب إلى كسرى ملك فارس فمزق كتابه ورجع الرسول بعدما أراد قتله فأخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مزق الله ملكهم فلا ملك لهم أبداً إذا مات كسرى فلا كسرى بعده فلما ظهرت فارس على الروم اغتم المسلمون لذلك(٢) فنزل قوله تعالى: (الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومَ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) وقال في رواية الكلبي إن مشركي قريش شتموا حين غلب المشركون أهل الكتاب فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه لم تشتمون فوالله ليظهرن الروم عليهم فقال أبي بن خلف

---

(١) أول أغراض هذه السورة سبب نزولها على ما سر المشركين من تغلب الفرس على الروم فقمع الله تعالى تطاول المشركين به وتحداهم بأن العاقبة للروم في الغلب على الفرس بعد سنين قليلة. ثم تطرق من ذلك إلى تجهيل المشركين بأنهم لا تغوص أفهامهم في الاعتبار بالأحداث ولا في أسباب نهوض وانحدار الأمم من الجانب الرباني ومن ذلك إهمالهم النظر في الحياة الثانية ولم يتعظوا بهلاك الأمم السالفة المماثلة لهم في الإشراك بالله وانتقل من ذلك إلى ذكر البعث. واستدل لذلك ولوحدانيته تعالى بدلائل من آيات الله في تكوين نظام العالم ونظام حياة الإنسان. ثم حض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين على التمسك بهذا الدين وأثنى عليه. ونظر بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين حال المشركين ورذائلهم. وضرب أمثالاً لإحياء مختلف الأموات بعد زوال الحياة عنها ولإحياء الأمم بعد يأس الناس منها وأمثالاً لحدوث القوة بعد الضعف وبعكس ذلك. وختم ذلك بالعود إلى إثبات البعث ثم بتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعده بالنصر.

ومن أعظم ما اشتملت عليه التصريح بأن الإسلام دين فطر الله الناس عليه وأن من ابتغى غيره ديناً فقد حاول تبديل ما خلق الله وأنى له ذلك انظر التحرير ٢١/٤٠، ٤١.

(٢) الحديث أخرج البخاري جزءاً منه ٨/١٢٦ كتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كسرى (٤٤٢٤)، وأحمد في المسند ٣/٤٤٢، ٢/٢٥٦ ـ ٤٣٧ ـ ٤٧٣.

والله لا يكون ذلك أبداً فتبايعا أبو بكر وأبي بن خلف لتظهرن الروم على أهل فارس إلى ثلاث سنين على تسع ذود فرجع أبو بكر إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره بالأمر فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنطلق فزده في الخطر ومده في الأجل(١) فرجع أبو بكر إلى أبي بن خلف فقال أنا أبايعك إلى سبع سنين على عشر ذود فبايعه فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة إلى المدينة مهاجراً أتاه فلزمه فكفل له عبد الرحمن بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه محمد بن أبي بكر فلزمه فأعطاه كفيلاً ثم خرج إلى أحد فظهرت الروم على فارس عام الحديبية وذلك عند رأس سبع سنين فذلك قوله (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ) وروى أسباط عن السدي عن أصحابه قال اقتتلت فارس والروم فغلبتهم فارس ففخر أبو سفيان بن حرب على المسلمين وقال الذين ليس لهم كتاب غلبوا على الذين لهم كتاب فشق ذلك على المسلمين فلقي أبو بكر رضي الله عنه أبا سفيان فقامره على ثلاثة أبكار على أن الروم ستغلب فارس إلى ثلاث سنين ثم أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره فقال له انطلق فزد في الجعل وزد في السنين فزايده إلى سبع سنين على سبعة أبكار فالتقى الروم وفارس فغلبتهم الروم وظهر عليهم هرقل فجاءه جبريل عليه السلام بهزيمة فارس وظهور الروم عليهم ووافق ذلك يوم بدر وظهور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المشركين(٢) ففرح المؤمنون بظهورهم على المشركين وظهور أهل الكتاب على أهل الشرك ويقال إن أهل الروم كانوا أهل كتاب وكان المسلمون يرجون إسلامهم وأهل فارس كانوا مجوساً فكان المسلمون لا يرجون إسلامهم وكانوا يحزنون لغلبة فارس عليهم فنزل الٓمٓ غلبت الروم في أدنى الأرض أي أقرب الأرض إلى أرض فارس وهم من بعد غلبهم سيغلبون روي عن الفراء أنه قال: يعني من بعد غلبتهم ولكن عند الإضافة سقطت الهاء كما قال وأقام الصلاة ولم يقل وإقامة الصلاة، وقال الزجاج: هذا غلط وإنما يجوز ذلك في المعتل خاصة والغلب والغلبة كلاهما مصدر وسيغلبون ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ يعني: إلى خمس سنين ويقال إلى سبع سنين روي عن أبي عبيدة أنه قال البضع من واحد إلى أربعة، وقال القتبي: البضع ما فوق الثلاثة إلى دون العشرة وقال مجاهد: البضع ما بين الثلاث إلى التسع(٣)، ويقال من بعد غلبهم، وهذا اللفظ يكون للغالبين وللمغلوبين كقولهم من بعد قتلهم ثم قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ يعني: لله الأمر حين غلبت الروم فارس ومن بعدُ يعني حين غلبت الروم فارس ولفظ القبل والبعد إذا كان في آخر الكلام يكون رفعاً على معنى الإضافة للغاية ولو كان إضافة إلى شيء يكون خفضاً كقولك من بعدهم ومن قبلهم ثم قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لما يرجون من إسلامهم، ويقال يفرح أبو بكر رضي الله عنه خاصة ويقال يفرح المؤمنون بتصديق وعد الله تعالى، وروي عن الشعبي أنه قال: كان ذلك عام الحديبية فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فبايعوه مبايعة الرضوان ووعد لهم غنائم خيبر، وظهرت الروم على فارس وكان تصديقاً لهذه الآية ويومئذ يفرح المؤمنون وإنما جازت مخاطرة أبي بكر رضي الله عنه لأن المخاطرة كانت مباحة في ذلك الوقت ثم حرمت بقوله: (إنما الخمر والميسر) الآية ثم قال: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ يعني: بفتح الله ﴿يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: نصر الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين حين نصرهم قوله عز وجل: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ نصب الوعد لأنه مصدر ومعناه وعد الله وعداً يعني انتصروا وعد الله ثم قال: ﴿لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ حيث وعد لهم غلبة الروم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) انظر معالم التنزيل للبغوي ٣/٤٧٦، تفسير القرطبي ١٤/٤.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور مرفوعاً ٥/١٥٢ وعزاه للطبراني في الأوسط عن نيار بن مكرم قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ البضع. . . فذكره.

يعني: الكفار لا يعلمون أن الله عز وجل لا يخلف وعده ويقال لا يعلمون الآخرة.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ
۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟
ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا
يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾

قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: يعلمون حرفتهم وأمر معايشهم ومتى يدرك زرعهم ويقال في أمر التجارة[1] كانوا أكيس الناس وقال الحسن كان الرجل منهم يأخذ درهماً ويقول وزنة كذا ولا

---

(١) اعلم أنه يجب على كل مسلم في هذا الزمان: أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس. وإيضاح ذلك أن من أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلى الله بها ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الحياة الدنيا ومهارتهم فيها على كثرتها واختلاف أنواعها مع عجز المسلمين عن ذلك فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق وأن من عجز عنها متخلف وليس على الحق، وهذا جهل فاحش وغلط فادح. وفي هذه الآية الكريمة إيضاح لهذه الفتنة وتخفيف لشأنها أنزله الله في كتابه قبل وقوعها بأزمان كثيرة فسبحان الحكيم الخبير ما أعلمه وما أعظمه وما أحسن تعليمه. فقد أوضح جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا يعلمون ويدخل فيهم أصحاب هذه العلوم الدنيوية دخولاً أولياً فقد نفى عنهم جل وعلا اسم العلم بمعناه الصحيح الكامل، لأنهم لا يعلمون شيئاً عمن خلقهم فأبرزهم من العدم إلى الوجود ورزقهم وسوف يميتهم ثم يجازيهم على أعمالهم ولم يعلموا شيئاً عن مصيرهم الأخير الذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم: ومن غفل عن جميع هذا فليس معدوداً من جنس من يعلم كما دلت عليه الآيات القرآنية المذكورة ثم لما نفى عنهم جل وعلا إسم العلم بمعناه الصحيح الكامل أثبت لهم نوعاً من العلم غاية الحقارة بالنسبة إلى غيره. وعاب ذلك النوع المذكور من العلم بعيبين عظيمين:

أحدهما: قلته وضيق مجاله لأنه لا يجاوز ظاهراً من الحياة الدنيا والعلم المقصور على ظاهر من الحياة الدنيا في غاية الحقارة وضيق المجال بالنسبة إلى العلم بخالق السماوات والأرض جل وعلا والعلم بأوامره ونواهيه وبما يقرب عبده منه وما يبعده منه وما يخلد في النعيم الأبدي والعذاب الأبدي من أعمال الخير والشر.

والثاني منهما: هو دناءة هدف ذلك العلم وعدم نيل غايته لأنه لا يتجاوز الحياة الدنيا وهي سريعة الانقطاع والزوال ويكفيك من تحقير هذا العلم الدنيوي أن أجود أوجه الإعراب في قوله ﴿يعلمون ظاهراً﴾ أنه بدل من قوله قبله لا يعلمون فهذا العلم كلا علم لحقارته.

قال الزمخشري في الكشاف وقوله: يعلمون بدل من قوله: لا يعلمون وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله ﴿ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهراً وباطناً فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعيم بملاذها وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من ظواهرها. وهم الثانية يجوز أن يكون مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الأولى وأن يكون تكريراً للأولى وغافلون: خبر الأولى وأية كانت فذكرها مناد على أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها ومحلها وأنها منهم تتبع وإليهم ترجع انتهى كلام صاحب الكشاف. وقال غيره: وفي =

يخطىء(١) ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بها ويقال عن أمر الآخرة وما وعدوا فيها من الهول والعذاب هم غافلون ثم وعظهم فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيعتبروا في خلق السموات والأرض وروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة ثم قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يعني: للحق(٢) ﴿وَأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ يعني: السموات والأرض لهن أجل ووقت معلوم ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ

= تنكير قوله: ظاهراً تقليل لمعلومهم وتقليله بقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه أ هـ ووجهه ظاهر. واعلم أن المسلمين يجب عليهم تعلم هذه العلوم الدنيوية وهذه العلوم الدنيوية التي بينا حقارتها بالنسبة إلى ما غفل عنه أصحابها الكفار إذا تعلمها المسلمون وكان كل من تعليمها واستعمالها مطابقاً لما أمر الله به على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ: كانت من أشرف العلوم وأنفعها لأنها يستعان بها على إعلاء كلمة الله ومرضاته جل وعلا وإصلاح الدنيا والآخرة فلا عيب فيها إذن كما قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ فالعمل في إعداد المستطاع من القوة امتثالاً لأمر الله تعالى وسعياً في مرضاته وإعلاء كلمته ليس من جنس علم الكفار الغافلين عن الآخرة كما ترى والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعلم عند الله تعالى. انظر أضواء البيان ٤٧٧/٦ ـ ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٢/٥ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وعن الحسن بنحوه.

(٢) الحق هنا هو ما يحق أن يكون حكمة لخلق السموات والأرض وعلة له وحق كل ماهية ونوع هو ما يحق أن يتصرف به من الكمال في خصائصه وأنه به حقيق كما يقول الأب لابنه القائم ببره: أنت ابني حقاً ألا ترى أنهم جعلوا تعريف النكرة بلام الجنس دالاً على معنى الكمال في نحو: أنت الحبيب لأن اسم الجنس في المقام الخطابي يؤذن بكماله في صفاته وإنما يعرف حق كل نوع بالصفات التي بها قابليته ومن ينظر في القابليات التي أودعها الله تعالى في أنواع المخلوقات يجد كل الأنواع مخلوقة على حدود خاصة بها إذا هي بلغتها لا تقبل أكثر منها فالفرس والبقرة والكلب الكائنات في العصور الخالية وإلى زمن آدم لا تتجاوز المتأخرة من أمثالها حدودها التي كانت عليها فهي في ذلك سواء. دلت على ذلك تجارب الناس الحاضرين لأجيالها الحاضرة وأخبار الناس الماضين عن الأجيال المعاصرة لها وقياس ما كان قبل أزمان التاريخ على الأجيال التي انقرضت قبلها حاشا نوع الإنسان فإن الله فطره بقابلية للزيادة في كمالات غير محدودة على حسب أحوال تجدد الأجيال في الكمال والارتقاء وجعله السلطان على هذا العالم والمتصرف في أنواع مخلوقات عالمه كما قال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ وذلك بما أودع فيه من العقل. ودلت المشاهدة على تفاوت أفراد نوع الإنسان في كمال ما يصلح له تفاوتاً مترامي الأطراف كما قال البحتري:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً ... لدى الفضل حتى عد ألف بواحد

فدلت التجربة في المشاهدة كما دلت الأخبار عن الماضي وقياس ما قبل التاريخ على ما بعده كل ذلك دل على هذا المعنى، ولأجل هذا التفاوت كلف الإنسان خالقه بقوانين ليبلغ مرتقى الكمال القابل له في زمانه مع مراعاة ما يحيط به من أحوال زمانه، وليتجنب إفساد نفسه وإفساد بني نوعه وقد كان ما أعطيه نوع الإنسان من شعب العقل مخولاً إياه أن يفعل على حسب إرادته وشهوته وأن يتوخى الصواب أو أن لا يتوخاه فلما كلفه خالقه باتباع قوانين شرائعه ارتكب واجتنب فالتحق تارة بمراقي كماله وقصر تارة عنها قصوراً متفاوتاً فكان من الحكمة أن لا يهمل مسترسلاً في خطوات القصور والفساد وذلك إما بتسليط قوة ملجئة عليه تستأصل المفسد وتستبقي المصلح وإما ما راضته على فعل الصلاح حتى يصير منساقاً إلى الصلاح باختياره المحمود إلا أن حكمة أخرى ربانية اقتضت بقاء عمران العالم وعدم استئصاله وبذلك تعطل استعمال القوة المستأصلة فتعين استعمال إراضته على الصلاح فجمع الله بين الحكمتين بأن جعل ثواباً للصالحين على قدر صلاحهم وعقاباً للمفسدين بمقدار عملهم واقعاً ذلك كله في عالم غير هذا العالم وأبلغ ذلك إليهم على ألسنة رسله وأنبيائه وإزالة للوصمة وتنبيهاً على الحكمة فخاف فريق ورجا فارتكب واجتنب وأعرض فريق ونأى فاجترح واكتسب وكان من حق آثار هاته الحكم أن لا يحرم الصالح من ثوابه وأن لا يفوت المفسد بما به ليظهر حق أهل الكمال ومن دونهم من المراتب فجعل الله بقاء أفراد النوع في هذا العالم محدوداً بآجال معينة وجعل لبقاء هذا العالم كله أجلاً معيناً حتى إذا انتهت جميع الآجال جاء يوم الجزاء على الأعمال وتميز أهل النقص من أهل الكمال فكان جعل الآجال لبقاء المخلوقات من جملة الحق الذي خلقت ملابسة له ولذلك نبه عليه بخصوصه اهتماماً بشأنه وتنبيهاً على مكانه وإظهاراً أنه المقصود بكيانه فعطفه على الحق للاهتمام به كما عطف ضده على الباطل في قوله ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا =

﴿النّاس بِلقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدون للبعث ثم خوفهم فقال عـز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الأمم الخالية كان عاقبتهم الهلاك ثم أخبر عنهم فقال ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ قال مقاتل يعني ملكوا الأرض وقال الكلبي يعني: حرثوها ويقال أثاروا الأرض إذا قلبوها للزراعة ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ يعني: عمروا الأرض ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ يعني: أهل مكة، ويقال: عاشوا فيها أكثر مما عاش أهل مكة ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالحجج الواضحات فكذبوهم فأهلكهم الله عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: ليعذبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالمعاصي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءوا﴾ يعني: آخر أمر الذين أشركوا ﴿السُّوأَى﴾ يعني: العذاب فيجوز أن تكـون ثم على معنى التأخير ويجوز أن يكون معناه ثم مع هذا كان عاقبة الذين قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عاقبة بالضم وقرأ الباقون بالنصب (فمن قرأ بالضم جعله اسم كان[١] وجعل السوء خبر كان ومـن قرأ بالنصب جعل العاقبة خبر كان) والسوء اسم كان ومعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد يعني ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله عز وجل والسوء ها هنا جهنم كما أن الحسنى الجنة ثم قال: ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: عاقبة جهنم لأنهم كذبوا بآيات الله ما جاءت بها الرسل ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: بآيات الله ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يعني: يحييهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر يرجعون بالياء على معنى الإخبار عنهم وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة.

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآىِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يعني: واذكر يوم تقوم الساعة ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: ييأس المشركون من كل خير ويقال أيسوا من إقامة الحجة، ويقال: يبلس المجرمون يعني: ينـدمون قـال الزجـاج: المبلس[٢] الساكت المنقطع الحجة الآيس من أن يهتدي إليها ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ يعني: من الملائكة ومن الأصنام ﴿وَكَانُوا بِشركَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني: تبرأت الملائكة عليهم السلام منهم وتبرأت الأصنام عنهم ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ يعني: بعد الحساب يتفرقون فريق في الجنة وفريق في النار ثم أخبر عن مرجع كل فريق فقال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: الذين صدقوا بالله ورسوله وأدوا الفرائض والسنن ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال مقاتل يعني: بستان يكرمـون وينعمون[٣] وقـال السدي

= ترجعون﴾ فقال: ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾. انظر التحرير ٢١/٥٢، ٥٣، ٥٤.

(١) انظر حجة القراءات ٥٥٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٥٤.

(٢) قال ابن منظور: أبلس الرجل: قطع به. وأبلس: سكت. وأبلس من رحمة الله أي يئس وندم. انظر لسان العرب ١/٣٤٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

يحبرون أي يفرحون ويكرمون وقال مجاهد يحبرون يعني: ينعمون[١] وقال القتبي يحبرون يعني: يسيرون وينعمون والحبرة السرور ومنه يقال مع كل حبرة عبرة وقال الزجاج يحبرون يعني: يحسنون إليهم يقال للعالم حبر وللمداد حبر لأنه يحسن به الكتابة ويقال يحبرون أي يسمعون أصوات المغنيات قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا[٢] الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ يعني: البعث بعد الموت ﴿فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ يعني: مقرنين ويقال يجتمعون هم وآلهتهم.

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يعني: صلوا لله ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ يعني: صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ يعني: صلاة الفجر وعشياً يعني صلاة العصر وحين تظهرون على معنى التقديم والتأخير أي صلاة الظهر ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يعني: يحمده أهل السموات وأهل الأرض ويقال له الألوهية في السموات والأرض كقوله عز وجل (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وفي الأَرْضِ إِلَهٌ) يقال وله الحمد يعني الحمد على أهل السموات وأهل الأرض لأنهم في نعمته فالحمد واجب علينا ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يعني: الدجاجة من البيضة والإنسان من النطفة والمؤمن من الكافر ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ يعني: البيضة من الدجاجة والكافر من المؤمن ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ يعني: ينبت النبات من الأرض بعد يبسها وقحطها بالمطر ﴿وكذلك تخرجون﴾ يعني: يحييكم بالمطر الذي يمطر من البحر المسجور كالمني فتحيون به وقال مقاتل يرسل الله عز وجل يوم القيامة ماء الحيوان من السماء السابعة من البحر المسجور على الأرض بين النفختين فينتشر عظام الموتى فذلك قوله وكذلك تخرجون، قرأ حمزة والكسائي تخرجون بفتح التاء والباقون برفع التاء يعني:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٣ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.
(٢) سقط في ظ.

تخرجون من قبوركم يوم القيامة قوله عز وجل ﴿وَمِنْ آيَتِهِ﴾ قال مقاتل يعني: ومن علامات الرب أنه واحد وإن لم يروه وعرفوه توحيده بصنعه ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَاب﴾ يعني: خلق آدم من تراب وأنتم ولده ﴿ثُمَّ ذا أَنْتُمْ﴾ ذريته من بعده ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرَون﴾ يعني: تبسطون كقوله وينشر رحمته يعني ويبسط ويقال ومن آياته يعني من العلامات التي تدل على أن الله عز وجل واحد لا مثل له ظهور القدوة التي يعجز عنها المخلوقون أن خلقكم من تراب يعني: آدم عليه السلام ثم إذا أنتم بشر منتشرون على وجه الأرض[١] ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني: من علامات وحدانيته ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من جنسكم ﴿أَزْوَاجاً﴾ لأنه لو كان من غير جنسه لكان لا يستأنس بها ويقال من أنفسكم يعني: خلقها من آدم ويقال من بعضكم بعضاً ﴿لِتَسْكُنوا إِلَيْهَا﴾ يعني: لتستقر قلوبكم عندها لأن الرجل إذا طاف البلدان لا يستقر قلبه فإذا رجع إلى أهله اطمأن واستقر، ويقال لتسكنوا إليها يعني: لتوافقوها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً وَرَحْمَة﴾ يعني: الحب بين الزوج والمرأة ولم يكن بينهما قرابة ويحب كل واحد منهما صاحبه ويقال وجعل بينكم مودة للصغير على الكبير ورحمة للكبير على الصغير ويقال وجعل بينكم مودة ورحمة يعني الولدان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعني: فيما ذكر لعلامات لوحدانيته ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أني خالق قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ وأنتم تعلمون ذلك لأنهم مقرون أن الله عز وجل خالقهم وهو خالق الأشياء ﴿واخْتِلَاف أَلسِنَتِكُمْ﴾ أي عربي وعجمي ونبطي ﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ أي أحمر وأبيض وأسود وأسمر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعنى: لعلامات في خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان لعلامات ﴿للعالمين﴾ فيعتبرون قرأ عاصم في رواية حفص (للعالمين) بكسر اللام يعني جميع العلماء يعني إن في ذلك علامة للعقلاء وقرأ الباقون بنصب اللام يعني علامة لجميع خلق الأنس والجن قوله عز وجل: ﴿ومِنْ آياتِهِ منامكم باللَّيل والنهار﴾ منامكم نومكم فهو مصدر يقال نام نوماً ومناماً بالليل والنهار على معنى التقديم يعني منامكم بالليل ﴿وابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالنهار. يعني: طلبكم الرزق بالنهار والمعيشة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ يعني: لعلامات على وحدانيتي ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المواعظ ويعتبرون قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً﴾ من الصواعق إذا كنتم بأرض قفر ﴿وَطَمَعاً﴾ للمطر خوفاً وطمعاً منصوبان على المفعول له المعنى يريكم للخوف والطمع خوفاً للمسافر وطمعاً للمقيم ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر ﴿فَيُحيِي بِهِ الأَرْضَ﴾ أي: بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: لعلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله عز وجل فيوحدونه قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ﴾ يعني: فوق رؤوسكم بغير عمد لا يناله شيء وتقوم الأرض على الماء تحت أقدامكم ﴿وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بقدرته ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: إسرافيل عليه السلام يدعوكم على صخرة بيت المقدس في الصور دعوة من الأرض ﴿إِذَا أَنْتُم تَخْرُجُونَ﴾ وقال بعضهم في الآية تقديم ومعناه ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض يعني من قبوركم فإذا أنتم تخرجون قرأ حمزة والكسائي تخرجون بنصب التاء وضم الراء وقرأ الباقون بضم التاء ونصب الراء[٢] ثم قال عز وجل ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُون﴾ يعني: مقربين بالعبودية يعلمون أن الله عز وجل ربهم ويقال قانتون أي خاضعون له لا يقدرون أن يغيروا أنفسهم عما خلقهم، ويقال: معناه في كل شيء دليل ربوبيته وهذا أيضاً من آياته ولكنه لم يذكر لأنه قد سبق ذكره مرات فكأنه يقول ومن آياته أن له من في السموات والأرض كل له قانتون.

---

(١) سقط في أ.

(٢) حجة من قرأ بفتح الثاء قوله تعالى: ﴿يخرجون من الأجداث﴾ وقوله ﴿إلى ربهم ينسلون﴾. وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿تخرج الموتى﴾. انظر حجة القراءات ٥٥٧.

وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ فَمَن يَهۡدِى مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: خلق آدم فبدأ خلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم يعيده يعني: يبعثهم في الآخرة أحياء ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني: في المثل عندكم لأن ابداء الشيء أشد من إعادته ويقال إن ابتداءه كان نطفة ثم جعله علقة ثم جعله مضغة ثم لحماً ثم عظاماً وفي الآخرة حال واحد وذلك (هو أهون عليه) من هذا، وقال القتبي: عن أبي عبيدة وهو أهون عليه يعني: هين عليه كما يقال الله أكبر أي الكبير، ويقال: الإعادة أهون عليه من البداية والبداية عليه هين ثم قال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ يعني: الصفات العلى بأنه واحد لا شريك له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره ثم قال عز وجل: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً﴾ (نزلت في كفار قريش كانوا يعبدون الآلهة ويقولون في إحرامهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك قال الله تعالى ضرب لكم مثلاً أي)[1] وصف لكم شبهاً ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: من العبيد ﴿من شركاء فيما رزقناكم﴾ من الأموال ﴿فأنتم﴾ وعبيدكم ﴿فيه سواءٌ﴾ في الرزق فيما أعطيناكم من الأموال والملك ثم قال: ﴿تخافُونَهُمْ كَخيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال مقاتل: يعني أتخافون عبيدكم أن يرثوكم بعد الموت كما تخافون أن يرثكم الأحرار فقالوا: لا، فقال: أترضون لله الشركة في ملكه وتكرهون لأنفسكم قال الكلبي: هل لكم مما ملكت أيمانكم شركاء فيما رزقناكم من أموالكم من عبيدكم وإماتكم فأنتم وهم فيه سواء تخافوهم كخيفتكم أنفسكم يقول: كما يخاف الرجل ابنه وعمه وأقاربه قالوا: لا قال: فأنتم لا ترضون هذا لأنفسكم أن يكونوا فيما تملكون يشاركونكم في أموالكم فكيف ترضون لله ما لا ترضون به لأنفسكم، وقال السدي: ضرب لكم مثلاً هذا مثل ضربه الله عز وجل في الميراث للآلهة يقول هل لكم مماليك شركاء في الميراث الذي ترثونه من آبائكم وأنتم تخافون أن يدخل معكم مملوككم في ذلك الميراث كما تدخلون أنتم فيه فكما لا يكون للملوك أن يدخل في مواريثكم فكذلك لا يكون لهذا الوثن الذي تعبدونه من دون الله عز وجل أن يدخل في ملكي وإنما خلقي وعبيدي قال أبو الليث رحمه الله عز وجل: وفي الآية دليل أن العبد لا ملك له لأنه أخبر أن لا مشاركة للعبيد فيما رزقنا الله عز وجل من الأموال ثم قال عز وجل: ﴿كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ﴾ يعني: نبين العلامات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الأمثال فيوحدونه ثم قال عز وجل: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني: اتبع الذين كفروا أهواءهم بعبادة الأوثان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير حجة ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ يعني: فمن يهدي إلى توحيد الله من أضله الله وخذله وطرده ويقال فمن يرشد إلى الحق من خذله الله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعني: مانعين من عذاب الله.

فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ

---

(١) سقط في ظ.

ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

قوله عز وجل: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾** أي: أخلص دينك الإسلام للدين حنيفاً يعني: للتوحيد مخلصاً ويقال: يذكر الوجه ويراد به هو فكأنه يقول: فأقم الدين مخلصاً ويقال: معناه فاقبل بوجهك إلى الدين وأقم عليه حنيفاً أي مخلصاً مائلاً إليه ويقال: أخلص دينك وعملك لله تعالى وكن مخلصاً ثم قال **﴿فطرة الله﴾** يعني: اتبع دين الله ويقال اتبع ملة الله ويقال الفطرة الخلقة يعني خلقة الله **﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** أي خلق البشر عليها كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة هل تحسبون فيها من جدعاء»[(١)] وروي عن أبي هريرة أنه قال: «اقرأوا إن شئتم (فطرة الله الذي فطر الناس عليها)» يعني خلق الناس عليها[(٢)] وفي الخبر أنه قال (كل مولود يولد على الفطرة لأنه شهد يوم الميثاق)[(٣)] ثم قال: **﴿لا تبديل لخلق الله﴾** يعني: لا تغيير لدين الله ويقال لا تبديل لخلق الله عندما خلق الله الخلق لم يكن لأحد أن يغير خلقته ثم قال: **﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** يعني: التوحيد هو الدين المستقيم **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** يعني: كفار مكة لا يعلمون بتوحيد الله. قوله عز وجل: **﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾** انصرف إلى قوله (فَأَقِمْ وَجْهَكَ) يعني: فأقبل بوجهك منيباً إليه ويجوز أن يخاطب الرئيس بلفظ الجماعة لأن له أتباعاً وإنما يراد به هو وأتباعه كما قال (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) منيبين إليه يعني: راجعين إليه من الكفر إلى التوحيد **﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** يعني: وأتموا الصلوات الخمس **﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** على دينهم **﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾** يعني: تركوا دين الإسلام الذي أمروا به **﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾** فجعلوه أدياناً يعني: تركوا دينهم وصاروا فرقاً اليهود والنصارى والمجوس قرأ حمزة والكسائي

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٢٩٠ كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥) وأبو داود (٤٧١٤) والترمذي (٢١٣٨) وأحمد في المسند ٢/ ٢٣٣، ٢٧٥، ٢٨٢.

اختلف السلف في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال كثيرة وحكى أبو عبيد أنه سأل محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة عن ذلك فقال: كان هذا في أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض وقبل الأمر بالجهاد قال أبو عبيد: كأنه عنى أنه لو كان يولد على الإسلام فمات قبل أن يهوده أبواه مثلاً لم يرثاه والواقع في الحكم أنهما يرثانه فدل على تغير الحكم. وقد تعقبه ابن عبد البر وغيره وسبب الاشتباه أنه حمله على أحكام الدنيا فلذلك ادعى فيه النسخ والحق أنه إخبار من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما وقع في نفس الأمر ولم يرد به إثبات أحكام الدنيا. وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** الإسلام واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب: اقرأوا إن شئتم **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾** وبحديث عياض بن حمار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عن ربه (إني خلقت عباديّ حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم) الحديث. وقد رواه غيره فزاد فيه (حنفاء مسلمين) ورجحه بعض المتأخرين بقوله تعالى: **﴿فطرة الله﴾** لأنها إضافة مدح وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام وقال ابن جرير: قوله: **﴿فأقم وجهك للدين﴾** أي سدد لطاعته **﴿حنيفاً﴾** أي مستقيماً **﴿فطرة الله﴾** أي صبغة الله. انظر فتح الباري ٣/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) انظر الدر المنثور ٥/ ١٥٥.

(٣) أخرجه أبو داود ٤/ ٢٣٠ كتاب السنة (٤٧١٦).

فارقوا بالألف وقرأ الباقون فرقوا بغير ألف فمن قرأ فارقوا يعني: تركوا دينهم، ومن قرأ فرقوا دينهم يعني: افترقت اليهود إحدى وسبعين فرقة، والنصارى اثنين وسبعين فرقة، والمسلمون ثلاثة وسبعين فرقة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يعني: كل أهل دين بما عندهم من الدين راضون قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ يعني: إذا أصاب الكفار شدة ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ يعني: منقلبين إليه بالدعاء عند الشدة والقحط ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ يعني: إذا أصابهم من الله نعمة وهي السعة في الرزق والخصب ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعني: تركوا توحيد ربهم في الرخاء وقد وحدوه في الضراء قوله عز وجل: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُم﴾ قال مقاتل تقول: أذاقهم رحمة لئلا يكفروا بالذي أعطاهم من الخير ويقال كانت النعمة سبيلاً للكفر فكأنه أعطاهم لذلك كما قال: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحُزناً) وقرىء في الشاذ يشركون ليكفروا بجزم اللام فيكون أمراً على وجه الوعيد والتهديد ثم قال: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: فتمتعوا قليلاً إلى آجالكم فسوف تعلمون ما يفعل بكم يوم القيامة ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً﴾ يعني: كتاباً من السماء ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ يعني: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ يعني: بما كانوا يقولون من الشرك، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به النفي يعني: لم ينزل عليهم حجة بذلك وقال القتبي: فهو يتكلم فهو من المجاز ومعناه أنزلنا عليهم برهاناً يستدلون به فهو يدلهم على الشرك ويقال: أم أنزلنا عليهم عذراً بذلك.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ يعني: المطر والسعة ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني: الجوع والشدة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: جزاء لذنوبهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يعني: آيسين من الرزق قرأ أبو عمرو الكسائي يقنطون بكسر النون وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان ومعناهما واحد، ثم وعظهم ليعتبروا ويطمئنوا بالرزق فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يوسع وكان يرى صلاح العبد في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني: يضيق العيش ويكون صلاحه في ذلك من البسط والتقتير ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ يعني: في البسط والتقتير ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: يصدقون قوله عز وجل: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ يعني: فأعط ذا القربى حقه وحق القرابة هو الصلة ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ يعني: أعطي السائل حقه وحقه أن يتصدق عليه بشيء ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ يعني: الضيف النازل وحقه أن تحسن إليه ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني: الذي وصف من صلة القرابة والمسكين وابن السبيل ذلك خير ﴿لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يعني: أي يريدون بذلك رضاء الله خير من الإمساك عندهم ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: الناجون ويقال: الباقون في النعمة ويسمى السحور فلاحاً لأنه يبقي للصائم قوة ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِن رِباً﴾ يعني: ما أعطيتم من عطية ﴿لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ يعني: ليزدادوا في أموال ومعناه ما أعطيتم من

عطية لتلتمسوا بها الزيادة ﴿فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: فلا تضاعف تلك العطية عند الله عز وجل ما أعطيتم عند الله ولا يأثم فيه وروى معمر عن قتادة عن ابن عباس قال هي هبة يريد أن يثاب أفضل منها فذلك الذي لا يربو عند الله ولا يؤجر فيه صاحبه ولا إثم عليه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ قال هي الصدقة[١] ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله[٢] وقال عكرمة الربا ربوان ربا حلال وربا حرام فأما الحلال فهو هبة الرجل يريد أن يثاب ما هو أفضل منها وأما الحرام (فزيادة خالية عن العوض في عقد المعاوضة وهو نوعان ربا الفضل وربا النساء عرف ذلك في كتب الفقه[٣] قرأ ابن كثير وما أتيتم بغير مد يعني ما جئتم وقرأ الباقون بالمد يعني ما أعطيتم واتفقوا في الثاني أنه بالمد[٤] وقرأ نافع لتربو بالتاء والضم والباقون)[٥] بالياء والنصب[٦] فمن قرأ بالنصب فمعناه لتستزيدوا أنتم زيادة في المال يعني: لتكثروا أموالكم بما أعطيتم ومن قرأ ليربو بالياء معناه ليربو المعطي فيكثر حتى يرد ما هو أكثر منه، ثم بين ما يربو فيه فقال: «وما أتيتم من زكاة» يعني: ما أعطيتم من صدقة تريدون وجه الله يعني رضا الله ففيه الإضعاف فأولئك هم المضعفون للواحد عشرة فصاعداً، ويقال: المضعفون أي الواجدين من الضعف كما يقال أكذبته إذا وجدته كاذباً ثم أخبر عن صنعه ليعرف توحيده فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ يعني: أطعمكم ما عشتم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ للبعث بعد الموت لينبئكم بما عملتم في الدنيا ويجازيكم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: يفعل كفعله ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٧] (وقد ذكرناه ويقال: الله الذي خلقكم وطلب منكم العبادة ثم رزقكم وطلب الطمأنينة ثم يميتكم وطلب منكم الاستعداد للموت ثم يحييكم وطلب منكم الحجة والبرهان)[٨].

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٦ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٣) الربا في اللغة الفضل والزيادة يقال ربا الشيء يربو رباً وربواً أي زاد.

وفي الشرع هو فضل أحد المتجانسين على الآخر من مال بلا عوض. وفي الصحاح: والربا في البيع ويثنى ربوان وربيان وقد أربى الرجل والرُّبْيَة مخففة لغة في الربا وكان القياس رُبْوَةً. النَّساء: بالمد لا غير: التأخير يقال بعته بنَساء ونسيء ونسيئة بمعنى، كذا في المغرب وفي الصحاح: ونسأت الشيء نسأ: أخرته وكذلك أنسأته فعلت وأفعلت بمعنى.

والنساء بالضم: التأخير وكذلك النسيئة على فعيلة وبعته بنساءة وبعته بكلأة وبعته بنسيئة أي بأخِرَةٍ وقال الأخفش: أنسأته الدّين: إذا جعلته له مؤخراً ونسأته دينه إذا أخرته نساء بالمد وكذلك النساء في العمر ممدود ومنه قوله: من سره النساء ولا نساء فليخفف الرداء وليباكر الغداء وليقل غشيان النساء. انظر أنيس الفقهاء ٢١٤ ـ ٢١٥. وانظر الصحاح ٦/٢٣٥٠، المغرب ١/٣١٨ تبين الحقائق ٤/٨٥ حاشية ابن عابدين ٥/١٦٨ طلبة الطلبة ١١٠.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٥٩.

(٥) سقط في ظ.

(٦) حجة من قرأ بالتاء أنها كتبت في المصاحف بالألف بعد الواو وحجة الباقين الذي بعده وهو قوله تعالى: ﴿فلا يربو عند الله﴾ ولم يقل: فلا تربون. المصدر السابق وانظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٤.

(٧) قرأ حمزة والكسائي: ﴿سبحانه وتعالى عما تشركون﴾ بالتاء وحجتهما في ذلك أن ذلك أتى عقيب الخطاب في قوله: ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ فجرى ما بعد ذلك على لفظ ما تقدمه من الخطاب. وقرأ الباقون: بالياء. جعلوا الكلام (خبراً) عن أهل الشرك. انظر حجة القراءات ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(٨) سقط في ظ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يعني: قحط المطر ونقص الثمار للناس والدواب يعني: نقص النبات في البر للدواب والوحوش وفي البحر يعني القرى والأرضين ينقصان الثمار والزرع سمى القرى والمدائن بحراً لما يجري فيها من الأنهار، ويقال البحر نفسه لأنه إذا لم يكن مطر فإنه لا يخرج منه اللؤلؤ ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بما عملوا من المعاصي، ويقال: من أذنب ذنباً فجميع الخلق من الإنس والجن والدواب والوحوش والطير والذر خصماؤه يوم القيامة لأنه يمنع المطر بالمعصية فيضر بأهل البر والبحر، وروي عن ثقيف الزاهد[1] أنه قال من أكل الحرام فقد خان جميع الناس حيث لا يستجاب دعاؤه، ويقال: ظهر الفساد في البر والبحر يعني: ظهرت المعاصي في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس يعني: بكسب الناس، فأول فساد البر كان من قابيل حيث قتل أخاه هابيل، وأول فساد البحر كان من جلندا حيث كان يأخذ كل سفينة غصباً وقال عطية العوفي ظهور الفساد: قحوط المطر، قيل له هذا فساد البر، فما فساد البحر؟ قال: إذا قل المطر قل الغوص وقال قتادة: ظهر الفساد في البر والبحر يعني امتلأت الضلالة والظلم في الأرض وروي عن أبي العالية أنه قال: البر الأعضاء والبحر القلوب يعني ظهر الفساد في الناس في الأعضاء وفي القلوب ثم قال: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني: يعذبهم ببعض ذنوبهم في الدنيا ويدخر البعض في الآخرة والذوق إنما هو كناية عن التعذيب فكأنه يقول يعذبهم بالجوع والقحط في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لكي يرجعوا عن الكفر قرأ ابن كثير لنذيقهم بالنون أي لنذيقهم نحن وقرأ الباقون بالياء يعني: ليذيقهم الله عز وجل[2] ثم خوفهم فقال عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافروا فيها ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: كيف كان آخر أمر من كان قبلهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ فيعتبروا بذلك والنظر على وجهين: يقال نظر إليه إذا نظر بعينه، ونظر فيه إذا تفكر بقلبه، وها هنا قال فانظروا ولم يقل فيه ولا إليه فهو على الأمرين جميعاً ثم قال عز وجل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ يعني: أخلص دينك الإسلام القيم يعني: المستقيم، ويقال أقبل بوجهك إليه ويقال اثبت عليه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: يوم القيامة لا يقدر أحد أن يرد ذلك اليوم من الله، ويقال يعني: ذلك اليوم من الله ويقال لا خلف لذلك الوعد من الله ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يعني: يتصدعون فأدغم التاء في الصاد وشدد يعني: يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير ثم قال عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يعني: جزاء كفره وعقوبته ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: وحده وعمل بالطاعة بعد التوحيد ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ قال مقاتل: أي يقدمون وقال مجاهد: يعني لأنفسهم يفرشون في القبر[3] ويقال في

---

(١) شقيق بن سلمة أبو وائل الكوفي الأسدي إمام كبير أدرك زمن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يره توفي زمن الحجاج بعد الجماجم سنة ٨٢ طبقات القراء ١/٣٢٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٦٠، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٥٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الحلية والبيهقي في عذاب القبر بنحوه.

الجنة، ويقال فلأنفسهم يعملون ويستعدون قوله عز وجل: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ينصرف إلى قوله يصدعون بعني: يتفرقون لكي يجزي الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه ويقال من ثوابه ويقال بفضله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بتوحيد الله عز وجل ويقال لا يرضى دين الكافرين.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى
ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ
رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِن آيَاتِهِ أن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ يعني: ومن علامات وحدانيته أن يعرفوا توحيده بصنعه أن يرسل الرياح ﴿مُبشِّرَاتٍ﴾ بالمطر ويقال يستبشر بها الناس ويقال فإذا كان الاستبشار به ينسب الفعل إليه ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: ليصيبكم من نعمته وهو المطر ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ يعني: السفن تجري في البحر بالرياح بأمره ﴿وَلِتَبْتغوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: لتطلبوا في البحر من رزقه كل هذا بالرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعم فتوحدوه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأمر والنهي فكذبوهم كما كذب قومك ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بالعذاب يعني: من الذين كفروا ﴿وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا﴾ يعني: واجباً علينا ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنجاة مع رسولهم وإنما هو وجوب الكرم لا وجوب اللزوم ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا فقال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾ يعني: تدفعه وتهيجه يقال ثار الغبار إذا ارتفع ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني كيف يشاء الله عز وجل إن شاء بسطه مسيرة يوم أو أكثر ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً﴾ يعني: قطعاً ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ يعني: المطر يخرج من خلاله من وسط السحاب ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ يعني: بالمطر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يعني: يفرحون بنزول المطر عليهم قرأ ابن عامر كسفاً بالجزم وقرأ الباقون بالنصب ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِيْنَ﴾ أي: من قبل نزول المطر عليهم لمبلسين يعني: آيسين من المطر، وقال الأخفش: تكرير قبل للتأكيد، وقال قطرب: الأول للتنزيل والثاني للمطر ثم قال: ﴿فَانْظُر إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: ألوان النبات من أثر المطر منه الأخضر والأحمر والأصفر قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وابن عامر إلى آثار رحمة الله بلفظ الجماعة قرأ الباقون أثر بلفظ الوحدان لأن الوحدان يغني عن الجمع (١) ثم قال: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ حين لم يكن فيها نبات ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني: هذا الذي فعل ﴿لَمُحْيِي الْمَوتى﴾ في الآخرة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلنا ريحاً فرَأَوْهُ مُصْفَرّاً﴾ يعني: الزرع متغيراً بعد خضرته ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ يعني:

(١) كما قال الله تعالى: ﴿هم أولاء على أثري﴾ ولم يقل: آثاري. انظر حجة القراءات ٥٦١، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٥.

لصاروا وأصله العمل بالنهار ويستعمل في موضع صار كقوله أصبح وأمسى يوضع موضع صار من بعده يكفرون أي من بعد اصفراره يكفرون النعم يقول لو فعلت ذلك لفعلوا هكذا، ويقال: قوله فرأوه إشارة إلى النبات لأن الريح مؤنثه وإنما أراد ما ينبت بالمطر، ويقال: معناه أنهم يستبشرون إذا رأوا الغيث ويكفرون إذا انقطع عنهم النبات ثم ضرب لهم مثلاً آخر فقال:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ فشبه الكفار بالموتى فكما لا يسمع الموتى النداء فكذلك لا يجيب ولا يسمع الكفار الدعاء إذا دعوا إلى الإيمان ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ يعني: أن الأصم إذا كان مقبلاً لا يسمع فكيف إذا ولى مدبراً فكذلك الكافر لا يسمع إذا كان يتصامم عند القراءة والقراءة ذكرناها في سورة النمل(١) ثم

---

(١) هي قراءة ابن كثير (ولا يسمع) بالياء وفتحها (والصمُّ) بالرفع أي ورده البيضاوي على تسليم ذلك بأن فرضها بالمدينة لا ينافي تشريعها بمكة على غير إيجاب. والأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة تتصل بسبب نزولها الذي تقدم ذكره أن المشركين سألوا عن قصة لقمان وابنه وإذا جمعنا بين هذا وبين ما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ من أن المراد به النضر بن الحارث إذ كان يسافر إلى بلاد الفرس فيقتني كتب قصة أسفنديار ورستم وبهرام وكان يقرؤها على قريش. ويقول: يخبركم محمد عن عاد وثمود وأحدثكم أنا عن رستم واسفنديار وبهرام فصدّرت هذه السورة بالتنويه بهَدْي القرآن ليعلم الناس أنه لا يشتمل إلا على ما فيه هدى وإرشاد للخير ومُثل الكمال النفساني فلا التفات فيه إلى أخبار الجبابرة وأهل الضلال إلا في مقام التحذير مما هم فيه ومن عواقبه فكان صدر هذه السورة تمهيداً لقصة لقمان وقد تقدم الإلماع إلى هذا في قوله تعالى في أول سورة يوسف ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ ونبهت عليه في المقدمة السابعة بهذا التفسير.

وانتقل من ذلك إلى تسفيه النضر بن الحارث وقصصه الباطلة. وابتدىء ذكر لقمان بالتنويه بأن آتاه الله الحكمة وأمره بشكر النعمة وأطيل الكلام في وصايا لقمان وما اشتملت عليه: من التحذير من الإشراك ومن الأمر ببر الوالدين ومن مراقبة الله لأنه عليم بخفيات الأمور وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والتحذير من الكبر والعجب والأمر بالاتسام بسمات المتواضعين في المشي والكلام. لا ينقادون للحق لعنادهم كما لا يسمع الأصم مايقال له. وقرأ الباقون ﴿لا تُسْمِعُ﴾ بالتاء (الصمَّ) بالنصب خطاب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحجتهم قوله تعالى: ﴿فإنك لا تُسمِع الموتى﴾ فأسند الفعل إلى المخاطب فكذلك.

قال عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ إلى الإيمان ﴿عَن ضَلاَلَتِهِمْ﴾ يعني: لا تقدر أن توفقه وهو لا يرغب عن طاعتي في طلب الحق ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ يعني: ما تسمع ﴿إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالقرآن ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: مخلصون ثم أخبرهم عن خلق أنفسهم ليعتبروا ويتفكروا فيه فقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ يعني: من نطفة ويقال صغيراً لا يعقل ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ يعني: شدة بتمام خلقه ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً﴾ يعني: بعد الشباب الهرم ﴿وَشَيْبَةً﴾ أي شمطاً[١] قرأ عاصم في رواية حفص وحمزة من ضعف بنصب الضاد وقرأ الباقون من ضعف بالضم وهما لغتان ومعناهما واحد[٢] ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يحول الخلق كما يشاء من الصورة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ العليم بتحويل الخلق القدير يعني: القادر على ذلك قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: يحلف المشركون ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في الدنيا يقول الله عز وجل كذلك كانوا يكذبون بالبعث كما أنهم كذبوا حيث قالوا ما لبثوا يعني في القبور غير ساعة ويقال: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ لأنهم يقولون مرة (إن لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشراً) ومرة يقولون (لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ومرة يقولون (ما لبثنا غير ساعة) فيقول الله تعالى هكذا كانوا في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيْمَانَ﴾ يعني: أكرموا بالعلم والإيمان ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في علم الله، ويقال: فيما كتب الله عز وجل وقال مقاتل: في الآية تقديم يعني: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله والإيمان وهو ملك الموت لقد لبثتم في كتاب الله ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ويقال الذين أوتوا العلم بالكتاب وأوتوا الإيمان وهم العلماء ثم قال: ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا تصدقون بهذا اليوم في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمر ولا تنفع بالتاء بلفظ التأنيث لأن لفظ المعذرة مؤنثة وقرأ الباقون بالياء[٣] فينصرف إلى المعنى يعني عذرهم ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقال عتب يعتب إذا غضب عليه وأعتب يعتب إذا رجع عن ذنبه واستعتب إذا طلب منه الرجوع يعني: أنه لا يطلب منهم الرجوع في ذلك اليوم ليرجعوا ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ يعني: وصفنا وبينا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: شبه ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ كما سألوا ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: المشركون من أهل مكة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ يعني: يقولون ما أنت إلا كاذب وليس هذا من الله عز وجل كما كذبوا بانشقاق القمر يقال أبطل الرجل إذا جاء بالباطل وأكذب إذا جاء بالكذب، فقال: إن أنتم إلا مبطلون يعني: كاذبون ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ يعني يختم الله عز وجل ﴿عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فيما وعد لكم من النصر على عدوكم وإظهار دين الإسلام حق، ويقال: فاصبر إن وعد الله حق يعني: صدق في العذاب ﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ يعني: يستنزلنك عن البعث ﴿الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ أي لا يصدقون ويقال لا يستخفنك يعني: لا يحملنك تكذيبهم على الخفة يعني: كن حليماً صبوراً وقوراً، ويقال: لا يستخفنك فتدعو عليهم بتعجيل العذاب فيهلك الذين لا يوقنون بالعذاب والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

= تسند إليه ما بعد ليكون الكلام على نظام واحد. انظر حجة القراءات ٥٦١.

(١) قال ابن منظور الشمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض... والشمط في الرجل شيب اللحية ويقال للرجل أشيب والشمط بياض شعر الرأس يخالط سواده. انظر لسان العرب ٤/٢٣٢٧.

(٢) انظر المصدر السابق، وإتحاف فضلاء البشر ٢/٣٥٩، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٥.

(٣) انظر حجة القراءات الموضع السابق.

سُورَةُ لُقْمَانَ(١)

وهي ثلاثون وأربع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قول الله تبارك وتعالى ﴿الٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني هذه آيات القرآن المحكم من الباطل، ويقال: أحكم حلاله وحرامه، ويقال: محكم لا يرد عليه التناقض ﴿هُدًى﴾ يعني بياناً من الضلالة، ويقال هادياً ﴿ورَحْمَةً﴾ من العذاب ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون العمل، وهم المؤمنون، لأن كل مؤمن محسن قرأ حمزة هدى ورحمة بالضم والباقون بالنصب،(٢) فمن قرأ بالضم فعلى الإضمار، ومعناه هو هدى ورحمة على معنى تلك هدى ورحمة، ومن نصب فهو على الحال المعنى تلك آيات في حال الهداية والرحمة ثم نعت المحسنين فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يعني يقرون بها ويتمونها قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني يقرون بها ويؤدونها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني بالبعث الذي فيه جزاء أعمالهم ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بأنها كائنة ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿عَلَى هُدًى مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بيان من ربهم بيّن لهم طريقهم ووفقهم لذلك ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الفائزون بالخير.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ

---

(١) هي مكية كلها عند ابن عباس في أشهر قوليه وعليه إطلاق جمهور المفسرين وعن ابن عباس من رواية النحاس استثناء ثلاث آيات من قوله تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ إلى قوله ﴿بما تعملون خبير﴾ وعن قتادة إلا آيتين إلى قوله ﴿إن الله سميع بصير﴾ وفي تفسير الكواشي حكاية قول إنها مكية عدا آية نزلت بالمدينة وهي ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ قائلاً لأن الصلاة والزكاة فرضت بالمدينة.

وسلكت السورة أفانين ذات مناسبات لما تضمنته وصية لقمان لابنه وأدمج في ذلك تذكير المشركين بدلائل وحدانية الله تعالى و بنعمه عليهم وكيف أعرضوا عن هديه وتمسكوا بما ألفَوْا عليه آباءهم. وذكرت مزية دين الإسلام وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتمسك المسلمين بالعروة الوثقى وأنه لا يحزنه كفر من كفروا. وانتظم في هذه السورة الرد على المعارضين للقرآن في قوله ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ وما بعدها وختمت بالتحذير من دعوة الشيطان والتنبيه إلى بطلان ادعاء الكهان على الغيب. انظر التحرير ٢١/١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٦٣، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦١.

حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ يعني من الناس ناس يشترون أباطيل الحديث وهو النضر بن الحارث كان يخرج إلى أرض فارس تاجراً ويشتري من هنالك من أحاديثهم ويحمله إلى مكة، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بالأحاديث طرفاً منها، وأنا أحدثكم بالحديث تاماً ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ﴾ يعني يصرف الناس عن دين ﴿اللَّهِ﴾ عز وجل ويقال: يشتري جواري مغنيات قال أبو الليث رحمه الله: حدثني الثقة بإسناده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهن وأكل أثمانهن حرام[(١)] وفيه أنزل الله عز وجل هذه الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) وروى مجاهد عن إبن عباس رضي الله عنه في قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ) قال: شراء المغنية ويقال: لهو الحديث هاهنا الشرك يعني يختار الشرك على الإيمان ليضل عن سبيل الله عز وجل يعني ليصرف الناس بذلك عن سبيل الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني بغير حجة ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ يعني سبيل الله عز وجل لأن السبيل مؤنث كقوله تعالى (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي)ويقال ويتخذها هزواً يعني آيات القرآن التي ذكرفي أول السورة استهزاء بها حيث جعلها بمنزلة حديث رستم واسفنديا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بنصب الياء وقرأ الباقون بالضم[(٢)] فمن قرأ بالنصب فمعناه ليضل بذلك عن سبيل الله يعني بترك [دين][(٣)] الإسلام ومن قرأ بالضم يعني بصرف الناس عن دين الإسلام ويصرف نفسه أيضاً، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (ويتخذها) بنصب الذال وقرأ الباقون بالضم[(٤)] فمن نصبها ردها على قوله ليضل يعني لكي يضل ولكي يتخذها هزواً ومن قرأ بالضم ردها على قوله ومن الناس من يشتري لهو الحديث ويتخذها وقال:﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهانون به قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يعني إذا قرىء عليه القرآن ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِراً﴾ يعني أعرض مستكبراً عن الإيمان والقرآن ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يعني كأن لم يسمع ما في القرآن من الدلائل والعجائب ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ أي ثقلاً فلا يسمع القرآن يعني يتصامم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلما ذكر عقوبة الكافر ذكر على أثر ذلك ثواب المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة ﴿خَالِدِينَ﴾ يعني دائمين ﴿فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أوجبه الله عز وجل لأهل هذه الصفة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حكم بالعذاب للكافرين والنعيم للمؤمنين ثم بين علامة وحدانيته فقال:﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلقها بغير عمد ترونها بأعينكم، ويقال: معناه بغير عمد ترونها أنتم يعني لها عمد ولكن لا ترونها والعمد جماعة العماد ثم قال: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال الثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يعني لكيلا تزول بكم الأرض ثم قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ يعني وخلق فيها في الأرض ويقال وبسط فيها ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٦/١٥ كتاب البيوع باب ما جاء في بيع المغنيات والطبراني في الكبير ٨/٢٣٣ وبلفظ نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخرجه ابن ماجه ٢/٧٣٣ كتاب التجارات (٢١٦٨).

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٦٤٦.

(٣) سقط في أ.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٦٣، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٦.

السَّماءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وقد ذكرناه ثم قال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ يقول هذا الذي خلقت أنا ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الذين تدعونه إلهاً من دونه يعني الأصنام، ويقال هذا خلق الله يعني مخلوق الله، ويقال: هذا صنع الله ثم قال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي الكافرون في خطأ بين لا يعتبرون ولا يتفكرون فيما خلق الله عز وجل فيعبدونه ويقال في ضلال مبين يعني في خسران بين قوله عز وجل:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ وقال مجاهد يعني أعطينا لقمان العقل والفقه والإصابة في غير نبوة، ويقال أيضاً الحكمة العقل والإصابة في القول وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ما زهد عبد في الدنيا إلا أثبت الله تعالى الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا وعيوب نفسه، وإذا رأيتم أخاكم قد زهد في الدنيا فاقتربوا إليه فاستمعوا منه فإنه يلقى الحكمة[(١)] وقال السدي: ولقد آتينا لقمان الحكمة يعني: النبوة، وعن عكرمة قال: كان لقمان نبياً وعن وهب بن منبه قال: كان لقمان رجلاً حكيماً ولم يكن نبياً[(٢)] وروي عن ابن عباس قال: كان لقمان عبداً

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١٣٧٣/٢ من حديث أبي خلاد قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأيتم الرجل قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة وقال في الزوائد ٢٦٨/٣ لم يخرج ابن ماجه لأبي خلاد سوى هذا الحديث وليس له رواية في شيء من الخمسة الأصول. قال المزي في الأطراف: قال البخاري وقال أحمد بن إبراهيم: حدثنا يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص أخو عنبسة سمع أبا فروة الجزري عن أبي مريم عن أبي خلاد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال وهذا أصح. انظر الزوائد ٢٦٨/٣.

(٢) اختلف السلف في أن لقمان المذكور في القرآن كان حكيماً أو نبياً. فالجمهور قالوا: كان حكيماً صالحاً واعتمد مالك في الموطأ على الثاني فذكره في جامع الموطأ مرتين بوصف لقمان الحكيم وذلك يقتضي أنه اشتهر بذلك من بين علماء المدينة وذكر ابن عطية: أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول (لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن =

حبشياً، ويقال: إن أول ما ظهرت حكمته أن مولاه قال له يوماً: اذبح لنا هذه الشاة فذبحها، ثم قال: أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: له اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، فقال: أخرج لنا أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب فسأله عن ذلك: فقال لقمان إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وذكر عن وهب بن منبه أن لقمان خُيِّرَ بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة قال فبينما كان يعظ الناس يوماً وهم مجتمعون عليه إذ مر به عظيم من عظماء بني إسرائيل، فقال: ما هذه الجماعة؟ فقيل له؟ جماعة اجتمعت علىٰ لقمان الحكيم فأقبل إليه، فقال له: ألست عبد بني فلان؟ فقال: نعم، فقال فما الذي بلغ بك ما أرى؟ فقال: صدق الحديث وأداء الأمانة وتركي مالا يعنيني فانصرف عنه متعجباً وتركه ثم قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ يعني حكماً من أحكام الله أن اشكر لله، ويقال: معناه ولقد آتينا لقمان الحكمة وقلنا له اشكر لله بما أعطاك من الحكمة ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ يعني ثواب الشكر لنفسه ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي جحد فلا يوحد ربه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه وعن شكرهم ﴿حَمِيدٌ﴾ في فعاله ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ﴾ قال مقاتل كان اسم ابنه أنعم ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ ويقال: معناه قال لابنه واعظاً ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ يعني ذنب عظيم لا يغفر أبداً وكان ابنه وامرأته كافرين فما زال بهما حتى أسلما وقال مقاتل زعموا أنه كان ابن خالة أيوب وذكر القاسم بن عباد بإسناده عن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفر فلقيه غلامه قال: ما فعل أبي؟ قال: مات، فقال: ملكت أمري، قال: وما فعلت أمي؟ قال: قد ماتت قال: فذهب همي، قال: فما فعلت أختي؟ قال: ماتت فقال: سترت عورتي، قال: فما فعلت امرأتي؟ قال: قد ماتت فقال: جدد فراشي، قال: فما فعل أخي؟ قال: مات قال: انقطع ظهري، وفي رواية أخرى قال ما فعل أخي؟ قال مات فقال انكسر جناحي. ثم قال فما فعل ابني؟ قال: مات فقال: انصدع قلبي وقال وهب بن منبه: كان لقمان عبداً حبشياً لرجل من بني إسرائيل في زمن داود ـ عليه السلام ـ فاشتراه فأعتقه وكان حبشياً أسود غليظ الشفتين والمنخرين غليظ العضدين والساقين وكان رجلاً صالحاً أبيض القلب وليس يصطفي الله عز وجل عباده على الحسن والجمال وإنما يصطفيهم على ما يعلم من غائب أمرهم[1] قرأ عامر في رواية حفص وابن كثير في إحدى الروايتين يا بني بالنصب وقرأ الباقون بالكسر وقد ذكرناه ثم قال عز وجل ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ﴾ فكأنه يقول آمركم بما أمر به لقمان لابنه بأن لا تشركوا بالله شيئاً وآمركم بأن تحسنوا إلى الوالدين فذلك قوله عز وجل: (ووصينا الإنسان) يعني: أمرناه بالإحسان ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم ذكر حق الأم وما لقيت من أمر الولد من الشدة فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ يعني ضعفاً على ضعف لأن الحمل في الابتداء أيسر عليها فكلما ازداد الحمل يزيدها ضعفاً على ضعف ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ يعني فطامه بعد سنتين من وقت الولادة ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ يعني:

= اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمنَّ عليه بالحكمة) ويظهر من الآيات المذكورة في قصته هذه أنه لم يكن نبياً لأنه لم يمتن عليه بوحي ولا بكلام الملائكة والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومي إلى أنه ألهم الحكمة ونطق بها ولأنه لما ذكر تعليمه لابنه قال تعالى: ﴿وهو يعظه﴾ وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع وذهب عكرمة والشعبي: أن لقمان نبي ولفظ الحكمة يسمح بهذا القول لأن الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وقد فسرت الحكمة في قوله تعالى ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ بما يشمل النبوءة. وإن الحكمة (معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه) وأعلاها النبوءة لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن علمه شيء وسيأتي أن إيراد قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ في أثناء كلام لقمان يساعد هذا القول). انظر التحرير ٢١/١٤٩ ـ ١٥٠. وانظر تفسير القرطبي ١٤/٤١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٦١ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

وصيناه وأمرناه بأن اشكر لي بما هديتك للإسلام واشكر لوالديك بما فعله إليك ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فأجازيك بعملك ثم قال عز وجل: ﴿وإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ يعني: وإن قاتلاك يعني أن حرمة الوالدين وإن كانت عظيمة فلا يجوز للولد أن يطيعهما في المعصية فقال: وإن جاهداك يعني وإن قاتلاك ويقال: وإن أراداك ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِيْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني: ما ليس لك به حجة بأن معي شريكاً ﴿فلا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ يعني: عاشرهما في الدنيا معروفاً بالإحسان وإنما سمي الإحسان معروفاً لأنه يعرفه كل واحد قال: وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: حسن المصاحبة أن يطعمهما إذا جاعا وأن يكسوهما إذا عريا[١] ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: اتبع دين من أقبل إلي بالطاعة ثم استأنف فقال ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ [في الآخرة وقال بعضهم: إنما أتم الكلام عند قوله: واتبع سبيل من أناب إلي يعني دين من أقبل على الطاعة ثم استأنف الكلام فقال: ثم إلي مرجعكم][٢] تكراراً على وجه التأكيد ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: فأجازيكم بها ثم رجع إلى حديث لقمان فقال: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّهَا﴾ يعني الخطيئة ﴿إِنْ تَكُ﴾ قال مقاتل: وذلك أن ابن لقمان قال لأبيه يا أبتاه إن عملت بالخطيئة حيث لا يراني أحد فكيف يعلمها الله سبحانه وتعالى فرد عليه لقمان وقال: يا بني إنها إن تك يعني الخطيئة إن تك ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ يعني وزن خردلة ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي الصخرة التي هي أسفل الأرضين وقال بعضهم: أراد بها كل صخرة لأنه قال بلفظ النكرة يعني ما في جوف الصخرة الصماء وقال مقاتل: هي الصخرة التي في أسفل الأرض وهي خضراء مجوفة ثم قال: ﴿أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يعني يجازي بها الله أي يعطيه ثوابها ويقال: يأت بها الله عند الميزان فيجازيه بها، ويقال: هذا مثل لأعمال العباد يأت بها الله يعني يعطيه ثوابها عز وجل كقوله: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ) يعني يرى ثوابه قرأ نافع مثقال بضم اللام وقرأ الباقون بالنصب[٣] فمن قرأه بالضم جعله اسم يكن ومن قرأ بالنصب جعله خبراً، والاسم فيه مضمر ومعناه إن تكن صغيرة قدر مثقال حبة، وإنما قال إن تكن بلفظ التأنيث لأن المثقال أضيف إلى الحبة فكان المعنى للحبة، وقيل: أراد به الخطيئة ومن قرأ بالضم جعله اسم تكن ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ يعني لطيف باستخراج تلك الحبة خبير بمكانها وقال أهل اللغة: اللطيف في اللغة يعبر به عن أشياء يقال للشيء الرقيق وللشيء الحسن لطيف وللشيء الصغير لطيف ويقال للمشفق لطيف ثم قال عز وجل: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ يعني أتم الصلاة ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني التوحيد ويقال: أظهر العدل ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ولا معروف في العقل ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ يعني إذا أمرت بالمعروف أو نهيت عن المنكر فأصابك من ذلك ذل أو هوان أو شدة فاصبر على ذلك فـ ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يعني من حق الأمور ويقال: من واجب الأمور وصارت هذه الآية بياناً لهذه الأمة وإذناً لهم أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ينبغي أن يصبر على ما يصيبه في ذلك إذا كان أمره ونهيه لوجه الله تعالى لأنه قد أصاب ذلك في ذات الله عز وجل ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم ولا تصعر بالتشديد بغير ألف وقرأ الباقون ولا تصاعر بالألف والتخفيف وهما لغتان،[٤] ومعناهما واحد، يقال: صعر خده وصاعره ومعناهما الاعراض على جهة الكبر يعني لا تعرض بوجهك عن الناس متكبراً، وقال مقاتل: لا تعرض وجهك عن فقراء المسلمين وهكذا قال الكلبي وقال العتبي: أصله الميل ويقال: رجل أصعر إذا كان

---

(١) انظر البر والصلة لابن الجوزي ٩ ـ ٣٣ تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود.

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٦٥.

(٤) قال سيبويه: صعر وصاعر بمعنى واحد كما تقول: ضعف وضاعف. انظر حجة القراءات ٥٦٥.

به داء فيميل رأسه وعنقه من ذلك إلى أحد الجانبين، ويقال: معناه لا تكلم أحداً وأنت معرض عنه فإن ذلك من **الجفاء والإذاء ثم قال**: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا**﴾ يعني لا تمشي بالخيلاء والمرح والبطر والأشر كله واحد وهو أن يعظم نفسه في النعم ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ يعني مختالاً في مشيته فخوراً في نعم الله عز وجل ﴿**وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾ يعني تواضع لله تعالى في المشي ولا تختل في مشيتك، ويقال: أسرع في مشيتك لأن الإبطاء في المشي يكون من الخيلاء ﴿**وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ**﴾ يعني: اخفض ومن صلة في الكلام اخفض كلامك **ولا تكن سفيهاً ثم ضرب للصوت الوضيع مثلاً فقال**: ﴿**إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ**﴾ **يعني أقبح الأصوات** ﴿**لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ**﴾ لشدة أصواتها وإنما ذكر صوت الحمير لأن صوت الحمار كان هو المعروف عند العرب وسائر الناس بالقبح، وإن كان قد يكون ما سواه أقبح منه في بعض الحيوان وإنما ضرب الله المثل بما هو المعروف عند الناس قوله عز وجل ﴿**ألم تروا أن الله سخر لكم**﴾ يعني قل يا محمد لأهل مكة ألم تروا أن الله **ذلل لكم** ﴿**مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ**﴾كل ذلك من الله تعالى يعني: ومن قدرة الله ورحمته وحده لا شريك له ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ فالظاهرة التي يراها الناس والباطنة ما غاب **عن** الناس. ويقال: **النعم الظاهرة شهادة أن لا إله إلا الله، وأما الباطنة فالمعروفة بالقلب**. وقال مقاتل: الظاهرة تسوية الخلق والرزق والباطنة تستر عن العيون، عن ابن عباس قال سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قوله وأسبغ عليكم **نعمه ظاهرة وباطنة فقال: الظاهرة الإسلام والباطنة ما ستر سوأتك**[1] **قرأ نافع** وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص نعمه بنصب العين وميم وضم الهاء وقرأ الباقون نعمه بجزم العين ونصب الهاء والميم[2] فمن قرأ نعمه بالجزم فهي نعمة واحدة وهي ما أعطاه الله من توحيده ومن قرأ نعمه فهو على معنى جميع ما أنعم الله عز وجل عليهم ثم قال ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ**﴾ يعني يخاصم في دين الله عز وجل ﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ يعني بغير حجة وهو النضر بن الحارث ﴿**وَلَا هُدًى**﴾ أي بغير بيان من الله عز وجل ﴿**ولا كتاب منير**﴾ أي: مضيا فيه حجة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ
إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ
وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**﴾ يعني لكفار مكة ﴿**ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ**﴾ على نبيه من القرآن فآمنوا به وأحلوا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤/ ٥٠ وفيه والباطنة ما ستر عليك من سيء عملك.

(٢) حجتهم أن النعم الظاهرة غير النعم الباطنة فهي حينئذ جماعة إذا كانت منوعة قال تعالى: ﴿**شاكراً لأنعمه**﴾ فلم يكتف بالواحدة من الجميع فلما كانت نعم الله مختلفة بعضها في الدين وبعضها في الأرزاق وبعضها في العوافي وغير ذلك من الأحوال قرؤوا بلفظ الجمع لكثرتها واختلاف الأحوال بها، وحجة من قرأ بالنصب صحة الخبر عن ابن عباس أنه قال: هي الإسلام وذلك أن نعمة الإسلام تجمع كل الخير. انظر حجة القراءات ٥٦٥ ـ ٥٦٦. النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٧.

حلاله وحرموا حرامه ﴿قالوا بَلْ نَتْبعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنا﴾ يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني أوليس الشيطان ﴿يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني يدعوهم إلى تقليد آبائهم بغير حجة فيصيروا إلى عذاب السعير قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللَّهِ﴾ أي يخلص دينه ويقال يخلص عمله لله ﴿وهو مُحْسِنٌ﴾ يعني موحد ويقال: ذكر الوجه وأراد به هو يعني ومن أخلص نفسه لله عز وجل بالتوحيد وبأعمال نفسه وهو محسن في عمله قرأ عبد الرحمن المسلمي ومن يسلم بنصب السين وتشديد اللام من سلم يسلم وقراءة العامة ومن يسلم بجزم السين وتخفيف اللام من سلم يسلم[1] ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ يعني قد أخذ بالثقة ﴿وَإلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ يعني إليه مرجع وعواقب الأمور ويقال: العباد إليه فيجازيهم بأعمالهم قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ وذلك أنهم لما كذبوا بالقرآن وقالوا إنه يقول من تلقاء نفسه شق ذلك على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل: (ومن كفر فلا يحزنك كفره) بالقرآن ﴿إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ يعني إلينا مصيرهم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني نجازيهم بجحودهم ﴿إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في قلبك من الحزن مما قالوا وقال الكلبي: إن الله عليم بذات الصدور من خير أو شر ثم قال عز وجل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ يعني يسيراً في الدنيا فكل ما هو فان فهو قليل ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ يعني نلجئهم ﴿إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني شديد لا يفترعنهم قوله عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إقراركم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصدقون.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿إنَّ اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن عبادة خلقه ﴿الحَمِيدُ﴾ في فعاله ويقال حميد أي محمود يعني يحمد ويشكر قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا في الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ الآية قال قتادة ذلك أن المشركين قالوا: هذا كلام يوشك أن ينفد وينقطع فنزل قوله تعالى «ولو أن ما في الأرض» الآية قال ابن عباس في رواية أبي صالح: إن اليهود أعداء الله سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح فنزل (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلَّا قَلِيلاً) قالوا: كيف تقول هذا وأنت تزعم أن من أُوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير[2]؟ فنزل (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) يقول: لو أن الشجر تبرى وتجعل أقلاماً

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤/٥٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٥٥، والطبري في التفسير ١٥/١٠٤ انظر معالم التنزيل للبغوي ٣/١٣٤.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ تكون كلها مداداً يكتب بها علم الله عز وجل لانكسرت الأقلام ولنفذ المداد ولم ينفذ علم الله تعالى فما أعطاكم الله من العلم قليل فيما عنده من العلم قرأ أبو عمرو والبحر يمده بنصب الراء وقرأ الباقون بالضم[1] فمن قرأ بالنصب نصبه لأن معناه ولو أن ما في الأرض وأن البحر **يمده** ومن قرأ بالضم فهو على **الاستئناف** والبحر يمده يعني أمد إلى كل بحر مثله ما نفذت ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يعني علمه وعجائبه ويقال: معاني كلمات الله لأن لكل آية ولكل كلمة من المعاني ما لا يدرك **ولا يحصى**، ويقال: ما نفذت كلمات الله لأن كلمات الله لا تدرك ما تكلم به في الأزل سبحانه وتعالى ثم قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيز بالنعمة على الكافر حكيم حكم أنه ليس لعلمه غاية وأن العلم للخلق غاية ثم قال عز وجل ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ **قال مقاتل**: نزلت في أبي بن خلف وابني أسد منبه ونبيه كلاهما ابني أسد قالوا: إن الله عز وجل خلقنا أطواراً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يقول إنه بعث في ساعة واحدة فقال الله عز وجل: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة أيها الناس جميعاً يقال هاهنا مضمر فكأنه يقول: إلا كخلق نفس واحدة وكبعث نفس واحدة ويقال: معناه قدرته على بعث الخلق أجمعين وعلى خلق الخلق أجمعين كقدرته على خلق نفس واحدة ويقال: كنفس واحدة أي إلا كخلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ يعني **انتقاص** كل واحد منها بصاحبه ويقال: يدخل الليل في النهار والنهار في الليل ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ يعني ذللهما لبني آدم ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني يجريان في السماء إلى يوم القيامة وهو الأجل المسمى، ويقال: يجري كل واحد منهما إلى أجله في الغروب حتى ينتهي إلى وقت نهايته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ روي عن أبي عمرو في إحدى الروايتين أنه قرأ يعملون بالياء بلفظ المغايبة وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني هذا الذي ذكر من صنع الله عز وجل بالنهار والليل والشمس والقمر ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني ليعلموا أن الله هو الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ يعني من الآلهة لا يقدرون على شيء من ذلك يعني لا تنفعهم عبادتها، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص وإنما يدعون بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة[2] لهم ثم عظم نفسه فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني ليعلموا أن الله هو الرفيع الكبير يعني العظيم وهو الذي يعظم ويحمد ثم بين قدرته فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ يعني السفن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي برحمة الله لمنفعة الخلق ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يعني من علامات وحدانيته ويقال من عجائبه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يعني إن الذي ترون في البحر ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ يعني لعبرات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ على أمر الله عز وجل عند البلاء، ويقال: الذي يصبر في الأحوال كلها شكوراً لله عز وجل في نعمه، **ويقال: لكل صبار شكور يعني**: لكل مؤمن موحد، وإنما وصفه بأفضل خصلتين في المؤمن لأن أفضل خصال المؤمن الصبر والشكر، والصبار هو للمبالغة في الصبر والشكور على ميزان فعول هو للمبالغة في الشكر، وروي عن قتادة أنه قال: **إن أحب العباد إلى الله من إذا أعطي شكر** وإذا ابتلي صبر فأعلم الله عز وجل أن المتفكر المعتبر في خلق السموات والأرض هو الصبار والشكور قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ يعني أتاهم موج كما يقال: من غشي سدد السلطان يجلس ويقم ويقال: علاهم ويقال: غطاهم موج كالظلل يعني كالسحاب ويقال: كالجبال وهو جمع ظلة يعني يأتيهم الموج بعضه فوق بعض وله سواد لكثرته ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يعني أخلصوا له بالدعوة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ يعني إلى القرار ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعني فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر ولا يؤمن ثم ذكر المشرك الذي ينقض العهد فقال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني

(١) انظر حجة القراءات ٥٦٦، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧.
(٢) انظر حجة القراءات ٥٦٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٤.

لا يترك العهد ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ يعني غدار بالعهد كفور لله عز وجل في نعمه وقال العتبي: الختر أقبح الغدر كفور على ميزان فعول وإنما يذكر هذا اللفظ إذا صار عادة له كما يقال: ظلوم وقد ذكر الكافر بأقبح خصلتين فيه كما ذكر المؤمن بأحسن خصلتين فيه وهو قوله (صَبَّارٍ شَكُورٍ).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

قوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني وحدوه وأطيعوه **﴿وَاخْشَوا﴾** يعني واخشوا عذاب يوم **﴿يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾** يعني هو جاز عن والده شيئاً ولا ينفع والد عن ولده ويقال: لا يقضي والد عن ولده ما عليه **﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِه شَيْئاً﴾** يعني لا يقدر الولد أن ينفع والده شيئاً وهذا في الكفار خاصة وأما المؤمن فإنه ينفع كما قال في آية أخرى: (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) ثم قال: **﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾** يعني البعث بعد الموت كائن ولا خلف فيه **﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** يعني لا يغرنكم ما في الدنيا من زينتها وزهوتها فتركنوا إليها وتطمئنوا بها وتتركوا الآخرة والعمل لها **﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾** يعني لا يغرنكم الشيطان عن طاعة الله عز وجل ويقال: كل مضل هو شيطان وقال أهل اللغة: الغرور بنصب الغين هو الشيطان وبالضم أباطيل الدنيا قوله عز وجل: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** قال مقاتل: نزلت في رجل يقال له: الوليد بن عمرو من أهل البادية أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: إن أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث؟ وتركت امرأتي حبلى فماذا تلد؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ وقد علمت ما عملت اليوم فماذا أنا عامل غداً؟ ومتى الساعة؟ فنزل: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)(1) يعني علم القيامة لا يعلمه غيره **﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾** يعني وهو الذي ينزل الغيث متى شاء **﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾** من ذكر وأنثى **﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِيْ نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾** في سهل أو جبل وروي عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله فقرأ إن الله عنده علم الساعة الآية[2] وقال ابن مسعود كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الغيب الخمس إن الله عنده علم الساعة[3] إلى آخر السورة وقالت عائشة رضي الله عنها: من حدثكم بأنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) يعني بأي مكان تموت وبأي قدم تؤخذ وبأي نفس ينقضي أجله وروى شهر بن حوشب قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ فقال رجل من جلسائه لسليمان: من هذا؟ فقال: ملك الموت فقال: لقد رأيته ينظر إلي كأنه يريدني فأريد أن تحملني على الريح حتى تلقيني بالهند ففعل ثم أتى ملك الموت إلى سليمان فسأله عن نظره ذلك فقال: إني كنت أعجب أني كنت أمرت أقبض روحه في أرض الهند في آخر النهار وهو عندك ثم قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** يعني بهذه الأشياء التي ذكرها.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٤/٥٥ ونسبه للقشيري والماوردي.

(٢) أخرجه البخاري ٨/٢٩١ كتاب التفسير باب (وعنده مفتاتح الغيب لا يعلمها إلا هو).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٦٩ وعزاه لأحمد وأبي يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود.

سُورَةُ السَّجْدَةِ (١)

وهي ثلاثون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا
شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ يعني: المنزل من الله عز وجل القرآن على معنى التقديم يعني أن هذا الكتاب تنزيل من الله عز وجل والكتاب وهو التنزيل ويقال: معناه نزل به جبريل عليه السلام بهذا التنزيل الكتاب يعني القرآن ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني لا شك فيه أنه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلما نزله جبريل جحده قريش وقالوا: إنما يقوله من تلقاء نفسه فنزل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني: أيقولون اختلقه من ذات نفسه وقال أهل اللغة: فرى يفري إذا قطعه للإصلاح وأفرى يفري إذا قطعه للاستهلاك فأكذبهم الله عز وجل فقال ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن ولو لم يكن من الله عز وجل لم يكن حقاً وكان باطلاً ويقال: بل هو الحق من ربك يعني: نزل من عند ربك ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً﴾ يعني: كفار قريش ﴿مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: لم يأتهم في عصرك ولكن أتاهم من قبل لأن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام ما كانوا إلى جميع الناس ويقال: معناه لم يشاهدوا نذيراً قبلك وإنما الإنذار قد كان سبق لأنه قال: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) وقد سبق الرسل ويقال ما آتاهم من نذير من قبلك يعني: من قومهم من قريش ثم قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني يهتدون من الضلالة وأصل الإنذار هو الإسلام يقال: أنذر العدو إذا أعلمه ثم دل على نفسه بصفة فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من السحاب والرياح وغيره ﴿فِي سِتةِ أَيَّامٍ﴾ ولو شاء خلقها في ساعة واحدة لفعل ولكنه خلقها في ستة أيام ليدل على التأني ويقال: خلقها في ستة أيام لتكون الأيام أصلاً عند الناس ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ فيها تقديم يعني: خلق العرش قبل السموات ويقال: على فوق العرش من غير أن يوصف بالاستقرار على العرش ويقال: استوى أمره على بريته فوق

---

(١) في إطلاق أكثر المفسرين وإحدى روايتين عن ابن عباس وفي رواية أخرى عنه استثناء ثلاث آيات مدنية وهي ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ إلى ﴿لعلهم يرجعون﴾ قيل نزلت يوم بدر في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة وسيأتي إبطاله. وزاد بعضهم آيتين ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ إلى ﴿بما كانوا يعملون﴾ لما روي في سبب نزولها وهو ضعيف. والذي نعول عليه أن السورة كلها مكية وأن ما خالف ذلك إن هو إلا تأويل أو إلحاق خاص بعام. انظر التحرير ٢١/٢٠٣، ٢٠٤.

عرشه كما استوى أمره وسلطانه وعظمته دون عرشه وسمائه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني من قريب ينفعكم في الآخرة ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ من الملائكة ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أفلا تتعظون فيما ذكره من صفة فتوحدونه ثم قال عز وجل: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يقول: يقضي القضاء ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني يبعث الملائكة من السماء إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يعني يصعد إليه.

قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا عمرو بن محمد[١] بإسناده عن الأعمش عن عمرو بن مرة[٢] عن عبد الرحمن بن سابط قال: يدبر أمر الدنيا أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أما جبريل فموكل بالرياح والجنود وأما ميكائيل فموكل بالنبات والقطر وأما ملك الموت فموكل بقبض الأرواح وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمور عليهم فذلك قوله عز وجل: «يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ يعني في يوم واحد من أيام الدنيا كان مقدار ذلك اليوم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أنتم وقال القتبي: معناه يقضي في السماء وينزله مع الملائكة إلى الأرض فتوقعه الملائكة عليهم السلام في الأرض ثم يعرج إلى السماء فيكون نزولها ورجوعها في يوم واحد مقدار المسير على قدر سيرنا ألف سنة لأن بعد ما بين السماء والأرض خمسمائة عام فيكون نزوله وصعوده ألف عام في يوم واحد وروى جويبر عن الضحاك في يوم كان مقداره ألف سنة قال: يصعد الملك إلى السماء مسيرة خمسمائة عام ويهبط مسيرة خمسمائة عام في كل يوم من أيامكم وهو مسيرة ألف سنة[٣].

﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ يعني ذلك الذي يفعل هذا هو عالم الغيب ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني ما غاب من العباد وما شاهدوه ويقال: عالم بما كان وبما يكون ويقال: عالم السر والعلانية ويقال: عالم بأمر الآخرة وأمر الدنيا ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بخلقه قوله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر خلقه بجزم اللام وقرأ الباقون بالنصب[٤] فمن قرأ بالجزم فمعناه الذي أحسن كل شيء وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: الإنسان في خلقه حسن والخنزير في خلقه حسن وكل شيء في خلقه حسن ومن قرأ بالنصب فعلى فعل الماضي يعني: خلق كل شيء على إرادته وخلق الإنسان في أحسن تقويم ويقال: الذي علم خلق كل شيء خلقه يعني علم كيف خلق ويقال: هل تحسن شيئاً يعني: تعلم ومعناه الذي علم خلق كل شيء خلقه ويقال:

---

(١) عمرو بن محمد العَنْقزي القرشي مولاهم أبو سعيد الكوفي قال العجلي. ثقة جائز الحديث توفي سنة تسع وتسعين ومائة. التهذيب ٨/٩٨ - ٩٩.

(٢) عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق بن الحارث بن سلمة بن كعب بن وائل أبو عبد الله الكوفي الأعمى ثقة عابد كان لا يدلس ورمي بالإرجاء مات سنة ثمان عشرة ومائة. التقريب ٢/٧٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٢ وعزاه لابن جرير عن قتادة بنحوه.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٦٧، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٦.

الحسن عبارة عن الزينة يعني الذي زين كل شيء خلقه **وأتقنه كما قال**: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ). ثم قال ﴿وَبَدأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يعني خلق آدم عليه السلام من طين من أديم الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ﴾ أي خلق ذريته من سلالة من النطفة التي تنسَل من الإنسان وقال أهل اللغة كل شيء على ميزان **فعالة** فهو ما فضل من شيء يقال: نشارة ونخالة ونحاته ثم رجع إلى آدم عليه السلام فقال عز وجل ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني سوى خلقه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ ثم رجع إلى ذريته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾ ويقال هذا كله **في** صفة الذرية يعني ثم ﴿جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ﴾ يعني: من نطفة ضعيفة ثم سواه يعني: جمع خلقه في رحم أمه ونفخ فيه من روحه يعني: جعل فيه الروح بأمره وجعل لكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة﴾ ثم قال: ﴿قليلاً ما تَشْكُرُونَ﴾ يعني لا تشكرون رب هذه النعم على حسن خلقكم فتوحدوه فلا تستعملوا سمعكم وأفئدتكم إلا في **طاعتي ويقال: ما هاهنا صلة فكأنه يقول**: تشكرونه قليلاً ويقال: **ما بمعنى الذي فكأنه قال**: فقليل الذي تشكرون وقد يكون الكلام بعضه بلفظ المغايبة ثم قال: وجعل لكم السمع بلفظ المخاطب فكما قال هاهنا ثم جعل نسله ثم **سواه ونفخ فيه من روحه بلفظ المغايبة ثم قال**: وجعل لكم بلفظ المخاطبة[١] ثم قال عز وجل: ﴿وقالوا أئذا ضَلَلْنَا في الأَرْضِ﴾ يعني: هلكنا وصرنا تراباً ﴿أئنا لفي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني انبعث بعد الموت واصله ضل الماء في اللبن إذا غاب وهلك وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قرىء آئذا ضللنا بالصاد وتفسيره **النتن يقال**: صل اللحم إذا انتن وقراءة العامة بالضاد المعجمة أي هلكنا وقرأ ابن عامر وقالوا إذا ضللنا إذا بغير استفهام أئنا لفي خلق جديد على **وجه الاستفهام**[٢] قال: **لأنهم** كانوا يقرون بالموت ويشاهدونه وإنما أنكروا البعث ويكون الاستفهام في البعث دون **الموت** ثم قال عز وجل: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ يعني بالبعث جاحدون فلا يؤمنون به قوله عز وجل:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قل يتوفاكم﴾ يعني: يقبض أرواحكم ﴿ملك الموت﴾ واسمه عزرائيل وروي في الخبر أن له وجوهاً أربعة فوجه من نار يقبض به أرواح الكفار ووجه من ظلمة يقبض به أرواح المنافقين ووجه من رحمة يقبض به أرواح المؤمنين ووجه من نور يقبض به أرواح الأنبياء والصديقين عليهم السلام والدنيا بين يديه كالكف وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فإذا قبض روح المؤمن دفعها إلى ملائكة الرحمة وإذا قبض روح الكافر دفعها إلى ملائكة العذاب وروى جابر بن زيد أن ملك الموت كان يقبض الأرواح بغير وجه فأقبل الناس يسبونه ويلعنونه فشكى إلى ربه عز وجل فوضع الله عز وجل الأمراض والأوجاع فقالوا: مات فلان بكذا[٣] وكذا ثم قال تعالى: ﴿الذي وُكِّلَ بِكُمْ

(١) سقط في أ. (٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٦٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٣ وعزاه لابن أبي الدنيا والمروزي في الجنائز وأبي الشيخ.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت أحياء فيجازيكم بأعمالكم ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: المشركون ﴿نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ استحياء من ربهم بأعمالهم يقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ الهدى ﴿وَسَمِعْنَا﴾ الإيمان ويقال: أبصرنا يوم القيامة بالمعاينة وسمعنا يعني أيقنوا حين لم ينفعهم يقينهم ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يعني: أيقنا بالقيامة ويقال: إنا موقنون يعني قد آمنا ولكن لا ينفعهم وقد حذف الجواب لأن في الكلام دليلاً ومعناه ولو ترى يا محمد ذلك لرأيت ما تعتبر به غاية الاعتبار يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا﴾ يعني: لأعطينا ﴿كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ يعني: وجب العذاب مني ويقال: ولكن سبق القول بالعذاب وهو قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ من كفار الإنس ومن كفار الجن أجمعين فيقول لهم الخزنة ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ﴾ يعني: ذوقوا العذاب بما تركتم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني: تركتم العمل بحضور يومكم هذا قال القتبي: النسيان ضد الحفظ والنسيان ـ الترك فقوله: (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا) أي تركتم الإيمان بلقاء هذا اليوم ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ يعني: تركناكم في العذاب ويقال: نجازيكم بنسيانكم كما قال الله عز وجل: (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الذي لا ينقطع أبداً ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا
تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾

ثم قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: يصدق بآياتنا يعني بالعذاب ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ يعني وعظوا بها يعني: بآيات الله عز وجل ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ على وجوههم ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقول: وذكروا الله عز وجل بأمره ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السجود كفعل الكفار ويقال: الذين إذا ذكروا يعني دعوا إلى الصلوات الخمس أتوها فصلوها ولا يستكبرون عنها قوله عز وجل: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ قال مقاتل: نزلت في الأنصار كانت منازلهم بعيدة من المسجد فإذا صلوا المغرب كرهوا أن ينصرفوا مخافة أن تفوتهم صلاة العشاء في الجماعة فكانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ويقال: الذي يصلي العشاء والفجر بجماعة وقال أنس بن مالك: الذي يصلي ما بين المغرب والعشاء وهو صلاة[1] الليل كما جاء في الخبر (قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ركعة في الليل خير من ألف ركعة في النهار)[2] قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم (قال حدثنا أبو معاوية عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن إسحاق)[3] عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد العبسية عن رسول

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأبي داود ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه.
(٢) سقط في أ.
(٣) سقط في ظ.

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينقدهم البصر ثم ينادي مناد: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم فأين الذين يحمدون الله عز وجل على كل حال؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم ينادي مناد: أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم ينادي مناد: أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر لسائر الناس فيحاسبون[١] فذلك قوله عز وجل: (تتجافى جنوبهم) ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: يصلون بالليل ويقومون عن فرشهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يعني: يتصدقون من أموالهم يعني: صدقة التطوع لأنه قرنه بصلاة التطوع ويقال: يعني الزكاة المفروضة والأول أراد به العشاء والفجر ثم بين ثوابهم فقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ يعني: ما أعد لهم ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ يعني: من الثواب في الجنة ويقال: من طيبة النفس وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: يقول الله عز وجل: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٢] قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[٣] قال مقاتل: قيل لابن عباس ما الذي أخفي لهم؟ قال: في جنة عدن ما لم يكن في جناتهم قرأ حمزة ما أخفي بسكون الياء وقرأ الباقون بنصبها[٤]فمن قرأ بالسكون فهو على معنى الخبر عن نفسه فكأنه قال: فلا تعلم نفس ما أخفي لهم (ومن قرأ بالنصب فهو على فعل ما لم يسم فاعله على معنى أفعل وقرىء في الشاذ وما أخفى يعني: وما أخفى الله عز وجل لهم)[٥] ثم قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: جزاء لأعمالهم قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾ يعني: لا يستوون عند الله عز وجل في الفضل نزلت الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط وذلك أنه جرى بينهما كلام فقال الوليد لعلي: بأي شيء تفاخرني؟ أنا والله أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملا منك في الكتيبة عيناً يعني أكون أملأ مكاناً في العسكر، فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق[٦] فنزل (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ) وقال الزجاج: نزلت في عقبة بن أبي معيط قال ويجوز في اللغة لا يستويان ولم يقرأ والقراءة لا يستوون ومعناهما لا يستوي المؤمنون والكافرون ثم بين مصير كلا الفريقين فقال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أقروا بالله ورسوله والقرآن ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً﴾ يعني: يأوي إليها المؤمنون ويقال: يأوي إليها أرواح الشهداء وهو أصح في اللغة ثم قال: (نزلاً) يعني: رزقاً والنزل في اللغة هو الرزق ويقال: نزلاً يعني: منزلاً ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بأعمالهم ثم بين مصير الفاسقين فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ يعني: عصوا ولم يتوبوا ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ فسقوا يعنى نافقوا وهو الوليد بن عتبة ومن كان مثل

---

(١) ذكره الحافظ في ابن كثير في التفسير ٦/٣٦٦ بإسناد ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ٦/٣١٨ كتاب بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم ٤/٢١٧٤ كتاب الجنة (٢ ـ ٢٨٢٤).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٦ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وهناد كلاهما في الزهد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن الأنباري.

(٤) حجة من قرأ بسكون الباء ما يتصل بالحرف وهو قوله قبله ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ ويقوي هذا قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ما نخفي لهم﴾ بالنون ويقوي بناء الفعل للمفعول له في القراءة الأخرى قوله تعالى: ﴿فلهم جنات المأوى﴾ فأبهم ذلك كما أبهم قوله ﴿أخفي لهم﴾ ولم يسند إلى فاعل بعينه كما أشار المصنف. انظر حجة القراءات ٥٦٩، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧.

(٥) سقط في ظ.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٧ ـ ١٧٨ وعزاه لأبي الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس.

حاله فمأواهم النار يعني: مصيرهم إلى النار ومرجعهم إليها ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ يعني: من النار ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ ويقال: إن جهنم إذا جأشت ألقتهم في أعلى الباب فطمعوا في الخروج منها فتلقاهم الخزنة بمقامع فتضربهم فتهوي بهم إلى قعرها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وقال في آية أخرى -: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) بلفظ التأنيث لأنه أراد به النار وهي مؤنثة وهاهنا قال: الذي كنتم به تكذبون بلفظ التذكير لأنه أراد به العذاب وهو مذكر.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ وهو المصيبات والقتل والجوع ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب النار يعني: إن لم يتوبوا ويقال: العذاب الأدنى هو السحر للفاسقين والعذاب الأكبر النار إن لم يتوبوا ويقال: العذاب الأدنى[1] عذاب القبر وقال إبراهيم: يعني: سنين جدب أصابتهم وقال أبو العالية مصيبات في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: يتوبون قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ يعني: وعظ بآيات ربه القرآن ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يعني: عن الإيمان بها فلم يؤمن بها ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ بالعذاب يعني منتصرون ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ﴾ قال مقاتل: يعني: فلا تكن في شك من لقاء موسى التوراة فإن الله عز وجل ألقى عليه الكتاب وقال في رواية الكلبي: فلا تكن في مرية من لقاء موسى عليه السلام فلقيه ليلة أسري به في بيت المقدس يعني لقي النبي - صلى الله عليه وسلم - موسى هناك ويقال: لقيه في السماء وذكر الخبر المعروف أنه فرض على النبي - صلى الله عليه وسلم - خمسون صلاة فقال له موسى عليه السلام: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فلم يزل يرجع حتى حط الله عز وجل إلى الخمس[2] ويقال: فلا تكن في مرية من لقائه يعني من لقاء الله عز وجل وهو البعث بعد الموت ويقال: فلا تكن في مرية من لقائه يعني لا تشكن أنك تلقى موسى يوم القيامة ثم قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني جعلنا التوراة بياناً لهم وهدى من الضلالة ويقال: وجعلناه هدى يعني جعلنا موسى هادياً لبني إسرائيل يدعوهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ يعني وجعلنا من بني إسرائيل قادة في الخير ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يعني: يدعون الناس إلى أمر الله عز وجل ﴿لِمَا صَبَرُوا﴾ بكسر اللام والتخفيف وقرأ الباقون بالنصب والتشديد فمن قرأ بالتشديد (لَمَّا صَبَرُوا) أي: حين صبروا ويقال: هو حكاية المجازات يعني لما صبروا[3] جعلنا منهم أئمة ومن قرأ بالتخفيف لما صبروا أي بما صبروا وتشهد لها قراءة ابن مسعود كان يقرأ بما صبروا ويقال: معناه كما صبروا عن الدنيا وصبروا على دينهم

(١) سقط في أ.
(٢) تقدم تخريجه من حديث ابن شهاب الزهري.
(٣) سقط في أ.

ولم يرجعوا عنه ويقال: معناه وجعلناهم أئمة بصبرهم ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: يصدقون بالعلامات التي أعطي موسى.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: يقضي بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ثم خوف كفار مكة فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يعني أو لم يبين لهم الله تعالى وقرىء في الشاذ أو لم نهد لهم بالنون وقرأ العامة بالياء ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: أو لم نبين لهم الهلاك ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ يعني: قوم لوط وصالح وهود ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ يعني: يمرون في منازلهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني: في إهلاكهم لآيات لعبرات ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي أفلا يسمعون المواعظ فيعتبرون بها ثم قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ يعني اليابسة الملساء التي ليس فيها نبات يقال: أرض جرز أي أرض جدب لا نبات فيها يقال: جرزت الجراد إذا أكلت وتركت الأرض جرزاً ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ يعني: نخرج بالماء النبات ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ أي من الكلأ والعشب والتبن ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من الحبوب والثمار ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذه العجائب فيوحدوا ربهم قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ قال مقاتل: أي متى هذا القضاء وهو البعث وقال قتادة: الفتح القضاء[2] وقال مجاهد: الفتح يوم القيامة[1] ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تكذيباً منهم يعنون به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال عز وجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ قال في رواية الكلبي) إن أصحابَ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يتذاكرون فيما بينهم وهم بمكة قبل فتح مكة لهم وكان ناس من بني خزيمة كانوا إذا سمعوا ذلك منهم يستهزئون بهم ويقولون لهم متى فتحكم هذا الذي كنتم تزعمون ويقولون: فنزل يعني: بني خزيمة (متى هذا الفتح) يا أصحاب محمد (إن كنتم صادقين) قل يا محمد يوم الفتح أي فتح مكة لا ينفع الذين كفروا إيمانهم من القتل ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ حتى يقتلوا وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة بعث خالد بن الوليد إلى بني خزيمة وقد كانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية يعني الحقد فقالوا: قد أسلمنا فقال لهم: انزلوا فنزلوا فوضع فيهم السلاح فقتل منهم وأسر فبلغ ذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد فبعث إليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالدية من غنائم خيبر[3] فذلك قوله تعالى:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٦ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٦ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البخاري ١٣/١٩٣ كتاب الأحكام (٧١٨٩) والنسائي ٨/٢٣٧ وأحمد في المسند ٢/١٥١ والبيهقي في السنن ٩/١١٥ وعبد الرزاق (٩٤٣٥ ـ ١٨٧٢١).

قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم من القتل **ولا هم ينظرون يعني يؤجلون ثم قال عز وجل**: ﴿**فأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ يا محمد ﴿**وَانْتَظِرْ**﴾ **لهم فتح مكة ويقال**: العذاب ﴿**إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ**﴾ بهلاكك وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان لا ينام حتى يقرأ آلمٓ تنزيل وتبارك الذي بيده الملك[1] وروى أبي بن كعب عن النبي ـ **صلى الله** عليه وسلم ـ **أنه قال**: من قرأ آلمٓ السجدة وتبارك الذي بيده الملك فكأنما **أحيى** ليلة القدر[2] والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٤/٢٤٦ بترتيب الساعاتي والترمذي (٢٨٩٤) والدارمي ٢/٤٥٥ وابن السني (٦٦٩) وفيه ليث بن أبي سليم وقد تقدم الكلام عليه وفيه عنعنه ابن الزبير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٧٠ وعزاه لابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما ويشبه هذا أن يكون من الأحاديث الموضوعة في فضائل السور.

سُورَةُ الأَحْزَابِ(١)

وهي سبعون وثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ قال مقاتل: وذلك أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة بعد أحد وبعد الهدنة فمروا على عبد الله بن أبي المنافق فقام معهم عبد الله بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق فجاؤوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا له: اترك ذكر آلهتنا وقل إن لها شفاعة في الآخرة ومنفعة لمن عبدها وندعك وربك فشق ذلك على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر رضي الله عنه: ائذن لي في قتلهم فقال: قد أعطيتهم الأمان فلم يأذن له بالقتل وأمره بأن يخرجهم من المدينة فقال لهم عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه(٢) فنزل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) وقال مقاتل: في رواية الكلبي قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة فنزلوا على عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وجد بن قيس فتكلموا فيما بينهم فلما اجتمعوا في أمر فيما بينهم أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعونه إلى أمرهم وعرضوا عليه أشياء

(١) أهم أغراض هذه السورة الرد على المنافقين قولهم لما تزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة فقالوا: تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله تعالى إبطال التبني. وأن الحق في أحكام الله لأنه الخبير بالأعمال وهو الذي يقول الحق. وأن ولاية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمؤمنين أقوى ولاية ولأزواجه حرمة الأمهات لهم وتلك ولاية من جعل الله فهي أقوى وأشد من ولاية الأرحام. وتحريض المؤمنين على التمسك بما شرع الله لهم لأنه أخذ العهد بذلك على جميع النبيين. والاعتبار بما أظهره الله من عنايته بنصر المؤمنين على أحزاب أعدائهم من الكفرة والمنافقين في وقعة الأحزاب ودفع كيد المنافقين. والثناء على صدق المؤمنين وثباتهم في الدفاع عن الدين. ونعمة الله عليهم بأن أعطاهم بلاد أهل الكتاب الذين ظاهروا الأحزاب. وانتقل من ذلك إلى أحكام في معاشرة أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر فضلهن وفضل آل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفضائل أهل الخير من المسلمين والمسلمات. وتشريع في عدة المطلقة قبل البناء، وما يسوغ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأزواج وحكم حجاب أمهات المؤمنين ولبسه المؤمنات إذا خرجن. وتهديد المنافقين على الإرجاف بالأخبار الكاذبة. وختمت السورة بالتنويه بالشرائع الإلهية فكان ختامها من رد العجز على الصدر لقوله في أولها: ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ وتخلل ذلك مستطردات من الأمر بالاتساء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتحريض المؤمنين على ذكر الله وتنزيهه شكراً له على هديه وتعظيم قدر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الله وفي الملأ الأعلى والأمر بالصلاة عليه السلام. ووعيد المنافقين الذين يأتون بما يؤذي الله ورسوله والمؤمنين. والتحذير من التورط في ذلك كيلا يقعوا فيما وقع فيه الذين آذوا موسى عليه السلام انظر التحرير ٢١/٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) انظر تفسير البغوي ٣/٥٠٥، تفسير القرطبي ١٤/٧٧.

فكرهها منهم فهم بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون أن يقتلوهم فنزل (يَا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) ولا تنقض العهد الذي بينك وبينهم إلى المدة (وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) من أهل مكة ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة فيما دعوك إليه ويقال: إن المسلمين أرادوا أن ينقضوا العهد فأراد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأذن لهم فنزل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) في نقض العهد وإنما ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراده هو وأصحابه ألا ترى أنه قال في سياق الآية: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً﴾ بما اجتمعوا عليه ﴿حَكِيماً﴾ حيث نهاك عن نقض العهد وحكم بالوفاء قوله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني ما في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ من وفاء العهد ونقضه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: ثق بالله وفوض أمرك إلى الله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يعني: حافظاً وناصراً قرأ أبو عمرو بما يعملون بالياء على معنى الخبر عنهم وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه.

مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِأٓبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قال مقاتل: نزلت في جميل بن معمر ويكنى أبا معمر وكان حافظاً بما يسمع وأهدى الناس للطريق يعني طريق البلدان وكان مبغضاً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان يقول: إن لي قلبين أحدهما أعقل من قلب محمد فنزل: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وكان الناس يظنون أنه صادق في ذلك حتى كان يوم بدر فانهزم وهو آخذ بإحدى نعليه في أصبعه والأخرى في رجله حتى أدركه أبو سفيان بن حرب وكان لا يعلم بذلك حتى أخبر أن إحدى نعليه في أصبعه والأخرى في رجله فعرفوا أنه ليس له قلبان ويقال: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سهى في صلاته فقال المنافقون: لو أن له قلبين أحدهما في صلاته والآخر مع أصحابه فنزل: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) وروى معمر عن قتادة قال: كان رجل لا يسمع شيئاً إلا وعاه فقال الناس: ما يعي هذا إلا أن له قلبين وكان يسمى ذا القلبين فنزلت هذه الآية وروى معمر عن الزهري قال: بلغنا أن ذلك في شأن زيد بن حارثة ضرب الله له مثلاً يقول ليس ابن رجل آخر ابنك كما لا يكون

---

(١) حجة أبي عمرو أن هذا الحرف قرب من ذكر الكافرين والمنافقين في الحرف الأول فختم الآية بالخبر عنهم إذ كان ذلك في سياقه عنهم ومن قرأ بالتاء حجته أن افتتاح الآية جرى بلفظ المخاطبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا شك أن من بحضرتـه من المسلمين داخلون معه فيما أُمر به من أمر الله ونُهِيَ عنه في هذه فهم حينئذ مخاطبـون معه ما خوطب به من أمر الله ونهيه ونظير قوله ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ فخاطب خاصته في الظاهر ثم قال: ﴿منيبين إليه﴾ فأخرج الحال عنه وعمن هو على شريعته فكذلك خاطبه في أول هذه الآية خاصة ثم ختمها بمخاطبته ومخاطبة من هو على سبيله إذ كانوا يَشْركون في الأمر والنهي. انظر حجة القراءات ٥٧٠.

(٢) قال مجاهد: نزلت في رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه وكان يقول: إن لي في جوفي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد. انظر تفسير القرطبي ٧٨/١٤.

لرجل آخر من قلبين[١] وذكر عن الشافعي أنه احتج على محمد بن الحسن قال: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ) يعني: ما جعل الله لرجل من أبوين في الإسلام يعني لا يجوز أن يثبت نسب صبي واحد من أبوين ولكن هذا التفسير لم يذعن به أحد من المتقدمين فلو أراد به على وجه القياس لا يصح لأنه ليس بينهما جامع يجمع بينهما وذكر عن عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما أن جارية كانت بين رجلين جاءت بولد فادعياه، فقالا: إنه ابنهما يرثهما ويرثانه ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ عاصم تظاهرون بضم التاء وكسر الهاء والألف وقرأ ابن عامر تظاهرون بنصب التاء والهاء وتشديد الظاء وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو تظهرون بنصب التاء والهاء بغير ألف والتشديد وقرأ حمزة والكسائي تظاهرون بنصب التاء والتخفيف مع الألف وهذه كلها لغات[٢] يقال: ظاهر من امرأته وتظاهر وتظهر بمعنى واحد وهو أن يقول لها: أنت علي كظهر أمي فمن قرأ تظهرون بالتشديد فالأصل تظهرون فأدغم إحدى التائين في الظاء وشددت ومن قرأ تظاهرون فالأصل يتظاهرون فأدغمت إحدى التائين ومن قرأ بالتخفيف حذف إحدى التائين ولم يشدد للتخفيف كقوله: (تسألون) والأصل تتساءلون والآية نزلت في شأن أوس بن الصامت حين ظاهر من امرأته وذكر حكم الظهار في سورة المجادلة. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ نزلت في شأن زيد بن حارثة حين تبناه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: فكما لا يجوز أن يكون لرجل واحد قلبان فكذلك لا يجوز أن تكون امرأته أمه ولا ابن غيره يكون ابنه ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: قولكم الذي قلتم زيد بن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنتم قلتموه بألسنتكم ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ يعني: يبين الحق ويأمركم به كي لا تنسبوا إليه غير النسبة ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ يعني: يدل على طريق الحق يقال: يدل على الصواب بأن تدعوهم إلى آبائهم وروى أبو بكر بن عياش عن الكلبي قال: كان زيد بن حارثة مملوكاً لخديجة بنت خويلد فوهبته خديجة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعتقه وتبناه فكانوا يقولون زيد بن محمد فنزل قوله[٣]: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ يعني انسبوهم لآبائهم فقالوا: زيد بن حارثة ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني اعدل عند الله عز وجل ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ يعني إن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي قولوا ابن عبد الله وابن عبد الرحمن ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ يعني قولوا مولى فلان وكان أبو حذيفة أعتق عبداً يقال له: سالم وتبناه فكانوا يسمونه سالم بن أبي حذيفة فلما نزلت هذه الآية سموه سالماً مولى أبي حذيفة ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ يعني: أن تنسبوهم إلى غير آبائهم قبل النهي ويقال: ما جرى على لسانهم بعد النهي لأن ألسنتهم قد تعودت بذلك ﴿وَلَكِنْ﴾ الجناح فيما ﴿مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يعني: قصدت قلوبكم بعد النهي وروي عن عطاء بن أبي رباح عن عبيد بن عمرو عن عبد الله بن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «تجاوز الله عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٤] وروي عن سعد بن أبي وقاص أنه حلف باللات والعزى ناسياً فذكر ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمره أن ينفث عن يساره ثلاثاً وأن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ يعني: غفوراً لمن أخطأ ثم رجع رحيماً بهم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٨١ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٧١ ـ ٥٧٢، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧.

(٣) أخرجه البخاري ٨/٣٧٧ كتاب التفسير (٤٧٨٢) وانظر معالم التنزيل للبغوي ٣/٥٠٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ١/٦٥٩ كتاب الطلاق (٢٠٤٥) والبيهقي في السنن ٧/٣٥٦ ـ ٣٥٧ كتاب الخلع وقال ابن كثير في تحفة الطالب (٢٧١) إسناده جيد.

ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: ما يرى لهم رأياً فذلك أولى وأحسن لهم من رأيهم ويقال: معناه: النبي أرحم بالمؤمنين من أنفسهم ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ يعني: كأمهاتهم في الحرمة وذكر عن أبي أنه كان يقرأ (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) وهو أب لهم[1] وأزواجه أمهاتهم ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ قال في رواية الكلبي: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخا بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما ورثه الباقي منهما دون عصبته وأهله فمكثوا في ذلك ما شاء الله حتى نزلت هذه الآية[2] (وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين آخى بينهم فصارت المواريث بالقرابات وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: أنا ولي كل مسلم فمن ترك مالاً فلورثته ومن ترك ديناً فإلى الله وإلى رسوله[3] فأمر بصرف الميراث إلى العصبة ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ يعني: إلا أن يوصي له بثلث ماله وقال مقاتل: كان المهاجرون والأنصار يرثون بعضهم من بعض بالقرابة ولا يرث من لم يهاجر إلا أن يوصي للذي لم يهاجر ثم نسخ بما في آخر سورة الأنفال ثم قال: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ يعني: هكذا كان مكتوباً في التوراة ويقال في اللوح المحفوظ ويقال: في القرآن قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ وهو الوحي الذي أوحى إليهم أن يدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل وأن يصدق بعضهم بعضاً ويقال: الميثاق الذي أخذ عليهم من ظهورهم ويقال: كل نبي أمر بأن يأمر من بعده بأن يخبروا ببعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ينتهي إليه ثم قال: ﴿وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ في هذا تفضيل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه قد ذكر جملة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم خصه بالذكر قبلهم وكان آخرهم خروجاً ثم ذكر نوحاً لأنه كان أولهم ثم ذكر إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم صلوات الله عليهم لأن كل واحد منهم كان على أثر بعض فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ثم قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ يعني: عهداً وثيقاً أن يعبدوا الله تعالى ويدعوا الخلق إلى عبادة الله عز وجل وأن يبشروا كل واحد منهم بمن بعده ثم قال عز وجل: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ يعني: أخذ عليهم الميثاق لكي يسأل الصادقين عن صدقهم يعني: يسأل المرسلين عن تبليغ الرسالة ويسأل الوفيين عن وفائهم وروي في الخبر أنه يسأل القلم يوم القيامة فيقول له ما فعلت بأمانتي فيقول يا رب سلمتها إلى اللوح ثم جعل القلم يرتعد مخافة أن لا يصدقه اللوح فيسأل اللوح فيقر بأن القلم قد أدى الأمانة وأنه قد سلم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٨٣/٥ وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم دون قوله وأزواجه أمهاتهم.

(٢) انظر تفسير البغوي ٥٠٧/٣ ـ ٥٠٨، تفسير القرطبي ٨٣/١٤.

(٣) أخرجه البخاري ٩/١٢ كتاب الفرائض (٦٧٣١) ومسلم ١٢٣٧/٣ كتاب الفرائض (١٤ ـ ١٦١٩).

إلى إسرافيل فيقول لإسرافيل ما فعلت بأمانتي التي سلمها إليك اللوح فيقول سلمتها إلى جبريل فيقول لجبريل عليه السلام: ما فعلت بأمانتي فيقول: سلمتها إلى أنبيائك فيسأل الأنبياء عليهم السلام فيقولون: قد سلمناها إلى خلقك فذلك قوله تعالى: (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ) ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني: الذين كذبوا الرسل قوله عز وجل:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: احفظوا منة الله عليكم بالنصرة ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني: الأحزاب وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قدم المدينة صالح بني قريظة وبني النضير على أن لا يكونوا عليه ولا معه فنقضت بنو النضير عهودهم وأجلاهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها[1] وذكر قصتهم في سورة الحشر ثم إن بني قريظة جددوا العهد مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم إن حيـي بن أخطب ركب وخرج إلى مكة فقال لأبي سفيان بن حرب إن قومي مع بني قريظة وهم سبعمائة وخمسون مقاتلاً فحثه على الخروج إلى قتال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم خرج من مكة إلى غطفان وحثهم على ذلك ثم خرج إلى كنانة وحثهم على ذلك فخرج أبو سفيان مع جماعة من أهل مكة وخرج غطفان وبنو كنانة حتى نزلوا قريباً من المدينة مع مقدار خمسة عشر ألف رجل ويقال ثمانية عشر ألف رجل ثم جاء حيـي بن أخطب إلى بني قريظة فجاء إلى باب كعب بن الأشرف وهو رئيس بني قريظة فاستأذن عليه فقال لجاريته انظري من هذا؟ فعرفته الجارية فقالت هذا حيـي بن أخطب فقال لا تأذني له علي فإنه مسؤوم إنه قد سأم قومه يريد أن يسأمنا زيادة فقالت له الجارية ليس ها هنا فقال حيـي بن أخطب بلى هو ثم ولكن عنده قدر جيش لا يحب أن يشركه فيها أحد فقال كعب احفظني أخزاه الله يعني أغضبني ائذني له في الدخول فدخل عليه فقال له يجيئُك مليكك قد جئتك بعارض برد جئتك بقريش بأجمعها وكنانة بأجمعها وغطفان بأجمعها لا يذهب هذا الفوز حتى يقتل محمد فانقض الحلف بينك وبين محمد فقال له كعب بن الأشرف إن العارض ليسبب بنفحاته شيئاً ثم يرجع وأنا في بحر لجي لا أقدر على أن أريم داري ومالي والله ما رأينا جاراً قط خيراً من محمد ما خفر لنا بذمة ولا هتك لنا ستراً ولا آذانا وإنما أخشى أن لا يقتل محمد وترجع أنت وأقتل أنا فقال لكم ما في التوراة إن لم يقتل محمداً في هذا الغور لأدخلن معكم حصنكم فيصيبني ما أصابكم فنقض الحلف وشق الصحيفة فقدم نعيم بن مسعود المدينة وكان تاجراً يقدم من مكة فقال يا محمد شعرت أن بني قريظة نقضوا الحلف الذي كان بينك وبينهم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلنا نحن أمرناهم بذلك فقال عمر إن كنت أمرتهم بذلك وإن كنت لم تأمرهم بذلك فقتالهم علينا هين فقال ما أنا بكذاب ولكن الحرب خدعة ونعيم لم يسلم ذلك اليوم فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد بن معاذ وأسيد بن خضير وسعد بن عبادة إلى كعب بن الأشرف يناشدوه الله الحلف الذي كان بينهم وأن يرجعوا إلى ما كانوا عليه من قبل فأبى كعب بن الأشرف وجرى بينهم كلام وسب سعد بن معاذ فقال أسيد بن حضير أتسب سيدك معاذاً يا عدو الله ما هو لك بكفؤ فقال سعد بن معاذ اللهم لا تميتني حتى أشفي نفسي منهم فرجعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحدثوه

---

(١) انظر تفسير البغوي ٣/ ٥٠٩.

الحديث فانطلق نعيم بن مسعود إلى أبي سفيان فقال يا أبا سفيان والله ما كذب محمد قط كذبة أخبرني بأنه أمر بنقض الحلف بينه وبين بني قريظة فقال سلمان الفارسي إنا كنا يا رسول الله بأرض فارس إذا تخوفنا الجنود خندقنا على أنفسنا فهل لك أن تخندق خندقاً فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أهل المدينة وخندق وأخذ المعول بيده فضرب لكي يقتدي الناس فضرب ضربة فأبرق برقة حتى ظهر ضوء بضربته ثم ضرب ضربة أخرى فأبرق برقة ثم ضرب الثالثة فقال سلمان لقد رأيت أمراً عجيباً فقال لقد رأيت ذلك قال نعم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد رأيت بالأولى قصور الشام وبالثانية قصور كسرى وبالثالثة قصور اليمن فهذه فتوح يفتح الله عليكم فقال ناس من المنافقين يعدنا أن تفتح الشام وأرض فارس واليمن وما يستطيع أحد منا أن يذهب إلى الخلاء ما يعدنا إلا غروراً فمكث الجنود حول المدينة بضعة عشر ليلة فأرسل عيينة بن حسن الفزاري والحارث بن عوف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنك إن أعطيتنا تمر المدينة هذه السنة نرجع عنك بغطفان وكنانة ونخلي بينك وبين قومك فتقاتلهم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا فقال فنصف ذلك التمر قال نعم وكان عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سعد بن معاذ وهو سيد الأوس وسعد بن عبادة وهو سيد الخزرج فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عيينة والحارث بن عوف لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اكتب لنا كتاباً فدعى بصحيفة ليكتب بينهم فقال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة يا رسول الله أوحي إليك في هذا شيء؟ فقال لا ولكنني رأيت العرب رمتكم من قوس واحدة فقلت أرد هؤلاء وأقاتل هؤلاء فقالا ما رجون بهذا منها في الجاهلية قط أن يأخذوا منا تمرة واحدة إلا بشراء وقراء فحين زادنا الله بك وأمدنا بك وأكرمنا بك نعطيهم الدنية لا نعطيهم شيئاً إلا بالسيف فشق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصحيفة وقال اذهبوا فلا نعطيكم شيئاً إلا بالسيف فلما كان يوم الجمعة أرسل أبو سفيان إلى حيي بن أخطب أن استعد غداً إلى القتال فقد طال المقام ها هنا وقل لقومك يعدوا فلما جاء بني قريظة الرسول فقالوا غداً يوم السبت لا نقاتل فيه فقال أبو سفيان نحن نؤخر القتال إلى يوم الأحد هاتوا لنا رهوناً أبناءكم نثلج إليهم أي نطمئن بذلك فجاء رسول أبي سفيان إلى بني قريظة وقد أمسوا فقالوا هذه الليلة لا يدخل علينا أحد ولا يخرج من عندنا أحد فوقع في نفس أبي سفيان من قول نعيم بن مسعود أنه خوان حق وأن نقض العهد كان مكراً منهم فلما كانت تلك الليلة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه عند الخندق فصلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلث الليل ثم قال من رجل ينظر ما يفعل القوم أدخله الله الجنة فما تحرك منهم أحد ثم صلى الثلث الثاني فقال من رجل ينظر ما يفعل القوم فما تحرك منهم أحد ثم صلى ساعة ثم هتف مرة أخرى فما تحرك منهم إنسان فقال يا حذيفة فجاء حذيفة فقال أما سمعت كلامي منذ الليلة قال بلى ولكن بي من الجوع والقر يعني البرد لم أقدر على أن أجيبك قال اذهب فانظر ما فعل القوم ولا ترمي بسهم ولا بحجر ولا تطعن برمح ولا تضرب بسيف فقال يا رسول الله إني لا أخشى أن يقتلوني إني لميت ولكن أخشى أن يمثلوا بي فقال ليس عليك بأس فلما قال هذا قال حذيفة آمنت وعرفت أنه لا بأس علي فلما ولى حذيفة قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فدخل حذيفة رضي الله عنه في عسكر قريش فإذا هم يصطلون يعني: مجتمعين على نار لهم فجلس حذيفة في حلقة منهم فقال أتدرون ما يريد الناس غداً قالوا ماذا يريدون قال يقولون يعني: أهل العساكر أين قريش أين سادات الناس وقادتهم؟ فتجيؤن فيطرحونكم في نحور العدو فتقتلوا أو تفروا فما زال ذلك الحديث يفشوا في العسكر ثم دخل عسكر بني كنانة فقال: أتدرون ماذا يريد الناس غداً؟ قالوا ماذا يريدون؟ قالوا يقولون أين بنو كنانة أين ذروة العرب أين رماة الخندق فتجيبون فيطرحونكم في نحور العدو فتقتلوا أو تفروا ثم دخل عسكر غطفان فقال أتدرون ماذا يريد الناس غداً؟ قولوا ماذا يريدون؟ قال يقولون أين غطفان

أين بنو فزارة بن حلاس الخيول؟ فتجيبون فيطرحونكم في نحور العدو فتقتلوا أو تفروا قال فبعث الله تعالى عليهم ريحاً شديدة فلم تترك لهم[١] خباء إلا قلعته ولا إناء إلا أكفاته وقلعت أوتاد خيولهم وجالت الخيول بعضها في بعض فقالوا فيما بينهم لقد بدا محمد بالسر فالنجاة النجاة فركب أبو سفيان جمله معقولاً فما حل عقاله إلا بعد أن انبعث قال حذيفة ولو شئت أن أضربه بسيفي أو أطعنه برمحي لفعلت ولكن نهاني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فترحلوا كلهم وذهبوا فرجع حذيفة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحدثه عن العساكر وما فعل الله عز وجل بها فنزل (يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) في الدفع عنكم (إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ) من المشركين ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً**﴾ شديدة ﴿**وَجُنُوداً لم تَرَوْهَا**﴾ من الملائكة وذلك كبرت حوالي العسكر حتى انهزموا حين هبت بهم الريح وهي ريح الصبا وروي عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور[٢] ثم قال تعالى ﴿**وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾ في أمر الخندق.

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ
بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ
فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ
دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟
ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ
أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿**إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ**﴾ يعني: أتاكم المشركون من فوق الوادي يعني: طلحة بن خويلد الأسدي ﴿**وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ**﴾ من قبل المغرب وهو أبو الأعور السلمي ويقال من فوقكم أي من قبل المشرق مالك بن عوف وعيينة بن حصن الفزاري ويهود بني قريظة ومن أسفل منكم أبو سفيان فلما رأى ذلك قالوا ﴿**وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ**﴾ يعني: شخصت الأبصار فرقاً يعني أبصار المنافقين لأنهم أشد خوفاً كأنهم خشب مسندة ﴿**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾ خوفاً هذا على وجه المثل ويقال اضطراب القلب يبلغ الحناجر ويقال إذا خاف الإنسان تنتفخ الرئة وإذا انتفخت الرئة يبلغ القلب الحنجرة ويقال للجبان منتفخ الرئة ﴿**وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا**﴾ يعني: الإياس من النصرة يعني: ظننتم أن لن ينصر الله عز وجل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ ابن كثير والكسائي وعاصم في رواية حفص الظنون بالألف عند الوقف ويطرحونها عند الوصل[٣] وكذلك في قوله (وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا) (وَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا) وقرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بالألف في حال الوصل والوقف وقرأ أبو عمرو وحمزة بغير

---

(١) الخباء بيت من وبر أو شعر أو صوف يكون على عمودين أو ثلاثة وفي الحديث أنه أتى خباء فاطمة. انظر المعجم الوسيط ١/٢١٢.

(٢) أخرجه البخاري ٢/٥٢٠ كتاب الاستسقاء (١٠٣٥) ومسلم ٢/٦١٧ كتاب صلاة الاستسقاء (١٧ ـ ٩٠٠).

(٣) حجة من أثبت الألف في الوصل والوقف هي أن من العرب من يقف على المنصوب الذي فيه الألف واللام بألف فيقولون (ضربت=

ألف في الحالين جميعاً فمن قرأ بالألف في الحالين فـلاتباع الخط لأن في مصحف الإمام وفي سائر المصاحف بالألف ومن قرأ بغير ألف فلأن[1] الألف غير أصلية وإنما يستعمل هذه الألف الشعراء في القوافي وقال أبو عبيدة أحب إلي في هذه الحروف أن يتعمد الوقف عليها بالألف ليكون متبعاً للمصحف واللغة ثم قال عز وجل: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: عند ذلك اختبر المؤمنون يعني: أمروا بالقتال والحضور وكان في ذلك اختباراً لهم ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ أي: حركوا تحريكاً شديداً واجتهدوا اجتهاداً شديداً ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾ وهم لم يقولوا رسول الله وإنما قالوا باسمه ولكن الله عز وجل ذكره بهذا اللفظ قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: جماعة من المنافقين ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني: يا أهل المدينة وكان اسم المدينة يثرب فسماها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ قرأ عاصم في رواية حفص بضم الميم وقرأ الباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالضم فمعناه لا إقامة لكم ومن قرأ بالنصب فهو بالمكان أي لا مكان لكم تقومون فيه والجمع المقامات وكان أبو عبيدة يقرأ بالنصب لأنه يحتمل المقام والمكان جميعاً يعني أن المنافقين قالوا خوفاً ورعباً منهم لا مقام لكم عند القتال ﴿فَارْجِعُوا﴾ يعني: فانصرفوا إلى المدينة ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ وهم بنـو حارثة وبنو سلمة وذلك أن بيوتهم كانت في ناحية المدينة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ يعني: ضائعة نخشى عليها السراق ويقال معناه أن بيوتنا مما يلي العدو وإنا لا نأمن على أهالينا وقال القتبي أصل العورة ما ذهب عنه الستر والحفظ وكان الرجال ستراً وحفظاً للبيوت فقالوا إن بيوتنا عورة يعني: خالية والعرب تقول أعور منزلك أي إذا سقط جداره يقول الله تعالى ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله عز وجل يحفظها يعني: وما هي بخالية ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً﴾ أي ما يريدون إلا فراراً من القتال ثم قال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ يعني: لو دخل العسكر من نواحي المدينة ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ يعني: دعوهم إلى الشرك ﴿لَآتَوْهَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر لأتوها بالهمزة بغير مد وقرأ الباقون بالهمز والمد[3] فمن قرأ بالمد (لآتوها) يعني:لأعطوها ومن قرأ بغير مد معناه صاروا إليها وجاؤوها وكلاهما يرجع إلى معنى واحد يعني لو دعوا إلى الشرك لأجابوا سريعاً ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً﴾ أي وما تحسبوا بالشرك إلا قليلاً يعني يجيبوا سريعاً ويقال لو فعلوا ذلك لم يلبثوا بالمدينة إلا قليلاً.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: من قبل قتال الخندق حين كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة خرج سبعون رجلاً من المدينة إلى مكة فخرج إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة

= الرجلا) وفي الخفض (مررت بالرجلى) وأخرى أنهن رؤوس آيات فحسن إثبات الألف لأن رأس آية في موضع سكت وقطع للفصل بينها وبين الآية التي بعدها وللتوفيق بين رؤوس الآي، قال الشاعر:

أقـلي اللـوم عـاذلُ والعتـابا

والحجة الثالثة: اتباع المصحف كما سيذكر المصنف قال أبو عبيد: رأيت في الذي يقال إنه (الإمام مصحف عثمان) الألف مثبتة في ثلاثتهن ومن حذف الألف في الوصل وأثبتها في الوقف قال: (جمعت قياس العربية في ألا تكون (ألف) في اسم فيه الألف واللام واتباع المصحف في إثبات الألف فاجتمع لي الأمران. ومن حذف الألف في الوصل والوقف احتج بأن التنوين لا يدخل مع الألف واللام فلما لم يدخل التنوين لم تدخل الألف لأن الألف مبدلة من التنوين قال اليزيدي: وليس أحد يقول: (دخلت الدارا).
انظر حجة القراءات ٥٧٣ ـ ٥٧٤، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٧ ـ ٣٤٨، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٧١.

(١) انظر المصادر السابقة في القراءات.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٧٤، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٨.

(٣) حجتهم قوله تعالى: ﴿ثم سئلوا الفتنة﴾ فالإعطاء مع السؤال حسن أي لو قيل لهم كونوا على المسلمين مع المشركين لفعلوا ذلك وقال الحسن لودعوا إلى الشرك لأجابوا وأعطوها. انظر حجة القراءات ٥٧٥، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٨.

العقبة إلى السبعين فبايعهم وبايعوه فقالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم به أنفسكم وأولادكم فقالو قد فعلنا ذلك (فمالنا قال عليه السلام[1] لكم النصرة في الدنيا والجنة في الآخرة قالوا قد فعلنا ذلك فذلك قوله)[2] ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا﴾ يعني يسأل في الآخرة من ينقض العهد قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَنْ يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُم مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا تؤجلون إلا يسيراً لأن الدنيا كلها قليلة ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: يمنعكم من قضاء الله وعذابه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً﴾ يعني: القتل ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي عافية ويقال سوءاً يعني: الهزيمة أو أراد بكم رحمة يعني: خيراً وهو النصر يعني من يقدر على دفع السوء عنكم وجر الخير إليكم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ يعني: قريباً ومانعاً.

قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ يعني: يرى المثبطين منكم المانعين من القتال منكم وهم المنافقون ﴿وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ﴾ يعني: لأوليائهم وأصدقائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يعني: ارجعوا إلينا إلى المدينة وهذا بلغة أهل المدينة يقولون للواحد وللاثنين والجماعة هلم وسائر العرب تقول للجماعة هلموا ثم قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وذلك أن المنافقين كانوا يقولون إن لنا شغلاً فيرجعون إلى المدينة فإذا لقيهم أحد بالمدينة من المؤمنين يقولون دخلنا لشغل ونريد أن نرجع وإذا لقوا أحداً من المنافقين يقولون أي شيء تصنعون هناك ارجعوا إلينا ولا يأتون البأس يعني: ولا يحضرون القتال إلا قليلاً رياء وسمعة ولو كان ذلك لله لكان كثيراً وهذا كقوله (وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا).

ثم قال عز وجل: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ يعني: أشفقة عليكم حباً لكم حتى يعوقكم يا معشر المسلمين ويقال: يعني: بخلاء في النفقة عليكم ويقال فيه تقديم فكأنه يقول ولا يأتون البأس شفقة عليكم أي لم يحضروا شفقة عليكم إلا قليلاً يعني: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ يعني: خوف القتال ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ من الخوف ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ يعني: تدور أعينهم كدوران الذي هو في غشيان الموت

(١) انظر تفسير البغوي ٣/٥١٧.
(٢) سقط في أ.

ونزعاته جبناً وخوفاً ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ﴾ وجاءت قسمة الغنيمة ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ يعني: رموكم ويقال: طعنوا فيكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يعني: سلاط باسطة بالشر ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ يعني: حرصاً على الغنيمة ويقال بخلاً على الغنيمة ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ يعني: لم يصدقوا حق التصديق ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾[1] يعني: أبطل الله ثواب أعمالهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ يعني: إبطال أعمالهم ويقال عذابهم في الآخرة على الله هين ثم قال عز وجل: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ يعني: يظنون أن الجنود لم يذهبوا من الخوف والرعب ﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ويقال: حكاية عن الماضي ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾ يعني: تمنوا أنهم خارجون في البادية مع الأعراب ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ يعني: عن أخباركم وأحاديثكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ يعني: معكم في القتال ﴿مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً﴾ رياء وسمعة من غير حسبة وقرىء في الشاذ يسألون بتشديد السين وأصله يتساءلون أي يسأل بعضهم بعضاً وقراءة العامة يسألون لأنهم يسألون القادمين ولا يسأل بعضهم بعضاً قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قرأ عاصم أسوة بضم الألف وقرأ الباقون بالكسر وهما لغتان[2] ومعناهما واحد يعني لقد كان لكم اقتداء بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدوة حسنة وسنة صالحة لأنه كان أسبقهم في الحرب وكسرت رباعيته يوم أحد وَوَاسَاكُمْ بنفسه في مواطن الحرب ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ يعني: يخاف الله عز وجل: ﴿وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ باللسان ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾ يعني: الجنود يوم الخندق والقتال ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في سورة البقرة وهو قوله عز وجل (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم) الآية ويقال إنه قد أخبرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه نازل ذلك الأمر فلما رأوه (قالوا هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ) ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ يعني: لم يزدهم الجهد والبلاء إلا تصديقاً لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجرأة وتسليماً يعني: تواضعاً لأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نعت المؤمنين.

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

---

(١) إحباط الأعمال: إبطال الاعتداد بالأعمال المقصود بها القربة والمظنون بها أنها أعمال صالحة لمانع منع من الاعتداد بها في الدين. وقد صار لفظ الحبط والحبوط من الألفاظ الشرعية الاصطلاحية بين علماء الفقه والكلام فأطلق على عدم الاعتداد بالأعمال الصالحة بسبب الردة أي الرجوع إلى الكفر أو بسبب زيادة السيئات على حسناته بحيث يستحق صاحب الأعمال العذاب بسبب زيادة سيئاته على حسناته بحسب ما قدر الله لذلك وهو أعلم به ومن هذه الجهة عدت مسألة الحبوط مع المسائل الكلامية أو بحيث ينظر في انتفاعه بما فعل من الواجبات عليه إذا ارتد عن الإسلام ثم عاد إلى الإسلام كمن حج ثم ارتد ثم رجع إلى الإسلام ومن هذه الجهة تعد مسألة الحبوط في مسائل الفقه فقال مالك وأبو حنيفة: الردة تحبط الأعمال بمجرد حصولها فإذا عاد إلى الإسلام وكان قد حج مثلاً قبل ردته وجبت عليه إعادة الحج تمسكاً بإطلاق هذه الآية إذ ناطت الحبوط بانتفاء الإيمان ولم يريا أن هذا مما يحمل فيه المطلق على المقيد احتياطاً لأن هذا الحكم راجع إلى الإعتقادات ولا يكفي فيها الظن. وقال الشافعي: إذا رجع إلى الإسلام رجعت إليه أعماله الصالحة التي عملها قبل الردة تمسكاً بقوله تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾. في سورة البقرة حملاً للمطلق في آية سورة الأحزاب ونحوها على المقيد في آية سورة البقرة تغليباً للجانب الفرعي في هذه المسألة على الجانب الاعتقادي. وتعرف هذه المسألة بمسألة الموافاة أي استمرار المرتد على الردة إلى انقضاء حياته فيوافي يوم القيامة مرتداً فمالك وأبو حنيفة لم يريا شرط الموافاة والشافعي اعتبر الموافاة والمعتزلة قائلون بمثل ما قال به مالك وأبو حنيفة. وحكى الفخر عن المعتزلة اعتبار الموافاة على الكفر. انظر التحرير ٢١/٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٧٥، إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٧٣.

﴿تَبْدِيلًا ۝٢٣ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٢٤ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾

فقال عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ يعني: وفوا بالعهد الذي عاهدوا ليلة العقبة ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ يعني: أجله فمات أو قتل على الوفاء يعني: وفاء بالعهد وقال القتبي النحب في اللغة النذر وذلك أنهم نذروا إذا لقوا العدو أن يقاتلوا فقتل في القتال فسمي قتله قضاء نحبه، واستعير النحب مكان الموت وقال مجاهد: النحب العهد وروى عيسى بن طلحة قال: جاء أعرابي فسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الذين قضوا نحبهم فأعرض عنه وطلع طلحة بن عبيد الله فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا ممن قضى[1] نحبه[2] ثم قال ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾ يعني: ينتظر أجله ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ يعني: ما غيروا بالعهد الذي عهدوا تغييراً ثم قال عز وجل: ﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾ يعني: الوافين بوفائهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ يعني: إذا ماتوا على النفاق ﴿إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: يقبل توبتهم إن تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رحِيماً﴾ لمن تاب منهم رحيماً بهم قوله عز وجل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: صدهم وهم الكفار الذي جاؤوا يوم الخندق ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ يعني: صرفهم عن المدينة مع غيظ منهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾ يعني: لم يصيبوا ما أرادوا من الظفر والغنيمة ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ يعني: دفع الله عنهم مؤنة القتال حيث بعث عليهم ريحاً وجنوداً ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ فلما رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الخندق دخل المدينة[3] ودخل على فاطمة رضي الله عنها وأراد أن يغسل رأسه فجاءه جبريل عليه السلام وقال لا تغسل رأسك ولكن اذهب إلى بني قريظة فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال إن جبريل عليه السلام قال له حين وضع سلاحه وضعت سلاحك قال نعم قال ما وضعت الملائكة عليهم السلام سلاحها بعد وقد أمرك الله عز وجل أن تنهض نحو بني قريظة فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الناس فقال عزمت عليكم أن لا تصلوا العصر إلا ببني قريظة فلبس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلاحه وخرج المسلمون معه واللواء في يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمر على بني عدي بن النجار وقد أخذوا السلاح فقال من أمركم أن تلبسوا السلاح فقالوا دحية الكلبي وكان جبريل عليه السلام يتمثل في صورته فلما جاء بني قريظة وجد بعض الصحابة قد صلوا العصر قبل أن يأتوا بني قريظة مخافة أن تفوتهم عن وقتها وأبى بعضهم فقالوا نهانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نصلي حتى نأتي بني قريظة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٩١ وعزاه لابن أبي عاصم والترمذي وحسنه وأبي يعلى وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طلحة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/٣٧٦ كتاب معرفة الصحابة باب من أراد أن ينظر إلى شهيد وذكره المتقي الهندي في كنز العمال ١١/٦٩٦ (٣٣٣٧١) وعزاه لابن عساكر.

(٣) انظر تفسير البغوي ٣/٥٢١ وما بعدها.

فلم ينتهوا إلى بني قريظة حتى غابت الشمس ولم يصلوا العصر قال فلم يؤنب أحداً من الفريقين أي رضي بما فعل الفريقان جميعاً وفيه دليل لقول بعض الناس إن لكل مجتهد نصيب فجاء علي رضي الله عنه باللواء حتى عزره عند الحصن فسبت اليهود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأزواجه ورجع إليه علي رضي الله عنه فقال تأخر يا رسول الله ونحن نكفيك فيهم قال سبوني ولو كانوا دوني لم يسبوني فلما جاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا إخوة القردة والخنازير انزلوا على حكم الله وحكم رسوله فقالوا يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً ورجع حيي بن أخطب من الروحاء وقد ذكر يمينه التي حلف بها لكعب بن الأشرف ودخل معهم في حصنهم ونزل بنو سعد بن شعبة أسد وثعلبة فأسلموا وأبى من بقي فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي لبابة بن عبد المنذر اذهب فقل لحلفائك ومواليك ينزلوا على حكم الله تعالى ورسوله عليه السلام فجاءهم أبو لبابة فقال: انزلوا على حكم الله ورسوله فقالوا يا أبا لبابة نصرناك يوم بعاث ويوم الحدائق والمواطن كلها التي كانت بين الأوس والخزرج ونحن مواليك وحلفاؤك فانصح لنا ماذا ترى فأشار إليهم ووضع يده على حلقه يعني: الذبح فقالوا لا تفعل يعني: لا ننزل فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خنت الله ورسوله فقال نعم فانطلق فربط نفسه بخشبة من خشب المسجد حتى تاب الله عليه والتمسه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يجده فقالوا: إنه قد ربط نفسه بخشبة من خشبة المسجد فقال: لو جاءني لاستغفرت له فأما إذا ربط نفسه فدعوه حتى يتوب الله عليه ثم أتاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحله فقال كعب بن أسد لأصحابه من بني قريظة أما تعلمون أنه قد جاءنا ابن فلان اليهودي من الشام فقال لنا جئتكم لنبي ينتهي إلى هذه الأرض من قريش وأنه يبعث بالذبح والقتل والسب فلا يهولنكم ذلك وكونوا أولياءه وأنصاره فقالوا لا نكون تبعاً لغيرنا نحن أهل الكتاب والنبوة لا نتبع قوماً أميين ما درسوا كتاباً قط فلا نفعل فقال كعب بن أسد أطيعوني في إحدى ثلاث قالوا وما هي فقال إنكم لتعرفون أنه رسول الله فاتبعوه وانصروه وكونوا أنصاره وأولياءه فقالوا لا نكون تبعاً لغيرنا فقال أما إذا أبيتم فإن هذه ليلة السبت هم يأمنونكم انزلوا إليهم فبيتوهم حتى تقتلوهم فقالوا لا نكسر سبتنا فقد كسر قوم من بني إسرائيل سبتهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير قال فإن أبيتم هذا فإذا كان يوم الأحد فاقتلوا أبناءكم ونساءكم ثم انزلوا إليهم بأسيافكم فقاتلوهم حتى تموتوا كراماً فقالوا لا نفعل فلبثوا خمسة عشر ليلة محاصرين فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حكم من تنزلون قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ فأرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى سعد بن معاذ وكان جريحاً قد رمته بني قريظة فأصاب أكحله فدعى الله تعالى أن لا يميته حتى يشفي صدره من بني قريظة فأتي به على حمار فتبعه قوم كان ميلهم إلى بني قريظة وكانوا يقولون له يا أبا عمرو أحسن في حلفائك ومواليك إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب البقية وقد نصروك يوم بعاث ويوم حدائق فلم يكلمهم حتى نظر إلى بيوت بني قريظة فقال سعد قد آن لي أن لا أخاف في الله لومة لائم فعرفوا أنه سوف يقتلهم فرجعوا عنه فلما دنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن حوله قوموا إلى سيدكم فأنزلوه فقام إليه الأنصار فأنزلوه فقال احكم فيهم يا أبا عمرو فقال سعد لليهود أترضون بحكمي قالوا: نعم فقال: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه قالوا نعم فالتفت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه وهاب أن يخاطب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال وَعَلَيَّ مِنْ هَاهُنَا مثل ذلك وإنه ليغض بصره عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعم نعم وعلينا فقال لبني قريظة انزلوا فلما نزلوا قال احكم فيهم يا رسول الله أن تقتل مقاتليهم وتسبي ذراريهم وتقسم أموالهم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقد حكمت بحكم من فوق سبعة أرقعة فأتي بحيي بن أخطب مأسوراً في حلة فجاءه رجل من الأنصار فنزع رداءه فبقي في إزاره فجعل يفرر إزاره ـ لكي لا يلبسه أحد وهو يقول لا بأس بأمر الله فلما جاء بين

يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ألم يمكن الله منك يا عدو الله فقال بلى وما ألوم نفسي فيك قد التمست العز في مظانه وقلقلت في كل مقلقل فأبى الله إلا أن يمكنك مني فأمر بضرب عنقه ثم جاؤوا بعزاز بن سموأل فقال ألم يمكنني الله منك فقال بلى يا أبا القاسم فضرب عنقه ثم قال لسعد عليك بمن بقي وقال لا تجمعوا عليهم حرين حر الهاجرة وحر السيف فحسبهم كذلك في دار الحارث وفي بعض الروايات ببيت خراب ثم أخرجهم رسلاً فقتلهم على الولاء والترتيب فقال بعضهم لبعض ما تراهم يصنعون بنا فقال واحد ألا تعقلون أنهم يقتلون ألا ترون أن الداعي لا يسكت ومن ذهب لا يرجع فقتلوا كلهم ولم يسلم أحد منهم كان فيهم رجل يقال له زبير بن باطا فكلم ثابت بن قيس بن شماس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمره فقال إن الزبير بن باطا له عندي يد وقد أعانني يوم بعاث فهبهُ لي يا رسول الله حتى أعتقه فقال عليه السلام هو لك فجاء إليه فقال: يا أبا عبد الرحمن أتعرفني قال نعم وهل ينكر الرجل أخاه أنت ثابت بن قيس قال أتذكر يداً لك عندي يوم بعاث قال نعم إن الكريم يجزي باليد فاجز بها فقال قد وهبك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لي وقد أعتقتك قال شيخ كبير لا أهل له كيف يعيش فجاء ثابت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلمه في أهله فقال لك أهلهُ فجاء إليه فقال قد وهب لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهلك فهي لك فقال شيخ كبير أعمى وامرأة ضعيفة وأطفال صغار لا مال لهم كيف يعيشون فقام ثابت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسأله ماله فقال لك ماله فجاء إليه فقال قد وهب لي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك لي فهو لك فقال فما فعلت بكعب بن أسد الذي وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي قال قتل قال فما فعل بعزاز بن سموأل مقدم اليهود إذا حملوا وحاميهم إذا انصرفوا قال قتل قال فما فعل بسيد الحاضر والبادي حيي بن أخطب يحملهم في الحرب ويطعمهم في المحل؟ قال قتل قال فما فعل بفلان وفلان قال قتل قال فقال: يا ابن الأخ لا خير في الحياة بعد أولئك ألا أصبر فيه قدر فراغ دلو ماء حتى ألقى الأحبة قال أبو بكر ويلك يا ابن باطا والله ما هو إفراغ دلو ماء ولكنه عذاب الله أبداً يا ابن الأخ قدمني إلى مصارع قومي فاضرب ضربة أجهز بها وأرفع يدك عن العصام وألصق بالرأس فإن أحسن الجسد أن يكون فيه شيء من العنق فقال ثابت ما كنت لأقتلك قال ما أبالي من قتلني فتقدم رجل من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضرب عنقه وغنم الله عز وجل رسوله أموال بني قريظة وذراريها فقسمها بين المسلمين فنزل قوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ يعني: عاونوهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: من قصورهم وحصونهم وأصل الصياصي في اللغة[1] قرون الثور لأنه يتحصن به فقيل للحصون صياصي لأنها تمنع ثم قال: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِم الرُّعْبَ﴾ حين انهزم الأحزاب ﴿فَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ يعني: رجالهم ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً﴾ تسبون طائفة وهم النساء والصبيان قال مقاتل قتل أربعمائة وخمسون رجلاً وسبي من النساء والصبيان ستمائة وخمسون وقال في رواية الكلبي كانوا سبعمائة فقسمها بين المهاجرين ثم قال عز وجل: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ يعني: مزارعهم ﴿وَدِيَارَهُمْ﴾ يعني: منازلهم ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ يعني: العروض والحيوان ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا﴾ يعني: لم تملكوها ولم تقدروا عليها يعني ورثكم تلك الأرض أيضاً وهي أرض خيبر وروي عن الحسن وغيره في قوله (أَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا) قال كلما فتح على المسلمين إلى يوم القيامة[2] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ يعني: على فتح مكة وغيرها من القرى.

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٥٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/١٩٣ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ
سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ
أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ
ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ
أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا
تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ
تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ﴾ وذلك أنه رأى منهن الميل إلى الدنيا وطلبن منه فضل النفقة ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يعني: وزهرتها ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ يعني: أطلقكن طلاق السنة من غير إضرار قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: تطلبن رضى الله ورضى رسوله ﴿وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ يعني: الجنة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ يعني: ثواباً جزيلاً في الجنة فاعتزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه شهراً فلما نزلت هذه الآية جمع نساءه فبدأ بعائشة فقال يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تَعْجَلي فيه حتى تستشيري أبويك قالت وما هو يا رسول الله فتلى عليها الآية فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم خير نساءه فاخترنه سائر النساء[1] ثم قال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ يعني: الزنا ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ يعني: تعاقب مثلي ما يعاقب غيرها ويقال الجلد والرجم وهذا قول الكلبي ويقال من يأت منكن بفاحشة مبينة يعني: بمعصية يضاعف لها العذاب ضعفين لأن كرامتهن كانت أكثر فجعل العقوبة عليهن أشد وهذا كما روي عن سفيان بن عيينة أنه قال يغفر للجاهل سبعون ما لا يغفر للعالم واحدة ثم قال ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ يعني: هيناً قرأ ابن كثير وعاصم في إحدى الروايتين (مبيَّنة) بنصب الياء وقرأ الباقون بالكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر (نُضَعِّفْ) بالنون وتشديد العين لها العذابَ بنصب الباء ومعناه لها العذاب وقرأ أبو عمرو (يُضَعَّفْ) بالياء والتشديد وضم الباء في العذاب على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون (يضاعف) وهما لغتان والعرب تقول تضعف الشيء وضاعفه ثم قال ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: تطع منكن الله ورسوله ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحاً﴾ يعني: تعمل بالطاعات فيما بينها وبين ربها ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: ثوابها ضعفين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة قرأ حمزة والكسائي ويعمل صالحاً بالياء وقرأ الباقون بالتاء[2] فمن قرأ بالياء فللفظ مَنْ لأن

---

(١) أخرجه مسلم ٢/١١٠٤ كتاب الطلاق (٢٩ ـ ١٤٧٨) والترمذي (٣٢٠٤، ٣٣١٨) والنسائي ٦/١٦٠، وابن ماجه (٢٠٥٣). وأحمد في المسند ٦/١٦٣ والبيهقي في السنن ٣٨/٧.

(٢) حجتهم في قوله (تعمل) بالتاء: هي أن الفعل لما تقدمه قوله (منكن) أجروه بلفظ التأنيث لأن تأنيث (منكن) أقرب إليه من لفظ

لفظها لفظ واحد مذكر كما اتفقوا في قوله (وَمَنْ يَقْنُتْ) ومن قرأ بالياء ذهب إلى المعنى وصار منكن فاصلاً بين الفعلين وقرأ حمزة والكسائي يؤتها بالياء يعني: يؤتها الله وقرأ الباقون بالنون[١] على معنى الإضافة إلى نفسه ثم قال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يعني: لستن كسائر النساء فقال لستن كأحد ولم يقل كواحد لأن لفظ الأحد يصلح للواحد والجماعة وأما لفظ الواحد لا يصلح إلا للواحد ثم قال عز وجل: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ يعني: إن اتقيتن المعصية وأطعتن الله ورسوله ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ يعني: لا تلنَّ بالقول ويقال لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فأنتن أحق الناس بالتقوى وتم الكلام ثم قال (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) يعني: لا ترفقن بالقول وهو اللين من الكلام ومعلوم أن الرجل إذا أتى باب إنسان والرجل غائب فلا يجوز للمرأة أن تلين القول معه ثم قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ يعني: فجور وقال عكرمة هو شهوة الزنا[٢] ويقال الميل إلى المعصية ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ يعني: صحيحاً جميلاً ويقال قولاً حسناً يعني ليناً ويقال لا يقلن باللين فيفتن ولا بالخشن فتؤذين وقلن قولاً معروفاً بين ذلك قال عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم (وَقَرنَ فِي بُيوتكن) بالنصب والباقون بالكسر[٣] فمن قرأ بالكسر فمعناه اسكن في بيوتكنَّ بالوقار وهو من وقر يقر وقاراً ويقال هو من التقرير ويقال قر يقر وأصلهُ قررن ولكن المضاعف يراد به التخفيف فحذف إحدى الراءين للتخفيف فلما طرحوا إحدى الراءين استثقلوا الألف ولم تكن أصلية وإنما دخلت للوصل فحذفت الألف ومن قرأ وقرن بنصب القاف لا يكون إلا للتقرير ثم قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ يعني: لا تتزين كتزين الجاهلية الأولى والتبرج إظهار الزينة ويقال التبرج الخروج من المنزل والجاهلية الأولى قال الكلبي يعني الأزمنة التي ولد فيها إبراهيم عليه السلام فكانت المرأة من أهل ذلك الزمان تتخذ الدروع من اللؤلؤ ثم تمشي وسط الطريق وكان ذلك في زمن النمرود الجبار وروي عن الحكم بن عيينة قال الجاهلية الأولى كانت بين نوح وآدم عليهما السلام وكانت نساؤهم أقبح ما يكون من النساء ورجالهم حسان وكانت المرأة تريد الرجل على نفسها[٤] وروى عكرمة عن ابن عباس أن الجاهلية الأولى كانت بين نوح وإدريس وكانت ألف[٥] سنة وقال مقاتل الجاهلية الأولى كانت قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما سمى جاهلية الأولى لأنه كان قبله ثم قال: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: أتممن الصلوات الخمس ﴿وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ يعني: إن كان

= (من) وحجة من قرأ (يعمل) بالياء: إجماع الجميع (على الياء) في قوله: (من يأت منكن) (ومن يقنت) فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه.

(وأما من قرأ بالياء فإنه حمل الكلام على لفظ (من) دون المعنى ومن قرأ بالتاء فإنه حمل على المعنى دون اللفظ لأن معنى (من) التأنيث والجمع ومما يقوى قول من حمل على المعنى فأنث: اتفاق حمزة والكسائي معهم في قوله: (نؤتها) فحملا أيضاً على المعنى ولو كان على اللفظ لقالوا: (نؤته) فكذلك قوله: (وتعمل) كان ينبغي أن يحمل على المعنى. انظر حجة القراءات ٥٧٦.

(١) حجة من قرأ (نؤتها) بالنون هي أن الكلام جرى عقيبه بلفظ الجمع وهو قوله ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ فأجراه على لفظ ما أتى عقيبه ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة من قرأ بالياء أن الكلام جرى عقيب الخبر من الله في قوله ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله﴾ فكان قوله ﴿يؤتها﴾ بمعنى (يؤتها الله) بمجيء الفعل بعد ذكره. انظر حجة القراءات ٥٧٦، إتحاف فضلاء البشر ٣٧٤/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٦/٥ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٧٧، النشر في القراءات العشر ٣٤٨/٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٧/٥ وعزاه لابن جرير.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٩٧/٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

لكن مال ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما ينهاكن وفيما يأمركن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ يعني: الإثم وأصله في اللغة كل خبيث من المأكول وغيره ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يعني: يا أهل البيت وإنما كان نصباً للنداء ويقال إنما صار نصباً للمدح ويقال صار نصباً على جهة التفسير فكأنه يقول أعني أهل البيت وقال عنكم بلفظ التذكير ولم يقل عنكن لأن لفظ أهل البيت يصلح أن يذكر ويؤنث قوله ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ يعني: من الإثم والذنوب.

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: احفظن ما يقرأ عليكن ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ يعني: أمره ونهيه في القرآن فوعظهن ليتفكرون ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً﴾لطيف علمه فيعلم حالهن إن خضعن بالقول ويقال لطيفاً أمر نبيه بأن يلطف بهن ﴿خَبِيراً﴾ يعني: عالماً بأعمالهن قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وذلك أن أم سلمة رضي الله عنها سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء في شيء من كتابه فأخشى أن لا يكون فيهن خير ولا لله عز وجل فيهن حاجة[1] فنزل (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) ويقال إن النساء اجتمعن وبعثن أنيسة رسولاً إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت إن الله تبارك وتعالى خالق الرجال والنساء وقد أرسلك إلى الرجال والنساء فما بال النساء ليس لهن ذكر في الكتاب فنزلت هذه الآية[2] وقال قتادة: لما ذكر الله عز وجل أزواج النبي يعني: دخل نِساءُ مسلماتٌ عليهن فقلن ذكرتن ولم نذكر ولو كان فينا خيراً ذكرنا[3] فنزلت هذه الآية (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) يعني المسلمين من الرجال والمسلمات من النساء ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين الموحدين من الرجال ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: المصدقات الموحدات من النساء ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ يعني: المطيعين وأصل القنوت القيام ثم يكون للمعاني ويكون للطاقة كقوله (وَالْقَانِتِينَ) ـ ويكون للإقرار بالعبودية كقوله (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) ﴿وَالْقَانِتَاتِ﴾ أي: المطيعات من النساء ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ والصادقات يعني: الصادقين في إيمانهم من الرجال ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾ من النساء ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على أمر الله تعالى من الرجال والنساء ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ يعني: المتواضعين من الرجال والنساء ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ

---

(١) انظر تفسير البغوي ٣/٥٢٩.

(٢) انظر المصدر السابق وأخرج الترمذي ٥/٣٣٠ من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرون بشيء؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ الآية.

وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وإنما يعرف هذا الحديث من هذا الوجه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٠ وعزاه لابن جرير.

﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ يعني: المنفقين أموالهم في طاعة الله من الرجال والنساء ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ قال مقاتل: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر فهو من الصائمين والصائمات(١) ثم قال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ يعني: من الفواحش من الرجال والنساء ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ يعني: باللسان من الرجال والنساء فذكر أعمالهم ثم ذكر ثوابهم فقال ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ في الدنيا لذنوبهم ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ في الآخرة وهو الجنة قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لزينب بنت جحش الأسدية وهي بنت عمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أميمة بنت عبد المطلب أني أريد أن أزوجك من زيد بن حارثة فقالت يا رسول الله لا أرضاه لنفسي وأنا أرفع قريش لأنني من قريش وابنة عمتك(٢) فنزل (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) يعني: ما جاز لمؤمن يعني زيد بن حارثة ولا مؤمنة يعني زينب بنت جحش ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً﴾ يعني: حكم حكماً في تزويجهما ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يعني: اختيار من أمرهم بخلاف ما أمر الله ورسوله قرأ حمزة والكسائي وعاصم أن يكون بالياء بالتذكير وقرأ الباقون بالتاء(٣) بلفظ التأنيث فمن قرأ بالتاء فلأن لفظ الخيرة مؤنث ومن قرأ بالياء فإنه يتصرف إلى المعنى ومعناهما الاختيار لتقديم الفعل ﴿وَمَنْ يعصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً﴾ فلما سمعت زينب بنت جحش نزول هذه الآية قالت أطعتك يا رسول الله(٤).

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني: زيد بن حارثة قد أنعم الله عز وجل عليه بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ قال قتادة: جاء زيد بن حارثة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إن زينب اشتد علي لسانها وإني أريد أن أطلقها فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» وكان يحب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يطلقها وخشي مقالة الناس أن أمره بطلاقها فنزلت هذه الآية وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم إلى زيد بن حارثة يطلبه في حاجة له فإذا زينب بنت جحش قائمة في درع وخمار فلما رآها أعجبته ووقعت في نفسه فقال سبحان الله مقلب القلوب ثبت قلبي فلما سمعت زينب جلست فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما جاء زيد ذكرت

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠٠ وعزاه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.
(٢) انظر تفسير البغوي ٣/ ٥٣٠. تفسير القرطبي ١٤/ ١٢٠.
(٣) انظر حجة القراءات ٥٧٨، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٧٦.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٠٠ وعزاه لابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس بنحوه.

ذَلك له فعرف أنها أعجبته ووقعت في نفسه وأعجب بها رسول الله فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال يا رسول الله إن زينب امرأة فيها كبر تعصي أمري ولا تبر قسمي فلا حاجة لي فيها فقال له اتق الله يا زيد في أهلك وأمسك عليك زوجك وكان يحب أن يطلقها فطلقها زيد ونزلت هذه الآية (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ**) ﴿**وَتُخْفِي فِيْ نَفْسِكَ**﴾ يعني: تسر[1] في نفسك ليت أنه طلقها ﴿**مَا اللَّهُ مُبْدِيْهِ**﴾ يعني مظهره عليك حتى ينزل بـه قرآنـاً

---

(١) قال الحافظ في الفتح بعد ذكره قوله تعالى: ﴿**وتخفي في نفسك**﴾ الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة هكذا اقتصر على هذا القدر من هذه القصة وأخرجه البخاري في التوحيد من وجه آخر عن حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال (جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك قال أنس: لو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاتماً لكتم هذه) الآية قال (وكانت تفتخر على أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ) الحديث. أخرجه أحمد عن مؤمل بن إسماعيـل عن حماد بن زيد بهذا الإسناد بلفظ (أتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزل زيد بن حارثة فجاءه زيد يشكوها إليه فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله) فنزلت إلى قوله ﴿**زوجناكها**﴾ قال: يعني زينب بنت جحش. وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً ولفظه (بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزوجها إياه ثم أعلم الله عز وجل نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولون تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيـداً وعنده من طريق علي بـن زيد عن علي بن الحسين بن علي قال: أعلم الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكما وتخفي في نفسك ما الله مبديه وقد أطنب الترمذي الحكيم في تحسين هذه الرواية وقال: إنها من جواهر العلم المكنون وكأنه لم يقف على تفسير السدي الذي أوردته وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه لضعف علي بن زيد بن جدعان. وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: جاء زيد بن حارثة فقال يا رسول الله إن زينب اشتد علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها فقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك قال والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب أن يطلقها ويخشى مقالة الناس. ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها والذي أوردته منها هو المعتمد. والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً. ووقوع ذلك من أمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية والله أعلم.

وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة قالت (لو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ـ يعني بالإسلام ـ وأنعمت عليه** ـ بالعتق ـ **أمسك عليك زوجك**﴾. إلى قوله ﴿**قدراً مقدوراً**﴾ وأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم**﴾ الآية وكان تبناه وهو صغير. قلت: حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى: ﴿**ادعوهم لآبائهم ـ إلى قوله ـ ومواليكم**﴾ قال الترمذي: روي عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة إلى قوله (لكتـم هذه الآية) ولم يذكر ما بعده. قلت: وهذا القدر أخرجه مسلم كما قال الترمذي وأظن الزائد بعده مدرجاً في الخبر فإن الراوي له عن داود لم يكن بالحافظ. وقال ابن العربي إنما قال عليه الصلاة والسلام لزيد (أمسك عليك زوجك) اختباراً لما عنده من الرغبة فيها أو عنها فلما أطلعه زيد على ما عنده منها من النفرة التي نشأت من تعاظمها عليه وبذاءة لسانها أذن له في طلاقها وليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به والله أعلم. وروى أحمد ومسلم والنسائي من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لزيد اذكرها علي قال فانطلقت فقلت: يا زينب أبشري أرسل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذكرك فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن وجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دخل عليها بغير إذن) وهذا أيضاً من أبلغ ما وقع في ذلك وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب=

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ يعني: تستحي من الناس ويقال وتخشى مقالة الناس **﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾** في أمرها قال الحسن ما أنزل الله عز وجل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية أشد منها ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي لكتمها ثم قال **﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً﴾** يعني: حاجة **﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾** فلما انقضت عدتها تزوجها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الحسن: فكانت زينب تفتخر على أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتقول أما أنتن فزوجكن آباؤكن وأما أنا فزوجني رب العرش تعني قوله (زَوَّجْنَاكَهَا) **﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾** يعني: لكيلا يكون على الرجل حرج بأن يتزوج امرأة ابنه الذي يتبناه **﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾** يعني: حاجة **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾** تزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياها كائن لا بد واللام للزيادة وكي مثله فلو كان أحدهما لكان يكفي ولكن يجوز أن يجمع بين حرفين زائدين إذا كانا جنسين وإنما لا يجوز إذا كانا من جنس واحد كما قال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولا يصلح أن يقال: مثل مثل أوكي كي فإذا كانا جنسين جاز فقالت اليهود والمنافقون يا محمد تنهى عن تزوج امرأة الإبن ثم تتزوجها فنزل قوله عز وجل **﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾** يقول ليس على النبي إثم **﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾** يعني: في الذي رخص الله عز وجل من تزوج زينب **﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾** يعني: هكذا سنة الله في الذين مضوا يعني: في كثرة تزوج النساء كما فعل الأنبياء عليهم السلام **﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾** يعني: قضاء كائناً قوله عز وجل **﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾** قال مقاتل: يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحده ويقال ينصرف إلى قوله (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ) **﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾** في كتمان ما أظهر الله عليهم **﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً﴾** في البلاغ **﴿إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾** يعني: شهيداً بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلغ الرسالة عن الله عز وجل ويقال شهيداً يعني: حفيظاً.

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا
(٤٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي
عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ
يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥)
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

قوله عز وجل **﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾** يعني بالتبني وليس بأب لزيد بن حارثة **﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾** يعني: ولكنه محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال لم يكن أب الرجال لأن بنيه ماتوا صغاراً ولو كان الرجال بنيه لكانوا أنبياء ولا نبي بعده فذلك قوله **﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾** قرأ بعضهم ولكن (رَسُولُ الله) بضم اللام[1] ومعناه ولكن هو رسول الله وكان خاتم النبيين وقرأ عاصم في إحدى الروايتين (وخاتَم) النبيين بنصب التاء وقرأ

= لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا؟. انظر فتح الباري ٨/٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥.

(١) هي قراءة ابن أبي عبلة وبعض الناس انظر القرطبي ١٤/١٣٧.

الباقون بالكسر(١) فمن قرأ بالكسر يعني آخر النبيين ومن قرأ بالنصب فهو على معنى إضافة الفعل إليه يعني أنه ختمهم وهو خاتم قال أبو عبيد وبالكسر نقرأ لأنه رويت الآثار عنه أنه قال «أنا خاتم النبيين» فلم يسمع أحد من فقهائنا يروون إلا بكسر التاء ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ بمن يصلح للنبوة وبمن لا يصلح فإن قيل كيف يظن برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يظهر من نفسه خلاف ما في قلبه قيل له يجوز مثل هذا لأن في قوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) أمر بالمعروف وفيه رد النفس عما تهوى وهذا عمل الأنبياء والصالحين عليهم السلام وقال بعضهم للآية وجه آخر وهو أن الله تعالى قد أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنها تكون زوجته فلما زوجها من زيد بن حارثة لم يكن بينهما ألفة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينهاه عن الطلاق ويخفي في نفسه ما أخبره الله تعالى وقال بأنها تكون زوجته فلما طلقها زيد بن حارثة كان يمتنع من تزوجها خشية مقالة الناس يتزوج امرأة ابنه المتبنى به فأمره الله عز وجل بأن يتزوجها ليكون ذلك سبب الإباحة لنكاح امرأة الابن المتبنى لأمته ونزل (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ) الآية ثم قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ يعني: اذكروا الله باللسان وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال [إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله فما جلاؤها قال تلاوة كتاب الله عز وجل وكثرة ذكره] وذكر أن أعرابياً سأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال إن شرائع الإسلام قد كثرت فأنبئني منها بأمر أتشبث به فقال لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل ويقال ليس شيء من العبادات أفضل من ذكر الله تعالى لأنه قدر لكل عبادة مقداراً ولم يقدر للذكر وأمر بالكثرة فقال (اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً) يعني اذكروه في الأحوال كلها لأن الإنسان لا يخلو من أربعة أحوال إما أن يكون في الطاعة أو في المعصية أو في النعمة أو في الشدة فإذا كان في الطاعة ينبغي أن يذكر الله عز وجل بالإخلاص ويسأله القبول والتوفيق وإذا كان في المعصية ينبغي أن يذكر الله عز وجل بالامتناع عنها ويسأل منه التوبة منها والمغفرة وإذا كان في النعمة يذكره بالشكر وإذا كان في الشدة يذكره بالصبر ثم قال تعالى ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني: غدواً وعشياً يعني: صلوا لله بالغداة والعشي يعني الفجر والعصر ويقال بالغداة يعني صلوا أول النهار وهي صلاة الفجر وأصيلا يعني: صلوا آخر النهار وأول النهار وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم قال عز وجل ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ يقول: هو الذي يرحمكم ويغفر لكم ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي يأمر الملائكة عليهم السلام بالاستغفار لكم ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: أخرجكم من الكفر إلى الإيمان ووفقكم لذلك، اللفظ لفظ المستأنف والمراد به الماضي يعني أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ونور قلوبكم بالمعرفة ويقال معناه ليثبتكم على الإيمان ويمنعكم عن الكفر ويقال ليخرجكم من الظلمات يعني: من المعاصي إلى نور التوبة والطهارة من الذنوب ويقال من ظلمات القبر إلى نور المحشر ويقال من ظلمات الصراط إلى نور الجنة ويقال من ظلمات الشبهات إلى نور البرهان والحجة ثم قال ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ يعني: بالمصدقين الموحدين رحيماً يرحم عليهم ثم قال عز وجل ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ قال مقاتل: يعني يلقون الرب في الآخرة بسلام وقال الكلبي تجيبهم الملائكة عليهم السلام على أبواب الجنة بالسلام فإذا دخلوها حيا بعضهم بالسلام وتحية الرب إياهم حين يرسل إليهم بالسلام ويقال يعني يسلم بعضهم على بعض ويقال يسلمون على الله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾ يعني: جزاءً حسناً في الجنة ويقال مساكن في الجنة حسنة قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ يعني: شهيداً على أمتك بالبلاغ ﴿وَمُبَشِّراً﴾ بالجنة لمن أطاع الله في الآخرة وفي الدنيا بالنصرة ﴿وَنَذِيراً﴾ من النار يعني: مخوفاً لمن عصى الله عز وجل:

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٧٨، والنشر في القراءات العشر ٢/٣٤٨.

﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: أرسلناك داعياً إلى توحيد الله ومعرفته ﴿بِإِذْنِهِ﴾ يعني: بأمره ﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ يعني: أرسلناك بسراج منير لأنه يضيء الطريق فهذه كلها صارت نصباً لنزع الخافض ثم قال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بشر يا محمد المصدقين بالتوحيد ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ في الجنة وذلك أنه لما نزل قوله عز وجل (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)[1] فقال المؤمنون هذا لك فما لنا فنزل قوله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً) في الجنة فلما سمع المنافقون ذلك قالوا فمالنا فنزل (وَبَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) ثم رجع إلى ما ذكر في أول السورة فقال تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ من أهل المدينة ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي تجاوز عن المنافقين ولا تقتلهم ويقال ودع أذاهم يعني اصبر على أذاهم وإن خوفك شيء منهم فتوكل على الله يعني: فوض أمْرك إلى الله وروى الأعمش عن سفيان بن سلمة عن ابن مسعود وقال [قسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قسمة فقال رجل من الأنصار إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك فاحمر وجهه فقال رحم الله أخي موسى عليه السلام لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر][1] ثم قال ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يعني: حافظاً نصيراً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾

وقوله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ قرأ حمزة والكسائي تماسوهن وقرأ الباقون تمسوهن مثل الاختلاف الذي ذكرنا في سورة البقرة ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ يعني: ليس للأزواج عليهن عدة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ وإنما خص المؤمنات لأن نكاح المؤمنات كان مباحاً في ذلك الوقت فلما أحل الله تعالى نكاح الكتابيات صار حكم الكتابية وحكم المؤمنة في هذا سواء إذا طلقها قبل أن يخلو بها لا عدة عليها بالإجماع وإن طلقها بعد ما خلا بها ولم يدخل بها فقد روي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالا لا عدة عليها[2] وقال عمر وعلي ومعاذ وزيد بن ثابت وجماعة منهم رضي الله عنهم أن عليها العدة وهو أحوط الوجهين أنه إذا خلا بها ولم تكن المرأة حائضاً ولم يكن أحدهما مريضاً ولا محرماً ولا صائماً صوم فرض يجب على الزوج المهر كاملاً وعليها العدة احتياطاً وأما إذا كانت المرأة حائضاً أو مريضة أو محرمة أو صائمة عن فرض أو الرجل مريض أو صائم عن فرض أو محرم فطلقها بعد الخلوة قبل الدخول فعليه نصف المهر وعليها العدة احتياطاً ثم قال ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يعني: متعة الطلاق ثلاثة أثواب وهي مستحبة غير واجبة ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾

(١) أخرجه البخاري ١٠/٤٩٠ كتاب الأدب باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه (٦٠٥٩).
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٧ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

يعني: خلوا سبيلهن تخلية حسنة وهو أن يعطيها حقها قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ يعني: نساءك ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: أعطيت مهورهن لأن غيره كان له أكثر من أربع نسوة أمره أن يترك ما زاد على الأربع وقد أحل للنبي - صلى الله عليه وسلم - إمساك التسع ولم يأمره بالفرقة ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني: أحللنا لك من الإماء مثل مارية القبطية ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من الغنيمة يعني: أعطاك الله كقوله تعالى (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) ثم قال ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ يعني: أحللنا لك نكاح بنات عمك ﴿وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يعني: هاجرن معه من مكة إلى المدينة أو قبله أو بعده ثم قال ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ يعني: أحللنا لك امرأة مؤمنة ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ صلى الله عليه وسلم - وقرأ الحسن إن وهبت بنصب الألف ومعناه إذا وهبت ويكون ذلك الفعل خاصة لامرأة واحدة وقراءة العامة إن بالكسر فيكون معناه لكل امرأة إن فعلت ذلك في المستقبل قال مقاتل: وذلك أن أم شريك وهبت نفسها للنبي - صلى الله عليه وسلم - بغير مهر كذا قال الكلبي وروي معمر عن الزهري في قوله (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ قال بلغنا أن ميمونة وهبت نفسها للنبي - صلى الله عليه وسلم - ووهبت سودة يومها لعائشة رضي الله عنها وروى وكيع عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظي وعمرو بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قال تزوج النبي - صلى الله عليه وسلم - ثلاث عشر امرأة ستة من قريش - خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية وثلاثاً من بني عامر وامرأتين من بني هلال ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي - صلى الله عليه وسلم - وزينب أم المساكين وامرأة من بني بكر وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الحزن من كندة وهي التي استعاذت[(١)] منه وقال يحيى بن أبي كثير تزوج أربعة عشر خديجة وسودة وعائشة تزوج هؤلاء الثلاث بمكة وتزوج بالمدينة زينب بنت خزيمة وأم سلمة وجويرية من بني المصطلق وميمونة بنت الحارث وصفية بنت حيي بن أخطب وزينب بنت جحش وكانت امرأة زيد بن حارثة وعالية بنت ظبيان وحفصة وأم حبيبة والكندية وامرأة من كلب وروى الزهري عن عروة قال لما دخلت الكندية على النبي - صلى الله عليه وسلم - قالت أعوذ بالله منك فقال لقد عذت بعظيم الحقي بأهلك[(٢)] ثم قال عز وجل ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ يعني أن يتزوجها بغير صداق ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: خالصاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - بغير مهر ولا يحل لغيره وقال الزهري الهبة كانت للنبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة ولا تحل لأحد أن تهب له امرأة نفسها بغير صداق وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: لم تحل الموهوبة لأحد بعد النبي - صلى الله عليه وسلم -[(٣)] واختلف الناس في جواز النكاح قال أهل المدينة باطل وقال أهل العراق النكاح جائز ولها مهر مثلها وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أجاز ذلك وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن خولة بنت حكيم وهبت نفسها للنبي - صلى الله عليه وسلم - وكانت من المهاجرات الأول وقال القتبي العرب تخبر عن غائب ثم ترجع إلى الشاهد فتخاطبه كما قال هاهنا (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) بلفظ الغائب ثم قال: (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ثم قال ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: ما أوجبنا عليهم ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ يعني: في أن لا يتزوجوا إلا بالمهر ويقال إلا أربعاً ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ويقال يعني: إلا ما لا وقت فيهن ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ في الهبة بغير مهر وفي الآية ومعناه أنا أحللنا لك امرأة مؤمنة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٨ وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ٩/٢٦٨ كتاب الطلاق (٥٢٥٤)، وأخرجه النسائي ٦/١٥٠، والبيهقي في السنن ٧/٣٩، والحاكم في المستدرك ٤/٣٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٠٩ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي.

وهبت نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكي لا يكون عليك حرج ثم قال ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً﴾ يعني: غفوراً فيما تزوج قبل النهي ﴿رحيماً﴾ في تحليل ذلك.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾

قوله عز وجل ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ترجىء بالهمزة وقرأ الباقون بغير الهمز كلاهما في اللغة واحد[1] وأصله من التأخير يقول تؤخر من تشاء منهن ولا تتزوجها ﴿وَتُؤْوِي إِليكَ مَنْ تَشَاء﴾[2] يعني: تضم فتتزوجها لخيره في تزويج القرابة ويقال: تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال قتادة جعله في حل أن يدع من يشاء منهن ويضم إليه من يشاء يعني إن شاء جعل لهن قسماً وإن شاء لم يجعل وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم وقال الحسن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب امرأة فليس لأحد أن يخطبها حتى يتزوجها[3] أو يدعها[4] وفي ذلك نزل (ترجي من تشاء منهن) ثم قال ﴿ومن ابتغيت مِمَّنْ عَزَلْت﴾ يعني أشرت ممن تركت ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ يعني: لا إثم عليك ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ (أي ذلك أجدى وأجدر إذا علمن أنك تفعل بأمر الله أن تطمئن)[5] قلوبهن ﴿وَلا يَحْزَنَّ﴾ مخافة الطلاق ﴿ويَرْضَيْنَ بما

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٧٩، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩.

(٢) قرأ نافع في رواية ورش: (تووي) بترك الهمزة. وقرأ الباقون بالهمز. فإن سأل سائل فقال: أبو عمرو ترك الهمزة الساكنة نحو (يؤمنون) فهلا ترك الهمزة في (تووي)فقل: إن أبا عمرو ترك الهمزة في (يومنون) تخفيفاً فإذا كان ترك الهمزة أثقل من الهمزة لم يدع الهمزة ألا ترى أنك لو لينت (تووي) لالتقى واوان قبلهما ضمة فثقلت. انظر حجة القراءات ٥٧٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢١٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) انظر تفسير البغوي ٣/٥٣٨.

(٥) سقط في ظ.

﴿آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ من النفقة إذا علمن أنه من الله عز وجل وقرىء في الشاذ كلهن بالنصب صار نصباً لوقوع الفعل عليه وهو الإعطاء وتقرأه العامة أتيتهن كلهن بالضم ومعناه يرضين كلهن بما أعطيتهن ثم قال **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾** من الحب والبغض **﴿وكانَ اللهُ عليماً﴾** بما في قلوبكم **﴿رحيماً﴾** بالتجاوز قوله عز وجل **﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾** قال مجاهد: أي لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات من بعد يعني: من بعد المسلمات ولا أن تبدل بهن من أزواج يقول: لا تبديل اليهوديات ولا النصرانيات[1] على المؤمنات يقول لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية إلا ما ملكت يمينك من اليهوديات والنصرانيات يتسرى بهن[2] قال الحسن وابن سرين خير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه بين الدنيا والآخرة فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة فشكر الله لهن على ذلك فحبسه عليهن فقال **لا يحل لك النساء من بعد**[3] **﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾** يعني: **لا يحل** لك أن تطلق واحدة منهن وتتزوج غيرها قرأ أبو عمرو (لا تحل) بالتاء بلفظ التأنيث[4] وقرأ الباقون بالياء بمعنى: لا يحل لك من النساء شيء ويقال: معناه لا تحل لجميع النساء فمن قرأ بالتاء بالتأنيث يعني: جماعة النساء ثم قال **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾** يعني أسماء بنت عميس أراد أن يتزوجها فنهاه الله تعالى عز وجل عن ذلك فتركها وتزوجها أبو بكر رضي الله عنه بإذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[5] ـ **﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾من** السريات **﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً﴾** من أمر التزويج رقيباً يعني: حفيظاً وروى عمرو بن دينار عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها قالت ما مات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى حل له النساء بعد قوله: (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ)[6] قوله عز وجل **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾** وذلك أن ناساً من المسلمين كانوا يتحينون غذاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدخلون عليه بغير إذن ويجلسون وينتظرون الغذاء وإذا أكلوا جلسوا طويلاً ويتحدثون طويلاً فأمرهم الله عز وجل بحفظ الأدب فقال (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) **﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾** يعني: إلا أن يدعوكم ويأذن لكم في الدخول **﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾** يعني من غير أن تنتظروا وقته ويقال أصله إدراك الطعام يعني: غير ناظرين إدراكه ويقال إناه يعني: نضج الطعام ثم قال **﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾** يعني إذا دعاكم إلى الطعام فادخلوا بيته **﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾** الطعام **﴿فَانْتَشِرُوا﴾** يعني تفرقوا **﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾** أي لا تدخلوا مستأنسين للحديث **﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾** أن يقول لكم تفرقوا **﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾** يعني: من بيان الحق أن يأمركم بالخروج بعد الطعام قال الفقيه أبو الليث في الآية: حفظ الأدب والتعليم أن الرجل إذا كان ضيفاً لا ينبغي أن يجعل نفسه ثقيلاً ولكنه إذا أكل ينبغي أن يخرج ثم قال **﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾** يعني إذا سألتم من نسائه متاعاً **﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾** ولا تدخلوا عليهن واسألوا من خلف الستر ويقال خارج الباب **﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾** من الريبة ثم قال **﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾** قال وذلك أن طلحة بن عبيد الله قال لئن مات محمد لأتزوجن بعائشة فنزل (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) **﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾** يعني: ولا أن تتزوجوا أزواجه

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢١٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢١٢ وعزاه لابن سعد عن عكرمة.

(٤) انظر حجة القراءات ٥٧٩، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩.

(٥) انظر تفسير البغوي ٣/٥٣٩.

(٦) أخرجه الترمذي ٥/٣٣٢ كتاب تفسير القرآن (٣٢١٦). وأخرجه النسائي كتاب النكاح (٣٢٠٥)، وأحمد في المسند ٦/١٨٠ ـ ٢٠١، والطبري في تفسيره ٢٢/٢٤ وابن سعد في الطبقات ٨/١٤١، والدارمي ٢/٥٤، والحاكم في المستدرك ٣/٤٣٧.

مـن بعد وفاته أبداً ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ في العقوبة ويقال: إنما نهى عن ذلك لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وروي عن حذيفة أنه قال لامرأته إن أردت أن تكوني زوجتي في الجنة فلا تتزوجي بعدي فإن المرأة لآخر أزواجها ولذلك حرم الله تعالى على أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتزوجن بعده وروي أن أم الدرداء قالت لأبي الدرداء عند موته إنك خطبتني إلى أبوي في الدنيا فأنكحاك وإني أخطبك إلى نفسي في الآخرة فقال لها فلا تنكحي بعدي فخطبها معاوية بن أبي سفيان فأخبرته بالذي كان وأبت أن تتزوجه وروي في خبر آخر بخلاف هذا أن أم حبيبة قالت يا رسول الله إن المرأة منا كان لها زوجان لأيهما تكون في الآخرة؟ فقال إنها تخير فتختار أحسنهما خلقاً معها ثم قال يا أم حبيبة إن حسن الخلق ذهب بالدنيا والآخرة[١] ثم قال عز وجل ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني: إن تظهروا من أمر التزويج شيئاً أو تسروه وتضمروه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ من السر والعلانية يعلم ما أعلنتم وما أخفيتم يجازيكم به ثم خص الدخول على نساء ذوات محرم بغير حجاب فرخص في ذلك وهو قوله عز وجل ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيْ آبَائِهِنَّ﴾ يعني: من الدخول عليهن ﴿وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: نساء أهل دينهن ﴿وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من الخدم ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ يعني: اخشين الله وأطعن الله فلا يراهن غير هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ يعني: عالماً بأعمالهم.

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيِّ﴾ والصلاة من الله الرحمة والمغفرة ومن الملائكة ـ عليهم السلام ـ الاستغفار يعني أن الله عز وجل يغفر للنبي ويأمر ملائكته بالاستغفار والصلاة عليه ثم أمر المسلمين بالصلاة عليه فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ روي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة أنه قال قلنا يا رسول الله كيف نصلي عليك فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد[٢] إلى[٣] آخره وروى أبو هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: صلوا علي فإن الصلاة علي زكاة لكم واسألوا الله لي الوسيلة قالوا وما الوسيلة يا رسول الله قال أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو[٤] وروى أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر[٥] خطيآت ويقال ليس شيء من العبادات أفضل من الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن سائر

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٥٠ وعزاه لابن جرير والطبراني وابن مردويه. انظر تفسير ابن كثير ٨/ ١٠.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢١٥ لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه.
(٣) أخرجه البخاري ٦/ ٤٠٨ كتاب الأنبياء (٣٣٧٠)، ومسلم ١/ ٣٠٥ كتاب الصلاة (٦٦ ـ ٤٠٦).
(٤) أخرجه مسلم ١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩ كتاب الصلاة (١١ ـ ٣٨٤).
(٥) أخرجه النسائي ٣/ ٥٠ كتاب السهو، وأحمد في المسند ٣/ ١٠٢، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٩) وابن أبي حاتم في علل=

العبادات أمر الله تعالى بها عباده وأما الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد صلى عليه أولاً هو بنفسه وأمر الملائكة بذلك ثم أمر العباد بذلك ثم قال ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ يعني: اخضعوا له خضوعاً ويقال: ائتمروا بما يأمركم الله تعالى ويقال: لما نزلت هذه الآية قال المسلمون هذا لك فما لنا فنزل (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ) ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: اليهود والنصارى حيث قالوا (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) ونحو ذلك من الكلمات ويقال أذاهم الله وهو قولهم لله ولد ونحو ذلك وإيذاءهم رسوله أنهم زعموا أنه ساحر ومجنون ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: عذبهم الله في الدنيا بالقتل والسبي ﴿وَالْآخِرَةِ﴾بالنار ويقال: هم الذين يجعلون التصاوير ويقولون تخلق كما يخلق الله تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾ يهانون فيه ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ يعني: بغير جرم ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً﴾ يعني: قالوا كذباً ﴿وَإِثْماً مُبِيناً﴾ يعني ذنباً بيناً قال مقاتل: قال السدي: نزلت هذه الآية في أمر عائشة وصفوان ويقال في جميع من يؤذي مسلماً بغير حق وقال عثمان لأبي بن كعب: إني قرأت هذه الآية (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنَاتِ) فوقعت مني كل موقع والله إني لأضربهم وأعاقبهم فقال له أبي إنك لست منهم إنك مؤدب معلم قوله عز وجل ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ وذلك أن المهاجرين نزلوا في ديار الأنصار فضاقت الدور عليهم وكن النساء يخرجن بالليل إلى التخلي يقضين حوائجهن كان الزناة يرصدون في الطريق وكانوا يطلبون الولائد ولم يعرفوا المرأة الحرة من الأمة بالليل فأمر الحرائر بأخذ الجلباب وقال الحسن كن النساء والإماء بالمدينة يقال لهن كذا وكذا يخرجن فيتعرض لهن السفهاء فيؤذونهن فكانت الحرة تخرج فيحسبون أنها أمة ويؤذونها فأمر الله تعالى المؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن وقال القتبي يلبسن الأردية ويقال يعني: يرخين الجلاليب على وجوههن وقال مجاهد يدنين عليهن من جلابيبهن يعني متجلببين ليعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى من قول ولا ريبة قوله: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ يعني: أحرى ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ إذا تابوا ورجعوا ثم وعد المنافقين وخوفهم لينزجروا عن الحرائر أو الإماء.

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

فقال عز وجل ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني: الميل إلى الزنا إن

= الحديث ٢/١٦٩ وصححه ابن حبان وأورده الهيثمي في موارد الظمآن ٥٩٥، وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/٥٥٠ كتاب الدعوات. وانظر القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ١١٠ ـ ١١١.

لم يتوبوا عن ذلك ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يخبرون بالأراجيف وكانوا يخبرون المؤمنين بما يكرهون من عدوهم والأراجيف هي أول الاختيار وأصل الرجف هو الحركة فإذا وقع خبر الكذب فإنه يقع الحركة بالناس فسمي إرجافاً ويقال: الأراجيف تلقح الفتنة يعني: إن لم ينتهوا عن النفاق وعن الفجور وعن القول بالأراجيف ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ يعني: لنسلطنك عليهم ويقال لنحملنك على قتلهم وروى سفيان عن منصور بن زرين قال: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ) هذا كله شيء واحد يعني: أنه نعتهم بأعمالهم الخبيثة ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾ يعني: لا يساكنوك في المدينة إلا قليلاً حتى أهلكهم ويقال إلا جواراً قليلاً ويقال إلا قليلاً منهم وقال قتادة: إن أناساً من المنافقين أرادوا أن يُظْهِرُوا نفاقهم فنزلت هذه الآية ثم قال عز وجل ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ يعني: يجعلهم ملعونين أينما وجدوا فأوجب الله تعالى لهم اللعنة على كل حال أينما وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ فلما سمعوا بالقتل انتهوا عن ذلك قوله عز وجل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: سنة الله في الزناة القتل ويقال: هذا سنة الله في الذين مضوا من قبل يعني الذين أضمروا النفاق بأن يسلط الله عليهم الأنبياء بالقتل سنة الله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ يعني: مبدلاً ومغيراً قوله عز وجل ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يعني عن قيام الساعة وذلك أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله متى الساعة فقال ـ عليه السلام ـ ما المسؤول عنها بأعلم من السائل فنزل ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: علم قيام الساعة عند الله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ يعني سريعاً وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: من أشراط الساعة أن يفتح القول ويحزن الفعل وأن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ومعنى يفتح الأقوال أن يقول: أفعل غداً فإذا جاء غداً خالف قوله وقت الفعل وأصل الفتح الابتداء وهو أن يعد لأخيه عدة حسنة ثم يخالفه وقال عطاء بن أبي رباح: من اقتراب الساعة مطر ولا نبات وعلو أصوات الفساق في المساجد وظهور أولاد الزنا وموت الفجأة وانبعاث الدويبضة يعني السفلة من الناس وقوله لعل الساعة تكون (قَرِيباً) ولم يقل قريبة لأنها جعلت ظرفاً وبدلاً ولم تجعل نعتاً وصفة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ يعني: خذلهم وطردهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ يعني: جهنم ويقال لعن الكافرين في الدنيا بالقتل وفي الآخرة أعد لهم سعيراً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً﴾ يعني: قريباً ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيراً﴾ أي: مانعاً يمنعهم من العذاب والسعير في اللغة هو النار الموقدة ثم قال عز وجل ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يعني: تحول يقول هذا العذاب في يوم تقلب وجوههم في النار يعني: تحول عن الحسن إلى القبح من حال البياض إلى حال السواد وزرقة الأعين ويقال تقلب يعني: تجدد كقوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا) فيندمون على فعلهم ويوبخون أنفسهم ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ﴾ فيما أمرنا ونهانا في دار الدنيا ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ فيما دعانا إلى الحق ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعني: قادتنا وأشرافنا وعظماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ يعني: صرفونا عن طريق الإسلام ويقال أضللت الطريق وأضللته عن الطريق بمعنى واحد قرأ ابن عامر ساداتنا وقرأ الباقون سادتنا[(١)] جمع سيد وساداتنا جمع الجمع ثم قال عز وجل ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني: زدهم واحمل عليهم يعني عذبهم وارفع عنا بعض العذاب واحمل عليهم فإنهم هم الذين أضلونا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ قرى عاصم وابن عامر في إحدى الروايتين كبيراً بالباء من الكبر والعظم يعني عذبهم عذاباً عظيماً وقرأ الباقون كثيراً[(٢)] من الكثرة يعني عذبهم عذاباً كثيراً دائماً.

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩. حجة القراءات ٥٨٠.

(٢) المصدران السابقان.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى**﴾ عليه السلام يعني: لا تؤذوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما آذى بنو إسرائيل موسى ـ عليه السلام ـ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الثقة بإسناده عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال كانت بنـو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى سوأة بعض وكان موسى ـ عليه السلام ـ يغتسل وحده فقال بعضهم والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر فذهب موسى مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فخرج موسى بأثره يقول حجر ثوبي حجر ثوبي حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً فقال أبـو هريرة ستة أو سبعاً والله أن بالحجر لندباً سبعة بضرب[1] موسى[2] وذلك قوله ﴿**فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا**﴾ ويقال: إن موسى وهارون وابني هارون خرجوا فتوفي هارون في تلك الخرجة فلما رجع موسى إلى قومه قالت السفهاء من بني إسرائيل لموسى أنت قتلت هارون فخرج موسى مع جماعة من بني إسرائيل فأحيا الله تعالى هارون ـ عليه السلام ـ فأخبر أنه لم يقتله أحد وأنه مات بأجله فذلك قوله تعالى: (فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا) ﴿**وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً**﴾ يعني: مكيناً وكان له جاه عنده منزلة وكرامة ثم قال عز وجل ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ يعني: أطيعوا الله واخشوا الله ﴿**وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾ يعني: عدلاً صواباً فيما بينكم وهو قـولهم ابن فلان فـأمرهم أن ينسبوهم إلى آبائهم ويقال قولوا (قَوْلاً سَدِيداً) يعني: لا إله إلا الله ويقال: قولاً مخلصاً ﴿**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ يعني: يقبل أعمالكم ﴿**وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ في السر والعلانية ﴿**فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾ يعني: نجى بالخير وأصاب نصيباً وافراً قوله عز وجل ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ**﴾ قال مجاهد لما خلق الله عز وجل آدم ـ عليه السلام ـ عرض عليه الأمانة فحملها فما كان بين أن حملها وبين أن أخرج من الجنة إلا كما بين الظهر والعصر وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال إنا عرضنا الأمانة يعني الفرائض على السموات والأرض والجبال فقال لهن يأخذن بما فيها فقلنا وما فيها يا رب قال: إن أحسنتن جوزيتن وإن أسأتن عوقبتن فقلن يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد وإن أمرتنا بها فنحن نجتهد وعرضت على الإنسان يعني آدم ـ عليه

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٢٣/٥ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بـن حميد والبخاري والترمذي وابن جرير وابن المنذر. وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٠٤)، والترمذي (٣٢٢١) قوله «آدر» الأدرة انتفاخ الخصية أو الخصيتين بسبب فتق أو غيره أو تخلق هكذا.

السلام - فقبلها وحملها وقال بعضهم هذا على وجه المثل إن لم تظهر الخيانة في الأمانة إلا من الإنسان فلم تظهر من السموات والأرض والجبال كما قال (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ) فكأنه يقول لو عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال لأبين حملها ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ يعني: آدم وذريته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ بالقبول وروي عن الحسن أنه قال: عرض على السموات عرض تخيير لا عرض إيجاب فلذلك لم تعص بترك قبولها ويقال: عرضنا الأمانة على السموات يعني على ملائكة السموات الأرض والجبال كما قال (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) يعني: أهل القرية وقال السدي: لما أراد أن يحج عرض الأمانة يعني أمر ولده شِيْت وقابيل وهابيل فعرض على قابيل الكخداذبية والائتمار والقيام في شغل الدنيا والعيش حتى يرجع هو من الحج إلى وطنه فقبله ثم خانه فقتل أخاه وإنما كان عرض آدم بأمر الله تعالى فلذلك قال عرضنا وقال بعضهم إن الله عز وجل لما استخلف آدم على ذريته وسلطه على جميع ما في الأرض من الأنعام والوحوش والطير عهد إليه عهداً أمره فيه ونهاه فقبله ولم يزل عاملاً به إلى أن حضرته الوفاة فسأل ربه أن يعلمه من يستخلف بعده ويقلده الأمانة أن يعرض على السموات والأرض بالشرط الذي أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى فأبين أن يقبلنها شفقاً من عذاب الله فأمره أن يعرض على الأرض والجبال فكلاهما أبيا ثم أمره أن يعرض على ولده فقبل بالشرط إنه كان ظلوماً جهولاً لعاقبة ما تقلده يعني المتقبل الذي تقبله منه وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم قال الأمانة ثلاث في الصلاة والصيام والجنابة ثم قال عز وجل ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ يعني: عرضنا الأمانة على الإنسان لكي يعذب الله المنافقين والمنافقات ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ بما خانوا الأمانة ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بما أوفوا الأمانة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وكان صلة في الكلام يعني والله غفور لذنوب المؤمنين رحيم بهم وروى سفيان عن عاصم عن زر بن حبيش قال: قال أبي بن كعب: كانت سورة الأحزاب لتقارب سورة البقرة أو أطول منها وكان فيها آية الرجم قلت يا أبا المنذر وما آية الرجم فقال إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله العزيز الحكيم والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وسلم

سُورَةُ سَبَأ(١)

وهي خمسون وأربع آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: يحمده أهل الجنة ويقال: يحمدونه في ستة مواضع أحدها حين نودي (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) فإذا تميز المؤمنون من الكافرين يقولون (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) كما قال نوح ـ عليه السلام ـ حين أنجاه الله عز وجل من قومه، والثاني حين جازوا الصراط قالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ) والثالث: لما دنوا إلى باب الجنة واغتسلوا بماء الحيوان، ونظروا إلى الجنة وقالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا) والرابع: لما دخلوا الجنة استقبلتهم الملائكة ـ عليهم السلام ـ بالتحية فقالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ) الآية، والخامس: حين استقروا في منازلهم وقالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ) والسادس: كلما فرغوا من الطعام قالوا (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقال بعضهم إنها الذي استوجب الحمد في الآخرة كما استوجب الحمد في الدنيا ثم قال ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ حين حكم بالبعث ﴿الْخَبِيرُ﴾ يعني: العليم بهم ثم قال عز وجل ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: ما يدخل في الأرض من المطر والأموات والكنوز ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من النبات والكنوز والأموات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من مطر أو وحي أو رزق أو مصيبة ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ يعني يصعد إلى السماء من الملائكة، وأعمال بني آدم ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بخلقه ﴿الْغَفُورُ﴾ بستر الذنوب وتأخير العذاب عنهم.

---

(١) من أغراض هذه السورة إبطال قواعد الشرك وأعظمها إشراكهم آلهة مع الله وإنكار البعث فابتدىء بدليل على انفراده تعالى بالإلهية ونفي الإلهية عن أصنامهم ونفي أن تكون الأصنام شفعاء لعبادها. ثم موضوع البعث وعن مقاتل: أن سبب نزولها أن أبا سفيان لما سمع قوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات) (الآية الأخيرة من سورة الأحزاب) قال لأصحابه: كأن محمد يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً فأنزل الله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ الآية. وعليه فما قبل الآية المذكورة من قوله ﴿الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ إلى قوله ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ تمهيداً للمقصود من قوله ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾. وإثبات وإحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض فما يخبر به فهو واقع ومن ذلك إثبات البعث والجزاء. وإثبات صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخبر به وصدق ما جاء به القرآن وأن القرآن شهدت به علماء أهل الكتاب. وتخلل ذلك بضروب من تهديد المشركين وموعظتهم بما حل ببعض الأمم المشركين من قبل. وعرض بأن جعلهم لله شركاء كفران لنعمة الخالق فضرب لهم المثل بمن شكروا نعمة الله واتقوه فأوتوا خير الدنيا والآخرة وسخرت لهم الخيرات مثل داود وسليمان، وبمن كفروا بالله فسلطت عليه الأرزاء في الدنيا وأعد لهم العذاب في الآخرة مثل سبأ وحذروا من الشيطان وذكروا بأن ما هم فيه من قرة العين يقربهم إلى الله، وأنذروا بما سيلقون يوم الجزاء من خزي وتكذيب وندامة وعدم النصير وخلود في العذاب وبُشر المؤمنون بالنعيم المقيم. انظر التحرير ٢٢/١٣٤ ـ ١٣٥.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ
ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ
﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي﴾ قسم أقسم به يعني: بلى والله، قوله ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ قرأ ابن عامر ونافع عالم بالضم جعله رفعاً بالابتداء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم عالم الغيب بكسر الميم[١] وهو صفة لله تعالى وهو قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ويقال رده إلى حرف القسم وهو قوله تعالى (قُلْ بَلَى وَرَبِّي عَالِمِ) وقرأ حمزة والكسائي علام الغيب[٢]، وهو على المبالغة في وصف الله عز وجل بالعلم ويقال من قرأ عالم الغيب بالضم فهو على المدح، ومعناه هو عالم الغيب، ويقال: هو على الابتداء وخبره ﴿وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ قرأ الكسائي لا يعزِب بكسر الواي وقرأ الباقون بالضم[٣] ومعناهما واحد أي لا يغيب عنه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن ذرة صغيرة والذرة النملة الصغيرة الحمراء، ويقال: التي ترى في شعاع الشمس ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يعني: قد بين الله عز وجل في اللوح المحفوظ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يعني: لكي يثيب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأعمالهم في الدنيا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي ثواب حسن في الجنة قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: عملوا في القرآن ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ يعني: متسابقين ليسبق كل واحد منهم بالتكذيب قرأ أبو عمرو وابن كثير معجزين[٤] أي مثبطين يثبطون الناس عن الإيمان بالقرآن ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص أليم بضم الميم وكذلك في الجاثية جعلاه من نعت العذاب يعني: عذاب أليم من رجز على معنى التقديم يعني: عذاب شديد وقرأ الباقون بالكسر فيكون صفة للرجز يعني: عذاب من العذاب الأليم.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ
﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ
نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يعني: أي يعلم الذين أوتوا العلم وهذا روي في قراءة ابن مسعود يعني به مؤمني أهل الكتاب يعني: إنهم يعلمون أن ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعني: القرآن ﴿هُوَ

(١) انظر حجة القراءات ٥٨١، النشر في القراءات العشر ٢/٣٤٩.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) انظر حجة القراءات ٥٨٢.
(٤) المصدر السابق.

﴿الْحَقَّ وَيَهْدِي﴾ يعني: يدعـو ويدل ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ يعني: إلى طريق الرب العزيز بالنقمة لمن لم يجب الرسل الحميد في فعاله قوله عز وجل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار أهل مكة ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعني: قال بعضهم لبعض هل ندلكم على رجل ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: يخبركم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يعني: يخبركم أنكم إذا متم وتفرقتم في الأرض وأكلتكم الأرض كل ممزق يعني: وكنتم تراباً ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني: بعد هذا كله صرتم خلقاً جديداً قوله عز وجل ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني: قالوا أن الذي يقول أنكم لفي خلق جديد اختلق على الله كذباً ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يعني: به جنون يقول الله ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ هم كذب حين كذبوا بالبعث ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ يعني: هم في العذاب في الآخرة والخطأ الطويل في الدنيا عن الحق ثم خوفهم ليعتبروا فقال عز وجل ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن الإنسان حيثما نظر رأى السماء والأرض قال قتادة إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض[١] ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ يعني: تغور بهم وتبتلعهم الأرض ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: جانباً من السماء قرأ حمزة والكسائي إن نشأ نخسف أو يسقط، الثلاثة كلها بالياء وقرأ الباقون كلها بالنون[٢] فمن قرأ بالياء فمعناه إن يشأ الله ومن قرأ بالنون فهو على معنى الإضافة إلى نفسه ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ يعني: لعبرة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ يعني: مقبل إلى طاعة الله عز وجل ويقال مخلص القلب بالتوحيد ويقال مشتاق إلى ربه ويقال (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يعني: أفلم يعلموا أن الله خالقهم وخالق السموات والأرض وهو قادر على أن يخسف بهم إن لم يوحدوا (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أي لعلامة لوحدانيتي

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ يعني: أعطيناه النبوة والملك ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ يعني: سبحي مع داود، وأصله في اللغة[٣] من الرجوع وإنما سمي التسبيح إياباً لأن المسبح مرة بعد مرة وقال القتبي أصله التأويب من السير وهو أن يسير النهار كله كأنه أراد أوبي النهار كله بالتسبيح إلى الليل ثم قال ﴿وَالطَّيْرَ﴾ وقرىء في الشاذ والطيرُ بالضم،[٤] وقراءة العامة بالنصب، فمن قرأ بالضم فهو على وجهين: أحدهما أن يكون نسقاً على أوبي والمعنى يا جبال ارجعي بالتسبيح معه أنت والطير ويجوز أن يكون مرفوعاً على النداء المعنى أيها الجبال وأيها الطير، ومن قرأ بالنصب فلثلاث معانٍ أحدها لنزع الخافض ومعناه أوبي معه ومع الطير والثاني أنه عطف على قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا) وآتيناه الطير يعني: وسخرنا له الطير والثالث أن النداء إذا كان على أثره إسم فكان الأول بغير الألف واللام والثاني بالألف واللام فإنه في الثاني بالخيار إن شاء نصبه وإن شاء رفعه والنصب أكثر كما قال الشاعر

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) حجة من قرأ بالياء أن الكلام أتى عقيب الخبر عن الله في قوله ﴿أفترى على الله كذباً﴾ فكذلك ﴿إن يشأ الله﴾ إذ كان في سياقه وحجة من قرأ بالنون أن الكلام أتى عقيبه بلفظ الجمع وهو قوله: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً﴾ فجعل ما قبله بلفظه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد ويقوي النون قوله ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ انظر حجة القراءات ٥٨٣.

(٣) انظر لسان العرب ١/١٦٧.

(٤) قراءة الرفع لابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك انظر تفسير القرطبي ١٤/١٧١.

أَلَا يَـا زَيْـدُ والـضَّـحَّـاكَ سِـيْـراً فَـقَـدْ جَـاوَزْتُـمَـا خَـمْـرَ الـطَّرِيـقِ(١)

ورفع زيداً لأنه نداء مفرد ونصب الضحاك بإدخال الألف واللام ثم قال عز وجل ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ يعني: جعلنا له الحديد مثل العجين ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ يعني: قلنا له اعمل الدروع الواسعة وكان قبل ذلك صفائح الحديد مضروبة ثم قال ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ قال السدي السرد المسامير التي في خلق الدرع(٢) وقال مجاهد وقدر في السرد أي لا تدق المسامير فتقلقل في الحلقة ولا تغلظها فتعصمها واجعله قدراً بين ذلك(٣) وقال في رواية الكلبي هكذا، وقال بعضهم هذا لا يصح لأن الدروع التى عملها داود ـ عليه السلام ـ وكانت بغير مسامير لأنها كانت معجزة له ولو كان محتاجاً إلى المسمار لما كان بينه وبين غيره فرق وقد يوجد من بقايا تلك الدورع بغير مسامير ولكن معنى قوله (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) أي قدر في نسخها وطولها وعرضها وضيقها وسعتها ويقال: قدر في تأليفه والسرد في اللغة تقدمة الشيء إلى الشيء يأتي منسقاً بعضه إلى أثر بعض متتابعاً ويقال يسرد في الكلام إذا ذكره بالتأليف ومنه قيل لصانع الدروع سراد وزراد تبدل من السين الزاي وروي عن عائشة أنها قالت كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن سرد الحديث كسردكم(٤): أي لم يتابع في الحديث كتتابعكم ثم قال ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ يعني: أدوا فرائضي وقد خاطبه بلفظ الجماعة كما قال (يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) وأراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، ويقال: إنه أراد به داود وقومه ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالم

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر الريح بالضم وقرأ الباقون بالنصب، فمن قرأ بالنصب فمعناه وسخرنا لسليمان الريح كما اتفقوا في سورة الأنبياء ولسليمان الريح مسخرة تكون رفعاً على معنى الخير ثم قال ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ تسير به الريح عند الغداة مسيرة شهر فتحمله مع جنوده من بيت المقدس إلى اصطخر ورواحها شهر: يعني: تسير به عند آخر النهار سيرة شهر من اصطخر إلى بيت المقدس واصطخر عند بلاد فارس ﴿وَأَرْسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يعني أجرينا له عين الصفر المذاب يقال تسيل له في كل شهر ثلاثة أيام يعمل بها ما أحب وروى سفيان عن الأعمش قال سيلت له كما سيل الماء، ويقال: جرى له عين النحاس في اليمن وقال شهر بن حوشب جرى له عين النحاس من صنعاء ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: وسخرنا

---

(١) هذا من الأبيات التي لم يعرف لها قائل. انظر الـدر اللوامع ٢/١٩٦ شرح المفصل ١/١٢٩ الجمل للزجاجي (١٦٥).
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٢٧ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير.
(٤) أخرجه أبو داود ٣/٣٢٠ كتاب العلم ٣٦٥٥.

لسليمان من الجن من يعمل بين يديه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ يعني: بأمر ربه ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: من يعص سليمان فيما أمره ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ قال بعضهم: كان معه ملك ومعه سوط من عذاب السعير فإذا خالف سليمان أحد الشياطين ضربه بذلك السوط، وقال مقاتل: يعني: به عذاب الوقود في الآخرة قوله عز وجل ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: ما يشاء سليمان ﴿مِنْ مَحَارِيبَ﴾ يعني: المساجد ويقال الغرق ﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ يعني: على صور الرجال من الصفر والنحاس لأجل الهيبة في الحرب وغيره، ويقال ويجعلون صوراً للأنبياء ليستزيد الناس رغبة في الإسلام ثم قال ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ يعني: قصاعاً كالحياض الكبيرة ويجلس على القصعة الواحدة ألف رجل أو أقل أو أكثر الجابية في اللغة الحوض الكبير وجماعته جواب قرأ ابن كثير كالجوابي بالياء في الوقف والوصل جميعاً وقرأ أبو عمر وبالياء في الوصل، والباقون بغير ياء فمن قرأ بالياء فلأنه الأصل ومن حذف فلاكتفائه بكسر الياء قوله ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ يعني: ثابتان في الأرض لا تزول من مكانها وكان يتخذ القدور من الجبال، قال مقاتل: كان ملكه ما بين مصر وبابل، وقال بعضهم: جميع الأرض ثم قال ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾ يعني: يا آل داود لما أعطيتكم من الفضل، ويقال: معناه اعملوا عملاً تؤدوا بذلك شكر نعمتي ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ والشكور هو المبالغة في الشكر وهو من كان عادته الشكر في الأحوال كلها ومثل هذا في الناس قليل وهذا معنى قوله (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) وروي عن أبي العالية أنه قال هو شكر الشكر يعني: إذا شكر النعمة يعلم أن ذلك الشكر بتوفيق الله عز وجل ويشكر لذلك الشكر وهذا في الناس قليل ثم قال عز وجل ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ يعني: على سليمان - عليه الصلاة والسلام - فكان سليمان يبني في بيت المقدس فرأى أن ذلك لا يتم إلا بالجن فأمرهم بالعمل وقال لأهله لا تخبروهم بموتي فكان قائماً في الصلاة متكئاً على عصاه، وكان سليمان - عليه الصلاة والسلام - يطول الصلاة فكان الجن إذا حضروا رأوه قائماً فرجعوا ويقولون إنه قائم يصلي فيقبلون على أعمالهم، وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال كان سليمان - عليه السلام - إذا مر بشجرة يعني: بشيء من نبات الأرض قال لها ما شأنك فتخبره الشجرة أنها كذا وكذا، ولمنفعة كذا وكذا فيدفعها إلى الناس حتى ينتفعوا بها فمر بشجرة فقال لها ما إسمك يا شجرة فقالت أنا خرنوبة فقال ما شأنك قالت أنا لخراب المسجد فتعصى سليمان منها عصا فكانت الجن يقولون للإنس إنا نعلم الغيب وإن سليمان سأل الله عز وجل أن يخفي موته فلما قضى الله عز وجل على سليمان الموت لم تدر الجن ولا الإنس ولا أحد كيف مات ولم يطلع أحد على موته والجن تعمل بأشد ما كانوا عليه حتى خر سليمان - عليه السلام - فنظروا كيف مات فلم يدروا فنظروا إلى العصا فرأوا العصا قد أكلت يعني: قد أكل منها وفي العصا أرضه فنظروا إلى أين أكلت الأرض من العصا فجعلوا له لها علماً ثم ردوا الأرض فيها فأكلت شهراً ثم نظروا كم أكلت في ذلك الشهر ثم قاسوها بما أكلت من قبل فكان لموته أثني عشر شهراً فتبين للجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين فقالت الجن: إن لها علينا حقاً يعني: الأرضة فهم يبلغونها الماء فلا يزال لها طينة رطبة فذلك قوله (فلما قضيا عليه الموت) ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ يعني: ما دل على موت سليمان ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ يعني: الأرضة ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ يعني: عصاه قرأ نافع وأبو عمرو منساية بلا همز وقرأ الباقون بالهمز فمن قرأ بالهمز[1] فهو من نسأ ينسأ إذا زجر الدابة ثم تسمى عصاه منسأة لأنه يزجر بها الدَّابة ومن قرأ بغير همز فقد حذف الهمزة للتخفيف وكلاهما جائز ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ يعني: سقط - عليه السلام - ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، ويقال: تبينت الجن يعني: ظهر لهم أنهم لو علموا الغيب يعني: ﴿أَنْ لَوْ

---

(١) انظر النشر ٢/٣٤٩ وإتحاف فضلاء البشر ٢/٣٨٣ - ٣٨٤.

﴿كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ فتفرقوا عن ذلك قرأ حمزة من عبادي الشكور بسكون الياء[١] وقرأ الباقون بالنصب وهما لغتان وكلاهما جائز

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ قرىء بالنصب والكسر وقد ذكرناه من قبل فمن قرأ بالكسر والتنوين جعله إسم أب القبيلة ومن قرأ بالنصب جعله أرضاً والأول أشبه لأنه روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل عن سبأ فقال هو اسم رجل[٢] ويقال هو سبأ بـن يشخب بـن يغرب بن قحطان وروي عن ابن عباس أنه قال هي من قرى اليمن بعث عز وجل ثلاثة عشر نبياً ـ عليهم السلام ـ إلى ثلاث عشر قرية باليمن اتبع بعضهم بعضاً حتى اجتمعت الرسل في آل سبأ وقرية أخرى فأتوهم فذكروهم نعم الله عز وجل وخوفهم عقابه، وروى أسباط عن السدي قال: كانت أرضهم أرضاً خصيبة وكانت المرأة تخرج على رأسها مكيلا فلا ترجع حتى تملأ مكتلها من أنواع الفاكهة من غير أن تمد يدها وكان الماء يأتيهم من مسيرة عشرة أيام حتى يحبس بين جبلين وكانوا قد ردموا ردماً بين جبلين فحبسوا الماء وكان يأتيهم من السيول فيسقون بساتينهم وأشجارهم[٣]، ويقال: كان لهم وادي وكان للوادي ثلاث درفات فإذا كثر الماء فتحوا الدرفة العليا، وإذا انتقص فتحوا الدرفة الوسطى، وإذا قل الماء فتحوا الدرفة السفلى فأخصبوا وكثرت أموالهم واتخذوا من الجنان ما شاؤا فلما أحبوا ذلك وكذبوا رسلهم بعث الله عز وجل عليهم جرذاً فنقب ذلك الردم بجنب بستان رجل منهم يقال له عمران بن عامر وهو أب الأنصار والأزد وغسان وخزاعة ويسمون المنسأة العرم فدخل البستان فإذا هو ينقب العرم وقد سال فأمر به فسد ثم نظر إلى الجرزة تنقل أولادها من أصل الجبل إلى أعلاه وكان كاهناً فقال ما تنقل هذه الجرزة أولادها من أصل الجبل إلى أعلاه إلا وقد حضر هلاك هذه البلدة فدعى إبن أخ له فقال إذا رأيتني جلست في جماعة قومي فائتني فقل أي عم أعطني ميراثي من أبي فإني سأقول وهل ترك أبوك شيئاً فاردد علي وكذبني فأذا فإذا كذبتني فإني سألطمك فالطمني فقال أي عم ما كنت لأفعل هذا بك، قال: بلى، فلما رأى لعمه في ذلك هوى قال أفعل ما تأمرني، ففعل، فقال: عمران بن عامر لله علي كذا وكذا أن أسكن هذه البلاد من يشتري مالي فلما عرفوا منه الجد قال هذا أعطيك كذا فنظر إلى أجودهم صفقة فقال عجل إلى مالي فقد حلفت أن لا أبيت بها فعجل إليه ماله وارتحل من يومه حتى شخص عنهم فاتسع ذلك الخرق حتى انهدم وغرق بلادهم وتفرقوا في البلدان فذلك قوله لقد كان لسبأ ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ قرأ الكسائي في مسكنهم بكسر الكاف والنون وقرأ حمزة وعاصم في رواية حفص مسكنهم بنصب الكاف وكسر النون وقرأ الباقون مساكنهم بالألف والمسكن بنصب الكاف وكسره واحد، وهما لغتان[٤] مثل مطلع ومطلع والمساكين جمع مسكين وقد قيل

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٨٣.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٣١٦ وحسنه الحافظ ابن كثير في التفسير ٦/٤٩١ وعزاه لابن عبد البر في المقصد والأمم في معرفة أصول أنساب العرب والعجم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٣١ وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) من قرأ ﴿مساكنهم﴾ أتى باللفظ وفقاً للمعنى لأن لكل ساكن مسكناً فجمع. والمساكن جمع (مسكن) الذي هو اسم للموضع من: =

المسكن جمع المساكين لقد كان في منازلهم وقرياتهم ﴿آيَةٌ﴾ أي علامة ظاهرة لوحدانيتي ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يعني بستانان عن يمين الوادي وعن شماله وإنما أراد بالبستان البساتين ويقال بساتين عن يمين الطريق وبساتين عن شماله فأرسل الله تعالى إليهم الرسل فذكروهم النعم فقيل لهم ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ يعني من فضل ربكم ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ فيها رزقكم ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يعني هذه بلدة طيبة لينة بلا سبخة ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من الشرك ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان وقالوا: من ذا الذي يأخذ منا النعم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ والعرم هو اسم لذلك الوادي، ويقال: اسم للمنشأة، ويقال: هو اسم للفأرة التى قرضت النهر حتى سال عليهم الماء وجرى في بساتينهم وفي بيوتهم فخربها، وندت أنعامهم، وأخذ كل واحد منهم بيد ولده وامرأته فصعدوا بهم الجبل فذلك قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ يعني أبدلهم الله تعالى مكان الفاكهة ذواتي أكل خمط[١] أي الأراك ﴿وَأَثْلٍ﴾[٢] يعني الطرفاء ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر كانوا يستظلون في ظله ويأكلون من ثمره قرأ أبو عمرو (أُكُلِ) بكسر اللام بغير تنوين وقرأ الباقون بالتنوين[٣] فمن قرأ بالتنوين أراد ذواتي ثمر يؤكل ثم قال خمط بدلاً من أكل، والمعنى ذواتي خمط وأكله ثمرة، ومن قرأ بغير تنوين أضاف الأكل إلى الخمط، والخمط هو الأراك في اللغة المعروفة وقال بعضهم كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله فهو خمط ثم قال ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ﴾ يعني ذلك الذي أصابهم عقوبة لهم عاقبناهم ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ أي بكفرهم ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورُ﴾ يعني وهل يعاقب بمثل هذه العقوبة إلا الكفور بنعمة الله تعالى ويقال الكفور الكافر، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وهل نجازي بالنون وكسر الزاى إلا الكفور بالنصب وقرأ الباقون يجازي بالياء[٤] وفتح الزاي إلا الكفور

= سكن يسكن. وحجتهم: أنها مضافة إلى جماعة فمساكنهم بعددهم ويقوى الجمع إجماع الجميع على قوله: **﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم﴾** ومن قرأ **﴿مسكنهم﴾** فالفتح يشبه أن يكون جعل المسكن مصدراً وحذف المضاف والتقدير: في مواضع سكناهم فلما جعل المسكن كالسكن أفرد كما تفرد المصادر. وعلى هذا قوله: **﴿في مقعد صدق﴾** أي: في موضع قعود ألا ترى أن لكل واحد من المتقين موضع قعود ومن قرأ **﴿مسكِنهم﴾** جعله اسم الموضع الذي يسكنون فيه وإنما وحد لأنه أراد بلدهم وقد يجوز أن يراد بذلك جمع المساكن ثم يؤدي الواحد عن الجمع.

قال الكسائي: (مسكَن ومسكِن: لغتان) قال نحويو البصرة: والأشبه فيه الفتح لأن اسم المكان من (فعَل يفعُل) على المفْعَل) بالفتح وإن لم يرد المكان ولكن أراد المصدر فالمصدر أيضاً في هذا النحو يجيء على (المفعل) مثل المحْشَر. وقد يشذ عن القياس نحو المسكِن والمسجد وذهب سيبويه على أنه اسم البيت وليس المكان من (فعَل يفعُل) فعلى هذا لم يشذ عن الباب. انظر حجة القراءات ٥٨٦.

(١) الخمط ضرب من الاراك له حمل يؤكل قال الزجاج: يقال لكل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط وقال الفراء: الخمط في التفسير ثمر الأراك. انظر لسان العرب ٢/١٢٦٧.

(٢) الأثل: شجر طويل مستقيم يعمر جيد الخشب كثير الأغصان متعقدها دقيق الورق طويله واحده أثلة. انظر المعجم الوسيط ١/٦.

(٣) حجة من نون أن الأُكل هو الخمط فالتنوين فيه على أنه بدل من الأكل وقد جاء في التفسير: أن الخمط (الأراك) وأُكُله: ثمره. قال المبرد: التنوين في (أُكُل) أحسن من الإضافة على البدل ويجوز أن يكون على النعت لأنه وإن كان فكأنه شيء مكروه الطعم فجرى مجرى النعت لأن بعض العرب يسمى ما كان مكروه الطعم من حموضة أو مرارة (خمطاً) قال: وأحسب أبا عمرو ذهب في الإضافة إلى هذا كأنه أراد: أكل حموضة أو مرارة وما أشبه ذلك. انظر حجة القراءات ٥٨٧.

(٤) حجة من قرأ بالنون أنه أتى عقيب لفظ الجمع في قوله **﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾** فكان الأولى بما أتى في سياقه أن يكون بلفظه وبعده وجعلنا بينهم فهذا يؤيد معنى الجمع ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة الباقين أن ما أتى في القرآن من المجازاة أكثره على ما لم يسم فاعله من ذلك (اليوم تجزى كل نفس) فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر حجة القراءات ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

بالضم، فمن قرأ بالنون فهو على معنى الإضافة إلى نفسه والكفور بنصب لوقوع الفعل عليه، ومن قرأ يجازي بالياء فهو على فعل ما لم يسم فاعله، يعني هل يعاقب بمثل هذه العقوبة إلا الكفور بنعمة الله تعالى ويقال: هل يجازي الله ومعنى الآية أن المؤمن من يكفر عنه السيئات بالحسنات، وأما الكافر فإنه يحبط عمله كله فيجازى بكل سوء يعمله كما قال تعالى (أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أي أبطل أعمالهم وأحبطها فلم ينفعهم منها شيء وهذا معنى قوله (وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورْ)

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

ثم قال عز وجل ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ قال في رواية الكلبي إنهم قالوا للرسل إنا قد عرفنا نعمة الله علينا فوالله لئن يرد الله فيتنا وجماعتنا والذي كنا عليه لنعبدنه عبادة لم يعبدها إياه قوم قط فدعت لهم الرسل ربهم فرد الله لهم ما كانوا عليه وأتاهم نعمة وجعل لهم من أرضهم إلى أرض الشام قرى متصلة بعضها إلى بعض فذلك قوله وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴿**قُرًى ظَاهِرَةً**﴾ ثم عادوا إلى الكفر فأتاهم الرسل فذكروهم نعمة الله فكذبوهم فمزقهم الله كل ممزق وقال غيره (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) هذا حكاية عما كانوا فيه من قبل أن يرسل عليهم سيل العرم قرى ظاهرة يعني متصلة على الطريق من حيث يرى بعضها من بعض ﴿**وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ**﴾ للمبيت والمعيل من قرية إلى قرية ﴿**سِيرُوا فِيهَا**﴾ يعني ليسيروا فيها، اللفظ لفظ الأمر، والمراد به الشرط والجزاء فلم يشكروا ربهم فسألوا ربهم أن تكون القرى والمنازل بعضها أبعد من بعض ﴿**لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**﴾ وقد كانوا في قراهم آمنين منعمين فذلك قوله (لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ) يعني أنهم كانوا يسيرون من قرية إلى قرية بالليل والنهار آمنين من الجوع والعطش واللصوص والسباع، قرأ إبن كثير وأبو عمرو بعد بغير إلف وتشديد العين وقرأ الباقون باعد بالألف، وهما لغتان بَعِّدْ باعد، وقرأ يعقوب الخضرمي وكان من أهل البصرة ربُنا بضم الباء باعَد بنصب العين[1] وهو على معنى الخبر، وروى الكلبي عن أبي صالح أنه قرأ هكذا معناه ربنا باعد بين أسفارنا فلذلك لا ينصب ثم قال ﴿**وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ**﴾ بالشرك وتكذيب الأنبياء ﴿**فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ**﴾ يعني أهلكهم الله تعالى فصاروا أحاديث للناس يتحدثون في أمرهم وشأنهم لم يبق أحد منهم في تلك القرى ﴿**وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**﴾ أي فرقناهم في كل وجه فألقى الله الأزد بعمان الأوس والخزرج بالمدينة وهما أخوان وأهل المدينة كانوا من أولادهما إحدى القبيلتين الخزرج والأخرى الأوس فسموا بإسم أبيهم وخزاعة بمكة كانوابنو خزاعة منهم لحم وجذام بالشام، ويقال: كلب وغسان ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**﴾ أي: في هلاكهم وتفريقهم لعبرات ﴿**لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ بعني للمؤمنين الذين صبروا على طاعة الله تعالى وشكروا نعمته قوله عز وجل ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**﴾ يعني على أهل سبأ، ويقال: هذا ابتداء يعني جميع الكفار وذلك أن إبليس قد قال (لَأُغْوِيَنَّهُمْ

(١) انظر حجة القراءات ٥٨٨.

أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ) فكان ذلك ظناً منه فصدق ظنه ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً﴾ يعني طائفة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الذين قال الله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وقال سعيد بن جبير كان ظنه أنه قال أنا ناري وآدم طيني، والنار تأكل الطين وكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ولقد صدق بالتخفيف يعني صدق في ظنه وقرأ الباقون صدق بالتشديد يعني صار ظنه صدقاً قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني لم يكن له عليهم ملك فيقهرهم ويقال يعني ما سلطانه عليهم إلا لنختبرهم من الذي يطيعنا، وقال الحسن البصري رحمه الله والله ما ضربهم بعصاً ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه[1]، وقال قتادة والله ما كان ظنه إلا ظناً فنزل الناس عند ظنه وقال معمر قال لي مقاتل: إن إبليس لما أنزل آدم ـ عليه السلام ـ ظن أن في ذريته من سيكون أضعف منه فصدق عليهم ظنه، فإن قيل في آية أخرى (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ) وها هنا يقول (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) قيل له أراد بالسلطان هناك الحجة يعني إنما حجته على الذين يتولونه وهاهنا أراد به الملك والقهر يعني لم يكن له عليهم ملك يقهرهم به، ويقال: معنى الآيتين واحد لأن هناك قال إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وهاهنا قال: وما كان له عليهم من سلطان يعني حجة على فريق من المؤمنين إلا بالتزين والوسوسة منه ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يعني نميز من يصدق بالبعث ممن هو في شك يعني من قيام الساعة وقال القتبي: علم الله نوعان: أحدهما: علم ما يكون من إيمان المؤمنين، وكفر الكافرين من قبل أن يكون، وهذا علم لا يجب به حجة ولا عقوبة والآخر علم الأمور الظاهرة فيحق به القول ويقع بوقوعها الجزاء يعني ما سلطانه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمنين ظاهراً موجوداً وكفر الكافرين ظاهراً موجوداً وكذلك قوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) الآية ثم قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يعني عالماً بالشك واليقين، ويقال: عالم بقولهم، ويقال: عالم بما يكون منهم قبل كونه، ويقال: حفيظ يحفظ أعمالهم ليجازيهم

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾

ثم قال عز وجل ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ يعني قل لكفار مكة ادعوا الذين زعمتم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أنهم آلهة فيكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم من الجوع يعني الأصنام ويقال الملائكة ـ عليهم السلام ـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني نملة صغيرة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني إذا كان حالهم هذا فمن أين جعلوا لهم الشركة في العبادة ثم قال ﴿وَمَالَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ يعني في خلق السموات والأرض من عون ويقال مالهم فيها من نصيب ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعني معين من الملائكة الذين يعبدونهم ثم ذكر أن الملائكة لا يملكون شيئاً من الشفاعة فقال عز وجل ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ يعني لا تنفع لأحد لا نبياً ولا ملكاً ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن يشفع لأحد من أهل التوحيد قرى نافع وابن كثير وابن عامر في إحدى الروايتين إلا لمن أذن له بالنصب يعني حتى يأذن الله عز وجل له قرأ الباقون بالضم[2] على فعل ما لم يسم فاعله ومعناه مثل الأول ثم أخبر عن خوف الملائكة

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٨٩.

أنهم إذا سمعوا الوحي خروا سجداً من مخافة الله عز وجل وكيف يعبدون من هذه حالة وكذلك قوله ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ وذلك أن أهل السموات لم يكونوا سمعوا صوت الوحي بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام ـ فسمعوا صوتاً كوقع الحديد على الصفا (فخروا سجداً مخافة القيامة)[١] وذلك صوت الوحي ويقال: صوت نزول جبريل ـ عليه السلام ـ فخروا سجداً مخافة القيامة، فهبط جبريل ـ عليه السلام ـ على أهل كل سماء فذلك قوله (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) وذكر عن بعض أهل اللغة أنه قال إذا كانت حتى موصولة بإذا تكون بمعنى لما تقع موقع الابتداء كقوله عز وجل (حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً) كقوله حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) يعني لما فزع عن قلوبهم ومعناه انجلاء الفزع عن قلوبهم فقاموا عن السجود وسأل بعضهم بعضاً ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ يعني ماذا قال جبريل ـ عليه السلام ـ عن ربكم ﴿قَالُوا ٱلْحَقَّ﴾ يعني الوحي قال حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الديبلي قال حدثنا أبو عبد الله قال حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال إذا قضى الله في السماء أمراً ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله وسمع لذلك صوت كأنها سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم، قالوا: الحق الذي قال فسيحي الشياطين بعضهم فوق بعض فإذا سمع الأعلى منهم الكلمة رمى بها إلى الذي تحته وربما أدركه الشهاب قبل أن ينبذها، وربما نبذها قبل أن تدركه فينبذها بعضهم إلى بعض حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على لسان الكاهن والساحر فيكذب معها مائة كذبة فيصدق فيقول أليس قد أخبر بكذا وكذا وكان حقاً وهي الكلمة التي سمع من السماء قرأ[٢] ابن عامر حتى إذا فزع بنصب الفاء والزاي يعني كشف الله الفزع وقرأ الباقون بضم الفاء[٣] على معنى ما لم يسم فاعله، وقرأ الحسن حتى إذا فزع بالواو والغين يعني فرغ الفزع عن قلوبهم، وقراءة العامة بالزاي أين خفف عنها الفزع وقال مجاهد معناه حتى إذا كشف عنها الغطاء يوم القيامة ثم قال ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ يعني هو أعلى وأعظم وأجل من أن يوصف له شريك

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ
يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ
لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني المطر والنبات فإن أجابوك وإلا ﴿قُلِ اللَّهُ﴾

---

(١) سقط في ظ. .

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري وأبي داود والترمذي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وهو عند البخاري في ٣٩٨/٨ (٤٨٠٠).

(٣) قال الزجاج: كشف الفزع عن قلوبهم. انظر حجة القراءات ٥٨٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٨٧.

يعني الله يرزقكم من السموات والأرض ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ يعني قل لهم أحدنا ﴿لَعَلَى هُدًى﴾ والأخرى على الضلال، يعني إنا على الهدى وأنتم على الضلالة وهذا كرجل يقول لآخر أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه أراد به صاحبه، ويقال في الآية تقديم يعني وإنا على الهدى وإياكم ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ثم قال عز وجل ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ يعني لا تسألون عن جرم أعمالنا ﴿وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يعني لا نسأل عن جرم أعمالكم ويقال لا تؤخذون بجرمنا ولا نؤخذ بجرمكم قوله عز وجل ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يعني يوم القيامة نحن وأنتم ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بالحق﴾ يعني بالعدل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ القابض العليم بما يقضي ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أروني آلهتكم الذين تعبدون من دون الله وتزعمون أنها له شركاء أي ماذا خلقوا في السموات والأرض من الخلق ﴿كَلَّا﴾ يعني ما خلقوا شيئاً ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ خالق كل شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره قوله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي عامة للناس ﴿بَشِيراً﴾ وروى خالد الحذاء عن قلابة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي بعثت إلى كل أحمر وأسود فليس أحد من أحمر وأسود يدخل في أمتي إلا كان منهم، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر، وجعلت فاتحاً وخاتماً وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركتنا الصلاة صلينا وإن لم نجد ماء تيممنا وأطعمنا غنائمنا ولم يطعمها أحد كان قبلنا كانت قربانهم تأكله[(١)] النار ثم قال بشيراً ﴿وَنَذِيراً﴾ يعني بشيراً بالجنة لمن أطاعه ونذيراً بالنار لمن عصاه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالجنة ولا بالنار ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعني البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني إن كنت صادقاً ويقال إن كنت رسول الله قوله عز وجل ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ يعني ميقاتاً في العذاب، ويقال: ميعاداً في البعث والعذاب ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ﴾ يعني عن الميعاد والعذاب ﴿سَاعَةً﴾ يعني قدر ساعة ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قبل الأجل، ويقال: معناه أنا قادر اليوم على عذابهم، ولكن أؤخرهم في الوعد الذي كتب لهم في اللوح المحفوظ.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل يعني لا نصدق بذلك كله فحكى الله قولهم ثم ذكر عقوبتهم في الآخرة فقال ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني لو رأيت يا

(١) أخرجه مسلم ١/ ٣٧٠ كتاب المساجد (٣ - ٥٢١).

محمد الظالمين يوم القيامة ﴿مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني محبوسين في الآخرة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يعني يرد بعضهم بعضاً الجواب ثم أخبر عن قولهم فقال ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم السفلة والاتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني القادة والرؤساء ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ يعني لولا دعوتكم وتعريفكم إيانا لكنا مصدقين قوله عز وجل ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني القادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الاتباع ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى﴾ يعني أنحن منعناكم عن الإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ به الرسول ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ يعني مشركين قوله عز وجل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ يعني ردت الضعفاء عليهم الجواب وقالوا ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني قولكم لنا بالليل والنهار واحتيالكم بالدعوة إلى الشرك ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ يعني نجحد بوحدانية الله ﴿وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ يعني نقول له شركاء ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ يعني أخفوا الحسرة ويقال اظهروا الندامة والحسرة ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ يعني نجعل الأغلال يوم القيامة ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الرؤساء والسفلة ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ يعني هل يثابون في الآخرة ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا قوله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يعني من رسول ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ يعني جبابرتها ورؤساؤها للرسل ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني جاحدون بالتوحيد والمترف المتنعم وإنما أراد به المتكبرين ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الآخرة ومعناه أن الكفار المتقدمين استخفوا بالفقراء وآذوا الرسل كما يفعل بك قومك وافتخروا بما أعطاهم الله عز وجل من الأموال كما افتخر قومك وأمره بأن يأمرهم بأن لا يفتخروا بالمال فإن الله تعالى يعطي المال لمن يشاء.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم
بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى
ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ
إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

وهو قوله عز وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي يوسع المال لمن يشاء وهو مكر منه واستدراج ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني يقتر على من يشاء وهو نظر له لكي يعطي في الآخرة من الجنة بما قتر عليه في الدنيا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن التقتير والبسط من الله عز وجل، ويقال: لا يصدقون إن الذين اختاروا الآخرة خير من الذين اختاروا الدنيا ثم أخبر الله تعالى أن أموالهم لا تنفعهم يوم القيامة فقال عز وجل ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ يعني قربة، ومعناه وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا ولو كان على سبيل الجمع لقال بالذين يقربونكم لأن الحكم للآدميين إذا اجتمع معهم غيرهم ثم قال ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ يعني إلا من صدق بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني للواحد عشرة إلى سبع مائة، وإلى ما لا يحصى وقال القتبي: أراد بالضعف التضعيف أي لهم جزاء وزيادة، قال: ويحتمل جزاء الضعف أي جزاء

الأضعاف كقوله (عذاباً ضعفاً في النار) أي مضافاً وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: إن الغني إذا كان تقياً يضاعف الله له الأجر مرتين[١] ثم قرأ هذه الآية (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ) إلى قوله (فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ) يعني أجره مِثْلَيْ ما يكون لغيره، ويقال هذا لجميع من عمل صالحاً ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ قرأ حمزة وهم في الغرفة وقرأ الباقون وهم في الغرفات[٢] والغرفة في اللغة[٣]: كل بناء يكون علواً فوق سفل، وجمعه غرف وغرفات، ومعناه وهم في الجنة آمنون من الموت والهرم والأمراض والعدو وغير ذلك من الآفات ثم قال عز وجل ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ والقراءة قد ذكرناها ﴿أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ يعني في النار معذبون ﴿قُل إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما تصدقتم من صدقة ﴿فَهُوَ يَخْلِفُهُ﴾ يعني فإن الله يعطي خلفه في الدنيا وثوابه في الآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يعني أقوى المعطين وروى أبو الدرداء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ما طلعت شمس ولا غربت شمس إلا بعث بجنبيها ملكان يناديان اللهم عجل لمنفق ماله خلفا وعجل لممسك ماله تلفاً[٤] ثم قال عز وجل ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ يعني الملائكة عليهم السلام ومن عبدهم قرأ بعضهم من أهل البصرة يحسرهم بالياء يعني يحشرهم الله عز وجل وقراءة العامة بالنون على معنى الحكاية عن نفسه ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهْؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[٥] يعني أنتم أمرتم عبادي أن يعبدوكم وهذا سؤال توبيخ كقوله لعيسى عليه السلام (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي) الآية ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ فنزهت الملائكة ربها عن الشرك، وقالوا سبحانك يعني تنزيهاً لك ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ ونحن برآء منهم من أن نأمرهم أن يعبدونا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعني أطاعوا الشياطين في عبادتهم ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ يعني مصدقين الشياطين مطيعين لها يقول الله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً﴾ يعني شفاعة ﴿وَلاَ ضَرّاً﴾ يعني ولا دفع الضر عنهم ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني كفروا في الدنيا يقال لهم في الآخرة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إنها غير كائنة ثم أخبر عن أفعالهم في الدنيا.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٣٨ وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) حجة قراءة حمزة قوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ فكما أن الغرفة يراد بها الجمع والكثرة (كذلك وهم في الغرفات آمنون) يراد به الكثرة وإسم الجنس والعرب تجتزىء بالواحدة عن الجماعة قال تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾ وحجة الباقين قوله تعالى ﴿ومن فوقها غرف﴾ و ﴿لنبوءتهم من الجنة غرفاً﴾. انظر حجة القراءات ٥٩٠، النشر في القراءات ٢/٣٥١.

(٣) انظر لسان العرب ٥/٣٢٤٣. (٤) أخرجه البخاري ٣/٣٠٤ كتاب الزكاة (١٤٤٢). ومسلم ٢/٧٠٠ كتاب الزكاة (٥٧ ـ ١٠١٠).

(٥) وقرأ حفص: (يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول﴾ بالياء فيهما أي يحشرهم الله. وحجته قوله تعالى ﴿قبلها﴾: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق﴾ ﴿ويوم يحشرهم﴾.

وقرأ الباقون ﴿ويوم نحشرهم﴾ بالنون. أي: نحن نحشرهم وهو انتقال من لفظ الإفراد إلى الجمع كما أن قوله: ﴿ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ انتقال من الجمع إلى الإفراد والجمع ما تقدم من قوله: ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾. انظر حجة القراءات ٥٩٠.

تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

قوله عز وجل ﴿وَإِذَا تُتْلَى﴾ يعني يقرأ وتعرض ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بالأمر والنهي والحلال والحرام ﴿قَالُوا﴾ ما نعرف هذا ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ﴾ يعني يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ من عبادة الأصنام ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى﴾ يعني كذباً مختلقاً ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ يعني للقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني كذب بين ثم قال عز وجل ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني ما أعطيناهم ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ يعني من كتب يقرؤونها وفيها حجة لهم بأن مع الله شريكاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يعني من رسول في زمانهم ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل قومك أرسلهم كما كذبك قومك ﴿وَمَا بَلَغُوا﴾ أي ما بلغ قومك ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يعني ما بلغ أهل مكة عشر الذي أعطينا الأمم الخالية من الأموال والقوة فأهلكتهم بالعذاب حين كذبوا رسلي ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني كيف كان إنكاري وتغييري عليهم وإيش خطر هؤلاء بجنب أولئك فأحذروا مثل عذابهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ يعني بكلمة واحدة ويقال بخصلة واحدة ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ بالحق ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ يعني أمركم بالإنصاف أن تتأملوا حق التأمل وتتفكروا في أنفسكم هل لهذا الرجل الذي يدعوكم إلى خالقكم وخالق السموات والأرض هل رأيتم به جنوناً ثم قال ما بصاحبكم من جنة يعني من جنون، وقال القتبي: تأويله أن المشركين لما قالوا إنه ساحر ومجنون وكذاب فقال الله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لهم: اعتبروا أمري بواحدة أن تنصحوا لأنفسكم ولا يميل بكم هوى فتقوموا لله في دار يخلوا فيها الرجل منكم بصاحبه، فيقول له: هلم فلنتصادق هل رأينا بهذا الرجل جنة أم جربنا عليه كذباً ثم ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه فيتفكر وينظر فإن ذلك يدل على أنه نذير قال وكل من تحير في أمر قد اشتبه عليه واستبهم أخرجه من الحيرة أن يسأل ويناظر فيه ثم يتفكر ويعتبر، ثم قال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾ أي ما هو إلا مخوف لكم ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي بين يدي القيامة ثم قال عز وجل ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر كفار مكة أن لا يؤذوا أقربائه فكفوا عن ذلك فنزل (قُلْ لَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فكفوا عن ذلك ثم سمعوا بذكر آلهتهم فقالوا لا تنظرون إليه ينهانا عن إيذاء أقربائه وسألناه أن لا يؤذينا في آلهتنا فلا يمتنع فنزل (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) إن شئتم آذوهم وإن شئتم امتنعتم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فهو الحافظ والناصر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بأني نذير وما بي جنون ثم قال عز وجل ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يعني يبين الحق من الباطل، ويقال: يأمر بالحق ويقال: يتكلم بالحق يعني بالوحي ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعني هو عالم كل غيب قوله عز وجل ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني ظهر الإسلام ﴿وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ﴾ يعني لا يقدر الشيطان أن يخلق أحداً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ يعني لا يقدر أن يحييه بعد الموت، والله تعالى يفعل ذلك، ويقال: الباطل أيضاً الصنم، وروى ابن مسعود أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل، قل جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد.

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ

تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن
مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ
بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ﴿٥٤﴾

قوله عز وجل ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ يعني وزور الضلال على نفسي ﴿وَإِنْ اهْتَدَيتُ﴾ إلى الحق والهدى ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني اهتديت بما يوحي إلي من القرآن ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ للدعاء ﴿قَرِيبٌ﴾ بالإجابة ﴿ممن دعاه وقيل للنابغة حين أسلم: أصبوت يعني آمنت بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: بلى هو غلبني بثلاث آيات من كتاب الله عز وجل فأردت أن أقول ثلاثة أبيات من الشعر على قافيتها فلما سمعت هذه الآيات فعييت فيها ولم أطق فعلمت أنه ليس من كلام البشر وهي هذه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ قوله عز وجل ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا﴾ يعني خافوا من العذاب ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يعني فلا نجاة لهم منها ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

روي عن الكلبي أنه قال نزلت الآية في قوم يقال لهم السفيانية يخرجون في آخر الزمان عددهم ثلاثون ألف رجل إلى أن يبلغوا أرض الحجاز فافترقوا فرقتين فتقدمت فرقة إلى موضع يقال له بيداء صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فخسف بهم الأرض كلهم إلا واحداً منهم ينجو فيحول وجهه إلى خلفه فيرجع إلى الفرقة الأخرى فيخبرهم بما أصابهم يعني ولو ترى يا محمد فزعهم حين صاح بهم جبريل عليه السلام فلا فوت أي لا يفوت منهم فايت وأخذوا من مكان قريب يعني خسف بهم البيدا بقرب مكة، ويقال: يعني يوم القيامة ولو ترى يا محمد إذ فزعوا حين نزل بهم العذاب يوم القيامة فلا فوت وأخذوا من مكان قريب، كما قال: وبرزت الجحيم، وقال الحسن: ولو ترى إذ فزعوا من قبورهم يوم القيامة، وقال الضحاك: يعني يوم بدر ثم قال عز وجل ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ يعني العذاب حين رأوه يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوشُ﴾ يعني من أين لهم التوبة، ويقال: من أين لهم الرجفة قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في إحدى الروايتين التناؤش بالهمز وقرأ الباقون بغير همز[1] فمن قرأ بالهمز فهو من التناوش وهو الحركة في إبطاء، والمعنى من أين لهم أنْ يتحركوا فيما لا حيلة لهم فيه، ومن قرأ بغير همز فهو من التناول، ويقال: تناول إذا مد يده إلى شيء ليصل إليه وتناوش يده إذا مد يده إلى شيء لا يصل إليه ثم قال ﴿مِنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني من الآخرة إلى الدنيا وروي عن ابن عباس أنه قال: من مكان بعيد قال: سألوا الرد حين لا رد ثم قال عز وجل ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني كفروا بالله من قبل الموت، ويقال: به يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم، ويقال: بالقرآن ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يعني يتكلمون بالظن في الدنيا ﴿مِنَ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ثم قال ﴿وَحِيْلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني من الرجفة إلى الدنيا ويقال من التسوية كيف ينالون التسوية في هذا الوقت، وقد كفروا به من قبل ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الأقدمون أهل دينهم الأولون من قبل الاشياع جمع الجمع يقال: شيعة وشيع وأشياع ثم قال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ يعني هم في شك مما نزل بهم مريب يعني أنهم لا يعرفون شكهم، وقال القتبي: في قوله فلا فوت: يعني لا مهرب ولا ملجأ وهذا مثل قوله (فَنَادُوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) أي نادوا حين لا مهرب والله أعلم.

(١) انظر حجة القراءات ٥٩٠، النشر في القراءات العشر ٢/٣٥١.

سُورَةُ فَاطِرٍ(١)

وهي أربعون وخمس آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: خالق السموات والأرض يقال فطر الشيء إذا بدأه قال ابن عباس رضي الله عنه ما كنت أعرف فاطر حتى اختصما لي أعرابيان في بئر، فقال: أحدهما أنا فطرتها(٢) يعني: بدأتها، ثم قال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يعني: مرسل الملائكة بالرسالة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والكرام الكاتبين عليهم السلام ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ يعني: ذوي أجنحة ولفظ أولي يستعمل في الجماعة، ولا يستعمل في الواحد، وواحدها ذو، ثم قال: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ يعني: من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة ومنهم كذا، ويقال: ثلاث معدول من ثلاثة يعني ثلاثة ثلاثة ورباع معدول من أربعة يعني أربعة أربعة ثم قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني: يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء وروي عن ابن شهاب أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته، فقال له جبريل: إنك لا تطيق ذلك، فقال: إني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إلى المصلى) في ليلة مقمرة فأتاه جبريل في صورته فغشي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رآه، ثم أفاق وجبريل عليه السلام يسنده واضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية فافتتحت بما يدل على أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدال إبداعها. على تفرده تعالى بالإلهية. وعلى إثبات صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به وأنه جاء به الرسل من قبله. وإثبات البعث والدار الآخرة. وتذكير الناس بإنعام الله عليهم بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد وما يعبد المشركون من دونه لا يغنون عنهم شيئاً وقد عبدهم الذين من قبلهم فلم يغنوا عنهم. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما يلاقيه من قومه، وكشف نواياهم في الإعراض عن اتباع الإسلام لأنهم احتفظوا بعزتهم وإنذارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم المكذبة قبلهم.

والثناء على الذين تلقوا الإسلام بالتصديق وبضد حال المكذبين. وتذكيرهم بأنهم كانوا يودون أن يرسل إليهم رسول فلما جاءهم رسول تكبروا واستنكفوا، وأنهم لا مفر لهم من حلول العذاب عليهم فقد شاهدوا آثار الأمم المكذبين من قبلهم وأن لا يغتروا بإمهال الله إياهم فإن الله لا يخلف وعده. والتحذير من غرور الشيطان والتذكير بعداوته لنوع الإنسان. انظر التحرير ٢٤٧، ٢٢/٢٤٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ وعزاه لأبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان.

وسلم ـ : سبحان الله ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا، فقال جبريل: فكيف لو رأيت إسرافيل؟ إن له اثني عشر جناحاً منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وأن العرش لعلى كاهله وإنه ليتضائل بالأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوضع يعني عصفوراً حتى لا يحمل عرشه إلا عظمته[١] فذلك قوله تعالى: (يَزِيْدُ في الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) يعني: في خلق الملائكة ويقال يزيد في الخلق ما يشاء يعني الشعر الحسن والصوت الحسن[٢] والخد الحسن ويقال يزيد في الخلق ما يشاء يعني في الجمال والكمال والذمامة ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ من الزيادة والنقصان وغيره ثم قال عز وجل: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ يعني: ما يرسل الله للناس من رزق كقوله (ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ) ويقال الغيث[٣] ويقال من رحمة يعني: من كل خير ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يعني: لا يقدر أحد على حبسها ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ يعني: ما يحبس من رزق ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني: فلا معطي أحد بعد الله عز وجل قال في أول الكلام فلا ممسك لها بلفظ التأنيث لأنه انصرف إلى اللفظ وهو الرحمة ثم قال: فلا مرسل له بلفظ التذكير لأنه ينصرف إلى المعنى وهو المطر والرزق ولو كان كلاهما بلفظ التذكير أو كلاهما بلفظ التأنيث لجاز في اللغة فذكر الأول بلفظ التأنيث لأن الرحمة كانت أقرب إليه وفي الثاني كان أبعد وقد ذكر بلفظ التذكير مجاز حذف ما، ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَزِيْزُ﴾ فيما أمسك ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما أرسل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ
فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾

قوله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: احفظوا نعمة الله ثم ذكر النعمة فقال ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: النبات والمطر قرأ حمزة والكسائي غير الله بكسر الراء، وقرأ الباقون بالضم[٤] مثل ما في سورة الأعراف، والاستثناء إذا كان بحرف إلا فإن الإعراب يكون على ما بعده، وإذا كان الاستثناء بحرف غير فإن الإعراب يقع على نفس الغير، فمن قرأ بالكسر صار كسراً على البدل، ومن قرأ بالرفع فمعناه هل خالق غير الله لأن من موكدة ولفظ الآية لفظ الاستفهام، والمراد به النفس يعني أنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه ولا يرزقكم أحد سواه ثم وحد نفسه فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يفعل بكم ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ يعني: من أين تكذبون وأنتم تعلمون أنه لا يخلق أحد سواه ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما

---

(١) أخرجه البخاري ٨/٤٧٧ (٤٨٥٨) كتاب التفسير وانظر تفسير ابن كثير ٦/٥١٩، تفسير البغوي ٣/٥٦٤.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٤ وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.
(٤) انظر حجة القراءات ٥٩٢، النشر في القراءات العشر ٢/٣٥١.

كذبك قومك، وهذا تعزية يعزي بها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يعني: إليه ترجع عواقب الأمور بالبعث ثم قال عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ يعني: يا أهل مكة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: البعث بعد الموت حق كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني: حياتكم في الدنيا، والدنيا في الأصل هي القربى سميت بهذا لأن حياتهم هذه أقرب إليهم، ويقال: هي فعلى من الأدون يعني حياة الأدون ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الباطل وهو الشيطان. قال حدثنا أبو الليث رحمه الله قال حدثني أبي قال حدثنا أبو الحسن الفراء الفقيه السمرقندي قال: حدثنا أبو بكر الجرجاني الإمام بسمرقند ذكر بإسناده عن العلاء بن زيادة قال رأيت الدنيا في النوم امرأة قبيحة عمشاء ضعيفة عليها من كل زينة فقلت من أنت أعوذ بالله منك فقالت أنا الدنيا فإن يسرك أن يعيذك الله مني فابغض الدراهم يعني لا تمسكها عن النفقة في موضع الحق ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ يعني: حين يأمركم بالكفر ومن عداوته مع أبيكم ترك طاعة الله ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يعني: فعادوه بطاعة الله ومعناه أطيعوا الله عز وجل لأنك إذا أطعت الله فقد عاديت الشيطان ﴿إِنَّمَا يَدعـو حِزْبَهُ﴾ يعني: شيعته إلى الكفر ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني: من أهل النار ثم بين مصير من أطاع الشيطان ومصير من عصاه فقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله عز وجـل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله وعملوا الطاعات واتخذوا الشيطان عدواً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ في الدنيا لذنوبهـم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيـرٌ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ يعني: قبيح عمله كمن لم يزين له ذلك ﴿فَرَآهُ حَسَناً﴾ يعني: فظنه حقاً، والجواب فيه مضمراً فمن زين له سوء عمله كمن لم يزين له ذلك، وقال الزجاج: أفمن زين له سوء عمله يعني أبا جهل وأصحابه وأضله الله كمن لم يزين له ذلك وهداه الله تعالى ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن دينه ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ لدينه ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ قال القتبي هـذا من الإضمار يعني ذهبت نفسك حسرة عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات بتركهم الإيمان، وقرىء في الشاذ فلا تذهب بضم التاء وكسر الهاء نفسك بنصب السين من أذهب يذهب: يعني لا تقتل نفسك؛ وقراءة العامة فلا تذهب نفسك بنصب التاء والهاء وضم السين أي (لا تحزن نفسك)[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ من الخير والشر.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيـرُ سَحَاباً﴾[2] أي ترفعه وتهيجه ﴿فَسُقْنَاهُ﴾ يعني: نسوقه ﴿إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: بعد يبسها ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ يعني: هكذا تحيون بعد الموت

(١) سقط في ظ.

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (والله الذي أرسل الريح) بغير ألف وقرأ الباقون بها انظر المصدران السابقان.

يوم القيامة وروي عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي الزبعرى عن عبد الله بن مسعود أنه قال تقوم الساعة على شرار الناس ثم يقوم ملك بالصور فينفخ فيه فلا يبقى خلق في السموات والأرض إلا مات إلا ما شاء الله ثم يكون بين النفختين ما شاء الله فيرسل الله الوباء من السماء من تحت العرش كمني الرجال فتنبت لحومهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الندا ثم قرأ (فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) ثم ينفخ في الصور(١) قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ يعني: من طلب العزة بعبادة الأوثان فليتعزز بطاعة الله عز وجل فإن العزة لله جميعاً يقول من يتعزز بإذن الله، ويقال: معناه من كان يريد أن يعلم لمن تكون العزة فليعلم بأن العزة لله جميعاً، ويقال: من كان يطلب لنفسه العزة فإن العزة لله جميعاً ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ قال مقاتل: يصعد إلى السماء كلمة التوحيد ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يقول التوحيد يرفع العمل الصالح إلى الله تعالى في السماء فيها تقديم، وقال الحسن البصري العمل الصالح يرفع الكلام الطيب إلى الله عز وجل فإذا كان الكلام الطيب عملاً غير صالح يرد القول إلى العمل لأنه أحق من القول(٢)، وقال قتادة: والعمل الصالح يرفعه، قال الله: يرفعه، ويقال: العمل الصالح يرفعه لصاحبه، ويقال: يرفعه يعني: يعظمه، ويقال: العمل الصالح يرفعه أي يقبل الأعمال بالإخلاص معناه العمل الخالص الذي يقبله ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يعملون بالشرك، ويقال يعملون بالرياء لا يقبل منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يعني: شرك أولئك وفسقهم وصنيعهم يهلك صاحبه في الآخرة، يقال بارت السلعة إذا كسدت لأنها إذا كسدت فقد تعرضت للهلاك ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام وهو أصل الخلق ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ يعني: خلقكم من نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني: أصنافاً ذكراً وأنثى، ويقال: أصنافاً أحمر وأبيض وأسود يعني فاذكروني ووحدوني ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ ومن صلة في الكلام ﴿وَتَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ يعني: بمشيئته ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ فيطول عمره ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: إلا وكل ذلك في كتاب الله أي قد بين في اللوح المحفوظ وروي عن ابن عمر أنه قرأ من عمره بجزم الميم(٣)، وهما لغتان مثل نكر ونكر ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: حفظه على الله هين بغير كتابة.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ العذب والمالح ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ يعني: طيب هين شربه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٦ وعزاه لابن المبارك وعبد ابن حميد وابن المنذر.
(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٣٩٢، تفسير القرطبي ١٤/٢١٣.

ويقال: سلس في حلقه، حلو في شرابه، ﴿سائغ﴾ يعني: شهياً ويقال: يسوغه الشراب ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ يعني: الشديد الذي شيب بضرب إلى المرارة ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحماً طَرِياً﴾ يعني: السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من المالح ﴿حِلْيَةً﴾ وهي اللؤلؤ ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: تستعملونها وتلبسون نساءكم وهذا المثل لأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الكفار يعني وما يستوي الذين صدقوا والذين كذبوا ومن كل يظهر شيء من الصلاح يعني يلد الكافر المسلم مثل ما أولد الوليد بن المغيرة خالد بن الوليد وأبو جهل عكرمة بن أبي جهل قوله ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ يعني: السفن ﴿مَوَاخِرَ﴾ يعني: تذهب وتجيء ﴿فِيهِ﴾ يعني: في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يعني: لكي تشكروا رب هذه النعمة، يقال في اللغة:[1] مخر يمخر إذا شق الماء يعني أن السفينة تشق الماء في حال جريها، يقال: مخرت السفينة إذا جرت وشقت الماء في جريها ثم قال عز وجل: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني: ذلل الشمس والقمر لبني آدم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: إلى أقصى منازلها في الغروب لأنها تغرب كل ليلة في موضع وهو قوله عز وجل (فلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) ويقال: إلى أجل مسمى يعني: يجريان دائماً إلى يوم القيامة ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني هذا الذي فعل لكم هذا الفعل هو ربكم وخالقكم ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ فاعرفوا توحيده وادعوه ولا تدعوا غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: من دون الله الأوثان وما يعبدونهم من دون الله ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ يعني: لا يقدرون أن يعطوكم ولا ينفعوكم بمقدار القطمير والقطمير قشر النواة الأبيض الذي يكون بين النوى والتمر، وقال مجاهد: القطمير لفاف النوى[2] ثم قال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يعني: ولو كانوا بحال يسمعون أيضاً فلا يجيبونكم ولا يكشفون عنكم شيئاً ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يعني: يتبرؤون من عبادتكم ويقولون ما كنتم إيانا تعبدون يقول الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يعني: لا يخبرك من عمل الآخرة مثل الرب تبارك وتعالى، ويقال: لا يخبرك أحد مثل الرب بأن هذا الذي ذكر عن الأصنام أنهم يتبرؤون عن عبادتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ
مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ
فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ (١٩) وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا
ٱلنُّورُ (٢٠) وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا
خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١١٢٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: أنتم محتاجون إلى ما عنده ويقال أنتم الفقراء إلى الله في رزقه ومغفرته ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ الغني عن عبادتكم الحميد في فعاله وسلطانه وهذا كما قال في آية أخرى (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ) لأن كل واحد يحتاج إليه لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان والأمير ما لم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الإمارة وكذلك التاجر يحتاج إلى المكارين والله عز وجل غني عن الأعوان وغيره ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يعني: يهلككم ويميتكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل منكم وأطوع لله ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يعني: بشديد ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى، ويقال: لا تحمل بالطوع ولكن يحمل عليها إذا كان له خصماً ثم قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾ يعني: الذي أثقلته الذنوب والأوزار إن لو دعا أحداً ليحمل عنه بعض أوزاره لا يحمل من وزره شيئاً وإن كان ذا قرابة لا يحمل من وزره، وروى إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال إن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بني إني كنت لك والداً فيثني عليه خيراً فيقول يا بني قد احتجت إلى مثقال ذرة وفي رواية أخرى: إلى مثقال حبة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى فيقول له ولده ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أني أخاف مثل الذي تخوفت ثم يتعلق بزوجته فيقول لها إني كنت لك زوجاً في الدنيا فيثني عليها خيراً، ويقول إني طلبت إليك حسنة واحدة لعلي أنجو بها مما ترين فتقول ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أني أخاف مثل الذي تخوفت[1] فذلك قوله (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا) ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: إنما تخوف بالقرآن الذين يخافون ربهم بالغيب يعني آمنوا بالله وهم له وهم في غيب منه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: يقيمون الصلاة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُنذر المؤمنين والكافرين ولكن الذين يخشون ربهم هم الذين يقبلون الإنذار فكأنه أنذرهم خاصة ثم قال: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ يعني: توحد، ويقال: تطهر نفسه من الشرك، ويقال: من صلح فإنما صلاحه لنفسه يثاب عليه في الآخرة، ويقال: من يعطي الزكاة فإنما ثوابه لنفسه ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازيهم بعملهم قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ يعني: الكافر الأعمى عن الهدى ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ يعني: المؤمن ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ يعني: الكفر والإيمان ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ يعني: الجنة والنار ولا الحرور هو استقرار الحر ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ قال القتبي مثل الأعمى والبصير كالكافر والمسلم والظلمات والنور مثل الكفر والإيمان والظل والحرور مثل الجنة والنار وما يستوي الأحياء ولا الأموات مثل العقلاء والجهال ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يفقه من يشاء ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يعني: لا تقدر أن تفقه الأموات وهم الكفار ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ يعني: ما أنت إلا رسول ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالقرآن ويقال: لبيان الحق ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ وقد ذكرناه ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يعني: وما من أمة فيما مضى إلا فيهم نذير، يعني إلا جاءهم رسول ثم قال: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ يعني: بالكتب وبأخبار من كان قبلهم ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ يعني: المضيء الكتاب هو نعت لما سبق ذكره من البينات والزبر ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: الذين كذبوهم فعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرُ﴾ يعني: كيف كان إنكاري وتغييري عليهم ثم ذكر خلقه ليعتبروا به ويوحدوه.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٤٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ
وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن
تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ من الثمار الأحمر والأصفر والحلو والحامض ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيْضٌ﴾ يعني: خلق من الجبال جدداً يعني: جماعة الجدة والجدة هي الطريقة التي في الجبل والجدد هي الطرائق فترى الطريق من البعد منها أبيض وبعضها حمر وقال القتبي الجدد الخطوط والطرق تكون في الجبال فبعضها بيض وبعضها حمر وبعضها غرابيب سود وهو جمع غريب وهو الشديد السواد ويقال أسود غريب ﴿وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيْبُ سُوْدٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ﴾ يعني: خلق من الناس والدواب ﴿وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات ثم استأنف فقال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقال بعضهم: إنما يتم الكلام عند قوله مختلف ألوانه ثم استأنف فقال (كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) يعني هكذا يخشى الله من عباده العلماء يعني إن العلماء يعلمون خلق الله تعالى، ويتفكرون في خلقه ويعلمون ثوابه وعقابه فيخشونه ويعملون بالطاعة طمعاً لثوابه ويمتنعون عن المعاصي خشية عقابه وقال مقاتل أشد الناس خشية أعلمهم بالله تعالى، فيها تقديم، وروى سفيان عن بعض المشيخة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل يا رسول الله أينا أعلم فقال أخشاكم لله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء قالوا يا رسول الله فأي الأصحاب أفضل قال الذي إذا ذكرت أعانك وإذا نسيت ذكرك قالوا فأي الأصحاب شر قال الذي إذا ذكرت لم يعينك وإذا أنسيت لم يذكرك قالوا فأي الناس شر قال اللهم اغفر للعلماء والعالم إذا فسد فسد الناس ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني: يقرؤون القرآن ويقال معناه: يتبعون كتاب الله تعالى يقال: تلى يتلو إذا اتبعه كقوله تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ يعني: أتموا الصلوات في مواقيتها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يعني: تصدقوا مما أعطيناهم من الأموال ﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ يعني: لن تهلك ولن تخسر، ومعناه: يرجون تجارة رابحة وهي الجنة مكان الحياة الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ يعني: يوفر ثواب أعمالهم ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: من رزقه من الجزاء والثواب في الجنة، ويقال: من فضله يعني من تفضله ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لأعمالهم اليسيرة والشكر على ثلاثة أوجه الشكر ممن يكون دونه الطاعة لأمره وترك مخالفته والشكر ممن هو شكله يكون الجزاء والمكافأة والشكر ممن فوقه يكون رضي منه باليسير.

وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ
أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ
بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: أرسلنا إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ لا شك فيه ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: موافقاً لما قبله من الكتب ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالم بهم وبأعمالهم قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ ويقال: أعطينا القرآن ﴿الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني: اخترنا من هذه الأمة، وثم بمعنى العطف يعني وأورثنا الكتاب، ويقال: ثم بمعنى التأخير يعني بعد كتب الأولين أورثنا الكتاب ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ يعني: من الناس ظالم لنفسه ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ روي عن ابن عباس في إحدى الروايتين أنه قال الظالم الكافر، والمقتصد المنافق، والسابق المؤمن، وروي عنه رواية أخرى أنه قال: هؤلاء كلهم من المؤمنين فالسابق الذي أسلم قبل الهجرة، والمقتصد الذي أسلم بعد الهجرة قبل فتح مكة والظالم الذي أسلم بعد فتح مكة، وطريق ثالث ما روى أبو الدرداء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال السابق الذي يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد الذي يحاسب حساباً يسيراً، والظالم الذي يحاسب في طول المحشر[١] وطريق رابع ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال سابقنا سابق ومقتصدنا ناجي وظالمنا مغفور له[٢] وطريق آخر ما روى أسد بن رفاعة عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال سابقنا أهل الجهاد ومقتصدنا أهل حضرنا يعني أهل الأمصار، وهم أهل الجماعات والجمعات، وظالمنا أهل بدونا[٣]، وطريق سادس ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت عن هذه الآية فقالت السابق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن مضى معه، والمقتصد مثل أبي بكر ومن مضى معه، والظالم فمثلي ومثلكم[٤]، وطريق سابع ما روي عن مجاهد قال: الظالم هم أصحاب المشأمة، والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق هم السابقون بالخيرات فكأنه استخرجه من قوله (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة... والسابقون السابقون) وطريق ثامن ما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال الظالم هم المنافقون، والمقتصد هم التابعون بإحسان والسابق هم أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وطريق تاسع ما روي عن الحسن أيضاً أنه قال السابق الذي ترك الدنيا، والمقتصد الذي أخذ من الحلال، والظالم الذي لا يبالي من أين أخذ، وقيل طريق عاشر السابق الذي رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد الذي استوت حسناته مع سيئاته والظالم الذي رجحت سيئاته على حسناته وقيل طريق حادي عشر السابق الذي سره خير من علانيته، والمقتصد الذي سره وعلانيته سواء والظالم الذي علانيته خير من سره، وطريق ثاني عشر السابق الذي تهيأ للصلاة قبل دخول وقتها، والمقتصد الذي تهيأ للصلاة بعد دخول وقتها، والظالم الذي ينتظر الإقامة، وطريق ثالث عشر السابق الذي يتوكل على الله ويجعل جميع جهده في طاعة الله عز وجل والمقتصد الذي يطلب قوته ولا يطلب الزيادة والظالم الذي يطلب فوق القوت والكفاف، وقيل طريق رابع عشر السابق الذي شغله معاده عن معاشه، والمقتصد الذي يشتغل بهما جميعاً والظالم الذي شغله معاشه عن معاده وقيل طريق خامس عشر السابق الذي ينجو بنفسه وينجو غيره بشفاعته والمقتصد الذي يدخل الجنة برحمة الله وفضله والظالم الذي يدخل الجنة بشفاعة الشافعين، وطريق سادس عشر السابق الذي يعطى كتابه بيمينه والمقتصد الذي يعطى كتابه بشماله والظالم الذي يعطى كتابه وراء ظهره وطريق سابع عشر قيل السابق الذي ركن إلى المولى والمقتصد

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٥١ وعزاه للفريابي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي وانظر تفسير الطبري ٢٢/٩٠.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٥١، ٢٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والبيهقي في البعث.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٥١ وعزاه للطيالسي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه.

الذي ركن إلى العقبى والظالم الذي ركن إلى الدنيا، وطريق ثامن عشر ما روي عن يحيى بن معاذ الرازي قال: الظالم الذي يضيع العمر في الشهوة والمعصية، والمقتصد الذي يحارب فيهما، والسابق الذي يجتهد في الزلات ثم قال لأن محاربة الصديقين في الزلات ومحاربة الزاهدين في الشهوات ومحاربة التائبين في الموبقات وطريق تاسع عشر قال: الظالم يطلب الدنيا تمتعاً والمقتصد الذي يطلب الدنيا تلذذاً والسابق الذي ترك الدنيا تزهداً وطريق العشرين قال: الظالم الذي يطلب ما لم يؤمر بطلبه وهو الرزق، والمقتصد الذي يطلب ما أمر به ولم يؤمر بطلبه، والسابق الذي طلبه مرضات الله ومحبته. وطريق حادي عشرين قيل: الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق المجتنب عن الصغائر والكبائر، وطريق ثاني عشرين قيل السابق الخارج إلى الغزو والرباطات قبل الناس، والمقتصد الخارج إليها مع الناس الذي يعلم ويعلم الناس ويعمل به، والمقتصد الذي يعلم ويعلم ولا يعمل به، والظالم الذي لا يعلم ولا يرغب إلى التعليم. وطريق رابع وعشرين السابق الذي هو مشغول في عيب نفسه ولا يطلب عيب غيره، والمقتصد الذي يطلب عيب غيره، والظالم الذي هو مشغول في عيب غيره ولا يصلح عيب نفسه. وطريق خامس وعشرين ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا) إلى قوله (الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء كلهم في الجنة أما السابق بالخيرات فإنه يدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فإنه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وأما الظالم لنفسه فإنه يحاسب حساباً شديداً ويحبس حبساً طويلاً ثم يدخل الجنة فإذا دخلوا الجنة[1] (قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور)[2] وقد قيل غير هذا إلا أنه يطول الكلام فيه وفيما ذكرنا كفاية لمن عمل به وأكثر الروايات أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة مؤمنون وأول الآية وآخرها دليل على ذلك فأما أول الآية فقوله عز وجل (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) يعني: أعطينا الكتاب فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاثة وقال في آخر الآية: (جنات عدن يدخلونها) فأشار إلى الأصناف [الثلاثة بالآية الأولى حيث قال «وأورثنا الكتاب» والأخرى حيث قال «يدخلونها» ولم يقل يدخلانها وفي الآية الأخرى دليل أن الأصناف الثلاثة هم يدخلون الجنة][3] وقال بعضهم تأول قول ابن عباس الذي قاله في رواية أبي صالح أن الظالم كافر يعني: كفر النعمة، ومعناه فمنهم من كفر بهذه النعمة ولم يشكر الله عز وجل عليها، ومنهم مقتصد يعني يشكر ويكفر، ومنهم سابق يعني يشكر ولا يكفر، وروي عن كعب الأحبار أنه قيل له ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: كان أبي مكنني جميع التوراة إلا ورقات منعني أن أنظر فيها فخرج أبي يوماً لحاجة فنظرت فيها فوجدت فيها نعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته، وأنه يجعلهم يوم القيامة ثلاثة أثلاث ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ويدخلون الجنة بغير حساب وثلث تشفع لهم الملائكة والنبيون فأسلمت وقلت لعلي أكون من الصنف الأول وإن لم أكن من الصنف الأولى لعلي أن أكون من الصنف الثاني أو من الصنف الثالث فلما قرأت القرآن وجدتها في القرآن وهو قوله عز وجل: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ) إلى قوله (جنات عدن يَدْخُلُونَهَا) الآية، فإن قيل: ايش الحكمة في ذكره الظالم ابتداء وتأخيره ذكر السابق قيل له الحكمة فيه والله أعلم لكيلا يعجب السابق بنفسه ولا ييأس الظالم من رحمة الله عز وجل ثم قال تعالى: ﴿**بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾ يعني: الذين أورثهم من الكتاب واختارهم هو الفضل الكبير من الله تعالى.

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٢/٨٨.
(٢) سقط في ظ.
(٣) سقط في ظ.

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا
فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ يعني: لهم جنات عدن أي دار الإقامة يقال عدن يعدن إذا أقام قرأ أبو عمرو وابن كثير في إحدى الروايتين ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وقرأ الباقون يدخلونها على معنى أن الفعل لهم(١) ﴿يُحَلَّوْنَ فِيْهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ يعني: يلبسون الحلي من أساور ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ قرأ نافع وعاصم ولؤلؤاً بالنصب ومعناه يحلون أساور ولؤلؤاً وقرأ الباقون بالكسر(٢) يعني ذهب ومن لؤلؤ ثم قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيْهَا حَرِيرٌ﴾ يعني: لباسهم في الجنة من حرير الجنة لا كحرير الدنيا قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ يعني: حزن الموت وحزن خوف الخاتمة ويقال: همّ العيش ويقال همّ المرور على الصراط ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ يغفر الذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل اليسير من العمل ويعطي الجزيل عز وجل. ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: الحمد لله الذي أنزلنا دار الخلود والمقامة والمقام بمعنى واحد يعني: الإقامة والدوام من فضله وكرمه ﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعني: لا يصيبنا تعب وعناء ﴿وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يعني: لا يصيبنا فيها من أعباء كما يصيبنا في الدنيا ثم بين حال المشركين في النار:

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ
نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ
إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ
شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا
غُرُورًا ﴿٤٠﴾

فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله عز وجل: ﴿لَهُمْ نَارُ جَهنَّم لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ الموت ويقال: لا يرسل عليهم ولا ينزل الموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ حتى يستريحوا ﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ يعني:

---

(١) انظر حجة القراءات ٥٩٣.

(٢) قال ابن زنجلة في الموضع السابق: والتفسير على الخفض أكثر، على معنى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ، وجاء في التفسير أيضاً أن ذلك الذهب في صفاء اللون كما قال «قواريرا قواريرا من فضة» أي: هو قوارير ولكن بياضه كبياض الفضة ـ انظر حجة القراءات ٥٩٣.

من عذاب جهنم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِيْ كُلَّ كَفُورٍ﴾ يعني: هكذا نعاقب كل كافر بالله تعالى قرأ أبو عمرو يجزي بالياء والضم ونصب الزاي كل كفور بضم اللام على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون نجزي بالنون والنصب كل بنصب اللام[١] ومعنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد يعني كذلك يجزي الله تعالى، ثم أخبر عن حالهم فيها فقال عز وجل: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيْهَا﴾ أي يستغيثون يقال: صرخ يصرخ إذا أغاث واستغاث وهو من الأضداد ويستعمل للإغاثة والإستغاثة لأن كل واحد منهما يصلح وهو افتعال من الصراخ يعني يدعون في النار ويقولون ﴿رَبَّنَا أَخرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ يعني: نعمل غير الشرك وغير المعصية يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ يعني: أولم نعطكم من العمر والمهلة في الدنيا ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ يعني: يتعظ فيه من أراد أن يتعظ وروي مجاهد عن ابن عباس في قوله (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ) قال العمر ستون سنة ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ يعني: الشيب والهرم وروي أن إبراهيم الخليل أول من رأى الشيب فقال يا رب ما هذا فقال هذا وقار في الدنيا ونور في الآخرة فقال يا رب زدني وقاراً ويقال (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ) يعني: أولم نعطكم ونطول أعماركم وما يتذكر فيه من تذكر أي مقدار ما يتعظ فيه من يتعظ، وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين سنة[٢] أزال عذره وجاءكم النذير أي الرسول ﴿فَذُوقُوا﴾ العذاب في النار ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ يعني: ما للمشركين من مانع من عذاب الله عز وجل ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: غيب ما يكون في السموات والأرض يعني أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴿إِنَّهُ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني: عليم بما في قلوبهم ويقال عالم بما في قلوب العباد من الخير والشر ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: قل لهم يا محمد الله تعالى جعلكم سكان الأرض من بعد الأمم الخالية ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ بتوحيد الله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ يعني: عاقبة كفره، وعقوبة كفره ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً﴾ وهو الغضب الشديد الذي يستوجب العقوبة يعني لا يزدادون في طول أعمارهم إلا غضب الله تعالى عليهم وقال الزجاج المقت أشد الغضب ﴿وَلاَ يَزِيْدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً﴾ يعني: غبناً في الآخرة وخسراناً ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: تعبدون من دون الله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: أخبروني أي شيء خلقوا مما في السموات أو مما في الأرض من الخلق، وقال القتبي: من بمعنى في يعني أروني ماذا خلقوا في الأرض يعني أي شيء خلقوا في الأرض كما خلق الله عز وجل ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني: عون على خلق السموات والأرض ويقال نصيب في السموات اللفظ لفظ الاستفهام والشك والمراد به النفي يعني ليس لهم شرك في السموات ثم قال ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً﴾ يعني: أعطيناهم كتاباً اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به النفي يعني كما ليس لهم كتاب فيه حجة على كفرهم ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ يعني: ليسوا على بيان مما يقولون قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم في رواية حفص على بينة بغير ألف وقرأ الباقون بينات بلفظ الجماعة[٣] ومعناهما

---

(١) حجة من قرأ بالياء أن ما أتى في القرآن من المجازاة أكثره على لفظ ما لم يسم فاعله من ذلك «اليوم تجزى كل نفس» ويقوي الياء قوله ﴿ولا يخفف عنهم من عذابهم﴾ ويقوي النون قوله بعدها ﴿أولم نعمركم﴾ انظر حجة القراءات الموضع السابق ـ النشر في القراءات ٢/٣٥٢.

(٢) أخرجه البخاري ١١/٢٤٣ كتاب الرقاق (٦٤١٩).

(٣) حجة من قرأ «بينات» أنها مرسومة في المصاحف بالتاء فدل ذلك على الجمع وحجة الباقين ذكرها اليزيدي فقال: يعني على بصيرة قال: وإنما كتبوها بالتاء كما كتبوا: «بقيت الله» بالتاء وفي التنزيل ما يدل عليه وهو قوله ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ انظر المصدران السابقان وإتحاف فضلاء البشر ٢/٣٩٤.

واحد لأن الواحد ينبيء عن الجماعة ثم قال: ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً﴾ يعني: ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً يعني: الشياطين للكافرين من الشفاعة لمعبودهم ﴿إِلاَّ غُرُوراً﴾ يعني: باطلاً.

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ﴾ يعني: يحفظ السموات ﴿وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ يعني: لئلا تزولا عن مكانها ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني: لا يقدر أحد أن يمسكهما، ويقال: ولئن زالتا يعني إن زالتا في الحال وهما لا يزولان ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾ عن قول الكُفَّار حيث قالوا لله ولد فكادت السموات والأرض أن تزولا فأمسكهما بحلمه فلم يزولا ﴿غَفُوراً﴾ يعني: متجاوزاً عنهم إن تابوا ويقال غفوراً حيث لم يعجل عليهم بالعقوبة، وأمسك السموات والأرض أن تزولا وقوله عز وجل: ﴿وأَقْسَموا باللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: كفار مكة كانوا يعيرون اليهود والنصارى بتكذيبهم أنبيـاءهم وقالـوا لو أرسل الله عز وجل إلينا رسولاً لكنا أهدى من إحدى الأمم وكانوا يحلفون على ذلك فذلك قوله (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) فكل من حلف بالله فهو جهد اليمين ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني: رسول ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ﴾ يعني: أصوب ديناً من اليهود والنصارى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ يعني: ما زداهم الرسول إلا تباعداً عن الهدى قوله عز وجل: ﴿اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ﴾ يعني: تكبراً في الأرض استكباراً مفعول المعنى زادهم الرسول تكبراً هذا كقوله (وَلاَ يَزِيْدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً) وكان القرآن سبباً لخسرانهم فأضاف إليهم ثم قال: ﴿وَمَكْرُ السَّيِّـىءِ﴾ يقول قول الشرك واجتماعهم على قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ حمزة ومكر السيء بجزم الياء وقرأ الباقون بالكسر[1] لتبين الحروف وجزم حمزة لكثرة الحركات ثم قال ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيـىءُ إِلا بِأَهْلِهِ﴾ يعني: لا يدور وينزل المكر السيـىء إلا بأهله يعني عقوبة المكر ترجع إليهم ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: ما ينتظرون ﴿إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: مثل عقوبة الأمم الخالية أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأولين ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ يعني: لصنعة الله تعالى ويقال: لملة الله، ويقال: لسنة الله في العذاب تبديلاً يعني: لا يقدر أحد أن يبدله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ يعني: تغييراً يعني: لا يقدر أحد أن يغير فعل الله تعالى ثم وعظهم ليعتبروا فقال عز

(١) انظر حجة القراءات (٥٩٤).

وجل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ﴾ يعني: أولم يسافروا في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يعني: فيعتبروا ﴿كيف كان عاقِبة الَّذِينَ﴾ يعني: آخر أمر الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني: منعة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ليسبقه ويفوته من شيء ويقال: لا يقدر أحد أن يهرب من عذابه ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً﴾ بخلقه بأنه لا يفوت منهم أحد ﴿قَدِيراً﴾ يعني: قادراً عليهم بالعقوبة قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني: ولو عاقبهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ يعني: على ظهر الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني: لهلكت الدواب من قحط المطر، قال قتادة: ما ترك على ظهرها من دابة إلا أهلكهم كما أهلك من كان في زمان نوح عليه السلام ويقال: من دابة يعني من الجن والإنس فيعاقبهم بذنوبهم فيهلكهم، وقال مجاهد: ما ترك على ظهرها من دابة يعني من هوام الأرض من العقارب ومن الخنافس وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال كاد الجعل أن يعذب في حجره بذنب بني آدم ثم قرأ (ولو يؤاخذ الله الناس) الآية والعرب تكني عن الشيء إذا كان مفهوماً كما كني هاهنا عن الأرض كقوله (مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا) وإن لم يسبق ذكر الأرض ثم قال ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: إلى الميعاد الذي وعدهم الله تعالى ويقال إلى الوقت الذي وقت لهم في اللوح المحفوظ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ يعني: إلى انقضاء حياتهم، ويقال: هو البعث ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّه كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾ يعني: عالماً بهم وبأعمالهم، روى الزهري عن سعيد بن المسيب قال لما طعن عمر رضي الله عنه قال كعب لو دعى الله عمر لأخر في أجله فقال الناس سبحان الله أليس قد قال الله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) فقال كعب: وقد قال: (ما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) قال الزهري: فنرى أن ذلك ما لم يحضر الأجل فإذا حضر لم يؤخر وليس أحد إلا وعمره مكتوب في اللوح المحفوظ والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمّي وعلى آله وصحبه وسلم.

سُورَةُ يسٓ (١)

وهي ثمانون وثلاث آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿يسٓ﴾ قرأ حمزة بين الكسر والفتح، وقرأ الكسائي بالإمالة، وقرأ الباقون بالفتح، وقرأ ابن

---

(١) من أغراض هذه السورة التحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة وبالقسم بالقرآن تنويهاً به وأدمج وصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام والمقصود من ذلك تحقيق رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتفضيل الدين الذي جاء به في كتاب منزل من الله لإبلاغ الأمة الغاية السامية وهي استقامة أمورها في الدنيا والفوز في الحياة الأبدية فلذلك وصف الدين بالصراط المستقيم كما تقدم في سورة الفاتحة.

وأن القرآن داع لإنقاذ العرب الذين لم يسبق مجيء رسول إليهم لأن عدم سبق الإرسال إليهم تهيئة لنفوسهم لقبول الدين إذ ليس فيها شاغل سابق يعز عليهم فراقه أو يكتفون بما فيه من هدى. ووصف إعراض أكثرهم عن تلقي الإسلام وتمثيل حالهم الشنيعة وحرمانهم من الانتفاع بهدي الإسلام وأن الذين اتبعوا دين الإسلام هم أهل الخشية وهو الدين الموصوف بالصراط المستقيم. وضرب المثل لفريقي المتبعين والمعرضين من أهل القرى بما سبق من حال أهل القرية الذين شابه تكذيبهم الرسل تكذيب قريش. وكيف كان جزاء المعرضين من أهلها في الدنيا وجزاء المتبعين في درجات الآخرة. ثم ضرب المثل بالأعم وهم القرون الذين كذبوا فأهلكوا. والرثاء لحال الناس في إضاعة أسباب الفوز كيف يسرعون إلى تكذيب الرسل.

وتخلص إلى الاستدلال على تقريب البعث وإثباته بالاستقلال تارة وبالاستطراد أخرى. مدمجاً في آياته الامتنان بالنعمة التي تتضمنها تلك الآيات. ورامزاً إلى دلالة تلك الآيات والنعم على تفرد خالقها ومنعمها بالوحدانية إيقاظاً لهم. ثم تذكيرهم بأعظم حادثة حدثت على المكذبين للرسل والمتمسكين بالأصنام من الذين أرسل إليهم نوح نذيراً فهلك من كذب ونجا من آمن. ثم سيقت دلائل التوحيد المشوبة بالامتنان للتذكير بواجب الشكر على النعم بالتقوى والإحسان وترقب والجزاء. والإقلاع عن الشرك والاستهزاء بالرسول واستعجال وعيد العذاب. وحذروا من حلوله بغتة حين يفوت التدارك. وذكروا بما عهد الله إليهم مما أودعه في الفطرة من الفطنة. والاستدلال على عداوة الشيطان للإنسان. واتباع دعاة الخير. ثم رد العجز على الصدر فعاد إلى تنزيه القرآن عن أن يكون مفترى صادراً من شاعر بتخيلات الشعراء وسلى الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يحزنه قولهم وأن له بالله أسوة إذ خلقهم فعطلوا قدرته عن إيجادهم مرة ثانية ولكنهم راجعون إليه. فقامت السورة على تقرير أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه من إثبات الرسالة والوحي ومعجزة القرآن وما يعتبر في صفات الأنبياء وإثبات القدر وعلم الله والحشر، والتوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل ومنها تتفرع الشريعة وإثبات الجزاء على الخير والشر من إدماج الأدلة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب فكانت هذه السورة جديرة بأن تسمى (قلب القرآن) لأن من تقاسيمها تتشعب شرايين القرآن كله. وإلى وتينها ينصب مجراها.

قال الغزالي: إن ذلك لأن الإيمان صحته باعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه كما سميت الفاتحة أم القرآن إذ كانت جامعة لأصول التدبر في أفانيه كما تكون أم الرأس ملاك التدبر في أمور الجسد. انظر التحرير ٣٤٢/٢٢ ـ ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

عامر، والكسائي «يس والقُرْآنِ» مدغم بالنون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ونافع، وحمزة بإظهار النون، وكل ذلك جائز في اللغة، وقرىء في الشاذ «ياسين» بنصب النون، ومعناه اتل ياسين، لأن يس اسم سورة، وقراءة العامة بالتسكين لأنها حروف هجاء[١] فلا تحتمل الإعراب، مثل قوله تعالى (الٓمٓ) وروي عن ابن عباس في تفسير قوله (يَس) يعني يا إنسان بلغة طيء[٢]، وهكذا قال مقاتل، عن قتادة، والضحاك، وروي عن محمد ابن الحنفية أنه قال (يس) يعني يا محمد، وروى معمر عن قتادة قال (يس) اسم من أسماء القرآن، ويقال افتتاح السورة، وقال مجاهد هذه فواتح السور يفتتح بها كلام رب العالمين، وقال شهر بن حوشب، قال كعب (يس) قسم أقسم الله تعالى به قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي[٣] عام فقال: يس ﴿وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾ ويا محمد ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقال ابن عباس في قوله (والقُرْآنِ الحَكِيمِ) أي أحكم حلاله وحرامه وأمره ونهيه، ويقال: حكيم يعني محكم من التناقض والعيب، ويقال الحكيم: أي الحاكم كالعليم يعني العالم، يعني القرآن حاكم على جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى من قبل «إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ» فهذا جواب القسم، ومعناه يا إنسان، والقرآن الحكيم، **إنك لمن المرسلين**، يعني رسولاً كسائر المرسلين، جواباً لقولهم لست مرسلاً ﴿عَلَى صِـرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني إنك على صراط مستقيم (ويقال هذا نعت للرسل، يعني إنك لمن المرسلين، الذين كانوا على صراط مستقيم، أي على طريق الإسلام)[٤] ثم قال عز وجل ﴿تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وعاصم في إحدى الروايتين (تَنْزِيلُ) بضم اللام، ومعناه: هذا القرآن تنزيل، أو هو تنزيل العزيز الرحيم، وقرأ الباقون (تَنْزِيلَ) بالنصب، ومعناه نزله تنزيلاً[٥]، فصار نصباً بالمصدر.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

ثم قوله تعالى ﴿لِتُنْذِرَ﴾ يعني لتخوف بالقرآن ﴿قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ يعني كما أنذر آباؤهم الأولون ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ عن ذلك، يعني عما أنذر آباؤهم ثم قال عز وجل ﴿لَقَد حَقَّ القَوْلُ﴾ أي وجب القول بالعذاب ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي على الكفار، ويقال لقد حق القول، وهو قوله (لأَملأَنَّ جَهَنَّم) ويقال: القول كناية عن العذاب، أي وجب عليهم العذاب ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني لا يصدقون بالقرآن ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً﴾ قال مقاتل:

---

(١) إنما جاز إظهارها وإن كانت تخفى مع حروف الفم ولا تتبين لأن هذه الحروف مبنية على الوقف، ومما يدل على ذلك استجازتهم فيها الجمع بين ساكنين كما يجتمعان في الكلمة التي يوقف عليها، ولولا أن ذلك لم يجز فيها الجمع بينهما وحجة من لم يبين هي وإن كانت في تقدير الوقف لم تقطع فيه همزة الوصل وذلك قوله ﴿ألم الله﴾ ألا ترى أنهم حذفوا الوصل ولم يبينوها كما لم يبينوها مع غيرها فلا يكون التقدير فيها وهي تجري مجرى قوله ﴿من واق﴾ انظر حجة القراءات ٥٩٥ ـ النشر في القراءات ٣٥٣/٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٨/٥ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٨/٥ وعزاه لابن مردويه عن كعب الأحبار.

(٤) سقط في ظ.

(٥) انظر حجة القراءات ٥٩٥ ـ ٥٩٦، إتحاف فضلاء البشر ٣٩٧/٢.

نزلت في بني مخزوم، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدفعنه بحجر، فأتاه وهو يصلي فرفع الحجر ليدمغه، فيبست يده إلى عنقه، والتزق الحجر بيده ورجع إلى أصحابه، فخلصوا الحجر من يده، ورجل آخر من بني المغيرة أتاه ليقتله فطمس الله على بصره فلم ير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، فذلك قوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً وَمِن خَلْفِهِمْ سِدّاً وذكر في رواية الكلبي نحو هذا، وقال بعضهم (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً) أي نجعل في أعناقهم أغلالاً يوم القيامة، ويقال معناه (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً) أي جعلنا أيديهم ممسكة عن الخيرات مجازاة لكفرهم (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً) أي حائلاً لا يهتدون إلى الإسلام، ولا يبصرون الهدى، وقال بعضهم: (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِم أَغْلاَلاً). يعني أيديهم، ولم يذكر في الآية اليد، وفيها دليل لأن الغل لا يكون إلا باليد إلى العنق، فلما ذكر العنق فكأنما ذكر اليد، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود أنهما قرآ: إنا جعلنا في أيمانهم أغلالاً، وقرأ بعضهم: في أيديهم وكل ذلك يرجع إلى معنى واحد، لأنه لا يجوز أن يكون الغل بأحدهما دون الآخر، كقوله (سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ) ولم يذكر البرد لأن في الكلام دليلاً عليه ثم قال: ﴿فَهِيَ إِلى الأَذْقَانِ فَهُم مُقْمَحُونَ﴾ (أي رددنا أيديهم إلى أعناقهم)(١) إلى الأذقان، أي الحنك الأيسر (فَهُمْ مُقْمَحُونَ) أي رافعو الرأس إلى السماء، غاضو الطرف، لا يبصر موضع قدميه، وقال قتادة: أي مغلولين من كل خير ثم قال عز وجل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ أي ظلمة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي ظلمة ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بالظلمة ﴿فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، يعني خوفتهم، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التوبيخ (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِم ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ يعني خوفتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أم لم تخوفهم لا يصدقون، إنما نزلت الآية في شأن الذين ماتوا على كفرهم، أو قتلوا على كفرهم، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (سَدًّا) بنصب السين في كلاهما، وقرأ الباقون بالضم(٢)، وقال أبو عبيدة قراءتنا بالضم لأنهما من فعل الله تعالى، وليس من فعل بني آدم، وقال القتبي: المقمح الذي يرفع رأسه ويغض بصره، يقال بعير قامح: إذا روي من الماء فقمحت عيناه وقال: والسد: الجبل (فَأَغْشَيْنَاهُمْ) يعني أعمينا أبصارهم عن الهدى.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني تخوف بالقرآن من اتبع الذكر، يعني من قبل الموعظة

---

(١) سقط في ظ.

(٢) قال أبو عمرو: (السد: الحاجز بينك وبين الشيء والسد بالضم في العين) وأبوعمرو (ذهب في سورة الكهف (إلى) الحاجز بين الفريقين ففتح) وذهب ها هنا إلى سدة العين فرفع والعرب تقول: (بعينه سدة) والذي / يدل على هذا قوله: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ أي: جعلنا على أبصارهم غشاوة فلم يبصروا طريق الهدى والحق. وقال أبو عبيدة: (كل شيء وجدته (العرب) من فعل الله من الجبال والشعاب فهو (سُد) بالضم وما بناه الآدميون فهو سد فمن رفع في سورة الكهف ذهب أنه من صنع الله وهو قوله تعالى: ﴿بين السدين﴾ وذهب في (يس) إلى المعنى وذلك أنه يجوز أن يكون الفتح فيها على معنى المصدر الذي صدر من غير لفظه لأنه لما قال ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً﴾ كأنه قال (وسددنا من بين أيديهم سداً) فأخرج المصدر على معنى الجعل إذ كان معلوماً أنه لم يرد بقوله (سداً) ما أريد في قوله (بين السدين) لأنهما في ذلك الموضع جبلان، وهما ها هنا عارض في العين. انظر حجة القراءات ٥٩٦ ـ ٥٩٧ والنشر ٢/٣٥٣.

وسمع القرآن ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ يعني أطاعه في الغيب ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ في الدنيا ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في الآخرة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتَى﴾ يعني نبعثهم في الآخرة ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ يعني نحفظ ما أسلفوا، وما عملوا من أعمالهم، ويقال (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا) يعني تكتب أعمالهم الكرام الكاتبون، وما عملوا من خير أو شر ﴿وَآثَارَهُم﴾ يعني ما استنوا من سنة خير، أو شر عملوه، واقتدى بهم من بعدهم، فلهم مثل أجورهم أو عليهم مثل أوزارهم، من غير أن ينقص منه شيئاً، وهذا كقوله عز وجل (يُنَبَّؤُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ)، وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ» إلى آخره، وقال مجاهد: (وَآثَارَهُم) يعني خطأهم، وروي مسروق أنه قال: مَا خَطَا عَبْدٌ خُطْوَةً إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ أَوْ سَيِّئَةٌ [(١)]، وروي عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن بني سلمة ذكروا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد منازلهم من المسجد، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «يا بني سلمة دياركم فإنما تكتب آثاركم»[(٢)] ثم قال ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ أي حفظناه وبيناه ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يعني في اللوح المحفوظ.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله عز وجل ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾ أي وصف لهم شبهاً ﴿أَصْحَابَ القَرْيَةِ﴾ أهل القرية وهي أنطاكية ﴿إِذْ جَاءَهَا المُرْسَلُونَ﴾ يعني رسل عيسى عليه السلام ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ قال مقاتل: هما: تومان، وطالوس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يعني قويناهما بثالث، وهو شمعون، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (فَعَزَزْنَا) بالتخفيف، ومعناهما غلبنا، نقول عزه يعزه، إذا غلبه، ومنه قوله تعالى (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) يعني غلبني في القول، وقرأ الباقون (فَعَزَّزْنَا) بالتشديد[(٣)]، ومعناه قوينا وشددنا الرسالة برسول ثالث، وذلك أن عيسى بن مريم عليهما السلام رسولين إلى أنطاكية، وإنما كان إرساله بإذن الله عز وجل، فأضاف إليه حيث قال (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) ثم بعث بعد ذلك شمعون، وروي في بعض الروايات أن عيسى عليه السلام أوصى إلى الحواريين أن يتفرقوا في البلدان، ثم رفع عيسى إلى السماء، وكان مجيء الرسل بعدما رفع عيسى، وفي بعض الروايات أنه أرسل الرسل ثم رفع وكان للرسل من المعجزة ما للأنبياء عليهم السلام بدعاء عيسى عليه السلام، فلما جاء الرسولان الأولان ودخلا أنطاكية وجعلا يناديان فيها بالإيمان بالرحمن، يعني يدعوان إلى الإيمان بالله عز وجل ويزجران أهلها عن عبادة الأصنام والشيطان، فأخذوهما شرط الملك، وأتوْا بهما إلى الملك، فلما دخلا على الملك، قالا إن الأوثان التي تعبدون ليست بشيء وإن الهكم الله الذي في السماء، وأن من مات منكم صار إلى النار، فغضب الملك وجلدهما وسجنهما، ثم حضر شمعون، ودخل أنطاكية وجاء إلى السجن فقال للسجان ائذن لي حتى أدخل السجن، فإني أريد أن أدفع إلى كل واحد كسرة خبز، فأذن له فدخل وجعل يعطي لكل واحد كسرة خبز حتى انتهى إلى صاحبيه، فقال لهما إني أريد أن آتي الملك وأطلب فكاكما حتى أخلصكما، فإنكما لم تأتيا الأمر من قبل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه مسلم ٤٦٢/١ كتاب المساجد (٢٨٠ ـ ٦٦٥) وأحمد في المسند ٣٣٣/٣ وأبو عوانة ٣٨٨/١ والطبري في التفسير ١٠٠/٢٢، وأخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ «يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم» البخاري ١٦٦/٢ وفي مسلم (٦٦٢) في المساجد.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٩٧ ـ النشر ٣٥٣/٢.

وجهه، ألم تعلما أنكما لا تطاعان إلا بالرفق واللطف، وأن مثلكما مثل امرأة لم تلد زماناً من دهرها، ثم ولدت غلاماً فأسرعت بشأنه فأطعمته الخبز قبل أوانه فغص بلقمة فمات، فكذلك دعوتكما هذا الملك قبل أوان الدعاء فأصابكما البلاء، ثم انطلق شمعون وتركهما فقعد عند بيت الأصنام حتى إذا دخلوا بيت الأصنام، دخل في صلاتهم، فقام بين يدي تلك الأصنام يصلي ويتضرع ويسجد لله تعالى، ولا يشكون أنه على ملتهم، وأنه إنما يدعو آلهتهم ففعل ذلك أياماً، فذكروا ذلك للملك فدعاه وكلمه وقال له من أين أنت؟ فقال: أنا رجل من بني إسرائيل، وقد انقرض أهلي وكنت بقيتهم وجئت إلى أصحابك آنس بهم وأسكن إليكم، فسأله الملك عن أشياء فوجده (حسن التدبير والرأي) فلبث فيهم ما شاء الله، فلما رأى أمره قد استقام قال يا أيها الملك إنّي قد بلغني أنك سجنت رجلين منذ زمان، يدعوانك إله غير إلهك فهل لك أن تدعوهما فاسمع كلاهما، وأخاصمهما عنك؟ فقال الملك: نعم فدعاهما وأقيما بين يديه فقال لهما شمعون أخبراني عن الهكما؟ فقالا إنه يبرىء الأكمه، والأبرص[1] فدعي برجل ولد أعمى فدعوا الله تعالى فأبصر الأعمى، قال شمعون: فأنا أفعل مثل ذلك فأتي بآخر فدعى شمعون رضي الله عنه فبرىء فقال لهما شمعون لا فضل لكما عليّ بهذا، ثم أتي برجل أبرص فدعوا فبرىء، وفعل شمعون بآخر مثل ذلك، فقال لهما شمعون: فهل عندكما شيء غير هذا؟ فقالا نعم، إن ربنا يحيي الموتى فقال شمعون: أنا لا أقدر على ذلك ثم قال للملك هل لك أن تأتي بالصنم فلعله يحيي الموتى، فيكون لك الفضل عليهما ولإلاهك؟ فقال الملك: إنك تعلم أنه لا يسمع ولا يبصر، فكيف يحيي الموتى؟، ثم قال له شمعون: سلهما هل يستطيعان أن يفعلا مثل ما قالا؟ فقال الملك: إن عندنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام، وكان لأبيه ضيعة قد خرج إليها، وأهله ينتظرون قدومه واستأذنوا في دفنه فأمرتهم أن يؤخروه حتى يحضر أبوه، فأمرهم بإحضار ذلك الميت فلم يزالا يدعوان الله تعالى وشمعون يعينهما بالدعاء في نفسه حتى أحياه الله تعالى، فقال شمعون أنا أشهد أنهما صادقان، وإن إلههما حق، فاجتمع أهل المصر وقالوا: إن كلمتهم كانت واحدة، فرجموهم بالحجارة، وجاء أب الغلام فأسلم، وقتل أب الغلام أيضاً وهو حبيب بن إسرائيل النجار ثم إن الله عز وجل بعث جبريل عليه السلام فصاح صيحة فماتوا كلهم، فذلك قوله تعالى (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿فَقَالُوا﴾ يعني هؤلاء الثلاثة ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وأروهم العلامة.

قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني آدمي مثلنا ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني لم يرسل الرسل من الأدميين ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ بأنكم رسل الله تعالى يعني أرسلكم عيسى بأمر الله تعالى، فأنكروا ذلك ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ يعني أن الرسل قالوا ربنا يعلم ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ يعني أرسلنا عيسى عليه السلام بأمر الله تعالى ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يعني قال أهل أنطاكية إنا تشاءمنا بكم، وهذا الذي

(١) البرص: بياض يقع في الجسد لعلة ـ انظر المعجم الوسيط ١/ ٤٩.

يصيبنا من شؤمكم وهو قحط المطر ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني لنقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ يعني شؤمكم معكم وبأعمالكم الخبيثة، ويقال: إن الذي يصيبكم كان مكتوباً في أعناقكم ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ يعني إن وعظتم بالله، قرأ نافع، وأبو عمرو (آين) بهمزة واحدة ممدودة، وقرأ الباقون بهمزتين، وقرأ زر بن حبيش: إنْ ذكرتم بهمزة واحدة مع التخفيف والفتح[١] يعني: لأنكم وعظتم فلم تتعظوا، ومن قرأ بالاستفهام فمعناه: إن وعظتم تطيرتم، قالوا: هذا جواباً لقولهم إنا تطيرنا بكم، ويقال معناه: أئن ذكرتم، يعني حين وعظتم بالله تشاءمتم بنا، ثم قال ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يعني مشركون.

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ
أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً
إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا
غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن
كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ﴾ يعني من وسط المدينة، وهو حبيب بن إسرائيل النجار ﴿رَجُلٌ يَسْعَى﴾ يعني يسعى في مشيه، وقال بعضهم هو الذي عاش ابنه بعد الموت بدعاء الرسل، فجاء وأسلم، وقال بعضهم: كان ابنه مريضاً فبرىء بدعوة الرسل، فصدق بهم، فلما بلغه أن القوم أرادوا قتل الرسل جاء ليمنع الناس عن قتلهم، وقال قتادة: كان في غار يدعو ربه، فلما بلغه مجيء الرسل أتاهم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ﴾ يعني دين المرسلين، ثم قال للرسل هل تسألون على هذا أجراً؟ فقالوا لا، فقال للقوم: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾[٢] يعني على الإيمان ﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ يدعوكم إلى التوحيد، فقال له قومه: تبرأت عن ديننا واتبعت دين غيرنا فقال ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني خلقني، قرأ حمزة وابن عامر في إحدى الروايتين (وَمَالِي) بسكون الياء، وقرأ الباقون بالفتح[٣]، وهما لغتان وكلاهما جائز ثم قال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني تصيرون إليه بعد الموت، وهذا كقوله «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ» فقالوا له ارجع إلى ديننا، فقال حبيب ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ يعني أعبد من دونه أصناماً ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ يعني ببلاء وشدة إذا فعلت ذلك ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ يعني لا تقدر

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة.

(٣) سئل أبو عمر عن الحكمة في تسكينه «مالي لا أرى» بالنمل وفتحه «مالي لا أعبد». فأجاب بما معناه أن التسكين ضرب من الوقف فلو سكن هنا لكان كالمستأنف بـ «لا أعبد» وفيه مافيه ولا كذلك موضع النمل انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٩٩.

الآلهة أن يشفعوا لي ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ يعني لا يدفعون عني الضرر ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني إني إذا فعلت ذلك لفي خسران بين ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يعني فاشهدوني وأعينوني بقول: لا إله إلا الله وقال ابن عباس: ألقي في البئر، وهو الرس، كما قال (وَأَصْحَابُ الرَّسِ)، وقال قتادة قتلوه بالحجارة وهو يقول: رب اهد قومي فإنهم لا يعلمون[١]، وقال مقاتل أخذوه ووطؤوه تحت أقدامهم حتى خرجت أمعاؤه ثم ألقي في البئر، وقتلوا الرسل الثلاثة فلما ذهب بروح حبيب النجار إلى الجنة فـ ﴿قِيلَ﴾ له ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وذلك حين دخلها وعاين ما فيها من النعيم، تمنى أن يسلم قومه، فقال (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بما غفر لي ربي) بالذي غفر لي ربي، ويقال: بمغفرتي، ويقال: بماذا غفر لي ربي، فلو علموا لآمنوا بالرسل، ثم قال ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي الموحدين في الجنة نصح لهم في حياته، وبعد وفاته، يقول الله تعالى ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني من بعد حبيب النجار (من جند) من السماء يعني الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يعني لم نبعث إليهم أحداً ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني ما كانت إلا صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ يعني ميتون لا يتحركون ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ يعني يا ندامة على العباد في الآخرة، يعني يقولون يا حسرتنا على ما فعلنا بالأنبياء عليهم السلام ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ثم خوف المشركين بمثل عذاب الأمم الخالية ليعتبروا، فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني ألم يعلموا، ويقال: ألم يخبروا كم أهلكنا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ يعني كم عاقبنا من القرون الماضية ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الدنيا ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قرأ عاصم وحمزة وابن عامر، بتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف[٢]، فمن قرأ بالتشديد فمعناه: وما كل إلا جميع، ومن قرأ بالتخفيف فما: زائدة ومؤكدة، والمعنى وإن كل لجميع لدينا محضرون، يعني يوم القيامة محضرون عندنا، ثم وعظهم كي يعتبروا من صنعه، فيعرفوا توحيده.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ يعني علامة وحدانيته ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ يعني الأرض اليابسة أحييناها بالمطر لتنبت ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ يعني الحبوب كلها ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ يعني وخلقنا في الأرض ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني البساتين والكروم ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ يعني أجرينا في الأرض الأنهار تخرج من العيون ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ يعني من الثمرات ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني لم تعمل أيديهم، ويقال: والذي عملت أيديهم مما يزرعون ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعم فيوحدوه، وقرأ حمزة والكسائي (ثُمُره) بالضم، وقرأ الباقون بالنصب، والثَّمر بالنصب[٣]: جماعة الثمرة، والثمرات جمع الجمع وهو الثمر، مثل كتاب وكتب، والثُّمر بالضم: جمع الثمار، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (وَمَا عَمِلَتْ) بغير هاء، وقرأ الباقون بالهاء[٤]، ومعناهما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦١ نفس التخريج السابق.

(٢) انظر حجة القراءات ٥٩٧ النشر ٢/٣٥٣.

(٣) انظر المصدران السابقان.

(٤) حجة من قرأ بالهاء أنها كذلك في مصاحفهم فالهاء عائدة على (ما) و (ما) في معنى الذي. وموضع (ما) خفض نسقاً على ثمرة=

واحد، ثم قال (أَفَلاَ يَشْكُرُونَ) اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الأمر، يعني اشكروا رب هذه النعم ووحدوه.

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾ يعني تنزيهاً لله عز وجل الذي خلق الأصناف كلها ﴿**مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ**﴾ يعني ألواناً من النبات، والثمار، ففي كل شيء خلق الله تعالى دليلاً على وحدانيته تعالى وربوبيته ﴿**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ يعني خلق من جنسهم أصناف الذكر والأنثى، وألواناً مختلفة ﴿**وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ يعني وخلق من الخلق ما لا يعلمون، وهذا كقوله (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) ثم ذكر لهم دلالة أخرى ليعتبروا بها فقال عز وجل ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ**﴾ يعني علامة وحدانيته الليل ﴿**نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾ يعني نخرج ونميز منه النهار ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ يعني داخلون في الظلمة، ويقال: يبقون في الظلمة، ويقال: إن الله خلق الدنيا مظلمة، ثم قال ﴿**وَالشَّمْسُ**﴾ سراجاً، فإذا طلعت الشمس صارت الدنيا مضيئة، وإذا غربت الشمس بقيت الظلمة كما كانت، وهو قوله تعالى (نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ) يعني ننزع الضوء منه (فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ) يعني يبقون في الظلمة، ويقال: نسلخ الليل يعني نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى منه شيء من ضوء النهار، كما نسلخ الليل من النَّهار، فكذلك نسلخ النهار من الليل، فكأنه يقول: الليل نسلخ منه النهار، والنهار نسلخ منه الليل، فاكتفى بذكر أحدهما لأن في الكلام دليلاً، وقد ذكر في آية أخرى قال (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ثم قال عز وجل والشمس ﴿**تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا**﴾ قال مقاتل: يعني لوقت لها، وقال الكلبي: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها ولا تتجاوزها، ثم ترجع إلى أول منازلها، وقال القتبي (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا) يعني إلى مستقر لها، ومستقرها أقصى منازلها في الغروب، وذلك لأنها لا تزال تتقدم في كل ليلة حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها، ثم ترجع، فذلك مستقرها لأنها لا تجاوزها، وطريق آخر ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال كنت جالساً مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند غروب الشمس، فقال: يا أبا ذر: أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تغرب، وتذهب حتى تسجد تحت العرش وتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها حتى تستشفع وتطلب، فإذا طال عليها قيل لها اطلعي

= المعنى: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم قال الزجاج: ويجوز أن يكون (ما) نفياً وتكون الهاء عائدة على (الثمر) فلا موضع لـ (ما) حينئذ ويكون المعنى: ليأكلوا من ثمره ولم تعمله أيديهم قال السدي قوله: ﴿**وما عملته أيديهم**﴾ **يقول**: نحن عملناه نحن أنبتناه ولم يعملوه هم ويقوي النفي قوله: ﴿**أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون**﴾ ويقوي إثبات الهاء قوله تعالى: ﴿**كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان**﴾ ولم يقل (يتخبط) فكذلك قوله: (عملته) وحجة من حذف الهاء إجماع الجميع على حذف الهاء في قوله ﴿**مما عملت أيدينا أنعاماً**﴾ و (ما) في قوله ﴿**ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم**﴾ قال الزجاج: إذا حذفت الهاء فالاختيار أن يكون (ما) في موضع خفض فيكون في معنى (الذي) فيحسن حذف الهاء. واعلم أن العرب تضمر الهاء عائدة على (من) و (الذي) و (ما) وأكثر ما جاء في التنزيل من هذا على حذف الهاء كقوله: ﴿**أهذا الذي بعث الله رسولاً**﴾. أي بعثه الله وقال: (وسلام على عباده الذين اصطفى) أي: اصطفاهم وقال: ﴿**لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم**﴾ ومنهم من كلم الله أي كلمه الله وكل هذا على إرادة الهاء وإنما حذفوا اختصاراً وإيجازاً. انظر حجة القراءات ٥٩٨، ٥٩٩.

مكانك[١] فذلك قوله (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) قال مستقرها تحت العرش ثم قال ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ العزيز بالنقمة، العليم بما قدره من أمرها وخلقها، وروى عمرو بن دينار، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «والشَّمْسُ تَجْرِي لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا»[٢] يعني لا تقف ولا تستقر، ولكنها جارية أبداً ثم قال عز وجل ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (وَالْقَمَرُ) بالضم، وقرأ الباقون بالنصب[٣]، فمن قرأ بالضم فله وجهان أحدهما أن يكون على الابتداء، والآخر معناه وآية لهم القمر، عطف على قوله (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ) ومن قرأ بالنصب فمعناه: وقدرنا القمر، وقال مقاتل في قوله (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) يعني قدرناه منازل في السماء يبدو رقيقاً، ثم يستوي، ثم ينقص في آخر الشهر، وقال الكلبي (قدرناه منازل) أي قدرناه منازل بالليل، ينزل كل ليلة في منزل، ويصعد في منزل حتى ينتهي إلى مستقره الذي لا يجاوزه، ثم يعود إلى أدنى منازله، ويقال: إن القمر يدور في منازله في شهر واحد، مثل ما تدور الشمس في منازلها في سنة واحدة، قال مقاتل وذلك أن القمر عرضه ثمانون فرسخاً مستديرة، والشمس هكذا، وكان ضوؤهما واحداً، فأخذ تسعة وتسعون جزءاً من القمر فألحقت بالشمس، وروي عن ابن عباس أنه قال: القمر أربعون فرسخاً في أربعين فرسخاً، والشمس ستون فرسخاً في ستين فرسخاً، وقال بعضهم: القمر والشمس عرض كل واحد منهما مثل الدنيا كلها، ثم قال تعالى ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ[٤] الْقَدِيمِ﴾ يعني صار كالعذق[٥] اليابس المنقرس الذي حال عليه الحول، ويقال: للقمر ثمانية وعشرون منزلاً، فإذا صار في آخر منازله دق حتى يعود كالعذق اليابس، والعرجون إذا يبس: دق واستقوس فشبه القمر به، يعني صار في عين الناظر كالعرجون، وإن كان هو في الحقيقة عظيم بنفسه، إلا أنه في عين الناظر يراه دقيقاً ثم قال عز وجل ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ يعني أن تطلع في سلطان القمر، وقال عكرمة: لكل واحد منهما سلطان، للشمس سلطان بالنهار، وللقمر سلطان بالليل، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل[٦] ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يعني لا يدرك سواد الليل ضوء النهار فيغلبه على ضوئه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني في دوران يجرون ويدورون، ويقال «يسبحون» يعني يسيرون فيه بالانبساط، وكل من انبسط في شيء فقد سبح فيه، وقال بعضهم: السماء كالموج المكفوف[٧] والشمس والقمر والكواكب الدوارة يسبحون فيها، وقال بعضهم الأفلاك كثيرة، مختلفة في السير، تقطع القمر في ثمانية وعشرين يوماً، والشمس تقطع في سنة، وقال بعضهم: الفلك واحد، وجريهن مختلف، والفلك في اللغة[٨]: كل ما يدور.

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٣ وعزاه لعبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن أبي حاتم وابن الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات والحديث عند البخاري في ٨/٤٠٢ (٤٨٠٢) وعند الترمذي ٥/٣٣٩ (٣٢٢٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٣ وعزاه لأبي عبيد في فضائله وابن الأنباري في المصاحف وأحمد.

(٣) انظر حجة القراءات ٥٩٩ ـ النشر ٢/٣٥٣.

(٤) العرجون: العذق عامة، وقيل: هو أصل العذق إذا يبس واعوج، وقيل: هو أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ ـ انظر لسان العرب ٤/٢٨٧١.

(٥) العذق كل غصن له شعب ـ انظر لسان العرب ٤/٢٨٦١.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٤ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) كففته عنه: دفعته وصرفته عنه ـ انظر ترتيب القاموس ٤/٦٦.

(٨) انظر لسان العرب ٥/٣٤٦٤.

نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ يعني علامة لكفار مكة على معرفة وحدانية الله تعالى ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يعني آباءهم، واسم الذرية: يقع على الآباء والنسوة والصبيان، وأصله الخلق، كقوله عز وجل (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً) يعني خلقنا، ويقال: ذريتهم خاصة، ثم قال ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني في سفينة نوح عليه السلام الموقرة، المملوءة، يعني حملنا ذريتهم في أصلاب آبائهم، قرأ نافع وابن عامر «ذُرِّيَاتِهِمْ» بلفظ الجماعة، وقرأ الباقون (ذُرِّيَّتَهُمْ)(١) وأراد به الجنس ثم قال عز وجل ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ يعني من مثل سفينة نوح عليه السلام ما يركبون في البحر، وقال قتادة يعني الإبل يركب عليها في السير كما تركب السفن في البحر، وقال السدي (وَخَلَقْنَا لَهُم مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) فقال هذه السفن الصغار، يعني الزوارق، وقال عبد الله بن سلام: هي الإبل، قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الثقة بإسناده عن أبي صالح قال: قال لي ابن عباس: ما تقول في قوله (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ) قلت: هي السفن، قال: خذ مني بآذان إنما هي الإبل، فلقيني بعد ذلك فقال: إني ما رأيتك إلا وقد غلبتني فيها، هي كما قلت، ألا ترى أنه يقول ﴿وَإِن نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾(٢) يعني إن نشأ نغرقهم في الماء ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ يعني لا مغيث لهم ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ يعني لا يمنعون فلا ينجون من الغرق قوله عز وجل ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ يعني إلا نعمة منا حين لم نغرقهم، ويقال معناه: لكن رحمة منا بحيث لم نغرقهم ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ يعني بلاغاً إلى آجالهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ يعني: ما بين أيديكم من أمر الآخرة. فاعملوا لها، وما خلفكم من أمر الدنيا فلا تغتروا بها، وقال مقاتل: اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ) لكيلا يصيبكم مثل عذاب الأمم الخالية (وَمَا خَلْفَكُمْ) يعني :واتقوا مابين أيديكم أي :من عذاب الآخرة، والأول قول الكلبي ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يعني: لكي ترحموا فلا تعذبوا ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِن آيَةٍ مِن آياتِ رَبِّهِمْ﴾ مثل انشقاق القمر ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني: مكذبين، وهذا جواب لقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُم وَمَا خَلْفَكُم﴾ الآية، ثم أخبر عن حال زنادقة الكفار فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني: تصدقوا من المال

(١) انظر حجة القراءات (٦٠٠) النشر ٢/٣٥٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٤ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

الذي أعطاكم الله عز وجل. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على وجه الاستهزاء منهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: في خطأ بين، قال بعضهم هذا قول الكفار الذين أمرهم بالنفقة وقال بعضهم: هذا قول الله تعالى يعني قل لهم يا محمد، إن أنتم إلا في ضلال مبين، وروي عن ابن عباس مثل هذا ثم قال عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: متى هذا الوعد الذي تعدونا به يوم القيامة إن كنتم صادقين بأنا نبعث بعد الموت فيقول الله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ بالعذاب ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني: لا حظر لإهلاكهم فليس إلا صيحة واحدة ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر، يخصمون بكسر الياء والخاء، وقرأ نافع يخصمون بنصب الياء وسكون الخاء وقرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص وابن عامر في إحدى الروايتين بنصب الياء وكسر الخاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بنصب الياء والخاء وقراءة حمزة (يَخْصِمُونَ) بنصب الياء وجزم الخاء بغير تشديد[1]، ومعناه تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً، ومن قرأ بالتشديد فالأصل فيه يختصمون فأدغمت التاء في الصاد وشددت ومن قرأ بنصب الخاء طرح فتحة التاء على الخاء، ومن قرأ بكسر الخاء فلسكونها وسكون الصاد. وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص لينفخن في الصور والناس في طرقهم وأسواقهم حتى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله واحد منهما حتى ينفخ في الصور فيصعق به، وهي التي قال الله تعالى: (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُم يَخِصِّمُونَ) قال الفقيه أبو الليث رحمه الله وأخبرني الثقة بإسناده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فلا يطويانه ولا يتبايعانه، وتقوم الساعة والرجل يحلب الناقة فلا يصل الإناء إلى فيهِ، وتقوم الساعة وهو يلوط[2] الحوض فلا يسقي فيه ثم قال[3] تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ يعني: يموتون من ساعتهم بغير وصية فلا يستطيعون أن يوصوا إلى أهلهم بشيء ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: ولا إلى منازلهم يرجعون من الأسواق. فأخبر الله تعالى بما يلقون (في النفخة الأولى) ثم أخبر بما يلقون في النفخة الثانية يعني: إذا بعثوا من قبورهم بعد الموت، فذلك قوله ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يعني: يخرجون من قبورهم أحياء وكان بين النفختين أربعين عاماً في رواية ابن عباس وقيل أكثر من ذلك، ورفع العذاب عن الكفار بين النفختين، فكأنهم رقدوا فلما بعثوا ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنَا﴾ يعني: من أيقظنا من منامنا قال: فيقول لهم الحفظة من الملائكة ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ على ألسنة الرسل ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ بأن البعث حق، ويقال إن المؤمنين هم الذين يقولون (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) بأن البعث كائن.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

(١) انظر حجة القراءات (٦٠٠) النشر ٢/٣٥٣.

(٢) لاط الوض بالطين: طلاه وملسه به ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٨٥٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٥ وعزاه لسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن المنذر وأبي الشيخ.

ثم قال عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ قال الكلبي يعني في الآخرة، وقال مقاتل في بيت المقدس «لحسابهم» ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ يعني: يوم القيامة لا تنقص نفس مؤمنة ولا كافرة من أعمالهم شيئاً ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ﴾ يعني: ولا تثابون ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ثم قال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ يعني: يوم القيامة في شغل مما هم فيه أي عن الذي هم فيه فاكهون يعني ناعمين، قرأ ابن كثير، ونافع وأبو عمرو (في شغل) بجزم الغين وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان، يقال شغْل وشغُل مثل عُذْر وعذُر وعمْر وعمر، قرأ أبو جعفر المدني (فكهون) بغير ألف. وقراءة العامة (فاكهون) بالألف[1] فمن قرأ بغير ألف يعني: يتفكهون، قال أبو عبيد يقال للرجل إذا كان يتفكه بالطعام أو بالشراب، أو بالفاكهة، أو بأعراض الناس إن فلاناً يتفكه، ومنه يقال للمزاحة فكاهة، ومن قرأ بالألف يعني ذوي فاكهة وقال الفراء: فاكهة، وفكهة لغتان، كما يقال حذر وحاذر، وروي في التفسير (فاكهون) يعني ناعمون، وفكهون: معجبون، وقال الكلبي ومقاتل في قوله: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) الآية، يعني شغلوا بالنعيم في افتضاض لأبكار العذارى[2] عن أهل النار فلا يذكرونهم، يعني معجبين بما هم فيه من النعم والكرامة، قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: حدثنا محمد بن الفضل بإسناده عن عكرمة في قوله (فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) قال في افتضاص الأبكار[3]، وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: إن الرجل ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع، فقال رجل من أهل الكتاب إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة فقال الرسول يفيض من جسد أحدهم عرق مثل المسك الأذفر فيضمر بذلك بطنه»[4]، ثم قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي (فِي ظُلَلٍ) وقرأ الباقون (فِي ظِلَالٍ)[5]، فمن قرأ (فِي ظُلَلٍ) فهو جمع الظلة، يقال ظلة وظلل، مثل حلة وحلل، ومن قرأ بكسر الظاء فهو جمع الظل، يعني هم في ظلال العرش والشجر، ويقال معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد، يعني إن أهل الجنة هم وأزواجهم الحور العين في القصور ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ يعني: على السرر عليها الحجال، وروى مجاهد عن ابن عباس قال: الأرائك سرر في الحجال، وقال الكلبي: لا تكون أريكة إلا إذا اجتمعتا، فإذا تفرقا فليست بأريكة (مُتَّكِئُونَ) أي ناعمون، وإنما سمي هذا لأن الناعم يكون متكئاً، ثم قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ يعني: لهم في الجنة من أنواع الفاكهة ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يعني: ما يتمنون مما يشتهوا من الخير ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ يعني: يرسل إليهم ربهم بالتحية والسلام، والعرب تقول: ادّعي ما شئت يدعون: يتمنون فقوله عز وجل: «سلام قولا» يعني: يقال لهم سلام، كأنهم يتلقونه بالسلام من رب رحيم، ويقال (وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلَامٌ) يعني: لهم ما يشاؤون خالصاً، ثم قال: (قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ).

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا

---

(١) انظر النشر ٢/٣٥٣.

(٢) العذراء: البكر الجمع عذارى وعذار، والعذرة: البكارة ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٥٩٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٦ وعزاه لعبد بن حميد عن عكرمة وقتادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/١١٦.

(٥) حجة حمزة إجماع الجميع على قوله «في ظلل من الغمام» وقال «ظلل من النار» فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى وحجة الباقين قوله «يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل» انظر حجة القراءات ٦٠١.

تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾

يقول الله تعالى: [«وامتازوا اليوم» وذلك أنه إذا كان يوم نادى مناد][1] ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني: اعتزلوا أيها الكفار من المؤمنين فإنهم قد تأذوا منكم في الدنيا فاعتزلوهم حتى ينجوا منكم ويقال: إن المنادي ينادي أيها المجرمون امتازوا فإن المؤمنين قد فازوا، وأيها المنافقون امتازوا فإن المخلصين قد فازوا، ويا أيها الفاسقون امتازوا فإن الصالحين قد فازوا، ويا أيها العاصون امتازوا فإن المطيعين قد فازوا، ثم يقول للكفار والمنافقين بعدما امتازوا ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: ألم أتقدم إليكم، ويقال: ألم أبين لكم في القرآن، ويقال: ألم أوضح لكم (يَا بَنِي آدَمَ) بالكتاب والرسل. وقال القتبي: العهد يكون لمعان: يكون للأمانة كقوله: «فَأَتِمُّوا إِلَيْهِم عَهْدَهُمْ»: ويكون لليمين ويكون للميثاق، ويكون للزمان، كما يقال: كان ذلك في عهد فلان: أي في زمانه ويكون العهد للوصية كقوله ﴿أَلَمْ أَعْهَد إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ يعني: أن لا تطيعوا الشيطان، قال ابن عباس من أطاع شيئاً فقد عبده ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: بين العداوة ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: أطيعوني ووحدوني يعني: هذا التوحيد طريق مستقيم ويقال دين الإسلام هو طريق مستقيم لا عوج فيه وهو طريق الجنة قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً﴾ يعني: خلقاً كثيراً، وقرأ نافع وعاصم (جِبِلا) بكسر الجيم والباء والتشديد، وقرأ أبو عمرو وابن عامر (جبلا) بضم الجيم وجزم الباء، والباقون بضم الجيم والباء[2]، ومعنى ذلك كله واحد، وقال أهل اللغة:[3] الجبل والجبلة كله بمعنى واحد، يعني الناس الكثير ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ ما فعل بمن كان قبلكم فتعتبروا فلم تطيعوه، فلما دنوا من النار قال لهم خزنتها ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا فلم تصدقوا بها ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُونَ﴾ يعني: اصلوها اليوم بما كفرتم في الدنيا عقوبة لكم في الدنيا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِم عَلَى أَفْوَاهِهِم﴾ وذلك حين قالوا: «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يعملون من الشرك والمعاصي ثم قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ قال مقاتل: يعني لو نشاء لحولنا أبصارهم من الضلالة إلى الهدى ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ يعني: ولو طمست الكفر لاستبقوا الصراط، أي لجازوا الطريق ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ يعني: فمن أين يبصرون الهدى بعدما جعلت قلوبهم قاسية، وجعلت على أعمالهم غطاء وَأَكِنَّةً على قلوبهم قال الكلبي: ولو نشاء لفقأنا أعين الضلالة فأبصروا الهدى واستبقوا الطريق (فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) الطريق، ويقال: فأنى يبصرون الهدى، وقال بعضهم ولو نشاء لأعمينا أبصارهم في أسواقهم ومجالسهم كما فعلنا بقوم لوط عليه السلام حين كذبوه وراودوه عن ضيفه (فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ) يعني: فابتدروا الطريق هرباً إلى منازلهم ولو فعلنا ذلك بهم.

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذلك أنه جمع جبيلاً، وجبيل معدول عن «مجبول» مثل قتيل من مقتول وصريع من مصروع ثم جمع الجبيل جبلاً كما يجمع السبيل سبلاً والطريق طرقاً وقالوا: لا ضرورة إلى إسكان حرف مستحق للتحريك /انظر حجة القراءات ٦٠٢ ـ النشر ٢/٣٥٥ إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٠٣.

(٣) انظر لسان العرب ١/٥٣٨.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ**﴾ يعني: إن شئت لمسختهم حجارة في منازلهم، ليس فيها أرواح ﴿**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾ ولا يتقدمون ولا يتأخرون. وهذا قول مقاتل. وقال الكلبي: لو نشاء لجعلناهم قردة وخنازير (فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً) يعني: فما قدروا ذهاباً ولا يرجعون قوله عز وجل ﴿**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ**﴾ يعني: من أطلنا عمره في الدنيا ﴿**نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ**﴾ يعني: نرده إلى أرذل العمر فلا يعقل فيه كعقله الأول. قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (نُنَكِّسْهُ) بضم النون الأولى ونصب الثانية وكسر الكاف مع التشديد وقرأ الباقون (نَنْكِسه) بنصب النون الأولى وجزم الثانية وضم الكاف والتخفيف[1]، ومعناهما واحد يقال نكسَه ونكّسَه وأنكسه بمعنى واحد، ومعناه من أطلنا عمره نكسنا خلقه، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (مكاناتهم) وقرأ الباقون (مكانتهم)[2] والمكانة والمكان واحد، مثل المنزل والمنزلة، والمكانات جمع المكانة ثم قال: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ يعني: أفلا تفهمون أن الله هو الذي يفعل ذلك فتوحدوه وليس لمعبودهم قدرة على ذلك. قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة وقرأ الباقون بالياء[3] على معنى الخبر وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة (وَأَنِ اعْبُدُونِي) بالياء وقرأ الباقون بغير ياء لأن الكسر يدل عليه ثم قال عز وجل: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**﴾ جواباً لقولهم إنه شاعر، يعني أرسلنا إليه القرآن ولم نرسل إليه الشعر ﴿**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾ يعني: لم يكن أهلاً لذلك وقال: ما يسهل له، وما يحضره الشعر ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾ يعني: ما هو إلا عظة وقرآن مبين يعني: يبين الحق من الضلالة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: سألت عائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان أبغض الحديث إليه الشعر، ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس بن طرفة.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول ويأتيك بالأخبار من لم تزود بالأخبار، فقال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال لست بشاعر ولا ينبغي لي أن أتكلم[4] بالشعر، فإن قيل روي عنه أنه كان يتكلم بالشعر لأنه ذكر أنه قال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وذكر أنه عثر يوماً فدميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي كتاب الله ما لقيت[5]

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٠٣ ـ النشر ٢/٣٥٥.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٠٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه البخاري ٦/١٩ كتاب الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم ٣/١٤٢١، كتاب الجهاد (١١٢ ـ ١٧٩٦).

وذكر أنه قال يوم الخندق:

بسم الإله وبه هدينا ولو عبدنا غيره شقينا[١]

قيل له هذه كلمات تكلم بها فصارت موافقة للشعر وليست بشعر. ثم قال عز وجل: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً﴾ يعني: من كان مؤمناً لأن المؤمن من هو الذي يقبل الإنذار. ويقال من كان حياً يعني: عاقلاً راغباً في الطاعة. قرأ نافع وابن عامر (لتنذر) بالتاء على معنى المخاطبة يقول لتنذر يا محمد، وقرأ والباقون بالياء[٢] على معنى الخبر عنه. يعني: لتنذر يا محمد. ويقال يعني: لتنذر بالقرآن من كان مهتدياً في علم الله تعالى الأزلي ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ يعني: وجب العذاب ﴿عَلَى الكَافِرِينَ﴾ يعني: قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) ثم وعظهم ليعتبروا.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

فقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ يعني: أولم ينظروا فيعتبروا فيما أنعم الله عز وجل عليهم قوله ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً﴾ يعني: أنا خلقنا لهم بقوتنا وبقدرتنا وبأمرنا (أنعاماً) يعني: الإبل والبقر والغنم ﴿فَهُم لَهَا مَالِكُونَ﴾ يعني: الأنعام وقال قتادة: يعني ما في بطونها ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُم﴾ يعني: سخرناها لهم فيحملون عليها ويسوقونها حيث شاؤوا فلا تمتنع منهم ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ في انتفاعهم وحوائجهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ من الإبل والبقر والغنم ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ يعني: في الأنعام ﴿مَنَافِعُ﴾ في الركوب والحمل والصوف والوبر ﴿وَمَشَارِبُ﴾ يعني: ألبانها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ رب هذه النعمة فيوحدونه، يعني: اشكروا ووحدوا ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ يعني: تركوا عبادة رب هذه النعم وعبدوا الآلهة ﴿لَعَلَّهُم يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لعل هذه الآلهة تمنعهم من العذاب في ظنهم يقول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُم﴾ يعني: منعهم من العذاب ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ يعني: الكفار للأصنام جند يتعصبون لها ويحضرونها في الدنيا للآلهة، ويقال: وهم لهم جند محضرون يعني لآلهتهم كالعبيد والخدم، قيام بين أيديهم، وقال الحسن (وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ) في الدنيا (مُحْضَرُونَ) في النار ثم قال عز وجل: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: لا يحزنك يا محمد تكذيبهم إياك ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من التكذيب ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: ما يظهرون لك من العداوة.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) أخرجه البيهقي عن سلمان رضي الله عنه وذكره الصالحي في سبل الهدى والرشاد ٤/ ٥١٧ وذكره بعده يا حبذا رباً وحب ديناً.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٠٣.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ
أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

قوله عز وجل: **﴿أولم يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾** روى سفيان عن الكلبي عن مجاهد قال أتى أبيّ بن خلف الجمحي إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعظم بالي قد أتى عليه حين، فقام ففته بيده ثم قال يا محمد أتعدنا أنا إذا متنا وكنا مثل هذا[1] بعثنا؟ فأنزل الله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ) الآية وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه قال: لما ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرون الماضية أنهم يبعثوا بعد الموت، وأنكم يا أهل مكة معهم، فأخذ أبي بن خلف الجمحي عظماً بالياً فجعل يفته بيده ويذروه في الرياح، ويقول عجباً يا أهل مكة إن محمداً يزعم أنا إذا متنا وكنا عظاماً بالية مثل هذا العظم وكنا تراباً، أنا نعاد خلقاً جديداً، وفينا الروح، وذلك ما لا يكون[2] أبداً. فنزل (أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ) يعني: أولم يعلم هذا الكافر أنا خلقناه أول مرة من نطفة **﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾** جدل بالباطل، ويقال: خصيم بيِّن الخصومة فيما يخاصم، مبين أي بين **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾** يعني: وصف لنا شبهاً في أمر العظام. ويقال وصف لنا بالعجز **﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾** يعني: وترك ابتداءه حين خلقه من نطفة، ويقال ترك النظر في خلق نفسه فلم يعتبر **﴿وَقَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾** يعني: بالية، والرميم: العظم البالي. يقال رم العظم إذا بلي قال الله تعالى: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** يعني: قل يا محمد يحيي العظام الذي خلقها أول مرة، يعني: في أول مرة ولم يكن شيئاً ثم قال عز وجل: **﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾** يعني: عليم بخلقهم وببعثهم، ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا في البعث فقال: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾** يعني: قل يا محمد العظام يحييها (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ) **﴿مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾** قال الكلبي كل شجرة يقدح منها النار إلا شجرة العناب فمن ذلك القصارون يدقون عليه (فَإِذَا أَنتم مِنه تُوقِدُونَ) يعني: تقدحون يعني: فهو الذي يقدر على أن يبعثكم ثم قال عز وجل: **﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾** وهي أعظم خلقاً **﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾** في الآخرة. والكلام يخرج على لفظ الاستفهام ويراد به التقرير. ثم قال **﴿بَلَى﴾** هو قادر على ذلك **﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾** يعني: الباعث العليم ببعثهم قوله عز وجل: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً﴾** من أمر البعث وغيره **﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** خلقاً. قرأ ابن عامر والكسائي فيكون بالنصب[3] وقد ذكرناه في سورة البقرة **﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾** يعني: خلق كل شيء من البعث وغيره. ويقال خزائن كل شيء، ويقال له القدرة على كل شيء **﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم. قال حدثنا الفقيه أبو الليث رحمه الله قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن حمدان، بإسناده عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس فمن قرأ يس يريد بها وجه الله تعالى غفر له وأعطي من الأجر كمن قرأ القرآن اثني عشرة مرة، وأيما مسلم قرئت عنده سورة يس حين ينزل به ملك الموت ينزل إليه بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون قبضه، ويشهدون غسله ويشيعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون

---

(١) انظر تفسر ابن كثير ٦/٥٧٩ ـ تفسير القرطبي ١٥/٤٠.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٦٩ وعزاه لابن مردويه.
(٣) انظر النشر في القراءات ٢/٣٥٦ ـ حجة القراءات (٦٠٣).

دفنه، وأيما مسلم مريض قرئ عنده سورة يس وهو في سكرات الموت لا يقبض ملك الموت روحه حتى يجيء رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه عليه السلام وهو ريان ويدخل قبره وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان ويخرج من القبر وهو ريان ويحاسب وهو ريان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء عليهم السلام حتى يدخل الجنة وهو ريان[١] (والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأوَّاب وعلى آله وسلم)[٢].

(١) أخرجه الترمذي ٥/١٥٠ (٢٨٨٧) والدارمي ٢/٤٥٦ من طريق حميد بن عبد الرحمن عن الحسن بن صالح عن هارون أبي محمد عن مقاتل بن حبان عن قتادة عن أنس مرفوعاً وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وهارون أبو محمد مجهول وفي الباب عن أبي بكر الصديق ولا يصح، وإسناده ضعيف. ونقل المنذري في الترغيب ٢/٣٢٢ وابن كثير في التفسير ٣/٥٦٣ والحافظ في التهذيب أنه قال حديث غريب ليس في نقلهم عنه أنه حسنه وفي إسناده هارون وهو متهم.

(٢) سقط في ظ.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ (١)

وهي مائة واثنتان وثمانون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ ۝٥

قوله تبارك وتعالى ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا) قال أقسم الله تعالى بصفوف الملائكة الذين في السموات، كصفوف المؤمنين في الصلاة. ويقال يعني صفوف الغزاة في الحرب كقوله عز وجل: (صَفاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مرصوص) ويقال: بصفوف الأمم يوم القيامة لقوله عز وجل (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً) ويقال: صف الطيور بين السماء والأرض صافات بأجنحتها لقوله (والطَّيْرُ صَافَّاتٍ) ويقال: صفوف الجماعات في المساجد، وفي الآية بيان فضل الصفوف، حيث أقسم الله بهن، ثم قال عز وجل ﴿**فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً**﴾ يعني: الملائكة الذين يزجرون السحاب ويؤلفونه ويسوقونه إلى البلد الذي لا مطر بها، ويقال (فَالزَّاجِرَاتِ) يعني فالدافعات وهم الملائكة الذين يدفعون الشر عن بني آدم موكلون بذلك ويقال فالزاجرات يعني ما زجر الله تعالى في القرآن بقوله: (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا) (وَلَا تَأْكُلوا أَمْوَالَهُم إِلَى أَمْوَالِكُم) ويقال هي التوراة والإنجيل، والزبور،

---

(١) من أغراض السورة إثبات وحدانية الله تعالى وسوق دلائل كثيرة على ذلك دلت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكانها ولا قبل لمن على الأرض أن يتطرق في ذلك. وإثبات أن البعث يعقبه الحشر والجزاء. ووصف حال المشركين يوم الجزاء ووقوع بعضهم في بعض. ووصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم. ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام. ثم انتقل إلى تنظير دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه بدعوة الرسل من قبله وكيف نصر الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم وأدمج في خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوتهم في دين الله وما نجاهم الله من الكروب التي حفت بهم. وخاصة منقبة الذبيح والإشارة إلى أنه إسماعيل. ووصف ما حلَ بالأمم الذين كذبوهم. ثم الإنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في الله ونسبتهم إليه الشركاء. وقولهم: الملائكة بنات الله وتكذيب الملائكة إياهم على رؤوس الأشهاد. وقولهم في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكيف كانوا يودون أن يكون لهم كتاب. ثم وعد الله رسوله بالنصر كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين وأن عذاب الله نازل بالمشركين وتخلص العاقبة الحسنى للمؤمنين. وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن القسم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية لأن الأصنام لم يدعوا لها ملائكة والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق ويؤذن القسم بأنها أشرف المخلوقات العلوية. ثم إن الصفات التي لوحظت لفي القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها في (الصافات) يناسب عظمة ربها (الزاجرات) يناسب قذف الشياطين عن السماوات ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضاً ويناسب زجرها الناس في الحشر. ﴿**والتاليات ذكراً**﴾ يناسب أحوال الرسول والرسل عليهم الصلاة والسلام وما أرسلوا به إلى أقوامهم. هذا وفي الافتتاح بالقسم تشويق إلى معرفة المقسم عليه ليقبل عليه السامع بشراشره. فقد استكملت فاتحة السورة أحسن وجوه البيان وأكملها. انظر التحرير ٢٣/٨١، ٨٢، ٨٣.

والفرقان، وما كان من عند الله من كتب ويقال: فالزاجرات زجراً، يعني هم الأنبياء والرسل، والعلماء، يزجرون الناس عن المعاصي، والمناهي، والمناكر ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ يعني: الملائكة، وهو جبريل يتلو القرآن على الأنبياء، ويقال: هم المؤمنون الذين يقرأون القرآن، ويقال: فالتاليات ذكراً، قال هم الصبيان يتلون في الكتاب من الغدوة إلى العشية[١]، كان الله تعالى يحول العذاب عن الخلق ما دامت تصعد هذه الأربعة إلى السماء، أولها أذان المؤذنين والثاني تكبير المجاهدين، والثالث تلبية الملبين، والرابع صوت الصبيان في الكتاب وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال (وَالصَّافَاتِ صَفّاً) قال الملائكة (فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً) قال الملائكة (فَالْتَالِيَاتِ ذِكْراً) قال الملائكة[٢]، وهكذا قال مجاهد[٣] قد أقسم الله بهذه الأشياء ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ويقال: أقسم (بنفسه فكأنه يقول وخالق هذه الأشياء إن إلهكم لواحد يعني: ربكم، وخالقكم)[٤] ورازقكم لواحد ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ يعني: الذي خلق السموات ﴿وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من خلق ﴿وَرَبُّ المَشَارِقِ﴾ يعني: مشرق كل يوم (وقال في آية أخرى (رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المغْرِبَين) أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف وقال في هذه السورة (رَبُّ المَشَارِقِ) [٥] أي مشرق كل يوم.

إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾

ثم قال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ يعني: الأدنى، وإنما سميت سماء الدنيا لأنها أقرب إلى الأرض ﴿بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ﴾ أي: بضوء الكواكب، قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص (بِزِينَةٍ) بالتنوين (الكَوَاكِبِ) بالكسر بغير تنوين بكسر الباء وقرأ عاصم في رواية أبي بكر (بِزِينَةٍ) بالتنوين (الكَوَاكِبَ) بالنصب والباقون (بِزِينَةِ) بالكسر بغير تنوين (الكَوَاكِبِ) بكسر الباء[٦] فمن قرأ بزينة الكواكب بالكسر جعل الكواكب بدلاً من الزينة والمعنى: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب ومن قرأ بالنصب أقام الزينة مقام التزيين، فكأنه قال: إنا زينا السماء الدنيا بتزييننا الكواكب، فيكون الكواكب على معنى التفسير، ومن قرأ بغير تنوين فهو على إضافة الزينة إلى الكواكب، وروي عن ابن عباس رضي

(١) الغداة: الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس. العشي: الوقت من زوال الشمس إلى المغرب ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٦٩ ـ ٦٥٢.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧١ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧١ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد وعكرمة.
(٤) سقط في ظ.
(٥) سقط في ظ.
(٦) انظر حجة القراءات ٦٠٤ ـ النشر ٢/٣٥٦

الله عنه أنه قال ـ الكواكب معلقة بالسماء كالقناديل ـ ويقال إنها مركبة عليها كما تكون في الصناديق والأبواب ثم قال: ﴿وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ يعني: حفظ الله تعالى السماء بالكواكب من كل شيطان متمرد يعني شديد يقال: مرد يمرد إذا اشتد ثم قال: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (لَا يَسَّمَّعُونَ) بنصب السين والتشديد، والباقون (يَسْمَعُونَ) بنصب الياء وجزم السين مع التخفيف[1]، فمن قرأ بجزم السين فهو بمعنى يسمعون، ومن قرأ بالتشديد فأصله يتسمعون فأدغمت التاء في السين وشددت يعني لكيلا يستمعون ﴿إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى﴾ يعني: إلى الكتبة ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ يعني: يرمون ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً﴾ يعني: طرداً من كل ناحية من السماء وكانوا من قبل (يستمعون إلى كلام الملائكة) عليهم السلام، قال حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: (بَيْنَمَا رَسُولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جَالِسٍ في نَفَرٍ من أصحابه إذ رمى بنجم فاستنار، فقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية؟ فقالوا يموت عظيم أو يولد عظيم فقال عليه السلام: إنه لا يرمى لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل إذا قضى أمراً يسبحه حملة العرش وأهل السماء السابعة يقول ماذا قال ربكم فيخبرونهم فيستخبر أهل كل سماء أهل السماء الأخرى حتى ينتهي الخبر إلى السماء الدنيا فتخطف الجن، ويرمون فيما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون فيه ويكذبون)[2] قال معمر قلت للزهري؟ أو كان يرمى به في الجاهلية قال نعم قال قالت الجن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً) قال غلظ وشدد أمرها حيث بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقوله (دُحُوراً) يعني: طردا بالشهب فيعيدونهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ يعني: دائم، يعني الشياطين لمن استمع ولمن لم يستمع في الآخرة وقال مقاتل: في الآية تقديم ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ من الشياطين ﴿الْخَطْفَةَ﴾ يختطف، يعني يستمع إلى الملأ الأعلى من كلام الملائكة عليهم السلام ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، والشهاب في اللغة: كل أبيض

---

(١) حجتهم ما روي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿لا يسمعون﴾ وقال: ﴿هم يسمعون ولكن لا يسمعون﴾ (والدليل) على صحة قول ابن عباس أنهم (يسمعون ولكن لا يسمعون) قوله: وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً وقوله (بعدها) (إلا من خطف الخطفة) فعلم بذلك أنهم يقصدون للاستماع ومن حجتهم أيضاً إجماع الجميع على قوله ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ وهو مصدر (سمعت) والقصة واحدة وتأويل الكلام: وحفظاً من كل شيطان مارد لئلا يسمعوا بمعنى أنهم ممنوعون بالحفظ عن السمع. فكفت (لا) من (أن) كما قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين. لا يؤمنون به﴾ بمعنى: لئلا يؤمنوا به فكفت (لا) من (أن) كما كفت (أن) من (لا) في قوله تعالى: (يبين الله لكم أن تضلوا). فإن قال قائل: (فلو كان هذا هو الوجه لم يكن في الكلام (إلى) ولكان الوجه أن يقال: لا يسمعون الملاء الأعلى) قلت: العرب تقول: سمعت زيداً وسمعت إلى زيد فكذلك قوله ﴿لا يسمعون إلى الملأ الأعلى﴾. وقد قال جل وعز: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾. وقال: و (ومنهم من يستمع إليك) فيعدى الفعل مرة بـ (إلى) ومرة باللام كقوله: ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ و ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾. ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ وقال: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾. ومن قرأ: (يسمعون) الأصل: (يتسمعون) فأدغم التاء في السين لقرب المخرجين وحجتهم في أنهم منعوا من التسمع: الأخبار التي وردت عن أهل التأويل: بأنهم كانوا يتسمعون الوحي فلما بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رموا بالشهب ومنعوا. فإذا كانوا عن التسمع ممنوعين كانوا عن السمع أشد منعاً وأبعد منه. لأن المتسمع يجوز أن يكون غير سامع والسامع قد حصل له الفعل. قالوا: فكان هذا الوجه أبلغ في زجرهم لأن الإنسان قد يتسمع ولا يسمع فإذا نفى التسمع عنه فقد نفى سمعهم من جهة التسمع ومن جهة غيره فهو أبلغ. انظر حجة القراءات ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

(٢) أخرجه الترمذي ١٣٥٣/٥ كتاب تفسير القرآن (٣٢٢٤) وقال حديث حسن صحيح والبيهقي في السنن ١٣٨/٨ وأحمد في المسند ٣١٨/١.

ذي نور، والثاقب: المضيء ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: سل أهل مكة، وهذا سؤال تقرير لا سؤال استفهام وقال تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ بالبعث ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ يعني: ما خلقنا من السموات، وما ذكر من المشارق والمغارب، ويقال: أهم أشد خلقاً بالبعث، يعني بعثهم أشد (أَم مَّنْ خَلَقْنَا) يعني: أم خلقهم في الابتداء ثم ذكر خلقهم في الابتداء فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ يعني: خلقنا آدم وهم من نسله من طين حمئة، ويقال: لَازِب: أي لاصق، ويقال لَازِب يعني: لازم، إلاَّ أن الباء تبدل من الميم لقرب مخرجهما، كما يقال: سمد رأسه وسبد إذا استأصله، واللازب، واللاصق واحد، ثم قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (عَجِبْتُ) بضم التاء، وقرأ الباقون بالنصب[١]، فمن قرأ بالنصب فالمعنى بل عجبت يا محمد من نزول الوحي عليك والكافرون يسخرون مكذبين لك، ومن قرأ (بَلْ عَجِبْتُ) بالضم فهو إخبار عن الله تعالى، وقد أنكر قوم هذه القراءة، وقالوا إن الله تعالى لا يعجب من شيء، لأنه علم الأشياء قبل كونها، وإنما يتعجب من سمع أو رأى شيئاً لم يسمعه ولم يره، ولكن الجواب أن يقال: العجب من الله عز وجل بخلاف العجب من الأدميين، ويكون على وجه التعجب، ويكون على وجه الإنكار والاستعظام لذلك القول كما قال في آية أخرى (وَإِنْ تَعْجَب فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) وروى الأعمش عن سفيان بن سلمة أن شريحاً كان يقرأ: (بل عجبت) بالنصب ويقول إنما يعجب من لا يعلم، وقال الأعمش فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال إبراهيم النخعي إن شريحاً كان معجباً برأيه، وعبد الله بن مسعود كان أعلم منه وكان يقرؤها (بَلْ عَجِبْتُ)[٢] بالضم وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ هكذا بالضم، وهو اختيار أبي عبيدة ثم قال (ويسخرون) يعني: يسخرون حين سمعوا ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ يعني: إذا وعظوا بالقرآن لا يتعظون، ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ يعني: علامة مثل انشقاق القمر ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يعني: يستهزئون ويسخرون، وقال أهل اللغة سخر واستسخر بمعنى واحد، مثل قر واستقر ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني بين قوله عز وجل: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ يعني يقولون إذا متنا ﴿وَكُنَّا تُراباً وعظاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني: لمحيون بعد الموت ﴿أَو آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ يعني: صاغرون.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ

---

(١) حجة من قرأ بالضم قوله ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ أي إن تعجب يا محمد من قولهم فعجب قولهم عند من سمعه ولم يرد: فإنه عجب عندي. قال أبو عبيد: قوله: (بل عجبت) بالنصب: بل عجبت يا محمد من جهلهم وتكذيبهم وهم يسخرون منك ومن قرأ: (عجبت) فهو إخبار عن الله جل وعز وحجتهم ما روي في الحديث: (إن الله قد عجب من فتىً لا صبوة له) وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (عجب ربكم من إلكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم). قال أبو عبيد: (والشاهد لها مع الأخبار قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾ فأخبر جل جلاله أنه عجيب ومما يزيده تصديقاً الحديث المرفوع: (عجب الله البارحة من فلان وفلانة). قال الزجاج: وقد أنكر قوم هذه القراءة وقالوا: (إن الله جل وعز لا يعجب) وإنكار هذا غلط لأن القراءة والرواية كثيرة فالعجب من الله خلاف العجب من الآدميين وهذا كما قال جل وعز: ﴿ويمكر الله﴾ ومثل قوله ﴿سخر الله منهم﴾ و ﴿وهو خادعهم﴾ فالمكر من الله والخداع خلافه من الآدميين. وأصل العجب في اللغة أن الإنسان إذا رأى ما ينكره ويقل مثله قال: (قد عجبت من كذا وكذا) فكذلك إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقول فيه (عجبت) والله قدعلم الشيء قبل كونه ولكن الإنكار إنما يقع والعجب الذي تلزم به الحجة عند وقوع الشيء. انظر حجة القراءات ٦٠٦ ـ ٦٠٧ ـ ٦٠٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٢ وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق الأعمش عن شقيق بن سلمة عن شريح.

تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ
بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم
مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾
فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾
إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل: **﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾** يعني: صيحة ونفخة واحدة ولا يحتاج إلى الأخرى **﴿فَإِذَا هُم﴾** يعني: الخلائق **﴿يَنْظُرُونَ﴾** يعني: يخرجون من قبورهم وينظرون إلى السماء كيف غيرت والأرض كيف بدلت، فلما عاينوا البعث ذكروا قول الرسل: إن البعث حق **﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾** يعني يوم الحساب، ويقال يوم الجزاء، فردت عليهم الحفظة ويقولون **﴿هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾** أنه لا يكون، ثم ينادي المنادي **﴿آحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** يعني: سوقوا الذين كفروا **﴿وَأَزْوَاجَهُم﴾** يعني: وأشباههم، ويقال وقرناءهم وضرباءهم، ويقال وأشياعهم وأعوانهم، ويقال وأمثالهم **﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** يعني: من الشياطين الذين أضلوهم، ويقال كل معبود وكل من يطاع في المعصية **﴿فَاهْدُوهُم﴾** يعني: ادعوهم جميعاً ويقال اذهبوا بهم وسوقوهم جميعاً **﴿إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ﴾** يعني: إلى طريق الجحيم، والجحيم: ما عظم من النار، ويقال إلى وسط الجحيم، فلما انطلق بهم إلى جهنم أرسل الله عز وجل ملكاً يقول **﴿وَقِفُوهُم﴾** أي احبسوهم **﴿إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾** عن ترك قول لا إله إلا الله، ويقال في الآية تقديم يعني يقال لهم قفوا قبل ذلك، فحبسوا أو سئلوا ثم يساق بهم إلى الجحيم فيقال لهم **﴿مَا لَكُم لَا تَنَاصَرُونَ﴾** يعني: لم ينصر بعضكم بعضاً ولا يدفع بعضكم عن بعض كما كنتم تفعلون في الدنيا قوله عز وجل: **﴿بَلْ هُم الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾** أي خاضعون ذليلون **﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾** يعني: يسأل ويخاصم بعضهم بعضا القادة والسفلة والعابد والمعبود ومتابعي الشيطان للشيطان، ويقال: يتساءلون يعني يتلاومون، **﴿قَالُوا﴾** يعني: السفلة للرؤساء **﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾** يعني: من قبل الحق أي الدين فزينتم لنا ضلالتنا، وروي عن الفراء أنه قال: اليمين في اللغة القوة والقدرة، ومعناه إنكم كنتم تأتوننا بأقوى الحيل وكنتم تزينون علينا أعمالنا، وقال الضحاك: تقول السفلة للقادة إنكم قادرون وظاهرون علينا، ونحن ضعفاء أذلاء في أيديكم، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال (تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) عن الحق[1]، يعني: الكفار يقولون للشيطان، وقال القتبي: إنما يقول هذا المشركون لقرنائهم من الشياطين (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ) يعني: عن أيماننا، لأن إبليس قال (لَآتِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِم) وقال المفسرون: من أتاه الشيطان من قبل اليمين أتاه من قبل الدين وليس عليه الحق، ومن أتاه من قبل الشمال أتاه من قبل الشهوات، ومن أتاه من بين

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

يديه أتاه من قبل التكذيب بالقيامة، ومن أتاه من خلفه خوفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده، فلم يصل رحماً، ولم يؤد زكاة، وقال المشركون لقرنائهم إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين في الدنيا من جهة الدين، يعني أضللتمونا ﴿قالوا﴾ لهم قرناؤهم ﴿بَل لَّم تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم تكونوا على حق فتشبه عليكم ونزيلكم عنه إلى الباطل ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ﴾ يعني: من قدرة فنقهركم، ويقال من ملك فنجبركم عليه ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾ يعني: كافرين عاصين ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ يعني: وجب علينا جميعاً ﴿قَوْلُ رَبِّنَا﴾ وهو السخط، ويقال قول ربنا يوم قال لإبليس (لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ مِمن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمَعِينَ) ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ يعني: العذاب جميعاً في النار، قوله عز وجل: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ يعني: أضللناكم عن الهدى ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يعني: ضالين يقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ يعني: الكفار والشياطين ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: شركاء في النار وفي العذاب يوم القيامة ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: هكذا نفعل بمن أشرك فنجمع بينهم وبين الذين أضلوهم في النار، ثم أخبر عنهم فقال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ يعني: في الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يعني: قولوا لا إله إلا الله ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنها ولا يقولونها ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا﴾ يعني: أنترك عبادة آلهتنا ﴿لِشَاعِرٍ﴾ يعني: لقول شاعر ﴿مَجْنُونٍ﴾ أي مغلوب على عقله، يقول الله تعالى ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بالقرآن، ويقال: بأمر التوحيد، ويقال جاء ببيان الحق ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ الذين قبله، قال مقاتل يعني: صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمرسلين الذين قبله، وقال الكلبي: وبتصديق المرسلين الذين قبله ومعناهما واحد. ويقال معناه جاء محمد عليه السلام بموافقة المرسلين عليهم السلام ﴿إِنَّكُمْ﴾ يعني: العابد والمعبود ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾ يعني: لتصيبوا العذاب الوجيع الدائم ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إلا بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي والشرك ثم استثنى المؤمنين فقال عز وجل: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ يعني: الموحدين، ويقال إلا بمعنى لكن عباد الله المخلصين.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾

ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ يعني: طعام معلوم معروف حين يشتهونه على قدر غدوة وعشية، ثم بين الرزق فقال ﴿فَوَاكِهُ﴾ يعني: ألوان الفاكهة ﴿وَهُم مُكْرَمُونَ﴾ بالثواب، ويقال منعمون ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ في الزيارة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ يعني: يطوف عليهم خدمهم ﴿بِكَأْسٍ مِن مَعِينٍ﴾ يعني: خمراً جارياً (من معين) يعني: الطاهر الجاري بيضاء يعني: بخمرة توجب اللذة ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ﴾ يعني: شهوة ﴿لِلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: ليس فيها إثم ويقال لا غائلة لها، ولا يوجع منها الرأس، وروي شريك عن سالم قال لا فيها غول أي لا مكروه فيها ولا أذى، وقال القتبي لا فيها غول أي لا تغتال عقولهم فتذهب بها. يقال الخمر غول للحلم، والحرب غول للنفوس، والغول البعد ﴿وَلَا هُم عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يُنْزِفُون) بكسر الزاي، وقرأ

الباقون بالنصب[1]، فمن قرأ بالنصب فمعناه لا يذهب عقولهم شربها ويقال للسكران نزيف، ومنزوف إذا زال عقله، ومن قرأ بالكسر فله معنيان: أحدهما لا ينفذ شرابهم أبداً، والثاني أنهم لا يسكرون ثم قال عز وجل: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ يعني: غاضات الأعين عن غير أزواجهن، يعني: قصرن طرفهن على أزواجهن وقنعن بهم ولا يبغين بهم بدلاً ثم قال: (عين) أي حسان الأعين شدة البياض في شدة السواد، يقال لواحدة العين عيناء يعني: كبيرة العين، ويقال الحسن العيناء التي سواد عينها أكثر من بياضها ثم قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني: إنهن أحسن بياضاً من بيض النعم، والعرب تشبه النساء ببيض النعام، يقال لا يكون لون البياض في شيء أحسن من بيض النعام وقال قتادة البيض التي لم تلوثه الأيدي[2]، ويقال البيض أراد به القشر الداخل من البيض، المكنون قد خبأ وكنّ من البرد والحر ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: يسأل بعضهم بعضاً عن حاله في الدنيا قوله عز وجل: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: من أهل الجنة ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ وهو الذي بين الله تعالى أمرهما في سورة الكهف (جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ) فكانا أخوين وشريكين وأنفق أحدهما ماله في أمر الأخرة، واتخذ الآخر لنفسه ضياعاً[3] وخدما، واحتاج المؤمن إلى شيء، فجاء إلى أخيه الكافر يسأله، فقال له الكافر ما صنعت بمالك؟ فأخبره أنه قدمه إلى الآخرة، فقال له الكافر ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ يعني: إنك ممن يصدق بالبعث، وطلب منه أن يدخل في دينه، ولم يقض حاجته، فذلك قوله (أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ) يعني: بالبعث بعد الموت قوله عز وجل: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ يعني: لمحاسبون، فيقول المؤمن لأصحابه في الجنة ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ حتى ننظر إلى حاله وإلى منزله، فيقول أصحابه: أطلع أنت فإنك أعرف به منا ﴿فَاطَّلَعَ﴾ يعني: فنظر في النار ﴿فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يعني: رأى أخاه في وسط الجحيم أسود الوجه مزرق العين، فيقول المؤمن عند ذلك قوله: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ يعني: والله لقد هممت لتغويني ولتضلني، ويقال: لتردين أي لتهلكني، يقال أرديت فلان: أي أهلكته، والردى: الموت والهلاك، وقال القتبي في قوله (إِنَّا لَمَدِينُونَ) أي مجازون بأعمالنا، يقال: دنته بما عمل: أي جازيته.

وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ
﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ
﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ
الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ
مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ يعني: لولا ما أنعم الله عليَّ بالإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك في النار، ثم أقبل المؤمن على أصحابه في الجنة فقال: يا أهل الجنة ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ اللفظ

---

(١) انظر حجة القراءات (٦٠٩) النشر ٢/٣٥٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٣) ضياعاً أي عقاراً ـ انظر لسان العرب ٤/٢٦٢٤.

لفظ الاستفهام، والمراد به النفي، يعني لا نموت أبداً سوى موتتنا الأولى، وذلك حين يذبح الموت فيأمنوا من الموت ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يعني: لم نكن من المعذبين مثل أهل النار. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاة الوافرة، فازوا بالجنة ونجوا من النار ﴿بِمِثْلِ هَذَا﴾ يعني: لمثل هذا الثواب والنعم والخلود ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي: فليبادر المبادرون، ويقال فليجتهد المجتهدون [ويقال: فليحتمل المحتملون الأذى لأنه قد حفت النار بالمكاره][1] ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً﴾ يعني: الذي وصفت في الجنة، خير ثواباً، ويقال رزقاً، ويقال منزلاً ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ للكافرين ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني: ذكر الشجرة بلاء للمشركين، قال قتادة زادتهم تكذيباً، فقالوا يخبركم محمد أن في النار شجرة والنار تحرق الشجر، وقال مجاهد إنا جعلناها فتنة، قول أبي جهل إنما الزقوم التمر والزبد فقال لجاريته زقمينا فزقمته[2] وذكر أن الزبعرى قال الزقوم بلسان البربر وأفريقيا: التمر والزبد، فأخبر الله تعالى عن الزقوم أنه لا يشبه النخل ولا طلعها كطلع النخل، فقال: (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً) يعني: نعيم الجنة، وما فيها من اللذات (خير نزلا) أي طعاماً (أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ) لأهل النار قوله عز وجل: (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) ثم وصف الشجرة فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ يعني: في وسط الجحيم ﴿طَلْعُهَا﴾ يعني: ثمرتها ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ يعني: رؤوس الحيات قبيح في النظر، ويقال هو نبت لا يكون شيء من النبات أقبح منه، وهو يشبه الحسك[3] فيبقى في الحلق، ويقال هي رؤوس الشياطين بعينها، وذلك أن العرب إذا وصفت الشيء بالقبح تقول كأنه شيطان، ثم وصف أكلهم فقال ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا﴾ يعني: من ثمرها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وهو جماعة المالي، يعني: يملؤون منها البطون قال حدثنا أبو الليث رحمه الله، قال حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا محمد بن عقيل قال حدثنا عباس الدوري قال حدثنا وهب بن جرير عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أيها الناس اتقوا الله ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف ممن هو طعامه وشرابه منه ليس له طعام غيره»[4] قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُم عَلَيْهَا لَشَوْباً مِن حَمِيمٍ﴾ يعني: خلطاً من حميم من ماء حار في جهنم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ يعني: مصيرهم إلى النار، ثم بين المعنى الذي به يستوجبون العقوبة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُم أَلْفَوْا﴾ يعني: وجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ عن الهدى ﴿فَهُمْ على آثَارِهِم يُهْرَعُونَ﴾ يعني: يسعون في مثل أعمال آبائهم، والإهراع في اللغة: المشي بين المشيتين وقال مجاهد كهيئة الهرولة[5].

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ

---

(١) سقط في ظ.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٣) الحسك: نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل انظر المعجم الوسيط ١/١٧٣.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٧ وعزاه لابن أبي شيبة.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ
﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ
إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾
فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا
تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾

ثم قال عز وجل: **﴿وَلَقَد ضَلَّ قَبْلَهُم﴾** يعني: أضل إبليس قبلهم **﴿أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ﴾** يعني: من الأمم الخالية، ولم يذكر إبليس لأن في الكلام دليلاً عليه فاكتفى بالإشارة، ومثل هذا كثير في القرآن ثم قال عز وجل: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ﴾** يعني: رسلاً ينذرونهم، كما أرسلناك إلى قومك، فكذبوهم بالعذاب، كما كذبك قومك، فعذبهم الله تعالى في الدنيا **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾** يعني: آخر أمر من أنذر فلم يؤمن **﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾** يعني: الموحدين المطيعين فإنهم لم يعذبوا قوله عز وجل: **﴿وَلَقَد نَادَانَا نُوحٌ﴾** يعني: دعا نوح ربه على قومه، وهو قوله: (اني مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر) **﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾** يعني: نعم المجيب أنا **﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾** يعني: من الهول الشديد وهو الغرق، قوله **﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾** لأن الذي حمل معه من الناس ثمانون رجلاً وامرأة، غرقوا كلهم ولم يبق إلا ولده سام، وحام، ويافث قال الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أبو القاسم الصغار بإسناده عن سمرة بن جندب قال: إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث[(١)] أبو الروم» ثم قال تعالى: **﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾** يعني: أبقينا عليه ذكراً حسناً في الباقين من الأمم، وهذا قول القتبي، وقال مقاتل يعني: أثنينا على نوح بعد موته ثناء حسناً ثم قال عز وجل: **﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾** يعني: السعادة والبركة على نوح من بين العالمين **﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾** يعني: هكذا نجزي كل من أحسن **﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾** يعني: المصدقين بالتوحيد **﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾** يعني: قومه الكافرين.

قوله عز وجل: **﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾** قال مقاتل: يعني: إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام وعلى ملته، وقال الكلبي يعني من شيعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إبراهيم، وعلى دينه ومنهاجه، وذكر عن الفراء أنه قال هذا جائز، وإن كان إبراهيم قبله كما قال (حملنا ذريتهم) يعني: آباءهم، ذريته الذين هو منهم، قوله عز وجل: **﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** يعني: إبراهيم دعا ربه بقلب سليم أي خالص[ويقال: إذ جاء ربه بقلب سليم أي مخلص][(٢)] سليم من الشرك **﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾** يعني: ايش الذي تعبدون، ويقال: معناه لماذا تعبدون هذه الأوثان قوله عز وجل: **﴿أَئِفْكاً آلِهَةً﴾** يعني: أكذباً آلهة **﴿دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾** عبادتها **﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** إذا عبدتم غيره، فما ظنكم به إذا لقيتموه **﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾** قال مقاتل: يعني: في الكواكب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٨ وعزاه لابن سعد وأحمد والترمذي وحسنه وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة. هو عند الترمذي ٥/٣٤٠ (٣٢٣٠).

(٢) سقط في أ.

[ويقال فنظر نظرة في النجوم، أي في أمر النجوم ثم تفكر بالعين وبالقلب][١]، وذلك أنه رأى كوكباً قد طلع ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سأسقم ويقال مطعوناً وهو قول سعيد بن جبير والضحاك[٢] وقال القتبي: نظر في الحساب لأنه لو نظر إلى الكواكب، لقال: نظر نظرة إلى النجوم وإنما يقال نظر فيه، إذا نظر في الحساب «فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ» أي سأمرض غداً وكانوا يتطيرون من المريض، فلما سمعوا ذلك منه هربوا، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا خزيمة قال حدثنا عيسى بن إبراهيم[٣] قال حدثنا ابن وهب عن جرير بن حازم[٤] عن أيوب السجستاني عن محمد بن سيرين[٥] عن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لم يكذب إبراهيم قط إلا ثلاث كذبات، ثنتان في ذات الله قوله: «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وواحدة في شأن سارة ذلك أنه قدم أرض جبار، ومعه سارة، وكانت أحسن النساء، فقال لها إن هذا الجبار إن علم أنك امرأة يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل الأرض رآها بعض أهل الجبار، فأتاه فقال له: لقد دخل اليوم أرضك امرأة، لا ينبغي أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأتي بها، فقام إبراهيم إلى الصلاة، فلما أدخلت عليه لم يمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت فعاد، فقبضت يده أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال لها ادعي الله أن يطلق يدي ولك عليّ ألا أضرك، ففعلت، فأطلقت يده، فدعا الذي جاء بها فقال له إنك أتيتني بشيطان ولم تأتيني بإنسان، فأخرجها من أرضي، وأعطاها هاجر، فأقبلت تمشي حتى جاءت إلى إبراهيم، فلما رآها إبراهيم انصرف من الصلاة، فقال لها: مهيم: يعني ما الخبر؟ فقالت خيراً كفيت الفاجر وأخدمني خادماً» فقال أبو هريرة: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء»[٦] يعني نسل العرب منها، لأنه روي في الخبر أنها وهبت هاجر لإبراهيم فولد منها إسماعيل، ويقال: (فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ) يعني أعرضوا عنه ذاهبين إلى عيدهم قوله عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾ يعني: مال إلى أصنامهم، ويقال: دخل بيوت الأصنام فرأى بين أيديهم طعاماً ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فلم يجيبوه، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ يعني: أقبل يضربهم بيمينه، ويقال: يضربهم باليمين التي حلف، وهو قوله (تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ) ويقال باليمين، يعني يضربهم بالقوة، واليمين كناية عنها لأن القوة في اليمين ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يعني: يسرعون ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ بأيديكم من الأصنام، قرأ حمزة (يُزِفون) بضم الياء، وقرأ الباقون بالنصب[٧]، فمن قرأ بالنصب فأصله من زفيف النعام، وهو ابتداء عدوه، ومن قرأ بالضم، أي يصيروا إلى الزفيف، ويدخلون في الزفيف، وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد وهو الإسراع في المشي ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: و ما تنحتون به بأيديكم من الأصنام، ومعناه تتركون عبادة من

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٧٩ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وعن الضحاك.

(٣) عيسى بن إبراهيم الشعيري البركي بصري صدوق ربما وهم مات سنة ثمان وعشرين ـ التقريب ٢/٩٦.

(٤) جرير بن حازم بن عبد الله بن شجاع الأزدي أبو النضر البصري ثقة مات سنة ١٧٥ التهذيب ٢/٦٩.

(٥) محمد بن سيرين الأنصاري أبو بكر بن أبي عمرة البصري ثقة ثبت عابد كبير القدر كان لا يرى الرواية بالمعنى مات سنة عشر ومائة التقريب ٢/١٦٩.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٣٥٧) ـ أخرجه مسلم ٤/١٨٤٠ كتاب الفضائل (١٥٤ ـ ٢٣٧١) وأحمد.

(٧) انظر حجة القراءات (٦٠٩) النشر ٢/٣٥٧.

خلقكم، وخلق ما تعملون وتعبدون غيره ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً﴾ يعني: آتوناً ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ يعني: في النار العظيمة ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً﴾ يعني: أرادوا حرقه وقتله ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ يعني: الآخرين ويقال الأذلين، وعلاهم إبراهيم، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى أهلكهم الله عز وجل.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ
مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ
صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ يعني: إني مهاجر إلى طاعة ربي، ويقال من أرض ربي إلى أرض ربي، وقال مقاتل: يعني من بابل إلى بيت المقدس، ويقال: من أرض حران إلى بيت المقدس ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يعني: يحفظني، ويقال إني مهاجر إلى ربي، يعني مقبل إلى طاعة ربي، «سيهديني» أي سيرشدني ربي ويقال سيعينني قوله عز وجل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: يا رب أعطني ولداً صالحاً من المسلمين ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ يعني: حليم في صغره، عليم في كبره قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ إلى الحج، ويقال: إلى الجبل ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لابنه ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾ قال مقاتل: هو إسحاق، وقال الكلبي: هو إسماعيل، وروى معمر عن الزهري، قال في قوله (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ)[1] قال ابن عباس: هو إسماعيل، وكان ذلك بمنى، وقال كعب: هو إسحاق، وكان ذلك ببيت المقدس، وقال مجاهد وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي هو إسماعيل[2] وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال هو إسحاق، وهكذا روي عن ابن عباس [وهكذا قال][3] وعكرمة[4] وقتادة: وأبو هريرة وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم، وهكذا قال أهل الكتابين كلهم، والذي قال هو إسماعيل: احتج بالكتاب، والخبر، أما الكتاب: فهو أنه لما ذكر قصة الذبح قال على أثر ذلك (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا)، وأما الخبر: فما روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ»[2] يعني: أباه عبد الله بن عبد المطلب، وإسماعيل بن إبراهيم، وأما الذي يقول هو إسحاق يحتج بما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٨٠ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٣) سقط في أ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٢٨٠ وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

(٥) قال الزيلعي وابن حجر في تخريج الكشاف: لم نجده بهذا اللفظ وانظر ابن كثير ٧/ ٢٩ وتفسير الطبري ٢٣/ ٥٤ والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٩٤ والقرطبي ١٥/ ١١٣ والدر المنثور ٥/ ٢٨١ وفتح الباري ١٢/ ٣٧٨.

روي في الخبر، أنه ذكر نسبة يوسف فقال: كان يوسف أشرف نسباً، يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، قد اختلفوا فيه هذا الاختلاف والله أعلم بالصواب، والظاهر عند العامة هو إسحاق، فذلك قوله ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فظاهر اللفظ أنه رأى في المنام أنه يذبحه ولكن معناه أني أرى في المنام أني قد أمرت بذبحك بدليل ما قال في سياق الآية (ياأبتِ افْعَل مَا تُؤْمَرُ) وروي في الخبر، أنه رأى في المنام، أنه قيل له، إن الله يأمرك أن تذبح ولدك، فاستيقظ خائفاً وقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم رأى في المنام في الليلة الثانية والثالثة مثل ذلك، فاستيقظ وضم ابنه إلى نفسه، وجعل يبكي حتى أصبح فانقاد لأمر الله تعالى، وقال لامرأته سارة إني أريد أن أخرج إلى طاعة ربي، فابعثي ابني معي فجهزته وبعثته معه، قال كعب الأحبار: قال الشيطان إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبداً، فلما خرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان ودخل على سارة فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ فقالت غدا به لبعض حاجته، قال: إنه لم يغد به لحاجته، ولكنه إنما ذهب به ليذبحه، فقالت: ولم يذبحه؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك، فقالت: قد أحسن أن يطيع ربه، فخرج في أثرهما فقال للغلام أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته، قال: فإنه لا يذهب بك لحاجته، ولكنه إنما يذهب بك ليذبحك، فقال: ولم يذبحني؟ قال يزعم أن ربه أمره بذلك، قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن، فتركه (ولحق بإبراهيم)، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال لحاجة، قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه، قال ولم أذبحه؟ قال: تزعم أن الله تعالى أمرك بذلك، قال فوالله لئن كان الله أمرني بذلك لأفعلن، فتركه وأيس من أن يطاع قوله عز وجل: ﴿فَانْظُر مَاذَا تَرَى قَالَ يا أَبَتِ افْعَل مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[1]، ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فأوحى الله تعالى إلى إسحاق، أن ادعو فإن لك دعوة مستجابة فقال إسحاق: اللَّهم إني أدعوك أن تستجيب لي في أيما عبد من الأولين، والآخرين، لقيك لا يشرك بك شيئاً أن تدخله الجنة، وقال مجاهد إن إبراهيم عليه السلام لما أراد أن يذبح ابنه بالسكين، قال ابنه. يا أبت خذ بناصيتي، واجلس بين كتفي حتى لا أوذيك إذا أصابني حد السكين، ولا تذبحني وأنت تنظر في وجهي عسى أن ترحمني واجعل وجهي إلى الأرض ففعل إبراهيم، فلما أمر السكينة على حلقه انقلبت فقال يا أبت مالك؟ قال: قد انقلبت السكين، قال فاطعن بها طعناً قال: فطعن فانثنت، قال فعرف الله عز وجل الصدق منه ففداه بذبح عظيم وقال هو إسحاق،[2] وروى أسباط عن السدي قال كان من شأن إسحاق حين أراد أبوه أن يذبحه، أنه ركب مع أبيه في حاجة فأعجبه شبابه، وحسن هيئته وكان إبراهيم حين بشر بإسحاق، قبل أن يولد له، قال هو إذا لله ذبيح، فقيل لإبراهيم في منامه قد نذرت لله نذراً فاوفيه، فلما أصبح قال (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) يقول قد أمرت بذبحك (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلُ مَا تُؤْمَرُ) قال: فانطلق معي، وأخبر أمك أنك تنطلق إلى أخوالك، وأخذ إبراهيم معه حبلاً ومدية يعني: السكين، فقال له: يا أبتاه حدها فإنه أهون للموت، فانطلق به، حتى أتى به جبلاً من جبال الشام، فأضجعه في أصرة[3] وربط يديه ورجليه فقال له إسحاق: يا أبتاه شد رباطي لكي لا أضطرب فيصيب الدم ثيابك فتراه سارة فتحزن، فبكى إبراهيم بكاء شديداً، وأخذ الشفرة، فوضعها على حلقه وضرب الله تعالى على حلقه

---

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) الإصار: وتد قصير الأضاب ـ انظر لسان العرب ١/٨٧.

صفيحة نحاس، فجعل يحز فلا تصنع شيئاً، فلما رأى إبراهيم ذلك قلبه على وجهه فضرب الله تعالى على قفاه صفيحة نحاس، وبكيا حتى ابتلت الأرض من دموعهما، فجعل يحز فلا تقطع شيئاً، فنودي (أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) ودونك هذا الكبش فهو فداه فالتفت فإذا هو بكبش أبيض أملح ينحط من الجبل، وقد كان رعي في الجنة أربعين خريفاً، فخلا عن ابنه وأخذ الكبش فذبحه، وقال وهب بن منبه لما قال لإسحاق «يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت أفعل ما تؤمر» ثم قال يا أبت إني أوصيك بثلاثة أشياء، قال وكان إسحاق في ذلك اليوم ابن سبع سنين، أحدها: أن تربط يدي لكيلا اضطرب فأوذيك والثاني: أن تجعل وجهي إلى الأرض لكيلا تنظر إلى وجهي فترحمني والثالث: أن تذهب بقميصي إلى أمي، ليكون القميص عندها تذكرة مني، فذلك قوله (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) قرأ حمزة والكسائي (ماذا تُرَى) بضم التاء، يعني: ماذا ترى من صبرك، ويقال معناه ماذا تشير، وقر الباقون بالنصب[١]، وهو من الرأي يعني ماذا ترى [من صبرك، ويقال: معناه ماذا تشير][٢] فيما أمر الله به، ويقال هو من المشورة والرأي (قال أبو عبيد بالنصب تقرأ، لأن هذا في موضع المشورة والرأي والآخر يستعمل في رؤية)[٣] العين (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) على الذبح قوله عز وجل (فَلَمَّا أَسْلَمَا) يعني: اتفقا على أمر الله تعالى، قال قتادة: أسلم هذا نفسه لله تعالى، وأسلم هذا ابنه[٤] لله تعالى، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ (فلما سلما) يعني: رضيا وتله للجبين يعني: صرعه على جبينه أي: على وجهه وقال القتبي: وتله للجبين يعني: جعل إحدى جبينيه على الأرض، وهما جبينان والجبهة بينهما (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) وقال القتبي الواو زيادة، ومعناه: فلما أسلما وتله للجبين ناديناه، وهذا كما قال امرىء القيس[٥]:

فَلَمَّـا أَجَـزْنَـا سَـاحَـةَ الحَي وانْتَحَى بِنَـا ... بَـطْـن خِـبْـت ذي حِـقَـاف عَـقَـنْـقَـل

يعني انتحى، والواو زيادة، وقال بعضهم في الآية مضمر ومعناه فلما أسلما: سلما وتله للجبين، وذكر عن الخليل بن أحمد، أنه سئل عن هذه الآية فقال: ليس لنا في كتاب الله عز وجل متكلم، فقيل له فما مثله في العربية، فقال: قول امرىء القيس فلما أجزنا ساحة الحي أجزنـا وانتحى بنا، كذلك قوله (أسلما) سلما، وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، يعني: أوفيت الوعد، وائتمرت ما أمرت لقول الله تعالى: (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) كما فعلت يا إبراهيم قوله إن هذا لهو البلاء المبين يعني: الاختبار البين، ثم قـال: (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) يعني: بكبش عظيم، والذبح بكسر الذال: اسم لما يذبح، وبالنصب مصدر، وروي عن ابن عباس أنه قال: حدثني من رأى قرني الكبش معلقين في الكعبة، وهو الكبش الذي ذبحه إبراهيم عن إسماعيل عليهما السلام، ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ قال الثناء الحسن ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: سلام الله على إبراهيم، ويقال هذا موصول بالأول يعني: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلَامٌ على إِبْرَاهِيمَ) يعني: أثنينا عليه السلام في الآخرين قوله ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: المصدقين المخلصين ثم قال

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٠٩ النشر ٢/٣٥٧.

(٢) سقط في أ.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي أشهر شعراء العرب على الإطلاق ـ انظر الأعلام ٢/١١.

عز وجل: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: بشرناه بنبوة إسحاق بعدما أمر بذبح إسحاق، وقال ابن عباس بشر بإسحاق بعد ما أمر بذبح إسماعيل[(١)]، وكان إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاثة عشر سنة ثم قال عز وجل: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أي: على إبراهيم وعلى إسحاق، وبركته النماء والزيادة في الأموال والأولاد فكان من صلبه ذرية لا تحصى ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مثل موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام ومؤمنو أهل الكتاب ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ يعني: الذين كفروا بآيات الله عز وجل وروي عن ابن عباس أنه قال: قد رعي الكبش في الجنة أربعين خريفاً[(٢)]، وقال بعضهم هي الشاة التي تقرب بها هابيل بن آدم عليهما السلام فتقبل منه قربانه ورفع إلى السماء حياً، ثم جعل بدلاً عن ذبح إسماعيل أو إسحاق ويقال هي الشاة التي خلقها الله تعالى لأجله، وقال بعضهم إنها وعلة[(٣)] من البر يعني بقرة وحش من البر جبلية.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟
هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا
فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ
﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾
لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ
﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: أنعمنا عليهما بالنبوة ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: من الغرق ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ يعني: موسى وقومه ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ بالحجة على فرعون ﴿وَآتَيْنَاهُمَا﴾ يعني: موسى وهارون ﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ يعني: المبين الذي قد بين فيه الحلال والحرام

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٥ وعزاه لابن جرير عن ابن عباس «لكنه مختلف عنه».

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٨٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) الوعل: تيس الجبل، وهو جنس من المعز الجبلية له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحدبين ـ انظر لسان العرب ـ ٦/٤٨٧٥ المعجم الوسيط ٢/١٠٥٦.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يعني: ثبتناهما على دين الإسلام ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن في الباقين. ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يعني: السلامة منا والمغفرة عليهما ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾ أي: نكافىء المحسنين ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من المرسلين قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: نبي من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام وقال بعضهم إنه إدريس وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ وإن إدريس لمن المرسلين سلام على إدريس وقال بعضهم إلياس هو الخضر عليه السلام وقال بعضهم إلياس غير الخضر وإلياس صاحب البراري والخضر صاحب الجزائر ويجتمعان (في كل يوم عرفة بعرفات) ويقال هو من[1] سبط يوشع بن نون بعثه الله تعالى إلى أهل بعلبك فكذبوه فأهلكهم الله تعالى بالقحط[2] وقال الله عز وجل لإلياس سلني أعطك، قال ترفعني إليك فرفعه الله تعالى إليه، وجعله أرضياً سماوياً، إنسياً ملكياً يطير مع الملائكة فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الأمر يعني: اتقوا الله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ﴾ ربا، روى عكرمة عن ابن عباس قال: البعل الصنم، وقال مجاهد أتدعون بعلاً وَتَذَرُونَ رباً، وروى جبير عن الضحاك قال مر رجل وهو يقول من يعرف بعل البقرة فقال رجل أنا بعلها، فقال له ابن عباس أنك زوج البقرة فقال الرجل يا ابن عباس أما سمعت قول الله تعالى يقول: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ يعني: رباً وأنا ربها[3]، ويقال البعل كان اسم ذلك الصنم خاصة الذي كان لهم، ويقال كان صنماً من ذهب، فقال لهم﴿أتدعون بعلاً أي الصنم وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ﴾ الذي خلقكم يعني: تتركون عبادة الله ﴿اللَّهَ رَبَّكُم﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴿وَرَبَّ آبَائِكُمْ﴾ كلها بالنصب، وقرأ الباقون كلها بالضم[4] فمن قرأ بالنصب يرده إلى قوله (وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ) على صفة أحسن الخالقين ومن قرأ بالضم فهو على معنى الاستئناف فكأنه قال هو الله ربكم ورب آبائكم الأولين ثم قال عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: كذبوا إلياس ﴿فَإِنَّهُم لَمُحْضَرُونَ﴾ يعني: هم وآلهتهم لمحضرون النار ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ فإنهم لا يحضرون النار ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ يعني: الثناء الحسن ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ ياسِين﴾ قرأ نافع وابن عامر (سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ) وقرأ الباقون إِلْيَاسِين[5] ومن قرأ آل ياسين، يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال آل محمد فياسين اسم والال مضاف إليه، وآل الرجل أتباعه، وقيل أهله، ومن قرأ الياسين فله طريقان: أحدهما: أنه جمع الياس ومعناه الياس وأمته من المؤمنين كما يقال رأيت المهالبة يعني بني المهلب والثاني أن يكون لقبان الياس والياسين مثل ميكال وميكائيل ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُؤْمِنِينَ﴾ وقد ذكرناه قوله عز وجل: ﴿وإِنَّ لُوطاً لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ قوله: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ وقد ذكرناه ثم قال عز وجل ﴿وَإِنَّكُم لَتمرُّونَ عَلَيْهِم مُصْبِحِينَ﴾ يعني: إنكم يا أهل مكة، لتمرون على قرياتهم إذا سافرتم بالليل والنهار، فذلك قوله: ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَإِنَّ يُونسَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ﴾ يعني: من جملة المرسلين ﴿إِذْ أَبَق﴾ يعني: إذ فر، ويقال: إذ هرب، ويقال: خرج ﴿إِلَى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ يعني: المُوقد من الناس، والدواب، ويقال المجهز الذي قد فرغ من جهازه

(١) السبط: ولد الإبن والإبنة. والسبط من اليهود / كالقبيلة من العرب ـ انظر المعجم الوسيط ٤١٥/١.

(٢) القحط: احتباس المطر ـ انظر لسان العرب ٩٥٣٦/٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٨٦/٥ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) انظر حجة القراءات ٦١٠ إتحاف فضلاء البشر ٤١٥/٢.

(٥) حجة هذه القراءة أنه ذكره في صدر الآية فقال في آخر الآية «سلام على إلياسين» كما ذكر نوحاً في صدر الآية ثم قال في آخر القصة «سلام على نوح» وكذلك إبراهيم وموسى وهارون إنما قال في آخر قصصهم: سلام على فلان ـ انظر حجة القراءات ٦١١.

﴿فَسَاهَمَ﴾ يعني: اقترعوا، وقد ذكرت قصته في سورة الأنبياء ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ يعني: من المقروعين، والمدحض في اللغة:[١] هو المغلوب في الحجة، وأصله من دحض الرجل، إذ ذل من مكانه، قوله ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ يعني: ابتلعه الحوت ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ قال أهل اللغة المليم: الذي استوجب اللوم، سواء لأمره أو لا، والملوم الذي يلام، سواء استوجب اللوم أو لا، ويقال وهو ملوم، يعني يلوم نفسه ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ قال مقاتل والكلبي: لولا أنه كان من المصلين قبل ذلك، ويقال لولا أنه كان من المسبحين في بطن الحوت ﴿لَلَبِثَ﴾ أي لمكث ﴿فِي بَطْنِهِ﴾ ولكان بطنه قبره ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يعني: إلى يوم القيامة قوله عز وجل: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ يعني: نبذه الحوت على ساحل البحر، ويقال بالفضاء على ظاهر الأرض، وقال أهل اللغة العراء: هو المكان الخاليّ من البناء، والشجر، والنبات فكأنه من عرى الشيء ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ يعني: مريض، وذكر في الخبر أنه لم يبق له لحم ولا ظفر، ولا شعر، فألقاه على الأرض كهيئة الطفل لا قوة له، وقد كان مكث في بطن الحوت أربعين يوماً، ثم قال ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ قال مقاتل: يعني من قرع، وهكذا قال قتادة، ومجاهد[٢]، وقال أهل اللغة: كل شيء ينبت بسطاً فهو يقطين، هكذا قال الكلبي، وذكر في الخبر، أن وعلة كانت تختلف إليه ويشرب من لبنها، فكان تحت ظل اليقطين، ويشرب من لبن الوعلة يعني بقرة الوحش حتى تقوى ثم يبست تلك الشجرة فاغتم لذلك وحزن حزناً شديداً، وبكى، فأوحى الله تعالى إليه أنك قد اغتممت بيبس هذه الشجرة فكيف لم تغتم بهلاك مائة ألف أو يزيدون؟ فذلك قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ يعني: كما أرسلناه قبل ذلك إلى قومه وهم مائة ألف، يعني: أهل نينوى، أو يزيدون، يعني بل يزيدون ويقال: يعني: ويزيدون وكانوا مائة وعشرين ألفاً ﴿فَآمَنُوا﴾ يعني: لما جاءهم العذاب أقروا وصدقوا، فصرف الله عنهم العذاب، فذلك قوله ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ يعني: أبقيناهم إلى منتهى اجالهم، فخرج يونس عليه السلام فمر بجانب (مدينة نينوى، فرأى هناك غلاماً يرعى فقال من أنت يا غلام؟ فقال: من قوم يونس، فقال فإذا رجعت إليهم)[٣] فأخبرهم بأنك قد رأيت يونس فقال الغلام إنه من يحدث، ولم تكن له بينة قتلوه، فقال له يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فدخل وقال للملك إني رأيت يونس عليه السلام يقرئك السلام، فلم يصدقوه حتى خرجوا فشهدت له الشجرة والبقعة قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فأخذ الملك بيد الغلام، وقال أنت أحق بالملك مني فأقام الغلام أميرهم أربعين سنة[٤].

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني: سل أهل مكة ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ﴾ قال مقاتل وذلك أن جنسا من

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١٣٣٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٩١/٥ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) سقط في ظ.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٨٨/٥ وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في أثر طويل.

الملائكة، يقال لهم الجن منهم إبليس، قال بعض الكفار إن الله عز وجل اتخذهم بناتاً لنفسه، فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهم؟ فقالوا سروات الجن[١] فذلك قوله أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ ﴿وَلَهُم البَنُونَ﴾ يعني: يختارون له البنات، ولأنفسكم البنين، ثم قال ﴿أَمْ خَلَقْنَا المَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُم شَاهِدُون﴾ يعني: كانوا شاهدين حاضرين حين خلقهم بناتاً ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِم﴾ يعني: من كذبهم ﴿لَيَقولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ في قلوبهم ثم قال عز وجل: ﴿أَصْطَفى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ﴾ وذكر عن نافع أنه قرأ بإسقاط الألف في الوصل، وهو قوله (لكاذبون اصطفى) وبكسرها في الابتداء، وجعلها ألف وصل، ولم يجعلها ألف قطع، ولا ألف إستفهام ومعناها أن الله عز وجل حكى عن كفار قريش أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون في قولهم اصطفى البنات على البنين وقرأ الباقون (لكاذبون اصطفى) باثبات الألف[٢] على معنى الاستفهام، فلفظه لفظ الاستفهام، والمراد به الزجر، ثم قال عز وجل: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني: كيف تقضون بالحق ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا يختار البنات على البنين ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ يعني: ألكم حجة ويقال ألكم عذر بين في كتاب الله أنزل الله إليكم بأن الملائكة بناته ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾ يعني: أي بعذركم وحجتكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالتكم.

وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسباً﴾ يعني: وصفوا بين الرب وبين الملائكة نسباً، حين زعموا أنهم بناته، ويقال جعلوا بينه وبين إبليس قرابة وروى جبير عن الضحاك قال: قالت قريش: إن إبليس أخو الرحمن، وقال عكرمة (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً) قالوا الملائكة بنات الله، وجعلوهم من[٣] الجن، وهكذا قال القتبي ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ﴾ قال مقاتل والكلبي: يعني: علمت الملائكة الذين قالوا أنهم البنات ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أن من قال إنهم بناته، لمحضرون في النار ويقال لو علمت الملائكة، أنهم لو قالوا بذلك أدخلوا النار ثم قال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: تنزيهاً لله عما يصف الكفار، ثم استثنى على معنى التقديم والتأخير يعني: فقال إنهم لمحضرون ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ المُخْلَصِينَ﴾ يعني: الموحدين فإنهم لا يقولون ذلك ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ يعني: ما أنتم عليه بمضلين أحداً بآلهتكم ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ﴾ يعني: إلا من قدر الله له أن يصلى الجحيم، ويقال إلا من كان في علم الله تعالى أنه يصلى الجحيم، ويقال إلا من قدرت عليه الضلالة، وعلمت ذلك منه، وأنتم لا تقدرون على الإضلال والهدى

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٢ وعزاه لآدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد.

(٢) انظر حجة القراءات (٦١٢) النشر ٢/٣٦٠.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٢ وعزاه لعبد بن حميد عن عكرمة.

﴿**وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ**﴾ يعني: قل يا جبريل لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما منا معشر الملائكة إلا له مقام معلوم، يعني مصلى معروفاً في السماء يصلي فيه، ويعبد الله تعالى فيه ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ**﴾ يعني: صفوف الملائكة في السموات، وروي عن مسروق، عن ابن مسعود قال: «إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك ساجد وروي أو قدماه، وروي عن مجاهد عن أبي ذر[1]، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «أَطَّتِ السَّماءُ وَحُقَّ لَها أَنْ تَئِط، مَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِد»[2] ويقال إن جبريل عليه السلام، جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له: (إِنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) وما منا إلا له مقام معلوم في السموات يعبد الله عز وجل فيه، ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**﴾ يعني: المصلين ﴿**وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا**﴾ يعني: إن أهل مكة كانوا يقولون لو أتانا بكتاب مثل اليهود والنصارى، لكنا نؤمن، فذلك قوله عز وجل لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ﴿**ذِكْراً مِنَ الأَوَّلِينَ**﴾ يعني: لو جاءنا رسول ﴿**لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾ يعني: الموحدين، فلما جاءهم محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفروا به ويقال يعني: بالقرآن ﴿**فَكَفَرُوا بِهِ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ يعني: يعرفون في الآخرة، وهذا وعيد لهم، ويقال في الدنيا.

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ سَبَقَت كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا**﴾ يعني: قد مضت كلمتنا بالنصرة لعبادنا ﴿**الْمُرْسَلِينَ**﴾ يعني: الأنبياء عليهم السلام وهو قوله عز وجل: (كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) ﴿**إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورونَ**﴾ في الدنيا على أعدائهم ﴿**وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ**﴾ يعني: المؤمنون أهل ديننا، ويقال رسلنا لهم الغالبون في الدنيا بالغلبة والحجة في الآخرة ﴿**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**﴾ يعني: فأعرض عنهم إلى نزول العذاب، وكان ذلك قبل أن يؤمر بالقتال ﴿**حَتَّى حِينٍ**﴾ قال الكلبي: إلى فتح مكة، ويقال إلى أن تؤمر بالقتال ﴿**وَأَبْصِرْهُمْ**﴾ يعني: أعلمهم ذلك ﴿**فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**﴾ يعني: يرون ماذا يفعل بهم إذا نزل بهم العذاب ﴿**أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ**﴾ يعني: أفبعذاب مثلي يستعجلون ﴿**فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ**﴾ يعني: بقربهم وحضرتهم ﴿**فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**﴾ يعني: بئس الصباح، صباح من أُنذر بالعذاب، وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أنه لما نزل بقرب خيبر قال «هَلَكَت خَيبر، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[3] يعني: من أنذرتهم فلم يؤمنوا قوله عز وجل: ﴿**وَتَولَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ**

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وأحمد في المسند ٥/١٧٣ والحاكم في المستدرك ٤/٥١٠، ٤، ٥٤٤ وذكره السيوطي في الدر المنثور ٣/٢٦٥ وانظر تفسير ابن كثير ٧/٣٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بنحوه.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وتكرار الكلام للتأكيد، والمبالغة في الحجة، ثم نزه نفسه عما قالت الكفار، فقال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿رَبِّ العِزَّةِ﴾ والقدرة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عما يقولون وقرىء في الشاذ (رَبَّ العِزَّةِ) ويكون نصباً على المدح، وفي الشاذ قرىء (رَبُّ العِزَّة) بالرفع على معنى هو رب العزة، وقراءة العامة بالكسر[1] على معنى النعت ثم قال عز وجل: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ بتبليغ الرسالة، ففي الآية دليل وتنبيه للمؤمنين بالتسليم على جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ثم قال: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على هلاك الكافرين، الذين لم يوحدوا ربهم، ويقال: حمد الرب نفسه ليكون دليلاً لعباده ليحمدوه سبحانه وتعالى، والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٥/٩٢.

سُورَةُ صٓ(١)

وهي ثمانية وثمان آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

قوله تعالى ﴿صٓ، والقُرْآنِ﴾ قرأ الحسن (صاد) بالكسر وجعلها من المصادات، يقول عارض القرآن، (أي عارض عملك بالقرآن، ويقال بقلبك)(٢)، وروى معمر عن قتادة، في قوله (صٓ) قال: هو كما تقول، تلق كذا أي هيىء نفسك لقدوم فلان، يعني طهر نفسك بآداب القرآن، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «القرآن مأدبة الله تعالى فتطعموا من مأدبته»(٣) وكان عيسى بن يعمر يقرأ (صَادَ) بالنصب، وكذلك يقرأ (قاف) و(نون) بالنصب، ومعناه اقرأ صاد، وقراءة العامة بسكون الدال(٤)، لأنها حروف هجاء، فلا يدخلها الإعراب، وتقديرها الوقف عليها، وقيل في تفسير قول الله تعالى (ص) يعني الله هو الصادق. ويقال هو قسم (والقُرْآنِ) عطف عليه قسم بعد قسم، ومعناه أقسمت بصاد وبالقرآن، وقال علي بن أبي طالب الصاد اسم بحر في السماء، وقال ابن مسعود في قوله (صَ، والقُرْآنِ) يعني صادقوا القرآن حتى تعرفوا الحق من الباطل، وقال الضحاك معناه صدق الله(٥)، ثم قال والقُرآنِ ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ يعني والقرآن ذي الشرف، ويقال فيه ذكر من كان قبله وجواب القسم عند قوله (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) والجواب قد يكون مؤخراً عن الكلام كما قال (والفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ) وجوابه قوله (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ) وقوله (والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ) وجوابه، قوله (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) وقال بعضهم جواب القسم ههنا (كَمْ أَهْلَكْنَا) ومعناه لكم أهلكنا، فلما طال الكلام حذف اللام، ثم قال ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ﴾ أي في حمية، كقوله (أَخَذَتْهُ العِزَّةُ) يعني الحمية، ويقال في عزة: يعني في تكبر ﴿وَشِقَاقٍ﴾ يعني في خلاف من الدين بعيد،

---

(١) تسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تكذيب الكفار واقتداء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرسل من قبله داود وأيوب وغيرهما وما جوزوا عن صبرهم واستطراد الثناء على داود وسليمان وأيوب وأتبع ذكر أنبياء آخرين لمناسبة سنذكرها. وإثبات البعث لحكمة جزاء العاملين بأعمالهم من خير أو شر. وجزاء المؤمنين المتقين وضده من جزاء الطاغين والذين أضلوهم وقبحوا لهم الإسلام والمسلمين. ووصف أحوالهم يوم القيامة وذكر أول غواية حصلت وأصل كل ضلالة وهي غواية الشيطان في قصة السجود لآدم. وقد جاءت فاتحتها مناسبة لجميع أغراضها إذ ابتدئت بالقسم بالقرآن الذي كذب به المشركون وجاء المقسم عليه أن الذين كفروا في عزة وشقاق وكل ما ذكر فيها من أحوال المكذبين سببه اعتزازهم وشقاقهم ومن أحوال المؤمنين سببه ضد ذلك، مع ما في الافتتاح بالقسم من التشويق إلى ما بعده فكانت فاتحتها مستكملة خصائص حسن الابتداء. انظر التحرير ٢٣/٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك وصحح إسناده وذكره الحافظ في الفتح ١٣/٢٥٠.

(٤) انظر النشر ٢/٣٦١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤١٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٦ وعزاه لابن جرير.

ويقال: في عداوة ومباعدة وتكذيب، وقال القتبي بل في اللغة على وجهين: أحدهما لتدارك كلام غلطت فيه تقول رأيت زيداً بل عمرواً، والثاني أن يكون لترك شيء وأخذ غيره من الكلام كقوله (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) ثم خوفهم فقال عز وجل ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني من أمة ﴿فَنَادَوْا﴾ يعني فنادوا في الدنيا واستغاثوا ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ يعني وليس تحين فرار، قال الكلبي: فكانوا إذا قاتلوا قال بعضهم لبعض مناص، يعني يقول احمل حملة واحدة فينجو من نجا، ويهلك من هلك، فلما أتاهم العذاب، قالوا مناص، مثل ما كانوا يقولون، فقال الله تعالى ليس تحين فرار، وهي لغة اليمن، وقال القتبي النوص: التأخر والبوص: التقدم في كلام العرب وروى معمر عن قتادة في قوله (فنادوا ولات حين مناص) قال نادوا على غير حين النداء[1]، وقال عكرمة: نادوا وليس تحين انفلات، وقال أبو عبيدة اختلفوا في الوقف، فقال بعضهم يوقف عند قوله (ولات) ثم يبتدأ بـ (حين مناص) لأنا لا نجد في شيء من كلام العرب ولات، أما المعروف لا، ولأنّ تفسير ابن عباس يشهد لها، وذلك أنه قال ليس تحين فرار وليس هي أخت لا، ولا بمعناها، قال أبو عبيد ومع هذا تعمدت النظر في الذي يقال له مصحف الإمام وهو مصحف عثمان بن عثمان رضي الله عنه فوجدت التاء متصلة مع حين.

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ يعني مخوف منهم، ورسول منهم، يعني من العرب وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يكذب على الله تعالى أنه رسوله ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ يعني كيف يتسع لحاجتنا إله واحد ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ يعني لأمر عجيب، والعرب تحول فعيلاً إلى فعال، وها هنا أصله شيء عجيب كما قال في سورة ق (عجيب) ﴿وَانْطَلَقَ المَلَأُ مِنْهُمْ﴾ قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرنا الثقة بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه نفر[2] من قريش فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويقول ويقول، ويفعل ويفعل، فأرسل إليه فانهه عن ذلك، فأرسل إليه أبو طالب وكان إلى جنب أبي طالب موضع رجل فخشي أبو جهل إن جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجلس إلى جنب عمه أن يكون أرق له عليه، فوثب أبو جهل فجلس في ذلك المجلس، فلما جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يجد مجلساً إلا عند الباب، فلما دخل قال له أبو طالب: يا ابن أخي إن قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، وتفعل وتفعل، فقال يا عم (إني إنما أريد منهم كلمة واحدة) تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العرب والعجم الجزية، فقالوا وما هي فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا إله إلا الله

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٢) النفر: من ثلاثة إلى عشرة من الرجال ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٩٤٨.

فقاموا فزعين، ينفضون ثيابهم[1] ويقولون (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ) يعني الأشراف من قريش ﴿أَنِ امْشُوا﴾ يعني امكثوا ﴿وَاصْبِرُوا﴾ يعني اثبتوا ﴿عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ يعني على عبادة آلهتكم ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يعني لأمر يراد كونه بأهل الأرض، ويقال: إن هذا لشيء يراد يعني لا يكون ولا يتم له. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ يعني في اليهود والنصارى ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ يعني يختلقه من قبل نفسه، ويقال في قوله (إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ يُرَادُ) يعني أراد أن يكون. ثم قال عز وجل ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني أخص بالنبوة من بيننا، يقول الله عز وجل ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ يعني في ريب من القرآن والتوحيد ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي لم يذوقوا عذابي كقوله (وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) أي لم يدخل، فهذا تهديد لهم أي سيذوقوا عذابي ثم قال ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني مفاتيح رحمة ربك، يعني مفاتيح النبوة بأيديهم ليس ذلك بأيديهم وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ يعني بيد الله العزيز في ملكه، الوهاب لمن يشاء بل الله يختار من يشاء للوحي فيوحي الله عز وجل وهي الرسالة لمن يشاء ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ يعني إن لم يرضوا بما فعل الله تعالى فليتكلفوا الصعود إلى السماء، وقال القتبي: أسباب السماء أي أبواب السماء، كما قال القائل: ولو نال أسباب السماء بسلم، قال: ويكون أيضاً (فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ) يعني في الجبال إلى السماء، كما سألوك أن ترقى إلى السماء فتأتيهم بآية وهذا كله تهديد وتوبيخ بالعجز.

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ
وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾
وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾
ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ
وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ﴾ يعني جند عند ذلك، وما زائدة، يعني حين أرادوا قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مَهْزُومٌ﴾ يعني مغلوب ﴿مِنَ الأَحْزَابِ﴾ يعني من الكفار، وقال مقاتل: فأخبر الله تعالى بهزيمتهم ببدر وقال الكلبي: يعني عند ذلك إن أرادوه، مهزوم: مغلوب ثم قال عز وجل ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني من قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ، وَعَادٌ، وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ يعني ذو ملك ثابت شديد دائم، ويقال ذو بناء محكم، ويقال: يعني في عز ثابت والعرب تقول: فلان في عز ثابت الأوتاد، يريدون دائم شديد، وأصل هذا أن بيوت العرب تثبت بأوتاد، ويقال هي أوتاد كانت لفرعون يعذب بها، وكان إذا غضب على أحد شده بأربعة أوتاد ثم قال ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ يعني الغيضة وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ يعني الكفار، سموا أحزاباً لأنهم تحزبوا على أنبيائهم، أي تجمعوا، وأخبر في الابتداء أن مشركي قريش حزب من هؤلاء الأحزاب ﴿إِنْ كُلٌّ﴾ يعني ما كل ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يعني وجب عذابي عليهم قوله عز وجل ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه.

قومك ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني النفخة الأولى ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يعني من نظرة ومن ورجعة، قرأ حمزة والكسائي (فُواق) بضم الفاء، وقرأ الباقون بالنصب[١]، ومعناهما واحد، يسمى ما بين حلبتي الناقة فواق، لأن اللبن يعود إليه الضرع، وكذلك إفاقة المريض، يعني يرجع إلى الصحة، فقال: ما لها من فواق، يعني من رجوع، وقال أبو عبيدة: من فتحها، أراد مالها من راحة ولا إفاقة يذهب بها إلى إفاقة المريض، ومن ضمها، جعلها من فواق الناقة، وهو ما بين الحلبتين، يعني ما لها من انتظار، وقال القتبي: الفُواق، والفَواق واحد وهو ما بين الحلبتين، ثم قال تعالى ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا﴾ قال ابن عباس وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، قال لقريش: من لم يؤمن بالله أعطي كتابه بشماله، فقالوا (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) يعني صحيفتنا، وكتابنا في الدنيا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ والقط في اللغة: الصحيفة المكتوبة، ويقال لما نزل قوله (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) فقالوا ربنا عجل لنا هذا الكتاب (قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ) استهزاء، ثم عزى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عز وجل ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾ يعني ذا القوة على العبادة ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مقبل على طاعة الله عز وجل وقال مقاتل: أَوَّابٌ يعني: مطيع قوله عز وجل ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبالَ مَعَهُ﴾ يعني ذللنا الجبال ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ مع داود عليه السلام ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ يعني في آخر النهار وأوله، وروى طاووس[٢] أن ابن عباس قال لأصحابه، هل تجدون صلاة الضحى في القرآن؟ قالوا لا، قال بلى، قوله «يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ والإِشْرَاقِ» كانت صلاة الضحى يصليها[٣] داود عليه السلام ثم قال عز وجل ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ يعني مجموعة ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مطيع وقال عمرو بن شرحبيل الأواب بلغة الحبشة: المسبح، وقال الكلبي: المقبل على طاعة الله تعالى قوله عز وجل ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ يعني قوينا حراسه، قال مقاتل والكلبي: كان يحرسه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل، ويقال قوينا ملكه وأثبتناه وحفظناه عليه وروي في الخبر، أن غلاماً استعدى على رجل وادعى عليه بقراً، فأنكر المدعي عليه، وقد كان لطمه لطمة حين ادعى عليه، فسأل داود من الغلام البينة، فلم يقمها فرأى داود في منامه أن الله عز وجل يأمره أن يقتل المدعى عليه، ويسلم البقر إلى الغلام فقال داود هو منام، ثم أتاه الوحي بذلك فأخبر بذلك بنو إسرائيل فجزعت بنو إسرائيل وقالوا رجل لطم غلاماً لطمة فقتله بذلك؟ فقال داود عليه السلام: هذا أمر الله تعالى به، فسكتوا، ثم أحضر الرجل فأخبره أن الله تعالى أمره بقتله، فقال الرجل صدقت يا نبي الله إني قتلت أباه غيلة وأخذت البقر فقتله داود، فعظمت هيبته وشدد ملكه فلما رأى الناس ذلك جل أمره في أعينهم، وقالوا: إنه يقضي بوحي الله تعالى ثم إن الله تعالى أرخى سلسلة من السماء وأمره بأن يقضي بها بين الناس، فمن كان على الحق يأخذ السلسلة، ومن كان ظالماً لا يقدر على أخذ السلسلة وقد كان غصب رجل من رجل لؤلؤاً، فجعل اللؤلؤ في جوف عصاً له، ثم خاصمه المدعي إلى داود عليه السلام فقال المدعي إن هذا أخذ مني لؤلؤاً وإني لصادق في مقالتي، فجاء وأخذ السلسلة، ثم قال المدعى عليه خذ مني العصا، فأخذ عصاه، وقال إني قد دفعت إليه اللؤلؤ، وإني لصادق في مقالتي، فجاء وأخذ السلسلة، فتحير داود عليه السلام في ذلك، فرفعت السلسلة، وأمره بأن يقضي بالبينات والأيمان، فذلك قوله عز وجل ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ يعني الفهم والعلم، ويقال يعني النبوة ﴿وَفَصْلَ

---

(١) انظر حجة القراءات (٦١٣) النشر ٢/٣٦١.

(٢) طاوس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن الحميري مولاهم الفارس يقال اسمه ذكوان وطاوس لقب ثقة فقيه فاضل مات سنة ست ومائة التقريب ١/٣٧٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٢٩٨ وعزاه لعبد بن حميد.

الخِطَابِ﴾ يعني القضاء بالبينات والأيمان وقال قتادة والحسن: وفصل الخطاب يعني البينة على الطالب، واليمين على المطلوب(١).

وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبأُ الخَصْمِ﴾ يعني خبر الخصم، ويقال خبر الخصوم، أي وهل أتاك يا محمد ما أتاك، حين أتاك، ويقال وقد أتاك ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ﴾ والتسور: أن يصعد في مكان مرتفع، وإنما سمي المحراب سوراً لارتفاعه من الأرض، ويقال تسوروا: يعني دخلوا عليه من فوق الجدار، وقال الحسن البصري: وذلك أن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أيام، فيوماً لنسائه، ويوماً لقضائه ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه، ويوماً لبني إسرائيل ليسألونه، فقال يوماً لبني إسرائيل أيكم يستطيع أن يتفرغ لعبادة ربه يوماً لا يصيب الشيطان منه شيئاً؟ فقالوا: يا نبي الله، إننا والله لا نستطيع، فحدث داود نفسه أنه يستطيع ذلك، فدخل محرابه وأغلق بابه فقام يصلي في المحراب، فجاء طائر في أحسن صورة مزين كأحسن ما يكون، فوقع قريباً منه، فنظر إليه فأعجبه، فوقع في نفسه منه، فدنا منه ليأخذه، فوقع قريباً منه وأطمعه أن سيأخذه، ففعل ذلك ثلاث مرات، حتى إذا كان في الرابعة ضرب يده عليه فأخطأه ووقع على سور المحراب، قال وخلف المحراب حوض تغتسل فيه النساء، فضرب يده عليه وهو على سور المحراب فأخطأه، وهرب الطائر، فأشرف داود، فإذا بامرأة تغتسل فلما رأته نقضت شعرها، فغطى جسدها، فوقع في نفسه منها ما يشغله عن صلاته، فنزل من محرابه، ولبست المرأة ثيابها، وخرجت إلى بيتها، فخرج حتى عرف بيتها، وسألها من أنت؟ فأخبرته فقال: هل لك زوج؟ قالت نعم، قال أين هو؟ فقالت في بعث كذا وكذا، وجند كذا وكذا، فرجع وكتب إلى عامله إذا جاءك كتابي هذا فاجعل فلاناً في أول الخيل، فقدم في فوارس فقاتل فقتل، ثم انتظر حتى انقضت عدتها، فخطبها وتزوجها، فبينما هو في المحراب، إذ تسور عليه ملكان، وكان الباب مغلقاً، ففزع منهما، فقالا: لا تخف (خصمان بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق) يعني اقض بيننا بالعدل، ثم خاصم أحدهما الآخر فقال: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) إلى آخره فعلم داود عليه السلام أنه مراد بذلك (فخر راكعاً وأناب) قال الحسن سجد أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا للصلاة المكتوبة، قال ولم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠٠ وعزاه لابن جرير والبيهقي عن قتادة.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٠١ ـ ٣٠٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن بنحوه.

يذق طعاماً ولا شراباً حتى أوحى الله عز وجل إليه أن ارفع رأسك فإني قد غفرت[٢] لك، وهكذا ذكر في رواية الكلبي عن ابن عباس أنه سجد أربعين يوماً حتى سقط جلد وجهه ونبت العشب من دموعه، فقال يا رب: كيف ترحمني وأنا أعلم أنك منتقم مني بخطيئتي وذكر أن جبريل عليه السلام قال له اذهب إلى أوريا فاستحل منه فإنك تسمع صوته في يوم كذا، فأتاه ذات ليلة، فناداه، فأجابه، فاستحل منه فقال: أنت في حل، فلما رجع قال له جبريل هل أخبرته بجرمك؟ قال لا، قال: فإنك لم تفعل شيئاً؟ قال فارجع فأخبره بالذي صنعت، فرجع داود فأخبره بذلك، فقال أنا خصمك يوم القيامة، فرجع مغتماً وبكى أربعين يوماً، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى يقول إني أستوهبك من عبدي، فيهبك لي وأجزيه على ذلك أفضل الجزاء، فسري عنه بذلك، وكان محزوناً في عمره، باكياً على خطيئته، وروي في خبر آخر، أن داود سمع بني إسرائيل كانوا يقولون في دعائهم يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فيستجاب لهم، فقال لهم داود عليه السلام اذكروني فيهم فقولوا: يا إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وداود، فقالوا: آلله أمرك بهذا؟ قال لا، فقالوا: لا نزيد فيهم ما لم يأمرك الله تعالى بذلك، فسأل داود ربه أن يجعله فيهم، فأوحى الله تعالى إليه، وذكر له ما لقي إبراهيم من الشدائد، وما لقي إسحاق ويعقوب عليهم السلام، فسأل داود ربه أن يبتليه ببلية لكي يبلغ منزلتهم، فابتلي بذلك حتى بلغ مبلغهم، وقال بعضهم هذه القصة لا تصح، لأنه لا يظن بالنبي مثل داود أنه يفعل مثل ذلك، ولكن كانت خطيئته أنه لما اختصما إليه، فقال للمدعي لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فنسبه إلى الظلم بقول المدعي فكان ذلك منه زلة، فاستغفر ربه عن زلته، فذلك قوله ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ وقال بعضهم: كانوا اثنين فذكر بلفظ الجماعة فقال، (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ) وقال بعضهم كانوا جماعة ولكنهم كانوا فريقين، فقال ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني استطال وظلم بعضنا على بعض ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يعني اقض بيننا بالعدل ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي ولا تجر في الحكم والقضاء ويقال أشططت إذا جرت ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ يعني: أرشدنا إلى أعدل الطريق قوله عز وجل ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ يعني أعطني هذه النعجة، وهذا قول الكلبي ومقاتل، وقال القتبي (أَكْفِلْنِيهَا) يعني ضمها إليّ، واجعلني كافلها ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ يعني غلبني في الكلام ﴿قَالَ﴾ داود ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ أي مع نعاجه ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾ يعني من الإخوان، والشركاء ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني ليظلم بعضهم بعضاً ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يظلمون ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ يعني قليل منهم الذين لا يظلمون، فلما قضى بينهما داود عليه السلام أحب أن يعرفهما، فصعد إلى السماء حيال وجهه ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ يعني علم داود، ويقال ظن: بمعنى أيقن، إلا أنه ليس بيقين عياناً لأن العيان لا يقال فيه إلا العلم ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ يعني ابتليناه واختبرناه، ويقال إنهما ضحكا وذهبا فعلم داود أن الله عز وجل ابتلاه بذلك، وروي عن أبي عمرو في بعض الروايات أنه قرأ (أَنَّمَا فَتَنَاهُ) بالتخفيف، ومعناه ظن أن الملكين اختبراه وامتحناه في الحكم، وقراءة العامة (فَتَنَّاه) بالتشديد، يعني أن الله عز وجل قد اختبره وامتحنه بالملكين ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ يعني وخر وقع راكعاً ساجداً (وَأَنَابَ) يعني أقبل إلى طاعة الله تعالى بالتوبة، وروى عطاء بن السائب عن أبي عبد الله الجبلي قال: إن داود لم يرفع رأسه إلى السماء مذ أصاب الخطيئة حتى مات، وذكر في الخبر أن داود كان له تسع وتسعون امرأة، فتزوج امرأة أوريا على شرط أن يكون ولدها خليفة بعده، فولد له منها سليمان وكان خليفته بعده، يقول الله عز وجل ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ يعني ذنبه ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ لقربة ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي المرجع في الآخرة، [وروي أن كاتباً كان يكتب قوله تعالى: وخر راكعاً وأناب وكان تحت شجرة فقرأها وكتبها فخرت الشجرة ساجدة لله تعالى وهي تقول اللهم اغفر بها

ذنباً، وخرت الدواة ساجدة كذلك، وهي تقول اللهم احطط عني بها وزراً، وكذلك الصحيفة التي في يده وهي تقول اللهم احدث مني بها شكراً» وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فَسَجدتُ فَسَجَدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس فقرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[١]، وأيضاً سئل ابن عباس عن سجدة (ص) من أين سجدت؟ قال أما تقرأ هذه الآية (وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاودَ وَسُلَيْمانَ) ثم قال (فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه) فكان داود ممن أمر نبيكم أن يقتدي بـه، فسجدهـا داود، فسجدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اقتداء به][٢] ثم قوله عز وجل ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**﴾ يعني أكرمناك بالنبوة وجعلناك خليفة، والخليفة: الذي يقوم مقام الذي قبله، فقـام مقام الخلفاء الذين قبله، وكان قبله النبوة في سبط والملك في سبط آخر، فأعطاهما الله تعالى لداود ثم قال ﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ يعني بالعدل ﴿**وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى**﴾ أي لا تمل إلى هوى نفسك فتقضي بغير عدل، ويقال لا تعمل بالجور في القضاء، ولا تتبع الهوى كما اتبعت في بتشايع وهي امرأة أوريا ﴿**فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني عن طاعة الله تعالى، ويقال: يعني الهوى يستزلك عن سبيل الله ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني عن دين الله الإسلام ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ**﴾ يعني بما تركوا من العمل ليوم القيامة فلم يخافوه، ويقال بما تركوا الإيمان بيوم القيامة.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَـا**﴾ من الخلق ﴿**بَاطِـلاً**﴾ يعني عبثاً لغيـر شيء بل خلقناهما لأمر هو كائن ﴿**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ يعني يظنون أنهما خلقتا لغير شيء، وأنكروا البعث ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ يعني جحدوا، من النار يعني من عذاب النار ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا إنا نعطي في الآخرة من الخير أكثر مما تعطون، فنزل (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في الثواب ﴿**كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ يعني كالمشركين وقال في رواية الكلبي: نزلت في مبارزي يوم بـدر (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني علياً وحمزة، وعبيدة رضي الله عنهم (كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ) يعني عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد، ويقال: نزلت في جميـع المسلمين، وجميع الكـافرين، يعني لا نجعـل جزاء المؤمنين كجزاء الكافرين في الدنيا والآخرة، كما قال في آية أخرى «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَواءً» ثم قال عز وجل ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ يعني كالكفار في الثواب،

(١) أخرجه الترمذي ٢/٤٧٢ (٥٧٩) (٣٤٢٤) والدر المنثور ٥/٣٠٥ والبيهقي في السنن ٢/٣٢٠.
(٢) سقط في ظ.

اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الوعيد ثم قال عز وجل ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ يعني أنزلنا جبريل عليه السلام به إليك (مُبَارَكٌ) يعني كتاب مبارك فيه مغفرة للذنوب لمن آمن به وصدقه وعمل بما فيه ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ أي لكي يتفكروا في آياته، قرأ عاصم في إحدى الروايتين (لِتَدَبَّرُوا) بالتاء مع النصب وتخفيف الدال، وهو بمعنى: لتتدبروا، فحذفت إحدى التائين وتركت الأخرى خفيفة، وقراءة العامة (لِيَدَّبَّرُوا) بالياء وتشديد الدال، وهو بمعنى ليتدبروا، فأدغمت التاء في الدال وشددت ثم قوله عز وجل ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يعني وليتعظ بالقرآن ﴿أُولُو الأَلْبَابِ﴾ يعني ذوو العقول من الناس.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ﴾ يعني أعطينا لداود سليمان، وروي عن ابن عباس أنه قال: أولادنا من مواهب الله عز وجل ثم قرأ (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) فوهب الله تعالى لداود سليمان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مقبلاً إلى طاعة الله تعالى قوله عز وجل ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ يعني في آخر النهار ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخيل، قال الكلبي ومقاتل: صفن الفرس، إذا رفع إحدى رجليه، فيقوم على طرف حافره، وقال أهل اللغة[1]: الصافن: الواقف من الخيل، وفي الخبر «من أحب أن يقوم له الرجال صفوفاً فليتبوأ مقعده من النار» يعني يديمون له القيام، والجياد: الحسان، ويقال الإسراع في المشي، وقال ابن عباس في رواية الكلبي إن أهل دمشق من العرب، وأهل نصيبين جمعوا جموعاً وأقبلوا ليقاتلوا سليمان فقهرهم سليمان، وأصاب منهم ألف فرس عراب فعرضت على سليمان الخيل، فجعل ينظر إليها ويتعجب من حسنها، حتى شغلته عن صلاة العصر، وغربت الشمس، ثم ذكرها بعد ذلك فغضب وقال: رُدُّوهَا عَلَيَّ فضرب بسوقها وأعناقها بالسيف حتى خر منها تسعمائة فرس، وهي التي كانت عرضت عليه، وبقيت مائة فرس لم تعرض عليه، كما كان في أيدي الناس الآن من الجياد فهو من نسلها، أي من نسل المائة الباقية، قوله تعالى ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ يعني آثرت حب المال ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ يعني عن الصلاة وهي صلاة العصر ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني حتى غابت الشمس، وهذا إضمار لما لم يسبق ذكره يعني ذكر الشمس لأن في الكلام دليلاً، فاكتفى بالإشارة عن العبارة قوله عز وجل ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ يعني قال سليمان: ردوا الخيل عليّ فردت عليه ﴿فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ﴾ يعني يضرب السوق وهو جماعة الساق ﴿وَالأَعْنَاقِ﴾ وهو جمع العنق، وروي عن إبراهيم النخعي قال: كانت عشرين ألف فرس، وقال السدي كانت خيل لها أجنحة، وقال أبو الليث يجوز أن يكون مراده في سرعة السير كأن لها أجنحة، وقال بعضهم كانت الجن والشياطين أخرجتها من البحر، وقال عامة المفسرين في قوله (فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ) يعني فضرب سوقها وأعناقها، وقال بعضهم: لم يعقر ولكن جعل على سوقهن وعلى أعناقهن سمة، وجعلها في سبيل الله، قال لأن التوبة لا تكون بأمر منكر، ولكن الجواب عنه أن يقال له يجوز أن يكون ذلك مباحاً في ذلك الوقت، وإنما أراد بذلك الاستهانة بمال الدنيا لمكان فريضة الله تعالى، ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٤٦٧.

عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ يعني شيطاناً، قال ابن عباس في رواية أبي صالح[١]: إن سليمان أمر بأن لا يتزوج إلا من بني إسرائيل، فتزوج امرأة من غير بني إسرائيل فعاقبه الله تعالى، فأخذ شيطان يقال له صخر، خاتمه وجلس على كرسيه أربعين يوماً، وقد ذكرنا قصته في سورة البقرة ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ يعني رجع إلى ملكه وأقبل على طاعة الله تعالى وقال الحسن في قوله تعالى (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال شيطاناً، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: سألت كعباً عن قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال شيطاناً يعني أخذ خاتم سليمان الذي فيه ملكه فقذفه في البحر فوقع في بطن سمكة وانطلق سليمان يطوف فتصدق عليه بسمكة فشواها ليأكل فإذا فيها خاتمه[٢]، وقال وهب بن منبه إن سليمان تزوج امرأة من أهل الكتاب، وكان لها عبد فطلبت منه أن يجزرها لعبدها يعني ينحر الجزور، فأجزرها، فكره ذلك منه، ثم ابتلي بالجسد الذي ألقي على كرسيه وروى معمر عن قتادة في قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال كان الشيطان جلس على كرسيه أربعين ليلة، حتى رد الله تعالى إليه ملكه، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) قال شيطان يقال له صخر، قال له سليمان يوماً: كيف تفتنون الناس؟ فقال له: أرني خاتمك أخبرك، فلما أعطاه إياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد صخر على كرسيه، ومنعه الله تعالى نساء سليمان فلم يقربهن، فأنكرته أم سليمان، أهو سليمان أم آصف فكان يقول: أنا سليمان، فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوماً حوتاً، فوجد خاتمه في بطنه، فرجع إليه ملكه، ودخل صخر البحر فاراً، وذكر شهر بن حوشب نحو هذا، وقال لما جلس سليمان على سريره بعث في طلب صخر فأتي به فأمر به فقورت له صخرة وأدخله فيها ثم أطبق عليها وألقاه في البحر، وقال هذا سجنك إلى يوم القيامة، وقال بعضهم هذا التفسير الذي قاله هؤلاء الذين ذكروا أنه شيطان، لا يصح، لأنه لا يجوز من الحكيم أن يسلط شيطاناً من الشياطين على أحكام المسلمين، ويجلسه على كرسي نبي من الأنبياء عليهم السلام، ولكن تأويل الآية والله أعلم أن سليمان كان له ابن، فجاء ملك الموت يوماً زائراً لسليمان فرآه ابنه، فخافه وتغير لونه، ومرض من هيبته، فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ابنه فوق السحاب ليزول ذلك عنه، فلما رفعته الريح فوق السحاب ودنا أجله، فقبض ابنه وألقي على كرسيه فذلك قوله (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) يعني ابنه الميت، قال والدليل على ذلك أن الجسد في اللغة هو الميت الذي لا يأكل الطعام والشراب، كالميت ونحوه، وذكر أن سليمان جزع على ابنه، إذ لم يكن له إلا ابن واحد فدخل عليه ملكان، فقال أحدهما: إن هذا مشى في زرعي فأفسده، فقال له سليمان: لم مشيت في زرعه؟ فقال: لأن هذا الرجل زرع في طريق الناس، ولم أجد مسلكاً غير ذلك، فقال سليمان للآخر: لم زرعت في طريق الناس؟ أما علمت أن الناس لا بد لهم من طريق يمشون فيه؟ فقال لسليمان صدقت، لم ولدت على طريق الموت، أما علمت أن ممر الخلق على الموت، ثم غابا عنه، فاستغفر سليمان فذلك قوله (ثُمَّ أَنَابَ) يعني تاب ورجع إلى طاعة الله عز وجل.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ
رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا
فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

---

(١) أبو صالح السمان الزيات واسمه ذكوان سمع سعد بن حرفاص وابن عمر وابن عباس وجابراً وأبا سعيد وغيرهم قال أحمد بن حنبل هو ثقة ثقة من أجل اناس وأوثقهم - انظر تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٤٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

قوله عز وجل ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً﴾ أي أعطني ملكاً ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ قال سعيد بن جبير: أعطني ملكاً لا تسلبه كما سلبت في المرة الأولى، ويقال إنما تمنى ملكاً لا يكون لأحد من بعده، حتى يكون ذلك معجزة له، وعلامة لنبوته ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يعني المعطي الملك قوله عز وجل ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ وكان من قبل ذلك لم تسخر له الريح، والشياطين، فلما دعا بذلك سخرت له الريح والشياطين، فقال: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ) يعني بأمر سليمان ويقال بأمر الله تعالى ﴿رُخَاءً﴾ يعني لينة مطيعة ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يعني حيث أراد من الأرض والنواحي، أصاب يعني أراد، وقال الأصمعي[١] العرب تقول: أصاب الصواب فأخطأ الجواب، يعني أراد الصواب فأخطأ الجواب ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يعني سخرنا له كل شيء، وسخرنا له الشياطين أيضاً ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وغوَّاصٍ﴾ يعني يغوصون في البحر ويستخرجون اللؤلؤ، وقال مقاتل: وهو أول من استخرج اللؤلؤ من البحر ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ﴾ يعني مردة الشياطين موثقين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ يعني في الحديد، ويقال: الأصفاد: الأغلال ثم قال عز وجل ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ يعني هذا عطاؤنا لك، وكرامتنا عليك ﴿فَامْنُنْ﴾ يعني اعتق من شئت منهم، فخل سبيله من الشياطين ﴿أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني احبس في العمل، والوثاق، والسلاسل من شئت منهم (بِغَيْرِ حِسَابٍ) أي فلا تبعة عليك في الآخرة فيمن أرسلته، وفيمن حبسته، ويقال ليس عليك بذلك إثم ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ يعني لقربى ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ يعني: حسن المرجع.

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ
وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب
بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ يعني واذكر صبر عبدنا أيوب ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ يعني دعا ربه ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني أصابني الشيطان ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ وهو المشقة والعناء والأمراض، وعذاب في ماله، يعني هلاك أهله وماله، وقد ذكرناه في سورة الأنبياء قوله عز وجل ﴿أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا﴾ يعني قال له جبريل اضرب الأرض برجلك، فضرب، فنبعت عين من تحت قدميه فاغتسل فيها، فخرج منها صحيحاً، ثم ضرب برجله الأخرى، فنبعت عين أخرى ماء عذب بارد فشرب منها فذلك قوله هَذَا ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ يعني الذي اغتسل منها ثم قال: ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ يعني الذي شرب منها قوله عز وجل ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً﴾ يعني قبضة من سنبل فيها مائة سنبلة وقال الكلبي: ضغثاً: أي مجتمعاً، وقال مقاتل: الضغث القبضة الواحدة، فأخذ عيداناً رطبة من الآس فيه مائة عود، وقال القتبي: الضغث، الحزمة من العيدان والكلأ ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ يعني اضرب به امرأتك ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، وقال الزجاج: قالت امرأته لو ذبحت عناقاً[٢] باسم الشيطان، فقال لا، وَلَا كَفّاً مِن تُرَاب، وحلف أنه يضربها مائة سوط وأمر بأن يبر في يمينه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾ على البلاء الذي ابتليناه ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مقبل على طاعة ربه، وقال وهب بن منبه: أصاب

---

(١) هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع أبو سعيد الأصمعي البصري اللغوي أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والنوادر توفي سنة ٢١٦ هـ ـ انظر تهذيب الأسماء ٢/٢٧٣.

(٢) العناق الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول ـ انظر المعجم الوسيط ٢/٦٤٨.

أيوب البلاء سبع سنين، ومكث يوسف في السجن سبع سنين، (ويقال إنه أواب، لما هلك ماله قال كان ذلك من عطاء الله، ولما هلك أولاده قال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ولما ابتلي بالنفس قال: إني له، ويقال: واذكر أنت يا محمد، صبر عبدنا أيوب إذ ضاق صدرك من أذى الكفار، وأمر أمتك ليذكروا صبره، ويعتبروا، ويصبروا.

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ فجعل العبد نعت إبراهيم خاصة، كأنه قال واذكر عبدنا[١]، قرأ ابن كثير واذكر (عَبْدَنَا) بغير ألف، وقرأ الباقون (عِبَادَنَا) بالألف[٢]، فمن قرأ عبدنا فمعناه (وَاذْكُر عَبْدَنا إِبْرَاهِيمَ) فجعل العبد نعتاً لإبراهيم خاصة فكأنه قال (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ) واذكر ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ومن قرأ «عِبَادَنَا» يعني ما بعده مع إبْرَاهِيمَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني أولى القوة في العبادة، والأبصار يعني ذوي البصر في أمر الله تعالى قوله عز وجل ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ يعني اختصصناهم بذكر الله تعالى، وبذكر الجنة وليس لهم هم إلا هم الآخرة، ويقال معناه: واذكر صبر إبراهيم، وصبر إسحاق، وصبر يعقوب، ولم يذكر صبر إسماعيل لأنه لم يبتـل بشيء، قرأ نافع (بِخَالِصَةِ) بغير تنوين على معنى الإضافة، وقرأ الباقون مع التنوين[٣]، وروي عن مالك بن دينار أنه قال: نزع الله ما في قلوبهم من حب الدنيا وذكرها وقد أخلصهم بحسب الآخرة وذكرها، ومن قرأ (بِخَالِصَةٍ) بالتنوين جعل قوله (ذِكْرَى الدَّارِ) بدلاً من خالصة، والمعنى إنا أخلصناهم بذكر الدار، والدار هاهنا: دار الآخرة، يعني جعلناهم لنا خالصين، بأن جعلناهم يكثرون ذكر الدار والرجوع إلى الله تعالى ثم قال عز وجل ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ يعني المختارين للرسالة، الأخيار

(١) سقط في ظ.

(٢) حجتهم أنه ذكر أسماءهم فقال: (إبراهيم وإسحاق ويعقوب). وهم بدل من قوله (عبادنا) وذلك أنه أجملهم ثم بين أسماءهم كقولك (رأيت أصحابك) ثم تقول: (زيداً وعمراً) ووجه إفراد (عبدنا) أنه اختصه بالإضافة على التكرمة له والاختصاص بالمنزلة الرفيعة كما قيل في مكة: (بيت الله) وكما اختص بالخلة في قوله: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾. انظر حجة القراءات ٦١٣.

(٣) انظر حجة القراءات الموضع السابق ـ النشر في القراءات ٢/٣٦١.

في الجنة ثم قال ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ﴾ قال مقاتل: واذكر صبر إسماعيل وهو أشمويل بن هلفانا، وقال غيره هو إسماعيل بن إبراهيم، يعني اذكر لقومك صبر إسماعيل، وصدق وعده ﴿وَالْيَسَعَ، وَذَا الْكِفْلِ﴾ واليسع كان خليفة إلياس، وذا الكفل كفل مائة نبي أطعمهم وكساهم ﴿وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ﴾ يعني هذا الذي ذكرنا من الأنبياء عليهم السلام في هذه السورة ذكر يعني بيان لعظمته ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ من هذه الأمة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ يعني حسن المرجع. ثم وصف الجنة فقال عز وجل ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾ يعني تفتح لهم الأبواب فيدخلونها يعني الجنة، كما قال تعالى في آية أخرى (حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) فإذا دخلوها وجلسوا على السرر، وكانوا ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ يعني ألوان الفاكهة، والشراب ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ يعني غاضات أعينهن عن غير أزواجهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ يعني ذات أقران أي مستويات على سن واحد ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ﴾ يقول ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني إن هذا الثواب الذي توعدون بأنه يكون لكم في يوم الحساب وقرأ ابن كثير، وأبو عمر، بالياء على معنى الأخبار عنهم، وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة، يقول الله تعالى (إِنَّ هَذَا ﴿لَرِزْقُنَا﴾ يعني إن هذا الذي ذكرنا لعطاؤنا للمتقين ﴿مَالَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ يعني لا يكون له فناء، ولا انقطاع عنهم، وهذا كما قال تعالى (لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ) ثم قال ﴿هذا﴾ يعني هذا الرزق للمتقين، فيتم الكلام عند قوله (هَذَا) ثم ذكر ما أوعد الكفار فقال عز وجل ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ يعني للكافرين لبئس المرجع لهم في الآخرة، ثم بين مرجعهم فقال عز وجل ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني يدخلونها ﴿فَبِئْسَ المِهَادُ﴾ يعني فبئس موضع القرار ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ يعني هذا العذاب لهم فليذوقوه ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وهو ماء حار قد انتهى حره، قرأ حمزة والكسائي وحفص غسّاق، بتشديد السين، وقرأ الباقون بالتخفيف، وعن عاصم روايتان، رواية حفص بالتشديد، ورواية أبي بكر بالتخفيف[2]، فمن قرأ بالتشديد: فهو بمعنى سيال وهو ما يسيل من جلود أهل النار، ومن قرأ بالتخفيف: جعله مصدر غسق يغسق غساقاً، أي سال، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود، أنهما قرآ غساق بالتشديد، وفسراه بالزمهرير، وقال مقاتل: الغساق، البارد الذي انتهى برده، وقال الكلبي: الحميم: هو ماء حار قد انتهى حره وأما غساق فهو الزمهرير، يعني برد يحرق كما تحرق النار، وقال بعضهم الغساق: المنتن بلفظ الطحاوية ثم قال عز وجل ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ يعني وعذاب آخر من نحوه يعني من نحو الحميم، والزمهرير، قرأ أبو عمر، وابن كثير في إحدى الروايتين (وَأُخَر من شكله) بضم الألف، وقرأ الباقون (وَآخَر) بالنصب[3]، فمن قرأ

(١) حجة من قرأ بالياء أن الكلام أتى عقيب الخبر عن المتقين، فأتبع ذلك فقال: «مفتحة لهم الأبواب. . . وعندهم قاصرات الطرف أتراب» فجرى الكلام بعد ذلك بالخبر عنهم، إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة الباقين أن الخبر عنهم قد تناهى عند قوله: (أتراب) ثم ابتدىء الكلام بعد ذلك بالخبر عن حكاية ما خوطبوا به نظير قوله: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ ثم تناهى الخبر عنهم ثم جاء الكلام بعده على حكاية ما خوطبوا به فقال: ﴿وأنتم فيها خالدون﴾ أي: وقيل لهم. انظر حجة القراءات ٦١٤.

(٢) حجة من خفف أنه اسم موضوع على هذا الوزن مثل عذاب وشراب ونكال ـ حجة القراءات ٦١٤.

(٣) من أفرد فإنه عطف على قوله (حميم وغساق) و (آخر) أي: وعذاب آخر من شكله أي: مثل ذلك. وحجته ما روي عن ابن مسعود أنه قال في تفسير قوله ﴿وآخر من شكله﴾: الزمهرير فتفسيره حجة لمن قرأ (وآخر) بالتوحيد لأن الزمهرير واحد. فإن قيل: (لم جاز أن ينعت الآخر وهو واحد في اللفظ بـ (أزواج) وهي جمع؟) قيل: إن الأزواج نعت للحميم والغساق والآخر (فهي ثلاثة) وحجة من قرأ: (أُخَر) على الجمع أن الأُخَر قد نعتت بالجمع فدل على (أن) المنعوت جمع مثله. قال سفيان: (لو كانت (وآخر) لم يقل (أزواج) وقال (زوج). وقال الزجاج: من قرأ (وأُخَر فالمعنى: وأقوام أخر لأن قوله (أزواج) معناه: أنواع، انظر حجة القراءات ٦١٥.

بالضم فهو لفظ الجماعة ومعناه وأنواع أخر، ومن قرأ (وَأُخَر) بنصب الألف بلفظ الواحد يعني وعذاب آخر من شكله، أي مثل عذابه الأول (أزواج) يعني ألوان ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ يعني جماعة داخلة معكم النار يقال: اقتحم إذا دخل في المهالك، وأضلوا الدخول، تقول الخزنة للقادة وهذه جماعة داخلة معكم النار وهم الاتباع ﴿لَا مَرْحَبَاً بِهِم﴾ يعني لا وسع الله لهم ﴿إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾ يعني داخل النار معكم فردت الاتباع على القادة ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبَاً بِكُمْ﴾ يعني لا وسع الله عليكم ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ يعني أسلفتموه لنا وبدأتم بالكفر قبلنا فاتبعناكم ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ يعني بئس موضع القرار في النار قوله عز وجل ﴿قَالُوا رَبَّنَا من قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ الأمر هذا الذي كنا فيه ﴿فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ، وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعني فقراء المسلمين.

قوله عز وجل ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً﴾ قرأ حمزة والكسائي، وأبو عمرو (سخرياً اتخذناهم) بالوصل، وقرأ الباقون بالقطع[1] فمن قرأ بالقطع فهو على معنى الاستفهام بدليل قوله ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ لأن أم تدل على الاستفهام، ومن قرأ بالوصل فمعناه أنا اتخذناهم سخرياً، وجعل أم بمعنى بل، وقرأ حمزة والكسائي ونافع (سُخْرِيًّا) بضم السين، وقرأ الباقون بالكسر[2]، قال القتبي: فمن قرأ بالضم جعله من السخرة يعني تستذلهم، ومن قرأ بالكسر فمعناه إنا كنا نسخر منهم، ثم قال (أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ) يعني مالت وحادت أبصارنا عنهم فلا نراهم، قال الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ يعني يتكلم به أهل النار ويتخاصمون فيما بينهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾
قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ يعني رسول أخوفكم عذاب الله تعالى، وأبين لكم أن الله تعالى واحد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني قاهر لخلقه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ﴾ بالنقمة ﴿الْغَفَّارُ﴾ للمؤمنين قوله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعني القرآن حديث عظيم لأنه كلام رب العالمين ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ يعني تاركون فلا تؤمنون به، وقال الزجاج (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ) يعني قل إن النبأ الذي أنبأتكم عن الله عز وجل نبأ عظيم فيه دليل نبوتي، مما ذكر فيه من قصة آدم عليه السلام فإن ذلك لا يعرف إلا بوحي أو بقراءة كتب، ولم يكن قرأ الكتب ثم قال ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ يعني الملائكة عليهم السلام ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني يتكلمون حين قالوا (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا). وإنما عرفت ذلك بالوحي.

﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾

---

(١) حجة القراءات ٦١٦ ـ النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٢.

(٢) المصدران السابقان.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ يعني ما يوحي إليَّ ﴿إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إلَّا أنا رسول بين ثم قال عز وجل ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ﴾ يعني آدم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ يعني جمعت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي﴾ يعني وجعلت الروح فيه ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ يعني اسجدوا له ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ يعني سجدوا كلهم دفعة واحدة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أبى عن السجود و ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يعني وصار من الكافرين ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ﴾ ما منعك يعني يا خبيث ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ يعني الذي خلقته بيدي، قال بعضهم نؤمن بهذه الآية ونقرؤها، ولا نعرف تفسيرها يعني قوله بيدي، يعني الذي خلقت بيدي، وقال بعضهم تفسيرها كما قال الله تعالى، خلقته بيدي، ولا نفسر اليد، ونقول يد لا كالأيدي وهذا قول أهل السنة والجماعة، وقال بعضهم نفسرها بما يليق من صفات الله تعالى يعني خلقه بقدرته وقوته وإرادته، فإن قيل: قد خلق الله عز وجل سائر الأشياء بقوته وقدرته وإرادته فما الفائدة في التخصيص هنا؟ قيل له: قد ذكر اليد في خلق سائر الأشياء أيضاً وهو قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَت أَيْدِينَا أَنْعَاماً) ويقال (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) أي بقوتي، قوة العلم، وقوة القدرة، ويقال خلقته بيدي: أي بماء السماء، وتراب الأرض كقوله، آدم خلقه من تراب، وكما قال عليه السلام «خلق الله تعالى الخلق من ماء» وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال «أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل حرف منها ظهر وبطن» وكذلك الأخبار قد جاء فيها أيضاً ماله ظهر وبطن، وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «لَا تَقُولُوا فَلَانٌ قَبِيح فَإِن اللَّهَ عز وجل خلق آدم عَلَى صُورَتِهِ» ومن قال إن لله تعالى صورة كصورة آدم فهو كافر، ولكن المعنى في الخبر ما روي عن بعض المتقدمين أنه قال: إن الله تبارك وتعالى اختار من الصور صورة وخلق آدم عليه السلام بتلك الصورة، فمن ذلك قال: إن الله تعالى خلق آدم على صورته، أي على تلك الصورة التي اختارها الله، روى شبل عن ابن كثير أنه قرأ (بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرتَ) موصولة الألف، وقراءة العامة بقطع الألف[1] على الاستفهام بدليل قوله عز وجل (أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) ومن قرأ موصولة فهو على معنى الوجوب، وتكون أم بمعنى بل ﴿استكبرت﴾ يعني تعظمت عن السجود ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ يعني بل كنت من العالين، من المخالفين لأمري ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قوله عز وجل ﴿قَالَ فَاخْرُج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وإن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿قَالَ فَالْحَقُّ، وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ يقال معناه قولي الحق وأقول الحق، قرأ حمزة وعاصم (فالحقُّ) بالضم القاف، وقرأ الباقون[2] واتفقوا في الثاني أنه بالنصب، فمن

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٢٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٦١٨ ـ النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٢.

قرأ بالضم فمعناه: أنا الحق والحق أقول، ويقال: فمعناه فالحق مني، والحق أقول ويقال معناه فقولنا الحق، وأقول الحق ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ومن قرأ بالنصب فهو على معنى الإغراء يعني الزموا الحق، واتبعوا الحق، ثم قال: (والحق أقول) يعني وأقول الحق كقوله عز وجل (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) ثم قال عز وجل (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) يعني من ذريتك، وممن تبعك في دينك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يعني على الذي أتيتكم به من القرآن من أجر، ولكن أعلمكم بغير أجر ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يعني ما أتيتكم به من قبل نفسي، وما تكلفته من تلقاء نفسي ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني ما هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: إلا عظة للجن والإنس ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ يعني: خبر هذا القرآن أنه حق، بعد حين يعني بعد الموت، ويقال: بعد الإسلام، ويقال بعد ظهور الإسلام. والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ الزُّمَرِ (١)

وهي سبعون وخمس آيات وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا
لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ
هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفَّارُ ﴿٥﴾

قول الله تبارك وتعالى ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني القرآن، صار رفعاً بالابتداء، وخبره من الله تعالى، أي

(١) هي مكية كلها عند الجمهور وعن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآيات الثلاث. وقيل إلى سبع آيات نزلت بالمدينة في قصة وحشي قاتل حمزة وسنده ضعيف وقصته عليها مخائل القصص. وابتدئت هذه السورة بما هو كالمقدمة للمقصود وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويهاً تكرر في ستة مواضع من هذه السورة لأن القرآن جامع لأغراضها. وأغراضها كثيرة تحوم حول إثبات تفرد الله تعالى بالإلهية وإبطال الشرك فيها. وإبطال تعللات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم. ونفي ضرب من ضروب الإشراك وهو زعمهم أن لله ولداً. والإستدلال على وحدانية الله في الإلهية بدلائل تفرده بإيجاد العوالم العلوية والسلفية وبتدبير نظامها وما تحتوي عليه مما لا ينكر المشركون انفراده به. والخلق العجيب في أطوار تكون الإنسان والحيوان. والإستدلال عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عندما يصيبهم الضر. والدعوة إلى التدبر فيما يلقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول. وتنبيههم على كفرانهم شكر النعمة والمقابلة بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله وأن دين التوحيد هو الذي جاءت به الرسل من قبل. والتحذير من أن يحل بالمشركين ما حل بأهل الشرك من الأمم الماضية. وإعلام المشركين بأنهم وشركاءهم لا يعبأ بهم عند الله وعند رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالله غني عن عبادتهم ورسوله لا يخشاهم ولا يخاف أصنامهم لأن الله كفاه إياهم جميعاً.

وإثبات البعث والجزاء لتجزى كل نفس بما كسبت. وتمثيل البعث بإحياء الأرض بعد موتها. وضرب لهم مثله بالنوم والإفاقة بعده وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين. وتمثيل حال المؤمنين وحال المشركين في الحياتين الحياة الدنيا والحياة الآخرة. ودعاء المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم ودعاء المؤمنين للثبات على التقوى ومفارقة دار الكفر. وختمت بوصف حال يوم الحساب. وتخلل ذلك كله وعيد ووعد وأمثال وترهيب وترغيب ووعظ وإيماء بقوله ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم وأن المشركين أهل جهالة وذلك تنويه برفعة العلم ومذمة الجهل. انظر التحرير ٢٣/٣١١ ـ ٣١٢ ـ ٣٠٣.

نزل الكتاب من عند الله ﴿الْعَزِيزِ﴾ بالنقمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ في أمره، ومعناه نزل جبريل بهذا القرآن من عند الله (الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) وقال بعضهم: صار رفعاً لمضمر فيه، ومعناه هذا الكتاب تنزيل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني أنزلنا إليك جبريل بالكتاب ﴿بِالْحَقِّ﴾ ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ يعني استقم على التوحيد، وعلى عبادة الله تعالى مخلصاً، وإنما خاطبه والمراد به قومه، يعني وحدوا الله تعالى ولا تقولوا مع الله شريكاً ثم قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ يعني له الولاية والوحدانية، ويقال له الدين الخالص، والخالص: هو دين الإسلام فلا يقبل غيره من الأديان، لأن غيره من الأديان ليس هو بخالص سوى دين الإسلام قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني عبدوا من دونه أرباباً، وأوثاناً ﴿مَانَعْبُدُهُمْ﴾ على وجه الاضمار، قالوا مَا نَعْبُدُهُم يعني يقولون ما نعبدهم، وروي عن عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب أنهما كانا يقرآن وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قالوا (ما يعبدهم)[1] بالياء، وقراءة العامة مَا نَعْبُدُهُمْ على وجه الإضمار لأن في الكلام دليلاً عليه ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ يعني ليشفعوا لنا، ويقربونا عند الله ويقال ليقربونا إلى الله زلفى يعني منزلة. يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يقضي بينهم يوم القيامة ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي لا يرشد إلى دينه ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ في قوله الملائكة بنات الله وعيسى بن الله، كفار، يعني كفروا بالله، بعبادتهم إياهم، ويقال معناه: لا يوفق لتوحيده من هو كاذب على الله، حتى يترك كذبه ويرغب في دين الله ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ كما قلتم ﴿لَاصْطَفَى﴾ يعني لاختار من الولد ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من خلقه إن فعل ذلك ثم قال ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الولد، وعن الشرك ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يعني الذي لا شريك له، القهار: يعني القاهر لخلقه، ثم بين ما يدل على توحيده ويعجز عنه المخلوقون قوله عز وجل ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ يعني للحق، ولم يخلقهما باطلاً لغير شيء ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ قال مجاهد يعني يدهور الليل على النهار ﴿وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يعني يدهور النهار على الليل وقال مقاتل: يكور يعني يسلط عليه، وهو انتقاص كل واحد منهما من صاحبه، وقال الكلبي يكور يعني يزيد من النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار، ويزيد من الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، وقال القتبي: يُكَوِّرُ يعني: يدخل هذا على هذا، وأصل التكوير اللف والجمع، ومنه كور العمامة، ومنه قوله (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) (وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ يعني: ذلل ضوء الشمس والقمر للخلق ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني: إلى أقصى منازله، ويقال إلى يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ يعني: العزيز بالنقمة لمن لم يتب ﴿الْغَفَّارُ﴾ لمن تاب، ويقال العزيز في ملكه، الغفار لخلقه بتأخير العذاب.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ
تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

قوله عز وجل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني من نفس آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾

---

(١) انظر في الدر المنثور ٥/٣٢٢.

حواء ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يعني ثمانية أصناف وقد فسرناه في سورة الأنعام ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يعني نطفة ثم علقة، ثم مضغة، حالاً بعد حال ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ أي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهو الذي يكون فيه الولد في الرحم فتخرج بعد ما يخرج الولد ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعني من أين تكذبون على الله؟ ومن أين تعدلون عنه إلى غيره؟ فاعلموا أنه خالق هذه الأشياء ثم قال ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ يعني إن تجحدوا وحدانيته (فإن الله غني عنكم) يعني عن إقراركم وعبادتكم ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ قال الكلبي يعني: ليس يرضى من دينه الكفر، ويقال: لا يرضى لعباده الكفر، وهو ما قاله لإبليس أن عبادي ليس لك عليهم سلطان ويقال: لا يرضى لعباده الكفر يعني بشيء من عبادة الكفار ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ يعني إن تؤمنوا بالله وتوحدوه يرضه لكم، يعني: يقبله منكم، لأنه دينه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ﴿ثم إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مصيركم في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني فيخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فيجازيكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني عالم بما في ضمائر قلوبهم.

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

ثم قال ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ يعني إذا أصاب الكافر شدة في جسده ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ يعني مقبلاً إليه بدعائه ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ﴾ قال مقاتل يعني أعطاه، وقال الكلبي يعني بدله عافية مكان البلاء ﴿نَسِيَ﴾ ترك الدعاء ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ ويتضرع به ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ يعني يصف لله شريكاً ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بنصب الياء وهو من ضل يضل، يعني ترك الهدى، وقرأ الباقون ليضل بالضم يعني ليضل الناس، ويقال ليضل نفسه بعبادة غير الله ويصرفهم عن سبيل الله يعني عن دين الله ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً﴾ يعني عش في الدنيا مع كفرك قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يعني من أهل النار قوله عز وجل ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ وأصل القنوت هو القيام، ثم سمي المصلي قانتاً لأنه بالقيام يكون، ومعناه أمن هو مصل كمن لا يكون مصلياً، على وجه الاضمار، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل القانت القائم» يعني المصلي القائم قرأ ابن كثير ونافع وحمزة (أمن) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد[1]، فمن قرأ بالتخفيف فقد روي عن الفراء أنه قال: معناه يا من هو قانت كما تقول في الكلام فلان لا يصوم ولا يصلي فيا من يصلي ويصوم أبشر فكأنه قال يا من هو قانت أبشر ومن قرأ بالتشديد فإنَّه يريد به معنى الذي، ومعناه الذي هو من أصحاب النار، فهذا أفضل، أم الذي هو قانت آناء الليل، يعني ساعات الليل في الصلاة ساجداً وقائماً في الصلاة ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾ يعني يخاف عذاب الآخرة ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ يعني مغفرة الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

(١) انظر حجة القراءات ٦٢٠ ـ النشر ٢/٣٦٢.

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الكفار، في الثواب والطاعة، ويقال قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ يعني يصدقون بما وعد الله في الآخرة من الثواب وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ يعني لا يصدقون، ويقال معناه قل هل يستوي العالم والجاهل، فكما لا يستوي العالم والجاهل، كذلك لا يستوي المطيع والعاصي، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني يعتبر في صنعي وقدرتي من له عقل وذهن قوله عز وجل﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني اخشوا ربكم في صغير الأمور وكبيرها واثبتوا على التوحيد ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يعني لمن عمل بالطاعة في الدنيا حسنة، له الجنة في الآخرة ويقال: للذين أحسنوا يعني شهدوا أن لا إله إلّا الله في الدنيا حسنة يعني لهم الجنة في الآخرة، ويقال للذين أحسنوا أي ثبتوا على إيمانهم فلهم الجنة قوله ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال مقاتل يعني الجنة واسعة، وقال الكلبي وأرض الله واسعة يعني المدينة فتهاجروا فيها، يعني انتقلوا إليها واعملوا لآخرتكم، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ﴾ يعني هم الذين يصبرون على الطاعة لله في الدنيا، جزاؤهم وثوابهم على الله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني بلا عدد ولا انقطاع، وروى سفيان عن عبد الملك بن[1]عمير عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «أنا فرطكم على الحوض» قال سفيان: لما نزل (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «رب زد أمتي» فنزل (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) قال رب زد أمتي، فنزل(من ذا الذي يقرض اللّهِ قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «رب زد أمتي» فنزل (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فانتهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قوله عز وجل:

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

قال عز وجل ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ وذلك أن كفار قريش قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا تنظر إلى ملة أبيك عبد الله، وملة جدك عبد المطلب، وسادات قومك يعبدون الأصنام، فنزل (قل) يا نبي الله إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ يعني التوحيد ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾من أهل بلدي ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وعبدت غيره ينزل علي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي في يوم القيامة ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يعني

(١) عبد الملك بن عمير بن سويد بن جارية اللخمي ويقال القرشي الكوفي التابعي ضعفه أحمد بن حنبل توفي سنة ست وثلاثين ومائة ـ انظر تهذيب الأسماء ١/٣٠٩.

أعبد الله ﴿مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ أي توحيدي ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ من الآلهة وهذا كقوله (لَكُمْ دِينُكُمْ) ويقال (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ) لفظه لفظ التخبير والأمر، والمراد به التهديد والتخويف، كقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُم مِنْ دُونِهِ) وكقوله (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً) ويقال قد بين الله ثواب المؤمنين وعقوبة الكافرين، ثم قال: فاعبدوا ما شئتم من دونه وذلك قبل أن يؤمر بالقتال، فلما أيسوا منه أن يرجع إلى دينهم قالوا خسرت إن خالفت دين آبائك، فقال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾يعني أنتم الخاسرون لا أنا، ويقال الذين خسروا أنفسهم بفوات الدرجات ولزوم الشركات ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ يعني الظاهر، حيث خسروا أنفسهم وأهلهم، وأزواجهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ يعني أطباقاً من نار ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ يعني مهاداً من نار، أو معناه أن فوقهم نار، وتحتهم نار ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي ذلك الذي ذكر يخوف الله به عباده في القرآن لكي يؤمنوا ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي فوحدون، وأطيعون ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ قال مقاتل: يعني اجتنبوا عبادة الأوثان، وقال الكلبي: الطاغوت يعني الكهنة ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ يعني أن يطيعوها، ورجعوا إلى عبادة ربهم ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي أقبلوا إلى طاعة الله ويقال: رجعوا من عبادة الأوثان إلى عبادة الله ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ يعني الجنة، ويقال الملائكة يبشرونهم في الآخرة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ يعني القرآن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ يعني يعملون بحلاله، وينتهون عن حرامه، وقال الكلبي: يعني يجلس الرجل مع القوم فيستمع الأحاديث محاسن ومساوىء، فيتبع أحسنه فيأخذ المحاسن فيحدث بها، ويدع مساوئه، ويقال يستمعون القرآن ويتبعون أحسن ما فيه، وهو القصاص والعفو، يأخذ العفو لقوله (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (وقال بعضهم: يستمع النداء فيستجيب ويسرع إلى الجماعة وقال بعضهم: يستمع الناسخ والمنسوخ، والمحكم من القرآن فيعمل بالمحكم، ويؤمن بالناسخ والمنسوخ)(١) ثم قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي وفقهم الله لمحاسن الأمور، ويقال هداهم الله أي أكرمهم الله تعالى بدين التوحيد ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يعني ذوي العقول قوله عز وجل ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ يعني وجب له العذاب، ويقال أفمن سبق في علم الله تعالى أنه في النار، كمن لا يجب عليه العذاب ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ يعني تستنقذ من هو في علم الله تعالى أنه يكون في النار بعمله الخبيث، ويقال: من وجبت له النار، وقدرت عليه، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين فقال عز من قائل ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ يعني وحدوا ربهم، وأطاعوا ربهم ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ في الجنة، وهي العلالي، غرف مبنية مرتفعة بعضها فوق بعض ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ﴾ في القرآن ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ
لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ

(١) سقط في ظ.

مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فأدخله في الأرض فجعله ينابيع يعني عيوناً في الأرض تنبع، ويقال (فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ) يعني جارياً في الأرض وهي تجري فيها، ويقال جعل فيها أنهاراً وعيوناً ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ أحمر وأصفر وأخضر ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتغير ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أي يابساً بعد الخضرة، ويقال ثُمَّ يَهِيجُ يعني ييبس، ويقال: يهيج أي يتم ويشتد، من هاج يهيج، أي تم يتم فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا متغيراً عن حاله ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ قال القتبي: حطاماً مثل الرفات والفتات، وقال الزجاج: الحطام: ما تفتت وتكسر من النبت، وقال مقاتل: حطاماً يعني هالكاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أي فيما ذكر لعظة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني لذوي العقول من الناس ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ يعني وسع الله قلبه للإسلام، ويقال: لين الله قلبه لقبول التوحيد ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني على هدى من الله تعالى وجوابه مضمر، يعين أفمن شرح الله صدره للإسلام، واهتدى، كمن طبع على قلبه وختم على قلبه فلم يهتد، ويقال: فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) يعني القرآن. لأن فيه بيان الحلال والحرام، فهو على نور من ربه لمن تمسك به ويقال على نور: يعني التوحيد والمعرفة، وروي في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ قالوا فكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا دخل النور في القلب انفسح وانشرح، قالوا: فهل لذلك علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت[1] ثم قال ﴿فَوَيْلٌ﴾ يعني الشدة من العذاب ﴿لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني لمن قست، ويبست قلوبهم ﴿مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تعالى ويقال القاسية: الخالية من الخير ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في خطأ بين قوله عز وجل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني أحكم الحديث وهو القرآن، وذلك أن المسلمين قالوا لبعض مؤمني أهل الكتاب نحو عبد الله بن سلام أخبرنا عن التوراة فإن فيها علم الأولين والآخرين، فأنزل الله تعالى اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ يعني أنزل عليكم أحسن الحديث وهو القرآن، ويقال: أحسن الحديث يعني أحسن من سائر الكتب، لأن سائر الكتب صارت منسوخة بالقرآن ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ يعني يشبه بعضه بعضاً ولا يختلف، ويقال متشابهاً يعني موافقاً لسائر الكتب في التوحيد، وفي بعض الشرائع، وروي عن الحسن البصري أنه قال: متشابهاً يعني خياراً لا رذالة فيه ويقال متشابهاً: اشتبه على الناس تأويله ثم قال ﴿مَثَانِيَ﴾ يعني أن الأنباء والقصص تثنى فيه، ويقال: سمي مثاني لأن فيه سورة المثاني يعني سورة الفاتحة (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ثم قال ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ يعني ترتعد مما فيه من الوعيد ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ويقال تقشعر منه يعني تتحرك مما في القرآن من الوعيد، ويقال ترتعد منه الفرائص ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ يعني بعد الاقشعرار ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من آية الرحمة والمغفرة، يعني إذا قرأت آيات الرجاء والرحمة تطمئن قلوبهم وتسكن ﴿ذَلِكَ﴾ يعني القرآن، ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني بالقرآن من يشاء الله أن يهديه إلى دينه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن دينه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني لا يقدر أحد أن يهديه بعد خذلان الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٢٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

تعالى قوله عز وجل ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلعَذَابِ﴾ يعني أفمن يدفع بوجهه شدة سوء العذاب، وجوابه مضمر، يعني هل يكون حاله كحال من هو في الجنة، يعني ليس الضال الذي تصل النار إلى وجهه كالمهتدي الذي لا تصل النار إلى وجهه ليسا سواء، وقال أهل اللغة: أصل الاتقاء في اللغة[1]: الإوتقاء وهو التستر، يعني وجهه إلى النار كالذي لا يفعل ذلك به، وروى ابن أبي نجيح ،عن مجاهد قال(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلْعَذَابِ) يعني يجر على وجهه في النار، وهذا كقوله (أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمَّنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ)[2] ويقال (أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ ٱلعَذَابِ) معناه أنه يلقى في النار مغلولاً، لا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه ﴿يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني للكافرين ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من التكذيب قوله عز وجل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل قومك رسلهم ﴿فَأَتَاهُمُ ٱلعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني لا يعلمون، ولا يحتسبون وهم غافلون ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلخِزْيَ﴾ العذاب ﴿فِي ٱلحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ يعني أعظم مما عذبوا به في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لا يعلمون.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يعني بينا في هذا القرآن من كل شيء، وقد بين بعضه مفسراً، وبعضه مبهماً مجملاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتعظوا ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ يعني أنزلناه قرآناً عربياً، بلغة العرب ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ يعني ليس بمختلف، ولكنه مستقيم، ويقال: غير ذي تناقض، ويقال غير ذي عيب، ويقال: غير ذي عوج أي غير مخلوق، قال أبو الليث[3] رحمه الله حدثنا محمد بن داود[4] قال حدثنا محمد بن أحمد[5] بإسناده قال حدثنا أبو حاتم الداري عن سليمان بن داود العتكي عن يعقوب بن محمد بن عبد الله الأشعري عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: في قوله تعالى ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ قال غير مخلوق[6] ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي لكي يتقوا الشرك ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً﴾ أي بين شبهاً ﴿رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي عبداً بين موالي مختلفين، يأمره هذا بأمر وينهاه هذا عنه، ويقال متشاكسون أي مختلفون يتنازعون ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾ أي خالصاً لرجل لا شركة فيه لأحد، قرأ ابن كثير وأبو عمر (سَالِمًا) بالألف وكسر

---

(١) انظر لسان العرب ٤٩٠٢/٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٦/٥ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد.

(٣) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث المصري ثقة ثبت فقيه إمام مشهور مات في شعبان سنة خمس وسبعين - التقريب ١٣٨/٢.

(٤) محمد بن داود بن صبيح أبو جعفر المصيصي ثقة فاضل ـ انظر التقريب ١٦٠/٢.

(٥) محمد بن أحمد بن الجراح أبو عبد الرحيم الجوزجاني كان صاحب سنة وخبر وفضل وكان أبوه حنفياً ـ انظر التهذيب ٢٠/٩.

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٦/٥ وعزاه للآجري في الشريعة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس.

اللام، والباقون (سَلَماً) بغير ألف ونصب السين[١]، فمن قرأ سَالِماً فهو اسم الفاعل على معنى سلم فهو سالم، ومعناه الخالص، ومن قرأ (سَلَماً) فهو مصدر فكأنه أراد به رجلاً ذا سلم لرجل، ومعنى الآية: هل يستوي من عبد آلهة مختلفة، كمن عبد رباً واحداً، وقال قتادة الرجل: الكافر، والشركاء: الشياطين والآلهة[٢] وَرَجُلاً سَلَماً المؤمن يعمل لله تعالى وحده، وقال بعضهم هذه المثل للراغب والزاهد، فالراغب شغلته أمور مختلفة فلا يتفرغ لعبادة ربه، فإذا كان في العبادة فقلبه مشغول بها، والزاهد قد يتفرغ عن جميع أشغال الدنيا فهو يعبد ربه خوفاً وطمعاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ يعني عنده في المنزلة يوم القيامة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال مقاتل الحمد لله حين خصمهم، ويقال: الحمد لله على تفضيل من اختاره على من اشتغل بما دونه، ويقال يعني: قولوا الحمد لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾أنَّ عبادة رب واحد خير من عبادة أرباب شتى ويقال (لاَ يَعْلَمُونَ) أنهما لا يستويان ويقال (لاَ يَعْلَمُونَ) توحيد ربهم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ذلك أن كفار قريش قالوا: نتربص به ريب المنون، يعني ننتظر موت محمد ـ عليه السلام ـ فنزل إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) يعني أنت ستموت وهم سيموتون، ويقال (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُون) يعني إنك لميت لا محالة وإنهم لميتون لا محالة، والشيء إذا قرب من الشيء سمي باسمه، فالخلق كلهم إذا كانوا بقرب من الموت فكل واحد منهم يموت لا محالة فسماهم ميتين ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ أي تتكلمون بحججكم الكافر مع المؤمن، والظالم مع المظلوم، فإن قيل: قد قال في آية أخرى (لَا تَخْتَصِمُوا دَيَّ) قيل له: إن في يوم القيامة ساعات كثيرة، وأحوالها مختلفة، مرة يختصمون ومرة لا يختصمون كما أنه قال فهم لا يتساءلون وقال في آية أخرى (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) يعني في حال يتساءلون، وفي حال لا يتساءلون، وهذا كما قال في موضع آخر (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ)، وقال في آية أخرى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِين)، وكما قال في آية أخرى لا يتكلمون، وفي آية أخرى أنهم يتكلمون ونحو هذا كثير في القرآن، وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «لَا تَزَالُ الخُصُومَةُ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتى تَتَخَاصَمَ الرُّوحِ والجَسَد، فَيَقُول الجَسَد إِنَّمَا كُنْتُ بِمَنْزِلَةِ جِزْعٍ مُلْقَى، لَا أَسْتَطِيع شَيْئاً، وَتَقُولُ الرُّوح إِنَّمَا كُنْتُ رِيحاً لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ شَيْئاً، فَضُرِبَ لَهُما مَثَلُ الأَعْمَى والمُقْعَد، فَحَمَلَ الأَعْمَى المُقْعَد فَيَدُلَّهُ المُقْعَد بِبَصَرِهِ وَيَحْمِله الأَعْمَى[٣] برجْلَيه» وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس قال: سألت أبا العالية عن قوله (لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) ثم قال (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) فكيف هذا؟ قال: أما قوله (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) فهو لأهل الشرك، وأما قوله (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فهو لأهل القبلة، يختصمون في مظالم ما بينهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ
﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ

(١) حجة من قرأ بالألف قوله: (فيه شركاء متشاكون) فكما أن الشريك عبارة عن العين وليس باسم حدث، كذلك الذي بإزائه ينبغي أن يكون فاعلاً ولا يكون إسم حدث. وكذلك اختارها أبو عبيد وال: (إن الخالص هو ضد المشترك، وأما (السَلَم) فإنما ضد المحارب ولا موضع للحرب ها هنا). وحجة الباقين قوله: (متشاكسون) لأن معناه: (متنازعون) يدعيه كل واحد منهم ثم وصف من هو ضد هذه الحال ممن لا تنازع فيه ولا اختصام فقال: (رجلاً سَلَماً لرجل) وكان معلوماً أن السلم ضد التنازع فكان تأويله: (ورجلاً سُلِّم لرجل فلم ينازع فيه) ومنه قيل للسلف: (سَلَم) لأنه سُلِّم إلى من استسلفه. انظر حجة القراءات ٦٢١ ـ ٦٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٥/٣٢٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٢٨ وعزاه لابن منده عن ابن عباس موقوفاً.

ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فلا أحد أظلم ممن كذب على الله بأن معه شريكاً ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ يعني بالقرآن وبالتوحيد، ويقال (وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ) يعني بالصادق وهو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ يعني مأوى للذين يكفرون بالقرآن، فاللفظ: لفظ الاستفهام والمراد به التحقيق كقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي بالقرآن وصَدَّق به أي أصحابه ويقال وصدق به المؤمنون، وقال القتبي (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) هو في موضع جماعة ومعناه: والذين جاؤوا بالصدق وصدقوا به، وهذا موافق لخبر ابن مسعود، وقال قتادة، والشعبي، ومقاتل، والكلبي (والَّذي جَاءَ بِالصِّدْقِ) يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ(وَصَدَّقَ بِهِ) يعني المؤمنون، وذكر عن علي بن أبي طالب أنه قال (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ) يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَصَدَّقَ بِهِ) يعني أبو بكر[١] ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين اتقوا الشرك، والفواحش، وقرأ بعضهم وَصَدَقَ بالتخفيف[٢]، يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على الناس كما أنزل عليه ولم يزد في الوحي شيئاً، ولم ينقص من الوحي شيئاً ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني لهم ما يريدون ويحبون في الجنة ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ثواب الموحدين المطيعين المخلصين ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يعني ليمحو عنهم ويغفر لهم ﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ يعني أقبح ما عملوا مخالفاً للتوحيد ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني يجزيهم بالمحاسن، ولا يجزيهم بالمساوىء لأنه ليس لهم ذنب ولا خطايا فلا يجزيهم بمساوئهم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ قرأ حمزة، والكسائي عِبَادَهُ بالألف بلفظ الجماعة، يعني الذين صدقوا بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن، والباقون عَبْدَه بغير ألف[٣]، يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني بالذين يعبدون من دونه وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تزال تقع في آلهتنا فاتق كيلا يصيبك منها معرة، أو سوء، فنزل (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الآية، وروى معمر عن قتادة قال: بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها، فمشى إليها بالفأس فقالت له قيمتها يا خالد: احذر فإن لها شدة، لا يقوم لها أحد، فمشى إليها خالد فهشم أنفها[٤] بالفأس، ويقال أَلَيْسَ اللَّهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٨/٥ وعزاه لابن جرير والباوردي في معرفة الصحابة وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان وله صحبة عن علي بن أبي طالب.

(٢) هي قراءة أبي طالح الكوفي ـ انظر تفسير القرطبي ١٦٧/١٥.

(٣) حجتهم قوله: «يخوفونك (بالذين من دونه) أي ويخوفونك يا محمد. فكأن المعنى: أليس الله بكافيك وهم يخوفونك من دونه يعني الأصنام وذلك أن قريشاً قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أما تخاف أن يخبلك آلهتنا لعيبك؟ إياها؟ فأنزل الله: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ فأخبر ثم خاطبه والمخبَر والمخاطب واحد والعرب تخبر ثم ترجع إلى الخطاب ومن قرأ (عباده) فالمعنى: أليس الله بكاف عباده الأنبياء قبل كما كفى إبراهيم النار ونوحاً الغرق ويونس ما دفع إليه فهو سبحانه كافيك كما كفى هؤلاء الرسل قبلك. قال الفراء؛ قد همت أمم الأنبياء بهم ووعدوهم مثل هذا فقالوا لهود: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾فقال الله: ﴿أليس بكاف عباده﴾ أي محمداً والأنبياء قبله. انظر حجة القراءات ٦٢٢ ـ ٦٢٣. إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٢٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٨/٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن جرير عن قتادة.

بِكَافٍ عَبْدَهُ يعني الأنبياء ثم قال ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني من يخذله الله عن الهدى فما له من مرشد ولا ناصر ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي ليس له أحد يخذله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ يعني عزيزاً في ملكه ذي انتقام من عدوه.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ
اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي
قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٢﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل
لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ
وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فعل ذلك ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني ما تعبدون من دون الله من الآلهة ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني إنْ أصابني الله ببلاء، ومرض في جسدي، وضيق في معيشتي، أو عذاب في الآخرة ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ يعني هل تقدر الأصنام على دفع ذلك عني ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أي بنعمة وعافية وخير ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ يعني هل تقدر الأصنام على دفع تلك الرحمة عني، قرأ أبو عمر كَاشِفَاتٌ بالتنوين ضُرَّهُ بالنصب مُمْسِكَاتٌ بالتنوين رَحْمَتَهُ بالنصب، والباقون بغير تنوين وكسر ما بعده[1] على وجه الإضافة، فمن قرأ بالتنوين نصب ضره ورحمته لأنه مفعول به ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يعني يكفيني الله من شر آلهتكم، ويقال: حسبي الله يعني: أثق به (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) أي فوضت أمري إلى الله ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي يثق به الواثقون، فأنا متوكل، وعليه توكلت ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي في

(١) حجة أبي عمرو: أن الفعل منتظر وأنه مما لم يقع وما لم يقع من أسماء الفاعلين إذا كان في الحال فالوجه فيه النصب. المعنى: هل هن يكشفن ضره أو يمسكهن رحمته. وحجة الإضافة: أن الإضافة قد استعملتها العرب في الماضي والمنتظر وأن التنوين لم يستعمل إلاَّ في المنتظر خاصة فلما كانا مستعملين وقد نزل بهما القرآن فقال جل وعز: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أخذ بأكثر الوجهين أصلاً وحجة أخرى: وهو أنه يراد فيهما التنوين ثم يحذف التنوين كما قال سبحانه: ﴿إلا آتي الرحمن عبداً﴾ هذا لم يقع وتقديره: آتٍ «الرحمن». انظر حجة القراءات ٦٢٣.

منازلكم ويقال (عَلَى مَكَانَتِكُمْ) أي على قدر طاقتكم وجهدكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ في إهلاككم لأنهم قالوا له إن لم تسكت عن آلهتنا نعمل في إهلاكك فنزل (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) إهلاكي في مكانتكم (إِنِّي عَامِلٌ) في إهلاككم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من نجا، ومن هلك، قرأ عاصم في رواية أبي بكر مكاناتكم بلفظ الجماعة والباقون[1] مكانتكم والمكانة، والمكان واحد ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يخزيه﴾ أي من يأتيه عذاب الله يهلكه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم لا ينقطع أبداً ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ يعني أنزلنا عليك جبريل بالقرآن، للناس بالحق، يعني لتدعو الناس إلى الحق، وهو التوحيد ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي وحد وصدق بالقرآن، وعمل بما فيه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي ثواب الهدى لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يعني أعرض ولم يؤمن بالقرآن فقد أوجب العقوبة على نفسه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني ما أنت يا محمد عليهم بحفيظ، ويقال بمسلط وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ قال الكلبي: الله يقبض الأنفس عند موتها ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ فيقبض نفسها إذا نامت أيضاً ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ فلا يردها ﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى﴾ التي لم تبلغ أجلها ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي يردها إلى أجلها، وقال مقاتل (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ) عند أجلها، والتي قضى عليها الموت، فيمسكها عن الجسد، على وجه التقديم، والتي لم تمت في منامها فتلك الأخرى التي أرسلها إلى الجسد إلى أجل مسمى، وقال سعيد بن جبير: الله يقبض أنفس الأحياء والأموات، فيمسك أنفس الأموات، ويمسك أنفس الأحياء إلى أجل مسمى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يعتبرون، قرأ حمزة والكسائي قُضِيَ عليها بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء، وبضم التاء في الموت، على فعل ما لم يسم فاعله، والباقون (قَضَى عَلَيْهَا) بالنصب[2]، يعني قضى الله عليها الموت، ونصب الموت، لأنه مفعول به ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الميم صلة معناه اتخذوا، فاللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التوبيخ والزجر، فقال أم اتَّخذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿شُفَعَاءَ﴾ يعني يعبدون الأصنام لكي تشفع لهم ﴿قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يعني يعبدونهم وإن كانوا لا يعقلون شيئاً ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أي قل يا محمد لله الأمر والإذن في الشفاعة، وهذا كقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وكما قال (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ) ثم قال ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض، ويقال نفاذ الأمر في السموات والأرض، وله نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾ يعني إذا قيل لهم قولوا: لا إله إلا الله اشمأزت قال مقاتل: يعني انقبضت عن التوحيد، وقال الكلبي أعرضت ونفرت، وقال القتبي: العرب تقول: اشمأز قلبي من فلان أي نفر منه ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني لا يصدقون بيوم القيامة ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الآلهة ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بذكرها، وذلك أنه حين قرأ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سورة النجم وذكر آلهتهم استبشروا.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٣٠.

(٢) حجة من قرأ على ما لم يسم فاعله أن الكلام أتى عقيب ذلك بترك تسمية الفاعل وهو قوله «إلى أجل مسمى» وحجة الباقين أن الكلام أتى عقيب إخبار الله عن نفسه في قوله ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ فيمسك. ويرسل «فجرى الفعل بعد ذلك بلفظ ما تقدمه من ذكر الفاعل، إذا كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد ـ حجة القراءات ٦٢٤.

سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ
مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ
سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن
رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾

قال الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ صار نصباً بالنداء، يعني يا خالق السموات والأرض ﴿**عَالِمَ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ**﴾ يعني عالماً بما غاب عن العباد، وما لم يغب عنهم، ويقال عالماً بما مضى، وما لم يمض، وما هو كائن، ويقال: عالم السر والعلانية ﴿**أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ**﴾ يعني أنت تقضي في الآخرة بين عبادك ﴿**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ من أمر الدين ﴿**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أي كفروا ﴿**مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ**﴾ أي مثل ما في الأرض ﴿**لافْتَدَوْا بِهِ**﴾ أي لفادوا به أنفسهم ﴿**مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ**﴾ أي من شدة العذاب ﴿**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ وفي الآية مضمر، أي لا يقبل منهم ذلك ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ**﴾ أي ظهر لهم حين بعثوا من قبورهم ﴿**مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ في الدنيا أنه نازل بهم، يعني يعملون أعمالاً يظنون أن لهم فيها ثواباً فلم تنفعهم مع شركهم، فظهرت لهم العقوبة مكان الثواب ﴿**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ أي عقوبات ما عملوا ﴿**وَحَاقَ بِهِمْ**﴾ أي نزل بهم عقوبة ﴿**مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ يعني باستهزائهم بالمسلمين، ويقال باستهزائهم بالرسول، والكتاب، والعذاب، ﴿**فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا**﴾ يعني أصاب الكافر شدة وبلاء، وهو أبو جهل، ويقال جميع الكفار دعانا أي أخلص في الدعاء ﴿**ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ**﴾ أي بدلنا وأعطيناه مكانها عافية ﴿**نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بل هي فتنة**﴾ أي على علم عندي، يعني أعطاني ذلك لأنه علم أني أهل لذلك، ويقال: معناه على علم عندي، بالدواء ﴿**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**﴾ أي بلية وعطية يبتلي بها العبد، ليشكر أو ليكفر ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أن إعطائي ذلك بلية، وفتنة ﴿**قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ يعني قال تلك الكلمة، الذين من قبل كفار مكة، مثل قارون وأشباهه ﴿**فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ يعني لم ينفعهم ما كانوا يجمعون من الأموال ﴿**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ أي عقوبات ما عملوا، قوله ﴿**وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ**﴾ يعني من أهل مكة ﴿**سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**﴾ يعني عقوبات ما عملوا، مثل ما أصاب الذين من قبلهم ﴿**وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ**﴾ أي غير فائتين من عذاب الله ﴿**أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ أي يقتر على من يشاء ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ يعني في القبض والبسط ﴿**لآيَاتٍ**﴾ أي لعلامات لوحدانيتي ﴿**لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي يصدقون بتوحيد الله ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ**﴾ يعني أسرفوا بالذنوب على أنفسهم، قرأ نافع، وابن كثير وعاصم، وابن عامر قُلْ يَا عِبَادِيَ بفتح الياء، والباقون بالإرسال[١]، وهما لغتان، ومعناهما واحد ﴿**لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**﴾ أي لا تيأسوا من مغفرة الله ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ الكبائر، وغير الكبائر، إذا تبتم ﴿**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ**﴾ لمن تاب

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٣٦٤ - اتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٣٠.

﴿الرَّحِيمُ﴾ بعد التوبة لهم، وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: أصاب قوم في الشرك ذنوباً عظاماً فكانوا يخافون أن لا يغفر الله لهم، فدعاهم الله تعالى بهذه الآية(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا) وقال مجاهد: يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم بقتل الأنفس في الجاهلية، وقال في رواية الكلبي نزلت الآية في شأن وحشي، يعني أسرفوا على أنفسهم بالقتل والشرك والزنى، لا تيأسوا (مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يغفر الذنوب جميعاً) لمن تاب وقال ابن مسعود أرجى آية في كتاب الله هذه الآية وهكذا قال عبد الله بن عمرو بن العاص، وروي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: فيها عظة.

وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ
مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾
أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ
ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُم﴾ يعني ارجعوا له، وأقبلوا إلى طاعة ربكم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ يعني أخلصوا، وأقروا بالتوحيد ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون مما نزل بكم ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قال الكلبي: هذا القرآن أحسن ما أنزل إليهم، يعني اتبعوا ما أمرتم به، ويقال أحلوا وحرموا حرامه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بنزوله ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ يعني لكي لا تقول نفس، ويقال معناه: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، خوفاً قبل أن تصيروا إلى حال الندامة وتقول نفس ﴿يَا حَسْرَتَى﴾ يعني يا ندامتا ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ يعني تركت وضيعت من طاعة الله، وقال مقاتل: يعني ما ضيعت من ذكر الله، ويقال: يا ندامتاه على ما فرطت في أمر الله ﴿وَإِنَّ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ يعني وقد كنت من المستهزئين بالقرآن في الدنيا، ويقال وقد كنت من اللاهين، وقال أبو عبيدة: في جنب الله، وذات الله واحد ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ يعني قبل، أو تقول: لو أن الله هداني، بالمعرفة ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي من الموحدين، يعني لو بين لي الحق من الباطل لكنت من المؤمنين ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ يعني من قبل أن تقول ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني من الموحدين، يقول الله تعالى ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ يعني القرآن ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ أي تكبرت، وتجبرت عن الإيمان بها ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ قرأ عاصم الجحدري (بَلَى قد جَاءَتْكِ آياتي) يعني القرآن فَكَذَّبْتِ بِهَا واسْتَكْبَرتِ وَكُنْتِ كلها بالكسر، وهو اختيار ابن مسعود، وصالح، ومن تابعه من قراء سمرقند، وإنما قرأ بالكسر لأنه سبق ذكر النفس، والنفس تؤنس، وقراءة العامة كلها بالنصب، لأنه انصرف إلى المعنى، يعني يقال للكافر ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ يعني قالوا بأن لله شريكاً ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ صار وجوههم رفعاً بالابتداء، ويقال معناه: مسودة وجوههم ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

﴿مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي مأوى للذين تكبروا عن الإيمان ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ يعني ينجي الله الذين اتقوا الشرك، من جهنم، قال مقاتل، والكلبي بأعمالهم الحسنة لا يصيبهم العذاب، وقال القتبي: بمنجاتهم، قرأ حمزة والكسائي بِمَفَازَاتِهم بالألف وكذلك عاصم في رواية أبي بكر، والباقون بِمَفَازَتِهم بغير ألف[١]، والمفازة: الفوز والسعادة والفلاح، والمفازات جمع ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي لا يصيبهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ
﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي
ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ
بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حفيظ، ويقال: كفيل بأرزاقهم ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني بيده مفاتيح السموات والأرض ويقال خزائن السموات والأرض وهو المطر والنبات، وقال القتبي المقاليد: المفاتيح، يعني مفاتيحها وخزائنها، وواحدها: إقليد، ويقال: إنها فارسية معربة إكليد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني اختاروا العقوبة على الثواب ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي﴾ قرأ ابن عامر، تأمرونني بنونين، وقرأ نافع (تَأْمُرُونِي) بنون واحدة والتخفيف وقرأ الباقون بنون واحدة والتشديد والأصل تأمرونني بنونين، كما روي عن ابن عامر[٢]، إلا أنه أدغم إحدى النونين في الأخرى وشدد، وتركها نافع على التخفيف ﴿أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ يعني أيها المشركون تأمروني أن أعبد غير الله ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني الأنبياء بالتوحيد ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي ثوابك، وإن كنت كريماً عليَّ، فلو أشركت بالله ليحبطن عملك ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ في الآخرة، فكيف لو شرك غيرك، فالله تعالى علم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يشرك بالله، ولكنه أراد تنبيهاً لأمته أنَّ من أشرك بالله حبط عمله، وإن كان كريماً على الله ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ أي استقم على عبادة الله وتوحيده، وقال مقاتل بل الله فاعبد أي فوحد الله تعالى، وقال الكلبي: يعني أطع الله تعالى ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على ما أنعم الله عليك من النبوة

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٢٤. إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٣١.

(٢) حجة ابن عامر إجماع الجميع على إظهار النون في قوله «وكادوا يقتلونني» فروعاً اختلفوا فيه إلى ما أجمع عليه ـ حجة القراءات الموضع السابق.

والإسلام والرسالة، ويقال: هذا الخطاب لجميع المؤمنين، أمرهم بأن يشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم وأكرمهم بمعرفته، ووفقهم لدينه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموا الله حق عظمته، ولا وصفوه حق صفته، ولا عرفوا الله حق معرفته، وذلك أن اليهود والمشركين وصفوا الله تعالى بما لا يليق بصفاته فنزل (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) وفيه تنبيه للمؤمنين لكيلا يقولوا مثل مقالتهم، ويعظموا الله حق عظمته، ويصفوه حق صفته، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ثم قال﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي في قدرته وملكه وسلطانه، لا سلطان لأحد عليها، وهذا كقوله (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وقال القتبي: في قبضته: أي في ملكه نحو قولك للرجل: هذا في يدك وقبضتك، أي في ملكك ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي بقدرته، ويقال في الآية تقديم معناه، والسموات مطويات بيمينه يوم القيامة أي في يوم القيامة، ويقال بيمينه، يعني عن يمين العرش، وقال القتبي: بيمينه أي بقدرته، نحو قوله (وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) يعني ما كانت لهم عليه قدرة، وليس الملك لليمين دون الشمال، ويقال اليمين هاهنا: الحلف، لأنه حلف بعزته وجلاله ليطوين السموات والأرض، ثم نزه نفسه فقال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً لله تعالى، يعني ارتفع وتعظم عما يشركون، يعني عما يصفون له من الشريك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَنَّه سُئِلَ عَنِ الصُّورِ فَقَال «هُوَ الْقَرْنُ وَإِنَّ عِظَمَ دَائِرَتِهِ مِثْلَ مَا بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ فَينفخ نفخة فيفزع الخلق، ثم ينفخ نفخة أخرى فيموت أهل السموات والأرض، فإذا كان وقت النفخة الثالثة تجمعت الأرواح كلها في الصور ثم ينفخ النفخة الثالثة فتخرج الأرواح كلها كالنحل، وكالزنابير وتأتي كل روح إلى جسدها»(١) فذلك قوله تعالى ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني يموت من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت ويقال: أرواح الشهداء، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: استثنى الله تعالى الشهداء حول العرش متقلدين بسيوفهم»(٢) وقال بعضهم: النفخة نفختان، وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ينفخ في الصور ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين»(٣) وهو قوله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي ينظرون ماذا يأمرهم، ويقال ينظرون إلى السماء كيف غيرت، وينظرون إلى الأرض كيف بدلت، وينظرون إلى الداعي كيف يدعوهم إلى الحساب، وينظرون فيما عملوا في الدنيا، وينظرون إلى الآباء والأمهات كيف ذهبت شفقتهم عنهم، واشتغلوا بأنفسهم، وينظرون إلى خصمائهم ماذا يفعلون بهم ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني أضاءت ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي بعدل ربها، ويقال: وأشرقت وجوه من على الأرض بمعرفة ربها، وأظلم وجوه من على الأرض بنكرة ربها، وقال بعضهم هذا من المكتوم الذي لا يفسر ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ يعني ووضع الحساب، ويقال ووضع الكتاب في أيدي الخلق في أيمانهم وشمائلهم ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق بالعدل، بين الظالم والمظلوم، وبين الرسل وقومهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ أي وفرت ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ لأنه قد سبق ذكر قوله وجيء بالنبيين والشهداء ثم أخبر أنه لم يدع الشهداء ليشهدوا بما يعلموا، بل هو أعلم بما يفعلون، وإنما يدعو الشهداء لتأكيد الحجة عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي مختصراً (٢٤٣٠) وابن المبارك في الزهد (١٥٩٩) وأحمد في المسند (١٦٢/٢، ١٩٢، وابن جرير في تفسيره ٢٤/١٦ والدارمي ٣٢٥/٢ والحاكم في المستدرك ٤٣٦/٢، ٥٠٦ وصححه وأقره الذهبي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٣٦/٥ وعزاه لسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٢٤/٢٠.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ
يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ
حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى
صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ **وَتَرَى**
ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

ثم قال ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي يساق الذين كفروا ﴿**إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً**﴾ يعني أمة أمة، فوجاً فوجاً، وواحدتها زمرة ﴿**حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا**﴾ يعني جهنم ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ وقال أصحاب اللغة: جهنم في أصل اللغة[1]: جهنام، وهي بئر لا قعر لها، فحذفت الألف وشددت النون فسميت جهنم، قرأ حمزة والكسائي وعاصم فُتِحَتْ بتخفيف التاء، والباقون بالتشديد[2]، فمن قرأ بالتشديد فلتكثير الفعل، ومن قرأ بالتخفيف فعلى فعل الواحد، وكذلك الاختلاف في الذي بعده ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**﴾ أي خزنة جهنم، وواحدها خازن، وقال القتبي: الواو قد تزاد في الكلام، والمراد به حذفه، كقوله (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) يعني اقترب، وكقوله (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) يعني قال لهم، وهذا في كلام العرب ظاهر، كما قال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى، يعني انتحى، بغير واو، ثم قال ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ**﴾ يعني آدمياً مثلكم تفهمون كلامه ﴿**يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ**﴾ يعني يقرأون عليكم ما أوحي إليهم ﴿**وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾ يعني أنهم يخوفونكم بهذا اليوم، فكأنه يقول لهم يا أشقياء ألم يأتكم رسل منكم؟ فأجابوه ﴿**قَالُوا بَلَى**﴾ فيقرون بذلك في وقت لا ينفعهم الاقرار، ولو كان قولهم بلى في الدنيا لكان ينفعهم ولكنهم قالوا بلى في وقت لا ينفعهم ﴿**وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ أي وجبت كلمة العذاب في علم الله السابق أنهم من أهل النار،

---

(١) انظر لسان العرب ٧١٥.

(٢) حجتهم قوله: (مفتحة لهم الأبواب) قال اليزيدي: كل ما فتح مرة بعد مرة فهو (التفتيح) ووجه التخفيف أن التخفيف يصلح للقليل والكثير وقالوا: (لأنها تفتح مرة واحدة فإن سأل سائل فقال: (لم دخلت الواو في (وفتحت) وأين جواب (حتى إذا جاؤوها) ففي ذلك أجوبة: فقال قوم الواو زائدة وقال المبرد: (إذا وجدت حرفاً من كتاب الله تعالى قد اشتمل على معنى حسن لم أجعله ملغى ولكن الواو واو نسق ها هنا والتقدير: حتى إذا جاؤوها وصلوا وفتحت أبوابها) وقال أيضاً: (إن الجواب محذوف والمعنى: حتى إذا جاؤوها إلى آخر الآية سعدوا) أي حتى إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة وقال قوم: (معناه حتى إذا جاؤوها (جاؤوها) (وفتحت أبوابها) فـ (جاؤوها) عندهم محذوف وعلى قول هؤلاء يكون اجتمع المجيء مع الدخول في حال واحد وقد قيل إن العرب تعد من واحد إلى سبعة ثم تزيد الواو كما قال جل وعز: ﴿**التائبون العابدون**﴾ ثم قال: (والناهون) بعد السبعة وقال: ﴿**ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم**﴾ والله أعلم بذلك. انظر حجة القراءات ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

ويقال وجبت كلمة العذاب وهي قول الله تعالى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين فيها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئس موضع القرار لمن تكبر عن الإيمان، ثم بين حال المؤمنين المطيعين فقال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ يعني اتقوا الشرك والفواحش ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ يعني فوجاً فوجاً، بعضهم قبل الحساب اليسير وبعضهم بعد الحساب الشديد، على قدر مراتبهم ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ يعني وقد فتحت أبوابها، ويقال (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) قبل مجيئهم تكريماً وتبجيلاً لهم، ويقال الواو زيادة في الكلام، ويقال هذه الواو منسوقة على قوله فتحت كما يقال في الكلام دخل زيد وعمرو ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي فزتم ونجوتم، ويقال طابت لكم الجنة، وقال بعض أهل العربية في الآية دليل على أن أبواب الجنة ثمانية، لأنه قد ذكر بالواو وإنما يذكر بالواو إذا بلغ الحساب ثمانية، كما قال في آية أخرى (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) فذكر الواو عند الثمانية، وكما قال (التَّائِبُونَ العَابِدُونَ) فذكرها كلها بغير واو، فلما انتهى إلى الثمانية قال (وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ). وقال في آية أخرى (مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ) ثم قال عند الثمانية (وَأَبْكَاراً)، وعرف أن أبواب جهنم سبعة بالآية، وهي قوله لها سبعة أبواب وقال أكثر أهل اللغة ليس في الآية دليل، لأن الواو قد تكون عند الثمانية، وقد تكون عند غيرها، ولكن عرف أن أبوابها ثمانية بالأخبار، ثم أنهم لما دخلوا الجنة حمدوا الله تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يعني الشكر لله ﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ يعني أنجز لنا وعده على لسان رسله ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ يعني أنزلنا أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي ننزل في الجنة ونستقر فيها حَيْثُ نَشَاءُ ونشتهي ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي ثواب الموحدين المطيعين ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ﴾ أي ترى يا محمد الملائكة يوم القيامة محدقين ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي يسبحونه ويحمدونه ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، وهو تأكيد لما سبق من قوله وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني لما قضي بينهم بالحق، أي بالعدل، وميزوا من الكفار حمدوا الله تعالى، وقالوا الحمد لله رب العالمين، الذي قضى بيننا بالحق، ونجانا من القوم الظالمين وقال مقاتل: ابتدأ الدنيا بالحمد لله رب العالمين وهو قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ)، وختمها بقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

سُورَةُ غَافِر(١)

وهي ثمانون وخمس آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الحواميم كلها مكية(٢) وهكذا روي عن محمد ابن الحنفية، وقال ابن مسعود: إِنَّ حمٓ دِيْبَاجُ القُرْآنِ(٣) وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْتَعَ فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ فَلْيَقْرَأْ الحَوَامِيم»(٤) وقال قتادة حمٓ اسم من أسماء الله الأعظم، ويقال: اسم من أسماء القرآن، ويقال قسم أقسم الله بحمٓ، ويقال معناه: قضى بما هو كائن ويقال: حم الأمر أي قدر وقضى وتم، وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم حم بفتح الحاء، وقرأ أبو عمرو، ونافع بين الفتح والكسر، والباقون بالكسر(٥) وكل ذلك جائز في اللغة، ثم قال ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ يعني إن هذا القرآن الذي يقرأه عليكم محمد هو من عند الله العَزِيز في سلطانه وملكه العَلِيم بخلقه وبأعمالهم ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لمن يقول لا إله إلا الله مخلصاً، يستر عليه ذنوبه ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لمن تاب ورجع ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن مات على الشرك ولم يقل لا إله إلا الله

---

(١) تضمنت هذه السورة أغراضاً من أصول الدعوة إلى الإيمان فابتدئت بما يقتضي تحدي المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المقطعان في فاتحتها كما تقدم في أول سورة البقرة.

وأجري على اسم الله تعالى من صفاته ما فيه تعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه فكانت فاتحة السورة مثل ديباجة الخطبة مشيرة إلى الغرض من تنزيل هذه السورة. وعقب ذلك بأن دلائل تنزيل هذا الكتاب من الله بينة لا يجحدها إلا الكافرون من الاعتراف بها حسداً وأن جدالهم تشغيب وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خمس مرات في هذه السورة وتمثيل حالهم بحال الأمم التي كذبت رسل الله بذكرهم إجمالاً ثم التنبيه على آثار استئصالهم وضرب المثل بقوم فرعون. وموعظة مؤمن آل فرعون قومه بمواعظ تشبه دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - قومه. والتنبيه على دلائل تفرد الله تعالى بالإلهية إجمالاً. وإبطال عبادة ما يعبدون من دون الله. والتذكير بنعم الله على الناس ليشكره الذين أعرضوا عن شكره. والاستدلال على إمكان البعث. وإنذارهم بما يلقون من هوله وما يترقبهم من العذاب وتوعدهم بأن لا نصير لهم يومئذ وبأن كبراءهم يتبرؤون منهم. وتثبيت الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بتحقيق نصر هذا الدين في حياته وبعد وفاته وتخلل ذلك الثناء على المؤمنين ووصف كرامتهم وثناء الملائكة عليهم. انظر التحرير ٢٤/ ٧٧ - ٧٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ وعزاه لابن الضريس والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٤٤ وعزاه لابن عبيد وابن الضريس وابن المنذر والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره ١٥/ ١٨٨ ونسبه للثعلبي.

(٥) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٣٤، حجة القراءات ٦٢٦ - ٦٢٧.

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ يعني ذي الفضل على عباده والمن، والطول في اللغة[١]: التفضل، يقال طل علي برحمتك أي تفضل، وقال مقاتل ذِي الطَّوْلِ يعني ذي الغنى عمن لم يوحده، ثم وحد نفسه فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يعني إليه مصير العباد ومرجعهم في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم.

مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

قوله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني ما يخاصم في آيات الله بالتكذيب ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ يعني ذهابهم ومجيئهم في أسفارهم[٢] وتجاراتهم، فإنهم ليسوا على شيء من الدين، وقال مقاتل تَقَلُّبُهُم يعني ما هم فيه من السعة في الرزق، ثم خوفهم ليحذروا فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾ يعني الأمم من بعد قوم نوح ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ يعني أرادوا أن يقتلوه ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي بالشرك ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ يعني ليبطلوا به دين الحق، وهو الإسلام والذي جاء به الرسل ﴿فَأَخَذْتُهُم﴾ أي عاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ يعني كيف رأيت عذابي لهم، أليس قد وجدوه حقاً ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني سبقت ووجبت كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالعذاب ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني يصيرون إليها، قرأ نافع وابن عامر كَلِمَاتُ رَبِّكَ بلفظ الجماعة، والباقون كلمة ربك[٣] بلفظ الواحد، وهي عبارة عن الجنس، والجنس يقع على الواحد وعلى الجماعة، وقرىء في الشاذ إِنَّهم بالكسر على معنى الابتداء، وقراءة العامة بالنصب على معنى البناء.

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٧٢٨.

(٢) في أ [الأسفار].

(٣) حجة من أفرد أنها تجمع سائر الكلمات وتقع مفردة على الكثرة فإذا كان ذلك كذلك استغنى بها عن الجمع كما تقول: ﴿يعجبني قيامكم وقعودكم﴾ وقال: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ وقال: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ فأفرد الصوت مع الإضافة إلى الكثرة فكذلك الكلمة ومن جمع فلأن هذه الأشياء وإن كانت تدل على الكثرة قد تجمع إذا جعلت أجناساً قال: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ أي: بشرائعه لأن الكتب قد ذكرت وقال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾. انظر حجة القراءات ٦٢٧. انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٥.

﴿أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ وهم الملائكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ من المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني يسبحون الله تعالى ويحمدونه ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يصدقون بالله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني المؤمنين، وفي الآية دليل(١) فضل المؤمنين، وبيانه أن الملائكة مشتغلون بالدعاء لهم ثم وصف دعاءهم للمؤمنين، وهو قولهم ﴿رَبَّنَا﴾ يعني يقولون يا ربنا ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ يعني يا ربنا رحمتك واسعة، وعلمك محيط بكل شيء، ويقال معناه ملأت كل شيء نعمة وعلماً، علم ما فيها من الخلق، روى قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير(٢) قال: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله، الشياطين(٣)، وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أصحاب عبد الله بن مسعود، يقولون الملائكة خير للمسلمين من ابن الكواء الملائكة يستغفرون لمن في الأرض وابن الكواء يشهد عليهم بالكفر، وكان ابن الكواء رجلاً خارجياً، قوله ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ أي تجاوز عنهم، يعني الذين رجعوا عن الشرك ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ يعني دينك الإسلام ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يعني ادفع عنهم في الآخرة عذاب النار ﴿رَبَّنَا﴾ يعني ويقولون رَبَّنا ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على لسان رسلك ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي من وحد الله تعالى ﴿مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي وأدخلهم معهم الجنة أيضاً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمرك ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ يعني ادفع عنهم العذاب في الآخرة ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني من دفعت العذاب عنه فقد رحمته قال مقاتل السيئات يعني الشرك في الدنيا ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ في الآخرة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني النجاة الوافرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ۝١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ۝١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ۝١٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ قال مقاتل والكلبي لما عاين الكفار النار ودخلوها مقتوا أنفسهم، أي لاموا أنفسهم وغضبوا عليها، فتقول لهم خزنة جهنم ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ﴾ يعني غضب الله عليكم وسخطه أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ ﴿أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإيمان فَتَكْفُرُونَ﴾ أي تجحدون وتثبتون على الكفر ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمِتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ يعني كنا نطفاً أمواتاً ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ يعني فأحييتنا ثم أمتنا عند آجالنا، ثم أحييتنا اليوم، وذكر عن القتبي نحو هذا، وقال بعضهم: إحدى الإماتتين يوم الميثاق حين صيروا إلى صلب آدم، والأخرى في الدنيا عند انقضاء

(١) في أ [بيان].

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري الحرشي أبو عبد الله البصري ثقة عابد فاضل مات سنة خمس وتسعين. «انظر التقريب ٢٥٣/٢».

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٤٧/٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير.

الأجل، وإحدى الإحيائين في بطن الأمهات. والأخرى في القبر ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ يعني أقررنا بشركنا، وظهر لنا أن البعث حق ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ يعني فهل سبيل إلى الخروج من النار، ويقال فهل من حيلة إلى الرجوع ﴿ذَلِكُم﴾ يعني يقال لهم ذلك الخلود ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ يعني إذا قيل لكم لا إله إلا الله جحدتم، وأقمتم على الكفر ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ يعني إذا دعيتم إلى الشرك، وعبادة الأوثان تصدقوا ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ يعني القضاء فيكم لله العلي الكبير، أي الرفيع فوق خلقه، القاهر لخلقه، الكبير بالقدرة والمنزلة.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ
لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ يعني: عجائبه ودلائله من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، وذلك أنه لما ذكر ما يصيبهم يوم القيامة، عظم نفسه تعالى، ثم ذكر لأهل مكة من الدلائل ليؤمنوا به فقال هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ يعني المطر، ويقال الملائكة لتدبير الرزق ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ يعني ما يتعظ بالقرآن إلا من يقبل إليه بالطاعة، ويقال وما يتذكر في هذا الصنيع فيوحد الرب إلا من يرجع إليه ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني اعبدوه بالإخلاص ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يعني وإن شق ذلك على المشركين الكافرين ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ يعني رافع وخالق السموات، أي مطبقاً بعضها فوق بعض، ويقال: هو رافع الدرجات في الدنيا بالمنازل وفي الآخرة الجنة ذو الدرجات ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ يعني رافع العرش، ويقال: خالق العرش، هو رب العرش ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ يعني ينزل جبريل بالوحي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ يعني ليخوف بالقرآن، وقرأ الحسن لتنذر بالتاء على معنى المخاطبة، يعني لتنذر يا محمد، وقراءة العامة بالياء[1]، يعني لينذر الله، ويقال: لينذر من أنزل عليه الوحي، يوم التلاق، قرأ ابن كثير يَوْمَ التَّلَاقِي بالياء، وهي إحدى الروايتين عن نافع، والباقون بغير ياء[2]، فمن قرأ بالياء فهو الأصل، ومن قرأ بغيرْ ياء فلأن الكسر يدل عليه، وقال في رواية الكلبي يَوْمَ التَّلَاقِ يوم يلتقي أهل السموات وأهل الأرض، ويقال يوم يلتقي الخصم والمخصوم ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أي ظاهرين خارجين من قبورهم ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ يعني من أعمال أهل السموات وأهل الأرض ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ قال بعضهم: هذا بين النفختين يقول الرب تبارك وتعالى لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول لنفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قال بعضهم إن ذلك لأهل

---

(١) في أ [أنفسهم ودخلوا].

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٥.

(٣) المصدر السابق وحجة القراءات ٦٢٧.

الجمع يوم القيامة، يقول لمن الملك اليوم، فأقر الخلائق كلهم وقالوا لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ يقول الله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني بما عملت في الدنيا من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ يعني خوفهم بيوم القيامة، فسمي الازفة لقربه، ويقال أزف شخوص فلان يعني قرب، كما قال أَزِفَتِ الآزفة ثم قال ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ من الخوف لا تخرج، ولا تعود إلى مكانها ﴿كَاظِمِينَ﴾ أي مغمومين، يتردد خوفهم في أجوافهم ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي له الشفاعة فيهم ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا موصول بقوله (لَا يَخْفَى عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) وهو يعلم خائنة الأعين، وقال أهل اللغة: الخائنة والخيانة واحدة، كقوله (وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ) وقال مجاهد: خائنة الأعين يعني نظر العين إلى ما نهى الله عنه[(١)]، وقال مقاتل الغمزة فيما لا يحل له والنظرة إلى المعصية، ويقال النظرة بعد النظرة، وقال قتادة يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ يعني يعلم غمزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى[(٢)] ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾ أي يحكم بالحق، ويقال يأمر بما يجب به الثواب، وينهى عما يجب به العقاب ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني يعبدون من الآلهة، قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء على معنى المخاطبة، والباقون بالياء[(٣)] على معنى الخبر عنهم ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ يعني ليس لهم قدرة ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يعني السميع لمقالة الكفار البصير بأعمالهم.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ يعني فيعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ يعني آخر أمر ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني منعة، قرأ ابن عامر، ومن تابعه من أهل الشام أشد منكم بالكاف على معنى المخاطبة، والباقون أشد منهم بالهاء[(٤)] على معنى الخبر عنهم ﴿وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أكثر أعمالاً، ويقال أشد لها طلباً، وأبعد لها ذهاباً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي عاقبهم الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي من مانع يمنعهم من عذاب الله ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العذاب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بالأمر والنهي، ويقال: بالدلائل الواضحات ﴿فَكَفَرُوا﴾ بهم وبدلائلهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي عاقبهم الله بذنوبهم، إنه قادر على أخذهم، شديد العقاب لمن عاقب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٢٨.

(٤) النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٥.

سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي حجة بينة ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعني لم يصدقوا موسى قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني بالرسالة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يعني أعيدوا القتل عليهم ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ فلا تقتلوهن ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في خطأ بين قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ يعني خلوا عني حتى أقتل موسى ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ يعني ليدعوا ربه موسى لكي يمنعه عني، وذلك أن قومه كانوا يقولون: أرجئه وأخاه ولا تقتله حتى لا يفسدوا عليك الملك، فقال لهم فرعون ذروني أقتل موسى، فإني أعلم أن صلاح ملكي في قتله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ يعني عبادتكم إياي ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني الدعاء إلى غير عبادتي، قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو وَأَنْ يظهر على معنى العطف، والباقون[1] أو أن يظهر على معنى الشك، وكلاهما جائز، وأو لأحد الشيئين، إما لشك المتكلم، أو أحدهما، والواو للجمع، وتقع على الأمرين جميعاً وقرأ أبو عمرو ونافع، وعاصم، يُظْهِر بضم الياء وكسر الهاء الفَسَادَ بالنصب، والباقون يَظْهَر بنصب الياء والهاء الفَسادُ بالضم[2]، فمن قرأ يُظْهِر بالضم فالفعل لموسى والفساد نصب لوقوع الفعل عليه، ومن قرأ يَظْهَر فالفعل للفساد فيصير الفسادُ رفعاً لأنه فاعل، فلما سمع موسى ذلك التهديد استعاذ بالله من شره فذلك قوله ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يعني أستعيذ بربي وربكم ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن الإيمان يعني ﴿لَا يُؤْمِنُ﴾ أي لا يصدق ﴿بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ

---

(١) حجة القراءات ٦٢٩.

(٢) المصدر السابق إتحاف فضلاء البشر ٢ / ٤٣٦.

مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ
رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وهو حزبيل بن ميخائيل، هو ابن عم قارون وكان أبوه من آل فرعون، وأمه من بني إسرائيل، ويقال كان ابن فرعون ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾وكان قد أسلم سراً من فرعون، قوله ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني اليد والعصا، وروى الأوزاعي، عن يحيى بن كثير(١) عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو حدثني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال «أقبل عقبة بن أبي معيط ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي عند الكعبة فلوى ثوبه على عنقه، وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ثم قال أبو بكر أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ(٢) كَذِبُهُ﴾ يعني فعليه وبال كذبه، فلا ينبغي أن تقتلوه بغير حجة ولا برهان ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقاً﴾ في قوله وكذبتموه ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ من العذاب، يعني بعض ذلك العذاب يصبكم في الدنيا، ويقال بعض الذي يعدكم فيه أي جميع الذي يعدكم كقوله (لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) أي جميع الذي تختلفون فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ يعني لا يرشد ولا يوفق إلى دينه ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في قوله ﴿كَذَّابٌ﴾ يعني الذي عادته الكذب ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ أي ملك مصر ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾أي غالبين على أرض مصر ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ يعني من يعصمنا من عذاب الله ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ يعني أرأيتم إن قتلتم موسى وهو الصادق فمن يمنعنا من عذاب الله، فلما سمع فرعون قول المؤمن ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ يعني ما أريكم من الهدى إلا ما أرى لنفسي، ويقال: ما آمركم إلا ما رأيت لنفسي أنه حق وصواب ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني ما أدعوكم إلا إلى طريق الهدى،وقرىء في الشاذ الرَّشّاد بتشديد الشين يعني سبيل الرشاد الذي يرشد الناس، ويقال رشاد اسم من أسماء أصنامه، قوله ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ وهو حزبيل ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني أخاف عليكم من تكذيبكم مثل عذاب الأمم الخالية ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي مثل عذاب قوم نوح ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ﴾ يعني لا يعذبهم بغير ذنب ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ وهو من نَدَّ يَندّ، وهو من تنادى يتنادى تنادياً، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قرأ يوم التناد بتشديد الدال وقال تندون كما تند الإبل، وهذا موافق لما بعده ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ وكقوله (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ).

وقرأ الحسن يَوْمَ التَّنَادِي بالياء وهو من النداء، يوم ينادى كل قوم بأعمالهم، وينادي المنادى من مكان بعيد،

---

(١) يحيى بن كثير الطائي مولاهم أبو نصر اليمامي ثقة ثبت لكنه يدلس ويرسل مات سنة اثنتين وثلاثين انظر التقريب ٢/٣٥٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٤٩ وعزاه للبخاري وابن المنذر وابن مردويه هو عند البخاري ٨/٤١٦ (٤٨١٥).

وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أهل الجنة أهل النار (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً) وقراءة العامة التناد بالتخفيف بغير ياء[١]، وأصله الياء فحذف الياء لأن الكسرة تدل عليه، وقوله (يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ) أي هاربين قال الكلبي: هاربين إذا انطلق بهم إلى النار فعاينوها هربوا، فيقال لهم ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ليس لكم من عذاب الله من مانع، وقال مقاتل (يوم تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ) أي ذاهبين بعد الحساب إلى النار، كقوله (فتولَّوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) أي ذاهبين (مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)يعني من مانع من عذابه ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن الهدى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يعني من مرشد وموفق ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هذا قول حزبيل أيضاً لقوم فرعون قال (وَلَقَدْ جَاءَكُم يُوسُفُ) ويقال يعني به أهل مصر وهم الذين قبل فرعون، لأن القرون الذين كانوا في زمن فرعون لم يروا يوسف، وهذا كما قال تعالى (فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ) وإنما أراد به آباءهم (بالبينات) أي بتعبير الرؤيا وروي عن وهب بن منبه قال: فرعون موسى: هو الذي كان في زمن يوسف وعاش إلى وقت موسى، وهذا خلاف قول جميع المفسرين ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من تصديق الرؤيا وبما أخبركم ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ يعني مات ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ يقول الله تعالى ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُو مِسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ يعني من هو مشرك شاك في توحيد الله، ثم وصفهم فقال ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير حجة ﴿أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي عظم بغضاً لهم من الله ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني عند المؤمنين ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أي يختم الله بالكفر ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يعني متكبر عن عبادة الله تعالى، قرأ أبو عمرو قَلْبٍ مُتَكَبِّر بالتنوين، جعل قوله متكبر نعتاً للقلب، ومعناه أن صاحبه متكبر، والباقون قلبِ مُتَكَبِّرٍ[٢] بغير تنوين على معنى الإضافة، لأن المتكبر هو الرجل وأضاف القلب إليه.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ
مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا
كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ
وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٣٧.

(٢) من نون جعل المتكبر نعتاً للقلب وصفة له لأن القلب إذا تكبر تكبر صاحبه. المعنى: أن صاحبه متكبر كقوله تعالى: ﴿ناصية كاذبة﴾ أضاف الفعل إلى الناصية. والمعنى لصاحبها ومما يقوى ذلك قوله: ﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ فالكبر في القلب قال اليزيدي: حجة هذه القراءة قوله: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ ولم يقل: عليهم فالطبع إنما قصد به القلب. ومن قرأ بالإضافة فهو الوجه لأن المتكبر هو الإنسان المعنى: على قلب كل رجل متكبر. انظر حجة القراءات ٦٣٠، ٦٣١.

إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ
إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ
إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾ أي قصراً مشيداً ﴿لَعَلِّيَ أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ يعني أصعد طرق السموات ﴿فَاطَّلِعَ﴾ أي انظر ﴿إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَى﴾ الذي يزعم أنه أرسله، وقال مقاتل والقتبي ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أبوابها، قرأ عاصم في رواية حفص (فَأَطَّلِعَ) بنصب العين، والباقون بالضم[1] فمن قرأ بالنصب جعله جواباً للفعل، ومن قرأ بالضم رده إلى قوله أبلغ الأسباب فأطلع ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ أي لأحسب موسى كاذباً في قوله، قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي قبح عمله ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي الدين والتوحيد، قرأ حمزة والكسائي وعاصم وَصُدَّ بضم الصاد، والباقون بالنصب[2]، فمن قرأ بالضم فمعناه: إن فرعون صرف عن طريق الهدى، يعني إن الشيطان زين له سوء عمله، وصرفه عن طريق الهدى ومن قرأ بالنصب فمعناه صرف فرعون الناس عن الدين ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعُونَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي ما صنع فرعون إلا في خسارة يوم القيامة، كقوله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) يعني إن فرعون اختار متاعاً قليلاً، وترك الجنة الباقية، فكان عمله في الخسارة ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ وهو حزبيل ﴿يَا قَوْمِ﴾ ﴿اتَّبِعُونِي أَهْدِكُم سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ يعني أطيعوني حتى أرشدكم وأبين لكم دين الصواب، قوله تعالى ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي قليل ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لا زوال لها ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ يعني من عمل الشرك فلا يجزى إلا النار في الآخرة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يعني من رجل أو امرأة ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3] أي: بغير مقدار، وقال بعض الحكماء إن الله تعالى قال (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً) ولم يقل من ذكر أو أنثى وقال (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى) لأن العمل الصالح يَحْسُن من الرجل والمرأة والسيئة من المرأة أقبح من الرجل، فلم يذكر من ذكر أو أنثى ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ﴾ يعني أن حزبيل قال لقومه: مالي أدعوكم إلى التوحيد والطاعة وذلك سبب النجاة والمغفرة فلم تطيعوني ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ يعني إلى عمل أهل النار، ثم بين عمل أهل النار فقال: ﴿تَدعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ يعني: لأجحد بوحدانية الله ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ أي أشرك بالله ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ يعني ما ليس لي به حجة بأن مع الله

(١) انظر حجة القراءات ٦٣١ النشر في القراءات العشر.

(٢) حجة من قرأ بالضم أن الكلام أتى عقيب الخبر من الله فلفظ ما لم يسم فاعله وهو قوله (وكذلك زين لفرعون) فجرى الكلام بعده بترك تسمية الفاعل ليأتلف الكلام على نظام واحد انظر حجة القراءات ٦٣٢.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر: ﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾ بضم الياء وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال: إذا كان بعدها ما يؤكدها مثل (لا يظلمون) و (يرزقون) و (يحلون) لأن الأخرى توكيد الأولى فإذا لم يكن معها ذلك فالياء مفتوحة. ويقوي هذا قوله ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾. وقرأ الباقون: ﴿يدخلون الجنة﴾ بفتح الياء. وحجتهم قوله تعالى: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ وقوله: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾. فكان أمر الله إياهم أن يدخلوها دليلاً على ما أسند الفعل إليهم. والمعنيان يتداخلان لأنهم إذا أدخلوا دخلوا وإذا أدخلهم (الله) الجنة دخلوا. فمعنى (يُدخَلون) و (يَدْخُلون) واحد. قال الله عز وجل: ﴿وأُدخِلَ الذين آمنوا﴾ (و) قال: (سندخلهم) فهم مفعولون وفاعلون. انظر حجة القراءات ٦٣٢ ـ ٦٣٣.

شريكاً ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ يعني إلى دين العزيز الغفار، العزيز في ملكه، الغفار: لمن تاب ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً يقال: لا جرم يعني لا بد ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ليس له قدرة، ويقال ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ﴿وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي مصيرنا ومرجعنا إلى الله يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني المشركين ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يعني هم في النار أبداً ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ يعني ستعرفون إذا نزل بكم العذاب، وتعلمون أن ما أقول لكم من النصيحة أنه حق ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ يعني أمر نفسي إلى الله، وأدع تدبيري إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني عالم بأعمالهم وبثوابهم، فأرادوا قتله فهرب منهم فبعث فرعون في طلبه فلم يقدروا عليه فذلك قوله ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ يعني دفع الله عنه شر ما أرادوا ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ يعني نزل بهم ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يعني شدة العذاب وهو الغرق ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ قال ابن عباس يعني تعرض أرواحهم على النار[١] ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل: تعرض روح كل كافر على منازلهم من النار كل يوم مرتين، وقال ابن مسعود «أَرْوَاحُهُم في جَوْف طَيْر سُودٍ يَرَوْنَ مَنَازِلَهم غُدوة وَعَشِيةً»[٢] وقال هذيل بن شرحبيل «أرواح الشهداء في جوف طير خضر تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش» وإن أرواح آل فرعون في جوف طير سود تغدو وتروح على النار فذلك عرضها، والآية تدل على إثبات عذاب القبر لأنه ذكر دخولهم النار يوم القيامة وذكر أنه تعرض عليهم النار قبل ذلك غدواً وعشياً، ثم قال ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يعني يقال لهم يوم القيامة ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو آدْخُلوا بضم الألف والخاء، وهكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر، والباقون بنصب الألف وكسر الخاء[٣]، فمن قرأ آدْخُلوا بالضم فمعناه ادخلوا يا آل فرعون ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فصار الآل نصباً بالنداء، ومن قرأ أَدْخِلوا بالنصب معناه: يقال للخزنة أدخلوا آل فرعون يعني قوم فرعون أشد العَذَابِ يعني أسفل العذاب فصار الآل نصباً لوقوع الفعل عليه.

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ أي يتخاصمون في النار، الضعفاء والرؤساء ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٥١ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٥١ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٣) حجة من قرأ بقطع الألف أن الكلام أتى عقيب الفعل الواقع بهم وهو قوله: (النار يعرضون عليها) فهم حينئذ مفعولون فجعل الإدخال واقعاً بهم ليأتلف الكلام على طريق واحد وحجة الباقين قوله تعالى ﴿أدخلوا أبواب جهنم﴾ وقال ﴿ادخلوا في أمم قد خلت﴾ انظر حجة القراءات ٦٣٣.

يعني لرؤسائهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُم تَبعاً﴾ في الدنيا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أي حاملون عنا ﴿نَصِيباً مِنَ النَّارِ﴾ يعني بعض الذي علينا من العذاب باتباعنا إياكم كما كنا ندفع عنكم المؤونة في دار الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني الرؤساء يقولون للضعفاء ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ يعني نعذب نحن وأنتم على قدر حصصكم في الذنوب، فلا يغني واحد واحداً ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي قضى بين العباد، بين التابع والمتبوع، ويقال حكم بين العباد، يعني أنزلنا منازلنا، وأنزلكم منازلكم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ إذا اشتد عليهم العذاب ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني سلوا ربكم ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني يوماً من أيام الدنيا حتى نستريح، فترد الخزنة عليهم فتقول ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني ألم تخبركم الرسل أن عذاب جهنم إلى الأبد، ويقال أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ يعني ألم تخبركم الرسل بالدلائل والحجج والبراهين فكذبتموهم ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ يعني تقول لهم الخزنة فادعوا ما شئتم فإنه لا يستجاب لكم ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي في خطأ بين ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ بالغلبة والحجة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهم يعني الذين صدقوهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بالحجة والغلبة على جميع الخلق، يعني على جميع أهل الأديان ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ قال مقاتل يعني الحفظة من الملائكة يشهدون عند رب العالمين للرسل بالبلاغ، وعلى الكافرين بتكذيبهم، وقال الكلبي يعني يوم القيامة يقوم الرسل عند رب العالمين ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُم﴾ يعني لا ينفع الكافرون اعتذارهم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (يَوْمَ لَا تَنْفَعُ) بالتاء بلفظ التأنيث، لأن المعذرة مؤنثة والباقون بالياء[1] وانصرف إلى المعنى يعني لا ينفع لهم اعتذارهم ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي السخطة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي عذاب جهنم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾
لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا
مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾
وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ
شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٣٤ النشر ٢/٣٦٤.

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ يعني التوراة، فيها هدى ونور من الضلالة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ يعني أعطيناهم على لسان الرسل، التوراة، والإنجيل، والزبور (هُدىً) أي بياناً من الضلالة، ويقال فيه نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ)، يعني عظة لذوي العقول ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني اصبر يا محمد على أذى المشركين فإن وعد الله حق، وهو ظهور الإسلام على الأديان كلها، وفتح مكة ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وهذا قبل نزول قوله (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)، ويقال استغفر لذنبك أي لذنب أمتك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي صل بأمر ربك ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ أي صلاة العصر ﴿وَالإِبْكَارِ﴾ يعني صلاة الغداة، ويقال سبح الله تعالى، واحمده بلسانك في أول النهار وآخره ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال الكلبي ومقاتل يعني اليهود والنصارى كانوا يجادلون في الدجال، وذلك أنهم كانوا يقولون إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان وله سلطان فيخوض البحر، وتجري معه الأنهار، ويرد علينا الملك، فنزل (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ) يعني في الدجال، لأن الدجال آية من آيات الله ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير حجة ﴿أَتَاهُمْ﴾ من الله ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أي ما في قلوبهم إلا عظمة مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ يعني ما هم ببالغي ذلك الكبر الذي في قلوبهم بأن الدجال منهم، وقال القتبي: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا تكبراً على محمد ـ صلى الله عليه وسلم، وطمعاً أن يغلبوه وما هم ببالغي ذلك، وقال الزجاج: معناه وما هم ببالغي إرادتهم، وإرادتهم دفع آيات الله، وروى أبو جعفر الرازي عن الربيع[1] عن أبي العالية قال: إن اليهود ذكروا الدجال وعظموا أمره فنزل (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ)[2] يعني إن الدجال من آيات الله ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من فتنة الدجال، فإنه ليس ثم فتنة أعظم من فتنة الدجال ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقول اليهود ﴿الْبَصِيرُ﴾ يعني العليم بأمر الدجال، ويقال السميع لدعائك، البصير برد فتنة الدجال عنك ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الكلبي ومقاتل: لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أعظم من خلق الدجال، ويقال لخلق السموات والأرض، أعظم من خلق الناس بعد موتهم، يعني أنهم يبعثون يوم القيامة (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أن الدجال خلق من خلق الله، ويقال لا يعلمون أن الله يبعثهم ولا يصدقون ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ يعني الكافر والمؤمن في الثواب ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ يعني لا يستوي الصالح مع الطالح ﴿قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون ويعتبرون، قرأ عاصم وحمزة والكسائي تَتَذَكَّرُونَ بالتاء على وجه المخاطبة، والباقون بالياء[3] يَتَذَكَّرُونَ على معنى الخبر عنهم، وفي كلا القراءتين مَا للصلة والزينة ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يعني قيام الساعة آتية لا شك فيها عند المؤمنين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

---

(١) في أ أبي الربيع.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٣٥٣/٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية.

(٣) حجة الباقين قوله تعالى قبلها: ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان﴾ ثم قال ﴿ولكن أكثر الناس﴾ فكأنه لما جرى الكلام قبله بالخبر ثم أتى عقيبه جعلوه بلفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد قال: والتاء أعم لأنها تجمع الصفين أي أنتم وهم. انظر حجة القراءات ٦٣٤ النشر ٢/٣٦٤.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

قال الكلبي معناه: وحدوني أغفر لكم، وقال مقاتل معناه: وقال ربكم لأهل الإيمان ادعوني أستجب لكم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي عن توحيدي فلا يؤمنون بي ولا يطيعونني ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين، ويقال. وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي يعني: الدعاء بعينه أَسْتَجِبْ لَكُم يعني: أستجب دعاءكم، وقال بعض المتأخرين معناه ادعوني بلا غفلة، أستجب لكم بلا مهلة، وقيل أيضاً ادعوني بلا جفاء، أستجب لكم بالوفاء، وقيل أيضاً: ادعوني بلا خطأ، أستجب لكم مع العطاء، وروى النعمان بن بشير عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ وَقَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(١) قرأ ابن كثير وعاصم في رواية أبي بكر، وإحدى الروايتين عن أبي عمرو سَيُدخلونَ بضم الياء ونصب الخاء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، وتكون جهنم مفعولاً ثانياً، والباقون يدخلون بنصب الياء وضم الخاء(٢) على الإخبار عنهم بالفعل المستقبل، على معنى سوف يدخلون ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ أي: خلق لكم الليل ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي لتستقروا فيه، وتستريحوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ أي: مضيئاً لابتغاء الرزق، والمعيشة، ويقال: مُبْصِراً: معناه يبصر فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: على أهل مكة بتأخير العذاب عنهم، ويقال: لذوي فضل على الناس أي على جميع الناس بخلق الليل والنهار ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لربهم في النعمة فيوحدونه، ويطيعونه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي خلق هذا هو ربكم ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون وتحولون، ويقال: فأنى تؤفكون أي من أين تكذبون ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أي: هكذا يكذب، ويقال هكذا يحول ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ويقال هكذا يؤفك الذين كانوا من قبلهم ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي: بسط لكم الأرض وجعلها موضع قراركم ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: خلق السماء فوقكم مرتفعاً ﴿وَصَوَّرَكُم﴾ أي: خلقكم ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ولم يخلقكم على صورة الدَّوابِّ ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم﴾ أي أحكم خلقكم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي الحلالات، يقال اللذيذات ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي خلق هذه الأشياء هو ربكم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فتعالى الله رب العالمين، ويقال هو من البركة، يعني البركة منه ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ يعني: هو الحي الذي لا يموت، ويميت الخلائق ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ يعني: بالتوحيد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: قولوا الحمد لله رب العالمين الذي صنع لنا هذا.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ يعني: قل يا محمد لأهل مكة إني نُهيتُ ﴿أَنْ أَعبدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني:

(١) أخرجه أبو داود ٢/٧٧ (١٤٧٩) أخرجه الترمذي ٥/٣٤٩ ٣٢٤٧ وأحمد في المسند ٤/٢٧١ وابن حبان ٢٣٩٦ والطبري في تفسيره ٢٤/٥١.

(٢) المصدران السابقان.

نهاني ربي أن أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأصنام ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ يعني: حين جاءني الواضحات وهو القرآن ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: أستقيم على التوحيد ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُم طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وقد ذكرناه من قبل ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ يعني: يعيش الإنسان إلى أن يصير شيخاً ﴿وَمِنْكُم مَنْ يُتَوفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّى﴾ يعني: الشباب والشيخ يبلغ أجلاً مسمى وقتاً معلوماً، ويقال في الآية تقديم، ومعناه ثمّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً أي لتبلغوا أجلاً مسمى، يعني: وقت انقضاء أجله (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ) أي من قبل أن يبلغ أشده، ويقال من قبل أن يصير شيخاً ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تعقلوا أمر ربكم، ولتستدلوا به، وتتفكروا في خلقه ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي للبعث ويميت في الدنيا على معنى التقديم، ويقال معناه هو الذي يحيي في الأرحام، ويميت عند انقضاء الآجال ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً﴾ يعني: أراد أن يخلق شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا
أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: يجادلون في القرآن أنه ليس منه ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ يعني: من أين يصرفون عن القرآن والإيمان من أين يعدلون عنه إلى غيره، ويقال: عن الحق والتوحيد، ثم وصفهم فقال ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ أي بالقرآن ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ يعني: بالتوحيد، ويقال بالأمر والنهي ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ماذا ينزل بهم في الآخرة، ثم وصف ما ينزل بهم فقال عز وجل ﴿إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِم﴾ يعني: ترد أيمانهم إلى أعناقهم ﴿وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ يعني: تجعل السلاسل في أعناقهم يُسْحَبُونَ ويجرون ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ يعني: في ماء حار قد انتهى حره قال مقاتل: يسحبون في الحميم، يعني: في حر النار، وقال الكلبي: يعني في الماء الحار ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يوقدون، فصاروا وقوداً، وروي عن ابن عباس أنه قرأ والسَّلاسِلَ بنصب اللام يَسْحَبُونَ بنصب الياء يعني: أنهم يسحبون السلاسل وقال هو أشد عليهم، وقراءة العامة والسَّلَاسِلُ بضم اللام يُسْحَبُونَ بالضم على معنى فعل ما لم يسم فاعله، والمعنى أن الملائكة يسحبونهم في السلاسل ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُم﴾ أي تقول لهم الخزنة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ يعني: اشتغلوا بأنفسهم عنا ﴿بَلْ لَمْ نَكُن نَّدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾ وذلك أنهم يندمون على إقرارهم وينكرون ويقولون: بَلْ لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً في الدنيا، ويقال معناه: بل لم نكن نعبد شيئاً ينفعنا، يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ عن الحجة ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم العذاب ﴿بِمَا تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي تبطرون، وتتكبرون في الأرض ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تعصون، وتستهزئون بالمسلمين ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ

﴿فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس مقام المتكبرين عن الإيمان.

فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ
وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا
رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني: اصبر يا محمد على أذى الكفار إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي كائن **﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾** من العذاب، يعني: فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب في الدنيا، وهو القتل والهزيمة **﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾** من قبل أن نرينك عذابهم في الدنيا **﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾** يعني: يرجعون إلينا في الآخرة فنجزيهم بأعمالهم **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ﴾** يعني: إلى قومهم **﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾** يعني: سميناهم لك فأنت تعرفهم **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾** يعني: لم نسمهم لك، ولم نخبرك بهم، يعني أنهم صبروا على أذاهم، فاصبر أنت يا محمد على أذى قومك كما صبروا **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾** أي ما كان لرسول من القدرة أن يأتي بآية، أي بدلائل وبراهين **﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** يعني: بأمره **﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾** يعني: بالعذاب **﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾** أي: عذبوا ولم يظلموا حين عذبوا **﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾** أي خسر عند ذلك المبطلون، يعني المشركون، ويقال يعني الظالمون، ويقال الخاسرون، ثم ذكر صنعه ليعتبروا فقال **﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾** يعني: خلق لكم البقر والغنم والإبل **﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾** أي بعضها وهو الإبل **﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾** أي: في الأنعام منافع، في ظهورها، وشعورها، وشرب ألبانها **﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾** أي: ما قلوبكم من بلد إلى بلد **﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾** يعني: على الأنعام وعلى السفن **﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾** يعني: دلائله وعجائبه **﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾** بأنها ليست من الله **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾** يعني: يسافروا في الأرض **﴿فَيَنْظُرُوا﴾** أي: فيعتبروا **﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾** يعني: آخر أمر من كان قبلهم كيف فعلنا بهم حين كذبوا رسلهم **﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾** يعني: أكثر من قومك في العدد **﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾** من قومك **﴿وآثاراً في الأرض﴾** يعني: مصانعهم أعظم أثاراً في الأرض وأطول أعماراً، وأكثر ملكاً في الأرض **﴿فما أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** يعني: لم ينفعهم ما عملوا في الدنيا حين نزل بهم العذاب

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالأمر والنهي، وبخبر العذاب **﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلمِ﴾** يعني: من قلة علمهم، رضوا بما عنـدهم من العلم، ولم ينظروا إلى دلائل الرسل، ويقال رضوا بما عندهم فقالوا: لن نعذب، ولن نبعث، ويقال فرحوا بما عندهم من العلم، أي علم التجارة كقوله: يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، **﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾** أي نزل بهم **﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: يسخرون به ويقولون أنه غير نازل بهم **﴿فَلَمَّا رَأَوا بَأْسَنَا﴾** أي عذابنا في الدنيا **﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا﴾** أي تبرأنا **﴿بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾** يعني: بما كنا به مشركين من الأوثان **﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾** يعني: تصديقهم **﴿لما رأوا بأسنا﴾** أي: حين رأوا عذابنا، قال القتبي: البأس الشدة والبأس العذاب كقوله (فلما رأوا بأسنا) وكقوله (فلما أحسوا بأسنا) **﴿سُنَّتَ اللَّهِ التِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾** قال مقاتل: يعني كذلك كانت سنة الله (في عباده) يعني العذاب في الأمم الخالية، إذا عاينوا العـذاب لم ينفعهم الإيمان، وقال القتبي: هكذا سنة الله أنه من كفر عذبه **﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكَافِرُونَ﴾** أي: خسر عند ذلك الكافرون بتوحيد الله عز وجل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

سورة فصلت(١)

وهي أربع وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ
ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ﴾ اسم السورة، ويقال (حمٓ) يعني قضي ما هو كائن، ويقال: هو قسم أقسم الله تعالى به ﴿تَنْزِيلٌ﴾ أي نزل بهذا القرآن جبريل ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (تنزيل) صار رفعاً بالابتداء، وخبره ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ ويقال: صار رفعاً بإضمار فيه. ومعناه هذا تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب، يعني القرآن (فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) يعني بينت وفسرت دلائله وحججه، ويقال: بين حلاله وحرامه ﴿قُرْآنَاً عَرَبِيًّا﴾ صار نصباً على الحال، أي بينت آياته في حال جمعه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يصدقون ويقرون بالرسل، ويقال يعلمون ما فيه ويفهمونه قرآناً عربياً أخذ من الجمع، ولو كان غير عربي لم يعلموه قوله تعالى ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ يعني بشيراً للمؤمنين بالجنة، ونذيراً للكافرين بالنار ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أعرض أكثر أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يعني لا يسمعون سمعاً ينفعهم، لأنهم لا يجيبون ولا يطيعون ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ يعني في غطاء لا نفقه ما تقول ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد لا يصل إلى قلوبنا ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ يعني ثقلاً فلا نسمع قولك، يعني نحن في استماع قولك كالصم لا نسمع ما تقول ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي ستر وغطاء ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ يعني اعمل على أمرك نعمل على أمرنا، ويقال: اعمل لإلهك الذي أرسلك، إننا عاملون لآلهتنا وهذا قول مقاتل والأول قول الكلبي، ويقال اعمل في هلاكنا، إننا عاملون في هلاكك روى محمد بن كعب القرضي عمن حدثه أن عتبة بن ربيعة، قال ذات

---

(١) من أغراض هذه السورة التنويه بالقرآن والإشارة إلى عجزهم عن معارضته. وذكر هديه وأنه معصوم من أن يتطرقه الباطل وتأييده بما أنزل إلى الرسل من قبل الإسلام. وتلقي المشركين له بالإعراض وصم الآذان. وإبطال مطاعن المشركين فيه وتذكيرهم بأن القرآن نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلاً في عدم انتفاعهم بهديه. وزجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السماوات والأرض مع بيان ما في خلقها من الدلائل على تفرده بالإلهية. وإنذارهم بما حل بالأمم المكذبة من عذاب الدنيا. ووعيدهم بعذاب الآخرة وشهادة سمعهم وأبصارهم وأجسادهم عليهم. وتحذيرهم من القرناء المزينين لهم الكفر من الشياطين والناس وأنهم سيندمون يوم القيامة على اتباعهم في الدنيا. وقوبل ذلك بما للموحدين من الكرامة عند الله. وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدفعهم بالتي هي أحسن وبالصبر على جفونهم وأن يستعيذ بالله من الشيطان.

وذكرت دلائل تفرد الله بخلق المخلوقات العظيمة كالشمس والقمر. ودلائل إمكان البعث وأنه واقع لا محالة ولا يعلم وقته إلا الله تعالى. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتأييد الله إياهم بتنزيل الملائكة بالوحي. وبالبشارة للمؤمنين. وتخلل ذلك أمثال مختلفة في ابتداء خلق العوالم وعبر في تقلبات أهل الشرك. والتنويه بإيتاء الزكاة. انظر التحرير ٢٤/٢٢٨ ـ ٢٢٩.

يوم وهو جالس في نادي قريش ألا أقوم إلى هذا الرجل وأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، وذلك حين رأوا أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزيدون ويكثرون، فقالوا بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من المكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت جماعتهم وعبت آلهتهم، ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فإن كنت إنما تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً، وإن كنت تريد شرفاً، شرفناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه أي خيالاً لا تستطيع أن ترده عنك نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا لك فيه أموالنا حتى نبريك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، فلما فرغ منه قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: (بسم الله الرحمن الرحيم ـ حٰمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُه) حتى انتهى إلى قوله (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) فقام عتبة وجاء إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: تالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك، قال: سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بيني وبين الرجل، وبين ما هو فيه، فقالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا الرأي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

يقول الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعني آدمياً مثلكم ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ ما أبلغكم من الرسالة ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ يعني أقروا له بالتوحيد ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني الشدة من العذاب للمشركين ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يعني لا يعطون الزكاة ولا يقرون بها ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني بالبعث بعد الموت، ثم وصف المؤمنين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني صدقوا بالله وأدوا الفرائض ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني غير منقوص، ويقال غير مقطوع عنهم في حال ضعفهم ومرضهم فقال عز وجل ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التهديد والزجر، يعني أئنكم لتكذبون بالخالق الذي خلق الأرض في يومين يوم الأحد ويوم الإثنين، فبدأ خلقها في يوم الأحد، وبسطها في يوم الإثنين ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ يعني تصفون له شركاء من الآلهة ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني الذي خلق الأرض فهو رب جميع الخلق، ولو أراد الله أن يخلقها في لحظة

واحدة لفعل وكان قادراً ولكنه أحب أن يبصر الخلق وجوه الأناة، والقدرة على خلق السموات والأرض في أيام كثيرة، وفي لحظة واحدة سواء، لأن الخلق عاجزون عن مثقال ذرة منها، وكان ابتداء خلق الأرض في يوم الأحد، وإتمام خلقها وبسطها في يوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾ يعني وخلق في الأرض الرواسي يعني الجبال الثوابت من فوقها ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ بالماء والشجر ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [يعني قسم فيها الأرزاق وقال عكرمة: قدر فيها أقواتها][1] يعني قدر في كل قرية عملاً لا يصلح في الأخرى، مثل النيسابوري لا يكون إلا بنيسابور، والهروي لا يكون إلا بهراة، وقال قتادة (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) قال جبالها، ودوابها، وأنهارها وثمارها، وقال الحسن: وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا قال: أرزاقها، وقال مقاتل: يعني أرزاقها ومعايشها، وروى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: أول ما خلق الله من شيء خلق القلم، فقال له اكتب، فقال يا رب وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم القيامة، ثم خلق النون، ثم رفع بخار الماء ففتق منه السموات ثم بسط الأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فتمادت الأرض فأوتدت بالجبال، ثم قال ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني من أيام الآخرة، ويقال من أيام الدنيا ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ يعني لمن سأل الرزق، ومن لم يسأل، وقال مقاتل (سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ) يعني عدلاً لمن سأل الرزق، كقوله (وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ) يعني عدلاً، وقال ابن عباس سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية فقال: «خلق الأرواح قبل الأجساد بأربع آلاف سنة»[2]، وهكذا خلق الأرزاق قبل الأرواح بأربع آلاف سنة[3] «فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً» قرأ الحسن «سَوَاءٍ» بكسر الألف، وقرأ أبو جعفر المدني (سَوَاءٌ) بالضم، وقراءة العامة بالنصب[4]، فمن قرأ بالكسر جعل سواء صفة للأيام والمعنى في أربعة أيام مستويات تامات للسائلين، ومن قرأ بالضم فمعناه: في أربعة أيام. وقد تم الكلام، ثم استأنف فقال سواء للسائلين، ومن قرأ بالنصب يعني قدرها (سواء) صار نصباً على المصدر، ومعناه استوت استواء ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي صعد أمره إلى السماء وهو قوله (كُنْ) ويقال عمد إلى خلق السماء ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ يعني بخار الماء كهيئة الدخان، وذلك أنه لما خلق العرش لم يكن تحت العرش شيء سوى الماء كما قال (وكان عرشه على الماء) ثم ألقى الحرارة على الماء حتى ظهر منه البخار، فارتفع بخاره كهيئة الدخان، فارتفع البخار، وألقى الريح الزبد على الماء فزيد الماء، فخلق الأرض من الزبد وخلق السماء من الدخان وهو البخار ثم قال تعالى (وَهِيَ دُخَانٌ) ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾ يعني للسماء والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ يعني اعطيا الطاعة طوعاً أو كرهاً، يعني ائتيا بالمعرفة لربكما، والذكر له طوعاً أو كرهاً ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فأعطيا الطاعة بالطوع، ويقال: كانت السماء رتقاً عن المطر، والأرض عن النبات، فقال لهما: (ائْتِيَا) يعني أعطيا وأخرجا ما فيكما من المطر والنبات منفعة للخلق، إن شئتما طائعين، وإن شئتما كارهين (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) يعني أخرجنا ما فينا طائعين غير كارهين، وروي عن مجاهد أنه قال: معناه يا سماء أبرزي شمسك وقمرك ونجومك، ويا أرض أخرجي نباتك طوعاً أو كرهاً ويقال هذا على وجه المثل، يعني أمرهما بإخراج ما فيهما، فأخرجتا طائعتين، قوله عز وجل ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ يعني أمر أهل كل سماء بأمرها قال السدي: خلق في كل سماء خلقاً من

---

(١) سقط في أ.

(٢) ذكره في كشف الخفا ١/ ٢٦٥ وقال: لم يثبت عن ابن عباس بل هو باطل عنه قاله ابن حجر المكي في فتاويه الحديثية.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦١ وعزاه لعبد الرزاق عن الحسن.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٢.

الملائكة ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ يعني بالنجوم ﴿وَحِفْظاً﴾ يعني من الشياطين أن يسترقوا السمع ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الذي ذكر من صنعه ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ أي خوفتكم ﴿صَاعِقَةً﴾ أي عذاباً ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ﴾ أي مثل عذاب ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقال مقاتل: كان عاد وثمود ابني عم، وموسى وقارون ابني عم، وإلياس واليسع ابني عم، وعيسى ويحيى ابني خالة، ومعنى الآية إن لم يعتبروا فيما وصف لهم من قدرتي وعظمتي في خلق السموات والأرض، وأعرضوا عن الإيمان، فقل أنذرتكم عذاباً مثل عذاب عاد وثمود أنه يصيبهم مثل ما أصابهم، قال الفقيه أبو الليث رحمه الله أخبرني الخليل بن أحمد قال حدثنا علي بن المنذر[٢] قال حدثنا ابن فضيل عن الأجلح، عن ابن حرملة[١] عن جابر بن عبد الله: أن أبا جهل والملأ من قريش بعثوا عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأتاه فقال له أنت يا محمد خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب، فلم تشتم آلهتنا، وتضلل آباءنا، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك لواء وكنت رأساً ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوجناك عشرة نسوة تختارهن من أي حي من بنات قريش شئت، وإن كنت تريد المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، فلما فرغ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بسم الله الرحمن الرحيم حَمٓ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) إلى قوله مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف ثم رجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم، فقال أبو جهل والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا وقد صبأ، فأتوه فقال أبو جهل والله يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبوت إلى دين محمد، وأعجبك أمره، فغضب عتبة وأقسم ألا يكلم محمداً أبداً، وقال إني أتيته وقصصت عليه القصة فأجابني بقوله: والله ليس فيه سحر ولا شعر ولا كهانة فأمسكت على فيه وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قال قولاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم[٣] العذاب ثم قال تعالى ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنَ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني من قبل عاد وثمود ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني من بعد عاد وثمود ﴿أَلَّا

---

(١) علي بن المنذر الطريقي الكوفي صدوق يتشيع مات سنة ست وخمسين انظر التقريب ٢/ ٤٤.

(٢) عبد الرحمن بن حرملة الأسلمي أبو حرملة المدني صدوق ربما أخطأ مات سنة خمسين وأربعين. التقريب ١/ ٤٧٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٥٩ وعزاه للبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن جابر.

﴿تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ يعني ألا تطيعوا في التوحيد غير الله، وهذا قول الرسل لقومهم، فأجابهم قومهم ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً﴾ ولم يرسل إلينا آدمياً ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي جاحدون، وقد قيل في قوله (مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم) يعني خوفوهم من بين أيديهم من أمر الآخرة وحذروهم النار، ورغبوهم في الجنة (وَمِنْ خَلْفِهِمْ) يعني زهدوهم في الدنيا فلم يقبلوا، وقد قيل (من بين أيديهم) يعني ما خلق قبلهم، كيف أهلكهم الله، ومما خلفهم من أمر الآخرة ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني تعظموا عن الإيمان، عن قول لا إله إلا الله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يقول الله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وقواهم ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني بطشاً ولم يعتبروا بذلك ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني جاحدين بما آتاهم هود عليه السلام أنه لا ينزل بهم، قوله عز وجل ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ يعني ريحاً بارداً ذا صوت ودوي تحرق كما تحرق النار، ويقال: (رِيحا صَرْصَراً) أي شديدة الصوت ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ قال مقاتل: يعني شدائد. وقال الكلبي يعني أيام مشؤومات قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو (في أيام نَحْسَاتٍ) بجزم الحاء، والباقون بكسر الحاء[1] ومعناهما واحد، ويقال يوم نحس ويوم نحس، وأيام نحسه ونحسه، والنحسات جمع الجمع. ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ يعني العذاب الشديد في الدنيا قبل عذاب الآخرة وهذا كقوله (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عملوا) يعني ليصيبهم بعض العقوبة في الدنيا. كقوله تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يُرْجِعُونَ) يعني يتوبون ثم قال عز وجل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ يعني أشد مما كان في الدنيا (وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ) يعني لا يمنعهم أحد من عذاب الله لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قرأ الأعمش (ثَمُودٌ) بالتنوين، وقراءة العامة بغير تنوين ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ يعني بينا لهم الحق من الباطل والكفر من الإيمان وقال مجاهد (فَهَدَيْنَاهُمْ) أي دعوناهم، وقال قتادة ومقاتل: بينا لهم، وقال القتبي: دعوناهم ودللناهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ يعني اختاروا الكفر على الإيمان، ويقال اختاروا طريق الضلالة على طريق الهدى ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ والصاعقة: هي العذاب (الْهُونِ) يعني يهانون فيه، ويقال، الهون الشديد ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني يعملون من الشرك والمعاصي قوله عز وجل ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يعني آمنوا بصالح النبي عليه السلام (وَكَانُوا يَتَّقُونَ) عقر الناقة، ويتقون الشرك والفواحش.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ
كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ
ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى
لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

(١) حجة من قرأ بسكون الحاء قوله تعالى: ﴿في يوم نحس مستمر﴾ ولم يقل نحس بكسر الحاء. قال الكسائي والفراء: هما لغتان بمعنى واحد. انظر حجة القراءات ٦٣٥.

خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ يعني: يساق أعداء الله وهم الكفار والمنافقون ﴿إِلَى النَّارِ﴾ قرأ نافع (وَيَوْمَ نَحْشر) بالنون أعداء بالنصب على معنى الإضافة إلى نفسه، وقرأ الباقون بالياء والضم[1] (يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ) على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ويوم صار نصباً لإضمار فيه يعني: واذكر يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يعني: يحبس أولهم ليلحق بهم آخرهم وأصله من وزعته أي كففته ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوها﴾ يعني: إذا جاؤوها ما صلة في الكلام، يعني جاءوا النار وعاينوها قيل لهم (أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) فقالوا عند ذلك (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ) فيختم على أفواههم، وتستنطق جوارحهم فتنطق بما كتمت الألسن، فذلك قوله ﴿شَهِدَ عَلَيْهِم سَمْعُهُم﴾ يعني: آذانهم بما سمعت ﴿وَأَبْصَارُهُم﴾ يعني: أعينهم بما نظرت ورأت ﴿وَجُلُودُهُم﴾ يعني: فروجهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: بجميع أعمالهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِم﴾ يعني: لجوارحهم وقال القتبي: الجلود كناية عن الفروج ﴿لِمَ شَهِدتُّم عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني: أنطق الدواب وغيرهم ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: أنطقكم في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة، يقول الله تعالى ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ يعني: ما كنتم تمتنعون، ويقال: ما كنتم تحسبون وتستيقنون ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُم وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُم وَلَكِن ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ﴿وَذَلِكُم ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ يعني: ذلك الظن الذي أهلككم، ويقال (أَرْدَاكُمْ) يعني: أغواكم، ويقال: أهلككم سوء الظن، وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: يقول الله تعالى «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي[2]» وقال الحسن: إن المؤمن أحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وإن المنافق أساء الظن بربه، فأساء العمل ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني: صرتم من المغبونين ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ على النار ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مأوى لهم ويقال هذا جواب لقولهم (اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُم) يقول الله تعالى: (فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوَى لَّهُم ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسترجعوا من الآخرة إلى الدنيا ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي من المرجوعين إلى الدنيا، ويقال (وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا) يعني: وإن يطلبوا العذر (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) أي لا يسمع ولا يقبل منهم عذر قوله عز وجل: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُم قُرَنَاءَ﴾ قال القتبي يعني ألزمناهم قرناء من الشياطين، وقال أهل اللغة: قيض يعني: سلط، ويقال: قيض بمعنى قدر ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ يعني: زينوا لهم التكذيب بالحساب، وقال الحسن (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ) أي خلينا بينهم وبين الشياطين بما استحقوا من الخذلان فَزَيَّنُوا لَهُمْ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِم وَمَا خَلْفَهُم﴾ قال الضحاك يعني: شككوهم في أمر الآخرة (وَمَا خَلْفَهُم) يعني: رغبوهم في الدنيا، ويقال زينوا لهم ما بين أيديهم، يعني ما كان عليه آباؤهم من أمر الجاهلية، وما خلفهم يعني: تكذيبهم بالبعث ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني: وجب عليهم العذاب ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم﴾ يعني: مع أمم قد خلت من قبل أهل مكة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُم كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة، ويقال: إِنَّهُم كَانُوا خَاسِرِينَ مثلهم.

---

(١) حجة من قرأ بالنون قوله تعالى: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه وحجة الباقين أنه عطف عليه مثله وهو قوله ﴿فهم يوزعون﴾. انظر المصدر السابق والنشر في القراءات العشر ٢/٣٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ١٣/٣٨٤ كتاب التوحيد ٧٤٠٥ ومسلم ٤/٢٠٦١ كتاب الذكر ٢ ـ ٢٦٧٥.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ نزلت الآية في أبي جهل وأصحابه، فإنه قال: إذا تلى محمد القرآن، فارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام في وجوههم حتى تلبسوا عليهم فذلك قوله ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني: الغطوا، واللغط هو: الشغب والجلب ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبوهم فيسكتون، قال الزجاج: قوله (وَالْغَوْا فِيهِ) أي عارضوه بكلام لا يفهم يكون ذلك الكلام لغواً، يقول الله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني: في الدنيا بالقتل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: أقبح ما كانوا يعملون، ويقال: هذا كله من عذاب الآخرة، يعني: فلنذيقن الذين كفروا في الآخرة عذاباً شديداً، ولنجزينهم من العذاب أَسْوَأَ ما كانوا يعملون، يعني بأسوء أعمالهم وهو الشرك ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾ يعني: ذلك العذاب الشديد هو جزاء أعداء الله النَّارُ يعني: ذلك العذاب هو النار، ويقال صار رفعاً بالبدل عن الجزاء، ثم قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ يعني: في النار موضع المقام أبداً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعني: بالكتاب، والرسل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ﴾ يعني الصنفين اللذين ﴿أَضَلَّانَا﴾ يعني: استنا ضلالتنا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ ويقال: جهلانا حتى نسينا الاخرة، ثم قال ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ في النار، ويقال من الجن، ويقال: يعني: إبليس هو الذي أضلنا، ومن الإنس يعني ابن آدم الذي قتل أخاه، ويقال يعني رؤساؤهم في الضلالة، كقوله: (رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا) الآية، قرأ ابن كثير وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (أَرْنَا) بجزم الراء، والباقون بالكسر[1] ومعناهما واحد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟
وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ
وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٣، حجة القراءات الموضع السابق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ يعني: قالوا ربنا الله فعرفوه، واستقاموا على المعرفة، وقال القتبي: يعني آمنوا ثم استقاموا على طاعة الله، وقال ابن عباس في رواية الكلبي: ثم استقاموا على ما افترض الله عليهم، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ثم قال: أتدرون ما استقاموا عليه؟ فقالوا ما هو يا خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قال: استقاموا ولم يشركوا[١]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثم استقاموا ولم يروغوا روغان الثعلب على طاعة الله، فقال ابن عباس في رواية القتبي ثم استقاموا، وعن أبي العالية أنه قال ثم استقاموا أي أخلصوا له الدين والعمل، ويقال: وحدوا الله تعالى واستقاموا على طاعته، ولزموا سنة نبيه، وقال بعض المتأخرين: معناه ثم استقاموا أفعالاً كما استقاموا أقوالاً، وقد قيل أيضاً (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) يعني: يقولون الله مانعنا ومعطينا، وضارنا ونافعنا (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) على ذلك القول، ولا يرون النفع ولا يرجون من أحد دون الله تعالى، ولا يخافون أحداً دون الله، فذكر أعمالهم، ثم ذكر ثوابهم فقال ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال الكلبي يعني: تتنزل عليهم الملائكة عند قبض أرواحهم ويبشرونهم ويقولون ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ يعني: لا تخافوا ما أمامكم من العذاب، ولا تحزنوا على ما خلفكم من الدنيا، وقال مقاتل: تتنزل عليهم الملائكة يعني: تتنزل عليهم الحفظة من السماء يوم القيامة فتقول له أتعرفني؟ فيقول لا. فيقول: أنا الذي كنت أكتب عملك، وبشره بالجنة فذلك قوله: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وقال زيد بن أسلم البشرى في ثلاث مواطن: عند الموت، وفي القبر وفي البعث[٢]، وقال بعض المتأخرين: هذه البشرى للخائف الحزين لا للآمن المستبشر، يعني: الذي كان خائفاً في الدنيا ثم قال عز وجل: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: تقول لهم الحفظة نحن كنا أولياؤكم في الحياة الدنيا، ونحن أولياؤكم ﴿وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ يعني: لكم في الجنة ما تحب وتتمنى قلوبكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ يعني: تسألون ثم قال: ﴿نُزُلًا﴾ أي رزقاً ﴿مِنْ غَفُورٍ﴾ للذنوب العظام ﴿رَحِيمٍ﴾ بالمؤمنين، حكى الزجاج عن الأخفش «نُزُلًا» منصوباً من وجهين: أحدهما على المصدر فمعناه: أنزلناه نزلا، ويجوز أن يكون على الحال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قال بعضهم الآية نزلت في شأن المؤذنين[٣]، يدعون الناس إلى الصلاة، (وَعَمِلَ صَالِحًا) يعني: صلى بين الأذان والإقامة ويقال: الأنبياء يدعون الخلق إلى توحيد الله تعالى، وعمل صالحاً: يعني: الطاعات، ويقال العلماء يعلمون الناس أمور دينهم، ويدعونهم إلى طريق الآخرة، وعمل صالحاً: يعني عملوا بالعلم، ويقال نزلت الآية: في الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر يعني: يأمرون بالمعروف ويعملون به، ويصبرون على ما أصابهم، قوله ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني: أكون على دين الإسلام، لأنه لا تقبل طاعة بغير دين الإسلام فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال الزجاج: لا زائدة مؤكدة، والمعنى لا تستوي الحسنة والسيئة، يعني: لا تَستَوي الطاعة والمعصية، ولا يستوي الكفر والإيمان، ويقال: لا يستوي البصير والأعمى، ويقال: لا يستوي الصبر والجزع، واحتمال الأذى والإساءة، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يؤذيه أبو جهل لعنة الله عليه، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكره رؤيته بُغْضاً له، فأمره الله تعالى بالعفو والصفح فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: ادفع بالكلمة الحسنة الكلمة القبيحة ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٤ وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة.

﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني: إذا فعلت ذلك يصير الذي بينك وبينه عداوة بمنزلة القرابة في النسب قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ يعني: الكلمة الحسنة، ودفع السيئة ما يعطاها إلا الذين صبروا على طاعة الله، وأداء الفرائض ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يعني: ذو نصيب وافر في الآخرة، ويقال (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يعني: بقول لا إله إلا الله، السيئة: يعني الشرك، وما يلقاها إلَّا الذين صبروا: على كظم الغيظ ثم قال: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ يعني: يصيبك ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ يعني: وسوسة على الإحتمال ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ من شره، وامض على احتمالك، وقال مقاتل (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ) يعني: يفتنتك (مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) أي فتنة، وقال الكلبي الذنب عند دفع السيئة، ويقال (ينزغنك) يعني: يغوينك (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ) يعني تعوذ بالله ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ للإستعاذة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بقول الكفار وعقوبتهم.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني: من علامات وحدانيته ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ يعني: خلق الشمس والقمر، والليل والنهار دلالة لوحدانيته، لتعرفوا وحدانيته فتعبدوه ولا تعبدوا هذه الأشياء ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ يعني: اعبدوا خالق هذه الأشياء واسجدوا له وأطيعوه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إن أردتم بعبادة الشمس والقمر رضا الله تعالى فإن رضاه أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره، ويقال (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) يعني: إن أردتم بعبادتها عبادة الله تعالى فاعبدوا الله وأطيعوه ولا تسجدوا لغيره ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ يعني: تكبروا عن السجود لله تعالى وعن توحيده ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ يعني: يصلون لله تعالى ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقال هو التسبيح بعينه، يعني يسبحونه ويذكرونه ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ يعني: لا يملون من الذكر والعبادة والتسبيح قوله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من علامات وحدانيته ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: غبراء يابسة لا نبت فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ يعني: المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ يعني: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: علت يعني انتفخت الأرض إذا أرادت أن تنبت ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ للبعث في الآخرة ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي من البعث وغيره.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال مقاتل يعني: يميلون عن الإيمان بالقرآن، وقال الكلبي: يعني: يميلون في آياتنا بالتكذيب، وقال قتادة: الإلحاد التكذيب[1]، وقال الزجاج: أي يجعلون الكلام على غير

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٣٦٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة.

وجهه، ومن هذا سمي اللحد لحداً: لأنه في جانب القبر، قرأ حمزة (يَلْحَدُون) بنصب الحاء والياء، والباقون بضم الياء وكسر الحاء[١]، ومعناهما واحد، لحد وألحد بمعنى واحد، قوله ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: لا يقدرون على أن يهربوا من عذابنا، ولا يستترون منا ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ﴾ يعني: أبا جهل وأصحابه ﴿خَيْرٌ أَمَّنْ يأتي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال نزلت في شأن جميع الكفار وجميع المؤمنين، يعني: من كان مرجعه إلى النار حاله يكون خيراً، أم حال من يدخل الجنة، ثم قال لكفار مكة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُم﴾ لفظه لفظ التخيير والإباحة، والمراد به التوبيخ والتهديد لأنه بين مغير كل عامل ثم قال تعالى ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الخير والشر قوله تعالى (بصير) أي عالم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني: جحدوا بالقرآن لما جاءهم ﴿وإنَّه﴾ يعني: القرآن ﴿لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ يعني: كريم عند المؤمنين، ويقال كريم على الله أنزله آخر الكتب، وقال مقاتل: كتاب عزيز: يعني: منيع عن الباطل ويقال،عزيز لا يوجد مثله في النظم وكثرة فوائده ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ قال الكلبي ومقاتل لا يأتيه الباطل أي لا يأتيه التكذيب من الكتاب الذي قبله كل يصدق هذا ولايجيء من بعده كتاب يكذبه وقال قتادة لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يعني لا يستطيع الشيطان أن يبطل منه حقاً، ولا يؤيد فيه باطلاً، قال أبو الليث حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الباغندي[٢] قال حدثنا محمد بن سلمة[٣] عن أبي سنان عن عمرو بن مرة[٤] عن أبي البحتري عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب قال: قيل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إن أمتك ستفترق من بعدك» فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلى، فقالوا ما المخرج منها، فقال جبريل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: كتاب الله العزيز الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) من ابتغى العلم في غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، وهو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، فيه خبر من كان قبلكم وبيان من بعدكم، والحكم فيما بينكم، هو الفصل المبين، وهو الفصل وليس بالهزل، وهو الذي سمعته الجن فقالوا (إنا سمعنا قرآنا عجبا) لا يخلق على طول الدهر ولا تنقضي عبره ولا تفنى عجائبه، ثم قال للحارث خذها إليك يا أعور، ثم قال ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٥] يعني: القرآن تنزيل من الله تعالى الحكيم في أمره المحمود في فعاله، وقال بعضهم: قوله (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) لم يذكر جوابه، وجوابه مضمر، وقال بعضهم: جوابه في قوله (وذو عقاب أليم) ويقال جوابه في قوله (أولئك ينادون من مكان بعيد).

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ
قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٣٦ ـ ٦٣٧ إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٤.

(٢) محمد بن محمد بن سليمان أبو بكر الأزدي الواسطي المعروف بابن الباغندي من حفاظ الحديث توفي سنة ٣١٢ هـ. الأعلام ١٩/٧.

(٣) محمد بن سلمة بن عبد الله الباهلي مولاهم الحرائي ثقة مات سنة إحدى وتسعين على الصحيح انظر التقريب ٢/ ١٦٦

(٤) عمرو بن مرة بن عبد الله بن طارق الجملي أبو عبد الله الكوفي الأعمى ثقة عابد رمي بالإرجاء. التقريب ٢/ ٧٨.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٩١ والدارمي في السنن ١/ ٤٣٥ وفيه الحارث الأعور وهو مختلف في توثيقه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني: اصبر على مقالة الكفار فإنهم لا يقولون من التكذيب لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك من التكذيب، ويقال معناه ما يقال لك يعني: لا يؤمر لك يعني في الرسالة إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، بأن يعبدوا الله، فيقال لك أن تعبد الله أيضاً، ويقال (مَا يُقَالُ لَكَ) إلا بأن تبلغ الرسالة ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ بأن يبلغوا الرسالة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال مقاتل: أي ذو تجاوز في تأخير العذاب عنهم إلى أجلهم، وقال الكلبي (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) لمن تاب من الشرك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن لم يتب ومات على الكفر قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِياً﴾ يعني: لو أنزلناه بلسان العبرانية ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ يعني: هلا بين بالعربية ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ ويقولون القرآن أعجمي والرسول عربي، فكان ذلك أشد لتكذيبهم، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بهمزتين بغير مد، والباقون بهمزة واحدة مع المد، ومعناهما واحد ويكون على معنى الاستفهام وقرأ الحسن (أَعْجَمِيٌّ) بهمزة واحدة بغير مد، ويكون على غير وجه الاستفهام وقرأ بعضهم (أَعجَمِي) بنصب العين والجيم[1]، يقال رجل عجمي إذا كان من العجم وإن كان فصيحاً، ورجل أعجمي إذا كان لا يفصح وإن كان من العرب، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ يعني: القرآن هدى للمؤمنين من الضلالة ﴿وَشِفَاءٌ﴾ أي: شفاء لما في الصدور من العمى ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالآخرة ﴿فِي آذَانِهِم وَقْرٌ﴾ يعني: ثقل وصم ﴿وَهُوَ عَلَيْهِم عَمىً﴾ عَمي: بالكسر على معنى النعت، وقراءة العامة بالنصب يعني: القرآن عليهم حجة وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل يعني: عموا عنه فلا ينظرونه، ولا يفهمونه وروي عن ابن عباس أن قرأ (وَهُوَ عَلَيْهِم عمٍ) بالكسر على معنى النعت، وقراءة العامة بالنصب[2] على معنى المصدر، كما أنه قال (هدى وشفاء) على معنى: المصدر ثم قال: ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهذا على سبيل المثل، يقال للرجل إذا قل فهمه إنك تنادي من مكان بعيد، يعني: إنك لا تفهم شيئاً، ويقال: ينادون من مكان بعيد: يعني: من السماء، وقال مجاهد يعني: بعيداً من قلوبهم، وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة من مكان بعيد، فينادى الرجل بأشنع أسمائه يعني: يقال له يا فاسق، يا منافق، يا كذا، يا كذا، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: أعطينا موسى التوراة ويقال الألواح، قوله ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يعني: صدق بعضهم وكذب بعضهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: وجبت بتأخير العذاب ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: لفرغ من أمرهم ولهلك المكذب ﴿وَإِنَّهُم لَفِي شَكٍ مِنْه مُرِيبٍ﴾ يعني: من العذاب بعد البعث (مريب) لا يعرفون شكهم، ويقال مريب: أي ظاهر الشك ويقال: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) بتأخير العذاب عن هذه الأمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذاب إذ كذبوه كما فعل بغيرهم قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ يعني: ثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ يعني: العذاب على نفسه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا يعذب أحداً بغير ذنب.

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٣٧ النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٧.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٤٤.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يعني: لا يعلم قيام الساعة أحد إلا الله، يعني: يرد الخلق كلهم علم قيام الساعة إلى ربهم ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ يعني: من أجوافها يعني حين تطلع، وغلاف كل شيء كمه أي تخرج من موضعها الذي كانت فيه، قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى رواية حفص (مِنْ ثَمَرَاتٍ) بلفظ الجمع، والباقون (مِنْ ثَمَرَةٍ)(١) بلفظ الواحد، ثم قال ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ يعني: إلَّا وهو يعلمه، ولا يعلم أحد قبل الولادة قبل صفته، ولا يعلم أحد بعد وضعه كم أجله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني: يدعوهم ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ يعني: الذين كنتم تدعون من دون الله ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ يعني: أعلمناك، وقلنا لك (مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ) يعني: يشهد بأن لك شريك، تبرؤوا من أن يكون مع الله شريك وقالوا ما منا من أحد يشهد لك أنه عبد أحد دونك، وقال القتبي: هذا قول الآلهة التي كانوا يعبدون في الدنيا (ما منا من شهيد: لهم، كما قالوا وادعوه في الدنيا فينا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني: بطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني: علموا واستيقنوا ما لهم من ملجأ ولا مفر من النار قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني: لا يمل الكافر، قال الضحاك نزلت في شأن النضر بن الحارث ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ يعني: من سؤال الخير، يعني العافية في الجسد والسعة في الرزق ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني: أصابته الشدة والبلاء والفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ يعني: آيساً من الخير، قانطا من رحمة الله تعالى، ويقال: لا يمل من دعاء الخير، وإذا نزلت به شدة يقول اللهم عافني، وإذا مسه الشر فيؤوس قنوط، يعني آيساً من معبوده ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ يعني: أصبناه عافية منا وغِنىً ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: من بعد شدة أصابته ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ يعني: أنا أهل لهذا ومستحق له ويقال أنا أحق بهذا، ويقال هذا بعملي وأنا محقوق به ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ يعني: ما أحسب القيامة كائنة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي﴾ يعني: يوم القيامة ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ يعني: الجنة، ولئن كان يوم القيامة كما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلي الجنة، يقول الله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: لنخبرنهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم الخبيثة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ يعني: لنجزينهم ﴿مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني: عذاب شديد لا يفتر عنهم.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾

(١) انظر النشر ٢/٣٦٧.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ يعني: أعرض الكافر فلا يدعو ربه، وقال الكلبي أعرض عن الإيمان (وَنَأَى بِجَانِبِهِ) يعني: تباعد بجانبه عن الدعاء، وعن الإيمان ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني: أصابته الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ قال مقاتل والكلبي يعني كثيراً، ويقال يعني طويلاً، فإن قيل قد قال في موضع (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ) وقال في موضع آخر (فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) مرة ذكر أنه يؤوس ومرة أخرى ذكر أنه يدعو فكيف هذا؟ قيل له: هذا في شأن رجل، وهذا في شأن رجل آخر، ويجوز أن يكون في شأن إنسان واحد (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ) عن كل معبود دون الله فيدعو الله دائماً، فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني: إن كان هذا الكتاب من عند الله ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ يعني: جحدتم أنه ليس من عند الله ماذا تقولون؟ وماذا تجيبون؟ وماذا تحتالون إذا نزل بكم العذاب يوم القيامة؟ ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في خلاف طويل بعيد عن الحق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ يعني: عذابنا في البلاد، مثل هلاك عاد وثمود وقوم لوط وهم يرون إذا سافروا آثارهم وديارهم ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يبتلون بأنفسهم من البلايا، ويقال: من قتل أصحابهم الكفار في الحرب ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ يعني: إن الذي قلت هو الحق فيصدقونك وقال مجاهد (سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ) يعني: ما يفتح الله عليهم من القرى (وَفِي أَنْفُسِهِمْ) قال فتح مكة، وقال الضحاك معناه: أن أبا جهل، قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - ائتنا بعلامة فانشق القمر نصفين، فقال أبو جهل للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن كان القمر قد انشق فهي آية، ثم قال يا معشر قريش إن محمداً قد سحر القمر، فوجهوا رسلكم إلى الآفاق هل غاينوا القمر إنْ كان كذلك فهي آية، وإلا فذلك سحر، فوجهوا فإذا أهل الآفاق يتحدثون بانشقاقه فقال أبو جهل عليه اللعنة (هَذَا سِحْرٌ مُسْتَمِر) يعني: ذاهباً في الدنيا، فنزل (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقال بعض المتأخرين سنريهم أياتنا في الآفاق ما وضع في العالم من الدلائل، وفي أنفسهم: ما وضع فيها من الدلائل التي تدل على وحدانية الله تعالى، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول صادق ينطق بالوحي فيما يقول، وهذا كما قال (وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شاهداً أن القرآن من الله تعالى: ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بأعمالهم، بالبعث وغيره، وقال الكلبي (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ) يعني: أنه قد أخبرهم بذلك وإن لم يسافروا ويقال (أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ) ومعنى: الكفاية هاهنا: أنه قد بين لهم ما فيه كفاية بالدلالة على توحيده وتثبيت رسله ثم قال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِم﴾ ألا: كلمة تنبيه يعني: اعلم أنهم في شك من البعث ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ يعني: ألا إن الله تعالى عالم بأعمالهم وعقوبتهم، والإحاطة: إدراك الشيء بكماله، يعني: أحاط علمه سبحانه وتعالى بكل شيء من البعث وغيره، والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده وآله وسلم.

سُورَةُ الشُّورَى(١)

وهي ثلاث وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الحاء حكم الله والميم: ملك الله، والعين: علو الله، والسين: سناء الله، والقاف: قدرة الله. فكأنه يقول: فبحكمي وملكي وعلوي، وسنائي، وقدرتي، لا أعذب عبداً قال: لا إله إلا الله مخلصاً فلقيني بها، ومعنى قول ابن عباس لا يعذب عبداً، يعني لا يعذبه عذاباً دائماً خالداً، وروى المسيب عن رجل، عن أبي عبيدة قال: العين عذاب الله، والسين: سنون، والقاف: فيها القحط العجب (قال: وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «افتحوا صبيانكم قول لا إله إلا الله، ولقنوا موتاكم لا إله إلا الله»(٢) الحكمة في ذلك، لأن حال الصبيان حال حسن، لا غل ولا غش في قلوبهم، وحال الموتى حال

---

(١) من أغراض هذه السورة تحدي الطاعنين في أن القرآن وحي من الله بأن يأتوا بكلام مثله، فهذا التحدي لا تخلو عنه السور المفتتحة بالحروف الهجائية المقطعة، كما تقدم في سورة البقرة. واستدل الله على المعاندين بأن الوحي إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هو إلا كالوحي إلى الرسل من قبله لينذر أهل مكة ومن حولها بيوم الحساب. وأن الله الذي له ما في السموات وما في الأرض لا تعارض قدرته ولا يشك في حكمته، وقد خضعت له العوالم العليا ومن فيها وهو فاطر المخلوقات فهو يجتبي من يشاء لرسالته فلا يدع أن يشرع للأمة المحمدية من الدين مثل ما شرع لمن قبله من الرسل، وما أرسل الله الرسل إلا من البشر يوحي إليهم فلم يسبق أن أرسل ملائكة لمخاطبة عموم الناس مباشرة. وأن المشركين بالله لا حجة لهم إلا تقليد أئمة الكفر الذين شرعوا لهم الإشراك وألقوا إليهم الشبهات. وحذرهم يوم الجزاء واقتراب الساعة وما سيلقى المشركون يوم الحساب من العذاب مع إدماج التعريض بالترغيب فيما سيلقاه المؤمنون من الكرامة، وأنهم لو تدبروا لعلموا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأتي عن الله من تلقاء نفسه لأن الله لا يقره على أن يقول عليه ما لم يقله.
وذكرت دلائل الوحدانية وما هو من تلك الآيات نعمة على الناس مثل دليل السير في البحر وما أوتيه الناس من نعم الدنيا. وتسلية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله هو متولي جزاء المكذبين وما على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حسابهم من شيء فما عليه إلا الاستمرار على دعوتهم إلى الحق القويم. ونبههم إلى أنه لا يبتغي منهم جزاء على نصحه لهم وإنما يبتغي أن يراعوا أواصر القرابة بينه وبينهم. وذكرهم نعم الله عليهم، وحذرهم من التسبب في قطعها بسوء أعمالهم، وحرضهم على السعي في أسباب الفوز في الآخرة والمبادرة إلى ذلك قبل الفوات، فقد فاز المؤمنون المتوكلون، ونوه بجلايل أعمالهم وتجنبهم التعرض لغضب الله عليهم. وتخلل ذلك تنبيه على آيات كثيرة من آيات انفراده تعالى بالخلق والتصرف المقتضي انفراده بالإلهية إبطالاً للشرك. وختمها بتجدد المعجزة الأمية بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءهم بهدي عظيم من الدين وقد علموا أنه لم يكن ممن تصدى لذلك في سابق عمره وذلك أكبر دليل على أن ما جاء به أمر قد أوحي إليه به فعليهم أن يهتدوا بهديه فمن اهتدى بهديه فقد وافق مراد الله. وختم ذلك بكلمة جامعة تتضمن التفويض إلى الله وانتظار حكمه وهي كلمة «ألا إلى الله تصير الأمور». انظر التحرير ٢٥/٢٤ ـ ٢٥.

(٢) أخرجه مختصراً مسلم ٦٣١/٢ كتاب الجنائز (٩١٦/١) بلفظ «لقنوا موتاكم» فذكره لكن ذكر ابن عراق في تنزيه الشريعة ٣٦٤/٢=

الإضطرار، فإذا قلتم ذلك في أول ما يجري عليكم القلم، وآخر ما يجف القلم فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك[1] قال المسيب: وحدثنا محدث قال: قاف قذف، وقال الضحاك في قوله (حَم عَسق) قال: قضى عذاب سيكون واقعاً، وأرجو أن يكون قد مضى يوم بدر، والسنون، وقال شهر بن حوشب (حم عَسَق) حرب يذل فيه العزيز ويعز فيه الذليل من قريش، ثم يفضي إلى العرب، ثم إلى العجم، ثم هي متصلة إلى خروج الدجال، وقال عطاء: الحاء حرب وهو موت ذريع في الناس وفي الحيوان حتى يبيدهم ويفنيهم، والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم، والعين عدو لقريش يركبهم ثم ترجع الدولة إليهم بحرمة البيت، والسين هو استئصال بالسنين كسني يوسف، والقاف قدر من الله نافذ في ملكوت الأرض لا يخرجون من قدره وهو نافذ فيهم، وقال السدي: الحاء حلمه، والميم ملكه، والعين عظمته، والسين سناؤه، والقاف قدرته، وقال قتادة: هو اسم من أسماء الله تعالى، ويقال اسم من أسماء القرآن، ثم قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني أوحى الله إليك بـ (حم عسق) كما أوحى الله بها إلى الذين كانوا من قبلك وقال ابن عباس ليس من نبي وإلا وقد أوحَى الله تعالى إليه بـ (حم عسق) كما أوحى الله بها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قرأ ابن كثير (يُوحَى إِلَيْك) بالألف على معنى فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون (يُوحِي) بالكسر[2] يعني هكذا يوحي الله إليك، وقرىء في الشاذ (نوحي) بالنون ثم قال ﴿اللَّهُ العَزِيزُ﴾ بالنقمة على من لم يجب الرسل ﴿الحكيم﴾ حكم بإنزال الوحي عليك، وقال مقاتل (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلَكَ) يعني في أمر العذاب قوله عز وجل ﴿لَهُ مَا في السَّمَوَات وَمَا فِي الأرْضِ﴾ يعني من خلق ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ يعني لرفعي ﴿الْعَظِيمُ﴾ فلا شيء أعظم منه، يعني عظيم قدرته.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

= الحديث بنحو لفظ المصنف وعزاه للجوزقاني من حديث ابن عباس وقال: وفيه محمد بن محمويه بن مسلم عن أبيه وهما مجهولان وإبراهيم بن المهاجر ضعفه البخاري (تعقب) بأن الحديث في المستدرك وأخرجه البيهقي في الشعب من طريق الحاكم وقال متن غريب لم نكتبه إلا بهذا الإسناد وأورده الحافظ ابن حجر في أماليه ولم يقدح في سنده بشيء إلا أنه قال إبراهيم فيه لين وقد أخرج له مسلم في المتابعات (قلت) قال الذهبي في تلخيص الموضوعات آفته محمويه أو ابنه والله تعالى أعلم. تنزيه الشريعة ٢/٣٦٥.

(١) سقط في ظ.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٣٩. النشر ٢/٣٦٧.

قوله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ يعني يتشققن ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ يعني تكاد أن يتشققن من قدرة الله وهيبته يعني من هيبة الرحمن وجلاله وعظمته، قرأ ابن كثير وابن عامر، وحمزة، وعاصم، في رواية حفص (تَكَادُ السَّمَوَاتُ) بالتاء بلفظ التأنيث (يَتَفَطَّرْنَ) بالتاء بلفظ التأنيث، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (تَكَادُ) بالتاء بلفظ التأنيث (يَنْفَطِرْنَ) بالنون، وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير (يَتَفَطَّرْنَ) بالياء[١] ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني يسبحونه ويذكرونه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني للمؤمنين، وروى داود بن قيس[٢] قال: دخلت على وهب بن منبه فَسُئِلَ عن قوله (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) قال للمؤمنين منهم، وفي رواية أنه قال نسختها الآية التي في سورة المؤمن حيث قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) وروى معمر عن قتادة قال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) قال للمؤمنين منهم[٣]، قال أبو الليث رحمه الله هذا الذي روي عن قتادة أصح، لأن النسخ في الأخبار لا يجوز، وإنما يجوز في الأمر والنهي ثم قال ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم في الرزق. ويقال (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ) يعني يسألون لهم الرزق قوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني عبدوا من دون الله أولياء يعني أصناماً ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني يحفظ أعمالهم، ويقال شهيد عليهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يعني بمسلط لتجبرهم على الإيمان، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال قوله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ يعني هكذا أنزلنا عليك جبريل بالقرآن ليقرأ عليك القرآن بلغتهم ليفهموه ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ يعني لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من البلدان ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يعني لتنذرهم بيوم القيامة، والباء محذوفة منه كما قال (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) يعني ببأس شديد وإنما سمي يوم الجمع: لأنه يجتمع فيه أهل السماء وأهل الأرض كلهم، من الأولين، والآخرين ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يعني يوم القيامة لا شك فيه أنه كائن ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهم الكافرون قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني على ملة واحدة وهو الإسلام ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يعني يكرم بدينه من يشاء، من كان أهلاً لذلك، ويدخله في الآخرة في رحمته أي في جنته ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني الكافرين ليس لهم مانع يمنعهم من العذاب، ولا ناصر ينصرهم قوله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني عبدوا من دون الله أرباباً ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ يعني هو أولى أن يعبدوه، ويقال: الله هو الولي يعني هو الرب، وهو إله السموات وإله الأرض، ويقال هو الولي لمصالحهم ينزل المطر بعد المطر ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ يعني يحيهم بعد الموت، ويقال يحيي قلوبهم بالمعرفة ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني قادر على ما يشاء قوله تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني إذا اختلفتم في أمر الدين ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يعني علمه عند الله ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ يعني الذي ذكر هو الله ربي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني فوضت أمري إليه سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ يعني أقبل إلى الله تعالى بالطاعة.

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ

---

(١) من قرأ بالنون حجته قوله تعالى ﴿السماء منفطر به﴾ ولم يقل: متفطر والأمر في التاء والنون يرجع إلى معنى واحد إلا أن التاء للتكثير وذلك أن «ينفطرن» من فطرت فانفطرت مثل كسرت فانكسرت ويتفطره من قولك: فطرت فتفطرت مثل كسرت فتكسرت، فهذا لا يكون إلا للتكثير انظر حجة القراءات ٦٤٠.

(٢) داود بن قيس الفراء الرباع أبو سليمان القرشي مولاهم ثقة فاضل» التقريب ١/٢٣٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة.

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ
ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ
وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني هو خالق السموات والأرض ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني أصنافاً، ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً﴾ يعني أصنافاً ذكراً وأنثى وقال القتبي (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً) يعني من جنسكم إناثاً، (وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً) يعني إناثاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يعني: يخلقكم فيه أي في الرحم، وقال الكلبي (يذرؤكم فيه) يعني يكثركم في التزويج، وقال مقاتل يعيشكم فيما جعل لكم من الذكور والإناث من الأنعام ثم قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾في القدرة وقال أهل اللغة: هذا الكاف مؤكدة أي ليس مثله شيء، ويقال المثل صلة في الكلام يعني ليس هو كشيء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يعني هو السميع لمقالتهم، البصير بهم وبأعمالهم ومعنى الآية (ليس كمثله شيء) لأنه الخالق العالم بكل شيء، والقادر على ما يشاء «الحي القيوم» وهذه المعاني بعيدة من غيره، ثم قال عز وجل ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض وهو المطر، وخزائن الأرض وهو النبات ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يوسع الرزق على من كان صلاحه في ذلك ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يعني يقتر على من كان صلاحه في ذلك ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من البسط والتقتير. قوله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ قال مقاتل أي بين لكم الدين وهو الإسلام ومن هاهنا صلة، وقال الكلبي: اختار لكم من الدين ومعناه اختار لكم ديناً من الأديان وأكرمكم به، ثم قال ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾ يعني الدين الذي أمر به نوحاً أن يدعو الخلق إليه، وأن يستقيم عليه ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني الذي أوحينا إليك بأن تدعو الناس إليه ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ﴾ يعني والدين الذي أمرنا به ﴿إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ثم بين ما أمرهم به فقال ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ يعني أقيموا التوحيد ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ يعني لا تختلفوا في التوحيد ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني على مشركي مكة ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ وهو التوحيد وقال أبو العالية أن أقيموا الدين قال الإخلاص لله في عبادته لا شريك له ولا تتفرقوا فيه قال لا تتعالوا فيه وكونوا عباد الله إخواناً كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، يعني الإخلاص لله تعالى، ويقال (أن أقيموا الدين) يعني أرفقوا في الدين، اتفقوا ولا تتفرقوا فيه، يعني لا تختلفوا فيه كما اختلف أهل الكتاب ثم قال ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يختار لدينه من يشاء من كان أهلاً لذلك ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ يعني يرشد إلى دينه من يقبل إليه، ويقال يهدي من كان في علمه السابق أنه يتوب ويرجع ويقال (من ينيب) يعني من يجتهد بقلبه. كما قال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) قوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني مشركي مكة ما تفرقوا في الدين ﴿إِلَّا

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ﴾ في كتابهم يعني جاءهم محمد بالبينات، ويقال: وما تفرقوا، يعني أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتابهم، يعني من نعت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ **﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾** يعني حسداً فيما بينهم لأنه كان من العرب، وروى معمر عن قتادة أنه تلى (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ) قال إياكم والفرقة فإنها مهلكة وروي في الخبر «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفة وآفَةُ الدِّينِ الهَوَى» ثم قال **﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾** يعني بتأخير العذاب إلى وقت معلوم **﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾** يعني لفرغ منهم بالهلاك **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾** يعني أعطوا التوراة والإنجيل **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** يعني من بعد نوح وإبراهيم، وقال مقاتل يعني من بعد الأنبياء **﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾** يعني: من القرآن **﴿مُرِيبٍ﴾**أي ظاهر الشك وقوله تعالى **﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ﴾** يعني فإلى ذلك ادعهم، يعني إلى القرآن، ويقال إلى التوحيد **﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾** يعني استقم عليه كما أمر **﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** يعني لا تعمل بهواهم، وذلك حين دعوه إلى ملة آبائه **﴿وَقُلْ آمَنْتُ﴾** يعني صدقت **﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾** يعني بجميع ما أنزل الله من الكتب عليَّ، وعلى من كان قبلي **﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾** وهو الدعوة إلى التوحيد وإلى قول لا إله إلا الله **﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾** يعني خالقنا وخالقكم **﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾** يعني لنا ديننا ولكم دينكم **﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾**يعني لا خصومة بيننا وبينكم يوم القيامة **﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** يعني إليه المرجع في الآخرة.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾** يعني يخاصمون في توحيد الله ودين الله **﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾** يعني من بعد ما أجابوا إياه، أي: بعد ما أجاب المؤمنون بتوحيد الله لنبيه، وقال مجاهد: طمع رجال بأن يعودوا إلى الجاهلية(١) فنزل (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) إلى قوله **﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾** وروى معمر عن قتادة قال: والذين يحاجون في الله، يعني في دينه قال هم اليهود والنصارى، قالوا كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير(٢) منكم، فنزل (وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) أي في دين الله (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) يعني من بعد ما دخل الناس في الإسلام (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) يعني خصومتهم باطلة، ويقال احتجاجهم زائل ساقط، يقال: دحض أي زال، ومعناه ليس لهم حجة، وسمى قولهم حجة على وجه المجاز، يعني حجتهم كما قال (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ) يعني الآلهة بزعمهم، ولم يكونوا آلِهَة في الحقيقة **﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾** يعني كما يكابرون عقولهم **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾** بما كانوا يفعلون قوله عز وجل **﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾** أي لبيان الحق، وأنزل الميزان

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

وهو العدل، ويقال وأنزل الميزان في زمان نوح، ويقال هي الحدود، والأحكام، والأمر، والنهي قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ يعني قيام الساعة قريب، وهذا كقوله (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) وقال تعالى (لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) ولم يقل قريبة؟ لأن تأنيثها ليس بحقيقي، ولأنه انصرف إلى المعنى يعني للبعث قوله تعالى ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يعني إنَّ المشركين كانوا يقولون (مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) ويقولون (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ يعني خائفين من قيام الساعة لأنهم يعلمون أنهم مبعوثون محاسبون ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ يعني يعلمون أن الساعة كائنة ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ يعني يشكون ويخاصمون فيها ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي في خطأ طويل، بعيد عن الحق قوله عز وجل ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ يعني عالم بعباده، ويقال رحيم بعباده، ويقال اللطيف: الذي يرزقهم في الدنيا ولا يعاقبهم في الآخرة، ويقال: اللطيف بعباده، بالبر والفاجر، لا يهلكهم جوعاً ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بغير حساب، ويقال يرزق من يشاء مقدار ما يشاء في الوقت الذي يشاء ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ على هلاكهم ﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني: المنيع لا يغلبه أحد قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ يعني: ثواب الآخرة بعمله ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ يعني ينال كليهما ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ يعني ثواب الدنيا بعمله ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ يعني نعطه منها ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه عمل لغير الله تعالى قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الفقيه أبو جعفر قال حدثنا محمد بن عقيل[١] قال حدثنا محمد ابن إسماعيل الصايغ[٢] قال حدثنا الحجاج قال حدثنا شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان[٣] عن أبيه عن زيد بن ثابت عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «من كانت نيته الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله[٤] له»، وقال القتبي: الحرث في اللغة العمل، يعني من كان يريد بحرثه، أي بعمله الآخرة نضاعف له الحسنات، ومن أراد بعمله الدنيا أعطيناه الدنيا ولا نصيب له في الآخرة.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

قوله عز وجل ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني ألهم آلهة دوني ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أي بينوا لهم من الدين ﴿مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني ما لم يأمر به، ويقال معناه: ألهم آلهة ابتدعوا لهم من الدين أي من الشريعة والطريقة، ويقال

(١) محمد بن عقيل بن خويلد الخزاعي صدوق حدث من حفظة بأحاديث فأخطأ في بعضها مات سنة سبع وخمسين. التقريب ١٩١/٢.

(٢) محمد بن إسماعيل بن سالم الصائغ الكبير أبو جعفر البغدادي صدوق مات سنة ست وسبعين. التقريب ١٤٥/٢.

(٣) عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان الأموي المدني ثقة مقل عابد. التقريب ٤٧١/١.

(٤) أخرجه الترمذي ٦٤٢/٤ كتاب صفة القيامة (٢٤٦٥).

سنوا لهم ما لم يأذن به الله، يعني ما لم ينزل به الله من الكتاب والدين ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ يعني القضاء الذي سبق ألا يعذب هذه الأمة، ويؤخر عذابهم إلى الآخرة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ يعني أنزل بهم العذاب في الدنيا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة قوله تعالى ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني ترى الكافرين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يعني خائفين مما عملوا في الدنيا ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يعني نازل بهم ما كانوا يحذرون ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الذين صدقوا بالتوحيد، وأدوا الفرائض والسنن ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ يعني في بساتين الجنة ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِم﴾ من الكرامة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني: المن العظيم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ يعني ذلك الثواب الذي يبشر الله ﴿عِبَادَهُ﴾ في الدنيا، قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو (يَبْشُر) بنصب الياء وجزم الباء وضم الشين مع التخفيف، والباقون بالتشديد[1] وقد ذكرناه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني يبشرهم بتلك الجنة، وبذلك الثواب ثم قال ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ يعني قل يا محمد لأهل مكة لا أسألكم عليه أجراً أي على ما جئتكم به أجراً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ قال مقاتل يعني إلا أن تصلوا قرابتي، وتكفوا عني الأذى، ثم نسخ بقوله (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) ويقال (إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) يعني إلَّا ألَّا تؤذونني بقرابتي منكم، قال ابن عباس ليس حي من أحياء العرب إلا وللنبي ـ عليه السلام ـ فيه قرابة[2]، وقال الحسن: إلا المودة في القربى، يعني إلا أن تتوددوا إلى الله تعالى بما يقربكم منه، وهكذا قال[3] مجاهد، وقال سعيد بن جبير: إلا المودة في القربى، يعني إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم ثم قال ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ يعني يكتسب حسنة ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ يعني للواحد عشرة، ويقال: نزد له التوفيق في الدنيا، ونضاعف له الثواب في الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يعني غفور لمن تاب، شكور يقبل اليسير ويعطي الجزيل.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني تقوله من ذات نفسه ولم يأمره الله تعالى، قال الله تعالى ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يعني يحفظ قلبك حتى لا تدخل في قلبك المشقة والأذى من قولهم ﴿وَيَمْحُو اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ يعني يهلك الله تعالى الشرك ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ يعني يظهر دينه الإسلام ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ يعني

(١) انظر حجة القراءات ٦٤٠ ـ ٦٤١. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٤٩

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن سعد وعبد بن حميد والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

بتحقيقه وبنصرته وبالقرآن ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني يعلم ما في قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الحزن، ويعلم ما في قلوب الكافرين من التكذيب قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ حتى يتجاوز عما عملوا قبل التوبة، وروى عبد العزيز بن إسماعيل عن محمد بن مطرف[1] قال «يقول الله تعالى وَيْحَ ابْنَ آدَمَ يُذْنِب الذَّنْبَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِر فَأَغْفِرَ لَهُ، ثُمَّ يُذْنِبُ ذَنْباً، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ فَأَغْفِر لَهُ، ثُمَّ يُذْنِبُ ذَنْباً، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ فَأَغْفِرَ لَهُ لاَ هُوَ يَتْرك ذُنُوبَهُ، وَلاَ هُوَ يَيْأَس مِن رَّحْمَتِي، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ» ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من خير أو شر، قرأ حمزة والكسائي وعاصم، في رواية حفص (تفعلون) بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء[2] على معنى الخبر عنهم ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني يجيب دعاءهم، ويعطيهم أكثر ما سألوا من المغفرة ﴿وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني يزيدهم على أعمالهم من الثواب ويقال يعطيهم الثواب في الجنة أكثر مما سألوا ﴿وَالْكَافِرِينَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يعني دائماً لا يفتر عنهم قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ يعني لو وسع الله تعالى عليهم المال ﴿لَبَغَوْا﴾ أي لطغوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وعصوا ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ يعني يوسع على كل إنسان بمقدار صلاحه في ذلك، قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا أبو القاسم حمزة بن محمد[3] قال حدثنا أبو القاسم أحمد بن حمزة قال حدثنا نصر بن يحيى قال سمعت شقيق بن إبراهيم الزاهد يقول (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) قال لو أن الله تعالى رزق العباد من غير كسب لتفرغوا، وتفاسدوا في الأرض، ولكن شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد، ثم قال ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعني بالبر والفاجر، والمؤمن والكافر، ويقال يعني عالم بصلاح كل واحد منهم قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ يعني المطر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي حبس عنهم ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يعني المطر ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يعني الولي للمطر يرسله مرة بعد مرة، الحميد يعني أهل أن يحمد على صنعه قوله عز وجل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ يعني من علامات وحدانيته ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خلقين عظيمين لا يقدر عليهما بنو آدم، ولا غيرهم ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ يعني ما خلق في السموات والأرض من خلق أو بشر فيهما ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ يعني على إحيائهم للبعث ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ يعني قادر على ذلك، ويقال (وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ) يعني في الأرض خاصة، كما قال (يُخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) يعني من أحدهما ثم قال ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يعني: ما تصابون من مصيبة في أنفسكم وأموالكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني يصيبكم بأعمالكم ومعاصيكم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ يعني ما عفى الله عنه فهو أكثر، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال «ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله أنزلت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ قالوا بلى، فقرأ عليهم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير» قال: فالمصائب في الدنيا بكسب الأيدي، وما عفى الله تعالى عنه في الدنيا ولم يعاقب فهو أجود وأمجد، وأكرم من أن يعذب فيه يوم القيامة[4]، وعن الضحاك قال: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ (وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُّصِيبَةٍ

---

(١) محمد بن مطرف بن داود الليثي أبو غسان المدني ثقة مات بعد الستين. التقريب ٢/٢٠٨.

(٢) حجتهم أنه تعالى أخبر عن عباده المذكورين في سياق الكلام فكأنه قال: وهو الذي يقبل التوبة، من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعل عباده، وحجة الباقين أن الخطاب يدخل فيه الغائب والحاضر. انظر حجة القراءات ٦٤١.

(٣) حمزة بن محمد بن حمزة بن عمرو الأسلمي مجهول الحال. التقريب ١/٢٠٠.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٩ وعزاه لأحمد وابن راهويه وابن منيع وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وأبي يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم.

فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن(١)، قرأ نافع وابن عامر «بما كسبت أيديكم» بحذف الفاء، ويكون [ما]: بمعنى الذي، ومعناه الذي أصابكم وقع بما كسبت أيدكم، وقرأ الباقون (فَبِمَا كَسَبَتْ) بالفاء(٢)، وتكون الفاء جواب الشرط، ومعناه ما يصيبكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، ثم قال:

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني بفائتين من عذاب الله حتى يجزيكم به ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني من عذاب الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يعني من حافظ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعني مانع يمنعكم من عذاب الله تعالى قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ قرأ ابن كثير (الجَوَارِي) بالياء في الوقف والوصل، وقرأ نافع وأبو عمر بالياء في الوصل، وبغير الياء في الوقف، والباقون بغير ياء(٣) في الوقف والوصل، فمن قرأ بالياء فهو الأصل في اللغة، وهي جماعة السفن تجرين في الماء، واحدتها جارية، كقوله (حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ) يعني السفينة، ومن قرأ بغير ياء فلأن الكسر يدل عليه ﴿فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ﴾ يعني تسير في البحر كالجبال ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ يعني يبقين سواكن على ظهر الماء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يعني لعلامات لوحدانيتي ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يعني الذي يصبر على طاعة الله (شَكُورٍ) لنعم الله قوله تعالى ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ يعني إن يشأ يهلك السفن بما عملوا من الشرك وعبادة الأوثان ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ولا يجازيهم ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قرأ ابن عامر ونافع: بضم الميم، والباقون بالنصب(٤)، فمن قرأ بالضم فلأنه عطف على قوله (ويعف) وموضعه الرفع، وأصله (ويعفو) فاكتفى بضم الفاء، والذين، كان معطوفاً عليه رفع أيضاً، ومن قرأ بالنصب صار نصباً للصرف، يعني صرف الكلام عن الإعراب الأول، ومعناه ولكي يعلم الذين يجادلون في آياتنا، يعني في القرآن بالتكذيب ﴿مَالَهُم مِن مَّحِيصٍ﴾ يعني من مفر من الله.

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٩ وعزاه لابن المبارك وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن الضحاك.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٧. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٠.

(٣) انظر المصدران السابقان وحجة القراءات ٦٤٢.

(٤) المصادر السابقة.

فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما أعطيتم من الدنيا ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي منفعة الحياة الدنيا ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي ما عند الله في الآخرة من الثواب والكرامة خير وأبقى يعني أدوم، ثم بين لمن يكون ذلك الثواب فقال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يثقون به تعالى ويفوضون الأمر إليه قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وهذا نعت المؤمنين أيضاً الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، قرأ حمزة والكسائي (كَبِيرِ الإِثْمِ) بغير ألف بلفظ الواحد، لأن الواحد يدل على الجمع، والباقون (كبائر)[1] وهو جمع كبيرة، والكبيرة: ما أوجب الله تعالى الحد عليها في الدنيا، أو العذاب في الآخرة، ثم قال ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يعني إذا غضبوا على أحد يتجاوزون، ويكظمون الغيظ ثم قال ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ يعني أجابوا وأطاعوا ربهم فيما يدعوهم إليه ويأمرهم به ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني أتموا الصلوات الخمس في مواقيتها ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ يعني إذا أرادوا حاجة تشاوروا فيما بينهم، وروي عن الحسن أنه قال: هم الذين إذا حزبهم أمر استشاروا أولي الرأي منهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ يعني يتصدقون في طاعة الله ثم قال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ يعني الظلم ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أي ينتقمون ويقتصون روى سفيان عن منصور عن إبراهيم أنه قال كانوا يكرهون أن يستذلوا، ويحبون العفو إذا قدروا[2]، قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ يعني يعاقب مثل عقوبته لغيره ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ يعني عفا عن مظلمته، وأصلح بالعفو ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني ثوابه على الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني لمن يبدأ بالظلم، روي عن زيد بن أسلم أنه قال: كانوا ثلاث فرق، فرقة بالمدينة وفرقتان بمكة، إحداهم تصبر على الأذى، والثانية تنتصر والثالثة تكظم، فنزلت الآية (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ) نزلت في الذين بالمدينة (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) نزلت في الذين ينتصرون، وقوله (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ) نزلت في الذين يصبرون، فأثنى الله تعالى عليهم جميعاً قوله عز وجل ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ثم نزل في الظالمين ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ وذكر أن أبا بكر رضي الله عنه كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم -، ورجل من المنافقين يسبه وأبو بكر رضي الله عنه لم يجبه، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ساكت يبتسم، فأجابه أبو بكر، فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - وذهب، فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما دام يسبني كنت جالساً، فلما أجبته قمت، فقال - عليه السلام - إن الملك كان يجيبه عنك، فلما أجبته ذهب الملك وجاء الشيطان، وأنا لا أجلس في مجلس يكون فيه الشيطان[3] فنزل (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) وروى محمد بن المنكدر[4] قال: ينادي المنادي يوم القيامة من كان له عند الله حق

---

(١) حجة من قرأ «كبير» ما روي عن ابن عباس أنه قال: عنى بذلك الشرك بالله ويجوز أن تقول بالتوحيد لأن التوحيد يؤدي عن معنى الجمع فيكون المعنى كبير كل إثم وحجة الباقين ما في الآية وهو قوله «والفواحش» قالوا: ولو كان كبير الإثم لكان: والفحش، ويقوي الجمع أيضاً إجماع الجميع على قوله ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ انظر حجة القراءات ٦٤٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٠ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٣٦ وانظر ابن كثير ٧/٢٠١.

(٤) محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهديز التيمي المدني ثقة فاضل. التقريب ٢/٢١٠.

فليقم، قال: فيقوم من عفا وأصلح[١]، قوله عز وجل (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ) يعني انتصف بعد ظلمه واقتص منه (فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ) يعني من مأثم، وقال قتادة: هذا فيما يكون بين الناس من القصاص، فأما لو ظلمك لا يحل لك أن تظلمه[٢]، يعني فيما لا يحتمل القصاص وقال الحسن: يعني إذا قال لعنك الله، أن تقول له يلعنك الله وإذا سبك فلك أن تسبه، ما لم يكن فيه حد، أو كلمة لا تصلح، ثم قال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ) يعني الإثم والحرج (عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ) يعني يبدؤون بالظلم ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني ويظلمون في الأرض، ويعملون المعاصي ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني وجيع

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ يعن صبر عن مظلمته فلم يقتص من صاحبه (وغفر) يعني تجاوز عنه ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمورِ﴾ يعني الصبر والتجاوز من أفضل الأمور، وأصوب الأمور، قال بعضهم: هذه الآيات مدنيات، وقال بعضهم: مكيات قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني يخذله الله عن الهدى، ويقال: من يخذله ويتركه على ما هو فيه من ظلم الناس ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني ليس له قريب يهديه ويرشده إلى دينه، من بعده يعني من بعد خذلان الله تعالى إياه قوله ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يعني المشركين والعاصين ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ في الآخرة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ يعني هل من رجعة إلى الدنيا من حيلة فنؤمن بك، يتمنون الرجوع إلى الدنيا قوله تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يعني يساقون إلى النار ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي خاضعين من الحزن، ويقال ساكتين ذليلين مقهورين من الحياء ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ قال الكلبي يعني ينظرون بقلوبهم ولا يرونها بأعينهم لأنهم يسحبون على وجوههم، وقال مقاتل: يعني يستخفون بالنظر إليها يعني إلى النار: قال القتبي يعني غضوا أبصارهم من الذل، وقال بعضهم مرة ينظرون إلى العرش بأطراف أعينهم ماذا يأمر الله تعالى بهم، ومرة ينظرون إلى النار ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني المؤمنين المظلومين ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني يظلمون غيرهم حتى تصير حسناتهم للمظلومين فخسروا أنفسهم ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال بعضهم هذه حكاية كلام المؤمنين في الآخرة، بأنهم يقولون ذلك حين رأوا الظالمين الذين خسروا أنفسهم، وقال بعضهم: هذه حكاية قولهم في الدنيا فحكى الله تعالى قولهم، وصدقهم على مقالتهم فقال ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ يعني دائم، وقال بعضهم: هذا اللفظ، لفظ الخبر عنهم والمراد به التعليم أنه ينبغي لهم أن يقولوا هكذا يعني يصبروا على ظلمهم قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني لا يكون للظالمين يوم القيامة مانع يمنعهم من عذاب الله

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن قتادة.

﴿يَنْصُرُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني يمنعونهم من عذاب الله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ يعني يضله الله عن الهدى ﴿فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى من حجة، ويقال ما له من حيلة.

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ يعني أجيبوا ربكم في الإيمان، وفيما أمركم به ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ يعني لا رجعة له إذا جاء لا يقدر أحد على دفعه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ ويقال فيه تقديم: يعني من قبل أن يأتي من عذاب الله يوم لا مرد له، يعني لا مدفع له ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني ما لكم من مفر ولا حرز يحرزكم من عذابه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يعني من مغير يغير العذاب عنكم قوله عز وجل ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان وعن الإجابة بعد ما دعوتهم ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ تحفظهم على الإيمان، وتجبرهم على ذلك ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ يعني ليس عليك إلا تبليغ الرسالة، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم قال ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يعني أصبنا الإنسان منا رحمة ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي بطر بالنعمة، قال بعضهم: يعني أبا جهل، وقال بعضهم: جميع الناس، والإنسان هو لفظ الجنس وأراد به جميع الكافرين بدليل أنه قال ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾ ذكر بلفظ الجماعة يعني إن تصبهم ﴿سَيِّئَةٌ﴾ يعني القحط والشده ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني بما عملوا من المعاصي ﴿فَإِنَّ الإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ لنعم الله، يعني يشكو ربه عند المصيبة، ولا يشكره عند النعمة قوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني القدرة على أهل السموات والأرض ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ على أي صورة شاء ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً﴾ يعني من يشاء الأولاد الإناث فلا يجعل معهن ذكوراً ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ يعني يعطي من يشاء الأولاد الذكور ولا يكون معهم إناث ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ يعني يعطي من يشاء الأولاد الذكور والإناث ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾ فلا يعطيه شيئاً من الولد، ويقال (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً) كما وهب للوط النبي (وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) كما وهب لإبراهيم ـ عليه السلام ـ (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً) كما جعل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكما وهب ليعقوب ـ عليه السلام ـ (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً) كما جعل ليحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ يعني عالم بما يصلح لكل واحد منهم، قادر على ذلك.

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

قوله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ يعني لأحد من خلق الله ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً﴾ يعني يرسل إليه جبريل ليقرأ عليه، ويقال: إلا وحياً يعني إلهاماً، ويقال يسمع الصوت فيفهمه، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يكلمك الله، أو ينظر إليك إن كنت نبياً، كما كلم موسى فنزل (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ) يعني ما جاز لأحد من الآدميين أن يكلمه الله إلا وحياً، يعني يسمع الصوت أو يرى في المنام، ولا يجوز أن يكلمه مواجهة عياناً في الدنيا ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فيكلمه كما كلم موسى ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾كما أرسل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني فيرسل بأمره، ويقال: بإذنه ما يشاء من أمره، قرأ نافع وابن عامر (أَوْ يُرْسِلُ) بضم اللام، وقرأ الباقون بالنصب، فمن قرأ بالضم فمعناه: أو هو يرسل رسولاً، ومن قرأ بالنصب فعلى الإضمار أيضاً ومعناه أو يرسل رسولاً (فَيُوحِي) قرأ نافع وابن عامر فيوحي بسكون الياء، ومعناه أو هو يرسل رسولاً فيوحي، وقرأ الباقون بالنصب[1] (فَيُوحِيَ) لإضمار أن ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يعني أعلى من أن يكلم أحداً في الدنيا مواجهة، ولا يراه فيها أحد عياناً (حَكِيمٌ) حكم ألا يكلم أحداً في المواجهة، ولا يراه أحد قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني جبريل بأمرنا، ويقال أوحينا إليك روحاً يعني القرآن، وقال القتبي: الروح روح الأجسام، ويسمى كلام الله تعالى روحاً لأن فيه حياة من الجهل وموت الكفر، كما قال (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) ثم قال (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ يعني ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً﴾ يعني أنزلنا جبريل بالقرآن ضياءً من العمى، وبياناً من الضلالة، فإن قيل: سبق ذكر الكتاب والإيمان، ثم قال (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً) ولم يقل جعلناهما؟ قيل له: لأن المعنى هو الكتاب وهو دليل على الإيمان، ويقال: لأن شأنهما واحد، كقوله (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) ولم يقل آيتين، ويقال (وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً) يعني الإيمان كناية عنه، ولأنه أقرب ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني نوفق من نشاء للهدى من كان أهلاً لذلك ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني لتدعو الخلق إلى دين الإسلام قوله عز وجل ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ يعني دين الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خلق ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي ترجع إليه عواقب الأمور. والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

(١) قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله «أو يرسل رسولاً» بالنصب فقال: «يرسل» محمول على (أن) سوى هذه التي في قوله: ﴿أن يكلمه الله﴾. قال: لأن ذلك غير وجه الكلام، لأنه يصير المعنى: (ما كان لبشر أن يرسل الله رسولاً) وذلك غير جائز، وإنما «يرسل» محمول على معنى «وحي». المعنى: ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا بأن يوحي أو يرسل. ويجوز الرفع في «يرسل» على معنى الحال، ويكون المعنى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا موحياً أو مرسلاً. ويجوز أن يرفع (أو يرسل) على (هو يرسل). وهذا قول الخليل وسيبويه. انظر الحجة (٦٤٤). وانظر الكتاب ١/ ٤٢٨.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ (١)

وهي تسع وثمانون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعني: أقسم بحمٓ، وبالكتاب الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان كل ما تحتاج إليه الأمة، ويقال مُبِين أي بين بلغة تعرفونها، يعني بين فيه الحلال والحرام ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ فهذا جواب القسم يعني: إنا جعلناه ووصفناه، أقسم بالكتاب المبين إِنَّا جَعَلْنَاهُ يعني: إنا قلناه ووصفناه وبيناه، ويقال: أنزلنا به جبريل ﴿قُرْآناً عَرَبِيًّا﴾ يعني: بلغة العرب ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لكي تعقلوا، وتفهموا ما فيه، ولو نزل بغير لغة العرب لم تفهموا ما فيه ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾ يعني: إن كذبتم بالقرآن فإن نسخته في أصل الكتاب يعني: اللوح المحفوظ لدينا يعني: عندنا ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يعني: شريف مرتفع، محكم من الباطل، ويقال حكيم أحكم حلاله وحرامه، ويقال: حَكِيمٌ، أي حاكم على الكتب كلها، ويقال: حكيم أي: ذو حكمة، كما قال تعالى ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾، قرأ حمزة والكسائي «في إم الكتاب» بكسر الألف في جميع القرآن، لأن الياء أخت الكسرة فاتبع الكسرة الكسرة، والباقون «أم» بضم الألف وهو الأصل في اللغة.

---

(١) من أغراض هذه السورة التحدي بإعجاز القرآن لأنه آية صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به والتنويه به عدة مرات وأنه أوحى الله به لتذكيرهم وتكرير تذكيرهم وإن أعرضوا كما أعرض من قبلهم عن رسلهم. وإذ قد كان باعثهم على الطعن في القرآن تعلقهم بعبادة الأصنام التي نهاهم القرآن عنها كان من أهم أغراض السورة التعجيب من حالهم إذ جمعوا بين الاعتراف بأن الله خالقهم والمنعم عليهم وخالق المخلوقات كلها. وبين اتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله، حتى إذا انتقض أساس عنادهم اتضح لهم ولغيرهم باطلهم. وجعلوا بناتٍ لله مع اعتقادهم أن البنات أحط قدراً من الذكور فجمعوا بذلك بين الإشراك والتنقيص. وابطال عبادة كل ما دون الله على تفاوت درجات المعبودين في الشرف فإنهم سواء في عدم الإلهية للألوهية ولبنوة الله تعالى. وعرض على إبطال حججهم ومعاذيرهم، وسفه تخيلاتهم وترهاتهم. وذكرهم بأحوال الأمم السابقين مع رسلهم، وأنذرهم بمثل عواقبهم، وحذرهم من الاغترار بإمهال الله وخص بالذكر رسالة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. وخص إبراهيم بأنه جعل كلمة التوحيد باقية في جمع من عقبه وتوعد المشركين وأنذرهم بعذاب الآخرة بعد البعث الذي كان إنكارهم وقوعه من مغذيات كفرهم وإعراضهم لاعتقادهم أنهم في مأمن بعد الموت.

وقد رتبت هذه الأغراض وتفاريعها على نسج بديع وأسلوب رائع في التقديم والتأخير والأصالة والاستطراد على حسب دواعي المناسبات التي اقتضتها البلاغة، وتجديد نشاط السامع لقبول ما يلقى إليه. وتخلل في خلاله من الحجج والأمثال والمثل والقوارع والترغيب والترهيب، شيء عجيب، مع دحض شبه المعاندين بأفانين الإقناع بانحطاط ملة كفرهم وعسف معوج سلوكهم. وأدمج في خلال ذلك ما في دلائل الوحدانية من النعم على الناس والإنذار والتبشير. وقد جرت آيات هذه السورة على أسلوب نسبة الكلام إلى الله تعالى عدا ما قامت القرينة على الإسناد إلى غيره. انظر التحرير ٢٥/١٥٨ ـ ١٥٩.

أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ
مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى
نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ
عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل: **﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً﴾** يعني: أفندع ونترك أن نرسل إليكم الوحي مبهماً لا آمركم ولا أنهاكم، وقال القتبي معناه: أن أمسك عنكم فلا أذكركم إعراضاً، يقال: صفحت عن فلان إذا أعرضت عنه، وقال مجاهد معناه: تكذبون بالقرآن ولا تعاقبون فيه،[1] قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر **﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾** بنصب الألف، وقرأ الباقون بالكسر[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه: أفنضرب عنكم ذكر العذاب بأن أسرفتم يعني: أشركتم وعصيتم، ويقال: أفنضرب عنكم ذكر العذاب لأن أسرفتم وكفرتم، ومن قرأ بالكسر فمعناه: إن كنتم قوماً مسرفين، ويقال: هو على معنى: الاستقبال، ومعناه إن تكونوا مسرفين نضرب عنكم الذكر ثم قال عز وجل: **﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾** يعني: كم بعثنا من نبي في أمر الأمم الأولين كما أرسلنا إلى قومك **﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِن نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** يعني: يسخرون منه قوله تعالى: **﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً﴾** يعني: من كان أشد منهم قوة **﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾** يعني: سنة الأولين بالهلاك قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم﴾** يعني: المشركين **﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾** يعني: يقولون خلقهن الله تعالى الذي هو **العزيز** في ملكه، العليم بخلقه، فزادهم الله تعالى في جوابهم فقال: **﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾** قرأ حمزة والكسائي وعاصم مَهْداً والباقون مهاداً بالألف[3]، يعني: قراراً للخلق **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾** يعني: طرقاً **﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** يعني: لكي تعرفوا طرقها من بلد إلى بلد، ويقال: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ يعني: لكي تعرفوا هذه النعم، وتأخذوا طريق الهدى، ثم ذكرهم النعم فقال عز وجل: **﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾** يعني: بمقدار ووزن **﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ﴾** يعني: أحيينا بالمطر **﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾** يعني: أرضاً ميتة لا نبات فيها **﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾** أنتم من قبوركم قوله تعالى: **﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾** يعني: الأصناف كلها من النبات، والحيوان، وغير ذلك **﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾** يعني: جعل لبني آدم من السفن، والإبل والدواب ما يركبون عليها ثم قال: **﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾** يعني: لتركبوا ظهور الأنعام، ولم يقل ظهورها؟ لأنه انصرف إلى المعنى وهو جنس الأنعام **﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُم إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ﴾** يعني: إذا ركبتم فتحمدوا الله تعالى **﴿وَتَقُولُوا﴾** عند ذلك **﴿سُبْحَانَ**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٤٤. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٣.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٤٥ وقد تقدم.

﴿الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ يعني: ذلل لنا هذا ﴿وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ يعني: مطيعين وقال أهل اللغة: أنا مقر لك أي مطيق لك، ويقال مقرنين: أي مالكين، ويقال: ضابطين ثم قال: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ يعني: راجعين إليه في الآخرة، وقد روى عثمان بن الأسود[1] عن مجاهد أنه قال: إذا ركب الرجل دابته ولم يذكر اسم الله تعالى ركب الشيطان من ورائه، ثم صك في قفاه، فإن كان يحسن الغناء قال له تغن، وإن كان لا يحسن الغناء قال له تمن، يعني: تكلم بالباطل وعن علي بن ربيعة[2] أنه قال: كنت رديفاً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلمّا استوى، قال: الحمد لله، ثم قال سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مَنْ عِبَادِهِ جُزْءاً﴾ يعني: وصفوا لله من خلقه شريكاً وولداً ﴿إِنَّ الإنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ يعني: كَفُورٌ لنعمه مُبِينٌ أي بين الكفر ثم قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهو رد على بني مليح حيث قالوا الملائكة بنات الله معناه، اختار لكم البنين ولنفسه البنات، ثم وصف كراهيتهم البنات فقال: ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ يعني: بما وصفوا لله تعالى من البنات، وكرهوا لأنفسهم ذلك ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يعني: تغير لونه وهو حزين مكروب، يعني: أترضون لله ما لا ترضون لأنفسكم قوله عز وجل: ﴿أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ﴾ يعني: يغذى في الذهب والفضة ويقال أفمن زين في الحلي والحلل ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني: في الكلام غير فصيح، ويقال: هن في الخصومة غير مبينات في الحجة، ويقال أفمن زين في الحلي وهو في الخصومة غير مبين، لأن المرأة لا تبلغ بخصومتها وكلامها ما يبلغ الرجل، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص أو من يُنَشَّأُ بضم الياء ونصب النون وبشديد الشين، ومعناه أو

---

(١) عثمان بن الأسود بن موسى المكي ثقة ثبت. التقريب ٢/٦.

(٢) علي بن ربيعة بن نضلة أبو المغيرة الكوفي ثقة. التقريب ٢/٢٧.

من يربى في الحلية، لفظه لفظ الإستفهام والمراد به التوبيخ، وقرأ الباقون أَوَمَنْ يَنْشَأُ بنصب الياء وجزم النون مع التخفيف[١]، يعني يشب وينبت في الحلي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ يعني: وصفوا الملائكة بالأنوثة، قرأ ابن كثير وابن عامر ونافع الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ (إِنَاثاً) يعني: وصفوا الملائكة بالأنوثة، قرأ ابن كثير وابن عامر ونافع عبيد. يعني: الملائكة الذين هم في السماء، والباقون عِبَادُ[٢] يعني: جمع عبد ثم قال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ يعني: أحضروا خلق الملائكة حين خلقهم الله تعالى فعلموا أنهم ذكوراً أو إناثاً؟ هذا استفهام فيه نفي، يعني لم يشهدوا خلقهم، على وجه التوبيخ والتقريع ثم قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم﴾ يعني: ستكتب مقالتهم ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وروي عن الحسن أنه قرأ (سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهم) بالألف، يعني: أقوالهم، وقرأ عبد الرحمن الأعرج (سَنَكْتُبُ) بالنون[٣] قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ يعني: ما عبدنا الملائكة ويقال الأصنام ﴿مَالهم بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بذلك القول من حجة ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ يعني: يكذبون بغير حجة، وقال مقاتل: في الآية تقديم، يعني: عباد الرحمن إناثاً ما لهم بذلك من علم قوله عز وجل: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ﴾ يعني: أنزلنا عليهم كتاباً من قبل هذا القرآن ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يعني: آخذون به عاملون، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به النفي قوله عز وجل: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ يعني: لكنهم قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين وملة، وقال القتبي: أصل الأمة الجماعة والصنف كقوله (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجِنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) ثم يستعار في أشياء، منها الدين كقوله (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ) أي على دين، لأن القوم كانوا يجتمعون على دين واحد، فتقام الأمة مكان الدين، ولهذا قيل للمسلمين أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنهم على ملة واحدة وهي الإسلام، وروى مجاهد وعمر بن عبد العزيز أنهما قرآ (إِمَّةٍ) بكسر الألف أي على نعمة، ويقال على هيئة وقراءة العامة بالضمة[٤]، يعني: على دين، وروى أبو عبيدة عن بعض أهل اللغة أن الأُمَّةِ والأمة لغتان، ثم قال: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ يعني: مستيقنين ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ يعني: جبابرتها ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ يعني: بسنتهم مقتدون، أي: بأعمالهم، قال الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى﴾ يعني: أليس هذا الذي جئتكم به هو أهدى ﴿مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ يعني: بأصوب وأبين من ذلك، قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص (قَالَ أَوَلَوْ) على معنى الخبر، والباقون (قُلْ)[٥] بلفظ الأمر، وقرأ أبو جعفر المدني (جِئْنَاكُم)[٦] بلفظ الجماعة ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: إن الجبابرة قالوا لرسلهم إنا بما أرسلتم به جاحدون.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٤٦. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٤.
(٢) انظر النشر ٢/٣٦٨.
(٣) انظر تفسير القرطبي ١٦/٤٩.
(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/٥٠.
(٥) انظر حجة القراءات ٦٤٨ النشر في القراءات ٢/٣٦٩. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٥.
(٦) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٥.

﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ۝٣٠﴾

قوله عز وجل: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب ﴿فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: آخر أمرهم قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: بريء من معبودكم، ذكر عن الفراء أنه قال براء : مصدر صرف أسماء، وكل مصدر صرف إلى اسم، فالواحد والجماعة، والذكر، والأنثى، فيه سواء قوله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني: إلا الذي خلقني فإني لا أتبرأ منه ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ويقال: إلا بمعنى لكن، يعني لكن الذي خلقني فهو سيهدين يعني: يثبتني على دين الإسلام ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: جعل تلك الكلمة ثابتة في نسله وذريته، وهي كلمة التوحيد، لا إله إلا الله ﴿لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم إلى الإيمان، وقال قتادة: هو التوحيد والإخلاص، لا يزال في ذريته من يوحدوا اللهتعالى ويعبدوه، وقال مجاهد: يعني: كلمة لا إله إلا الله في عقبه وولده[١]، ويقال: (إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) يعني: ذو البراءة، كما يقال رجل عدل، ورجال عدل أي ذو عدل، قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: أجلت هؤلاء وأمهلتهم يعني قومك ﴿وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُم الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن، ويقال الدعوة إلى التوحيد ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: بين أمره بالدلائل والحجج، ويقال: مبين يعني: بين لهم الحق من الباطل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُم الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ يعني: جاحدون.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾ يعني: على رجل عظيم من رجلي القريتين وهو الوليد بن المغيرة من أهل مكة، وأبو مسعود الثقفي بالطائف، يعني لو كان حقاً لأنزل على أحد هذين الرجلين، وروى وكيع عن محمد بن عبد الله بن أفلح الطائفي قال: عن خالد بن عبد الله بن يزيد[٢] قال: كنت جالساً عند عبد الله بن عباس بالطائف فسأله رجل عن هذه الآية، وهي قوله (من القريتين) فقال القرية التي أنت فيها يعني: الطائف، والقرية التي جئت منها يعني مكة، وسئل عن الرجلين فقال: جبار من جبابرة قريش وهو الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود[٣] جد المختار يعني: أبا مسعود، يقال اسمه عمرو بن عمير قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ يعني: أبأيديهم مفاتيح الرسالة والنبوة فيضعوها حيث شاؤوا، ولكننا نختار للرسالة من نشاء من عبادنا ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: نحن قسمنا أرزاقهم فيما بينهم وهو أدنى من الرسالة، فلم نترك اختيارها إليهم فكيف نفوض إختيار ما هو أفضل منه وأعظم، وهي الرسالة إليهم ثم قال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ يعني: فضلنا بعضهم على بعض بالمال في الدنيا ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري أمير الحجاز ثم الكوفة. انظر التقريب ١/٢١٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ يعني: الاستهزاء، ويقال فضل بعضهم على بعض في العز والرياسة ليستخدم بعضهم بعضاً ويستعبد الأحرار العبيد، ثم أخبر أن الآخرة أفضل مما أعطوا في الدنيا فقال ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: خير مما يجمع الكفار من المال في الدنيا.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة المال وقال الحسن لولا أن يتتابعوا في الكفر ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهي سماء البيت ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعني: الدرج عليها يرتقون ويرتفعون، وقال الزجاج: يصلح أن يكون لبيوتهم بدلاً من قوله (لِمَنْ يَكْفُر) ويكون المعنى لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن، ويصلح أن يكون معناه لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «لِبُيُوتِهِم سَقْفاً» بنصب السين وجزم القاف ويكون عبارة عن الواحد فدل على الجمع، والمعنى لجعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فضة، وقرأ الباقون سُقُفاً بالضم على معنى الجمع[1]، ويقال سقف ومسقف مثل رهن ورهن، قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِم أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ يعني: يجلسون وينامون ﴿وَزُخْرُفاً﴾ وهو الذهب يعني: لجعلنا هذا كله من ذهب وفضة، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لولاَ أَنْ يَجْزَعَ عَبْدِي المُؤْمن لَعَصَّبْتُ الكَافِرَ بِعِصَابَةٍ مِن حَدِيدٍ وَلَصَبَبْتُ عَلَيه الدُّنْيَا صَباً» وإنما أراد بعصابة الحديد كناية عن صحة البدن يعني: لا يصدع رأسه، ثم أخبر أن ذلك كله مما يفنى فقال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وما: ها هنا زيادة، ومعناه وإن كل ذلك لمتاع، ويقال وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا يفنى ولا يبقى (والآخِرَةُ) يعني: الجنة للذين يتقون الشرك، والمعاصي، والفواحش قرأ عاصم وابن عامر في رواية هشام[2] (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا) بتشديد الميم، وقرأ الباقون بالتخفيف[3]﴾ فمن قرأ بالتخفيف فما: للصلة والتأكيد، ومن قرأ بالتشديد فمعناه وما كل ذلك إلا متاع، وقال مجاهد: كنت لا أعلم (ما) الزخرف حتى سمعت في قراءة عبد الله بيتاً من ذهب، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ قال الكلبي يعني: يعرض عن الإيمان

---

(١) حجتهم قوله تعالى: ﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً﴾ ولم يقل باباً وسريراً، فدل على أن آخر الكلام منظوم على لفظ أوله ومن قرأ «سقفاً» بجزم القاف فهو واحد يدل على أن المعنى جعلنا لبيت كل واحد منهم سقفاً من فضة، ويجوز أن يوحد السقف لتوحيد لفظ «من» فيكون المعنى جعلنا لكل من يكفر بالرحمن سقفاً من فضة.

(٢) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمي وقيل: الظفري الدمشقي إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم ولد سنة ثلاث وخسمين ومائة مات سنة خمس وأربعين ومائتين. انظر طبقات القراء ٢/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٤٩، المصدر السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٥٦.

والقرآن، يعني لا يؤمن، ويقال: من يعمى بصره عن ذكر الرحمن، وقال أبو عبيدة: من يظلم بصره عن ذكر الرحمن ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً﴾ يعني: نسبب له شيطاناً مجازاة لإعراضه عن ذكر الله، ويقال نسلط عليه، ويقال نقدر له، ويقال نجعل له شيطاناً ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يعني: يكون له صاحبا في الدنيا فيزين له الضلالة، ويقال فهو له قرين يعني قرينه في سلسلة واحدة لا يفارقه يعني في النار، وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال: ليس مثل من أمثال العرب إلا وأصله في كتاب الله تعالى، قيل له من أين قول الناس أعطى أخاك تمرة، فإن أبى فجمرة. فقال قوله: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا) الآية ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُم عَنِ السَّبِيلِ﴾ يعني: الشياطين يصرفونهم عن الدين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يعني: الكفار يظنون أنهم على الحق ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر (جَاءَانَا) بالمد بلفظ التثنية يعني الكافر وشيطانه الذي هو قرينه، وقرأ الباقون (جَاءَنَا) بغير[1] مد يعني الكافر يقول لقرينه ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يعني: ما بين المشرق والمغرب، ويقال بين مشرق الشتاء ومشرق الصيف ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ يعني: بئس الصاحب معه في النار، ويقال هذا قول الله تعالى (فَبِئْسَ الْقَرِينُ) يعني: بئس الصاحب معه في النار، ويقال هذا قول الكافر يعني: بئس الصاحب كنت أنت في الدنيا وبئس الصاحب اليوم، فيقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ الاعتذار ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ يعني: كفرتم وأشركتم في الدنيا ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يعني: أنكم جميعاً في النار التابع والمتبوع في العذاب سواء. قوله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم
مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن
رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ إلى الهدى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: من كان في علم الله في الضلالة، ومعنى الآية: إنك لا تقدر أن تُفهم من كان أصم القلب، ويعمى عن الحق، ومن كان في ضلال مبين، يعني: ظاهر الضلالة قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يعني: نميتك قبل أن نرينك الذي وعدناهم يعني قبل أن نريك النقمة ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُنْتَقِمُونَ﴾ يعني: ننتقم منهم بعد موتك، قال قتادة: ذهب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبقيت النقمة، قال: وذكر لنا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أُرَى مَا يُصِيب أُمَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فما رُؤي ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً حَتَّى[2] قُبِضَ» ثم قال: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ يعني: في حياتك ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ يعني: إنا لقادرون على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يعني: اعمل بالذي أوحي إليك من القرآن ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني: على دين الإسلام ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني: القرآن شرف لك ولمن آمن به ويقال (وَلِقَوْمِكَ) يعني: العرب لأن القرآن نزل بلغتهم ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن هذه النعم، وعن شكر هذا الشرف يعني القرآن إذا أديتم شكره أو لم تؤدوه قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا﴾ قال مقاتل والكلبي:

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٥٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه.

يعني: سل مؤمني أهل الكتاب ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ يعني: هل جاءهم رسول يدعوهم إلى عبادة غير الله، ويقال (واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا) يعني: سل المرسلين، فلقي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأنبياء ليلة المعراج وصلى بهم ببيت المقدس، فقيل له فسلهم فلم يشك، ولم يسألهم، ويقال إنما خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأراد أمته، يعني: سلوا أهل الكتاب كقوله (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب) الآية.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد ذكرناه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ يعني: باليد والعصى ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يعني: يعجبون ويسخرون ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعني: أعظم من التي كانت قبلها، وهي السنين، والنقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فلم يؤمنوا بشيء ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني: عاقبناهم بهذه العقوبات لكي يرجعوا، ويعرفوا ضعف معبودهم ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ وكان الساحر فيهم عظيم الشأن، يعني: قالوا لموسى يا أيها العالم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أي سل لنا ربك ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ يعني: بحق ما أمرك به ربك أن تدعو إليه ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ يعني: نؤمن بك ونوحد الله تعالى قوله تعالى: ﴿فَلَمَا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ يعني: ينقضون عهودهم ﴿وَنَادَى فِرْعَونُ فِي قَوْمِهِ﴾ يعني: خطب فرعون لقومه ﴿قَالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وهي أربعون فرسخاً، في أربعين فرسخاً ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ يعني: من تحت يدي، ويقال من حولي، وحول قصوري وجناني ﴿أفلا تُبْصِرُونَ﴾ فضلي على موسى ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني: خير، وأم للصلة، من هذا الذي هو مهين يعني: ضعيف ذليل ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يعبر حجة، ويقال معناه: ألا تنظرون إلى فصاحتي، وإلى عي كلام موسى ﴿فَلَوْلَا أُلْقِي عَلَيْهِ أَسْوِرَةً مِن ذَهَبٍ﴾ يعني: هلا أعطي أسورة من ذهب، يعني لو كان حقاً وكان رسولاً كما يقول لأعطي له المال فيكون حاله خيراً من هذا، وكان آل فرعون يلبسون الأساور، قرأ عاصم في رواية حفص (أَسْوِرَةٌ) بغير ألف، والباقون (أَسَاوِرَةٌ)[1] فمن قرأ أسورة، فهو جمع السوار،

(١) انظر حجة القراءات ٦٥١، النشر في القراءات العشر ٢/٣٦٩.

ومن قرأ أساورة، فهو جمع الجمع، ويقال أساور جمع سوار ثم قال: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: لو كان حقاً لأتته الملائكة متتابعين فيصدقون على مقالته، ويقال (مُقْتَرِنِينَ) أي: متعاونين ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ يعني: فاستذل قومه فأطاعوه، يعني: حملهم على الخفة فانقادوا له ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني: كافرين عاصين، وذلك أن فرعون قال لهم مَا أُرِيكُم إِلَّا مَا أَرَى فأطاعوه على تكذيب موسى عليه السلام (إِنَّهُم كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ) يعني: ناقضي العهد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ يعني: أغضبونا، قال أهل اللغة[1]: الأسف الغضب، وروى معمر عن سماك بن الفضل[2] قال كنا عند عروة بن محمد [3] وعنده وهب بن منبه فجاء قوم فشكوا عاملهم وأثبتوا على ذلك، فتناول وهب عصا كانت في يد عروة فضرب بها رأس العامل حتى أدماه فاستعابها عروة، وكان حليماً وقال: يعيب علينا أبو عبد الله، الغضب، وهو يغضب، فقال وهب: وما لي لا أغضب وقد غضب الذي خلق الأحلام، إن الله تعالى يقول (فلما آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُم) يعني: أغضبونا، ويقال فلما آسفونا يعني: وجب عليهم عذابنا ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُم﴾ يعني: أهلكناهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِينَ﴾ يعني: لم نبق منهم أحداً قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُم سَلَفاً﴾ قال مجاهد يعني: كفار قوم فرعون سلفاً لكفار مكة، أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال قتادة: جعلناهم سلفاً إلى النار، قرأ حمزة والكسائي (سُلُفاً) بالضم، وقرأ الباقون (سَلَفاً) بنصب السين واللام[4] فمن قرأ بالنصب فمعناه: جعلناهم سلفاً متقدمين ليتعظ بهم الآخرون، ومن قرأ بالضم، فهو جمع سليف أي جمع قد مضى ويقال سلفاً واحدها سلفة من الناس أي قطعة، قوله ﴿وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ يعني: عبرة لمن بعدهم.

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ يعني: وصف ابن مريم شبها ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يعني: يعرضون عن ذكره، ويقال: لما قالت النصارى إن عيسى ابن الله، إذا قومك منه يصدون، قرأ ابن عامر والكسائي ونافع (يَصُدُّونَ) بضم الصاد، وقرأ الباقون (يَصِدُّونَ) بالكسر، فمن[5] قرأ بالضم فمعناه: يعرضون، ومن قرأ

(١) انظر لسان العرب ١/٧٩.

(٢) سماك بن الفضل الخولاني اليماني ثقة. التقريب ١/٣٣٢.

(٣) عروة بن محمد بن عطية السعدي مقبول. التقريب ٢/١٩.

(٤) حجتهم في تلك القراءة قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للصبي الميت: اللهم ألحقه بالسلف الصالح، ومنه قول الناس: فلان يحج السلف، ويجوز أن يكون جمعاً مثل: «خادم خدم، وتابع تبع، وسالف سلف». انظر حجة القراءات ٦٥٢.

(٥) احتج بعض الناس بصحة الكسر وأنه بمعنى الضجيج بصحبة «منه» للفعل، قال: ولو كان بمعنى الصدود كان الأفصح أن يصحب الفعل (عنه) لا (منه)، لأن المستعمل من الكلام: (صد عنه) لا (صد منه)، فلما كان الكلام «منه يصدون» دل على أنه عن الصدود بمعزل، وأنه بمعنى الضجيج، ولو كان من الصدود لكانت (إذا قومك عنه يصدون) أو (منه يصدون عنك). وحجة من يضم ذكرها الكسائي قال: هما لغتان لا تختلفان في المعنى، والعرب تقول: (يصِدُّ عني ويصُدُّ عني) مثل (يشِدُّ ويشُدّ). قال الزجاج: معنى الضمومة: يُعرضون. وقال أبو عبيدة: (مجازها: يعدِلون).

بالكسر فمعناه يضجون ويرفعون أصواتهم تعجباً، وذلك أنهم قالوا لما جاز أن يكون عيسى ابن الله، جاز أن تكون الملائكة بناته، فعارضوه بذلك يعني: أهل مكة ورفعوا أصواتهم بذلك ويقال: إن عبد الله ابن الزبعرى، قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ذكرنا في سورة الأنبياء ففرح المشركون بذلك، ورفعوا أصواتهم تعجباً من قوله آلهتنا خير، ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني: أم عيسى، فإذا جاز أن يكون هو ولدا، جاز أن تكون الأصنام والملائكة كذلك، ويقال: فإذا جاز أن يكون هو في النار، جاز أن تكون معه الأصنام في النار قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ يعني: ما عارضوك بهذه المعارضة إلا جدلاً ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يعني: يجادلونك شديد المجادلة بالباطل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما كان عيسى إلا عبداً لله أنعم الله تعالى عليه بالنبوة، وأكرمه بها ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: عبرة لبني إسرائيل ليعتبروا به حين ولد ابن من غير أب ثم قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يعني: لو شاء الله لجعل مكانكم في الأرض ملائكة يخلفون، فكانوا خلفاً منكم ثم رجع إلى صفة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ يعني: نزول عيسى علامة لقيام الساعة ويقال: نزول عيسى آية للناس، وروى وكيع عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين[1]، عن أبي يحيى عن ابن عباس في قوله (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) قال خروج عيسى ابن مريم[2] وروى معمر عن قتادة قال: نزول عيسى، وروى عبادة عن حميد عن أبي هريرة قال «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُرى عيسى عليه السلام في الأَرْض إِمَاماً مُقْسِطاً وَكُنْتُ أَرْجُو أَلَّا أَمُوتَ حَتَّى ۛكُلَ مع عِيسى عليه السلام عَلَى مَائِدَةٍ فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَام» قرأ بعضهم (وَإِنَّهُ لعِلمٌ لِلسَّاعَةِ) بكسر العين أي بنزول المسيح يعلم أنه قد قربت الساعة، ومن قرأ (وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ) بالنصب فإنه بمعنى الدليل والعلامة، قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ يعني: لا تشكن في القيامة والبعث ﴿وَاتَّبِعُونِي﴾ يعني: أطيعونني ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: هذا التوحيد صراط مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يعني: لا يصرفنكم الشيطان عن طريق الهدى ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن
بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ
وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ

---

(١) مسعود بن مالك الأسدي الكوفي وثقه النسائي الخلاصة ٣/ ٢٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٠ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور ومسدد وعبد ابن حميد وابن أبي حاتم والطبراني.

وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالآيات والعلامات، وهـو إحياء المـوتى، وإبراء الأكمـه والأبرص، ويقال: بالبينات يعني: بالإنجيل ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: بالنبوة ﴿وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال بعضهم يعني: كل الذي تختلفون فيه، وقال بعضهم: معناه لأبين تحليل بعض الذي تختلفون فيه، كقـوله (وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُم) وكانوا في ذلك التحريم مختلفين، فمصدق ومكذب ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به من التوحيد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُم﴾ يعني: خالقي وخالقكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ يعني: وحدوه وأطيعوه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني: دين الإسلام ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِم﴾ أي تفرقـوا في أمر عيسى، وهم النسطورية، والماريعقوبية، والملكانية، وقد ذكرناه من قبل، ويقال: الأحزاب، تحزبوا وتفرقوا في أمر عيسى، وهم اليهود فقالوا فيه قولاً عظيماً، وفي أمه فقالوا إنه ساحر، ويقال اختلفوا في قتله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: أشركوا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: عذاب يوم شديد قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ يعني: ما ينظرون إذا لم يؤمنوا إلا الساعة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بقيامها قوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال مجاهد: الأخلاء في معصية الله تعالى في الدنيا يومئذ متعادين في الآخرة[١] ﴿إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الموحدين قال مقاتل: نزلت في أبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وقال الكلبي: كل خليل في غير طاعة الله فهو عدوٌّ لخليله، وروى عبيد بن عمير قال: كان لرجل ثلاثة أخلاء بعضهم أخص به من بعض، فنزلت به نازلة، فلقي أخص الثلاثة فقال يا فلان إني قد نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تعينني، فقال له ما أنا بالذي أعينك ولا أنفعك فانطلق إلى الذي يليه، فقال له: أنا معك حتى أبلغ المكان الذي تريده ثم رجعت وتركتك، فانطلق إلى الثالث فقال له أنا معك حيثما دخلت، قال: فالأول ماله، والثاني أهله وعشيرته، والثالث عمله، وروى أبو إسحاق عن الحارث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن قوله (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ) فقال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفي أحد المؤمنين فيثني على صاحبه خيراً، ثم يموت الآخر فيجمع بين أرواحهما فيقول كل واحد منهما لصاحبه نعم الأخ ونعم الصاحب، ويموت أحد الكافرين فيثني على صاحبه شراً، ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقول كل واحد منهما لصاحبه بئس الأخ وبئس الصاحب[٢] قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ يعني: يوم القيامة، ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ يعني: مخلصين بالتوحيد قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُم تُحْبَرُونَ﴾ يعني: تكرمون وتنعمون، ويقال: ترون، والحبرة: السرور قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ قال كعب: يطاف عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب في كل صحفة لون وطعـام ليس في الأخرى، والصحفة هي القصعة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي الأباريق التي لا خراطيم لها يعني: مدورة الرأس، ويقال التي لا عُرى لها، واحدها كوب ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴾ يعني: تتمنى كل نفس ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ من النظر إليها ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ يعني: هذه الجنـة ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ يعني: أنزلتمـوها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: دخلتموها برحمة الله تعالى، بإيمانكم، واقتسمتموها بأعمالكم ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ لا تنقطع، لقـوله (لاَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢١/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢١/٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وحميد بن زنجويه في ترغيبه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

مَقْطُوعَةٌ وَلاَ مَمْنُوعَةٌ) ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من الفواكه، متى تشاؤوا، ثم وصف المشركين فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: المشركين ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي دائمون لا يموتون ولا يخرجون ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُم﴾ يعني: لا ينقطع عنهم العذاب طرفة عين ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يعني: آيسين من رحمة الله تعالى قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُم﴾ يعني: لم نعذبهم بغير ذنب ﴿وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنهم كانوا يستكبرون عن الإيمان.

وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وذلك أنه لما يشتد عليهم العذاب يتمنون الموت ويقولون لخازن جهنم يا مالك ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ يعني: ادع ربك لقبض أرواحنا، فأجابهم بعد أربعين سنة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ وروى عطاء بن السائب عن رجل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يجيبهم بعد ألف سنة (إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[١]، ويقال إنهم ينادون (يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) فأوحى الله تعالى إلى مالك ليجيبهم فيقول لهم مالك قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يعني: جاءكم جبريل في الدنيا بالقرآن والتوحيد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ يعني: جاحدون وهو قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ قال مقاتل: وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة ودخل إبليس عليهم، وقد ذكرناه في سورة الأنفال فنزل (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) يعني: أجمعوا أمرهم بالشر على النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أي مجمعون أمرنا على ما يكرهون، وقال الكلبي: وذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا وقالوا إنه يقول: بأن ربي يعلم السر، أترى أنه يعلم ما نقول بيننا؟ فنزل (أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً) يعني: أقاموا على المعصية (فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) أي معذبون عليها، قال القتبي: أي أحكموه. والمبرم: المفتول على طاقين، قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ يعني: بل يظنون، ويقال أيظنون، والميم صلة ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التوبيخ، ومعناه إن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، قال ابن عباس: الذين يتناجون خلف الكعبة، يعني الذين يقولون إن الله لا يسمع مقالتنا، قال الله تعالى: ﴿بَلَى﴾ يعني: نسمع ذلك ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ﴾ مقالتهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يعني: الموحدين من أهل مكة[٢]، قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية وقرئت عليهم فقال النضر بن الحارث ألا ترونه صدقني فقال له الوليد ما صدقك، ولكنه يقول ما كان للرحمن ولد، يعني إنَّ إنْ بمعنى ما، قال (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) يعني: الموحدين من أهل مكة، وقال الكلبي: أنا أول الآنفين أن لله ولداً، وقال القتبي: إن كان هذا في زعمكم، فأنا أول الموحدين لأنكم تزعمون أن له ولداً، فأنَا أَوَّلِ الآنِفين من ذلك فلم توحدوه، ومن وحد الله فقد عبده، ومن جعل له ولداً فليس من العابدين كقوله (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدونِ) أي: ليوحدون، ثم نزه نفسه، فقال:

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة النار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في البعث والنشور.

(٢) سقط في ظ.

سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ
يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾
وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم
مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ
وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يعني: عما يقولون إن لله ولداً ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يعني: كفار مكة حين كذبوا بالعذاب ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ يعني: يخوضوا في أباطيلهم ويستهزئوا ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني: حتى يعاينوا يومهم الذي يوعدون، وهو يوم القيامة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ يعني: إله كل شيء، ويعلم كل شيء، ويقال هو إله في السماء يعبد، وفي الأرض إله يعبد ويقال يوحد في السماء، ويوحد في الأرض ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿الْعَلِيمُ﴾ بخلقه وبمقالتهم، ثم عظم نفسه فقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي﴾ يعني: تعالى عما وصفوه الَّذِي ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يعني: قيام الساعة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم (تُرْجَعُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء(١) على معنى الخبر عنهم قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني: لا يقدر الذين يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: بلا إله إلا الله مخلصاً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق حين شهدوا بها من قبل أنفسهم، وأنهم يشفعون لهؤلاء قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني: كفار قريش ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ يعني: أنى يصرفون بعد التصديق ثم قال: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وَقِيلِهِ) يعني: وقوله، قرأ عاصم وحمزة (قِيلِهِ) بكسر اللام، والباقون بالنصب، وقرىء في الشاذ (وَقِيلُهُ) بضم اللام(٢)، فمن قرأ بالنصب فنصبه من وجهين، أحدهما على العطف على قوله (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ) (وقيله)، ومعنى آخر: وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب، يعني يعلم الغيب، ومن قرأ بالكسر معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله يا رب، ومن قرأ بالرفع فمعناه: وقيله قول يا رب (إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) يعني: لا يصدقون ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يعني: أعرض عنهم، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ يعني: سداداً من القول ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا وعيد منه، قرأ نافع وابن عامر (تَعْلَمُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة لهم، والباقون بالياء(٣) على معنى الخبر عنهم. والله أعلم.

---

(١) حجة من قرأ بالياء أنه عقيب الخبر عنهم في قوله «فذرهم يخوضوا ويلعبوا» فأجروا الكلام على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه، ليأتلف على نظام واحد. وحجة الباقين قوله تعالى قبلها: ﴿لقد جئناكم بالحق﴾. انظر حجة القراءات ٦٥٥.

(٢) المصدر السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٦٠.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٥٦. النشر في القراءات العشر ٢/٣٧٠.

سُورَةُ الدُّخَانِ(١)

وهي تسع وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿حمٓ والكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني الكتاب أنزلناه في ليلة القدر، سميت مباركة لما فيها من البركة، والمغفرة للمؤمنين، وذلك أن القرآن أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر إلى السفرة، ثم أنزله جبريل متفرقاً إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ويقال: كان ينزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر مقدار ما ينزل به جبريل عليه السلام متفرقاً إلى السنة الثانية، ثم قال ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ يعني مخوفين بالقرآن قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يعني في ليلة القدر يقضى كل أمر محكم، ما يكون في تلك السنة إلى السنة الأخرى(٢)، وهذا قول عكرمة، وروى منصور عن مجاهد قال: فيها يقضي أمر السنة إلى السنة من المصائب والأرزاق وغير ذلك، وهذا موافق للقول الأول، ويقال في تلك الليلة: يفرق يعني ينسخ من اللوح المحفوظ ما يكون إلى العام القابل من الرزق، والأجل، والأمراض، والخصب، والشدة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: إنك لتلقى الرجل في الأسواق وقد وقع اسمه في

---

(١) أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن وشرفه وشرف وقت ابتداء نزوله ليكون ذلك مؤذناً أنه من عند الله ودالاً على رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وليتخلص منه إلى أن المعرضين عن تدبر القرآن ألهاهم الاستهزاء واللمز عن التدبر فحق عليهم دعاء الرسول بعذاب الجوع، إيقاظاً لبصائرهم بالأدلة الحسية حين لم تنجح فيهم الدلائل العقلية، ليعلموا أن إجابة الله دعاء رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دليل على أنه أرسله ليبلغ عنه مراده. فأنذرهم بعذاب يحل بهم علاوة على ما دعا به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأييداً من الله له بما هو زائد على مطلبه. وضرب لهم مثلاً بأمم أمثالهم عصوا رسل الله إليهم فحل بهم من العقاب من شأنه أن يكون عظة لهؤلاء، تفصيلاً بقوم فرعون مع موسى ومؤمني قومه، ودون التفصيل بقوم تبع، وإجمالاً وتعميماً بالذين من قبل هؤلاء. وإذ كان إنكار البعث وإحالته من أكبر الأسباب التي أغرتهم على إهمال التدبر في مراد الله تعالى انتقل الكلام إلى إثباته والتعريف بما يعقبه من عقوبة المعاندين ومثوبة المؤمنين ترهيباً وترغيباً. وأدمج فيها فضل الليلة التي أنزل فيها القرآن، أي ابتدأ إنزاله وهي ليلة القدر. وأدمج في خلال ذلك ما جرت إليه المناسبات من دلائل الوحدانية وتأييد الله من آمنوا بالرسل، ومن إثبات البعث. وختمت بالشد على قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بانتظار النصر وانتظار الكافرين القهر. التحرير ٢٥/٢٧٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥ وعزاه لابن أبي حاتم من طريق عطاء الخراساني عن عكرمة.

الأموات» ثم قرأ هذه الآية ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يعني في تلك الليلة يفرق كل أمر الدنيا إلى مثلها إلى السنة من قابل[١] ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني قضاء من عندنا ويقال معناه: بأمر من عندنا، فنزع حرف الخافض فصار نصباً ﴿إِنَّا كُنَّا مرسلين﴾ يعني الرسل إلى الخلق، ويقال يعني الملائكة في تلك الليلة ﴿رَحْمَةً مِن رَّبْكَ﴾ يعني إنزال الملائكة رحمة من الله تعالى، ويقال الرسالة [٢] رحمة من الله تعالى، ويقال هذا القرآن رحمة لمن آمن به ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولهم ﴿العليم﴾ بهم وبأعمالهم قوله عز وجل ﴿رب السموات والأرض﴾ قرأ أهل الكوفة رب بكسر الباء، والباقون بالضم[٣]، فمن قرأ بالكسر رده إلى قوله رحمة من ربك رب السموات، ومن قرأ بالضم رده إلى قوله (إنه هو السميع العليم) رب السموات، ويقال على الاستئناف، ومعناه، هو ربكم وهو رب السموات والأرض ﴿وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ يعني مؤمنين بتوحيد الله ﴿لا إله إلاّ هو يحيي ويميت﴾ وقد ذكرناه ﴿ربكم﴾ أي خالقكم ورازقكم ﴿ورب آبـائكم الأولين﴾ يعني هو خالقهم ورازقهم.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ
﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ
ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

قوله عز وجل ﴿بل هم في شك يلعبون﴾ يعني: يستهزؤون ويقال هذا جواب قوله إن كنتم موقنين فكأنه قال لا يوقنون بل هم في شك يلعبون يعني: يخوضون في الباطل قوله تعالى: ﴿فارتقب﴾ يعني: فانتظر يا محمد ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ يعني الجدب والقحط، قال القتبي: سمي / الجدب، والقحط دخاناً وفيه قولان: أحدهما أن الجائع كأنه يرى بينه وبين السماء دخاناً من شدة الجوع والثاني: أنه سمي القحط دخاناً ليبس الأرض، وانقطاع النبات، وارتفاع الغبار، فشبه بالدخان، وروى الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: «خمس مضين الدخان، واللزام، يعني العذاب الأكبر، والروم، والبطشة، والقمر[٤] وروي عن الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق قال: بينما رجل يحدث في المسجد فسئل عن قوله (يوم تأتي السماء بدخان مبين) فقال إذا كان يوم القيامة نزل دخان من السماء فأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، وأخذ المؤمنون منه بمنزلة الزكام، قال مسروق فدخلت على عبد الله فأخبرته وكان متكئاً فاستوى قاعداً ثم أنشأ فقال: يا أيها الناس من كان عنده علم فسئل عنه فليقل به، ومن لم يكن عنده علم فليقل الله أعلم، إن قريشاً حين كذبوه، يعني: ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا عليهم فقال «اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسني يوسف عليه السلام

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) سقط في ظ.
(٣) انظر حجة القراءات (٦٥٦) النشر ٢/٣٧١.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨ وعزاه لسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

فأصابهم سنه، وشدة الجوع حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام حتى كان يرى أحدهم كان بينه وبين السماء دخاناً[١]. فذلك قوله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يعني انتظر بهلاكهم يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يعني أهل مكة ﴿هَذا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني يقولون هذا الجوع عذاب أليم، ثم إن أبا سفيان وعتبة بن ربيعة، والعاص بن وائل وأصحابهم قالوا يا رسول الله استسق الله لنا فقد أصابنا شدة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ يعني الجوع ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ يعني من أين لهم التوبة والعظة والتذكرة ﴿وَقَدْ جَاءَهُم رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بلغتهم ومفقه لهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يعني أعرضوا عما جاء به فلم يصدقوه، ومع ذلك ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ يعلمه جبر ويسار أسماء الرجلين غلامي الخضر ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُم عَائِدُونَ﴾ إلى المعصية، فعادوا، فانتقم منهم يوم بدر فذلك قوله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني نعاقب العقوبة العظمى ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ منهم بكفرهم، ويقال (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) يعني يوم القيامة، ويقال آية الدخان لم تمض وستكون في آخر الزمان، وروى إسرائيل عن أبي إسحاق[٢] عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: لم تمض آية الدخان، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وينتفخ الكافر حتى يصير كهيئة الجمل[٣]، وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: «أخبِرْتُ أَنَّ الكَوْكَب ذَا الذَّنب قد طَلَعَ، فَخَشِيتُ أَنْ يَكونَ الدُّخَانَ قد طرقَ[٤]»، ويقال هذا كله يوم القيامة إذا خرجوا من قبورهم تأتي السماء بدخان مبين، محيط بالخلائق فيقول الكافرون (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ) أي ردنا إلى الدنيا (إِنَّا مُؤْمِنُونَ) يقول الله تعالى من أين لهم الرجعة وقد جاءهم رسول مبين فلم يجيبوه.

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾
وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يعني ابتلينا قبل قومك قوم فرعون ﴿وَجَاءَهُم رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على ربه وهو موسى عليه السلام، ويقال رسول كريم أي شريف ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ يعني أرسلوا معي بني إسرائيل، واتبعوني على ديني ﴿إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد جئتكم من عند الله تعالى، ويقال: كريم لأنه كان يتجاوز عنهم، ويقال: أمين فيكم قبل الوحي فكيف تتهموني اليوم، ويقال كريم: حيث يتجاوز عنهم، حين دعا

(١) انظر الدر المنثور ٦/٢٨.

(٢) عمرو بن عبد الله الهمداني أبو إسحاق السبيعي ثقة عابد اختلط بآخره. التقريب ٢/٧٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم بسند صحيح عن أبي مليكة.

موسى، ورفع عنهم الجراد والقمل والضفادع والدم (إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ) فيما بينكم وبين ربكم قوله تعالى ﴿وأن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ يعني لا تخالفوا أمر الله تعالى، ويقال لا تستكبروا عن الإيمان ولا تعلوا بالفساد لأن فرعون لعنه الله كان عالياً من المسرفين ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعني آتيكم بحجة بينة اليد والعصى، وغير ذلك ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ يعني أعوذ بالله ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ يعني أن تقتلون، ومعناه أسأل الله تعالى أن يحفظني لكي لا تقتلوني، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (عُذْتُ) بإدغام الذال في التاء لقرب مخرجيهما، والباقون بغير إدغام[١] لتبيين الحرف، ثم قال ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ يعني إن لم تصدقوني فاتركوني قوله تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ يعني دعا موسى ربه كما ذكر في سورة يونس (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِم) وقوله (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ يعني مشركون، فأبوا أن يطيعوني ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾ فأوحى الله تعالى إليه أن أدلج ببني إسرائيل ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يعني إنَّ فرعون يتبع أثركم، فخرج موسى ببني إسرائيل، وضرب بعصاه البحر فصار طريقاً يابساً، وهذا كقوله تعالى (فَاضْرِبْ لَهُم طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً) فلما جاوز موسى مع بني إسرائيل البحر فأراد موسى أن يضرب بعصاه البحر ليعود إلى الحالة الأولى، فأوحى الله تعالى إليه بقوله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ قال قتادة: يعني طريقاً يابساً واسعاً[٢] وقال الضحاك: رَهْواً يعني سهلاً، وقال مجاهد: يعني منفرجاً[٣]، وقال القتبي: يعني طريقاً سالكاً كما هو، ويقال رهواً: أي سككاً جدداً طريقاً يابساً ﴿إِنَّهُم جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن بني إسرائيل خشوا أن يدركهم فرعون، فقالوا لموسى: اجعل البحر كما كان فإننا نخشى أن يلحق بنا قال الله تعالى (إِنَّهُم جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ) يعني سيغرقون، فدخل فرعون وقومه البحر فأغرقهم الله تعالى، وبقيت قصورهم وبساتينهم، قوله تعالى ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني بساتين وأنهاراً جارية ﴿وَزُرُوعٍ﴾ يعني الحروق ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني مساكن ومنازل حسنة كذلك، يعني هكذا أخرجناهم من النعم ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ يعني معجبين، وقال أهل اللغة[٤]: النِّعمة بكسر النون هي المنة واليد الصالحة، والنُّعمة بالضم هي الميسرة، وبالنصب هي السعة في العيش ثم قال (كَذَلِكَ) يعني هكذا أخرجناهم من السعة والنعمة ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ يعني جعلناها ميراثاً لبني إسرائيل قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ قال بعضهم هذا على سبيل المثل، والعرب إذا أرادت تعظيم ملك عظيم الشأن عظيم العطية تقول كَسَفَ القَمَرُ لِفَقْدِه، وبَكَت الرِّيحُ، والسَّمَاءُ، والأَرْضُ، وقد ذكروا ذلك في أشعارهم، فأخبر الله تعالى أن فرعون لم يكن ممن يجزع له جازع، ولم يقم لفقده فقد، وقال بعضهم (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ) يعني أهل السماء، وأهل الأرض، فأقام السماء والأرض مقام أهلها كما قال (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) وقال بعضهم يعني بكت السماء بعينها، وبكت الأرض، وقال ابن عباس «لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بَابٌ فِي السَّمَاءِ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ، وَيَنْزِلُ مِنهُ رِزْقُهُ فَإِذا مَاتَ بَكَى عَلَيهِ بَابُه فِي السَّماءِ وَبَكَتْ عَلَيْهِ آثارُهُ فِي الأَرْضِ» وذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه سئل أتبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إذا مات المؤمن بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله تعالى فيها، ويصلي، وبكى عليه بابه الذي كان يرفع فيه عمله، فأخبر الله تعالى أن قوم فرعون لم تبك عليهم السماء والأرض[٥] ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ يعني مؤجلين.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٦٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٤) انظر لسان العرب ٦/٤٤٧٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ يعني من العذاب الشديد، ويقال المهين: يعني الهوان وهو قتل الأبناء، واستخدام البنات ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ يعني من عذاب فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ يعني كان عاصياً عاتياً، مستكبراً متعظماً وكان من المسرفين يعني من المشركين ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُم﴾ يعني اصطفينا بني إسرائيل ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ يعني على علم من الله تعالى أنهم أهل لذلك، ويقال (عَلَى عِلْمٍ) علم الله فيهم من صبرهم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني على عالمي زمانهم ﴿وَآتَيْنَاهُم مِنَ الآيَاتِ﴾ يعني أعطيناهم من العلامات ﴿مَا فِيهِ بلاءٌ مُبِينٌ﴾ يعني ابتلاء بينا، مثل انفلاق البحر وأشباه ذلك، ثم ذكر كفار مكة فقال ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الأُولَى﴾ يعني ما هي إلا موتتنا الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بعدها ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ أنا نبعث بعد الموت، يعني قالوا ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، قال الله تعالى ﴿أَهُم خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ يعني قومك خير أم قوم تبع، وإنما ذكر قوم تبع لأنهم كانوا أقرب إلى أهل مكة في الهلاك من غيرهم، قال الكلبي وكانوا أشراف حمير ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُم﴾ فكيف لا نهلك قومك إذا كذبوك، قال: وكان تبع اسم ملك منهم، مثل فرعون، ويقال إنما سمي تبع لكثرة أتباعه، فأسلم فخالفوه فأهلكهم الله تعالى، وكان اسمه سعد بن ملكي كرب، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عائشة رضي الله عنها قالت: إن تبع كان رجلاً صالحاً وكان كعب الأحبار يقول: ذم الله قومه ولم يذمه[1]، وقال سعيد بن جبير: إن تبعاً كسا البيت يعني الكعبة، وقال القتبي: هم ملوك اليمن، كل واحد منهم يسمى تبعاً. لأنه يتبع صاحبه، وكذلك الظل يسمى تبعاً لأنه يتبع الشمس،. وموضع التبع في الجاهلية، موضع الخليفة في الإسلام وهم ملوك العرب، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني من قبل تبع ﴿أَهْلَكْنَاهُم﴾ يعني عذبناهم عند التكذيب ﴿إِنَّهُم كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ يعني: مشركين.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ يعني عابثين لغير شيء ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني إلا لأمر هو كائن، ويقال خلقناهما للعبرة ومنفعة الخلق، ويقال للأمر والنهي والترهيب والترغيب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني لا يصدقون ولا يفقهون قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ أي يوم القضاء بين الخلق، وهو يوم القيامة ﴿مِيقَاتُهُم أَجْمَعِينَ﴾ يعني ميعادهم أجمعين، الأولين والآخرين، ويقال يوم الفصل يعني يوم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣١/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

يفصل بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والزوج والزوجة، والخليل والخليلة، ثم وصف ذلك اليوم فقال ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلىً عَنْ مولىً شَيْئاً﴾ يعني لا يدفع ولي عن ولي، ولا قريب عن قريب شيئاً في الشفاعة ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يعني: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب، يعني الكافرين، ثم وصف المؤمنين فإنه يشفع بعضهم لبعض فقال ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ في نعمته للكافرين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين.

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ يعني الفاجر وهو الوليد وأبو جهل ومن كان مثل حالهما ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ يعني كالصفر المذاب، قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص (كَالْمُهْلِ يَغْلِي) بالياء بلفظ التذكير، والباقون بلفظ التأنيث(١) فمن قرأ بلفظ التذكير رده إلى المهل، ومن قرأ بلفظ التأنيث رده إلى الشجرة ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ يعني الماء الحار الذي قد انتهى حره، ثم قال للزبانية ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يعني فسوقوه وادفعوه إلى وسط الجحيم، قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر (فَاعْتُلُوه) بضم التاء، والباقون بالكسر وهما لغتان، ومعناهما واحد، يعني امضوا به بالعنف والشدة، وقال مقاتل: يعني ادفعوه على وجهه، وقال القتبي: خذوه بالعنف ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ويقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وذلك أن أبا جهل قال: أنا في الدنيا أعز أهل هذا الوادي، وأكرمه، فيقال له في الآخرة ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، يعني المتعزز المتكرم كما قلت في الدنيا قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ يعني: تشكون في الدنيا، قرأ الكسائي (ذُقْ أَنَّك) بنصب الألف والباقون بالكسر(٢)، فمن قرأ بالنصب فمعناه: ذق يا أبا جهل لأنك قلت أنك أعز أهل هذا الوادي، فقال الله تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ) القائل أنا العزيز الكريم، ومن قرأ بالكسر فهو على الاستئناف، ثم وصف حال المؤمنين في الآخرة.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ يعني في منازل حسنة، آمنين من العذاب، قرأ نافع وابن عامر (فِي مُقَامٍ) بضم الميم، والباقون بالنصب(٣)، فمن قرأ بالنصب يعني المكان والموضع، ومن قرأ بالضم يعني

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٥٧. النشر في القراءات العشر ٢/٣٧١.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) المصدران السابقان.

الإقامة ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيونٍ﴾ يعني في بساتين وأنهار جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ﴾ يعني ما لطف من الديباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ يعني : ما ثخن منه ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ يعني : متواجهين، كما قال في آية أخرى (إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) ثم قال ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني : هكذا كما ذكرت لهم في الجنة. ثم قال عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ يعني : بيض الوجوه حسان الأعين ﴿يَدْعُوْنَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ يعني ما يتمنون من الفواكهة، آمنين من الموت ومن زوال المملكة ويقال (آمِنينَ) مما يلقى أهل النار ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ يعني : في الجنة ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ يعني : سوى ما قضى عليهم من الموتة الأولى في الدنيا ﴿وَوَقَاهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يعني : يصرف عنهم عذاب النار. قوله تعالى : ﴿فَضْلًا مِن رَّبِّكَ﴾ يعني هذا الثواب عطاء من ربك للمؤمنين المخلصين ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني النجاة الوافرة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني هَوَّنًا قراءة القرآن على لسانك لكي تقرأه وتخبرهم بذلك ﴿لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني : يتعظون بالقرآن ﴿فَارْتَقِبْ﴾ يعني : انتظر بهلاكهم ﴿إِنَّهُم مُرْتَقِبُونَ﴾ يعني : منتظرون بهلاكك، روى يعلى بن عبيد عن إسماعيل[١] عن عبد الله بن عيسى[٢] قال: «أخبرت أنه من قرأ ليلة الجمعة سورة الدخان إيماناً واحتساباً وتصديقاً أصبح مغفوراً له».

والله أعلم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبي الأمي وآله. وأزواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً دائماً.

(١) إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم الأسدي أبو بشر حافظ ثبت. تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٢.
(٢) عبد الله بن عيسى بن خالد الخزاز ضعيف. التقريب ١/ ٤٣٩.

سورة الجاثية (١)

وهي ثلاثون وسبع آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ
وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ
بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ يعني: هذا الكتاب تنزيل ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقد ذكرناه ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: لعبرات للمؤمنين في خلقهن، ويقال: معناه أن ما في السموات من الشمس، والقمر والنجوم وفي الأرض من الجبال والأشجار والأنهار وغيرها من العجائب لعبرات ودلائل واضحات للمؤمنين، يعني للمقرين المصدقين، ويقال لِلْمُؤْمِنِينَ يعني: لمن أراد أن يؤمن ويتقي الشرك قوله عز وجل: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ يعني: وفيما خلق من الدواب ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني: عبرات ودلائل لمن كان له يقين، قرأ حمزة والكسائي (آيَاتٍ) بالكسر، والباقون بالضم(٢)، وكذلك الاختلاف في الذي بعده، فمن قرأ بالكسر فإن المعنى: إن في خلقكم آيات لقوم يوقنون، فهو في موضع النصب، إلاَّ أن هذه التاء تصير خفضاً في موضع النصب، وإنما أضمر فيه إنَّ لأنَّ قوله (إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ) في موضع النصب، فكذلك في الثاني معناه: إن في خلقكم آيات، ومن قرأ بالضم فهو على الاستئناف على معنى وفي

---

(١) من أغراضها الابتداء بالتحدي بإعجاز القرآن وأنه جاء بالحق توطئة لما سيذكر أنه حق كما اقتضاه قوله «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق». وإثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلائل ما في السماوات والأرض من آثار خلقه وقدرته في جواهر الموجودات وأعراضها وإدماج ما فيها مع ذلك من نعم يحق على الناس شكرها لا كفرها. ووعيد الذين كذبوا على الله والتزموا الآثام بالإصرار على الكفر والإعراض عن النظر في آيات القرآن والإستهزاء بها. والتنديد على المشركين إذ اتخذوا آلهه على حسب أهوائهم وإذ جحدوا البعث، وتهديدهم بالخسران يوم البعث، ووصف أهوال ذلك، وما أعد فيه من العذاب للمشركين ومن رحمة للمؤمنين. ودعاء المسلمين للإعراض عن إساءة الكفار لهم والوعد بأن الله سينخزي المشركين. ووصف بعض أحوال يوم الجزاء. ونظر الذين أهملوا النظر في آيات الله مع تبيانها وخالفوا على رسولهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما فيه صلاحهم بحال بني إسرائيل في اختلافهم في كتابهم بعد أن جاءهم العلم وبعد أن اتبعوه فما ظنك بمن خالف آيات الله من أول وهلة تحذيراً لهم من أن يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تسليط الأمم عليهم وذلك تحذير بليغ. وذلك تثبيت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن شأن شرعه مع قومه كشأن شريعة موسى لا تسلم من مخالف، وأن ذلك لا يقدح فيها ولا في الذي جاء بها، وأن لا يعبأ بالمعاندين ولا بكثرتهم إذ لا وزن لهم عند الله. التحرير ٢٥/٣٢٤.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٥٨. النشر ٢/٣٧١.

خلقكم آيات ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني: في اختلاف الليل والنهار، في سواد الليل وبياض النهار، يعني في اختلاف ألوانهما، وذهاب الليل ومجيء النهار ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ وهو المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني بعد يبسها وقحطها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ مرة رحمة، ومرة عذاباً، **ويقال**: مرة جنوباً ومرة شمالاً ثم قال ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تلك آيَاتُ اللَّهِ﴾ يعني هذه دلائل الله وعلامة وحدانيته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني يقرأ عليك جبريل من القرآن بأمر الله ﴿فبأي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال مقاتل: إن لم تؤمنوا بهذا القرآن فبأي حديث بعد توحيد الله وبعد القرآن تؤمنون يعني: تصدقون.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾
وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم
مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يعني كذاب فاجر ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿تُتْلى عَلَيْهِ﴾ يعني: يعرض عليه ويقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً﴾ يعني: يقيم على الكفر متكبراً عن الإيمان ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يعني: كأن لم يعقلها، ولم يفهمها ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: شديد، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (وَآيَاتِهِ تُؤْمِنُونَ) بالتاء على معنى المخاطبة، والباقون بالياء[1] على معنى الخبر عنهم قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنِ آيَاتِنَا شَيئاً اتَّخَذَها هُزُواً﴾ يعني إذا سمع من آياتنا يعني من القرآن اتخذها هزءاً يعني سخرية، ويقال مثل حديث رستم، وإسنفديار، وهو النضر بن الحارث ﴿أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهانون فيه قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِم جَهَنَّمُ﴾ يعني: أمامهم جهنم ويقال من بعدهم في الآخرة جهنم ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ يعني: لا ينفعهم ما جمعوا من المال ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: لا ينفعهم ما عبدوا دونه من الأصنام ﴿وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. قوله تعالى: ﴿هَذَا هُدىً﴾ يعني: هذا القرآن بيان من الضلالة، ويقال هذا العذاب الذي حق ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني جحدوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِم﴾ يعني: بالقرآن ﴿لَهُم عَذَابٌ مِن رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ يعني: وجيع في الآخرة، قرأ ابن كثير وعاصم في رواية حفص (أَلِيمٌ) بضم الميم، والباقون بكسر الميم، كما ذكرنا في سورة سبأ ثم ذكرهم النعم ليعتبروا.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا
لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ وقد ذكرناه ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: ذلل لكم ما في السموات وما في الأرض

(١) انظر حجة القراءات ٦٥٩. إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٦٦.

لصلاحكم ثم قال تعالى: ﴿جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ يعني: جميع ما سخر الله تعالى هو من قدرته ورحمته، ويقال (جَمِيعاً مِّنْهُ) يعني: مِنَّةً منه، قال مقاتل: يعني جميعاً من أمره وروى عكرمة عن ابن عباس قال: جميعاً منه، منه النور ومنه الشمس ومنه القمر[١] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ يعني: فيما ذكر ﴿لآيَاتٍ﴾ يعني دلالات وعبرات ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعتبرون في صنعه وتوحيده، وروى الأعمش عن عمرو بن مرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي الخَالِقِ، فَقَالَ تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ»[٢] وروى وكيع عن هشام عن عروة عن أبيه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُم فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ فيقول الله، فيقول من خلق الأرض؟ فيقول الله، فيقول من خلق الله تعالى؟ فإذا افْتُتِنَ أَحَدُكُم بِذَلِكَ فليقل آمنت بالله ورسوله»[٣] قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال مقاتل والكلبي: وذلك أن رجلاً من الكفار من قريش شتم عمر رضي الله عنه بمكة، فهم عمر بأن يبطش به فأمره الله بأن يتجاوز عنه فقال: (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا) يعني: عمر ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ﴾ يعني يتجاوزوا ولا يعاقبوا الذين ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ يعني: لا يخافون عقوبته التي أهلك بها عادا وثمودا، والقرون التي أهلكت قبلهم يعني: لا يخشون مثل أيام الأمم الخالية، قال قتادة ثم نسختها آية القتال (اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ثم قال: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: يجزيهم بأعمالهم في الآخرة، قال مجاهد (لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ) يعني لا ينالون نعم الله، قرأ حمزة والكسائي وابن عامر (لِنَجْزِيَ) بالنون على الإضافة إلى نفسه، والباقون لِيَجْزِيَ بالياء[٤] أي ليجزي الله.

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله عز وجل: ﴿مَنْ عمِلَ صَالِحَاً فَلِنَفْسِهِ﴾ يعني ثوابه لنفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ يعني عقوبته عليها ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني أولاد يعقوب ﴿الْكِتَابَ﴾ أي التوراة، والزبور والإنجيل، لأن موسى وداود وعيسى كانوا في بني إسرائيل ﴿وَالْحُكْمَ﴾ يعني الفهم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٤ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء وقال العراقي في تخريجه عليه ٤/٤٢٤ أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت: فيه الوازع بن نافع متروك.

(٣) أخرجه البخاري بنحوه ٦/٣٣٦ كتاب بدء الخلق (٣٢٧٦) ومسلم ١/١٢٠ كتاب الإيمان (٢٠٩ ـ ١٣٢).

(٤) حجة من قرأ بالنون قوله تعالى ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ وحجة الباقين أن ذكر الله قد تقدم في قوله ﴿لا يرجون أيام الله﴾ فيكون فاعل «يجزي». انظر حجة القراءات ٦٦٠.

والعلم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ يعني جعلنا فيهم النبوة، فكان فيهم ألف نبي ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني الحلال من الرزق وهو المن والسلوى، ويقال رزقناهم من الطيبات يعني أورثناهم أموال فرعون ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني فضلناهم بالإسلام على عالمي زمانهم ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ يعني الحلال والحرام، وبيان ما كان قبلهم، ثم اختلفوا بعده، قوله تعالى ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ يعني في الدين ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتبهم ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ يعني حسداً منهم وطلباً للعز والملك، ويقال اختلفوا في الدين فصاروا أحزاباً فيما بينهم، يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من دين بعض ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني يحكم بينهم ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الكتاب والدين قوله عز وجل ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ يعني أمرناك وألزمناك وأثبتناك على شريعة، ويقال على سنة من الأمر، وذلك حين دعوه إلى ملتهم، ويقال على شريعة: يعني على ملة ومذهب، وقال قتادة: الشريعة الفرائض والحدود والأحكام[1]. ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ يعني اثبت عليها ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يصدقون بالتوحيد ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني إن تركت الإسلام إنهم لا يمنعوك من عذاب الله شيئاً ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يعني بعضهم على دين بعض ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ناصر الموحدين المخلصين ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعني يبصرهم ما لهم وما عليهم، والواحدة بصيرة يعني يبين لهم الحلال والحرام، ويقال: هذا القرآن دلائل للناس، ويقال: دعوة وكرامة ثم قال ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني يصدقون بالرسل والكتاب، ويوقنون أن الله أنزله نعمة وفضلاً.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يعني اكتسبوا السيئات، وذلك أنهم كانوا يقولون إنا نعطى في الآخرة من الخير ما لم تعطوا، قال الله تعالى (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ) يعني أيظن الذين عملوا الشرك وهو عتبة وشيبة والوليد وغيرهم ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني علياً وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ يعني يكونون سواء في نعم الآخرة، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (سَوَاءً) بالنصب، والباقون بالضم[2]، فمن قرأ بالنصب فمعناه أحسبوا أن نجعلهم سواء، أي مستوياً، فيجعل (أَن نَّجْعَلَهُمْ) متعدياً إلى مفعولين، ومن قرأ بالضم: جعل تمام الكلام عند قوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ثم ابتدأ فقال (سَوَاءٌ مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهم) خبر الابتداء، وقال مجاهد (سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ) قال: المؤمنون في الدنيا والآخرة مؤمن يكون على إيمانه، يموت على إيمانه ويبعث على إيمانه، والكافر في الدنيا والآخرة كافر يموت على

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥ وعزاه لابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٦١ النشر ٢/٣٧٢.

الكفر ويبعث على الكفر[١]، وروى أبو الزبير عن جابر قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ المُؤْمِنُ عَلَى إِيمانِهِ والمُنَافِقُ عَلَى نِفَاقِهِ» ثم قال ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما يقضون الخير لأنفسهم حين يرون أن لهم ما في الآخرة ما للمؤمنين قوله عز وجل ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ يعني بما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم، ولا يُزادون على سيئاتهم قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ قال يعمل بهواه، ولا يهوى شيئاً إلا ركبه، ولا يخاف الله ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يعني علم منه أنه ليس من أهل الهدى ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ يعني خذله الله فلم يسمع الهدى، وقلبه: يعني ختم على قلبه فلا يرغب في الحق ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ يعني غطاء كي لا يعتبر في دلائل الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي (غَشْوة) بنصب الغين بغير ألف، والباقون (غِشَاوَةً)[٢]، كما اختلفوا في سورة البقرة، ومعناهما واحد ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ يعني من بعد ما أضله الله ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن من لا يقبل إلى دين الله، ولا يرغب في طاعته لا يكرمه بالهدى والتوحيد.

وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يعني آجالنا تنقضي نموت ويحيي آخرون، يعني نموت نحن ويحيا أولادنا، ويقال يموت قوم ويحيا آخرون، ووجه آخر: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني نحيا ونموت لأن الواو للجمع لا للتأخير، ووجه آخر: نموت ونحيا أي كنا أمواتاً في أصل الخلقة، ثم نحيا، ثم يهلكنا الدهر فذلك قوله ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ يعني لا يميتنا إلا مضي الأيام وطول العمر، قال الله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني يقولون قولاً بغير حجة، ويتكلمون بالجهل ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يعني ما هم إلا جاهلون قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني تعرض عليهم آيات القرآن واضحات، بين فيه الحلال والحرام ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ﴾ أي لم تكن حجتهم وجوابهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ يعني أحيوا لنا آباءنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنا نبعث ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يخلقكم من النطفة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني يوم القيامة يجمع أولكم وآخركم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه عند المؤمنين، ويقال: لا ينبغي أن يشك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني البعث بعد الموت قوله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض، ويقال له نفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ يعني يخسر المكذبون بالبعث، وهم أهل الباطل والكذب، ثم قال «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥ وعزاه لابن جرير.

(٢) حجتهم قوله تعالى: ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ قال الفراء: كان «غشاوة» اسم و «غشوة» شيء يغشى البصر في مرة واحدة وفي وقعة واحدة مثل الرمية والوقعة. انظر حجة القراءات ٦٦٢.

وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى
رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿**وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً**﴾ يعني مجتمعة للحساب على الركب ﴿**كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا**﴾ يعني إلى ما في كتابها من خير أو شر، وهذا كقوله (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) يعني بكتابهم ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يعني يقال لهم اليوم تثابون بما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر قوله تعالى ﴿**هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ**﴾ يعني هذا الذي كتب عليكم الحفظة (يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ) ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ يعني يشهد عليكم بالحق ﴿**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ يعني نستنسخ عملكم من اللوح المحفوظ، نسخة أعمالكم (مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) من الحسنات والسيئات، قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا الماسرخسي قال حدثنا إسحاق قال حدثنا بقية بن الوليد[١] قال حدثنا أرطأة بن المنذر قال عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال «أول ما خلق الله القلم فكتب ما يكون في الدنيا من عمل معمول براً وفاجراً، وأحصاه في الذكر، فاقرؤوا إن شئتم (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فهل يكون النسخ إلا من شيء قد فرغ[٢] منه».

وروى الضحاك عن ابن عباس أن الله تعالى وكل ملائكته يستنسخون من ذلك الكتاب المكتوب عنده كل عام في شهر رمضان ما يكون في الأرض من حدث إلى مثلها من السنة المقبلة، فيعارضون به حفظة الله تعالى على عبادة كل عشية خميس، فيجدون ما رفع الحفظة موافقاً لما في كتابهم ذلك لا زيادة فيه ولا نقصان[٣] وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ألستم قوماً عرباً، هل يكون النَّسخ إلاَّ مِن أَصْل كَان قَبْل ذَلِكَ وقال القتبي (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ) قال: إن الحفظة يكتبون جميع ما يكون من العبد[٤] ثم يقابلونه بما في أم الكتاب فما فيه من ثواب أو عقاب أثبت، وما لم يكن فيه ثواب ولا عقاب محي، فذلك قوله (يَمْحُو اللَّهُ مَا يشاء وَيُثْبِتُ) الآية، وقال الكلبي يرفعان ما كتبا فينسخان ما فيها من خير أو شر، ويطرح ما سوى ذلك، قوله تعالى ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**﴾ وقد ذكرناه قوله عز وجل ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ يعني جحدوا بالكتاب والرسل والتوحيد يقال لهم ﴿**أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾ يعني تقرأ عليكم في الدنيا ﴿**فَاسْتَكْبَرْتُمْ**﴾ يعني تكبرتم عن الإيمان والقرآن ﴿**وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ**﴾ يعني مشركين كافرين بالرسل والكتب.

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ

(١) بقية بن الوليد بن صائد بن كعب الكلاعي صدوق كثير التدليس عن الضعفاء. التقريب ١/١٠٥.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٦ وعزاه لابن مردويه.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٧ وعزاه للطبراني عن ابن عباس.
(٤) انظر الدر المنثور ٦/٣٦.

لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني إذا قال لكم الرسل في الدنيا إن البعث بعد الموت حق ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي لا شك فيها، قرأ حمزة (والسَّاعَةَ) بالنصب عطف على قوله (إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وَإِنَّ السَّاعَةَ، قرأ الباقون بالضم[1] ومعناه: (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) وقيل (وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا) أي لا شك فيها ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ يعني ما القيامة، وما البعث ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ يعني قلتم ما نظن إلا ظناً غير اليقين ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنها كائنة قوله عز وجل ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أي ظهر لهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ يعني عقوبات ما عملوا في الدنيا ويقال تشهد عليهم جوارحهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني نزل بهم العذاب ووجب عليهم العذاب باستهزائهم أنه غير نازل بهم ﴿وَقِيلَ﴾ يعني قالت لهم الخزنة ﴿الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ يعني نترككم في النار ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني كما تركتم الإيمان والعمل لحضور يومكم هذا ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ يعني مثواكم ومستقركم النار ﴿وَمَا لَكُمْ مِن نَّاصِرِينَ﴾ يعني ليس لكم مانع يمنعكم مما نزل بكم من العذاب ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾ يعني هذا العذاب بأنكم لم تؤمنوا ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يعني ما في الدنيا من زينتها وزهرتها ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي بنصب الياء، فيجعلان الفعل لهم، والباقون بالضم على فعل ما لم يسم فاعله[2] ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يعني لا يرجعون إلى الدنيا، وقال الكلبي لا يعاتبون بعد هذا القول ويتركون في النار، ويقال لا يراجعون الكلام بعد دخولهم النار ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ يعني عند ذلك يحمد المؤمنون الله في الجنة كقوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)، ويقال: فلله الحمد، يعني له آثار الحمد فعلى جميع الخلق أن يحمدوه، ويقال: فلله الحمد يعني الألوهية والربوبية ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾ يعني الحمد لرب الأرض ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني لرب جميع الخلق الحمد والثناء ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ يعني العظمة والقدرة والسلطان والعزة ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وقضائه. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) يكون رفعها على وجهين: أحدهما أن تعطفه من الأول فتعطف جملة على جملة على معنى (وقيل: الساعة لا ريب فيها)، والوجه الآخر أن يكون المعطوف محمولاً على موضع «إن» وما عملت فيه، وموضعها رفع. وحجتهم إجماع الجميع على قوله ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾. ومن نصب حمله على لفظ الوعد، المعنى: وإذا قيل إن وعد الله حق وإن الساعة) مثل: إن زيداً منطلق وعمراً قائم. الحجة (٦٦٢).

(٢) حجتهم قوله تعالى: ﴿ربنا أخرجنا منها﴾: ويقوى الرفع قوله ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ليكون الكلام على نظام واحد. انظر حجة القراءات ٦٦٢.

سُورَةُ الأَحْقَافِ (١)

وهي ثلاثون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿حَمٓ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ وقد ذكرناه ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الشمس والقمر، والنجوم، والرياح، والخلق ﴿إِلاَّ بِالحَقِّ﴾ يعني إلا ببيان الحق لأمر عظيم هو كائن، ولم يخلقهن عبثاً ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يعني خلقهن لأجل أمر عظيم ينتهي إليه وهو يوم القيامة، وهو الأجل المعلوم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني مشركي مكة ﴿عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ يعني عما خوفوا به تاركون فلا يؤمنون به، ولا يتفكرون فيه.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن
قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا
يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ
كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني ما تعبدون من الأصنام، قال القتبي: ما: هاهنا في موضع الجمع يعني الذين يدعون من الآلهة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني أخبروني ما الذي خلقوا من الأرض، كالذي خلق الله تعالى، إن كانوا آلهة ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعني أم لهم نصيب ودعوة في السموات، يعني في

---

(١) من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افتتحت مثل سورة الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه منزل من عند الله والاستدلال بإتقان خلق السموات والأرض على التفرد بالإلهية، وعلى إثبات جزاء الأعمال والإشارة إلى وقوع الجزاء بعد البعث وأن هذا العالم صائر إلى فناء. وإبطال الشركاء في الإلهية. والتدليل على خلوهم عن صفات الإلهية. وإبطال أن يكون القرآن من صنع غير الله. وإثبات رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ واستشهاد الله تعالى على صدق رسالته واستشهاد شاهد بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام. والثناء على الذين آمنوا بالقرآن وذكر بعض خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر وحسدهم الذي بعثهم على تكذيبه. وذكرت معجزة إيمان الجن بالقرآن. وختمت السورة بتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وأقحم في ذلك معاملة الوالدين والذرية مما هو من خلق المؤمنين، وما هو من خلق أهل الضلالة. والعبرة بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن الله أخذهم بكفرهم وأهلك أمماً أخرى فجعلهم عظة للمكذبين وأن جميعهم لم تغن عنهم أربابهم المكذوبة. وقد أشبهت كثيراً من أغراض سورة الجاثية مع تفنن. التحرير ٢٦/٦ ـ ٧.

خلق السموات ثم قال ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي بحجة لعبادتكم الأصنام في كتاب الله، ويقال ائتوني بحجة من الله ومن الأنبياء من قبل هذا يعني من قبل هذا القرآن الذي أتيتكم به فيه بيان ما تقولون ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني رواية تروونها من الأنبياء والعلماء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الله تعالى أمركم بعبادة الأوثان، قرأ الحسن وأبو عبد الرحمن السلمي (أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) قال القتبي هو اسم مبني على فعلة من ذلك والأول فعالةٌ، والأثرة التذكرة، ومنه يقال فلان يأثر الحديث أي يرويه وقال قتادة (أَوْ أَثَارَةٍ) يعني خاصة من علم[1]، ويقال (أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ) يؤثر عن الأنبياء والعلماء، فلما قال لهم ذلك سكتوا قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني من أشد كفراً ممن يعبد من دون الله آلهة ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني لا يجيبه وإن دعاه إلى يوم القيامة ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ يعني عن عبادتهم، ثم بين إجابتهم وحالهم يوم القيامة فقال تعالى ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ يعني إلى البعث ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يعني صارت الآلهة أعداء لمن عبدهم ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ يعني جاحدين ويتبرؤون منهم ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني تقرأ عليهم آياتنا واضحات، فيها الحلال والحرام، ويقال بينات فيها دلائل واضحات ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ يعني للقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي حين جاءهم هذا سحر بين.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾

قوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعني اختلقه من ذات نفسه ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ يعني اختلقته من تلقاء نفسي يعذبني الله تعالى عليه ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يعني لا تقدرون أن تمنعوا عذاب الله عني ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يعني تخوضون فيه من الكذب في القرآن ﴿كَفَى بِهِ شَهِيداً﴾ يعني كفى بالله عالماً ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ويقال تفيضون: أي تقولون ثم قال ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يعني الغفور لمن تاب، الرحيم بهم قوله تعالى ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ يعني ما أنا أول رسول بعث ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ يعني يرحمني وإياكم، أو يعذبني وإياكم، وقال الحسن في قوله (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) يعني في الدنيا[2]، وقال الكلبي: وذلك أنه رأى في المنام أنه أخرج إلى أرض ذات نخل وشجر، فأخبر أصحابه، فظنوا أنه وحي أوحي إليه فاستبشروا، فمكثوا بذلك ما شاء فلم يروا شيئاً مما قال لهم، فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذي قلت لنا؟ فقال: إنما كان رؤيا رأيتها ولم يأت وحي من السماء، وما أدري أيكون ذلك أو لا يكون، فنزل قوله (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ) يعني ما كنت أولهم، وقد بعث قبلي رسل كثير (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِيَ وَلَا بِكُمْ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ ويقال: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، يرحمني وإياكم أو يعذبني وإياكم، فقالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم: إذاً لا فرق بيننا وبينك، كما نحن لا ندري ما يفعل بنا، ولا تدري ما يفعل بك وقد عير المشركون المسلمين فقالوا (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً) لا يدري ما يفعل

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨ وعزاه لابن جرير.

به: فأنزل الله تبارك وتعالى (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً) فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة نزل عليه (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وقد نسخت هذه الآية (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً) ثم قال تعالى ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يعني مخوف مفقه لكم بلغة تعرفونها قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني إن كان القرآن من عند الله تعالى ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ يعني جحدتم بالقرآن، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقتادة: هو عبد الله بن سلام[(١)]، وروى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «لا يشهد لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه نزلت» (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾[(٢)] أي على مثل شهادة عبد الله بن سلام، يعني بنيامين على مثله، يعني على مثل شهادة عبد الله بن سلام، وكان ابن أخ عبد الله بن سلام شهد على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم، وروى وكيع عن ابن عون قال ذكر عندا الشعبي (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أنه عبد الله بن سلام، فقال الشعبي: وكيف يكون عبد الله بن سلام هو الشاهد وهذه السورة مكية، وكان ابن سلام بالمدينة، قال ابن عون فثبت أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: صدق الشعبي، إن تلك السورة نزلت بمكة ، ولكن هذه الآية نزلت بالمدينة، فوضعت في هذه السورة، وروى داود بن أبي هند عن الشعبي، عن مسروق قال: والله ما هو عبد الله بن سلام ولقد أنزلت بمكة، فخاصم به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، الذين كفرُوا من أهل مكة[(٣)] أن التوراة مثل القرآن، وَمُوسى مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكُل مؤمن بالتوراة فهو شاهد من بني إسرائيل، ثم قال ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يعني تكبرتم وتعاظمتم عن الإيمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الكافرين.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني قال رؤساء المشركين لضعفاء المسلمين ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً﴾ يعني لو كان هذا الدين حقاً ﴿مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وقال قتادة قال أناس من المشركين نحن أعز، ونحن أغنى ونحن أكرم، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان[(٤)]، قال الله تعالى (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَّشَاءُ) يعني يختار لدينه من كان أهلاً لذلك ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ يعني لم يؤمنوا بهذا أي القرآن كما اهتدى به أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ يعني القرآن كذب قديم، أي تقادم من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ يعني قد أنزل قبل هذا القرآن الكتاب على موسى، يعني التوراة ﴿إِمَاماً﴾ يقتدى به

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩ وعزاه لابن سعد وابن عساكر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩ وعزاه للبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

﴿وَرَحْمَةً﴾ من العذاب لمن آمن به ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ يعني وأنزل إليك هذا الكتاب مصدق للكتب التي قبله ﴿لِسَاناً عَرَبِيًّا﴾ بلغتكم لتفهموا ما فيه ﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني مشركي مكة، قرأ نافع وابن عامر (لِتُنْذِرَ) بالتاء على معنى المخاطبة، يعني لتنذر أنت يا محمد والباقون بالياء[1] على معنى الخبر عنه، يعني ليخوف محمد - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ يعني بشارة بالجنة للموحدين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرناه

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ
عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

ثم قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً﴾ يعني أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه، قال مقاتل والكلبي: نزلت الآية في شأن أبي بكر[2] الصديق رضي الله عنه، ويقال هذا أمر عام لجميع الناس، قرأ حمزة والكسائي وعاصم «إِحْسَاناً» بالألف، ومعناه: أمرناه بأن يحسن إليهما إحساناً، والباقون «حُسْناً» بغير ألف[3] فجعلوه اسماً وأقاموه مقام الإحسان، ثم ذكر حق الوالدين فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً﴾ يعني في مشقة ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ يعني في مشقة ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ يعني حمله في بطن أمه، وفصاله ورضاعه ﴿ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ وروى وكيع بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن رجلاً قال له إني تزوجت جارية سليمة، بكراً، لم أر منها ريبة، وإنها ولدت لستة أشهر، فقرأ علي (وَالْوَالِدَاتِ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) وقرأ (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً) فالحمل ستة أشهر، والرضاع سنتين، والولد ولدك، وقال وكيع هذا أصل إذا جاءت بولد لأقل من ستة أشهر لم يلزمه فيفرق بينهما ثم قال ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ يعني بلغ ثلاثاً وثلاثين ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ صدق بالنبي - صلى الله عليه وسلم، يعني أبا بكر ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ يعني ألهمني ما أؤدي به شكر نعمتك، وما أوزعت به نفسي أن أكفها عن كفران نعمتك، وأصله من وزعته: أي دفعته، قال رب أوزعني أن أشكر، يعني أن أؤدي شكر نعمتك ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ يعني تقبله ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يعني أكرمهم بالتوحيد ويقال: اجعلهم أولاداً صالحين مسلمين، فأسلموا كلهم ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يعني أقبلت إليك بالتوبة ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني المخلصين الموحدين على دينهم قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل هذه الصفة يعني أبا بكر ووالديه وذريته ومن كان في مثل حالهم ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني سنجزيهم بإحسانهم، قرأ حمزة

---

(١) حجة من قرأ بالتاء قوله تعالى: ﴿وأنذر الناس﴾ وقال ﴿إنما أنت منذر﴾ وقال ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ فجعل الفعل للنبي - صلى الله عليه وسلم - فكذلك في قوله ﴿لتنذر﴾ وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿لينذر بأساً شديداً﴾. انظر حجة القراءات ١٦٣ النشر ٢/٣٧٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠ وعزاه لابن عساكر.

(٣) حجة من قرأ بالألف إجماع الجميع على قوله ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وحجة الباقين قوله تعالى: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾ قالوا: فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر المصدران السابقان.

والكسائي وعاصم في رواية حفص (نَتَقَبَّل) بالنون ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ بالنون، وقرأ الباقون بالياء والضم[١]، فمن قرأ بالنون فهو على معنى الإضافة إلى نفسه، يعني نتقبل نحن، ونصب أحسن لوقوع الفعل عليه ومن قرأ بالياء والضم فهو على معنى فعل ما لم يسم فاعله، ولهذا رفع قوله (أَحْسَنُ) لأنه مفعول ما لم يسم فاعله ثم قال (وَنَتَجَاوَزُ) ﴿عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني ما فعلوا قبل التوبة فلا يعاقبون عليها ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ يعني هم مع أصحاب الجنة، وروى أبو معاوية[٢] عن عاصم الأحول[٣] عن الحسن قال (مَن يَعْمَل سُوءاً يُجْزَ بِهِ) إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، وأما من أراد الله كرامته فإنه يتجاوز عن سيئاته (فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ) ثم قال ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ يعني وعد الصدق في الجنة قوله تعالى ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ يعني عبد الرحمن بن أبي بكر، قال لوالديه أف لكما يعني قدراً لكما، وهو الرديء من الكلام، وقد ذكرنا الاختلاف في موضع آخر، وقد قرىء على سبع قراءات: بالنصب، والضم، والكسر، وكل قراءة تكون بالتنوين وبغير تنوين، فتلك ست قراءات، والسابع أفْ بالسكون، ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ يعني أن أبعث بعد الموت، وذلك قبل أن يسلم ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي مضت الأمم ولم يبعث أحدهم ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ يعني أبويه يدعوان الله تعالى له بالهدى، اللهم آهده وآرزقه الإيمان، ويقولان له ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني ويحك أسلم وصدق بالبعث، فإن البعث كائن ﴿فَيَقُولُ﴾ لهما ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني كذبهم، فقال عبد الرحمن إن كنتما صادقين فأخرجا فلاناً وفلاناً من قبورهما فنزل ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني القرون التي ذكر ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي وجب عليهم العذاب ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني في أمم قد مضت من قبلهم من كفار ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ في الآخرة بالعقوبة، فأسلم عبد الرحمن وحسن إسلامه، وذكر في الخبر أن مروان بن الحكم قال نزلت هذه الآية في شأن عبد الرحمن أخ عائشة، فبلغ ذلك عائشة فقالت: بل نزلت في أبيك وأخيك قوله عز وجل ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ يعني فضائل في الثواب مما عملوا ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أجورهم ﴿وَهُمْ لاَيُظْلَمُونَ﴾ يعني لا ينقصون من ثواب أعمالهم شيئاً، ولا يزادون على سيئات أعمالهم قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعني يكشف الغطاء

(١) حجة من قرأ بالنون أن الكلام أتى عقيب قوله ﴿ووصينا الإنسان﴾ فأجرى ما بعده بلفظه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد وحجة الباقين قوله: ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض﴾ و ﴿لن تقبل توبتهم﴾ و ﴿ما تقبل منهم﴾ فأجري هذا مجرى نظائره ليأتلف الكلام على نظم واحد. الحجة (٦٦٤).

(٢) عمرو بن عبد الله بن وهب النخعي الكوفي ثقة. التقريب ٢/٧٤.

(٣) عاصم بن سليمان الأحول أبو عبد الرحمن البصري ثقة. التقريب ١/٣٨٤.

عنها، فينظرون إليها، فيقال لهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ يعني أكلتم حسناتكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ يعني انتفعتم بها في الدنيا، وقرأ ابن عامر (أَأَذْهَبْتُمْ) بهمزتين، وقرأ ابن كثير (آذْهَبْتُمْ) بالمد ومعناهما واحد، ويكون استفهاماً على وجه التوبيخ، والباقون (أَذْهَبْتُمْ) بهمزة واحدة بغير مد[1] على معنى الخبر وروي عن عمر أنه اشتهى شراباً فأتي بقدح فيه عسل، فأدار القدح في يده قال: أشربها فتذهب حلاوتها، أوتبقى نقمتها، ثم ناول القدح رجلاً، فسئل عن ذلك فقال: خشيت أن أكون من أهل هذه الآية (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) وروي عن عمر أنه دخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على حصير وقد أثر بجنبه الشريط، فبكى عمر، فقال: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه من الدنيا، وأنت رسول رب العالمين قد أثر بجنبك الشريط، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتنا في الآخرة»[2] قوله ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُوْنِ﴾ يعني العذاب الشديد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني تستكبرون عن الإيمان ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ يعني تعصون الله تعالى.

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا
نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني واذكر لأهل مكة، ويقال معناه واصبر على ما يقولون واذكر هود ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ يعني خوف قومه بموضع يقال له الأحقاف روى منصور عن مجاهد قال: الأحقاف الأرض[3]، ويقال: جبل بالشام ويسمى الأحقاف، وقال القتبي: الأحقاف: جمع حقف وهو من الرمل ما أشرف من كثبانه واستطال وانحنى ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يعني مضت من قبل هود ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني ومن بعده ﴿أَلاَّ

(١) انظر الحجة ٦٦٥ وإتحاف فضلاء البشر ٢/٤٧٢.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/١٤٠.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٣ وعزاه لابن جرير.

﴿تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يعني خوفهم ألا تعبدوا إلا الله ووحدوه ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني أعلم أنكم إن لم تؤمنوا يصبكم عذاب يوم كبير ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يعني لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنَ العذاب نازل بنا ﴿قَالَ﴾ هود ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني علم العذاب عند الله يجيء بأمر الله، وإنَّما عليّ تبليغ الرسالة، وليس بيدي إتيان العذاب، فذلك قوله ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ يعني ما يوحي الله إليَّ لأدعوكم إلى التوحيد ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ لما قيل لكم، ولما يراد بكم من العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ يعني لما رأوا العذاب مقبلاً، وكانت السحابة إذا جاءت من قبل ذلك الوادي أمطروا، وقال القتبي: العارض: السحاب ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ يعني هذه سحابة وغيم ممطرنا، أي تمطر به حروثنا، لأن المطر كان حبس عنهم فقال هود: ليس هذا عارض ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ يعني الريح والعذاب ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي متلف، وروى عطاء عن عائشة قالت: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأى رياحاً مختلفة تلون وجهه وتغير وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فذكرت ذلك له فقال: وما يدريك لعله كما قال الله (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) فإذا أمطرت سري عنه، ويقول (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)[1] ثم قال تعالى ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ يعني تهلك الريح كل شيء بأمر ربها، أي بإذنه تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أي فصاروا من العذاب بحال ﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ وقد ذكرناه في سورة الأعراف، قرأ حمزة وعاصم (لَا يُرَى) بضم الياء (مَسَاكِنُهُم) بضم النون على معنى: فعل ما لم يسم فاعله، يعني: لا يرى شيء وقد هلكوا كلهم، وقرأ الباقون (لَا تَرى) بالتاء على معنى المخاطبة[2]، ومعناه لا ترى شيئاً أيها المخاطب لو كنت حاضراً ما رأيت إلا مساكنهم، ثم قال ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني هكذا نعاقب القوم المشركين عند التكذيب ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ يعني أعطيناهم الملك والتمكين ﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ يعني ما لم نمكن لكم، ولم نعطكم يا أهل مكة، وقال القتبي إن الخفيفة قد تزاد في الكلام كقول الشاعر: ما إن رأيت ولا سمعت به، يعني ما رأيت ولا سمعت به يعني ما لم نمكن لكم ومعنى الآية ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه، وقال الزجاج: إنْ هاهنا مكان ما، يعني فيما مكناكم فيه، ويقال معناه ولقد مكناهم في الذي مكناكم فيه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً﴾ يعني جعلنا لهم سمعاً ليسمعوا المواعظ، وأبصاراً لينظروا في الدلائل وأفئدة ليتفكروا في خلق الله تعالى ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ يعني لم ينفعهم من العذاب ﴿سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إذ لم يسمعوا الهدى، ولم ينظروا في الدلائل، ولم يتفكروا في خلقه ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني بدلائله ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ يعني نزل بهم من العذاب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني العذاب الذي كانوا يجحدون به ويستهزئون قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ يعني أهلكنا قبلكم يا أهل مكة بالعذاب ما حولكم من القرى ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي بينا لهم الدلائل والحجج والعلامات ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون عن كفرهم قبل أن يهلكوا قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ يعني فهلا نصرهم، يعني كيف لم يمنعهم من العذاب ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً﴾ يعني عبدوا من دون الله ما يتقربون بها إلى الله ﴿آلِهَةً﴾ يعني أصناماً كما قال في آية أخرى (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ يعني الآلهة لم تنفعهم شيئاً، ويقال اشتغلوا بأنفسهم، ويقال بطلت عنهم ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ يعني كذبهم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٣ وعزاه لعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٦٦، النشر ٢/٣٧٣.

﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يعني يختلقون، وذكر أبو عبيدة بإسناده عن عبد الله بن عباس أنه قرأ (أَفَكَهُمْ) بنصب الألف والفاء والكاف، يعني ذلك الفعل أضلهم وأهلكهم وصرفهم عن الحق، وقراءة العامة بضده (وَذَلِكَ إِفْكهم) يعني ذلك الفعل: وهو عبادتهم وقولهم وكذبهم، ويقال (وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ) اليوم كما كان إفك من كان قبلهم.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ
قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ
بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ
ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ
إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بعث خرت الأصنام على وجوهها في تلك الليلة، فصاح إبليس صيحة فاجتمع إليه جنوده فقال لهم: قد عرض أمر عظيم امضوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، يعني امشوا وانظروا ماذا حدث من الأمر، وروى ابن عباس، أنه لما بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيل بين الشياطين وبين السماء وأرسل عليهم الشهب، فجاؤوا إلى إبليس فأخبروه بذلك، قال هذا الأمر حادث اضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فجاء نفر منهم فوجدوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي تحت نخلة في سوق عكاظ ومعه ابن مسعود وأصحابه، وكان يقرأ سورة طه في الصلاة، وروى وكيع عن سفيان عن عاصم، عن رجل، عن زر بن حبيش في قوله تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ) قال كانوا تسعة أحدهم زوبعة أتوه ببطن نخلة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ وروى عكرمة عن الزبير قال: كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ في العشاء الأخيرة، فلما حضروا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال بعضهم لبعض: أنصتوا للقرآن واستمعوا ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يعني فرغ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من القراءة والصلاة ﴿وَلَّوْا﴾ يعني رجعوا ﴿إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ﴾ قال مقاتل يعني المؤمنين، وقال الكلبي يعني مخوفين، وقال مجاهد: ليس في الجن رسل، وإنما الرسل في الإنس والنذارة في الجن، ثم قرأ (فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ) يعني أنذروا قومهم من الجن ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كِتَاباً﴾ يعني قراءة القرآن ﴿أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ يعني أنزل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني موافقاً لما قبله من الكتب ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يعني يدعو إلى توحيد الله تعالى من الشرك كما هو في سائر الكتب ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج فيه، يعني دين الله تعالى وهو الإسلام ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَآمِنُوا

بِهِ﴾ يعني صدقوا به وبكتابه ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ وَمِنْ: صلة في الكلام، يعني يغفر لكم ذنوبكم إن صدقتم وآمنتم ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني يؤمنكم من عذاب النار ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ يعني من لم يجب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما يدعو إليه من الإيمان ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني لا يستطيع أن يهرب في الأرض من عذاب الله تعالى، ويقال معناه فلن يجد الله عاجزاً عن طلبه ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ يعني ليس له أنصار يمنعونه مما نزل به من العذاب ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ﴾ يعني في خطأ ﴿مُبِينٍ﴾ وذكر في الخبر: أنهم لما أنذرهم وخوفهم جاء جماعة منهم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة فلقيهم بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن، فأمرهم ونهاهم وكان معه عبد الله بن مسعود وَخَطَّ له النبي - صلى الله عليه وسلم - خطاً وقال له لا تخرج من هذا الخط، فإنك إنْ خَرَجْتَ لَنْ تَرَانِي إلى يَوم القيامة، فلما رجع إليه قال: يا نبي الله سمعت هَدَّتين أي صوتين، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: أما إحداهما فإني سلمت عليهم فردوا عليَّ السلام، وأما الثانية فإنهم سألوا الرزق فأعطيتهم عظماً رزقاً لهم، وأعطيتهم روثاً رزقاً لدوابهم[1] ثم قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أولم يعتبروا ويتفكروا، ويقال أولم يخبروا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ يعني: لم يعجز عن خلق السموات والأرض، فكيف يعجز عن بعث الموتى، ويقال: (وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ) يعني: لم يعيه خلقهن، ولم يعي بخلقهن بِقَادِرٍ ﴿عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى﴾ لأنهم كانوا مقرين بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وكانوا منكرين للبعث بعد مماتهم، فأخبرهم الله تعالى بأن الذي كان قادراً على خلق السموات والأرض يكون قادراً على إحيائهم بعد الموت، ثم قال (بلى) يعني: هو قادر على البعث ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياء والبعث ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعني: يكشف الغطاء عنها، ويقال يساق الذين كفروا إلى النار، ويقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يعني: أليس هذا العذاب الذي ترون حقاً وكنتم تكذبون به ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ إنه الحق (وَرَبِّنَا) هو الله، ويقال: والله إنه لحق، فيقرون حين لا ينفعهم إقرارهم، قال فيقال لهم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تجحدون ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد يعني: اصبر على أذى أهل مكة وتكذيبهم ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ يعني: أولو الحزم، وهو أن يصبر في الأمور ويثبت عليها، وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أراد أن يدعو عليهم، فأمره الله تعالى بالصبر كما صبر نوح، وكما صبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وقال السدي: أولو العزم: الذين أمروا بالقتال من الرسل، وقال أبو العالية: أولو العزم من الرسل كانوا ثلاثة، والنبي - صلى الله عليه وسلم - رابعهم، إبراهيم وهود ونوح، فأمره الله تعالى أن يصبر كما صبروا[2] وقال مقاتل: أولو العزم من الرسل اثني عشر نبياً في بيت المقدس، فأوحى الله إليهم ثلاث مرات أن اخرجوا من بين أقوامكم، فلم يخرجوا، فقال الله تعالى يمضي العذاب عليكم مع قومكم، فتشاوروا فاختاروا هلاك أنفسهم بينهم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ يعني: لا تستعجل لهم بالعذاب ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ يعني: العذاب قد أتاهم من قريب في الآخرة، فلقربه كأنهم يرونه في الحال، ويقال: في الآية تقديم وتأخير، كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة في الدنيا، يعني: إذا أتاهم ذلك اليوم يرون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا القليل فذلك قوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ يعني: من نهار الدنيا، ويقال يعني: في القبور، وقال أبو العالية: معناه كأنهم يرون حين يظنون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ثم قال: ﴿بَلَاغٌ﴾ يعني: ذلك بلاغ وبلغه

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ ٣/٣٩٨. انظر مجمع الزوائد ٨/٣١٦ - ٣١٧.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٥ وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر.

وأجل، فإذا بلغوا أجلهم ذلك ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني هل يهلك في العذاب إذا جاء العذاب إلا القوم العاصون، ويقال معناه: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون، ويقال: بلاغ يعني: هذا الذي ذكر بلاغ أي تمام العظة، ويقال هو من الإبلاغ، أي هذا إرسال وبيان لهم كقوله (هذا بلاغ للناس)[(١)].

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) في أ و ط زيادة قوله [قرأ ابن عامر ﴿أأذهبتم طيباتكم﴾ بهمزتين وقرأ ابن كثير ﴿أذهبتم﴾ بالمد، ومعناهما واحد ويكون الاستفهام على وجه التوبيخ، وقرأ الباقون ﴿أذهبتم﴾ بهمزة واحدة بغير مد على معنى الخبر] هذا، وقد آثرنا حذف ذلك من النص لأنه مكرر فيما قبل عند قوله تعالى: ﴿أذهبتم طيباتكم﴾.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ (١)

وهي ثمان وثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ
عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي جحدوا بتوحيد الله تعالى وبالقرآن ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي صرفوا الناس عن طاعة الله، وهو الجهاد ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُم﴾ يعني أبْطَلَ الله حسناتهم التي عملوا في الدنيا، لأنهم عملوا بغير إيمان، وكل عمل يكون بغير إيمان فهو باطل، كما قال (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) الآية، قال الكلبي نزلت في مطعمي بدر، وهم رؤساء مكة الذين كانوا يطعمون الناس في حال خروجهم إلى بدر، منهم أبو جهل والحارث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبي وأمية ابنا خلف، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج وغيرهم، ويقال هذا في عامة الكفار، وهذا كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ) الآية وروى مجاهد عن ابن عباس قال (الَّذِينَ كَفَرُوا) هم أهل مكة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال هم الأنصار(٢)، الذين آمنوا يعني: صدقوا بالله تعالى وبمحمد - صلى الله عليه وسلم -، وبالقرآن، وعملوا الصالحات: يعني أدوا الفرائض والسنن وهم أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن كان في مثل حالهم ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحَقُّ مِن رَّبِهِمْ﴾ يعني: صدقوا بما أنزل جبريل على محمد - صلى الله عليه وسلم -، وهو الحق وليس فيه باطل ولا تناقض ﴿كَفَّـرَ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِم﴾ يعني: محا عنهم ذنوبهم التي عملوا في الشرك بإيمانهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، وطاعتهم لله تعالى فيما يأمرهم به من الجهاد ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُم﴾ يعني:(٣) حالهم، وهذا قول قتادة، وقال مقاتل:

---

(١) معظم ما في هذه السورة التحريض على قتال المشركين، وترغيب المسلمين في ثواب الجهاد. افتتحت بما يثير حنق المؤمنين على المشركين لأنهم كفروا بالله وصدوا عن سبيله، أي دينه. وأعلم الله المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم وأنه مصلح المؤمنين فكان ذلك كفالة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم. وانتقل من ذلك إلى الأمر بقتالهم وعدم الإبقاء عليهم. وفيها وعد المجاهدين بالجنة، وأمر المسلمين بمجاهدة الكفار وأن لا يدعوهم إلى السلم وإنذار المشركين بأن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبين من قبلهم. ووصف الجنة ونعيمها، ووصف جهنم وعذابها. ووصف المنافقين وحال اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحض على القتال، وقلة تدبرهم القرآن وموالاتهم المشركين. وتهديد المنافقين بأن الله ينبىء رسوله - صلى الله عليه وسلم - بسيماهم وتحذير المسلمين من أن يروج عليهم نفاق المنافقين. وختمت بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان وحذرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة. التحرير ٢٦/٧٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٦/٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤٦/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

يعني: بين أمورهم في الإسلام، وعملهم وحالهم حتى يدخلوا الجنة، وروى مجاهد (وَأَصْلَحَ بَالَهُم) يعني شأنهم[١]، وقال القتبي (كَفَّرَ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ) أي سترها (وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) أي حالهم ويقال: أصلح بالهم يعني: أظهر الله تعالى أمرهم في الإسلام حتى يقتدى بهم، ثم بين المعنى الذي أحبط أعمال الكافرين، وأصلح شأن المؤمنين فقال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: ذلك الإبطال بأن الذين كفروا ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ يعني: اختاروا الشرك وثبتوا عليه، ولم يرغبوا في الإسلام، ويقال: معناه لأنهم اختاروا الباطل على الحق، واتباع الهوى على اتباع رضي الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعني: اتبعوا القرآن وعملوا به، ويقال: معناه اختاروا الإيمان على الكفر، واتباع القرآن واتباع رضى الله تعالى، على اتباع الهوى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ يعني: هكذا يبين الله صفة أعمالهم، ثم حرض المؤمنين على القتال فقال:

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ يعني: اضربوا الرقاب، صار نصباً بالأمر، ومعناه اضربوا الأعناق ضرباً، وروى وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن[٢] عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لأُعَذِّبَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ بِضَرْبِ الرِّقَابِ وَشَدِّ[٣] الوَثَاقِ» ﴿حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُم فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ يعني: حتى إذا قهرتموهم وأسرتموهم فشدوا الوثاق يعني: فاستوثقوا أيديهم من خلفهم، ويقال الإثخان: أن يعطوا أيديهم ويستسلموا، وقال الزجاج (حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم) يعني: أكثرتم فيهم القتل والأسر بعد المبالغة في القتل، وقال مقاتل: حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُم بالسيف فظفرتم عليهم (فَشُدُّوا الوَثَاقَ) يعني: الأسر ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ يعني: عتقاً بعد الأسر بغير فداء ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ يعني: يفادي نفسه بماله، وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الإمام بالخيار في الأسرى إن شاء فادى وإن شاء قتل، وإن شاء استرق، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: لا أفادي وإن طلبوا بمدين من ذهب، وذكر عن أبي بكر أنه كتب إليه في أسير التمسوا منه الفداء فقال اقتلوه، لأنْ أقتل رجلاً من المشركين أحب إليَّ من كذا وكذا، قال أبو الليث: وقد كره بعض الناس قتل الأسير، واحتج بظاهر هذه الآية (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِدَاءً)، وقال أَصْحَابُنَا: لا بأس بقتله بالخبر الذي روي عن أبي بكر رضي الله عنهم وروي عن ابن جريج[٤]، وغيره من أهل التفسير أن هذه الآية منسوخة بقوله (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم)، وقد قتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن خطل يوم فتح مكة بعدما وقع في منعة المسلمين فهو كالأسير، وأما الفداء: فإن فادوا بأسير من المسلمين فلا بأس به، كما قال إبراهيم النخعي إن شاء فادى بالأسير، وإن أراد أن يفتدي بمال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٢) القاسم بن عبد الرحمن بن مسعود الهزلي أبو عبد الرحمن قاضي الكوفة وثقة ابن معين الخلاصة ٢/٣٤٤.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير.
(٤) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي توفي سنة خمسين ومائة الخلاصة ٢/١٧٨.

لا يجوز إلا عند الضرورة، لأن في رد الأسير إلى دار الحرب قوة لهم في الحرب فكره ذلك كما يكره أن يحمل إليهم السلاح للبيع ثم قال (حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا) روي عن ابن عباس أنه قال حتى تترك الكفار إشراكها، ويوحدوا الرب تبارك وتعالى، حتى لا يبقى إلا مسلم، أو مسالم يعني: في ذمة المسلمين، الذين يعطون الجزية، وعن سعيد بن جبير قال: ﴿حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال: خروج عيسى عليه السلام يكسر[١] الصليب، فيلقى الذئب الغنم فلا يأخذها ولا تكون عداوة بين اثنين، وهكذا قال مجاهد، وقال مقاتل (حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا) يعني: في مكان يقاتل سَمَّاهم حرباً، وقال القتبي: حتى تضع الحرب، يعني: حتى يضع أهل الحرب السلاح. ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: افعلوا ذلك، ثم استأنف فقال: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُم﴾ بغير قتال يعني: يهلكهم ﴿وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ يعني: لم يهلكهم لكي يختبرهم بالقتال، حتى يتبين فضلهم ويستوجبوا الثواب ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: جاهدوا عدوهم في طاعة الله تعالى ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُم﴾ يعني: لن يبطل ثواب أعمالهم، قرأ أبو عمرو (قُتِلُوا) بضم القاف بغير ألف، وهكذا روي عن عاصم في إحدى الروايتين، يعني: الذين قتلوا يوم أحد، ويوم بدر، وفي سائر الحروب، وقرأ الباقون (وَالَّذِينَ قَاتَلُوا في سبيل الله) بالنصب[٢] يعني: جاهدوا الكفار وحاربوهم ثم قال ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ يعني: يجنبهم من أهوال الآخرة، ويقال: سيهديهم: يعني: يثبتهم على الهدى ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُم﴾ وقد ذكرناه ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ﴾ في الآخرة ﴿عَرَّفَهَا لَهُم﴾ يعني هداهم الله تعالى إلى منازلهم، وروى أبو المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال « إِذَا أُذِنَ لِأَهْلِ الجَنَّةِ فِي دُخُولِهَا (لأَحدهم أَهْدَى أي أعرف بِمَنْزِلِهِ في الجَنَّةِ، من منزله الَّذِي كَانَ فِي الدُّنْيَا)[٣] وعن ابن مسعود أنه قال ما أشبههم إلاّ أهل الجمعة حين انصرفوا من جمعتهم، يعني إن كل واحد منهم يهتدي إلى منزله، وقال الزجاج في قوله (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُم) أي يصلح لهم أمر معايشهم في الدنيا، مع ما يجازيهم في الآخرة، وهذا كما قال تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّه كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً) الآية ويقال (عَرَّفَهَا لَهُم) أي طيبها لهم، يقال طعام معرف أي مطيب، ثم حث المؤمنين على الجهاد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) حجة من قرأ على ما لم يسم فاعله أن هذه الآية مخصوص بها الشهداء المقتلون في سبيل الله الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾ وقوله سيهديهم إلى طريق الجنة ويصلح شأنهم في الآخرة ويدخلهم الجنة وحجة الباقين أن قاتلوا أعم ثواباً وأبلغ للمدوح في المجاهدين في سبيل الله. لأنه إذا فعل ذلك بالمقاتل في سبيله وأن لم يُقْتَل ولم يَقْتُل كان أعم من أن يكون ذلك الوعد منه لمن قتل دون من قاتل. وحجة أخرى: أن الله جل وعز أخبر أنه «يهديهم ويصلح بالهم» بعدما أخبرنا عنهم بالقتال (في سبيله)، فلو كان المراد من الكلام القتل لم يكن في ظاهر قوله ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ كبير معنى لأنهم قُتلوا، بل إنما يدل الظاهر على أنه وعدهم الهداية وإصلاح البال جزاء لهم في الدنيا على قتالهم أعداءه وأن يدخلهم في الآخرة الجنة، وهذا أوضح الوجهين. حجة القراءات ٦٦٦ ـ ٦٦٧.

(٣) سقط في ظ.

مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ يعني: إن تنصروا دين الله بقتال الكفار (يَنْصُرْكُم) بالغلبة على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فلا تزول في الحرب ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا تَعْساً لَهُم﴾ يعني: بعدا ونكساً وخيبة لهم، وهو من قولك: تعست أي عثرت وسقطت ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُم﴾ يعني: أبطل ثواب حسناتهم فلم يقبلها منهم، ثم بين المعنى الذي أبطل به حسناتهم فقال ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: ذلك الإبطال ﴿بِأَنَّهُم كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني أنكروا وكرهوا الإيمان بما أنزل الله على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: ثواب أعمالهم، ثم خوفهم ليعتبروا فقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني: أفلم يسافروا في الأرض ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ يعني: فيعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كيف كان آخر أمرهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني أهلكهم الله تعالى بالعذاب ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ يعني: للكافرين من هذه الأمة أمثالها من العذاب، وهذا وعيد لكفار قريش ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ يعني: النصرة التي ذكر في قوله (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُم) ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إن الله تبارك وتعالى ناصر أولياءه بالغلبة على أعدائهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ يعني لا ناصر ولا ولي لهم لا تنصرهم آلهتهم، ولا تمنعهم مما نزل بهم من العذاب، ثم ذكر مستقر المؤمنين، ومستقر الكافرين فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ يعني: يعيشون بما أعطوا في الدنيا ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ ليس لهم هَمٌّ إلَّا الأكل والشرب والجماع ﴿وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُم﴾ أي منزلاً ومستقراً لهم.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني: وكم من قرية فيما مضى، يعني: أهل قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ يعني: أشد منعة وأكثر عدداً، وأكثر أموالاً. ﴿مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: أهل مكة الذين أخرجوك من مكة إلى المدينة ﴿أَهْلَكْنَاهُم﴾ يعني: عذبناهم عند التكذيب ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُم﴾ يعني: لم يكن لهم مانع مما نزل بهم من العذاب، وهذا تخويف لأهل مكة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ قال مقاتل والكلبي يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وأبا جهل بن هشام، يعني لا يكون حال من كان على بيان من الله

تعالى كمن حسن له قبح عمله ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ بعبادة الأوثان، ويقال هذا في جميع المسلمين، وجميع الكافرين، لا يكون حال الكفار مثل حال المؤمنين في الثواب قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ يعني: صفة الجنة ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين يتقون الشرك والفواحش ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قرأ ابن كثير (مِن مَّاءٍ غَيْرِ أَسِنٍ) بغير مد، والباقون بالمد[١]، ومعناهما واحد، يعني ماء غير منتن ولا متغير الطعم والريح ﴿وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ إلى الحموضة كما يتغير لبن أهل الدنيا من الحالة الأولى ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يعني: لذيذة، ويقال (لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ) ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ ليس فيها العكر ولا الكدرة، ولا الدردي كعسل أهل الدنيا، قال مقاتل: هذه الأنهار الأربعة تتفجر من الكوثر إلى أهل الجنة، ويقال من تحت شجرة طوبى إلى أهل الجنة ﴿وَلَهُم فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: من ألوان الثمرات ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِمْ﴾ لذنوبهم في الآخرة، ويقال في الدنيا ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ يعني: هل يكون حال من هو في هذه النعم كمن هو في النار أبداً ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً﴾ أي حاراً قد انتهى حره ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ من شدة الحر فذابت أمعاؤهم، كقوله تعالى: (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِم والجلود) ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني: من المنافقين من يستمع إليك ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب الناس يوم الجمعة، وعاب في خطبته المنافقين، فلما خرجوا من عنده، قال بعض المنافقين لعبد الله بن مسعود وهو الذي أوتي العلم: ماذا قال آنفاً يعني الساعة على جهة الاستهزاء، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ مجازاة لهم ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ يعني: عملوا بهوى أنفسهم، ثم ذكر المؤمنين المصدقين فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُم هُدىً﴾ يعني: آمنوا بالله تعالى، وأحسنوا الإستماع إلى ما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (زَادَهُمْ هُدَىً) يعني: زادهم الله بصيرة في دينهم، وتصديقاً لنبيهم، ويقال: زادهم بما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدى، ويقال زادهم قول المنافقين، واستهزاؤهم (هُدًى) يعني: تصديقاً وثباتاً على الإسلام، وشكر الله تعالى ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُم﴾ حين بين لهم التقوى، ويقال ألهمهم قبول الناسخ وترك المنسوخ.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ أي: ما ينتظر قومك إلا قيام الساعة، يعني: فما ينتظر قومك إن لم يؤمنوا إلا الساعة ﴿أَنْ تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ يعني: علاماتها وهو: انشقاق القمر والدخان وخروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وروى مكحول عن حذيفة قال سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: متى الساعة، فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن لها أشراط، تقارب الأسواق يعني: كسادها، ومطر ولا نبات يعني: مطر في غير حينه، وتفشو الفتنة، وتظهر أولاد البغية، ويعظم رب المال، وتعلو أصوات الفسقة في المساجد، ويظهر أهل المنكر على أهل الحق»[٢] ثم قال ﴿فَأَنَّى لَهُم إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُم﴾ يعني: من أين لهم التوبة إذا جاءتهم الساعة، وقال قتادة: فأنى لهم أن يتذكروا أو يتذاكروا إذا جاءتهم الساعة، وقال مقاتل: فيه تقديم: يعني: أنى لهم التذكرة والتوبة عند الساعة إذا جاءتهم وقد فرطوا فيها.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٦٧. النشر ٢/٣٧٤.

(٢) أخرجه البخاري بنحوه ١/١١٤ كتاب الإيمان (٣٧) ومسلم بنحوه ١/٤٠ كتاب الإيمان (٧/١٠).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾

قوله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الزجاج هذه الفاء جواب الجزاء، ومعناه: قد بينا ما يدل على توحيد الله فاعلم أنه لا إله إلا الله، والنبي - صلى الله عليه وسلم - قد علم أن الله تعالى واحد، إنما خاطبه والمراد به أمته ويقال هذا الأمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة، ومعناه: فاثبت على إظهار قول لا إله إلا الله، يعني: ادع الناس إلى ذلك، ويقال كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ليتني أعلم أي الكلام أفضل، وأي الدعاء أفضل، فأعلمه الله تعالى أن أفضل الكلام التوحيد، وأفضل الدعاء الاستغفار، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ روى الزهري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم سبعين مرة أو أكثر»(١) وروى أبو هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إني أستغفر الله تعالى وأتوب إليه في كل يوم مائة مرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أستغفر للمؤمنين في المكتوبة؟ قال نعم، قلت فمن أبتديء؟ قال فبنفسك كما قال الله تعالى: واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ يعني: منتشركم بالنهار، ومأواكم بالليل، ويقال ذهابكم ومجيئكم قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ وذلك أنهم كانوا يأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، فاشتاقوا إلى الوحي فقالوا لولا نزلت، هلا نزلت سورة، قال الله تعالى ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ يعني: مبينة الحلال والحرام ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ يعني: أمروا فيها بالقتال، وقال قتادة: كل سورة ذكر فيها القتال فهي محكمة(٢)، وقال القتبي في قراءة ابن مسعود سورة محدثة، وتسمى المحدثة محكمة لأنها إذا نزلت تكون محكمة ما لم ينسخ منها شيء، ويقال (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ فِيهَا ذكر القتال، وطاعة النبي - صلى الله عليه وسلم - فرح بها المؤمنون، وكره المنافقون فذلك قوله ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني: الشك والنفاق ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ كراهية لنزول القرآن، يعني إنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون نظراً شديداً من شدة العداوة، كما ينظر المريض عند الموت ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ فهذا تهديد ووعيد، يعني: وليهم المكروه، يعني: قل لهم احذروا العذاب، وقد تم الكلام ثم قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ قال القتبي هذا مخصوص، يعني: قولهم قبل نزول الفرض سمعاً لك وطاعة، فإذا أمروا به كرهوا ذلك، ويقال: معناه طاعة وقول معروف أمثل لهم، ويقال معناه: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة يؤمر فيها بالطاعة، وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جاء الجد ووقت القتال، فلم يذكر في الآية جوابه، والجواب فيه مضمر معناه: فإذا عزم الأمر يعني: وجب الأمر، وجد الأمر، كرهوا ذلك، ثم ابتدأ فقال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ يعني: لو صدقوا الله في النبي وما جاء به، لكان خيراً لهم من الشرك والنفاق، قوله ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُم﴾ يعني: لعلكم وإن وليتم أمر هذه الأمة ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي يعني: أن

---

(١) أخرجه البخاري ١١/١٠١ كتاب الدعوات (٦٣٠٧).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

تعصوا الله في الأرض ﴿وَتقطِّعُوا أرْحَامَكم﴾ قال السدي: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض، بالمعاصي، وتقطعوا أرحامكم، فإن المؤمنين إخوة فإذا قتلوهم فقد قطعوا أرحامهم، وروى جبير عن الضحاك قال: نزلت في الأمراء إن تَوَلَّيتم، أمر الناس أن تفسدوا في الأرض، ويقال: معناه إن أعرضتم عن دين الإسلام، وعما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء ودفن البنات، وقطع الأرحام (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ) يعني: هل تريدون إذا أنتم تركتم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أمركم به إلاّ أن تعودوا إلى مثل ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي وقطع الأرحام، قرأ نافع (فَهَل عَسِيتُم) بكسر السين والباقون بالنصب(١)، وهما لغتان إلا أن النصب أظهر عند أهل اللغة، قوله عز وجل: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: أهل هذه الصفة خذلهم الله وطردهم من رحمته، قوله ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الهدى فلا يعقلونه ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ عن الهدى فلا يبصرونه عقوبة لهم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا
نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ
ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يعني: أفلا يسمعون القرآن ويعتبرون به، ويتفكرون فيما أنزل الله تعالى فيه من وعد ووعيد، وكثرة عجائبه، حتى يعلموا أنه من الله تعالى وتقدس ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ يعني: بل على قلوب أقفالها، يعني: أقفل على قلوبهم ومعناه أن أعمالهم لغير الله ختم على قلوبهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ﴾ يعني: رجعوا إلى الشرك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ يعني: من بعد ما ظهر لهم الإسلام، قال قتادة (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم) وهم أهل الكتاب عرفوا نعت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكفروا به، ويقال نزلت في المرتدين ثم قال عز وجل: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ يعني: زين لهم ترك الهدى، وزين لهم الضلالة ﴿وَأَمْلَى لَهُم ذَلِكَ﴾ قرأ أبو عمرو (وَأُملِيَ) بضم الألف وكسر اللام وفتح الياء على معنى فعل ما لم يسم فاعله، والباقون (وَأَملَى) بنصب اللام والألف، يعني: أمهل الله لهم فلم يعاقبهم حين كذبوا محمداً ـ صلى الله

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٧٧.

عليه وسلم ـ، ويقال زين لهم الشيطان وأملى لهم الشيطان يعني: خيل لهم تطويل المدة والبقاء، وقرأ يعقوب الحضرمي (وَأُملِي) بضم الألف وكسر اللام وسكون الياء[١]، ومعناه أنا أملي يعني: أطول لهم المدة، كما قال (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُم لِيَزْدَادُوا إِثْماً) ثم قال ذلك يعني: اللعن والصمم والعمى والتزين والإملاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المنافقون قالوا ليهود بني قريظة والنضير، وهم الذين كرهوا ما نزل الله، يعني تركوا الإيمان بما أنزل الله من القرآن ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ يعني: سنغنيكم في بعض الأمر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فيما قالوا فيما بينهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص (إِسْرَارَهُم) بكسر الألف، والباقون بالنصب[٢] فمن قرأ بالنصب فهو جمع السر، ومن قرأ بالكسر فهو مصدر أسررت إسراراً، ويقال: سر وأسرار، ثم خوفهم فقال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ يعني: كيف يصنعون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: تقبض أرواحهم الملائكة، ملك الموت وأعوانه ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يعني: عند قبض الأرواح، ويقال يعني يوم القيامة في النار ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك الضرب الذي نزل بهم عند الموت وفي النار ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ يعني: اتبعوا الكفر، وتكذيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني: عملوا بما لم يرض الله به، وتركوا العمل بما يرضي الله تعالى ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني: أبطل ثواب أعمالهم قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾ يعني: أيظن أهل النفاق والشك ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ يعني: لم يظهر الله نفاقهم، ويقال: يعني الغش الذي في قلوبهم للمؤمنين وعداوتهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ يعني: لعرفتك المنافقين وأعلمتك ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني: بعلاماتهم الخبيثة، ويقال (فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُم) إذا رأيتهم، ويقال: لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة فلعرفتهم بسيماهم، يعني: حتى عرفتهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ يعني: ستعرفهم يا محمد بعد هذا اليوم في لحن القول يعني في محاورة الكلام، ويقال (فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) يعني: كذبهم إذا تكلموا، فلم يخف على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول هذه الآية منافق عنده إلا عرفه بكلامه ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ يعني: لم يخف عليه أعمالكم قبل أن تعملوها فكيف يخفى عليه إذا عملتموها ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ يعني لنختبرنكم عند القتال ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي نميز ﴿الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ يعني: صبر الصابرين عند القتال ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾ يعني: نختبر أعمالكم، ويقال أسراركم، قرأ عاصم في رواية أبي بكر (وَلَيَبْلُوَنَّكُم حَتَّى يَعْلَمَ وَيَبْلُوَا) الثلاثة كلها بالياء، يعني: يختبركم الله والباقون الثلاثة كلها بالنون[٣] على معنى الإضافة إلى نفسه قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا ﴿وَصَدُّوا﴾ يعني: صرفوا الناس عن دين الإسلام ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال مقاتل: يعني: اليهود، وقال الكلبي: يعني رؤساء قريش حيث شاقوا أهل التوحيد

---

(١) حجة أبي عمرو قوله: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أن ما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم﴾ فكأن أبا عمرو لما كان القارىء إذا قرأ «وأملى» بالفتح جاز أن يقع في الوهم أن الإملاء مسند إلى الشيطان لأن ذكره قد تقدم الفعل ولم يجر لله قبل الفعل ذكر فقرأ «وأملى» ليزيل التوهم. إن الإملاء إلى الله لا إلى الشيطان كما قال جل وعز «فأمليت / للكافرين». وأصل الإملاء: الإطالة في العمر يقال: تملى فلان منزلة إذا طالت إقامته فيه. وحجة الباقين في هذا قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه﴾ = هذه الهاء أعني «تسبحوه» عائدة على الله وقوله ﴿تعزروه وتوقروه﴾ عائدة على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فكذلك قوله: ﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ التسويل راجع إلى الشيطان، والإملاء إلى الله. حجة القراءات ٦٦٨ ـ ٦٦٩.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٦٩. النشر ٢/٣٧٤.

(٣) حجة من قرأ بالياء قوله تعالى ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ وحجة الباقين أن قبله ﴿ولو نشاء لأريناكم﴾ فأخبر عن نفسه بلفظ الجمع. انظر حجة القراءات ٦٧٠.

﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ يعني: عادوا الله تعالى ورسوله، وخالفوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدين **﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾** يعني: الإسلام وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه الحق **﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾** يعني: لن ينقصوا الله من ملكه شيئاً، بكفرهم، بل يضروا بـأنفسهم **﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُم﴾** يعني: يبطل ثواب أعمالهم التي عملوا في الدنيا فلا يقبلها منهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَـٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ﴿٣٦﴾ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَـٰنَكُمۡ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾** يعني: أطيعوه في السر كما في العلانية، ويقال: أطيعوا الله في الفرائض وأطيعوا الرسول في السنن، وفيما يأمركم من الجهاد **﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم﴾** يعني: حسناتكم بالرياء، وقال أبو العالية: كان أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرون أنه لا يضر مع قول لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» فخافوا أن تبطل الذنوب الأعمال[(١)]، وقال مقاتل: نزلت في الذين يمنون عليك أن أسلموا **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** قال مقاتل وذلك أن رجلاً سأله عن والده أنه كان محسناً في كفره، قال: هو في النار، فولى الرجل يبكي، فدعاه فقال له «والدك ووالدي ووالد إبراهيم في النار» فنزل (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ **﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** قال الكلبي: نزلت الآية في رؤساء أهل بدر قوله تعالى: **﴿فَلَا تَهِنُوا﴾** يعني: لا تضعفوا عن عدوكم: **﴿وَتَدْعُو إِلَى السَّلْمِ﴾** يعني: إلى الصلح، أي لا تهنوا ولا تدعوا إلى الصلح نظير قوله تعالى: (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ) يعني: ولا تكتموا الحق، وفي هذه الآية دليل على أن أيدي المسلمين إذا كانت عالية على المشركين لا ينبغي لهم أن يجيبوهم إلى الصلح لأن فيه ترك الجهاد، وإن لم تكن يدهم عالية عليهم فلا بأس بالصلح لقوله تعالى: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) يعني: إن مالوا للصلح فمل إليه، قرأ حمزة في رواية أبي بكر: إلى السِلم بكسر السين، والباقون بالنصب[(٢)] قال بعضهم: وهما لغتان، وقال بعضهم: أحدهما صلح، والآخر استسلام، ثم قال: **﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾** يعني: العالين يكون آخر الأمر لكم **﴿وَاللَّهُ مَعَكُم﴾** يعني: معينكم وناصركم **﴿وَلَنْ يَتِرَكُم أَعْمَالَكُمْ﴾** يعني: لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، يقال وترتني حقي يعني: بخستني فيه، وقال مجاهد: لن ينقصكم[(٣)]، وقال قتادة: لن يظلمكم[(٤)] **﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد بن حميد ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة وابن أبي حاتم.
(٢) انظر حجة القراءات ٦٧٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٧٩.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني: باطل وفرح ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ أي تستقيموا على التوحيد ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النفاق ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُم﴾ يعني: يعطكم ثواب أعمالكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُم أَمْوَالَكُمْ﴾ يعني: لا يسألكم جميع أموالكم، ولكن ما فضل منها ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ يعني: جميع الأموال ﴿فَيُحْفِكُم تَبْخَلُوا﴾ يعني: إن يلح عليكم بما يوجبه في أموالكم، ويقال فيحفكم: يعني يجهدكم كثرة المسألة، تبخلوا بالدفع ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُم﴾ يعني: يظهر بغضكم وعداوتكم لله تعالى، ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين، ويقال ويخرج ما في قلوبكم من حب المال، يقول هذا للمسلمين، ويقال هذا للمنافقين، يعني يظهر نفاقكم، وقال قتادة علم الله أن في مسألة الأموال خروج الأضغان[١].

قوله عز وجل: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (هَا أَنْتُمْ) بمدة طويلة بغير همز، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالمد والهمز، فَهَا: تنبيه، وأنتم كلمة على حدة، وإنما مد ليفصل ألف هاء من ألف أنتم، وقرأ ابن كثير بالهمز بغير مد[٢]، ومعناه: أأنتم ثم قلبت إحدى الهمزتين هاء، ومعنى هذه القراءات كلها: أنتم يا معشر المؤمنين ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني لتتصدقوا في سبيل الله، وتعينوا الضعفاء ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ﴾ بالنفقة في سبيل الله ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ﴾ بالنفقة ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني لا يكون له ثواب النفقة ﴿وَاللَّهُ الغَنِيُّ﴾ عما عندكم من الأموال، وعن أعمالكم ﴿وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ﴾ إلى ما عند الله من الثواب، والرحمة، والمغفرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ يعني تعرضوا عما أمركم الله به من الصدقة وغير ذلك مما افترض الله عليكم من حق ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ يعني يهلككم ويأت بخير منكم، وأطوع لله تعالى منكم، ثم لا يكونوا أمثالكم، يعني أشباهكم في معصية الله تعالى، قال بعضهم: لم يتولوا، ولم يستبدل بهم، وقال بعضهم استبدل بهم أناس من كندا وغيرها، وروى أبو هريرة قال: لما نزلت هذه الآية، قالوا يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من هؤلاء الذين إنْ تولينا استبدلوا بِنَا قال وَعنده سلمان فوضع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يده عليه ثم قال: هذا وقومه ثم قال: «لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس»[٣] وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٧٩.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٦٧ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

سُورَةُ الفَتْحِ (١)

وهي عشرون وتسع آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ
صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ يعني قضينا لك قضاء بيناً، أكرمناك بالإسلام والنبوة، وأمرناك بأن تدعـو الخلق إليه، قال مقاتل: وذلك أنه لما نزل بمكة (وَمَا أَدْرِيَ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) وكان المشركون يقولون لم تتبعون رجلاً لا يدري ما يفعل به ولا بمن تابعه، فلما قدم المدينة، عيرهم بذلك المنافقون أيضاً، فعلم الله تعالى ما في قلوب المؤمنين من الحزم وما في قلوب الكافرين من الفرح فنزل (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) يعني قضينا لك قضاء بيناً ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقال المؤمنون: هذا لك، فما لنا؟ فنزل (لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) الآية، فقال المنافقون فما لنا؟ فنزل (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ) الآية، وقال الزجاج: إنا فتحنا لك، يعني فتح الحديبية، والحديبية بئر سمي المكان بها، والفتح: هو الظفر بالمكان كان بحرب أو بغير حرب، قال ومعنى الفتح: الهداية إلى الإسلام، وكان في فتح الحديبية معجزة من معجزات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنها بئر فاستسقى جميع ما فيها من الماء، ولم يبق فيها شيء فمضمض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم مجه فيها فدرّت البئر بالماء، ثم قال (لِيَغْفِرَ لَكَ) قال بعضهم هذه لام كي، فكأنه قال: لكي يغفر لك (الله ما تقدم من ذنبك) يعني ذنب آدم (وَمَا تَأَخَّرَ) يعني ذنب أمتك، وقال القتبي: هذه لام القسم فكأنه قال (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) ويقال ما كان قبل نزول الوحي وما كان بعده قوله تعالى ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة وبإظهار الدين ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ يعني يثبتك على الهدى وهو طريق الأنبياء ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ يعني لكي ينصرك الله على عدوك ﴿نَصْراً عَزِيزاً﴾ بإظهار الإسلام.

---

(١) تضمنت هذه السورة بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية وأنه نصر وفتح فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت وكان المسلمون عدة لا تغلب من قلة فرأوا أنهم عادوا كالخائبين فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرة السوء عل المشركين والمنافقين. والتنويه بكرامة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ربه ووعده بنصر متعاقب. والثناء على المؤمنين الذين عذروه وبايعوه، وأن الله قدم مثلهم في التوراة وفي الإنجيل ثم ذكر بيعة الحديبية والتنويه بشأن من حضرها. وفضح الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولمزهم بالجبن والطمع وسوء الظن بالله وبالكذب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومنعهم من المشاركة في غزوة خيبر، وإنبائهم بأنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر لهم تخلفهم عن الحديبية. ووعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بفتح آخر يعقبه فتح أعظم منه وبفتح مكة. وفيها ذكر بفتح من خيبر كما سيأتي في قوله تعالى ﴿فعجل لكم هذه﴾ التحرير ٢٦/١٤٢ ـ ١٤٣.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تجهز في سنة ست في ذي القعدة فخرج إلى العمرة معه ألف وستمائة رجل، ويقال: ألف وأربعمائة وساق سبعين بدنة فبلغ قريشاً خبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه، فبعثوا خالد بن الوليد في عصابة منهم ليصدوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه عن البيت، فلما نزل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعسفان قال إن قريشاً جعلت لي عيوناً فمن يدلني على طريق الثنية، فقال رجل من المسلمين أنا يا رسول الله، فخرج بهم وانتهوا إلى الثنية، وصعدوا فيها، فلما هبط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الثنية بركت ناقته القصواء، فلم تنبعث فزجرها، وزجرها الناس وضربوها فلم تنبعث، فقال الناس خلأت القصواء أي صارت حرونا، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما خلأت القصواء وما كان ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل ثم قال لا يسألونني فيما بيني وبينهم شيئاً يعظمون به حرماتهم إلا قبلته منهم ثم زجرها فانبعثت، فلما نزلوا على القليب بالحديبية لم يكن في البئر إلا ماء وشيك يعني قليل متغير فاستسقوا فلم يبق في البئر ماء، فقال مَن رجل يهيج لنا الماء، فقال رجل أنا يا رسول الله، فقال: ما اسمك؟ قال: مرة، فقال تأخر، فقال رجل آخر أنا يا رسول الله، فقال ما اسمك؟ قال: ناجيه فقال: انزل، فنزل فأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشقصاً[1] فبحث[2] به البئر فنبع الماء، وقال في رواية عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان ماء الحديبية قد قل، فأتى بدلو من ماء فتوضأ منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وجعل منه في فيه ثم مجه في الدلو، ثم أمرهم بأن يجعلوه في البئر ففعلوا فامتلأت البئر حتى كادوا يغرقون منها وهم جلوس ففزع المشركون لنزول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه في الحديبية، فجاؤوه واستعدوا ليصدوه فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر يا عمر: اذهب فاستأذن لنا عليهم حتى نعتمر، ويخلوا بيني وبين البيت، لا أريد منهم غيره، فقال عمر يا رسول الله ليس ثم أحد من قومي يمنعني، فأرسل عثمان فإن هناك ناساً من بني عمه يمنعونه، فذهب عثمان فتلقاه أبان بـن سعيد بن العاص، فقال له أجرني من قومك حتى أبلغ رسالة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فأجاره وحمله على فرسه وراءه ودخل به مكة، فاستأذن عثمان قريشاً فأبوا أن يأذنوا له، فقال أبان لعثمان طف أنت إن شئت، فقال لما كنت لأتقدم بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وبقي هناك ثلاثة أيام، فذكر للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عثمان قد قتل، فقال لأصحابه بايعوني على الموت، فجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت الشجرة فبايعه أصحابه على الموت فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إني أخاف ألا يدرك عثمان هذه البيعة فأنا أبايع له يميني بشمالي، ثم رجع عثمان فأخبر أنهم قد أبوا ذلك، وبلغت قريشاً البيعة، فكبرت تلك البيعة عندهم، وقالوا ليزيد بن الحارث الكناني أردده عنا، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابعثوا الهدى في وجهه يراها فإنهم قوم يعظمون الهدي، فبعثوا الهدي في وجهه، فلما رأى يزيد بن الحارث الهدي قال: ما أرى أحداً يفلح برد هذا الهدي، ورجع إلى قريش فقال لهم: لا تردوا هذا الهدي فإني أخشى أن يصيبكم عذاب من السماء، فأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي فجاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم،

(١) المشقص هو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. انظر لسان العرب ٤/٢٢٩٩.
(٢) بحث بمعنى كشف. انظر لسان العرب ١/٢١٤.

فجلس إليه فقال يا محمد: ارجع عن قومك هذه المرة، فجعل يكلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويومىء بيديه إلى لحيته، وكان المغيرة قائماً عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فضربه بالسوط على يده، وقال اكفف يدك عن لحية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يصل إليك ما تكره، فقال عروة: من هذا يا محمد؟ فقال: ابن أخيك المغيرة بن شعبة، فقال يا غدر ما غسلت سلحتك عني بعد، أفتضرب يدي؟ قال: اكففها قبل أن لا تصل إليك، فرجع عروة إلى قريش، فقالوا له ما وراءك يا أبا يعقوب، فقال خلوا سبيل الرجل يعتمر، فإني حضرت كسرى وقيصر والنجاشي فما رأيت ملكاً قط أصحابه أطوع من هذا الملك، والله إنه ليتنخم فيبتدرون نخامته، والله إنه ليجلس فيبتدرون التراب الذي يجلس عليه، وإنه ليتوضأ فيبتدرون وضوءه، فقالوا جننت وانتفح سحرك، ثم قالوا لسهيل بن عمرو اذهب وارده عنا وصالحه، فلما رآه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: قد سهل أمرهم، فجاءه سهيل في نفر من قريش فقال: يا محمد ارجع عن قومك هذه المرة على أن لك أن تأتيهم من العام المقبل فتعتمر أنت وأصحابك، ويدخل كل إنسان منكم بسلاحه راكباً، فتصالحنا على أن لا تقاتلنا ولا نقاتلك سنتين، فرضي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك، فقال اكتب بيننا وبينك كتاباً، فأمر علياً رضي الله عنه أن يكتب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف الرحمن، قال فكيف أكتب؟ قال: اكتب باسمك اللهم، فكتب باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال سهيل لو أعلم أنك رسول الله لاتبعتك، أفترغب عن اسم أبيك؟ فقال علي رضي الله عنه: فوالله إنه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رغم أنفك، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: أنا محمد رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، اكتب محمد بن عبد الله لأنه كان عهد أن لا يسألوه عن شيئاً يعظمون به حرماتهم إلا قبله، فكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، ألا تقاتلنا ولا نقاتلك سنتين، وندخل في حلفنا من نشاء، وتدخلوا في حلفكم من شئتم، وعلى أنكم تأتون من العام المقبل وتقيمون ثلاثة أيام ثم ترجعون، وعلى أن من جاء منا إليكم لا تقبلوه وتردوه إلينا، ومن جاء منكم إلينا فهو منا فلا نرده إليكم، فشق ذلك الشرط على المسلمين فقالوا يا رسول الله: من لحق بنا منهم لم نقبله، ومن لحق بهم منا فهو لهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأما من لحق بهم منا فأبعده الله وأولى بمن كفر وأما من أراد أن يلحق بنا منهم فسيجعل الله له مخرجاً، فجاء أبو جندل بن سهيل يوسف في الحديد، يعني يمشي مشي الأعرج قد أسلم فأوثقه أبوه حين خشي أن يذهب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم، فلما وقع في ظهراني المسلمين، قال إني مسلم فجاء أبوه، فقال: إنما كتبنا الكتاب الساعة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أليس الله حق وأنت نبيه؟ قال: بلى، قال: ونحن قوم مؤمنون؟ وهم كفار؟ قال بلى، قال فلم نُعْطِي الدنية في ديننا، قال إنما كتبنا الكتاب الساعة، فتحول عمر إلى أبي جندل فقال: يا أبا جندل إن الرجل يقتل أباه في الله، وإن دم الكافر لا يساوي دم كلب، وجعل عمر يقرب إليه سيفه كيما يأخذه ويضرب به أباه، فقال أبو جندل مالك لا تقتله أنت؟ فقال عمر: نهاني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أنت بأحق بطاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مني، لا أقتل أبي، فأخذ سهيل بن عمرو غصن من أغصان تلك الشجرة فضرب به وجه أبا جندل، والمسلمون يبكون، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلوا بينه وبين ابنه، فإن يعلم الله من أبي جندل الصدق ينجيه منهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسهيل هبه لي فقال سهيل لا، فقال مكرز بن حفص قد أجرته يعني أمنته فآمنه حتى رده إلى مكة فأنجى الله تعالى أبا جندل من أيديهم بعد ما رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة، فخرج إلى شط البحر واجتمع إليه قريباً من سبعين رجلاً كرهوا أن يقيموا مع المشركين، وعلموا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن يقبلهم حتى تنقضي المدة، فعمدوا إلى عير

لقريش مقبلة إلى الشام أو مدبرة فأخذوها، وجعلوا يقطعون الطريق على المشركين، فأرسل المشركون إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يناشدونه إلا قبضهم إليه، وقالوا له أنت في حل منهم، فالتحقوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فعلم الذين كرهوا الصلح أن الخير فيما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، ثم أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه أن ينحروا البدن، ويحلقوا الرؤوس فلم يفعل ذلك منهم أحد، فدخل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أم سلمة فقال: ألا تعجبين، أمرت الناس أن ينحروا البدن ويحلقوا فلم يفعل أحد منهم، فقالت أم سلمة قم أنت يا رسول الله وانحر بدنك، واحلق رأسك فإنهم سيقتدون بك، فنحر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ البدن وحلق رأسه ففعل القوم كلهم، فحلق بعضهم وقصر بعضهم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، يرحم الله المحلقين، فقالوا والمقصرين يا رسول الله، فقال يرحم الله المحلقين والمقصرين، فرجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة فنزل (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً) إلى قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) يعني السكون والطمأنينة في البيعة في قلوب المؤمنين ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يعني تصديقاً مع تصديقهم الذي هم عليه، ويقال تصديقاً بما أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البيعة، ويقال يعني إقراراً بالفرائض مع إقرارهم بالله تعالى، وروي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ) قال يعني الرحمة (فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً) قال إن الله تعالى بعث رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، كما قال (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ) فلما صدقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدقوا بها زادهم الزكاة، فلما صدقوا بها زادهم الصوم، فلما صدقوا بها زادهم الحج، فلما صدقوا به زادهم الجهاد، يعني إن في كل ذلك يزيد تصديقاً مع تصديقهم(١)، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجنود السموات الملائكة، وجنود الأرض المؤمنون من الجن والإنس ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً﴾ بخلقه ﴿حَكِيماً﴾ في أمره حيث حكم بالنصر للمؤمنين يوم بدر.

لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

قوله عز وجل ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني المصدقين والمصدقات ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني من تحت غرفها وأشجارها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني دائمين مقيمين لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعني يمحو ويتجاوز عن سيئاتهم، يعني عن ذنوبهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧١ وعزاه لابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

في الآخرة أي نجاة وافرة من العذاب ثم قال ﴿وَيعذب المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ﴾ يعني ولكن يعذب المنافقين والمنافقات من أهل المدينة ﴿وَالمُشْرِكِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَالمُشْرِكَاتِ﴾ الذين أقاموا على عبادة الأصنام، قوله ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ وظنهم ترك التصديق بالله تعالى ورسوله مخافة ألا ينصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما قال تعالى (بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ) ثم قال ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ يعني عاقبة العذاب والهزيمة ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ يعني بئس المصير الذي صاروا إليه قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً﴾ بالنقمة لمن مات على كفره ونفاقه ﴿حَكِيماً﴾ في أمره وقضائه حكم بالنصرة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ يعني بعثناك شاهداً بالبلاغ إلى أمتك ﴿وَمُبَشِّراً﴾ لمن أجابك بالجنة ﴿وَنَذِيراً﴾ يعني مخوفاً للكفار بالنار ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني لتصدقوا بالله فيما يأمركم، وتصدقوا برسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ يعني لكي تعينوه وتنصروه على عدوه بالسيف ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي تعظموا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعني تصلوا لله تبارك وتعالى ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني غدوة وعشياً، فكأنه قال: لتؤمنوا بالله وتسبحوه، وتؤمنوا برسوله وتعزروه وتوقروه، قرأ ابن كثير وأبو عمرو (لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ) كلها بالياء على معنى الخبر عنهم، وقرأ الباقون بالتاء[1] على معنى المخاطبة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دَائِرَةُ السُّوءِ) بضم السين، وقرأ الباقون بالنصب[2] كقولك: رجل سوء وعمل سوء، وقد روي عن ابن كثير وأبي عمرو بالنصب أيضاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يعني يوم الحديبية تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان، قال الكلبي: بايعوا تحت الشجرة، وهي شجرة السَمرة[3] وهم يومئذ ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً، وروى هشام عن محمد بن الحسن قال: كانت الشجرة أم غيلان ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ يعني كأنهم يبايعون الله، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما بايعهم بأمر الله تعالى، ويقال (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) أي لأجله وطلب رضاه ثم قال ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾ يعني يد الله بالنصرة والغلبة والمغفرة (فَوْقَ أَيْدِيهِم) بالطاعة، وقال الزجاج (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم) يحتمل ثلاثة أوجه

(١) انظر حجة القراءات ٦٧١، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٧٥.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٨١.

(٣) السمرة بضم الميم من شجر الطلع. لسان العرب ٣/ ٢٠٩٢.

أحدها: يد الله فوق أيديهم بالوفاء، ويحتمل يد الله فوق أيديهم بالثواب، فهذان وجهان جاءا في التفسير، ويحتمل أيضاً: يد الله فوق أيديهم في المِنَّة عليهم وفي الهداية، فوق أيديهم في الطاعة ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ يعني نقض العهد والبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [يعني عقوبته على نفسه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ قرأ حفص برفع الهاء[١] أي وفي بما عاهد عليه من البيعة فيتم ذلك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، يعني أوفى بما عاهد الله عليه][٢] من البيعة والتمام في ذلك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ في الجنة، قرأ نافع وابن كثير وابن عامر (فَسَنُؤْتِيهِ) بالنون والباقون بالياء[٣]، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد، يعني سيؤتيه الله ثواباً عظيماً قوله تعالى ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ وهم أسلم وأشجع وعقار وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين خرج إلى مكة عام الحديبية، فاستتبعهم وكانت منازلهم بين مكة والمدينة، فقالوا فيما بينهم نذهب معه إلى قوم جاؤوه فقتلوا أصحابه فقاتلهم، فاعتلوا عليه بالشغل حتى رجع، فأخبر الله تعالى رسوله قبل ذلك أنه إذا رجع إليهم استقبلوه بالعذر وهم كاذبون، فقال (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ) يعني الدين تخلفوا عن بيعة الحديبية ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ يعني خفنا عليهم الضيعة ولولا ذلك لخرجنا معك ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ في التخلف ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني من طلب الاستغفار، وهم لا يبالون أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني من يقدر أن يمنع عنكم من عذاب الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ يعني قتلاً أو هزيمة ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ يعني النصرة، قرأ حمزة والكسائي (ضُرًّا) بضم الضاد وهو سوء الحال، والمرض وما أشبه ذلك والباقون بالنصب[٤] وهو ضد النفع، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير، يعني لا يقدر أحد على دفع الضر، ومنع النفع غير الله، ثم استأنف الكلام فقال ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ يعني عالماً بتخلفكم ومرادكم قوله عز وجل ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ يعني بل منعكم من السير معه لأنكم ظننتم أن لن ينقلب الرسول ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من الحديبية ﴿إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني حُسْن التخلف في قلوبكم ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ يعني حسبتم الظن القبيح ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ يعني هلكى، وروي عن ابن عباس أنه قال: البور في لغة أزد وعمان ـ الشيء الفاسد ـ والبور في كلام العرب: لا شيء، يعني أعمالهم بور، أي مبطلة قوله عز وجل ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني من لم يصدق بالله في السر كما صدقه في العلانية ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾ يعني هيأنا لهم عذاب السعير قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني خزائن السموات والأرض، ويقال ونفاذ الأمر في السموات والأرض ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهو فضل: منه المغفرة، ويعذب من يشاء على الذنب الصغير وهو عدل منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيماً﴾ بهم.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٢.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٧٢، إتحاف فضلاء البشر الموضع السابق.

(٤) حجتهم في الآية وذلك أنه ذكر النفع وهو ضد الضر، وهو قوله تعالى: ﴿إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ وهذا موضعه قالوا: لا نجد مقروناً بـ (نفع) إلا مفتوحاً وفي التنزيل: ﴿مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً﴾ وقال: ﴿لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ في غير موضع من القرآن. والضر بالضم هو السقم والبؤس والبلاء كقوله «مسني الضر ولم يقل (الضر). وحجتهما قوله: ﴿إن أرادنا الله بضر هل هن كاشفات ضره﴾ وقد أجمعوا على ضم الضاد ها هنا، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وقال قوم: هما لغتان كالفقر والفُقْر والضَعف والضُعف. حجة القراءات ٦٧٢ ـ ٦٧٣.

سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني إلى غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم﴾ يعني اتركونا نتبعكم في ذلك الغزو ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني يغيروا كلام الله، يعني ما قال الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تأذن لهم في غزاة أخرى، قرأ حمزة والكسائي (كَلِمَ اللَّهِ) وهو جمع بكلمة، والباقون (كَلَامَ اللَّهِ)[١] والكلام: اسم لكل ما يتكلم به ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ في المسير إلى خيبر إلاَّ متطوعين من غير أن يكون لكم شرك في الغنيمة ﴿كَذَلِكُم قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ يعني من قبل الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ يعني يقولون للمؤمنين إن الله لم ينهكم عن ذلك بل تحسدوننا على ما نصيب معكم من الغنائم، قال الله تعالى ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي لا يعقلون ولا يرغبون في ترك النفاق لا قليلاً ولا كثيراً، ويقال بل كانوا لا يفقهون النهي من الله تعالى إلا قليلاً منهم قوله عز وجل ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ﴾ يعني الذين تخلفوا عن الحديبية مخافة القتال ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعني قتال شديد، قال بعضهم: يعني قتال أهل اليمامة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقال مجاهد: (إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) يعني أهل الأوثان[٢]، وقال أيضاً هم أهل فارس وكذا قال عطاء، وقال سعيد بن جبير: هوازن وثقيف[٣]، وقال الحسن: فارس والروم ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ قرأ بعضهم (أَوْ يُسْلِمُوا) بألف من غير نون، وقراءة العامة بالنون[٤]، فمن قرأ (أَوْ يُسْلِمُوا) يعني حتى يسلموا أو إلى أن يسلموا، ومن قرأ بالنون فمعناه: تقاتلونهم أو هم يسلمون ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا﴾ يعني تجيبوا وتوقعوا القتال، وتخصلوا لله تعالى ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً﴾

---

(١) حجتهم إجماع الجميع على قوله ﴿يسمعون كلام الله﴾ و﴿حتى يسمع كلام الله﴾ فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. انظر حجة القراءات ٦٧٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٣ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٣ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر والبيهقي.

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/١٨٠.

يعني ثواباً حسناً في الآخرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني تعرضوا عن الإجابة كما أعرضتم يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني شديداً دائماً، فلما نزلت هذه الآية قال أهل الزمانة والضعفاء فكيف بنا إذا دعينا إلى قتالهم ولا نستطيع الخروج، فيعذبنا الله؟ فنزل قوله ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ وهذا قول الكلبي، وقال مقاتل: نزل العذر في الذين تخلفوا عن الحديبية (لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ) يعني ليس عليهم إثم في التخلف ﴿وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني إثم ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الغزو، ويقال: ومن يطع الله ورسوله في الغزو في السر والعلانية ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَمَنْ يَتَولَّ﴾ يعني يعرض عن ذلك، يعني عن طاعة الله ورسوله بالتخلف ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني شديداً دائماً، قرأ نافع وابن عامر (نُدْخِلْهُ وَنُعَذِّبْهُ) كلاهما بالنون، والباقون كلاهما بالياء[1]، وكلاهما يرجع إلى معنى واحد قوله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ يعني شجرة السمرة، ويقال: أم غيلان، قال قتادة: بايعوهُ يومئذ وهم ألف وأربعمائة رجل، وكان عثمان يومئذ بمكة، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن عثمان في حاجة الله، وحاجة رسوله، وحاجة المؤمنين، ثم وضع إحدى يديه على الأخرى وقال هذه بيعة عثمان[2] ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي ما في قلوبهم من الصدق والوفاء وهذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: فعلم ما في قلوبهم من الكراهية للبيعة على أن يقاتلوا ولا يفروا ﴿فَأَنْزَلَ﴾ الله ﴿السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أنزل الله تعالى الطمأنينة والرضى عليهم ﴿وَأَثَابَهُمْ﴾ يعني أعطاهم ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ يعني فتح خيبر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني يغنمونها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ حكم عليهم بالقتل والسبي، ويقال حكم الغنيمة للمؤمنين، والهزيمة للكافرين ثم قال ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ يعني تغنمونها، وهو ما أصابوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، وبعده إلى يوم القيامة، وقال ابن عباس: هي هذه الفتوح التي تفتح لكم[3] ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني فتح خيبر، قرأ بعضهم (وَآتَاهُمْ) أي أعطاهم، وقراءة العامة (وأثابهم)[4] يعني كافأهم قوله تعالى ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل مكة ويقال: أسد وغطفان أرادوا أن يعينوا أهل خيبر فدفعهم الله عن المؤمنين، فصالحوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ألا يكونوا له ولا عليه ثم قال ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني عبرة للمؤمنين، وهو فتح خيبر، لأن المسلمين كانوا ثمانية آلاف، وأهل خيبر كانوا سبعين ألفاً ثم قال ﴿وَيَهْدِيَكُم صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ يعني يرشدكم ديناً قيماً وهو دين الإسلام.

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن
تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ

(١) انظر حجة القراءات ٦٧٤.

(٢) أخرجه أبو داود بنحوه ٣/٧٤ كتاب الجهاد (٢٧٢٦).

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٧٥ وعزاه لابن جرير وابن مردويه.

(٤) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٢. تفسير القرطبي ١٦/١٨٣.

مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم
مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا
(٢٥) إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا (٢٦)

ثم قال ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ يعني وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، يعني لم تملكوها بعد، وهو فتح مكة، ويقال هو فتح قرى فارس والروم ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ يعني علم الله أنكم ستفتحونها وتستغنمونها فجمعها وأحرزها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ من الفتح وغيره ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كفار مكة يوم الحديبية، ويقال أسد وغطفان يوم خيبر ﴿لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً﴾ يعني قريباً ينفعهم ولا مانعاً يمنعهم من الهزيمة قوله عز وجل ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني هكذا سنة الله بالغلبة والنصرة لأوليائه، والقهر لأعدائه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ يعني تغييراً وتحويلاً ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُم عَنْكُمْ﴾ يعني أيدي أهل مكة ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ يعني أيديكم عن أهل مكة من بعد أن أظفركم عليهم وذلك أن جماعة من أهل مكة خرجوا يوم الحديبية يرمون المسلمين، فرماهم المسلمون بالحجارة، حتى أدخلوهم بيوت مكة، وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: طلع قوم وهم ثمانون رجلاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، من قبل التنعيم عند صلاة الصبح ليأخذوه، فأخذهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُم عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُم عَنْهُمْ ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾[1] يعني بوسط مكة ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُم عَلَيْهِمْ﴾ يعني سلطكم عليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ بحرب بعضكم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: جحدوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَصَدُّوكُم عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن تطوفوا به ﴿وَالهَدْيَ مَعْكُوفاً﴾ يعني: محبوساً، يقال عكفته عن كذا إذا حبسته، ومن العاكف في المسجد لأنه حبس نفسه، يعني: صيروا الهدي محبوساً عن دخول مكة، وهي سبعون بدنة، ويقال: مائة بدنة ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ يعني: منحره، ومنحرة: منى للحاج، وعند الصفا للمعتمر ثم قال: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ بمكة ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أنهم مؤمنون، يعني لم تعرفوا المؤمنين من المشركين ﴿أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ يعني: تحت أقدامكم، ويقال فتضربوهم بالسيف ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ يعني: تلزمكم الدية ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني: بغير علم منكم لهم، ولا ذنب لكم، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا مختلطين بالمشركين، غير متميزين ولا معروفي الأماكن، ثم قال: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُم أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ لو دخلتموها أن تقتلوهم ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ لو فعلتم فيصيبكم من قتلهم معرة، يعني يعيركم المشركون بذلك ويقولون قتلوا أهل دينهم، كما قتلونا، فتلزمكم الديات ثم قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي تميزوا من المشركين ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: لو تميزوا بالسيف، وقال القتبي: صار قوله (لعذبنا) جواباً لكلامين: أحدهما ـ لولا رجال مؤمنون، والآخر: لو تزيلوا: يعني: لو تفرقوا واعتزلوا يعني: المؤمنين من الكافرين ـ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني: شديداً وهو القتل قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: أهل مكة ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك أنهم قالوا قتل آباءنا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٥ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

وإخواننا ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا، والله لا يدخل علينا، فهذه الحمية التي في قلوبهم ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ يعني: طمأنينته ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلى المُؤْمِنِينَ﴾ فأذهب عنهم الحمية حتى اطمأنوا وسكتوا ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى﴾ يعني: ألهمهم كلمة لا إله إلا الله[1] حتى قالوا ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ يعني: كانوا في علم الله تعالى أحق بهذه الكلمة من كفار مكة ﴿وَأَهْلَهَا﴾ يعني: وكانوا أهل هذه الكلمة عند الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ يعني: عليماً بمن كان أهلاً لذلك وغيره.

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ﴾ يعني: حقق الله تعالى رؤيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالوفاء والصدق، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى في المنام قبل الخروج إلى الحديبية أنهم يدخلون المسجد الحرام، فأخبر الناس بذلك فاستبشروا، فلما صدهم المشركون، قالت المنافقون في ذلك ما قالت، فنزل لَقَدَ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِ يعني: يصدق رؤياه بالحق ﴿لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ﴾ يعني: ما أخبر أصحابه أنهم يدخلون المسجد الحرام في العام الثاني، ويقال نزلت الآية بعد ما دخلوا في العام الثاني لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ يعني: ما أخبر أصحابه أنهم يدخلون المسجد الحرام ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ يعني: لتدخلن إن شاء الله آمنين، يعني بإذن الله وأمره، ويقال هذا اللفظ حكاية الرؤيا، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين رأى في المنام، رأى كأن ملكاً ينادي وهو يقول لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله، فأنزل الله تعالى لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ وهو قول الملك «لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» من العدو ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ يعني: منهم من يحلق ومنهم من يقصر ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ العدو ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ قال مقاتل: فعلم أن يفتح عليهم خيبر قبل ذلك، فوعد لهم الفتح، ثم دخول مكة ففتحوا خيبر ثم رجعوا ثم دخلوا مكة وأتوا عمرة القضاء، وقال الكلبي في قوله «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» يعني: علم الله أنه سيكون في السنة الثانية، ولم تعلموا أنتم فلذلك وقع في أنفسكم ما وقع ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ يعني: فتح خيبر ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى﴾ يعني: بالتوحيد شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَدِينِ الحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ يعني: على الأديان كلها قبل أن تقوم الساعة فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» بأن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن لم يشهد كفار مكة،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٨٠ وعزاه لابن مردويه عن أبي هريرة.

وذلك حين أراد أن يكتب محمد رسول الله، فقال سهيل بن عمرو: إنا لا نعرف بأنك رسول الله ولا نشهد، قال الله عز وجل: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ وإن لم يشهد سهيل وأهل مكة، قال عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ بالغلظة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: متوادين فيما بينهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ يعني: يكثرون الصلاة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ يعني: يلتمسون من الحلال، وقال بعضهم «وَالَّذِينَ مَعَهُ» يعني: أبا بكر «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ» يعني: عمر «رُحَمَاءُ بَيْنَهُم» يعني: عثمان «تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً» يعني: علياً رضوان الله عليهم أجمعين «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً» يعني: الزبير، وعبد الرحمن بن عوف ﴿سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِم﴾ يعني: علاماتهم وهي الصفرة في وجوههم ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يعني: من السهر بالليل، ويقال يعرفون غراً محجلين يوم القيامة من أثر الوضوء، وقال مجاهد (سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِمْ) قال: الخشوع والوقار[١]، وقال منصور: قلت لمجاهد أهذا الذي يكون بين عيني الرجل؟ قال: إن ذلك قد يكون للرجل وهو أقسى قلباً من فرعون ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ﴾ يعني: هذا الذي ذكره من نعتهم وصفتهم في التوراة، ثم ذكر نعتهم في الإنجيل فقال: ﴿وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيلِ﴾ يعني: مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: مثلهم في التوراة والإنجيل واحد، قال (مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ) قرأ ابن كثير وابن عامر شَطَأَهُ بنصب الشين والطاء والباقون بنصب الشين[٢] وجزم الطاء، ومعناهما واحد، وهو فراخ الزرع، وقال مجاهد: شطأه يعني: قوائمه[٣] قرأ ابن عامر ﴿فَآزَرَهُ﴾ بغير مد والباقون بالمدة[٤] ومعناهما واحد، يعني: قواه ومنه قوله عز وجل «أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي» يعني: قوى به ظهري، ويقال (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ يعني: سنبله فَآزَرَهُ يعني: أعانه وقواه ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ يعني: غلظ الزرع واستوى ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ وهو جماعة الساق ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ يعني: الزارع إذا نظر في زرعه بعدما استغلظ واستوى يعجبه ذلك، فكذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، تبعه أبو بكر ثم تبعه عمر، ثم تبعه واحد بعد واحد من أصحابه، حتى كثروا ففرح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك لكثرتهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ يعني: أهل مكة يكرهون ذلك لما رأوا من كثرة المسلمين وقوتهم، وروى خيثمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرئهم القرآن في المسجد، فأتى على هذه الآية «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» فقال: أنتم الزرع وقد دنا حصادكم[٥]، ويقال كَزَرْعٍ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم «أَخْرَجَ شَطْأَهُ» يعني: أبا بكر «فَآزَرَهُ» يعني: أعانه عمر على كفار مكة «فَاسْتَغْلَظَ» يعني: تقوى بنفقة عثمان «فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» يعني: قام على أمره علي بن أبي طالب يعينه وينصره على أعدائه (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) يعني: طلحة والزبير، وكان الكفار يكرهون إيمان طلحة والزبير لشدة قوتهما، وكثرة أموالهما ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ يعني: لهم، ويقال فيما بينهم وبين ربهم، ويقال: مِنْ: ها هنا لإبانة الجنس يعني: وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، أي من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿مَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْراً عَظِيماً﴾ يعني: ثواباً وافراً في الجنة (روي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «من قرأ سورة الفتح فكأنما شهد فتح مكة مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٦] والله سبحانه أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٢ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير

(٢) انظر حجة القراءات ٦٧٤. النشر في القراءات العشر ٢/٣٧٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٣ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) المصدران السابقان.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٣ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في سننه.

(٦) سقط في ظ.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ(١)

وهي ثمان عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يقال (يا) نداء و(ها) تنبيه و(الَّذِينَ) إشارة و(آمَنُوا) مدحه وروي عن الضحاك أنه كان يقرأ (لَا تَقَدَّمُوا) بنصب التاء والدال، وقراءة العامة (لَا تُقَدِّمُوا) برفع التاء وكسر الدال(٢)، فمن قرأ بالنصب فهو في الأصل: لا تتقدموا، فحذفت إحدى التاءين لتكون أخف، ومن قرأ بالضم فهو: من قدم تقدم، يقال فلان تقدم بين يدي أبيه، وبين يدي الإمام، يعني تعجل بالأمر وانتهى دونه، يعني لا تقدموا الكلام بين يدي الله ورسوله، ومعناه لا تقولوا قبل أن يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال معناه: إذا أمرتم بأمر فلا تفعلوه قبل الوقت الذي أمرتم به، وقال الحسن: إن قوماً ذبحوا قبل أن يصلي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم النحر، فأمرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يذبحوا آخر فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»(٣) وقال مسروق كنا عند عائشة يوم الشك فأُتي بلبن فناولتني، فقلت إني صائم، فقالت عائشة رضي الله عنها وقد نهي عن هذا، وقرأت هذه الآية، وقالت هذه الآية نزلت في الصوم وغيره، وقال مقاتل نزلت الآية في ثلاثة نفر وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث سرية وأمر عليهم المنذر بن عمرو، فخرج بنو عامر بن صعصعة عند بئر معونة فرصدوهم على الطريق وقتلوهم فرجع ثلاثة منهم، فلما

---

(١) تتعلق أغراض هذه السورة بحوادث جدت متقاربة كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب. وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في معاملته وخطابه وندائه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيوته كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾. ووجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقاً وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين، وتطرق إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتخلص من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفات الأعراب تقويماً لأود نفوسهم.

وقال فخر الدين عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وهي إما مع الله أو مع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين: إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق والداخل في طائفتهم: إما أن يكون حاضراً عندهم أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام، قال: فذكر الله في هذه السورة خمس مرات: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ وأرشد بعد كل مرة إلى مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة، وسنأتي على بقية كلامه عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة. التحرير ٢٦/٢١٣ - ٢١٤.

(٢) قراءة الفتح للضحاك ويعقوب الحضرمي، انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٥. تفسير القرطبي ١٦/١٨٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

دنوا إلى المدينة خرج رجلان من بني سليم صلحاً لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقد كان أهداهما، وكساهما فقالا نحن من بني عامر، لأن بني عامر كانوا أقرب إلى المدينة، فقتلوهما وأخذوا من ثيابهما وجاؤوا بها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» يعني: لا تعجلوا بقتل ولا بأمر حتى تستأمروا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وروي عن الحسن في رواية أخرى، أنه قال لا تعملوا بخلاف الكتاب والسنة، ثم قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: اخشوا الله عز وجل فيما يأمركم وينهاكم، ولا تخالفوا أمر الله ورسوله وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني: سميع الدعاء عليم بخلقه، ويقال: سميع لقول المستأمنين، عليم بنيات الذين قتلوهما، وفي الآية بيان رأفة الله عز وجل على عباده حيث سماهم مؤمنين مع معصيتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل يا أيها الذين عصوا، وقد ذكرنا من قبل أن النداء على ست مراتب وهذا نداء مدح قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ نزلت في وفد بني تميم قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم سبعون أو ثمانون منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعطارد بن الحجاب وذلك حين قالوا ائذن لشاعرنا وخطيبنا في الكلام، فعلت الأصوات واللغط، فنزلت الآية ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ويقال نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في أذنه وقر، فكان إذا تكلم رفع صوته، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ﴾ يعني: لا تدعوه باسمه كما يدعو الرجل الرجل منكم باسمه، ولكن عظموه ووقروه وقولوا: يا نبي الله، ويا رسول الله ثم قال: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُم لَا تَشْعُرُونَ﴾ أن ذلك يحبطها، يعني: إن فعلتم ذلك فتحبط حسناتكم، وقال بعضهم من عمل كبيرة من الكبائر حبط جميع ما عمل من الحسنات، واحتج بهذه الآية «أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُم». ولكن نحن نقول: الكبيرة لا تبطل العمل ما لم يكفر، وإنما ذكر ها هنا إبطال العمل: لأن في ذلك استخفافاً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومن قصد الاستخفاف بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفر، فلما نزلت هذه الآية دخل ثابت بن قيس بيته وجعل يبكي ويقول أنا من أهل النار، فذكر ذلك للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فبعث إليه وقال إنك من أهل الجنة، بل غيرك من أهل النار» فقال يا رسول الله لا أتكلم بعد ذلك إلا سراً أو ما كان يشبه السر فنزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ـ صلى الله عليه وسلم ـ. روى ثابت عن أنس قال: لما نزل لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم وكان ثابت بن قيس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي، وحبط عملي، أنا من أهل النار وجلس في بيته يبكي، ففقده رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأخبروه بما قال، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل هو من أهل الجنة، فقال أنس: لكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة فكان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس وقد تحنط ولبس كفنه فقال بئس ما تعودون أقرانكم، فقاتلهم حتى[1] قتل، ثم قال:

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٤ وعزاه لأحمد والبخاري ومسلم وأبي يعلى في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

«إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ» ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُم لِلتَّقْوَى﴾ يعني: أخلص الله قلوبهم، ويقال أصفى الله عز وجل قلوبهم للتقوى من المعصية، يعني: جعل قلوبهم موضعاً للتقوى ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب وافر في الجنة، يعني: يجعل ثوابهم في الدنيا، أن يخلص قلوبهم للتقوى، وفي الآخرة أجر عظيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ﴾ فالحجرات: جمع الحجرة، يقال حجرة وحجرات مثل ظلمة وظلمات، وقرىء في الشاذ الحجَرات بنصب الجيم، وقرأة العامة بالضم،[1] ومعناهما واحد، نزلت الآية في شأن نفر من بني تميم، وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث أسامة بن زيد، فانتهى إلى قبيلة وكانت تسمى بني العنبر، فأغار عليهم وسبى زراريهم، فجاء جماعة منهم ليشتروا أسراهم، أو يفدوهم فنادوه وكان وقت الظهيرة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحجرة فنادوه من وراء الحجرة، وكان لأزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حجرات، فلما خرج النبي كلموه في أمر الزراري فقال لواحد منهم احكم، فقال: حكمت أن تخلى نصف الأسارى وتبيع النصف منا، ففعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت الآية إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ ﴿أَكْثَرُهُم لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُم صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِم لَكَانَ خَيْراً لَهُم﴾ لأنهم لو لم ينادوه لكان يعتقهم كلهم وروى معمر عن قتادة أن رجلاً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فناداه من وراء الحجرات فقال يا محمد: إِنَّ مَدْحِي زَيْن، وإن شَتْمِي شَيْن، فخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: وَيْلَكَ ذَلِّكَ اللَّهُ عز وجل فنزل[2] إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ الآية ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ الآية نزلت في الوليد بن عقبة، بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بني المصطلق ليقبض الصدقات، فخرجوا إليه ليبجلوه ويعظموه، فخشي منهم لأنه كان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فرجع إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: خرجوا إليَّ بأسلحتهم، ومنعوا مني الصدقات، وأطرحوني وأرادوا قتلي، فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبعث لقتالهم، فجاؤوا إلى المدينة وقالوا يا رسول الله: لما بلغنا قدوم رسولك خرجنا نبجله ونعظمه فانصرف عنا، فاغتم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما فعل الوليد بن عقبة فنزل «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ» يعني: بحديث كذب، وبخبر كذب ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ يعني: وتعرفوا ولا تعجلوا ﴿أَنْ تُصِيبُوا﴾ يعني: كيلا تصيبوا ﴿قَوْماً بِجَهَالَةٍ﴾ وأنتم لا تعلمون بأمرهم

(١) قرأ أبو جعفر بفتح الجيم. انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٨٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

﴿فَتُصْبِحُوا﴾ يعني: فتصيروا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «فَتَثَبَّتُوا» بالثاء، وقرأ الباقون «فَتَبَيَّنُوا»[١] مثل ما في سورة النساء، ثم قال للمؤمنين رضي الله عنهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُم رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ﴾ يعني: ما أمرتم به، لأن الناس كانوا قد حرضوه على إرسالهم لقتال بني المصطلق ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ يعني: لأثمتم، وروى أبو نضرة[٢] عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية «لَوْ يُطِيعُكُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمرِ لَعَنِتُّمْ» يعني: هذا نبيكم وخياركم لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم فكيف بكم اليوم[٣]، ويقال: لعنتم أي لهلكتم، وأصله من عنت البعير إذا انكسرت رجله، ثم ذكر لهم النعم فقال ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ يعني؛ جعل حب الإيمان في قلوبكم ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: حسنه للثواب الذي وعدكم، ويقال: دلكم عليه بالحجج القاطعة، ويقال: زينه في قلوبكم بتوفيقه إياكم لقبوله ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ﴾ يعني: بغض إليكم المعاصي والكفر. لما بينه من العقوبة. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ يعني: المهتدون، فذكر أول الآية على وجه المخاطبة، وآخر الآية بالمغايبة، ثم قال أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ليعلم أن جميع من كان حاله هكذا، فقد دخل في هذا المدح، وفي الآية دليل أن من كان مؤمناً فإنه لا يحب الفسوق والمعصية، لأن الله تعالى قال «وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ» والمؤمن إذا ابتلي بالمعصية فإن شهوته وغفلته تحمله على ذلك، لا لحبه للمعصية ثم قال، أي ذلك التحبيب والتبغيض[٤] ﴿فضلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ يعني: كان الإيمان الذي حببه إليكم، والكفر الذي بغضه إليكم كان فضلاً من الله ونعمة يعني رحمة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره وقضائه.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج إلى الأنصار ليكلمهم في أمر من الأمور، وهو على حماره فبال الحمار وهو راكب عليه يكلم الأنصار، فقال عبد الله بن أُبيّ المنافق: خل للناس سبيل الريح من نتن هذا الحمار، ثم قال أف وأمسك على أنفه، فشق على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله، فانصرف عبد الله بن رواحة، فقال: اتقوا هذا، لحمار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله لبوله أطيب ريحاً منك، فاقتتلا، فاجتمع قوم ابن رواحة وهم الأوس، وقوم عبد الله بن أبي وهم الخزرج، فكان بينهم ضرب النعال والأيدي والسعف، ورجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأصلح بينهم، فأنزل الله تعالى «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» بالعدل، فكره بعضهم الصلح فنزل قوله ﴿فَإِنْ بَغَتْ

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٨٦.
(٢) المنذر بن مالك بن قطعة العبدي البصري أبو نضرة مشهور بكنيته ثقة. انظر التقريب ٢/٢٧٥.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٨٩ وعزاه لعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن مردويه عن أبي نضر.
(٤) سقط في ظ.

﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى﴾ يعني: استطالت فلم ترجع إلى الصّلح ﴿فَقَاتِلُوا التِّي تَبْغِي﴾ يعني: تظلم ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني: ترجع إلى ما أمر الله عز وجل، وروى أسباط عن السدي قال: كانت امرأة من الأنصار يقال لها أم زيد، فأبغضت زوجها، وأرادت أن تلحق بأهلها وكان قد جعلها في غرفة له، وأمر أهله أن يحفظوها، وخرج إلى حاجة له، فأرسلت إلى أهلها، فجاء ناس من أهلها وأرادوا أن يذهبوا بها فاقتتلوا بالنعال والتلاطم، فنزل قوله تعالى: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»[١] الآية ثم صارت الآية عامة في جميع المسلمين، إذا اقتتل فريقان من المسلمين وجب على المؤمنين الإصلاح بين الفريقين، فإن ظهر أن أحد الفريقين ظالم، فإنه يقاتل ذلك الفريق حتى يرجع إلى حكم الله ثم قال: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ يعني؛ رجعت إلى الصلح ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ﴾ يعني: بالحق ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ يعني؛ أعدلوا بين الفريقين ولا تميلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾ يعني: العادلين ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يعني: كالأخوة في التعاون، لأنهم على دين واحد، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «المُؤمِنَ للمُؤمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعْضاً[٢]» وَرُوي عنه أنه قال «المُؤْمِنُونَ كَعُضْوٍ وَاحِدٍ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِر الأَعْضَاءِ إِلى الحُمَّى وَالسَّهرِ[٣]» (ثم قال ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم﴾ يعني: الفريقين من المؤمنين مثل الأوس والخزرج فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم)[٤] قرأ ابن سيرين إِخْوَانِكُم بالنون، وقرأ يعقوب الحضرمي بَيْنَ إِخْوَتِكُم بالتاء، يعني جمع الأخ، وقراءة العامة أَخَوَيْكُم بالياء[٥] على تثنية الأخ، يعني: بين كل أخوين ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ يعني اخشوا الله عز وجل ولا تعصوه لكي ترحموا فلا تعذبوا قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾ يعني: لا يستهزىء الرجل من أخيه، وقال بعضهم: الآية نزلت في ثابت بن قيس، حيث عير الذي لم يوسع له في المكان، وقال بعضهم: الآية نزلت في الذين ينادونه من وراء الحجرات، استهزؤوا من ضعفاء المسلمين: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُم﴾ يعني: أفضل منهم وأكرم على الله تعالى: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ﴾ يعني: لا تستهزىء امرأة من امرأة، وذلك أن عائشة رضي الله عنها قالت إن أم سلمة جميلة لولا أنها قصيرة ﴿عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ يعني أفضل، ثم صارت الآية عامة في الرجال والنساء، فلا يجوز أحد أن يسخر من صاحبه، أو من أحد من خلق الله تعالى، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب خشيت أن أكون مثله ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم﴾ يعني: لا يطعن بعضكم بعضاً، وقال القتبي: ولا تغتابوا إخوانكم من المسلمين لأنهم كأنفسكم، كما قال «ظَنَّ المُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِم خَيْراً» يعني بأمثالهم ثم قال ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ يعني: لا تسموا باللقب، وقال محمد بن كعب القرظي: هو الرجل يكون على دين من الأديان فيسلم فيدعونه بدينه الأول، يا يهودي ويا نصراني، ويقال: لا تعيروا المسلم بالملة التي كان عليها، ولا تسموه بغير دين الإسلام، وقال أهل اللغة[٦]: الألقاب والأنباز واحد، ومنه قيل في الحديث: قوم نَبزُهم الرافضة أي لقبهم (وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ) أي لا تداعوا بها، ويقال: هو اللقب الذي يكرهه الرجل، يعني أنه ينبغي للمؤمن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٩٠ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠ كتاب الأدب (٦٠٢٦) ومسلم ٤/ ١٩٩٩ كتاب البر (٦٥/ ٢٥٨٥).

(٣) أخرجه البخاري ١٠/ ٤٣٨ كتاب الأدب (٦٠١١) ومسلم ٤/ ١٩٩ كتاب البر (٦٦/ ٢٥٨٦).

(٤) سقط في ظ.

(٥) حجة من قرأ بالتاء أن الطائفة جمع وإن كان واحداً في اللفظ كما قال «خصمان اختصموا» وقال ها هنا قبلها «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» على المعنى لا على اللفظ. انظر حجة القراءات ٦٧٥ إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٤٨٦.

(٦) قرأ «ولا تلمزوا» بضم الميم يعقوب ووافقه الحسن. انظر إتحاف فضلاء البشر الموضع السابق.

أن يخاطب أخاه بأحب الأسماء إليه، وقرأ بعضهم «وَلاَ تَلْمِزُوا» بضم الميم، وقراءة العامة بالكسر، وهما لغتان، يقال لمز فلان فلاناً يلمز ويلمزه إذا عابه، وذكر في التفسير أن الآية نزلت في مالك بن أبي مالك، وعبد الله بن أبي حدرد، وذلك أن أبا مالك كان على المقاسم، فقال لعبد الله بن أبي حدرد الأسلمي: يا أعرابي، فقال له عبد الله يا يهودي، فأمرهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدخلا عليه حتى تظهر توبتهما، فنزل ﴿بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ﴾ يعني: بئس التسمية لإخوانكم بالكفر وهم مؤمنون ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ من قوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. فأوثقا أنفسهما حتى قبلت توبتهما.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ يعني: لا تحققوا الظن: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ يعني: معصية، أي إنَّ ظن السوء بالمسلم معصية، وقال سفيان الثوري: الظن ظنان، ظن فيه إثم، وظن لا إثم فيه، فالظن الذي فيه إثم: أن يظن ويتكلم به، وأما الظن الذي لا إثم فيه: فهو أن يظن ولا يتكلم به، لأنه قال (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) ولم يقل جميع الظن إثم ثم قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ يعني: لا تطلبوا ولا تبحثوا عن عيب أخيكم ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ روى أسباط عن السدي قال: كان سلمان الفارسي في سفر مع ناس فيهم عمر، فنزلوا منزلاً فضربوا خيامهم، وصنعوا طعامهم، ونام سلمان فقال بعض القوم لبعض: ما يريد هذا العبد إلا أن يجد خياماً مضروبة، وطعاماً مصنوعاً، فلما استيقظ سلمان قالوا له: انطلق إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتمس لنا إداماً نأتدم به، فأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عليه السلام أخبرهم أنهم قد ائتدموا، فأخبرهم، فقالوا ما طعمنا بعد، وما كذب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فأتوه فقال: ائتدمتم من صاحبكم حين قلتم ما قلتم وهو نائم، ثم قرأ وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[١] يعني: فكما تكرهون أكل لحمه ميتاً، فكذلك اجتنبوا ذكره بالسوء وهو غائب، ويقال: كان سلمان في سفر مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكان يطبخ لهما فنزلوا منزلاً، فلم يجد ما يصلح لهم أمر الطعام، فبعثاه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينظر عنده شيئاً من الطعام، فقال أسامة: لم يبق عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيء من الطعام، فرجع إليهما فقالا إنه لو ذهب إلى بئر كذا ليبس ماؤها[٢]، فنزلت هذه الآية، ويقال نزلت في شأن زيد بن ثابت،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧/٣٦٣. الدر المنثور ٦/٩٤.

(٢) ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الخلقة والحسب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسب. والغيبة في الخَلْق أشد، لأن من عيب صنعه فإنما عيب صانعها. وهذا كله مردود. أما الأول فيرده حديث عائشة حين قالت في صفية: إنها امرأة قصيرة، وقال لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته). خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح، وما كان في معناه حسب ما=

وذلك أن نفراً ذكروا فيه شيئاً فنزل (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً) قرأ نافع (مَيِّتاً) بتشديد الياء والخفض، والباقون بالجزم[١]، وقال أهل اللغة: الميت والميت واحد مثل ضيق وضيق، وهين وهين، ولين ولين ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الغيبة وتوبوا إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ يعني: قابل التوبة ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال مقاتل: وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما فتح مكة أمر بلالاً ليؤذن، فقال الحارث بن هشام أما وجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير هذا الغراب، يعني بلال فنزل يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ يعني: آدم وحواء ﴿وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وقَبَائِلَ﴾ يعني: رؤوس القبائل مثل مضر وربيعة، وقبائل يعني: الأفخاذ مثل بني سعد وبني عامر ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ في النسب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾ يعني: وإن كان عبداً حبشياً أسود مثل بلال، وقال في رواية الكلبي نزلت في ثابت بن قيس، كان في أذنيه ثقل، وكان يدنو من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسمع كلامه، فأبطأ يوماً واحداً وقد أخذ الناس مجالسهم فجاء فتخطى رقابهم حتى جلس قريباً من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال رجل من القوم هذا يتخطى رقابنا فلم لا يجلس حيث وجد المكان، فقال ثابت: من هذا؟ فقالوا فلان، فقال ثابت: يا ابن فلانة وكان يعير بأمه فخجل، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: من عير فلاناً بأمه؟ فقال ثابت بن قيس:[٢] أنا قد ذكرت شيئاً، فقرأ هذه الآية عليه فاستغفر ثابت، وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: القبائل والأفخاذ الصغار، والشعوب: الجمهور مثل مضر، وقال الضحاك: الشعوب: الأفخاذ الصغار، والقبائل مثل بني تميم وبني أسد، وقال القتبي: الشعوب: أكثر من القبيلة وقال الزجاج: الشعب أعظم من القبيلة، ومعناه: إني لم أخلقكم شعوباً وقبائل لتتفاخروا وإنما خلقناكم كذلك لتعارفوا، روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يقول عز وجل: إنكم جعلتم لأنفسكم نسبا وجعلت لنفسي نسباً[٣] فرفَعْتُم نَسَبَكُم وَوَضَعْتُمْ نَسَبي، فَالْيَوْمَ أَرْفَعُ نَسَبِي وَأَضَعُ نَسَبَكُم[٤]»، يعني: قلت إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم وَقلتم أنتم فلان وفلان ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأتقيائكم ﴿خَبِيرٌ﴾ بافتخاركم ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنا﴾ قال ابن عباس: نزلت في بني أسد، قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قحط أصابهم، فجاؤوا بأهاليهم، وذراريهم يطلبون الصدقة، وأظهروا الإسلام، وقالوا يا رسول الله نحن أسلمنا طوعاً، وقدمنا بأهالينا فأعطنا من الغنيمة أكثر مما تعطي غيرنا، ويقال كانت قبيلتان، جهينة، ومزينة قدموا بأهاليهم فنزلت الآية «قالت الأعراب آمنا» يعني: صدقنا ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنوا﴾ يعني: لم تصدقوا في السر كما صدقتم

= تقدم. وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب. وأما الثاني فمردود أيضاً عند جميع العلماء، لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين، لأن عيب الدين أعظم العيب، فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. وكفى رداً لمن قال هذا القول قوله عليه السلام: (إذا قلت في أخيك ما يكره فقد اغتبته) الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نصاً. وكفى بعموم قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام) وذلك عام للدين والدنيا. وقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرضه أو ماله فليتحلله منه). فعم كل عرض، فمن خص من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ. انظر تفسير القرطبي ١٦/٢٢٠. وانظر ابن كثير الموضع السابق.

(١) هما لغتان الأصل التشديد، ومن خفف استثقل التشديد فحذف الباء كما قالوا: هين لين، وهين لين. انظر حجة القراءات ٦٧٧.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٦/٢٢٢.

(٣) في أ [إني جعلت نسباً وجعلتم نسباً].

(٤) انظر تفسير القرطبي ١٦/٢٢٥.

في العلانية ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنا﴾ يعني: دخلنا في الانقياد والخضوع، ويقال: استسلمنا مخافة القتل والسبي ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمَانُ في قُلُوبِكُم﴾ يعني: التصديق، ويقال: لم يدخل حب الإيمان في قلوبكم ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في السر كما تطيعونه في العلانية ﴿لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً، قرأ أبو عمرو (لَا يَأْلِتْكُم) بالألف والهمز، والباقون (لَا يَلِتْكُم) بغير ألف ولا همز[1]، ومعناهما واحد، يقال: لاته يلته، وألته يألته إذا نقص حقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لو صدقوا بقلوبهم، ثم بين الله عز وجل لهم من المصدق.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

فقال عزوجل ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني المصدقون في إيمانهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُونَ﴾ يعني لم يشكوا في إيمانهم ﴿وَجَاهَدُوا﴾ الأعداء ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم فلما نزلت هذه الآية أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم، فحلفوا بالله أنهم لمصدقوه في السر، فنزل ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهِ بِدِينِكُم﴾ الذي أنتم عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم ما في قلوبكم من التصديق وغيره قوله عز وجل ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعني بقولهم: جئناك بأهالينا وأولادنا ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ يعني وفقكم للإيمان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنكم مخلصون في السر والعلانية قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السموات وسر أهل الأرض ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم في رواية إبان (يَعْمَلُونَ) بالياء على معنى الخبر عنهم، وقرأ الباقون بالتاء[2] على معنى المخاطبة، [أي بصير بما يعملون من التصديق وغيره، والخير والشر، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم][3].

---

(١) حجة أبي عمرو إجماع الجميع على قوله «وما التناهم من عملهم» فرد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه أولى وحجة الباقين اتباع مرسوم المصحف وذلك أنها مكتوبة بغير الألف، ولو كانت بألف لكتبت الألف كما تكتب في (تأمر وتأكل). وأخرى: أن في حرف ابن مسعود «وما لتناهم»، حكاه الكسائي. وأخرى وهي أنهم جمعوا بين اللغتين فقرأوا ها هنا «لا يلتكم» وفي (والطور): «وما ألتناهم كما قال: «كيف يبدىء الله الخلق» فهذه من (أبدأت، ثم قال: «كيف بدأ الخلق» فهذه من بدأت، ولم يحمل أحد بعض هذه اللغات على بعض فكذلك قوله: «لا يلتكم» من (لات)، «وما ألتناهم» من (ألت) و«لا يألتكم» جزم لأنها جواب الشرط، وعلامة الجزم سكون التاء. حجة القراءات ٦٧٧.

(٢) حجة من قرأ بالياء قوله قبلها ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا﴾ أي والله بصير بما يعمل المؤمنون. وحجة الباقين قوله تعالى قبلها ﴿لا تمنوا علي إسلامكم﴾ فخاطبهم ثم قال ﴿والله بصير بما تعملون﴾. انظر حجة القراءات ٦٧٧.

(٣) سقط في ظ.

سُورَةُ قٓ (١)

وهي أربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿قٓ﴾ قال قتادة هو اسم من أسماء الله تعالى. كقوله قادر وقاهر ويقال: هو اسم من أسماء القرآن، وقال مجاهد: هو افتتاح السورة، وقال بعضهم «ق» يعني قضي الأمر، كما قال في «حمٓ» حم الأمر، والدليل عليه قول الشاعر:

فقلت لها قفي قالت قاف .

يعني وقفت، فذكر القاف، وأراد به تمام الكلام، وقال ابن عباس: هو جبل من زمردة خضراء، محيط بالعالم، فخضرة السماء منها، وهي من وراء الحجاب الذي تغيب الشمس من وراءه، والحجاب دون «ق» بمسيرة سنة، وما بينهما ظلمة وأطراف السماء ملتصقة بها، ويقال خضرة السماء من ذلك الجبل، ويقال «ق» يعني إن الله عز وجل قائم بالقسط، ثم قال ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ يعني الشريف وقال الضحاك: هو جبل محدق بالدنيا من زبرجدة خضراء، وخضرة السماء منها، ليس في الأرض بلدة من البلدان، ولا مدينة من المدائن، ولا قرية من القرى إلا وفيها عرق من عروقها، وملك موكل عليها واضع كفه بها، فإذا أراد الله عز وجل بقوم هلاكهم أوحى الله عز وجل إلى ذلك الملك، فحرك منها عرقاً فخسف بهم، فأقسم الله عز وجل بقاف والقرآن المجيد، يعني الشريف، إنكم لمبعوثون يوم القيامة، لأن أهل مكة أنكروا البعث فصار جواب القسم مضمراً فيه وهو ما ذكرناه:

---

(١) من أغراض هذه السورة

أولها: التنويه بشأن القرآن.

ثانيها: أنهم كذبوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه من البشر.

وثالثها: الاستدلال على إثبات البعث وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السموات وما فيها وخلق الأرض وما عليها، ونشأة النبات والثمار من ماء السماء وأن ذلك مثل للإحياء بعد الموت.

الرابع: تنظير المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيد هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك.

الخامس: الوعيد بعذاب الآخرة ابتداء من وقت احتضار الواحد، وذكر هول يوم الحساب.

السادس: وعد المؤمنين بنعيم الآخرة.

السابع: تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على تكذيبهم إياه وأمره بالإقبال على طاعة ربه وإرجاء أمر المكذبين إلى يوم القيامة وأن الله لو شاء لأخذهم من الآن ولكن حكمة الله قضت بإرجائهم وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكلف بأن يكرههم على الإسلام وإنما أمر بالتذكير بالقرآن.

الثامن: الثناء على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

التاسع: إحاطة علم الله تعالى بخفيات الأشياء وخواطر النفوس. التحرير ٢٦/٢٧٥.

إنكم مبعوثون، ويجوز أن يكون جواب القسم «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ» فيكون معناه: ق والقرآن المجيد، لقد علمنا ما تنقص الأرض، فحذف اللام لأن ما قبلها عوض عنها، كما قال «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» يعني لقد أفلح، وقال القتبي: هذا من الاختصار فكأنه قال: قٓ والقُرْآنِ المَجِيدِ لتبعثن.

بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

قوله عز وجل ﴿**بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ**﴾ يعني من أهل مكة ﴿**فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ يعني أمر عجيب أن يكون محمد رسولاً وهو من نسبهم قوله تعالى ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً**﴾ بعد الموت نجدد، بعدما متنا نصير خلقاً جديداً ﴿**ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ**﴾ يعني رد طويل لا يكون أبداً، ويقال رجع يرجع رجعاً، إذا رجعه غيره، ورجع يرجع رجوعاً إذا رجع بنفسه، كقوله صد يصد صدوداً، وصد يصد صداً، «ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» أي ذلك صرف بعيد، قوله تعالى ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ**﴾ يعني ما تأكل الأرض من لحومهم وعروقهم، وما بقي منهم، ويقال: تأكل الأرض جميع البدن إلا العصعص، وهو عجب الذنب، وذلك العظم آخر ما يبقى من البدن، فأول ما يعود ذلك العظم، ويركب عليه سائر البدن ﴿**وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**﴾ يعني اللوح المحفوظ قوله عز وجل ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ**﴾ يعني كذبوا بالقرآن، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم، والبعث ﴿**لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ أي حين جاءهم ﴿**فَهُمْ**﴾ يعني قريش ﴿**فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ**﴾ يعني في قول مختلف ملتبس، المريج: أن يقلق الشيء فلا يستقر، ويقال: مرج الخاتم في يدي مرجاً: إذا قلق للهزال، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال (فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ) أي من ترك الحق، يقال: من ترك الحق أمرج عليه رأيه والتبس عليه دينه، ثم دلهم على قدرته على بعثهم بعد الموت بعظيم خلقه الذي يدل على وحدانيته فقال ﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا**﴾ بغير عمد ﴿**وَزَيَّنَّاهَا**﴾ بالكواكب ﴿**وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ**﴾ يعني شقوق وصدوع وخلل قوله تعالى ﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**﴾ يعني بسطناها مسير خمسمائة عام من تحت الكعبة ﴿**وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ**﴾ يعني الجبال الثوابت، قوله ﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ يعني حسن طيب من الثمار والنبات قوله تعالى ﴿**تَبْصِرَةً**﴾ يعني في هذا الذي ذكره من خلقه تبصرة لتبصروا به، ويقال: عبرة، ﴿**وَذِكْرَى**﴾ يعني تفكراً وعظة ﴿**لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**﴾ يعني مخلص بالتوحيد، ويقال: راجع إلى ربه قوله تعالى ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً**﴾ يعني المطر، فيه البركة، حياة لكل شيء ﴿**فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ**﴾ يعني البساتين ﴿**وحب الحصيد**﴾ يعني حين ما يخرج من سنبله، ويقال: ما يحصد وما لا يحصد كل ما كان له حب، ويقال هي الحبوب التي تحصد قوله عز وجل ﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ**﴾ يعني أطوال ﴿**لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ**﴾ يعني الكفري، نضيد يعني: مجتمع، يقال: نضد بعضه على بعض، ويقال ثمر منضود إذا كان متراكباً بعضه على بعض، ويقال إنما يسمى

نضيداً ما كان في الغلاف، ﴿رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾ يعني جعلناه طعاماً للخلق، يعني الحبوب والثمر ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ يعني بالماء ﴿بَلْدَةً مَيْتاً﴾ إذا لم يكن فيها نبات، فهذا كله صفات بركة المطر ثم قال ﴿كذلك الخروج﴾ يعني هكذا الخروج من القبر، كما أحييت الأرض الميتة بالنبات، فكذلك لما ماتوا وبقيت الأرض خالية أمطرت السماء أربعين ليلة كمني الرجل فدخل في الأرض، فتنبت لحومهم وعروقهم وعظامهم من ذلك ثم يحييهم، فذلك قوله (كذلك الخروج) ثم عزى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على إيذاء الكفار يعني لا تحزن بتكذيب الكفار إياك لأنك لست بأول نبي وكل أمة كذبت رسلها مثل نوح وهود عليهم السلام وغيرهم فقال عز وجل

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ والرس: بئر دون اليمامة، وإن عليها قوماً كذبوا رسلهم فأهلكهم الله تعالى ﴿وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ يعني قومه ﴿وأصحاب الأيكة﴾ يعني قوم شعيب ﴿وقوم تبع﴾ يعني قوم حمير، ويقال: تبع كان اسم ملك، وروى وكيع عن عمران بن جرير عن أبي مجلز قال جاء عبد الله بن عباس، إلى عبد الله بن سلام فسأله عن تبع فقال: كان تبع رجلاً من العرب ظهر على الناس وسبا[1] على فتية من الأحبار، فكان يحدثهم ويحدثونه، فقال قومه إن تبعاً ترك دينكم، وتابع الفتية، فقال تبع للفتية: ألا ترون إلى ما قال هؤلاء؟ فقالوا: بيننا وبينهم النار التي تحرق الكاذب، وينجو منها الصادق، قال نعم، فقال تبع للفتية: ادخلوها، فتقلدوا مصاحفهم ثم دخلوها، فانفرجت لهم حتى قطعوها، ثم قال لقومه ادخلوها فلما دخلوا وجدوا حر النار، كفوا، فقال لهم لتدخلنها، فدخلوها فلما توسطوا، أحاطت بهم النار فأحرقتهم، وأسلم تبع وكان رجلاً صالحاً، ويقال كان اسمه سعد بن ملكي كرب، وكنيته أبو كرب ﴿كل كذب الرسل﴾ يعني جميع هؤلاء كذبوا رسلهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يعني وجب عليهم عذابي، معناه: فاحذروا يا أهل مكة مثل عذاب الأمم الخالية فلا تكذبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال عز وجل ﴿أَفَعَيِينَا بِالخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ قال مقاتل: يعني أعجزنا عن الخلق الأول حين خلقناهم ولم يكونوا شيئاً، [فكذلك نخلقهم ونبعثهم، أي ما عيينا عن ذلك، فكيف نعيي عن بعثهم، ويقال: معناه أعيينا خلقهم الأول ولم يكونوا شيئاً لأن الذي قد كان فإعادته أيسر في رأي العين، من الابتداء، يقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه، وقال الزجاج: هذا تقرير تقرر لأنهم اعترفوا في الابتداء أن الله عز وجل خلقهم ولم يكونوا شيئاً، ثم قال ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِن خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعني في شك من البعث بعد الموت، ويقال بل أقاموا على شكهم قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ﴾ يعني جنس الإنسان، وأراد به جميع الخلق ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يعني ما

(١) السبي والسباء. الأسر معروف سبى العدو وغيره سبياً وسباء إذا أسره فهو سبي انظر لسان العرب ١٩٣٢/٣ .

يحدث به قلبه، ويتفكر في قلبه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني في القدرة عليه، وحبل الوريد: عرق يخالط القلب ويقال هو العرق الذي داخل العنق، الذي هو عرق الروح فأعلمه الله تعالى أنه أقرب إليه من ذلك العرق، ويقال: الوريدان عرقان بين الحلقوم والعلباوين، والحبل هو الوريد، وأضيف إلى نفسه لاختلاف لفظي اسميه قوله عز وجل ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني يكتب الملكان عمله ومنطقه، يعني يتلقيان منه ويكتبان، وقال أهل اللغة: تلقى وتلقف بمعنى واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يعني عن يمين ابن آدم وعن شماله قاعدان، أحدهما عن يمينه. والآخر عن شماله، وصاحب اليمين موكل على صاحب الشمال، إثنان بالليل واثنان بالنهار، وكان في الأصل قعيدان ولكن اكتفى بذكر أحدهما فقال: قعيد ثم قال عز وجل ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ يعني ما يتكلم ابن آدم بقول ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يعني عنده حافظ حاضر، وقال الزجاج: عتيد أي ثابت لازم قوله تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ يعني جاءت غمرته بالحق أنه كائن، ويقال: جاءت نزعات الموت بالحق، يعني بالسعادة والشقاوة، يعني يتبين له عند الموت، ويقال فيه تقديم ومعناه: جاءت سكرة الحق بالموت، روي عن أبي بكر الصديق أنه كان يقرأ «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الحَقّ بِالمَوْتِ ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يعني يقال له هذا الذي كنت تخاف منه وتكره، ويقال ذلك اليوم الذي كنت تفر منه ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني النفخة الأخيرة وهي نفخة البعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ يعني العذاب في الآخرة ﴿وَجَاءَتْ﴾ أي جاءت يوم القيامة ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سائق: يسوقها إلى المحشر، ويسوقها إلى الجنة أو إلى النار، وشهيد: يعني الملك يشهد عليها، وقال القتبي: السائق هاهنا: قرينها من الشياطين يسوقها، سمي سائقاً لأنه يتبعها، والشهيد: الملك، ويقال: الشاهد أعضاؤه، ويقال: الليل والنهار والبقعة تشهد عليه، ويقال له ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ يعني من هذا اليوم فلم تؤمن به، وقد ظهر عندك بالمعاينة ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ يعني غطاء الآخرة، ويقال أريناك ما كان مستوراً عنك في الدنيا، ويقال: أريناك الغطاء الذي على أبصارهم، كما قال: «على أبصارهم غشاوة» حيث لم يعقلوا ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي نافذ، ويقال: شاخص بصره لا يطرف يديم النظر حين يعاين في الآخرة ما كان مكذباً به، ويقال حديد: أي حاد، كما يقال حفيظ يعني حافظ، وقعيد بمعنى قاعد، وقال الزجاج: هذا مثل ومعناه: إنك كنت بمنزلة من عليه غطاء فبصرك اليوم حديد، يعني علمك بما أنت فيه نافذ.

وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾

قوله عز وجل ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني ملكه الذي كان يكتب عمله ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ يعني هذا الذي وكلتني به قد أتيتك به، وهو حاضر، يقول الله عز وجل: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ يعني يقول للملكين: ألقيا في جهنم ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقال بعضهم هذا أمر للملك الواحد بلفظ الاثنين، وقال الفراء: يرى أصل هذا أن الرفقة أدنى ما تكون ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه، ألا ترى أن الشعراء أكثر شيء قيلاً: يا صاحبي، ويا خليلي، قال الشاعر: فقلت لصاحبي لا تحبساني، وأدنى ما يكون الأمر والنهي في الإعراب اثنان، فجرى كلامهم على ذلك، ومثل هذا قول

امرىء القيس: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، ويقال «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّم» على معنى تكرير الأمر يعني ألق ألق، وهو على معنى التأكيد، وكذلك في قوله: قفا معناه: قف قف، وقال الزجاج عندي أن قوله أَلْقِيَا أمر للملكين، وقال بعضهم الأمر للواحد بلفظ الإثنين واقع في إطلاق العرب، وكان الحجاج: يقول يا حرسي اضربا عنقه «كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ» يعني كل جاحد بتوحيد الله تعالى، معرض عن الإيمان، وقال مقاتل يعني الوليد بن المغيرة، ويقال: هذا في جميع الكفار الذين ذكر صفتهم في هذه الآية، وهي قوله ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعني بخيلاً لا يخرج حق الله من ماله، ويقال «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» يعني يمتنع عن الإسلام ﴿مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾ المعتدي: هو الظلوم الغشوم، والمريب: الشاك في توحيد الله تعالى قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني أشرك بالله عز وجل ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ يعني في النار ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ يعني شيطانه ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ يعني لم يكن لي قوة أن أضله ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ يعني في خطأ طويل بعيد عن الحق، يقول الله تعالى لابن آدم وشيطانه ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي لا تختصموا عندي ﴿وَقَد قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ يعني أخذت عليكم الحجة، وأخبرتكم بالكتاب والرسول ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ يعني لا يغير قضائي وحكمي الذي حكمت، ويقال: لا يكذب وعيدي ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني لا أعذب أحداً بغير ذنب، ويقال «مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ» يعني لا يغير عن جهته، ولا يحذف منه، ولا يزاد فيه لأني أعلم كيف ضلوا، وكيف أضللتموهم، وروى سالم عن أبيه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ قال وإياي، ولكن الله عز وجل أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير[1]، وعن الربيع عن أنس قال: سألت أبا العالية عن قوله عز وجل «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ» وها هنا يقول «لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ» فقال: لا تختصموا لدي، في أهل النار، والأخرى في المؤمنين في المظالم فيما بينهم، وقال مجاهد مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ يعني لقد قضيت ما أنا قاض[2] قوله عز وجل ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر يَقُولُ بالياء، يعني يقول الله تعالى، قرأ الباقون بالنون[3]، ومعناه كذلك يومَ صار نصباً على معنى مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ في ذلك اليوم، ويقال: على معنى أنذرهم يوم، كقوله وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الحَسْرَةِ ثم قال ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ يعني هل أوفيتك ما وعدتك، وهو قوله لأملأن جَهَنَّمَ ﴿فتقول﴾ النار ﴿هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾ يعني هل من زيادة، وقال عطية: هل من موضع، ويقال معناه: هل امتلأت، أي قد امتلأت، فليس من مزيد، ويقال أنا طلبت الزيادة تغيظاً لمن فيها، وروى وكيع بإسناده عن أبي هريرة قال «لَا تَزَالُ جَهَنَّم تَسْأَلُ الزِّيَادَةَ، حَتى يَضَعَ اللَّهُ فِيهَا قَدمه، فَتَقُولُ جَهَنَّمَ يَا رَبِّ قَط قَط» أي حسبي حسبي، وقال في رواية الكلبي نحو هذا، ويقال تضيق بأهلها حتى لا يكون فيها مدخل لرجل واحد، قال أبو الليث: قد تكلم الناس في مثل هذا الخبر، قال بعضهم نؤمن به ولا نفسره، وقال بعضهم نفسره على ما جاء بظاهر لفظه، وتأوله بعضهم، وقال معنى الخبر، بكسر القاف يضع قدمه، وهم أقوام سالفة فتمتلىء بذلك.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ

(١) أخرجه مسلم ٤/٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين (٦٩ ـ ٢٨١٤) وأحمد في المسند ١/٣٨٥، ٤٠١ والدر المنثور ٦/١٨ والطبراني في الدليل ١٠/٢٦٩ وابن كثير في التفسير ٤/٣٦١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٠٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) حجتهم قبلها «وما أنا بظلام للعبيد» فقال: أنا فأخبر عن نفسه. انظر حجة القراءات ٦٧٧ ـ ٦٧٨.

وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾

قوله عز وجل ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ﴾ يعني قربت وأدنيت الجنة ﴿لِلمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والكبائر، ويقال زينت الجنة ثم قال عز وجل ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يعني ينظرون إليها قبل دخولها، ويقال غَيْرَ بَعِيدٍ يعني دخولهم غير بعيد، فيقال لهم ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي مقبل إلى طاعة الله، حفيظ لأمر الله تعالى في الخلوات وغيرها، ويقال الأواب الحفيظ: الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها[1] وروى مجاهد عن عبيد بن عمير مثل هذا قوله عز وجل ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ﴾ يعني يخاف الله عز وجل، فيعمل بما أمره الله، وانتهى عما نهاه، وهو في غيب منه ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ يعني مقبلاً إلى طاعة الله مخلصاً، ويقال لهم ﴿آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ذكر في أول الآية بلفظ الواحدان، وهو قوله «وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ» ثم ذكر بلفظ الجماعة وهو قوله «آدخُلُوهَا» لأن لفظه من اسم جنس يقع على الواحد وعلى الجماعة، مرة تكون عبارة عن الجماعة، ومرة تكون عن الواحدان «آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ» يعني بسلامة من العذاب والموت والأمراض والآفات ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الخُلُودِ﴾ أي لا خروج منه قوله عز وجل ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا﴾ يعني يتمنون فيها ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني زيادة على ما يتمنون، من التحف والكرامات، ويقال هو الرؤية، وكقوله «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ» ثم قال عز وجل ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ يعني قبل أهل مكة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾ يعني أشد من أهل مكة قوة ﴿فَنَقَّبُوا فِي البِلَادِ﴾ يعني طافوا وتقلبوا في أسفارهم وتجاراتهم، ويقال تغربوا في البلاد ﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني هل من فرار، وهل من ملجأ من عذاب الله.

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ
ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ
وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

قوله عز وجل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ يعني فيما صنع لقومك ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يعني عقل، لأنه يعقل بالقلب فكني عنه ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعني استمع إلى القرآن ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يعني قلبه حاضر غير غائب عنه، وقال القتبي: وهو شهيد: يعني استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وروى معمر عن قتادة قال: لمن كان له قلب من هذه الأمة، أو ألقى السمع، قال رجل من أهل الكتاب: استمع إلى القرآن وهو شهيد على ما في يديه من كتاب الله تعالى[2]، وروي عن عمر أنه قرأ «فَنَقَبُوا» بالتخفيف يعني «فتبينوا» ونظروا، وذكروا،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٠٧ وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير.

ومنه قيل للعريف نقيب القوم، لأنه يتعرف أمرهم ويبحث عنهم، وقرأ يحيى بن يعمر[١] «فَنُقِبوا» بضم النون وكسر القاف يعني «تبينوا» وقرأ الباقون بالتشديد[٢]، يعني طوفوا، وقوله «هَل مِن مَحِيصٍ» يعني هل من ملجأ من الموت قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: لما خلق الله السموات والأرض وفرغ منهما، استراح في يوم السبت فنزل قوله وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ﴾ يعني ما أصابنا من إعياء، وإنما يستريح من يعيى قوله عز وجل ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من المنكر، وهو قولهم استراح ويقال فاصبر على ما يقولون من التكذيب، وقال في رواية الكلبي: نزلت في المستهزئين من قريش، وفي أذاهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ يعني صل لربك صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني المغرب والعشاء ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ يعني صل له وهو المغرب والعشاء ﴿وَأدبار السجود﴾ يعني ركعتي المغرب، قرأ ابن كثير ونافع وحمزة وَإِدبَارَ بكسر الألف، والباقون بالنصب[٣] فهو جمع الدبر، ومن قرأ بالكسر فعلى مصدر أدبر يدبر إدباراً، قال أبو عبيدة هكذا نقرأ يعني بالنصب، لأنه جمع الدبر، وإنما الإدبار هو المصدر، كقولك أدبر يدبر إدباراً، ولا إدبار للسجود، وإنما ذلك للنجوم قوله عز وجل ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وابن كثير (المُنَادِي بالياء في الوصل، وهو الأصل في اللغة، والباقون بغير ياء[٤]، لأن الكسر يدل عليه، فاكتفى به، ومعنى الآية: اعمل واجتهد واستعد ليوم القيامة، يعني استمع صوت إسرافيل ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من صخرة بيت المقدس ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني نفخة إسرافيل بالحق أنها كائنة، وقال مقاتل في قوله «مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» قال: صخرة بيت المقدس، وهي أقرب الأرض من السماء بثمانية عشر ميلاً، وقال الكلبي باثنى عشر ميلاً ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من قبورهم إلى المحاسبة، ثم إلى إحدى الدارين، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وقال أبو عبيدة: يوم الخروج اسم من أسماء يوم القيامة، واستشهد بقول العجاج[٥]: أليس يوم سميت خروجاً: أعظم يوماً سميت عروجاً. قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ يعني نحيي في الآخرة، ونميت في الدنيا الأحياء، ويقال إنا نحن نحيي الموتى، ونميت الأحياء ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ يعني المرجع في الآخرة، يعني مصير الخلائق كلهم قوله عز وجل ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ يعني تصدع الأرض عنهم، قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تَشَّقَّقُ» بتشديد الشين، والباقون بالتخفيف[٦]، لأنه لما حذف إحدى التائين ترك الشين على حالها، ثم قال «سِرَاعاً» يعني خروجهم من القبور سراعاً ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ يعني جمع الخلائق علينا هين ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في البعث من التكذيب ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ يعني بمسلط، يعني لم تبعث لتجبرهم على الإسلام، وإنما بعثت بشيراً ونذيراً، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم قال ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾ يعني فعظ بالقرآن بما وعد الله فيه ﴿مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ يعني من يخاف عقوبتي، وعذابي. والله أعلم.

---

(١) يحيى بن يعمر الوشقي العدواني أبو سليمان أول من نقط المصاحف كان عارفاً بالحديث والفقه ولغات العرب توفي سنة ١٢٩ هـ انظر الأعلام ١٧٧/٨.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٤٨٩/٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٧٨، النشر في القراءات العشر ٣٧٦/٢.

(٤) حجة القراءات الموضع السابق. إتحاف فضلاء البشر ٤٩٠/٢

(٥) عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي أبو الشعثاء من الشعراء توفي سنة ٩٠ هـ الأعلام ٨٦/٤.

(٦) المصدران السابقان.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ (١)

وهي ستون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾
وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾

قوله تعالى ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً**﴾ أقسم الله عز وجل بالرياح إذا أذرت ذرواً، وروى يعلى بن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب فالرحمة منها الناشرات والمبشرات والذاريات والمرسلات وأما العذاب العاصف والقاصف والصرصر والعقيم وعن أبي الطفيل قال شهدت علياً رضي الله عنه وهو يخطب ويقول سلوني عن كتاب الله عز وجل فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بالليل أم بالنهار فسأله ابن الكواء فقال: له ما الذاريات ذروا قال الرياح قال ﴿**فَالْحَامِلاَتِ وِقْراً**﴾ قال السحاب قال فما ﴿**فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً**﴾ قال السفن جرت بالتسيير على الماء ﴿**فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً**﴾ قال الملائكة وعن ابن عباس رضي الله عنه قال والذاريات الرياح قال ما ذرت الريح فالحاملات وقراً يعني السحاب الثقال الموقرة من الماء فالجاريات يسراً يعني السفن جرت بالتسيير على الماء فالمقسمات أمراً[٢] يعني أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت لكل واحد منهم أمر مقسوم وهم المدبرات أمراً، أقسم الله تعالى بهذه الآية ﴿**إِنَّمَا تُوعَدُونَ**﴾ يعني الذي توعدون من قيام الساعة ﴿**لَصَادِقٌ**﴾ يعني لكائن، ويقال في الآية مضمر فأقسم الله تعالى برب الذاريات يعني ورب الرياح الذاريات ورب السحاب الحاملات ورب السفن الجاريات ورب الملائكة المقسمات إنما توعدون لصادق ﴿**وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ**﴾ يعني المجازات على أعمالهم لواقع ثم بين في آخر الآية ما لكل فريق من الجزاء فبين جزاء أهل النار أنهم يفتنون وبين جزاء المتقين أنهم في جنات وعيون ثم قال عز وجل ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**﴾[٣] أقسم بالسماء ذات الحسن والجمال وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني ذات الخلق الحسن وقال مجاهد المتقن من البنيان

---

(١) من أغراض هذه السورة تحقيق وقوع البعث والجزاء. وإبطال مزاعم المكذبين به وبرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورميهم لأنهم يقولون بغير تثبت. ووعيدهم بعذاب يفتنهم. ووعد المؤمنين بنعيم الخلد وذكر ما استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان. ثم الاستدلال على وحدانية الله والاستدلال على إمكان البعث وعلى أنه واقع لا محالة بما في بعض المخلوقات التي يشاهدونها ويحسون بها دالة على سعة قدرة الله تعالى وحكمته على ما هو أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد فنائه وعلى أنه لم يخلق إلا لجزائه والتعريض بالإنذار بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله، وبيان الشبه التام بينهم وبين أولئك. وتلقين هؤلاء المكذبين الرجوع إلى الله وتصديق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونبذ الشرك ومعذرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبعة إعراضهم والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق. ووعيدهم على ذلك بمثل ما حل بأمثالهم. التحرير ٢٦/٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٢) سقط في أ.

(٣) حبك السماء: طرائقها وفي التنزيل «والسماء ذات الحبك» يعني ترائق النجوم واحدتها حبيكة. لسان العرب ٢/٧٥٨.

يعني البناء[1] المحكم ويقال الحبك يعني ذات الطرائق ويقال للماء القائم إذا ضربته الريح فصارت فيه الطرائق له حبك وكذلك الرمل إذا هبت عليه الريح فرأيت فيه كالطرائق فبذلك حبك قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يعني متناقض مرة قالوا ساحراً ومرة قالوا مجنون والساحر عندهم من كان عالماً غاية في العلم، والمجنون من كان جاحداً غاية في الجهل فتحيروا فقالوا مرة مجنون ومرة ساحر ويقال إنكم لفي قول مختلف يعني مصدقاً ومكذباً يعني يؤمن به بعضهم ويكفر به بعضهم ثم قال عز وجل ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يعني يصرف عنه من صرف[2] وذلك إن أهل مكة أقاموا رجالاً على عقاب مكة يصرفون الناس فمنهم من يأخذ بقولهم ويرجع ومنهم من لا يرجع فقال يصرف عنه من قد صرفه الله عن الإيمان وخذله، ويقال يصرف عنه من قد صرفه يوم الميثاق، ويقال يصرف عنه من كان مخذولاً لم يكن من أهل الإيمان.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ يعني لعن الكاذبون ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ يعني في جهالة وعمي وغفلة عن أمر الآخرة ساهون يعني لاهين عن الإيمان وعن أمر الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ يعني أي أوان يوم الحساب استهزاء منهم به فأخبر الله تعالى عن ذلك اليوم فقال ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يعني بالنار يحرقون ويعذبون ويقول لهم الخزنة ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني هذا العذاب الذي كنتم به تستهزئون يعني تستعجلون على وجه الاستهزاء ثم بين ثواب المتقين فقال عز وجل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني في بساتين وأنهار قوله تعالى ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يعني قابضين ما أعطاهم ربهم من الثواب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم، قرأ عاصم آخذين نصب على الحال، ومعنى، في جنات وعيون في حال آخذين ما آتاهم ربهم ثم قال ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ يعني قليل من الليل ما ينامون وقال بعضهم كانوا قليلاً ثم الكلام، يعني مثل هؤلاء المتقين كانوا قليلاً ثم أخبر عن أعمالهم فقال من الليل ما يهجعون يعني لا ينامون بالليل كقوله والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً وقال الضحاك كانوا من النائمين وقال[3] الحسن لا ينامون إلا قليلاً وقال الربيع بن أنس لا ينامون بالليل إلا قليلاً. ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني يصلون عند السحر، ويقال يصلون بالليل ويستغفرون عند السحر عن ذنوبهم ﴿وَفِي أَمْوَالِهِم حَقٌّ﴾ يعني نصيب للفقراء ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ السائل المسكين الذي يسأل الناس والمحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس ويقال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٢ وعزاه لابن جرير.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن الحسن.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

المحروم المحترف الذي لا يبلغ عيشه وقال الشعبي أعياني أن أعلم من المحروم روى سفيان عن ابن إسحاق عن قيس قال سألت ابن عباس من السائل والمحروم فقال السائل الذي يسأل والمحروم المحارب الذي ليس له سهم في[1] الغنيمة وهكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد والربيع بن أنس وروى عكرمةَ عن ابن عباس قال المحروم الفقير الذي إذا خرج إلى الناس استعف ولم يعرف مكانه ولا يسأل الناس فيعطونه وقال الزجاج المحروم الذي لا ينمو له مال ويقال هي بالفارسية بي دولة يعني لا إقبال له قوله ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ يعني فيمن أهلك قبلهم لهم عبرة، ويقال فيها علامة وحدانية الله تعالى كأنه قال جعلت جميع الأشياء مرآتك لتنظر إليها وترى ما فيها ومراد النظر في المرآة رؤية من لم يـر فكـأنه قال وانظر في آيات صنعي لتعلم أفي صانع كمل الأشياء فإذا نظرت إلى النقش والنقش يدل إلى نقاشه وإذا نظرت إلى النفس وعجائب تركيبها يدل على خالقها، وإذا نظرت في الأرض فمختلف الأشياء عليها يدل إلى ربها وهي البحار والجبال والأنهار والأثمار ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني وعـلامة وحـدانيته في أنفسكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني تتفكرون في خلق أنفسكم كيف خلقكم وهو قادر على أن يبعثكم. قوله عز وجل ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني من السماء يأتي سبب رزقكم وهو المطر ، ويقال وعلى خالق السماء رزقكم ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني ما توعدون من الثواب والعقاب والخير والشر قال مجاهد وما توعدون يعني الجنة والنار[2] وهكذا قال الضحاك.

فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أقسم الرب بنفسه ﴿إنه لَحَقٌّ﴾ يعني ما قسمت من الرزق لكائن ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ يعني كما تقولون لا إله إلا الله أو يعني كما أن قولكم لا إله إلا الله حق كذلك قولي سأرزقكم حق، ويقال معناه كما أن الشهادة واجبة عليكم فكذلك رزقكم واجب علي ويقال معناه هو الذي ذكر في أمر الآيات والرزق حق يعين صدق مثل ما أنكم تنطقون وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال أبى ابن آدم أن يصدق ربه حتى أقسم له فورب السماء والأرض إنه[3] لحـق، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٣ وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٤ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٣) أخرجه بنحوه مرسلاً ابن جرير الطبري انظر تفسير ابن كثير ٧/٣٩٧.

«مثل ما أنكم تنطقون» بضم اللام والباقون بالنصب[١] فمن قرأ بالضم فهو نعت بالحق وصفه له، ومن قرأ بالنصب فهو على التوكيد على معنى أنه لحق حقاً مثل نطقكم قوله عز وجل ﴿هَلْ آتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ يعني جاء جبريل مع أحد عشر ملكاً ـ عليهم السلام ـ المكرمين أكرمهم الله تعالى ويقال أكرمهم إبراهيم وأحسن عليهم القيام. ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ فسلموا عليه فرد عليهم السلام ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ قرأحمزة والكسائي قال سلم أي أمري سلم والباقون سلام[٢] أي أمري سلام أي صلح ثم قال ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ يعني أنكرهم ولم يعرفهم وقال كانوا لا يسلمون في ذلك الوقت فلما سمع منهم السلام أنكرهم ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ يعني عهد إلى أهله، ويقال عدل ومال إلى أهله، ويقال عدل من حيث لا يعلمون لأي شيءٍ عدل، يقال راغ فلان عنا إذا عدل عنهم من حيث لا يعلمون ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ قال بعضهم كان لبن البقرة كله سمناً فلهذا كان العجل سميناً ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ فلم يأكلوا ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فقالوا نحن لا نأكل بغير ثمن فقال إبراهيم كلوا فاعطوا الثمن قالوا وما ثمنه فقال إذا أكلتم فقولوا بسم الله وإذا فرغتم فقولوا الحمد لله فتعجبت الملائكة ـ عليهم السلام ـ لقوله فلما رآهم لا يأكلون ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ يعني أظهر في نفسه خيفة، ويقال مـلأ عنهم خيفة فلما رأوه يخاف ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ منا يعني لا تخشى منا ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ يعني إسحاق ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ يعني أخذت امرأته في صيحة. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ يعني ضربت بيديها خديها تعجباً ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ يعني عجوزاً عاقراً لم تلد قط كيف يكون لها ولد فقال لها جبريل ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ﴾ يكون لك ولد ﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره حكم بالولد بعد الكبر ﴿الْعَلِيمُ﴾ عليم بخلقه ويقال عليم بوقت الولادة فلما رآهـم أنهم الملائكة ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ يعني ما أمركم وما شأنكم ولماذا جئتم أيها المرسلون ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ يعني قال جبريل أرسلنا الله تعالى ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يعني قوم كفار مشركين ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني لكي نرسل عليهم ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ مطبوخ كما يطبخ الآجر ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ يعني معلمة، وقال: مخططة بسواد وحمرة، ويقال: مكتوب على كل واحد اسم صاحب الذي يصيبه ثم قال عند ربك يعني جاءت الحجارة من عند ربك للمشركين فاغتـم إبراهيم لأجل لوط، قال الله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أي في قريات لوط ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من المصدقين ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني غير بيت لوط قوله عز وجل ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ يعني أبقينا في قريات لوط آية يعني عبرة في هلاكهم من بعدهم ثم قال ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعني العذاب الشديد

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا
جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٧٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩٢.

(٢) المصدران السابقان.

شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾
أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

ثم قال ﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على قوله وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي موسى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يعني حجة بينة وهي اليد والعصا. ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ يعني أعرض عنه فرعون بجموعه يعني مع جموعه وجنوده ويقال فتولى بركنه يعني أعرض بجانبه ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ يعني عاقبناه وجموعه ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ﴾ قال الكلبي يعني أغرقناهم في البحر، وقال مقاتل يعني في النيل ﴿وَهُوَ مُلِيْم﴾ يعني يلوم نفسه ويلومه الناس، وقال مليم أي مذنب وقال أهل اللغة ألام الرجل إذا أتى بذنب يلام عليه ثم قال ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ ٱلْعَقِيْم﴾ يعني سلطنا عليهم الريح الشديد وإنما سميت عقيماً لأنها لا تأتي على شيء إلا جعلته كالرميم لا خير فيه ويقال سميت عقيماً لأنها لا تلقح الأشجار ولا تثير السحاب وهي الدبور، وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما أنزل الله قطرة من ماء إلا بمثقال ولا أنزل سفرة من ريح إلا بمكيال إلا قوم نوح طغى على خزانة الماء فلم يكن لهم عليه سبيل وعتت الريح يوم عاد على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل وروى عكرمة عن ابن عباس قال العقيم الذي لا منفعة لها[١] ثم قال ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني ما تترك من شيء هو لهم ولا منهم ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيم﴾ يعني مرت عليه إلا جعلته كالرماد ويقال الرميم الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم المحتظر، كما قال كهشيم المحتظر بعد ما كانوا كنخل متقصر وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ما أرسل على عاد من الريح إلا مثل خاتمي هذا يعني إن الريح العقيم تحت الأرض فأخرج منها مثل ما يخرج من ثقب الخاتم فأهلكهم ثم قال ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ يعني قوم صالح ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ يعني قال لهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ عيشوا إلى منتهى آجالكم ولا تعصوا أمر الله ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ يعني تركوا طاعة ربهم ﴿فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني العذاب قرأ الكسائي فأخذتهم الصعقة بغير ألف وجزم العين والباقون بألف[٢] وهي الصيحة التي أهلكتهم بالصعقة قوله من قولك صعقتهم الصاعقة يعني أهلكتهم وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ صعقة مثل الكسائي ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يعني ظهرت النار من تحت أرجلهم وهم يرونها بأعينهم ويقال سمعوا الصيحة وهم ينظرون متحيرون ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ يعني ما استطاعوا أن يقوموا لعذاب الله تعالى حتى أهلكوا ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ يعني ممتنعين من العذاب ثم قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وقوم نوح بكسرالميم يعني في قوم نوح كما قال وفي ثمود والباقون بالنصب[٣] يعني وأهلكنا قوم نوح ويقال معناه فأخذناه وأخذنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هؤلاء الذين سميناهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ يعني قوم نوح مِنْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٥ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة.

(٢) حجة الكسائي أن الصعقة هي المرة الواحدة بدلالة قوله «فأخذتهم الرجفة» ولم يقل الراجفة، وقوله «ومنهم من أخذته الصيحة» يعني المرة الواحدة، فلما كان المعنى في الصيحة المرة الواحدة رد ما اختلف فيه إلى ما أجمع عليه وحجة الباقين أن جميع ما في القرآن من ذكر الصاعقة جاء على هذا الوزن «مثل: الراجفة، الرادفة، الطامة، الصاخة»، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمع عليه.
انظر حجة القراءات ٦٨٠، النشر ٢/ ٣٧٧.

(٣) المصدران السابقان.

قَبْل يعني عاصين قوله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ يعني خلقناها بقوة وقدرة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يعني نحن قادرون على أن نوسعها كما نريد ويقال والسماء صار نصباً لنزع الخافض ومعناه وفي السماء آية ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ يعني وفي الأرض آية بسطناها مسيرة خمسمائة عـام من تحت الكعبة ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ يعني نعم الماهدون نحن ويقال في قوله وإنا لموسعون يعني نحن جعلنا بينهما وبين الأرض سعة ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ يعني صنفين الذكر والأنثى والأحمر والأبيض والليل والنهار والدنيا والآخرة والشمس والقمر والشتاء والصيف ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يعني تتعظون فيما خلق الله فتوحدوه قوله عز وجل ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني توبوا إلى الله من ذنوبكم، ويقال: معناه ففروا من الله إلى الله، أو ففروا من عذاب الله إلى رحمة الله، أو ففروا من معصيته إلى طاعته ومن الذنوب إلى التوبة، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني مخوفاً من عذاب الله تعالى بالنار ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ يعني لا تقولوا له شريكاً وولداً ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يعني فإن فعلتم فإني لكم مخوف من عذابه فلم يقبلوا قوله وقالوا هذا ساحر أو مجنون يقول الله تعالى تعزية لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ يعني هكذا ما أتى في الأمم الخالية من رسول ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كقول كفار مكة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ يعني توافقوا وتواطؤوا فيما بينهم وأوصى الأول الآخر أن يقولوا ذلك ويقال: توافقوا وتواطؤوا به كل قوم وجعلوا كلمتهم واحدة أن يقولوا ساحر أو مجنون قال الله عز وجل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يعني عاتين في معصية الله تعالى

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

ثم قال ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني فأعرض عنهم يا محمد بعد ما بلغت الرسالة وأعذرت ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني لا تلام على ذلك لأنك قد فعلت ما عليك ﴿وَذَكِّرْ﴾ يعني عظ أصحابك بالقرآن ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني المصدقين تنفعهم العظة ويقال فعظ أهل مكة فإن الذكرى تنفع المؤمنين يعني من قدر لهم الإيمان ثم قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] يعني مـا خلقتهم إلا أمرتهم بالعبادة فلو أنهم خلقوا للعبادة لما عصوا طرفة عين وقال مجاهد: يعني ما خلقتهم إلا لآمرهم وأنهاهم ويقال إلا ليعبدون يعني إلا ليوحدون وهم المؤمنون وهم خلقوا للتوحيد والعبادة وخلق بعضهم لجهنم كما قال، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس فقد خلق كل صنف للأمر والنهي الذي يصلح له ثم قال ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يعني ما خلقتهم لأن يرزقوا أنفسهم ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ يعني لا أكلفهم أن يطعموا أحداً من خلقي وأصل هذا أن الخلق عباد الله وعياله فمن أطعم عيال رجل ورزقهم فقد رزقه إذا كان رزقهم عليه ثم قال ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ يعني الرزاق لجميع خلقه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

(١) في أ [قال مقاتل].

يعني ذو القوة على أعدائه الشديد العقوبة لهم والمتين في اللغة[١] الشديد القوي قرأ الأعمش ذو القـوة المتين بكسر النون جعله من نعت القوة وقراءة العامة بالضم[٢] ومعناه إن الله هو الرزاق وهو ذو القوة المتين قوله عز وجل ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني أشركوا وهم مشركو مكة ﴿ذَنُوباً﴾ يعني نصيباً من العذاب ﴿مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ يعني مثل نصيب أصحاب من عذاب الذين مضوا وأصل الذنوب في اللغة هو الدلو الكبير فكيف عنه لأنه تتابع يعني مثل عذاب الذين أهلكوا نحو قوم عاد وثمود وغيرهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ يعني بالعذاب لأن النضر بن الحارث كان يستعجل بالعذاب فأمهله إلى يوم بدر ثم قتل في ذلك اليوم وصار إلى النار. قوله عز وجل ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني من عذاب يوم القيامة والويل الشدة من العذاب، يقال الويل واد في جهنم.

(١) انظر لسان العرب ٦/٤١٣٠.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩٤.

سُورَةُ الطُّورِ (١)

وهي أربعون وتسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا
تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى ﴿**وَالطُّورِ**﴾ أقسم الله تعالى بالجبل وكل جبل فهو طور بلغة النبط ويقال بلغة السريانية ولكن عني به الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام بمدين ثم قال: ﴿**وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ**﴾ يعني: في اللوح المحفوظ ويقال أعمال بني آدم ﴿**في رق منشور**﴾ يعني: في صحيفة منشورة كما قال ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. يعني: مفتوحاً يقرؤونه ويقال كتاب مسطور يعني: القرآن في رق منشور يعني: المصاحف ويقال في اللوح المحفوظ ثم قال: ﴿**والبيت المعمور**﴾ وهو في السماء السابعة ويقال في السماء السادسة، ويقال في السماء الرابعة وروى وكيع بإسناده عن علي وابن عباس في قوله والبيت المعمور قالا هو بيت في السماء حيال الكعبة يزوره كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه إلى يوم القيامة[٢] قال بعضهم بناه الملائكة قبل أن يخلق آدم عليه السلام وقال بعضهم هو البيت الذي بناه آدم بمكة فرفعه الله تعالى في أيام الطوفان إلى السماء بحيال الكعبة، وقال بعضهم أنزل الله بيتاً من ياقوتة في زمان آدم عليه السلام ووضع بمكة فكان آدم يطوف به وذريته من بعده إلى زمن الطوفان فرفع إلى السماء وهو البيت المعمور طوله كما بين السماء والأرض ثم قال ﴿**وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ**﴾ يعني: السماء

---

(١) أول أغراض هذه السورة التهديد بتحقيق وقوع العذاب يوم القيامة للمشركين المكذبين بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن ذلك فقالوا: هو سحر. ومقابلة وعيدهم بوعد المتقين المؤمنين وصفة نعيمهم ووصف تذكرهم خشية، وثنائهم على الله بما من عليهم فانتقل إلى تسلية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإبطال أقوالهم فيه وانتظارهم موته. وتحديهم بأنهم عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن. وإبطال خليط من تكاذيبهم بإعادة الخلق وببعثة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس من كبرائهم وبكون الملائكة بنات الله. وإبطال تعدد الألهة وذكر استهزائهم بالوعيد. وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتركهم وأن لا يحزن لذلك، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا ثم في الآخرة وأمره بالصبر، ووعده بالتأييد، وأمر بشكر ربه في جميع الأوقات. انظر التحرير ٢٧/٣٦.

(٢) انظر الدر المنثور ٦/١١٧.

المرتفعة من الأرض مقدار خمسمائة عام ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعني: البحر الممتلىء تحت العرش وهو بحر مكفوف يقال له الحيوان يحمي الله به الموتى يوم القيامة فأقسم الله تعالى بهذه الأشياء ويقال أقسم بخالق هذه الأشياء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني: العذاب الذي أوقع الكفار فهو كائن ﴿مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ يعني: لا يقدر أحد أن يرفع عنهم العذاب ثم بين أن ذلك العذاب في أي يوم يكون فقال ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ يعني: تدور السماء بأهلها دوراً وتموج بعضهم في بعض من الخوف صار اليوم نصباً لنزع الخافض ومعناه أن عذاب ربك لواقع في يوم تمور السماء موراً يعني: في يوم القيامة ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ يعني: تسير على وجه الأرض سيراً مثل السحاب حتى تستوي بالأرض ﴿فَوَيْلٌ﴾ الشدة من العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم القيامة ثم نعتهم فقال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ يعني: في باطل يلهون ويستهزئون قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يعني: تدفعهم خزنة جهنم، ويقال يدعون يعني يزعجون إليها إزعاجاً شديداً ويدفعون دفعاً عنيفاً ومنه قوله تعالى ـ يدع اليتيم أي يدفع عما يجب ويقال دعا يعني دفعاً على وجوههم يجرون فإذا دنوا منها قالت لهم الخزنة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ يعني: لم تصدقوا بها ولم تأمنوا بها (في الدنيا) ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ العذاب الذي ترون لأنفسكم لأنكم قلتم في الدنيا للرسول ساحراً ومجنون ﴿أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾ النار ويقال: بل أنتم لا تعقلون ثم قال لهم ﴿اَصْلَوها﴾ يعني: ادخلوا فيها ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا﴾ يعني: فإن صبرتم أو لم تصبروا فهو ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ اللفظ لفظ الأمر المراد به الخبر يعني إن صبرتم أو لم تصبروا فلا تنجون منها أبداً ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الكفر والتكذيب.

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ
وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ
﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ
عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا
مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

ثم بين حال المتقين فقال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ﴾ يعني: الذين يتقون الشرك والفواحش في بساتين ﴿وَنَعِيمٍ فَاكِهِينَ﴾ يعني: معجبين ويقال ناعمين ويقال فرحين ﴿بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الجنة من الكرامة ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ يعني: دفع عنهم عذاب النار ويقول لهم الخزنة ﴿كلوا واشربوا﴾ يعني: كلوا من ألوان الطعام والثمار واشربوا من ألوان الشراب ﴿هنيئاً﴾ يعني: لا داء ولا غائلة فيه ولا يخاف في الأكل والشرب من الآفات ما يكون في الدنيا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: هذا الثواب لأعمالكم التي عملتم في الدنيا ثم قال: ﴿متكئين على سرر﴾ يعني: نائمين على سرر ﴿مصفوفة﴾ قد صف بعضها إلى بعض فكانوا على سرر وكل من كان اشتاق إلى صديقه يلتقيان. قوله تعالى ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ يعني: بيض الوجوه

العين حسان الأعين قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا﴾ يعني: صدقوا بالله ورسوله وصدقوا بالبعث ﴿وَاتَّبَعْتُهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَتَهِمْ﴾ يعني: ألحقناهم ذرياتهم قرأ أبو عمرو واتبعناهم ذرياتهم الحقنا بهم ذرياتهم الثلاثة كلها بالألف وقرأ نافع اثنان بغير ألف[1] والآخر بالألف، وقرأ ابن عامر الأول بغير ألف والاخران بالألف والباقون كلها ألف فمن قرأ اتبعناهم معناه ألحقناهم يعني: الذين آمنوا وجعلنا ذريتهم مؤمنين ألحقنا بهم ذريتهم في الجنة في درجتهم ومن قرأ واتبعتهم بغير ألف يعني: ذريتهم معهم، ومن قرأ ذرياتهم بالألف فهو جمع الذرية، ومن قرأ بغير ألف فهو عبارة عن الجنس ويقع على الجماعة أيضاً وقال مقاتل معناه الذين أدركوا مع آبائهم وعملوا خيراً في الجنة ألحقنا بهم ذريتهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل فهم معهم في الجنة ويقال إن أحدهم إذا كان أسفل منه يلحق بهم لكي تقر عينه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يرفع الله المسلم ذريته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه[2] ثم قال: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما نقصناهم من عمل الآباء إذا كانوا مع الأبناء حتى يبلغ بهم ذريتهم من غير أن ينقص من أجر أولئك شيئاً ولا من ذريتهم ﴿كُلُّ أمرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ يعني: كل نفس مرتهنة بعملها يوم القيامة ثم رجع إلى صفة المتقين في التقديم وكرامتهم قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ﴾ يعني: أعطيناهم من ألوان الفاكهة ﴿وَلَحمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني: يتمنون، قرأ ابن كثير أَلِتناهم بكسر اللام، وهي لغة لبعض العرب واللغة الظاهرة بالفتح وهي من آلت يألت وهو النقصان قوله عز وجل: ﴿يَتَنَازَعونَ فِيهَا كَأساً﴾ يعني: يتعاطون في الجنة تعطيهم الخدم قدح الشراب ولا يكون كأساً، إلا مع الشراب ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا﴾ يعني: لا باطل في الجنة ﴿وَلاَ تَأثِيمٌ﴾ يعني: لا إثم في شرب الخمر ويقال لا تأثيم يعني لا تكذيب فيما بينهم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو لا لغواً فيها بنصب الواو ولا تأثيماً بنصب الميم والباقون بالضم مع التنوين[3] فمن قرأ بالنصب فهو على التبرئة ومن قرأ بالضم فهو على معنى الخبر يعني ليس فيها لغو ولا تأثيم كما قال لا فيها غول ثم قال عز وجل: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ يعني: في الحسن والبياض مثل اللؤلؤ في الصدف لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين، وروى سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم فقال والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر[4] الكواكب ثم قال ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني: يتحدثون ويتساءلون في الجنة عن أحوالهم التي كانت في الدنيا ثم يقول صرت إلى هذه المنزلة الرفيعة. قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ يعني: في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ يعني: خائفين من العذاب ثم قال: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ يعني: من علينا بالمغفرة والرحمة ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ يعني: دفع عنا عذاب النار قوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يعني: في الدنيا ندعو الرب ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ الصادق في قوله وفيا وعد لأوليائه، ويقال البر بمعنى: البار ﴿الرحيم﴾، قرأ نافع والكسائي أنه بالنصب ومعناه إنا كنا

---

(١) حجة أبي عمرو قوله ﴿ألحقنا بهم﴾ ولم يقل: لحقت فذهب أبو عمرو إلى أنه لما أتى عقيب الفعل فعل بلفظ الجمع وفق بين اللفظين لأنه في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد، وتبعت يتعدى إلى مفعول واحد، فإذا نقل بالهمزة تعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأول الهاء والميم في قوله ﴿واتبعناهم﴾ والمفعول الثاني «ذرياتهم» ونافع جمع وأفرد لأن كل واحد منها جائز ألا ترى أن الذرية قد تكون جمعاً فإذا أجمعت فلأن الجموع قد تجمع نحو: أقوام. انظر حجة القراءات ٦٨١ ـ ٦٨٢، النشر ٢/٣٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٩ وعزاه للبزار وابن مردويه.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٨٣، إتحاف فضلاء البشر ٢/٤٩١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١١٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر.

من قبل ندعوه بأنه هو البر، وقرأ الباقون بالكسر[١] على معنى الاستئناف ثم أمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يعظ الناس ولا يبالي في قولهم.

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

فقال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني: فعظ بالقرآن ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: برحمة ربك ويقال هو كقوله ما أنت بحمد الله مجنون وقال أبو سهل متعظ بالقرآن ولست أنت والحمد لله ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ويقال فذكر يعني: ذكرهم بما أعتدنا للمؤمنين المتقين وبما أعتدنا للضالين الكافرين فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون يعني لست تقول بقول الكهنة ولا تنطق إلا بالوحي ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يعني: أيقولون هو شاعر يأتي من قبل نفسه وهو قول الوليد بن المغيرة. وأبي جهل وأصحابها ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ يعني: أوجاع الموت وحوادثه، قال قتادة ريب المنون الموت، وقال مجاهد ريب المنون حوادث الدهر[٢] وقال القتبي حوادث الدهر وأوجاعه ومصايبه ويقال إنهم كانوا يقولون قد مات أبوه شاباً وهم ينتظرون موته. ﴿قُلْ تَرَبَّصوا﴾ يعني: انتظروا هلاكي ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصينَ﴾ وذكر في التفسير أن الذين قالوا هكذا ماتوا كلهم قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ يعني: أتأمرهم عقولهم وتدلهم على التكذيب والإيذاء بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يعني: بل هم قوم عاتون في معصية الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ يعني: أيقولون أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول من ذات نفسه واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الزجر والوعيد ثم قال: ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: لا يصدقون بالرسول والكتاب عناداً وحسداً منهم، قوله عز وجل: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ يعني: إن قلتم إن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول من ذات نفسه فأتوا بمثل هذا القرآن كما جاء به ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في قولهم. ثم قال ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يعني: من غير رب، كانوا هكذا خلقاً من غير شيء ومعناه كيف لا يعتبرون بأن الله تعالى خلقهم فيوحدونه ويعبدونه ويقال أم خلقوا من غير شيء يعني لغير شيء، ومعناه أخلقوا باطلاً لا يحاسبون ولا يؤمرون ولا ينهون ثم قال ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني: أهم خلقوا الخلق أم الله تعالى ومعناه أن الله تعالى خلق الخلق وهو الذي يبعثهم يوم القيامة ثم قال ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَـوَاتِ والأَرْضَ﴾ يعني: بل الله تعالى خلقهم ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتوحيد الله الذي خلقهما أنه واحد لا شريك له ثم قال ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ يعني: مفاتيح رزق ربك، ويقال: مفاتيح ربك الرسالة فيضعونها حيث شاؤوا ولكن الله يختار من يشاء كقولهم أألقي عليه الذكر من بيننا ثم قال ﴿أَمْ هُمَ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ يعني: أهم المسلطون عليهم يحملونهم حيث شاؤوا

(١) انظر حجة القراءات ٦٨٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

على الناس فيجبرونهم بما شاؤوا، قرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي في إحدى الروايتين المسيطرون بالسين والباقون بالصاد وقرأ حمزة المزيطرون بإشمام الزاء(١) وقال الزجاج تسيطر علينا وتصيطر وأصله السين وكل سين بعدها طاء يجوز أن تقلب صاداً مثل مسيطر ويبسط ثم قالوا ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ يعني: سبباً إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يعني: يرتقون عليه فيستمعون القول من رب العالمين ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة بينة.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ ثم بين جهلهم. وقلة أحلامهم أنهم يجعلون لله ما يكرهون لأنفسهم ثم قال عز وجل ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ ومعناه أن الحجة واجبة عليهم من كل وجه لأنك قد أتيتهم بالبيان والبرهان ولم تسألهم على ذلك أجراً، فقال أم تسألهم يعني: أتطلب منهم أجراً بما تعلمهم من الأحكام والشرائع ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يعني: من أجل المغرم يمتنعون عن الإيمان يعني: لا حجة لهم في الامتناع لأنك لا تسأل منهم أجراً فيثقل عليهم لأجل الأجر قوله عز وجل: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ يعني: عندهم الغيب بأن الله لا يبعثهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يعني: أمعهم كتاب يكتبون بما شاؤوا يعني: ما في اللوح المحفوظ فهذا كله لفظ الاستفهام والمراد به الزجر ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾ بل يريدون وعيداً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَالَّذِينَ كَفَروا هُمُ الْمَكِيْدُونَ﴾ يعني: بل هم المعذبون الهالكون قوله عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرَ اللَّهِ﴾ يعني: ألهم خالق غير الله يخلق ويرزق ويمنعهم من عذابنا ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: تنزيهاً لله تعالى عما يصفون من الشريك والولد ثم ذكر قسوة قلوبهم فقال ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ يعني: جانباً من السماء ساقطاً عليهم ﴿يَقُولُوا﴾ يعني: لقالوا من تكذيبهم ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ يعني: متراكماً بعضه على بعض لأنهم كانوا يقولون لا نؤمن بك حتى تسقط علينا كسفاً ثم قال الله تعالى لو فعلنا ذلك لم يؤمنوا ولا ينفعهم من قسوة قلوبهم. ثم قال: ﴿فذرهم﴾ يعني: فتخل عنهم يا محمد ﴿حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ﴾ يعني: يعاينوا يومهم ﴿الذي فيه يُصْعَقُونَ﴾ يعني: يموتون ويقال يعذبون قرأ عاصم وابن عامر يصعقون بضم الياء والباقون يصعقون بنصب الياء(٢) وكلاهما واحد وهما لغتان ثم وصف حالهم في ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ يعني: لا ينفعهم صنيعهم شيئاً

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٨٤، النشر في القراءات العشر ٢/٢/٣٧٨.

(٢) حجة من فتح قوله تعالى ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ فأما من قرأ ﴿يُصْعَقُونَ﴾ فإنه نقل الفعل بالهمز: تقول: صعق هو وأصعقه غيره فـ «يصعقون» من باب يكرمون لمكان النقل بالهمز. انظر حجة القراءات ٦٨٤.

﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني: لا يمنعون مما نزل بهم من العذاب. ثم قال عز وجل: **﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾** يعني: من قبل عذاب النار، قد روى عبد الله بـن عباس رضي الله عنهما قال: عذاب القبر[١]، وقال معمر عن قتادة قال عذاب القبر في القرآن ثم قرأ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك، ويقال عذاباً دون ذلك يعني: القتل ويقال الشدائد والعقوبات في الدنيا **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** يعني: لا يصدقون بالعذاب ثم عزى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم فقال **﴿واصبر لحكم ربك﴾** يعني: لما أمرك ربك ونهاك عنه، ويقال: واصبر على تكذيبهم وأذاهم **﴿فإنك بأعْيُنِنَا﴾** يعني: فإنك بمنظر منا والله تعالى يرى أحوالك ولا يخفى عليه شيء، وقال الزجاج: فإنك بأعيننا بمعنى: فإنك بحيث نراك ونحفظك ولا يصلون إلى مكرك ويقال نرى ما يصنع بك **﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾** يعني: صل بأمر ربك قبل طلوع الشمس يعني: صلاة الفجر وقبل الغروب يعني صلاة العصر **﴿ومن الليل فسبحه﴾** يعني: صل صلاة المغرب والعشاء ويقال: حين تقوم صلاة الفجر والظهر والعصر ومعناه صل صلاة النهار وصلاة الليل، ويقال: سبح بحمد ربك حين تقوم يعني: قل سبحانك اللهم وبحمدك إذا قمت إلى الصلاة وهذا قول ربيع بن أنس **﴿وإدبار النجوم﴾** يعني: ركعتي الفجر وروى سعيد بن جبير عن زاذان عن عمر رضي الله عنه لا صلاة بعد طلوع الفجر إلا ركعتي الفجر وهما إدبار النجوم وروي أبو إسحق عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال إدبار السجود الركعتان بعد المغرب وإدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وروى وكيع عن ابن عباس أنه قال بت ذات ليلة عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصلى ركعتي الفجر ثم خرج إلى الصلاة فقال ابن عباس الركعتان اللتان قبل الفجر إدبار النجوم واللاتي بعد المغرب بإدبار السجود وفي الآية دليل على أن تأخير صلاة الفجر أفضل لأنه أمر بركعتي الفجر بعد ما أدبرت النجوم، وإنما أدبرت النجوم بعد ما أسفر[٢] والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٠ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.
(٢) انظر الدر المنثور ٦/١٢١.

سُورَةُ النَّجْمِ (١)

وهي ستون واثنتان(٢) آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه ـ أقسم الله تعالى بالقرآن إذا نزل نجوماً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتا بعد وقت الآية والآيتان والسورة والسورتان وكان بين أوله وآخره إحدى وعشرون سنة، قال مجاهد: أقسم الله بالثريا إذا غابت وسقطت والعرب تسمي الثريا نجماً ويقال أقسم بالكواكب المضيئة ويقال أقسم بجميع الكواكب ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ وذلك أن قريشاً قالوا له قد تركت دين آباءك، وخرجت من الطريق وتقول شيئاً من ذات نفسك فنزل (والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم) يعني: ما ترك دين أبيه إبراهيم ﴿وما غوى﴾ يعني: لم يضل قوماً، والغاوي والضال واحد يقال: الضلال قبل البيان والفساد بعد البيان، قرأ حمزة والكسائي إذا هوى وما غوى كله بالإمالة في جميع السورة، وقرأ نافع وأبو عمرو بين الإمالة والفتح في جميع السورة والباقون بالتخفيف وكل ذلك جائز في اللغة ثم قال ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ يعني: ما ينطق بهذا القرآن بهوى نفسه، والعرب تجعل عن مكان الباء تقول رميت عن القوس أي بالقوس وما ينطق عن الهوى أي بالهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ يعني: ما هذا القرآن إلا وحي يوحى إليه ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ يعني: أتاه جبريل عليه السلام وعلمه وهو شديد القوى وأصله في اللغة(٣) من قوى الجبل وهو طاقاته والواحد قوة ويقال علمه شديد القوى يعني الله تعالى يعلمه بالوحي وهو ذو القوة المتين قوله عز وجل: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ يعني: ذي قوة وأصل المرة القتل فيعبر به عن القوة ومنه الحديث (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي) ثم قال عز وجل: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يعني: جبريل

---

(١) أول أغراض هذه السورة تحقيق أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما يبلغه عن الله تعالى وأنه منزه عما ادعوه. وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل. وتقريب صفة نزول جبريل بالوحي في حالين زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة. وإبطال إلهية أصنام المشركين وإبطال قولهم في اللات والعزى ومناة بنات الله وأنها أوهام لا حقائق لها وتنظير قولهم فيها بقولهم في الملائكة أنهم إناث. وذكر جزاء المعرضين والمهتدين وتحذيرهم من القول في هذه الأمور بالظن دون حجة. وإبطال قياسهم عالم الغيب على عالم الشهادة وأن ذلك ضلال في الرأي قد جاءهم بضده الهدى من الله، وذكر لذلك مثال من قصة الوليد بن المغيرة، أو قصة ابن أبي سرح. وإثبات البعث والجزاء. وتذكيرهم بما حل بالأمم ذات الشرك من قبلهم وبمن جاء قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرسل أهل الشرائع. وإنذارهم بحادثة تحل بهم قريباً. وما تخلل ذلك من معترضات ومستطردات لمناسبات ذكرهم عن أن يتركوا أنفسهم. وأن القرآن حوى كتب الأنبياء السابقين. انظر التحرير ٢٧/٨٨، ٨٩.

(٢) في أ [ستون وست].

(٣) انظر لسان العرب ٥/٣٧٨٧.

عليه السلام ويقال فاستوى يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ يعني: من قبل مطلع الشمس جبريل فرآه على صورته، وله جناحان أحدهما بالمشرق، والآخر بالمغرب ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكل ما دنا منه انتقص حتى إذا قرب منه مقدار قوسين رآه كما رآه في سائر الأوقات حتى لا يشك جبريل ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ يعني: في القرب مقدار قوسين وقال بعضهم: يعني: ليلة المعراج دنا من العرش مقدار قوسين وإنما ذكر القوسين لأن القرآن نزل بلغة العرب، والعرب تجعل مساحة الأشياء بالقوس ويقال: فكان قاب قوسين يعني: قدر ذراعين وإنما سمي الذراع قوساً لأنه تقاس به الأشياء. ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ يعني: بل أدنى، ويقال أو بمعنى واو العطف يعني: مقدار قوسين أو أقرب من ذلك.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ يعني: أوحى الله تعالى إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ عليه جبريل ما قرأ، ويقال: تكلم مع عبده ليلة المعراج ما تكلم ويقال: أمر عبده بما أمر ثم قال ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ يعني: ما كذب قلب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما رأى بصره من أمر ربه في رؤية جبريل عليه السلام، ويقال في رؤية الله تعالى بقلبه، قال محمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هل رأيت ربك فقال رأيته بفؤادي ولم أره[1] بعيني، قرأ الحسن ما كذَّب بتشديد الذال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس ومعناه لم يجعل الفؤاد رؤية العين كذباً، والباقون بالتخفيف[2] يعني: ما كذب فؤاد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رأى ثم قال عز وجل: ﴿أَفَتُمَارُونَه عَلَى مَا يَرَى﴾ قرأ حمزة أفتمرونه بنصب التاء وجزم الميم بغير ألف وهكذا روي عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومعناه أفتجحدونه فيما رأى والباقون أفتمارونه[3] يعني: أفتجادلونه لأنه رأى من آيات ربه الكبرى. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ يعني: لقد رأى جبريل مرة أخرى، وروي عن كعب الأحبار أنه قال رأى ربه مرة فقال: إن الله كلم موسى مرتين، ورأى محمداً مرتين فبلغ ذلك إلى عائشة رضي الله عنها وعن أبيها. فقالت قد اقشعر جلدي من هيبة هذا الكلام فقيل لها يا أم المؤمنين أليس يقول الله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى، فقالت: أنا سألت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك فقال: رأيت جبريل نازلاً في الأفق على خلقته وصورته[4] ويقال: ولقد رآه نزلة أخرى يعني رآه بفؤاده وأكثر المفسرين يقولون إن المراد به جبريل يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رجع من عند ربه ليلة أسري به رأى جبريل ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ فقال مقاتل السدرة هي شجرة طوبى ولو أن رجلاً ركب نجيبه وطاف على ساقها حتى أدركه الهرم لما وصل إلى المكان الذي ركب منه تحمل لأهل الجنة الحلي والحلل وجميع ألوان الثمار، ويقال: هي شجرة غير

---

(١) ذكره في مناهل الصفا (٣٢). وفي الدر المنثور بنحوه ١٢٥/٦.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٨٥، إتحاف فضلاء البشر ٤٩٩/٢.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٢٤/٦ وعزاه لعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه.

شجرة طوبى، وهي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة تخرج أنهار الجنة من أصل تلك الشجرة، وإنما سميت سدرة المنتهى لأن أرواح المؤمنين تنتهي إليها ويقال أرواح الشهداء تنتهي إليها ويقال الملائكة ينتهون إليها ولا يجاوزنها ويقال لأن علم كل واحد ينتهي إليها ولا يتجاوزنها ولا يدري ما فوق ذلك وروي عن طلحة بن مطرف عن مرة عن عبد الله قال لما أسري برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتهي به إلى سدرة المنتهى وإليها ينتهي ما عرف من تحتها وإليها ينتهي ما هبط من فوقها وهي النهاية التي ينتهي إليها من فوق ومن تحت ولا يتجاوز عن ذلك ثم قال عز وجل ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى﴾ وإنما سميت المأوى لأنه يأوي إليها أرواح الشهداء قرأ سعد بن أبي وقاص وعائشة رضي الله عنهما جنة المأوى بالتاء وقيل لسعد أن فلاناً يقرأ عندها جَنَّهُ المأوى بالهاء قال سعد ماله أجنه الله، وعن أبي العالية قال سألني ابن عباس كيف تقرأها يا أبي العالية قال قلت له جنة، قال: صدقت هي مثل قوله «جنات المأوى» وقراءة العامة «جنة» وهي من جنات ثم قال ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ يعني: يغشاها من الملائكة ما يغشى وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سئل ماذا يغشى قال: جراد من ذهب[(١)]، ويقال فراش من ذهب، وقال الحسن يغشاها نور مثل الجراد من ذهب ثم قال: ﴿مَا زَاغَ البَصَرُ﴾ يعني: ما مال وما عدل بصر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما رأى ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تعدى وما جاوز إلى غيره ويقال وما طغى يعني: وما ظلم صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رأى تلك الليلة التي عرج به إلى السماء ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ وهو الرفرف الأخضر قد غطى الأفق فجلس عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه وجاوز سدرة المنتهى، وقال ابن مسعود رأى جبريل وله ستمائة جناح وهم من آيات ربه الكبرى وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أخبر برؤية جبريل تعجبوا منه وأنكروا فأخبر الله تعالى أنه قد رآه مرة أخرى وأنه قد رأى من آيات ربه الكبرى.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ
﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن
مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أفرأَيْتُمُ اللاتَ وَالعُزَى﴾ قرأ مجاهد اللات بتشديد التاء. يقال كان رجلاً يلت السويق بالزيت ويطعم الناس، وقال السدي كان رجلاً يقوم على آلهتهم ويلت السويق لهم، ويقال كانت حجارة يعبدونها وينزل عندها رجل يبيع السويق ويلته فسميت تلك الحجارة باللات وقرأه العامة بغير تشديد،[(٢)] قال مقاتل وإنما سمي اللات والعزى لأنهم قالوا هكذا أسماء الملائكة وهم بناته فنزل «ألكم الذكر وله الأنثى» وقال قتادة اللات كان لأهل الطائف والعزى لقريش ومناة للأنصار[(٣)] ويقال: إن المشركين أرادوا أن يجعلوا من الهتهم من أسماء الحسنى

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠١.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٦ ـ ١٢٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

فأرادوا أن يسموا الواحد منها الله فجرى على لسانهم اللات، وأرادوا أن يسموا الواحد منها العزيز فجرى على لسانهم العزى، وأرادوا أن يسموا الواحد منها المنان فجرى على لسانهم مناة، ويقال: إن العزى كانت نخلة بالطائف يعبدونها فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد حتى قطع تلك النخلة فخرجت منها امرأة تجر شعرها على الأرض فأتبعها بفأس فقتلها فأخبر بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال تلك العزى قتلها فلا تعبد العزى[١] أبداً، ويقال: أول الأصنام كانت اللات ثم العزى ثم مناة وهو قوله أفرأيتم اللات والعزى ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الأُخْرَى﴾ يعني: أفرأيتم عبادتها تنفعهم في الآخرة ثم قال ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾ يعني: بني مدلج، ويعبدون الملائكة ويقولون هم بناته فيشفعوا لنا ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي: جائرة معوجة قرأ ابن كثير بهمز الألف والمد والباقون بغير همز ومعناهما واحد وهو اسم الصنم وقرأ ابن كثير ضئزى بالهمزة والباقون بغير همزة، ومعناهما واحد،[٢] بقال ضازه يضيزه إذا نقصه حقه يقال ضزت في الحكم أي جرت ثم قال ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ يعني: الأصنام ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ بالتقليد ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: من عذر وحجة لكم بما تقولون ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني: ما يعبدون وما يتبعون إلا الظن ولا تعرفونها أنها يقيناً آلهة ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ﴾ يعني: يتبعون ما تشتهي أنفسهم وعبدوه وتركوا دين الله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ يعني: أتاهم الكتاب والرسول وبين لهم طريق الهدى ثم قال عز وجل: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ يعني: ما يتمنى بأن الملائكة تشفع له فيكون الأمر بتمنيه ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ يعني: ثواب الآخرة والأولى، ويقال: أهل السموات وأهل الأرض كلهم عبيده، ويقال: له نفاذ الأمر في الآخرة والأولى، ويقال: جميع ما فيها يدل على وحدانيته ثم قال: ﴿وَكَم من ملك فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ يعني: لا تنقطع شفاعتهم رداً لقولهم إنهم يشفعون لنا ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ يعني: من كان معه التوحيد فيشفع له بإذن الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يعني: لا يصدقون بالبعث ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾ باسم البنات وفيه تنبيه للمؤمنين لكي لا يقولوا مثل مقالتهم وزجراً للكافرين عن تلك المقالة.

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

قال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني: ليس لهم حجة على مقالتهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني: ما

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٦ وعزاه للنسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل.
(٢) أجمع النحويون على أن وزنه (فُعْلَى)، وأن أصل (ضيزى): (ضُوزَى) بالضم مثل (حبلى). لأن الصفات لا تأتي إلا على (فَعْلَى) بالفتح نحو سكْرَى وغَضْبَى، أو بالضم نحو (حُبْلى والفضلى والحسنى)، ولا تأتي بالكسر. والواو الأصل في (ضيزى) فلو تركت

يتبعون إلا الظن يعني: على غير يقين ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ يعني: لا يمنعهم من عذاب الله شيئاً ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يعني: اترك من أعرض عن القرآن ولا يؤمن به ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني: لم يرد بعلمه الدار الآخرة إنما يريد به منفعة الدنيا ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ يعني: غاية علمهم الحياة الدنيا، ويقال: ذلك منتهى علمهم لا يعلمون من أمر الآخرة شيئاً وهذا كقوله «يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ».

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: هو أعلم بمن ترك طريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ يعني: من تمسك بدين الإسلام، ومعناه فأعرض عنهم ولا تعاقبهم فإن الله عليم بعقوبة المشركين وبثواب المؤمنين، وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم عظم نفسه بأنه غني عن عبادتهم فقال ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الخلق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساؤوا بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني: ليعاقب في الآخرة الذين أشركوا وعملوا المعاصي ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ يعني: ويثيب الذين آمنوا وأدوا الفرائض الخمسة بإحسانهم ثم نعت المحسنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ قرأ حمزة والكسائي كبير الإثم والفحش بلفظ الوحدان والمراد به الجنس والباقون كبائر الإثم[١] بلفظ الجماعة، قال بعضهم كبائر الإثم يعني: الشرك بالله، والفواحش يعني: المعاصي وقال بعضهم: كبائر الإثم والفواحش بمعنى واحد، لأن كل فاحشة كبيرة، وكل كبيرة فاحشة وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «الكبائر أربعة الشرك بالله واليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله»[٢]، وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكبائر سبعة فبلغ ذلك إلى عبد الله بن عباس فقال هي إلى السبعين أقرب، ويقال كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، وقيل كل ما أصر العبد عليه فهو كبيرة، كما روي عن بعضهم أنه قال لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الاصرار. قال ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وقال بعضهم: اللمم هو الصغائر من الذنوب يعني: إذا اجتنبت الكبائر يغفر الله صغار الذنوب من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة وهو كقوله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ قال مقاتل نزلت في شأن نبهان[٣] التمار وذلك أن امرأة أتت لتشتري التمر فقال لها ادخلي الحانوت فعانقها وقبلها فقالت المرأة خنت أخاك ولم تصب حاجتك فندم وذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وروى مسروق عن ابن مسعود قال زنا العينين النظر وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين المشي، وإنما يصدق ذلك الفرج، أو يكذبه فإن تقدم كان زنا وإن تأخر كان لمماً[٤]. وقال عكرمة اللمم النظر وحديث النفس ونحو ذلك، وروى طاووس عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا فزنا العينين نظر الناظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه[٥] وقال عبد الله بن الزبير ـ اللمم القبلة واللمس باليد وقال بعضهم اللمم كل ذنب يتوب عنه ولا يصر عليه وروى منصور

= الضاد على ضمتها لانقلبت الياء واواً لانضمام ما قبلها فكسرت لتصح الياء كما قالوا: أبيض وبيض. انظر حجة القراءات ٦٨٦، النشر ٢/٣٧٩.

(١) حجتهم ذكرها اليزيدي فقال «لو كان كبير الإثم» لكان والفحش أو الفاحشة. انظر حجة القراءات ٦٨٦.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/٢٠٢.

(٣) نبهان الجمحي أبو صالح المدني والد صالح مولى التوأمة التهذيب ١٠/٤١٦.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٧ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٥) أخرجه البخاري ١١/٢٦ كتاب الاستئذان (٦٣٤٣)، ومسلم ٤/٢٠٤٦ كتاب القدر (٢٠/٢٦٥٧).

عن مجاهد قال في قوله «إلا اللمم» هو الرجل يذنب الذنب ثم ينزع عنه، وروي عن أبي هريرة قال اللمم النكاح وذكر ذلك لزيد بن أسلم فقال صدق إنما اللمم لمم أهل الجاهلية يقول الله تعالى في كتابه «وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ مَا قَدْ سَلَفَ» وروي عن الحسن أنه قال: اللمم هو أن يصيب النظرة من المرأة والشربة من الخمر ثم[1] ينزع عنه وروي عن مجاهد أنه قال الذي يلم بالذنب ثم يدعه، وقد قال الشاعر:

إن تـغـفـر الـلهـم تـغـفـر جـمـا وأي عـبـد لـلّه لا ألـمـا

وقال بعضهم «إلا اللممّ» ومعناه: ولا اللمم ومعناه: أن تجتنبوا صغائر الذنوب وكبائرها كما قال القائل وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير[2] والعيش[3] يعني: ولا اليعافير ولا العيس ـ وروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال إياكم والمحقرات من الذنوب[4]، وسئل زيد بن ثابت عن قوله إلا اللمم قال حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يعني: واسع الفضل غافر الذنوب للذين يتوبون ويقال معناه رحمته واسعة على الذين يجتنبون الكبائر ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعني: هو أعلم بحالكم منكم ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ يعني: إذ هو خلقكم من الأرض يعني: خلق آدم من تراب وأنتم من ذريته ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ يعني: كنتم صغاراً ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كان هو أعلم بحالكم منكم في ذلك كله ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ﴾ يعني: لا تبرؤوا أنفسكم من الذنوب ولا تمدحوها، ويقال: ولا تزكوا أنفسكم يعني: لا يمدح بعضكم بعضاً، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب[5] والمدح على ثلاثة أوجه أوله ـ أن يمدحه في وجهه فهو الذي نهي عنه، والثاني أن يمدحه بغير حضرته ويعلم أنه يبلغه فهو أيضاً منهي عنه، والثالث أن يمدحه في حال غيبته وهو لا يبالي بلغه أو لم يبلغه ويمدحه بما هو فيه فلا بأس بهذا، ويقال فلا تزكوا أنفسكم يعني: لا تطهروا أنفسكم من العيوب وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الناس كإبل مائة لم يكن فيها راحلة»[6] ﴿بِمَنِ اتَّقَى﴾ يعني: من يستحق المدح ومن لا يستحق المدح.

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٢٨ وعزاه لابن مردويه.

(٢) ذكره ابن منظور في لسان العرب ١/٦٨٦ ونسبه لأبي خراش الهذلي.

وقال في اللسان: الجم والجمم: الكثير من كل شيء. ومال جم: كثير، وفي التنزيل «ويحبون المال حباً جماً» أي كثيراً.

(٣) اليعفور: الظبي الذي لونه كلون العفر وهو التراب، وقيل: هو الظبي عامة. انظر لسان العرب ٤/٣٠٠٩.

(٤) والعيساء: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة واحدها أعيس. انظر لسان العرب ٤/٣١٨٩.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ١/٤٠٢ والطبراني في الكبير ١٠/٢٦١.

(٦) أخرجه مسلم ٤/٢٢٩٧ كتاب الزهد (٦٩/٣٠٠٢).

(٧) أخرجه ابن ماجه ٢/١٣٢١ كتاب الفتن (٣٩٩٠) وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٤٧) وأبو نعيم في الحلية ٩/٢٣١ وقال البوصيري في الزوائد إسناده صحيح، رجاله ثقات إن ثبت سماع زيد بن أسلم من عبد الله بن عمر.

ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ يعني: أعرض عن الحق وهو الوليد بن المغيرة ومن كان في مثل حاله ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً﴾ يعني: وأنفق قليلاً من ماله ﴿وَأَكْدَى﴾ يعني: هو أمسك عن النفقة قال مقاتل أنفق الوليد بن المغيرة على أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفقة قليلة ثم انتهى عن ذلك، وقال القتبي وأكدى[1] أصله من كديه الدكية وهي الصلابة فيها فإذا بلغها الحافر ييس حفرها فقطع الحفرة يعني: تركها فقيل لمن طلب شيئاً ولم يدرك أخره وأعطى شيئاً. ولم يتم وأكدى ثم قال عز وجل: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ يعني: أعنده علم الآخرة فهو يرى صنيعه، وقيل يعلم ما في اللوح المحفوظ فيرى صنيعه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ يعني: ألم يخبر بما بين الله تعالى في صحف موسى، قال بعضهم: صحف موسى يعني: التوراة وقال بعضهم: هو كتاب أنزل عليه قبل التوراة ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ يعني: في كتاب إبراهيم الذي وفى يعني: بلغ الرسالة، ويقال: وفى بمعنى عمل ما أمر به وذلك أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قال لعثمان إنك تنفق مالك فعن قريب تفتقر فقال عثمان إن لي ذنوباً فقال الوليد ادفع إلي بعض المال حتى أدفع ذنوبك فدفع إليه فأنزل الله تعالى أم لم ينبأ بما في صحف موسى يعني: ألم يبين الله تعالى في كتاب موسى وكتاب إبراهيم ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: لا تحمل نفس خطيئة نفس أخرى، ويقال «وابراهيم الذي وفى» يعني: بما ابتلاه الله تعالى بعشر كلمات ويقال بذبح الولد ويقال كان يصلي كل غداة أربع ركعات صلاة الضحى فسماه وفيا، ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ يعني: ليس للإنسان في الآخرة إلا ما عمل في الدنيا من خير أو شر ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ يعني: يرى ثواب عمله في الآخرة قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ يعني: يعطي ثوابه كاملاً ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ يعني: إليه ينتهي أعمال العباد وإليه يرجع الخلق كلهم فهذا كله في مصحف موسى وإبراهيم.

وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾

ثم قال ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ يعني: أضحك أهل الجنة في الجنة قال وأبكى أهل النار في النار، ويقال أضحك في الدنيا أهل النعمة، وأبكى أهل الشدة والمعصية ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ يعني: يميت في الدنيا ويحيي في الآخرة للبعث ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني: اللونين والصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ يعني: تهراق في رحم الأنثى، وقال القتبي: من نطفة إذا تمنى يعني: تقدر وتخلق، ويقال ما تدري ما يمني لك الماني يعني: ما يقدر لك المقدر ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ يعني: البعث بعد الموت، يعني: ذلك إليه وبيده وهو قادر على ذلك فاستدل عليهم بالفعل الآخر بالفعل الأول أنه خلقهم في الابتداء من النطفة، وهو الذي يحيهم بعد الموت ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ يعني: حول وأعطى المال وأقنى يعني أفقر، ويقال:

(١) انظر لسان العرب ٥/ ٣٨٣٩.

أغنىٰ يعني يعطي وأقنى يعني: يُرضي بما يُعطي، ويقال أغنى نفسه عن الخلق، وأقنى يعني: أفقر الخلق إلى نفسه، وروى السدي عن أبي صالح أغنى بالمال وأقنى يعني: بالقنية، وقال الضحاك أغنى بالذهب وبالفضة والثياب، والمسكن وأقنى بالإبل والبقر والغنم والدواب، وقال عكرمة أغنى يعني: أرضى وأقنى يعني: وأقنع ثم قال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ يعني: وأن الله هو خالق الشعرى قال ابن عباس هو كوكب تعبده خزاعة يطلع بعد الجوزاء(١) يقول الله تعالى وأنا ربها وأنا خلقتها فاعبدوني، ثم خوفهم فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولى﴾ بالعذاب وهم قوم هود عليه السلام وكان بعدهم عاد آخر سواهم فلهذا سماهم عاد الأُولى، ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾ يعني: قوم صالح عليه السلام فأهلكهم الله وما بقي منهم أحد قرأ نافع وأبو عمرو عاد الأولى ـ بحذف الهمزة وإدغام التنوين والباقون عادا بالتنوين الأولى بالهمزة وكلاهما جائز عند العرب وقرأ حمزة وعاصم رواية حفص وثمود بغير تنوين والباقون ثموداً بالتنوين(٢) قال أبو عبيد نقرأ بالتنوين مكان الألف الثانية في المصحف ثم قال: ﴿وَقَوْمَ نوحٍ من قبل﴾ يعني: أهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ يعني: أشد في كفرهم وطغيانهم لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فدعاهم فلم يجيبوا وكان الآباء يوصون الأبناء بتكذيبه ثم قال عز وجل: ﴿وَالمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ يعني: مدينة قوم لوط وسماها مؤتفكة لأنها ائتفكت أي انقلبت أهوى أي أسقط ويقال: المؤتفكة يعني: المكذبة أهوى يعني: أهوى من السماء إلى الأرض وذلك أن جبريل عليه السلام حيث قلع تلك المدائن فرفعها إلى قريب من السماء ثم قلبها وأهواها إلى الأرض ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ يعني: فغشاها من الحجارة ما غشى كقوله وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ يعني: بأي نعمة من نعماء ربك تتجاحد أيها الإنسان بأنها ليست من الله تعالى قوله عز وجل: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذير مثل النذر الأولى يعني: رسولاً مثل الرسل الأولى مثل نوح وهود وصالح صلوات الله عليهم وقد خوفهم الله ليحذروا معصيته ويتبعوا ما أمرهم الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿أزفت الآزفة﴾ يعني: دنت القيامة. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ﴾ يعني: ليس للساعة من دون الله كاشفة عن علم قيامها، وهذا كقوله «قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو.

أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ يعني: من القرآن تعجبون تكذيباً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءاً

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣١ وعزاه للفاكهي.

(٢) قال أبو عثمان: أساء عندي أبو عمرو في قراءته لأنه أدغم النون في لام المعرفة، واللام إنما تحركت بحركة الهمزة وليس بحركة لازمة. والدليل على ذلك أنك تقول (الأحمر) فإذا طرحت حركة الهمزة على اللام تقول الأحمر: (الَحْمَر) ولم تحذف ألف الوصل لأنها ليست بحركة لازمة. قال أبو عثمان: (ولكن كان أبو الحسن روى عن بعض العرب أنه يقول: (هذا لَحْمَرُ قد جاء) فتحذف ألف الوصل لحركة اللام. فهذا حجة لقراءة أبي عمرو لأن الحركة قد صارت لازمة لأنك حذفت ألف الوصل، ولو لم تكن لازمة لما حذفت. قال الزجاج: أما «الأولى» ففيها ثلاث لغات: الأولى: بسكون اللام وإثبات الهمزة وهي أجود اللغات، والتي تليها في الجودة (الولي) بضم اللام وطرح الهمزة، ومن العرب من يقول (لولي) فيطرح الهمز لتحرك اللام، على هذه اللغة قرأ أبو عمرو: «عادَ لُولى» والقول في «عاد الأولى» أن من حقق الهمزة في «الأولى» سكنت له لام المعرفة (والتنوين)، وإذا سكنت لام المعرفة و(التنوين من قولك عاداً) ساكن، التقى ساكنان: النون التي في «عادا» ولام المعرفة، فحركت التنوين بالكسر لالتقاء الساكنين. انظر حجة القراءات ٦٨٧، النشر ٢/٣٧٩.

﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ مما فيه من الوعد ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ يعني: لاهين عن القرآن، روي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال هو الغناء كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا وهي بلغة أهل اليمن[١] وقال قتادة سامدون يعني غافلون[٢] ثم قال عز وجل: ﴿فاسجدوا لله﴾ يعني: صلوا لله ويقال اخضعوا لله ﴿واعبدوا﴾ يعني: أطيعوا ويقال فاسجدوا لله في الصلاة واعبدوا يعني: وحدوه، ويقال: هو سجدة التلاوة بعينها، وروي عن الشعبي أنه قال إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سجد في النجم وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن[٣] والأنس.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣٢ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وأبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير.

(٣) أخرجه البخاري ٢/٥٥٣ كتاب سجود القرآن باب سجدة النجم ومسلم ١/٤٠٥.

سُورَةُ القَمَر (١)

وهي خمسون وخمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**﴾ يعني دني قيام الساعة لأن خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان من علامات الساعة ﴿**وَانْشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علامة لنبوته فانشق القمر نصفين، وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانشق القمر نصفين فرأيت حراء بين فلقتي القمر أي شقتي القمر[٢]، وعن جبير بن مطعم قال انشق القمر ونحن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة، وروى قتادة عن أنس قال سأل أهل مكة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آية فانشق القمر[٣] بمكة وقال[٤] بعضهم اقتربت الساعة وانشق القمر يعني تقوم الساعة وينشق القمر يوم القيامة وأكثر المفسرين قالوا: إن هذا قد مضى، وقال عبد الله بن مسعود ما وعد الله ورسوله من أشراط الساعة كلها قد مضى إلا أربعة طلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض وخروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج ثم قال ﴿**وَإِنْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا**﴾ يعني إذا رأوا آية من آيات الله مثل انشقاق القمر يعرضوا عنها ولا يتفكروا فيها ﴿**وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾ يعني مصنوعاً سيذهب، ويقال معناه ذاهباً يذهب ثم التئام القمر وقال القتبي: سحر مستمر يعني شديد القوى، وهو من المرة وهو القتل وقال الزجاج في مستمر قولان قول: ذاهب وقول دائم وقال الضحاك لما رأى أهل مكة انشقاق القمر، وقال أبو جهل هذا سحر مستمر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى ينظروا إذا رأوا القمر منشقاً أم لا فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقاً قالوا: هذا سحر مستمر يعني استمر سحره في الآفاق قوله عز وجل ﴿**وَكَذَّبُوا**﴾ يعني كذبوا بالآية وبقيام الساعة ﴿**واتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**﴾ في عبادة الأصنام ﴿**وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ**﴾ يعني كل قول من الله له حقيقة

---

(١) اشتملت هذه السورة على تسجيل مكابرة المشركين في الآيات البينة، وأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإعراض عن مكابرتهم. وإنذارهم باقتراب القيامة وبما يلقونه حين البعث من الشدائد. وتذكيرهم بما لقيته الأمم أمثالهم من عذاب الدنيا لتكذيبهم رسل الله وأنهم سيلقون مثلما لقي أولئك الذين ليسوا خيراً من كفار الأمم الماضية. وإنذارهم بقتال يهزمون فيه، ثم لهم عذاب في الآخرة وهو أشد. وإعلامهم بإحاطة الله علماً بأفعالهم وأنه مجازيهم شر الجزاء ومجاز المتقين خير الجزاء وإثبات البعث، ووصف بعض أحواله. وفي خلال ذلك تكرير التنويه بهدي القرآن وحكمته. انظر التحرير ٢٧/١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري ٦/٦٣١ كتاب المناقب (٣٦٣٦)، ومسلم ٤/٢١٥٨ كتاب صفة القيامة (٤٣/٢٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري ٦/٦٣١ كتاب المناقب (٣٦٣٧)، ومسلم ٤/٢١٥٩ كتاب صفة القيامة (٤٦ ـ ٢٨٠٢).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣٢ وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر والترمذي وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

منه في الدنيا سيظهر وما كان منه في الآخرة سيعرف يعني ما وعد لهم من العقوبة ويقال: معناه مستقر لأهل النار عملهم ولأهل الجنة عملهم يعني يعطي لكل فريق جزاء أعمالهم ثم قال ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ يعني جاء لأهل مكة من الأخبار عن الأمم الخالية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ يعني ما فيه موعظة لهم وزجر عن الشرك والمعاصي.

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ يعني جاءهم كلمة بالغة وهو القرآن يعني حكمة وثيقة ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعني لا تنفعهم النذر إن لم يؤمنوا كقوله «وما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ويقال: «فما تغن النذر» لم تنفعهم الرسل إذا نزل بهم العذاب إن لم يؤمنوا قوله تعالى ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يعني اتركهم وأعرض عنهم بعدما أقمت عليهم الحجة ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ يعني يدعو إسرافيل على صخرة بيت المقدس ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ يعني إلى أمر فظيع شديد منكر ﴿خُشَّعاً﴾ يعني ذليلة ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾ خاشعاً نصب على الحال يعني يخرجون خاشعاً قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو خاشعاً بالألف مع النصب والباقون خُشعاً بضم الخاء بغير ألف وتشديد الشين[1] بلفظ الجمع، لأنه نعت للجماعة، ومن قرأ بلفظ الواحد فلأجل تقديم النعت، وقرأ ابن مسعود خاشعة بلفظ التأنيث، وقرأ ابن كثير إلى شيء نكْر بجزم الكاف، والباقون بالضم[2]، وهما لغتان ثم قال عز وجل ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ يعني من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ يعني انتشروا عن معدنهم ويجول بعضهم في بعض قوله تعالى ﴿مُهْطِعِينَ[3] إِلَى الدَّاعِ﴾ يعني مقبلين إلى صوت إسرافيل ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ يعني شديد عَسِر عليه، وروي في الخبر أنهم إذا خرجوا من قبورهم يمكثون واقفين أربعين سنة، ويقال: مائة سنة حتى يقولوا أرحنا من هذا ولو إلى النار ثم يؤمرون بالحساب ثم عزى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذى قومه كما لقي الرسل من قومهم فقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ حين أتاهم بالرسالة ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ يعني قالوا لنوح إنك مجنون ﴿وَازْدُجِرَ﴾ يعني أوعد بالوعيد ويقال: صاحوا به حتى غشي عليه، وقال القتبي: وازدجر أي زجر وهو افتعل من ذلك فلما ضاق صدره ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ يعني مقهور فيما بينهم ﴿فَانْتَصِرْ﴾ يعني أعني عليهم بالعذاب فأجابه الله كما في سورة الصافات «وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ» قوله عز وجل ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ يعني طرق السماء ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ يعني منصباً كثيراً، وقال القتبي بماء منهمر أي كثير سريع الانصباب

(١) حجة أبي عمرو من تبعه حرف ابن مسعود «خاشعة أبصارهم» على التوحيد، والعرب تجتزىء في مثل هذا وتختار التوحيد لأنه قد جرى مجرى الفعل إذا كان ما بعده قد ارتفع به نحو (مررت بقوم حسن وجوههم) والتقدير: حسُن وجوههم. انظر الحجة ٦٨٨.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٦.

(٣) قال في اللسان ٦/٤٦٧٤: هطع أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع.

ومنه يقال همر للرجل إذا كثر من الكلام وأسرع فيه، قرأ ابن عامر ففتَّحنا بتشديد التاء على تكثير الفعل،وقرأ الباقون بالتخفيف[١] لأنها فتحت فتحاً واحداً، قوله عز وجل ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً﴾ يعني أخرجنا من الأرض عيوناً مثل الأنهار الجارية ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ يعني ماء السماء وماء الأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرْ﴾ يعني على وقت قد قضى ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ يعني حملنا نوحاً ﴿عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ يعني على سفينة قد اتخذت بألواح ﴿وَدُسُرٍ﴾ يعني سفينة قد شدت بالمسامير، وقال بعضهم: كانت سفينة نوح من صاج، وقال بعضهم: من خشب شمشار، ويقال: من الجوز، وقال القتبي: الدسر المسامير واحدها دسار وهي أيضاً الشريط الذي يشد بها السفينة ثم قال ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يعني تسير السفينة بمنظر منا وأمرنا، ويقال بمراد وحفظ منا وقال الزجاج في قوله «فالتقى الماء» ولم يقل: الماءان لأن الماء اسم لجميع ماء السماء وماء الأرض فلو قال ماءان لكان جائزاً لكنه لم يقل ثم قال ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ يعني الحمل على السفينة ثواب لنوح الذي كفر به قومه، وقرأ بعضهم جزاء لمن كان كفر بالنصب يعني الفرق عقوبة لمن كذب بالله تعالى وبنوح.

وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي سفينة نوح أبقيناها عبرة للخلق، وقال بعضهم: يعني تلك السفينة بعينها كانت باقية على الجبل إلى قريب من خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم يعني جنس السفينة صارت عبرة لأن الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة فاتخذت الناس السفن بعد ذلك في البحر فلذلك كانت آية للناس ثم قال: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني هل من معتبر يعتبر بما صنع الله تعالى بقوم نوح فيترك المعصية، ويقال: فهل من مذكر يتعظ بأنه حق ويؤمن به، وقال أهل اللغة[٢] أصل مدكر مفتعل من الذكر مذتكر فأدغمت الذال في التاء ثم قلبت دالاً مشددة ثم قال ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يعني كيف رأيت عذابي وإنذاري لمن أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا والنذر بمعنى الإنذار قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ يعني هونا القرآن ﴿لِلذِّكْرِ﴾ يعني للحفظ، ويقال: هونا قراءاته، وروى الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لولا قول الله تعالى «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ما طاقت الألسن أن تتكلم به»، ويقال هوناه لكي يذكروا به[٣]. ثم قال ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني متعظ يتعظ بما هون من قراءة القرآن، وروى الأسود[٤] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال قرأت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهل من مـدكر بالدال فقال النبي عليه السلام فهل[٥] من مذكر يعني بالذال قوله تعالى

(١) حجة ابن عامر قوله تعالى: ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ جمعوا على التشديد لأنه ذكر الأبواب كما ذكر عند قولـه ﴿ففتحنا أبـواب السماء﴾. انظر حجة القراءات ٦٨٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٦.

(٢) انظر لسان العرب.

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/٤٥٣ من طريق الضحاك عن ابن عباس موقوفاً.

(٤) الأسود بن سفيان بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي انظر أسد الغابة ١/١٠٤.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٣٥ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن جرير والحاكم وابن مردويه.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ يعني كذبوا رسولهم هود ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يعني أليس وجوده حقاً ونذر جمع نذير، قال القتبي النذر جمع النذير والنذير بمعنى الإنذار مثل التنكير بمعنى الإنكار يعني كيف كان عذابي وإنكاري ثم بين عذابه فقال عز وجل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ يعني سلطنا عليهم ريحاً باردة ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ يعني شديدة استمرت عليهم لا تفتر عنهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً دائمة ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ يعني تنزع أرواحهم من أجسادهم وهذا قول مقاتل ويقال في يوم نحس يعني يوم مشؤوم عليهم مستمر يعني استمر عليهم بالنحوسة، وقال القتبي الصرصر ريح شديدة ذات صوت تنزع الناس يعني تقلعهم من مواضعهم ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ يعني صرعهم فكبهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة من الأرض فشبههم لطولهم بالنخيل الساقطة. وقال مقاتل كان طول كل واحد منهم اثنى عشر ذراعاً، وقال في رواية الكلبي كان طول كل واحد منهم سبعين ذراعاً فاستهزؤوا حين ذكر لهم الريح فخرجوا إلى الفضاء فضربوا بأرجلهم وغيبوها في الأرض إلى قريب من ركبهم فقالوا قل للريح حتى ترفعنا فجاءت الريح فدخلت تحت الأرض وجعلت ترفع كل اثنين وتضرب أحدهما على الأخر بعدما ترفعهما في الهواء ثم تلقيه في الأرض، والباقون ينظرون إليهم حتى رفعتهم كلهم ثم رمت بالرمل والتراب عليهم وكان يسمع أنينهم من تحت التراب كذا وكذا يوماً.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾

قال الله تعالى ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقد ذكرناه ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ يعني صالحاً حين أتاهم ﴿فقالوا أبشراً منَّا واحداً﴾ يعني خلقاً مثلنا ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ في أمره ﴿إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلال وَسُعُرٍ﴾ يعني إنا إذا فعلنا ذلك لفي خطأ وعناء، وقال الزجاج: يعني إنا إذا فعلنا ذلك لفي ضلال وجنون وهذا كما يقال ناقة مسعورة إذا كان بها جنون، ويجوز أن يكون وسعر جمع في معنى العذاب ثم قال عز وجل ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني اختص بالنبوة والرسالة من بيننا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ يعني كاذباً على الله أشر يعني بطراً متكبراً قوله عز وجل ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ستعلمون بالتاء على معنى المخاطبة يعني أن صالحاً قال لهم ستعلمون غداً، والباقون بالياء[1] على معنى الخبر عنهم من الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم يعلمون غداً يعني يوم القيامة ﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أهم أم صالح، ومعناه أنه يتبين لهم أنهم هم الكاذبون، وكان صالحاً صادقاً في مقالته ثم قال ﴿إِنَّا مُرْسِلُو﴾ يعني نخرج لهم ﴿النَّاقَةِ﴾ وذلك حين سألوا صالحاً بأن يخرج لهم ناقة من الحجر فدعا صالح ربه فأوحى الله تعالى إليه أني مخرج الناقة ﴿فِتْنَةً﴾ يعني بلية ﴿لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يعني انتظر هلاكهم ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ على الإيذاء قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ يعني وأخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ يوم للناقة ويوم

(١) انظر حجة القراءات ٦٨٩، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٨٠.

لأهل القرية ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ يعني إذا كان يوم الناقة تحضر الناقة ولا يحضرون وإذا كان يومهم لا تحضر الناقة وكل فريق يحضر في نوبته ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني مصدع أو قذار ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ يتناول الناقة بالسهم يعقرها ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني صيحة جبريل عليه السلام ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ قال قتادة يعني كرماد محترق(١)، وقال الزجاج الهشيم ما يبس من الورق وتحطم وتكسر قرأ بعضهم كهشيم المحتظر بنصب الظاء، وقراءة العامة بالكسر(٢) فمن قرأ بالنصب فهو اسم الحظيرة ومعناه كهشيم المكان الذي يحضر فيه الهشيم ومن قرأ بالكسر فهو صاحب الحظيرة يعني يجمع الحشيش في الحظيرة لغنمه فداسته الغنم.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني سهلناه للحفظ لأن كُتب الأولين يقرؤها أهلها نظراً ولا يكادون يحفظون من أولها إلى آخرها كما يحفظ القرآن ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني متعظ به قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ يعني بالرسل لأن لوطاً عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان بجميع الرسل فكذبوهم ولم يؤمنوا فأهلكهم الله تعالى وهو قوله ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً﴾ يعني حجارة من فوقهم ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ يعني وقت السحر قوله تعالى ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ يعني رحمة من عندنا على آل لوط صار نعمة نصباً لأنه مفعول ومعناه ونجيناهم بالإنعام عليهم ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ يعني هكذا يجزي الله تعالى من شكر نعمته ولم يكفرها. ويقال من شكر يعني من وحد الله تعالى لم يعذبه في الآخرة مع المشركين فكما أنجاهم في الدنيا ينجيهم في الآخرة ولا يجعلهم مع المشركين قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ يعني خوفهم لوط عقوبتنا ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ يعني شكوا بالرسل فكذبوا يعني لوط ويقال معناه شكوا بالعذاب الذي أخبرهم به الرسل أنه نازل بهم قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ يعني طلبوا منه الضيافة، وكانت أضيافه جبريل مع الملائكة فمسح جبريل بجناحه على أعينهم فذهب أبصارهم وذلك قوله ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يعني أذهبنا أعينهم وأبصارهم ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الخبر يعني فذوقوا عذاب الله تعالى أي عقوبة الله ما أخبر الله تعالى ثم قال ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ يعني أخذهم وقت الصبح عذاب دائم يعني عذاب الدنيا موصولة بعذاب الآخرة ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يقال لهم ذوقوا عذاب الله تعالى وإنذاره ثم قال ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ وقد ذكرناها.

وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ

(١) انظر الدر المنثور ٦/١٣٦.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٧.

أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يعني الرسل وهو موسى وهارون ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني بالآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ يعني عاقبناهم عند التكذيب ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ يعني عقوبة منيع بالنقمة على عقوبة الكفار مقتدراً يعني قادراً على عقوبتهم وهلاكهم ثم خوف كفار مكة فقال. ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ يعني أكفاركم أقوى في النذر من الذين ذكرناهم فأهلكهم الله تعالى وهو قادر على إهلاكهم ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ يعني براءة في الكتب من العذاب، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الزجر يعني ليس لكم براءة ونجاة من العذاب ثم قال عز وجل ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ يعني ممتنع من العذاب يقول الله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يعني سيهزم جمع أهل مكة في الحرب، ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ يعني ينصرفون من الحرب منهزمين يعني به يوم بدر وفي هذا علامة من علامات النبوة لأن هذه الآية نزلت بمكة وأخبرهم أنهم سيهزمون في الحرب فكان كما قال، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية سيهزم الجمع ويولون الدبر فكنت لم أعلم ما هي وكنت أقول أي جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثبت في الدرع ويقول سيهزم الجمع ويولون[1] الدبر، وقال الزجاج: ويولون الدبر يعني الإدبار كقوله تعالى «وَيُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ» لأن اسم الواحد يدل على الجمع وكذلك قوله تعالى في جنات ونهر أي أنهار وذكر عن الفراء أنه قال إنما وحّد لأنه رأس آية تقابل بالتوحيد رؤوس الآي وكذلك في الدبر لموافقته رؤوس الآي ثم قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ يعني مجمعهم ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ يعني عذاب الساعة أعظم وأشد من عذاب الدنيا، ثم وصف عذاب الآخرة فقال ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يعني المشركين في الدنيا في ضلالة وخطأ وخلاف وفي سعير في الآخرة والسعر جماعة السعير ويقال السعر يعني في عناء ثم أخبرهم بمستقرهم فقال عز وجل ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يعني يجرون في النار على وجوههم ويقول لهم الخزنة ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ يعني عذاب النار.

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

ثم قال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ يعني خلقنا لكل شيء شكله مما يوافقه وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال هذه الآية نزلت في أهل القدر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر وقال محمد بن كعب القرظي «إنا كل شيء خلقناه بقدر» نزلت تعبيراً لأهل[2] القدر.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٤٨٥ (٤٨٧٥) وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٧/ ٤٥٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣٨ وعزاه لسفيان بن عيينة في جامعه.

قال أبو الليث حدثنا أبو جعفر قال حدثنا أبو القاسم حدثنا محمد بن الحسن حدثنا سفيان عن وكيع عن زياد بن إسماعيل عن محمد بن عبادة عن أبي هريرة قال جاء مشركو قريش إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخاصمونه في القدر فنزلت الآية يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر[1]. وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله إنا كل شيء خلقناه بقدر قال خلق لكل شيء من خلقه ما يصلحهم من رزق ومن الدواب وخلق لدواب البر ولغيرها من الرزق ما يصلحها وكذلك لسائر خلقه قوله عز وجل ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ يعني وَمَا أمرنا بقيام الساعة إلا مرة واحدة ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ يعني كرجع البصر ومعناه إذا أمرنا بقيام الساعة واحدة فنقول كن فيكون أقرب من طرف البصر ثم قال ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني عَذَّبنا أشباهكم وأهل ملتكم ويقال إخوانكم حين كذبوا رسلهم ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ يعني معتبر يعتبر فيكم فيعلم أن ذلك حق ويخاف عقوبة الله. ثم قال عز وجل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ يعني وكل شيء عملوه في الكتاب يحصى عليهم ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ يعني مكتوباً في اللوح المحفوظ ثم قال ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ يعني الذين يتقون الشرك والفواحش ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ يعني في بساتين وأنهار جارية ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يعني في أرض كريمة ويقال: في مجلس حسن وهي أرض (الجنة) ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ يعني في جوار مليك قادر على الثواب قادر على خلقه مثيب ومعاقب وقال القتبي النهر الضياء والسعة من قولك انهرت الطعنة إذا وسعتها. (قال أبي بن كعب رضي الله عنه. من قرأ سورة اقتربت الساعة في كل غب بعثه الله تعالى ووجهه مثل القمر ليلة البدر، وإن قرأ بها في كل ليلة كان أفضل)[2] والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢/٤٤٤، ٤٧٦، وانظر تفسير ابن كثير ٧/٤٥٨.
(٢) سقط في أ.

سُورَةُ الرَّحْمَنِ(١)

وهي سبعون وثمان آيات مدنية(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ
بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ
فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ
﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿**الرحمن علم القرآن**﴾ وذلك أنه لما نزل قوله تعالى اسجدوا للرحمن قال كفار مكة وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا، وقالوا ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى «الرحمن» فأخبر عن نفسه وذكر صفة توحيده فقال «الرحمن» يعني الرحمن الذي أنكروه علم القرآن يعني أنزل القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليقرأه عليه جبريل عليه السلام ويعلمه ﴿**خَلَقَ الإنْسَانَ**﴾ يعني الذي خلق آدم من أديم الأرض ويقال خلق محمداً، ويقال خلق الإنسان أراد به جنس الإنسان يعني جعله مخبراً مميزاً حتى يميز الإنسان من جميع الحيوان ﴿**عَلَّمَهُ البَيَانَ**﴾ يعني الكلام ويقال يعني الفصاحة ويقال الفهم ثم قال ﴿**الشمس والقمر بحسبان**﴾ يعني بحساب ومنازل ولا يتعدانها، ويقال: بحسبان يعني يدلان على عدد الشهور والأوقات ويعرف منها الحساب ﴿**والنَّجْمُ وَالشَجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾ والنجم كل نبات ينبسط على وجه الأرض ليس له ساق مثل الكرم والقرع(٣) ونحو

---

(١) ابتدئت هذه السورة بالتنويه بالقرآن قال في الكشاف «أراد الله أن يقدم في عدد آلائه أول شيء ما هو أسبق قدماً من ضروب آلائه وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين فقدم من نعمة الدين ما هو أعلى مراتبها وأقصى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه إياه ثـم ذكـر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان» اهـ.

وتبع ذلك من التنويه بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الله هو الذي علمه القرآن رداً على مزاعم المشركين الذين يقولون «إنما يعلمه بشر»، ورداً على مزاعمهم أن القرآن أساطير الأولين أو أنه سحر أو كلام كاهن أو شعر. ثم التذكير بدلائل قدرة الله تعالى فيما أتقن صنعه مدمجاً في ذلك التذكير بما في ذلك كله من نعم على الناس. وخلق الجن وإثبات جزائهم. والموعظة بالفناء وتخلص من ذلك إلى التذكير بيوم الحشر والجزاء. وختمت بتعظيم الله والثناء عليه. وتخلل ذلك إدماج التنويه بشأن العدل، والأمر بتوفية أصحاب الحقوق حقوقهم، وحاجة الناس إلى رحمة الله فيما خلق لهم، ومن أهمها نعمة العلم ونعمة البيان وما أعد من الجزاء للمجرمين ومن الثواب والكرامة للمتقين ووصف نعيم المتقين. ومن بديع أسلوبها افتتاحها الباهر باسمه «الرحمن» وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره. ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ إذ تكـرر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل. انظر التحرير ٢٧ / ٢٢٩.

(٢) في أ سبعون وست آيات وهي مكية.

(٣) القرع: جنس نباتات زراعية من الفصيلة القرعية، فيه أنواع تزرع لثمارها، وأصناف تزرع للتزيين واحدته قرعة، وأكثر ما تسميه العرب الدباء. انظر المعجم الوسيط ٢ / ٧٣٥.

ذلك أو الشجر كل نبات له ساق يسجدان يعني ظلهما يسجدان لله تعالى في أول النهار وآخره ويقال يسجدان يعني يسبحان الله تعالى كما قال «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ويقال: خلقهما على خلقه فيها دليل لربوبيته ويدل الخلق على سجوده، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله والنجم والشجر يسجدان قال نجوم السماء وأشجار الأرض يسجدان بكرة وعشياً(١) ثم قال عز وجل ﴿والسماء رفعها﴾ يعني من الأرض مسيرة خمسمائة عام ﴿ووضع الميزان﴾ يعني أنزل الميزان للخلق يوزن به وإنما أنزل في زمان نوح عليه السلام ولم يكن قبل ذلك ميزان ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ يعني لكي لا تظلموا في الميزان، ويقال ووضع الميزان يعني أنزل العدل في الأرض ألا تطغوا في الميزان يعني لكي لا تميلوا عن العدل ﴿وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ﴾ يعني اعدلوا في الوزن ﴿وَلَا تُخْسِرُوا المِيزانَ﴾ يعني لا تنقصوا حقوق الناس في الوزن، ويقال وأقيموا الوزن يعني أقيموا اللسان بالقول ولا تخسروا الميزان يعني لا تقولوا بغير حق ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ يعني بسط الأرض للخلق. ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ يعني وخلق من الأرض من ألوان الفاكهة ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ يعني ذات النخيل الطويل الموقرة بالطلع ذات الخلق، وإنما العجائب في خلقه وما يتولد منه لأنه يتولد من النخيل من المنافع ما لا يحصى، وقال القتبي: «ذات الأكمام» يعني ذات الكوى قبل أن تتفتق وغلاف كل شيء أكمه (ذات الأكمام) يعني ذات الغلاف.

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

ثم قال ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: ذو الورق ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني ثمره، وقال مجاهد: العصف يعني ورق الحنطة، والريحان الرزق، وقال الضحاك: الحب الحنطة، والشعير والعصف التبن. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: العصف الزرع، والريحان الورق بلسان حمير، ويقال: العصف السنبل، والريحان ثمرته وما ينتفع به. ويقال الريحان يعني الرياحين جمع الريحان وهو نبت لا ساق له قرأ ابن عامر والحب ذو العصف بنصب الباء وإنما نصبه لأنه عطف على قوله (الأرض وضعها للأنام) (والحب) يعني وخلق الحب ذا العصف والريحان، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم (والحب ذو العصف والريحان) بضم النون والباء لأنه عطف على قوله (فيها فاكهة) وقرأ حمزة والكسائي هكذا إلا أنهما كسرا النون في قوله (والريحان) عطفا على (العصف) على وجه المجاورة وقد ذكر الله تعالى من أول السورة نعماءه ثم خاطب الإنس والجن فقال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ وإن لم يسبق ذكرهما لأن في الكلام دليلاً وقد ذكرهما من بعده وهو قوله (يا معشر الجن والإنس) وقال (فبأي آلاء ربكما تكذبان) يعني فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تكذبان يعني تتجاحدان بأنها ليست من الله تعالى، قال بعضهم آلاء الله ونعماء الله واحد إلا أن الآلاء أعم والنعماء أخص، ويقال الآلاء النعمة الظاهرة وهو التوحيد والنعماء النعمة الباطنة وهو المعرفة بالقلب كقوله «وَاسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً».

وقال بعضهم الآلاء إيصال النعم، والنعماء رفع البلايا، مثاله أن رجلاً لو كانت له يد شلاء فله الآلاء وليست النعماء، وكذلك لسان الأخرس ورجل مقعد فله الآلاء وليست له النعماء وأكثر المفسرين لم يفصلوا بينهما وقد ذكر

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤١/٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

في هذه السورة دفع البلية وإيصال النعمة فكل ذلك سماه الآلاء، وروى محمد بن المنذر عن جابر بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ على أصحابه سورة الرحمن فسكت القوم فقال النبي عليه السلام الجن كانوا أحسن رداً منكم ما قرأت عليهم فبأي آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا ولا بواحدة منها فلك الحمد(١) وفي رواية أخرى أنه قال ما قرأت عليهم إلا قالوا ولا بواحدة منها فلك الحمد ثم قال: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ﴾ يعني آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ يعني الطين اليابس الذي يتصلصل أي يصوت كما يصوت الفخار، ويقال الصلصال الطين الجيد الذي ذهب عنه الماء وتشقق ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ يعني الطين الذي يصنع به الفخار وقال في موضع آخر (خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقال في موضع آخر (من طين) وقال في موضع آخر (من صلصال) فهذا كله قد كان حالاً بعد حال ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ يعني أبا الجن ثم قال هو إبليس ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ يعني من لهب من نار وليس لها دخان.

وقال بعضهم خلق من نار جهنم وقال بعضهم من النار التي بين الكلة الرقيقة بين السماء ومنها يكون البرق ولا يرى السماء إلا من وراء تلك الكلة ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فبأي نعمة أنتم يعني خلقكم أيها الإنس من نفس واحدة وخلقكم أيها الجن من نفس واحدة فكيف تنكرون هذه النعمة أنها ليست من الله تعالى ثم قال ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني هو رب المشرقين مشرق الشمس ومشرق القمر وقيل مشرق الشتاء ومشرق الصيف ورب المغربين يعني مغرب الشتاء والصيف ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني نعمة أنتم من نعمائه أيها الجن والإنس تتجاحدان؟ ومعناه أنتم حيث ما كنتم من مشارق الأرض ومغاربها في ملك الله تعالى وتأكلون رزقه وهو عالم حيث ما كنتم وهو حافظكم وناصركم فكيف تنكرون هذه النعم.

مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

قوله عز وجل: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ يعني أرسل البحرين ويقال خلّى البحرين ويقال خلق البحرين يلتقيان يعني مالح وعذب ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ يعني حاجز ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ يعني لا يختلطان فيغير طعمه وأصل البغي التطاول والجَوْرُ والظلم، وقال بعضهم بينهما حاجز لطيف لا يراه الخلق وإنما العبرة في ذلك أنه لا يرى ويقال بعضهم ليس هناك شيء وإنما تمنعهما من الاختلاط قدرة الله تعالى ويقال يلتقيان أي يتقابلان أحدهما بحر الروم والآخر بحر فارس وقيل بحر الهند وبينهما برزخ لا يبغيان أي لا يختلطان ؛(بينهما برزخ) بلطف الله تعالى أي باللطف تمنع عن الامتزاج وهما بحر واحد لن يمس أحدهما بالآخر وقال الزجاج: البرزخ الحاجز(٢) فهما من دموع العين مختلطان وفي قدرة الله منفصلان وقيل بينهما برزخ أي جزيرة العرب، وقيل بحر السماء والأرض كقوله تعالى

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ٧/٤٦٦ وفي البداية والنهاية ١/٥٧.
(٢) انظر لسان العرب ١/٢٥٦.

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وبينهما برزخ الهواء والأرض وسكان الأرض ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني خلق البحرين لمنفعة الخلق وبين لكم العبرة وقدرته ولطفه لتعتبروا به وتوحدوه فكيف تنكرون هذه النعمة بأنها ليست من الله تعالى ثم قال ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ يعني من بحر مالح اللؤلؤ ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ ما صغر منه ويقال اللؤلؤ يعني الصغار والمرجان يعني العظام.

وقرأ نافع وأبو عمرو يُخْرَج بضم الياء ونصب الراء على فعل ما لم يسم فاعله وقرأ الباقون بنصب الياء وضم الراء، وقرأ بعضهم بكسر الراء[1] يعني يخرج الله تعالى ونصب اللؤلؤ والمرجان لأنه مفعول به. ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني خلق في البحر اللؤلؤ لمنفعة الخلق ولصلاحهم ولكي تعتبروا به فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني السفن التي تجري في الماء ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ يعني كالجبال فشبه السفن في البحر بالجبال في البر وقرأ حمزة المنشئات بكسر الشين والباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالكسر يعني المبتدئات في السير ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنه جعل السفن في البحر لمنفعة الخلق فكيف تنكرون هذه النعمة بأنها ليست من الله تعالى ثم قال عز جل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يعني كل شيء على وجه الأرض يفنى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يعني ذو الملك والعظمة والإكرام ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ يعني ذو الملك والعظمة والإكرام يعني ذو الكرم والتجاوز فلما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلكت بنو آدم فلما نزل (كل نفس ذائقة الموت) أيقنوا بهلاك أنفسهم وهذا من النعم لأنه يحذرهم وبين لهم ليتهيئوا لذلك ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ومعناه إن الله تعالى يعينكم فتوكلوا عليه ولا تعتمدوا على الناس لأنهم لا يقدرون على دفع الهلاك عن أنفسهم والله هو الباقي بعد فناء الخلق وهو الذي يتجاوز عنكم ويعينكم فكيف تنكرون ربكم الذي خلقكم وأحسن إليكم، قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني الملائكة يسألون لأهل الأرض المغفرة ويسأل أهل الأرض جميع حوائجهم من الله تعالى ثم قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يعني في كل يوم يُعز ويذل، ويحيي ويميت، ويعطي ويمنع، وذلك أن اليهود قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً فنزل (كل يوم هو في شأن) فأخبر الله تعالى أنه يقضي في جميع الأيام وكان هذا من النعم، وذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي أرسل إلى محمد ابن الحنفية يتوعده قال لأفعلن بك كذا وكذا فأرسل إليه محمد ابن الحنفية وقال إن الله تعالى ينظر في كل يوم ثلاث مائة وستين نظرة إلى اللوح المحفوظ وكل يوم يعز ويذل ويعطي ويمنع فأرجو أن يرزقني الله تعالى ببعض نظراته أن لا يجعل لك علي سلطان فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك بن مروان فكتب عبد الملك بهذه الكلمات التي قالها محمد ابن الحنفية ووضعها في خزانته فكتب إليه ملك الروم يتوعده في شيء فكتب إليه عبد الملك بتلك الكلمات التي قالها محمد ابن الحنفية فكتب إليه صاحب الروم والله ما هذا من كنزك ولا من كنز أهل بيتك ولكنها من كنز أهل بيت النبوة

ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني تجحدون نعمته وأنتم تسألون حوائجكم منه

قوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ أي سنحفظ عليكم أعمالكم أيها الجن والإنس فنجازيكم بذلك، وروى جبير عن الضحاك في قوله سنفرغ لكم أيها الثقلان قال هذا وعيد من غير شغل إن الله تعالى لا

---

(١) انظر حجة القراءات ٦٩١، النشر في القراءات العشر ٢/ ٣٨٠.

(٢) المصدران السابقان.

يشغل[١] بشيء وقال الزجاج الفارغ في اللغة على ضربين أحدهما الفراغ من الشغل والآخر القصد للشيء كما تقول سأفرغ لفلان أي سأجعل قصدي له

قرأ حمزة والكسائي (سيفرغ لكم) بالياء والباقون بالنون[٢] وكلاهما يرجع إلى معنى واحد يعني سيحفظ الله عليكم أعمالكم ويحاسبكم بما تعملون. ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني ما عملتم فإنه لا ينسى ولا يمنح ثوابه وينصفكم من ظلمكم فكيف تنكرون هذه النعم بأنها ليست من الله تعالى واعلموا أن هذه النعم كلها من الله فاشكروه فكيف تنكرون من هو يجازيكم بأعمالكم ولا يمنع ثواب حسناتكم وينصركم على أعدائكم فهذه النعم كلها من الله فاشكروه ووحدوه.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾

ثم قال ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ يعني إن قدرتم ﴿أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني أن تخرجوا من أطراف السَّمَوَاتِ والأرض ونواحيها ﴿فَانْفُذُوا﴾ يعني فاخرجوا إن استطعتم قال مقاتل: هذا الخطاب للجن والإنس في الدنيا يعني إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض هروباً من الموت فانفذوا ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ يعني أينما أدرككم الموت، وروي عن ابن عباس أنه قال هذا الخطاب في يوم القيامة وذلك أن السماء تتشقق بالغمام وتنزل ملائكة السَّمَوَات ويقومون حول الدنيا محيطاً بها وجاء الروح وهو ملك يقوم صفا وهو أكبر من جميع الخلق فحينئذ يقال لهم إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السَّمَوَات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان يعني لا تنجون إلا بحجة وبرهان ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فبأي نعمة من نعمائه تجحدون حيث بين لكم أحوال يوم القيامة حتى تتوبوا وترجعوا، ويقال معناه ذلك اليوم لا يفوته أحد ولا يعينكم أحد غيره فكيف تجحدون هذه النعم ثم قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾ يعني يرسل على كفار الجن وكفار الإنس لهب من النار ﴿وَنُحَاسٌ﴾ يعني الصُّفْر المذاب يعذبون بهما ويقال دخان لهب فيه ويقال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٤٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) حجة من قرأ بالياء أنه أتى عقيب ذكر الله بلفظ التوحيد وهو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ في السمواتِ والأرض كل يومٍ هو في شأن﴾ فأجريا الفعل بعده على لفظ ما تقدمه إذ كان في سياقه ليأتلف الكلام على نظم واحد. وحجة من قرأ بالنون أن ما جرى في القرآن من إسناد الأفعال إلى الله: بلفظ الجمع، وشبيه به قوله ﴿وقدمنا إلى ما عملوا﴾ قالوا: لأن معنى «سنفرُغ»: سنقصد بحسابكم. انظر حجة القراءات ٦٩٢.

(٣) الصُّفْرُ هو النحاس الأصفر المذاب. انظر المعجم الوسيط ١/٥١٩.

النحاس هو لباس أهل النار ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ يعني لا تُمنعان من ذلك قرأ ابن كثير (يرسل عليكما شِواظ) بكسر الشين والباقون[1] بالضم فهما لغتان ومعناهما واحد وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ونحاسٍ) بكسر السين والباقون بالضم[2] فمن قرأ بالكسر عطف على قوله من نار ومن قرأ بالضم عطف على قوله شواظ ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني لا يعينكم أحد غير الله ولا يحفظكم حين يرسل عليكم العذاب إلا الله فكيف تنكرون قدرته وتوحيده ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يعني انفرجت السماء لنزول الملائكة كقوله ويوم (تشقق السماء بالغمام) ثم قال: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ يعني صارت كدهن الورد الصافي، وهذا قول مقاتل وقال القتبي صارت حمراء في لون الفرس يعني بمنزلة الدابة الجُلّجُون الذي تغير لونه في كل وقت يرى لونه على خلاف اللون الأول، ويقال له المورد، ويقال الدهن الأديم الأحمر بلغة الفارسي يعني الفرس الذي يكون لونه لون الورد الأحمر يعنون أخضر يضرب إلى سواد يتغير لونه بياض، ويقال من هيبة ذلك زاغ فيرى أنه كالدهن. ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني إذا كان يوم القيامة تغيرت السموات من هيبته ويأمر الخلق بالحساب فهو الذي ينجيكم من هول ذلك اليوم فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ﴾ يعني عن علمه ﴿إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ يعني إنسياً ولا جنياً لأن الله تعالى قد أحصى عليه ويقال لا يسأل سؤال استفهام ولكم يسأل سؤال التوبيخ والزجر، كقوله تعالى (فَوَرَبك لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ويقال لا يسأل الكافر لأنه عرف بعلامته ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني إذا كان يوم القيامة أعطاكم الثواب وأدخلكم في جنته فكيف تنكرون وحدانيته ويقال معناه: إن الله قد بين لكم أنه يعلم أعمالكم ونهاكم عن الذنوب وتجاوز عنكم فكيف تنكرون وحدانيته قوله عز وجل ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني يُعرف الكافر بسواد الوجوه وزرقة الأعين ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ وذلك أن خزنة جهنم بعد الحساب يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون بين نواصيهم إلى أقدامهم ثم يدفعونهم على وجوههم فيطرحونهم في النار ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني هو الذي يدفع عنكم ذلك العذاب إن آمنتم به وأطعتموه ووحدتموه فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ﴾ وذلك أن الكفار إذا دنوا من النار تقول لهم الخزنة هذه جهنم ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني جهنم التي كنتم بها تكذبون في الدنيا ثم أخبر عن حالهم فيها فقال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ يعني الشراب الحار الذي قد انتهى حره وذلك أنه يسلط عليهم الجوع فيؤتى بهم إلى الزقوم الذي طلعه كرؤوس الشياطين فأكلوا منه فأخذ في حلقهم فاستغاثوا بالماء فأتوا من الحميم فإذا قربوا إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم فيشربون فيغلي في أجوافهم ويخرج جميع ما فيها ثم يلقى عليهم الجوع فمرة يذهب بهم إلى الحميم ومرة إلى الزقوم فذلك قوله تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن).

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ
﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ
فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ
دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾

(١) انظر حجة القراءات ٦٩٣، النشر في القراءات العشر ٢/٣٨١.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١١.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني هو الذي ينجيكم من عذاب الآخرة إن أطعتم أمره وآمنتم برسله فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى؟ ويقال معناه إن إخباري إياكم بهذه العقوبة نعمة لكم لكي تنتهوا عن الكفر والمعاصي فلا تنكروا نعمتي عليكم فقد ذكر الله في هذه الآيات دفع البلاء ثم ذكر إيصال النعم لمن اتقاه وأطاع أمره فقال ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ يعني من خاف عند المعصية مقام يوم القيامة بين يدي ربه فانتهى عن المعصية فله في الآخرة جنتان يعني بستانان، وقال مجاهد هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله عندها فيدعها فله[1] أجران.

وذكر عن الفراء أنه قال «جنتان» أراد به جنة واحدة وإنما ذكر «جنتان» للقوافي، والقوافي تحتمل الزيادة والنقصان ما لا يحتمل الكلام. وقال القتبي هذا لا يجوز لأن الله قد وعد ببستانين فلا يجوز أن يريد بهما واحداً فلو جاز هذا لجاز أن يقال في قوله تسعة عشر إنما هم عشرون ولكن ذكر للقوافي. ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني بأي نعمة من نعماء الله تعالى تتجاحدان إذ جعل الجنة ثواب أعمالكم فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ونعمته قوله تعالى ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ يعني ذواتا ألوان يعني البساتين فيها ألوان من الثمرات ويقال ذواتا أغصان وقال الزجاج الأفنان ألوان وهي الأغصان أيضاً واحدها فَنَنٌ ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني قد وُعِدْتُمُ الجنة والراحة فكيف تنكرون وحدانيته ونعمته ثم قال عز وجل ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يعني في البساتين نهران من ماء غير آسن أي غير متغير ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل الأنهار نزاهة لكم زيادة في النعمة فكيف تنكرون قدرة الله تعالى ونعمته ثم قال ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، يعني في هذين البستانين من كل لون من الفاكهة صنفان الحلو والحامض ويقال لونان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل فيهما من الراحة والنزاهة من كل نوع من الفاكهة فكيف تنكرون نعمته وقدرته قوله عز وجل ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ﴾ يعني ناعمين على فرش ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ هو الديباج الغليظ الأخضر بلغة فارس وقال مقاتل بطائنها يعني ظواهرها وذكر عن الفراء أنه قال بطائنها يعني الظهارة وقد تكون الظهارة بطانة والبطانة ظهارة لأن كل واحد منهما يكون وجهاً واحداً وقال القتبي هذا لا يصح ولكن ذكر البطانة تعليماً أن البطانة إذا كانت من استبرق فالظهارة تكون أجود وروي عن ابن عباس أنه سئل أن بطائنها من استبرق فما الظواهر؟ قال هو مما قال الله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة[2] أعين) ثم قال ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ يعني اجتناؤهما قريب إن شاء تناولهما قائماً وإن شاء تناولهما قاعداً وإن شاء متكئاً ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل لكم مجالس الملوك مع الفراش المرتفعة فكيف تنكرون وحدانية الله ونعمته ثم قال عز وجل ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ يعني في الجنان من الزوجات غاضات البصر قانعات بأزواجهن لا يشتهين غيرهم ولا ينظرون إلى غيرهم قوله تعالى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ﴾ يعني لم يمسسهن إنس ﴿قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ يعني لا إنساً ولا جنياً ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل لكم أزواجاً موافقة لطبعكم وهن لا يرون غيركم فكيف تنكرون الله تعالى؟ ثم وصف الزوجات فقال ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ يعني: في الصفاء كالياقوت،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤٦/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في التوبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٤٧/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

وفي البياض كالمرجان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعلهن بحال تتلذذ أعينكم بالنظر إليهن فكيف تنكرون وحدانية الله تعالى ونعمته؟ ثم قال عز وجل ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ يعني هل جزاء التوحيد وهو قول لا إله إلا الله إلا الجنة، ويقال هل جزاء من خاف مقام ربه إلا هاتان الجنتان التي ذكرناها في الآية ثم قال ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فكيف تنكرون نعمة ربكم حيث جعل ثواب إحسانكم الجنة وبين لكم لكي تحسنوا وتنالوا ثواب الله وإحسانه.

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾
تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ يعني من دون الجنتين اللتين ذكرهما جنتان أخروان، فالأوليان جنة النعيم وجنة عدن والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني قد ذكر للمتقين جنتين وجنتان أخريان زيادة على الكرامة فكيف تنكرون فضل ربكم وكرامته ثم وصف الجنتين الأخريين فقال ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ يعني خضراوان ويقال التي تضرب خضرها إلى السواد ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني جعل لكم الجنان المخضرة لأن النظر في الخضرة يُجلي البصر فكيف تنكرون وحدانيته ثم قال ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ يعني ممتلئتان فوارتان وقال القتبي، يعني تفوران بالماء والنضخ أكثر من النضح وقال مجاهد نضاختان يعني مملوءتان من الخير لا ينقطعان(١) ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ يعني كيف تنكرون من جعل لكم فيهما عينان تفوران على الدوام ولا انقطاع لهما ثم قال عز وجل ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ يعني في الجنتين الأخريين من ألوان الفاكهة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ معناه في الجنتين الأخريين من ألوان الفاكهة كمثل ما في الأوليين فأنتم تجدون فيها ألواناً من الثمار والفواكه فكيف تنكرون هذه النعمة ثم قال عز وجل ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ يعني في الجنان كلها زوجات حسان وقال الزجاج أصله في اللغة(٢) خيرات وقد قرىء بالتشديد وقراءة العامة بالتخفيف(٣) وقال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٠ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٢) اختلف أيهما أكثر حسناً وأبهر جمالاً الحور أو الآدميات فقيل الحور لما ذكر من وصفهن في القرآن والسنة، ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة: (وأبدله زوجاً خيراً من زوجه). وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، وروي مرفوعاً. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة، قال: إن نساء الدنيا من دخل منهن الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وقد قيل: إن الحور العين المذكورات في القرآن هي المؤمنات من أزواج المحسنين والمؤمنين يُخْلَقن في الآخرة على أحسن صورة، قاله الحسن البصري والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا وإنما هن مخلوقات في الجنة، لأن الله تعالى قال: ﴿لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إن أقل ساكني الجنة النساء» فلا يصيب كل واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا. انظر تفسير القرطبي ١٧/١٢٢.

(٣) انظر حجة القراءات ٦٩٤.

مقاتل خَيِّرات الأخلاق حسان الوجوه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني في هذه الجنان الأربعة في كل واحدة منها تجدون خيرة زوجة هي أُحسن بما في الأخرى فكيف تنكرون عزة ربكم ولا تشكرونه ثم وصف الخيرات فقال ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ﴾ يعني محبوسات ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ على أزواجهن وقال ابن عباس الخيمة الواحدة من لؤلؤة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب[١] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فكيف تنكرون هذه النعمة حين حَبَس الأزواج الطيبات لكم إن أطعتم الله ثم قال عز وجل ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ يعني لم يمسسهن إنس قبلهم ولا جان قرأ الكسائي (لم يطمثهن) بضم الميم والباقون بالكسر وهما لغتان ومعناهما واحد ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ثم قال ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ﴾ يعني نائمين على المجالس الخضر على السرر الحسان ويقال على رياض ﴿خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ يعني الزرابيّ الكثيرة الألوان وهي الطنافس الحسان وقال مجاهد وعبقري حسان يعني[٢] الديباج وقال الزجاج وإنما قال (عبقري حسان) ولم يقل حسن لأن العبقري جماعة يقال للواحدة عبقرية كما تقول ثمرة وثمر لوزة ولوز وأيضاً يكون العبقري اسم جنس والعبقري كل شيء بولغ في وصفه والعبقري البُسُط ويقال الطنافس المبسوطة ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يعني فبأي نعمة من نعماء ربكما أيها الجن والإنس تتجاحدان مع هذه الكرامات التي بين الله تعالى لكم لتعلموا فتنالوا تلك الكرامات ما شاء الله ثم قال عز وجل ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ﴾ يعني ذي الارتفاع يعني ارتفاع المنزلة والقدرة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ يعني الكريم المتجاوز عن المذنبين ويقال الاسم زيادة في الكلام ومعناه تبارك ربك.

قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بـالـواو والباقون (ذي الجلال) بالياء فمن قرأ (ذو) جعله نعتاً للاسم والاسم رفع ومن قرأ بالكسر جعله نعتاً للرب عز وجل والله أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥١/٦ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٢/٦ وعزاه لابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ(١)

وهي تسعون وست آيات مكية(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يعني قامت القيامة وإنما سميت القيامة الواقعة لثبوتها وهي النفخة الآخرة، وقال قتادة هي الصيحة أسمعت القريب والبعيد ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يعني ليس لها مثوبة ولا ارتداد ويقال ليس لقيامها تكذيب ـ ثم وصف القيامة فقال ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ يعني خفضت أقواماً بأعمالهم فأدخلتهم النار ورفعت أقواماً بأعمالهم فأدخلتهم الجنة.

وقال قتادة في قوله (خافضة رافعة) يعني خفضت أقواماً في عذاب الله ورفعت أقواماً في كرامات الله(٣).

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ يعني زلزلت الأرض زلزلة وحركت تحريكاً شديداً لا تسكن حتى تلقي جميع ما في بطنها على ظهرها ثم قال ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً﴾ يعني فتتت الجبال فتاً، ويقال قُلِعت الجبال قَلْعاً ويقال كُسِرت الجبال كسراً ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾ يعني تراباً وهو ما يسطع من سنابك الخيل، ويقال الغبار الذي في شعاع الكوة، وقال القتبي وبست الجبال بساً ـ يعني فتتت حتى صارت كالدقيق والسويق المبثوث، ثم وصف حال الخلق في يوم القيامة وأخبر أنهم ثلاثة أصناف اثنان في الجنة وواحدة في النار ثم نعت كل صنف من الثلاثة على حده فقال ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً﴾ يعني تكونون يوم القيامة ثلاث أصناف ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعني الذين يعطون كتابهم بأيمانهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعني ما تدري ما لأَصْحاب الميمنة من الخير والكرامات ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ يعني الذين يعطون كتابهم بشمالهم ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ يعني ما تدري ما لأصحاب المشئمة من

(١) من أغراض هذه السورة التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه. ووصف ما يعرض وهذا العالم الأرضي عند ساعة القيامة. ثم صفة أهل الجنة وبعض نعيمهم. وصفة أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث. وإثبات الحشر والجزاء والاستدلال على إمكان الخلق الثاني بما أبدعه الله من الموجودات بعد أن لم تكن والإستدلال بدلائل قدرة الله تعالى. والاستدلال بنزع الله الأرواح من الأجساد والناس كارهون لا يستطيع أحد منعها من الخروج، على أن الذي قدر على نزعها بدون مدافع قادر على إرجاعها متى أراد على أن يميتهم. وتأكيد أن القرآن منزل من عند الله وأنه نعمة أنعم الله بها عليهم فلم يشكروها وكذبوا بما فيه. التحرير ٢٧/ ٢٨٠.

(٢) في أ [تسعون وسبع آيات وهي مكية].

(٣) انظر الدر المنثور ٦/ ١٥٣.

الشرب والعذاب، ويقال أصحاب الميمنة يعني الذين كانوا يوم الميثاق على يمين آدم عليه السلام ويقال على يمين العرش وأصحاب المشئمة الذين كانوا على شمال آدم عليه السلام. ويقال على شمال العرش، ويقال أصحاب الميمنة الذين يكونون يوم القيامة على يمين العرش ويأخذون طريق الجنة وأصحاب المشئمة الذين يأخذون طريق الشمال فيفضي بهم إلى النار.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ
﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ
وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا
يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾
وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾

ثم قال عز وجل ﴿**والسَابِقُونَ السابقون**﴾ يعني السابقين إلى الإيمان والجهاد والطاعات السابقون يعني هم السَّابِقُونَ إلى الجنة فذكر الأصناف الثلاثة ـ أحدها ـ أصحاب اليمين ـ الثاني أصحاب الشمال، والثالث السابقون ثم وصف كل صنف منهم بصفة فبدأ بصفة السابقين فقال ﴿**أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ يعني المقربين عند الله في الدرجات ﴿**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ يعني في جنات عدن. ﴿**ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ**﴾ يعني إن السابقين تكون جماعة من الأولين يعني من أول هذه الأمة مثل الصحابة والتابعين وقليل من الآخرين يعني إن السابقين في آخر هذه الأمة يكون قليلاً وقال بعضهم ثلة من الأولين يعني جمعاً من الأمم الخالية وقليل من الآخرين يعني من هذه الأمة فحزن المسلمون بذلك حتى نزلت (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) فطابت أنفسهم، والطريق الأول أصح وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ـ كلتا الثُّلَّتين من أمتي[(١)]، وروي عن عبد الله بن يزيد قال ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل الجنة عشرون ومائة صنف هذه الأمة منها ثمانون صنفاً[(٢)] ثم قال ﴿**عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ**﴾ يعني إن السابقين في الجنة على سرر منسوجة بالدر والياقوت وقال مجاهد موضونة[(٣)] بالذهب وقال القتبي موضونة أي منسوجة كأن بعضها أدخل في بعض أو نضد بعضها على بعض ومنه قيل للدرع (موضونة) ثم قال ﴿**مُتَّكِئِينَ**

(١) ذكره القرطبي من حديث أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ١٧ / ١٣٠ ذكره الحافظ في تخريجه على الكشاف ٤/٤٥٨ وعزاه للطبري وابن عدي، وأبان هو ابن عياش متروك، ورواه إسحاق وسنده إلى الطيالسي وإبراهيم الحربي والطبراني من رواية زيد بن صهبان عن أبي بكرة مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أولى بالصواب وعلى ضعيف.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦) وابن ماجه (٤٢٨٩) وأحمد في المسند ٥/٣٤٧، ٣٥٥ والدارمي ٢/٣٣٧ والحاكم في المستدرك ١/٨٢ وابن كثير ٢/٨٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٥ وعزاه لسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

﴿عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ يعني ناعمين على سرر متقابلين في الزيادة وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ متكئين عليها ناعمين وقال مجاهد متقابلين يعني لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض[١] ثم قال عز وجل ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني في الخدمة ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يعني غلماناً خلدوا في الجنة، ويقال على سن واحد لا يتغيرون لأنهم خلقوا للبقاء ومن خلق للبقاء لا يتغير، ويقال مخلدون يعني لا يكبرون ويقال هم أولاد الكفار لم يكن لهم ذنب يعذبون ولا طاعة يثابون فيكونون خداماً لأهل الجنة قوله تعالى ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ هي التي لها عرى ثم قال ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ يعني خمراً بيضاء من نهر جار ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يعني لا يصدع رؤوسهم بشرب الخمر في الآخرة ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ يعني لا تذهب عقولهم ولا ينفذ شرابهم ثم قال ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يعني ما يتمنون ويختارون من ألوان الفاكهة ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني إن شاء شوياً وإن شاء مطبوخاً ثم قال عز وجل ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحور عين بالكسر عطفاً على قوله (بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ) والباقون وحور عين بالضم[٢] ومعناها ولهم حور عين ـ والحور البيض والعين الحسان الأعين ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ يعني اللؤلؤ الذي في الصدف لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني هذه الجنة مع هذه الكرامات ثواباً لأعمالهم ثم قال ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ يعني في الجنة خلفاً وكذباً ﴿وَلَا تَأْثِيماً﴾ يعني كلاماً فيها عند الشرب كما يكون في الدنيا ويقال ولا تأثيماً يعني ولا إثم عليهم فيما شربوا ﴿إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾ يعني إلا قولاً وكلاماً يسلم بعضهم على بعض ويبعث الله تعالى إليهم الملائكة بالسلام فهذا كله نعت السابقين.

ثم ذكر الصنف الثاني فقال ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ يعني ما لأصحاب اليمين من الخير والكرامة على وجه التعجب ثم وصف حالهم فقال ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ يعني لا شوك له كالدر الذي يكون في الدنيا وقال قتادة (في سدر مخضود) يعني كثير الحمل أي ليس له شوك، وقال القتبي كأنه نضد شوكه يعني قطع، وروي في الخبر أنه لما نزل ذكر السدر قال أهل الطائف إنها سِدْرنا هذا فنزل مخضود يعني موقر بلا شوك ثم قال: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ وقال مقاتل يعني الموز المتراكم بعضه على بعض وقال قتادة هو الموز[٣] وهذا روي عن ابن عباس والمنضود الذي نضد بالحمل من أوله إلى آخره ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ (وطلع منضود)[٤] كقوله تعالى (طلع نضيد) كقوله تعالى ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ يعني دائماً لا يزول، وروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها اقرؤوا إن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٥/٦ وعزاه لابن جرير.

(٢) حجتهم في ذلك: أن الحور لا يطاف بهن، وإنما يطاف بالخمر، فرفعوه على الابتداء. قال الفراء: الرفع على قولك: (ولهم حور عين). وقال أبو عبيد: (وعندهم حور عين). ووجه الجر تحمله على قوله: ﴿أولئك المقربون في جناتِ النعيم﴾ (التقدير: أولئك المقربون في جنات النعيم) وفي حور عين: أي: في مقارنة حور عين أو مباشرة حور عين، فحذفت المضاف. وقال الفراء: والخفض إن تتبع آخر الكلام أوله وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله: أنشدني بعض العرب:

إذا ما الغانيات برزن يوماً   وزجّجنْ الحواجب والعيونا

فالعين لا تُزجّج وإنما تُكحَّل، فردَّها على الحواجب لأن المعنى يعرف، وقال:

علفتُها تبناً وماءً بارداً

والماء لا يعلف، فجعله تابعاً للتبن. انظر حجة القراءات ٦٩٥.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٥/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٥٧/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

شتتم[1] (وظل ممدود) ثم قال ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ يعني منصباً كثيراً ويقال يعني منصباً من ساق العرش ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ يعني ألوان الفاكهة كثيرة ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ يعني لا مقطوعة يعني لا ينقطع عنهم في حين كما يكون في فواكه الدنيا بل توجد في جميع الأوقات ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ يعني لا يمنع منهم والممنوعة أن ينظر إليها ولا يقدر أن يأكلها. كأشجار الدنيا ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ بعضها فوق بعض مرتفعة ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ يعني الجواري والزوجات، يقال نساء الدنيا خلقناهن خلقاً بعد خلق الدنيا، ويقال إنهن أفضل وأحسن من حور الجنة لأنهن عملن في الدنيا والحور لم يعملن، وعن أنس بن مالك قال قال النبي - صلى الله عليه وسلم - إنا أنشأناهن إنشاء قال إن من المنشآت التي كن في الدنيا عجايز عمشاً[2] رمصاً[3] زمناً ثم قال ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ يعني خلقناهن أبكاراً عذارى

عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

﴿عُرُباً﴾ يعني محبات عاشقات لأزواجهن لا يردن غيرهم قرأ حمزة وعاصم في إحدى الروايتين عُرْباً بجزم الراء والباقون بالضم[4] ومعناهما واحد وقال أبو عبيد نقرأ بالضم لأنها أقيس في العربية لأن واحدتها عَرُوب وجمعها عرب مثل صَبُور وصُبُر وشكور وشكر ثم قال ﴿أَتْرَاباً﴾ يعني مستويات في السن كأنهن على ميلاد واحد بنات ثلاث وثلاثين، وروي عن عكرمة أنه قال أهل الجنة ميلاد ثلاثين سنة رجالهم ونساؤهم قامة أحدهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم عليه السلام شاب جرد مكملون أحسنهم يرى كالقمر ليلة البدر وأخرهم كالكوكب الدري في السماء يبصر وجهه في وجهها وكبده في كبدها وفي مخ ساقها وتبصر هي وجهها في وجهه وفي كبده وفي مخ ساقه ولا يبزقون ولا يتمخطون وما كان فوق ذلك من الأذى فهو أبعد ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يعني هذا الذي ذكر كرامة لأصحاب اليمين ثم قال عز وجل: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يعني جماعة من أول هذه الأمة وجماعة من الآخرين فذكر في السابقين أنهم جماعة من الأولين وقليل من الآخرين لأن السابق في أخر الأمة قليل وأما أصحاب

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وهناد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) العمش ألا تزال العين تسيل الدمع ولا يكاد الأعمش يبصر بها، وقيل: العمش ضعف رؤية العين مع سيل دمعها في أكثر أوقاتها. انظر لسان العرب ٤/٣١٠٦.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٥٨ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وهناد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث، وقوله (رمصاً رمصت العين رمصاً اجتمع في موقها وسخ أبيض انظر المعجم الوسيط ١/٣٧٤.

(٤) انظر حجة القراءات ٦٩٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١٥.

اليمين يكون جماعة من أول الأمة وجماعة من آخر الأمة ثم ذكر الصنف الثالث فقال ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ**﴾ يعني ما لأصحاب الشمال من شدة وشر وهوان ثم وصف حالهم فقال ﴿**فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ**﴾ والسموم الزمهرير يقطع الوجوه وسائر الجسوم ويقال السموم النار الموقدة والحميم الماء الحار الشديد ﴿**وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ**﴾ واليحموم الدخان يعني دخان جهنم أسود ﴿**لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ**﴾ يعني لا بارد شرابهم ولا كريم منقلبهم ثم بين أعمالهم التي استحقوا بها العقوبة بأعمالهم الباطل فقال ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ**﴾ يعني كانوا في الدنيا متكبرين في ترك أمر الله تعالى ويقال كانوا مشركين ﴿**وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ**﴾ يعني يثبتون على الذنب العظيم وهو الشرك وإنما سمي الشرك حنثاً لأنهم كانوا يحلفون بالله لا يبعث الله من يموت وكانوا يصرون على ذلك، وقال القتبي الحنث العظيم اليمين الغموس وقال مجاهد الذنب العظيم، وقال ابن عباس الحنث العظيم هو الشرك ﴿**وَكَانُوا يَقُولُونَ**﴾ مع شركهم ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**﴾ يعني بعد ما صرنا تراباً وعظاماً بالياً صرنا أحياء بعد الموت ﴿**وَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ**﴾ الذين مضوا قبلنا وصاروا تراباً قال الله تعالى قل يا محمد ﴿**قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ**﴾ يعني الأمم الخالية ﴿**لَمَجْمُوعُونَ**﴾ وهذه الأمة لمجموعة ﴿**إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**﴾ في يوم القيامة يجتمعون فيه ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ أيها الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ**﴾ بالبعث ﴿**لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فمالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**﴾ يعني يملؤون من طلعها البطون ﴿**فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ**﴾ يعني على إثره يشربون من الحميم ﴿**فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ**﴾ يعني كشرب الهيم وهو الإبل الذي يصيبها داء فلا تروا من الشراب ويقال الأرض التى أصابتها الشمس، وهي أرض سهلة من الرملة قرأ نافع وعاصم وحمزة (شُرب الهيم) بضم الشين والباقون بالنصب[1] فمن قرأ بالضم فهو اسم ومن قرأ بالنصب فهو المصدر ويقال كلاهما مصدر شربت ثم قال ﴿**هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ**﴾ يعني جزاءهم يوم الجزاء ويقال معناه هو الذي ذكرناه من الزقوم والشراب طعامهم وشربهم يوم الحساب.

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾

ثم قال ﴿**نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ**﴾ يعني خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ﴿**فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ**﴾ يعني أفلا تصدقون بالبعث وبالرسل ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا فقال ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ**﴾ يعني ما خرج منكم من النطفة ويقع في الأرحام ﴿**أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ**﴾ يعني منه بشراً في بطون النساء ذكراً أو أنثى ﴿**أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ يعني بل نحن نخلقه

---

(١) هما لغتان العرب تقول «أريد شُرب الماء وشَرْب الماء». وقال آخرون: الشـرب: المصدر، والشَرب بالضم: الاسم. واحتج من فتح بالخبر: قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (لأنها أيام أكل وشَرب وبِعال). حجة القراءات ٦٩٦.

﴿نحنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ يعني نحن قسمنا بينكم الآجال فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً ومنكم من يموت شيخاً، قرأ ابن كثير (نحن قَدَرْنا) بالتخفيف وقرأ الباقون (قدّرنا) بالتشديد(١) ومعناهما واحد لأن التشديد للتكثير ثم قال ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ يعني وما نحن بعاجزين إن أردنا أن نأتي بخلق مثلكم وأمثل منكم وأطوع لله تعالى ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني ونخلقكم سوى خلقكم من الصور فيما لا تعلمون من الصور مثل القردة والخنازير ويقال وما نحن بعاجزين على أن نرد أرواحكم إلى أجسامكم بعد الموت ثم قال عز وجل ﴿وَلَقَد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ يعني علمتم ابتداء خلقكم إذ خلقناكم في بطون أمهاتكم ثم أنكرتم البعث ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني فهل لا تتعظون وتعتبرون بالخلق الأول أنه قادر على أن يبعثكم كما خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئاً ثم قال ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ﴾ يعني فهل لا تعتبروا بالزرع الذي تزرعونه في الأرض﴿ءَأَنْتُم تَزْرَعُونَهُ﴾ يعني تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ يعني أم نحن المنبتون يعني بل الله تعالى أنبته ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً﴾ يعني يابساً هالكاً بعدما بلغ ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ يعني فصرتم تندمون ويقال يعني تتعجبون من يبسه بعد خضرته ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ يعني معذبون ﴿بَلْ نَحنَ مَحْرُومُونَ﴾ يعني حرمنا منفقة زرعنا قرأ عاصم في رواية أبي بكر إنا لمغرمون بهمزتين على الاستفهام وقرأ الباقون بهمزة واحدة(٢) على معنى الخبر ثم قال ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنْتُمْ أَنـزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ يعني من السماء ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ يعني بل نحن المنزلون عليكم ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً﴾ يعني مرّاً مالحاً لا تقدرون على شربه ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ يعني هلا تشكرون رب هذه النعمة وتوحدونه حين سقاكم ماء عذباً ثم قال عز وجل ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ يعني تقدمون والعرب تقدح بالزند والزند خشبة يحك بعضه على بعض فيخرج منه النار ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ يعني خلقتم شجرها ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ يعني الخالقون يعني الله أنشأها وخلقها لمنفعة الخلق ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ يعني النار موعظة وعبرة في الدنيا من نار جهنم، وقال مجاهد نحن جعلناها تذكرة يعني النار الصغرى للنار الكبرى ﴿وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ يعني منفعة لمن كان ساخراً(٣)، وقال قتادة المقوي الذي قد فنى زاده وقال الزجاج المقوي الذي قد نزل بالقوى وهي الأرض الخالية(٤).

فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ
﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ
ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ
غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ

(١) انظر حجة القراءات ٦٩٦.

(٢) انظر حجة القراءات ٦٩٧، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٦١ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) انظر لسان العرب ٣٧٩٠.

نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ
بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يعني اذكر التوحيد باسم ربك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرب العظيم، ويقال صل بأمر ربك ويقال سبح لله واذكره قوله عز وجل ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ قال بعضهم يعني أقسم و (لا) زيادة في الكلام وقال بعضهم «لا» رد لقول الكفار ثم قال ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ يعني بنزول القرآن نزل نجوماً آية بعد آية. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (مواقع النجوم) يعني بحكم القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يعني القسم بالقرآن عظيم لو تعلمون ذلك ويقال لو تعلمون يعني لو تصدقون ذلك قرأ حمزة والكسائي (بموقع النجوم) بغير ألف وقرأ الباقون بمواقع النجوم بلفظ الجماعة[١] فمن قرأ بموقع فهو واحد دل على الجماعة ويقال بمواقع النجوم يعني بمساقط النجوم يعني الكواكب ـ ثم قال عز وجل ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الذي يقرأ عليك يا محمد لقرآن شريف كريم على ربه ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ يعني مستور من خلق الله وهو اللوح المحفوظ ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني اللوح المحفوظ ويقال لا تمسه إلا الملائكة المطهرون من الذنب ولا يقرؤه إلا الطاهرون، ويقال لا يمس المصحف إلا الطاهر وروى معمر عن محمد بن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتب كتاباً فيه «لا يمس القرآن إلا على طهور»[٢] وروى إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد قال «كنا مع سلمان فخرج يقضي حاجته ثم جاء فقلنا يا عبد الله لو توضأت لعلنا نسألك عن آيات الله فقال إني لست أمسه لأنه لا يمسه إلا المطهرون فقرأ علينا ما نسينا[٣]»، يعني يجوز للمحدث أن يقرأ ولا يجوز أن يمس المصحف، وأما الجنب لا يجوز له أن يمس المصحف ولا يقرأ آية تامة. ثم قال ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أنزل الله تعالى جبريل عليه السلام على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذا القرآن يقرأه عليه من رب العالمين ثم قال عز وجل ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ يعني تكفرون وقال الزجاج المدهن والمداهن الكذاب المنافق. وقال بعض أهل اللغة[٤] أصله من الدهن لأنه يلين في دينه يعني ينافق ويرى كل واحد أنه على دينه ويقال (أنتم مدهنون) يعني مكذبون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يعني شكر رزقكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني تقولون للمطر إذا مطرتم مُطِرْنا بنوء كذا وروي عن عاصم في بعض الروايات أنكم تكذبون بالتخفيف يعني تجعلون شكر رزقكم الكذب وهو أن يقولوا مُطِرنا بنوء كذا وقرأ الباقون تكذبون بالتشديد[٥] يعني تجعلون شكر رزقكم التكذيب ولا تنسبون السقيا إلى

---

(١) قالوا: الجمع أولى لأنه مضاف إلى جمع. وروي عن الحسن أنه قال: انتشارها يوم القيامة. وعنه أيضاً قال: مغايبها. وعن ابن عباس قال: (مواقع النجوم: نزول القرآن، كان ينزل نجوماً شيئاً بعد شيء). فهذا دليل على معنى الجمع. لأن القرآن نزل في زمان طويل. وحجة من قرأ: (بموقع النجوم) أن الموقع في معنى المصدر، وهو يصلح للقليل والكثير، لأن معناه (بوقوع)، ويجري مجرى قول الرجل: عملت عمل الرجال، وأخرى وهي ما روي عن عبد الله قال: «فلا أقسم بموقع النجوم» أي: بمحكم القرآن. حجة القرآن ٦٩٧.

(٢) انظر تخريجه في الاعتناء في الفرق والاستثناء بتحقيقنا. وتفسير ابن كثير ٢٢/٨ وانظر تنوير الحوالك ١٥٧/١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٦٢/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر والحاكم وصححه.

(٤) انظر لسان العرب ١٤٤٧.

(٥) قراءة التخفيف هي قراءة المفضل عن عاصم ويحيى بن وقاب، انظر تفسير القرطبي ١٤٩/١٧.

الله تعالى الذي رزقكم ثم قال ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ يعني بلغ الروح الحلقوم ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ إلى الميت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يعني أمر الله تعالى وهو ملك الموت أقرب إليه منكم حين أتاه لقبض روحه ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ما حضر الميت ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ يعني غير محاسبين، ويقال غير مملوكين أذلاء عن قولك دِنْتُ له بالطاعة وإنما سمي (يوم الدين) لأنه يوم الإذلال والهوان ويقال (غير مدينين) يعني غير مجزيين ﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني إنكم غير محاسبين فهلا رددتم عنه الموت. ثم ذكر الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم في أول السورة فقال ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني إذا كان هذا الميت من المقربين عند الله من السابقين ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ قرأ الحسن (فُرُوحٌ) بضم الراء المهملة وقراءة العامة بالنصب[1] وقال أبو عبيد لولا خلاف الأمة لقرأته بالضم، وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قرأ بالضم، وقال القتبي الروح يعبر عن معان فالروح روح الأجسام الذي يقبض عند الممات وفيه حياة النفس، والروح جبريل. وكلام الله روح لأنه حياة من الجهل وموت الكفر ورحمة الله روح كقوله (وأيدهم بروح منه) أي برحمة والروح الرحمة والرزق ويقال الروح حياة دائمة لا موت فيها (والريحان) الرزق، ويقال هي النبات بعينها ومن قرأ بالنصب فهو الفرح ويقال الراحة، ويقال هي الرحمة ثم قال ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ يعني لا انقطاع ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يعني إن كان الميت من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ يعني سلام الله لهم ويقال يسلمون عليك من الجنة، ويقال سلام عليك منهم، ويقال ترى منهم ما تحب من السلام، ويقال (فسلام لك) يعني يقال له ثوابه عند الموت وفي القبر وعلى الصراط وعند الميزان بشارة لك، إنك من أهل الجنة ثم قال عز وجل ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني إن كان الميت (من المكذبين) بالبعث ﴿الضَّالِّينَ﴾ عن الهدى. ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني جزاؤهم وثوابهم من حميم ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ يعني يدخلون الجحيم وهي ما عظم من النار ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ يعني إن هذا الذي قصصنا عليك في هذه السورة من الأقاصيص وما أعد الله لأوليائه وأعدائه وما ذكر مما يدل على وحدانيته لهو حق اليقين ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يعني اذكر اسم ربك بالتوحيد ويقال نزه الله تعالى عن السوء يعني قل سبحان الله ويقال اثن على الله تعالى ويقال صل لله تعالى وروي عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال من قرأ سورة الواقعة في كل يوم لم تصبه فاقة[2] والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥١٧. تفسير القرطبي ١٧/١٥٠.

(٢) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية ٣/٢٨٣ (٣٧٦٥) وذكره العراقي في تخريجه على الإحياء ١/٣٤٢ وضعف إسناده وهو في كنز العمال (٢٦٤٠ ـ ٢٧٠١).

سُورَةُ الحَدِيدِ(١)

وهي تسع وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ يعني: صلى لله ما في السموات من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من المؤمنين فسمى الصلاة تسبيحاً لأنه يجري فيها التسبيح ويقال (سبح لله) يعني: ذكر الله ما فِي السَّمواتِ يعني: جميع ما في السَّموات من الشمس والقمر والنجوم والأرض يعني: جميع ما في الأرض من الإنس والأشجار والأنهار والجبال وغير ذلك، ويقال (سبح لله) يعني: خضع لله جميع ما في السَّموات والأرض وقال بعضهم التسبيح أثار صنعه يعني: في كل شيء دليل لربوبيته ووحدانيته ويقال هو التسبيح بعينه يعني: يسبح جميع الأشياء كقوله (وَإِنْ مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بحمده)، وقال الحسن البصري(٢) (لولا ما يخفى عليكم من تسبيح من معكم في البيوت ما تقادرتم)، وروى سمرة بن جندب عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (أفضل الكلام أربعة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) ولا يضرك بأيهن(٣) بدأت ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني: العزيز

---

(١) من الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة التذكير بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة وسعة قدرته وملكوته، وعموم تصرفه، ووجوب وجوده، وسعة عمله، والأمر بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وما أنزل عليه من الآيات البينات. والتنبيه لما في القرآن من الهدي وسبيل النجاة، والتذكير برحمة الله ورأفته بخلقه. والتحريض على الإنفاق في سبيل الله، وأن المال عرض زائل لا يبقى منه لصاحبه إلا ثواب ما أنفق منه في مرضاة الله. والتخلص إلى ما أعد الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خيرٍ وضد ذلك للمنافقين والمنافقات. وتحذير المسلمين من الوقوع في مهواة قساوة القلوب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم من إهمال ما جاءهـم من الهدى حتى قست قلوبهم وجر ذلك إلى الفسوق كثيراً منهم والتذكير بالبعث. والدعوة إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية. والأمر بالصبر على النوائب والتنويه بحكمة إرسال الرسل والكتب لإقامة أمور الناس على العدل العام والإيماء إلى فضل الجهاد في سبيل الله وتنظير رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام على أن في ذريتهما مهتدين وفاسقين. وأن الله أتبعهما برسل آخرين منهم عيسى عليه السلام الذي كان آخر رسول أرسل بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعه كانوا على سنة من سبقهم، منهم مؤمن ومنهم كافر. ثم أهاب بالمسلمين أن يخلصوا الإيمان تعريضاً بالمنافقين ووعدهم بحسن العاقبة وأن الله فضلهم على الأمم لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء. التحرير ٢٧/٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) سقط في أ.

(٣) أخرجه البخاري معلقاً ١١/٥٧٦ كتاب الإيمان وقال الحافظ هذا من الأحاديث التي لم يصلها البخاري في موضع آخر، وقد وصله النسائي من طريق ضرار بن مرة عن أبي صالح عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً بلفظه، وأخرجه مسلم من حديث سمرة بن جندب لكن بلفظ «أحب» بدل «أفضل» وأخرجه ابن حبان من هذا الطريق بلفظ «أفضل» ولحديث أبي هريرة طريق أخرى أخرجها النسائي وصححها ابن حبان من طريق أبي حمزة السكري عن الأعمش عن أبي صالح عنه بلفظ «خير الكلام أربع لا يضرك بأيهن بدأت» فذكره، وأخرجه أحمد عن وكيع عن الأعمش فأبهم الصحابي، وأخرجه النسائي من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن السلولي عن كعب الأحبار من قوله.

بالنقمة لمن لا يوحّده والعزيز في اللغة: الذي لا يعجزه عما أراد ويقال العزيز الذي لا يوجد مثله الحكيم في أمره وقضائه.

لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

ثم قال عز وجل: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّموات والأَرْضِ﴾** يعني: له خزائن السَّموات والأرض يعني: خزائن السَّموات المطر وخزائن الأرض النبات، ويقال معناه: له نفاذ الأمر في السَّموات والأرض ثم قال: **﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾** يعني: يحيي للبعث ويميت في الدنيا **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** من الإحياء والإماتة ثم قال عز وجل: **﴿هُوَ الأَوَّلُ﴾** يعني: الأول قبل كل أحد **﴿والآخِرُ﴾** بعد كل أحد **﴿والظَّاهِرُ﴾** يعني: الغالب على كل شيء **﴿وَالْبَاطِنُ﴾** يعني: العالم بكل ويقال (هو الأول) يعني: مؤول كل شيء (والآخر) يعني: مؤخر كل شيء (والظاهر) يعني: المظهر (والباطن: يعني: المبطن، ويقال هو (الأول) يعني: خالق الأولين (والآخر) يعني: خالق الآخرين والظاهر يعني خالق الآدميين وهم ظاهرون (والباطن) يعني: خالق الجن والشياطين الذين لا يظهرون ويقال (هو الأول) يعني: خالق الدنيا والآخر يعني: خالق الآخرة (والظاهر والباطن) يعني: عالم بالظاهر والباطن، ويقال هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء والظاهر والباطن يعني: منه نعمة ظاهرة، ويقال هو (الأول والآخر والظاهر والباطن) يعني: هو الرب الواحد ثم قال **﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ﴾** يعني: من أمر الدنيا والآخرة ثم قال عز وجل: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثم اسْتَوى على العَرْشِ يَعْلَمُ ما يلِج في الأَرْضَ﴾** يعني ما يدخل في الأرض من الماء والكنوز والأموات **﴿وَمَا يَخْرجُ مِنْهَا﴾** من النبات والكنوز والأموات **﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾** وهو المطر والثلج والرزق والملائكة **﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾** يعني: ما يصعد فيها من الملائكة وأعمال العباد والأرواح **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾** يعني: عالم بكم وبأعمالكم أينما كنتم في الأرض **﴿واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** فيجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً. ثم قال عز وجل: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَإلى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ﴾** ثم قال عز وجل: **﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ﴾** يعني: يُدخل الليل في النهار إذا جاء الليل ذهب النهار **﴿وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾** يعني: يُدخل النهار في الليل إذا جاء النهار ذهب الليل ومعنى آخر يعني: يدخل زيادة الليل في النهار يعني: يصير الليل أطول ما يكون خمسة عشر ساعة والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات والليل والنهار أربع عشرون ساعة، ثم قال عز وجل: **﴿وَهُوَ عَليمٌ بذات الصدور﴾** يعني: بما في القلوب من الخير والشر.

ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

ثم قال ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وصدقوا برسوله ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ يعني: تصدقوا في طاعة الله تعالى: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: مما جعلكم مالكين من المال، ويقال معناه إن الأموال والدنيا كلها لله تعالى فيجعل العباد مستخلفين على أمواله وأمرهم بالنفقة مما جعلهم خليفة فيها ثم بين ثواب الذين آمنوا فقال ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وتصدقوا ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني: عظيم وهو الثواب الحسن في الجنة، ويقال إن هذه الآية نسخت بآية الزكاة ويقال إنها ليست بمنسوخة ولكنها حث على الصدقة والنفقة في طاعة الله تعالى ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: مالكم لا تصدقون بوحدانية الله تعالى ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ قرأ بعضهم (والرسولُ) بضم اللام يعني: ما لكم لا تؤمنون بالله وتم الكلام ثم قال والرسول يدعوكم إلى توحيد الله تعالى وقراءة العامة والرسول بكسر اللام يعني: مالكم لا تصدقون بالله وبرسوله حين يدعوكم. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ يعني: لتصدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَقَدْ أَخذ مِيثَاقكم﴾ يعني: أخذ الله تعالى إقراركم والميثاق حين أخرجكم من صلب آدم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني: مصدقين قرأ أبو عمرو وقد أُخذ ميثاقكم بضم القاف وكسر الخاء على معنى: فعل ما لم يسم فاعله والباقون[1] يعني: أخذ الله ميثاقكم ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ﴾ هو الذي ينزل جبريل على عبده محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ عليه ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني: آيات القرآن واضحات بين فيه الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني: يدعوكم من الشرك إلى الإيمان ويقال آيات بينات يعني: واضحات ويقال آيات يعني: علامات النبوة ليخرجكم من الظلمات إلى النور يعني: ليوفقكم الله تعالى للهدى ويخرجكم من الكفر ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يعني: هداكم لدينه وأنزل عليكم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: ما لكم لا تصدقوا أو لا تنفقوا أموالكم في طاعة الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعني: إلى الله يرجع ميراث السموات والأرض أي شيء ينفعكم ترك الإنفاق وأنتم ميتون تاركون أموالكم ويقال: معناه وما لكم ألا تنفقوا والأموال كلها لله تعالى وهو يأمركم بالنفقة، ويقال أنفقوا ما دمتم في الحياة فإنكم إن بخلتم فإن الله هو يرثكم ويرث أهل السموات يعني: أنفقوا قبل أن تفنوا وتصير كلها ميراثاً لله تعالى بعد فنائكم وإنما ذكر لفظ الميراث لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثاً فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم ثم قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ﴾ يعني: لا يستوي منكم في الفضل والثواب عند الله تعالى ﴿مَنْ أَنْفَقَ﴾ ماله في طاعة الله ﴿مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ يعني: قاتل العدو ـ وفي الآية

---

(١) حجة من قرأ على ما لم يسم فاعله إجماع الجميع على قوله تعالى: ﴿ألم يؤخذ عليكم ميثاق الكتاب﴾ وحجة من قرأ بفتح الألف والقاف أنه قرب من ذكر الله في قوله ﴿لتؤمنوا بربكم﴾ فأجروا الفعل إلى الله أي وقد أخذ ربكم ميثاقكم. انظر حجة القراءات ٦٩٨.

تقديم يعني: من أنفق وقاتل من قبل الفتح يعني: فتح مكة ونزلت الآية في شأن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين والأنصار يعني: الذين أنفقوا أموالهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقاتلوا الكفار لا يستوي حالهم وحال غيرهم، ويقال نزلت الآية في شأن أبي بكر رضي الله عنه كان جالساً مع نفر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوقعت بينهم منازعة في شيء فنزل في تفضيل أبي بكر رضي الله عنه (لا يستوي منكم من أنفق) ماله (من قبل الفتح)[1] يعني: من قبل ظهور الإسلام ﴿وَقَاتَلَ﴾[2] يعني: وجاهد ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ يعني: أبي بكر رضي الله عنه ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ العدو مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقال هذا التفضيل لجميع أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وروى سفيان عن زيد بن أسلم قال - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «سيأتي قوم بعدكم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم قالوا يا رسول الله نحن أفضل أم هم فقال لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك فضل أحدكم ولا نصفه»[3]. (أولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً) قال الفقيه حدثني الخليل بن أحمد ثنا الدبيلي ثنا عبيد الله عن سفيان عن زيد بن أسلم (مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ قرأ ابن عامر وكلٌّ وعد الله الحسنى بضم اللام والباقون بالنصب[4] فمن قرأ بالضم صار ضماً لمضمر فيه فكأنه قال أولئك وعد الله الحسنى ومن نصب معناه وعد الله كلا الحسنى يعني: الجنة ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: ما أنفقتم ثم قال ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: من ذا الذي يعطي من أموال الله قرضاً حسناً يعني: وفقاً بالإخلاص وطلب ثواب الله تعالى: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ في الحسنات ويعطي من الثواب ما لا يحصى ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الآخرة ويقال نزلت الآية في شأن أبي الدحداح ويقال هو حث لجميع المسلمين.

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٥٦.

(٢) روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم والتقدم والتأخير قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقد قالت عائشة ضي الله عنها، أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ننزل الناس منازلهم. وأعظم المنازل مرتبة الصلاة وقد قال - صلى الله عليه وسلم - في مرضه: (مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس) الحديث وقال يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وقال: (وليؤمكما أكبركما) من حديث مالك بن الحويرث. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة، كما قال - صلى الله عليه وسلم -: (الولاء للكبر) ولم يعن كبر السن. وقد قال مالك وغيره: إن للسن حقاً وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحق بالمراعاة، لأنه إذا اجتمع العلم والسن في خيرين قدم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين، فمن قُدِّم في الدين قدم في الدنيا وفي الآثار: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه). ومن الحديث الثابت في الأفراد (ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له عند سنه من يكرمه). انظر القرطبي ١٧/١٥٦ - ١٥٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٢ وعزاه لسعيد بن منصور.

(٤) حجة ابن عامر أن الفعل إذا تقدم عليه مفعوله لم يقو عمله فيه قوته إذا تأخر، ألا ترى أنهم قالوا: زيد ضربت. وحجة النصب بينة لأنه بمنزلة: زيداً وعدت خيراً فهو مفعول وعدت وتقول: ضربت زيداً وزيداً ضربت سواء. انظر حجة القراءات ٦٩٨، النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٤.

مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَى المؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني: في يوم القيامة على الصراط. ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: بتصديقهم في الدنيا وبأعمالهم الصالحة فيعطى لهم النور يمضون به على الصراط فيكون النور بين أيديهم وأيمانهم وعن شمائلهم إلا أن ذكر الشمائل مضمر وتقول لهم الملائكة ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ﴾ يعني: أبشروا هذا اليوم بكرامة الله تعالى: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: مقيمين في الجنة ونجوا مِن العذابِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ يعني: نُصِبْ من نوركم فتضيء معكم، وروي عن أبي أمامة الباهلي أنه قال «بينما العباد يوم القيامة عند الصراط إذ غشيتهم ظلمة ثم يقسم الله تعالى النور بين عباده فيعطي الله المؤمن نوراً ويبقى الكافر والمنافق لا يعطيان نوراً فكما لا يستضيء الأعمى بنور البصر كذلك لا يستضيء الكافر والمنافق بنور الإيمان فيقولان انظروا نقتبس من نوركم فيقال لهم ﴿قِيلَ ارْجِعُوا﴾ حيث قسم النور فيرجعون فلا يجدون شيئاً فيرجعون وقد ضرب بينهم بسور[1]، وعن الحسن البصري قال إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم لأنه يعطي المؤمن والمنافق نوراً فإذا بلغوا الصراط اطفىء نور المنافق فيقول المنافقون انظروا نقتبس من نوركم قال فيشفق المؤمنون حين طفى نور المنافقين فيقولون عند ذلك ـ (ربنا أتمم لنا نورنا)، قرأ حمزة أنظرونا بنصب الألف وكسر الظاء المعجمية والباقون بالضم[2] فمن قرأ بالنصب فمعناه أمهلونا ومن قرأ بالضم فمعناه انتظرونا فقال لهم المؤمنون. ارجعوا ﴿وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ يعني: ارجعوا إلى الدنيا فإنا جعلنا النور في الدنيا ويقال ارجعوا إلى المحشر حيث أعطينا النور واطلبوا نوراً فيرجعون في طلب النور فلم يجدوا شيئاً ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ يعني: ظهر لهم ويقال بين أيديهم بسور يعني: بحائط بين أهل الجنة وأهل النار ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ﴾ يعني: باطن السور ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ يعني: الجنة ﴿وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ يعني: النار ويقال هو السور الذي عليه أصحاب الأعراف فيظهر بين الجنة والنار باب يعني عليه باب فيجاوز فيه المؤمنون ويبقى المنافقون على الصراط في الظلمة ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ من وراء السور ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يعني: ألم نكن معكم في الدنيا على دينكم وكنا معكم في الجماعات والصلوات فيجيبهم المؤمنون ﴿قَالُوا بَلَى﴾ يعني: قد كنتم معنا في الدنيا أو في الظاهر ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني: قد أصبتم أنفسكم حيث كفرتم في السر، ويقال فتنتم أنفسكم يعني: ثبتم على الكفر الأول في السر ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ يعني: انتظرتم موت نبيكم، ويقال تربصتم يعني: أخرتم التوبة وسوّفتم فيها ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ يعني: شككتم في الدين وشككتم في البعث ﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾ يعني: أباطيل الدنيا ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: القيامة ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الشياطين وقال الزجاج الغرور على ميزان فعول وهو من أسماء المبالغة وكذلك الشياطين الغرور لأنه يغري ابن آدم كثيراً. ثم قال: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ يعني: في هذا اليوم وهو يوم القيامة، وقرأ ابن

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٣ وعزاه لابن المبارك وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٤.

عامر فاليوم لا تؤخذ بالتاء لأن الفدية مؤنثة وقرأ الباقون بالياء[١] ـ وجمع على المعنى لأن معنى الفدية فداء ومعناه (لا يؤخذ منكم) الفداء يعني المنافقين ﴿ولا من الذين كفروا﴾ يعني الذين جحدوا بتوحيد الله تعالى ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ يعني: مصيركم إلى النار يعني المنافقين والكافرين ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ يعني: هي أولى بكم بما أسلفتم من الذنوب ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: بئس المرجع النار للكافرين والمنافقين.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني: ألم يجيء وقت تخاف قلوبهم فترق قلوبهم يقال أنا يأني إناءاً إذا حان وجاء وقته وأوانه قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد ثنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم الدبيلي قال حدثنا أبو عبيد الله قال ثنا سفيان عن عبد الرحمن بن عبد الله عن القاسم قال ـ ملَّ أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملة فقالوا حدِّثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: (الَّذِي نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً) ثم ملوا ملَّة أخرى فقالوا)[٢] حدثنا يا رسول الله فأنزل الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)[٣]، ويقال إن المسلمين قالوا لسلمان الفارسي حدّثنا عن التوراة فإن فيها عجائب فنزل (نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصَ) فكفوا عن السؤال ثم سألوه عن ذلك فنزلت هذه الآية (أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشَع قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) يعني: ترق قلوبهم لذكر الله. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: القرآن بذكر الحلال والحرام قرأ نافع وعاصم في رواية حفص وما نزّل ـ بالتخفيف والباقون بالتشديد[٤] على معنى التكثير والمبالغة ثم وعظهم فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: ولا تكونوا في القسوة كاليهود والنصارى من قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ يعني: الأجل ويقال خروج النبي عليه السلام ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني: جفّت ويبست قلوبهم عن الإيمان فلم يؤمنوا بالقرآن إلا قليل منهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصون، ويقال (ألم يأن للذين آمنوا) يعني: المنافقين الذين آمنوا بلسانهم دون قلوبهم. وقال أبو الدرداء استعيذوا بالله من خشوع النفاق قيل وما خشوع النفاق؟ قال أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع.

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ يعني: يصلح الأرض فاعتبروا بذلك ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني:

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٠.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٧٥ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) حجة من خفف قوله تعالى: ﴿وبالحق نزل﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وحجة الباقين ذكر الله قبله في قوله «أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل» أي وما نزل الله من الحق. انظر حجة القراءات ٧٠٠.

بعد يبسها وقحطها فكذلك يحيي القلوب بالقرآن ويصلح بعد قساوتها حتى تلين كما أحيا الأرض كذلك بعد موتها بالمطر. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ﴾ يعني: العلامات في القرآن ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني: لكي تعقلوا أمر البعث كذلك إنكم أيضاً تبعثون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ قرأ ابن كثير وعاصم رواية أبي بكر (إن المصدقين والمصدقات) كليهما بالتخفيف والباقون بالتشديد[1] فمن قرأ بالتخفيف فمعناه إن المؤمنين من الرجال والمؤمنات من النساء فمن صدق الله ورسوله ورضي بما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومن قرأ بالتشديد يعني: المتصدقين من الرجال والمتصدقات من النساء فأدغمت التاء في الصاد وشددت ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: يتصدقون محتسبين بطبيعة أنفسهم صادقين من قلوبهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنات والثواب بكل واحد عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى ﴿وَلَهُمْ أَجر كَرِيمٌ﴾ يعني: ثواباً حسناً في الجنة ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني: صدّقوا بتوحيد الله وصدقوا بجميع الرسل ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ والصديق اسم المبالغة في الفعل يقال رجل صديق كثير الصدق وقال ابن عباس رضي الله عنه فمن آمن بالله ورسله فهو من الصديقين ثم قال. ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال مقاتل هذا استئناف فقال (الشهداء) يعني: من استشهد عند ربهم يعني: يطلب شهادة على الأمم ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ يعني: ثوابهم ﴿وَنُورهُمْ﴾ ويقال هذا بناء على الأول يعني: (أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة ويقال معناه (أولئك هم الصديقون) (وأولئك هم الشهداء) عند ربهم، ويكون لهم أجرهم ونورهم، قال مجاهد كل مؤمن صديق شهيد[2] ثم وصف حال الكفار فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: بوحدانية الله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: جحدوا بالقرآن ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني: باطلاً ولهواً يعني: فرحاً يلهون فيها

---

(١) حجتهم أن في حرف أُبيّ: «إن المتصدقين والمتصدقات» بتاء ظاهرة. فهي حجة لمن قرأ بالتشديد. وأخرى وهي في قوله «وأقرضوا الله قرضاً حسناً» وذلك أن القرض هو أشبه بالصدقة من التصديق. وحجة من خفف هي أن التخفيف في قوله ﴿المصدقين﴾ أعم من التشديد. ألا ترى أن ﴿المصدقين﴾ بالتشديد مقصورة على الصدقة و ﴿المصدقين﴾ بالتخفيف يعم التصديق والصدقة لأن الصدقة من الإيمان، فهو أوجب في باب المدح. انظر حجة القراءات ٧٠١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

﴿وَزِينَةٌ﴾ يعني: زينة الدنيا ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ عن الحسب ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلَادِ﴾ تفتخرون بذلك، وروى إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قام في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها» ثم ضرب للدنيا مثلاً آخر فقال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ يعني: كمثل مطر نزل من السماء فينبت به الزرع والنبات ﴿أَعْجَبَ الكفَّار نَبَاتُه﴾ يعني: فرح الزارع بنباته، ويقال أعجب الكفار يعني: الكفار بالله لأنهم أشد إعْجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين ويقال الكفار كناية عن الزراع لأن الكَفْر في اللغة هو التغطية، ولهذا سمي الكافر كافراً لأنه يغطي الحق بالباطل فسمي الزراع كفاراً لأنهم يغطون الحب تحت الأرض وليس ذلك الكفر الذي هو ضد الإيمان، والطريقة الأولى أحسن إن أراد به الكفار لأن ميلهم إلى الدنيا أشد ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يعني: ييبس فيتغير ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾ بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ يعني: يابساً ويقال حطاماً يعني: هالكاً فشبه الدنيا بذلك لأنه لا يبقى ما فيها كما لا يبقى هذا النبت ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن افتخر بالدنيا واختارها ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لمن ترك الدنيا واختار الآخرة على الدنيا ويقال عذاب شديد لأعدائه ومغفرة من الله لأوليائه ثم قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ يعني: كمتاع الغرور يعني: كالمتاع الذي يتخذ من الزجاج والخزف يسرع إلى الفناء ولا يبقى ثم قال عز وجل: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: سارعوا بالأعمال الصالحة، ويقال بادروا بالتوبة، وقال مكحول سابقوا إلى تكبيرة الافتتاح ﴿وَجَنَّةٍ﴾ يعني: إلى جنة ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾ يعني: لو ألصقت بعضها على بعض يعني: سبع سموات وسبع أراضين ومدت مد الأديم لكان عرض الجنة أوسع من ذلك وإنما بين عرضها ولم يبين طولها ويقال لو جعلت السموات والأرض لكانت الجنة بعد ذلك هذا مثل يعني إنها أوسع شيء رأيتموه. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني: خلقت وهيئت للذين صدقوا بوحدانية الله تعالى وصدقوا برسله ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ يعني: ذلك الثواب فضل الله على العباد ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: يعطيه من يشاء من عباده وهم المؤمنون ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: ذو العطاء العظيم وذو المَنّ الجسيم قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يعني: من قحط المطر وغلاء السعر وقلة النبات ونقص الثمار ولا في أنفسكم من البلايا والأمراض والأوجاع ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يعني: إلا في اللوح المحفوظ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ يعني: من قبل أن نخلق تلك النسمة، وذكر الربيع بن أبي صالح الأسلمي قال دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحَجَّاج أراد قتله فبكى رجل من قومه فقال سعيد ما يبكيك قال لما أصابك من مصيبة قال فلا تبك قد كان في علم الله تعالى أن يكون هذا ألم تسمع قول الله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)(١) يعني: من قبل أن نخلقها. ويقال قبل أن نخلق تلك النفس ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني: هيناً ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ يعني: لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق والعافية إذا علمتم أنها مكتوبة عليكم قبل خلقكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ يعني: بما أعطاكم في الدنيا ولا تفتخروا بذلك. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يعني: متكبراً فخوراً بنعم الله تعالى ولا يشكروه قرأ أبو عمرو بما أتاكم بغير مد والباقون بالمد(٢) فمن قرأ بغير مد فمعناه لكيلا تفرحوا بما جاءكم من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٧ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) حجة أبي عمرو في ذلك أن «فاتكم» معادل به «آتاكم» فكما أن الفعل للفائت في قوله «فاتكم» كذلك يكون الفعل للآتي في قوله «بما آتاكم». قال أبو عمرو: وتصديقها في آل عمران ﴿ولا ما أصابكم﴾ قال: فـ ﴿أصابكم وجاءكم﴾ سواء. وحجة الباقين أن في حرف أُبيّ وابن مسعود «بما أوتيتم» أي: أعطيتم. انظر حجة القراءات ٧٠١ ـ ٧٠٢.

حطام الدنيا فإنه إلى نفاذ ومن قرأ بالمد بما أعطاكم وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن المؤمن من جعل الفرح والمصيبة صَبْراً.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ
فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ
ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ يعني: لا يحب الذين يبخلون يعني يمسكون أموالهم ولا يخرجون منها حق الله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ويقال الذين يبخلون يعني يكتمون صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويأمرون الناس بالبخل يعني: يكتمون صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونعته ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ يعني: يعرض عن النفقة، ويقال يعرض عن الإيمان ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يعني: غنيٌّ عن نفقتهم وعن إيمانهم (الحميد) في فعاله قرأ حمزة والكسائي ويأمرون الناس بالبخل بنصب الخاء والباء وقرأ الباقون بضم الباء وإسكان الخاء[1] ومعناهما واحد. قرأ نافع وابن عامر فإن الله الغني الحميد الذي لا غني مثله والباقون[2] (فإن الله هو الغني الحميد) بإثبات هو ثم قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: بالأمر والنهي والحلال والحرام ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: أنزلنا عليهم الكتاب ليعلموا أمتهم ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ يعني: العدل ويقال هو الميزان بعينه أنزل على عهد نوح عليه السلام. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ يعني: لكي يقوم الناس بالقسط يعني: بالعدل ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ يعني وجعلنا الحديد ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني فيه قوة شديدة في الحرب وعن عكرمة أنه قال (وأنزلنا الحديد) يعني: أنزل الله تعالى الحديد لآدم عليه السلام العلاة والمطرقة والكلبتين فيه بأس شديد[3] ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: في الحديد منافع للناس مثل السكين والفأس والإبرة يعني: من معايشهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ يعني: ولكن يعلم الله من ينصره على عدوه. ﴿وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ بقتل أعدائه كقوله إِنْ تَنْصُروا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ويقال لكي يرى الله من استعمل هذا السلاح في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالغيب

(١) انظر المصدر السابق والنشر ٢/٢٨٤.
(٢) المصدران السابقان.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

يعني: يصدق بالقلب ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ في أمره ﴿عَزِيزٌ﴾ في ملكه ثم قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: بعثناهما إلى قومهما ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَتِهِمَا﴾ يعني: في نسليهما ﴿النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وكان فيهم الأنبياء مثل موسى وهارون وداود ويونس وسليمان وصالح ونوح وإبراهيم عليهم السلام ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: كثير من ذريتهم تاركون للكتاب. قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ يعني: وصلنا وأَتْبَعْنَا على آثارهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ واحداً بعد واحد ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ يعني: وأرسلنا على آثارهم بعيسى بن مريم ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ يعني: أعطيناه الأنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الذين آمنوا به وصدقوه واتبعوا دينه ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ يعني: المودة والمتوادين الذين يود بعضهم بعضاً، ويقال الرأفة على أهل دينهم يرحم بعضهم بعضاً وهم الذين كانوا على دين عيسى لم يتهودُّوا ولم يتنصروا ثم استأنف الكلام فقال ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ يعني: ابتدعوا رهبانية ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: لم تكتب عليهم الرهبانية ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ وذلك أنه لما كثر المشركون خرج المسلمون منهم فهربوا واعتزلوا في الغيران واتبعوا الصوامع فطال عليهم الأمد ورجع بعضهم عن دين عيسى ابن مريم وابتدعوا النصرانية قال الله تعالى ابتدعوها يعني الرهبانية والخروج إلى الصوامع والتبتل للعبادة ما كتبناها عليهم يعني ما أوجبنا عليهم ولم نأمرهم إلا ابتغاء رضوان الله يعني أمرناهم بما يرضي الله تعالى لا غير ذلك ويقال ابتدعوها لطلب رضى الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يعني: لم يحافظوا على ما أوجبوا على أنفسهم، ويقال فما أطاعوا الله حين تهودوا وتنصَّروا قال الله تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يعني: عاصين وهم الذين تهودوا وفي هذه الآية دليل وتنبيه للمؤمنين أن من أوجب على نفسه شيئاً لم يكن واجباً عليه أن يتبعه ولا يتركه فيستحق اسم الفسق وروي عن بعض الصحابة أنه قال عليكم بإتمام هذه التراويح لأنها لم تكن واجبة عليكم فقد أوجبتموها على أنفسكم فإنكم إن تركتموها صرتم فاسقين ثم قرأ هذه الآية (وكثير منهم فاسقون).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني: أطيعوه فيما يأمركم به وفيما ينهاكم عنه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني: اثبتوا على الإسلام بعد نبيكم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال يا أيها الذين آمنوا بعيسى ابن مريم آمنوا بالله ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني: أجرين من فضله ويقال «لما نزلت في أهل مكة أولئك يؤتون أجرهم مرتين حزن المسلمون فنزل فيهم (يؤتكم كفلين من رحمته) وأصل الكِفْل النصيب يعني: نصيبين من رحمته أحدهما بإيمان نبيّه قبل خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والآخر الإيمان بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ. ثم قال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: يجعل لكم سبيلاً واضحاً تهتدون به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني: يغفر

(١) سقط في أ.

لكم ذنوبكم ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾ يعني: يغفر الذنوب للمؤمنين (رحيم) بهم ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ولا مؤكدة في الكلام ومعناه لأن يعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ورحمته يعني مؤمني أهل الكتاب يعملون أنهم لا يقدرون من فضل الله إلا برحمته لا برحمته ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ يعني: الثواب من الله تعالى ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء﴾ من كان أهلاً لذلك من العبادة ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: هو المعطي وهو المانع والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ المُجَادِلَةِ(١)

وهي اثنتان وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ يعني تخاصمك ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ يعني من قبل زوجها وروى أبو العالية الرياحي أن الآية نزلت في شأن أوس بن الصامت وفي امرأته خويلة بنت دعلج وعن عكرمة أنه قال نزلت في امرأة اسمها خويلة بنت ثعلبة وفي زوجها أوس بن الصامت جاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت إن زوجها جعلها عليه كظهر أمه فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أراك إلا وقد حرمت عليه قالت انظر يا نبي الله جعلني الله فداك يا نبي الله في شأني وجعلت تجادله وعائشة رضي الله عنها تغسل رأس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت عائشة رضي الله عنها اقصري حديثك ومجادلتك يا خويلة أما ترين وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد تربّد ليوحى إليه فأنزل الله تعالى (قد سمع(٢) الله قول التي تجادلك) وروى سفيان عن خالد عن أبي قلابة قال كان طلاقهم في الجاهلية الظهار والإيلاء فلما جاء الإسلام جعل الله تعالى في الظهار ما جعل، وجعل في الإيلاء ما جعل ثم قال ﴿وتشتكي إلى الله﴾ يعني تتضرع المرأة إلى الله مخافة الفرقة ﴿والله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ يعني محاورتكما ومراجعتكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يعني سميعاً لمقالة خويلة بصير بأمرها وقال مقاتل فهي خويلة بنت ثعلبة

الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا

---

(١) اشتملت هذه السورة على الحكم في قضية مظاهرة أوس ابن الصّامت من زوجه خولة، وإبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها وأن عملهم مخالف لما أراده الله وأنه من أوهامهم وزورهم التي كبتهم الله بإبطالها. وتخلص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليغيظوهم ويحزنوهم ومنها موالاتهم اليهود. وحلفهم على الكذب. وتخلل ذلك التعرض لآداب مجلس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وشرع التصدق قبل مناجاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين. وأن الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون. انظر التحرير ٢٨/٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٧٥ ـ ١٧٦.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ قرأ عاصم يظاهرون بضم الياء وكسر الهاء والتخفيف من ظاهر يظاهر، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويظهرون بنصب الياء مع التشديد وهو[1] في الأصل يتظهرون فأدغمت التاء في الظاء والمعنى في هذا كله واحد يقال ظاهر من امرأته وتظهَّر منها وأظهر منها إذا قال لها أنت علي كظهر أمي ثم قال ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ﴾ وروى الفضل عن عاصم أمهاتُهم بضم التاء لأنه خبر ما كقولك ما زيد عالم، وقرأ الباقون بالكسر[2] لأن التاء في موضع النصب فصار خفضاً لأنها تاء الجماعة وهي لغة أهل الحجاز فينصبون خبر «ما» كقوله ما هذا بشراً ما هن كأمهاتهم في الحرمة ﴿إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ يعني ما أمهاتهم ﴿إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ يعني الأم التي ولدته والأم التي أرضعته لأنه قال في موضع آخر وأمهاتكم اللّائِي أرضعنكم ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ يعني قولاً منكراً وكذباً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعني ذو تجاوز (غفور) حيث جعل الكفارة لرفع الحرمة، ولم يجعل فرقة بينهما ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾[3] يعني يعودون لنقض ما قالوا ولرفع ما قالوا في الجاهلية ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يعني فعليه تحرير رقبة ويقال (ثم يعودون لما قالوا) فيه تقديم وتأخير يعني (ثم يعودون فتحرير رقبة لما قالوا). ويقال معناه ثم يعودون لما قالوا في الجاهلية وذلك أنهم كانوا يتكلمون بهذا القول فيرجعون إلى ذلك القول بعد الإسلام وقال بعضهم لا تجب الكفارة حتى يقول مرتين لأنه قال ثم يعودون لما قالوا يعني يعودون مرة أخرى (فتحرير رقبة) هذا القول خلاف جميع أهل العلم وإنما تجب الكفارة إذا قال مرة واحدة.

والكفارة ما قال الله تعالى فتحرير رقبة يعني عتق رقبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ يعني من قبل أن يجامعها، ويقال من قبل أن يمس كل واحد منهما صاحبه ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ يعني هذا الحكم الذي تؤمرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من الوفاء وغيره وقوله تعالى ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ يعني من لم يجد الرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ يعني فعليه صيام شهرين متتابعين لا يفصل بينهما. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ يعني من قبل أن يمس كل واحد منهما صاحبه.

وفي الآية دليل أن المرأة لا يسعها أن تدعِ الزوج يقربها قبل الكفارة لأنه نهاهما جميعاً عن المسيس قبل

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٣، النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٥.

(٢) وجه الرفع في قوله ﴿ما هن أماتُهم﴾ أنه لغة تميم. قال سيبويه: وهو أقيس الوجهين، وذلك أن النفي كالاستفهام، فكما لا يغير الاستفهام الكلام عما كان عليه في الواجب... ينبغي ألا يغيره النفي كما كان عليه في الواجب. ووجه النصب أنه لغة أهل الحجاز، والأخذ بلغتهم في القرآن أولى، وعليها جاء: «ما هذا بشراً» كما أشار المصنف.

(٣) حقيقة الظهار.

حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرِ محلل بظهر محرم، ولهذا أجمع الفقهاء عى أن من قال لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي أنه مظاهر. وأكثرهم على أنه إن قال لها: أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر. وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وغيرهما واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه، فروي عنه نحو قول أبي حنيفة، لأنه شبه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبّد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأول قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري. «القرطبي ١٧/١٧٧ ـ ١٧٨» وانظر ما يتعلق بأحكام الظهار في حاشية ابن عابدين ٣/٤٨٩ فتح القدير ٤/٨٥.

الكفارة واتفقوا على أنه إذا أفطر في شهرين يوماً بغير عذر عليه أن يستقبل واختلفوا فيمن أفطر لمرض أو عذر أو غيره قال عطاء إذا أفطر من مرض فالله أعذره بالعذر يبدله ولا يستأنف، وقال طاووس يقضي ولا يستأنف، وهكذا قال سعيد بن المسيب فهؤلاء كلهم قالوا لا يستقبل وقال إبراهيم النخعي والزهري والشعبي يستقبل وهكذا قال عطاء الخراساني والحكم بن كيسان وبه قال أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم ثم قال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ يعني فعليه في قول أهل المدينة لكل مسكين صاع من الحنطة أو التمر وفي قول أهل العراق منوان من حنطة أو صاع من تمر بدليل ما روى سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر البياض قال: كنت أصيب من النساء مالا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من أهلي فتظاهرت من أهلي حتى ينسلخ الشهر فبينما هي تخدمني ذات ليلة إذ إنكشف لي منها شيء فواقعتها فلما أصبحت أخبرت قومي فقلت اذهبوا معي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما نذهب ومانأمن أن ينزل فيك قرآن فاتيته فأخبرته. فقال حرِّر رقبة فقلت ما أملك إلا رقبتي قال فصم شهرين قلت وهل أصابني إلا من قبل الصيام قال فأطعم وسقا من تمر ستين مسكيناً قلت والذي بعثك بالحق نبياً لقريش مالنا طعام ثم قال انطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك فرجعت إلى قومي فقلت وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ووجدت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السعة وحسن الرأي وقد أمر لي بصدقتكم فقد[1] بين في هذا الخبر أنه يجب وسقا من تمر والوسق ستون صاعاً بالاتفاق ثم قال ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ يعني لتصدقوا بوحدانية الله تعالى ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يعني وتصدقوا برسوله ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني هذه فرائض الله وأحكامه ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين لا يؤمنون بالله وبرسوله وروي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتناجي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمع بعض كلامها ويخفى عليه بعضه إذ أنزل الله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[2] وهكذا قال الأعمش.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٣ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد وأبي داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والطبراني والبغوي في معجمه والحاكم وصححه والبيهقي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٧٩ وعزاه لابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا
ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني يعادون ويشاقون الله ورسوله ويقال يشاقون أولياء الله ورسوله يعني الذين يشاقون أولياء الله لأن أحداً لا يعادي الله ولكن من عادى أولياء الله فقد عادى الله تعالى ثم قال ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قال مقاتل أخذوا كما أخذ الذين من قبلهم من الأمر ويقال عذبوا كما عذب الذين من قبلهم وقال أبو عبيد أهلكوا، ويقال غيظوا كما غيظ الذين من قبلهم، والكبت هو الغيظ ويقال أحزنوا وقال الزجاج أذلوا وغلبوا ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن فيه البيان أمره ونهيه، ويقال آيات واضحات ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهانون فيه ثم قال ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ الأولين والآخرين يبعثهم الله من قبورهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير أو شر ليعلموا وجوب الحجة عليهم ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ يعني حفظ الله عليهم أعمالهم وهم نسوا أعمالهم، ويقال ونسوه يعني وتركوا العمل في الدنيا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعني شاهداً بأعمالهم. ثم قال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ يعني ألم تعلم، اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني أنك تعلم ويقال معناه إني أعلمتك أن الله يعلم ﴿مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني سر أهل السّمٰوات وسر أهل الأرض ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني لا يتناجى ثلاثة فيما بينهم ولا يتكلمون فيما بينهم بكلام الشر إلا هو رابعهم لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يعني كان هو سادسهم لأنه يعلم ما يقولون فيما بينهم ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعني عالم بهم وبأحوالهم ﴿أَيْنَمَا كَانُوا﴾ في الأرض ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يعني يخبرهم بما عملوا يوم القيامة من خير أو شر.

وذلك أن نفراً كانوا يتناجون عند الكعبة قال بعضهم لبعض لا ترفعوا أصواتكم حتى لا يسمع رب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال إن المنافقين واليهود كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين فامتنعوا من ذلك ثم عادوا إلى النجوى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى﴾ يعني عن قول السر فيما بينهم ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجُونَ بِالْأَثْمِ﴾ يعني بالكذب ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ يعني بالجَوْرِ والظلم ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ يعني خلاف أمر الله وأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ حمزة (ويَنْجونَ) والباقون (ويتناجون)[1] وهما لغتان يقال تناجي القوم وانتجوا ثم قال ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ﴾ يعني إذا جاؤوك اليهود حيوك ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون إذا دخلوا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ السام عليكم فيقول وعليكم فقالت عائشة رضي الله عنها وعليكم السام لعنكم الله وغضب عليكم فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش قالت أو لم تسمع ما قالوا؟ قال أولم تسمعي ما رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيّ

فقالت اليهود فيما بينهم لو كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما يقول لاستجيب دعاؤه علينا حيث قال عليكم فنزل (وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ) يعني سلموا عليك بما لم يحيك به الله يعني بما لم يأمرك به الله أن تحيي به ويقال

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٤.

بما لم يسلم عليك به الله ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يعني فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ يعني هلا يعذبنا الله ﴿بِمَا نَقُولُ﴾ لنبيه يقول الله تعالى ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني مصيرهم إلى جهنم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يعني يدخلونها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ما صاروا إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ قال مقاتل يا أيها الذين آمنوا باللسان دون القلب إذا تناجيتم فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا بعث سرية كان المنافقون يتناجون فيما بينهم ليحزنوا المؤمنين وهذا الخطاب للمخلصين في قول بعضهم لأن الله تعالى أمرهم أن لا يتناجوا بالإثم والعدوان كفعل المنافقين يعني بالعداوة والظلم. ﴿وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ يعني خلاف أمر الرسول أي لا تخالفوا أمره ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ يعني بالذي أمركم الله تعالى به بالطاعة والتقى يعني ترك المعصية ثم خوفهم فقال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اخشوا الله فلا تتناجوا بمثل ما تتناجى اليهود والمنافقون ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم ثم قال عز وجل ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني نجوى المنافقين من تزيين الشيطان، قال قتادة إذا رأى المسلمون المنافقين جاؤوا متناجين فشق عليهم فنزل إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ[١] يعني نجوى المنافقين في المعصية من الشيطان ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قرأ نافع (ليحزُن الذين آمنوا) بضم الزاء والباقون بالنصب ومعناهما واحد ثم قال ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ يعني ليس نجوى المنافقين يضر شيئاً للمؤمنين أي لا يضرهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا أن يشاء الله ثم أمر المؤمنين بأن يتوكلوا على الله وهو قوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

ثم قال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ قرأ عاصم في المجالس بلفظ الجمع[٢] والباقون في المجلس يعني في مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم -. نزلت في ثابت بن قيس وكان في أذنيه شيء من الثقل فحضر مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أخذوا مجالسهم فبقي قائماً فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - رحم الله من وسّع لأخيه[٣] فنزلت الآية وروى معمر عن قتادة أنه قال كان الناس يتنافسون في مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - فقيل لهم إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴿فَافْسَحُوا﴾[٤] يعني وسعوا المجلس ﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾ يعني إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا وروى معمر عن الحسن قال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) من جمع جعله عاماً أي: إذا قيل لكم توسعوا في المجالس أي مجالس العلماء والعلم فتفسحوا. انظر حجة القراءات ٧٠٤.

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٧/١٩٢.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم.

هذا في الغزاة(١)، وقال مجاهد تفسحوا في المجلس يعني مجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة(٢) وإذا قيل انشزوا إلى كل خير وقتال عدو وأمر بالمعروف وروي عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لا يقيم الرجل الرجل في مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا(٣). قرأ نافع وابن عامر وعاصم في إحدى الروايتين انشزوا بالضم للشين والباقون بالكسر(٤) وهما لغتان يقال نشز ينشز يعني إذ قيل لكم انهضوا يعني قوموا لا تتثاقلوا، ويقال انشزوا يعني قوموا للصلاة وقضاء حق أو شهادة فانشزوا يعني انهضوا ثم قال ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ يعني من كان له إيمان وعلم وكان له فضائل على الذين يقومون وليس بعالم. قال الضحاك (يرفع اللّه الذين آمنوا منكم) وقد تم الكلام ثم قال (وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) يعني لأهل العلم درجات أي الذين أوتوا العلم في الدنيا ولهم درجات في العقبى قال وللعلماء مثل درجة الشهداء وقال مقاتل إذا انتهى المؤمن إلى باب الجنة يقال للمؤمن الذي ليس بعالم أدخل الجنة بعملك ويقال للعالم أقم على باب الجنة واشفع للناس وقال ابن مسعود يرفع الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ على الذين آمنوا منكم ولم يؤتوا العلم درجات(٥) ثم قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من التفسح في المجلس وغيره قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ يعني إذا كلمتم الرسول سراً ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ يعني تصدقوا قبل كلامكم بصدقة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني التصدق خير لكم من إمساكه ﴿وأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم وأزكى من المعصية ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ ما تتصدقون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَنْ لم يجد الصدقة وذلك أن الأغنياء كانوا يكثرون مناجاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يمكنوا الفقراء من سماع كلامه وكان يكره طول مجالستهم وكثرة نجواهم فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فانتهوا عن ذلك فقدرت الفقراء على سماع كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجالسته وقال مجاهد نُهوا عن مناجاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يتصدقوا فلم يناجه إلاَّ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه قدم ديناراً تصدق به وكلم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عشر كلمات ثم أنزلت الرخصة(٦) بالآية التي بعدها وهو قوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ يعني أبخلتم يا أهل الميسرة ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ فلو فعلتم كان خيراً لكم ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وتكرهوا ذلك فإن الله تعالى غني عن صدقاتكم ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُم﴾ يعني تجاوز عنكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فَنَسَخت الزكاةُ الصدقة التي عند المناجاة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمركم وينهاكم عنه ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر والتصدق والنجوى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٣) أخرجه البخاري ١١/٦٢ كتاب الاستئذان (٦٢٦٩) ومسلم ٤/١٧١٤ كتاب السلام (٢٧ ـ ٢١٧٧).
(٤) انظر حجة القراءات (٧٠٥)، النشر ٢/٣٨٥.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٥ وعزاه لابن المنذر.
(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٨٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ
﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾
ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني المنافقين اتخذوا اليهود أولياء وتولَّوهم وناصحوهم وهم اليهود وغضب الله عليهم ثم قال ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يعني ليسوا منكم في الحقيقة ولا من اليهود في العلانية وهذا كقوله لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وكانوا إذا سألهم المسلمون إنكم تتولون اليهود كانوا يحلفون بالله إنهم من المؤمنين كما قال الله تعالى في آية أخرى (يحلفون بالله إنهم منكم وما هم منكم) فأخبر الله تعالى أنهم لكاذبون في إيمانهم فقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني يحلفون أنهم مصدقون في السر وهم يعلمون أنهم مكذبون ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني بئس ما كانوا يعملون بولايتهم اليهود وكذبهم وحلفهم ثم قال عز وجل ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ يعني جعلوا حلفهم بدلاً عن القتل ليأمنوا بها عن القتل والسبي ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني صدوا وصرفوا الناس عن دين الله تعالى في السر ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يهانون فيه قوله تعالى ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني لم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يعني دائمين ثم قال عز وجل ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ يعني المنافقين واليهود ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ يعني يحلفون لله تعالى في الآخرة ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا، وحَلفهم في الآخرة ما قال الله تعالى في سورة الأنعام (واللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)، وروى معمر عن قتادة قال: المنافق يحلف لله تعالى يوم القيامة كما كان حلف لأوليائه[1] في الدنيا ثم قال ﴿وَيُحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ يعني يحسبون أن يمينهم تنفعهم شيئاً ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ في قولهم ويقال ويحسبون إنهم على شيء من الدين ويقال ويحسبون يعني يحسب المؤمنون أنهم على شيء يعني إن المنافقين على شيء من الدين يعني إذا سمعوا حلفهم قال الله تعالى من الدين يعني إذا سمعوا حلفهم قال الله تعالى ألا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ في حلفهم وهم كافرون في السر ثم قال ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ يعني غلب ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ ويقال استولى عليهم الشيطان ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعني جند الشيطان ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني خسروا أنفسهم وأموالهم في الآخرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ
كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ
ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني يعادون الله ويخالفون الله ورسوله ﴿أُولَئِكَ فِي

﴿الأَذَلِّينَ﴾ يعني في الأسفلين في الدرك الأسفل من النار وهم المنافقون ويقال (أولئك في الأذلين) يعني في الهالكين **قوله تعالى ﴿كتب اللَّهُ﴾** يعني قضى الله **﴿لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾** يعني لأغلبن في الدنيا بالحجة والدلائل في الآخرة ويقال **لأغلبن** يعني لأقهرن أنا ورسلي فتكون العاقبة للمؤمنين **﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** ويقال كتب الله يعني قضى الله ذلك قضاء ثابتاً لأغلبن أنا ورسلي وغلبة الرسل تكون على نوعين:

من بعث منهم في الحرب فغلب في الحرب، ومن بعث منهم بغير حرب فهو غالب بالحجة (إن الله قوي عزيز) أي مانع حزبه من أن يذل (والعزيز) الذي لا يغلب ولا يقهر. ثم قال **﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** يعني البعث بعد الموت **﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** يعني يتخذون خلة وصداقة مع الكافرين.

نزلت في «حاطب بن أبي بلتعة» وفيه نزل (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) ثم قال عز وجل **﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ﴾** يعني لا تتخذوا مع الكافرين صداقة وإن كانوا من أقربائه ثم قال **﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيْمَانَ﴾** يعني الذين لا يتخذون مع الكافرين صداقة هم الذين جعل في قلوبهم الإيمان يعني التصديق **﴿وَأَيَّدَهُمْ﴾** يعني أعانهم **﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾** أي قوّاهم بنور الإيمان وبإحياء الإيمان وذلك يوصلهم إلى الجنة **﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** يعني في الآخرة **﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾** يعني في الجنة **﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** بإيمانهم وطاعتهم **﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾** بالثواب والجنة **﴿أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾** يعني جند الله **﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** يعني جند الله هم الناجون الذين فازوا بالجنة وبنعمة الله تعالى وفضله والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ الحَشْر (١)

وهي أربع وعشرون آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّموات**﴾ يعني صلى لله ويقال خضع لله ويقال هو التسبيح بعينه ما في السموات من الملائكة ﴿**وما في الأرض**﴾ يعني من الخلق ﴿**وهو العزيزُ**﴾ في ملكه ﴿**الحكيمُ**﴾ في أمره ثم قال عز وجل ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ يعني يهود بني النضير ﴿**مِنْ أَهْلِ الكِتابِ مِنْ دِيَارِهِمْ**﴾ وكان بدأ أمر بني النضير أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث ثلاثة بعوث أحد البعوث مرشد بن أبي مرشد الغنوي وأمره على سبعة نفر إلى بعض النواحي فساروا حتى جاءوا بطن الرجيع فنزلوا عند شجرة فأكلوا من تمر عجوة كانت معهم فسقطت نوايات بالأرض وكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار فكمنوا بالجبل فجاءت امرأة من هذيل ترعى الغنم فرأت النوايات التي سقطت في الأرض فأنكرت صفرهن فعرفت أنها تمر المدينة فصاحت في قومها أنتم أتيتم فجاؤوا يطلبونها فوجدوهم قد كمنوا في الجبل فقالوا لهم انزلوا ولكم الأمان فقالوا لا نعطي بأيدينا فقاتلوهم فقتلوا كلهم إلا عبد الله بن طارق فجرحوه وحسبوا أنه قد مات فتركوه فنجا من بينهم وبقي أخوهم عاصم بن ثابت بن الأفلح ففرغ

(١) قال الشيخ ابن عاشور في تفسيره ٢٨/٦٣: وقع الاتفاق على أنها نزلت في شأن بني النضير ولم يعينوا ما هو الغرض الذي نزل فيه ـ ويظهر أن المقصد منها حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم. وقد اشتملت على أن ما في السموات وما في الأرض دال على تنزيه الله، وكون ما في السموات والأرض ملكه، وأنه الغالب المدبر. وعلى ذكر نعمة الله على ما يسر من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدة. وتلك آية من آيات تأييد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغلبته على أعدائه وذكر ما أجراه المسلمون من إتلاف أموال بني النضير وأحكام ذلك في أموالهم وتعيين مستحقيه من المسلمين. وتعظيم شأن المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين. وكشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النضير أن ينصروهم وكيف كذبوا وعدهم وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار. ثم خاطب المؤمنين بالأمر بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار والتذكير بتفاوت حال الفريقين. وبيان عظمة القرآن وجلالته واقتضاءه خشوع أهله. وتخلل ذلك إيماء إلى حكمه شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظمها الإسلام بحيث لا تشق على أصحاب الأموال. والأمر باتباع ما يشرعه الله على لسان رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وختمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنه يسبح له ما في السموات والأرض تزكية لحال المؤمنين وتعريضاً بالكافرين. انظر التحرير ٢٨/٦٣ ـ ٦٤.

جعبته ثم جعل يرميهم ويرتجز ويقاتلهم حتى فنيت سبله ثم طاعن بالرمح حتى انكسر الرمح وبقي السيف ثم قال اللهم إني قد حميت دينك أول النهار فاحم جسدي في آخره وكانوا يجردون من قتل أصحابه فلما قتلوا عاصماً حمته الدبر وهي الذنابير حتى جاء السيل من الليل فذهب به الدبر وأسروا خبيب بن عدي ورجل آخر اسمه زيد بن الديشة، فأما خبيب فذهبوا به إلى مكة فاشترته امرأة ومعها أناس من قريش قتل لهم قتيل يوم بدر فلما جيء بخبيب أتي به في الشهر الحرام فحبس حتى انسلخ الشهر الحرام ثم خرجوا به من الحرم ليصلبوه فقال لهم اتركوني أصلي ركعتين فصلاهما ثم قال لولا خشيت أن يقولوا جزع من الموت لأزددت فقال اللهم ليس هاهنا أحد أن يبلغ عني رسولك السلام فبلغ أنت عني السلام ثم التفت إلى وجوههم وقال اللهم أحصهم عدداً وأهلكهم بدناً يعني متفرقين ولا تبقي منهم أحداً ثم صلبوه وأما صاحبه الذي أسر معه اشتراه صفوان بن أمية وأما البعث الثاني فإنه بعث محمد بن سلمة مع أصحابه فقتل أصحابه عن نحو طريق العراق وارتث هو من وسط القتلى فنجا وأما البعث الثالث فإن عمرو بن مالك كتب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ابعث إلي رجالاً يعلموننا القرآن ويفقهوننا في الدين فهم في ذمتي وجواري فبعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المنذر بن عمرو الساعدي في أربعة عشر من المهاجرين والأنصار فساروا نحو بئر معونة فلما ساروا ليلة من المدينة بلغهم أن عمرو بن مالك مات فكتب المنذر بن عمرو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستمده فأمده ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربعة نفر منهم عمرو بن أمية الضمري والحارث بن الصمة وسعد بن أبي وقاص ورجل آخر فساروا حتى بلغوا بئر معونة وكتبوا إلى ربيعة بن عامر بن مالك نحن في ذمتك وذمة أبيك أفنقدم إليك أم لا فقال أنتم في ذمتي وجواري فأقدموا فخرج إليهم عامر بن الطفيل واستعان برعل وذكوان وعصية فخرجوا إلى المسلمين فقاتلوهم فقتلوا كلهم إلا عمرو بن أمية الضمري والحارث بن الصمة وسعد بن أبي وقاص كانوا تخلفوا فنزلوا تحت شجرة إذ وقع على الشجرة طير فرمى عليهم بعلقة دم فعرفوا أن الطير قد شرب الدم فقال بعضهم لبعض قد قتل أصحابنا فصعدوا أعلى الجبل فنظروا فإذا القوم صرعى وقد اعتكفت عليهم الطير فقال الحارث بن الصمة أنا لا أنتهي حتى أبلغ مصارع أصحابي فخرج إليهم فقاتل القوم فقتل منهم رجلين ثم أخذوه فقالوا له ما تحب أن نصنع بك فقال لهم بلغوا بي مصارع قومي فلما بلغ مصارع أصحابه أرسلوه فقاتلهم فقتل منهم اثنين ثم قتل فرجع عمرو بن أمية الضمري ورجع معه الرجلان الأخران إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج رجلان من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مستأمنين قد كساهما وحملهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال من أنتما قال كلابيان فقتلهما عمرو بن أمية الضمري وأخذ سلبهما ودخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره الخبر فقال بئس ما صنعت حين قتلتهما فلما جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره خبر هذه البعوث الثلاثة في ليلة واحدة صلى الصبح في ذلك اليوم وقال في الركعة الثانية اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف اللهم العن رعلان وذكوان وبني لحيان اللهم غفار غفر الله لها وسالم سالمها الله وعصية عصت الله ورسوله فجاء أناس من بني كلاب يلتمسون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دية الكلابيين وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا معه ولا عليه فاستعان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عقل الكلابيين قبائل الأنصار فلما بلغ العالية استعان من بني النضير فقال أعينوني في عقل أصابني فقال هؤلاء حلفائي فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى بني النضير فقال حيي بن أخطب اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا فجلس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صفه ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فقال حيي بن أخطب لأصحابه إنما هو في ثلاثة نفر لا ترونه أقرب من الآن فقتلوه

لا تروا شراً أبداً فنزل جبريل عليه السلام وأخبره فقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنه يريد حاجة حتى دخل المدينة فجاء إنسان فسألوه عنه فقال رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل أول البيوت فقاموا من هناك فقال حيي بن أخطب عجل أبو القاسم عليه فقد أردنا أن نطعمه ونعطيه الذي سأل فلما رجع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة جمع الناس وجاء بالجيش واختلفوا في قتل كعب بن الأشرف فقال بعضهم لبعض قد كان قتل قبل ذلك، وقال بعضهم قتل في هذا الوقت فبعث محمد بن سلمة فخرج محمد بن سلمة وأبو نائلة ورجلان وآخران فأتوه بالليل وقالوا أتيناك نستقرض منك شيئاً من التمر فخرج إليهم فقتلوه ورجعوا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخرج إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الجيش إلى بني النضير فقال لهم اخرجوا منها فإذا جاء وقت الجذاذ فجذوا ثماركم فقالوا لا نفعل فحاصرهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا يا أبا القاسم نحن نعطيك الذي سألتنا قال لا ولكن اخرجوا منها ولكم ما حملت الإبل إلا الحلقة يعني السلاح قالوا لا فحاصرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمس عشرة ليلة وأمر بقطع نخيلهم ونقب بيوتهم فلما رأت اليهود ما يصنعون بهم فكلما نقب المسلمون بيت فروا إلى بيت آخر ينتظرون المنافقين وقد قال المنافقون لهم لئن أخرجتم لنخرجن معكم وإن قوتلتم لننصرنكم فلما رأوا أنه لا يأتيهم أحد من المنافقين ولاحقهم من الشر مما لحقهم قال بعضهم لبعض ليس لنا مقام بعد النخيل فنحن نعطيك يا أبا القاسم على أن تعتق رقابنا إلا الحلقة ونخرج فأجلاهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المدينة ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة فأخذ أموالهم فقسمها بين المهاجرين ولم يعطها أحداً من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين مثل حاجة المهاجرين وهما سهل بن حنيف وسماك بن خرشة أبو دجانة فنزلت هذه الآية وهو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم يعني بني النضير ﴿**لِأَوَّلِ الْحَشْرِ**﴾ يعني أول الإجلاء من المدينة وقال عكرمة من شك بأن الحشر هو الشام فليقرأ هذه الآية (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) فلما قال لهم اخرجوا من المدينة قالوا إلى أين قال إلى أرض المحشر فقال لهم إنهم أول من يحشر وأخرج من ديارهم ثم قال ﴿**مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا**﴾ يعني ما ظننتم أيها المؤمنين أن يخرجوا من ديارهم وذلك إن بني النضير كان لهم عز ومنعة وظن الناس أنهم بعزهم ومنعتهم لا يخرجون ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ**﴾ يعني وحسبوا بني النضير أنهم ﴿**مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ**﴾ يعني أن حصونهم تمنعهم من عذاب الله ﴿**فَأَتَاهُمُ اللهُ**﴾ يعني أتاهم أمر الله ويقال فأتاهم الله بما وعد لهم ﴿**مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**﴾ يعني لم يظنوا إنه ينزل بهم وهو قتل كعب بن الأشرف ويقال خروج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الجيش إليهم ﴿**وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ**﴾ يعني جعل في قلوبهم الخوف ﴿**يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾ وذلك أنهم حصنوا أزقتهم بالدروب وكان المسلمون ينقبون بيوتهم ويدخلونها وكان اليهود ينقبون بيوتهم من الجانب الآخر ويخرجون منها. ويقال كان اليهود ينقبون بيوتهم ليرموا بها على المسلمين وكان المسلمون يخربون نواحي بيوتهم ليتمكنوا من الحرب ويقال كان اليهود أنفقوا في بيوتهم فلما علموا أنهم يخرجون منها جعلوا يخربونها كيلا يسكنها المسلمون وكان المؤمنون يخربونها ليدخلوا عليهم قرأ أبو عمرو يخربون بالتشديد والباقون بالتخفيف[١] قال بعضهم هما لغتان خرب وأخرب وروي عن الفراء

---

(١) حجة من قرأ قوله ﴿بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ فذكر البيوت والأيدي للتكثير وتردد الفعل كما قال: «وغلقت الأبواب» وقد أجمعوا على التشديد في هذا الحرف. وفي التخفيف وجهان: أحدهما أن يكون الاخراب يعني به الترك، تقول: أخربت المكان: إذا خرجت عنه وتركته. فمعنى «يخربون» أي يتركون بيوتهم. والوجه الآخر أن يراد معنى الهدم فيجري ذلك مجرى (أوفيت ووفيت، وأكرمت وكرمت، وأذكرته وذكرته) وكذلك (خربت وأخربت). والأصل أن تقول: خرب المنزل وأخربه صاحبه وخربه أيضاً. انظر حجة القراءات ٧٠٥.

أنه قال من قرأ بالتشديد فمعناه يهدمون ومن قرأ بالتخفيف فمعناه يعطلون. ثم قال ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ يعني من له البصارة في أمر الله.

وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

قوله عز وجل ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجَلاءَ﴾ يعني لولا أن قضى الله عليهم الإخراج من جزيرة العرب إلى الشام ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني لعذبهم بالقتل والسبي ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ يعني ذلك الذي أصابهم من الجلاء في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ﴾ يعني خالفوا الله ورسوله في الدين، ويقال عادوا الله ورسوله (ومن يشاق الله) وأصله من يشاقق الله إلا أن إحدى القافين أدغمت في الأخرى وشددت يعني من يخالف الله ورسوله في الدين ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَابِ﴾ يعني إذا عاقب فعقوبته شديدة قوله عز وجل ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ يعني من نخلة ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ فلم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ يعني بأمر الله، وقال عكرمة لما دخل المسلمون على بني النضير أخذوا يقطعون النخل فنهاهم بعضهم وتأولوا قوله قوله تعالى (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) وقال بعضهم يقطع ويتأول قوله تعالى (ولا ينالون من عدو نيلاً) فأنزل الله تعالى «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله»[1] وقال الزهري في قوله «ما قطعتم من لينة» اللينة ألوان النخل كلها إلا العجوة وقال الضحاك اللينة النخلة الكرمة والشجرة الطيبة المثمرة وقال مجاهد اللينة الشجرة المثمرة وروى بن أبي نجيح عن مجاهد قال نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا إنما هي مغانم المسلمين فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعها وبتحليل من قطعها وإنما قطعها وتركها بإذن الله تعالى وعن ابن عباس أنه قال أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع النخل فشق ذلك على بني النضير مشقة شديدة فقالوا للمؤمنين تزعمون أنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون في الأرض فدعوها قائمة فإنما هي لمن غلب فنزل «ما قطعتم من لينة[2] واللينة هي النخلة كلها ما خلا العجوة» أو تركتموها قائمة على أصولها» وهي العجوة فبإذن الله يعني القطع والترك بإذن الله وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه أمر عبد الله بن سلام وأبا ليلى المازني بقطع النخل فكان أبو ليلى يقطع العجوة وكان عبد الله بن سلام يقطع اللون فقيل لأبي ليلى لم تقطع العجوة قال لأن فيه كبت العدو وقيل لابن سلام لم تقطع اللون قال لأني أريد أن تبقى العجوة للمسلمين فأنزل الله تعالى رضاً بما فعل الفريقان فقال الله تعالى «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله» ثم قال عز وجل ﴿وليخزي الفاسقين﴾ يعني وليذل العاصين الناقضين العهد.

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩١ وعزاه لعبد بن حميد في حديث طويل عن عكرمة.
(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٨.

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن
دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ
سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ يعني ما أعطى الله ورسوله من بني النضير وذلك أنهم طلبوا من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقسم أموالهم بين جميع المسلمين كما قسم أموال بدر فلم يفعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقسم بين فقراء المهاجرين فنزل «وما أفاء الله على رسوله» ﴿**مِنْهُمْ**﴾ يعني ما أعطى الله ورسوله من أموال بني النضير ﴿**فَمَا أَوْجَفْتُمْ**﴾ يعني ما أجريتم ﴿**عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ**﴾ يعني لا على خيل ولا على إبل أتيتم بل إنكم مشيتم مشياً حتى فتحتموها ويقال أوجف الفرس والبعير إذا أسرعا يعني لم يكن عن غزوة أوجفتم خيلاً ولا ركاباً ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ**﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**على من يشاء**﴾ من بني النضير ﴿**وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ من النصرة والغنيمة ثم بين لمن يعطي تلك الغنائم فقال ﴿**ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى**﴾ يعني من بني النضير وفدك ويقال بني قريظة والنضير وخيبر ﴿**فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ**﴾ يعني لله أن يأمركم فيه بما أحب وروى عبد الرازق عن معمر عن الزهري قال كانت بنو النضير للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالصاً لم يفتحوها عنوة ولكن افتتحوها على صلح فقسمها بين[1] المهاجرين ثم قال ﴿**وَلِذِي الْقُرْبَى**﴾ يعن قرابة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**واليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ**﴾ وروى مالك بـن أنس عن عمر قال كانت للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلث صفايا بني النضير وخيبر وفدك فأما بنو النضير فكانت حبساً لنوائبه وأما فدك فكانت لابن السبيل وأما خيبر فجزأهـا ثلاثـة أجزاء فقسم جزأيـن بين المسلمين وحبس جزءاً للنفقـة فما فضـل عن أهله رده إلى فقراء المسلمين[2] ثم قال ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ**﴾ المال ﴿**دولة**﴾ قرأ أبو جعفر المدني بالضم وجعله اسم يكون وقراءة العامة بالنصب يعني لكي لا يكون دولة وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي دولة بنصب الدال والباقون بالضم[3] فمن قرأ بالضم فهو اسم المال الذي يتداول فيكون مرة لهذا ومرة لهذا وأما النصب فهو النقل والانتقال من حال إلى حال ﴿**بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾ يعني لكيلا يغلب الأغنياء على الفقراء ليقسمونه بينهم ثم قال ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾ يعني ما أعطاكم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغنيمة فخذوه وما أمركم الرسول فاعملوا به ﴿**وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾ يعني فامتنعوا عنه ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ لمن عصاه ثم ذكر أن الفيء للمهاجرين فقال تعالى ﴿**لِلْفُقَرَاءِ**

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٩٢ وعزاه لعبد الرزاق والبيهقي وابن المنذر.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٩٢ وعزاه لأبي داود وابن مردويه.
(٣) إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٣٠.

﴿المُهَاجِرِينَ﴾ يعني الغنائم للفقراء المهاجرين **﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾** يعني تركوا أموالهم وديارهم في بلادهم وهاجروا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال هذا ابتداء ومعناه عليكم بالفقراء المهاجرين يعني اعرفوا حقهم وصلوهم الذين أخرجوا من ديارهم يعني أخرجهم أهل مكة من ديارهم وأموالهم **﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً﴾** يعني يطلبون رزقاً في الجنة ورضوان الله تعالى **﴿وينصرون الله ورسوله﴾** يعني يطيعون الله فيما أمرهم بطاعته **﴿أولئك هم الصادقون﴾** يعني الصادقين في إيمانهم فطابت أنفس الأنصار بذلك فقالوا هذا كله لهم وأموالنا أيضاً لهم فأثنى الله تعالى على الأنصار فقال عز وجل **﴿والَّذِيْنَ تبوؤُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** يعني استوطنوا الدار يعني دار المدينة من قبل هجرتهم يعني نزلوا دار الهجرة في المدينة والإيمان يعني «تبوؤوا الإيمان» أي كانوا مؤمنين من قبل أن هاجر إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه قال الله تعالى **﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾** يعني يحبون من يقدم إليهم من المؤمنين **﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾** يعني لا يكون في قلوبهم حسداً مما أعطوا يعني المهاجرين ويقال حاجة يعني حزازة، وهو الحزن، ويقال ولا يجدون في صدورهم بخلاً وكراهة بما أعطوا **﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾** في القسمة يعني الغنيمة يعني تركوها للمهاجرين **﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾** يعني حاجة وروى وكيع عن فضيل بن عمران عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار نزل به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته نومي الصبية وأطفئي السراج وقربي إلى الضيف ما عندك[1] فنزل (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ويقال إن رجلاً من الأنصار أهدي له برأ من مشوي فقال لعل جاري أحوج مني فبعث إليه ثم إن جاره بعثه إلى آخر فطاف سبعة أبيات ثم عاد إلى الأول فنزل ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة قال الله تعالى **﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾** يعني ومن يمنع بخل نفسه **﴿فَأُولئِكَ هُمُ المفلحون﴾** يعني الناجين وروي وكيع بإسناده عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال بريء من الشح من أدى الزكاة وأقرى الضيف وأعطى في[2] النائبة وقد أثنى الله تعالى على المهاجرين وعلى الأنصار ثم أثنى على الذين من بعدهم على طريقتهم فقال **﴿والذين جاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** يعني التابعين ويقال يعني الذين هاجروا من بعد الأولين **﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾** يعني أظهروا الإيمان قبلنا يعني المهاجرين والأنصار **﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ﴾** يعني غشاً وحسداً وعداوة **﴿لِلَّذِيْنَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾** يعني رحيم بعبادك المؤمنين وفي الآية دليل أن من ترحم على الصحابة واستغفر لهم ولم يكن في قلبه غل لهم فله حظ في المسلمين وله أجر مثل أجر الصحابة ومن شتم أو لم يترحم عليهم أو كان في قلبه غل لهم ليس له حظ في المسلمين لأنه ذكر للمهاجرين فيه حظ ثم ذكر الأنصار ثم ذكر الذين جاؤوا من بعدهم وقد وصفهم الله بصفة الأولين إذ دعا لهم وفي الآية دليل أن الواجب على المؤمنين أن يستغفروا لإخوانهم الماضين وينبغي للمؤمنين أن يستغفروا لآبائهم ولمعلميهم الذين علموهم أمور الدين ثم نزل في شأن المنافقين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/١٩٥ وعزاه لابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤/٢٤١ والسيوطي في الدر المنثور ٦/١٩٦ ـ ١٩٧ وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/٢١٦، وابن كثير ٤/٢٤١.

لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾
لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾
لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ
مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

فقال عز وجل ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا**﴾ يعني منافقي المدينة ﴿**يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**﴾ يعني من بني النضير ﴿**لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً**﴾ يعني ولا نطيع محمداً - صلى الله عليه وسلم - في خذلانكم ﴿**وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ**﴾ يعني لنعينكم ﴿**وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ في مقالتهم وإنما قالوا ذلك بلسانهم في غير حقيقة قلوبهم فقال الله تعالى ﴿**لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرجُونَ مَعَهُمْ**﴾ يعني لئن أخرج بنو النضير لا يخرج المنافقين معهم ﴿**وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرونَهُمْ**﴾ يعني لا يمنعونهم من ذلك ﴿**ولئن نصروهم لَيولن الأدبار**﴾ يعني ولو أعانوهم لا يثبتون على ذلك ولئن نصروهم ليولن الأدبار يعني رجعوا منهزمين ﴿**ثم لا ينصرون**﴾ ثم لا يثبتون يعني لا يمنعون من الهزيمة ثم قال عز وجل ﴿**لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً**﴾ يعني أنتم يا معشر المسلمين أشد رهبة ﴿**فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ**﴾ يعني خوفهم منكم أشد من عذاب الله في الآخرة ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ**﴾ يعني لا يعقلون أمر الله تعالى ثم أخبر عن ضعف اليهود في الحرب فقال عز وجل ﴿ **لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً**﴾ يعني لا يخرجون إلى الصحراء لقتالكم ﴿**إِلاَّ فِي قُرى مُحَصَّنَةٍ**﴾ يعني حصينة ﴿**أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾ يعني يقاتلونكم من وراء جدر فحذف الألف وهو جمع الجدار قرأ ابن كثير وأبو عمرو من وراء جدار بالألف والباقون جدر[1] بحذف الألف وهو جماعة وممن قرأ جدار فهو واحد يريد به الجمع ثم قال ﴿**بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ**﴾ يعني قتالهم فيما بينهم إذا اقتتلوا شديد وأما مع المؤمنين فلا ثم قال ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً**﴾ يعني تظن أن المنافقين واليهود على أمر واحد وكلمتهم واحدة. ﴿**وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾ يعني قلوب اليهود مختلفة ولم يكونوا على كلمة واحدة ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ**﴾ يعني ذلك الاختلاف بأنهم ﴿**قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ يعني لا يعقلون أمر الله تعالى ثم ضرب لهم مثلاً فقال عز وجل ﴿**كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ يعني مثل بني النضير مثل الذين من قبلهم يعني أهل بدر ﴿**قَرِيباً**﴾ يعني كان قتال بدر قبل ذلك بقريب وهو مقدار سنتين أو نحو ذلك قريباً ﴿**ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ**﴾ يعني عقوبة ذنبهم ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ**

(١) حجتهم أنه أتى عقيب قوله: «إلا في قرى محصنة» فأخرجوا القرى بلفظ الجمع ثم عطفوا بقوله «أو من وراء جدر» فكان الجمع أشبه بلفظ ما تقدمه من التوحيد ليأتلف الكلام على نظم واحد. ومن قرأ «جدار» فهو واحد يؤدي معنى الجمع. انظر حجة القراءات ٧٠٦.

﴿أَلِيمٌ﴾ يعني عذاباً شديداً في الآخرة ثم ضرب لهم مثلاً آخر في الآخرة وهو مثل المنافقين مع اليهود حين خذلوهم ولم يعينوهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ يعني برصيصا الراهب وروى عدي بن ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان في بني إسرائيل راهب عبد الله تعالى زماناً من الدهر حتى كان يؤتى بالمجانين فيعودهم ويداويهم فيبرؤون على يديه وأنه أتى بامرأة قد جنت وكان لها أخوة فأتوه بها فكانت عنده فلم يزل به الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت فلما استبان حملها لم يزل به الشيطان يخوفه ويزين له حتى قتلها ودفنها ثم ذهب الشيطان إلى إخوتها في صورة رجل حتى لقي أحداً من أخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وأنه دفنها في مكان كذا فبلغ ذلك ملكهم فسار الملك مع الناس فأتوه فاستنزلوه من الصومعة فأقر لهم بالذي فعل فأمر به فصلب فلما رفع على خشبة تمثل له الشيطان فقال أنا الذي زينت لك هذا وألقيتك فيه فهل لك أن تطيعني فيما أقول لك وأخلصك مما أنت فيه فقال نعم قال اسجد لي سجدة واحدة فسجد[1] له فذلك قوله كمثل الشيطان إذ قال لِلإِنْسَانِ اكفُرْ يعني اسجد ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ يعني سجد ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال ذلك على وجه الاستهزاء كذلك المنافقون خذلوهم اليهود كما خذل الشيطان الراهب ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ يعني عاقبة الشيطان والراهب ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين فيها وكان ابن مسعود يقرأ (خالدان فيها) وقراءة العامة بعده خالدين فيها بالنصب[2] وإنما هو نصب على الحال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الخلود في النار جزاء المنافقين والكافرين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني اخشوا الله ويقال أطيعوا الله ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني ما عملت لغد وأسلفت لغدٍ أي ليوم القيامة ومعناه تصدقوا واعملوا بالطاعة لتجدوا ثوابه يوم القيامة ثم قال ﴿واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره ونهيه كاليهود ويوحدوه في السر والعلانية ولا يكونوا في المعصية كالمنافقين فقال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ يعني تركوا أمر الله تعالى ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني خذلهم الله تعالى حتى تركوا حظ أنفسهم أن يقدموا خيراً لها ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يعني العاصين ويقال ولا تكونوا كالذين نسوا الله أي تركوا ذكر الله وما أمرهم به فأنساهم أنفسهم يعني فترك ذكرهم بالرحمة والتوفيق، ويقال ولا تكونوا كالذين نسوا الله يعني تركوا عهد الله ونبذوا كتابه وراء ظهورهم فأنساهم أنفسهم يعني أنساهم حالهم حتى لم يعملوا لأنفسهم ولم يقدموا لها خيراً أولئك هم الفاسقون يعني الناقضين للعهد ثم ذكر مستقر الفريقين فقال ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يعني لا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ وعزاه لابن أبي حاتم.
(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٣١.

يستوي في الكرامة والهوان في الدنيا والآخرة لأن أصحاب الجنة في الدنيا موفقون منعمون معتصمون وفي الآخرة لهم الثواب والكرامة وأصحاب النار مخذولون في الدنيا معذبون في الآخرة، ويقال لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة في الآخرة لأن أصحاب الجنة يتقلبون في النعيم وأصحاب النار يتقلبون في النار والهوان ثم قال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني المستعدون الناجون وأصحاب النار الهالكون ثم وعظهم ليعتبروا بالقرآن فقال عز وجل ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ يعني القرآن الذي فيه وعده ووعيده لو أنزلناه على جبل ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يعني خاضعاً متصدعاً، ويقال يندق من خوف عذاب الله فكيف لا يندق ولا يرق هذا الإنسان ويخشع ويقال هذا على وجه المثل يعني لو كان الجبل له تميز عقل لتصدع من الخشية ثم قال عز وجل ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يعني نبينها للناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني لكي يتعظوا في أمثال الله يعني يعتبرون ولا يعصون الله تعالى ثم قال ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا خالق ولا رازق غيره ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ يعني عالم السر والعلانية ويقال الغيب ما غاب عن العباد والشهادة ما شاهدوه وعاينوه ويقال عالم بما كان وبما يكون ويقال عالم بأمر الآخرة وبأمر الدنيا ثم قال ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمْ﴾ يعني العاطف على جميع الخلق بالرزق ـ (الرحيم) بالمؤمنين.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِله إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ يعني: مالك كل شيء وهو الملك الدائم الذي لا يزول ملكه أبداً ثم قال القدوس يعني: الطاهر عما وصفه الكفار ولهذا سمي بيت المقدس يعني المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب ثم قال ﴿السَّلَامُ﴾ يعني: يسلم عباده من ظلمه ويقال سمى نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء ثم قال ﴿الْمُؤْمِن﴾ يعني: يؤمن أولياؤه من عذابه، ويقال المؤمن أي يصدق في وعده ووعيده ويقال المؤمن يعني: قابل إيمان المؤمنين ثم قال: ﴿الْمُهَيمِن﴾ يعني: الشهيد على عباده بأعمالهم ويقال المهيمن يعني المويمن فقلبت الواو هاء وهو بمعنى الأمين ثم قال ﴿الْعزِيزُ﴾ يعني: الذي لا يعجزه شيء عما أراد ويقال العزيز الذي لا يوجد مثله ثم قال ﴿الْجَبَّار﴾ يعني: القاهر لخلقه على ما أراده، ويقال الغالب على خلقه ومعناهما واحد ثم قال ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ يعني: المتعظم على كل شيء، ويقال المتكبر الذي تكبر عن ظلم عباده. ثم قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ يعني: تنزيهاً لله تعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني: عما وصفه الكفار من الشريك والولد، ويقال سبحان الله بمعنى التعجب يعني عجباً عما وصفه الكفار من الشريك قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ يعني: خالق الخلق في أرحام النساء، ويقال خالق النطف في أصلاب الآباء المصور للولد في أرحام الأمهات ويقال الخالق يعني المقدر ﴿الْبَارِىءُ﴾ الذي يجعل الروح في الجسد، ويقال الباريء يعني: خالق الأشياء ابتداء ثم قال: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للولد في أصلاب الآباء ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني: الصفات العلي ويقال له الأسماء الحسنى وهي تسعة وتسعون اسماً مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه

وسلم ـ أنه قال (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسماً مائةً غيْرَ واحد من أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة)[1] ثم قال ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: يخضع له ما في السموات والأرض يعني: جميع الأشياء كقوله وإن من شيء إلا يسبح بحمده ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني: العزيز في ملكه الحكيم في أمره فإن قال قائل قد قال الله تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) فما الحكمة في أنه نهى عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه قيل له عن هذا السؤال جوابان ـ أحدهما ـ أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص وإن كان ناقصاً لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه وتعالى: تام الملك والقدرة فيستوجب به المدح فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه، وجواب آخر أن العبد وإن كان فيه خصال الخير فتلك الخصال أفضال من الله تعالى ولم يكن ذلك بقدرة العبد فلهذا لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه وتعالى إنما قدرته وملكه له ليس لغيره فيستوجب به المدح ومثال هذا أن الله تعالى نهى عباده أن لا يمنوا على أحد بالمعروف وقد من الله تعالى على عباده للمعنى الذي ذكرناه في المدح والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

(١) أخرجه البخاري ١٣/٣٧٧ كتاب التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم ٤/٢٠٦٣ كتاب الذكر (٦/٢٦٧٧).

سُورَةُ المُمْتَحَنَة(١)

وهي ثلاث عشرة آية مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ
ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ
تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾
إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن
تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾

قوله سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عدوي وعدوكم أولياء﴾**(٢) نزلت في حاطب بن أبي بلتعة العبسي ذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجهز الجيش للخروج إلى فتح مكة وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أراد أن يخرج إلى الغزو ورى بغيره يعني: يظهر من نفسه أنه يريد الخروج إلى ناحية أخرى وكان الناس لا يعلمون إلى أي ناحية يريد الخروج فأمر الناس بأن يتجهزوا للخروج إلى الغزو ولم يعلموا إلى أين يخرج إلا الخواص من أصحابه فبينما الناس يتجهزون إذ قدمت امرأة من مكة يقال لها سارة مولاة بني عمر بن الصيف بن هشام بن عبد مناف وكانت امرأة مغنية فقال لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لماذا جئت فقالت جئت لتعطيني شيئاً فقال لها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعلت بحطباتك من شبان قريش فقالت منذ قتلتهم ببدر لم يصل إلى شيء

(١) اشتملت من الأغراض على تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء مع أنهم كفروا بالدين الحق وأخرجوهم من بلادهم. وإعلامهم بأن اتخاذهم أولياء ضلال وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين لأساؤوا إليهم بالفعل والقول، وأن ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة لا يعتد به تجاه العداوة في الدين، وضرب لهم مثلاً في ذلك قطيعة إبراهيم لأبيه وقومه. وأردف ذلك باستئناس المؤمنين برجاء أن تحل مودة بينهم وبين الذين أمرهم الله بمعاداتهم أي هذه معاداة غير دائمة. وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم. وهذه الأحكام إلى نهاية الآية التاسعة. وحكم المؤمنات اللاء يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يحفظن من الرجوع إلى دار الشرك ويعوض أزواجهن المشركون ما أعطوهن من المهور ويقع التراد كذلك مع المشركين. ومبايعة المؤمنات المهاجرات ليعرف التزامهن لأحكام الشريعة الإسلامية. وهي الآية الثانية عشرة. وتحريم تزوج المسلمين المشركات وهذا في الآيتين العاشرة والحادية عشرة. والنهي عن موالاة اليهود وأنهم أشبهوا المشركين وهي الآية الثالثة عشرة. انظر التحرير ٢٨/١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) السورة أصل في النهي عن مولاة الكفار. من ذلك قوله تعالى: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾** (آل عمران: ١١٨) **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾** ومثله كثير. وذكر أن حاطباً لما سمع **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان.

إلا القليل فأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن تعطى شيئاً لترجع فلما أرادت الخروج أتاها حاطب بن أبي بلتعة فقال لها إني معطيك عشرة دنانير وكساء على أن تبلغي إلى أهل مكة كتاباً فأجابته إلى ذلك فخرجت إلى مكة فنزل جبريل عليه السلام في آثرها بالخبر فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعلي والزبير والمقداد انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة معها كتاب فخذوه منها فخرجوا حتى أتوا الروضة فإذا هي سارة هناك فقالوا لها أخرجي الكتاب. فقالت ما معي كتاب فألحوا عليها فحلفت أنه ليس معها كتاب فلم يصدقوها حتى نزعت جميع ثيابها فرمت بها إليهم فنظروا إلى ثيابها فلم يجدوا فيها الكتاب ونظروا في راحلتها وأمتعتها فلم يجدوا فيها الكتاب فقال بعضهم لبعض تعالوا حتى نرجع فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن جبريل نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخبره بذلك فقول المرأة أصدق أم قول جبريل فوالله لا أرجع حتى آخذ منها الكتاب ولأحملن رأسها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسل السيف ليضرب رأسها فأخرجت الكتاب من عقاصها[1] فأتوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ الكتاب فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة وأخبرهم بأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد الخروج إليهم وذكر أن محمداً يقصدكم فخذوا حذركم وإنه أراد بالكتاب إليهم مودتهم فقام إليه عمر رضي الله عنه وقال دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما هذا يا حاطب فقال لا تعجل علي يا رسول الله إني كنت ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم وكل من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهاليهم فأردت أن أتخذ فيهم يداً يحمون قرابتي وما فعلت هذا كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا أرضى بالكفر بعد الإسلام وقد علمت أن الله تعالى منجز وعده ما وعد إلا نصر نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعوه إنه يشهد بدراً وما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت[2] لكم فنزل يا أيها الذين آمنوا فسماهم مؤمنين لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء يعني في العون والنصرة. ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ يعني: تكتبون وتبعثون إليهم بالصحيفة والنصيحة ويقال معناه تخبرونهم كما يخبر الرجل أهل مودته حيث توجهون إليهم بالكتاب والمودة والنصيحة ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني: من القرآن والرسول ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني: أخرجوكم من مكة ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ يعني: لأجل الإيمان بربكم يعني بوحدانية ربكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ يعني: لا تلقون إليهم بالمودة إن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ مجاهدين في سبيلي وطلب رضاي ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ يعني: ما أسررتم وما أظهرتم يعني: أسررتم من المودة لأهل الكفر وأعلنتم الاقرار بالتوحيد ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني: من يفعل منكم بعد هذا فقد خطا قصد الطريق ثم قال عز وجل: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى للمؤمنين بعداوة كفار مكة إياهم لكيلا يميلوا إليهم فقال «إن يثقفوكم» يعني: أن يظهروا عليكم ويقال إن يأخذوكم ويقال إن يقهروكم ويغلبوكم ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ يعني: يتبين لكم أنهم أعداؤكم فيظهر لكم عداوتهم عند ذلك ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والتعذيب ﴿وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ يعني: بالشتم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني: تمنوا أن ترجعوا إلى دينهم فإن فعلتم ذلك بسبب قرابتكم ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ يعني: قرابتكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين كانوا بمكة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: يفرق بينكم وبينهم يوم القيامة قرأ عاصم بنصب الياء وكسر الصاد مع التخفيف يعني: يفصل الله بينكم يوم

(١) عقاصها أي ضفائرها. انظر لسان العرب ٤/٣٠٤١.

(٢) أخرجه البخاري ٦/١٤٣ كتاب الجهاد (٣٠٠٧) ومسلم ٤/١٩٤١ كتاب فضائل الصحابة (١٦١ ـ ٢٤٩٤).

القيامة وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو يفصل بينكم بضم الياء ونصب الصاد مع التخفيف على معنى فعل ما لم يسم فاعله، والمعنى مثل الأول وقرأ حمزة والكسائي يفصل بينكم بضم الياء وكسر الصاد مع التشديد يعني يفصل الله بينكم والتشديد للتكثير وقرأ ابن عامر يفصل بينكم بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد[1] على معنى فعل ما لم يسم فاعله والتشديد للتكثير ويقال الفصل هو القضاء يعني: يقضي بينكم على هذا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالم بأعمالكم.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

قوله عز وجل: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبرَاهِيم﴾ يعني: هلا فعلتم كما فعل إبراهيم تبرأ من أبيه لأجل كفره ويقال قد كانت لكم أسوة حسنة يعني قدوة حسنة وسنة صالحة في إبراهيم فاقتدوا به ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني: من كان مع إبراهيم من المؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِم﴾ أي: لمن كفر من قومهم ﴿إِنَّا بُـرَآءُ مِنْكُمْ﴾ يعني: من دينكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: برأوا مما تعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الآلهة ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ يعني تبرأنا منكم قرأ عاصم أسوة حسنة بضم الألف والباقون بالكسر وهما لغتان أسوة وأسوة وهما بمعنى الاقتداء ثم قال: ﴿وَبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبداً حَتَّى تُؤْمِنوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ يعني: حتى تصدقوا بالله وحده فأعلم الله تعالى أن أصحاب إبراهيم تبرءوا من قومهم وعادوهم لأجل كفرهم فأمر الله تعالى أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقتدوا بهم ثم قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: اقتدوا بهم إلا قول إبراهيم ﴿لأبيه لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يعني: لأدعون لك أن يهديك الله ويكون على هذا التفسير إلا بمعنى لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك يعني: لأدعون لك أن يهديك الله يعني إبراهيم تبرأ من قومه لكنه يدعو لأبيه بالهدى ثم قال: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني: ما أقدر أن أمنعك من عذاب الله من شيء إن لم تؤمن ثم علمهم ما يقولون فقال قولوا ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ يعني: فوضنا أمرنا إليك وأمر أهالينا ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ يعني: اقبلنا إليك بالطاعة ﴿وَإِلَيْكَ المصيرُ﴾ يعني: المرجع في الآخرة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فتقتر علينا الرزق وتبسط عليهم فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفي قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إنك أنت الغفور الرحيم، وقال بعضهم هذا كله حكاية عن قول إبراهيم إنه دعا ربه بذلك ويقال هذا تعليم لحاطب بن أبي بلتعة هل لأدعون بهذا الدعاء حتى ينجـو أهلك ولا يسلط عليهم عدوك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَة﴾ يعني: في إبراهيم وقومه في الاقتداء ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ يعني: لمن يخاف الله ويخاف البعث ويقال لمن كان يرجـو ثواب الله وثواب يوم القيامة ﴿وَمَنْ يَتَولَّ﴾ يعني: يعرض عن الحق ويقال يأبى عن أمر الله تعالى ﴿فَإِنَّ

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٧، حجة القراءات ٧٠٦.

﴿اللَّهَ هُوَ الغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يعني: الغني عن عباده الحميد في فعاله.

عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ
ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾
إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن
يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ
أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: لعل الله أن يجعل بينكم ﴿وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ﴾ من كفار مكة ﴿منهم مودة﴾ وذلك أنه لما أخبرهم عن إبراهيم بعداوته مع أبيه فأظهر المسلمون العداوة مع أرحامهم فشق ذلك على بعضهم فنزل (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) يعني: صلة قال مقاتل فلما أسلم أهل مكة خالطوهم وناكحوهم فتزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان وأسلمت وأسلم أبوها ويقال يسلم منهم فيقع بينكم وبينهم مودة بالإسلام وهذا القول أصح لأنه كان قد تزوج بأم حبيبة قبل ذلك ﴿واللهُ قَدِيرٌ﴾ على المودة ويقال قدير بقضائه وهو ظهور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل مكة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بعد التوبة ثم رخص في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم وهم خزاعة وبني مدلج فقال عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين﴾ يعني: عن صلة الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرؤهُمْ﴾ يعني: أن تصلوهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ يعني: تعدلوا معهم بوفاء عهدهم ﴿إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني: العادلين بوفاء العهد يقال أقسط الرجل فهو مقسط وإذا عدل وقسط بقسط فهو قاسط إذا جار.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتِلُوكُمْ فِي الدِّيْنِ﴾ يعني: عن صلة الذين قاتلوكم في الدين وهم أهل مكة ومن كان في مثل حالهم من أهل الحرب ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ يعني: عاونوا على إخراجكم من دياركم ﴿أَنْ تولُوهُمْ﴾ يعني: أن تناصحوهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ منكم يعني: يناصحهم ويحبهم منكم ﴿فَأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: الكافرون الظالمون بأنفسهم. قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا جاءَكُمُ المُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾[1] وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ صالح أهل مكة يوم الحديبية وكتب بينه

---

(١) جاءت زينب بنت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسلمة ولحق بها زوجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بعد سنين مشركاً ثم أسلم في المدينة فردها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه. وقد اختلف: هل كان النهي في شأن المؤمنات المهاجرات أن يرجعوهن إلى الكفار نسخاً لما تضمنه شرط الصلح الذي بين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين المشركين أوكان الصلح غير مصرح فيه بإرجاع النساء لأن الصيغة صيغة جمع المذكر فاعتبر مجملاً وكان النهي الذي في هذه الآية بياناً لذلك المجمل. وقد قيل: إن الصلح صرح فيه بأن من جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير إذن وليه من رجل أو امرأة يرد إلى وليه. فإذا صح =

وبينهم كتاباً إن من لحق من المسلمين بأهل مكة فهو منهم ومن لحق منهم بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رده عليهم فجاءت امرأة إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمها سبيعة بنت الحارث الأسلمية فجاء زوجها في طلبها فقال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اردها فإن بيننا وبينك شرطاً فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما كان الشرط في الرجال ولم يكن في النساء[1] فأنزل الله تعالى إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات نصب على الحال ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ يعني: اختبروهن ما أخرجكن من بيوتكن ويقال فامتحنوهن يعني: اسألوهن ويقال استخلفوهن ما خرجنا إلا حرصاً على الإسلام ولم تكن لكراهية الزوج ولا لغير ذلك ﴿الله أَعْلَمُ بإيمانِهِنَّ﴾ يعني: أعلم بسرائرهن ﴿فإن عَلِمْتُمُوهُنَّ مؤمناتٍ﴾ يعني: إذا ظهر عندكم إنها خرجت لأجل الإسلام ولم يكن خروجها لعداوة وقعت بينها وبين زوجها ﴿فلا ترجعوهن إلى الكفار﴾ يعني: لا تردوهن إلى أزواجهن ﴿لا هُنَّ حلٌّ لَهُمْ﴾ يعني: لا تحل مؤمنة لكافر ﴿ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ يعني: ولا نكاح كافر لمسلمة قوله تعالى: ﴿وآتوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ يعني: أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهر قال مقاتل يعني: إن تزوجها أحد من المسلمين يدفع المهر إلى الزوج فإن لم يتزوجها أحد من المسلمين فليس لزوجها الكافر شيء ثم قال ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني: لا حرج على المسلمين أن يتزوجوهن ﴿إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: مهورهن فرد المهر على الزوج الكافر منسوخ وفي الآية دليل أن المرأة إذا خرجت من دار الحرب بانت من زوجها وفي الآية تأييد لقول أبي حنيفة أنه لا عدة عليها وفي أقوال أبي يوسف ومحمد عليها العدة. ثم قال: ﴿ولا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾ قرأ أبو عمرو ولا تمسكوا بالتشديد والباقون بالتخفيف[2] فمن قرأ بالتخفيف فهو من أمسك يمسك ومن قرأ بالتشديد فهو من مسك بالشيء يمسكه تمسيكاً ومعناهما واحد وهو أن المرأة إذا كفرت ولحقت بدار الحرب فقد زالت العصمة بينهما فنهى أن يقبضها من بعد انقطاعها وجاز له أن يتزوج أختها أو أربعاً سواها وأصل العصمة الحبل ومن أمسك بالشيء فقد عصمه[3] وقال معناه لا ترغبوا فيهن ولا تعتدوا فيهن ويقال لا تعتد بامرأتك الكافرة فإنها ليست لك بامرأة وكان للمسلمين نساءاً في دار الحرب فتزوجهن هناك ثم قال ﴿واسْأَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ﴾ يعني: اسألوا من أزواجهن ما أنفقتم عليهن من المهر ﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾ منكم ﴿ما أنفقوا﴾ يعني: ما أعطوا من مهر المرأة التي أسلمت وهذه الآية نسخت إلا قوله (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ثم قال ﴿ذلكُمْ حُكْمُ اللهِ﴾ يعني: أمره ونهيه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يعني: يقضي بينكم ﴿والله عَلِيمٌ حكيمٌ﴾.

= ذلك كان صريحاً وكانت الآية ناسخة لما فعله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذي في سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام خلى من هذا التصريح ولذلك كان لفظ الصلح محتملاً لإرادة الرجال لأن الضمائر التي اشتمل عليها ضمائر تذكير. وقد روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات وطلبوا تنفيذ شروط الصلح: إنما الشرط في الرجال لا في النساء فكانت هذه الآية تشريعاً للمسلمين فيما يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وإيذاناً للمشركين بأن شرطهم غير نص. وشأن شروط الصلح الصراحة لعظم أمر المصالحات والحقوق المترتبة عليها، وقد أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات إذ جعل لهن مخرجاً وتأييداً لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في الآية التي بعدها لقصد أن يشترك من يمكنه الإطلاع من المؤمنين على صدق إيمان المؤمنات المهاجرات تعاوناً على إظهار الحق ولأن ما فيها من التكليف يرجع كثير منه إلى أحوال المؤمنين مع نسائهم. التحرير ٢٨/١٥٥.

(١) انظر تفسير القرطبي ١٨/٤١.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٧، حجة القراءات ٧٠٧.

(٣) انظر لسان العرب ٤/٢٩٧٧.

وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

قوله عز وجل: ﴿**وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكُفَّارِ**﴾ يعني: إذا ارتدت امرأة ولحقت بدار الحرب (فعاقبتم) يعني: فغنم من المشركين شيئاً ﴿**فأتوا الذينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ**﴾ من الغنيمة ﴿**مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا**﴾ من الغنيمة مثل الذين أعطوا نسائهم من المهر وهذه الآية منسوخة بالإجماع قرأ إبراهيم النخعي (فعقبتم) بغير ألف وعن مجاهد أنه قرأ ﴿**فعاقبتم**﴾ وقراءة العامة (فعاقبتم)[١] فذلك كله يرجع إلى معنى واحد يعني إذا غلبتم العدو واعتصمتم واصبتموهم في القتال ﴿**واتَّقوا الله**﴾ يعني: أخشوا الله فلا تعصوه فيما أمركم ﴿**الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ يعني: مصدقين ثم قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ**﴾ يعني: النساء إذا أسلمن فبايعهن ﴿**عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شيئاً**﴾ يعني: لا يعبدون غير الله ﴿**ولا يسرقن**﴾ يعني: لا يأخذن مال أحد بغير حق ﴿**وَلَا يَزْنِينَ ولا يَقْتُلن أَوْلَادَهُنَّ**﴾ يعني: ولا يقتلن بناتهن كما قتلن في الجاهلية ويقال لا يشربن دواءاً فيسقطن حملهن ثم اختلفوا في مبايعة النساء وقال بعضهم وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثوباً وأخذ في الثوب وقال بعضهم كان يشيرهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويصافحهن عمر وذكر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما فتح مكة وفرغ من مبايعة الرجال وهو على الصفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أسفل منه فبايع النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن فقالت هند امرأة أبي سفيان إني قد أصبت من مال أبي سفيان فلا أدري أحلال أم لا فقال أبو سفيان نعم ما أصبت فيما مضى وفيما غير فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - عفا الله عما سلف وفي خبر آخر أنها قالت أرأيت لو لم يعطني ما يكفيني ولولدي هل يحل لي أن آخذ من ماله فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - خذي من ماله ما يكفيك ولولدك بالمعروف[٢]. ثم قال ولا يزنين فلما قال ذلك قالت هند أو تزني الحرة فضحك عمر عند ذلك ثم قال تعالى «ولا يقتلن أولادهن» يعني: لا يقتلن بناتهن الصغار فقالت هند ربيناهم صغاراً أفنقتلهم كباراً فتبسم النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم قال ﴿**وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ**﴾ يعني: لا يجيئن بصبي من غير زوجها فيقلن للزوج هو منك فقالت هند إن البهتان أفحش وما تأمرنا إلا بالرشد ثم قال عز وجل: ﴿**وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ يعني: في طاعة مما أمر الله تعالى ويقال ولا يعصينك في معروف يعني فيما نهيتهن عن النوح وتمزيق الثياب أو تخلو مع الأجنبي أو نحو ذلك فقالت هند ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء ثم قال: ﴿**فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ الله**﴾ يعني: إذا بايعن على ذلك فاسأل الله لهن المغفرة لما كان في الشرك ﴿**إن الله غفور رحيم**﴾ غفور لهن كان في الشرك رحيم فيما بقي قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٨/٤٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٨/٤٧.

قوماً غضب الله عليهم) وذلك أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأمر المسلمين يتواصلون إليهم بذلك فيصيبون من ثمارهم وطعامهم وشرابهم فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم**﴾ يعني: لا تتخذوا الصداقة مع قوم غضب الله عليهم ويقال هذا أيضاً في حاطب بن أبي بلتعة. ثم قال عز وجل: ﴿**قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ**﴾ قال مقاتل وذلك أن الكافر إذا وضع في قبره أتاه ملك شديد الانتهار فيجلسه ثم يسئله من ربك وما دينك ومن رسولك فيقول لا أدري فيقول الملك أبعدك الله انظر يا عدو الله إلى منزلك فينظر إليه من النار فيدعو بالويل والثبور فيقول هذا لك يا عدو الله فيفتح له باب إلى الجنة فيقول هذا لمن آمن بالله تعالى فلو كنت آمنت بربك نزلت الجنة فيكون حسرة عليه وينقطع رجاؤه منها وعلم أنه أبعد له فيها ويئس من خير الجنة فذلك قوله تعالى للكفار أهل الدنيا الأحياء منهم قد يئسوا من الآخرة يعني: من خير الآخرة لأنهم كذبوا بالثواب والعقاب وهم آيسون من الجنة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، إذا عرف منازله ويقال إن الكفار إذا مات منهم أحد يئسوا من رجوعه فيقال قد يئس هؤلاء من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور من رجوعهم ويقال يئسوا من الآخرة يعني هؤلاء الكفار كما يئس الكفار الذين كانوا قبلهم من الآخرة وهو اليوم من أصحاب القبور والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

سُورَةُ الصَّفِّ(١)

وهي أربع عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ
مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ
وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

قوله تبارك وتعالى: **﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾**(٢) وذلك أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا بعدما فروا يوم أحد لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى وأفضل لفعلناه فنزل لم تقولون ما لا تفعلون ويقال قالوا ذلك قبل يوم أحد فابتلوا بذلك وفروا فنزل تيسيراً لهم بترك الوفاء فقال لم تقولون ما لا تفعلون **﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ﴾** يعني: عظم بغضاً عند الله **﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾** يعني: يصفون بمنزلة الصف في الصلاة وملتزمة بعضهم في بعض لا يتأخر أحدهم عن صاحبه بمنزلة البنيان الذي بني بالرصاص ويقال

---

(١) أول أغراض هذه السورة التحذير من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين. والتحريض على الجهاد في سبيل الله والثبات فيه، وصدق الإيمان والثبات في نصرة الدين. والاتساء بالصادقين مثل الحواريين، والتحذير من أذى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعريضاً باليهود مثل كعب بن الأشرف. وضرب المثل لذلك بفعل اليهود مع موسى وعيسى عليهما السلام والتعريض بالمنافقين. والوعد على إخلاص الإيمان والجهاد بحسن مثوبة الآخرة والنصر والفتح. التحرير ٢٨/١٧٣.

(٢) هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها. والملْتزَم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرب مبتدأ كقوله لله علي صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القُرب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً. ونذر مباح وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله: إن قدم غائبي فعليّ صدقة. أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعلي صدقة، فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة يلزمه الوفاء به، وقال الشافعي في أحد أقواله: إنه لا يلزمه الوفاء به. وقوله تعالى: **﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾** استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله، أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خلفاً، وكلاهما مذموم، وتأول سفيان بن عيينة قوله تعالى: **﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾** أي لم تقولون ما لَيس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون، فعلى هذا يكون الكلام محمولاً على ظاهره في إنكار القول. انظر تفسير القرطبي ١٨/٥٢، ٥٣.

كأنهم بنيان مرصوص أي متفقي الكلمة بعضهم على بعض على عدوهم فلا يخالف بعضهم بعضاً وروي في الخبر أنه كان يوم مؤتة وكان عبد الله بن رواحة أحد الأمراء الذين أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناداهم يا أهل المجلس الذين وعدتم ربكم قولكم ثم مشى فقاتل حتى قتل(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ وقد قال موسى ﴿لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالتكذيب وذلك أنهم كذبوه وقالوا إنه أدبر ويقال: إنه حين مات هارون ويقال إنه قال لقومه الكفار لم تؤذونني بالتكذيب والشتم ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا﴾ يعني: مالوا عن الحق وعدلوا عنه ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ يعني: خذلهم عن الهدى فثبتوا على اليهودية ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي﴾ يعني: لا يرشد إلى دينه ﴿القَومَ الفاسِقِينَ﴾ يعني: العاصين المكذبين الذين لا يرغبون في الحق. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يعني: وقد قال عيسى ابن مريم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رسولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: أرسلني الله تعالى إليكم لأدعوكم إلى الإسلام ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ يعني: أقرأ عليكم الإنجيل موافقاً للتوراة في التوحيد وفي بعض الشرائع ﴿وَمُبَشِّراً برسُولٍ﴾ يعني: أبشركم برسول الله ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وروى ثور بن يزيد(٢) عن خالد(٣) بن معدان عن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك فقال أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى صلوات الله عليهم ورأت أمي رؤياها حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى في(٤) أرض الشام ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: جاءهم عيسى بالبينات التي كان يريهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني: بيناً ظاهراً قرأ حمزة والكسائي ساحر بالألف والباقون سحر بغير ألف فمن(٥) قرأ ساحر فهو فاعل ومن قرأ سحر فهو نعت الفعل.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٢ ـ ٢١٣ وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الرحمن بن سابط.

(٢) ثور بن يزيد الكلاعي أبو خالد الحمصي أحد الحفاظ قال ابن معين: ما رأيت أحد يشك أنه قدري وهو صحيح الحديث مات سنة ثلاث وخمسين ومائتين انظر ميزان الاعتدال ١/٣٧٤.

(٣) خالد بن معدان الكلاعي الحمصي أبو عبد الله ثقة عابد، يرسل كثير مات سنة ثلاث ومائة. التقريب ١/٢١٨.

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١/٤٣٥، والبغوي في التفسير ١/١١١، والدر المنثور ٥/٢٠٧.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٠٧.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني: من أشد في كفره ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: اختلق على الله ﴿الْكَذِبَ﴾ وهم اليهود ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾ يعني: إلى دين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿واللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: لا يرشدهم ويقال لا يرحمهم ما داموا على كفرهم. ثم قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: ليبطلوا دين الله بقولهم ﴿وَاللَّهُ متم نُورِهِ﴾ يعني: مظهر توحيده وكتابه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ يعني: وإن كره اليهود والنصارى، قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص والله متم نوره على معنى الإضافة والباقون متم بالتنوين نوره بالنصب(١) فمتم فاعل ونصب نوره لأنه مفعول به، ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ يعني: بالتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ يعني: الشهادة أن لا إله إلا الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾ يعني: على الأديان كلها، قال مقاتل: وقد فعل: ويقال: إنه يكون في آخر الزمان لا يبقى أحد إلا مسلم أو ذمة للمسلم ﴿وَلَوْ كَرِه الْمُشْرِكُونَ﴾ يعني: وإن كرهوا ذلك ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني: من عذاب دائم، قرأ ابن عامر تنجيكم بالتشديد والباقون بالتخفيف(٢) وهما لغتان أنجاه ونجاه بمعنى واحد: ثم بين لهم تلك التجارة فقال عز وجل ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني: تصدقون بتوحيد الله ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يعني: وتصدقون برسوله وبما جاء به من عنده ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ﴾ فقدم ذكر المال لأن الإنسان ربما يضر بماله ما لا يضر بنفسه ولأنه إذا كان له مال فإنه يؤخذ به النفس ليغزو ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني: التصديق والجهاد خير لكم من تركها ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: تعلمون ثواب الله تعالى ويقال: يعلمون يعني يصدقون ثم بين ثواب ذلك العمل فقال ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ يعني: إن فعلتم ذلك العمل يغفر لكم ذنوبكم ﴿وَيُدْخلكُمُ جَنَّاتٍ تجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً﴾ يعني: يدخلكم منازل الجنة ﴿في جَنَّاتِ عَدْن ذَلِكَ الفوز العظيم﴾ يعني: النجاة الوافرة ثم قال عز وجل ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني: تجارة أخرى تحبونها نصر من الله يعني: ولكم سوى الجنة أيضاً عدة أخرى في الدنيا تحبونها ويقال معناه ونجاة أخرى تحبونها نصر من الله يعني هي النصرة من الله تعالى على عدوكم ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ يعني: ظفراً سريعاً عاجلاً في الدنيا والجنة في الآخرة ثم قال﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: بشرهم بالجنة ثم قال عز وجل﴿يا أيها الذين آمَنوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو أنصاراً الله بالتنوين والباقون أنصار الله بالإضافة(٣)، ومعناهما واحد، يعني: كونوا أعوان الله بالسيف على أعدائه ومعناه: انصروا الله وانصروا دين الله وانصروا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نصر الحواريون عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيْنَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَىَ اللهِ﴾ يعني: من أعواني إلى الله ويقال إنما سموا

---

(١) حجة من قرأ على معنى الإضافة أن الفعل منتظر فالتنوين الأصل وهو وعد من الله فيما يستقبل وفي حال الفعل كما تقول: أنا ضارب زيداً.

وقد ذكر في قراة الباقين أن فيها وجهان: أحدهما أن الإضافة قد استعملتها العرب في الماضي والمنتظر، وأن التنوين لم يستعمل إلا في المنتظر خاصة، فلما كانا مستعملين وقد نزل بهم القرآن، أخذ بأكثر الوجهين أصلاً. والوجه الآخر: أن يراد به التنوين ثم يحذف التنوين طلباً للتخفيف كما قال جل وعز: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقوله: ﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم﴾. انظر حجة القراءات ٧٠٨.

(٢) انظر المصدران السابقان.

(٣) حجتهم إجماع الجميع على الإضافة في قوله «نحن أنصار الله» ولم يقل «نحن أنصار لله» فكان رد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. انظر حجة القراءات ٧٠٩.

الحواريون لبياض ثيابهم: ويقال كانوا قصارين ويقال: خلصاؤه وصفوته كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي[١] وتأويل الحواري في اللغة: الذين أخلصوا وتبرؤوا من كل عيب وكذلك الدقيق الحواري لأنه ينتقى من لباب البرّ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم وكانوا صيادين وروى عبد الرزاق عن معمر قال: تلا قتادة: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) قال وقد كان ذلك بحمد الله جاءه السبعون فبايعوه عند العقبة فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه[٢] **﴿قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾** يعني: نحن أعوانك مع الله **﴿فَآمَنت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** يعني: بعيسى عليه السلام ويقال فآمنت طائفة بني إسرائيل بمحمد - صلى الله عليه وسلم - **﴿وكفرت طائفة﴾** يعني: جماعة منهم **﴿فَأَيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾** يعني: قوينا الذين آمنوا على عدوهم من الكفار **﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾** فصاروا غالبين بالنصرة والحجة والله أعلم بالصواب.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣١٤ والخطيب في التاريخ ٥/٢٦، ٨/٩٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٤ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر.

سُورَةُ الجُمُعَةِ[1]

مدنية إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ
رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾
وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ
مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقد ذكرناه ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ يعني الملك الذي يملك كل شيء ولا يزال ملكه القدوس يعني الطاهر عن الشريك والولد قرىء في الشاذ الملك القدوس بالضم ومعناه هو الملك القدوس وقرأه العامة بالكسر[2] فيكون نعتاً لله تعالى ﴿العزيز﴾ في ملكه ﴿الحكيم﴾ في أمرهٔ ثم قال: ﴿هو الذي بَعَثَ في الأميين﴾ يعني في العرب والأميون الذين لا يكتبون وهو ما خلقت عليه الأمة قبل تعلم الكتابة ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ يعني من قومهم من العرب ﴿يَتْلُو عليهم﴾ يعني يقرأ عليهم ﴿آياتِهِ﴾ يعني القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يعني يدعوهم إلى التوحيد ويطهرهم به من عبادة الأوثان ويقال ويزكيهم يعني يصلحهم ويقال يأمرهم

---

(١) أول أغراض هذه السورة ما نزلت لأجله وهو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة والأمر بترك ما يشغل عنها في وقت أدائها. وقدم لذلك: التنويه بجلال الله تعالى.
والتنويه بالرسول ﷺ. وأنه رسول إلى العرب ومن سيلحق بهم وأن رسالته لهم فضل من الله.
وفي هذا توطئة لذم اليهود لأنهم حسدوا المسلمين على تشريفهم بهذا الدين ومن جملة ما حسدوهم عليه ونقموه أن جُعل يوم الجمعة اليوم الفاضل في الأسبوع بعد أن كان يوم السبت وهو المعروف في تلك البلاد. وإبطال زعمهم أنهم أولياء الله.
وتوبيخ قوم انصرفوا عنها لمجيء عير تجارة من الشام. انظر التحرير ٢٨/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) هي قراءة أبي العالية ونصر بن عاصم انظر تفسير القرطبي ١٨/٦٠.

بالزكاة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ﴾ يعني القرآن ﴿والحِكْمَةَ﴾ يعني الحلال والحرام ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ يعني وقد كانوا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أن يبعث إليهم محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني لفي خطأ بين يعني الشرك ﴿وآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ يعني التابعين من هذه الأمة ممن بقي ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ يعني لم يكونوا بعد فسيكونون، وروى جويبر عن الضحاك في قوله آخرين منهم لما يلحقوا بهم قال يعني من أسلم من الناس وعمل صالحاً إلى يوم القيامة من عربي وعجمي[1] ثم قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ يعني العزيز في ملكه الحكيم في أمره قوله تعالى ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ﴾ يعني الإسلام فضل الله يؤتيه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني يعطيه من يشاء ويكرم به من يشاء من كان أهلاً لذلك ﴿واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ يعني ذو المن العظيم لمن اختصه بالإسلام.

ثم قال: ﴿مَثَلُ الذينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ يعني صفة الذين علموا التوراة وأمروا بأن يعملوا ما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي لم يعملوا بما أمروا فيها من الأمر والنهي وبيان صفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال مثل الذين حملوا التوراة وأمروا بأن يحملوا تفسيرها ثم لم يحملوها يعني لم يعلموا تفسيرها فمثلهم ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسفاراً﴾ يعني يحمل كتباً ولا يدري ما فيها كما لا يدري اليهود ما حملوا من التوراة ثم قال ﴿بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الذينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ﴾ يعني بئس مثل القوم ضربنا لهم الأمثال ويقال بئس صفة القوم الذين كذبوا بآيات الله يعني: جحدوا بالقرآن وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿واللهُ لَا يَهْدِي القَومَ الظالِمِينَ﴾ يعني إلى طريق الجنة اليهود الذين لا يرغبون في الحق وقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا﴾ يعني: مالوا عن الإسلام والحق إلى اليهودية ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ﴾ يعني إن أدعيتم وقلتم إنكم ﴿أولياء للهِ﴾ يعني: أحباباً لله ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ يعني من دون المؤمنين ﴿فَتَمنوا المَوْتَ﴾ يعني سلوا الموت فقولوا اللهم أمتنا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنكم أولياء الله من دون المؤمنين ﴿وَلَا يَتَمنَّوْنَهُ أَبداً﴾ يعني لا يسألون أبداً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني بما عملت وأسلفت أيديهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ يعني عليماً بحالهم بأنهم لا يتمنون الموت ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ أي تكرهوا الموت يعني نازل بكم لا محالة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ يعني ترجعون في الآخرة ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وقد ذكرناه ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني يخبركم ويجازيكم بما كنتم تعملون في الدنيا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

قوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ يعني إذا أذن للصلاة ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني امضوا إلى الصلاة فصلوها، ويقال: إلى ذكر الله يعني الخطبة فاستمعوها، وروى الأعمش عن إبراهيم قال كان ابن مسعود يقرأ فامضوا إلى ذكر الله ويقول لو قرأتها فاسعوا لسعيت حتى يسقط ردائي[2]، وقال القتبي

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٥ وعزاه لابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وأبي عبيد وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري والطبراني.

السعي على وجوه الإسراع في المشي كقوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) والسعي العمل كقوله تعالى، وسعى لها سعيها وقال إن سعيكم لشتى والسعي المشي كقوله تعالى (يأتينك سعياً)، وكقوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) وقال الحسن في قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) قال ليس سعي بالأقدام ولكن السعي بالنية(١) وسعي بالقلب وسعي بالرغبة ثم قال ﴿وذَرُوا البَيْعَ﴾ ولم يذكر الشراء لأنه لما ذكر البيع فقد دل على الشراء ومعناه اتركوا البيع والشراء، وقال جماعة من العلماء لو باع بعد الأذان يوم الجمعة لم يجز البيع، وقال الزهري يحرم البيع يوم الجمعة عند خروج الإمام، وروى جويبر عن الضحاك أنه قال إذا زالت الشمس يوم الجمعة حرم الشراء والبيع ولو كنت قاضياً لرددته(٢) وروى معمر عن الزهري قال الأذان الذي يحرم نية البيع عند خروج الإمام وقت الخطبة(٣)، وقال الحسن إذا زالت الشمس فلا تشترِ ولا تبع وقال محمد يحرم البيع عند النداء يوم الجمعة عند الصلاة وروى عكرمة عن ابن عباس قال لا يصح البيع والشراء يوم الجمعة حين ينادى بالصلاة حتى تنقضي وقال عامة أهل الفتوى من الفقهاء إن البيع جائز في الحكم لأن النهي لأجل الصلاة وليس بمانع لمعنى في البيع ثم قال ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني السعي إلى الصلاة وترك الشراء والبيع والاستماع إلى الخطبة خير لكم من الشراء والبيع ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني فاعلموا ذلك وكل ما في القرآن إن كنتم تعلمون إن كنتم مؤمنين، فهو بمعنى التقرير والأمر ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا قَضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ يعني فرغتم من الصلاة ﴿فانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني: اطلبوا الرزق من الله تعالى بالتجارة والكسب اللفظ لفظ الأمر والمراد به: الرخصة كقوله: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا، وهي رخصة بعد النهي ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾ يعني: واذكروا الله باللسان ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني لكي تنجوا ثم قال عز وجل: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً﴾ قال مجاهد: اللهو هو الضرب بالطبل: فنزلت الآية حين قدم دحيه ابن خليفة الكلبي، وروى سالم عن جابر قال: أقبلت عير ونحن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن نصلي الجمعة فانفض الناس إليها فما بقي غير اثني عشر رجلاً فنزلت الآية وإذا رأَوْا تِجَارَةً(٤) أَوْ لَهْواً ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ وروى معمر عن الحسن أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر فقدمت عير والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائماً يخطب يوم الجمعة فسمعوا بها فخرجوا إليها والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم قال الله تعالى وتركوك قائماً فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ولو اتبع آخرهم أولهم لالتهب الوادي عليهم ناراً»(٥).

قال معمر عن قتادة قال لم يبق يومئذ معه إلا إثنى عشر رجلاً وامرأة ويقال إن أهل المدينة كانوا إذا قدمت عير ضربوا بالطبل وخرج الناس فنزل (وإذا رأوا تجارة أو لهواً) انفضوا إليها. والمعنى خرجوا إليها يعني: إلى التجارة، ويقال إليها يعني جملة ما رأوا من اللهو والتجارة، وتركوك قائماً على المنبر ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ﴾ يعني: ثواب الله تعالى خير من اللهو ﴿وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وخير المعطين. والله أعلم بالصواب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢١٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) أخرجه مسلم ٢/٥٩٠ كتاب الجمعة (٣٦ ـ ٨٦٣).

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن قتادة ٦/٢٢١ وعزاه لعبد بن حميد.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ (١)

وهي إحدى عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ
اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ
وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾

قوله تعالى ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ**﴾ إذا حرف من حروف التوقيت: وجوابه قوله: فاحذرهم، وهذا أعلام من الله تعالى بنفاقهم وكذبهم وغرورهم ﴿**قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ**﴾ يعني: يقولون ذلك بلسانهم دون قلوبهم ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ**﴾ من غير قولهم ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ**﴾ يعني: يبين ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ يعني إنهم مصدقون في قولهم ولكنهم كاذبون بأنهم أرادوا به الإيمان ثم قال عز وجل ﴿**اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً**﴾ يعني حلفهم جُنَّة من القتل: وقرأ بعضهم (اتخذوا إيمانهم) بكسر الألف يعني اتخذوا إظهارهم الإسلام وتصديقهم ستراً لأنفسهم وقراءة العامة اتخذوا إيمانهم بالنصب(٢) يعني: استتروا بالحلف وكلما ظهر نفاقهم حلفوا كاذبين ثم قال ﴿**فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ يعني صرفوا الناس عن دين الله وهو الإسلام ﴿**إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ يعني بئس ما كانوا يعملون حيث أظهروا الإيمان وأسروا الكفر وصدوا الناس عن الإيمان ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ**﴾ يعني ذلك الحلف وصرف الناس عن الإيمان بأنهم ﴿**آمَنُوا**﴾ يعني: أقروا باللسان علانية ﴿**ثُمَّ كَفَرُوا**﴾ يعني كفروا في السر ﴿**فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾ بالكفر ﴿**فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ الهدى ولا يرغبون فيه، قوله تعالى ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ**﴾ يعني المنافقين ﴿**تُعْجِبُكَ**

---

(١) أغراض هذه السورة فضح أحوال المنافقين بعد كثير من دخائلهم وتولد بعضها عن بعض من كذب، وخيس بعهد الله، واضطراب في العقيدة، ومن سفالة نفوس في أجسام ثغر وتعجب، ومن تصميم على الإعراض عن طلب الحق والهدى، وعلى صد الناس عنه وكان كل قسم من آيات السورة المفتتح بـ «إذا» خص بغرض من هذه الأغراض. وقد علمت أن ذلك جرت إليه الإشارة إلى تكذيب عبد الله بن أبي بن سلول فيما حلف عليه من التنصل مما قاله.

وختمت بموعظة المؤمنين وحثهم على الإنفاق والادخار للآخرة قبل حلول الأجل. التحرير ٢٨/ ٢٣٣.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٥٣٩.

﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني عبد الله بن أبي بن سلول المنافق كان رجلاً جسيماً فصيحاً يعني يعجبك منظرهم وفصاحتهم، **﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾** يعني تصدقهم فتحسب أنهم محقون **﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾** قال مقاتل فيها تقديم يقول كأن أجسامهم خشب مسنده بعضها على بعض قائماً وإنها لا تسمع ولا تعقل ويقال خشب مسنده يعني خشب أسند إلى الحائط ليس فيها أرواح فكذلك المنافقون لا يسمعون الإيمان ولا يعقلون قرأ الكسائي وأبو عمرو وابن كثير في إحدى الروايتين (كأنهم خشب) بجزم الشين والباقون بالضم[١] ومعناهما واحد، وهو جماعة الخشب فوصفهم بتمام الصور ثم اعلم أنهم في ترك التفهم بمنزلة الخشب ثم قال **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾** فوصفهم بالجبن أي كلما صاح صائح ظنوا أن ذلك لأمر عليهم ويقال إن كل من خاطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا يخافون ويظنون أنه مخاطب يخاطبه في أمرهم وكشف نفاقهم ثم أمر أن يحذرهم وبين أنهم أعداؤه فقال **﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾** يعني هم أعداؤك **﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾** ولا تأمن من شرهم ثم قال **﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾** يعني لعنهم **﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾** يعني من أين يكذبون، ويقال من أين يصرفون عن الحق ثم قال عز وجل **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤوسَهُمْ﴾** يعني: عطفوا رؤوسهم رغبة عن الاستغفار وأعرضوا عنه وذلك أن عبد الله بن أبي بن سلول قيل له يا أبا الحباب قد أنزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت وما بقي إلا أن أسجد لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ نافع لووا رؤوسهم بالتخفيف والباقون بالتشديد[٢] ومن قرأ بالتخفيف فهو من لوى يلوي ومن قرأ بالتشديد فهو للتكثير ثم قال **﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾** يعني يعرضون عن الاستغفار مستكبرين عن الإيمان في السر.

ثم أخبر أن الاستغفار لا ينفعهم ما داموا على نفاقهم فقال **﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** لأنهم منافقون **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** يعني لا يرشدهم إلى دينه لأنهم لا يرغبون فيه.

هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ
وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟
مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ
وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

ثم قال **﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾** يعني: يتفرقوا وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله يقول كنا في غزوة فكسح رجل من المهاجرين رجلاً من

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٠٩.

(٢) حجة القراءات الموضوع السابق.

الأنصار فقال الأنصاري يآل الأنصار، وقال المهاجري يال المهاجرين فسمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال ما بال دعوى الجاهلية دعوها فإنها فتنة فقال عبد الله بن أبي والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب رأس هذا المنافق فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل[١] أصحابه[٢] وروى معمر عن قتادة أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه لا تنفقوا على من عند رسول الله فإنكم لو لم تنفقوا عليهم قد انفضوا قال فاقتتل رجلان أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حليف الأنصار فظهر عليهم الغفاري فقال رجل منهم عظيم النفاق يعني عبد الله بن أبي عليكم صاحبكم حليفكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذلّ. وروى معمر عن الحسن أن غلاماً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا نبي الله إني سمعت أن عبد الله بن أبي يقول كذا فقال. فلعلك غضبت عليه فقال أما والله يا نبي الله فلقد سمعته يقول: فلعله أخطأ سمعك فقال: لا، والله يا نبي الله لقد سمعته يقول فأنزل الله تعالى تصديقاً للغلام لئن رجعنا إلى المدينة فأخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأذن الغلام وقال وعت أذنك يا غلام[٣] فنزل قوله تعالى: هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني مفاتيح السموات، وهي المطر والرزق ومفاتيح الأرض وهي النبات ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أمر الله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ يعني القوي منها يعني من المدينة الذليل: يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه قال الله تعالى ﴿ولِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ يعني: المقدرة والمنعة لله ولرسوله ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث قواهم الله تعالى ونصرهم ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لا يصدقون في السر ويقال: ولله العزة يعني القدرة ويقال نفاذ الأمر ولرسوله وهو عزة النبوة والرسالة وللمؤمنين وهو عز الإيمان والإسلام أعزهم الله في الدنيا والأخرة ولكن المنافقين لا يعلمون.

ثم قال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ يعني: لا تشغلكم أموالكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يعني عن طاعة الله تعالى ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعني من لم يعمل بطاعته ولم يؤمن بوحدانيته ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يعني: المغبونين بذهاب الدنيا وحرمان الآخرة ثم قال عز وجل ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني: تصدقوا مما رزقناكم أي مما رزقكم الله من الأموال ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يعني يقول يا سيدي ردني إلى الدنيا ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ يعني فأتصدق ويقال أصدق بالله ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني أفعل كما فعل المؤمنون وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال من كان له مال يجب فيه الزكاة فلم يزكه أو مال يبلغه بيت الله فلم يحج سأل عند الموت الرجعة قال ـ فقال رجل اتق الله يا ابن عباس سألت الكفار الرجعة قال إني أقرأ عليك بهذا القرآن ثم قرأ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) إِلَى قَوله (فَأَصَّدَقَ وأَكُنْ مَن الصَّالِحِينَ)[٤].

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢٥ وعزاه لسعيد بن منصور والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل، هو عند البخاري في (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة (٦٣/٢٥٨٤) والترمذي (٣٣١٥).

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/١١٠.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٢١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢٦ وعزاه لعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه.

فقال رجل يا ابن عباس وما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعداً قال فما يوجب الحج قال الزاد والراحلة، قرأ أبو عمرو (فأصدق وأكون) بالواو وفتح النون والباقون (وأكن) بحذف الواو بالجزم[١] فمن قرأ (أكون) لأن قوله فأصدق جواب (لولا أخرتني) بالفاء فأكون معطوفاً عليه، ومن قرأ (فاكن) فإنه عطفه على موضع فأصدق لأنه على معنى إن أخرتني أصدق وأكن ولم يعطفه على اللفظ قال أبو عبيدة: قرأت في مصحف عثمان هكذا بغير واو ثم قال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ يعني: إذا جاء وقتها ﴿واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخير والشر فيجازيكم قرأ عاصم في رواية أبي بكر يعلمون بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة والله أعلم.

(١) انظر حجة القراءات الموضع السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٥٤٠.

سُورَةُ التَّغَابُنِ (١)

وهي ثماني عشرة آية مَدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي له الملك الدائم الذي لا يزول يعني: يحمده المؤمنون في الدنيا وفي الجنة كما قال ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ في الأولَىٰ والآخِرةِ ويقال له الحمد يعني: هو المحمود في شأنه وهو أهل أن يحمد لأن الخلق كلهم في نعمته فالواجب عليهم أن يحمدوه ثم قال ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني: قادر على ما يشاء ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يعني: يخلقكم من نفس واحدة ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ يعني: منكم من يصير كافراً، ومنكم من يصير أهلاً للإيمان، ويؤمن بتوفيق الله تعالى، ويقال منكم من خلقه كافراً

(١) اشتملت هذه السورة على التذكير بأن من في السماء ومن في الأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عن النقائص تسبيحاً متجدداً.

وأن الملك لله وحده فهو الحقيق بإفراده بالحمد لأنه خالق الناس كلهم فآمن بوحدانيته ناس وكفر ناس ولم يشكروا نعمة إذ خلقهم في أحسن صورة وتحذيرهم من إنكار رسالة محمد ﷺ. وإنذارهم على ذلك ليعتبروا بما حل بالأمم الذين كذبوا رسلهم وجحدوا بيناتهم تكبراً أن يهتدوا بإرشاد بشر مثلهم.

والإعلام بأن الله عليم بالظاهر والخفي في السموات والأرض فلا يجري أمر في العالم إلا على ما اقتضته حكمته.

وأنحى عليهم إنكار البعث وبين لهم عدم استحالته وهددهم بأنهم يلقون حين يبعثون جزاء أعمالهم، فإن أرادوا النجاة فليؤمنوا بالله وحده وليصدقوا رسوله ﷺ والكتاب الذي جاء به ويؤمنوا بالبعث فإنهم إن آمنوا كفرت عنهم سياتهم وإلا فجزاءهم النار خالدين فيها.

ثم تثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من ضر أهل الكفر بهم فليتوكلوا على الله في أمورهم وتحذير المؤمنين من بعض قرابتهم الذين تغلغل الإشراك في نفوسهم تحذيراً من أن يثبطوهم عن الإيمان والهجرة.

وعرض لهم بالصبر على أموالهم التي صادرها المشركون. وأمرهم بإنفاق المال في وجوه الخير التي يرضون بها وبهم وبتقوى الله والسمع له والطاعة. انظر التحرير ٢٨/٢٥٩.

ومنكم من خلقه مؤمناً، كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى وإلى[١] هذا ذهب أهل الجبر، ويقال فمنكم كافر يعني: كافر بأن الله تعالى خلقه وهو كقوله: (قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه) وكقوله (أكفرت بالذي خلقك من تراب)، ويقال (فمنكم كافر) يعني كافراً في السر وهم المنافقون (ومنكم مؤمن) وهم المخلصون ويقال: هذا الخطاب لجميع الخلق، ومعناه: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالله وهم المشركون ومنكم مؤمن وهم المؤمنون يعني: استويتم في خلق الله إياكم واختلفتم في أحوالكم فمنكم من آمن وبالله ومنكم من كفر ثم قال ﴿والله بما تعلمون بصير﴾ يعني: عليماً بما تعملون من الخير والشر ثم قال عز وجل: ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ يعني: بالحق والحجة والثواب والعقاب ﴿وصوركم﴾ يعني: خلقكم ﴿فأحسن صوركم﴾ يعني: خلقكم على أجمل صورة وهذا كقوله (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)، وكقوله (ولقد كرمنا بني آدم) ثم قال ﴿وإليه المصير﴾ يعني: إليه المرجع في الآخرة فهذا التهديد يعني: كونوا على الحذر لأن مرجعكم إليه ثم قال ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ يعني: من كل موجود ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ يعني: ما تخفون وما تضمرون في قلوبكم وما تظهرون وتعلنون بألسنتكم ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ يعني: عليماً بسرائركم ثم قال الله عز وجل: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به: التوبيخ والتقريع يعني: قد أتاكم خبر الذين كفروا من قبلكم ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ يعني: أصابتهم عقوبة ذنبهم في الدنيا ثم أخبر أن ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم فقال: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ في الآخرة ثم بين السبب الذي أصابهم به العذاب فقال: ﴿ذلك﴾ العذاب ﴿بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ يعني: بالأمر والنهي، ويقال بالبينان يعني: بالدلائل والحجج ﴿فقالوا أبشر يهدوننا﴾ يعني آدمياً مثلنا يرشدنا ويأتينا بدين غير دين آبائنا ﴿فكفروا﴾ يعني: جحدوا بالرسل والكتاب ﴿وتولوا﴾ يعني: أعرضوا عن الإيمان ﴿واستغنى الله﴾ تعالى عن إيمانهم ﴿والله غني حميد﴾ عن إيمان العباد، حميد في فعاله يقبل اليسير، ويعطي الجزيل.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ
وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

ثم قال عز وجل: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾ يعني: مشركي العرب زعموا أن لن يبعثوا بعد الموت ﴿قل﴾ يا محمد ﴿بلى وربي لتبعثن﴾ فهذا قسم أقسم أنهم يبعثون بعد الموت ﴿ثم لتنبؤن بما عملتم﴾ يعني: تخبرون بما عملتم في دار الدنيا ويجزون على ذلك ثم قال ﴿وذلك على الله يسير﴾ يعني: البعث والجزاء على الله هين قوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى. وصدقوا برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿والنور الذي أنزلنا﴾ يعني؛ صدقوا بالقرآن الذي نزل به جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(١) أخرجه الترمذي ٤/٤١٩ (٢١٩١). وأحمد في المسند ٣/١٩ والحاكم في المستدرك ٤/٥٠٥ والخطيب في التاريخ ١٠/٢٣٨ وذكره في الدر المنثور ٤/٧٤ وزاد نسبته إلى الطيالسي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

فسمى القرآن نوراً لأنه يهتدى به في ظلمة الجهالة والضلالة ويعرف به الحلال والحرام ثم قال ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعني: عالم بأعمالكم فيجازيكم بها ثم قال ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ يعني: تبعثن في يوم يجمعكم ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يعني: يوم تجمع فيه أهل السماء وأهل الأرض ويجمع فيه الأولون والآخرون، قرأ يعقوب الحضرمي يوم نجمعكم بالنون وقراءة العامة بالياء(١) ومعناهما واحد ثم قال ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يعني: يغبن فيه الكافر نفسه وأصله ومنازله في الجنة يعني: يكون له النار مكان الجنة وذلك هو الغبن والخسران ثم قال ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ يعني: يوحد الله تعالى ويؤدي الفرائض ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ يعني: ذنوبه ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني: النجاة الوافرة قرأ نافع وابن عامر نكفر وندخله كلاهما بالنون والباقون: كلاهما بالياء(٢) ومعناهما واحد.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

ثم وصف حال الكافرين فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بالكتاب والرسول ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني: بئس المرجع الذي صاروا إليه المغبونين ثم قال عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ يعني: ما أصاب بني آدم من شدة ومرض وموت الأهلين ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: إلا بإرادة الله تعالى وبعلمه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يعني: يصدق بالله على المصيبة ويعلم أنها من الله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: إذا ابتلي صبر وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظلم غفر وروي عن علقة بن قيس أن رجلاً قرأ عنده هذه الآية فقال أتدرون ما تفسيرها وهو أن الرجل المسلم يصاب بالمصيبة في نفسه وماله يعلم أنها من عند الله تعالى فيسلم(٣) ويرضى ويقال، من يؤمن بالله يهدي قلبه للاسترجاع يعني يوفقه الله تعالى لذلك ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بثواب من صبر على المصيبة ثم قال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ يعني: أطيعوا الله في الفرائض ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في السنن ويقال أطيعوا الله في الرضا بما يقضي عليكم من المصيبة وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من الصبر وترك الجذع ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يعني: أبيتم وأعرضتم عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٤٢.

(٢) حجتهم أن الاسم الظاهر قد تقدم وهو قوله ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً﴾ فكذلك قوله: ﴿يكفر الله عن سيئاته﴾ ويدخله حجة النون ما تقدم أيضاً وهو قوله: ﴿والنور الذي أنزلنا﴾. ويجوز أن يكون النون كقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ ثم جاء ﴿وآتينا موسى الكتاب﴾.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٢٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان.

ليس عليه أكثر من التبليغ ثم وحد نفسه فقال عز وجل: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ يعني لا ضار ولا نافع ولا كاشف إلّا هو ﴿وَعلى اللَّه فليتوكّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويفوضوا أمرهم إليه. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُم وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ﴾[١] حين يمنعونكم الهجرة ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أن تطيعوهم في ترك الهجرة روى سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن قوماً أسلموا بمكة فأرادوا أن يخرجوا إلى المدينة فمنعهم أزواجهم وأولادهم فلما قدموا على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأوا الناس قد فقهوا في الدين فأرادوا أن يعاقبوا أزواجهم وأولادهم[٢] فنزل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُم عَدُواًلَكُم فَاحْذَرُوهُمْ» ﴿وإِنْ تَعْفُوا﴾ يعني: تتركوا عقابهم ﴿وَتَصْفَحُوا﴾ يعني: وتتجاوزوا ﴿وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لذنوب المؤمنين رحيم بهم ثم قال ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: الذين بمكة بلية لا يقدر الرجل على الهجرة، روي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطبنا فأقبل الحسن والحسين يمشيان ويعثران فلما رآهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نزل إليهما وأخذهما واحداً من هذا الجانب وواحداً من هذا الجانب ثم صعد المنبر فقال صدق الله (إنَّما أموالكم وأولادكم فتنة) لما رأيت هذين الغلامين لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما ثم أتم الخطبة ثم قال[٣] ﴿واللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب عظيم لمن آمن ولمن لم يعص الله تعالى لأجل الأموال والأولاد وأحسن إليهم.

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يعني: على قدر ما أطقتم ﴿واسْمَعُوا﴾[٤] يعني: يعني اسمعوا

---

(١) قال أبو بكر بن العربي في هذا يبين وجه العداوة فإن العدو لم يكن عدواً لذاته وإنما كان عدواً بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل، فحق على الله أن يدخله الجنة). وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالوسوسة، والثاني بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب قال الله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ وفي حكمة عيسى عليه السلام: من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همة أخس من همة ترتفع بثوب جديد. انظر القرطبي ١٨/ ٩٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٢٨ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه.

(٤) ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد. ذكر الطبري: وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا =

ما تؤمرون به من المواعظ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ يعني: وأطيعوا الله والرسول ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفسِكُم﴾ يعني: تصدقوا خيراً: يعني: وأنفقوا من أموالكم في حق الله تعالى لأنفسكم يعني ثوابه لأنفسكم ويكون زاداً لكم إلى الجنة، ويقال معناه: تصدقوا خيراً لأنفسكم من إمساك الصدقة ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ يعني: يدفع البخل عن نفسه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الناجين السعداء وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: صادقاً من قلوبكم ﴿يُضَاعِفهُ لَكُمْ﴾ يعني؛ القرض يضاعف حسناتكم ويقال يضاعفه لكم يعني الله تعالى يضاعف القرض لكم فيعطي للواحد عشرة إلى سبعمائة إلى ما لا يحصى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني: يغفر لكم ذنوبكم ﴿واللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعني: يقبل اليسير ويعطي الجزيل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل بالعقوبة لمن يبخل ثم قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وقد ذكرناه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني العزيز في ملكه الحكيم في أمره. سبحانه وتعالى ـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

= اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: جاء أمر شديد قالوا: ومن يعرف قدر هذا أو يبلغه؟ فلما عرف الله أنه قد اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾. إنها لم تنسخ. ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. انظر القرطبي ١٨/ ٩٥.

سُورَةُ الطَّلَاقِ (١)

وهي اثنتا عشرة آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا
تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ
قَدْرًا ﴿٣﴾ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ
وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ
أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فالخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به هو وأمته بدليل قوله «إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» فذكر بلفظ الجماعة فكأنه قال يا أيها النبي ومن آمن بك إذا طلقتم النساء يعني: أنت وأمتك إذا أردتم أن تطلقوا النساء وقال الكلبي نزلت في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: حين غضب على حفصة بنت عمر فقال: فطلقوهن لعدتهن وقال طاهرات: من غير جماع، وروى أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن

(١) الغرض من هذه السورة تحديد أحكام الطلاق وما يعقبه من العدة والإرضاع والإنفاق والإسكان. تتميماً للأحكام المذكورة في سورة البقرة. والإيماء إلى حكمة شرع العدة. والنهي عن الإضرار بالمطلقات والتضييق عليهن. والإشهاد على التطليق وعلى المراجعة. وإرضاع المطلقة ابنها بأجر على الله. والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما. وتخلل ذلك الأمر بالمحافظة على الوعد بأن الله يؤيد من يتقي الله ويتبع حدوده ويجعل له من أمره يسراً ويكفر له سيئاته.
وأن الله وضع لكل شيء حكمه لا يعجزه تنفيذ أحكامه.
وأعقب ذلك بالموعظة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر الله ورسله وهو حث للمسلمين على العمل بما أمرهم به الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لئلا يحق عليهم وصف العتو عن الأمر وتشريف وحي الله تعالى ـ بأنه منزل من السماء وصادر عن علم الله وقدرته تعالى. التحرير ٢٨/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

عبد الله بن مسعود قال ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ طاهرات من غير جماع[١] روى سفيان عن عمرو بن دينار أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ فطلقوهن لقبل عدتهن وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لو أن الناس أصابوا حد الطلاق لما ندم رجل على امرأته يطلقها وهي طاهرة لم يجامعها فإن بدا أن يمسكها فأمسكها وإن بدا له أن يخلي سبيلها خلى سبيلها وروى عكرمة عن ابن عباس قال: الطلاق على أربعة أوجه: وجهان حلال، ووجهان حرام فأما الحلال بأن يطلقها، من غير جماع أو يطلقها حاملاً، وأما الحرام بأن يطلقها حائضاً أو يطلقها حين جامعها[٣]، وقال الحسن فطلقوهن لعدتهن قال إذا طهرن من الحيض من غير جماع، وقال الزهري وقتادة يطلقها لقبيل عدتها وروى ابن طاوس عن أبيه قال حد الطلاق أن يطلقها قبل عدتها قلت: وما قبل عدتها قال طاهرة من غير جماع ثم قال ﴿وأَحْصُوا الْعِدَّة﴾ يعني: واحتفظوا العدة: فأمر الرجل بحفظ العدة لأن في النساء غفلة فربما لا تحفظ عدتها. ثم قال ﴿واتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ يعني: واخشوا الله ربكم: فأطيعوه فيما أمركم ولا تطلقوا النساء في غير طهورهن فلو طلقها في الحيض فقد أساء والطلاق واقع عليها في قول عامة الفقهاء ثم قال ﴿لَا تُخرجوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ يعني اتقوا الله في إخراجهن من بيوتهن لأن سكناها على الزوج ما لم تنقض عدتها ثم قال ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يعني: ليس لهن أن يخرجن من البيوت، ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِين بِفاحِشةٍ مُبيِّنَةٍ﴾ يعني: إلا أن تزني فتخرج لأجل إقامة الحد عليها وهو قول ابن مسعود، وقال الشعبي وقتادة: خروجها في العدة فاحشة وإخراج الزوج لها في العدة معصية، وهكذا روي عن ابن عمرو وإبراهيم النخعي وقال ابن عباس الفاحشة: أن تبذو على زوجها فتخرج[٢]. ثم قال ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ يعني: الطلاق بالسنة وإحصاء العدة من أحكام الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ يعني: يترك حكم الله فيما أمر من أمر الطلاق ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ يعني: أضر بنفسه: ثم قال ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾ يعني: لا تطلقها ثلاثاً: فلعله يحدث من الحب أو الولد خير فيريد أن يراجعها فلا يمكنه مراجعتها وإن طلقها واحدة يمكنه أن يراجعها ثم قال ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني: إذا بلغن وقت انقضاء عدتهن وهو مضي ثلاث حيض ولم تغتسل من الحيضة الثالثة ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني: راجعوهن بإحسان: يعني: أن تمسكوهن بغير إضرار ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني: اتركوهن بإحسان ويقال: فإذا بلغن أجلهن يعني؛ انقضت عدتهن فأمسكوهن بمعروف يعني بنكاح جديد إذا طلقها واحدة أو اثنتين ثم قال عز وجل: ﴿وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ يعني: أشهدوا على الطلاق والمراجعة فهو على الاستحباب ويقال على النكاح المستقبل: فإن أراد به الإشهاد على الطلاق والمراجعة فهو على الاستحباب ولو ترك الإشهاد بالمراجعة جاز الطلاق والمراجعة فإن أراد به الإشهاد على النكاح فهو واجب، لأنه لا نكاح إلاَّ بشهود ثم قال ﴿وأَقيموا الشهادةَ لِلَّهِ﴾ يعني؛ يا معشر الشهود أدوا الشهادة عند الحاكم بالعدل على وجهها لحق الله تعالى ولسبب أمر الله تعالى ثم قال ﴿ذَلِكُم يوعَظُ بِهِ﴾ يعني: هذا الذي يؤمر به ﴿مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ﴾ أي لا يكْتم الشهادة ثم قال ﴿وَمَنْ يتَقِ اللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ يعني: يخشى الله ويطلق امرأته للسنة يجعل له مخرجاً يعني: المراجعة. ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتسِبُ﴾ يعني: في شأن المراجعة، ويقال يجعل له مخرجاً يعني: ينجو من ظلمات يوم القيامة ويرزقه الجنة، ووجه آخر أن من اتقى الله عند الشدة وصبر يجعل له مخرجاً من الشدة ويرزقه من حيث لا يحتسب يعني يوسع عليه من الرزق، وقال مسروق يجعل له مخرجاً قال مخرجه أن يعلم أن الله هو يرزقه وهو يمنحه ويعطيه

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد والطبراني والبيهقي.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٣١ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.
(٤) انظر تفسير الطبري ٢٨/ ١٣٤.

لأنه هو الرازق وهو المعطي وهو المانع كما قال الله تعالى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ)[١] الآية ثم قال عز وجل ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يعني من يثق بالله في الرزق فهو حسبه يعني الله كافيه، وروى سالم بن أبي الجعد أن رجلاً من أشجع أسره العدو فجاء أبوه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فشكا إليه فقال اصبر فأصاب ابنه غنيمة فجاء بهما جبريل ـ عليه السلام ـ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً الآية[٢] وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا رسول الله إن ابني أسره العدو وجزعت الأم فما تأمرني فقال آمرك وإياها أن تستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فرجع إلى منزله فقالت له بماذا أمرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال بكذا فقالت نعم ما أمرك به فجعلا يقولان ذلك فخرج إبنه بغنيمة كثيرةفنزل[٣] قوله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) يعني من يثق بالله في الشدة يجعل له مخرجاً من الشدة ويقال المخرج على وجهين أحدهما أن يخرجه من تلك الشدة، والثاني أن يكرمه فيها بالرضا والصبر ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ يعني: قاضياً أمره: قرأ عاصم في رواية حفص بالغ أمره بغير تنوين بكسر الراء على الإضافة، والباقون بالتنوين[٤] أمره بالنصب، نصبه بالفعل بمعنى يمضي أمره في الشدة والرخاء أجلاً ووقتاً ثم قال: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ يعني: جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ووقتاً لا يتقدم ولا يتأخر قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما لما نزل قوله (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) قال معاذ بن جبل يا رسول الله لو كانت المرأة آيسة لا تحيض كيف تعتد فنزل (واللائي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ) والآية أن تبلغ ستين سنة ويقال خمسين ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ إن شككتم في عدتهن ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ فقام رجل آخر فقال: لو كانت صغيرة كيف عدتها وقام آخر وقال لو كانت حاملاً كيف عدتها فنزل ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يعني: المرأة التي لم تحض فعدتها ثلاثة أشهر مثل عدة الآيسة ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ يعني عدتهن. ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقال عمر لو وضعت ما في بطنها وزوجها على سريره قبل أن يدفن في حفرته لانقضت عدتها وحلت للأزواج[٥] وروى الزهري عن عبد الله عن أبيه أن سبيعة بنت الحارث قد وضعت بعد وفاة زوجها بعشرين يوماً فمر بها السنابل بن بعكك فقال لها أتريدين أن نتزوج فقالت نعم قال: لا حتى يأتي عليك أربعة أشهر وعشر فأتت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال لها قد حللت للزواج يعني انقضت عدتك ثم قال[٦]: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يعني: يصبر على طاعة الله تعالى ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ يعني: ييسر عليه أمره ويوفقه ليعمل على طاعة الله تعالى ويعصمه عن معاصيه ثم قال ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: هذا الذي ذكره حكم الله وفريضته ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: أنزله في القرآن على نبيكم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ويعمل بأحكامه وفريضته ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ يعني ثواباً في الجنة قرأ نافع وابن عامر نكفر عنه بالنون والباقون بالياء ومعناهما يرجع إلى شيء واحد ثم رجع إلى ذكر المطلقات

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٢ وعزاه لسعيد بن منصور والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٢٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٣ وعزاه لابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٤) انظر حجة القراءات ٧١٢، النشر ٢/٣٨٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٦ ـ ٢٣٧ وعزاه لابن أبي شيبة.

(٦) أخرجه البخاري ٨/٥٢١ كتاب التفسير (٤٩٠٩).

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

فقال عز وجل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ يعني أنزلوهن من حيث تسكنوا فيه ﴿مِّنْ وُجْدكم﴾ يعني: من سعتكم والوجد القدرة والغنى ويقال: افتقر فلان بعد وجده ثم قال ﴿وَلَا تضارُّوهنَّ﴾ يعني لا تظلموهن ﴿لِتضيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في النفقة والسكنى ﴿وَإِنْ كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ﴾ يعني إن كن المطلقات ذوات حمل ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقد أجمعوا: أن المطلقة إذا كانت حاملاً فلها النفقة وأما إذا لم تكن حاملاً فإن كان الطلاق رجعياً فلها النفقة. والسكنى بالإجماع، وإن كان الطلاق بائناً فلها السكنى والنفقة في قول أهل العراق وقال بعضهم لها السكنى ولا نفقة ثم قال ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: المطلقات إذا أرضعن أولادكم فأعطوهن أجورهن لأن النفقة على الأب وأجر الرضاع من النفقة فهو على الأب إذا كانت المرأة مطلقة ثم قال ﴿وأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ هموا به وعزموا عليه ويقال هو أن لا تضار المرأة بالزوج ولا الزوج بالمرأة في الرضاع ويقال: وأتمروا بينكم يعني: اتفقوا فيما بينكم يعني الزوج والمرأة يتفقان على أمر واحد بمعروف يعني بإحسان ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ يعني تضايقتم وهو أن يأبى أن يؤتي المرأة لأجل رضاعها وأبت المرأة أن ترضعه ويقال: يعني أراد الرجل أقل مما طلبت المرأة من النفقة ولم يتفقا على شيء واحد ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ يعني يدفع الزوج الصبي إلى امرأة أخرى إن أرضعت بأقل مما ترضع الأم به ثم قال عز وجل ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ يعني ينفق على المرأة ذو الغنى على قدر غناه وعلى قدر عيشه وسعته ويسره ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ يعني ضيق عليه رزقه ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ يعني على قدر ما أعطاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتاهَا﴾ يعني: لا يأمر الله نفساً في النفقة إلا ما أعطاها من المال ﴿سَيَجْعَلُ اللَّه بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ يعني العسر ينتظر اليسر.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني فكم من أهل قرية قرأ ابن كثير وكأين بغير الألف والباقون بغير مد مع تشديد الياء، وهما لغتان ومعناهما واحد يعني وكم من قرية ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ يعين أبت وعصت عن أمر ربها

يعني: عن طاعة ربها قال مقاتل: عتت عن أمر ربها يعني خالفت وعصت وقال الكلبي: العتو المعصية وقال أهل اللغة[١] العتو مجاوزة الحد في المعصية ثم قال ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يعني: عن طاعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ يعني جازاها الله بعملها ويقال حاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً﴾ يعني عذاباً منكراً على معنى التقديم يعني عذبناها في الدنيا عذاباً شديداً وحاسبناها في الآخرة حساباً شديداً ويقال وحاسبناها يعني في الدنيا يعني جازيناها وخذلناها وحرمناها ثم قال عز وجل ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ يعني: جزاء ذنبها ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾ يعني: أهل القرية يعني إن آخر أمرهم صار إلى الخسران والندامة ثم قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾ يعني ما أصابهم في الدنيا لم يكن كفارة لذنوبهم ولكن مع ما أصابهم في الدنيا أعد الله لهم عذاباً شديداً في الآخرة لأنهم لم يرجعوا عن كفرهم ثم أمر المؤمنين بأن يعتبروا بهم ويثبتوا على إيمانهم فقال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ يعني، اخشوا الله وأطيعوه يا ذوي العقول من الناس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله يعني الذين صدقوا بالله ورسوله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ يعني كتاباً ويقال شرفاً وعزاً وهو القرآن. ثم قال ﴿رَسُولاً﴾ يعني أرسل إليكم رسولاً ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ يعني يقرأ عليكم ويعرض عليكم ويقال: قد أنزل إليكم ذكراً ورسولاً يعني كتاباً مع رسوله ليتلو عليكم يعني يقرأ عليكم ﴿آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: واضحات ويقال: بين فيه الحلال والحرام ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: الذين صدقوا بتوحيد الله وطاعته ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني الطاعات ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني من الجهالة إلى البيان ويقال: ليخرج الذين آمنوا اللفظ لفظ المستقبل والمراد به الماضي يعني أخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور يعني من الكفر إلى الإيمان ويقال: هو المستقبل يعني يخرجهم من الشبهات والجهالات إلى الدلالات والبراهين، ويقال: ليدعو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان من قدرة الله الإيمان في سابق علمه ثم قال عز وجل ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ يعني: يصدق بالله ويقال: يثبت على الإيمان ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ يعني فرائض الله وسنن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ قرأ نافع وابن عامر ندخله بالنون والباقون بالياء يعني[٢] يدخله الله تعالى في الآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين في الجنة دائمين فيها ﴿أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ يعني أعد الله له ثواباً في الجنة ثم قال عز وجل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يعني خلق سبع أراضين مثل عدد السماوات ﴿يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني ينزل الوحي من السموات، ويقال: في كل سماء وفي كل أرض أمره نافذ، وقال القتبي الأمر على وجوه الأمر أي القضاء كقوله يدبر الأمر ويعني يقضي القضاء وكقوله ألا له الخلق والأمر أي القضاء والأمر الدين كقوله (وتقطعوا أمرهم بينهم) وكقوله (وظهر أمر الله) أي دين الله والأمر القول كقوله (يتنازعون بينهم أمرهم) أي قولهم، الأمر، العذاب، كقوله (إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ) والأمر القيامة، كقوله (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) والأمر الوحي كقوله (يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ) يعني: الوحي والأمر: الذنب كقوله: (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) أي جزاء ذنبها. وأصل هذا كله، واحد لأن الأشياء كلها بأمر الله تعالى فسميت الأشياء أموراً ثم قال ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني يمكنكم أن تعلموا أن الله على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ يعني أحاط علمه بكل شيء وروى معمر عن قتادة في قوله (سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ) قال في كل سماء وفي كل أرض من أرضه وخلق من خلقه أمر من أموره وقضاء من قضائه سبحانه وتعالى[٣].

---

(١) انظر لسان العرب ٤/٢٨٠٤، ترتيب القاموس ٣/١٥٣. (٢) انظر حجة القراءات ٧١٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

سورة التحريم(١)

وهي اثنتا عَشرة آية مَدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلا في يوم لعائشة رضي الله عنها مع جاريته مارية القبطية فوقعت حفصة على ذلك فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تعلمي عائشة وحرم مارية على نفسه فأخبرت حفصة عائشة بذلك فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فطلق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفصة فأمر الله تعالى رسوله بكفارة اليمين لتحريم جاريته على نفسه وأمره بأن يراجع حفصة فقال له جبريل: راجع حفصة فإنها صوامة قوامه ونزلت هذه الآية يا أيها النبي تحرم ماأحل الله لك(٢) يعني مارية ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ يعني تطلب رضا زوجتك عائشة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ فيما حرم على نفسه ويقال غفور لذنب حفصة ﴿رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعاقبها ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ إِيْمَانِكُمْ﴾ يعني بين الله لكم كفارة أيمانكم، ويقال أوجب الله عليكم كفارة أيمانكم، وفي الآية وجه آخر روى هشام بن عروة عن أميه عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب الحلو والعسل وكان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس فسألت عائشة عن ذلك فقيل لها أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منه فقالت أما والله لنحتالن فذكرت ذلك لسودة،

---

(١) من أغراض هذه السورة ما تضمنه سبب نزولها أن أحداً لا يحرم على نفسه ما أحل الله له لإرضاء أحد إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه فلا ينبغي أن يجعل كالنذر إذ لا قربة فيه وما هو بطلاق لأن التي حرمها جارية ليست بزوجة، فإنما صلاح كل جانب فيما يعود بنفع على نفسه أو ينفع به غيره نفعاً مرضياً عند الله وتنبيه نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه وأسمى مقصداً.

وأن الله يطلعه على ما يخصه من الحادثات.

وأن من حلف على يمين فرأى حنثها خيراً من برّها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير وقد ورد التصريح بذلك في حديث وفد عبد القيس عن رواية أبي موسى الأشعري، وتقدم في سورة براءة.

وتعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهية فالفراق. وموعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضاً ووعظ بعضهم بعضاً.

وأتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها.

وذيل ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء وضدهم لما في ذلك من العظة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم. التحرير ٢٨/ ٣٤٥.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٢٥.

وقالت إذا دخل فإنه سيدنو منك فقولي له أكلت المغافير[١] فإنه سيقول لك لا فقولي له ما هذه الريح وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشتد عليه إذا وجد منه الريح فإنه سيقول لك حفصة سقتني شربة عسل فقولي له جرست نحله العُرُفطُ[٢] يعني أن تلك النحلة أكلت العرفط وهو نبات به رائحة منكرة وسأقول له ذلك وقولي له أنت يا صفية فلما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سودة قالت سودة لقد كدت أن أناديه وأنه لعلى الباب فرقا منك فلما دنا مني قلت أكلت المغافير قال لا فما هذه الريح قال سقتني حفصة شربة عسل قلت جرست نحله العرفط فلما دخل على صفية قالت له مثل ذلك فلما دخل على حفصة قالت له يا رسول الله ألا أسقيك منه قال[٣] لا حاجة لي به وروى بن أبي ملكية عن عبد الله بن عباس قال كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شرب من شراب عند سودة من العسل فدخل على عائشة فقالت له إني أجد منك ريحاً ثم دخل على حفصة فقالت إني أجد منك ريحاً قال أراه من شراب شربته عند سودة والله[٤] لا أشربه فنزل (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ثم قال (قد فرض اللَّه لكم تحلة أيمانكم) يعني أوجب عليكم كفارة ايمانكم ﴿وَاللَّهُ مَولَـكُمْ﴾ يعني ناصركم وحافظكم ﴿وَهُوَ العَلِيمُ﴾ بما قالت حفصة لعائشة في أمر مارية ﴿الْحَكِيمُ﴾ حكم بكفارة اليمين

وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿وَإِذْ أَسرَّ النَّبِيُّ﴾ يعني أخفى النبي ﴿إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ يعني كلاماً ﴿فلمّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ يعني أخبرت بذلك الخبر حفصة عائشة ﴿وأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعني أظهر الله قولها لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفصة فأخبرها ببعض ما أخبرت عائشة ولم يخبرها عن الجميع فذلك قوله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ يعني سكت عن بعض، ومن هذا قيل: إن الكريم لا يبالغ في العتاب، قرأ الكسائي عرف بعضه بالتخفيف يعني جازاها ببعضه، والباقون (عرّف) بالتشديد[٥] يعني عرف حفصه

(١) واحده مغفار وهو صمغ حلو يسيل من شجر العرفط يؤكل، أو يوضع في ثوب ثم ينقع بالماء فيشرب. انظر المعجم الوسيط ٢/٦٦٣.

(٢) هي شجرة تخرج المغفار كما سبق انظر المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٩ وعزاه لابن سعد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه هو عند البخاري في ٨/٥٢٤ (٤٩١٢).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٣٩ وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس.

(٥) هذا من قولك (عرفتك الشيء) أي: أخبرتك به. فالمعنى: عرف حفصه (بعض الحديث) وأعرض عن بعض فلم يعرف أياها على وجه التكرم والإرضاء وألا يبلغ أقصى ما كان منها. وجاء في التفسير أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبرها ببعض ما أعلمه الله عنها أنها قالت. وحجتهم قوله: «فلما نبأها به (أي خبّرها) فهذا دليل على التعريف ويقوى ذلك قوله: «وأعرض عن بعض» يعني أنه لم يعرفها أياه، ولو كان عرف لكان الإنكار ضده فقيل (وأنكر بعضاً) ولم يقل: وأعرض عنه.

ووجه التخفيف لقراءة الكسائي «عرف بعضاً» أي: جازى عليه وغضب من ذلك وحجته في ذلك أنه جاء في التفسير: أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ جازى حفصة بطلاقها. قال الزجاج: وتأويل هذا حسن بين. معنى «عرّف بعضه» أي: جازى عليه، كما =

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ يعني لما أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك الخبر حفصة ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا﴾ يعني من أخبرك بهذا ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ﴾ يعني أخبرني ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قوله تعالى ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني عائشة وحفصة ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يعني مالت قلوبكما عن الحق وذكر عن الفراء أنه قال: معناه إن لا تتوبا إلى الله فقد مالت قلوبكما عن الحق، ويقال: فيه مضمر، ومعناه: إن تتوبا إلى الله يقبل الله توبتكما، ويقال معناه إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما يعني مالت إلى الحق، وروى الزهري عن عبد الله بن عباس قال كنت مع عمر رضي الله عنه حين حج فلما كنا في بعض الطريق نزل في موضع فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان اللتان قال الله تعالى (إن تتوبا إلى الله) فقال عمر رضي الله عنه واعجباً لك يا ابن عباس، قال الزهري كأنه كره ما سأله عنه ولم يكتمه قال هي حفصة وعائشة رضي الله عنهما ثم قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فدخل على حفصة فذكرت لها، فقالت: نعم، فقلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله لا تراجعي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تسأليه شيئاً واسأليني ما بدا لك، قالت كان لي جار من الأنصار يأتيني بخبر الوحي وأتاه بمثل ذلك ـ قالت فأتاني يوماً فناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: ماذا قال طلق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه فقلت خابت حفصة وخسرت فدخل على حفصة وهي تبكي فقلت أطلقكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالت: لا أدري هوذا معتزلاً في هذه المشربة فأتيته فدخلت فسلمت عليه فإذا هو متكىء على رمل حصير قد أثر في جنبه فقلت أطلقت نساءك يا رسول الله قال لا فقلت الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان أقسم أن لا يدخل شهراً عليهن حتى نزل (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) إلى قوله تعالى (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)[١].

ثم قال ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ يعني تعاونا على أذاه ومعصيته فيكون مثلكما كمثل امرأة نوح وامرأة لوط تعملان عملاً تؤذيان بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرأ عاصم وحمزة والكسائي تظاهر بالتخفيف وقرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد وكذلك ابن كثير وابن عامر في إحدى الروايتين[٢] لأن أصله تتظاهر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ يعني وليه وناصره ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحابه رضي الله عنهم قال حدثنا الفقيه ابن جعفر حدثنا أبو بكر أحمد بن حمدان حدثنا أحمد بن جرير قال: حدثنا سعيد بن هشام قال حدثنا هشام بن عبدالملك عن محمد بن أبان[٣] عن عبد الله[٢] بن عثمان عن عكرمة في قوله (وصالح المؤمنين) قال أبو بكر وعمر

= تقول لمن تتوعده: قد علمت ما عملت وقد عرفت ما صنعت. وتأويله (فسأجازيك عليه) لا أنك تقصد إلى أن تعرِّفه أنك قد علمت فقط. ومثله قوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ فتأويله يعلمه الله ويجازي عليه، والله يعلم كل ما يُعمل. فقيل إن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلق حفصة تطليقة، فكان ذلك جزاءها عنده: وكانت صوامة قوامة، فأمر الله عز وجل أن يراجعها فراجعها. حجة القراءات ٧١٣ ـ ٧١٤.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وأحمد والعدني وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٤.

(٣) محمد بن أبان بن وزير البلخي أبو بكر بن إبراهيم المستملي ثقة حافظ. التقريب ٢/١٤٠.

(٤) عبد الله بن عثمان بن عطاء بن أبي مسلم الخراساني أبو محمد لين الحديث. التقريب ١/٤٣٢.

رضي الله عنهما قال عبد الله فذكرت ذلك لسعيد بن جبير قال صدق عكرمة[١]، ويقال صالح المؤمنين يعني خيار أصحابه ثم قال ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ يعني الملائكة أيضاً أنصار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك يعني مع ذلك أعوان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

ثم قال: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ فخوفهن الله تعالى بفراق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهن وعسى من الله واجب يعني إن طلقكن عسى ربه ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً﴾ قرأ نافع وأبو عمرو (يبدله) بتشديد الدال والباقون بالتخفيف[٢] ومعناهما واحد يقال بدل وأبدل ﴿خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾ يعني مستسلمات لأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال يعني معينات ثم قال ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ يعني مصدقات في إيمانهن ﴿قَانِتَاتٍ﴾ يعني مطيعات لله تعالى ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿تَائِبَاتٍ﴾ يعني راجعات عن الذنوب ﴿عَابِدَاتٍ﴾ يعني موحدات مطيعات ﴿سَائِحَاتٍ﴾ يعني صائمات وقال أهل اللغة إنما سمي الصائم سائحاً لأن الذي يسيح للعبادة لا زاد معه يمضي نهاره لا يطعم شيئاً ولذلك سمي الصائم سائحاً ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ الثيبات جميع الثيب والأبكار جمع البكر وهن العذارى، ويقال: هذا وعد من الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يزوجه في الجنة والثيب هي آسية امرأة فرعون، والبكر هي مريم أم عيسى عليه السلام وهي ابنة عمران تكون وليته في الجنة، ويجتمع عليها أهل الجنة فيزوج الله تعالى هاتين المرأتين محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بعدوا أنفسكم عن النار بطاعة الله وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ يعني أهليكم ﴿نَاراً﴾ بتعليمهم ما ينجيهم منها، وقال قتادة: مروهم بطاعة الله تعالى وانهوهم عن معصية الله وقال مجاهد[٣] يعني أوصوا أهليكم بتقوى الله[٤] ويقال: أدبوهم وعلموهم خيراً تقوهم بذلك ناراً ﴿وَقُودُهَا﴾ يعني حطبها، والوقود: ما توقد به النار يعني حطبها ﴿النَّاسُ﴾ إذا صاروا إليها وحطبها

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٣ وعزاه لابن عساكر.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٤ وعزاه لعبد بن حميد.

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قبل أن يصير الناس إليها وهي حجارة الكبريت ثم قال ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعني على النار ملائكة موكلين غلاظ يعني أقوياء يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ﴾ يعني ليسوا كأعوان ملوك الدنيا يمتنعون بالرشوة ولكن يفعلون ﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني لا يفعلون غير ما أمرهم الله تعالى ثم قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ يعني يقول لهم الملائكة يوم القيامة حين يعتذرون لا تعتذروا اليوم يعني لا يقبل منكم العذر ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني تعاقبون بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي ثم أمر المؤمنين بالتوبة عن الذنوب فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ يعني صادقاً في توبته، ويقال: تنصحون لله فيها من غير مداهنة، وروى سماك بن حرب عن النعمان بن بشير، قال: سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن التوبة النصوح فقال هو الرجل يتوب من عمل السوء ثم لا يعود إليه[1] أبداً، وروي عن ابن عباس أنه قال توبة النصوح الندم بالقلب والاستغفار باللسان والإضمار أن لا يعود إليها، قرأ نافع وعاصم في إحدى الروايتين توبة نصوحاً بضم النون والباقون بالنصب[2] فمن قرأ بالنصب فهو صفة التوبة يعني توبة بالغة في النصح، كما يقال: رجل صبور وشكور ومن قرأ بالضم يعني ينصحوا بها نصوحاً كما يقال نصحت له نصحاً ونصوحاً. ثم قال ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني يغفر لكم ما مضى من ذنوبكم إن تبتم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ صار اليوم نصباً لنزع الخافض يعني يكفر عنكم في يوم لا يخزي الله النبي قال الكلبي يعني لا يعذب الله النبي ويقال يوم لا يخزيه فيما أراد من الشفاعة وغيره وتم الكلام ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني على الصراط وروى الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من المؤمنين من نوره أبعد ما بيننا وبين عدن أبين ومنهم من نوره لا يجاوز قدميه فقال: نورهم يسعى بين أيديهم[3] يعني يضيء بين أيديهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ يعني عن أيمانهم وعن شمائلهم على وجه الإضمار ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ ذلك حين طفئت أنوار المنافقين أشفق المؤمنون على نورهم ويتفكرون فيما مضى منهم من العذاب فيقولون ربنا أتمم لنا نورنا يعني احفظ علينا نورنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما مضى من ذنوبنا ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إتمام النور والمغفرة.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا
صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٤، النشر ٢/٣٨٨.

(٣) انظر الدر المنثور ٦/٢٤٥.

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ يعني جاهد الكفار بالسيف وجاهد المنافقين بالقول والتهديد ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اشدد عليهم يعني على كلا الفريقين يعني على الكفار بالسيف وعلى المنافقين باللسان ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعني إن لم يرجعوا ولم يتوبوا فمرجعهم إلى جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني بئس القرار وبئس المرجع.

قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ يعني وصف الله شبهاً لكفار مكة وذلك أنهم استهزؤوا وقالوا إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يشفع لنا فبين الله تعالى إن شفاعته عليه السلام لا تنفع لكفار مكة كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته وذلك قوله ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ﴾ واسمها واعلة ﴿وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ واسمها داهلة ويقال فيه تخويف لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ليثبتن على دينه وطاعته ثم قال ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ يعني نوحاً ولوطاً عليهما السلام ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ يعني خالفتاهما في الدين، وروي عن ابن عباس أنه قال ما زنت امرأة نبي قط وما كانت خيانتهما إلا في الدين، فأما امرأة نوح كانت تخبر الناس أنه مجنون وأما امرأة لوط كانت تدل على الأضياف[١]، وقال عكرمة الخيانة في كل شيء ليس في الزنا ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ يعني لم يمنعهما صلاح زوجهما مع كفرهما من الله شيئاً يعني من عذاب الله شيئاً ﴿وَقِيلَ﴾ لهما في الآخرة ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ فكذلك كفار مكة وإن كانوا أقرباء النبي - صلى الله عليه وسلم - لا ينفعهم صلاح النبي - صلى الله عليه وسلم - وكذلك أزواجه إذا خالفته ثم ضرب الله مثلاً للمؤمنين فقال عز وجل ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بين الله شبهاً وصفة للمؤمنين الذين آمنوا ﴿امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ فإنها كانت صالحة لم يضرها كفر فرعون فكذلك من كان مطيعاً لله لا يضره شر غيره، ويقال: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة يعني لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون صبرت على إيذاء فرعون ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ وذلك أن فرعون: لما علم بإيمانها فطلب منها أن ترجع فأبت ولم ترجع عن إيمانها فوتدها بأربعة أوتاد في يديها ورجليها وربطها وجعل على صدرها حجر الرحاء وجعلها في الشمس فأراها الله تعالى بيتها في الجنة ونسيت ما هي فيه من العذاب وضحكت فقالوا عند ذلك هي مجنونة تضحك وهي في العذاب وروى أبو عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قالت كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس فإذا ذرت أي طلعت الشمس وارتفعت أظلتها الملائكة بأجنحتها وأريت مقعدها[٢] من الجنة وروى قتادة عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال - حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم - وآسية امرأة فرعون ثُمَّ قال الله عز وجل (رَبِّ ابن لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ)[٣] يعني ارزقني في الجنة ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٥ وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/٦٦٠ (٣٨٧٨). وأحمد في المسند ٣/١٣٥، والحاكم في المستدرك ٣/١٥٧ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٩١٩).

﴿وَعَمَلِهِ﴾ يعني من عذاب فرعون وظلمه ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني من قوم فرعون يعني من تعييرهم وشماتتهم ثم قال عز وجل ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ يعني واذكر مريم، ويقال: معناه وضرب الله مثلاً مريم ابنة عمران وصبرها على إيذاء اليهود ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني عفت نفسها عن الفواحش ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أرسلنا جبريل عليه السلام فنفخ في جيب درعها وذلك قوله «فنفخنا فيه من روحنا» أي في جيبها أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى عليه السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ أي صدقت بعيسى عليه السلام ويقال صدقت بالبشارات التي بشرها بها جبريل ﴿وَكُتُبِهِ﴾ يعني آمنت بكتاب الله تعالى، وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وكتبه يعني الكتب التي أنزلت على الأنبياء والباقون بكتابه[١] يعني الإنجيل وقرأ بعضهم وصدقت بكلمة ربها يعني صار عيسى مخلوقاً بكلمة الله فصدقت بذلك ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ يعني المطيعين لله.

---

(١) حجتها أنها صدقت بجميع كتب الله فالجمع أولى وأحسن وقراءة الباقين على إرادة الجنس انظر حجة القراءات ٧١٥.

سُورَةُ المُلْكِ(١)

وتسمى الواقية والمنجيّة وهي ثلاثون آية مَكيّة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ
ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ
عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ
كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن
شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ
بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

قوله تعالى **﴿تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾** يعني تعالى وتعظم وهذا قول ابن عباس وقيل تفاعل من البركة وقال الحسن تبارك يعني تقدس الذي بيده الملك يعني الذي له الملك كما قال له ملك السموات والأرض ويقال الذي

---

(١) الأغراض التي في هذه السورة جارية على سَنن الأغراض في السور المكية. ابتدأت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرده بالملك الحق، والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها. وأنه الذي يجازي عليها.

وانفراده بخلق العوالم العليا خلقاً بالغاً غاية الإتقان فيما تراد له. وأتبعـه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية وتلك دلائل على انفراده بالإلهية.

متخلصاً من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم وأن في اتباع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نجاة من ذلك وفي تكذيبه الخسران وتنبيه المعاندين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى علم الله بما يحوكونه للرسول ظاهراً وخفية بأن علم الله محيط بمخلوقاته.

والتذكير بمنة خلق العالم الأرضي، ودقه نظامة، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.

والموعظة بين الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء ليذكروا قيمة النعم بتصور زوالها. وضرب لهم مثلاً في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وآيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقاً. وفظع لهم حالة الضلال التي ورطوا أنفسهم فيها. ثم وبخ =

بيده الملك يعني الذي له القدرة ونفاذ الأمر ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني في العز والذل يعز من يشاء ويذل من يشاء ثم قال ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال مقاتل خلق الموت يعني (النطفة والعلقة والمضغة وخلق الحياة)[١] يعني خلق إنساناً ونفخ فيه الروح فصار حياً وقال الكلبي: خلق الموت بمنزلة كبش أملح لا يمر على شيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات والحياة شيء كهيئة الفرس البلقاء الأنثى التي يركب عليها جبريل والأنبياء، وقال قتادة في قوله (خلق الموت والحياة) يعني أذل الله ابن آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة وفناء وجعل الآخرة دار جزاء[٢] وبقاء ويقال خلق الموت والحياة يعني قدر الحياة ثم قدر الموت بعد الحياة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ يعني ليختبركم ما بين الحياة والموت ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ في حياته ويقال أيكم أكمل عملاً وأخلص عملاً ويقال خلق الموت والحياة أي خلق الحياة للامتحان وخلق الموت للجزاء كما قيل لولا المحن لقدمنا مفاليس. وذلك أن الله تعالى خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً وابتلاهم بالعمل والأمر والنهي فيستوجبون بفعلهم الثواب والعقاب والابتلاء من الله تعالى أن يظهر من العبد ما كان يعلم منه في الغيب ثم قال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ يعني العزيز بالنقمة للكافر والغفور لمن تاب منهم ثم قال ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ يعني تبارك الذي خلق ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ يعني مطبقاً بعضها فوق بعض مثل القبة ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي من تفوت بغير ألف والباقون بالألف وهما لغتان تفاوت الشيء وتفوت إذا اختلف يعني ما ترى في خلق الرحمن اختلافاً واضطراباً ويقال ما ترى فيها من اعوجاج ولكنه مستوى ويقال معناه ما ترى في خلق السموات من عيب وأصله من الفوت أن يفوت الشيء فيقع فيه الخلل ولكنه متصل بعضها ببعض ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ليعتبروا به ويتفكروا في قدرته فقال عز وجل ﴿فارجع البصر﴾ يعني رد البصر إلى السماء ويقال قلب البصر في السماء ويقال اجتهد بالنظر إلى السماء ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ يعني هل ترى فيها من شقوق ويقال هل ترى فروجاً أو صدوعاً أو خللاً ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ يعني انظر إليها وإنما أمر بالنظر إلى السماء مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى أثر عيبه ما لم ينظر فيه مرة أخرى فأخبر الله تعالى أنه وإن نظر إلى السماء مرتين لا يرى فيها عيباً بل يتحير بالنظر إليها فذلك قوله ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ يعني يرجع البصر ذليلاً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يعني قد أعيا من قبل أن يرى في السماء خللاً وقال القتبي خاسئاً أي مبعداً وهو حسير[٣] أي كليل منقطع عن أن يلحق ما نظر إليه قبل أن يرى شيئاً من الخلل ثم قال ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ يعني بالنجوم والكواكب ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾ يعني جعلنا بعض النجوم رمياً للشياطين إذا تصدوا استراق السمع ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ يعني للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ يعني الوقود ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أعتدنا للذين جحدوا ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ يعني بوحدانية الله تعالى ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ قرىء في الشاذ

= المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم. ووبخهم على استعجالهم موت النبي - صلى الله عليه وسلم - ليستريحوا من دعوته. وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحل بهم من قحط وغيره. التحرير ٢٩/٧ - ٨.

(١) سقط في ظ.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٤٧/٦ وعزاه لعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) قال سيبويه: (فاعل وفعّل بمعنى واحد) تقول (ضاعف وضعّف، وتعاهد وتعهّد) فعلى هذا القياس يكون تفاوت تفوّت) بمعنى. يقال: تفاوت الشيء تفاوتاً وتفوّت تفوّتاً إذا اختلفت، والمعنى: ما ترى في خلقه السماء اختلافاً ولا اضطراباً. قالوا: وتفاوت أجود، لأنهم يقولون: (تفاوت الأمر) ولا يكادون يقولون: تفوّت الأمر. حجة القراءات ٧١٥.

(٤) حسر فلان حسراً أسف وحسر على الشيء تلهف فهو حسران وهي حسرى. انظر المعجم الوسيط ١٧٢/١.

خبر الابتداء ثم قال ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يعني المرجع ثم قال ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ يعني ألقوا الكفـار في نار جهنم ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يعني سمعوا منها ﴿شَهِيقاً﴾ يعني صوتاً كصوت الحمار ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ يعني تغلي كغلي المرجل[1] ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يعني تكاد تتفرق من غيظها على أعداء الله تعالى ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يعني من النار فوج يعني أمة من الأمم ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني رسولاً يخبركم ويخوفكم ﴿قَالُوا بَلَى﴾ يعني يقولون بلى ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ يعني الرسول ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ الرسول ﴿وَقُلْنَا﴾ إنكم لكاذبون على الله تعالى ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني كتاباً ولا رسولاً ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يعني قلنا لهم ما أنتم إلا في خطأ عظيم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ يعني لو كنا نسمع إلى الحق أو نعقل يعني نرغب في الهدى ونتفكر في الخلق ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني مع أصحاب الزقوم في النار، ويقال: يعني ما كنا في أهل النار ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ يعني أقـروا بشركهم ﴿فَسُحْقاً﴾ يعني فبعداً من رحمة الله تعالى ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني الوقود، وقال الزجاج: فسحقاً نصب على المصدر، فمعناه أسحقهم الله سحقاً فباعدهم من رحمته ـ والسحق البعيد كقوله (في مَكَانٍ سَحِيقٍ) أي بعيد قرأ الكسائي بضم السين والحاء وجزم الحاء والباقون بضم السين وهما لغتان[2] معناهما واحد، ثم بين حال المؤمنين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾

فقال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يعني يخافون الله تعالى ويخافون عذابه الذي هو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فهو عذاب يوم القيامة ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ يعني مغفرة لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني ثواباً عظيماً في الجنة ثم قال ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو جهرتم به ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني بما في القلوب من الخير والشر وذلك أن جماعة من الكفار كانوا يتشاورون فيما بينهم فقال بعضهم لبعض لا تجهروا بأصواتكم فإن رب محمد يسمع فيخبره.

قال الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل لهم يا محمد أسروا قولكم أو اجهروا به فإنه يعلم به ثم أخبر بما هو أخفى من هاتين الحالتين فقال إنه عليم بذات الصدور يعني فكيف لا يعلم قول السر ثم قال عز وجل ﴿ألا يعلم من خلق﴾ يعني ألا يعلم السر من خلق السر يعني هو خلق السر في قلوب العباد فكيف لا يعلم بما في قلوب

---

(1) المرجل: القدر من الطين المطبوخ أو النحاس انظر المعجم الوسيط ١/٣٣٢.

(2) انظر حجة القراءات ٧١٦.

العباد ثم قال **﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** يعني: لطف علمه بكل شيء يعني يرى ... في ...
الخير والشر ويقال لطيف يرى أثر النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء (خبير) يعني عالم بأفعال العباد وأقوالهم. ثم ذكر نعمه على خلقه ليعرفوا نعمته فيشكروه ويوحدوه فقال **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذُلُولاً﴾** يعني خلق لكم الأرض ذلولاً ومدها وذللها وجعلها لينة لكي تزرعوا فيها وتنتفعوا منها بألوان المنافع **﴿فامشوا في مناكبها﴾** يعني لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وجبالها وهذا خبر بلفظ الأمر وقال القتبي فامشوا في مناكبها يعني جوانبها ومنكبا الرجل جانباه وقال قتادة مناكبها جبالها قال وكان لبشر بن كعب سرية فقال لها إن أخبرتيني ما مناكب الأرض فأنت حرة لوجه الله فقالت مناكبها جبالها فصارت حرة ـ فأراد أن يتزوجها فسأل أبو الدرداء فقال له دع ما يريبك إلى ما لا يريبك[1] ويقال هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً أي سهل لكم السلوك فامشوا في مناكبها أي ـ تمشون فيها **﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾** يعني تأكلون من رزق الله تعالى وتشكرونه **﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾** يعني إلى الله تبعثون من قبوركم ويقال معناه هو الذي ذلل لكم الأرض قادر على أن يبعثكم لأنه ذكر أولاً خلق السماء ثم ذكر خلق السماء ثم ذكر خلق الأرض ثم ذكر النشور ثم خوفهم فقال عز وجل **﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾** قال الكلبي ومقاتل يعني أمنتم عقـوبة من في السماء يعني الرب تعالى إن عصيتموه ويقال هذا على الاختصار ويقال أمنتم عقوبة من هو جار حكمه في السماء.

قرأ أبو عمرو ونافع آمنتم بالمد والباقون بغير مد بهمزتين ومعناهما[2] واحد وهو الاستفهام والمراد به التوبيخ وقرأ ابن كثير بهمزة واحدة بغير مد على لفظ الخبر **﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾** يعني يغور بكم الأرض كما فعل بقارون **﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾** يعني تدور بكم إلى الأرض السفلى **﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾** يعني عذاب من في السماء **﴿أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾** يعني حجارة كما أرسلنا إلى قوم لوط وقال القتبي أم على وجهين مرة يراد بها الاستفهام كقوله ـ (أم يحسدون الناس) ومرة يراد بها **«أو»** كقوله **(أم أمنتم)** ويعني أو أمنتم وهذا كقوله أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم قال **﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾** يعني تعبيري عليهم بالعذاب ويقال معناه سيظهر لكم كيف عذابي ثم قال **﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾** يعني الأمم الخالية كذبوا رسلهم **﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾** يعني كيف كانت عقوبتي إياهم وإنكاري لهم ثم قال **﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾** يعني أو لم يعتبروا في خلق الله تعـالى كيف خلق الطيـور **﴿فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾** يعني بـاسطات اجنحتهـا في الهواء **﴿وَيَقْبِضْنَ﴾** يعني ويضممن أجنحتهن ويضربن بها **﴿ما يمسكهن﴾** يعني ما يحفظهن في الهواء عند القبض والبسط **﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾** يعني عالماً بصلاح كل شيء.

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٨ وعزاه لابن المنذر.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٦.

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ يعني حزب لكم ومنفعة لكم ﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ يعني من عذاب الرحمن ومعناه هاتوا أخبروني من الذي يمنعكم من عذاب الله تعالى إن عصيتموه ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ يعني ما الكافرون إلا في خداع وأباطيل ثم قال عز وجل ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ يعني من الذي يرزقكم إن حبس الله رزقه وهذا كقوله ـ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ثم قال ﴿بَل لَّجُّوا﴾ يعني تمادوا في الذنب، ويقال تمادوا في الكفر ويقال بل مضوا ﴿في عُتُوٍّ﴾ يعني في تكبر ﴿وَنُفُورٍ﴾ يعني تباعداً من الإيمان ثم قال عز وجل ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه﴾ يعني الكافر يمشي ضالاً في الظلمة أعمى القلب ﴿أهدى﴾ يعني هو أصوب ديناً ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو المؤمن يعمل بطاعة الله يعني على دين الإسلام، وقال قتادة أفمن يمشي مكباً على وجهه قال هو الكافر عمل بمعصية الله يحشره الله تعالى يوم القيامة على وجهه أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم هو المؤمن يعمل بطاعة الله تعالى يسلك به يوم القيامة طريق الجنة[1] وقال الزجاج أعلم الله تعالى أن المؤمن يسلك الطريق المستقيم وإن كان الكافر في ضلال بمنزلة الذي يمشي مكباً على وجهه، قال مقاتل نزلت في شأن أبي جهل وقال بعضهم هو وجميع الكفار ثم قال ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾ يعني خلقكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لكي تسمعوا بها الحق ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ يعني لكي تبصروا ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ يعني القلوب لكي تعقلوا بها الهدى ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يعني شكركم فيما صنع إليكم قليلاً، ويقال معناه خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة آلة لطاعات ربكم وقطعاً لحجتكم وقدرة على ما أمركم فاستعملتم الآلات في طاعة غيره ولم توحدوه. ثم قال عز وجل ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني خلقكم ويقال كثركم في الأرض، وأنزلكم في الأرض ﴿وإليه تحشرون﴾ يعني إليه ترجعون بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني البعث بعد الموت إن كنتم صادقين أنَّا نبعث خاطبوا به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلفظ الجماعة ويقال أراد به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني علم قيام الساعة عند الله ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ يعني مخوف أخوفكم بلغة تعرفونها قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ﴾ يعني لما رأوا العذاب قريباً ويقال لما رأوا القيامة قريبة وسيئت ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني ذللت ويقال قبحت وسودت.

وقال القتبي فلما رأوه زلفة يعني لما رأوا ما وعدهم الله قريباً منهم وقال الزجاج سيئت أي تبين فيها السوء في وجوه الذين كفروا ﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي تشكون في الدنيا قرأ قتادة والضحاك ويعقوب الحضرمي تدعون بالتخفيف يعني تستعجلون وتدعون إليه في قولكم فأمطر علينا حجارة من السماء وقراءة العامة تدعون

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٩ وعزاه لعبد بن حميد وعبد الرزاق وابن المنذر.

بالتشديد[١] يعني تكذبون ويقال من آجله تدعون الأباطيل يعني تدعون أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً لا ترجعون ولا تجازون، ويقال تدعون أي تتمنون قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ يعني إن عذبنا الله ﴿أو رحمنا﴾ يعني غفر لنا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ يعني من ينجيهم ويغيثهم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يعني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لهم نحن مؤمنون بالله ونتوسل بعبادته إليه لا نأمن عذابه على معصيته فكيف تؤمنون مع كفركم به من عذابه وعقوبته فمن يجير الكافرين من عذاب أليم. ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾ يعني قل هو الرحمن بفضله إن شاء عذبنا وإن شاء رحمنا ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يعني فوضنا إليه أمورنا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني فستعرفون عند نزول العذاب من هو في خطأ بين قرأ الكسائي فسيعلمون بالياء بلفظ الخبر والباقون بالتاء[٢] على معنى المخاطبة يعني سوف تعلمون يا كفار مكة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ يعني إن صار ماؤكم غائراً لا تناله الأيدي ولا الدلاء ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ يعني بماء طاهر والغور والغائر يقال ماء غور ومياه غور وهو مصدر لا يثنى ولا يجمع وقال مجاهد بماء معين يعني جار وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما يعني الطاهر وروى أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: سورة في القرآن ثلاثون شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تبارك الذي بيده[٣] الملك﴾ وروى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال يؤتى بالرجل في قبره من قبل رأسه فيقول له ليس لك علي من سبيل قد كان يقرأ على سورة الملك فيؤتى من قبل رجليه فيقول: ليس لك علي سبيل كان يقوم بسورة الملك فيؤتى من قبل جوفه فيقول: ليس لك علي سبيل قد أوعاني سورة الملك قال: وهي المنجية تنجي صاحبها من عذاب القبر وروى ابن الزبير عن جابر قال كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا ينام ـ حتى يقرأ سورة الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه وتبارك[٤] الذي بيده الملك والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٣٨٩.

(٢) انظر المصدر السابق وحجة القراءات ٧١٦.

(٣) أخرجه ابن حبان ذكره الهيثمي في الموارد ٤٣٨ كتاب التفسير (١٧٦٦). والتمهيد لابن عبد البر ٧/٢٦٢ وذكره في الكنز (٢٧٠٥).

(٤) أخرجه الترمذي ٥/١٥٢ (٢٨٩٢) وقال: هذا حديث رواه غير واحد عن ليث بن أبي سليم.

سُورَةُ القَلَمِ(١)

وهي ثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿نٓ والقَلَم﴾ ـ قرأ الكسائي ونافع وعاصم في إحدى الروايتين بالإدغام والباقون بإظهار النون(٢) وهما لغتان ومعناهما واحد قال ابن عباس هي السمكة التي تحت الأرضين وروى الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال أول ما خلق الله تعالى من شيء القلم فقال اكتب قال بما أكتب قال اكتب القدر فيجري بما هو كائن إلى قيام الساعة ثم خلق النون يعني السمكة فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء ففتق منه السموات فاضطربت النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال وإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة(٣) وقال سعيد بن

(١) جاء في هذه السورة الإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الاتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح. وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله «والقلم وما يسطرون». وابتدأت بخطاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تأنيساً له وتسلية عما يلاقيه من أذى المشركين وإبطال مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم. وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وهديه وضلال معانديه وتثبيته. وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الإنسان الكتابة فتتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سبباً لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمزمات كثيرة وتوعدهم بعذاب الآخرة وبلايا الدنيا بأن ضرب لهم مثلاً بمن غرهم عزّهم وثرائهم، فأزال الله ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن الله اجتباهم بالإسلام، وأن آلهتهم لا يغنون عنهم شيئاً من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من طغيانهم ولا حرج عليهم في الإنصات إليها وأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصبر في تبليغ الدعوى وتلقي أذى قومه وأن لا يضجر في ذلك ضجراً عاتب الله عليه نبيه يونس عليه السلام. التحرير ٢٩/٥٨ ـ ٥٩.

(٢) من أظهر قال: هو حرف هجاء، وحكمه أنه ينفصل عما بعده، فبني الكلام فيه على الوقف لا على الوصل. والباقون بنوا الكلام على الوصل. قال الزجاج: والذي أختار إدغام النون في الواو، كانت النون ساكنة أو متحركة. لأن الذي جاء في التفسير يباعدها من الإسكان والتبيين. لأن من أسكنها وبينها فإنما يجعلها حرف هجاء، والذي يدغمها فجائز أن يدغمها وهي مفتوحة. وجاء في التفسير أن (نون): الحوت التي دُحِيَتْ عليها الأرضون السبع، وجاء في التفسير أن (نون): الدواة انظر الحجة ٧١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٤٩/ ٢٥٠ وعزاه لعبد الرزاق الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة والحاكم وصححه البيهقي في الأسماء والصفات والخطيب في تاريخه والضياء في المختارة.

جبير والحسن وقتادة النون (١) الدواة وقال قتادة الدواة والقلم ما قام لله وبه لإصلاح عيش خلقه والله يعلم ما يصلح خلقه. ويقال النون افتتاح اسم الله تعالى وهو النون ويقال هو آخر اسمه من الرحمن وهذا قسم أقسم الله تعالى بالنون والقلم وجواب القسم ما أنت بنعمة ربك بمجنون. فذلك قوله نون ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يكتُب الحفظة من أعمال بني آدم ويقال وما يسطرون يعني تكتب الحفظة في اللوح المحفوظ ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ يعني ما أنت بحمد الله تعالى بمجنون وما أنت بنعمة ربك بمجنون كما يزعمون وذلك أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق إلى قوله (علم الإنسان ما لم يعلم) وعلمه جبريل الصلاة فقال أهل مكة: جن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان النبي يفر من الشاعر والمجنون فلما نسبوه إلى الجنون شق ذلك عليه فنزل (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ويقال بل أنت رسول الله تعالى ثم قال ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ يعني غير مقطوع ويقال: غير محسوب ويقال: لا يمن عليك ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ يعني على خلق حسن، وقال مقاتل يعني: على دين الإسلام وقال عطية يعني: على آدب القرآن ثم قال ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ يعني: سترى ويرون، ويقال فستعلم ويعلمون ﴿بأيكم المفتون﴾ يعني: إذا نزل بهم العذاب تعلمون أيكم المفتون يعني بأيكم المجنون ويقال الباء زيادة، ومعناه أيكم المفتون يعني أيكم المجنون، وقال قتادة يعني أيكم أولى بالسلطة وقال أبو عبيدة أيكم المجنون والباء زيادة واحتج بقول القائل ـ نضرب بالسيف ونرجو بالفرج يعني نرجو الفرج.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

ثم قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني: هو عالم بمن أخطأ الطريق عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِيْنَ﴾ لدينه ثم قال ﴿فَلا تُطِعِ المُكَذِّبِينَ﴾ وذلك أنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه فأمره الله تعالى أن يثبت على دينه فقال لا تطع المكذبين بوحدانية الله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال مجاهد ودوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيميلون إليك(٢)، وقال السدي ودوا لو تكفر فيكفرون وقال القتبي ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم، وكانوا أرادوا أن يعبدوا آلهتهم مدة ويعبدون الله مدة ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ يعني: كذاباً في دين الله، والحلاف مكثار الحلف، مهين ضعيف فاجر نزلت في الوليد بن المغيرة، وقال القتبي، المهين الحقير الدنيء وقال الزجاج وهو فعيل من المهانة وهي القلة ومعناه في هذا الموضع القلة في الرأي والتمييز ثم قال ﴿هَمَّازٍ﴾ يعني؛ الوليد بن المغيرة طعان لعان مغتاب ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: يمشي بين لناس بالنميمة وقال القتبي همار يعني عياب ثم قال: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ يعني: بخيلاً لا ينتفع بماله لنفسه وكان ينفق أمواله على غيره ويقال معناه مناع للخير يعني التوحيد ويمنع الناس عن التوحيد ﴿مُعْتَدٍ﴾ يعني ظلوماً لنفسه ﴿أَثِيمٍ﴾ يعني: فاجراً

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥١ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

قوله تعالى ﴿عُتُلٍّ﴾ يعني؛ شديد الخصومة بالباطل ويقال: عتل يعني أكول شروب صحيح الجسم رحيب البطن ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني مع ذلك ﴿زَنِيمٍ﴾ يعني: ملصق، وقال ابن عباس الزنيم الدعي الملصق ويستدل بقول القائل: .

زنيم(١) تداعاه الرجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع(٢)

ويقال الزنيم الشديد الخلق، وروى شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم يرفعه إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم قال أما الجواظ فالذي جمع ومنع وتدعوه لظى نزاعة للشوى أي الشديد الخلق رحيب الجوف وأما الجعظري فالفظ الغليظ وأما العتل الزنيم صحيح أكول شروب ظلوم(٣) للناس، ويقال الزنيم الدعي وذكر أنه لما نزلت هذه الآية قال لأمه إن محمداً لصادق وأنه قال كذا وكذا فأقرت والدته له بذلك ثم قال ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ يعني: فلا تطعه وإن كان ذا مال وبنين يعني لا تطعه بسبب ماله ثم قال ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ يعني القرآن ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعني: كذبهم وأباطيلهم وقال السدي يعني أساجيع الأولين ثم قال ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يعني: سنضربه على الوجه، ويقال سنسود وجهه يوم القيامة ويقال: سنسمه على أنفه وقال القتبي: للعرب في هذا مذاهب يقولون للرجال إذا سبه سبة قبيحة أو يثني عليه فاحشة قد وسم ميسم سوء يريد أنه ألصق به عاراً لا يفارقه كما أن السمة لا يعفو أثرها وقد وصف الله تعالى الوليد بالحلف والمهانة والمشي بالنميمة والبخل والظلم والاثم والدعوى فألحق به العار لا يفارقه في الدنيا والآخرة قال والذي يدل على هذا ما روي عن الشعبي في قوله عتل بعد ذلك زنيم يعني القتل الشديد والزنيم له زنمة من الشر يعرف بها كما تعرف الشاة.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

ثم قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ يعني: اختبرنا أهل مكة بترك الاستثناء ويقال ابتليناهم بالجوع والشدة ثم قال ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يعني: أهل ضيروان وهي قبيلة باليمن. وروى أسباط عن السدي قال كان قوم باليمن وكان

---

(١) الزنيم: قال الفراء: الزنيم الدعي الملصق بالقوم وليس منهم، وقيل الزنيم الذي يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها ـ لسان العرب ١٨٧٤/٣ ـ مادة (زنم).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٢/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن عساكر، الأكارع قيل الناس السفلة شبهوا بأكارع الدواب وهي قوائمها. انظر لسان العرب ٣٨٥٩/٥ وتفسير القرطبي ١٥٣/١٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٥٢/٦ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر.

أبوهم رجلاً صالحاً وكان إذا بلغ ثماره فأتاه المساكين فلم يمنعهم من دخولها وأن يأكلوا منها وأن يتزودوا فيها فلما مات أبوهم قال بنوه بعضهم لبعض على ما نعطي أموالنا هؤلاء المساكين فقالوا فلندع من يصرفها قبل أن يعلم المساكين ولم يستثنوا فانطلقوا وهم يتخافتون ويقول بعضهم لبعض خفياً أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين فذلك قوله: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ يعني حلفوا فيما بينهم ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: ليُجدنَّها وقت الصبح أي ليقطعنها قبل أن يخرج المساكين ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يعني: لم يقولوا إن شاء الله تعالى وروي في الخبر أن أباهم كان إذا أراد أن يصرم النخل اجتمع هناك مساكين كثيرة وقد جعل له علامة فكل ثمرة تسقط وراء العلامات كانت للمساكين فكانوا يأخذون الثمر قدر ما يتزودون به أياماً كثيرة فلما مات الرجل قال بنوه فيما بينهم إن أبانا كان عياله أقل وحاجته أقل فصار عيالنا أكثر وحاجتنا أكثر فخرجوا بالليل كي لا يشعر بهم المساكين فاحترقت نخيلهم في تلك الليلة فذلك قوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ﴾ يعني: بعث الله تعالى ناراً على حديقتهم بالليل والطائف الذي أتاك ليلاً فأحرقها وهم نائمون ﴿مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كالصـرِيم﴾ يعني صارت الحديقة كالليل المظلم، وقال القتبي الصريم من أسماء الأضداد يسمى الليل صريماً والصبح صريماً لأن الليل ينصرم عن النهار والنهار ينصرم عن الليل ويقال الصريم يعني ذهب ما فيها فكأنه صرم أي قطع وجز. ثم قال ﴿فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ﴾ يعني: نادى بعضهم لبعض ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ يعني: اخرجوا بالغداة جذوا زروعكم وصرام نخيلكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ يعني: إن أردتم أن تصرموها قبل أن يحضرها المساكين ﴿فَانْطَلَقُوا﴾ يعني: ذهبوا إلى نخيلهم ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يعني: يتشاورون فيما بينهم بكلام خفي ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ قال مقاتل: يعني على جد في أنفسهم ﴿قادرين﴾ على جنتهم وقال الزجاج: معناه على قصد وقال القتبي: الحرد: المنع، ويقال الحرد: القصد قادرين: واجدين، ويقال على قوة ونشاط، ويقال على طريق جنتهم، ويقال الحرد اسم تلك الجنة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ يعني: فلما رأوها يعني: أتوها ورأوها مسودة أنكروها ﴿قالوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ يعني: أخطأنا الطريق وليست هذه جنتنا فلما تفحصوا وعلموا أنها جنتهم وأنها عقوبة لهم فقالوا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ يعني: حُرِمْنا منفعتها ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني: أعدلهم وأعقلهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ يعني: هلا تستثنون في أيمانكم ويقال: كان استثناؤهم التسبيح يعني: لولا قلتم سبحان الله؟ فندموا على فعلهم ﴿قالوا سُبْحَانَ رَبِّنا﴾ يعني: نزهوه وعظموه تائبين عن ذنوبهم ويقال نستغفر ربنا ﴿إنا كنا ظالمين﴾ يعني: ضارين بأنفسنا بمنعنا المساكين ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يعني: جعل يلوم بعضهم بعضاً لصنيعهم ذلك ثم ﴿قالوا﴾ بأجمعهم ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ يعني: عاصين بمنعنا المساكين ثم قالوا: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا﴾ يعني: يعوضنا خيراً منها في الجنة ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ يعني: راجين مما عنده قال الله تعالى ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ يعني: هكذا عذاب الدنيا لمن منع حق الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لمن لم يتب ولم يرجع عن ذنبه ويقال: هكذا العذاب في الدنيا لأهل مكة بالجوع ولعذاب الآخرة أعظم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: لو كانوا يفقهون ويقال لو كانوا يصدقون، ثم ذكر ما للمتقين من الثواب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ
تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ
أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى
ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

فقال عز وجل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الآخرة ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فلما ذكر الله تعالى نعيم الجنة قال عتبة بن ربيعة: إن كان كما يقول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن لنا في الآخرة أكثر ما للمسلمين لأن فضلنا وشرفنا أكثر فنزل ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ يعني لا يكون حال المسلمين في الهوان والذل كالمشركين ﴿مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني وَيْحَكم كيف تقضون بالجَوْر ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ يعني: ألكم كتاب تقرأون فيه ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ يعني: في الكتاب مما تتمنون ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ﴾ يعني: ألكم عهد عندنا وثيق ﴿إلى يوم القيامة﴾ يعني: في يوم القيامة ﴿إن لكم لما تحكمون﴾ يعني: ما تقضون لأنفسكم في الآخرة؟ قوله تعالى ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ يعني: أيهم كفيل لهم بذلك؟ ثم قال ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يعني: شهداء يشهدون أن الذي قالوا لهم حق ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ يعني يشهدون أن لهم في الآخرة ما للمسلمين فهذا كله لفظ الاستفهام والمراد به الزجر واليأس يعني ليس لهم ذلك. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يعني اذكر ذلك اليوم ويقال معناه إن الثواب والعقاب الذي ذكر في يوم يكشف عن ساق قال ابن عباس يعني يظهر قيام الساعة، وروى سفيان عن مغيرة عن إبراهيم عن ابن عباس قال عن ساق يعني عن أمر عظيم(١) وقال مجاهد يوم يكشف عن ساق عن بلاء عظيم(٢) وقال قتادة يكشف الأمر عن شدة الأمر(٣) ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ قال الفقيه حدثنا الخليل بن أحمد ثنا ابن منيع(٤) حدثنا هدبة ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة بن أبي موسى قال حدثنا أبي قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون في الدنيا ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم كيف بقيتم وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا رباً كنا نعبده في الدنيا ولم نره قال أوتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال لهم وكيف تعرفونه ولم تروه قالوا لا شبه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجداً ويبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر فيريدون السجود فلا يستطيعون فيقول الله تعالى عبادي ارفعوا رؤوسكم قد جعلت بدل كل رجل منكم رجلاً من اليهود والنصارى في النار(٥). قال أبو بردة فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال والله الذي لا إله إلا هو أحدثك أبوك بهذا الحديث فحلفت له ثلاثة أيمان فقال عمر ما سمعت في أهل التوحيد حديثاً هو أحب إلي من هذا الحديث وقال القتبي يوم يكشف عن ساق هذا من الاستعارة فسمى الشدة ساقاً، لأن الرجل إذا وقع في الشدة شمر عن ساقه فاستعيرت في موضع الشدة ويقال يكشف ما كان خفياً ويقال يبدؤا عن أمر شديد وهو عذاب عظيم يوم القيامة. ثم قال: عز وجل: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ يعني: ذليلة أبصارهم ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يعني: تغشاهم وتعلوهم كآبة وكشوف وسواد وذلك أن المسلمين إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج فلما نظر اليهود والنصارى والمنافقون وهم عجزوا عن السجود حزنوا واغتموا فسودت وجوههم ثم بَيَّنَ المعنى الذي عجزهم عن السجود فقال ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ يعني: يدعون إلى السجود في الدنيا وهم أصحاء معافون فلم يسجدوا.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٤ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥٥ وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) أحمد بن منيع بن عبد الرحمن أبو جعفر البغوي ثقة حافظ مات سنة أربع وأربعين. التقريب ١/ ٢٧.

(٥) انظر تفسير القرطبي.

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن
كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ
رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾
وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: دع هؤلاء الذين لا يؤمنون بالقرآن ويقال فوض أمرهم إليَّ فإني قادر على أخذهم متى شئت ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ يعني: سنأخذهم وسنأتيهم بالعذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: نذيقهم من العذاب درجة من حيث لا يعلمون أن العذاب نازل بهم وأصله في اللغة[1] من الارتقاء في الدرجة وقال السدي: كلما جددوا معصية جدد لهم نعمة وأنساهم شكرها فذلك الاستدراج ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ يعني: أمهل لهم وأؤجل لهم إلى وقت ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ يعني: عقوبتي شديدة إذا نزلت بهم لا يقدرون على دفعها ثم قال ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ يعني: أتسألهم على الإيمان جعلاً ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يعني لأجل الغرم يمتنعون وهذا يرجع إلى قوله أم لكم كتاب فيه تدرسون ثم قال ﴿أم عندهم الغيبُ﴾ يعني: اللوح المحفوظ ﴿فهم يكتبون﴾ يعني: ما يقولون ثم قال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يعني على أمر ربك ولقضاء ربك ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: لا تكن في قلة الصبر والضجر مثل يونس عليه السلام ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ يعني: مكروباً في بطن الحوت وقال الزجاج مكظوم أي مملوء غماً ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني: لولا النعمة والرحمة التي أدركته من الله تعالى ﴿لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ﴾ يعني: لطرح بالصحراء والصحراء هي الأرض التي لا يكون فيها نخل ولا شجر يوارى فيها ﴿وهو مذموم﴾ يعني: يذم ويلام ولكن كان رحمة من الله تعالى حيث نبذ بالعراء وهو سقيم وليس بمذموم قوله تعالى: ﴿فاجْتَبَاه رَبُّهُ﴾ يعني: اختاره ربه للنبوة ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: من المرسلين كقوله (وإن يونس لمن المرسلين) ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الذين كَفَرُوا﴾ يعني: أراد الذين كفروا ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ يعني: ليرهقونك بأبصارهم إن قدروا على ذلك ويقال معناه إذا قرأت القرآن فينظرون إليك نظراً شديداً بالعداوة يكاد يزلقك أي بالعداوة يسقطك من شدة النظر وذكر عن الفراء أنه قال: ليزلقونك بأبصارهم يعني: يعتانونك يعني: يصيبونك بعيونهم وذلك أن رجلاً من العرب كان إذا أراد أن يعتان شيئاً يقبل على طريق الإبل إذا صدرت عن الماء فيصيب منها ما أراد بعينه فأرادوا أن يصيبوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال الكلبي ليزلقونك يعني ليصرعونك ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْر﴾ يعني: قراءتك القرآن ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني: ما هذا القرآن إلَّا عظة للجن والإنس ويقال عز وشرف للعالمين ـ قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (آن كان ذا مال وبنين) بهمزتين والباقون بهمزة واحدة[2] إلا ابن عامر فإنه يقرأ آن كان بالمد فمن قرأ بهمزتين فالألف الأولى للاستفهام والثانية ألف إن ومن قرأ بهمزة واحدة معناه لأن كان ذا مال أي لا تطعه لماله وتحمل لأن كان ذا مال قال أساطير الأولين قرأ نافع. ليزلقونك بنصب الياء والباقون بالضم[3] وهما لغتان ومعناهما واحد. والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١٣٥١. (٢) انظر حجة القراءات ٧١٨. (٣) المصدر السابق والنشر ٢/٣٨٩.

سورة الحاقة(١)

وهي اثنان وخمسون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠)﴾

قوله تعالى: ﴿**الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ**﴾ وهو إسم من أسماء القيامة ومعناه القيامة ما القيامة تعظيماً لأمرها وقال قتادة في قوله (الحاقة) يعني: حقت لكل قوم أعمالهم(٢) يعني: حقت للمؤمنين أعمالهم وللكفارين أعمالهم من حق يحق إذا صح وذكر عن الفراء أنه قال إنما قيل لُها الحاقة لأن فيها حواق الأمور يقال لقد حق عليك الشيء أي وجب ثم قال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ**﴾ يعني: ما تدري أي يوم هو تعظيماً لأمرها ثم وصف القيامة في قوله فإذا نفخ في الصور ثم ذكر من كذب بالساعة والقيامة وما نزل بهم فقال: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالقَارِعَةِ**﴾ يعني: كذبت قوم صالح وقوم هود بالقيامة وإنما سميت قارعة لأنها تقرع قلوب الخلق ثم أخبر عن عقوبتهم في الدنيا فقال: ﴿**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ**﴾ يعني: بطغيانهم ومعناه وطغيانهم حملهم على التكذيب فأهلكوا ويقال أهلكوا بالرجفة الطاغية كما قال في قصته بريح صرصر عاتية يعني عتت على خزانها فذلك قوله: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بريحٍ صَرْصَر عاتية**﴾ يعني: باردة يعني شديدة البرد ﴿**سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ**﴾ يعني: سلطها عليهم ﴿**سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أيام حُسُوماً**﴾ يعني: دائمة متتابعة ويقال عاتية يعني: شديدة حسوماً يعني: كاملة دائمة لا يفتر عنهم وقال القتبي حسوماً أي متتابعة وأصله من حسم الداء لأنه يكون مرة بعد مرة ﴿**فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى**﴾ يعني: في الريح ويقال في الأيام ويقال في القرية صرعى يعني: موتى ويقال هلكى ويقال قلعى مطروحين ﴿**كأنهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ**﴾ يعني:

(١) اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة. وتهديد المكذبين بوقوعه، وتذكيرهم بما حل بالأمم التي كذبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة وتهديد المكذبين لرسل الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذبت. وأدمج في ذلك أن الله نجى المؤمنين من العذاب وفي ذلك تذكير بنعمة الله على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان. ووصف أهوال من الجزاء وتفاوت الناس يومئذ فيه. ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر وعلى نبذ شريعة الإسلام. والتنويه بالقرآن. وتنزيه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن أن يكون غير رسول. وتنزيه الله تعالى عن أن يقر من يتقول عليه. وتثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن. انظر التحرير ١٩/١١١.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم.

منقلعة ساقطة وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال ما أنزل الله تعالى قطرة من ماء إلا بمثقال ولا شعرة من الريح إلا بمكيال إلا يوم[١] عاد ونوح وأما الريح فعتت على خزائنها يوم عاد فلم يكن لهم عليها سبيل وأما الماء طغى على خزانه يوم نوح فلم يكن لهم عليه سبيلاً كما قال الله تعالى (إنا لما طغى الماء) الاية. ثم قال عز وجل: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ يعني: لم يبق أحداً منهم ثم قال عز وجل ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ومن قبله بكسر القاف ونصب الياء الموحدة يعني: ظهر فرعون وأتباعه وأشياعه والباقون بنصب القاف وجزم الباء[٢] يعني: من تقدمه من عتاب الكفار ثم قال ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ يعني: قريات قوم لوط يعني؛ جاء فرعون وقوم لوط بالخــاطئة يعني: بالشرك وبأعمالهم الخبيثة ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: كذبوا رسلـهم ﴿فأخذهم أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ يعني عاقبهم الله عقوبة شديدة.

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ يعني طغى على خزانه يوم نوح كما روي عن ابن عباس ويقال طغى الماء أي ارتفع ويقال في اللغة طغى[٣] الشيء إذا ارتفع جداً وقال قتادة إنه طغى فوق كل شيء خمسة عشر ذراعاً[٤]. ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ يعني: السفينة ومعناه حين غرق الله تعالى قوم نوح حملناكم يا محمـد في السفينة في أصلاب آبائكم ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ يعني: لنجعل هلاك قوم نوح لكم عبرة لتعتبروا بها ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ يعني: يسمع هذا الخبر أذن سامعة ويحفظها قلب حافظ على معنى الإضمار ثم رجع إلى أول السورة فقال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّـورِ نَفْخَةٌ وَاحِـدَةٌ﴾ يعني: نفخ إسـرافيل في الصـور نفخة واحدة ثم قال ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ يعني: قلعت ما على الأرض من نباتها وشجرها وحملت الجبال عن أماكنها ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني: فضربت على الأرض مرة واحدة وهذا قول مقاتل وقال الكلبي يعني رفعت الأرض والجبال فزلزلتا زلزلة واحدة. ويقال فدكتا دكة واحدة أي كسرتا كسرة واحـدة ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْـوَاقِعَةُ﴾ يعني في ذلـك اليوم قـامت القيامـة ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يعني انفرجت السماء بنزول الملائكة ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ يعني: ضعيفة منشقة متمزقة من الخوف ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يعني الملائكة على نواحيها وأطرافها يعني صفوف المـلائكة حـول العرش. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ يعني فوق الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ يعني ثمانية أجزاء من المقربين لا يعلم كثرة عددهم إلا الله وروى عطاء بن السائب عن ميسره في قوله ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يعني: ثمانية من الملائكة أرجلهم في تخوم الأرض السابعة وقال وهب بن منبه أربعة من الملائكة يحملون العرش على أكتافهم لكل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٩ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير.

(٢) انظر حجة القراءات ٧١٨.

(٣) انظر لسان العرب ٤/٢٦٧٧.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

واحد منهم أربعة وجوه وجه ثور ووجه[1] أسد ووجه إنسان روى الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب في قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي
ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا
حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ
الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ
عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ**﴾ أي تساقون إلى الحساب والقصاص وقراءة الكتب، ويقال تعرضون على الله تعالى كقوله وعرضوا على ربك صفا ثم قال: ﴿**لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ يعني لا يخفى على الله منكم ولا من أعمالكم شيء قرأ حمزة والكسائي (لا يخفى) والباقون بالتاء[2] بلفظ التأنيث لأن لفظ خافية مؤنث ومن قرأ بالياء انصرف إلى المعنى يعني لا يخفى منكم خاف والهاء ألحقت للمبالغة ثم قال عز وجل: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه**﴾ يعني: كتابه الذي عمله فرأى فيه الحسنات فسر بذلك ﴿**فَيَقُولُ**﴾ لأصحابه ﴿**هَاؤُمُ**﴾ يعني تعالوا ﴿**اقرؤوا كِتَابِيه**﴾ قال القتبي هاؤم في اللغة[3] بمنزلة خذ وتناول ويقال للاثنين هاؤما وللجماعة هاؤموا والأصل هاكم فحذفوا الكاف وأبدلوها همزة، وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال بلغني أنهم يعرضون ثلاث عرضات فأما عرضتان فهما الخصومات والمعاذير وأما الثالثة فتطاير الصحف في الأيدي، وروى عبد الله بن مسعود نحو هذا[4] ثم قال: ﴿**إِنِّي ظَنَنْت أَنِّي مُلَاق حِسَابِيهْ**﴾ يعني: أيقنت وعلمت أني أحاسب قال الله تعالى - ﴿**فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾ يعني: في عيش مرضي ﴿**في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**﴾ يعني مرتفعة ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾ يعني اجتناء ثمارها قريب يعني شجرها قريب يتناوله القائم والقاعد فيقال لهم ﴿**كُلُوا واشْرَبُوا هَنيئاً**﴾ يعني كلوا من ثمار الجنة واشربوا من شرابها هنيئاً يعني طيباً بلا داء، ويقال حلال لا إثم فيه ﴿**بِمَا أَسْلَفْتُم**﴾ يعني: بما عملتم وقدمتم ﴿**في الأَيَّامِ الْخَالِيَة**﴾ يعني: في الدنيا، ويقال بما عملتم من الأعمال الصالحة في الأيام الماضية يعني في الدنيا ﴿**وأما مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَاله**﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: الآية الأولى نزلت في أبي سلمة بن عبد الأسد وهذه الآية في الأسود بن عبد الأسد، ويقال في جميع المؤمنين وفي جميع الكفار ﴿**فَيَقُولُ يَا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ**﴾ يعني: لم أعط كتابيه ﴿**وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه**﴾ يعني: لم أعلم ما حسابي قوله تعالى: ﴿**يَا لَيْتَها كَانَت الْقَاضِيَةُ**﴾ يا ليتني تركت على الموتة الأولى بين النفختين،

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) انظر حجة القراءات ٧١٨.
(٣) انظر لسان العرب ٦/٤٥٩٩.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦١ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦١ وعزاه لابن جرير والبيهقي في البعث.

ويقال يا ليتها كانت القاضية يعني المنية، قال مقاتل: يتمنى الموت ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ يعني ما أرى ينفعني مالي الذي جمعت في الدنيا ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ يعني: بطل عني عذري وحجتي يقول الله تعالى ﴿خُذُوه فَغُلّوهْ﴾ يعني؛ بالأغلال الثقال ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ يعني أدخلوه ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ يعني: أدخلوه في تلك السلسلة ﴿أَنَّه كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ يعني: لا يصدق بالله العظيم ﴿وَلَا يحضُّ﴾ يعني لا يحث نفسه ولا غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني؛ لا يطعم المسكين في الدنيا ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيوم هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ يعني: قريب يمنع منه شيئاً يعني أحداً يمنع من العذاب ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ يعني؛ ليس له فيها طعام إلا من غسلين، وروى عكرمة عن ابن عباس قال لا أدري ما الغسلين، وروي عنه أنه قال الغسلين ما يسقط عن عروقهم وذاب من أجسادهم، وقال القتبي هو فعلين من غسلت فكأنه غسالة ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ يعني: المشركين وروى عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قرأ عنده لا يأكله إلا الخاطئون وقال ابن عباس كلنا نخطىء ولكن لا يأكله إلا الخاطئون يعني: العاصين الكافرين.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾

ثم قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: أقسم بما تبصرون من شيء، ومن الخلق ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ من الخلق ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: هذا القرآن قول رسول كريم على الله تعالى، يعني جبريل وهذا قول مقاتل ويقال: قول رسول كريم يعني قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أبو العالية، إنه يعني القرآن لقول رسول كريم يقرأ عليك يا محمد ـ ويقال معناه إن الذي ينزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن ويقرؤه عليه جبريل الكريم على الله تعالى ليس الشياطين كما يقولون ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ يعني: القرآن ليس هو بقول شاعر ﴿قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾ يعني: قليلاً ما تؤمنون، وما صلة، قرأ ابن كثير وابن عامر في رواية هشام قليلاً ما يؤمنون بالياء وقليلاً ما يذكرون بالياء والباقون بالتاء على معنى المخاطبة(1) ثم قال ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ يعني: ليس بقول كاهن ليس بقول شيطان أي عراف كاذب ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: قليلاً ما تتعظون ثم قال عز وجل: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن هو كلام رب العالمين أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿وَلَوْ تَقَولَ عَلَيْنَا بَعضَ الأَقَاوِيل﴾ يعني أن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو قال من ذات نفسه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ يعني: لعاقبناه فأعلم الله تعالى أنه لا محاباه لأحد إذا عصاه بالقرآن وإن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعنى: قوله باليمين يعني بالقوة، وقال القتبي إنما قام اليمين مقام القوة لأن قوة كل شيء في يمينه ولأهل اللغة في هذا مذاهب أخر وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة أحد فيقولون خذ بيده وافعل به كذا وكذا،

(1) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٥٩.

قال الله تعالى لو كذب علينا لأمرنا بالأخذ بيده ثم عاقبناه، ويقال لو تقول علينا بعض الأقاويل معناه لو زاد حرفاً واحداً على ما أوحيته إليه أو نقص لعاقبته وكان هو أكرم الناس عليَّ وفي الآية تنبيه لغيره لكيلا يغيروا شيئاً من كتاب الله تعالى ولا يتقولوا فيه شيئاً من ذات أنفسهم ويقال باليمين يعني بالحق، ويقال بالحجة ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنه الْوَتِينَ﴾ وهو عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه يعني لأهلكناه ﴿فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ يعني: ليس أحد منكم يمنعنا من عذابه ﴿وَإِنَّـهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لِتَذْكِـرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: عظة للذين يتقون الشرك والفواحش ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُم مُكَذِّبِينَ﴾ يعني: وإنا لنعلم أن منكم أيها المؤمنون مكذبون بالقرآن يعني: المنافقين ثم قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ يعني: إن هذا القرآن ندامة على الكافرين يوم القيامة لأنه يقال لهم ألم يقرأ عليكم القرآن فيكون لهم حسرة وندامة بترك الإيمان ﴿وإِنَّه لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ يعني: إن تلك الندامة لحق اليقين ويقال إن القرآن من الله تعالى حقاً يقيناً ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ يعني: صلِ لله تعالى ويقال سبحه باللسان والله تعالى أعلم والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

سُورَةُ المَعَارِجِ (١)

وهي أربع وأربعون آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾
وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ
﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى ﴿**سأل سائل**﴾ قرأ نافع بغير همزة والباقون بالهمزة[٢] فمن قرأ بغير همزة فهو من سال يسال، يعني جرى واد بعذاب الله تعالى ومن قرأ بالهمزة فهو من سأل يسأل بمعنى دعا داع ﴿**بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾ وهو النضر بن الحارث فوقع به العذاب فقتل يوم بدر في الدنيا، وقال مجاهد دعا داع بعذاب يقع في الآخرة وهو قولهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة[٣] من السماء ويقال سأل سائل عن عذاب واقع والجواب ﴿**للكافرين لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ**﴾ يعني أن ذلك العذاب من الله واقع للكافرين ﴿**مِنَ اللهِ**﴾ الذي هو ﴿**ذِي المَعَارِجِ**﴾ قال مقاتل: يعني ذي الدرجات يعني السموات السبع وقال القتبي يعني معارج الملائكة أي تصعد ﴿**تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ إليه**﴾ يعني جبريل ﴿**فِي يَوْم كان مقدارُهُ خمسينَ أَلفَ سنةٍ**﴾ يعني ذلك العذاب واقع في يوم القيامة مقداره خمسين[٤] ألف سنة ويقال: يعني يعرج جبريل والملائكة في يوم واحد كان مقداره لو صعد غيرهم خمسين ألف سنة وقال

(١) حوت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثبات ذلك اليوم ووصف أهواله ووصف شيء من جلال الله فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.
ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة وهي أضداد صفات الكافرين. وتثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وتسليته على ما يلقاه من المشركين. ووصف كثير من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم. التحرير ١٥٣/٢٩.

(٢) قال محمد بن يزيد المبرد: من لم يهمز فعلى أحد وجهين إما أن يأخذها من (سال يسيل) من السيل، والوجه الثاني أن يكون من (سِلْتُ أسال)كما تقول (خفت أخاف ونمت أنام). و (سِلْتُ أسال) في معنى سألت أسأل وهي لغة معروفة. والعرب تقول: (سالت أسأل). ويقوى الوجه الأول ما روي عن ابن عباس أنه قال: (من قرأها بلا همزة فإنه واد في جهنم). ومن قرأها مهموزة يريد (النضر. فعلى هذا القول (سائل) واد في جهنم، كما قال: «فسوف يلقون غيا» والغي واد. انظر حجة القراءات ٧٢١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٢٦٤/٦ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) سقط في ظ.

محمد بن كعب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة قال هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة ثم قال عز وجل ﴿فاصْبِرْ صبراً جميلاً﴾ يعني اصبر صبراً حسناً لا جزع فيه ثم أخبر متى يقع العذاب فقال ﴿إنهم يرَوْنَهُ بعيداً﴾ يعني يوم القيامة غير كائن عندهم. ﴿ونَراهُ قريباً﴾ لا خلف فيه ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كالمُهل﴾ يعني اليوم الذي تكون السماء كالمهل أي كدردي الزيت من الخوف ويقال ما أذيب من الفضة أو النحاس ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ﴾ يعني كالصوف المندوف قرأ الكسائي يعرج الملائكة بالياء والباقون بالتاء[1] بلفظ التأنيث لأنها جمع الملائكة ومن قرأ بالياء فلتقديم الفعل وروي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿ولا يُسأل حميم﴾ بضم الياء والباقون بالنصب ومن قرأ بالضم فمعناه أنه لا يسأل قريب عن ذي قرابته لأن كل إنسان يعرف بعضهم بعضاً قوله تعالى ﴿يُبَصَّرونهم﴾ يعني يعرفونهم ملائكة الله تعالى ومن قرأ بالنصب معناه لا يسأل قريب عن قريبه لأنه يعرف بعضهم بعضاً يبصرونهم يعني يعرفونهم ويقال مرة يعرفونهم ويقال ومرة لا يعرفونهم ثم قال عز وجل ﴿يَوَدُّ المُجْرِم﴾ أي يتمنى الكافر ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عذاب يَوْمَئِذٍ بِبَنِيْهِ﴾ يعني ينادي نفسه بولده ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ يعني وزوجته ﴿وأخيه وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيهِ﴾ يعني عشيرته التي يأوى إليهم وقال مجاهد وفصيلته أي قبيلته[2] هكذا روي عن قتادة وقال الضحاك يعني عشيرته ﴿وَمَنْ فِي الأَرضِ جَميعاً﴾ يعني يفادي نفسه بجميع من في الأرض ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ يعني ينجي نفسه من العذاب.

كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ
رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

قال الله تعالى ﴿كَلاَّ﴾ أي حقاً لا ينجيه وإن فادى جميع الخلق ولا يفادي نفسه وقال أهل اللغة كلا ردع وتنبيه يعني لا يكون كما تمنى. ثم استأنف الكلام فقال ﴿كَلاَّ إنها لَظَى﴾ يعني النار والعقوبة لظى اسم من أسماء النار ﴿نَزّاعَةً لِلشَّوى﴾ يعني قلاعة للأعضاء ويقال حراقة للأعضاء والجسد، وقال القتبي الشوى جلود الرأس وأحدها شواة ويعني أن النار تنزع جلود الرأس وعن أبي صالح قال نزاعة للشوى أطراف اليدين والرجلين[3] وقال مقاتل

---

(١) الجموع تذكر إذا قدرت بها الجمع وتؤنث إذا أريد بها الجماعة نحو: قال الرجال وقالت الرجال. قال الله: «كذبت قوم نوح المرسلين» وقال: «إذ قالت الملائكة». فمن قرأ «تعرج» بالتاء فإنه ذهب إلى جماعة الملائكة، ومن قرأ بالياء فإنه ذهب إلى جمع الملائكة. انظر حجة القراءات ٧٢١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٦٥ وعزاه لابن المنذر.

يعني تنزع النار الهامة والأطراف قرأ عاصم في رواية حفص نزاعة نصباً على الحال والباقون بالضم(١) يعني إنها نزاعة للشوى ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ يعني لظى تدعو إلى نفسه تنادي من أعرض عن التوحيد وأعرض عن الإيمان، ويقال إن لظى تنادي وتقول أيها الكافر تعال إلي فإن مستقرك فيّ وتقول أيها المنافق تعال إلي فإن مستقرك فيّ فذلك قوله (تدعو من أدبر وتولى) ثم قال ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ يعني جمع المال ومنع حق الله تعالى قال مقاتل فأوعى يعني فأمسكه فلم يؤد حق الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ يعني حريصاً ضجوراً بخيلاً ممسكاً فخوراً، وقال القتبي هلوعاً يعني شديد الجزع يقال ناقة هلوع إذا كانت شديدة النفس ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني الفقر ﴿جَزُوعاً﴾ يعني لا يصبر على الشدة ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ يعني إذا أصابه الغنى يمنع حق الله تعالى ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ فإنهم ليسوا هكذا وهم يؤدون حق الله تعالى ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ يعني يحافظون على الصلوات ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ يعني معروفاً. ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ يعني للسائل الذي يسأل الناس والمحروم الذي لا يشهد الغنيمة ولا يسهم له وروى وكيع عن سفيان عن قيس عن محمد بن الحسن قال بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - سرية ففتحت فجاء آخرون(٢) بعد ذلك فنزل (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وقال الشعبي أعياني أن أعلم ما المحروم ثم قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني بيوم الحساب ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ يعني خائفين ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ يعني لم يأت لأحد الأمان من عذاب الله تعالى، ويقال لا ينبغي لأحد أن يأمن من عذاب الله تعالى ثم قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وقد ذكرناه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ يعني الأمانات التي فيما بينهم وبين الله تعالى والعهد الذي بينهم وبين الله تعالى والأمانات والعهد التي بينهم وبين الناس حافظون ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ يعني يؤدون الشهادة عند الحاكم ولا يكتمونها إذا دعوا إليها فيؤدون الشهادة على الوجه الذي علموها وحملوها - قرأ عاصم في رواية حفص وأبو عمرو في إحدى الروايتين بشهاداتهم وهو جمع الشهادة والباقون بشهادتهم(٣) وهي شهادة واحدة وإنما تقع على الجنس ثم قال ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني يداومون عليها ويحافظون عليها في مواقيتها ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ يعني أهل هذه الصفة في جنات مكرمون بثواب من الله تعالى بالتحف والهدايا.

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ
نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ

---

(١) قال الزجاج: من نصب فعلى أنها حال مؤكدة كما قال: «هو الحق مصدقاً». وكما تقول: (أنا زيد معروفاً). فتكون «نزاعة» منصوبة مؤكدة لأمر النار. ومن رفعها جعلها بدلاً من «لظى» على تقدير: كلا إنها لظى، وكلا إنها نزاعة للشوى. كذا ذكر الفراء.

وقال الزجاج: والرفع أن تكون «لظى» و «نزاعة» خبرا عن الهاء والألف كما تقول: إنه حلو حامض. تريد أنه قد جمع الطعمين، وتكون الهاء والألف إضماراً للقصة. المعنى: أن القصة نزاعة للشوى. انظر حجة القراءات ٧٢٣ - ٧٢٤.

(٢) انظر تفسير الطبري ٢٩/ ٨٢.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦١.

﴿سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ثم قال تعالى ﴿**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ**﴾ يعني حولك ويقال عندك ناظرين والمهطع المقبل ببصره على الشيء كانوا ينظرون إليه نظرة عداوة يعني كفار مكة وإنما قولهم مهطعين نصباً على الحال ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ**﴾ يعني حلقاً حلقاً جلوساً لا يدنون منه فينتفعون بمجلسه، ويقال: عزين يعني متفرقين، وروى تميم[١] عن طرفه عن جابر بن سمرة قال: دخل علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن جلوس متفرقين فقال مالي أراكم[٢] عزين يعني متفرقين[٣] ﴿**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**﴾ يعني يتمنى كل واحد منهم أن يدخل الجنة كما يدخل المسلمون قال الله تعالى ﴿**كَلَّا**﴾ يعني لا يدخلون ما داموا على كفرهم ثم قال ﴿**إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ**﴾ يعني من النطفة وقال الزجاج معناه أنهم خلقوا من تراب ثم من نطفة فأي شيء لهم يدخلون به الجنة ويقال إنا خلقناهم مما يعلمون فبماذا يتكبرون ويتجبرون. ثم قال عز وجل ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ**﴾ يعني أقسم برب المشارق، وقال في آية (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) وإنما أراد به الناحية التي تطلع الشمس والناحية التي تغرب الشمس منها وقال في أية أخرى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ) يعني مشرق الشتاء ومشرق الصيف ورب المغربين لذلك وقال في هذا الموضع رب المشارق يعني مشرق كل يوم وهي ثمانون ومائة مشرق في الشتاء ومشرق مثلها في الصيف ﴿**وَالْمَغَارِبِ**﴾ يعني مغرب كل يوم ﴿**إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ**﴾ يعني على أن نهلكهم ونخلق خلقاً خيراً منهم ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**﴾ يعني عاجزين ﴿**فَذَرْهُمْ**﴾ يعني اتركهم وأعرض عنهم ﴿**يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا**﴾ يعني حتى يخوضوا، ويلعبوا في الباطل ويستهزئوا ﴿**حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ**﴾ يعني يعاينوا يومهم ﴿**الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ قوله تعالى ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً**﴾ يعني في اليوم الذي يوعدون وفي اليوم الذي يخرجون من القبور سراعاً يعني يسرعون إلى الصوت ﴿**كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾ يعني كأنهم إلى علم منصوب يمضون قرأ بن عامر وعاصم في رواية حفص إلى نصب بضم النون والصاد يعني أصناماً لهم كقوله وما ذبح على النصب والباقون إلى نصب[٤] يعني إلى علم يستبقون وقال أهل اللغة الإيفاض الإسراع ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ**﴾ يعني ذليلة أبصارهم ﴿**تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**﴾ يعني تغشاهم مذلة ثم قال ﴿**ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾ يعني يوعدون فيه العذاب. وهم له منكرون وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) تميم بن طرفة الطائي ثقة. التقريب ١/١١٣.

(٢) أخرجه أبو داود ٤/٢٥٨ (٤٨٢٣) كتاب الأدب وأحمد في المسند ٥/٩٢ ـ ٩٣، والبيهقي في السنن ٣/٢٣٤ والطبراني في الكبير ٢/٢٢٢، ٢٢٤.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٧ وعزاه لعبد بن حميد ومسلم وأبي داود والنسائي وابن مردويه.

(٤) من قرأ بضم النون والصاد جعلاه جمع نِصاب، كما يقول: حمار وحُمُر، ونصاب ونُصُب. والنصب: حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان. فقوله «كأنهما إلى نصب» أي: إلى أصنام لهم. وحجتهما قوله: «وما ذبح على النصب» قال الفراء: النصب واحد وجمعه أنصاب. قال الله تعالى: «والأنصاب والأزلام» فهو واحد الأنصاب. قال الحسن: كأنهم يبدرون إلى نصبهم: أيهم يستلمها. وقال أبو عبيدة: من قرأ بضمتين جعله جمع (نَصْب) كرهْن ورُهُن وسقف وسُقُف. والنَّصْب: العلم يعني الصنم الذي نصبوه. حجة القراءات ٧٢٤ ـ ٧٢٥.

سورة نوح(١)

وهي ثمان وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴿١﴾ قال يقوم إني لكم نذير
مبين ﴿٢﴾ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴿٣﴾ يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن
أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴿٤﴾ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا ﴿٥﴾ فلم يزدهم دعاءي
إلا فرارا ﴿٦﴾ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في ءاذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا
واستكبروا استكبارا ﴿٧﴾ ثم إني دعوتهم جهارا ﴿٨﴾ ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴿٩﴾
فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴿١٠﴾ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴿١١﴾ ويمددكم بأموال وبنين
ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴿١٢﴾ ما لكم لا ترجون لله وقارا ﴿١٣﴾ وقد خلقكم أطوارا ﴿١٤﴾

قوله تعالى ﴿**إنَّا أرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ**﴾ يعني: جعله الله رسولاً إلى قومه ﴿**أنْ أنْذِرْ قَوْمَكَ**﴾ يعني أن خوف قومك بالنار لكن يؤمنوا بالله ﴿**مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أليمٌ**﴾ يعني: الطوفان والغرق ﴿**قَالَ**﴾ لهم نوح عليه السلام ﴿**يَا قَوْمِ إنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ يعني قال نوح لقومه أنبئكم بلغة تعرفونها ﴿**إنِ اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ يعني أنذركم وأقول لكم اعبدوا الله يعني وحدوا الله ﴿**واتَّقُوهُ**﴾ يعني واخشوه واجتنبوا معاصيه ﴿**وأطِيعُونِ**﴾ فيما آمركم ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**﴾ يعني ذنوبكم ومن صلة ﴿**وَيُؤَخِرْكُمْ**﴾ يعني يؤجلكم ﴿**إلَى أجَلٍ مُسَمًّى**﴾ يعني إلى منتهى آجالكم ﴿**إنَّ أجَلَ اللَّهِ**﴾ يعني إن عذاب الله ﴿**إذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ**﴾ يعني لا يستطيع أن يؤخره أحد ﴿**لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ يعني لو كان لكم علم تنتفعون به قوله تعالى ﴿**قَالَ رَبِّ**﴾ يعني دعا نوح بعد ما كذبوه في طول المدة قال رب يعني يا رب ﴿**إنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي**﴾ إلى التوحيد ﴿**لَيْلاً وَنَهاراً**﴾ يعني في كل وقت سراً وعلانية ﴿**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إلَّا فِراراً**﴾ يعني إلى التوحيد تباعداً من الإيمان قال عز وجل ﴿**وَإنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ**﴾ إلى التوحيد ﴿**لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي**

---

(١) أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظم عقاب أعني الطوفان. وفي ذلك تمثيل لحال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع قومه بحالهم.

وفيها تفصيل كثير من دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام وإنذاره قومه بعذاب أليم واستدلاله لهم ببدائع صنع الله تعالى وتذكيرهم بيوم البعث. وتصميم قومه على عصيانه وعلى تصلبهم في شركهم. وتسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها. ودعوة نوح إلى قومه بالاستئصال. وأشارت إلى الطوفان. ودعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين، وبالتبار للكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق وإكثار النسل ونعيم الجنة. التحرير ٢٩/١٨٥ ـ ١٨٦.

آذانِهِمْ﴾ يعني لا يسمعون دعائي ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ يعني غطوا رؤوسهم بثيابهم لكي لا يسمعوا كلامي ﴿وَأَصَرُّوا﴾ يعني أقاموا على الكفر والشرك ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ يعني تكبروا عن الإيمان تكبراً. قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾ يعني دعوتهم إلى الإيمان علانية من غير خفية ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ﴾ يعني صحت لهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ يعني خلطت دعاءهم بالعلانية بدعائهم في السر ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني توبوا وارجعوا من ذنوبكم يعني الشرك والفواحش ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ يعني غفاراً لمن تاب من الشرك ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يعني المطر دائماً كلما احتاجوا إليه ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ يعني يعطيكم أموالاً وأولاداً ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ يعني البساتين ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ يعني في الجنات قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ مالكم لا تخافون لله عظمة في التوحيد وهو قول الكلبي ومقاتل، وقال قتادة مالكم لا ترجون لله عاقبة، ويقال مالكم لا ترجون عاقبة الإيمان يعني في الجنة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال مالكم لا تعلمون حق عظمته[1]، وقال مجاهد مالكم لا ترجون لله عظمة ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ يعني خلقاً بعد خلق، وحالاً بعد حال نطفة ثم علقة ثم مضغة[2]. فمعناه مالكم لا توحدون وقد خلقكم يعني ضروباً، ويقال أراد به اختلاف الأخلاق والمنطق، ويقال أراد به المناظرة.

أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ
أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾
لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾
وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟
عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

ثم وعظهم ليعتبروا فقال عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ يعني ألم تنظروا فتعتبروا كيف خلق الله تعالى ﴿سَبْعَ سَمواتٍ طِبَاقاً﴾ يعني مطبقاً بعضها فوق بعض ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ يعني ضياءاً لبني آدم وإنما قال فيهن أراد به سماء الدنيا لأنها إحداهن ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ يعني نوراً للخلق، ويقال وجعل القمر فيهن نوراً يعني في جميع السموات لأن إحداهن مضيء لأهل السموات وظهره لأهل الأرض، ويقال وجعل القمر فيهن نوراً يعني معهن نوراً ثم قال عز وجل ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ يعني خلقكم في الأرض خلقاً، ويقال يعني خلقكم من الأرض وهو آدم عليه السلام وأنتم من ذريته ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ يعني بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٦٨ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٨ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد والبيهقي.

﴿إِخْرَاجاً﴾ يعني يخرجكم من الأرض يوم القيامة قوله تعالى **﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً﴾** يعني فراشاً **﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا﴾** يعني فتمضوا فيها وتأخذوا فيها **﴿سُبُلاً فِجَاجاً﴾** يعني طرقاً بين الجبال والرمال، ويقال طرقاً واسعة قوله تعالى **﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾** فيما أمرتهم من توحيد الله تعالى **﴿وَاتَّبَعُوا﴾** يعني أطاعوا **﴿مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ﴾** يعني أطاعوا من لم يزده ماله يعني كثرة أمواله **﴿وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً﴾** أي خسراناً في الآخرة **﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾** يعني مكراً عظيماً، ويقال مكروا مكراً كبيراً ويعني قالوا كلمة الشرك والكبير والكبار بمعنى واحد **﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾** يعني قال بعضهم لبعض ويقال قال الرؤساء للسفلة لا تذرن يعني لا تتركوا عبادة آلهتكم **﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾** فهذه أسماء الأصنام التي كانوا يعبدونها يعني لا تتركوا عبادة هذه الأصنام، قرأ نافع وداً بضم الواو والباقون بالنصب[١] ومعناهما واحد وهو اسم الصنم، وقال قتادة: هذه الآلهة كان يعبدها قوم نوح ثم عبدها العرب بعد ذلك وقال القتبي الود صنم، ومنه كانت العرب تسمي عبد ود وكذلك تسمى عبد يغوث.

ثم قال: **﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾** يعني: هذه الأصنام أضلوا كثيراً من الناس يعني: ضلوا بهن كثيراً من الناس كقوله: إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً من الناس ثم قال: **﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً﴾** يعني: خساراً وغبناً ثم قال عز وجل: **﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾** (يعني: بشركهم بالله تعالى أغرقوا في الدنيا)[٢] **﴿فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾** في الآخرة، قال مقاتل: مما خطيئاتهم أغرقوا بخطياتهم، وقال القتبي: بما خطياتهم أغرقوا يعني من خطيئاتهم أغرقوا والميم زيادة ثم قال: **﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً﴾** يعني: أعواناً يمنعونهم من العذاب قرأ أبو عمرو خطاياهم والباقون خطيئاتهم[٣] ومعناهما واحد وهو جمع خطيئة قوله تعالى: **﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾** يعني: لا تدع على ظهر الأرض من الكافرين دياراً يعني: أحداً منهم، ويقال: أصله من الدار يعني نازلاً بها، ويقال في الدار أحد، وما بها ديار، وأصله ديوار فقلبت الواو، ياء ثم شددت أدغمت الياء في الياء[٤] ثم قال عز وجل: **﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾** يعني: إنك إن تتركهم ولم تهلكهم يدعوا الموحدين إلى الكفر **﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾** يعني: يكون منهم الأولاد يكفرون، ويفجرون بعد البلوغ، ويقال: يعني ولا يلدوا إلا أن يكونوا فجاراً كفاراً، وهذا كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ[٥] بغيره ثم قال عز وجل: **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾** يعني: سفينتي وديني وقال الكلبي، ولمن دخل

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٢٦.

(٢) سقط في ظ

(٣) المصدر السابق.

(٤) سقط في ظ.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٣/١٩٤ والخطيب في التاريخ ٥/٣٥٠ وذكره في كشف الخفا ١/٥٤٨ وقال رواه مسلم عن ابن مسعود وكذا العسكري في الأمثال والقضاعي عن ابن مسعود مرفوعاً وأخرجه البيهقي في المدخل والبزار في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً، لكن بلفظ السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، وسنده صحيح، وأخرجه الطبراني في الصغير مقتصراً على السعيد من سعد في بطن أمه، وروي من وجهين آخرين فيهما ضعيفان، ولذا قال ابن الجوزي في أمثاله إنه لا يثبت كذلك مرفوعاً، لكن فيه أن الحافظ ابن حجر قال إنه صحيح، وسبقه لذلك شيخه العراقي هذا وفي الدر للسيوطي ما نصه السعيد من وعظ بغيره، ورواه الرامهرمزي في الأمثال من حديث زيد بن خالد وعقبة بن عامر، قال ابن الجوزي لا يثبت، قال حديث عقبة طويل جداً، أخرجه الديلمي في مسنده، وقد ورد هذا اللفظ عن ابن مسعود موقوفاً أخرجه البيهقي في المدخل انتهى، وقال في اللآلىء قال أبو الفرج بن الجوزي في أمثاله رويناه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يثبت. كشف الخفا ١/٥٤٨.

بيتي مؤمناً يعني: مسجدي ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ يعني: لا تزد الكافرين إلا هلاكاً كقوله تبرناهم تتبيراً وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه كان إذا قرأ القرآن في الليل فمر بآية فيقول لي يا عكرمة ذكرني عند هذه الآية غداً فقرأ ذات ليلة هذه الآية فقال يا عكرمة ذكرني غداً فذكرته ذلك فقال إن نوحاً دعا بهلاك الكافرين، ودعا للمؤمنين بالمغفرة وقد استجيب دعاؤه في المؤمنين فيغفر الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات بدعائه وبهلاك الكافرين فأهلكوا، وروي عن بعض أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال نجاة المؤمنين في ثلاثة أشياء بدعاء نوح عليه السلام، وبدعاء إسحاق عليه السلام وبشفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعني: للمؤمنين والله أعلم.

سُورَةُ الْجِنِّ(١)

وهي ثمان وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن
نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى
اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيّ﴾ يعني: قل يا محمد أوحى الله إلي وأخبرني الله تعالى في القرآن ﴿أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهم تسعة من أهل نصيبين من أهل اليمن من أشرافهم والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين السماء أي بين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فقالوا ما هذا إلا لشيء حدث فضربوا مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء فوجدوا النفر الذين خرجوا نحو تهامة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنخلة وهو يصلي مع أصحابه صلاة الفجر فاستمعوا منه فقالوا هذا والله الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾[٢] فأنزل الله تعالى (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) يعني: طائفة وجماعة من الجن فقالوا إنا سمعنا يعني: قالوا بعدما رجعوا إلى قومهم إنا سمعنا قرآناً عجباً يعني عزيزاً شريفاً كريماً، ويقال عزيزاً لا يوجد مثله، يهدي إلى الرشد يعني: يدعو إلى الهدى وهو الإسلام ويقال إلى الصواب والتوحيد والأمر والنهي، ويقال يدل على الحق ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ يعني: صدقنا بالقرآن، ويقال آمنا بالله تعالى. ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ يعني: إبليس يعني: لن نشرك بعبادته أحداً من خلقه ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: ارتفع عظمة ربنا ويقال ارتفع ذكره، ويقال ارتفع ملكه

(١) من أغراض هذه السورة إثبات كرامة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن دعوته بلغت إلى جنس الجن وإفهامهم فهمَ معانٍ من القرآن الذي استمعوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفهم ما يدعو إليه من التوحيد والهدى وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد. وإبطال عبادة ما يعبد من الجن. وإبطال الكهانة وبلوغ علم الغيب إلى غير الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء. وإثبات أن لله خلقا يدعون الجن وأنهم أصناف منهم الصالحون ومنهم دون ذلك بمراتب وتضليل الذين يتقولون على الله ما لم يقله، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعث، وأن الجن لا يفلتون من سلطان الله تعالى.

وتعجبهم من الإصابة بهجوم الشهب المانعة من استراق السمع، وفي المراد من هذا المنع والتخلص من ذلك إلى ما أوحى الله إلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في شأن القحط الذي أصاب المشركين لشركهم ولمنعهم مساجد الله وإنذارهم بأنهم سيندمون على تألبهم على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومحاولاتهم منه العدول عن الطعن في دينهم. التحرير ٢٩/٢١٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٠ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر والحاكم والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

وسلطانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً﴾ يعني: لم يتخذ زوجة ولا ولداً كما زعم الكفار، واتفق القراء في قوله ـ أنه استمع نفر على نصب الألف لأن معناه قل أوحي إلي بأنه استمع واتفقوا في قوله إنا سمعنا على الكسر لأنه على معنى الابتداء واختلفوا فيما سوى ذلك ـ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر كلها بالنصب بناء على قوله (أنه استمع) إلا في حرفين ـ أحدهما ـ فإن له نار جهنم بالكسر ـ والأخرى قوله ـ فإنه يسلك من بين يديه بالكسر على معنى الابتداء، وقرأ أبو عمرو وابن كثير كلها بالكسر[1] إلا في أربعة أحرف (قل أوحي إلى أنه استمع)، (وأن لو استقاموا) (وأن المساجد)، (وأنه لما قام عبد الله يدعوه)، قرأ عاصم في رواية أبي بكر ونافع في إحدى الروايتين هكذا إلا في قوله وأنه لما قام عبد الله وإنما اختاروا الكسر لهذه الأحرف بناء على قوله إنا سمعنا، وقال أبو عبيد: ما كان من قول الجن فهو كسر ومعناه وقالوا إنه تعالى، وقالوا أنه كان يقول وما كان محمولاً على قوله أوحى فهو نصب على معنى أوحي إلي أنه ثم قال ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً﴾ يعني: جاهلنا يعني إبليس لعنه الله، ويقال وإنه كان يقول سفيهنا يعني كفرة الجن على الله شططاً يعني كذباً وجوراً من المقال.

وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا
مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ
شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ
وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا
لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ
وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿١٧﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ يعني: حسبنا ﴿أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يعني: نتوهم أن أحداً لا يكذب على الله وإلى ها هنا حكاية كلام الجن، يقول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ﴾ يعني: في الجاهلية ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ وذلك أن الرجل إذا نزل في فضاء من الأرض كان يقول أعوذ بسيد هذا الوادي فيكون في أمانهم تلك الليلة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقاً﴾ يعني: زادوا للجن عظمة وتكبروا ويقولن بلغ من سُؤْدُدنا أن الجن والأنس يطلبون منا الأمان ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يعني: كفار الجن حسبوا كما حسبتم يا أهل مكة ﴿أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً﴾ يعني: بعد الموت، يعني: إنهم كانوا غير مؤمنين كما أنكم لا تؤمنون، ويقال إنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً يعني رسولاً فقد أرسل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم رجع إلى كلام الجن فقال

(١) انظر حجة القراءات ٧٢٧.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ يعني: صعدنا وأتينا السماء لاستراق السمع ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً﴾ يعني: حفاظاً أقوياء من الملائكة ﴿وَشُهُباً﴾ يعني: رُمينا نجماً متوقداً ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ يعني: كنا نقعد فيما مضى للاستماع من الملائكة ما يقولون فيما بينهم من الكوائن ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ يعني: نجماً مضيئاً والرصد الذي أرصد للرجم يعني: النجم، وروى عبد الرزاق عن معمر قال قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت أفرأيت قوله (فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) قال غلظ وشدد أمرها حين بُعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال الجن بعضهم لبعض ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ﴾ يعني: يبعثه فلم يؤمنوا فيهلكوا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾ يعني: خيراً وصواباً فيؤمنوا ويهتدوا ويقال لا ندري أخيراً أريد بأهل الأرض أو الشر حين حرست السماء ورُمينا بالنجوم وَمُنعنا السمع، ويقال: أريد عذاباً بمن في الأرض بإرسال الرسول بالتكذيب له أو أراد بهم ربهم خيراً ببيان الرسول لهم هدى وبياناً ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ يعني: الموحدين والمسلمين ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ يعني: ليسوا بموحدين ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾ يعني: فينا أهواء مختلفة وملل شتى، وقال القتبي يعني: فرقاً مختلفة وكل فرقة قدة مثل القطعة في التقدير والطرائق جمع الطريق قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ يعني: علمنا وأيقنا ﴿أَنْ لَن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني: لا يفوت أحد من الله تعالى: ﴿وَلَنْ نعْجِزَهُ هَرَباً﴾ لا يقدر الهرب منه قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ يعني: القرآن يقرؤه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ يعني: صدقنا بالقرآن، ويقال بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ويقال صدقنا بالله تعالى ﴿فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ﴾ قال بعضهم هذا من كلام الله تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمن يصدق بوحدانية الله تعالى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْساً﴾ يعني: نقصاناً من ثواب عمله ﴿وَلَا رَهَقاً﴾ يعني: ذهاب عمله وهذا كقوله تعالى (فلا يخاف ظلماً ولا هضماً)، ويقال هذا كلام الجن بعضهم لبعض فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً والرهق الظلم أن يجعل ثواب عمله لغيره والبخس والنقصان من ثواب عمله، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ يعني: المصدقين بوحدانية الله تعالى: ﴿وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ يعني: العادلين عن طريق الهدى ويقال القاسطون يعني الجائرين يقال قسط الرجل إذا جار وأقسط إذا عدل[1] كقوله تعالى: (إن الله يحب المقسطين) ثم قال ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: أقر بوحدانية الله تعالى وأخلص بالتوحيد له ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوا رَشَداً﴾ يعني: نوراً، وتمنوا وقصدوا ثواباً ثم قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ يعني: العادلين عن الطريق الجائرين ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ يعني: وقوداً، قال الله تعالى ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ قال مقاتل: لو استقاموا على طريقة الهدى يعني أهل مكة ﴿لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ يعني: كثيراً من السماء كقوله (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) ثم قال عز وجل: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يعني: لنبتليهم به كقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة) الآية، وقال قتادة (وأن لو استقاموا على الطريقة) يعني: آمنوا لوسّع الله عليهم[1] الرزق، وقال القتبي هذا مثل ضربه الله تعالى للزيادة في أموالهم ومواشيهم كقوله (ولولا أن يكون الناس) ثم قال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ يعني: توحيد ربه ويقال: يكفر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقرآن ﴿يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾ يعني يكلفه الصعود على جبل أملس، وقال مقاتل (عذاباً صعداً) أي شدة العذاب وقال القتبي: يعني: شاقاً وقال قتادة صعوداً من عذاب الله تعالى لا راحة فيه[2].

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٤ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ
إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ
وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ
أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا
﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**وَأَنَّ المَسَاجِدَ لله**﴾ قال الحسن يعني الصلاة لله تعالى، وقال قتادة: كانت اليهود والنصارى يدخلون كنائسهم ويشركون بالله تعالى فأمر الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يخلص الدعوة له إذا دخل[1] المسجد وقال القتبي: قوله (وأن المساجد لله) يعني: يعني السجود لله ويقال: هي المساجد بعينها يعني: بنيت المساجد ليعبدوا الله تعالى فيها ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً**﴾ يعني: لا تعبدوا أحداً غير الله تعالى، قرأ حمزة والكسائي وعاصم (يسلكه) بالياء والباقون بالنون[2] وكلاهما يرجع إلى معنى واحد يقال سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته قوله عز وجل: ﴿**وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ**﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قام إلى الصلاة ببطن نخلة (يدعوه) يعني: يصلي لله تعالى ويقرأ كتابه ﴿**كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً**﴾ يعني: يركب بعضهم بعضاً ويقع بعضهم على بعض ثم قال عز وجل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي**﴾ قرأ حمزة وعاصم قل إنما أدعو ربي على معنى الأمر يعني: قل يا محمد إنما أدعو ربي يعني أعبده ﴿**وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً**﴾، قرأ الباقون على معنى الخبر عنهم قرأ ابن عامر في رواية هشام عليه لبداً بضم اللام والباقون بكسرها ومعناهما واحد وقال القتبي يكونون عليه لبداً[3] أي يتلبدون به رغبة في استماع القرآن، يقال لبدت به أي لصقت به ومعناه كادوا أن يلصقوا به قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلَا رَشَداً**﴾ يعني: لا أقدر لكم خذلاناً ولا هداية.

قوله تعالى ﴿**قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَداً**﴾ يعني لن يمنعني من عذاب الله أحد إن عصيته ﴿**وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً**﴾ يعني ملجأ ولا مفراً ﴿**إِلَّا بَلَاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ**﴾ يعني فذلك الذي يجيرني من عذاب الله. ويقال في الآية تقديم ومعناه قل لا أملك لكم ضراً إلا أن أبلغكم رسالات ربي يعني ليس بيدي شيء من الضر والنفع والهداية إلا بتبليغ الرسالة ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ في التوحيد ولم يؤمن به، ﴿**فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**﴾ أي مقيمين في النار أبداً يعني دائماً. وقد تم الكلام ثم قال عز وجل ﴿**حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ**﴾ من العذاب يعني لما رأوا العذاب، ويقال معناه أمهلهم حتى إذا رأوا ما يوعدون في الدنيا وفي الآخرة ﴿**فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ نَاصِراً**﴾ يعني مانعاً من العذاب ﴿**وَأَقَلُّ عَدَداً**﴾ يعني رجالاً فقالوا متى هذا العذاب الذي تعدنا يا محمد فنزل

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٤ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦٦.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٢٩.

﴿**قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ**﴾ يعني ما أدري أقريب ما توعدون من العذاب ﴿**أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً**﴾ يعني أجلاً ينتهي إليه قوله تعالى ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ**﴾ يعني هو عالم الغيب ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً**﴾ يعني هو الذي يعلم وقت نزول العذاب ولا يطلع على غيبه أحداً من خلقه قوله تعالى ﴿**إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَّسُولٍ**﴾ يعني إلا من اختار لرسالته فإنه يطلعه على ما يشاء من الغيب ليكون دلالة لنبوته ﴿**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**﴾ يعني من الملائكة بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن خلفه ليحفظوه من الشياطين ﴿**لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ**﴾ يعني ليعلموا الرسول أن الذي أنزل إليه من رسالات الله وذلك أن الملائكة لو لم يرصدوهم لما يستمعوا حين يقرأ جبريل ثم يفشون ذلك قبل أن يخبرهم الرسول فلا يكون بينهم وبين الأنبياء فرق ولا يكون للأنبياء دلالة ثم لا يقبل قولهم. وروى أسباط عن السدي في قوله إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً إذا بعث إليه تعالى نبياً جعل معه حفظة من الملائكة فإذا جاء الوحي من الله تعالى قالت الملائكة هذا من الله فإذا جاءه الشيطان قالت الحفظة هذا من الشيطان ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم يعني ليعلم الجن أن الرسل قد أبلغوا الرسالة لأنهم تمازحوا من استراق السمع وقال سعيد بن جبير لم يجيء جبريل قط بالقرآن إلا ومعه أربعة من الحفظة[1] ثم قال عز وجل ﴿**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ**﴾ يعني الله تعالى عالم بما عند الأنبياء ويقال عالم بهم ﴿**وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**﴾ يعني عدد الملائكة وعلم نزول العذاب ووقته وغير ذلك والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٧٥ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ (١)

وهي عشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ يعني الملتف في ثيابه وأصله في اللغة[٢] المتزمل وهو الذي يتزمل في الثياب وكل من التف بثوبه فهو متزمل وقد تزمل فأدغمت التاء في الزاء وشددت الزاء فقيل مزمل يعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾[١] يعني قم الليل للصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الليل ﴿نِصْفَهُ﴾ يعني قم نصفه فاكتفى بذكر

(١) اشتملت هذه السورة على الأمر بقيام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غالب الليل والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل. وعلى تثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتحمل إبلاغ الوحي. والأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاء الصدقات. وأمره بالتمحض للقيام بما أمره الله من التبليغ وبأن يتوكل عليه. وأمره بالإعراض عن تكذيب المشركين. وتكفل الله له بالنصر عليهم وأن جزاءهم بيد الله. والوعيد لهم بعذاب الآخرة. ووعظهم مما حل بقوم فرعون لما كذبوا رسول الله إليهم. وذكر يوم القيامة ووصف أهواله.

ونسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه وعياً للأعذار الملازمة. والوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات. والمبادرة بالتوبة وأدمج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبره. وأن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل. وفي هذه السورة مواضع عويصة وأساليب غامضة فعليك بتدبرها. التحرير ٢٩/٢٥٥.

(٢) انظر لسان العرب ٣/١٨٦٤.

(٣) اختلف العلماء في الناسخ للأمر بقيام الليل، فعن ابن عباس وعائشة أن الناسخ للأمر بقيام الليل قوله تعالى: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾ إلى آخر السورة. وقيل قوله تعالى: ﴿علم أن لن تحصوه﴾ وعن ابن عباس أيضاً: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى﴾ وعن عائشة أيضاً والشافعي ومقاتل وابن كيسان: هو منسوخ بالصلوات الخمس، وقيل الناسخ لذلك قوله تعالى ﴿فاقرؤا ما تيسر منه﴾ قال أبو عبد الرحمن السلمي لما نزلت: ﴿يا أيها المزمل﴾ قاموا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ثم نزل قوله تعالى ما تيسر منه قال بعض العلماء: هو فرض نُسخ به فرض كان على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة لفضله كما قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾.

قلت: القول الأول يعم جميع هذه الأقوال. وقد قال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ فدخل فيها قول من قال إن الناسخ الصلوات الخمس. وقد ذهب الحسن وابن سيرين إلى أن صلاة الليل فريضة على كل مسلم ولو على قدر حلب شاة. وعن الحسن أيضاً أنه قال: في هذه الآية: الحمد لله تطوع بعد الفريضة وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، لما جاء في قيامه من الترغيب والفضل في القرآن والسنة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حصيراً يصلي عليه من الليل، فتسامع الناس به، فلما رأى جماعتهم كره ذلك وخشي أن يكتب عليهم قيام الليل، فدخل البيت كالمغضب، فجعلوا يتنحنحون ويتفلون فخرج إليهم فقال: (أيها الناس اكفلوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل من الثواب، حتى تملوا من العمل، وإن خير العمل أدومه وإن قل) فنزلت: ﴿يا أيها المزمل﴾ فكتب عليهم، فأنزل بمنزلة الفريضة حتى إن كان أحدهم ليربط الحبل فيتعلق به، =

الفعل الأول من الثاني لأنه دليل عليه ﴿أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ يعني أو انقص من النصف قليلاً ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يعني زد على النصف يعني ما بين الثلث إلى الثلثين ثم قال ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ يعني توسل فيه وقال الحسن بينه إذا قرأته فلما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فنزلت الرخصة[١] في آخر السورة، وقال مقاتل هذا قبل أن يفرض الصلوات الخمس، وقال الضحاك (ورتل القرآن ترتيلاً) قال اقرأه حرفاً حرفاً وقال مجاهد أحب الناس إلى الله تعالى في القراءة أعقلهم عنه قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ يعني سننزل عليك القرآن بالأمر والنهي يعني يثقل لما فيه من الأمر والنهي والحدود وكان هذا في أول الأمر ثم سهل الله تعالى الأمر في قيام الليل، وقال قتادة في قوله (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) قال يثقل الله فرائضه وحدوده[٢]. ويقال يعني قيام الليل ثقيل على المجرمين، ويقال ثقيل على من خالفه، ويقال ثقيل في الميزان خفيف على اللسان، ويقال نزوله ثقيل كما قال «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل» الآية وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت حرانها[٣] وما تستطيع أن تتحرك[٤] حتى يسري[٥] عنه أي يذهب عنه ثم قال ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً﴾ يعني ساعات الليل أشد موافقة للقراءة وأسمع[٦]، ويقال هي أشد نشاطاً من النهار إذا كان الرجل محتسباً، ويقال هي أوفى لقلوبهم ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأبين وأصوب وأثبت قراءة، وقال القتبي ناشئة الليل يعني ساعاته وهي مأخوذة من نشأت أي ابتداء شيئاً بعد شيء فكأنه قال إن ساعات الليل الناشئة فاكتفى بالوصف من الاسم قوله تعالى أشد وطئاً يعني أثقل على المصلي من ساعات النهار فأخبر أن الثواب على قدر الشدة وأقوم قيلاً يعني أخلص للقول وأسمع له لأن الليل تهدأ فيه الأصوات وتنقطع فيه الحركات قرأ أبو عمرو وابن عامر أشد وطأ بكسر الواو ومد الألف والباقون بنصب الواو بغير مد فمن[٧] قرأ بالكسر يعني أشد وطأ أي موافقة لقلة السمع يعني أن القرآن في الليل يتواطأ فيه قلب المصلي ولسانه وسمعه على التفهم يعني أبلغ في القيام وأبين في القول

= فمكثوا ثمانية أشهر، فرحمهم الله وأنزل: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل﴾. فردهم الله إلى الفريضة، ووضع عنهم قيام الليل إلا ما تطوعوا به. انظر تفسير القرطبي ١٩/٢٥.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٧ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٧ ـ ٢٧٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن نصر.

(٣) حَرُونٌ وهي التي إذا اسْتُدِرَّ جَرْيها وقَفَتْ وإنما ذلك في ذوات الحوافر خاصة. انظر لسان العرب ٢/٨٥١.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٨ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحاكم وصححه.

(٥) في أ [ويذهب عنه].

(٦) سقط في ظ.

(٧) من قرأ بكسر الواو فهو مصدر فاعلت مفاعلة وفعالا تقول واطأت فلانة على كذا مواطاة ووطـاً أراد ـ والله أعلم ـ أن القراءة في الليل يواطىء فيها قلب المصلي لسانه وسمعه على التفهم والأداء والاستماع أكثر مما يتوطأ عليه بالنهار، لأن الليل تنقطع فيه الأشغال وتهدأ فيه الأصوات والحركات عن ابن عباس: «وطأ» قال: (يواطىء السمع القلب) وعن يونس (أشد وطاء) قال: (ملائمة وموافقة، ومن ذلك: «ليواطئوا» أي: ليوافقوا).

ومن قرأ بالفتح بمعنى أثقل على المصلي من ساعات النهار وهو من قولهم (اشتدت على القوم وطأة سلطانهم) أي: ثقل عليهم ما يلزمهم ويأخذه منهم. وفي الحديث: (اللهم اشدد وطأتك على مضر) قال الزجاج: (ويجوز أن يكون ﴿أشد وطأ﴾: أغلظ وأشد على الإنسان من القيام بالنهار، لأن الليل جعل للنوم والسكون) وقيل: «أشد وطأ» أي: أبلغ في الثواب لأن كل مجتهد ثوابه على قدر اجتهاده. قال آخرون منهم الفراء: ﴿هي أشد وطئاً﴾ أي: هي أثبت قياماً. قال قتادة: أشد وطأ أي: أثبت في الخير وأثبت للقلب والحفظ. حجة القراءات ٧٣٠ ـ ٧٣١.

ويقال أغلظ على اللسان. قوله تعالى ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ يعني فراغاً طويلاً بقضاء حوائجك فيه ففرغ نفسك لصلاة الليل، وقال القتبي سبحاً أي تصرفاً إقبالاً وإدباراً بحوائجك وأشغالك قوله عز وجل ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني اذكر توحيد ربك ويقال فاذكر ربك. ويقال صل لربك ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ يعني أخلص إليه إخلاصاً في دعائك بعبادتك[١] وهو قول مجاهد وقتادة ويقال وتبتل إليه تبتيلاً يعني انقطع إليه وأصل التبتل القطع قيل لمريم العذراء البتول لأنهـا انقطعت إلى الله تعالى في العبادة.

رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قرأ حمزة وابن عامر والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر رب المشرق بالكسر والباقون رب بالضم[٢] فمن قرأ بالكسر وتبعه قوله وأذكر اسم ربك رب المشرق والمغرب ومن قرأ بالضم فهو على الابتداء ويقال معناه هو رب المشرق والمغرب. ثم قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقد ذكرناه ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ يعني ولياً وحافظاً وناصراً وكفيلاً ثم قال عز وجل ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعني على ما يقولـون من التكذيب والإذاء ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ يعني اعتزلهم اعتزالاً حسنـاً بلا جـزع ولا فحش ثم قال ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا كلام على ما جرت به عادات النـاس لأن الله تعـالى لا يحـول بينه وبين إرادته أحد ولكن معنـاه فوض أمورهم إليَّ يعني أمور المكذبين ﴿أُوْلِي النَّعْمَةِ﴾ يعني ذا المال والغنى ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ يعني أجلهم يسيراً لأن الدنيا كلها قليل يعني إلى قوم القيامة ثم بين ما لهم من العقوبة يوم القيامة فقال عز وجل ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً﴾ يعني قيوداً في الآخرة، ويقال عقوبة من ألوان العذاب ﴿وَجَحِيماً﴾ ما عظم من النار ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني ذا شوك مستمسك في الحلق لا يدخل ولا يخرج فيبقى في الحلق ومع ذلك لهم عذاب أليم قول الله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ﴾ يوم تتحرك وتتزلزل صار اليوم منصوباً لنزع الخافض يعني هذه العقوبة في يوم ترجف الأرض ﴿وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ يعني صارت الجبال رملاً سائلاً وهو كقوله فكانت هباءً منبثـاً ثم قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشهد عليكم بتبليغ الرسالة ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ يعني موسى بن عمران ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ يعني كذبه ولم يقبل قوله ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ يعني عاقبناه عقوبة شديدة وهو الغرق فهذا تهديد لهم يعني إنكم إن كذبتموه فهو قادر على

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٧٨ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن نصر وابن جرير وابن المنذر.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦٩.

عقوبتكم قوله عز وجل ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ يعني توجدون في الآخرة إن كفرتم في الدنيا، ويقال فيه تقديم ومعناه إن كفرتم في الدنيا كيف تحذرون وتنجون. ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً﴾ يعني يوم القيامة من هيبته يشيب الصبيان وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان ولكن معناه أن هيبة ذلك اليوم بحال لو كان هناك صبي يشيب رأسه من الهيبة ويقال هذا وقت الفزع قبل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ثم قال عز وجل ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ يعني انشقت السماء من هيبة الرحمن ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ يعني كائناً في البعث ثم قال ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني هذه الصورة موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ يعني من أراد أن يؤمن ويتخذ بذلك التوحيد إلى ربه مرجعاً فليفعل وقال أهل اللغة في قوله السماء منفطر به ولم يقل منفطرة به فالتذكير على وجهين: أحدهما: أنه انصرف إلى المعنى ومعنى السماء السقف كقوله وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً، والثاني: أن معناه السماء ذات الانفطار كما يقال امرأة مرضع أي ذات رضاع على وجه النسب. ويقال قوله السماء منفطر به يعني فيه شيء في يوم القيامة، ويقال يعني بالله تعالى يعني من هيبته قوله تعالى إن هذه تذكرة يعني إن هذه الآيات التي ذكرت موعظة بليغة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً يعني من شاء أن يرغب فليرغب فقد أُمكن له لأنه أظهر الحجج والدلائل.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ قرأ حمزة الكسائي وابن كثير وعاصم ونصفه وثلثه كلاهما بالنصب والباقون بالكسر[١] فمن قرأ بالنصب فهو على تفسير الأدنى كما قال أدنى من ثلثي الليل وكان نصفه وثلثه تفسير لذلك الأدنى ومن قرأ بالكسر فمعناه أدنى من نصفه وثلثه وقال الحسن لما نزل قوله قم الليل إلا قليلاً فكان قيام الليل فريضة فقام بها المؤمنون حولاً فأجهدهم ذلك وما كلهم قام بها فأنزل الله تعالى رخصة (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى) إلى قوله (علم أن لن تحصوه) فصار تطوعاً ولا بد من قيام الليل[٢]. فذلك قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه) ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ يعني وجماعة من المؤمنين معك تقومون نصف الليل وثلثه ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يعني يعلم ساعات الليل والنهار ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ يعني أن لن تطيعوه ولم تقدروا أن تحفظوا ما فرض الله عليكم على الدوام ويقال معناه لن تطيقوا حفظ ساعات الليل ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني تجاوز عنكم ورفع عنكم وجوب القيام ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ في صلاة الليل ويقال فاقرؤوا ما تيسر من القرآن في جميع الصلوات ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَّرْضَى﴾ علم الله تعالى أن منكم مرضى لا يقدرون على قيام الليل ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ﴾ يعني يسافرون في الأرض ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

(١) انظر حجة القراءات ٧٣١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٦٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٠ وعزاه لعبد بن حميد.

يعني في طلب المعيشة يطلبون الرزق من الله تعالى وفي الآية دليل أن الكسب الحلال بمنزلة الجهاد لأنه جمع مع الجهاد في سبيل الله، وروى إبراهيم عن علقمة قال ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما من جالب يجلب طعاماً من بلد إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله تعالى منزلة الشهيد[1] ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ يعني من القرآن ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني الزكاة المفروضة ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني تصدقوا من أموالكم بنية خالصة من المال الحلال ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يعني ما تعملون من عمل من الأعمال الصالحة يعني تتصدقون بنية خالصة ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني تجدوا ثوابه في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ يعني الصدقة خير من الإمساك وأعظم ثواباً من معاملتكم وتجارتكم في الدنيا، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه اتخذ له حيساً ـ يعني: تمراً بلبن فجاءه مسكين فأخذه، ودفعه إليه فقال بعضهم ما يدري هذا المسكين ما هذا فقال عمر لكن رب المسكين يدري ما هو فكأنه تأول قوله تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) ثم قال عز وجل ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ يعني اطلبوا المغفرة لذنوبكم بالرجوع إلى الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعني غفوراً لمن تاب رحيماً بعد التوبة والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكر العراقي في تخريجه على الإحياء ٢/ ٧٣ وعزاه لابن مردويه بسند ضعيف من حديث ابن مسعود.

سُورَةُ المُدَّثِّرِ (١)

وهي ست وخمسون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد تدثر بثوبه وأصله المتدثر بثيابه إذا نام فأدغمت التاء في الدال وشددت وروى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حديثه فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فخشيت فرجعت إلى أهلي فقلت زملوني زملوني[٢] فدثروني فنزل يا أيها المدثر ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ يعني فخوف قومك وادعهم إلى التوحيد ويقال قم فأنذر يعني قم فصلِّ لله ويقال قم فأنذر يعني خوفهم بالعذاب إن لم يوحدوا يعني ادعهم من الكفر إلى الإيمان ثم قال عز وجل ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يعني فعظمه عما يقولون فيه عبدة الأوثان. ويقال فكبر يعني فكبر للصلاة ثم قال ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ يعني طهر قلبك بالتوبة عن الذنوب والمعاصي[٣] وهذا قول قتادة وقال مقاتل يعني قلبك فطهر بالتوبة وكانت العرب تقول للرجل إذا أذنب دنس الثياب وقال الفراء يعني ثيابك فقصر. وقال الزجاج لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة وإن كان طويلاً لا يؤمن أن يصيبه النجاسة ويقال يعني لا تقصر فتكون غادراً دنس الثياب وقال مجاهد وثيابك فطهر يعني نفسك فطهر[٤] ويقال عملك فأخلص ويقال ظنك فحسن ثم قال ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يعني المأثم فاترك ويقال الرجز فاهجر يعني ارفض عبادة الأوثان قرأ عاصم في رواية حفص والرجز بضم الزاء والباقون بكسر الزاء[٥] ومعناهما واحد وهم الأوثان يعني فارفض عبادة الأوثان ويقال

---

(١) جاء في هذه السورة من الأغراض تكريم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة. وإعلان وحدانية الله بالإلهية. والأمر بالتطهير الحسي والمعنوي. ونبذ الأصنام. والإكثار من الصدقات. والأمر بالصبر. وإنذار المشركين بهول البعث. وتهديد من تصدى للطعن في القرآن وزعم أنه قول البشر وكفر الطاعن نعمة الله عليه فأقدم على الطعن في آياته مع علمه بأنها حق. ووصف أهوال جهنم. والرد على المشركين الذين استخفوا بها وزعموا قلة عدد حفظتها. وتحدي أهل الكتاب بأنهم جهلوا عدد حفظتها. وتأييسهم من التخلص من العذاب. وتمثيل ضلالهم في الدنيا. ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء. التحرير ٢٩/٢٩٣.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٠ ـ ٢٨١ وعزاه للطيالسي وعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن الأنباري في المصاحف.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨١ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٣٣.

الرجز العذاب كقوله تعالى رجزاً من السماء ومعناه كل شيء يحرك إلى عذاب الله تعالى فاتركه ثم قال عز وجل ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ يعني لا تعط شيئاً قليلاً تطلب به أكثر وأفضل في الدنيا وقال الحسن ولا تمنن تستكثر يعني ولا تمنن بعملك على ربك تستكثره وقال مجاهد لا تعط مالك رجاء فضل من الثواب في الدنيا وقال الضحاك لا تعط ولتعطي أكثر[1] منه قوله تعالى ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ يعني اصبر على أمر ربك قال إبراهيم النخعي اصبر لعظمة ربك وقال مقاتل ولربك فاصبر يعني يعزي نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصبر على أذاهم ويقال فاصبر نفسك في عبادة ربك ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ يعني اصبر فعن قريب ينفخ في الصور. ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ يعني يوم شديداً على الكافرين غير[2] يسير يعني غير هين وفي الآية دليل أن ذلك اليوم يكون على المؤمنين هيناً وهذا كقوله تعالى (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) لأن الكفار يقطع رجاؤهم في جميع الوجوه.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ
كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ
ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾
وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا
مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

ثم قال ﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ يعني اترك هذا الذي خلقته وحيداً وفوض أمره إليَّ وهو الوليد بن المغيرة خلقه الله تعالى وحيداً بغير مال ولا ولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدوداً﴾ يعني ورزقته مالاً كثيراً قال مجاهد كان له مائة ألف دينار وكان بنـوه[3] عشرة وقال بعضهم كان ماله أربعة آلاف درهم ثم قال عز وجل ﴿وبنين شهوداً﴾ يعني حضوراً لا يغيبون عنه في التجارة ولا غيرهم وقال بعضهم ذرني ومن خلقت وحيداً يعني إنه لم يكن من قريش وكان ملصقاً بهم لأنه ذكر أن أباه المغيرة تبناه بعد ما أتت ثمانية أشهر ولم يكن منه كما قال الله تعالى (عتل بعد ذلك زنيم) (وجعلت له مالاً ممدوداً) يعني غير منقطع عنه وبنين شهوداً لا يغيبون عنه ولا يحتاجون إلى التصرف وكان له عشرة من البنين وهذا قول الكلبي وغيره وقال مقاتل سبع بنين ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً﴾ يعني بسطت له في المال والخير بسطاً ويقال أمهلت له إمهالاً ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ يعني يطمع أن أزيد ماله وولده. وذلك أنه تفاخر على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لي مالاً ممدوداً ولي عشرة من البنين فلا يزال يزداد مالي وبني فنزل ثم يطمع أن أزيد يعني أن أزيد وهو يعصيني ﴿كَلَّا﴾ يعني وهو رد عليه يعني لا أزيد فما أزداد ماله بعد ذلك ولا ولده ولكن أخذ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٢ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) سقط في أ.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

في النقصان فهلك عامة ماله وولده قوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ يعني مكذباً معرضاً عنها معانداً ثم قال عز وجل ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ يعني يكلف في النار صعود جبل من صخرة ملساء في الباب الخامس تسمى سقر فإذا بلغ رأس العقبة دخل دخان في حلقة فيخرج من جوفه ما كان في جوفه من الأمعاء فإذا سقط في أسفل العقبة سقي من الحميم فإذا بلغ أعلاه انحط منه إلى أسفله من مسيرة سبعين سنة وقال مجاهد (سأرهقه صعوداً) يعني مشقة من العذاب[1] وقال الزجاج سأحمله على مشقة من العذاب ويقال سأكلفه الصعود على عقبة شاقة والصعود والكؤود بمعنى واحد ثم ذكر خبث أفعاله الذي يستوجب به العقوبة فقال ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ يعني إنه فكر في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقدر في أمره وقال ساحر يقول الله عز وجل ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ يعني فلعن كقوله ـ قتل الخراصون. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة ليدبروا أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا هذه أيام الموسم والناس مجتمعون وقد فشا قول هذا الرجل في الناس وهم سائلون عنه فماذا تجيبون وتردون عليهم فقالوا نقول إنه مجنون وقال بعضهم إنهم يأتونه ويكلمونه فيجدونه فصيحاً عاقلاً فيكذبونكم فقالوا نقول شاعر قال بعضهم هم العرب وقد رأوا الشعراء وقوله لا يشبه الشعر فيكذبونكم قالوا نقول كاهن قال بعضهم إنهم لقوا الكهان وإذا سمعوا قوله وهو يستثني في كلامه المستقبل فيكذبونكم ففكر الوليد بن المغيرة ثم أدبر عنهم ثم رجع إليهم وقال فكرت في أمره فإذا هو ساحر يفرق بين المرء وزوجه وأقربائه فاجتمع رأيهم على أن يقولوا ساحر فقتل كيف قدر يعني كيف قدر بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسحر ثم قتل يعني لعن مرة أخرى أي اللعنة على أثر اللعنة كيف قدر هذا التقدير الذي قال للكفرة إنه ساحر ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ يعني ثم نظر في أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ يعني عبس وجهه أي كلح وتغير لون وجهه وقال الزجاج ثم عبس وجهه ﴿وَبَسَرَ﴾ أي نظر بكراهة شديدة ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ يعني أعرض عن الإيمان ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ يعني تكبر عن الإيمان ثم قال ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يعني تأثره من صاحب اليمامة يعني يرويه عن مسيلمة الكذاب ويقال معناه ما هذا الذي يقول إلا سحر يرويه عن جابر ويسار ويقال عن أهل بابل ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ يعني ما هذا القرآن إلا قول الآدمي قال الله تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ يعني سأدخله سقر قال مقاتل يعني الباب الخامس وقال الكلبي هو اسم من أسماء النار ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرَ﴾ تعظيماً لأمرها ثم بين قال ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ يعني لا تبقي لحماً إلا أكلته ولا تذرهم إذا أعيدوا فيها خلقاً جديداً، ويقال لا تبقي ولا تذر يعني لا تميت ولا تحيي، ويقال لا تبقى اللحم ولا العظم ولا الجلد إلا أحرقته ولا تذر لحماً ولا عظماً ولا جلداً أي تدعه محرقاً بل تجده خلقاً جديداً ثم قال عز وجل ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ يعني حراقة للأجساد شواهة للوجوه نزاعة للأعضاء وأصله في اللغة التسويد ويقال لاحته الشمس إذا غيرته وذلك أن الشيء إذا كان فيه دسومة فإذا أحرق أسود ثم قال ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ يعني على النار تسعة عشر من الملائكة مسلطون من رؤساء الخزنة وأما الزبانية فلا يحصى عددهم كما قال في سياق الآية وما يعلم جنود ربك إلا هو. وإنما أراد تسعة عشر ملكاً ومعهم ثمانية عشر أعينهم كالبرق الخاطف ويخرج لهب النار من أفواههم فنزعت عنهم الرأفة غضاب على أهلها يدفع أحدهم سبعين ألفاً فلما نزلت هذه الآية قال الوليد بن المغيرة لعنه الله أنا أكفيكم خمسة وكل ابن لي يكفي واحداً منهم وسائر أهل مكة يكفي أربعة منهم وقال رجل من المشركين وكان له قوة وأنا أكفيكموهم وحدي أدفع عشرة بمنكبي هذا وتسعة بمنكبي الأيسر فألقيهم في النار حتى يحترقوا وتجوزون حتى تدخلون الجنة فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلاَئِكَةً﴾ يعني ما سلطنا أعوان النار إلا ملائكة زبانية غلاظ شداد لا يغلبهم أحد ﴿وَمَا

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٣ وعزاه لعبد بن حميد.

جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ يعني ما ذكرنا قلة عددهم وهم تسعة عشر **﴿إلا فتنة للذين كفروا﴾** يعني بلية لهم **﴿لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتوا الكتاب﴾** وذلك أن أهل(١) الكتاب وجدوا في كتابهم أن مالكاً رئيسهم وثمانية عشر من الرؤساء فبين لهم أنما يقوله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوله بالوحي **﴿وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إيماناً﴾** يعني تصديقاً وعلماً **﴿ولا يَرْتَابَ الذين أوتوا الكتابَ﴾** يعني: يعلموا أنه حق وعدتهم كذلك **﴿والمؤمنون﴾** أيضاً لا يشكون في ذلك **﴿وليقولَ الذين في قلوبهِمْ مَرَضٌ﴾** يعني: المنافقين **﴿والكافِرُونَ﴾** يعني: المشركين **﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾** يعني بذكر خزنة جهنم تسعة عشر يقول الله تعالى: **﴿كذلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ يشاءُ﴾** يعني يخذله ولا يؤمن به أمناً له **﴿ويهدي من يشاء﴾** يعني يوفقه لذلك **﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾** يعني من يعلم قوة جنود ربك وكثرتها إلا هو يعني الله تعالى ويقال وما يعلم يعني لا يعلم عدد جموع ربك إلا الله تعالى **﴿وَمَا هِيَ إلاّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾** يعني الدلائل والحجج في القرآن ويقال ما هي يعني القرآن ويقال وما هي يعني سقر إلا ذكرى للبشر يعني عظه للخلق ثم أقسم الله تعالى لأجل سقر.

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

فقال **﴿كلا﴾** رداً عليهم **﴿والقمر﴾** يعني وخالق القمر **﴿والليل إذ أدبَرَ﴾** يعني ذهب أقسم بخالق الليل **﴿والصبح إذا أسْفَرَ﴾** أقسم بخالق الصبح **﴿إنها لإحدى الكُبَرِ﴾** يعني سقر إحدى الكبر العظام وباب من أبواب النار قرأ نافع وحمزة وعاصم في رواية حفص والليل إذ بغير ألف أدبر بالألف والباقون إذا بالألف دبر بغير ألف(٢) وهما لغتان ومعناهما واحد دبر وأدبر ويقال دبر النهار وأدبر ودبر الليل وأدبر وقال مجاهد سألت ابن عباس عن قوله والليل إذا أدبر فسكت حتى إذا كان آخر الليل قال يا مجاهد هذا حين(٣) دبر الليل ويقال. الليل إذا أدبر يعني إذا جاء بعد النهار والصبح. إذا أسفر يعني استضاء بأنها أي سقر لإحدى الكبر يعني أن سقر لأعظم درجات في النار **﴿نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾** يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نذيراً للخلق وإنما صار نعتاً لأنه معناه تم نذيراً للبشر، ويقال إن العذاب الذي ذكر نذيراً للبشر قوله تعالى **﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾** يعني يتقدم في الخير أو يتأخر إلى المعصية فبينا

(١) في أ [أهل مكة].

(٢) حجة من قرأ بغير ألف قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم. انظر حجة القراءات ٧٣٣.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٥ وعزاه لمسدد في مسنده وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

لكم فهذا وعيد لكم لمن شاء منكم أن يتقدم إلى الطاعة أو يتأخر إلى المعصية كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ويقال معناه لمن شاء منكم أن يتقدم إلى التوبة فليوحد أو يتأخر عن التوبة فليقم على الكفر يعني نذيراً لمن شاء. ثم قال ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يعني كل كافر مرتهن بعمله ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ يعني لكن أصحاب اليمين فإنهم ليسوا مرتهنين بعملهم يعني الذين أعطوا كتابهم بأيمانهم ويقال هم الذين عن يمين العرش، ويقال كل نفس بما كسبت رهينة عند المحاسبة إلا أصحاب اليمين قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هم أطفال المسلمين[١] يعني ليس عليهم حساب لأنهم لم يعملوا شيئاً ثم قال ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يعني إنهم في بساتين يتسألون ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني يرون أهل النار يسألونهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ يعني ما الذي أدخلكم في سقر فأجابهم أهل النار ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ يعني لم نك نقر بالصلاة ولم نؤدها ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ يعني كنا لا نقر بالفرائض والزكاة ولا نؤديها. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ يعني كنا نستهزيء بالمسلمين ونخوض بالباطل ونرد الحق مع المبطلين المستهزئين ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني بيوم الحساب ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني الموت والقيامة قوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ يعني لا يسألهم شفاعة الأنبياء وشفاعة الملائكة ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فما للمشركين يعرضون عن القرآن والتوحيد ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ يشبههم بالحمر الوحشية المذعورة حين فروا من القرآن وكذبوا به قرأ نافع وابن عامر مستنفرة بنصب الفاء والباقون بالكسر[٢] فمن قرأ بالنصب فمعناه منفرة فإن الصائد نفرها ومن قرأ بالكسر ومعناه نافرة ويقال نفر واستنفر بمعنى واحد ثم قال ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ فقال أبو هريرة رضي الله عنه[٣] يعني الأسد وقال سعيد بن جبير رضي الله عنهم القناص يعني الصيادين وقال قتادة القسورة النبل[٤] يعني الرمي بالسهام وهو حس الناس وأصواتهم ثم قال عز وجل ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا إن الرجل من بني إسرائيل إذا أذنب ذنباً يصبح وذنبه وكفارته مكتوب عند رأسه فهل ترينا مثل ذلك إن كنت رسولاً فنزل بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة يعني صحفاً مكتوب فيها جرمه وتوبته ويقال نزلت في شأن عبد الله بن أمية المخزومي حين قال لن نؤمن حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني هذا لا يكون لهم أبداً ثم ابتداء فقال ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ يعني البعث يعني لكن لا يخافون عذاب الآخرة ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني حقاً إن القرآن عظة للخلق ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ يعني من شاء أن يتعظ به فليتعظ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ﴾ يعني إلا أن يشاء ﴿اللَّهُ﴾ لهم، ويقال إلا أن يشاء الله منهم قرأ نافع وما تذكرون بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم ثم قال عز وجل ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يعني هو أهل أن يتقى ولا يشرك به ويوحد ولا يعصى وأهل المغفرة يعني هو أهل أن يغفر لمن أطاعه ولا يشرك ويقال هو أهل أن يتقى وأهل المغفرة لمن اتقى والله الموفق.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٥ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٧٢.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

سُورَةُ القِيَامَة(١)

وهي أربعون آية مكيَّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾

قوله تعالى: **﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** أجمع أهل التفسير أن معناه أقسم واختلفوا في تفسير لا قال بعضهم والكلام زيادة للزينة، ويجري في كلام العرب زيادة لا كما في أية أخرى قال (ما منعك أن لا تسجد) يعني: أن تسجد وقال بعضهم لا رد لكلامهم حيث أنكروا البعث فقال ليس الأمر كما ذكر ثم قال أقسم بيوم القيامة ويقال معناه أقسم برب يوم القيامة إنها كائنة **﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾** يعني: أقسم بخالق النفس اللوامة وهي نفس ابن آدم يلوم نفسه كما روي عن ابن عباس وعن عمر رضي الله عنهم ما من نفس برة وفاجرة إلا تلوم نفسها إن كانت محسنة تقول يا ليتني زدت إحساناً وإن كانت سيئة تقول يا ليتني تركت، ولم يذكر جواب القسم لأن في الكلام دليلاً عليه وهو قوله بلى قادرين ومعناه ولا أقسم بالنفس اللوامة لتبعثن بعد الموت ثم قال عز وجل: **﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾** يعني: أيظن الكافر **﴿أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾** يعني: أن لن يبعث الله بعد الموت نزلت في أبي بن خلف ويقال في عدي بن الربيعة لإنكار البعث بعد الموت يقول الله تعالى **﴿بَلَى قَادِرِينَ﴾** يعني: إن الله تعالى قادر **﴿عَلَى أن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾** يعني: يجعل أصابعه ملتزقة وألحق الراحة بالأنامل(٢) وهذا قول ابن عباس: وقال القتبي: فكأنه يقول **أيحسب الإنسان** أن لن نجمع عظامه في الآخرة بلى قادرين على أن نسوي بنانه يعني: **أن** نجمع ما صغر منه ونؤلف بينه أي نعيد السلاميات على صغرها ومن قدر على جمع هذا فهو على جمع كبار العظام أقدر وقال مجاهد على أن نسوي خفه كخف البعير لا يعمل به شيئاً(٣)، وقال سعيد بن جبير يعني كنفّ البعير أو كحافر الدابة والحمر لأنه ليس من دابة إلا وهي تأكل بفمها غير الإنسان قوله تعالى: **﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾** يعني: يقدم ذنوبه ويؤخر توبته ويقول سوف أتوب ولا يترك الذنوب(٤) وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وقال عكرمة ليفجر أمامه يعني يريد الذنوب في المستقبل، وقال القتبي: بل يريد الإنسان ليفجر أمامه فقد كثرت فيه التفاسير، وقال سعيد بن جبير سوف أتوب وقال الكلبي يكثر الذنوب ويؤخر التوبة وقال آخرون: يتمنى الخطيئة، وفيه قول آخر على طريق الإنكار

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات البعث. والتذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه. وإثبات الجزاء في الأعمال التي عملها الناس في الدنيا. واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء، وتكريم أهل السعادة. والتذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة. والزجر على إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة. التحرير ٢٩/٣٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٧ وعزاه لسعيد بن منصور.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٧ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٨٨ وعزاه لابن أبي الدنيا في ذم الأمل والبيهقي في شعب الإيمان.

بأن يكون الفجور بمعنى التكذيب بيوم القيامة ومن كذب بالحق فقد فجر، وأصل الفجور الميل فقيل للكاذب والمكذب والفاسق فاجر لأنه مال عن الحق.

يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ**﴾ يعني: يسأل متى يوم القيامة تكذيباً بالبعث فكأنه قال: بل يريد الإنسان أن يكذب بيوم القيامة وهو أمامه وهو يسأل متى يكون فبين الله تعالى في أي يوم يكون فقال: ﴿**فإذا برق البصر**﴾ يعني: شخص البصر وتحير قرأ نافع فإذا برق البصر بنصب الراء والباقون بالكسر(١) فمن قرأ بالنصب فهو من برق يبرق بريقاً ومعناه شخص فلا يطرق من شدة الفزع ومن قرأ بالكسر يعني فزع وتحير وأصله أن الرجل إذا رأى البرق تحير وإذا رأى من أعاجيب يوم القيامة تحير ودهش ﴿**وَخَسَفَ الْقَمَرُ**﴾ يعني: ذهب ضوؤه ﴿**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ يعني: كالثورين المقرنين ويقال برق البصر وخسف القمر قال كوكب العين ذهب ضوؤه وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يجعلان في نور الحجاب ويقال جمع الشمس والقمر يعني: سوى بينهما في ذهاب نورهما وإنما قال وجمع الشمس والقمر ولم يقل وجمعت لأن المؤنث والمذكر إذا اجتمعا فالغلبة للمذكر ﴿**يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ**﴾ يقول أين الملجأ من النار قرىء في الشاذ أين المفر بالكسر للفاء على معنى: اين مكان الفرار وقراءة العامة بالنصب يعني أين الفرار ثم قال: ﴿**كلا لا وَزَرَ**﴾ يعني: حقاً لا جبل يلجئون إليه فيمنعهم من النار ولا شجر يواريهم والوزر في كلام العرب الجبل الذي يلتجىء إليه والوزر والستر هنا الشيء الذي يستترون به وقال عكرمة ولا وزر يعني منعه وقال الضحاك يعني: لا حصن لهم يوم القيامة ثم قال عز وجل: ﴿**إلى ربك يومئذ المستقر**﴾ يعني: المرجع ﴿**يُنَبَّؤُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأَخَّرَ**﴾ يعني: يسأل ويبين له ويجازى بما قدم من الأعمال وأخر من سنة صالحة أو سيئة قوله عز وجل: ﴿**بل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾ يعني: جوارح العبد شاهدة عليه ومعناه على الإنسان من نفسه شاهد يشهد عليه كل عضو بما فعل ويقال يعني جوارح العبد شاهدة عليه ومعناه رقيب بعضها على بعض والبصيرة أدخلت فيها الهاء للمبالغة كما يقال: رجل علامة وقال الحسن: على نفسه بصيرة يعني: بعيوب غيره الجاهل بعيوب نفسه ﴿**وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ يعني: ولو تكلم بعذر لم يقبل منه ويقال ولو أرخى ستوره يعني: أنه شاهد على نفسه وإن أذنب في الستور قوله تعالى: ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**﴾ يعني: لا تعجل بقراءة القرآن من قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءته وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٣٦، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٧٤.

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا نزل عليه القرآن تعجل به للحفظ فنزل (لا تحرك[١] به لسانك) ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جمعَهُ﴾ يَعني: حفظه في قلبك ﴿وقُرْآنَهُ﴾ يعني: يقرأ عليك جبريل حتى تحفظه ﴿فإذا قرأناه فأتبعْ قرآنَهُ﴾ يعني: إذا قرأ عليك جبريل فاقرأ أنت بعد قراءته وفراغه وقال محمد بن كعب فاتبع قراءته يعني: فاتبع حلاله وحرامه وقال الأخفش إن علينا جمعه يعني: تأليفه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه يعني: تأليفه ﴿ثم إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ يعني: بيان أحكامه وحدوده، ويقال علينا بيانه يعني شرحه ويقال بيان فرائضه كما بين على لسان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم نزل بعد هذه الأحكام قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ يعني: تحبون العمل للدنيا ﴿وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ يعني: تتركون العمل للآخرة قرأ ابن كثير وأبو عمرو بل يحبون بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على ـ معنى المخاطبة ثم بين حال ذلك اليوم فقال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ أي حسنة مشرقة مضيئة كما قال في آية أخرى (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) ﴿وإلى ربِّها ناظِرَةٌ﴾ يعني: ناظرين يومئذ إلى الله تبارك وتعالى وقال مجاهد إلى ربها ناظرة يعني تنتظر الثواب من ربها وهذا القول لا يصح لأنه مقيد بالوجوه موصول بإلى ومثل هذا لا يستعمل في الانتظار ثم قال عز وجل: ﴿وَوُجُوهٌ يومئذ بَاسِرَةٌ﴾ يعني: عابسة ويقال كريهة ويقال كاسفة ومسودة ﴿تَظُنُّ أَنْ يَفْعَل بِهَا فَاقِرةٌ﴾ يعني: تعلم أنه قد نزل بها العذاب والشدة يعني تعلم هذه الأنفس ويقال الفاقرة الداهية ويقال قد أيقنت أن العذاب نازل بها ثم قال عز وجل: ﴿كَلَّا إذا بَلَغَتِ التَرَاقِيَ﴾ يعني: حقاً إذا بلغت النفس إلى الحلقوم يعني: خروج الروح ﴿وقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ يعني: يقول من حضر عند الموت هل من طبيب حاذق يداويه ويقال من راق يعني: من يشفي من هذا الحال ويقال من راق يعني: من يقدر أن يرقي من الموت يعني: لا يقدر أحد أن يرقي من الموت والعرب تقول من الرقية رقى يرقي رقيةً ومن الرقيّ وهو الصعود رقي يرقى رقياً فهو راق منهما ﴿وظَنَّ أنَّهُ الفراقُ﴾ يعني: استيقن أنه ميت وأنه يفارق الروح من الجسد ويقال: وقيل من راق أن الملائكة الذين حضروا لقبض روحه يقول بعضهم لبعض من راق يعني من يصعد منا بروحه إلى السماء فأيقن عند ذلك أنه الفراق ﴿والْتَفتِ السَّاقُ بالسَّاقِ إلى ربكَ يومئذٍ المَسَاقُ﴾ قال ابن عباس يعني: التفت شدتان أخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة[٢] وروى وكيع عن بشير بن المهاجر قال سمعت الحسن يقول والتفت الساق بالساق قال هما ساقان إذا التفتا في الكفن[٣] إلى ربك يومئذ المساق يعني: يساق العبد إلى ربه.

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾ وهو أبو جهل بن هشام يعني: لم يصدق بتوحيد الله تعالى وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يصل لله تعالى ويقال ولا صلى يعني: ولا أسلم فسمي المسلم مصلياً ﴿ولكِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى﴾ يعني: كذب بالتوحيد وتولى يعني: أعرض عن الإيمان ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إلى أهلِهِ يَتَمطَّى﴾ قال

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٨٩ وعزاه لابن المنذر وابن مردويه.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٩٥ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٩٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

القتبي: يعني: وأصله في اللغة يتمطط فقلبت الطاء ياء فصار يتمطى يعني: ذهب إلى أهله يتمطى يعني: ويتبختر في مشيته ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وهذا وعيد على أثر وعيد يعني: احذر يا أبا جهل ومعنى أولى لك أي قرب لك يا أبا جهل وقال سعيد بن جبير قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبي جهل أولى لك فأولى. ﴿ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ ثم نزل به القرآن وقال الزجاج معناه أولى لك يعني وجب لك المكروه يا أبا جهل والعرب تقول أولى بفلان إذا وعد له مكروهاً وقال القتبي أولى لك تهديد ووعيد كما قال فأولى لهم ثم ابتدأ فقال ـ (طاعة وقول معروف) ثم قال: ﴿أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ـ يعني: أن يترك مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مَنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ يعني: أليس قد خلق من ماء مهين قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم من منى يمنى بالهاء والباقون بالتاء[1] على معنى التأنيث لأن النطفة مؤنثة ومن قرأ بالياء انصرف إلى المعنى وهو الماء ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ يعني: صارت بعد النطفة علقة ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني: جمع خلقه في بطن أمه مستوياً معتدل القامة ﴿فَجَعَلَ مِنْه﴾ يعني: خلق من المني ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني: لونين من الخلق ﴿الذَّكَرَ والأنثى أَلَيْس ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ اللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني أن هذا الذي يفعل مثل هذا هو قادر على أن يحيي الموتى وذكر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى قال سبحانك اللهم بلى[2] قادر والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٦ وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر.

سُورَةُ الإنسَانِ (١)

وهي إحدى وثلاثون آية مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ
نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا
نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟
جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا
تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى: **﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾** يعني: قد أتى على أدم **﴿حين من الدهر﴾** يعني: أربعين سنة **﴿لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** يعني: لم يدر ما إسمه ولا ما يراد به إلا الله تعالى وذلك أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم أمر

---

(١) اختلف فيها فقيل هي مكية وقيل مدنية وقيل بعضها مكي وبعضها مدني فعن ابن عباس وابن أبي طلحة وقتادة ومقاتل: هي مكية، وهو قول ابن مسعود لأنه كذلك رتبها في مصحفه فيما رواه أبو داود كما سيأتي قريباً. وعلى هذا اقتصر معظم التفاسير ونسبه الخفاجي إلى الجمهور.

وروى مجاهد عن ابن عباس: أنها مدنية، وهو قول جابر بن زيد وحكي عن قتادة أيضاً وقال الحسن وعكرمة والكلبي: هي مدنية إلا قوله «ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً» إلى آخرها، أو قوله «فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم» الخ. ولم يذكر هؤلاء أن تلك الآيات من أية سورة كانت تعد في مكة إلى أن نزلت سورة الإنسان بالمدينة وهذا غريب ولم يعينوا أنه في أية سورة كان مقرؤاً.

والأصح أنها مكية فإن أسلوبها ومعانيها جارية على سَنن السور المكية ولا أحسب الباعث على عدها في المدني إلا ما روي من أن آية **﴿يطعمون الطعام على حبه﴾** نزلت في إطعام علي بن أبي طالب في المدينة مسكيناً ليلة ويتيماً أخرى، وأسيراً أخرى، ولم يكن للمسلمين أسرى بمكة حملاً للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدحداح وهو أنصاري، وكثيراً ما حملوا نزول الآية على مُثل تنطبق عليها معانيها فعبروا عنها بأسباب نزول.

وأغراضها:

التذكير بأن لكل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.

وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكراً لخالقه ومحذر من الإشراك به.

جبريل عليه السلام أن يجمع التراب فلم يقدر ثم أمر إسرافيل فلم يقدر ثم أمر عزرائيل عليهم السلام فجمع التراب من وجه الأرض فصار التراب طيناً ثم صار صلصالاً وكان على حاله أربعين سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، وروى معمر عن قتادة قال كان آدم آخر ما خلق من الخلق خلق كل شيء قبل آدم[1] ثم قال: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ**﴾ يعني: مختلطاً ماء الرجل وماء المرأة لا يكون الولد إلا منهما جميعاً ماء الرجل أبيض ثخين، وماء المرأة أصفر رقيق، «نبتليه» يعني لكي نبتليه بالخير والشر ﴿**فجعلناه سميعاً بصيراً**﴾ يعني: جعلنا له سمعاً يسمع به الهدى وبصراً يبصر به الهدى، وقال مقاتل في الآية تقديم يعني جعلناه سميعاً بصيراً يعني جعلنا له سمعاً لنبتليه يعني: لنختبره قوله عز وجل: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيلَ**﴾ يعني: بينا له وعرفناه طريق الخير وطريق الكفر ويقال سبيل السعادة والشقاوة ﴿**إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ يعني: إما أن يكون موحداً وإما أن يكون جاحداً لوحدانية الله تعالى ويقال إما شاكراً لنعمه وإما كفوراً لنعمه، ثم بين ما أعد للكافرين فقال: ﴿**إنا أعتدنا للكافرين**﴾ يعني: في الآخرة ﴿**سَلاَسِلاَ وأغلالاً**﴾ يعني: هيئنا لهم أغلالاً تغل بها أيمانهم إلى أعناقهم ﴿**وسعيراً**﴾ يعني: وقوداً ثم بين ما أعد للشاكرين فقال ﴿**إنَّ الأبرارَ**﴾ يعني: الصادقين في إيمانهم ﴿**يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ**﴾ يعني: من خمر ﴿**كَانَ مِزَاجُهَا كافوراً**﴾ يعني: على برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل ليس ككافور الدنيا ولا كمسكها ولكنه وصف بها حتى يهتدى به القلوب أو يقال الكافور إسم عين في الجنة يمزج بها الخمر ﴿**عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ**﴾ يعني: عين الكافور يشرب بها أولياء الله تعالى في الجنة ﴿**يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً**﴾ يعني: يمزجونها تمزيجاً وقال ابن عباس يفجرونها تفجيراً في قصورهم وديارهم وذلك أن عين الكافور يشرب بها المقربون صرفاً غير ممزوج ولغيرهم ممزوجاً ويقال يفجرونها تفجيراً يعني يفجرون تلك العين في الجنة كيف أحبوا كما يفجر الرجل النهر الذي يكون له في الدنيا هاهنا وهاهنا حيث شاء ثم بين أفعالهم في الدنيا فقال ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ**﴾ يعني: يتمون الفرائض ويقال: أوفوا بالنذر ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْماً**﴾ وهو يوم القيامة ﴿**كان شره مستطيراً**﴾ يعني: عذابه فاشياً ظاهراً وهو أن السموات قد انشقت وتناثرت الكواكب وفزعت الملائكة وفارت المياه ثم قال عز وجل: ﴿**ويطعمونَ الطعامَ على حُبِّهِ**﴾ يعني: على قلته وشهوته وحاجته ﴿**مسكيناً**﴾ وهو الطائف بالأبواب ﴿**ويتيماً وأسيراً**﴾ يعني: من أسر من دار الشرك ويقال أهل اليمن وذكر أن الآية نزلت في شأن علي بن أبي طالب وفاطمة رضي الله عنهما وكانا صائمين فجاءهما سائل وكان عندهما قوت يومهما فأعطيا السائل بعض ذلك الطعام ثم جاءهما يتيم فأعطياه من ذلك الطعام ثم جاءهما أسير فأعطياه الباقي[2] فمدحهما الله تعالى لذلك، ويقال: نزلت في شأن رجل من الأنصار ثم قال عز وجل: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ**﴾ يعني: ينوون بأدائهم ويضمرون في قلوبهم وجه الله تعالى ويقولون ﴿**لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً**﴾ يعني: لا نريد منكم مكافأة في الدنيا ولا ثواب في الآخرة ﴿**إنانَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عبوساً قَمْطَرِيراً**﴾ يعني:

= وإثبات الجزاء على الحالين مع شيء من صوف ذلك الجزاء بحالته والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.

وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.

وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك والتحذير من أن يلين للكافرين والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه به بالإقبال على عبادته.

والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٧ وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر. وانظر تفسير القرطبي ١٩/٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٩٩ وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس.

العبوس الذي تعبس فيه الوجوه من هول ذلك اليوم والقنطرير الشديد العبوس، ويقال عبوساً أي يوم يعبس فيه الوجوه فجعل عبوساً من صفة اليوم كما قال «في يوم عاصف» أراد عاصف الريح والقمطرير الشديد يعني: ينقبض الجبين وما بين الأعين من شدة الأهوال، ويقال قمطريراً نعت اليوم، ويقال يوم قمطرير إذا كان شديداً يعني يوماً شديداً صعباً ثم قال عز وجل: ﴿**فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذلِكَ اليومِ**﴾ يعني: دفع الله عنهم عذاب ذلك اليوم ﴿**ولقاهُمْ**﴾ يعني: أعطاهم ﴿**نضْرةً**﴾ حسن الوجوه ﴿**وسُروراً**﴾ يعني: فرحا في قلوبهم قوله تعالى: ﴿**وجزاهُم بِما صَبرُوا**﴾ يعني: أعطاهم الثواب بما صبروا في الدنيا ﴿**جنةً وحريراً**﴾ يعني: لباسهم فيها حرير ويقال بما صبروا على الطاعات ويقال على المصائب وقوله عز وجل: ﴿**متكئين فِيهَا**﴾ يعني: ناعمين في الجنة ﴿**على الأرائِكِ**﴾ يعني: على السرر وفي الحجال واحدها أريكة ﴿**لا يَرَوْنَ فيها شَمْساً**﴾ يعني: لا يصيبهم فيها حر الشمس ﴿**ولا زَمْهَرِيراً**﴾ يعني: ولا برد الشتاء ثم قال عز وجل ﴿**ودانيةً عليهِمْ ظِلالُها**﴾ يعني: قريبة عليهم ظلال الشجر ﴿**وذُلِّلَتْ قُطُوفها تذْليلاً**﴾ يعني: قربت ثمارها، ويقال: سخرت قطوفها يعني: مجنى ثمرها تذليلاً يعني قريباً ينالها القاعد والقائم، وروى بن أبي نجيح عن مجاهد قال أرض الجنة من فضة وترابها مسك وأصول شجرها ذهب وفضة وأغصانها لؤلؤ وزبرجد والورق والثمر تحت ذلك فمن أكل قائماً لم يؤذه ومن أكل جالساً لم يؤذه ومن أكل مضطجعاً لم يؤذه ثم قرأ **وذللت قطوفها** تذليلاً (١) وقال أهل اللغة(٢) ذللت أي أدنيت منهم من قولك حائط ذليل إذا كان قصير السمك والقطوف والثمرة واحدها قطف وهو نحو قوله تعالى (**قطوفها دانية**).

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ
مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ
رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا
﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا
﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن
شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

ثم قال عز وجل ﴿**ويُطافُ عليهم بآنيةٍ مِنْ فِضّةٍ وأكْوابٍ**﴾ وهي كيزان مدققة الرأس لا عرى لها ﴿**كانت قواريرا من فضة**﴾ يعني في صفاء القارورة وبياض الفضة، وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال لو أخذت فضة من فضة الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم تر الماء من ورائه ولكن قوارير الجنة من فضة في صفاء

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٠ وعزاه لابن أبي شيبة وسعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد.
(٢) الصحاح ٤/١٧٠٢.

القوارير[١] كبياض الفضة قرأ نافع وعاصم والكسائي سلاسلاً وقواريراً كلهن بإثبات الألف والتنوين، وقرأ حمزة بإسقاط الألف كلها[٢] وكان أبو عمرو يثبت الألف في الأولى من قوارير ولا يثبتها في الثانية، قال أبو عبيد رأيت في مصحف عثمان رضي الله عنه الذي قال له مصحف الإمام قوارير بالألف والثانية كان بالألف فحكت ورأيت أثرها بيناً هناك، وأما السلاسل فرأيتها قد رست وقال بعض أهل اللغة الأجود في العربية أن لا ينصر فيه سلاسل وقوارير لأن كل جمع يأتي بعد ألفه حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن فإنه لا ينصرف فأما من صرفه ونون فإنه رده إلى الأصل في الازدواج إذا وقعت الألف بغير تنوين ثم قال ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ يعني على قدر كف الخدم، ويقال على قدر كف المخدوم ولا يحجز، ويقال على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه ويقال على مقدار الذي لا يزيد ولا ينقص ليكون الري لشربهم ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأساً﴾ يعني خمراً وشراباً ﴿كَانَ مِزَاجُها﴾ يعني خلطها ﴿زنجبيلاً عَيْناً فيها تُسَمَّى سلسبيلاً﴾ وقال القتبي والزنجبيل اسم العين وكذلك السلسبيل، ويقال إن السلسبيل اللبن والزنجبيل طعمه، والعرب تضرب به المثل وقال مقاتل: إنما سمي السلسبيل لأنها تسيل عليهم في الطريق وفي منازلهم وقال أبو صالح بلغني أن السلسبيل شديد الجرية وقال بعضهم معناه كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً يعني عيناً تسمى الزنجبيل وتم الكلام، ثم قال سلسبيلاً يعني سل الله تعالى السبيل إليها قوله تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يعني لا يكبرون ويكونون على سن واحدة ﴿إِذَا رَأَيتَهم حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ قال قتادة كثرتهم وحسنهم كاللؤلؤ[٣] المنثور ﴿وإذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نعيماً﴾ يعني إذا رأيت هناك ما في الجنة رأيت نعيماً ﴿وملكاً كبيراً﴾ يعني على رؤسهم التيجان كما يكون على رأس ملك من الملوك ويقال «وملكاً كبيراً» يعني لا يدخل رسول رب العزة إلا بإذنهم ثم قال عز وجل ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٍ﴾ يعني على ظهورهم ثياب سندس قرأ نافع وحمزة بجزم الياء وكسر الهاء وبالباقون بنصب الياء وضم الهاء[٤] فمن قرأ بالجزم فمعناه الذي يعلوهم وهو اسم فاعل من علا يعلو ومن قرأ بالنصب نصبه على الظرف كما قال فوقهم ثياب، وروي عن ابن مسعود: أنه قرأ عاليتهم ثياب يعني الوجه الأعلى ثم قال ثياب سندس خضر بالكسر ﴿واستبرق﴾ قرأ نافع وعاصم في رواية حفص خضر واستبرق كلاهما بالضم والباقون كلاهما بالكسر[٥] فمن قرأ بالضم لأنه نعت الثياب يعني ثياباً خضراً ومن قرأ بالكسر فهو نعت للسندس ومن قرأ واستبرق بالضم فهو نسق على الثياب ومعناه عليهم سندس واستبرق ومن قرأ بالكسر يكون عليهم ثياب من هذين النوعين ثم قال عز وجل ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهو جمع السوار ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً﴾ يعني الذي سقاهم خدمهم، ويقال الذين يشربون من قبل أن يدخلوا الجنة ثم قال ﴿إن هذا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ يعني الذي وصف لكم في الجنة ثواباً لأعمالكم ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ يعني عملكم مقبولاً يعني يبشرون بهذا إذا أرادوا أن يدخلوا الجنة ثم قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ يعني أنزلنا عليك القرآن تنزيلاً يعني إنزالاً فالمصدر للتأكيد ثم قال عز وجل ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يعني استقم على أمر الله تعالى ونهيه ويقال اصبر على أذى الكفار، وقال: على تبليغ الرسالة ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ آثماً يعني فاجراً وهو الوليد بن المغيرة أو

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٠ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقي في البعث.

(٢) انظر حجة القراءات ٧٣٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

(٤) انظر حجة القراءات ٧٣٩.

(٥) المصدر السابق.

كفوراً يعني ولا كفوراً وهو عتبة بن ربيعة قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن فعلت هذا لأجل المال فارجع حتى أدفع إليك من المال ما تصير به أكثر مالاً من أهل مكة[١] فنزلت هذه الآية ولا تطع منهم أثماً ولا كفوراً ثم قال عز وجل ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني صلِ باسم ربك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يعني بكرة وعشياً يعني صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ يعني فصَلِّ لله المغرب والعشاء ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ يعني بعد المكتوبة فهذا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة، ويقال له ولأصحابه وهذا أمر استحباب لا أمر وجوب ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ﴾ يعني يختارون الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ يعني يتركون العمل لما هو أمامهم ﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾ يعني ليوم ثقيل وقال مجاهد وراءهم يعني خلفهم. قوله تعالى ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ يعني قوينا خلقهم ليطيعوني فلم يطيعوني، ويقال شددنا مفاصلهم بالعصب والعروق والجلد لكي لا ينقطع المفاصل وقت تحريكها، ويقال شددنا أسرهم أي قبلهم ودبرهم لكي لا يسيل البول والغائط إلا عند الحاجة ﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾ يعني إذا أردنا ﴿بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ يعني أي نخلق خلقاً أمثل منهم وأطوع لله ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني هذه السورة عظة لكم ويقال هذه الآيات ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ يعني فمن شاء أن يتعظ فليتعظ فقد بينا له الطريق ثم قال عز وجل ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يعني إلا أن يشاء لكم فيوفقكم يعني إن جاهدتم فيوفقكم كقوله «والذين جاهدوا فينا لنهديهم» الآية قرأ ابن كثير وأبو عمرو «وما يشاؤون» بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء[٢] على معنى المخاطبة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ يعني كان عليماً قبل خلقكم من يتخذ السبيل ولم يشرك ويوحد «حكيماً» حكم بالبداية لمن كان أهلاً لذلك قوله تعالى ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ يعني يكرم بالإسلام من كان أهلاً لذلك ويقال يدخل من يشاء في رحمته يعني في نعمته وهي الجنة في رحمته وفضله ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يعني يدخل الظالمين في عذاب أليم ويقال يعذب الظالمين وقرىء في الشاذ والظالمون وقراءة العامة والظالمين بالنصب ومعناه ويعذب الظالمين ويكون لهم عذاباً أليماً تفسيراً لهذا المضمر والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ١٩/١٥٠.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٧٩.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ(١)

وهي خمسون آية مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾
عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً﴾ قال الكلبي ومقاتل يعني الملائكة أرسلوا بالمعروف، ويقال كثرتها لها عرف كعرف الفرس، وقال أهل اللغة: ويحتمل وجهين، أحدهما أنها متتابعة بعضها في إثر بعض، وهو مشتق من عرف الفرس، ووجه أخر، أنه يرسل بالعرف أي بالمعروف وروى سفيان عن سلمة بن(٢) كهيل عن مسلم البطين عن أبي عبيدة الساعدي قال سألت عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن قوله (والمرسلات عرفاً) قال الريح ﴿فالعاصِفَاتِ عَصْفاً﴾ قال الريح ﴿والنَاشِرَاتِ نَشْراً﴾ قال الريح ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً﴾ قال حسبك معناه والمرسلات عرفاً يعني أرسل الرياح متتابعة كعرف الفرس فالعاصفات عصفاً يعني الريح الشديدة التي تدر التراب بالبراري وسمي ريح عاصف، والناشرات نشراً يعني الريح التي تنشر السحاب ويقال الناشرات نشراً يعني البعث يوم القيامة ويقال الملائكة الذين ينشرون من الكتاب «فالفارقات فرقاً» يعني القرآن فرق بين الحق والباطل ويقال هو القبر فرق بين الدنيا والآخرة، ويقال آيات القرآن التي فيها بيان عقوبة الكفار ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً﴾ يعني فالمنزلات وحياً وهم الملائكة ﴿عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾ يعني أنزل الوحي عذراً من الله تعالى من الظلم أو نذراً لخلقه من عذابه، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص بضم العين وجزم الذال أو نذراً بضم النون وجزم(٣) الذال والباقون بضم الحرفين في كليهما فمعناهما إنذار وهو جمع نذر يعني لإنذار ومن قرأ بالجزم فمعناه كذلك وهو للتخفيف وإنما نصب عـذراً أو نذراً لأنهما مفعولا لهما فمعناه فالملقيات ذكراً للإعذار والإنذار ثم قال عز وجل ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ وهو جواب قسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء إن ما توعدون من أمر الساعة والبعث لواقع يعني لكائن ولنازل

---

(١) أعراض هذه السورة تتمثل فيما اشتملت عليه من الاستدلال على وقوع البعث عقب فناء الدنيا ووصف بعض أشراط ذلك. والاستدلال على إمكان إعادة الخلق بما سبق من خلق الإنسان وخلق الأرض. ووعيد منكريه بعذاب الآخرة ووصف أهواله. والتعريض بعذاب لهم في الدنيا كما استؤصلت أمم مكذبة من قبل. ومقابلة ذلك بجزاء الكرامة للمؤمنين. وإعادة الدعوة إلى الإسلام والتصديق بالقرآن لظهور دلائله. التحرير ٢٩/٤١٩.

(٢) سلمة بن كهيل الحضرمي، أبو يحيى الكوفي ثقة. التقريب ١/٣١٨.

(٢) انظر حجة القراءات ٧٤٢.

ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ يعني الموعد الذي يوعدون في اليوم الذي فيه طمست النجوم يعني ذهب ضوؤها ﴿وإذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ يعني انشقت من خوف الرحمن ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ يعني قلعت من أصولها حتى سويت بالأرض ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ يعني جمعت وروى منصور عن إبراهيم وإذا الرسل اقتت قال وعدت[(١)] وقال مجاهد أي[(٢)] أجلت قرأ أبو عمرو وقتت بغير همزة[(٣)] والقرب تقول صلى القوم إحداناً ووحداناً ومعناهما واحد يعني يجعل لها وقتاً واحداً وقيل جمعت لوقتها ثم قال ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ على وجه التعظيم يعني لأي يوم أجلت الرسل ليشهدوا على قومهم ثم بين فقال ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ يعني أجلها ليوم الفصل وهو يوم القضاء، ويقال يوم الفصل يعني يوم يفصل بين الحبيب والحبيبة وبين الرجل وأمه وأبيه وأخيه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يعني ما تدري أي يوم القضاء تعظيماً لذلك اليوم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني الشدة من العذاب في ذلك اليوم للذين أنكروا وجحدوا بيوم القيامة.

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾

ثم قال عز وجل ﴿آلَمْ نُهْلِك الْأَوَّلِينَ﴾ يعني ألم يهلك الله تعالى من كان قبلهم بتكذيبهم لأنبيائهم ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُم الآخِرِينَ﴾ يعني نهلك الآخرين يعني إن كذبوا رسلهم ﴿كَذَلِكَ نَفعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ يعني هكذا يفعل الله بالكفار ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني الذين كذبوا رسلهم ثم قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني من نطفة وهو ماء ضعيف ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني في رحم الأم ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يعني إلى وقت معروف وهو وقت الخروج من البطن ﴿فَقَدَرْنَا﴾ يعني فخلقنا ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ يعني نعم الخالق وهو أحسن الخالقين قرأ نافع والكسائي فقدرنا بتشديد الدال المهملة والباقون بالتخفيف[(٤)] ومعناهما واحد، يقال: قدرت كذا وكذا وقد يعني خلقه في بطن الأم نطفة ثم علقة ثم مضغة يعني قدرنا خلقه قصيراً وطويلاً فنعم القادرون يعني فنعم ما قدر الله تعالى خلقهم ثم أخبرهم بصنعه ليعتبروا فيؤمنوا بالبعث وعرفوا الخلق الأول فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لَلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٣ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٣ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) المصدر السابق.

(٤) وحجتهم قوله ﴿فنعم القادرون﴾ ولم يقل المقدرون. فأجروا على لفظ ما جاوره إذ لم يقم على التفريق بين اللفظين. وكان المعنى فيه: فملكنا فنعم الملكون، فكان لفظ يشاكل بعضه بعضاً في اللفظ والمعنى. ومن شدّد فإنه أحب أن يجري على معنيين كل واحد منهما بخلاف الآخر، وذلك ﴿فقدرنا﴾ مرة بعد مرة لأنه ذكر الخلق فقال: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين. فجعلنا في قرار مكين. إلى قدر معلوم﴾ فذلك منه فعل متردد، فشدّد إرادة تردد الفعل على سنن العربية. وقد أوضح هذا المعنى في تقرير خلق الإنسان بما أجمعوا فيه على التشديد وهو قوله «من نطفة خلقه فقدّره» فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. حجة القراءات ٧٤٣.

الشدة من العذاب لمن رأى الخلق الأول فأنكر الخلق الثاني ويقال فنعم القادرون يعني نعم المقدرون، ويقال نعم المالكون. ثم قال عز وجل ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً﴾ يعني أوعية للخلق ويقال موضع القرار، ويقال بيوتاً ومنزلاً ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً﴾ يعني ظهرها منازل الأحياء وبطنها منازل الأموات، وقال الأخفش يعني أوعية للأحياء والأموات، وقال الشعبي بطنها لأمواتكم وظهرها لأحياءكم ويقال يعني نظمكم فيها والكفت الضم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ يعني الجبال الثقال ﴿شَامِخَاتٍ﴾ يعني عاليات طوالاً ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً﴾ يعني ماءً عذباً من السماء ومن الأرض ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني ويل لمن عاين هذه الأشياء وأنكر وحدانية الله تعالى والبعث ثم قال عز وجل ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني يوم الفصل يقال لهؤلاء الذين أنكروا البعث انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون يعني انطلقوا إلى العذاب ثم قال عز وجل ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ وذلك أنه يخرج عنق من النار فيحيط الكفار مثل السرادق ثم يخرج من دخان جهنم ظل أسود فيفرق فيهم ثلاث فرق رؤوسهم فإذا فرغ من عرضهم قيل لهم انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ينفعهم ولا يغني من اللهب يعني السرادق من لهب النار. وقال القتبي: وذلك أن الشمس تدنو من رؤوسهم يعني رؤوس الخلق أجمع، وليس عليهم يومئذ لباس ولا لهم أكنان ينجي الله تعالى برحمته من يشاء إلى ظل من ظله ثم قال للمكذبين انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الله وعقابه انطلقوا إلى ظل أي دخان من نار جهنم قد يسطع ثم افترق ثلاث فرق فيكونون فيه إلى أن يفرغ من الحساب كما يكون أولياؤه في ظله ثم يؤمر لكل فريق إلى مستقره الجنة أو إلى النار ثم وصف الظل فقال لا ظليل يعني لا يظلكم من حر هذا اليوم بل يزيدكم من لهب النار إلى ما هو أشد عليكم من حر الشمس ولا يغني من اللهب وهذا مثل قوله وظل من يحموم وهو الدخان وهو سرادق أهل النار كما ذكر المفسرون.

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾
وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ
فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم
مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ يعني النار ترمي بشرر القصر قال الكلبي يعني يشبه القصر وهو القصور الأعاريب التي على الماء واحدهما عربة وهي الأرحية التي تكون على الماء تطحن الحنطة وقال مقاتل القصور أصول الشجر العظام وقال مقاتل إنها ترمي بشرر كالقصر أراد القصور من قصور أحياء العرب وقرأ بعضهم كالقصر بنصب الصاد شبه بأعناق[1] النخل ثم شبه في لونه بالجمالات الصفر فقال: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ وهو أسود والعرب تسمي السود من الإبل الصفرَ لأنه يشوبه صفرة كما قال الأعشى:

(١) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وحميد والسلمي. انظر تفسير القرطبي ١٩/١٠٦.

تِـلْكَ خَيْـلِي وَتِـلْكَ مـنهـا رِكَـابِـي هُـنَّ صَـفْـرٌ أَوْلَادُهـا كـالـزَّبِـيـبِ[١]

يعني أسود، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص «جمالة صفر» وهي جمع جمل يقال جمل وجمال وجمالة وقرأ الباقون جمالات[٢] وهو جمع الجمع وقال ابن عباس رضي الله عنه جمالات حبال السفينة يجمع بعضها إلى بعض حتى يكون مثل أوساط الرجال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: ويل لمن جحد هذا اليوم بعدما سمعه ثم قال عز وجل ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ يعني: لا يتكلمون وهذا في بعض أحوال يوم القيامة ومواضعها ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ يعني: لا يـؤذن لهم في الكلام يعني الكفار ليعتذروا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: ويل لمن جحد يوم القيامة وهو يقدر على الكلام في هذا اليوم يعني: كان في الدنيا يقدر على المعذرة فتركها ثم قال عز وجل ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يعني: يوم القضاء ويقال يوم الفصل يعني بين أهل الجنة وبين أهل النار ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني: جمعناكم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع من مضي قبلكم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ﴾ يعني: إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: ويل لمن أنكر قدرة الله والبعث والجمع يوم القيامة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ يعني: إن الذين يتقون الشرك والفواحش.

قال الكلبي في ظلال الأشجار وقال مقاتل يعني في الجنان والقصور يعني قصور الجنة وعيون يعني أنهار جـارية ﴿وَفَـوَاكِهَ﴾ يعني وألـوان الفواكـه ﴿مِمَّا يَشْتَهُـونَ﴾ يعني يتمنون ويقـال لهم ﴿كُلُوا﴾ يعني من الطعـام ﴿وَاشْرَبُوا﴾ من الشراب ﴿هَنِيئاً﴾ يعني سائغاً مريئاً لا يؤذيهم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ثواباً لكم بما عملتم في الدنيا ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني هكذا يثيب الله الموحدين المحسنين المؤمنين في أعمالهم وأفعالهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني ويل لمن أنكر هذا الثواب ثم قال للمجرمين عز وجل ﴿كُلُوا وتمتعوا قَلِيلاً﴾ يعني كلوا في الدنيا كما تأكل البهائم وعيشوا مدة قليلة إلى منتهى آجالكم ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ يعني مشركين، وهذا وعيد وتهديد ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني لمن رضي بالدنيا ولا يقر بالبعث ثم قال عز وجل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ يعني اخضعوا لله تعالى بالتوحيد لا يخضعون، ويقال وإذا قيل لهم صلوا وأقروا بالصلاة لا يركعون يعني لا يقرون بها ولا يصلون

يعني ويل طويل لمن لا يقر بالصلاة ولا يؤديها وقال مقاتل نزلت في ثقيف قالوا أنحني في الصلاة لأنه مذلة علينا ثم قال عز وجل ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني إن لم يصدقوا به فبأي كلام يصـدقون يعني إن لم يصدقوا بالقرآن ولم يقروا به فبأي حديث يصدقون يعني هذا الكلام لا باطل فيه يعني لا حديث أصدق منه ولا دعوة أبلغ من دعوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله أعلم بالصواب.

---

(١) البيت للأعشى كما ذكر المصنف انظر ديوانه ص ٣٧١ وكذا نسبه له صاحب اللسان ٤/٢٤٥٨.
(٢) انظر حجة القراءات ٧٤٤.

سُورَةُ النَّبَإِ(١)

وهي أربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

قوله تعالى ﴿**عَمّ يتساءَلُونَ**﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بعث جعلوا يتساءلون فيما بينهم ويقولون ما الذي جاء به هذا الرجل فنزل عم يتساءلون يعني عماذا يتساءلون ثم قال ﴿**عَنِ النَّبأ الْعَظِيم**﴾ يعني **يتساءلون** عن الخبر **العظيم** وهو القرآن كقوله ـ «**قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون**» ويقال معناه عن ماذا يتحدثون وعن أي شيء يتحدثون ثم قال عن النبأ **العظيم يعني** خبراً عظيماً وقال الزجاج أصله عما يتساءلون ثم بين فقال عن النبأ العظيم يعني عن أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل عن القرآن وقيل عن النبأ العظيم يعني عن البعث والدليل قوله تعالى «إن يوم الفصل كان ميقاتاً» ثم بين لهم الأمر الذي كانوا يتساءلون وهو البعث ثم قال عز وجل ﴿**الذي هم فيه مختلفون**﴾ يعني مصدقاً ومكذباً يعني بالبعث بعضهم مصدق وبعضهم مكذب، ويقال بالقرآن ويقال بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال الله تعالى ﴿**كلا سيعلمون**﴾ يعني سيعرفون ﴿**ثم كلا سيعلمون**﴾ يعني سيعرفون ذلك الوعيد على أثر الوعيد يعني سيعلمون عند الموت وفي الآخرة ويتبين لهم بالمعاينة قرأ ابن عامر ستعلمون بالتاء على وجه المخاطبة وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر عنهم.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا
اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾
وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ
مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾

---

(١) اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالأخبار عن وقوعه. وتهديدهم على استهزائهم.
وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.
ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.
وصفة يوم الحشر إنذاراً للذين جحدوا به والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث.
وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس. التحرير ٣٠/٦.

ثم ذكر صنعه ليستدلوا بصنعه على توحيده فقال تعالى ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ يعني فراشاً ومقاماً ويقال موضع القرار، ويقال: معناه ذللنا لهم الأرض ليسكنوها ويسيروا فيها ﴿والجبال أوتاداً﴾ يعني أوتدها وأثبتها ثم قال ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ يعني أصنافاً وأضداداً ذكراً وأنثى، ويقال ألواناً بيضاً وسوداً وحمراً ﴿وجعلنا نومكم سُبَاتاً﴾ يعني راحة لأبدانكم وأصله التمدد فلذلك سمي السبت لأنه قيل لبني إسرائيل استريحوا فيه. ويقال سباتاً يعني سكوناً وانقطاعاً عن الحركات ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ يعني سكوناً يسكنون فيه ويقال ستراً يستر كل شيء ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ يعني مطلباً للمعيشة ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني سبع سموات غلاظاً كل سماء مسيرة خمسمائة عام ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ يعني وقاداً مضيئة ﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ يعني من السحاب سمي معصرات لأنها تعصر الماء ويقال المعصرات هي الرياح يعني ذوات الأعاصير كقوله إعصاراً فيه نار ثم قال عز وجل ﴿ماء ثجاجاً﴾ يعني سيالاً، ويقال منصباً كثيراً ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً﴾ يعني بالماء حبوباً كثيرة للناس ونباتاً للدواب من العشب والكلأ ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ يعني شجرها ملتفاً بعضها في بعض فأعلم الله تعالى قدرته أنه قادر على البعث فقال ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾ يعني يوم القيامة ميقاتاً وميعاداً للأولين والآخرين ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ يعني جماعة جماعة. وروي في بعض الأخبار عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال يبعث الله تعالى الناس صوراً مختلفة بعضهم على صورة الخنزير وبعضهم على صورة القردة وبعضهم وجوههم كالقمر ليلة البدر[1] ثم قال عز وجل ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ يعني أبواب السماء ﴿فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ يعني صارت طرقاً قرأ حمزة والكسائي وعاصم وفتحت بالتخفيف والباقون بالتشديد[2] وهو لتكثير الفعل والتخفيف بفتح مرة واحدة ثم قال عز وجل ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ يعني قلعت من أماكنها ﴿فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ يعني فصارت كالسراب تسير في الهواء كالسراب في الدنيا ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ أي رصداً لكل كافر ويقال سجناً ومحبساً ﴿لِلطَّاغِينَ مَئَاباً﴾ أي للكافرين مرجعاً يرجعون إليها ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ يعني ماكثين فيها أبداً دائماً والأحقاب وأحدها حقب والحقب ثمانون سنة واثنا عشر شهراً وكل شهر ثلاثون يوماً وكل يوم منها مقدار ألف سنة مما تعدون بأهل الدنيا فهذا حقب واحد، والأحقاب هو التأبيد كلما مضى حقب دخل حقب آخر، وإنما ذكر أحقاباً لأن ذلك كان أبعد شيء عندهم فذكر وتكلم بما تذهب إليه أوهامهم ويعرفونه وهو كناية عن التأبيد أي يمكثون فيها أبداً قرأ حمزة لبثين بغير ألف والباقون لابثين بالألف[3] ومعناهما واحد.

لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا

---

(١) انظر الدر المنثور ٦/٣٠٧.

(٢) حجتهم قوله «فكانت أبواباً» والتشديد للتكثير ويقوى هذا قوله «مفتحة لهم الأبواب» بالتشديد ومن قرأ بالتخفيف قال: التخفيف يكون للقليل والكثير. انظر حجة القراءات ٧٤٥.

(٣) المصدر السابق.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٧﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٨﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٣٩﴾﴾ ﴿٤٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً﴾ يعني لا يكون فيها برد يمنعهم من حرها وقال القتبي: البرد النوم، وقال الزجاج: يجوز أن يكون البرد نوماً، ويجوز أن يكون معناه لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ﴿وَلَا شَرَاباً﴾ يعني شراباً ينفعهم ﴿إِلَّا حَمِيماً﴾ يعني مـاءً حاراً قد انتهى حره ﴿وَغَسَّاقاً﴾ يعني زمهريراً، وقال الزجاج: الغساق ما يغسق من جلودهم أي ما يسيل وقد قيل الشديـد البـرد قـرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص وغساقاً بالتشديد والباقون بالتخفيف، ومعناهما واحد ثم قال ﴿جَزَاء وِفَاقاً﴾ يعني العقوبة موافقة لأعمالهم لأن أعظم الذنوب الشرك نعوذ بالله وأعظم العذاب النار ووافق الجزاء العمل ثم قال ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ يعني لا يخافون البعث بعد الموت، ويقال: كانوا لا يرجون ثواب الآخرة أنهم كانوا ينكرون البعث قوله تعالى ﴿وكذبوا بآيتنا كِذَاباً﴾ يعني جحدوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن كذاباً يعني تكذيباً وجحوداً ثم قال ﴿وَكلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كتاباً﴾ يعني أثبتناه في اللوح المحفوظ ﴿فذوقوا﴾ يعني يقال لهم فذوقوا العذاب ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إلا عَذَاباً﴾ ثم بين حال المؤمنين فقال عز وجل ﴿إن للمتقين مفازاً﴾ يعني نجاة من النار إلى الجنة ويقال المفاز بمعنى الفوز يعني موضع النجاة ﴿حدائق وأعناباً﴾ يعني لهم حدائق في الجنة والحدائق ما أحيط بالجدار وفيه من النخيل والثمار وأعناباً يعني كروما ﴿وكواعب أتراباً﴾ والكواعب الجواري مفلكات الثديين أتراباً مستويات في الميلاد والسن وقال أهل اللغة الكواعب النساء قد كعب ثديهن[1] ﴿وكأساً دهاقاً﴾ كل إناء فيه شراب فهو كأس فإذا لم يكن فيه شراب فليس بكأس كما يقال للمائدة إذا كان عليها طعام مائدة وإذا لم يكن فيها طعام خوان يقال دهاقاً يعني سائغاً وقال الكلبي: وكأساً دهاقاً يعني: إناء فيه خمر ملان متتابعاً[2] وهذا قول عطية وسعيد والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ومجاهد وإبراهيم النخعي ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ يعني حلفاً وباطلاً ويقال ولا يسمعون في مشربها فحشاً خبثاً ﴿ولا كذاباً﴾ يعني تكذيباً في شربها يعني لا يكذبون فيها قرأ الكسائي كذاباً بالتخفيف يعني لا يكذب بعضهم بعضاً وقرأ الباقون بالتشديد[3] فهو من التكذيب ثم قال ﴿جزاءً مِنْ ربك﴾ يعني ثواباً من ربك ﴿عطاءً حِساباً﴾ يعني كثيراً وقال مجاهد عطاء من الله حساباً بما[4] عملوا وقال أهل اللغة حساباً أي كثيراً كما يقال أعطينا فلاناً عطاء حساباً أي كثيراً وأصله أن يعطيه حتى يقول حسبي، وقال الزجاج حساباً أي ما يكفيهم يعني فيه ما يشتهون ثم قال ﴿رَبِّ السموات والأرضِ﴾ يعني خالق السموات والأرض قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو رب السموات والأرض بضم الباء والباقون بالكسر[5] فمن قرأ بالضم فمعناه هو رب السموات والأرض ومن قرأ بالكسر فهو على معنى الصفة أي: جزاءاً من ربك رب السموات والأرض ﴿وما بينهما الرحمنِ﴾ يعني الرحمن هو رب السمـوات والأرض ﴿لا

---

(١) انظر لسان العرب ٥/٣٨٨٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٤٦.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠٩ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٥) انظر حجة القراءات ٧٤٦.

يملكون منه خطاباً﴾ يعني لا يملكون الكلام بالشفاعة إلا بإذنه **﴿يَوْمَ يقومُ الروحُ﴾** قال الضحاك هو جبريل وقال قتادة عن ابن عباس وخلق على صورة بني آدم، ويقال هو خلق واحد يقوم صفاً واحداً **﴿والملائكةُ صفّاً﴾** يعني صفوفاً، ويقال: الروح لا يعلمه إلا الله. كما قال قل الروح من أمر ربي، ثم قال عز وجل **﴿لا يتكلمون إلا مَنْ أَذِنَ له الرَّحْمَنُ﴾** يعني لا يتكلمون بالشفاعة إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة **﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾** يعني لا إله إلا الله يعني من كان معه من التوحيد وهو من أهل الشفاعة ثم قال عز وجل **﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾** يعني القيامة كائنة **﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ﴾** يعني من شاء وجد واتخذ بذلك التوحيد **﴿إِلَى رَبِّه مَـآباً﴾** يعني مرجعاً ويقال من شاء اتخذ بالطاعة إلى ربه مرجعاً ثم خوفهم فقال **﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾** يعني خوفناكم بعذاب قريب وهو يوم القيامة ثم خوف المؤمنين ووصف ذلك اليوم **﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾** يعني ما عملـوا من الخيـر والشـر يعني يـنظر المؤمن إلى عمله وينظر الكافر إلى عمله **﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾** يعني لو كنت بهما منها فأكون تراباً أستوي بالأرض وذلك أن الله تعالى يقول للسباع والبهائم كوني تراباً فعند ذلك يتمنى الكافر يا ليتني كنت تراباً، وروى عبد الله بن عمر عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال إن الله يحشر البهائم والدواب والناس ثم يقتص لبعضهم من بعض حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم إن الله تعالى يقول لها كوني تراباً فيراها الكافر ويتمنى أن يكون مثلها تراباً، ويقول: يا ليتني كنت تراباً[1] يعني يا ليتني لم أبعث كقوله (يا ليتني لم أوت كتابيه) إلى قوله «يا ليتها كانت القاضية» والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٠ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ(١)

وآياتها ست وأربعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾
يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا
لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ
﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى **﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾** قال مقاتل يعني ملك الموت ينزع روح الكافر من صدره كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف فيخرج نفسه من حلقه منها العروق كالغريق في الماء **﴿والناشطاتِ نَشْطاً﴾** ملك الموت ينشط روح الكافر من قدمه إلى حلقه وقال الكلبي: (والنازعات) يعني ملك الموت وأعوانه غرقاً كرهاً يقال: غرقت نفسه في صدره وذلك أنه ليس من كافر يحضره الموت إلا عرضت عليه جهنم فيراها قبل أن يخرج نفسه فيرى فيها أقواماً مرة ينغمسون ومرة يرتفعون فعند ذلك تغرق روحه في جسده (والناشطات نشطاً) يعني الملائكة الذين يقبضون أرواح المؤمنين بالتيسير وذلك أنه ما من مؤمن يحضره الموت إلا ويرى منزلته في الجنة ويرى فيها أقواماً من أهل معرفته وهم يدعون إلى أنفسهم فعند ذلك ينشط إلى الخروج ويقال: النازعات الملائكة تنزع النفس أغراقاً كما يغرق النازع في القوس والناشطات الملائكة تقبض نفس المؤمن كما ينشط العقال وقال عطاء والنازعات غرقاً يعني ألقى والناشطات نشطاً يعني الأوهاق ثم قال **﴿والسابِحَاتِ سَبْحاً﴾** يعني الملائكة الذين يقبضون أرواح

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات البعث والجزاء، وإبطال إحالة المشركين وقوعه. وتهويل يومه وما يعتري الناس حينئذ من الوهل.
وإبطال قول المشركين بتعذر الإحياء بعد انعدام الأجساد.

وعرض بأن نكرانهم إياه منبعث عن طغيانهم فكان الطغيان صاداً لهم عن الإصغاء إلى الإنذار بالجزاء فأصبحوا آمنين في أنفسهم غير مترقبين حياة بعد هذه الحياة الدنيا بأن جعل مثل طغيانهم كطغيان فرعون وإعراضه عن دعوة موسى عليه السلام وأن لهم في ذلك عبرة، وتسلية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وانعطف الكلام إلى الاستدلال على إمكان البعث بأن خلق العوالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق.
وأدمج في ذلك إلفات إلى ما في خلق السماوات والأرض من دلائل على عظيم قدرة الله تعالى.
وأدمج فيها امتنان في خلق هذا العالم من فوائد يجتنونها وأنه إذا حل عالم الآخرة وانقرض عالم الدنيا جاء الجزاء على الأعمال بالعقاب والثواب.

وكشف عن شبهتهم في إحالة البعث باستبطائهم إياه وجعلهم ذلك أمارة على انتفائه فلذلك يسألون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تعيين وقت الساعة سؤال تعنت، وأن شأن الرسول أن يذكرهم بها وليس شأنه تعيين إبانها، وأنها يوشك أن تحل فيعلمونها عياناً وكأنهم مع طول الزمن لم يلبثوا إلا جزءاً من النهار. التحرير ٣٠/٥٩ ـ ٦٠.

الصالحين يسلونها سلاً رقيقاً ويتركونها حتى تستريح رويداً، ويقال: والسابحات سبحاً يعني السفن تجري في الماء ويقال والسابحات سبحاً يعني الملائكة جعل نزولها في السماء كالسباحة ويقال والسابحات سبحاً يعني النجوم الدوارة كما قال وكل في فلك يسبحون ثم قال ﴿فالسابقاتِ سَبْقاً﴾ يعني الملائكة الذين يسبقون إلى الخير والدعاء ويقال فالسابقات سبقاً بالخير يعني أرواح المؤمنين يعرج بها إلى السماء سراعاً يفتح لها أبواب السماء ويقال فالسابقات سبقاً يعني خيول الغزاة ﴿فالمدبِّراتِ أمراً﴾ يعني الملائكة الذين جعل إليهم تدبير الخلق وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام أما جبريل فعلى الوحي وإنزال الرحمة والعذاب على الخلائق بأمر الله وأما ميكائيل فعلى الأمطار والنبات يقسم على البلاد والعباد بإذن الله. وأما عزرائيل وهو ملك الموت فعلى قبض الأرواح عند انقضاء أجلهم بإذن الله تعالى وأما إسرافيل فعلى النفخ في الصور متى أمره الله تعالى. فهذا كله قسم وجواب القسم مضمر فكأنه أقسم بهذه الأشياء أنهم يبعثون يوم القيامة لأن في الكلام دليلاً عليه وهو قوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفَ الراجِفَةَ﴾ يعني لتبعثن يوم القيامة في يوم ترجف الراجفة يعني الصيحة الأولى ﴿تَتْبَعُهَا الـرَّادِفَةُ﴾ يعني الصيحة الثانية يعني النفخة الأولى للصعق، والنفخة الأخرى للبعث وروي عن يزيد بن ربيعة[١] عن الحسن في قوله يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قال هما النفختان فأما الأولى فيميت الأحياء وأما الثانية فتحيي الموتى ثم تلا ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون[٢]، وأصل الرجفة[٣] الحركة يعني تزلزلت الأرض زلزلة شديدة عند النفخة الأولى والرادفة كل شيء تجيء بعد شيء فهو يردفه ثم قال ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ يعني خائفة خاشعة من هول ذلك اليوم ويقال يعني ذليلة ويقال زائلة عن مكانها ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ يعني أبصار الخلائق ذليلة، ويقال أبصار القلوب خاشعة ثم ذكر قول الكفار وإنكارهم البعث فقال ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ تعجباً منهم وفي الآية تقديم ومعناه أئنا لمردودون في الحياة بعد الموت، ويقال: أئنا لمردودون في الحافرة أي إلى أول أمرنا يقال رجع فلان في حافرته وعلى حافرته أي رجع من حيث جاء ثم قال ﴿ائذا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ يعني بعد ما كنا عظاماً بالية، قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر إذا كنا عظاماً ناخرة بالألف والباقون بغير ألف[٤] قال بعضهم معناهما واحد هما لغتان وقال بعضهم الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها والنخرة التي قد فسدت كلها وقال مجاهد عظاماً نخرة أو مرفوتة[٥] كما قال في قوله عظاماً ورفاتاً ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ يعني إن كانوا كما يقولون فنحن بخسران قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ يعني يبعثهم صيحة واحدة وهو نفخ إسرافيل في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ يعني على وجه الأرض يعني هم قيام على ظهر الأرض، ويقال سميت الأرض ساهرة لقيام الخلق وسهرهم عليها.

---

(١) يزيد بن ربيعة الرحبي الدمشقي قال البخاري أحاديثه مناكير. انظر ميزان الاعتدال ٤/٤٢٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١١ وعزاه لعبد بن حميد عن الحسن.

(٣) انظر لسان العرب ٣/٢٥٩٥.

(٤) حجة من قرأ بالألف أن رؤوس الآيات بالألف نحو: (الحافرة، والرادفة، والراجفة والساحرة)، فالألف أشبه بمجيء التنزيل وبرؤوس الآيات.

وحجة من قرأ بغير ألف أن ما كان منتظراً لم يكن فهو بالألف، وما كان وقع فهو بغير ألف. قال اليزيدي: (يقال عظم نخر وناخر غدا) فدل على أنهم قالوا: إذا كنا بعد موتنا عظاماً نخرة: قد نخرت. وقال أبو عمرو: نخرة وناخرة واحد. وكذا قال الفراء مثل: الطامع والطمع. حجة القراءات ٧٤٨.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١١ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ
إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ
﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن
يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

ثم وعظهم بما أصاب فرعون في النكال في الدنيا فقال ﴿هَلْ آتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ يعني قد أتاك خبر موسى ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ يعني بالوادي المطهر ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ يعني علا وتكبر وكفر فقال الله تعالى ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ يعني ألم يأن لك أن تسلم، ويقال: معناه هل ترغب في توحيد ربك وتشهد أن لا إله إلا الله، وتزكي نفسك من الكفر والشرك قرأ ابن كثير ونافع إلى أن تزكي بتشديد الزاء لأن أصله تتزكى وأدغمت التاء في الزاء وشددت والباقون بالتخفيف[٢]، لأنه حذف إحدى التائين وتركت مخففة ثم قال ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ يعني أدعوك إلى توحيد ربك فتخشى يعني تخاف عذابه فتسلم ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني العصا واليد وسائر الآيات ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ يعني كذب الآيات ولم يقبل قول موسى عليه السلام ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ يعني أدبر عن التوحيد وسعى في هلاك موسى ﴿فَحَشَرَ﴾ يعني فجمع أهل المدينة ﴿فَنَادَى﴾ يعني فخاطب ﴿فَقَالَ﴾ لهم اعبدوا أصنامكم التي كنتم تعبدون فإن هؤلاء أربابكم الصغار ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ يعني فعاقبه بعقوبة الدنيا والآخرة وهي الغرق وعقوبة الآخرة وهي النار، ويقال الآخرة، والأولى يعني العقوبة بالكلمة الأولى والكلمة الأخرى فأما الأولى قوله «ما علمت لكم من إله غيري» والأخرى قوله «وأنا ربكم الأعلى» وكان بين الكلمتين أربعون سنة، ويقال: قوله «وأنا ربكم الأعلى» كان في الابتداء حيث أمرهم بعبادة الأصنام ثم نهاهم عن ذلك وأمرهم بأن لا يعبدوا غيره، وقال: «ما علمت لكم من إله غيري» ثم قال ﴿إِنَّ في ذلك﴾ يعني في هلاك فرعون وقومه ﴿لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ يعني لعظة لمن يريد أن يعتبر ويسلم.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا
جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ
﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ
﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

ثم وعظ أهل مكة فقال ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ﴾ يعني أبعثكم بعد الموت أشد أم خلق السماء في المشاهدة عند الناس خلق السماء أشد فالذي هو قادر على خلق السماء قادر على البعث ثم قال ﴿بَنَاهَا﴾ يعني خلق

---

(١) المصدر السابق.

السماء مرتفعة ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي سقفها بغير عمد ﴿فَسَوَّاهَا﴾ يعني سوى خلقها، ويقال خلقها مستوية بلا صدع ولا شق ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يعني أظلم ليلها ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ يعني أنوار ضحاها وشمسها ونهارها فإنها راجعة إلى السماء ثم قال عز وجل ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يعني بعد خلق الأرض السماء وبسط الأرض ومدها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ يعني من الأرض ماءها يعني عيونها للناس ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ للدواب والأنعام، قال القتبي: هذا من جوامع الكلم حيث ذكر شيئين على جميع ما يخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنعام من العنب والشجر والحب والتمر والملح والنار لأن النار من العيدان والملح من الماء ثم قال عز وجل ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ يعني أوتدها وأثبتها ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ يعني منفعة لكم ﴿وَلأَنْعَامِكُمْ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ يعني الصيحة العظمى وإنما سميت الطامة لأنها طمت وعلت فوق كل شيء ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ يعني يعلم بكل شيء عمله في الدنيا، ويقال: يوم ينظر الإنسان في كتابه بما عمل من الخير والشر ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ يعني أظهرت الجحيم ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ يعني لمن وجب له ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ يعني كفر وعلا وتكبر ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني اختار ما في الدنيا على الآخرة، ويقال: اختار العمل للدنيا على الآخرة ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ يعني مأوى من كان هكذا ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ يعني خاف المقام بين يدي ربه ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ يعني منع نفسه عن معاصي الله تعالى وعمل بخلاف ما تهوى في الحرام ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ يعني مأوى من كان هكذا، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أخوف ما أخاف عليكم اثنان طول الأمل واتباع الهوى فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يعني يسألونك عن قيام الساعة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي وقت قيامها وأصله أي أوان ظهورها ووقتها، قال الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ يعني دع ما أنت وذاك دع ذلك إلى الله ثم قال ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ يعني عند ربك علم. [قيامها، وروى سفيان عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت لم يزل النبي - صلى الله عليه وسلم - يسأل عن الساعة حتى نزل «فيم أنت من ذكراها إلى ربك]^(١) منتهاها يعني عند ربك علم قيامها وانتهى عند ذلك^(٢) ثم قال عز وجل ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ يعني أنت مخوف بالقرآن من يخاف قيام الساعة وليس عليك أن تعرف متى وقتها ثم قال عز وجل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ يعني قيام الساعة ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ يعني كأنهم لبثوا في قبورهم مقدار عشية، وهو قدر آخر النهار أو ضحاها وهو قدر أول النهار ويقال كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مقدار العشية أو مقدار الضحى قرأ^(٣) أبو عمرو في إحدى الروايتين إنما أنت منذر بالتنوين والباقون بغير تنوين فمن قرأ بالتنوين جعل من في موضع النصب يعني منذر الذي يخشاها ومن قرأ بغير تنوين جعل من في موضع خفض بالإضافة. والله الموفق بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) سقط في أ.

(٢) انظر أسباب النزول للسيوطي ١٧٨.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٤/٥٨٧.

سُورَةُ عَبَسَ (١)

وهي اثنتان وأربعون آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾
فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ
﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي كلح وأعرض بوجهه يعني النبي - صلى الله عليه وسلم - وروى هشام بن عروة قال كان النبي - صلى الله عليه وسلم - جالساً ومعه عتبة بن ربيعة في ناس من وجوه قريش وهو يحدثهم بحديث فجاء ابن أم مكتوم على تلك الحال فسأله عن بعض ما ينفع به فكره النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقطع كلامه وقال في رواية مقاتل كان اسم ابن أم مكتوم عمر بن قيس، وقال في رواية الكلبي كان اسمه عبد الله بن شريح فقال يا رسول الله علمني مما علمك الله تعالى فأعرض عنه شغلاً بأولئك القوم لحرصه على إسلامهم[٢] فنزل (عبس وتولى) وهو بلفظ المغايبة تعظيماً للنبي - صلى الله عليه وسلم - عبس محمد - صلى الله عليه وسلم - وجهه وتولى يعني وأعرض ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ يعني إن جاءه الأعمى ويقال حين جاءه الأعمى وهو ابن أم مكتوم ثم قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ يعني وما يدريك يا محمد لعله يصلي أو يفلح فيعمل خيراً فيتعظ بالقرآن ويقال يعني يزداد خيراً ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ يعني يتعظ بالقرآن ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ يعني العظة ثم قال ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ يعني استغنى بنفسه عن ثواب الله، ويقال استغنى بماله ونفسه عن دينك وعظمتك ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ يعني تقبل بوجهك عليه،

---

(١) وقد اشتملت هذه السورة على تعليم الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها كيلا يفوت الاهتمام بالمهم منها في بادىء الرأي مهماً آخر مساوياً في الأهمية أو أرجح. ولذلك يقول علماء أصول الفقه أن على المجتهد أن يبحث عن معارض الدليل الذي لاح له. والإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبع مواقعه. وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسمو درجتهم عند الله تعالى. والثناء على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه. وانتقل من ذلك إلى وصف شدة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الالتفات إلى رغبة ابن أم مكتوم. والاستدلال على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أم مكتوم وذلك كان من أعظم ما عنى به القرآن من حيث إن إنكار البعث هو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهماً منهم بأنه يدعو إلى المحال، فاستدل عليهم بالخلق الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة. وأعقب الاستدلال بالإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين. والتذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه. والتنويه بضعفاء المؤمنين وعلو قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم وأنهم أصحاب الكفر والفجور. التحرير ٣٠/١٠٢.

(٢) أسباب النزول ٢٤٢.

ويقال تصدى يعني تعرض، يقال: فلان تصدى لفلان إذا تعرض له ليراه. قرأ عاصم أو يذكر تنفعه الذكرى بنصب العين، جعله جواباً لعله يتذكر فتنفعه الذكرى، وقرأ الباقون بالضم[١] جعلوه جواباً للفعل، قرأ نافع وابن كثير تصدى بتشديد الصاد لأن الأصل تتصدى فأدغمت وشددت والباقون بحذف التاء للتخفيف[٢] فهذا كقوله (فقل هل لك إلى أن تزكى) ثم قال ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ يعني أي شيء عليك إن لم يوجد عتبة وأصحابه ويقال: لا يضرك إن لم يؤمن ولم يصلح ثم قال عز وجل ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يعني يسرع إلى الخير ويعمل به وهو ابن أم مكتوم، ويقال يعني يمشي برجليه ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ ربه ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ يعني تشتغل وتتلاهى وتتغافل وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكرم ابن أم مكتوم بعد نزول[٣] هذه الآية قوله تعالى ﴿كَلَّا﴾ يعني لا تفعل ولا تقبل على من استغنى عن الله تعالى بنفسه وتعرض عمن يخشى الله تعالى ثم قال ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[٤] يعني هذه الموعظة

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٤٩، إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٨٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) أنظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٢.

(٤) قال ابن عاشور في المصدر السابق والعبرة من هذه الآيات أن الله تعالى زاد نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ علماً عظيماً من الحكمة النبوية، ورفع درجة علمه إلى أسمى ما تبلغ إليه عقول الحكماء رعاة الأمم، فنبه إلى أن في معظم الأحوال أو جميعها نواحي صلاح ونفع قد تخفى لقلة أطرادها، ولا ينبغي ترك استقرائها عند الاشتغال بغيرها ولو ظنه الأهم، وأن ليس الإصلاح بسلوك طريقة واحدة للتدبير بأخذ قواعد كلية منضبطة تشبه قواعد العلوم يطبقها في الحوادث ويغضي عما يعارضها بأن يسرع إلى ترجيح القوي على الضعيف مما فيه صفة الصلاح، بل شأن مقوم الأخلاق أن يكون بمثابة الطبيب بالنسبة إلى الطبائع والأمزجة فلا يجعل لجميع الأمزجة علاجاً واحداً بل الأمر يختلف باختلاف الناس. وهذا غور عميق يفاض إليه من ساحل القاعدة الأصولية في باب الاجتهاد القائلة أن المجتهد إذا لاح له دليل «يبحث عن المعارض» والقاعدة القائلة «إن لله تعالى حكماً قبل الاجتهاد نصب عليه أمارة وكلف المجتهد بإصابته فإن أصابه فله أجران وإن أخطأه فله أجر واحد». فإذا كان ذلك مقام المجتهدين من أهل العلم لأنه مستطاعهم فإن غوره هو اللائق بمرتبة أفضل الرسل ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما لم يرد له فيه وحي، فبحثه عن الحكم أوسع مدى من مدى أبحاث عموم المجتهدين، وتنقيبه على المعارض أعمق غوراً من تناوشهم لئلا يفوت سيد المجتهدين ما فيه من صلاح ولو ضعيفاً، ما لم يكن إعماله يبطل ما في غيره من صلاح أقوى لأن اجتهاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مواضع اجتهاده قائم مقام الوحي فيما لم يوح إليه فيه.

فالتزكية الحق هي المِحور الذي يدور عليه حال ابن أم مكتوم وحال المشرك من حيث إنها مرغوبة للأول ومزهود فيها من الثاني، وهي مرمى اجتهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتحصيلها للثاني والأمن على قرارها للأول بإقباله على الذي يتجافى عن دعوته وإعراضه عن الذي يعلم من حاله أنه متزكٍّ بالإيمان. وفي حاليهما حالان آخران سرهما من أسرار الحكمة التي لقنها الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يخفى في عتاد نظر النظار فأنبأه الله به ليزيل عنه ستار ظاهر حاليهما فإن ظاهر حاليهما قاض بصرف الاهتمام إلى أحدهما وهو المشرك لدعوته إلى الإيمان حين لاح من لين نفسه لسماع القرآن ما أطمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه قد اقترب من الإيمان فمحّض توجيه كلامه إليه لأن هدى الناس إلى الإيمان أعظم غرض بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأجله، فالاشتغال به يبدو أهم وأرجح من الاشتغال بمن هو مؤمن خالص، وذلك ما فعله النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

غير أن وراء ذلك الظاهر حالاً آخر كامناً علمه الله تعالى العالم بالخفيات ولم يوح لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التنقيب عليه وهو حال مؤمن هو مظنة الازدياد من الخير، وحال كافر مصمم على الكفر تؤذن سوابقه بعناده وأنه لا يفيد فيه البرهان شيئاً. وأن عميق التوسم في كلا الحالين قد يكشف للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإعانة الله رجحان حال المؤمن المزداد من الرشد والهدى على حال الكافر الذي لا يغر ما أظهره من اللين مصانعة أو حياء من المكابرة، فإن كان في إيمان الكافر نفع عظيم عام للأمة بزيادة عددها ونفع خاص لذاته. وفي ازدياد المؤمن من وسائل الخير وتزكية النفس نفع خاص له والرسول راع لآحاد الأمة ولمجموعها، فهو مخاطب بالحفاظ على مصالح المجموع ومصالح الآحاد بحيث لا يدحض مصالح الآحاد لأجل مصالح المجموع إلا إذا تعذر=

تذكرة ويقال هذه السورة تذكرة يعني موعظة ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ يعني ذكر المواعظ وذكره يلفظ التذكير ولم يقل ذكرها لأنه ينصرف إلى المعنى لأن الموعظة إنما هي بالقرآن يعني فمن شاء أن يتعظ بالقرآن فليتعظ ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ يعني أن هذا القرآن في صحف مكرمة يعني مطهرة مبجلة معظمة وهو اللوح المحفوظ ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ يعني مرتفعة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ يعني منزهة عن التناقض والكذب والعيب ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يعني الكتبة الذين يكتبون في اللوح المحفوظ، ثم أثنى على الكتبة فقال ﴿كِرَامٍ﴾ على الله ﴿بَرَرَةٍ﴾ أي مطيعين لله تعالى، ويقال بررة من الذنوب، وقال القتبي السفرة الكتبة وأحدهما سافر وإنما يقال للكاتب سافر لأنه يبين الشيء ويوضحه ويقال أسفر الصبح إذا أضاء البررة جمع بار مثل كفرة وكافر.

قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾

ثم قال تعالى ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ يعني لعن الكافر بالله تعالى يعني عتبة وأصحابه ومن كان مثل حاله إلى يوم القيامة ما أكفره يعني ما الذي أكفره وهذا قول مقاتل، وقال الكلبي يعني أي شيء أكفره قال نزلت في عتبه حيث قال: إني كفرت بالنجم إذا هوى، ويقال: ما أكفره يعني ما أشده في كفره ثم قال ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ يعني هل يعلم من أي شيء خلقه الله تعالى ويقال أفلا يعتبر من أي شيء خلقه ثم أعلمه ليعتبر في خلقه فقال ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ يعني خلقه في بطن أمه طوراً بعد طور ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ يعني يسره للخروج من بطن أمه ويقال يسره طريق الخير والشر، وقال مجاهد هو مثل قوله «إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ يعني جعل له قبراً يوارى فيه، ويقال: أمر به ليعتبر، ويقال فأقبره أي جعله ممن يقبر ولم يجعله ممن يلقى على وجه الأرض كالبهائم ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ يعني يبعثه في القبر إذا جاء وقته ثم قال ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ يعني لم يؤد ما أمره من التوحيد وما هنا صلة كقوله «فبما رحمه من الله» وقال مجاهد «لما يقضي ما أمره» يعني لا يقضي أحداً

= الجمع بين الصالح العام والصالح الخاص، بيد أن الكافر صاحب هذه القضية تنبيء دخيلته بضعف الرجاء في إيمانه لو أطيل التوسم في حاله، وبذلك تعطل الانتفاع بها عموماً وخصوصاً وتمخض أن لتزكية المؤمن صاحب القضية نفعاً لخاصة نفسه ولا يخلو من عود تزكية بفائدة على الأمة بازياد الكاملين من أفرادها. وقد حصل من هذا إشعار من الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم -، بأن الاهتداء صنوف عديدة وله مراتب سامية، وليس الاهتداء مقتصراً على حصول الإيمان مراتب وميادين لسبق همم النفوس لا يغفل عن تعهدها بالتثبيت والرعي والإثمار، وذلك التعهد إعانة على تحصيل زيادة الإيمان. وتلك سرائر لا يعلم حقها وفروقها إلا الله تعالى. فعلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو خليفة الله في خلقه أن يتوخاها بقدر المستطاع، فما أوحى الله إليه في شأنه اتبع ما يوحى إليه وما لم ينزل عليه وحي في شأنه فعليه أن يصرف اجتهاده كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾. فكان ذلك موقع هذه الوصية المفرغة في قالب المعاتبة للتنبيه إلى الاكترات بتتبع تلك المراتب وغرس الإرشاد فيها على ما يرجى من طيب تربتها ليخرج منها نبات نافع للخاص وللعامة. انظر التحرير ٣٠/١٠٩ - ١١٠ - ١١١.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد.

أبداً كما افترض[١] عليه ثم أمرهم بأن يعتبروا بخلقه فقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ يعني إلى رزقه ومن أي شيء يرزقه وليعتبروا به ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾ يعني المطر قرأ أهل الكوفة أنا صببنا بنصب الألف والباقون بالكسر[٢]، فمن قرأ بالنصب جعله بدلاً عن الطعام يعني فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ومن قرأ بالكسر فهو على الاستئناف أنا صببنا الماء صباً يعني المطر على الأرض المطر بعد المطر ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً﴾ يعني شققناها بالنبات والشجر ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ يعني في الأرض ومعناه أخرجنا من الأرض ﴿حَبًّا﴾ يعني الحبوب كلها ﴿وَعِنَباً﴾ يعني الكروم ﴿وَقَضْباً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما القضبة وهو القت الرطب[٣] وقال القتبي القضب القت سمي قضباً لأنه يقضب مرة بعد مرة أي يقطع وكذلك القصيل (لأنه يفصل أي يقطع ويقال: وقضبتا يعني جميع ما يقضب مثل القت والكرات وسائر البقول التي تقطع فينبت من أصله ﴿وَزَيْتُوناً﴾[٤] وهي شجرة الزيتون ﴿وَنَخْلاً﴾ يعني النخيل ﴿وَحَدَائِقَ غُلْباً﴾ قال عكرمة غلاظ الرقاب[٥] ألا ترى أن الرجل إذا كان غليظ الرقبة يقال أغلب والحدائق واحدها حديقة غلباً أي نخلاً غلاظاً طوالاً، ويقال: حدائق غلباً يعني حيطان النخيل والشجر، وقال الكلبي كل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقه وما لم يحط به فليس بحديقه، ويقال الشجر الملتف بعضه في بعض.

ثم قال عز وجل ﴿وَفَاكِهَةً﴾ ويعني الثمر كلها وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال خلقتم من سبع ورزقتم من سبع فاسجدوا لله على[٦] سبع، وإنما أراد بقوله خلقتم من سبع يعني من نطفة ثم من علقه، الآية والرزق من سبع وهو قوله «فأنبتنا فيها حباً وعنباً» إلى قوله «وفاكهة وأباً» ثم قال ﴿وَأَبّاً﴾ يعني العنب وقال مجاهد ما يأكل الدواب والأنعام وقال الضحاك هو التبن[٧] ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ يعني الحبوب والفواكه منفعة لكم والكلأ والعشب منفعة لكم ولأنعامكم.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

ثم ذكر يوم القيامة فقال ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ يعني: الصيحة تصخ الأسماع أي تصمها فلا يسمع إلا ما يدعا به ويقال الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة وكذلك الطامة والقارعة والحاقة ثم وصف ذلك اليوم فقال ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وفراره أنه يعرض عنه بنفسه وقال شهر بن حوشب يوم يفر المرء من أخيه يعني: هو

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) انظر حجة القراءات ٧٥٠.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٤) في أ [أي يقطع] ويقال قضباً يعني جميع ما يقضب مثل القت والكرات وسائر البقول.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٦) انظر تفسير القرطبي ١٩/١٤٥.
(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٧ وعزاه لعبد بن حميد.

هابيل يفر من أخيه قابيل ﴿وأُمِّه وأَبِيهِ﴾ يعني: محمداً - صلى الله عليه وسلم - من أمه وأبيه وإبراهيم من أبيه ﴿وصاحبته﴾ يعني: لوط عليه السلام من امرأته ﴿وبَنِيهِ﴾ يعني: نوح عليه السلام من ابنه، ويقال هذا في بعض أحوال يوم القيامة أن كل واحد منهم يشتغل بنفسه يعني: فلا ينظر المرء إلى أخيه وإلى أبيه وإلى ابنه ثم قال تعالى ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يعني؛ لكل إنسان شغل يشغله عن هؤلاء، وروي في الخبر أن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله كيف يحشر الناس قال حفاة عراة فقالت عائشة رضي الله عنها واسوأتاه النساء مع الرجال حفاة عراة فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه[1] يعني: لكل واحد منهم عمل يشغله بنفسه عن غيره ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ﴾ يعني: من الوجوه ما يكون في ذلك اليوم مشرقة مضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ يعني: مفرحة بالثواب وهم المؤمنون المطيعون ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ يعني: من الوجوه ما يعلوها السواد كالدخان وأصل الغبرة يعني الغبار ثم قال عز وجل: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يعني: تلحقها قترة يعني يغشاها الكسوف والسواد ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ يعني: أن أهل هذه الصفة هم الكفرة بالله تعالى الكذبة على الله تعالى ويقال ترهقها قترة يعني المذلة والكآبة والفجرة يعني: الظلمة. والله الموفق بمنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٧ وعزاه للحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ(١)

وهي تسع وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ
﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إذا الشَمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال أبو الليث رحمه الله حدثنا الحاكم أبو الفضل قال حدثنا محمد بن أحمد الكاتب المروزي حدثنا محمد بن حموية النيسابوري قال حدثنا إبراهيم بن موسى قال حدثنا هشام(٢) عن عبد الله عن يحيى بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «من أحب أن ينظر إليَّ يوم القيامة فليقرأ إذا(٣) الشمس كورت» وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: (إذا الشمس كورت) يعني: ذهب(٤) ضوؤها وكذلك قال الضحاك وعكرمة يعني: اضمحلت(٥) وذهبت ويقال تكور كما تكور العمامة يعني: جُمع ضوؤها ولُفَّ كما تُلف العمامة قوله تعالى ﴿وإذا النجومُ انكدَرَتْ﴾ يعني: تناثرت وتساقطت ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ يعني: قُلعت عن الأرض وسُيِّرت في الهواء كقوله (يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة) يعني: خالية ليس عليها شيء من الماء والشجر وغيرها ثم قال ﴿وإذا العشارُ عُطِّلَتْ﴾ يعني: النوق الحوامل عطّلها أربابها اشتغالاً بأنفسهم وواحدها: عشراء وهي الناقة التي أتت على حملها عشرة أشهر وهي في الحمل فلا يعطلها أهلها إلا في يوم القيامة وهذا على وجه المثل لأن في يوم القيامة لا يكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل يعني: أن هول يوم القيامة بحال لو كان عند الرجل عشراء يعطلها واشتغل بنفسه ثم قال ﴿وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ﴾ يعني جُمِعَتْ ﴿وإذا البحار سُجِّرت﴾ يعني: ضجرت بعضها إلى بعض فصارت بحراً واحداً فملئت وكثر ماؤها كقوله (والبحر المسجور) يعني: الممتلىء ويقال سجرت أي أحميت بالكواكب إذا تساقطت وفيها قال ابن عباس إذا كان

---

(١) اشتملت هذه السورة على تحقيق الجزاء صحيحاً. وعلى إثبات البعث وابتدىء بوصف الأهوال التي تتقدمه وانتقل إلى وصف أهوال تقع عقبه. وعلى التنويه بشأن القرآن الذي كذبوا به لأنه وعدهم بالبعث زيادة لتحقيق وقوع البعث إذا رموا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالجنون والقرآن بأنه يأتيه به شيطان. التحرير ٣٠/١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) هشام بن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن كنانة أبو عبد الرحمن المدني مقبول. التقريب ٢/٣١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لأحمد والترمذي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لابن جريرلابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لعبد بن حميد.

يوم القيامة كوَّر الله تعالى الشمس والقمر والنجوم في البحر ثم بعث الله تعالى ريحاً دبوراً فنتفخها فتصير[١] ناراً وهو قوله (وإذا البحار سجرت) أي أحميت. وقال قتادة: سجرت أي غار ماؤها[٢]، وقال الزجاج وقد قيل إنه جعل مياهها ناراً يعذب بها الكفار فهذه الأشياء الست التي ذكرها قبل النفخة الأخيرة والتي ذكرها بعدها تكون بعد النفخة الأخيرة وهو قوله ﴿وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال الكلبي ومقاتل يعني: نفوس المؤمنين قرنت بالحور العين ونفوس الكفار بالشياطين. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله (وإذا النفوس زوجت) قال الفاجر مع الفاجر والصالح مع الصالح[٣] وقال أبو العالية الرياحي قرنت الأجساد[٤] بالأرواح وقال القتبي الزوج القرين كقوله (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) يعني قرناءهم ثم قال «وإذا النفوس زوجت» أي قرنت نفوس الكفار بعضها ببعض والعرب تقول زوجت إبلي إذا قرنت بعضها ببعض ويقال وإذا النفوس زوجت يعني الابرار مع الأبرار في زمرة والأشرار مع الأشرار في زمرة ثم قال ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾. وكان العرب إذا ولد لأحدهم ابنة دفنها حية وهي الموءودة فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلك أبوك وإنما يكون السؤال على وجه التوبيخ لقائلها يوم القيامة لأن جوابها قتلت بغير ذنب وهو مثل قوله تعالى «يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس» وإنما سؤاله وجوابه تبكيت على من ادعى هذا عليه وقال عكرمة الموءودة المدفونة، كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت فكانت أوان ولادتها حفرت حفرة فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وإن ولدت غلاماً حبسته وقرىء في الشاذ «وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت» يعني: المقتولة سئلت لأبويها بأي ذنب قتلتماني ولا ذنب لي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني؛ تطايرت الصحف وهي الكتب التي فيها أعمال بني آدم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو سجرت وسعرت مخففتين، ونشرت مشددة وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم سجرت وسعرت مشددتين ونشرت مخففة وقرأ حمزة والكسائي سجرت ونشرت مخففتين وسعرت مشددة[٥] فمن شددها فلتكثير ومن خففها فعلى غير التكثير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يعني: نزعت من أماكنها كما يكشف الغطاء عن الشيء يعني: كشفت عما فيها ثم قال عز وجل ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ يعني: للكافرين ﴿وإذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ يعني: قربت للمتقين فجواب هذه الأشياء قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ يعني؛ عند ذلك تعلم كل نفس ما عملت من خير أو شر وهذا كقوله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) الآية.

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ يعني: الذي خنس بالنهار وظهر بالليل، ويقال الخنس النجوم التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ الجوار التي تجري والكنس التي ترتفع وتغيب، وقال أهل التفسير

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لابن أبي الدنيا في الأهوال وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٨ وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٩ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه البيهقي في البعث وأبي نعيم في الحلية.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣١٩ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر. (٥) انظر حجة القراءات ٧٥١.

الخنس يعني خمسة من الكواكب فهران، وزحل، ومشتري، وعطارد، وزهرة التي تخنس بالنهار وتظهر بالليل، الجواري لأنهن تجري بالليل في السماء (الكنس) يعني: تستتر كما تكنس الظباء وقال أهل اللغة[1] الخنس واحدها خانس كراكع وركَّع وقال بعضهم الخنس أرادها هنا الوحوش والظباء وظباء الوحوش والجواري الكنس التي تدخل الكنائس وهذا غصن من أغصان الشجر ويكون معناه: أقسم برب هذه الأشياء وروى عكرمة عن ابن عباس: (الخنس) المعز (والكنس) الظباء ألم ترى إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت ببصرها؟ وروى الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال (الجوار الكنس) هي بقر الوحش[2] وقال علي بن أبي طالب: هي النجوم، وقال القتبي هي النجوم الخمسة الكبار لأنها تخنس أي ترجع في مجراها وتكنس أي تستتر كما تكنس الظباء ثم قال عز وجل **﴿والليلِ إذا عَسْعَسَ﴾** يعني: إذا أدبر وقال الزجاج (عسعس) إذا أقبل (وعسعس) إذا أدبر والمعنيان يرجع إلى شيء واحد وهذا ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره وقال مجاهد (إذا عسعس) أي إذا أظلم ثم قال عز وجل: **﴿والصبح إذا تنفس﴾** يعني: إذا استضاء وارتفع، ويقال إذا امتد حتى يصير النهار بيناً، فأقسم بهذه الأشياء، ويقال يخالف هذه الأشياء **﴿إنه﴾** يعني: القرآن **﴿لقولُ رسولٍ كريمٍ﴾** على ربه يقرأ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جبريل عليه السلام ثم أثنى على جبريل وبيَّن فضله فقال **﴿ذي قوة﴾** يعني: ذا شدة ويقال أعطاه الله تعالى القوة ومن قوته أنه قلع مدائن قوم لوط بجناحه ثم قال عز وجل: **﴿عند ذي العرش مكين﴾** يعني: عند رب العرش له منزلة **﴿مطاع﴾** يعني: يطيعه أهل السماوات **﴿ثَمَّ أمينٍ﴾** فيما استودعه الله من الرسالات ويقال (مطاع) يعني: طاعته على أهل السموات واجبه كطاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أهل الأرض (أمين) على الرسالة والوحي، ويقال (أمين) في السماء كما أن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمين في الأرض ثم قال عز وجل: **﴿وما صاحبكم﴾** الذي يدعوكم إلى التوحيد لله تعالى **﴿بمجنون ولقد رءاه﴾** يعني: رأى محمدٌ ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل عليه السلام **﴿بالأفق المبين﴾** عند مطلع الشمس ثم قال **﴿وما هو على الغيب بضنين﴾** أي ليس فيما يوحَى إليه من القرآن ببخيل وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بظنين بظاء وهكذا قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) يعني: بمتَّهم أنه يزيد فيه أو ينقص والباقون بالضاد[3] يعني: البخيل ثم قال **﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾** يعني: القرآن ليس بمنزلة قول الكهان.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

قوله عز وجل: **﴿فأين تذهبون﴾** يعني: تذهبون عن طاعتي وكتابي ويقال (أنى تذهبون) يعني: تعدلون عن أمري وقال الزجاج معناه فبأي طريق تسلكون ابين من هذه الطريقة التي بينت لكم **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾** يعني: ما هذا القرآن إلا عظة للجن والإنس. قوله تعالى: **﴿لِمَنْ شَاءَ منكم أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾** يعني: لمن شاء أن يستقيم على التوحيد فليستقم **﴿وَمَا تَشَاؤونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** فأعلمهم أن المشيئة والتوفيق والخذلان إليه وأن الأمور كلها بمشيئة الله تبارك وتعالى وإرادته والله الموفق وصلى الله على سيدنا محمد.

---

(١) انظر لسان العرب ٢/١٢٧٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٠ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور والفريابي وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٥٢.

سُورَةُ الانفِطَارِ (١)

وهي تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ يعني: انفجرت لهيبة الرب تبارك وتعالى ويقال انفجرت لنزول الملائكة لقوله تعالى: «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً» ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ يعني: تساقطت ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ يعني: فتحت بعضها في بعض وصارت بحراً واحداً ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ يعني: بعثرت وأخرج ما فيها، ويقال بعثرت المتاع وبعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه ثم قال عز وجل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ يعني: ما عملت من خير وشر يعني ما عملت من سنة صالحة أو سيئة، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «أيما داع دعا إلى الهدى فاتبع فله أجر من اتبعه إلا أنه لا ينقص من أجورهم شيئاً وأيما داع دعا إلى الضلالة فاتبع فله أجر من اتبعه إلا أنه لا ينقص من أوزارهم شيئاً»(٢) ويقال ما قدمت أي ما عملت وما أخرت يعني: أضاعت العمل فلم تعمل.

يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ﴾ يعني: يا أيها الكافر ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم﴾ يعني: لم يعجل بالعقوبة، وقال مقاتل نزلت في كلدة بن أسيد حيث ضرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوسه فلم يعاقبه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (فبلغ ذلك حمزة فأسلم حمية لذلك ثم أراد أن يعود كلدة لضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تعالى هذه الآية فأسلم حمزة يومئذ)(٣).

ويقال نزلت في جميع الكفار ما غرك يعني: ما خدعك حين كفرت بربك الكريم المتجاوز لمن تاب ﴿الَّذِي

---

(١) قد اشتملت هذه السورة على: إثبات البعث، وذكر أهوال تتقدمه. وإيقاظ المشركين للنظر في الأمور التي صرفتهم عن الاعتراف بتوحيد الله تعالى وعن النظر في دلائل وقوع البعث والجزاء. والإعلام بأن الأعمال محصاة. وبيان جزاء الأعمال خيرها وشرها. وإنذار الناس بأن لا يحسبوا شيئاً ينجيهم من جزاء الله إياهم على سيء أعمالهم. التحرير ١٦٩/٣٠ ـ ١٧٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١/ ٧٥ (٢٠٥) وقال البوصيري في الزوائد إسناده ضعيف. والطبري في التفسير ١٤/ ٦٦ السيوطي في الدر المنثور ١١٧/٤، ٤٢/٥.

(٣) سقط في ظ.

خلقك﴾ من النطفة **﴿فسوّاك﴾** يعني: فسوى خلقك **﴿فعدلك﴾** يعني: خلقك معتدل القامة **﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾** يعني: شبهك بأي صورة شاء إن شاء بالوالد وإن شاء بالوالدة قرأ عاصم والكسائي وحمزة فعدلك بالتخفيف[١] والباقون بالتشديد فمن قرأ بالتخفيف جعل في المعنى إلى فكأنه قال فعدلك إلى أي صورة شاء أن يركبك يعني صرفك إلى ما شاء من الصور من الحسن والقبح ومن قرأ بالتشديد فمعناه قومك ويكون ما صلة وقد تم الكلام عند قوله فعدلك ثم ابتدأ فقال في أي صورة شاء ركبك، ويقال في ما معنى الشرط والجزاء والمعنى أي صورة ما شاء أن يركبك فيها ركبك ويكون شاء بمعنى يشاء ثم قال عز وجل: **﴿كلّا﴾** يعني: لا يؤمن هذا الإنسان بما ذكره من أمره وصورته **﴿بل تكذّبون بالدّين﴾** يعني: تكذبون بأنكم مبعوثون يوم القيامة ثم أعلم الله تعالى أن أعمالكم محفوظة عليهم فقال **﴿وإنّ عليكم لحافظين﴾** من الملائكة يحفظون أعمالكم **﴿كراماً كاتبين﴾** يعني: كراماً على الله تعالى كاتبين يعني يكتبون أعمال بني آدم عليه السلام **﴿يعلمون ما تفعلون﴾** من الخير والشر، وروى مجاهد عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى الحالتين الجنابة[٢] والغائط.

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

ثم قال تعالى: **﴿إنّ الأبرار﴾** يعني: المؤمنين المصدقين في أيمانهم **﴿لفي نعيم﴾** يعني: في الجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي الله تعالى عنهم ومن كان مثل حالهم **﴿وإنّ الفجّار﴾** يعني: الكفار **﴿لفي جحيم يصلونها يوم الدّين﴾** يعني: يدخلون فيها يوم القيامة **﴿وما هم عنها بغائبين﴾** يعني: لا يخرجون منها أبداً **﴿وما أدراك ما يوم الدّين﴾** تعظيماً لذلك اليوم **﴿ثمّ ما أدراك ما يوم الدّين﴾** يعني: كيف تعلم حقيقة ذلك اليوم ولم تعاينه **﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾** يعني: لا تنفع نفس مؤمنة لنفس كافرة شيئاً بالشفاعة قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالضم والباقون بالنصب[٣] فمن قرأ بالضم معناه يوم لا تملك ومن قرأ بالنصب فلنزع الخافض يعني في يوم ثم قال **﴿والأمر يومئذ لله﴾** يعني: الحكم والقضاء لله تعالى وهو يوم القيامة.

---

(١) قال الفراء: وجهه ـ والله أعلم ـ فصرفك إلى أي صورة شاء، إما حسن أو قبيح أو طويل أو قصير. وعن أبي نجيح قال: (في صورة أب أو في صورة عم). وليست (في) من صلة «عدلك» لأنك لا تقول: (عدلتك في كذا) إنما تقول: (عدلتك إلى كذا) أي: صرفتك إليه وإنما هي متعلقة بـ«ركبك» كأن المعنى: (في أي صورة شاء أن يركبك). وقال آخرون: (فعدلك: فسوّى خلقك) قال محمد بن يزيد (المبرد): فعدلك أي: قصد بك إلى الصورة المستوية ومنه العدل الذي هو الإنصاف، أي: هو قصد إلى الإستواء. فقولك: (عدل الله فلاناً) أي: سوى خلقه. فإن قيل: فأين الباء التي تصحب القصد حتى يصح ما تقول؟ قلت: إن العرب قد تحذف حروف الجر قال الله عز وجل: ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ فحذف اللامين، فكذلك «فعدلك» بمعنى فعدل بك. حجة القراءات ٧٥٢ ـ ٧٥٣.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١/٤٥ وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وقد وصله البزّار في مسنده من طريق جعفر بن سليمان.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٩٥.

سُورَةُ المُطَفِّفِين (١)

مختلف فيها وهي ست وثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا
يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى
سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ يعني: الشدة من العذاب للذين ينقصون المكيال والميزان وإنما سمي الذي يخون في المكيال والميزان مطففاً لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الخفيف الطفيف ثم بين أمرهم فقال ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ يعني: استوفوا من الناس لأنفسهم وعلى بمعنى عن بمعنى إذا اكتالوا عن الناس يستوفون يتمون الكيل والوزن ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ يعني: إذا باعوا من غيرهم ينقصون الكيل ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ يعني: ينقصون الكيل وقال بعضهم كالوهم حرفان يعني: كالوا ثم قال: هم وكذلك وزنوا ثم قال هم يخسرون وذكر عن حمزة الزيات أنه قال هكذا ومعناه هم إذا كالوا أو وزنوا ينقصون وكان الكسائي يجعلها حرفاً واحداً كالوهم أي كالوا لهم وكذلك وزنوا لهم وقال أبو عبيدة وهذه هي القراءة لأنهم كتبوها في المصاحف بغير ألف ولو كان مقطوعاً لكتبوا كالواهم بالألف ثم قال عز وجل: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾ يعني: ألا يعلم المطفف وألا يستيقن بالبعث قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ﴾ يعني: يبعثون بعد الموت ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة هولها شديد ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: في يوم يقوم الخلائق بين يدي الله تعالى وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم يعني خمسمائة عام وذلك المقام على المؤمنين كتولي الشمس[٢] وروى نافع عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال يقوم أحدكم ورشحوا إلى أنصاف أذنيه[٣] وقال ابن مسعود إن الكافر ليلجم بعرقه حتى يقول أرحني ولو إلى النار ثم قال

---

(١) اشتملت على التحذير من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنه تحيل على أكل مال الناس في حال المعاملة أخذاً وإعطاء. وأن ذلك مما سيحاسبون عليه يوم القيامة. وتهويل ذلك اليوم بأنه وقوف عند ربهم ليفصل بينهم وليجازيهم على أعمالهم وأن الأعمال محصاة عند الله. ووعيد الذين يكذبون بيوم الجزاء والذين يكذبون بأن القرآن منزل من عند الله. وقوبل حالهم بضده في حال الأبرار أهل الإيمان، ورفع درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين وذكر صور من نعيمهم. وانتقل من ذلك إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين ويلمزونهم ويستضعفونهم وكيف انقلب الحال في العالم الأبدي. التحرير ١٨٨/٣٠، ١٨٩.

(٢) ذكره في مجمع الزوائد ١٠/٢٣٧ وعزاه لابن يعلى وقال رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (٤٦٥٤). ومسلم ٤/٢١٩٥ كتاب صفة الجنة (٢٨٦٢).

﴿كَلَّا﴾ يعني: لا يستيقنون البعث ثم استأنف، فقال ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ ويقال: هذا موصول بكلا إن كتاب يعني حقاً إن كتاب الفجار ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ يعني: أعمال الكفار لفي سجين قال مقاتل وقتادة السجين الأرض السفلى، وقال الزجاج السجين فعيل من السجن والمعنى كتابهم في حبس جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم وقال مجاهد سجين صخرة تحت الأرض السفلى فيجعل كتاب الفجار(١) تحتها، وقال عكرمة «لفي سجين» أي لفي خسارة(٢) وقال الكلبي: السجين الصخرة التي عليها الأرضون وهي مسجونة فيها أعمال الكفار وأزواجهم فلا تفتح لهم أبواب السماء ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ثم أخبر فقال ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ يعني: مكتوباً ويقال مكتوب مختوم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: شدة العذاب ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يعني: شدة العذاب للمكذبين.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾
كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

ثم بين فقال عز وجل ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ يعني: يجحدون بالبعث ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾ يعني: بيوم القيامة ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ يعني: كل معتد بالظلم آثم عاص لربه ويقال كل مقيد للخلق أثيم يعني فاجر وهو الوليد بن المغيرة وأصحابه ومن كان في مثل حالهم ثم قال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أحاديث الأولين وكذبهم ثم قال ﴿كَلَّا﴾ يعني: لا يؤمن ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: ختم، ويقال غطى على قلوبهم ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: ما عملوا من أعمالهم الخبيثة، وروي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال إذا أذنب العبد ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإذا تاب صقل قلبه وإن زاد زادت(٣) وذلك قوله «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»، وقال قتادة الذنب على الذنب حتى مات القلب(٤) (أسود) ويقال غلف على قلوبهم ويقال غطا على قلوبهم وقال أهل اللغة(٥) الرين هو الصدأ والصدأ هو اسم البعد كما قال ويصدهم عن سبيل الله يغشى على القلب ثم قال: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ يعني: لا يرونه يوم القيامة ويقال عن رحمته لممنوعون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ يعني: دخلوا النار ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ يعني: يقول لهم الخزنة ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يعني: تجحدون، وقلتم إنه غير كائن ثم قال عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني: حقاً إن كتاب المصدقين لفي عليين وهو فوق السماء السابعة، فرفع كتابهم على قدر مرتبتهم ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ثم وصفه فقال ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ يعني: مكتوباً مختوماً في عليين ﴿يَشْهَدُهُ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٥ وعزاه لأبي الشيخ في العظمة والمحاملي في أماليه عن مجاهد.
(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٥ وعزاه لابن المنذر عن عكرمة.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٥ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وهو عند الترمذي في (٣٣٣٤).
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٦ وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة.
(٥) انظر لسان العرب ٣/١٧٩٦.

﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: يشهد على ذلك الكتاب سبعة أملاك من مقربي أهل كل سماء وقال بعضهم الكتاب أراد به الروح والأعمال يعني: يرفع روحه وأعماله إلى عليين.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الصالحين لفي نعيم في الجنة على الأرائك ينظرون يعني على سرر في الحجال ينظرون إلى أهل النار، ويقال ينظرون إلى عدوهم حين يعذبون ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعيمِ﴾ يعني: أثر النعمة وسرورهم في وجوههم ظاهر ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ يعني: يسقون خمراً بيضاء، وقال الزجاج الرحيق الشراب الذي لا غش فيه، قال القتبي الرحيق الخمر العتيقة، ثم قال ﴿مَخْتُومٍ خِتَامُه مِسْكٌ﴾ يعني: إذا شرب منه رجل وجد عند فراغه من الشراب ريح المسك قرأ الكسائي مسك، وروي عن الضحاك أنه قرأ مثله والباقون ختامه مسك[1] ومعناهما واحد، والخاتم اسم والختام مصدر يعني يجد شاربه ريح المسك حين ينزع الإناء من فيه ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَس الْمُتَنَافِسُونَ﴾ يعني: بمثل هذا الثواب فليتبادر المتبادرون، ويقال فليتحاسد المتحاسدون ويقال فليواظب المواظبون وليجتهد المجتهدون وهذا كما قال لمثل هذا فليعمل العاملون ثم قال ﴿وَمِزَاجُه مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ يعني: مزاج الخمر من ماء اسمه تسنيم وهو من أشرف الشراب في الجنة وإنما سمي تسنيماً لأنه يتسنم عليهم فينصب عليهم انصباباً، وقال عكرمة ألم تسمع إلى قول الرجل يقول إني لفي السنام من قومه فهو في السنام من[2] الشراب، وقال القتبي أصله من سنام البعير يعني المرتفع ثم وصفه فقال عز وجل: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: التسنيم عيناً يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَموا﴾ يعني: أشركوا ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ يعني: من ضعفاء المؤمنين يضحكون ويسخرون ويستهزؤون بهم ﴿وَإِذَا مَرّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يعني: يطعنون ويغتابون وذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر بنفر من المنافقين ومعه نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون، ويقال حكاية عن كفار مكة أنهم كانوا يضحكون من ضعفاء المسلمين وإذا مروا بهم وهم جلوس

---

(١) حجتهم أن المعنى في ذلك: (آخره مسك) كأنه إذا شرب أحدهم الكأس وجد آخر شرابه مسكاً. وختام كل شيء (آخره) أي: آخر ما يجدونه رائحة المسك. وهو مصدر (ختمه يختمه ختماً وختاماً).

وحجة الكسائي: أن الخاتم: الاسم، وهو الذي يختم به الكأس بدلالة قوله: (قبلها) ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ ثم أخبر عن كيفيته فقال: مختوم بخاتم من مسك. وقال قوم: خاتمه أي آخره، كما كان من قرأ: «خاتم النبيين» بالفتح كان معناه: آخرهم. وكان علقمة يقول: «خاتمة»، وقال: أما رأيت المرأة تأتي العطار وتشتري منه العطر فتقول: (اجعل لي خاتَمه مسكاً). قال الفراء: الخاتم والختام متقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر. حجة القراءات ٧٥٤ ـ ٧٥٥.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٢٨/٦ وعزاه لعبد بن حميد.

يتغامزون يعني يتطاعنون بينهم ويقولون هؤلاء الكسالى ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلبُوا فكهِينَ﴾ يعني: رجعوا معجبين بما هم فيه ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ يعني: رأوا المؤمنين ﴿قَالُوا إِنْ هَؤُلاءِ لِضَالّونَ﴾ يعني: تركوا طريقهم ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ يعني: يعني ما أرسل هؤلاء حافظين على أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - ليحفظوا عليهم أعمالهم، قال مقاتل: هذا كله في المنافقين يعني ما وكل المنافقون بالمؤمنين يحفظون عليهم أعمالهم، قرأ عاصم [في رواية حفص] انقلبوا فكهين بغير ألف وفي رواية حفص والباقون بالألف ومعناهما واحد وقال بعضهم فاكهين[(١)] ناعمين فكهين فرحين.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ الذين آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ يعني: في الجنة يضحكون على أهل النار وهم على سرر في الحجال وأعدائهم في النار ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ إلى أعدائهم يعذبون في النار ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ يعني: جوزوا، ويقال هل جوزي الكفار وعوقبوا إلا ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: إلا بما عملوا في الدنيا من الاستهزاء، وقال مقاتل يعني: قد جوزي الكفار بأعمالهم الخبيثة جزاءً شراً والله الموفق.

---

(١) المصدر السابق وإتحاف فضلاء البشر ٢/٥٩٧.

سورة الانشقاق

وهي خمس وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ**﴾ يعني: انفرجت لهيبة الرب عز وجل، ويقال انشقت لنزول الملائكة وما شاء من أمره ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**﴾ يعني: أطاعت السماء لربها بالسمع والطاعة وحقت يعني: وحق لها أن تطيع لربها الذي خلقها ﴿**وَإِذَا الأَرْضِ مُدَّتْ**﴾ أي بسطت ومدت الأديم ليس فيها جبل ولا شجر حتى يتسع فيها جميع الخلائق، وروى علي بن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة مد الله تعالى الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه لكثرة الخلائق فيها»[1] ﴿**وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**﴾ يعني: ألقت الأرض ما فيها من الكنوز والأموات وتخلت عنها ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا**﴾ يعني: أجابت الأرض لربها بالطاعة وأدت إليه ما مستودعها من الكنوز والموتى ﴿**وَحُقَّتْ**﴾ يعني: وحق للأرض أن تطيع ربها الذي خلقها.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾

ثم قال عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ**﴾ قال مقاتل يعني: الأسود بن عبد الأسد ويقال: أبي بن خلف، ويقال: في جميع الكفار يعني: أيها الكافر إنك كادح يعني: ساع بعملك ﴿**إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً**﴾ يعني: سعياً، ويقال معناه إنك عامل لربك عملاً ﴿**فَمُلاقِيهِ**﴾ في عملك ما كان من خير أو شر فالأول قول مقاتل، والثاني قول الكلبي وقال الزجاج الكدح في اللغة[2] السعي في العمل وجاء في التفسير إنك عامل عملاً فملاقيه أي ملاق ربك. قيل فملاقي عملك ثم قال عز وجل: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾ يعني: المؤمن ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً**﴾ يعني: حساباً هيناً ﴿**وَيَنْقَلِبُ**﴾ أي: يرجع ﴿**إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً**﴾ الذي أعد الله له في الجنة سروراً به، وروى ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من نوقش في الحساب يوم القيامة عذب». فقلت أليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حساباً يسيراً يعني: هيناً قال ليس ذلك في الحساب انما ذلك

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١٣/٣٠.

(٢) انظر لسان العرب ٣٨٣٣/٥.

العرض ولكن من نوقش للحساب يوم القيامة عذب[١]، ويقال حساباً يسيراً لأنه غفرت ذنوبه ولا يحاسب بها ويرجع من الجنة مستبشراً ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ يعني: الكافر يخرج يده اليسرى من وراء ظهره يعطى كتابه بها ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً﴾ يعني: بالويل والثبور على نفسه ﴿وَيَصْلَى سَعِيراً﴾ يعني: يدخل في الآخرة ناراً وقوداً قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويصلى سعيراً بنصب الياء وجزم الصاد مع التخفيف والباقون، ويصلى بضم الياء ونصب الصاد مع التشديد فمن[٢] قرأ يصلى بالتخفيف فمعناه أنه يقاسي حر السعير وعذابه، يقال صليت النار إذا قاسيت عذابها وحرها ومن قرأ بالتشديد فمعناه أنه يكثر عذابه في النار حتى يقاصي حرها ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ يعني: في الدنيا مسروراً بما أعطي في الدنيا فلم يعمل للآخرة.

إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ قال مقاتل ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى في الآخرة وهي لغة الحبشة، وقال قتادة يعني ظن أن لن يبعثه الله تعالى[٣]. وقال عكرمة ألم تسمع إلى قول الحبشي إذا قيل له حر يعني أرجع إلى[٤] أهلك. ثم قال ﴿بَلَى﴾ يعني: ليرجعنّ إلى ربه في الآخرة ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ يعني كان عالماً به من يوم خلقه إلى يوم بعثه قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ يعني: أقسم بالشفق والشفق الحمرة والبياض الذي بعد غروب الشمس وهذا التفسير يوافق قول أبي حنيفة رحمه الله، وروي عن مجاهد أنه قال: الشفق هو ضوء النهار، وروي عنه أنه قال الشفق النهار كله، وروي عن ابن عمر أنه قال: الشفق[٥] الحمرة وهذا يوافق قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله ثم قال ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يعني: ساق وجمع وضم، وقال القتبي أي حمل وجمع منه الوسق وهو الحمل، وقال الزجاج أي ضم وجمع، وقال مقاتل: «والليل وما وسق» يعني: ما يساق معه من الظلمة والكواكب. وقال الكلبي يعني: ما دخل فيه ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ يعني: إذا استوى وتم إلى ثلاثة عشرة ليلة ويقال إذا اتسق يعني: تم وتكامل ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي لتركبن بنصب التاء والباقون بالضم فمن[٦] قرأ بالنصب فمعناه لتركبن يا محمد من سماء إلى سماء، ومن قرأ بالضم فالخطاب لأمته أجمعين يعني لتركبن حالاً بعد حال حتى يصيروا إلى الله تعالى من إحياء وإماتة وبعث، ويقال: يعني مرة نطفة ومرة علقة، ويقال حالاً بعد حال، مرة تعرفون ومرة لا تعرفون يعني يوم القيامة، ويقال يعني السماء لتحولن حالاً بعد حال، مرة تتشقق بالغمام ومرة تكون كالدهان. قرأ بعضهم ليركبن بالياء يعني: ليركبن هذا المكذب طبقاً عن طبق يعني: حالاً بعد حال يعني: الموت ثم الحياة.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٢٩ وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه هو عند البخاري (١٠٣) والترمذي (٣٣٣٧).
(٢) انظر حجة القراءات ٧٥٥.
(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.
(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.
(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣٠ وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن المنذر وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر.
(٦) انظر حجة القراءات ٧٥٥.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: كفار مكة لا يصدقون بالقرآن ﴿وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ يعني: لا يخضعون لله تعالى ولا يوحدونه، ويقال ولا يستسلمون لربهم ولا يسلمون ولا يطيعون ويقال لا يصلون لله تعالى قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ يعني: يجحدون بالقرآن والبعث أنه لا يكون، وقال مقاتل نزلت في بني عمرو بن عمير وكانوا أربعة فأسلم اثنان منهم، ويقال: هذا في جميع الكفار ثم قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ يعني: يكتمون في صدورهم من الكذب والجحود، ويقال مما يجمعون في قلوبهم من الخيانةَ ويقال معناه والله أعلم بما يقولون ويخفون ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يعني: شديداً دائماً، وقال مقاتل ثم استثنى الاثنين اللذين أسلما فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقال هذا الاستثناء لجميع المؤمنين يعني: الذين صدقوا بتوحيد الله تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: أدوا الفرائض والسنن ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني غير منقوص ويقال غير مقطوع، ويقال لهم أجر لا يمن عليهم ومعنى قوله (فبشرهم بعذاب أليم) يعني اجعل مكان البشارة للمؤمنين بالرحمة والجنة للكفار بالعذاب الأليم على وجه التعبير لأن ذلك لا يكون بشارة في الحقيقة. والله الموفق بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

سُورَةُ البُرُوجِ (١)

وهي اثنتان وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿والسَّماءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني: ذات النجوم والكواكب ويقال ذات القصور وقال عطية العوفي كان القصور في السماء على أبوابه قال قتادة البروج النجوم(٢) وكذلك قال مجاهد أقسم الله تعالى بالسماء ذات البروج وجواب القسم قوله تعالى «إن بطش ربك لشديد» ثم قال: ﴿والْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يعني: يوم القيامة، قال مقاتل اليوم الموعود الذي وعدهم أن يصيرهم إليه وقال الكلبي وعد أهل السماء وأهل الأرض أن يصيروا إلى ذلك اليوم ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ذكر مقاتل عن علي رضي الله عنه قال: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر يوم(٣) الحج الأكبر وروي عن ابن عباس أنه قال الشاهد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كقوله تعالى: «وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا» والمشهود يوم القيامة كقوله تعالى (وذلك(٤) يوم مشهود) وروى جويبر عن الضحاك مثله وروى أبو صالح عن ابن عباس قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى سعيد بن المسيب عن رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال سيد الأيام يوم الجمعة وهو شاهد ومشهود(٥) يوم عرفة وروى جابر بن عبد الله قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الشاهد ابن آدم والمشهود يوم القيامة وقال عكرمة مثله وقال بعضهم الشاهد آدم والمشهود ذريته ثم قال عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ يعني: لعن أصحاب الأخدود ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ يعني: يصيرون إلى النار ذات الوقود في الآخرة وقال الكلبي النار ارتفعت فوقهم أربعين ذراعاً فوقعت عليهم وأحرقتهم وقتلتهم وذلك قوله قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود قال حدثنا أبو جعفر حدثنا

---

(١) ابتدأت أغراض هذه السورة بضرب المثل للذين فتنوا المسلمين بمكة بأنهم مثل قوم فتنوا فريقاً ممن آمن بالله فجعلوا أخدوداً من نار لتعذيبهم ليكون المثل تثبيتاً للمسلمين وتصبيراً لهم على أذى المشركين وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدة التعذيب الذي لم ينلهم مثله ولم يصدهم ذلك عن دينهم. وإشعار المسلمين بأن قوة الله عظيمة فسيلقى المشركون جزاء صنيعهم ويلقى المسلمون النعيم الأبدي والنصر. وضرب المثل بقوم فرعون وبثمود وكيف كانت عاقبة أمرهم ما كذبوا الرسل، فحصلت العبرة للمشركين في فتنهم المسلمين وفي تكذيبهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتنويه بشأن القرآن. التحرير ٣٠/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٢ وعزاه لعبد الرزاق والفريابي وعبد حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٢ وعزاه لابن جرير.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٧٢ والدارمي ١/٣٠٧ (١٥٨٠) وذكر ابن كثير في التفسير ٨/٣٨٥ وقال: هذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب.

علي بن أحمد قال ثنا محمد بن الفضل ثنا موسى بن[1] إسماعيل ثنا حماد بن سلمة ثنا[2] عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحاب الأخدود فقال كان ملكاً من الملوك كان له ساحر فكبر الساحر فقال للملك إني قد كبرت فلو نظرت غلاماً في أهلك فطناً كيساً فعلمته على هذا فنظر إلى غلام من أهله كيس فطن فأمره أن يأتيه ويلزمه وكان بين منزل الغلام ومنزل الساحر راهب فقال الغلام لو دخلت على هذا الراهب وسمعت من كلامه فدخل عليه فأعجبه قوله وكان أهله إذا بعثوه إلى الساحر دخل الغلام على الراهب واحتبس عنده فإذا أتى الساحر ضربه وقال ما حبسك فإذا رجع من عند الساحر إلى أهله دخل على الراهب فاحتبس عنده. فإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ما حبسك فشكى ذلك إلى الراهب فقال له الراهب إذا قالوا لك ما حبسك فقل حبسني الساحر وإذا قال لك الساحر ما حبسك فقل حبسني أهلي فبينما هو ذات يوم يريد الساحر إذا هو بدابة هائلة يعني كبيرة قد قطعت الطريق على الناس فقال اليوم يتبين لي أمر الراهب فأخذ حجراً ودنا من الدابة فقال اللهم إن كان أمر الراهب حقاً فاقتل هذه الدابة ورماها بالحجر فأصاب مقتلها فقتلها فقال الناس إن هذا الغلام قتل هذه الدابة واشتهر أمره فأتى الراهب فأخبره فقال يا بني أنت خير مني فلعلك أن تبتلى لا تدلن عليَّ فبلغ أمر الغلام أنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي من الأرض فعمي جليس الملك فذكر له الغلام فأتاه فقال يا بني قد بلغ من سحرك أنك تبرىء الأكمه والأبرص فقال الغلام ما أنا بساحر ولا أشفي أحداً ولا يشفي إلا ربي فقال له الرجل «هذا الملك ربك قال لا ولكن ربي ورب الملك الله تعالى فإن آمنت بالله تعالى به دعوت الله تعالى فشفاك فأسلم فدعا الله تعالى فبرىء فأتى الملك فقال له الملك أليس يا فلان قد ذهب بصرك فقال بلى ولكن رده علي ربي فقال أنا قال لا ولكن ربي وربك الله قال أولئك رب غيري قال نعم وربك وربي الله تعالى. فلم يزل به حتى أخبره بأمر الغلام فأرسل إلى الغلام فجاءه فقال يا بني قد بلغ من سحرك أنك تشفي من كذا وكذا فقال ما أنا بساحر ولا أشفي أحداً وما يشفي إلا ربي فقال أنا قال لا ولكن ربي وربك الله تعالى فلم يزل به حتى دل على الراهب فدعي الراهب فأتى به فأراد أن يرجع من دينه فأبى وأمر بمنشار فوضع في مفرق رأسه فشق به حتى سقط شقاه ثم دعا بجليسه وأراد أن يرجع عن دينه فأبى فأمر بمنشار فشق حتى سقط شقاه فأمر الغلام أن يفعل ذلك بمكانه فقال إحملوه في سفينة فانطلقوا به حتى إذا لججتم به فغرقوه فانطلقوا به حتى لجوا به فلما أرادوا به ذلك فقال اللهم اكفينهم بما شئت فانكبت بهم السفينة فغرقوا فجاء الغلام حتى قام بين يدي الملك فأخبره بالذي كان فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فإذا كنتم في ذروة الجبل دهدهه[3] عنه فانطلقوا به حتى إذا كانوا بذلك المكان فقال اللهم اكفينهم بما شئت فتدهدهوا عن الجبل يميناً وشمالاً فجاء حتى قام بين يدي الملك فأخبره بالذي كان وقال إن تجمع الملك إنك لا تقدر على قتلي حتى تفعل بي ما آمرك به فقال وما هو قال تجمع أهل مملكتك في صعيد واحد ثم تصلبني وتأخذ سهماً من كتابي فترميني به وتقول بسم الله رب هذا الغلام فأصاب صدغه فوضع يده على صدغه فمات فقال الناس آمنا برب هذا الغلام فقيل للملك وقعت فيما كنت تجاوز وقد أسلم الناس فقال خذوا يا قوم الطريق وخذوا فيها أخدوداً وألقوا فيها النار (فمن رجع)[4] عن دينه وإلا فألقوه فيها ففعلوا فجعل الناس يجيئون ويلقون أنفسهم في

---

(١) موسى بن إسماعيل أبو سلمة المنقري التبوذكي البصري الحافظ الحجة أحد الأعلام. انظر ميزان الاعتدال ٤/٢٠٠.

(٢) ثابت بن موسى بن عبد الرحمن أبو يزيد الكوفي الضرير العابد ضعيف الحديث. التقريب ١/١١٧.

(٣) قال ابن سيده: دهده الشيء فتدهده حدره من علو إلى سفل تدحرجاً، ودهدهه: قلب بعضه على بعض. انظر لسان العرب ١٤٣٨/٢.

(٤) سقط في أ.

الأخدود حتى كان آخرهم امرأة ومعها صبي لها رضيع تحمله فلما دنت من النار وجدت حرها فولت فقال لها الصبي يا أماه امضي فإنك على الحق فرجعت وألقت نفسها في النار فذلك قوله عز وجل قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود[١] وروي في خبر آخر أن الملك كان على دين اليهودية يقال له ذو نواس واسمه زرعة ملك حمير وما حولها فكان هناك قوم دخلوا في دين عيسى عليه السلام فحفر لهم أخدوداً فأوقد فيها النار وألقاهم في الأخدود فحرقهم وحرق كتبهم ويقال كان الذين على دين عيسى عليه السلام بأرض نجران فسار إليهم من أرض حمير حتى أحرقهم وأحرق كتبهم فأقبل منهم رجل فوجد مصحفاً فيها وإنجيلاً محترقاً بعضه فخرج به حتى أتى به ملك الحبشة فقال له إن أهل دينك قد أوقدت لهم النار فحرقوا بها وحرق كتبهم فأراه الذي جاء به ففزع الملك لـذلك وبعث إلى صاحب الروم وكتب إليه يستمده بنجارين يعملون له السفن فبعث إليه صاحب الروم من يعمل له السفن فحمل فيها الناس فخرج به فخرجوا ما بين ساحل عدن إلى ساحل جازان وخرج إليهم أهل اليمن فلقوهم بتهامة واقتتلوا فلم ير ملك حمير له بهم طاقة وتخوف أن يأخذوه فضرب فرسه حتى وقع في البحر فمات فيه فاستولى أهل الحبشة على ملك حمير وما حوله وبقى الملك لهم إلى وقت الإسلام، وروي في الخبر أن الغلام الذي قتله الملك دفن فوجد ذلك الغلام في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه واضعاً يده على صدغه كما كان وضعها حين قتل وكلما أخذ يده سال منه الدم وإذا أرسل يده انقطع الدم فكتبوا إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليهم أن ذلك الغلام صاحب الأخدود فاتركوه على حاله حتى يبعثه الله تعالى يوم القيامة على حاله وذلك قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود) يعني: لعن أصحاب الأخدود وهم الذين خدوا أخدود النار ذات الوقود يعني الأخدود ذات النار الوقود ويقال قتل أصحاب الأخدود يعني: أهل الحبشة قتلوا أصحاب الأخدود أصحاب النار ذات الوقود.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١﴾

قوله عز وجل ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ يعني: القوم عند النار حضور قال سفيان إذ هم عليها على السرر ﴿قُعُودٌ﴾ عند النار ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنينَ شُهُودٌ﴾ يعني أن خدامهم وأعوانهم يفعلون بالمؤمنين ذلك وهم هناك شهود يعني حضـوراً، ويقال يفعلون بالمؤمنين ذلك وهم شهود يعني: يشهدون بأن المؤمنين في ضلال تركوا عبـادة آلهتهم ويقال على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[٢] يشهدون على أنفسهم يوم القيامة ﴿وما نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: وما طعنوا فيهم ﴿إلا أنْ يُؤمنوا باللهِ﴾ يعني: سوى أنهم صدقوا بتوحيد الله تعالى﴿ العزيز ﴾ في ملكه ﴿الحميد﴾ في فعاله، ويقال وما نقموا منهم يعني وما أنكروا عليهم إلا أن يؤمنوا بالله يعني إلا إيمانهم بـالله ﴿الذي لـه مُلْكُ السمواتِ والأرضِ والله على كُلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾ ثم بين ما أعد الله لأولئك الكفار فقال عز وجل: ﴿إِنَّ الّذِينَ فَتَنُوا﴾ يعني: عذبوا وأحرقوا ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعنـي في الدنيا ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ يعن: لم يرجعوا عن دينهم ولم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه.

(٢) سقط في ظ.

يتوبوا إلى الله تعالى ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ يعني: العذاب الشديد وقال الزجاج المعنى والله أعلم لهم عذاب بكفرهم ولهم عذاب بما حرقوا المؤمنين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ جزاءاً لهم.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم
مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: عذاب ربك لشديد وهذا قول مقاتل وقال الكلبي إن أخذ ربك لشديد ومعناهما واحد، ويقال العقوبة الشديدة وهذا موضع هذا القسم ثم قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني: يبدأ الخلق في الدنيا ويعيد في الآخرة من التراب يعني: يبعثهم بعد الموت ﴿وَهُوَ الغفورُ الودُودُ﴾ يعني: الغفور لذنوب المؤمنين ويقال الغفور للذنوب الودود يعني: المحب للتائبين، ويقال المحب لأوليائه ويقال الودود يعني الكريم ثم قال ﴿ذُو العَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ يعني: رب السرير الشريف، قرأ حمزة والكسائي بكسر الدال وقرأ الباقون بالضم فمن[١] قرأ بالخفض جعله نعتاً للعرش ومن قرأ بالضم جعله صفة ذو يعني: (ذو العرش) وهو (المجيد) الشريف والمجيد الكريم. ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ يعني: يحيي ويميت، ويعز ويذل ثم قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ يعني: قد أتاك حديثهم ثم فسر الجنود فقال ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ يعني: قوم موسى وقوم صالح أهلكهم الله تعالى في الدنيا وهذا وعيد لكفار هذه الأمة ليعتبروا بهم ويوحدوه ثم قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ يعني: إن الذين لا يعتبرون ويكذبون الرسل والقرآن ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ يعني: اصبر يا محمد على تكذيبهم فإن الله عالم بهم وقال الزجاج في قوله والله من ورائهم محيط يعني لا يعجزه منهم أحد قدرته مشتملة عليهم ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ يعني: إنهم وإن كذبوا لا يعرفون حقه لا يقرون به وهو قرآن شريف أشرف من كل كتاب أو يقال شريف لأنه كلام رب العزة ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ يعني: مكتوباً في اللوح الذي هو محفوظ عند الله من الشياطين وهو عن يمين العرش من درة بيضاء ويقال من ياقوته حمراء قرأ نافع محفوظ بالضم والباقون بالكسر[٢] فمن قرأ بالضم جعله نعتاً للقرآن، ومعناه قرآن مجيد محفوظ من الشياطين في اللوح ومن قرأ بالكسر فهو نعت اللوح. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال إن الله تعالى جعل لوحاً من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء ينظر الله تعالى فيه في كل يوم ثلاثمائة وستين مرة ويحيي ويميت ويعز ويذل[٣] ويفعل ما يشاء وروي عن إبراهيم[٤] بن الحكم عن أبيه قال حدثني فرقد في قوله تعالى: «بل هو قُرآن مجيد فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» قال هو صدر المؤمنين، وقال قتادة في اللوح المحفوظ عند الله تعالى. والله الموفق بمنه وكرمه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٥٧، إتحاف فضلاء البشر ٦٠١/٢.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٣٥/٦ وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس.

(٤) إبراهيم بن الحكم بين أبان ضعيف. التقريب ٣٤/١.

سورة الطارق(١)

وهي سبع عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: **﴿والسماء والطارق﴾** قال سعيد بن جبير سألت ابن عباس رضي الله عنهم عن قوله (والسماء والطارق) فقال **﴿وما أدراكَ ما الطارقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾** وسكت فقلت له مالك فقال والله ما أعلم منها إلا ما أعلم ربي يعني تفسير الآية ما ذكر في هذه الآية وهو قوله والنجم الثاقب يعني هو الطارق وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أخرى **والسماء** والطارق **قال الطارق** الكواكب التي تطرق في الليل وتخفى في النهار وما أدراك ما الطارق على وجه التعجب والتعظيم ثم بين فقال النجم الثاقب يعني هو النجم المضيء وقال مجاهد الثاقب الذي(٢) يتوهج وقال الحسن البصري الثاقب هو النجم حين يرسل على الشياطين فيثقبه يعني فيحرقه وقال قتادة النجم الثاقب يعني: يطرق بالليل ويخنس بالنهار فأقسم الله تعالى بالسماء ونجومها ويقال بخالق السماء ونجومها **﴿إنْ كُلُ نفس لما عليها حافظ﴾** وهذا جواب القسم يعني ما من نفس إلاّ عليها حافظ من الملائكة يحفظ قولها وفعلها. قرأ عاصم وحمزة وابن عامر أن كل نفس لما عليها بتشديد الميم والباقون لما عليها بالتخفيف(٣) فمن قرأ بالتشديد فمعناه ما من نفس إلا وعليها حافظ فيكون لما بمعنى إلا، ومن قرأ بالتخفيف جعل ما مؤكدة ومعناه كل نفس عليها حافظ.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾

ثم قال **﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾** يعني: فليعتبر الإنسان من ماذا خلق قال بعضهم نزلت في شأن أبي طالب، ويقال نزلت في جميع من أنكر البعث ثم بين أول خلقهم ليعتبروا فقال **﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دافِقٍ﴾** يعني: من ماء مهراق في رحم الأم ويقال دافق بمعنى مدفوق كقوله «فهو في عيشة راضية» أي مرضية ثم قال **﴿يُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ**

---

(١) اشتملت هذه السورة على إثبات إحصاء الأعمال والجزاء على الأعمال. وإثبات إمكان البعث بنقض ما أحاله المشركون ببيان إمكان إعادة الأجسام. وأدمج في ذلك التذكير بدقيق صنع الله وحكمته في خلق الإنسان. والتنويه بشأن القرآن. وصدق ما ذكر فيه من البعث لأن إخبار القرآن به لما استبعدوه وموهوا على الناس بأن ما فيه غير صدق، وتهديد المشركين الذين ناوءوا المسلمين. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووعده بأن الله منتصر له غير بعيد. التحرير ٣٠/٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٣٦ وعزاه لعبد بن حميد عن مجاهد.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٥٨.

الصلب والترائب﴾(١) يعني: خلق من مائين من ماء الأب يخرج من بين الصلب ومن ماء الأم يخرج من الترائب والترائب موضع القلادة كما قال امرؤ القيس:

مهفهفة (٢) بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل(٣)

ثم قال ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ يعني: على بعثه وإعادته بعد الموت لقادر، ويقال على رجعه إلى صلب الآباء وترائب الأمهات لقادر والتفسير الأول أصح لأنه قال ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ يعني: تظهر الضماير ويقال يختبر السرائر ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ يعني: ليس له قوة يدفع العذاب عن نفسه ولا مانع يمنع العذاب عنه.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

وقوله: ﴿والسماءِ ذاتِ الرَّجْعِ﴾ فهو قسم أقسم الله تعالى بخالق السماء ذات الرجع يعني يرجع السحاب بالمطر بعد المطر والسحابة بعد السحابة﴿والأرضِ ذاتِ الصَّدْعِ﴾ يعني: يتصدع فيخرج ما بالنبات والثمار فيجعلها قوتاً لبني آدم عليه السلام ويقال ذات الصدع يعني: ذات الأودية وهو قول مجاهد وقال قتادة يعني ذات النبات ﴿إنه لِقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يعني: القرآن قول حق وجد ﴿وَمَا هُوَ بِالهَزْلِ﴾ يعني: باللعب ويقال لم ينزل بالباطل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُوْنَ كَيْداً﴾ يعني: يمكرون مكراً وهم أهل مكة في دار الندوة ويقال يكيدون كيداً يعني يصنعون أمراً وهو الشرك والمعصية ﴿وأكِيدُ كَيْداً﴾ يعني: أصنع لهم أمراً، وهو القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة قوله تعالى: ﴿فمهل الكافرين﴾ يعني: أجل الكافرين ويقال خل عنهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ يعني: أجلهم قليلاً أي إلى وقت الموت ويقال إنهم يكيدون كيداً بمعنى: الخراصون الذين يحبسون في كل طريق يعني: يصدون الناس عن دينه يعني يحبسون الناس في كل طريق يصدون الناس عن دينه وروى عبد الرزاق عن أبي وائل عن همام مولى عثمان قال لما كتبوا المصحف شكوا في ثلاث آيات فكتبوها في كتف شاة وأرسلوها إلى أبي بن كعب وزيد بن ثابت فدخلت عليهما فناولتهما أبياً فقرأها فكان فيها لا تبديل لخلق الله وكان فيها لم يتسن فكتب لم يتسنه وكان فيها فأمهل الكافرين فمحى الألف وكتب فمهل الكافرين ونظر فيها زيد بن ثابت فانطلقت بها اليهم فناولتها زيد بن ثابت إليهم فأثبتوها في المصحف أمهلهم رويداً يعني: أجلهم قليلاً فإن أجل الدنيا كلها قليل.

---

(١) الترائب هي عظام الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة. انظر المعجم الوسيط ١/٨٣.

(٢) امرأة مهفهفة أي ضامرة البطن. لسان العرب ٦/٤٦٧٧.

(٣) قال ابن منظور: السجنجل: المرآة، والسجنجل أيضاً قطع الفضة وسبائكها، ويقال هو الذهب ويقال: الزعفران. انظر لسان العرب ١٩٤٦/٣.

سُورَةُ الأَعْلَى(١)

وهي تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال الكلبي: يعني صلِّ بأمر ربك، ويقال سبح هو من التنزيه والبراءة يعني نَزِّه ربك، والاسم صلة، ويقال: (سبح اسم ربك الأعلى) يعني: قل سبحان ربي الأعلى(١) كما روي في الخبر أنه قيل: يا رسول الله ما نقول في ركوعنا فنزل «سبح اسم ربك الأعلى» بمعنى العالي (كقوله أكبر بمعنى الكبير والعلو هو القهر والغلبة يعني أمره نافذ على خلقه فلما نزل (فسبح باسم ربك العظيم)(٢) فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «اجعلوها في ركوعكم» فقالوا فما نقول في سجودنا؟ فنزل «سبح اسم ربك الأعلى» قال عليه السلام: اجعلوها في سجودكم(٣)، ويقال «سبح اسم ربك» يعني اذكر توحيد ربك الأعلى، ويقال كان بدء قوله

---

(١) التسبيح هو التنزيه عن النقائص وهو من الأسماء التي لا تضاف لغير اسم الله تعالى وكذلك الأفعال المشتقة منه لا ترفع ولا تنصب على المفعولية إلا ما هو اسم لله، وكذلك أسماء المصدر منه نحو: سبحان الله. وهو من المعاني الدينية، فالأشبه أنه منقول إلى العربية من العبرانية وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ في سورة البقرة.

وإذا عُدِّي فعل الأمر بالتسبيح هنا إلى اسم فقد تعين أن المأمور به قول دال على تنزيه الله بطريقة إجراء الأخبار الطيبة أو التوصيف بالأوصاف المقدسة لإثباتها إلى ما يدل على ذاته تعالى من الأسماء والمعاني، ولما كان أقوالاً كانت متعلقة باسم الله باعتبار دلالته على الذات، فالمأمور به إجراء الأخبار الشريفة والصفات الرفيعة على الأسماء الدالة على الله تعالى، من أعلام وصفات ونحوها، وذلك آيل إلى تنزيه المسمى بتلك الأسماء. ولهذا يكثر في القرآن إناطة التسبيح بلفظ اسم الله نحو قوله: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ فتسبيح اسم الله النطق بتنزيهه في الخُوَيصَّة وبين الناس بذكر يليق بجلاله من العقائد والأعمال كالسجود والحمد. ويشمل ذلك استحضار الناطق بألفاظ التسبيح معاني تلك الألفاظ إذ المقصود من الكلام معناه. وبتظاهر النطق مع استحضار المعنى يتقرر المعنى على ذهن المتكلم ويتجدد ما في نفسه من تعظيم الله تعالى. وأما تفكر العبد في عظمة الله تعالى وترديد تنزيهه في ذهنه فهو تسبيح لذات الله ومسمى اسمه ولا يسمى تسبيح اسم الله، لأن ذلك لا يجري على لفظ من أسماء الله تعالى، فهذا تسبيح ذات الله وليس تسبيحاً لاسمه. وهذا ملاك التفرقة بين تعلق لفظ التسبيح بلفظ اسم الله نحو ﴿سبح اسم ربك﴾ وبين تعلقه بدون اسم نحو ﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه﴾ ونحو ﴿ويسبحونه وله يسجدون﴾فإذا قلنا ﴿الله أحد﴾ أو قلنا: ﴿هو الله الذي لا إله إلاَّ هو الملك القدوس السلام﴾ إلى آخر السورة كان ذلك تسبيحاً لإسمه تعالى وإذا نفينا الإلهية عن الأصنام لأنها لا تخلق كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾كان ذلك تسبيحاً لذات الله لا لاسمه لأن اسمه لم يجر عليه في هذا الكلام إخبار ولا توصيف. فهذا مناط الفرق بين استعمال ﴿سبح اسم ربك﴾ واستعمال ﴿وسبحه﴾ ومآل الإطلاقين في المعنى واحد لأن كلا الإطلاقين مراد به الإرشاد إلى معرفة أن الله منزه عن النقائص. التحرير ٣٠/٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢) سقط في ظ.

(٣) أخرجه أبو داود ١/٥٤٢ كتاب الصلاة (٨٦٩) وابن ماجه ١/٢٨٦ كتاب إقامة الصلاة (٨٨٧) وأحمد في المسند ٤/١٥٥ والحاكم في المستدرك ٢/٤٧٧.

«سبحان ربي الأعلى» أي ميكائيل خطر على باله عظمة الرب جلا وعلا سلطانه فقال: يا رب أعطني قوة حتى أنظر إلى عظمتك وسلطانك، فأعطاه قوة أهل السموات فطار خمسة آلاف سنة فنظر فإذا الحجاب على حاله واحترق جناحه من نور العرش ثم سأل القوة فأعطاه القوة ضعف ذلك فجعل يطير ويرتفع عشرة آلاف سنة حتى احترق جناحه وصار في آخره كالفرخ ورأى الحجاب والعرش على حاله فخر ساجداً وقال «سبحان ربي الأعلى» يعني: تعالى من أن يكون محسوساً معقولاً ثم سأل ربه أن يعيده إلى مكانه إلى حاله الأولى ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني: الذي خلق كل ذي روح، وجميع خلقه، ويقال سبح الله تعالى الذي خلقك فسوى خلقك يعني: اليدين والرجلين والعينين ولم يخلقك زمناً ولا مكفوفاً، كما قال وصوَّركم فأحسن صوركم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يعني: قدر لكل شيء شكله، يعني لكل ذكر وأنثى من شكله وهداه للأكل والشرب والجماع، ويقال الذي قدر فهدى يعني فهداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ويقال الذي قدر فهدى سبح لله الذي خلقك وقدر آجالك وأرزاقك وأعمالك وهداك إلى المعرفة والإسلام والأكل والشرب فصلّ يابن آدم وسبح لهذا المنعم المكرم السيد الذي هو الأحد الصمد، «هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم» ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ يعني: أنبت الكلأ ويقال هو العشب والحشيش وألقت وما أشبه، قرأ الكسائي «والذي قدر» بالتخفيف، والباقون بالتشديد[1] ومعناها واحد يقال قدره الأمر وقدرته قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[2] يعني: جعل المرعى يابساً بعد خضرته، وقال القتبي: غثاء يعني يابساً، أحوى يعني أسود من قدمه واحتراقه.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾

ثم قال عز وجل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ يعني: سنعلمك القرآن وينزل عليك فلا تنسى إلا ما شاء الله، يعني قد شاء الله أن لا تنسى القرآن فلم ينس القرآن بعد نزول هذه الآية. وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأخذ في قراءته قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام مخافة أن ينساه ويقال «سنقرئك فلا تنسى» يعني: سنحفظ عليك حتى لا تنسى شيئاً، ويقال إن جبريل عليه السلام كان ينزل عليه في كل زمان ويقرأ عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويبين له ما نسخ فذلك قوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني: إلا ما شاء الله أن يرفعه وينسخه ويذهب من قلبك ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ يعني: يعلم العلانية والسر، ويقال ما يجهر به الإمام في الفجر والمغرب والعشاء والجمعة وما يخفى يعني: في الظهر والعصر والسنن، ويقال «يعلم» ما يظهر من أفعال العباد وأقوالهم «وما يخفى» من أقوالهم وأفعالهم، ويقال «يعلم» ما عمل العباد «وما يخفى» يعني ما لم يعملوه وهم عاملوه ثم قال عز وجل: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ يعني: سنهوّن عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة، ويقال يعني: نعينك على الطاعة، قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يعني: فعِظْ بالقرآن الناس ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ يعني: إن نفعتهم العظة ومعناه ما نفعت العظة بالقرآن إلا لمن يخشى ويقال إن نفعت الذكرى يعني إن قولك ودعوتك تنفع لكل قلب عاقل ويقال (سنيسرك لليسرى) يعني: نهون عليك عمل أهل الجنة ثم قال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٥٨.

(٢) قال الفراء في قوله تعالى: ﴿والذي أخرج المرعى فجعله غُثاء أحوى﴾ قال: إذا صار النبت يبيساً فهو غثاء، والأحوى الذي قد اسود من القدم والعتق. انظر لسان العرب ٢/١٠٦٢.

يعني: يتعظ بالقرآن من يخشى الله تعالى ويسلم ويقال معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحاً من يخشى قلبه من عذاب الله تعالى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ يعني: يتباعد عنها يعني عن عظتك ﴿الأَشْقَى﴾ يعني: الشقي الذي وجب في علم الله تعالى أنه يدخل النار مثل الوليد وأبي جهل ومن كان مثل حالهما ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ يعني: يدخل يوم القيامة النار الكبرى يعني: النار العظمى لأن نار الدنيا هي النار الصغرى ونار الآخرة هي النار الكبرى، وروى يونس عن الحسن عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وقد غمست في النار مرتين ليُدنى منها ويُنتفع بها ولولا ذلك ما دنوتم منها»[1] ويقال إنها تستجير أن ترد إلى جهنم يعني تتعوذ منها وقال بعض الحكماء: علامة الشقاوة تسع أشياء كثرة الأكل، والشرب، والنوم، والاصرار على الذنب، والغيبة، وقساوة القلب، وكثرة الذنوب، ونسيان الموت، والوقوف بين يدي الملك عز وجل، وهذا هو الشقي الذي يدخل النار الكبرى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ يعني: لا يموت في النار حتى يستريح من عذابها ولا يحيا حياة تنفعه، وقال القتبي معناه: هو العذاب بحال من يموت ولا يموت.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ثم قال عز وجل ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ يعني فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنة من تزكى يعني وحّد الله تعالى وزكى نفسه بالتوحيد ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ يعني توحيد ربه ﴿فَصَلَّى﴾ مع الإمام الصلوات الخمس، [ويقال (قد أفلح من تزكى) يعني أدى زكاة الفطر (وذكر اسم ربه فصلى) مع الإمام صلاة العيد] ويقال (قد أفلح من تزكى) يعني أدى زكاة المال، يعني نجا من خصومة الفقراء يوم القيامة (وذكر اسم ربه فصلى) يعني كبّر وصلى لله تعالى، ويقال (من تزكى) يعني تاب من الذنوب (وذكر اسم ربه) يعني إذا سمع الآذان خرج إلى الصلاة ثم ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يعني تختارون عمل الدنيا على عمل الآخرة، قرأ أبو عمرو (بل يؤثرون) بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء على معنى المخاطبة ثم قال عز وجل ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ يعني عمل الآخرة خير وأبقى من اشتغال الدنيا وزينتها، ويقال معناه يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية وإن عيش الآخرة خير وأبقى لأن في عيش الدنيا عيوباً كثيرة خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب، لأجل هذا قيل خير من الدنيا قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى﴾ يعني الذي ذكر في هذه السورة كان في الصحف الأولى يعني في الكتب الأولى ثم فسره فقال ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ويقال الذي ذكر في آخر السورة أربع آيات لفي كتب الأولين وكل كتاب مكتوب يسمى الصحف يعني في قوله قد أفلح من تزكى الخ الآية.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٨)، وأحمد في المسند ٢/٢٤٤، والدارمي ٢/٣٤٠.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ(١)

وهي ست وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾
تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ
مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ هل استفهام واستفهم الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن أتاه بعد فكأنه قال لا يأتيك خبره ثم أخبره، ويقال معناه قد أتاك حديث الغاشية، والغاشية اسم من أسماء يوم القيامة، وإنما سميت غاشية لأنها تغشى الخلق كلهم كما يقال يوماً كان شره مستطيراً، ويقال الغاشية النار، وإنما سميت غاشية لأنها تغشي وجوه الكفار كما قال (وتغشى وجوههم النار) أو كقوله (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم)، ويقال الغاشية دخان النار يخرج من النار يوم القيامة عنق من النار فيحيط بالكفار مثل السرادق ويجيء دخانها فيغشى الخلائق حتى لا يرى بعضهم بعضاً إلا من جعل الله تعالى له نوراً بصالح عمله في الدنيا كقوله (كالقصر كأنه جمالة صفر) وكقوله (وظل من يحموم) ويقال تغشى الغاشية الصراط المنافقين كقوله (انظرونا نقتبس من نوركم) الآية ثم وصف ذلك اليوم وقال﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ يعني من الوجوه وجوه يومئذ خائفة ذليلة في العذاب وهي وجوه الكفار ثم قال ﴿عَامِلَةٌ﴾ يعني تُجَرُّ على وجوهها في النار ﴿نَاصِبَةٌ﴾يعني من تعب وعذاب في النار ويقال(عاملة ناصبة) يعني تكلف الصعود على عتبة ملساء من النار فيرتقيها في عناء ومشقة فإذا ارتقى إلى ذروتها هبط منها إلى أسفلها. ويقال نزلت في رهبان النصارى عاملة في الدنيا ناصبة في العبادة أشقياء في الدنيا والآخرة ويقال (عاملة) في الدنيا بالمعاصي والذنوب (ناصبة) في الآخرة بالعذاب ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ يعني تدخل

---

(١) اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة وما فيه من عقاب قوم مشوهة حالتهم ومن ثواب قوم ناعمة حالتهم وعلى وجه الإجماع المرهب والمرغب. والإيماء إلى ما يبين ذلك الإجمال كله بالإنكار على قوم لم يهتدوا بدلالة مخلوقات من خلق الله وهي نصب أعينهم على تفرده بالإلهية فيعلم السامعون أن الفريق المهدد هم المشركون. وعلى إمكان إعادته بعض مخلوقاته خلقاً جديداً بعد الموت يوم البعث. وتثبيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الدعوة إلى الإسلام وأن لا يعبأ بإعراضهم. وأن وراءهم البعث فهم راجعون إلى الله فهو مجازيهم على كفرهم وإعراضهم. التحرير ٣٠/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) حجة من قرأ بضم التاء ذكرها اليزيدي فقال: كقوله (بعدها): «تسقى من عين آنية» فجعل اليزيدي «تصلى» بلفظ ما بعده إذ أتى في سياقه ليأتلف الكلام على نظام. وحجة الباقين أن (الصلى) مسند إليهم في كثير من القرآن مثل ﴿يصلونها يوم الدين﴾ وقوله: ﴿يصلى النار الكبرى﴾ و ﴿سيصلى ناراً﴾ فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. حجة القراءات ٧٥٩.

ناراً حارة قد أوقدت ثلاثة آلاف سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة قوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي من عين حارة قد انتهى حرُّها ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ﴾ وهذا في بضع دركها ﴿إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر بضم التاء (تُصلى ناراً) وقرأ الباقون بالنصب فمن[١] قرأ بالضم لمعنى المفعول الذي لم يسم فاعله ونصب ناراً على أنه مفعول ثان، ومن قرأ بالنصب جعل الفعل الذي يدخل النار وهو كناية عن الوجوه ولهذا ذكره بلفظ التأنيث ثم قال ليس لهم طعام إلا من ضريع والضريع نبات بين طريق مكة واليمن فإذا أكل الكفار منه بقي في حلقهم (ليس لهم طعام إلا من ضريع) يعني غير الضريع ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ يعني لا يشبع الضريع ﴿وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ يعني ولا ينفع (من جوع)[٢] وهذا الجزاء للذي يتعب نفسه للعمل في الدنيا والمعاصي وما لا يحتاج إليه ثم وصف مكان الذي يعمل لله تعالى ويترك عمل المعصية ويؤدي ما أمر الله تعالى ويترك ما نهي عنه فقال ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ يعني من الوجوه ما تكون ناعمة يعني في نعمة وكرامة وهي وجوه المؤمنين والتائبين والصالحين، ويقال وجوه يومئذ ناعمة يعني مشرقة مضيئة مثل القمر ليلة البدر ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ يعني لثواب عملها راضية ويقال لثواب سعيه الذي عمل في الدنيا من الخير يعني رأى ثوابه في الجنة (راضية مرضية) رضي الله عنه بعمله في الدنيا ورضي العبد من الله تعالى في الآخرة من الثواب ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يعني ذلك الثواب في جنة عالية مرتفعة في الدرجات العلى، وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «إن المتحابين لله تعالى في غرفة ينظر إليهم أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى كواكب السماء»[٣] ثم قال عز وجل ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ يعني لا يكون في الجنة لغو ولا باطل وليس فيها غل ولا غش، قرأ نافع لا تُسمع بضم تاء التأنيث لأن اللاغية مؤنثة وقرأ ابن كثير وأبو عمرو لا يسمع بضم الياء على معنى فعل ما لم يسم فاعله وإنما ذكر بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى المعنى يعني إلى اللغو، وروي عن ابن كثير ونافع في إحدى الروايتين بنصب التاء[٤] يعني لا تسمع في الجنة أيها الداخل كلمة لغو لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى ثم قال ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يعني في الجنة عين جارية ماؤها أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فمن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً ويذهب من قلبه الغل والغش والحسد والغداوة والبغضاء ثم قال ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ يعني مرتفعة ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ يعني الكيزان التي لا عرى لها مدورة الرأس ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ يعني فيها وسائد قد صف بعضها إلى بعض على الطنافس

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى
ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ
عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ
﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

(١) سقط في أ.
(٢) سقط في ظ.
(٣) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٣/٨٧، وذكره الهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد ١٠/٤٢٥. وعزاه لأحمد وقال ورجاله رجال الصحيح.
(٤) انظر حجة القراءات ٧٦٠.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قال القتبي الزرابي الطنافس ويقال البُسُط واحدها زربي ثم قال عز وجل (مبثوثة) أي كثيرة متفرقة أو مبسوطة والنمارق الوساید واحداها نمرقة والمؤمن جالس فوق هذا كله وعلى رأسه نور وضاء كأنهن الياقوت والمرجان جزاءً بما كانوا يعملون، فإن شك شاك فيها فتعجب وقال كيف هذا وهو غائب عنا فقل انظر إلى صنعة الرب تبارك وتعالى في الدنيا وهو قوله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ يعني خَلَق من قطرة ماء خلقاً عظيماً يُحْمَل عليها وإنما خص ذكر الإبل لأن الإبل كانت أقرب الأشياء إلى العرب ثم قال عز وجل ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني أفلا ينظرون إلى السماء ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمد تحتها وحبست في الهواء بقدرة الرب سبحانه وتعالى؟ ثم قال ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ﴾ يعني أفلا ينظرون إلى الجبال ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ على ظهر الأرض أوتاداً لها وليس جبل من الجبال إلا وله عرق من قاف وملك موكل بجبل فإذا أراد الله تعالى بأهل أرض شيئاً أوحى الله تعالى إلى الملك الموكل بذلك الجبل فيحرك تلك العروق فيتزلزل ثم قال ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ يعني بسطت على ظهر الماء ثم قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ يعني فذكر يا محمد - صلى الله عليه وسلم - وخوفهم بالعذاب في الآخرة، إنما أنت مذكر يعني مخوفاً بالقرآن ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ يعني بمسلط تجبرهم على الإسلام وهذا قبل أن يؤمر بالقتال، وقال مقاتل في الآية تقديم يعني فذكر ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ يعني أعرض عن الإيمان ﴿وَكَفَرَ﴾ بالله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ فيدخله النار وهو العذاب الأكبر الدائم وهو عذاب النار، حرها شديد، ومقرها بعيد، ومقامها حديد قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ يعني إن إلينا مرجعهم بعد الموت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ يعني إن مرجعهم إلينا بعد الموت (ثم إن علينا حسابهم) يعني يحاسبون بكل صغيرة وكبيرة وقليل وكثير كما قال (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) ويقال إن علينا حسابهم يعني جزاءهم بأعمالهم يعني ثوابهم بما عملوا والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ الفَجْرِ (١)

وهي ثلاثون آية مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ هو قسم وجوابه (إن ربك لبالمرصاد) أقسم الله تعالى بالفجر يعني الصبح، والفجر فجران المستطيل وهو من الليل والفجر المعترض وهو من النهار، ويقال أراد به أول يوم من المحرم ثم قال عز وجل: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يعني: عشر ذي الحجة ويقال إنها الأيام العشر التي صام فيها موسى عليه السلام وهي قوله: (وأتممناها بعشر) ويقال هي أيام عاشوراء، ثم قال عز وجل: ﴿والشَّفْعِ والْوَتْرِ﴾ قال قتادة الخلق كله شفع ووتر فأقسم الله تعالى بالخلق، وروى الحارث عن علي رضي الله عنه أنه قال (الشفع) آدم وحواء (والوتر) الله سبحانه وتعالى قال ابن عباس الوتر آدم فتشفع بزوجته حواء، وقال عطاء: (الشفع) الناس (والوتر) الله سبحانه وتعالى وقال الحسن الشفع هو الخلق، والذكر والأنثى، والوتر الله تعالى[٢] ويقال أقسم بالصلوات والصلوات منها ما هو شفع وهو الفجر والظهر والعصر والعشاء ومنها ما هو وتر وهو الوتر في المغرب ويقال إنما هو الأعداد كلها شفع ووتر وعن ابن عباس الشفع أيام الذبح والوتر يوم عرفة.

وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي
لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي
الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

قال عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال الكلبي: يعني ليلة المزدلفة يسير الخلق إلى المزدلفة وقال القتبي: والليل إذا يسر يعني يسرى فيه كقوله ليل نائم أي يُنام فيه وقال الزجاج أصله تسري يسري إلا أن الياء قد حذفت منه وهي القراءة المشهورة بغير ياء يقرأ بالياء قرأ حمزة والكسائي والشفع والوتر بكسر الواو والباقون

---

(١) اشتملت هذه السورة من الأغراض ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون. وإنذارهم بعذاب الآخرة. وتثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - مع وعده باضمحلال أعدائه. وإبطال غرور المشركين من أهل مكة إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامة على أن الله أكرمهم وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أن الله أهانهم. وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلم يواسوا ببعضها الضعفاء وما زادتهم إلا حرصاً على التكثر منها. وأنهم يندمون يوم القيامة على أنهم لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفساً مالها ولا ينفعها إلا إيمانها وتصديقها بوعد ربها. وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة. التحرير ٣٠/٣١١ - ٣١٢.

(٢) سقط في أ.

بالنصب[١] وهما لغتان يقال للفرد وَتْرٌ ووِتْر وقرأ ابن كثير «يسر» بالياء في حالة الوصل والقطع وقرأ نافع بالياء إذا وصل وقرأ الباقون بغير ياء في الوصل[٢] والقطع لأن الكسرة تدل عليه ثم قال عز وجل: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ يعني: أن هذا الذي ذكرناه قسماً لذي لب من الناس ويقال إن في ذلك قسم صدق لذي عقل ولب ورشد، والحجر: اللب ثم قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني: ألم تعلم؟ ويقال ألم تخبر؟ واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يعني: فذلك خبر عاد ﴿إرم ذاتِ الْعِمَادِ﴾ يعني: عاقبة قوم عاد وقال بعضهم هما عادان، أحدهما عاد وإرم والآخر هم قوم هود وقال بعضهم كلاهما واحد ويقال إرم اسم للجنة التي بناها فمات قبل أن يدخلها وذكر فيها حكاية طويلة عن وهب بن منبه ثم قال (ذات العماد) يعني الفساطيط والعمود عمود الفسطاط ﴿التِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: في القوة والطول ويقال (ذات العماد) يعني: ذات القوة ويقال ذات العماد يعني: دائم الملك طويل العمر ويقال ذات العماد أي ذات البناء الرفيع وروى أسباط عن السدي قال عاد ابن إرم فنسبهم إلى أبيهم الأكبر[٣] كقولك بكر بن وائل ويقال لا ينصرف إرم لأنه اسم قبيلة وقال مقاتل ذات العماد يعني طولها اثنا عشر ذراعاً التي لم يخلق مثلها في البلاد في الطول والقوة وإرم اسم أب قبيلة ينسب إليهم وهو إرم بن سمك بن نسمك بن سام بن نوح عليه السلام وقال الكلبي ذات العماد يعني كانوا أهل ذات عمود وماشية فإذا هاج العمود يعني يبس العشب رجعوا إلى منازلهم ويقال عاد وإرم شيء واحد، ثم قال عز وجل: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ وهم قوم صالح نقبوا الجبل وقعلوا أحجاراً لا يطيق مائتا رجل بالوادي وقال الكلبي هو واد القرى ثم قال عز وجل: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ يعني: قواد الكفرة الفجرة الذين خلقهم الله تعالى أوتاداً في مملكته ليكفوا عنه عدوه ويقال إن له بيتاً أوتد فيه أوتاداً فإذا عذب أحد طرحه فيها ويقال سمي بذي الأوتاد لأنه كان إذا غضب على أحد وثقه بأربعة أوتاد ويقال: الأوتاد وهي الصلب إذا غضب على أحد صلبه كقوله لأصلبنكم ويقال ذو الأوتاد يعني ذا الملك الثابت ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: عاداً وثمود وفرعون عصوا في البلاد ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ يعني: أكثروا في الأرض المعاصي ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ يعني: أرسل عليهم ربك ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ يعني: شديد العذاب حتى أهلكهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ﴾ يعني: مرّ الخلق عليه ويقال: (إن ربك لبالمرصاد) يعني ملائكة ربك على الصراط يعني يرصدون العباد على جسر جهنم في سبع مواضع وقال ابن عباس رضي الله عنهما «يحاسب العبد في أولها بالإيمان فإن سلم إيمانه من النفاق والرياء نجا وإلا تردَّى في النار وفي الثاني يحاسب على الصلاة فإن أتم ركوعها وسجودها في مواقيتها نجا وإلا تردّى في النار والثالث يحاسب على الزكاة فإن أداها بشروطها نجا وإلا تردى في النار وفي الرابع يحاسب بصوم رمضان فإن صامه بحدوده وحقوقه نجا وإلا تردى في النار، وفي الخامس في الحج والعمرة وفي السادس بالوضوء والخامس في الحج والعمرة وفي السادس بالوضوء والغسل من الجنابة وفي السابع بر الوالدين وصلة الأرحام ومظالم العباد فإن أداها نجا وإلا تردى في النار.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦١، إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٠٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٤٧ وعزاه لابن المنذر.

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا
دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

ثم قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ﴾ قال الكلبي ومقاتل نزلت في «أمية بن خلف» ويقال في أبي بن خلف إذا ما ابتلاه يعني اختبره ربه ﴿فأَكْرَمَهُ﴾ يعني: ورزقه ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ يعني أعطاه النعمة ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ يعني: اجتباني وفضلني وأنا أهل لذلك ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين «فقدّر» بالتشديد والباقون بالتخفيف ومعناهما واحد أي فقتر عليه رزقه وأصابه الجوع والأمراض ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ يعني: طردني وعاقبني شكاية لربه قال الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ أي حقاً يعني: ليس إهانتي وإكرامي في نزع المال والولد والفقر والمرض ولكن إهانتي في نزع المعرفة وإكرامي بتوفيق المعرفة والطاعة وقال قتادة لم يكن الغنى من كرامة ولم يكن الفقر من الذل. ولكن الكرامة مني بتوفيق الإسلام والهوان مني بالخذلان عنه إنما المكرم من أكرم بطاعتي والمهان من أهين بمعصيتي ثم قال ﴿بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ يعني: لا تعطون حق اليتيم وكان في حجر أمية بن خلف يتيم لا يؤدي حقه فنزلت الآية بسببه فصار فيها عظة لجميع الناس قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين فقدر بالتشديد والباقون بالتخفيف[١] ومعناهما واحد ثم قال عز وجل: ﴿ولا تحضون على طعام المسكين﴾ يعني: لا يحثون أنفسهم ولا غيرهم على طعام المسكين ويقال لا تحاضون على إطعام المسكين ويقال لا يحض بعضهم بعضاً قرأ حمزة والكسائي وعاصم ولا تحاضون بالألف يعني: لا يحث بعضهم بعضاً وقرأ أبو عمرو ولا يحضون بالياء يعني: لا يحثون والباقون لا تحضون بالتاء على المخاطبة[٢] ثم قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُرَاثَ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْلاً لَمّاً﴾ يعني: شديداً كقولك لممت الشيء إذا جمعته ومعناه يأكلون مال اليتيم أكلًا شديداً سريعاً ﴿وَتحِبُّونَ المَالَ﴾ يعني كثرة المال وجمع المال ﴿حُباً جَمّاً﴾ يعني: شديداً ويقال كثيراً قرأ أبو عمرو ويكرمون ويأكلون ويحبون كلها بالياء على معنى الخبر عنهم والباقون بالتاء[٣] على معنى الخطاب لهم ثم قال عز وجل ﴿كَلَّا﴾ يعني: حقاً ﴿إذا دُكَّتِ الأَرضُ دَكّاً دكاً﴾ يعني: زلزلزت الأرض زلزالها والتكرار للتأكيد ثم قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ﴾ قال بعضهم هذا من المكتوم الذي لا يفسر وقال أهل السنة وجاء ربك بلا كيف وقال بعضهم معناه وجاء أمر ربك بالحساب والملك ﴿صَفّاً صَفّاً﴾ يعني: صفوفاً كصفوف الملائكة وأهل الدنيا في الصلاة.

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى
﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

ثم قال عز وجل: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تحضر وتدنو من الكفار وروي عن عبد الرحمن بن حاطب قال كنا

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦٢.

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق.

جلوساً عند كعب يذكّرنا فجاء عمر رضي الله عنه فجلس ناحيته وقال ويحك يا كعب خوّفنا فقال كعب إن جهنم لتقرب يوم القيامة لها زفير وشهيق حتى إذا قربت ودنت زفرت زفرة لا يبقى نبي ولا صديق إلا وهو يخر ساقطاً على ركْبتيه فيقول اللهم لا أسألك اليوم إلا نفسي ولو كان لك يا ابن الخطاب عمل سبعين نبياً لظننت أن لا تنجو فقال عمر رضي الله عنه والله إن الأمر لشديد ثم قال ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ﴾ يعني: يتعظ الكافر ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِكْرَى﴾ يعني: من تنفعه العظة ويقال يومئذ يتذكر الإنسان يعني يظهر الإنسان التوبة يعني: أين له التوبة يعني كيف تنفعه التوبة يومئذ ﴿يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني: يا ليتني عملت في حياتي الفانية لحياتي الباقية ثم قال عز وجل: ﴿فيومئذ لا يُعَذِّبَ عَذَابَهُ أَحَدٌ ولا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ قرأ الكسائي لا يعذب بنصب الذال ولا يوثق بنصب التاء والباقون[1] كلاهما بالكسر فمن قرأ بالنصب فمعناه ولا يعذب عذاب هذا الصنف من الكفار أحد وكذلك لا يوثق وثاقه أحد ومن قرأ بالكسر معناه لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد الملك يومئذ لله وحده والأمر بيده ويقال معناه لا يقدر أحد من الخلق أن يعذب كعذاب الله تعالى ولا يوثق في الغل والصفد كوثاق الله. ثم قال عز وجل: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطَمَئِنَةُ﴾ التي اطمأنت بلقاء الله عز وجل ويقال المطمئنة يعني: الراضية بثواب الله تعالى القانعة بعطاء الله الشاكرة لنعمائه تعالى يقال لها عند الفراق من الدنيا ﴿ارْجِعِي الَى رَبِّكِ﴾ يعني: ارجعي إلى ثواب ربك إلى ما أعد الله لك في الجنة ويقال له يوم القيامة ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يعني: مع عبادي الصالحين في الجنة ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ يعني: ادخلي الجنة بلا حساب ويقال هذا الخطاب لأهل الدنيا يعني أيتها النفس المطمئنة في الدنيا التي أمنت من عذاب الله ارجعي إلى ربك راضية مرضية يعني: فادخلي في عبادي يعني: ادخلي في عبادي وفي طاعتي وادخلي جنتي ويقال معناه تقول الملائكة يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ما أعد الله لك راضية (فادخلي في عبادي) على محض التقديم يعني يا أيتها النفس المطمئنة الراضية بما أعطيت من الثواب مرضية بما عملت وادخلي جنتي مع عبادي والله تعالى أعلم.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٠٩.

سُورَةُ البَلَدِ (١)

وهي عشرون آية مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: أقسم بهذا البلد ولا صلة في الكلام ومعناه أقسم برب هذا البلد الذي ولد فيه يعني مكة ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يحلها يوم فتح مكة معناه فسيحل لك هذا البلد يعني: القتال فيه ساعة من النهار ولم يحل لك أكثر من ذلك وروى[٢] عبد الملك عن عطاء في قوله (وأنت حل بهذا البلد) وقال إن الله تعالى حرم مكة فجعلها حراماً يوم خلق السموات والأرض وهي حرام إلى أن تقوم الساعة ولم تحل إلا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساعة من[٣] النهار وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه دخل بالبيت يوم الفتح ووضع يده على باب الكعبة فقال لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام لي بحرام الله تعالى إلى يوم القيامة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة[٤] من نهار ثم قال عز وجل: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ووالد يعني: آدم وما ولد يعني ذريته ويقال كل والد وكل مولود وقال عكرمة ووالد الذي يلد وما يلد التي لم تلد من النساء والرجال[٥] ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يعني: معتدل الخلق والقامة فأقسم بمكة وبآدم وذريته. (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ) منتصباً قائماً على رجلين)[٦] وقال مقاتل نزلت الآية في حارث بن عامر بن نوفل وروى مقسم عن ابن عباس في قوله «لقد خلقنا الإنسان (في كبد)» قال خلق كل شيء يمشي على أربع إلا الإنسان فإنه خلق[٧] منتصباً وهذا كقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم) ويقال (لقد خلقنا الإنسان في كبد) يعني: في مشقة وتعب، وروي عن ابن رفاعة عن سعيد بن الحسن عن الحسن البصري في قوله «لقد خلقنا الإنسان في كبد» قال سعيد يكابد مضايق الدنيا وشدائد

---

(١) اشتملت هذه السورة على التنويه بمكة وبمقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها. وبركته فيها وعلى أهلها والتنويه بأسلاف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل، أو من أتباع الحنيفية مثل عدنان ومضر كما سيأتي، والتخلص من ذم سيرة أهل الشرك. وإنكارهم البعث. وما كانوا عليه من التفاخر المبالغ فيه، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس، ونعمة النطق، ونعمة الفكر، ونعمة الإرشاد فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير وما فرطوا فيه من خصال الإيمان وأخلاقه. التحرير ٣٠/٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) عبد الملك بن إبراهيم الجدي صدوق مات سنة أربع أو خمس ومائتين. التقريب ١/٥١٧.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢ وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٥٩، ٣١٦.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٦) سقط في ظ.

(٧) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

الآخرة، وقال الحسن لم يخلق الله تعالى خليقة يكابد مكابدة ما يكابد[(١)] ابن آدم، وروي عن عطاء عن ابن عباس يقول خلق في شدة يعني مولده ونبات أسنانه وغير ذلك ويقال معناه ولقد خلقنا الإنسان في كبد وهي المضغة مثل الكبد دما غليظاً ثم يصير مضغة.

أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

وقال عز وجل ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني أيحسب الكافر أن لن يقدر عليه الله تعالى يعني على أخذه وعقوبته ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً﴾ يعني أبا جهل بن هشام يقول أنفقت][(٢)] مالاً كثيراً في عداوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم ينفعني ذلك وهو أنه ضمن مالاً لمن يقتل محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: أنفق مالاً يوم بدر ثم قال عز وجل ﴿أَيَحْسَبُ﴾ يعني أيظن ﴿أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ يعني: إن لم ير الله تعالى صنيعه فلا يعاقبه بما فعل. ثم ذكر ما أنعم عليه ليعتبر به ويوحده فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يعني: ألم نخلق له عينين يبصر بهما ﴿وَلِسَاناً﴾ ينطق به ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ فيضمهما ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال الثعلبي ومقاتل يعني عرّفناه طريق الخير والشر، وقال قتادة يعني طريق الهدى والضلالة وهكذا قال ابن مسعود رضي الله عنه ويقال (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) يعني هديناه في الصغر لأحد الثديين يعني خلق له شفتين ليأخذ بهما ثدي أمه ويقال بينا له طريقين طريق الدنيا وطريق الآخرة وقال مجاهد يعني طريق السعادة وطريق الشقاوة[(٣)] ويقال الطاعة والمعصية ويقال طريق الصواب وطريق الخطأ ومعناه ألم نجعل له ما يستدل به على أن الله تعالى قادر على أن يبعثه ويحصى عليه ما عمله.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ يعني: فلا هو اقتحم العقبة ويقال فلم يقتحم العقبة ويقال معناه فهل تجاوز العقبة الذي يزعم أنه أنفق مالاً كثيراً في عداوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإنما أراد بالعقبة الصراط كما روي عن أبي ذر الغفاري أنه قال إن بين أيدينا عقبة كؤود لا ينجو منها الاّ كل مخف وكما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه بكى حين حضرته الوفاة قيل له وما يبكيك قال بُعْدَ المفازة وقلة الزاد وضعف النفس وعقبة كؤد والهبوط منها إلى الجنة أو إلى النار ثم قال عز وجل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ما الْعَقَبَةُ﴾ يعني ما أدراك بماذا يكون مجاوزة الصراط. ثم قال ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ يعني: اقتحام العقبة هو فك الرقبة يعني إنما يجاوز الصراط ﴿أو إِطْعَامٌ في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ يعني يجاوز الصراط بإحكام في يوم ذي مجاعة قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائي (فك رقبة) بنصب الكاف والهاء

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٣ وعزاه لابن المبارك.

(٢) في أ [أنفقت].

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٥٣ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(وأَطعم) بنصب الهمزة بغير الألف والباقون (فك رقبة) بضم الكاف وكسر الهاء أو إطعام بكسر الهمزة[١] وإثبات الألف فمن قرأ بالنصب فهو محمول على المعنى معناه فلا فَكَّ رقبةً ولا أطعمَ في يوم ذي مسغبة فكيف يجاوز العقبة ومن قرأ بالضم فمعناه اقتحامُ العقبة فكُّ رقبة، يعني مجاوزة العقبة بعتق رقبة وبإطعام في يوم ذي مسغبة أي مجاعة ثم بين لهم لمن يُطْعَم الطعام فقال ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ يعني يتيماً بينك وبينه قرابة ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ يعني مسكيناً لا شيء له لاصق في التراب من الجهد فهذا الإحسان مجاوزة العقبة ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني من صنع هذا الإحسان يكون مؤمناً لأنه لا يتقبل عملاً من الأعمال بغير إيمان ويقال معناه ثم يثيب على إيمانه ثم قال ﴿وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني تحاشوا أنفسهم بالصبر وتحاشوا بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله تعالى وبالصبر على المكروهات لأنه روي في الخبر أن الجنة حقت بالكاره ثم قال تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يعني تحاشوا بالتراحم بعضهم على بعض يعني بالمرحمة على أنفسهم على غيرهم وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من يرحم الناس يرحمه الله تعالى ثم قال ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (يعني أهل التراحم والتواصل هم أصحاب الميمنة)[٢] الذين يُعْطَوْن كتابهم بأيمانهم. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن ويقال كفروا بدلائل الله تعالى ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ يعني: يعطون كتابهم بشمالهم ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ يعني: أُدْخِلُوا في النار وأُطْبِقَت عليهم لا يخرج منها غم ولا يدخل فيها روح آخر الأبد قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة عليهم نار موصدة بالهمزة والباقون بغير همزة[٣] وهما لغتان يقال: أصدت وأوصدت الباب وأوصدته إذا أطبقته. والله أعلم.

---

(١) قال بعض أهل النحو من قال «فك رقبة» مضافاً، «أو إطعام» المعنى فيه: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ لا بد من تقدير هذا المحذوف، لأنه لا يخلو من أن تقدر حذف المضاف أو لا تقدره، فإن لم تقدره وتركت الكلام على ظاهره كان المعنى (العقبة: فك رقبة)، ولا تكون العقبة: الفك لأنه عين والفك حدث والخبر ينبغي أن يكون المبتدأ في المعنى فإذا لم يستقم كان المضاف مراداً، فيكون المعنى: (اقتحام العقبة: فك رقبة أو إطعام) أي اقتحامها أحد هذين. ومن قال «فك رقبة» أو «أطعم» فإنه يجوز أن يكون ما ذكر من الفعل تفسيراً لاقتحام العقبة. فإن قيل: إن هذا الضرب لم يفسر بالفعل وإنما فسر بالإبتداء والخبر نحو قوله: ﴿نار الله الموقدة﴾ وقوله: «نار حامية» قيل: إنه يمكن أن يكون قوله: ﴿كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ تفسيراً لقوله: ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ ويكون تفسيراً على المعنى. وقد جاء «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم» وفسر المثل بقوله ﴿خلقه من تراب﴾ فكذلك قوله ﴿فك رقبة أو إطعام﴾ تفسيراً على المعنى.

(٢) سقط في أ.

(٣) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٦١١.

سُورَةُ الشَّمْسِ(١)

وهي خمس عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾
وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ
خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

قوله تعالى ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾ أقسم الله تعالى بالشمس وضوئها وحرها ويقال بخالق الشمس وضحاها يعني: ارتفاع النهار ويقال: حر الشمس يسمى ضحى قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وضحها بالتفخيم وكذلك تلاها إلى آخر السورة وقرأ حمزة والكسائي كلها بالإمالة وقرأ نافع وأبو عمرو بين ذلك(٢) ثم قال عز وجل ﴿**والقمرِ إذا تلاها**﴾ يعني يتبع الشمس والهاء كناية عن الشمس وقال قتادة والشمس هو النهار والقمر إذا تلاها قال يتلوها صبيحة الهلال وإذا سقطت الشمس رأيت الهلال عند سقوطها ثم قال عز وجل: ﴿**والنَّهارِ إذا جَلَّاهَا**﴾ يعني إذا أضاء واستنار فقال القتبي هذا من الاختصار والنهار إذا جلاها ويعني والأرض أو الدنيا يعني النهار إذا أضاء الدنيا وقال الكلبي معناه إذا جلى النهار ظلمة الليل ثم قال عز وجل ﴿**والليل إذا يَغْشَاهَا**﴾ يعني غطى ضوء النهار ويقال والليل إذا يغشاها يعني غطى الأرض وسترها ثم قال ﴿**والسماء وما بناها**﴾ يعني خلقها ويقال والسماء وما بناها يعني الله تعالى بناها فأقسم بنفسه ويقال ما للصلة ومعناه: والسماء وبنائها ثم قال عز وجل ﴿**والأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**﴾ يعني والذي بسطها على الماء من تحت الكعبة ثم قال ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا**﴾ يعني ونفس والذي سوى خلقها ويقال ونفس وما خلقها ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ يعني: ألهمها الطاعة والمعصية ويقال عرفها وبين لها ما تأتى وما تذر ثم قال عز وجل ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾ يعني: أصلحها الله وعرفها وهذا جواب القسم لقد أفلح ولكن اللام حذفت لثقلها لأن الكلام طال ثم قال ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ يعني: خسر من أغفلها وأغواها وخذلها وأضلها وقال القتبي معناه قد أفلح من زكى نفسه أي أنماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة وقد خاب من دساها يعني نقصها وأخفاها بترك عمل البر وبركوب عمل المعاصي وأصله دسس فجعل مكان إحدى السينين ياء كما يقال قصيت أظفاري وأصله قصصت قال وأصل هذا أن أجواد العرب كانوا ينزلون في أرفع المواضع ويوقدون من النار للطارقين لتكون أنفسهم أشهر واللئام ينزلون الأطراف والأهضام لتخفي أماكنهم على الطارقين فأخفوا

---

(١) اشتملت هذه السورة على تهديد المشركين بأنهم يوشك أن يصيبهم عذاب بإشراكهم وتكذيبهم برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أصاب ثمود بإشراكهم وعتوهم على رسول الله إليهم الذي دعاهم إلى التوحيد. وقُدّم لذلك تأكيد الخبر بالقسم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى الذي لا يشاركه فيه غيره فهو دليل على أن المنفرد بالإلهية والذي لا يستحق غيره الإلهية، وخاصة أحوال النفوس ومراتبها في مسالك الهدى والضلال والسعادة والشقاء. التحرير ٣٠/٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٦١٢.

أنفسهم والبار أيضاً أظهر نفسه بأعمال البر والفاجر دساها ويقال: إن الله تعالى يطلب من عباده المؤمنين يوم القيامة ستة أشياء: بمكان النعمة الشكر وبمكان الشدة الصبر وبمكان الصحة العمل بالطاعة وبمكان الذنوب التوبة وبمكان العمل الإخلاص فمن يجيىء بهذه الأشياء فقد أفلح ونما ومن لم يجيىء بهذه الأشياء فقد خسر وغبن.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ يعني بطغيانهم حملهم على ذلك التكذيب ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاها﴾ يعني: إذا قام أشقى ثمود وكلهم أشقياء في علم الله تعالى وأشقاهم عاقر الناقة وهو قدار بن سالف ومصدع بن دهر ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ صلى الله عليه وسلم ـ يعني صالحاً ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ يعني احذروا ناقة الله ﴿وسُقياها﴾ يعني لا تأخذوا سقياها ومعناه ولا تعقروا ناقة الله وذروا شربها وقد ذكرناه في سورة الأعراف. ﴿فكذَّبُوهُ﴾ يعني صالحاً بالعذاب ﴿فَعَقَرُوها﴾ يعني فعقروا الناقة ويقال في الآية تقديم فعقروها فخّوفهم صالح عليه السلام بالعذاب فكذبوه ثم قال عز وجل ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ يعني أنزل عليهم ربهم عقوبة ﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ والدَّمْدَمة المبالغة في العقوبة والنكال، ثم قال ﴿فَسَوَّاهَا﴾ يعني: فسواها في الهلاك يعني الصغير والكبير ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ قرأ نافع وابن عامر فلا يخاف بالفاء، والباقون بالواو(١) فمن قرأ بالفاء وصل الذي بعدها بالذي قبلها وهو قوله فدمدم عليهم ربهم يعني أطبق عليهم العذاب بذنبهم فسواها يعني فسوى الأرض عليهم ولا يخاف عقبى هلكهم ولا يقدر أن يرجعوا إلى السلامة ومن قرأ بالواو فمعناه التقديم والتأخير يعني الذي عقرها وهو لا يخاف عقبى عقرها ويقال إن الله تعالى أهلكهم ولم يخف ثأرها وعاقبتها على غير وجه التقديم، وروى الضحاك عن علي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال لعلي رضي الله عنه «أتدري من أشقى الأولين قلت الله ورسوله أعلم قال: عاقر الناقة فقال أتدري من أشقى الآخرين قلت الله ورسوله أعلم قال(٢): قاتلك» والله أعلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦٦.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور بنحوه ٦/٣٥٧ عن عمار بن ياسر وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه والبغوي وأبي نعيم في الدلائل.

سُورَةُ اللَّيْلِ(١)

وهي إحدى وعشرون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾
وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ
﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أقسم الله تعالى بالليل إذا غشيت ظلمته ضوء النهار ويقال: أقسم بخالق الليل إذا يغشي يعني يغشى الليل ضوء النهار ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ يعني أقسم بالنهار إذا استنار وتجلى عن الظلمة ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ يعني والذي خلق الذكر والأنثى يعني آدم وحواء وقال القتبي: ما ومن أصلهما واحد وجعل من للناس وما لغير الناس ويقال من مَرّ بك من الناس وما مَرّ بك من الإبل وقال أبو عبيد: وما خلق أي وما خلق وكذلك قوله (والسماء وما بناها ونفس وما سواها) و «ما» في هذه المواضع بمعنى «من».

وقال أبو عبيد: وما بمعنى من وبمعنى الذي وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى وروى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال قدمنا الشام فأتانا أبو الدرداء فقال أفيكم أحَد يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود فأشاروا إلي فقلت نعم أنا فقال كيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية قلت سمعته يقرأ (والذكر والأنثى): قال: أنا هكذا والله سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأها وهؤلاء يريدونني على أن أقرأها كلا(٢) أنا معهم ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ فهذا موضع جواب القسم ـ أقسم الله تعالى بخالق هذه الأشياء إن سعيكم لشتى يعني أديانكم ومذاهبكم مختلفة يعني عملكم مختلف عامل للجنة وعامل للنار وقال أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي قال أخبرنا حدثنا أحمد بن جرير قال حدثنا أبو عبد الرحمن راشد بن إسماعيل عن منصور بن مزاحم عن يونس بن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبي بن خلف ببروة وعشرة أواق من فضة فأعتقه لله تعالى فأنزل الله تعالى (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى) يعني سعي أبي بكر وأمية بن خلف ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ يعني بلا إله إلا الله يعني أبا بكر ﴿فَسَنُيَسِّره لِلْيُسْرَى﴾ يعني الجنة ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ يعني بلا إله إلا

---

(١) حوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم ومذمة المشركين ومساويهم وجزاء كلٍّ. وأن الله يهدي الناس إلى الخير فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين والضالين بعكس ذلك وأنه أرسل رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للتذكير بالله وما عنده فينتفع من يخشى فيفلح ويصدف عن الذكرى من كان شقياً فيكون جزاؤه النار الكبرى وهؤلاء هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة. وأدمج في ذلك الإشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه. التحرير ٣٠/٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٣٠/٢١٧.

الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ يعني أمية وأبي ابني خلف إذا ماتا. ويقال لنزول هذه الآية سبب آخر.

كان رجل من الكفار له نخلة في دار، وشعبها في دار رجل آخر من المسلمين وكان إذا سقطت ثمرة في دار المسلم نادى الكافر: حرام حرام وكان المسلم يأخذ الثمرة فيرمي بهــا في دار الكافر لئلا يأكل ذلك صبيانـه فسقطت يوماً ثمرة فأخذها ابن صغير للمسلم فجعلها في فيه فدخل الكافر فأخرج الثمرة من فيه وأبكى الصبي فشكى المسلم إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فدعا المشرك فقال أتبيع نخلتك ليعطيك الله أفضل منها في الجنة فقال لا أبيع العاجل بالآجل فسمع رجل من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاشترى النخلة من الكافر وتصدق بها على المسلم[1] فنزلت (فأما من أعطى واتقى) يعني أعطى من ماله حق الله تعالى وأتقى الشرك وسخط الله تعالى وصدق بالحسنى يعني بثواب الله في الجنة (فسنيسره) يعني سنعينه ونوفقه (لليسرى) يعني لعمل أهل الجنة (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)، بالصدقة (واسْتَغْنَى) يعني رأى نفسه مستغنياً عن ثواب الله وعن جنته (وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى) يعني بالثواب وهو الجنة (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) يعني نخذله ولا نوفقه للطاعة فسنيسر عليه طريق المعصية (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ يعني ما ينفعه ماله إذا مات وتركه في الدنيا وهو يرد إلى النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ يعني علينا بيان الهدى ويقال علينا التوفيق للهدى من كان أهلاً لذلك ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ يعني الدنيا والآخرة لله تعالى يعطي منها من يشاء ويقال معناه إلى الله تعالى ثواب الدنيا والآخرة ويقال وإن لنا للآخرة والأولى يعني لله تعالى نفاذ الأمر في الدنيا والآخرة يعطي في الدنيا المغفرة والتوفيق للطاعة وفي الآخرة الحسنة والثواب ثم قال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ يعني خوفتكم بالقرآن ناراً تلظى يعني تتقل على أهلها وتغيظ على أهلها وتزفر عليهم قوله عز وجل ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ يعني لا يدخل في النار ﴿إِلَّا الأَشْقَى﴾ يعني الذي ختم له بالشقاوة ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ يعني كذب بالتوحيد وتولى عن الإيمان وعن طاعة الله تعالى وأخذ في طاعة الشيطان ثم قال ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ يعني يباعد عنها الأتقى يعني المتقي الذي يتقي الشرك وهو ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ يعني يعطي من ماله حق الله تعالى يتزكى يعني يريد به وجه الله تعالى ثم قال ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ يعني لا يفعل ذلك مجازاة لأحد ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ ولكن يفعل ذلك وجه ربه الأعلى يفعل ذلك طلب رضاء الله تعالى الأعلى يعني الله العلي الكبير الرفيع فوق خلقه بالقهر والغلبة ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ يعني سوف يعطي الله من الثواب حتى يرضى بذلك.

وقال مقاتل مر أبو بكر على بلال وسيده أمية بن خلف يعذبه فاشتراه وأعتقه فكره أبو قحافة عتقه فقال لأبي بكر أما علمت أن مولى القوم من أنفسهم فإذا أعتقت فأعتق من له منظرة وقوة فنزل وما لأحد عنده من نعمة تجزى يعني لا يعقل لطلب المجازاة ولكن إنما يعطي ما له ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى بثواب الله تعالى والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٥.

سورة الضحى(١)

وهي إحدى عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٤﴾
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾

قوله تبارك وتعالى: ﴿والضُّحَى﴾ يعني: النهار كله ويقال الضحى ساعة من ساعات النهار ويقال الضحى حر الشمس ﴿واللّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ يعني: اسودّ وأظلم ويقال إذا سكن بالناس ويقال (والضحى والليل إذا سجى) يعني: عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم ويقال (والضحى) نور الجنة إذا تنور (والليل إذا سجى) يعني: ظلمة النار إذا أظلم ويقال (والضحى) يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار (والليل إذا سجى) يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل، وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء ﴿مَا وَدّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ يعني: ما تركك ربك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ منذ أوحى إليك (وما قلى) يعني: ما أبغضـك ربك وذلك أن مشركي قريش أرسلوا إلى يهود المدينة وسألوهم عن أمر محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت لهم اليهود فاسألوه عن أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم بقصة أهل الكهف وعن قصة ذي القرنين ولم يخبركم عن أمر الروح فاعلموا أنه صادق فجاؤوه، وسألوه فقال لهم «ارجعوا غداً حتى أخبركم» ونسي أن يقول إن شاء الله فانقطع عنه جبريل خمسة عشرة يوماً، في رواية الكلبي وفي رواية الضحاك أربعين يوماً فقال المشركون قد ودّعه ربه وأبغضه(٢) فنزل فيهم ذلك وروى أسباط عن السدي قال فأبطأ جبريل عليه السلام على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربعين ليلة حتى شكى ذلك إلى خديجة فقالت خديجة لعل ربك قد قلاك أو نسيك فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية(٣) (ما ودعك ربك وما قلى) ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾

---

(١) اشتملت هذه السورة على إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد انقطع عنه. وزاده بشارة أن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه. وذلك يغيظ المشركين. ثم ذكره الله بما حفه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله. التحرير ٣٠/٣٩٤.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٠/٦٣.

(٣) قال الإمام الفخر الرازي في تفسير ٣١/٢١٠ بعد ذكره تلك الرواية: طعن الأصوليون في هذه الرواية، وقالوا إنه لا يليق بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه بل يعلم أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمة الله تعالى، ويعلم أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة وربما كان الصلاح تأخيره وربما كان خلاف ذلك، فثبت أن هذا الكلام غير لائق بالرسول =

يعني: ما أعطاك الله في الآخرة خير لك مما أعطاك في الدنيا ويقال معناه عز الآخرة خير من عز الدنيا لأن عز الدنيا يفنى وعز الآخرة يبقى. قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ يعني يعطيك ثواب طاعتك حتى ترضى و(سوف) من الله تعالى واجب ويقال (ولسوف يعطيك) الحوض والشفاعة (حتى ترضى) ثم ذكر له ما أنعم عليه في الدنيا وفي الآخرة فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ﴾ يعني: كنت يتيماً فضمك إلى عمك أبي طالب فكفاك المؤنة حين كنت يتيماً (ما ودعك ربك) فكيف ودعك بعد ما أوحى إليك ثم قال عز وجل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ يعني: وجدك جاهلاً بالنبوة وبالحكمة وبالكتاب وقراءته والدعوة إلى الإيمان فهداك إلى هذه الأشياء وكقوله (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) ويقال ووجدكَ ضالاً يعني: من بين قوم ضلال فهدى يعني: حفظك من أمرهم وعن أخلاقهم ويقال ووجدك بين قوم ضلال فهداهم بك ثم قال عز وجل: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ يعني: وجدك فقيراً بلا مال فأغناك بمال خديجة ويقال وجدك فقيراً عن القرآن والعلم فأغناك يعني أغنى قلبك وأرضاك بما أعطاك.

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

ثم قال تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ يعني لا تظلمه وادفع إليه حقه ويقال معناه واذكر يُتْمك وأرحم اليتيم، وقال مجاهد فلا تقهر يعني فلا تقهره وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ (فأما اليتيم فلا تكهر) يعني لا تعبس في وجهه وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: من ضم يتيماً وكان محسناً في نفقته كان له حجاباً من النار يوم القيامة ومن مسح برأسه كان له بكل شعرة حسنة[١]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ يعني لا تؤذه ولا تزجره ويقال معناه واذكر فقرك ولا تزجر السائل ولا تنهره ورده ببذل يسير وبكلمة طيبة، وفي الآية تنبيه لجميع الخلق لأن كل واحد من الناس كان فقيراً في الأصل فإذا أنعم الله عليه وجب أن يعرف حق الفقراء ثم قال عز وجل ﴿وَأَما بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [٢] يعني بهذا القرآن فيعلم الناس وفي الآية تنبيه لجميع من

= عليه الصلاة والسلام، ثم إن صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها، أو ليعرف الناس قدر علمها، واختلفوا في قدر مدة انقطاع الوحي، فقال ابن جريج اثنا عشر يوماً، وقال الكلبي خمسة عشر يوماً وقال ابن عباس خمسة وعشرون يوماً، وقال السدي ومقاتل أربعون يوماً، واختلفوا في سبب احتباس جبريل عليه السلام، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف، فقال: «سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله» فاحتبس عنه الوحي. تفسير الفخر الرازي ٣١/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٦٤ من حديث عمرو بن مالك القشيري وعزاه لأحمد والطبراني وقال وفيه علي بن زيد وهو حسن الحديث. وهو عند أحمد في المسند ٤/ ٣٤٤، ٥/ ٢٩ والطبراني في الكبير ١٩/ ٣٠٠.

(٢) الخطاب في هذه الآيات للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمقتضى الأمر في المواضع الثلاثة أن تكون خاصة بـه، وأصل الأمر الوجوب، فيعلم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ واجب عليه ما أمر به، وأما مخاطبة أمته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمة لنبيها فيما فرض عليه ما لم يدل دليل على الخصوصية، فأما مساواة الأمة له في منع قهر اليتيم ونهر السائل فدلائله كثيرة مع ما يقتضيه أصل المساواة. وأما مساواة الأمة له في الأمر بالتحدث بنعمة الله فإن نعم الله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شتّى منها ما لا مطمع لغيره من الأمة فيه مثل نعمة الرسالة ونعمة القرآن ونحو ذلك من مقتضيات الاصطفاء الأكبر، ونعمة الرب في الآية مجملة. فنعم الله التي أنعم بها على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة منها ما يجب تحديثه به وهو تبليغه الناس أنه رسول من الله وأن الله أوحى إليه وذلك داخل في تبليغ الرسالة وقد كان يعلم الناس الإسلام فيقول لمن يخاطبه أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله ومنها تعريفه الناس ما يجب له من البر والطاعة كقوله لمن قال لـه اعدل يا رسول الله فقال «**أيأمنني الله على وحيه ولا** =

يعلم القرآن أن يحتسب في تعليم غيره ويقال معناه فحدث الناس بما آتاك الله من الكرامة ويقال معناه آجهر بالقرآن في الصلاة وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال:

«إن الله تعالى جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده» يعني[1] يشكر بما أنعم الله تعالى عليه ويحدث به فيظهر على نفسه أثر النعمة (والله أعلم بالصواب).

= **تأمنوني»** ومنها ما يدخل في التحديث به في واجب الشكر على النعمة فهذا وجوبه على النبي - صلى الله عليه وسلم - خالص من عروض المعارض لأن النبي معصوم من عروض الرياء ولا يظن الناس به ذلك فوجوبه عليه ثابت. وأما الأمة فقد يكون التحديث بالنعمة منهم محفوفاً برياء أو تفاخر. وقد ينكسر له خاطر من هو غير واجد مثل النعمة المتحدث بها. وهذا مجال للنظر في المعارضة بين المقتضى والمانع، وطريقة الجمع بينهما إن أمكن أو الترجيح لأحدهما. وفي تفسير الفخر: سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الصحابة فأثنى عليهم فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: مهلاً فقد نهى النبي عن التزكية فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ فقال: فإني أحدث كنت إذا سُئلتُ أعطيت وإذا سُكِت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني. فمن العلماء من خص النعمة في قوله: ﴿**بنعمة ربك**﴾ بنعمة القرآن ونعمة النبوة وقاله مجاهد. ومن العلماء من رأى وجوب التحدث بالنعمة. رواه الطبري عن أبي نضرة. التحرير ٣٠/٤٠٣ - ٤٠٤.

(١) أخرج جزءاً منه مسلم في صحيحه ٢/٩٣ كتاب الإيمان (١٤٧ - ٩١) من حديث عبد الله بن مسعود، وأخرجه أحمد في المسند ٤/١٣٣، ١٣٤، ١٥١ والحاكم في المستدرك ١/٢٦ والطبراني في الكبير ٨/٢٤٠، ٢٩٣.

سُورَةُ الشَّرْح (١)

وهي ثمان آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾هو معطوف على قوله (ألم يجدك يتيماً فآوى) وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال سألت ربي مسألة ووددت أني لم أسألها قط، فقلت اتخذت إبراهيم خليلاً وكلمت موسى تكليماً فقال الله تعالى ألم يجدك يتيماً فآوى؟ قلت بلى: قال ووجدك ضالاً فهدى؟ قلت بلى! قال ووجدك عائلاً فأغنى؟ قلت بلى! قال ألم نشرح لك صدرك(٢) الآية وروي عن بعض المتقدمين أنه قال: سورة (التوبة والأنفال) بمنزلة سورة واحدة وسورة (ألم نشرح لك والضحى) بمنزلة سورة واحدة وسورة لإيلاف قريش وألم تر كيف فعل ربك) بمنزلة سورة واحدة.

قال (ألم نشرح لك صدرك): يعني ألم نوسع قلبك بالتوحيد والإيمان وهذا قول مقاتل وقال الكلبي أتاه جبريل فشرح صدره حتى أبدى قلبه ثم جاء بدلو من ماء زمزم فغسله وأنقاه مما فيه ثم جاء بطشت من ذهب قد ملىء علماً وإيماناً فوضعه فيه. ويقال الانشراح للعلم حتى علم أنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان مؤمناً من وقت الميثاق فشق صدره على جهة المثل فيعبر به عنه ويقال ألم نشرح لك صدرك يعني ألم نلين قلبك بقبول الوحي وحب الخيرات ويقال معناه ألم نطهر لك قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس كسائر الناس؟ ويقال معناه ألم نشرح يعني نوسع لك قلبك بالعلم كقوله (وعلمك مما لم تكن تعلم) ثم قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾يعني غفرنا لك ذنبك كقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ويقال غفرنا لك ذنبك وذلتك بترك الاستثناء ويقال معنى (ووضعنا عنك وزرك) يعني عصمناك من الذنوب. ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ لو لم يعصمك الله لأثقل ظهرك، ويقال معناه أخرجنا من قلبك الأخلاق السيئة وطبائع السوء الذي أنقض ظهرك يعني التي لو لم ننزعها عن قلبك لأثقل عليك حمل النبوة والرسالة ثم قال عز وجل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾يعني في التأذين والخطب حتى لا أذكر إلا وذكرت معي يعني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل يوم خمس مرات في الأذان والإقامة.

---

(١) احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلطف الله وإزالة الغم والحرج عنه، وتفسير ما عسر عليه، وتشريف قدره لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعلمه النبي ـ صلى الله عليه وسلم. التحرير ٣٠/٤٠٧.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٨.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

قال تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾يعني مع الشدة سعة يعني بعد الشدة سعة في الدنيا ويقال بعد شدة الدنيا سعة في الآخرة يعني إذا احتمل المشقة في الدنيا ينال الجنة في الآخرة ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾على وجه التأكيد وروي عن ابن عباس أنه قال لا يغلب العُسْرُ يُسْرَيْنْ وروى مبارك[٢] بن فضالة عن الحسن أنه قال كانوا يقولون لا يغلب عسرٌ واحد يُسْرَين[١] فقـال ابن مسعود رضي الله عنه لو كان العسر في جُحر جاء اليسر حتى يدخل عليه لأنه قال تعالى «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً»، ويقال (إن مع العسر) وهو إخراج أهل مكة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يسراً) وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل في عز وشرف ثم قال عز وجل ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾يعني إذا فرغت من الجهاد فاجتهد في العبادة ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾يعني اطلب المسألة إليه قال قتادة فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء[٣] وهكذا قال الضحاك وقال مجاهد (فإذا فرغت) من اشتغال نفسك (فانصب) يعني فَصَلِّ ويقال (فإذا فرغت)من الفرائض (فانصب) في الفضائل فيقال (فإذا فرغت) من الصلاة (فانصب) نفسك للدعاء والمسألة (وإلى ربك فارغب) يعني إلى الله فارغب في الدعاء برفع حوائجك إليه والله أعلم وأحكم بالصواب.

---

(١) مبارك بن فضالة البصري مولى قريش قال ابن ناصر الدين: كان كثير التدليس فتكلم فيه وذكر أبو زرعة وغيره أن المبارك إذا قال حدثنا فهو ثقة مقبول. انظر شذرات الذهب ١/ ٢٥٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٤ وعزاه لابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

سُورَةُ التِّينِ(١)

وهي ثمان آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وهما مسجدان بالشام ويقال هما جبلان بالشام (التين) جبل بيت المقدس (والزيتون) جبل بدمشق وقال قتادة (التين) الجبل الذي عليه دمشق (والزيتون) الجبل الذي عليه بيت[٢] المقدس ويقال (التين) الذي يؤكل وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال تينكم وزيتونكم هذا، وقال مجاهد: هو الذي يؤكل وهو قول سعيد بن جبير والشعبي ثم قال ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني: الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى صلوات الله على نبينا وعليه ويقال (الطور) اسم الجبل (سينين) يعني: ذا شجر ويقال التين معناه علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزيتون فاطمة الزهراء بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي الله تعالى عنها وطور سينين هما الحسن والحسين سيدا الشهداء في دار الدنيا وهذا لا يصح في اللغة ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ يعني: مكة أمين من أن يهاج فيها من دخل فيها ويقال (الأمين) لجميع الحيوان الذي لا يجري عليه القلم ثم قال: عز وجل ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يعني: في أحسن صورة لأنه يمشي مستوياً وليس منكوساً وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها، قال بعضهم نزلت في شأن الوليد بن المغيرة وقال بعضهم نزلت في كلدة بن أسيد وقال بعضهم هذا عام ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يعني: رددناه بعد القوة والشباب والحسن إلى الضعف والهرم يعني: يصير كالصبي في الحال الأولى يعني رددناه إلى أرذل العمر ويقال رددناه يعني الفاجر والكافر بعد موته إلى أسفل السافلين في النار.

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

ثم قال عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى وعملوا

---

(١) احتوت هذه السورة على التنبيه بأن الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة ليعلموا أن الإسلام هو الفطرة كما قال في الآية الأخرى «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها» وأن ما يخالف أصوله بالأصالة أو بالتحريف فساد وضلال ومبتغي ما يخالف الإسلام أهل ضلالة. والتعريض بالوعيد للمكذبين بالإسلام. التحرير ٣٠/٤١٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٦٦ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر.

الصالحات ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يعني: غير منقوص وذلك أن المؤمن إذا عمل في حالة شبابه وقوته وحياته فإذا مرض أو هرم أو مات فإنه يكتب له حسناته كما كان يعمل في حال شبابه وقوته إلى يوم القيامة ويقال (غير ممنون) يعني: غير مقطوع ويقال (غير ممنون) يعني: لا يُمَنُّ عليه وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: إن المؤمن إذا مات صعد ملكاه إلى السماء فيقولان إن عبدك فلان قد مات فأْذَنْ لنا حتى نعبدك على السماء فيقول الله تعالى إن سماواتي مملوءة بملائكتي ولكن اذهبا إلى قبره فاكتبا له حسناته إلى يوم القيامة[١] ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ يعني: أيها الإنسان ما الذي حملك بعدما خلقك الله تعالى في أحسن تقويم حتى كذبت بيوم الدين والقضاء ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ يعني: بأعدل العادلين يعمل بالعدل مع الكفار ومع المؤمنين بالفضل وقال مقاتل فما يكذبك بعد بالدين يعني فما يكذبك أيها الإنسان بعد بيان الصورة الحسنة والشباب والهرم بالحساب لا تغتر في صورتك وشبابك فهو قادر على أن يبعثك ويقال معنى قوله(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يعني لا يحزن ولا يذهب عقله من كان عالماً عاملاً به. وروي عن ابن عمر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال طوبى لمن طال عمره وحسن عمله[٢] والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٠/٧٩.

(٢) أخرجه الترمذي ٢٣٣٠ وأحمد في المسند ٤/١٨٨، ١٩٠ وأبو نعيم في الحلية ٦/١١١.

سُورَةُ العَلَق (١)

وهي تسع عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

قوله تبارك وتعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يقول اقرأ القرآن بأمر ربك، وهذه أول سورة نزلت من القرآن وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما بلغ أربعين سنة كان يسمع صوتاً يناديه يا محمد ولا يرى شخصه وكان يخشى على نفسه الجنون حتى رأى جبريل ـ عليه السلام ـ يوماً في صورته فغشي عليه فحمل إلى بيت خديجة فقالوا لها تزوجت مجنوناً فلما أفاق أخبر بذلك خديجة فجاءت إلى ورقة بن نوفل وكان يقرأ الإنجيل ويفسره ثم جاءت إلى عداس وكان راهباً فقال لها إن له نبأ وشأناً يظهر أمره فخرج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً إلى الوادي فجاء جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه السورة وأمره بأن يتوضأ ويصلي ركعتين فلما رجع أعلم بذلك خديجة[٢] وعلمها الصلاة وذلك قوله (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)، يعني علموهم وأدبوهم، وروى معمر عن الزهري أنه قال أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت أول ما بدىء به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحي الرؤيا الصالحة الصادقة وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّب الخلاءُ إليه يعني العزلة وكان يأتي حراء ويمكث هناك ثم يرجع إلى خديجة فجاءه الملك وهو على حراء فقال له اقرأ فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أنا بقارىء فأخذني فغطني ثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فرجع ترجف بوادره وقد أخذته الرّعدة حتى دخل على خديجة فقال زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فذلك قوله (اقرأ باسم ربك) يعني اقرأ بعون الله ووحيه إليك، ويقال معناه (اقرأ باسم ربك) كقوله (واذكر ربك إذا نسيت) يعني اذكر ربك الذي خلق الخلائق. ثم قال عز وجل ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يعني ابن آدم من دم عبيط وقال في آية أخرى (ألم نخلقكم من ماء مهين)، وقال في آية أخرى

---

(١) اشتملت هذه السورة على تلقين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبل. والإيماء إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء. وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم. وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من عقله فذلك مبدأ النظر. وتهديد من كذب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى. وإعلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الله عالم بأمر من يناوونه وأنه قامعهم وناصر رسوله وتثبيت الرسول على ما جاء من الحق والصلاة والتقرب إلى الله. وأن لا يعبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم. التحرير ٣٠/٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري ١/٢٢ كتاب بدء الوحي ومسلم ١/١٣٩ كتاب الإيمان (٢٥٢، ١٦٠).

(خلقناكم من تراب)، وهذه الآيات يصدّق بعضها بعضاً لأن أول الخلق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة كما بين الجملة في موضع آخر ثم قال عز وجل ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ يعني اقرأ يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وربك يعينك ويفهمك وإن كنت غير قارىء (الأكرم) يعني ربك المتجاوز عن جهل العباد ويقال اقرأ وقد تم الكلام ثم استأنف فقال (وربك الأكرم) يعني الكريم ويقال الأكرم يعني المكرم الذي يكرم من يشاء بالإسلام ثم قال ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ علم الكتابة والخط بالقلم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ يعني علم آدم ـ عليه السلام ـ أسماء كل شيء يعني ألهمه ويقال (علم الإنسان) يعني محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ما لم يعلم) يعني القرآن كقوله (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) ويقال علم الإنسان ما لم يعلم يعني علم بني آدم ما لم يعلموا كقوله (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)

كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿كَلَّا﴾ يعني: حقاً ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ يعني الكافر ليعصي الله ويقال: يرفع منزلة نفسه ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ يعني: أن رأى نفسه مستغنياً عن الله تعالى مثل أبي جهل وأصحابه، ومثل فرعون حيث ادعى الربوبية قال أبو الليث رحمه الله حدثنا أبو جعفر بن عوف عن الأعمش عن القاسم قال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، منهومان لا يشبعان: طالب العلم وطالب الدنيا ولا يستويان أما طالب العلم فيزداد رضا الله، وأما طالب الدنيا فيزداد في الطغيان[1] ثم قال (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ثم قال ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ يعني المرجع إلى الله تعالى يوم القيامة، ويقال معناه: رجوع الخلائق كلهم بعد الموت إلى الله تعالى فيحاسبون ويجازون فريق في الجنة وفريق في السعير قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا صلى في المسجد رفع صوته بالقراءة فلغطوا ورموه بالحجارة فخفض صوته في الصلاتين الظهر والعصر إذا حضروا وأما صلاة المغرب اشتغلوا بالعشاء وصلاة العشاء ناموا وصلاة الفجر لم يقوموا فرفع في هذا فصار سنة إلى اليوم فنزل «أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى» ويقال إن أبا جهل بن هشام قال: لئن رأيت محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلي لأطأنّ عنقه فنزل (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى)[2] يعني ألم تر أن هذا الكافر ينهى عبد الله عن الصلاة وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ يعني: محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن كان على الإسلام ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ يعني التوحيد ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ يعني: (إن كذب) بالتوحيد (وَتَوَلَّى) عن الإسلام. ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ أفعاله فيجازيه وهذا جواب لجميع ما تقدم من قوله: (أرأيت) ويقال في الآية إضمار وهو قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى): يعني بهذا الذي يصنع ويؤذي محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أليس هو على ضلالة أليس هو قد نهى عن الصلاة والخيرات أرأيت إن كان على الهدى يعني أرأيت أيها الناهي إن كان المصلي على الهدى أو أمر بالتقوى يعني بالتوحيد واجتناب المعاصي فينهاه عن ذلك

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٦٩ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.
(٢) انظر أسباب النزول ٢٤٧.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

ثم قال ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ يعني: حقاً لئن لم يمتنع أبو جهل عن إيذاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يتب ولم يسلم قبل الموت ﴿لَنَسْفَعاً[1] بِالنَّاصِيَةِ﴾ يعني لنأخذ به بالناصية أخذاً شديداً يعني يؤخذ بنواصيه يوم القيامة ويطوى مع قدميه ويطرح في النار فنزلت الآية في شأن أبي جهل وهي عظة لجميع الناس وتهديد لمن يمنع عن الخير وعن الطاعة ثم قال عز وجل ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ جعل الكاذبة صفة الناصية وإنما أراد صاحب الناصية يعني ناصية كاذبة على الله تعالى خاطئة يعني مشركة وقال مجاهد: الذي يجحد ويأكل رزق الله تعالى ويعبد غيره، ثم قال عز وجل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ يعني قل يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليدع أهل مجلسه وأصحابه الكفرة حتى ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ يعني الملائكة هم ملائكة العذاب غلاظ شداد والزبانية أخذ من الزَّبْن وهو الدفع وإنما سمّوا الزبانية لأنهم يدفعون الكفار إلى النار ويقال إنما سموا زبانية لأنهم يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم، وروي في الخبر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرأ بهذه السورة وبلغ إلى قوله لنسفعاً بالناصية قال أبو جهل أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك قال الله تعالى (فليدع ناديه سندع الزبانية) فلما سمع ذكر الزبانية رجع فزعاً فقيل له خشيت منه قال لا ولكن رأيت عنده فارساً فهددني بالزبانية فلا أدري ما الزبانية ومال إلى الفارس فخشيت أن يأكلني[2]. وروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ هدد أبا جهل فقال لِمَ تهددني؟ فو الله علمتَ أني أكثر أهل الوادي نادياً لئن دعوتُ يعني أهل مجلسي منعوني عن ربك فنزل (فليدع ناديه سندع[3] الزبانية) قال ابن عباس رضي الله عنه لو دعا ناديه أخذته[4] الزبانية ثم قال ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يعني: حقاً لا تطعه في ترك الصلاة يا محمد ﴿وَاسْجُدْ﴾ يعني: صل لله تبارك وتعالى ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ يعني صلِ واقترب إلى ربك بالأعمال الصالحة، وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ألا يرى إلى قوله (واسجد[5]واقترب) يعين: اقترب إلى ربك بالسجود واعلم أن السجود أربعة أحرف: السين سرعة المطيعين والجيم جهد العابدين والدال دوام المجتهدين والهاء هداية العارفين ويقال السين سرور العارفين الجيم جمال العابدين والدال دولة المطيعين والهاء هبة الصديقين.

---

(١) قال ابن منظور: سفع بناصيته ورجله يسفع سفعاً: جذب وأخذ وقبض وفي التنزيل: لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة «ناصيته مقدم رأسه، أي لنصهرنها ولنأخذن بها، أي لنقمئنه ولنذلنه، ويقال: لنأخذن بالناصية إلى النار كما قال تعالى: ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ ويقال: معنى لنسفعن لنسود وجهه فكفت الناصية لأنها في مقدم الوجه. قال الأزهري: فأما من قال ﴿لنسفعن بالناصية﴾ أي لنأخذن بها إلى النار فحجته قول الشاعر:

قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ... من بين ملجم مهره أو سافع

انظر لسان العرب ٢٠٢٨/٣.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٢٦/٢٠.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٩.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٦٩/٦ وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي.

(٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٧٠/٦ وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر.

سُورَةُ القَدْرِ(١)

وهي خمس آيات مَكّية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿**إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ يعني: أنزلنا القرآن الكريم جملة واحدة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ في ليلة القدر يعني: في ليلة القضاء وإنما سميت ليلة القدر: لأن الله تعالى يقدر في تلك الليلة ما يكون من السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغيره ويسلمه إلى مدبرات الأمور وهم أربعة من الملائكة إسرافيل وجبريل وميكائيل وملك الموت ـ عليهم السلام ـ وفي آية أخرى (في ليلة مباركة) وإنما سميت ليلة مباركة يعني ليلة القدر لأنه ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة ثم قال عز وجل ﴿**وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ**﴾ تعظيماً لها فقال ﴿**لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ يعني العمل في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان جالساً بين أصحابه يحدث بأن رجلاً كان من بني إسرائيل لبس السلاح ألف شهر وصام ولم يضع السلاح حتى مات فعظم ذلك على أصحابه فنزلت (ليلة القدر خير من ألف شهر)[٢] يعني العمل فيها وثوابه أفضل من لبس السلاح وصيام ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وروي في خبر آخر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال أرى أعمال الناس فكأنه تقاصر أعمار[٣] أمته إن لم يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله تعالى في الجنة ليلة القدر خيراً من ألف شهر فقيل يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أي ليلة هي قال: التمسوها في العشر الآواخر من رمضان[٤]. ثم قال عز وجل ﴿**تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ فِيهَا**﴾ يعني تتنزل الملائكة من كل سماء ومن سدرة المنتهى وهو مسكن جبريل على وسطها ـ عليه السلام ـ فينزلون إلى الأرض

---

(١) تفضيلها بالخير على ألف شهر. إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة واستجابة الدعاء ووفرة ثواب الصدقات والبركة للأمة فيها، لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها ولا بما يحدث فيها من حر أو برد، أو مطر، ولا بطولها أو قصرها، فإن تلك الأحوال غير معتد بها عند الله تعالى ولكن الله يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفراداً وجماعات وما يعين على الحق والخير ونشر الدين. وقد قال في فضل الناس ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها لأنها ظروف للأعمال وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس ففضلها بما أعده الله لها من التفضيل كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات وعدد الألف يظهر أنه مستعمل في وفرة التكثير كقوله «واحد كألف» وعليه جاء قوله تعالى ﴿**يود أحدهم لو يعمر ألف سنة**﴾ التحرير ٣٠/٤٥٩.

(٢) أنظر أسباب النزول للواحدي ٣٣٩.

(٣) سقط في أ.

(٤) أخرجه مسلم ٢/٨٢٣ كتاب الصيام (٢٠٩ ـ ١١٦٥).

ويدعون الخلق ويؤمنون بدعائهم إلى وقت طلوع الفجر وذلك قوله (تنزل الملائكة والروح فيها) يعني جبريل معهم وذكر في الخبر أن جبريل ـ عليه السلام ـ وقف على سطح الكعبة ونشر جناحيه أحدهما يبلغ المشرق والآخر يبلغ المغرب وقال بعضهم «الروح» خلق يشبه الملائكة وجهه يشبه وجه بني آدم ـ عليه السلام ـ وقال بعضهم هو ما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) وقال مجاهد: ما نزل ملك إلا ومعه روح ولهم أيد وأرجل وهم موكلون على الملائكة كما أن الملائكة موكلون على بني آدم ثم قال عز وجل ﴿بإذن ربهم﴾ يعني: ينزلون بأمر ربهم ﴿من كل أمر سلام﴾ يعني: تلك الليلة من كل أمر سلام يعني من كل آفة سلامة يعني: في هذه الليلة لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقال: سلام يعني لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها شراً. وقال القتبي: إن (من) توضع موضع (الباء) يعني بكل أمر سلام أي خير ﴿هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ وقال مجاهد: يعني كل أمر سلام وسلام من أن يحدث فيها أذىً أو يستطيع الشيطان أن يعمل فيها(١) ويقال معناه: تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر وقد تم الكلام يعني: ينزلون فيها من كل أمر من الرخصة وكل أمر قدره الله تعالى في تلك الليلة إلى قابل

ثم استأنف فقال: (سلام هي) يعني سلام وبركة وخير كلها (حتى مطلع الفجر) وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ من كل أمر سلام يعني الملائكة يسلمون على كل امرىء، وقرأ الكسائي حتى مطلع الفجر بكسر اللام والباقون بنصب(٢) اللام فمن قرأ بالكسر جعله اسماً لوقت الطلوع، ومن قرأ بالنصب جعله مصدراً يعني يطلع طلوعاً والله أعلم بالصواب.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٧١ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان وذكره الترمذي ٥/٤١٤ (٣٣٤٩).

(٢) حجة الكسائي أن (المطلَع) يكون الموضع الذي تطلع فيه ويكون بمعنى المصدر. قال الكسائي من كسر اللام فإنه من طَلَع يطلـع، ومات (يطلِع). قال: وقد مات من لغات العرب كثير. واعلم أن كل ما كان من (فعل يفعِل) بكسر العين فالموضع منه (المفْعِل) والمصدر منه (مفعل) تقول: جلس يجلس مجلَساً، والموضع: المجلِس، وكذلك طلـع يطلِع مطلَعاً، والمطلع: اسم الموضع قال الفراء: من كسر اللام فإنه وضع الاسم موضع المصدر كما تقول: (أكرمتك كرامة وأعطيتك إعطاء) فيجتزأ بالاسم من الموضع. حجة القراءات ٧٦٨.

سُورَةُ البَيِّنَةِ(١)

مختلف فيها وهي ثمان آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ
يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ
دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: عبدة الأوثان ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ يعني: غير منتهين عن كفرهم وعن قولهم الخبيث ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يعني: حتى أتاهم البيان فإذا جاءهم البيان فريق منهم انتهوا وأسلموا، وفريق ثبتوا على كفرهم، ويقال لم يزل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين حتى وجب في الحكمة علينا في هذا الحال إرسال الرسول إليهم، ويقال معناه: لم يكونوا منتهين عن الكفر حتى أتاهم الرسول والكتاب فلما آتاهم الكتاب والرسول تابوا ورجعوا عن كفرهم وهم مؤمنو أهل الكتاب والذين أسلموا من مشركي العرب. وقال قتادة (البينة) أراد به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وقال القتبي (منفكين) أي زائلين يقال لا أنفك من كذا أي لا أزول قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ يعني: قرآناً مطهراً من الزيادة والنقصان، ويقال مطهراً من الكذب والتناقض ويقال (صحفاً مطهرة) أي أمور مختلفة ويقال

---

(١) وردت تسمية هذه السورة في كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ «لم يكن الذين كفروا» روى البخاري ومسلم عن أنس ابن مالك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأبي بن كعب «إن الله أمرني أن أقرأ عليك» «لم يكن الذين كفروا» قال: وسماني لك؟ قال: نعم. فبكى فقوله: أن أقرأ عليك «لم يكن الذين كفروا» واضح أنه أراد السورة كلها فسماها بأول جملة فيها، وسميت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة «لم يكن» بالاقتصار على أول كلمة منها، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب. وسميت في أكثر المصاحف «سورة القيمة» وكذلك في بعض التفاسير. وسميت في بعض المصاحف «سورة البينة». وذكر في الإتقان أنها سميت في مصحف أبيّ «سورة أهل الكتاب»، أي لقوله تعالى ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾، وسميت سورة البرية «وسميت» سورة الانفكاك. فهذه ستة أسماء. واختلف في أنها مكية أو مدنية قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين. وعن ابن الزبير وعطاء بن يسار هي مدنية. وقد اشتملت هذه السورة على توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ. والتعجب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها وتكذيبهم في ادعائهم أن الله يوجب عليه التمسك بالأديان التي هم عليها. ووعيدهم بعذاب الآخرة. والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية. والثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضي الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم. وتخلل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلهية التي جاء بها الرسل ـ من قبل وما فيه من فضل وزيادة. التحرير ٣٠/٤٦٧ ـ ٤٦٨.

سمي القرآن صحفاً من كثرة السور ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يعني: صادقة مستقيمة لا عوج فيها ويقال: كتب قيمة: يعني تدل على الصواب والصلاح ولا تدل على الشرك والمعاصي. ثم قال عز وجل ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يعني: وما اختلفوا في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم اليهود والنصارى ﴿إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ يعني: بعدما ظهر لهم الحق فنزل القرآن على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني: وما أمرهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني: ليوحدوا الله ويقال وما أمروا في جميع الكتب إلا ليعبدوا الله يعني يوحدوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ مسلمين روي عن بن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: حنفاء يعني: متبعين وقال الضحاك حنفاء: يعني حجاجاً يحجون بيت الله تعالى ثم قال: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني يقرون بالصلاة ويؤدونها في مواقيتها. ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني يقرون بها ويؤدونها. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ يعني: المستقيم لا عوج فيه: يعني الإقرار بالتوحيد وبالصلاة والزكاة وإنما بلفظ التأنيث (القيمة) لأنه انصرف إلى المعنى والمراد به الملة. يعني: الملة المستقيمة لا عوج فيها يعني هذا الذي يأمرهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبهذا أمروا في جميع الكتب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

ثم قال عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ يعني: الذين جحدوا من اليهود والنصارى بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالقرآن: ومن مشركي مكة وثبتوا على كفرهم ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني: دائمين فيها ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ يعني: شر الخليقة: قرأ نافع وبن عامر (البريئة) بالهمزة والباقون بغير همزة[1] فمن قرأ بالهمزة: فلأن الهمزة فيها أصل ويقال: برأ الله الخلق ويبرؤهم وهو الخالق البارىء ومن قرأ بغير همزة فلأنه اختار حذف الهمزة وتخفيفها. ثم مدح المؤمنين ووصف أعمالهم وبين مكانهم في الآخرة حتى يرغبوا إلى جواره فقال. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني صدقوا بالله وأخلصوا بقلوبهم وأفعالهم وهم أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن تابعهم إلى يوم القيامة[2] ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ يعني هم خير الخليقة وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:[3] (والله للمؤمن أكرم على الله تعالى من بعض الملائكة الذين عبدوه) وروي عن الحسن أنه سئل عن قوله (أولئك هم خير البرية) أهم خير من الملائكة ؟ قال ويلك أين تعدل الملائكة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم بين ثوابهم فقال عز وجل ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يعني ثوابهم في الآخرة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يعني أنهار من الخمر والعسل واللبن وماء غير آسن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ يعني دائمين مقيمين فيها ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بثوابه الجنة ﴿ذَلِكَ﴾ يعني هذا الثواب الذي ذكر ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ يعني وَحّدَ ربه في الدنيا واجتنب معاصيه والله أعلم.

---

(١) انظر حجة القراءات ٧٦٩.
(٢) سقط في ظ.
(٣) سقط في أ.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ (١)

مختلف فيها وهي ثمان آيات مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وذلك أن الناس كانوا يرون في بدء الإسلام أن الله تعالى لا يؤاخذ بالصغائر من الذنوب ولا يعاقب إلا في الكبائر حتى نزلت هذه السورة وقال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وذكر أهوال ذلك اليوم وبين أن القليل في ذلك اليوم يكون كثيراً فقال (إذا زلزلت الأرض زلزالها) يعني تزلزلت الأرض عند قيام الساعة وتحركت واضطربت حتى يتكسر كل شيء عليها، ويقال سئل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قيام الساعة فنزل وبين متى يكون قيام الساعة فقال (إذا زلزلت الأرض زلزالها)(٢) يعني تزلزلت الأرض وتحركت تحركاً وهو كقوله (ويخرجكم إخراجاً) والمصدر للتأكيد قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني أظهرت ما فيها من الكنوز والأموات ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ يعني يقول الإنسان الكافر مالها يعني للأرض على وجه التعجب ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ يعني تخبر الأرض بكل ما عَمِلَ عليها بنو آدم من خير أو شر، تقول للمؤمنين صلّى عليَّ وحج واعتمر وجاهد فيفرح المؤمن، وتقول للكافر أشرك وسرق وزنا وشرب الخمر فيحزن الكافر فيقول مالها؟ يعني ما للأرض تحدث بما عمل عليها؟ على وجه التقديم والتأخير ومعناه يومئذ تحدث أخبارها (وقال الأنسان مالها) يقول الله تعالى لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يعني أن الأرض تحدث بأن ربك أذن لها في الكلام وألهمها ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾. يعني يرجع الناس متفرقين فريق في الجنة وفريق في السعير فريق مع الحور العين يتمتعون وفريق مع الشياطين يعذبون، فريق على السندس والديباج على الأرائك متكئون، وفريق في النار على وجوههم يُجَرُّونَ، اللهم في الدنيا هكذا كانوا فريقاً حول المساجد والطاعات وفريق في المعاصي والشهوات فذلك قوله (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) يعني فِرقاً فِرَقاً ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ يعني ثواب أعمالهم وهكذا كما روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال ما من أحد يوم القيامة إلا

---

(١) اختلف فيها فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك هي مكية. وقال قتادة ومقاتل: مدنية ونسب إلى ابن عباس أيضاً. والأصح أنها مكية واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم. وذكر القرطبي عن جابر أنها مكية ولعله يعني: جابر بن عبد الله الصحابي لأن المعروف عن جابر بن زيد أنها مدنية فإنها معدودة في نزول السور المدنية فيما روي عن جابر بن زيد. وفيها إثبات البعث وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع. وحضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر وهو تحريض على فعل الخير واجتناب الشر. التحرير ٣٠/٤٨٩ ـ ٤٩٠. انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٠٠.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٠/١٥٠.

ويلوم نفسه فإن كان محسناً يقول لِمَ لَمْ ازدَدْ إحساناً وإن كان غير ذلك يقول ألا رغبت عن المعاصي؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب وقال أبيّ بن كعب الزلزلة لا تخرج إلا من ثلاثة: إما نظر الله تعالى بالهيبة إلى الأرض، وإما لكثرة ذنوب بني آدم، وأما لتحرك الحوت التي عليها الأرضون السبع تأديباً للخلق وتنبيهاً

فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

ثم قال عز وجل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ يعني مقدار ذرة وهو الذي يرى في شعاع الشمس يعني يرى ثوابه في الآخرة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يعني يرى جزاؤه في الآخرة، وروى قتادة عن محمد بن كعب القرظي قال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره الآية قال ما من كافر عمل مثقال ذرة من خير إلا عُجِّلَ له ثواب ذلك في الدنيا في نفسه أو في أهله أو في ماله حتى خرج من الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من خير[1]. وما من مؤمن عمل مثقال ذرة من شر إلا عجل له عقوبتها في الدنيا في نفسه أو في ماله أو في أهله حتى يخرج من دار الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من شر وروى معمر عن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال علمني مما علمك الله فدفعه إلى رجل يعلمه القرآن فعلمه (إذا زلزلت الأرض) حتى بلغ (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فقال الرجل حسبي فأخبر بذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال دعه فقه الرجل وروى[2] الأجلح عن أبي إسحاق عن امرأته عن عائشة أنها قالت دخلت على عائشة رضي الله عنها أنا وامرأة أبي سفيان فجاء سائل يسألها سلة من عنب فأخذت حبة من عنب فأعطته فنظر بعضنا إلى بعض فقالت إن قدر هذا أثقل من ذرات كثيرة ثم قرأت فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً[3] يره والله أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨١ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨١ - ٣٨٢ وعزاه لعبد الرزاق وابن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٢ وعزاه لمالك وابن سعد وعبد بن حميد.

سُورَةُ العَادِيَاتِ (١)

مختلف فيها وهي إحدى عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ قال مقاتل وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث سرية إلى بني كنانة واستعمل عليهم «المنذر به عمرو» الساعدي فأبطأ عليه خبرهم فاغتم لذلك فنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه السورة يخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويعلمه عن حالهم فقال (والعاديات ضبحاً)(٢) يعني أفراس أصحابك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنهم يسبحون في عدوهم ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ يعني النار التي تسطع من حوافر الفرس إذا عدت في مكان ذي صخور وأحجار ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ يعني أصحابك يغيرون على العدوّ عند الصبح ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ يعني يثيرون بحوافرهن التراب إذا عدت الفرس في مكان سهل يهيج التراب والغبار (نقعاً) يعني أطراحاً على الأرض ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ يعني أصحابك أصبحوا في وسط العدو مع الظفر والغنيمة فلا تغتم وقال الكلبي (والعاديات ضبحاً) يعني أنفاس الخيل حين تتنفس إذا اجتهدت وقال ابن مسعود رضي الله عنه (والعاديات ضبحاً) يعني الإبل بعرفات إذا دخل الحجاج مكة، وروى عطاء عن ابن عباس في قوله (والعاديات ضبحاً) قال الخيل وما أصبح دابة قط إلا كلب أو خنزير وهو يلهث كما يلهث الكلب وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي الإبل تذهب إلى(٣) وقعة بدر.

وقال أبو صالح تقاولت مع عكرمة في قوله (والعاديات ضبحاً) قال عكرمة قال ابن عباس هي الخيل في القتال فقلت مولاي [يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه] أعلم من مولاك إنه كان يقول هي الإبل التي تكون بمكة حين تفيض من(٤) عرفات إلى جمع وقال أهل اللغة(٥) الضبح (صوت حلوقها)(٦) إذا عدت والضبح والضبع واحد يقال ضحت الناقة وضبعت إذا عدت في المسير

وهذا قسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وجوابه قوله تعالى: (إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) وقال بعضهم

---

(١) قد اختلف في هذه السورة فقال ابن مسعود وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة هي مكية وقال أنس بن مالك وابن عباس وقتادة هي مدنية. انظر التحرير والتنوير ٤٩٧/٣٠. أسباب النزول للواحدي ٣٤١ القرطبي ١٠٥/٢٠.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤١.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٨٣/٦ وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٨٣/٦ وعزاه لعبد بن حميد

(٥) انظر لسان العرب ٢٥٤٦/٤.

(٦) في أ [حلقومها].

(فالموريات قدحاً) معناه فالمنجيات عملاً وهذا مثل ضربه الله تعالى فكما أن الأقداح تنجي الرجل المسلم من برد الشتاء والهلاك وإذا لم يكن معه الزند فيهلك في البرد فكذلك العمل الصالح ينجي العبد يوم القيامة ومن العذاب الهلاك وإذا لم يكن معه عمل صالح يهلك في العذاب ويقال (فالموريات قدحاً) يعني ناراً لأبي حباحب كان رجل في بعض أحياء العرب من أبخل الناس ولم يوقد ناراً حتى ينام كل ذي عين ثم يوقدها فإذا استيقظ أحد أطفأها لكي لا ينتفع بناره أحد بخلاً منه فكذلك الخيل حين اشتدت على الأرض الحصاة فقدحت النار بحوافرها لا ينتفع بها كما لا ينتفع بنار أبي حباحب ثم قال (فالمغيرات صُبْحاً) يعني الخُصَماء، يغيرون على حسنات العبد يوم القيامة بمنزلة ريح عاصف يجيء ويرفع التراب الناقع من حوافر الدواب فذلك قوله تعالى (فأثرن به نقعاً) ويقال هي الإبل ترجع من عرفات إلى مزدلفة ثم يرجعن إلى منى ويذبح هناك ويقسم الخمر ويوجد اللحم كأنهم أغاروها (فأثرن به نقعاً) يعني هيّجن بالوادي غباراً حين يرجعون من مزدلفة إلى منى وقوله تعالى (به) كناية عن الوادي فكأنه يقول (فأثرن به نقعاً) أي غباراً ثم قال (فوسطن به جمعاً) يعني فوقعن بالوادي ويقال بالمكان جمعاً أي اجتمع الحاج بمنى.

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

ثم قال ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ فيه جواب القسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وفيه بين ذكر فضل الغازي وفضل فرس الغازي على تفسير من فسر الآية على الفرس حين أقسم الله تعالى بالتراب الذي يخرج والنار التي تخرج من تحت حوافر فرس الغازي لأنه ليس عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله تعالى.

ومن فسر الآية على الإبل ففي الآية بيان فضل الحاج وفضل دواب الحاج حيث أقسم الله تعالى بالتراب الذي يخرج من تحت أخفاف إبل الحاج والنار التي تخرج منها حيث صارت في أرض الحجارة أن الإنسان لربه لكنود يعني لبخيل قال مقاتل نزلت في قرط بن عبد الله وقال معنى «الكنود» بلسان كندة وبني حضرموت هو العاصي سيده، وبلسان بني كنانة البخيل، ويقال هو الوليد بن المغيرة، ويقال هو أبو حباحب ويقال كان ثلاثة نفر في العرب في عصر واحد أحدهم آية في السخاء وهو حاتم الطائي، والثاني آية في البخل وهو أبو حباحب، والثالث آية في الطمع هو أشعب كان طماعاً وكان من طمعه إذا رأى عروساً تزف إلى موضع جعل يكنس باب داره لكي تدخل داره، وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه فيظن أنه ينزع القميص ليدفعه إليه ويقال «الكنود» الذي يمنع وفده ويجمع أهله ويضرب عبده ويأكل وحده ولا يعبأ للنائرة في قومه أي المصيبة، وقال الحسن الكنود الذي يذكر المصائب وينسى[1] النعم ويقال الكنود الذي لا خير فيه ويقال الأرض التي غلب عليها السبخة ولا يخرج منها البذر أرض كنود قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يعني الله تعالى حفيظ على صنعه عالم به. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني الإنسان على جمع المال حريص، وقال القتبي: معناه إنه لحب المال لبخيل، والشدة البخل هاهنا، وقال الزجاج

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٨٥ وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب.

معناه أنه من أجل حب المال لبخيل وهذا موافق لما قال القتبي، ثم قال عز وجل ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ يعني أفلا يعلم هذا البخيل إذا بعث الناس من قبورهم وعرضوا على الله تعالى بعثر يعني أخرج ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ يعني بين ما في القلوب من الخير والشر ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ يعني عالم بهم وبأعمالهم وبنيَّاتهم، ومن أطاعه في الدنيا ومن عصاه فيها وفي الآية دليل أن الثواب يستوجب على قدر النية ويجري به لأنه قال عز وجل (وحصل ما في الصدور) يعني يحصل له من الثواب بقدر ما كان في قلبه من النية إن نوى بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة يحصل له الثواب على قدره والله أعلم.

سورة القارعة (١)

مختلف فيها وهي إحدى عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ
﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ يعني القيامة والساعة ما الساعة وهذا من أسماء يوم القيامة مثل الحاقة والطامة والصاخة، وإنما سميت القارعة لأنها تنزع القلوب بالأهوال ويقال سماها قارعة لثلاثة:

لأنها تقرع في أذن العبد بما عمل وسمعه، والثاني تقرع أركان العبد بعضه في بعض، والثالث تقرع القلوب كما تقرع القصار الثوب ثم قال عز وجل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ تعظيماً لشدتها ثم وصفها فقال ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يعني كالجراد كالفراش يجول بعضهم في بعض كما قال في آية أخرى (كأنهم جراد منتشر) ويقال شبههم بالفراش لأنهم يلقون أنفسهم في النار كما يلقي الفراش نفسه في النار ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يعني كالصوف المندوف وهي تمر مَرَّ السحاب ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني رجحت حسناته على سيئاته ويقال ثقلت موازينه بالعمل الصالح بالصلاة والزكاة وغيرها من العبادات ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ يعني في عيش مرضي يعني في الجنة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون يعني آمن من كل خوف وفقر ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ يعني رجحت سيئاته على حسناته يعني الكافر ويقال من خفت موازينه يعني لا يكون له عمل صالح ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يعني مصيره إلى النار، قال قتادة هي أمهم ومأواهم وإنما سميت الهاوية لأن الكافر إذا طرح فيها يهوي على هامته، وإنما سميت أمه لأن مصيره إليها ومسكنه(٢) فيها، ثم وصفها فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ تعظيماً لشدتها، ثم أخبر عنها فقال ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ يعني حارة قد انتهى حرها، وأصله ما هي فأدخلت الهاء للوقف كقوله: اقرؤوا كتابيه وأصله كتابي قرأ حمزة والكسائي وما أدراك ما هي بغير هاء في الوصل وبالهاء عند الوقف وقرأ الباقون بإثباتها في الوصل والوقف والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) ذكر في هذه السورة إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال وإثبات الجزاء على الأعمال وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في مقر الجحيم. انظر التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٩.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨٥ وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٧٠

سورة التكاثر (١)

مختلف فيها وهي ثمان آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ
﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿**أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ**﴾ قال الكلبي: نزلت في حَيَّيْن من العرب أحدهما بنو عبد مناف والآخر بنو سهم تفاخرا في الكثرة فكثرتهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم إنما البغي والقتال قد أهلكنا فقد أحيانا وأحياكم وأمواتنا وأمواتكم ففعلوا فكثرتهم بنو سهم فنزل (أَلْهَاكُمُ التكاثر) يعني شغلكم وأذهلكم التفاخر ﴿**حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ**﴾ يعني أتيتم وذكرتم وعددتم أهل المقابر يعني حتى يدرككم الموت على تلك الحال وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه (قرأ الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) ثم قال يقول بني آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فَأَفْنَيْتَ أو لبستَ فأبليت أو تصدقت فأمضيت[٢] ويقال معناه أغفلكم التفاخر والتكاثر عن الهاوية والنار الحامية حتى زرتم المقابر يعني عددتم مَنْ في المقابر. ثم قال ﴿**كَلَّا**﴾ وهو رد على صنيعكم ويقال (كلا) معناه أي لاَ تَدعون الفخر بالأحساب حتى زرتم المقابر، وقال الزجاج كلا ردع لهم وتنبيه يعني ليس الأمر الذي أن يكون عليه التكاثر والذي ينبغي أن يكونوا عليه طاعة الله تعالى والإيمان بنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿**سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ إذا نزل بكم الموت ويقال (كلا سوف تعلمون) إن سئلتم في القبر ثم قال ﴿**ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ بعد الموت حين نزل بكم العذاب لأن الأحساب لا تنفعكم قوله تعالى: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ**﴾ قال بعضهم معناه كلا لا تؤمنون بالوعيد وقد تم الكلام ثم استأنف فقال: ﴿**عِلْمَ اليَقِينِ**﴾ يعني لو تعلمون ما القيامة باليقين لألهاكم عن ذلك ويقال هذا موصول به كلا لو تعلمون يقول حقاً لو علمتم علم اليقين بأن المال والحسب والفخر لا ينفعكم يوم القيامة ما افتخرتم بالمال والعدد والحسب ثم قال عز وجل ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾ قرأ ابن عامر والكسائي (لَتُرون) بضم التاء والباقون بالنصب[٣] فمن قرأ بالضم فهو على فعل ما لم يسم فاعله ونصب الجحيم

---

(١) اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام بإيثار المال والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم وعلى الوعيد على ذلك. وحثهم على التدبير فيما ينجيهم من الجحيم. وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم. التحرير ٥١٨/٣٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٢٧٣/٤ كتاب الزهد (٣ ـ ٢٩٥٨) والترمذي ٤١٦/٥ كتاب التفسير (٣٣٥٤).

(٣) حجتهم إجماع الجميع على فتح التاء في قوله: ﴿ثم لترونها﴾، فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى. وأما من قرأ في إحداهما بالضم وفي الأخرى بالفتح فكأنه ذهب إلى: أنت تُرَى فترى

اعلم أن (رأى) فعل يتعدى إلى مفعول واحد تقول: رأيت الهلال، فإذا نقلت الفعل بالهمز زاد مفعولاً آخر، تقول: (أريت زيداً =

على أنه مفعول ثان، ومن قرأ بالنصب فعلى فعل المخاطبة ونصب الجحيم لأنه مفعول به يعني لترون الجحيم يوم القيامة عياناً ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ يعني يدخلونها عياناً لا شك فيه ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني ولتسألن يوم القيامة عن النعيم قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أكل خبزاً يابساً وشرب الماء من الفرات فقد أصاب النعيم[١] وقال ابن مسعود رضي الله عنه هو الأمن والصحة[٢] وروى حماد بن سلمة عن أبيه عمار بن أبي عمار عن جابر أنه قال جاءنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأطعمناهم رطباً وأسقيناهم الماء فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا من النعيم التي تسألون[٣] عنه وروى صالح[٤] بن محمد عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن بن عباس قال إن أبا بكر سأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أكلة أكلها مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيت أبي الهثيم بن التيهان من لحم وخبز وشعير وبسر مذنب وماء عذب فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه فقال: النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما ذلك للكفار ثم قال ثلاثة لا يسأل الله تعالى عنها العبد يوم القيامة ما يواري عورته، وما يقيم به صلبه، وما يكفه عن الحَرِّ والقُدّ وهو مسؤول بعد ذلك عن كل نعمة. وروى الحسن عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ما أنعم الله تعالى على العبد من نعمة صغيرة أو كبيرة فيقول عليها الحمد لله إلا أعطاه الله تعالى خيراً[٥] مما أخذ». والله أعلم، وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال من قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذي أنعم به في الدار الدنيا وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن[٦].

= الهلال)، فإن بنيت هذا الفعل المنقول بالهمز قلت: (ارى زيد الهلال) فيقوم المفعول الأول مقام الفاعل ويبقى الفعل متعدياً إلى مفعول واحد. فكذلك «لترون الجحيم» قام الضمير مقام الفاعل لما بني الفعل للمفعول به (أنت) وانتصب «الجحيم» على أنه مفعول. قال الفراء: إنما ضمت الواو لأن الأصل: (لَتَرْأَيُون) فنقلوا فتحة الهمزة إلى الراء، وحذفوا الهمزة تخفيفاً، ثم استثقلوا الضمة على الياء فحذفوها، فالتقى ساكنان الياء والواو فأسقطوا الياء، ثم التقى ساكنان الواو والنون، فحركوا الواو لالتقاء الساكنين، وحولت إليها تلك الحركة التي كانت في الياء فحركت بها. وقال غيره: إن هذه الواو اسم الفاعلين وإعرابها الرفع، فإذا وجب تحريكها كانت حركة الأصل أولى بها. وقوله: «لترون» وزنها: لَتَعَوُنَّ. حجة القراءات ٧٧١ ـ ٧٧٢.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٨٨/٦ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٨٨/٦ وعزاه لهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٨٨/٦ وعزاه لأحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) صالح بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان مقبول، التقريب ٣٦٢/١.

(٥) ذكره الهيثمي بنحوه في مجمع الزوائد ٩٨/١٠ من حديث أبي أمامة وعزاه للطبراني وقال فيه سويد بن عبد العزيز وهو متروك.

(٦) انظر تفسير أبي السعود ١٩٦/٩.

سُورَةُ العَصْرِ (١)

وهي ثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني الدهر وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يعني صلاة العصر وذلك أن أبا بكر لما أسلم قالوا خَسِرْتَ يا أبا بكر حين تركت دين أبيك فقال أبو بكر ليس الخسارة في قبول الحق إنما الخسارة في عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنكم فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ بهذه الآية (والعصر)

أقسم الله تعالى بصلاة العصر ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني أن الكافر لفي خسارة وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال«إن الإنسان لفي خسر» يعني الناس كلهم[٢] ثم استثنى فقال عز وجل ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم غير منقوصين قال القتبي الخسر النقصان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير منقوص كما قال الله تعالى (ثم رددناه أسفلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ، آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)يعني يكتب لهم ثواب عملهم وإن ضعفوا عن العمل، قال الزجاج: إن الإنسان أراد به الناس، والخسران واحد، ومعناه إن الإنسان الكافر والعاملين بغير طاعة الله تعالى لفي خسر وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ والعصر ونوايب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفي لعنة إلى آخر الدهر[٣]، ويقال أقسم الله تعالى بخالق الدهر إن الإنسان لفي خسر يعني أبا جهل والوليد بن المغيرة ومن كان في مثل حالهما، ثم استثنى المؤمنين فقال إلا

---

(١) اشتملت على إثبات الخسران الشديد لأهل الشرك ومن كان مثلهم من أهل الكفر بالإسلام بعد أن بلغت دعوته، وكذلك من تقلد أعمال الباطل التي حذر الإسلام المسلمين منها وعلى إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات والداعين منهم إلى الحق. وعلى فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق. وقد كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم. روى الطبراني بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن الحصين الأنصاري (من التابعين) أنه قال: «كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلّا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر (أي سلام التفرق وهو سنة أيضاً مثل سلام القدوم). وعن الشافعي: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم. وفي رواية عنه: لو لم ينزل إلى الناس إلّا هي لكفتهم. وقال غيره: إنها شملت جميع علوم القرآن وسيأتي بيانه التحرير ٥٢٧/٣٠/٥٢٨.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٩٢/٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٣٩٢/٦ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم عن علي بن أبي طالب.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني تحاثوا على القرآن. يعني يُرَغِّبون في الإيمان بالقرآن والأعمال الصالحة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يعني تحاثوا على الصبر على عبادة الله تعالى وعلى الشدائد فيرغبون الناس على ذلك ويقال بالصبر على المكاره فإن الجنة حفت بالمكاره والله تعالى أعلم بالصواب.

سُورَةُ الهُمَزَة

وهي تسع آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ يعني الشدة من العذاب، ويقال (وَيْلٌ) واد في جهنم (لكل همزة لمزة) قال أبو العالية يعني يهمزه في وجهه ويلمزه[١] من خلفه وقال مجاهد الهمزة: اللعان، واللمزة: الذي يأكل لحوم[٢] الناس، وقال ابن عباس الهمزة واللمزة الذي يفرق بين الناس بالنميمة[٣] والآية نزلت في الأخنس بن شريق، ويقال الذي يسخر من الناس فيشير بعينه وبحاجبيه وبشفتيه إليه، وقال مقاتل نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يغتاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويطعن في وجهه، ويقال نزلت في جميع المغتابين ثم قال عز وجل ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ يعني استعبد بماله الخدم والحيوان (وعدّده) أي حسبه وأحصاه قرأ بن عامر وحمزة والكسائي (الذي جمع مالاً وعدَّده) بالتشديد والباقون بالتخفيف[٤]، فمن قرأ بالتشديد فهو للمبالغة كثر الجمع ومن قرأ بالتخفيف فمعناه وجمع مالاً وعدده أي قوماً أعدهم نصاراً قوله عز وجل ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ يعني يظن أن ماله الذي جمع أخلده في الدنيا ويمنعه من الموت ومن قرأ بالتخفيف فلا يموت حتى يفنى ماله يقول الله تعالى ﴿كَلَّا﴾ لا يخلده ماله أبداً وولده ثم استأنف فقال عز وجل ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ يعني ليطرحن وليقذفن في الحطمة والحطمة إسم من أسماء النار ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعظيماً لشدتها، ثم وصفها فقال ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ يعني المستعرة تحطم العظام وتأكل اللحم فلهذا سميت الحطمة. ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ يعني تأكل اللحم حتى تبلغ أفئدتهم وقال القتبي تطلع على الأفئدة أي تشرف على الأفئدة وخص الأفئدة لأن الألم إذا وصل إلى الفؤاد مات صاحبه فأخبر أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال الله تعالى (لا يموت فيها ولا يحيى) ويقال

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٢ وعزاه لعبد بن حميد.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٢ وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) انظر حجة القراءات ٧٧٣.

(تطلع على الأفئدة) يعني تأكل الناس حتى تبلغ الأفئدة فإذا بلغت الأفئدة ابتدأ خلقه ولا تحرق القلب لأن القلب إذا احترق لا يجد الألم فيكون القلب على حاله ثم قال ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ يعني مطبقة على الكافرين ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ يعني طبقها مشدود إلى العمد، وقال الزجاج: معناه العذاب مطبق عليهم في عمد أي عمد من النار، وقال الضحاك (مؤصدة) أي حائط لا باب فيه، وروي عن الأعمش أنه كان يقرأ (عليهم مؤصدة ممدودة) يعني أطبقت الأبواب ثم شددت بالأوتاد من حديد من نار حتى يرجع إليهم غمها وحرها فلا يفتح لهم باب ولا يدخل عليهم روح ولا يخرج منها غم إلى الأبد قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر (في عُمد ممدودة) بضم العين والميم وقرأ الباقون بالنصب ومعناهما واحد وهو جمع العماد. والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ الفِيلِ(١)

وهي خمس آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تخبر بالقرآن، ويقال (ألم تر) يعني ألم يبلغك الخبر، ويقال اللفظ لفظ الإستفهام والمراد به الإخبار، يعني اعلم واعتبر بصنيع ربك ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ يعني كيف عذب ربك ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ وكان بدء أصحاب الفيل ما ذكرناه في سورة البروج أن زرعة قتل المسلمين بالنار فهرب رجل منهم إلى ملك الحبشة وأخبره بذلك فبعث ملك الحبشة جيشاً إلى أرض اليمن فأمّر عليهم أرياطاً ومعه في جنده أبرهة الأشرم فركب البحر بمن معه حتى أتوا ساحلاً مما يلي أرض اليمن فدخلوها ومع أرياط سبعون ألفاً من الحبشة وهزم جنود زرعة وألقى زرعة نفسه في الماء فهلك وأقام أرياط باليمن سنين في سلطانه ذلك ثم نازعه في أمر الحبشة أبرهة وكان من أصحابه ممن وجّهه معه النجاشي إلى اليمن وخالفه أبرهة وتفرق الجند في أرض اليمن وصار إلى كل واحد منهما طائفة منهم ثم خرجوا للقتال فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى أرياط أن لا تصنع شيئاً بأن تلقي الحبشة بعضها في بعض حتى تفنيها فأبرز لي وأبرز لك فأينا أصاب صاحبه انصرف إلى جنده فأرسل إليه أرياط أن قد أنصفت فاخرج فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً وخرج إليه أرياط وكان رجلاً طويلاً عظيماً في يده حربة وخلف أبرهة عبداً يقال له عنودة وروي عن بعضهم عيودة بالياء فلما دنا أحدهما من صاحبه رفع أرياط الحربة فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخة فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فخدشت حاجبيه

---

(١) اشتملت هذه السورة على التذكير بأن الكعبة حرم الله وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءاً أو أظهر غضبه عليهم فعذبهم لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم، وذلك ما سماه الله كيداً، وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت وأن لاحظ فيه للأصنام التي نصبوها حوله. وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي - صلى الله عليه وسلم - عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته. ومن وراء ذلك تثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن الله يدفع عنه كيد المشركين فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لاحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ودينه ويشعر بهذا قوله ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾. ومن وراء ذلك كله التذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي - صلى الله عليه وسلم - تألب قبائلهم عليه فقد أهلك الله من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً. ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين: أحدهما أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله، وثانيهما أن لا يتخذ منه المشركون غروراً بمكانة لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكى في قوله تعالى ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية وقوله ﴿وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. التحرير ٥٤٣/٣٠ - ٥٤٤.

وعينه وأنفه وشفتيه فلذلك سمي أبرهة الأشرم. وحمل عيودة على أرياط من خلف أبرهة فقتل أرياط وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وكل ما صنع أبرهة من غير علم النجاشي ملك الحبشة فلما بلغه ذلك غضب غضباً شديداً وقال عدا على أميري فقتله بغير أمري ثم حلف أن لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته، فلما بلغ ذلك أبرهة حلق رأسه وملأ جراباً من تراب أرض اليمن ثم بعث إلى النجاشي وكتب إليه أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك واختلفنا في أمرك وكل طاعة لك إلا أني قد كنت أقوى على أمر الجيش منه وأضبط له، وقد حلقت رأسي حين بلغني قسم الملك وبعثت إليه بجراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه فلما وصل كتاب أبرهة إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري وقال أبرهة لعتودة حين قتل أرياط حكمك يعني أحكم عليّ بما شئت فقال حكمي أن لا تدخل عروس من نساء أهل اليمن على زوجها حتّى أصيبها قبله، قال ذلك لك فأقام أبرهة باليمن وغلامه عنودة يصنع باليمن ما كان أعطاه في حكمه ثم عدل عليه رجل من حمير أو من خَثْعَم فقتله فلما بلغ أبرهة قتله وكان أبرهة رجلاً حليماً ودعا في دينه من النصرانية فقال قد آن لكم يا أهل اليمن أن يكون منكم رجل حازم يأنف مما يأنف منه الرجال إني والله لو علمت حين حكمته أنه يسأل من الذي سأل ما حكمته وأيم الله لا يؤخذ منكم فيه عقل ولا قود. ثم أن أبرهة بنى بصنعاء كنيسة لم يُر مثلها في زمانه في أرض الروم ولا في أرض الشام ثم كتب إلى النجاشي الأكبر ملك الحبشة أني قد بنيت لك كنيسة لم يكن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب فلما علمت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي خرج رجل من بني كنانة من الحمس حتى قدم اليمن فدخل الكنيسة فنظر فيها ثم خرى فيها فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال: من اجترأ عليّ بهذا؟ فقال له أصحابه: أيها الملك رجل من أهل ذلك البيت الذي يحجه العرب فقال أعليّ اجْتَرَأ بهذا؟ ثم قال بالنصرانية لأهْدِمَنَّ ذلك البيت ولأُخَرَّبنه حتى لا يحجه حاج أبداً، فدعا بالفيل وأذن قومه بالخروج، وروي في رواية أخرى أن فئة من قريش خرجوا إلى أرض النجاشي فأوقدوا ناراً فلما رجعوا تركوا النار في يوم ريح عاصف حتى وقعت النار في الكنيسة فأحرقتها فعزم أبرهة وهو خليفة النجاشي أن يخرج إلى مكة فيهدم الكعبة وينقل أحجارها إلى اليمن فيبني هناك بيتاً ليحج الناس إليه، وروي في رواية أخرى أن رجلاً من أهل مكة خرج إلى اليمن فأخذ جزعة من القصب ذات ليلة وأضرم النار في الكنيسة فأحرقها ثم هرب فبناها أبرهة مرة أخرى فحلف بعيسى ابن مريم بأن يهدم الكعبة لكي يتحول الحج إلي كنيسته فتجهز فخرج معه حتى إذا كان في بعض طريقه بعث رجلاً من بني سليم ليدعو الناس في حج بيته الذي بناه فتلقاه رجل من اليمن بني كنانة فقتله فازداد أبرهة بذلك غضباً وحث على المسير والانطلاق حتى إذا كان بأرض جعم فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له ذو يفن فدعا القوم وأحبابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وصده عن بيت الله فقاتله فهرب ذو يفن وأصحابه وأخذوا ذا يفن وأتى به أسيراً فلما أراد قتله قال أيها الملك لا تقتلني: فإنه عسى أن أكون معك خير لك من قتلي فتركه وحبسه عنده في وثاقه ثم مضى على وجهه ذلك حتى إذا كان بأرض خشعم عرض له «فقيل بن حبيب الخشعي» فقاتله فهزمه وأخذ أسيراً فلما أتي به وهم بقتله فقال أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب فتركه وخلى سبيله وخرج به معه يدله على أرض العرب حتى إذا مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث التقى في رجال من ثقيف فقالوا أيها الملك إنما نحن عبيدك ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا الذي تريد يعنون اللات ،والعزى وليست بالتي يحج إليه العرب، وإنما ذلك بيت قريش الذي بمكة فنحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبارغال فخرج يهديهم الطريق حتى أنزلهم بالمغمس وهي على ستة أميال من مكة فمات أبو رغال هناك فرجمت العرب قبره فهو القبر الذي ترجمه الناس

بالمغمس ثم أن قريشاً لما علموا أن لا طاقة لهم بالقتال مع هؤلاء القوم لم يبق بمكة أحد إلا خرج إلى الشعاب والجبال ولم يبق أحد إلا عبد المطلب على سقايته وشيبه أقام على حجابة البيت فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي البيت ويقول لاهـم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلبوا بصليبهم فامر ما بدا لك ثم إن أبرهة بعث رجلاً من الحبشة على جمل لـه حتى انتهى إلى مكة وساق إلى أبرهـة أموال قـريش وغيرهـا فأصـاب مائتي بعيـر لعبد المطلب وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها ثم بعثت ابرهة رجلاً من أهل حميـر إلى مكة وقال أرسل إلى سيد هذا البيت وشريفهم ثم قال له إن الملك يقول لك إني لم آت لاحرجكم وإنما جئت لأهدم هذا البيت فإن لم تتعرضوا إلى دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم.

فلما دخل الرسول مكة جاء إلى عبد المطلب وأدى إليه الرسالة فقال له عبد المطلب ما نريد حربه وما لنا بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن «ذي يفن» وكان صديقاً له فجاءه وهو في مجلسه فقال له هل عندك من عناء بما نزل بنا فقال له ذويفن ما عناء رجل أسير بيد ملك ينتظر بأن يقتله عدواً أو مشياً: ألا إن صاحب الفيل صديق لي فأرسل إليه فأوصيه لك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه أنت بما بدا لك فقال: حسبي ففعل ذلك فلما دخل عبد المطلب على الملك وكلمه فـأعجبه كـلامه ثم قـال لترجمـانه قـل له: مـا حاجتـك؟ قال عبد المطلب حاجتي إليك أن ترد إلي مائتي بعير لي فلما قال ذلك قال له أبرهة لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم أني رجوت (يعني كرهت) فيك حيث كلمتني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟ قال عبد المطلب: أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه فقال ما كان يمنع مني قال أنت وذلك فرد عليه الإبل فانصرف عبد المطلب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمر بالخروج لمن بقي من أهل مكة إلى الجبال وفي بطون الشعاب ثم إن عبد المطلب أخذ بحلقتي باب الكعبة وقال اللهم إن المـرء يمنع رحله وذكر كلمات في ذلك ثم أرسل حلقتي الباب وانطلق ومن معه إلى الجبال ينتظرون ما يصنع أبرهة بمكة فلما أصبح أبرهـة تهيأ لدخول مكة وهّيأ فيله وجيشه وكان اسم الفيل محموداً وكنيته أبو العباس وكتبه أبو البكشوم فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمـي حتى جاء إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال ابرك محموداً وارجع راشداً من حيث جئت فإنك والله في بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه. فاضطجع فضربه ليقوم فأبى فضربوه ليقوم فأبى وضربوا بالطبرزين فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك وأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة أحجار حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمصة والعدسة لا تصيب أحداً منهم إلا هلك فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه ويتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق فخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل فخرجوا معه يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل فأصيب أبرهة في جسده وخرجوا معه فيسقط من جسده أنملة أنملة كلما سقطت منه أنملة خرجت منه مدة قيح ودم حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم مات فملك ابنه يكثوم بن أبرهة ملك اليمن وروي في الخبر أنه أول ما وقعت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام وقال بعضهم كان أمر أصحاب الفيل قبل مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بثلاث وعشرين سنة وقال بعضهم كان ذلك في عام مولده ـ عليه السلام ـ وروي عن قبس بن مخرمة أنه قال ولدت أنا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عام الفيل فنزل قوله (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) يعني كيف عاقب ربك أصحاب الفيل بالحجارة حين أرادوا هدم الكعبة قال تعالى ﴿**ألم يجعل كيدهم في تضليل**﴾ يعني في خسارة ويقال معناه ألم يجعل صنيعهم في أباطيل ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل**﴾ يعني متتابعاً بعضها على أثر بعض أرسل عليهم الله طيوراً بيضاً صغاراً

وقال عبيد بن عمير أرسل عليهم طيراً بلقا من البحر كأنها الخطاطيف وروى عطاء عن ابن عباس قال طيراً سوداً جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً ثم قال (ترميهم بحجارة من سجيل) قال سعيد بن جبير الحجارة أمثال الحمصة وروي عن ابن عباس قال رأيت عند أم هانىء من تلك الحجارة مثل بعر الغنم مخططة بحمرة. وروى إسرائيل عن جابر بن أسباط قال طيراً كأنها رجال الهند جاءت من قبل البحر تحمل الحجارة في مناقيرها وأظافيرها أكبرها كمبارك الإبل وأصغرها كرؤوس الإنسان ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنَ سِجِّيلٍ﴾ يعني من طين خلط بالحجارة ويقال طين مطبوخ كما يطبخ الآجُرْ وذكر مقاتل عن عكرمة قال هي طير جاءت من قبل البحر لها رؤوس كرؤوس السباع لم تر قبل يومئذ ولا بعده فجعلت ترميهم بالحجارة فتجدر جلودهم وكان أول يوم رأى فيه الجدري ويقال مكتوب في كل حجر اسم الرجل واسم أبيه ولا يصيب الرجل شيء إلا نفده فيها وقع على رأس رجل إلا خرج من دبره وما وقعت على جانبه إلا خرجت من الجانب الآخر وقال وهب بن منبه حجارة من سجيل قال بالفارسية سنك وكل يعني حجارة وطين وروى موسى بن يشار عن عكرمة حجارة من سجيل قال سنك وكل ثم قال عز وجل ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ يعني كزرع بالٍ فأخبر الله تعالى أنه سلط على الجبابرة أضعف خلقه كما سلط على النمرود بعوضة فأكلت من دماغه أربعين يوماً فمات من ذلك والله أعلم بالصواب.

سُورَةُ قُرَيْشٍ (١)

وهي أربع آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣
ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ﴾ قرأ ابن عامر (لإلاف قريش) بغير ياء بعد الهمزة والباقون بياء[٢] قبلها همزة ومعناهما واحد وهذا موصول بما قبله يعني أن الله تعالى أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش يعني لتقر قريش بالحرم ويجاورون البيت فقال عز وجل (فجعلهم كعصف مأكول) (لإيلاف قريش) يعني فعل ذلك ليؤلف قريشاً بهاتين الرحلتين اللتين بهما عيشهم ومقامهم بمكة

وقال أهل اللغة[٣] ألفت موضع كذا أي لزمته وألفنيه الله كما يقال لزمته موضع كذا ألزمنيه الله وكرر لإيلاف على معنى التأكيد كما يقال أعطيتك المال لصيانة وجهك وصيانتك عن جميع الناس، وقال مجاهد لئلاف قريش يعني لنعمتي على قريش[٤]، وقال سعيد بن جبير أذكر نعمتي على قريش ويقال معناه لا يشق عليهم التوحيد كما لا يشق عليهم ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ قال مقاتل وذلك أن قريشاً كانوا تجاراً وكانوا يمتارون في الشتاء من الأردن وفلسطين لأن ساحل البحر كان أدناها فإذا كان الصيف تركوا طريق الشام وأخذوا طريق اليمن فشق ذلك عليهم فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة حتى حملوا الطعام في السفن إلى مكة للبيع وجعل أهل مكة يخرجون إليهم على مسيرة ليلة ويشترون فكفاهم الله تعالى مؤونة الشتاء والصيف ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ لأن رب هذا البيت كفاهم مؤونة الخوف والجوع فليألفوا العبادة كما ألفوا رحلة الشتاء والصيف وقال الزجاج كانوا يترحلون في الشتاء إلى الشام وفي الصيف إلى اليمن وهذا موافق لما قال مقاتل، وقال السدي: في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام. وهكذا قال القتبي، وروي عن أبي العالية أنه قال كانوا لا يقيمون بمكة صيفاً ولا شتاء فأمرهم الله تعالى

---

(١) اشتملت هذه السورة على أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبية تذكيراً لهم بنعمة أن الله مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عادياً يعدو عليهم. وبأنه أمنهم من المجاعات وأمنهم من المخاوف لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة. وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة. ورد القبائل فلا يغير على بلدهم أحد قال تعالى **﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً أمناً يتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾** فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفاً منهم. التحرير ٣٠/٥٥٤.

(٢) النشر ٢/٤٠٣، حجة القراءات ٧٧٣ - ٧٧٤.

(٣) انظر لسان العرب ١/١٠٨.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٧ وعزاه للفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

بالمقام عند البيت في العبادة، ويقال معناه قل لهم يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يجتمعوا على الإيمان والتوحيد وعبادة رب هذا البيت كاجتماعهم على رحلة الشتاء والصيف (فليعبدوا رب هذا البيت) يعني سيد وخالق هذا البيت الذي صنع هذا الإحسان إليكم حتى يكرمكم في الآخرة كما أكرمكم في الدنيا ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ يعني أشبعهم بعد الجوع الذي أصابهم حتى جهدوا ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ يعني من خوف الجهد والعدو والغارة، وقال السدي (آمنهم من خوف) يعني من خوف الجذام والله تعالى أعلم بالصواب.

سورة الماعون

مختلف فيها وهي سبع آيات مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ قرأ الكسائي (أرأيت) بغير ألف وقرأ نافع بالألف بغير همزة والباقون باللألف والهمزة[1] أرأيت وهذه كلها لغات العرب واللغة المعروفة بالألف والهمزة ومعناه ألا ترى يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الكافر الذي يكذب بالدين يعني بيوم القيامة، وقال معناه ما تقول يا محمد في هذا الكافر الذي يكذب بيوم القيامة فكيف يكون حاله يوم القيامة وقال قتادة نزلت في وهب بن عايل وقال جعده بن هبيرة نزلت في العاص بن وائل ويقال هذا تهديد لجميع الكفار ثم قال عز وجل ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ يعني يدفع اليتيم عن حقه ويقال يمنع اليتيم حقه ويظلمه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني لا يحث على طعام المسكين ويقال لا يطعم المسكين ثم قال عز وجل ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ يعني للمنافقين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني لاهين عنها حتى يذهب وقتها ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ الناس بالصلاة ولا يريدون بها وجه الله تعالى حتى إذا رأوا الناس صلوا وإذا لم يروا الناس لم يصلوا قوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾قال مقاتل يمنعون الزكاة، «والماعون» بلغة الحبش المال وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال يراؤون بصلاتهم ويمنعون الزكاة[2]، ويقال الماعون يعني المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم. وعن أبي عبيد قال سألت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن الماعون قال: الماعون ما يتعاطاه الناس فيما بينهم مثل الفأس والقدوم والقدر والدلو[3] ونحو ذلك وروى وكيع عن سالم بن عبد الله قال سمعت عكرمة يقول الماعون الفأس والقدوم والقدر والدلو قلت من منع هذا فله الويل قال من راءى بصلاة وسها عنها ومنع هذا فله الويل

وقال القتبي الماعون الزكاة ويقال الماعون هو الماء والكلأ وروي عن الفراء أنه قال هو المال. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) انظر إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٣٢.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠١ وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٠ وعزاه لطبراني.

سُورَةُ الكَوْثَر

وهي ثلاث آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ يعني الخير الكثير لفضيلة القرآن، ويقال العلم، وقال القتبي أحسبه «فَوْعَلَ» من الكثرة والخير الكثير، وقال مقاتل (إنا أعطيناك الكوثر) أراد به نهراً في الجنة طينه مسك أزفد وَرضراضه اللؤلؤ أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وروى عطاء بن السائب عن محمد بن[1] زياد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: الكوثر نهر في الجنة حافتاه الذهب ومجراه على الدر والياقوت ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، تربته أطيب من المسك وروي عن أنس عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «بينما أنا أسير في الجنة فإذا بنهر حافتاه من اللؤلؤ المجوف يعني الخيام قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ثم قال[3] عز وجل ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**﴾ يعني صلّ لله الصلوات الخمس ﴿**وَانْحَرْ**﴾ قال بعضهم: انحر نفسك يعني اجتهد في الطاعة، وقال بعضهم انحر يعني استقبل بنحرك القبلة وقال بعضهم وانحر يعني البدنة يعني اعرف هذه الكرامة من الله تعالى وأطعم، وقال بعضهم صل صلاة العيد يوم العيد وانحر البدنة ثم قال عز وجل ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ يعني مبغضك وهو «العاص بن وائل السهمي» هو الأبتر يعني الأبتر من الخير وذلك أن العاص بن وائل السهمي كان يقول لأصحابه هذا الأبتر الذي لا عقب له. وبلغ ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاغتم لذلك فنزل[4] إن شانئك هو الأبتر وأنت يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ستذكر معي إذا ذكرت فرفع الله ذكره في كل مواطن ويقال (فصل لربك وانحر) بأن يستوي بين السجدتين حتى يبدي نحره فخاطب بذلك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد به جميع الأمة كما قال (يا أيها الرسل) وأراد به هو وأصحابه، وروي عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه في قوله (فصل لربك وانحر) قال يعني ضع اليمين على الشمال في الصلاة (إن شانئك هو الأبتر) في ماله وولده وأهله والبتر: في اللغة الاستئصال والقطع وقال قتادة الأبتر الحقير الرقيق الذليل.

---

(١) محمد بن زياد الجمحي مولاهم أبو الحارث المدني ثقة ثبت ربما أرسل. التقريب ٢/١٦٢.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري ٨/٦٠٣ (٤٩٦٤) والترمذي ٥/٤١٩ كتاب التفسير (٣٣٦١) وابن ماجه ٢/١٤٥٠ كتاب الزهد (٤٣٣٤) وأحمد في المسند ٢/٦٧ ـ ١٥٨.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٣ وعزاه للطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه. وهو عند البخاري في ٨/١٤٩ وعند الترمذي (٣٣٦٠) وعند أحمد في ٣/٢٣١.

(٤) أنظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٣.

سورة الكافرون(١)

وهي ست آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وذلك أن قريشاً قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إن يَسُرّك بأن نتبعك عاماً ونترك ديننا ونتبع دينك وترجع إلى ديننا عاماً)(٢) فنزلت هذه السورة وقال مقاتل نزلت في المستهزئين وذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قرأ سورة النجم وجرى على لسانه ما جرى فقال أبو جهل أخزاه الله لا يفارقنا إلا على أحد أمرين ندخل معك في بعض ما تعبد وتدخل معنا في بعض ديننا أو نتبرأ من آلهتنا وتتبرأ من إلهك فنزلت هذه(٣) السورة، وقال الكلبي أنهم أتوا العباس فقالوا له لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه بما يقول وآمنا به فنزل (قل يا أيها الكافرون)، ويقال إنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا له إن ابن أخيك يؤذينا ونحن لا نؤذيه بحرمتك فدعاه أبو طالب وذكر ذلك له فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أدعوهم إلى كلمة واحدة فقال ما هي قال لا إله إلا الله فنفروا عن هذه الكلمة فنزلت (قل يا أيها الكافرون) يعني قل يا محمد لأهل مكة ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني (لا أعبد) بعد هذا (ما تعبدون) أنتم من الأوثان ولا أرجع إلى دينكم ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ يعني لا تعبدون أنتم بعد هذا الرب الذي أعبده أنا حتى ترون ما يستقبلكم غداً وهذا كقوله عز وجل (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَالِمِينَ نَاراً) قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ يعني لست أنا في الحال عابداً لأصنامكم وما كنت عابداً لها قبل هذا لأني علمت مضرة عبادتها ﴿وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدْ﴾

---

(١) سبب نزولها فيما حكاه الواحدي في أسباب النزول وابن إسحاق في السيرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد سنة وتعبد ما نعبد سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله فيهم: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ السورة كلها فغدا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المسجد الحرام وفي الملأ من قريش فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك (وإنما عرضوا عليه ذلك لأنهم رأوا حرصه على أن يؤمنوا فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلهية أصنامهم). وعن ابن عباس: فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه. وبهذا يعلم الغرض الذي اشتملت عليه وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك. التحرير ٣٠/٥٨٠.

(٢) سقط في ظ.

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٣.

يعني لستم عابدين في الحال لجهلكم وغفلتكم وقلة عقلكم. ثم قال عز وجل ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يعني قد أكملت عليكم الحجة فليس علي أن أجبركم على الإسلام فاثبتوا على دينكم حتى تروا ماذا يستقبلكم غداً وأنا أثبت على ديني الذي أكرمني الله تعالى به ولا أرجع إلى دينكم أبداً وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ بآية القتال، فيها دليل أن الرجل إذا رأى منكراً أو سمع قولاً منكراً فأنكره فلم يقبلوا منه لا يجب عليه أكثر من ذلك وإنما عليه أن يحفظ مذهبه وطريقه ويتركهم على مذهبهم وطريقهم. وقال الحسن سمعت شيخاً يحدث قال بينما أسير مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فسمع رجلاً يقرأ (قل يا أيها الكافرون) فقال أما هذا فقد برىء من الشرك وسمع رجلاً يقرأ (قل هو اللّه أحد) فقال أما[١] هذا فقد غفر الله تعالى له والله أعلم.

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤٠٥ وعزاه لأحمد وابن الضريس والبغوي وحميد بن زوجويه في ترغيبه.

سُورَةُ النَّصْرِ(١)

وهي ثلاث آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وروى عبد الملك بن سليمان قال سمعت سعيد بن جبير يقول كان أناس من المهاجرين قد وجدوا عمر وفي إدنائه ابن عباس رضي الله عنهما دونهم وكان يسأله فقال عمر أما إني سأريكم منه اليوم ما تعرفون به فضله فسأله عن هذه السورة (إذا جاء نصر اللّه والفَتْحُ) قال بعضهم أمر الله تعالى نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أن يحمده ويستغفره فقال لابن عباس تكلم، فقال أعلمه الله متى يموت فقال (إذا جاء نصر اللّه والفتح) فهي آيتك من الموت (فسبح بحمد ربك)، قال مقاتل لما نزلت هذه السورة قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فاستبشروا فسمع بذلك ابن عباس فبكى فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يبكيك فقال نعيت نفسك فقال صدقت فعاش بعد هذه السورة(٢) سنتين، وروى أبو عبيد بن عبد الله أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يكثر أن يقول سبحانك ربي وبحمدك اللهم اغفر لي(٣)وقال علي رضي الله عنه لما نزلت هذه السورة مرض النبي ـ عليه السلام ـ فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ثم دخل المنزل وتوفي بعد أيام(٤). وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (إذا جاء نصر اللّه والفتح) يعني إذا أتاك نصر من الله تعالى على الأعداء من قريش وغيرهم. (والفتح) يعني فتح مكة والطائف وغيرها ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ يعني جماعة جماعة وقبيلة قبيلة، وكان قبل ذلك يدخلون واحداً واحداً فدخلوا فوجاً فوجاً فإذا رأيت ذلك فاعلم أنك ميت فاستعد للموت بكثرة التسبيح والإستغفار فذلك قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يعني سبحه، ويقال يعني سبح صل لربك ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ يعني مسبحاً وذلك لمن تاب.

---

(١) الغرض من هذه السورة الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إذ كان نزولها عند منصرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خيبر كما قال ابن عباس في أحد قوليه. والإيماء إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الآخرة. ووعده بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية الحد الذي لا يفي بما تطلبه همته الملكية بحيث يكون قد ساوى الحد الملكي الذي وصفه الله تعالى في الملائكة بقوله ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾. التحرير ٣٠/٥٨٩.

(٢) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/٤١٠، ٦/٤٩، الدر المنثور ٦/٤٠٨.

(٤) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٤.

سُورَةُ المَسَدِ

وهي خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ﴾ يعني خسر أبو لهب وذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين نزل قوله تعالى وانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ صعد على الصفا ونادى فاجتمعوا فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أمرني ربي أن أنذر عشيرتي الأقربين وأدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله فقولوا أشهد لكم بها عند ربي فأنكروا ذلك فقال أبو لهب تباً لك سائر الأيام ألهذا دعوتنا(١)، وروي في خبر آخر أنه اتخذ طعاماً ودعاهم ثم قال أسلموا تسلموا وأطيعوا تهتدوا فقال أبو لهب تبًّا لك سائر الأيام ألهذا دعوتنا(٢) فنزلت (تبت يدا أبي لهب) يعني خسرت يدا أبي لهب عن التوحيد ﴿وَتَبَّ﴾ يعني وقد خسر ويقال إنما ذكر اليد وأراد به هو وقال مقاتل تبت يدا أبي لهب وتب يعني خسر نفسه وكان أبو لهب عم النبي - صلى الله عليه وسلم - واسمه «عبد العزى» ولهذا ذكره بالكنية ولم يذكر إسمه لأن اسمه كان منسوباً إلى صنم وقال بعضهم كنيته كان اسمه ثم قال عز وجل ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ يعني ما نفعه ماله في الآخرة إذ كفر في الدنيا ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني ما ينفعه ولده في الآخرة إذا كفر في الدنيا والكسب أراد به الولد لأن ولد الرجل من كسبه ثم قال عز وجل ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ يعني يدخل في النار ذات لهب يعني ذات شعل ثم قال عز وجل ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ يعني امرأته تدخل النار معه ﴿حَمَّالَةَ الحَطَبِ﴾ قرأ عاصم حمالة الحطب بنصب الهاء ويكون على معنى الذم والشين ومعناه أعني حمالة الحطب والباقون بالضم(٣) على معنى الإبتداء وحمالة الحطب جعل نعتاً لها فقال (حمالة الحطب) يعني حمالة الخطايا والذنوب. ويقال (حمالة الحطب) يعني تمشي بالنميمة فسمى النميمة حطباً لأنه يلقي بين القوم العداوة والبغضاء وكانت تمشي بالنميمة في عداوة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ويقال كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بالليل من بغضها لهم حتى بلغ النبي - عليه السلام - شدة وعناء فحملت ذات ليلة حزمة شوك لكي تطرحها في طريقهم فوضعتها على جدار وشدتها بحبل من ليف على صدرها فأتاها جبريل - عليه السلام - ومده خلف الجدار وخنقها حتى ماتت فذلك قوله ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أي من ليف وقال أكثر أهل التفسير (في جيدها حبل من مسد) يعني في الآخرة في عنقها سلسلة من حديد وتحتها نار وفوقها نار، وروى سعيد بن جبير رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر حجة القراءات ٧٧٦، النشر ٢/٤٠٤

عنه قال لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب فقال أبو بكر رضي الله عنه لو تنحَّيْتَ يا رسول الله فإنها امرأة بذية فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سَيُحَال بيني وبينها فدخلت فلم تره فقالت لأبي بكر رضي الله عنه هجانا صاحبك فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله قالت إنك لمصدق فاندفعت راجعة فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله ما رأتك فقال: «لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت»[1]. وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي يزيد بن زيد قال لما نزلت هذه السورة قيل لأمرأة أبي لهب أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد هجاك فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس في الخلاء وقالت يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ماذا تهجوني فقال أما والله ما أنا هجوتك ما هجاك إلا الله عز وجل قالت هل رأيتني أحمل الحطب أو رأيت في جيدي حبل من مسد؟ وقال مجاهد (في جيدها حبل من مسد) مثل حديد البكرة، وقال غيره يعني عروة سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً والله أعلم.

(١) ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة ١/١٦.

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

مختلف فيها وهي أربع آيات مكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وذلك أن قريشاً قالوا له صِفْ لنا ربَّك الذي تعبده وتدعونا إليه ما هو؟ فأنزل الله تعالى (قل هو اللّه أحد) يعني قل يا محمد للكفار إن ربي الذي أعبده (هو اللّه أحد) يعني فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له ثم قال عز وجل ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، وقال السدي وعكرمة ومجاهد (الصمد) الذي لا جوف له، وعن قتادة قال كان إبليس لعنه الله ينظر إلى آدم ـ عليه السلام ـ ودخل في فيه وخرج من دبره يعني حين كان صلصالاً فقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم وقال أبو وايل (الصمد) السيد الذي انتهى سؤدده وكذلك قال سعيد بن جبير وقال الحسن البصري رضي الله عنه (الصمد) الدائم، وقال قتادة (الصمد) الباقي ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي (الصمد) الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ويقال (الصمد) التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال (الصمد) الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويُصْمَد إليه في الحوائج ثم قال عز وجل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يعني لم يكن له ولد يرث ملكه. ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يعني لم يكن له والد يرث عنه ملكه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ يعني لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه وقال مقاتل إن مشركي العرب قالوا إن الملائكة كذا وكذا وقالت اليهود والنصارى في عزير والمسيح ما قالت فكذبهم الله تعالى وأبرأ نفسه مما قالوا فقال (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)، قرأ عاصم في رواية حفص كفواً بغير همزة وقرأ حمزة بسكون الفاء مهموزاً والباقون بضم الفاء مهموزاً بهمزة وكل[1] ذلك يرجع إلى معنى واحد وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال من قرأ (قل هو اللّه أحد) بعد صلاة الفجر إحدى عشرة مرة لم يلحقه ذنب يومئذ ولو اجتهد[2] الشيطان

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال أيعجز أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة؟ فقيل يا رسول الله من يطيق ذلك؟ قال: أن يقرأ قل هو الله أحد ثلاث مرات[3]، وروي عن ابن شهاب عن الزهري رضي الله عنه قال بلغنا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال «من قرأ قل هو الله أحد مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن»[4] والله أعلم.

(١) انظر حجة القراءات ٧٧٧، النشر ٢/٤٠٤، إتحاف فضلاء البشر ٢/٦٣٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤١٤ وعزاه لابن عساكر عن علي.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٤١٤ وعزاه للعقيلي عن رجاء الغنوي.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣/٨، وانظر الدر المنثور ٦/٤١٣.

سُورَةُ الفَلَقِ(١)

مختلف فيها وهي خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ يعني قل يا محمد أعتصم وأستعيذ وأستعين بخالق الخلق والفلق الخلق وإنما سمي الخلق فلقاً لأنهم فُلِقُوا من آبائهم وأمهاتهم ويقال (أعوذ برب الفلق) يعني بخالق الصبح، ويقال فالق الحب والنوى قال الله تعالى (إن اللّه فالق الحب والنوى) وقال (فالق الإصباح) ويقال الفلق واد في جهنم، ويقال جب في النار

وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال الفلق شجرة في جهنم فإن أراد الله أن يعذب الكافر بأشد العذاب يأمره أن يأكل من ثمرها

وروي عن كعب الأحبار أنه دخل في بعض الكنائس التي للروم فقال: أخسر عمل وأضلُّ قوم قد رضيت لكم بالفلق فقيل له ما الفلق يا كعب؟ قال: بئر في النار إذا فتح بابها صاح جميع أهل النار من شدة عذابها

ثم قال عز وجل ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ قال الجن والإنس وقال الكلبي من شر ما خلق يعني من شر ذي شر. ثم قال عز وجل ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني ظلمة الليل إذا دخل سواد الليل في ضوء النهار ويقال (إذا وقب) يعني إذا جاء وأدبر وقال القتبي (الغاسق) الليل والغسق الظلمة ويقال الغاسق القمر إذا انكسف واسودّ (وإذا وقب) يعني إذا دخل في الكسوف

ثم قال تعالى ﴿وَمِنْ شَرِّ النَفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ﴾ يعني الساحرات الموخزات المهيجات اللواتي ينفثن في العقد ثم قال عز وجل ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ﴾ يعني كل ذي حسد(٢) أراد به لبيد بن أعصم اليهودي ويقال لبيد بن

---

(١) الغرض من السورة تعليم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقي شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يرمي فاعلوها بتبعاتها، فعلم الله نبيه هذه المعوذة ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها وكان يأمر أصحابه بالتعوذ بهما فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين.

(٢) الحسد: إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه لأجل غيره على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها. وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازاً. والغبطة تمنى المرء أن يكون له من الخير مثل ما لمن يروق حاله في نظره، وهو محمل الحديث الصحيح «لا حسد إلا في اثنتين» أي لا غبطة، أي لا تحق الغبطة إلا في تينك الخصلتين، وقد بين شهاب الدين القرافي الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين. فقد يغلب الحسد صبر=

عاصم وروى الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال سحر النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلٌ من اليهود عقد له عقداً فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: إن رجلاً من اليهود سحرك فبعث علياً رضي الله عنه واستخرجها فحلّها فجعل كلما حل عقدة وجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لذلك خفة حتى حلها كلها فقام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنما نشط من عقال فما ذكر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك لليهود[١]

وروي في خبر آخر أن لبيد بن أعصم اتخذ لعبة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ من عائشة رضي الله عنها فأفحل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجعل في اللعبة أحد عشر عقدة ثم ألقاها في بئر، وألقى فوقها صخرة فاشتكى من ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شكواً شديداً فصارت أعضاؤه مثل العقد فبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين النائم واليقظان إذ أتاه ملكان أحدهما جلس عند رأسه والآخر عند قدميه فالذي عند قدميه يقول للذي عند رأسه ما شكواه قال السحر قال من فعل به؟ قال لبيد بن أعصم اليهودي قال فأين صنع السحر قال في بئر كذا قال ماذا رأوه يبعث إلى تلك البئر فنزح ماؤها فإنه انتهى إلى الصخرة فإذا رأها فليقلعها فإن تحتها كؤبة وهي كؤبة قد سقطت عنقها وفيه إحدى عشرة عقدة فيحرق في النار فيبرأ إن شاء الله تعالى فاستيقظ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد فهم ما قالا فبعث عمار بن ياسر وعلياً رضي الله عنهما إلى تلك البئر في رهط من أصحابه فوجدوها كما وصف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم فنزلت هاتان السورتان وهي إحدى عشرة آية فكلما قرأ آية حل منها عقدة حتى انحلت كلها ثم أحرقها بالنار فبرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٢]وروي في بعض الأخبار عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال (قل هو اللّه أحد) و(قل أعوذ برب الفلق) و(قل أعوذ برب الناس) ما سأل منها سائل ولا استعاذ مستعيذ بمثلها قط[٣] وهذه الآية دليل أن الرقية جائزة إن كانت بذكر الله تعالى وبكتابه والله أعلم بالصواب.

= الحاسد وأناته فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكه رأساً. وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبل قربانه ولم يقبل قربان الآخر، كما قصه الله تعالى في سورة العقود. وتقييد الاستعاذة من شرة بوقت «إذا حسد» لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضرر به. التحرير ٣٠/٦٢٩ ـ ٦٣٠.

(١) انظر الدر المنثور ٦/٤١٧.

(٢) انظر الدر المنثور ٦/٤١٧.

(٣) أخرجه بنحوه النسائي ٨/٢٥١ كتاب الاستعاذة (٥٤٣٠).

سُورَةُ النَّاسِ (١)

مختلف فيها وهي ست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ يقول أستعيذ بالله وخالق الناس ويقال أستعيذ بالله الذي هو رازق الخلق، ثم قال عز وجل ﴿ملك الناس﴾ يعني خالق الناس ومالكهم وله نفاذ الأمر والملك فيهم، ثم قال عز وجل ﴿إله الناس﴾ يعني خالق الناس ومعطيهم ومانعهم ﴿مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ﴾ يعني من شر الوسواس يعني من شر الشيطان، لأني لا أستطيع أن أحفظ نفسي من شره لأنه يجري في نفس الإنسان مجرى الدم ولا يراه بشر والله تعالى قادر على حفظي من شره ومن وسوسته

ثم وصف الشيطان فقال ﴿الخناس﴾ قال مجاهد هو منبسط على قلب الإنسان إذا ذكر الله خنس وانقبض فإذا عقل انبسط على قلبه ويقال له خنوس كخنوس القنفذ ﴿الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ﴾ يعني يدخل في صدور الجن كما يدخل في صدور الإنس ويوسوس لهم ويقال (الناس) في هذا الموضع يصلح للجن والإنس فإذا أراد به الجن فمعناه يوسوس في صدور المؤمنين الذين هم جن (يوسوس في صدور الناس) يعني الذين هم من بني آدم ويقال (الناس) معطوف على الوسواس ومعناه (من شر الوسواس) (ومن شر الناس) كما قال في آية أخرى (شياطين الإنس والجن) وقال مقاتل روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال له جبريل ـ عليه السلام ـ ألا أخبرك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأفضل ما يتعوذ به؟ قلت وما هو؟ قال المعوذتان

وروى علقمة عن عقبة بن عامر عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال «ما تعوذ المعوذون بمثل المعوذتين»(٢). وروي عن الحسن البصري في قوله تعالى (من الجنة والناس) قال إن من الناس شياطين فتعوذوا بالله من الشياطين يعني شياطين الجن والإنس، وقال هما شيطانان فأما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس،

---

(١) اشتملت هذه السورة على إرشاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإفساد إرشاده الناس ويلقى في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى ميعذة من ذلك فعاصمة في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ لذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومن السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى.

(٢) أخرجه بنحوه النسائي ٨/٢٥٢ كتاب الاستعاذة (٥٤٣٢) والطبراني في الكبير ١٧/٣٤٦.

وأما شيطان الإنس فإنه علانية وروى أبو معاوية عن عثمان[١] بن واقد قال أرسلني أبي إلى محمد بن المنكدر أسأله عن المعوذتين أهما من كتاب الله تعالى قال من لم يزعم أنهما من كتاب الله تعالى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (والله أعلم وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين ورسول رب العالمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربيـن وأهل طاعتك أجمعين. ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، حسبنا الله ونعم الوكيل. ووافق الفراغ من كتاب هذا التفسير المبارك لمولانا الإمام العالم العلامة أبي الليث نصر بن إبراهيم السمرقندي رضي الله عنه آمين وأرضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه ونفعنا بعلومه ومدده وأسراره في الدراين آمين في يوم الأحد المبارك مستهل محرم الحرام افتتاح سنة اثنين وتسعين وتسعمائة المباركة. أحسن الله عاقبتها بمحمد وآله)[٢].

(١) عثمان بن واقد بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر صدوق ربما وهم. التقريب ٢/ ١٥.
(٢) سقط في ظ. وهي في (أ)، (ب).

فهرس المحتويات

تفسير سورة يسٓ

تفسير سورة الصافات

تفسير سورة صٓ

تفسير سورة الزمر

تفسير سورة غافر